قصة الحضارة



المجلد العاشر

ويل ديورانت

قصة الحضارة

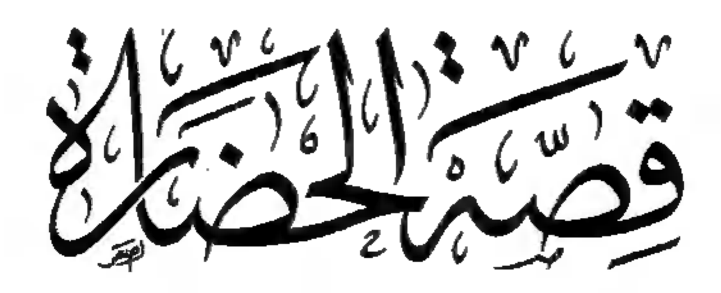
39- روسو و الثورة (الجزء الأول)

40- الجنوب الكاثوليكي

41- الإسلام و الشرق السلافي - الشمال البروتستنتي

42- روسو و الثورة (الجزء الثاني)

ويل ديورانت



ول وايريل ديورانت

روسو والثورة

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد العاشر




بيروت


تونس

قصة الحضارة ـ الجزء العاشر

روســـو والثورة

تاريخ الحضارة فى فرنسا ، وانجلترة ، وألمـانيا
من ١٧٥٦ وفى بقية أوربا من ١٧١٥ إلى ١٧٨٩

بقـــــلم

ول وإيريل ديورانت

إلى ابنتنا الحبيبة

إثيل بنغسـوتا

التي كانت خلال هذه المجلدات كلها

عونا وإلهاما لنـا

أيها القارىء العزيز

هذا هو المجلد الأخير فى قصة الحضارة التى كرسنا لهـا نفسينا عام ١٩٢٩ ، والتى كانت شغلنا اليومى الشاغل وسلوى حياتينا منذ ذلك التاريخ .

لقد كان هدفنا أن نؤلف « تاريخاً متكاملا » أى أن نكتشف ونسجل ألوان النشاط الاقتصادى ، والسياسى ، والروحى ، والخلقى ، والثقافى ، لكل حضارة ، فى كل عصر ، بوصف هذه الألوان عناصر وثيقة الترابط فى كل واحد يسمى الحياة ، ثم نضفى على القصة صبغة إنسانية بدراسات للأبطال فى كل فصل من فصول هذه المسرحية المتصلة الحلقات ومع أننا نسلم بأهمية الحكم والسياسة ، فقد سقنا التاريخ السياسى لكل حقبة ودولة كما تساق خلفية رويت من قبل غير مرة ، دون أن يكون لب القصة أو روحها ، وتركز جل اهتمامنا على تاريخ العقل . ومن ثم كان أكثر اعتمادنا فى شئون الإقتصاد والسياسة على المصادر الثانوية ، بعكس ما انتهجناه فى تناولنا للدين ، والفلسفة ، والعلم ، والأدب ، والموسيقى ، والفن ، فقد حاولنا الرجوع فيها إلى الأصول والمنابع : حاولنا أن نرى كل دين وهو يعمل فى منبته ، وأن ندرس أخطر الفلسفات فى مؤلفاتها الكبرى ، وأن نزور الفن فى موقعه الأصلى أو الجديد ، وأن نتذوق روائع الأدب العالمى ، فى لغاتها الأصلية فى كثير من الأحيان ، وأن نستمع إلى الألحان الموسيقية العظمى مراراً وتكراراً ، ولو باقتطاعها من جوها المعجز . وتحقيقاً لهذه الأهداف طفنا بالعالم مرتين ، وبأوربا مرات لاتحصى من ١٩١٢ إلى ١٩٦٦ . وسيدرك القارىء العطوف أنه يستحيل علينا فى الأجل الواحد الذى كتب لنا أن نرجع بالمثل إلى المصادر الأصلية فى الإقتصاد والسياسة ، خلال قرون التاريخ الستين ، وحضاراته العشرين

ولم نجد منذ وحة عن الرضى بالحدود والقيود ، والتسليم بما فينا من عجز وقصور.

ويؤسفنا أننا سمحنا لإفتتاننا بكل جزء فى ملحمة الإنسان بأن يوقفنا فى رضى كثير ، حتى ألفينا نفسينا فى خاتمة المطاف منهوكى القوى حين بلغنا الثورة الفرنسية . ونحن نعلم أن هذا الحدث لم ينه التاريخ ، ولكنه نهينا . وما من شك فى أن طريقتنا المتكاملة الشاملة أفضت بنا إلى إثقال معظم هذه المجلدات بالطول المفرط . ولو أننا كتبنا تاريخاً ممزقاً — كقصة أمة ، أوفترة أوموضوع واحد — فلربما وفرنا على القارىء وقته وعناده . غير أن تصوير جميع الجوانب فى قصة واحدة ، عن عدة أمم ، فى فترة معينة ، تطلب حيزاً للتفاصيل التى لم يكن منها بد لنفخ الحياة فى الأحداث والشخصيات . وسيشعر كل قارىء من جانبه بأن الكتاب مسرف فى الطول ، وأن تناوله لأمته أو لتخصصه مسرف فى القصر.

فقد يرغب قراء الإنجليزية أو الفرنسية فى أن يقصروا قراءتهم الأولى لهذا المجلد على الفصول ١ — ٨ ، ١٣ — ١٥ — و٢٠ — ٣٨ ، ويرجئوا الباقى إلى حين ، وقد يختار قراء لغات أخرى فصولهم على هذه الشاكلة . غير أننا نأمل أن يسير بعض الأبطال الشوط كله معنا ، فيحاولوا أن يروا أوربا بوصفها كلا فى تلك السنين الثلاث والثلاثين المفعمة بالأحداث ، والممتدة من حرب السنين السبع إلى الثورة الفرنسية ، على أننا لن نقترف هذا الأسباب مرة أخرى ، ولكن لو استطعنا أن نفلت من حاصد الأرواح سنة أخرى أو سنتين ، فإننا نرجو أن نقدم للقارىء مقالا ملخصاً فى « عظات التاريخ » .

لوس أنجيليس   ول وإيريل ديورانت

أول مايو ١٩٦٧

الكتاب الأول

مقدمة

الفصل الأول

روسو جواب الآفاق

١٧١٢ - ٥٦

١ - الاعترافات

كيف حدث أن رجلا ولد فقيراً ، وفقد أمه عند مولده ، ثم هجره أبوه بعد قليل وابتلى بمرض أليم مذل ، وترك يضرب فى الآفاق إثنى عشر عاماً بين مدن غريبة ومذاهب دينية متناحرة ، مرفوضاً من المجتمع والحضارة ، رافضاً فولتير ، وديدرو ، والمسوعة ، وعصر العقل ، رجلا طورد من مكان إلى آخر باعتباره ثائراً خطراً ، واتهم بالإجرام والجنون ، وشهد فى شهور حياته الأخيرة تأليه خصمه الألد - نقول كيف حدث أن رجلا كهذا ، بعد موته ، انتصر على فولتير ، وأحيا الدين ، وقلب التعليم رأساً على عقب ، ورفع أخلاقيات فرنسا ، وألهم الحركة الرومانية ، والثورة الفرنسية ، وأثر فى فلفسة كانط وشوبنهاور ، وتمثيليات شيلر ، وروايات جوته ، وشعر وردزورث وبيرون وشلى ، واشتراكية ماركس ، وأخلاق تولستوى ، وأتيح له - على الجملة - من التأثير على الأجيال التالية ما فاق تأثير أى كاتب أو مفكر آخر فى ذلك القرن الثامن عشر ، القرن الذى فاق فيه تأثير الكتاب تأثيرهم فى أى عهد سبقه ؟ هنا تواجهنا هذه

المشكلة أن كان لها أن تواجهنا في أي موضع : ما الدور الذي لعبته العبقرية في التاريخ ، مادور الإنسان إزاء المجتمع والدولة ؟

كانت أوربا آنئذ مهيأة لأنجيل يبوىء الوجدان مكاناً فوق الفكر فلقد سئمت قيود التقاليد والأعراف ، والآداب ، والقوانين . وسمعت ما يكفي عن العقل ، والجدل العقلي ، والفلسفة ، وبدا أن كل هذه الفوضى ، فوضى العقول التي أطلق حبلها على غاربها ، قد جردت الدنيا من المعنى ، وعطلت النفوس من الخيال والرجاء ، وكان الرجال والنساء بينهم وبين أنفسهن تواقين للعودة إلى حظيرة الإيمان . لقد ملت باريس ، ملت الضجيج والعجلة ، وسئمت حياة المدينة وتزاحمها المجنون ، وهفت الآن إلى حلم حياة الريف الأكثر هوناً ، الحياة التي قد يجلب نظامها الرتيب البسيط للبدن صحة وللعقل سلاما ، والتي يرى فيها الإنسان من جديد نساء تزينهن الحشمة والخفر ، والتي تلتقي فيها القرية كلها في كنيسة الأبرشية في هدنة أسبوعية . ثم مابال هذا « التقدم » الذي يزهون به ، و « تحرير العقل » هذا الذي يفاخرون به — هل أحلا شيئا محل مادمراه ؟ هل أعطيا الإنسان صورة للعالم ومصير الإنسان أكثر وضوحاً للأفهام أو إلهاما للنفوس ؟ هل حسنا حظوظ الفقراء ، أو أتيا بالعزاء والسلوى للمحزونين على فقد الأعزاء أو للمتألمين المكروبين ؟ سأل روسو هذه الأسئلة ، وأضفى الشكل والإحساس على هذه الشكوك ، فأصغت إليه أوربا بأسرها بعد أن أخمد صوته . وبينما كان فولتير يعيد على المسرح في الأكاديمية (١٧٧٨) ، وبينما كان روسو الموبخ المزدرى يختبىء في ظلام حجرة من حجرات باريس ، بدأ عصر روسو .

ولقد ألف أشهر ترجمة ذاتية في أخريات أيامه ، وهي كتابه « الاعترافات » . ذلك أنه — وهو الرجل الحساس لكل نقد الظنون الذي خال جريم ، وديدرو ، وغيرهما يأتمرون به ليشوهوا سمعته في صالونات باريس وفي « مذكرات » مدام دبنيه — هذا الرجل بدأ عام ١٧٦٢ ، بإلحاح من أحد الناشرين ، كتابة قصته هو ليروي سيرته وخلقه . وكل التراجم الذاتية بالطبع غرور في غرور ، غير أن روسو — الذي أدانته الكنيسة ، وحرمته من حماية

القانون ثلاث دول ، وهجره أخلص أصدقائه — كان له الحق فى الدفاع عن نفسه، بل فى الدفاع المستفيض: وحين قرأ فقرات من هذا الدفاع على بعض المحافل فى باريس حصل خصومه على أمر من الحكومة يحظر أى قراءة علنية أخرى لمخطوطته . فلما فت فى عضده ، تركها عند موته مشفوعة برجاء للأجيال التالية قال فيه :

« إليكم هذه اللوحة الإنسانية الوحيدة — المنقولة بالضبط عن الطبيعة بكل صــدق — الموجودة الآن أو التى ستوجد إطلاقاً فى أغلب الظن . وأيما كنتم ، يامن نصبكم قدرى وثقتى حكماً على هذا السجل ، فإنى استحلفكم بحق ماأصابنى من خطوب ومحن وبحق ماتشعرون به من أخوة البشر ،وباسم الإنسانية جمعاء ، ألا تدمروا عملا نافعاً فريداً فى بابه ، قد يصلح بحثاً مقارناً من الدرجة الأولى لدراسة الإنسان . وألا تنتزعوا من شرف ذكراى هذا الأثر الصادق الوحيد الخلق ، الأثر الذى لم ينــل من خصومى مسخاً وتشويهاً [1] .

والكتاب ، بمحاسنه ومآخذه ، نتاج لما فطر عليه مؤلفه من شدة الحساسية ، وقوة الذاتية ، ورهافة العاطفة . يقول روسو «إن قلبى الحساس كان أس بلائى كله .» [2] ولكن هذا القلب أضفى ألفة حارة على أسلوبه ، وحنانا على ذكرياته ، وفى كثير من الأحيان سماحة على أحكامه ، وكلها تذيب نفورنا ونحن نمضى فى قراءة الكتاب . ففيه يغدو كل تجريد واقعاً شخصياً مجسداً ، وكل سطر شعوراً نابضاً بالحياة فهذا الكتاب أشبه بالنبع الذى تدفق منه نهر الاعترافات المستبطنة ، النبع الذى روى أدب القرن التاسع عشر ، لا لأنه لم يكن له ضريب سابق من كتب الاعترافات ، ولكن حتى القديس أوغسطين لم يستطع أن يضارع كل هذه التعرية للذات ، أو يدعى دعواها فى الأمانة والصدق . والكتاب يستهل بدفقة من البلاغة التى تتحدى المقلدين :

« إننى مقبل على مغامرة لم يسبق لها نظير ، ولن يكون لتنفيذها مقلد، أريد أن أظهر إخوانى فى الإنسانيه على إنسان فى كل صدق الطبيعة ، وهذا

الإنسان هو أنا نفسى . أنا مجرداً عن كل شىء . أننى أعرف قلبى ، وأنا عليم بالناس . ولم أخلق كأى حى من الأحياء . وإذا لم أكن خيراً منهم ، فإننى على الأقل مختلف عنهم . أما أن الطبيعة أحسنت أو أساءت بتحطيم القالب الذى صبيت فيه ، فذلك شىء لا يستطيع الحكم عليه إنسان إلا بعد أن يقرأنى .

« وأياً كان موعد الساعة التى سينفخ فيها فى صور يوم الحشر ، فسوف آتى وكتابى هذا فى يمينى لأمثل أمام الديان الأعظم وسوف أقول بصوت عال : كذلك سلكت ، وكذلك فكرت ، وكذلك كنت ، لقد تحدثت إلى الأبرار والأشرار بنفس الصراحة ، وما أخفيت شيئاً فيه سوء ، ولا أضفت شيئاً فيه خير . وقد أظهرت نفسى كما أنا : حقيراً خسيساً حين كنت كذلك ، وخيراً سمحاً نبيلا حين كنت كذلك ، لقد أمطت اللثام عن أعمق أعماق نفسى[٣] .

وتتردد دعواه فى توخى الصدق الكامل فى الكتاب مراراً وتكراراً . ولكن روسو يسلم بأن تذكره لأشياء انقضى عليها خمسون عاماً كثيراً مايكون تذكراً مبتوراً لا تمكن الركون إليه ، وللجزء الأول فى جملته جو من الصراحة يشيع الطمأنينة فى القارىء. أما الجزء الثانى فتشوهه الشكاوى المملة من الاضطهاد والتآمر . وأياً كان الكتاب ، فهو من أعظم مانعرف من الدراسات السيكولوجية كشفاً عن النفس ، وهو قصة روح حساسة شاعرة خاضت صراعاً أليماً مع قرن واقعى قاس . وعلى أية حال ، فإن كتاب الاعترافات ، لو لم يكن ترجمة ذاتية ، لكان من إحدى الروايات العظيمة فى العالم »[٤] .[*]

(*) ما زال الجدل حول صدق « الاعترافات » حاراً . وأهم مايدور عليه هو اتهام روسو لجريم وديدرو بأنهما تآمرا على تزييف رواية علاقاته بمدام ديبينيه ، ومدام درديتو ، وبشخصيهما . وكانت كفة الرأى السائد راجحة ضد روسو قبل ١٩٠٠ . فى ١٨٥٠ قرر سانت بيف ، بفظاظة غير معهودة فيه ، أن روسو لا يتردد فى الكذب أقل تردد أينما تعرضت كرامته وغروره المريض للخطر ، وقد خلصت إلى أنه كذب فيما يتصل بجريم ورفاقه . على هذا الرأى قطب مؤرخى الأدب الفرنسيين ، جوستاف لانسون (١٨٩٤) ، فقال « إننا نقابل روسو فى كل صفحة متلبساً بأكاذيب مفضوحة — كذب ، لا مجرد —

. . . .

— خطأ » ومع ذلك فالكتاب فى جملته يتقد إخلاصا وصدقا — لا صـدق الوقائع بل صدق المشاعر(٦). وقدسبق هذان الحكمان نشر كتاب السيدة فردريكا مكدونلد «جان جاك — روسو» Jean - Jacques Rousseau - دراسة جديدة فى النقد — (لندن ١٩٠٦) . A New Sfudy in Critıcism ، الذى يثبت صواب اعتبار « المذكرات التى ألفتها مدام ديبنيه متأثرة بموقف جريم وديدرو المنطوى على الحقد ، إن لم تكن ملاة فعلا من هـذا الموقف . ودراستها للوثائق تغير ولا ريب كثيراً من المزاعم التى زعمها النقاد من قبل(٧) .

قارن كتاب ماسون Mason ديانة روسو La Religion de Rousseau (I, 184) « سنرى أن علينا أن نكون شديدى الحذر فى الاعتماد على هذه الروايات التى أجرى فيها ديدرو قلمه بالكثير من التعديل والتبديل » . وقد وصـل إلى أحكام مماثلة فى صف روسو ، ماثيو جوزفسن (Jean - Jaıques Rousseau 434 - 35, 531) واميل فاجيه (حياة روسو (Vie de Rousseau, ▆▆ ، وجول لوميتر (Jean - Jacque Rousseau, 9 - 10 وفون C. E. Vaughn (كتابات روسو السياسية (Political Writings of Rousseau II, 295, 547 - 552 f.)

٢ — الفتى الشريد : ١٧١٢ — ٣١

« ولدت بجنيف فى ١٧١٢ ، ابنا لإسحاق روسو وسوزان برنار ، المواطنين » . والكلمة الاخيرة كانت تعنى الكثير ، لأن ألفا وستمائة فقط من بين سكان جنيف العشرين ألفـا كانوا يملكون اسم المواطن وحقوقه ، وسيشارك هذا العامل فى تاريخ جان — جاك . وكانت أسرته فرنسية الأصل ، ولكنها وطنت فى جنيف منذ ١٥٢٩ . وكان جده قسيسا كلفنيا ، وقد ظـل الحفيد فى صميمه كلفنيا طوال تطويفه الدينى كله » أما أبوه فكان من إقطاب صناعة الساعات » رجـلا خصب الخيال لا يستقر له قرار » أتاه زواجه (١٧٠٤) بصداق قدره ستة عشر ألف فلورين . وبعد أن أنجب غلاما ترك زوجته (١٧٠٥) ورحل إلى الآستانة حيث مكث ست سنوات ثم عاد لاسباب مجهولة » « وكنت الثمرة الحزينة لهذه العودة : [٨] وماتت الأم بحمى النفاس بعد أسبوع من مولد جان — جاك » جئت إلى العالم أحمل أمارات قليلة جداً على الحياة » بحيث لم يكن هناك كبير أمل فى الابقاء على ». وكفلته خالة له وأنقذته ، وهو عمل « أغتفره لك دون تحفظ » على حد قوله . وكانت الخالة تجيد الغناء والترتيل ، ولعلها بثت فيه ذلك الشغف بالموسيقى الذى لازمه طيلة حياته . وكان طفلا عبقريا ، تعلم القراءة فى زمن وجيز ، ولمـا كان أبوه إسحاق مولعا بالقصص الرومانسية » فقد راح الوالد والولد يقرءان معا الروايات المتخلفة فى مكتبة أمه الصغيرة . ونشىء جان — جاك على مزيج من القصص الغرامية الفرنسية » وتراجم بلوتارخ ، والفضائل الكلفينية » وجعله هذا المزيج قلقا مهزوزا . وقد وصف نفسه وصفا دقيقا بأنه « أبى هش فى وقت معاً ، فى خلق أنوثه وهو مع ذلك خلق عات لا يقهر ، دأب على وضعى فى موضع التناقض مع نفسى لأنه متلبلب بين الضعف والشجاعة ، وبين الترف والعفة[٩] .

وفى ١٧٢٢ تشاجر أبوه مع رجل يدعى الكابتن جوتييه ، فأسال الدم

من أنفه » فاستدعاه القاضي المحلى ، ولكنه هرب من المدينة أتقاء السجن، واتخذ مقره مدينة نيون على ثلاثة عشر ميلامن جنيف . وبعد سنوات تزوج ثانية . وكفل فرانسوا وجان ـ جاك خالهما جابريل برنار . وألحق فرانسوا بصانع ساعات ، فهرب » واختفى من التاريخ . وأما جان ـ جاك وابن خاله أبراهام برنار فقد أرسلا إلى مدرسة داخلية يديرها القس لا مبرسييه فى قرية بوسيه القريبة . « هنا كان علينا أن نتعلم اللاتينية ، وكل اللغو التافه الذى أطلق عليه اسم التعليم . »[١٠] وكان التعليم المسيحى الكلفنى جزءا من صميم المنهج ؟

وأحب معلميه ، لا سيما أخت القسيس « الآنسه لا مبرسييه » وكانت فى الثلاثين « وجان ـ جاك فى الحادية عشرة ، فوقع فى غرامها على طريقته العجيبة . كان إذا ساطته عقابا على سوء الأدب ، أبهجه أن يتعذب على يديها ، « فإن شيئا من الشهوانية أختلط بالألم والخزى » مما خلف فى الرغبة فى تكرار العقوبة أكثر من الخوف منه » .[١١] فلما عاد إلى الذنب وضح التذاذه بالعقاب وضوحا صممت معه على ألا تعود إلى ضربه بالسوط ؟ وقد ظل عنصر مازوكى يلازم تكوينه العشق إلى النهاية .

« وهكذا قضيت سن المراهقة ، ببنية متقدة ، دون أن أعرف أو حتى أشتهى أى أشباع آخر لرغباتى المشبوبة غير ما أوحت به إلى الآنسة لا مبرسييه فى براءة ، وحين بلغت مبلغ الرجال لم يختف هـذا الميل الصبيانى بل إتحد مع الميل الآخر . ولقد ظلت هذه الحماقة وما صاحبها من شدة حياء فطرى تحول دائماً بينى وبين الاجتراء مع النساء ، وهكذا كنت إقضى أيامى أتحرق فى صمت شوقاً لمن أهيم بهن دون أن أجروء على البوح برغباتى . .

« وهاأنذا قـد خطوت أول خطوة وأشقها فى تيه اعترافاتى الحالك الإليم . ذلك أننا لا نستشعر فى البوح بذنب ينطوى على الإجرام فعلا ذلك النفور الشديد الذى نستشعره فى البوح بذنب لا يثير غير السخرية» [١٢] .

ويجوز أن روسو ، فى حياته اللاحقة ، وجد عنصر لذة فى شعوره بالمقاومة والصد من العالم ، ومن اعدائه ، ومن أصدقائه .

وبعد اللذة التى وجدها فى عقوبات الآنسة لا مبرسييه وجد متعة فى المنظر الطبيعى الرائع الذى أحاط به ، «كان فى الريف من الفتنة . . . ما حبب إلى الحياة الريفية حباً لم يستطع الزمن أن يطفئه » . [١٣] ولعل هذين العامين اللذين أنفقهما فى بوسيه كانا أسعد سنى عمره رغم ما تكشف له من ظلم فى هذه الدنيا . فقد عوقب مرة على ذنب لم يجنه ، فاستجاب بسخط لم يفارقه قط ، وبعدها « تعلم أن يرائى ، ويتمرد ، ويكذب ، وبدأت كل الرذائل المألوفة فى حياتنا تفسد براءتنا السعيدة » . [١٤]

ولم يجاوز قط هذه المرحلة من التعليم المدرسى أو الكلاسيكى وربما كان افتقاره إلى التوازن ، وصواب الحكم ، وضبط النفس ، واخضاعه العقل للوجدان — ربما كان هذا كله راجعاً لأنهاء تعليمه المدرسى فى فترة مبكرة . ففى ١٧٢٤ ، حين بلغ الثانية عشرة ، أعيد هو وابن خالته إلى بيت أسرة برنار . وزار أباه فى نيون ، وهناك هام بفتاة تدعى فولسون ، فصدته عنها ، ثم بأخرى تدعى جوتون « أبت أن تسمح لى بشيء من التجاوز معها ، فى حين أباحت لنفسها أشد الحريات معى . [١٥] وبعد عام من التردد والتذبذب ألحق صبيا لحفار فى جنيف . وكان يحب الرسم » وقد تعلم الحفر على ظروف الساعات ، ولكن معلمه كان يضربه بقسوة على ذنوب صغيرة . « فدفعنى إلى رذائل كنت أحتقرها بفطرتى ، كالكذب ، والكسل ، والسرقة » . وانقلب الصبى الذى كان من قبل سعيدا إلى غلام منطو مكتئب كاره لعشرة الناس .

ووجد السلوى فى الأدمان على قراءة الكتب التى استعارها من مكتبة قريبة » وفى الرحلات الريفية يقوم بها فى الآحاد . وحدث مرتين أنه تباطأ فى الحقول حتى وجد أبواب المدينة مغلقة إذ حاول العودة ، فانفق الليل فى العراء ، ومضى إلى عمله نصف مشدوه ، وكان جزاؤه علقه ساخنة .

وفى رحلة ثالثة من هذه الرحلات حملته ذكرى هذا الضرب على أن يقرر إلا يعود إطلاقا فمضى قدما إلى كونفنيون فى سافوى الكاثوليكية ، على ستة أميال من بلدته ، وهو لم يبلغ بعد السادسة عشرة (١٥ مارس ١٧٢٨) لا نقود معه ولا ثياب سوى ما يحمله على ظهره .

هناك طرق باب قسيس القرية الكاثوليكى الأب بنوا دبونفير ، ولعله سمع أن هــذا الكاهن الشيخ تواق لهداية الجنيفيين الشريدين ، فهو يقدم لهم الطعام الطيب عملا بالنظرية القائلة أن المعدة الممتلئة تعين على التفكير المستقيم . وقد قدم لجان — جاك غذاء طيباً ، وقال له « إذهب إلى آنسى ، حيث تجد سيدة صالحة خيرة يتيح لهـا كرم الملك أن تحول النفوس عن تلك الخطايا التى إقلعت عنها لحسن الحظ »[١٦]. ويضيف روسو أن هذه السيدة هى « مدام دفاران ، التى اهتدت إلى الكثلكة مؤخرا ، والتى رتب القساوسة أن يبعثوا إليها بأولئك التعساء المستعدين لبيع عقيدتهم ، وكانت إلى حد ما مضطرة إلى أن تشارك هؤلاء معاشا قدره ألفا فرنك أنعم بها عليها ملك سردانيا » . ورأى الفتى الشريد أن شطراً من ذلك المعاش قد يستأهل تغيير العقيدة . وبعد ثلاثة أيام ، فى آنسى ، مثل أمام مدام فرانسوا — لويز دلاتور ، بارونة فاران .

كانت فى التاسعة والعشرين ، امرأة حلوة ، كيسة ، دمثة ، سمحة جذابة الملبس ، « ما رأيت وجها أجمل ولا جيدا أبدع ، ولا ذراعين مليحتين أروع تكوينا »[١٧] . وكانت فى مجموعها أبلغ حجة تناصر الكاثوليكية رآهــا روسو على الاطلاق . ولدت بفيفى لأسرة طيبة ، وتزوجت وهى صغير جداً من المسيو (البارون فيما بعد) دفاران اللوزانى وبعد سنوات من التنافر الأليم تركته ، وعبرت البحيرة إلى سافوى ، ونالت حماية الملك فكتور أمادو ، وكان يومها فى إفيان . وبعد أن نزلت آنسى ، قبلت اعتناق الكاثوليكية ، معتقدة أنها لو ادت شعائرها الدينية على الوجه الصحيح لغفر الله لها غرامياتها التى تقع فيها بين الحين والحين ،

ثم إنها لم تستطع أن تصدق أن يسوع الرقيق القلب سيقذف بالرجال — فما بالك بامرأة جميلة — فى النار الابدية[١٨] .

وكان يطيب لجان — جاك أن يمكث معها لولا إنها كانت مشغولة : فنفحته ببعض المال ، وأمرته بأن يمضى إلى تورين ويتلقى التعليم فى « نزل الروح المقدس » وقد استقبل هناك فى ١٢ أبريل ١٧٢٨ ، وفى ٢١ أبريل عمد فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وحين استعاد ذكرى هذه الواقعة بعد أربعة وثلاثين عاماً — وقبل عودته إلى البروتستينية بثمانى سنوات — كتب يصف فى رعب تجربته فى النزل « بما فى ذلك محولة للاعتداء على عفته من زميل مغربى حديث الاهتداء » وقد خيل إليه أن موقفه من اعتناق الكاثوليكية كان موقف النفور « والخزى » والتسويف الطويل . ولكن الظاهر أنه تكيف مع الظروف التى وجدها فى النزل لأنه مكث هناك دون إكراه أكثر من شهرين بعد أن قبل فى كنيسة روما[١٩] .

ثم ترك النزل فى يوليو « مسلحا بستة وعشرين فرنكا . وبعد أن أنفق أياما فى مشاهدة معالم المدينة وجد عملا فى متجر جذبه إليه جمال السيدة الواقفة خلف منضدته . ووقع فى غرامها للتو والساعة » وما لبث أن جثا أمامها وبذل لها عهدا بالوفاء مدى الحياة . وابتسمت مدام بازيل « ولكنه لم تسمح له بأن يتجاوز يدها ، ثم أن زوجها كان وشيك الوصول فى أية لحظة . يقول روسو « إن عدم توفيقى مع النساء نشأ دائماً عن أفراطى فى حبهن »[٢٠] ولكن كان فى فطرته أن يجد فى التأمل اللذة أعظم مما يجد فى الإشباع وقد فرج عن ضيقه بتلك « التكملة الخطرة التى تخدع الطبيعة وتنقذ الفتيان « الذين على شاكلتى مزاجا ، من اضطرابات كثيرة ، ولكن على حساب صحتهم « وقوتهم ، واحيانا حياتهم[٢١] .

ولعل هذه العادة « التى تفاقمت حماها نتيجة النواهى المرهبة ، لعبت دورا خفيا فى زيادة نزقه ، وأحلامه الرومانسية ، وشعوره بالقلق فى المجتمع ، وحبه للوحدة . وهنا نجد « الاعترافات » تتوخى صراحة لم يسبق لها نظير .

« كانت أفكارى فى شغل شاغل بالفتيات والنساء ولكن بطريقتى الخاصة . وقد أبقت هذه الأفكار حواسى فى نشاط دائم مؤذ ... وبلغ بى التهيج مبلغا جعلنى ألهب رغباتى بأشد المناورات إسرافا بعد أن عجزت عن اشباعها . فكنت التمس الأزقة المظلمة والأركان المنزويه ، حيث استطيع أن أتعرى عن بعد أمام اشخاص من الجنس اللطيف فى الوضع الذى إشتهيت أن أكون عليه بقربهن . ولم يكن ما رأينه منى هو عورتى — فذلك ما لم يخطر لى ببال ، إنما كان العضو المثير للضحك (الأرداف) : ولا يمكننى وصف اللذة الحمقاء التى استشعرتها فى تعريتها أمام أعينهن . ولم تكن بين هذا وبين المعاملة المشتهاه (وهى الجلد) غير خطوة واحدة ، ولست أشك أن امرأة حازمة كانت فى مرورها ما نحّت هذه المتعة لو إننى جرؤت على التمادى فى فعلتى .

« وذات يوم ذهبت لاقف فى مؤخرة حوش به بئر تستقى منها فتيات البيت . . . وعرضت عليهن مشهداً يثير الضحك أكثر مما يثير الغواية ، أما أحكمهن فتظاهرن بأنهن لا يرين شيئاً ؛ وبدأ بعضهن يضحكن ، وأحس غيرهن بالأهانة فصحن مستغيثات » .

ولكن واحدة منهن لم تتقدم للأسف لتجلده — وبدلا من ذلك حضر حارس يحمل سيفا ثقيلا وله شارب رهيب ، ومن خلفه أربع عجائز أو خمس مسلحات بالمكانس . أما روسو فنجا بأن قال فى تعليل مسلكه أنه « شاب غريب من أسرة كريمة التاث عقله ، ولكن ماله قد يمكنه فى المستقبل من مكافأتهم على غفرانهم فعلته ، » وتاثر الرجل المرعب ، وخلى سبيله ، الأمر الذى اسخط العجائز غاية السخط[٢٢] .

وكان خلال ذلك قد وجد وظيفة تابع يرتدى زى الخدم فى بيت مدام دفرسللى ، وهى سيدة تورينية لها نصيب من الثقافة . هناك اقترف جريمة أثقلت ضميره طوال عمره . ذلك أنه سرق شريطا من أشرطة المدام الزاهية الألوان ، فلما أتهم بهذه السرقة ادعى أن خادمة أخرى أعطته

الشريط . ووبخته الخادمة — ماريون — البريئة تماماً من السرقة توبيخا أنطوى على نبؤة ، فقالت له « إيه ياروسو ، ظننتك ذا طبيعة خيرة . أنك تجعلنى غاية فى التعاسة ، ولكننى لا ارضى أن أكون فى موقفك[٢٣] » . وطرد كلاهما ، ويضيف روسو فى إعترافاته :

لست إدرى ما أصاب ضحية إفترائى هـــذا ، ولكن كان الاحتمال ضعيفاً جدا فى أن تجد لها وظيفة حسنة بعد ذلك ، لأنها عانت من تهمة مؤذية لسمعتها من جميع الوجوه . . . ولقد ظلت الذكرى الإثمة لهـــذا العمل . تثقل ضميرى إلى اليوم ، وفى وسعى أن أقول صادقا أن رغبتى فى التخفيف من ألم هذه الذكرى شاركت كثيراً فى تصميمى على كتابة إعترافاتى[٢٤] .

وقد تركت تلك الشهور الستة التى عمل فيها خادما بصمتها على خلقه ، فهو لم يصل قط إلى احترام نفسه رغم كل وعيه بعبقريته : وشجعه قسيس شاب لقيه وهو يخدم مدام دفرسللى على الاعتقاد بان فى أستطاعته التغلب على اخطائه إذا حاول مخلصا القرب من اخلاقيات المسيح . وقال السيد جيم هذا إن أى دين صالح ما دام يشيع السلوك المسيحى ، ومن ثم فقد أومأ إلى أن جان — جاك يكون آمناً بالا إن هـــو عاد إلى مسقط رأسه ومذهبه الأصلى . وقد استقرت هذه الآراء « لرجل من أفضل من عرفت من الرجال » طويلا فى ذاكرة روسو ، وأوحت إليه بصفحات مشهورة فى كتابه « إميل » . وبعد عام التقى فى مدرسة سان — لازار اللاهوتية ، بقس آخر هو إذ الأبيه جاتييه ، رجل له « قلب يفيض رقة وحنانا » فاته الترقى لأنه كان سببا فى حمل عذراء فى أبرشيته . يقول روسو معقبا « لقد كانت هذه الفعلة فضيحة رهيبة فى أسقفية شديدة التزمت ، لا يصح فيها أبدا للقساوسة (الخاضعين لتنظيم حسن) أن يكون لهم أبناء — إلا من نساء متزوجات[٢٥] » . ومن « هذين القسيسين الفاضلين ألفت شخصية قسيس سافوا » .

وفى مطلع صيف عام ١٧٢٩ ، عاود روسو — الذى بلغ الآن السابعة عشرة — الحنين إلى حياة الترحل ، ثم أنه علل نفسه بأنه قد يجد معونة مدام دفاران وظيفة أقل إذلالا لكبريائه . فانطلق بصحبة غلام جنيفى مرح يدعى باكل سيراً من تورين ، واخترقا ممر جبل سنيس فى الألب إلى شامبرى وآنسى . وقد صور قلمه الرومانسى تلك الإنفعالات التى جاشت بها نفسه وهو يدنو من مسكن مدام دفاران تصويرا رائعا « فقد ارتعشت ساقاى من تحتى وغامت عيناى ، فلم أبصر ولم أسمع ولم أذكر احدا ، واضطررت مرارا إلى الوقوف لألتقط أنفاسى وأملك أحاسيسى المشدوهة [٢٦] » .
ولا شك فى أنه كان غير واثق من أنها سترحب بمقدمه . فكيف يستطيع أن يفسر لها كل ما طرأ على حياته من صروف وتقلبات منذ تركها ؟ على أن « نظرتها الأولى بددت جميع مخاوفى . ووثب قلبى لسماع صوتها . وألقيت نفسى عند قدميها ، وفى نشوة من الفرح العارم ضغطت شفتاى على يدها [٢٧] » : ولم يسؤها هيامه بها ، فخصصت له حجرة فى بيتها ، وحين بدأ البعض يتقولون كان جوابها « فليقولوا ما شاءوا ، ولكنى ما دامت العناية قد ردته إلى ، فأنى عازمة على إلا أتخلى عنه » .

* * *

٣ — ماما : ١٧٢٩ — ٤٠

وتعلق بها تعلقاً شديداً « كأى فتى يتعلق بامرأة الثلاثين كان يلثم سرآ الفراش الذى تنام عليه ، والكرسى الذى تجلس عليه « بل الأرض ذاتها حين يخطر إلى أنها مشت عليها[٢٨] » .

(هنا يخيل الينا أن المبالغة طغت على التاريخ)

وكان شديد الغيرة من كل من ينافسونه على الاستئثار بوقتها . وتركته يخرخر كالهر السعيد « وكانت تدعوه تارة بالقط الصغير ، وتارة بالطفل » وشيئاً فشيئاً أرتضى أن يدعوها « ماما » واستخدمته فى كتابة رسائلها وإمساك حساباتها ، وجمع الأعشاب لها ، ومعاونتها فى تجاربها الكيميائية . وأعطته كتبا ليقرأ — الاسبكتاتور ، ويوفندرف « وسانت افرمون ، وملحمة فولتير الهنرياده . وكانت هى نفسها تحب أن تتصفح « قاموس بويل التاريخى النقدى » وكانت لا تسمح للاهوتها بأن يضايقها ، ولعل استمتاعها بصحبة الأب جرو « ناظر مدرسة اللاهوت المحلية « مرجعه أنه كان يساعدها على إحكام عقد مشدها « وبينما كان مشغولا بهذا كانت تجرى فى أرجاء الغرفة ، هنا أو هناك كما تدعو الدواعى . وكان الأب ، ناظر المدرسة ، يتبعها متذمرا تجره الأربطة من خلفها ، وهو لا يفتأ يردد « أرجوك أن تقفى ساكنة ياسيدتى » . وكان هذا كله مشهدا مسليا حقاً[٢٩] » .

وربما كان هذا القسيس المرح هو الذى أشار بأن جان — جاك قد يستوعب من التعليم قدرا يؤهله لأن يكون قسيس قرية « وذلك على الرغم من كل أمارات الغباوة البادية عليه . ووافقت مدام دفاران وهى مغتبطة بالعثور له على مهنة يرتزق منها . وعليه فى خريف ١٧٢٩ دخل

روسو مدرسة سان — لازار اللاهوتية ليحضر للقسوسية . وكان قد ألف الكاثوليكية الآن بل شغف بها[٣٠] « احب فيها طقوسها المهيبة ، ومواكبها ، وموسيقاها ، وبخورها ، واجراسها التي خالها تعلن على الملأ كل يوم أن الله في سمائه ، وأن العالم بخير أو سوف يكون بخير » أضف إلى ذلك أن مذهبا يستهوى مدام دفاران ويغفر لها خطاياها لا يمكن أن يكون سيئاً . غير أن التعليم المدرسي الذى حصله من قبل كان من الضآلة بحيث اقتضى الأمر أن يفرض عليه منهج مركز في اللاتينية . ولكنه لم يستطع صبرا على تصاريف أسمائها وصفاتها وأفعالها ، وبعد خمسة أشهر من الجهد والعرق رده معلموه إلى مدام دفاران بتقرير يقول أنه « غلام لا بأس بتقواه » ولكنه لا يصلح كاهنا .

وحاولت مساعدته من جديد . ودعاها ما لاحظته من ميله للموسيقى إلى تقديمه إلى نيكولوز لوميتر ، عازف الأرغن في كتدرالية آنسى وذهب جان — جاك ليعيش معه طوال شتاء ١٧٢٩ — ٣٠ ، وعزاؤه أنه لا يبعد عن ماما سوى عشرين خطوة . وراح يرتل في فرقة الترتيل ويعزف على الفلوت ، وأحب الترانيم الكاثوليكية ، ووجد الغذاء الطيب « وكان سعيداً » . ولم يعكر عليه صفو العيش مع المسيو لوميتر غير إسراف هذا العازف في الشراب . وذات يوم تشاجر رئيس فرقة الترتيل الصغير مع رؤسائه ، فجمع كراسات موسيقاه في صندوق ، ورحل عن آنسى . وامرت مدام دفاران روسو أن يصحبه حتى ليون . هناك سقط لوميتر على الطريق مغشيا عليه بفعل (البطاح) أي هذيان الحمى الذى يصيب مدمنى الخمر . واستغاث جان — جاك بالمارة وقد أصابه الرعب ، وأعطاهم العنوان الذى كان مدرس الموسيقى يبحث عنه ، ثم فر راجعاً إلى آنسى وماماً . « أن تعلقي بها بكل ما فيه من حساسية وصدق اقتلع من قلبي كل مخطط يمكن تصوره وكل حماقات الطموح . فلم أر سعادة في غير العيش بقربها . وما كنت لأخطو خطوة دون أن أشعر أن المسافة بيننا قد بعدت[٣١] » . ولكن علينا أن نذكر أنه لم يتجاوز يومها الثامنة عشرة .

فلما وصل إلى آنسى وجد أن المدام قد رحلت إلى باريس ولا أحد يعرف متى تعود . وأحس أنه وحيد مهجور ، فراح ينفق اليوم تلو اليوم هائماً على وجهه فى الريف « يتأسى بالنظر إلى ألوان الربيع المشرقة وسماع زقزقة الطيور اللطيفة — هذه الطيور العاشقة بلا ريب . وكان أحب الأشياء إليه أن يستيقظ مبكراً ويرقب الشمس تطلع ظافرة فوق الأفق . ورأى فى إحدى جولاته تلك آنستين راكبتين ، تحثان جواديهما المترددين على خوض غدير أمامهما . وفى نوبة من نوبات البطولة أمسك بعنان أحد الجوادين وعبره الماء والآخر يتبعه . وكان على وشك المضى إلى حال سبيله لولا أن الفتاتين أصرتا على أن يصحبهما إلى كوخ يجفف فيه حذاءه وجواربه ، فوثب على ظهر أحد الجوادين خلف الآنسه ج . تلبية لدعوتها « فلما اضطررت إلى الإمساك بها لأستقر فى مكانى راح قلبى يدق وكانت دقاته من العنف بحيث أحست بها » [٣٢] فى تلك اللحظة بدأ يكبر على هيامه بمدام دفاران . وأنفق الشباب الثلاثة يومهم فى رحلة خلوية معاً ، وتجرأ روسو فقبل يد إحدى الفتاتين ثم تركتاه ، فقفل إلى آنسى منتشياً لايكاد يعبأ بغياب ماما عنها . وقد حاول العثور على الآنستين ثانية ، ولكن دون جدوى .

وما لبث أن عاد يضرب فى الأرض من جديد ، واصطحب هذه المرة خادمة مدام دفاران إلى فريبورج . وإذا اخترق جنيف « ألفيتنى متأثراً بالغ التأثر حتى لم أكد أقوى على المضى فى طريقى . . . فقد رفعت صورة الحرية (الجمهورية) روحى إلى الذرى » [٣٣]. ومن فريبورج مشى إلى لوزان . ولم يعرف التاريخ كاتباً شديد الولع بالمشى مثله . فمن جنيف إلى تورين إلى أنسى إلى لوزان إلى نوشاتل إلى برن إلى شامبرى إلى ليون عرف الطريق واستمتع شاكراً بالمناظر والروائح والأصوات .

« يطيب لى أن أمشى على سجيتى ، وأن أقف حيث اشتهى ، فحياة المشى ضرورية لى . والسفر على الأقدام ، فى ريف جميل ، وجو بديع ،

وبهدف لطيف أختم به رحلتى — هذا أنسب ما يروقنى من ضروب العيش » [٣٤] .

ذلك أنه لعدم شعوره بالإطمئنان فى حضرة الرجال الذين أصابوا حظاً من التعليم ، وبالخجل والعى فى حضرة النساء الجميلات ، كان يسعد إذا انفرد بالغابات والحقول ، والماء ، والسماء ، فجعل من الطبيعة مستودع سره ونجواه وأفضى إليها بغرامياته وأحلامه فى حديث صامت . وخيل إليه أن حالات الطبيعة المتقلبة تمتزج أحياناً فى تناغم صوفى مع حالته النفسية . ولم يكن أول من أشعر الناس بجمال الطبيعة ، إلا أنه كان أشد رسلها تحمساً لها وتأثيراً فيهم فنصف شعر الطبيعة منذ روسو هو جزء من تراثه ، لقد شعر هالر من قبل بجلال جبال الألب ووصفه ، ولكن روسو جعل من مفتوح سويسرة على طول الساحل الشمالى لبحيرة جنيف ملكه الخاص ، وأورث الأجيال عبير كرومها المدرجة . فلما أراد اختيار موقع لبيت يسكنه شخصيتى جولى وفولمار أسكنهما هنا ، فى كلارنس بين فيفيه ومونترو ، فى فردوس أرضى امتزجت فيه الجبال والخضرة والماء والشمس والثلوج .

وانتقل إلى نوشاتل حين لم يصب نجاحا فى لوزان « هنا . . . ؟ بفضل تدريسى للموسيقى اكتسبت بعض الإلمام بها دون وعى منى . » [٣٥]

وفى بلدة قريبة تدعى بودرى التقى بحبر يونانى يلتمس بعض المال لترميم كنيسة القبر المقدس فى أورشليم ، فرافقه روسو مترجماً له ، ولكنه تركه فى سوليو ومشى خارجاً من سويسرة داخلا فرنسا . وفى أثناء سيره دخل كوخا وسأل صاحبه أيستطيع شراء طعام ، فقدم له الفلاح خبز الشعير واللبن ، وقال إن هذا كل ما يملك ، ولكنه حين رأى أن جان — جاك ليس جابى ضرائب فتح باباً مسحوراً نزل منه ثم عاد بخبز قمح ، وبيض ، ونبيذ . وعرض روسو أن يدفع ثمن طعامه ، ولكن الفلاح أبى أن يقبله ، وعلل سلوكه بأنه مضطر إلى إخفاء خير الطعام مخافة أن يفرض عليه المزيد من الضرائب . « إن ما قاله لى .. خلف فى ذهنى أثراً لا يمحى ،

ويلمو بذور تلك الكراهية التي لاتطفأ والتي نمت منذ ذلك الحين في قلبي « الكراهية لما يقاسيه هؤلاء التعساء من عنت . والسخط الشديد على ظالميهم . (٣٦)

وفي ليون أنفق أياماً بغير مأوى ، يفترش المقاعد في الحدائق العامة أوينام على الأرض ، واستخدم حيناً في نسخ الموسيقى . فلما سمع أن مدام دفاران .

تسكن شامبرى (على أربعة وخمسين ميلا إلى الشرق) ، انطلق لينضم إليها من جديد . ووجدت له وظيفة سكرتير لملاحظ الأقاليم(١٧٣٢-٣٤) وكان خلال ذلك يعيش تحت سقفها ، لاينقص من سعادته بعض الشيء غير ما كشف من أن مدير أعمالها كلود آنية هو أيضاً يعشقها . ويتضح ما طرأ على غرامه من فتور من هذه الفقرة الفريدة في اعترافاته :

« لم أستطع أن أعلم » دون ألم ، أنها تعيش في مودة أوثق مع شخص غيرى . . . ومع ذلك فبدلا من أن أشعر بأي كراهية للشخص الذي تفوق على على هذا النحو وجدت الود الذي أكنه لها يمتد فعلا إليه ، فلقد تمنيت لها السعادة فوق كل شيء وإذ كان معنياً بخطتها التي توسلت بها للسعادة ، فقد رضيت له السعادة هو أيضاً واعتنق خلال ذلك أفكار خليلته تماماً وشعر بصداقة مخلصة لي . . وهكذا عشنا في وحدة أسعدتنا جميعاً » وحدة لايقوى على فصم عراها غير الموت . ومما يدل على سمو خلق هذه المرأة الودود أن كل الذين أحبوها أحبوا بعضهم بعضاً ، فحتى الغيرة والتنافس أذعنا للعاطفة الأقوى التي ألهمتهم أياها وما رأيت قط واحداً ممن أحاطوا بها يضمر أقل حقد للآخرين . فليتوقف القارىء هنيه عند هذا المديح ، وإذا استطاع أن يتذكر أي أمرأة أخرى تستحقه فليرتبط بها أن أراد لنفسه السعادة (٣٧) .

أما الخطوة التالية في هذه الرواية الغرامية المتعدده الأطراف فكانت هي

أيضاً نقيضاً لكل قواعد الزنا . ذلك أن مدام دفاران حين أدركت أن جارة لها تدعى المدام دمانتون تتطلع إلى أن تكون أول من يعلم جان — جاك فنون الغرام ، عرضت نفسها عليه خليلة دون أن يكون فى هذا الوضع إضرار بخدماتها المماثلة لآتية ، إما لأنها أبت أن تسلم بالتفوق لجارتها وإما لأنها أرادت أن تحمى الفتى من ذراعين أقل حنانا من ذراعيها وأنفق جان — جاك ثمانية أيام يدير الأمر فى رأسه ، فقد كان من أثر طول ألفته بها أن أفكاره عنها كانت بنوية أكثر منها شهوانية . يقول « لقد أحببتها حبا منعنى من أن اشتهيها[٣٨] » وكان آنئذ يعانى من الأمراض التى قدر لها أن تطارده حتى النهاية ، وهى التهاب المثانة وضيق مجرى البول. وأخيرا « وبكل الحياء المنتظر منه » ارتضى العمل باقتراحها . يقول :

« وأخيرا جاء اليوم الذى كنت أخشاه أكثر مما أتوق إليه . . . . فلقد كان قلبى يحبذ غرامياتى دون أن يشتهى الجائزه . ولكنى حصلت عليها رغم ذلك . ورأيتنى لأول مرة بين ذراعى امرأة ، وامرأة أعبدها . أكنت سعيدا ؟ لا لقد ذقت اللذة « ولكنى لا أدرى أى حزن طاغ سمم هذه التعويذه فلقد شعرت كأنى أقترف سفاح المحارم . وبينما كنت أضمها بين ذراعى فى نشوة الفرح اغرقت صدرها مرتين أو ثلاثا بدموعى . أما هى فلم تكن بالحزينة ولا بالفرحة ، بل كانت هادئة وهى تعانقنى وتقبلنى ولم تستشعر أى إنتشاء « ولا أحست بالندم قط « لأنها لم تكن شهوانية على الأطلاق « ولم تكن تبحث عن اللذة بتاتا[٣٩] .

وقد عزا روسو إلى سم الفلسفة مناورات هذه السيدة وهــو يستحضر ذكرى هذا الحدث البارز فيما بعد . قال :

« أكرر أن كل مشاعرها كانت نتيجة خطئها لا نتيجة شهواتها . فلقد كانت كريمة المولد « نقية القلب ، نبيلة السلوك « وكانت رغباتها سوية فاضلة ، وذوقها رقيقا مرهفا . وبدا أنها خلقت لذلك الطهر الرائع — طهر الآداب — الذى أحبته على الدوام ولكنها لم تمارسه قط ، لأنها بدلا من أن تصغى إلى أوامر قلبها اتبعت أوامر عقلها الذى ضللها . . . . ومن

سوء حظها أنها كانت تعتز بالفلسفة ، وكان من أثر المبادىء الخلقية التى استخلصتها من هذه الفلسفة إفساد الفضيلة التى أشار بها قلبها[٤٠] .

ومات آنيه فى ١٧٣٤ . واستقال روسو من وظيفته فى خدمة ملاحظ الإقليم ، وتولى إدارة أعمال المدام وقد وجدها فى حال خطرة من الخلل تشرف على الأفلاس فحصل على بعض المـال بتدريس الموسيقى ، وفى ١٧٣٧ آلت إليه ثلاثة آلاف فرنك إستحقت له من ميراث أمه . فأنفق بعضها على الكتب ، وأعطى الباقى لمدام دفاران . ثم لزم الفراش ، فرضته ماماً بحنان . ولما لم يكن لبيتها حديقة فقد استأجرت (١٧٣٦) كوخا فى ضاحية يسمى الشارميت هناك « سارت حياتى سيراً هادئا غاية الهدوء » ومع أنه « لم يكن يحب قط أن يصلى فى قاعة » فإن الخلاء خارج الكوخ حفزه لشكر الله على جمال الطبيعة وعلى مدام دفاران ، ولطلب البركة الألهية على رباطهما . وكان يومها شديد التعلق باللاهوت الكاثوليكى مع شائبة حزينة من الجانسنية « فكثيرا ما عذبنى خوف الجحيم[٤١] » .

وكان يقلقه أكتئاب هو ضرب من الوهم كان رائجا فى ذلك العهد . وقد خيل إليه أن هناك ورما فى غشاء قريب من قلبه ، فقصد مونبلييه فى مركبة البريد : وفى الطريق هدأ من أكتئابه بما زعم أنه تحقيق لوصال بمدام دلارناج (١٧٣٨) وكانت أما لفتاه فى الخامسة عشرة . فلما عاد إلى شامبرى وجد أن مدام دفاران تجرب علاجا مماثلا ، وأنها اتخذت عشيقا جديداً لها من صانع باروكات شاب يدعى جان فنتسريد . واحتج روسو ، فقالت له إنه يسلك كالأطفال ، وأكدت له أن فى حبها متسعا لاثنين باسم جان . ولكنه أبى أن « يحط من كرامتها على هذا النحو » ، فاقترح عليها أن يعود إلى وضعه القديم ، فزعمت أنها موافقة ، ولكن أستياءها من تخليه عنها بهذه السرعة أصاب حبها له بالفتور . وأعتكف فى شارميت وأقبل على دراسة الفلسفة .

ولأول مرة (حوالى ١٧٣٨) وعى بنسائم « التنوير » الهابة من باريس وسيريه . فقرأ بعض أعمال نيوتن ، وليبنتز ، وبوب ، وقلب فى متاهات

قاموس بيل . ثم عاد إلى درس اللاتينية ، وأحرز فى ذلك بجهده وحده تقدما أكثر مما أحرز من قبل على يد معلميه ووفق إلى أن يقرأ شذرات من فرجل ، وهوراس ، وتاسيتوس ، وترجمة لاتينية لمحاورات افلاطون . وطالع عليه لا برويير ، وبسكال ، وفنيلون ، وبريفوست ، وفولتير ، وكأنهم رؤيا أدارت رأسه « لم يفتنا شيء مما كتبه فولتير » ؛ والواقع أن كتب فولتير هي التي « أوحت إلى بالرغبة فى أن أتأنق فى الكتابة ، وحملتنى على محاولة تقليد تلوينات ذلك الكاتب الذى فتنت به أى فتنة[٤٢] » وعلى غير وعى منه فقد اللاهوت القديم الذى كان من قبل إطار إفكاره ، شكله وصرامته « فوجد نفسه يفكر دون رعب فى عشرات الهرطقات التى كانت تبدو له فى شبابه فاضحة شائنه . وحل محل إله الكتاب المقدس إيمان جار يوشك أن يكون مشبوبا هو الإيمان بوحدة الوجود . هناك إله ، نعم ، والحياة بدونه لا معنى لها ولا يطيقها الإنسان » ولكنه ليس ذلك الإله الخارجى « المنتقم ، الذى تصوره الناس القساة الجبناء ؛ إنما هو روح الطبيعة ، والطبيعة فى صميمها جميلة ، والطبيعة البشرية فى أساسها خيره . وعلى هذا الإيمان » وعلى بسكال ، سيقيم روسو فلسفته .

وفى ١٧٤٠ وجدت له مدام دفاران وظيفة معلم خاص لولدى المسيو بونو دمابليه ، رئيس بلدية ليون وافترق عنها دون لوم ولا عتاب من أحد الطرفين ، وأعدت له ثياب الرحلة ، وخاطت لها بعض الملابس بيديها اللتين كانتا فتنة له يوما ما .

* * *

٤ — ليون والبندقية وباريس : ١٧٤٠ — ٤٩

كانت أسرة مابليه حافزاً فكريا جديداً لروسو . وكان رئيس البلدية أكبر إخوة ثلاثة نابهين ، أحدهم جابرييل بونو دمابليه الذى اقترب من الشيوعية ، والآخر هو الأبيه إتيين بونو دكونديالك ، الذى أوشك أن يكون ماديا . وقد التقى روسو بثلاثتهم . وبالطبع وقع فى غرام مدام دمابليه ؛ ولكنها كانت من السماحة بحيث لم تعر الأمر أهمية . واضطر جان — جاك أن ينصرف إلى مهمته ، وهى تعليم ولديها . فأعد للسيد دمابليه بيانا بأفكاره التربوية ، وكانت فى بعضها تتفق والمبادىء التحررية التى ستعرض عرضا رومانسيا ممتازا فى كتابه « إميل » بعد اثنين وعشرين عاماً ، وفى بعضها تناقض رفضه اللاحق لـ « الحضارة » ، لأنها اعترفت بقيمة الفنون والعلوم فى تطوير النوع الإنسانى . وكان يلتقى مراراً برجال كالأستاذ بورد عضو أكاديمية ليون (وكان صديقاً لفولتير) ، فتشرب قدرا أكبر من « التنوير » ، وتعلم أن يهزأ بالجهل والخرافة الشائعين بين الجماهير . ولكنه ظل طوال حياته مراهقا . فذات يوم رأى شابة عارية تماماً إذ اختلس النظر إليها وهى تستحم فى الحمامات العامة ، وتوقف قلبه عن النبض ، فلما خلا إلى نفسه فى حجرته وجه إليها خطابا جريئا غفلا من التوقيع قال فيه :

« لا أكاد أجرؤ على الاعتراف لك يا آنسة بالظروف التى أدين لها بسعادة رؤيتى إياك وعذاب حبى لك . فقد فتننى فيك ما هـو أكثر من ذلك الجسد النحيل اللطيف الذى لا ينتقص العرى من جماله ، وذلك القوام الأنيق ، وتلك الخطوط الرشيقة . . . ما هـو أكثر من نضارة الزئبق المنثور على شخصك بهذا السخاء الكثير . . . أنها حمرة الخجل الناعمة التى رأيتها تكسو جبينك حين أسفرت عن وجودى لعينيك بعد أن جردتك بخبث شديد — بغناء بيتين من الشعر[٤٣] .

وكان الآن قد شب إلى السن التى تغريه بعشق الصبايا ، فكادت كل

فتاة حسنة الطلعة تثير أشواقه وأحلامه ، ولكنه تعلق على الأخص بسوزان سير . « مرة — وا أسفاه ، مرة واحدة فقط فى حياتى ؟ لمس فمى فمها . إيه أيتها الذكرى ؟ هل أفقدك فى القبر ؟ » وبدأ يفكر فى الزواج منها ، ولكنه اعترف لها قائلا « ليس لدى ما أقدمه لك سوى قلبى [44] » ولما لم يكن قلبه عملة قانونية ، فإن سوزان قبلت يد غيره ، وانكفأ روسو إلى إحلامه من جديد .

إنه لم يخلق ليكون عاشقا ناجحا ولا معلما كفئا .

« كان لدى من المعرفه القدر اللازم تقريبا لمدرس خاص . . . ويبدا أن رقة طبعى الفطرية تهيئنى لهـذا العمل ، لولا أن تعجل الأمور اختلط بهذا الطبع فإذا سارت الأمور رخاء ورأيت أن الجهود التى لم أضن بها أثمرت كنت ملاكا ، إما إذا اخفقت فقد كنت أنقلب شيطانا . فإذا لم يفهمنى تلميذاى تعجلت الشرح ، وإذا أظهرا أى أمارات على الطبع المشاكس كان ذلك يستفزنى استفزازا يكاد يحملنى على قتلهما . . . . وصممت على تركهما بعد أن اقتنعت بأننى لن انجح إبدا فى تعليمهما التعليم الصحيح : وتبين المسيو دمابليه هـذا بالوضوح الذى تبينته به وأن كنت ميالا إلى الاعتقاد بأنه ما كان ليطردنى قط لولا أننى أعفيته من هذا العناء » .

وهكذا أستقل مركبة البريد قافلا إلى شامبرى بعد أن أستقال وهو حزين « أو طرد طرداً كريما . والتمس العزاء من جديد بين ذراعى ماما ؛ فاستقبلته هى فى تلطف وأفسحت له مكاناً على ما ثديها مـع عشيقها ؛ ولكنه لم يكن سعيدا فى هذا الموقف ، فاغرق نفسه فى الكتب والموسيقى ، وابتكر طريقة للتدوين الموسيقى تستخدم الأرقام بدلا من الرموز . ولمـا عزم على الذهاب إلى باريس وعرض اختراعة على أكاديمية العلوم أثنى الجميع على قراره . وفى يوليو ١٧٤٢ عاد إلى ليون ملتمسا خطابات تقديم إلى الأعيان فى العاصمه . وأعطاه آل مابليه خطابات إلى فونتنيل

والكونت دكايلوس "وقدمه بورد إلى الدوق درشليو . ومن ليون أستقل المركبة العامة إلى باريس تداعب رأسه أحلام المجد

وكانت فرنسا آنذاك مشتبكة فى حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠—٤٨) ولكن الحرب كانت تدور رحاها على أرض أجنبيه ، وعليه فقد سارت باريس سيرتها الأولى وواصلت حياة المرح البهى والاضطراب الفكرى ، حياة المسارح الناطقة بمسرحيات راسين ، والصالونات المتألقه بالمرطقات والسخريات ، والأساقفة الذين يقرءون فولتير ، والشحاذين الذين ينافسون البغايا ، والباعة الجوالين الذين ينادون على بضائعهم ، والصناع الذين يبذلون العرق فى سبيل لقمة العيش إلى هذه الدوامة أقبل جان - جاك روسو ، وهو فى الثلاثين من عمره ، فى أغسطس ١٧٤٢ ، وفى كيسه من المال خمسة عشر جنيها . واستأجر حجرة فى فندق سان - كنتان بشارع الكوردلييه بقرب السوربون — « شارع حقير وفندق تعس ، وحجرة بائسه »[٤٦] ، وفى ٢٢ أغسطس قدم إلى الأكاديمية « مشروعا عن علامات جديدة للتدوين الموسيقى » . ورفض العلماء مشروعه فى مجاملة لطيفة . وشرح له رامو رأيهم قائلا « أن علاماتك حسنه جدا . . . ولكن عليها إعتراضا ، هو أنها تحتاج إلى إعمال الذهن ، وهو أمر لايمكن دائما أن يرافق سرعة التنفيذ . أما موضع علاماتنا فيصور للعين دون تزامن مع هذه العملية » واعترف روسو بأن الأعتراض لا يمكن التغلب عليه[٤٧] .

وأتاحت له خطابات التقديم التى إتخذها معه خــلال ذلك الاتصال بفونتنول الذى كان وهو فى عامه الخامس والثمانين أحرص على طاقته من أن يأخذ روسو مأخذ الجد ، والاتصال بماريفو الذى قرأ مخطوطة مسرحية روسو الهزلية « نارسيس » واقترح أن يدخل عليها تحسينات ، وذلك رغم إنشغاله بنجاحه روائيا وكاتبا مسرحيا وقابل الوافد الجديد ديدرو ، الذى لم يكن بعد قد نشر أى مؤلف يؤبه به ، وكان يومها يصغر جان — جاك بعام واحد .

« كان ولوعا بالموسيقى ، يعرفها نظريا . . . وقد حدثنى ببعض

مشروعاته الأدبية . . . وسرعان ما وثق هذا بيننا صلة دامت خمسة عشر عاماً ، وأغلب ظني أنها كانت ستدوم إلى اليوم لولا أننا لسوء الحظ... أبناء حرفة واحدة »[٤٨] .

وكان يصاحب ديدرو إلى المسرح أو يلاعبه الشطرنج « والتقى روسو في تلك اللعبة بفيليدرو وغيره من مهرة لاعبيها ، و« لم يكن عندي شك في أنني في النهاية سأتفوق عليهم جميعاً»[٤٩] ووجد سبيله إلى بيت مدام دوبان وصالونها ، وكانت ابنة المصرفي صموئيل برنار « وعقد صداقة مع ابن زوجها كلود دوبان دفرانكوي وخلال ذلك أوشكت نقوده على النضوب .

وبدأ يبحث من حوله عن عمل يستكمل به جهود أصدقائه في إطعامه . فعرضت عليه بنفوذ مدام بزنفال وظيفة سكرتير للسفارة الفرنسية في البندقية . وبعد أن قطع رحلة طويلة محفوفة بالخطر بسبب الحرب ، وصل إليها في ربيع ١٧٤٣ وقدم نفسه إلى السفير الكونت دمونتاجو . ويؤكد لنا روسو أن هذا الكونت كان أمياً تقريباً ». وكان على السكرتير أن يفك شفرة الوثائق وأن يحررها ، وكان يقدم رسائل الحكومة الفرنسية إلى مجلس شيوخ البندقية بشخصه لأنه لم ينس الإيطالية التي كان قد تعلمها في تورين وكان فخوراً بمنصبه الجديد « وشكا من أن مركباً تجارياً زاره لم يطلق المدافع تحية له مع أن هذه « التحية نالها من هم أقل شأناً » .[٥٠] وتشاجر الرئيس والمرؤوس على أيهما يظفر بالرسوم التي تدفع نظير استخراج السكرتير لجوازات السفر إلى فرنسا . وقد صلحت حال روسو بفضل نصيبه من هذه الرسوم « فتناول الطعام الطيب على غير العادة ، واختلف إلى المسرح والأوبرا « ووقع في غرام الموسيقى الإيطالية والفتيات الإيطاليات .

وذات يوم زار مومساً تسمى لابدوانا « لكيلا أبدو شديد البلاهة أمام رفاقي » وطلب إليها أن تغني فغنت ، فنقدها دوكاتيه وهم بالإنصراف ، ولكنها رفضت أن تأخذ قطعة النقود دون أن تكون قد بذلت في نيلها

جهداً . فأرضاها ، وعاد إلى مسكنه « مقتنعا كل الاقتناع بأننى سأتجرع عواقب هذه الفعله ، فكان أول شيء فعلته أننى استدعيت جراح الملك لألتمس منه الدواء » ولكن الطبيب « أقنعنى بأن فى خلقتى ما يجعلنى لاأقبل العدوى بسهولة » [٥١] وبعد فترة أقام له أصدقاؤه حفلة يثاب فيها بجائزة هى الغانية الجميلة زوليتا فدعته إلى حجرتها وخلعت ثيابها . « وفجأة ، بدلا من أن اضطرم بنار الشهوة أحسست ببرودة قاتله تسرى فى عروقى ، وباشمئزاز ينفذ إلى أعماقى ، فجلست وانخرطت فى البكاء كالأطفال » . وقد علل عجزه هذا فيما بعد بأن أحد ثديى المرأة كان مشوها . أما زوليتا فقد انقلبت عليه هازئة وقالت له « دع النساء وشأنهن . وانصرف إلى درس الرياضة » [٥٢].

وأوقف المسيو دمونتاجو صرف راتب روسو لأن راتبه هو كان متأخراً . فعادا إلى الشجار ، ورفت السكرتير (١٧٤٤) وشكا روسو إلى أصحابه فى باريس وأرسل استفسار إلى السفير فأجاب « يجب أن أبلغكم كم كنا مخدوعين فى السيد روسو . ذلك أن حدة طبعه ووقاحته الناجمين عن شدة اعتداده بنفسه . وعن جنونه . هما اللذان أفضيا به إلى الحال الذى وجدناه عليه . لذلك طردته كما يطرد خادم سيء » [٥٣] وقفل جان — جاك إلى باريس (١١ أكتوبر) وطرح على الموظفين المختصين فى الحكومة وجهة نظره فى النزاع فلم ينصفوه . فلجأ إلى مدام دبزنفال . ولكنها رفضت أن تستقبله . فأرسل إليها خطابا عنيفاً نستطيع أن نحس فيه لفحات الثورة الفرنسية البعيدة :

« كنت مخطئاً يا سيدتى . فقد ظننتك منصفة فإذا بك « نبيلة » فقط ، وكان يجب على أن أذكر هذا وأن أدرك أنه لا يليق بى — وأنا رجل غريب أنتمى إلى طبقة العامة — أن أشكر أحد السادة . ولو أن قدرى رمانى ثانية فى قبضة سفير بهذا الخلق لكابدت آلامى دون شكوى . فإذا كان مفتقراً إلى الإحساس بالكرامة ، ينقصه سمو النفس ، فذلك لأن النبالة فى غنى عن هذا كله ، وإذا اقترن بكل ما هو حقير دنىء فى بلد من أشـــد بلاد الله

فسادا ، فذلك لأن أجداده خلقوا له من الشرف ما يكفيه ؛ وإذا عاشر الأوغاد ، أو كان هو نفسه وغدا ، وإذا أكل على خادم أجره ، إذن ياسيدتى فلن أخلص إلا إلى هذا الرأى ، وهو أن من حسن حظ المرء إلا يكون وليد افعاله هو . فهولاء الاجداد — من كانوا ؟ أشخاص لا شهرة لهم ، ولا مال ، نظرائى ، كان لهم موهبة من نوع ما ، وبنوا لأنفسهم سمعة ، ولكن الطبيعة التى تبذر بذرة الخير والشر ، اعطتهم نسلا حقيرا[٥٤] » .

ثم إضاف روسو فى « الإعترافات » :

« لقد خلقت عدالة شكاواى وعدم جدواها فى ذهنى بذور السخط على نظمنا الاجتماعية الحمقاء التى تضحى فيها دائماً رفاهية الشعب والعدل الحقيقى فى سبيل مظهر للنظام ما أنزل الله به من سلطان ، لا ثمرة له إلا أنه يضيف موافقة السلطة العامة إلى ظلم الضعفاء وبغى الأقوياء[٥٥] .

ولما عاد مونتاجو إلى باريس أرسل إلى روسو « بعض المال تسوية لحسابى . . . وتسلمت ما أعطانى وسددت كل ديونى ، وعدت يا مولاى كما خلقتنى . » واستقر ثانية فى فندق سان — كنتان وارتزق بنسخ مدونات الموسيقى . ولما سمع النبيل الذى كان يحمل آنئذ لقب دوق أوليان بفقره أعطاه كراسات موسيقى لينسخها مشفوعة بخمسين جنيها ذهبيا ، فاحتجز روسو منها خمسة ورد الباقى لأنه يزيد على حقه .[٥٦]

وكان ما يكسبه أقل كثيراً مما يتيح له أن يعول زوجة ، ولكنه رأى أن فى استطاعته أن يعول خليلة إذا أحكم التدبير وكان من بين من يؤاكلونه فى فندق سان — كنتان صاحبة الفندق ، وبعض الآباء الدينيين المفلسين ، وشابة تخدم الفندق غسالة أو خياطة . وكان فى هذه المرأة ، واسمها تريز لفاسير ، ما فى جان — جاك من إحجام وتردد ، ووعى بالفقر وأن لم تكن فخوره بفقرها مثله . وكان يدافع عنها إذا عاكسها الآباء . وانتهى بها الأمر إلى أن ترى فيه حاميا ، وسرعان ما وجد الواحد منهما سبيله إلى حضن صاحبه (١٧٤٦) وبدأت إصارحها بأنى لن أتخلى عنها ولن أتزوجها[٥٧] » . وإعترفت بأنها ليست عذراء ، ولكنها أكدت له أنها لم تأثم غير مرة واحدة ،

وكان ذلك منذ أمد بعيد . فصفح عنها صفحاً جميلا ، مؤكداً لها أن عذراء العشرين مخلوق نادر الوجود فى باريس على أى حال .

وكانت مخلوقة بسيطة لا سحر فيها ولا دلال ، لا تستطيع الكلام فى الفلسفه أو السياسة كنساء الصالونات ، ولكنها تعرف كيف تطهو ، وتدبر شئون البيت وتحتمل فى صبر نزواته وعاداته الغريبة . وكان يتكلم عنها عادة باعتبارها « مدبرة البيت » أما هى فتقول عنه « رجلى » وندر أن اصطحبها فى زياراته لاصدقائه ، لأنها ظلت على الدوام مراهقة ذهنيا ، كما ظل هو على الدوام مراهقا خلقيا .

« حاولت أول الأمر أن أصلح عقلها ، ولكن جهودى ذهبت أدراج الرياح . ذلك أن عقلها بقى على ما فطرته الطبيعة ، فهو لا يقبل التثقيف . ولا يخجلنى أن أعترف أنها لم تعرف قط كيف تقرأ جيداً ، وإن كانت تكتب كتابة لا بأس بها . . ولم تستطع قط أن تتلو شهور السنة بالترتيب ، أو تميز بين عدد وآخر رغم ما بذلت من عناء فى محاولة تعليمها . وهى لا تعرف كيف تعد النقود ، ولا تحسب ثمن أى شىء فإذا تكلمت كانت الكلمة التى تخطر لها هى فى احيان كثيرة عكس الكلمة التى تقصدها . وقد صنفت فيما مضى قاموسا بعباراتها لأروح به عن المسيو دلكسمبورج ، وكثيراً ما ذاع أمر اغلاطها بين اخص اصحابى [٥٨] » .

فلما حملت « أرتبك أشد إرتباك » فماذا هو صانع بالأطفال ؟ وأكد له بعض اصحابه أنه من المألوف إرسال الأطفال غير المرغوب فيهم إلى ملجأ للقطاء . فلما ولد الطفل فعل هذا رغم احتجاجات تريز ، ولكن بتعاون أمها (١٧٤٧) وخلال الاعوام الثانية التالية ولد له أربعة أطفال تصرف فيهم على هذا النحو . وقد ألمع بعض الشكاك إلى أن روسو لم يرزق اطفالا ، وأنه اخترع هذه القصة ليخفى عجزه الجنسى « ولكن كثرة دفاعه عن تنصله هذا من المسئولية تجعل هذه النظرية بعيدة الاحتمال . وقد اعترف سراً بتصرفه فى هذا الأمر لديدرو ، وجريم ، ومدام ديبنيه [٥٩] ، واعترف به ضمنا فى كتابه « إميل » ، واستشاط غضبا على فولتير لأنه أذاع خبره ، ثم أقر به صراحة فى كتابه « الاعترافات » واعرب عن ندمه . إنه لم يخلق للحياة العائلية » لأنه كان حزمة مرهفة من

الأعصاب ، وجواباً شريداً فى الجسد والروح . وكان يعوزه ذلك الأهتمام بالأطفال الذى يجعل الأب صاحبا رزينا ، ولم تكتمل رجولته قط .

فى نحو هذه الفترة اسعده الحظ بأن يجد وظيفة مريحة . فقد أشتغل سكرتيراً لمدام دويان ، ثم لأبن أخيها . وحين أصبح دويان دفرانكوى أمينا عاما للصندوق رقى روسو صرافا براتب ألف فرنك فى السنة . واتخذ الآن الضفيرة الذهبية ، والجوارب البيض ، والباروكة ، والسيف ، وكلها شارات حاكى بها الأدباء ثياب الطبقة الارستقراطية ليجدوا طريقهم إلى بيوت النبلاء[٦٠]. وفى وسعنا أن نتصور ضيقه بشخصيته المنقسمة على ذاتها . وقد أستقبل فى عدة صالونات وصنع أصدقاء جدد ، منهم رينال ، وما رمونيتل ، ودوكلو ، ومدام دينيه ، ثم فريدرش ملشيور جريم ، الذى ارتبط به ارتباطاً حميماً جداً ومؤذيا جداً . واختلف إلى حفلات العشاء المثيرة فى بيت البارون دولباخ حيث كان ديدرو يقتل الآلهة بسلاح سماه خصومه فلك خمار . فى وكر الملحدين ذلك ذاب وتلاشى جل كتلكة جان — جاك .

وألف الموسيقى خلال ذلك . وكان قد بدأ فى ١٧٤٣ مزيجا من الأوبرا والباليه سماه « ربات الفنون الرشيقات » يحيى به غراميات أنا كربون ، وأوفيد ، وتاسو ، وأخرجت الاوبرا فى ١٧٤٥ محدثة بعض الضجة فى بيت جابى الضرائب لابولفيير ، وقد سخر منها رامو وزعم إنها محاكاة لانتحالات من الملحنين الإيطاليين ، ولكن الدوق رشليو أعجب بها وعهد إلى روسو بتنقيح أوبرا وباليه تسمى « أعياد رامير » أعدها رامو وفولتير على سبيل التجربة . وفى ١١ ديسمبر ١٧٤٥ كتب روسو أول رسالة لأمير أدباء فرنسا :

« لقد ظللت خمسة عشر عاماً أكد وأكدح لأجعل نفسى جديرا باحترامك وبالعطف الذى تحبو به شباب الإدباء الذين تكتشف فيهم الموهبة . ولكنى بفضل كتابتى موسيقى أحدى الأوبرات أجدنى قد انقلبت موسيقيا . وأيا كان النجاح الذى تحققه جهودى الضعيفة فإنها ستكون فى نظرى جهودا

رائعه لوكسبت لى شرف معرفتك أياى ، والأعراب عن الأعجاب والاحترام العميق اللذين يشرفنى أن يكنهما لك خادمك المتواضع المطيع جداً[٦١] » .

وأجاب فولتير : « سيدى » إنك تجمع فى شخصك موهبتين وجدتا على الدوام منفصلتين حتى الآن ، فهذا مبرران طيبان يحملانى على تقديرك ومحبتك » .

وبهذين الخطابين من خطابات الحب بدأت خصومتهما الشهيرة .

٥ — هل الحضارة مرض؟

فى عام ١٧٤٩ سجن ديدرو فى فانسين عقابا له على فقرات مهينة فى كتابه « رسائل عن المكفوفين » وكتب روسو إلى مدام دبومبادور يلتمس الأفراج عن صديقه أو الإذن له بأن يشاركه سجنه . وخلال ذلك الصيف قام غير مرة برحلة دائرية طولها عشرة أميال بين باريس وفانسين ليزور ديدرو . وفى واحدة منها أخذ نسخة من مجلة المركير دفرانس ليقرأ اثناء سيره . وهكذا وقع على الإعلان عن جائزة تقدمها أكاديمية دجون لأفضل مقال يجيب عن هذا السؤال « هل أعان إحياء العلوم والآداب والفنون على إفساد الإخلاق أم على تطهيرها ؟ » وأغراه الإعلان بدخول المسابقة . فهو الآن فى السابعة والثلاثين . وقد آن الأوان ليحقق لنفسه الشهرة . ولكن هل بلغ من الإحاطة بالعلم أو الفن أو التاريخ مبلغا يكفى لمناقشة مثل هـــذه الموضوعات دون أن يفضح ما فى تعليمه من قصور ؟ وقد وصف فى خطاب كتبه إلى مالزيرب فى ١٢ مايو ١٧٦٢ بحماسته العاطفية المتميزة تلك الرؤيا التى تراءت له أثناء هذه المسيرة . قال :

« وفجأة أحسست أن مئات الأضواء المتلالئة تخطف بصرى . وتزاحمت حشود من الخواطر النابضة بالحياة فى ذهنى بقوة وأختلاط جعلانى أضطرب أضطراباً لا يوصف واحسست برأسى يدوّم فى دوار كأننى مخمور : وضاق

صدرى بخفقان عنيف . فلما عجزت عن السير لصعوبة التنفس أرتميت تحت شجرة على الطريق وقضيت نصف ساعة فى حال من الأنفعال الشديد حتى أننى حين قمت وجدت مقدمة صدريتى كلها مبللة بالدموع . . أواه ، لو أتيح لى أن أكتب ولو ربع ما رأيت وأحسست تحت تلك الشجرة ، فبأى وضوح كنت أميط اللثام عن كل تناقضات نظامنا الاجتماعى ! بأى بساطة كنت أبين أن الإنسان بفطرته خير ، وأن نظمنا هى التى جعلته شريراً(٦٢) » .

وهذه العبارة الأخيرة ستكون نشيد حياته المتردد ، وتلك الدموع التى تدفقت على صدريته كانت منبعاً من المنابع العليا التى أنبثقت منها الحركة الرومانسية فى فرنسا وألمانيا . لقد كان فى وسعه الآن أن يسكب قلبه فى هجوم على كل تكلف باريس وتصنعها ، وفساد أخلاقها ، وزيف سلوكها المصقول ، وأباحية أدبها ، وشهوانية فنها ، وتعالى طبقيتها ، وسفه أغنيائها الغليظ الذى تموله أبتزازاتهم من الفقراء ، وجفاف الروح لحلول العلم محل الدين ، والمنطق محل الوجدان . إنه بإعلانه الحرب على هذا الانحلال يستطيع أن يبرر بساطة ثقافته ، وعاداته الريفية ، وقلقه وضيقه فى المجتمع ، ونفوره من حيث القيل والقال ، ومن الفكاهة التى تجردت من الاحترام ، ويبرر احتفاظه المتحدى بإيمانه الدينى وسط إلحاد أصحابه . لقد عاد فى أعماق نفسه كلفنيا كما كان ، وذكر بشىء من الحنين تلك العفة التى لقنها فى صباه . إنه بدخوله مسابقة ديجون سيرفع وطنه جنيف فوق باريس ، وسيشرح لنفسه ولغيره لم كان سعيداً فى ليشارميت ، وشقياً غاية الشقاء فى صالونات باريس ؟

فلما وصل إلى فانسين كاشف ديدرو بنيته فى دخول المسابقة . فهلل ديدرو للفكرة ، وأشار عليه بأن يهاجم حضارة جيلهما بكل ما وسعه من قوة . فلن يجرؤ متسابق آخر على اتخاذ هذا الموقف ، وسيكون موقف روسو فريداً فى بابه(*) وعاد جان — جاك إلى مسكنه وهو يتحرق شوقا

(*) هناك جدل صغير يبهم القصة فى هذه النقطة . فقد روى ديدرو فى ١٧٨١ زيارة .

لمدم الآداب والعلوم التي كان ديدرو يستعد للإشاده بها فى « الموسوعة أو القاموس العقلانى للعلوم والآداب والحرف : (١٧٥١ وما يليها) وكتبت « المقال » بطريقة فريدة جدا . . . فكرست له ساعات الليل التى جفانى فيها النوم ، وكنت أتأمل فى فراشى وجفناى مغمضتان ، وأدير فى ذهنى المرة بعد المرة عباراتى بعناية واهتمام لا يصدقان . . . وحالما فرغت من المقال دفعته لديدرو فرضى عنه ، وأشار ببعض تصويبات يجب فى رأية إجراؤها . . . وأرسلت المقال دون أن أخبر بأمره أحدا غيره ، اللهم إلا جريم فيما إذكر[٦٥] .

أما أكاديمية ديجون فقد توجت مقاله بالجائزه الأولى (٢٣ أغسطس ١٧٤٠) — وهى مداليه ذهبية وثلاثمائة فرنك ، واتخذ ديدرو الإجراءات بما عهد فيه من حماسة ، لنشر المقال الذى سمى « مقالا فى الآداب والفنون والعلوم » وسرعان ماكتب إلى المؤلف يبلغه النبأ إن مقالك ساحر إلى حد فاق كل تصور ، فلم يكن لهذا النجاح ضريب على الأطلاق[٦٦] . وكأنى بباريس وقد أدركت أنه هامنا ، فى قلب حركة التنوير تماماً ، قام رجل يتحدى عصر العقل ، ويتحداه بصوت سيصغى إليه العالم .

أما المقال فقد بدا فى استهلاله مشيدا بانتصارات عصره :

« أنه لمشهد جليل جميل أن نرى الإنسان يرفع نفسه — إن جاز هذا التعبير — من العدم بجهوده هو ؛ فيبدد بنور العقل كل السحب الكثيفة التى أكتنفته بالطبعة فسما فوق نفسه ، وحلق بالفكر إلى أجواز الفضاء ،

= روسو له بطريقة يمكن التوفيق بينها وبين رواية روسو . قال : حين سافر روسو يستشيرنى فى الموقف الذى ينبغى أن يتخذه قلت له : أن موقفك هو الذى سيرفضه الآخرون ، فقال إنك على حق (٦٣) » وحوالى عام ١٧٩٣ روى مارمونتيل عن ديدرو إنه نهى روسو عن إتخاذ موقف الموافقة ، فقال له روسو سأعمل بنصيحتك (٦٤) » .

وأشتمل بخطى عملاقة آفاق الكون الشاسعه كأنه الشمس ، وأجل من ذلك وأعجب أنه انكفأ إلى نفسه ليدرس الإنسان ويصل إلى معرفة فطرته وواجباته وهدفه . . كل هـذه المعجزات رأيناها تجدد خلال الأجيال القليلة الأخيرة[٦٧] » .

ولابد أن فولتير جاد بابتسامة الرضى عن فرحة هذا الأستهلال ، فهاهنا تلميذ جديد لجماعة « الفلاسفة » ، وللرفاق الطيبين الذين سيقضون على الخرافة « والعار » ، ثم ألم يكن لوشتقار الفتى هـذا مساهما فى الموسوعة فعلا ؟ ولكن ما إن جاءت الصفحة التالية حتى إتخذت المناقشة وجهة مؤسفة . فقال روسو أن تقدم المعرفة هذا كله جعل الحكومات أعظم سطوة ، فسحقت حرية الفرد وإستبدلت بالفضائل البسيطه والكلام الصريح لعهد أكثر خشونه وبداثية ، نفاق اللباقة الاجتماعية .

« لقد أقصيت من بين الناس الصداقة المخلصة ، والاحترام الحقيقى ، والثقة الكاملةوتسترت الغيرة والريبة ، والخوف ، وبرودة العاطفة ،والتحفظ والكراهية ، والغش ، دائماً وراء ذلك القناع الواحد الخداع ، قناع التأدب ، والصراحة والكياسة اللتين يتباهى بها الناس » ذلك القناع الذى ندين به لنور عصرنا وقيادته . . فلتطالب الآداب والفنون والعلوم بنصيبها الذى أسهمت به فى هذا العمل المفيد »[٦٨] .

ويكاد فساد الفضائل والأخلاق نتيجة لتقدم المعرفة والفن أن يكون قانونا من قوانين التاريخ « لقدغدت مصر أم الفلسفة والفنون الجميلة ،وسرعان ماغزاها الغزاة »[٦٩] أما اليونان التى كان يسكنها الأبطال يوما ما فقد قهرت آسيا مرتين ، وكانت « الآداب» يومها فى المهد » ولم تكن فضائل اسبرطة قد حلت محلها — مثلا إغريقياً أعلى — تلك الثقافة الأثينية المهذبة ،وسفسطة السفطائيين ، وتماثل براكستيليس الشهوانية » فلما بلغت تلك « الحضارة » أوجها ، أطاح بها قليب المقدونى بضربةواحدة ،ثم قبلت نير روما فى استكانة. أما روما فقد غزت عالم البحر المتوسط كله يوم كانت أمـة من الفلاحين

والجند ، متمرسة بنظام صارم ، فلما أسلمت نفسها للذات الأبيقورية ، وأشادت ببذاءات أوفيد وكاتللوس ، ومارتيال ، باتت مرتعاً للرذيلة ، وهزؤا بين الأمم ، وهدفاً لاحتقار الشعوب حتى المسيح منها [٧٠]. وحين عادت روما إلى الحياة فى حركة النهضة الأوربية ، عادت الفنون والآداب تنخر فى عافية المحكومين والحاكمين ، وخلفت إيطاليا أوهى من أن تثبت للهجوم . فأخضع شارل الثامن ملك فرنسا توسكانيا ونابلى دون أن يمتشق حساما تقريباً ، وعزت حاشيته كلها هذا النجاح غير المتوقع إلى انصراف أمراء إيطاليا ونبلائها باهتمام أعظم إلى تثقيف عقولهم دون الاهتمامات النشيطة والأعمال العسكرية [٧١] » .

والأدب ذاته عنصر من عناصر الفناء :

« يحكى أن الخليفة عمر حين سئل فى أمر مكتبة الاسكندرية وما يفعله بها أجاب : « وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها مايوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها » وقد ساق أدباؤنا هذا الأسلوب فى التفكير على أنه بلغ غاية السخف ، ولكن لو أن البابا جريجورى الأكبر كان فى مكان عمر ، والإنجيل فى مكان القرآن ، لأحرقت المكتبة رغم ذلك ، ولربما عد هذا أروع عمل قام به فى حياته » [٧٢] .

أنظر إلى تأثير الفلسفة الممزق فبعض « محبى الحكمة » هؤلاء يخبروننا بأنه ليس هناك شىء اسمه المادة ، وغيرهم يؤكدون لنا أنه لا وجود لشىء إلا المادة وليس إله آخر غير الكون ذاته ، وفريق ثالث يعلن أن الفضيلة والرذيله ليستا سوى اسمين ، وأنه لا اعتبار لشىء إلا للقوة والمهارة فهؤلاء الفلاسفة « يقوضون أسس إيماننا ويحطمون الفضيلة . إنهم يسخرون من الكلمات القديمة التى نستعملها مثل « الوطنية » و « الدين » ويكرسون مواهبهم لهدم وتشوية كل مانقدسه غاية التقديس [٧٣] . ومثل هذا الهراء ما كان ليعمر فى العصور القديمة بعد موت صاحبه ، أما الآن فبفضل الطباعة « ستبقى إلى الأبد . تأملات هوبز وسبينوزا المؤذية . إذن فاختراع الطباعة كان من أفدح

الكوارث فى تاريخ الإنسانية » ومن السهل أن نرى أن الملوك فى المستقبل سيحرصون على اقصاء هذا الفن الرهيب عن ممالكهم حرصهم من قبل على تشجيعه »[٧٤].

ولنلاحظ ماأوتيت الشعوب التى لم تعرف قط الفلسفة أو العلم أو الأدب من قوة وتفوق؛ الفرس فى عصر كورش أو الألمان كما وصفهم تاسيتوس ، أو « فى زماننا هذا الأمة البسيطة (سويسرة) التى لم تقو حتى الشدائد والكوارث على قهر بسالتها المشهورة، والتى لم يستطع أى مثال أن يفسد أمانتها » وأضاف الجنيفى الفخور إلى هذه الشعوب « تلك الأمم السعيدة التى لم تعرف حتى أسماء الكثير من الرذائل التى يصعب القضاء عليها » متوحشى أمريكا الذين لم يتردد مونتينى فى تفضيل طريقة حكمهم البسيطة الفطرية « لا على قوانين أفلاطون فحسب ، بل على أكمل الرؤى التى تستطيع الفلسفة أن تستشرفها »[٧٥].

إذن فأى نتيجة ينبغى أن نخلص إليها ؟ هى أن « الترف والإسراف ، والرق ، كانت فى جميع الأجيال سوط عذاب سلط على جهود كبريائنا للخروج من حالة الجهالة السعيدة تلك التى وضعتنا فيها حكمة العناية الإلهية . فليتعلم البشر ولو مرة أن الطبيعة كانت تحميهم من العلم ، تماماً كما تخطف الأم سلاحاً خطراً من يدى ولدها »[٧٦].

والجواب عن سؤال الأكاديمية العالمة هو أن العلم إذا تجرد من الفضيلة كان فخاً ، وإن التقدم الحقيقى الوحيد هو التقدم الخلقى ، وإن رقى العلم قد أفسد أخلاق البشر أكثر مما طهرها » وإن الحضارة ليست ارتقاء الإنسان إلى وضع أسمى » بل سقوطه من بساطة ريفية كانت فردوس البراءة والسعادة.

وقبيل ختام المقال كبح روسو جماح قلمه وألقى ببصره فى شىء من الخوف على أشلاء العلم » والفن ، والأدب ، والفلسفة » التى خلفها فى إثره وتذكر أن صديقه ديدرو يعد موسوعة كرسها لتقدم العلم . فاكتشف فجأة أن بعض الفلاسفة — كبيكن وديكارت — كانوا » معلمين عظاما » ورأى أن النماذج الحية من هذه السلالة ينبغى أن يرحب بهم حكام الدول مشيرين لهم . ألم يعين

شيشيرون قنصلا لروما ، وأعظم الفلاسفة المحدثين قاضياً لقضاة انجلترا»[٧٧]؟ ولعل ديدرو حشر تلك السطور في المقال ، ولكن جان جاك كان صاحب الكلمة الأخيرة :

« أما نحن البشر العاديين الذين لم تشأ السماء أن تحبونا مواهب عظيمة فلنظل في جهالتنا . ولنترك لغيرنا مهمة تعليم الناس واجباتهم ، ولننصرف إلى القيام بواجباتنا . أيتها الفضيلة أيتها المعرفة السامية للعقول البسيطة أليست مبادئك منقوشة على كل قلب ؟ وهل نحن في حاجة ، لكي نتعلم نواميسك إلى أكثر من .. الإصغاء لصوت الضمير ؟ هذه هي الفلسفة الصادقة التي يجب أن نتعلم القناعة بها »[٧٨].

ولم تدر باريس أتأخذ هذا المقال مأخذ الجد ، أم تفسره على أنه محاولة ماكرة في المبالغة والمفارقة كتبها المؤلف بخبث . وقال بعضهم (فيما روى روسو)[٧٩] أنه لم يصدق كلمة واحدة مما كتب . أما ديدرو الذي آمن بالعلم وضاق بقيود العرف والأخلاق فيبدو أنه استحسن مبالغات روسو باعتبارها عتاباً افتقر إليه المجتمع الباريسي . وأما حاشية الملك فقد حبذت المقال باعتباره توبيخاً للفلاسفة السفهاء الهدامين كانوا يستحقونه منذ أمد بعيد.[٨٠] ولابد أن نفوساً حساسة كثيرة ضاقت كهذا الكاتب البليغ بما في باريس من ثرثرة حمقاء وبريق كاذب . وقد عبر روسو عن مشكلة تظهر في كل مجتمع متقدم ، فهل ثمرات التكنولوجيا تستأهل ما في الحياة المصنعة من عجلة ، وتوترات ، ومناظر ، وضجيج ، وروائح ؟ وهل التوتر يقوض الأخلاق؟ وهل من الحكمة أن نمضي وراء العلم إلى خراب شامل ، ووراء الفلسفة إلى اليأس من كل رجاء مشدد للعزائم ؟ .

وانبرى العديد من النقاد للدفاع عن الحضارة منهم بورد عضو أكاديمية ليون ، ولا ا عضو أكاديمية روان ، وفورميه عضو أكاديمية برلين ، ولا .س ستانسلاس لسكفنسكي ، الطيب القلب ملك بولندة السابق ودوق اللورين اللاحق . وأشار الأدباء إلى أن هذا الهجاء لم يزد على أن توسع

فى الشكوك التى أعرب عنها مونتيني فى مقاله « عن أكلة لحوم البشر » . وسمع غيرهم فيه صوت بسكال يرتد من العلم إلى الدين » وبالطبع كان مئات من « اللاهوتيين والقديسين » قد أدانوا الحضارة منذ زمن بعيد باعتبارها مرضاً أو خطيئة . وكان فى وسع اللاهوتيين أن يزعموا أن « براءة » الحالة الطبيعية وسعادتها التى قال بها روسو ، والتى سقط منها الإنسان » ليست إلا قصة جنة عدن معادة ، فحلت «الحضارة» محل «الخطيئة الأصلية» علة فى سقوط الإنسان ، وفى كلتا الحالتين قضت الرغبة فى المعرفة على سعادة الإنسان . أما المفكرون المعتزون بعلمهم مثل فولتير فقد عجبوا لرجل فى السابعة والثلاثين يكتب هذه المرثية الصبيانية ليهاجم منجزات العـــلم ، ونعمة السلوك المهذب ، وإلهامات الفن . وإما الفنانون أمثال بوشيه فلعلهم كانوا يتلوون ألما تحت سوط روسو » ولكن فنانين آخرين مثل شاردان ولا تور كان فى وسعهم أن يرموه بالتعميم العشوائى » وأما الجنود فقد سخروا من إشادة هـــذا الموسيقار الرقيق بالصفات العسكرية وبالتأهب الدائم للحرب .

واعترض جريم ، صديق روسو » على أى رجوع إلى « الطبقية » فقال متعجبا ويا له من هراء شيطانى ! : ثم سأل سؤالا شائكاً ، ما الطبقية[٨١]؟ فلقد لاحظ بيل أنه لا تكاد توجد كلمة تستعمل استعمالا أكثر غموضاً من كلمة ... الطبيعة . . . وليس من المؤكد « أنه لأن شيئاً ما مصدره الطبيعة فهو إذن خير وصواب : فنحن نرى فى النوع البشرى أشياء سيئة جداً مع أنه لا يتطرق إلينـــا شك فى انها من عمل الطبيعة ».[٨٢] ولا ريب أن مفهوم روسو عن الطبيعة البدائية كان تصويراً رومانسيا للطبيعة فى حالتها المثالية ، فالطبيعة (أى الحيـــاة دون تنظيم وحماية اجتماعين) « حمراء فى الناب والمخلب » وناموسها الأساسى هو : اقتل وإلا قتلت . والطبيعة التى أحبها جان ـ جاك ؛ كما يتجلى حبه فى قيقيه أوكلارنس كان ضربا متحضرا من الطبيعة ، روضها وهذبها الإنسان . والحق أنه لم يرد أن يرتد إلى الأحوال البدائية بكل ما انطوت عليه من قذارة » وخطر ، وعنف بدنى » إنما أراد أن يعود إلى الأسرة الأبوية التى تفلح الأرض وتعيش على ثمارها ، وهفت

نفسه إلى التحرر من قواعد المجتمع المهذب وقيوده — ومن الأسلوب الكلاسيكي ، أسلوب الاعتدال والعقل . وقد أبغض باريس وحن إلى شارميت وقبيل ختام حياته ، في كتابه « أحلام جوال وحيد » صور هذه الفكرة القاصرة تصويرا مثاليا فقال :

ولدت أكثر الناس ثقة بالناس ، ولم تتخلل هذه الثقة ولو مرة واحدة طوال أربعين سنة . فلما وقعت فجأة بين صنف آخر من الأشخاص والأشياء انزلقت إلى مئات الفخاخ ..واقتنعت أنه ليس في مظهر الابتسامات المتكلفة التي أغدقت على غير الغش والكذب « فانتقلت بسرعة من النقيض إلى النقيض . . .. وأصبحت أشمئز من الناس ... وأنا لم أعتد قط اعتيادا حقيقيا على المجتمع الحضرى الذى كل ما فيه هم وإكراه والتزام « والذى يجعلنى استقلالى الفطرى عاجزاً فيه على الدوام عن ألوان الخضوع التى لا مندوحة عنها لكل من يريد العيش بين الناس [٨٣] .

وفى « الاعترافات » سلم فى شجاعة بأن هذا « المقال » الأول (كان مفتقرا الافتقار كله إلى المنطق والنظام وإن زخر بالقوة والحرارة ؛ فهو أضعف ما كتبت إطلاقاً من حيث الحجة « وأخلاه من الإيقاع والانسجام» [٨٤]

ومع ذلك فقــد رد على نقاده بقوة ، وأكد مفارقاته من جديد . ومجاملة لستانسلاس استثنى شيئاً واحدا : فقال أنه بعد الروية قرر إلا تحرق المكتبات أو تغلق الجامعات والأكاديميات . «لأننا لن نجنى من وراء هذا إلا إغراق أوربا مرة أخرى فى دياجير الهمجية[٨٥] ؛» و «حين يفسد البشر فإن من الخير لهم أن يكونوا متعلمين عن أن يكونوا جهلة»[٨٦] . ولكنه لم يعدل عن أى فقرة من اتهـامه للمجتمع البارسي . ودليلا على انسحابه منه أقلع عن لبس السيف والضفيرة الذهبية والجوارب البيضاء « وارتدى ما يرتديه رجال الطبقة الوسطى من رداء بسيط وباروكة أصغر . قال مارمونتيل « وهكذا منــذ تلك اللحظة اختار الدور الذى سيلعبه ، والقناع الذى سيلبسه .» فإن كان هذا قناعا فإنه أحسن لبسه « وأصر عليه إصراراً شديداً » حتى لقد أصبح جزءاً من صميم الرجل وغير وجه التاريخ .

٦ – باريس وجنيف ١٧٥٠ — ٥٤

فى ديسمبر ١٧٥٠ اشتد على روسو مرض المثانة حتى ألزمه الفراش ستة أسابيع وزادته هـذه المحنة نزوعا إلى الاكتئاب والعزلة ، وأرسل إليه معارفه الأغنيـاء اطباءهم ليعودوه ، ولكن تطبيب ذلك الزمان لم يؤهلهم لمساعدته « فكلما امتثلت لأوامرهم ازددت شحوبا ونحولا وهزالا . ولم يوح لى خيالى ... على هذا الجانب من القبر » بغير الآلام المتصلة كابدتها من الرمل والحصاة وحصر البول ، وكان كل ما يخفف من آلام غيرى من المرضى كتنقيع الشعير ، والحمامات والفصد — يضاعف من عذابى»[٨٨] .

وفى مطلع عام ١٧٥١ انجبت له تريز طفلا ثالثاً تبع أخويه إلى ملجأ اللقطاء . وقد علل هذا فى فترة لاحقة بأنه كان أفقر من أن يربى أطفالا ، وأنه لو وكلهم إلى آل لقاسير لكان فى ذلك بوارهم ، وأنهم كانوا سيعبثون عبثا منكرا بعمله كاتبا وموسيقيا وأكرهه المرض على الاستقالة من وظيفته صرافاً للديوان دفرانكوى والتخلى عن دخله منها ، وراح منذ الآن يكسب معظم قوته بنسخ كراسات الموسيقى بواقع عشرة سنوات للصفحة . ولم يتلق روسو أى دخل من بيع « المقال » سواء كان السبب اهمال ديدرو أوشح الناشرين وتبين أن موسيقاه اكسب له من فلسفته .

وفى ١٨ اكتوبر ١٧٥٢ ، وبفضل نفوذ دوكلو ، مثلت أوبريت روسو « عراف القرية » أمام الملك والبلاط فى فونتنبلو ، ولقيت من النجاح ما أتاح لها عرضا ثانيا بعد أسبوع وظفرت حفلة للجمهور فى باريس (أول مارس ١٧٥٣) باستحسان أشمل ، ووجد المؤلف المتكفف نفسه مرة أخرى رجلا يشار اليه بالبنان . وكان هذا « الفاصل » الصغير ، الذى ألف روسو كلماته وموسيقاه « أشبه باللحن المصاحب « المقال » : فالراعية كوليت ، التى احزنتها مغازلات كولان لفتيات المدينة » يرشدها عراف القرية إلى استمالته ثانية بمغازلة غيره من الرجال » فيغار عليها كولان ويعود

البها ، ثم ينشدان معا أغانى راقصة تشيد بحياة الريف وتذم حياة المدينة . وحضر روسو الحفلة الافتتاحية وكاد يرضى عن المجتمع بعد خصام .

« غير مسموح بالتصفيق أمام الملك ، وعليه فقد كان كل شيء مسموعا ، وهذا يخدم المؤلف والتمثيلية . وسمعت من حولى همس النساء اللاتى يبدون فى حسن الملائكة . وكانت الواحدة تقول للأخرى فى صوت خافت : « هذا رائع » هذا خلاب ، ليس هناك لحن واحد لاينفذ الى الفؤاد » وقد أثار دموعى سرورى بأننى أشعرت هذا العدد الكبير من الأشخاص اللطفاء بهذه العاطفة ، ولم استطع أن أمسكها فى اللحن الثانى الأول حين لاحظت أننى لم أكن الوحيد الذى يبكى ». [٨٩]

فى ذلك المساء بعث اليه الدوق دومون كلمة يطلب اليه الحضور الى القصر فى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد ليقدم الى الملك ، وأضاف الرسول أن من المتوقع أن يمنح الملك المؤلف معاشا . ولكن مثانة روسو أفسدت الخطة . يقول :

« أيصدق أحد أن ليلة هذا النهار الرائع كانت لى ليلة عذاب وحيرة ؟ فقد كان أول خاطر لى إننى بعد أن أقدم للملك سأضطر إلى الانسحاب غير مرة وكانت هذه الضرورة قد سببت لى معاناه شديدة فى المسرح : وقد تعذبنى فى الغد وأنا فى البهو أو فى حجرة الملك ، بين جميع العظماء ، منتظرا خروج جلالته . لقد كانت علتى هى السبب الأهم فى الحيلولة بينى وبين الاختلاط بالجماعات الراقية والاستمتاع بحديث الحسان ... ولا يستطيع غير من خبر هذا الموقف أن يحكم بالفزع الذى يوحى به التعرض لخطره [٩٠]

وعليه فقد أرسل كلمة يعتذر من الحضور . وبعد يومين وبخه ديدرو على تضييعه فرصة كهذه تتيح رزقا أنسب له ولتريز » وتحدث عن المعاش بحرارة أكثر مما كنت أتوقع فى موضوع كهذا من فيلسوف .... ومع أننى شكرت له تمنياته الطيبة » فإننى لم استطع أن أسيغ مبادئه ، الأمر الذى أثار بيننا نقاشا حاميا هو أول ما وقع بيننا من نزاع » [٩١] على أنه لم يحرم كل

ربح من وراء تمثيلية . فقد أعجبت بها مدام ديومبادور إعجابا حملها على أن تمثل هي نفسها دور كوليت في عرضها الثاني في البلاط ، وأرسلت له خمسين جنيها ذهبياً ، وأرسل له لويس مائة.[٩١] وراح الملك نفسه ، « بأنكر صوت في مملكته يتغنى بلحن كوليت الحزين « لقد فقدت خادمي » — وكان هذا إرهاصا بظهور جلوك .

وكان روسو خلال ذلك يعد مقالات عن الموسيقى للموسوعة « وقد كتبها في عجلة شديدة ، وكتابة سيئة لهذا السبب ، في الشهور الثلاثة التي أتاحها لي ديدرو . وقسا رامو في نقد هذه المقالات في كتيب سماه « أخطاء حول الموسيقى في الموسوعة » (١٧٥٥) وعدل روسو في المقالات ، وجعلها أساسا لـ « قاموس للموسيقى » (١٧٦٧) واعتبره معاصروه « باستثناء رامو ، موسيقيا من أعلى طراز[٩٣] وينبغي أن نعده الآن مؤلفاً مجيدا في فرع صغير من فروع الموسيقى ، ولكنه كان ولاشك أكثر من كتب عن الموسيقى طرافة وامتاعا في ذلك الجيل .

ولما غزت فرقة من مغني الأوبرا الإيطالية باريس في ١٧٥٢ تفجر الجدل حول مزايا كل من الموسيقى الفرنسية والإيطالية . وقفز روسو إلى المعركة بـ « رسالة في الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) يقول جريم إنه « يثبت فيها إستحالة تلحين الموسيقى في ألفاظ فرنسية » وأن اللغة الفرنسية لا تصلح إطلاقا للموسيقى ، وإنه لم يكن قط للفرنسيين ولن يكون لهم أبدا موسيقى[٩٤] » . وكان روسو بكليته في صف إتساق الألحان (الميلوديا) . كتب في روايته « أحلام جوال وحيد » « يقول « غنينا أغنية قديمة كانت أفضل كثيراً من النشاز الحديث[٩٥] » وأي جيل لم يسمع تلك الشكوى ؟ وفي مقاله « الأوبرا » الذي تضمنه قاموسه الموسيقي أعطانا إلماعا لفاجنر ، فعرف الأوبرا بأنها « مشهد دراي غنائي يحاول الجمع من جديد بين جميع مفاتن الفنون الجميلة في تمثيل حركة عاطفية مشبوبة . . . ومقومات الأوبرا هي القصيدة الشعرية ، والموسيقى ، والزخرفة : فالشعر يتحدث إلى الروح ،

والموسيقى إلى الأذن ، والصورة إلى العين . . . والدرامات اليونانية كان يمكن أن تسمى أوبرات [٩٦] » .

وحوالى تلك الفترة (١٧٥٢) رسم موريس كنتان دلاتور صورة لروسو بالباستل [٩٧] ، التقط فيها ملامح جان — جاك مبتسما : وسيما « أنيقا » وقد أنكر ديدرو الصورة لأنها لا تتفق والحقيقة [٩٨] . ووصف مارمونتيل روسو كما رآه فى تلك السنوات فى حفلات عشاء دولباخ فقال « كان قد ربح لتوه الجائزة . . فى ديجون . . . فيه تأدب يشوبه الإحجام ، قد . . . يبلغ من التواضع مبلغا يقرب من التذلل . ترى عدم الثقة واضحة من خلال تحفظه المشوب بالخوف . وكانت عيناه المطرقتان ترقبان كل شيء بنظرة ملؤها الإرتياب الحزين . وقل أن شارك فى حديث ، وندر أن كشف لنا عن دخيلة نفسه [٩٩] » .

وغدا مركز روسو بعد تنديده بالعلم والفلسفه بهذا العنف حرجا بين جماعة الفلاسفة الذين سيطروا على الصالونات . وكان مقاله قد ألزمه بالدفاع عن الدين . وتروى مدام دبنيه أنه فى عشاء دعت إليه مدام كينو « وجدت المضيفة أن الحديث عن الدين أصبح نابياً » ، فرجت ضيوفها « أن يحترموا على الأقل الدين الطبيعى » وبادر بالرد المركيز دسان — لامبر « الذى كان مؤخراً مزاحما لفولتير على حب مدام دوشاتليه ، وسيكون عما قليل مزاحما لروسو على حب مدام دوديتو فقال « أنه لا يستحق من الاحترام أكثر من أى دين آخر . » وتواصل مدام ديبنيه كلامها فتقول : » : فلما سمع روسو هذا الرد غضب وتمتم بكلام أضحك الجماعة عليه . قال « إذا كان من الجبن أن يسمح الإنسان لآخر أن يغتاب صديقاً فإن من الاجرام أن يسمح لأحد بأن يتحدث بسوء عن إلهه الذى هـو حاضر ، وأنا أومن بالله ياسادة . . . واتجهت إلى سان لامبير وقالت له « أنك ياسيدى وأنت شاعر ، ستوافقنى على أن وجود كائن خالد ، كلى السلطان ، عظيم الذكاء ، هو البذرة لأروع ضروب الحماسة » . فأجاب « اعترف بأنه جميل أن نرى هذا الإله يوجه وجهه إلى الأرض ، . . . ولكنها بذرة

الحماقات »، وقاطعه روسو قائلا « سيدى » سأبرح الحجرة أن زدت كلمة واحدة » . والواقع أنه كان قد قام عن كرسيه وكان يفكر جدياً فى الهروب لولا أن أعلن عن قدوم الأمير[١٠٠] » .

ونسى الجميع موضوع الجدل . وفى رواية وردت فى مذكرات مدام دينيه، أن روسو قال لها أن هؤلاء الكفره يستحقون النار الابدية[١٠١] .

وجدد رسو الحرب على الحضارة فى مقدمة مسرحيته الهـزلية « نارسيس » ، التى مثلتها فرقة الكوميدىَ فرانسيز فى ١٨ ديسمبر ١٧٥٢ « أن الميل إلى الآداب يكون دائماً إيذانا فى الشعب ببداية فساد سرعان ما يعجل به هذا الميل . ولا ينبعث هذا الميل فى أمة إلا من منبعين خبيثين . . . التبطل ، وشهوة الامتياز[١٠٢] » . ومع ذلك استمر حتى عام ١٧٥٤ يختلف إلى « مجمع » دولباخ المؤلف من أحرار الفكر . هناك استمع مارمونتيل « وجريم ، وسان — لامبير » وغيرهم إلى الابيه بتى يقرأ مأساة من تأليفه ، فوجدوها عملا تافها يدعو للرثاء » ولكنهم أطروها اطراء جميلا ، وكان الابيه قد ثمل بالخمر إلى حد أعماه عن إدراك ما فى ثنائهم من تهكم ، فانتفخت أوداجه رضى وغبطة » أما روسو الذى غاظه نفاق أصحابه فقد انقض على الأب بتقريع لا هوادة فيه ، فقال له « أن تمثيليتك لا قيمة لها . . . وكل هؤلاء السادة يسخرون منك ، فانصرف وعد لتكون قسيساً فى قريتك[١٠٣] » . ووبخ دولباخ روسو على نظاظته ، فانصرف غاضباً وانقطع عن الجماعة عاماً .

لقد دمر رفاقه كثلكته ، ولكنهم لم يدمروا إيمانه بمقومات المسيحية. وعادت بروتستنتية صباه تطفو فى الوقت الذى تغوص فيه كثلكته . فتصور جنيف صباه كاملة مبرأة من العيوب ، وخيل إليه أنه سيكون فيها أكثر راحة واطمئناناً منه فى بلد أضنى روحه كباريس . ولو عاد إلى جنيف لاكتسب من جديد لقبا يبعث على الفخر « هو لقب المواطن ، ومعه الامتيازات الخاصه التى ينطوى عليها هـــذا اللقب . وعليه ففى يونيو سنة ١٧٥٤ استقل مركبة البريد إلى شامبرى وهناك وجد مدام دفاران

فقيرة تعسة ، ففتح لها كيس نقوده ، ثم واصل رحلته إلى جنيف .
هناك رحب به القوم أبنا ضالا قد ثاب إلى رشده : ويبدو أنه وقع إقراراً يؤكد فيه من جديد عقيدته الكلفنية[١٠٤] ؛ واغتبط رجال الدين الجنيفيون باستعادتهم « موسوعيا » إلى حظيرة إيمانهم الانجيلي ورد إليه اعتباره مواطنا » وراح بعدها يوقـع فى فخر « جان — جاك روسو ، المواطن » : قال :

« تأثرت تأثرا بالغاً بما لقيت من عطف . . . المجلس (المدنى) والمجمع (الكنسى) وعظيم احترام القضاة « والوزراء ، والمواطنين » وحفاوتهم بى . . . . حتى إننى اقلعت عن فكرة العودة إلى باريس إلا لفض إدارة البيت ، والعثور على عمل للسيد لفاسير وزوجته ، أو تدبير أمر معاشهما ، ثم العودة مع تريز إلى جينيف لأستقر فيها ما بقى لى من عمر[١٠٥] » .

واستطاع الآن أن يتذوق جمال البحيرة وشواطئها تذوقا أكمل مما فعل فى صباه « لقد احتفظت بذكرى حية . . . لطرف البحيرة الأبعد ، وكتبت له وصفا بعد سنوات فى هلويز الجديدة » ؛ ودخل الفلاحون السويسريون فى حلم الفردوس الريفى الذى سيصفه فى تلك الرواية : فهم ملاك لمزارعهم لا يخضعون لضريبة رؤس أو سخرة ، يشغلون أنفسهم بالحرف المنزلية فى الشتاء ، ويقفون فى قناعة بمنأى عن ضجيج العالم وصراعه . وكانت ذكرى دويلات المدن السويسريه عالقة بذهنه وهـو يصف مثله السياسى الأعلى فى كتاب « العقد الاجتماعى » .

وفى أكتوبر ١٧٥٤ قصد باريس على وعد بالعودة منها سريعاً . ووصل فولتير إلى جينيف بعد رحيل روسو عنها بشهرين ، واستقر به المقام فى فيلا ديليس . واستأنف جان — جاك فى باريس صداقته لديدرو وجريم ، دون أن تبلغ من الثقة ما بلغته من قبل . ولما نمى إليه نبأ موت مدام دولباخ كتب إلى البارون خطاب تعزية رقيقا ؛ وتصالح الرجلان ، وعاد روسو يؤاكل الزنادقة ، وظـل ثلاثة أعوام أخر يبدو من جميع

الوجوه واحداً من جماعة الفلاسفة . ولم يبحث كثيراً فى عقيدته الكلفنيه الجديدة . واستغرقه الآن الإشراف على طبع « مقاله » الثانى الذى قدر له أن يهز الدنيا أكثر مما هزها سابقه .

٧ — جرائم الحضارة

فى نوفمبر ١٧٥٣ أعلنت أكاديمية ديجون عن مسابقة أخرى ، أما السؤال الجديد فكان « ما الأصل فى عدم المساواة بين البشر ، وهل يقره قانون الطبيعة » ؟ يقول روسو « استرعى أنتباهى هذا السؤال الخطير ، وأدهشنى أن الأكاديمية اجترأت على طرحه للنقاش ، ولكن مادامت قد أظهرت شجاعتها . . . فقد عكفت فورا على مناقشته[١٠٦] » . واختار لبحثه هذا العنوان « مقال فى أصل وأسس عدم المساواة بين البشر » . وفى شامبرى فى ١٢ يونيو ١٧٥٤ أهدى هذا المقال الثانى « إلى جمهورية جنيف » وإضاف خطاباً موجهاً إلى « سادتها الحاكمين » الرفيعى الشرف والمجد ، « يعرب عن بعض الاراء القذه فى السياسة :

« فى بحوثى عن خير القواعد التى يمكن أن يرسيها الإدراك السليم عن تكوين الحكومة أدهشنى أن أجدها كلها تحققت فعلا فى حكومتكم ، بحيث أننى لو لم أولد بين أسوار مدينتكم لرأيته لزاما على أن أقدم هذه الصورة عن المجتمع الإنسانى إلى ذلك الشعب الذى يبدو أنه انفرد دون سائر الشعوب بحيازته لا عظم مزاياها ، ووفر لنفسه أفضل وقاية من مساوئها[١٠٧] » .

ثم هنأ جنيف بعبارات تصدق تماماً على سويسرة اليوم :

« بلد انصرف عن شهوة الغزو الهمجيه لا فتقاره السعيد للقوة ، وأمن بفضل موقعه الأسعد حظا من خوف الوقوع غنيمة فى يد غيره من الدول : مدينة حرة تتوسط عدة أمم ، لا مصلحة لواحدة منها فى العدوان عليها ، ومصلحة كل منها فى منع غيرها من هذا العدوان[١٠٨] » .

وبارك معبود الثورة الفرنسية المستقبل تلك القيود المفروضة على الديمقراطية فى جينف ، حيث لا حق فى التصويت إلا لثمانية فى المائة من السكان :

« لكى نتقى خدمة المصالح الخاصة والمشروعات الطائشة وجميع البدع الخطرة التى إنتهت بالقضاء على الأثنيين ، ينبغى إلا تطلق الحرية لكل رجل فى اقتراح القوانين الجديدة على هواه ، بل يقصر هذا الحق على القضاة دون غيرهم . . . فقدم القوانين هو أهم عامل فى إضفاء القدسية والاحترام عليها ، والناس سرعان ما يتعلمون الاستهانة بالقوانين التى يرونها تبدل وتغير كل يوم ، ولو اعتادت الدول أن تهمل تقاليدها القديمة بحجة التحسين والإصلاح ، لجلبت من الشرور فى الغالب ما هو اسوأ مما تحاول أن تقضى عليه[١٠٩] » .

أكان هذا مجرد ذريعة يلتمس بها العودة إلى المواطنة الجنيفية ؟

أما وقد تحقق لروسو هذا الهدف فإنه قدم مقاله لأكاديمية ديجون . ولم يمنح الجائزة ، ولكن حين نشر المقال فى يونيو ١٧٥٥ ، سره أن يصبح من جديد الحديث المثير لصالونات باريس . ذلك أنه لم يترك مفارقة إلا تناولها ليثير الجدل حولها . فهو لم ينكر عدم المساواة « الطبيعى » أو الالزامى ، وسلم بأن هناك افرادا هم بحكم مولدهم أصح أو أقوى من غيرهم فى البدن أو الخلق أو الذهن . ولكنه زعم أن كل ضروب عدم المساواه الأخرى — الاقتصادية » والسياسية ، والاجتماعية » والخلقية ، غير طبيعية ، نشأت حين ترك البشر « الحالة الطبيعية » . وأقاموا الملكية الخاصة وأسسوا دولا تحمى الثروه والامتياز .

« فالإنسان بطبيعته طيب[١١٠] » ، وأكثر ما يجعله شريرا تلك النظم الاجتماعية التى تقيد أو تفسد ميوله للسلوك الطبيعى . وقد صور روسو حالة فطرية مثالية كان معظم الناس فيها أقوياء الأطراف ، خفاف الأقدام ،

حديدى البصر(*) » يعيشون حياة الحركة والعمل « حياة كان الفكر فيها دائماً أداة للعمل وتابعا له ، لا بديلا مضعفا عنه . ثم قارن بين هذه الصحة الفطرية وبين الأمراض المتكاثرة التى تنجم فى الحضارة عن الثروة والأعمال التى تتطلب القعود الكثير :

« أن أغلب عللنا من صنعنا ، وكان يسيراً علينا أن نتجنبها ، كلها تقريبا ، بالتزام أسلوب الحياة البسيط ، المتماثل « المنعزل ، الذى قررته الطبيعة . فإذا كانت الطبيعة قد قضت بأن يكون الإنسان سليما صحيحاً، فأنى أجرؤ على الزعم بأن حالة التفكير والتأمل حالة تناقض الطبيعة ، وأن (l'homme qui médite est un aminal dépraré.)

وحين نفكر فى بنية المتوحشين القوية — على الأقل أولئك الذين لم ندمرهم بمشروباتنا الروحية — وفى أنهم لايكادون يعانون من أى علل غير الجروح والشيخوخة ، يغرينا هذا بالأعتقاد بأننا فى تتبعنا لتاريخ المجتمع المدنى ، إنما نحن نروى تاريخ أمراض البشر[١١٢] » .

ويسلم روسو بأن هذه الحالة المثالية « الحالة الطبيعية .. .. ربما لم توجد قط ، وأغلب الظن أنها لن توجد أبدا[١١٣] » . فهو لا يعرضها بوصفها حقيقة واقعة من حقائق التاريخ بل مقياسا للمقارنة . وهـذا ماعناه بهذا الاقتراح المفزع « فلنبدأ إذن بتنحية الحقائق جانبا لأنها لاتمس السؤال . والتحقيقات التى يصح أن نخوض فيها .... يجب ألا تعالج على أنها حقائق تاريخية « بل حجج مشروطة وفرضية[١١٤] » : على أننا قد نكون فكرة عن حياة الإنسان قبل قيام النظام الاجتماعى ، بملاحظة حال الدول الحديثة وسلوكها ، لأن « الدول اليوم مازلت فى حالة طبيعية[١١٥] » . فكل منها ذات سيادة فردية ، لا تعرف فعلا أى قانون إلا قوانين المكر والقوة ، ويجوز أن نفرض أن الإنسان الذى سبق تكوين المجتمعات كان يحيا فى حالة مشابهة من السيادة الفردية « وعدم الأمان « والفوضى

(*) « مالست أياه ، فإنه عندى الله والفضيلة » نيتشه[١١٦] الإنسان الذى يتأمل هو حيوان فاسد :

الجماعية » والعنف بين الحين والحين . ولم يكن مثل روسو الأعلى هو هذه الحياة المتخيلة التي سبقت المجتمعات [لأن المجتمع قد يكون قديما قدم الإنسان] ، بل مرحلة لاحقة من التطور عاش فيها الناس في أسر أبوية النظام وجماعات قبلية ، ولم ينشئوا بعد نظام الملكية الخاصة « إن أقدم المجتمعات قاطبة ، والمجتمع الطبيعي الوحيد » هو الأسرة(١١٦) » .

ذلك كان العصر الذي بلغت فيه سعادة البشر أقصاها . حقاً أنه لم يخل من عيوب ، وآلام » وعقوبات . ولكنه خلا من القوانين . اللهم إلا السلطة الأبوية والنظام الأسرى ؛ « لقد كانت هـــذه الحالة في جملتها أفضل حالة يستطيع الإنسان ممارستها » فلم يكن ليعدل عنها لولا أن اصابه خطب فادح(١١٧) . وهذا الخطب هو إقامة الملكية الفردية » وما نجم عن ذلك من تفرقة اقتصادية » وسياسية » واجتماعية . ومعظم شرور الحياة الحديثة .

« أن أول رجل سور قطعة من الأرض ثم خطر له أن يقول « هذه ملكي » ووجد الناس من البساطة بحيث يصدقونه ؛ هذا الرجل كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المتمدن . ليت شعرى كم من الجرائم ، والحروب ، والاغتيالات ، كم من الفظائع والكوارث ، لم يكن في إستطاعة أي إنسان أن ينقذ البشرية منها باقتلاع الأوتاد المحددة للأرض أو ردم القناة المحيطة بها والصياح بإخوانه أن احذروا الاستماع إلى هذا النصاب ، إنكم إن نسيتم أن ثمرات الأرض ملك لنا جميعاً ، وأن الأرض ذاتها ليست ملكا « لأحد» كان في ذلك هلاككم(١١٨) » .

ومن هذا الأغتصاب الذي سمح به الناس انبعثت لعنات الحضارة : كالأنقسامات الطبيعية ، والعبودية » ورق الأرض ، والحسد ، والسرقة ، والحرب ، والظلم القانوني ، والفساد السياسي ، والغش التجاري ، والأختراعات » والعلم والأدب » والفن ، و« التقدم » ... وبكلمة واحدة ، الانحطاط . فلحماية الملكية الخاصة نظمت القوة ثم أصبحت هي الدولة ، ولتيسير الحكم طور القانون لتعويد الضعفاء الإذعان للاقوياء

بأقل قدر من الإكراه والتكلفة[١١٩] . وهكذا نشأ هذا الوضع الذى نرى فيه « القلة المميزة تكتظ بالكماليات ، على حين تفتقر الجماهير الجائعة إلى أبسط ضروريات الحياة[١٢٠]». يضاف إلى هذه المظا لم الأساسية طائفة آخرى متفرعة عنها «كالوسائل الخزية التى يمارسها الناس احياناً لمنع ولادة البشر ، والأجهاض ، وقتل الأطفال ، وخصى الذكور ، والأنحرافات الجنسية ، وترك الكثيرين من الأطفال الذين يقعون فريسة لإملاق أبويهم فى العراء أو قتلهم[١٢١]» . هـــذه الكوارث كلها مفسدة مضعفة ، والحيوانات لا تعرفها ؛ وهى تجعل « الحضارة » سرطانا ينهش جسد البشرية . وعلى نقيض هذا الفساد والإنحراف المتعدد الأشكال ، نجد حياة المتوحشين صحيحة ، سليمة ، رحيمة . أينبغى أن نعود إذن إلى الهمجية ؟ « إيجب أن تلغى المجتمعات إطـــلاقا ؟ وتبطل عبارة « ملكى » و « ملـــكك » ، ونعود إلى الغابة لنحيا بين السباع ؟ » لم يعد هذا فى وسعنا ، فسم الحضارة يسرى فى دمائنا ، ولن ننتزعه بالهروب إلى الغابات ، والقضاءعلى الملكية الخاصة ، والحكومة ؛ والقانون ، معناه الزج بالناس فى فوضى هى شر من الحضارة . « لن يستطيع الإنسان العودة أبدا إلى زمان البراءة والمساواة متى تركه[١٢٢]» . وقد تبرر الثورة ،لأن القوة قد تطيح عدلا بما إقامته القوة وساندته[١٢٣] ، ولكن الثورة ليست مستحبة الآن . وخير ما نستطيعه هـــو أن ندرس الأناجيل من جديد ، ونحاول تطهير دوافعنا الشريرة بممارسة أخلاق المسيحية[١٢٤] . وفى إستطاعتنا أن نجعل من العطف الفطرى على أخواننا البشر أساساً للأخلاق والنظام الاجتماعى . ونستطيع العزم على أن نحيا حياة أقل تعقيداً ، نقنع فيها بالضروريات ، ونحتقر أسباب البذخ والترف ، ونجتنب سباق « التقدم » وحماه . نستطيع أن ننبذ ما فى الحضارة من ضروب الزيف ، والنفاق ، والفساد ، واحداً بعد الآخر ، ونعيد تشكيل أنفسنا على الأمانة والطبيعية ، والاخلاص . نستطيع أن نترك ضوضاء مدننا وصخبها ، وأحقادها ، وفسقها ، وجرائمها ، ونذهب لنعيش فى بساطة الريف ومسئوليات

الأسرة وقاعتها . نستطيع أن نطلق دعاوى الفلسفة ومسالكها المسدودة ، ونعود إلى إيمان ديني يشد أزرنا حين نواجه الألم والموت » .

ونحن نحس اليوم شيئاً من التكلف فى هذا السخط البار بعد أن سمعنا هذا كله مائة مرة . فلسنا على ثقة من أن الشرور التى وصفها روسو تنجم عن الأنظمة الفاسدة أكثر مما تنجم عن طبيعة البشر ، وعلى أية حال فالطبيعة البشرية هى التى صنعت الأنظمة . ويوم كتب جان - جاك «مقاله» الثانى كانت الأشادة بذلك « الهمجى اللطيف المعشر - المتدفق العاطفة » قد بلغت ذروتها . ففى ١٦٤٠ كان ولتر هاموند قد نشر كتيبا « يثبت أن أهل مدغشقر أسعد شعوب الأرض[١٢٥] » . وبدا أن القصص التى رواها اليسوعيون عن هنود هورون وإيروكوا مصداق للصورة التى رسمها الروائى ديفو لخادم روبنصن كروزو اللطيف « فرايداى » . أما فولتير فكان يسخر عموماً من أسطورة الهمجى الشريف ، ولكنه إستخدمها بمرح فى قصته « الساذج » وداعبها ديدرو فى قصته « تذييل لرحلة بوجانفيل » ولكن هلفيتيوس هزأ باشادة روسو بالهمجى مثلا أعلى[١٢٦] » وزعم دوكلو - رغم أنه كان صديقاً وفيا لجان - جاك - أن « الهمج هم الذين تستشرى بينهم الجريمة » وطفولة أمة ما ليست عصر براءتها[١٢٧] » . ويمكن القول على الجملة أن المناخ الفكرى كان مواتياً لنظرية روسو .

أما ضحايا مطاعن روسو فقد هدأوا ضمائرهم بالزعم بأن هذا المقال الثانى متكلف كسابقه . ووصفته مدام دو د فان صراحة بأنه دجال[١٢٨] . وسخر الشكاك من إدعاءاته بسلامة عقيدته المسيحية . وبتفسيره الحرفى لسفر التكوين[١٢٩] وبدأ جماعة الفلاسفة يرتابون فيه لأنه يقلب خططهم الرامية إلى إستمالة الحكومة إلى أفكارهم فى الأصلاح الاجتماعى ، ولم يحبذوا إستثارة كراهيات الفقراء . وسلموا بحقيقة الاستغلال ، ولكنهم لم يروا أى مبدأ بناء فى أحلال الغوغاء محل القضاة . أما الحكومة فلم تحتج على إتهامات روسو ، والراجح أن القصر لم ير فى المقال إلا تدريبا على الخطابة . وكان روسو فخور ببلاغته ، فأرسل نسخة من المقال إلى فولتير ، وترقب

فى شوق كلمة ثناء منه . وجواب فولتير درة من درر الأدب والحكمة وآداب السلوك الفرنسية . قال :

« تلقيت ياسيدى كتابك الجديد الذى يهاجم النوع الإنسانى . وأنى أشكرك عليه . وأنك لتسر الناس الذين تخبرهم بحقائق تهمهم ، ولكنك لن تقوم بذلك أعوجاجهم . إنك ترسم بألوان صادقة جداً فظائع المجتمع الإنسانى ، . . . وأن احداً لم يبذل قط مثل هذا الذكاء الكثير ليقنع الناس بأن يكونوا وحوشا . والمرء حين يقرأ كتابك تتملكه الرغبة فى أن يمشى على أربع [marcher à quatre pattes] ولكن بما أننى فقدت تلك العادة منذ أكثر من ستين عاماً ، فأنى لسوء الحظ أشعر أنه يستحيل على استئنافها . . .

« وإنى متفق معك على أن الآداب والعلوم كانت أحيانا علة الكثير من الشرور . . . . [ولكنى] إقرر أنه لا شيشرون ، ولا فارو ، ولا لوكريتيوس ، ولا فرجيل ، ولا هوراس ، كان لهم أقل نصيب فى تحريمات ومصادرات ماريوس ، وصلا ، وانطونيوس ، وليبدوس ، وأوكتافيوس . . . وعليك أن تعترف بأن بتراوك وبوكاشيو لم يكونا السبب فيما عانته إيطاليا من متاعب داخلية ، وأن مزاح مارو لم يكن السبب فى مذبحة القديس برتولومى ، وأن مسرحية كورنيي « السيد » لم تثر حروب الفروند . إن الجرائم الكبرى قد إقترفها رجال مشهورون ولكنهم جهلة . والذى جعل هذه الدنيا ، وسوف يجعلها على الدوام ، واديا للدموع هو جشع الناس الذى لا يشبع وغرورهم الذى لا يفتر .. أن الأدب يغذى الروح ، ويقومها ، ويعزيها . أنه يخلق مجدك فى ذات الوقت الذى تهاجمه فيه . . .

« لقد انبأنى السد شابوى أن صحتك سيئة للغاية . فعليك أن تحضر وتستردها فى جو وطنك ، وتستمتع بالحرية ، وتشرب معى لبن أبقارنا ، وتعيش على أعشابنا . وأنى ياسيدى بكل ، الفلسفة وكل التقدير المشرب بالمحبة ، خادمك المتواضع جداً ، المطيع جداً[١٣٠] .

ورد روسو التحية بمثلها ، ووعد بأن يزور فيللا المباهج عند عودته إلى سويسرة[١٣١] . ولكن حز فى نفسه كثيراً ذلك الاستقبال الذى استقبل به مقاله فى جنيف التى أهداها أياه بمثل هذا المديح السار . والظاهر أن الاوليجاركيه الصغيرة المحكمة التى تسلطت على الجمهورية أوجعتها بعض تعليقات ذلك المقال اللاذعة . ولم تسغ تنديد روسو الشامل بالملكية « والحكومة » والقانون « ولم أحس أن جنيفياً واحدا سر بما حواه المقال من حماسة قلبية[١٣٢] . وعليه فقد قرر أن الوقت لم يحن بعد لعودته إلى جنيف .

٨ — المحـــافظ

شهد عام ١٧٥٥ ، الذى نشر فيه المقال الثانى ، ظهور مقال طويل بقلم روسو فى المجلد الخامس من الموسوعة عنوانه « مقال فى الاقتصاد السياسى » وهو جدير بالملاحظة لأنه خالف المقالين السابقين عليه فى بعض تفاصيله الهامة . ففى هذا المقال نرى الكاتب يجل المجتمع ، والحكومة ، والقانون ، باعتبارها نتائج طبيعية لفطرة الإنسان وحاجاته ، ويصف الملـــكية الخاصة بأنها عطية اجتماعية وحق أساسى . « من المؤكد أن حق الملكية أقدس حقوق المواطنة ، بل أنه من بعض الوجوه أهم من الحرية ذاتها . فالملكية هى الأساس الصحيح للمجتمع المدنى ، والضمان الحقيقى لتعهدات المواطنين[١٣٣] » بمعنى أن الناس لن يعملوا فوق ما تتطلب أبسط حاجاتهم مالم يحتفظوا بالناتج الفائض لأنفسهم ، ليستهلكوه أو ينقلوه لغيرهم كما يشاءون . ويوافق روسو الآن على أن يورث الآباء ثروتهم لأبنائهم . ويقبل فى اغتباط ما يتمخض عنه هذا من انقسامات طبقية . « مامن شىء أضر بالفضيلة وبالجمهورية من انتقال المراتب والثروات باستمرار بين المواطنين : ومثل هذه التغيرات هى الدليل على وجود مئات من ضروب الخلل والاضطراب ، وهى مصدرها فى الوقت نفسه ، ومن شأنها أن تقلب كل شىء رأساً على عقب وتفسده[١٣٤] » .

ولكنه يواصل التنديد بالظلم الاجتماعى وبما فى القانون من محاباة طبقية . فكما أن من واجب الدولة أن تحمى الملكية الخاصة ووراثتها القانونية ، كذلك

ينبغى أن يسهم أعضاء المجتمع ببعض ثروتهم لإعالة الدولة . وينبغى أن تفرض ضريبة صارمة على جميع الأشخاص بنسبة تصاعدية مع ثروتهم و « فائض ممتلكاتهم »[١٣٥] ، وألا تفرض ضريبة على الضروريات ، وأن تفرض ضريبة مرتفعة على الكماليات » وينبغى أن تمول الدولة نظاماً قومياً للتعليم . « أن الأطفال إذا نشئوا معاً (فى مدارس قومية) فى حضن المساواة وإذا أشربوا قوانين الدولة ومبادىء الإدارة العامة . . فلن نشك فى أنهم سيحبون بعضهم بعضاً كما يفعل الإخوة . ليصبحوا فى الوقت المناسب مدافعين وآباء الوطن الذى كانوا أبناؤه[١٣٦] . والوطنية خير من العالمية أو التظاهر المزيل بالعطف العالمى[١٣٧] . »

وكما طغت النزعة الفردية على المقالين الأولين ، طغت النزعة الاجتماعية على مقال الاقتصاد السياسى . وهنا يصرح روسو لأول مرة بعقيدته الغريبة وهى أن فى كل مجتمع « إرادة عامة » فوق المجموع العــددى لما يحبه الأفراد الذين يؤلفونه ومايكرهون . فالمجتمع ، فى فلسفة روسو المتطورة « كائن اجتماعى له روحه الخاصة » .

« أن الدولة هى أيضاً كائن معنوى » يملك الإرادة ، وهذه الإرادة العامة التى تنحو دائماً إلى صيانة ورفاهية الدولة كلها وكل جزء فيها ، هى مصدر القوانين ، وهى التى تشكل لجميع أعضاء الدولة » فى علاقاتهم بعضهم ببعض القاعدة التى تفرق بين العدل والظلم[١٣٨] .

وحول هذا المفهوم يقيم روسو الأخلاق والسياسة التى ستغلب منذ الآن على آرائه فى الشئون العامة . فنرى الثائر الذى اعتبر الفضيلة تعبير الإنسان الحر الطبيعى يعرفها الآن بأنها « ليست سوى مطابقة الإرادات الفردية للإرادة العامة »[١٣٩] . ونرى الرجل الذى كان ينظر إلى القانون مؤخراً جداً على أنه إثم من آثام الحضارة » وأنه أداة مريحة لفرض النظام الطيع على الجماهير المستغلة ، يصرح الآن بأن القانون وحده هو الذى يدين له الناس بالعدل والحرية ، وهذا الجهاز النافع من أجهزة الإرادة الجماعية هو الذى يرسى ،

فى الحق المدنى « المساواة الطبيعية بين البشر ، أنه الصوت السماوى الذى يملى على كل مواطن مبادىء العقل العام »[١٤٠] .

ولعل محررى الموسوعة المطاردين كانوا قد نبهوا روسو إلى التخفيف فى هذا المقال من هجومه على الحضارة . وسنجده بعد سبع سنوات « فى كتابه « العقد الاجتماعى » يدافع عن الجماعة ضد الفرد ، ويقيم فلسفته السياسة على فكرة الإرادة العامة المقدسة السامية . على أنه لم يزل خلال ذلك فرديآ وثائراً يبغض باريس ، ويؤكد ذاته ضد أصدقائه » ويصنع كل يوم أعداء جدداً .

٩ — الهروب من باريس ١٧٥٦

كان أصدقاؤه الحميمون الآن هم جريم ، وديدرو ، ومدام ديفييه . أما جريم فقد ولد فى راتزبون عام ١٧٢٣ ، فكان بذلك يصغر روسو بأحد عشر عاماً . وقد تعلم فى ليبزج فى العقد الأخير من حياة باخ ، وتلقى عن يوهان أوجست إرنشتى أساساً مكيناً فى لغتى اليونان والرومان وآدابهما . فلما وفد على باريس فى ١٧٤٩ تعلم الفرنسية بما عرف عن الألمان من اتقان ودقة ، وما لبث أن وافى مجلة المركيز بمقالاته . وفى ١٧٥٠ أصبح السكرتير الخاص للكونت فون فريزن . وأغراه حبه للموسيقى بالتعلق بروسو ، كما رماه جوع أكثر عمقاً تحت قدمى الآنسة فل المغنية بالأوبرا ، فلما آثرت عليه المسيو كاهوزاك ، يقول روسو أن جريم :

«حز هذا فى نفسه حتى أصبحت أمارات خطبه مأساوية — فكان ينفق الأيام والليالى فى تراخ وتبلد . ويرقد وعيناه مفتوحتان . . لا يتكلم ، ولا يأكل ، ولا يتحرك . . وكنت والا بيه رينال نرعاه ، فالابيه — وكان أشد منى وأصح — يسهر عليه ليلا ، وأنا أرعاه نهاراً ، فلا نغيب عنه معاً فى وقت واحد »[١٤١] .

واستدعى فون فريزن طبيباً يعوده ، فأبى أن يصف له دواء غير الزمن . وأخيراً ذات صباح » قام جريم ، وارتدى ثيابه ، واستأنف نظام حياته العادى ، دون أن يذكر يومها أو بعدها . . هذا التبلد الشاذ[١٤٢] .

وقدم روسو جريم إلى ديدرو ، وراح ثلاثتهم يحلمون بالذهاب معاً إلى إيطاليا . واستوعب جريم فى نهم سيل الأفكار المتدفق من معين عقل ديدرو وتعلم لغة « الفلاسفة » الخالية من التوقير ، وألف كتابا لا أدرياً « فى التعليم الدينى للأطفال » وأشار على فون فريزن بأن يتخذ ثلاث خليلات فى وقت واحد « تذكاراً للثالوث الأقدس » [١٤٣] وأقلقت روسو تلك الألفة النامية بين جريم « الذى سيصفه سانت بوف بأنه « أكثر الألمان فرنسية » » وبين ديدرو « أكثر الفرنسيين ألمانية » [١٤٤] وقال روسو شاكياً « إنك تهملنى ياجريم ، وأنا أغفر لك هذا » وأخذه جريم عند كلمته . فقال لى إننى مصيب . . . ثم حطم كل قيـــد ، فلم أعد أراه إلا فى صحبة أصدقائنا المشتركين [١٤٥].

وفى سنة ١٧٤٧ كان الابيه رينال قد بدأ يرسل للمكتتبين الفرنسيين والأجانب خطاب أنباء نصف شهرى سماه « الأنباء الأدبية » يورد فيه الوقائع فى دنيا الأدب والعلوم والفلسفة والفنون الفرنسية — وفى ١٧٥٣ عهد بالمشروع إلى جريم الذى — واصله بمعونة من ديدرو وآخرين حتى ١٧٩٠ . وأثناء اضطلاع جريم بالمجلة كان من بين من وافوها بمقالاتهم إفراد بارزون . كملكة السويد لويزا أوريلكا وملك بولندة السابق ستانسلاس لسكيزنسكى ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا ، وأميرة ساكس — جوتا ، وأمير وأميرة هيسى — دارمشتات ، ودوقة ساكس — كوبورج ودوق تسكانيا الكبير ، والدوق كارل أوجست أمير ساكس — فيار . أما فردريك الأكبر فقد احجم حينا عن المشاركة فيها لكثرة عدد من يبادلهم الرسائل فى فرنسا وأخيراً وافق على أن يتسلم المجلة ، ولكنه لم يدفع لها مالا قط . وقد أذاع جريم العدد الأول من المجلة عقب إضطلاعه بأصدارها (مايو ١٧٥٣) :

فى الصفحات المطلوبة منا لن نضيع وقتا على النشرات التى تغرق باريس كل يوم . . . . بل سنحاول أن نعطى تقريراً دقيقا « وتحليلا منطقيا (critique raisonnée) الكتب التى تستحق أن يهتم بها الجمهور ،

وستكون الدراما جزءا هاماً من تقريرنا لأنها فرع رائع من فروع الأدب الفرنسي وعلى العموم لن نغفل شيئاً جديراً بفضول غيرنا من الشعوب(١٤٦).

وهذه الرسائل الأدبية المشهورة هي الآن سجل رئيسي نفيس لتاريخ فرنسا الفكري في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وقد استطاع جريم أن يكون صريحاً في مقالاته النقدية ، لأنها لم تكن معروفة للجمهور الفرنسي أو للمؤلف الذي تتناوله . وكان يتوخى الإنصاف عادة ، إلا مع روسو في فترة لاحقة . وقد أصدر الكثير من الأحكام الصائبة ، ولكنه أساء الحكم على « كانديد » فزعم أنها لا تثبت — للنقد الجاد ، على أن هــذا الرأي لم يدفق إليه تحامل على فولتير ، فقد وصفه بأنه : « أعظم الرجال في أوربا جاذبية وأكثرهم لطفا ، وأبعدهم صيتاً(١٤٧) . »

ورد فولتير التحية بطريقته الشيطانية فقال : « ما الذي يتراوى لهذا الوهيمي أن يبزنا ذكاء وفطنة ؟ »(١٤٨) ورسائل جريم هذه هي التي أذاعت في أرجاء أوربا أفكار التنوير الفرنسي أكثر من أي كتابات أخرى باستثناء مؤلفات فولتير . ومع ذلك خامرته الشكوك في جماعة الفلاسفة وفي إيمانهم بالتقدم ، فقال : « إنما العالم مركب من : شرور لا يحاول إصلاحها غير إنسان معتوه »(١٤٩) وفي ١٧٥٧ كتب يقول :

« يبدو أن القرن الثامن عشر فاق كل القرون في المدائح التي كالها لنفسه . . . . ولو تمادى في هذا قليلا لأقنع خيرة المفكرين أنفسهم بأن دولة الفلسفة ، الهادئة المسالمة ، أوشكت أن تسود بعد عواصف الجنون الطويلة ، وأن ترسي إلى الأبد سلام البشر وهدوءهم وسعادتهم . . . ولكن الفيلسوف الصادق ، لسوء الحظ ، لديه أفكار أقل تعزية ولكنها أصح وأدق . . . . وهيهات أن أصدق أننا مقتربون من عصر العقل ، وأكاد اعتقد أن أوربا تهددها ثورة مدمرة »(١٥٠) .

ونلمح هنا أثراً من الكبرياء والغرور اللذين كانا يغيظان إصدقاء جريم أحيانا . فلقد كان هذا المتفرنس أكثر من الفرنسيين ، ينفق الساعات في

التزين » وذر المساحيق على وجه وشعره ، والأسراف فى العطر إسرافا لقب من أجله بدب المسك[١٥١] . وهو يبدو فى رسائله ينثر التحيات يمنة ويسرة بيد تتوقع الرد عليها . وقد اشترط فردريك للأشتراك فى الرسائل أن « يعفينى جريم من تحياته[١٥٢] » . ومثل هذا التملق كان بالطبع جزءا من أسلوب الرسائل فى ظل « النظام القديم » .

واسترعى جريم أنتباه باريس ، وهو الوجل البارد المتزن عادة ، باشرافه على الموت هياما بالآنسة فل » وبدخوله فى مبارزة من أجل مدام ديبينيه . وكانت هذه الأخيرة — لويز — فلورانس تارديوديسكلافيل — أبنه بارون من ڤالنسين مات فى خدمة الملك عام ١٧٣٧ . وبعد ثمانية أعوام حين بلغت لويز العشرين » تزوجت من دنيس — جوزف لاليف ديبنيه وكان ابن جاب غنى . وذهبا للعيش فى قصر ريفى جميل يدعى الشاتو دلاشيفريت ، على تسعة أميال من باريس » بقرب غابة مونمورنسى . وفاضت حياتها سعادة ، فتساءلت « أيستطيع قلبى أن يحتمل هذه السعادة؟ وكتبت إلى أبنة عم لها تقول » كان يعزف على البيان القيثارى ، وأنا جالسة على مسند كرسيه ويسراى على كتفه ، ويمناى تقلب الأوراق ، فلم يفته قط أن يقبلها فى كل مرة تمر أمام شفتيه[١٥٣] .

ولم تكن جميلة ، بل صغيرة الجسم أنيقة على نحو ساحر » بديعة التكوين très bien faite (كما تنبئنا)[١٥٤] ؛ وستفتن عيناها السودا وان النجلاوان فولتير بعد حين . ولكن « الأحساس دائماً بنفس الشيء يصبح بعد قليل » تماماً كالإحساس بلا شيء »[١٥٥] » فلم يمض غير عام حتى كف ديبنيه عن ملاحظة هاتين العينين . لقد كان قبل الزواج فاسقا عربيدا فعاد الآن كما كان » يسرف فى الشراب ، ويسرف فى القمار ، وينفق المال الطائل على الأختين فريير » اللتين أسكنهما كوخا على مقربة من لاشيفريت وولدت له زوجته خلال ذلك طفلين . وفى ١٧٤٨ عاد من رحلة فى الإقاليم ، وضاجع امرأته ، فنقل إليها عدوى الزهرى . وحصلت على انفصال شرعى عن زوجها بعد أن أعتلت صحتها وتحطمت

زوجها . ووافق على تسوية سخية ؛ وورثت هي ثروة عمها ، فاحتفظت بلاشيفريت ، وحاولت أن تنسى تعاستها في الحدب على طفلها ورعاية صديقاتها . فلما أصيبت احداهن — وهي مدام دجوللي — بالجدري إصابة مميتة ذهبت لويز لتمرضها ، ومكثت معها إلى النهاية ، معرضة نفسها لعدوى قد تودي بها أو تشوهها مدى الحياة .

وأجمعت صديقاتها على أنه يحسن بها أن تتخذ عشيقا . وجاء عشيق (١٧٤٦) وهو دوبان دفرانكوي ، الرجل الذي وظف روسو عنده . وقد بدأ بالموسيقى ، وانتهى بالزهري ، ولم يلبث أن شفي من هذا الداء في حين ظلت هي تعاني منه[١٥٦] . وانضم إلى زوجها في إقتسام الآنستين دفيريير . وقال لها دوكلو في صراحة جافية « أن فرانكوي وزوجك يقتسمان الأختين فيما بينهما[١٥٧] » . فأصيبت بحمى وهذيان داما ثلاثين ساعة . وحاول دوكلو الحلول محل دوبان ، ولكنها طردته . ثم كانت مأساة أخرى حين أعطتها مدام دجوللي وهي على فراش الموت حزمة أوراق تفضح غرامياتها وألحت عليها في أن تحرقها ، ففعلت . واتهمها المسيو دجوللي بأنها أحرقت عن عمد شهادات مديونيتها هي له . وأنكرت التهمة ولكن القرائن كانت ضدها ، إذ كان معروفا أنها كانت تمين زوجها بالمال رغم انفصالها عنه .

في هذه الأزمة دخل جريم الدراما ، وكان روسو قد قدمه إلى لويز في ١٧٥١ ، وكثيراً ما إشترك ثلاثتهم في عزف الموسيقى أو الغناء معا . وذات مساء في حفلة أقامها الكونت فون فريزن أعرب أحد الضيوف عن اعتقاده بأن مدام دبينيه مذنبة . . ودافع عنها جريم ؛ واحتد النقاش إلى حد المساس بالشرف ، وتبارز صاحب الأتهام والمدافع ، فجرح جريم جرحا طفيفا . وبعد حين وجدت الوثائق المفقودة ، وبرئت ساحة السيدة ، فشكرت جريم باعتباره « فارسها الهمام » ونما تقدير الواحد منهما لصاحبه فاكتمل حباً من أبقى وأثبت ما شهده ذلك العصر القلب . وحين أتلف الحزن صحة البارون دولباخ لموت زوجته ، وسافر جريم

بالعناية به فى الريف ، سألته لويز « ولكن من سيكون فارسى ياسيدى إن هاجمنى أحد فى غيابك » ؟ فأجاب جريم « هو ما كان من قبل — حياتك الماضية[١٥٨] » . ولم يكن الجواب قاطعاً مانعا ، ولكنه فاق حدود الثناء .

وكان روسو قد التقى بمدام ديبنيه فى ١٧٤٨ فى بيت مدام دوبان . ودعته إلى لاشيفريت . وفى « مذكراتها » وصف له :

« أنه يقدم التحيات والمجاملات » ولكنه ليس مؤدبا « أو على الأقل يعوزه مظهر التأدب . والظاهر أنه جاهل بعادات المجتمع ، ولكن من الواضح أنه مفرط الذكاء . وله بشرة سمراء » وعينان بيضاوان تتوهجان وتضفيان الحيوية على قسماته ..... ويقال إنه عليل ، ويتجلد لعذاب يحرص على كتمانه .... وهذا فى ظنى هو الذى يضفى عليه أحياناً .... ، مظهر الاكتئاب[١٥٩] » .

أما الصورة التى رسمها لها فلم تكن شديدة التأنق :

« لم يكن حديثها الخاص ممتعاً » وأن لم يعوزه اللطف فى حضرة الجنسين ... وأسعدنى أن أبدى لهــا بعض المجاملات ، وقبلتها قبلات أخوية صغيرة » لم تبد أكثر شهوانية منها هى .... لقد كانت غاية فى النحول ، والشحوب ، ولها صدر كظاهر يدها. وكان هذا العيب وحده كافيا للتخفيف من أحر رغباتى[١٦٠] » .

وظل سبع سنوات يلقى الترحيب فى بيت مدام ديبنيه . فلما رأت مبلغ ضيقه فى باريس فكرت فى سبل تقديم المعونة له ، ولكنها كانت تعلم أنه سيرفض المال . وبينما كانا ذات يوم يسيران فى حديقتها خلف لاشيفريت « أرته كوخا يسمى « الارميتاج (الصومعة) » كان من قبل ملكاً لزوجها . وكان مهجوراً متهدماً » ولكن موقعه على حافة غابة مونمورنسى حمل روسو على أن يقول فى انفعال : « يا له من مسكن مبهج يا ســيدتى ! كأن هذا الملجأ أعد لى خصيصاً »[١٦١] . ولم تجب السيدة » ولكن حين عاودا السير إلى الكوخ فى سبتمبر ١٧٥٥ ، أدهش روسو أن يجــده قد رمم ، وأثثت

حجراته الست » ونظفت الأرض المحيطة به ورتبت : وينقل عنها أنها قالت « يا عزيزى ، إليك ملجأك ، فأنت الذى اخترته ، أن الصداقة تقدمه لك . وأرجو أن يزيل هذا فكرتك القاسية ، فكرة الانفصال عنى » وكانت تعلم أنه فكر من قبل فى أن يقيم فى سويسرة، ولعلها لم تعرف ما طرأ من فتور على تحمسه لجنيف . و « فاضت دموعى على اليد الكريمة » يد صديقته ، ولكنه تردد فى قبول عرضها . فأظهرت تريز ومدام لفاسير بقبول خطتها ، و « أخيراً تغلبت على جميع قراراتى » .

وفى أحد القيامة ، ١٧٥٦ ، ولكى تجمل الهدية باللياقة ، جاءت باريس فى مركبتها ، وأخذت « دبها » كما كانت تدعوه ، هو وخليلته وحماته ، إلى الارميتاج . ولم يلذ تريز فراقها لباريس ، أما روسو ، فما إن استنشق هواء الخلاء حتى شعر بأنه أسعد منه فى أى وقت منذ أيام فردوسه الريفى مع مدام دفاران . « فى ٩ إبريل ١٧٥٦ بدأت أحيا »[١٦٢] ، ولكن جريم أفسد الفرحة بتحذير لمدام دبينيه :

« إنك تضرين روسو ضررا بليغاً بإعطائه الارميتاج ، ولكنك تضرين نفسك ضرراً أبلغ . فستكمل العزلة مهمة تسويد خياله ، وسيبدو كل أصدقائه فى عينيه ظلمة جاحدين ، وأنت أولهم ، إن رفضت ولو مرة واحدة أن تمتثلى لأوامره »[١٦٣] .

وانطلق بعد ذلك جريم ، الذى أصبح الآن سكرتيراً للمرشال دستريه، ليلعب دوره فى الحرب التى سترسم خريطة العالم من جديد .

* * *

الفصل الثانى

حرب السـنين السـبع

١٧٥٦ — ١٧٦٣

١ — كيف تشعل نار الحرب

حين وافت سنة ١٧٥٦ كانت أوربا قد عرفت ثمانية أعوام من السلم. غير أن حرب الوراثة النمساوية لم تحسم شيئا. فقد تركت النمسا قلقة فى بوهيميا وإيطاليا، وبروسيا قلقة فى سيليزيا، وبريطانيا قلقة فى هانوفر، وفرنسا قلقة فى الهند، وأمريكا، وعلى الرين. ولم تحقق معاهدة إكس لا شابل (١٧٤٨) تسوية للأراضى يمكن أن تقارن فى ثباتها بالتسوية التى حققتها معاهدة وستفاليا قبل قرن من الزمان. وتزعزع توازن القوى القديم نتيجة لنمو الجيش البروسى والبحرية البريطانية؛ فقد ينطلق ذلك الجيش ليلتهم أقاليم جديدة، ولا تحتاج تلك البحرية إلا إلى الوقت لتقتنص مستعمرات فرنسا: وهولندة، وأسبانيا. وتغذت الروح القومية الصاعدة فى إنجلترة على أرباح التجارة وفرصها، وفى بروسيا على الحرب الظافرة، وفى فرنسا على تفرق ثقافى يشعر شعورا غير مريح بالاضمحلال العسكرى. وكان الصراع بين الكاثوليكية والبروتستنتية قد انتهى إلى مأزق، فترقب الطرفان تحولا فى الحظ ليجددا حرب الثلاثين. طمعا فى الاستيلاء على الروح الأوربيـــة.

وكانت النمسا بادئة بالاستعداد لرمية جديدة للفرد البشرى. ذلك أن ماريا تريزا، التى لم تزل رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة الجميل رغم بلوغها التاسعة والثلاثين، اجتمع لها كل كبرياء أجدادها الهابسبروج، وكل غضب المرأة المهانة؛ فكيف تحيا بعد أن بترت سيليزيا من ملكها الموروث، الملك الذى كفلت كل دول أوربا العظمى وحدة أراضيه؟ كيف وهى المرأة التى سيثنى بعد حين، حتى فردريك هذا الذى أذلها من قبل، على

« بسالتها وكفايتها » وبمتدح الطريقة التي « فطنت بها هذه الحاكمة الأصغر سنا إلى أسرار الحكم وغدت الروح المسيطرة على مجلسها . . . حين بدا أن الأحداث تأمر بها لتدمرها. [١] لقد جعلت من الصلح هدنة فقط بعد أن هزمت وسلمت سيليزيا ثمنا للسلام . ثم كرست نفسها للنهوض بالحكم : واصلاح جيوشها المحطمة ، واكتساب حلفـــاء أقوياء . فترددت على المعسكرات التي يتدرب فيها جيشها » ولهذا الغرض سافرت إلى براغ في بوهيميا ، وإلى أولمتز في مورافيا ، وشجعت جنودها بالمكافآت والأوسمة ، وأكثر من ذلك بحضرتها ، حضرة الملكة والمرأة معا . ولم يكن هناك داع لأن يقسم قوادها يمين الولاء لها » فالولاء في دمهم وفروسيتهم ؛ وآية ذلك أن أمير ليشتنشتين أنفق ٢٠٠٠,٠٠٠ ايكو (١,٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) من ماله الخاص ليجند ويجهز لها سلاح المدفعية كاملا. وأنشأت قرب فيينا كلية حربية لصغار النبلاء » وجلبت لها خيرة معلمي الهندسة ، والجغرافيا ، والتحصين والتاريخ . يقول فردريك « في عهدها بلغت العسكرية النمساوية درجة من الكمال لم يعرفها أسلافها قط ، وقامت امرأة بتنفيذ خطط جديرة برجل عظيم . » [٢]

وكانت الدبلوماسية هي الوجه الآخر لخطتها . فأرسلت مبعوثيها إلى كل بلد لتكتسب أصدقاء للنمسا وتثير العداء لفردريك . لاحظت قوة روسيا الصاعدة ، بعد أن نظمها بطرس الأكبر واطلعت بشئونها الآن القيصرة اليزابيتا بتروفنا ؛ فعملت على أن تصل تعليقات فردريك الساخرة على غراميات القيصرة إلى أذنيها . وكانت ماريا تريزا تتمنى لو جددت تحالفها مع انجلترة » ولكن ذلك التحالف كدره الصلح المنفصل الذي أبرمته انجلترة مع بروسيا (١٧٤٥) والذي اكره النمسا على التخلي عن سيليزيا . وكانت سياسة انجلترا الخارجية تتجه الآن إلى حماية تجارتها في البحر البلطي من سطوة روسيا ، وإحكام قبضتها على هانوفر لتقيها أي خطر يتهددها من بروسيا أو فرنسا . وقد اعتمدت على روسيا في تزويدها بما يلزم بحريتها من أخشاب ، واعتمدت على بحريتها في احراز النصر في الحرب . ومن ثم وقعت انجلترة في ٣٠ سبتمبر ١٧٥٥ معاهدة تعهدت فيها روسيا ،

نظير معونات مالية من انجلترة ، بأن تحتفظ بجيش من ٥٥٫٠٠٠ مقاتل في ليفونيا ، وعلل الانجليز أنفسهم بأن هذا الجيش سيعوق فردريك عن أى مغامرات توسعية صوب الغرب .

ولكن كيف تتصرف انجلترة مع فرنسا ؟ لقد ظلت فرنسا عدوا لها مئات السنين ، وما أكثر ما أثارت فرنسا أو مولت الأعمال العدائية التى قامت بها اسكتلندة ضد انجلترة ؛ وكم من مرة تأهبت لغزو الجزر البريطانية أو هددت بهذا الغزو . وقد أصبحت فرنسا الآن الدولة الوحيدة التى تتحدى بريطانيا فى البحار أو المستعمرات « فلو أن بريطانيا ألحقت بفرنسا هزيمة فاصلة لظفرت بمستعمراتها فى أمريكا والهند ، ودمرت بحريتها أو شلت حركتها ، وعندها لن تكون الإمبراطورية البريطانية آمنة من الخطر فحسب ، بل سيدا غير منازع . كذلك كان وليم بت الأب يجادل البرلمان يوما بعد يوم « بأبلغ ما سمع ذلك المحفل طوال عمره من خطب الخطباء ولكن أيمكن أن تهزم فرنسا ؟ وقال بت « أجل ، وذلك بحلف بين بروسيا وانجلترة . وأليس خطراً كبيرا أن يسمح لبروسيا بأن تزداد قوة على قوة ؟ وأجاب بت : لا ، فإن لبروسيا جيشا عظيما سيساعد انجلترة « بناء على هذه الخطة » على حماية هانوفر « ولكن ليس لها بحرية » ومن ثم لن تقوى على منافسة بريطانيا فى البحر ، وبدا أن من الأحكم أن يسمح لبروسيا البروستنتية بالحلول محل فرنسا الكاثوليكية ؛ أو النمسا الكاثوليكية ، قوة « غالبة فى القارة » أن كان فى هذا تمكينا لبريطانيا من « أن تسود البحـــار » وتستولى على المستعمرات . وأى انتصارات يحرزها فردريك فى أوربا من شأنها أن تدعم قوة إنجلترة وراء البحار ، ومن هنا تفاخر بت بأنه سيكسب أمريكا والهند على ساحات القتال فى القارة . فستقدم إنجلترة المال ، ويخوض فردريك معارك اليابس ، وتكسب انجلترة نصف العالم . ووافق البرلمان ، وعرضت بريطانيا على بروسيا ميثاقا للدفاع المشترك .

واضطر فردريك لقبول هذه الخطة ، لأن تطور الأحداث حجب

بهاء انتصاراته . كان يعلم أن فرنسا تحاول التقرب من النمسا ، فلو أن فرنسا والنمسا ومعهما روسيا أيضاً — وهو وضع أسوأ — اتحدت ضده لما إستطاع أن يقاومها كلها ، وفى مأزق كهذا لن يقوى على نجدته غير انجلترة . ولو أبرم الميثاق الذى عرضته عليه انجلترا لاستطاع أن يطالبها بمنع روسيا من مهاجمته ولو كفت روسيا لجاز ثنى النمسا عن الحرب . وهكذا وقع فردريك فى ١٦ يناير ١٧٥٦ معاهدة وستمنستر ، التى تعهدت فيها انجلترة وبروسيا بمعارضة دخول الجيوش الأجنبية إلى ألمانيا ، وكان الحليفان يأملان أن تحمى هذه المادة الوحيدة بروسيا من روسيا ، وهانوفر من فرنسا .

وشعرت فرنسا ، والنمسا ، وروسيا جميعا أن هذه المعاهدة خيانة من حليفتيهم . صحيح إنه لم يحدث إنهاء رسمى للحلفين اللذين ربطا إنجلترة بالنمسا ، وفرنسا ببروسيا ، فى حرب الوراثة النمساوية . وصعقت ماريا تريزا — كما قالت للسفير البريطانى — حين علمت أن أصدقائها الانجليز أبرموا ميثاقا مع « الخصم اللدود المقيم لشخصى ولأسرتى[٣] » . وشكا لويس الخامس عشر من أن فردريك خدعه . ورد فردريك بأن المعاهدة دفاعية بحتة وينبغى ألا تسىء إلى أى قوة لا تنوى الإساءة . أما مدام دبومبادور ، التى كانت تختار الوزراء الفرنسيين وتهيمن عليهم ، فقد تذكرت أن فردريك كان قد اتهمها بإيداع المبالغ الطائلة فى المصارف البريطانية ، وسماها « الآنسة سمكة la demoiselle Poisson » و Cotillon IV (الجونلة الرابعة — أى رابعة خليلات لويس الخامس عشر) . وأما لويس فقد تذكر أن فردريك سخر من أخلاق ملك فرنسا السوقية . ووقع هذا الخذلان لفرنسا على رأسها فى وقت كانت فيه جيوشها مرهقة ، وخزائنها خاوية ، وبحريتها بادئة فقط بالإفاقة من الإهمال الذى لقيته فى وزارة الكردينال فلورى المسالمة . ففى ١٧٥٦ كان لفرنسا خمس وأربعون بارجة ، وانجلترة مائة وثلاثون بارجة[٤] ، وكان تموين البحرية تعوقه الرشوة والسرقة ، ونظامها تفسده ترقية غير الأكفاء من ذوى الألقاب ترقية مثيرة للسخط كما يفسده

تعدد الهزائم . فالى من تتجه فرنسا الآن حليفا لها » ؟ إلى روسيا ؟ ولكن إنجلترة سبقتها [. إلى النمسا ؟ — ولـكن فى الحرب الأخيرة خرقت فرنسا تعهداتها بضمان ميراث ماريا تريزا ، وإنضمت إلى بروسيا فى مهاجمتها » وواصلت الهجوم عليها حتى بعد أن عقد فردريك الصلح معها . لقد كانت النمسا تحت حكم الهابسبروج ، وفرنسا تحت حكم البوربون » عدوين قرونا عدة ، فكيف يمكن أن تصبحا صديقين هما وشعباهما بعد طـول ما ألفا من كراهية متبادلة ؟

ومع ذلك كان هذا بالضبط « قلب الاحلاف » الذى إقترحته حكومة النمسا الآن على فرنسا . وقد ولدت هذه الخطة أول ما ولدت — على قدر ما تستطيع الآن تتبع تاريخها — فى ذهن الكونت فنتزل أنطون فون كاونتز ، أقدر من أنجبته القـارة الأوربية فى القرن الثامن عشر من الدبلوماسيين وأثقبهم بصيرة وأشدهم إصرارا . وقد قدر لحرب السنين السبع أن تكون صراعاً فى السلاح بين فردريك الأكبر والمارشال داون ، وصراعا فى الذكاء بين كاونتز . بت . يقول فردريك « إن للأمير كاونتز أحكم رأس فى أوربا[5] » .

كانت أسرة كاونتز قد طلبت إليه أن يعد نفسه للقسوسية لأنه الأبن الثانى ، أما هو فأصبح فى دخيلة نفسه تلميذا لفولتير[6] . ولمـا كان أبوه سفيراً لدى الفاتيكان وحاكما لمورافيا ، فقد ورث أبنه الدبلوماسية فى دمه. وهكذا أصبح وهو فى الحادية والثلاثين مبعوث النمسا فى تورين . وكانت أول رسالة منه إلى حكومته مبنية منطقيا على ملاحظة للحقائق السياسية بلغت من الدقة مبلغا حمل الكونت فون أولفلد على أن يقول لماريا تريزا وهـو يعرضها : « هاك وزيرك الأول[7] » . وفى عامه السابع والثلاثين كان المفوض النمساوى فى مؤتمر أكس لا شايل . وهناك دافع عن مصالح ماريا تريزا بأصرار وبراعة جعلا الإمبراطورة حتى فى هزيمتها تشكر له خدماته واخلاصه . ولما فاتحها فى تاريخ مبكر (١٧٤٩) بخطة التحالف مع فرنسا ، تقبلت بذهن مفتوح فكرة معانقة العدو التقليدى لبيتها . لقد كانت

مصممة على هزيمة فردريك واستعادة سيليزيا ، ولكن كاونتز بين لهـا أن هذا محال بالتحالف مع انجلترة التي ركزت قوتها في البحار ، إنما هو يتطلب التحالف مع فرنسا وروسيا اللتين تركزان قوتيهما في اليابس . وبين شقى الرحى هذين — فرنسا وروسيا من ناحية ، والنمسا من ناحية — يمكن أن يسحق فردريك . وأمرت الإمبراطورة كاونتز بأن يسعى لتحقيق هذا الهدف المنشود .

وفى ١٧٥١ بعث سفيراً إلى باريس . وأدهش جماعة النبلاء ببهاء مقدمه الرسمى على المدينة ، وأبهج عامة الشعب باحساناته ، ورفه عن الصالونات بثيابه الفاخرة ، وتنوع عطوره وأسباب تجمله ، وخصل شعره المبدرة بعناية[8] . قال عنه كارليل « رجل شديد الخيلاء ، غريب الأطوار ، وقح بعض الشيء[9] » . ولكنه وقع فى نفس الملك ، وخليلته ، ووزرائهما ؛ موقعا طيباً بفضل اطلاعه على بواطن الأمور وحسن تقديره لشئون السياسة. وراح يعد أذهانهم بالتدريج للتحالف مع النمسا . فصور لهم إمكان اقناع روسيا ، وبولندة ، وسكسونيا ، بالإسهام فى تأديب فردريك . وتساءل ما الذى جنته فرنسا من وراء تحالفها مع بروسيا — اللهم إلا تضخيم قوة دولة برية تتحدى زعامة فرنسا على القارة ، ثم ألم يحنث فردريك المرة بعد المرة بعهده حين وجد الحنث فى صالحه ؟

وكان كاونتز يحرز تقدما طيباً حين استدعته ماريا تريزا إلى فيينا ليكون مستشاراً لهـا ، وخولت له كامل السلطة فى الشئون الداخلية والخارجية (١٧٥٣) وعارض النبلاء الشيوخ فى بلاط فيينا خطته طويلا ، فشرحها ودافع عنها فى صبر ، وأيدته الإمبراطورة ؛ وفى ٢١ أغسطس ١٧٥٥ نال اقتراح التحالف مع فرنسا الموافقة الرسمية للوزارة الإمبراطورية . وصدرت التعليمات للكونت جيورج فون شتارهمبرج ، الذى خلف كاونتز سفيرا فى باريس ، بأن يروج للخطة الكبرى فى كل فرصة تتاح له لدى لويس الخامس عشر ومدام ديومبادور . وأرسل كاونتز خطابا كلـه إطراء إلى « الخليلة الرسمية » (٣٠ أغسطس ١٧٥٥) أرفق به مذكرة رجاها أن

تسلمها للمث سراً . ففعلت . وكانت المذكرة من ماريا تيزيزا ، وهذا نصها .

« إننى بصفتى إمبراطورة وملكة ، أعد بألا يذاع شىء على الإطلاق من كل ما سيعرضه الكونت شتارهمبرج باسمى على الملك المسيحى جداً ، وبأن يحتفظ دائماً بأعمق السرية فى هذا الأمر ؛ سواء نجحت المفاوضات أو فشلت . ومن المفهوم بالطبع أن الملك سيعطى إقراراً ووعدا مماثلين .

فيينا ، ٢١ يونيو ١٧٥٥ »[١٠] .

وعين لويس الأبيه دبرنيس والمركيزة دبومبادور للاجتماع سرا بشتارهمبرج فى جناحها « بابيول » . هناك إقترح السفير باسم الإمبراطورة أن تتخلى فرنسا عن تحالفها مع بروسيا ، وأن تتعهد بأن تقدم للنمسا على الأقل معونة مالية فى حالة نشوب الحرب . وقال إن فردريك حليف عديم الفائدة ، لا يركن إليه . ولمح بأن فردريك ، حتى فى تلك اللحظة ، مشغول باتصالات سرية مع الوزراة البريطانية . وتعد النمسا من جانبها بأن تمتنع عن أى عمل عدائى ضد فرنسا إذا دخلت فرنسا فى حرب مع انجلترة ، وفى حالة نشوب هذه الحرب تسمح النمسا لفرنسا باحتلال أوستند ونيوبورت ، وقد تسمح نهائيا بأن تكون الأراضى المنخفضة النمساوية من نصيب فرنسا .

ولاحظ لويس أن هذا الميثاق سيورطه فى حرب نمساوية ضد بروسيا ، ولكنه لايلزم النمسا بأن تعين فرنسا على انجلترة . وكان له عذر فى أن يخشى جيش فردريك أكثر من الجيش النمساوى — الذى طالما هزم ، والذى كانت قيادته فى الحرب الأخيرة غاية فى السوء . فأمر لويس أن يرد بأن فرنسا لن تغير تحالفها مع بروسيا مالم تقدم لها البراهين على اتصالات فردريك بانجلترة . ولم يستطع كاونتز حتى ذلك التاريخ أن يقدم هذه البراهين ، فتوقف سير خطته مؤقتا . ولكن حين تلقى لويس اعتراف فردريك بمعاهدة وستمنستر الانجليزية البروسية ، رأى أن تحالفه مع بروسيا مات فى الحقيقة والواقع . وربما خطر له ، وهو غارق فى آثامه ، أنه قد

يسترضى الله بتوحيد الدول الكاثوليكية — فرنسا « والنمسا « وبولندة ، واسبانيا — فى مخطط يهيمن به على مصائر أوربا[١١] . وعليه فى أول مايو ١٧٥٦ أتمت معاهدة فرساى قلب الاحلاف رأسا على عقب . وأعلنت ديباجة المعاهدة أن هدفها الوحيد هو المحافظة على سلام أوربا وتوازن القوى . فإذا تعرض أحد الطرفين المتعاقدين لتهديد فى ممتلكاته الأوربية من أى دولة غير انجلترا ، خف الطرف الأخر لنجدته بالوساطة الدبلوماسية « وبالمعونات المالية أو الجيوش إذا اقتضى الأمر . ولا تعد النمسا بمساعدة فرنسا ضد انجلترا ، ولا تعين فرنسا النمسا على بروسيا مالم تكن بروسيا هى المعتدية على نحو واضح . وإذ لم ير لويس أى احتمال لأن تعرض بروسيا مكاسبها للخطر بعودتها إلى مهاجمة النمسا ، فقد استطاع هو وخليلته أن يوهما نفسيهما بأن الحلف الجديد يعين على السلام فى القارة .

لم يحقق كاونتز إلى الآن كل هدفه فى الحصول على المعونة الفرنسية ضد بروسيا . ولكنه تزرع بالصبر ، فلعله يستطيع إثارة فردريك ليهاجم النمسا ولم يجد أثناء ذلك صعوبة تذكر فى إقناع القيصرة بالأنضمام إلى الحلف الجديد ، فقد كانت اليزافيتا تتوق إلى إزالة العقبة البروسية من طريق توسع روسيا غربا . وعرضت أن تهاجم بروسيا قبل نهاية عام ١٧٥٦ إن وعدت النمسا بأن تهاجمها هى أيضاً ، ووعدت بأنها فى هذه الحالة لن تعقد صلحا مع بروسيا إلا إذا ردت سيليزيا كاملة إلى النمسا . وأبهجها أن تعلم بأن فرنسا أبرمت معاهدة فرساى . واضطر كاونتز إلى كبح حماستها ، فهو يعلم أن جيوشها لن تكون مهيأة لخوض حملة كبرى قبل ١٧٥٧ . فتريث حتى ٣١ ديسمبر ١٧٥٦ « ثم وقع الاتفاقية التى أنضمت روسيا بمقتضاها إلى الحلف الفرنسى النمساوى .

وخلال ذلك كانت انجلترة « الواثقة من أن تحالفها مع فردريك سيشل حركة النمسا « قد بدأت فعلا عملياتها البحرية ضد فرنسا دون أى إعلان لحرب . وراحت السفن الحربية الانجليزية من يونيو ١٧٥٥ تستولى على السفن الفرنسية كلما إستطاعت . وردت فرنسا بالأستعداد لغزو انجلترة «

وبتجريد أسطول من خمس عشرة سفينة تحت إمرة اللوق دريشليو ليهاجم جزيرة مينورقة التي كان البريطانيون قد أستولوا عليها في حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٩) . وتعزيزا للحامية البريطانية الصغيرة في الجزيرة أرسلت بريطانيا عشر سفن يقودها الأميرال جون بينج ، وأنضمت إليها ثلاث سفن إضافية في جبـــل طارق . وفي ٢٠ مايو ١٧٥٦ أشتبك الأسطولان العدوان قرب مينورقة . فهزم الفرنسيون ، ولكن الأسطول الانجليزي أصيب بأضرار حملت بينج على العودة به إلى جبل طارق دون محاولة لانزال تعزيزات على بر مينورقة . وسلمت الحامية العاجزة ، وأصبح لفرنسا الآن موقع استراتيجي في البحر المتوسط . وأشاد القوم بريشليو بطلا في باريس وفرساي ، وإعدم بينج على سطح سفينته في ميناء بورتسموث (١٤ مارس ١٧٥٧) بتهمة عدم بذله قصارى جهده للأنتصار . وعبثا تشفع له فولتير وريشليو ، وقال فولتير إن هـــذا هو الأسلوب الذي تتبعه انجلترة في « تشجيع الآخرين » الذين يتولون القيادات البريطانية . وفي ١٧ مايو ١٧٥٦ أعلنت انجلترة الحرب على فرنسا ، ولكن البداية الرسمية لحرب السنين السبع تركت لفردريك .

وكان عليما بأن فتحه لسيليزيا عرضه لمحاولة أستردادها في أي وقت تجد فيه ماريا تريزا موارد وحلفاء جددا . وكانت موارده هـــو محدودة بشكل خطر ، ومملكته اخلاطا من الأوصال المقطعة « فبروسيا الشرقية تفصلها بولندة عن بروسيا ، والإقاليم البروسية في وستفاليا وفرزيا الشرقية تفصلها الدويلات الإلمانية المستقلة عن براندنبورج . وكان سكان بروسيا بما فيها هذه الاجزاء المتناثرة وسيليزيا يبلغون نحو أربعة ملايين نسمة عام ١٧٥٦ « وسكان انجلترة ثمانية ملايين ، وسكان فرنسا عشرين مليونا . وكان شطر كبير من سكان بروسيا في سيليزيا « التي ظل نصفها كاثوليكيا متعاطفا مـــع النمسا . وعلى سبعة أميال فقط من برلين كانت حدود سكسونيا المعادية « التي كان أميرها : الناخب ، أوغسطس الثالث ملك

بولندة الكاثوليكى ، ينظر إلى فردريك نظره إلى زنديق وقح جشع ؟ فكيف السبيل إلى البقاء وسط هذا المرجل الذى يغلى بالعداء له ؟

ليس إلا بالعقل الراجح ، والاقتصاد ، والجيش القوى ، والقواد الأكفاء ، أما عقله فقريع فى حدة ذكائه لأى عقل آخر ، وهــو أفضل حكام عصره تعليما ، وقد أثبت جدارته فى رسائله وأحاديثه ، وجدله مع فولتير . ولكن لسانه كان أحد من أن يسمح العقل باطلاقه على الناس ، ولعل أموره كانت تجرى بأيسر مما جرت لو أنه لم يصف اليزافيتا بتروفنا » وماريا تريزا ، ومدام دبومبادور » بأنهن « ثلاثة من كبار عاهرات أوربا[١٢] » ومن بواعث العزاء لنا أن نرى أنه حتى عظماء الرجال قد يسلكون مسلك الحمق بين الحين والحين . أما عن اقتصاد بروسيا » فأن فردريك أخضعه لسيطرة الدولة ولما رآه ضرورات لا غنى عنها لحرب ممكنة . فى هذه الظروف لم يجرؤ على تغيير الهيكل الإقطاعى للحياة البروسية مخافة أن يختل التنظيم الإقطاعى لجيشه . فلقد كان الجيش خلاصه ودينه . أنفق على صيانته تسعين فى المائة من موارده[١٣] وسماه « أطلس » الذى حملت كتفاه القويتان الدولة[١٤] . وزاده من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل خلفهم له أبوه حتى بلغ به ١٥٠,٠٠٠ فى ١٧٥٦ . ودربه بالعقوبات الصارمة على الطاعة الفورية الصارمة » وعلى الســير فى ثبات صوب الخط المواجه له دون أن يطلق طلقة حتى يصدر إليه الأمر ، وعلى تغيير إتجاهه » والمناورة بكتلته كلها » وهو تحت نيران العدو . وكان على رأس الجيش فى بداية الحرب خيرة القواد فى أوربا بعد فردريك نفسه — شفيرين » وسيدلتز ، وجيمس كيث .

ولم يكن أقل من قواده أهمية أولئك الجواسيس الذين بثهم بين أعدائه ولم يترك له جواسيسه شكا فى أن ماريا تريزا تؤلف حوله نطاقا من القوى المعادية . وفى ١٧٥٣ — ١٧٥٥ حصل جواسيسه فى درسدن ووارسو على نسخ من رسائل سرية تبادلتها الوزارتان السكسونية والنمساوية ، أقنعته بأن هذين البلاطين يأتمران للهجوم على بروسيا وتقطيع أوصالها أن حالفهما الحظ ،

وأن فرنسا تتستر على المؤامرة[١٥]. وفى ٢٣ يونيو ١٧٥٦ أصدر أمره القائد البروسى فى كونجزبرج بأن يستعد لمقابلة هجوم عليه من روسيا . وأبلغ الحكومة البريطانية بأن « لدى بلاط فيينا ثلاث خطط تشير إليها خطاه الحالية : أن يوطد حكمه الاستبدادى فى الإمبراطورية ، وأن يقضى على البروتستانتية ، وأن يعيد فتح سيليزيا[١٦] » . وعلم أن سكسونيا تدبر زيادة جيشها من سبعة عشر ألف مقاتل إلى أربعين ألفاً خلال الشتاء[١٧] . وخمن أن الحلفاء يترقبون ربيع ١٧٥٧ ليزحفوا عليه من ثلاث جهات ، فصمم على أن يضرب ضربته قبل أن تكتمل تعبئة قواتهم .

وقد شعر أن فرصته الوحيدة للنجاة من الخطر الذى يتهدده هى شل حركة عدو واحد على الأقل من أعدائه قبل أن يستطيعوا توحيد صفوفهم فى مقاتلته . ووافقه شفرين ، ولكن أحد وزرائه المسمى الكونت فون بوديفيلس رجاه إلا يعطى اعداءه ذريعة لاتهامه بأنه المعتدى . ولقبه فردريك « السيد صاحب السياسة الجبانة[١٨] » وكان قبل ذلك بزمن طويل « فى « ميثاق سياسى » سرى (١٧٥٢) قد نصح خليفته بأن يفتح سكسونيا فيتيح بفتحها لبروسيا الوحدة الجغرافية ، والموارد الاقتصادية « والقوة السياسية التى لاغنى عنها لمن يريد البقاء[١٩]. ولكنه نحى الفكرة جانبا باعتبارها فكرة لا يقوى على تحقيقها . أما الآن فقد رآها ضرورة حربية فلابد له من حماية حدوده الغربية بتجريد سكسونيا من السلاح .

وكان حتى فى كتابه القريب من المثالية . « المعارض لمكيافللى » (١٧٤٠) قد وافق على الحرب الهجومية إذا أريد بها الحيلولة دون هجوم داهم من العدو[٢٠] . وأخبره متشل « الوزير البروسى فى إنجلتره ، أنه رغم رغبة الحكومة البريطانية القوية فى الحفاظ على السلام فى القارة ، فهى تدرك الضرورة القاهرة التى يواجهها فردريك ولن تعتبره « ملوما » على الإطلاق إذا هو حاول أن يسبق أعداءه بالهجوم بدلا من الإنتظار حتى ينفذوا فيه نياتهم العدائية[٢١] .

وفى يوليو ١٧٥٦ أوفد مبعوثاً إلى ماريا تريزا يطلب تأكيدا بأن النمسا

لا تنوى القيام بأى هجوم على بروسيا لا فى تلك السنة ولا فى السنة التالية. ورأى عضو فى الوزارة النمساوية أن الواجب إعطاء هذا التأكيد ؛ ولكن كاونتز رفض إرساله ، فكل ما تود ماريا تريزا أن تقول هو أنه « فى الأزمة الراهنة أراه ضروريا أن أتخذ تدابير لتأمين نفسى وحلفائى ، وليس من شأن هذه التدابير الإضرار بأحد[٢٢] » . وأرسل فردريك رسالة ثانية للامبراطورة يسألها جواباً صريحاً على طلب التأكيد ؛ فأجابت بأنها « لم تبرم حلفا هجوميا ، ومع أن موقف أوربا الدقيق يضطرها إلى التسلح ، فإنها لا تنوى خرق معاهدة درسدن (التى تعهدت فيها بمسالمة فردريك) » ولكنها لن تربط نفسها بأى وعد يمنعها من التصرف وفقا لمقتضيات الظروف[٢٣] » . وكان فردريك يتوقع هذا الجواب ، وقبل أن يصله قاد جيشه إلى سكسونيا (٢٩ أغسطس ١٧٥٦) . وهكذا بدأت حرب السنين السبع .

٢ - طريد القانون
١٧٥٦ - ١٧٥٧

وبذل فردريك محاولة فاترة ليجند ناخب سكسونيا حليفا له ، فعرض عليه بوهيميا رشوة . وكانت ملكا لماريا تريزا . ولكن أغسطس احتقر هذا التصدق بمال الغير ، وأمر قواده بوقف زحف فردريك ، ثم فر إلى وارسو . وكانت القوة السكسونية أصغر من أن تقاوم أعظم جيش فى أوربا ، فانسحبت إلى القلعة فى بيرنا ، ودخل فردريك درسدن دون مقاومة (٩ سبتمبر ١٧٥٦) وأمر عملاءه للفور بأن يفتحوا المحفوظات السكسونية ويأتوه بأصول تلك الوثائق التى كشفت من قبل عن اشتراك سكسونيا فى الخطة المرسومة لتأديب بروسيا وربما لتقطيع أوصالها . ووقفت الملكة الناخبة العجوز بشخصها لتحول دون الوصول إلى المحفوظات ، وطالبت فردريك بأن يحترم حقها فى عدم العدوان عليها . أما هو فأمر بإزالتها من الطريق ، ففرت ، ووضع يده على الوثائق ؟

وأرسلت ماريا تريزا جيشا من بوهيميا لازاحة الغازى من مكانه ، فالتقى به فردريك وهزمه فى لوبوزيتس ، على الطريق من براغ إلى درسدن (أول أكتوبر) وعاد ليحاصر بيرنا ، فسلمت له (١٥ أكتوبر) ، وحشد الأربعة عشر ألف جندى من أسرى السكسونيين فى فرقه ، وحجته أن هذا أرخص له من اطعامهم وهم أسرى حرب ، فلقد كان شره الألمان للطعام أمرا مشهورا ولا فخر . وأعلن أنه فتح سكسونيا ، واستخدم مواردها لتلبية حاجاته . ونشر على الملأ خلال الشتاء الوثائق السكسونية . فزعمت ماريا تريزا أنها مزيفة ، واستنجدت بفرنسا وروسيا وكل المسيحيين الذين يخافون الله واستعدتهم على ذلك الرجل الذى زج بعدوانه الصارخ أوربا فى خضم الحروب من جديد .

واتفقت أوربا عموما على ادانة فردريك. وأعلنت الأمارات الألمانية الحرب على بروسيا (١٧ يناير ١٧٥٧) مخافة أن يحيق بها ما حاق بسكسونيا إذا انتصر فردريك ، وجمعت جيشا امبراطوريا لقتال ملك بروسيا . ولم يضيع كاونتز وقتا فى تذكير لويس الخامس عشر أن فرنسا قد وعدت النمسا بالمعونة إذا تعرضت للخطر . وألحت الدوفينة ، ابنة ناخب سكسونيا ، على حميها فى أن ينقذ أباها . أما مدام دبومبادور ، التى عللت نفسها من قبل بأمل الاستمتاع بملكها فى سلام ، فقد مالت الآن إلى الحرب . وتقديرا لمعوناتها أهدتها ماريا تريزا صورة ملكية رصعت بالجواهر وقدرت بمبلغ ٧٧،٢٧٨ جنيها ،[١٤] وانقلبت دبومبادور امرأة حربية . أما لويس الذى كان عادة بطىء الحسم ، فقد اتخذ قراره بعزيمة لا تنثنى . والتزمت فرنسا الآن بمقتضى معاهدة فرساى الثانية (أول مايو ١٧٥٧) بتحالف دفاعى هجومى مع النمسا ، وتعهدت لها بمعونة سنوية قدرها اثنى عشر مليون فلورين ، ووافقت على تجهيز جيشين ألمانيين ، وعرضت تخصيص قوة فرنسية قوامها ١٠٥،٠٠٠ مقاتل لتدمير بروسيا تدميرا تاما . ، ووعدت بألا تعقد صلحا على الاطلاق مع بروسيا حتى ترد سيليزيا إلى النمسا . فإذا ردت حصلت فرنسا على خمس مدن حدود فى الأراضى الواطئة

النمساوية ، ونقلت ملكية هذه الأراضى الواطئة الجنوبية إلى ولية عهد أسبانيا البوربونية لقاء دوقيات أسبانية فى إيطاليا . ولعل فرنسا كانت تتخلى على وعى منها عن مستعمراتها للفتح البريطانى بتكريس مواردها كلها تقريبا لالتهام « بلجيكا » . واستطاع كاونتز أن يحس بأنه أحرز نصرا دبلوماسيا عزيزا .

ولم يجد الآن مشقة فى أن يستميل روسيا إلى مد يد العون النشيط إلى النمسا . وتعهدت روسيا والنمسا بمقتضى اتفاقية سانت بطرسبورج (٢ فبراير ١٧٥٧) بأن تضع كل منها ثمانين ألف جندى فى الميدان ، وأن تخوض الحرب إلى أن توحد سليزيا مع النمسا من جديد وتختزل بروسيا إلى دولة صغيرة . ثم اتجه كاونتز إلى السويد فأدخلها الحلف بأن كفل لها فى حالة الانتصار كل الشطر البومرانى الذى سلم لها فى معاهدة وستفاليا . وفرض على السويد أن تقدم ٢٥,٠٠٠ مقاتل ، وعلى النمسا وفرنسا أن تمولا هذا الجيش . وتعهدت بولندة التى كان يحكمها الملك اللاجئ أوغسطس الثالث بتقديم مواردها المتواضعة إلى الحلف الفرنسى النمساوى ، وهكذا تكتلت ضد فردريك كل أوربا باستثناء إنجلترا ، وهانوفر ، والدنمرك ، وهولندة ، وسويسرة ، وتركيا ، وهسى — كاسل .

ووجدت إنجلترة من الأسباب ما يغريها بترك فردريك لمصيره . ذلك أن جورج الثانى رأى فى فزع أن موطنه المحبوب هانوفر الإمارة الناخبة التى قدم منها أبوه ليحكم بريطانيا ، وقفت عاجزة عن الدفاع عن نفسها فى طريق جيش عرمرم ، بينما كان فردريك أعجز من أن يقدم لها عونا ذا بال وبينه وبينها هذه الشقة والأعداء يشددون عليه النكير . وأصبح هذا الاغراء أمرا لا يكاد يقاوم حين عرض كاونتز عدم المساس بهانوفر إذا ظلت انجلترة بمعزل عن الحرب القاربة ؛ فى تلك اللحظة كان مصير فردريك فى خطر . وكان بت ، الذى عين وزيرا للخارجية فى ١٩ نوفمبر ١٧٥٦ ميالا أول الأمر لترك بروسيا وهانوفر تلودان عن نفسيهما دون عون من الخارج ، بينما تركز انجلترة كل مواردها الحربية على

الصراع على المستعمرات ، لا عجب إذن أن يبغض جورج الثانى المتعلق بهانوفر وزيره بت ولكن بت لم يلبث أن غير رأيه . وصرح أن فرنسا المنتصرة على فردريك ستغدو سيدة على أوربا « وعلى انجلترة أيضاً بعد قليل » فعلى البرلمان إذن أن يوافق على إرسال المال لفردريك والجنود لهانوفر « ولابد من أكراه فرنسا على استنزاف قوتها فى أوربا » بينما تنتزع إنجلترة المستعمرات والاسواق من البحار التى تفتحها .

وعليه فى يناير ١٧٥٧ ، أبرمت بريطانيا حلفاً ثانياً مع بروسيا ، تعهدت فيه بالعون المالى لفردريك ، وبالجنود لهانوفر . ولكن حدث أن أقيل بت فجأة (٥ أبريل) وأربكت أهواء السياسة حكمها ، وتعطل إرسال العون لفردريك » وظل عاماً تقريباً يقف وحيداً » ومعه ١٤٥,٠٠٠ مقاتل، أمام جيوش تحدق به من كل صوب ، فى الغرب ١٠٥,٠٠٠ مقاتل من فرنسا ، ٢٠,٠٠٠ من الدويلات الألمانية ، وفى الجنوب ١٣٣,٠٠٠ من النمسا ، وفى الشرق ٦٠,٠٠٠ من روسيا » وفى الشمال ١٦,٠٠٠ من السويد . فى ذلك اليوم الذى شهد سقوط بت » وسم الإمبراطور فرانسيس الأول — زوج ماريا تريزا » اللطيف الوديع عادة — فردريك رسمياً بأنه خارج على القانون » ودعا كل الرجال الصالحين إلى تعقبه وتصيده لأنه عدو للنوع الإنسانى عاص فاجر .

من براغ إلى روسباخ (١٧٥٧)

فى ١٠ يناير أرسل فردريك إلى وزرائه فى برلين تعليمات سرية : « يجب أن تجرى الأمور مجراها دون أدنى تغيير إن قتلت ،وإن تعثر حظى فأسرت » فإنى أمنع أقل اعتبار لشخصى » أو أدنى التفات لأى شىء قد أكتبه وأنا فى الأسر . [٢٥]

وكانت لفتة عديمة الجدوى ، لأن بروسيا كانت ضائعة لا محالة بدون عبقريته الحربية . وكان أمله الوحيد فى ملاقاة أعدائه كل على حدة قبل أن يستطيعوا التجمع عليه . ولم يكن الفرنسيون مستعدين للمعركة ، وربما

استطاعت الفرق التى ترسلها انجلترا لهانوفر اعاقتهم برهة . أما النمساويون فيحشدون فى بوهيميا ومورافيا القريبتين مخازن هائلة من الأسلحة والمؤن لتجهيز جيوشهما لغزو سليزيا . وقرر فردريك أن يبدأ بالاستيلاء على هذه المخازن الثمينة ، ومقاتلة النمساويين ، ثم العودة لملاقاة الفرنسيين . فقاد قوته من سكسونيا ، وأمر دوق برنزويك — بيفرن من المانيا الشرقية ، والمرشال شيفرين من سيليزيا ، بالزحف فى بوهيميا وملاقاته فى التلال المشرفة على براغ من الغرب . وقد تم هذا ، واستولى فردريك على المخازن ، وفى ٦ مايوعلى مقربة من براغ ، التقى ٦٤٫٠٠٠ بروسى بجيش تساوى عدته ٦١٫٠٠٠ مقاتل تحت إمرة شارل أمير اللورين فى فاتحة المعارك الكبرى فى هذه الحرب .

ولم يكن الفاصل فى المعركة هو الكثرة ، ولا الاستراتيجية ، بل الشجاعة . ذلك أن فرق شيفرين زحفت تحت نيران النمساويين مخترقة المستنقعات والماء يغطى خصور الجند ثم اكتافهم . وأدركهم اليأس حيناً وهموا بالفرار ، فجمع شملهم شيفرين البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاما ولف العلم حول بدنه ، وركب رأسا فى مواجهة العدو ، فضرب بخمس رصاصات فى وقت واحد ، وخر صريعاً ، أما رجاله الذين كاد حبهم له يفوق خوفهم من الموت ، فقد حملوا على العدو فى غضبة مضرية ، وحولوا الهزيمة نصرا . وكان التقتيل فى الجانبين رهيباً ، وشملت خسائر فردريك أربعمائة ضابط وخير قائد عنده ، فى هذه الحرب لم يكن القواد يموتون حتف أنوفهم : وتقهقر من بقى من النساويون وعددهم ٤٦٫٠٠٠ إلى القلعة فى براغ ، وتهيأوا لمقاومة الحصار .

ولكن فردريك وجد الحصار عسيرا ، لأن المرشال ليوبولد فون داون ، أكفأ القواد النمساويين ، كان قادماً من مورافيا على رأس ٦٤٫٠٠٠ مقاتل آخرين . فسار فردريك شرقا يقود ٣٢٫٠٠٠ مقاتل بعد أن ترك جزءا من جيشه ليحاصر القلعة ، والتقى بالجحافل الزاحفة

عند كولن (١٦ يونيو) ، وكانت ميزة العدو عليه كبيرة جدا وبراعة داون الحربية فى هذه الحالة تفوق براعته . وعصى اثنان من قواد فردريك أوامره فأحدثوا خللا فى الجيش ، وفقد فردريك أعصابه وصاح بفرسانه المتقهقرين «هل أنتم مخلدون؟» (٢٦) . أما المشاه فرفضوا الزحف وقد هالهم التقتيل . وانسحب فردريك من ساحة القتال جزعا ، بعد أن ترك عليها ١٤٠٠٠ بروسى ما بين قتيل وجريح وأسير . وعاد بالأحياء وعددهم ١٨٠٠٠ إلى براغ ، وأقلع عن الحصار ورجع بما بقى له من جيشه صوب سكسونيا .

وفى لايتميريتس أراح جيشه ثلاثة أسابيع . وفى ٢ يوليو تلقى هناك نبأ موت أمه صوفيا دوروتيا . وانهار رجل الحرب الفولاذى، وبكى، واعتزل الناس يوما ، ولعله ساءل نفسه الآن ألم يكن هجومه على سيليزيا قبل سبعة عشر عاما إغراء أحمق زينته له ربة الانتقام . وشاطرته الحزن شقيقته فلهلمينى ، أميرة بايرويت ، التى أحبها أكثر من أى مخلوق آخر ، ففى ٧ يوليو أرسل إليها نداء يائسا بعد أن أوشكت كبرياؤه على النضوب :

ما دمت يا شقيقتى العزيزة تصرين على الاضطلاع بمهمة السلام العظمى فأرجوك أن تتفضلى بالكتابة الى المسيو دميرابو . . . ليعرض على السيدة المقربة (مدام دبومبادور سابقا كوتيون الرابعة) مبلغا يصل إلى ٥٠٠,٠٠٠ كراون ثمنا للصلح . . . إنى أترك الأمر كله لك . . . أنت التى أعبدها ، والتى هى ذاتى الثانية ، وأن كنت أكثر منى كياسة بما لايقاس (٢٧) .

ولكن المحاولة لم تأت بنتيجة . فجربت فلهلمينى طريقة أخرى: كتبت إلى فولتير الذى كان يقيم فى سويسرا ورجته أن يستعمل نفوذه . ونقل فولتير اقتراحها الى الكردينال دتانسان ، الذى كان قد عارض فى الحلف

الفرنسي – النمساوي ، وحاول تانسان ولكنه أخفق[٢٨]، فقد كان الحلفاء يشمون ريح النصر وراحت ماريا تريزا تتحدث عن تمزق أوصال ملك فردريك إربا ، فلا يكفى أن ترد لها سيليزيا وجلاتز ، بل يجب أن تعطى مجدبورج وهالبرشتات إلى أوغسطس الثالث وتعود بومرانيا إلى السويد ويكافأ ناخب البالاتين بكليفز ورافنسبورج .

وقد بدت آمالها معقولة . ذلك أن « جيش الدوفينة » الفرنسي كان قد دخل ألمانيا ، وكان شطر منه بقيادة أمير سوبيز ، القائد الأثير لدى بومبادور ، فى الطريق للانضمام إلى الجيش الأمبراطورى عند إرفورت ، وزحف شطر آخر بقيادة المرشال دستريه ليلتقى بقوة هانوفرية يقودها الدوق كمبرلاند ، وهو ابن جورج الثانى . وعلى مقربة من قرية هاشتنبيك هزم الفرنسيون هذه القوة هزيمة منكرة (٢٦ يوليو) أكرهت الدوق على أن يبرم فى كلوستر – تسيفين (٨ سبتمبر) « اتفاقاً » تعهد بمقتضاه أن يمنع جنوده الهانوفريين من أى اشتباك مع فرنسا .

وربما بلغ فردريك نبأ هذا التسليم المذل تقريباً فى نفس الوقت الذى بلغته فيه الأنباء بأن جيشاً سويدياً نزل أرض بومرانيا ، وجيشاً روسيا عدته ١٠٠،٠٠٠ مقاتل بقيادة المرشال ستيبان أبراكسين غزا بروسيا الشرقية وسحق قوة من ٣٠،٠٠٠ بروسى عند جروس – ييجرزدورف (٣٠ يوليو) وكادت هذه الهزائم بالإضافة إلى الكارثة التى أصابته فى بوهيميا تقضى على أمل فردريك فى قهر أعداء بهذه الكثرة وهذا التعزيز باحتياطيات من العتاد والرجال . أما وقد كفر بفضائل المسيحية كما كفر بلاهوتها ، فإنه لجأ إلى أخلاقيات الرواقيين وفكر فى الانتحار . وظل إلى نهاية الحرب يحمل معه قنينة سم اذ عقد النية على ألا يضع أعداؤه أيديهم عليه إلا جثة هامدة . وفى ٢٤ أغسطس أرسل الى فهلمينى خطابا يسبح فيه بحمد الموت فيما يشبه الهستيريا :

« والآن يا مروجي الأكاذيب المقدسة ، امضوا فى سحب الجبناء من أنوفهم . . . أما أنا فقد انتهى فى نظرى سحر الحياة واختفت تعويذتها . ولست أرى فى الخلق جميعاً غير ألعوبة فى يد القدر ، فإن كان هناك حقاً كائن عابس لا يرحم » يسمح لقطيع محتقر من المخلوقات بأن يتكاثر هنا ، فهو لا يرى لهم وزناً ، وهو ينظر من عليائه إلى مخلوق مثل فالاريس متوجاً ، أو مثل سقراط مكبلا بالأغلال ، إلى فضائلنا ورذائلنا ، إلى أهوال الحرب والأوبئة الرهيبة التى تدمر الأرض ، وكأنها أشياء لا تهمه. لذلك كان ملجأى الوحيد وملاذى الذى لا ملاذ غيره ياشقيقى العزيزة ، إنما هو فى حضن الموت » . [29]

وردت على خطابه (١٥ سبتمبر) بأن أقسمت أن تنتحر مثله :

يا شقيقى العزيز ، لقد كاد يقتلنى خطابك ، والخطاب الذى بعثت به إلى فولتير . يا إلهى القدير ، أى قرارات رهيبة ! أواه يا أخى العزيز ، تقول إنك تحبنى ، ومع ذلك فأنت تغمد خنجراً فى قلبى . إن خطابك جعلنى أذرف أنهاراً من الدموع . وأنا الآن خجلة من هذا الضعف . . . ومصيرك سيكون مصيرى . فلن أعيش بعد عثرات حظك وحظ البيت الذى أنتمى إليه . ولك أن تعتبر هذا قرارى الذى لن أحيد عنه .

« ولكن بعد هذا العهد دعنى أتوسل إليك أن تعود بفكرك إلى ما كان عليه العدو من حال سيئة وأنت مرابط أمام براغ . إنها دورة الحظ الفجائية تصيب الفريقين . لقد كان قيصر مرة عبداً للقراصنة ، ثم أصبح سيداً على العالم . وإن عبقرية هائلة كعبقريتك لتجد لها المنافذ حتى حين يبدو أن كل شىء ضاع . إننى أقاسى أكثر ألف مرة مما أستطيع ذكره لك » ومع ذلك لا يفارقنى الأمل . . . على أن أختم الآن ، ولكنى سأظل دائماً » مع أعمق الاحترام » أختك فلهلمينى » . [30]

ولجأت إلى فولتير ليعزز رجاءها » فأمن على حججها فى مطلع أكتوبر فى أول خطاب كتبه لفردريك منذ ١٧٥٣ . وقال :

« ان المقاتلين من أمثال كاتو وأوتو ، الذين ترى جلالتكم أن موتهم كان شرفاً لهم ، ما كان فى استطاعتهم أن يفعلوا شيئاً آخر غير القتال أو الموت . » . يجب أن تذكركم من بلاط يرى فى غزوك لسكسونيا انتهاكا للقانون الدولى . . . وأن أخلاقنا ومركزك فى غير حاجه اطلاقا لهذه الفعلة (الانتحار) وحياتك ضرورية وأنت تعلم كم هى غالية فى نظر أسرة كثيرة العدد . . . وأحوال أوربا لاتستقر طويلا على أساس واحد ، والواجب على رجل مثلك أن يتماسك استعدادا للأحداث . . . ولو أن بسالتك أفضت بك إلى ذلك التطرف البطولى لما استحسنها الناس فانصارك سيدينونها » وخصومك سينتصرون [٣١] » .

وأجاب فردريك نثرا وشعراً وقال :

« أما أنا المهدد بالغرق ، فعلى وأنا أتصدى للعاصفة أن أفكر » وأحيا وأموت ملكا [٣٢] » .

وبين قصائد الشعر (التى نظمها دائما بالفرنسية) راح يبحث عن الجيش الفرنسى ، وتاقت نفسه الآن إلى معركة تحسم له مشكلة الحياة أو الموت. وحين كان فى ليبزج ، فى ١٥ اكتوبر أرسل فى طلب يوهان كرستوف جوتشيد (الذى كان يقرض الشعر بالألمانية) وحاول اقناعه بأن الشعر الألمانى ضرب من المحال . ففيه فرقعات كثيرة جداً ـــ وحتى فى اسم الأستاذ هناك خمسة فى صف واحد ، فكيف تحدث اتساقا فى الأصوات من لغة كهذه ؟ واحتج جوتشيد . وكان على فردريك أن يعد لزحف جديد ؛ ولكن بعد عشرة أيام ، حين عاد إلى ليبزج ، استقبل الشاعر الشيخ ثانية » ووجد متسعاً من وقته ليستمع إلى قصيدة غنائية بالألمانية من نظم جوتشيد ، وأهداه علبة نشوق ذهبية عربون الرضى وهو يودعه .

وخلال ذلك الفاصل الأدبى جاءته أنباء أسوأ : ففرقة من الكروات يقودها الكونت هاديك تزحف على برلين ، والشائعات ترجف بأن الكتائب السويدية والفرنسية تزحف لتطبق على العاصمة البروسيه . وكان

فردريك قد ترك فيها حامية ولكنها أصغر كثيراً من أن تصد هذا السيل العارم : ولو سقطت برلين لوقع فى يد العدو أهم مصدر لامداداته من السلاح ، والبارود ، والملابس ، وهرع بجيشه لينقذ المدينة وأسرته . وخلال زحفه أنبىء بأن ليس هناك قوات فرنسية ولا سويدية تزحف على برلين ، وأن هاديك توقف فى ضواحى العاصمة واقتضى فدية قدرها ٢٧٫٠٠٠ جنيه من برلين ، ثم رحل بجنده الكروات راضيا (١٦ اكتوبر) . وجاءه نبأ آخر سرى عنه ، هو أن الروس بقيادة أبراكسين انسحبوا من بروسيا الشرقيه إلى بولندا بعد أن نال منهم المرض والجوع .

وأتته رسائل لم تشرح صدره ، تقول إن الجيش الفرنسى بقيادة سوبيز دخل سكسونيا ، ونهب المدن الغربية ، وانضم إلى الجيش الأمبراطورى الذى يقوده دوق ساكس — هيلدبورجهاوزن . وعاد الملك المرهق ادراجه ، وقاد جنـده إلى قرب روسباخ ، على نحو ثلاثين ميـلا غربى ليبزج .

هناك التقى جيشه المتعب الذى تقلص إلى ٢١٫٠٠٠ مقاتل فى خاتمة المطاف وجها لوجه بجيوش فرنسا والرايش وعدتها ٤١٫٠٠٠ مقاتل . ورغم هذا أشار سوبيز بعدم المجازفة بخوض المعركة ، وقال أنه خير منها المضى فى تجنب الإلتحام بفردريك وارهاقه بمسيرات عقيمة حتى يكرهه تفوق الحلفاء عددا وعدة على التسليم . وكان سوبيز عليما بانهيار النظام فى صفوف جيشه ، وافتقار جنود الرايش ومعظمهم من البروتستنت إلى الحماسة فى مقاتلة فردريك [٣٣] . غير أن هيلبورجهاوزن الح فى طلب القتال ، فأذعن سوبيز . وقاد القائد الألمانى جيشه على منعطف طويل ليهاجم البروسيين على ميسرتهم . فما كان من فردريك وهو يرقب العدو من سطح بيت فى روسباخ إلا أن أمر فرسانه بقيادة سيدلتز أن يقوموا بحركة مضادة على ميمنة العدو . وحمل الفرسان البروسيون ، وعدتهم ٣٫٨٠٠ مقاتل ، تحجبهم التلال وهم يسيرون بسرعة ملوبة ، على وجود الحلفاء من تحتهم وهزموهم قبل أن يستطيعوا اعادة تشكيل صفوفهم .

وأقبل الفرنسيون بعد الأوان ، فمزقتهم المدفعية البروسية أشد تمزق ، وما مضت تسعون دقيقة حتى انتهت معركة روسباخ الفاصلة (■ نوفمبر ١٧٥٧) . وتقهقر الحلفاء فى فوضى تاركين ٧٫٧٠٠ قتيل فى ساحة القتال ، أما البروسيون فلم يفقدوا غير ٥٥٠ رجلا . وأمر فردريك بالرفق بالأسرى : ودعا الضباط المأسورين إلى مائدته : وفى كياسه وظرف فرنسيين اعتذر عن قلة الطعام قائلا :

Mais, messieurs, Je ■ vous attendais pas si tot, en si grdànd nombre.

« ولكنى أيها السادة لم أتوقع مجيئكم بهذه السرعة ، وبهذه الكثرة[٣٤]

وتعجب العسكريون من جميع الأطراف من ذلك البون الشاسع فى الخسائر ، ومن براعة القيادة التى أتاحت هذه النتيجة : وحتى فرنسا اعترفت باعجابها ، ولم يستطيع الشعب الفرنسى الذى كان حليفا لبروسيا حتى الأمس القريب أن ينظر بعد إلى فردريك نظرته إلى عدو لهم : ألم يكن يجيد الحديث والكتابة بالفرنسية ؟ دهشت جماعة الفلاسفة لإنتصاراته وأشادوا به مكافحا عن حرية الفكر أمام الظلامية الدينية التى يحاربونها فى وطنهم[٣٥] واستجاب فردريك لعواطف الفرنسيين النبيلة فقال : (لم أعتبر الفرنسيين أعداء لى)[٣٦] ولكنه كتب سرا — بالفرنسية — قصيدة أعرب فيها عن اغتباطه بأن ركل الفرنسيون فى (إستهم) وهى كلمة ترفق كارليل فترجمها (مقعدة الشرف)[٣٧] .

واغتبطت انجلترة معه ، وجددت ايمانها بحليفها . واحتفلت لندن بعيد ميلاده بالصواريخ فى شوارعها ، وأشاد المثوديون الأتقياء بهذا الزنديق منقذا للمذهب الحق الوحيد . وكان بت قد أعيد لبرأس الحكومة (٢٩ يوليو ١٧٥٧) ، فغدا منذ الآن النصير الثابت الوفى للملك البروسى . وقال فردريك (لقد أنفقت انجلترة وقتا طويلا لتنجب رجلا عظيما كفئا لهذا الصراع ، ولكن هاهو قد جاء فى النهاية[٣٨]) ، وندد بت باتفاقية كلوستر — تسيفين لأنها ليست إلا جبنا وخيانة — وذلك رغم

أن ابن الملك وقعها ، ثم أقنع البرلمان بأن يرسل جيشا أفضل لحماية هانوفر ومعاونة فردريك (اكتوبر) . وبينما كان المبلغ الذى أقره البرلمان من قبل لجيش كمبرلاند (جيش المراقبة) لايزيد عن ١٦٤٫٠٠٠ جنيه . وافق الآن على ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنية لتمويل (جيش عمليات) ، واتفق بت وفردريك على أن يختار لقيادة هذه القوة الجديدة صهر فردريك وتلميذه الحربى ، الدوق فرديناند البرنزويكى ، البالغ من العمر ستة وثلاثين عاما ، الرجل الوسيم ، المثقف ، الشجاع . الذى قال عنه بيرنى أنه يجيد العزف على الكمان إجادة كان يمكن أن يجمع من ورائها ثروة طائلة (٣٩) . هاهنا أداة صالحة صلاحية رفيعة لمصاحبة ناى فردريك .

٤ — الثعلب يكره على الدفاع

١٧٥٧ — ١٧٦٠

لم يتح لفردريك متسع من الوقت للابتهاج . فما زال جيش فرنسى بقيادة ريشليو واضعاً يده على جزء كبير من هانوفر . وفى اليوم الذى وقعت فيه معركة روسباخ ضرب ٤٣,٠٠٠ نمساوى الحصار على شفايدنتز ، أهم معقل ومستودع للبروسيين فى سيليزيا . وكان فردريك قد ترك بها ٤١,٠٠٠ رجل ولكن عددهم تناقص إلى ٢٨,٠٠٠ نتيجة الهروب أو الموت ، وكان على رأسهم قائد غير كفء هو دوق برنزويك — بيفرن ، الذى تجاهل أمر الملك بمهاجمة المحاصرين ، وفى ١١ نوفمبر سلم الحصن ، وسلم للنمساويين ٧,٠٠٠ أسير ، و ٣٣٠,٠٠٠ طالر ، ومؤناً تكفى لإعاشة ٨٨,٠٠٠ رجل مدى شهرين . وواصل المنتصرون السير إلى برزلاو ، بعد أن زاد عددهم إلى ٨٣,٠٠٠ بفضل انضمامهم إلى قوات يقودها الأمير شارل والمارشال داون ، وفى ٢٢ نوفمبر قهروا قوة صغيرة من البروسيين ، وسقطت برزلاو ورد معظم سيليزيا الآن إلى ماريا تريزا الظافرة . وحق لفردريك أن يشعر أن انتصاره فى روسباخ قد بطل مفعوله .

ولكن ذلك الانتصار كان قد جدد شجاعته ، فلم يعد يتحدث عن الانتحار . كذلك كان جيشه قد أفاق من مسيراته ومعاركه ، وبدا ساخطاً على الغارات التي دنس بها الجنودالفرنسيون الكنائس الكاثوليكية في سكسونيا وناشد فردريك رجاله أن يعينوه على استرداد سيليزيا . فساروا ١٧٠ ميلا في إثني عشر يوماً قارسة البرد ، مخترقين أرضاً وعرة. وانضم إليهم في الطريق فلول القوات البروسية التي هزمت في شفايدنتز وبرزلاو . وفي ٣ ديسمبر لمح فردريك ومعه ٤٣ ألف مقاتل تمساوياً من ٧٢،٠٠٠ مقاتل يعسكر قرب لوبتن على الطريق إلى برزلاو. في ذلك المساء خطب فردريك في كبار ضباطه سبق به خطب نابليون الحربية الرنانة ، قال :

« أيها السادة ، أنكم لاتجهلون أي نكبات حلت بنا هنا بينما كنا مشتبكين مع الجيوش الفرنسية والامبراطورية . فلقد ضاعت شفايدنتز . .. وضاعت برزلاو ومعها كل مستوعادتنا الحربية ، وضاع أكثر سيليزيا . ولولا ثقتي التي لاحد لها بشجاعتكم وولائكم وحبكم لوطنكم ، لما أفقت من عوامل ضيقي وارتباكي .. فليس بينكم رجل لم يبرز بعمل ممتاز من أعمال البطولة لذلك أعالل نفسي بأنكم في الفرصة القادمة لن تضنوا بأي تضحية يطالبكم بها الوطن .

والفرصة سانحة الآن . وإنني لأشعر أنني لم أحقق شيئاً أو تركت سليزيا في قبضة النمسا . فدعوني إذن أخبركم إنني أنوي مهاجمة جيش الأمير شارل — وهو ثلاثة أضعاف جيشنا — أينما لقيته ؛ متحدياً في ذلك جميع قواعد فن الحرب . فليست العبرة بكثرة جنده أو قوة موقعه ، فأنا آمل — بفضل بسالة جنودنا ، وتنفيذ خططنا بعناية — أن أذلل هـذا كله . ولا مندوحة لي عن اتخاذ هذه الخطوة ، وإلا دفنا تحت مدافعه . كذلك أرى الموقف ، وكذلك سأتصرف .

فأبلغوا تصميمي إلى جميع ضباط الجيش ، وأعدوا الجنود للعمل الذي لابد آت ، وأخبروهم أنني أشعر بأن لدي من الأسباب مايبرر مطالبتي إياهم بتنفيذ الأوامر بكل دقة . أما أنتم ، فهل يخطر ببالي — وأنا أذكر

أنكم بروسيون — أنكم ستتصرفون تصرفاً غير نبيل ، ولكن إذا كان بينكم رجل يخاف أن يشاطرنى جميع المخاطر (وهنا تفرس فردريك فى كل وجه بدوره) فى استطاعته أن يسرح هذا المساء ، دون أدنى لوم منى . . . .

كنت عليما بأن أحداً منكم لن يتركنى . وعليه فأنا معتمد كل الاعتماد على معونتكم الصادقة ، وعلى النصر الأكيد . فإن مت قبــل أن أجزيكم على إخلاصكم فلا بد أن الوطن فاعل . عودوا الآن إلى معسكركم وانقلوا إلى جنودكم ماسمعتموه منى .

وسأجرد فرقة الفرسان التى لاتلقى بنفسها فور سماع الأمر على العدو بمجرد انتهاء المعركة ، وأحيلها إلى فرقة حامية . أما كتيبة المشاة ، حتى أن بدأت تتردد ، أياً كان الخطر الذى تواجهه ، فإنها ستفقد رايتها ، وسيوفها ، والنوط الذهبى من ستراتها .

« الآن طابت ليلتكم أيها السادة . عما قليل سنكون قد هزمنا العدو ، وإلا فلن يرى بعضنا البعض بعد اليوم »[٤٠] .

وكان النمساويون إلى الآن يتحاشون الالتحام فى معركة مع فردريك متبعين فى ذلك سياسة فابيوس الرومانى ، وترددوا فى وضع جنودهم وقوادهم أمام انضباط الجيش البروسى وعقبرية فردريك التكتيكية ، أما الآن بعد أن شجعهم كثرة جيوشهم وانتصاراتهم الأخيرة ، فقد قرروا مواجهة الملك فى المعركة مخالفين فى ذلك نصيحة المرشال داون . وعليه . فى ٥ ديسمبر ١٧٥٧ زحفت هــذه البيادق فى لعبة المنافسة بين الأسر المالكة — ٤٣,٠٠٠ مقابل ٧٣,٠٠٠ — على سيوف بعضهم بعض ومدافعهم فى أعظم معارك هذه الحرب . يقول نابليون : « كانت تلك المعركة آية من الآيات وهى وحدها تبوىء فردريك مكاناً فى الطليعة بين القواد »[٤١] وقد استهلها بمحاولة الوصول إلى التلال تمكيناً لمدفعيته من إطلاق نيرانها فوق رؤس مشاته لتصيب صفوف العدو . ووزع جنوده بنظام منحرف استعمله قديمــاً ابامينونداس الطيبى ، بحيث تتحرك طوابير منفصلة بزاوية ٤٥ درجة تقريباً

لتضرب العدو من الجنب فتشيع الخلل فى خط دفاعه . وتظاهر فردريك بأنه يوجه أقوى ضغوطه إلى الميمنة النمساوية ، فأضعف الأمير شارل ميسرته تعزيزا للميمنة ، وهنا صب فردريك خيرة رجاله فوق الميسرة التى تناقصت ، فدمرها ، ثم انقلب ليهاجم الجناح الأيمن فى جيشه، بينما هبط الفرسان البروسيون على الجناح ذاته من مخبئهم فى التلال . وانتصر النظام على الفوضى ، فسلم النمساويون أو لاذوا بالفرار ، وأسر منهم ٢٠٫٠٠٠ — وهو صيد لم يسبق له نظير فى تاريخ الحروب [٤٢]) ، وترك ٣٫٠٠٠ آخرون قتلى ، ووقعت ١١٦ قطعة من قطع المدفعية فى أيدى البروسيين . كذلك كانت خسائر البروسيين كبيرة — ١٫١٤١ قتلى ، و٥٫١١٨ جرحى، و٨٥ أسرى . فلما انتهت المذبحة شكر فردريك قواده قائلا : (هذا اليوم سيذيع اسمكم واسم أمتكم إلى آخر الدهر [٤٣]) .

وواصل المنتصر انتصاره فى عزيمة صادقة ليسترد سيليزيا : فلم يمضى يوم على المعركة حتى حاصر جيشه الحامية النمساوية فى برزلاو . وأقام قائدها شبريشر اللافتات فى أرجاء المدينة ينذر فيها بالموت الناجز كل من يهمس بكلمة تسليم ، ولكن لم ينقض اثنا عشر يوما حتى سلم (١٨ ديسمبر) واستولى فردريك هناك على ١٧٫٠٠٠ أسيرا وعلى مخازن حربية ثمينة . وما لبثت سيليزيا كلها أن عادت إلى قبضة البروسيين باستثناء شفايدنتز ذات الحامية الكبيرة والحصون المنيعة . واعتكف الأمير شارل فى ضيعته بالنمسا بعد أن وجد نفسه ذليلا أمام لوم داون الصامت، ونصح برنيس وغيره من الزعماء الفرنسيين لويس الخامس عشر بعقد الصلح ولكن دبومباور [تغلبت عليهم ، وأحلت الدوق دشوازيل وزيرا للشئون الخارجية محل برنيس (١٧٥٨) ، بيد أن فرنسا فقدت حماسها للحرب إذ خامرها الشعور بأنها تحارب دفاعاً عن النمسا بينما تضحى بمستعمراتها . أما ريشليو فلم يبد حماسة تذكر ، ولا رغبة صادقة فى مواصلة الافادة من ميزته فى هانوفر ، بحيث استدعى من قيادته للجيش (فبراير ١٧٥٨) وعين بدلا منه الكونت دكليرمون ، وهو رئيس دير صرح له البابا بأن

يحتفظ بدخل منصبه الديني وهو يلعب دور القائد [٤٤] . وأخلى الفرنسيون هانوفر أمام خطى الزحف المصممة التي تقدم بها الدوق فرديناند البرنزويكي، فسلموا له ميندن في مارس ، وما لبثت وستفاليا كلها أن حررت من قبضة الفرنسيين الذين بغضوا الشعب فيهم هنا أيضاً بأعمال النهب والتدمير[٤٥]. وزحف فرديناند غربا وهزم قوة كليرمون الرئيسية بقوة لا تزيد على نصف رجال العدو في كريفيلد على الرين (٢٣ يونيو) ، وسلم كليرمون موقعه للدوق دكونتا . وانضم سوبيز إلى الجيش المهزوم بامداد فرنسية جديدة وفلول من مقاتلي معركة روسباخ ، وأمام هذه القوة المتحدة تقهقر فرديناند إلى مونستر وبادربورن .

وتشجعت انجلترة بموسم الانتصارات هذا . فأبرمت (١١ أبريل) معاهدة ثالثة مع فردريك ، ووعدته فيها بمعونة قدرها ٦٧٠٫٠٠٠ جنيه قبيل أكتوبر ، وتعهدت بعدم إبرام صلح منفرد [٤٦] . وفرض فردريك أثناء ذلك ضرائب على سكسونيا وغيرها من الأقاليم التي فتحها ، مسويا في ذلك بينهما وبين بروسيا التي أرهقت بالضرائب : وأصدر عملات مغشوشة . واستأجر (كنفولتير) الماليين اليهود ليعقدوا له صفقات رابحة بالعملة الأجنبية[٤٧]، فما حل ربيع ١٧٥٨ حتى كان قد أعاد بناء جيشه فأبلغه ١٤٥٫٠٠٠ مقاتل . وفي أبريل هاجم شفايدنتز واستردها ، وتحرك صوب الجنوب على رأس ٧٠٫٠٠٠ مقاتل إلى أولموتز في مورافيا متحاشيا الإلتقاء بالجيش النمساوي الرئيسي (الذي نظم من جديد تحت قيادةداون) وعلل نفسه بالزحف على فيينا ذاتها إذا استطاع الإستيلاء على هـذا الحصن النمساوي .

ولكن في نحو هذا الوقت ذاته اكتسح ٥٠٫٠٠٠ روسي بقودهم كونت فيرمور بروسيا الشرقية وهاجموا كوسترين ، التي لاتبعد عن برلين شرقا سوى خمسين ميلا ، وترك فردريك حصارا أولموتز وهرع الى الشمال على رأس ١٥٫٠٠٠ مقاتل . وفي الطريق نمى إليه نبأ مرضي

فلهلميني الذى بلغ مرحلة التأزم ، فتوقف فى جروساو ليرسل لها رسالة قلقة قال فيها « ياأعز أهلى ، ياأقرب إلى قلبى فى هذه الدنيا – لأجل كل ماهو غال عزيز لديك ، احتفظى بحياتك ، ودعينى اتعزى بزرف الدموع على صدرك »[٤٨] .

وبعد أن واصل السير أياماً وليالى انضم إلى قوة بروسية يقودها الكونت تسودوفا قرب كوسترين . وفى ٢٥ أغسطس ١٧٥٨ ، وبقوة قوامها ٣٦,٠٠٠ رجل التقى بجيش فيرمور وعدته ٤٢,٠٠٠ روسى عند تسورندورف . واستحال عليه هنا استعمال تكتيكه المفضل ، وهو الهجوم على الجناح ، بسبب الأرض المليئة بالمنافع ، وتبين أن فيرمور لايقل عن فردريك براعة فى القيادة وقاتل الروس ببسالة وإصرار ندر أن عرفها البروسيون فى النمساويين أو الفرنسيين وكسب سيدلتز وفرسانه ما أمكن أن يقع لهم من أمجاد يوم تنافس فيه العدوان فى التقتيل . وتقهقر الروس فى نظام حسن تاركين ٢١,٠٠٠ بين قتيل وجريح وأسير ؛ وخسر البروسيون ١٢,٥٠٠ بين قتيل وجريح و ١,٠٠٠ أسير .

ولكن منذا الذى يستطيع مواصلة القتال على كل هذه الجبهات فى وقت واحد ؟ بينما كان فردريك فى الشمال قاد داون جيشه إلى نقطة اتصل فيها بالفرق الإمبراطورية ، وشرع الآن فى حصار درسدن التى كان فردريك قد ترك فيها حامية بقيادة الأمير هنرى . وزحفت قوة من ١٦,٠٠ سويدى مخترقة بومرانيا ، وانضمت إلى الروس فى تدمير شطر كبير من إمارة برندنبورج ، وربما استطاعت معهم تهديد برلين ثانية . ودخل جيش جديد من ٣٠,٠٠٠ نمساوى ومجرى « يقودهم الجنرال هارش » سيليزيا واتجه إلى برزلاو . فأى هذه العواصم الثلاث يجب الدفاع عنها أولا ؟ وزحف فردريك بجيشه بسرعة اثنين وعشرين ميلا فى اليوم مخترقاً بروسيا إلى سكسونيا ، بعد أن أعاد تنظيم جنوده الذين ثبطت همتهم وأخلدوا الآن يتمردون ، فوصل إلى صهره المحاصر فى الوقت المناسب لثنى داون عن الهجوم وبعد أن أراح رجاله أسبوعين ، انطلق ليطرد هارش من سيليزيا وعند هوخكيرش بسيليزيا سد عليه داون الطريق . فضرب فردريك خيامه قرب العدو « وانتظر

أربعة أيام وصول المؤن من درسدن . وفجأة ، فى الخامسة من صباح ١٤ أكتوبر ١٧٥٨ ، هاجم داون جناح البروسيين الأيمن ، وكان فردريك قد اطمأن إلى أنه سيتجنب المبادأة . وتخفت حركة النمساويين وراء ضباب كثيف ، وأخذ البروسيون على غرة وهم نيام فعلا ، فلم يتسع الوقت لتكوين الخطوط التكتيكية التى رسمها فردريك . وعرض فردريك نفسه للخطر فى تهور وهو يحاول استعادة النظام ، فوفق فى ذلك ، ولكن بعد أن فات أوان إصلاح الموقف . وبعد خمس ساعات من قتال اشتبك فيه ٣٧,٠٠٠ بيدق مع ٩٠,٠٠٠ ، أعطى الإشارة للتقهقر ، تاركا ٩,٤٥٠ رجلا على ساحة المعركة مقابل ٧,٥٩٠ خسرهم النمساويون .

وعاد يفكر فى الانتحار . فأمام قائد كفء كداون يقود النمساويين ، وأمام قائد كفء كسالتيوكوف يحشد جيشاً روسياً جديداً ، وأمام قواته المضمحلة عدداً ، ونوعاً ونظاماً ، فى الوقت الذى يستطيع فيه أعداؤه تعويض أى خسارة ، أمام هذا كله وضح أن لا أمل فى انتصار البروسيين إلا بمعجزة ، وفردريك لا يؤمن بالمعجزات ، ففى غداة هوخكيرش اطلع قارئه ديكات على « دفاع عن الانتحار » كان قد كتبه ، وقال له « فى استطاعتى أن أختم المأساة حين أشاء »[٤٩] . فى ذلك اليوم (١٥ أكتوبر ١٧٥٨) ماتت فلهلميني تاركة تعليمات بأن توضع خطابات أخيها على صدرها فى قبرها[٥٠] . وناشد فردريك فولتير أن يكتب شيئاً فى ذكراها ، فاستجاب فولتير ، ولكن قصيدته « للنفس الباسلة النقية »[٥١] لم تستطع أن ترقى إلى مستوى الحرارة والبساطة اللتين نجدهما فى رثاء الملك الذى ضمنه « تاريخ حرب السنين السبع » قال :

« إن طيبة قلبها ، وأريحتها وسماحتها ، ونبل روحها وسموها ، وحلاوة طبعها ، جمعت فيها مواهب العقل اللامعة مع أساس من الفضيلة المكينة . وكان يربط الملك (وقد استعمل فردريك لفظ الغائب) بهذه الشقيقة الفاضلة أرق صداقة وأثبتها وقد تكونت هذه الروابط فى بواكير صباهما ، ثم وثق بينهما اشتراكهما فى تربية واحدة وعواطف واحدة ، وأصبحت هذه الروابط لا تقبل الانفصام بفضل وفائهما المتبادل فى كل امتحان يبتليان به »[٥٢] .

وأتى الربيع بمزيد من الجيوش الفرنسية فى ساحة القتال .فى ١٣ أبريل ١٧٥٩ فى بيرجن (قرب فرانكفوت على المين) أذاقت قوة يقودها دبرولى بكفاية فرديناند البرنزويكى طعم الهزيمة . ولكن فرديناند كفر عن هزيمته فى مندن ؛ فهناك (أول أغسطس) بجيش قوامه ٤٣,٠٠٠ ألمانى ، وإنجليزى ، واسكتلندى هزم ٦٠,٠٠٠ فرنسى يقودهم برولى وكونتار هزيمة منكرة ، وبخسارة قليلة جداً نسبياً ، بحيث استطاع أن يرسل ١٢,٠٠٠ جندى إلى فردريك ليعوض عما حل بجيش الملك من ضعف إثر حملة مشئومة فى الشرق .

ذلك أنه فى ٢٣ يوليو قهر جيش سالتيكوف المؤلف من ٧٠,٠٠٠ روسى وكرواتى وقوازق ، عند تسوليشاو ، جيشاً بروسيا قوامه ٢٦,٠٠٠ مقاتل كان فردريك قد تركهم لحراسة مداخل البلاد من بولندة إلى برلين ، ولم يقف الآن شىء فى طريق سيل روسى عرم قد يتدفق على العاصمة البروسية . ولم يكن أمام الملك من سبيل إلا الاعتماد على صهره ليدافع عن درسدن أمام داون ، بينما سار هو بنفسه للقاء الروس ، ووصلته التعزيزات فى الطريق ، فاستطاع أن يحشد ٤٨,٠٠٠ مقاتل ، ولكن ١٨,٠٠٠ نمساوى يقودهم الجنرال لاودون كانو أثناء ذلك قد انضموا إلى الروس ، فبلغ مجموع جيش سالتيكوف ٦٨,٠٠٠ . وفى ١٢ أغسطس ١٧٥٩ التحم هذان الجيشان — اللذان كانا أضخم كتلتين من اللحم البشرى القابل للاستهلاك منذ المذابح التى تبارى فيها الأعداء فى حرب الوراثة الاسبانية — وتخاضا عند كونرزدوف (على ستين ميلا شرقى برلين) أقسى معارك هذه الحرب — وأفجعها على فردريك . فبعد قتال دام اثنتى عشرة ساعة لاح أن الحظ فى جانبه ، وهنا هجم رجال لاودون الاحتياطيون — وعددهم ١٨,٠٠٠ — على البروسيين المنهوكى القوى وطاردوهم فى هزيمة نكراء . واقتحم فردريك كل خطر ليلم شعث جنوده ، وقادهم بشخصه ثلاث مرات فى الهجوم ، وضربت بالنار ثلاثة جياد من تحته ، وأوقفت علبة ذهبية صغيرة فى جيبه رصاصة كان يمكن أن تودى بحياته . ولم يكن سعيداً بفكرة الهروب ، فصاح « هلا أصابتنى طلقة لعينة ؟ » [٥٣] وتوسل إليه جنوده أن ينجو بنفسه ،

ولم يلبثوا أن ضربوا له المثل بأنفسهم فناشدهم قائلا : « ياأبنائى لا تتركونى الآن ، أنا مليككم ، وأبوكم ! » ولكن مامن حض كان قادراً على اقناعهم بالتقدم مرة أخرى . فلقد حارب الكثيرون منهم ست ساعات تحت شمس محرقة ، دون وقت أو فرصة يتناولون فيها قدحاً من الماء . فلاذوا بالفرار وأخيراً لحق هو بهم ، مخلفاً وراءه ٢٠,٠٠٠ مابين أسير ، وجريح ، وقتيل مقابل خسارة للأعداء قدرها ١٥,٧٠٠ . وبين الذين جرحوا جروحاً مميتة إيفالد فون كلايست ، أعظم شعراء العصر الألمانى .

وحالما وجد فردريك مكاناً يستريح فيه أرسل إلى الأمير هنرى رسالة يقول فيها « لم يبق لى فى هذه اللحظة سوى ٣,٠٠٠ من جيش بلغ ٤٨,٠٠٠ مقاتل، ولم أعد السيد المسيطر على قواتى .. أنها لكارثة فادحة ، ولن أعيش بعدها » . وأبلغ قواده أنه يوصى بالقيادة للأمير هنرى . ثم أرتمى على بعض القش واستغرق فى النوم .

وفى الغد وجد أن ٢٣,٠٠٠ من الهاربين من المعركة عادوا إلى فرقهم خجلين من هروبهم ، مستعدين للعودة إلى خدمته إن لم يكن لشيء فلأنهم يتوقون إلى الطعام . ونسى فردريك أن يقتل نفسه ، وبدلا من هذا أعاد تنظيم هؤلاء وغيرهم من الجنود المساكين فى جيش جديد بلغ رجاله ٣٢,٠٠٠ ، واتخذ له موقعاً على الطريق من كونرزدورف إلى برلين ، متوقعاً أن يبذل آخر محاولة لحماية عاصمته . ولكن سالتيكوف لم يأت . فرجاله أيضاً يجب أن يطعموا ، لأنهم كانوا فى أرض العدو ووجدوا الحصول على الطعام محفوفاً بالخطر ، وخط المواصلات مع بولندة طويل وغير مأمون . ورأى سالتيكوف أن قد آن الأوان ليأخذ النمساويون دورهم فى قتال فردريك . ومن ثم أصدر أمره بالتقهقر .

ووافق داون على أن الخطوة التالية يجب أن تكون خطوته وأحس بأن هذا هو وقت الاستيلاء على درسدن . وكان الأمير هنرى قد سحب قوة من المدينة لتنجد فردريك ، ولم يترك سوى ٣٠,٠٠٠ مقاتل لحراسة القلعة ، ولكن التحصينات القوية كانت قد أقيمت لصد الهجوم . وكان القائد الجديد

فى درسدن ، وهوكورت فون شمتاو « خادماً وفياً للملك » ولكنه حين تلقى كلمة من فردريك ذاته ، بعد كونرزدورف « بأن كل شىء قد ضاع » يئس من المقاومة الجدية . وكان جيش امبراطورى عدته ١٥,٠٠٠ مقاتل قادماً على درسدن من الغرب ، وداون ماض بهمة فى قذف المدينة بالمدافع من الشرق. وعليه فنى ٤ سبتمبر سلم شمتاو ، وفى ٥ سبتمبر جاءته رسالة من فردريك تأمره بالمقاومة لأن المدد فى الطريق إليه .. وأحال داون ، ومعه ٧٢,٠٠٠ مقاتل ، درسدن مقراً شتوياً لجيشه الآن . ووصل فردريك إلى فرايبورج القريبة منها وعسكر فى الشتاء بنصف هذا العدد .

وكان شتاء ١٧٥٩ — ١٧٦٠ قارس البرد جداً . فظل الثلج يكسوا الأرض إلى الركب أسابيع عديدة . ولم يجد غير الضباط مأوى فى البيوت » أما عامة جنود فردريك فسكنوا أكشاكاً مؤقتة » وراحوا يحتضنون النيران ليتدفأوا ، ويكدون فى قطع الخشب وجلبه وقوداً لها ، ولا يكادون يصيبون من الطعام غير الخبز وكانوا ينامون متلاصقين طلباً للدفء ، واقتضى المرض المعسكرين من الأرواح ما كاد يعدل ما اقتضته المعركة من قبل » فنى ستة عشر يوماً فقد جيش داون على هذا النحو أربعة آلاف رجل[٥٤]. وفى ١٩ نوفمبر كتب فردريك إلى فولتير يقول : « لو طالت هذه الحرب لارتدت أوربا إلى دياجير الجهل » ولأصبح معاصرونا أشبه بالوحوش الضارية »[٥٥].

وأشرفت فرنسا على الإفلاس على عظم ثرائها عن بروسيا فى المال والرجال ومع ذلك جهز شوازيل أسطولا ليغزو انجلترة ، ولكن الإنجليز دمروه فى خليج كويبرون (٢٠ نوفمبر ١٧٥٩) وضوعفت الضرائب بكل ما أوتيت الحكومات ورجال المال من براعة . وفى ٤ مارس ١٧٥٩ كانت المركيزة دمبادور قد وفقت فى تعيين إتيين دسلوويت مراقباً عاماً للمالية . فاقترح اختزال المعاشات » وفرض الضرائب على ضياع النبلاء ، وتحويل فضياتهم نقوداً ، وحتى فرض ضريبة على الملتزمين العاملين بجمع الضرائب . وشكا الأغنياء من أنهم يحالون إلى مجرد « ظل » لما كانوا عليه من قبل ، ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة Silhouette دليلا على شكل اختزل إلى أبسط صوره.

وفى ٦ أكتوبر أوقفت الحكومة الفرنسية دفع التزاماتها . وفى ٥ نوفمبر صهر لويس الخامس عشر أطباقه الفضية ليكون الأسوة الحسنه لشعبه ، ولكن حين اقترح سلوويت أن يستغنى الملك عن المبالغ التى تخصص عادة لقماره وألعابه ، وافق لويس ولكن فى ألم واضح جداً ، مما حمل شوازيل على الاعتراض على الفكرة . وفى ٢١ نوفمبر أقيل سيلوويت .

وأحس الملك كما أحس الفرنسيون جميعاً أنه شبع حربا ، وكان على استعداد للاستماع إلى مقترحات للصلح . وكان فولتير قد جس نبض فردريك فى أمر الصلح فى يونيو ، فأجاب فردريك (٢ يوليو) : « أنى أحب الصلح بقدر ما تتمنى ، ولكن أريده حسنا ، متينا ، شريفا » ، وفى ٢٢ سبتمبر أضاف فى رسالة أخرى لفولتير هناك شرطان للصلح لن أحيد عنهما أبدا : أولا : أن يبرم مشاركة مع حلفائى الأوفياء . . . ثانياً : أن يكون صلحاً شريفاً مجيدا [٥٦] . ونقل فولتير هذه الردود الأبية (التى كتب احدها بعد هزيمة كونرزدورف الساحقة) إلى شوازيل الذى لم يجد فيها ما يعين على المفاوضة . ثم هناك الحليف الوفى بت « المشغول بالتهام المستعمرات الفرنسية فكيف يبرم الصلح قبل أن يبنى الامبراطورية البريطانية ؟

٥ — بناء الامبراطورية البريطانية

أن أهم طور من أطوار حرب السنين السبع لم يقاتل فيه الخصوم فى أوروبا ، ففى أوروبا لم يحدث غير تغييرات صغيرة فى خريطة القوة . ولكنهم اقتتلوا على الأطلنطى ، وفى أمريكا الشمالية « وفى الهند . فى تلك المناطق كانت نتائج الحرب هائلة طويلة البقاء .

كانت أول خطوة تكوين الأمبراطورية البريطانية قد اتخذت فى القرن السابع عشر « وذلك بانتقال التفوق البحرى من أيدى الهولنديين إلى أيدى الانجليز . أما الثانية فحددتها معاهدة أوترخت (١٧١٣) التى منحت انجلترة احتكار توريد العبيد الأفارقة للمستعمرات الأسبانية والانجليزية

فى أمريكا . وكان العبيد ينتجون الأرز والتبغ والسكر ، وكان جزء من السكر يحول إلى شراب الروم ، وشاركت تجارة الروم فى إثراء تجار انجلترة (القديمة والجديدة) ومولت أرباح التجارة التوسع فى الأسطول البريطانى. فما حلت سنة ٥٨ [٥٧] حتى كان للانجليز ١٥٦ سفينة حربية ، ولم يكن لفرنسا غير ٥٧٧٧ ومن ثم كانت الخطوة الثالثة فى بناء الأمبراطورية هى اضعاف القوة الفرنسية فى البحار . وقطع هذه العملية انتصار ريشيليو فى مينورقة ، ولكنها استؤنفت بتدمير أسطول فرنسى أمام لاجوس « بالبرتغال (١٣ ابريل ١٧٥٩) ، وأسطول آخر فى خليج كويبرون . ونتيجة لذلك هبطت تجارة فرنسا مع مستعمراتها من ثلاثين مليونا من الجنيهات فى ١٧٥٥ إلى أربعة ملايين فى ١٧٦٠ .

أما وقد تمت السيادة على الأطلنطى ، فقد انفتح الطريق أمام البريطانيين ليفتحوا أمريكا الفرنسية ، ولم تقتصر هذه على حوض نهر سانت لورنس واقليم البحيرات العظمى « بل شملت حوض المسيسبى من البحيرات إلى خليج المكسيك » لا بل أن وادى نهر أوهايو كان فى قبضة الفرنسيين . وسيطرت القلاع الفرنسية على شيكاغو ، وديترويت ، وبتسبرج — التى كان تغيير اسمها من فوردوكين رمزا لنتائج الحرب . وكانت الممتلكات الفرنسية تقف عقبة أمام توسع المستعمرات الانجليزية فى أمريكا نحو الغرب. ولولم تنتصر انجلترة فى حرب السنين السبع لإنقسمت أمريكا الشمالية إلى انجلترا جديدة فى الشرق ، وفرنسا جديدة فى الوسط ، وأسبانيا جديدة فى الغرب « ولتكررت نسخة من انقسامات أوربا وصراعاتها فى أمريكا . وقد حذر بنيامين فرانكلين المسالم المستعمرين الانجليز من أنهم لن يكونوا آمنين فى ممتلكاتهم ، ولا أحرارا فى نموهم ، مالم يوقف الفرنسيين فى توسعهم الأمريكى ، وقد دخل جورج واشنطن التاريخ بمحاولته الاستيلاء على فور دوكين .

كانت كندا ولويزيانا مدخلى أمريكا الفرنسية ، وأقربهما إلى انجلترة

وفرنسا هي كندا فعن طريق السنت لورنس كانت تصل المؤن والجنود إلى « المستوطنين » ، وكانت تحرس ذلك الباب قلعة لويبورج الفرنسية على رأس جزيرة بريتون عند مصب النهر العظيم . وفي ٢ يونيو ١٧٥٨ حاصر لويبرج اسطول انجليزى صغير من اثنين وأربعين سفينة تحمل ١٨٫٠٠٠ جندى يقودهم الأميرال إدورد بوسكاون . ودافع عن الحصن عشر سفن و٦٫٢٠٠ مقاتل ، واعترض الأسطول البريطانى التعزيزات المرسلة من فرنسا . وقاتلت الحامية ببسالة » ولكن سرعان ما حطمت المواقع البريطانية وسائل دفاعها . وكان تسليم الحصن (٢٦ يوليو ١٧٥٨) بداية الفتح البريطانى لكندا .

ولم تفلح استراتيجية المركيز دمونكالم وبطولته فى تعطيل سير العملية إلا قليلا . فبعد أن أوفدته فرنسا (١٧٥٦) ليقود الجنود النظاميين فى كندا ، ظفر بالنجاح تلو النجاح إلى أن احبطه ما تفشى فى الإدارة الفرنسية — الكندية من فساد وخلل » وما تبين من عجز فرنسا عن موافاته بالمدد : وفى ١٧٥٧ حاصر قلعة وليم هنرى واستولى عليها ، وهى تقع على رأس بحيرة جورج . وفى ١٧٥٨ هزم ١٥٫٠٠٠ من جنود بريطانيا والمستعمرات عند تيكوندروجا بقوة قوامها ٣٫٨٠٠ مقاتل . ولكنه التقى بقريمه حين دافع عن كويبك بقوة قوامها ١٥٫٠٠٠ رجل ضد القائد الانجليزى جيمس وولف الذى لم يكن تحت قيادته أكثر من ٩٠٠٠ جندى . وتقدم وولف بنفسه جنوده فى تسلق المرتفعات إلى سهول ابراهام . وجرح مونكالم جرحا مميتا وهو يدير الدفاع ، وجرح وولف جرحا مميتا على ساحة النصر (١٢ — ١٣ سبتمبر ١٧٥٩) . وفى ٨ سبتمبر ١٧٦٠ سلم فودرى — كافانيال ، حاكم كندا الفرنسى ؛ وبسطت بريطانيا سلطانها على هذا الاقليم الكبير .

وبعد أن وجه الانجليز مراكبهم صوب الجنوب هاجموا الجزر الفرنسية فى البحر الكاريبى . فاستولوا على جودلوب فى ١٧٥٩ ، وعلى المارتنيك فى ١٧٦٢ ، ووقعت كل الممتلكات الفرنسية فى جزر الهند الغربية —

باستثناء سان — دومنج — فى قبضة بريطانيا . وطلبا للمزيد من مكاسب النصر أرسل بت الأساطيل إلى افريقا للاستيلاء على محطات النخاسة الفرنسية على الساحل الغربى ، فاستولت عليها ، وانهارت تجارة الرقيق الفرنسية ، واضمحل ثغرها الرئيسى فى فرنسا وهو نانت . وارتفع ثمن العبيد فى جزر الهند الغربية ، وحقق تجار الرقيق البريطانيون ثروات جديدة بتلبية الطلب على العبيد [٥٨]. وينبغى أن نضيف هنا أن الانجليز لم يكونوا أكثر قسوة فى هذه العملية الأمبريالية من الأسبان أو الفرنسيين ، إنما كانوا أكفأ منهم وفى انجلترة بدأت حركة مقاومه الرق تتخذ شكلا فعالا .

وفى غضون ذلك كانت روح المغامرة البريطانية — الحربية والبحرية ، والتجارية — مشغولة بالتهام الهند — فقد أقامت شركة الهند الشرقية الانجليزية معاقل لها فى مدراس (١٦٣٩) ، وبمباى (١٦٦٨) وبوندتشيرى ، جنوبى مدراس (١٦٨٣) ، وفى شندرناجور شمال كلكتا . كل مراكز القوة هذه اتسعت فى الوقت الذى اضمحل فيه حكم المغول فى الهند ، واستعمل كل فريق الرشوة والقوة العسكرية لمد منطقة نفوذه وكانت فرنسا وانجلترة قد اشتبكتا معاً فى الهنـــد ابان حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ — ٤٨) ولم يفعل صلح إكس لا شابل أكثر من قطع الصراع فترة ، والآن جددته حرب السنين السبع . فنى مارس ١٧٥٧ استطاع أسطول إنجليزى يقوده الأميرال تشارلز وطسن ، ويعاونه جنود شركة الهند الشرقية بقيادة غلام من شروبشير يدعى روبرت كلايف أن ينتزع شندرناجور من الفرنسيين ، وفى ٢٣ يونيو ، وبقوة لاتزيد على ٣٫٢٠٠ جندى ، هزم كلايف ٥٠٫٠٠٠ هندوكى وفرنسى عند بلاسى (على ثمانين ميلا شمال كلكتا) فى معركة أكدت السيادة البريطانية على شمال شرق الهند . وفى أغسطس ١٧٥٨ طرد أسطول انجليزى بقيادة الأميرال جورج بوكوك من المياه الهندية الأسطول الفرنسى الذى كان يحمى الممتلكات الفرنسية على طول الساحل . بعد ذلك بفضل ما امتاز به البريطانيون على الفرنسيين من القدرة

على جلب الرجال والمؤن ، لم يكن انتصار انجلترة إلا مسألة شهور. فى ١٧٥٩ أحبط وصول المؤن والامداد البريطانية بحرا الحصار الفرنسى الذى فرضه على مدراس الكونت دلالى . وهزم الفرنسيون هزيمة فاصلة فى وانديووش فى ٢٢ يناير ١٧٦٠ ، وسلمت بوندتشيرى للبريطانيين فى ١٦ يناير ١٧٦١ وقد ردت هذه المحطة الأمامية ، وهى آخر المحطات الفرنسية إلى فرنسا ١٧٦٣ ولكن كان مفهوما للجميع أن بقاء السيادة الفرنسية رهن برضاء بريطانيا .

وظلت الهند وكندا حتى عصرنا هذا معقلين ، فى الشرق والغرب ، لأمبراطورية بنيت بالمال والشجاعة ، والقسوة والذكاء ، فى توافق تام مع أخلاقيات القرن الثامن عشر الدولية . ونحن ندرك الآن فى استعراضنا للماضى بعد هذه الفترة الطويلة أن تلك الأمبراطورية كانت نتاجا طبيعيا للطبيعة البشرية والأحوال المادية . وأن البديل لها لم يكن استقلال الشعوب العاجزة بل امبراطوية نظيرها تؤسسها فرنسا . ويمكن القول إنه فى المدى الطويل ، برغم رجال من أمثال كلايف وهيستنجز وكبانج ، فان حكم نصف العالم بواسطة البحرية البريطانية — أى الحفاظ على النظام حفاظا انسانيا وحسما نسبيا وسط الفوضى المهددة أبداً — كان نعمة لا نقمة على البشر .

٦ — الأعياء : ١٧٦٠ — ٦٢

ترى ماذا كان الثعلب البروسى المطارد يفعل فى شتاء ١٧٥٩—٦٠ القارس؟ كان يجمع المال ويزيف العملة ، يجند الرجال ويدربهم ، ويقرض الشعر ويذيعه على الناس . ففى يناير أصدر ناشر باريسى لص « أعمال فيلسوف صان — سوسى » وطبع فى اغتباط تلك القصائد المستهترة التى كان فولتير قد حملها معه من بوتسدام عام ١٧٥٣ والتى بسببها أوقفت رحلته بأمر فردريك وحبس فى فرانكفورت — على المين. وقدر الناشر أن تلك القصائد ستضحك الرؤوس غير المتوجة ، ولكنها ستجعل الباروكات الملكية ترتعد غضباً ، بما فيها باروكات جورج الثانى حليف فردريك .وأكد فردريك أن المطبوع المسروق

شوهته إضافات مدسوسة خبيثة » وأمر صديقه المركيز دارجانس (مدير الفنون الجميلة فى أكاديمية برلين) بأن يصدر للفور « طبعة صحيحة » منقاة بعناية . فما لبثت الطبعة أن صدرت فى مارس ، واستطاع فردريك أن يفرغ للحرب من جديد . وفى ٢٤ فبراير كتب إلى فولتير يقول :

لقد نشر الحديد والموت بيننا الخراب الرهيب والحزن أننا لم نبلغ بعد نهاية المأساة . ومن السهل أن تتصور أثر هذه الصدمات القاسية فى نفسى . وأنا ألوذ بالرواقية ما استطعت . لقد غدوت عجوزاً ، محطماً ، أشيب الشعر مجعد البشرة ؛ وأنا أفقد أسنانى ومرحى (٥٩).

وكانت الحشود الماثلة من الجند تساق للفصل فى أى الحكام سيفنى أكثر الرجال . كان سالتيكوف عائداً من روسيا فى إبريل على رأس ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وكان للأودون ٥٠,٠٠٠ نمساوى فى سليزيا مقابل ٣٤,٠٠٠ يقودهم الأمير هنرى ؛ وكان داون فى درسدن بمقاتليه المائة ألف يأمل أن يشق له طريقاً وسط رجال فردريك البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ والمعسكرين الآن قرب مايسن ؛ وكان الفرنسيون وعددهم ١٢٥,٠٠٠ ينتظرون للزحف على ٧٠,٠٠٠ يقودهم فرديناند، وبلغت جملة المقاتلين الموجهين إلى برلين ٣٧٥,٠٠٠ رجل. وفى ٢١ مارس ١٧٦٠ جددت النمسا وروسيا تحالفهما وأضافتا مادة سرية تعطى بروسيا لروسيا بمجرد رد سيليزيا إلى النمسا (٦٠).

وكان لاودون البادىء بإراقة دماء عام ١٧٦٠ » إذ سحق ١٣,٠٠٠ بروسى عند لانديشوت (٢٣ يوليو) . وفى ١٠ يوليو شرع فردريك فى حصار درسدن بمدفعية ثقيلة، فدمر الجزء الأكبر من أجمل مدينة فى ألمانيا، ولكن القصف لم يجده شيئاً، فلما نمى إليه أن لاودون يقترب من برزلاو أقلع عن الحصار، وسير رجاله مائة ميل فى خمسة أيام والتقى بجيش لاودون فى ليجنتز (١٥ أغسطس ١٧٦٠) وكبده خسارة ١٠,٠٠٠ رجل، ثم دخل برزلاو. ولكن فى ٩ أكتوبر أستولى جيش قوازقى يقوده فرمور على برلين » ونهب مستودعاتها الحربية ، وفرض عليها فدية مقدارها مليوناً طالر — وهذا يساوى نصف المعونة المالية التى كان فردريك يتلقاها سنوياً من بريطانيا . وخف لنجدة عاصمته ، ففر

الروس حال سماعهم بقدومه ، وقفل فردريك إلى سكسونيا » وفى طريقه كتب إلى فولتير (٣٠ أكتوبر) يقول « إنك محظوظ باتباعك نصيحة كانديد والاكتفاء بزرع حديقتك وما كل إنسان يتاح له أن يفعل ماتفعل . فعلى الثور أن يحرث الأرض ، وعلى البلبل أن يغنى ، وعلى الدرفيل أن يسبح ، وعلىّ أن أقاتل»[٦١].

وعند تورجاو على نهر الألب (٣ نوفمبر) التقى رجاله وعددهم ٤٤,٠٠٠ بجيش نمساوى قوامه ٥٠,٠٠٠ » وأرسل فردريك نصف جيشه بقيادة يوهان تسيتن ليطوق العدو ويهاجمه فى المؤخرة ، ولكن المناورة أخفقت لأن فصيلة للعدو عطلت تسيتن فى الطريق . وقاد فردريك كتائبه بشخصه إلى وطيس المعركة ؛ هنا أيضاً أطلقت النار على ثلاثة جياد من تحته وأصابته قذيفة فى صدره ، ولكنها كانت قد فقدت مفعولها » وصرع على الأرض فاقد الوعى ولكنه سرعان ماأفاق فقال : « حادث تافه» ثم عاد إلى المعركة . وكان انتصاره غالى الثمن ، فقد ارتد النمساويون بعد أن فقدوا ١١,٢٦٠ رجلا ولكن فردريك ترك ١٣,١٢٠ بروسيا على أرض المعركة ، وانسحب إلى برزلاو التى أصبحت الآن أهم مركز لامداداته . وكان داون لا يزال محتفظاً بدرسدن منتظراً فى صبر موت فردريك . ثم منح الشتاء الأحياء مهلة ثانية .

وكانت سنة ١٧٦١ سنة دبلوماسية أكثر منها سنة حرب . فى انجلترا كان موت جورج الثانى (٢٥ أكتوبر ١٧٦٠) الذى كان عميق الاهتمام بهانوفر ، وارتقاء جورج الثالث العرش ، وكان اهتمامه بها الأقل بكثير » بمثابة تصديق ملكى على كراهية الشعب لحرب تكلف المالية الإنجليزية عبئاً باهظاً . وجرب شوازيل أن نجس فرنسا نبض انجلترة لعقد صلح منفرد » ولكن بت رفض » وظل على وفائه المطلق لفردريك ، ولكن القوة البريطانية فى هانوفر خفض عددها ، واضطر فرديناند إلى التخلى برنزويك وفولفنبوتل للفرنسيين . واتجه شوازيل إلى أسبانيا ، وعقد معها » ميثاقاً عائلياً » بين الملكين البوربونيين ، أغراها فيه بالإنضمام إلى الحلف المعادى لبروسيا » وتضافرت التطورات الحربيه مع هذه النكسات الدبلوماسية لدفع فرديك مرة

أخرى إلى شفا الهزيمة النكراء . فقد استطاع لاودون بجيش من ٧٢,٠٠٠ مقاتل أن ينضم إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل روسى ، فعزلوا فردريك عن بروسيا عزلا تاماً ، ووضعوا الخطط للاستيلاء على برلين والاحتفاظ بها . وفى أول سبتمبر ١٧٦١ عاد النمساويون للاستيلاء على شفايدنتز ومستودعاتهـا . وفى ٥ أكتوبر استقال بت ، مؤثراً الاستقالة على خيانة فردريك بعد أن غلبته على أمره مطالبة الشعب بالصلح . ورأى خلفه إيرل بيوت أن قضية فردريك ميئوس منها ، وأن المفاوضة للصلح وسيلة لدعم مركز جورج الثالث ضد البرلمان . فألح على فردريك فى أن يسلم بالهزيمة ولو إلى حد التنازل عن جزء من سليزيا للنمسا . وتردد فردريك ، وقبض عنه بيوت المزيد من العون المالى ودعت أوربا كلها تقريباً ، بما فيها الكثير من البروسيين ، فردريك إلى بذل التنازلات . وكان جنوده قد فقدوا كل أمل فى النصر « وأنذروا ضباطهم بأنهم لن يهاجموا العدو مرة أخرى » وأنهم يستسلمون إذا هوجموا [٦٢] ومااختتم عام ١٧٦١ حتى وجد فردريك نفسه يقف وحيداً أمام أكثر من عشرة أعداء . واعترف بأن لا خلاص إلا بمعجزة .

وقد أنقذته معجزة . ففى ٥ يناير ١٧٦٢ ،[٦٣] ماتت القيصرة اليزافيتا التى تمقت فرديك « وخلفها بطرس الثالث الذى كان يعجب به مثلا أعلى للفاتح والملك . فلما سمع فردريك النبأ أمر أن يكسى جميع الأسرى الروس ويعطوا نعالا ويطعموا ويطلق سراحهم . وفى ٢٣ فبراير أعلن بطرس نهاية الحرب مع بروسيا . وفى ٥ مايو وقع معاهدة صلح وضعها فردريك بنفسه بناء على طلبه . وفى ٢٢ مايو حذت السويد حذو روسيا . وفى يونيو دخل بطرس الحرب من جديد » ولكن حليفاً لبروسيا « وارتدى حـــلة عسكرية بروسية وتطوع للخدمة « تحت قيادة مولاى الملك » . فكان هـــذا من أعجب الانقلابات فى التاريخ .

ولقد أدفأ صدر فردريك ، ورفع روح جيشه ، ولكنه وافق أعداءه بعض الشىء على أن بطرس رجل مختل العقل ، وأفزعه أن يسمع برغبة بطرس فى مهاجمة الدنمرك ليستعيد هولشتين . فبذل فردريك قصارى

جهده ليثنيه ، ولكن بطرس أصر ، وأخيرا — فى رواية فردريك — « اضطررت لإلتزام الصمت ، وترك هذا الملك المسكين إلى هذا الاعتداد بالنفس الذى دمره »[٦٤] .

أما بيوت ، الذى انقلب الآن عدوا نشيطاً لفردريك ، فقد طلب إلى بطرس أن يترك العشرين ألف روسى الموجودين فى الجيش النمساوى حيث هم . وأرسل بطرس نسخة من الخطاب إلى فردريك ، وأصدر أمره للجنود الروسية بالانضمام إلى فردريك والخدمة فى صفوفه ، وعرض بيوت على النمسا صلحا منفردا ، واعدا اياها بتأييد التخلى لها عن أقاليم بروسية، ولكن اوتتر رفض ،وندد فردريك ببيوت لأنه وغد[٦٥].وسره أن يسمع بأن فرنسا أنهت معونتها المالية للنمسا ، وأن الترك يهاجمون النمساويين فى المجر (مايو ١٧٦٢) .

وفى ٢٨ يونيو عزل بطرس بانقلاب أجلس على العرش كاترين الثانية « امبراطورة للاقاليم الروسية كلها » وفى ٦ يوليو اعتقل بطرس ، وأصدرت كاترين الأمر لكزرنيكيف ، الذى تولى قيادة الروس تحت فردريك ، بأن يعود بهم إلى أرض الوطن فورا . وكان فردريك يتجهز لهجوم على داون . فطلب إلى كزرنيكيف أن يخفى نبأ تعليمات القيصرة ثلاثة أيام . وهزم فردريك داون فى بوركرزدورف(٢١ يوليو) دون أن يستخدم هؤلاء الروس الاحتياطيين . وسحب كزرنيكيف الآن جنوده ، ولم تعد روسيا تشارك بأى دور فى الحرب . أما وقد خف الخطر عن الملك فى الشمال ، فأنه ساق النمساويين أمامه ، واستولى من جديد على شفايدنتز وفى ٢٩ اكتوبر هزم الأمير هنرى ، بجيش من ٢٤٫٠٠٠ مقاتل ، ٣٩٫٠٠٠ نمساوى وجندى امبراطورى عند فرايبورج بسكسونيا . وكانت هذه هى العملية الحربية الكبرى الوحيدة التى انتصر فيها البروسيون دون أن يكونوا تحت قيادة فردريك . وكانت أيضا آخر المعارك الهامة فى حرب السنين السبع .

٧ — الصلح

لقد أدرك الأعياء غرب أوربا كلها ، وأولها بروسيا ، التي جند فيها الصبية ذوو الأربعة عشر ربيعا ، ودمرت المزارع ، وأفلس التجار من جراء خنق التجارة ، أما النمسا فكانت تملك من الرجال أكثر مما تملك من المال ، وقد فقدت المعونة الروسية القيمة . وأما أسبانيا ففقدت هافانا ، ومانيلا لاستيلاء الانجليز عليهما ، فضلا عن تدمير بحريتها كلها تقريبا . وأما فرنسا فقد أفلست ، وضاعت مستعمراتها ، وأوشكت تجارتها أن تختفي من البحار . وأما انجلترة فقد احتاجت إلى السلام لتدعم مغانمها .

وفي ٥ سبتمبر ١٧٦٢ أوفد بيوت دوق بدفورد إلى باريس ليفاوض شوازيل في تسوية للصراع . فاذا نزلت فرنسا عن كندا والهند فان انجلترة سترد جواديلوب والمارتنيك ، ولفرنسا أن تحتفظ ، بموافقة بريطانيا ، باقليمي فردريك الغربيين ، وهما فيزل وجلدرلاند[٦٦] . وندد بت بهذه المقترحات ببلاغة ملتهبة ، ولكن الرأي العام أيد بيوت ، وفي ٥ نوفمبر وقعت انجلترة والبرتغال مع فرنسا وأسبانيا صلح فونتنبلو . ونزلت فرنسا عن كندا ، والهند ، ومينورقة ، وردت انجلترة لفرنسا وأسبانيا فتوحها في البحر الكاريبي . ووعدت فرنسا بأن تلتزم الحياد من بروسيا والنمسا ، وأن تسحب جيوشها من الأراضي البروسية في غرب ألمانيا . وأكد هذه الترتيبات صلح آخر يسمى صلح باريس (١٠ فبراير ١٧٦٣) ، ولكنه ترك لفرنسا حقوق صيدها قرب نيوفوندلند ، وبعض المحطات التجارية في الهند ، ونزلت أسبانيا عن فلوريدا لانجلترة ، ولكنها أخذت لويزيانا من فرنسا . وكانت هذه الترتيبات ، من الناحية القانونية انتهاكا لتعهد بريطانيا بألا تبرم صلحا منفردا ، ولكنها من الناحية العملية كانت نعمة لفردريك . لأنها أعفته من جميع خصومه إلا اثنين ، النمسا والرايش ، وكان على ثقة الآن بأن في استطاعته أن يثبت لهذين العدوين اللذين ثبطت همتهما .

وراضت ماريا تريزا نفسها على الصلح مع أبغض أعدائها إلى قلبها . فقد تخلى عنها جميع حلفائها الكبار ، وكان ١٠٠٫٠٠٠ تركى يزحفون على المجر ، فأوفدت مبعوثا لفردريك يعرض عليه المدنة ، فقبلها ، وفى هوبرتوزبرج (قرب ليبزج) ، فى ٥ — ١٥ فبراير ١٧٦٣ ، وقعت بروسيا ، والنمسا ، وسكسونيا ، والأمراء الألمان ، المعاهدة التى أنهت حرب السنين السبع . وبعد كل ما أريق من دماء ودوقاتيات ، ورويلات ، وطالرات وكرونات ، وفرنكات ، وجنيهات ، أعيد «الوضع السابق للحرب» فى القارة . واحتفظ فردريك بسيليزيا ، وجلاتز ، وفيزل ، وجلدرلاند ، وأخلى سكسونيا ، ووعد بأن يؤيد ترشيح جوزيف ابن ماريا تريزا ملكا على الرومان ، وإذن امبراطورا مستقبلا . وعند التوقيع النهائى هنأ فردريك مساعدوه على ، أسعد أيام حياتك ، ، فأجاب بأن أسعد أيام حياته سيكون آخرها (٦٧) .

ماذا كانت نتائج الحرب ؟ على النمسا فقد سيليزيا نهائيا مع دين حرب قدره ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ إيكو . وقضى على هيبة الحكام النمساويين باعتبارهم الأصحاب التقليديين للقب الأمبراطورى ، وقد عامل فردريك ماريا تريزا معاملته لحاكمة لامبراطورية نمساوية — مجرية ، لا رومانية مقدسة ، وترك أمراء الأمبراطورية الألمان الآن وشأنهم ، وسرعان ما سيخضعون لزعامة بروسيا فى الرايش ، لقد اضمحل سلطان آل هابسبورج وصعد سلطان آل هوهنتسولرن ، وأصبح الطريق ممهدا لبسمارك . وبدأت النزعتان الوطنية والقومية تفكران تفكير ألمانيا الموحدة بدلا من تفكير الدولة المعتزة باستقلالها عن غيرها من الدويلات . وحفز الأدب الألمانى فأنجب شتورم ودرانج ، ثم صعد إلى جوته وشيلر .

أما السويد ففقدت ٢٥٫٠٠٠ رجل ، ولم تغنم غير الديون . وأما الروسيا ففقدت ١٢٠٫٠٠٠ رجل بين المعارك ، والشدائد ، والأمراض ، ولكنها ستعوضهم عما قليل ، ولقد فتحت عهدا جديداً فى تاريخها الحديث بزحف جيوشها فى الغرب ، وأصبح تقسيم بولندة الآن أمرا لا مناص منه ، وأما فرنسا فلم تجن غير الخسائر الفادحة فى مستعمراتها وتجارتها ، وحالة

قريبة من الافلاس دفعها خطوة أخرى إلى الأنهيار . وأما انجلترة فكانت النتائج بالنسبة لها أعظم حتى مما قدر زعماؤها ، السيطرة على البحار ، والسيطرة على عالم المستعمرات ، وتأسيس امبراطورية عظيمة ، وبداية ١٨٢ سنة من السيادة فى العالم . وأما بروسيا فخسرت خراب أراضيها وتدمير ثلاثة عشر ألف منزل فيها ، وإحراق مائة مدينة وقرية سويت بالتراب ، واقتلاع آلاف الأسر من مواطنها ، ومات ١٨٠,٠٠٠ بروسى (حسب تقدير فردريك) [٦٨] فى المعارك أو المعسكرات أو الأسر ، ومات حتى أكثر من هؤلاء لنقص الدواء أو الطعام ، وفى بعض المناطق لم يبق غير النساء والشيوخ ليزرعوا الحقول ، وهبط السكان من ٤,٥٠٠,٠٠٠ فى ١٧٥٦ ، إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ فى ١٧٦٣ .

وغدا فردريك الآن بطل ألمانيا بأسرها (عدا سكسونيا !) فدخل برلين دخول الظافر بعد غياب ستة أعوام . وتوهجت المدينة بالأضواء ترحيبا به ، وأشادت به منقذا لها ، وذلك رغم عوزها وفجيعة كل أسرة فيها . ولانت روح هذا المحارب القديم التى قدت من فولاذ فهتف « عاش شعبى العزيز طويلا ! عاش أبنائى طويلا . » [٦٩] لقد كان فى قدرته أن يتواضع ، وفى الساعة التى تملقه فيها الجميع لم ينس الأخطاء الكثيرة التى ارتكبها قائداً — مع أنه أعظم القواد الذين أنجبهم العصر الحديث باستثناء نابليون . ولم يغب عن بصره آلاف الشبان البروسيين الذين بذلوا دماءهم ثمناً لسيليزيا . ولقد بذل هو أيضاً الثمن ، فشاخ قبل أوانه وهو بعد فى الحادية والخمسين ، واحدودب ظهره ، وهزل وجهه وجسمه ، وسقطت أسنانه ، وشاب أحد مفرقيه ، واضطربت أحشاؤه بالمغص ، والإسهال ، والبواسير [٧٠] وقال معقبا « إن أصلح مكان له الآن هو ملجأ للعجائز ذوى العلل المزمنة » وقد عمر ثلاثة وعشرين عاما أخر ، وحاول أن يكفر عن آثامه بحكم يتسم بالسلام والنظام .

أما أهم نتائج حرب السنين السبع من الناحية السياسية فهى ظهور الامبراطورية البريطانية ، وانبعاث بروسيا دولة من الطراز الأول ، أما من الناحية الاقتصادية فهى التقدم صوب الرأسمالية الصناعية : فقد كانت

تلك الجيوش العملاقة أسواقاً رائعة للاستهلاك الجماعى للسلع المنتجة بمقادير كبيرة ، فأى زبون أفضل من ذاك الذى يعد بتدمير السلع المشتراه فى أقرب فرصة وطلب غيرها ؟ وأما من الناحية الخلقية فأن الحرب أعانت على التشاؤم ، والكلبية ، والفوضى الخلقية ، فالحياة رخصت ، والموت قريب ، والعذاب هو القاعدة ، والنهب مباح ، واللذة تقتنص حيثما وجدت ولو لحظة . قال جريم فى وستفاليا عام ١٧٥٧ ، لولا هذه الحملة لما أدركت قط إلى أى مدى بعيد يمكن أن تبلغ أهوال الفقر وظلم الإنسان ، [٧٢] ولم تكن الحرب إلا فى بدايتها . وقد أعان العذاب الدين كما عوقه . فإذا كانت قلة من الناس تحولت إلى الكفر لواقعية الشر الصارخة ، فأن الكثرة دفعت إلى التقوى لحاجتها إلى الإيمان بانتصار الخير فى النهاية . وعما قليل ستكون عودة إلى الدين فى فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا وقد أنقذت البروتستنتية فى انجلترة من الدمار ، ولو أن فردريك خسر الحرب لحل ببروسيا فى أغلب الظن ما حل ببوهيميا بعد عام ١٦٢٠ ، فأكرهت على العودة إلى المذهب والقوة الكاثوليكيين ، أن انتصار الخيال على الواقع ثروة من نزوات التاريخ .

الكتاب الثانى

فرنسا قبل الطوفان

١٧٥٧ — ١٧٧٤

الفصل الثالث

حياة الدولة

---

١ — رحيل الخليلة

كانت مدام دبومبادور إحدى ضحايا الحرب . فقد ظل سحر شخصيتها حينا يسترق لب الملك بينما الأمة تنوح ، ولكن بعد أن حاول داميان إغتياله (٥ يناير ١٧٥٧) أرسل إليها لويس الخامس عشر كلمة يأمرها فيها بالرحيل فوراً ، وكأنه شعر فجأة بوجود الله . ولكنه أرتكب غلطة إنسانية حين أتى ليودعها ، ووجدها تحزم حقائبها هادئة حزينة ، فغلبه بعض ما بقى له من رقة وحنان ، وطلب إليها أن تبقى[1] . وسرعان ما ردت إليها كل امتيازاتها وسلطاتها السابقة ، فكانت تفاوض الدبلوماسين والسفراء ، وترفع الوزراء والقواد وتخفضهم . وكان مارك بيير دفواييه ، كونت دارجنسون ، قد قاومها فى كل خطوة ، وحاولت أن تسترضيه قصدها ، فأفلحت الآن فى أن تحل الابيه دبرنيس محله وزيرا للشئون الخارجية ، ثم شوازيل (١٧٥٨) . واحتفظت بحنانها لأقربائها وللملك فقط ، وواجهت غير هؤلاء بقلب من حديد فى هيكل مريض ، وزجت ببعض خصومها فى الباستيل وتركتهم فيه سنوات[2] . وفى غضون ذلك راحت تدخر لغدها ، وزينت قصورها ، وأمرت بتشييد ضريح فخم لها تحت ميدان فاندوم .

وقد حملت فى نظر الشعب ، وفى البرلمان ، وفى القصر ، أكثر التبعة على هزائم فرنسا فى الحرب ، ولكنها لم تنل أى ثناء على انتصاراتها ، فاعتبرت مسئولة عن الحلف البغيض مع النمسا ، وأن لم تكن سوى عامل صغير من عوامل ذلك التزاوج ، وأدينت بسبب الكارثة التى حاقت بالجيش فى روسباخ حيث قاد الفرنسيين رجلها سوبيز ، ولم يعرف نقادها — أو رأوه غير ذى صلة بالموضوع — أن سوبيز أشار بعدم خوض المعركة ، وأنه أكره عليها بتهور القائد الإلمانى . ولو أن الأمر كان بيد سوبيز ، ولو اتبعت خطته التى أشار بها — وهى تدويخ فردريك بالمسيرات وبهروب الجند من جيشه — ، ولو أن القيصرة اليزافيتا لم تمت فى هذا الظرف غير الموائى ولم تترك روسيا لفتى من عباد فردريك — لو أن هذا حدث فربما انهارت مقاومة بروسيا ، ونالت فرنسا الأراضى الواطئة النمساوية ، وحملت بومبادور فوق بحر من الدماء لتهتف لها الأمة . ولكنها أخفقت فى استرضاء إله الصدفة العظيم .

وأبغضها البرلمـــان لأنها شجعت الملك على أن يتجاهله ، وأبغضها الأكليروس لأنها صديقة لفولتير ولكتاب الموسوعة ، وقال كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، أنه « يتمنى أن يراها تحرق بالنار[٣] » . وحين عانت الجماهير الباريسية من غلاء الخبز صاحت « أن تلك البغى التى تحكم المملكة تجر عليها الخراب » . وارتفع صوت من الغوغاء فى اليون دلا تورنل يقول « لو وقعت فى أيدينا هنا لما تخلف منها ما يكفى لاحالتها إلى رفات[٤] » . ولم تجرؤ على الظهور فى شوارع باريس ، وكان الأعداء يحيطون بها فى فرساى . وكتبت للمركيزة دفونتناى تقول « أننى وحيدة تماما فى وسط هـــذا الحشد من صغار النبلاء ، الذين يبغضوننى والذين احتقرهم . أما أكثر النساء فحديثهن يصيبنى بصداع أليم . فغرورهن ، وخيلاؤهن ، وسفالتهن ، وخياناتهن ، تجعلنى لا أطيقهن[٥] » .

فلما استطالت الحرب ، ورأت فرنسا كندا والهند تختطفان منها ، وضيق فرديناند البرنزويكى الخناق على الجيش الفرنسى ، وظهر الجنود العائدون ،

جرحى أو مشوهين » فى شوارع باريس ، وضح للملك أنه ارتكب خطأ محزنا بالأصغاء لكاونتز وبومبادور ، وفى ١٧٦١ التمس العزاء فى أحضان خليلة جديدة هى الآنسة رومان » التى ولدت له الولد الذى سيصبح الآبيه دبوربون . وأوجفت الشائعات أن بومبادور ثأرت لنفسها بقبول شوازيل عشيقا لها(٦) ، ولكنها كانت أضعف ، وشوازيل كان أذكى ، من أن يسمحا بهذا الغرام ؛ لقد أسلمت لشوازيل قوتها لا حبها ، ولعلها فاهت الآن بهذه النبؤة اليائسة « بعدى الطوفان(٧) » .

كانت على الدوام واهنة الجسد ، بصقت الدم حتى فى شبابها ، ومع أننا لسنا واثقين من أنها كانت تشكو السل ، فأننا نعلم أن سعالهـــا ازداد ازديادا مؤلما وهى تقترب من الأربعين ، واستحال الصوت المرنم الذى كان يوما ما يأسر قلب الملك وحاشيته صوتا مبحوحا متوترا . وأفزع هزالها إصدقائها . وفى فبراير ١٧٦٤ لزمت فراشها بحمى مرتفعة والتهاب دموى فى الرئتين . وفى إبريل ساءت حالتها حتى أنها إستدعت موثقاً لتكتب وصيتها الأخيرة . فتركت فيها هبات لأقربائها » وأصدقائها ، وخدمها ، وأضافت « أن كنت قد نسيت أيا من أقربائى فى هــــذه الوصية فأنى أرجو أخى أن يدبر معاشهم » . وأوصت للويس الخامس عشر بقصرها الباريسى ، الذى يشغله الآن رئيس جمهورية فرنسا باسم قصر الإليزيه . وكان الملك ينفق الساعات الكثيرة بجوار فراشها ، وندر أن ترك حجرتها فى أيامها الأخيرة » وكتب الدوفين (ولى العهد) الذى كان عدوها دائماً إلى أسقف فردان يقول » إنها تموت بشجاعة يندر أن توجد بين الرجال أو النساء ورئتاها مملؤتان ماء أو صديدا ، وقلبها محتقن أو متضخم . إنه موت قاس مؤلم إلى حد لا يصدق(٨) » . وكانت ـــ حتى لهذه المعركة الأخيرة ، ترتدى الثياب الفاخرة وتحمر خديها الخافين . وظلت تملك حتى النهاية تقريباً . وأحاط أفراد الحاشية بأريكتها » وراحت توزع الأنعامات ، وتعين الأشخاص فى المناصب الكبرى ، وكان الملك ينفذ الكثير من توصياتها .

وأخيرا سلمت بالهزيمة . فى ١٤ أبريل تلقت شاكرة القربان الأخير

الذى حاول التخفيف من الموت بالرجاء . وحاولت الآن ، وهى التى ظلت طويلا صديقة للفلاسفة ، أن تستعيد أيمان طفولتها . فصلت كما يصلى الطفل :

« أستودع الله روحى ، متوسلة إليه أن يرحمها ، وأن يغفر لى آثامى ، وأن يمنحنى نعمة الندم عليها والموت جديرة بمراحمه ، راجية أن أرضى عدله ببهاء الدم الثمين ، دم يسوع المسيح مخلصى ، وبشفاعة العذراء مريم وجميع القديسين فى الفردوس[٩] » .

وهمست فى إذن القسيس الذى كان يبرح الحجرة وهى تعالج سكرات الموت : « إنتظر لحظة» سنبرح البيت معاً[١٠] . وماتت فى ١٥ أبريل ١٧٦٤ مختنقة باحتقان فى رئتيها ، وكانت فى عامها الثانى والأربعين .

وليس صحيحا أن لويس تقبل موتها فى غير مبالاة ، فهو أنما أخفى حزنه فقط[١١] قال الدوفين : « أن الملك فى كرب شديد وإن تمالك نفسه أمامنا وأمام جميع الناس[١٢] » . فى ١٧ أبريل ، حين حمل جثمان المرأة التى ظلت نصف حياته طوال عشرين عاماً » من قصر فرساى فى يوم قارس البرد شديد المطر ، خرج إلى الشرفة ليطل عليها وهى تبرح القصر وقال لتابعه شامبلوست « ستلقى المركيزة جواً رديئاً جداً » ولم تكن هذه ملاحظة عابثة ، فقد روى شامبلوست أن فى عينى الملك دموعا تترقرق ، وأن لويس إضاف قائلا فى حزن « هذه هى التعزية الوحيدة التى أستطيع تقديمها لها[١٣] » . ودفنت بناء على رغبتها جنبا إلى جنب مع طفلتها الكسندرين ، وفى كنيسة الكبوشيين التى اختفت الآن — فى ميدان فاندوم .

واغتبط البلاط لتحرره من سلطانها ، أما الشعب الذى لم يحس بسحرها فقد لعن إسرافها الشديد ، ولم يلبث أن نسيها ، وأما الفنانون والكتاب الذين ساعدتهم فقد حزنوا لفقد صديقة منعمة متفهمة . على أن ديدرو كان قاسيا فى حديثه عنها إذ قال : « إذن ماذا بقى من هذه المرأة التى كلفتنا هذا الثمن الغالى فى المال والرجال ، وتركتنا دون شرف ولا همة ، وقلبت نظام أوربا السياسى بأسره ؟ حفنة من تراب » وأما فولتير فقد كتب من فرنيه يقول :

« يحزنني جداً موت مدام دبومبادور . كنت مدينا لها بالفضل ، وأنا ابكيها عرفانا بصنيعها . ويبدو من السخف أنه فى الوقت الذى يظل فيه على قيد الحياة كاتب عجوز لا يكاد يقوى على المشى ، تموت امرأة حسناء فى عنفوان مجدها وهى بعد فى الأربعين . ولو أنها استطاعت أن تعيش كما أعيش فى هدوء ، فربما كانت اليوم حية ... لقد أوتيت إنصافا فى عقلها وقلبها ... إنها نهاية حلم ... »[١٤]

٢ — انتعاش فرنسا

لم تفق فرنسا عن حرب السنين السبع إفاقة كاملة حتى جاء نابليون . ذلك أن الضرائب الثقيلة كانت قد ثبطت الزراعة أيام لويس الرابع عشر ، وظلت تثبطها أيام لويس الخامس عشر ، فتركت آلاف الأفدنة التى كانت تزرع فى القرن السابع عشر بورا فى ١٧٦٠ وأخذت تتحول إلى برارى قاحلة .[١٥] واستنزفت الماشية والأغنام ، وشحت المخصبات ، وجفت التربة . وتشبث الفلاحون بطرق الفلاحة القديمة الرديئة ، لأن الضرائب كانت تزاد مع كل تحسين يزيد من ثروتهم . وافتقر كثير من الفلاحين إلى الدفء فى بيوتهم فى الشتاء إلا أن يلتمسوه من الماشية التى تسكن معهم . وأتلفت نوبات شاذة من الصقيع فى ١٧٦٠ و ١٧٦٧ المحاصيل والكروم خلال نموها . وكان محصول سيىء واحد كفيلا بأن يقرب قرية من المجاعة » ومن الخوف من الذئاب الجائعة الرابضة حولها .

ومع ذلك بدأ الانتعاش الاقتصادى بمجرد توقيع الصلح . كانت الحكومة عاجزة فاسدة ، لكن إجراءات كثيرة اتخذت لاعانة الفلاحين . فوزع نظار الزراعة الملكيون البذار وشقوا الطرق » ونشرت الجمعيات الزراعية المعلومات الزراعية » وأقامت المسابقات » ومنحت الجوائز[١٦] . واستجاب الكثير من السادة الاقطاعيين لحفز جماعة الفزيوقراطيين فاهتموا بتحسين وسائل الزراعة ومنتجاتها . وازداد عدد الملاك من الفلاحين . ففى عام ١٧٧٤ كان هناك ٦ ٪ فقط من السكان الفرنسيين يرزحون تحت نير القنية .[١٧] ولكن كل زيادة فى الانتاج كانت تجلب معها زيادة فى

السكان ، فالأرض غنية ، ولكن متوسط ملكية الفلاح صغير ، وهكذا ظل الفقر جاثما على الصدور .

ومن أصلاب الفلاحين جاء الفائض البشرى الذى زود الصناعات فى المدن النامية بالرجال . وكانت الصناعة باستثناءات قليلة لا تزال فى المرحلة البيتية والبلدية . وسيطرت منظمات رأسمالية واسعة النطاق على صناعة المعادن ، والتعدين ، وصناعة الصابون ، والمنسوجات . وكان بمرسيليا عام ١٧٦٠ خمسة وثلاثون مصنعا للصابون تستخدم ألف عامل .[١٨] وكانت ليون معتمدة فى رخائها على السوق المتقلبة لناتج أنوالها . وقد أدخلت آلات التمشيط الانجليزية حوالى عام ١٧٥٠ ، وحوالى عام ١٧٧٠ بدأ دولاب الغزل الذى يدير ثمانية وأربعون مغزلا فى وقت واحد يحل محل عجلة الغزل فى فرنسا . وكان الفرنسيون أسرع فى الاختراع منهم فى التطبيق ؛ فقد أعوزهم رأس المال الذى استطاعت انجلترة بفضل ثرائها من التجارة أن تستخدمه فى تمويل التحسينات الميكانيكية فى الصناعة . وكانت الآلة البخارية قد عرفت فى فرنسا منذ ١٦٨١ .[١٩] واستعملها جوزف كونيو عام ١٧٦٩ لتشغيل أول سيارة معروفة ؛ وبعد عام استعملت هذه السيارة لنقل الاحمال الثقيلة بسرعة أربعة أميال فى الساعة ، ولكن الآلة أفلتت زمامها فهدمت جدارا ، وكان يجب وقفها كل خمس عشرة دقيقة لتزويدها بالمـــاء[٢٠] .

وكانت وسيلة النقل ، غير هذه الاستثناءات الغريبة ، هى الحصان ، أو عربة الجر ، أو عربة الركوب ، أو المركب ، وكانت الطرق والترع تفضل نظائرها فى انجلترة كثيرا ، ولكن الفنادق كانت أسوأ . وقد أسست خدمة بريدية منظمة عام ١٧٦٠ ؛ ولم تكن سرية تماما ، فقد أمر لويس الخامس عشر مديرى البريد بأن يفتحوا الخطابات ويبلغوا الحكومة بأى محتوى مريب فيها[٢١] . وتعطلت التجارة الداخلية من جراء المكوس ، والتجارة الخارجية نتيجة الحرب وضياع المستعمرات . وأفلست شركة الهند وحلت (١٧٧٠) . ولكن التجارة مع الدول الأوروبية زادت زيادة كبيرة

خلال القرن ، فارتفعت من ٦٠٠ر٠٠٠ر١٧٦ جنيه فى ١٧١٦ إلى ٨٠٤ر٣٠٠ر٠٠٠ جنيه فى ١٧٨٧ ، غير أن بعض هذه الزيادة لم يكن إلا انعكاسا للتضخم ، وازدهرت التجارة مع جزر الهند الغربية الفرنسية فى السكر والعبيد .

وكان للتضخم التدريجى ، الراجع بعضه إلى تزييف العملة ، وبعضه إلى إنتاج العالم المتزايد من الذهب والفضة، أثر مشجع للمغامرة الصناعية والتجارية فكان رجل الأعمال يستطع عادة أن يتوقع بيع ناتجه بسعر أعلى مما أشترى به عرق العمال ومواد الصناعة . وهكذا تضخمت ثروات الطبقة الوسطى ، فى حين بذلت الطبقات الدنيا ماوسعها من جهد لتقرب بين دخولها وبين الأسعار . على أن هذا التضخم الذى مكن الحكومة من غش دائنيها هبط بقيمة دخلها ، فارتفعت الضرائب بنزول قيمة الجنيه، وأصبح الملك معتمداً على كبار الصيارفة أمثال إخوان بارى ، لاسيا بارى — دوفرنيه ، الذى أبهج بومبادور كثيراً بشعوذته المالية حتى استطاع خلال الحرب أن يرفع الوزراء والقواد ويخفضهم .

وكان أهم تطور اقتصادى فى فرنسة القرن الثامن عشر انتقال معظم الثروة من ملاك الأرض إلى المسيطرين على الصناعة ، أو التجارة ، أو المال ، ولاحظ فولتير فى ١٧٥٥ ، نظراً إلى مغانم التجارة المتزايدة . . نقصت ثروة كبار القوم عن ذى قبل ، وزادت الثروة فى الطبقة الوسطى . وأسفر هذا عن تقريب الفجوة بين الطبقات ،[٢٢] واستطاع رجال أعمال مثل لابوبلنيير أن يشيدوا قصوراً يحسدهم عليها الأشراف ، وأن يزينوا موائدهم بأعظم الشعراء والفلاسفة فى المملكة ، وغدت البرجوازية راعية الآداب والفنون . وعزت الاستقراطية نفسها بالتشبث بامتيازاتها والظهور بمظهرها الرفيع . وأصرت على نبل المولد شرطاً للانخراط فى وظائف ضباط الجيش أو الأساقفة ، وتباهت بشعارات نبالتها وأنسابها المتكاثرة ، وكافحت — عبثا فى كثير من الأحيان — لتقصى أفراد الطبقة العامة الأكفاء أو النابهين عن الوظائف الإدارية العليا وعن البلاط . وطالب البورجوازى الغنى بأن يفتح مجال الترقى للموهبة أياً كان نسب صاحبها ، فلما أغفل مطلبه راودته فكرة الثورة .

وإذا استثنينا من حرب الطبقات جانب الفلاحين ، فإن جميع الجوانب المشاركة فيها اتخذت لهـا شكلا مرئياً فى ضجيج باريس وفخامتها . فنصف ثروة فرنسا انسابت إلى عاصمتها ، ونصف فقر فرنسا تقيح فيها ،وقال روسو إن باريس« ربما كانت المدينة الوحيدة فى العالم التى تعظم فيها فوارق الثروات ، والتى يسكن فيها الثراء الصارخ والفقر المدقع جنباً إلى جنب »[٢٣] . وكان ستون من الفقراء المعانين جزءا من الحرس الرسمى المرافق لجثمان ابن الدوفين البكر فى ١٧٦١[٢٤] . وحوالى عام ١٧٧٠ كانت باريس تحوى ٦٠٠,٠٠٠ نفس من بين سكان فرنسا البالغين ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ [٢٥] . وتؤوى أكثر أهل أوربا نشاطا ، وأوسعهم إطلاعاً ، وأشدهم فجوراً . وفيها أفضل الشوارع رصفاً ، وأفخم الطرق المشجرة والمتنزهات ، وأزحم حركات المرور ، وأجمل الحوانيت ، وأفخر القصور ، وأظلم الأكواخ ، وطائفة من أبدع الكنائس فى العالم . وقد تعجب منها جولدونى الذى وفد عليها من البندقية فى ١٧٦٢ فقال فى وصفها :

« يالها من حشود ! وأى تجمع للناس من جميع الأوصاف ! .. وأى منظر مدهش استرعى حواسى وذهنى وأنا أدنو من التويلرى ! رأيت اتساع رقعة تلك الحديقة الهائلة ، التى لا نظير لها فى الدنيا ، والتى لم تستطع عيناى أن تقيسا طولها . . ثم نهراً جليلا ، وكبارى عديدة مريحة ، وأرصفة شاسعة ، وحشوداً من العربات ، وزحاماً من الناس لا آخر له »[٢٦] .

وكانت مئات المتاجر تغرى الأغنياء والمفلسين ، ومئات الباعة يسرحون ببضائعهم فى الشوارع ، ومئات المطاعم (وقد ظهرت الكلمة restaurants أول ماظهرت فى ١٧٦٥) تعد بتعويض الجياع restore عن جوعهم ، ومئات التجار يجمعون التحف القديمة أو يزيفونها أو يبيعونها ، ومئات الحلاقين يقصون ويبدرون الشعور أو الباروكات حتى لطبقة الحرفيين. وفى الأزقة الضيقة كان الفنانون والحرفيون ينتجون الصور ، والأثاث ، والثياب ، والحلى المبهرجة لأثرياء القوم . وهنا كانت عشرات المطابع تطبع الكتب ، متعرضة أحياناً لخطر شديد ، وفى ١٧٧٤ قدرت تجارة الكتب فى باريس بمبلغ

٤٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو أربعة أمثال تجارة لندن فيها .[٢٧] قال جاريك : « إن لندن تصلح للإنجليز ، أما باريس فتصلح لكل إنسان »[٢٨] وقال فولتير : فى ١٧٦٨ « لدينا أكثر من ثلاثين ألف شخص فى باريس يهتمون بالفن » .[٢٩] هناك كانت عاصمة العالم الثقافية دون منازع .

٣ — الفزيوقراطيون

فى شقة بفرساى تحت مسكن مدام دبومبادور وعينها الراعية ، تكونت تلك النظرية الاقتصادية التى قدر لها أن تحرك الثورة وتصوغها » وتشكل رأسمالية القرن التاسع عشر .

وكان الاقتصاد الفرنسى يكافح منذ زمن طويل ليشب عن الطرق برغم ما قيد به من أقمطة اللوائح والنظم — التى وضعتها طوائف الحرفيين وكولبير » ومن خرافة كخرافة الملك ميداس ، خرافة « المركنتلية » التى خالت الذهب هو الثروة . فسعيا إلى زيادة الصادرات ، والتقليل من الواردات وأخذ « الفرق الذى فى صالح الدولة فضة وذهباً لدعم القوة السياسية والحربية ، كانت فرنسا وانجلترة قد أخضعتا اقتصاديهما القوميين لشرك من القواعد والقيود أعانت على التنظيم الاقتصادى ولكنها عطلت الانتاج بتعطيلها الابتكار والمغامرة والمنافسة . كل هذا — كما قال رجال مثل جورنيه وكزنيه » وميرابو الأب ، ودوبون دنمور ، وطورجو — مناقض كل المناقضة للطبيعة ، فالانسان بطبيعته محب للاقتناء » والتنافس ، فاذا حررت طبيعته من الاغلال التى لاداعى لها أدهش العالم بمقدار ما ينتج » وتنوعه ، وجودته . يقول الفزيوقراطيين « إذن فلنترك الطبيعة (وهى بالاغريقية Physis) تحكم (Kratein) ولنترك الناس يخترعون ، ويصنعون ، ويتجرون وفق غرائزهم الطبيعية » ، أو كما قال جورنيه فيما روى « اتركهم يفعلون Laisser faire ما يرونه هم أصوب ما يكون» . وكانت هذه العبارة قديمة فعلا ، فحوالى عام ١٦٦٤ ، حين سأل كولبير رجل الأعمال الجاندر « ما الذى يجب أن نفعله نحن (أى الحكومة) لمساعدتك ؟ أجابه « Nous laisserfaire » اتركونا نفعله . . . اتركونا وشأننا .[٣٠]

وكان صوت جان — كلود فانسان دجورنيه أول صوت واضح للفزيوقيراطيين فى فرنسا . ولاشك فى أنه كان يعلم بالاحتجاجات التى قدمها بواجلبير وفوبان للويس الرابع عشر على القيود الخانقة التى فرضت على الزراعة فى ظل النظام الاقطاعي . وقد أعجب بكتاب السرجوسيا تشايلد « ملاحظات موجزة عن التجارة والفائدة » (١٦٦٨) إعجاباً حمله على ترجمته إلى الفرنسية (١٧٥٤) . وأغلب الظن أنه قرأ كتاب رتشرد كانتلون « مقال عن طبيعة التجارة » (حوالى ١٧٣٤) فى طبعته الفرنسية (١٧٥٥) . ويؤرخ البعض من هذا الكتاب مولد الاقتصاد بوصفه « علما » — أى تحليلا منطقيا لمصادر الثروة ، وانتاجها ، وتوزيعها . قال كانتلون « أن الأرض هى المصدر أو المادة التى تؤخذ منها الثروة ، ولكن الجهد البشرى هو الشكل الذى ينتج الثروة » ، ولم يعرف الثروة بأنها الذهب أو النقود ، بل « صيانة الحياة ، ووسائل الراحة وأسبابها »[٣١] وكان هذا التعريف فى حد ذاته ثورة فى النظرية الاقتصادية .

وكان جورنيه تاجرا ميسورا يعمل أول الأمر (١٧٢٩ — ١٧٤٤) فى قادس . وبعد أن اشتغل بمعاملات تجارية واسعة النطاق فى انجلترة وألمانيا ، والأقاليم المتحدة ، استقر فى باريس ، وعين « ناظرا للتجارة » (١٧٥١) . وفى رحلاته التفتيشية فى أرجاء فرنسا لاحظ بشخصه القيود التى فرضتها اللوائح النقابية والحكومية على المشروعات الحرة والتبادل الاقتصادى ، ولم يخلف لنا صيغة مكتوبة لآرائه « ولكن لخصها بعد موته (١٧٥٦) تلميذه طورجو . وقد حث على التخفيف من النظم واللوائح الاقتصادية القائمة ، أن لم يكن الغائها . فكل إنسان يعرف خيراً مما تعرف الحكومة الإجراء الذى يلائم عمله خير ملائمة » فاذا كان حراً فى السعى إلى مصلحته ازداد إنتاج السلع ونمت الثروة[٣٢] .

« هناك قوانين فريدة أزلية ، مؤسسة على الطبيعة وحدها ، بمقتضاها توازن جميع القيم الموجودة فى التجارة بعضها بعضا وتثبت نفسها عند سعر مقرر ، تماماً كما تنظم الأجسام المتروكة لثقلها نفسها وفق وزنها النوعى[٣٣] » .

أى أن القيم والأسعار تحددها العلاقات بين العرض والطلب ، وهى علاقات تحددها بدورها طبيعة الإنسان . وخلص جورنيه إلى أن الدولة يجب إلا تتدخل فى الاقتصاد إلا لتحمى الحياة ، والحرية ، والملكية ، ولتشجع الإنتاج كما وكيفا باسباب التشريف والمكافآت . وقد قبل مسيو ترودين رئيس مجلس التجارة هذه المبادىء ، وخلع عليها طورجو قوة بلاغته وإستقامته المعترف بها .

أما فرانسوا كزنيه فقد أتبع خطاً فزيوقراطيا مختلفا إختلافا طفيفا . فهو لم ينس قط إهتمامه بالأرض لأنه مالك للأرض ، ولو أنه أعد ليكون طبيبا ، وقد جمع لنفسه ثروة بحذقه فى الطب والجراحة ، وارتقى حتى أصبح طبيبا لمدام دبومبادور وللملك (١٧٤٩) . وقد جمع فى مسكنه بفرساى لفيفا من الزنادقة — دوكلو ، وديدرو ، وبوفون ، وهلفتيوس ، وطورجو . . . هناك كانوا يناقشون كل شيء فى غير تحرج إلا شخص الملك ، الذى كانوا يحلمون بأن يجعلوا منه « حاكما مطلقا مستنيرا » يكون إداة للأصلاح السلمى ، وشعر كزنيه الغارق إلى إذنيه فى عصر العقل ، أن قد آن أوان إستخدام العقل فى الاقتصاد . ومع أنه كان دجماطيقياً شديد الإعتداد بنفسه فى كتبه ، فأنه كان فى شخصه إنسانا رقيقا يتميز بالنزاهة فى محيط لا يقيم للأخلاق وزنا .

وفى ١٧٥٠ ألتقى بجورنيه ، وسرعان ما فاق أهتمامه بالاقتصاد أهتمامه بالطب . وقد شارك بمقالات فى موسوعة ديدرو تحت أسماء مستورة بعناية . وقد عزا فى مقاله « المزارع » هجر الزراع لحسا إلى الضرائب المرتفعة والتجنيد الأجبارى . ولاحظ مقاله « الغلال » (١٧٥٧) أن المزارع الصغيرة تعجز عن الأفادة من أكثر الوسائل إنتاجا ، وحبذ المزارع الكبيرة التى يديرها « المقاولون » — وهذا سبق للشركات الزراعية العملاقة فى عصرنا . وقال إن على الحكومة أن تحسن الطرق ، والأنهار ، والقنوات ، وأن تلغى كل المكوس على النقل ، وتحرر حاصلات الزراعة من جميع قيود التجارة .

وفى عام ١٧٥٨ نشر كزنيه « جدولا اقتصاديا » أصبح البيان الرسمى الأساسى للفزيوقراطيين . ومع أنه طبع فى المطبعة الحكومية بقصر فرساى بأشراف الملك ، فأنه إدان الترف بأعتباره استعمالا مبلداً للثروة كان يمكن إستخدامه فى إنتاج مزيد من الثروة . وقد قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات : « طبقة منتجة من الزراع ، والمعدنين وصيادى الأسماك ؛ وطبقة قابلة للتوجيه (disponiles) من الأشخاص الذين يستخدمون فى الوظائف العسكرية أو الإدارية ، وطبقة غير مثمرة Classe stérile من مهرة الصناع الذين يحولون حاصلات الأرض إلى أشياء نافعة ، والتجار الذين يوصلون الحاصلات إلى المستهلك . وإذ كانت الضرائب المفروضة على الطبقة الثانية أو الثالثة تقع فى النهاية (فى رأى كزنيه) على ملاك الأرض ، كانت أكثر الضرائب تمشيا مع العلم وانسبها هى ضريبة واحدة (impot unique) تفرض على صافى الربح السنوى لكل قطعة من الأرض . ويجب أن تجمع الضرائب مباشرة بواسطة الدولة ، ولا تجمع أبدا بواسطة الماليين من الأهالى (الملتزمون العموميون) » ويجب أن تكون الحكومة ملكية مطلقة وراثية .

وتبدو مقترحات كزنيه اليوم وقد أفسدها الغض من قدر العمل ، والصناعة » والتجارة » والفن » ولكن بعض معاصرية رأوا فيها الهاما منيرا. وفى رأى أكثر أتباعه حيوية وهو فكتور ريكيتى ، مركيز دميرابو ، أن « الجدول الاقتصادى » نافس الكتابة والنقود فى كونه من أجل ابتكارات التاريخ . وقد اجتاز هذا المركيز عصر فولتير من أوله لآخره بالضبط ، لأنه ولد فى ١٧١٥ ومات فى ١٧٨٩ . وورث ثروة طيبة ، وعاش عيشة الأمراء ، وكتب كما يكتب الديموقراطيون » وعنون أول كتاب له « صديق الناس » ، أو مقال فى السكان (١٧٥٦) وإستحق بذلك الأسم الذى اتخذه « صديق الإنسانية » . وبعد أن نشر رائعته تأثر بكزنيه » فراجع بناء على ذلك كتابه وزاده » إلى بحث من ستة مجلدات طبع أربعين طبعة وشارك فى إعداد فكر فرنسا لثورة ١٧٨٩ .

ولم يقلق تكاثر البشر المركيز كما سيقلق مالتوس فى ١٧٩٨ . فقد آمن بأن الأمة تعظم بكثرة سكانها ، وأن هذا يسيره « توالد الناس كما تتوالد الفيران فى جرن إذا توفرت لها أسباب الحياة[٣٤] وهو ما زلنا نراه إلى الآن. وخلص إلى وجوب تشجيع منتجى الطعام بكل الوسائل . وذهب إلى أن التفرقة فى توزيع الثروة تثبط إنتاج الطعام ، لأن ضياع الأغنياء تشغل الأرض التى كان فى الأمكان أن تصبح مزارع خصبة . وقالت مقدمة ميرابو للملك أن الفلاحين :

« هم أكثر الطبقات إنتاجا ، الذين لا يرون من تحتهم غير مرضعتهم ومرضعتك — الأرض الأم » والذين يرزحون إبدا تحت ثقل أشق الأعمال والذين يباركونك كل يوم » ولا يسألونك شيئا غير السلام والحماية . وبفضل عرقهم ، بل ودمهم ذاته (وهو ما لا تعرفه !) تشبع مطامع ذلك الحشد من البشر غير النافعين الذين لا يفتأون يقولون لك أن عظمة الملك فى قيمة وعدد . . . النعم التى يقسمها على إفراد حاشيته . لقد رأيت مساعد جابى الضرائب يقطع يد امرأة فقيرة تشبثت بقدرها لتمنع إستيلاءه عليها وفاء الدين ، وكانت آخر ما فى بيتها من آنية . فماذا كنت تقول فى هذا أيها الملك العظيم[٣٥] ؟

وقد هاجم المركيز الثائر فى كتابه « نظرية الضرائب » (١٧٦١) الملتزمين العموميين بجباية الضرائب لأنهم طفيليون يغتالون أقوات الأمة ؛ وحرض الماليون الغاضبون لويس الخامس عشر على أن يحبسه فى الشاتو دفانسين (١٦ ديسمبر ١٧٦٠) ولكن كزنيه أقنع مدام دبومبادور بأن تتشفع له ، وأطلق لويس سراح المركيز (٢٥ ديسمبر) ولكنه أمره بأن يلزم ضيعته فى لوبنيون . وأحال ميرابو الضرورة إلى فضيلة « فدرس الزراعة دراسة عملية مباشرة . وفى ١٧٦٣ أصدر كتاب « الفلسفة الريفية » الذى قيل فيه إنه « أشمل بحث فى الاقتصاد قبل آدم سميث[٣٦] » ، ووصفه جريم بأنه « الأسفار الموسوية للمذهب الفزيوقراطى[٣٧] » . وبلغت جملة مؤلفات

هذا المركيز ، الذى كان نسيج وحده ، أربعين كتابا حتى عام وفاته — وذلك رغم المتاعب التى سببها له أبنه الذى زجه فى السجن حين أعيته الحيل عسى أن يكون فى ذلك سلامة لكليهما . وكان كابنه ذاك عنيفا فاسقا ، تزوج للمال ، واتهم امرأته بالزنا ، وتركها تعود إلى أبويها ، واتخذ له خليلة : وقد ندد بأوامر الاعتقال الملكية باعتبارها ضربا من الظلم لا يطاق ، وبعد ذلك حمل الوزارة على أن تصدر خمسين أمراً منها تعينه على تأديب أسرته[٣٨] .

وليس من اليسير علينا أن ندرك اليـــوم ذلك الهيجان الذى أثارته مطبوعات الفزيوقراطيين ، والحماسة التى اصطبغت بها حملاتهم . وتطلع تلاميذ كزنيه إليه كأنه سقراط الاقتصاد : وعرضوا عليه كتاباتهم قبل طبعها ، وفى كثير من الحالات كان يشارك فى كتبهم . وفى ١٧٦٧ إصدر لومرسييه دلا ريفيير ، الذى حكم المارتنيك فترة ، كتابا عده آدم سمث أوضح شرح للمذهب وأفضله ترابطا[٣٩] وأسمه « النظام الطبيعى الأساسى للمجتمعات السياسية » يقول فيه أن فى العلاقات الاقتصاديه قوانين تقابل تلك التى وجدها نيوتن فى الكون ، والعلل الاقتصادية منشؤها أغفال تلك القوانين أو أنتهاكها :

« أتريدون لمجتمع ما أن يبلغ الغاية فى الثراء ، والسكان ، والقوة ؟ أتركوا مصالحه إذن للحرية ، وليكن هذا قانونا عاماً . فبفضل هذه الحرية (التى هى العنصر الأساسى للصناعة) وبفضل الرغبه فى التمتع — التى تحفزها المنافسه وتنيرها الخبرة والقدرة — تضمنون أن يسعى كل إنسان على الدوام لاقصى مصلحة مستطاعة له ، ومن ثم يسهم بكل ما فى مصلحته الخاصة من قدرة فى الخير العام ، سواء للحاكم ولكل فرد فى المجتمع[٤٠] » .

وقد لخص بيير — صموئيل ديون هذه الدعوة فى كتابه « الفزيوقراطية » (١٧٦٨) الذى خلع على المذهب أسمه التاريخى . كذلك نشر ديون النظرية فى دوريتين كان نفوذهما محسوسا من السويد إلى توسكانيا . وقد عمل مفتشا

عاماً للصناعات تحت رآسة طورجو ، وسقط بسقوطه (١٧٧٦) . وعاون على المفاوضة مع إنجلتره على عقد المعاهدة التى أعترفت بأستقلال إمريكا (١٧٨٣) . وإنتخب عضوا بمجلس الأعيان (١٧٨٧) والجمعية التأسيسية (١٧٨٩) . وتمييزا له فى هذه الجمعية عن عضو آخر يدعى ديون ، سمى ديون دنمور ، نسبة للمدينة التى مثلها . وقد عارض اليعاقبة فتعرض للخطر حين تقلدوا زمام الأمور ، وفى ١٧٩٩ نفى نفسه إلى إمريكا ، ثم عاد إلى فرنسا عام ١٨٠٢ ، ولكن فى ١٨١٥ اختار الولايات المتحدة وطنا نهائيا له ، وهناك أسس أسرة من أشهر الأسر الأمريكية .

ويبدا فى ظاهر الأمر أن مذهب الفزيوقراطيين يناصر الاقطاع ، لأن السادة الاقطاعيين كانوا إلى ذلك الحين يملكون أويتقاضون الرسوم الاقطاعية من ثلث أرض فرنسا على الأقل . ولكنهم — وهم الذين لم يكونوا يدفعون أى ضرائب تقريبا قبل ١٧٥٦ — هالتهم فكرة تحميل ملاك الأرض جميع الضرائب ، كذلك لم يستطيعوا أن يقبلوا إلغاء المكوس الاقطاعية على نقل البضائع داخل أملاكهم . أما الطبقات الوسطى ، التى كانت تتوق إلى تشريعات جديدة ، فقد ساءها زعم الفزيوقراطيين أنها شطر عقيم غير منتج من الأمة ومع أن جماعة الفلاسفة كانوا فى الغالب يوافقون الفزيوقراطيين على الاعتماد على الملك أداة للاصلاح إلا أنهم لم يستطيعوا موافقتهم على مصالحة الكنيسة[٤١] . وقد ذهب ديفد هيوم ، الذى زار كزنية فى ١٧٦٣ ، إلى أن الفزيوقراطيين أكثر ما يوجد اليوم من الجماعات تعلقاً بالأوهام وخيلاء منذ تدمير الصوربون . وسخر منهم فولتير (١٧٦٨) فى قصيدته اللاذعة المسماه « الرجل ذو الأربعين أيكوه »[٤٢] . وفى ١٧٧٠ أصدرفرديناند وجاليانى ، وهو ايطالى من المترددين على « مجمع » الملحدين الذين كان يجمعهم دولباخ فى بيته كتابا اسمه « حوارحول تجارة الغلال » ترجمه ديدرو إلى الفرنسية فى السنة نفسها . وقال فولتيران أفلاطون وموليير لابد قد شاركا فى كتابة هذا المؤلف فى الاقتصاد الذى كان « علما يقبض الصدر » . وقد هزأ جاليانى بخفة روح باريسية بزعم الفزيوقراطيين أن الأرض وحدها مصدر الثروة . وقال أن تحرير تجارة الغلال عن جميع

اللوائح والنظم معناه خراب بيوت مزارعى فرنسا ، وقد يجر إلى المجاعة فى أرض الوطن فى الوقت الذى يصدر فيه التجار الأذكياء الغلال إلى الدول الأخرى . وهذا ما حدث بالضبط فى ١٧٦٨ و١٧٧٥ .

ويروى أن لويس الخامس عشر سأل كزنيه ماذا يصنع إن كان ملكاً فأجاب « لاشىء » . « فمن يحكم إذن » ؟ « القوانين » — وكان الفزيوقراطى يقصد بذلك « القوانين » الملازمة لطبيعة الانسان والتى تتحكم فى العرض والطلب ووافق الملك على أن يجربها . ففى ١٧ سبتمبر ١٧٥٤ الغت وزارته جميع المكوس والقيود المفروضة على بيع الغلال — القمح « والجاودار » والذرة — ونقلها داخل المملكة . وفى ١٧٦٤ شملت هذه الحرية تصدير الغلال إلا إذا بلغت ثمنا مقررا . وهبط سعر الخبز حينا نتيجة تركه « لعملية العرض والطلب » ولكن محصولا رديئا فى ١٧٦٥ رفع سعره فوق السعر العادى بكثير جدا . وبلغ نقص الغلال مرحلة المجاعة فى ١٧٦٨ — ٦٩ « فكان الفلاحون ينبشون عن الطعام فى زرائب الخنازير ، ويأكلون العشب والحشيش . وفى أبرشية تعد ٢٫٨٠٠ نسمة راح ٢٫٢٠٠ يستجدون الخبز . وشكا أفراد الشعب من أن المضاربين يصدرون الغلال بينما هم يواجهون المجاعة . واتهم الناقدون الحكومة بأنها تتكسب من عمليات هؤلاء المحتكرين فى « ميثاق المجاعة » وامتد رنين هذه النقمة المرة التى تعزف على ميثاق المجاعة . هــذا الذى وقع عام ١٧٦١ ، خلال السنوات التالية ليتهم — حتى لويس السادس عشر الرحيم بالكسب من غلاء الخبز . وكان بعض الموظفين مذنبين فيما يبدو ، أما لويس الخامس عشر فلم يذنب . فلقد كلف بعض التجار بشراء الغلال فى السنين الطيبة ، وخزنها ، ثم عرضها فى السوق فى السنين العجاف » ولكن حين بيعت هذه الغلال ارتفعت أسعارها ارتفاعا أعجز فقراء الشعب عن الشراء . واتخذت الحكومة تدابير متأخرة لعلاج الحالة ، فاستوردت القمح ووزعته على أفقر الأقاليم . وطالب الشعب برد هيمنة الدولة على تجارة الغلال ، وشارك البرلمان فى هــذه المطالبة . فى هذة الأزمة نشر فولتير قصيدته المسماة الإنسان ذو الأربعين

ابكو . وأذعنت الحكومة ، وفى ٢٣ ديسمبر ١٧٧٠ ألغيت المراسيم التى أباحت حرية الاتجار فى الغلال .

على أن أفكار الفزيوقراطيين شقت طريقها رغم هذه النكسة ، سواء فى فرنسا أو خارجها . وكان مرسوماً قد صدر فى ١٧٥٨ وقرر حرية التجارة فى الصوف ومنتجاته . وزار آدم سمث كزنية فى ١٧٦٥ ، وراعه منه « تواضعه وبساطته » ورسخ ميله إلى الحرية الاقتصادية . وكان رأيه « أن أكبر غلطة لهذا النظام . . . فى اعتباره طبقة الصناع ، ورجال الصناعة والتجارة طبقة عقيمة غير منتجة على الاطلاق » ، ولكنه خلص إلى « أن النظام ، بكل ما فيه من عيوب ، ربما كان أقرب ما نشر إلى الآن من الحقيقة حول موضوع الاقتصاد السياسى »[٤٥] . وقد انسجمت أفكار الفزيوقراطيين مع رغبة انجلترا — التى أصبحت الآن أعظم الأمم المصدرة فى خفض رسوم التصدير والاستيراد . ووجد هذا المذهب القائل بأن الثروة تنمو نموا أسرع فى ظل التحرر من القيود الحكومية على الإنتاج والتوزيع ، آذانا صاغية فى السويد تحت حكم شارل الثالث . وكان حب جفرسون للحكومة التى تمارس أقل قدر من الحكم ، من بعض النواحى ، صدى للمبادىء الفزيوقراطية . وقد أقر هنرى جورج بتأثير الفزيوقراطيين على دعوته لضريبة واحدة تفرض على العقار . واستهوت فلسفة حرية المشاريع والتجارة طبقة رجال الأعمال الأمريكيين ، وأعطت دفعة جديدة للتطور السريع الذى حظيت به الصناعة والثروة فى الولايات المتحدة . وفى فرنسا أتاح الفزيوقراطيون أساسا نظريا لتحرير الطبقات بالوسطى من العقبات الإقطاعية والقانونية التى عرقلت التجارة الداخلية والتقدم السياسى ، وقبل أن يموت كزنيه (١٦ ديسمبر ١٧٧٤) كان عزاء له أن يرى أحد أصدقائه بعين مراقباً للمالية ولو أفسح له فى الأجل خمسة عشر عاما أخر لشهد انتصار الكثير من الأفكار الفزيوقراطية فى الثورة الفرنسية .

٤ — ظهور طورجو ١٧٢٧ — ٧٤

أكان طورجو فزيوقراطيا ؟ إن خلفيته الفنية المنوعة تمنع كل تخصيص يلصق به ، فلقد ولد فى أسرة عريقة « من أصل طيب bonne race » كما قال لويس الخامس عشر — شغل أفرادها المناصب الهامة أجيالا عديدة بكل كفاية . وكان أبوه مستشارا للدولة وسر تجار باريس ، وهو أرفع منصب إدارى فى باريس ، وأخوه الأكبر امينا للالتماسات والمطالب فى برلمان باريس وعضوا بارزا فيه . وكانت النية توجيه طورجو (آن روبير — جاك) ، وهو الابن الأصغر إلى وظيفة القسوسية .

واجتاز بتفوق جميع الامتحانات فى كلية لوى — لجران « وفى مدرسة سان — سولبيس اللاهوتية ، وفى الصوربون « وأصبح « الأبيه دبروكور » وهو بعد فى التاسعة عشرة . وتعلم قراءة اللاتينية ، واليونانية « والعبرية ، والأسبانية ، والإيطالية ، والألمانية « والانجليزية ، والكلام بثلاثة من هذه اللغات على الأقل بطلاقة . وفى ١٧٤٩ انتخب رئيسا للصوربون ، وبوصفه هذا ألقى محاضرات أثارت اثنتان منها ضجه خارج نطاق اللاهوت .

ففى يوليو ١٧٥٠ ألقى محاضرة على الصوربون باللاتينية فى « الفوائد التى أفاد بها توطيد المسيحية الجنس البشرى » ، وقال إنها أنقذت العالم القديم من سلطان الخرافة ، وصانت الكثير من الآداب والفنون والعلوم ، وقدمت للبشر المفهوم المحرر لقانون العدالة يسمو فوق كل ألوان التعصب والأنانية البشرية . « أفيستطيع الإنسان أن يطمع فى هذا من أى مصدر آخر غير الدين ؟ . . . إن الدين المسيحى دون غيره . . . . . . هو الذى أخرج إلى النور حقوق الإنسان . »[٤٧] وفى هذه التقوى تسمع صدى الفلسفة ؛ وواضح أن الرئيس الشاب كان قد قرأ مونتسكيو وفولتير ، وتأثر لاهوته بعض الشىء بما قرأ .

وفى ديسمبر ١٧٥٠ ألقى محاضرة فى الصوربون عنوانها « جدول فلسفى بالتقدم المطرد للعقل البشرى » . وكان هذا التعبير عن ديانة التقدم الجديدة

انجازا رائعا من فنى فى الثالثة والعشرين . وقد سبق كونت — وربما حذا حذو فيكو — فقسم تاريخ العقل البشرى إلى ثلاث مراحل : مرحلة لاهوتية ، وأخرى ميتافيزيقية ، وثالثة علمية . قال : —

« قبل أن يفهم الناس العلاقة العلية بين الظواهر الطبيعية ، كان طبيعيا جداً أن يفترضوا أنها صادرة عن كائنات عاقلة ، غير مرئية ، شبيهة بهم . . . . فلما أدرك الفلاسفة سخف هذه الخرافات عن الأرباب دون أن يكتسبوا بعد بصراً بالتاريخ الطبيعى ، حاولوا تفسير أسباب الظواهر بعبارات تجريدية مثل الجواهر والقوى . ولم توضع الفروض — التى أمكن تطويرها بالرياضيات واثباتها بالتجربة ، بملاحظة التفاعل الميكانيكى المتبادل للاجسام — إلا فى فترة متأخرة »[٤٨] .

وقال الشاب الألمعى إن الحيوانات لا تعرف التقدم ، فهى تظل كما هى جيلا بعد جيل ، أما الإنسان فبفضل تعلمه تجميع المعرفة وتوصيلها يستطيع تحسين الأدوات التى يستخدمها فى التعامل مع بيئتـــه وفى اثراء حياته . مادام هذا التجميع والتوصيل للمعرفة والتكنولوجيا مستمراً فلامندوحة عن التقدم وأن عطلته أحياناً الكوارث الطبيعية أو تقلبات الدول . وليس التقدم متماثلا ، ولا هو عام ، فبعض الأمم يتقدم وبعضها يتقهقر ، وقد يركد الفن فى حين يتحرك العلم قدما ، ولكن الحركة فى جملتها حركة إلى الأمام . وفضلا عن هذه الآراء ، تنبأ طورجو بالثورة الأمريكية فقال « أن المستعمرات أشبه بالفاكهة التى تتشبث بالشجرة إلى أن تنضج ، وحين تغدو مستكفية بذاتها تفعل ما فعلته قرطاجة ، وما ستفعله أمريكا يوما ما[٤٩] » .

وقد خطط طورجو لكتابة تاريخ للحضارة وهو بعد فى الصوربون مستوحيا فى ذلك فكرة التقدم . ولم يبق من مشروعه هذا سوى مذكرات خطها لبعض فصول الكتاب « ومنها يتبين أنه قصد أن يضمنه تاريخ اللغة ، والدين ، والعلم ، والاقتصاد ، وعلم الاجتماع « وعلم النفس ، كما يضمنه قيام الدول وسقوطها[٥٠] » . فلما ورث عن أبيه دخلا كافيا قرر أواخر عام ١٧٥٠ أن يترك الوظيفة الكنسيه والح عليه زميل من الآباء الدينيين فى

البقاء وأعدا اياه بالترقى السريع ، ولكن طورجو أجاب على ما روى دبون دنمو « لاأستطيع أن أفرض على نفسى لبس قناع طوال حياتى[٥١] » .

ولم يكن قد رسم إلا لوظيفة كهنوتية صغيرة ، لذلك كان حرا فى الاشتغال بالسياسة . وفى يناير ١٧٥٢ أصبح نائبا عاما مناوبا ، وفى ديسمبر أصبح مستشارا فى البرلمان ، وفى ١٧٥٣ اشترى منصب « أمين الالتماسات والمطالب » ، الذى اشتهر فيه بالاجتهاد والعدل . وفى ١٧٥٥ـ ٥٦ رافق جورنيه فى جولات تفتيشية فى الأقاليم ، وتعلم الاقتصاد الآن بالاتصال المباشر مع الزراع والتجار ، والصناع ، وعن طريق جورينه التقى بكزنيه وعن طريق كزنيه التقى بميرابو الأب ، ودبون دنمور ، وآدم سمث . ولم ينخرط قط فى زمرة المدرسة الفزيوقراطية ، ولكن ماله وقلمه كانا أهم سند لحلة دبون المساماة التقاويم .

وفى غضون هذا (١٧٥١) استطاع بفضل ذكائه وسلوكه المهذب أن يلقى الترحيب فى صالونات مدام جوفران ومدام دجرافينه ، ومدام دوديفان والآنسة دلسبيناس . وهناك التقى بدالامبير ، وهلفتيوس ، ودولباخ ، وجريم ، ومن بين الثمرات المبكرة لهذه الاتصالات كتاب (١٧٥٣) من رسالتين « فى التسامح » . وكتب لموسوعة ديدرو مقالات فى الوجود ، والاشتقاق اللغوى ، والمهرجانات ، والأسواق ، ولكن حين أدانت الحكومة مشروع الموسوعة كف عن موافاتها بمقالاته . وخلال جولاته فى سويسره وفرنسا زار فولتير (١٧٦٠) وبدأ صداقة معه دامت حتى وفاة فولتير . وكتب حكيم فرنيه إلى دالامبير يقول : (قل أن رأيت طوال حياتى رجلا ألطف منه أو أوسع إطلاعا[٥٢]) . وأدعى جماعة الفلاسفة أنه واحـــد منهم ، وراودهم الأمل فى أن يؤثروا على الملك عن طريقه .

وفى ١٧٦٦ كتب لطالبين صينيين على وشك العودة إلى الصين مجملا للاقتصاد من مائة صفحة عنوانه « تأملات فى نشوء الثروة وتوزيعها » . فلما نشر فى مجلة « التقاويم » (١٧٦٩ ــ ٧٠) أشاد به الناس شرحاً من أكثر

شروح النظرية الفزيوقراطية إحكاماً وقوة . قال طورجو أن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وكل الطبقات فيا عدا زراع الأرض يعيشون على الفائض الذى ينتجه الزراع فضلا عن حاجاتهم ، وهذا الفائض يؤلف « صندوق أجور » تدفع منه أجور طبقة مهرة الصناع . ثم يسوق صيغة مبكرة لما أصبح فيما بعد يطلق عليه « قانون الأجور الحديدى » يقول :

إن أجر العامل يحدده مستوى معيشته بالمنافسة بين العمال . والعامل المجرد الذى لا يملك غير ذراعيه وجده ، لا يملك شيئاً إلا بقدر مايوفق فى بيع كده لغيره ، وصاحب العمل ينقده أقل مايستطيع من أجر ، وبما أنه يستطيع الاختيار من بين العديد من العمال ، فإنه يفضل أقلهم أجراً . ومن ثم يضطر العمال إلى خفض سعرهم فى المنافسة فيما بينهم ، وفى كل أنواع العمل لابد أن يحدث هذا ، وهو يحدث فعلا . وهو أن أجر العامل يحدده ماهو ضرورى لإعاشته »[٥٣] .

ويسترسل طورجو مؤكداً أهمية رأس المال . فلا بد أن يوفر شخص ما ، بمدخراته ، أدوات الإنتاج ومواده قبل أن يتسنى له استخدام العامل ، ولابد له من إعاشة العامل قبل أن يرد بيع الناتج له رأسماله . وإذا لم يكن هناك ضمان على الإطلاق لنجاح مشروع ما ، فيجب السماح بربح ليوازن خطر فقد رأس المال . « فحركة رأس المال هذه انطلاقاً ورجوعاً هى قوام دورة النقود ، تلك الدورة النافعة المثمرة التى تشيع الحياة فى جميع جهود المجتمع ، والتى شبهت بكل حق بدورة الدم فى الجسم الحيوانى »[٥٤] . ويجب عدم التدخل فى هذه الدورة ، وأن يسمح للأرباح والفائدة ، كما يسمح للأجور ، بأن تصل إلى مستواها الطبيعى حسب العرض والطلب . ويجب أن يعفى من الضرائب أصحاب رؤوس الأموال ، وأرباب المصانع ، والتجار ، والعمال ، فلا تفرض إلا على ملاك الأرض الذين سيستردون مادفعوه بتقاضى ثمن أغلى لمحاصيلهم . وينبغى ألا يفرض أى رسم على نقل أو بيع أى سلعة من سلع الاستهلاك .

فى هذه « التأملات » أرسى طورجو الأساس النظرى لرأسمالية القرن التاسع عشر قبل التنظيم الفعال للعمل . فهذا الرجل الذى كان من أرحم وأنبل

رجال زمانه لم يستطع أن يتطلع إلى مستقبل للعمال أفضل من أجور الكفاف . ومع ذلك أصبح هذا الرجل خادماً للشعب متفانياً فى عمله . فى أغسطس ١٧٦١ عين ناظراً ملكياً لمديرية ليموج ، وهى من أفقر أقاليم فرنسا ، وقد قدر أن ٤٨ ٪ إلى ٥٠ ٪ من دخل الأرض فيها يضيع ضرائب للدولة وعشوراً للكنيسة . وكان فى فلاحى الإقليم كآبة وفى نبلائه فظاظة . كتب إلى فولتير يقول : « من سوء حظى أن أكون ناظراً ملكياً . وأقول من سوء حظى لأن السعادة فى هذا الزمان الممتلىء بالتناحر واللوم لا تتوافر إلا فى حياة الفلسفة بين الكتب والأصدقاء » . ورد عليه فولتير قائلا : « ستكسب أهل ليموج وجيوبهم ؛ وفى اعتقادى أن الناظر الملكى هو الشخص الوحيد الذى يمكنه إفادة الناس . ألا يستطيع إصلاح الطرق ، وزرع الحقول ، وتصريف المستنقعات ، وتشجيع الصناعات ؟ » .

وقد فعل طورجو هذا كله . فكافح بهمة طوال ثلاثة عشر عاماً ، اكتسب فيها محبة الشعب وكراهية النبلاء . فالتمس مراراً ، ودون جدوى ، من مجلس الدولة أن يخفض معدل الضريبة ، وحسن توزيع الضرائب ، ورفع المظالم ، ونظم خدمة موظفى الحكومة ، وحرر تجارة الغلال ، وشق ٤٥٠ ميلا من الطرق ، وكانت هذه الطرق جزءاً من برنامج إنشاء الطرق الذى ينتظم البلاد كلها (والذى بدأته الحكومة الفرنسية فى ١٧٣٢) والذى ندين له بالفضل فى هذه الطرق الجميلة ذات الأشجار الوارفة الظلال التى تنتشر اليوم فى ربوع فرنسا . وكانت الطرق قبل طورجو تشق بالسخرة ، فألغى السخرة فى ليموج ، ودفع أجر العمال من ضريبة عامة على الكافة . وأقنع الفلاحين بأن يزرعوا البطاطس غذاء للإنسان لا للحيوان فقط . وقد ظفر بإعجاب الناس جميعاً لما اتخذ من تدابير فعاله لإغاثة الشعب فى فترات المجاعة التى امتدت بين سنتى ١٧٦٨ و ١٧٧٢ .

وفى ٢٠ يوليو ١٧٧٤ دعاه الملك الجديد للانضمام إلى الحكومة المركزية واغتبطت فرنسا كلها ، وتطلعت إليه منقذاً مرجواً للدولة المتداعية .

٥ — الشيوعيون

بينما كان الفزيوقراطيون يرسون الأساس النظرى للرأسمالية، كان موريللى ومابلى ، ولانجيه ، يشرحون الاشتراكية والشيوعية . فقد عزت الطبقات المتعلمة نفسها بمتع هذه الأرض بعد أن تخلت عن آمالها فى السماء : فتجاهل الأغنياء منهم المحظورات الدينية ، وأطلقوا العنان لرغباتهم فى الثروة والقوة والنساء والخمر والفن ؛ ووجد العامة عزاء فى عالم مثالى تقسم فيه خيرات الأرض بالقسط بين البسطاء والموهوبين ، وبين الضعفاء والأقوياء .

ولم تقم فى القرن الثامن عشر حركة اشتراكية ، ولاجماعة محددة مثل جماعة المسوين فى انجلترة كرومويل ، أو يسوعى براجواى الشيوعيين . واقتصر الأمر على أفراد متفرقين أضافوا أصواتهم إلى صيحة متصاعدة ستصبح فى « جراكوس » بابوف عاملا فى الثورة الفرنسية . ونذكر القراء بأن الكاهن الشكوكى جان ميزلييه طالب فى كتابه « الميثاق » الذى أصدره عام ١٧٣٣ بمجتمع شيوعى يقسم فيه الناتج القومى بالتساوى بين الناس ويتزاوج فيه الرجال والنساء وينفصلون كما يشاءون ، ثم ألمع إلى أنه مما يعين فى هذا الباب أن يقتل بعض الملوك . (**) وبعد سبعة أعوام من طبع هذه الدعوة ندد روسو فى «مقاله» الثانى (١٧٥٥) بالملكية الخاصة لأنها أس جميع شرور الحضارة ، ولكنه حتى فى صيحته تلك أنكر أى برنامج اشتراكى. وما وافى عام ١٧٦٢ حتى كان ابطال كتبه أفرادا ينعمون بالثروة .

وفى نفس العام الذى صدر فيه كتاب روسو « مقال فى أصل عدم المساواة » ظهر كتاب عنوانه « ناموس الطبيعة لرادبكالى مغمور لانكاد نعرف عنه شيئاً غير أسمه الأخير » إذا استثنينا كتبه ، وهو موريللى Morelly ؛ ولا نخلط بينه وبين أندريه موريلليه Morellet الذى التقينا به مشاركاً فى تحرير الموسوعة . وقد بدأ موريللى بإيقاظ الأفهام بكتابه « رسالة فى فضائل ملك عظيم » (١٧٥١) الذى صور ملكا شيوعياً . وفى ١٧٥٣ أضفى على حلمه الشاعرية بقصيدته« غرق الجزر الطافية ، أو الملحمة الملكية.» وهنا نرى الملك الطيب » ربما بعد أن قرأ الكاتب مقال روسو الأول ، يعود بشعبه

إلى حياة بسيطة فطريه . وكان خير عرض للمثال الشيوعى وأكمله كتاب موريللى « ناموس الطبيعة » (١٧٥٥ — ٦٠) وقد نسبه الكثيرون إلى ديدرو » وصرح المركيز دارجانسون بأنه يفوق كتاب مونتسكو « روح الشرائع » (١٧٤٨) . وقد ذهب موريللى ، كما ذهب روسو ، إلى أن الإنسان خير بطبعه وإلى أن غرائزه الاجتماعية تحمله على السلوك الطيب ، وأن القوانين أفسدته بتقرير الملكية الخاصة وحمايتها . وامتدح المسيحية لميلها إلى الشيوعية ، وأسف لأن الكنيسة أقرت الملكية ، فإقامة الملكية الخاصة أورثت البشر « الغرور ، والحمق ، والكبرياء ، والجشع ، واللؤم ، والنفاق » والشر .. وكل شيء شرير ينتهى إلى هذا العنصر الخفى المؤذى ، وأعنى به شهوة التملك [٥٦] » . ثم ينتهى السفسطائيون إلى أن طبيعة البشر تجعل الشيوعية ضربا من المحال » فى حين إن الذى حدث فى التتابع الواقعى للأحداث هو أن انتهاك الشيوعية هو الذى أفسد الفضائل الفطرية للإنسان . ولولا الجشع والأنانية » والمزاحمات ، والأحقاد التى ولدتها الملكية الخاصه لعاش الناس معا فى إخوة مسالمة متعاونة .

ولا بد للبدء فى إعادة البناء من إزالة العوائق من طريق التعايش الحر فى الأخلاق والسياسه « فتعطى كامل الحرية للعقلاء من الناس فى مهاجمة الأخطاء والأهواء التى تدعم نزعة التملك » وينبغى أن يؤخذ الأطفال من آبائهم وهم فى السادسة وينشأوا تنشئة مشتركة بواسطة الدولة حتى يبلغوا السادسة عشرة ، وعندها يعادون إلى ذويهم بعد أن تكون المدارس قد دربتهم على التفكير بلغة الصالح العام لا التملك الشخصى . وينبغى ألا يسمح بالملكية الخاصة إلا فى أخص خصائص الحاجات الشخصية « فتجمع كل النواتج فى مخازن عامة لتوزع على كل المواطنين لسد حاجات الحياة » [٥٧] . ويجب أن يعمل كل قادر على العمل ، فيساعد فى المزارع من الحادية والعشرين إلى الخامسة والعشرين . ويجب ألا يكون هناك طبقة عاطلة » ولكن لكل فرد الحرية فى أن يعتزل فى الأربعين على أن تدبر الدولة رعايته فى شيخوخته . وتنقسم الأمة إلى مدن حدائق لها مركز للبيع والشراء وميدان عام . ويحكم

كل جماعة مجلس من الآباء الذين تزيد أعمارهم على الخمسين ، وتنتخب هذه المجالس مجلس شيوخ أعلى يحكمها كلها وينسق فيما بينها .

ولعل موريللي بخس قدر النزعة الفرديه الفطرية فى البشر ، وقوةغريزة الاقتناء ، ومقاومة التعطش للحرية وللاستبداد اللازم للابقاء على حاله من مساواة غير طبيعية ومع ذلك كان تأثيره كبيراً . فصرح بابيف بأنه تشرب شيوعيته من كتاب موريللى « ناموس الطبيعة » والا ابجح أن شارل فورييه استمد من نفس المصدر خطة المستعمرات التعاونيه (الكتائبية phalansteries) (١٨٠٨) التى أفضت بدورها إلى تجارب شيوعية من أمثال مزرعة بروك (١٨٤١) . وفى « ناموس » موريللى نلتقى بذلك المبدأ الشهير الذى انحدر ليلهم الثورة الروسية وينكبها ، ونعنى به « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجاته » .(٥٨)

أما جماعة الفلاسفة فقد رفضوا بوجه عام نظام موريللى باعتباره غير عملى ، وقبلو الملكية الخاصة نتيجة لا مناص منها لطبيعة البشرية . ولكن فى ١٧٦٣ وجد موريللى حليفاً قوياً فى سيمون — هنرى لانجيه . وهو محام هاجم القانون والملكية جميعاً . فبعد أن شطب اسم لانجيه من جدول المحامين نشر (١٧٧٧ — ٩٢) «حوليات سياسية » وهى مجلة اطلق فيها وابلا من النيران على الشرور الاجتماعية . فالقانون فى رأيه قد أصبح أداة لتحليل وصيانة المقتنيات التى كسبت أصلا بالقهر أو الغش :

« إن القوانين يقصد بها أولا تأمين الملكية . وبما أنه يمكن الآن أن يؤخذ من الغنى أكثر مما يؤخذ من الفقير ، فن الواضح أنها ضمان يعطى الأغنياء ضد الفقراء . وقد يعسر علينا أن نصدق — وإن كان هذا يمكن بيانه بجلاء — أن القوانين من بعض نواحيها مؤامرة على الكثرة العظمى من البشر (٥٩).

ويترتب على ذلك أن حربا طبقية لا مندوحة عنها تستعر بين أصحاب الملكية أو رأس المال ، وبين العمال الذين لا بد لهم من بيع كدهم لأرباب العمل

الملاك ، متنافسين فى ذلك بعضهم بعضا . وقد احتقر لابحبه دعاوى الفزيوقراطين بأن تحرير الاقتصاد من سيطرة الدولة سيجلب الرخاء تلقائياً ، لأنه على النقيض من ذلك يعجل بتركز الثروة ، فترتفع الأسعار ، وتتخلف الأجور . وسيطرة الأغنياء على الأسعار من شأنها الإبقاء على عبودية الأجير حتى بعد « إلغاء » الرق قانوناً ، « فكل ما جنوه (أى العبيد السابقون) هو العذاب الدائم من خوف الموت جوعا ، وهو خطب أعفى منه على الأقل أسلافهم ممن ترددوا فى هذا الدرك الأسفل للانسانية » [٦٠] . فقد كان العبيد يسكنون ويطعمون على مدار السنة . أما فى الاقتصاد غير المقيد فإن رب العمل حر فى أن يقذف بالعمال فى مهاوى التسول إذا لم يستطع جنى الربح من ورائهم ، ثم يجعل التسول جريمة . وفى رأى لابحيه أنه لا دواء لهذا كله الا الثورة الشيوعية . على أنه لم يوص بها لجيله ، لأنها ستفضى على الأرجح إلى الفوضى لا إلى العدالة ، ولكنه أحس بأن الأحوال المواتيه لثورة كهذا آخذه فى التشكل السريع ، يقول :

« لم يحدث قط إن كان الفقر أعم ولا أشد فتكا بالطبقة التى تبلى به ، ولعل أوربا لم تكن فى يوم من الأيام أقرب منها اليوم إلى الانقلاب التام وسط هذا الرخاء الظاهر ... ولقد بلغنا بالضبط ، بطريق عكسى تماماً ، تلك النقطة التى بلغتها إيطاليا حين اغرقتها حرب العبيد (التى قادها سبارتاكوس) فى حمام من الدم ، وحملت النار والتقتيل إلى أبواب عاصمة الدنيسا ذاتها » [٦٠].

وقد نشبت الثورة وهو حى بعد رغم نصيحته وقذفت به إلى الحلوتين (١٧٩٤) .

وأما الأبيه جابرييل بونو دمابلى نو فقد احتفظ برأسه لأنه مات قبل الثورة بأربع سنوات وكان سليل أسرة كريمة فى جرينوبل ، وأخد أخوته جان بونو دمابلى الذى عاش روسو معه فى ١٧٤٠ ، والآخر كونديلك الذى أثار ضجة بأبحاثه السيكولوجية . ثم قريب مشهور آخر هو الكردينال دتنسان ، حاول أن يجعل من جابريل قسيسا ، ولكنه لم يجاوز مراتب الكهانة الصغرى ،

واختلف إلى صالون مدام تنسان فى باريس ، ثم استسلم لإغراء الفلسفة . وفى ١٧٤٨ تشاجر مع الكردينال ، وانصرف إلى الدرس فى خلوته ، وبعدها كانت أهم أحداث حياته هى كتبه ، وكلها ذاع صيته فى الماضى .

وقد أفاد من الأعوام السبعة التى قضاها فى باريس ولرساى علماً بالسياسة ، والعلاقات الدولية ، والطبيعة البشرية . وأسفر هذا كله عن مزيج فذ جمع بين التطلعات الاشتراكية والشكوك المتشائمة . وقد أصر مابلى على أن المعايير الخلقية التى تطبق على الأفراد يجب أن تطبق على سياسة الدول (وهو عكس ما قال به مكيافللى) ، ولكنه أدرك أن هذا يتطلب نظاماً من القانون الدولى يمكن فرضه . وكان كفولتير وموريللى موحداً بغير مسيحية ، ولكنه آمن بأنه لا سبيل إلى صيانة الفضيلة إلا بديانة قوامها العقاب والثواب فوق الطبيعيين ، لأن أكثر الناس « قضى عليهم بطفولة العقل الدائمة »[٦٢] . وقد آثر اخلاقيات الرواقيين على أخلاقيات المسيح ، والجمهوريات الإغريقية على الملكيات الحديثة . واتفق مع موريللى على أن رزائل البشر مبعثها الملكية لا الطبيعة ، فهى « أس جميع البلايا التى تكب بها المجتمع[٦٣] » . وقد تربعت شهوة الغنى على عرش متضخم فى قلب الإنسان ، فخنقت كل ما فيه من حب العدل والانصاف[٦٤] » ، وكلما ازدادت التفرقة بين حظوظ البشر تأججت هذه الشهوة . فالحسد ، والطمع ، والفوارق الطبقية ، تسمم ما فى طبيعة البشر من مودة فطرية . فيستكثر الأغنياء من أسباب الترف والبذخ ، ويتردى الفقراء فى مهاوى الذل والهوان . فأى خير فى الحرية السياسية مادامت العبودية الاقتصادية قائمة ؟ « ن الحرية التى يحسب كل أوربى أنه يستمتع بها ليست سوى حريته فى أن يترك عبوديته لسيد ويسلم نفسه إلى سيد آخر[٦٥] » .

وكم يكون البشر اسعد وأهنأ إذا اختفت الفاظ « هذا ملكى » « وذلك ملكك » . وزعم مابلى أن الهنود الحمر كانوا أهنأ بالا فى ظـــل شيوعية اليسوعيين فى برجواى من فرنسيى جيله ، وأن السويديين والسويسريين فى ذلك الجيل ، الذين تخلوا عن الجرى وراء المجد والثراء قانعين برخاء معتدل ، هم أسعد حالا من الإنجليز الذين يغزون المستعمرات والتجارة . وذهب إلى

أن الأخلاق فى السويد تحظى بمقام أعظم من الشهرة ، وأن القناعة أثمن فى نظر القوم من الثراء الطائل(٦٦) . أن الذين يملكون الحرية الحقيقية هم أولئك الذين لا تهفو نفوسهم للغنى . ولن تتوافر السعادة فى مجتمع كذلك الذى يدعو إليه الفزيوقراطيون ، لأن الناس ستثير هم على الدوام الرغبة فى أن يتساووا فى مقتنياتهم مع من يفوقونهم ثراء .

وهكذا خلص مابلى إلى أن الشيوعية هى النظام الاجتماعى الوحيد الذى يدعم الفضيلة والسعادة . « أقيموا أشتراكية السلع ، وعندها لن يكون أيسر من إقرار المساواة بين أحوال العيش ، وارساء رفاهية الإنسان على هذا الأساس المزدوج . »(٦٧) ولكن كيف السبيل إلى إقامة شيوعية كهذه والناس على مثل هذا الفساد ؟ هنا يرفع الشكوكى فى مابلى رأسه ، ويسلم فى قنوط بأنه ليس فى قدرة أى قوة بشرية اليوم أن تعيد إقرار المساواة دون أن تحدث من ضروب الخلل والاضطراب ما يفوق تلك التى تحاول تفاديها(٦٨) » . فالديمقراطية رائعة نظريا ، أما عمليا فهى تفشل بسبب جهل الجماهير وحبها للاقتناء(٦٩) . وقصارى ما نستطيعه هو أن نعرض الشيوعية مثلا أعلى ينبغى أن تسعى إليه الحضارة شيئاً فشيئا فى حذر ، وتغير ببطء عادات الإنسان الحديث من التنافس إلى التعاون . ويجب ألا يكون هدفنا الاستكثار من الثروة ، ولا حتى الاستكثار من السعادة ، بل إنماء الفضيلة ، فالفضيلة وحدها هى مجلبة السعادة . وأول خطوة فى سبيل الحصول على حكومة أفضل هى دعوة مجلس طبقات الأمة ، الذى ينبغى أن يضع دستورا يخول السلطة العليا لجمعية تشريعية (وهذا ما تم . فى ١٧٨٩ — ٩١) . وينبغى تحديد مساحة الأطيان التى يتملكها الفرد ، وتقسيم الضياع الواسعة للاستكثار من ملكية الفلاحين للأرض ، ووضع القيود الصارمة على إرث الثروة ، وإلغاء « الفنون عديمة الجدوى » كالتصوير والنحت .

وقد تبنت الثورة الفرنسية كثيراً من هذه المقترحات . ونشرت مجموعة أعمال مابلى فى ١٧٨٩ ، ثم فى ١٧٩٢ ، ثم فى ١٧٩٣ ، ورتب كتاب نشر عقب الثورة هلفتيوس ، ومابلى ، وروسو ، وفولتير ، وفرانكلن ، بهذا الترتيب ، بوصفهم أكبر ملهمى ذلك الحدث ، وقديسى الدين الجديد الحتميين(٧٠) .

٦ — الملك

أما لويس الخامس عشر فقد أبتسم سخرية من هؤلاء الشيوعيين — على قدر علمه بهم — لأنهم قوم حالمون لا وزن لهم ، وراح ينتقل فى ود من فراش إلى فراش . وأما البلاط فواصل قاره المستهتر وزهوه المسرف ؛ من ذلك أن أمير سوبيز أنفق ٢٠٠,٠٠٠ جنيه على توفير أسباب اللهو للملك فى يوم واحد ، وكان كل إنتقال لجلالته إلى أحد مقاره الريفيه يكلف دافعى الضرائب ١٠٠,٠٠٠ جنيه . وكان خمسون من كبار القوم يملكون « أوتيلات » أى قصوراً فى فرساى أو باريس ، وكان عشرة آلاف خادم يبذلون العرق فى كبرياء وفخر لتلبية حاجات النبلاء ؛ والأحبار ، والخليلات ، والأسرة المالكة واشباع غرورهم . وكان للويس نفسه ثلاثة آلاف جواد و ٢١٧ مركبة ، و ١٥٠ غلام يرتدون حللا من المخمل والذهب ، وثلاثون طبيبا يقصدونه وينظفون أمعاءه ويسممونة . وقد أنفق البيت المالك فى سنة واحدة (سنة ١٧٥١) ٦٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو ما يقرب من ربع إيراد الحكومة[٧١] وشكا الشعب ولكن أكثر شكاوا هم كانت غفلا من التوقيع ، وفى كل عام كشفت عشرات النشرات والملصقات ، وأغانى الهجو ، عن كراهية الملك . وقد جاء فى أحد الكتيبات « إذا كنت يا لويس مرة موضع حبنا فما ذلك إلا لأن رذائلك كانت لا تزال مجهولة لنا . وفى هذه المملكة ، التى نضبت من أهلها بسببك ، وأسلمت نهبا ، للمشعوذين الذين يحكمون معك ، إن بقى فرنسيون ، فانما يبقون ليكرهوك[٧٢] » .

فكيف انقلب لويس المحبوب ملكا محتقراً مهانا ؟ أننا لو صرفنا النظر عن إسرافه ، وإهماله ، وفواحشه ، لم نجده فى ذاته بالسوء الذى صوره به التاريخ الحقود . كان فى بنيته رجلا وسيما ، طويلا ، قويا ، قادرا على الصيد طوال المساء واللهو مع النساء فى الليل . أفسده معلموه ، فأفهمه فيلرو أن فرنسا كلها ملكه بالوراثة والحق الألهى . وقد خفف من كبرياء الملكية وشوشها الظل الذى خلفه لويس الرابع عشر وتقاليده ، إذ ألح على الملك الحدث إلحاح الماجس ، وأورثه الجبن ، إحساسه بالعجز عن الأرتفاع

إلى ذلك المستوى الجليل من الفخامة وقوة الأرادة ، فأصبح عاجزا عن البت فى الأمور ، وترك مهمة إتخاذ القرارات لوزرائه مغتبطا . وأتاحت له قراءاته وهو غلام ، وذاكرته القوية ، بعض الإلمام بالتاريخ ، واكتسب مع الوقت معرفة لا يستهان بها بالشئون الأوروبية ، واحتفظ سنوات كثيرة بمراسلاته الدبلوماسية السرية . كان ذكيا فى تراخ وفتور ، يحكم حكما شديدا ولا رحمة فيه على أخلاق من أحاط به من الرجال والنساء ، فى وسعه أن يجارى خير العقول فى بلاطه حديثا ونكته ، ولكن يبدو أنه قبل حتى أسخف العقائد اللاهوتية التى تبثها فيه فلورى وهو صبى . وبات الدين عنده أشبه بالحمى المتقطعة إذ راح يتذبذب بين التقوى والفجور . فكان يعانى من خوف الموت والجحيم ، ولكنه يقامر على غفران خطاياه وهـــو فى النزع الأخير . وقد أوقف اضطهاد الجانسنيين ، وإذ نستحضر تاريخ تلك الحقبة نتبين أن جماعة الفلاسفة استمتعوا فى حكمه بين الحين والحين بقدر كبير من التسامح .

كان يقسو أحيانا ، ولكنه فى الأكثر رحيم . تعلمت بومبادور ودوبارى أن تحباه من أجل شخصه كما أحبتاه من أجل السلطة التى منحهما إياها . وكانت برودة عاطفته وتحفظه جزءا من حيائه وانعدام ثقته بنفسه ، ولكن وراء ذلك التحفظ عناصر من الحنان والرقة أعرب عنها خاصة فى محبته لبناته ، وقد أحببنه أباً منحهن كل شىء إلا القدوة الحسنة . وكان فى سلوكه عموما تلطف وكياسة ولكنه كان قاسى الفؤاد احينا ، ويتكلم فى هدوء مفرط على امراض إفراد حاشيته أو موتهم الوشيك . وقد نسى تماما أن يسلك مسلك الرجل المهذب وهو يقيل فجأة دارجانسون ، وموريا ، وشوازيل ، ولكن هذا أيضاً ربما كان نتيجة عدم ثقته بنفسه . فقد شق عليه أن يقول لا لإنسان فى وجهه . ومع ذلك كان قادرا على أن يواجه الخطر بشجاعة كما كان يفعل فى الصيد أو فى فونتنوا .

وكان على ظهوره بمظهر الوقار أمام الناس لطيفا حلو العشرة بين أخصائه ، يعد لهم القهوة بيديه الكريمتين . وقد راعى قواعد السلوك المعقدة التى أرساها لويس الربع عشر للملكية ولكنه أنكر الشكلية التى فرضتها

على حياته . وكثيراً ما كان يستيقظ قبل تقليد « الاستيقاظ » المقرر رسميا ويوقد ناره بنفسه لكيلا يوقظ خدمه ، ويغلب عليه أن يلبث فى فراشه حتى الحادية عشرة . أما فى الليل ، فإنه بعد أن يحتفل رسميا بذهابه إلى فراشه، قد يتسلل ليلهو بمحظيته أو حتى ليتفقد مدينة فرساى متنكرا وكان يلوذ بالصيد من مراسم البلاط المتكلفة ، وفى الأيام التى لا يهرب فيها للصيد كانت بطانته تقول « أن الملك لا يعمل اليوم شيئاً[٧٣] » . وكان يعرف عن كلاب صيده أكثر مما يعرف عن وزرائه ؛ إذ رأى أن فى قدرة وزرائه أن يعنوا بشئون الدولة خيراً منه ، فلما نبه إلى أن فرنسا فى طريقها إلى الأفلاس والثورة ؛ عزى نفسه بهذه الفكرة « ستسير الأمور على هذه الوتيرة حتى ينتهى أجلى » .

أما من الناحية الجنسية فقد كان وحشا فاسقاً . ولقد تغتفر له إتخاذه المحظية التى إتخذها حين ضاقت الملكة ذرعا بفحولته ، وقد نفهم افتتانه بپومبادور ؛ وحساسيته لجمال المرأة وظرفها وحيويتها المشرقة . ولكن قل فى تاريخ الملوك ما أشبه حقارة تنقله بين الفتيات اللاتى إعددن لفراشه فى البارك أوسير واحدة تلو أخرى . وكان مجىء دوبارى بالقياس إلى هذا رجوعا إلى الحالة السوية .

٧ — دوبارى

بدأت حياتها فى قرية من قرى شمبانيا تدعى فوكولير حوالى ١٧٤٣ باسم مارى — جان بيكى ، أبنة الآنسة آن بيكى ، التى يبدو أنها لم تمط اللثام قط عن شخصية أبى الفتاة . ومثل هذه الخفايا كانت مألوفة بين الطبقات الدنيا . وفى ١٧٤٨ أنتقلت آن إلى باريس وأصبحت طاهية للمسيو دومونسيه الذى رتب إلحاق جان ، وهى فى السابعة ، تلميذة داخلية بدير سانت —آن للراهبات . هناك مكثت الفتاة الجميلة تسع سنوات . يلوح أنها لم تعوزها فيها السعادة ؛ وقد احتفظت بذكريات حلوة عن هذا الدير المنظم . وتلقت فيه تعليما فى القراءة والكتابة والتطريز ، واحتفظت طوال حياتها بتدين بسيط لا يتشكك ، وبإجلال للراهبات والقساوسة . وكان إيواؤها للقساوسة المطاردين فى الثورة من العوامل التى أفضت بها إلى الجيلوتين[٧٥] .

فلما خرجت من مدرسة الدير إتخذت إسم صديق أمها الجديد « المسيورانسون » لقباً لها وأرسلت إلى حلاق لتتعلم فنه ، ولكن هذا الفن أشتمل على الإغواء ، وجان — الجميلة جمالا لا يقاوم — لم تعرف كيف تقاوم . ونقلتها أمها وصيفة لمدام دلاجارد ، ولكن ضيوف هذه السيدة غالوا فى الأهتمام بجان ، فما لبثت أن طردت . واجتذب دكان القبعات الذى التحقت به بائعة عددا غير عادى من الزبائن الذكور . فاصبحت خليلة اختص بها سلسلة من الفجرة . وفى ١٧٦٣ تلقاها جان دوبارى ، وهو مقامر كان يجلب النساء للفاسقين من النبلاء . وخدمت هذا القواد — متخذة اسم جان دفوبرنية الأنيق — خمس سنوات مضيفة فى حفلاته ، وأضافت شيئاً من التهذيب والصقل لمفاتنها . ثم رأى دوبارى أنه هو أيضاً ، كمدام بواسون ، قد أكتشف « طبقاً شهياً للملك » .

وبيان ذلك أن الملك الطيب ستانسلاس مات عام ١٧٦٦ فى اللورين فأصبح بذلك اقليما من أقاليم فرنسا . وانهارت صحة ابنته مارى (ملكة فرنسا التقية المتواضعة) انهيارا سريعا بعد موته لأن حبهما المتبادل كان سندا لها فى حياة العبودية الطويلة التى عاشتها مع زوج خائن العهود الزوجية ، فى بيئة غريبة . وفى ٢٤ يونيو ١٧٦٨ لفظت أنفاسها الأخيرة فبكاها الجميع حتى الملك . وقد عالل بناته بالأمل فى أنه لن يتخذ المزيد من الخليلات . ولكن فى شهر يوليو رأى جان التى كانت سائرة بالصدفة على غير هدى فى قصر فرساى فى براءة كبراءة لايومبادور وهى راكبة فى أرض الصيد « سينار » قبل أربع وعشرين سنة .

وراعه فيها جمالها الشهوانى ومرحها وطبعها اللعوب . فهاهنا امرأة تستطيع أن توفر له اللهو من جديد وتدفىء قلبه البارد الحزين ، فأرسل إليها تابعه لبيل . ولم يتردد (الكونت) دوبارى فى التفريط فيها لقاء مقابل ملكى . ورغبة فى تهدئة المظاهر أصر اويس على أن تتزوج الفتاة . فزوجها الكونت بسرعة لأخيه جيوم ، الكونت دوبارى الحقيقى ، المفتقر بعد أن استقدمه لهذا الغرض من لفنياك بغسقونية . وحيته تحية الوداع

عقب حفل الزفاف مباشرة (أول سبتمبر ١٧٦٨) ، ولم تقع عليه عيناها بعد ذلك قط . وكوفىء جيوم بمعاش قدره ٥٠٠٠ جنيه ، فاتخذ له خليلة واصطحبها إلى لفنياك حيث عاشرها خمسة وعشرين عاما ، ثم تزوجها حين علم أن زوجته أعدمت بالجلوتين .

ولحقت جان ، التي اتخذت الآن اسم الكونتس دوباري ، بالملك سرا في كومبيين ، ثم علانية في فونتنبلو . وسأل الدوق ريشليو لويس ماذا يرى في هذه اللعبة الجديدة ، فأجاب جلالته « لا أكثر من أنها تنسيني أني سأبلغ الستين بعد قليل .[٧٦] » وربحت بطانته . فقد كان في استطاعتهم أن يفهموا في غير غباء حاجة الملك إلى خليلة ، أما أن يأخذ امرأة عرفها العديدون منهم مومسا ، ثم يرفعها إلى مقام يعلو على المركيزات والدوقات !! وكان شوازيل قد منى نفسه بأن يقدم أخته للملك (خليلة تحمل لقبا) ، فراحت هذه النبيلة المرفوضة تحرض أخاها — الذي كان الحذر من طبعه — على العداء الصريح لهذه الدعية الجميلة ، ولم تغتفر له دوباري فعلته قط .

وسرعان ما تقلبت الخليلة الجديدة في الذهب والجواهر . وخلع عليها الملك معاشا قدره ١٣٠،٠٠٠ فرنك بالاضافة إلى راتب سنوى قدره ١٥٠،٠٠٠ فرنك ، تفرض على مدينة باريس وولاية برجندية . وهرع الجواهريون إلى تزويدها بالخواتم والعقود والأساور والتيجان وغيرها من أسباب الزينة المتألقة التي اقتضوا الملك ثمنا لها ٢،٠٠٠،٠٠٠ فرنك في أربع سنوات . وبلغت جملة ما تكلفته الخزانة في تلك السنوات الأربع ٦،٠٠٠،٣٧٥ جنيها[٧٧] . وسمع أهل باريس بجمالها المتألق ، وحزنوا لأن بومبادور جديدة اقبلت لتبتلع ضرائبهم .

وفي ٢٢ ابريل ١٧٦٩ قدمت رسميا في البلاط ، وطلعت على أفراده في شعلة متوهجه من الحلى والجواهر وهى تتكىء على ذراع ريشليو . وأعجب الرجال بمفاتنها ، أما النساء فاستقبلنها بما جرؤن عليه من فتور . واحتملت هذه الاهانات في هدوء ، وأرضت بعض الحاشية بتواضع سلوكها والضحك الرخيم الذى كانت تشرح به صدر الملك . ولم تبد أى ضغينة حتى لأعدائها (باستثناء شوازيل) ، واكتسبت الرضى باستمالة

جلالته لاصدار قرارات عفوا أكثر مما كان يصدر من قبل . وشيئاً فشيئاً جمعت حولها رجالا ونساء من النبلاء الذين تشفعوا بها عند الملك وقد حرصت على رعاية أقاربها كما فعلت بومبادور من قبل ، فاشترت أملاكا ولقبا لأمها ، وحصلت على معاشات لخالتها وأبناء خالتها ، ثم دفعت ديون جان دوبارى ، وخلفت عليه مالا كثيرا ، واشترت له فيلا أنيقة فى لبل — جوردان . وظفرت لنفسها من الملك بالشاتو لوفسين الذى كان أمير لامبال وأميرتها يشغلانه « على حافة الحديقة الملكية فى مارلى ؛ واستخدمت أعظم معماوى الجيل ، جاك — انج جابرييل ، ليعيد بناء القصر على هواها ، وصانع الأثاث المدقق بيير جوتيير ليزخرفه بأثاث وتحف فنيه بلغ ثمنها ٧٥٦٫٠٠٠ جنيه .

وكانت تعوزها خلفية التعليم والاختلاط التى جعلت من بومبادور راعية مختارة ذواقة للأدب والفلسفة والفن . بيد أنها جمعت عددا كبيرا من الكتب الأنيقة التجليد ، من هومر إلى كتب الفحش ، ومن تأملات بسكال الورعة إلى رسوم فراجونار البذيئة . وفى ١٧٧٣ أرسلت تحيتها وصورتها إلى فولتير مع قبلة على كل وجنة وأجاب بأبيات فيها ذكاء شعره المعهود :

« ماذا ! أقبلتان فى ختام حياتى ! أى جواز تتفضلين بأن ترسليه لى ! قبلتان ! إن واحدة تسكفى وزيادة ، أى إيجيريا المعبودة ، لأننى سأموت فرحا فى القبلة الأولى(٧٨) » .

وطلبت إلى لويس الخامس عشر أن يسمح لفولتير بالعودة إلى باريس فرفض ، وكان عليها أن تقنع بشراء تشكيلة من الساعات من فرنيه وفى ١٧٧٨ . حين أتى الاقطاعى العجوز إلى باريس ليموت « كانت من بين الكثيرين الذين صعدوا سلم بيته فى شارع بون لتقدم له احترامها . وقد فتن بزيارتها ، وختمها بالنهوض من فراشة ليصحبها إلى الباب . وفى نزولها التقت بجاك بيير بريسو ، رجل الثورة المستقبل ، وكان يرجو أن يقدم إلى فولتير مخطوطة فى القانون الجنائى « وحاول الدخول إليه بالأمس ففشل ، وكان يعيد الكرة الآن ، فقادته عودا إلى باب فولتير

ورتبت له أن يدخل . وقد استعاد في مذكراته « ابتسامتها المفعمة دفئا ولطفا[٧٩] » .

لقد كانت طيبة القلب سمحة النفس ما في ذلك ريب . احتملت دون ود عداء الأسرة المالكة ورفض ماري انطوانيت التحدث اليها . وكان شوازيل دون غيره هو الذي لم تستطع الصفح عنه لأنه لم ين عن محاولة طردها من البلاط . وسرعان ما وضح أن واحـداً منهما لابد أن يرحل .

٨ — شوازيل

كان سليل أسرة لورينية عريقة ، وأصبح في مطلع حياته الكونت دستانفيل ، وقد ظفر بالتشريف لبلائه في حرب الوراثة النمساوية . وفي ١٧٥٠ حين كان في الحادية والثلاثين استعاد لأسرته ثراءها بزواجه من وارثة غنيه . وسرعان ما ظفر بمكان مرموق في البلاط بفضل ذهنه الوقاد وذكائه المرح ، ولكنه عطل رقيه بمعارضته لبومبادور . وفي ١٧٥٢ نقل ولاءه فاكتسب عرفانها بصنيعه حين أفشى لها سر مؤامرة دبرت لطردها . فحصلت له على وظيفة سفير في روما ثم فينا . وفي ١٧٥٨ دعي إلى باريس ليحل محل برنيس وزيرا للخارجية ، ورقى دوقا ونبيلا من نبلاء فرنسا . وفي ١٧٦١ نقل وزارته هذه لأخيه سيزار ، ولكنه واصل توجيه السياسة الخارجية ، أما هو فاتخذ لنفسه وزارتي الحربية والبحرية . وتعاظم سلطانه حتى كان يتغلب أحيانا على الملك ويخيفه[٨٠] » . وقد أعاد بناء الجيش والبحرية ، وقلل من المضاربة والفساد في المدفوعات الحربية وفي تموين الجيش ، وأعاد النظام إلى صفوف الجيش ، وأحل ذوى الكفايات من غير حملة الألقاب محل حملتها ممن شاخوا في سلاح الضباط . وطور المستعمرات الفرنسية في جزر الهند الغربية ، وأضاف كورسيكا إلى ممتلكات التاج الفرنسي ، وتعاطف مع جماعة الفلاسفة ، ودافع عن الموسوعة ، وأيد طرد اليسوعيين (١٧٦٤) وأغضى عن إعادة تنظيم الهيجونوت في فرنسا . وقد حمى أمن فولتير في فرنيه ، وأيد حملته دفاعا عن أسرة كالاس ، وظفر من ديدرو بمديح قال فيه « أي شوازيل العظيم » انك لتسهر على مقدرات الوطن[٨١] » .

ويمكن القول على الجملة إن سياساته أنقذت فرنسا إلى حد معتدل من الكارثة التي جرها إليها الحلف النمساوي المنحوس . فخفض الإعانات المالية التي كانت تدفعها عادة إلى السويد ، وسويسرة ، والدنمرك ، وبعض الأمراء الألمان . وشجع الجهود التي بذلها شارل الثالث ليدخل أسبانيا إلى حظيرة القرن الثامن عشر ، وحاول أن يعزز قوة فرنسا وأسبانيا بميثاق الأسرة (١٧٦١) الذي أبرمه الملكان البوربونيان . وقد تعثرت الخطة ، ولكن شوازيل فاوض انجلترة على صلح بشروط تفضل كثيراً ما كان الموقف العسكري يبرره . وقد تنبأ بثورة المستعمرات الإنجليزية في أمريكا ، ودعم مركز فرنسا في سان دومنيج والمارتنيك ، وجوادبلوب ، وغيانا الفرنسية ، أملاً في إرساء سلطان استعماري جديد يعوض فرنسا عن فقد كندا . وقد تبنى النابليونان هذه السياسة في ١٨٠٣ و ١٨٦٣ .

ويجب أن نضع مقابل هذه المنجزات إخفاقه في وقف التغلغل الروسي في بولندة وإصراره على قيادة فرنسا وأسبانيا في أعمال عدائية مجددة مع انجلترة . وكان لويس قد سئم الحرب ، فاستمع بذهن مفتوح لأولئك الذين يعملون على إسقاط شوازيل . وقد فتن الوزير الأريب الكثيرين بمجاملاته للبلاط ، واستضافته المسرفة للأصدقاء ، وسعة حيلته وجهاده في خدمة فرنسا ، ولكنه قوى المنافسات فأحالها عداوات بنقده الصريح وحديثه المستهتر . وأتاحت معارضته لدوباري معارضة لا هوادة فيها لإعدائه سبيلا إلى أذن الملك . وأيد ريشيلو — الذي لا يكل — دوباري ، وكان ابن أخيه الدوق دجيون يتحرق شوقاً للحلول محل شوازيل رئيساً للحكومة . ونزلت الأسرة المالكة التي أنكرت نشاط شوازيل ضد اليسوعيين إلى استعمال الخليلة المزدراة أداة لعزل الوزير العديم التقوى .

وطلب إليه لويس غير مرة أن يتجنب الحرب مع انجلترة ومع دوباري . ولكن شوازيل واصل الإئتمار على الحرب خفية ، وازدراء الخليلة جهراً . وأخيراً استجمعت كل قواها ضده وفي ٢٤ ديسمبر ١٧٧٠ أرسل الملك المغيظ رسالة مقتضبة إلى شوازيل جاء فيها « يا ابن عمي ، إن عدم رضائي

عن خدماتك يضطرنى إلى نفيك إلى شانتلوب حيث يتعين عليك أن ترحل فى ظرف أربع وعشرين ساعة . » وتحدى أكثر الحاشية غيظ الملك بالإعراب عن عطفهم على الوزير المقال بعد أن صدمهم هذا الطرد الفجائى لرجل أدى لفرنسا خدمات جليلة. وركب نبلاء كثيرون إلى شانتلوب ليواسوا شوازيل فى منفاه . وكان منفى مريحا لأن ضيعة الدوق كانت تحوى قصرا من أبدع القصور ، وحدائق خاصة من أرحب الحدائق فى فرنسا ، ثم إنه كان يقع فى تورين غير بعيد من باريس . هنالك عاش شوازيل حياة الأبهة والأناقة ، لأن دو بارى أقنعت الملك بأن يرسل إليه ٣٠٠,٠٠٠ جنيه فوراً وتعهداً بستين ألفاً كل عام . وحزن جماعة الفلاسفة بسقوطه ، وبكى الطاعمون على مائدة دولباخ قائلين : « لقد ضاع كل شىء » وقال ديدرو فى وصفهم إنهم غرقوا فى دموعهم .

٩ — تمرد البرلمانات

جاءت بعد شوازيل « حكومة ثلاثية » كان دجيون وزير الخارجية فيها وريشيه نيكولا دموبو مستشارا ، والأبيه جوزيف مارى تريه مراقباً مالياً . وأعطى تريه للدوبارى كل ماطلبته من مال ، ولكنه فيما عدا ذلك خفض المصروفات تخفيضاً بطولياً . فأوقف استهلاك الديون » وخفض نسبة الفائدة على الديون الحكومية » ووضع الجديد من الضرائب ، والفروض ، والرسوم وضاعف الرسم الحكومى على النقل الداخلى . وبلغت جملة ماوفره ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأضاف ١٥,٠٠٠,٠٠٠ إلى الدخل . والواقع أنه إنما أجل الانهيار المالى بتفليسة مؤقتة ولكن الكثيرين عانوا من تخلف الحكومة فى إيفاء ديونها » وضموا أصواتهم لأصوات السخط الذى لم يهدأ . وما لبث العجز أن عاد إلى التفاقم حتى بلغ ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى آخر سنوات الحكم (١٧٧٤) . وكان هذا الذى يبدو اليوم دينا أهليا متواضعا لأمة تتمتع بالاستقرار المالى مبررا إضافيا لقلق أولئك الذين أقرضوا الحكومة مالا ، والذين سمعوا الآن ، بعداء أذل الصيحات المتصاعدة بطلب التغيير .

وكانت أزمة الذروة فى العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر هى

كفاح وزرائه للحفاظ على سلطة الملك المطلقة ضد تمرد البرلمانات . وهذه البرلمانات (كما رأينا) لم تكن هيئات نيابية أو تشريعية كالبرلمان البريطانى بل غرفاً قضائيه تقوم بعمل محاكم الاستئناف فى ثلاث عشرة مدينة فرنسية. زد على ذلك أنها إدعت — كما إدعى البرلمان الإنجليزى ضد تشارلز الأول .. بأنها تدافع عن « القانون الأساسى » أو التقاليد المقررة لأقاليمهم ضد الاستبدادية الملكية » وإذ كان الوصى فليب دورليان قد أكد حقهم فى « الاعتراض » أو الأحتجاج على المراسم الملكية أو الوزارية ، فإنهم تقدموا خطوة أخرى فطالبوا بألا يصبح أى مرسوم من هذه المراسيم قانونا مالم يوافقوا عليه ويسجلوه .

ولو كانت هذه البرلمانات قد إنتخبها الشعب » أو إنتخبتها أقلية متعلمة مالكة (كما فى بريطانيا) لكان ممكنا أن تكون إداة أنتقال إلى الدمقراطية ، ولقد كانت إلى حد ما رقيباً صحياً على الحكومه المركزيه . ومن ثم فإن الشعب بصفة عامة أيدها فى كفاحها ضد الملك . على أنها كانت من أشد القوى محافظة فى فرنسا » لأن أعضاءها كلهم تقريباً كانوا من أثرياء المحامين . وأصبح هؤلاء المحامون » بوصفهم « نبلاء الرداء » منغلقين بانغلاق نبلاء السيف » « وقرر البرلمان تلو البرلمان قصر المناصب الجديدة التى تحمل النبالة .... على الأسر النبيلة فعلا [٨٣] » . وكان برلمان باريس أكثرها غلوا فى المحافظة » وبارى الأكليروس فى معارضة حرية الفكر أو النشر » وحرم كتب جماعة الفلاسفه بل احرقهـــا أحيانا . وكان قد إنحاز إلى الجانسنية التى إدخلت لاهوتا كلفنيا فى الكنيسة الكاثوليكية . وقد لاحظ فولتيران برلمان تولوز الجانسنى عذب وقتل جان كالاس ، وإن برلمان باريس صدق على إعدام لابار » فى حين نقضت وزارة شوازيل الحكم على كالاس وحمت الموسوعين .

وزاد كرستوف ديومون » رئيس أساقفة باريس ، الصراع حدة بين الجانسنين والكاثوليك التقليدين إذ أصدر أمره إلى الكهنه الخاضعين له بألا يناولوا القربان إلا للأشخاص اللذين إعترفوا على يدكاهن غير جانسنى .

ومنع برلمان باريس الكهنة من إطاعة هذا الأمر مؤيدا من أكثرية الشعب ، وأتهم رئيس الأساقفه بأنه يثير إنشقاقا فى الكنيسة ، وأستولى على بعض أملاكه غير الكنسية . وأعتبر مجلس الدولة الملكى هذا الإجراء مصادره غير قانونيه ، وأمر البرلمان بالأنسحاب من الخلافات الدينية . فأبى ، لا بل وضع « اعتراضات كبرى » (٤ مايو ١٧٥٣) كانت إلى حد ما إرهاصا بالثورة : فقد قال الأعضاء أنهم يعلنون ولاءهم للملك ولكن « إذا كانت الرعية تدين بالطاعة للملوك ، فإن هؤلاء يدينون بالطاعة للقوانين[٨٤] » . والمعنى الذى تضمنه هـذا القول هو أن البرلمان بوصفه حارسا للقانون ومفسرا له ، سيقوم بوظيفة المحكمه العليا فوق الملك . وفى ■ مايو أصدر مجلس الدولة أوامر ملكية مختومة بنفى معظم أعضاء برلمان باريس من العاصمة . وهبت برلمانات الأقاليم وأهل باريس لمناصرة المنفيين . ولاحظ المركيز دارجنسون فى ديسمبر أن « الباريسيين فى حالة إنفعال مكظوم[٨٥] » . وأمرت الحكومه جنودها بخفر الشوارع وحماية بيت رئيس الأساقفه لخشيتها من فتنة شعبية . وفى مارس ١٧٥٤ كتب دارجنسون يقول « كل الاستعدادات تجرى لحرب أهلية[٨٦] » . ووضع الكردينال دلاروشفوكوحلا وسطا ينقذ ماء الوجوه ؛ فطلبت الحكومة إلى المنفيين أن يعودوا (٧ سبتمبر) ، ولكنها أمرت البرلمان والأكليروس أن يكفا عن النزاع . ولكن احداً لم يطع الأمر ، وواصل رئيس أساقفة باريس حملته على الجانسنية ، وواصلها بعنف حمل لويس على نفيه إلى كونفلانس (٣ ديسمبر) : وأعلن البرلمان أن المرسوم البابوى الصادر ضد الجانسنيين ليس قانونا من قوانين الإيمان » وأمر الكهنه بتجاهله . وتذبذبت الحـكومة ، وأخيرا أمرت البرلمان بقبول المرسوم البابوى (١٣ ديسمبر ١٧٥٦) نظراً لحاجتها إلى سلفة من الأكليروس تعينها على خوض حرب السنين السبع .

وأدار الجدل العنيف رؤوسا كثيره . ففى ٥ يناير ١٧٥٧ هاجم روبير — فرنسوا داميان الملك فى أحد شوارع فرساى « وطعنه بمطواة كبيره »

ثم لزم مكانه ينتظر القبض عليه . وقال لويس لحراسه المهملين « تحفظوا عليه ولكن لا يؤذه أحد[٨٧] » . واتضح أن الجرح غير ذى بال ، وقال المهاجم « لم يكن فى نيتى قتل الملك ، ولو شئت لقتلته . إنما فعلت ما فعلت ليمس الله قلب الملك ويؤثر فيه ليعيد الأمور إلى سيرتها الأولى[٨٨] » . وفى رسالة أرسلها من سجنه إلى الملك أعاد القول بأن « رئيس أساقفة باريس هو سبب كل هذه الضجه حول الأسرار المقدسة ، لأنه أمسكها عمن يريد تناولها[٨٩] » . وقال إنه قد أثاره ما سمعه فى البرلمان من خطب ، « ولوانى لم إدخل قط دارا للعداله . . . . لما وصلت إلى هذا المكان قط[٩٠] » . وقد هاجته هذه الخطب هياجا حمله على أن يرسل فى طلب طبيب ليتصده ، ولكن لم يأت طبيب . ولو أنه قصد (كما قال) لما هاجم الملك[٩١] . وحاكمته غرفة البرلمان الكبرى ، وأدانته ، وحكمت عليه ، ثم حكمت على أبيه ، وأمه ، وأخته ، بالنفى المؤبد . وعانى داميان الوان التعذيب التى تنص عليها القانون عقابا لقتلة الملوك ، فمزق لحمه بكماشات محمية ، ورش عليه الرصاص المغلى ، ومزقت أوصاله جياد أربعة (٢٨ مارس ١٧٥٧) . ودفعت نبيلات النساء المـال نظير تمكينهن من مشاهدة هذه العملية من مواقع مواتية . أما الملك فاعرب عن اشمئزازه من ضروب التعذيب هذه وأرسل المعاشات للأسرة المنفية .

وأسفر العدوان عن بعض العطف على الملك ، فشارك اليهـود والبروتستنت فى الصلاة من أجل سرعة شفائه ، ولـكن حين علم الناس أن الجرح لم يكن أكثر من «شكة دبوس» فى عبارة فولتير (piqure d'épingle) ارتد تيار التأييد الشعبى إلى ناحية البرلمان . وبدأ الناس يتنافسون فى موضوع الحكومة النيابية وما يقابلها من الملكية المطلقة . كتب دارجنسون يقول « إنهم يرون فى هذه البرلمانات علاجا للاوصاب التى يعانون منها . . . . أن الثور تضطرم تحت الرماد » . وفى يونيو ١٧٦٣ عاد برلمان باريس يؤكد أن « مراجعه البرلمان للقوانين هى أحد القوانين التى لا يمكن انتهاكها دون أنتهاك للملك القانون الذى أوجد الملوك انفسهم[٩٢] » . ومضى برلمان تولوز شوطا أبعد ، فأعلن أن القانون يقتضى «رضاء الأمة الحر الطليق[٩٣]»

ولكنه عنى بلفظ « الأمة » فى البرلمانات . وفى ٢٣ يوليو ١٧٦٣ قدمت هيئة قضائيه هامة تدعى محكمة المعوقات يرأسها مالزيرب الشجاع الأمين إلى الملك تقريرا عن فقر الشعب وعن العجز والفساد فى إدارة مالية الدولة ، ورجته الهيئة « أن يصغى للشعب نفسه عن طريق مندوبيه فى اجتماع لمجلس طبقات المملكة[٩٤] » . وهذه أول مطالبة صريحة بمجلس الشعب الذى لم يدع منذ ١٦١٤ .

وفى الصراع الخطر الذى تمخض عن طـــرد اليسوعيين من فرنسا (١٧٦٤)[٩٥] . إتخذ برلمان باريس موقف الهجوم وفرض رأيه على الملك . وفى يونيو ونوفمبر أرسل برلمان رين ، وهو دار القضاء العالى ببريتنى ، إلى لويس اعتراضات شديدة اللهجة على الضرائب التى فرضها الدوق ديجيون الذى كان آنئذ حاكما على الإقليم . فلما لم يتلق جوابا يرضيه أوقف جلساته ، واستقال معظم أعضائه (مايو ١٧٦٥) ، وشن نائبه العام ، لوى رينيه دلاشالوتيه ، هجوما على الحكومة المركزيه فقبض عليه وعلى ابنه وثلاثة مستشارين واتهموا بالتحريض على الفتنة . وأمر الملك برلمان رين بمحاكمتهم . فرفض ، وأيدت الرفض جميع برلمانات فرنسا يظاهرها فى ذلك الرأى العام . وفى ٣ مارس ١٧٦٦ ظهر لويس أمام برلمان باريس وحذره من الإغضاء عن الفتنه . وأعلن تصميمه على الحكم مالكا مطلق السلطان .

« فى شخصى وحدى تستقر سلطة السيـــادة ، ولى وحدى السلطة التشريعية غير مشروطة ولا مجزأه . وكل النظام العام ينبثق منى . وشعبى وأنا واحد ، وحقوق الأمة ومصالحها ، الأمة التى يجرؤ البعض على جعلها هيئة منفصلة عن الملك ، هى بالضرورة متحدة مـــع حقوقى ومصالحى ، مستقره فى يدى دون غيرى[٩٦] » .

وأضاف أن الإيمان التى أقسمها لم يقسمها للأمة ، كما أكد البرلمان ، بل لله وحده . وواصل برلمان باريس دفاعه عن برلمان رين ، ولكنه فى ٢٠ مارس قبل النظرية التالية رسميا ، بإعتبارها « مبادىء أساسية

لا مناص منها » وهى « أن السيادة للملك وحده ، ولا يسأل إلا أمام الله ... والسلطة التشريعية مستقرة كلها فى شخص الملك[٩٧] » . وحث شوازيل وغيره الملك على بذل تنازلات متجاوبة فأفرج عن لاشالويته وزملائه المسجونين . ولكنهم نفوا إلى سانت قرب لاروشيل . ودعى دجيون من بريتنى ، وانضم إلى اعداء شوازيل . واستأنف برلمان رين جلساته (يوليو ١٧٦٩) .

ودخل فولتير الصراع باصداره « تاريخ برلمان باريس بقلم الأبيه بج » عام ١٧٦٩ . وقد أنكر أنه مؤلف الكتاب ، وكتب خطابا ينقده لأنه آية فى الأغلاط والسخف ، وجريمة ضد اللغة[٩٨] » . ومع ذلك فالكتاب بقلمه . ومع أنه كتبه على عجل فقد دل على ما بذل فيه من بحث تاريخى لا يستهان به . غير أن النزاهة تعوزه ، فهو اتهام طويل للبرلمان باعتباره مؤسسة رجعية قاومت فى كل مناسبة التدابير التقدميه — كانشاء الأكاديمية الفرنسية ، والتطعيم ضد الجدرى ، والأدارة الحرة للقضاء . واتهم فولتير البرلمانات بالتشريع الطبقى ، والخرافة ، والتعصب الدينى . فلقد أدانت أقدم الطابعين فى فرنسا ، وهللت لمذبحة يوم القديس برتلميو ، وحكمت بحرق المرشال دانكر كما تحرق الساحرات . وقال فولتير أنها إنشئت لوظائف قضائيه بحته ، وليس لها سلطة التشريع ، ولو إتخذت هذه السلطة لأحلت محل أوتقراطية الملك أو ليجاركية المحامين الأغنياء المتحصنه ضد أى رقابة شعبيه . وكان فولتير قد كتب هذه المذكرة المسهبة خلال سطوة شوازيل اللى شجعت ميوله اللبرالية الأعتقاد بأن التقدم ميسور أشد ما يكون يسرا على يد وزير مستنير فى ظل ملك مستنير . أما ديدرو فلم يوافق فولتير ، وقال أن البرلمانات مهما كانت رجعية النزعة فإن مطالبتها بحق الأشراف على التشريع ضابط مرغوب فيه على الاستبداد الملكى[٩٩] .

وجاءت عودة دجيون إلى باريس بأزمة جديدة . فقد اتهم برلمان رين الدوق بارلكاب عمل محظور ، وإذعن لمحاكمة برلمان باريس له على هذه

التهم ، فلما وضح أن الحكم سيصدر بأنه مذنب لجأت مدام دوبارى إلى الملك ليتدخل . وأيدها في ذلك المستشار موبو » وفي ٢٧ يوليو ١٧٧٠ أعلن لويس أن الجلسات تفشي أسرارا للدولة . وعلى ذلك يجب انهاؤها ثم ألغى شكاوى الفريقين المتبادلة » وأعلن براءة كل من ديجون ولاشالوتيه » وأمر جميع أطراف النزاع بالكف عن اثارة الشعور العام . وتحدى البرلمان هذه الأوامر باعتبارها تدخلا تعسفيا في سير العدالة المشروع ، وأعلن ان الشهادة أضرت ضررا بليغا بشرف ديجيون ، وأوصى بوقفه عن ممارسة جميع وظائفه بصفته نبيلا حتى تثبت براءته بالطريقة القانونية الواجبة . وفي ٦ سبتمبر أصدر البرلمان قرارا arrêté كان فيه اختبار بقوة الملك :

« أن تعدد أعمال سلطة مطلقة تمارس في كل مكان ضد روح ونص القوانين التأسيسية للملكية هو برهان دامغ : على أن هناك نية مبيتة لتغيير شكل الحكومة ، ولأحلال الأعمال الشاذة لسلطة تعسفية محل سلطان القوانين المتعادل على الدوام[١٠٠] » .

ثم أجل البرلمان جلساته حتى ٣ ديسمبر .

واستغل موبو هذه المهلة ليعد دفاعا متصلبا عن السلطة المليكية . في ٢٧ نوفمبر أصدر بتوقيع الملك مرسوما سلم بحق الاعتراض ولكنه حرم أي رفض لمرسوم يجدد بعد سماع الاعتراضات . ورد البرلمان بأن التمس من الملك أن يسلم مشيرى العرش الأشرار لانتقام القوانين[١٠١] . وفي ٧ ديسمبر دعا لويس البرلمان إلى فرساى ، وفي جلسة رسمية لـ (سريرالعدالة) أمر الأعضاء بأن يوافقوا على مرسوم ٢٧ نوفمبر ويسجلوه . فلما عاد القضاة إلى باريس قرروا الكف عن أداء جميع وظائف البرلمان حتى يسحب مرسوم نوفمبر . وأمرهم لويس باستئناف جلساتهم . فتجاهلوا الأمر . وحاول شوازيل إقرار السلام في ربوع الوطن لخوض حرب انجح خارجه . فأقاله لويس ، وهيمن موبو الآن على مجلس الدولة بينما راحت دوبارى تحوم حول الملك ، وأرته لوحة فانديك التي رسمها لتشارلز

الأول ملك انجلترة ؛ وحذرته من مصير كمصيره قائلة « إن برلمانك أيضا سيضرب عنقك[١٠٢] » .

وفى ٣ يناير ١٧٧١ أمر لويس ثانية بقبول مرسوم نوفمبر . ورد البرلمان بأن المرسوم ينتهك قوانين فرنسا الأساسية . وفى ٢٠ يناير فيما بين الساعة الواحدة والرابعة صباحاً سلم جنود الملك المسلحون لكل قاض « إرادة ملكية » تخيره بين الطاعة أو النفى من باريس . وأكدت الكثرة الساحقة حبهم للملك ، ولكنهم ظلوا على عنادهم . وعليه ففى اليومين التاليين نفى ١٦٥ عضوا فى برلمان باريس إلى أنحاء شتى فى فرنسا . وهتف الشعب لهم وهم يبرحون قصر العدالة .

وتحرك الآن موبو ليحل منظمة قضائية جديدة محل البرلمانات . فأنشأ فى باريس بمرسوم ملكى محكمة عليا تتألف من مجلس الدولة وبعض الفقهاء اللينيين ؛ وأنشأ فى آراس ، وبلوا ، وشالون ؛ وكليرمون — فران، وليون وبواتييه ، « مجالس عليا » لتكون محاكم استئناف للأقاليم . وأصلحت بعض المفاسد القضائية ، وأوقف بيع الوظائف « وتقرر أن يكون التقاضى من الآن بالمجان . وهلل فولتير للإصلاح » وتنبأ فى تهور « إننى واثق تمام الثقة أن المستشار سيحقق نصراً كاملا » وأن الشعب سيحب هذا الانتصار »[١٠٣] . ولكن الشعب لم يستطع أن يتقبل فى رضى هدم مؤسسة عريقة القدم كالبرلمانات فما من شىء يكثر الناس من إدانته ويعمق حبهم له كالماضى . واحتقرت معظم الجماهير المحاكم الجديدة لأنها أدوات إضافية تستعين بها الأوتقراطيه الملكية . وحزن ديدرو على نهاية البرلمانات وإن لم يكن مخدوعاً فيها « فقال إن ذلك « خاتمة الحكم الدستورى . . فى لحظة واحدة قفزنا من الحالة الملكية إلى أشد حالات الاستبداد »[١٠٤] . وأعرب أحد عشر نبيلا من نبلاء المملكة « بل بعض أعضاء الأسرة المالكة ، عن عدم موافقتهم على المحاولة التى يبذلها موبو لاستبدال البرلمانات . ولم ينشب بين الشعب هياج واضح ، ولكن كلمات الحرية « والقوانين ، والشرعية « التى ترددت كثيراً فى البرلمان مؤخراً أخذت تتداولها الألسن . واصطبغت الهجائيات الموجهة للملك الفاسق بعنصر جديد من الجرأة والمرارة ، ودعت الملصقات الدوق أورليان لتزعم الثورة .

وتورطت البرلمانات كارهة تقريبا ، وبرغم نزعتها المحافظة ، فى خميرة من الأفكار الثورية . وكان مقالا روسو ، وشيوعية موريللى ، ومقترحات مابلى والاجتماعات السرية لجماعة الماسون الأحرار ، وفضح الموسوعة للمفاسد المتفشية فى الحكومة والكنيسة ، وسيل النشرات المتداولة فى أرجاء العاصمة والأقاليم — كلها كانت تعارض معارضة عنيفة دعوى السلطة المطلقة والحق الإلهى التى يدعيها ملك خامل عربيد . وهكذا أخذ الرأى العام (M.Tout le monde) يتحرك بوصفه قوة فى التاريخ .

كان أثقل النقد إلى عام ١٧٥٠ يقع على الكنيسة ، ولكنه بعد ذلك راح يقع بازدياد على الدولة بعد أن حفزه حظر الموسوعة . كتب هوراس ولبول من باريس فى أكتوبر ١٧٦٥ :

« لم يعد للضحك سوق هنا .. يالقوم الطيبين ، إن وقتهم لا يتسع للضحك ، فواجبهم الأول هو هدم الله والملك ، ويشارك الرجال والنساء ، والعظماء والحقراء فى هذا الهدم من كل قلوبهم .. أتعلم من هم « الفلاسفة » أو ما مدلول اللفظ هنا ؟ أولا هو يشمل كل إنسان ، ثانياً يعنى الرجال الذين يهدف الكثيرون منهم ، بعد أن أقسموا على خوض الحرب على الملكية ، إلى هدم الدين كله وأكثر من هؤلاء إلى القضاء على سلطة الملك »[١٠٥] .

وفى هذا الحكم مغالاة بالطبع ، فمعظم جماعة الفلاسفة (باستثناء ديدرو على الأخص) كانوا أنصارا للملكية يتجنبون الثورة . هاجموا النبلاء وكل الامتيازات الوراثية ، وانتقدوا عشرات المفاسد وطالبوا بإصلاحها ، ولكنهم كانوا يرتعدون فرقاً من فكرة إعطاء السلطة كلها للشعب[١٠٦] . ومع ذلك كتب جريم فى « رسائله » فى يناير ١٧٦٨ يقول :

« إن السأم العام من المسيحية ، الذى يتضح فى جميع الأرجاء ، لاسيما فى الدول الكاثوليكية ، والقلق الذى يهيج عقول الناس بشكل غامض ويدفعهم إلى مهاجمة المفاسد الدينية والسياسية — كل هذا ظاهرة يتسم بها قرننا ، كما اتسم القرن السادس عشر بروح الإصلاح ، وهو ينذر بثورة داهمة لامفر منها »[١٠٧] .

١٠ — رحيل الملك

لم يؤت لويس الخامس عشر كما لم يؤت من قبله لويس الرابع عشر ، فن الموت في الوقت المناسب . لقد كان عليما بأن فرنسا تترقب زواله ، ولكنه لم يطق التفكير في الموت . كتب السفير النمساوى « أن الملك يبدى الملاحظات بين الحين والحين عن سنه ، وصحته والحساب العسير الذى لابد أن يقدمه يوما ما للخالق الأعظم »[١٠٨] . وقد يتأثر لويس تأثراً عابراً باعتكاف ابنته لويز — مارى في دير كرملي تكفيراً عن ذنوب أبيها فيما زعموا ، وقيل إنها كانت تدعك أرض الحجرات وتغسل الملابس . فلما ذهب لزيارتها وبخته على عيشته وتوسلت إليه أن يطرد دى بارى ويتزوج الأميرة دلامبال ويصلح ما فسد بينه وبين الله .

وقد مات عدة أصدقاء له في أخريات عهده ، ووقع اثنان منهم صريعين تحت قدميه بهبوط في القلب[١٠٩] . ومع ذلك بدا أنه يجد لذة رهيبة في تذكير الشيوخ من حاشيته بقرب موتهم . قال مرة لأحد قواده . « انك تشيخ يا سوفريه » فأين تريد أن تدفن ؟ » فأجاب سوفريه « عند قدمى جلالتك يا مولاى » . وقيل أن هذا الجواب « جعل الملك واجما كثير التفكير[١١٠] » . وقالت مدام دؤوسيه أنه « لم يخلق رجل أكثر منه اكتئابا وغما[١١١] » .

وكان موت الملك انتقاما طال انتظاره « انتقمه على غير عمد جنس النساء الذى هام به وحط من كرامته ، فحين لم تكف حتى دوبارى لأشباع شهوته » جاء إلى فراشه بفتاه يبلغ من حداثتها انها لم تكد تبلغ سن الزواج . وكانت تحمل جراثيم الجدرى ، فنقلت عدواه إلى الملك . وفي ٢٩ ابريل ١٧٧٤ بدأ هذا المرض يهاجمه . وأصرت بناته الثلاث على ملازمته وتمريضه مع انهن لم يسبق لهن التحصين ضد الجدرى (وقد أصبن بالمرض جميعهن ولكنهن شفين) وكن يتركنه في الليل فتحل دوبارى محلهن . غير أن الملك صرفها برفق حين رغب في تناول الأسرار المقدسة في ٥ مايو قائلا : « أعلم الآن انى مريض مرضا خطيرا . أن فضيحة متز يجب ألا تتكرر .

أنى أدين بنفسى لله ولشعبى . وإذن يجب أن نفترق . فاذهبى إلى قصر الدوق ديجيون الريفى فى روبيل وانتظرى أوامر جديدة . وصدقينى إنى سأظل على الدوام أحتفظ لك بشعور المحبة العميقة[١١٢] .

وفى ٧ مايو صرح الملك فى حفل رسمى أمام البـــلاط بأنه نادم على مافرط منه من فضائح أمام رعاياه ، ولكنه أصر على أنه لايدين بأى مؤاخذه عن سلوكه إلا لله وحده[١١٣] . وأخيراً رحب بالموت . فقال لإبنته لم أشعر فى حياتى بمثل هذه السعادة[١١٤] . ولفظ أنفاسه فى ١٠ مايو ١٧٧٤ وهو فى الرابعة والستين ، بعد أن حكم تسعة وخمسين عاما . وحمل جثمانه الذى لوث الهواء على عجل إلى المدافن الملكية فى سان دنيس دون أبهة وسط تهكم الجميع الذى اصطف على الطريق . واغتبطت فرنسا مرة أخرى بموت ملكها كما اغتبطت من قبل عام ١٧١٥ .

الفصل الرابع

فن الحياة

١ – الفضيلة والكياسة

يقول تاليران «لا يعرف لذة العيش من لم يعش حوالى سنة ١٧٨٠» * بالطبع شريطة أن يكون من أبناء الطبقات العليا ، وأن تكون مجرداً من أى ميول للفضيلة .

وتعريف الفضيلة صعب ، فكل عصر يكيف تعريفه وفق طبعه وآثامه . وقد ظل الفرنسيون القرون الطوال يخففون من وطأة الاقتصار على الزوجة الواحدة بالزنا ، كما تخفف منها أمريكا اليوم بالطلاق . والرأى الغالى (الفرنسى) يجد الزنا المعتدل أقل إضراراً بالأسرة — أو بالأبناء على الأقل من الطلاق . على أية حال ازدهر الزنا فى فرنسة القرن الثامن عشر ، وكان الناس يغضون عنه عموما . وآية ذلك أن ديدرو حين أراد فى موسوعته أن يفرق بين «الارتباط» و«التعلق» ضرب هذا المثال : «أن الرجل يرتبط بزوجته ، ولكنه يتعلق بخليلته .[٢]» ويقول معاصر لذلك الجيل «ان خمسة عشر نبيلا من بين العشرين الذين تراهم فى البلاط يعاشرون نساء لم يتزوجوهن[٣]» . وكان الظفر بخليلة أمراً لاغنى عنه للمركز الاجتماعى كحيازة المال سواء بسواء . أما الحب فكان شهوانياً فى غير مواربة : صوره بوشيه فى صورة وردية ، وخلع عليه فراجونار الأناقة والرشاقة ، أما بوفون فقال فى صراحة وحشية «ليس فى الحب شىء طيب إلا الجسد[٤]» .

---

* وردت هذه الملاحظة الشهيرة فى «موسوعة الأقوال المأثورة» لمصنفها ب . دوبريه (باريس ١٩٠٩) ، ١ ، ٦٣٥ ، نقلا عن «مذكرات لتاريخ عصرى» بقلم فر . جيزو (باريس ١٨٥٨ – ٦٨) ، ١ ، ٦ . (١)

على أن الحب الأنبل كان يظهر هنا وهناك . حتى فى « كريبيون » الابن[٥] ، ومن جماعة الفلاسفة جرؤ هلفتيوس على الهيام بزوجته ، وظل دالامبير وفيا لحولى دليسبيناس طوال تنويعات لحنها الذى أمتعها . وقد اضطلع جان جاك روسو فى هذا الجيل باصلاح للاخلاق يدعو إليه رجل واحد . وهل نشيد كذلك بفضل روايات صموئيل رتشردسن ؟ وتحلت بعض النساء بالفضيلة على سبيل الموضة[٦] fashion ، ولكن بعضهن تقبلن فى عرفان دعوة بعثت من مرقدها ، دعوة العفة قبل الزواج ، والوفاء بعده ، منقذة لهن من هوان استخدامهن معابر الكل زير نساء ، على أية حال لم يعد الاقتصار على الزوجة الواحدة شارة تخجل حاملها . فقد اكتشف الفاسقون من جديد بعد أن تزوجوا مباهج قديمة فى الحياة الأسرية ، وأنه خير للرجل أن يسبر أغوار الوحدة . من أن يظل طوال حياته يعبث بسطح التعـــدد والتنوع . واستقرت نسوة كثيرات بدأت حياتهن بنزق وطيش كأنهن سطوح لا عمق فيها — حين أنجبن . وأرضع بعضهن أطفالهن حتى قبل أن يحثهن على ذلك روسو ، وكثيرا ما كان هؤلاء الأطفال يردون هذا الصنيع بعد أن ترعرعوا فى ظل محبة الأم ، باهتمام البنين بوالديهم . ومن أمثلة ذلك أن المرشالة دلكسمبورج أصبحت زوجة مثالية بعد شبابها المغامر ، وأخلصت لزوجها وهى ترعى روسو فى حنان كأنها أمه . وحين مات الكونت دموريا (١٧٨١) بعد أن خدم لويس الخامس عشر والسادس عشر وعانى آلام النفى الطويل فيما بين فترتى وزارته . ذكرت زوجته أنهما « اتفقا معاً خمسين عاما دون أن يفترقا يوما واحدا »[٧] ونحن نسمع الكثير جدا — والمؤلفان قد تكلما كثيرا جدا عن النساء اللاتى أفلحن فى دخول التاريخ بفضل حنثهن بعهود الزواج ، ولا نسمع إلا القليل جداً عن أولئك النسوة اللاتى امتنعن عن الخيانة حتى ولو خانهن رجالهن . مثال ذلك أن الآنسة كروزا . التى خطبت وهى فى الثانية عشرة للرجل الذى أصبح فيما بعد الدوق دشوازيل . احتملت فى صبر هيامه بأخته الطموح ، ورافقته فى منفاه ، فأشـــاد بقداستها حتى ولبول « المرقع » . ولم تفتر محبة الدوقة درشليو لزوجها طول خياناته الزوجية ، وكانت شاكرة لأن القدر سمح لها بأن تموت بين ذراعيه[٨] » .

وظلت الانحرافات ، والمطبوعات الفاجرة ، والبغاء على ما عهدنا . كان القانون الفرنسي ينص على الإعدام عقابا للواط ، وحدث فعلا أن لوطيين احرقا فى ميدان جريف عام ١٧٥٠ [٩]. ولكن القانون كان عادة يتجاهل اللواط الاختيارى بين البالغين [١٠] . وكانت الأخلاق الاقتصادية على حالها اليوم ، وليلاحظ القارىء الفقرة الواردة فى كتاب روسو « إميل » [١١] . (١٧٦٢) عن غش الطعام والخمور . وكانت الأخلاق السياسية على حالها اليوم ، كان هناك الكثيرون من خدام الشعب المخلصين (مالزيرب ، وطورجو ، ونكير) ، ولكن كثيرون أيضا ممن وصلوا إلى مناصبهم بالمـال أو الاتصالات ، وأثروا فى المنصب متجاوزين فى ذلك نص القـانون وعاش كثير من النبلاء العاطلين عيشة الترف على دماء فلاحيهم ، ولكن بر الحكومة والأفراد بالناس كان كثيرا .

وكان فرنسيو القرن الثامن عشر فى جملتهم شعبا لطيفا رغم ناموس من الاخلاق الجنسية أنتهك المعايير المسيحية بصراحة . فانظر كم من الناس خفوا لنجدة روسو وتعزيته رغم صعوبة إدخال البهجة على نفسه ، وكثيرا ما كان هؤلاء القوم الكرام ينتمون إلى الطبقة الاستقراطية التى سبها . وكانت الشهامة قد اضمحلت فى علاقة الرجل بالنساء ، ولكنها ظلت حية فى معاملة الضباط الفرنسين لأسرى الحروب الذين من طبقتهم . كتب سموليت الخصم النزق فى رحلة له بفرنسا عام ١٧٦٤ يقول : « أنى أخص الضباط الفرنسين بالأحترام لشهامتهم وبسالتهم ، لاسيما للروح الإنسانيه السمحة التى يعاملون بهـا أعداءهم ، حتى وسط أهوال الحرب [١٢] » . وقد صور جويا قسوة الجنود الفرنسيين على العامة الأسبان فى حروب نابليون ، ولكنه كان فى أغلب الظن مبالغا . وما من شك فى أن الفرنسين كانوا يستطيعون أن يكونوا غاية فى القسوة ، ربما لأنهم تعلموا القسوة من الحرب وقانون العقوبات . كانوا صخابين يميلون للمشاجرت على نحوما يفعل طلاب الكليات الذين يهاجمون خصومهم بالمدى ، وللمشاغبات فى الشوارع بديلا عن الإنتخابات . فيهم عنف وتهور ، يندفعون إلى الخير أو الشر دون أن يضيعوا وقتا فى التروى . وفيهم شوفينية (غلو فى الوطنيه) لا يستطيعون أن يفقهوا لم كان سائر

البشر من الهمجية بحيث يتحدثون بلغة غير الفرنسية . وقد أبت مدام دنيس أن تتعلم الكلمة الإنجليزية « الخبز » — لم لا يستطيعون كلهم أن يقولوا pain ؟ [١٣] ولعلهم أحبوا مجد وطنهم أكثر مما أحبه أى شعب آخر . وعما قليل سيموتون بالألوف المؤلفة وهم يهتفون « يحى الأمبراطور » .

وقد بز الفرنسيون بالطبع غيرهم من الشعوب فى آداب السلوك . صحيح إن تقاليد الأدب التى أرسيت فى عهد لويس الرابع عشر لوثها النفاق ، والكلبية ، والسطحية ، ولكنها ظلت فى جوهرها حية . وأضفت على الحياة بين الطبقات المتعلمة كياسة لا قدرة لأى مجتمع أن يضارعها اليوم . قال كازانوفا « إن فى الفرنسين أدبا جما وتلطفا كثيراً يجذب إليهم المرء للتو » ولكنه أضاف أنه لم يستطع قط أن يثق بهم [١٤] .

وقد تفوقوا على غيرهم من الشعوب فى النظافة . فأصبحت فى المرأة الفرنسية إحدى الفضائل الأساسية التى تمارسها حتى الموت . وكان من حسن الأدب نظافة الملبس وأناقته . وكان رجال الحاشية ونساؤها يخرجون أحيانا على أصول الذوق السليم بالاسراف فى اللباس الفاخر أو الغلو فى تصفيف شعورهم . وأرسل الرجال شعورهم فى ضفائر ، وهى عادة استهجنها المرشال دساكس لخطرها فى الحرب لأنها تمكن العدو من صاحب الشعر ، ثم يبدرون الشعر بنفس العناية التى يبدر بها نساؤهم شعورهن . وغالت النساء فى رفع شعورهن حتى خشين الرقص مخافة أن يلتقطن النار من الثريات . وقد قدر زائر فرنسى أن ذقن إحدى السيدات الفرنسيات يقع تماما فى منتصف المسافة بين قدميها وقمة شعرها [١٥] . وجنى الحلاقون الأموال الطائلة بكثرة تغيير موضات الشعر . ولم تمتد النظافة إلى شعر المرأة ، لأن تصفيفه كان يستغرق الساعات . واحتفظت جميع النساء — إلا أشدهن غلوا فى التبرج — بنفس التسريحة أياما دون أن يمسها مشط . وحملت بعض السيدات مكاشط من العاج ، أو الفضة ، أو الذهب ، يحككن بها رءوسهن فى رشاقة ساحرة .

وكان ماكياج الوجه معتدلا تعقيده اليوم . كتب ليوبولد موتسارت إلى

زوجه من باريس فى ١٧٦٣ يقول . « تسألين هل النساء الباريسيات جميلات . ولكن كيف السبيل إلى معرفة هذا إذا كن مزوقات كعرائس نورمبرج ، ممسوخات بهذه الحيلة المنفرة مسخا تعجز معه عينا الألمانى السادج عن التعرف على امرأة ذات جمال طبيعى إذا رآها[١٦] » ؟ وكان النساء يحملن مساحيق الزينة معهن ، ويجملن بشرتهن من جديد علانية فى غير حياء شأنهن اليوم . وقد حمرت مدام دموناكو وجهها قبل أن تركب تقطع الجيلوتين رأسها . وكانت جثث الموتى تجمل ، وتبدر ، وتحمر ، كما فى زماننا . أما ثياب النساء فكانت مزيجا متحديا من الاغراءات والمعوقات : فيه فتحات النحور الواطئة ، والصدارات المخرمة ، والجواهر التى تخطف الأبصار ، والتنانير الكبيرة الفضفاضة . والأحذية العالية الكعوب المصنوعة عادة من التيل أو الحرير . وانتقد بوفون وروسو وغيرهما لبس المشدات ، ولكنها ظلت ضربة لازب حتى أطاحت بها الثورة .

وكان تنوع الحياة الاجتماعية ومرحها من مفاتن باريس . فكانت مقاهى بروكوب ، ولا ريجانس ، وجرادو ، تستقبل رجال الفكر والثوار ، والأثرياء ، من الرجال الباحثين عن اللهو ، والنساء الباحثات عن الرجال . أما نجوم الأدب ، والموسيقى ، والفن ، فكانوا يسطعون فى الصالونات . وأبهج أقطاب النبالة أو الثروة فرساى وباريس بالمآدب والاستقبالات والمراقص . وكانت الفنون بين عليه القوم تشتمل على الأكل والحديث . فكان المطبخ الفرنسى مثار حسد أوربا . وكان الحديث الفرنسى الذكى الظريف قد بلغ الآن من الصقل مبلغا أستنزف فيه كل المواضيع ، فقام الضجر على الإشراق ، واضمحل فن الحديث فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فرفعت الخطابة من حرارته فوق ما ينبغى ، وسبق المتكلمون السامعين . وأبتذلت النكتة الذكية نتيجة إسرافها ولدغاتها المستهترة . وقد ذكر فولتير — الذى كان هو ذاته قادرا على اللدغ — باريس بأن النكته إذا خلت من اللياقة كانت الفجاجة بعينها[١٧] » وذهب لاشالوتيه إلى أن « الولع بالتظرف . . . أقصى العلم والثقافة الصحيحة عن الصالونات[١٨] » .

وكان الناس يتمشون الهوينا فى الحدائق العامة — انثى لقيت النظافه والتشذيب وحفلت بالتماثيل — أو يتبعون أطفالهم أو كلابهم ، والفتيان الطائشون المرحون يطاردون الصبايا البارعات فى التراجع عديم الجدوى . وأغلب الظن أن حدائق التويلرى كانت يومها أبدع منها الآن فلنستمع إلى وصف مدام فيجيه — لوبرون :

« كانت دار الاوبرا قريبة فى تلك الأيام ، على حافة الباليه — روبال . وكان التمثيل فى الصيف ينتهى فى الثامنة والنصف ، فيخرج علية القوم حتى قبل النهاية للتمشى فى أرجاء الحديقة . وراج بين النساء أن يحملن طاقات زهر كبيرة كانت هى والبودرة المعطرة التى فى شعرهن تملأ الجو عبيراً بكل معنى الكلمة . وأنا أعلم أن هذه الاجتماعات كانت قبل الثورة تمضى حتى الثانية صباحاً ثم كانت هناك حفلات موسيقية على ضوء القمر فى الهواء الطلق . . . . وكان يحتشد فى المكان جمع كبير على الدوام[19] » .

٢ — الموسيقى

إتخذت فرنسا من الموسيقى جزءا من « مرحها الباريسى » فهى لم تعبأ بمنافسة ألمانيا فى القداسات والكورالات الجادة . وقد تجاهلت موتسارت تقريباً حين وفد على باريس ، ولكنها نسيت التعصب لوطنيتها حين افتتنت آذانها بالألحان الإيطاليه . وجعلت من موسيقاها « مهرجانات ترفيه » ؛ وتخصصت فى ألوان تناسب الرقص أو تذكر به — كالكورانت ، والسربنده ، والجيج ، والجافوت ، والمنويت . وكانت المرأة المحور الذى تدور حوله الموسيقى كما دارت أخلاقها ، وعاداتها ، وفنونها ؛ وكثيراً ما اتخذت أسماء تذكر بصورتها — كالساحرة ، والساذجة ، وميمى وكاريون دستير .

وأحب القوم الأوبرا التهريجية فى فرنسا ، كما أحبوها فى أيطاليا ، أكثر من الأوبرا الجادة قبل أن يأتى جلوك (١٧٧٣) . وكانت فرقة سمت نفسها الأوبرا كوميك قد أستقرت فى باريس عام ١٧١٤ ، وفى ١٧٦٢

إتحدت مع فرقة الكوميدى الايطالية . وفى ١٧٨٠ إنتقلت هذه الأوبرا كوميدى الموسعة إلى مقر دائم لها فى صالة فافار . أما صاحب الفضل فى إزدهارها فهو فرانسوا أندريه فيليدور ، الذى جاب أوربا بطلا من أبطال الشطرنج ، وألف خمسا وعشرين أوبرا ، كلها تقريباً هزلية ، مثل « سانشوبانسا » « وتوم جونس » ولكن فيها ذوق سليم وفن رفيع . وقد نسيت الآن أوبراته ، ولكن « دفاع فيليدور » « وتراث فيليدور » مازالا يذكران بوصفهما نقلتين كلاسيكيتين فى لعبة الشطرنج وكان الباليه فاصلا محببا يتخلل الأوبرا الفرنسية ، هنا وجدت الرشاقة الفرنسية مجالا آخر ، وغدت الحركة شعرا ، قد كتب جان جورج نوفير ، أستاذ الأوبرا فى دار أوبرا باريس ، رسالة كانت يوما ما مشهورة عن ألحان الرقص — « رسائل فى الرقص والباليه » (١٧٦٠) . وقد مهدت الطريق لإصلاحات جلوك بدعوتها إلى الرجوع للمثل الإغريقية فى الرقص ، بما فيها من طبيعية الحركة ، وبساطة اللباس ، وتأكيد على الدلالة الدرامية لا الأشكال التجريدية أو براعات العازفين .

واصبحت الحفلات الموسيقية العامة الآن جزءا من الحياه فى جميع مدن فرنسا الكبرى . ففى باريس ضربت « الفرقة الموسيقية الروحية » (التى انشئت بالتويلرى فى ١٧٢٥) مثلا رفيعا فى الموسيقى الآلية . وبينما كانت الأوبرا — كوميك تمثل مسرحيه برجوليزى « لا سيرفا پادرونا » كانت فرقة الكونسير تعزف ترنيمة « ستابات ماتر » [وهى ترنيمة لا تينية عن حزن مريم على المسيح المصلوب] التى أحسن الجمهور أستقبالها فظلت تتكرر سنويا حتى عام ١٨٠٠[٢٠] . وكان لفرقة الكونسير الفضل فى تحبيب هاندل ، وهيدن ، وموتسارت ، وجوملى ، ويتشينى ، والباخيين ، إلى الجماهير الفرنسية ، وأتاحة فرصة الظهور لكبار عازفى ذلك العهد .

وقد أجمع هؤلاء العازفون الزائرون على أمر واحد ، هو تخلف فرنسا فى الموسيقى عن المانيا والنمسا وإيطاليا . وشاطرهم جماعة الفلاسفة هـذا الحكم . فكتب جريم (وهو المانى) ، من الأسف أن القوم فى هذا البلد

لا يفهمون من الموسيقى غير القليل جداً[٢١] » . وكان يستثنى الأنسه فل » التى تغنى بحنجرة بديعة . ووافق جريم روسو وديدرو على طلب « الرجوع إلى الطبيعة » فى الأوبرا ؛ وتزعم ثلاثتهم الحزب الإيطالى فى « حرب المهرجين » تلك التى كانت قد بدأت بتقديم أوبرا تهريجية مثلتها فرقة إيطاليه فى باريس . وقد سبقت الإشارة إلى هـذا الجدل الذى نشب بين المدمين الموسيقيين الفرنسى والإيطالى « ولم يكن قد انتهى بعد . فما زال ديدرو يخوض حرب المهرجين فى قصته « ابن أخى رمو » ؛ وفى « حديث ثالث حـول الابن الطبيعى » (١٧٥٧) وطالب بمنقذ يخلص الأوبرا الفرنسية من الخطب الطنانه والأساليب المفتعلة « ألا فليتقدم ذلك الذى عليه أن يعرض المأساة الصحيحة ، والملهاة الصحيحة ، عن المسرح الغنائى » وضرب مثلا لنص صالح « إفجينا فى أوليس » ليوربيديس[٢٢] . ترى هل سمع هذا النداء جلوك ، الذى كان يومها فى فينا ؛ أما فولتير فقد كرره فى ١٧٦١ متنبئاً :

« أننا نأمل أن يظهر عبقرى أوتى من القوة ما يحول به الأمة عن هذه الآفة [آفة التصنع والتكلف] ويضفى على الإخراج المسرحى . . . الكرامة والروح الخلقية التى يفتقر إليها الآن . . . أن سيل الذوق الفاسد متدفق وهو يغرق فى غير وعى منا ذكرى ما كان يوما ما مجد هذه الأمة . ولكننى أكرر ثانية : يجب إرساء الأوبرا على أساس مختلف ؛ حتى لا تعود مستأهلة لذلك الاحتقار الذى تنظر به إليها كل أمم أوربا [٢٣] » .

وفى ١٧٧٣ وصل جلوك إلى باريس ، وفى ١٩ أبريل ١٧٧٤ قاد هناك أول أداء فرنسى « لافجينيا فى أوليس » . ولكن هذه القصة يجب لرجاؤها إلى حينها المناسب .

٣ — المسرح

لم تنتج فرنسا فى هذه الفترة تمثيليات تتحدى النسيان — ربما باستثناء بعض التمثيليات التى بعث بها فولتير من ليدليس أو فرنيه . ولكن فرنسا منحت

الدراما كل تشجيع سواء فى العرض أو الاستحسان . ففى ١٧٧٣ أقام فكتور لوى فى بوردو أجمل مسرح فى المملكة ، له رواق فخم من الأعمدة الكورنثية ، ودربزين كلاسيكى ، وزخارف منحوته . أما الكوميدى — فرانسيز ، التى أقر جاريك بأنها خير الفرق التمثيلية فى أوربا « فقد أنزلت « التياتر — فرانسيه » الذى شيد عام ١٦٨٣ فى شارع فوس ، بسان — جرمان — دى — بريه : ثلاثة صفوف من الشرفات فى مستطيل ضيق فرض الالقاء الخطابى وقرر الأسلوب الخطابى للتمثيل فى فرنسا . وعرضت مئات الأسر مسرحيات خاصة « من فولتير فى فرنيه إلى الملكة فى تريانون — حيث لعبت مارى أنطوانيت دور كوليت فى مسرحية روسو « قسيس القرية » وحيث كان « أكثر من عشر نساء من علية القوم يمثلن ويغنين خيرا من أى ممثلات ومغنيات فى الملهى »[٢٤] ونبتت فى كل مكان فى فرنسا « مسارح صغيرة » . من ذلك أن ديرا نرناورديا ، قابعا فى غابات بلريس بنى مسرحا صغيرا لرهبانه « دون علم من المتعصبين وأصحاب العقول الضيقة » (كما قال أحدهم) .

ولمع نجوم الكوميدى — فرانسيز فوق ربوع فرنسا رغم منافسة الفرق الهاوية . وقد رأينا كيف أقبل أهل جنيف وفرنيه ليروا الممثل لوكان يمثل لفولتير فى شاتلين . أما اسمه الحقيقى فهو هنرى — لوى كان Cain ، (قابيل) ولكن هذا كان لقبا ملعونا غيره واه العذر فى تغييره . كذلك لم يجلب له وجهه الحظ « وقد استقرت الآنسة كليرون فترة حتى تأنس إليه ولو كان ذلك فى تمثيليته ، وكان فولتير قد اكتشف مقدرته فى حفلة تمثيل للهواة ، وعلمه » ووجد له مكانا فى التياتر — فرانسيه . وفى ١٤ سبتمبر ١٧٥٠ استهل لوكان حياته المسرحية بدور تيطس فى مسرحية فولتير « بروتس » ، وظل طوال جيل بعد ذلك يمثل دور البطل فى مسرحيات فولتير . وأحبه الشيخ الغضوب إلى النهاية .

على أن أحب من إعتلى مسرح فولتير إلى القلوب كانت الآنسة كليرون (بعد أن ترفيت أدريين لكوفرير) وكان اسمها قانونا كلير — جوزيفه إيبوليت لريس دلاتور . ولدت عام ١٧٢٣ دون زواج شرعى بين أبويها .

ولم يتوقع أهلها أن تعيش ، ولكنها عمرت إلى الثمانين وما هذا العمر المديد بالشيء الذى تغبط عليه دائما بطلات المسرح . ولم ير أهلها أنها تستحق عناء التعليم ، ولكنها تسللت إلى التياتر — فرانسيه ، وسحرتها المناظر والخطب المسرحية ، ولم تتغلب قط تماما على الميل للخطابة حتى وهى فى نشوة الحب . وأعلنت أنها ستحترف التمثيل ، فهددتها أمها بأنها ستكسر ذراعيها ورجليها ان هى مضت فى انفاذ هـــذه النية الآثمة ، [٢٦] . ولكنها أصرت ، وانضمت إلى فرقة تمثيلية متنقله . وسرعان ما تخلقت بأخلاق مهنتها . « إننى بفضل موهبتى ، وجمالى ، وسهولة الاتصال بى رأيت عددا هائلا من الرجال يركعون تحت قدمى ، بحيث استحال على وقد أوتيت قلبا رقيقا بطبعه . . . ان امتنع على الحب »[٢٧] .

فلما عادت إلى باريس فتنت المسيو دلا بوبلنير . وقد استمتع بها ثم استخدم نفوذه ليحصل لهـــا على مكان فى دار الأوبرا . وبعد أربعة شهور استطاعت دوقحه شاتورو « خليلة الملك آنئذ : أن تدخلها فرقة الكوميدى فرانسيز . وطلبت إليها الفرقة أن تختار الدور الذى ستمثله أول مرة ، متوقعه منها أن تجرى على السنة المعهودة ، فتختار دورا صغيرا ، ولكنها اقترحت أن تمثل دور فيدر . وعارضت الفرقة . ولكنها تركتها تنفذ مشيئتها . وتكللت مغامرتها بالنصر . وبعدها غدت نجم الأدوار المأساوية التى لم ينافسها فيها غير الآنسة دومنيل . وذاعت شهرتها بالفسق المقترن بشهوة الاقتناء . كانت ترفه عن لفيف من النبلاء ، وتتقاضى منهم أجرا طيبا ، وتجمع مكاسبها ، ثم تعطى كثيرا منها لعشيقها المفضل الشفاليه دجوكور ، الذى كان يحرر مقالات فى الاقتصاد للموسوعة . كذلك دفعت ثمنا لملاطفة مارمونتيل ، الذى سنلتقى به عما قليل مؤلفا لكتاب « الحكايات الخلقية » . تأمل جانب المرأة فى هذا الحب فى خطابها له : « أممكن أنك لم تعرف أى معاناة سببتها لى (على غير عمد منك ، ولكنى كابدتها رغم ذلك) » وان هذه المعاناة ألزمتنى الفراش ستة أسابيع وأنا فى خطر كبير ؟ لا أستطيع أن أصدق أنك كنت عليما بهذا ، وإلا لمـــا ذهبت فى صحبة بينما الناس جميعا يعرفون ما كنت فيـــه »[٢٨] . ومع ذلك ظلت هى ومارمونتيل صديقين حميمين ثلاثين عاما .

وهو الذى حملتها انتقاداته ومقترحاته على أن تحدث فى التمثيل حدثا . ذلك أنها كانت إلى عام ١٧٤٨ تجرى على أسلوب ممثلى التياتر — فرانسيه فى الحديث المفتعل العاطفى ، والايماءات الفخمة ، والانفعالات المرتعدة . أما مارمونتيل فقد وجد هذا أمرا غير طبيعى بمجه الذوق . وكانت كليرون قد قرأت كثيراً وسط غرامياتها ، وأصبحت من أفضل نساء جيلها تعليما ، وأدخلتها شهرتها ورجاحة عقلها حظيرة المجتمع المثقف ، وأدركت أن أفرغ الطبول هو أعلاها صوتا . وفى عام ١٧٥٢ أكرهتها إصابة بالزهرى على اعتزال المسرح حينا . فلما أبلت قبلت عقدا بإحياء خمس وثلاثين حفلة فى بوردو. روت أنها فى أول ليله مثلت فيها هناك لعبت دور فيدر بالأسلوب التقليدى ، بكل الضجيج والعجيج والحماقة التى كانت يومها تلقى الاستحسان فى باريس ، وصفق لها الجمهور استحسانا . ولكن فى الليلة التالية لعبت دور أجريبن فى مسرحية راسين بريتا نيكوس بصوت هادىء وبحركات محسوبة ، وكظمت الانفعالات حتى المشهد الأخير . وضج النظارة بالهتاف . فلما عادت إلى باريس كسبت جمهورها القديم لأسلوبها الجديد . وحبذ ديدرو هذا الأسلوب بحرارة . وكانت فى ذهنه حين كتب « مفارقة الممثل » ومؤداها أن الممثل القدير هادىء متالك نفسه فى داخله حتى فى أكثر لحظات أدواره انفعالا ، ثم تساءل أى تمثيل كان أروع من تمثيل كليرون [٢٩] » . وكانت تحب أن تصدم المعجبين بها فتروى لهم أنها تراجع ذهنها فى فواتيرها الشهرية وهى تلقى إلى الجمهور من الأشجان ما يستدر دموعه [٣٠] » . ولم يرحب فولتير بالأسلوب الجديد ، ولكنه أيدها تأييداً فعالا كما أيدته هى فى اصلاح ملابس المسرح وأثاثه . وكانت جميع الممثلات إلى ذلك الحين يلعبن أدوارهن — من أى أمة أو عصر — مرتديات زى باريس القرن الثامن عشر ، فى تنورات بأطواق موسعة وشعر مبدر ، ولكن كليرون فاجأت جمهورها باتخاذ زى زمان المسرحية لجسمها وشعرها ، فلما لعبت دور إيدامى فى تمثيلية فولتير « يتيمة الصين » كانت الثياب والأثاث صينية .

وفى ١٧٦٣ ذهبت كليرون إلى جنيف لتستشير الدكتور ترونشان . وطلب إليها فولتير أن تمكث معه فى فيلا دليس . « إن مدام دنيس مريضة ، وكذلك أنا . وسيحضر مسيو ترونشان إلى مستشفانا ليعودنا نحن الثلاثة[٣١] ، وأنت » ، وأعجب بها الحكيم العجوز إعجاباً حمله على إغرائها بزيارة أطول لفرنيه ، وأقنعها بأن تشاركه فى حفلات عديدة بمسرحه ويظهره رسم قديم وهو فى السبعين من عمره راكعاً أمامها فى اعتراف حار بالحب .

واعتزلت المسرح فى ١٧٦٦ وكانت صحتها قد اعتلت وهى بعد فى الثالثة والأربعين ، بل لم تعد قادرة على التحكم فى حديثها ، وهامت حباً بفتى نبيل أنيق كما فعلت لوكوفيرر وباعت كل ممتلكاتها تقريباً لتنقذه من دائنيه ورد لها صنيعها ببذل حبه ، وماله لغيرها من النساء . ثم تلقت وهى فى التاسعة والأربعين دعوة من كرستان فريدرش كارل الكسندر ، حاكم آنزباخ وبايروت البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً للعيش معه فى آنزباخ ناصحة وخليلة . فذهبت (١٧٧٣) وظلت محتفظة بسلطانها عليه ثلاثة عشر عاماً ، وكان قد تشرب فى فرنسا بعض مثل التنوير ، وبتشجيع منها أجرى عدة إصلاحات فى إمارته ، فألغى التعذيب وأقر الحرية الدينية . وكانت آخر مآثرها أن أقنعته بأن ينام كل ليلة مع زوجته . وبمضى الوقت أصاب الملل كليرون فتاقت إلى باريس فكان الأمير يصحبها إليها بين الحين والحين . وفى إحدى هذه الرحلات اتخذ خليلة جديدة ، وترك كليرون فى باريس بعد أن أجرى عليها معاشاً طيباً ، وكانت الآن فى الثالثة والستين .

ولقيت الترحيب فى الصالونات ، حتى من مدام نكير الفاضلة ، وأعطت الدروس فى الالقاء للفتاة التى أصبحت فيما بعد مدام دستال . واتخذت عشاقاً جدداً منهم الرجل الذى تزوج بعد ذلك مدام دستال ذاتها التى سرها التخلص منه . وقد رتب للممثلة العجوز معاشاً مريحاً ، ولكن الثورة اختزلت معاشها فعاشت فى ضنك حتى زاد نابليون معاشها فى

١٨٠١ . وفى ذلك العام عرض عليها رجل يدعى المواطن دوبواربيه غراماً أخيراً . فثبطت عزيمته بخطاب مؤلم يلخص مأساة الكثير من الممثلات العجائز . قالت « لعل ذاكرتك مازالت تتخيلنى مشرقة ، فتية ، محاطة بكل مظاهر سمعتى الماضية . ولكن عليك أن تراجع أفكارك . فأنا لا أكاد أبصر ، وسمعى ثقيل ولم يعد لى أسنان ، ووجهى كله غضون ، وجلدى الذى جف بالجهد ايكسوهيكلى الضعيف . »[٣٢] ومع ذلك أتى وعزى أحدهما الآخر باسترجاع ذكرى شبابهما . ثم ماتت عام ١٨٠٣ إثر سقوطها من فراشها .

وكانت قد خلفت وراءها منذ سنين طويلة الدراما المأساوية الكلاسيكية التى أشاد فولتير ، أعظم كتابها فى القرن الثامن عشر ، بكلبرون معبرة عنها لا ضريب لها . فقد أتخم جمهور باريس ، وكثرته من الطبقة الوسطى ، بالخطب المسجوعة يلقيها الأمـــراء ، والأميرات ، والملوك ؛ وبدت تلك البحور « الاسكندرية » بحـــور كورنى وراسين التى تمشى مختالة على ست أقدام (أى تفاعيل) — بدت الآن رمزاً للحياة الأرستقراطية ؛ ولكن أليس فى التاريخ سوى النبلاء ؟ بلى بالطبع . ورجل كموليير أبرز هؤلاء من قبل ، ولكن فى الملهاة ، أفليس هناك مآس ، من المحن العميقة والمشاعر النبيلة فى بيوت وقلوب البشر الذين تجردوا من الألقاب ؟ ورأى ديدرو أن قد آن أوان درامات البورجوازين ؛ وقال أنه إذا كان النبلاء قد تجنبوا العاطفية ، واشترطوا إلباس المشاعر قناعاً مهيباً ؛ فإن على الدراما الجديدة أن تطلق الوجدان من عقاله ، وألا تخجل من إثارة أشجان الجمهور وإدرار دموعه . وهكذا كتب هو وغيره من بعده « مسرحيات باكية » .

يضاف إلى هذا أن العديد من كتاب المسرحيات الجدد لم يكتفوا بتصوير حياة الطبقة الوسطى والإشادة بها ؛ بل هاجموا النبلاء ، والكهنة ؛ وحتى الحكومة آخر الأمر — هاجموا فسادها ، وضرائبها ، وبذخها ؛ وإسرافها ، ولم يقتصروا على التنديد بالاستبداد والتعصب (فقد أجاد فولتير هذا التنديد من قبل) بل امتدحوا الجمهوريات والديمقراطية ، ولقيت تلك الفقرات أشد الاستحسان من النظارة.[٣٣] وشارك المسرح الفرنسى عشرات القوى الأخرى فى الإعداد للثورة .

٤ — مارمونتيل

كتب هوراس ولبول من باريس فى ١٧٦٥ يقول « إن المؤلفين فى كل مكان » وأنهم « أسوأ من كتاباتهم » ولست أقصد بهذا ثناء على الكتاب أو ما يكتبون [٣٤] » ولا ريب فى أن ذلك العصر لم يكن ليضارع فى الأدب عصر فولتير وراسين ، ولا عصر هوجو وفلوبير وبلزاك ، ففى هذه الفترة القصيرة بين ١٧٥٧ و ١٧٧٤ ليس لدينا من الكتاب الجديرين بالذكر سوى روسو ومارمونتيل ، والجمرات الحية من نار فولتير « وغليان ديدرو الدفين غير المنشور . ذلك أن الرجال والنساء أسلموا أنفسهم بقوة للحديث حتى كلت قرائحهم قبل أن يعتادوا الكتابة . وانقضى زمان العقل الاستقراطى ، واستأثرت الفلسفة والاقتصاد والسياسة بالجو ، وتغلب المضمون الآن على الشكل . لا بل إن الشعر نزع إلى الدعاية . فقد قلدت قصيدة سان — لامبير « الفصول » (١٧٦٩) جيمس طومسن ، ولكنها نددت بالتعصب والترف تنديداً فى غير أوانه « وتمثلت الشتاء — كما تمثله الملك لير — عواصف ثلجية تقصف حول اكواخ الفقراء .

ويدين جان — فرنسوا مارمونتيل فى صعود نجمه لدهائه « وللنساء ، ولفولتير . ولد فى ١٧٢٣ . وقد كتب فى شيخوخته « مذكرات أب » (١٨٠٤) وهى تعطينا صورة رقيقة لطفولته وشبابه . ومع أنه اعتنق الشكوكية وكاد يعبد فولتير « إلا أنه لم يذكر إلا بالخير أهله الأتقياء الذين ربوه » واليسوعيين المطوفين المخلصين الذين علموه . وقد أحبهم حبا جما حمله على أن ينذر نفسه لله ، وتطلع إلى الانضمام إلى رهبنتهم ، وعلم فى مدارسهم بكليرمون وتولوز . ولكنه كالكثيرين من أفراخ اليسوعيين . طار بعيدا على أجنحة التنوير « وفقد على الأقل عذريته الفكرية . وفى ١٧٤٣ قدم أبياتاً من شعره على فولتير فاستمتع بقراءتها أيما استمتاع ، وأرسل إلى مارمونتيل مجموعة من أعماله صححها بيده . واحتفظ الشاعر الشاب بها ميراثا مقدساً ، وأقلع عن كل تفكير فى احتراف القسوسية . وبعد عامين حصل له فولتير على وظيفة فى باريس ، وعلى إذن بدخول التياتر — فرانسية مجانا ، لا بل

إن فولتير ، بما فى قلبه — قلب الأب المحروم من البنين — من طيبة مستنيرة، باع قصائد مارمونتيل وبعث إليه بحصيلة البيع . وفى ١٧٤٧ قبلت تمثيلية مارمونتيل « دنيس الجبار » (ديونيسيوس) — التى أهداها إلى فولتير — وأخرجت على المسرح ، وحققت نجاحا لم يحلم به « فقد أصبحت « مشهورا وغنيا فى يوم واحد » . [٣٥] وسرعان ما أصبح سبعـا صغيرا من سباع الصالونات ، فطعم على موائدها ، ودفع الثمن ذكاء وظرفا « ووجد سبيلا إلى فراش كليرون .

وأتته تمثيلية الثانية « أريستومين » بمزيد من المال، والأصدقاء ، والخليلات . وفى ندوات مدام دتنسان التقى بفونتنيل « ومونتسكيو ، وهلفتيوس « وماريفو ، وعلى مائدة البارن دولباخ سمع ديدرو ، وروسو « وجريم وشق طريقة صعدا فى المجتمع تحدوه يد النساء المرشدة . وأدخل إلى البلاط بعد أن مدح لويس الخامس عشر بأبيات ذكية . وافتتنت بومبا دور بوجهه المليح وشبابه المتفتح « فأقنعت أخاها بأن يستخدمه سكرتيرا ، وفى ١٧٥٨ عينته محرراً للجريدة الرسمية « مركير دفرانس » وكتب نصاً لرامو ، ومقالات للموسوعة . وأعجبت به مدام جوفران إعجابا حملها على أن تقدم له مسكنا مريحا فى بيتها ، حيث عاش عشر سنوات ضيفا بالأجر .

وقـد كتب لصحيفة المركير (١٧٥٣ — ٦٠) سلسلة من « الحكايات الأخلاقية « رفعت تلك الدورية إلى مقام الأدب . ومن إحدى هذه الحكايات تكون فكرة عنها كلها . فسليمان الثانى ، بعد أن مل المباهج التركية ، يطلب ثلاث حسان أوربيات . أما الأولى فتقاوم شهراً « ثم تستسلم أسبوعاً ثم تنجى جانباً . وأما الثانية فتغنى غناء رخيما « ولكن حديثها منوم . وأما الثالثة — روكسالانا — فلا تكتفى بالمقاومة « بل تسب السلطان لأنه داعر مجزم ويصيح السلطان « أنسيت من أنا ومن أنت ؟ وتجيب روكسالانا « أنت قوى ، وأنا جميلة « فنحن إذن صنوان . « وهى ليست بارعة الجمال ، ولكن لها أنفاً أخنس (مرتفع الأرنبة) ، وهو يغلب السلطان على أمره . فيحاول بكل الحيل أن يكسر مقاومتها ولكنه يخفق . ويهدد بقتلها ، فتقترح أن تعفيه

من هذا العناء بالانتحار . ويسبها ؛ فتسبه سبا أقذع . ولكنها تخبره أيضاً أنه جميل ، وأنه لا يحتاج إلا لإرشادها لكى يصبح فى روعة الفرنسيين . فيغتاظ ويبتهج . وأخيراً يتزوجها ويجعل منها مليكة . وفى أثناء حفل الزفاف يسأل نفسه « أمكن أن يطيح أنف أخنس صغير بقوانين امبراطورية ؟[٣٦] والعبرة عندما ما رمونتيل : إن صغار الأشياء هى التى تحدث جلائل الأحداث ، ولو عرفنا تلك التوافة الخفية لراجعنا التاريخ مراجعة كاملة .

وسارت الأمور كلها تقريباً رخاء مع ما رمونتيل إلى أن نشر (١٧٦٧) قصة سماها « بيليزير » . وكانت قصة ممتازة ؛ ولكنها دافعت عن التسامح الدينى ، وتشككت فى « حق السيف فى أن يبيد المرطقة ، والألحاد ، وعدم التقوى ، وأن يضع العالم كله تحت نير الدين الحق[٣٧] » . وادانت الصوربون الكتاب لاحتوائه على تعليم يستحق الشجب . ومثل ما رمونتيل أمام عميد الصوربون واحتج عليه قائلا « قـل لى ياسيدى ، ألست تدين الآن روح العصر لا روحى[٣٨] » ، وظهرت روح العصر فى جرائد ، فى إعتدال العقوبة . ولو نشر قصته تلك قبل عشر سنوات لزج به فى الباستيل ولصودر — كتابه ؛ أما الآن فالذى حدث هـو أن القصة راجت رواجا كبيراً ؛ وظلت تحمل « إذن الملك وامتيازه » واكتفت الحـكومة بالتوصية بأن يلزم الصمت حول الموضوع[٣٩] ؛ على أن مدام جوفران إنزعجت كثيراً حين لم يقتصر الأمر فى قرار الصوربون بمصادرة الرواية على قراءته فى الكنائس ، بل تجاوزه إلى تعليقه على باب بيتها . فاقترحت على مارموتنيل فى لطف أن يبحث عن مسكن آخر .

ووقع واقفا كالعادة . فنى ١٧٧١ عين مؤرخا رسميا ملكيا براتب حسن ، وفى ١٧٨٣ أصبح السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية . وفى ١٧٨٦ عين أستاذا للتاريخ فى الليسيه . وفى ١٧٩٢ حين كان فى التاسعة والستين وقد حزته إنحرافات الثورة ، إعتكف فى أفرو ، ثم فى أبلوفيل ؛ وهناك كتب « مذكراته » التى اغتفر فيها حتى للصوربون إساءاتها . وقضى سنواته الأخيرة فى فقر لا يشكو ولا يتذمر ، شاكرا لأنه عاش حياة غنية ممتعة . ومات فى آخر يوم فى عام ١٧٩٩ .

٥ — حياة الفن

(ا) النحت

كان الملك ذواقة فى الفن ، وكذلك كان نبلاء بلاطه ونبيلاته ، والمليونيرات اللذين كانوا الآن يتحرقون شوقا للهيمنة على الدولة . وكان حدثا هاما فى التاريخ الفرنسى أن تبدأ مصانع سيفر « التى أسستها مدام دبومبادور من قبل ، إنتاج الخزف الصينى القاسى العجينة عام ١٧٦٩ ؛ ومع أن الإلمان فى درسدن وما يسن قد فعلوا هذا قبل ستين عاما « فأن منتجات سيفر سرعان ماكسبت سوقا أوربيه . ولم ير كبار الفنانين أمثال بوشيه ، وكافييرى ، وباجو ، وبيجال « وفالكونيه ، وكلوديون ، ما يغض من قدرهم فى رسم التصميمات لصينى سيفر . واستمر خزافو سيفر ، وسان كلو ، وشانتي « وفانسين « فى إنتاج القاشانى والصينى الطرى العجينة فى رسوم غايه فى الإتقان .

وتضافرت مهارات الخزافين « وصناع المشغولات المعدنية والأثاث الخشبى وقطع النسيج المرسومة « لتجميل الحجرات الملكية وغرف النبلاء واقطاب المال . وكانت "ساعات الجدارية ، كتلك التى صممها بوازو وصبها جرتيير بالبرونز[٤٠] إحدى حليات العصر المميزه . وأبدع بيير جوتتير وجاك كافييرى فى صناعة « الأورمولو » ومعناه الحرفى « الذهب المطحون» « وهو فى حقيقته سبيكة أهم مكوناتها النحاس الأحمر والزنك « تنقش وترصع بالجواهر ويكفت بها الأثاث . وألف كبار صناع الأثاث نقابه قوية تعتز بنفسها « اشترط على عضائها أن يختموا إنتاجهم بأسمائهم علامة على مسئوليتهم عنه . وكان خيرهم فى فرنسا وافدا من المانيا : جان فرنسوا أوبن وتلميذه جان — هنرى ريزنر « وسخر هذان مهارتهما فى صنع مكتب فخم للملك لويس الخامس عشر (١٧٦٩) « وهو تحفة روكوكية معربدة من رسوم ونقوش وتطعيم وتذهيب دفع الملك ٦٣,٠٠٠ ابره ثمنا لها.

وقد استمتع بها نابليون الأول ونابليون الثالث ، وسلمت إلى اللوفر فى ١٨٧٠ وتقدر الآن بخمسين ألفا من الجنيهات [٤١] .

فى هذا العهد الذى علق مثل هذه الأهمية على القيم اللمسية ، كان النحت يقدر بقدره الكلاسيكى تقريبا ، فالشكل لبه ، وكانت فرنسا تعلم أن الشكل ، لا اللون ، هو روح الفن . وهنا أيضاً فاقت النساء الآلهة ، لا فى عيوب الواقع الطبيعية ، بل فى المثالى من الأشكال والثياب التى استطاع النحاتون المرهفو الحس أن يؤلفوا بينها ويصوروها . ولم يزين النحت القصور والكنائس فحسب ، بل الحدائق والمتنزهات العامة ، وكانت التماثيل التى أقيمت مثلا فى حدائق التويلرى من أحب التماثيل إلى الناس فى باريس ، وقلدت بوردو ، ونانسى ،وربن ، ورامس ، باريس فى التراكوتا (الطين النضيج) والرخام والبرونز .

وأخرج جيوم كوستو الثانى الآن أروع إنتاجه (وكان يصغر العهد بسنة واحدة فقط) ففى ١٧٦٤ عهد إليه فردريك الثانى بنحت تماثيل لفينوس ومارس إله الحرب ، وفى ١٧٦٩ أرسلها كوستو الى بوتسدام لقصر صانسوسى . كذلك بدأ فى ١٧٦٩ نحت المقبرة الفخمة المشيدة للدوفين والدوفينة (والدى لويس السادس عشر) لكاتدرائية صانس ، وعكف على هذا العمل بهمة إلى أن مات (١٧٧٧) . ورأى فى أخريات عمره ظهور أربعة نحاتين من ألمع من عرفتهم فرنسا إلى يومنا هذا ، وهم بيجال وفلاكونيه ، وكافييرى ، وباجو .

أما بيجال فقد قصد روما على نفقته ، يعينه على ذلك كوستو ، بعد أن أخفق فى نيل « الجائزة الكبرى » التى تدفع لنائلها مصروفات تعلمه الفن فى روما . فلما عاد إلى باريس شق طريقه إلى أكاديمية الفنون الجميلة برائعته المسماة « عطارد يثبت خفيه » . هذه الرائعة التى صاح الفنان العجوز جان - باتست لموان حين رآها « وددت لو كنت راسمها ! » كذلك أعجب بها لويس الخامس عشر ، وأرسلها إلى حليفه فردريك الثانى فى ١٧٤٩ . وقد وجدت سبيلها بطريقة ما عودا إلى اللوفر ، حيث نستطيع أن نتأمل المهارة الفائقة

التى ألمع بها الفنان الشاب إلى لهفة الرسول الأولمبى على النهوض والانطلاق .
ووافق فن بيجال مزاج مدام دبومبادور ، فعهدت إليه بالكثير من المهام .
وقد صنع لها تمثالا نصفيا ، محفوظا الآن بمتحف المتروبولتان للفن بنيويورك ،
وحين هدأ ما بينها وبين الملك من غرام مشبوب واستحال إلى صداقة ، نحت
لها تمثالا على هيئة « ربة الصداقة » (١٧٥٣) . [٤٥] وصنع تمثالا للويس
بوصفه مجرد « مواطن » للميدان الملكى برامس ، وأتم تمثال بوشاردون
« لويس الخامس عشر » للميدان الذى يسمى الآن ميدان الكونكورد . وصور
ديدرو فى البرونز ، رجلا تمزقه الفلسفات المتصارعة . ولكنه أطلق لنفسه
عنان التمثيل فى المقبرة التى نحتها لرفات المرشال دى دساكس بكنيسة القديس
توما بستراسبورج — فهو المحارب العاشق يركب إلى الموت كأنه راكب إلى
معركة ينتصر فيها .

أما أشهر التماثيل الذى كان حديث الناس فى هذا العهد فذلك الذى اختارت
صفوة مفكرى أوربا بيجال لينحته لفولتير . وقد اقترحته مدام نكير فى
احدى أمسياتها فى ١٧ ابريل ١٧٧٠ ورحب بالاقتراح جميع ضيوفها السبعة
عشر (ومنهم دالامبير ، وموريللية ، ورينال ، وجريم ، ومارمونتيل)
ودعى عامة الناس للمساهمة فى النفقة . وأثيرت بعض الاعتراضات ، إذ لم
يكن من المألوف إقامة التماثيل لأى احياء سوى الملوك ، ولم يصنع تمثـال
لكورنى أو راسين قبل موتهما . ورغم ذلك تدفقت التبرعات ، حتى من
نصف ملوك أوربا ، وأرسل فردريك مائتى جنيه ذهبى لتخليد ذكرى
صديقه وخصمه القديم . واستأذن روسو فى المساهمة ، فاعترض فولتير ،
ولكن دالامبير اقنعه بالموافقة . وعرض فريرون ، وباليسو ، وغيرهم من
خصوم جماعة الفلاسفة أن يشاركوا فى التحية ، ولكن عرضهم رفض .
ووضح أن الفلاسفة كانوا أبطأ من خصومهم مغفرة وصفحا . أما فولتير
نفسه فقد نبه مدام نكير إلى أنه لا يصلح موضوعا لتمثال :

« لقد بلغت السادسة والسبعين ، ولم أكد أتماثل للشفاء من مرض عبث
بجسدى وروحى عبثا منكرا ستة أسابيع . ويقولون إن مسيو بيجال قادم
ليصنع تمثالا يحكى محياى . ولكن هذا يا سيدتى يقتضى أن يكون لى محيا ،

ومن العسير التكهن بالموضع الذى كان فيه هـذا المحيا . فعيناى غائرتان ثلاث بوصات ، وخداى من الرق البالى الملصق لصقا سيئا على عظام لا ترتكز على شيء ، وقد فقدت الأسنان القليلة التى كانت لى . وليس كلامى هذا من قبيل التمنع ، ولكنه الصدق الخالص . ولم ينحت قط تمثال لرجل مسكين فى حالتى هذه ، ولعل مسيو بيجال سيعتقد أنكم تهزأون به ، أما أنا فينبغى أن يكون عندى من حب الذات ما لا أجرؤ معه أبدا على الظهور فى حضرته . ولو شاء أن يضع حدا لهذه المهمة الغريبة لنصحته بأن يأخذ نموذجه ، بتغيرات طفيفة ، من تمثالى الصغير المصنوع من صينى سيفر [٤٣].

وضاعف بيجال المشكلة باقتراحه ان يصنع تمثالا عاريا لذلك العفريت الأشهر ، ولكنهم ثنوه عن هذا الرأى . وقصد فرنيه فى يونيو ، وجلس إليه الفيلسوف الخجول ثمانية أيام ، فى فترات متقطعة ، ولكن فى تململ شديد — يملى على سكرتير ، ويومىء للإيماءات وينفخ حبات البسلا على أشياء شتى فى الحجرة — حتى قاربت أعصاب المثال على الانهيار [٤٤] . فلما عاد إلى باريس بقالب للتمثال عكف على مهمته شهرين ، ثم أعلن النتيجة فى ٤ سبتمبر ، وأقبل نصف الصفوة الممتازة يعجبون ويبتسمون . والتمثال يقوم الآن فى دهليز مكتبة المعهد .

ولم يكن من مزاحم لبيجال فى زعامة النحت فى هذه الحقبة غير إتيين موريس فلاكونيه ، ويروى ديدرو قصة لطيفة عن خصومتهما . ذلك أن فلاكونيه الذى كان يصغر غريمه بعامين تجنب أول الأمر منافسته مباشرة ، فكان يصنع التماثيل من الصينى ، وكان من أبهج هذه التماثيل تمثال « بجاليون » الذى صنعه دورو على تصميم فلاكونيه ، وفيه تبدو دهشة النحات الاغريقى إذ ينحنى تمثاله « غلاطية » المرمرى للتحدث إليه . واستطاع ذلك التمثال أن يرمز إلى حقيقة أوشك الناس أن ينسوها ، وهى أنه ما لم يتحدث إلينا العمل الفنى فهو ليس بفن . فلما اطلع بيجال على هذه القطعة من الطين وقد تحولت إلى رمز خالد فاه بالثناء التقليدى يثنى به فنان عظيم على آخر : « وددت لو كنت صانعه ! » ولكن فلاكونيه لم يرد التحية بمثلها تماما حين

رأى تمثال بيجال « لويس الخامس عشر مواطنا » فقد قال « انى لا أحبك يا مسيو بيجال ، وأعتقد أنك تبادلنى هذا الشعور . وقد رأيت تمثال « المواطن » الذى صنعته . لقد كان ممكنا خلق هذا العمل ، لأنك قمت بهذا فعلا ، ولكنى لا أعتقد أن الفن يستطيع أن يجاوزه بخط واحد وهذا لا يمنعنا من أن نظل كما كنا[٤٥] .

وقد نغصت عيش فلاكونيه أربعون سنة من المحن قبل أن يظفر بالتقدير التام ، فانطوى على نفسه وعاش فى بساطة ديوجينية ، وأصبح سريع الشجار ، وغض من قدر فنه ، وأعرب عن احتقاره للشهرة سواء فى حياة صاحبها أو بعد موته . واتته الشهرة آخر الأمر بتمثاله « المستحمة » (١٧٥٧) — وهى مستحمة جميلة تجس حرارة الماء بأصابع قدمها .[٤٦] وآنست إليه الآن مدام دبومبادور ، فنحت لها « الحب الداهم » الذى يمثل كيوبيد يهدد باطلاق سهم فيه عدوى الحب . وأصبح فلاكونيه حينا فى عالم النحت ما كانه بوشيه وفراجونار فى عالم التصوير مبدعا دغدغات فتانه مثل « فينوس وكيوبيد » ، « وفينوس تخلع ثيابها أمام باريز » .

وقد أبدع فى تصميم الشمعدانات الزينية ، والنوافير الصغيرة ، والتماثيل الدقيقة ، وحفر الرخام « ساعة ربات الحسن الثلاث » المحفوظة الآن فى اللوفر ، وأبهج بومباذور بتمثيلها فى صورة الموسيقى[٤٧] » . وفى ١٧٦٦ قبل دعوة كاترين الثانية له للذهاب إلى روسيا . وقد صنع فى سانت بطرسبوج رائعة « بطرس الأكبر على جواد يخطر » ، وشارك ديدرو وجريم حظوتهما عند الأمبراطورة ، وعمل لها بهمه طوال اثنى عشر عاماً ، ثم تشاجر معها ومع وزرائها ، ورحل فى نوبة غضب عائدا إلى باريس . وفى ١٧٨٣ أصيب بالفالج ، ولزم حجرته فى الأعوام الثمانية الباقية له ، وقد زادت نظرته إلى الحياة اكتئاباً .

أما جان — جاك كافيرى فكان فى وسعه أن يكون أكثر بشاشه وانشراحاً لأنه ربى على النجاح فى رعاية أبيه جاك ، الذى كان من أئمة صناع البرونز فى العهد الأسبق . وقد شق طريقه مبكراً إلى أكاديمية الفنون

الجميلة بتمثال عجوز لاتكسوه غير سبلة سماه « النهر » . وكلفه مسرح الكوميدى — فرانسيز بتزيين قاعاته بتماثيل نصفيه للمسرحيين الفرنسيين « فأبهج الناس جميعاً بتماثيله التى صورت كورنى ، وموليير ولوليتير ، فى صور مثالية . أما رائعته فتمثال نصفى للكاتب المسرحى جان دروترو نقله عن حفر فى حوزة الأسرة . وهو أشبه بدارتنيان فى كهولته — شعر مرسل ، وعينان متقدتان « وأنف مشاكس » وشوارب كثة ، وهو من أبدع التماثيل النصفية فى تاريخ النحت. وبدافع الغيرة من مسرح الكوميدى — فرانسيز ، كلفت فرقة الأوبرا كافييرى بأن ينحت التماثيل لأبطالها هى أيضاً « فصنع التماثيل النصفية للوللى ورامو ، ولكن هذه التماثيل اختفت . وبقيت لوحة جميلة لفتاة صغيرة[٤٨] » . ربما كانت من أعضاء فريق باليه الأوبرا « وهى توفيق ساحر جمع بين العينين الخجولتين والصدر الناهد .

أما أحب المثالين لمدام دوبارى فهو أوجستن باجو . فبعد أن قضى الفترة المألوفة لتلمذة الفنانين فى روما « حقق ثراء مبكرا بمـا تلقى من مهام ملكية وتكليفات من خارج فرنسا . وقد صور الخليلة الجديدة فى نحو اثنتى عشرة لوحة . ويرتدى التمثال المحفوظ، باللوفر رداء كلاسيكيا منقوشاً نقشاً رائعاً . وصور بوفون للجاردان دروا بناء على طلب الملك[٤٩] ، ثم خلد ديكارت ، وتورين « وبسكال ، ونوسويه ، وأروع أعماله مازال حياً فى الصور البارزة التى حلى بها أسفل المقصورات فى دار الأوبرا بفرساى . وعمر حتى قام بأعمال للويس السادس عشر ، وبكى على إعدام ذلك الملك ، وشهد نابليون يبسط سلطانه الشامل على القارة .

ب — العمارة

هل قامت فى فرنسا خلال هذه الأعوام الثمانية عشر عمارة خالدة؟ لم يقم إلا القليل . فالكنائس كانت أوسع من أن يملأها من بقى من المؤمنين . والقصور أخذت تثير غيرة الجماهير التى طحنها الجوع . وكان تجدد الاهتمام بالمعمار الرومانى نتيجة للحفائر التى أجريت فى هركولانيوم (١٧٣٨) وبومبى (١٧٤٨ — ٦٣) يدعم إحياء الطرز الكلاسيكية الخطوط ذات البساطة

والوقار ، وواجهة الأعمدة والقوصرة ،والقبة الفسيحة أحياناً . وكان جاك — فرنسوا بلوندل « الأستاذ بالأكاديمية الملكية للعمارة » نصيراً متحمساً لهذه الأشكال الكلاسيكية ، وأصدر خلفه جوليان — دافيد لروا ، فى ١٧٥٤ ، رسالة سماها « أجمل آثار الإغريق » زادت من سرعة الانتشاء بهذه الآثار . وقد نشر آن — كلود تيبير ، كونت دكايلوس ،بعد أن ساح كثيراً فى إيطاليا واليونان والشرق الأدنى (١٧٥٢ — ٦٧) « ثمانية مجلدات خطيرة سماها « مختارات من الآثار المصرية ، والأتروسيكية ، واليونانية ، والرومانية ، والغالية » موضحة فى عناية ببعض رسومه ؛ وتأثرت دنيا الفن الفرنسى كلها حتى السلوك الفرنسى « تأثراً قوياً بهذا الكتاب فمالت إلى نبذ شطحات الباروك ونزوات الروكوك رجوعاً إلى خطوط الطرز الكلاسيكية الأكثر نقاء. وهكذا نجد جريم يقول لقرائه فى ١٧٦٣ :

« ظللنا سنوات نبحث بحثاً جاداً عن الآثار والأشكال القديمة وأصبح الميل لها عاما حتى عدا من الأمور المقررة الآن أن يؤدى كل شيء على الطريقة اليونانية à la grecque من العمارة إلى صنع القبعات «فنساؤنا يصففن شعورهن على الطريقة اليونانية ، ووجهاؤنا يرونه عاراً إن لم يمسكوا علبة صغيرة على الطريقة اليونانية »[٥٠] .

أما ديدرو ، رسول الرومانسية البورجوازية ،فقد استسلم فجأة للموجة الجديدة (١٧٦٥) حين قرأ ترجمة لكتاب وثكلمان « تاريخ الفن القديم » وكتب يقول « يخيل إلى أننا يجب أن ندرس القديم لكى نتعلم رؤية الطبيعة » [٥١] . وكانت هذه العبارة فى حد ذاتها ثورة .

وفى ١٧٥٧ بدأ جاك — جرمان سوفلو بناء كنيسة القديسة جنفييف ، التى نذر لويس الخامس عشر خلال مرضه فى متز أن يشيدها للقديسة راعية باريس حالما يتماثل للشفاء . وأرسى الملك بنفسه حجر الأساس « وأصبح بناء هذا الصرح « الحدث المعمارى العظيم فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر» فى فرنسا [٥٢] . وقد صممها سوفلو على شكل معبد رومانى ، برواق من قوصرة منحوتة وأعمدة كورنثية « وأربعة أجنحة تلتقى فى صليب يونانى

فى خورس أوسط تحت قبة ثلاثية . واتسمت كل مرحلة تقريباً من مراحل البناء بالجدل . ومات سوفلو فى ١٧٨٠ بعد أن أرهقته وفتت فى عضده الهجمات التى شنت على تصميمه ، وخلف البناء ناقصاً . وتبين أن الركائز التى صممها لتحمل القبة أضعف من أن تحملها ، فأحل شارل-اتيين كوفلييه محلها دائرة — من الأعمدة تفوقها جمالا . وحولت الثورة هذه الرائعة من روائع إحياء الفن القديم من هدفها الدينى إلى هدف دنيوى ؟ فسمتها من جديد البانتيون « تذكاراً لرائعة ماركوس أجريبا فى روما » لتكون مثـوى لـ « جميع آلهة » النظام الجديد ، حتى فولتير ، وروسو ، ومارا ، ولم تعد كنيسة مسيحية ، بل غدت مقبرة وثنية . » وقد رمزت فى عمارتها ومصيرها إلى انتصار الوثنية المطرد على المسيحية .

وأحرز الشكل الكلاسيكى نصراً آخر فى كنيسة المادلين (المجدلية) الأولى التى بدىء تشيدها عام ١٧٦٤ ، فحلت صفوف الأعمدة والأجنحة المستوية السقوف محل العقود والبواكى ، وغطت الخورس قبة . وأطاح نابليون بها كلها قبل أن تنجز لتحل محلها كنيسة المادلين التى تتبوأ مكانها اليوم والتى هى أشد إمعاناً فى الكلاسيكية .

كان هذا الانقلاب إلى الطرز الكلاسيكية الوقورة ،بعد إسراف الباروك المتمرد فى عهد لويس الرابع عشر وإناقة الروكوك اللعوب فى عهد لويس الخامس عشر ، جزءا من الانتقال إلى « طراز لويس السادس عشر » فى عهد لويس الخامس عشر نفسه — وهو طراز البناء » والأثاث » والزخرفة الذى سيتخذ اسم الملك الذى أطاحت الجيلوتين برأسه . وضبط الفن نفسه فتحول عن المنحنيات الكثيرة والزخارف المسرفة إلى البساطة المقتصدة ، بساطة الخطوط المستقيمة والشكل البنائى . وكان اضمحلال المسيحية قد انتزع من التسامى القوطى المفرط قلبه ، ولم يترك للفن ملاذاً غير تحفظ رواقى تجرد من الآلهة وتشبث بالأرض .

أما أعظم المعماريين الفرنسيين فى هذا الجيل فهو جاك - آنج جابرييل ، الذى أورثه اسلافه العمارة فى عروقه . عهد إليـــه لويس الخامس عشر

(١٧٥٢) بإعادة بناء قلعة قديمة فى كومبيين ، فجمل مدخلها ببوابة إغريقية ذات أعمدة دورية ، وكورنيش بدنطيل (مسنن) ، ودرابزين خال من الزخرف . ونهج هذا النهج من التصميم فى إعادة بناء الجناح الأيمن فى قصر فرساى (١٧٧٠) . وأضاف لهذا القصر (١٧٥٣ — ٧٠) داراً أنيقة للأوبرا . وبفضل الأعمدة المستوية ، والكرانيش الرقيقة النقوش ، والدرابزين الجميل ، أصبحت هذه الدار من أجمل المبانى الداخلية فى فرنسا. وحين سئم لويس ما فى حياة البلاط من علنية وتكلف، لجأ إلى جابرييل ليبنى له « بيتاً صغيراً » تستره الغابات واختار جابرييل موقعاً يبعد ميلا عن القصر، وشاد عليه بطراز النهضة الفرنسية « البتى تريانون » (١٧٦٢ — ٦٨) . هنا كانت بومبا دور تمنى النفس بالاستمتاع بحياة العزلة والدعة وهناك مرحت دوبارى وقصفت برهة ، ثم جملته مارى انطوانيت منتجها المفضل كأنها الراعية الملكية فى تلك الأيام الحلية السعيدة والشمس ما تزال تشرق على ربوع فرساى .

٥ — جروز

كانت الصورة حلية أثيرة فى جو البيوت الأرستقراطية الحميم . فالتماثيل باردة عديمة اللون ، تسر العين والعقل دون القلب والنفس ، أما الصور فتستطيع أن تعكس تقلب الأمزجة والأذواق ، وأن تنقل الروح إلى الأماكن الحلوية ، أو الأشجار الظليلة ، أو المشاهد النائيةوالجسد باق داخل الجدران . وهكذا نرى كلود — جوزف فرنية يرسم من السفن التى تمخر عباب البحار الفرنسية عدداً بلغ من كثرته إن لويس الخامس عشر قال فى نكتة مشهورة إنه لا حاجة به لبناء المزيد منها . واستأجرت الحكومة الفرنسية فرنية ليزور الثغور ويرسم السفن الراسية فيها ، ففعل ، وجعل فرنسا فخورة بأساطيلها. وحصل ديدرو على إحدى صور فرنيه للبحر والأرض ، وغلا فى تقديرها غلوا حتى لقد توسل إلى إله إرتجله إرتجالا فقال « أنى أتخلى لك عن كل شىء ، فخذه كله ، إلا فرنيه[٥٣] » . — وهناك أوبير روبير ، الذى لقب « روبير الاطلال » نعم كله لأنه زود كل صور مناظره الطبيعية تقريبا بالأطلال

الرومانية مثل « كوبرى جار فى نيم » ومع ذلك كان القوم « يتهافتون عليه » فى صالونات باريس كما تؤكد لنا مدام فيجيه — لوبرون ، رغم شغفه المدمر بالأكل[٥٤] . ثم هناك فرنسوا — أوبير درواى ، الذى حفظ لنا فى تصوير مرهف جمال المركيزة دسور والطفولة البريئة للغلام الذى سيصبح شارل العاشر ولاخته مارى أدليد[٥٥] . ولكن لنلق نظرة أكثر تدقيقا على جروز وفراجونار .

أما جان — بابتيست جروز فقد صنع بفرشاته ما صنعه روسو وديدرو بقلمهما ، إذ أضفى على الوانه إشراق العاطفة . وجعل نفسه « آيليز » البورجوازية . فالعاطفة أسعد من التكلف والصقل ، وليست ضحلة مثلها ، وعلينا أن نغفر لجروز رؤيته الجوانب السارة من الحياة وتصويرها « وحبه لوثب الأطفال المرح ، وبراءة البنات الجميلات الهشة ، والقناعة المتواضعة لبيوت الطبقة الوسطى . فلولا جروز وشاروان لتوهمنا أن فرنسا كلها كانت منحطة فاسدة . وأن دوبارى كانت نموذجها » وأن فينوس ومارس كانا ربيها الوحيدين . أما الحقيقة فهى أن الأشراف هم المنحطون ، وأن لويس الخامس عشر هو الفاسد . وأن الارستقراطية والملكية هما اللذان سقطا فى الثورة . أما جماهير الشعب - باستثناء رعاع الريف والمدن - فقد احتفظت بالفضائل التى تنقذ أمة من الأمم ؛ وقد صورها جروز . وحياً ديدرو شاردان وجروز . لا بوشيه وفراجونار . باعتبارهما صوت فرنسا وسلامة روحها .

ويروى عن هذا الفنان فى شبابه ما يروى عادة من قصص عن شباب الفنانين : اراد أن يرسم ، فمنعه أبوه ظنا منه بأن هذهالرغبه ليست سوى ستار للكسل ، وكان الغلام يتسلل من فراشه ليلا ليرسم الصور . فلما وقع بصر أبيه على صورة منها لانت قناته فأوفده ليدرس على يد مصور فى ليون . ولم يطل رضاء جان — باتيست عما استطاع أن يتعلمه هناك ، فيم شطر باريس . وعمل فترة فى الفقر الذى تمتحن به الموهبة الشابة . وكان محقا فيما بعد فى إبراز الجانب الأفضل فى الناس ، لأنه وجد كما نجد معظمنا

الكثير من العطف مختلطا بما فى الدنيا من عدم مبالاة وانشغال عن الموهبة . وحوالى عام ١٧٥٤ اشترى اجماع للفنون يدعى إلا ليف دجوالى إصورة رسمها جروز تسمى « رب الأسرة » (وقد استعمل ديدرو هذا العنوان ذاته لتمثيليته الثانية عام ١٧٥٨) وشجعه على مواصلة التصوير . ورأى الفنان الذى كان يعلم التصوير للأسرة المالكة صورة بريشة جروز ، فرشحه للأكاديمية . ولكن كل مرشح كان ينتظر منه أن يقدم خلال ستة أشهر رسما لمشهد من مشاهد التاريخ . ولم تكن هذه المشاهد التاريخية مما يوافق مزاج جروز ، فترك حقه فى الترشيح يسقط ، وقبل ما عرضه الأبيه جوجنو من تمويل رحلته إلى روما (١٧٥٥) .

وكان قد بلغ الثلاثين . ولا بد أنه أحس قبل ذلك بزمن بسحر الأنثى ، أو ليس نصف الفن نتاجا جانبيا لتلك القوة القاهرة ؟ وقد خبرها فى روما خبرة أورثته تباريح الجوى . ذلك أنه عهد إليه بتعليم الرسم لليتتيا » ابنة أحد الأدواق ، وكانت فى ميعة الصبا ، فما الذى يستطيعه إلا أن يقع فى غرامها ؟ وكان مليح الصورة ، له شعر مموج ووجه بشوش متورد ، وكان زميله فى الطلب فراجونار يلقبه « الملاك العاشق » . أنظر فى اللوفر إلى صورته التى رسمها لنفسه فى شيخوخته ، ثم تخيله وهو فى الثلاثين . ولم يكن مناص من أن تلعب ليتيتيا فى حميا الشباب الذى لا يعبأ بالمال ، دور هلويز أمام هذا الأبيلار ، باستثناء الجراحة . ولم يستغل ضعفها ، وعرضت عليه الزواج : وكان يهفو إليها ، ولكنه أدرك أن زواج فنان فقير بوارثة دوق سينقلب بعد قليل مأساة للفتاه . وإذ كان غير واثق من قدرته على السيطرة على نفسه فقد عقد النية على إلا يراها ثانية . فرضت » وزارها وسرى عنها ، ولكنه عاد إلى تصميمه . ويؤكدون أنه ظل ثلاثة أشهر يلزم فراشه بحمى وهذيان متكرر [٥٦] . وفى ١٧٥٦ قفل إلى باريس دون أن يتأثر أطلاقا بالفن الكلاسيكى أو الإحياء الكلاسيكى الجديد .

يقول « بعد وصولى إلى باريس أتفق أن مررت ... ولا أدرى أى قدر دفعنى إلى هذا — بشارع سان — جاك ، حين لحظت الإنسة بابوتى خلف

منضدتها[٥٧] » . وكانت جابرييل بابوتى تعمل فى مكتبة ، وكان ديدرو يشترى كتبها و « يحبها كثيرا » (على حد قوله) قبل ذلك بسنوات . وكانت الآن (١٧٥٦ — ٥٧) قد تجاوزت الثلاثين (كما يقول جروز) تخشى أن تظل عانسا ، فوجدت جان — باتيست غير ميسور الحال ولكنه حلو . وبعد أن زارها بضع مرات قالت له « يا مسيو جروز ، اتتزوجنى أن رضيت بك زوجا ؟ » وأجاب كما يجيب أى فرنسى مهذب « يا آنسة . ألا يكون أى رجل غاية فى السعادة إذا أنفق حياته مسع امرأة ساحرة مثلك ؟ » ولم يفكر فى الأمر أكثر من هذا ، ولكنها تركت الجيران يفهمون أنه خطيبها . ولم يطاوعه قلبه على تكذيبها ، فتزوجها وظلا سبع سنين ينعمان بقسط معقول من السعادة . وكانت ذات جمال مغر ، فاستخدمها راضية موديلا فى كثير من الأوضاع التى لم تكشف عن شيء وإن ألمعت لكل شيء . وأنجبت له فى تلك السنين ثلاثة أطفال عاش منهم أثنان كانا إلهاما » لفنه .

ويعرفه العالم بصور الأطفال التى رسمها . وعلينا ألا نتوقع هنا روعة لوحة ڤيلاسكويز « دون بلتازار كارلوس »[٥٨] . أو لوحة فانديك « جيمس الثانى صبيا »[٥٩] ، لا بل إننا أحيانا قد نصطدم بما فى بنات جروز من غلو وتهافت فى العاطفة ، كما تشهد بذلك « صورة عذراء » المحفوظة ببرلين ، ولكن لم نرفض ما فى صورة « البراءة »[٦٠] من خصل متموجة ، وخدود متوردة ، وعيون فيها الحزن والثقة ، أو ما فى لوحة « الفلاحة الصغيرة »[٦١] من بساطة لم يفسدها التبرج ؟ كذلك لا نجد تكلفا فى لوحة « الغلام وكتاب الدرس »[٦٢] . فهى تصور أى غلام مل واجبا يبدو له مقطوع الصلة بالحياة . ومن بين ١٣٣ لوحة بقيت من رسوم جروز ، اختص البنات بست وثلاثين . وقد أشترى يوهان جيورج فلل ، الحفار الإلمانى نزيل باريس ، ما استطاع شراءه من هذه الصور المثالية للطفولة ، ورآها « أثمن من أروع صور هذا العهد[٦٣] » ورد جروز هذه التحية بتصويره السكسونى غير الجذاب مثالا للفحولة . على أن هؤلاء الفتيات يشوبهن التكلف والصنعة إذ يكبرن فى فن جروز . مثال ذلك أن « اللبانة[٦٤] » تبدو فى أبهى لباس كأنها تتأهب للذهاب إلى المرقص ، وصبية « الجرة المكسورة[٦٥] » لا داعى (إلا داعى

الجمال) يدعوها للكشف عن حلمة ثديها وهي في طريقها من البئر . ولكن في صورة لصوفي أرنو[٦٦] ، وتبدو القبعة ذات الريش ، والوقفة الأنيقة ، والشفاه القرمزية ، كلها طبيعية .

لقد كان جروز أشبه بشاردان صغير فيه مسحة من بوشيه ، رجلا معجبا حقيقة بالفضيلة وبحياء الطبقة الوسطى ، ولكنه يكسوها بين الحين والحين إغراء شهوانيا كان شاردان يتجنبه . وكان في إستطاعة جروز إذا نسي أجساد نسائه أن ينشد في صورة أنشودة الحياة العائلية البورجوازيه ، كما نرى في « عروس القرية[٦٧] » التي ظفرت بأكبر جائزة حين عرضت في آخر أسبوع لصالون ١٧٦١ ، وأصبحت حديث باريس . وأطراها ديدرو لما فيها من « عاطفة حلوة » وأشاد بها « مسرح الإيطاليين » إشادة لم يسبق لها نظير . إذ قدمها في « لوحة حية » على المسرح . وقد وجد الخبراء فيها عيوبا — من ضوء لم يحسن المصور التصرف فيه ، إلى ألوان متنافرة ، إلى قصور في الرسم والتنفيذ ، وضحك الارستقراطيون على ما فيها من غلو في العاطفة ، ولكن جمهور باريس « الذي كان قد عب في الزنا حتى الثمالة ، وأبكته في هذه السنة بعينها « جولي » روسو ، كان في مزاج يدعوه لاحترام النصائح والتحذيرات الخلقية التي كادت تسمع من فم والد العروس إلى زوجها الموعود . وكانت كل عقيلة من عقائل الطبقة الوسطى عليمة بمشاعر تلك الأم وهي تسلم أبنتها لمشاق الزواج ومخاطره ، وكل فلاح كان يشعر بأنه ليس غريبا في ذلك الكوخ الذي تنقر فيه دجاجة وأفراخها الغلة على أرضه أو تشرب في أطمئنان من القدر التي تحت قدم الأب . واشترى مركيز دماريني الصورة لفوره ، ودفع الملك فيها بعد ذلك ١٦،٦٥٠ جنيها ليحول دون بيعها بالخارج . وهي اليوم محفوظة بإحدى حجرات اللوفر التي لا تحظى بزوار كثيرين ، وقد أتلفها تغير ألوانها السطحية جداً ، وغض الجمهور من قدرها في غمرة تمرد الواقعية والكلبية على العاطفة المتفائلة .

وأحس كل فناني باريس تقريباً بأن جروز حط من شأن الفن لأنه سخره للوعظ من خلال الروايات والقصص بدلا من كشف الحقيقة والطبائع

بنفاذ بصيرة وعدم تحيز . ودافع عنه ديدرو قائلا إنه « أول فنانينا الذى أضفى الخلق على الفن ، وهيأ صوره لتروى قصة[٦٨] » . وبلغ به الأمر حد الدهشة والتعجب من المآسى الرقيقة التى رسمها جروز ، فصاح فى أسى « للديلة ! للديلة ! » حين رأى لوحة « الفتاة الصغيرة تبكى على عصفورها الميت » وكان هو نفسه يدعو لمواضيع الطبقة الوسطى ومشاعرها فى الدراما . فآنس فى جروز حليفا عظيم القيمة وأطراه حتى فوق إطرائه شاردان . وغلا جروز فى تصديقه ، فكرر نفسه كأنه رسول الفضيلة والعاطفة ، وأرسل إلى مجلات باريس شروحا طويلة للدروس الاخلاقية فى الصور التى كان ينتجها . وأخيرا أستنزف ترحيب جمهور الفن به حتى إبان تسلط العاطفة على مزاج العصر .

وكان خلال فترة السنوات الأثنتى عشرة كلها منذ قبول ترشيحه للأكاديمية قد أهمل أن يقدم لها الصورة التاريخية التى كانت شرطا للعضوية الكاملة ، وكانت الأكاديمية ترى أن الصورة التى ترسم المشاهد المألوفة التى تصف الحياة البيتية أو اليومية تتطلب من الموهبة الناضجة أقل مما يتطلبه التأليف القادر على التخيل « والتمثيل الكفء لمشهد من المشاهد التاريخية . ومن ثم قبلت مصورى مشاهد الحياة اليومية على أنهم « مقبولون agréés » فقط ، ولكنهم ليسوا بعد صالحين للدرجات أو الكراسى الأكاديمية . وفى ١٧٦٧ أعلنت الأكاديمية أن صور جروز سيتوقف عرضها فى الصالون البينالى حتى يقدم لها صورة تاريخية .

وعليه فنى « ٢٩ يوليو ١٧٦٩ » قدم جروز صورة لسبتميوس سفيروس يوبخ أبنه كراكالا لمحاولته أغتياله[٦٩] . وأطلع أعضاء الأكاديمية على الصورة « وبعد ساعة أبلغه المدير أنه قبل » ولكنه قال له : « سيدى . لقد قبلت فى الأكاديمية مصورا للمشاهد اليومية . وقد أخذت الأكاديمية فى الاعتبار تفوق صورك السابقة ، وأغمضت عينها عن الإنتاج الحالى غير الجدير بها ولا بك[٧٠] » . وصدم جروز ، فدافع عن لوحته ، ولكن أحد الأعضاء بين الأخطاء فى الرسم . واحتكم جروز إلى الجمهور فى خطاب

لصحيفة « الأفاق — كوريه » (٢٥ سبتمبر ١٧٦٩) ، وأخفق شرحه في إقناع الراسخين في الفن ، وحتى ديدرو سلم بعدالة النقد .

وألمع ديدرو إلى أن قصور اللوحة راجع إلى أن فشل المصور في زواجه شوش ذهنه . واتهم جابرييل بابوتي بأنها تردت إلى درك المرأة المشاكسة المغرورة ، فاستنزفت مال زوجها بإسرافها ، وأرهقته بمضايقاتها ، وحطمت عزة نفسه بخياناتها المتكررة[٧١] . وقدم جروز نفسه لرئيس الشرطة (١١ ديسمبر ١٧٨٥) شهادة خطية يتهم فيه زوجته باستقبال عشاقها بإصرار في بيته ورغم احتجاجاته . وفي خطاب لاحق أتهمها بسرقة مبالغ كبيرة منه ، وبمحاولة « تحطيم رأسي بمبولة[٧٢] » . وحصل على انفصال شرعي ، وأخذ ابنتيهما في حضانته ، وترك لها نصف ثروته ومعاشا سنويا قدره ١,٣٥٠ جنيها .

وتدهور خلقه إثر هذه اللطمات ، فبات يضيق بأى نقد ، وفقد كل تواضع في الأشادة بلوحاته . على أن الجمهور وافقه على إعتزازه بنفسه ، فأقبل على مرسمه وأثراه بشراء صوره ، والنسخ المطبوعة منها . وإستثمر هو مكاسبه في سندات حكومية ، ولكن الثورة أطاحت بقيمة هذه السندات ، وألفى جروز نفسه مملقا ، في حين إنهارت سوق صوره الممثلة للسعادة والسلام البيتين نتيجة « لا ستغراق فرنسا في العنف الطبقي ، والهياج السياسي ، ورد فعل الكلاسيكية الجديدة . وأنقذته الحكومة الجديدة إنقاذا معتدلا (١٧٩٢) بمعاش قدره ١,٥٣٧ جنيها ، ولكن سرعان مانفد هذا المعاش فالتمس سلفة ، وجاءت امرأة من الرعاع تدعى إنتيجون لتعيش معه وتعنى بصحته المتدهورة . فلما قضى نحبه (١٨٠٥) كان العالم كلــه تقريباً قد نسيه ، ولم يرافق جثمانه إلى القبر سوى فنانين أثنين .

(د) فراجونار

تغلب جان — أونوريه فراجونار على محن النجاح خيراً من جرورز ، لأنه كان يفوقه شهوانية وصنعة . وفنه الأنيق هو التمجيد الأخير للمرأة الفرنسية في القرن الثامن عشر .

ولد فى جراس بأقليم بروفانس (١٧٣٢)؛ فأضفى على فنه أريج وطنه وعبير إزهاره؛ فضلا عن عشق التروبادور الرومانسى، وإضاف إلى هذا كله مرح الباريسين وتشككهم الفلسفى. وجلب إلى باريس فى الخامسة عشرة فطلب إلى بوشيه أن يقبله تلميذا، وقال له بوشيه بكل ما وسعه من تلطف إنه لا يقبل غير الطلاب المتقدمين. فذهب فراجونار إلى شاردان ليخدمه. وكان فى ساعات فراغه ينسخ الروائع الفنية أينما وجدها. وأطلع بوشيه على بعض هذه النسخ فأعجب بها إعجابا شديدا حمله على قبوله الآن تلميذا، وجند خياله الفنى فى عمل تصميمات لقطع النسيج المرسومة، وتقدم الغلام بسرعة حتى حثه بوشيه على دخول المسابقة لنيل جائزة روما. وقدم فراجونار لوحة تاريخيه سماها «يربعام يضحى للاصنام[٧٣]». وكانت إنتاجا ممتازا لفتى فى العشرين — فيها الأعمدة الرومانية الفخمة، والأرواب المنسابة، ورؤس الشيوخ الملتحية، أو المعممة، أو الصلعاء، وكان فراجونار قد تعلم فى زمن قليل بحيث نرى فى الوجه العجوز من الملامح أكثر من وجه لم تطبعه بعد الرغبة فى الأثارة والأستجابة. ومنحته الأكاديمية الجائزة، فدرس ثلاث سنين فى مرسم كارل فانلو، ثم إنطلق فى نشوة إلى روما (١٧٦٥).

وثبطت همته كثرة الروائع التى وجدها هناك أول الأمر:

«لقد روعتنى همة ميكلانجلو — فجاشت فى صدرى عاطفة عجزت عن التعبير عنها، وحين رايت روائع رفائيل تأثرت إلى حد البكاء ووقع القلم من يدى. وفى النهاية رانت على حالة من التراخى لم أقــو على قهرها. ثم ركزت على درس المصورين الذين أتاحوا لى الأمل فى أننى قد أنافسهم يوما ما. وهكذا جذب إنتباهى باروتشيو، وبييترو داكورتونا، وسليينا، وتييبولو[٧٤]».

وبدلا من أن ينسخ صور قدامى الفنانين راح يرسم التصميمات أو التخطيطات للقصور، والقناطر، والكنائس، والمناظر الطبيعية، والكروم، وأى شىء آخر، ولا غرور فقد ملك الآن فى استعمال القلم تلك البراعة التى

ستحوله واحدا من أقدر الرسامين وأكملهم فى عصر غنى فى ذلك الفن الأساسى (*) . وقل من الرسوم ماالتقط من حياة الطبيعة أكثر من الأشجار الخضراء فى فيلا دستى كما رآها فراجو نار فى تريفولى [٧٥] .

فلما عاد إلى باريس عكف على إرضاء الأكاديمية بلوحة تاريخية ، باعتبار هذه اللوحة شرطا لاغنى عنه فى قبول الرسام عضوا بها . ووجد المواضع التاريخية كما وجدها جروز ، لاتناسبه ، فقد اجتذبته باريس جميلة بنسائها الساحرات بأقوى مما اجتذبه الماضى . وكان تأثير بوشيه لايزال حارا فى مزاجه . وبعد تلكؤ كثير قدم لوحــة « كبير الكهنة كوريرسوس يضحى بنفسه ليثقذ كالليروييه » ؛ ولاحاجة بنـــا للوقوف والاستفسار عمن يكون هذا الكاهن وتلك العذراء » والمهم أن الأكاديمية وجدتهما نابضتين بالحياة مرسومين رسما جيداً ، فمنحت فراجونار عضوية مشاركة . وقال ديدرو فى حماسة عارمة « لاأعتقد أن أى فنان آخر فى أوربا كان مستطيعا تصور هذه اللوحة [٧٦] » . واشتراها لويس الخامس عشر لتكون تصميما لقطعة نسيج مرسومة . ولكن فراجونار نفض يده من المواضيع التاريخية ، بل إنه بعد ١٧٦٧ رفض أن يعرض فى الصالون » وقصر إنتاجه كله تقريباً على التكليفات الخاصة » حيث يستطيع اطلاق العنان لذوقه من القيود الأكاديمية . ولقد تمرد على تلك « الصلصة البنية » صلصة النهضة الأوربية ، قبل أن يتمرد عليها الرومانسيون الفرنسيون بزمن طويل » وانطلق فى مرح إلى بحار أرحب وأقل تخطيطا .

ولكنها لم تكن خلوا تماما من التخطيط . فقد فتح فاتو الطريق . من قبل بنسائه اللاتى كساهن أثوابا مشرقة وهن منطلقات بضمير مطمئن إلى جزيرة فينوس ، وكان بوشيه قد نهج هذا النهج بحواس مرحة لعوب ، وزاوج جروز بين الشهوانية والبراءة . أما فراجونار فقد جمع بين هذه كلها : ففى لوحاته الثياب المفافة ترف فى النسيم ، والغوانى الرقيقات يعرضن اللذات الطليقة من كل قيد » والنبيلات الأنيقات يسحرن الرجال

* كان هذا عصر أئمة النقش والحفر أمثال شارل – نيكولا كوشان » وجابرييل دسانت أوبان ، وجان – جاك بواسييه ، وشال ايزن – ألمع رسامى الكتب فى القرن الثامن عشر .

بحفيف ثوب أو رقة قميص ، أو بحركة رشيقة متناغمة أو بسمة تلين الأفئدة » والأطفال السمان المتوردون الشعث ، الذين لم يكتشفوا الموت بعد . وقد صور فى رسومه ومبانيه كل ناحية تقريبا من نواحى الطفولة — رضع يعانقون أمهاتهم ، وفتيات يدللن عرائسهن ، وصبية يركبون حمارا أو يلعبون مع كلب . . . .

وقد استجابت ميول فراجونار العشقية الغالية لطلبات رجال الحاشية المكتهلين ، والخليلات المتعبات ، من الصور التى تشيد بالجسد وتلهبه . فجال بين أرجاء الأساطير الوثنية بحثاً عن ربات امتنعت أجسادهن الوردية على فعل الزمن . وكانت فينوس ، لا العذراء ، هى التى رفعت الآن فى صعود ظافر إلى السماوات . وسطا على نصف شعائر الدين لمهرجانات الغرام : فكانت لوحته « القبلة »[٧٧] صلاة ، و « نذر الحب» عهداً مقدساً ، و « قربان الوردة » التقدمة الأخيرة . ومن بين صور أربع رسمها فراجونار لقصر مدام دوبارى الريفى فى لوفسيين كان لإحداها عنوان يصلح لتغطية نصف انتاج الفنان : « الحب الذى يشعل الكون » . ثم نبش فى ملحمة تحرير أورشليم ، بحثاً عن المشهد الذى تعرض فيه الحوريات مفاتنهن أمام رينالدو العفيف . وأصبح هذا الفنان « بوشيه » الفراش ، إذ أبدى النساء نصف عاريات أو عاريات تماماً ، كما يرى فى لوحات « الجمال النائم » أو القميص المخلوع أو الباخوسية النائمة[٧٨] » . فلما أدرك أن العرى قد يفشع الأوهام تحول من التصريح إلى التلميح ، ورسم أشهر لوحاته « مخاطر الأرجوحة[٧٩] » ، ففيها يرى العاشق يتفرس بابتهاج فى أسرار ثياب عشيقته الداخلية التى تتكشف وهى تتأرجح لأعلى فأعلى ، وتقذف بخفها فى الهواء بتحرر لعوب . وأخيرا استطاع فراجونار أن يتقمص جروز ، بل وشاردان : فصور النساء المحتشمات ، كما فى لوحاته « الدراسة » « والمطالعة[٨٠] » . و «قبلات الأم » « وفى صورة « مدموازيل كولومب » اكتشف أن للنساء نفوساً » .

وفى ١٧٦٩ ، حين بلغ السابعة والثلاثين ، أذعن للزواج ، فحين قدمت الآنسة جيرار من جراس لدراسة التصوير فى باريس ، كان حسبها أن تذكر

سقط رأسها حتى تظفر بالقبول فى مرسم فراجونار . ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت امرأة مكتملة النضج ،وقرر « فراجو » (كما كان يسمى نفسه) كما قررت مدام بوفارى ، أنه لا يمكن أن يكون الاكتفاء بامرأة واحدة مملا أكثر من الزنا . ووجد متعة جديدة فى العمل معها فى رسم صور مثل « خطوات الطفل الأولى » وفى التوقيع معها على الصور . فلما ولدت طفلهما الأول استأذنته فى استدعاء أختها البالغة أربعة عشر عاماً من جراس لتعينها على الطفل والبيت ، فوافق وظلت هذه الأسرة سنين تعيش فى سلام مزعزع .

ونافس الآن جروز فى تصوير الحياة البيتية ، ونافس بوشيه فى توصيل هدوء المشاهد الريفية إلى أنظار المشاهدين . ورسم بعض الصور الدينية ، وصور أصدقاءه . وكان فى صداقته أثبت منه فى حبه ، فلم يفتر قط تعلقه بجروز وروبير ودافيد رغم ماأصابوا من نجاح . وحين نشبت الثورة أهدى صورة وطنية سماها « الأم الطيبة » للأمة . وكادت مدخراته تفقد قيمتها نتيجة للتضخم وتخلف الحكومة فى الوفاء بديونها ، ولكن دافيد الفنان الأثير لدى العهد الجديد ، حصل له على وظيفة شرفية صغيرة . وفى نحو هذه الفترة رسم صورته الذاتية الرائعة المعلقة الآن فى اللوفر : الرأس قوى ضخم والشعر أشيب قصير القص ، والعينان مازالتا هادئتين ثقة واطمئناناً . وقد روعه عصر الارهاب وقززه ، ففر إلى وطنه الأول جراس ، حيث وجد المأوى فى بيت صديقه موبير وقد زين الجدران بلوحات تعرف فى جملتها باسم « رواية الحب والشباب » وقد رسمها خصيصاً لمدام دوبارى ، ولكنها كانت قد رفضتها لأنها لم تمتد فى ثرائها السابق ، وهى اليوم من كنوز فريك جالرى بنيويورك .

وذات يوم من أيام الصيف كان راجعاً من جولة فى باريس وقد حمى جسمه وتصبب عرقاً ، فوقف عند مقهى وتناول قطعة من الجيلاتى وأصيب للتو تقريبا باحتقان فى المخ . ونعم بميتة عاجلة (٢٢ أغسطس ١٨٠٦) . وقد أقامت جراس تمثالا جميلا لتخليد ذكراه ، وتحت قدميه طفل عار ومن خلفه شابة تدوم ثوبها فى رقصة مرحة .

أن الفنان لابد أن يدفع ثمنا لرمزه لعصر ما ، فشهرته تضمحل بزوال رغبات العصر المشبوبة ، ولا سبيل إلى عودة هذه الشهرة إلا إذا رفع قدره عاطف البعد ، أو رد تحول في التيار موضة قديمة إلى الذوق الحاضر . وقد زكا فراجونار لأن فنه العارى أو الكاسى أبهج زمانه ، بتلطيفه وتزيينه للانحلال ، ولكن الناموس الصارم الذى خضعت له ثورة تقاتل في سبيل الحياة سائر أقطار أوربا : كان في حاجة إلى أرباب غير فينوس تلهمه ، فوجدها في أبطال روما الجمهورية ، الشديدى المراس . لقد انتهى عصر المرأة وعاد حكم المقاتل ، وأقبل جيل جديد من الفنانين على النماذج اليونانية — الرومانية ، التى أعاد تأليبها فنكلمان ، واكتسح الطراز الكلاسيكى الجديد الباروك والروكوك في موجة عارمة من الأشكال القديمة .

٦ — الصالونات الكبرى

(١) مدام جوفران

لقد دالت دولة المرأة ، ولكن بعد أن بلغت الصالونات ذروتها . وبلغت تلك المؤسسة الفذة أوجها بمدام جوفران ، وانحسرت في حمى من الرومانسى بمدموازيل دليسبيناس . وستنتعش بعد الثورة بالسيدتين دستال وريكامييه ، ولكنها لن تدرك أبدا فتنة وخصوبة تلك الفترة التى كان يلتقى فيها مشاهير الساسة في أيام السبت بصالونات مدام دوديفان . والفنانون في أيام الإثنين والفلاسفة والشعراء أيام الأربعاء بصالون مدام جوفران ، والفلاسفة والعلماء أيام الثلاثاء بصالون مدام هلفتيوس ، وأيام الأحد والخميس بصالون البارون دولباخ ، وفحول الأدب وأقطاب السياسة أيام الثلاثاء بصالون مدام نكير . وقد يلتقى أى منهم في أى ليلة بصالون جولى دليسبيناس . وإلى هذه الصالونات كان هناك الكثير من الصالونات الصغرى : كصالونات السيدات دلكسمبورج ودلافاليير ، ودفور كالكييه ودتالمون ، ودبرولى ، ودبوسى ، ودكروسول ودشوازيل ، ودكاميس ودميربوا ودبوفر ، ودانفيل ، ودجيون ، ودودتو ودمارشيه ، ودوبان ، ودبينيه .

ولم يكن الجمال هو الذى زين ربات الصالونات هؤلاء ، فقد كان جلهن

نساء نصفا أو أكبر ، إنما هو ذلك المركب من الذكاء ، واللباقة، والكياسة والنفوذ والمال غير المتطفل ، الذى مكن للمضيفة أن تجمع نساء ذوات فتنة وسحر ، ورجالا ذوى عقول راجحة يستطيعون أن يجعلوا اجتماعاً أو مجلس سمر يتألق ظرفاً أو حكمة دون أن يؤججوه انفعالاأو تعصباً . ولم يكن الصالون منها مكانا للمغازلات ولا للمواضيع العشقية أو التوريات . [٨١] فقد يكون لكل رجل فيه خليلة ولكل امرأة عشيق ، ولكن هذا كان يستتر بأدب فى التبادل المتحضر للمجاملات والأفكار . وكانت الصداقات الأفلاطونية تستطيع أن تجد القبول هناك . كما كان الحال مع دودفان وهيراس ولبول ، أو مع ليسبيناس ودالامبير . وباقتراب الثورة نزعت الصالونات إلى فقدان تساميها الهادىء وأصبحت مراكز للتمرد .

وذاعت شهرة صالون مدام جوفران لأنها كانت أبرع مروضى السباع بين ربات الصالونات ، ولأنها أتاحت للرواد مزيدا من حرية النقاش ، ولأنها عرفت كيف تمنع الحرية من تجاوز حدود السلوك المهذب أو الذوق السليم — دون أن تبدو مستبدة . وكانت احدى النساء القليلات اللاتى برزن من الطبقة الوسطى ليحتفظن بصالون مرموق . وكان أبوها ، وصيف الدوفينة مارى — آن ، قد تزوج بابنة مصرفى ، وأول من رزقا من أطفال فى ١٦٩٩ هى مارى — تريز ، التى أصبحت فيما بعد مدام جوفران . ووضعت أمها ، وكانت امرأة مثقفة موهوبة فى التصوير ، الخطط الطموحة لتنشئة ابنتها . ولكنها ماتت عام ١٧٠٠ وهى تلد صبيا . وأرسل الطفلان ليعيشا مع جدتهما فى شارع سانت — أونوريه — وبعد نصف قرن عللت مدام جوفران افتقارها إلى التبحر فى الثقافة فى خطاب أجابت به ماطلبته كاترين الثانية فى سيرة ذاتية موجزة لها .

« لم تحظ جدتى . . . إلا بنصيب ضئيل من التعليم . ولكن كان لها عقل أوتى من قوة الملاحظة ، والذكاء ، والسرعة . . . . . ما جعله دائما بديلا عن المعرفة . وكانت تتحدث حديثاً لطيفا جداً عن أمور لاتعرف عنها شيئاً حتى لم تترك زيادة لمستزيد . . . وبلغ رضاؤها عن

حظها مبلغا جعلها ترى التعليم نافلة لاتحتاج اليها المرأة . وكانت تقول « لقد وفقت توفيقاً لم يجعلنى أشعر قط بحاجتى اليه . فاذا كانت حفيدتى حمقاء فستجعلها المعرفة معتدة بذاتها لايطيقها أحد ، وإذاكان لها ذكاء وفطنة فسوف تسلك كما سلكت ، وسوف تعوض النقص بإياقتها ونفاذ بصيرتها ، ومن ثم فإنها فى طفولتى لم تعلمنى غير القراءة ، ولكنها جعلتنى اقرأ كثيرا ، وعلمتنى أن أفكر ، وأن أجادل ، وعلمتنى أن أعرف الرجال وجعلتنى أعرب عن رأيى فيهم ، وأخبرتنى كيف تحكم هى عليهم . . . وما كانت تطيق ضروب التظرف التى يعلمها مدرسو الرقص ، وكل ما تمنته لى هو أن تكون لى الرشاقة التى تهيئها الطبيعة للمرأة الحسنة الخلقة[٨٢] .

وأحست الجدة أن الدين أهم من التعليم ، ومن ثم كان الطفلان اليتيمان يؤخذان لحضور القداس كل يوم .

كذلك أهتمت الجدة بزواج مارى . ذلك أن رجل أعمال غنيا يدعى فرنسوا جوفران ، فى الثامنة والأربعون من عمره ، تقدم للزواج من الفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعا ، ورأت الجدة فى ذلك العرض صفقة طيبة ، وكان فى تربية مارى وتهذيبها المفرط ما منعها من الاعتراض . على أنها أصرت على أن تصحب معها أخاها إلى بيت السيد جوفران المريح ، الواقع فى شارع سانت — أونوريه أيضاً ، والذى قدر لها أن تقوم عليه إلى نهاية عمرها . وفى ١٧١٥ أنجبت أبنه ، وفى سنة ١٧١٧ أبنا — مات فى العاشرة .

وفى ذلك الشارع العصرى ذاته إفتتحت مدام دتانسان صالونا مشهورا . ودعت إليه مدام جوفران فأعترض زوجها . ذلك أن ماضى مدام دتنسان كان قد أحدث بعض الضجة ، وأن ضيوفها الأثيرين كانوا من أحرار الفكر أمثال فونتينيل ، ومونتسكيو ، وماريفو ، وبريفوست ، وهلفيتيوس ، وما رمونتايل . على أن مدام جوفران ذهبت برغم ذلك ، فلقد بهرتها هذه العقول الطليقة من كل قيد : فما كان أثقل أولئك التجار الذين يأتون لزيارة

زوجها الشيخ بالقياس إلى هؤلاء ! وكان الآن قد بلغ الخامسة والستين ، وهي لم تزل « امرأة الثلاثين » كما يقول بلزاك . وبدأت هي أيضاً تستضيف الزائرين . فاعترض ، ولكنها تغلبت عليه ، وأخيرا ارتضى أن يترأس على حفلات عشائها ؛ صامتا عادة ومؤدبا دائماً . فلما مات (١٧٤٩) في الرابعة والثمانين ، لم يكد ضيوفها يلحظون غيابه . واستفسر أحد رواد الصالون حين عاد من رحلة عما أصاب السيد العجوز الذي كان يجلس في استحياء شديد على قمة المائدة . وأجابت مدام جوفران برفق « أنه كان زوجي ، وقد توفي [٨٣] » .

كذلك طوت مدام دتنسان رحلة الحياة عام ١٧٤٩ ، مما فرع له ضيوفها المعتادون . ويجب أن نذكر ثانية تلك الملاحظة التي أبداها فونتينيل الذي بلغ يومها الثمانية والتسعين : « امرأة طيبة جداً (مع أنها كانت تركيبة من الآثام الحقيقية .) ياله من خطب مقلق ؟ فأين أتناول غدائي الآن أيام الثلاثاء ؟ » ولكن أساريره إنفرجت وقال : « حسنا ، في أيام الثلاثاء يجب أن أتناول الغداء في بيت مدام جوفران[٨٤] » . وقد أبهجها أن يحضر ، لأنه كان « فيلسوفا » قبل مونتسكيو وفولتير ، يحتفظ بذكريات تمتد إلى مازاران ، وقد بقي له من الأجل سبع سنوات ؛ وكان في وسعه أن يحتمل المماكسة دون أن يتأذى منها لأن سمعه ثقل . وحذا حذوه أكثر مشاهير القوم الذين تألقوا على مائدة دتنسان ؛ وسرعان ماجمع غداء أربعاء جوفران ، في وقت أو آخر ؛ مونتسكيو ، وديدرو ، ودولباخ ، وجريم ، وموريلليه ؛ ورينال ، وسان — لامبير ؛ والأبية فرديناندو جالياني ، النابولي القصير الأريب ؛ سكرتير السفير النابولي في باريس .

وعقب موت زوجها ، ورغم معارضة أبنتها الساخطة . سمحت مدام جوفران لديدرو ، ودالامبير ، وما رمونتيل ، بأن يقرروا خط النقاش ونبرته في حفلات غدائها أيام الأربعاء . لقد كانت وطنية ومسيحية ، ولكنها أعبجت بشجاعة الفلاسفة وحيويتهم . فلما نظمت « الموسوعة » تبرعت بأكثر من ٥٠٠,٠٠٠ جنيه في نفقاتها وأصبح بيتها يعرف بـ «صالون

الموسوعة » ، وحين هجا باليسو المتمردين فى هزلية « الفلاسفة »(١٧٦٠) سخر منها فى شخصية سيد البز « الجنية عرابة » الشلة » . وبعدها طلبت إلى سباعها أن يزأروا بأدب أكثر من ذى قبل ، وكبحت البلاغة الجامحة بعبارة مجاملة خففت من غلوائهم — « آه » هاهنا شيء طيب[٨٥] » ! وأخيراً سحبت دعوتها الدائمة لديدرو ، ولكنها أرسلت إليه طقما من الأثاث الجديد وروبا فخما فخامة غير مريحة .

واكتشفت أن الفنانين والفلاسفة ، ورجال الأعمال ، لا ينسجمون إذا اجتمعوا معا ، فالفلاسفة يحبون النقاش والثرثرة ، والساسة يتوقعون التحفظ والتأدب ، أما الفنانون فقبيلة صخابة لا يستطيع فهمهم غـــير الفنانين . وعليه فإن المدام « التى كانت جماعة للفن والتقطت شيئاً من حرارة الجماليات من الكونت دكايلوس ، دعت أقطاب الفن وذواقيه الباريسيين إلى حفلات عشاء خاصة فى أمسيات الأثنين . ولبى الدعوة بوشيه ، ولاتور ، وفرنيه ، وشاردان ، وفانلو ، وكوشان ، ودرويه ، وروبير ، وأودريه ، وناتييه ، وسوفلو ، وكايلوس ، وبوشاردون ، وجروز . وكان مارمونتيل الفيلسوف الوحيد الذى سمح له بحضور هذه الحفلات لأنه كان يسكن فى بيت مدام جوفران ، ولم تكتف المضيفة اللطيفة بالأحتفاء بضيوفها ، بل إشترت أعمالهم وجلست إليهم ليصوروها ، وأجزلت لهم الأجر ، وصورها شاردان خيراً من سائر الفنانين . سيدة بدينة لطيفة فى قبعة من الدانتيلا[٨٦] .

وبعد موت فانلو أشترت صورتين من صوره بأربعة آلاف جنيه ، ثم باعتهما لأمير روسى بخمسين ألف جنيه ، وأرسلت الربح لأرملة المصور[٨٧] .

واستكمالا للضيافة كانت مدام جوفران تقيم « حفلات عشاء صغيرة » لصديقاتها . ولكنها لم تدع نساء لحفلات الاثنين . وكانت مدموازيل دليسبيناس (ربما بوصفها نفس دالامبير الثانية) من النساء القليلات اللآتى حضرن أمسيات الأربعاء . ذلك أن المدام كانت على شيء من حب التملك ،

ثم إنها وجدت أن حضور الأناث يصرف سباعها عن الفلسفة والفن . وبدا أن سياسة الفصل بين الجنسين التى إنتهجتها قد بررها ما كسبته ندواتها من صيت ذائع بالمناقشات الطريفة الهامة . واحتال الأجانب فى باريس للظفر بدعوات إلى صالونها ، ذلك أن مباهاتهم ، بعد عودتهم إلى أرض الوطن « بأنهم إختلفوا إلى صالون مدام جوفران ، كانت تشريفا لا يفوقه إلا شرف المثول بين يدى الملك . وكان هيوم ، وولبول « وفرانكلن ، من بين ضيوفها الشاكرين . وحرص السفراء لدى بلاط فرساى — حتى الكونت فون كاونتز الرفيع المقام — على تقديم أنفسهم فى ذلك المنزل المشهور فى شارع سانت — أونوريه . وفى ١٧٥٨ أصطحب الأمير كانتيمير ، السفير الروسى ، أميرة أنهالت تسربستالتى حدثت القوم بفضائل أبنتها ، ولم تنقضى أربعة أعوام حتى أصبحت هذه الأبنة كاترين الثانية ، وظلت إمبراطورة الأقاليم الروسية كلها سنين طوالا بعد هذا ، تبادل ربة الصالون البورجوازية الرسائل الساحرة . وعاد سويدى جميل ذكى ممن اختلفوا إلى بعض ولائم المدام إلى وطنه ليصبح جوستاف الثالث .

وثمة شاب أجمل هو ستانيسلاس بونياتوفسكى كان كثير التردد بل كاد يكون من عباد مدام جوفران (التى كانت أحيانا تؤدى عنه ديونه[٨٨]) ، وما لبث أن إعتاد أن يناديها « ماماً » « فلما أصبح ملـكا على بولندة (١٧٦٤) دعاها إلى زيارة وارسو ضيفا عليه . فلبت الدعوة مع أنها بلغت الآن الرابعة والستين . وأقامت فى طريقها بفينا فترة « وكتبت تقول « أن القوم يعرفوننى هنا خيراً مما يعرفنى جيرانى على ياردتين من بيتى[٨٩] » . وظلت حينا فى القصر الملكى بوارسو (١٧٦٦) تقوم من الملك مقام الأم والمشيرة . وتبادل الناس الرسائل التى بعثت بها إلى باريس كما تبادلوا الرسائل التى بعث بها فولتير من فرنيه ، وقد كتب جريم يقول : « إن الذين لم يقرؤا رسائل مدام جوفران لم يكونوا أهلا لمخالطة المجتمع الراقى[٩٠] » . فلما قفلت إلى باريس واستأنفت ولائمها ، إبتهج عشرات من مشاهير القوم ، ونظم بيرون وديليل القصائد احتفاء بعودتها .

وكانت الرحلة شاقة — فقد أستقلت مركبة اخترقت نصف أوربا طولا

ثم عادت بها إلى وطنها ، ولم تعد مدام جوفران قط بعدها إلى سابق تيقظها ومرحها . وراحت الآن تجدد حرصها على العبادة الكاثوليكية ، وهى التى أعربت من قبل عن إفكارها الحياة بعد الموت[٩١] ، وأحالت الدين محبة وبراً بالناس . وقد وصف ما رمونتيل تقواها الغريبة فقال :—

« لكى ترضى السماء دون أن تغضب مجتمعها ، ألفت العكوف على لون من العبادة المستورة . فتذهب إلى القداس سراً كما يذهب غيرها إلى مؤامرة ، ولها شقة فى دير .... ومقعد خاص فى كنيسة الكبوشيين تتكتم أمرها كما تتكتم النساء العاشقات فى تلك الأيام عش غرامهن[٩٢] .

وفى سنة ١٧٧٦ أعلنت الكنيسة الكاثوليكية يوبيلا يتلقى فيه كل من يزورون كنائس معينة فى أوقات مقررة الحل والغفران . وفى ١١ مارس حضرت مدام جوفران صلاة طويلة فى كتدرائية نوتردام . وعقب وصولها إلى بيتها أصابتها نوبة فالج . وغضب جماعة الفلاسفة لأن مرضها جاء عقب قيامها بالعبادة ، وعلق الأبيه موريلليه تعليقا لاذعا « لقد أكدت بالقدوة صدق القول المأثور الذى كثيراً مارددته « أن المرء لا يموت إلا بفعل من أفعال العبادة[٩٣] . وتكفلت أبنتها المركيزة دلافرتيه — يامبو بأمها المريضة ، وحذرت الفلاسفة من زيارتها . ولم تقع عينا المدام ثانية على دالامبير ولا موريلليه ، ولكنها رتبت زيادة فى المعاشات التى كانت تجريها عليها بعد موتها . وإمتد بها الأجل عاما آخر ، مشلولة عاجزة ، ولكنها ظلت توزع صدقاتها إلى النهاية .

ب — مدام دودفان

كان هناك صالون واحد فى أوربا يستطيع أن ينافس صالون مدام جوفران شهرة ومريدين وقد سبق أن درسنا سيرة وخلق مارى ديفيشى — شامرون : وكيف أنها وهى صبية أفزعت الراهبات والقساوسة بحرية فكرها ، وكيف تزوجت المركيز دودفان ، وهجرته ، والتمست السلوى لوحدتها فى صالون (١٧٣٩ وما بعدها) ، بشارع بون أولا ، ثم (١٧٤٧) بدير سان جوزيف

بشارع سان دومنيك. وروع هذا الموقع الجديد الذى اختارته لصالونها جماعة الفلاسفة الذين كانوا يأتون ليستمتعوا بنبيذها وظرفها ، إلا واحداً منهم هو دالامبير ، الذى ظل يتردد عليه لأنه كان أقل أفراد هذه القبيلة مشاهبة وعدوانا . أما باقى الرواد فكانوا رجالا ونساء من الطبقة الارستقراطية ، يميلون إلى التعالى على مدام جوفران لأنها بورجوازية . وحين كف بصر المركيزة وهى فى السابعة والخمسين (١٧٥٤) واصل أصدقاؤها الاختلاف إلى حفلات عشائها ولكنها خلال باقى الأسبوع أحست وقع الوحدة فى جزع متزايد ، إلى أن أقنعت أبنة أخيها بالإقامة معها ، والقيام بدور المضيفة المساعدة فى أمسياتها .

وكانت جولى دليسبناس الإبنة غير الشرعية للكونتيسة دالبون وجسبار دفيشى ، أخى مدام دودفان ، واعترفت الكونتيسة بها ، وربتها مع أطفالها الآخرين ، وأتاحت لها تعليما ممتازا ، وحاولت إقرار شرعيتها ، ولكن إحدى بناتها اعترضت فأخفقت المحاولة . وفى ١٧٣٩ تزوجت هذه الأخت غير الشقيقة من جسبار دفيشى وذهبت لتعيش معه فى قصر شامبرون الريفى ببرجنديا . وفى ١٧٤٨ ماتت الكونتيسة بعد أن أوصت بمعاش سنوى قدره ثلثمائة جنيه لجولى البالغة آنذاك السادسة عشرة . وأخذت مدام دفيشى جولى إلى شامبرون ، ولكنها عاملتها على أنها فتاة يتيمة غير شرعية تستخدمها مربية للأطفال . فلما زارت مدام دودفان شامبرون راعها ما آنسته فى الآنسة دليسبيناس من عقل نير وسلوك مهذب ، وكسبت ثقة الفتاة ، وعلمت أنها تشق فى وضعها الراهن شقاء حملها على أن تدخل ديرا . واقترحت المركيزة أن تأتى جولى وتعيش معها فى باريس ، واعترضت الأسرة مخافة أن ترتب دودفان تقرير شرعية جولى فيخول لها هذا حقاً فى نصيب من تركة ألبون . ولكن المركيزة وعدت بأنها لن تسىء إلى أقربائها بعمل كهذا . ودخلت جولى أثناء ذلك ديرا (أكتوبر ١٧٥٢) لا كراهبة مبتدئة بل كتلميذة فى القسم الداخلى . وجددت المركيزة اقتراحها . ووافقت جولى بعد عام من التردد . وفى ١٣ فبراير ١٧٥٤ أرسلت لها المركيزة رسالة غريبة يجب أن نتذكرها ونحن نحكم على ما تلاها :

« سأقدمك على أنك شابة من إقليمى تريدين دخول دير ، وسأقول إننى

قدمت لك مسكنا حتى تجدى مكانا مناسبا لك . وستعاملين بأدب ، بل بمجاملة ، وفى وسعك أن تعتمدى على فى أن أحدا لن ينال من كرامتك .

على أن .... هناك نقطة أخرى على أن أشرحها لك . فأنا لا أطيق أى خداع ، ولو كان مكرا طفيفاً جداً ، إن كنت تخلطينه بسلوكك . وأنا بطبعى شكاكه ، أشتبه فى كل من أكشف فيهم المكر إلى أن أفقد كل ثقة فيهم . إن لى صديقين حميمين — فورمون ودالامبير ، أحبهما حبا جما ، لا للطفهما وصداقتهما بقدر ما أحبهما لصدقهما المطلق . عليك إذن يا مليكتى أن تعتزمى العيش معى بغاية الصدق والإخلاص ... قد تظنين أننى أعظك ، ولكنى أؤكد لك أننى لا أفعل هذا أبداً إلا فيما يتصل بالإخلاص . فى هذا لا تأخذنى رحمة بأحد .[٩٤]

وفى أبريل ١٧٥٤ أتت جولى لتسكن مع مدام دودفان ، أولا فوق سقيفة للعربات ، ثم فى حجرة فوق شقة المركيزة فى دير سان جوزيف . وقرر لها دوق أورليان معاشا قدره ٦٩٢ جنيها[٩٥] ، ربما بناء على اقتراح المدام . وكانت تعين المضيفة المكفوفة على استقبال ضيوفها وإجلاسهم فى ندواتها ، وأضفت الإشراف على أعمال الندوة بلطف سلوكها وسرعة بديهتها ونضارة شبابها وتواضعه . ولم تكن ذات جمال بارع ، ولكن عينيها السوداوين المتألقتين وشعرها البنى الغزير ألفا مزيجا فتانا . فكاد يقع فى غرامها نصف الرجال الذين اختلفوا إلى الندوة ، حتى فارس المدام الأمين العجوز شارل — جان فرنسوا اينو ، رئيس محكمة العرائض ، صاحب الأعوام السبعين ، المتوجع أبداً ، الثمل أبداً بالكثير من النبيذ . وتقبلت جولى مجاملاتهم بما يجب من عدم الاكتراث ، ولكن رغم ذلك فإن المركيزة الشديدة الحساسية فى عماها لابد قد شعرت بأن بعض العبادة قد انتقلت من عرشها . وربما دخل فى الأمر عنصر جديد : ذلك أن المرأة المسنة كانت قد بدأت تحب الشابة حبا لا يرضى بشريك له . وكانت كلتاهما تلتهب بالعاطفة المشبوبة ، رغم أن المركيزة أوتيت عقلا من أكثر عقول العصر رجاحة ونفاذا .

ولم يكن مناص لجولى من أن تحب . أولا إرلنديا شابا لا نعرف عنه

غير اسمه تاف . فبعد أن قبل في الصالون كان يختلف إليه كل يوم تقريبا ، وسرعان ما تبين للمركيزة أنه لا يأتي لمشاهدتها بل لمشاهدة المموازيل ، وروعها أن ترى أن جولى قبلت تردده بالرضى . فحذرتها من تعريض نفسها للخطر . وأنكرت الفتاة المتكبرة نصيحة الأم . وإذ خافت المركيزة أن تفقدها وحرصت على حمايتها من غرام عات لا يرجى دوامه ، أمرت جولى بأن تلزم حجرتها إذا جاء تاف . فأطاعت ، ولكن المشاجرة أثارت فيها من الانفعال ما حملها على تعاطي الأفيون لتهدئ أعصابها . وقد شاع استعمال الأفيون في القرن الثامن عشر مهدئا ، ولكن الآنسة ليسبيناس ضاعفت جرعاتها مع كل غرام جديد .

وألفت أن تسلو تاف ، ولكن غرامها الجديد دخل التاريخ ، لأنه أصاب الرجل الذي اصطفته مدام دودفان لنفسها في حب أموي ولكنه شديد التملك . وكان هذا الرجل ، جان لورون دالامبير ، في عام ١٧٥٤ قد بلغ أوج شهرته رياضيا ، وفيزيائيا ، وفلكيا ، ومحررا في تلك « الموسوعة » التي كانت حديث باريس المثقفة بأسرها . وقد قال فولتير عنه ، في لحظة تواضع ، إنه « أعظم كتاب القرن »[٩٦] ومع ذلك لم يؤت شيئا من فرص فولتير . فقد ولد ولادة غير شرعية ، وأنكرته أمه مدام دتانسان ، ولم ير أباه منذ طفولته . وعاش بورجوازيا بسيطا في بيت الزجاج روسو . وكان وسيما ، حسن المندام ، جم الأدب ، مرحا أحيانا ، في وسعه أن يخوض في أي موضوع مع أي متخصص تقريبا ، ولكن في وسعه أيضاً أن يخفي علمه وراء واجهة من القصص ، والتقليد الساخر ، والنكتة الذكية . وفيما عدا ذلك لم يصالح العالم إلا قليلا . فقد آثر استقلاله على رضى الملوك والملكات ؛ وحين قامت مدام دودفان بحملة لتدخله الأكاديمية الفرنسية أبي أن يضمن الحصول على صوت إينو بتقريظ كتابه « مختصر كرونولوجي لتاريخ فرنسا » (١٧٧٤) وكان فيه عرق من الهجاء جعل فكاهته لاذعة أحيانا ،[٩٧] فقد ينفد صبره ، ويبيت أحيانا عنيفا في ثورته على خصومه[٩٨] ، ولم يعرف قط ما الذي يجب أن يقوله أو يفعله حين ينفرد بالنساء ، ومع ذلك فإن حياءه اجتذبهن ، كأنما بتحديه لقوة تأثير مفاتنهن .

وقد راع مدام دودفان منه فى أول لقائها به (١٧٤٣) اتساع ذهنه ونصوع تفكيره . وكانت يومها فى السادسة والأربعين ، وهو فى السادسة والعشرين . فتبنته «قطها الوحشى» [٩٩] ولم تكتف بدعوته لصالونها بل دعته أيضاً إلى تناول الطعام معها على انفراد » وأقسمت بأنها على استعداد « لتنام اثنتين وعشرين ساعة من الأربعة والعشرين » ما دمنا نتفق الساعتين الباقيتين معاً »[١٠٠] وكان قد انقضى على هذه الصداقة الحميمة أحد عشر عاماً حين دخلت جولى حياتهما .

كان هناك رباط طبيعى بين الابن الطبيعى والابنة الطبيعية . وقد دون دالامبير هذه الحقيقة وهو يسترجع ذكراها فيما بعد :

« كان كلانا يفتقد الوالدين والأسرة » وإذ عانينا الهجر » وسوء الطالع . والشقاء منذ ولادتنا ، بدا أن الطبيعة بعثت بنا إلى العالم ليجد الواحد منا صاحبه » وليكون له كل ما افتقده » ولنقف معا كأننا صفصافتان ، أحنتهما العاصفة دون أن تقتلعهما ، لأنهما فى ضعفهما تشابكت أغصانهما »[١٠١] .

وأحس بهذا الانجذاب لأول نظرة تقريبا . كتب لها عام ١٧٧١ يقول :— « إن الزمن وطول الألفة يبليان كل الأشياء ، ولكنهما عاجزان عن أن يمسا حبى لك » وهو حب المحتدم قبل سبعة عشر عاما »[١٠٢] ومع ذلك تربث تسع سنوات قبل أن يفصح عن غرامه ، وحين فعل كان ذلك بطريقة غير مباشرة . كتب لها من بوتسدام فى ١٧٦٣ يقول » أن له فى رفض دعوة فردريك له أن يصبح عميداً لأكاديمية برلين للعلوم » ألف سبب » منها سبب لا يخطر لك أن تحزريه »[١٠٣] وتلك زلة فى الذكاء تستغرب عن دالامبير ، فهل فى الوجود امرأة لا تعرف أن رجلا من الرجال يهواها ؟

وأحست مدام دودفان ذلك الود المتزايد بين ضيفها المقدر وابنة أخيها المحروسة ، كذلك لحظت أن جولى تغدو محور النقاش والاهتمام فى الصالون . وظلت برهة لا يبدو منها لوم ولا عتاب ، ولكنها فى رسالة إلى فولتير (١٧٦٠) أبدت ملاحظات مرة حول دالامبير . وسمحت لصديق أن يقرأ على ضيوفها

قبل وصول دالامبير جواب فولتير الذى أشار إلى ملاحظاتها . وإذا دالامبير يدخل بمجرد البدء فى القراءة ويسمع الفقرة النامة ، فضحك مع الضاحكين . ولكنه تأذى ، وحاولت المركيزة استرضاءه ، ولكن الجرح لم يندمل . فلما زار فردريك عام ١٧٦٣ كانت رسائله يومية تقريبا إلى الآنسة ديليسبيناس ، نادرة إلى المدام . وبعد عودته من باريس ألف أن يزور جولى فى شقتها قبل أنه يهبطا إلى الصالون ، وكان طورجو أو شاستللوكس أو رمارمونتيل يصحبونه أحيانا فى هذه الزيارات الحميمة . وشعرت المضيفة العجوز أن اللذين أعانتهم وأحبتهم يخونونها . ونظرت الآن إلى جولى كأنها عدو لها ، وكشفت عن شعورها بطرق مثيرة كثيرة — كفتور لهجتها فى الحديث معها ، ومطالبها التافهة منها ، وتذكيرها إياها بين الحين والحين باعتمادها عليها . أما جولى فقد ازداد ضيقها يوما بعد يوم بهذه « العجوز العمياء الغضوب » ، وبالتزامها بأن تكون دائما فى متناولها أو على مقربة منها لتلبى حاجة المركيزة فى أية ساعة . وزادها مرور الأيام تعاسة على تعاسة ، إذ كان لكل يوم لدعته . وقد كتبت فى تاريخ لاحق تقول « كل ألم يتغلغل إلى الأعماق ، أما اللذة فطائر سريع الفرار »[١٠٤] وفى ثورة أخيرة من ثورات غضب المدام اتهمتها بخداعها فى بيتها وعلى نفقتها . وردت جولى بأنها لم تعد قادرة على العيش مع من تنظر إليها هذه النظرة . وفى يوم من أوائل مايو ١٧٦٤ غادرت المنزل بحثا عن مسكن آخر . أما المركيزة فقد جعلتها قطيعة لا رجعة فيها باصرارها على أن يختار دالامبير بينها أو بين جولى ، فغادر البيت ، ولم يعد إليه قط .

وبدا حينا أن الصالون القديم قد جرح جرحا مميتا بهذين البترين . وواصل معظم رواده زيارة المركيزة ، ولكن العديد منهم — كالمرشالة دلكسمبورج ، والدوقة دشايتون ، والكونتسية دبوفليه ، وطورجو ، وشاستللوكس ، بل حتى إينو — ذهبوا إلى جولى ليعربوا عن تعاطفهم واهتمامهم المستمر بها ، وتقلص الصالون فلم يحو غير قدامى الأصدقاء والأوفياء منهم ، والوافدين الجدد الذين يسعون إلى التمييز والطعام الطيب . وقد وصفت المدام هذا التغيير فى ١٧٦٨ فقالت :

« كان هنا بالأمس إثنا عشر شخصا ، وأعجبت بمختلف أنواع الحديث التافه ودرجاته . كنا جميعاً مغفلين كبارا « كل فى بابه ... كنا مملين غاية الإملال . وانصرف الإثنا عشر جميعا فى الساعة الواحدة ، ولكن أحداً منهم لم يخلف وراءه أسفا ... ان بون – دفيل صديقى الوحيد ، وهو يقتلنى ضجرا ثلاثة أرباع الوقت » . (١٠٥)

إنها لم تكن للحياة أى حب على الاطلاق منذ انطفأ نور عينيها ، أما الآن ، وبعد أن انفض عنها أعز أصدقائها ، فقد تردت فى حالة من القنوط الساخر الذى لا شفاء منه . فلعنت اليوم الذى ولدت فيه كما فعل أيوب « إن عماى وشيخوختى هما أقل ما رزئت به من أحزان ... فليس هناك غير خطب واحد ... هو أننى ولدت . »(١٠٦) وسخرت من أحلام الرومانسيين والفلاسفة على السواء – لا من « هلويز » وروسو وقسيسه السافواوى » فحسب « بل من حملة فولتير الطويلة فى سبيل « الحقيقة » قالت : « وأنت يا مسيو فولتير » ، عاشق الحقيقة المعلن ، قل لى بأمانة ، هل وجدتها ؟ إنك تحارب الأخطاء وتهدمها ، ولكن ماذا تحل محلها ؟ »(١٠٧) لقد كانت شكاكه ، ولكنها آثرت الشكاكين المعتدلين أمثال مونتينى وسانت – إفرمون على الثوار العدوانيين كفولتير وديدرو .

وخالت أنها نفضت يديها من الحياة ، ولكن الحياة لم تنفض يديها منها تماما . فقد بعث صالونها بعثا متقطعا خلال وزارة شوازيل ، حين تجمع أقطاب الحكم حول المركيزة العجوز ، وجاءت صداقة دوقة شوازيل الرقيقة ببعض النور الذى أشرق وسط تلك الأيام الحالكة . وفى ١٧٦٥ بدأ هوراس ولبول يختلف إلى ندواتها ، وشعرت نحوه شيئاً فشيئاً بمحبة غدت آخر تشبث مستميت لها بالحياة . ونرجو أن نلقى بها ثانية فى ذلك التجسد الأخير المذهل .

الآنسة دليسبيناس

اختارت جولى لمسكنها الجديد بيتا ذا طوابق ثلاثة عند ملتقى شارع بلشاش بشارع سان – دومنيك، ولم يكن يبعد غير مائة ياردة من بيت المركيزة الدبيرى .

ولم تبلغ معاناتها مبلغ الإملاق ، فقد تلقت بالإضافة إلى عدة معاشات صغيرة « معاشين مقدارهما ٢,٦٠٠ جنيه من « دخل الملك (١٧٥٨ و ١٧٦٣) » بناء على إلحاح شوازيل فيما يبدو » ثم إن مدام جوفران وهبتها بناء على اقتراح دالامبير راتبين سنويين منفصلين مقدارهما ألفا جنيه وألف كراون . وأعطتها المرشالة دلكسمبورج طقما كاملا من الأثاث .

وما إن استقرت جولى فى مسكنها الجديد حتى أصيبت بالجدرى إصابة شديدة . كتب ديفد هيوم إلى مدام دبوفليه يقول « أن الآنسة دليسبيناس مريضة مرضاً خطراً » ويسرنى أن دالامبير نسى فلسفته فى لحظة كهذه » [١٠٨] والواقع أن الفيلسوف كان يمشى مسافة طويلة كل صباح ليقوم على خدمتها إلى جوار فراشها حتى ساعة متأخرة من الليل » ثم يعود إلى حجرته فى بيت مدام روسو . وتماثلت جولى للشفاء ، ولكنها باتت ضعيفة عصبية باستمرار وغلظت بشرتها وشابتها الندوب . وفى وسعنا أن نتصور ما يعنيه هذا لإمرأة لم تجاوز الثانية والثلاثين ولم تتزوج بعد .

وقد شفيت فى الوقت المناسب لتعنى بدالامبير الذى لزم فراشه فى ربيع ١٧٦٥ إثر ألم فى معدته أشرف به على الهلاك . وراع مارمونتيل أن يراه ساكنا « حجيرة صغيرة سيئة الإضاءة » سيئة التهوية » تحوى سريرا ضيقا جدا كأنه النعش . [١٠٩] وعرض صديق آخر هو المالى قاتلية على دالامبير أن يستعمل بيتا فسيحا قرب التامبل . وارتضى الفيلسوف الآن فى أسف أن يترك المرأة التى آوته وأطعمته منذ طفولته . وقال دوكلو فى دهشة « يا لليوم المدهش ! لقد فطم دالامبير ! » وكانت جولى تقطع الرحلة كل يوم إلى مسكنه الجديد وترد له رعايته الأخيرة لها بإخلاصها الفياض . فلما نقه إلى حد يتيح له التحرك رجته أن يشغل بعض الحجرات فى الطابق الأعلى من بيتها » فذهب فى خريف ١٧٦٥ ، ودفع لها إيجارا معتدلا . ولم ينس مدام روسو » فكان يزورها كثيرا » ويقتسم معها بعض إيراده ، ولا يكف عن الاعتذار عن انفصالهما «أيتها الحاضنة المسكينة ، يا من تحبينني أكثر مما تحبين أبناءك ! » [١١٠]

وزعمت باريس حيناً أن جولى خليلته . وأيدت المظاهر الزعم . فقد كان دالامبير يتناول طعامه معها ، ويكتب لها الرسائل ، ويدير لها أعمالها ، ويستثمر لها مدخراتها ، ويجمع لها إيرادها . وكانا أمام الناس يظهران معاً على الدوام ، وما دار بخلد مضيف أن يدعو الواحد دون صاحبه . ولكن شيئاً فشيئاً بدأ القوم — حتى المتقولون منهم — يتبينون أن جولى لا هى بالخليلة ولا الزوجة ولا العاشقة لدالامبير ، إنما هى مجرد أخت وصديقة . ويلوح أنها لم تدرك قط أن حبه لها كان كاملا وإن لم يستطع أن يعرب عنه ، وتقبلت السيدتان جوفران ودفان — وكلتاهما مضرب المثل فى الفضيلة — هذه العلاقة بين دالامبير وجولى على أنها حب أفلاطونى . ودعت صاحبة الصالون العجوز كليهما لندوتها .

وكان إمتحاناً قاسياً لعطف الأم الذى أبدته مدام جوفران نحو الآنسة دليسبيناس ألا يصدر عنها أى احتجاج حين افتتحت هذه صالوناً خاصاً بها ذلك أن جولى ودالامبير كانا قد صنعا من الأصدقاء عدداً بلغ من الكثرة ما ملأ قاعة استقبالها كل يوم تقريباً من الخامسة إلى التاسعة بصفوة الزوار رجالا ونساء ، وكلهم تقريباً ذائع الصيت أو رفيع المرتبة . وكان دالامبير يقود الحديث ، وجولى تضفى على الندوة كل مفاتن الأنوثة ودفء الضيافة . ولم يقدم فيها غداء أو عشاء ، ولكنها اشتهرت بأنها أعظم صالونات باريس حفزاً للعقول ، اختلف إليها طورجو ، ولومينى دبرين ، اللذين سيرقيان سريعاً إلى مكان مرموق فى الحكومة ، ونبلاء مثل شاستللوكس وكوندورسيه ، وأحبار مثل بوامون وبواجيلان ، وشكاكون مثل هيوم وموريلليه ، ومؤلفون مثل مابليه ، وكونديالك ، ومارمونتيل ، وسان — لامبير . حضروا أول الأمر ليروا دالامبير ويستمعوا إليه ، ثم ليحظو بتلك المهارة المتعاطفة التى كانت جولى تستدرج بها كل ضيف ليتجلى فى ميدان تفوقه الخاص . ولم يحظر أى موضوع هنا ، فكانت تناقش أدق مشكلات الدين أو الفلسفة أو السياسة ، ولكن جولى — التى دربتها مدام جوفران على هذا الفن — عرفت كيف تهدىء من ثائرة الثائرين وترد النزاع نقاشاً . وكانت الرغبة فى عدم الإساءة إلى المضيفة الرقيقة هى القانون غير المكتوب الذى بعث النظام فى هذه الحرية . وفى ختام حكم لويس الخامس عشر كان صالون الآنسة دليسبيناس

فى رأى سانت – بيف ، « أكثر الصالونات رواجا ، وأحفلها بالزوار المتشوقين إليه ، فى جيل كثر فيه الألمعيون » (١١١)

ولم يقدم صالون آخر لزواره مثل هذا الإغراء المزدوج ، فقد بدأت جولى رغم ندوب وجهها وعدم شرعية نسبها تصبح الحب الثانى لعشرة أو يزيد من الرجال المرموقين . وكان دالامبير فى قمة قدراته . يقول جريم :

« كان فى حديثه كل ما يعلم العقل ويمتعه . فكان يسلم نفسه بيسر ورغبة لأى موضوع يدخل السرور على نفوس أكثر السامعين ، مدخلا فيه معينا لا يكاد ينضب من الأفكار ، والنوادر ، والذكريات العجيبة ، وما من موضوع أياً كان جفافه أو تفاهته فى ذاته لم يملك سرا لإضفاء المتعة والطرافة عليه . وكان فى كل فكاهاته أصالة رقيقة عميقة . (١١٢) .

ثم استمع إلى ديفد هيوم يكتب إلى هوراس ولبول : « أن دالامبير رفيق لطيف المعشر كامل الفضائل . وقد دل على ترفعه عن المنفعة الشخصية والطمع الباطل برفضه عروضا من قيصرة روسيا وملك بروسيا .... وله خمسة معاشات ، أولها من ملك بروسيا ، وثانيها من ملك فرنسا ، والثالث يتلقاه بوصفه عضوا فى أكاديمية العلوم ، والرابع بوصفه عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ، والخامس من أسرته . ولا تزيد جملتها كلها على ستة آلاف جنيه فى العام . وهو يعيش على نصف هذا المبلغ عيشة كريمة ، ويهب النصف الآخر للفقراء الذين له بهم صلة . والخلاصة أننى لا أكاد أعرف رجلا ، إلا القليلين ، .. يفضله نموذجا للشخصية الفاضلة الفيلسوفة . (١١٣)

أما جولى فكانت نقيض دالامبير فى كل شيء خلا يسر الحديث ورقته . ولكن بينما كان هذا الموسوعى واحدا من آخر أبطال حركة التنوير ، ينشد العقل والقصد فى الفكر والعقل ، كانت جولى ، بعد روسو ، أول صوت واضح للحركة الرومانسية فى فرنسا ، مخلوقا (فى عبارة مارمونتيل) « أوتى أنشط تصور ، وأحر روح ، وأشد الخيالات تأججا منذ سافو » (١١٤) . فلم يفقها أحد من الرومانسيين ، فى عالم الحقيقة أو القصص لا هلويز روسو ، ولا روسو ذاته ، ولا كلاريسية رتشردسن ، أو مانون بريفوست — فى رهافة

الحس أو حرارة حياتها الباطنة. كان دالامبير موضوعيا، أو حاول أن يكون كذلك، أما جولى فكانت ذاتية إلى حد الاستغراق الأنانى فى النفس أحيانا . ومع ذلك « كانت تشارك المحزونين ألمهم ، وقد جاهدت جهادا محموما لكى ينتخب شاستللوكس ولا هارب عضوين فى الأكاديمية » ولكنها حين أحبت نسيت كل شىء ، وكل إنسان آخر . نسيت أولا مدام دودفان ، وثانيا دالامبير نفسه .

ذلك أنه فى ١٧٦٦ دخل الصالون نبيل شاب هو المركيز خوزيه دمورا إى جونزاجو ، ابن السفير الأسبانى ، وكان فى الثانية والعشرين ، وجولى فى الرابعة والثلاثين وكان قد زوج فى الثانية عشرة من فتاة فى الحادية عشرة ، ماتت عام ١٧٦٤ . وأحست جولى بعد قليل بسحر شبابه « وربما بسحر ثرائه . وسرعان ما نضج تعلق الواحد منهما بصاحبه فتعاقدا على الزواج . فلما سمع أبوه بالأمر أمره بأداء واجبه العسكرى فى أسبانيا. وذهب مورا ، ولكنه لم يلبث أن استقال من وظيفة الضابط . وفى يناير ١٧٧١ بدأ يبصق الدم ، فذهب إلى بلنسية التماسا للراحة ، فلما لم يشف هرع إلى باريس وجولى . واتفقا معا أياما سعيدة كثيرة ، بما روح عن بلاطها الصغير وأثار فى نفس دالامبير ألما دفينا . وفى ١٧٧٢ استدعى السفير إلى أسبانيا ، فأصر على أن يصحبه ابنه . ولم يرض الأب ولا الأم بزواجه من جولى ، فانفصل فورا عنهما وبدأ رحلته إلى الشمال ليعود إليها ، ولكنه مات بالسل فى بوردو فى ٢٧ مايو ١٧٧٤ .فى ذلك اليوم كتب لها يقول « كنت فى طريقى إليك ، ولابد أن أموت ، ياله من قضاء بشع ! ... ولكنك أحببتنى » وتفكيرى فيك ما زال يسعدنى ، إننى أموت فى سبيلك ! » ونزعوا من أصابعه خاتمين » احتوى أحدهما على خصلة من شعر جولى ، ونقش على الآخر هذه الكلمات « كل الأشياء تزول ، ولا يبقى غير الحب » وكتب دالامبير الشهم عن مورا يقول « إنى آسف لشخصى على فقد ذلك الرجل الحساس الفاضل الخلق ، الرفيع الفكر ، أكمل من عرفت من الناس ... وسأذكر ما حييت تلك اللحظات الغالية التى أحبت فيها نفس بهذا الطهر والنبل والقوة والتهذيب الاختلاط بنفسى » . [١١٦]

ومزق نبأ موت مورا قلب جولى ، وزاد الخطب فداحة أنها منحت حبها

فى الوقت نفسه لرجل آخر . ذلك أنها فى سبتمبر ١٧٧٢ التقت بالكونت جاك — أنطوان دجيبير ، البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما ، والذى كان قد أبلى بلاء حسنا فى حرب السنين السبع . أضف إلى ذلك أن كتابه « دراسة شاملة للتكتيك » أشاد به القواد ورجال الفكر رائعة فى هذا الميدان ، وقد قدر لهذا الكتاب أن يحمل نابليون نسخه منه عليها تعليقات بخط يده خلال حملاته جميعا . و « المقال التمهيدى » للكتاب الذى ندد بجميع الأنظمة الملكية صاغ المبادىء الأساسية لسنة ١٧٨٩ قبل اندلاع الثورة بعشرين عاما . وفى وسعنا أن نحكم على الاعجاب الذى أغرقه الناس على جيبير من موضوع أختير للنقاش فى أحد الصالونات الكبرى : « أيهن تحسد أكثر من غيرها : أم المسيو دجيبير ، أم أخته ، أم خليلته ؟ [١١٧] وكان له بالطبع خليلة — هى جان دمونسوج ، آخر وأطول غرام له . وقد حكمت عليه جولى حكما قاسيا فى لحظة مرارة إذ قالت : —

« إن الاستخفاف ، بل القسوة ، التى يعامل بها النساء مصدرها قلة اعتباره لهن ... فهو يراهن معابثات ، مغرورات ، ضعيفات ، كاذبات ، طائشات ، واللاتى يحسن فيهن رأيه يراهن متعلقات بالخيال ، ومع أنه يضطر إلى الإقرار بوجود خصال حميدة فى بعضهن ، فهو لا يقدرهن لهذا السبب تقديرا أعلى ، بل يرى أن فيهن رذائل أقل ، لا فضائل أكثر . » [١١٨]

على أنه كان وسيما ، وسلوكه كاملا ، وحديثه يجمع بين الغنى والشعور ، وبين العلم والوضوح ، قالت مدام دستال « كان حديثه أكثر ما عرفت تنوعا ، وحيوية ، وغنى . » [١١٩]

ورأت جولى أنها محظوظة بايثار جيبير لندواتها . وافتتن الواحد منهما بشهرة صاحبه . فنشأت بينهما علاقة أصبحت من جانبه غزوة عارضة ، ومن جانبها غراما قتالا . وهذا الغرام الفتاك هو الذى أحل رسائلها إلى جيبير مكانا مرموقا فى الأدب الفرنسى وبين أكثر وثائق العصر كشفا . ففيها أكثر حتى مما فى « جولى أو هلويز الجديدة » لروسو (١٧٦١) ، تلقى إرهاصات الحركة الرومانسية فى فرنسا تعبيرها الحى .

وفى أول رسالة باقية إلى جيبير (١٥ مايو ١٧٧٣) نراها واقعة فى حبائل غرامه ، ولكن كان يمزقها تأنيب الضمير لانتهاكها ميثاق الوفاء لمورا . فكتبت لجيبير وهو راحل إلى ستراسبورج تقول :

رباه ! بأى سحر ، وبأى قدر ، استطعت أن تفتننى ؟ لم لم أمت فى سبتمبر ؟ كان يمكن أن أموت آنئذ فأعفى .... من اللوم الذى ألوم به نفسى الآن .. إننى أشعر بهذا وآ أسفاه ، إننى ما زلت أستطيع الموت فى سبيله ، فما من مصلحة لى أضن بيذلها له ... أواه ، أنه سيصفح عنى ! لقد عانيت كثيراً جداً ! ولقد أضنى جسدى وروحى طول ما ألم بى من حزن . وطاش عقلى حين تلقيت خطابه . فى ذلك الحين رأيتك أول مرة ، فى ذلك الحين تسلمت نفسى ، فى ذلك الحين أدخلت عليها السرور ، ولست أدرى أيهما كان أحلى — أن أشعر بذلك السرور ، أو أن أدين به لك .(١٢٠)

وبعد ثمانية أيام سقطت كل أسباب دفاعها : « لو كنت صغيرة جميلة ، فاتنة جدا ، لما أعيانى أن أتبين الكثير من الافتعال فى مسلكك معى ، ولكن بما أننى لست من هذا كله فى شىء ، فأننى أجد فى مسلكك عطفا وشرفا أكسباك نصرا على روحى إلى الأبد .(١٢١)

وكانت أحيانا تكتب بكل التحرر الذى كتبت بها هلويز لأبيلار :

« أنت وحدك الذى يستطيع فى هذا الكون أن يمتلك كيانى ويتربع فيه .. وقلبى ، وروحى ، لا يمكن أن يملأهما سواك .... إن بابى لم يفتح اليوم مرة دون أن يخفق قلبى ، ومرت بى لحظات كنت أخشى فيها أن أسمع اسمك ، ثم كان يحطم قلبى ألا أسمعه . أن كثيرا من المتناقضات ، وكثيرا من الانفعالات المصطرعة ، صادقة ، وتفسرها كلمة واحدة : أحبك .(١٢٢)

وزاد الصراع بين الغرامين من الاضطراب العصبى الذى ربما كان مصدره تعطش آمالها إلى تحقيق المرأة لذاتها ، واستهدافها المتزايد للسل ، وكتبت إلى جيبير ٦ يوليو ١٧٧٣ تقول :

« إن روحك رغم اضطرابها ليست كروحى التى لا تفتأ مترددة بين

التشنج والاكتئاب . وأنا أتعاطى السم (الأفيون) لأهدىء نفسي . وأنت ترى أنى عاجزة عن أن اهدىء نفسي ؛ فأرشدنى ، وقونى ، وسأصدقك ، وستكون سندى .[١٢٣]

وعاد جيبير إلى باريس فى أكتوبر ، وقطع علاقاته مع مدام دمونسوج ، وباح بحبه لجولى . فقبلته شاكرة ، وأسلمت له جسدها — فى الحجرة المؤدية لمقصورتها فى الأوبرا (١٠ فبراير ١٧٧٤) [١٢٤] وقد زعمت فيما بعد أن هذه الفعلة التى اقترفتها وهى فى الثانية والأربعين ، كانت أول زلة لها من « الشرف » و « الفضيلة » [١٢٥] ولكنها لم تنح على نفسها باللوم :

« أتذكر الحال التى وضعتنى فيها ، والتى اعتقدت أنك تركتنى عليها ؟ حسنا أود أن أقول لك أننى بعد أن أفقت سريعا ، قمت ثانية (والكلمتان كتبتهما بحروف مائلة) ورأيت ذاتى غير هابطة عن مقامى قيد أنمله .... وربما تعجب لأن آخر الدوافع التى جلبتنى إليك هو الوحيد الذى لا يبكتنى عليه ضميرى ..... فبذلك الاستسلام ، بتلك المرتبة النهائية من نكران نفسي وكل مصلحة شخصية لى ، أثبت لك أنه ليس هناك غير خطب واحد فى الأرض لا طاقة لى باحتماله — وهو أن أغضبك وأفقدك . فذلك الخوف يجعلنى أبذل لك حياتى . »[١٢٦]

ونعمت حينا بنشوات السعادة . وكتبت إليه (لأنهما أخفيا عن الناس علاقتهما وسكن الواحد بعيدا عن صاحبه) . لقد ظللت أفكر فيك طوال الوقت . وأنا مستغرقة فيك استغراقا يجعلنى أفهم شعور العابد نحو إلهه . »[١٢٧] أما جيبير فلم يكن بد من أن يمل غراما يسرف هذا الاسراف فى سكب نفسه دون أن يترك لقوته أى تحد . وسرعان ما راح يهتم بالكونتيسة ديوفليه ، ويستأنف غرامه بمدام دمونسوج (مايو ١٧٧٤) . وعاتبته جولى ، فرد فى فتور . ثم نمى إليها فى ٢ يونيو أن مورا مات فى طريقه إليها وهو يبارك اسمها . فتردت فى حمى من الندم والحسرة وحاولت أن تسمم نفسها ، ولكن جيبير منعها . وراحت خطاباتها إليه يدور أكثرها حول مورا ، ومبلغ سمو هذا النبيل الأسبانى عن أى رجل عرفته فى حياتها . وقلت رؤية جيبير لها وزادت لقاءاته بمونسوج . وعللت جولى نفسها بالبقاء على الأقل خليلة من خليلاته ، فكانت

ترتب له الزيجات ، ولكنه رفض عرائسها » وفى أول يونيو ١٧٧٥ تزوج الآنسة دكورسيل ، وكانت فتاة غنية فى السابعة عشرة . وكتبت له جولى خطابات مفعمة بالحقد والاحتقار ، مختتمة بتوكيدات الحب الذى لا يموت(١٢٨).

وقد استطاعت طوال حمى غرامها كلها أن تخفى طبيعتها عن دالامبير ، الذى خيل إليه أن سببها هو غياب مورا ثم موته . فرحب بجيبير فى صالونها ، وكون صداقة مخلصة معه ، وكان يرسل بشخصه الرسائل المختومة التى تكتبها لعشيقها . ولكنه لحظ أنها فقدت اهتمامها به ، وأنها كانت أحيانا تستاء من وجوده . والواقع أنها كتبت لجيبير « لولا أنه يبدو عقوقا بالغا منى لقلت إن رحيل دالامبير يعطينى نوعا من السرور . إن حضوره يثقل روحى . وهو يجعلنى قلقة مضطربة النفس ، فأنا أشعر أننى غير مستحقة أبدا لصداقته وطيبة قلبه .. »(١٢٩) فلما ماتت كتب إلى « روحها » يقول :

« ليت شعرى لأى سبب لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أحزره ، تغير فجأة ذلك الشعور الذى كان من قبل غاية فى الرقة نحوى ... إلى شعور الغربة والنفور ؟ ما الذى صنعت مما يسىء إليك ؟ لم لم تشكى إلى إن كان لك مبرر للشكوى ؟ ... أم أنك أيتها العزيزة جولى ... قد أسأت إلى إساءة أجهلها ، وكان يحلو لى كثيرا أن اغتفرها لو علمت بها .... لقد كنت عشرين مرة على وشك أن ألقى بنفسى بين ذراعيك ، وأن أطلب إليك أن تخبرينى ما جريرتى ، ولكنى خشيت أن تصدنى هاتان الذراعان ...

« وظللت تسعة أشهر أترقب اللحظة التى أخبرك فيها بما عانيت وما أحسست . ولكنى وجدتك خلال تلك الشهور أضعف من أن تحتملى العتب الرقيق الذى كان على أن أكاشفك به ، واللحظة الوحيدة التى كان يمكننى فيها أن أكشف لك فى غير خفاء عن قلبى المحزون الواهن هى تلك اللحظة الرهيبة ، قبل موتك بساعات ، حين سألتنى الصفح عنك بطريقة مزقت نياط قلبى ... ولكن عندها لم يعد فيك قوة لا للتحدث ولا للاستماع إلى ... وهكذا فقدت إلى الأبد لحظة العمر التى كانت ستكون لى أغلى اللحظات — اللحظة التى أخبرك فيها ، مرة أخرى ، كم أنت عزيزة على ، وكم شاطرتك محنك ، وما أعمق

رغبتى فى أن أنهى آلامى بك ، وددت لو بذلت كل ما بقى لى من لحظات عمرى لقاء تلك اللحظة الواحدة التى لن تتاح لى أبدا ، تلك التى ربما كنت أستعيد بها حنانك إذ أكاشفك بكل ما فى قلبى من حنان لك . »[١٣٠]

وساعد إنهيار حلم جولى السل على الفتك بها ، ودعى لعيادتها الطبيب بوردو (الذى التقلينا به فى قصة ديدرو « حلم دالامبير ») ، فصرح بأنه لا أمل فى شفائها . ولم تبرح فراشها منذ أبريل ١٧٧٦ . وكان جيبر يذهب لزيارتها كل صباح ومساء . ولم يكن دالامبير يترك العناية بها إلا لينام . وكان الصالون قد توقف ، لولا حضور كوندورسيه ، وسوار ، ومدام جوفران الطيبة ، التى كانت هى ذاتها مشرفة على الموت . وفى أيامها الأخيرة أبت جولى أن تسمح لجيبير بزيارتها ، لأنها لم تشأ أن تدعه يرى كيف شوهت التشنجات وجهها ، ولكنها كانت ترسل العديد من الخطابات ، وأكد لها هو أيضا حبه : « لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى التى التقينا فيها ، أنك أغلى عندى من كل شىء فى هذه الدنيا . »[١٣١] فكان هذا ، ووفاء دالامبير الصامت ، وقلق أصدقائها عليها ، العزاء الوحيد لها فى آلامها . وكتبت وصيتها ، التى عينت دالامبير منفذا لها ، وعهدت إليه بكل أوراقها وأمتعتها الشخصية (*) .

وجاء أخوها المركيز دفيشى من برجندية ، وألح عليها فى أن تتصالح مع الكنيسة وكتب إلى الكونت دالبون « يسعدنى أن أقول لك إننى أقنعتها بأن تتناول القربان على الرغم من « الموسوعة » كلها ، وفى مواجهتها »[١٣٢] .

وأرسلت كلمة أخيرة إلى جيبير : « يا صديقى ، أننى أحبك ... وداعا » وشكرت دالامبير على وفائه الطويل ، وتوسلت إليه أن يغفر لها جحودها ، وماتت فى تلك الليلة ، فى الساعات الباكرة من يوم ٢٣ مايو ١٧٧٦ . ودفنت فى اليوم نفسه ، من كنيسة سان — سولبيس ، « دفن الفقراء » كما رغبت فى وصيتها .

(*) احتفظت زوجة جيبير بخطابات جولى إليه ، وقد نشرت فى ١٨١١ .

الفصل الخامس

فولتير الشيخ

١٧٥٨ – ١٧٧٨

١ — الإقطاعي الطيب

في أكتوبر ١٧٥٨ اشترى فولتير ضيعة قديمة في فرنيه ، في مقاطعة جكس ، الواقعة على حدود سويسرة . ولم يلبث أن أضاف إليها أقطاعة تورنيه التي اشتراها لمدى الحياة ، وبهذا أصبح الآن من الناحية القانونية سيداً إقطاعياً ، وراح يوقع باسم « الكونت دتورنيه » في الشئون القانونية ، وأبرز شعار نبالته على مدخل بيته وعلى آنيته الفضية »[1]

كان قد سكن فيللا دليس بجنيف منذ ١٧٥٥ . ولعب دور المليونير الفيلسوف المضياف في لذة وفي استحسان من الناس ، ولكن المقال الوارد في موسوعة دالامبير عن جنيف ، الذي أماط اللثام عن الهرطقات السرية التي يدين بها قساوستها ، عرض فولتير للاتهام بأنه وشى بهم لصديقه ، فلم يعد شخصا مرغوبا فيه على أرض سويسرة ، وراح يلتمس من حوله مسكنا آخر . وكانت فرنيه تقع في فرنسا ، ولكنها لا تبعد عن جنيف أكثر من ثلاثة أميال ، هنالك يستطيع أن يخرج لسانه للقادة الكلفنيين ، ولو جدد القادة الكاثوليك في باريس — على بعد ٢٥٠ ميلا — حملتهم لإعتقاله ، لاستطاع في ظرف ساعة أن يعبر الحدود ، وخلال ذلك (١٧٥٨ - ١٧٧٠) كان صديقه الدوق دشوازيل يرأس الوزارة الفرنسية واشترى فرنيه باسم ابنة أخته مدام دنيس ، ربما اتقاء المصادرة إذا غيرت ريح السياسة اتجاهها ، لم يشترط عليها إلا أن تعترف به سيداً على الضيعة طوال حياته . وظلت فيللا دليس حتى عام ١٧٦٤

مسكنه الرئيسى ، وراح يعدل فى بيته بفرنيه على مهل ، وأخيراً انتقل إليه فى ذلك العام .

وكان البيت الفخم الجديد من الحجر ، ومن تصميم فولتير إلى حد كبير ، وبه أربع عشرة حجرة نوم . كتب يقول « إنه ليس قصرا ، ولكنه بيت ريفى فسيح ، تلحق به أرض تنتج الكثير من الدريس ، والقمح ، والتبن ، والشوفان. ولدى بلوطات فى استقامة أشجار الصنوبر تلمس رؤوسها السماء . »[٢] وأضافت تورنيه إلى أملاكه هذه قصرا ريفيا قديما ، ومزرعة ، وعززتا الغلال ، ومرابط ، وحقولا ، وغابات ، وضمت مرابطه فى جملتها الخيول ، والثيران ، وخمسين بقرة ، ووسعت مخازنه كل حاصلات أرضه وبقى فيها مكان لمعاصر النبيذ ، وحيشان الدواجن ، وحظيرة للغنم ، وامتلأت المزرعة بطنين أربعمائة خلية نحل ، وجادت الأشجار بأخشاب تدفىء عظام السيد الإقطاعى من رياح الشتاء . واشترى وغرس الشجيرات ، وزرع شجيرات أكثر من نبتات صغيرة رباها فى مستنبتاته . ومد الحدائق والأفنية حول بيته حتى بلغ محيطها ثلاثة أميال ، وكانت تحوى أشجار الفاكهة ، والكروم ، وأنواعا كثيرة من الأزهار . هذه الأبنية ، والنباتات ، والحقول ، والنظار الثلاثون القائمون عليها — كل أولئك كان يشرف عليه بشخصه . هنا أيضا رضى رضى أنساه أن يموت ، شأنه حين دخلا فيللا دليس . فكتب إلى مدام دودفان يقول « أنى مدين بحياتى وصحتى للطريق الذى سلكته . ولو جرؤت لاعتقدت أننى حكيم ، لأننى سعيد جدا . »[٣]

وتسلطت مدام دنيس على الخدم والأضياف الثلاثين أو أكثر الذين عاشوا فى القصر الريفى بيد متفاوتة الإنصاف . وكانت طيبة القلب ، ولكنها حادة الطبع ، تحب المال أكثر قليلا من حبها لما عداه .... رمت خالها بالبخل ، ولكنه نفى التهمة ؛ على أى حال « نقل إليها شيئا فشيئا ، الجانب الأكبر من ثروته . »[٤] وكان قد أحبها طفلة ، ثم امرأة ، وطاب له الآن أن يتخذها قهرمانة له . وكانت تمثل فى المسرحيات التى يخرجها ، وأجادت التمثيل حتى كان يقارنها بكليرون . وأدار هذا المديح رأسها ، فعكفت على كتابة المسرحيات ولقى فولتير عنتا فى ثنيها عن عرضها على الناس . ثم أضجرتها حياة الريف

وهفت نفسها إلى باريس ؛ وكانت رغبة فولتير فى الترويح عنها بعض ما دفعه إلى دعوة هذه السلسلة الطويلة من الضيوف واحتمالها . ولم تكن تحب سكرتيره فاجنيير ، ولكنها أغرمت بالأب آدم ، اليسوعى الشيخ الذى رحب به فولتير فى بيته غريما لطيفا فى لعبة الشطرنج ، والذى فاجأه ذات يوم عند قدمى الخادمة بربارة .[٥] ومرة ، ربما بسبب سماح دنيس للاهارب بالرحيل مصطحبا إحدى مخطوطات السيد ، أغضبت فولتير غضبا حمله على ردها إلى باريس بعد أن رتب لها معاشا سنويا قدره عشرون ألف فرنك[٦]. ولكن بعد ثمانية عشر شهرا انهار ، فتوسل إليها أن تعود .

وغدت فرنيه كعبة يحج إليها من يستطيعون الرحلة ويستطيبون التنوير . فأمها صغار الحكام كدوق فورتمبرج وناخب بالاتين . والإقطاعيون كأمير لين ود وفى ريشليو وفيلار ، والأعيان كتشاولز جيمس فوكس ، وملتقطوا الأخبار كبيرنى وبوزويل ، والفاسقون مثل كازانوفا ، ومئات ممن هم أقل من هؤلاء شأنا . وكان يكذب كذبا مفضوحا إذا جاءه زوار لم يدعهم : « قولوا لهم إننى مريض جدا » « قولوا لهم أننى مت » ، ولكن أحداً لم يصدق . كتب إلى المركيز دفيليت يقول « اللهم نجنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم . »[٧]

وما أن استقر به المقام فى فرنيه حتى ظهر بوزويل (٢٤ ديسمبر ١٧٦٤) وهو ما يزال متأثرا بزياراته لروسو . وبعث فولتير إليه بكلمة يقول إنه ما زال فى فراشه ولا يمكن إزعاجه . ولكن هذا لم يجد فى ثنى الاسكتلندى الملهوف ، فأصر على البقاء ولم يبرح مكانه حتى طلع عليه فولتير . وتحادثا مليا ، ثم خلا فولتير إلى مكتبه . وفى الغد كتب بوزويل إلى مدام دنيس من فندق فى جنيف يقول :

« يجب أن ألتمس منك ياسيدتى أن تعيرينى اهتمامك بأن تحصلى لى على صنيع كبير جداً من المسيو دفولتير . أريد أن أنال شرف العودة إلى فرنيه يوم الأربعاء أو الخميس . فأبواب هذه المدينة الوقور تغلق فى ساعة ... سخيفة جدا ، حتى ليضطر المرء إلى الرحيل بعد العشاء قبل أن يتاح لرب البيت الأشهر أن يطلع بمحياه على ضيوفه ...

فهل يسمح لى يا سيدتى بقضاء ليلة واحدة تحت سقف المسيو دفولتير؟ إننى اسكتلندى صلب العود شديد البأس ، ولك أن تصعديني إلى أعلى وأبرد علية فى البيت ، بل أننى لن أرفض النوم على مقعدين فى حجرة نوم خادمتك »[٨]

وأمر فولتير أبنة أخته بأن يخبر الاسكتلندى أن يحضر ، وسيعد له فراش . فحضر فى ٢٧ ديسمبر ، وتحدث إلى فولتير بينما كان هذا يلعب الشطرنج ، وفتنه حديث السيد وشتائمه الإنجليزية ، ثم « أنزل مكانا أنيقا » فى « حجرة جميلة . »[٩] وفى الغد اضطلع بهداية فولتير إلى المسيحية القويمة ، وبعد قليل اضطر فولتير وقد أوشك على الاغماء أن يطلب هدنه . وبعد يوم ناقش بوزويل ديانه رب البيت مع الأب آدم ، الذى قال له « أننى أصلى من أجل المسيو دفولتير كل يوم .... من المؤسف أنه ليس مسيحيا . فإنه يملك الكثير من الفضائل المسيحية . له أجمل نفس ، وهو إنسان خير ، محسن ، ولكنه شديد التحامل على الدين المسيحى . »[١٠]

وكان فولتير يقدم لضيوفه الطعام ، والحكمة ، والنكتة ، والمسرحية ، ليرفه عنهم . وبنى قرب بيته مسرحا صغيرا وصفه جبون حين رآه عام ١٧٦٣ بأنه « أنيق جداً مصمم تصميما حسنا ، يقع إلى جوار كنيسته الصغيرة ، التى لا تدانيه إطلاقا . »[١١] وسخر الفليسوف من روسو والقساوسة الجنيفيين الذى أدانوا المسرح باعتباره منبر الشيطان . ولم يكتف بتدريب مدام دنيس بل درب أيضاً خدمه وضيوفه على لعب الأدوار فى تمثيلياته وغيرها ، وكان هو نفسه يختال على خشبة المسرح فى الأدوار الرئيسية ، وأقنع الممثلون المحترفون بسهولة بأن يمثلوا لأشهر كاتب فى العالم .

ووجد الزوار فى مظهره فتنة تقرب من فتنة حديثه ؛ فقال أمير لين فى وصفه إنه مدثر بروب عليه رسوم أزهار ، على رأسه باروكة هائلة تعلوها قلنسوة من المخمل الأسود ، ويرتدى سترة من القطن الرفيع تصل إلى ركبتيه ، وبنطلونا قصيرا أحمر ، وجوارب رمادية ، وحذاء من القماش الأبيض .[١٢] وكانت عيناه « لامعتين تمتلئان نارا » كما يقول فاجنير ،

وقال هذا السكرتير المخلص إن مولاه « كثيرا ما كان يغسل عينيه بالماء النقى البارد » ، و « لا يستعمل النظارات إطلاقاً »[١٣] وفى أخريات حياته « حين مل حلاقة لحيته ، كان ينزع شعرها بملقاط . ويواصل فاجنيير حديثه فيقول « كان شديد الولع بالنظافة والنظام ، وكان هو ذاته نظيفا إلى حد الوسوسة . »[١٤] وكثيرا ما كان يستعمل مساحيق التجميل ، والعطور ، والمراهم ، وكانت حاسة شمه المرهفة تتأذى من الروائح الكريهة .[١٥] وكان « نحيلا إلى حد يصدق » لا يحمل من لحم إلا ما يكسو عظامه بالجهد . وكتب الدكتور بيرنى بعد أن زاره عام ١٧٧٠ « ليس من اليسير تصور إمكان بقاء الحياة فى جسد يكاد يكون جلدا وعظاما .... وقد ظننى مشتاق لتكوين فكرة عن ... إنسان يمشى بعد موته . »[١٦] وقد قال يصف نفسه إنه « يثير السخرية لأنه لم يمت »[١٧].

كان عليلا نصف عمره . وكان يشكو من بشرة شديدة الحساسية ، وكثيرا ما شكا من حكات متنوعة[١٨] ، ربما من أثر العصبية أو الإفراط فى النظافة . وكان أحيانا يعانى من تقطر البول — وهو التبول البطىء المؤلم ؛ فى هذه الناحية كان هو وروسو صنوين وإن اشتد تباينهما فيما عداها . وكان يشرب القهوة باسراف — خمسين مرة فى اليوم فى رواية فردريك الأكبر ؛[١٩] وثلاث مرات فى رواية فاجنيير[٢٠] . وهو يسخر من الأطباء ، ويلاحظ أن لويس الخامس عشر عمر بعد أن مات أربعون من أطبائه » ويقول « من سمع بطبيب عمر للمائة ؟ »[٢١]

ولكنه هو نفسه كان يستعمل الكثير من العقاقير . وقد وافق مرشح موليير لنيل درجة الطب على أن خير دواء فى أى داء خطير هو « إعطاء عقار مسهل »[٢٣] . وكان يطهر أمعاءه ثلاث مرات فى الأسبوع بمحلول القرفة الصيفية ، أو بحقنة صابون . ومن رأيه أن خير الأدوية هو الدواء الواقى ، وخير واق هو تنظيف الأعضاء الداخلية والغطاء الخارجى .[٢٤] وكان يمارس عمله ، رغم شيخوخته « وأوصابه ، وزواره ، بنشاط لا يؤتاه إلا رجل تخفف من عبء اللحم الفائض . وقد قدر فاجنيير أن مولاه لم يكن ينام « أكثر من خمس ساعات أو ست »[٢٥] فى اليوم . وكان يواصل العمل إلى

ساعة متأخرة من الليل ، وأحيانا يوقظ الأب دم من فراشه ليعينه على تصيد كلمة يونانية .[٢٦]

وكان يؤمن أن العمل دواء ناجح الفلسفة والانتحار . وأنجع منه العمل فى الخلاء ، فهو يزرع حديقته بشخصه ، وأحيانا يحرث أو يبذر البذر بيديه.[٢٧] وتبينت مدام دودفان فى رسائله اللذة التى استشعرها فى رؤية الكرنب الذى غرسه ينمو . وكان يرجو أن يذكره الخلف على الأقل لآلاف الاشجار التى غرسها . وقد أصلح الأراضى البور وجفف المستنقعات . وأنشأ إسطبلا لتربية الخيل وجلب إليه عشر مهرات » ورحب بعرض المركيز دفوابيه أن يعطيه فحلا . وكتب يقول « إن حريمى جاهز لا ينقصه غير السلطان ... لقد كتب الكثير جدا فى السنوات الأخيرة عن السكان حتى إننى أود على الأقل أن أملأ أرض جكس بالخيل ، ما دامت قاصرا عن شرف إكثار نوعى الإنسانى »[٢٨] : وكتب إلى الفسيولوجى هالر يقول « أن خير ما يسعدنا عمله على هذه الأرض هو أن نزرعها ، وكل ما عدا ذلك من تجارب فى الفيزياء بالقياس إليه عبث أطفال . أنعم وأكرم بزراع الأرض ، وتباً للإنسان الشقى الذى يكدرها — سواء حمل على رأسه تاجا ، أو خوذة ، أو قلنسوة كاهن ! »[٢٩].

وحين أعوزته الأرض التى تكفى لتشغيل جميع السكان من حوله ، نظم فى فرنيه وتورنيه حوانيت لصنع الساعات ونسج الجوارب — التى ربت لها أشجار توته دودة القز . وكان يشغل كل طالب شغل ، حتى أصبح عدد من يعملون له ثمانمائة شخص . وشيد مائة بيت لعماله » وأقرضهم المال بفائدة قدرها ٤٪ ، وساعدهم على إيجاد أسواق لسلعهم . وما لبث أصحاب التيجان أن أقبلوا على شراء ساعات فرنيه ، ولبست كرائم السيدات اللائى أغرتهن خطاباته جوارب زعم أنه نسج بعضها بيده . واشترت كاترين الثانية من ساعات فرنيه ما بلغت قيمته ٣٩,٠٠٠ جنيه ، وعرضت أن تساعده على إيجاد أسواق لها فى آسيا . وما مضت ثلاث سنوات حتى كانت الساعات الصغيرة والكبيرة والحلى والجوهرات المصنوعة فى فرنيه تصدر فى شحنات منتظمة على السفن إلى هولندة ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، ومراكش ، والجزائر ،

وتركيا ، وروسيا ، والصين ، وأمريكا . وبفضل الصناعات الجديدة نمت فرنيه من قرية يسكنها أربعون فلاحا إلى مجتمع قوامه ألف ومائتا نفس خلال مقام فولتير بها . كتب إلى رشايو يقول « أعطني فرصة مواتية وأنا كفيل ببناء مدينة . »[٣٠] وعاش الكاثوليك والبروتستنت في سلام على أرض هذا الزنديق .

أما علاقاته بـ « مواليه » فكانت علاقات « الإقطاعي الطيب » . وكان يعاملهم كلهم بأمانة ومجاملة . يقول الأمير دلين : « كان يكلم فلاحيه وكأنهم سفراء »[٣١] . وأعفاهم من ضرائب الملح والتبغ (١٧٧٥) .[٣٢] وكافح دون طائل ولكن بغير هوادة ليحرر جميع فلاحي إقليم جكس من رق الأرض . وحين هددت المجاعة الإقليم استورد القمح من صقلية وباعه بأقل كثيرا مما كلفه .[٣٣] وبينما كان يواصل حربه على « العار » — على الخرافة ، والظلامية ، والاضطهاد — أنفق الكثير من وقته في ممارسة الإدارة . واعتذر عن عدم مغادرة فرنيه ليزور أصدقائه بقوله « على أن أرشد وأعول ثمانمائة شخص ... ولا أستطيع الغياب دون أن أعرض كل شيء للانتكاس إلى حالة الفوضى » .[٣٤] وقد أدهش نجاحه إداريا كل من شهد نتائجه . قال ناقد من أقسى نقاده « أنه أبدى حكما واضحا على الأمور وإدراكا حسنا جدا . »[٣٥] وتعلم القوم الذين حكمهم أن يحبوه ، ومرة ألقوا أوراق الغار على مركبته أثناء مروره .[٣٦] وكان أشدهم تعلقا به الشباب والصغار لأنه فتح لهم قصره « كل أحد للرقص والترفيه . »[٣٧] وكان يشجعهم على المضي في لهوهم ويغتبط لابتهاجهم . كتبت مدام دجاللاتان تقول « كان في غاية السعادة ولم يحس بأنه بلغ الثانية والثمانين »[٣٨] . لقد أحس بهذا ، ولكنه كان راضيا . وكتب يقول « إني أصبح شيخا »[٣٩] .

٢ — صولجان القلم

وواصل الكتابة خلال ذلك ، فدفع بما لا يصدق كما ، وكيفا ، وتنوعا ، من التواريخ ، والأبحاث ، والدراسات ، والقصص ، والقصائد ، والمقالات ، والنبذ ، والخطابات ، والمراجعات النقدية — دفع بهذا كله إلى جمهور دولي يتلهف على كل كلمة تصدر عنه . في سنة واحدة - سنة ١٧٦٨ — كتب

« الرجل صاحب الأربعين أيكو » و « أميرة بابل » (وهى من خيرة قصصه) ، و « رسالة إلى بوالو » ؛ و « إعلان لإيمان موحد بالله » و « بيروونية (لا أدرية) التاريخ » ونصين لأوبرا هزلية ، وتمثيلية . وكان ينظم كل يوم تقريبا « شعرا قصير الأجل » هو ضرب من الإيجرام المسجوع ، قصير ، خفيف ، رشيق ؛ وهو فى هذا المضمار لا يشق له غبار فى الأدب بأسره ، حتى فى التفوق المركب ا « المختارات اليونانية » .

وقد عالجنا كتاباته فى الدين والفلسفة فى غير هذا الموضع . فلنلق نظرة عاجلة على التمثيليات التى كتبها فى فرنيه « تانكريد » ، ونانين ، والاسكتلندية ، وسقراط » وشاول ، وإيرين ، وهى أقل ذريته خلودا وإن كانت حديث باريس فى حياته . وقد حظيت تانكريد التى مثلت على التياتر — فرانسيه فى ٣ سبتمبر ١٧٥٩ باستحسان الجميع حتى فريرون ، خصم فولتير اللدود . وقد بلغت الآنسة كليرون فى دور دبورة ، ولو كان فى دور تانكريد فى هذه المسرحية قمة فنهما . وكانت خشبة المسرح قد أجلى عنها المتفرجون وجملت بديكور فسيح رائع ، وكان الموضوع الفروسى الوسيط تحولا عجيبا عن المواضيع الكلاسيكية ، بل يمكن القول إن تلميذ بوالو كتب هنا تمثيلية رومانسية » وأظهرت « نانين » أن فولتير تأثر برتشردسن ، شأنه شأن ديدرو ؛ وقد امتدحها روسو ذاته . أما « سقراط » فاحتوت — حكمة غالية « إنه انتصار للعقل أن يعيش فى سلام مع أولئك الذين لا عقل لهم . »[40]

وقد درس فولتير كورني وراسين دراسة مستفيضة ، وهو اللذى أشاد به جيله ضريبا لهما يتردد طويلا فى أى الاثنين يفضل ؛ وانتهى به التردد إلى إيثار راسين . وقد رفع الاثنين بجرأة فوق مقام سوفوكليس ويوريبيديس ، ورفع موليير فى أفضل مسرحياته ، فوق تيرينس ببرودته رغم نقائه ، وفوق المهرج أرستوفانيس .[41] وقد تأثر حين نمى إليه أن مارى كورنيى « حفيدة أخى المسرحى ، تعيش فى ضنك قرب إفريه ، فعرض أن يتبناها ويتكفل بتعليمها ، وحين علم أنها فتاة متدينة أكد لها أنه سيتيح لها كل الفرص لممارسة عبادتها . فحضرت إليه فى ديسمبر ١٧٦٠ ، فتبناها ، وعلمها أن تكتب

الفرنسية الجيدة » وأصلح من نطقها ، وصاحبها إلى القداس . ورغبة فى جمع مهر لها اقترح على الأكاديمية الفرنسية أن تنوط به نشر أعمال كورنيى والتعليق عليها » فوافقت . وعكف لتوه على قراءة تمثيليات سلفه من جديد وتزويدها بالمقدمات والهوامش ، ثم أعلن عن المشروع ، وناشد الراغبين أن يكتتبوا له لأنه كان خبيرا بشئون المال والأعمال » واكتتب كل من لويس الخامس عشر ، والقيصرة اليزافيتا ، وفردريك ملك بروسيا » بمائتى نسخة ، وكل من مدام ديومبادور وشوازيل بخمسين ، ووصلته اكتتابات أخرى من تشسترفيلد وغيره من وجوه الأجانب . وكانت النتيجة أن تقدم الخطاب الكثيرون لمارى كورنيى . وقد تزوجت مرتين » وأصبحت فى ١٧٦٨ أم شارلوت كورداى .

وقد كان فولتير أعظم مؤرخى جيله كما كان أعظم شعرائه ومسرحييه . ففى ١٧٥٧ طلبت إليه الإمبراطورة اليزافيتا أن يكتب ترجمة لأبيها بطرس الأكبر . ودعت فولتير إلى سانت بطرسبورج ووعدته بأن تغدق عليه أسباب التكريم . فأجاب بأن شيخوخته تحول بينه وبين القيام برحلة كهذه ، ولكنه سيكتب التاريخ إذا وافاه وزيرها الكونت شوفالوف بالوثائق التى تبين سيرة بطرس والتغيرات التى أحدثتها إصلاحات هذا القيصر . وكان قد رأى فى شبابه بطرس فى باريس (١٧١٦) ؛ وكان يعتبره رجلا عظيما ، همجيا رغم عظمته وتحاشيا للخوض الخطر فى أخطائه » قرر ألا يكتب ترجمة بل تاريخا لروسيا تحت حكمه الجدير بأن يذكر ، وهى مهمة أشق بكثير . وقام بأبحاث هامة فى الموضوع ، وعكف بهمة على هذا العمل من ١٧٥٧ إلى ١٧٦٣ ، ثم نشره فى ١٧٥٩ — ١٧٦٣ بعنوان » تاريخ الروسيا فى عهد بطرس الأكبر . » وكان مأثرة جليلة بالنسبة لزمانه ، وظل خير تناول للموضوع قبل القرن التاسع عشر ، ولكن ميشليه الأمين وجده باعثا على السأم ، وقد رأت القيصرة أجزاء منه ، فأرسلت إلى فولتير « ماسات كبيرة » على الحساب ، ولكنها سرقت فى الطريق ، وماتت القيصرة قبل أن يكتمل الكتاب .

وبينما كانت حرب السنين السبع مستعرة من حوله ، قام فى فترات متقطعة بتجديد كتابه « التاريخ العام » أو « مقال فى الأعراف » مضيفا إليه (١٧٥٥ —

١٧٦٣ (« خلاصة لعصر لويس الخامس عشر » وكانت عملية شائكة ، لأنه لم يزل من الناحية الرسمية مدانا من الحكومة الفرنسية ، وعلينا أن نغتفر له مروره الحذر بأخطاء الملك الحاكم ؛ ولكنه رغم ذلك كان قصة ممتازة فيها بساطة ووضوح ، وكاد وهو يروى قصة الأمير تشارلز إدورد ستيوارت (بونى برنس تشارلى) أن ينافس الشخصية التي رسمها للملك « شارل الثانى عشر » . ووفاء لمفهومه عن التاريخ ، الذى يراه أكمل ما يكون إذا سجل تقدم العقل البشرى ، أضاف مقالا ختاميا « فى تقدم العقل فى عصر لويس الخامس عشر » ولاحظ أشياء بدا له أنها علامات تشير إلى النمو :

« إن إلغاء السلطة الزمنية لرهبنة برمتها (اليسوعيين) وتأديب الرهبنات الأخرى التى أصلحتها هذه السلطة ، والفصل بين (اختصاص) القضاة والأساقفة — كل هذا يدل على مبلغ ما بدد من أهواء » وعلى مدى اتساع المعرفة بشئون الحكم » وعلى درجة استنارة أذهاننا . وقد ألقيت بذار هذه المعرفة فى القرن الماضى . وهى تنبت اليوم فى كل مكان فى القرن الحاضر » حتى فى أقصى الأقاليم ... فقد أثار العلم البحث الفنون النافعة ، وبدأت هذه الفنون فعلا فى إبراء جراح الدولة التى ابتلتها بها حربان طاحنتان . » أن معرفة الطبيعة ، ونبذ الخرافات البالية التى قدسها الناس فى الماضى كأنها تاريخ ، والميتافيزيقا الصحيحة المبرأة من سخافات المذاهب — تلك هى ثمرات هذا العصر ، وقد تحسن العقل الإنسانى تحسنا كبيرا .

أما وقد أدى فولتير دينه للتاريخ ، فأنه عاد إلى الفلسفة وإلى حملته على الكنيسة الكاثوليكية. وأصدر فى تعاقب سريع الكتيبات التى فحصناها من قبل » وكأنها ضرب من المدفعية الخفيفة فى الحرب على « العار » : « الفيلسوف الجاهل » » و « إمتحان هام للورد بولنبروك » و « الساذج » و « قصة جينى » و « ألف باء العقل » ووسط هذه الأعمال الشاقة واصل أغرب تبادل للرسائل قام به فرد واحد .

فحين زاره كازانوفا عام ١٧٦٠ أراه فولتير مجموعة من نحو خمسين ألف خطاب تسلمها حتى ذلك العام ، وسيجتمع له منها بعد ذلك نحو هذا العدد ، ولمه

كان مستلم الخطاب هو الذى يدفع أجرة البريد ، فإن فولتير كان ينفق أحيانا مائة جنيه على البريد الذى يتسلمه فى يوم واحد . وكان ألف معجب ، وألف عدو ، ومائة مؤلف شاب ، ومائة هاو للفلسفة ، يبعثون إليه بالهدايا وباقات الزهور ، والشتائم ، واللعنات ، والأسئلة ، والمخطوطات ، ولم يكن من غير المألوف أن يرجوه سائل متلهف أن ينبئه برجوع البريد هل وجد إله ، أو هل للإنسان نفس خالدة . وأخيرا نشر تحذيرا فى « المركيز دفرانس » جاء فيه :

« نظرا إلى أن أشخاصا عديدين شكوا من عدم تسلمهم ما يفيد وصول طرود أرسلوها إلى فرنيه ، أو تورنيه ، أو ليدليس ، لزم التنبيه إلى أنه بسبب ضخامة عدد تلك الطرود ، أصبح من الضرورى رفض تسلم كل ما لا يأتى من أشخاص تشرف المالك بمعرفتهم . »[٤٣]

وفى طبعة تيودور بسترمان الكاملة تملأ رسائل فولتير ثمانية وتسعين مجلداً . وفى رأى برونتيير أنها « أخلد قسم من إنتاجه كله »[٤٤] . والحق أننا لا نجد صفحة مملة فى هذا الحشد برمته ، لأننا فى هذه الرسائل ما زال فى إمكاننا أن نسمع ألمع محدث فى زمانه يتكلم بكل ألفة الصديق . وما من كاتب من قبل ولا من بعد حشد على قلمه المتدفق كل هذا التأدب ، والحيوية ، والسحر ، والرشاقة الكثيرة . إنها ليست وليمة للذكاء والبلاغة فحسب ، بل للصداقة الحارة ، والشعور الرقيق ، والفكر البتار ، ولو قورنت بها رسائل مدام دسفينيه على ما فيها من دواعى البهجة ، لبدت ترفرفا خفيفاً عارضاً على سطح توافه عابرة . لقد كان فى زخارف أسلوب رسائله ولا ريب بعض التمسك بالعرف ، ولكن يبدو أنه يتعمده حين يكتب إلى دالامبير قائلا « أعانقك بكل قوتى ، ويؤسفنى أنه حتم أن يكون العناق على هذا البعد السحيق » ، وهو مارد عليه دالامبير بقوله : « وداعا يا صديقى العزيز الشهير ، إنى أعانقك فى حنان ، وأنا أكثر منى فى أى وقت مضى ، ملكك بالروح » .[٤٥] ثم استمع إلى كلمات فولتير لمدام دودفان : « وداعا يا سيدتى .... إن أوثق الحقائق التى التمسها هى أن لك نفسا توافقنى ، وسأكون شديد التعلق بها طوال الأجل القصير الذى افسح لى »[٤٦] .

وكانت رسائله لمعارفه فى باريس موضع تقديرهم ، تتداولها الأيدى تداول نفائس الأخبار ودرر الأسلوب . ذلك أن رسائل فولتير هى التى بلغ فيها أسلوبه أروع تألقه . فهذا الأسلوب لم يبلغ قصارى إبداعه فى تواريخه « حيث يستحب السرد الناعم المتدفق أكثر من البلاغة أو النكتة ، وفى تمثيلياته شط إلى حد الخطابة الرنانة الطنانة ؛ أما فى رسائله فقد استطاع أن يدع سن قلمه الماسى يسطع بالاجرام أو ينير موضوعا بدقة وإيجاز لا مثيل لهما . وقد جمع بين علم بيل وأناقة فونتنيل ، واستعار مسحة تهكم وسخرية من رسائل بسكال الإقليمية » وقد ناقض نفسه خلال سنى كتابته السبعين ، ولكنه لم يكن قط غامضا ؛ ونحن لا نكاد نصدق أنه كان فليسوفا ، فهو فى غاية الوضوح ، يقصد مباشرة إلى هدفه الأهم ، إلى النقطة الحيوية فى الفكرة . وهو يتوخى القصد فى النعوت والتشبيهات مخافة أن يعقد الفكرة ، وفى كل جملتين تقريبا ومضة من نور . وقد تتكاثر الومضات أحيانا ، وتتزاحم نفحات الذكاء ؛ فيتعب القارىء بين الحين والحين من هذا التألق ، وتضيع عليه بعض السهام المريشة من ذهن فولتير السريع الحركة . وقد أدرك أن فرط تألقه هذا خطأ ، كوضع الجواهر على العباءة . واعترف فى تواضع بأن « اللغة الفرنسية بلغت وج كمالها فى عصر لويس الرابع عشر . » (٤٧)

وكان بين مراسليه نصف وجوه ذلك العهد — لا كل جماعة الفلاسفة فحسب ، ولا جميع كبار مؤلفى فرنسا وانجلترة فحسب ، بل الكرادلة ، والبابوات ، والملوك ، والملكات » واعتذر له كرستيان السابع عن عدم تنفيذ كل الاصلاحات الفولتيرية فى وقت واحد فى الدنمرك ؛ وأسف ستانسلاس بونياتوفسكى ملك بولندة على أنه سيق على عجل لاعتلاء العرش وهو فى طريقه إلى فرنيه ؛ وشكره جوستاف الثالث ملك السويد لأنه ألقى بين الحين والحين نظرة عجلى على الشمال البارد ، وتوسل « أن يطيل الله فى أيامك الغالية القيمة للإنسانية » (٤٨) . ومع أن فردريك الأكبر وبخه لأنه قسا على موبرتوى ، وأساء أدبه مع الملوك (٤٩) » إلا أنه كتب بعد شهر يقول « الصحة والرفاهية لأشد من عاش أو سيعيش من العباقرة على هذه الأرض خبثا وإغراء » ؛ (٥٠) وفى ١٢ مايو ١٧٦٠ أضاف :

« أما أنا فسأذهب إلى هناك (الجحيم) وأخبر فرجل بأن فرنسيا بزه فى فنه . وسأقول مثل هذا لسوفوكليس ويوريبيديس » وسأحدث ثيوسيديديس عن تواريخك ، وكوينتوس كورتيوس عن كتابك « شارل الثانى عشر » ؛ وربما رجمنى هؤلاء الموتى الغيورون لأن رجلا واحدا جمع فى شخصه شتى فضائلهم . »[٥١]

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٧٤ واصل فردريك مدائحه : « لن يكون هناك بديل لك بعد موتك ، وسيكون نهاية الآداب الجيدة فى فرنسا . »[٥٢] (وهذه غلطة بالطبع لأنه ليس للأدب الجيد نهاية فى فرنسا) . وأخيرا ، فى ٢٤ يوليو ١٧٧٥ ، أحنى فردريك صولجانه أمام قلم فولتير: « وأما أنا فيعزينى أنى عشت فى عصر فولتير ، وحسبى هذا . »[٥٣]

وكانت كاترين الكبرى تكتب إلى فولتير كما يكتب رأس متوج إلى آخر — لا بل كما يكتب التلميذ إلى معلمه . فلقد قرأته بشغف ولذة ستة عشر عاما قبل أن تشق طريقها إلى عرش روسيا ، ثم بدأ تراسلهما فى أكتوبر ١٧٦٣ بجوابها بضمير المتكلم على رسالة منظومة بعث بها إلى عضو فى هيئتها الدبلوماسية .[٥٤] ولقبها فولتير سميراميس الشمال » وأغمض فى لباقة عن جرائمها » وأصبح المدافع عنها أمام فرنسا . ووجته أن يعفيها من مدائحه ، ولكنه أفاض فيها . وكانت تقدر انحيازه لها » لأنها علمت أن بفضله — ثم بفضل جريم وديدرو — نالت « مساندة طيبة من الكتاب » فى فرنسا . وأصبحت الفلسفة الفرنسية أداة للدبلوماسية الروسية . وأوصى فولتير كاترين باستعمال المركبات الحربية المدججة بالمناجل على الطريقة الأشورية فى حربها مع الترك ، واضطرت إلى أن تبين له أن الأتراك غير المتعاونين لن يهاجموا عدوهم بتشكيلات مكثفة تكثيفا يتيح حصدهم بشكل مريح .[٥٥] ونسى كراهيته للحرب وسط تحمسه لإمكان قيام جيوش كاترين بتحرير بلاد اليونان من سلطان العثمانيين ، وناشد « الفرنسيين ، والبريطانيين ، والإيطاليين » أن يناصروا هذه الحرب الصليبية الجديدة ، وحزن حين قصرت سميراميس عن تحقيق هدفه . ثم اضطلع بيرون بقضيته تلك .

وقد عنف الكثيرون من الفرنسيين فولتير على تملقه للملكية ، وشعروا أنه حط من قدره باللف حول العروش والتشدق بمديح أصحابها . ولا ريب فى أن هذا اللف كان أحيانا يدير رأسه . ولكنه هو أيضا كان يلعب لعبة دبلوماسية . فهو لم يدع قط العواطف الجمهورية ، وقد ذهب غير مرة إلى أن قدرا من التقدم يمكن تحقيقه بفضل الملوك « المستنيرين » أكثر مما يتحقق بسيطرة الجماهير المتقلبة « الجاهلة » التى تتسلط عليها الخرافة . ولم يخض الحرب ضد الدولة بل ضد الكنيسة الكاثوليكية ، وكان تأييد الحكام فى تلك المعركة عونا قيما . وقد رأينا قيمة ذلك التأييد فى حملاته الظافرة دفاعا عن أسرتى كالاس وسيرفنس . وكان أهم فى نظره أن يكون فردريك وكاترين فى صفه وهو يناضل فى سبيل التسامح الدينى . كذلك لم ييأس من كسب لويس الخامس عشر ، فقد كسب من قبل مدام دبومبادور وشوازيل ، ثم خطب ود مدام دى بارى . ولم يكن يتورع عن شىء فى استراتيجيته ، والواقع أنه قبل أن ينتهى العهد استطاع الظفر بتأييد نصف حكومة فرنسا « وتكللت معركة التسامح الدينى .

٣ — فولتير السياسى

ما الذى أمل أن يحققه فى ميدان السياسة والاقتصاد ؟ لقد ثبت بصره على هدفين ، هدف أعلى وآخر أدنى : الأعلى تحرير الناس من الخرافات اللاهوتية وسلطان الكهنة — وهى مهمة عسيرة ولا ريب ، وفيما عدا ذلك طلب بعض الاصلاحات ، ولكنه لم يطمع فى المجتمع المثالى . وكان يبتسم سخرية من « أولئك المشرعين الذين يحكمون الكون .... ومن أبراجهم يصدرون الأوامر للملوك »[٥٦] . وكان معارضا للثورة شأن جماعة الفلاسفة كلهم تقريبا ، ولعله لو عمر حتى يشهدها لصدمته — وربما أعدمته بالجلوتين * . أضف إلى هذا أنه كان غنيا غنى فاحشا ، وما من شك فى أن ثراءه لون آراءه .

(*) انظر وصف روبسبير للموسوعيين : « أما فيما يتصل بالسياسة ، فإن هذه الجماعة توقفت عند حقوق الشعب . . . . . وقد عارض زعماؤها الاستبداد أحيانا « وكان يطريهم الطغاة ، كانوا أحياناً يكتبون المقالات عن الملوك ، وأحياناً الإهداءات تكريما لهم » وكانوا يدبجون الخطب الماشية ، والقصائد الغنائية للمحظيات (٥٧) .

فى ١٧٥٨ نوى أن يستثمر ٥٠٠,٠٠٠ فرنك (٦٢٥,٠٠٠ دولار ؟) فى اللورين .[٥٨] وقد كتب إلى فردريك فى ١٧ مارس ١٧٥٩ يقول « أننى أتلقى ستين ألف جنيه (٧٥,٠٠٠ دولار ؟) من دخلى (السنوى) من فرنسا ... وأننى أعترف بأننى غنى جدا . » وكان قد جمع ثروته بفضل « نصائح » من أصدقائه الماليين أمثال الأخوين بارى ، وبفضل فوزه بجوائز اليانصيب فى فرنسا واللورين ، وبفضل نصيبه فى تركة أبيه ، وبفضل شراء سندات الحكومة ، والمساهمة فى مشروعات تجارية ، وإقراض المال للأفراد . وكان يقنع بعائد قدره ٦٪ ، وهو عائد معتدل إذا أخذنا فى الاعتبار المخاطر والخسائر . وقد ضاع عليه ألف إيكو (٣,٧٥٠ دولارا ؟) فى تفليسة شركة جليار فى قادس (١٧٦٧)[٥٩] . وفى ١٧٦٨ علق جيبون فى معرض الإشارة إلى الثمانين ألف فرنك (١٠٠,٠٠٠ دولار ؟) التى أقرضها فولتير للدوق دريشليو : « لقد أفلس الدوق ، والضمان عديم القيمة ، واختفت النقود . »[٦٠] وعند موت فولتير كان قد تسدد ربع السلفة . وكان دخل فولتير من معاشاته أربعة آلاف فرنك فى العام . وفى عام ١٧٧٧ بلغت جملة دخله ٢٠٦,٠٠٠ فرنك (٢٥٧,٥٠٠ دولار ؟)[٦١] وقد جمل هذه الثروة بما يتناسب معها من سخاء ، ولكنه أحس أنه مطالب بالدفاع عنها دفاعا ليس بالضرورة مما لا يليق بفليسوف

« لقد رأيت الكثير جداً من الأدباء فقراء محتقرين ، بحيث قررت ألا أزيد عددهم . ولا مناص للمرء فى فرنسا من أن يكون إما سندانا أو مطرقة ؛ وقد ولدت سندانا . والميراث الهزيل يتناقص كل يوم ، لأن كل شىء فى المدى الطويل يزداد ثمنه ، وكثيرا ما تفرض الحكومة الضرائب على الدخل والنقود كليهما .... فعليك أن تكون مقتصدا إبان شبابك ، وستجد نفسك فى شيخوختك تملك رأس مال يدهشك ، وهذا هو الوقت الذى تشتد فيه حاجتنا للثروة . »[٦٢]

وكان قد اعترف فى فترة باكرة (عام ١٧٣٦) فى قصيدته « رجل الدنيا » « إننى أحب الترف ، بل الحياة الناعمة ، وجميع اللذات ، وجميع الفنون . » وذهب إلى أن طلب الأغنياء لأسباب الترف يداول مالهم بين الصناع المهرة

والفنانين ، وظن أنه لولا الثروة لما كان هناك فن عظيم .[٦٣] ونحن نلفر «ميثاق» ميزلييه الملحد — الشيوعى ، حذف القسم المعارض للملكية . وقد آمن أنه ما من نظام اقتصادى يستطيع النجاح بغير حافز التملك . «إن روح التملك تضاعف من قوة الإنسان»[٦٤] وكان يأمل أن يرى كل إنسان يملك ملكا . وبينما كان روسو يبارك القنية فى بولندة كتب فولتير يقول «إن بولندة يمكن أن يزداد سكانها وثروتها ثلاث مرات لو لم يكن فلاحوها أقنانا .»[٦٥] على أنه لم يحبذ أن يصبح الفلاحون أغنياء ، فمن أذن يرفد للدولة جندها الأقوياء ؟[٦٦] .

ولم يشاطر روسو تحمسه للمساواة . فهو يعلم أن الناس كلهم يخلقون غير أحرار ولا متساوين . ورفض فكرة هلفتسيوس القائلة بأنه لو أتيح للناس كلهم التعلم والفرص المتكافئة ، لأصبح الجميع بعد قليل متساوين فى التعليم والقدرات . «يا لها من حماقة أن نتصور أن فى استطاعة كل إنسان أن يصبح نيوتنا !»[٦٧] فسوف يكون هناك دائما الأقوياء والضعفاء ، والأذكياء والبسطاء ، وإذن الأغنياء والفقراء .

«يستحيل فى دنيانا الكئيبة منع الناس الذين يعيشون فى مجتمع من أن ينقسموا إلى طائفتين — الأغنياء الآمرين ، والفقراء الذين يأتمرون .... ولكل إنسان الحق فى أن يكون له رأيه الخاص فى مساواته مع غيره ، ولكن لا يستتبع هذا أن طباخ الكردينال ينبغى أن يأخذ على عاتقه أن يأمر سيده بتجهيز طعامه . على أن للطباخ أن يقول «أننى إنسان كسيدى سواء بسواء ، فقد ولدت مثله بالدموع ، وسأموت مثله فى عذاب ... فكلانا يؤدى الوظائف الحيوانية نفسها . وإذا استولى العثمانيون على روما فأصبحت كردينالا وأصبح سيدى طباخا ، فأننى سأدخله فى خدمتى» وهذه اللغة معقولة ومنصفة جدا ، ولكن ، إلى أن يستولى السلطان العثمانى على روما لابد للطباخ من أن يؤدى واجبه وإلا انهار المجتمع الإنسانى كله .»[٦٨]

ولما كان ابن موثق ، ولم يصبح سيدا إقطاعيا إلا مؤخرا ، فقد كان له

فى الارستقراطية آراء مختلطة » وواضح أنه فضل نوعها الإنجليزى[٦٩]. وقد قبل النظام الملكى باعتباره الشكل الطبيعى للحكومة « لم يحكم الملوك الأرض كلها تقريبا ؟ ... الجواب الأمين هو : لأن الناس نادرا ما يكونون جديرين بحكم أنفسهم . »[٧٠] وقد سخر من حق الملوك الالهى وأرجعهم هم والدولة إلى الغزو « إن القبيلة تختار زعيا ليقود حملات السلب والنهب التى تشنها ؛ وهى تعود نفسها الطاعة ، وهو يعود نفسه إصدار الأوامر لها ، وفى اعتقادى أن هذا أصل الملكية . »[٧١] فهل هذا طبيعى ؟ أنظر إلى حوش المزرعة :

« إن حوش المزرعة يرينا أكمل تمثيل للملكية . فما من ملك يضارع الديك . ذلك أنه إن مشى شامخا ضاريا وسط قطيعه فما ذلك لغروره ، لأنه إذا زحف العدو فهو لا يكتفى باصدار الأمر لرعيته أن تخرج وتقتل فداءه .... إنما هو يذهب بشخصه ، وينظم جنده من خلفه ، ويقاتل إلى آخر نسمة . فاذا انتصر فهو الذى يترنم بسبحة الشكر .... وإذا صح أن النحل تحكمها ملكة تخطب ودها جميع رعاياها ، فتلك حكومة أعظم كمالا حتى من حكومة الديك . »[٧٢]

واستطاع لعيشه فى برلين ثم فى جنيف أن يدرس الملكية و « اللاملكية » فى ممارستهما الحية . وكان كغيره من جماعة الفلاسفة متحيزا لأن ملوكا عدة (فردريك الثانى ، وبطرس الثالث ، وكاترين الثانية) وبعض الوزراء (شوازيل ، وأراندا ، وتانوتشى ، وبومبال) استمعوا إلى نداءات الإصلاح ، أو منحوا المعاشات للفلاسفة . وقد بدا فى عصر بلغ فيه الفلاح الروسى منتهى البدائية ، وغلبت الأمية على جماهير الشعب فى كل بلد » وأعجزها الإرهاب عن التفكير » إن من السخف اقتراح حكم الشعوب » والواقع أن » الديمقراطيات فى سويسرة وهولندة كانت أوبجاركيات . والجماهير هى التى أحبت أساطير الدين ومراسمه القديمة » ووقفت كأنها جيش عرمرم فى طريق الحرية والتطور الفكريين . وليس هناك سوى قوة واحدة لها من القدرة ما يمكنها من مقاومة الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، كما قاومت بنجاح الكنائس البروتستنتية فى انجلتره وهولندة وألمانيا وتلك هى الدولة . وبفضل الحكومات الملكية القائمة فى فرنسا وألمانيا وروسيا — بفضل هذه فقط يستطيع الفلاسفة أن يعلموا فى

الفوز فى كفاحهم الخرافة » والتعصب ، والاضطهاد » واللاهوت الطفلى . فهم لا يستطيعون توقع التأييد من « البرلمانات » لأنها تنافس الكنيسة وتبز الملك فى الظلامية » والرقابة » وعدم التسامح . ولكن انظر ما فعله هنرى الملاح للبرتغال » وما فعله هنرى الرابع لفرنسا » أو بطرس الأكبر لروسيا أو فردريك الأكبر لبروسيا . « ما من عمل جليل تقريبا عمل فى العالم إلا بفضل عبقرية وحزم رجل فرد كافح أهواء الجماهير »[٧٣]. ومن ثم كان جماعة الفلاسفة يتمنون تربع الملوك المستنيرين على العروش . كتب فولتير فى «ميروب» يقول « إن الفضيلة المتربعة على العرش هى أروع أعمال السماء »[٧٤](*) وسياسة فولتير ينبعث بعضها من ظنه بأن من الناس عدداً كبيراً لا قدرة لهم على هضم التعليم حتى إن قدم لهم . وقد أشار إلى « الشطر المفكر من النوع الإنسانى — أى الجزء على مائة ألف منهم »[٧٦] ، وكان يخشى من عدم النضج العقلى وسرعة الانفعال العاطفى للناس عموما . «حين تشارك الجماهير فى التفكير يضيع كل شيء . »[٧٧] وهكذا ظل حتى سنى شيخوخته لا يتعاطف تعاطفا يذكر مع الديموقراطية . فلما سأله كازانوفا « أتود أن ترى الشعب سيد نفسه ؟ » أجابه « معاذ الله ! »[٧٨] وكتب إلى فردريك « حين رجوتك أن تكون الباعث لفنون اليونان الجميلة » لم يبلغ رجائى الحد الذى أطلب إليك فيه إعادة الديمقراطية الأثينية . فأنا لا أحب حكم الرعاع . »[٧٩] وقد اتفق وروسو على أن « الديمقراطية لا تناسب غير البلاد الصغيرة » ، ولكنه أضاف قيودا أخرى » وغير تلك التى تنعم بموقع ملائم ... والتى يكفل لها موقعها الحرية » والتى فى مصلحة جيرانها المحافظة عليها . »(وكان يعجب بالجمهوريتين الهولندية — والسويسرية ، ولكن خامرت إعجابه بعض الشكوك :

« إن تذكرتم أن الهولنديين أكلوا على السفود قلب الأخوين دى ويت ،

(*) علق ميشيلة بفقرة ظريفة على هذا الدفاع من الملكية فقال « إن من أحـلام جماعة الفلاسفة والاقتصاديين — رجال كفولتير وطورجيو — أن يحدثوا الثورة — أن يحققوا سعادة النوع الإنسانى — على يد الملوك . وليس أغرب من رؤية هـذا المعبود يتنازعه الفريقان » فلاسفة بمنة » والقساوسة يسرة . فمن سيظفر به ؟ النساء » (٧٥) .

وإن تذكرتم ... أن الجمهورى يوحنا كلفنى .... بعد أن كتب أننا ينبغى ألا نضطهد إنسانا ولو أنكر الثالوث ، أمر بحرق أسبانى خالفه فى الرأى حول الثالوث فأحرقه حيا على حطب أخضر (بطىء الاحتراق) ، خلصتم حقاً إلى أنه ليس فى الجمهوريات فضيلة أعظم مما فى الملكيات . »[٨١]

على أنه بعد كل هذه التصريحات المعارضة للديمقراطية ، نجده يؤيد الطبقة الوسطى الجنيفية تأييدا نشيطا ضد الاشراف (١٧٦٣) ووطنيى جنيف المحرومين من الحقوق المدنية ضد الارستقراطية والبورجوازية (١٧٦٦) ، ولكن لنرجىء هذه القصة إلى موضعها المناسب .

والواقع أن فولتير أخذ يتحول إلى مزيد من الراديكالية فما يبدو كلما تقدم به العمر . ففى ١٧٦٨ أصدر قصته « الرجل ذو الأربعين إيكو » فطبع الكتاب عشر طبعات فى سنته الأولى ، ولكن برلمان باريس أحرقه وزج بالطابع فى سفن تشغيل العبيد ، ولم يكن مرجع هذه الصراحة تلك السخرية التى سخرت بها القصة على جماعة الفزيوقراطيين ، بل تصويرها الحى للفلاحين الذين أفقرتهم الضرائب ، والرهبان الذين يحيون حياة التبطل والترف على أملاك يفلحها عبيد الأرض . وفى كتيب آخر نشره عام ١٧٦٨ وسماه الألف باء (وقد حرص فولتير أشد الحرص على إنكاره) أجرى هذه العبارات على لسان « مسيو ب » .

فى وسعى أن أتكيف بسهولة مع الحكومة الديمقراطية .... فكل الملاك على نفس الأرض لهم نفس الحق فى حفظ النظام على تلك الأرض . إنى أحب أن أرى رجالا أحرارا يضعون القوانين التى يعيشون فى ظلها .... ويطيب لى أن يرفع بنائى ، ونجارى ، وحدادى ، أولئك الذين أعانونى على بناء مسكنى ، وجارى المزارع ، وصديقى الصانع — أن يرفعوا أنفسهم فوق حرفهم ، ويعرفوا الصالح العام خيراً مما يعرفه الموظف التركى الشديد الوقاحة . فليس فى الديموقراطية ما يدعو عاملا أو صانعا إلى الخوف من الإزعاج أو الإحتقار ... فأن يكون المرء حرا ، بين أنداد لا أكثر ، هو الحياة الطبيعية الصادقة للإنسان ،

وما عدا ذلك من أساليب الحياة فهو خدع حقيرة ، وجزئيات رديئة يلعب فيها فرد دور السيد ، وآخر دور العبد ، فرد دور الطفيلى ، وآخر دور القواد.»[٨٢]

وفى عام ١٧٦٩ أو بعده بقليل (وكان فى الخامسة والسبعين) فى طبعة جديدة للقاموس الفلسفى ، ساق فولتير وصفا مرا لألوان الطغيان والفساد الحكومية فى فرنسا [٨٣] ، وامتدح انجلترة بالقياس إليها :

« لقد بلغ الدستور الإنجليزى فى الواقع نقطة التفوق التى فيها يرد جميع الناس إلى الحقوق الطبيعية التى حرموا منها فى جميع النظم الملكية تقريبا ، وهى : الحرية الكاملة للأشخاص والأملاك ، حرية النشر ، حرية المحاكمة فى جميع الجرائم على يد هيئة محلفين من أعضاء مستقلين ، حق المحاكمة طبقاً لنص القانون فقط ، وحق كل إنسان فى أن يجهر دون مضايقة بأى دين يختاره ويرفض المناصب التى لا يجوز تقليدها إلا لأتباع الكنيسة الرسمية . هذه ..... إمتيازات لا تقدر بقيمة ... أن تكون آمنا مطمئنا وأنت ماض إلى فراشك إلى أنك ستستيقظ وأنت تملك نفس الثروة التى كانت لك حين ذهبت لتنام ، وأنك لن تنتزع من أحضان زوجتك وأطفالك فى جوف الليل ليزج بك فى سجن مظلم أو لتدفن فى منفى فى الصحراء ... وأن يكون لك القدرة على نشر جميع أفكارك ... هذه الإمتيازات يتمتع بها كل من تطأ قدمه أرض انجلترة ... ولا مفر من أن يعتقد أن الدول التى لا تقوم على هذه المبادىء ستجتاحها الثورات [٨٤]

وتنبأ بالثورة فى فرنسا كما تنبأ بها الكثيرون . ففى ٢ أبريل ١٧٦٤ كتب إلى المركيز دشرفلان :

« إنى لأرى فى كل مكان بذور ثورة لا مناص منها ، ثورة لن تتاح لى لذة مشاهدتها . فالفرنسيون يصلون متأخرين فى كل شىء ، ولكنهم يصلون فى النهاية ما فى ذلك شك . وقد اتسع انتشار التنوير اتساعا سيعينه على التفجر فى أول فرصة ، وعندها ستحدث فرقعة عنيفة ... إن الشباب محظوظون ، لأنهم سيرون أشياء عظيمة . »

ومع ذلك حين تذكر أنه يعيش فى فرنسا بفضل تسامح ملك أساء إليه بإقامته فى بوتسدام » وحين رأى بومبادور وشوازيل ومالزيرب وطورجو يوجهون الحكومة الفرنسية صوب التسامح الدينى والإصلاح السياسى — وربما لأنه تاق إلى الإذن له بالعودة إلى باريس — اتخذ على العموم نغمة أكثر وطنية ، واستنكر الثورة العنيفة :

« إذا اشتد شعور الفقراء بفقرهم أعقبت ذلك حروب كحروب حزب الشعب ضد مجلس الشيوخ فى روما ، وحروب الفلاحين فى ألمانيا ، وانجلترة ، وفرنسا . وقد انتهت هذه الحروب كلها ، إن عاجلا أو آجلا ، بإخضاع الشعب ، لأن الكبار يملكون المال ، والمال فى الدولة هو صاحب الأمر والنهى فى كل شىء . »[٨٥]

إذن » فبدلا من إنقلاب من أسفل » حيث القدرة على التدمير لا تتبعها القدرة على التعمير ، وحيث تعود الكثرة الساذجة بعد قليل للخضوع مرة أخرى لقلة ماكرة ، آثر فولتير أن يعمل على قيام ثورة غير عنيفة عن طريق إنتقال التنوير من المفكرين إلى الحكام » والوزراء ، والقضاة » وإلى التجار ورجال الصناعة ، وإلى الصناع والفلاحين . « أن العقل يجب إقراره أولا فى أذهان القادة ، ثم ينزل شيئا فشيئا وفى النهاية يحكم أفراد الشعب » الذين لا يعون وجوده » ولكنهم حين يرون اعتدال رؤسائهم يتعلمون أن يقلدوهم . »[٨٦] ورأى أن التحرير الحقيقى الوحيد ، فى المدى الطويل » هو التعليم ، وأن الحرية الحقيقية الوحيدة هى الذكاء. « كلما استنار الناس تحرروا . »[٨٧] وليس هناك ثورات حقيقية غير تلك التى تغير العقل والقلب ، ولا ثوار حقيقيون غير الحكيم والقديس .

٤ — المصلح

وبدلا من أن يدعو فولتير لثورة سياسية راديكالية ، جاهد فى سبيل إصلاح معتدل تدريجى فى إطار هيكل المجتمع الفرنسى القائم » وفى نطاق هذه الدائرة المنكرة للذات حقق أكثر مما حققه أى رجل آخر فى جيله .

وكان أهم نداء له هو طلب تنقيح القانون الفرنسي تنقيحا شاملا ، ولم يكن قد روجع منذ ١٦٧٠ . وفى ١٧٦٥ قرأ بالإيطالية كتاب الجيل المسمى « رسالة فى الجنايات والعقوبات » — من تأليف الفقيه الميلانى بيكاريا ، اللذى كان بدوره قد استلهم جماعة الفلاسفة . وفى ١٧٦٦ أصدر فولتير كتابه « تعليق على كتاب الجنايات والعقوبات » وفيه اعترف صراحة بفضل السبق لبيكاريا ، ثم واصل مهاجمة مظالم القانون الفرنسي ووفظاعاته إلى عام ١٧٧٧ حين نشر وهو فى الثانية والثمانين كتابه « ثمن العدالة والإنسانية . »

وقد طالب ، بادىء ذى بدء ، بإخضاع القانون الكنسى للقانون المدنى « وبكبح سلطان الكهنوت فى اشتراط العقوبات التكفيرية المذلة أو فرض التبطل على الناس فى عطلات دينية كثيرة ؛ وطلب تخفيف العقوبات على إنتهاك المقدسات ، وإلغاء القانون الذى يهين جسد المنتحر ويصادر ثروته . وأصر على التفرقة بين الخطيئة والجريمة » والقضاء على الفكرة التى تقول إن عقاب الجريمة ينبغى أن يدعى أنه يثأر لإله مهان .

« يجب ألا يكون لأى قانون كنسى قوة إلى أن يحصل على موافقة الحكومة الصريحة عليه ... وكل ما يتصل بالزواج لا يفصل فيه غير القضاة ، وينبغى أن يقصر القساوسة على وظيفته مباركة الزواج الجليلة ... وإقراض المال بالفائدة من إختصاصات القانون المدنى وحده ... ويجب أن يكون جميع الكهنة ، فى جميع الحالات أيا كانت ، خاضعين لرقابة الحكومة المطلقة لأنهم رعايا للدولة ... ويجب ألا يكون لأى قسيس سلطة حرمان مواطن ولو من أبسط الحقوق بحجة أنه خاطىء ... ويجب أن يسهم القضاة « والزراع » والكهنة على السواء فى نفقات الدولة . »[٨٨]

وقد شبه قانون فرنسا بمدينة باريس — فهو حصيلة بناء تدريجى ، ونتاج المصادفات والظروف ، وخليط من المتناقضات ؛ وقال إن المسافر فى فرنسا يغير قوانينه مرارا كما يغير خيول مركبته ،[٨٩] فالواجب توحيد قوانين جميع الأقاليم والتنسيق العام فيما بينها . وينبغى أن يكون كل قانون واضحا ،

دقيقاً ، ومحصنا على قدر الإمكان من التلاعب بحرفيته . ويجب أن يكون جميع المواطنين سواء أمام القانون ، وإلغاء عقوبة الإعدام لأنها عقوبة همجية مبددة . فلا شك أن من الهمجية عقاب التزوير ، أو السرقة ، أو التهريب « أو الحرق المتعمد بالموت . وإذا كانت السرقة تعاقب بالإعدام « فلن يكون هناك ما يمنع اللص من القتل ، ومن ثم فإن كثيرا من جرائم قطع الطريق فى إيطاليا مصحوبة بالاغتيال . « إذا علقتم على مشنقة الدولة (كما حدث فى برلين عام ١٧٧٢) الخادمة التى سرقت دستة فوط من سيدتها ... فإنها لن تستطيع إضافة دستة من الأطفال إلى مواطنيكم ... وشتان بين دستة فوط وبين حياة إنسان . »(٩٠) ومصادرة ثروة إنسان محكوم عليه بالإعدام سرقة صريحة تقترفها الدولة ضد الأبرياء . وإذا كان فولتير يجادل أحيانا من وجهة نظر نفعية فقط فما ذلك إلا لأنه عرف أن حججه هذه سترجح أى نداء إنسانى فى نظر معظم المشرعين .

على أنه حين تناول موضوع التعذيب القضائى أفصحت روحه الإنسانية عن نفسها فى قوة وتأكيد . ذلك أن القانون الفرنسى أباح للقضاة أن يستخدموا التعذيب وسيلة لاستلال الاعترافات قبل المحاكمة إذا كانت هناك من المؤشرات المريبة ما يلمع إلى أن المتهم مذنب . وقد حاول فولتير أن يخزى فرنسا بإشارته إلى مرسوم كاترين الثانية الذى ألغى التعذيب فى روسيا التى زعم الفرنسيون أنها قطر همجى . « أن الفرنسيين » الذين يعتبرون — ولا أدرى لماذا — شعبا عظيم الإنسانية ، يدهشهم أن الانجليز الذين دفعهم تجردهم من الإنسانية إلى انتزاع كندا كلها من أيدينا » قد أقلعوا عن لذة استخدام التعذيب . »(٩١)

واتهم بعض القضاة بأنهم « فتوات » يتصرفون كأنهم مدعون لا قضاه ، مفترضين بشكل واضح أن المتهم مذنب حتى تثبت براءته . واحتج على حبس المتهم فى سجون قذرة ، وأحيانا فى أغلال عدة شهور قبل تقديمه للمحاكمة . ولاحظ أن المتهم بجريمة كبرى يمنع من الاتصال بأى إنسان حتى بمحام . وروى مرارا وتكرارا معاملة آل كالاس وسيرفنس مثالا على التعجل فى

لإدانة الأبرياء . وقال إن شهادة شخصين فقط ، حتى إذا كانا شاهدى عيان ، ينبغى ألا تعتبر بعد اليوم كافية لإدانة رجل بالقتل ، وساق أمثلة على شهادة الزور ، وألح فى إلغاء عقوبة الإعدام ولو للحيلولة دون إعدام برىء واحد فى كل ألف متهم . وكان فى الإمكان إصدار أحكام الإعدام فى فرنسا بأغلبية اثنين من القضاة ، وقد حكم على كالاس بالموت بأغلبية ثمانية ضد خمسة . وطالب فولتير بأن يشترط لإصدار حكم الإعدام توافر أغلبية ساحقة ، ويفضل أن تكون إجماعا . « يالها من فظاعة سخيفة أن يعبث بحياة مواطن وموته فى لعبة ستة إلى أربعة ، أو خمسة إلى ثلاثة ، أو أربعة إلى اثنين ، أو ثلاثة إلى واحد . »[٩٢]

وكانت الاصلاحات التى اقترحها فولتير على الجملة توفيقا بين ميراثه الثقافى الوسيط وكراهيته للكنيسة ، وخبرته واستثماراته بوصفه رجل أعمال ومالك أرض ، ومشاعره الصادقة شخصا بارا بالإنسانية ، وكانت مطالبه معتدلة ، ولكنها كانت فى كثير من الحالات ذات أثر فعال . شن حملة لتحقيق حرية النشر ، فوسعت هذه الحرية توسيعا هائلا — ولو بفضل إغضاء الحكومة فقط — قبل أن يموت . وطلب إنهاء الاضطهاد الدينى ، فأنهى فى فرنسا من الناحية العملية فى ١٧٨٧ . واقترح الإذن للبروتستنت ببناء الكنائس ونقل الملكية أو وراثتها ، والتمتع بكامل حماية القوانين ، فتم هذا قبل إندلاع الثورة . وطلب إباحة الزواج قانونا بين أشخاص من ديانات مختلفة ، فأبيح . وندد ببيع المناصب ، وفرض الضرائب على الضروريات ، والقيود على التجارة الداخلية ، وبقاء القنية والوقف ، وأشار على الدولة بأن تسترد من الكنيسة تنفيذ الوصايا وتعليم الصغار ، وفى هذه الأمور جميعها كان لصوته تأثير على الأحداث . وقاد الحملة لإجلاء المتفرجين عن خشبة مسرح التياتر — فرانسيه ، فتم هذا فى ١٧٥٩ . وأوصى بفرض الضرائب على جميع الطبقات ، وبنسبة ثروتهم ، وكان على هذه التوصية أن تنتظر حتى تنشب الثورة . وطلب تنقيح القانون الفرنسى ، فتم هذا فى مجموعة قوانين نابليون (١٨٠٧) ، وهكذا يسر الفقهاء والفلاسفة لرجل الحرب والسياسة ، الذى قرر الهيكل التشريعى لفرنسا حتى يومنا هذا ، أن يحقق أعظم مآثره بقاء على الزمن .

٥ — فولتير الصميم

كيف نجمل القول فى شخصية هذا الرجل المذهل جدا من رجال القرن الثامن عشر ؟ لم يعد بنا حاجة للحديث عن عقله — فقد أفصح عن نفسه فى مائة صفحة من هذه المجلدات . ولم يباره أحد فى سرعة الخاطر ووضوح الفكر ، ولا فى حدة النكتة ووفرتها ، وقد عرف النكتة الذكية بعناية بالغة فقال .

« إن ما يسمى النكتة الذكية هو أحيانا مقارنة مجللة ، وأحيانا كناية رقيقة ، أو قد يكون لعبا بالألفاظ — فأنت تستعمل لفظا بمعنى » علما أن محدثك سيأخذه (لأول وهلة) بمعنى آخر . أو هو طريقة ماكرة للمقارنة بين أفكار لا يقرن الناس بينها عادة ... إنه فن إيجاد صلة بين نقيضين » أو خلاف بين شبيهين ؛ إنه فن قول نصف ما تعنى وترك الباقى للخيال . ولو أوتيت المزيد منه شخصيا لزدت القول فيه كثيرا . »[٩٣]

ولم يؤت إنسان آخر مزيدا من هذه النكتة الذكية » ولعل حظه هو منها كان كما قلنا مفرطا . فقد كان زمام حبه للدعابة يفلت منه أحيانا ، وكثيرا ما غلظت دعابته وأشرفت على التهريج أحيانا .

ولم تترك له سرعة إدراكاته » وربطاته ، ومقارناته ، وقفة تتيح له الاتساق والتماسك » ولم يسمح له تعاقب أفكاره السريع دائما وهو يتناول موضوعا بالتغلغل فيه إلى أعماقه المتاحة للبشر . ولعله تسرع فى الحكم على الجماهير بأنهم رعاع ؛ وليس فى وسعنا أن نتوقع منه التنبؤ بزمن سيكون فيه التعليم للجميع ضروريا لاقتصاد تقدمى من الناحية التكنولوجية . ولم يطيق صبرا على نظريات بوفون الجيولوجية ، أو فروض ديدرو البيولوجية . وقد اعترف بقصوره ، ولم يخل من لحظات تواضع . قال لصديق مرة « إنك تظننى أعبر عن نفسى بوضوح كاف . ولكننى أشبه بالجداول الصغيرة — فهى صافية شفافة لأنها ليست عميقة . »[٩٤] وكتب إلى داكان فى ١٧٦٦ :

« منذ كنت فى الثانية عشرة اعتدت أن أتكهن بعدد هائل من الأشياء التى لم أوت الموهبة لفهمها . فأنا عليم بأن أعضائى لم تهيأ لتعمق الرياضة . وقد أثبت أننى لا أميل إلى الموسيقى . اعتمد على تقدير فيلسوف عجوز فيه من الحماقة .... ما يحمله على الاعتقاد بأنه مزارع قدير جدا » ولكن ليس فيه من الحماقة ما يحمله على الاعتقاد بأنه وهب جميع المواهب . »(٩٥)

وليس من الإنصاف أن نطلب من رجل كثرت الموضوعات التى عالجها هذه الكثرة أن يكون قد أستوعب كل المعلومات المتاحة عن كل موضوع قبل أن يجرى عليه قلمه . فلم يكن كله عالما ؛ لقد كان مقاتلا ، أديبا جعل الأدب ضربا من العمل ، وسلاحا للتغيير . ومع ذلك تستطيع أن ترى من مكتبته التى حوت ٢,٢١٠ مجلدا ، وما تركه على الكتب من هوامش » أنه درس فى شغف وعناية موضوعات فيها تنوع مذهل » وأنه كان رجلا واسع العلم جدا بالسياسة ، والتاريخ » والفلسفة ، واللاهوت ، ونقد الكتاب المقدس ، وكانت رقعة حبه للاستطلاع واهتماماته شاسعة » وكذلك كان غنى أفكاره وقدرة ذاكرته على التذكر . ولم يأخذ أى تقليد مورروث على أنه قضية مسلمة ، بل فحص كل شيء بنفسه . وكان فيه نزوع إلى التشكك لا يتردد فى أن يعارض بالفطرة السليمة مخافات العلم وأساطير إيمان العوام سواء بسواء . وقد وصفه عالم نزيه بأنه « مفكر جمع من المعلومات الدقيقة عن العالم فى جميع نواحيه أكثر مما جمعه أى إنسان منذ أرسطو . »(٩٦) ولم يوفق عقل واحد فى أى بلد آخر فى أن ينقل إلى دنيا الأدب ودنيا العمل هذا الحشد الهائل من المواد من مثل هذه الميادين المنوعة .

ولابد لنا من أن نصوره أعجب مزيج من عدم الاستقرار العاطفى ، والرؤية والقدرة العقليتين . فقد جعلته أعصابه دائما متوترا قلقا ، فما كان فى استطاعته الجلوس ساكنا إلا إذا استغرقته الكتابة الأدبية . وحين سألت السيدة ذات الردف الواحد « أيهما أسوأ للمرأة — أن يهتك عرضها قرصان من الزنوج مائة مرة ، أو أن يجرح ردفها جرحا بليغا ... أو أن تقطع أربا » أو أن تجلد فى سفن تشغيل العبيد ، ... أو أن تقعد ولا تعمل شيئاً ؟ » أجابتها كانديد

وهي تنعم الفكر « ذلك سؤال كبير . »[٩٧] لقد كان لفولتير أيام حفلت بالسعادة ، ولكنه قل أن عرف سلام العقل أو الجسد . كان عليه أن يكون مشغولا « نشيطا » يبيع ويشترى « ويزرع ، ويكتب » ويمثل « ويتلو ، وكان يخشى الملل أكثر مما يخشى الموت ، وفى لحظة سأم ذم الحياة لأنها « إما ضجر أو نشدة مخفقة . »[٩٨]

ولعلنا نرسم صورة قبيحة لفولتير أن وصفنا طلعته دون أن نلحظ عينيه « أو عددنا أخطاءه وحماقاته دون فضائله وظرفه . لقد كان « البورجوازى منتحل النبالة » الذى شعر بأن له من الحق فى لقب الشرف ما لمدينيه المماطلين . ولقد بارى أعظم السادة الإقطاعيين كياسة فى السلوك والحديث ، ولكنه كان قادرا على المساومة فى المبالغ التافهة « وانهال على المشرف على الآجام بأقذع الشتائم بسبب أربعة عشر قدما مكعبا من الخشب — أصر على قبولها هدية دون ثمن . وأحب المال أساسا لأمنه . وقد اتهمته مدام دنيس بالبخل بعبارات فيها غلو شديد : « إن محبة المال تعذبك ... وأنت فى صميمك أحط الرجال . وسأخفى ما استطعت رذائل قلبك » .[٩٩] ولكنها حين كتبت هذا (١٧٥٤) كانت تعيش عيشة التبذير فى باريس على مال كان عبئا باهظا على جيبه ، وفى باقى السنين التى قضتها معه كانت تحيا حياة الأبهة والفخفخة بفرنيه .

وقبل أن يصبح مليونيرا وبعده كان يسعى لمصادقة الأقوياء إجتماعيا أو سياسيا بتعلق يقرب أحيانا من التذلل . وفى « رسالة إلى الكردينال دموا » وصف معدن الرذائل ذاك بأنه أعظم من الكردينال ريشليو[١٠٠] . وحين كان يسعى لقبوله فى الأكاديمية الفرنسية واحتاج إلى تأييد رجال الدين أكد للأب دلاتو الكبير النفوذ أنه يود أن يعيش ويموت فى كنف الكنيسة الكاثوليكية المقدسة .[١٠١] وأكاذيبه المطبوعة تؤلف كتابا لو جمعت ، والكثير منها لم يطبع « وبعضها كان غير قابل للنشر » وقد ذهب إلى أن هذا الإجراء مبرر فى الحرب ، وأحس أن حرب السنين السبع لم تكن غير لهو الملوك إذا قيست بحرب الثلاثين عاما التى خاضها ضد الكنيسة « والحكومة التى تستطيع أن تزج برجل فى السجن لقوله الصدق ليس فى وسعها أن تشكو بحق إذا كذب .

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٦٤ عندما حمى وطيس معركته « كتب إلى دالامبير يقول «حالما يبدو أدنى خطر تفضل بإبلاغى لكى أنكر كتاباتى فى الصحف العامة بما عهد فى من صراحة وبراءة . » وقد أنكر كل أعماله تقريبا باستثناء ملحمة « الهنريادة » وقصيدته فى معركة فونتنوا . « على المرء أن يظهر الحق للأجيال القادمة بجرأة ، ولمعاصريه بحذر . ومن العسير جسدا التوفيق بين الواجبين . »(١٠٢)

وما من شك فى أنه كان مغرورا : فالغرور مهماز التقدم ، وسر الكتابة والتأليف . وكان فولتير يتحكم فى غروره عادة ، فكثير ما نقح كتاباته استجابة لما يوجه إليه من مقترحات ونقد بروح طيبة . وكان سخيا فى ثنائه على المؤلفين الذين لا ينافسونه — كما رمونتيل ، ولا هارب ، وبومارشيه ، ولكنه قد يغدو غيورا غيرة صبيانية من مزاحميه ، كما نرى فى . « مديح كريبيون » (الأب) المفعم بالنقد الخبيث ؛ ويرى ديدرو أنه « يحمل ضغينة لكل قاعدة تمثال »(١٠٣) وقد دفعته غيرته إلى شتم روسو شتما مقذعا ، فوصفه بأنه « صبى الساعاتى » و « يهوذا خائن الفلسفة » و « كلب مسعور يعقر كل إنسان » و « مجنون وليد زواج صدفة بين كلبى ديوجين وايراسستراتوس . »(١٠٤) وذهب إلى أن النصف الأول من « جولى أو هلويز الجديدة » قد ألف فى ماخور « والآخر فى مستشفى للمجاذيب » وتنبأ بأن « إميل » سينسى بعد شهر .(١٠٥) وأحس أن روسو ولى ظهره لتلك الحضارة الفرنسية التى كانت رغم كل ذنوبها وجرائمها فى نظر فولتير خمر التاريخ ذاته .

وإذا كان فولتير مجرد أعصاب وعظام دون لحم يذكر « كان أرهف حسا حتى من روسو . ولما كان حتما أن نحس بالآمنا حساسا أحد من إحساسنا بلذاتنا ، فإنه كان يأخذ المديح والاطراء قضية مسلمة ؛ ولكنه « يصاب باليأس » إذا وجه إليه نقد معاد .(١٠٦) وقلما أوتى من الحكمة والتعقل ما يضبط قلمه ؛ فكان يرد على كل معارض مهما صغر شأنه . وقد وصف هيوم بأنه إنسان « لا يغفر أبدا (؟) ، ولا يرى عدوا لا يستحق إهمامه . »(١٠٧) وقد حارب خصومه الالداء كديفونتين وفريرون حربا لا هوادة فيها ؛ ولجأ إلى كل أسلوب فى الهجاء ، والسخرية ، والشتم ، وحتى لوى الحق بمكر .(١٠٨)

وكان غله يصدم أصدقاءه القدامى ويخلق له أعداء جددا . قال « إنى أعرف كيف أكره لأننى أعرف كيف أحب . »[١٠٩] « إننى بحكم طالعى أميل قليلا إلى الأذى »[١١٠] ، وهكذا حرك كل كتائبه بنجاح ليهزم ترشيح دى روس للأكاديمية (١٧٧٠) . وقد لخص الأمر بمزيج من خلق دارتنيان ورابليه :

« أما عن شخصى الضعيف ، فإنى أخوض الحرب حتى آخر لحظة — ضد الجانسنيين ، والمولنيين ، والفريرونيين ، واليومبنيانيين ، اليمينيين واليساريين ، والوعاظ ، وجان — جاك روسو . أتلقى مائة طعنة وأردها مائتين ، وأضحك .. حمداً لله ! إننى أنظر إلى العالم كله كأنه مهزلة (فارص) تستحيل مأساة أحيانا ، يستوى كل شيء آخر النهار ، وسيظل كل شيء سواء فى نهاية الأيام . »[١١١]

وفى عدائه للسامية حول على شعب بأسره ذلك الغيظ الذى ولدته خصوماته مع بعض أفراده . ومن زاوية تلك الذكريات فسر فولتير تاريخ اليهود ، فسجل عليهم أخطاءهم بتدقيق وتفصيل ، وندر أن يرأهم لعلم كفاية الأدلة على إدانتهم . ولم يستطيع أن يغتفر لليهود إنجابهم المسيحية . « حين أرى المسيحيين يلعنون اليهود يخيل إلى أننى أرى أبناء يضربون آباءهم . »[١١٢] ولم يكد يتبين فى العهد القديم شيئا سوى سجل للقتل ، والفسق ، والاغتيال بالجملة ، ورأى فى سفر الأمثال « مجموعة من الحكم التافهة ، القذرة ، المهلهلة ، المجردة من الذوق ، أو الاختيار ، أو الهدف » ، أما نشيد الإنشاد فهو فى نظره « قصيدة حماسية سخيفة » .[١١٣] على أنه أثنى على اليهود لإنكارهم القديم للخلود ، ولامتناعهم عن التبشير بعقائدهم ، ولتسامحهم النسبى ؛ فالصدوقيون أنكروا وجود الملائكة ، ولكنهم لم يعانوا من أى اضطهاد بسبب هرطقتهم .

أكانت فضائله ترجح رذائله ؟ أجل ، حتى ولو لم نضع فى الميزان صفاته العقلية مع صفاته الخلقية . فأمام شحه يجب أن نضع سخاءه ، وأمام محبته للمال تقبله البشوش الساتر واستعداده لاقتسام مكاسبه مع غيره . استمع إلى كولينى ، الذى لابد قد عرف عيوبه لأنه عمل سكرتيراً له سنين كثيرة :

«ما من دعوى أكذب من تهمة البخل التي يرمى بها ... فلم يكن للبخل مكان في بيته . وما عرفت رجلا يستطيع خدمه أن يسرقوه بسهولة أكثر . لقد كان ضنينا بوقته فقط ... وكان له في أمر المال المبادىء التي يهتدي بها في أمر الوقت ؛ فمن الضروري في رأيه أن تقتصد لكي تسخو فيه .»[١١٤]

وتكشف رسائله عن بعض الهبات الكثيرة التي وزعها ، دون أن يعلن عن اسمه عادة ، لا على أصدقائه ومعارفه فحسب ، بل حتى على أشخاص لم يرهم قط .[١١٥] وسمح لباعة الكتب أن يحتفظوا بالربح الذي يجنونه من كتبه . وقد رأيناه يسدي العون للآنسة كورنيي ؛ وستراه يساعد الآنسة فاريكور . ورأيناه يعين فوفنارج ومارمونتيل ؛ كذلك فعل مع لاهارب ، الذي فشل مسرحيا قبل أن يغدو أقوى نقاد فرنسا أثرا ، فطلب فولتير أن يعطى نصف معاشه الحكومي البالغ ألفي فرنك للاهارب دون أن ينبئه بحقيقة المعطي .[١١٦] كتب مارمونتيل «يعلم الجميع مبلغ العطف الذي كان يحبو به الشبان الذين يبدون أي موهبة للشعر .»[١١٧]

وإذا كان فولتير الواعي بضآلة جسيمة ، لم يؤت شجاعة بدنية تذكر (إذ ترك الكابتن بورجار يضربه بالعصا عام ١٧٢٢) ،[١١٨] فإنه أوتي من الشجاعة الأدبية قدرا مذهلا (فقد هاجم أقوى مؤسسة في التاريخ ، وهي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية) . وإذا كان عنيفا في الخصومة ، فإنه كان سريع العفو عن خصومه الذين يسعون إلى الصلح معه ، «فكان غضبه يزول لأول رجاء .»[١١٩] وكان يخلق الحب على كل من طلبه ، وكان وفيا لأصدقائه . فلما افترق عن فاجنيير بعد عشرة أربعة وعشرين عاما ، «بكى كالأطفال .»[١٢٠] أما عن فضيلته في أمور الجنس فقد كانت فوق مستوى جيله مع مدام دوشاتليه ، ودون ذلك المستوى مع ابنة أخته . وكان متسامحا مع الفوضى الجنسية ، ولكنه يغضب غضبة مضرية على الظلم . والتعصب ، والاضطهاد ، والنفاق ، وفظاعات قانون العقوبات . وقد عرف الفضيلة بأنها «البر بالبشر .» أما فيما عدا ذلك فكان يسخر من المحظورات ، ويستمتع بالخمر ، والنساء ، والغناء ، في قصد فلسفي . وفي أقصوصة سماها «بابابيك»

رفض الزهد بما هو معهود فيه من تهكم موجع . فترى أومنى يسأل البرهمى « أهنالك أمل فى أن يبلغ فى النهاية السماء التاسعة عشرة ؟ »

ويجيب البرهمى « هذا يتوقف على نوع الحياة التى تحياها . إنى أحاول أن أكون مواطنا صالحا ، وزوجا صالحا ، وأبا صالحا ، وصديقا صالحا ، وأحيانا أقرض المال بغير ربا للأغنياء ، وأتصدق على الفقراء » وأحفظ السلام بين جيرانى . » فيسأل البرهمى « ولكن أتغرز المسامير أحيانا فى عجزك ؟ » .

« أبداً يا أبى المبجل »

ويجيب البرهمى « إذن فأنا آسف ، لأنك لن تبلغ السماء التاسعة عشر ، ما فى ذلك ريب . »[١٢١]

أما فضيلة فولتير المتوجة لفضائله المكفرة عن سيئاته ، فهى إنسانيته . لقد حرك ضمير أوربا بحملاته دفاعا عن آل كالاس وسيرفنس . وشهر بالحرب باعتبارها « الوهم الكبير » . « فالأمة الغالبة لا تفيد إطلاقا من أسلاب الأمة المغلوبة ، وهى تدفع ثمن كل شيء ، وتعانى حين تنتصر جيوشها قدر معاناتها حين تنهزم . [١٢٢] وأياً كان الفريق المنتصر ، فإن الإنسانية خاسرة على الحالين» . وقد ناشد الناس فى شتى الظروف والأقطار أن يتذكروا أنهم أخوة ؛ واستمع الناس إلى ذلك النداء بشكر وعرفان فى مجاهل أفريقيا . [١٢٣] كذلك لم تصدق عليه التهمة التى وجهها روسو للذين بشروا بحب البشر ووسعوا هذا الحب توسيعا لم يترك فيه مكانا لجيرانهم « فكل الذين عرفوه تذكروا عطفه ومجاملته لأقل الأشخاص المحيطين به شأنا . كان يحترم كل نفس ، عارفا حساسيتها لأنه يعرف حساسيته . [١٢٤] وقد واصل كرم ضيافته رغم ما فرض عليها من مطالب باهظة . كتبت مدام دجرافينى « كم تأثرت حين وجدت فيك من الطيبة مالا يقل عما فيك من العظمة ، ورأيتك تفعل لكل من يحيطون بك الخير الذى كنت تود أن تفعله للبشرية جمعاء . »[١٢٥] وكان أحيانا

نزقا يتفجر غضبا ، ولكن « لا يمكن أن تتصور أبدا مبلغ ما فى قلب هذا الرجل من طيبة » كما كتب عنه زائر آخر (٢٦)

وإذ ذاع صيت العون الذى يسديه للمضطهدين فى أوربا ، وانتشرت الأنباء فى فرنسا عن بره وإحساناته المستورة ، تشكلت صورة جديدة لفولتير فى ذهن الجماهير . فلم يعد عدو المسيح ، ولا المحارب لدين يحبه الفقراء ؛ بل أصبح منقذ آل كالاس ، وسيد فرنيه الطيب ، والمدافع عن عشرات من ضحايا العقائد المتزمتة والقوانين الظالمة . وقال قساوسة جنيف إنهم حائرون فى موقفهم وإياه فى يوم الحساب ، فهل إيمانهم بعدل أعمال هذا الزنديق .(١٢٧) وغفر له المثقفون رجالا ونساء زندقته ، ومشاجراته ، وغروره ، لا بل خبثه . ورأوه يتحول من الخصومة إلى السماحة ، فنظروا إليه الآن نظرتهم إلى الأب الجليل للآداب الفرنسية ، وفخر فرنسا أمام العالم المثقف . ذلك هو الرجل الذى رحبت حتى جماهير العامة بمقدمه حين جاء إلى باريس ليموت .

* * *

الفصل السادس

روسو الرومانسي

١٧٥٦ — ١٧٦٢

١ — في « الايرميتاج » : ١٧٥٦ — ١٧٥٧

كان روسو قد انتقل إلى كوخ مدام ديبنيه في ٩ أبريل ١٧٥٦ مصطحباً زوجته غير الشرعية تريز لاڤاسير وأمها . وسعد بالعيش هناك حيناً ، إذ أحب غناء الطيور وزقزقتها ، وحفيف الأشجار وعبيرها « وهدوء الجولات المنفردة في الغابات . وكان في جولاته يحمل قلماً وكراسة ليقتنص الأفكار وهي تمرق منه.

ولكنه لم يخلق للراحة والسلام . ذلك أن حساسيته ضاعفت كل عناء ، وخلقت مزيداً من المتاعب . لقد كانت تريز زوجة وفية « ولكنها لا تستطيع أن تكون رفيقاً للذهن ، كتب في إميل يقول « ينبغي ألا يقترن الرجل الذي يفكر بزوجة لا تستطيع مشاطرته أفكاره . »[1] ولم يكن بتريز المسكينة حاجة تذكر للأفكار ، ولا كبير حاجة للكلمات المكتوبة . لقد بذلت له جسدها وروحها ، واحتملت غضباته ، وأغلب الظن أنها ردت عليها بمثلها ، وسمحت له بأن يقترب من حافة الخيانة مع مدام دودتو ، وكانت هي على قدر ما نعلم وفية في تواضع باستثناء حادث لا سند لنا فيه إلا رواية بوزويل . ولكن أنى لهذه المرأة الساذجة أن تستجيب لذلك الاتساع والتنوع الجامح في عقل قدر له أن يزلزل نصف القارة ؟ استمع إلى تفسير روسو :

« ماذا يظن القارىء إذا قلت له ... إنني منذ اللحظة الأولى التي وقع عليها بصري حتى اللحظة التي أكتب الآن فيها لم أشعر قط بأقل حب لها « ولم أشته قط أن أملكها ... وأن الحاجات البدنية التي أشبعت بشخصها كانت بالنسبة لي

حاجات الجنس فقط ، دون أن تنبعث إطلاقا من شخصيتها ؟ ... لقد كانت أولى حاجاتي ، وأعظمها ، وأقواها ، وأشرهها ، كلها في قلبي : الحاجة إلى رباط (روحى) حميم ، حميم ما أمكن . وكانت هذه الحاجة الفريدة بحيث لا يشبعها أوثق الاتصال البدنى ، ولم يكن بد لها من وجود روحين . [٢]

ولعل تريز كانت ترد على هذه الشكاوى بضدها ، لأن روسو كان قد كف الآن عن القيام بوظائفه الزوجية . فنى ١٧٥٤ قرر لطبيب جنيفى : « لقد تعرضت طويلا لأقسى الآلام ، لعلة حصر البول التى لاشفاء لى منها ، والتى نجمت عن احتقان فى مجرى البول يسد القناة سدا يستحيل معه أن يدخل فيها حتى قسطرات الدكتور داران المشهور . [٣] وزعم أنه أقلع عن كل اتصال جنسى مع تريز بعد ١٧٥٥ [٤] ثم أضاف « حتى ذلك التاريخ كنت صالحا ، ومن تلك اللحظة أصبحت طاهرا ، أو على الأقل متيا بالطهارة .

وجعل وجود حماته معهما هذا المثلث حادا إلى درجة مؤلمة . وقد عالها هى وزوجته ما استطاع من دخله الذى جاءه من نسخ الموسيقى ومن بيع كتبه . غير أن مدام لافاسير كان لها بنات أخريات يحتجن إلى مهور ويعشن فى ضنك مقيم . وجمع جريم وديدرو ودولباخ فيما بينهم للمرأتين معاشا سنويا قدره أربعمائة جنيه ، وأخذوا عليهما العهد بكتمان الأمر على روسو مخافة جرح كبريائه . واختصت الأم نفسها وبناتها بمعظم المال (على رواية روسو) [٥] ، واستدانت باسم تريز ، ودفعت تريز الديون ، وأخفت أمر المعاش طويلا ، وأخيرا كشف روسو سره ، فاستشاط غضبا على أصدقائه لاذلالة على هذا النحو . وقد زادوه غضبا بالإلحاح عليه فى أن ينتقل من الإيرمتاج قبل حلول الشتاء ، فالكوخ (فى رأيهم) لم يعد للجو البارد . وحتى لو احتملت زوجته برد الشتاء فيه فهل فى طاقة الأم احتماله ؟ وكان ديدرو قد كتب فى تمثيلية « الابن الطبيعى » [٦] : « إن الرجل الصالح يحيا فى مجتمع ؛ ولا يعيش وحيدا غير الطالح » . وخيل لروسو أنه المقصود بهذا القول ، وبدأ الآن نزاع طويل لم تكن المصالحات التى تخللته إلا مهادنات . وشعر روسو أن جريم وديدرو يحاولان إغرائه بالعودة إلى مدينة فاسدة لأنهما يحسدانه على السلام الذى وجده بين

الغابات . وقد كشف فى خطاب أرسله إلى صاحبة الفضل عليه « مدام ديبنيه » (وكانت فى باريس) عن خلقه بصراحة ونفاذ بصر . قال :

« أريد أن يكون أصدقائى أصدقاء لا سادة على ؛ أريدهم أن ينصحونى لا أن يحاولوا التسلط على ؛ وأن يكون لهم كل المطالب على قلبى دون مطلب واحد يقيد حريتى . أنى لأراها غريبة تلك الطريقة التى يتدخل بها الناس باسم الصداقة فى شئونى دون أن يطلعونى على شئونهم .... وحرصهم الشديد على أن يؤدوا لى ألف خدمة يرهقنى ، ففيه لمسة من الاستعلاء تضنينى ؛ ثم إن كل إنسان فى وسعه أن يفعل مثل ما يفعلون ...

« وإنى لتوحدى وانعزالى على الناس أشد حساسية من غيرى . فلو فرضنا أننى تشاجرت مع إنسان يعيش وسط الزحام ، فإنه يفكر فى الأمر لحظة ثم تنسيه إياه عشرات الشواغل بقية النهار . أما أنا فلا يصرف أفكارى عنه شىء ولا أفتأ أقلبه فى ذهنى طوال الليل وأنا مؤرق ، وأفكر فيه وأنا أتمشى وحدى من شروق الشمس إلى غروبها ، وقلبى لا يهدأ لحظة واحدة ، واساءة من صديق كفيله بأن تجعلنى أعانى فى يوم واحد سنوات من الحزن . وإن لى أنا العليل حقا فى التسامح الواجب من إخوتى البشر نحو هفوات رجل مريض وغضباته ... وأنا فقير ، وفقرى يخول لى بعض الرعاية (أو كذلك يخيل إلى) .

« لا يدهشك إذن إن أنا أبغضت باريس أكثر فأكثر . ليس لى شىء أنشده من باريس سوى رسائلك . ولن يرانى أحد هناك ثانية أبدا . وإذا شئت أن تنبئينى بآرائك حول هذا الموضوع ، وبكل ما تبغين من قوة وعنف ، فلك الحق فى ذلك . فستلقى منى قبولا حسنا ، وستكون — عديمة الجدوى » .[٧]

وقد أجابته بما يكفى من العنف فقالت « أوه ، دع هذه الشكاوى التافهة لمن خانت قلوبهم ورؤسهم .[٨] » ولكنها استفسرت مرارا عن صحته وراحته ، واشترت له حاجياته ، وأرسلت له الهدايا الصغيرة .

« ذات يوم والحرارة بلغت من التجمد درجة قصوى ، وجدت وأنا افتح طردا به عدة أشياء طلبت إليها أن تبتاعها لى جيرنلة داخلية من الفانللا الإنجليزية

قالت إنها كانت تلبسها » ورغبت إلى فى أن ألبسها صدرية داخلية ، ورأيت فى هذه الرعاية البالغة الود حنانا شديدا — وكأنها تعرت لتكسونى — حتى رحت فى انفعالى أقبل الخطاب والجونلة جميعا غير مرة وأنا أذرف الدمع . وخالتى تريز قد جننت . [٩]

وخلال عامه الأول فى الارميتاج صنف « قاموس الموسيقى » ولخص بلغته المجلدات التى ألفها الأبيه دسان — بيير عن الحرب ، والسلام ، والتعليم ، والإصلاح السياسى . وفى صيف ١٧٥٦ تلقى من المؤلف نسخة من قصيدة فولتير فى الزلزال الذى أهلك خمسة عشر ألف شخص ، وجرح خمسة عشر ألف آخرين فى لشبونة فى عيد جميع القديسين أول نوفمبر ١٧٥٥ ، وقد تساءل فولتير كما تساءل نصف العالم لم اختارت العناية « المفترض فيها أنها خيرة ، لهذه الملحمة العمياء عاصمة قطر كله كاثوليكى ، وساعة — ٩,٤٠ صباحا — كل الأتقياء يصلون فيها فى الكنيسة . وفى نغمة من التشاؤم المطلق رسم فولتير صورة للحياة والطبيعة محايدتين حيادا قاسيا بين الشر والخير . وفى الفقرة التالية من الاعترافات نقرأ رد فعل روسو لهذه القصيدة القوية :

« حين ادهشنى أن أرى هذا المسكين « الغارق (إن جاز القول) فى أسباب الثراء والتشريف » يشكو بمرارة أرزاء هذه الحياة ، ويجد كل شىء خطأ » فكرت فى مشروع جنونى هو أن أجبره على تحويل اهتمامه إلى نفسه » وعلى إثبات أن كل شىء صواب . إن فولتير وهو يبدو مؤمنا بالله لم يؤمن قط فى الواقع بشىء غير الشيطان ، لأن إلهه المزعوم كائن خبيث لا يلتذ إلا بالشر ، كما يقول . ويحفز هذه القصيدة الصارخ يثير أشد التقزز من رجل ينعم بثراء فاحش ، رجل يحاول من حضن السعادة أن يشيع اليأس فى قلوب إخوته البشر بما يصور من صورة رهيبة قاسية لكل الكوارث التى أعفى منها » أما أنا الذى يحق لى أكثر منه أن أعدد وأزن كل شرور الحياة البشرية ، فقد فحصتها فى غير تحيز » وأثبت له أنه ما من شر من جميع الشرور الممكنة يجب أن ننسبه للعناية » وألا نرده بالأحرى إلى إساءة استعمال الإنسان لقدراته لا إلى الطبيعة » [١٠] .

وعليه في ١٨ أغسطس ١٧٥٦ أرسل روسو إلى فولتير « رسالة في العناية الإلهية من خمس وعشرين صفحة ، يبدأها بإقرار لطيف بفضل فولتير . قال :

« جاءتني قصائدك الأخيرة يا سيدي في عزلتي ، ومع أن جميع أصدقائي يعرفون محبّتي لكتاباتك ، فلست أدري من كان ممكنا أن يرسل لي هذا الكتاب سواك . لقد وجدت المتعة والفائدة جميعا ، وتبينت فيه يد الأستاذ ... ولزام علي أن أشكرك على الحلد وعلى صنيعك . »[١١]

ثم ناشد فولتير ألا يلوم العناية الإلهية على مصائب البشر . فمعظم الشرور راجع لحماقتنا ، أو خطيئتنا ، أو إجرامنا :

« لاحظ أن الطبيعة لم تحشد عشرين ألف بيت من ستة طوابق أو سبعة ، وأنه لو كان سكان تلك المدينة الكبرى موزعين توزيعا أكثر توازنا في مساكن أقل تكاثفا « لكانت الخسارة أقل كثيرا » أو ربما انعدمت ، ولكان كل اهلها قد هربوا عند أول هزة ، ولرأيناهم في الغد على بعد عشرين فرسخا ، مرحين كأن شيئا لم يصبهم . »[١٢]

وكان فولتير قد كتب أن قلة من الناس من يودون أن يولدوا من جديد في نفس الظروف « فرد روسو بأن هذا لا يصدق إلا على الأثرياء الذين أتخموا باللذات « وملوا الحياة » وأعوزهم الإيمان ؛ أو على الأدباء القاعدين « غير الأصحاء « الغارقين في تأملاتهم » الساخطين ؛ ولكنه لا يصدق على بسطاء الناس كالطبقة الوسطى الفرنسية أو القرويين السويسريين . والذي يجعل من الحياة معضلة لنا هو إساءة استعمالها .[١٣] ثم إن شر الجزء قد يكون خير الكل « فموت الفرد يتيح الحياة المتجددة للنوع . والعناية الإلهية عامة لا خاصة ؛ فهي تسهر على الكل ، ولكنها تترك أحداثا نوعية للأسباب الثانوية والقوانين الطبيعية .[١٤] وقد يكون الموت المبكر نعمة كذلك الذي أصاب أطفال لشبونة ، وهو على أية حال غير ذي بال ما دام هناك إله ، لأنه تعالى سيكافىء الجميع على ما أصابهم من معاناة لا يستحقونها .[١٥] ومسألة وجود الله تجاوز

الحل بالعقل . ولنا أن نختار بين الإيمان والكفر ، فلم نرفض إيمانا ملهما معزيا ؟؟
أما عن نفسى ، فقد عانيت فى هذه الحياة كثيراً ، لهذا يملؤنى الرجاء فى حياة أخرى . وكل دقائق الميتافيزيقا لن تشككنى لحظة فى وجود عناية خيرة وفى خلود النفس . أننى أحس هذا ، وأومن به ، وأتمناه ... وسأدافع عن هذه المعتقدات إلى آخر نسمة من حياتى . »[١٦]

واختتم روسو خطابه ختاما لطيفا ، فقال إنه متفق مع فولتير على التسامح الدينى ، وأكد له « إننى أوثر أن أكون مسيحيا على طريقتك لا على طريقة الصوربون . »[١٧] . ورجا فولتير أن ينظم بكل ما فى شعره من قوة وفتنة «كتاب تعليم مسيحى للمواطن» يتضمن قاموسا أخلاقيا يهدى الناس فى فوضى العصر . وكتب فولتير إقراراً مهذبا بوصول رسالة روسو ، ودعاه للنزول ضيفا عليه فى الدليس[١٨] ، ولم يبذل محاولة منظمة لتنفيد حجج روسو ، ولكنه رد عليها بطريق غير مباشر بروايته « كانديد »(١٧٥٩) .

٢ — العاشــق

حفل شتاء ١٧٥٦ — ١٧٥٧ بالأحداث لروسو . ففى فترة ما خلال تلك الشهور بدأ يكتب أشهر رواية فى القرن الثامن عشر « جولى » أو هلويز الجديدة» وقد تصورها أول الأمر دراسة فى الصداقة والحب . فابنتا العم جولى وكلير تحبان سان — برو ، ولكنه حين يغوى جولى تظل كلير الصديقة الوفية لكليهما . فلما أخجله أن يكون الكتاب مجرد رواية غرامية ، عمد إلى رفع القصة إلى مقام الفلسفة بتحويل جولى إلى التدين ، والعيش فى ولاء مثالى لزوجها فولمار وهو سيد شكاك استسلم لتعالم فولتير وديدرو . يقول روسو فى اعترافاته :

« كانت العاصفة التى أطلقتها الموسوعة .. فى ذلك الحين على أشدها . فلم يلبث الفريقان ، اللذان بلغ سخطهما بعضهما على بعض نهايته ، أن أصبحا أشبه بذئاب غاضبة ... لا مسيحيين وفلاسفة يرغب كل منهما فى إثارة الآخر وإقناعه وهداية إخوانهم إلى طريق الحق . وكنت قد جهرت بالحقائق الصارمة للفريقين لأننى بطبعى عدو لكل أنواع التخريب ، ولكنهم لم يستمعوا إلى

ففكرت فى طريقة أخرى ، بدت لى فى بساطتى جديرة بالإعجاب ، وهى التخفيف من كراهتهما المتبادلة بأن أحطم تعصبهما ، وأظهر لكل فريق ما للآخر من فضائل وحسنات تستحق تقدير الجميع واحترامهم . وأحرزت الفكرة ... للنجاح المرتقب ، فقد قربت ووحدت الحزبين المتنافسين على هدف واحد هو سحق الكاتب ... ولما رضيت .. عن خطتى ، عدت إلى الموقعين تفصيلا ... فأسفر هذا عن الجزئين الأول والثانى من « هلويز » .[19]

وكان يقرأ على تريز ومدام ليفاسير كل مساء صفحات من القصة عند المدفأة . وشجعته الدموع التى كانت تذرفها تريز ، فدفع بالمخطوطة إلى مدام ديبنيه حين عادت إلى قصرها الريفى ، لاشتريت ، على ميل من الإرميتاج . وفى مذكراتها استعادة للحدث : « حين وصلنا هنا ... وجدنا روسو فى انتظارنا . وكان هادئا رائق المزاج للغاية . وأحضر لى رواية (جانبا منها) قد بدأها ... وقد قفل إلى الإرميتاج أمس ليستأنف هذا العمل ، الذى يزعم أنه قوام سعادة حياته . »[20] وبعد قليل كتبت إلى جرم :

« بعد العشاء قرأنا مخطوطة روسو . ولست أدرى هل أنا متحيزة ضدها ، ولكنى غير راضية عنها ، إنها مكتوبة بأسلوب فى غاية الروعة ، ولكنها مسرفة فى التفصيل ، وتبدو غير واقعية ومفتقرة إلى الحرارة . ولا تقول شخوصها كلمة واحدة مما ينبغى أن تقوله ، فالمؤلف هو الذى يتكلم دائما . ولا أدرى كيف أخرج من هذا المأزق ، فلست أحب أن أخدع روسو ، ولا أستطيع أن أستقر على إدخال الحزن على قلبه . »[21]

على أن روسو ، على نحو ما ، بث الحرارة فى جولى خلال الشتاء ، أكان ذلك لأن قصة حب حية دخلت حياته ؟ ذلك أنه فى ٣٠ يناير ١٧٥٧ زارته سيدة كان قد لقيها فى باريس باعتبارها أخت زوج مدام ديبنيه . وكانت هذه السيدة ، واسمها اليزابث — صوفى دبيلجارد ، قد تزوجت الكونت دودتو ، ثم تركته ، وأصبحت الآن خليلة عدة سنوات للمركيز دسان — لامبير ، الذى كان يوما ما مزاحما لفولتير على مدام دشاتليه . وكان زوجها وعشيقها كلاهما

قد انطلق إلى ساحة القتال . وفى صيف ١٧٥٦ كانت الكونتيسة قد استأجرت قصر أوبون الريفى ، على نحو ميلين ونصف من الإيرميتاج . وكتب لها سان – لامبير أن روسو على رحلة جواد قصيرة منها ، واقترح عليها أن تسرى عن وحدتها بزيارة الكاتب الشهير الذى أوقف الحضارة كلها موقف الدفاع عن نفسها . فذهبت فى مركبة ، فلما انغرزت فى الوحل واصلت الرحلة سيرا ، فوصلت وحذاؤها وثوبها ملطخان . « وجعلت المكان يدوى بضحكها الذى شاركتها فيه من كل قلبى »[22] . وأعطتها تريز تغييرة ملابس . ومكثت المركيزة لتتناول « وجبة ريفية خفيفة » وكانت فى السابعة والعشرين ، وروسو فى الخامسة والأربعين . ولم تكن باهرة الجمال سواء فى طلعتها أو قوامها ، ولكن رقتها « ودماثة طبعها ، وروحها المرحة أثارت حياته المظلمة . وفى العصر التالى أرسلت إليه رسالة لطيفة ، مخاطبة إياه باللقب الذى اتخذه بعد أن استوطن جنيف ثانية :

« أيها المواطن العزيز » أعيد إليك الثياب التى تفضلت بأعارتى إياها . وقد وجدت عند رجوعى طريقا أفضل كثيرا ، ويجب أن أخبرك بمبلغ سرورى بهذا ، لأنه ييسر لى العودة إلى زيارتك . ويؤسفنى أننى لم أمكث إلا قليلا ... وسيكون أسفى أقل إذا كنت أكثر حرية ، واثقة دائما من أننى لا أزعجك . وداعا يا مواطنى العزيز » وأرجوك أن تشكر للآنسة ليفاسير كل ما أبدته نحوى من عطف . »[23]

وبعد أيام عاد سان – لامبير من الجبهة . وفى أبريل استدعى من جديد للخدمة العسكرية » وما لبثت الكونتيسة المرحة أن خطرت إلى الإيرميتاج على صهوة جوادها مرتدية ثياب الرجال . وصدم زيها روسو ، ولكنه ما لبث أن أحس بأنه يحتوى امرأة فاتنة . فانطلق مع ضيفته سيرا فى الغابات تاركا تريز لواجباتها المنزلية وأخبرته مدام دودتو عن شدة حبها لسان لامبير » وفى مايو رد زيارتها ، فذهب إلى أوبون فى الوقت الذى تكون فيه « وحيدة تماما » كما قالت له . يقول « كنت أحيانا فى رحلاتى المتكررة لأوبون أنام هناك ...

وكنت أراها كل يوم تقريبا طوال ثلاثة أشهر . ورأيت شخصية جولى متمثلة فى مدام دودتو ، ثم لم أعد أرى غير مدام دودتو (فى جولى) ، ولكن بكل أسباب الكمال التى جملت بها معبودة قلبى . »[٢٤]

وأسلم نفسه زمنا لهذا الهذيان المحموم حتى لقد كف عن كتابة قصته ، وراح بدلا من هذا يكتب الخطابات الغرامية التى حرص على أن تعثر عليها فى كوى أشجار أوبون . فقال لها إنه يحب ، ولم يقل من محبوبته ؛ ولكنها عرفت بالطبع . فوبخته ، وأكدت له أنها ملك سان — لامبير جسدا وروحا ، ولكنها سمحت له بمواصلة زياراته وتودده الحار ؛ والمرأة على أى حال تحيا حياة واحدة فقط حين تحب ، وحياة مضاعفة حين يحبها إثنان . « لم تنكر على شيئاً يمكن أن تمنحه أرق الصداقات . ولكنها لم تمنحنى شيئاً يجعلها خائنة . » وهو يروى أنباء ما كانا يخوضان فيه من « أحاديث مستفيضة متكررة ... خلال الشهور الأربعة التى انفقاها فى صلة حميدة لا تكاد تضارعها صلة بين صديقين من الجنسين يحصران نفسهما داخل الحدود التى لم نتجاوزها قط . »[٢٥] وفى روايته لهذه العلاقة نجد الحركة الرومانسية على أشدها : فلا شىء فى قصته يمكن أن يضارع هذه النشوات :

« لقد سكرنا كلانا بخمر الحب — حبها لحبيبها ، وحبى لها ؛ وامتزجت تنهداتنا ودموعنا ... ولم تنس نفسها قط لحظة واحدة فى حميا هذا السكر اللذيذ ، وأؤكد تأكيدا قاطعا إننى أن كنت مرة ، وأنا منساق بحواسى ، قد حاولت حملها على الخيانة ، فإنه لم يكن بى رغبة حقيقية فى النجاح .. ذلك أن واجب نكران الذات تسامى بعقلى ... لقد كان من الممكن أن أقارف الجريمة ، وقد قورفت مائة مرة فى قلبى ؛ ولكن أن الوث شرف حبيبتى صوفى ! أواه ، أيمكن هذا ؟ كلا ! لقد قلت لها مائة مرة إنه محال ... فإن حبى لها أعظم من أن يغرينى بتملكها ... تلك كانت اللذة الوحيدة لرجل أوتى مزاجا من أكثر الأمزجة تأججا ، ولكنه ربما كان فى الوقت ذاته من أجبن من أنجبتهم الطبيعة من البشر . »[٢٦]

ولاحظت مدام ديبنيه أن « دبها » لم يعد يزورها الآن إلا لماما ، وسرعان

ما علمت بنبأ رحلاته لأخت زوجها . فآلمها النبأ . وكتبت إلى جريم فى يونيو تقول « من القسوة على أى حال أن يهرب منك فيلسوف فى أقل اللحظات توقعا لهروبه . »[٢٧] وذات يوم فى أوبون وجد روسو « صوفى » تبكى . ذلك أن سان — لامبير نمى إليه خبر عبثها هذا ، وقد أبلغ بالخبر (كما قالت لجان — جاك) « بطريقة سيئة . إنه ينصفنى ، ولكنه مغيظ ... وأخشى ما أخشاه أن تكلفنى حماقاتك الراحة والهدوء بقية أيامى »[٢٨] . واتفقا على أن الذى باح بالسر لسان — لامبير لابد هومدام دبينيه « لأننا « كنا نعلم أنها تراسله . » أو لعلها باحت به لجريم ، الذى كان يلقى سان — لامبير بين الحين والحين فى وستفاليا . وقد حاولت مدام دبينيه — فى رواية روسو — أن تحصل من تريز على خطاباته التى تلقاها من مدام دودتو ، واتهم مضيفته بخيانته فى خطاب عنيف :

« هناك عاشقان (صوفى وسان — لامبير (عزيزان على » وهما وثيقا الارتباط جديران بحب الواحد لصاحبه ... وأحسب أن محاولات بذلت للتفريق بينهما ، وأنى استعملت لبث الغيرة فى صدر أحدهما . ولم يكن الاختيار سديدا ، ولكنه بدا محققا لأغراض الحقد ؛ وأنت التى أشتبه فى أنها مذنبة بهذا الحقد .. وهكذا كان يمكن أن يلصق بالمرأة التى أكن لها أعظم تقدير ... عار قسمة قلبها وشخصها بين حبيبين ، ويلصق بى أنا عار كونى أحد هذين التعيسين . ولو علمت أنك فكرت فى هذا إطلاقا ولو لحظة واحدة فى حياتك ، سواء عنها أو عنى ، لأبغضتك حتى آخر نسمة من حياتى ، ولكنى لا أتهمك بالتفكير فى هذا فحسب » بل بقوله أيضا .

« أتعلمين كيف أكفر عن أخطائى فى الفترة القصيرة التى أنا مضطر للمكث فيها بقربك ، بفعل ما لا يفعله أحد سواى : بمصارحتك برأى الناس فيك » وبالصدوع التى عليك أن ترأبيها فى سمعتك [٢٩] » .

وأحزن عنف هذه التهم مدام دبنيه ، سواء أكانت مذنبة أم بريئة (ولا علم لنا بالحقيقة) ، فأبلغتها إلى حبيبها البعيد جريم . وأجاب بأنه قد حذرها من « المآذق الشيطانية » ، التى ستتورط فيها بإنزال روسو النزق الغريب الأطوار

فى الإيرميتاج [٣٠] . ودعت جان ــ جاك إلى شفريت ، وحيته بالعناق والدموع ، وأجاب على الدموع بمثلها ، ولم تدل له بأى تفسير وصل إليها علمه ، وتعشى معها ، ونام فى بيتها ، ورحل فى الغد مودعا بعبارات الصداقة .

وزاد ديدرو الطين بلة . فقد أشار على روسو بأن يكتب إلى سان ــ لامبير معترفا بميله لصوفى ، مؤكدا له رغم ذلك وفاءها . ووعد روسو بأن يكتب (فى رواية ديدرو) ولكن مدام دودتو رجته ألا يفعل ، وأن يدعها تنقذ نفسها بطريقتها الخاصة من المآزق التى ورطها فيها هيامه وعبثها . فلما عاد سان ــ لامبير من الجبهة حدثه ديدرو بالعلاقة ، مفترضا أن روسو قد اعترف بها . ولام روسو ديدرو ورماه بخيانته ؛ ولام ديدرو روسو ورماه بخديعته . ولم يتصرف تصرف الفلاسفة غير سان ــ لامبير . فقد جاء وصوفى إلى الإيرميتاج ؛ و « دعا نفسه إلى العشاء معى ... وعاملنى بصرامة ولكن بروح الصداقة . » ولم يوقع عليه عقوبة أشد من التزم والشخير بينما كان جان ــ جاك يقرأ عاليا خطابه المطول إلى فولتير . على أن مدام دودتو لم تشجع المزيد من اللقاءات بروسو . وأعادت لها الخطابات التى كتبتها له بناء على طلبها ، ولكن حين طلب خطاباته إليها قالت إنها أحرقتها . يقول « جرؤ ت على الشك فى زعمها هذا ... وما زلت أشك . فلم تلق فى النار قط خطابات كخطاباتى . لقد رأى الناس أن خطابات هلويز (لأبيلار) حارة ! فيا للسماء ! ، فماذا كانوا يقولون فى خطاباتى هذه ؟ » [٣١] وأنكفأ إلى عالمه الخيالى مجروحا شاعرا بالخزى ، واستأنف كتابة « هلويز الجديدة » ، وسكب فيه عواطف رسائله المشبوبة لمدام دودتو .

على أن صنوفا جديدة من الذل كانت فى انتظاره حين عاد جريم من الحرب (سبتمبر ١٧٥٧) « لم أكد اتبين فيه جريم القديم » الذى كان فيما مضى « يعده شرفا له أن ألقى عليه نظرة » [٣٢] ولم يستطع روسو أن يفهم العلة فى فتور جريم ، ولم يعرف أن جريم عرف بأمر الخطاب المهين الذى أرسله إلى مدام دبينيه . وكان جريم يقرب من جان ــ جاك أنانية ، ولكنه فيما عدا ذلك نقيضه عقلا وخلقاً ــ فهو شكاك ، واقعى ، فظ ، قاس . [٣٣] وهكذا فقد روسو صديقين بخطاب واحد .

٣ — لغط كبير

وحدثت أزمة جديدة حين قررت مدام دبينيه فى أكتوبر ١٧٥٧ أن تزور جنيف . وإليك قصة روسو :

« كتبت إلى تقول « يا صديقى » سأقوم فورا بالرحلة إلى جنيف ، لأن صدرى ساءت حالته » وصحتى أعتلت كثيرا ، بحيث يتعين على أن أذهب لاستشارة ترونشان . » وزادت دهشتى لهذا القرار الذى اتخذ هكذا فجأة » وفى بداية أسوأ طقس فى السنة ... وسألتها من سيصحبها ، فأجابت بأنه إبنها ومعلمه مسيو دليفان ، ثم أردفت بغير اكتراث « وأنت يا عزيزى ، ألا تذهب أنت أيضاً ؟ » ولم يخطر لى أنها جادة فيما تقول ، لأننى فى هذا الفصل كنت لا أكاد أقوى على المضى إلى حجرتى (أى السفر بين لاشفريت والإيرميتاج) فقد رحت أمزح حول الفائدة التى يسديها مريض لآخر . ولم تكن هى ذاتها ، فيما بدا لى » جادة فى اقتراحها ، وإلى هنا انتهى الأمر »[٣٤] .

وكان له مبررات وجيهة للزهد فى مصاحبة المدام ، فقد حالت دون ذلك آلامه وأوصابه ، ثم كيف يستطيع أن يترك تريز ؟ أضف إلى ذلك أن الشائعات أرجفت بأن مضيفته حبلى » من جريم على الأرجح ؛ وصدق روسو القصة حينا وهنأ نفسه على النجاة من موقف مثير للسخرية . ولكن المرأة المسكينة كانت صادقة ، فهى تعانى من السل » ويبدو أنها كانت مخلصة فى رغبتها فى أن يرافقها روسو ، ولم لا يبهجه أن يعود ، على نفقتها ، لزيارة المدينة التى كان يفخر كثيرا بأنه مواطن فيها ؟ وكتب ديدرو ، العالم بشعورها » إلى روسو يناشده أن يأخذ طلبها مأخذ الجد ويستجيب له ، ولو لما فى ذلك من بعض الرد على إحساناتها . وأجاب روسو بأسلوبه المعهود :

« أحس أن الرأى الذى تراه مصدره غيرك . وفضلا عن عدم ميلى لأن أدع نفسى أساق على غير إرادتى تحت ستار اسمك من شخص ثالث أو رابع ، فإننى ألاحظ فى هذه النصيحة الثانوية نوعا من الغدر لا يتفق وصراحتك ، ويحسن بك أن تكف عنه مستقبلا لأجلك ولأجلى . »[٣٥]

وفى ٢٢ أكتوبر أخذ خطاب ديدرو وجوابه عليه إلى لاشفريت وقرأهما « بصوت عال واضح » على جريم ومدام دبينيه . وفى الخامس والعشرين من الشهر رحلت قاصدة باريس . وذهب روسو ليودعها وداعا محرجا ، يقول « ولحسن الحظ قامت فى الصباح ، وبقى لى من الوقت متسع للذهاب والغداء مع أخت زوجها » فى أوبون .[٣٦] وفى التاسع والعشرين (كما جاء فى مذكرات مدام دبينيه) كتب إلى جريم :

« قل لى يا جريم لم يعلن جميع أصدقائى أن من واجبى أن أصحب مدام دبينيه ؟ أمخطىء أنا ، أم أنهم كلهم مسحورون ؟ ... إن مدام دبينيه مسافرة فى مركبة أجرة لطيفة ، ويصحبها زوجها ، ومعلم ولدها ، وخمسة خدم أو ستة ... فهل أحتمل أنا السفر فى مركبة أجرة ؟ وهل أطمع فى القيام برحلة طويلة كهذه وبهذه السرعة الكبيرة دون أن يقع لى حادث ؟ وهل على أن أطلب وقوفها فى كل لحظة لأنزل ، أم على أن أعجل بعذاباتى وساعاتى الأخيرة باضطرارى إلى فرض القيود على نفسى ؟ (يلوح) أن أصدقائى المخلصين ... مصممون على إرهاقى حتى الموت »[٣٧] .

وفى ٣٠ أكتوبر غادرت مدام دبينيه باريس قاصدة جنيف ؛ وفى « نوفمبر (فى رواية المذكرات) رد جريم على روسو :

« لقد بذلت ما وسعنى من جهد لأتجنب الرد القاطع على الدفاع الرهيب الذى وجهته إلى . وأنت تلح على فى أن أرد ... إنه لم يدر بخلدى قط أنه كان من واجبك أن تصحب مدام دبينيه إلى جنيف . وحتى لو كان دافعك الأول هو أن تعرض عليها صحبتك لها ، لكان من واجبها أن ترفض عرضك ، وأن تذكرك بما يجب عليك نحو مركزك ، وصحتك ، والمرأتين اللتين جررتهما إلى معتكفك ؛ هذا رأيى ... وأنت تجسر على أن تحدثنى بعبوديتك ، أنا الذى كنت طوال أكثر من عامين الشاهد اليومى على كل دلائل الصداقة البالغة الحنان والكرم ، التى منحتها إياك هذه المرأة ، ولو استطعت أن أصفح عنك لرأيتنى غير جدير بصداقة إنسان . أننى لا أريد أن أراك ما حييت ، وسأحسب نفسى

سعيدا إن استطعت أن أطرد من عقلى ذكرى سلوكك . سأطلب إليك أن تنسانى ، وأن تكف عن إزعاجى .»(٣٨)

ومن جنيف كتبت مدام دبينيه إلى جريم : « لقد تلقيت شكر الجمهورية على الطريقة التى عاملت بها روسو واستقبلت وفدا رسميا من صانعى الساعات للغرض ذاته ... إن القوم هنا ينظرون إلى نظرة الإجلال من أجله .»(٣٩) ونبهها ترونشان إلى ضرورة بقائها عاما تحت رعايته الطبية . وكانت تختلف مرارا إلى بيتى فولتير فى جنيف ولوزان . وبعد حين لحق بها جريم ، وقضيا معا ثمانية أشهر فى عيشة سعيدة .(*)

وفى ٢٣ نوفمبر ١٧٥٧ كتب إليها روسو (كما يروى) يقول :

إن كان ممكنا لإنسان أن يموت حزنا لما كنت الآن على قيد الحياة ..... إن الصداقة قد انطفأت بيننا يا سيدتى ، ولكن ذلك الذى مضى وانقضى ما زالت له حقوق ، وأنا احترمها . فأنا لم أنس كرمك معى ، ولك أن تنتظرى منى ما يمكن من عرفان بالجميل لشخص لا أستطيع أن أحبه بعد ...

« أردت أن أغادر الإيرميتاج . وكان ينبغى لى أن أفعل ، ويزعم أصدقائى أنه لابد من بقائى هناك إلى الربيع ، وما دام أصدقائى يريدون هذا فسأبقى هناك إن وافقت .»(٤٠)

وفى أوائل ديسمبر جاء ديدرو لزيارة روسو ، فوجده ساخطا باكيا لما حل به من « استبداد » أصدقائه . وقد وردت رواية ديدرو لهذه الزيارة فى خطابه المؤرخ ٥ ديسمبر إلى جريم :

« إن الرجل مسعور forcen ... لقد زرته ، ولمته على شناعة سلوكه بكل القوة التى منحتنى إياها الصراحة والأمانة . وقد دافع عن نفسه فى ثورة

(*) عادا إلى باريس فى أكتوبر ١٧٥٩ ، وأصبح بيتها هناك أحد الصالونات الصغيرة وقد فاز كتابها فى التربية بجائزة من الأكاديمية .

غضب أحزنني ... إن هذا الرجل يقف حائلا بيني وبين عملي ، ويربك عقلي ، وكأن بجواري أحد المحكوم عليهم بالهلاك الأبدي ... أي منظر هذا — منظر رجل شرير ضار ! لا تدعني أراه ثانية ، فهو يحملني على الإيمان بالشياطين والجحيم . »[٤١]

وتلقى روسو ردا من مدام دبينيه في ١٠ ديسمبر . والظاهر أن جريم كان قد نقل إليها ملاحظات روسو عن « عبوديته » في الإيرميتاج ، لأنها كتبت إليه بمرارة غير معهودة فيها :

« كل ما يسعني عمله الآن أن أرثي لك ، بعد أن بذلت لك طوال سنوات عديدة كل أمارات الصداقة الممكنة . فأنت شقي جدا ...

« وما دمت مصمما على مغادرة الإيرميتاج ، ومقتنعا بأنه ينبغي لك أن تفعل ، فإنه يدهشني أن يقنعك أصدقاؤك بعد إلحاح بالبقاء فيه . أما أنا فلا أستشير أصدقائي أبداً في أمر واجبي ، وليس عندي ما أزيد في أمر واجبك . »[٤٢]

وفي ١٥ ديسمبر ، ورغم حلول الشتاء ، غادر روسو الإيرميتاج ومعه تريز وكل متعلقاتهما . أما أمها فقد أرسلها لتعيش في باريس مع بناتها الأخريات ولكنه وعد بأن يسهم في نفقاتها . وانتقل إلى كوخ في مونمورنسي أجره له وكيل للوى — فرانسو دبوريون « أمير كونتي . هناك ، وقد ولى ظهره لأصدقائه السابقين ، أنتج في خمس سنوات ثلاثة من أعظم كتب القرن تأثيرا .

٤ — خصامه مع جماعة الفلاسفة

كان مسكنه الجديد يقع فيما سماه « حديقة مون — لوى » وهو « حجرة واحدة » أمامها مرجة ، وفي طرف الحديقة حصن قديم فيه « طاقة خالصة على الهواء . » وكان عليه أن يستقبل زواره حين يجيئون « وسط أطباق القذرة وقلوري المحطمة » ويرتعد مخافة أن ينخسف « أرض الحجرة التي تهدمت » تحت أقدام ضيوفه . ولم يكترث لفقره ، فقد كان يكسب ما يكفيه

بنسخ الموسيقى ، اغتبط بكونه حرفيا كفئا (٤٣) ، وبأنه لم يعد تابعا لامرأة غنية . وكان يرد هدايا جيرانه اللطفاء حين يرسلونها إليه ، فقد أحس أن من الذل أن يأخذ المرء أكثر مما يعطى . وأرسل له الأمير دكونتى الدجاج مرتين ، فأخبر الكونتيسة دبوفليه أنه سيرد الهدية الثالثة إن جاءت .

ونلاحظ عرضا كثرة الأرستقراطيين الذين ساعدوا ثوار التنوير . لا لموافقتهم على آرائهم بقدر تعاطفهم الكريم مع العبقرية المحتاجة . لقد كان فى نبلاء النظام القديم الكثير من عناصر النبل ، وقد خصت الأرستقراطية روسو بصداقتها رغم تنديده بها . وكان الحرفى المعتز بنفسه ينسى نفسه أحيانا ويفخر بأصدقائه حملة الألقاب ، قال فى معرض حديثه عن مرجته :

« كانت تلك الشرفة قاعة الجلوس التى استقبلت فيها مسيو ومدام لكسمبورج ، والدوق دفيلروا ، وأمير تنجرى ، ومركيز أرمنتير ، ودوقة مونمرنسى ، ودوقة بوفليه(*) ، والكونتيسة دفالنتنوا ، والكونتيسة دبوفلييه ، وغيرهم من نفس الرتبة ... الذين تنازلوا بأن يحجوا إلى مون - لوى » (٤٤)

وكان منزل المرشال والمرشالة دلكسمبرج غير بعيد من كوخ روسو . وما لبثا عقب وصوله أن دعواه إلى العشاء فرفض الدعوة . ثم كرراها فى صيف ١٧٥٨ فرفضها ثانية . ثم أتيا حوالى عيد القيامة فى ١٧٥٩ ومعهما ستة من أصدقائهم النبلاء يتحدثون فى معتكفه . وراعه الأمر فقد اكتسبت المرشالة يوم كانت الدوقة دبوفلية سمعة بأنها فتنت عددا هائلا من الرجال . ولكنها خلفت خطاياها وراءها وغدت فى نضجها امرأة فيها فتنة الأمومة لا مجرد فتنة الجنس ، وسرعان ما أذابت تحفظه الخجول وهزته ليشارك فى حديث حى . وتساءل الزوار لم يعيش رجل أوتى هذه المواهب فى هذا الضنك . ودعا المرشال روسو وتريز ليذهبا ويعيشا معه حتى يمكن إصلاح كوخهما ، ولكن

(*) نستطيع فى زحمة أفراد آل بوفليه الذين دخلوا التاريخ فى القرن الثامن عشر أن نميز (١) دوقة بوفليه ، التى أصبحت مرشالة لكسمبورج . (٢) مركيزة بوفليه ، خليلة ستانسلاس لسكزنسكى (٣) كونتيسة بوفليه ، صديقة ديفد هيوم وهوراس ولبول .

جان — جاك ظل على مقاومته ، وأخيرا اقتنع هو وتريز بأن يسكنا حينا « القصر الريفي الصغير » الواقع في ضيعة لكسمبورج . فانتقلا إليه في مايو ١٧٥٦ . وكان روسو أحيانا يزور لكسمبورج وزوجته في بيتهما الفخم ، هناك كان يغرى بسهولة بأن يقرأ عليهما وعلى ضيوفهما بعض فصول الرواية التي كان يكملها . وبعد بضعة أسابيع عاد هو وتريز إلى كوخهما ولكنه واصل زياراته لآل لكسمبورج ، وظلا هما على وفائهما له طوال تقلبات مزاجه . وشكا جريم من أن روسو « هجر أصدقائه القدامى واستبدل بنا قوما من أعلى الطبقات »[٤٥] ولكن جريم هو الذى نبذ روسو . وفي خطاب كتبه جان - جاك إلى مالزيرب في ٢٨ يناير ١٧٦٢ رد على من اتهموه بالتنديد بالنبلاء ، وبالتودد إليهم :

« سيدى ، إنني أكره كرها شديدا تلك الطبقات الاجتماعية التي تتسلط على غيرها ... ولا يضايقني أن أعترف لك بهذا وأنت سليل أسرة مشهورة بعراقتها ... إنني أبغض العظماء ، أبغض وضعهم ، وقسوتهم ، وأهواءهم ... ورذائلهم ... بمثل هذا المزاج ذهبت كانسان يجر جرا إلى قصر (آل لكسمبورج) الريفي في مونمورنس . ثم رأيت سادته ؛ وقد أحبوني ، وأحببتهم يا سيدى ، وسأظل أحبهم ما حييت ... وإني لأبذل لهم ، لا أقول حياتي فتلك عطية هزيلة .. بل الفخر الوحيد الذى مس قلبي — وهو ذلك التشريف الذى أتوقعه من الخلف ، والذى سيمنحنيه ما في ذلك شك ، لأنه حق ، ولأن الخلف منصفون دائما . »

وكان يود أن يحتفظ بصديقة سابقة — هي مدام دودتو ، ولكن سان - لامبير لامها على الشائعات التي ربطت فيها باريس اسمها باسم روسو ، فاخبرت روسو بأن يكف عن الكتابة لها . وتذكر أنه اعترف لديدرو بحبه لها ، فخلص الآن إلى أن ديدرو هو الذى ثرثر به في الصالونات و « عقدت النية على مقاطعته إلى الأبد . »[٤٦]

ولكنه اختار أسوأ اللحظات والوسائل في ٢٧ يوليو ١٧٥٨ كان هلفتيوس قد نشر في كتابه « في العقل » هجوما عنيفا على الكهنوت الكاثوليكي . وأفضت

الضجة المترتبة على هذا الهجوم إلى المطالبة المتصاعدة بحظر « الموسوعة » (التى كان قد صدر منها سبعة مجلدات) وكل الكتابات التى تنتقد الكنيسة أو الدولة . وكان المجلد السابع يتضمن مقال دالامبير المشهور عن جنيف ، الذى امتدح فيه القساوسة الكلفنين على عقيدة التوحيد التى يتكتمونها وناشد السلطات الجنيفية أن تسمح باقامة مسرح . وفى أكتوبر ١٧٥٨ نشر روسو « خطابا إلى مسيو دالامبير عن المسرح » وكان على اعتدال لهجته أشهار حرب على عصر العقل ، وعلى زندقة فرنسة منتصف القرن الثامن عشر وفساد خلقها » وقد بذل روسو فى مقدمته قصارى جهده فى التبرؤ من ديدرو ، دون أن يذكر اسمه صراحة : « كان من بين أصحابى أرستارخوس » رجل صارم ، عادل ولكنه لم يعد صاحبا لى واست أريد مزيدا من صحبته ، على أنى لن أكف عن الأسف عليه وأن قلبى ليفتقده أكثر حتى من كتاباتى » « وأضاف فى هامش معتقدا أن ديدرو قد أفشى سره لسان — لامبير :

« إن كنت قد امتشقت حساما على صديق فلا تيأس لأن هناك سبيلا لرد الحسام إليه وإن كنت قد اشقيته بكلامك فلا تخف لأن فى الإمكان مصالحته . أما الإهانة واللوم المؤذى وافشاء السر وجرح قلبه بالخيانة فهذه كلها تسخطه عليك وهو تاركك إلى غير عودة [٤٧] .

أما الخطاب الذى تبلغ صفحاته فى الترجمة ١٣٥ فكان بعضه دفاعا عن الدين كما يبشر به علانية فى جنيف . وكان روسو نفسه موحدا — أى رافضا للاهوت المسيح كما سيدل على ذلك كتاب « إميل » بعد قليل » ولكنه حين تقدم طالبا المواطنة الجنيفية كان قد أقر بالعقيدة الكلفية الكاملة » وفى هذا الخطاب دافع عن الدين القديم » وعن الإيمان بالوحى الإلهى » باعتبارهما أمرين لا غنى عنهما لاخلاق الشعب . « أن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس إلا الحساب ، إن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس الحساب النفعى للمصلحة الشخصية » ومن ثم كان مجرد (الدين الطبيعى) سيهبط بالأخلاق إلى مستوى لا يزيد على تجنب اكتشاف الذنوب .

ولكن اللاهوت كان مثارا صغيرا للجدل فى حجة روسو ، أما هجمته الأمامية فكانت على اقتراح دلامبير بأن يصرح باقامة مسرح فى جنيف . هنا لم يكن العدو الخفى هو دالامبير ، بل فولتير . فولتير الذى حجب سناء شهرته نزيلا بجنيف ، فخر روسو بمواطنته الجنيفية ، حجبا أثار حنقه ، فولتير الذى جرؤ على تقديم التمثيليات فى جنيف أو قربها ، والذى حث لامبير بلا شك على أن يضمن مقالا فى الموسوعة نداء بانشاء مسرح جنيفى . فاذا ؟ أتدخل فى مدينة اشتهرت بأخلاقها البيورتانية ضربا من اللهو . كان فى كل مكان تقريبا يمجد الفساد الخلقى ؟ أن الدرامات المحزنة تصور الجريمة دائما ، وهى لا تظهر العواطف كما ظن أرسطو ، بل تلهبها ، لاسيما عواطف الجنس والعنف . وأما التمثيليات الهزلية فنادرا ما تعرض الحب الزوجى النقى ، وكثيرا ما تهزأ بالفضيلة ، كما فعل حتى موليير فى مسرحيته « مبغض البشر » . وكل الناس عليمون بأن الممثلين يحيون حياة العربدة والفساد ، وأن معظم ممثلات المسرح الفرنسى الفاتنات هن مضرب الأمثال فى فوضى الجنس ، وبؤر ومصادر الفساد فى مجتمع يعبدهن . وربما كانت شرور المسرح هذه فى المدن الكبيرة مثل باريس ولندن لا تؤثر إلا فى شطر صغير من السكان ، أما فى مدينة صغيرة كجنيف (لا يسكنها أكثر من ١٤,٠٠٠ نسمة) فإن سمومها تتغلغل فى جميع الطبقات ، وتثير العروض أفكارا مولعة بالجديد وحربا بين الأحزاب .(٤٨)

وإلى هنا كان روسو يردد الرأى البيورتانى أو الكلفنى فى المسرح ، ويقول فى فرنسا عام ١٧٥٨ ما قاله من قبل ستيفن جوسون فى انجلتره عام ١٥٧٩ ، ووليم يرين عام ١٦٣٢ ، وجريمى كوليار عام ١٦٩٨ . ولكن روسو لم يقتصر على التنديد . فهو لم يكن بيورتانيا ؛ ومن ثم دعا إلى الرقص والمراقص تحت رعاية الدولة وإشرافها . وقال إنه ينبغى أن توفر أسباب الترفيه العامة ولكن من نوع اجتماعى وصحى ، كالرحلات الخلوية ، والألعاب فى الهواء الطلق ، والمهرجانات ، والاستعراضات (هنا أضاف روسو وصفا نابضا بالحياة لسباق زوارق على بحيرة جنيف .(٤٩)

ويقول لنا روسو أن الخطاب ، أصاب نجاحا كبيرا ، فقد بدأت باريس

تمل حياة الفساد ؛ ولم يعد هناك لذه فى الانحرافات الخارجة على العرف التى أصبحت هى ذاتها عرفا . فلقد أتخمت المدينة برجال يسلكون مسلك النساء ، ونساء يتحرقن شوقا إلى أن يكن كالرجال . لقد شبعت من الدراما الكلاسيكية وأشكالها الطنانة المتكلفة ورأت حقارة قواد مدام دبومبادور وجنودها أمام جند فردريك الاسبرطيين . وكان الاستماع إلى فيلسوف يمجد الفضيلة تجربة منعشة وسيزداد تأثير « الخطاب » الأخلاقى حتى يشارك هو وكتابات روسو الأخرى فى إحداث عودة للياقة تكاد تكون ثورية فى عهد لويس السادس عشر .

ولم يكن فى وسع الفلاسفة أن يتوقعوا هذا . فالذى أحسوا به فى إعلان روسو هو أنه عمل من أعمال الخيانة ، لأنه هاجمهم فى لحظة خطرهم الأكبر . ففى يناير ١٧٥٩ حظرت الحكومة نهائيا نشر الموسوعة أو بيعها . وحين ندد روسو بأخلاق باريس رماه أخصائه القدامى بالنفاق . وقد تذكروا مطاردته لمدام دودتو ، وحين ندد بالمسرح نوهوا بأنه كتب « كاهن القرية » و « نارسيس » للمسرح ، وأنه كان يختلف إلى المسرح . ورفض سان — لامبير برسالة جافية (١٠ أكتوبر ١٧٦٨) نسخة « الخطاب » التى أرسلها إليه روسو :

« لا أستطيع قبول هديتك ، ولعل لك عذرا — على غير ما أعلم — فى الشكوى من ديدرو ، ولكن هذا لا يعطيك حق إهانته علنا . فأنت لا تجهل طبيعة الاضطهادات التى يعانيها .... ولست أملك يا سيدى إلا أن أقول لك إن هذا العمل الشائن الذى اقترفته صدمنى كثيرا ... كلانا يختلف فى مبادئنا اختلافا أشد من أن يتيح لنا أن ننسجم . فانس أنى موجود ... وأنى أعدك بأن أنسى شخصك ، ولا أذكر عنك شيئا إلا مواهبك . »[٥٠]

على أن مدام ديفيه حين عادت من جنيف شكرت روسو على النسخة التى بعث بها إليها ، ودعته للعشاء فذهب ، والتقى بسان — لامبير ومدام دودتو آخر لقاء .

ووافاه من جنيف أكثر من عشرة خطابات ثناء . وحظر قضاه جنيف على فولتير عرض أى مسرحيات على أرض جنيف بعد أن شجعهم موقف روسو . ونقل فولتير مواهبه المسرحية إلى تورنيه ، وانتقل هو إلى فرنيه . وأحس

بوجع الهزيمة ، فاتهم روسو بأنه هارب مارق ، وأسف على تردى قطيع « الفلاسفة » الصغير إلى هوة صراع يفنون فيه أنفسهم . وكتب يقول « إن جان — جاك السيىء السمعة هو يهوذا الجماعة »[٥١] ورد روسو بخطاب (٢٩ يناير ١٧٦٠) إلى الراعى الجنيقى بول مولتو :

« أتحدثنى عن ذلك الرجل فولتير ؛ لم يلوث اسم ذلك المهرج رسائلك ؟ لقد دمر ذلك التعس وطنى (جنيف) . ولو كان احتقارى له أقل لكرهته أكثر . وأنا لا أرى فى مواهبه العظيمة إلا شيئا مخزيا يضاف إلى خزيه » وتحط من قدره بسبب الطريقة التى يسخر بها ... إيه أيها المواطنون الجنيفيون ، إنه يكلفكم غاليا جزاء إيوائكم له ! »[٥٢]

وأحزن روسو أن يعلم أن فولتير يخرج التمثيليات فى تورنيه ، وأن كثيرا من المواطنين الجنيفيين يعبرون الحدود إلى فرنسا ليشهدوا هذه الحفلات . لا بل ليشارك بعضهم فيها . ووجد استياؤه مبررا آخر للحرب حين طبع خطابه الذى أرسله إلى فولتير عن زلزال لشبونة فى مجلة برلين (١٧٦٠) ، لأن فولتير فيما يبدو أعار المخطوطة فى غير مبالاة لأحد الأصدقاء . فأرسل روسو الآن (١٧ يونيو) إلى فولتير خطابا من أعجب الخطابات فى رسائل هذا العصر الصاخب . قال بعد أن لام فولتير على نشر الخطاب دون إذنه :

« إننى لا أحبك يا سيدى . فلقد آذيتنى أنا تلميذك المتحمس لك أبلغ الأذى . لقد دمرت جنيف جزاء على الملجأ الذى قدمت لك . ولقد نفرت مواطنى من جراء المديح الذى مدحتك به بينهم . وأنت الذى تجعل مقامى فى وطنى شيئا لا أطيقه ، أنت الذى ستضطرنى للموت على أرض غريبة ، محروما من كل تعزيات المحتضرين ، ملقى على كوم من أكوام المهملات فى ازدراء ، بينما يحيط بك كل ما يستطيع إنسان أن يطمع فيه من أسباب التكريم فى وطنى . فأنا باختصار أكرهك ، لأنك هكذا شئت ، ولكنى أكرهك بمشاعر إنسان ما زال فى وسعه أن يحبك لو كنت قد رغبت فى حبى . ولم يبق من جميع المشاعر التى امتلأ بها قلبى نحوك سوى الإعجاب بعبقريتك الرائعة » وحب

كتاباتك . وإذا كنت لا أكرم فيك غير مواهبك فليس الذنب ذنبي . ولن يوجد قصور أو نقص أبدا فى الاحترام الواجب لها ، ولا فى المسلك الذى يقتضيه ذلك الاحترام . »[٥٣]

ولم يجب فولتير ، ولكنه كان يدعو روسو سرا « المشعوذ » و « المجنون »[٥٤] و « النسناس الصغير » وقد كشف فى رسائله لدالامبير عن نفس لا تقل حساسية وتأججا عن نفس جان — جاك :

« تلقيت رسالة طويلة من روسو . لقد جن جنونا مطبقا ... فهو يهاجم المسرح بعد أن كتب هو نفسه تمثيلية هزيلة رديئة ، هو يهاجم فرنسا التى تطعمه ، وهو يجد خمسة أضلاع متعفنة أو ستة من برميل ديوجين ويتسلقها لينبحنا ؛ وهو يتخلى عن أصدقائه . ويكتب إلى — إلى أ — أشد ما سود به متعصب الصحائف إهانة ... ولولا أنه قزم حقير لا أهمية له ، انتفخت أوداجه غرورا ، لما كان فى الأمر أذى يذكر ؛ ولكنه أضاف إلى وقاحة خطابه عار التآمر مع متنطعى السوسنيين هنا للحيلولة بينى وبين إقامة مسرح لى فى تورنيه ، أو على الأقل لمنع المواطنين من التمثيل فيه معى . وإذا كان قصده من هذه الحيلة الوضيعة أن يعد لنفسه عودة ظافرة إلى الأزقة الحقيرة التى نشأ فيها ، فذلك فعل وغد ، ولن أصفح عنه ما حييت . ولو أن أفلاطون لعب على لعبة من هذا النوع لانتقمت منه ، فما بالك بتابع خانع لديوجين . إن مؤلف « ألويزا الجديدة » ليس إلا وغدا شريرا . »[٥٥]

فى هذين الخطابين اللذين كتبهما أشهر كاتبين فى القرن الثامن عشر نستشف من وراء تيارات العصر التى يحسبها الناس غير شخصية ، الأعصاب التى اشتد إحساسها بكل لطمة فى الصراع ، والغرور البشرى المشترك الذى تضطرب به أفئدة الفلاسفة والقديسين .

٥ — هلويز الجديدة

إن الكتاب الذى أخطأ فولتير فى تسميته كان طوال ثلاث سنين ملاذا لروسو من أعدائه ، وأصدقائه ، والعالم . بدأه عام ١٧٥٦ وفرغ منه فى

سبتمبر ١٧٥٨ ، وأرسله إلى ناشر فى هولندة ، وظهر فى فبراير ١٧٦١ باسم « جولى ، أو هلويز الجديدة ، رسائل عاشقين جمعها ونشرها ج.ج روسو » . وصياغة الرواية فى شكل رسائل كانت عادة قديمة ، ولكن لعل الذى دعا روسو إلى التصميم عليها هو محاكاته رواية رتشردسن « كلاريسا » .

والقصة بعيدة الاحتمال ولكنها نسيج وحدها . فجولى هى ابنة بارون ديتانج ، وهى فى السابعة عشرة أو نحوها . وتدعو أمها الشاب الوسيم سان ـبرو ليكون معلمها الخاص . ويقع أبيلار الجديد هذا فى غرام هلويز الجديدة ، كما كان يمكن أن تتوقعه أى أم فى دنيا الواقع . ولا يلبث أن يرسل إلى تلميذته رسائل حب حددت اللحن لقرن من القصص الرومانسى :

« إنى لأرتعد كلما تصافحت أيدينا ، ولا أدرى كيف يحدث هذا ، ولكنها تصافح دوما . وإنى أجفل حالما أحس لمسة أصبعك ، وتأخذنى حمى أو قولى حمى مصحوبة بهذيان فى هذه المتع ؛ وتتخلى عنى حواسى شيئاً فشيئا ، فإذا خرجت هكذا عن طورى فماذا أستطيع أن أقول ، أو أفعل ، وأين أختبىء ، وكيف أكون مسئولا عن سلوكى ؟ »[٥٦] ثم يقترح أن يرحل ولكنه يكتفى بالكلام دون الفعل :

« وداعا أذن ياجولى ، المفرطة الفتنة . . . غداً سأكون رحلت إلى الأبد . ولكن ثقى أن غرامى العنيف الطاهر بك لن ينتهى إلا بانتهاء حياتى ، وأن قلبى المفعم بهذا المخلوق الملائكى ، لن يهبط بنفسه إلى إفساح مكان فيه لحب ثان ، وأنه سيوزع كل ولائه المستقبل بينك وبين العفة ، وأنه لن يدنس لهيب آخر المذبح الذى عبدت عليه جولى[٥٧] » .

وقد تبتسم جولى لهذا التعبد ، ولكن فيها من الأنوثة ما يمنعها من اقصاء مثل هذا الكاهن المبهج عن المذبح . فتطلب إليه أن يؤجل قراره . فالاتصال الكهربى بين الذكر والأنثى قد أحدث بها على أى حال اضطرابا مماثلا ، وسرعان ما تعترف بأنها هى أيضاً قد أحست باللذغة الغامضة : « منذ أول يوم التقينا فيه تشربت السم الذى يسرى الآن فى حواسى

وعقلى ، شعرت به فورا وعيناك ، وعواطفك ، وحديثك ، وقلبك المذنب — كلها تزيد كل يوم أذاه [٥٨] . » ومع ذلك يتعهد بألا يطلب مطلبا أشد إثماً من قبلة « كونى عفيفة وإلا احتقرت ، وسأكون جديراً بالإحترام وإلا عدت كما كنت ، ذلك هو الأمل الوحيد الباقى لى « والذى يفضل الأمل فى الموت » . ويوافق سان — برو على أن يجمع بين الهذيان والعفة « ولكنه يعتقد أن هـذا يتطلب معونة خارقة من السماء .

« أيتها القوى السماوية « . . . انفخى فى روحا تطيق السعادة العظمى ! أيها الحب الإلهى ! يا روح وجودى « أواه « اسندنى لأننى أوشكت على السقوط تحت وطأة الوجد ! . . . أواه كيف أحتمل سيل السعادة المتدفق الذى يفيض به قلبى ؟ كيف أطرد هواجس عاشقة خائفة ؟ [٥٩] « وهكذا طوال ٦٥٧ صفحة . فإذا بلغنا صفحة ٩١ قبلته . والكلمات تقصر عن وصف « حالى بعد ذلك بلحظة ، حين شعرت — إذ ارتعشت يداى — برعدة رقيقة — وشفتاك المعطرتان — شفتا جولى حبيبتى — تضغطان شفتى ، وأنا بين ذراعيها ! وبأسرع من البرق انطلقت من كيانى نار مباغتة [٦٠] « فإذا وصلنا الرسالة التاسعة والعشرين وجدنا أنه أغواها « أو أنها أغوته . ويهيم هو فى عوالم من النشوة ، ولكنها تحسب كل شىء قد ضاع . « إن لحظة غفلة واحدة قد أسلمتنى إلى تعاسة أبدية . لقد سقطت فى وهدة العار التى لامخرج منها [٦١] .

وتموت أم جولى كمدا حين تعلم بأن بكارتها فضت . ويقسم البارون أن يقتل سان — برو « فيخرج هذا فى رحلة بحرية حول الأرض . وتتزوج جولى فولمار ، وهو روسى كريم المولد ، متقدم السن « تكفيرا عن ذنبها وطاعة لأبيها ، ولكنها تظل تراسل سان — برو خفية ، وتشعر نحوه بعاطفة أقوى من حبها الواجب عليها لزوجها . ويدهشها أن تجد فولمار إنساناً طيباً ، وفيا ، حريصا على راحتها ، منصفا كريما

مع الجميع » وذلك رغم إلحاده . وفى رسالة كتبتها لسان — برو تؤكد له أن الرجل والمرأة قد يجدان الرضى فى « زواج المصلحة » ولكنها لن تعرف السعادة الكاملة أبدا . فاعترافها قبل زواجها يثقل ذاكرتها وأخيرا تعترف لزوجها بلحظة الإثم تلك ، ويقول أنه علم بها ، وصمم على ألا يذكرها أبدا ، ويخبرها بأنه لم يكن إثماً قط ، وتأكيداً لغفرانه لها يدعو سان — برو للحضور والإقامة مع الأسرة معلما خاصاً لطفلهما ، ويحضر سان — برو ؛ ويؤكد لنا المؤلف أن الثلاثة يعيشون معاً فى وفاق حتى يفرق بينهم الموت ، ويغيب الزوج العجيب أياما . وتخرج جولى وسان — برو للتجديف على بحيرة جنيف » ويعبران إلى سافوى ، ويريها الصخور التى كتب عليها اسمها فى منفاه ، ويبكى ؛ وتمسك بيده المرتعشة » ولكنهما يعودان بريئين من الإثم إلى بيتها فى كلارنس فى اقليم فو [٦٢] » .

ويعجبان كيف يمكن لفولتار أن يكون بهذه الطبيعة دون إيمـــان دينى ، ويفسر سان — برو هذه الظاهرة الشاذة » وهو كجولى بروتستنتى متمسك بدينه :

« ان فولتار الذى أقام فى أقطار كاثوليكية رومانسية لم يغره ما خبره من إيمان أهلها ، بأن يرى فى المسيحية رأياً أفضل . فقد رأى أن مذهبهم لايتجه إلا لمصلحة كهنتهم ، وهو يتألف بجملته من حركات مثيرة للسخرية ورطانة بألفاظ لامعنى لها ، ولاحظ أن ذوى الفطرة السليمة والأمانة يجمعون على رأيه ، وأنهم لايتحرجون من الجهر برأيهم ، لا بل أن القساوسة أنفسهم فى الخفاء كانوا يهزأون سراً بما يعلمون ويثبتون فى الأذهان علانية ، ومن ثم فكثيراً ما أكد لنا أنه بعد أن أنفق كثيراً من الوقت والجهد فى البحث ، لم يلتق قط بأكثر من ثلاثة قساوسة يؤمنون بالله [٦٣] » . ويضيف رسو فى حاشية ، معاذ الله أن أوافق على هذه التأكيدات القاسية الطائشة ! ومع ذلك يذهب فولتار بانتظام إلى

الخدمات الدينية البروتستنتية مع جولى ، بدافع من احترامه لها ولجيرانه . وترى جولى وسان — برو فيه « أغرب اللامعقول » — إنسانا يفكر تفكير ملحد ويسلك مسلك مسيحي[٦٤] » .

وهو لايستحق اللطمة الأخيرة ، ذلك أن جولى تعهد إلى فولمار وهى على وشك الموت بحمى أصابتها وهى تنقذ ابنها من الغرق — بخطاب غير مختوم يعلن لسان — برو أنه كان على الدوام حبها الوحيد . وفى وسعنا أن نفهم دوام ذلك الحب الأول ، ولكن لم تجزى طول وفاء زوجها وثقته بها بمثل هذا الرفض القاسي وهى على فراش الموت ؟ أن هذا لايكاد يتفق والنبل الذى اضفاه المؤلف على خلق جولى .

ومع ذلك فهى من أعظم اللوحات فى القصص الحديث . وقد استلهمها روسو من وحى ذكرياته الخاصة رغم أن (كلاريسا) رتشردسن أوحت بها فى أغلب الظن ، الفتاتان اللتان قادا جواديهما عبر النهر فى آنسى ، والذكريات التى احتفظ بها فى اعزاز لمدام دفاران حين كانت تبسط عليه حمايتها فى سنوات صباه ، ثم لمدام دودتو ، التى أشعرته بفيض الحب حين وقفت سداً أمام شهوته ، وبالطبع ليست جولى واحدة من هاتين المرأتين ، ولعلها ليست أى امرأة التقى بها روسو طيلة حياته ، بل مثالا مخلقا من أحلامه . وقد أفسد الصورة اصرار روسو على جعل شخوصه كلها تقريباً تتكلم كروسو ، فجولى حين تزيدها الأمومة عمقا تغدو حكيمة من الحكماء ، فتطيل الحديث فى كل شىء من التدبير المنزلى إلى الاتحاد الصوفى بالله . وهى تقول لابد أن نفحص صحة هذه الحجة ، ولكن أى امرأة جديرة بالحب نزلت يوما ما إلى مثل هذه التفاهة .

أما سان — برو فهو بالطبع أشبه الشخوص بروسو ، حساس لكل مفاتن النساء ، تواق للركوع عند أقدامهن التى يحلم بها ، ويسكب عبارات الولاء والحب البليغة التى رددها فى وحدته . ويصفه روسو بأنه لا يفتأ

يأتى عملا مجنونا ثم يحاول أن يثوب إلى رشده (٦٥). وسان — برو إنسان متزمت أشد التزمت بالقياس إلى لفليس الوغد السافر كما صوره رتشردسن. وهو الآخر لابد أن ينطق بلسان روسو ، فهو يصف باريس بأنها دوامة من الشرور — غنى فاحش ، وفقر مدقع ، وحكومة عاجزة ، وهواء فاسد ، وموسيقى رديئة ، وأحاديث تافهة ، وفلسفة باطلة ، وانهيار كامل تقريباً للدين ، والفضيلة ، والزواج ، وهو يردد مقال روسو الأول عن صلاح الإنسان الفطرى وتأثيرات الحضارة المفسدة المحطة ، ويهنىء جولى وفولمار على إيثارهما حياة الريف الهادئة الصحية فى كلارنس .

أما فولمار فأكثر الأشخاص أصالة فى معرض روسو . فمن كان النموذج الذى حاكه المؤلف على غراره ؟ لعله دولباخ ، « الملحد اللطيف » ، والبارون الفيلسوف ، والمادى الفاضل ، والزوج الوفى لزوجة واحدة ومن بعدها لأختها . أو لعله سان — لامبير ، الذى صدم روسو بتبشيره بالإلحاد ، ولكنه صفح عنه لمغازلته خليلته . ويعترف روسو صراحة باستخدامه النماذج الأصلية الحية والذكريات الشخصية :

« إن قلبى المفعم بما وقع لى ، والذى لم يزل جياشا بالكثير من الانفعالات العنيفة ، أضاف الشعور بآلامه إلى الأفكار التى أوحى إلى بها التأمل ... وعلى غير وعى منى وصفت المواقف التى كنت فيها آنئذ ، ورسمت صوراً لجريم ، ومدام دبينيه ، ومدام دودتو ، وسان — لامبير ، ولشخصى (٦٦) » .

وخلال لوحات الأشخاص هذه عرض روسو جوانب فلسفته كلها تقريباً . فأعطانا صورة مثالية للزواج السعيد ، ولضيعة تدار بكفاية ، وعدالة ، ورحمة ؛ ولأطفال يربون ليكونوا مزيجا مثاليا من الحرية والطاعة ، ومن ضبط النفس والذكاء . وأستبق الحجج التى سيوردها فى كتابه « إميل » : أن يوجه التعليم أولا لتربية البدن ليكون صحيحا ، ثم لتربية الخلق ليعود النظام الصارم ، وبعد ذلك فقط لتربية الذهن ليعود الجدل العقلى. تقول جولى

« إن السبيل الوحيد لجعل الأطفال طيعين ليس سبيل الجدل العقلي معهم، بل إقناعهم بأن الجدل العقلي فوق سنهم[٦٧] . وينبغي ألا نلجأ إطلاقا للجدل العقلي، أو ألا يكون هناك أي تعليم عقلي » قبل سن البلوغ . وحرصت القصة حرصاً شديداً على مناقشة الدين . فنرى إيمان جولي يغدو الأداة لخلاصها ؛ وقد ألهمها الاحتفال الديني الذي قدس زواجها إحساسا بالتطهر والوفاء . ولكنه إيمان بروتستنتي خالص ذلك الذي يشيع في الكتاب . فسان — برو يسخر مما يبدو له من نفاق القساوسة الكاثوليك في باريس ؛ ويندد فولمار بعزوبة الكهنة لأنها قناع يخفي وراءه الفجور ؛ ويضيف روسو بشخصه هذه العبارة : « إن فرض العزوبة على جماعة كبيرة مثل قساوسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليس لمنعهم من أن يكون لهم زوجات » بقدر ما هو لأمرهم بأن يقنعوا بزوجات غيرهم من الرجال[٦٨] » . ويصرح روسو بهذه المناسبة بتأييده للتسامح الديني ، ويبسطه حتى على الملحدين : « أن المؤمن الحقيقي لا يتعصب ولا يضطهد غيره . ولو كنت قاضيا ؛ ولو قضى القانون بعقوبة الموت على الملحدين ؛ لبدأت بحرق كل مبلغ يشي بإنسان آخر ، لأنه هو نفسه ملحد[٦٩] » .

وكان للقصة تأثير بالغ في تنبيه أوربا لمفاتن الطبيعة وروائعها . ففي فولتير ، وديدرو ، ودالامبير ، لم تشجع حمى الفلسفة وحياة الحضر الأحساس المرهف بجلال الجبال وجمال ألوان السماء . أما روسو فقد تميز بولادته في أحضان أروع مناظر أوربا وقعا في النفوس . وكان قد مشى من جنيف متجولا في سافوى عبر الألب إلى تورين ، ومن تورين إلى فرنسا ؛ واستمتع بمشاهد الريف وأصواته وعبيره ؛ وأحس بكل شروق شمس كأنه إنتصار الأله على الشر والشك . وقد تصور توافقا صوفيا بين حالات مزاجه والمزاج المتغير للأرض والهواء ؛ وعانقت نشوة حبه كل شجرة وزهرة ، وكل ورقة عشب . وتسلق الألب إلى نصف ارتفاعها ، ووجد نقاء في الهواء ، خيل إليه أنه يطهر أفكاره ويجلوها . وقد وصف هذه التجارب بإحساس وحيوية جعلا من تسلق الجبال ، لاسيا في سويسرة ، رياضة من أكبر رياضات أوربا .

ولم يحدث من قبل فى الأدب الحديث أن ظفر الوجدان ، والعاطفة المشبوبة،والحب الرومانسى ، بمثل هذا العرض والدفاع المستفيضين البليغين. فلقد أعلن روسو ، فى تمرده على عبادة العقل من بوالو إلى فولتير ، مكانة الوُجدان العليا وحقه فى أن يسمع فى ترجمة الحياة وتقييم القصائد ، وبرواية « هلويز الجديدة » أعلنت الحركة الرومانسية تحديها للعصر الكلاسيكى . وقد سبقتها بالطبع لحظات رومانسية حتى فى عز الكلاسيكية ، مثال ذلك أن أوتوريه دورفيه داعب الحب الريفى فى قصته « لاستريه » (١٦١٠ — ١٦٢٧) ، وأن الآنسة سكوديرى أسهبت فى وصف الغراميات فى قصتها « أرطمين ، أو قورش العظيم » (١٦٤٩ — ١٦٥٣) ، كذلك زاوجت مدام دلا فييت بين الحب والموت فى قصتها « أميرة كليف » (١٦٧٨) ، وأدخل راسين هذا الموضوع فى مسرحيته « فيدر » (١٦٧٧) ، وهى قمة العصر الكلاسيكى ، ونحن نذكر كيف ورث روسو الروايات الغرامية القديمة عن أمه ، وقرأها مع أبيه . أما جبال الألب فان البرشت فون هالار كان قد تغنى بجلالها (١٧٢٩) ، كذلك تغنى جيمس طومسن بجمال الفصول ورهبتها (١٧٢٦ — ١٧٣٠) . ولا بد أن جان — جاك قرأ قصة بريفوست « مانون لسكو » (١٧٣١) ، وأحاط علما برواية رتشرد سن « كلاريسا » فى ترجمة بريفوست (١٧٤٧ — ١٧٤٨) (لأنه كان يقرأ الأنجليزية بصعوبة) . ومن قصة الإغواء تلك التى طالت إلى ألفى صفحة (ولم تكتمل بعد) إقتبس شكل الرسائل فى الرواية لصلاحيته للتحليل النفسى ، وكما دبر رتشرد سن لكلاريسا نجية تدعى الآنسة هاو ، كذلك دبر روسو لجولى نجية هى أبنة عمها كلير . ولاحظ روسو فى غيظ أن ديدرو نشر تقريظا حماسيا لرتشردسن (١٧٦١) عقب نشر جولى ، فحجب بذلك سناء قصته جولى .

ولا تقل رواية جولى عن كلاريسا أصالة ومآخذ ، وهى تسمو عنها كثيراً فى أسلوبها والروايتان غنيتان فى شطحات الخيال مثقلتان بالمواعظ . ولكن فرنسا ، التى تبز العالم أسلوبا ، لم تر قط اللغه الفرنسية تتخذ مثل هذا اللون ، والحرارة ، والنعومة ، والإيقاع ، فروسو لم يكن مجرد مبشر

بالوجدان » إنما كان يملكه ، فكل ما يمسه مشرب بالحساسية والعاطفة . وقد نبتسم لنشواته ولكننا نجد أن ناره تدفئنا . وقد ننكر الخطب المقحمة ونمر بها مرور الكرام ، ولكنا نمضى فى القراءة ، وبين الحين والحين تتجدد حياة القصة بمشهد شعر به المؤلف شعورا حادا . كان فولتير يفكر بالآراء ويكتب بالأبجرامات » أما روسو فكان يبصر بالصور ويؤلف بالأحاسيس . ولم تكن عباراته ووقفاته بريئة من الصنعة ، فقد اعترف بأنه كان يقلبها وهو فى فراشه حين تقصى النوم عن جفنيه عاطفة الفنان المشبوبة[٧٠] . يقول كانط « لأبد من أن أقرأ روسو إلى أن يكف جمال عبارته عن فتنتى ، وعندها فقط أستطيع أن أفحصه فى روية وتعقل[٧١] » .

ولقيت جولى النجاح فى أعين الجميع إلا الفلاسفة . فوصفها جريم بأنها تقليد هزيل لكلاريسا ، وتنبأ بأن النسيان سيطويها سريعا[٧٢] . وقال فولتير وهو يهدر غضبا (٢١ يناير ١٧٦١) لا تزدنى حديثا عن رواية جان — جاك من فضلك ، فلقد قرأتها لشدة أسفى » ولشدة أسفه لو كان لدى من الوقت ما يتسع لأبداء رأيى فى هذا الكتاب السخيف[٧٣] . وبعد شهر أفصح عن رأيه فى كتابه « رسائل حول هلويز الجديدة » الذى نشر بأسم مستعار . فنبه إلى الأخطاء اللغوية » ولم تبدر منه أى إشارة تدل على تقديره لوصف روسو للطبيعة — وأن كان سيقلد جان — جاك بعد حين يتسلقه ربوة ليتعبد للشمس المشرقة . وتبينت باريس قلم فولتير » وحكمت بأن « الشيخ » عضته الغيرة بأنيابها .

وإذا ضربنا صفحا عن هذه الوخزات » فأن روسو إبتهج بالأستقبال الذى لقيه أول عمل مطول له . يقول ميشليه « لم يعهد فى تاريخ الأدب كله نجاح عظيم كهذا[٧٤] . » وظهرت الطبعة تلو الطبعة ، ولكن المطبوع كان أقل كثيراً من الطلب ووقف الجمهور فى طوابير أمام المكتبات لشراء الكتاب ، وكان القراء الملهوفون يدفعون أثنى عشر سوأ فى الساعة ليستعيروه ، وقراء النهار يؤجرونه لغيرهم يقرؤنه فى الليل[٧٥] . وروى روسو فى أغتباط أن نبيلة طلبت مركبتها وقد تهيأت للذهاب إلى مرقص فى الأوبرا » وشرعت تقرأ

جولى خلال ذلك ، وشوقتها القصة تشويقا أغراها بالمضى فيها حتى الرابعة صباحا بينما الخادمة والجياد فى أنتظارها [٧٦] . وقد عزا أنتصاره إلى اللذة التى يجدها النساء فى قراءة قصص الغرام ، ولكن كان هناك أيضا نساء مللن حياتهن خليلات ، وتقن إلى أن يكن زوجات ، وأن يكون لاطفالهن آباء . وتلقى روسو مئات الخطابات فى مونمورنسى يشكره فيها أصحابها على كتابه ، وكثر عدد النساء اللاتى عرضن عليه حبهن حتى أنتهى به خياله إلى أنه « ما من امرأة فى المجتمع الراقى لم أكن لألقى التوفيق فى الأتصال بهـــا لو حاولته [٧٧] » .

وكان من الطريف أن يكشف إنسان عن سريرته كشفا كاملا كما فعل روسر خلال سان — برو وجولى ، وليس هناك أكثر طرافة وإمتاعا من نفس إنسان تتجرد أمام الناظرين ولو تجردا جزئيا أو لاشعوريا . تقول مدام دستال « هنا مزقت كل أقنعة القلب [٧٨] » . وبدأ الآن سلطان الأدب الذاتى ، تلك السلسة الطويلة الممتدة إلى زماننا ، من أفشاءات الذات ، من القلوب المحطمة فى صفحات مطبوعة ، من « النفوس الجميلة » التى تسبح فى المأساه جهارا نهارا . وفشا بين الناس الإفصاح عن حرارة العاطفة ، والأعراب عن الأنفعال والشعور « لا فى فرنسا وحدها بل فى إنجلترة وألمانيا أيضاً . وبدأ يتلاشى الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب ضبط النفس ، والنظام ، والعقل ، والشكل ، وأوشكت دولة « الفلاسفة » أن تدول . لقد أصبح القرن الثامن عشر بعد عام ١٧٦٠ ملكا لروسو [٧٩] .

* * *

الفصل السابع

روسو الفيلسوف

١ – العقد الاجتماعي

قبل نشر « هلويز الجديدة » بشهرين كتب روسو إلى مسيو لينيس (١١ ديسمبر ١٧٦٠) يقول :

« لقد طلقت حرفة الكاتب إلى الأبد . وبقيت خطيئة قديمة يجب التكفير عنها في كتاب مطبوع ، وبعدها لن يسمع الجمهور مني أبداً . ولست أعرف حظاً أسعد من أن يكون الإنسان مجهولا إلا من أصدقائه .... ومنذ الآن سيكون نسخ الموسيقى شاغلي الوحيد [١] » .

ثم كتب ثانية في ٢٥ يوليو ١٧٦١ :

« ظللت عاقلا إلى الأربعين . ثم تناولت القلم ، وهأنذا أضعه قبل أن أبلغ الخمسين » وأنا العن في كل يوم من أيام حياتي ذلك اليوم الذي دفعني فيه غروري الأحمق إلى تناوله ، والذي رأيت فيه سعادتي ، وراحتي ، وصحتي ، كلها تتطاير هباء دون أمل في استعادتها ثانية [٢] » .

أكان هذا منه تظاهرا ؟ ليس بالضبط . صحيح إنه في ١٧٦٢ نشر كتابيه « في العقد الاجتماعي » و « إميل » ، ولكنهما كانا قد اكتملا قبيل ١٧٦١ ، وكانا « الخطيئة القديمة التي يجب التكفير عنها في كتاب مطبوع » ، وصحيح إنه بعد ذلك كتب ردودا على رئيس أساقفة باريس ، وعلى مجمع الكنائس الجنيفي ، وعلى طلبات من كورسيكا وبولندة بأن يقترح عليهما دستورين ، ولكن هذه المؤلفات كانت مؤلفات مناسبات ، دعت إليها أحداث غير

متوقعة . وقد نشرت « الأعترافات » و « الحوارات » و « أحلام جوال منفرد » بعد موته . وهكذا التزم أساسا بتعهده الجديد . ولا عجب أن يشعر فى ١٧٦١ أنه قد أرهق ونضب ، لأنه كان قد ألف فى خمس سنوات ثلاثة أعمال كبرى ، كان كل منها حدثا فى تاريخ الأفكار .

ومنذ عام ١٧٤٣ يوم كان سكرتيرا للسفير الفرنسى فى البندقية ، هدته ملاحظته لحكومة البندقية بالقياس إلى الحكومتين الجنيفية والفرنسية إلى تخطيط رسالة هامة فى المؤسسات السياسية . وكان « المقالان » شرارتين بعثهما تلك النار ، ولكنهما كانا محاولتين متعجلتين لإثارة الأنتباه بالمبالغة ، ولم تنصف واحدة منهما فكره المتطور . وراح خلال ذلك يدرس أفلاطون ، وجروتيوس ، ولوك ، وبوفندورف . ولم تكتمل قط الرائعة الأدبية التى حلم بها . فروسو لم يوهب الذهن المنظم ، والإرادة الصابرة ، والطبع الهادئ الذى يتطلبه مشروع كهذا يقتضيه الأستدلال العقلى لا الوجدان فقط ، وإخفاء العاطفة لا إعلانها ، وكان مثل هذا الإنكار للنفس فوق طاقته . لقد كان هجرانه للتأليف أعترافا منه بالهزيمة . ولكنه أعطى العالم عام ١٧٦٢ قطعة رائعة من مخططه فى ١٢٥ صفحة نشرت بأستردام تحت عنوان « فى العقد الاجتماعى ، أو مبادىء القانون السياسى » .

وكلنا يعرف الصيحة الجريئة التى استهل بها الفصل الأول « ولد الإنسان حرا وهو فى كل مكان مكبل بالأغلال » وقد افتتح روسو كتابه بمبالغة مقصودة ، لأنه علم بأن للمنطق سلطانا متوما قوياً ، وقد أصاب فى ضربه على هذه النغمة العالية ، لأن هذه العبارة أصبحت شعار قرن بأكمله . وافترض روسو هنا — شأنه فى « المقالين » — وجود « حالة طبيعية » بدائية لم تكن فيها قوانين ، واتهم الدولة القائمة بتدمير تلك الحرية ، واقترح بديلا عنها « ايجاد شكل من المجتمع يدافع عن شخص كل عضو فيه وعن متاعه ويحميهما بكل ما أوتى ذلك المجتمع من قوة مجموعه ، مجتمع يظل الإنسان فيه رغم اتحاده مع الجميع يطيع نفسه فقط ، ويبقى حراً كما كان من قبل ... تلك هى المعضلة الأساسية التى يقدم لها العقد الاجتماعى الحل [٣] » .

يقول روسو أن هناك عقدا اجتماعياً ، لا كتعهد من المحكومين بإطاعة الحاكم ، كما جاء فى كتاب هوبز (اللوياثان) « الوحش » ، بل كاتفاق الأفراد على أن يخضعوا رأيهم ، وحقوقهم ، وسلطاتهم لحاجات ورأى مجتمعهم ككل . وكل شخص يدخل ضمنا فى مثل هذا العقد بقبوله حماية القوانين العامة . والسلطة العليا فى أى دولة لا تستقر فى أى حاكم — فرداً كان أو جماعة — بل فى « الإرادة العامة » للمجتمع ، وتلك السيادة لايمكن التخلى عنها أبدا وإن جاز تفويضها جزئيا إلى حين .

ولكن ما هذه « الإرادة العامة » ؟ أهى إرادة جميع المواطنين ، أم إرادة الأغلبية فقط ؟ ومن الذين يعتبرون مواطنين ؟ أنها ليست إرادة الجميع ، لأنها قد تناقض كثيرا من الإرادات الفردية . ولا هى دائماً إرادة الأغلبية الذين يعيشون (أو يصوتون) فى لحظة بعينها ، بل هى إرادة المجتمع باعتباره صاحب حياة ووافع مضافين إلى حيوات وإرادات الأعضاء الأفراد . (وروسو ، كمفكر واقعى من العصر الوسيط ، ينسب للجماعة مجتمعة ، أو للفكرة العامة ، واقعا بالإضافة إلى واقع أعضائها الأفراد . فالإرادة العامة أو « روح الجماعة » يجب أن تكون الصوت المعبر لا عن المواطنين الأحياء فحسب ، بل الأموات أو الذين لم يولدوا بعد ، ومن ثم فالذى يعطيها طابعها ليس هو الإرادات الراهنة فحسب ، بل تاريخ الجماعة الماضى وأهدافها المستقبلة . وما أشبهها بأسرة عريقة تفكر فى نفسها على أنها واحدة على مر الأجيال ، وتكرم أسلافها ، وتحمى أخلاقها — (بمعنى أن أباً من الآباء قد يدفعه التزامه قبل حفدته الذين لم يولدوا بعد إلى مناقضة رغبات أبنائه الأحياء » وأن سياسيا ما قد يشعر بأنه ملتزم بالتفكير لابلغة انتخاب واحد بل أجيال (*) كثيرة .) ومع ذلك فان (صوت الأغلبية ملزم دائما للباقين جميعا[٤]) . ومن له حق التصويت ؟ كل مواطن[٥] . ومن المواطن ؟ واضح أنه ليس كل بالغ ذكر . وروسو غامض جدا فى هذه النقطة ، ولكنه يمتدح دالامبير لتفريقه بين

(*) العبارة المحتواة بين القوسين تفسير اجتهادى وليست واردة صراحة فى روسو .

« طبقات الناس الأربعة ... الذين يسكنون مدينتنا (جنيف) » وطبقتان من هؤلاء فقط تؤلفان الشعب . ولم يفهم كاتب فرنسي آخر ... المعنى الحقيقي لكلمة المواطن [٦] » .

يقول روسو أن القانون « في الحالة المثالية ، ينبغي أن يكون التعبير عن الإرادة العامة » فالإنسان بفطرته يغلب عليه الخير ، ولكن له غرائز يجب التحكم فيها ليصبح المجتمع أمراً ممكناً . وليس العقد الاجتماعي تمجيد « حالة الطبيعة » فروسو يتكلم لحظة كما يتكلم لوك أو مونتسكيو لا بل فولتير :

« ان الانتقال من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية يتمخض عن تغير ملحوظ جداً في الإنسان ، لأنه يحل القانون محل الغريزة في سلوكه ، ويضفي على أفعاله « الفضيلة التي كانت تعوزها من قبل » ومع أنه في هذه الحالة (المدنية) يحرم نفسه من بعض المنافع التي تلقاها من الطبيعة . إلا أنه يكسب نظير ذلك منافع أخرى عظيمة جداً ؛ فقدراته تحفر حفراً شديداً وتطور تطويراً كبيراً ، وأفكاره توسع كثيراً وروحه كلها تسمو سمواً عظيماً . ولولا أن مساوىء حالته الجديدة كثيراً ما تهبط به إلى مستوى أدنى من ذلك الذي تركه ، لكان عليه أن يبارك على الدوام تلك اللحظة السعيدة التي نقلته من حالته الأولى إلى غير رجعه ، والتي جعلته كائناً ذكياً وإنساناً بدلا من أن يظل حيواناً غبياً عديم الخيال [٧] .

وهكذا نجد روسو (الذي تكلم يوماً ما كما يتكلم فوضوى لا يفلسف كلامه تماما) يناصر بكليته قداسة القانون ، إذا عبر القانون عن الإرادة العامة . فإذا لم يتفق فرد ما كما يحدث في حالات كثيرة — مع تلك الإرادة كما يعبر عنها في القانون « حق للدولة إكراهه على الخضوع [٨] . وليس هذا انتهاكا للحرية بل صيانة لها ، حتى للفرد المقاوم ، لأنه بفضل القانون وحده يستطيع الفرد في الدولة المدنية أن يتمتع بتحرره من العدوان ، والسرقة ، والاضطهاد ، وتشويه السمعة ، وعشرات الشرور الأخرى . ومن ثم فإن المجتمع بإكراهه الفرد على طاعة القانون إنما « يكرهه على أن يكون حراً » ف

الواقع [٩] . وهذه هي الحالة على الأخص في الجمهوريات ، لأن «طاعة القانون الذي نضعه لأنفسنا هي الحرية» [١٠] .

والحكومة جهاز تنفيذي تفوض فيه الإرادة العامة مؤقتا بعض سلطاتها . وينبغي أن تكون فكرتنا عن الدولة لا على أنها الحكومة فقط ، بل الحكومة ، والمواطنون ، والإرادة العامة أو روح الجماعة . والدولة تكون جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى اعتبار الملكية جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى إعتبار الملكية جمهورية . أما إذا كانت الملكية مستبدة — أي إذا كان الملك يضع القوانين وينفذها — فليست هناك جمهورية أو دولة ، بل طاغية يحكم عبيدا . ومن ثم رفض روسو الانضمام إلى أولئك الفلاسفة الذين امتدحوا «الاستبداد المستنير» — استبداد فردريك الثاني أو كاترين الثانية سبيلا لدفع الحضارة والإصلاح قدما . وكان رأيه إن الشعوب التي تعيش في أجـــواء قطبية أو مدارية قد تحتاج إلى الحكم المطلق حفاظا على الحياة والنظام » [١١] أما في المناطق المعتدلة فيحسن المزج بين الارستقراطية والديمقراطية . والارستقراطية الوراثية «اسوأ الحكومات قاطبة» ، والارستقراطية الانتخابية أفضلها [١٢] ، أي أن أفضل حكومة هي تلك التي تضع القوانين وتنفذها فيها أقلية من الرجال ينتخبون دوريا لتفوقهم الفكرى والخلقي ؟

أما الديمقراطية بوصفها حكما مباشرا بواسطة الشعب كله فقد بدت لروسوا مستحيلة .

« لو أخذنا هذا اللفظ بمعناه الدقيق لم نجد قط ديمقراطية حقيقية » ولن توجد أبداً هذه الديمقراطية . فمما يناقض النظام الطبيعي أن تكون الكثرة حاكمة والقلة محكومة . ومما لا يمكن تصوره أن يظل الناس مجتمعين بصفة مستمرة ليتفرغوا للشئون العامة ، وواضح أنهم لايستطيعون إنشاء لجان لهذا الغرض دون تغيير في شكل الحكومة » .

ثم كم من الظروف التي يصعب الجمع بينها تفترض لهذه الحكومة ؟

أولاً دولة صغيرة جداً يمكن جمع الشعب فيها عاجلا ، ويمكن لكل مواطن فيها أن يعرف سائر المواطنين بسهولة ، ثانياً ، البساطة التامة في العادات ، منعاً لتكاثر الأعمال وإثارة المشاكل الشائكة ، ثم قدر كبير من المساواة في الرتب والثروات بدونه لا تستطيع المساواة في الحقوق والسلطة البقاء طويلا ، وأخيراً قلة الترف أو انعدامه ، لأن الترف مفسدة للأغنياء والفقراء جميعاً — للأغنياء بالاقتناء ، وللفقراء بالاشتهاء . . وهذا هو ماحدا كاتباً شهيراً (مونتسكيو) إلى اعتبار الفضيلة المبدأ الأساسي للجمهوريات ، لأن هذه الظروف كلها لا يمكن توافرها بغير الفضيلة . . ولو كان هناك شعب من الآلهة لكانت حكومة ديمقراطية أما البشر فليست هذه الحكومة البالغة الكمال مما يناسبهم[١٣] .

وقد تغرى هذه الفقرات بسوء التفسير . فروسو يستخدم لفظ « الديمقراطية » بمعنى ندر أن ينسب له في السياسة أو التاريخ ، وهو أنها حكومة تشرع فيها كل القوانين بواسطة الشعب كله المجتمع في مجالس قومية . والواقع أن « الارستقراطية الانتخابية » التي فضلها هي ما يجب أن نسميه الديمقراطية النيابية . . أي الحكومة التي يتولاها موظفون يختارهم الشعب لما يفترض فيهم من صلاحية عليا . على أن روسو يرفض الديمقراطية النيابية على أساس أن الممثلين أو النواب سرعان ما يشرعون لمصلحتهم لا للخير العام . « أن الشعب الإنجليزي يعتبر نفسه حراً ولكنه يخطىء بذلك خطأً فاحشا ، فهو حر فقط خلال انتخاب أعضاء البرلمان ، وما إن يتم انتخابهم حتى تسيطر العبودية على الشعب فلا يعود له وزن »[١٤] . فالممثلون يجب أن ينتخبوا ليشغلوا المناصب الإدارية والقضائية لا ليشرعوا ، ويجب أن تشرع جميع القوانين بواسطة الشعب في جمعية عامة ، وأن يكون لتلك الجمعية سلطة إقالة الموظفين المنتخبين[١٥] . ومن ثم وجب أن تكون الدولة المثالية من الصغر بحيث تسمح لجميع المواطنين بالإجتماع مراراً كثيرة . « وكلما اتسعت الدولة تقلصت الحرية »[١٦] .

أكان روسو اشتراكيا ؟ إن « المقال » الثاني نسب جميع رذائل الحضارة إلى إقرار الملكية الخاصة ، ولكن حتى ذلك المقال رأى أن هذا النظام أعمق

جذورا فى البنيان الاجتماعى من أن يتيح القضاء عليه دون ثورة فوضوية مدمرة .
« والعقد الاجتماعى » يسمح بالملكية الخاصة بشرط رقابة الجماعة ، فيجب أن تحتفظ الجماعة بكل الحقوق الأساسية ، ولها أن تستولى على الأملاك الخاصة لخير المجتمع ، ويجب أن تحدد أقصى مايسمح للأسرة الواحدة بتملكه [١٧] . ولها أن تؤمن على توريث الملكية ، ولكن إذا رأت الثورة تنحو إلى تركز ممزق فلها أن تستخدم ضرائب التركات لإعادة توزيع الثروة والتخفيف من عدم المساواة الإجتماعى والإقتصادى . « يجب أن يتجه التشريع دائماً إلى الحفاظ على المساواة بالضبط لأن قوة الأشياء تتجه دائماً إلى القضاء عليها [١٨] » .
ومن أهداف « العقد الإجتماعى » أن يصبح الأفراد الذين قد يكونون مختلفين قوة أو ذكاء متساوين فى الحقوق الإجتماعية والقانونية [١٩] » . ويجب أن تفرض الضرائب العالية على الكماليات . « ان الحالة الاجتماعية لاتفيد الناس إلا إذا ملك كل فرد شيئاً ولم يملك أحد فوق ما ينبغى [٢٠] » . ولم يورط روسو نفسه فى القول بالجماعية » ولا خطرت بباله قط (دكتاتورية البرولتاريا) » وكان يحتقر البرولتاريا الوليدة فى المدن ، واتفق مع فولتير على تسميتها (الرعاع أوحثالة المجتمع) [٢١] . وكان مثله الأعلى طبقة فلاحين تعيش مستقلة رخية الحال ، وطبقة وسطى فاضلة تتألف من أسر كأسرة فولمار فى « هلويز الجديدة » وسيتهمه بيير — جوزف برودون بتمجيد البورجوازية » [٢٢] »

ترى أى مكان للدين فى الدولة ؟ لقد شعر روسو أن دينا ما لاغنى عنه للفضيلة « وما قامت دولة قط دون أساس دينى » [٢٣] .

« ان الحكماء أن حاولوا الكلام بلغتهم إلى القطيع العام بدلا من لغته لن يستطيعوا ايصال ما يريدون إلى أفهامهم • • • ولكى يمكن شعب ناشىء من ايثار الأصول السليمة للنظرية السياسية • • • يجب أن تصبح النتيجة سبباً : فالروح الاجتماعية التى ينبغى أن تخلقها هذه المؤسسات يجب أن تسود أساسها نفسه ، ويجب أن يكون الناس أمام القانون ما يجب أن يصبحوه بالقانون . إذن فالمشرع لعجزه عن الالتجاء إلى القوة أو العقل

يجب أن يلجأ إلى سلطة من نوع مختلف ، قادرة على الكبح دون عنف . هذا ما دعا آباء الأمم فى جميع العصور إلى الإلتجاء للتدخل الإلهى ، ونسبة حكمتهم هم لآلهتم ، حتى ، تطيع الشعوب بخضوعها لقوانين الدولة كما تخضع لقوانين الطبيعة ، . . دون عائق ، وتحتمل نير الخير العام عن طيب خاطر »[٢٤] .

ولن يتشبث روسو دائماً بهذا الرأى السياسى القديم فى الدين ، ولكنه فى « العقد الاجتماعى » جعل من الإيمان فوق الطبيعى أداة للدولة ، واعتبر القساوسة على أفضل تقدير ضربا من الشرطة السماوية . على أنه رفض اعتبار الكهنة الكاثوليك الرومان كذلك ، لأن كنيستها زعمت أنها فوق الدولة ، فهى إذن قوة مفسحة ، تقسم ولاء المواطن[٢٥] . وفضلا عن ذلك فإن المسيحى — كما زعم — إذا أخذ لاهوته مأخذ الجد ؛ يركز إهتمامه على الحياة الآخرة ، ولا يقيم وزنا يذكر لهذه الحياة الدنيا ، فهو إلى هذا الحد مواطن ضعيف . ومثل هذا المسيحى يكون جنديا وسطا ؛ قد يقاتل دفاعا عن وطنه ، ولكنه لا يفعل إلا تحت إكراه وأشراف مستمرين ، وهو لا يؤمن بشن الحرب دفاعا عن الدولة ؛ لأن له وطنا واحدا فقط — هو الكنيسة . والمسيحية تبشر بالعبودية والتبعية الطيعة ؛ ومن ثم كانت روحها موانية جدا للاستبداد بحيث أن الطغاة يرحبون بتعاونها . « أن المسيحين الحقيقين خلقوا ليكونوا عبيداً[٢٦] » . وهكذا أتفق ورسو مع ديدرو ، وأستبق جيون ؛ وكان فى تلك الفترة أشد عنفا فى عدائه الكاثوليكية من فولتير ؛ ومع ذلك شعر بأن دينا ما لا غنى عنه ؛ « دينا مدنيا » تصبغه الدولة وتفرضه فرضا على جميع سكانها . أما عن العقيدة :

« فأن عقائد الدين المدنى يجب أن تكون قليلة ؛ بسيطة ، دقيقة العبارة ؛ دون شروح أو تعليقات . فوجود إله قادر ، ذكى ؛ خير ؛ ذى بصيرة وتدبر ، ثم حياة آخرة ؛ وسعادة الأبرار ؛ وعقاب الأشرار ، وقداسة العقد الاجتماعى والقوانين ، تلك هى عقائد الدين الإيجابية[٢٧] » .

وهكذا إعترف روسو بعقائد المسيحية الأساسية ، على الأقل لأغراض

سياسية ؛ على حين رفض أخلاقياتها لغلوها في المسالمة والدولية — على العكس تماماً ومما درج عليه الفلاسفة من الاحتفاظ بأخلاقيات المسيحية مع رفض لاهوتها . وقد سمح بأديان أخرى في دولته الوهمية ، بشرط عدم تعارضها مع العقيدة الرسمية . وهو يتسامح مع الأديان « التي تتسامح مع غيرها » ؛ أما من يجسر على القول « بأنه لاخلاص خارج الكنيسة » فيجب طرده من الدولة ، إلا أن تكون الدولة هي الكنيسة ، والملك هو حبرها الأعظم[٢٨] . « ولا يسمح بانكار البنود الواردة في ديانة الدولة .

« وإذا كانت الدولة لا تستطيع أكراه أحد على الإيمان بهذه البنود ، فإن في إستطاعتها أن تنفيه « لا لزندقته ، بل بوصفه كائنا أرستقراطيا ، عاجزا عن محبة القوانين والعدالة محبة صادقة ، وعن بذل حياته عند الحاجة في سبيل الواجب . وإذا سلك إنسان — بعد إقراره بهذه العقائد علانية — مسلك من لا يؤمن بها ، كان عقابه الموت[٢٩] » .

وهذه الجملة الأخـيرة هي أشهر الجمل في « العقد الاجتماعي » بعد « ولد الإنسان حرا وهو في كل مكان مكبل بالأغلال » وإذا أخذت بمنطوقها الحرفي كان معناها إعدام كل من يسلك مسلك من لا يؤمن بالله ، أو الجنة أو النار ، ولو طبقت على باريس ذلك الزمان لأنضبت تلك العاصمة من أهلها . ولعل حب روسو للعبارات المسرفة التي تهز القراء طوح به إلى أن يقول أكثر مما يعني . ولعله تذكر مجمع أوجزنورج (١٥٥٥) الذي وافق فيه كل الأمراء الموقعين على قراراته على أن يكون لكل منهم الحق في أن ينفي من أملاكه أي شخص لا يقبل مذهب الأمـير . وفي قوانين جنيف إذا أخذت حرفيا (كما حدث في حالة سرفيتوس) سابقة لوحشية روسو المفاجئة . وقد اعتبرت أثينا القديمة « رفض الأعتراف بالآلهة الرسميين » جريمة كبرى ، كما حـدث في نفي أناكساجوراس وقتل سقراط بالسم » وكان هذا بالمثل القدر الذي بررت به روما الامبراطورية إضطهادها للمسيحيين ، وأخذاً برأي ، وسو هذا في معاملة المجرمين يمكن أن يوصف الأمر باعتقاله بأنه من أفعال المحبة المسيحية .

أكان « العقد الاجتماعى » كتابا ثوريا ؟ لا ونعم . فهنا وهناك ، وسط مطالبة روسو بحكومة مسئولة أمام الإرادة العامة ، تهدىء ثائرته لحظات من الحذر ، كما فى قوله : « لا شىء يمكن أن يعدل خطر تغيير النظام العام غير الأخطار الكبرى ، ويجب إلا تعطل السلطة المقدسة للقوانين إطلاقا مالم تكن حياة الوطن فى خطر »[٣٠] . ومع أنه حمل المالكية الخاصة اللوم على كل الشرور تقريباً ، إلا أنه دعا إلى صيانتها لأنها ضرورة يدعو إليها ما آل إليه الإنسان من فساد لا صلاح له . وتساءل ألا تعيد طبيعة الإنسان « بعد أن يقوم بثورة ، نظما وعبوديات قديمة تحت أسماء جديدة ؟ « إن قوما تعودوا الخضوع لسادة لن يدعوا السيادة تتوقف . . . فهم إذ يحسبون الاباحية حرية ، تسلمهم ثوراتهم إلى أيدى مضللين لا يزيدونهم إلا رسوفا فى إغلالهم[٣١] ».

ومع ذلك كان صوت روسو أكثر أصوات العهد ثورية . ففى هذا الكتاب كان خطابه موجها لكثرة الشعب ، وإن غض من شأن الجماهير ولم يثق بها فى غيره من كتبه . لقد كان يعلم أنه لامناص من عدم المساواة ، ولكنه أدانه بقوة وبلاغة . وأعلن فى غير لبس أو غموض أن من حق الشعب أن يطيح بحكومة تصر على مخالفة الإرادة العامة . وبينما كان فولتير ، وديدرو ود الامبير ، ينحنون للملوك أو الأمبراطورات ، أطلق روسو على الحكومات القائمة صرخة احتجاج قدر لها أن تسمع من اقصى أوربا إلى إقصاها . وبينما إقتصر جماعة الفلاسفة ، الغارقين فى « الحالة الراهنة » على الدعوة لإصلاح تدريجى لشرور معينة ، هاجم جان — جاك النظـــام الاقتصادى ، والاجتماعى ، والسياسى بجملته ، وبشمول بدا معه كل علاج مستحيلا إلا علاج الثورة . ثم أعلن أنها آتية : « محال أن تعمر ممالك أوربا الكبرى أكثر مما عمرت . لقد كان لكل منها فترة مجدها ، ومآلها بعدها إلى الأضمحلال . . . إن الأزمة تقترب ، ونحن على شفا ثورة[٣٢] » . وتنبأ بوقوع تغييرات بعيدة المدى بعد أن تنشب هـــذه الثورة : « ستتطلع إمبراطورية روسيا إلى غزو أوربا ، وستغزى هى نفسها . وسيصبح التتار — رعاياها أو جيرانها — سادتها وسادتنا ، بثورة أراها آتيه لا ريب فيها[٣٣] ».

على أن « العقد الاجتماعي » الذى نرى فى نظرة مؤخرة أنه كان أكثر كتب روسو ثورية ، أثار ضجة أقل كثيراً مما أثارته « هلويز الجديده » . فلقد كانت فرنسا مهيأة للانفراج العاطفى والحب الرومانسى ، ولكنها لم تتهيأ لمناقشة الأطاحة بالملكية . وكان هذا الكتاب أكثر ما إنتج روسو إلى ذلك الحين من حجيج مدعمة ، ولم يكن تتبعه سهلا كتتبع دعايات فولتير المتألقة . ونحن الذين راعنا مالقى من ذيوع متأخر ، يدهشنا أن نعلم أن شعبيته وتأثيره بدآ بعد الثورة لا قبلها[٣٤]. ومع ذلك نرى دالامبير يكتب لفولتير فى ١٧٦٢ قائلا : « لا جدوى من مهاجمة جان — جاك أو كتابه بصوت عال جداً » فهو أشبه بملك فى السوق (« لزال »[٣٥] — أى بين العمال الغلاظ فى سوق باريس المركزيه » و — بالتضمين — بين جماهير الشعب) . ولعل هذا كان غلوا فى القول » ولكن لنا أن نعتبر عام ١٧٦٢ تاريخا لتحول الفلسفه من مهاجمة المسيحية إلى نقد الدولة .

وقل من الكتب ما أثار مثل هـــذا النقد الكثير . وقد أشر فولتير على نسخه من « العقد الاجتماعى » بردود على الهامش ، فرداً على ما أشار به روسو من إعدام من يذنب بالكفر الأيجابى كتب « كل إكراه فى العقيدة مرذول[٣٦] » . ويذكرنا العلماء بقدم الدعوى بأن السيادة مستقره فى الشعب ، فقد قدم ما رسيليوس البادواوى » ووليم أوكم ، وحتى اللاهوتيون الكاثوليك أمثال بيللارمين » وماريانا » وسواريز » هذه الدعوى كأنها الضريبة خلف ركب الملوك . وقد ظهرت من قبل فى كتابات جورج بوكانان وجروتيوس ، وملتن ، والجرنون سدنى ، ولوك » وبوفندورف . . . إن « العقد الاجتماعى » شأنه شأن فلسفة روسو السياسية والأخلاقية كلها تقريباً ، هو صدى وأنعكاس لجنيف بقلم مواطن على بعد كاف يتيح له تمجيدها دون أن يحس بمخالبها . لقد كان الكتاب مزيجا من جنيف وأسبرطة ، من « قواعد » كلفن و « قوانين » إفلاطون .

وبين عشرات النقاد ذلك التناقض بين النزعه الفردية فى مقالى « روسو وحرفية القانونية فى « العقد الاجتماعى » . لقد رفض فيلمر فى كتابه **Patriarcha**

(١٦٤٢) قبل مولد روسو بزمن طويل الفكرة التى تزعم أن الناس ولدوا متساوين ، فهم فى ميلادهم خاضعون السلطان الأبوى ولقوانين الجماعة وعاداتها . وروسو نفسه ، بعد الصرخة الأولى للدفاع عن الحرية ، أخذ يبتعد عن الحرية أكثر فأكثر متجها إلى النظام — إلى خضوع الفرد للارادة العامة . والتناقضات التى تلحظها فى مؤلفاته هى أساساً بين خلقه وفكره ، فلقد كان فرديا متمردا بحكم مزاجه ، وعلته ، وأفتقاره إلى الأنضباط ، وكان بيئيا (لاشيوعياً إطلاقا ، ولا حتى جماعيا) بحكم إدراكه المتأخر لا ستحالة تكوين المجتمع الفعال من الخوارج . وعلينا أن نحسب حساباً للتطور ، فأفكار إنسان ما هى دالة خبرته وعمره ، ومن الطبيعى للمفكر أن يكون فردى النزعة فى شبابه — فيحب الحرية ويبحث عن المثل العليا — وأن يكون معتدلا حين ينضج ، فيحب النظام ويرتضى الممكن . وقد ظل روسو من الناحية العاطفية طفلا طوال حياته ، ينكر العرف ، والمحظورات ، والقوانين ، ولكنه حين فكر تفكيراً منطقيا أدرك أن فى الأمكان بقاء الكثير من الحريات فى نطاق القيود الضرورية للنظام الاجتماعى ، وانتهى إلى أن يدرك أن الحرية فى مجتمع ما ليست ضحية القانون بل ثمرته — وأنها تتسع ولا تضيق بطاعة الجميع لقيود يفرضونها على أنفسهم جماعة . وفى وسع الفوضويين الفلسفيين والشموليين السياسيين جميعاً أن يستشهدوا بروسو تأييداً لدعواهم[٣٧] ، وكلا الفريقين لا حق له فى الأستشهاد ، لأنه اعترف بأن النظام أول قوانين الحرية ، والنظام الذى دافع عنه يجب أن يكون التعبير عن الأرادة العامة .

وقد نفى روسو أى تناقضات حقيقية فى فلسفته فقال « كل أفكارى متسعة ، ولكنى لا استطيع عرضها كلها مرة واحدة[٣٨] » . وسلم بأن كتابه « فى حاجة إلى أن يكتب من جديد ، ولكنى لست أملك من العافية ولا الوقت ما يسمح لى بذلك[٣٩] » ، فحين كانت العافية متاحة له سلبه الأضطهاد وقته ، وحين كف الأضطهاد وأتيح له الفراغ ، كانت العافية قد تضاءلت . وفى تلك السنوات الأخيرة بات يتشكك فى حججه ، « أن الذين يفاخرون بأنهم فهموا « العقد الاجتماعى » فهما تاما أذكى منى » . وقد أغفل تماماً ، من الناحية العملية ، المبادىء التى وضعها فيه ، ولم يخطر بباله قط أن

يطبقها حين طلب إليه وضع دستور لبولندة أو كورسيكا . ولو أنه مضى في خط التغير الذى اتبعه بعد عام ١٧٦٢ لانتهى به المطاف إلى حضن الأرستقراطية ، والكنيسة ، وربما تحت سكين الجيلوتين .

٢ – اميــل

(أ) تربيتــه

في وسعنا أن نغتفر الكثير لكاتب أستطاع في خمسة عشر شهراً أن يصدر « هلويز الجديدة » (فبراير ١٧٦١) و « العقد الاجتماعى » (إبريل ١٧٦٢) ، « واميل » (مايو ١٧٦٢) . وقد نشر ثلاثتها في أمستردام، ولكن « اميل » نشر في باريس أيضاً ، بإذن من الحكومة حصل عليه مالزيرب العطوف بمخاطرة كبيرة . ومن حق مارك – ميشيل راى ، الناشر الأمستردامى ، علينا أن نحييه تحيه عابرة ، ذلك أنه بعد أن كسب أرباحاً لم يتوقعها من هلويز أوقف على تريز معاشا سنوى مدى الحياة قدره ٣٠٠ جنيه ، وإذ تنبأ لاميل برواج أعظم من « العقد الاجتماعى » (الذى كان قد اشتراه بألف جنيه) دفع لجان – جاك سته الأف جنيه نظير المخطوطة الجديده الأطول من سابقتها .

أما الكتاب فكان بعضه ثمرة مناقشاته مع مدام دبينيه عن تربية ولدها ، وإتخذ أول شكل له في مقال صغير كتب – ليسر أماً طيبة قادرة على أن تفكر – وهي مدام دشونسو ، أبنة مدام دوبان . وقد قصد به روسو أن يكون تذييلا لقصته « هلويز الجديده» : فكيف ينبغي أن ينشأ أبناء جولى ؟ وخامره الشك لحظه في صلاحية رجل أودع كل إطفاله في ملجأ للقطاء ، وفشل معلما خاصا في أسرة مابليه ، للكلام في موضوع الأبوة والتربية . ولكنه كعادته وجد لذة في إطلاق حبل خياله على غاربه دون أن يعوقه معوق من التجربة . ودرس مقالات « مونتيني » و « تلماك فنيلون » . ورسالة في الدراسات لرولان، وكتاب لوك « خواطر في التربية » . وكان « مقاله » الأول تحديا له ، لأنه صور الإنسان خيراً بفطرته ولكن أفسدته الحضارة بما فيها التربية . فهل في الأمكان الاحتفاظ بهذا الخير الفطرى وتنميته بالتربية

الصحيحة ؟ لقد أجاب هلفتيوس قبيل ذلك بأن هذا ممكن ، وذلك في كتابه « عن العقل » (١٧٥٨) ، ولكنه قدم حجة لا مخطط.

أما روسو فقد استهل كتابه برفض الطرق القائمة لأنها تلقن ، بالصم عادة ، أفكارا بالية فاسدة ، وتحاول جعل الطفل آلة طيعة في مجتمع منحل ، وتمنع الطفل من التفكير والحكم لنفسه ، وتشوهه فتهبط بمستوى قدراته ، وتلوح بملاحظات تافهة وأقوال قديمة مبتذلة . وقد أخمد هذا التعليم المدرسي كل الحوافز الفطرية ، وجعل التربية عذابا يتوق كل طفل إلى تجنبه . ولكن التعليم يجب أن يكون عملية سعيدة فيها تفتح طبيعي ، وتعلم من الطبيعة والتجربة ، وتنمية حرة لقدرات الطفل نحو حياة فياضة لذيذة . يجب أن تكون « فن تدريب الناس [٤١] » والارشاد الواعي للجسم النامي ليبلغ الصحة ، وللخلق ليبلغ الفضيلة ، وللذهن ليبلغ الذكاء ، وللوجدان ليبلغ ضبط النفس وحب العشرة والسعادة .

وكان روسو يؤثر أن يكون هناك نظام تعليم عام تقوم عليه الدولة ، ولكن بما أن التعليم العام كان يومها في يد الكنيسة فقد أوصى بتعليم خاص يضطلع به معلم خاص أعزب ينقد أجراً نظير تكريس سنين كثيرة من حياته لتلميذه . وعلى هذا المعلم أن يبعد الطفل ما أمكن عن أبويه وأقاربه مخافة أن تصل إليه العدوى من رذائل الحضارة المتراكمة . وأضفى روسو على بحثه صبغة إنسانية بتخيله أنه قد فوض بكامل السلطة تقريبا ليربي غلاماً طيبا جدا يدعى إميل . وهي فكرة لا يمكن تصديقها ، ولكن روسو وفق في أن يجعل هذه الصفحات — وعددها ٤٥٠ — أمتع كتاب ألف في التربية اطلاقا . وقد تناول كانظ «إميل» ليقرأه فاستغرق في قراءته استغراقاً أنساه الخروج للتمشي في نزهته اليومية [٤٢] .

ومادامت الطبيعة ستكون الهادي والمرشد للمعلم ، فسيعطي الطفل كل الحرية التي تسمح بها سلامته . وسيبدأ باقناع مربيته بأن تحرر الرضيع من أقمطته لأنها تعوق نموه وتطور أطرافه تطورا سليما . ثم يقنع أمه بارضاع طفلها بدلا من أن تعهد به لمرضعه ، لأن المرضعة قد تؤذيه بالقسوة أو الاهمال ،

أو قد تظفر منه — بفضل عنايتها الصادقة به — بتلك المحبة التى يجب بالطبيعة أن توجه للأم باعتبارها أول مصدر ورباط لوحدة الأسرة والنظام الأخلاقى . وهنا ساق روسو عبارات كان لها تأثير جدير بالاعجاب على الأمهات الشابات فى الجيل الجديد :

« أتريدون أن تردوا الناس جميعاً إلى واجباتهم الفطرية ؟ إبدأوا بالأم إذن ، وسوف تدهشكم النتائج . فكل الشرور تأتى فى أعقاب هذه الخطيئة الأولى ... والأم التى يغيب أطفالها عن بصرها لاتكتسب الاحترام الكثير ، فليس هنا حياة أسرية ، وروابط الطبقة لاتتقوى بروابط العادة » وليس هناك وجود بعد للآباء والأمهات والأخوة والأخوات . فهم أغراب تقريباً ، فكيف يحب بعضهم بعضا ؟ ان كلا منهم يفكر فى نفسه .

« أما إذا تنازلت الأمهات بإرضاع أطفالهن ، فسيكون هناك اصلاح فى الخلق سينتعش الشعور الفطرى فى كل قلب » ولن تشكو الدولة فقرا فى عدد المواطنين . وهذه الخطوة الأولى وحدها ستعيد المحبة المتبادلة ومباهج البيت خير ترياق للرذيلة . عندها يغدو لعب الأطفال الصاخب متعة بعد أن كنا نحسبه شديد الارهاق لنا ، ويزداد اعزاز الأم والأب بعضهما لبعض ويقوى رباط الزواج . . . وهكذا يأتى الشفاء من هذا الشر الواحد باصلاح شامل : فتستعيد الطبيعة حقوقها . وإذا أصبحت النساء أمهات صالحات أصبح الرجال أزواجاً وآباء صالحين(٤٣) .

هذه الفقرات المأثورة جعلت إرضاع الأمهات لأطفالهن شطرا من تغير العادات الذى بدأ فى العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر . وكان بوفون قد أذاع مثل هذا النداء فى العقد السابق ولكنه لم يصل إلى نساء فرنسا . وبدأ الآن ظهور أجمل الصدور فى باريس أعضاء للأمومة فضلا عن كونها مفاتن جنسية ساحرة .

وقسم روسو حياة تلميذه التعليمية إلى ثلاث ، فترات إثنتى عشرة سنة طفولة ، وثمانى سنوات صبى ، وعمر غير محدود للإعداد للزواج والأبوة ، وللحياة

الاقتصادية والاجتماعية . ففى الفترة الأولى يكون التعليم كله تقريباً بدنيا وخلقيا » وعلى الكتب والتعلم من الكتب ، وحتى الديانة أن تنتظر نمو العقل ، فإلى أن يبلغ اميل الثانية عشرة لن يعرف كلمة فى التاريخ » ولا يكاد يسمع ذكر الله (٤٤) . فتربية الجسم يجب أن يشرع فيها أولا . ومن ثم يربى إميل فى الريف لأنه المكان الوحيد الذى يمكن أن تكون الحياة فيه صحية طبيعته :

لم يخلق البشر ليتكدسوا فى كثبان نمل ، بل لينتشروا على الأرض ليفلحوها . وكلما حشدوا معاً فسدوا . والمرض والرذيلة هما النتيجتان المحتومتان للمدن المكتظة . فأنفاس الإنسان تفتك باخوانه البشر . . . والإنسان تفترسه مدننا ، ولن تنقضى اجيال قليلة حتى ينقرض النوع الإنسانى أو ينحط ، فهو فى حاجة إلى التجديد ، وتجديده يكون دائماً من الريف . فأرسلوا أطفالكم إلى الخلاء ليجدوا أنفسهم . ارسلوهم ليستعيدوا فى الحقل المكشوف تلك العافية التى فقدوها فى الهواء الفاسد الذى يملأ مدننا المزدحمة (٤٥) .

شجعوا الصبى على حب الطبيعة والخلاء » وعلى تربية عادات البساطة وعلى العيش على الأطعمة الطبيعية . وأى طعام ألذ من ذلك الذى زرعه المرء فى حديقته ؟ أن الغذاء النباتى أصح الأغذية ومن شأنه أن يقلل كثيراً من الأمراض والعلل (٤٦) .

ان عدم اكتراث الأطفال باللحم من الأدلة على أن الميل لأكل اللحم غير طبيعى . وهم يؤثرون الأطعمة النباتية واللبن والفاكهة الخ . . فحذار أن تغيروا هذا الميل الفطرى وتجعلوا أطفالكم أكلة للحوم . افعلوا هذا من أجل أخلاقهم أن لم تفعلوه من أجل صحتهم ، إذ كيف نعلل ان كبار أكلة اللحوم هم فى العادة أشد ضراوة وقسوة من غيرهم من البشر (٤٧) .

وبعد الغذاء الصحيح ، والعادات الطيبة يعلم إميل البكور فى الاستيقاظ . «رأينا الشمس تشرق فى منتصف الصيف وسنراها تشرق فى عيد الميلاد . .

لسنا توءمي الضحى ، فنحن نلتذ بالبرد[٤٨]. وإميل يكثر من الاستحمام وكلما اشتد عوده قلل من حرارة الماء إلى أن يستحم أخيرا بالماء البارد، بل المثلج ، صيف شتاء . وتفاديا للخطر يكون هذا التغيير بطيئا « تدريجيا » غير محسوس[٤٩] . ونادراً ما يلبس على رأسه أي غطاء » وهو يمشي حافياً طوال السنة إلا إذا خرج من بيته وحديقته . «يجب أن يعود الأطفال على البرد لا على الحر » فالبرد الشديد لا يضرهم إطلاقا إذا تعرضوا له في بواكير حياتهم[٥٠] » . وشجعوا محبة الطفل الطبيعية للنشاط والحركة » فلا تتركوه على السكون إن أراد الجرى » ولا على الجرى أن إراد القعود . . . فليجر » وليقفز ، وليزعق ما شاء[٥١] » . وأبعدوا عنه الأطباء ما أستطعتم[٥٢] . ودعوه يتعلم بالممارسة لا بالكتب ولا حتى بالتعليم ، دعوه يصنع الأشياء بنفسه ، وأكتفوا باعطائه المواد والأدوات . والمعلم الذكى يرتب المسائل والواجبات ، ويدع تلميذه يتعلم من ضربة تصيب إبهامة أو صدمة تصيب قدمه . وهو يحميه من الأذى البالغ لا من الآلام التي تربيه .

إن الطبيعة خير هاد » ويجب أن تتبع في أمر الأذى الذى نعرفه في هذه الحياة :

« فلتكن قاعدتنا التي لانزاع عليها أن الدوافع الأولى للطبيعة صواب دائما . ليس في القلب البشرى خطيئة أصلية . . فلا تعاقب تلميذك أبدا ، لأنه لا يعرف معنى الخطأ . ولا تجعله يقول » سامحنى » . . . فهو في أفعاله التي لاصبغة أخلاقية لها كلها لا يمكن أن يأتي خطأ من الناحية الأخلاقية » ولايستحق عقابا ولا تقريعا . . . فابدأ بترك بذرة شخصيته حرة في الإفصاح عن نفسها ، ولا تقسره على شيء ، وبهذا يتكشف لك على حقيقته[٥٣] » .

على أنه سيحتاج إلى التربية الخلقية » فبغيرها يصبح إنسانا خطرا تعساً . ولكن لا تعظه . فإن أردت لتلميذك أن يتعلم العدل والرحمة كن أنت عادلا رحيما فيقلدك . « القدوة القدوة ! فبدونها لن تنجح في تعليم أى شيء للأطفال[٥٤] » . وهنا أيضاً قد نجد أساساً طبيعيا . فالخير والشر (من وجهة نظر المجتمع) كلاهما فطرى في الإنسان ، وعلى التربية أن تشجع الخير

وتثبط الشر . ومحبة الذات عامة ، ولكن فى الأمكان تعديلها حتى لتدفع الإنسان إلى إقتحام الأخطار الداهمة حفاظا على أسرته، أو وطنه ، أو عرضه. فهناك غرائز اجتماعية تحفظ الأسرة والجماعة كما أن هناك غرائز أنانية تحفظ الفرد[٥٥] . والرحمة قد تنبع من محبة الذات (كما يحدث حين نحب الأبوين اللذين يغذواننا ويحمياننا) ، ولكنها قد تؤتى ثمارا شتى من السلوك الاجتماعى والمعونة المتبادلة . ومن ثم فإن نوعاً من الضمير يبدو أنه عام وغريزى .

« ألق ببصرك إلى كل أمة فى الأرض ، واقرأ كل سفر من أسفار تاريخها ، ففى جميع ألوان العبادة العجيبة القاسية هذه ، وفى هذا التنوع المذهل من العادات والتقاليد ، ستجد فى كل مكان نفس الأفكار (الأساسية) أفكار الخير والشر . . . ففى إعماق قلوبنا مبدأ فطرى للعدل والفضيلة نحكم بمقتضاه — رغم قواعدنا — على إفعالنا ، أو أفعال غيرنا ، أخير هى أم شر ، وهذا المبدأ هو الذى نسميه الضمير[٥٦] » .

ومن ثم ينطلق روسو فى مناجاة سنجدها تتردد حرفياً تقريباً فى كانط :

« إيه أيها الضمير ! أيها الضمير ! أيها الفطرة المقدسة ، والصوت الخالد الآتى من السماء ، الهادى الأمين لإنسان هو جاهل محدود حقاً ، ولكنه ذكى حر ، أيها القاضى المعصوم والفيصل بين الخير والشر ، الذى يجعل الإنسان شبيها بالله ، فيك يكمن سمو طبيعة الإنسان وفضيلة أفعاله ، لست أجد فى نفسى إذا انفصلت عنك شيئاً يرفعنى فوق البهائم — لا شيء إلا إمتياز مؤسف — هو قدرته على أن يهيم من خطأ إلى خطأ بمعونة ذكاء طليق من كل قيد وعقل لا يعرف له مبدأ[٥٧] » .

إذن فالتربية العقلية يجب إلا تبدأ إلا بعد تكوين الخلق الفاضل . ويسخر روسو من نصيحة لوك بمناقشة الأطفال منطقياً :

« أن الأطفال الذين كانوا يناقشون عقليا باستمرار يبدون لى غاية فى البلاهة . فالعقل هو آخر ما ينمو من قدرات الإنسان وأسماها ... وأنت تريد أن تستخدمه لتدريب الطفل المبكر ؟ وجعل الإنسان منطقيا هو الحجر الأعلى

فى التربية الحسنة ، ومع ذلك تريد أن تربى الطفل عن طريق عقله . إنك إذن تبدأ من الطرف الخطأ[٥٨] » .

كلا ، بل يجب أن تؤجل التربية العقليه . « أبق ذهن الطفل (فكره) عاطلا أطول ما تستطيع[٥٩] » ، فإذا كانت له آراء قبل أن يبلغ الثانية عشرة فثق أنها ستكون سخيفة . ولا تزعجه فى هـــذه السن بالعلم ، فهذا سباق لأنهاية له ، كل ما نكتشفه فيه إنما يزيدنا جهلا وغرورا أحمق[٦٠] ». فدع تلميذك يتعلم حياة الطبيعة وأساليبها بالتجربة ، دعه يستمتع بالنجوم دون الزعم بأنه يتتبع تاريخها .

ويمكن أن تبدأ التربية العقليه فى الثانية عشرة ، ويجوز لإميل أن يقرأ بعض الكتب . ويستطيع أن ينتقل من الطبيعة إلى الأدب بقراءة روبنصن كروزو ، لأنها قصة رجل جاز — على جزيرة — بمختلف المراحل التى جاز بها الناس من الهمجيه إلى المدنية . ولكن إميل لا يكون قد قرأ كتبا كثيرة حين يبلغ الثانية عشرة ، وسيضرب صفحا عن الصالونات والفلاسفة ، ولن يكترث للفنون ، لأن الجمال الحـــق الوحيد كائن فى الطبيعة[٦١] : ولن يصبح أبدا « موسيقيا ، أو ممثلا ، أو مؤلفا[٦٢] » ، بل سيكون قد اكتسب مهارة كافية فى حرفة ما ليكسب قوته بعمل يديه أن اقتضته الظروف يوماً ما (وبعد ثلاثين عاماً سيندم الكثير من المهاجرين الذين لا حرفة لهم على أنهم سخروا كما سخر فولتير من النجار النبيل)[٦٣] . على أية حال يجب أن يخدم إميل المجتمع بيده أو بعقله (رغم أنه وارث لثروة متواضعة) ، « فالرجل الذى يأكل وهو عاطل ما لم يكسبه بجهده ليس إلا لصا[٦٤] » .

(ب) ديانتــه

واخيراً نستطيع أن نحدث إميل عن الله إذا بلغ الثامنه عشرة :

« إنى عليم أن الكثير من قرائى سيد هشهم أن يجدونى متتبعا سير تلميذى خلال سنيه الأولى دون أن أحدثه فى الدين . إنه وهو فى الخامسة عشرة لن يعرف حتى أن له نفسا ، وقد لا يكون فى الثامنة عشرة مهيأ بعد للإلمام

بهذه الحقيقة . . . . ولو كان على أن أصور الغباوة فى أفجع أشكالها لصورت معلما متحذلقا يلقن التعليم الدينى للأطفال ، ولو أردت أن أخرج طفل عن طوره لطلبت إليه أن يشرح ما تعلمه فى دروسه الدينية . . . لاشك أننا يجب ألا نضيع لحظة واحدة إن وجب أن نكون مستحقين للخلاص الأبدى ، ولكن إذا كان تكرار ألفاظ معينه يكفى للحصول على هذا الخلاص فلست أرى لم لا نملاء السماء بالزرازير والعقاعق كما نملؤها بالأطفال[٦٥] » .

ثم جرد روسو أمضى سهامه على جماعة الفلاسفة » رغم إعلانه هذا الذى أثار غضب رئيس أساقفة باريس . وليتصور القارىء فولتير أو ديدرو يقرءان هذا الكلام :

« لقد استشرت جماعة الفلاسفة » فوجدتهم كلهم سواء فى الغرور ، والجزم » والدجماطية ، يتظاهرون — حتى فى شكوكيتهم المزعومة — بأنهم عليمون بكل شىء » لا يثبتون شيئا » ويهزأ بعضهم ببعض . وقد بدت لى . . . هذه الخاصة الأخيرة » النقطة الوحيدة التى أصابوا فيها . فهم ضعاف فى الدفاع رغم تبجحهم فى الهجوم. زن حججهم تجدها كلها مدمرة ، وأحص أصواتهم تجد كلا منهم يتحدث عن نفسه وحده . . . . وما من واحد فيهم — إن تصادف واكتشف الفرق بين الباطل والحق — لا يؤثر باطله على الحق الذى اكتشفه غيره من قبله . فأين الفيلسوف الذى يعف عن خداع الدنيا بأسرها فى سبيل مجده[٦٦] » .

ومع أن روسو واصل تنديده بالتعصب ، فإنه على نقيض بيل أدان الكفر لأنه أشد خطرا من التعصب . وقدم لقراءه « إعلانا بالإيمان » رجا به أن يحول التيار من إلحاد دولباخ » وهلفتيوس ، وديدرو » عوداً إلى الإيمان بالله ، وحرية الإرادة ، والخلود. وقد تذكر الرئيسين الدينيين — جيم وجاتييه — اللذين التقى بهما فى صباه » فزج بينهما وأخرج من المزيج كاهنا وهميا فى سافوى ، وأنطق هذا الكاهن الريفى بالمشاعر والحجج التى بررت (فى نظر روسو) العودة إلى الدين .

ويصور روسو كاهن سافوى قسيساً على أبرشية صغيرة فى الألب الايطاليه . وهو يعترف سرا بشىء من الشكوكية ، ويرتاب فى الوحى الإلهى للأنبياء ، وفى معجزات الرسل والقديسين ، وفى صحة الأناجيل[٦٧] ؛ ثم يتساءل كما تساءل هيوم « من يجرؤ على أن يخبرنى كم شاهد عيان يقتضيهم إقناعنا بتصديق معجزة ما ؟ [٦٨] » وهو يرفض صلاة التضرع « فصلواتنا يجب أن تكون ترانيم لمجد الله ، وتعبيرات عن امتثالنا لمشيئته[٦٩] . وهو يرى الكثير من مواد العقيده الكاثوليكية حديث خرافة أو اساطير الأولين[٧٠] . ومع ذلك يشعر بأنه يحسن خدمة شعبه بكتمان شكوكه ، وبممارسة العطف على الجميع والبرهم (مؤمنين وغير مؤمنين على السواء) . وأداء طقوس الكنيسة الرومانية كلها بأمانة . فالفضيلة ضرورية للسعادة ، والإيمان بالله، وبحرية الإرادة ، وبالجنه ، وبالنار ، ضرورى للفضيله ، والأديان رغم ما قارفت من جرائم جعلت الرجال والنساء أكثر فضيلة ، أو على الأقل أقل قسوة ولؤما مما كان يمكن أن يكونوا . فإذا بشرت هذه الاديان بعقائد تبدو لنا غير معقولة ، أو إذا ارهقتنا بطقوسها ومراسمها « وجب أن نسكت شكوكنا فى سبيل الجماعة .

والدين صواب فى جوهره حتى من وجهة نظر الفلسفة . ويستهل الكاهن الكتاب كديكارت بقوله « إننى موجود ولى حواس أتلقى من خلالها الانطباعات ، هذه أولى الحقائق التى تسترعى انتباهى ، وأنا مضطر إلى قبولها[٧١] » . وهو يرفض رأى باركلى : « إن سبب أحاسيسى خارج عنى ، لأنها تؤثر فى سواء كان عندى داع لها أو لم يكن ، وهى تخلق وتهدم مستقلة عنى .. إذن توجد كيانات أخرى فضلا عنى » . ونقطة ثالثة ترد على هيوم وتسبق كانط : انى أجد لدى القدرة على المقارنة بين أحاسيسى « إذن فقد وهبت قوة ايجابية للتعامل مع التجربة[٧٢] . وهذا العقل لايمكن تفسيره على أنه شكل من أشكال المادة ، فليس فى فعل التفكير أمارة على عملية مادية أو ميكانيكية . أما كيف يستطيع عقل غير مادى أن يؤثر فى جسم مادى . فذلك أمر يجاوز فهمنا « ولكنه حقيقة تدرك للتو ، ويجب ألا ننكرها لأجل الاستدلال

المجرد . وعلى الفلاسفة أن يتعلموا الاعتراف بأن شيئا ما قد يكون حقيقياً ولو عجزوا عن فهمه — خصوصاً إذا كان يدرك بأسرع من جميع الحقائق .

والخطوة التالية (كما يسلم الكاهن) هى الاستدلال العقلى الخالص ؛ فأنا لاأدرك الله بحسى ، ولكن استدل عقلا على أنه كما أن فى أفعالى الارادية عقلا هو السبب المدرك للحركة ، كذلك هناك على الأرجح عقل كونى وراء تحركات الكون . إن الله لايمكن معرفته ، ولكنى أشعر أنه تعالى موجود وفى كل مكان . وأبصر قصداً فى مئات الحالات : من تكوين عينى إلى حركات النجوم ، وينبغى ألا أفكر فى أن أنسب إلى الصدفة (مهما ازداد تكاثرها « على طريقة ديدرو ») تكييف الوسائل وفق الغايات فى الكائنات الحية ونظام العالم ، أكثر مما أنسب إلى الصدفة تجميع الحروف تجميعاً للديذا فى طبع الانيادة(٧٣) .

فاذا كان هناك إله ذكى وراء عجائب الكون ، فمحال أنه سيسمح بأن يهزم الحق هزيمة دائمة . ولابد لى من الإيمان بإله خير يؤكد انتصار الخير ، ولو لأتحاشى ذلك الإيمان الكئيب بانتصار الشر . إذن يجب أن أومن بحياة آخرة ، بجنة تجزى فيها الفضيلة . ومع أن فكرة الجحيم تفززنى ، وأوثر عليها الاعتقاد بأن الأشرار يصلون نار جهنم فى قلوبهم ، فاننى متقبل حتى تلك العقيدة الرهيبة إذا اقتضاها ضبط الدوافع الشريرة فى الإنسان . وفى تلك الحالة أتوسل إلى الله ألا يجعل آلام الجحيم خالدة(٧٤) . ومن ثم كانت فكرة المطهر باعتباره مكاناً للعقوبة الممكن اختزالها للخطاة جميعاً إلا أشدهم عناداً وعصياناً أكثر انسانية من تقسيم الموتى كلهم إلى فريق المباركين إلى الأبد ، والهالكين إلى الأبد . وهبنا عاجزين عن البرهان على وجود الجنة ، فيالها من قسوة أن ننتزع من الناس هذا الرجاء الذى يعزيهم فى أحزانهم ويشدد عزائمهم فى هزائمهم(٧٥) . ولو انعدم الايمان بالله وبالآخرة ؛ لتعرضت الفضيلة للخطر وتجردت الحياة من معناها ، لأن الحياة فى الفلسفة الملحدة صدفة آليه تمر بمئات الآلام إلى موت أليم أبدى .

وعليه وجب أن نتقبل الدين على أنه فى مجموعه عطية كبرى للبشر ولاحاجة بنا إلى أن نعلق أهمية كبيرة على شتى المذاهب التى مزقت المسيحية ، فكلها خسير إذا حسنت السلوك وغـذت الرجاء . ومن السخف أن نفترض أن أصحاب العقائد والآلهة والأسفار المقدسة الأخرى سوف يحكم عليهم بالهلاك، «فلولم يكن على الأرض سوى دين واحد» ولو حكم على كل الخارجين عنه بالعقاب الأبدى . لكان إله ذلك الدين أظلم الطغاة وأقساهم[٧٦]. وعليه فلن يعلم إميل لونا بعينه من المسيحية، ولكننا سنعطيه الوسيلة لأن يختار لنفسه حسبما يرتئيه عقله صوابا[٧٧] . وخير الطرق أن نمضى فى الدين الذى ورثناه عن آبائنا أو مجتمعنا . ونصيحة كاهن روسو الوهمى له هى «عد إلى وطنك ، وارجع إلى دين آبائك ، واتبعه بكل قلبك ولا تتخل عنه أبدا فهو بسيط جداً ومقدس جدا » وما من دين آخر تجد فيه الفضيلة أشد نقاء » ولا العقيدة أكثر اشباعا للعقل[٧٨] . »

وكان روسو عام ١٧٥٤ قد سبق إلى هذه النصيحة » وعاد الى جنيف وعقيدتها ، على أنه لم يف بوعد الذهاب اليها والإقامة فيها بعد أن يسوى أموره فى فرنسا . وفى «رسائل من الجبل» التى كتبها بعد عشر سنوات تنكر لمعظم دين آبائه كما سنرى . وفى العقد الأخير من حياته سنجده يوصى غيره » بالدين » ولكنه لايكاد يبدى أمارة على الإيمان الدينى أو الممارسة الدينية فى حياته اليومية . واجمع الكاثوليك والكلفنيون واليسوعيون على مهاجمته هو «واعلان الإيمان» الذى ناب عن عقيدته لأنهما أساسا غير مسيحيين[٧٩]. وصدم التعليم الذى اقترحه لإميل قراءه المسيحيين لأنهم رأوه فى حقيقته تعليما لا دينيا، وخامرهم الظن فى أن فتى من أواسط الشباب ، نشىء على غير دين ، لن يعتنق دينا بعد حين ، إلا لداعى المصلحة الاجتماعية . وقد رفض روسو عقيدة الخطيئة الأصلية والدور الفدائى الذى يؤديه موت المسيح وذلك برغم قبوله الرسمى للكلفنية . وأبى قبول العهد القديم بوصفه كلمة الله ، وذهب إلى أن العهد الجديد «حفل بأشياء لا يمكن تصديقها ، أشياء ينفر منها العقل[٨٠]» . ولكنه أحب الأناجيل لأنها أعظم الأسفار تأثيرا وإلهاما للنفس .

أيمكن أن يكون كتاب اجتمع له كل هذا الجلال والبساطة فى وقت معاً من عمل إنسان ؟ أيمكن أن يكون ذلك الذى احتوى تاريخه فيها مجرد انسان ؟ . . . أى رقة وطهر فى أفعاله ، وأى نعمة تمس القلوب فى تعاليمه ، وما اسمى أقواله ، وما أعمق حكمة مواعظه ، وما أعظم إجاباته سداداً وتمييزاً وأى إنسان ، وأى حكيم يستطيع أن يحيا ويتألم ويموت دون ضعف أو تباه ؟ . . . إذا كانت حياة سقراط وموته هما حياة فيلسوف وموته ، فحياة المسيح وموته هما حياة إله وموته[٨١] .

ج — حبه وزواجه

حين اختتم روسو صفحات كاهن سافوا الخمسين وعاد إلى إميل تصدى لمشاكل الجنس والزواج .

فهل يحدث تلميذه عن الجنس ؟ لاتفعل حتى يسألك . فإذا سألك فاخبره بالحقيقة[٨٢]. ولكن افعل كل ما يتفق والصدق والصحة لكى تؤجل وعيه بالجنس . على أى حال لاتنبه هذا الوعى : « إذا اقتربت السن الحرجة فقدم للشباب من المشاهد ما هو كفيل بالحد من رغباتهم الجنسية لا بإثارتها . . . أبعدهم عن المدن الكبيرة حيث يعجل لباس النساء اللائى يعرضنه فى زهو وتباه ، وتعجل جرأتهن دوافع الطبيعة وتستبقها ، وحيث يعرض كل شىء على أبصارهم ، لذات يجب ألا يعرفوا عنها شيئاً حتى يبلغوا من العمر ما يمكنهم من أن يختاروا بأنفسهم . . . وإذا أبقاهم ميلهم للفنون فى المدينة فابعدهم عن . . . حياة التبطل الخطرة . واختر بعناية عشراءهم ، وشواغلهم وملاهيهم ، ولاترهم شيئاً غير الصور المحتشمه المثيرة للشفقة . . . وغير حسهم المرهف دون أن تثير حواسهم[٨٣] . »

وأقلقت روسو العواقب الوخيمة لعادة يبدو أنه عرفها معرفة خبير !

« حذار أن تترك الفتى ليلا ولا نهارا ، وعليك على الأقل أن تقاسمه حجرته . وإياك أن تسمح له بالذهاب إلى فراشه حتى يأخذ الكرى بجفونه ، ثم اجعله ينهض بمجرد استيقاظه . . . فلو أنه اعتاد هذه العادة الخطرة

لذلك . فسيتنبه جسمه ونفسه من تلك اللحظة فصاعداً ، وسيحمل إلى الغير آثار . . . أضر عادة يكتسبها شاب » .

ثم يضع هذا القانون لتلميذه .

« إن عجزت عن التحكم فى شهواتك ياعزيزى إميل فإنى أرثى لك ، ولكنى لن أتردد لحظة ، فلن أسمح بالروغان من مقاصد الطبيعة . وإذا كان حتماً عليك أن تكون عبداً فإنى أوثر أن أسلمك إلى طاغية قد أنقذك منه ، فمهما حدث ، فإنى قادر على تحريرك من العبودية للنساء بسهولة أكثر من عبوديتك لنفسك[٨٤] » .

ولكن لا تدع رفاقك يغرونك بالذهاب إلى ماخور ! « فلم يريد هؤلاء الفتيان أغراءك ؟ لأنهم يرغبون فى إفسادك . . . فحافزهم الوحيد هو غل دفين لأنهم يرونك خيراً منهم ، فهم يريدون أن يجروك إلى الهوة التى ترددوا فيها » .

والزواج خير من هذا . ولكن ممن ؟ يصف المعلم المثل الأعلى للفتاة « والمرأة » والزوجة » ويحاول أن يطبع ذلك المثل على ذهن إميل هاديا له وهدفا فى البحث عن زوجة . وكان روسو يخاف النساء المسترجلات ، المسيطرات « الوقحات » ، ويرى سقوط الحضارة فى تسلط النساء المسترجلات استرجالا متزايداً على الرجال المخنثين تخنثا متزايدا « فى كل بلد تجد أن الرجال من النوع الذى تصنعه النساء . . . . فردوا النساء إلى الأنوثة ، تعد رجالا مرة أخرى[٨٥] » أن نساء باريس يغتصبن حقوق جنس دون أن يردن التخلى عن حقوق الآخر ، وهن لذلك لا يملكن هذه ولا تلك مكتملة[٨٦] » . والقوم يتصرفون بطريقة أفضل فى الأقطار البروتستنتية حيث الحشمة ليست أضحوكة بين المفسطين بل وعدا يبشر بأمومة أمينة[٨٧] . أن مكان المرأة فى البيت « كما كانت الحال عند قدماء اليونان ، ويجب أن تقبل زوجها سيدا ولكن يجب أن تكون صاحبة الكلمة العليا فى البيت[٨٨] . وبهذه الطريقة تصان صحة النوع .

ويجب أن تهدف تربية الفتيات إلى أخراج أمثال هؤلاء النساء . يجب أن يربين في البيت على أيدي أمهاتهن ، وأن يتعلمن كل فنون البيت ، من الطهو الى التطريز ، وأن يحصلن الكثير من الدين ، بأسرع ما يمكن ، لأن من شأن هذا أن يعينهن على الحشمة ، والعفة ، والطاعة . وعلى البنت أن تقبل دين أمها دون جدل ، ولكن على الزوجة أن ترتضي دين زوجها[٨٩] على أية حال لتتجنب الفلسفة وتحتقر حياة الصالونات[٩٠] . على أنه يجب ألا تكره الفتاة على الإحجام الغبي ، فينبغي أن تكون خفيفة الروح ، مرحة ، تواقة ، وأن تغني وترقص كما تشتهي ، وتستمتع بكل لذات الشباب البريئة ، ولتذهب إلى المراقص والألعاب الرياضية ، وحتى إلى المسارح — تحت الملاحظة الواجبة وفي صحبة طيبة[٩١] . ويجب العمل على أن يظل ذهنها نشيطا يقظا إن أريد بها أن تكون زوجة صالحة لرجل مفكر ، ولابأس بأن يسمح لها بقدر من التدلل ، باعتبار هذا جزءا من اللعبة المعقدة التي تختبر بها خطابها وتختار زوجها[٩٢] . ان الرجل هو موضوع الدرسة الصحيحة لجنس النساء[٩٣] .

فإذا ثبت هذا المثل الأعلى للفتاة والمرأة في آمال إميل جاز له أن يخرج ويبحث عن زوجته . وهو الذي يختار ، لاأبواه ولامعلمه . ولكن من واجبه نحوهم ونحو خدمتهم عليه سنين طوالا ، أن يستشيرهم في احترام . أتريد أن تذهب إلى المدينة وتتطلع إلى الفتيات اللاتي يعرضن هناك ؟ حسنا جداً ، سنذهب إلى باريس وسترى بنفسك حقيقة هؤلاء الأوانس المثيرات . وهكذا يعيش إميل برهة في باريس ويختلط بـ « المجتمع الراقي » . ولكنه لايجد فيه فتاة من النوع الذي وصفه له معلمه الماكر « إذن وداعاً ياباريس الذائعة الصيت ، بكل ما فيك من ضجيج ودخان وقذارة ، حيث كفت النساء عن الإيمان بالشرف ، والرجال عن الإيمان بالفضيلة ، إننا نبحث عن الحب والسعادة والبراءة ، وكلما بعدنا عن باريس كان خيرا لنا[٩٤] .

وعليه يقفل المعلم وتلميذه إلى الريف ، وإذا هما يصادفان صوفي في قرية هادئة نائية عن الزحام المجنون . هنا (الكتاب الخامس) تتحول

رسالة روسو إلى قصة حب مثالية التصوير ولكنها مبهجة ، تروى ببراعة كاتب قدير . فبعد تلك الأحاديث المسهبة فى التعليم والسياسة والدين ، يعود إلى الشاعرية والخيال ، وبينما تنكب ثريز على أشغال بيتها ، يعاود أحلامه بتلك المرأة الرقيقة التى لم يجدها إلا فى لحظات متفرقة من جولاته، ويطلق عليها اسما اشتقه من آخر غرام اشتعل فى قلبه .

وصوفى الجديدة هذه ابنة سيد كان يوما ما ثريا ، يعيش الآن فى عزلة وبساطة قانعتين . فتاة صحيحة الجسم ، جميلة ، محتشمة ، رقيقة - ونافعة وتمين أمها بكفايتها السريعة الهادئة فى كل شىء « ما من شىء لاتستطيع عمله بأبرتها (٩٥) » . ويجد إميل المبرر لمعاودة لقائها ، وتجد هى المبرر لمزيد من زياراته . وشيئاً فشيئاً يتضح له أن صوفى حائزة لكل الفضائل التى صورها له معلمه فى صورة مثالية . فيا للصدفة الإلهية ! وبعد أسابيع يصل إلى القمة التى تدير رأسه ، قمة لثم هدب ثوبها . وما هى إلا أسابيع أخر حتى يخطبها . ويصر روسو على أن تكون الخطبة احتفالا رسمياً مهيبا فيجب أن تتخذ كل التدابير - بالطقوس وسواها - للتسامى بقدسية رباط الزوجية وإقرارها فى الذاكرة « وبينما يرتعش إميل وهو على حافة النعيم ، يحمله معلمه العجيب الذى يضرب بالحرية والطبيعة عرض الحائط على ترك خطيبته والغياب عنها عامين والسفر إمتحاناً لحبهما ووفائهما . ويبكى إميل ويصدع للأمر » فإذا عاد وهو محتفظ بعذريته كأنما بمعجزة وجد صوفى عفيفة فى وفاء « فيتزوجان » ويرشدهما المعلم إلى واجبات الواحد نحو صاحبه » فيطلب إلى صوفى أن تطيع زوجها إلا فيما يتصل بالفراش والمأكل « ستهيمنين عليه طويلا بالحب إذا جعلت وصلك له نادرا غالياً ... » وليكرم إميل عفة زوجته دون أن يشكو من برود عاطفتها (٩٦) . ويختم الكتاب بنصر ثلاثى :

« ذات صباح » يدخل إميل حجرتى ويعانقنى قائلا : « هنىء ابنك يا أستاذى فهو يأمل أن يحظى بعد قليل بشرف الأبوة . ما أعظم المسئولية التى ستحملها وما أشد حاجتنا إليك ! ولكن معاذ الله أن أدعك تربى

الولد كما ربيت الولد ، معاذا الله أن يقوم إنسان غيرى بهذه المهمة اللذيذة المقدسة . . : ولكن واصل مهمة تعليم المعلمين الشابين . أبذل لنا النصح وأشرف علينا . وسيسلس قيادنا لك وسأحتاج إليك ما حييت . . . . لقد أديت واجبك فعلمتنى كيف اقتدى بك ، بينما تستمتع أنت بالفراغ الذى تستحقه جزاء جهودك[٩٧] » .

لقد اتفق العالم عموما بعد قرنين من الثناء ، والسخرية ، والتجربة على أن « اميل » كتاب جميل موح » ومستحيل . فالتربية موضوع ثقيل ، لأننا نتذكرها فى ألم ، ولانحب أن نسمع المزيد عنها ، ونكره أن تفرض علينا من جديد بعد أن أتممنا مدة الخدمة التى فرضت علينا فى المدرسة . ومع ذلك فقد صنع روسو من هذا الموضوع المنفر رواية تسحر قارئها . فالأسلوب البسيط ، المباشر الشخصى يأسرنا برغم ما شابه من تمجيد بليغ » ونحن نساق للرواية ونسلم أنفسنا لذلك المعلم الكلى العلم ، وأن ترددنا فى إسلام أبنائنا له . ذلك أن روسو ، بعد أن امتدح حدب الأم وحياة الأسرة ، يأخذ إميل من أبويه وينشئه فى عزلة مضادة للفساد عن المجتمع الذى لابد له من العيش فيه بعد حين . وروسو لم يرب أطفالا قط » لذلك لايعلم أن الطفل المتوسط هو بـ « الطبيعة » لص صغير » غيور ، جشع ،مسيطر » ولوانتظرنا حتى يتعلم الانضباط دون أوامر ، والاجتهاد دون تعليم، لشب إنساناً سيء التكيف » بليداً قليل الحيلة ، فوضوياً » قذر الجسم أشعث الشعر ، لايطاق . وأنى لنا هؤلاء المعلمون الخصوصيون الراغبون فى تكريس عشرين عاما من حياتهم لتربية طفل واحد ؟ تقول مدام دستال (١٨١٠) أن هذا الضرب من العناية والاهتمام . . . يضطر كل رجل إلى تكريس حياته كلها لتربية مخلوق آخر » ولا تتاح الحرية فى النهاية إلا للاجداد ليهتموا بمصالحهم[٩٨] .

وأكبر الظن أن روسو أدرك هذه الصعوبات وغيرها بعد أن أفاق من نشوة تأليف كتابه . فقد جاءه فى ستراسبورج عام ١٧٦٥ أحد المتحمسين له وهو يتدفق ثناء وقال له « سيدى انك ترى رجلا ينشىء أبناءه على المبادىء التى أسعده أن يتعلمها من كتابك اميل » . وقال روسو

غاضبا « هذا أسوأ لك ولأبيك[٩٩] . وفى الرسالة الخامسة من « رسائل من الجبل » بين أنه لم يؤلف إميل للآباء العاديين بل للحكماء « لقــد أوضحت فى المقدمة أن اهتمامى كان بتقدم خطة نظام جديد للتربية لينظر فيه الحكماء ، لا طريقة يستخدمها الآباء والأمهات[١٠٠] » . فهو كمعلمه افلاطون انتزع الطفل من أذى أبويه مؤملا أن يصبح صالحاً لتربية اطفاله بعد ان اكتملت له التربية المنقذة . وكأفلاطون « ذخر فى السماء أنموذجا لحالة أو طريقة مثالية ، حتى « يشهدها كل راغب » فإذا شهدها استطاع أن يوجه نفسه وفقها[١٠١] » . وقد اذاع على الناس حلمه هذا « عسى أن يحمل الإلهام فى بلد ما » لبعض الرجال والنســاء » ويعين على صلاح الحال . ولقد فعل .

* * *

الفصل الثامن

روسو المنبوذ

١٧٦٢ — ٦٧

١ — الهروب

عجيب أن يفلت من الرقيب كتاب يحوى ما حوى إميل من هجوم صريح على كل شيء إلا أسس المسيحية ، وأن يطبع في فرنسا . ولكن الرقيب كان مالزيرب المتسامح العطوف . وقبل أن يأذن بالنشر حث روسو على أن يحذف فقرات من المؤكد أنها تدفع الكنيسة إلى العداء النشيط . ولكن روسو رفض . ولقد نجا زنادقة آخرون من الاضطهاد لأشخاصهم بالتخفى وراء أسماء مستعارة ؛ أما روسو فقد ذكر اسمه بشجاعة على صفحات غلاف كتبه .

وبينما ندد جماعة الفلاسفة بإميل باعتباره خيانة أخرى للفلسفة ، أدانه أحبار فرنسا وقضاة باريس وجنيف باعتباره مروقا من المسيحية . وأعد رئيس أساقفة باريس « عدو الجنسنين » للنشر في أغسطس ١٧٦٢ رسالة قوية تهاجم الكتاب . وكان برلمان باريس المناصر للجنسنين مشغولا بطرد اليسوعيين ، ولكنه أراد رغم ذلك أن يبدى غيرته على الكاثوليكية ؛ وأتاح له ظهور إميل فرصة ليضرب ضربته دفاعا عن الكنيسة . واقترح مجلس الدولة الذى كان يخوض حربا مع البرلمان . ويكره أن يكون دونه غيرة على سلامة العقيدة ، أن يلقى القبض على روسو . فلما نمى الخبر إلى أصدقاء روسو من النبلاء نصحوه بالرحيل فورا عن فرنسا . وفى ٨ يونيو بعثت إليه مدام دكريكى رسالة تشى بانفعالها . قالت : « لاريب فى أن أمراً صدر بالقبض عليك . فاستحلفك بالله أن تهرب . . . إن حرق كتابك لن يضيرك أما شخصك فلا يطيق السجن . فاستشر جيرانك [١] .

أما الجيران فكانا مرشال ومرشالة لكسمبورج . وقد خشيا أن يتورطا فى الأمر لو قبض على روسو [٢] ، فنحاه هما وأمير كونتى على الهروب إلى سويسرة ، وأعطوه مبلغا من المال وعربة ليعبر بها الطريق الطويل من فرنسا إلى سويسره . وأذعن روسو على مضض . وترك تريز فى رعاية المرشالة . وبرح مونمورنسى فى ٩ يونيو . فى ذلك اليوم حضر مرسوم بالقبض عليه ولكنه نفذ ببطء رحيم ، لأن الكثيرين من رجال الحكومة سرهم أن يتركوه يهرب . وفى ذلك اليوم ذاته قال الأستاذ أومير جولى دفلورى لبرلمان باريس وهو يلوح بنسخة من إميل :

« يبدو أن هذا العمل ألف لهدف واحد هو رد كل شيء إلى الدين الطبيعى » وتطوير ذلك النظام الإجرامى فى خطة المؤلف لتربية تلميذه ...

وأنه ينظر إلى جميع الأديان على أنها تستوى فى الخير » وعلى أنها كلها منبثة من مناخ الناس ، وحكومتهم وطبعهم . . وأنه بناء على هذا يجرؤ على هدم صحة الكتاب المقدس والنبوات » ويقينية المعجزات الواردة فى الأسفار المقدسة . وعصمة الوحى ، وسلطان الكنيسة . . وهو يسخر من الدين المسيحى ويجدف عليه . ذلك الدين الذى هو وحده من صنع الله .

ومؤلف هذا الكتاب الذى جرؤ على وضع اسمه عليه يجب القبض عليه بأسرع ما يمكن . ومن الأهمية بمكان » أن تجعل العدالة من المؤلف وأولئك الذين . . » شاركوا فى طبع هذا الكتاب وتوزيعه — مثلا وعبرة للناس بكل صرامة » .

ومن ثم فقد أمر البرلمان :

بأن يمزق الكتاب المذكور ويحرق فى فناء القصر (قصر العدالة) أسفل السلم الكبير ، بيد كبير الجلادين » وعلى كل الذين يملكون نسخا من الكتاب أن يسلموها إلى المسجل لإبادتها ، ومحظور على الناشرين طبع هذا الكتاب أو توزيعه ، وسيقبض على جميع بائعيه وموزعيه ويعاقبون طبقا لنص القانون الصارم ، ويجب القبض على ج — ج روسو وزجه فى سجن الكونسيرجرى فى قصر العدالة [٣] .

وفى ١١ يونيو مزق وحرق إميل كما نص الأمر، ولكن روسو كان قد وصل إلى سويسرة . أمرت الحوذى أن يقف لحظة دخولى إقليم برن وخرجت من مركبتى، وخررت على وجهى « وقبلت الأرض وصحت فى غمرة فرحى :

« حمداً لك أيتها السماء، حامية الفضيلة، إننى ألمس أرضاً للحرية [٤]. »

ولم يكن مطمئناً كل الاطمئنان . فواصل ركوبه إلى إيفردون « قرب الطرف الجنوبى لبحيرة نوشاتل » فى مقاطعة برن « وهناك مكث شهرا مع صديقه القديم روجان . أيبحث عن منزل فى جنيف ؟ ولكن فى ١٩ يونيو أدان مجلس الخمسة والعشرين الذى يحكم جنيف كلا من « إميل » و« العقد الاجتماعى » لأنهما خارجان على التقوى ، فاضحان، وقحان، مفعمان بالتجاديف والافتراءات على الدين . وقد جمع المؤلف تحت ستار الشك كل ما من شأنه أن يضعف المقومات الرئيسية للدين المسيحى المنزل ، ويهزها ويهدمها . . . ويتعاظم خطر الكتابين ووجوب شجبهما لأنهما مكتوبان بالفرنسية (لا باللاتينية التى لا تعرفها غير القلة) بأسلوب شديد الإغراء ، منشوران باسم مواطن جنيفى [٥] .

وعليه فقد أمر المجلس بحرق الكتابين ، وحرم بيعهما ، وأصدر مرسوماً بالقبض على روسو إذا دخل يوما ما أرض الجمهورية . ولم يعترض قساوسة جنيف على هذا التبرؤ من أشهر أبناء جنيف الأحياء « ولا ريب فى أنهم شعروا بأن أى عطف يبدونه للمؤلف « إعلان بإيمان كاهن سافوى » ، سيؤكد ما كشفه دالامبير عما يبطنونه من ميول للتوحيد، وانقلب عليه يعقوب فيرن الذى ظل صديقا له سنين كثيرة، وطالب بأن يسحب روسو أقواله . يقول روسو وهو يذكر ذلك الموقف « لو سرت بين الجماهير أى شائعة عنى لأضرت بى، وقد عاملنى كل مروجى الشائعات والمتفيقهين كأننى تلميذ يهدد بالجلد لأنه لم يحسن حفظ درسه الدينى [٦] .

وتأثر فولتير من موقف غريمه « فلقد قرأ إميل « وتعليقاته ما زالت ترى على نسخته المحفوظة بمكتبة جنيف . وفى خطاب مؤرخ ١٥ يونيو كتب عن الكتاب « إنه خليط تهرف به مرضعة بلهاء فى أربعة مجلدات بها أربعون

صفحة ضد المسيحية من أجرأ ما عرفنا . . . وهو يقول « في الفلاسفة من الأشياء المؤذية قدر ما يقوله في المسيح ، ولكن الفلاسفة سيكونون أكثر تسامحا من القساوسة[٧] . على أية حال أعجبه « إعلان الإيمان » فقال عنه خمسون صفحة كاملة ، ولكنه أضاف « من المؤسف أن يكون كاتبها . . . وغدا كهذا[٨] . وكتب إلى مدام دودفان سأحب مؤلف كاهن سافوى ، مهما فعل ومهما يفعل[٩] . . ولما سمع أن جاك طريد لا مأوى له صاح « فليأت إلى هنا (إلى قريته) . . يجب أن يأتي . سأستقبله بذراعين مفتوحتين . سيكون هنا سيداً أكثر مني . سأعامله كأنه ابني[١٠] » . وبعث بدعوته إلى خمسة عناوين مختلفة ، ولابد أنها وصلت إلى أحدها ، لأن روسو أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يرد عليها[١١] . وفي ١٧٦٣ جدد فولتير الدعوة ، فرفضها روسو ، واتهم فولتير بأنه حرض مجلس الخمسة والعشرين على إدانة « العقد الاجتماعي » و « إميل » . . ولكن فولتير أنكر التهمة « وبحق فيما يبدو .

وفي بواكير يوليو ١٧٦٢ أخطر مجلس شيوخ برن روسو بأنه لايستطيع السماح بوجوده في اقليم برن ، وأن عليه أن يرحل عنه في بحر خمسة عشر يوما وإلا واجه السجن . وتلقى خلال ذلك خطابا رقيقا من دالامبير ينصحه بأن يحاول الاقامة في إمارة نوشاتل « وكانت تقع في قضاء فردريك الأكبر » ويحكمها ايرل ماريشال جورج كيث ، الذي قال عنه دالامبير إنه سيستقبلك ويعاملك كما كان الآباء في العهد القديم يستقبلون ويعاملون الفضيلة المضطهدة[١٢] . وتردد روسو ، لأنه كان قد انتقد فردريك زاعما أنه طاغية في ثياب فيلسوف[١٣] . ومع ذلك قبل في ١٠ يوليو ١٧٦٢ دعوة ابنة أخي روجان « مدام دلاتور » بأن ينزل بيتـا تملكه موتييه — ترافير ، على خمسة عشر ميلا جنوب شرقي مدينة نوشاتل في بقعة سيصفها بوزويل بأنها واد برى بديع تحيط به الجبال الشاهقة[١٤] . وحوالي ١١ يوليو تقدم جان — جاك بالتماس إلى الحاكم ، وبما تميز به من تواضع وإباء . كتب إلى : (ملك بروسيا) .

« لقد قلت فيك الكثير من السوء ، وأغلب الظن أنى قائل فيك المزيد منه ؛ ولكننى وأنا مطارد من فرنسا ومن جنيف ، ومن مقاطعة برن ، جئت ألتمس ملجأ فى ولاياتك . . . سيدى ، لم أستحق منك فضلا ، ولا أطلب فضلا ، ولكننى أحسست بأن من واجبى أن أصرح لجلالتك بأننى فى قبضتك ، وانى شئت أن أكون كذلك ، لجلالتك أن تتصرف معى كما تشاء » .

وكتب فردريك إلى كيث فى تاريخ غير مؤكد ، وهو لم يفرغ بعد من حرب السنين السبع :

« يجب أن تنقذ هذا الشقى المسكين . فذنبه الوحيد أن له آراء غريبة يحسبها سديدة . سأرسل إليك مائة كرون ، فتفضل باعطائه منها ما يحتاج اليه . وأظنه سيقبلها عينا بأسهل مما يقبلها نقدا ، ولولا أننا نخوض حرباً ، ولولا أننا أفلسنا ، لبنيت له كوخا بحديقة حيث يستطيع العيش كما عاش فى ظنى آباؤنا الأولون . . . . أظن أن روسو المسكين قد اختار المهنة الخطأ ، فواضح أنه ولد ليكون ناسكا مشهورا ، وأبا من آباء البرية يشتهر بنسكه وجلده لجسده . ختاما أقول أن نقاء أخلاقيات صاحبك المتوحش يعدل عدم منطقية عقله[١٥] » .

أما المريشال ، الذى يقول روسو إنه قديس بخيل ، عجوز ، شارد الذهن ، فقد أرسل اليه الزاد والفحم والخشب ، واقترح أن يبنى له بيتاً صغيراً . وفسر جان – جاك هذا العرض بأنه آت من فردريك ، فرفضه ، « ولكن منذ تلك اللحظة تعلقت به تعلقاً صادقاً حتى أصبحت أهتم الآن بمجده قدر ما كنت أرى انتصاراته إلى ذلك الحين ظالمة[١٦] » . وفى أول نوفمبر ، والحرب قاب قوسين من نهايتها ، كتب إلى فردريك يصف مهام السلم :

« مولاى !

أنت حامى وولى نعمتى » وان لى لقلبا خاق ليعرف الجميل، وأريد أن أبرىء نفسى معك ان استطعت . تريد أن تعطينى الخبز » أفليس بين رعاياك من يعوزه الخبز؟ أبعد عن عينى ذلك السيف الذى يومض ويجرحنى ... أن سيرة الملوك الذين أوتوا همتك عظيمة » وأنت لاتزال بعيدا عن ساعة منيتك » ولكن الوقت كالسيف ، وليس أمامك لحظة واحـــدة تضيعها . أو تستطيـع ان تحترم الموت دون أن تكون أعظم الرجال قاطبة .

ولوأتيح لى يوما أن أرى فردريك العادل المرهوب يملأ بلاده فى نهاية المطاف بشعب سعيد سيكون أباً له » إذن لذهب جان — جاك روسو عدو الملوك » ليموت فرحا فى أسفل عرشه[17] ».

ولم يرد فردريك ردا وصل إلينا علمه ، ولكن حين ذهب كيث إلى برلين أخبره الملك بأنه تلقى توبيخاً من روسو[18] .

وحين خيل لجان — جاك أنه ضمن بيتاً يقيم فيه » أرسل إلى تريز لتلحق به . ولم يكن واثقا من أنها ستأتى ، لأنه أحس قبل ذلك بزمن طويل بفتور محبتها له ، وعزا هذا إلى توقفه عن الاتصال الجنسى بها ، لأن «الاتصال بالنساء كان يؤذى صحتى[19]» . فلعلها الآن تؤثر باريس على سويسرة . ولكنها حضرت . وكان لقاء ذرفا فيه الدموع ، وتطلعا أخيرا إلى بضع سنين ينعمان فيها بالسلام .

٢ — روسو ورئيس الأساقفة

ولكن السنوات الأربع التالية كانت أشق مالقيا . ذلك أن قساوسة نوشاتل الكلفنين أدانوا روسو علانية بالهرطقة » وحظر القضاة بيع إميل . » واستأذن روسو راعى الكنيسة فى موتييه فى أن ينضم إلى شعب كنيسته ، ربما ليهدىء ثائرة القساوسة ، أو مدفوعا برغبة صادقة فى اتباع مبادىء كاهن سافوى؛ (أما تريز فظلت كاثوليكية)، فقبل . واختلف إلى الكنيسة للصلاة ، وتناول القربان » بعاطفة من القلب ، وعيناى تملؤهما دموع الحنان[20] . » وأعطى الساخرين منه سلاحا باتخاذه الزى الأرمنى — قلنسوة من فراء ،

وقفطان ، وحزام . وأتاح له الروب الطويل أن يستر آثار حصر البول الذى ابتلى به . وكان يختلف إلى الكنيسة فى هذا الزى ، وارتداه وهو يزور اللورد كيث ، الذى لم يعلق عليه إلا بتحيته بعبارة (السلام عليكم) . وواصل الإضافة إلى دخله بنسخ الموسيقى ، ثم أضاف إليها الآن أشغال الأبرة ، وتعلم صناعة الدنتلا . كنت أحمل كالنساء مخدتى فى زياراتى ، أو اجلس لأشتغل بالأبرة عند باب بيتى . . وأتاح لى هذا أن انفق وقتى مع جاراتى دون أن أحس مالا . . [٢١]

وأغلب الظن أن الناشرين أقنعوه فى هذه الفترة (أواخر ١٧٦٢) بأن يبدأ كتابه « اعترافات » وكان قد أقسم أن يعتزل التأليف ، ولكن هذا لن يكون تأليفاً بقدر ماهو دفاع عن خلقه وسلوكه ضد عالم من الخصوم ، لا سيا ضد تهم جماعة الفلاسفة وشائعات الصالونات . أضف إلى ذلك أنه كان مضطراً إلى الرد على عدد كبير من مختلف الرسائل . وقدم له النساء على الأخص بخوراً معزباً من إعجابهم الشديد ، لا لتعاطفهن فحسب مع المؤلف المطارد لرواية مشهورة ، بل لأن نفوسهن كانت تهفو للرجوع إلى الدين ، ولم يرين فى « كاهن سافوى » وصانعه عدوا حقيقياً للدين ، بل المدافع الشجاع عنه ضد إلحاد يشيع الكآبة فى النفوس . لمثل هؤلاء النساء ولرجال عديدين ، غدا اب الاعتراف ، ومرشداً للنفوس والضمائر . وقد نصحهم بأن يقيموا على دين شبابهم أو يعودوا إليه ، ضاربين صفحاً عن كل الصعوبات التى يوحى بها العلم والفلسفة . فتلك العجائب البعيدة التصديق ليست هى الجوهر ، ولا ضير فى تنحيتها فى صمت ، إنما العبرة بالإيمان بالله وبالخلود ، فبهذا الإيمان والرجاء يستطيع الإنسان أن يتسامى فوق كل كوارث الطبيعة التى لا تفهم ، وكل آلام الحياة وأحزانها . وطلب كاثوليكى شاب متمرد على دينه تعاطف روسو ، فأجابه روسو ناسياً تمرداته ألا يهتم كثيرا بالتوافه العارضة . « لو أننى ولدت كاثوليكيا لظللت كاثوليكيا ، علما بأن كنيستك تضع قيداً صحياً على شطحات العقل البشرى الذى لا يجد قرارا ولا شاطئاً حين يريد سبر أعماق الأشياء السحيقة [٢٢] » . وأشار على جل طلاب الحكمة هؤلاء

بالهروب من المدينة إلى الريف ، ومن التكلف والتعقد إلى البساطة الطبيعية للحياة ، والرضا الهادىء بالزواج والأبوة .

وأحبت النساء اللاتى صدمهن القساوسة المتملقون بالحياة الدنيا ورؤساء الدين المتشككون ، هذا المهرطق الزاهد الذى ندّدت به جميع الكنائس ، وإن اقتصر هذا الحب على الرسائل . فقالت مدام دبلو « النبيلة المحترمة » لجماعة من النبلاء والنبيلات « : » مامن شيء يمنع امرأة ذات حس مرهف صادق من تكريس حياتها لروسو إلا أسمي ضروب العفة ، لو كانت واثقة من أنه سيحبها حبا حارا [٢٣]. وحسبت مدام دلاتور بعض ماجاء فى خطاباته لها من مجاملات اعترافاً بالحب ، فاستجابت و رقة وحرارة وتلهف وبعثت إليه بصورتها ، مؤكدة أنها لا تنصفها . وابتأست حين أجاب بهدوء رجل لم يرها قط [٢٤]. إلا أن معجبات أخريات تمنين لو قبلن الأرض التى يمشى عليها ، وأقامت بعضهن مذابح له فى قلوبهن ، ودعاه بعضهن المسيح المولود من جديد . وكان يصدقهن أحياناً ، ورأى فى نفسه المؤسس المطلوب لدين جديد [٢٥] .

وسط هذا التمجيد كله ، أثار الشعب عليه كاهن أعلى من كهنة التمويل (الهيكل) — كأنما لتأكيد القياس — ليدينوه ثائر خطرا . ففى ٢٠ أغسطس ١٧٦٢ أصدر كرستوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، رسالة لجميع الكهنة فى أسقفيته ليقرءوا على شعبهم ، ويعلنوا على الملأ ، اتهامه لإميل ذا التسع والعشرين صفحة . وكان رجلا صارم العقيدة طاهر السمعة ، حارب الجانسنيين والموسوعية والفلاسفة ؛ وبدا له الآن أن روسو ، بعد ماظهر من انفصاله عن الملحدين ، قد انضم إليهم فى مهاجمة الإيمان الذى يرتكز عليه فى رأى رئيس الأساقفة نظام فرنسا الاجتماعى كله وحياتها الأخلاقية بأسرها .

واستهل اتهامه بالاستشهاد بمـا جاء فى رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس :

« ستأتى أزمنة صعبة لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم .. متعظمين »

مستكبرين ، جدفين . . . غير طائعين لوالديهم متصلفين ، محبين للذات ، دون محبة الله ... أناس فاسدة أذهانهم ومن وجهة الإيمان مرفوضون[٢٦] .

وهاهى قد جاءت تلك الأزمنة مافى ذلك شك :

« إن الكفر الذى تشجعه جميع الشهوات يلبس كل لبوس ليكيف نفسه على نحو ما وفق جميع الأعمار ، والأشخاص والطبقات . . . فقد يستعير أسلوباً خفيفاً لطيفاً لعوبا ، ومن هنا الحكايات الكثيرة التى تستوى بذاءة وزندقة (روايات فولتير) ، وترفه عن الخيال لأنها غواية للعقل ومفسدة للقلب . وقد يدعى الرجوع إلى الأصول الأولى للمعرفة متظاهرا بعمق آرائه وسموها ، ويزعم له سندا إليها ، لكى يخلع نيراً يقولون إنه يجلل البشر بالعار . وقد يعلو صوته كأنه امرأة غضبى فيهاجم الغيرة الدينية ، ومع ذلك يبشر بالتسامح الشامل بحماسة . وقد يمزج الجد بالهزل فى جمعه بين هذه الأساليب الكلامية المختلفة ، ويخلط الحكم بالفحش ، والحقائق الكبيرة بالأخطاء الكبيرة ، والإيمان بالتجديف ، ويأخذ على عاتقه — باختصار — التوفيق بين النور والظلمة ، وبين المسيح وبليعال »[٢٧] .

وقال رئيس الأساقفه أن هذه الطريقة لجأ اليها إميل بصفة خاصة ، فهو كتاب حفل بلغة الفلسفة دون أن يكون فلسفة حقاً ، وطفح بنتف من المعرفة لم تثر المؤلف ، وكل ما تفعله أنها تربك قرءاه لامحالة . أنه رجل مولع بمفارقات الآراء والسلوك ، يجمع بين بساطة العادات وخيلاء الفكر ، بين الحكم القديمة وجنون التجديد ، وبين احتجاب عزلته ورغبته فى أن تعرفه الدنيا بأسرها . إنه يندد بالعلوم ، ثم يصادقها . إنه يمتدح روعة الانجيل ، ثم يدمر تعاليه . لقد أقام نفسه معلماً للنوع الإنسانى ليخدعه ، ومرشدا للشعب ليضل العالم ، ونبياً للقرن ليهلمه ، فيالها من مغامرة[٢٨] .

وقال رئيس الأساقفة ما اقترحه روسو من إغفال ذكر الله أو الدين لإميل حتى يبلغ الثانية عشرة أو حتى الثامنة عشرة ، فمعنى هذا أن والطبيعة

كلها تكون قد تحدثت عبثاً بعظمة الخالق . . وأن كل تعليم خلق سيفقد مساندة الإيمان الديني . ولكن الإنسان ليس بطبيعته خـيراً كما زعم المؤلف . فهو يولد ملوثا بالخطيئة الأصلية ، وهو يشارك في افساد البشرية العام . والمعلم الحكيم — وخير المعلمين كاهن ترشده النعمة الإلهية — يتوسل بكل وسيلة سليمة ليغذى دوافع الخير في الناس ، ويقتلع دوافع الشر ، ومن ثم فهو يطعم الطفل بلبن الدين الروحي ، لكي ينمو نحو الخلاص . . وبهذا التعليم وحده يمكن أن يغدو الطفل عابدا مخلصا للإله الحق ، وواحداً من رعايا الملك الأوفياء (٢٩) . وأن الكثير من الخطايا والجرائم ليظل باقياً حتى بعد هذا التعليم المجتهد ، فما بالك بها إذا حرم الطفل منه . إن سيلا عرما من الشر يغرقنا في هذه الحالة (٣٠) » .

وقال رئيس الأساقفة في ختام كلامه إنه لهذه الأسباب :

« بعد استشارة عدة أشخاص عرفوا بورعهم وحكمتهم ، وبعد التضرع لإسم الله القدوس ، ندين هذا الكتاب لأنه يحوى تعليما بغيضا من شأنه أن يقلب القانون الطبيعي وأسس الدين المسيحي ، وأن يرسى مبادىء تناقض تعليم الأناجيل الخلقي ، وينحو إلى تكدير سلام الدول ، وتزعم الثورة على سلطان الملك ، ولأنه يتضمن الكثير جدا من الدعاوى الباطلة المفترية المفعمة بالحقد على الكنيسة ورعاتها . . لذلك نحظر صراحة على جميع الأشخاص في أسقفيتنا أن يقرأوا الكتاب المذكور أو يقتنوه ، وإلا وقعوا تحت طائلة العقاب (٣١) . »

وطبع هذه الرسالة « بامتياز الملك » وسرعان ما وصلت إلى موتيه — ترافير . وقرر روسو أن يرد عليها ، وهو الذي كان على الدوام مصمما على الكف عن الكتابة . وقبل أن يضع قلمه (١٨ نوفمبر ١٧٦٢) كان قد أطلق له العنان حتى بلغ الرد ١٢٨ صفحة ، وطبع بامستردام في مارس ١٧٦٣ ، بهذا العنوان : « من جان — جاك روسو المواطن الجنيفي إلى كرستوف ديمومون رئيس أساقفة باريس » . وسرعان ما أدانه برلمان باريس ومجمع جنيف . ورد روسو على الهجوم الذي شنه عليه مذهبا أوربا الكبيران

بالهجوم عليهما جميعا . وراح الرومانسي المجهول الذى نبذ من قبل جماعة الفلاسفة يكرو الآن ححججهم بجرأة مستهترة .

واستهل رده بسؤال مازال يسأله جميع الخصوم بعضهم لبعض فى هذا الجدل الذى لاينتهى . « لم يتحتم على أن أقول أى شىء لك يا صاحب التيافة ؟ وأى لغة مشتركة يمكننا أن نتحدث بها ، وكيف نستطيع أنه يفهم الواحد منا الآخر[٣٢] ؟ وأبدى أسفه لأنه ألف كتباً على الاطلاق ، وهو لم يفعل إلا حين بلغ الثامنة والثلاثين » وقد جره إلى هذه الغلطة أنه لاحظ مصادفة ذلك « السؤال التعس » الذى وجهته أكاديمية ديجون ، ودفعه نقاد المقال إلى الرد عليهم ، ثم أفضى كل جدل إلى جدل جديد . . . فألفيتنى ، إن جاز التعبير ، أغدو مؤلفا فى سن يهجر فيها المؤلفون التأليف عادة . . ومنذ ذلك الحين إلى اليوم اختفت الراحة والأصدقاء[٣٣]» . وزعم أنه فى حياته كلها كان :

« أكثر حماسة منى استفادة . . ولكنى كنت مخلصاً فى كل شىء . . بسيطا طيبا ، وإن كنت مرهف الحس ضعيفا ، أفعل الشر كثيرا وأحب الخير دائماً . . أتبع عواطفى أكثر من مصالحى . . أخشى الله دون أن أخشى الجحيم .. أجادل فى الدين ولكن دون إباحية . لاأحب الكفر ولاالتعصب ، ولكنى أمقت المتعصبين أكثر مما أمقت الملحدين . . وأعترف بأخطائى لأصدقائى واعلن آرائى للعالم كله[٣٤]» .

وأحزنته إدانة الكاثوليك لإميل أقل مما أحزنته إدانة الكلفنيين . فهو الذى كان يعتز بلقبه « مواطنا جنيفيا » هرب من فرنسا أملا فى أن يتنفس فى مسقط رأسه نسيم الحرية ، وأن يجد فيه من الترحيب ما يعزيه عما لقى من اذلال كثير . أما الآن « فماذا أقول ؟ إن قلبى ينفلق ؛ ويدى ترتعد ، والقلم يسقط منها ، وعلى أن أصمت . . ويجب أن اجتر فى الخفاء أشد أحزانى مرارة [٣٥] . فهاهو الرجل الذى اجترأ فى قرن اشتهر بالفسلفة ، والعقل والإنسانية ، على أن يدافع عن قضية الله ، ها هو قد وصم ! وحرم وطورد من بلد إلى بلد ، ومن ملجأ إلى ملجأ ، دون اكتراث لفقره ، ولارحمة

لأمراضه ، ثم وجد ملاذا آخر الأمر عند « ملك مستنير ذائع الصيت » وأنزوى فى قرية صغيرة رابضة بين جبال سويسرة ، ظانا أنه فى النهاية ، واجد العزلة والهدوء ، ولكن طاردته حتى هناك لعنات الكهنة .. أن رئيس الأساقفة هذا ، « الرجل الفاضل ، النبيل النفس ، الكريم المحتد » ، كان ينبغى أن يوبخ هؤلاء المضطهدين ، ولكنه بدلا من هذا أصدر لهم الأذن فى غير خجل ، « وهو الذى كان يجب أن يدافع عن قضية المظلومين[٣٦] ..

وأحس روسو أن أشد ماساء رئيس الأساقفة هو تعليم روسو أن الناس يولدون اخيار ، أو غير أشرار على الأقل ، وقد أدرك بومون أنه لو كان هذا حقا ، ولو لم يكن الإنسان ملوثا منذ مولده بوراثته خطيئة آدم وحواء، لسقط التعليم بكفارة المسيح ، وهذا التعليم لب العقيدة المسيحية . ورد روسو بأن تعليم الخطيئة الأصلية لم يذكر بوضوح فى أى مكان من الكتاب المقدس. وقد إدرك أن رئيس الأساقفة قد صدمه الأقتراح بتاجيل تعليم الدين ، فرد بأن تربية الأطفال على أيدى الراهبات والقساوسة لم تقلــل من الخطيئة أو الجريمة ، فهؤلاء الأطفال بعد أن يكبروا يفقدون خوفهم من الجحيم ، ويؤثرون لذة صغيرة حاضرة على الجنة التى وعدوا بها . ثم ما بال هؤلاء القساوسة انفسهم — أتراهم نماذج للفضيلة فى فرنسا المعاصرة[٣٧] ؟ ومع ذلك « فأنا مسيحى ، مسيحى بأخلاص ، طبقاً لتعليم الأنجيل ، لا مسيحى متلمذ للقساوسة ، بل تلميذ للمسيح » . ثم أضاف روسو وعينيه على جنيف « إننى فى سعادتى بالولادة فى أقدس وإعقل دين فى الأرض ، مازلت متعلقاً تعاقا لا أنفصام فيه بأيمان آبائى . وأنا مثلهم أتخذ من الأسفار المقدسة والعقل القواعد الوحيدة لأيمانى[٣٨] ... وأحس بلوم من أخبروه بأنه « مع أن كل أصحاب العقول الذكية يفكرون كما تفكر ، فأنه ليس من الخير أن يفكر العوام على هذا النحو » .

« ذلك ما يتصايحون به على من كل جانب ، ولعله ماكنت أنت نفسك قائله لى لو كنا وحيدين فى مكتبك . هكذا الناس ، فهم يغيرون لغتهم مع ملابسهم ، ولا يقولون الحق إلا وهم فى أروابهم ، أما فى ثيابهم التى

يبدون فيها أمام الناس فلا يعرفون إلا أن يكذبوا . وهم ليسوا مخادعين غشاشين أمام وجوه البشر فحسب ، بل إنهم لا يخجلون من أن يعاقبوا كل من يأبون أن يكونوا غشاشين كذابين علانية مثلهم ، مخالفين فى ذلك ضمائرهم[٣٩].

وهذا الخلاف بين ما نؤمن به وما نبشر به هو سر الفساد فى الحضارة العصرية . أن هناك تحيزات ينبغى أن نحترمها ، على ألا تحيل التربية إلى خداع هائل وتقوض الأساس الخلقى للمجتمع[٤٠] . فإذا أصبحت هذه التحيزات قتالة فهل نسكت على جرائمها ؟

« لست أقول ، ولا أرى ، أن الدين الحسن لا وجود له ... ولكن الذى أقوله . . . . أنه ما من دين من الأديان التى سادت لم يثخن الإنسانية بالجراح . وكل المذاهب عذب بعضها بعضا ، وكلها قدم لله قربان الدم البشرى . وأيا كان مبعث هذه التناقضات فهى قائمة ، فهل من الأجرام الرغبة فى إزالتها[٤١] ؟

وقبيل ختام رده دافع روسو عن إميل دفاع المحب المتيم بكتابه ، وتساءل لم لم يقم لمؤلفه تمثال .

« هبنى أرتكبت بعض الأخطاء ، لا بل كنت دائما مخطئا ، أفلاشفاعة لكتاب يشعر المرء فى كل جزء فيه — حتى فى أغلاطه وحتى فى الضرر الذى قد يكون فيه — بالحب الصادق للخير وبالغيرة على الحق ؟ . . كتاب لا يشع غير السلام ، واللطف ، والصبر ، وحب النظام ، وطاعة القوانين فى كل شىء ، حتى فى أمر الدين . كتاب تؤكد فيه قضية الدين تأكيدا رائعاً ، وتحترم فيه مكارم الأخلاق احتراما كبيراً . . . . ويصور الشر فيه على أنه حماقة ، والفضيلة على أنها شىء محبب للنفوس . . . أجل ، إنى لا اخشى أن أقولها . . فلو أن فى أوربا حكومة واحدة مستنيرة حقاً . . لخلعت على مؤلف إميل أسباب التشريف العلنية ، ولأقامت له تمثالا . . . ولكن خبرتى الكبيرة بالبشر تمنعنى من أن أتوقع تقديراً كهذا وأنا لم أعرفهم معرفة تكفى لأن أتوقع ذلك الذى أتوه » .

ولكنهم أقاموا له التماثيل .

٣ — روسو والكلفنيون

لم يبهج خطاب روسو الذى وجهه إلى كرستوف بومون غير بعض أحرار الفكر فى فرنسا وبعض المتمردين السياسيين فى سويسرة . وجاءت من البروتستنت معظم الردود « المفندة » لدعاوى روسو والموجهة إلى المؤلف . ورأى قساوسة جنيف الكلفنيون فى الخطاب هجوما على المعجزات وتنزيل الكتاب المقدس ، والإغضاء عن هـــذه المرطقات معناه التمهيد من جديد للخطر الذى عرضهم له دالامبير . وغضب روسو من إحجام الأحرار الجنيفيين عن الجهر بالدفاع عنه ، فارسل (١٢ مايو ١٧٦٣) إلى مجلس جنيف الكبير يتخلى عن مواطنته .

وقد حظى عمله هذا ببعض التأييد المسموع . ففى ١٨ يونيو رفع وفد إلى الرئيس الأول للجمهورية « احتجاجا غاية فى التواضع والاحترام من مواطنى جنيف وسكان مدنها » شكا فيها شكا من مظالم « من أن الحكم الصادر على روسو غير قانونى » وأن مصادرة نسخ إميل من مكتبات جنيف كانت عدوانا على حقوق الملكية . ورفض مجلس الخمسة والعشرين الاحتجاج . وفى سبتمبر أصدر المدعى العام « جان روبير ترونشان (ابن عم طبيب فولتير) ، خطابات مكتوبة من الريف » للدفاع عن إجراءات المجلس المختلف عليها . وناشد « المحتجون » روسو الرد على ترونشان . وإذ لم يكن بروسو أى نية فى البعـــد عن الشر ، فقد نشر (ديسمبر ١٧٦٤) تسعة « خطابات مكتوبة من الجبل » — وهى رد من بيته الجبلى على أوليجاركية السهل الجنيفى . وكان ساخطاً أشد السخط على القساوسة والمجلس جميعا « فهاجم الكلفنية كما هاجم الكاثوليكية ، واحرق بذلك معظ جسه من خلفه .

وقد وجه الخطابات من الناحية الشكلية لزعيم المحتجين . واستهلها بتناول الأذى الذى لحق به من جراء الإدانة المتعجلة لكتبه وشخصه « دون أن تتاح له أى فرصة للدفاع . واعترف بعيوب كتبه . « لقد وجدت أنا نفسى الأخطاء الكثيرة فيها » ولست أشك فى أن غيرى قد يرون فيها اخطاء أكثر .

وأنه مازالت هناك أخطاء أخرى لم أدركها لا أنا ولا غيرى . . . فبعد الاستماع إلى الطرفين سيحكم الجمهور . . وسينجح الكتاب أو يسقط ، وتنتهى القضية عند هذا[٤٣] . ولكن أكان الكتاب مؤذيا ؟ أيمكن أن يقرأ انسان « هلويز الجديدة » « وإعلان إيمان كاهن سافوى » ثم يعتقد حقا أن مؤلفها قصد هدم الدين ؟ صحيح ان الكتابين حاولا تدمير الخرافة لأنها شر بلاء رزئت به البشرية ، ولأنها محنة الحكماء وأداة الطغيان[٤٤] . ولكن ألم يؤكدا ضرورة الدين ؟ ان المؤلف يتهم بعدم ايمانه بالمسيح « وهو مؤمن بالمسيح ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة متهميه .

اننا نعترف بسلطان المسيح ، لأن فكرنا يوافق على تعاليمه ولأننا نجدها تعاليم سامية . ونحن نسلم بالوحى منبثقاً من روح الله « دون أن نعرف كيف . . وإذ نقر بسلطان إلهى فى الانجيل ، فاننا نؤمن بأن المسيح بشر بهذا السلطان ، ونحن نقر بفضيلة فى سلوكه تفوق فضيلة البشر ، وبحكمة فى تعليمه تفوق حكمة البشر . »

وأنكر الخطاب الثانى حق مجلس مدنى فى الحكم فى قضايا الدين (ناسيا العقد الاجتماعى) . وفى إدانة إميل انتهاك لمبدأ أساسى من مبادىء حركة الاصلاح البروتستنتى ، وهو حق الفرد فى أن يفسر الكتاب المقدس لنفسه[٤٥] .

« لو برهنت لى اليوم انى فى مسائل الدين مضطر للاذعان لقرارات غيرى « فسأتحول إلى الكاثوليكية غدا[٤٦] » . وسلم روسو بأن دعاة الاصلاح البروتستنتى أصبحوا بدورهم مضطهدين للتفسير الفردى[٤٧] . ولكن هذا لا يبطل المبدأ الذى لولاه لكانت ثورة البروتستنت على السلطة البابوية ظالمة . واتهم القساوسة الكلفنيين (باستثناء راعى) بأنهم اعتنقوا روح الكاثوليكية المتعصب « ولو كانوا أوفياء لروح الاصلاح البروتستنتى لدافعوا عن حقه فى نشر تفسيره الخاص للكتاب المقدس . وجاد الآن بكلمة ثناء على رأى دالامبر فى قساوسة جنيف :

« أن أحد الفلاسفة يلقى عليهم نظرة عجلى ، ثم يتغلغل إلى أعماقهم ،

فيرى أنهم أريوسيون ، سوسينيون » فيقول هذا ، ويحسب أنه بهذا القول يشرفهم ولكنه لايدرك أنه يعرض مصالحهم الدنيوية للخطر » وهو الأمر الوحيد الذى يقرر على العموم إيمان البشر فى هذه الدنيا(٤٨) . »

وفى الخطاب الثالث تناول اتهامه برفض المعجزات . فنحن إن عرفنا المعجزة بأنها خرق لقوانين الطبيعة » فلن نستطيع أبدا أن نعرف هل الشيء معجزة أم غير معجزة » لأننا لانعرف كل قوانين الطبيعة(٤٩) . فحتى فى ذلك العصر كان كل يوم يشهد معجزة جديدة يحققها العلم » لانخالفا بذلك قوانين الطبيعة ، بل بفضل معرفته بها معرفة أعظم .

كان الأنبياء فى قديم الزمان يستنزلون النار من السماء بكلمتهم » أما اليوم فالأطفال يفعلون هذا بقطعة صغيرة من الزجاج (المشتعل) . ان يشوع أوقف الشمس ، وأى واضع التقاويم يستطيع الوعد بمثل هذه النتيجة إذا حسب كسوف الشمس(٥٠) . وكما أن الأوربين الذين يجرون عجائب كهذه بين الهمج يعدهم هؤلاء آلهة » فكذلك معجزات الماضى — حتى معجزات المسيح — ربما كانت نتائج طبيعية فسرتها الجماهير خطأ بأنها تعطيلات إلهية للقانون الطبيعى(٥١) . ولعل لعازر الذى أقامه المسيح من بين الأموات لم يكن فى حقيقة الأمر ميتا . ثم ، كيف يمكن أن تثبت معجزات معلم صدق تعليمه » إذا كان معلمو التعاليم المعتبره عموما تعاليم كاذبة قد أجرو معجزات قيل إنها أيضاً حقيقية » كما حدث حين بارى سحرة مصر هارون فى تحويل العصى إلى حيات ؟(٥٢) . ان المسيح حذر من « المسحاء الكذبة » الذين يعطون آيات عظيمة وعجائب(٥٣) .

كان روسو قد بدأ خطاباته بغرض مساعدة المحتجين من رجال الطبقة الوسطى ، ولم يطلب توسيعا لحق الانتخاب فى اتجاه ديمقراطى ، لا بل انه فى الخطاب الرابع يلتزم بالرأى بأن الارستقراطية المنتخبة هى خير أشكال الحكم » وأكد لحكام جنيف أن المثل الأعلى الذى رسمه فى «العقد الاجتماعى» كان فى صميمه متفقا مع الدستور الجنيفى (٥٤) . ولكن فى الخطاب السابع أخبر أصدقاءه من البورجوازية المحتجة أن الدستور لايقر سيادة المواطنين

ذوى الحقوق الانتخابية إلا خلال الإنتخابات للمجلس العام ومؤتمره السنوى ، أما فى باقى السنة فالمواطنون مجردون من السلطة . وفى تلك الفترة الطويلة كلها يكون مجلس الخمسة والعشرين الصغير هو الحكم الأعلى فى القوانين ، وفى مصير جميع الأفراد تبعا لذلك ، والواقع أن المواطنين والبورجوازين الذين يبدون أصحاب سيادة فى المجلس العام « يصبحون بعد فضه عبيدا لسلطة استبدادية اسلموا بغير دفاع لرحمة خمسة وعشرين مستبدا[٥٦] .

وكان هذا اقرب إلى الدعوة للثورة . ولكن روسو استنكر هذا الملجأ الأخير . ففى خطابه الأخير اثنى على البورجوازية باعتبارها اعقل طبقة فى الدولة ، واكثرها حبا للسلام ، محصورة بين طبقة اشراف غنية ظالمة ، وجماهير متوحشة غبية[٥٧] . ولكنه نصح المحتجين بالصبر والمصابرة ، وبأن يركنوا إلى العدالة والزمن لينصفاهم من مظالمهم .

واغضبت « خطابات الجبل » هذه اعداء روسو وساءت اصدقاءه . . وأفزعت هرطقاته القساوسة الجنيفيين ، وزادهم فزعاً إدعاؤه أنهم يشاطرونه أياها . فانقلب الآن فى عنف على القساوسة الكلفنيين ورماهم بأنهم « رعاع غشاشون » بطانة غبية » وذئاب مسعورة » . » وأعرب عن إيثاره للكهنة الكاثوليك البسطاء فى القرى والمدن الفرنسية[٥٨] . ولم يستعن « المحتجون » بالخطابات فى حملتهم الناجحة لنيل المزيد من السلطة السياسية ، واعتبروا روسو حليفاً خطراً لا يركن إليه ، فاعتزم ألا يشارك بعدها بأى نصيب فى السياسة الجنيفية .

٤ — روسو وفولتير

كان قد تساءل فى الخطاب الخامس « لم لم يوح » المسيو فولتير » الذى « طالما زاره » أعضاء المجلس الجنيفيون » لهم « بروح التسامح تلك التى لا يفى عن التبشير بها » والتى يحتاج هو إليها أحياناً ؟ وأجرى على لسان فولتير حديثا خياليا[٥٩] يحبذ فيه حرية الكلام للفلاسفة بحجة أن قلة لا تذكر

هى التى تقرأ لهم . وكان تقليده لأسلوب فولتير الخفيف الرشيق بارعا . ولكنه صور حكيم فرنية معترفا بتأليفه لكتاب نشر حديثا أسمه « عظة الخمسين » وكان فولتير أنكر أبوته غير مرة لأنه زخر بالهرطقات . ولاندرى أكان كشف روسو للسر متعمداً خبيثاً ؟ على أى حال هذا ما رآه فولتير « وحنق منه أشد الحنق ، لأنه عرضه لإمكان طرده من فرنسا من جديد ، فى الوقت الذى كان مستقراً فيه فى فرنية .

وصاح حين قرأ الخطاب الواشى « يالمجرم ! يا للوحش ! كان يجب أن أضربه بالنبوت — نعم ، سآمر بضربه بالنبوت فى جباله عند ركبتى مربيته ! » وقال متفرج « أرجو أن تهدىء روعك ، لأنى أعلم أن روسو ينوى أن يزورك ، وسيكون فى فرنية قريباًجداً » .. وصاح فولتير وقد بدت عليه نية الأذى « آه » فليأت فقط » .

« ولكن كيف ستستقبله ؟ »

« سأقدم له العشاء » وأعطيه فراشى ، وأقول له ، هاك عشاء طيبا « وها هو أفضل فراش فى البيت ، فتفضل بقبول الأثنين وانعم بالسعادة هنا [٦٠] » .

ولكن روسو لم يحضر . وثأر فولتير لنفسه بأصداره (٣١ ديسمبر ١٧٦٤) كتيباً بقلم مجهول ، سماه « عواطف المواطنين » هو لطخة من أشد اللطخ التى تلوث خلقه ومهنته سوادا . ولابد من نقل ماجاء به ليصدق القارىء :

« أننا نرثى للأحمق ، ولكن حين تستحيل حماقته جنونا فاننا نوثق رباطه . ذلك أن التسامح — وهو فضيلة — يصبح عندها رذيلة . . . . . لقد غفرنا لهذا الرجل رواياته ، التى آذى فيها اللياقة والحياء كما آذى المنطق السليم . وحين خلط الدين بقصصه ، أضطر قضاتنا إلى محاكاة قضاة باريس . . . . وبرن . . . والبوم ألا يفرغ الصبر حين ينشر كتابا جديداً يعتدى فيه بإعتداء جنونا على الدين المسيحى » وعلى الأصلاح البروتستنتى الذى يدعيه ، وعلى كل خدام الأنجيل المقدس وكل هيئات الدولة ؟ — إنه يقول بجلاء ، وباسمه

صراحة ، ليس فى الانجيل معجزات نستطيع أخذها حرفياً دون أن نعلق عقولنا . . . . .

« أهو عالم يجادل العلماء ؟ لا . . . بل رجل مازال يحمل آثار فجوره المخزية . . . ويجر معه من بلد إلى بلد » ومن جيل إلى جيل ، المرأة التعسة التى كان سبباً فى موت أمها ، والتى ألقى باطفالها على باب مستشفى . . . جاحداً كل مشاعر الطبيعة ، كإنكاره لمشاعر الشرف والدين . . .

« أيريد أن يطيح بدستورنا بتشويهه » كما يريد أن يطيح بالمسيحية التى يدعيها ؟ يكفى أن ينذر بأن المدينة التى يزعجها تنكره . . . . . . فإذا ظن أنها تمتشق الحسام [أى تقوم بثورة] بسبب [إدانة] إميل » فليضف هذه الفكرة إلى سخافاته وحماقاته . . ولكن يجب أن يخبر بأننا إن ترفقنا فى عقاب رواية فاجرة ، فإننا سنقسو فى عقاب خائن لئيم[٦١] . »

وكان هذا الكلام فعلة مخزية لا يشفع لهـا غضب فولتير ولا أمراضه ولاشيخوخته ، (وكان الآن فى السبعين) .

لأعجب إذا كان روسو لم يصدق قط (وحتى فى يومنا هـذا لا نكاد نصدق) أن فولتير هو كاتبه ، بل نسبه إلى القس الجنيفى فرن » الذى أكد عبثاً أنه ليس كاتبه . وأذاع روسو فى لحظة من أجمل لحظاته ردا على « العواطف » (يناير ١٧٦٥) :

« أريد أن أدلى ببساطة بالتصريح الذى يبدو أنه مطلوب منى بهذا المقال . فما من علة صغيرة أو كبيرة ، كما يدعى المؤلف ، قد لوثت قط جسدى . والعلة التى أصابتنى ليس هناك أدنى شبه بينها وبين تلك المشار إليها فقد ولدت معى ، ويعرف ذلك الذين رعونى فى طفولتى ، الباقون على قيد الحياة . وهى معروفة للسيدات مالوان ، وموران ، وتيرى ، وداران . . . فإذا وجدن فى هذه العلة أقل أمارة من أمارات الفجور » فأنى أرجوهن أن يلعننى ويفضحننى . . والمرأة العاقلة التى يقدرها العالم ، والتى تعنى بى فى كوارثى . . لا يشقيها إلا مشاطرتها لشقائى . أما أمها فهى فى

الواقع فياضة بالحياة » وفى صحة سابغة » رغم شيخوختها [فقد عمرت إلى الثالثة والتسعين] . ولم ألق قط ، ولا تسببت فى إلقاء أى أطفال على باب مستشفى ولا فى أى مكان آخر . . . ولن أزيد . . اللهم إلا القول بأننى حين يحضرنى الموت أوثر أن أكون قد ارتكبت ما يتهمنى به المؤلف ، عن أن أكون كاتب كتيب كهذا . »[٦٢]

ومع أن تسليم روسو أطفاله لملجأ اللقطاء (لا إلقاءهم فى العراء بالضبط) كان موضوعاً يعرفه المقربون فى باريس (فقد اعترف به للمرشالة لكسمبورج) ، فإن نشر فولتير كانت أول إفشاء علنى لهذا السر . وخامر جان — جاك الظن فى أن مدام دبينيه أفشته عند زيارتها لجنيف » واقتنع الآن بأنها هى وجريم وديدرو كانوا يأتمرون لتشويه سمعته . وقد هاجم جريم روسو فى هذه الفترة غير مرة فى « الرسائل الأدبية[٦٣] » . وفى خطابه المؤرخ ١٥ يناير ١٧٦٥ فى معرض الحديث عن « خطابات من الجبل » أنضم إلى فولتير فى اتهام روسو بالخيانة : « إن وجد فى أى مكان على الأرض جريمة تدعى الخيانة العظمى ، فهى ولاريب فى مهاجمة الدستور الأساسى للدولة بالأسلحة التى استخدمها روسو ليطيح بدستور وطنه » .

والشجار الطويل الذى نشب بين فولتير وروسو من أفجع اللطخ التى لوثت وجه حركة التنوير . لقد باعد بينهما مولدهما ومركزهما . ففولتير ، ابن الموثق الموسر ، تلقى تعليما حسنا » لا سيما فى الدراسات القديمة ؛ أما روسو المولود فى أسرة فقيرة وشيكة التفكك » فلم يتلق أى تعليم نظامى ، ولم يرث أى تقليد كلاسيكى ، وقد قبل فولتير القواعد الأدبية التى وضعها بوالو — «أحب العقل ، ولتستق كل كتاباتك من العقل بهاءها وقيمتها[٦٤] . » أما فى رأى روسو (كما فى رأى فاوست وهو يغوى ما رجريت بروسو) فإن « الوجدان كل شىء»[٦٥] . » وكان فولتير لا يقل عن جان — جاك حساسية وسرعة أنفعال ، ولكنه عادة كان يرى من سوء الأدب أن يترك الأنفعال يشوه فنه » وقد اشتم فى دعوة روسو للوجدان والغريزة لاعقلية فوضوية فردية تبدأ بالثورة وتنتهى بالدين . وقد شجب فولتير بسكال ، أما روسو

فردده كالصدى . وكان فولتير يعيش كما يعيش أصحاب الملايين » أما روسو فكان ينسخ الموسيقى ليكسب قوته . وكان فولتير خلاصة كل لطائف المجتمع ، أما روسو فكان يشعر بالقلق فى المجتمعات ، وكان أقل صبرا وأضيق صدراً من أن يحتفظ بصداقة صديق . وكان فولتير ابن باريس ، وربيب مرحها وترفها » أما روسو فكان طفل جنيف ، بورجوازيا مكتئبا » وبيورتانيا يكره تمييز الطبقات الذى يجرحه ، وألوان البذخ التى لا قدرة له على الاستمتاع بها » ودافع فولتير عن الترف لأنه يداول مال الإغنياء بتشغيل الفقراء » أما روسو فادانه لأنه « يطعم مائة فقير فى مدننا ويسبب هلاك مائة ألف فى قرانا[٦٦] » وذهب فولتير إلى أن آثام الحاضرة ترجحها فنونها وما توفره من أسباب الراحة ، أما روسو فكان لا يشعر بالراحة فى أى مكان ، ويندد بكل شىء تقريباً . وأصغى المصلحون إلى فولتير ، واستمع الثوار إلى روسو .

إن هوراس وليلول حين قال إن « هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون ، ومأساة لمن يشعرون[٦٧] . » أجمل فى سطر واحد ، على غير قصد منه ، حياة أعظم عقلين من عقول القرن الثامن عشر تأثيرا فى الناس .

٣ – بوزويل يلتقى بروسو

فى رواية بوزويل لزيارات خمس قام بها لجان – جاك فى ديسمبر ١٧٦٤ تصوير غاية فى اللطف لروسو . فلقد أقسم ذلك المعجب الذى لامهرب منه عينا مغلظة (٢١ أكتوبر) أنه « لن يكلم ملحدا ، ولن يتمتع بامرأة ، قبل أن يلقى روسو[٦٨] » وفى ٣ ديسمبر شد رحاله من نوشاتل إلى موتييه – ترافير . وحين بلغ برو فى منتصف الطريق وقف بنزل وسأل ابنة صاحبه ماذا تعرف عن فريسته . وكان جوابها مقلقا :

« إن المسيو روسو يحضر هنا كثيراً ويمكث أياما مع مدبرة بيته ، الآنسة ليفاسير . وهو رجل لطيف جداً » له وجه جميل ، ولكنه لا يحب أن يأتى الناس ويحملقوا فيه كأنه رجل له رأسان . باللسماء ! أن فضول

الناس لا يصدق ، أن كثيرين ، كثيرين يأتون ليروه » وكثيراً ما يرفض لقاءهم . إنه مريض » ويكره أن يزعجه أحد[٦٩] » .

ولكن بوزويل واصل رحلته بالطبع . وفى موتييه نزل بفندق القرية .

« وأعددت خطابا لمسيو روسو أخبرته فيه أن سيداً أسكتلنديا عتيق الطراز فى الرابعة والعشرين قدم بأمل لقائه . وأكدت له أننى جدير باحترامه . . . وفى خاتم خطابى بينت له أن لى قلبا وروحاً . . . والخطاب آية فى بابه حقاً . وسأحتفظ به ما حييت برهانا على أن فى قدرة روحى أن تتسامى[٧٠] » .

وكان خطابه — الذى كتبه بالفرنسية — مزيجا بارعاً من السذاجة المتعمدة والأعجاب الذى لايرد :

« إن كتاباتك ياسيدى أذابت قلبى . ورفعت روحى . وألهبت خيالى . صدقنى سيبهجك أن تلتقى بى . إيه ياسان — برو العزيز ! أيها المعلم المستنير ! أى روسو البليغ المحبوب ! يحدثنى قلبى بأن صداقة شريفة حقاً ستولد اليوم.. لدى الكثير الذى أحدثك به . ومع أننى لست إلا شابا فقد خبرت من الوان الحياة ما سيدهشك . . . ولكنى أتوسل اليك أن تلقانى وحدك . . . ولا أدرى هلا أفضل أن ألقاك إطلاقا من أن ألقاك أول مرة فى صحبة . وأنى مترقب ردك بفارغ الصبر[٧١] .

وأرسل له روسو كلمة يقول إن فى استطاعته الحضور إذا تعهد بأن تكون زيارته قصيرة . وذهب بوزويل « مرتديا سترة وصدرية قرمزية بدانتيللا مذهبة ، وبنطلون ركوب من جلد الغزال ، ومنتعلا حذاءا طويلا . وفوق ذلك كله لبست معطفا كبيرا من وبر الجمل الأخضر المبطن بفراء الثعلب » . وفتحت تريز الباب « فتاة فرنسية قصيرة رشيقة أنيقة » . وقادته صعدا إلى روسو — رجل ظريف أسمر اللون فى زى الأرمن ... وسألته عن صحته فقال : « مريض جدا ولكنى طلقت الأطباء » . وأعرب روسو عن اعجابه

بفردريك وازدرائه للفرنسيين — « شعب جدير بالاحتقار » ولكنك ستجد نفوسا عظيمة في أسبانيا » . بوزويل : «وفي جبال اسكتلندة» . وقال روسو عن اللاهوتيين أنهم « سادة يقدمون تفسيرا جديدا لشيء من الأشياء ويتركونه مغلقا على الأفهام كما كان » . وناقشا أحوال كورسيكا ، وقال روسو أنه قد طلب اليه أن يشرع لها قوانين » وبدأ بوزويل تحمسه الدائم لاستقلال كورسيكا . ثم صرفه روسو بعـــد قليل » قائلا أنه يود التمشي منفردا .

وفي ٤ ديسمبر استأنف بوزويل الحصار . وتحدث معه روسو مليا ، ثم صرفه : انك « تزعجني . هذا طبعي ولا حيلة لي فيه . » بوزويل : « ارفع الكلفة معي » . روسو « امضي » . وصحبت تيريزا بوزويل إلى الباب وقالت له « لقد عشت مع المسيو روسو اثنين وعشرين عاما ، ولن أتخلى عن مكاني لأكون ملكة فرنسا . وأنا أحاول الانتفاع بالنصيحة الطيبة التي يسديها إلى . وإذا مات سأضطر إلى دخول الدير[٧١]

وطرق بوزويل الباب مرة أخرى في ٥ ديسمبر . وتأوه روسو « يا سيدي العزيز ، يؤسفني عجزي عن التحدث إليك كما أشتهي » بوزويل : نحي هذه الأعذار وأثار الحديث بقوله : لقد اعتنقت الكاثوليكية وأنوي الاختفاء في دير روسو ياللحماقة ! . . بوزويل : « أخبرني بحق أأنت مسيحي ؟ » وقرع روسو صدره وأجاب : « نعم إنني أعتز بأني مسيحي . » بوزويل (الذي كان مصاباً بالاكتئاب) قل لي : هل تعاني من الاكتئاب ؟ روسو : لقد ولدت هادئاً ، وليس بي ميل طبيعي للاكتئاب. لقد أصابتني به الكوارث التي حلت بي . بوزويل :ما رأيك في الأديار ، والكفارات » والعلاجات التي من هذا النوع ؟ روسو : كلها سخافات . بوزويل : هل لك يا سيدي أن تضطلع بارشادي الروحي ؟ روسو : لاأستطيع . بوزويل: سأعود . روسو : لا أعد بلقائك . إنني أعاني ألماً ، انني احتاج إلى مبولة كل دقيقة[٧٢] .

في عصر ذلك اليوم » في بيت القرية كتب بوزويل في أربع عشرة

صفحة مجملا لحياتى وبعث به إلى روسو . وقد اعترف فيه بحادث زنا أتاه ، وسأل روسو ألا يزال فى إمكانى أن أجعل نفسى رجلا ؟ وعاد إلى نوشاتل » ولكنه كان بباب روسو مرة أخرى فى ١٤ ديسمبر. وأخبرته تريز أن سيدها مريض جدا » وأصر بوزويل ، واستقبله روسو » ووجدته جالسا وهو فى غاية الألم» . روسو : لقد غلبنى الملل ، وخيبات الأمل ، والحزن . إننى استعمل مجسا . كل إنسان يعتقد أن من واجبى أن أصغى له . . عد فى العصر . موزويل : وكم تطول زيارتى ؟ روسو : » ربع ساعة ، لا أكثر . بوزويل :عشرين دقيقة . روسو : هيا انصرف . ولكنه لم يتمالك نفسه من الضحك .

وعاد موزويل فى الرابعة وهو محلم بلويس الخامس عشر . « إن الأخلاق تبدو لى أمرا غير يقينى . فأنا مثلا أحب أن يكون لى ثلاثون امرأة . ألا أستطيع أن أشبع تلك الرغبة ؟ لا . ولكن انظر » لوكنت غنيا لاستطعت أن اتخذ عددا من الفتيات ، وأحبلهن » وبهذا يزداد النسل . ثم أعطيهن مهوراً » وأزوجهن لفلاحين طيبين سيسعدون جداً بالزواج منهن . وهكذا يصبحن زوجات فى نفس السن التى كن يتزوجن فيها لوظللن أبكاراً » وأكون أنا من ناحيتى قد أفدت بالاستمتاع بعدد كبير من مختلف النساء » فلما لم يقع من نفس روسو هذا الفرض الملكى ، سأله » أخبرنى من فضلك كيف أكفر عن الشر الذى ارتكبته ؟ وأجاب روسو جوابا ذهبياً » ليس هناك تكفير عن الشر إلى الخير[٧٤] . وطلب بوزويل إلى روسو أن يدعوه للغداء ، وقال روسو » غدا » وعاد بوزويل إلى الفندق منتعشا غاية الانتعاش .

وفى ١٥ ديسمبر تناول الطعام مع جان — جاك وتريز فى المطبخ » وقد وجده نظيفا مشرقا . وكان روسو رائق المزاج ، ولم تبد عليه علامات الاضطرابات العقلية التى ستظهر فيما بعد ، وكان كلبه وقطته على وفاق مع بعضهما البعض ومعه . » ووضع بعض الطعام على صينية خشبية » وجعل كلبه يرقص حوله وغنى روسو .. لحنا مرحا بصوت

رخيم وذوق رفيع . وتحدث بوزويل فى الدين ... « ان الكنيسة الانجليكانية أفضل المذاهب عندى . روسو : نعم ، ولكنها ليست الإنجيل . ألا تحب القديس بولس ؟ انى احترمه ، ولكنى أحسبه مسئولا إلى حد ما عما فى رأسك من اختلاط . لوعاش لكان قسيسا انجليكانيا » .

الآنسة ليفاسير : أستلقى المسيو دفولتير يا سيدى ؟ برزويل : بكل تأكيد. ثم إلى روسو : ان المسيو دفولتير لايحبك . روسو : أن المرء لا يحب من أذاهم أذى شديداً . أن حديثه ممتع جداً ، لا بل إنه يفضل كتبه . وطال وزويل المكث فوق ما تحتمله الضيافة » ولكن حين ودع « قبلنى روسو مرات ، وضمنى بين ذراعيه برد رقيق » . فلما وصل بوزويل إلى الفندق قالت ربته سيدى : أظنك كنت تبكى . ويضيف إننى احتفظ بذكرى هذه الكلمات إطراء صادقا لإنسانيتى [٧٥] .

٦ — دستور لكورسيكا

بعد أن زار بوزويل فولتير فى فرنيه » مضى فى رحلته إلى ايطاليا ونابلى وكورسيكا » ربما بحث من روسو . وكانت كورسيكا بزعامة باسكالى دى باولى قد حررت نفسها من سيطرة جنوه (١٧٥٥) ورحب روسو فى « العقد الاجتماعى » من قبل بمولد الدولة الجديدة .

ما زال فى أوربا بلد واحد مفتوح للمشرع » انه جزيرة كورسيكا . والبسالة والأصرار اللذان برهن بهما هذا الشعب الشجاع على قدرته على استرداد حريته والدفاع عنها يستحقان المعونة من انسان حكيم يعلمهم كيف يحتفظون بها . ونفسى تحدثنى بأن هذه الجزيرة الصغيرة سوف تدهش أوربا يوما ما[٧٦] . »

ولو أخذ رأى فولتير لرأى أن روسو آخر رجل فى أوربا يصح دعوته للتشريع . ولكن الذى حدث أن جان — جاك تلقى فى ٣١ أغسطس ١٧٦٤ الخطاب الآتى من ماتيو بوتافوكو ، المبعوث الكورسيكى لدى فرنسا :

« لقد ذكرت كورسيكا ياسيدى فى « عقدك الاجتماعى » على نحو يتيه به وطننا . وهذا الثناء من قلم مخلص كل الإخلاص كقلمك . . .أوحى بالرغبة القوية فى إنك يمكن أن تكون المشرع الحكيم الذى يعين الأمة على الحفاظ على الحريات التى إقتنتها بدم كثير . وإنى إدرك بالطبع أن المهمة التى أجرؤ على الالحاح عليك فى الأضطلاع بها تحتاج إلى معرفة خاصة بالتفاصيل ... ولكنك إن تفضلت أن تقبل المهمة فسأزودك بكل المعرفة الضرورية لإنارتك. وسيبذل المسيو باولى . . . قصاراه ليرسل اليك من كورسيكا كل المعلومات التى قد تحتاج إليها . ويشاطرنى رغبتى هذا الزعيم المرموق » لا بل جميع اخوانى المواطنين الذين أتيح لهم الإطلاع على إعمالك » ويشاركونى مشاعر الاحترام التى تشعر بها أوربا كلها نحوك » والتى أنت أهل لها لأسباب كثيرة جداً[٧٧] » .

ورد روسو (١٥ أكتوبر ١٧٦٤) بقبول المهمة ، وطلب تزويده بالمعلومات عن طبيعة الشعب الكورسيكى ، وتاريخه ، ومشاكله . واعترف بأن العمل قد يكون « فوق طاقتى وإن لم يكن فوق تحمسى » . ثم كتب إلى بوتافيوكو » فى ٢٦ مايو ١٧٦٥ يقول : غير أنى أعدك أنه لن يكون لى إهتمام فيما بقى لى من أجل غــير نفسى وكورسيكا » وكل ماعدا ذلك من أمور سأقصية عن إفكارى[٧٨]» . ثم عكف من فوره على وضع « مشروع دستور لكورسيكا » .

واقترح روسو فى مشروعه و « العقد الاجتماعى » فى ذاكرته » أن يوقع كل مواطن على تعهد ملزم لا رجعة فيه بوضع نفسه — » جسدى وأملاكى وارادتى ، وكل قدراتى » — تحت تصرف الأمة الكورسيكية[٧٩] . وحيا « الكورسيكيين البواسل » الذين ظفروا باستقلالهم » ولكنه نبههم إلى أن فيهم رزائل كثيرة — كالكسل ، وقطع الطريق ، والعداوات ، والوحشية — ومعظمها ناجم عن كراهيتهم لسادتهم الأجانب . وخير علاج لهذه الرزائل أن يعيشوا عيشة زراعية خالصة . وينبغى أن توفر القوانين كل إغراء للشعب ليلزم الأرض بدلا من التجمع فى المدن ، فالزراعة تعين على الخلق الفردى

والصحة القومية ، أما التجارة بأنواعها والمالية فتفتح الأبواب لكل ضروب الغش والاحتيال ، ويجب على الدولة ألا تشجعها . ويجب أن يكون السفر كله على الأقدام أو على ظهور الدواب ، وأن يكافأ الزواج المبكر والأسرة الكبيرة ؛ وأن تسقط المواطنة عن الرجال الذين يظلون عزابا إلى الأربعين . ويجب خفض الملكية الخاصة وزيادة ملكية الدولة.. « بودى أن أرى الدولة المالك الوحيد ؛ ولا يصيب الفرد من لمكية المشتركة إلا بنسبة خدماته [٨٠] » ، وينبغي إلزام السكان بفلاحة أراضى الدولة إذا إقتضى الأمر ، وأن تشرف الحكومة على التعليم كله » وعلى الآداب العامة كلها ؛ وأن تشكل الحكومة نفسها على غرار الولايات السويسرية (الكنتونات) .

وفى ١٧٦٨ اشترت فرنسا كورسيكا من جنوه ؛ وجردت عليها جيشا ؛ وعزلت باولى ، وأخضعت الجزيرة للقانون الفرنسى . وكف روسو عن المضى فى مشروعه ؛ وندد بالغزوة الفرنسية لأنها إنتهاك « لكل عدل ؛ وإنسانية ؛ وحق سياسى ، وتفكير سليم [٨١] » .

٧ — اللاجىء

ظل روسو عامين يحيا حياة متواضعة هادئة فى موتيية ؛ يقرأ ؛ ويكتب ويرعى مرضه » ويعانى من إصابة بعرق النسا (أكتوبر ١٧٦٤) ؛ ويحتفى بالزوار الذين تجيزهم تريز بعد الفحص . وقد وصفه أحدهم وصف عارف بالجميل فقال :

« أنك لا تتصور أى سحر فى الاجتماع به ؛ ولا أى إدب صادق فى سلوكه ؛ ولا أى عمق من الهدوء والبشاشة فى حديثه . ألم تتوقع صورة مغايرة تماماً لهذه الصورة ؛ وألم تصور لنفسك مخلوقا غريب الأطوار ؛ جادا دائما لا بل فظا أحيانا ؟ فيالها من غلطة ! إنه يجمع إلى سمات اللطف الكثير نظرة من نار ؛ وعينين لم ير قط مثل لحيويتهما . فأذا تناولت موضوعا يهتم به ، تكلمت عيناه ، وشفتاه ، ويداه — وكل ما فيه . وأنت تخطىء كل الخطأ أن تصورته إنسانا لا يكف عن التذمر . فهو على النقض يضحك مع الضا حكين ويثرثر ويمزح مع الأطفال » ويسخر من مديرة منزله [٨٢] » .

ولكن القساوسة المحليين كانوا قد أكتشفوا ما في « إميل » و« خطابات الجبل » من هرطقات ، ورأوها فضيحة أن يمضي هذا الوحش في تلويث سويسرة بوجوده فيها . ورغبة في تهدئة ثائرتهم عرض (١٠ مارس ١٧٦٥) أن يتعهد « في وثيقة رسميـــة » بالا ينشر أبدا أي كتاب جديد في أي موضوع ديني ، لا بل أن يتناوله عرضا في أي كتاب جديد آخر . . . وأكثر من ذلك أنني سأظل شاهدا « بمشاعري وسلوكي » بالقيمة العظمى التي أعلقها على سعادة الإتحاد بالكنيسة[٨٣] » . وإستدعاه مجمع كنيسة نوشاتل للمثول أمامه والرد على تهم الهرطقة الموجهة إليه ، فالتمس إعفاءه : « يستحيل على رغم صدق نيتي أن أحتمل جلسة طويلة[٨٤] وهـــو ما كان الحقيقة المؤلمة » . وانقلب عليه راعي كنيسته ، وندد به في مواعظ علنية متهما أياه بأنه عدو المسيح[٨٥] . وألهبت هجمات القساوسة شعب أيرشيلتهم ، فراح بعض القرويين يحصبون روسو إذا خرج للتمشي . وقرب نصف ليلة ٦ — ٧ سبتمبر أيقظته هـــو وتريز حجارة تقذف على جدرانهما وتحطم نوافذهما . وأخترق حجر كبير الزجاج وسقط عند قدمه . واستدعى جار له — وكان موظفاً في القرية — بعض الحراس لإنقاذه ، وتفرق الجمع ، ولكن إصدقاء روسو الباقين في موتييه نصحوه بأن يبرح المدينة .

وأتته عدة عروض تقدم له الملجأ ، ولكني كنت متعلقاً بسويسرة تعلقا منعني من أن أصمم على الرحيل عنها مادام في إستطاعتي العيش فيها[٨٦] » . وكان قد زار قبل عام « الإيل دسان — بيير » ، الجزيرة الصغيرة الواقعة في وسط بحيرة بين ، ولم يكن على الجزيرة سوى بيت واحد — هو بيت الوكيل ، وخيل لروسو أن المكان بقعة مثالية لعاشق للعزلة يكره الناس . وكان يقع في كانتون برن التي طردته قبل عامين ، ولكنه تلقى تأكيدات غـــير رسمية بأن في إستطاعته الإنتقال إلى الجزيرة دون أن يخشى الأعتقال[٨٧] .

وهكذا ، حوالي منتصف سبتمبر ١٧٦٥ ، بعد ستة وعشرين شهراً في موتييه ، ترك هو وتريز المنزل الذي أصبح عزيزا عليهما ، وذهبا للأقامة مع

أسرة الوكيل فى مكان لا يتيح إنعزاله « لا للجمهور ولا لرجال الكنيسة تكديره[٨٨] » . «وخيل إلى أننى سأكون فى تلك الجزيرة أشد إنعزالا عن الناس . . . . وأن البشر سيكونون أسرع نسيانا لى[٨٩] » . ورغبة فى تغطية نفقاته أعطى الناشر دوبيرو حق نشر كل كتبه ؛ « وجعلته مستودع جميع أوراق ؛ بشرط صريح هـو ألا يستعملها إلا بعد موتى ؛ لأن غاية أمانى كانت أن اختم حياتى فى هدوء ؛ دون أن أفعل شيئاً يعيدنى مرة أخرى إلى ذاكرة الجماهير[٩٠] » . وعرض عليه المريشال كيث معاشا سنويا قدره ألف ومائتا جنية ؛ فوافق أن يأخذ نصفه . ودبر معاشا آخر لتريز . واستقر معها على الجزيرة وهو لا يتوقع من الحياة شيئاً آخر . وكان الآن فى سنته الثالثة والخمسين .

وبعد ثلاثة عشر عاماً — فى آخر سنة فى عمره — ألف كتاباً من أروع كتبه اسمه « أحلام متجول وحيد » وصف فى بلاغة مخففة معيشته على جزيرة سان — بيير «كانت أول وأهم متعة أتوق إلى تذوقها بكل حلاوتها هى حياة الدعة اللذيذة[٩١] » . وقد رأينا فى غير هذا الموضع مبلغ إعجابه بلينايوس « أما الآن ، وفى يده احد كتب عالم نبات سويدى ؛ فقد بدأ يحدد ويدرس النباتات التى وجدها على ملكه الصغير . أو كان إذا صحا الجو يفعل كما يفعل تورو على بركة فولدن :

« كنت أرتمى وحيداً فى زورق أجدف به إلى وسط البحيرة حين يكون الماء هادئا . هناك ؛ وأنا ممدد بطولى كله فى الزورق ؛ وعيناى إلى السماء كنت أترك نفسى للماء يحملنى هونا كما يشاء ؛ ساعات عدة أحيانا « وأنا غارق فى مئات الأحلام المبهجة[٩٢] » .

ولكن راحته لم تطل حتى على هذه المياه . ذلك أن مجلس شيوخ برن أمره فى ١٧ أكتوبر ١٧٦٥ بأن يرحل عن الجزيرة والمقاطعة خلال خمسة عشر يوماً . وغلبته الحيرة والهزيمة «فالتدابير التى كنت قد اتخذتها تأمينا لموافقة الحكومة الضمنية ، والهدوء الذى تركت فيه لأستقر » وزيارات العديدين

من أهل برن لى»، كل هذا حدا به إلى الاعتقاد بأنه الآن فى مأمن من الازعاج والمطاردة . والتمس من مجلس الشيوخ شيئاً من التفسير والتأجيل ، واقترح بديلا يائسا لحكم النفى :

« لست أرى لى غير سبيل واحد ، ومهما بدأ رهيباً ، فانى سأتخذه لا دون نفور فحسب ، بل برغبةشديدة إذا تفضل أصحاب السعادة بالموافقة . وذلك إننى إن طاب لهم سأقضى مابقى لى من أجل سجينا فى إحدى قلاعهم ، أو فى أى مكان آخر فى ضياعهم يرون اختياره . وسأعيش فيه على نفقتى ، وسأقدم ضمانا بالا أكلفهم أى نفقة . وأقبل ألا أحمل ورقا أو قلما ، أو أكون على اتصال بأى إنسان فى الخارج . فقط اسمحوا لى ، مع بعض الكتب ، بالأحتفاظ بحرية المشى بين الحين والحين فى حديقة ، وسيرضينى هذا .

أكان ذلك ايذانا بأنهيار عقله ؟ أنه يؤكد لنا عكس هذا :

« لا تظنوا أن وسيلة تبدو بهذا العنف هى ثمرة اليأس . فعقلى فى تمام الهدوء فى هذه اللحظة . وقد ترويت فى إتخاذ قرارى ، ولم أنته إليه إلا بعد تفكير عميق . وأرجو أن تلاحظوا أنه إذا بدا هـــذا قرارا شاذا فإن وضعى أكثر شذوذا . فالحياة المضطربة التى أكرهت على أن احياها سنوات عديدة دون انقطاع ، خليقة بتعذيب رجل موفور العافية ، فما بالكم بعليل تعس براه التعب وسوء الحظ ، ولم يعد له الآن من أمنية إلا أن يموت فى هدوء وسلام[٩٣] » .

وكان رد برن أن أمرته بالرحيل عن الجزيرة وعن كل اقليم برن خلال أربع وعشرين ساعة[٩٤] .

فإلى أين يمضى ؟ كان لديه دعوات إلى بوتسدام من فردريك ، وإلى كورسيكا من باولى ، وإلى اللورين من سان — لا مبير ، وإلى امستر دام من ناشره رى ، وإلى إنجلترة من ديفد هيوم . فى ٢٢ أكتوبر كتب إليه هيوم الذى كان يومها سكرتيرا للسفارة البريطانية فى بارس يقول :

« أن محنك العجيبة التى لم يسمع بمثلها ، فضلا عن فضيلتك وعبقريتك

لابد أن تثير عواطف كل إنسان فيتحاز إليك » ولكنى أعلل نفسي بأنك واجد فى انجلترة أمانا مطلقاً من كل اضطهاد ، لا بفضل ما تمتاز به قوانيننا من روح سمحة فحسب ، بل بفضل الاحترام الذى يكنه كل الناس هناك لشخصيتك (٩٥) » .

وفى ٢٦ أكتوبر غادر روسو جزيرة سان — بيير ورتب أن تظل تريز جيفا فى سويسرة ، ورحل هو إلى ستراسبورج » ومكث فيها شهراً كاملا دون أن يستقر على رأى . وأخيرا قرر أن يقبل دعوة هيوم إلى انجلترة ، ومنحته الحكومة الفرنسية جوازا بالحضور إلى باريس . هناك التقى به هيوم أول لقاء ، وما لبث أن شغف به ، وتحدثت باريس كلها عن عودة للنفى . وكتب هيوم يقول « محال وصف أو تصور تحمس هذه الأمة لروسو . . . فلم يظفر شخص قط بمثل ما ظفر به من اهتمام القوم . . . لقد حجب بهاء فولتير وسواه حجباً تاماً(٩٦) » .

ولكن الصداقة الوليدة أصيبت بصدع فى المهد ومن العسير هنا أن نحدد الحقائق بدقة أو نرويها دون تحيز : ففى أول يناير ١٧٦٦ أرسل جريم إلى قرائه التقرير الآتى :

دخل جان — جاك روسو باريس فى ١٧ ديسمبر . وفى الغد تمشى فى حدائق اللكسومبرج وهو يرتدى زيه الأرمنى » وإذ لم ينبه أحد إلى الأمر فأن احداً لم ينتفع بالمشهد . وقد أسكنه الأمير كونتى فى التامبل حيث يعقد الأرمنى المذكور بلاطه كل يوم . كذلك يتمشى يوميا فى ساعة معينة فى الشوارع الكبيرة القريبة من مسكنه(*) . وها هو ذا خطاب تداولته الايدى فى باريس خلال مكثه هنا » وقد لقى نجاحاً كبيراً(٩٨) » .

وهنا نقل جريم خطابا زعم أن روسو تلقاه من فردريك الأكبر . وكان

(*) قارن خطاب روسو لصديقة دلوز : « وددت لو استطعت الخروج وزيارتك » ولكنى مضطر لرجائك أن تحضر أنت إلى تحاشيا للإعلان عن قلنسوتى الارمنية فى الشوارع » .

قد زيفه على روسو هوراس وليول . ولندع وليلول نفسه يتحدث عنه فى خطاب له إلى هـ . س كونواى فى ١٢ يناير ١٧٦٦ .

« أن الفضل فى شهرتى الراهنة لتأليف تافه جداً » ولكنه أثار ضجة لا تصدق . ذلك إننى كنت ذات مساء فى بيت مدام جوفران أسخر من إدعاءات روسو وتناقضاته » وقلت إشياء أضحكتهم . فلما عدت إلى البيت دونتها فى خطاب » وأريتة فى الغد لهلفيتيوص ودوق نفرنوا ، وقد سرا به كثيراً حتى إنهما » بعد الأشارة على بعض الأخطاء اللغوية . . . . شجعانى على اطلاع الناس عليه . وأنا كما تعلم يطيب لى أن اهزأ بالدجالين سواء السياسين منهم أو الأدباء مهما عظم قدر مواهبهم ، لذلك لم أنكر الفكرة . وسرت النسخ مسرى النار ، وهأنذا « اصبحت موضة et me voici à la mode . . . . والبك الخطاب (وهو مترجم حرفيا عن فرنسية وليول) :

ملك بروسيا إلى مسيو روسو عزيزى جان — جاك

لقد لفظت جنيف وطنك ، لقد جعلتهم يطاردونك من سويسرة ، البلد الذى أطريتة كثيراً فى كتاباتك ، وقد أصدرت فرنسا أمرا باعتقالك . فتعال إلى إذن » فأنا معجب بمواهبك ، وتمتعنى أحلامك » وهى (بهذه المناسبة) تشغلك فوق ما ينبغى وأطول ممسا ينبغى . وعليك أن تكون فى النهاية حكيما وسعيداً . لقد أثرت ما يكفى من الاقاويل بسبب غرائب لاتليق برجل عظيم بحق . فأثبت لخصومك أن فى استطاعتك احيانا أن تكون معقولا ، فن شأن هذا أن يغيظهم دون أن يؤذيك . إن بلادى تقدم لك معتكفا هادئا ، وإننى أرجو لك الخـــير ، وأحب أن إساعدك إذا إستطعت أن تستطيب مقامك . أما إذا واصلت رفض معونتى » فتأكد أنى لن أخبر أحدا بالأمر . وإذا اصررت على إجهاد نفسك لتجد نكبات جديدة ، فأختر ما يحلو لك منها ، فأنا ملك ، وفى إستطاعتى أن أحصل لك منها على مايلبى رغباتك » وسأكف عن اضطهادك حين تكف عن أن تجد فخرك فى أن تضطهد — وهو بالتأكيد ما لن يحدث لك أبدا بين خصومك .

صديقك المخلص فردريك (٩٩)

أما وليول فلم يحدث له أن التقى بروسو قط . ولم يجد عقله الرفيع الثقافة ، وثراؤه الموروث معنى فى كتابات روسو . وقد عرف عيوب روسو وحماقته من حفلات عشاء مدام جوفران ، حيث كان يلتقى ديدرو وجريم . وأغلب الظن أنه لم يدرك أن روسو الحساس إلى درجة العصاب ، قد دفعته إلى مشارف الأنهيار العقلى سلسلة من المجادلات والضيقات . ولو كان ولبول على علم بهذا حقا لكانت دعابته قاسية قسوة شائنة . على أننا ينبغى أن نضيف أنه حين طلب هيوم رأيه فى إيجاد معتكف لروسو فى إنجلترة ، تعهد وليول بأن يمد الطريد بكل ضروب المعونة[١٠٠] .

أكان هيوم على علم بهذا الخطاب ؟ يبدو أنه كان موجودا ببيت مدام جوفران حين لفق أول الأمر ، وقد إتهم بأنه « شارك » فى تحريره[١٠١] . وقد كتب إلى المركيزة دباربنتان فى ١٦ فبراير ١٧٦٦ :

« إن الدعابة الوحيدة التى سمحت بها لنفسى فى أمر خطاب ملك بروسيا المزعوم كانت على مائدة عشاء اللورد أو سورى[١٠٢] » . وفى ٣ يناير ١٧٦٦ قام هيوم بزيارة وداع لضيوف البارون دولباخ وأخبرهم بآماله فى إنقاذ « الرجل القصير القامة » من الأضطهاد وتوفير أسباب السعادة له فى انجلترة . أما دولباخ فتشكك قائلا يؤسفنى أن ابدد الآمال والأوهام التى تخدعك ، ولكنى أقول لك إنه لن يمضى طويل زمن حتى ينقشع عنك الوهم بصورة محزنة . إنك لا تعرف صاحبك » وأصارحك بأنك تحتضن ثعبانا فى صدرك[١٠٣] » .

وفى صباح الغد غادر باريس إلى كالية فى مركبتى اجرة هيوم وروسو مع جان — جاك دلوز وسلطان كلب روسو . ودفع روسو نفقاته بعد أن رفض عروض هيوم ومدام دبوفليه ، ومدام دفرديلان بمده بالمال . فلما بلغوا دوفر (١٠ يناير) عانق روسو هيوم ، وشكره لأنه أتى به إلى بلد تسوده الحرية .

٨ — روسو فى انجلترة

وصلوا إلى لندن فى ١٣ يناير ١٧٦٦ ولاحظ المارة زى روسو — قلنسوته الفراء ، وروبه الارجوانى ، وحزامة ، وأوضح لهيوم أنه يشكو مرضا يجعل سراويل الركوب القصيرة غير مريحة له[١٠٤] . واقنع هيوم صديقه كوفواى بأن يقترح معاشاً للغريب الكبير « ووافق جورج الثالث على منحه مائة جنيه فى العام ، وأبدى رغبة فى أن يلقى عليه نظرة سريعة بصفة غـــير رسمية . وحجز جاريك لروسو وهيوم مقصورة فى مسرح درورى لين فى مواجهة المقصورة الملكية فى ليلة تقرر فيها حضور الملك والملكة . ولكن حين زار هيوم روسو لقى عنتا شديدا فى اقناعة بأن يترك كلبه الذى مزق نباحه بسبب حبسه قلب الغريب المنفى . وأخيرا « إحتويت روسو بين ذراعى و . . . . حملتة على المسير فى شىء من الإكراه[١٠٥] » . وبعد الحفل دعى جاريك روسو إلى عشاء لتكريمة وهنأه روسو على تمثيله : « سيدى ، لقد جعلتنى اذرف الدموع على مأساتك ، وأبتسم لملهاتك » مع مع أننى لم أكد أفهم كلمة من لغتك » .

وإلى هنا كان هيوم على الجملة مسر..ا غاية السرور بضيفه . وكتب إلى مدام دباربنتان بعد وصوله إلى لندن بقليل يقول :

سألتنى رأيى فى جان ـ جاك روسو . وأنى بعد أن راقبته فى جميع النواحى . . . . أصرح بأننى لم أعرف رجلا أكثر منه لطفا ولا أكرم خلقا . فهو رقيق ، متواضع ، ودود ، نزيه ، مرهف الحس ، فإذا بحثت عن عيوب فيه لم أجد سوى قلة صبر مفرطة ، وميل لاحتضان شبهات ظالمة فى غير أصدقائه . . . أما عن نفسى فبودى لو أمضيت حياتى فى صحبته دون أن يكدر علاقتنا مكدر . أن فى سلوكه بساطة عجيبة . وهو فى الأمور العادية طفل بمعنى الكلمة . وهذا من شأنه أن يسهل . . . لمن يعيشون معه أن يسوسوه[١٠٦] » .

ثم يقول : « إن له قلبا حارا ممتازا ، وفى الحديث كثيراً ما تشتد حماسته

إلى ما يشبه الالهام . وإنى أحبه حباً جماً وأرجو أن يكون لى فى وده نصيب . . . لقد تنبأ لى فلاسفة باريس إننى لن أستطيع اصطحابه إلى كاليه دون شجار ، ولكنى أحسبنى قادراً على العيش معه طوال حياتى فى صداقة وتقدير متبادلين . وأعتقد أن من أكبر أسباب انسجامنا أن كلينا لا يحب الجدل » وهذا ليس حالم . ويسوءهم منه أيضاً ظنهم إنه مغال فى الدين ؛ ومن الغريب حقاً أن يكون فيلسوف هـــذا الجيل ، الذى لقى أشد اضطهاد أكثرهم تديناً [١٠٧] . . . أن به شوقاً إلى الكتاب المقدس ، وهو فى الحق أفضل من المسيحيين قليلاً [١٠٨] » .

على أنه كان هناك صعوبات . ففى لندن ، كما فى باريس ؛ توافد النبلاء والنبيلات ، والمؤلفون والنواب على بيت السيدة آدمز فى شارع بكنجهام ، حيث أسكن هيوم روسو . وسرعان ما ضاق بهذه المجاملات ؛ ورجا هيوم أن يجد له بيتاً بعيداً عن لندن . وجاء عرض بالعناية به فى دير ولزى ، فأراد أن يقبله ، ولكن هيوم اقنعه بأن يسكن مع بدال فى تشيزيك على التيمز على ستة أميال من لندن . فانتقل إلى هذا المنزل روسو وسلطان فى ١٨ يناير وأرسل الآن فى طلب تريز ، وأزعج مضيفه وهيوم باصراره على وجوب السماح لها بالجلوس إلى المائدة معه . وشكا هيوم فى خطاب إلى مدام دبوفليه .

« إن مسيو دلوز.. يقول أن الناس يرونها شريرة محبة للشجار والثرثرة ، ويظنون أنها أهم سبب فى رحيله عن نوشاتيل (موتييه) . وهو نفسه يعترف أنها من الغباء بحيث لاتعرف فى أى سنة ميلادية نحن ولا فى أى شهر من السنة ، ولا فى أى يوم من الشهر أو الأسبوع ، وأنها لاتستطيع أن تتعلم أبداً القيم المختلفة للعملة فى أى بلد . ومع ذلك فهى تحكمه حكماً مطلقاً كما تحكم المربية طفلاً . وقد اكتسب كلبه هذه السيادة فى غيابها ، فحبه لهذا المخلوق يفوق كل تعبير أوتصور [١٠٩] » .

ووصلت تريز خلال ذلك إلى باريس فاستقبلها بوزويل وتطوع باصطحابها إلى انجلترة . وفى ١٢ فبراير كتب هيوم إلى مدام دبوفليه

يقول « جاءنى خطاب فهمت منه أن الآنسة مسافرة على جناح السرعة فى صحبة صديق لى ، وهو شاب فى غاية الطيبة ، وفى غاية اللطف » وفى غاية الجنون . . وبه من الولع بالأدب ما يجعلنى أتوجس من حدث مؤذ لشرف صديقنا[١١٠] . وقد ادعى بوزويل أنه برر هذا الإحساس السابق . وقد جاء فى صفحات فى يوميته « تالفة الآن[١١١] » ، أنه شارك تريز فراشها فى نزل ثانى ليلة بعد رحيلهما عن باريس . ثم ليالى عديدة بعدها . ووصلا إلى دوفر باكرا فى ١١ فبراير . وتقول اليومية : « الأربعاء ١٢ فبراير . ذهبت صباح أمس إلى الفراش مبكرا جدا ، وفعلتها مرة » والجملة ثلاث عشرة . كنت فى الحق محبا لها . وفى الثانية بعد الظهر قمنا فى رحلتنا . فى ذلك المساء صحب تريز إلى هيوم بلندن ووعدها بأنه « لن يذكر علاقتهما الغرامية حتى مماتها أو ممات الفيلسوف . »

وفى المرة الثالثة عشرة أسلمها إلى روسو . ولقيها بقبلات كثيرة . . وقد بدا فى حال من الشيخوخة والضعف حتى « إنك (بوزويل) لم يعد فيك حماسة له[١١٣] طبعاً . »

وفى تشيزيك ، كما فى موتييه ، تلقى روسو من البريد أكثر مما أراد ، وشكا من نفقات البريد التى كان عليه أن يدفعها . وذات يوم ، حين جاءه هيوم بـ « شحنة » من لندن ، رفض تسلمها ، وطلب اليه أن يردها إلى مكتب البريد . ونبهه هيوم أن موظفى البريد فى هذه الحالة سيفتحون الخطابات المرفوضة ويطلعون على أسراره . وتطوع الاسكتلندى الصبور بأن يفتح ما يرد من رسائل روسو إلى لندن وألا يأتيه إلا بما يراه هاما منها . ووافق جان — جاك ، ولكنه سرعان ما توجس شرا من عبث هيوم ببريده .

وأتته دعوات للغداء ، شاملة للآنسة ليفاسير عادة ، من الأعيان فى لندن فاعتذر روسو من قبولها بحجة مرضه ولكن السبب على الأرجح هو كرهه إظهار تريز أمام علية القوم . وكان يبدى رغبته فى الانزواء فى أعماق الريف . فلما سمع رتشرد ديفنيورت برغبته هذه من جاريك ،

عرض عليه بيتا فى ووتن بداربيشير على ١٥٠ ميلا من لندن . فقبله روسو مغتبطا . وأرسل ديفنبورت مركبة تنقله هو وتريز « وشكا روسو من أنه يعامل معاملة المتسولين » ، وأردف قائلا لهيوم « ان كانت هذه حقا حيلة من حيل ديفنبورت » فأنت عليم بها موافق عليها ، وما كان فى امكانك أن تسىء إلى بأكثر من هذا » . وبعد ساعة (كما يقول هيوم) ، جلس فجأة على ركبتى ، وطوق عنقى بيديه ، وقبلنى بكل حرارة ثم قال وهو يبلل وجهى كله بالدموع : « أيمكن أن تصفح عنى يا صديقى العزيز ؟ انى بعد جميع دلائل الود التى تلقيتها منك « أجازيك » النهاية بهذه الحماقة وهذا المسلك السىء . ولكن لى رغم ذلك قلبا جديرا بصداقتك » وأنا أحبك وأقدرك » ولم تضع على سدى أقل مكرمة من مكرماتك » فقبلته وعانقته عشرين مرة بفيض من الدموع[١١٣] .

وفى الغد ٢٢ مارس انطلق جان — جاك وتريز قاصدين ووتن ، فلم يرهما قط بعدها . ولم يلبث هيوم أن كتب إلى هيوبلير تحليلا بصيرا بحالة روسو وخلقه .

كان مصمما تصميم البائس على الاندفاع إلى هذه العزلة رغم كل اعتراضاتى ، وأنا أتوقع أنه سيكون تعسا فى موقفه ذاك كما كان فى الواقع تعسا فى جميع المواقف . فسيكون محروما تماما من أى شغل يشغله ، ومن الأصحاب ومن أى تسلية من أى نوع تقريباً . لقد قرأ أقل القليل فى حياته ، وطلق الآن كل قراءاته طلاقا بائنا ، ولقد رأى أقل القليل من الدنيا وليس به أى فضول ليرى أو يلاحظ . والواقع أنه لايملك الكثير من المعرفة ، وكل ما فعله طوال حياته أنه أحس فقط ، واحساسه فى هذه الناحية مرهف إلى حد لا أعرف له مثيلا » ولكنه مع ذلك يشعره بالألم بأحد مما يشعره باللذة ، وما أشبهه برجل لم تنزع عنـــه ثيابه فحسب » بل جلده أيضا . ثم دفع به فى ذلك الموقف ليصارع قوى الطبيعة الغاشمة الصاخبة التى تلم على الدوام بهذا العالم الأسفل[١١٤] .

ووصل روسو وتريز إلى ووتن فى ٢٩ مارس . وراقه البيت الجديد لأول وهلة . فوصفه فى خطاب لصديق بنوشاتل : « بيت منعزل ... ليس واسعا جدا ولكنه مناسبا جدا ، شيد فى منتصف الطريق على جانب واد ، وأمامه « أبدع مخضرة فى الوجود » ومشهد طبيعى من مروج ، وأشجار » ومزارع متفرقة ، وعلى مقربة منه طرق للتنزه على ضفاف غدير . وفى أسوأ الأجواء أتحرج فى هدوء لجمع النباتات[١١٥] » . وكان آل ديفنبورت يشغلن قسما من البيت حين يلمون به » وبقى به خدمهم ليعنوا بالفيلسوف و « مديرة بيته » . وأصر روسو على أن يؤدى لديفنبورت ثلاثين جنيها فى العام نظير الأجرة والخدمة .

ولم تعمر سعادته أكثر من أسبوع . ففى ٣ ابريل نشرت مجلة لندنية تسمى « سانت جيمس كرونكل » بالفرنسية والانجليزية خطاب فردريك الأكبر المزعوم إلى روسو ، دون اشارة إلى كاتبه الحقيقى . وحز الأمر فى نفس جان — جاك حين نمى اليه الخبر ، وزاد من ألمه أن محرر المجلة رهو وليم ستراهان كان صديقا قديما لهيوم . يضاف إلى هذا ان نغمة الصحف البريطانية فى حديثها عن روسو تغيرت تغيرا واضحا منذ برح تشزيك : فكثرت المقالات التى انتقدت الفيلسوف الغريب الأطوار » واحتوى بعضها على أشياء اعتقد أن هيوم وحده هو الذى يعرفها » ويمكن أن يزود بها الصحف . على أى حال شعر أن واجب هيوم كان يقتضيه أن يكتب شيئاً للدفاع عن ضيفه الأسبق . وسمع أن الاسكتلندى كان يسكن بلندن البيت الذى يسكنه فرانسوا ترونشان : ابن عدو جان — جاك فى جنيف ، وأغلب الظن أن هيوم كان الآن على علم تام بنقائص روسو .

وفى ٢٤ إبريل كتب روسو إلى سانت جيمس كرونكل ما يأتى :

« لقد عدوت ياسيدى على الاحترام الذين يدين به كل فرد للملك بأن نسبت علنا إلى ملك بروسيا خطابا إمتلأ مبالغة وغلا » وكان يجب بناء عليه أن تعرف إنه ما كان يمكن أن يصدر عنه . لا بل إنك جرؤت على نقل

توقيعه كانك رأيته مكتوبا بيده . وإنى أخبرك يا سيدى أن هذا الخطاب زيف فى باريس ، ومما يحزننى ويمزق قلبى أن المحتال الذى كتبه له شركاء ضالعون معه فى انجلترا . وواجبك نحـــو ملك بروسيا » ونحو الحقيقة » ونحوى أيضاً » يقتضيك أن تنشر خطابى هذا ، الموقع بامضائى ، تصحيحا لخطأ لا شك إنك كنت تلوم نفسك على ارتكابه لو علمت أى مؤامرة خبيثة سخرت لها . وأنى إقدم لك خالص تحيتى .

جان — جاك روسو[116]

وفى وسعنا الآن أن نفهم لم ظن روسو أن هناك « مؤامرة » عليه . فمن غير خصومة القدامى ، فولتير ، وديدرو ، وجريم » وغيرهم من نجوم التنوير ، يمكن أن يدبروا هذا التغير الفجائى فى لهجة الصحف البريطانية من الترحيب والتكريم إلى الهزء والتحقير ؟ وفى نحو هذه الفترة نشر فولتير « خطابا إلى الدكتور ج . ج . بانسوف ، هفلا من اسمه ، أعاد فيه ذكر الأشارات المؤذية للشعب الانجليزى فى كتابات جان — جاك — كقوله إنهم ليسوا فى الحقيقة أحرارا ، وأنهم شديدو الولع بالمال ، وانهم ليسوا بطبيعتهم طيبين . واعيد نشر أكثر الفقرات ابداء فى كتيب فولتير فى دورية لندنية تسمى (للويلز ايفننج نيوز [117]) .

وفى ٩ مايو كتب روسو إلى كونواى يطلب اليه وقف المعاش الذى يمنح له مؤقتا . والح عليه هيوم فى قبوله ، فرد عليه روسو بأنه لا يستطيع قبول أى امتياز يأتيه من وساطة هيوم . وطالبه هيوم بالتفسير . ويبدو ن روسو قد انتقل الآن إلى حالة من الشك والغيظ . ففى ١٠ يوليو بعث إلى هيوم بخطاب من ثمانى عشرة صفحة من القطع الكبير ، لا يسمح طوله المفرط بنقله هنا كاملا » ولكنه من الأهمية البالغة لهذا الشجار الأشهر بحيث يقتضينا الأمر ان نذكر بعض فقراته الرئيسية : « انى مريض يا سيدى » وليس بى كبير ميل للكتابة ، ولكن بما أنك طلبت التفسير ، فلابد من تقديمه لك . . . .

وأنى أعيش خارج العالم ، واجهل الكثير مما يدور فيه . . . ولاأعرف إلاماأشعر به .»

« انك تسألنى فى جرأة من هو الذى يتهمك ؟ انه يا سيدى الرجل الوحيد فى العالم كله الذى . . . أوَد تصديقه ، انه انت . . . وإذ اشير إلى ديفد هيوم بشخص الغائب » فانى جاعلك الحكم فيما ينبغى أن يكون رأيى فيه . »

واعترف روسو فى إسهاب بافضال هيوم ، ولكنه اردف :

«أما إذا تحريت عن الخير الحقيقى الذى صنعته بى » فان هذه الخدمات ظاهرية أكثر منها جوهرية » . . . فأنا لم أكن نكرة تماما بحيث انى لو وصلت وحيدا ، لما لقيت عونا ولامشورة .. وإذا كان مستر ديفنبورت قد تفضل باعطائى هذا المسكن فهولم يفعل ذلك لإرضاء مستمر هيوم الذى لم يكن يعرفه . . وكل الخير الذى أصابنى هنا كان يصيبنى بالطريقة ذاتها بدونه (هيوم) ولكن الشر الذى أصابنى ما كان يقع لى . إذ لم يكون لى أعداء فى انجلترا وكيف جرم يتفق أن يكون هؤلاء الأعداء بالضبط أصدقاء لمستر هيوم ؟

« وقد نمى إلى أيضاً ان ابن المشعوذ ترونشان ، ألد خصومى ، لم يكن فقط صديق مستر هيوم بل محسوبه أيضا » وانهما يسكنان معا ....

« وكل هذه الحقائق مجتمعة تركت فى انطباعا جعلنى قلقاً . . . وفى الوقت نفسه لم تصل الخطابات التى كتبتها إلى وجهتها ، وتلك التى تلقيتها كانت مفتوحة » وهذه كلها تناولتها يد مستر هيوم .

« ولكن ما الذى حدث لى حين رأيت خطاب ملك بروسيا المزعوم منشورا فى الصحف العامة ؟ . . لقد كشف لى شعاع من النور ، سر ما طرأ على اتجاه الشعب البريطانى نحوى من تغير فجائى إلى حد مذهل ؟ ورأيت فى باريس ، مركز المؤامرة التى تنفذ فى لندن . . فحين نشر هذا الخطاب

المزعوم فى لندن لم ينبس مستر هيوم ببنت شفة ، ولا كتب لى شيئاً ، وهو العليم ولا ريب بأنه خطاب زائف . . . .

« لم يبق لى غير كلمة واحدة أقولها لك . إن كنت مذنبا فلاتكتب إلى » إذلا جدوى من الكتابة ، وثق انك لن تخدعنى . ولكن ان كنت برئياً فتفضل بتبرير نفسك . . وإلا فوداعا إلى الأبد[١١٨] » .

وكان رد هيوم موجزا (٢٢ يوليو ١٧٦٦) ولم يجب عن التهم ، لأنه خلص إلى أن روسو مشرف على الجنون . وكتب إلى ديفنبورت يقول ان جاز لى ان ابذل النصح فهو أن تمضى فيما بدأته من حسنة حتى يحبس كلبه فى مستشفى المجاذيب[١١٩] ... فلما سمع ان روسو ندد به فى خطابات أرسلها إلى باريس (كخطابه إلى الكونتيسة دبوفليه فى ٩ابريل ١٧٦٦)، بعث إلى دبوفليه صورة من خطاب جان — جاك الطويل . فردت على هيوم بما يلى :

« ان خطاب روسو فظيع ، انه مبالغ جدا ولا عذر له فيه اطلاقا ... ولكن لاتحسبه قادرا على الكذب أو الخداع ، ولا تتصور انه دجال أو وغد، ان غضبه بلا مبرر حق » ولكنه غضب مخلص » وليس لدى فى هذا أى شك ...

« واليك ما اتصوره السبب فيه . لقد سمعتهم يقولون » ولعله أخبر » انك صاحب عبارة من خير ما ورد فى خطاب مستر ولبول — وانك قلت مازحا وانت تتحدث باسم ملك بروسيا » ان شئت الاضطهاد » فأنا ملك » وأستطيع اضطهادهم نيابة عنك بأى نوع تريده وأن مستر ولبول . . . قال انك صاحب هذه العبارة . فان صح هذا ، وعلم به روسو ، فهل تعجب ان يثور سخطه . . . وهو المرهف الحس، الغضوب ، السوداوى المزاج ، المتكبر [١٢٠] .

وفى ٢٦ يوليو كتب ولبول إلى هيوم يحمل نفسه كل اللوم — دون الإعراب عن أى ندم — فى أمر الخطاب المزيف » ويدين » قلب روسو

الجحود الشرير»[١٢١] ، ولكنه لم ينكر ان هيوم كان له يد فى الخطاب . وكتب هيوم إلى دولباخ يقول « انك محق تماما ، فروسو وحش » . وسحب الكلمات الرقيقة التى وصف بها من قبل خلق روسو [١٢٢] . فلما سمع من ديفنبورت ان جاك ـ جاك يكتب «اعترافاته» افترض أن روسو سيذيع رأيه فى الأمر على الملأ . ونصحه آدم سمث « وطورجو والمرشال كيث ، بأن يتحمل الهجوم صامتا ، ولكن جماعة الفلاسفة فى باريس يقودهم دالامبير ، حرضوه على أن ينشر روايته عن نزاع ذاع خبره فى عاصمتين . وعليه فقد أصدر (أكتوبر ١٧٦٦) عرضا موجزا للنزاع الذى ثار بين السيدين هيوم وروسو ، صاغه بالفرنسية دالامبير وسوار ، وبعد شهر ظهر بالانجليزية . وأذاع جريم مضمونه على نطاق واسع « فى خطاب الاشتراك » الذى كتبه فى ١٥ اكتوبر « فتردد صدى المشاجرة فى جنيف » وامستردام » وبرلين » وسانت بطرسبورج . وضاعفت الضجة أكثر من عشر نشرات » ونشر ولبول روايته للنزاع » وهاجم بوزويل ولبول ، ورمت مدام دلاتور فى « مجمل عن مسيو روسو » هيوم بأنه خائن ، وزوده فولتير بمزيد من البيانات عن نقائص روسو وجرائمه » وعن اختلاله الى أماكن سيئة السمعة » وعن أعمال التحريض التى أتاها فى سويسره[١٢٣] . أما جورج الثالث فقد تابع المعركة بفضول شديد[١٢٤] . وأرسل هيوم الوثائق المتعلقة بها إلى المتحف البريطانى[١٢٥]

ووسط هذه الضجة الكبرى لزم روسو الصمت الرهيب . ولكنه صمم الآن على العودة إلى فرنسا أيا كان الخطر والثمن . فقد اكتأب لرطوبة مناخ انجلترا وتحفظ الخلق الانجليزى ، وكانت العزلة التى نشدها فوق ما يطيق ، ولم يكن قد بذل أى جهد فى تعلم الانجليزية فوجد مشقة فى التفاهم مع الخدم . ولم يستطع الحديث إلا مع تريز — التى ما فتئت كل يوم تلح عليه فى أن يأخذها إلى فرنسا . ودعماً لخططها أكدت له ان الخدم يبيتون دس السم له . وعليه فنى ٣٠ ابريل كتب إلى مالك بيته الغائب يقول :

« غدا أترك بيتك يا سيدى .. ولست اجهل الكائن التي تدير لى ، ولا عجزى عن حماية نفسى ، ولكنني عشت يا سيدى ، ولم يبق لى الآن أنهى بشجاعة حياة قضيت بشرف . وداعا سيدى . سآسف دوما على المسكن الذى ابرحه الآن، ولكن أسيي سيكون أكثر لأنني وجدت فيك مضيفا غاية فى اللطف ، ومع ذلك لم استطيع أن اجعل منه صديقا(١٢٦) .

وفى أول مايو فر مع تريز على عجل وفى رعب . وتركا حقائبهما ومالا للوفاء بإيجار ثلاثة عشر شهرا . . ولجهلهما بجغرافية انجلترا استقلا مختلف وسائل الانتقال غير المباشرة، وقطعا شطرا من الطريق على الإقدام ، وظلا عشرة أيام تائهين لايعرف أحد مستقرهما . وأعلنت الصحف عن اختفائهما، ثم ظهرا فى ١١ مايو فى سبولدنج بلنكولنشير ، ومنها وجدا طريقهما إلى دوفر، وهناك استقلا سفينة إلى كاليه فى ٢٢ مايو . بعد أن قضيا فى انجلترا ستة عشر شهرا ؛ وكتب هيوم إلى طورجو وغيره من الأصدقاء طالبا اليهم أن يمدوا يد المعونة للمنبوذ الذى عاد الآن وحيدا مهجوراً إلى فرنسا وهو من الناحية القانونية لايزال تحت طائلة الأمر باعتقاله .

* * *

المَراجِعُ

CHAPTER I

1. Rousseau, *The Confessions of Jean-Jacques Rousseau*, I, 22.
2. *Ibid.*, 4.
3. I, 156-57; II, 70, 321.
4. Saintsbury, *History of the French Novel*, I, 391.
5. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 174.
6. Lanson, G., *Histoire de la littérature française*, 801.
7. *Encyclopaedia Britannica*, XIX, 587a.
8. Rousseau, *The Confessions*, I, 3.
9. *Ibid.*, 8.
10. 9.
11. 11.
12. 13.
13. 9.
14. 16.
15. 22.
16. 41.
17. 44.
18. *Ibid.*; Lemaître, *Jean-Jacques Rousseau*, 290; Mann, Thomas, *Three Essays*, 156.
19. Masson, P. M., *La Religion* [illegible] *Rousseau*, I, 51 f.

[illegible] Rousseau, *The Confessions*, I, 69.

21. Rousseau, *Les Confessions*, I, 140.

[illegible] *The Confessions*, I, 117-19.

23. *Ibid.*, 76.
24. 76.
25. 106.
26. 91.
27. 92.

[illegible] 96.

29. 104.
30. 107.
31. 116.
32. 122.
33. 130.
34. 154.
35. 138.
36. 148.
37. 160.
38. 178.
39. *Les Confessions*, I, 238.
40. *Ibid.*; *The Confessions*, I, 178.
41. *Ibid.*, 224.
42. 195.
43. Josephson, *J.-J. Rousseau*, 111.
44. *Ibid.*, 113-14.
45. *The Confessions*, I, 247, 250.
46. *Ibid.*, 259.
47. 262.
48. 265.
49. *Ibid.*
50. 296.
51. [illegible]5.
52. 300.
53. Josephson, 132.
54. *Ibid.*, 133.
55. *The Confessions*, I, 305.
56. Letter of Frederick, 1762, in Gooch, *Frederick the Great*, 145.
57. *The Confessions*, I, 309.
58. *Ibid.*, 310.
59. *Ibid.*, II, 139.
60. Martin, Henri, *Histoire de France*, XVI, 83; Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 209.
61. Josephson, 140.
62. Morley, John, *Rousseau* [illegible] *Era*, I, 117; Hendel, C. W., *Citizen of Geneva*, 208.
63. Diderot, *Essai* [illegible] *les règnes de Claude et Néron*, Ch. 67.
64. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
65. *The Confessions*, II, 21.
66. [illegible], 32.
67. Rousseau, *Discourse on Arts and Sciences*, in *Social Contract and Discourses*, 130.
68. *Ibid.*, 132.
69. 134.
70. 134.
71. 146.
72. 151.
73. 142.
74. 151.
75. 135.
76. 139.
77. 153.
78. 153.
79. Rousseau, pre[illegible] [illegible] *Narcisse*.

[illegible] Michelet, *Histoire de France*, V, 371.

81. Grimm, *Correspondance littéraire*, IX, [illegible]
82. Bayle, Pierre, *Réponse aux questions d'un provincial*.
83. Rousseau, *Reveries of a Solitary*, [illegible] VI, pp. 127-32.
84. *The Confessions*, II, 21.
85. Lemaître, 92.
86. Letter of July 15, 1756, [illegible] Hendel, *Citizen of Geneva*, 142.
87. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.

[illegible] *The Confessions*, II, 34.

89. *Ibid.*, 48.

[illegible] 49.

91. 51.
92. 56; Goncourt, E. and J. de, *Madame de Pompadour*, 143.
93. Faguet, *Rousseau artiste*, 192.
94. Grimm, II, 307.

95. Rousseau, *Reveries*, 111.
96. In Faguet, *Rousseau artiste*, 193.
97. Musée, St.-Quentin.
98. Levey, Michael, *Painting in 18th-Century Venice*, 155.
99. Marmontel, *Memoirs*, I, 169.
100. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, II, 52.
101. *Ibid.*; Masson, *La Religion de Rousseau*, I, 184-85.
102. Preface to *Narcisse*.
103. Masson, I, 182.
104. Michelet, *Histoire de France*, V, 428.
105. *The Confessions*, II, 63.
106. *Ibid.*, 58.
107. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality*, in *Social Contract . . .*, 157.
108. *Ibid.*, 159.
109. 160.
110. 239.
111. Nietzsche, *Thus Spake Zarathustra*, 129.
112. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality, loc. cit.*, 181.
113. *Ibid.*, 169.
114. 175.
115. 222.
116. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. ii.
117. Second *Discourse*, in *Social Contract . . .*, 214.
118. *Ibid.*, 207.
119. 220-22.
120. 238.
121. 242-44.
122. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, in Cassirer, *The Question of Rousseau*, 54.
123. Second *Discourse*, *loc. cit.*, 236.
124. End of second *Discourse*.
125. Mumford, Lewis, *The Condition of Man*, 275.
126. Helvétius, *Treatise on Man*, II, xx.
127. Duclos, *Considérations sur les moeurs*, 11.
128. Lemaître, 122.
129. Second *Discourse*, *loc. cit.*, 175, 246.
130. Voltaire, *Works*, XXIa, 227-30.
131. *Ibid.*
132. *The Confessions*, II, 65.
133. *Social Contract*, 271.
134. *Ibid.*, 272.
135. 281.
136. 269.
137. 262.
138. 253.
139. 260.
140. 256.
141. *The Confessions*, II, 40.
142. *Ibid.*
143. Masson, I, 181.
144. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 181.
145. *The Confessions*, II, 40.
146. Grimm, *Correspondence*, II, 239.
147. Sainte-Beuve, II, 195n.
148. *Ibid.*, 180.
149. 191.
150. 213.
151. Morley, *Rousseau*, I, 272.
152. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 83.
153. Source lost.
154. Toth, Karl, *Woman and Rococo in France*.
155. Hobbes, *De Corpore*, Ch. xxv.
156. Toth, 194; Josephson, 194; Faguet (*Vie de Rousseau*, 214) thought Mme. d'Épinay had been infected by Dupin de Francueil.
157. Épinay, II, 85.
158. *Ibid.*, 130.
159. Josephson, 149.
160. *The Confessions*, II, 81.
161. *Ibid.*, 66.
162. Letter to Malesherbes, Jan. 26, 1762.
163. Épinay, II, 128; Sainte-Beuve, II, 187; Morley, *Rousseau*, I, 274.

CHAPTER II

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 4.
2. Frederick the Great, *Histoire de la guerre de Sept Ans*, 388.
3. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 306.
4. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 74.
5. Aldis, Janet, *Madame Geoffrin*, 200.
6. Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 113.
7. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 346.
8. Walpole, H., *Memoirs of . . . the Reign of George the Second*, II, 73; Marmontel, *Memoirs*, I, 175.
9. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, V, 72.
10. Levron, Jacques, *Pompadour*, 174.
11. Treitschke, H. von, *Life of Frederick the Great*, 149.
12. Mann, Thos., *Three Essays*, 163.
13. Dorn, *Competition for Empire*, 15.
14. Treitschke, *Frederick*, 181.
15. Carlyle, *Friedrich*, V, 263-69; Martin, H., *Histoire de France*, XV, 497; Reddaway, *Frederick the Great*, 198; Coxe, *History of . . . Austria*, III, 370.
16. Reddaway, 199.
17. Gooch, G. P., *Frederick the Great*, 334.
18. Reddaway, 201.
19. Dorn, 300; *Cambridge Modern History*, VI, 251.
20. Gooch, *Frederick*, 334.
21. *CMH*, VI, 402.
22. Coxe, *History of . . . Austria*, III, 369.
23. *Ibid.*
24. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 33.
25. Gooch, *Frederick*, 43.

16. Coxe, 379.
17. [illegible]te-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 369; Carlyle, *Friedrich*, V, 479.
18. *Ibid.*, 523.
19. 527.
30. 534; Sainte-Beuve, II, 373
31. *Ibid.*, I, 219; Brandes, *Voltaire*, II, 77.
32. Sainte-Beuve, II, 372.
33. Martin, H., *France*, XV, 522.
34. Michelet, *Histoire* [illegible] *France*, V, 402.
35. Dorn, 323.
36. Michelet, V, 402.
37. Carlyle, VI, 22.
38. *Ibid.*, V, 547.
39. Jahn, *Life of Mozart*, I, 47.
40. Carlyle, VI, 42; Robinson, J. H., *Readings in European History*, 395.
41. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II, 273.
42. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 297.
43. Carlyle, VI, 63.
44. Martin, XV, 527.
45. *Ibid.*, 528.
46. Carlyle, VI, 63.
47. Dorn, 338.
48. Carlyle, VI, 125.
49. *CMH*, VI, 290.
50. Wilhelmine, *Memoirs*, vii.
51. *Ibid.*, ix.
52. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 44.
53. Carlyle, VI, 265.
54. Coxe, *History*, III, 407.
55. Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 259.
56. Carlyle, VI, 322, 386.
57. Martin, XV, 533.
58. Dorn, 363.
59. Voltaire and Frederick, *Letters*, 261; Carlyle, VI, 309.
60. Martin, XV, 565.
61. Voltaire and Frederick, *Letters*, 271.
62. Coxe, III, 425.
63. Dec. 25, 1761, by the Russian calendar.
64. Frederick, *Guerre* [illegible] *Sept Ans*, 229.
65. *Ibid.*, 227.
66. 295.
67. Gooch, *Frederick*, 64.
[illegible] Frederick, *[illegible]uerre de Sept Ans*, 305.
69. Macaulay, *Essays*, II, 185.
70. Voltaire and Frederick, *Letters*, 245; Mann, *Three Essays*, 210.
71. Gooch, *Frederick*, 64.
72. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 192.

CHAPTER III

1. Du Hausset, *Memoirs of Mme. de Pompadour*, 97.
2. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 338-42.
3. *Ibid.*, 200.
4. Aldis, *Madame Geoffrin*, 129.
5. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 42.
6. Goncourts, *Mme. de Pompadour*, 317.
7. *Ibid.*, 319; Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 451.
8. Mitford, Nancy, *Madame de Pompadour*, 234.
9. Levron, Jacques, *Pompadour*, 260.
10. Bancroft, George, *Literary and Historical Miscellanies*, 91.
11. See Stryienski, *Eighteenth Century*, 189.
12. Mitford, *Pompadour*, 254.
13. Ercole, Lucienne, *Gay Court Life*, 236.
14. Mitford, 234-35.
15. Taine, H., *Ancient Regime*, 338.
16. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 181-82; Martin, H., *France*, XVI, 236.
17. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 253.
18. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 213.
19. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 54.
20. Mousnier and Labrousse, *Le Dix-huitième Siècle*, 135.
21. Du Hausset, *Memoirs*, 27.
22. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 352.
23. Rousseau, *La Nouvelle Héloïse*, in Ducros, Louis, *French Society in the 18th Century*, 193.
24. Parton, James, *Life of Voltaire*, II, 329.
25. Voltaire, *Works*, VIIb, 56.
26. Goldoni, *Memoirs*, 359.
27. Taine, *Ancient Regime*, 308.
28. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 61.
29. Ducros, *French Society*, 335.
30. Martin, H., *France*, XVI, 163; Acton, *Lectures* [illegible] *Modern History*, 326.
31. Higgs, Henry, *The Physiocrats*, 18.
32. Say, Léon, *Turgot*, 47, 67.
33. Turgot, *Éloge de Gournal*, in Martin, *France*, XVI, 165.
34. Mirabeau *père* in Higgs, 21
35. Higgs, 24.
36. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the 18th Century*, 730.
37. Higgs, 37.
38. Warwick, C. F., *Mirabeau and the French Revolution*, 146.
39. Higgs, [illegible]
40. In Sée, Henri, *Les Idées politiques en France* [illegible] *xviiie siècle*, 161.
41. Pomeau, René, *La Religion de Voltaire*, 405.
42. Hume, letter [illegible] Morellet, July 10, 1769.
43. Voltaire, *Works*, Ib, 247-48, 265.
44. In Gay, Peter, *Voltaire's Politics*, 160n.
45. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, [illegible] IV, Ch. ix.
46. Higgs, 135.

4. Besterman in Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 9.
5. Chaponnière, 203.
6. Parton, II, 475.
7. Letter of July 4, 1782, in Desnoiresterres, *Voltaire*, VI, 288.
8. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 283.
9. *Ibid.*, 293.
10. 302.
11. Low, D. M., *Edward Gibbon*, 144.
12. Desnoiresterres, VI, 290; Chaponnière, 202.
13. Parton, *Life of Voltaire*, II, 481.
14. *Ibid.*
15. Desnoiresterres, I, 131.
16. Noyes, A., *Voltaire*, 550.
17. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 189.
18. Desnoiresterres, VII, 335.
19. *Ibid.*, 335.
20. Parton, II, 480.
21. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Malady—Medicine."
22. Molière, *Le Malade imaginaire.*
23. Chaponnière, 202; Parton, II, 480.
24. Voltaire, art. "Malady."
25. Parton, I, 529.
26. Chaponnière, 202.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 312.
28. Parton, II, 263.
29. Desnoiresterres, V, 324.
30. Parton, II, 471.
31. Chaponnière, 202.
32. Lanson, *Voltaire*, 197.
33. Desnoiresterres, VII, 482.
34. Torrey, *Spirit of Voltaire*, [illegible]
35. Faguet, *Literary History of France*, 507.
36. Lanson, *Voltaire*, 197.
37. Torrey, 34.
38. Lanson, 197.
39. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXXIX, 546.
40. *Works*, VIIIb, 286.
41. *Philosophical Dictionary*, art. "Ancients and Moderns."
42. Michelet, *Histoire*, V, 426.
43. Parton, II, 489.
44. Brunetière, 361.
45. Torrey, 176.
46. Letter of Mar. 12, 1766.
47. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, Ch. xxxix.
48. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 335.
49. Letter of Frederick to Voltaire, June 10, 1759.
50. Letter of July 2, 1759.
51. Voltaire and Frederick, *Letters*, 266.
52. *Ibid.*, 358.
53. 363.
54. Brandes, II, 241.
55. Desnoiresterres, VI, 391.
56. *Phil. Dict.*, art. "Peter the Great."
57. Robespierre, speech of [illegible] Floréal, Year II, in Hazard, *European Thought*, 265.
58. Parton, II, 260.
59. Chaponnière, 238.
60. Gibbon, *Memoirs*, 154n.
61. Parton, II, 556.
62. Voltaire, *Mémoires*, in Parton, I, 141.
63. Letter to Frederick, January, 1737, in Voltaire and Frederick, 41.
64. [illegible] *Dict.*, art. "Property."
65. *Ibid.*
66. [illegible]
67. Letter to Dr. Daquir in Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 228.
68. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
69. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 47.
70. *Phil. Dict.*, art. "Country" ("Pays").
71. Voltaire, *L'A, B, C*, in Sée, *Les Idées politiques*, 84.
72. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
73. *Essai sur les moeurs*, xli, 161, in Gay, *Voltaire's Politics*, 181.
74. *Mérope*, Act. II, Sc. ii.
75. Michelet, *French Revolution*, 47.
76. In Parton, II, 544.
77. Desnoiresterres, VI, 240.
78. Casanova, *Memoirs*, II, 406-7.
79. Letter of Oct. 28, 1773.
80. [illegible] *Dict.*, art. "Democracy."
81. Letter of Sept. 20, 1760.
82. In Gay, 236.
83. *Phil. Dict.*, art. "Government," Sec. 3.
84. *Ibid.*, Sec. 6, slightly transposed.
85. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
86. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 415.
87. Quoted in Black, *Art of History*, 48.
88. *Phil. Dict.*, art. "Law, Civil and Ecclesiastical."
89. [illegible] Hearnshaw, *Social . . . Ideas of Some Great French Thinkers*, 157.
90. Art. "Execution."
91. Art. "Torture."
92. [illegible] Gay, 307.
93. Art. "Wit."
94. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 146.
95. *Ibid.*, 228.
96. Black, 29.
97. *Candide*, last chapter.
98. In Pomeau, 261.
99. Desnoiresterres, V, 24.
100. Brandes, *Voltaire*, I, 118.
101. Torrey, 10.
102. Letter of Aug. 28, 1751.
103. Brandes, *Creative Spirits of the 19th Century*, 138.
104. *Ibid.*, 142; Höffding, H., *Jean Jacques Rousseau and His Philosophy*, 80; Desnoiresterres, VI, 310.
105. *Ibid.*
106. Mme. de Graffigny in Parton, I, 392.

NOTES

107. Hume, letter of Apr. 26, 1764, [illegible] Gay, 81.
108. Torrey, 131.
109. Letter to Thieriot, Dec. 10, 1738.
110. Torrey, 131.
111. *Ibid.*
112. Voltaire, *English Notebooks*, in Gay, 353.
113. *Phil. Dict.*, [illegible] "Solomon."
114. Desnoiresterres, V, 157; Parton I, 106.
115. See letter of March, 1737, to Moussinot, in *Works*, XXIa, 190.
116. Parton, II, 520.
117. *Ibid.*, I, 507.
118. *Ibid.*, 144.
119. Morley, *Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXIb, 96.
120. Parton, II, 600.
121. [illegible] Noyes, *Voltaire*, 5[illegible]
122. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 61.
123. Pomeau, 462.
124. Desnoiresterres, II, 239.
125. In Torrey, 107.
126. Desnoiresterres, VI, 287.
127. Torrey, 91.

CHAPTER VI

1. Rousseau, *Emile*, p. 371.
2. *The Confessions*, II, 84.
3. Josephson, 190.
4. *Ibid.*; *The Confessions*, II, 84.
5. *The Confessions*, II, [illegible]
6. Diderot, *Le Fils naturel*, Act. IV, Sc. iii.
7. Brockway, W., and Winer, B., *Second Treasury of the World's Great Letters*, 195.
8. *Ibid.*, 201.
9. *The Confessions*, II, 107.
10. *Ibid.*, 99.
11. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, I, 424.
12. *Ibid.*, I, 428.
13. [illegible]31.
14. 438.
15. 442.
16. 449.
17. 443.
18. Desnoiresterres, V, 141.
19. *The Confessions*, II, 105.
20. Épinay, Mme. d', *Memoirs*, II, 329.
21. *Ibid.*, 334.
22. *The Confessions*, II, 102.
23. Josephson, 213.
24. *The Confessions*, II, 114-15, 110.
25. *Ibid.*, 113.
26. 114-16.
27. Josephson, 220.
28. *The Confessions*, II, 118.
29. *Ibid.*, 121.
30. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 193.
31. *The Confessions*, II, 133. Several of Mme. d'Houdetot's letters to Rousseau survive, and a few of his to her; see Martin, H., *France*, XVI, 91n.
32. *The Confessions*, II, 136.
33. Sainte-Beuve, II, 213.
34. *The Confessions*, II, 144.
35. *Ibid.*, 146.
36. 147.
37. Épinay, III, 130-32; Josephson, 249.
38. Épinay, III, 140-42.
39. *Ibid.*, 186.
40. *The Confessions*, II, 154.
41. Josephson, 252.
42. *The Confessions*, II, 155.
43. Letter of Nov. 26, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 160.
44. Lemaître, *Rousseau*, 174.
45. Josephson, 308.
46. *The Confessions*, II, 165.
47. Rousseau, *Politics and the Arts*, 7.
48. *Ibid.*, 121.
49. 125-26.
50. *The Confessions*, II, 165.
51. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 97, 105.
52. Hendel, *Citizen of Geneva*, 169; Desnoiresterres, VI, 85.
53. Chaponnière, 169; Josephson, 298.
54. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
55. Josephson, 279.
56. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, Part I, Letter [illegible]
57. Letter II.
58. Letter IV.
59. Letter V.
60. Letter XIV.
61. *Rousseau juge*, p. 139.
62. *Ibid.*, Part IV, Letter XVII.
63. Part V, Letter V.
64. [illegible]*ousseau juge*, p. [illegible]
65. *Ibid.*, Part V, Letter X.
66. *The Confessions*. II, 163.
67. In Hendel, *J.-J. Rousseau, Moralist*, II, 47.
68. *Rousseau juge*, Part VI, Letter VI.
69. Part V, Letter V.
70. *The Confessions*, I, 301.
71. Kant, Fragment 618, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 6.
72. Texte, J., *Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 236.
73. Desnoiresterres, VI, 87.
74. Michelet, *Histoire*, V, 427.
75. *Ibid.*
76. *The Confessions*, II, 213.
77. *Ibid.*, 211.
78. Maritain, *Three Reformers: Luther, Descartes, Rousseau*, 119.
79. Taine, *Ancient Regime*, 271.

CHAPTER VII

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 179.
2. *Ibid.*, 195.

3. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. v.
4. *Ibid.*, IV, ii.
5. IV, i.
6. I, vii.
7. I, viii.
8. I, vii.
9. II, iv.
10. I, viii.
11. Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, I, 81.
12. *Social Contract*, Book III, Ch. v.
13. III, iv.
14. III, xv.
15. III, xviii.
16. III, i.
17. I, ix.
18. II, xi.
19. I, end.
20. II, i.
21. Letter to Mme. d'Étang, in Cobban, *Rousseau and the Modern State*, 193.
22. Cobban, *Rousseau*, 211.
23. *Social Contract*, IV, viii.
24. II, vii.
25. IV, viii.
26. *Ibid.*
27. *Ibid.*
28. *Ibid.*
29. *Ibid.*
30. IV, vi.
31. In Cobban, *Rousseau*, 55.
32. *Émile*, p. 157.
33. *Ibid.*
34. Cobban, *In Search of Humanity*, 168.
35. Voltaire, *Works*, XXIb, 332.
36. Havens, *Voltaire's Marginalia*, 68, in Gay, *Voltaire's Politics*, 268.
37. *Cf. Social Contract*, II, iv; Talmon, *Origins of Totalitarian Democracy;* Crocker, *Rousseau et la philosophie politique*, p. 111.
38. *Social Contract*, II, v.
39. Faguet, *Rousseau penseur*, 397.
40. *Ibid.*
41. *Émile*, preface.
42. Boyd, *Educational Theory of Jean Jacques Rousseau*, 297.
43. Rousseau, *Émile*, 13.
44. *Ibid.*, 216.
45. 16.
46. 156.
47. 118.
48. 133.
49. 27.
50. 92.
51. 50.
52. 21-22, 46.
53. 56-58.
54. 342.
55. 253.
56. 251.
57. 254.
58. 53.
59. 58.
60. 167.
61. 149, 306.
62. 160.
63. Martin, H., *France*, XVI, 98.
64. Rousseau, *Émile*, 158.
65. *Ibid.*, 220.
66. 230.
67. 261-62.
68. 263.
69. 257.
70. 272.
71. 232.
72. *Ibid.*
73. 238-40.
74. 245-47.
75. Letter of Oct. 5, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 152.
76. *Émile*, 261.
77. 223.
78. 275.
79. See Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 236.
80. *Émile*, 272.
81. 271-72.
82. 179.
83. 192.
84. 198-99.
85. Letter of Nov. 5, 1758, in Hendel, *Citizen*, 158.
86. In Faguet, *Rousseau penseur*, 111.
87. Émile, 331; Hendel, *J.-J. Rousseau*, II, 23.
88. *Émile*, 330, 370.
89. 340.
90. 341, 371.
91. 337, 350.
92. 350.
93. 349.
94. 320.
95. 357.
96. 443.
97. 444.
98. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 125.
99. Seillière, *J. J. Rousseau*, 132, in Maritain, *Three Reformers*, 125.
100. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, IXb, 157.
101. Plato, *Republic*, No. 592.

CHAPTER [illegible]

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 232.
2. *The Confessions*, II, 243.
3. *Collection complète*, IXa, pp. v-x.
4. *The Confessions*, II, 253.
5. *Collection*, IXb, 4.
6. *The Confessions*, II, 255.
7. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 110.
8. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
9. Voltaire, letter of July 26, 1764.

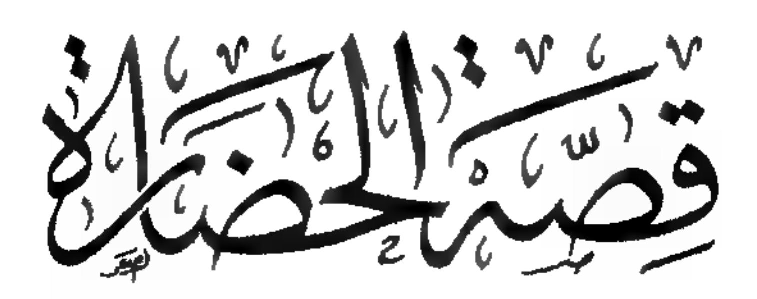
10. In Brandes, *Voltaire*, II, 97.
11. *Ibid.*, 98; Desnoiresterres, VI, 320-23.
12. Hendel, *J.-J. Rousseau*, II, 252.
13. *The Confessions*, II, 257.
14. *Boswell* [illegible] *the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 226.
15. In Gooch, *Frederick the Great*, 138.
16. *The Confessions*, II, 264.
17. Hendel, *Citizen of Geneva*, 252.
18. *The Confessions*, II, 265.
19. *Ibid.*, 259.
20. 270.
21. 265-66.
22. Letter of July 22, 1764, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 171.
23. In Goncourts, *W*[illegible] *of t*[illegible]*h Century*, 187.
24. Sainte-Beuve, [illegible] *the 18th Century*, II, 138.
25. Masson, III, 73-75.
26. 2 Timothy iii, 1 f.
27. *Collection complète*, IXa, pp. xi-xiii.
28. *Ibid.*, p. xiii.
29. P. xiv.
30. P. xvi.
31. P. xxxix.
32. P. 1.
33. 2.
34. 4.
35. 7.
36. 8.
37. 26-28.
38. 55.
39. 83.
40. 65-66.
41. 70-71.
42. 121-22.
43. 8.
44. 15.
45. 42.
46. 44.
47. 47.
48. 50.
49. 83.
50. 86.
51. 87-89.
52. Exodus vii, 9-12.
53. Matthew xxiv, 24.
54. *Collection complète*, IXa, 201-2.
55. *Ibid.*, 210-12.
56. 244-45.
57. 334.
58. Letter of Mar. 8, 1765, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 206-7.
59. *Collection complète*, IXa, 184-85.
60. Morley, *Voltaire*, in Voltaire, *Works*, [illegible]XIb, 97.
61. In Faguet, *Vie de Rousseau*, 318-20.
62. *Rousseau juge de J.-J.*, I, ii-iv.
63. Grimm, *Correspondance*, May 15, 1763, Dec. 15, 1763, Jan. 15, 1765; [illegible] also Masson, P. M., II, 226-40.
64. Boileaux-Despréaux, Nicolas, *L'Art poétique*, lines 37-38.
65. Goethe, *Faust*, [illegible] I, Everyman's Library translation, p. 116.
66. *Coll*[illegible] *complète*, I, 106n.
67. Horace Walpole, letter [illegible] Dec. 31, 1769, [illegible] Horace Mann.
[illegible] *Boswell on the* [illegible] *Tour: Germany and Switz.*, 250.
69. *Ibid.*, 215.
70. 217.
71. 219.
72. 229.
73. 230-31.
74. 254.
75. 258-68.
76. In Vaughn, *Political Writings of Rous*[illegible] II, [illegible]
77. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 118.
78. Vaughn, II, 369n.
79. *Ibid.*, 350.
80. 338.
81. Letter of Feb. 26, 1770.
82. Morley, [illegible] *and His Era*, II, 94.
83. Letter of [illegible] 10, 1765.
84. Letter [illegible] 29, 1765.
85. Macdonald, F., II, 123.
[illegible] *The Confessions*, II, 301.
87. *Ibid.*
[illegible] Letter of Oct. 1, 1765.
89. *The Confessions*, II, 302.
90. *Ibid.*
91. Rousseau, *Reveries*, 106.
92. *Ibid.*, 108; *cf. The Confessions*, 308.
93. Morley, *Rousseau*, II, 117.
94. *The Conf*[illegible]*ons*, II, 312.
95. Hendel, [illegible] *of* [illegible]*eneva*, 326.
96. Burton, *Life of David Hume*, II, [illegible]
97. Macdonald, F., II, [illegible]
98. *Ibid.*, 213-14.
99. Walpole, Letter of Jan. 12, 1766.
100. Macdonald, II, [illegible]
101. Lemaître, 322; Macdonald, II, 172.
102. *Ibid.*, II, 171.
103. Morellet, *Mémoires*, in Mossner, *Life of Hume*, 575.
104. *Ibid.*, 517.
105. 5[illegible]
106. Faguet, *Vie de Rousseau*, 332.
107. In Burton, *Hume*, II, 304, 309.
108. Hume, letter [illegible] Lord Charlemont, in Mossner, 523.
109. Mossner, 519.
110. *Boswell on* [illegible] *Grand Tour: Italy, Corsica, France*, 279.
111. But summarized by Col. [illegible] Isham, who [illegible] them before their destruction by [illegible] executors.
112. *Boswell on the Grand Tour: Italy* . . . , 277-81.
113. Mossner, 521.

114. *Ibid.*, 523.
115. Letter of May 10, 1766, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 336.
116. Letter of Apr. 24, 1766, in Hendel.
117. Josephson, 460.
118. Macdonald, F., II, 186-209.
119. Mossner, 529.
120. Macdonald, II, 171.
121. *Ibid.*, 174.
122. Josephson, 464; Morley, *Rousseau*, II, 133.
123. Josephson, 467.
124. Morley, II, 135.
125. *Ibid.*
126. Josephson, 471.
127. Faguet, *Vie de Rousseau*, 361; Ségur, *Julie de Lespinasse*, 203.

فهرس

صفحة

الصفحة



ول وايريل ديورانت

الجنوب الكاثوليكي

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد العاشر







تونس بيروت

الفصل التاسع

إيطاليا السعيدة

١٧١٥ — ١٧٥٩

١ — المشهد العام

لم يكن فى استطاعة إيطاليا أن تتحد فى سبيل الدفاع عن نفسها وهى منقسمة إلى نحو اثنتى عشرة دولة متحاسدة متنابذة . وانصرف الإيطاليون إلى الاستمتاع بالحياة ، التلذذ بها انصرافا جعلهم يتركون الأجانب الذين أعوزهم النضج يقتتلون طمعا فى ثمرة السياسة المرة ، وغنائم الحرب وأسلابها الملوثة . وهكذا غدت شبه الجزيرة الزاهرة ساحة قتال بين أسبانيا وفرنسا البوربونيتين والنمسا الهابسبورجية . ووضعت سلسلة متعاقبة من حروب الوراثة أوزارها فى ١٧٤٨ وقد استردت أسبانيا مملكة نابلى ودوقية پارما ، واحتفظ البابوات بسلطانهم على الدويلات البابوية ، وظلت سافوى والبندقية وسان مارينو حرة ، وكانت جنوه ومودينا محميتين فرنسيتين ، واحتفظت النمسا بميلان وتسكانيا . وكانت الشمس أثناء ذلك تشرق على ربوع إيطاليا والحقول والكروم والبساتين تجود بالطعام والشراب ، وكانت النساء رائعات الحسن مشبوبات العاطفة ، والأغانى والألحان تملأ أجواز الفضاء ، ووفد عليها الأجانب سائحين وطلاب علم ليستمتعوا بالمناخ ومشاهد الطبيعة ، وبالمسارح والموسيقى والفن ، وبمخالطة رجال ونساء أوتوا ثقافة قرون طوال . لقد كانت إيطاليا ، على الأقل فى شمالها ، أسعد بلد فى أوربا ، رغم أنها كانت نصف مغلوبة ، ونصف مسلوبة منهوبة .

وكان سكانها عام ١٧٠٠ يناهزون الأربعة عشر مليونا ، وعام ١٨٠٠ الثمانية عشر مليونا . وكان الصالح للزراعة من أرضها يقل عن النصف ولكن

كل شبر من هذا النصف كان يفلح بالجهد الصابر والرعاية الفائقة . وكانت الأرض المنحدرة تقسم إلى مصاطب لتحتفظ بالتربة . والكروم تتدلى من شجرة إلى شجرة فتزدان بها بساتين الفاكهة . أما الجنوب فكانت أرضه ضعيفة ، وجففت الشمس المبتسمة فى سخرية الأنهار والتربة والإنسان ؛ ولم يرخ الاقطاع قبضته التى فرضها على الناس فى العصر الوسيط . وكان من الأمثال الساخرة قولهم «أن المسيح لم يتجاوز قط جنوبى إيبولى» — التى كانت إلى الجنوب تماما من سورينتو . أما وسط إيطاليا فكان خصب التربة ، يفلحه الزراع نظير حصة من المحصول باشراف كبار رجال الكنيسة . وأما فى الشمال — لاسيما فى وادى نهر بو — فقد أشبعت القنوات الأرض ريا ؛ وكانت هذه القنوات تتطلب رؤوس الأموال تنفق عليها ، والفلاحين المدربين على تطهير الصفاية وتقوية الشواطىء . وهنا أيضا زرع الفلاحون أرض غيرهم لقاء نصيب من المحصول . ولكن فى هذه الحقول المثمرة استطاع الناس أن يحتملوا كل شىء حتى الفقر وهم محتفظون بكرامتهم .

وقامت مئات القرى على السهول ، وفى التلال ، وعلى شاطىء البحر : قرى قذرة متربة فى الصيف ، صاخبة فى الصباح بأحاديث الفلاحين وهم يمشون الهوينا إلى وقدة الحر ، ساكنة فى الظهيرة ، شاغية فى المساء بثرثرة المثرثرين وبالموسيقى ولقاءات المحبين . وكان الإيطاليون يحبون القيلولة أكثر من حبهم للمال ، وهى فترة قال فيها الأب لابا «لا يرى المرء فى الشوارع أثناءها غير الكلاب والحمقى والفرنسيين .»[1] وكان هناك عشرات المدن الملأى بالكنائس والقصور والمتسولين والفن ، وست مدن تضارع باريس جمالا ، وألوف من مهرة الصناع ما زالوا فى قمة فنهم . وكانت الصناعة الرأسمالية تتطور من جديد فى مجال النسيج لاسيا فى ميلان وتورين وبرجامو وفتشنتا ؛ ولكن معظم العمل حتى فى النسيج كان يؤدى على أنوال بيتية جزءا من حياة الأسرة . وكانت هناك طبقة وسطى صغيرة (قوامها التجار والمصرفيون ورجال الصناعة والمحامون والأطباء والموظفون والصحفيون والكتاب والفنانون والكهنة) آخذة فى النمو وسطا بين الطبقة الأرستقراطية (طبقة ملاك

الأرض وكبار رجال الدين) وطبقة « العامة » (وهم أصحاب الحوانيت ومهرة الحرفيين والفلاحون) » ولكن لم تحرز هذه الطبقة الوسطى أية قوة سياسية بعد .

ولم تكن الفوارق الطبقية واضحة ملحوظة إلى حد مؤلم ، اللهم إلا فى البندقية وجنوه . فنى معظم المدن الإيطالية دخل النبلاء بنشاط ميدان التجارة أو الصناعة أو المال . وكان فى إمكان وصول أى فلاح إيطالى إلى منصب الأسقفية أو البابوية ما أشاع عنصرا ديمقراطيا فى الحياة الاجتماعية ؛ وفى البلاط كان حامل لقب النبالة المهيب يلتقى بالأسقف المتواضع الأصل ويجالسه، وفى الأكاديميات والجامعات كان النبوغ الفكرى يرجح الدعاوى الطبقية ، وفى صخب الكرنفال كان الرجال والنساء المطمئنون وراء أقنعتهم ينسون مراتبهم الاجتماعية كما ينسون نواميسهم الخلقية . وكان الحديث بين الناس يتسم بالمرح شأنهم فى فرنسا ، هذا إذا استثنينا إجماعا متفاهما عليه بعدم المساس بدين يأتى بالجزية الدولية لإيطاليا — حتى من فاتحيها — بنوع خاص .

على أن ذلك الدين كان بريئا من أى شائبة تزمت » فقد تصالح مع طبيعة البشر ومناخ إيطاليا . وسمح فى الكرنفالات بفترة تعطيل للاحتشام ، ولكنه جاهد للمحافظة على مؤسستى الزواج والأسرة وحمايتهما من سذاجة النساء وأهواء الرجال . فكانت الفتيات فى الطبقات المثقفة يرسلن إلى أحد الأديرة فى سن مبكرة — فى الخامسة — لا للتعليم أولا بل لضمان الإشراف الخلقى عليهن . ولم تكن الفتاة التواقة إلى الحرية يطلق سراحها إلا إذا وفر لها صداق وهيىء لها خطيب يوافق عليه أبوها أو أولياؤها ويتقدم لزواجها . وإذا جاز لنا أن نصدق كازانوفا » فإنه كان فى استطاعة راهبة شديدة الشوق إلى الرجال أن تغافل أحيانا الرئيسة الأم — أو تغافل الرئيسة الأم راهباتها — وتجد سبيلا للقاء رجل شديد الشوق إلى النساء بين الفسق والفجر ، ولكن هذه كانت مغامرات نادرة محفوفة بالخطر . على أننا لا نستطيع أن نطبق هذا الحكم على أخلاقيات الرهبان .

وكان الذكر غير المتزوج إذا لم يستطع إغواء زوجة رجل آخر ، يتعامل

عموما مع البغايا . وقد قدر الكونت دكايلوس أن عددهن فى نابلى عام ١٧١٤ بلغ ثمانية آلاف من بين السكان البالغين ١٥٠،٠٠٠ . ووجد الرئيس دبروس فى ميلان « إنك لاتخطو خطوة فى الميادين العامة دون أن تتلقى بقوادين courtiers de galanterie يعرضون عليك نساء من كل لون أو جنس تشاء » ولكن لك أن تثق بان النتيجة لا تكون دائما باهرة كالوعد .[٢] » وكان محظورا على البغايا فى روما أن يظهرن فى الكنائس أو المحافل العامة ، وحرم عليهن بيع مفاتنهن خلال صـــوم الميلاد ، والصوم الكبير » وأيام الآحاد والعطلات الدينية .

وكان أشد ما يعاكس هؤلاء البغايا ويفسد عليهن حرفتهن أن طريق العشق الحرام كانت ميسرة إلى قلوب النساء المتزوجات . فهؤلاء النساء انتقمن لأنفسهن من فترة المرهقة التى ضيق عليهن فيها ، ومن الأزواج الذين لم يكن لهن رأى فى إختيارهن ، بالانغماس فى العلاقات الغرامية غير المشروعة » وباتخاذ « سيد تابع » cavaliere servente . وقد سمحت عادة مرافقة المرأة المتزوجة هذه cicisbeatura » بموافقة زوجها وفى غيبته » (وهى عادة مستوردة من أسبانيا) بأن يقوم على خدمتها سيد يخدمها ، فيرافقها إلى العشاء وإلى المسرح وإلى المنتديات » ولكن نادرا ما يصحبها إلى الفراش . واختيار بعض الأزواج مرافقين لزوجتهن لحمايتهن من علاقات العشق الحرام .[٣] وقد أفضى الانتشار الواسع لمذكرات كازانوفا ، والأخبار المتعجلة التى أذاعها الرحالة الفرنسيون الذين الفوا التحلل الفرنسى ، إلى مبالغة الأجانب فى فكرتهم عن فساد الأخلاق فى إيطاليا . صحيح أن جرائم العنف أو الجنس كثرت » ولكن الإيطاليين كانوا بوجه عام أبناء أوفياء لوالديهم ، وأزواجا غيورين على نسائهم » وزوجات مجدات فى بيوتهن ، وآباء متعلقين بأبنائهم ، يحيون حياة أسرية مترابطة ، ويواجهون متاعب الزواج والأبوة والأمومة بإباء فى الخلق وطلاقة فى الحديث وبشاشة حاضرة فى الطبع .

ولم يلق تعليم النساء تشجيعا ، لأن كثيراً من الرجال كانوا يرون التعليم خطرا على العفة . وتلقت قلة من البنات فى الأديرة تعليما فى القراءة والكتابة

والتطريز وفنون الحياكة والترفيه . ومع ذلك نسمع عن نساء راقيات التعليم يدرن صالونات يتجاذبن فيها الأحاديث فى يسر مع الكتاب والفنانين ورجال الأعمال . وفى بلرمو ترجمت « أنا جنتيلى » فولتير شعرا إيطاليا جيدا ، ونشرت « الرسائل الفلسفية » التى دافعت فيها بجرأة عن أخلاقيات هلفتيوس غير القائمة على الدين . وفى ميلان سمع الرئيس دبروس ماريا جايتانا اجنيزى « البالغة من العمر عشرين عاما » تحاضر باللاتينية فى علم السوائل[٤] « وقد درست اليونانية والعبرية والفرنسية والإنجليزية وكتبت رسائل فى القطاعات المخروطية والهندسة التحليلية[٥] » وفى جامعة برلونيا كانت السنيورة ماتسوكينى تدرس التشريح ، والسنيورة تامبرونى تدرس اليونانية[٦] . ومن تلك الجامعة ذاتها نالت لاورا باسى درجة الدكتوراه فى الفلسفة ولما تتجاوز الحادية والعشرين (١٧٣٢) ، وما لبثت أن ضربت فى العلم بسهم وافر حتى عينت استاذا فى الجامعة وحاضرت فى « بصريات » نيوتن والفت البحوث فى الفيزياء ، وأنجبت خلال ذلك لزوجها اثنى عشر طفلا قامت بنفسها على تربيتهم[٧] .

وظلت الكثرة العظمى من الجنسين أمية دون أن ينالها من ذلك أى غضاضة أو ازدراء من المجتمع . فاذا ظهرت مخايل الذكاء والنضج على غلام فى القرية وجد له القسيس عادة سبيلا إلى التعليم . ذلك أن شتى الجماعات الدينية أسست المدارس فى المدن . فكان لليسوعيين عدد كبير من الكليات فى إيطاليا — ست فى البندقية ، وسبع فى ميلان وست فى جنوه ، وعشر فى بيدمونت « وتسع وعشرون فى صقلية وكليات كثيرة فى مملكة نابلى وفى الولايات البابوية . وقامت الجامعات فى تورين وجنوه وميلان وبافيا وبيزا وفلورنسه وبولونيا وبادوا وروما ونابلى وبلرمو ، وكلها تحت إشراف رجال الكنيسة الكاثوليك ، ولكن الكليات ضمت الكثير من العلمانيين . وكان المعلمون والطلاب على حد سواء يحلفون اليمين بالا يعلموا أو يقرؤا ويقولوا أو يفعلوا شيئا يخالف تعليم كنيسة روما . يقول كازانوفا « فى بادوا كانت حكومة البندقية تدفع المرتبات الكبيرة لمشاهير الأساتذة » وتترك للطلاب كامل الحرية فى الانتظام فى حضور دروسهم ومحاضراتهم أو عدمه كما يشاءون »[٨] .

يضاف إلى هذا أن الفكر الإيطالي شحذه عدد كبير من الأكاديميات المخصصة للآداب أو العلوم أو الفنون ، المتحررة عادة من إشراف رجال الدين ، وأشهرها الأكاديمية الاركادية التي كانت في الفترة التي نحن بصددها تموت موتا كريما . وكانت هناك مكتبات عامة مثل « دار الكتب الامبروزية » الجميلة في ميلان ، أو دار كتب ماجليابكينانا (دار الكتب القومية الآن) في فلورنسه ، وكان الكثير من المكتبات الخاصة كمكتبة بزاني في البندقية ، يفتح أبوابه للجمهور في أيام معلومة من الأسبوع . وقد روى دبروس أن مكتبات إيطاليا كان يستخدمها القراء استخداما يفوق في كثرته وحماسته استخدام القراء لمكتبات فرنسا . وأخيرا كانت هناك دوريات من جميع الأنواع — ثقافية ، أو أدبية ، أو فكاهية . وكانت مجلة الآداب الإيطالية التي أسسها أبوستولو تسينو وفرانشسكو سكيبيوني دي ما في عام ١٧١٠ من أرقى المجلات في أوربا ثقافة وأحظاها بالاحترام .

وصفوة القول أن إيطاليا كانت تنعم بحياة فكرية نشيطة ، فكثر عدد الشعراء الذين عاشوا على إهداء شعرهم لكبار القوم ، وتعطر الجو بأريج القصائد الغنائية التي ما برحت تقلد بترارك ، وتنافس المرتجلون في إفراغ القريض فور دعوتهم إلى قرضه . ولكن العصر خلا من الشعر العظيم حتى أقبل ألفيري في ختام القرن . وقامت المسارح في البندقية وفتشنتا وجنوه وتورين وميلان وفلورنسه وبادوا ونابلي وروما ، وأم هذه الأبنية الأنيقة الرشيقة صفوة القوم وعامة الشعب ليتجاذبوا الحديث ويسددوا نظرات الغرام . كما أتوها ليستمعوا إلى الأوبرا أو التمثيلية . وكان هناك دارسون كبار مثل مافيي ،ومؤرخون شديدو الاجتهاد مثل موراتوري ، وعما قليل سيأتي علماء عظام . غير أنها كانت ثقافة متكلفة بعض الشيء ،حذرة خشية الرقابة ،مهذبة مجاملة إلى حد أفقدها الجرأة .

ومع ذلك هبت عليها رياح متقطعة من الهرطقة عبر الألب أو البحر . فأسس الأجانب — لاسيما الإنجليز من أنصار جيمس الثاني — في جنوه وفلورنسه وروما ونابلي ، من ١٧٣٠ فصاعدا محافل ماسونيه نزاعة إلى الربوبية . وقد أدانها البابوان كلمنت الثاني عشر وبندكت الرابع عشر ، ولكنها اجتذبت

الاتباع العديدين خصوصا من طبقة النبلاء وأحيانا من الأكليروس . وجلبت إلى إيطاليا بعض مؤلفات مونتسكيو وفولتير وريتال ومابلى وكونديلاك وهلفتيوس ودولباخ ولامترى . ونشرت طبعات من « الموسوعة » بالفرنسية فى لوكا ولجهورن وبادوا . ووصلت حركة التنوير إلى إيطاليا بدرجة متواضعة وفى صورة ميسرة لمن يقرءون الفرنسية . ولكن الإيطالى أعرض عن الفلسفة ، وأعرض عنها عمدا ، وعن قناعة فى الأكثر الأعم . فلقد كان هواه ومهارته فى إبداع أو تذوق الفن والشعر أو الموسيقى ، وبدا له الجمال المحسوس أو المرئى أو المسموع أفضل من حقيقة رواغة لا يضمن اطلاقا إشاعتها البهجة فى نفسه . ومن ثم فقد ترك الدنيا تناقش وتجادل بينما انصرف هو إلى شدوه وغنائه .

٢ — الموسيقى

اعترفت أوروبا للموسيقى الإيطالية بمكان الصدارة وقبلت آلاتها وأشكالها ، ورحبت بمزاياها ، وتوجت كبار مغنيها الخصان واستسلمت لأوبراها الشجية قبل جلوك وعلى الرغم منه وبعده . وأم جلوك وهاسى وموتسارت ومئات غيرهم إيطاليا ليدرسوا موسيقاها ، وليقفوا على أسرار « الغناء الجميل bel canto » (الملعلع) من بوربورا أو يتسلموا مدالية بادرى مارتينى .

يقول بيرنى فى معرض حديثه عن البندقية ، « إذا سار إثنان معاً يتأبط أحدهما ذراع الآخر ، بدا كأنهما لا يتحدثان الا غناء . فكل الأغانى هناك ثنائيات » .[٩] وكتب إنجليزى آخر « فى ميدان القديس مرقص يرفع رجل من عامة الشعب — حذاء أو حداداً مثلا — عقيرته بأغنية ، وللتو ينضم إليه أشخاص على شاكلته ويشدون بهذه الأغنية فى عدة أصوات ، بضبط وذوق ندر أن يصادفهما المرء فى أرقى المجتمعات فى بلادنا الشمالية [١٠] .

وكان العاشق الواقف تحت نافذة حبيبته يداعب أوتار قيثارة أو مندولين كما يداعب قلب عذرائه . وحمل مغنو الشارع أنغامهم إلى المقاهى والحانات ، وفى الجندول كانت الموسيقى تعانق هواء المساء ، والصالونات والأكاديميات

والمسارح تحيي الحفلات الموسيقية ، والكنائس ترجها أصوات الأراغن وفرق المرتلين ، وفى الأوبرا كان الرجال ينتشون طربا والنساء يغبن عن الوعى عند سماع لحن من المغنية الأولى أو الخصي المغني . وفى حفلة سمفونية أحييت فى روما فى مكان لا تغطيه غير نجوم السماء (١٧٥٨) سمع موريلليه عبارات عاطفية مثل (إيه أيها المبارك ! يا للذة الكبرى ! أكاد أموت طربا ! .[١١] ولم يكن من غير المألوف فى دار الأوبرا أن نسمع النشيج يتردد بين جمهور النظارة .

وأحب القوم الآلهم الموسيقية حبا فوق وفاءهم للجنس الآخر ، وسخوا بالمال ليجعلوا منها تحفا صنعت بدقة من الخشب الثمين وطعمت بالعاج أو المينا أو رصعت بالأحجار الكريمة ، وربما زين الهارب أو القيثارة بالماس .[١٢] وكان سترايفارى قد ترك فى كريمونا تلاميذ له مثل جوزيبى انطونيو جوارنيرى ودومنيكو مونتانيانا واصلوا العلم بسر صنع الفيولينات والفيولات والفيولنشلات النابضة بالحياة . وظل الهاربسكورد (الذى كان الإيطاليون يسمونه كلافيتشمبالو) إلى نهاية القرن الثامن عشر آلة المفاتيح المفضلة فى إيطاليا رغم أن بارتولوميو كريستوفورى كان قد اخترع البيانو — فورتى بفلورنسه حوالى ١٧٠٩ . وحظى كبار عازفى الهاربسكورد مثل دومنيكو سكارلاتى ، أو الفيولينه مثل تارتينى وجمنيانى ، فى هذا الجيل بشهرة دولية . فكان فرانشسكو جمنيانى بمثابة « لست » الفيولينة ، أو كما لقبه منافسه تارتينى « مجنون » القوس (إلفوريبوندو) . وحين وفد على انجلترة فى ١٧١٤ حظى بشعبية فى الجزر البريطانية أغرته بالإقامة هناك معظم سنيه الثمانى عشرة الأخيرة .

وقد شجع ظهور أمثال هؤلاء العازفين المهرة على إنتاج الموسيقى الآلية ، وكان هذا هو العصر الذهبي للمؤلفات الموسيقية الإيطالية للفيولينة . فاتخذت شكلها الآن — خصوصا فى إيطاليا — الإفتتاحية ، والمتتالية ، والصوناتا ، والكونشرتو ، والسمفونية ، وكلها ركز على اللحن والإيقاع ، لا على الكونترابنط البوليفونى الذى كان آنئذ بالغاً أوجه ثم ختمنا حياته مع يوهان سبستيان باخ . وكما أن المتتالية انبثقت من موسيقى الرقص فكذلك إنبثقت الصوناتا من

المتتالية . لقد كانت شيئاً يعزف ، كما كانت الكنتاتا شيئاً ينشد . وأصبحت الصوناتا فى القرن الثامن عشر مسلسلة من ثلاث حركات — سريعة (الليجرو أو بريستو) ، وبطيئة (أندانتى أو أداجو) وسريعة (بريستو أو الليجرو) ويدس فيها أحيانا سكيرتسو (دعابة) تذكر السامع برقصة الجيجة المرحة ، أو منويتة رشيقة تذكره بموسيقى الرقص . وما وافى عام ١٧٥٠ حتى كانت الصوناتا ، على الأقل فى حركتها الأولى ، قد طورت « شكل الصوناتا » — وهو عرض موضوعات متعارضة واطالتها بالتنويع ، ثم تلخيصها عند الختام . وبعد تجارب ج . ب . سامارتينى وريناالدودى كابوا فى إيطاليا ، ويوهان شتامتس فى ألمانيا ، تطورت السموفونية بتطبيق شكل الصوناتا على ما كان فى الماضى إفتتاحية أوبرالية أو مصاحبة سردية . وبهذه الوسائل هيأ الملحن اللذة للعقل والحواس معا ، وأعطى الموسيقى الآلية ميزة فنية جديدة هى البنيان المحدد الذى يقيد ويربط اللحن بنظام ووحدة منطقيين . ذلك أنه إذا انعدم البناء فى فن ما — أى العلاقة العضوية بين الأجزاء والكل ، أو العلاقة بين البداية والوسط والنهاية — كان ذلك معناه انحطاط هذا الفن .

أما الكونشرتو (من اللفظ اللاتينى concertare ومعناه يتبارى) فقد طبق على الموسيقى مبدأ الصراع الذى هو روح الدراما . فعارض الأوركسترا بعازف منفرد ، وأدخل الاثنين فى مناظرة هارمونية . وكان شكله المفضل فى إيطاليا الكونشرتو جروسو (الكبير) ، حيث التعارض بين أوركسترا صغير من الوتريات ، و « كونشرتينو » (كونشرتو صغير) من عازفين أو ثلاثة . وكان لفيفالدى فى إيطاليا وهيندل فى انجلترا ، وباخ فى ألمانيا ، الفضل فى صقل شكل الكونشرتو جروسو صقلا مطردا ، وتحدت موسيقى الآلات تفوق الأغنية .

ومع ذلك ، ظل الصوت — خصوصا فى إيطاليا — هو الآلة المحببة التى لا ضريب لها . ففى إيطاليا أتيحت له ميزة لغة عذبة رخيمة ، تغلب فيها الصوت اللين على الساكن ، وتقليد طويل من الموسيقى الكنسية ، وفن بالغ الرقى من فنون التدريب الصوتى . هنا ظهر كبار مغنيات الأوبرا (البريمادونات) .

الفاتنات اللائى يرتقين كل عام سلم الثراء والبدانة ، والمغنون الطواشية ذوو الأجسام الريانة الذين كانوا يخرجون من إيطاليا ليأسروا الملوك والملكات .
هؤلاء المغنون السوبرانو أنك الكونترالتو الذكور جمعوا بين رئات الرجال وحناجرهم » وبين أصوات النساء أو الغلمان . وكانوا بعد أن يطوشوا فى سن السابعة أو الثامنة ، ويخضعوا لنظام طويل دقيق من التدريب على التنفس والنطق » يتعلمون ترعيشات الصوت وتحلياته وتهدجاته » وتعاقب النغمات السريع ووقفات التقاط النفس — إلى آخر هذه الفنون التى جعلت جماهير السامعين الإيطالية تهذى طربا تعبر عنه أحيانا بهتاف هو « ليحى السكين الصغير »[١٣] . ذلك أن معارضة الكنيسة (لاسيا فى روما) فى استخدام النساء على خشبة المسرح » وسوء تدريب المغنيات فى القرن السابع عشر ، كانا قد خلقا طلبا لباه هذا السكين الصغير الذى كان يقطع القنوات المنوية للذكر .
وبلغ من عظم مكانة المغنيين المطوشين إذا حالفهم الحظ أن بعض الآباء كانوا — بعد أن يغروا الصبى الضحية بالرضى بمصيره هذا — يسلمونه لهذه العملية بمجرد أن تبدو منه أول بادرة صوت رخيم . ولكن كثيرا ما كانت الآمال تخيب » فكنت تجد فى كل مدينة بايطاليا كما ذكر بيرنى نفرا من هؤلاء الفاشلين « ولا صوت لهم على الاطلاق »[١٤] وبعد عام ١٧٥٠ اضمحلت بدعة الخصيان هذه » لأن مغنيات الأوبرا تعلمن أن يتفوقن عليهم فى نقاء النغمة وينافسنهم فى قوة الصوت .

أما أشهر الأسماء فى موسيقى القرن الثامن عشر فلم يكن باخ ولا هيندل ولا موتسارت ، بل فارينللى — وهذا ليس اسمه الأصلى . والظاهر أن كارلو بروسكى اتخذ اسم خاله الذى كان آنئذ معروفا فى دوائر الموسيقى . وإذ كان كارلو قد ولد فى نابلى (١٧٠٥) لأبوين عريقى الأصل ، فما كان لمثله عادة أن يدخل صفوف المطوشين » وروى أن حادثا أصابه وهو راكب جواده اقتضى إجراء العملية التى أثمرت أبدع صوت فى التاريخ . ثم درس الغناء فى على بوربورا ، وصحبه إلى روما ، وظهر هناك فى أوبرا بوربورا المسماة « إيومينى » .
وفى أحد الألحان نافس عازفا على الناى فى إطالة نغمة وتضخيمها وغطى عليه

فى طول النفس ، فأتته الدعوات من أكثر من عشر عواصم . وفى ١٧٢٧ فى براونيا لقى أول هزيمة له ؛ ذلك أنه قاسم أنطونيو برناكى الحنا ، فاعترف له بأنه (ملك المغنين) ، وتوسل إليه أن يكون معلمه . ووافق برناكى ؛ وسرعان ما بز التلميذ معلمه . وراح فارينللى الآن يحرز نصرا بعد نصر فى البلد تلو البلد — البندقية وفينا وروما ونابلى وفيرارا ولوكا وتورين ولندن وباريس . وكان تفننه الصوتى عجيبة العصر . وكان فن التنفس من أسرار براعته ، فقد عرف أكثر من أى مغن آخر كيف يتنفس بعمق وسرعة وهدوء ، وكان فى استطاعته أن يستمر فى غناء بنغمة ما بعد أن تتوقف جميع الآلات الموسيقية . وفى لحن son qual nave (على أى مركب) بدأ النغمة الأولى مخافتاً لا يكاد يسمع ، ومطها تدريجا إلى ملء حجمها ، ثم هبط بها شيئا فشيئا إلى خفوتها الأول . وكان جمهور السامعين أحيانا ، حتى فى انجلترة — ذلك البلد الرصين — يصفق لهذه العجيبة السعيدة تصفيقاً يمتد خمس دقائق .[١٥] وقد اكتسب قلوب سامعيه كذلك بحنانه وكياسته ورقته ، وكانت هذه الخلال فى فطرته كما كانت فى صوته . وفى ١٧٣٧ قام بزيارة لأسبانيا خالها قصيرة ، ولكن المكث طال به فى مدريد أو قربها ربع قرن .. وسوف نفتش عليه هناك فى فصل لاحق .

وبفضل المغنين الطواشية أمثال فارينللى وسينيزينو ، وكواكب الغناء من النساء أمثال فاوستينا بوردونى وفرنشسكا كوتسونى ، أصبحت الأوبرا صوت إيطاليا ، وبهذه المثابة استمع إليها الناس بابتهاج فى كل بلد أوربى إلا فرنسا حيث اشتعلت نار الحرب . وكلمة « أوبرا » كانت فى الأصل جمع « opus » ومعناها « أعمال » ولكن الجمع أصبح فى إيطاليا مفردا ، واحتفظ بمعناه « العمل » . وما نسميه الآن أوبرا كان يسمى opera per musica — عملا موسيقيا . ولم تتخذ الكلمة معناها الحالى إلا فى القرن الثامن عشر . وإذ كانت متأثرة بتقاليد الدراما اليونانية ، فقد صممت أصلا على أنها تمثيلية تصاحبها الموسيقى ، ثم ما لبثت الموسيقى أن طغت على التمثيلية فى إيطاليا ، وطغت الأغانى (الآريا) على الموسيقى . وصممت أوبرات تتيح عروضا منفردة لكل

مغنية أولى وكل مغن أول فى الفرقة . وكان السامعون يتجاذبون الحديث فيما بين هذه القمم المثيرة ، وبين الفصول يلعبون الورق أو الشطرنج ، ويقامرون ، ويأكلون الحلوى أو الفاكهة أو العشاء الساخن ، ويتزاورون ويغازلون من مقصورة إلى مقصورة . فى مثل هذه المهرجانات كان النص عادة يغرق فى طوفان معترض فى الأغانى والثنائيات والكوارس والباليهات . وقد ندد المؤرخ لودفيكو موراتورى بطمس الشعر على هذا النحو (١٧٠١) [١٦] ووافقه كاتب النصوص أبوستولوتسينو ، وانتقد المؤلف الموسيقى بنديتو مارتشيللى هذا الاتجاه فى « تياترو على الموضة » (١٧٢١) . وأوقف متاستازيو حينا هذا السيل الجارف ، ولكن فى النمسا لا فى إيطاليا . وناضل جوميللى وترايتا ضده ، ولكن مواطنيهما أنكروا عليهما هذا النضال ، ذلك أن الإيطاليين آثروا فى فى غير مواربة الموسيقى على الشعر ، واتخذوا الدراما مجرد تكئة للأغنية .

وأغلب الظن أنه ما من شكل فنى آخر وعاه التاريخ حظى بالشعبية التى حظيت بها الأوبرا فى إيطاليا ، وما من حماسة ضارعت حماسة جمهور إيطالى يرحب بلحن أو قفلة لنغمة يشدو بها مغن مشهور . ولو سعل أحد المستمعين فى حفلة كهذه لعد ذلك منه جريمة إجتماعية كبرى . وكان التصفيق يبدأ قبل أن تختم الأغنية المألوفة ، وتدعمه العصى تدق على الأرض أو على ظهور المقاعد ، وكان بعض المتحمسين يقذفون بأحذيتهم فى الهواء [١٧] . وكان لكل مدينة إيطالية تزهو بنفسها قليلا أو كثيرا (وأيها كانت مبرأة من الزهو ؟) دار للأوبرا ، وبلغ عدد هذه الدور فى الولايات البابوية وحدها أربعين . وبينما كانت الأوبرا فى ألمانيا حفلة رسمية تؤدى فى البلاط ويحرمها جمهور الشعب ، وبينما حد من مستمعيها فى انجلترة ارتفاع أسعار الدخول ، نجدها فى إيطاليا مفتوحة لكل شخص لائق الهندام نظير رسم متواضع ، وأحيانا دون رسم على الإطلاق . ولما كان الإيطاليون قوما يحبون الاستمتاع بالحياة فقد أصروا على أن يكون لأوبراتهم خاتمة سعيدة مهما كان فى هذه الأوبرات من فواجع . ثم أنهم أحبوا الفاكهة كما أحبوا رقة العاطفة . فما بينهم تقليد يقضى بلبس فاصل هزلى بين فصول الأوبرا . ثم تطورت هذه الفواصل إلى

نوع قائم بذاته حتى لقد نافست (الأوبرا الجادة) فى شعبيها ، وأحيانا فى طولها . والذى فتن باريس فى ١٧٥٢ كان « أوبرا هازلة — opera [illegible] » هى الخادمة تنقلب ربة البيت la serva padrann لبرجوليزى ، التى أشاد بها روسو دليلا على تفوق الموسيقى الإيطاليا على الفرنسية .

أياً كانت الأوبرا الإيطالية ، هازلة أو جادة ، فإنها كانت قوة فى التاريخ . وكما غزت روما مرة غربى أوروبا بجيوشها ، وكما غزتها كنيسة روما مرة ثانية بعقيدتها ، كذلك غزتها إيطاليا مرة ثالثة بالأوبرا . فأزاحت أوابراتها الإنتاج الوطنى فى ألمانيا والدنمرك وانجلترة والبرتغال وأسبانيا بل وروسيا ، وكان مغنوها معبودى كل عاصمة أوربية تقريبا . واتخذ المغنون الوطنيون أسماء إيطالية لكى يحظوا بالقبول فى وطنهم . وسيمضى هذا الغزو الساحر ما بقى للحروف اللينة التفوق فى الغناء على الحروف الساكنة .

٣ — الدين

كانت الطبقة المسيطرة فى إيطاليا هى طبقة الأكليروس بعد البريمادونات والمغنين الخصيان . وراح رجال الدين يمشون أو يركبون فى غفاراتهم المتميزه وقبعاتهم العريضة الحواف فى حرية تخالطها الكبرياء عبر المجتمع الإيطالى عالمين أنهم يوزعون أغلى نعمة عرفتها البشريه — هى نعمة الرجاء . وبينما كانت نسبة رجال الكنيسة إلى الشعب فى فرنسا فى هذا القرن على التقريب واحدا إلى مائتى نفس ، كانت النسبة فى روما واحداً لكل خمس عشرة ، وفى بولونيا واحداً لكل سبع عشرة ، وفى نابلى وتورين واحداً لكل ثمان وعشرين[١٨] . وقد شكا رجل معاصر من أهل نابلى من هذا الوضع ، وهو باعترافه رجل متمسك بالتقاليد :

« لقد إستفحل عدد الأكليروس بحيث أصبح لزاما على الأمراء أن يتخذوا الإجراءات للحد من عددهم وإلا ابتلعوا الدولة بأسرها . فأى

ضرورة لأن يهيمن على أصغر القرى الإيطاليه خمسون قسيسا أو ستون؟... أن العدد الضخم من أبراج الأجراس والأديره يحجب نور الشمس . وهناك مدن يبلغ فيها العدد خمسة وعشرين ديرا لرهبان أو راهبات الدومنكان وسبعة جوامع لليسوعيين ، ومثلها للتياتين ، ونحو عشرين أو ثلاثين ديراً للأخوة الفرنسسكان ، وما لا يقل عن خمسين آخر من طوائف دينية مختلفة من الجنسين ، هذا فضلا عن أربعمائه أو خمسمائة كنيسة ومصلى[١٩] » .

ولعل هذه الأرقام بالغ فيها الكاتب دعما لحجته . ونحن نسمع عن أربعمائة كنيسة فى نابلى ، و ٢٦٠ فى ميلان ، و ١١٠ فى تورين ، على أن هذه دخلت ضمنها المصليات الصغيرة . وكان الرهبان فقراء نسبيا ، أما الأكليروس من غير الرهبان فكانوا فى جملتهم يملـــكون ثروة تفوق ثروة النبلاء . وكان الأكليروس فى مملكة نابلى يحصلون على ثلث الموارد . وفى دوقية بارما كان نصف الأرض يملكه الأكليروس ، وفى تسكانيا ثلاثة أرباع الأرض تقريباً . وفى البندقية أضافت الوصايا الجديدة فى السنوات الأحدى عشرة من ١٧٥٥ إلى ١٧٦٥ إلى الكنيسه من الأملاك ما قيمته ٣,٣٠٠,٠٠٠ دوقاتية[٢٠] . وكان بعض الكرادلة والأساقفة من أغنى الرجال فى إيطاليا ، ولكن هؤلاء الكرادلة والأساقفه كانـــوا أولا مديرين وحكاما ، ولم يكونوا قديسين إلا أحيانا . من ذلك أن عدة رجال منهم فى النصف الثانى من القرن نزلوا عن ثروتهم وترفهم وعاشو حياة الفقر الاختيارى .

أما الشعب الإيطالى فـــلم يبد منه أى احتجاج ذى بال على ثراء الأكليروس ، اللهم إلا قلة من المعلقين والمجانين . لقد كان الشعب فخورا ببهاء كنائسه وأديرته وأحباره وبدت لهم مساهماتهم ثمنا زهيدا يدفعونه لقاء النظام الذى وفره الدين للاسرة والدولة . وكان فى كل بيت صورة أو تمثال للمسيح المصلوب ، وآخر للعذراء ، وأمامهما تركع الأسرة كلها فى صلاة كل مسلمـــ الأبوان والأبناء والخدم . فأى شىء يستطيع الحلول محل التأثير الأخلاقى لتلك الصلوات الموحدة بين القلوب ؟ وكان الأمتناع

عن أكل اللحم أيام الجمع ، وأيام الأربعاء والجمع فى الصوم الكبير ، ضبطا نافعا للشهوة — كما كان نعمة على الصحة وعلى صيادى السمك . أما القساوسة ، الواعون لمفاتن النساء ، فلم يغالوا فى إدانة خطايا الجسد ، وأغضوا عن مظاهر التحلل فى الكرنفالات . لا بل أن البغايا كن فى السبوت يوقدن شمعه أيام العذراء ، ويودعن نقودا لترتيل قداس . وقد أدهش دبروس وهو يشاهد تمثيلية فى فيرونا أن يرى التمثيل يتوقف حين دقت أجراس الكنائس معلنة موعد الصلاة (الأنجيلوس) ، وركع كل الممثلين وصلوا ، وقامت ممثله كانت تتصنع الأغماء فى المسرحيه لتشارك فى الصلاة ثم عادت إلى أغمائها(٢١) . حقاً ندر أن أحب الناس دينا من الأديان حباً جما كما أحب الإيطاليون الكثلكة فى إيطاليا . على أنه كان للصورة وجه آخر — هو الرقابة على المطبوعات وديوان التفتيش . وقد طالبت الكنيسة كل إيطالى أو إيطاليه أن يؤدى مرة فى السنة على الأقل ، واجب عيد القيامة ، — أى يذهب للاعتراف على الكاهن فى سبت النور ، ويتناول القربان فى صباح القيامة . فإذا قصر فى هـــذا الواجب — فى كل أرجاء إيطاليا باستثناء أكبر المدن — استوجب التوبيخ من الكاهن ، فإذا لم يجد مع العاصى التوبيخ والنصح سراً عوقب بنشر إسمه على أبواب كنيسة الأبرشيه ، فإذا تمادى فى الرفض كان جزاؤه الحرم ، بل السجن فى بعض المدن(٢٢) . على أن ديوان التفتيش كان قد فقد الكثير من قسوته وشرته . وكان فى الأمكان تفادى الرقابة الكنسيه فى المراكز الكبرى ، فخففت الرقابة على المطبوعات ، وكان هناك إنتشار صامت للشك والهرطقه فى أوساط المثقفين لا بل بين رجال الأكليروس أنفسهم — لأن بعضهم كانوا جانسنيين فى دخيلة أنفسهم برغم أوامر البابا .

وإذا كان الكثير من القساوسة والرهبان قد عاشوا حياة الراحة والدعة ، ولم يكونوا غرباء على الأثم ، فقد كان هناك أيضاً الكثيرون ممن وفـــوا بنذورهم ، واحتفظوا بالإيمان حياً بالأخلاص لواجباتهم . وقامت المؤسسات الدينية الجديدة شاهدا على بقاء نبض الحياة فى الرهبنة . من ذلك أن القديس

الفونسودى لجيورى المحامى العريق الأصل أسس فى ١٧٣٢ جماعة « إتباع الفادى » (أى المسيح) ، كذلك أسس القديس بولس الصليبى (باولودانيى)، الذى مارس أقسى ضروب النسك ، فى ١٧٣٧ « طائفة المتألمين » . أى. إتباع صليب المسيح المقدس وآلامه .

وكانت جماعة اليسوعيين فى ١٧٣٠ تضم نحو ٢٣,٠٠٠ عضو . منهم ٣,٦٢٢ فى إيطاليا ، ونصفهم قساوسة[٢٣] . ولم يكن هناك تناسب قط بين سلطانهم وعددهم . فكثيراً ما أثروا فى السياسة الداخليه والدولة بحكم كونهم آباء الاعتراف للملوك والملكات والأسر المرموقة ، وكانوا أحياناً أكثر القوى إلحاحاً — بعد جماهير الشعب — فى اضطهاد الهرطقة . رمـــع ذلك كانوا أكثر اللاهوتيين الكاثوليك تحرراً ، وقد رأينا فى غير هذا الموضع كم حاولوا فى صبر ان يتوافقوا مع حركة التنوير الفرنسية . وقد تميزت بعثاتهم الخارجيه بمثـــل هذه المرونة . فى الصين حولوا مئات الألوف إلى الكاثولكية[٢٤] . ولكن تنازلاتهم الذكية لعبادة الأسلاف » وللكنفوشيه ، وللطاوية » صدمت مبعوثى الطوائف الدينية الأخرى فاقنعوا البابا بندكت الرابع عشر بأن يكبح جماح اليسوعيين ويوبخهم فى مرسوم Ex quo singulari (١٧٤٣) . على أنهم ظلوا برغم ذلك أقدر وأعلم المدافعين على العقيدة الكاثوليكية ضد البروتستنتية والألحاد ، واخلص المؤيدين للبابوات ضد الملوك . وقد وجـــد الملوك فى جماعة اليسوعيين أثناء صراعات السيادة والسلطة بين الدول القومية والكنيسة التى تعلو على القوميات عدوا هو أشد أعدائهم دهاء والحاحاً . ومن ثم فقد صحت نيتهم على القضاء عليها . ولكن الفصل الأول فى هذه الدرامة مكانه البرتغال .

٤ — من تورين إلى فلورنسه

إذا دخلنا إيطاليا من فرنسا بطريق مون — سنى ، هبطنا جبال الألب إلى بيدمونت التى تسمى » سفح الجبل » ثم مررنا بكروم وحقول للحبوب وبساتين لأشجار الزيتون أو الكستناء حتى نبلغ توبرين ، القصبه القديمة لبيت سافوى والتى يرجع عمرها إلى ألفى سنة . وهذا البيت من أقدم الأسر

الملكية الموجودة ، وقد أسسه فى ١٠٠٣ أومبرتو بيانكامانو — هومبرت ذو اليد البيضاء . وكان رأس الأسرة فى الحقبة التى نحن بصددها من أكفأ حكام العصر . فقد ورث فكتور أماديوس الثانى عرش دوقية سافوى فى التاسعة من عمره (١٦٧٥) وأضطلع بشئون الحكم فى الثامنة عشرة وقاتل من أجل الفرنسيين آنا وضدهم آنا فى حروب لويس الرابع عشر ، وشارك أوجين السافواوى فى طرد الفرنسيين من تورين وإيطاليا ، وخرج من معاهدة أوترخت (١٧١٣) وقد أضاف صقلية إلى تاجه . وفى ١٧١٨ استبدل سردنيا بصقلية ، واتخذ لقب ملك ساردنيا (١٧٢٠) ولكنه احتفظ بتورين عاصمة له . وحكم مملكته بكفاية تشوبها الخشونة ، وأصلح التعليم العام وزاد فى رفاهية الشعب ، وبعد أن حكم خمسة وخمسين عاماً تخلى عن العرش لابنه شارل إمانويل الأول (حكم ١٧٣٠ — ٧٣) .

كانت تورين خلال هذين الحكمين اللذين إمتدا قرابة قرن كامل مركزا قياديا للحضارة الإيطاليا . وقد وصفها مونتسكيو الذى شاهدها فى ١٧٢٨ بأنها « أجمل مدينة فى العالم[٢٥] » مع أنه أحب باريس . وإمتدح تشسترفيلد عام ١٧٤٩ بلاط سافوى لأنه خير بلاط فى أوربا يربى « أناسا مهذبين لطفاء[٢٦] » . وبعض الفضل فى بهاء تورين راجع إلى فليبو يوفارا ، المعمارى الذى كان لا يزال يتنفس وحى النهضة الاوربية . فعلى تل سوبرجا الشامخ الذى يعلو ٢,٣٠٠ قدم فوق المدينة بنى (١٧١٧ — ٣١) لفكتور أماديوس الثانى فى ذكرى تحرير تورين من احتلال الفرنسيين باسيليقا جميلة بطراز الأروقة والقباب الكلاسيكى إستخدمت مقبرة لأسرة سافوى الملكية قرنا من الزمان . ثم أضاف إلى قصر مادامًا العتيق (١٧١٨) سلما فخما وواجهة ضخمة ، وفى ١٧٢٩ صمم قلعة ستوبينجى الهائلة (التى أكملها بنديتو ألفييرى) والتى أبرزبهوها الرئيسى كل فخامة الباروك الحالية . وظلت تورين عاصمة لأذواق سافوى حتى أنتقلوا بعد نصرهم النهائى (١٨٦٠ وما بعدها) إلى روما ليتربعوا على عرش إيطاليا الموحدة .

أما ميلان التى طالما خنقتها السيطرة الاسبانية فقد بعثت من جديد تحت

الحكم المتساوى الأكثر رفقا . ففى ١٧٠٣ أنشأ فرانتزتيفن ، وفى ١٧٤٦ و ١٧٥٥ أستكمل فيليتشى ووروكليريتشى بمعونه الحكومة ، مصانع للنسيج وسعت من إحلال الإنتاج الواسع النطاق الذى يموله ويديره رأس المـال محل الحرف والنقابات الحرفية . أما التاريخ الثقافى لميلان فقد لمع فيه الآن أسم جوفانى باتيستا سامارتينى ، الذى نستطيع إلى الأن الاستماع إليه أحيانا على أمواج الأثير المتدفقة . ويلاحظ أنه فى سمفونياته وصوناتاته إستبدل بوقار موسيقى كبار الموسيقين الإلمان الكونترابنطى تفاعلا ديناميكيا بين الموضوعات والحالات النفسية المتعارضه . وحين وفد الفتى جلوك على ميلان (١٧٣٧) ليشغل وظيفة موسيقى الحجرة للأمير فرانتشسكوملتسى ، أصبح تلميذ سامارتينى وصديقه واتخذ طريقه فى بناء هيكل الأوبرا . وفى ١٧٧٠ صاح المؤلف الموسيقى البوهيمى يوزف مزلفتشك ، وهو يصغى مع موتسارت الشاب إلى بعض سمفونيات سمارتينى فى ميلان « لقد وجدت الأب الذى أنجب أسلوب هايدن ! [٢٧] » — وهـو إذن أحد آباء السمفونية الحديثة .

وأما جنوة فقد كابدت خطوبا فى القرن الثامن عشر . كانت تجارتها قد انحطت إثر منافسة المحيطات للبحر المتوسط ، ولكن موقعها الأستراتيجى على ربوة دفاعية تطل على ثغر حسن الاعداد لفت الأنتباه الخطر من الدول المجاورة . ووقعت الحكومة المحصورة بين أعداء من الخارج وشعب غضوب جاهل من الداخل فى أيدى أسر تجارية قديمة تحكم عن طريق مجلس مغلق ودوج مطيع . هذه الأوليجركية العاملة على تخليد نفسها فى كراسى الحـكم أثقلت كاهل الشعب بالضرائب حتى هـوى إلى درك الفقر الكئيب الفاقد الصبر ، وسيطر عليها وابتزها هى الأخرى بنك سان جورجو . فلما حاصرت قوات سافوى والنمسا المتحالفة جنوه فى ١٧٤٦ لم تجرؤ الحكومة على تسليح الشعب ليقاوم خشية أن يقتل الحكام ، وآثرت أن تفتح أبوابها للمحاصرين الذين فرضوا تعويضات وفديات جرت عليها الخراب المالى . أما العامه الذين فضلوا المستغلين من بنى جلدتهم ، فقد ثاروا على الحامية

النمساوية . وقذفوها بوابل من البـلاط والطوب إنتزعوه من الأسطح والشوارع ، وطردوها طردا مخزيا ثم عاود الطغيان القديم سيرته الأولى .

وشيد نبلاء جنوه القصور الجديدة مثل قصر فيرارى . وشاركت ميلان فى رعاية مصور بلغ شهرة من المرتبة الثانية فى عصرنا هذا . فتكاد كل صورة باقية من الصور التى رسمها الساندرو ماناسكو تروعنا باصالة أسلوبها القاتمة . فصورة « بنكينللو يعزف على القيثارة » ـ جسد مستطيل فى بقع مهملة سوداء وبنية ، واللوحة الرشيقة المسماة « فتاة وموسيقى أمام المدفأة[٢٩] » ولوحة « الحلاق[٣٠] » تبدو عليه اللهفة على قطع حلقوم زبونه ، ولوحة « حجرة طعام الرهبان » الضخمة الشاهدة على ازدهار مطبخ الكنيسة ، هذه كلها روائع فنية تذكرنا بالجريكو فى أجسادها النحيلة وحيلها الضوئية ، وترهص بجويا فى فضحها الرهيب لقساوات الحياة . وتنزع إلى الحداثة فى احتقارها الخشن للتفاصيل المتكلفة المتزمته .

وشهدت فورنسة فى هذا العصر نهاية أسرة من أشهر أسر التاريخ . فقد كان حكم كوزيمو الثالث (١٦٧٠ ــ ١٧٢٣) الذى طال أمـده أرشيدوقا لتسكانيا نكبة على شعب مازال فخورا بذكريات عظمة فلورنسة تحت حكم آل مديتشى الأسبقين . وقد سمح كوزيمو هذا الذى تسلط اللاهوت على تفكيره للاكليروس بأن يحكموه ويبتزوا من موارده الهزيله منحا سخية للكنيسة . وكان من أثر الحكم المستبد ، والإدارة العاجزة ، والضرائب الباهظة أن فقدت الحكومة التأييد الشعبى الذى حظيت به الأسرة المالكة طوال مائتين وخمسين عاما .

وآثر فرديناند بن كوزيمو الأكبر الغوانى على رجال حاشيته ، ودمر صحته بالافراط فى الملذات ، ومات أبتر لا عقب له فى ١٧١٣ . وكان لكوزيمو إبن كان يدعى جان (يوحنا) جاستونى أولع بالكتب ، ودرس التاريخ والنبات ، وعاش حياة هادئة . وفى ١٦٩٧ أكرهه أبوه على الزواج من آن أميرة ساكس لاونبرج ، وكانت أرملة فقيرة الثقافة . وذهب جان ليعيش معها فى قرية بوهيمية نائية ، واحتمل الملل عاما ،

ثم تعزى بالخيانات الزوجية فى براغ . فلما ساءت صحة فرديناند ، استدعى كوزيمو جان إلى فلورنسا . ولما مات فرديناند أعلن جان وريثا لتاج الارشيدوقية . ورفضت زوجة جان أن تعيش فى إيطاليا . وخشى كوزيمو أن ينقرض بيت مديتشى ، فامتنع مجلس الشيوخ الفلورنسى بأن يصدر قراراً يقضى عند موت جان جاستونى دون عقب بأن يؤول العرش إلى شقيقة جان المدعوة آنا ماريا لودوفيكا .

وحامت الدول الأوربية فى لهفة حول الأسرة المحتضرة . ففى ١٧١٨ رفضت النمسا وفرنسا وانجلترا وهولنده الإعتراف بترتيب كوزيمو ، وأعلنت أنه يجب عند وفاة جان أن تعطى تسكانيا وبارما لدون كارلوس الابن الأكبر لاليزابث فارنيزى ملكة أسبانيا . واحتج كوزيمو ، وأعاد تنظيم دفاعات الجمهورية وفلورنسة الحربية ولكن متأخراً . وخلف موته لإبنة دولة أنهكها الفقر وعرشاً مزعزع الأركان .

وكان جان جاستونى الآن (١٧٣٢) فى عامة الثانى والخمسين . فجاهد ليصلح مساوىء الإدارة والاقتصاد ، وطرد الجواسيس والمتملقين الأذلاء الذين أثروا فى عهد أبيه وخفض الضرائب وأعاد المنفيين ، وأفرج عن السجناء السياسيين ، وعاون على إحياء الصناعة والتجارة ورد لحياة فلورنسة الاجتماعية الأمان والمرح . وبفضل اثراء كوزيمو الثانى وجان جاستونى لقاعة الأوفيتسى للفنون ، وازدهار الموسيقى تحت قيادة كمان فرانسشكو فيراتشينى ، والمراقص التنكرية ، ومواكب العربات المزخرفة ، ومعارك الحلوى والأزهار الشعبية — بفضل هذا كله أصبحت فلورنسة تنافس البندقية وروما فى جلب الزوار الأجانب ، مثال ذلك أنه اجتمع فيها حوالى عام ١٧٤٠ الليدى مارى ورتلى مونتاجو ، وهوراس ولبول ، وتوماس جراى حول الليدى هنرييتا بومفريت فى قصر ريدولفو . إن فى المجتمع المحتضر شيئاً يجذب اليه الناس جذباً حزيناً .

ولما أضنت جان جاستونى جهوده ، أحال فى ١٧٣١ تبعات الحكم إلى وزارئه وانزلق إلى هوة اللذات الحسية . وجردت أسبانيا جيشاً عدته

ثلاثون الف مقاتل لتضمن الخلافة لدون كارلوس ، وأرسل شارل السادس النمساوى خمسين الف جندى يرافقوا ابنته ماريا تريزا فى طريقها إلى عرش الأرشيدوقية . وأمكن تفادى الحرب باتفاق (١٧٣٦) أبرم بين النمسا وفرنسا وانجلترة وهولنده يقضى بأن يأخذ كارلوس نابلى ، وأن تأخذ ماريا وزوجها فرانسوا اللوزينى — وتسكانيا . وفى ٩ يوليو ١٧٣٧ قضى آخر المديتشيين نحبه وأصبحت تسكانيا تابعة للنمسا وازدهرت فلورنسة من جديد .

■ . ملكة الادرياتيك

بين ميلان والبندقية استرخت بعض المدن الصغرى . فبرجامو اضطرت إلى أن تقنع فى نصف القرن الذى نحن بصدده بمصورين مثل جيسلاندى ، وبمؤلفين موسيقيين مثل لوكاتيللى . وقدمت فيرونا الأوبرات فى مسرحها الرومانى ، وكانت محظوظة برجل مرموق هو المركيز فرانشسكو سكيبيونى دى مافى . وقد قلد فولتير مسرحيته الشعرية (ميروبى) (١٧١٣) وأهداه فى كرم مسرحيته (ميروب) باعتباره « أول كاتب أوتى من الشجاعة والعبقرية ما أعانه على المغامرة بكتابة مأساة تخلوا من الغزل ، مأساة جديرة بأثينا فى عزها ، حيث تكون محبة الأم هى قوام المؤامرة كلها ، وينبعث أرق ضروب التشويق من أطهر الفضائل [٣٢] » . وهناك عمل آخر لمافى أبرز حتى من مسرحية تلك وهو « فيرونا المصورة » (١٧٣١ — ٣٢) وهو كتاب بدأ تحديد خطى علم الآثار . واعتزت مدينته به فأقامت له تمثالا فى حياته . وكانت فتشنتسا بمبانيها التى شيدها بلاديو كعبة يحج اليها المعماريون الذين يحبون الطراز الكلاسيكى . أما بادوا فكان بها جامعة اشتهرت بكليتى الحقوق والطب ولمع فيها جوزيبى تارتينى . الذى اعترف به الجميع (عدا جمنيانى) إماما لعازفى الفيولينه الأوربيين . ومن الذى لم يستمع إلى موسيقى تارتينى « رعشة الشيطان » ؟

هذه المدن كلها كانت جزءاً من جمهورية البندقية ، وكذلك كانت تريفيزو وفريولى ، وفلترى ، وباسانو ، وأوديني ، وبللونو ، وترنتو ، وبولتسانو

فى الشمال ، واستريا فى الشرق ؛ وفى الجنوب امتدت دولة فينيتسيا مخترقة كيودجا وروفيجو إلى نهر بو ، وملكت عبر الأدرياريتيك كتارو وبريفيتسا وأجزاء أخرى مما يقع اليوم فى يوغوسلافيا وألبانيا ، وكانت تملك فى الأدرياتيك جزائر كورفو وكفالونيا وزنطه . وسكن هذا الملك المعقد نحو ثلاثة ملايين من الأنفس كل منها يعد نفسه مركز العالم .

١ — الحياة الفينيتسية

أما مدينة البندقية (فينتسيا) ذاتها عاصمة الجمهورية ، فكانت تضم ١٣٧,٠٠٠ — نسمة . وكانت الآن فى فترة اضمحلال سياسى واقتصادى ، بعد أن استولى الترك على امبراطوريتها الأيجية ، وانتزعت دول الأطلنطى الكثير من تجارتها الخارجية . وكان فشل الحروب الصليبية ، وإعراض الحكومات الأوربية بعد انتصارها فى ليبانتو (١٥٧١) عن تقديم المعونة للبندقية فى الدفاع عن مخافر العالم المسيحى الأمامية فى الشرق ، ولهفة تلك الحكومات على أن تقبل من تركيا امتيازات تجارية ضنت بها على أشجع أعدائها[٣٣] — هذه التطورات كلها كانت قد خلفت البندقية فى حال من الضعف أعجزها عن الاحتفاظ ببهائها أيام النهضة ، ومن ثم قررت أن ترعى بيتها هى — فتمنح ممتلكاتها الإيطالية والادرياتية حكومة صارمة فى القانون ، والرقابة السياسية ، والإشراف الشخصى ، ولـكنها كفء فى الإدارة ، متسامحة فى الدين والأخلاق ، متحررة فى التجارة الداخلية .

وكانت تحكمها أوليجركية شأن غيرها من جمهوريات أوربا فى القرن الثامن عشر . وفى هذا الخليط من حطام السلالات المختلفة — انطونيين وشيلوكيين وعطيليين ، وبين جماهير لم تصب من التعليم حظاً يذكر ، بطيئة التفكير سريعة الحركة ، تؤثر اللذة على السلطة ، كان معـنى الديمقراطية — لو استقرت فيها — هو الفوضى المتوجة . ومن ثم قصر الحق فى عضوية المجلس الأعلى على نحو ستمائة أسرة تضمنها ، الكتاب الذهبى ، ولكن هذه الأرستقراطية الوطنية أضيفت لها إضافات حكيمة من صفوف التجار ورجال المال وإن كانوا من دم غريب . وكان المجلس الأعلى يختار السناتو ، الذى

كان يختار مجلس العشرة القوى النفوذ . وكان جيش من الجواسيس يتنقل فى صمت بين المواطنين ويبلغ القضاه بأى تصرف أو كلام مريب يصدر من أى بندقى - حتى من الدوج نفسه. وكان الأدواج الآن عادة حكاماً صوريين وظيفتهم استقطاب الوطنية وتزيين الدبلوماسية .

وكان الاقتصاد يخوض معركة خاسرة ضد المنافسة الأجنبية ورسوم الاستيراد وقيود النقابات الحرفية . ولم تتوسع صناعة البندقية لتبلغ مرحلة المشروعات الحرة والتجارة الحرة والإدارة الرأسمالية ، بل قنعت بشهرة حرفها . ولم يبق فى صناعة الصوف التى كانت تشغل ألفاً وخمسمائة عامل فى عام ١٧٠٠ غير ستمائة فى نهاية القرن . واضمحلت صناعة الحرير فى الفترة ذاتها فلم يبق فيها غير ألف واحد بعد أن حفلت بأثنى عشر ألفاً[٣٤] . وقاوم صناع زجاج مورانو كل تغيير فى الطرق التى أذاعت فى الماضى شهرتهم فى طول أوربا وعرضها، وتسربت أسرارهم إلى فلورنسة وفرنسا وبوهيميا وانجلترة ، واستجاب منافسوهم لما طرأ من تقدم على الكيمياء ، والتجارب التى أجريت فى الصناعة ، وهكذا ولى زمان الموارنو . وبالمثل استسلمت صناعة الدنتللا لمنافسيها وراء الألب ، فلم يحل عام ١٧٥٠ حتى كان البنادقة أنفسهم يلبسون المخرمات الفرنسية . وازدهرت صناعتان : مصايد الأسماك التى استخدمت ثلاثين ألف رجل ، واستيراد العبيد وبيعهم .

ولم يسمح للدين بالتدخل فى أرباح التجارة أو لذات الحياة . ونظمت الدولة جميع المسائل المتعلقة بممتلكات الكنيسة وبجرائم رجال الدين . وكان اليسوعيون قد أعيدوا فى ١٦٥٧ بعد طردهم فى ١٦٠٦ ، ولكن بشروط حدت من نفوذهم فى التعليم والسياسة. ووجدت تعاليم فولتير وروسو وهلفتيوس وديدرو طريقها إلى صالونات البندقية ولو بطريق الزوار رغم أن الحكومة حظرت استيراد مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين ، وداعبت الارستقراطية فى البندقية كنظيرتها فى فرنسا الأفكار التى استنزفت قوتها[٣٥] . وقبل الناس الدين على أنه عادة لاشعورية تقريباً من عادات الشعائر والإيمان ، ولكنهم كانو يلهون أكثر مما يصلون . وقد وصف مثل بندقى أخلاقيات البنادقة

يكل مافى الأجرام من قصور، « فى الصباح قداس صغير ، وبعد الغذاء لعبة قمار صغيرة ، وفى المساء امرأة صغيرة »[٣٦] . وذهب الشبان إلى الكنيسة لا ليصلوا للعذراء ولكن ليدققوا النظر إلى النساء . وكان النساء برغم الغضبات الكنسية والحكومية يرتدين « الديكولتيه » الذى يكشف عن نحورهن وظهورهن[٣٧] وكانت الحرب المتصلة بين الدين والجنس تهيىء للجنس أسباب النصر .

وأجازت الحكومة البغاء المنظم إجراء واقيا لسلامة الشعب . واشتهرت غوانى البندقية بجمالهن ، ودماثة طباعهن ، وفخامة لباسهن ، وبذخ مساكنهن المشرفة على القناة الكبرى . وكان عـــدد المعروض من هؤلاء الغوانى (cortigiane) كبيرا ، ولكنه رغم ذلك قصر على الوفاء بالطلب . وكان المقتصدون من البنادقة « والأغراب مثل روسو » يتجمعون معا اثنين أو ثلاثة لينفقوا على محظية[٣٨] . ولكن النســاء المتزوجات انغمسن فى العلاقات الغرامية الخطرة رغم هذه التسهيلات ، ولم يكتفين بمرافقيهن من « السادة الخدام » ، واختلف بعضهن إلى الكازينوات التى وفرت فيها كل أسباب اللقاءات الغرامية . ووبخت الحكومة علنا عدة نساء نبيلات لسلوكهن المنحل « وأمرت بعضهن بأن يلزمن بيوتهن » ونفت بعضهن خارج البلاد . ولكن الطبقات الوسطى كانت أكثر تعقلا ، وكان تعاقب النسل يشغل الزوجة ويشبع حاجتها لتلقى الحب وبذله . ولم تغدق الأمهات على أطفالهن فى أى بلد آخر ما أغدقته فى البندقية من عبارات الاعزاز الحارة . ومن عباراتهن المأثورة : (يا سبع القــديس مرقص ! يا بهجتى ! يا زهرة ربيعى !) .

أما الجريمة فكانت فى البندقية أقل منها فى أى بلد آخر فى ايطاليا ، لقد كبح جماح العدوان كثرة ضباط الشرطة والأمن ويقظتهم . ولــكن القوم تقبلوا القمار على أنه عمل من أعمال الإنسان الطبيعية . ونظمت الحكومة يانصيبا فى ١٧١٥ . وافتتح أول ناد للقمار فى ١٦٣٨ « وسرعان ما كثر عدد هذه الأندية العامة والخاصة التى تهرع إليها جميع الطبقات .

وكان فى استطاعة مهرة المقامرين المخادعين من أمثال كازانوفا أن يعيشوا على مكاسبهم من القمار ، فى حين يخسر غيرهم مدخرات عام بأكمله فى ليلة واحدة . وكان المقامرون ينحنون على مائدة القمار فى حب صامت أحر من عشق الناس . أما الحكومة فكانت تتفرج بعين الرضى (حتى ١٧٧٤) ، لأنها فرضت الضرائب على أندية القمار وبلغ ايرادها السنوى منها نحـو ٣٠٠ر٠٠٠ جنيه [٢٩] .

وأقبل العاطلون الأغنياء من شتى الدول لينفقوا مدخراتهم أو سنى شيخوختهم وسط الاسترخاء الخلقى والمرح الطلق فى الميادين والقنوات . وخفت حمى السياسة بعد أن تخلت الجمهورية عن امبراطوريتها . ولم يجر حديث الثورة هنا على أى لسان ، فقد كان لكل طبقة عاداتها وتقاليدها العاملة على الاستقرار ، واستغراقها فى الواجبات التى تقبلتها ، هذا فضلا عن المسرات المتاحة لها . وكان الخدم طيعين أوفياء ، ولكنهم لا يطيقون الأهانة أو الازدراء . وكان ملاحو الجندول فقراء ، ولكنهم ملوك البحيرات ، يقفون على زوارقهم المذهبة فى فخر وثقة بمهارتهم الموروثة عن الأسلاف ، أو يدورون حول المنحنيات وهم يصيحون صيحات قوية غريبة أو يدندنون بأغنية تصاحب تمايل أجسادهم ، وإيقاع مجاديفهم .

واختلطت الجنسيات المختلفة الكثيرة فى الميادين . واحتفظ كل منها بميزة من زى ولغة وتبذل ، وظلت الطبقات العليا ترتدى ما ارتدته فى عز أيام النهضة ، من قمصان من أرق الكتان ، وسراويل من المخمل ، وجوارب حريرية ، وأحذية ذات مشابك ، ولكن البنادقة هم الذين أدخلوا إلى غربي أوربا فى هذا القرن لباسا تركيا هو السراويل الطويلة (البنطلونات) . وكانت الباروكة قد وفدت من فرنسا حوالى ١٦٦٥ . وعنى المتأنقون من الشباب عناية بالغة بلباسهم وشعرهم وروائحهم حتى لقد صعب تمييز جنسهم، أما النساء العصريات فقد رفعن فوق رؤوسهن أبراجا عجيبة من الشعر المستعار أو الطبيعي . وكان الرجال والنساء جميعا يشعرون كأنهم عراة إذا لم يتحلوا بالجواهر والحلى . وكانت المراوح تحفا فنية ، ترسم فى تأنق ،

وكثيرا ما كانت تغشى بالأحجار الكريمة أو تحوى منظارا لعين واحــدة (مونوكل) .

وكان لكل طبقة أنديتها ، ولكل شارع مقهاه ، يقول جولدونى « فى ايطاليا نتناول عشرة أقداح من القهوة كل يوم » [٤٠] وازدهرت كل ضروب الملاهى ، من معارك الجوائز (pugni) إلى المراقص التنكرية . وكلمة « بألوان » (balloon) مشتقة من لعبة كانت تسمى باللونى pallone — فيها تنطط كرة منفوخة براحة اليد . وكانت رياضات المــاء تتكرر بانتظام . فمنذ ١٣١٥ كان يقام سباق regatta فى ٢٥ يناير على القناة الكبرى ، بين زوارق تسير بخمسين مجدافا وتزين كما تزين عرباتنا فى المعارض ، ويبلغ الاحتفال ذروته بلعبة بولو مائية ينقسم فيها مئات البنادقه إلى جماعات متصاحبة متنافسة . وكان الدوج فى عيد الصعود يمخر عباب الماء فى أبهة من « سان ماركو » إلى الليد وعلى متن سفينة الدولة الفاخرة الزينة المسماة « بوتشنتورو » بين مئات من السفن الأخرى لزف البندقية إلى البحر من جديد .

واتخذت العطلات الكثيرة أسماء وذكريات القديسين والمناسبات السنوية التاريخية ، لأن مجلس شيوخ البندقية وجد أن الخبز والسرك بديل مقبول عن الانتخابات . فى مثل هذه المناسبات كانت المواكب البهية تنتقل من كنيسة إلى كنيسة ومن ميدان إلى ميدان ، وكانت الأبسطة الزاهية الألوان ، وأكاليل الزهر والحرائر تتدلى من النوافذ أو الشرفات على الطريق ، وكان هناك موسيقى سهلة ، وأغنية دينية أوغرامية ، ورقص رشيق فى الشوارع . وألف النبلاء الذين يختارون للمناصب المرموقة أن يحتفلوا بانتصاراتهم بالعروض ، والأقواس ، وتذكارات النصر ، والمهرجانات ، وأعمال البر التى تكلفهم أحيانا ثلاثين ألف دوقاتية . وكان كل عرس مهرجاناً ، ومأتم الوجيه من القوم أفخم حدث فى حياته .

ثم كان هناك الكرنفال — ذلك التراث المسيحى من « ساتورناليــا » روما الوثنية . وكانت الكنيسة والدولة تأملان أنهما إذا سمحتا بأجازة

من الأخلاق استطاعتنا التخفيف بقية العام من التوتر القائم بين الجسد والوصية السادسة . وكان الكرنفال فى ايطاليا عادة لايستغرق إلا اسبوعاً واحداً هو الأسبوع السابق للصوم الكبير ، وفى بندقية القرن الثامن عشر امتد من ٢٦ ديسمبر أو ٧ يناير إلى «الثلاثاء السمين Mardi Gras–Martedi Grasso» وربما اتخذ المهرجان اسمه من ذلك اليوم الأخير من الأيام التى يسمح فيها بأكل اللحم Carne Vale أى وداعا للحم » وكان البنادقة فى كل ليله تقريبا من أسابيع الشتاء تلك ، والزوار المتجمعون من طول أوربا وعرضها — يتدفقون على الميادين ، يرتدون ملابس فاقعة الألوان ، ويخفون سنهم ورتبهم وشخصياتهم وراء الأقنعة . وفى ذلك التخفى هزأ الرجال والنساء بالقوانين ، وراجت سوق البغايا ، وتطايرت قطع الحلوى ، وقذف البيض الصناعى هنا وهناك لينتشر ماءه المعطر حين ينكسر . وكانت شخصيات بانتالونى ، وارلكينو ، وكولمبينو ، وغيرها من الشخصيات المحببة من المسرح الكوميدى تتبختر وتثرثر لتسلى الجمع المحتشد ، ورقصت الدمى ، وبهر السائرون على الحبال مئات الأنفاس . وكانت تجلب الحيوانات الغريبة لهذه المناسبة ، كوحيد القرن الذى شوهد لأول مرة بالبندقية فى مهرجانات ١٧٥١ وفى منتصف الليلة السابقة لأربعاء الرماد (Mercoledi della Conoi) تدق أجراس كنيسة القديس مرقص الضخمة مؤذنة بانتهاء الكرنفال ، هنا يعود المعربد المنهك إلى فراشه الحلال ، ويعد نفسه للاستماع إلى القسيس يقول له فى الغد : «Memento, homo, quia pulvis es ■ in pulverem redieris» « تذكر يا ابن آدم أنك تراب وإلى التراب تعود » .

٢ — فيفـالدى

كانت البندقية ونابلى مركزى الموسيقى المتنافسين فى ايطاليا . فاستمعت البندقية فى مسارحها إلى الف ومائتى أوبرا مختلفة فى القرن الثامن عشر . هناك خاضت أشهر كواكب الغناء فى ذلك العصر ، فرانشسكا كرتزونى

وفاوستينا بوردونى ، معاركهما المشجية فى سبيل التفوق ، وكانت كل منهما تهز العالم من خشبة المسرح . فأما كوتزونى فكانت تغنى أمام فارينللى فى مسرح ، وأما بوردونى فأمام برناكى فى مسرح آخر ، وانقسمت البندقية بأسرها بين المعجبين بهؤلاء المغنين . ولو قد غنى أربعتهم معاً لذابت ملكة الأدرياتيكى طرباً فى بحيراتها .

ومقابل قلاع الأوبرا والبهجة هذه قامت الملاجىء الأربعة ospedali التى رعت فيها البندقية بعض فتياتها اليتيمات أو غير الشرعيات . ورغبة فى شغل هؤلاء الأطفال المشردات واضفاء المغزى على حياتهن كن يدربن على الموسيقى الصوتية والآلية ، وعلى الغناء فى فرق الانشاد ، وأحياء الحفلات الموسيقية العامة من خلف حواجز ذات قضبان كحواجز الأديرة . وقد قال روسو انه لم يسمع فى حياته شيئاً أثر فيه كأصواتهن الرقيقة وهن يغنين فى إيقاع مطرب [٤١] ، وذكر جوته أنه لم يسمع قط سوبرانو بهذا الاتقان ، أو موسيقى « لها هذا الجمال الذى لا يوصف [٤٢] » . وكان يعلم فى هذه المعاهد نفر من أعظم الملحنين الايطاليين ويؤلفون لها الموسيقى ، ويقودون حفلاتها ، أمثال مونتيفردى ، وكافاللى ، ولوتى ، وجالوبى ، ويوربورا ، وفيفالدى . . .

واتجهت البندقية إلى مدن إيطاليا ، وأحياناً النمسا وألمانيا ، لتزود مسارحها بالأوبرات وتمد ملاجئها وأوركستراتها وعازفيها المهرة بالموسيقى الصوتية والآلية . وكانت هى ذاتها الأم أو الحاضنة لانطونيو لوتى ، عازف الأرغن ثم رئيس فرقة المرتلين فى كنيسة القديس مرقص ، ومؤلف أوبرات غير ذات بال ، ولكنه أيضاً ملحن قداس ذرفت له عينا بيرنى البروتستنتى ، ولبلدا سارى جالوبى الذى اشتهر بأوبراته الهازلة وبهاء الحانه الأوبرالية ورقتها ، ولألساندرو مارتشيللو الذى تتبوأ كونشرتاته مقاما عالياً فى مؤلفات عصره الموسيقية ، ولأخيه الأصغر بنديتو الذى قيل عن تلحينه لخمسين مزمورا أنه « من أبدع المؤلفات الموسيقية قاطبة [٤٣] » ولانطونيو فيفالدى .

ولقد كان استماع بعضنا لكونشرتو من تأليف فيفالدى أول مرة مفاجأة أشعرتنا بالخزى. فلم جهلناه طوال هذا الزمن؟ هنا انسياب جليل للنغم ، وتموجات ضاحكة من اللحن ، ووحدة فى البناء، وتماسك للأجزاء كان خليقاً بأن يكسب هذا الرجل مدخلا أسبق من هذا إلى علمنا ، ومكاناً أرفع فى تواريخنا الموسيقية (*) .

ولد حوالى ١٦٧٨ لعازف فيولينة فى أوركسترا مصلى الدوجات بكتدرائية القديس مرقص . وعلمه أبوه الفيولينه ؛ وحصل له على وظيفة فى الأوركسترا . وفى الخامسة عشرة كرس تكريساً مبدئياً للدين ، وفى الخامسة والعشرين أصبح قسيساً ولقب « البريتى روسو » لحمرة شعره . ولعل ولعه بالموسيقى تعارض مع واجباته الكهنوتيه . وقال الأعداء إنه « ذات يوم بينما كان فيفالدى يتلو القداس ، خطر له موضوع يصلح لفوجه ، وللتو غادر المذبح . . . وذهب إلى غرفة المقدسات والملابس ليدون الموضوع ، ثم عاد ليكمل القداس[44] » . واتهمه قاصد بابوى بأنه يحتفظ بعدة نساء ، وأخيراً نهاه ديوان التفتيش (كما زعموا) عن تلاوة القداس . وقد روى انطونيو فى سنوات لاحقة قصة تختلف عن هذه تمام الإختلاف . وقال :

« كانت آخر مرة تلوت فيها القداس منذ خمسة وعشرين عاماً ، لا بسبب منعى من تلاوته . . . ولكن بناء على قرار منى اتخذته بسبب علة أرهقتنى منذ ولادتى . فبعد أن رسمت قسيساً كنت أتلو القداس عاماً أو أكثر بقليل ، ثم توقفت عن تلاوته لأن هذا المرض اضطرنى ثلاث مرات إلى مغادرة المذبح دون أن أتمه .

(*) خصصت له طبعة ١٩٢٨ من « قاموس جروف للموسيقى والموسيقيين » عموداً واحداً وخصصت له طبعة ١٩٥٤ اثنى عشر عموداً ، واحكم من هذا على الذيوع الفجائى لشهرة فيفالدى ، فهل الشهرة نزوة من نزوات الصدفة ؟

« ولهذا السبب ذاته أقضى وقتى كله تقريباً فى بيتى ولا أبرحه إلا راكباً زورقاً أو عربة لأننى لم أعد قادراً على المشى بسبب حالة الصدر التى أعانيها » أو على الأصح شعور الضيق والتوتر فى صدرى (strettzza di petto) ربما كانت هى الربو) ولا يدعونى أى نبيل لبيتـــه ، لا ولا حتى أميرنا » لأن الجميع عليمون بمرضى » وقد كانت أسفارى دائماً غالية النفقة جداً لأننى كنت مضطراً دائماً أن أصحب معى أثناءها أربع نساء أو خمساً ليساعدننى . » ثم أضاف أن هؤلاء النسوة كن نقيات السيرة » يسلم الناس فى كل مكان بعفتهن . . وكن يؤدين الصلاة كل يوم من أيام الأسبوع [45]» .

على أنه حتى لوشاء لما إستطاع أن تغلب الخلاعة على خلقة لأن معهد الموسيقى الملحق بالملجأ الدينى احتفظ به طـــوال سبعة وثلاثين عاماً عازفاً للفيولينه ومعلما وملحنا أو رئيسا للكورس . وقد لحن لتلميذاته البنات معظم أعماله غير الأوبرالية . وتكاثرت الطلبات عليه ، ومن ثم كان يكتب فى عجلة ثم يصحح فيما يتاح له من فراغ » وقد اخبر دبروس أن فى استطاعته أن « يلحن الكونشرتو بأسرع مما يستطيع ناسخ أن ينسخه[46] » . وبالمثل كانت أوبراته تلحن على عجل » وقد سجلت احداها على صفحة الغلاف عبارة تشى بالفخر (أو الاعتذار) هى (Fatto in cinque giorni) كتبت فى خمسة أيام . وقد وفـــر الوقت كما وفره هندل بالأستعارة من نفسه ، فاقتبس من موسيقاه القديمة ما يلبى حاجاته الحاضرة .

وفى فترات فراغه من عمله فى الملجأ ألف أربعين أوبرا . وأتفق كثير من معاصريه مع تارتينى على أنها متوسطة الجودة » وقد سخر منها بنديتو مارتشيللو فى (تياترو على الموضة) ولكن جماهير النظارة فى البندقية ، وفتشنتسا ، ومانتوا ، وفلورنسة ، وميلان، وفيينا ، رحبوا به ، وكثيراً ما كان فيفالدى يترك بناته ليسافر مع نسائه مخترقا شمالى إيطاليا » بل حتى إلى فيينا وامستردام ليعزف الفيوليته أو ليقود أحدى أوبراته أو ليشرف على إخراجها ودبكورها . وأوبراته الآن ميتة ، ولكن هذا مصير معظم

ألاوبرات التى ألفتقبل جلوك . فقد تغيرتالأساليب والعادات والإبطال، والأصوات ، والجنسان .

ويعرف التاريخ ٥٥٤ من مؤلفات فيفالدى ، منها ٤٥٤ كونشرتو . وقد قال ناقد ماكر أن فيفالدى لم يكتب سمائة كونشرتو ، بل هــو كونشرتو واحد أعاده سمائه مرة[٤٧] . ويبدو الأمر كذلك أحيانا . ففى هذه القطع قدر كبير من نشر الاوتار ونغمات الأرغن اليدوى المتصلة ، وقياس للوقت أشبه بحركات البندول ، بل أننا نجد حتى فى السلسلة الشهيرة المسماة (الفصول) (١٧٢٥) صحارى من الرتابة ، ولكن فيها أيضاً قمما من الحيوية المشبوبة والعواصف القارسة ، وواحات من الصراع اللراى بين العازفين المنفردين والأوركستراً ؛ وجداول سائغة من الالحان . فى قطع كهذه[٤٨] ، أبلغ فيفالدى الكونشرتو الكبير مكانة ممتازة لاسبق لها ولايبزها إلا باخ وهيندل .

وكان فيفالدى يعانى كمعظم الفنانين من الحساسية التى غذت عبقريته . وقد عكست قوة موسيقاه طبعه النارى ، وعكست رقة نغماته تقواه . فلما تقدم به العمر استغرق فى واجباته الدينية حتى لقد وصفته رواية مبالغة بأنه لا يترك مسبحته إلا ليلحن[٤٩] . وفى ١٧٤٠ فقد وظيفته فى الملجأ الدينى أو استقال منها ، ولأسباب نجهلها الآن نزح من البندقيه إلى فيينــا . ولا نعرف المزيد عنه ؛ اللهم إلا أنه مات هناك بعد سنة ودفن كما يدفن فقراء الناس .

ومرموته دون أن تلحظه الصحف الإيطاليه ، لأن البندقية كانت قد كفت عن الاهتمام بموسيقاه ، ولم يقدره أحد قدرا يقرب من قة لمته لا فى وطنه ولا فى جيله . على أن مؤلفاته لقيت الترحيب فى المانيــاً . فاستورد كوانتسى الذى كان عازفا للفلوت وملحنا لفردريك الأكبر ، كونشرتات فيفالدى ، وقبلها بصراحة نماذج تحتذى . وأشتد أعجاب باخ بها حتى نقل تسعة منها على الأقل للهاربسكورد ، وأربعة للارغن ، وواحدا

لأربعة هاربسكوردات ومجموعة وتريات[٥٠] . وواضح أن باخ أخذ عن فيفالدى وكوريللى البناء الثلاثى لكونشرتاته .

وكاد فيفالدى أن يكون نسياً منسيا طوال القرن التاسع عشر إلا من الدارسين الذين تتبعوا تطور باخ . ثم رده إلى مكان مرموق فى ١٩٠٥ أرنولد شيرنج فى كتابه « تاريخ الكونسيرات الآلالية » ؛ وفى عشرينات القرن العشرين دافع أرتورو توسكانينى عن قضية فيفالدى بكل عواطفه ومكانته . واليوم يحتل « القسيس الأحمر » مؤقتا أرفع مكان بين الملحنين الإيطاليين فى القرن الثامن عشر .

٣ — ذكريات

من صيف الفن البندقى المؤذن بالأفول يبرز نحو أثنى عشر مصوراً ويلتمسون أن نذكرهم . ونكتفى هنا بتحية نقرئها حبامبتستا بيتونى ، الذى لم ترفع البندقية فوقه غير تيبولو وبياتسيتا ؛ وياكوبو آميجونى الذى أورث بوشيه أسلوبه الشهوانى ؛ وجوفانى أنطونيو بللجرينى ، الذى حمل الوانه إلى انجلترة وفرنسا والمانيا ، وهو الذى زين قلعة كمبولتن وقلعة هوارد ، وبنك فرنسا . وألفت للنظر من هؤلاء ماركو رينشى لأنه قتل أحد النقاد ثم انتحر . ففى عام ١٦٩٩ ، حين كان فى الثالثة والعشرين ، طعن ملاح جندول إستخف بصوره طعنات قضت عليه ، ثم فرالى دلماشيا ، وأغرم بمشاهدها الطبيعية ، وبلغ من حذقه فى التقاطها بالوانه أن غفرت له البندقية جريمته وهللت له كأنه تنتوريتو مبعوثاً من جديد . وصحبه عمه سبستيانو ريتشى إلى لندن ، حيث تعاونا على تصوير مقبرة دوق ديفونشير . وكان ككثيرين جداً من فنانى القرنين السابع عشر والثامن عشر يحب أن يرسم الأطلال الحقيقية أو الخيالية ولا ينسى فى ذلك نفسه . وفى ١٧٢٩ ، وبعد عدة محاولات ، أفلح فى الانتحار . وفى ١٧٣٣ بيعت إحدى لوحاته بخمسمائة دولار ، وفى ١٩٦٣ بيعت من جديد بتسعين ألف دولار[٥١] ، وهو مابين مبلغ تقدير قيمة الفن وهبوط قيمة النقود .

وتأمل شخصية روزاليا كاريرا أدعى إلى السرور . فقد بدأت حياتها العملية برسم نماذج للمخرمات الفينيسيه Point de venise ، ثم رسمت علب السعوط (كما فعل رينوار الصغير) ثم المنمنمات ، وأخيراً وجدت فى الوان الباستيل قمة تفوقها . ولم يحل عام ١٧٠٩ حتى كانت قد أكتسبت من الشهرة ما جعل فردريك الرابع ملك الدنمرك يدعوها حين أعتلى العرش ليختارها لترسم له لوحات بالباستيل تمثل أجمل سيدات البندقيه أو أبعدهن صيتا . وفى ١٧٢٠ دعاها إلى باريس بيير كروزا جامع التحف المليونير . وهناك لقيت من الترحيب والحفاوة مالم يلقه فنان أجنبى آخر منذ برتينى . وكتب الشعراء فيها الصونيتات ، وزارها الوصى فليب أورليان ، وصورها فاتو ، وصورته هى ، وجلس إليها لويس الخامس عشر لتصوره ؛ وانتخبت عضوا فى أكاديمية التصوير ؛ وقدمت لوحة الدبلوم «ربة الفنون» المعروضه فى اللوفر . وبدا للناس كأن روح الروكوك قد تجسدت فيها .

وفى ١٧٣٠ ذهبت إلى فيينا ، حيث رسمت صورا بالباستيل لشارل السادس ؛ والإمبراطورة ، والأرشيدوقة ماريا تريزا . فلما عادت إلى البندقيه أستغرقت فى فنها أستغراقاً إنساها أن تتزوج . وفى أكاديمية البندقية ملء حجرة من اللوحات التى رسمتها ، وفى قاعة الفنون بدرسدن ١٥٧ ، معظمها يتميز بالوجوه الوردية ، والخلفيات الزرقاء ، والبراعة المشرقة ، ورقة الوجوه ذات القفازات ؛ بل أنها حين رسمت هوراس ولبول[٥٢] ، جعلته يبدو كأنه فتاة . وكانت ترضى غرور كل من يجلس إليها لتصوره إلا نفسها ، وصورتها الذاتية المعلقة فى قلعة وندزر تظهرها فى سنها الأخيرة وقد أبيض شعرها وشابها شىء من الاكتئاب كأنها تتوقع أن يكف بصرها بعد قليل . وقد اضطرت طوال الأعوام الأثنى عشر الأخيرة من عمرها البالغ أثنين وثمانين عاماً أن تعيش محرومة من النور واللون اللذين كانا لها بمثابة رحيق الحياة . وقد تركت بصمتها على فن جيلها : ولعل لا تور قد أستلهم الحرارة منها ، وتذكر جروز تمثيلها لشباب النساء فى صورة مثالية ، وانحدرت الوانها الوردية — الحياة بلون الورد — إلى بوشيه ورنوار .

أما جوفانى باتستا بياتسيتا فكان فنانا أعظم يسمو فوق العواطف الهشة ويحتقر الزخرف ولا يسعى وراء ارضاء الجمهور بقدر سعيه إلى تدليل صحاب صناعته والتمسك بأرفع تقاليدها . وتبين زملاءه الفنانون هذه النزعة فيه ، ومع أن تيبولو كان له فضل السبق فى تأسيس أكاديمية البندقيـــة للتصوير والنحت (١٧٥٠) ، فإن بياتسيتا هو الذى اختاروه أول رئيس لها . ولوحته المسماة « رفقة عند البئر »[٥٣] جديرة بتتسيانو ، وهى أقل حتى من تتسيانو اكتراثا بمفاهيم الجمال المتعارف عليها . واللوحة تكشف من جسد رفقة قدرا يكفى لاثارة غريزة المتوحش ، ولكن وجهها الهولندى وأنفها الأفطس لم يصورا لينتشى بهما الايطاليون . فالذى يثير عواطفنا هنا هو الرجل « إنه شخصية جديرة بفن النهضة : وجه قوى « ولحية ملمعة وقبعة ذات ريش وومضة إغراء ماكر فى عينيه . واللوحة كلها آية من آيات اللون والنسيج والتصميم ، وقد تميز بياتسيتا بأنه كان أكثر المصورين البنادقة احتراما فى جيله ، وأنه مات أفقرهم جميعاً .

وأشهر منه انطونيو كانالى « الملقب كاناليتو » لأن نصف العالم يعرف البندقية بفضل مناظره vedute . أما انجلتره فعرفته دما ولحما . وقد نهج حينا نهج أبيه الذى امتهن رسم المناظر للمسارح ، ثم درس العمارة فى روما « فلما عاد إلى البندقية طبق الفرجار والزاوية على رسمه ، وجعل العمارة ملمحا من ملامح صوره . وفى هذه الصور عرفنا ملكة الادرياتيك كما كانت تبدو فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . ونلحظ من لوحة باتشينو دى سان ماركو Baccino بحيرة القديس مرقص[٥٤] مبلغ ازدحام البحيرة الكبرى بالمراكب ، ونبصر سباق الزوارق Regatta على القناة الكبرى[٥٥] ونرى أن الحياة كانت زاخرة مشبوبه شأنها من قبل دائماً ، ويبهجنا أن نجد « جسر الريالتو »[٥٦] وميدان القديس مرقص[٥٧] والميدان الصغير[٥٨] وقصر الادواج[٥٩] وكنيسة سانتا ماريا ديللا سالوتا[٦٠] كما نجدها اليوم تقريباً « إذا استثنينا البرج الذى أعيد بناؤه . وصور كهذه هى التى احتاج إليهـــا السياح فى الشمال الملبد بالغيوم ليذكروا فى عرفان شمس البندقية الشديدة

الصفاء وسحرها الفتان . وقد اشتروا هذه الصور ودفعوا أثمانها ثم حملوا هذه التذكارات إلى بلادهم ، وسرعان ما طالبت إنجلترة بكاناليتو نفسه ؛ فذهب إليها فى ١٧٤٦ ورسم مناظر مستفيضة لهوا يتهول[٦١] » و « نهر التيمز من قصر رتشموند » » واللوحة الأخيرة بجمعها المدهش بين الاتساع والتناسب والتفصيل هى تحفة كاناليتو الرائعة . ولم يعد إلى البندقية إلا فى ١٧٥٥ . وظل هناك عاكفا بهمة على عمله حتى عام ١٧٦٦ حين كان قد بلغ التاسعة والستين . وقد كتب بفخر على لوحته داخل كتدرائية القديس مرقص هذه العبارة « رسمت بدون منظار » . [٦٢] وقد أسلم أساويبه فى القياس الدقيق إلى ابن أخيه برناردو بللوتو كاناليتو ، وولعه بالمناظر إلى « تلميذه الطبيب » فرانشسكو جواردى الذى سنلتقى به ثانية .

وكما ابرز كاناليتو المنظر الخارجى للمدينة الفخمة » كشف بييترو لنجى عن الحياة داخل جدرانها باستخدامه أسلوب تصوير مناظر الحياة اليوميـــة فى رسم الطبقة الوسطى . فالسيدة التى تتناول فطورها فى ثوبها الفضفاض الطويل ، والأب الراهب يعلم ابنها » وابنتها الصغيرة تدلل كلبا لعبـــة » والخياط يعرض فستانا » ومعلم الرقص يدرب السيدة على خطوات المنويت » والأطفال وعيونهم تحملق فى معرض للوحوش ، والصبايا يمرحن فى لعبة « الاستغماية » (الغميضة) ، والتجار فى حوانيتهم » والمتنكرون بالأقنعة فى الكرنفال ، والمسارح ، والمقاهى ، « والجمعيات » الأدبية » والشعراء يتلون أشعارهم » ودجاجلة الطب » وقارئات البخت ، وباعة السجق والبرقوق » والتمشى فى الميدان ، وفريق القنص ، وجماعة صيد السمك ، والأسرة فى عطلتها : كل نشاط بورجوازى يستحق الذكر هناك » وفى إفاضة، تفوق حتى ما فى كوميديات جولدونى، صديق لونجى. إنه ليس فنا عظيما ، ولكنه فن يشرح الصدر » ويرينا مجتمعاً أكثر نظاما وتهذيبا ممـــا كنا نتصوره من ارستقراطى أندية القمار أو أعمال شحن السفن وتفريغها الشتامين السبابين .

٤ — تيبولو

أما البندق الذى أوهم أوربا لحظة أن النهضة قد عادت فهو جامباتستا تيبولو . ومن المشاهد المألوفة فى أى يوم من أيام الصيف أن ترى موكبا من الطلاب والسياح يدخلون مسكن أسقف فورتسبورج ليرى بيت السلم والسقف اللذين رسم تيبولو صورهما الجصيه فى ١٧٥٠ —٥٣ ، هذه الصور هى قمة التصوير الإيطالى فى القرن الثامن عشر . أو تأمل لوحة « الثالوث يظهر للقديس كلمنت » فى متحف الفن القومى بلندن ، ولاحظ تكوينها البارع « ورسمها الدقيق » وتناولها الحاذق للضوء « وعمق لونها وتوهجه، أليس هذا قريباً لفن تتسياتو ؟ ربما ، ولولا أن تيبولو قد طوف كثيرا لكان واحداً من عمالقة التصوير .

أو لعل ثراءه هو الذى عوقه . ذلك أنه كان آخر طفل لتاجر بندقى غنى خلف ثروة كبيرة عند وفاته . ومالبث جان « الذى كان وسيما ذكيا مرحاً « أن اكتسب الازدراء الارستقراطى لكل ماهو شعبى »[٦٣] . وفى ١٧١٩ حين بلغ الثالثة والعشرين تزوج تشيشيليا أخت فرانشسكو جواردى ، فولدت له أربع بنات وخمسة أولاد ، أصبح اثنان منهم مصورين وعاشوا جميعاً فى بيت أنيق فى أبرشية سانتا ترينيتا . وكانت موهبته قد تفتحت . فنى ١٧١٦ عرض لوحة « تضحية إسحق »[٦٤] ، وهى لوحة فجة ، ولكنها قوية « ووضح أنه كان فى تلك الحقبة متأثراً بفن بياتسيتا . وقد درس فيرونيزى أيضاً ، واتخذ أسلوب باولى فى الملابس الفخمة والألوان الدافئة والخطوط الشهوانية . وفى ١٧٢٦ دعاه رئيس أساقفة أودينى ليزين كتدرائيته وقصره . واختار تيبولو مواضيعه من قصة إبراهيم ، ولكن التناول لم يكن كتابياً تماماً . فوجه سارة المنبعث من طوق مكشكش من أطواق عصر النهضة « هو غضون وتجاعيد تكشف عن سنين أثريتين ، ولكن الملاك رياضى إيطالى له ساق فاتنة . ويبدو أن تيبولو أحس أن فى استطاعته « فى قرن بدأ يسخر من الملائكة والمعجزات » أن يسمح لمزاجه باللهو بالتقاليد المبجلة ، وقد أتاح له رئيس الأساقفة اللطيف هذا اللهو . ولكن كان على الفنان

أن يكون حذراً ، لأن الكنيسة لم تزل يومها من أهم مصادر تمويل المصورين فى العالم الكاثوليكى .

أما المصدر الآخر فكان العلمانيين أصحاب القصور التى يراد تزيينها بالصور . وقد روى جان فى قصر كازالى — دونيانى بميلان (١٧٣١) قصة سكبيو بالصور الجصية . ولم تكن هذه الصور معبرة عن فن تيبولو النموذجى ، لأنه لم يكن بعد قد شكل أسلوبه المتميز « أسلوب الأشخاص الذين يتحركون فى يسر وانطلاق فى حيز غير محدد ، ولكنها دلت على براعة أثارت ضجة فى شمالى إيطاليا . ولم يحل عام ١٧٤٠ حتى اهتدى إلى موطن النبوغ فى فنه » وأنجز مااعتبره البعض[٦٥] رائعته الكبرى — وهى سقف قصر كليرنتى بميلان وبهو ولائمه . واختار لهذه الرائعة مطايا لخياله « أركان الأرض الأربعة » و « مسيرة الشمس » و « أبوللو والآلهة الوثنية » وأسعده أن يترك عالم الأساطير المسيحية الكابى ويمرح على قمم أولمب حيث يستطيع استخدام الآلهة اليونانية الرومانية شخوصاً فى عالم متحرر من قوانين الحركة واغلال الجاذبية بل من قواعد الرسم الأكاديمية . لقد كان فى صميمه وثنياً كأكثر الفنانين الذين ينوب قاموسهم الأدبى فى حرارة مشاعرهم . ثم أن الجسم الجميل قد يكون نتاج روح قوية العزيمة قادرة على التشكيل ، ومن ثم يكون هو ذاته واقعاً روحياً . وراح تيبولو الآن يطلق من جعبته على مدى ثلاثين عاما أرباباً وربات رافلين فى غلائل من الشاش « عراة فى غير اكتراث ، يسرحون ويمرحون فى الفضاء ، أو يطارد بعضهم بعضا بين الكواكب أو يتطارحون الغرام على وسادة من السحب .

فلما قفل إلى البندقية عاد إلى المسيحية ، وكفرت صوره الدينية عن أساطيره الوثنية . فرسم لمدرسة سان روكو لوحة قماشية سماها «هاجر واسماعيل» يلفت النظر فيها جمال الطفل النائم . وفى كنيسة الجزوانى التى سماها الدومنكان من جديد كنيسة « سانتا ماريا ديل روزاريو » رسم لوحة « تأسيس التسبحة » ورسم لمدرسة الرهبان الكرمليين « عذراء جبل الكرمل » وكادت هذه الصورة تضارع تتسيانو « البشارة » . ورسم لكنيسة القديس الفيزى ثلاث

صور ، إحداها المسماة « المسيح حاملا الصليب » تزدحم بشخوص قوية صورت تصويراً نابضاً بالحياة . وهكذا سدد تييولو دينه لعقيدة وطنه .

على أن خياله كان أكثر تحرراً على جدران القصور . فى قصر بربارو رسم « تمجيد فرانشسكو بربارو » — واللوحة الآن فى متحف المتربوليتان للفنون بنيويورك . ورسم لقصر الأدواج لوحة « نبتون يقدم لفينوس خيرات البحر » . وقدم لقصر بابا دوبولى لقطتين مبهجتين للبندقية فى الكرنفال — « المنويته » و « المشعوذ » . ثم توج كل صور القصور التى رسمها فى البندقية بزخرفة قصر لابيا بصور جصية تحكى قصة انطونيوس وكيلوباترة فى مشاهد بهية نفذت تنفيذا رائعا . ورسم زميل له يدعى جيرولامو منجوتسى كولونا الخلفيات المعمارية فى فورة من بهاء الطراز البلاديوى . فعلى جدار ترى لقاء الحاكمين ، وعلى الجدار المقابل وليمتهما ، وعلى السقف حشد جامع من شخوص طائرة تمثل بيجاسوس ، والزمن ، والجمال ، والرياح التى تثيرها عفاريت نفاخه مرحة . وفى لوحة « اللقاء » تهبط كيلوباترة من زورقها فى ثياب تبهر الأبصار ، تكشف عن صدر ناهد لتفتن حاكما مرهقا فى الحكومة الثلاثية ، حتى يسكن إليها فى راحة عطرة . وفى لوحة « الوليمة » وهى أشد تألقا حتى من هذه تسقط كيلوباترة لؤلؤة غالية الثمن فى خمرها ، ويؤخذ انطونيوس بهذا الثراء الذى لايعبأ بشيء . وعلى شرفـــة يعزف الموسيقيون قياثيرهم ليضاعفوا الخطر مرتين والثمل ثلاثا ، وهذه الرائعة التى تذكر بفيرونيزى وتنافسه كانت إحدى الصور التى نسخهـــا رينولدز فى ١٧٥٢ .

هذا الإنتاج الذى تميز بالأسلوب الفخم رفع تييولو إلى قمة ترى من وراء الألب . فاذاع الكونت فرانشسكو الجاروتى صديق فردريك وفولتير اسمه فى أوربا . وفى تاريخ مبكر (١٧٣٦) أبلغ الوزير السويدى فى البندقية حكومته أن تيبولو هو أصلح رجل يرسم القصر الملكى فى أستوكهولم ، « كله ذكاء وغيرة » ، سهل المعاملة ، يتدفق أفكارا ، موهوب فى أختيار الألوان الساطعة ، سريع فى عمله سرعة خارقة ، يرسم صوره فى زمن يقل.

عما يستغرقه مصور آخر فى مزج الوانه[٦٦] » . وكانت استوكهولم آنذاك مدينة جميلة ولكنها بدت بعيدة جداً .

وفى ١٧٥٠ جاءته دعوة أقرب ، فقد طلب إليه كارل فليب فون جرايفنكلاو أمير فورتسبرج الأسقف أن يرسم صورا للقاعة الأمبراطورية لقصره الإدارى الذى بناه مؤخراً . وأغرى الأجر المعروض بالحاح الفنان المسن . فلما وصل فى ديسمبر بصحبة أبنيه دومنيكو البالغ أربعة وعشرين عاماً ولورنتسو ذى الرابعة عشرة وجد تحديا لم يتوقعه فى بهاء قاعة القصر التى صممها بلتازار نويمان ، فأنى لأى صورة أن تخطف العين وسط ذلك الضياء الباهر ؟ وكان نجاح تيبولو هنا القمة التى توجت عمله . فقد رسم على الجدران قصة الإمبراطور فردريك بربروسا (الذى كان قد ذهب فى لقاء مع بياتريس أميرة برجنديا فى فورتسبرج عام ١١٥٦) وعلى السقف رسم « أبوللو مصطحبا العروس » ؛ هنا راح يصول ويجول فى مهرجان من الخيول البيضاء والأرباب المرحين والضياء يتألق فوق ملائكة تطير وغيوم شفافة . وعلى منحدر فى السقف رسم « الزفاف » : وجوه مليحة ، وأجسام مهيبة ، وأغطية وأستار مزدانة بالزهر ؛ وأثواب تذكر بالبندقية أيام فيرونيزى لا بالطرز الوسيطة . وانشرح صدر الأسقف فوسع العقد ليحتوى سقف بيت السلم الكبير ونقوش مذبحين لكتدرائيته . وعلى طريق السلم الفخم رسم تيبولو القارات وجبل أولمب — مرتع خياله السعيد — وصورة رائعة لا بوللو إله الشمس يجوب السماوات .

وقفل جامباتستا إلى البندقية (١٧٥٣) غنيا مرهقا ، وترك دمنيكو ليكمل المهمة فى فورتسبرج . وما لبث أن انتخب رئيسا للاكاديمية . وكان فيه لطف فى الطبع جعل حتى منافسيه مولعين به ، فلقبوه (تيبولو الطيب) . ولم يستطع مقاومة جميع المطالب التى تكاثرت على وقته المتضائل ، فنحن نجده يرسم فى البندقية ، وترفيزو ، وفيرونا ، وبارما ، فضلا عن لوحة قماشية كبيرة طلبها « بلاط موسكوفيا » . وما كنا لننتظر منه فى هذه الحالة أن ينتج عملا كبيراً آخر ، ولكنه فى ١٧٥٧ ، حين كان فى الحادية

والستين ، أضطلع برسم صور ڤيلا فالمارانا قرب فيتشنتسا . ورسم منجوتسى كولونا الإطار المعمارى ووقــع دومنيكو على بعض الصور فى المضيفة ؛ أما جامباتستا فقد نشر الوان فرشاته فى الفيلا ذاتها . واختار موضوعات من ملاحم الالياذه ، والأنياده ، وأورلندو الغاضب ، والقدس المحررة ، وأطلق العنان لخداعيته المرحة فتاه اللون فى الضوء ، والمكان فى اللانهاية ، وترك أربابه ورباته يطفون على هواهم فى جنة سمت فــوق كل الشواغل والأزمان . وقد أخذ العجب جوته وهو يتأمل هذه الصور الخصبة فقال فى دهشة ، :

« غاية فى البهجة والجرأة » ، وكانت هــذه آخر انتصار مثير لتيبولو فى إيطاليا .

وفى ١٧٦١ طلب إليه شارل الثالث ملك أسبانيا أن يحضر ويرسم صوراً فى القصر الملكى الجديد بمدريد . وأعتذر هذا التنسيانو المتعب بشيخوخته ؛ ولكن الملك رجا مجلس شيوخ البندقية أن يستعمل نفوذه . فانطلق على مضض مرة أخرى مع ولديه الوفيين ونموذجه كرستينا ؛ تاركا زوجته مرة أخرى لأنها كانت تحب كازينوات البندقية . وسوف نلقاه راكبا سقالة الرسم فى أسبانيا .

٥ — جولدونى وجوتسى

يبرز فى إدب البندقية فى هذا العصر أربعة اشخاص كل أثنين منهم معا : أبوستولو تسينو وبييترو متاستازيو وكلاهما كاتب نصوص لأوبرات كانت شعرا ؛ ثم كارلو جولدونى وكارلو جوتسى اللذان أقتتلا ليحلا محل الكوميديا البندقية كوميديا أصبحت مأساة جولدونى . وقد كتب جولدونى عن الأثنين الأولين يقول :

« لقد أثر هذان المؤلفان المشهوران فى إصلاح الأوبرا الإيطالية . فقبل مجيئهما لم يكن غير الأرباب والشياطين والآلات والعجائب فى هذه الملاهى المنغمة . وكان تسينو أول من فكر فى أمكان تمثيل المأساة بشعر

غنائى دون أبتذال ، وإنشادها دون أن يرهق الأنشاد السامعين . وقد أنفذ فكرته بطريقة رضى عنها الجمهور رضاء عظيما ، مما حقق له ولأمتـــه مفخرة كبرى[٦٧] » .

وحمل تسينو اصلاحاته إلى فيينا فى ١٧١٨ ، ثم اعتزل راضيا ليخلى الجـــو لمتاستازيو فى ١٧٣٠ وعاد إلى البندقية وعشرين عاماً من السلام . أما متاستازيو فقد لعب دور راسين لكورنيى تسينو كما قال جولدونى ، فاضاف الصقل إلى القوة ، وأرتفع بالشعر الأوبرالى إلى قمة لم يرتفع إليها من قبل . وقد وضعه فولتير فى مصاف كبار الشعراء الفرنسيين » وعده روسو الشاعر المعاصر الوحيد الذى يصل شعره إلى القلب . وأسمه الأصلى بييترو تراباسى (بيتر كروس) . وقـــد سمعه ناقد مسرحى يدعى جان فنتشنتو جرافينا يغنى فى الشوارع ؛ فتبناه ؛ وسماه من جديد متاستازيو (وهو المقابل اليونانى لترا اباسى) . وأنفق على تعليمه : وخلف له ثروة عند مماته . وراح بييترو يبدد هذه الثروة فى غير تحرج ، ثم تعاقد مـــع محام فرض عليه شرطا هو الايقرأ أو يكتب بيتا واحداً من الشعر . ومن ثم أخذ يكتب تحت اسم مستعار .

وفى نابلى طلب إليه المبعوث النمساوى أن يكتب غنائيات لكنتاتا ؛ وألف بوريورا الموسيقى ؛ وغنت الدور الرئيسى ماريانا بولجاريللى المشهورة يومها باسم لا رومانينا ، وسار كل شيء عـــلى ما يرام . ودعت المغنية الـــكبرى الشاعر إلى صالونها ، وهناك التقى بليو وفنتشى وبرجوليزى وفارينللى وهاسى والساندرو ودومنيكو سكارلاتى ؛ وتطور متاستازيو سريعا فى تلك الصحبة المثيرة . ووقعت لا رومانينا فى غرامه وكانت فى الخامسة والثلاثين أما هو ففى الثالثة والعشرين . وخلصته من شباك المحاماه واخذته رفيقا مـــع زوجها الكيس المتسامح ، وأوحت إليه بكتابة أشهر نصوصه « Didone abandonata ديدونى المهجورة » التى لحنهـــا أثنا عشر ملحنا متعاقبا بين ١٧٢٤ و ١٨٢٣ . وفى ١٧٢٦ كتب « سيروى » لحبيبته وبنى عليها فنتشى وهاسى وهندل أوبرات مستقلة . وأصبح متاستازيو الآن أكثر كتاب النصوص رواجا فى أوربا .

وفى ١٧٣٠ قبل دعـوة إلى فيينا وترك لا رومانينا . وحاولت أن تلحق به . وخاف أن يعرضه وجودها معه للفضيحة ، فحصل على أمر بمنعها من دخول الأراضى الأمبراطورية فطعنت صدرها محاولةالانتحار ، واخفق هذا الجهد الذى بذلته لتلعب دور ديدو ، ولكنها لم تعش أكثر من أربع سنين أخرى .

وعند موتها خلفت لأبنياسها الخائن كل ثروتها . ولكن متاستازيو رفض قبول التركة متأثرا بتأنيب ضميره ونزل عنها لزوجها . وكتب يقول « لم يعد لى أى أمل فى أن أوفق إلى السلوى . واعتقد أن ما بقى لى من عمرى سيكون حزينا لا لذة فيه »[٦٧] . وكان يستمتع بالنصر تلو النصر فى حزن حتى قطعت حرب الوراثة النمساوية عروض الأوبرا فى فيينا . وبعد ١٧٥٠ كان يكرر نفسه دون هدف. لقد استهلك الحياة قبل موته (١٧٨٢) بثلاثين عاما .

طردت الأوبرا الدراما التراجيدية من المسرح الإيطالى كما تنبأ فولتير من قبل وتركه للكوميديا . ولكن الكوميديا الإيطالية كانت تسيطر عليها الكوميديا ديللارتى — وهى مسرحية الحديث المرتجل والأقنعة المميزة . وكانت معظم الشخوص قد تقولبت منذ زمن طويل : بنتالونى البورجوازى الطيب ذو السراويل ، وتارتاجليا الخادم النابوليتانى المتهته ، وبريجيللا الدساس الساذج الذى يقع فى شراك دسائسه، وتروفالدينو الأكول الشهوانى اللطيف، وأرلكينو — ويقابله هارلكوين (المهرج) عندنا ، وبولتشنيللو — وبقابله عندنا بنش ، وأضافت مختلف المدن والأجيال مزيدا من الشخوص . وترك معظم الحوار والكثير من الأحداث فى الحبكة للاختراع المرتجل . يقول كازانوفا « كان الممثل فى تلك الكوميديات المرتجلة إذا توقف لأن كلمة غابت عنه، لم يعفه رواد مؤخرة الصالة والشرفات العليا الرخيصة من صياح السخرية والاستهجان[٦٨]» .

وكانت المسارح العاملة فى البندقية عادة سبعة ، كلها مسماه بأسماء قديسين ، ويؤمها جمهور من النظارة شائن السلوك . فكان النبلاء فى

مقاصيرهم لا يهمهم ما يلقونه على العامة تحتهم . وكانت الأحزاب المتخاصمة ترد على التصفيق بالصفير أو التثاؤب أو العطس أو السعال أو صيحات الديكة أو مواء القطط[٦٩] . وفى باريس كان أكثر رواد المسرح من علية القوم ، وأرباب المهن أو المثقفين والأدباء ، أما فى البندقية فكانوا أساسا من الطبقة الوسطى ، يتخللهم هنا وهناك الغوانى المتبرجات ، وملاحو الجندولات البذيئون ، والقساوسة والرهبان متنكرين ، وأعضاء الشيوخ المتغطرسون فى عباءاتهم وباروكاتهم . وكان عسيرا أن ترضى مسرحية هذه العناصر كلها فى مثل هذا الخليط من البشر ، ومن ثم نزعت الكوميديا الإيطالية إلى أن تكون مزيجا من الهجاء والهزل الرخيص والتهريج والتوريات ، وقد أعجز الممثلين عن التنويع والتميز طول ما دربوا عليه من تصوير شخصيات ثابتة . هذا هو الجمهور وهذا هو المسرح الذى جاهد جولدونى فى رفعه إلى مكانة الكوميديا المشروعة المتحضرة .

ويسر القارىء ما كتبه فى « مذكراته » من استهلال بسيط . قال : « ولدت فى البندقية فى ١٧٠٧ . . . . جاءت بى أمى إلى العالم دون كبير ألم مما زاد حبها لى . ولم تعلن مولدى صيحات كالعادة ، وبدأ هذا اللطف آنئذ دليلا على الخلق الهادىء الذى احتفظت به دائماً منذ ذلك اليوم »[٧٠] .

وكان هذا القول تفاخرا منه ولكنه حق ، فجولدونى من أحب الرجال فى تاريخ الأدب ، وكان من بين فضائله التواضع رغم هذا الاستهلال — وهى خلة ليست فى طبيعة الكتاب . ولنا أن نصدقه إذ يقول « كنت معبود الأسرة » وذهب الأب إلى روما ليدرس الطب ، ثم إلى بروجيا ليمارسه ، وتركت الأم فى البندقية لتربى ثلاثة أطفال .

وكان كارلو طفلا نابغة . استطاع أن يقرأ ويكتب فى الرابعة ، وألف كوميديا فى الثامنة . واقنع الأب الأم أن تسمح لكارلو بالذهاب إليه والعيش معه فى بروجيا . وهناك درس الغلام على اليسوعيين ، وتفوق ، ودعى للانضمام إلى الجماعة ، ولكنه رفض . ولحقت الأم وابن آخر بالأب ،

ولكن هواء الجبل البارد فى بيروجيا لم يلائمها ، فانتقلت الأسرة إلى ريمينى ، ثم إلى كيودجا . ودخل كارلو كلية دومنيكية فى ريمينى ، ثم إلى كيودجا. ودخل كارلو كلية دومنيكية فى ريمينى ، حيث كان يتلقى كل يوم جرعات من كتاب القديس توما الاكوينى « قمة اللاهوت » . وإذ لم يجد شيئا يثير مشاعره فى تلك الرائعة من روائع العقلانية فقد قـرأ أرستوفان ، وبلوتس ، وترنس ، فلما قدمت فرقة من الممثلين إلى ريمينى انضم إليها فترة طالت إلى حد ادهش أبويه فى كيودجا . فوبخاه ، وعانقاه ، ثم أرسلاه ليدرس القانون فى بافيا . وفى ١٧٣١ نال درجته الجامعية وبدأ ممارسة المحاماه ، ثم تزوج ، « وكان الآن أسعد رجل فى العالم » [٧١] ، اللهم إلا أنه أصيب بالجدرى فى ليلة زفافه .

وجذبته البندقية فعاد إليها ، ونجح فى المحاماة ، وأصبح قنصلا هناك لجنوه . ولكن المسرح ظل يستهويه ، وهفت نفسه للكتابة ، واشتهى أن تخرج مسرحياته . ومثلت مسرحيته « بلزاريوس » فى ٢٤ نوفمبر ١٧٣٤ بنجاح ملهم ، وظلت تعرض يوميا حتى ١٤ ديسمبر ، وضاعف سروره افتخار أمه العجوز به . على أن البندقية لم تكن تستسيغ التراجيديا ، ففشلت مسرحياته التالية التى من هذا النوع ، فانصرف حزينا إلى الكوميديا . ولكنه رفض كتابة الفارصات « للكوميديا ديللارتى » ، وأراد أن يؤلف كوميديات السلوك والأفكار على طريقة موليير ، وألا يعرض على خشبة المسرح شخوصا ثابتة تجمدت فى أقنعة ، بل شخصيات ومواقف مشتقة من الحياة المعاصرة . واختار بعض الممثلين من فرقة كوميديا البندقية ، ودربهم ، وأخرج فى ١٧٤٠ « مومولو » رجل البـلاط . « ونجحت التمثيلية نجاحا مدهشا ، وكان فى هذا ما ارضانى » [٧٢] . ولكنه لم يرض تماما ، لأنه كان قد نزل عن بعض أفكاره بتركه الحوار كله دون أن يكتبه إلا للدور الرئيسى ، وخلفه أدوارا لأربعة من الشخوص المقنعة التقليدية .

وراح يدفع اصلاحاته خطوة خطوة . ففى مسرحية « المرأة الشريفة » كتب لأول مرة الحركة والحوار كاملين . وهبت فرق معادية لتنافس

تمثيلياته أو تسخر منها . وتآمرت عليه الطبقات التي هجاها ، مثل التشيشسبي (مرافقي الزوجات) فحاربها كلها وعقد له النصر . ولكن لم يمكن العثور على مؤلف آخر يزود فرقته بالكوميديات المناسبة . ومن ثم فقدت تمثيلياته هو رضاء الجمهور لكثرة تكرارها . واكرهته المنافسة على أن يكتب ست عشرة تمثيلية في سنة واحدة .

وبلغ أوجه في ١٧٥٢ ، وأشاد به فولتير « بوصفه موليير إيطاليا » . ولقيت مسرحيته « لا لوكانديرا » (صاحبة الفندق) في ذلك العام « نجاحا رائعا حتى ..... فضلت على أي عمل أنجز في ذلك النوع من الكوميديا » . وقد اعتز بأنه راعى « الوحدات الارسطاطاليه في الحركة والمكان والزمان » وفيما عدا ذلك كان يحكم على تمثيلياته بواقعية ، فيقول « انها جيــدة » ولكنها لم ترق بعد إلى مستوى موليير »[٧٣] . وكان قد تعجل في كتابتها تعجلا لا يتيح له أن يجعلها أعمالا فنية « فكانت ذكية البناء ، مرحة على نحو سار » مطابقة للحياة بوجه عام « ولكن أعوزها ما ميز موليير من اتساع الأفكار ، وقوة الحديث ، وبراعة العرض ، ومن ثم ظلت على سطح الشخوص والأحداث . ومنعته طبيعة جمهوره من أن يحاول التحليق في أجواء العاطفة أو الفلسفة أو الأسلوب ، وكان في فطرته من البشر ما منعه من سبر الأغوار التي عذبت موليير من قبل .

وقد صدم مرة واحدة على الأقل صدمة أخرجته عن لطفه وجرحته في الصميم ، وذلك حين تحداه كارلو جوتسي على مكان الصدارة المسرحية في البندقية وفاز في المعركة . وكان هناك رجلان باسم جوتسي شاركا في الضجة الأدبية التي أثيرت في ذلك العهد ، أحدهما جسبارو جوتسي الذي الف تمثيليات أكثرها مقتبس من الفرنسية ، وكان محررا للعوريتين بارزتين وقد بدأ حركة احياء دانتي . أما الثاني وهو أخوه كارلو فلم يكن فيه هذا اللطف والأنس « كان رجلا طويل القامة وسيما مغرورا متحفزا للعراك على الدوام . وكان أذكى عضو في أكاديمية جرانلليسكي » التي شنت حملة لإستعمال الإيطالية التسكانية النقية في الأدب بدلا من اللهجة التي استعملها

جولدونى فى معظم تمثيلياته . ولعله — وهو العشيق (أو المرافق الخادم) لتيودورا ريتشى — أحس بوخز موجع حـين هجا جولدونى مرافقى الزوجات هؤلاء . وقد كتب هو أيضاً « مذاكرات » هى البيان المفصل للحروب التى خاضها . وقد حـكم على جولدونى كما يرى مؤلف مؤلفاً آخر فقال :

« تبينت فى جولدونى وفرة فى الدوافع الكوميدية ، والصدق والطبيعية. ولكنى اكتشفت فيه فقرا وحقارة فى الحبكة » ، وهذه محاسن ومساوىء متنافرة « والمساوىء كثيراً ما تكون الغالبة ، ثم هناك عبارات سوقية ذات توريات منحطة ... ونتف وأقوال فيها تنطع ، مسروقة لا أدرى من أين ومجلوبة لتخدع جمهورا من الجهال ، وأخيرا فهو بوصفه كاتباً للايطالية (إلا أنه يكتب باللهجة البندقية التى دل على تمكنه منها) لم يبد غير جدير بأن يوضع فى مصاف أغبى المؤلفين الذين استخدموا لغتنا وأحقرهم وأقلهم دقة وصواباً ... وعلى أن أضيف فى الوقت ذاته أنه لم يخرج قط تمثيلية دون أن يكون لها سمة كوميدية ممتازة . وقد بدا لعينى أن له دائماً مظهر رجل ولد باحساس فطرى بالطريقة التى يجب أن تؤلف بها الكوميديات الأصيلة ، ولكنه — لعيب فى تعليمه ، ولافتقار إلى التميز ، ولضرورة ارضاء الجمهور وتقديم بضاعة جديدة للكوميديين المساكين الذين يكسب قوته على حسابهم ، وللعجلة التى كان ينتج بها هذا العدد الوفير من التمثيليات كل سنة ليبقى نفسه من الغرق — أقول أنه لهذا كله لم يستطع قط أن يبتكر تمثيلية واحدة لاتزخر بالاغلاط [٧٤] » .

وفى ١٧٥٧ أصدر جوتسى ديوان شعر يعرب عن انتقادات مماثلة فى « أسلوب كبار كتاب التسكانية القدامى » . ورد جولدونى بشعر مثلث القافية (على طريقة دانتى) بما معناه أن جوتسى أشبه بالكلب الذى ينبح القمر (Come il cane che abbaja la luna)

ورد عليه جوتسى بالدفاع عن « الكوميديا ديللارتى » ضد انتقادات جولدونى القاسية ، واتهم جولدونى بأن تمثيلياته تفوق كوميديا الأقنعة مائة مرة فى فجورها ونبوها وعدوانها على مكارم الأخلاق ، وصنف معجماً من « العبارات الغامضة ، والتوريات البذيئة . . وغيرها من القـذارات »

أخذها من أعمال جولدونى . يقول مولمنتى أن الجدل « آثار فى المدينة ضربا من الهوس ، فكان الخلاف يناقش فى المسارح والبيوت والحوانيت والمقاهى والشوارع[٧٥] » .

وتحدى كاتب مسرحى آخر يدعى (أباتى كيارى) جوتسى أن يكتب تمثيلية خيرا من التمثيليات التى ندد بها ، وكان هذا الكاتب قد لدغه من قبل صل جوتسى التسكانى . ورد جوتسى أن هذا يسير عليه « حتى عن أتفه المواضيع وباستخدام كوميديا الأقنعة التقليدية دون غيرها . وفى يناير ١٧٦١ أخرجت فرقة فى تياترو سان صموئيلى تمثيليته المسماه « خرافة حب البرتقالات الثلاث » وهى مجرد سيناريو أظهر بنتالونى ، وترتاجليا « وغيرهما من أصحاب (الأقنعة) يبحثون عن ثلاث برتقالات يعتقد أن لها قدرات سحرية ، وأما الحوار فترك للارتجال . وكان نجاح هذه (الخرافة) حاسما : ذلك أن الجمهور البندقى العائش على الضحك استطاب خيال القصة والهجاء الضمنى لحبكات كيارى وجولدونى . وأردفها جوتسى بتسع (خرافات) أخرى فى خمس سنوات » ولكنه قدم فيها حواراً شعرياً ، وبهذا سلم جزئيا بنقد جولدونى للكوميديا ديللارتى . على أية حال بدا انتصار جوتسى كاملا . وظل جمهور مسرح القديس صموئيل شديد الاقبال عليه ، فى حين هبط الإقبال على مسرح جولدونى (سانت انجيلو) إلى ما يقرب من الإفلاس . وانتقل كيارى إلى بريشا « أما جولدونى فقبل دعوة إلى باريس (*) .

وتوديعا للبندقية أخرج جولدونى (١٧٦٢) « أمسية من أمسيات الكرنفال الأخيرة » وتروى قصة مصمم منسوجات هو السنيور انتسوليتو الذى كان على وشك أن يفارق وهو حزين فى البندقية النساجين الذين طالما زود أنوالهم بالرسوم . وسرعان ما تبين الجمهور فى هذا رمزاً للكاتب المسرحى الذى يترك آسفا الممثلين الذين طالماً زود مسرحهم بالتمثيليات . فلما ظهر انتسوليتو فى المشهد الأخير ضج المسرح (كما يقول جولدونى) « بتصفيق

(*) حولت « خرافتان » من خرافات جوتسى إلى أوبرات : « رى توراندوق » لفيبر وبوزونى ، و « حب البرتقالات الثلاث » : لبروكوفيف .

كهزيع الرعد تسمع خلاله هتافات . . . (رحلة سعيدة) (عد الينا ثانية) (لا يفتك أن تعود الينا)[٧٦]. وغادر البندقية فى ١٥ ابريل ١٧٦٢ ولم يرها بعد ذلك قط .

وفى باريس شغل عامين بتأليف كوميديات لمسرح الإيطاليين « وفى ١٧٦٣ رفعت عليه دعوى إغواء[٧٧] ، ولكن بعد سنة كلف بتعليم الإيطالية لبنات لويس الخامس عشر . وقد كتب بالفرنسية ، بمناسبة زفاف مارى انطوانيت والأمير الذى أصبح فيما بعد لويس السادس عشر ، مسرحية من أفضل مسرحياته ، واسمها (الجلف الخير) وكوفىء عليها بمعاش قدره ١٢٠٠ فرنك » الغته الثورة حين بلغ الحادية والثمانين . وقد واسى فقره باملاء مذاكراته لزوجته (١٧٩٢) — وهى مذكرات غير دقيقه ، خصبة الخيال « مثيرة » مسلية » وفى رأى جولدونى أنها (درامية على نحو أصدق من كوميدياته الإيطالية[٧٨]) ، ومات فى ٦ فبراير ١٧٩٣ . وفى ٧ فبراير « بناء على اقتراح قدمه الشاعر مارى — جوزف دشنييه » رد اليه المؤتمر الوطنى معاشه ، وإذ لم يجده المؤتمر فى حال تسمح له بتسلمه ، فقد أعطاه لارملته بعد أن خفضه .

كان انتصار جوتسى فى البندقية قصير الأجل ، فقبل أن يموت (١٨٠٦) بسنين طويله اختفت (خرافاته) من خشبة المسرح ، وبعثت كوميديات جولدونى فى مسارح ايطاليا . ومازالت تمثل عليها فى كثرة تكاد تقارب كوميديات موليير فى فرنسا . ويقوم تمثاله فى السكامبوسان بارتولوميو بالبندقية ، وفى اللارجو جولدونى (بفلورنسه) . ذلك لأن الإنسانية كما كتب فى مذكراته واحدة فى كل مكان ، والحسد يعلن عن نفسه فى كل مكان ، وفى كل مكان يكسب الرجل الهادىء الطبع فى النهاية محبة الشعب ويبلى خصومه[٧٩] » .

٦ — روما

فى جنوبى نهربو ، وعلى طول الادرياتيك وعبر الأبنين ، كانت تقوم ولايات الكنيسة — فيرارا وبولونيا وفورلى ورافنا وبروجه وبتفنتو وروما — فتكون بهذا القسم الأوسط والأكبر من الحذاء السحرى .

أما فيرارا فحين أدمجت فى الولايات البابويه (١٥٩٨) جعل أدواقها آل استنسى مودينا مقرا لهم ، وجمعوا فيها محفوظاتهم وكتبهم وفنونهم . وفى ١٧٠٠ أصبح لودوفيكو موراتورى القسيس والباحث وفقيه القوانين أمينا على هذه الكنوز . واستطاع خلال خمسة عشر عاماً من العمل الدءوب ، ومن ثمانية وعشرين مجلدا ، أن يصنف « كتاب الشئون الإيطاليه » (١٧٢٣ — ٣٨) ، وأضاف بعد ذلك عشرة مجلدات للآثار والنقوش الإيطاليه . وكان أثرياً أكثر منه مؤرخا ، وما لبث كتابه « الحوليات الإيطالية » الذى أصدره فى أثنى عشر مجلدا أن تقادم . ولكن أبحاثه فى الوثائق والنقوش جعلته الأب والمصدر للتأليف التاريخى الحديث فى إيطاليا .

وكانت بولونيا أكثر هذه الولايات ازدهارا باستثناء روما . وظلت مدرسة تصويرها الشهيرة حية فى عهد جوزيبى كرسبى (الأسبانى) ، وكانت جامعتها لا تزال من خير الجامعات الأوربيه . وكان قصر بفيلاكوا (١٧٤٩) من أعظم أبنية القرن أناقة . وسمت أسرة ممتازه تركزت فى بولونيا بالعمارة والمسرحية ورسم المناظر المسرحية إلى ذرى الأتقان فى العصور الحديثة . فبنى فرديناندو جاللى دابيينا (التياترو ريالى) فى مانتوا (١٧٣١) وكتب نصوصا شهيرة عن فنه ، وأنجب ثلاثة أبناء وأصلوا مهارته فى الزخرفة الخداعة الفاخرة . وصمم أخوه فرانشسكو المسارح فى فيينا ونانسى وروما ، والتياترو فيلارمونيكا بفيرونا — الذى كثيرا ما يعتبر أجمل مسرح فى إيطاليا . وأصبح الساندرو بن فرديناندو كبير معمارى ناخب البلاتينات . وصمم ابن ثان يدعى جوزيبى مدخل دار الأوبرا فى بايرويت (١٧٤٨) — أجمل بناء موجود من نوعه[٨٠] » . ورسم أنطونيو الأبن الثالث تصميمات « التياترو كومونالى » فى بولونيا .

وقد ترددت فى ذلك المسرح وفى كنيسة سان بترونيو القديمة الضخمه أفضل الموسيقى الآليه التى عزفت فى إيطاليا ، لأن بولونيا كانت المركز الإيطالى الرئيسى للتعليم والنظريه الموسيقيين . فهناك كان بادرى جوفانى بأتستا مارتينى يعقد مجلسه المتواضع الصارم كأجل معلم للموسيقى فى أوربا . وكان يقتنى مكتبة موسيقيه تضم سبعة عشر ألف مجلد ، وقد ألف نصوصا ممتازة فى الكونترابنط وتاريخ الموسيقى ، وراسل عشرات من مشاهير الرجال فى أكثر من عشر دول . وكان وسام الأكاديميا فيلارمونيكا التى ترأسها سنين كثيرة مشتهى جميع الموسيقيين . فإلى هنا سيأتى الصبى موتسارت فى ١٧٧٠ ليواجه الاختبارات المقررة ، وهنا سيعلم روسينى ودونيتسى . وكان المهرجان السنوى للمؤلفات الموسيقية الجديدة ، التى يؤديها أوركسترا الأكاديميه ذو المئة عازف ، فى نظر إيطاليا الحدث الأعظم للسنه الموسيقية .

قدر جيبون سكان روما فى ١٧٤٠ بنحو ١٥٦،٠٠٠ نسمة . وحين تذكر زهوة ماضيها الأمبراطورى وتناسى فقراء هذا الماضى وأرقاءه ، وجد أن سخر العاصمة الكاثوليكية يجافى ذوقه :

« فى داخل الأسوار الأوريلية الفسيحه تغشى القسم الأكبر من التلال السبعة الكروم والأطلال . ولعل جمال المدينه الحديثة وبهاءها راجع إلى مفاسد الحكومة وتأثير الخرافة . فقد تميز كل حكم (إلا فيما ندر) بصعود أسرة جديدة صعوداً سريعاً ، أثرت بفضل الحبر الذى لا عقب له على حساب الكنيسة والدولة . وقصور أبناء الأخوة والأخوات المحظوظين هؤلاء هى أغلى صروح الأناقة والعبودية ، فقد سخرت لها أسمى فنون المعمار والتصوير والنحت ، وأبهاؤها وحدائقها تزينها أنفس الآثار القديمة التى جمعوها تذوقا أو غرورا[٨١] » .

وقد تميز بابوات هذا العهد بسمو الخلق ، وكانت فضائلهم تسمو كلما هبط سلطانهم . وكانوا كلهم إيطاليين ، لأن احدا من الملوك الكاثوليك أبى أن يسمح لأى من الآخرين أن يقتضى البابويه . وقد برر كلمنت الحادى عشر (حكم ١٧٠٠ — ٢١) أسمه (ومعناه الرحيم) باصلاحه سجون روما .

أما إنوسنت الثالث عشر (١٧٢١ — ٢٤) فهـو فى رأى رانكي البروتستنتى :

« كان يملك مؤهلات رائعة للحكم الروحى والزمنى معا » ولكن صحته كانت هشة جداً . وقد وجدت الأسر الرومانية المتصلة به بصلة القرابة ، والتى راودها الأمل فى أن يرفع من شأنها ، أنها واهمة كل الوهم : لا بل إن ابن اخيه لم يستطع الظفر بالأثنى عشر ألف دوقاتيه كل عام (التى أصبحت الآن الدخل العادى لابن الأخ) دون مشقة[٨٢] » .

أما بندكت الثالث عشر (١٧٢٤ — ٣٠) فكان « رجلا ذا تقوى شخصية عظيمه[٨٣] » . ولكنه (كما قال مؤرخ كاثوليكى) سمح بقدر كبير جداً من السلطة لمحاسيب غير جد يرين بعطفه[٨٤] » . وأغرق كلمنت الثالث عشر (١٧٣٠ — ٤٠) روما بأصدقائه الفلورنسيين ، وسمح لنفسه حين شاخ وكف بصره أن ينقاد لأبناء أخيه اللذين زاد تحمسهم الصراع بين اليسوعيين والجانسنيين فى فرنسا مرارة فوق مرارة .

وفى رأى ماكولى أن بندكت الرابع عشر (١٧٤٠ — ٥٨) « كان أفضل وأحكم خلفاء القديس بطرس المائتين والخمسين[٨٥] » وهـو حكم فضفاضى » ولكن البروتستنت والكاثوليك وغـير المؤمنين على السواء يجمعون على الثناء على بندكت لأنه كان رجلا واسع العلم » ذا شخصية محببة ونزاهة خلقية . ولم ير وهو رئيس لأساقفة بولونيا أى تناقض بين الاختلاف إلى دار الأوبرا ثلاث مرات فى الأسبوع والاهتمام الصارم بواجباته الاسقفية[٨٦] » وقد وفق أثناء ولايته منصب البابوية بين حياته الشخصية ومرح الطبع وتحرر الحديث وتذوق الأدب والفن تذوقايكاد يكون وثنيا . وقد أضاف تمثالا لفينوس عارية إلى مجموعته » وقال للكردينال دتنسان أن أمير وأميرة فورتمبرج خطا إسميهما على جزء فى التشريح جميل الأستداره لا يذكر كثيراً فى المراسلات البابويه[٨٧] . وكاد يشبه فولتير فى حدة الذكاء والظرف ، ولكن هـذا لم يمنعه من أن يكون إداريا حازما ودبلوماسيا بعيد النظر .

وقد وجد مالية البابوية تشكو الفوضى : فنصف الإيرادات يضيع فى الانتقال من بلد إلى بلد وثلث سكان روما كنسيون يفوق عددهم كثيرا ما تحتاج إليه شئون الكنيسه ، ويكلفونها من النفقة ما لا تطيقه . فأنقص بندكت موظفيه الشخصيين ، وطرد أكثر جنود الجيوش البابويه ، وأنهى محسوبية الأقارب ، وخفض الضرائب ، وأدخل الاصلاحات الزراعية ، وشجع المشروعات الصناعيه ، ولم يمر طويل وقت حتى أثمرت أمانته واقتصاده وكفائته فائضا للخزانة البابوية . أما سياسته الخارجية فقد قدمت تنازلات ودية للملوك المشاغبين ، فوقع مع سردينيا والبرتغال ونابلى وأسبانيا إتفاقات سمحت لحكامها الكاثوليك بالترشيح لكراسى الأسقفية . وجاهد ليهدىء الضجة العقائدية فى فرنسا ، بالتراخى فى تنفيذ الأمر البابوى unigenitus (الوحيد الجنس) الصادر ضد الجانسنيين ، « ما دام الإلحاد يزداد كل يوم فعلينا أن نسأل إن كان الناس يؤمنون بالله لا إن كانو يقبلون الأمر البابوى[٨٨] » .

ويذل جهودا شجاعة ليعثر على حل وسط مؤقت modus vivendi مع حركة التبرير . وقد لاحظنا تقبله الودى لإهداء فولتير مسرحية (محمد) إليه رغم أن المسرحية كانت تسلط عليها نيران الكنيسة فى باريس (١٧٤٦) ، وعين لجنة لمراجعة كتاب الصلوات اليومية ولتخليصه من بعض الأساطير الأبعد تصديقا ، على أن توصيات اللجنة لم تنفذ . واستطاع بنشاطه الشخصى أن يحقق انتخاب « المبير لمجمع بولونيا[٨٩] » وكان يثبط التحريم المتعجل للكتب . فلما أشار بعض مساعديه عليه بشجب كتاب لامترى « الإنسان الآلة » أجاب أليس من واجبكم أن تكفوا عن ابلاغى بوقاحات الحمقى ؟ ثم أردف « اعلموا أن للبابا يدا مطلقه ليمنح البركات فقط[٩٠] » وقد خلت قائمة الكتب المحرمة التى أصدرها فى ١٧٥٨ عن جميع محاولات تعقب المؤلفات غير الكاثوليكية . واقتصرت .. فيما عدا استثناءات قليلة على حظر بعض الكتب التى ألفها كتاب كاثوليك . وأمر بألا يدان كتاب قبل أن يعطى مؤلفه أن وجد فرصة للدفاع عن نفسه ، ولا يدان كتاب فى موضوع علمى إلا بعد استشارة الخبراء ، وينبغى أن يؤذن لرجال العلم أو الدرس دون

ابطاء بقراءة الكتب المحرمة[٩١] . واتبعت هذه القواعد فى طبعات القائمة الثالثة ، وأكدها ليو الثالث عشر فى ١٩٠٠ .

وقد ألفى البابوات حكم روما عسيرا عسرا يقرب من عسر حكم العالم الكاثوليكى . ولعل جمهور المدينة كان اشد الجماهير فظاظة وعنفاً فى ايطاليا وربما فى أوربا . فأى سبب يمكن أن يفضى إلى مبارزة بين النبلاء أو إلى صراع دام بين الزمر المتحزبه التى قسمت المدينة المقدسة . وأما فى المسرح فان حكم النظارة كان يمكن أن يكون قاسياً لارحمة فيه خصوصا إذا أخطأ « وسنرى مثالا عليه فى حالة برجوليزى . وجاهدت الكنيسة لتهدىء الشعب بالأعياد والمواكب والغفرانات والكرنفال ، وسمحت للناس فى الأيام الثمانية السابقة للصوم الكبير بأن يرتدوا ملابس تنكرية مرحة غريبة الأشكال ، وأن يسرحوا ويمرحوا على (الكورسو) والتمس النبلاء رضى الجماهير باستعراضاتهم على الخيل أو العربات تحمل راكبين مهرة أو نساء حسانا فى أبهى زينة ، وعرضت البغايا بضاعتهن لقاء أجور رفعتها مؤقتا ، وخففت المغازلات المقنعة من ثقل الزواج الأحادى بضع ساعات . فإذا انقضى الكرنفال عاودت روما مسيرتها المتناقضة من التقوى والإجرام .

أما الفن فلم يزدهر وسط العائدات المتناقصة التى يغلها إيمان مضمحل . لقد أسهمت العمارة ببعض الاسهامات الصغيرة : مثال ذلك أن الساندرو جاليلى أضاف لكنيسة سان جوفانى القديمة فى اللاتيرانو واجهة فخمة ، وخلع فرديناند وفوجا على كنيسة سانتا ماريا مادجورى وجها جديداً ، وشيد فرانشسكو دى سانكتيس « السكالا دى سبانيا الفسيحة المهيبة من ميدان أسبانيا إلى مزار « الثالوث الأقدس » فى مونتى . وأضاف النحت أثرا مشهوراً هو « الفونتانا دى تريفى » - حيث يلقى السائح المسرور قطعة نقود من وراء كتفه فى الماء ليضمن عودته لزيارة روما ثانية . وكان لنافورة المخارج الثلاثة تاريخ طويل . ولعل برنينى ترك رسما تخطيطيا لها ، وافتتح كلمنت الثانى عشر مسابقة لإنشائها ، وقدم التصميمات لها أدمى بوشاردان الباريسى ولامبير سجبير آدم النانسى ، واختير جوفانى ماينى ليصممها «

ونحت بييترو براتشى مجموعة نبتون وفريقه الوسطى (١٧٣٢) ، ونحت فليبو ديللافاللى أشكالا تمثل الخصوبة والشفاء ، وقدم نيكولو سالفى الخلفية المعمارية ، وأكمل جوزيبى يانينى العمل فى ١٧٦٢ » وربما أوحت مشاركة العقول والأيدى الكثيرة على هذا النحو خلال ثلاثين سنة بأنه كان هناك شىء من التخاذل فى الإرادة أو الفقر فى الموارد ، ولكنها تدحض أى فكرة بأن الفن فى روما كان ميتاً . وأضاف براتشى إلى مآثره مقبرة (هى الآن فى كتدرائية القديس بطرس) لماريا كلمنتينا سوبيسكا ، الزوجة التعسة لجيمس الثالث المطالب الاستيوارتى بالعرش ، وخلف ديللافاللى فى كنيسة القديس أغناطيوس نقشاً بارزاً رقيقاً يمثل البشارة » جديرا بالنهضة الأوربية فى أوجها .

أما التصوير فلم يتمخض عن عجائب فى روما فى هذا العصر ، ولكن جوفانى باتستا بيرانيزى جعل الحفر فناً من الفنون الكبرى . ولد لبناء بالحجر قرب البندقية ، وقرأ باللاديو وحلم بالقصور وأضرحة القديسين . على أن البندقية كانت تحوى من الفنانين أكثر مما تحوى من المال ، أما روما فكان فيها مال أكثر من الفنانين » ومن ثم نزح جوفانى إلى روما وبدأ عمله معماريا . غير أن الطلب على المبانى كان ضعيفا . ولكنه صمم المبانى على أى حال ، أو على الأصح رسم مبانى غريبة الأشكال تبدو كأن « السلالم الأسبانية » سقطت فوق « حمامات دقلديانوس » . ونشر هذه الرسوم فى ١٧٥٠ باسم « رسوم مختلفة » و « كارتشيرى » (المسجون) » واشتراها الناس كأنهم يشترون الألغاز أو الأسرار الغامضة . ولكن بيرانيزى وجه مهارته فى حالاته النفسية الأنبل إلى حفر رسومه التخطيطية للآثار القديمة . فقد عشقها كما عشقها بوسان وروبير ، وأحزنه أن يرى هــذه الأطلال الرائعة تزداد تحللا يوما بعد يوم بفعل النهب أو الاهمال ، وظل طوال خمسة وعشرون عاما ، فى كل يوم تقريبا ، يخرج ليرسمها ، ويفوته أحيانا تناول وجباته من الطعام ، بل أنه حتى وهو يموت من السرطان واصل الرسم والنقش والحفر . وقد ذاع مؤلفاه « الآثار الرومانية » و « مناظر

روما » فى شكل نسخ مطبوعة فى أوربا كلها وشاركت فى الإحياء المعمارى للأساليب الكلاسيكية .

وقد وجد ذلك الاحياء حافزا قويا فى الحفائر التى أجريت فى هركولانيوم وبومبى وهما مدينتان أغرقهما ثوران فيزوف فى ٧٩ م فنى ١٧١٩ أبلغ بعض الفلاحين أنهم وجدوا تماثيل مدفونة فى التراب فى هركولانيوم . وانقضت تسعة عشر عاما قبل أن يمكن الحصول على المال اللازم لارتياد الموقع على نحو نسقى . وفى ١٧٤٨ بدأت حفائر مماثلة تكشف عن عجائب بومبى الوثنية . وفى ١٧٥٢ كشف عن معابد بايستوم الضخمة الجليلة بعد اجتثاث الأجمة التى غطتها . وأقبل الأثريون من شتى البلاد ليدرسوا الكشوف ويصفوها ، وأثارت رسوم هذه الآثار اهتمام الفنانين والمؤرخين جميعاً ، وسرعان ما غزا المتحمسون للفن الكلاسيكى روما ونابلى ، وقدموا على الأخص من ألمانيا . فأتى منجز فى ١٧٤٠ ، وفنكلمان فى ١٧٥٥ . وهفت نفس لسنج للذهاب إلى روما ، « لامكث هناك على الأقل سنة ، وإلى الأبد أن امكن »[٩٢] . ثم جوته — ولكن لنرجى هذه القصة الآن .

إما أنطون رفاييل منجز فمن العسير أن نضعه فى مكان واحد ، لأنه ولد فى بوهيميا (١٧٢٨) ، وخص بجهوده إيطاليا وأسبانيا ، واختار روما موطنا له . وسماه أبوه باسم كوريدجو ورفاييل ، وكان رساما للمنمنمات فى درسدن ، ونذره للفن ، وظهرت على الصبى مخايل النجابة فأخذه أبوه وهو فى الثانية عشرة إلى روما . ويروى أنه حبسه هناك فى فى الفاتيكان يوما بعد يوم ولا غداء له إلا النبيذ والخبز ، وأخبره أن أراد مزيداً أن يطعم على آثار رفاييل وميكلانجلو والعالم الكلاسيكى . وبعد أن أقام أنطون برهة قصيرة فى درسدن عاد إلى روما واسترعى الأنظار بلوحة رسمها للعائلة المقدسة ، وكانت نموذجه فيها مارجاريتا جواتسى « عذراء فقيرة فاضلة جميلة »[٩٣] وتزوجها فى ١٧٤٩ ، وفى المناسبة ذاتها دخل فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وعاد ثانية إلى درسدن ، وعين مصورا لبلاط أوغسطس الثالث براتب قدره ألف طالر فى العام . ووافق

على أن يرسم لوحتين لكنيسة بدرسدن ، ولكنه أقنع الملك الغاضب بأن يسمح له برسمهما فى روما ، وفى ١٧٥٢ استقر هناك وهو بعد فى الرابعة والعشرين . ولما بلغ السادسة والعشرين عين مديرا لمدرسة الفاتيكان للتصوير . وفى ١٧٥٥ التقى بفنكلمان ، واتفق معه على أن الباروك غلطة ؛ وأن الفن يجب أن يطهر نفسه ويهذبها بأشكال الكلاسيكية الجديدة . ولعله فى هذه الفترة أو نحوها رسم بالباستل صورته الذاتية الموجودة الآن فى متحف فن درسدن — وجه فتاة وشعرها ، ولكن العينين تلمعان بكبرياء رجل واثق من أن فى استطاعته أن يهز العالم .

وحين طارد فردريك الأكبر أوغسطس من سكسونيا (١٧٥٦) توقف راتب منجز الملكى . وكان عليه أن يعيش على الأجور المتواضعة المعروضة عليه فى إيطاليا . وجرب العمل فى نابلى ، ولكن الفنانين المحليين هددوا حياته باعتباره دخيلا ، وذلك عملا بتقليد نابولتانى قديم ، فقفل منجز إلى روما سريعا . وزين فيللا ألبانى بصور جصية حظيت بالشهرة ذات يوم ، وما زالت ترى هناك لوحته « برناس » (١٧٦١) الممتازة فنيا ، الكلاسيكية هدوءا ، الميتة عاطفيا . ومع ذلك أحس الوزير الأسبانى فى روما أن هذا هو الرجل الذى يصلح لرسم صـــور يزدان بها القصر الملكى فى مدريد . وأرسل شارل الثالث فى طلب منجز ووعده بألفى دبلون فى العام مضافا إليهـــا مسكن ومركبة ورحلة مجانية على بارجة أسبانية موشكة على الاقلاع من نابلى . وفى سبتمبر ١٧٦١ وصل منجز إلى مدريد .

٧ — نابـــلى

(أ) الملك والشعب

أصابت مملكة نابلى التى ضمت كل إيطاليا جنوب الولايات البابوية اللطمات الشديدة فى الصراع على السلطة بين النمسا وأسبانيا وانجلترا وفرنسا . ولكن هذا دأب التاريخ فى تمزيقه الكئيب للمنطق ، والتأرجح الدامى بين النصر والهزيمة ، وحسبنا هنا أن نلاحظ أن النمسا استولت على نابلى فى ١٧٠٧ ،

وأن دون كارلوس ، دوق بارما البوربونى وابن فليب الخامس ملك أسبانيا ، طرد النمساويين فى ١٧٣٤ ، وحكم حتى ١٧٥٩ باسم شارل الرابع ملك نابلى وصقلية . وكانت عاصمته التى ضمت ٣٠٠,٠٠٠ من الأنفس أكبر مدينة فى إيطاليا .

وبلغ شارل النضج فى فن الملك ببطء . ففى أول عهده اتخذ الملكية جوازا للبذخ : فأهمل شئون الحكومة ، وأنفق نصف أيامه فى القنص ، وأسرف فى الأكل حتى أصبح بدينا . ثم حوالى ١٧٥٥ ، وبوحى من وزير العدل والشئون الخارجية المركيز برناردو دى تانوتشى اضطلع بالتخفيف من مظالم الاقطاع القاسى الذى توارى خلف كد الحياه النابولية ونشوتها .

وكانت تحكم المملكة طويلا ثلاث جماعات متشابكة . فالنبلاء يملكون ثلثى الأرض تقريبا ويستعبدون أربعة أخماس الملايين الخمسة الذين يسكنونها ويسيطرون على البرلمان ، ويتحكمون فى نظام الضرائب ، ويعرقلون كل إصلاح . والأكليروس يملكون ثلث الأرض ، ويسترقون الشعب روحيا بلاهوت قوامه الرعب ، وكتب حافلة بالأساطير ، وشعائر تستغل المصلين ، ومعجزات على شاكلة تسييحهم المصطنع كل نصف سنة لدم القديس ياتيوارس (حامى نابلى) المتخثر . وكانت الإدارة فى يد قانونيين يدينون بالطاعة للنبلاء أو الأحبار ، ومن ثم ألتزموا بالوضع الموروث من العصر الوسيط . وكانت الطبقة الوسطى الفقيرة المؤلفة أكثرها من التجار عاجزة سياسياً . وعاش الفلاحون والبرولتاريا فى فقر أكره بعضهم على قطع الطريق وكثيراً منهم على التسول ، وكان هناك ثلاثون ألف شحاذ فى نابلى وحدها[٩٤]. وقد وصف دبروس جماهير العاصمة بأنهم « أبغض الرعاع » وأقذر الحشرات»[٩٥] — وهو حكم أدان النتيجة دون أن يدمغ السبب . على أننا يجب أن نعترف بأن هؤلاء النابوليين المهلهلى الثياب ، المتشبثين بالخرافات ، الخاضعين لسلطان الكهنة ، يبدو أنهم كانوا يملكون من نكهة الحياة وبهجتها أكثر من أى جمهور آخر فى أوربا .

وكبح شارل قوة النبلاء باجتذابهم إلى بلاطه حتى يكونوا تحت ناظرى الملك ، وبإقامة نبلاء جدد يلتزمون بتأييده.وثبط تدفق الشباب على الأديرة ، وانقص جموع الكنسيين من ١٠٠،٠٠٠ إلى ٨١،٠٠٠ ، وفرض ضريبة قدرها اثنان فى المائة على ممتلكات الكنيسة ، وحد من حصانات الاكليروس القانونية . وضيق تانوتشى من سلطة النبلاء القضائية ، وحارب الفساد فى القضاء ، وأصلح الإجراءات القضائية ، وخفف من صرامة قانون العقوبات . وأبيحت حرية العبادة لليهود ، ولكن الرهبان أكدوا لشارل أن افتقاده الوريث الذكر لعرشه هو العقاب الذى أنزله به الله جزاء تسامحه الآثم فسحب الغفران من اليهود [٩٦] .

وكان لولع الملك بالبناء الفضل فى إقامة صرحين شهيرين فى نابلى . وأحدهما هو « التياترو سان كارلو » الشاسع ، وقد أقيم فى ١٧٣٧ ومازال واحداً من أوسع وأجمل دور الأوبرا الموجودة . وفى ١٧٥٢ بدأ لويجى فانفيتلى يبنى الصرح الآخر فى كازوتا على واحد وعشرين ميلا شمالى العاصمة ، وهو قصر ملكى هائل صمم ليتنافس فرساى وليقوم بوظيفته فى إيواء الأسرة المالكة ونبلاء الحاشية وأهم الموظفين الإداريين . وقد اقتضى بناؤه كد العبيد سودا وبيضاً طوال اثنين وعشرين عاماً . وكانت الأبنية ذات المنحنيات تقوم على جانبى مدخل فسيح إلى الصرح الأوسط الذى مد واجهته ٣٠ قدماً . وقام فى الداخل مصلى ومسرح وغرف لا حصر لها وسلم مزدوج عريض كانت كل درجة فيه لوحة رخام واحدة . وامتدت وراء القصر على طول نصف ميل الحدائق المنسقة ، وعدد غفير من التماثيل ، ونافورات فخمة تغذيها قناة طولها سبعة وعشرون ميلا .

ولم يكن فى نابلى فن متميز فى هذا العصر غير قصر كازيرتا هذا (لأن القصر أطلق عليه اسم مدينته شأن الأسكوريال وفرساى) ، ولا كان هناك شىء يستحق الذكر فى الدراما أو الشعر . لقد ألف رجـــل كتابا جريئا « التاريخ المدنى لملوك نابلى » (١٧٢٣) وهو هجوم متواصل على جشع الأكليروس ، ومفاسد المحاكم الكنسية ، وسلطة الكنيسة الزمنيه « ودعوى

البابويه بحقها فى نابلى كأقطاعية بابوية . أما المؤلف واسمه بييترو جانونى فقد حرمه رئيس أساقفة نابلى ، وفر إلى فيينا ، وزج به ملك سردانيا فى السجن ، ثم مات فى تورين (١٧٤٨) بعد أن قضى أثنتى عشرة سنة حبيسا[٩٧] . وفقد انطونيو جينوفيزى إيمانه وهو يقرأ لوك ، وحاول فى كتابه « مبادىء الميتافيزيقا » (١٧٤٣) أن يدخل سيكولوجية لوك إلى إيطاليا . وفى ١٧٥٤ أنشأ رجل أعمال فلورنسى فى جامعة نابلى أول كرسى أوربى للاقتصاد السياسى بشرطين ، إلا يشغله كنسى أبدا ، وأن يكون أول شاغل له أنطونيو جينوفيزى . ورد جينوفيزى صنيعه (١٧٥٦) بأول بحث اقتصادى نظامى فى اللغة الإيطالية « دروس فى التجارة » ، ردد صرخة التجار ورجال الصناعة المطالبين بالتحرر من القيسود الاقطاعية والكنسية وغيرها على المشروعات التجارية الحرة . وفى العام نفسه أعرب كزنيه عن هذا المطلب ذاته للطبقه الوسطى الفرنسية فى مقالاته التى كتبها لموسوعة ديدرو .

ولعل بعض الاتصال كان قد تم بين جينوفيزى وكزنيه على فرديناندو جاليانى النابولى الباريسى . وقد نشر جاليانى فى ١٧٥٠ « بحثا فى النقود » قرر فيه ببراعة اقتصادى فى الثانية والعشرين من عمره ثمن السلعة حسب تكلفة إنتاجها . وألمع منه كتابه « حوار حول تجارة الغلال » الذى ذكرناه من قبل نقدا لكزنيه . فلما اضطر إلى العودة إلى وطنه بعد السنين المثيرة التى قضاها فى باريس ، أحزنه إلا يجد فى نابلى صالونات ، ولا امرأة كمدام جوفران تطعمه وتثير ذكاءه وظرفه . على أنه كان فيها على أية حال فيلسوف ترك بصمته على التاريخ .

(ب) جامباتيستا فيكو

تروى ترجمته الذاتية أنه حين كان فى السابعة سقط من على سلم نقالى، فصدم الأرض برأسه أولا ، وظل غائبا عن الوعى خمس ساعات . وأصيب بكسر فى الجمجمة تكون من حوله ورم ضخم . وكان الورم

يخفف بشقه بمبضع المرة تلو المرة . ولكن الصبي فقد من الدم في هذه العملية ما جعل الجراحين يتوقعون موته القريب . ولكنه بقي على قيد الحياة « بفضل الله ، ولكن نتيجة لهذه البلية شبيت بمزاج مكتئب حاد[٩٨] » . كذلك أصيب بالدرن . ولو كانت العبقرية رهنا بعوق بدني لكان فيكو موفور الحظ .

وحين بلغ السابعة عشرة (١٦٨٥) كسب قوته بإعطاء الدروس الخصوصية في فاتوللا (قرب سالرنو) لأبناء أخي أسقف اسكيا . ومكث هناك تسع سنين » ولكنه كان أثناءها عاكفا في خاصة محمومة على دراسة القانون وفقه اللغة والتاريخ والفلسفة . وافتتن على الأخص بقراءة أفلاطون وأبيقور ولوكريتيوس ومكيافللي وفرانسيس بيكن وديكارت وجروتيوس ، وخرج من هذا كله بشيء من الأذى لإيمانه الديني . وفي ١٦٩٧ حصل على كرسي أستاذ البيان في جامعة نابلي ، ولم يؤجر عليه بأكثر من مائة دوقاتيه في العام » زادها باعطاء الدروس الخصوصية ، ومن هذا الدخل كان يعول أسرة كبيرة . وماتت إبنة له في ريعان الصبي ، وظهرت على ابن له ميول شريرة اقتضت إرساله إلى إصلاحية للأحداث » أما زوجته فكانت أمية عديمة الكفاية » فكان على فيكو أن يكون الأب والأم والمعلم جميعاً[٩٩] . وفي وسط هذه الشواغل المشتته للفكر كتب فلسفته للتاريخ .

وقد قدم كتابه » مبادىء علم جديد في الطبيعة المشتركة للأمم » (١٧٢٥) ، وحاول إن يجد في فوضى التاريخ انتظامات من التعاقب قد تنير الماضي والحاضر والمستقبل . ورأى فيكو أن في استطاعته أن يتبين ثلاث فترات رئيسية في تاريخ كل شعب :

(١) عصر الأرباب الذي إعتقدت فيه الأمم (غير اليهود) أنها تعيش في ظل حكومات إلهيــة » وان كل شيء كان بأمر الأرباب عن طريق التكهن والوحي .

(٢) عصر الأبطال حين كانوا يسيطرون على جمهوريات ارستقراطية ، بحكم تفوق في طبيعتهم اعتقدوا أنهم يمتازون به على العامه »

(٣) عصر البشر ، وفيه أقر الجميع بأنهم متساوون فى الطبيعة البشرية فأقاموا أولى الجمهوريات الشعبية ثم الملكيات[١٠٠] .

وقد طبق فيكو الفترة الأولى على التاريخ (الأممى واللاديني) (غير الكتابى) « فما كان فى استطاعته أن يقول إن يهود العهد القديم إنما « اعتقدوا أنهم) يعيشون فى ظل حكومات إلهية » دون المساس بالتقاليد المقدسة . ولما كان ديوان التفتيش (وهو فى نابولى أشد صرامة منه فى شمال ايطاليا) قد حاكم باحثين نابوليين لأنهم تكلموا على بشر وجدوا قبل آدم، فإن فيكو وفق بجهد بين صيغته وبين سفر التكوين بالافتراض بأن جميع ذرارى آدم ، إلا اليهود » قد ارتدوا بعد الطوفان إلى حالة أقرب إلى الوحشية فسكنوا الكهوف وتسافلوا دون تمييز فى شيوعية نساء . ومن (حالة الطبيعة)الثانية هذه تطورات الحضارة بطريق الأسرة والزراعة والملكية والأخلاق والدين . وكان يذكر الدين أحيانا على أنه طريقةأرواحية (لتفسير الأشياء والأحداث) وأحيانا يشيد به باعتباره قمة التطور .

ويقابل مراحل التطور الإجتماعى الثلاث ، ثلاث (طبائع) أوطرق لتفسير الكون : اللاهوتية ، والأسطورية والعقلية .

كانت الطبيعة الأولى « بحكم خداع الخيال (وهو أقوى ما يكون فى أضعف الناس قدرة على التدليل العقلى) ، طبيعة شعرية أوابداعية ، فلذ نسميها على سبيل التجوز إلهية ، لأنها تصورت الأشياء المادية على أنها تحيا بقوة الآلهة . . . وكان الناس نتيجة لخطأ خيالهم هذا يخافون خوفاً رهيباً من الأرباب التى خلقوها هم أنفسهم . . . . أما الطبيعة الثانية فهى الطبيعة البطولية ، فقد اعتقد الأبطال أنهم من أصل إلهى . . . . وأما الثالثة فالطبيعة (الطريقة) البشرية ، طبيعة ذكية . ومن ثم متواضعة « معتدلة، منطقية » تسلم بأن الضمير والعقل والواجب كلها نواميس[١٠١] » .

وقد حاول فيكو أن يفسح لتاريخ اللغة والأدب والقانون والحكومة

سكاناً ملائماً فى هذا النظام الثلاثى. ففى المرحلة الأولى كان الناس يتواصلون بالإشارات والإيماءات، وفى الثانية بالرموز والتشبيهات والصور « وفى الثالثة بالكلمات التى اتفق عليها القوم . . . ليحددوا بهذا معنى القوانين » . ومر القانون نفسه بتطور مقابل لهذا : فكان أول الأمر إلهياً ؛ منزلا كما كان الحال فى ناموس موسى ، ثم بطولياً كقانون ليكورجوس ، ثم بشريا — أملاه العقل البشرى المكتمل النمو[١٠٢] كذلك مرت الحكومة بثلاث مراحل : التيوقراطية ؛ وفيها زعم الحكام أنهم صوت الله ، والارستقراطية ، وفيها اقتصرت جميع الحقوق المدنية على طبقة الأبطال الحاكمة « والبشرية ، وفيها يعتبر الجميع سواء أمام القوانين ، . . . وهذه هى الحال فى المدن الشعبية الحرة ، . . . وكذلك فى الملكيات التى تجعل جميع رعاياها سواء أمام قوانينهم[١٠٣] . وواضح أن فيكو استعـاد تلخيص أفلاطون للتطور السياسى من الملكية إلى الإرستقراطية إلى الديمقراطية إلى الدكتاتورية (حكم الطغاة) ، ولكنه غير الصيغة لتقرأ : تيوقراطية وارستقراطية ، وديمقراطية ، وملكية . وقد اتفق مع أفلاطون فى أن الديمقراطية تنزع إلى الفوضى ، واعتبر حكم الرجل الواحد علاجاً ضرورياً للخلل الديمقراطى « ، أن الملكيات هى الحكومات النهائية ، . . . التى تصل إليها الأمم لتستريح[١٠٤] .

وقد ينبعث الخلل الإجتماعى من التدهور الخلقى « أو الترف « أو تركيز الثروة تركيزاً يمزق الأمة ، أو الحسد العدوانى بين الفقراء . ومثل هذا الخلل يفضى عادة إلى الدكتاتورية ، كما نرى فى حكم أوغسطس الذى كان فيه الشفاء من الفوضى الديمقراطية فى الجمهورية الرومانية . فإذا عجزت حتى الدكتاتورية عن وقف الإنحلال « فان أمة أشـد قوة وعنفواناً تدخل فاتحة للبلاد .

« وإذا كان الناس الذين بلغ منهم الفساد هذا المبلغ قد انقلبوا عبيداً لشهواتهم الجامحة . . . فإن العناية الآلهية تقضى بأن يصيروا عبيداً بحكم القانون الطبيعى للأمم ، . . . . فيستعبدوا لأمم أفضل منهم يحكمونهم بعد أن يغلبوهم كما يحكم الغالب الأقاليم الخاضعة له . . . وهنا يسطع ضوءان عظيمان من أضواء النظام الطبيعى . أولها أن من يعجز عن حكم نفسه يجب

أن يدع القادر على حكمه أن يحكمه ، والآخر أن العالم يحكمه دائماً من هم بالطبيعة أصلح الحاكمين[١٠٦] .

وفى مثل هذه الحالات يرتد الشعب المغلوب إلى مرحله التطور التى وصل إليها غالبوه . وهكذا إرتد سكان الإمبراطورية الرومانية إلى الهمجية والتخلف بعد غزوات الشعوب الهمجية واضطروا إلى أن يبدأوا بالتيوقراطية (حكم الكهنه واللاهوت) ، وتلك كانت العصور المظلمة . ثم جاء عصر بطولة آخر بمجىء الحروب الصليبية ، وأمراء الأقطاع يقابلون إبطال هومر . ودانتى هو هومر مكرراً .

ونسمع فى ڤيكو أصداء للنظرية التى تزعم أن التاريخ تكرار دائر « ولقانون مكيافللى « corsi e ricorsi التطور والتقهقر » وفكرة التقدم تضار فى هـــذا التحليل ، فليس التقدم الأنصف حركة دورية نصفها الأخر الانحلال ، والتاريخ « شأنه شأن الحياة ، هـــو تطور وإنحلال فى تعاقب وحتمية لا محيص عنهما .

وقدم ڤيكو فى الطريق إلماعات مدهشه . فقد رد الكثيرين من أبطال الاساطير الـــكلاسيكية إلى الأسماء البعدية eponyms والتشخيصات التالية لعمليات ظلت طويلا لاشخصيه أو متعددة الشخصيات ، فأورفيوس مثلا كان المدمج الوهمى لموسيقيين بدائيين كثيرين ، وليكورجوس كان التجسيد لسلسلة القوانين والعادات التى جمدت اسبرطة » وروملس كان ألف رجل جعلوا من روما دولة .[١٠٧] وبالمثل رد ڤيكو هومر إلى الخرافة « مدللا على ذلك — قبـــل كتاب فريدريك ڤولف « مقدمات نقدية لهومر (١٧٩٥) بنصف قرن — بأن الملاحم الهومرية إنمـــا هى حصيلة تجمعت وادمجت شيئاً فشيئا لجماعات وأجيال من رواة الملاحم الذين كانوا ينشدون بطولات طرواده وأوديسيوس فى مدن اليونان[١٠٨] . وقبـــل قرن تقريباً من صور كتاب بارتهولد نيبور « تاريخ روما » (١٨١١ — ٣٢) رفض ڤيكو الفصول الأولى من تاريخ ليڤى لأنها أسطورية . « كل تواريخ

الأمم غير اليهوديه كان لهـا بدايات خرافية[١٠٩] ، (وهنا أيضاً يتجنب ڤيكو فى حذر أن يمس تاريخية سفر التكوين) :

وهذا الكتاب الخطير يكشف عن عقل قسوى تزعجه المضايقات المتصلة ، يكافح لصياغة أفكار أساسيه دون أن يقضى به المسير إلى سجن من سجون ديوان التفتيش . وقد بذل ڤيكو قصاراه المرة بعد المرة ليعلن ولاءه للكنيسة وأحس أنه جدير بثناء الكنيسة لتفسيره مبادىء القانون بطريقة تتفق واللاهوت الكاثوليكي[١١٠] . ونحن نسمع نغمة أكثر إخلاصا فى رأيه فى الدين دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى والفضلية الشخصية : « أن للأديان دون غيرها القوة على جعل الناس يعملون الأعمال الفاضله[١١١]... » ومع ذلك ، ورغم تكرار استعماله للفظ « العناية الألهيه » ، يبدو انه يبعد الله عن التاريخ ويرد الأحداث إلى التفاعل الحربين الأسباب والنتائج الطبيعية . وقد هاجم دارس دومنيكى فلسفة ڤيكو لأنها ليست مسيحية بل لوكريتيه .

ولعل العلمانية المنبعثه من تحليل ڤيكو كان لها بعض الصله بأخفاقها فى أن تظفر بالأسماع إليها فى أيطاليا ، وما من شك فى أن ما شاب عمله من استطراد فوضوى وعاب فكره من اختلاط قد قضى على « علمه الجديد » بأن يولد ميتا وأن تكون ولادته مؤلمة . فلم يوافقه أحد على إعتقاده بأنه كتب كتابا عميقا أو مثيراً . وعبثا نأشد جان لكلير ولو ليذكره فى دورية « أخبار عالم الأدب » ، وبعد عشر سنوات من ظهور كتاب العلم الجديد خف شارل الرابع لنجدة ڤيكو ، فعينه مؤرخا رسميا للملك براتب سنوى قدرة مائة دوقاتية . وفى ١٧٤١ قرت عين جامباتستا برؤية ولده جنارو يخلفه أستاذا فى جامعة نابلى . وفى سنواته الأخيره (١٧٤٣ — ٤٤) ضعف عقله فتردى فى غيبية أشرفت على الجنون .

وكان فى مكتبة مونتسيكو نسخه من كتابه[١١٢] ، وقد أقر الفيلسوف الفرنسى فى هوامش مذكرات خاصه بدينه لنظرية ڤيكو فى التطور والأنحلال الدورى ، ويظهر هـذا الدين الذى لم يفصح عنه فى كتاب مونتسيكو « عظمة الرومان وإنحطاطهم » (١٧٣٤) . وفيما عدا هذا ظل ڤيكو مجهولا

فى فرنسا حتى نشر جول ميشليه (١٨٢٧) ترجمة مختصرة لكتاب العلم الجديد . وقد وصف ميشليه أيطاليا بأنها « الأم الثانيه والحاضنه التى غذتنى فى صباى بفرجل ، وفى شبابى بفيكو[١١٣] » . وفى ١٨٢٦ بدأ أوجست كونت المحاضرات التى أصبحت فيما بعد « مجموعة محاضرات فى الفلسفه الوضعية » (١٨٣٠ - ٤٢) ، وفيها يشعر القارىء بتأثير فيكو فى كل خطوة .

أما الأنصاف الكامل لفيكو فلم يأت إلا على يد رجل نابولى هو بنديتو كروتشى[١١٤] ، الذى ألمع هـو الآخر إلى أن التاريخ يجب أن يتخذ مكانه إلى جوار العلم أساساً ومدخلا للفلسفة .

ج — موسيقى نابلى

تليت نابلى قول فيثاغورس « قرأت أن الموسيقى أرفـع ضروب الفلسفه . وقد كتب لالاند ، الفلكى الفرنسى ، بعد جولة فى أيطاليا فى ١٧٦٥ — ٦٦ يقول :

« إن الموسيقى هى الأنتصار الأعظم للنابوليين ، وكأن أغشية طبلة الأذن فى ذلك البلد أشد توترا وتناغما ورنينا منها فى أى بلد آخر فى أوربا . فالأمه كلها تغنى . وإيماءات الجسد ، والنبرة « والصوت ، وإيقاع المقاطع بل والحديث نفسه .. كلها تتنفس الموسيقى . ومن ثم كانت نابلى المصدر الرئيسى للموسيقى الايطاليه ، ولكبار الملحنين « وللأوبرات الممتازة ، ففيها أخرج كوريللى وفنتشى وريناللدو وجوميللى ودورانتى وليو وبرجوليزى . . . وكثير غيرهم من أعلام الملحنين روائعهم[١١٥] » .

على أن نابلى تفوقت فى الأوبرا الألحان الصوتيه فقط « أما فى الموسيقى الآليه فقد عقدت الزعامة للبندقية » وشكا هواة الموسيقى من أن أهل نابلى أحبوا جميل الصوت أكثر من لطائف الهارمونى (التوافق) والكونترابنط . هنا ملك نيكولو بربورا « « الذى ربما كان أعظم من عاش من معلمى الغناء[١١٦] » . وكان كل شاد أيطالى يصبو إلى أن يكون تلميذه ، فإذا قبله

احتمل فى ذلة شذوذاته العاتية ، روى أنه أبقى جايتانو كفاريللى خمس سنوات فى صفحة تمارين واحدة ، ثم صرفه مؤكداً له أنه الآن أعظم المغنين فى أوربا[١١٧] . وكان هناك معلم غناء آخر يدعى فرانشيسكو دورانتى ، لم يفوقه مرتبة غسير پورپورو ، وقد علم الغناء لفنتشى ، وجومللى ، وپرجوليزى ، وبايزيللو ، وپتشينى .

أما ليونارد وفنتشى فقد بدأ معوقاً بسبب اسمه ، ولكنه ظفر بالغناء المبكر بتلحينه أوبرا متاستازيو Didone abband onate. وقال الجاروتى « أن فرجل نفسه كان يبهجه أن يسمع تلحينا فيه هذه الحيويه وهذا التعذيب ، تهجم فيه على القلب والروح كل قسوى الموسيقى[١١٨] » . وأشهر منه ليوناردو ليو ، فى الأوبرا الجادة والهازله ، والاوراتوريو ، والقداسات والموتيتات ، وقد ترددت نابلى فترة بين الضحك على أوبراه الكوميديه La finta Fracastana (الضجة المفتعلة) والبكاء على لحن Misereur (ارحمنى) الذى لحنه لخدمات الصوم الكبير فى ١٧٤٤ .

وحين استمع ليو حوالى عام ١٧٣٥ إلى كنتاتا من تلحين نيكولو جوميللى قال فى عجب « لن يمض طويل زمن حتى يغدو هذا الفتى محط عجب أوربا واعجابها »[١١٩] . وقد حقق جوميللى النبوءة تقريباً . فى الثالثة والعشرين من عمره ظفر باطراء نابلى الحماسى على أوبراه الأولى ، وفى السادسة والعشرين حقق نصراً مماثلا فى روما . وحين مضى إلى بولونيا قدم نفسه على أنه تلميذ لبادرى مارتينى ، ولكن حين سمعه ذلك المعلم المبجل يرتجل فوجيه بكل تطورها الكلاسيكى صاح « إذن فمن أنت ؟ أتراك تسخر منى ؟ إنى أنا الذى يجب أن يتعلم منك »[١٢٠] . وفى البندقية أثارت أوبراته من الحماسة ما حمل مجلس العشرة على تعيينه مديراً للموسيقى فى مدرسة ذوى الأمراض المستعصية ، وهناك كتب قطعا من أفضل موسيقى ذلك الجيل الدينية . وحين انتقل إلى فيينا (١٧٤٨) أخذ يلحن مع متاستازيو الذى ارتبط معه برباط صداقة وثيقة . وبعد أن حقق مزيداً من الانتصارات فى البندقية وروما استقر فى شتوتجارت ولود فجسبرج

(١٧٥٣ — ٦٨) رئيساً لفرقة مرتلى دوق فورتمبرج . وهنا عدل أساوبه الأوبرالى فى اتجاه ألمانى ، فزاد من توافقه تركيبا ، واضفى مزيداً من المادة والثقل لموسيقاه الآلية ، وتخلى عن تكرار الألحان من البداية da capo وأضاف مصاحبة أوكسترالية للسرديات وأحل الباليه محلا بارزا فى أوبراته ، ربما متأثرا بجان جورج نوفير ، أستاذ الباليه الفرنسى فى شتوتجارت ، وقد مهدت هـذه التطورات فى موسيقى جوميللى ، إلى حد ما ، لاصلاحات جلوك .

فلما عاد الملحن المسن إلى نابلى (١٧٦٨) أنكر الجمهور ميوله التيوتونية ، ورفضوا أوبراته رفضا باتا . وقد قال موتسارت بعد أن سمع إحداها هناك فى ١٧٧٠ — « إنها جميلة ، ولكن أسلوبها أرفع وأقدم ممـا يحتمله المسرح » ، [١٢١] ولقى جوميللى حظا أفضل بموسيقاه الكنسية . فرتلت موسيقى لحن « ارحمنى » و « قداسة الموتى » فى العالم الكلاثوليكى طولا وعرضا . وقد كتب وليم بكفورد بعد استماعه إلى القداس يرتل فى لشبونه فى ١٧٨٧ « لم أسمع قط ولعلى لن أسمع ثانية مثل هذه الموسيقى المهيبة المؤثرة » . [١٢٢] واعتزل جوميللى فى بلدته أفرسا بعد أن ادخر لمستقبله بحرص تيوتونى ، وأنفق سنواته الأخيرة شيخا بدينا ثريا . وفى ١٧٧٤ شيع جثمانه جميع موسيقيى نابلى البارزين .

ولقد ضحكت نابلى أكثر حتى مما غنت . فبأوبرا كوميدية غـزا برجوليزى باريس بعد أن أبت تلك المدينة المستكبرة دون سائر العواصم الأوربية أن تخضع لأوبرا إيطاليا الجادة . ولم يخض جوفانى باتستا برجوليزى تلك المعركة بشخصه ، لأنه مات فى ١٧٣٦ فى السادسة والعشرين من عمره . وقد ولد بقرب أنكونا ، ووفد على نابلى وهو فى السادسة عشرة . وما أن بلغ الثانية والعشرين حتى كان قد كتب عدة أوبرات ، وثلاثين صوناتا ، وقداسين ، حظيت كلها بالاعجاب الشديد ، وفى ١٧٣٣ قدم أوبرا تسمى il prigioniero « السجين » وقدم لها بمقدمة « الخادمة التى تنقلب سـيدة البيت » : والنص قصة مرحة تحكى كيف تحتال الخادمة سربينا على سيدها

حتى يتزوجها ، أما الموسيقى فساعة حافلة بالمرح والألحان الرشيقة . وقد أسلفنا كيف أسر هذا المرح البارع مزاج باريس وقلبها فى «حرب المهرجين» فى ١٧٥٢ ، التى عرضت فى الأوبرا مائة مرة ، ثم ستا وتسعين مرة أخرى فى ١٧٥٣ فى التياتر فرانسيه . وقاد برجولزى أثناء ذلك أوبراه «الأولمبياد» فى روما (١٧٣٥) « فقوبلت بعاصفة من صفير الاستهجان ، وبرتقالة صوبت بدقة على رأس الملحن » [١٢٣] وبعد سنة ذهب إلى بوتسرولى ليعالج من اصابته بالسل . الذى ازداد فداحة من جراء أسلوب حياته الخليع . وقد كفر موته الباكر عن آثامه « ودفنه فى الكتدرائية المحلية الرهبان الكبوشيون الذين أنفق معهم أيامه الأخيرة . أما روما التى ندمت على فعلتها فقد بعثت « الأولمبياد » من جديد « وصفقت لها فى طرب شديد » واليوم تحفظ له إيطاليا ذكرى مجيدة لا لفواصله المرحة بقدر ما تحفظها له لرقة العاطفة فى « آلام العذراء » التى لم يعش ليكملها . وقد جعل برجولزى نفسه موضوعا لأوبراوين .

وقد أصاب دومنيكو سكارلاتى ما أصاب برجولزى من مبالغة طفيفة نفختها فيه رياح الذوق ، ولكن من ذا الذى يستطيع مقاومة تألق براعته وخفة يده ؛ ولد فى عام العجائب « عام هندل وباخ (١٦٨٥) » وكان الطفل السادس لألساندرو سكارلاتى ، الذى كان آنئذ فردى الأوبرا الإيطالية . وقد تنفس الموسيقى منذ ولد . فقد كان أخوه بييترو « وابن عمه جوزيبى » وعماه فرانشيسكو وتومازو موسيقيين . وكانت أوبرات جوزيبى تخرج فى نابلى وروما وتورين والبندقية وفيينا . وخشى الأب أن تختنق عبقرية الفتى دومنيكو بهذه الوفرة فى المواهب فبعث به إلى البندقية وهو فى العشرين وقال « ان ابنى هذا نسر كبر جناحاه « فيجب ألا يبقى فى العش ، وعلى ألا أعطل طيرانه [١٢٤] .

وفى البندقية واصل الشاب دراساته والتقى بهندل . ولعلهما قصدا روما معا حيث دخلا بتحريض من الكردينال أوتوبونى فى مباراة ودية على الهاربسكورد ثم على الأرغن . وكان دومنيكو يومها أفضل عازف على

الهاربسكورد فى إيطاليا ، ولكن يروى أن هندل لم يكن دونه مهارة عليه ، أما على الأرغن فإن سكارلاتى اعترف بصراحة بتفوق « السكسونى العزيز » عليه . وتوثقت الصداقة بين الرجلين « وهذا أمر عسير جدا على كبار الممارسين لفن واحد » ولكن يقول معاصر لهما أن « دومنيكو كان صاحب طبع غاية فى اللطف وسلوك غاية فى النبل »[١٢٥] . أما هندل فكان قلبه كبيرا كهيكله . ومنع الإيطالى تواضعه وحياؤه من عرض براعته فى العزف على الهاربسكورد أمام الجماهير . ونحن نعرفها من أخبار السهرات الموسيقية الخاصة فقط . وقد خيل لأحد سامعيه فى روما (١٧١٤) « أن عشرة آلاف شيطان كانوا يعزفون على الآلة » إذ لم يسمع قط من قبل « مثل هذه الفقرات تنفيذا وتأثيرا »[١٢٦] وكان سكارلاتى أول من طور امكانات لوحة مفاتيح اليد اليسرى بما فى ذلك إمرارها فوق اليد اليمنى . قال « ان الطبيعة منحتنى عشرة أصابع ، وبما أن آلتى تتيح تشغيلها جميعا . فلست أرى سببا فى ألا استعملها »[١٢٧] .

وفى ١٧٠٩ قبل وظيفة « مايسترو دى كابللا » للملكة بولندة السابقة ماريا كازيميرا . ذلك أنها بعد موت زوجها جان سوبيكى نفيت لاعتبارها دساسة مثيرة للقلاقل . فلما قدمت إلى روما فى ١٦٩٩ صممت على إنشاء ندوة تحفل بالعبقريات كصالون كرستينا ملكة السويد التى ماتت قبل ذلك بعشر سنين . فجمعت الكثير من رواد صالون كرستينا السابقين فى قصر على ميدان « ترينيتا دى مونتى » وفيهم عدة أعضاء فى الأكاديمية الأركادية . وهناك (١٧٠٩ - ١٤) أخرج سكارلاتى عدة أوبرات . ولما شجعه نجاحها ، قدم « أمليتو » (هاملت) على مسرح الكابرانيكو . ولم تلق قبولا حسناً من الجمهور ، ولم يعد دومنيكو بعدها قط لتقديم أوبرا لجمهور إيطالى . فلعل وضع أبوه مستوى للأوبرا كان أعلى من أن يدركه .

وظل أربع سنين (١٧١٥ - ١٩) يقود الكابيلا جوليا بالفاتيكان ، ويعزف الأرغن فى كتدرائية القديس بطرس ؛ ثم لحن الآن « آلام العذراء » التى حكم الجمهور عليها بأنها « رائعة أصيلة »[١٢٨] وفى ١٧١٩ ، قاد أوبراه

« نار تشيزو » فى لندن . ثم نجده بعد عامين فى لشبونة قائداً لفرقة المنشدين للملك يوحنا الخامس ومعلما لإبنة الملك ماريا بربارة « التى أصبحت بفضل تعليمه عازفة ماهرة على الهاريسكورد » ومعظم صوناتاته الباقية ألفهـا لاستعمالها . فلما عاد إلى نابلى (١٧٢٥) تزوج وهو فى الثامنة والأربعين ماريا جنتيلى التى لم تتجاوز السادسة عشرة » وفى ١٧٢٩ اصطحبها إلى مدريد . فى تلك السنة تزوجت ماريا برباره من فرديناند ، ولى عهد أسبانيا . فلما انتقلت معه إلى إشبيليه رافقها سكارلاتى وظل فى خدمتها إلى أن ماتت .

وماتت زوجة سكارلاتى فى ١٧٣٩ مخلفة له خمسة أطفال . وتزوج ثانية « وسرعان ماأصبح الخمسة تسعة . فلما اصبحت ماريا بربارة ملكة على أسبانيا (١٧٤٦) جلبت أسرة سكارلاتى معها إلى مدريد . وكان فارنيللى الموسيقى الأثير لدى الملك والملكة » ولكن المغنى والعازف أصبحا صديقين حميمين . وكانت وظيفة سكارلاتى وظيفة خادم ممتاز ، بعد البلاط الأسبانى بالموسيقى . وحصل على إذن بالذهاب إلى دبلن فى ١٧٤٠ وإلى لندن فى ١٧٤١ ، ولكنه كان أكثر الوقت يعيش فى قناعة هادئة بمدريد أوقربها ، متوارياً عن العالم تقريباً ، لا يخامره الظن على الأرجح بأنه سيكون أثيراً لدى عازفى البيان فى القرن العشرين .

ولم ينشر سكارلاتى فى حياته سوى ثلاثين صوناتا من بين ٥٥٥ صوناتا تستند الآن إليها شهرته استناداً قلقاً بفضل حلياتها النغمية . وقد دل عنوانها المتواضع (تمارين على الهاريسكورد) على هدفها المحدود ، وهو ارتياد إمكانات التعبير بتقنية الهاريسكورد . وهى ليست صوناتات إلا بالمعنى الأقدم للفظ « أى قطع آلية « تعزف » ولا تغنى . ولبعضها موضوعات متعارضة ، وبعضها تزاوج فى مقامات كبيرة وصغيرة ، ولكنها كلها فى حركات مفردة لم تبذل فيها أى محاولة لتفصيل الموضوع وتلخيصه . وهى تمثل تحرر موسيقى الهاريسكورد من تأثير الأرغن ، وتلقى التأثيرات من الأوبرا بمؤلفات للوحة المفاتيح . وقد تفوقت على حيوية أصوات السوبرانو والمغنين الخصيان ورقتها ورعشاتها وحيلها بالأصابع الخفيفة الرشيقة الطيعة لخيال لعوب مسرف .

لقد « لعب» سكارلاتى الهاريسكورد بمعنى الكلمة الحرفى . يقول فى هذا : « لا تتوقعوا أى عمق فى العلم ، بل معابثة بارعة بالفن » [١٢٩] . وهناك أثر فى الرقص الأسبانى وما فيه من أرجل طافرة وتنورات مدومة وصاجات رنانة تحسه فى هذه التموجات والتدفقات ؛ وفى كل موضع من الصوناتات تجد استسلام العازف للذة التحكم فى آلته [١٣٠] .

ولابد أن هذا الفرح بالآلة كان من بواعث السلوى لسكارلاتى فى سنوات خدمته تلك فى أسبانيا . وقد نافسته لذة لعب الميسر الذى أتى على الكثير من معاشه ، واضطرت الملكة إلى سداد ديونه غير مرة . ثم ساءت صحته بعد ١٧٥١ ، وزادت تقواه وورعه . وفى ١٧٥٤ عاد إلى نابلى ومات فيها بعد ثلاث سنين . وتولى فارنيللى الطيب إعالة اسرته المعوزة .

وقد أرجأنا الكلام على سيرة فارنيللى الغريبة فى أسبانيا حتى فصل لاحق . وقد كان هو ودومنيكو سكارلاتى ، وجامباتستا ودومنيكو تييولو ، من الإيطاليين الموهوبين الذين كان لهم الفضل ، هم ومنجز المتطلين تقريبا ، فى استخدام الموسيقى والفن الإيطاليين فى البعث الأسبانى . وفى ١٧٥٩ لحق بهم ملك نابلى أوسبقهم . ففى ذلك العام مات فرديناند السادس دون عقب . وورث أخوه شارل الرابع ملك نابلى العرش الأسبانى باسم شارل الثالث . وأسفت نابلى على رحيله عنها . وكان هذا الرحيل فى أسطول من ست عشرة سفينة يوم عطلة حزينة لأهل نابلى ، فاجتمعوا فى حشود كبيرة بطول الشاطئ ليشاهدوه وهو يقلع ، ويروى أن كثيرين منهم بكوا وهم يودعون « ملكاً أثبت أنه أب لشعبه» [١٣١] . وقد كتب له أن يتوج أعماله ببث الشباب فى حياة أسبانيا .

الفصل العاشر

البرتغال وبومبال ١٧٠٦ – ٨٢

١ – يوحنا الخامس : ١٧٠٦– ٥٠

لم اضمحلت البرتغال بعد أيامها المجيدة التى أنجبت ماجلان وفاسكو داجاما وكاموئيس ؟ لقد كان فى جسدها وروحها يوما ما من الهمة ما يكفى لإرتياد نصف الكرة وانشاء المستعمرات الحريثة فى ماديرا ، والأزور، وأمريكا الجنوبية ، وافريقيا ، ومدغشقر ، والهند وملقا ، وسومطرة : أما الآن ، فى القرن الثامن عشر ، فقد باتت نتوءاً ضئيلا لأوربا ، مقيدة إلى انجلترة فى التجارة والحرب ، ويغذيها ذهب البرازيل وماسها اللذان يصلان إليها بإذن الأسطول البريطانى . فهل أنهكت قواها لفرط ما قدمت من الرجال البواسل لتملك هذا العدد العديد من المخافر الأمامية القلقة التوازن على أطراف المعمورة ؟ أم لعل تدفق الذهب عليها نزح الحديد من عروقها وأوهن طبقاتها الحاكمة فانتكست من حياة الأقدام والمغامرة إلى حياة اللين والدعة ؟

أجل ، لاريب أنه أوهن من قوة الصناعة أيضاً . فأى جدوى فى محاولة تبذلها لتنافس مهرة الصناع أو ملتزمى الصناعة الإنجليز أو الهولنديين أو الفرنسيين فى الحرف أو الصناعات ، ما دام فى طاقتها شراء ما تستورده من الكساء والغذاء وأسباب الترف والنعيم بالذهب المستورد ؟ فأما الأغنياء اللذين يتاجرون بالذهب فقد أصبحوا أكثر غنى ، وازدادوا فخامة ملبس وبهاء زينة ، وأما الفقراء اللذين حيل بينهم وبين ذلك الذهب فقد ظلوا يتردون فى فقرهم لايحثهم على الكد والعرق غير حافز الجوع . وأدخل

تشغيل الرقيق فى مزارع كثيرة » وملأ المتسولون المدن ضجيجا بصيحاتهم. وقد كتب عنهم وليم بكفورد حين سمعهم فى ١٧٨٧ يقول « ليس بين الشحاذين قاطبة من يضارع شحاذى البرتغال قوة رئات ، ووفرة قروح ، وكثرة حشرات » وتنوع أسمال ، وترتيب خرق ، ومثابرة لاتهاب . . أن عددهم لايحصى ، عمى ، صم ، جرب[1] » .

ولم تكن لشبونة يومها هذه المدينة الجميلة التى نعهدها اليوم . لقد كانت الكنائس والأديرة غاية فى البهاء » وقصور النبلاء فسيحة ضخمة » ولكن نسبة لاتقل عن عشر السكان بغير مأوى » وكانت الأزقة الملتوية تفوح منها رائحة القمامة والقذارة[2] . ومع ذلك فهنا ، كما فى سائر بلاد الجنوب » عوض الفقر بأسباب العزاء من الأيام المشمسة ، والأمسيات المزدانة بالنجوم ، والموسيقى ، والدين ، والنساء المتدينات ذوات العيون التى تعذب الناظرين . وكان القوم يتدفقون فى الشوارع بعد أن تخف وقدة القيظ لايعوقهم لدغ البراغيث فى أجسامهم ولا طنين البعوض فى الهواء ، فيرقصون ويغنون ويعزفون على القيائير ويقتتلون للفوز بابتسامة من عذراء .

وكانت المعاهدات (١٦٥٤ ، ١٦٦٢ » ١٧٠٣) قد قيدت البرتغال بانجلترة فى تكافل عجيب حالف بينهما فى الاقتصاد والسياسة الخارجية » ابقاهما فى الوقت نفسه أشد ماتكونان تبايناً فى العادات وخصومة فى العقيدة. وتعهدت انجلترة بحماية استقلال البرتغال والسماح باستيراد النبيذ البرتغالى (البورت من أوبورتو) برسم جمركى مخفض جداً . أما البرتغال فتعهدت بالسماح باستيراد المنسوجات الانجليزية معفاة من الرسوم » وبالوقوف فى صف انجلترة فى أى حرب تنشب . ونظر البرتغاليون إلى الانجليز على أنهم زنادقة هالكون يملكون أسطولا قوياً ، ونظر الانجليز إلى البرتغال على أنهم قوم جهلة متعصبون يملكون الموانى الاستراتيجية . وسيطر رأس المال البريطانى على الصناعة والتجارة البرتغاليتين . كتب بومبال يشكو من هذه الأوضاع فى شىء من المبالغة : —

« فى سنة ١٧٥٤ لم تكد البرتغال تنتج أى شىء يعينها على الاستكفاء .

فلبثنا الضروريات المادية تزودها انجلترة . وغدت انجلترة السيد المتصرف في تجارتنا كلها، وكان الوكلاء الانجليز يديرون تجارتنا الخارجية بجملتها . فهم يملكون كل شحنات السفن المقلعة من لشبونة إلى البرازيل ، ومن ثم يملكون الثروة العائدة بديلا عن هذه الشحنات . فلم يكن شيء برتغالياً إلا بالاسم فقط[٣] » .

ومع ذلك وصل إلى يد الحكومة البرتغالية من ذهب المستعمرات وفضتها وأحجارها الكريمة ما يكفى لتمويل مصروفاتها ولجعل الملك مستقلا عن مجلس الشعب وسلطانه الضريبي . وهكذا عاش يوحنا الخامس ، طوال ملكه الذى امتد أربعة وأربعين عاماً ، يرفل فى رغد من العيش كأنه أحد سلاطين الشرق ؛ ويلطف من تعدد نسائه بالثقافة ويجمله بالولاء للكنيسة . فوهب الأموال الطائلة أو أقرضها للبابوية ، وتلقى نظير ذلك لقب « صاحب الجلالة العظيم الإيمان » بل نال حتى حق تلاوة القداس . . دون حق تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . قال فردريك الأكبر « كانت ملذاته فى الوظائف الكهنوتية ، ومبانيه أديرة ، وجيوشه رهباناً وخليلاته راهبات[٤] » .

وأثرت الكنيسة بفضل هذا الملك الذى يدين لهـا بالكثير جدا من الغفرانات . فملكت نصف الأراضى[٥] ، وشغل اتباعها تسعمائة دار دينية، وبلغ عدد الكنسيين من مختلف الرتب أوالملحقين بالمؤسسات الدينية زهاء ٢٠٠٫٠٠٠ فى أمة تعد مليونين من الأنفس . واختص اليسوعيون بمكان الصدارة المرموق سواء فى أرض الوطن وفى المستعمرات ؛ فلقد ساهموا فى الفوز بالبرازيل للبرتغال ، وكان الناس — حتى فولتير — مسرورين بإدارتهم لبارجواى ؛ ولقى نفر منهم الترحيب فى البلاط ، وتمكن بعضهم التسلط على الملك . وكان الملك فى موكب (عيد القربان) العظيم يحمل أحد أعمدة الظلة التى حمل تحتها بطريرك لشبونة السر المقدس . فلما تعجب الانجليز لمنظر طريق الموكب يصطف على جانبيه الجند والمصلون وكلهم عارى الرأس جاث على ركبتيه ، قيل لهم فى تفسير هذا المشهد أن مثل هذه

المراسم ، وعرض الآنية النفسية والرفات المعجز فى الكنائس ، عامل رئيسى فى حفظ النظام الاجتماعى بين الفقراء .

وكانت محاكم التفتيش خلال ذلك ساهرة على نقاء عقيدة الأمة ودمائها. وقد كبح يوحنا الخامس من سلطان هذه المؤسسة بحصوله على مرسوم من البابا بندكت الثالث عشر يسمح لسجنائها بأن يدافع عنهم المحامون ويشترط مراجعة الملك لجميع أحكامها[٦] . ومع ذلك كان لهـــذه المحكمة من النفوذ والسلطان ما مكنها من إحراق ستة وستين شخصا فى لشبونه على مدى أحد عشر عاماً (١٧٣٢ — ٤٢) من بينهم أنطونيو خوزيه دا سيلفا كبير كتاب العصر المسرحيين البرتغاليين ، الذى أتهم بأنه يضمر اليهودية . وفى يوم إعدامه (١٩ أكتوبر ١٧٣٩) مثلت احدى مسرحياته فى ملهى لشبونى[٧] .

وأحب يوحنا الخامس الموسيقى والأدب والفن . فاستقدم الممثلين الفرنسيين والموسيقيين الايطاليين إلى عاصمة ملكه . ثم انشأ أكاديمية التاريخ الملكية . ومول القناة الكبرى التى تمد لشبونة بالماء . وانفق خمسين مليونا من الفرنكتات ليشيد دير مافرا (١٧١٧ — ٣٢) ، الذى يفوق الأسكوريال سعة ، والذى ما زال من أروع ما تحويه شبه الجزيرة الأيبيرية من صروح . ورغبة فى تزيين داخل الدير استعار من أسبانيا أعظم مصورى القرن البرتغاليين .

وكان هذا المصور — فرانسسكوفييرا — البالغ آنذاك الرابعة والثمانين من عمره يمزج العشق والفن فى شاعرية إفتتنت بها البرتغال بأسرها . ولد بلشبونة فى ١٦٩٩ ، ووقع فى غرام اجنيز إيلينا دى ليما وهما بعد طفلان . وإذ كان مولعا بالتصوير أيضاً ، فقد ذهب إلى روما فى التاسعة ودرس فيها سبع سنين ، ولما بلغ الخامسة عشرة فاز بالجائزة الأولى فى مسابقة قدمتها أكاديمية القديس لوقا . وحين عاد فى ١٧١٥ اختاره يوحنا الخامس ليرسم صورة « سر التناول » وروى أنه أتمها فى ستة أيام . ثم إنطلق باحثا عن أجنيز ، فرده عنها أبوها النبيل وحبس الفتاة فى دير للراهبات . فلجأ فرانسسكو إلى الملك ، ولكنه أبى أن يتدخل فى الأمر . فقصد روما وحصل على مرسوم

بابوى يلغى نذور اجنيز الديرية ويصرح بزواجه منها . ولكن السلطات البرتغالية تجاهلت المرسوم . فتنكر فرانسسكو فى زى بناء بعد أن عاد إلى لشبونه ، ودخـــل الدير وخطف حبيبته وتزوجها . فأطلق عليه أخوها الرصاص ، ولكنه شفى من إصابته وغفر لمهاجمه . وعينه يوحنا الخامس مصورا للبلاط . ولم يكتف بتكليفه تزيين دير مافرا بل وكل إليه تجميل القصور الملكية . وبعد موت اجنيز (١٧٧٥) انفق فرانسسكو ما بقى من أجله فى الاعتكاف الدينى وأعمال البر . كم من قصص كهذه تروى مغامرات الروح والدم ضاعت وراء وأجهات التاريخ ؟

٢ - بومبال واليسوعيون

مات يوحنا الخامس الخامس عام ١٧٥٠ بعد أن قضى ثمانية أعوام يعانى الشلل والعته ، وبدأ ابنه يوسف الأول (خوزيه مانويل) حكما حافلا بالأحداث فعين فى وزارته وزيراً للحرب والشئون الخارجية يدعى سباستيا وخوزيه دى كارفالو اى ميللو ، الذى يعرفه التاريخ باسم المركيز بومبال « أعظم وأرهب من حكم البرتغال من الوزراء فى أى عهد من عهودها .

كان قد بلغ الحادية والخمسين من عمره حين ارتقى يوسف العرش . تلقى العلم على أيدى اليسوعيين فى جامعة كويمبرا « واكتسب أول شهرته رياضيا وزعيما مشاغباً لعصابة « الموهوك » التى عاثت فساداً فى شوارع لشبونة . وفى ١٧٣٣ أغرى النبيلة دونا تريزا دى نورونها بالفرار معه . فتبرأت منه أسرتها ، ثم تبينت موهبته فأعانته على الترقى فى حرفة السياسة . وأتته زوجته بثروة صغيرة ، وورث مالا آخر من عم له . وشق طريقه بالوساطة والالحاح والكفاية الواضحة . وفى ١٧٣٩ عين وزيراً مفوضاً لدى لندن « واعتكفت زوجته فى أحد الأديرة حيث ماتت فى ١٧٤٥ وخلال السنوات الست التى قضاها بومبال فى لندن درس الاقتصاد ونظام الحكم الانجليزيين ولحظ طاعة الكنيسة الانجلكانية للدولة ، ولعله نفض عنه بعض إيمانه الكاثوليكى . ثم عاد إلى لشبونة (١٧٤٤) ، وأوفد مبعوثاً إلى فيينا (١٧٤٥) ، وهناك تزوج

ابنة أخ المرشال داون الذى كتب له الظفر بالخلود لأنه هزم فردريك مرة، وقد ظلت عروسه الجديدة وفية له طوال ما أحرز من انتصارات وما منى به من هزائم .

وكان يوحنا الخامس عديم الثقة به لأن له « قلباً فظاً »[8] ،ولأنه « سليل أسرة قاسية محبة للثأر »[9] ولأن فيه القدرة على أن يتحدى ملكاً . ومع ذلك استدعى بومبال إلى أرض الوطن عام ١٧٤٩ ، ورقى إلى منصب الوزارة بفضل تأييد اليسوعيين . وثبته يوسف الأول فى وظيفته . وسرعان ما أتاح له ذكاؤه المقرون بالجد والاجتهاد أن يسيطر على الوزارة الجديدة . كتب قائم بالأعمال فرنسى يقول « يمكن اعتبار كارفالو الوزير الأول، فهو سريع البت وافر النشاط لايعتريه كلل . ولقد كسب ثقة مولاه الملك ، ولم يظفر بها أحد أكثر منه فى جميع شئون السياسة »[10] .

وظهر تفوقه واضحاً جلياً فى الزلزال الكبير الذى زلزل لشبونة فى أول نوفمبر ١٧٥٥ . ذلك أنه فى الساعة ٩،٤٠ صباح عيد جميع القديسين بينما كان معظم السكان يصلون فى الكنائس ، زلزلت المدينة بهزات أربعة أحالت نصفها أنقاضاً ، وقتلت أكثر من خمسة عشر ألف شخص ، ودمرت أكثر الكنائس ، وأبقت على معظم المواخير[11] وعلى بيت بومبال . وهرع كثير من السكان فزعاً إلى شواطئ تاجه ، ولكن موجة مد بلغ ارتفاعها خمس عشرة قدماً أغرقت مزيداً من الأنفس ، وحطمت السفن الراسية فى النهر . وحصدت الحرائق التى اندلعت فى أحياء المدينة كلها مزيداً من الأنفس . وفى غمار الفوضى التى ضربت أطنابها بدأ السفلة من الغوغاء يسرقون ويقتلون وهم آمنون . أما الملك الذى لم يفلت هو نفسه من الموت إلا بشق النفس، فقد طلب إلى وزرائه أن يشيروا عليه بما ينبغى صنعه . ويقال أن بومبال أجاب « علينا أن ندفن الموتى ونقدم الغوث للأحياء » . وأطلق يوسف يده ، واستعمل بومبال سلطته بما تميز به من همة وسرعة . فعين الجند لحفظ النظام وأقام الخيام والمعسكرات لإيواء من باتوا بغير مأوى. وأمر بأن يشنق فوراً كل من وجد يسرق الموتى . ثم حدد أسعار المؤن بمالا يزيد على أسعارها

السائدة قبل الزلزال ، وألزم جميع السفن الوافدة أن تفرغ شحناتها من الطعام وتبيعها بتلك الأسعار . وأعانه تدفق الذهب البرازيلي الذي لم ينضب ، فأشرف على إعادة بناء لشبونة سريعاً بطرق مشجرة عريضة وشوارع جيدة الرصف والإضاءة . وقلب المدينة كما نراه اليوم من صنع المعماريين والمهندسين الذين اشتغلوا تحت إشراف بومبال (١٢) .

وكان لنجاحه في هذه الكارثة التي أضعفت معنوية الأمة الفضل في ترسيخ قدمه في الوزارة واضطلع الآن بعملين بعيدي الأثر : أولهما تخليص الحكم من سيطرة الكنيسة ، والآخر تحرير الاقتصاد من سيطرة بريطانيا . وتطلبت المهمتان رجلا أوتي صلابة الفولاذ إلى صفات الوطنية والإباء ومضاء العزيمة التي لا تعرف شفقة أو رحمة .

وإذا كان عداؤه للاكليريكية قد تركز على اليسوعيين فإنما السبب الأول هو أنه توجس منهم إثارة المقاومة لتملك البرتغال للأقاليم البراجوانية التي كان اليسوعيون منذ عام ١٦٠٥ ينظمون فيها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ هندى في إحدى وثلاثين مستوطنة ، على أساس شبيه بالأنظمة الشيوعية في خضوع شكلي لأسبانيا (١٣) . وكان الرواد من الأسبان والبرتغال قد سمعوا بوجود الذهب (الأسطوري تماماً) في تربة براجواى ، وشكا التجار من أن الآباء اليسوعيين يحتكرون تجارة الصادر البراجوية ويضيفون الأرباح إلى أموال طائفتهم . ففي ١٧٥٠ فاوض بومبال لعقد معاهدة نزلت البرتغال بمقتضاها لأسبانيا عن مستعمرة سان سكومنتو الغنية (على مصب الريودى لابلاتا) بديلا عن سبع من المستوطنات اليسوعية المجـاورة للحدود البرازيلية . واشترطت المعاهدة أن يهاجر الثلاثون ألف هندى المقيمون في هذه المستوطنات إلى أقاليم أخرى ويتخلوا عن الأرض للبرتغال الوافدين . وأمر فرديناند السادس ملك أسبانيا يسوعيي باراجواى بالرحيل عن المستوطنات وبإصدار الأمر لرعاياهم بالرحيل في هدوء . وزعم اليسوعيون أنهم امتثلوا لهذه الأوامر ، أما الهنود فقاموا في إصرار غاضب عنيف اقتضى التغلب عليه جيشا برتغاليا ثلاث سنين . واتهم بومبال جماعة اليسوعيين بتشجيع هذه المقاومة سراً .

فعقد العزم على أن ينهى كل مشاركة لليسوعيين فى الصناعة والتجارة والحكومة البرتغالية . فلما أدرك يسوعيو البرتغال نيته تضافرت جهودهم للإطاحة به .

وكان قائدهم فى هذه الحركة جابرييل مالاجريدا « الذى ولد بمنادجو (على بحيرة كومو) عام ١٦٨٩ ، وتميز على أقرانه فى المدرسة بما مارس من عض يديه حتى يدميها ، وكان يقول أنه بهذه الطريقة يعد نفسه لتحمل آلام الاستشهاد . ثم التحق بجمعية اليسوعيين ، وأبحر إلى البرازيل مبعوثاً. وراح يبشر الهنود فى الأدغال بالإنجيل من ١٧٢٤ إلى ١٧٣٥ . وأفلت من الموت عدة مرات — من أكلة لحوم البشر « ومن التماسيح ، ومن الغرق فى السفينة ، ومن المرض . وابيضت لحيته فى بواكير كهولته . ونسبت إليه قوى خارقة « وكانت الجموع المترقبة تتبعه أينما ظهر فى مدن البرازيل . وبنى الكنائس والأديرة ، وأسس المدارس اللاهوتية . وفى ١٧٤٧ قدم على لشبونة فى طلب المال من الملك يوحنا . وحصل عليه ، ثم أبحر قافلا إلى البرازيل وأسس المزيد من البيوت الدينية ، وكثيرا ماشارك بيديه فى أعمال البناء . وفى ١٧٥٣ عاد إلى لشبونة ثانية « لأنه كان قد وعد بأن يعد الملكة الأم للقاء ربها . وقد عزا زلزال ١٧٥٥ لخطايا الشعب ، وطالب بإصلاح الأخلاق ، وتنبأ مع غيره من أفراد طائفته بمزيد من الزلازل إن لم تنصلح الأخلاق . وأصبح بيت خلوته الدينية بؤرة للمؤامرات ضد بومبال .

وكان بعض أسر النبلاء ضالعين فى هذه المؤامرات . واحتجوا بأن ابن مالك أرض ريفى حقير قد سود نفسه على البرتغال « وقبض على مقاليد حياتهم ومقدراتهم . وكان أحد هذه الأحزاب الأرستقراطية تحت زعامة دوم خوزيه دى ماسكارينهاس « دوق أفيرو ، وآخر يرأسه ابن أخى الدوق وهو دوم فرانسيسكو دى أسيز « مركيز طابوره . وكانت زوجة طابوره ، وهى المركيزة دونا ليونور ، إحدى زعيمات المجتمع البرتغالى ، تلميذة شديدة التحمس للأب مالاجريدا كثيرة التردد عليه . وكان أكبر أبنائها ، الدوم لويز برناردو ، « مركيز طابوره الأصغر » متزوجاً من عمته . فلما رحل

رحل لويز إلى الهند جنديا ، أصبحت هذه « المركيزة الصغيرة » الفاتنة الرائعة الجمال خليلة ليوسف الأول ، وهذا أيضا لم ينسه قط آل أفيرو وطابوره . واتفقوا اليسوعيين صادقين على أنه لو أزيح بومبال لتحسن الموقف .

ورد بومبال باقناع يوسف بأن جمعية اليسوعيين تشجع سراً المزيد من الثورة فى بارجواى « وأنها لاتتآمر على الوزرة فحسب بل على الملك أيضاً » . ففى ١٩ سبتمبر ١٧٥٧ أقصى مرسوم ملكى عن البلاط أباء اعتراف الأسرة المالكة اليسوعيين . وأمر بومبال ابن عمه « فرانسيسكو دى المادا أى مندونسا » المبعوث البرتغالى لدى الفاتيكان ، بألا يضن بالمال فى سبيل تشجيع وتمويل الحزب المناوىء لليسوعيين فى روما . وفى اكتوبر قـدم المادا لبندكت الرابع عشر قائمة بالتهم الموجهة إلى اليسوعيين : اتهموا بأنهم « ضحوا بكل العهود والواجبات المسيحية ، والدينية « والطبيعية ، والسياسية فى رغبة عمياء ... فى جعل أنفسهم سادة على الحكومة » ، وبأن الجمعية مدفوعة « بشره لايشبع لإقتناء الأموال الأجنبية وتكديسها ، بل حتى لإغتصاب أملاك الملوك [١٤] » . وفى أول ابريل ١٧٥٨ أمر البابا الكردينال دى سالدانها ، بطريرك لشبونة ، بالتحقيق فى هذه التهم . وفى ١٥ مايو نشر سالدانها مرسوما يعلن أن اليسوعيين البرتغال يمارسون التجارة « مخالفين بذلك جميع القوانين السماوية والبشرية » ، وأمرهم بالكف عنها . وفى ٧ يونيو « بتحريض من بومبال فى أغلب الظن » أمرهم بالامتناع عن سماع الإعترافات أو عن الوعظ . وفى يوليو نفى رئيس يسوعى لشبونه إلى مسافة ستين فرسخا عن القصر الملكى : وخلال ذلك (٣ مايو ١٧٥٨) مات بندكت الرابع عشر ، فعين خليفته كلمنت الثالث عشر لجنة تحقيق أخرى ، قررت أن اليسوعيين براء من التهم التى رماهم بها بومبال [١٥] .

وخامر الناس بعض الشك فى أن يوسف الأول سيؤيد وزيره فى هجومه على اليسوعيين ، ولكن تحولا فجائياً فى الأحداث دفع الملك دفعاً تماماً إلى صف بومبال . ذلك أن يوسف كان فى ليلة الثالث من سبتمبر ١٧٥٨ قافلا إلى قصره القريب من بيليم من لقاء غرام سرى مع مركيزة

طابوره فى أغلب الظن[١٦] . وقبيل منتصف الليل انبعث ثلاثة رجال مقنعين من عقد قناة وأطلقوا النار على المركبة دون أن يصيبوا هدفهم ، وأطلق السائق لجواده العنان ، وما هى إلا لحظة حتى انطلقت رصاصتان من كمين آخر ، وأصابت الأولى السائق والأخرى الملك فى كتفه وذراعه اليمينين . وقررت محكمة تحقيق لاحقة أن كمينا ثالثاً أعده أفراد من آل طابوره كان ينتظر المركبة على مسافة أبعد على الطريق العام إلى بيليم . ولكن يوسف أمر السائق أن يحيد عن الطريق الرئيسى ويقصد بيت جراح الملك ، الذى ضمد جراح الرجلين . ولعل الأحداث التالية التى أحدثت ضجة فى جميع أرجاء أوربا ، كانت تختلف كل الاختلاف لو نجح الكمين الثالث فى الاغتيال المبيت .

وتصرف بومبال بتدبر ودهاء . فنفيت أشاعات الهجوم رسميا ، وعزى اعتكاف الملك المؤقت إلى كبوة كباها ، وظل جواسيس الوزير ثلاثة أشهر يجمعون الأدلة . فوجدوا رجلا شهد بأن انطونيو فريرا استعار بندقية منه فى ٣ أغسطس وردها اليه فى ٨ سبتمبر . وقيل أن رجلا آخر قال أن فريرا استعار مسدسا منه فى ٣ سبتمبر ورده بعد أيام . وقال الشاهدان أن فريرا فى خدمة دوق أفيرو وشهد سلفادور دوراو ، وهو خادم فى بيليم ، بأنه فى ليلة الهجوم، بينما كان فى لقاء خارج بيت أفيرو ، سمع عفوا أفرادا من أسرة أفيرو عائدين من مغامرة ليلية .

وأعد بومبال لقضيته فى حيطة وجرأة . فضرب صفحاً عن الإجراء الذى يتطلبه القانون ، والذى كان سيحاكم الأشراف المشبوهين أمام محكمة من كبار النبلاء ؛ ومحكمة كهذه لن تدينهم أبدا . وبدلا من هذا ، أصدر الملك فى ٩ ديسمبر مرسومين ، وكان هذا الإصدار أول كشف علنى عن الجريمة : فعين المرسوم الأول الدكتور بدرو جونسا لفيس بريرا قاضياً يرأس محكمة خاصة بقضايا الخيانة العظمى ، وأمره الآخر بأن يميط اللثام عن المسئولين عن محاولة قتل الملك ويقبض عليهم ويعدمهم . وخول جونسا لفيس بريرا سلطة أغفال جميع الأشكال المألوفة للمحاكمات ، وأمرت المحكمة

بتنفيذ أحكامها يوم إعلانها . وأضاف بومبال إلى المراسيم بياناً رسمياً علق في جميع أرجاء المدينة ، يروى أحداث ٣ سبتمبر ، ويعد بمكافأة أى شخص يقدم الأدلة التى تعين على القبض على القتلة (١٧) .

وفى ١٣ ديسمبر قبض ١٣ موظفاً حكوميا على دوق أفيرو ، وعلى ابنه المركيز جوفيا البالغ من العمر سته عشر عاما ، وعلى خادم أنطونيو فريرا ، وعلى مركيزى طابوره الأب والابن ، وعلى مركيزة طابورة الأم ، وعلى كل خدم الأسرتين ، وعلى خمسة نبلاء آخرين . وطوق الجند فى ذلك اليوم جميع الكليات اليسوعية ، وأودع السجن مالاجريدا واثنا عشر آخرون من زعماء اليسوعين . وتعجيلا للفصل فى الأمر ، أباح مرسوم ملكى صادر فى ٢٠ ديسمبر (بخلاف ما جرى عليه للعرف فى البرتغال) استعمال التعذيب لإستخلاص الاعترافات من المتهمين . وفحص خمسون سجيناً بالتعذيب أو التهديد بالتعذيب . وورطت عدة اعترافات دوق أفيرو ، واعترف هو نفسه بذنبه تحت وطأة التعذيب ، واعترف أنطونيو فريرا أنه أطلق النار على المركبة ، ولكنه أقسم أنه لم يكن يعلم أن ضحيته المحتمل هو الملك . وتحت وطأة التعذيب عرض عدة خدم تلك الأسرة بجملتها للخطر ، واعترف المركيز الابن باشتراكه ، أما المركيز الأب الذى عذب حتى كاد يلفظ أنفاسه فقد أنكر أنه مذنب ، وكان بومبـــال ذاته يحضر فحص الشهود والمسجونين ، وكان قد أمر بتفتيش البريد ، فزعم الآن أنه وجد ضمنه أربعا وعشرين رسالة كتبها دوق أفيرو ، وعدة أفراد من أل طابوره ، ومالاجريدا وغيره من اليسوعين ، لا حاطة أصدقائهم أو أقربائهم فى البرازيل بالمحاولة الفاشلة ، واعدينهم بمزيد من الجهود لقلب الحكومة . وفى ٤ يناير ١٧٥٩ عين الملك الدكتور أوزيبيوتافاريس دى سكوبرا للدفاع عن المتهمين . ودفع سكوبرا بأن الاعترافات التى انتزعت تحت التعذيب عديمة القيمة فى الدلالة على الجريمة ، وأن جميع النبلاء المتهمين يستطيعون اثبات غيابهم ليلة الجريمة . على أن المحكمة قضت بأن الدفاع غير مقنع ، ورأت أن الرسائل المعترضة صحيحه وأنها تؤيد الاعترافات ،وفى ١٢ يناير حكمت المحكمة بأن جميع المتهمين مذنبون .

وأعدم تسعة منهم فى ١٣ يناير فى ميدان بيليم العام . وأول من تقرر إعدامه كان مركيزة طابورة الأم . فانحنى الجلاد ليوثق قدميها وهى على المقصلة فدفعته قائلة « لا تمسنى إلا لتقتلنى »[١٨] وبعد أن أكرهت على رؤية العدة التى سيموت بها زوجها وابناها — وهى دولاب التعذيب « والمطرقة والحطب — ضرب عنقها . وحطم ولداها على الدولاب ثم شنقاً ، وظلت جثتاهما على المشنقة حين صعد إليها دوق أفيرو ومركيز طابوره الأب . وذاقا مرارة الضربات المحطمة ذاتها » وترك الدوق ليطول عذابه حتى تم إعدام آخر المتهمين — وهو أنطونيو فريرا الذى أحرق حيا . ثم أحرقت جميع الجثث وذر رمادها فى نهر تاجه . ومازال الجدل قائما فى البرتغال حول هؤلاء النبلاء ، هل تعمدوا حقاً قتل الملك أم لا ؟ هذا مع التسليم بعدائهم لبومبال .

أكان اليسوعيون ضالعين فى تلك المحاولة ؟ لم يكن هناك شك فى أن مالاجريدا فى غضباته المغضبة كان قد تنبأ بسقوط بومبال وبموت الملك وشيكا ،[١٩] ولم يكن هناك شك فى أنه هو وآخرون من اليسوعيين كانوا قد اجتمعوا مرات بأعداء الوزير من الأشراف . وكان قد دل ضمنا على علمه بمؤامرة ما بكتابته إلى إحدى نبيلات البلاط يرجوها أن تنبه يوسف إلى الحذر من خطر وشيك . فلما سئل وهو فى السجن كيف علم بهذا الخطر أجاب فى « كرسى الاعتراف » .[٢٠] وفى غير هذا (كما يقول مؤرخ من خصوم اليسوعيين) « ليس هناك دليل إيجابى يربط اليسوعيين بهذا الاعتداء »[٢] . ولكن بومبال اتهمهم بإثارة حلفائهم بوعظهم وتعاليمهم إثارة دفعتهم إلى محاولة الاغتيال . وأقنع الملك أن الموقف يتيح للملكية الفرصة لتعزيز قوتها إزاء الكنيسة . وعليه ففى ١٩ يناير أصدر يوسف مراسيم بضم جميع ممتلكات اليسوعيين فى المملكة ، وبإلزام جميع اليسوعيين بيوتهم أو مدارسهم حتى يفصل البابا فى التهم الموجهة إليهم . واستعمل بومبال أثناء ذلك مطبعة الحكومة ليطبع — ويوزع عماله على نطاق واسع فى الداخل والخارج — كراسات تبسط الحجج التى تدين الأشراف واليسوعيين ، وكانت هذه فيما يبدو أول مرة استخدمت فيها حكومة من الحكومات المطبعة

لتفسر تصرفاتها للأمم الأخرى . وربما كان لهذه المنشورات بعض الأثر فى المعاونة على طرد اليسوعيين من فرنسا وأسبانيا .

وفى صيف ١٧٥٩ استأذن بومبال كلمنت الثالث عشر فى تقديم اليسوعيين المعتقلين للمحاكمة أمام محكمة الخيانة العظمى ، وزاد بالاقتراح بأن يحاكم جميع الكنسيين المتهمين بجرائم ضد الدولة ، منذ الآن ، أمام محاكمة مدنية لاكنسية . وصرحت رسالة شخصية من يوسف إلى البابا بعزم الملك على طرد اليسوعيين من البرتغال ، وأعربت عن الأمل فى أن يوافق البابا على هذا الإجراء بإعتباره إجراء تبرره تصرفاتهم ، وضروريا لحماية الملكية . وصدمت هذه الرسائل كلمنت ، ولكنه خشى أن قاومها صراحة أن يقنع بومبال الملك بقطع الصلات جميعها بين الكنيسة البرتغالية والبابوية . وتذكر مافعله هنرى الثامن عشر فى انجلترة ، وكان يعرف أن فرنسا أيضاً تزداد عداء لجماعة اليسوعيين ، ففى ١١ أغسطس بعث بالإذن بمحاكمة اليسوعيين أمام المحكمة المدنية ، ولكنه قصر بوضوح موافقته على تلك الحالة بعينها . ثم وجه إلى الملك نداء شخصياً يدعو للرأفة بالقساوسة المتهمين ، وذكر يوسف بانجازات هذه الطائفة الماضية ، وأعرب عن رجائه بألا يؤخذ جميع اليسوعيين البرتغاليين بجريرة فئة قليلة منهم .

ولكن نداء البابا فشل . ففى ٣ سبتمبر ١٧٥٩ — وكان اليوم ذكرى الاغتيال المبيت — أصدر الملك مرسوما ضمنه قائمة طويلة بجرائم منسوبة لليسوعيين ، وأمر بما يأتى :

« أن هؤلاء الرهبان ، نظراً إلى فسادهم وسقوطهم المؤسف بعيداً عن رهبنتهم المقدسة ، ولما أصابهم من عجز واضح عن العودة إلى شمائرها بسبب هذه الرذائل البشعة المتأصلة ، يجب أن ينفوا نفياً حقيقياً فعالا . . وأن يحاكموا ويطردوا من جميع أملاك جلالته ، باعتبارهم عصاة سيئى السمعة وخونة ، وأعداء ، اعتدوا على شخصه الملكى وعلى مملكته . . ويقتضى الأمر ألا يقبلهم أى شخص كائناً ماكانت مكانته أو وضعه فى أى

من ممتلكاته وألا يتصل بهم بتاتا سواء بالحديث أو المراسلة ، وإلا كان جزاؤه الموت الذى لا رجوع فيه [٢٢] .

واستثنى من المرسوم اليسوعيون الذين لم ينذروا أنفسهم النذر الوثيق للرهبنة ، والذين يجب عليهم أن يلتمسوا إعفاءهم من نذورهم الأولية ، وصادرت الدولة ثروة اليسوعيين كلها ، ومنع المنفيون من أن يأخذوا معهم غير ملابسهم الشخصية[٢٣] . واقتيدوا من جميع أرجاء البرتغال فى مركبات أوسيرا على الأقدام إلى سفن أقلتهم إلى ايطاليا . وتم ترحيلهم على هذا النحو من البرازيل وغيرها من الممتلكات البرتغالية . ووصلت أول شحنة من المنفيين إلى تشيفيتافكيا فى ٢٤ أكتوبر « ورثى لحالهم حتى ممثل بومبال هناك » كان بعضهم ضعيفا لكبره ، وبعضهم يكاد يتضور جوعا ، وبعضهم مات فى الطريق . ورتب قائد الجماعة ، لورنتسو ريكى ، استقبال الأحياء منهم فى بيوت يسوعية فى ايطاليا ، وشارك الأخوة الدومنكان فى استضافتهم . وفى ١٧ يونيو ١٧٦٠ أوقفت الحكومة البرتغالية العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان .

وبدا نصر بومبال نصراً مؤزراً ، ولكنه كان عالما بأنه نصر لا تحبه الأمة ، وأفضى به الشعور بعدم الأمان إلى توسيع سلطته إلى الدكتاتورية الكاملة ، فبدأ حكما من الاستبدادية والارهاب حتى عام ١٧٧٧ . وكان جواسيسه يبلغونه بكل ما يكشفونه من ألوان المقاومة لسياساته أو أساليبه ، وسرعان ما اكتظت سجون لشبونة بالمسجونين السياسيين . وقبض على الكثيرين من الأشراف والكهنة لإتهامهم بمؤامرات جديدة على الملك ، أو باشتراكهم فى المؤامرة القديمة . وأصبحت قلعة جنكيرا ، المتوسطة الموقع بين لشبونه وبيليم ، سجناً خاصاً للاشراف زج فيه كثير منهم حتى قضوا نحبهم . وفى سجون أخرى أودع اليسوعيون المجلوبون من المستعمرات والمتهمون بمقاومة الحكومة — وظل بعضهم نزيلها تسعة عشر عاماً .

أما مالاجريدا فقد ظل يذوى فى سجنه اثنين وثلاثين شهرا قبل أن

يمثل أمام المحكمة . وسلى الشيخ سجنه بتأليفه كتاب « حياة القديسه حنه البطولية ، أم مريم ، أملتها القديسة حنه ذاتها للأب المبجل ما لاجريدا » ، وصودر المخطوط بأمر بومبال « وقد وجد فيه عدة سخافات عمكن أن توصف بالهرطقه : فقد قال مالاجريدا أن القديسة حنه حبل بها كما حبل بمريم ، دون أن تلوثها الخطيئة الأصلية « وأنها كانت تتكلم وتبكى فى بطن أمها[٢٤]. وبعد أن عين بومبال أخاه بول دى كارفالو رئيساً لديوان التفتيش فى البرتغال « أمر بأن يستدعى مالاجريدا للمثول أمامه « وكتب بيده ورقة اتهام تتهم اليسوعيين بالجشع ، والرياء ، والدجل « وانتهاك المقدسات ، وبتهديدهم الملك بالتنبؤ مراراً بموته . وإذ كان مالاجريدا — الذى بلغ الآن الثانية والسبعين — قد أصبح نصف مخبول لشدة ما كابد من عذاب « فقد أخبر قضاة التفتيش بأنه تكلم مع القديس أغناطيوس لويولا والقديسه تريزا[٢٥] . وأراد قاض منهم أن يقف المحاكمة اشفاقاً على الشيخ فنحى بأمر بومبال . وفى ١٢ يناير ١٧٦١ حكمت المحكمة المقدسة بأن مالاجريدا مذنب بالهرطقه « والتجديف « والضلال « وبخداع الشعب بما زعم من اعلانات إلهية له . ومد فى أجله ثمانية شهور أخر . وفى ٢٠ سبتمبر سيق إلى مشنقة فى البراسا روسيو ، فشنق ، وأحرق مشدودا إلى خازوق . وقال لويس الخامس عشر معقبا بعد سماعه بالإعدام « لكأنى أحرقت الشيخ المخبول نزيل مستشفى البتيت (ميزون) الذى يزعم أنه الله الآب[٢٦] . وكان رأى فولتير فى الحادث وهو يسجله « أنه حماقة وسخف مقرونان بشرغاية فى البشاعة[٢٧] .

ولم يرق جماعة الفلاسفة الفرنسيين ما طرأ على بومبال من تطور « بعد أن كان رأيهم فيه فى ١٧٥٨ أنه « مستبد مستنير » . لقد رحبوا بالاطاحة باليسوعيين « ولكنهم استنكروا الأساليب التعسفية التى انتهجها الدكتاتور ، والنغمة العنيفة التى سرت فى نشراته ، والوحشية التى لوثت عقوباته . وصدمتهم معاملة اليسوعيين خلال ترحيلهم ، واعدام الأسر العريقة بالجملة ، والمعاملة غير الإنسانية التى لقيها مالاجريدا . على أنه لم

يصلنا أى سجل يثبت احتجاجهم على حبس أسقف كويمبرا ثمانى سنوات لأنه أدان لجنة بومبال للرقابة على المطبوعات التى سمحت بتداول مؤلفات متطرفه ، كقاموس فولتير الفلسفى وعقد روسو الاجتماعى .

بيد أن بومبال نفسه لم يبشر بهرطقات ، وكان يختلف إلى القداس بانتظام . ولم يكن هدفه القضاء على الكنيسة بل اخضاعها للملك ، فلما وافق كلمنت الرابع عشر عام ١٧٧٠ على السماح للحكومة بالترشيح لمناصب الأسقفيه ، اصطلح مع الفاتيكان : وأسعدت يوسف الأول — وقد دنا أجاه — فكرة الظفر بعد هذا كله بكامل البركات الكهنوتية حين يموت ، وبعث البابا بقبعة الكردينالية إلى بول أخى بومبال ، وأتحف بومبال نفسه بخاتم يحمل صورة البابا ، ومنمنمة إطارها من الماس ، ورفات كامل لأربعة قديسين .

٣ — بومبال المصلح

وترك الدكتاتور أثناء ذلك بصمته على اقتصاد البرتغال وإدارتها وحياتها الثقافية . وأعاد تنظيم الجيش بمساعدة الضباط الانجليز والألمان ، وقد صد هذا الجيش غزوا أسبانيا فى حرب السنين السبع . وانتهج ما انتهجه ريشليو فى فرنســة القرن السابع عشر ، فحد من سلطان الارستقراطية الممزق للأمة ، ومركز الحكومة فى ملكية تستطيع أن تمنح هذه الأمة الوحدة السياسية ، والتطور التعليمى ، وبعض الحماية من تسلط الكنيسة وكف النبلاء بعد اعدام آل طابوره عن التآمر على الملك ، وخضع الأكليروس للدولة بعد طرد اليسوعيين . وفى فترة الجفوة مع الفاتيكان كان بومبال يعين الأساقفة ، وكان أساقفته يرسمون القساوسة دون الرجوع إلى روما . وحد مرسوم ملكى من اقتناء الكنيسة الأرض ، وقيد حرية الرعايا البرتغاليين فى تحـسيل تركاتهم بوصايا لإقامة القداديس[١٨] وأغلق الكثير من الأديرة وحظر على الباقى منها قبول رهبان جدد تقــل أعمارهم عن الخامسة والعشرين . وأخضــع ديوان

التفتيش لإشراف الحكومة . وتحولت محكمته إلى محكمة عامة خاضعة للقواعد التي تخضع لها محاكم الدولة ، وجردت من سلطات الرقابة على المطبوعات ، وألغى ما جرت عليه من تمييز بين قدامى المسيحيين وجددهم (أى اليهود أو المغاربة الذين دخلوا في المسيحية وذريتهم) ، لأن بومبال افترض أن في دماء معظم الأسبان والبرتغال الآن عرقا ساميا[٢٩] . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ أصبح جميع الرعايا البرتغال صالحين للاختيار للمناصب المدنية والعسكرية والكنسية[٣٠] ، ولم تحرق محكمة التفتيش انسانا بعد احراق مالاجريدا عام ١٧٦١ [٣١] .

في تلك السنة ألغى بومبال ثلاثة أرباع الوظائف الصغيرة التي كانت تعوق سير القضاء ، ويسرت الطريق إلى المحاكم وجعل التقاضي أقل كلفه . وفى ١٧٦١ أعاد تنظيم الخزانة ، وألزمها بموازنة حساباتها كل أسبوع ، وأمر بأن تراجع ايرادات ومصروفات البلديات كل سنة ، وحقق بعض التقدم في أشد الاصلاحات كلها عسرا — وهو خفض عدد الموظفين في البلاط الملكي والحد من الاسراف في نفقاته . فتخلص من الثمانين طاهيا الذين كانوا يطعمون يوحنا الخامس وبطانته ، واضطر يوسف الأول أن يقنع بعشرين فقط . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ ألغى الرق في الواقع في البرتغال ولكن سمح باستمراره في المستعمرات .

وامتدت يد المصلح إلى كل ركن ، فبذل الدعم الحكومي للزراعة ومصايد الأسماك ، وأدخل دودة القز في المقاطعات الشمالية ، وأنشأ الفواخير ، ومصانع الزجاج ، ومصانع القطن والصوف والورق ، لينهي اعتماد البرتغال على استيراد هذه الحاصلات من الخارج . وألغى المكوس الداخلية في انتقال السلع ، وأقام التجارة الحرة بين البرتغال ومستعمراتها الأمريكية ، وأسس كلية للتجارة يدرب فيها الرجال على إدارة الأعمال . ونظم وأعان بالمال الشركات لتتلقى تجارة البرتغال من الأجانب الذين يتجرون فيها وينقلونها ، وفى هذا فشل — أو فشلت البرتغال — لأن

تجارة البرتغال فى ١٧٨٠ كان أكثرها لايزال فى أيدى الأجانب ولاسيما البريطانيين ».

واقتضى طرد اليسوعيين بناء التعليم من جديد بناء شاملا . فانشرت في البلاد المدارس الأولية والثانوية الجديدة التي بلغ عددها ٨٣٧ — وحولت الكلية اليسوعية فى لشبونة إلى كلية للاشراف يديرها العلمانيون » ووسع منهج الدراسة فى كويمبرا وأضيفت إليه مقررات فى العلوم ، وأقنع پومبال الملك بتشييد دار للاوبرا ودعوة المغنين الايطاليين لقيادة الفرق ، وفى ١٧٥٧ أسس « أركاديا لشبونة » لتشجيع الأدب .

وحظى الأدب البرتغالى طوال نصف قرن مثير (١٧٥٥ — ١٨٠٥) بحرية نسبية فى الأفكار والأشكال . وبعد أن حرر نفسه من النماذج الايطالية ، أقر بسحر فرنسا ، وأحس بنسائم تهب عليه من حركة التنوير . وظفر انطونيو دينيز داكروز أى سيلفا بالشهرة فى وطنـه كله بكتابة هجاء سماه « أو هسوپى » (١٧٧٢) ، ووصف فيه فى ثمانية أقسام شجارا بين أسقف وكبير كهنة ، وترجم خواو أنستاسيودا كونها بوب فولتير ، وعلى هذه الترجمة أدانته محكمة التفتيش (١٧٧٨) عقب سقوط پومبال . وأولع فرانسسكو ما نويل دوناسكيمنتو بالكتب ، وكان ابن عامل فى تفريغ السفن وشحنها ، وأصبح قطبا لجماعة تمردت على الاكاديمية الاركادية لأنها عائق لتطور الشعر القومى . وفى ١٧٧٨ أمرت محكمة التفتيش بالقبض عليه (مغتنمة ثانية فرصة سقوط پومبال) متهمة اياه بالولع بالفلاسفة المحدثين من اتباع العقل الطبيعى ، ففر إلى فرنسا ، حيث انفق تقريباً كل سنيه الواحدة والأربعين الباقية من عمره ، وهناك كتب معظم قصائده التى تتقد بحب الحرية والديمقراطية ، وفيها قصيده غنائيـة « لحرية الولايات المتحدة واستقلالها » وقد عده أنصاره أماما للشعر البرتغالى لايميز فيه غير كاموئيس . وحوى مجلد فى قصائد الحب يسمى « أماريليا » أرشق وأرخم شعر العصر ، الذى خلفه توماز أنطونيو جونزاجا الذى عانى السجن (١٧٨٥ — ٨٨) بتهمة التآمر السياسى ومات فى المنفى ، أما خوزيه

أجوستينودى ما سيدو « الراهب الأوغسطيني الذى جرد لفسقه » فقد اتخذ في جرأة ، لقصيدته « أو أوريتي » الموضوع الذى اتخذه من قبل كاموئيس — وهو رحلة فاسكودا جاما إلى الهند . وكان يرى قصيدته أعظم من الاويزياده » والإلياذه » ولكنهم يؤكدون أنها عمل كئيب . وأطرف منها هجاء كتبه فى ستة أقسام « أوس بورروس » شهر فيه ماسيدو صراحة برجال ونساء من جميع المراتب » الأحياء منهم والأموات . وكان ألد خصومه ما نويل ماريا باربوزا دى بوساجى » الذى سجنته محكمة التفتيش (١٧٩٧) بتهمة إذاعة الأفكار الفولتيرية فى شعره وتمثيلياته . وقد رده إعدام مارى انطوانيت إلى المحافظة فى الدين والسياسة » فاستعاد تدينه أيام الشباب ، ورأى فى البعوضة دليلا على وجود الله[٣٢] .

أما الحدث العظيم فى تاريخ الفن فى حكم بومبال فهو التمثال الذى صنع ليوسف الأول ، والذى مازال قائماً فى ميدان الحصان الأسود بلشبونة . وقد صممهيواكيم مكادو دى كاسترو ، وصبه بالبرونز ترتولوميو داكوستا وهو يمثل الملك راكباً جواداً مطهما ، ظافرا فوق أفاعى ترمز إلى القوى الشريرة التى غلبها فى حكمه . وجعل بومبال من إزاحة الستار عن هذا الأثر (٦ يونيو ١٧٧٥) احتفالا بوازرته المنتصرة . فاصطف جنود الجيش فى الميدان » واجتمع رجال السلك السياسى » والقضاء ، ومجلس الشيوخ وغيرهم من كبار القوم مرتدين الملابس الرسميه » ثم أقبلت الحاشية ، ثم الملك والملكة » وأخيراً تقدم بومبال وأزاح الستار عن التماثيل والقاعدة الضخمة التى صورت ميدالية عليها الوزير لابساً صليب المسيح . وفهم الكل إلا الملك أن الموضوع الحقيقى للاحتفال هو بومبال .

وبعد أيام من إزاحة الستار أرسل إلى يوسف الأول وصفا وردى اللون للتقدم الذى حققه بومبال منذ ١٧٥٩ : نشر التعليم والإلمام بالقراءة والكتابة ، ، نمو الصناعة والتجارة » وتطور الأدب والفن ، وارتفاع مستوى المعيشة بصفة عامة » على أن توخى الصدق لابد أن يختزل الكثير من وصفه هذا ، فالصناعة والتجارة كانتا تنموان » ولكن فى بطء شديد،

وكلتنا تعانيان المصاعب المالية ، أما الفنون فركدت ، وكان نصف لشبونة لايزال (١٧٧٤) فى الخرائب التى سببها زلزال ١٧٥٥ . وكان تعلق الشعب الفطرى بأهداب الدين يعيد سلطان الكنيسة إلى سابق عهده . وكان صلف بومبال وأساليبه الدكتاتورية تخلق له أعداء جدداً كل يوم . وكان قد اقتنى لنفسه ولأقربائه ثروة طائلة وبنى لنفسه قصراً غالى التكلفة . ولم تكد توجد أسرة نبيلة فى المملكة بغير عضو محبوب من أعضائها يثوى فى غياهب السجن . وكان الناس فى طول البرتغال وعرضها يصلون ويتضرعون إلى الله سرا بأن يسقط بومبال عن عرشه .

٤ – انتصار الماضى

فى سنة ١٧٧٥ بلغ الملك الستين . وكانت العلل والخليلات قد أشبنه قبل أوانه ، وراح ينفق الساعات متأملا فى الخطيئة والموت . وسأل نفسه أكان على حق فى انتهاج سياسات وزيره ؛ وهل كان منصفاً لليسوعيين ؟ ثم ماخطب أولئك الأشراف والقساوسة نزلاء السجون ؟ بوده أن يغفر لهم وهو يطلب الآن المغفرة لنفسه . ولكن أنى له أن يذكر فكرة كهذه لبومبال الذى لا تلين له قناة ، وماذا تراه صانعاً بغير بومبال ؟ وفى ١٢ نوفمبر ١٧٧٦ أصيب بنوبة فالج ، وكان البلاط يغتبط توقعاً لحكم ملك جديد ووزارة جديدة . وكانت وريثة العرش ابنته ماريا فرنسسكا التى كانت زوجا لأخيه بدرو . وكانت امرأة صالحة ، وزوجا وأما صالحة ، وإنسانا عطوفاً باراً ، ولكنها كانت إلى ذلك كاثوليكية غيوراً ، كرهت عداء بومبال للأكليروس كرها حملها على ترك البلاط لتعيش فى هدوء مع بدرو فى كيلوز على أميال من العاصمة . وأحاط الدبلوماسيون الأجانب حكوماتهم بأن تتوقع انقلاباً وشيكا فى السياسات البرتغالية .

وفى ١٨ نوفمبر تناول الملك الأسرار المقدسة ، وفى ٢٩ نوفمبر أصبحت ماريا وصية على العرش . وكان من أول أفعالها أنهاء سجن أسقف كويمبرا ، ورد الحبر البالغ من العمر أربعة وسبعين عاما إلى كرسيه وسط مظاهر الفرح

الشاملة تقريباً . ورأى بومبال سلطانه يتضاءل ، ولحظ فى ندرقائمة أن أفراد الحاشية الذين كانوا بالأمس اتباعاً أذلاء له، يرونه الآن وقدقضى على نفوذه السياسى . وفى عمل أخير من أعمال الاستبداد انتقم انتقاماً وحشياً من قرية تريفاريا التى عارض أهلها — وكانوا صيادى سمك — تجنيد أبنائهم بالقوة، فأمر فصيلة من الجند بأن يحرقوا القرية : فأحرقوها بإلقاء المشاعل الملتهبة من نوافذ الأكواخ الخشبية فى ظلام الليل (٢٣ يناير ١٧٧٧) .

وفى ٢٤ فبراير مات يوسف الأول ، وأصبحت الوصية الآن الملكة ماريا الأولى (حكمت ١٧٧٧ — ١٨١٦) ، وأصبح زوجها الملك بدرو الثالث (١٧٧٧ — ٨٦) . وكان بدرو رجلا ضعيف العقل ، واستغرقت ماريا فى التقوى وأعمال البر . وسرعان ما استعاد الدين سلطانه ، وقد كان نصف حياة الشعب البرتغالى . واستأنفت محكمة التفتيش نشاطها فى الرقابة وقمع الهرطقة . وأرسلت الملكة ماريا إلى البابوية أربعين ألف جنيه لرد بعض ما أنفقت فى رعاية اليسوعيين المنفيين . وفى غداة دفن يوسف أمرت الملكة بالإفراج عن ثمانمائة سجين ، وكان أكثرهم قد سجنه بومبال لمعارضته سياسته ، وكان كثير منهم قد قضى عشرين عاما فى غياهب السجون ، فلما خرجوا لم تحتمل عيونهم ضوء الشمس وكانوا كلهم تقريباً فى أسمال بالية ، وبدا الكثيرون منهم فى ضعف سنهم ، وكان المئات من السجناء قد قضوا نحبهم فى سجونهم . ولم يبق على قيد الحياه من بين ١٢٤ يسوعيا زج بهم فى السجون قبل ثمانية عشر عاما سوى خمسة وأربعين [٢٢] . ورفض خمسة من الأشراف الذين أدينوا بتهمة الاشتراك المزعوم فى مؤامرة قتل يوسف أن يبرحوا السجن حتى تعلن براءتهم رسمياً .

وكان لمشهد ضحايا عداء بومبال المفرج عنهم ، ولنبأ تحريق تريفاريا ، أثرهما فى تفاقم كره الشعب لبومبال إلى حد لم يعد يجرؤ فيه على الظهور علانية . وفى أول مارس أرسل إلى الملكة ماريا كتابا يستقيل فيه من جميع وظائفه ويستأذن فى الاعتكاف فى ضيعته بمدينة بومبال . وطالب

الاشراف المحيطون بالملكة بسجنه وعقابه » ولكن حين تبين لها أن جميع القوانين التي استنكرتها كان قد وقعها الملك السابق ، قررت أنها لاتستطيع عقاب بومبال دون أن تلطخ أمام الناس ذكرى أبيها . فقبلت استقالة الوزير وسمحت له بالاعتزال فى بومبال ، ولكنها أمرته أن يلزمها وفى ٥ مارس غادر لشبونة فى عربة خفيفة مستأجرة آملا أن يفلت من أنظار الناس » ولكن بعضهم تبينه فحصبوا عربته ولكنه هرب منهم . ولحقت به امرأته عند مدينة أوبرس ، وكان يومها فى السابعة والسبعين .

والآن وقد غدا مواطنا عاديا تكاثر عليه الهجوم من كل صوب بدعاوى تطالبه بديون أغفل سدادها ، وأضرار أوقعها بالشاكين ، وممتلكات استولى عليها دون تعويض أصحابها تعويضا كافياً . وحاصر المحضرون أبوابه فى بومبال بسلسلة من الأوامر القضائية . كتب يقول « ما من دبور أو بعوضة فى البرتغال إلا طارا إلى هذه البقعة النائية وطنا فى أذنى . وساعدته الملكة بأن واصلت اجراء الراتب الذى كان يتقاضاه وزيراً عليه مدى الحياه وزادت عليه معاشاً متواضعاً . بيد أن اعداء لاحصرلهم الحوا على الملكة فى تقديمه للمحاكمة بتهمتى الانحراف والخيانة . وقد اتخذت اجراء وسطا بسماحها للقضاة بأن يزوروه ويسائلوه فى أمر هذه التهم ، فظلوا يحققون معه ساعات كل مرة على مدى ثلاثة أشهر ونصف حتى التمس الدكتاتور العجوز الرحمة . وأجلت الملكة التصرف فى تقرير الفحص ، آملة أن يعفيها موت بومبال من هذا الحرج ، وسعت فى الوقت نفسه إلى تهدئة خصومه بأن أمرت باعادة محاكمة المتهمين الذين أدينو بالاشتراك فى محاولة اغتيال أبيها . وأيدت المحكمة الجديدة الحكم بذنب دوق أفيرو وثلاثة من خدمه ، ولكنها برأت ساحة باقى المتهمين أجمعين وأعلنت براءة الطابوريين . وردت كل ألقابهم وممتلكاتهم للأحياء منهم (٣ ابريل ١٧٨١) . وفى ١٦ أغسطس أصدرت الملكة مرسوما يدين بومبال « مذنبا بجرائم شائنة » ويضيف قراراً بتركه آمنا فى منفاه محتفظا بثروته مادام قد التمس الصفح .

وكان بومبال يمضى حثيثا إلى مرض الموت ، فقد غشى جسده كله تقريباً قروح صديدية يبدو أن سببها الجذام[٣٥] . ومنعه الألم من النوم أكثر من ساعتين فى اليوم ، وأضعفته الدوسنتاريا ، وأقنعه أطباؤه بشرب حساء مصنوع من جلد الثعابين ، وكأنما أرادوا أن يزيدوه عذابا على عذاب ، وتمنى الموت ، وتناول الأسرار المقدسة ، وانتهت آلامه فى ٨ مايو١٧٨٢ وبعد خمسة وأربعين عاما ، وقفت بقبره جماعة من اليسوعيين كانت تجتاز المدينة ، وتلت الجماعة ، بشعو الانتصار والرأفة ، صلاة جنائزية تطلب الراحة لنفسه .

* * *

الفصل الحادى عشر

أسبانيا وحركة التنوير

١٧٠٠ — ٨٨

١ — البيئة

أوصى شارل الثانى، آخر الهابسبورجيين الأسبان، عند وفاته عام ١٧٠٠، بأسبانيا وكل امبراطوريتها العالمية لفرنسا البوربونية — العدو القديم لآل هابسبورج . وقد قاتل حفيد لويس الرابع عشر، الذى لقب بفليب الخامس ملك أسبانيا ، ببسالة خلال حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٣ — ١٢) للاحتفاظ بوحدة تلك الامبراطورية كاملة، وامتشقت أوربا كلها تقريباً الحسام للحيلولة دون هذا التوسع الخطر فى قوة البوربون . وأخيراً أكرهت أسبانيا على النزول عن جبل طارق ومينورقة لانجلترة ، وصقلية لسافوى ، ونابلى وسردانيا وبلجيكا للنمسا .

ثم إن فقد أسبانيا لقوتها البحرية لم يترك لها سوى قبضة ضعيفة على المستعمرات التى كانت تغذى تجارتها وثروتها . فقمح أمريكا الأسبانية مثلا كان يعطيها غلة بلغت من خمسة إلى عشرين ضعفاً فى الفدان لقلة الأرض الأسبانية. وجادت تلك الأراضى المشمسة بالزئبق والنحاس والزنك والزرنيخ والأصباغ واللحوم والجلود والمطاط والقرمز والسكر والكاكاو والبن والتبغ والشاى والكينين وكثير من العقاقير الأخرى . وفى ١٧٨٨ صدرت أسبانيا لمستعمراتها الأمريكية بضائع قيمتها ١٥٨,٠٠٠,٠٠٠ ريال ، واستوردت منها بضائع قيمتها ٨٠٤,٠٠٠,٠٠٠ ريال ولكن هذا « الخلل فى الميزان التجارى الذى لم يكن فى مصلحة أسبانيا محاه سيل متدفق من الفضة والذهب الأمريكيين . وأرسلت الفلبين شحنات سفن من الفلفل والقطن والنيلة وقصب السكر . وقد بلغ سكان الفلبين فى تقرير الكسندر فون همبولت

فى ختـــام القرن الثانى عشر ١,٩٠٠,٠٠٠ ، وسكان أمريكا الأسبانية ١٦,٩٠٢,٠٠٠ ، أما أسبانيا نفسها عام ١٧٩٧ فقد بلغ سكانها ١٠,٥٤١,٠٠٠[1] . وأنه لفضل يعزى لحكم البوربون أن هذا الرقم الأخير يعنى تضاعف السكان الذين لم يزيدوا على ٥,٧٠٠,٠٠٠ عام ١٧٠٠ .

لم تسمح الجغرافيا على أسبانيا إلا بميزة التجارة البحرية . كانت الأرض فى الشمال خصبة تغذرها الأمطار والثلوج الذائبة من جبال البرانس ، وكانت قنوات الرى (وأكثرها خلفه المغاربة للغالبين) قد استصلحت الأراضى الجدباء فى بلنسية ومرسية والأندلس ، ولكن باقى أراضى أسبانيا كان جبليا أو قاحلا إلى درجة مثبطة للهمم . ولم يتح لهبات الطبيعة أن تنمو وتتطور بفضل الإقدام الاقتصادى ، فذهب أكثر الأسبان حباً للمغامرة إلى المستعمرات ، وفضلت أسبانيا أن تشترى المنتجات الصناعية من الخارج بذهب مستعمراتها وماتغله مناجم الفضة أو النحاس أو الحديد أو الرصاص فى أسبانيا ذاتها . وتخلفت صناعاتها التى كانت لا تزال فى المرحلة النقابية أو البيتية تخلفاً شديداً عن صناعات أقطار الشمال النشيطة ، وكان الكثير من مناجمها الغنية تشغله الإدارة الأجنبية لفائدة المستثمرين الألمان أو الإنجليز . واحتكرت «المستا» إنتاج الصوف ، وهى اتحاد من ملاك قطعان الغنم ميزته الحكومة ، ورسخت التقاليد قدمه ، وسيطرت عليه [illegible] قليلة من النبلاء والأديرة ، وخنقت المنافسة ، وتخلفت أسباب التحسين . وتعفنت بروليتاريا ضئيلة فى المدن ، تشتغل خدماً لكبار القوم أو عمال مياومة فى النقابات الحرفية ، وكانت منازل الأثرياء تزدان ببعض العبيد الزنوج أو المغاربة . وعاشت طبقة وسطى صغيرة معتمدة على الحكومة أو الأشراف أو الكنيسة .

وكان ٥١,٥٪ من الأرض الزراعية تملكه الأسر الشريفة فى مساحات شاسعة و ١٦,٥٪ تملكه الكنيسة ، و ٣٢٪ تملكه الكومونات (المسدن) أو الفلاحون . وتأخر نمو ملكية الفلاحين للأرض بفعل قانون وقف قديم يشترط وقف الأرض كاملة على الإبن الأكبر ويمنع رهن أى جزء منها أو بيعه . وكان ثلاثة أرباع الأرض خلال معظم هذا القرن فيما عدا إقليم

الماسك يفلحه مستأجرون يؤدون ضريبة على صورة إيجار ، أو رسوم ، أو خدمات ، أو عينا للملاك من الأشراف أو رجال الدين الذين ندر أن رأوهم ولما كانت الإيجارات تجبى حسب إنتاجية المزرعة ، فإن المستأجرين افتقدوا الحافز على الابتكار أو الاجتهاد[٢] . ودافع الملاك عن هذا النظام بالزعم بأن الهبوط المطرد فى قيمة العملة يكرههم على رفع الإيجارات لتتمشى مع الأسعار والتكاليف المتصاعدة . ثم أن ضريبة مبيعات فرضت على ضروريات الحياة كاللحم والنبيذ وزيت الزيتون والشموع والصابون كانت أثقل وطأة على الفقراء (الذين أنفقوا معظم دخلهم على الضروريات) وأخف وقعا على الأغنياء . وترتب على هذه الإجراءات ، وعلى الامتيازات الوراثية ، وعلى الفوارق الطبيعية فى القدرة البشرية ، أن تركزت الثروة فى القمة ، وران على القاع فقر كئيب اتصل جيلا بعد جيل ، تخففه وتسرى به التعزيات فوق الطبيعية .

وكانت طبقة النبلاء منقسمه إلى درجات من الشرف انقساما يملؤه التحاسد والتنابذ . ففى القمة (فى ١٧٨٧) ١١٩ من كبار النبلاء (Grandes de Espana) . وقد نحزر مبلغ ثرائهم من تقرير مبالغ فيه على الأرجح كتبه الرحالة البريطانى المعاصر جوزف تاونسند وذكر فيه « أن ثلاثة من كبار النبلاء - وهم دوق أوزونا ، ودوق ألبا ، ودوق مدينا سلى - يملكون إقليم الأندلس بجملته[٣] . وكان دخل دوق مدينا من مصايد أسماكه وحدها مليون ريال فى العام ، ودخل دوق أوزنا السنوى ٨,٤٠٠,٠٠٠ ريال . ودخل كونت أراندا قرابة ١,٦٠٠,٠٠٠ ريال فى السنة[٤] . ويلى كبار النبلاء ٥٣٥ من أصحاب الألقاب titulos — وهم رجال منحهم الملك القابا وراثية بشرط أداء نصف دخلهم للتاج . ويلى هؤلاء الفرسان caballeros الذين يعينهم الملك فى عضوية مجزية فى أحدى طبقات أسبانيا الحربيه الأربع : وهى سنتياجو ، والقنطرة ، وكالاترافا ومونتيزا . أما أدنى النبلاء مرتبة فكانوا الـ ٤٠٠,٠٠٠ هيدلج hidalgo الذين يملكون مساحات متواضعه من الأرض ، والذين أعفوا من الخدمه العسكرية ومن

السجن للدين ، وكان لهم الحق فى أن يلبسوا شعار النبالة وأن يخاطبوا بلقب « الدون » . وكان بعضهم فقراء ، وبعضهم أنضم إلى المتسولين فى الشوارع . وكان معظم النبلاء يعيشون فى المدن ، ويعينون موظفى الإقاليم .

أما الكنيسة الأسبانية فقد أدعت الحق فى نصيب مريح من جملة الناتج القومى بوصفها الحارس الألهى للوضع الراهن . وقد قدر مصدر أسبانى موثوق أن دخلها السنوى بعد الضرائب يبلغ ١,١٠١,٧٥٣,٠٠٠ ريال ، ودخل الدولة يبلغ ١,٣٧١,٠٠٠,٠٠٠ ريال[٥] . وكان ثلث إيرادها يأتيها من الأرض ، ومبالغ طائلة تجمعها من العشور وبواكير الثمار ، ومبالغ صغيرة من مراسيم العماد ، والزيجات ، والجنائز ، والقداديس على أرواح الموتى ، والحلل الديرية تباع للأتقياء الذين ظنوا أنهم أن ماتوا وعليهم هذه الأرواب فقد يتسللون إلى الجنه دون مساءلة . وأتى الرهبان المستجدون بمزيد من المال بلغ ٥٣,٠٠٠,٠٠٠ ريال . على أن أوساط القساوسه كانوا بالطبع فقراء لكثرة عددهم من جهة . فقد كان فى أسبانيا ٩١,٢٥٨ من رجال الكهنوت ، منهم ١٦,٤٨١ كانوا قسسا ، و ٢,٩٤٣ رهبانا يسوعيين[٦] . وفى ١٧٩٧ كان ستون ألف راهب وثلاثون ألف راهبة يعيشون فى ثلاثة الأف دير . وكان رئيس أساقفة أشبيلية وموظفوه البالغون ٢٣٥ مساعدا يتمتعون بدخل سنوى مقداره ستة ملايين ريال ، أما رئيس أساقفة طليطلة — وكان له ستمائة مساعد — فبلغ دخله تسعة ملايين ريال . وهنا ، كما فى إيطاليا والنمسا ، لم تثر ثروة رجال الدين أى احتجاج من الشعب ، فالكاتدرائيه من خلقهم ، وقد أحبوا أن يروها فى زينة بهية .

وقد ضرب تدينهم المثل والقدوة للعالم المسيحى . فلم يلق اللاهوت الكاثوليكى فى بقعة أخرى فى القرن الثانى عشر مثل هذا الإيمان الشامل به ، ولا شهدت الطقوس الكاثوليكية من هـــذا الاحترام الشديد . ونافست الممارسات الدينية السعى وراء العيش ، ولعلها فاقت السعى وراء الجنس ، باعتبارها جزءا من صميم الحياه . وكان أفراد الشعب بما فيهم البغايا ، يرسمون علامة الصليب مراراً وتكراراً كل يوم . وفاقت عبادة العذراء عبادة المسيح

بكثير ، وانتشرت صورها وتماثيلها فى كل مكان ، وكان النساء يخطن الأرواب لتماثيلها فى شغف ، ويتوجن رأسها بالأزهار النضرة » وفى أسبانيا أكثر من غيرها ارتفع صوت الشعب مطالبا بجعل ، « حملها غير الدنس » — أى خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية — جزءا من العقيدة المحددة المشترطة. وكان الرجال يساوون النساء تمسكا بإهداب الدين . فكثير من الرجال ، كالنساء ، كانوا يختلفون إلى القداس يومياً . وكان الرجال من الطبقات الدنيا يجلدون أنفسهم فى بعض المواكب الدينيه (حتى حرم هذا الجلد فى ١٧٧٧) بحبال فيها عقد تنتهى بكرات من الشمع تحوى زجاجا محطما ، وزعموا أنهم يفعلون هذا برهانا على حبهم لله أو مريم أو امرأة ما ، ورأى بعضهم أن هذا القصد مفيد للصحه[٧] وأنه يهدىء من شبق إيروس .

وكانت المواكب الدينية كثيرة ، مثيرة ، غنية بالألوان ، وقد شكا ظريف من أنه لم يستطع أن يخطو فى مدريد خطوة دون أن يصادف هذا المشهد المهيب » وكان فى الامتناع عن الركوع إذا مر الموكب مجازفة بالاعتقال أو الاعتداء . فحين قام أهل سرقسطة بثورة عام ١٧٦٦ وراحوا ينهبون ويسلبون ظهر موكب دينى على رأسه أسقف يحمل بين يديه القربان المقدس ، فكشف العصاة رؤوسهم وجثوا فى الشوارع » فلما عبر الموكب استأنفوا سلب المدينة[٨] . وكانت كل مصالح الحكومه تشارك فى موكب « عيد القربان » العظيم » يتقدمهم الملك أحيانا . وكانت مدن أسبانيا تجلل بالسواد طوال أسبوع الآلام ، والملاهى والمقاهى تغلق » والكنائس تغص بالعابدين ، والمذابح الأضافية تقام فى الميادين العامة إستجابة لتدفق التقوى والورع . ففى أسبانيا كان المسيح ملكا ، ومريم ملكة ، والاحساس بالحضرة الألهية فى كل لحظة من لحظات اليقظه ، جزءا من صميم الحياة .

وزكت طائفتان دينيتان أكثر من غيرهما فى أسبانيا . فسيطر اليسوعيون على التعليم بفضل علمهم ولباقتهم فى الحديث وأصبحوا آباء الإعتراف للأسرة المالكة . أما الدومنكان فسيطروا على ديوان التفتيش » ومع أن هذه المؤسسه كانت قد ودعت عصرها الذهبى منذ أمد بعيد ، فقد بقى لها

من القوة ما يكفى لأرهاب الشعب وتحدى الدولة . فلما ظهرت فلسول لليهوديه بسبب تراخى البوربون قطع ديوان التفيش دابرهم بإحراقهم علنا ، وعلى مدى سبع سنوات (١٧٢٠ — ٢٧) أدان الديوان ٨٦٨ شخصا ، أتهم ٨٢٠ منهم بأنهم يبطنون اليهودية ، وأحرق ٧٥ ، وزج غيرهم فى سفن تشغيل العبيد أو أكتفى بجلدهم[٩] . وفى ١٧٢٢ أظهر فليب الخامس تبنية لأساليب الحياة الأسبانية إذ ترأس مهرجانا فخما لاحراق المهرطقين ، أحرق فيه تسعه منهم أحتفالا بمقدم أميرة فرنسية إلى مدريد[١٠] . أما خلفه فرديناند السادس فقد أبدى روحا أكثر إعتدالا ، ففى عهده (١٧٤٦ — ٥٩) أحرق عشرة « فقط » أحياء ، وكلهم من اليهود « المرتدين[١١] » .

ومارس ديوان التفتيش رقابة خانقة على كل ضروب النشر . وقد قدر راهب دومنيكى أن المطبوع فى أسبانيا خلال القرن الثانى عشر كان أقل من المطبوع فى القرن السادس عشر[١٢] . وكان أكثر الكتب دينيا ، واحبها الشعب بوصفها هذا . وكانت الطبقات الدنيا أمية ، ولم تشعر بحاجة للقراءة أو الكتابة . وكانت المدارس فى قبضة رجال الدين ، ولكن آلافاً من الأبرشيات كانت خلوا من المدارس . أما الجامعات الأسبانية التى كانت يوما ما جامعات عظيمة فقد تخلفت تخلفا شديداً عن نظيراتها فى إيطاليا أو فرنسا أو انجلترة أو المانيا فى كل ناحية إلا اللاهوت التقليدى . وكانت مدارس الطب فقيرة ، ردئية الإعداد بالأساتذة ، ناقصة الأجهزة ، وأعتمد العلاج على الحجامة ، وأعطاء المسهلات ، والأستعانة ببركات القديسين والصلاة . وكان الأطباء الاسبان خطرا على حياة الناس . وكان العلم علم العصر الوسيط ، والتاريخ أساطير ، وزكت الخرافه وكثرت النذر والمعجزات . وظـــل الإيمان بالسحر حيا إلى نهاية القرن ، وظهر بين الأهوال التى صورها الرسام جويا .

تلك كانت أسبانيا التى قدم البوربون من فرنسا ليحكموها .

٢ — فليب الخامس ١٧٠٠ - ٤٦

كان فليب الخامس (Felipe Quinto) رجلا طيبا فى حدود فلسفة حياته التى ضيقها تعليمه . كان إبنا أصغر للدوفان ، فدرب على التواضع ، والتقوى ، والطاعة . فلم يتغلب قط على هذه الفضائل إلى حد يكفى للتصدى لنصف قرن من التحديات فى الحكم والحرب . وأفضت به تقواه إلى أن يتقبل فى أسبانيا ظلامية دينية كانت تحتضر فى فرنسا ، وجعلته سهولة إنقياده مطواعا لوزرائه وزوجاته .

وكانت ماريا لويزا جابرييلا ، أبنة فكتور أماديوس الثانى ملك سافوى ، لا تعدو الثالثة عشرة يوم تزوجت فليب (١٧٠١) ، ولكنها كانت رغم حداثتها حاذقة لمكر النساء وكيدهن ، وإستطاعت بجمالها وحيويتها وبغضباتها ودموعها ، أن تخضع الملك فيستسلم بعد إرهاق . بينما تدير هى وكبيرة وصيفاتها سياسة وطنهما الجديد . وكانت هذه الوصيفة — مارى آن دلا تريموال ، أميرة أورسان ، والأرملة الفرنسية لنبيل أسبانى كبير ، قد أعانت الملكة الصبية على الزواج والقبض على السلطة . ومكنها طموحها الممزوج باللباقة من أن تصبح قوة وراء العرش خلال عشرة أعوام . وما كان فى أستطاعتها أن تعتمد على الجمال لأنها كانت فى التاسعة والخمسين فى ١٧٠١ ، ولكنها إمدت الملكة بما تفتقر إليه من معرفة ودهاء ، وبعد عام ١٧٠٥ كانت تقرر السياسة . وفى ١٧١٤ ماتت ماريا لويزا فى السادسة والعشرين ، وتردى فليب الذى تعلم أن يحبها حباً صادقا فى أكتئاب مرضى . ورأت مدام ديزورسان أن تنقذ سلطانها بترتيب زواجه من إيزابيلا (إلزابيث) فارنيزى ، أبنة أودواردو الثانى دوق بارما وبياسنزا . وذهبت للقاء الملكة الجديدة عند الحدود الأسبانية ، ولكن إيزابيلا أمرتها فى إقتضاب أن ترحل عن أسبانيا ، فاعتزلت فى روما وماتت بعد ثمانى سنوات مغمورة منسية رغم ثرائها .

لم تعترف إيزابيلا بأن النهضة الأوربية قد ولت ، فقد وهبت كل قوة

الإرادة ، وشدة الذكاء ، وحدة الطبع ، واحتقار الوساوس الذى تميزت به النساء كما تميز الرجال الذين هيمنوا على إيطاليا القرن السادس عشر . وقد وجدت فى فليب رجلا عاجزا عن الحسم ، عاجزا عن النوم منفردا ، ومن ثم أصبح فراشها عرشها الذى تحكم منه أمة ، وتدير جيوشا ، وتظفر بامارات إيطالية . ولم تكن قد عرفت أى شىء تقريباً عن أسبانيا . ولم تألف قط الخلق الاسبانى ولكنها درست ذلك الخلق ، ونجحت فى التعرف على حاجات البلد ، وادهش الملك أن يجدها لا تقل عن وزرائه إطلاعا وسعة حيلة .

وكان فليب فى سنوات حكمه الأولى قد استخدم جان أورى وغيره من المساعدين الفرنسيين لأعادة تنظيم الحكومه على الأسس التى وضعها لويس الرابع عشر : إدارة ومالية ممركزتان مراقبتان ، مع بيروقراطية مدربه ونظار إقليميين ؛ وكلهم خاضعون لسلطة المجلس الملكى التشريعية والقضائية والتنفيذيه ؛ وأسمه هنا « مجلس تشتاله » Consejo de Castilla ؛ فقل الفساد ، وحد من الاسراف — إلا فى عمليات البناء الخاصه بالملك . ثم خلف هؤلاء الوزراء الفرنسيين فى ١٧١٤ إيطالى كفء طموح هوالاباتى جوليو البيرونى ، الذى جعل نشاطه الأسبانيين يرتعدون . وكان أبنا لبستانى فى بياتشنزا ، وصل إلى أسبانيا بوصفه سكرتيرا لدوق فندوم . وكان أول من إقترح إيزابيللا فارنيزى زوجة ثانية لفليب . فيسرب وصوله إلى السلطه سرفانا بصنيعه . وقد وفقا معا فى اقصاء الملك عن شئون الدولة . وعن أى مشورة غير مشورتهما . وخططا معاً لبناء قوات أسبانيا المسلحه واستخدامها لطرد النمساويين من إيطاليا وأستعادة النفوذ الأسبانى فى نابلى وميلان ، وإقامة عروش للأدواق يزينها يوما ما أبناء إيزابيللا البعيدة النظر .

وطلب البيرونى خمس سنين للاستعداد ، فأحل فى المناصب الرئيسية رجالا أكفاء من الطبقة الوسطى محل الكسالى من حملة الألقاب ، وفرض الضرائب على الاكليروس وسجن القساوسة المتمردين [١٣] ، وخرد السفن البالية وبنى خيراً منها ، وأقام القلاع والترسانات على طول السواحل

والحدود ، وأعان الصناعة بالمال ، وشق الطرق ، وزاد من سرعة المواصلات وألغى ضرائب المبيعات ومكس المرور . وقد أنذر السفير البريطاني في مدريد حكومته بأن أسبانيا لن تنقضي عليها بضع سنين أخر من أمثال هذه الخطى حتى تغدو خطرا على غيرها من دول أوربا[١٤] . ورغبة في تهدئة هذه المخاوف تظاهر البيروني بأنه يجند القوات ليعين بها البندقية والبابوية على الترك . والواقع أنه أرسل ست سفن كبيرة إلى كلمنت الحادي عشر ، الذي كافأه بقبعة الكردينالة الحمراء (١٧١٧) . كتب فولتير « أن الملكية الأسبانية قد استأنفت حياة جديدة تحت حكم الكردينال البيروني[١٥] » .

ومنح كل شيء إلا الوقت . كان يرجو أن يكسب رضاء الفرنسيين والانجليز عن الأهداف الأسبانية في ايطاليا ، وعرض تنازلات قيمة مقابل هذا الرضا ، ولكن الملك المهمل أفسد هذه المناورات بكشفه عن رغبته في الحلول محل فليب أورليان حاكما لفرنسا . وانقلب هذا على فليب ، وانضم إلى انجلترا والاقاليم المتحدة في ميثاق للحفاظ على الترتيبات الاقليمية التي حددتها معاهدة أوترخت . وانتهكت النمسا تلك المعاهدة باكراهها سافوى على اعطائها صقلية مقابل سردانيا . واحتج البيروني بأن هذا يضع عبر البحر المتوسط دولة ما زال رئيسها يطالب بتاج أسبانيا . ولعل تطور الأحداث بهذه العجلة على غير ما يبغي ثم أذعن لدخول حرب قبل الأوان . واستولى أسطوله الوليد على بلرمو (١٧١٨) . وسرعان ما أخضع جيشه صقلية كلها لسلطة أسبانيا وهنا انضمت النمسا إلى انجلترة وفرنسا وهولنده في حلف رباعي ضد أسبانيا . وفي ١١ أغسطس ١٧١٨ دمر أسطول بريطاني بقيادة الأميرال بنج الأسطول الأسباني تجاه ساحل صقلية ، وحبس خيرة جنود أسبانيا في تلك الجزيرة بينما غزت الجيوش الفرنسية أسبانيا . وطلب فليب وايزابيلا الصلح ، فأجيب الطلب شريطة أن ينفي البيروني . ففر إلى جنوه (١٧١٩) ، وشق طريقه متخفيا إلى روما عبر لومبارديا التي يملكها النمساويون ، وشارك في مجمع

الكراولة الذى انتخب البابا انوسقت الثالث عشر . ومات عام ١٧٥٢ وقد بلغ الثامنة والثمانين . وفى ١٧ فبراير ١٧٢٠ وقع مبعوث أسبانى بلندن معاهدة نزل فيها فليب عن كل حق يدعيه فى عرش فرنسا . ونزلت أسبانيا عن صقلية للنمسا ، ووعدت انجلتره برد جبل طارق إلى أسبانيا ، وتعهدت الحلفاء بأن يكون لنسل ايزابيللا الحق فى وراثة بارما وتوسكانيا .

وفى مجال السياسة الدولية سرعان ما ينقلب الحلفاء أعداء ، ويصبح الخصوم أصدقاء رسمياً . ودعما للسلام مع فرنسا ، كان فليب قد خطب ابنته ماريا أنا فكتوريا التى لم تسلخ من عمرها سوى عامين، للويس الخامس عشر فى ١٧٢١ ، وأرسل بها إلى فرنسا (١٧٢٢) وسط دهشة الجمع . ولكن فى ١٧٢٥ ردتها فرنسا لعل لويس أن يتزوج امرأة تستطيع الاضطلاع فورا بمهمة انجاب وريث له . ورأت أسبانيا فى هذا الرد اهانة ، فتحالفت مع النمسا ، ووعد الإمبراطور شارل السادس بمساعدة أسبانيا على استعادة جبل طارق ، فلما حاول جيش أسبانى الإستيلاء على ذلك المعقل لم يأت العون من النمسا ، وفشلت المحاولة ، ولم تصطلح أسبانيا مع انجلتره وحسب ، بل ردت لهـا احتكار الازينتو Asiento الذى يبيح لها بيع العبيد للمستعمرات الأسبانية ، ومقابل هذا تعهدت بريطانيا بأن تجلس الدون كارلوس ، ابن ايزابيللا ، على عرش دوقية بارما . وفى ١٧٣١ اتجه كارلوس وستة آلاف أسبانى إلى ايطاليا فى حراسة أسطول انجليزى . ونزلت النمسا عن بارما وبياتشنزا لكارلوس رغبة فى الحصول على تأييد بريطانيا وأسبانيا لها فى ارتقاء ماريا تريزا للعرش الامبراطورى. وفى ١٧٣٤ رفع كارلوس نفسه إلى عرش نابلى . وهكذا اكتمل نصر ايزابيللا .

على أن فليب أصابته نوبة من الأكتئاب أخذت بعد عام ١٧٣٦ تنحدر أحيانا إلى درك الجنون . فقبع فى ركن من حجرته ، ظانا أن كل الداخلين عليه ينوون قتله ، وعافت نفسه الأكل مخافة أن يدس له السم فيه . وظل

ردحا طويلا يأبى أن يبرح فراشة أو يحلق لحيته . وجربت إيزابيللا عشرات الوسائل لشفائه أو تهدئته ، ولكنها أخفقت كلها إلا واحدة . ففى ١٧٣٧ أقنعت فارنيللى بأساليب الملاطفة والتملق أن يجيء إلى أسبانيا . وذات ليلة في جناح ملاصق لجناح الملك ، رتبت حفلا موسيقيا غنى فيه « الخصى » المعظم لحنين من تأليف هاسى . ونهض فليب من فراشة لينظر خلال باب ويرى أى قوة أستطاعت أن تشدو بهذه الأصوات الساحرة . وجاءته ايزابيللا بفارينللى ، فأثنى عليه الملك وعانقه وأمره بأن يطلب ما شاء من مكافأة فتوهب له مهما غلت . وكانت الملكه قد أوصت المغنى بما يجيب ، فلم يطلب إلا أن يسمح الملك بأن تحلق لحيته وأن يرتدى ثيابه ويحضر المجلس الملكى . ووافق الملك وخفت مخاوفه . وبدا أنه شفى كأنما بمعجزة . ولكن حين أقبل المساء التالى أرسل فى طلب فارنيللى ورجاه أن يغنى هاتين الأغنيتين ذاتهما ثانية ، إذ لم يكن فى الأمكان تهدئته لينام إلا بهذه الطريقة . وهكذا أستمرت الحال ليلة إثر ليلة طوال عشر سنين . وكان أجر فارنيللى ٢٠٠,٠٠٠ ريال فى العام ، ولكن لم يسمح له بالغناء إلا فى البلاط . وتقبل هو الشرط شاكرا ، ومع أن نفوذه على الملك كان أقوى من نفوذ أى من وزرائه ، فأنه لم يستغله وأستعمله دائماً للخير ، وظل بريئا من روح الرشوة وأكتسب أعجاب الجميع[١٦] .

وفى ١٧٤٦ أمر فليب أن يقام ١٠٠,٠٠٠ قداس لخلاص نفسه . فإذا لم يكن ثمة حاجة لهذا العدد الكبير ليدخل به الجنه فليوهب الفائض للنفوس المسكينة التى لم يتح لها مثل هذا الأستعداد[١٧] . فى ذلك العام قضى فليب نحبه .

٣ — فرديناند السادس

١٧٤٦ — ٥٩

وخلفه على العرش ثانى أبنائه من زوجته الأولى ، فأعطى أسبانيا ثلاثة عشر عاماً من الحكم الشافى من عللها . وعمرت إيزابيللا حتى سنة ١٧٦٦ ،

ولقيت من ابن زوجها معاملة رقيقة مجاملة ، ولكنها فقدت سلطانها على التأثير فى الأحداث . وأصبحت زوجة فرديناند ، ماريا بربارة ، تلميذة سكارلاتى ، هى المرأة التى تقف وراء العرش . ومع أنها كانت مفرطة الولع بالطعام والمال ، فإنها كانت روحاً أرق من إيزابيلا ، وبذلت أكثر همها لتشجيع الموسيقى والفن . وواصل فارنيللى غناءه للحكام الجدد ، ولم يستطع هاريسكورد سكارلاتى أن ينافسه . وعمل الملك والملكة على إنهاء حرب الوراثة النمساوية ، فقبلا معاهدة إكس - لا - شابل (١٧٤٨) ، مع إنها أعطت توسكانيا للنمسا ، وبعد عام أنهيا اتفاق الازينتو الذى عمر ١٣٦ سنة بدفع ١٠٠,٠٠٠ جنيه لشركة بحر الجنوب تعويضاً عن خسارة امتيازاتها فى تجارة الرقيق .

كان فرديناند رجلا حسن النية ، لطيفاً أميناً ، ولكنه ورث جسدا رقيقاً وكان معرضاً لنوبات من الغضب كان يخجل منها خجلا مؤلما . [18] وحمله الوعى بعيوبه على ترك الحكم لوزيرين قديرين - دون خوزيه دى كارفاخال وزينون دى سومو ديفللا ، مركيز انسنادا . وحسن انسناداً أساليب الزراعة ، وأعان بالمال التعدين والصناعة ، وشق الطرق والقنوات ، وألغى المكوس الداخلية ، وأعاد بناء البحرية واستبدل بضريبة البيوع البغيضة ضريبة على الدخل والممتلكات ، ونظم المالية من جديد ، وحطم عزلة أسبانيا الفكرية بإيفاده البعوث من الطلبة إلى الخارج . ويرجع بعض الفضل إلى دبلوماسية انسناداً فى إبرام اتفاق مع البابوية (١٧٥٣) احتفظ للملك بحق فرض الضرائب على الأملاك الكنسية وتعيين الأساقفة للكراسى الأسبانية . وقد حد من سلطان الكنيسة ، وأخضع ديوان التفتيش ، وألغيت الاحتفالات العلنية بإحراق المهرطقين .

واختلف الوزيران فى سياستهما الخارجية . فأما كارفاخال فقد أثر فيه لطف السفير البريطانى المخلص ، السير بنجامين كين ، فاستن سياسة مؤيدة للبريطانيين مسالمة لهم ، وأما انسنادا فقد حابى فرنسا ، وتحرك نحو محاربة انجلترة . وطال صبر فرديناند عليه لأنه قدر نشاطه وكفايته ، ولكنه أقاله

فى النهاية . وبينما كانت كل أوربا تقريباً تتردى فى سنوات سبع من الحروب، منح فرديناند شعبه فترة من السلام والرخاء أطول مما حظيت به أسبانيا منذ أيام فليب الثانى .

وفى ١٧٥٨ ماتت ماريا بربارة .وكان الملك يحبها حباً يوحى بأن السياسة لم يكن لها دخل فى زواجهما ، ومن ثم اعترته حالة من الاكتئاب وتشعث الشعر وإطلاق اللحية ذكرت الناس باكتئاب أبيه من قبل ، وأصابته هو الآخر لوثة فى آخر سنة من عمره . وفى أخريات أيامه كان يأبى الذهاب إلى فراشه مخافة ألا ينهض منه أبدا . ومات فى كرسيه فى ١٠ أغسطس ١٧٥٩ وبكى الجميع الملكين الحبيبين لأن حكمهما كان بركة قل أن حظيت بها أسبانيا .

٤ — التنوير يدخل أسبانيا

قصة التنوير فى أسبانيا مثال لقوة عرضة للمقاومة تصطدم بجسم ثابت لا يقبل الحركة . فالخلق الأسبانى ، ووفاؤه لإيمانه الوسيط وفاء كتبه بالدم ، كان يصد كل رياح الهرطقة أو الشك عاجلا أو آجلا ، ويرفض كل دخيل من الزى أو العادات أو الاقتصاد . ولم يحبذ الفكر الدخيل غير قوة اقتصادية واحدة — هى التجار الأسبان الذين كانوا يتعاملون مع الأجانب كل يوم ، ويعرفون أى قوة وثراء حققهما ونظراؤهم فى انجلترة وفرنسا . وكانوا راغبين فى استيراد الأفكار إذا استطاعت أن تضعف من السلطة التى ورثها النبلاء والأكليروس على أرض أسبانيا وحياتها وعقلها . وقد علموا أن الدين فقد سلطانه فى انجلترة ، وسمع بعضهم بنيوتن ولوك ، لا بل أن جبون قدر له أن يجد بعض من يقرؤنه فى أسبانيا (١٩) .

وبالطبع هبت أقوى رياح التنوير من فرنسا . وكان النبلاء الفرنسيون الذين تبعوا فليب الخامس إلى مدريد قد مستهم الزندقة التى أخفت رأسها أيام لويس الرابع عشر ، ولكنها استشرت أيام الوصاية . وفى ١٧١٤ أسس

بعض الدارسين الأكاديمية الملكية الأسبانية محاكاة للأكاديمية الفرنسية ؛ وسرعان ما بدأت وضع معجم لغوى ؛ وفى ١٧٣٧ أضطلعت صحيفة « دياريو دى لوس لتراتوس دى أسبانيا » بمنافسة « الجورنال دى سافان » الفرنسية . وكان الدوق ألبا الذى أشرف على الأكاديمية الملكية عشرين عاماً (١٧٥٦ — ٧٦) شديد الأعجاب بجان — جاك روسو [٢٠] . وفى ١٧٧٣ اكتتب بثمانية جنيهات ذهبية (لوى دور) لتمثال فولتير الذى كان يصنعه بيجال . كتب إلى دالامبر يقول « أننى وقد قضى على بتثقيف عقلى سراً أغتنم هذه الفرصه للشهادة علانية بعرفانى وإعجابى بالرجل العظيم الذى كان أول من دلنى على الطريق[٢١] » .

وحظى كتاب روسو « إميل » بإعلان مجانى حين أحرق فى أحتفال رسمى بكنيسة من كنائس مدريد (١٧٦٥)[٢٢] . وعاد شباب من الأسبان الذين عرفوا بلريس كالمركيز دى مورا الذى عشق جولى دلسبيناس إلى أسبانيا يحملون شيئاً من آثار الشكوكية التى التقوا بها فى الصالونات . وهربت إلى أسبانيا نسخ من أعمال فولتير أوديدرو أو رينال ؛ فأيقظت بعض العقول الخدرة . وكتب صحفى أسبانى فى ١٧٦٣ يقول « كان من أثر الكتب المؤذية الكثيرة التى راجت بين الناس ، ككتب فولتير وروسو وهلفتيوس ؛ أن كثر فتور الإيمان فى هذا البلد[٢٣] » . وكان بابلو أولافيدى يجهر بالأفكار الفولتيرية فى صالونه بمدريد (حوالى ١٧٦٦) [٢٤] . وحوت رفوف « الجمعية الاقتصادية لأصدقاء السلام » أعمالا لفولتير ورروسو وبيل ودالامبر ومونتسكيو وهوبز ولوك وهيوم [٢٥] . وذكر الأديب كليمان الذى جاب أرجاء أسبانيا عام ١٧٦٨ أنتشار اللامبالاة بالدين أنتشارا واسعا ، لا بل الكفر بالعقيدة « المستتر وراء مراعاة الطقوس الكاثوليكية فى الظاهر[٢٦] » . وقد أبلغ ديوان التفتيش فى ١٧٧٨ أن كبار موظفى البلاط يقرءون لجماعة الفلاسفة الفرنسيين[٢٧] .

وكان من الأهمية بمكان للتاريخ الأسبانى أن يصبح بدرو أباركا ، كونت أراندا ، خلال رحلة قام بها فى فرنسا ، صديقا لفولتير . وقد تحكم

على علاقاته من نشاطه اللاحق سفيراً لأسبانيا لدى فرساي ، وقد اختلط فى غير تحرج بالموسوعيين فى باريس وقامت بينه وبين دالامبير صداقة ملؤها الأعجاب به ، وعبر فرنسا ليزور فولتير فى فرنيه . وكان يصرح بولائه الكنيسة فى أسبانيا ، ولكنه هو الذى أقنع شارل الثالث بطرد اليسوعيين ، وبأرشاده انضم شارل إلى صفوف « المستبدين المستنيرين » الذين كان يتطلع إليهم جماعة الفلاسفة باعتبارهم خير معسوان لهم فى نشر التعليم والحرية والعقلانية .

٥ — شارل الثالث ١٧٥٩ — ٨٨

١ — الحكومة الجديدة

حين وصل من نابلى كان يناهز الثالثة والأربعين . ورحب به الجميع إلا اليسوعيين [٢٨] الذين ساءهم بيع أسبانيا لمستوطناتهم فى برجواى إلى البرتغال (١٧٥٠) ، وفيما عدا هذا كسب جميع القلوب بإعفاء الناس من الضرائب المتأخرة ، ورد بعض الامتيازات التى فقدتها الأقاليم فى ظل سياسة المركزية التى انتهجها فليب الخامس . وقد جلل موت زوجته ماريا أماليا بالحزن سنة حكمه الأولى لأسبانيا . ولم يتزوج بعدها قط وإنه لمما يشرف آل بوربون الأسبان فى القرن الثامن عشر أنهم ضربوا لملوك أوربا المثل فى الوفاء لأزواجهم والثبات على حبهم .

وقد رسم دبلوماسى بريطانى صورة بريطانية لشارل الذى كانت له مواجهات مع الانجليز فى نابلى .

« للملك مظهر غريب سواء شخصه أو زيه . فهو ضئيل القامة ولون بشرته شبيه بلون المحنة ولم يفصل له سترة طوال هذه السنين الثلاثين ، فالملك يبدو فى سترته وكأنها انزكيبة ، وصدريته وسراويل ركوبه من الجلد عادة ، وعلى ساقيه طماق يقيهما من البلل . وهو يخرج للرياضة كل يوم من أيام السنة غير عابىء بمطر أو ريح [٢٩] .

ولكن إيرل برستول — أردف فى ١٧٦١، « إن الملك الكاثوليكى مواهب جيدة » وذاكرة مواتية ، وسيطرة غير عادية على نفسه فى جميع المناسبات . وقد بات يتشكك فى الناس لكثرة ما خدعوه . وهو يفضل دائماً أن ينال موافقة الآخرين على رأيه باللين » وله من طول الأناة ما يجعله ينصح محدثه المرة بعد المرة دون أن يستعمل سلطته .:. ومع ذلك فرغم سيماء اللطف العظيم البادى عليه استطاع أن يبث الرهبة فى قلوب وزرائه وحاشيته . »[٣٠]

ولم يكن فى تقواه الشخصية ما ينذر بأنه سيهاجم اليسوعيين أو يضطلع بالإصلاحات الدينية . كان يختلف إلى القداس كل يوم . وقد أدهش عدوا إنجليزياً « وفاؤه الأمين العنيد بكل معاهداته ومبادئه وإرتباطاته »[٣١] وكان يخصص جزءاً كبيراً من كل يوم من أيام الأسبوع (عدا الأحد) لشئون الحكم . يستقيظ فى السادسة » ويزور أبناؤه، ويفطر ، ويعكف على العمل من الثامنة إلى الحادية عشرة ، ويجتمع بوزرائه » ويستقبل كبار القوم ويتناول غداءه مع غيره » ويخصص عدة ساعات للصيد » ويتعشى فى التاسعة والنصف ، ويطعم كلابه » ويتلو صلواته » ثم يمضى إلى فراشه . ولعل الصيد كان وقاء صحيا قصد به أن يصرف عنه الاكتئاب الموروث فى الأسرة .

وبدأ ببعض الأخطاء الخطيرة . ذلك أنه لجهله بأسبانيا التى لم يرها منذ كان فى السادسة عشرة اتخذ اثنين من الايطاليين كانا قد أخلصا فى خدمته بنابلس مساعدين أثيرين لديه : المركيز دى جريمالدى فى السياسة الخارجية ، والمركيز دى سكللاتشى فى الشئون الداخلية .

وقد وصف ايرل برستول سكللاتشى هذا بأنه « غير ذكى . أنه مولع بالعمل ولا يشكو أبدا من كثرته رغم تنوع إدارات الحكومة التى تتركز فيه . . . وأعتقد أنه غير قابل للارتشاء ، ولكننى لا أريد أن أكون مسئولا بهذا القدر عن زوجته »[٣٢] ولم يحب جرائم مدريد ولا روائحها الخبيثة ولا ظلمتها ؛ ومن ثم فقد نظم لها شرطة نشيطة وفرقة لتنظيف شوارعها » وأنار

العاصمة بخمسة آلاف مصباح . وأباح الاحتكارات لتزويد المدينة بالزيت والخبز وغيرهما من الضروريات . وحدث أن الجفاف رفع الأسعار ، فطالبت الجماهير برأس سكللاتشى . وقد أغضب رجال الدين بلوائح حدت من امتيازاتهم وسلطتهم . وفقد المئات من المؤيدين حين صادر الأسلحة المخبأة . وأخيرا أثار ثائرة الشعب بمحاولته تغيير زى الشعب . فقد أقنع الملك بأن العباءة أو الكاب الطويل الذى يخفى البدن والقبعة العريضة ذات الحافة المقلوبة التى تخفى كثيرا من الوجه ، يسهلان إخفاء السلاح ويعوقان الشرطة عن التعرف على المجرمين . ومن ثم حظرت سلسلة متعاقبة من المراسيم الملكية الكاب والقبعة ، وزود رجال الضبط بالمقصات الكبيرة يقصون بها العباءات المخالفة حتى يصلوا بها إلى الطول القانونى (٣٣) . وكان فى هذا من التحكم فوق ما يطيقه المدريديون الأباة . فثاروا فى أحد الشعانين ، ٢٣ مارس ١٧٦٦ ، واستولوا على مخازن الذخيرة ، وأطلقوا السجناء ، وتغلبوا على الجنود والشرطة ، وهاجموا بيت سكللاتشى ، وحصبوا جريمالدى ، وقتلوا الحرس الولونى الذين يحرسون القصر الملكى ، وجابوا الشوارع يرفعون رءوس هؤلاء الدخلاء الممقوتين على الرماح متوجة بقبعات عريضة الحواف . وظل الرعاع يومين يواصلون التقتيل والنهب . وهنا أذعن شارل ، وألغى المراسيم ، وأعاد سكللاتشى إلى إيطاليا محروسا . وكان فى غضون ذلك قد اكتشف مواهب الكونت أراندا ، وعينه رئيسا لمجلس قشتاله . فجعل أراندا العبـــاءة والصمبريرة Sombrero أى القبعة العريضة الحافة الزى الرسمى للبلاد . وكان فى هذا المعنى الجديد المتضمن ما زهد الناس فى الزى القديم ، ومن ثم اتخذ معظم أهل مدريد الزى الفرنسى .

كان أراندا سليل أسرة عريقة غنية فى أراجون . رأيناه يتشرب التنوير فى فرنسا ، كذلك ذهب إلى بروسيا حيث درس التنظيم العسكرى ثم عاد إلى أسبانيا متشوقا إلى العمل على أن يعمل وطنـــه إلى مستوى تلك الدول الشمالية . وأفرط أصحابه الموسوعيون فى الجهر باغتباطهم لتقلده السلطة ، وأحزنه أنهم بذلك زادوا مهمته صعوبة ، (٣٤) وود لو أنهم درسوا

الدبلوماسية من قبل . وقد عرف الدبلوماسية السياسية بأنها فن « اعادة تنظيم قوة مختلف السلطات ، ومواردها ، ومصالحها ، وحقوقها ، ومخاوفها وآمالها ، حتى إذا سمحت المناسبة استطعنا أن نهدئ من هذه القوى ، أو نفرق بينها ، أو نهزمها أو نتحالف معها ، وذلك رهن بكيفية خدمتها لمصالحنا وزيادتها لأمتنا » (٣٥) .

وكان الملك فى حالة نفسية مواتيه لإصلاحات الكنيسة لتوجسه من أن الاكليروس شجعوا الثورة على سكللاتشى سراً (٣٦). وكان قد أذن للمطبعة الحكومية فى أن تطبع عام ١٧٦٥ مقالاً غفــلا من اسم الكاتب عنوانه Tratado de la regalia de l'amortizaction.
تشكك فى حق الكنيسة فى جمع الثروة العقارية ، وزعم أن الكنيسة ينبغى أن تكون خاضعة للدولة فى جميع الأمور الزمنية .وكان المؤلف هو كونديه بدرو رودريجر دى كومبومانيس ، وكان عضواً فى مجلس قشتالة . وكان شارل قد أصدر عام ١٧٦١ أمراً يشترط موافقة الملك على نشر الأوامر أو الرسائل البابوية فى أسبانيا ، وفى تاريخ لاحق ألغى هذا الأمر . ولكنه عاد فجدده فى ١٧٦٨ . وأيد الآن أراندا وكومبومانيس فى سلسلة من الإصلاحات الدينية شكلت من جديد وجه أسبانيا الفكرى طوال جيل مثير .

٢ — الإصلاح الدينى الأسبانى

لم يكن فى نية المصلحين الأسبان أن يقضوا على الكاثوليكية فى أسبانيا — ربما باستثناء أراندا . وكانت الحروب الطويلة التى خاضتها البلاد لطرد العرب (كالكفاح الطويل لتحرير إيرلنده) قد جعلت الكاثوليكية جزءاً من الوطنية وكثفتها إلى درجة إحالتها إلى إيمان قدسته تضحيات الأمة تقديساً لا يتيح التحدى الناجح أو التغيير الجذرى. وكان أمل المصلحين أن يخضعوا الكنيسة لإشراف الدولة ، وأن يحرروا عقل أسبانيا من رهبة محكمة التفتيش . وقد بدأوا بمهاجمة اليسوعيين .

كانت جماعة اليسوعيين قد ولدت بأسبانيا فى عقل اغناطيوس لويولا

وتجاربه ، وكان نفر من أعظم قادتها من أسبانيا . وكما حدث فى البرتغال ، وفرنسا ، وإيطاليا ، والنمسا اضطلعت الجماعة بالتعليم الثانوى ، وزودت الملوك والملكات بآباء الاعتراف ، وشاركت فى تشكيل السياسات الملكية . وقد أثار سلطانها المتسع غيرة الأكليروس الكاثوليكى غير الرهبانى ، وأحياناً عداءه .وكان بعض هؤلاء يؤمنون بأن سلطة المجامع المسكونية تعلو على سلطة البابوات ، أما اليسوعيين فقد دافعوا عن سمو سلطة البابوات على سلطة المجامع والملوك . وشكا رجال الأعمال الأسبان من أن اليسوعيين المشتغلين بتجارة المستعمرات يبيعون بأسعار أقل من التجار المحترفين بفضل مايتمتعون به من إعفاءات كنسية من الضرائب ، وقرروا أن هذا يقلل من الإيرادات الملكية . وآمن شارل بأن اليسوعيين مازالوا يشجعون مقاومة هنود براجواى لأوامر الحكومة الأسبانية [٣٧] ؛ وروعه أن يطلعه أراندا وكامبومانيس وغيرهما على خطابات أدعوا أنهم وجدوها بين رسائل اليسوعيين ، وقد صرح أحد هذه الخطابات الذين زعموا أن كاتبه هو الأب ريكي قائدالطائفة اليسوعية ، بأن شارل ابن غير شرعي ويجب أن يحل محله أخوه لويز . وقد رفض الكاثوليك وغير المؤمنين على السواء صحة هذه الخطابات [٣٩] ، ولكن شارل ظنها صحيحة وانتهى إلى أن اليسوعيين يأتمرون لخلعه ، وربما لقتله[٤٠]. ولحظ أن محاولة — زعموا أن اليسوعيين كانوا ضالعين فيها — بذلت لاغتيال يوسف الأول ملك البرتغال (١٧٥٨)، فصحت نيته على أن يحذو حذو يوسف ويطرد الطائفة من مملكته .

وحذره كامبومانيس من أن خطوة كهذه لن يتاح لهـا النجاح إلا بالإستعدادات المستورة تتبعها ضربه فجائيه مدبرة ، وإلا إستطاع اليسوعين الذين كانوا يحظون بتبجيل الشعب أن يثيروا ضجه مؤذية فى الأمه وممتلكاتها جميعا . وعملا بأقتراح أراندا أرسلت رسائل مختومة ممهورة بتوقيع الملك فى مطلع عام ١٧٦٧ إلى الموظفين فى جميع أرجاء الإمبراطورية مشفوعة بالأمر بعدم فضها إلا فى ٣١ مارس فى أسبانيا ، وفى ٢ أبريل فى المستعمرات ،

وألا كان الموت عقاب المخالفين . وفى ٣١ مارس أستيقظ اليسوعيون الأسبان ليجدوا بيوتهم ومدارسهم يطوقها الجنود ، ويجدوا أنفسهم معتقلين. وأمروا بالرحيل فى هدوء ، غير مصطحبين سوى ما يطيقون حمله ، أما سائر ممتلكات اليسوعين فقد صادرتها الدولة . ومنح كل مبعد معاشا صغيرا يوقف أن عارض أى يسوعى فى طرده . ثم أخذوا فى عربات تحت الحراسه العسكرية إلى أقرب ميناء وأركبوا السفن إلى إيطاليا . وبعث شارل بكلمة إلى البابا كلمنت الثالث عشر يخبره أنه « ينقلهم إلى الأراضى الكنسية ليظلوا تحت أشراف قد استه الحكيم العاجل . . . . وأنى أرجو من قد استكم إلا تعتبروا هذا القرار إلا احتياطا مدنيا لا غنى عنه ، لم أتخذه إلا بعد البحث الناضج والتفكير العميق[٤١] » .

فلما حاولت أولى السفن التى كانت تحمل سمائة من اليسوعين ، أن تنزلهم فى تشيفيتافكيا ، رفض الكردينال توريجيانى ، السكرتير البابوى ، السماح لهم بالرسو محتجا بأن إيطاليا لا تستطيع بهذه السرعه المفاجئة أن تعنى بهذا العدد الكبير من اللاجئين[٤٢] . وظلت السفينة الأسابيع تجوب البحر المتوسط باحثة عن ميناء مضياف بينا يعانى ركابها البائسون من رداءة الجو ومن الجوع والمرض . وأخيرا سمح لهم بالنزول فى قورسقه ، وبعد حين أستوعبتهم الولايات البابوية فى جماعات سهلة القيادة . ولقى اليسوعيون فى غضون هذا النفى المماثل من نابلى وبارما وأمريكا الأسبانية والفلبين . وناشد كلمنت الثالث عشر شارل الثالث أن يلغى هذه المراسيم التى سيصعق العالم المسيحى كله لا محالة لما فيها من مباغتة وقسوة . فأجاب شارل « أننى لرغبتى فى أن أعفى العالم من فضيحه كبرى سأظل ما حييت مخبئا فى قلبى سر المؤامرة النكراء التى أقتضت هذه الصرامة . وينبغى لقداستكم أن تصدقوا كلمتى . فسلامة حياتى تفرض على الصمت العميق[٤٣] » .

ولم يفصح الملك قط عن الأدله التى أقام عليها مراسيمه . وفى التفاصيل من التناقض والغموض ما يجعل المرء عاجزا عن الحكم عليها . وقد اعترض

دالامبير على الطريقة التى نفى بها اليسوعيون ، ولم يكن بصديق لهم . ففى ٤ مايو ١٧٦٧ كتب إلى فولتير يقول :

« ما رأيك فى مرسوم شارل الثالث الذى طرد اليسوعين على هذا النحو المفاجىء ؟ ألا ترى « رغم إقتناعى بأن لديه مبررات كافية ووجيهة ، بأنه كان ينبغى أن يفصح عنها لا أن يحبسها فى « قلبه الملكى » ؟ إلا ترى أنه كان ينبغى له أن يسمح لليسوعيين بتبرير أنفسهم ، لا سيما لأن الجميع واثقون أنهم ما كانوا يستطيعون هذا ؟ وألا ترى أيضا أن من الظلم البين لهم أن يتركوا جميعا ليموتوا جوعا بينما الواجب على أخ علمانى واحد ، ربما يقطع الكرنب الآن فى المطبخ ، أن يقول كلمة بطريقة أو بأخرى فى الدفاع عنهم ؟ . . . إلا يبدو لك أنه كان مستطيعا أن يتصرف بتعقل أكثر فى تنفيذ أمر هو رغم كل شىء أمر معقول[٤٤] » ؟

أكان طردهم اجراء محببا لدى الشعب ؟ بعد عام من إستكمال هذا الطرد وفى عيد القديس شارل ، طلع الملك على شعبه من شرفة قصره ، فلما سألهم جريا على عادة مألوفه عندهم أى منحة يرغبون فى أن يهبهم صاحوا « بصوت واحد » أن يسمح لليسوعين بالعودة ، وأن يلبسوا رداء الأكليروس غير الرهبانى — فأبى شارل » ونفى رئيس أساقفة طليطلة متهما أياه بأنه المحرض على الإلتماس الذى أشتبه فى أنه يهدف إلى التوفيق[٤٥] . ولما طلب البابا فى ١٧٦٩ إلى أساقفة أسبانيا رأيهم فى طرد اليسوعيين ، وافق عليه أثنان وأربعون ، وعارضه ستة ، ولم يبد ثمانية رأيا فى الأمر[٤٦] . وأغلب الظن أن الكهنة من غير الرهبان كانوا مغتبطين باعفائهم من منافسة اليسوعين لهم . ووافق الآخوة الأوغسطينيون فى أسبانيا على الطرد ، ثم أيدوا بعد ذلك مطالبة شارل الثالث بفض جماعة اليسوعين بجملتها[٤٧] .

أما ديوان التفتيش فلم يكن فى الأمكان إتخاذ إجراء معجل كهذا معه ، فقد كان أعمق من جمعية اليسوعين تغلغلا فى رهبة وتقاليد الشعب الذى عزا إلى الديوان الفضل فى صيانة الأخلاق والاحتفاظ بنقاء إيمانهم — بل حتى

تقاء دمائهم . وحين ولى شارل العرش كان الديوان يسيطر على عقل أسبانيا برقابة صارمة ساهرة . فأى كتاب تظن به الهرطقه الدينية أو الإنحراف الخلقى يقدم إلى الفاحصين ، فإذا رأوه خطرا بعثوا بتوصياتهم إلى مجلس ديوان التفتيش ، وللمجلس سلطة الأمر بمصادرة الكتاب وعقاب مؤلفه . وكان الديوان يصدر دوريا فهرسا بالكتب المحرمة ، وكان احراز كتاب منها أو قراءته دون إذن كنسى جريمة لا يغفرها إلا ديوان التفتيش ، وقد يعاقب مرتكبها بالحرم . وكان على القساوسة خصوصا فى الصوم الكبير أن يسألوا جميع المعترفين بذنوبهم ، أن كانوا يملكون أو يعلمون أن أنسانا يملك كتابا محظورا . وكل مقصر فى الإبلاغ عن أنتهاك للفهرس يعتبر مذنبا كمنتهكه ، وما كان لأية روابط أسرية أو علاقات ودية أن تعفيه من العقاب[٤٨] .

ولم ينجز وزراء شارل فى هذا المضمار سوى أصلاحات صغيرة . ففى ١٧٦٨ حد من سلطة الديوان فى رقابة المطبوعات باشتراط الحصول على التصديق الملكى على جميع المراسيم المحرمة للكتب قبل تنفيذها . وفى ١٧٧٠ أمر الملك محكمة الديوان بأن تقتصر على الهرطقة والإرتداد دون غيرهما ، وإلا تسجن إنسانا ما لم يثبت ذنبه على نحو قاطع . وفى ١٧٨٤ أمر بأن تعرض عليه اجراءات الديوان الخاصة بكبار النبلاء ، وأعضاء مجلس الوزراء والموظفين الملكيين ، لمراجعتها . ثم عين رئيسا عاما للديوان أبدى موقفا أكثر تحررا بأزاء خلافات الفكر[٤٩] .

وكان لهذه الاجراءات المتواضعة بعض الأثر ، لأن الرئيس العام لديوان التفتيش قرر فى حزن أن الخوف من اللوم الكنسى على قراءة الكتب المحرمة يكاد يصبح فى خبر كان[٥٠] ، وكان وكلاء الديوان بعد ١٧٧٠ بوجه عام أقل غلوا ، وعقوباته أرحم من ذى قبل . ومنح التسامح الدينى للبروتستنت فى عهد شارل الثالث ، وللمسلمين فى ١٧٧٩ ، وأن لم يمنح لليهود[٥١] . وفى عهد شارل الثالث أحتفل بأحراق المنحرفين أربع مرات ، آخرها عام ١٧٨٠ فى أشبيلية حين أحرقت عجوز أتهمت بالسحر ، وأثار إعدامها

هذا من النقد فى كل ارجاء أوربا[٥٢] ما مهد الطريق لالغاء ديوان التفتيش الأسبانى فى ١٨١٣ .

ومع ذلك ظلت حرية الفكر إذا أعرب صاحبها عنها حتى فى عهد شارل الثالث تعاقب قانونا بالموت . ففى ١٧٦٨ أتهم بابلو أولافيدى أمام ديوان التفتيش بحيازته صورا بذيئه فى بيته بمدريد ، وربما كانت نسخا من عرايا بوشيه ، لأن أولافيدى كان قد جاب فرنسا حتى فرنيه . ثم رمى بتهمه أخطر فى ١٧٧٤ ، هى أنه لم يسمح بأقامة أديرة فى القرى النموذجيه التى أنشأها فى سيرا مورينا ، وأنه حظر على الكهنه تلاوة القداس فى غـير يوم الأحد أو طلب الصدقات . وأحاط ديوان التفتيش الملك بأن هذه الجرائم وغيرها قد أثبتت بشهادة ثمانين شاهدا . وفى ١٧٧٨ أستدعى أولافيدى لمحاكمته وأتهم بتأييده نظرية كوبرنيق الفلكية وتراسله مع فولتير وروسو . فرجع الرجل عن أخطائه وتصالح مع الكنسيه ، وصودرت كل أملاكه ، وحكم عليه بالحبس فى دير ثمانية أعوام . وفى ١٧٨٠ تداعت صحته . وسمح له بالأستشفاء بمياه منتجع معدنى فى قتلونيه ، ومنها فر إلى فرنسا . حيث أستقبله أصحابه الفلاسفة فى باريس استقبال الأبطال . ولكنه لم يقض فى منفاه بضع سنوات حتى أستبد به الحنين إلى مغانيه الأسبانيه . فألف كتابا مشربا بروح التقوى عنوانه « الإنجيل المنتصر أو الفيلسوف المهدى » وعليه أذن ديوان التفتيش بعودته[٥٣] .

ونلاحظ أن محاكمة أولافيدى جرت بعد سقوط أراندا من رآسة مجلس قشتالة وفى أخريات حكم أراندا أنشأ مدارس جديدة يقوم بالتدريس فيها أكليروس غير رهبانى لملء الفراغ الذى خلفه اليسوعيون ، وأصلح العمله باحلال نقود من نوع جيد وتصميم أرقى محل العملات الممذوقه (١٧٧٠). على أن إحساسه بأستنارته الفائقة جعله بمضى الزمن نزقا متغطرسا وقحا . فبعد أن جعل سلطة الملك مطلقة سعى إلى تقييدها بزيادة نفوذ الوزراء . وفقد القدرة على الرؤية المتناسبة وتقدير الأمور فى أوضاعها الصحيحة ، وحلم باخراج أسبانيا بعد جيل واحد من كنتلها المطمئنه إلى تيار الفلسفه

الفرنسية . وأعرب فى جرأة مغالية عن أفكاره المهرطقة ، حتى لكاهن اعترافه . ومع أن الكثير من رجال الأكليروس غير الرهبان أيدوا بعض إصلاحاته الكنسيه لما فيها من نفع للكنسيه[٥٤] ، فأنه أخاف عددا أكبر بالكشف عن أمله فى حل ديوان التفتيش جملة[٥٥] . وأشتد كره الناس له حتى أنه لم يجرؤ على الخروج من قصره دون حرس . وراح يكثر من الشكوى من ثقل أعباء وظيفته حتى أخذه شارل آخر الأمر عند كلمته فأوفده سفيرا إلى فرنسا (١٧١٣ — ٨٧) وهناك تنبأ بأن المستعمرات الانجليزيه فى أمريكا ، التى بدأت ثورتها آنذاك ، ستصبح فى الوقت المناسب من أعظم دول العالم[٥٦] .

٣ — الاقتصاد الجديد

سيطر على الوزارة بعد رحيل أراندا ثلاثة من الرجال الاكفاء . فخلف خوزيه مونينو ، كونت فلوريدا بلانكا ، جريمالدى وزيراً للشئون الخارجية (١٧٧٦) ، وسيطر على مجلس الوزراء حتى عام ١٧٩٢ . وقد تأثر بالفلاسفة الفرنسيين كما تأثر أراندا ولكن بدرجة أقل . وأرشد الملك فى اجراءات لتحسين الزراعة والتجارة والتعليم والعلوم والفنون ، ولكن الثورة الفرنسية أخافته فانتكس محافظا ، وقاد أسبانيا إلى أول تحالف ضد فرنسا الثورة (١٧٩٢) . أما بدرو دى كامبومانيس فقد ترأس مجلس قشتالة خمس سنين ، وكان المحرك الأول فى الاصلاح الاقتصادى . وأما جسبار ملكور دى خوفللانوس ، أرفع الأسبان فى جيله[٥٧] ، فقد عرفته الجماهير أول ما عرفته قاضيا رحيما نزيها فى أشبيلية (١٧٦٧) ومدريد (١٧٧٨) . وجاء أكثر نشاطه فى الحكومة المركزية تاليا لعام ١٧٨٩ ، ولكنه أسهم إسهاما قوياً فى السياسية الاقتصادية أيام شارل الثالث بكتاب ألفه فى الاصلاح الزراعى (١٧٨٧) . وقد أذاع اقتراحه مراجعة القانون الزراعى ،وهو الاقتراح الذى كتبه برشاقةأسلوب كاد يدانى بها رشاقةأسلوب شيشيرون ، شهرته فى أوروبا طولا وعرضا . هؤلاء الثلاثة ، بالاضافة إلى أراندا ، كانوا آباء التنوير الأسبانى والاقتصاد الجديد . ويرى دارس انجليزى ، بوجه عام ، أن النتيجة الطيبة التى حققوها تضارع ما تحقق فى مثل هذا

الزمن القليل فى أى بلد آخر ، ولا ريب فى أن تاريخ أسبانيا لا يحوى فترة يمكن مقارنتها بحكم شارل الثالث[٥٨] .

كانت العقبات التى اعترضت الاصلاح فى أسبانيا لاتقل خطرا فى الاقتصاد عنها فى الدين . فقد بدأ تركيز الملكية الثابته فى الأسر الشريفه أو الجماعات الكنسية » واحتكار « المستا » لإنتاج الصوف « حاجزين فى وجه التغير الاقتصادى لاسبيل إلى التغلب عليهما . وكان ملايين الأسبان يفخرون بحياة الكسل التى يحيونها ، ولا يخجلون من التسول ، وكانوا لايثقون فى التغيير لأنه خطر يهدد التبطل(*). وكان المال يختزن فى خزائن القصور والكنائس بدلا من استثماره فى التجارة أو الصناعة. وكان طرد المغاربة واليهود والموريسكو قد أزال كثيرا من مصادر تحسين الزراعة وتطوير التجارة . وقد نجم عن صعوبات الاتصال والنقل الداخليين أن تخلف داخل البلاد قرنا عن برشلونه واشبيلية ومدريد .

على أن فريقا من صادق النية — نبلاء وقساوسه وأفرادا من طبقة العامة رجالا ونساء — كونوا رغم هذه المعوقات « جمعية اقتصادية لأصدقاء السلام » للدراسة وتشجيع التعليم والعلوم والصناعة والتجارة والفنون . فأنشأوا المدارس والمكتبات » وترجموا الأبحاث الأجنبية وقدموا الجوائز على المقالات والأفكار ، وجمعوا المال لمشروعات وتجارب اقتصادية تقدمية. وقد أدانوا تكديس الأمة للذهب باعتباره أثراً مذكراً بالركود ، وذلك اعترافاً منهم بتأثير الطبيعيين الفرنسيين وآدم سمث . وأكد واحد منهم : « ان الأمة التى تملك معظم الذهب هى أفقر الأمم ... كما أثبتت أسبانيا[٦٠]. ورحب خوفللانوس بـ « علم الاقتصاد المدنى » باعتباره « علم الدولة الحقيق». وكثرت المقالات الاقتصادية . وكان مقال كاميومانيس عن الصناعة الشعبية إلهاما للآلاف ومنهم الملك .

(*) قرر قانون أراجونى أن يزود كل نبيل من طبقة الهيدلج كلا من أبنائه بمعاش لأنه « لا يليق بالنبيل أن يشتغل » (٥٩) .

وبدأ شارل باستيراد الغلال والبذور للأقاليم التي اندثرت فيها الزراعة، وحث المدن على أن تؤجر أراضيها المشاع غير المزروعة للفلاحين بأقل إيجار عملي . وأنشأ فلوريدا بلانكا ببعض إيرادات التاج من دخول الرتب الكنسية الشاغرة أرصدة دينية في بلنسية وملقا لاقراض المال للمزارعين بفائدة منخفضة . ولكي يحد شارل من ازالة الغابات وتعرية التربة أمر جميع الكومونات بأن تزرع كل سنة عدداً محدداً من الاشجار . ومن هنا ذلك الاحتفال السنوي : « يوم الشجرة » الذي ظل في نصفي الكرة تقليداً صحياً أيام شبابنا . وقد شجع اغفال الأوقاف القديمة ، وثبط وقف الجديد منها ، وبهذا يسر تجزئة الضياع الكبيرة إلى ملكيات للفلاحين . ثم اختزلت امتيازات إحتكار أغنام المستا اختزالا حاداً وأبيح زرع مساحات كبيرة من الأرض كانت من قبل حكرا للرعي . واستقدم المستعمرون الأجانب لتعمير المناطق الخفيفة السكان . مثال ذلك أن أولافيدي انشأ (١٧٦٧ وما بعدها) في اقليم سيرا مورينا بجنوب غربي أسبانيا ، الذي كان إلى ذلك الحين متروكا للصوص والوحوش ، أربعا وأربعين قرية وإحدى عشرة مدينة مأهولة بالوافدين الفرنسيين أو الألمان ، وأصبحت هذه المستوطنات مشهورة برخائها . وشقت القنوات الطويلة لربط الأنهار وري مساحات واسعة من الأرض كانت من قبل جرداء قاحلة . ثم شقت شبكة من الطرق الجديدة كانت في فترة خير الطرق في أوربا [٦٢] ، فربطت القرى والمدن في تيسير يعين على سرعة المواصلات والنقل والتجارة .

ومدت الحكومة يد العون للصناعة . ورغبة في إزالة الوصمة التي الصقتها التقاليد بالعمل اليدوي ، أعلن مرسوم ملكي أن لاتعارض بين الأعمال الحرفية وشرف المكانة الاجتماعية ، وأن الحرفيين يصح منذ الآن اختيارهم للوظائف الحكومية . وانشئت المصانع النموذجية : للمنسوجات في وادي الحجارة وسقوبية ، وللقبعات في سان فرناندو ، وللحرائر في طلبيره ، وللصيني في بوين رتيرو ، وللزجاج في سان إلدفونسو ، وللزجاج والأثاث الخشبي الفاخر وقطع النسيج المرسوم في مدريد . وشجعت المراسيم الملكية تطور

الإنتاج الرأسمالى على نطاق واسع ، لاسيما فى صناعة النسيج . فكان فى وادى الحجارة عام ١٧٨٠ ثمانمائة نول تستخدم أربعة آلاف نساج ، وأدارت شركة واحدة فى برشلونه ستين مصنعا تضم ٢٫١٦٢ نولا نساج القطن ، وكان فى بلنسيه أربعة آلاف نول تنسج الحرير ، وأخذت تنافس تجارة ليون فى الحرير لما حظيت به من امكانات التصدير . وفى ١٧٩٢ كان فى برشلونة ثمانون الف نساج ، ولم يفقها فى انتاج الأقمشة القطنية غير أقاليم إنجلترة الوسطى .

وكانت أشبيلية وقادس تتمتعان منذ عهد بعيد باحتكار تحميه الدولة للتجارة مع الممتلكات الأسبانية فى الدنيا الجديدة ، فانهى شارل الثالث هذا الامتياز وسمح لمختلف الثغور بالاتجار مع المستعمرات ، ثم أبرم بعد التفاوض مع تركيا معاهدة (١٧٨٢) فتحت الموانى الإسلامية للسلع الأسبانية . وكانت النتائج مجزية لجميع الأطراف . وازداد ثراء أمريكا الأسبانية سريعا ، وارتفع دخل أسبانيا من أمريكا ثمانمائة فى المائة فى عهد شارل الثالث ، وتضاعفت تجارة صادرها ثلاث مرات[٦٣] .

وتطلبت أنشطة الحكومة المتسعة دخـــولا أكبر . وقد أمكن الحصول عليها إلى حد ما باحتكار الدولة لبيع البراندى ، والتبغ ، وورق اللعب ، والبارود ، والرصاص ، والزئبق ، والكبريت ، والملح . وفى بداية العهد كانت هناك ضرائب مبيعات نسبتها خمسة عشر فى المائة فى قتلونيا ، وأربعة عشر فى قشتاله . وقد وصف خوفللانوس ضرائب المبيعات بحق إذ قال « إنها تفاجىء ضحيتها ... عند ميلادها ، وتطاردها وتعترضها حين تدور ، ولا تغفل عينها عنها أبدا أو تدعها تفلت منها حتى تقضى عليها . »[٦٤] وفى عهد شارل الثالث الغيت ضريبة المبيعات فى قتلونيا ، وفى قشتالة خفضت إلى اثنين أو ثلاثة أو أربعة فى المائة[٦٥] . وفرضت ضريبة متدرجة معتدلة على الدخول . وضمانا للمزيد من المـــال بتشغيل مدخرات الشعب ، أقنع فرانسسكو دى كاباروس الخزانة بأن تصدر سندات حكومية تغل فائدة . فلما هبطت هذه السندات إلى ثمانية وسبعين فى المائة من قيمتها الأسمية ،

أسس (١٧٨٢) أول مصرف قومى أسبانى — بنكو دى سان كارلوس — استهلك السندات بقيمتها الأسمية وأعاد الثقة المالية بالدولة .

وأثمر حسن الإدارة وروح الأقدام زيادة محسوسة فى ثروة الأمة فى جملتها . وكان أكثر الطبقات انتفاعا هى الوسطى ، لأن منظماتها هى التى أعادت تشكيل الاقتصاد الأسبانى . ففى مدريد كون ٣٧٥ من رجال الأعمال خمس نقابات تجارية كبرى سيطرت على معظم تجارة العاصمة . ونستطيع الحكم على مبلـــغ ثرائها من استطاعتها أن تقرض الحكومة عام ١٧٧٦ ثلاثين مليون ريال [٦٦] .

وقد حبذت الحكومة بوجه عام ظهور طبقة رجال الأعمال هذا باعتباره أمراً لاغنى عنه لتحرير أسبانيا من الاعتماد الاقتصادى والسياسى على دول ذات اقتصاد أرقى . ولم تحظ البروليتاريا الناشئة ، هنا شأنها فى تلك الدول ، بنصيب مذكور فى الثراء الجديد . وارتفعت الأجور لاسيما فى قتلونيه حيث شكا الأغنياء من صعوبة العثور على الخدم والاحتفاظ بهم [٦٧] . ولكن يمكن القول بوجه عام أن الأسعار ارتفعت بأسرع من ارتفاع الأجور ، وإن الطبقات العاملة كانت فقيرة فى ختام العهد فقرها فى مطلعه . وقد لاحظ إنجليزى حساب بلنسيه فى ١٧٩٧ ذلك التناقض بين (ثراء . . التجـــار « وأصحاب المصانع ،ورجال الدين » والعسكريين ، والسادة من ملاك الأرض و « الفقر ، والبؤس ، والأسمال » التى ترى فى كل شارع [٦٨] . وعليـــه فقد رحبت الطبقات الوسطى بالتنوير Luces الآتى من فرنسا وإنجلترة فى حين كان موظفوهم الذين ملأوا الكنائس ولثموا المزارات يعزون أنفسهم بالنعمة الآلهية وبآمال الفردوس .

واتسعت المدن فى ظل الاقتصاد الجديد . وكان يعيش فى المراكز البحرية الكبرى — برشلونه وبلنسيه واشبيليه وقادس — سكان يتفاوتون من ٨٠٫٠٠٠ إلى ١٠٠٫٠٠٠ (١٨٠٠) . وكان يسكن مدريد (فى ١٧٩٧) ١٦٧٫٦٠٧ » بالإضافة إلى ٣٠٫٠٠٠ من الأجانب . وحين ولى شارل الثالث العرش كانت المدينة تشتهر بأنها أقذر عواصم أوربا . وكان الناس من سكان

الأحياء الفقيرة لا يزالون يفرغون قمامتهم فى الشوارع معتمدين على الريح أو المطر لتبديدها . فلما حظر شارل هذه العادة رموه بالطغيان . قال « إن الأسبان أطفال يبكون حين يحممون[٦٩] » . وقد أقام موظفوه رغم هذا نظاما لجمع القمامة وللصرف ، ونظم الزبالون لجمع النفاية لاستخدامها سمادا[٧٠] ، وبذل جهد لمنع التسول ولكنه باء بالفشل ، ورفض الشعب السماح للشرطة بالقبض على المتسولين — لا سيما المكفوفين منهم الذين شكلوا نقابة قوية فيما بينهم .

وأصلح شارل من أمر عاصمته عاما بعد عام . فجيء لها بالماء من الجبال إلى سبعمائة نافورة ، حمله منها ٧٢٠ سقاء فى مشقة وعناء لتوزيعه على بيوت المدينة . وأضيئت الشوارع بمصابيح الزيت من الغسق إلى نصف الليل طوال شهور ستة فى الخريف والشتاء ، وكان أكثر الشوارع ضيقا ملتويا يتبع دروبا عتيقة متعرجة ويتوارى من شمس الصيف ، ولكن بعض الشوارع المشجرة العريضة الجميلة شقت ، وتمتع الشعب بالبساتين الفسيحة والمماشى الظليلة . وكان أحبها إلى الناس (باسيوديل برادو) أو متنزه المرج ، الذى لطفت هواءه النوافير والأشجار ، وفضله العشاق للاستطلاع ولقاءات الغرام . وهناك فى ١٧٨٥ بدأ خوان دى فيلالا نوفا تشـــييد متحف البرادو . وهناك فى أى يوم تقريبا كانت تجرى أربعمائة مركبة ، وفى أى عشية كان يتجمع ثلاثون ألف مدريدى . وحظــر عليهم التغنى بالأغانى البذيئة ، أو الاستحمام عراة فى النوافير ، أو عزف الموسيقى بعد منتصف الليل ، ولكنهم كانوا يستمتعون بأصوات النساء الرخيمة وهن ينادين على البرتقال والليمون والبندق . ذكر الرحالة أن المشهد الذى كان يرى كل يوم على البرادو فى أخريات القرن الثامن عشر كان يعدل ما يرى فى مدن أخرى فى الفترة نفسها فى الآحاد والعطلات فقط[٧١] ، وأصبحت مدريد آنئذ ، كما عادت فى عصرنا هذا ، من أجمل مدن أوربا .

لم ينجح شارل الثالث فى السياسة الخارجية نجاحه فى الشئون الداخلية . وبدا أن ثورة المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا تتيح فرصة الانتقام للخسائر التى منيت بها أسبانيا فى حرب السنين السبع ، فحث أراندا شارل على تقديم

العون للثوار » فبعث لهم الملك سرا بمليون جنيه (يونيو ١٧٧٦) . وأفضت هجمات القراصنة الإنجليز على السفن الإسبانية آخر الأمر إلى إعلان أسبانيا الحرب على إنجلترا (٢٣ يونيو ١٧٧٩) . واستعادت قوة أسبانية مينورقه ، ولكن محاولة الأسبان الاستيلاء على جبل طارق باءت بالفشل . واتخذت العدة لغزو إنجلترا ، ولكن الغزو عطلته العواصف (البروتستنتية) وفى صلح فرساى (١٧٨٣) سحبت أسبانيا مطالبتها بجبل طارق ولكنها استعادت فلوريدا .

وأحــزن الملك فى سنيه الأخيرة إخفاقه فى استرداد وحدة الأراضى الأسبانية وكانت الحروب قد أتت على شطر كبير من الثروة التى انتجها الاقتصاد الجديد . ولم يستطع وزراؤه الأكفاء أن يتغلبوا قط على قوتين شديدتين من قوى المحافظة — كبار النبلاء بضياعهم الشاسعة ، والاكليروس بما لهم من مصلحة راسخة فى سذاجة الشعب . أما شارل نفسه فلم أن تذبذب فى ولائه الأصيل للكنسية . ولم يعجب به شعبه قط إعجابه حين يراه — وقد لقى موكبا دينيا — يعطى مركبته للأسقف حامل القربان ثم ينضم إلى الموكب سائراً على قدميه . وأكسبه ورعه المحبة التى افتقدها من الشعب وهو الغريب الوافد من إيطاليا — فى العقد الأول من حكمه . فلما وافته منيته (١٤ ديسمبر ١٧٨٨) ، بعد أربعة وخمسين عاما حكم فيها نابلى وأسبانيا ، كان كثيرون يرون فيه أبر ملوك أسبانيا إن لم يكن أعظمهم . وقد تجلت فطرته الطيبة الرقيقة حين سأله الأسقف القائم على خدمته وهو على فراش الموت هل غفر لأعدائه جميعاً ، فقال متسائلا « كيف انتظر جواز المرور هذا قبل أن أغفر لهم ؟ لقد غفرت لهم أجمعين فى اللحظة التالية للإساءة [٧٢] » .

٦ — الخلق الأسبانى

أى طراز من الناس كان أسبان القرن الثامن عشر هؤلاء ؟ الأجماع على أنهم كانوا قوما أفاضل إذا قيسوا بنظرائهم فى إنجلتره أو فرنسا . وكان لهم من تدينهم الشديد ، ومن شجاعتهم وإحساسهم بالشرف ، ومن تماسكهم ونظامهم الأسريين » عوامل تصحيح قوية لحساسيتهم الجنسية وكبريائهم

العدوانية ، حتى مع تكريسهم شوفينية مشبوبة فى مسائل العرق والدين .
وقد أعاق الانتخاب الجنسى الشجاعة لأن النساء الأسبانيات وهن يطلبن
الحماية كن يمنحن أرق ابتساماتهن للرجال الذين يواجهون الثيران فى الحلبة
أو الشوارع ، أو الذين يبادرون برفض الإهانة والثأر لأنفسهم ، أو الذين
يعودون من الحرب مكللين بغار الانتصار .

ولانت الفضائل الجنسية بتدفق الأفكار والعادات الفرنسية . وكانت
الصبايا يحرسن حراسة مشددة ، وكان رضا الوالدين (بعد١٧٦٦) شرطاً
قانونياً للزواج ، ولكن النساء فى المدن الكبيرة كن بعد الزواج ينغمسن
فى الغزل والمعابثة وأصبح « الفارس التابع » ملحقا ضرورياً للسيدة العصرية ،
وازداد الفجور [٧٣] . وابتدعت جماعة صغيرة تدعى « الماخو » و « الماخا »
مظهراً فذا من مظاهر الحياة الأسبانية . وكان الماخو رجالا من الطبقة الدنيا
يلبسون كالغنادير ، ويرتدون العباءات الطويلة ، ويطيلون شعورهم ،
ويغطون رؤوسهم بقبعات عريضة الحافة ، ويدخنون السيجار الكبير ،
وكانوا على استعداد دائم للعراك ، يعيشون عيشة بوهيمية على نفقة خليلاتهم
— الماخا — كلما أمكن ذلك . ولم يعبأوا بالقانون فى اتصالاتهم الجنسية ؛
وكان للماخا فى كثير من الحالات زوج يعولها بينما تعول هى خليلها الماخو ،
ويعرف نصف العالم الماخا ، كاسية أو عارية من فرشاة جويا .

أما الفضيلة الاجتماعية فكانت عالية المستوى نسبياً . لقد وجد الفساد
السياسى والتجارى ، ولكن ليس على النطاق الواسع المعروف آنئذ فى فرنسا
أو انجلترة ، ذكر رحاله فرنسى أن « الأمانة الأسبانية مضرب الأمثال
وتتجلى واضحة فى العلاقات التجارية » [٧٤] . فكانت كلمة السيد الأسبانى
مستنداً أدبياً سارى المفعول من لشبونة إلى سانت بطرسبرج . وكثيراً ما كانت
الصداقة فى أسبانيا أبقى من الحب . أما البر بالفقراء فوفور . ففى مدريد
وحدها كانت المؤسسات الدينية توزع كل يوم ثلاثين ألفاً من قصاع الحساء
المغذى على الفقراء [٧٥] . وأسس الكثير من المستشفيات والملاجىء الجديدة ،

ووسع الكثير من القديم منها أو حسن . وكان جل الأسبان كرماء رحماء إلا مع المهرطقين والثيران .

وكان قتال الثيران ينافس الدين والجنس والشرف والأسرة محلا لحب الأسبان . وكان الدفاع عن هذه المعارك ، شأنه شأن العاب المجالدة فى روما القديمة ، يقوم على أساسين ، أن الشجاعة يجب أن تربى فى الرجال ، وأن الثيران لا بد أن تموت قبل أن تؤكل . وقد حرم شارل هذه المعارك ، ولكنها استؤنفت بعد موته بقليل . وكان مهرة المصارعين الفرسان ومغامروهم معبودى الطبقات كلها . وكان لكل منهم أنصاره ، فدوقة ألبا تؤثر كوستيللاريس ودوقه أوزونا تؤثر روميرو ، وقسم الحزبان مدريد كما قسم جلوك وبتشينى باريس . وراهن الرجال والنساء بأرزاقهم على مصير الثيران ، وعلى كل شيء آخر تقريباً . وكان القمار محرماً بالقانون ولكنه شائع ، لا بل كانت البيوت الخاصة تدير أمسيات للقمار وكانت المضيفات يقبضن رسوم اللعب .

وتخلت ملابس السادة شيئاً فشيئاً عن العباءة السوداء المقبضة والياقة الصلبة التى تزيا بها الجيل السابق ، واستبدلت بها الزى الفرنسى — وهو السترة الملونة والصدرة الطويلة من الساتان أو الحرير ، وسراويل الركوب ، والجوارب الحريرية الطويلة ، والحذاء ذو المشبك ، يتوج هذا كله باروكة وقبعة مثلثة الأركان . أما المرأة الأسبانية فألفت أن تجعل من مفاتنها سراً غامضاً مقدسا تلفها فى صدرات من الدنتللا وتنورات طويلة ، ذات أطواق موسعة أحياناً . وتستعمل براقع من قماش الطرح إخفاء لعيونهن التى يود المعجب الأسبانى لو أغرق روحه فى أعماقها المظلمة . وكانت السيدة فى القرن السابع عشر نادراً ماتكشف عن قدميها لأنظار الرجال . أما الآن فقد قصرت الجونلة إلى بضع بوصات فوق الأرض ، واستعيض عن الخفين المستويين بحذاء مدبب عالى الكعب . وقد أنذر الوعاظ بأن تعرية النساء لأقدامهن على هذا النحو غير المهذب إنما يزيد نار الرجال المتقدة اشتعالا . ولكن النساء ابتسمن ، وزين أحذيتهن ، ونشرن تنوراتهن ، وروحن بمراوحهن

حتى فى أيام الشتاء . وكانت ازابيللا فارنيزى تملك ذخيرة من ١٦٢٦ مروحة زين بعضها برسوم لرسامين ذوى شهرة قومية .

وكانت الحياة الاجتماعية مقيدة فى كل شيء إلا المراقص . فاجتنبت المجتمعات فى الأمسيات النقاش الجاد مؤثرة عليه الألعاب والرقص والغزل . وكان الرقص غراماً كبيراً فى أسبانيا ، وقد أفرخ ألواناً أشتهرت فى أوربا . فكانت « الفاندانجو » ترقص على ميزان ثلاثى بالصاجات . أما السجيديللا فيؤديها زوجان أو أربعة أزواج من الراقصين ، بمصاحبة الصاجات وبالغناء عادة ، وقد انحلت رقصة مشتقة منها تسمى البوليرو شكلها حوالى ١٧٨٠ ، وسرعان ما اكتسبت شعبية مجنونة . وفى رقصة الكونترادانزا كان صف من الرجال يواجه صفاً من النساء فى تقدم وتأخر متناوبين ، وكأنما يرمز هذا إلى تكتيك الحرب الأبدية بين المرأة والرجل » أو كان أربعة أزواج يؤلفون ويحيطون مربعاً فى رقصة فخمة تدعى الكونترا دانزا كوادرادا — أى الكدريل . وكانت حفلات الرقص المقنع تجتذب أحياناً ٣,٥٠٠ من الراقصين المتحمسين ، وكان القوم فى المرافع يرقصون حتى مطلع الفجر .

وجعلت هذه الرقصات الحركة شعرا حيا وحافزاً جنسيا. قيل إن المرأة الأسبانية التى ترقص السجيديللا كان فى رقصها من الإغراء ما يخرج البابا ومجمع الكرادلة بأسره عن وقارهم [٧٦]. وقد وجد كازانوفا نفسه شيئاً يتعلمه فى أسبانيا فقال :

« حين أوشك الليل أن ينتصف بدأت أعنف الرقصات وأكثرها جنونا ... وهى الفندانجو ، التى ظننت فى سذاجتى انى طالما شهدتها » والتى فاقت (هنـا) أشد تصوراتى جوحا ... فى إيطاليا وفرنسا يحرص الراقصون على تجنب الايماءات التى تجعل هـذه الرقصة أكثر الرقصات شهوانية . ويخطو الزوجان — راقص وراقصة — ثلاث خطوات فقط ، ثم يرتميان فى مختلف الأوضاع الفاجرة وهما يصاحبان الموسيقى بالمصاحبات ويعرضان قصة العشق كلها من مولده إلى ختامة ومن أول تنهيده إلى آخر نشوه . فلم أملك لشدة انفعالى إلا أن أصبح عاليا . » [٧٧]

وقد عجب من سماح ديوان التفتيش برقصة مثيرة إلى هذا الحد ، فقيل له أنها « محرمة تحريما باتا ، ولولا أن الكونت ارانداا اذن بها لما جرؤ أحد على رقصها » .

وارتبطت بالرقص ألوان من الموسيقى الأسبانية كانت من أحبها إلى الشعب ، مثال ذلك أن الكانتى فلامنكو أو الغناء الغجرى (الفلمنكى) استخدم نغمة شاكية عاطفية كان كل المغنين الغجر يصاحبون بها « السجيديللا جيتانا » . ولعل هذه الأغانى الشجية كانت أصداء لألحان مغربية ، أو لعلها عكست النوعية المكتئبة للدين والفن الأسبانيين ، أو العجز المسخط عن الوصول إلى جسد المرأة ، أو انقشاع الوهم عقب الوصال . وقد وفدت نغمة أبهج بوفود الأوبرا الإيطالية (١٧٠٣) وأغانى فازينللى . ولكن « الخصى » العجوز فقد الحظوة فى عهد شارل الثالث بعد أن ظل يشدو بأغانيه طوال عهدين ، وقد أنزله شارل عن عرشه بهذا السطر « أن الديوك الخصية لا تصلح إلا للأكل [٧٨] » . واتصل النفوذ الإيطالى بمجىء سكارلاتى ، وانتصر مرة أخرى بمجىء بوكيرينى الذى قدم فى ١٧٦٨ ، وسيطر على موسيقى البلاط على عهد شارل الثالث وشارل الرابع ، ومكث بأسبانيا حتى وافاه الأجل (١٨٠٥) .

وبحركة عكس هذه الحركة وفق فنشنتى مارتن أى سولار ، بعد أن حقق لنفسه الشهرة فى أسبانيا ، فى أن يخرج الأوبرا الإيطالية فى فلورنسه ، وفيينا ، وسانت بطرسبرج . ونافست صوناتات أنطونيو سولر على الهاربسكورد صونتات سكارلاتى ، وحول دون لويز ميسون « التونادا » أو السولو الصوتية ، إلى « التوناد يللو » فاصلا من الغناء بين فصول المسرحية . وفى ١٧٩٩ أنهى أمر ملكى حكم الموسيقى الإيطالية فى أسبانيا بحظر أداء أى تمثيلية ما لم تكتب باللغة القشتالية ويمثلها ممثلون أسبان[٧٩] .

والخلق الأسبانى لا يمكن صبه فى قالب متماثل واحد . فالروح الأسبانية تتفاوت بتفاوت المشهد الطبيعى من ولاية إلى ولاية ، وكان الأسبان المتفرنسون الذين تجمعوا فى مدريد طرازا يختلف كل الاختلاف عن المواطنين الذين

تجمدوا فى العادات الأسبانية . ولكننا قد نستطيع بعد أن نغض النظر عن الأقليات الدخيلة أن نتبين فى الشعب الأسبانى طبعا أصيلا متفردا . فقد كان فى الأسبانى كبرياء ولكن فى قوة صامته لا تستمد الكثير من الشوفينية أو القومية ، كانت كبرياء الفردية ، واحساسا مصمما بالكفاح المتفرد ضد الأذى الدنيوى أو الإهانة الشخصية أو الهلاك الأبدى . ولمثل هذه الروح كان يمكن أن يتبدى العالم الخارجى أمرا ذا أهمية ثانوية لا يستحق القلق أو الكد فى سبيله « فلا أهمية إلا مصير النفس فى الصراع مع الإنسان والبحث عن الله . إذن فما أتفه مشكلات السياسة » والسباق على المال » والاعلاء من قدر الشهرة أو المنصب ، وحتى انتصارات الحروب لا مجد يكللها ما لم تكن انتصارات على أعداء الدين . اما وقد ضربت جذور الأسبانى فى صميم هذا الدين ، فقد كان فى استطاعته أن يقابل الحياة بهدوء رواقى ، وبإيمان بالقضاء والقدر ينتظر فى اطمئنان ثواب الجنة بعد الممات .

٧ — العقل الأسبانى

حين قبل لويس الرابع عشر ما عرضه آخر ملوك الهابسبورج فى أسبانيا من الايصاء بتاجه لحفيد الملك العظيم ، صاح سفير أسبانى بفرساى فى ابتهاج « لم يعد الآن وجود لجبال البرانس ! » ولكن تلك الكتل الرهيبة لم تتزحزح عن موقفها عقبة كؤودا فى سبيل التنوير الفرنسى ، ورمزا للمقاومة التى ستلقاها محاولة قلة مخلصة أن تصبغ العقل الأسبانى بالصبغة الأوربية .

وقد فاجأ كاميومانيس الشيوخ بمقال فى التعليم الشعبى (١٧٧٤— ٧٦) ، جعل من التوسع فى التعليم الشعبى أساسا لا غنى عنه لحيوية الأمة ونموها . ولم ير بعض كبار رجال الدين وملاك الأرض معنى لإزعاج الشعب بمعرفة لا لزوم لها قد تفضى فى النهاية إلى الهرطقة الدينية أو الثورة الاجتماعية . ولكن خوفيللانوس الذى لم يثنه هذا الاعتراض كافح لنشر الإيمان بالتعليم ، وكتب يقول « كثيرة هى الجداول المؤدية إلى الرخاء الاجتماعى ، ولكنها كلها تنبع من منبع واحد هو التعليم العام . [٨٠] وكان يعلل نفسه بأن التعليم

سيعلم الناس أن يفكروا ، وإن التفكير سيحررهم من سلطان الخرافة والتعصب » وإن العلم الذى يطوره أمثال هؤلاء سيستخدم موارد الطبيعة لقهر المرض والفقر . وتقبل بعض كرائم النبيلات هذا التحدى ، والفن Junta de Damas لتمويل المدارس الإبتـدائية . وانفق شارل الثالث مبالغ كبيرة فى إنشاء المدارس الأولية المجانية . وشارك أفراد غير رسميين فى تأسيس الأكاديميات لدراسة اللغات أوالأدب أو التاريخ أو الفن أو القانون أوالطب .

وكان طرد اليسوعيين ملزماً بإعادة تشكيل المدارس الثانوية وميسراً لها . وأمر شارل بتوسيع مقررات العلوم فى هذه الكليات ، وبتحديث كتبها المدرسية ، وبالسماح للعلمانيين بالتدريس فى أقسامها . وأعان الكليات بالمنح والهبات » وقرر المعاشات للبارزين من المعلمين[٨١] » . ونصحت الجامعات بتدريس فيزياء نيوتن وفلسفة ديكارت وليبنتز فى مناهجها . ورفضت جامعة سلمنقه النصيحة بحجة أن « مبادىء نيوتن ... وديكارت لاتشابه الحقيقة الموحى بها بالقدر الذى تشابهها به مبادىء أرسطو[٨٢] » ، ولكن معظم الجامعات الأسبانية قبلت التوجيه الملكى ، وكانت جامعة بلنسيه الآن (١٧٨٤) ، بطلابها البالغ عددهم ٢ر٤٠٠ ، أكبر المراكز التعليمية وأكثرها تقدماً فى أسبانيا . وأدخلت عدة طوائف دينية « الفلسفة الحديثة» فى كلياتها . وحث قائد الرهبان الكرملين الحفاة ، المعلمين الكرمليين على قراءة أفلاطون وأرسطو وشيشرون وفرنسيس بيكن وديكارت ونيوتن وليبنتز ولوك وفولف وكوندياك » هنا لم يكن للقديسين حكم . ودرست جماعة من الرهبان الأوغسطينيين هوبز ، وأخرى هلفيتوس . وكانت مثل هذه الدراسات تلحق دائماً بردود تفندها ، ولكن كثيراً من المؤمنين الغيورين فقدوا إيمانهم وهم يفندون دعاوى أعدائه .

من ذاك « حداثة » راهب فذ اشتهر يوم كان شارل لا زال شاباً ، ذلك هو بنيتو خيرونيمو فيخواى مونتنجرو الذى انفق الأعـوام السبعة والأربعين الأخيرة من عمرة (١٧١٧ — ٦٤) فى دير بندكتى باوفيدو،

ومع ذلك استطاع أن يدرس بيكن وديكارت وجاليليو وبسكال وجاسندى ونيوتن وليبنتز ، ورأى فى عجب وخجل كيف عزلت أسبانيا بعد سرفانتس عن التيارات الكبرى للفكر الأوربى . فأرسل من قلايته « بين عامى ١٧٢٦ و١٧٣٩ ، سلسلة من ثمانية مجلدات سماها Teatro critico وهو لايعنى نقد المسرح ، بل الامتحان الدقيق للافكار . وقد هاجم فيها المنطق والفلسفة اللذين يدرسان فى أسبانيا فى أيامه » وامتدح دفاع بيكن عن العلم الاستقرائى ، ولخص كشوف العلماء فى كثير من المجالات ، وهزأ بالسحر والكهانة والمعجزات الزائفة ، والجهل بالطب ، والخرافات الشعبية » ووضع قواعد للوثوق بالتاريخ نسفت الأساطير القومية الساذجة فى غير رحمة ، وطالب بنشر التعليم بين جميع الطبقات ،ودافع عن حياة أكثر حرية وعلنية للنساء فى التعليم والمجتمع .

واجتمع حول كتبه شرذمة من الإعداء يتهمون وطنيته ويندون باقتحاماته . واستدعاه ديوان التفتيش أمام محكمته . ولكنها لم تهتد إلى هرطقه صريحة لا فى شخصه ولا فى كتابه . وفى ١٧٤٢ استأنف حملته باول مجلدات خمس عنوانه « رسائل متفقهة مستطلعة » . وكان يكتب بأسلوب جيد ، مقرا بالتزام كل مؤلف التزاما إدبيا بأن يكون واضحا . ، استطاب الجمهور تعليمه وشجاعته فتكاثر الطلب على « التياترو » و « الرسائل » حتى بلغ ما طبع منهما خمس عشرة طبعة حتى عام ١٧٨٦ . ولكنه لم يستطع قطع دابر الخرافة فى أسبانيا . فظلت الساحرات والعفاريت والشياطين تملأ الجو وتخيف العقول ، ولكن كان جهده بداية السير على الدرب . ومن مفاخر طائفته أن يقوم بهذا الجهد راهب لزم قلايته المتواضعة دون أن يزعجه أحد حتى أوفته منيته وهو فى الثامنة والثمانين (١٧٦٤) .

وأكليريكى آخر هو الذى كتب أشهر كتاب نثرى فى أسبانيا فى القرن الثامن عشر . وكما حرص البندكتيون على إلا يلحق بفيخواى أذى ، فكذلك حمى اليسوعيون قسيسا منهم كان أهم إنتاج له نقدا لاذعا للمواعظ . وكان خوزيه فرانسسكو ذى ايزلا هو نفسه وأعظا بليغا ، ولكن أضحكته

أول الأمر ، ثم أزعجته ، الحيل الخطابية والأوهام الأدبية » والتمثيل والتهريج الذى يجلب به بعض الوعاظ أنتباه الشعب ودراهمه فى الكنائس والميادين العامة . وفى ١٧٥٨ سخر سخرية لاذعة بهؤلاء المبشرين فى « قصة عن الراهب جيروندو الواعظ المشهور » . يقول الأب ايزلا إن الراهب جيروندو :

« ألف أن يبدأ عظاته بمثل أو نكته سوقيه أو شذرة غريبة أنتزعت من سياقها فبدت لأول وهلة غير منطقيه أو تجديفا أو كفرا حتى إذا ترك جمهوره لحظة مترقبا فى عجب أنهى عبارته وطلع بتفسير أحال كل ما قاله إلى ضرب من التفاهة الحقيرة . من ذلك أنه كان يعظ ذات يوم عن سر الثالوث فاستهل عظته بقوله « أنى أنكر إن الله موجود كوحدة فى الجوهر وثالوث فى الذات » ثم توقف لحظه . وتلفت السامعون بالطبع حولهم . . متسائلين ما عسى أن تكون خاتمة هذا التجديف المهرطق . واخيرا ، وبعد أن ظن الوعظ أنه قبض على ناصيتهم ، وأصل الحديث قائلا : « كذلك يزعم الأبيونيون ، والمارسيونيون ، والاريوسيون » والمانويون » والسوسينيون ، ولكنى أثبت ضلالهم كلهم من الأسفار المقدسة ، والمجامع ، وآباء الكنيسه[٨٣] » .

وبيعت ثمانمائه نسخة من كتاب « الراهب جيروندو » خلال يوم من صدوره . وهاجمه الرهبان الوعاظ زاعمين أنه يشجع على احتقار رجال الدين . وأستدعى أيزلا أمام محكمة التفتيش ، وأدين كتابه (١٧٦٠) ، أما هو فلم يعاقب . ثم أنضم إلى أخواته اليسوعيين فى المنفى » وأصيب فى الطريق بالشلل . وقضى ختام عمره فى بولونيا عائشا على المعاش الضئيل الذى منحته أياه الحكومه الأسبانية .

أما الشعر فكان يقرضه كل أسبانى ملم بالكتابه . وقد اجتمع فى ١٧٢٧ فى مباراة شعرية (عام ١٧٢٧) ١٥٠ متنافسا . واضاف خوفيلانوس الشعر والدراما لضروب نشاطه الأخرى فقيها ومربيا ورجل دولة . وأصبح بيته

فى مدريد ماتتى لرجال الأدب وقد ألف المجائيات على طريقة جوفينال ، موبخا الفساد الذى وجده فى الحكومة والقانون ، وتغنى بمناهج الحياة الريفية الآمنه المطمئنه شأن كل ساكن للمدن . وتظم نقولا فرنانديز دى موراتن شعرا ملحميا تناول مغامرات كورتيز ، ويقول العارفون أن هذه القصيدة « أرفع قصيدة من نوعها أنجبتها أسبانيا فى القرن الثامن عشر[٨٤] » .

وكانت الأشعار المرحة المهذبة التى نظمها دييجو جونزالز ، الراهب الأوغسطينى ، أحب إلى الشعب من قصيدته التعليمية « مراحل الإنسان الأربع » التى إهداها إلى خوفيللانوس . كذلك اتخذ دون توماس دى أيريارتى إى أوروبيزا إتجاها تعليميا فى قصيدته « فى الموسيقى » ، وكان خيرا منها « قصصه الخرافية » (١٧٨٢) التى طعنت مغامز العلماء وأكسبته شهرة لم تزل حية إلى اليوم . وترجم بعض مآسى فولتير وملاهى موليير ، وسخر من الرهبان « الذين يتسلطون على السماوات وعلى ثلثى أسبانيا » ، وقد حاكمه ديوان التفتيش فانكر آراءه ، ومات بالزهرى وهو فى الحادية والأربعين (١٧٩١)[٨٥] .

وفى ١٧٨٠ أعلنت الأكاديمية الأسبانية عن جائزة تمنح لقصيدة تمجد الحياة الرعوية . فنال إيريارتى الجائزه الثانية ولم يغفر قط لصاحب الجائزة الأولى ، لأن خوان ميلانديز فالديس مضى قدما ليصبح كبير الشعراء الأسبان فى ذلك العهد . وتودد خوان إلى خوفيلانوس ، وحصل بنفوذه على كرسى الأنسانيات فى جامعة سلمنقه (١٧٨١) وهناك إقنع الطلاب أولا ، ثم الكلية ، بدراسة منهج أكثر إقتحاما ، بلغ إلى حد قراءة لوك ومونتسكيو . وألف فى أوقات فراغه فيما بين المحاضرات مجلدا من الأغانى والشعر الرعوى — هو أستحضارات حية لمشاهد الطبيعة فى أبيات بلغت من الرقة وكمال الصقل مالم تقرأه أسبانيا منذ أكثر من قرن . وكان للرضى الذى أسبغه عليه خوفللانوس الفضل فى ترقيته إلى منصب القضاء بسرقسطه وإلى محكمة القضاء العالى فى بلد الوليد ، وأضرت السياسة بشعره . فلما نفى خوفيللانوس (١٧٩٨) أقصى ميلانديز أيضاً . فجرد قلمه للتنديد بغزاة

أسبانيا الفرنسيين ، وخص منهم جوزف بونابرت ، ولكنه عاد إلى مدريد فى ١٨٠٨ ، وقبل وظيفة تحت رآسة جوزف بونابرت ، وصدم أسبانيا بقصائد يتملق بها سادته الأجانب . وفى حرب التحرير التى خلعت جوزف نهب الجنود الفرنسيون منزل الشاعر . وهاجمه هو نفسه الغوغاء الغاضبون، فهرب لحياته من أسبانيا . وقبل أن يعبر البيداسوا إلى فرنسا قبل آخر بقعه من التراب الأسبانى (١٨١٣) . وبعد أربع سنوات مات فقيرا مغمورا فى مونبلييه .

وكان ينبغى أن يكون لأسبانيا كتاب مسرح أكفاء فى هذا العهد ، لأن الملوك البوربون كانوا ميالين للمسرح . وقد عملت على أضمحلاله ثلاثة عوامل : إيثار إيزابللا فارنيزى القوى للأوبرا ، وفليب الخامس لفارينللى، ومن ثم اعتماد المسرح على الجمهور الذى كان أكثر ما يستحسنه هو « الفارص » ، والمعجزات ، والأساطير والشقشقات اللفظية ، وجهد كتاب الدراما الجادون لحبس تمثيلياتهم داخل « الوحدات الارسطاطالية » فى الحركة والمكان والزمان . وكان أحب كتاب المسرحية إلى الشعب فى ذلك القرن هو رامون فرانسسكودى لأكروز ، الذى كتب نحو أربعمائة فارص صغير يهجو فيها عادات الطبقتين الوسطى والدنيا وأفكارهما وحديثهما ، ويصور مع ذلك ذنوب الجماهير وحماقاتهم بعطف غافر . أما خوفيللانوس ، « رجل أسبانيا الجامع » فقد جرب الكوميديا ، وظفر باستحسان الجمهور والنقاد جميعا بملهاته « المجرم المكرم » (١٧٧٣) : وفحواها أن سيداً أسبانيا يرفض مرارا وتكراراً أن يبارز غريما ثم يقبل التحدى أخيرا بعد الحاح ، ويقتله فى معركة عادلة ، ثم يحكم عليه بالاعدام قاض يتبين أنه أبوه . وقد أستهدف خوفيللانوس ، وهو المصلح على الدوام ، من تمثيليته هذه الوصول إلى التخفيف من القانون الذى اعتبر المبارزه جريمة كبرى .

أما الحملة الداعية إلى الوحدات الارسطاطالية فقد تزعمها الشاعر نيقولا فرنانديزدى موراتن : وواصلها حتى تكللت بالنجاح ابنه لياندرو . وقد أبهجت خوفللانوس أشعار هذا الفتى الباكرة ، فحصل له على وظيفة فى

السفارة الأسبانية بباريس . وهناك صادق جولدونى ، فوجهه إلى كتابة التمثيليات . وأغدق الحظ هباته على صوراتين الابن : فأوفد على نفقة الدولة ليدرس المسارح فى ألمانيا وإيطاليا وانجلتره . وحين عاد إلى أسبانيا منح وظيفة شرفية أتاحت له الفراغ اللازم للعمل الأدبى . وقدمت ملهاته الأولى لمسرح فى مدريد عام ١٧٨٦ . ولكن عرضها عطل أربع سنوات ريثما يفرغ المديرون والممثلون من الجدل فى استطاعة تمثيلية تتبع قواعد أرسطو والتمثيلية الفرنسية أن تجتذب جمهوراً أسبانياً . وقد نجحت نجاحاً معتدلا . وانقلب موراتين مهاجما ، ففى تمثيليته الكوميديا الجديدة (١٧٩٢) سخر من الملاهى الشعبية سخرية تقبل الجمهور بعدها الدرامات التى تدرس الخلق وتنير الحياة . وأشاد القوم بموراتين موليرا أسبانيا ، وسيطر على مسرح مدريد حتى غزا الفرنسيون أسبانيا عام ١٨٠٨ . وقادته ميوله الفرنسية وسياسته التحررية كما قادت ميلانديز وجويا إلى التعاون مع حكومة جوزف بونابرت ، فلما سقط جوزف لم ينج موراتين من السجن إلا بشق النفس . ولجأ إلى فرنسا . ومات أخيراً بباريس فى ١٨٢٨ ـ وهى السنة التى مات فيها ببوردو الرسام جويا الذى نفى نفسه عن وطنه مختارا .

٨ — الفن الأسبانى

ما الذى يمكن توقعه منه بعد اجتياح أسبانيا فى حرب الوراثة الأسبانية الطويلة ؟ لقد سلبت الجيوش الغازية الكنائس ، ونهبت المقابر ، وأحرقت الصورة . وربطت خيولها فى المزارات المقدسة . ثم جاء غزو جديد بعد الحرب ، وخضع الفن الأسبانى طوال نصف قرن للنفوذ الفرنسى أو الإيطالى فلما انشئت أكاديمية سان فرناندو عام ١٧٥٢ لإرشاد شباب الفنانين ومساعدتهم ، جاهدت لتقر فى أذهانهم مبادىء كلاسيكية جديدة غريبة كل الغرابة عن الروح الأسبانية .

وكافح الباروك كفاحا عنيفاً فى سبيل البقاء ، وكان له ما أراد فى المعمار

والنحت . فانتصر فى الأبراج التى أضافها فرناندو دى كازيس أى نوفا (١٧٣٨) إلى كتدرائية سنتياجو دى كومبو ستيلا ، وفى الواجهة الشمالية التى شيدها فنتورا رودريجيز (١٧٦٤) لهذا الصرح ذاته تذكاراً للقديس يعقوب حامى أسبانيا وقد زعمت إحدى الأساطير المحببة الشعب أن تمثالا للعذراء مقاماً على عمود فى سرقسطه دبت فيه الحياة وتكلم مع القديس يعقوب . فى ذلك الموقع شيدت التقوى الأسبانية « كنيسة عذراء العمود » ، ولتلك الكنيسة صمم رودريجيز هيكلا هو مقصورة من الرخام والفضة يضم تمثال العذراء .

وأقيم قصران مشهوران فى عهد فليب الخامس . فقد اشترى على مقربة من سقوبية أرض دير ومزرعته الملحقة ، ووكل إلى فليبو يوفارا التورينى أن يشيد على هذه البقعة قصر سان الدفونسو (١٧١٩ وما يليها) ، وأحاط المبانى بحدائق وست وعشرين نافورة تنافس نافورات فرساى . وعرفت هذه المجموعة بلاجرانغا ، وقد كلفت الشعب ٤٥٫٠٠٠٫٠٠٠ كراون . ولم تكد تكتمل حتى دمرت النار ليلة ميلاد عام ١٧٣٤ « القصر » الذى كان المقر الملكى بمدريد منذ عهد الأمبراطور شارل الخامس وانتقل فيليب إلى بوين رتيرو التى شيد فيها فليب الثانى قصرا فى ١٦٣١ . فظل هذا المقر الرئيسى للملك طوال ثلاثين عاما .

وصمم يوفارا قصرا ملكيا آخر عوضا عن « القصر » المحترق — يضم المساكن والمكاتب وحجرات الاجتماع ومصلى ومكتبة ومسرحا وحدائق — لو شيد لفاق فى فخامته أى قصر ملكى عرف يومها ، وكان النموذج وحده يحوى من الخشب كمية تكفى لبناء بيت . ولكن يوفارا عاجلته المنية قبل أن يبدأ البناء (١٧٣٦) . ورفضت إيزابللا فارنيزى تصميمه لفداحة تكاليفه ، فشيد خلفه جوفانى باتستا ساكيتى التورينى القصر الملكى (١٧٣٧ — ٦٤) القائم بمدريد اليوم — وطوله ٤٧٠ قدما ، وعرضه ٤٧٠ قدما ، وارتفاعه ١٠٠ قدم . هنا حل طراز النهضة المتأخرة محل الباروك : فكانت الواجهة ذات أعمدة دورية وايونية ، يتوجها درابزين انتشرت عليه تماثيل ضخمة

لملوك أسبانيا القدامى . وحين صحب نابليون أخاه جوزف ليملك فى هذا القصر قال وهما يصعدان السلم الفخم « ستكون أفضل منى منزلا[٨٦] » . وقد انتقل شارل الثالث إلى هذا الصرح الهائل عام ١٧٦٤ .

أما النحت الأسبانى ففقد بعض صرامته وجموده متأثراً بالفنين الفرنسى والإيطالى ، وخلع الضحكات على ملاكه (السيرافيم) والرشاقة على قديس أو قديسين . وكانت موضوعاته دينية على الدوام تقريباً ، لأن الكنيسة كانت تدفع للنحاتين أعلى الأجور . من ذلك أن رئيس أساقفة طليطلة أنفق ٢٠٠٫٠٠٠ دوقاتية على حجاب المذبح الشفاف الذى أقامه نارسيسو تومى (١٧٢١) خلف خورس الكتدرائية : وهو مجموعة ملائكة من رخام يطفون على سحب من رخام ، وكان فى ممشى الكنيسة المسقوف فتحة جعلت الرخام وضاء ومنه اتخذ حجاب المذبح اسمه . وعاشت الواقعية القديمة فى تمثال « جلد المسيح[٨٧] » الذى نحته لوزيز كارمونا — وهو تمثال من الخشب رهيب بما فيه من آثار ضرب وجروح دامية . وأجمل منه تماثيل الإيمان ، والرجاء ، والمحبة ، التى نحتها فرانسسكو فرجارا الإبن لكتدرائيات كوينسا (١٧٥٩) . وقد عدها سبان — برموديز ، فازارى أسبانيا ، أروع ما انتجه الفن الأسبانى .

وأعظم الأسماء فى فن النحت الأسبانى فى القرن الثامن عشر كان اسم فرانسسكو زاركيللو إى الكراز . مات أبوه ومعلمه ، وكان نحاتا فى كابوا ، وفرانسسكو فى العشرين وخلفه العائل الأول لأمه وأخته وستة إخوه . وكان الفتى أفقر من أن يستأجر الموديلات ، لذلك كان يدعو المارة ، بل المتسولين ليشاركوه غداءه وليرسمهم ، وربما كانت تلك هى الطريقة التى عثر فيها على الأشخاص لرائعته ، العشاء الأخير » المحفوظة الآن فى « دير يسوع » بمرسيه . وبمساعدة أخته اينيس التى كانت ترسم وتعمل نموذجاته ؛ وأخيه خوزيه ، الذى كان ينحت التفاصيل ، وأخيه القسيس باتريسيو ، الذى كان يلون الأجسام والثياب ، انتج فرانسسكو فى سنى عمره الأربع والسبعين ١٫٧٩٢ تمثالا فيها الكبير وفيها الصغير ، بعضها ذو حيل لاطعم لها كعباءة

من المخمل المطرز فوق تمثال للمسيح ، بعضها مؤثر بتقواه البسيطة تأثيرا حمل مدريد على أن تعرض عليه مهام مجزية لتزيين القصر الملكى . ولكنه فضل البقاء فى وطنه مرسيه الذى شيعه عند وفاته عام ١٧٨١ فى مشهد جليل .

أما التصوير الأسبانى فى القرن الثامن عشر فكان يرزح تحت كابوس أجنبى مزدوج لم يفق منه حتى حطم جويا كل القيود بفنه الجارف الذى لم يسبق له نظير . جاءت أول الأمر موجة فرنسية بمجىء ران ورينيه وميشيل — آنج هواس ، ولوى — ميشيل فانلو . وقد أصبح هذا مصور البلاط لفليب الخامس ، ورسم لوحة هائلة للأسرة المالكة كلها ، بالبواريك والجونلات المطوقة ، وغيرها [٨٨] . ثم أقبل قطيع من الإيطاليين الذين يفيضون حيوية فانفينللى ، واميجونى ، وكورادو .

ووصل جامباتستا تيبولو وأبناؤه إلى مدريد فى يونيو ١٧٦٢ . وعلى سقف غرفة العرش فى القصر الملكى الجديد رسموا صورة جصيه شاسعة « تمجيد أسبانيا » : احتفالا بتاريخ الملكية الأسبانية وقوتها وفضائلها وتقراها وأقاليمها : فيها الأجسام الأسطورية الرمزية متوازنة فى الهواء ، والنريدات والتريتونات والزفيرات ، والجن المجنح ، والأطفال السمان ، والفضائل الرذائل معلقة فى الفضاء المنور ، وأسبانيا ذاتها متربعة على العرش وسط ممتلكاتها ، ممجدة بكل صفات الحكومة الصالحة . وعلى سقف غرفة الحرس رسم تيبولو « اينياس تقوده فينوس إلى معبد الخلود » . وعلى سقف الحجرة الملحقة بمخدع الملكة رسم ثانية « انتصار الملكية الأسبانية » . وفى ١٧٦٦ كلف شارل تيبولو بأن يرسم سبع لوحات لمذبح كنيسة القديس بسكال بأرانخيز ، واستخدم المصور فى احداها وجه حسناء أسبانية ليمثل حمل العذراء غير المدنس ، ولا تزال الصورة تتألق فى البرادو . وأدان كاهن الملك ، الأب خواكين دى إلكتا ما فى فن تيبولو من وثنية وفجاجات لأنها دخيلة على روح أسبانيا . وتاب تيبولو ، ورسم صورة قوية سماها انزال المسيح عن الصليب » [٨٩] ، وهى تأمل فى الموت تنيره الملائكة

الواعدة بالقيامة وأرهقت هذه الجهود الجبار الهرم ، فمات فى مدريد عام ١٧٧٠ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وبعد قليل ازيلت لوحات مذبح ارانجويز وكلف أنطون روفائيل منجز برسم لوحات بدلها .

وكان منجز قد وفد على مدريد فى ١٧٦١ وهو فى الثالثة والثلاثين ، فتى قوى واثق من نفسه آمر ناه . ولم يكن شارل يشعر قط بارتياح لمرأى غيوم تيبولو المنورة — فآنس الآن فى هذا الألمانى المقحام الرجل المطلوب لتنظيم العمل الفنى اللازم للقصر . وفى ١٧٦٤ عين منجز مديرا لأكاديمية سان فرناندو ، وسيطر على التصوير الأسبانى فى فترات اقامته بأسبانيا . وقد أساء ترجمة الطراز الكلاسيكى إلى سكون لا دم فيه ولا حياة ، وأغضب بذلك تيبولو الشيخ وجويا الشاب . ولكنه كافح كفاحا نافعا لينهى اسراف الزخرفة الباروكية وشطحات خيال الروكوك . ومن أقواله أن الفن يجب أن يسعى أولا إلى « أسلوب طبيعى » بمحاكاته الأمينة للطبيعة ، وعندها فقط يستهدف الأسلوب السامى « الذى انتهجه الاغريق . فكيف السبيل إلى هذا التسامى ؟ بإقصاء الناقص وغير المتصل بالموضوع ، بالربط بين الكمالات الجزئية التى توجد هنا وهناك فى أشكال مثالية يتصورها خيال مدرب مع تجنب كل ضروب الاسراف .

وافتتح منجز انتاجه برسم أرباب أولمب على سقف مخدع الملك ، وزين مخدع الملكة بصورة مماثلة . وربما ادرك منجز أن صاحبى الجلالة ، لم يتبعاه تماما حتى جبل أولمب ، لذلك رسم رافدة مذبح للمصلى الملكى ، « ميلاد المسيح » و « انزال المسيح من الصليب » . وكان يضنى نفسه فى العمل ، ولا يأكل إلا قليلا ، وبات عصبى المزاج ، وانهارت صحته ، وخيل اليه أنه واجد البرء فى روما . ومنحه شارل أجازة مدها منجز إلى أربعة أعوام . وفى فترة اقامته الثانية بأسبانيا أضاف مزيدا من الرسوم الجصية إلى القصور الملكية فى مدريد وارانجيز . ولكن صحته تداعت مرة أخرى ، فالتمس من الملك الاذن له بالتقاعد فى روما . ومنحه الملك الطيب طلبته ، وأجرى عليه معاشا متصلا من ثلاث آلاف كراون فى العام .

ولكن ألم يكن فى أسبانيا آنئذ فنانون وطنيون يرسمون ؟ أجل كانوا كثيرين ولكن اهتمامنا الذى تضاءل مع بعد الشقة والزمان خلفهم على هامش الشهرة الخابية . كان هناك لويز ميلنديز للذى كاد يعدل شاروان فى صور الطبيعة الصامتة (الطيــور والفواكه) ويحتفظ متحف البرادو بأربعين منها ، ومتحف بوسطن بمثال منها فاتح للشهية . ولكن اللوفر يبزهما جميعا بصورة ذاتية رائعة . وهناك لويز باريت أى الكازار ، الذى بارى كاناليتو فى تصــوير مناظر المدينة كما ترى فى لوحته Puerta de Sol — أكبر ميادين مدريد ، وأنطونيو فيلادامات ، الذى شهد له منجز بأنه أكفأ مصورى العصر الاسبان ، وفرانسسكو بايو إى سوبياس ، الرقيق المتجهم المخلص لفنه ، الذى نال الجائزة الأولى فى الأكاديمية عام ١٧٥٨ ، وصمم قطع النسيج لمنجز ، وأصبح صديقا ، وعدوا ، وصهرا لجويا .

٩ — فرانسسكو دى جويا أى لوسيينتس

ا — نشأته

اتخذ فرانسسكو اسم قديس حام شأن جميع الصبيان الايبيريين ، ثم اسم أبيه خوزيه جويا ، واسم أمه أورجاسيا لوسيينتس — أى ربة اللطف والنور . وكانت تنتمى إلى طبقة الهيدلج (أدنى طبقات النبلاء) ومن هنا إضافة « دى » التى أدخلها فرانسسكو على اسمه . ولد فى ٣٠ مارس ١٧٤٦ بفونتينودوس ، وهى قرية ارجونية يسكنها ١٥٠ من الأنفس ولا يزينها شجر — إنما هى تربة حجرية ، وصيف قائظ ، وشتاء قارس ، يأتى على الكثيرين ، ويصيب الاحياء بالاكتئاب والخشونة .

وراح فرانسسكو يتلهى بفرشاة الرسم ، فرسم فى صباه لكنيسة القرية صورة للعذراء « سيدة العمود » ، حامية أرجون . وفى ١٧٦٠ انتقلت الأسرة إلى سرقسطة ، حيث اشتغل الأب بالطلاء بالذهب ، وأتاح له دخله أن يوفد ابنه لدراسة الفن على يد خوزيه لوزان . ومع هذا الفنان وخوان راميريز نسخ جويا صور كبار الرسامين القدامى ، وقلد تلوين تيبولو الناعم ،

وتعلم من التشريح قدرا يكفى لرسم صور العرايا المحرمة . وفى رواية أنه شارك — ثم تزعم بعد قليل — فريقا من الشباب الجموح الذين دافعوا عن قريتهم ضد قرية أخرى ، وكيف أن بعض الفتيان قتلوا فى إحدى المعارك ، وكيف فر فرانسسكو إلى مدريد مخافة أن يقبض عليه .

وفى ديسمبر ١٧٦٣ دخل امتحاناً للالتحاق بالأكاديمية فرسب .وتصف الأسطورة حياته الصاخبة فى العاصمة ، ولكن لا نعلم على التحقيق إلا أن جوياً كان بينه وبين القوانين حب مفقود . وعادإلى دخول امتحان المسابقة فى ١٧٦٦ ورسب . وربما كان هذا الرسوب المتكرر من حسن حظه : فقد أفلت من وصاية منجز الأكاديمية ، ودرس الصور التى كان تيبولو يرسمها فى مدريد ، ثم أرسى أسس أسلوب قد تغلب عليه شخصيته . وتروى الأسطورة بعد ذلك أنه انضم إلى فريق من مصارعى الثيران وسافر معهم إلى روما فى تاريخ مجهول . ولقد كان دائما شديد التحمس لمصارعى الثيران الراكبين (التوريادور) ومرة وقع باسم دى لوس تورس . كتب إلى موارتين فى شيخوخته يقول« كنت فى شبابى مصارع ثيران ، لا أرهب شيئاً وسيفى فى يدى »[٩١]. وربما قصد بهذا أنه كان من أولئك الصبية المغامرين الذين يصارعون الثيران فى الشوارع . على أية حال وصل إلى إيطاليا ، لأنه فى ١٧٧٠ فاز بالجائزة الثانية فى مسابقة بأكاديمية الفنون الجميلة فى بارما . وتحكى الأسطورة أنه تسلق قبة كاتدرائية القديس بطرس وسطا على دير ليخطف راهبة . وأكثر من هذا احتمالا أنه كان يدرس صور ماناسكو الذى ربما كان لتلوينه القاتم ، وأجساده المعذبة ، ومناظر محكمة تفتيشه ، من الأثر العميق فى نفسه مافاق الأوضاع الهادئة الكلاسيكية التى أوصى بها منجز فى أسبانيا .

وفى خريف ١٧٧١ نلتقى به فى سرقسطة التى عاد إليها ليزين مصلى فى الكتدرائية « الكنيسة الكبرى لسيدة العمود » .

وقد أجادالتصوير ، وكوفئ بخمسة عشر ألف ريال نظير جهد استغرقه ستة أشهر ، واستطاع الآن أن يعول زوجه إذا تزوج . وعامل القرب

فى تقرير اختيارنا شريك الحياة ، وهكذا تزوج (١٧٧٣) خوزيفاً بايو ، وكان فيها ريعان الشباب ، ولها شعر ذهبى ، ومكانها فى متناوله . وقد استخدمها نموذجاً ، ورسم صورتها مراراً ، وصورتها المعلقة فى البرادو تظهرها متعبة بتكرار الحمل ، أو محزونة لخيانات فرانسسكو لها [٩٢] .

ثم نقل إلى مدريد (١٧٧٥) . وكلفه منجز (١٧٧٦) — بتوصية من من بايو على الأرجح — بأن يرسم لوحات قماشية كبيرة تصلح رسوماً تخطيطية (كرتونات) للمصنع الملكى للنسجيات الذى أنشأه فليب الخامس على غرار مصنع الجوبلان . وغامر جويا الآن برفض خطير ، فاتخذ قرارا شكل مستقبله . ذلك أنه أغفل ميل منجز إلى الميثولوجيا الكلاسيكية وتاريخ الأبطال ، فرسم على اتساع كبير وبألوان ناصعة الناس الذين ينتمون إلى طبقته وعصره — رسم كدهم وحبهم ، ومهرجاناتهم وأعيادهم ، مصارعاتهم مع الثيران ولعبهم بطائرات الورق ، أسواقهم ورحلاتهم الخلوية وألعابهم ، وإلى هذه الواقعية أضاف فى جرأة أشياء تخيلها ولكنه لم يرها قط . أما منجز فقد ارتفع إلى مستوى الموقف : فلم يذم هذا الخروج على التقاليد الأكاديمية ، وشعر بنبض الحياة يسرى فى الأسلوب الجديد ، وأعطى هذا المتمرد مزيدا من التكليفات . وأنتج جوياً خلال خمسة عشر عاما خمسة وأربعين كرتوناً أساسيا لعماله ، بينما راح ينتقل إلى مجالات أخرى بثقة متزايدة . واستطاع الآن أن يأكل ويشرب مطمئناً . كتب إلى صديقه زاباترا « أن دخلى يتراوح بين إثنى عشر ألفاً وثلاثة عشر ألف ريال فى السنة » .

على أن نوعا من البكتريا تطفل على هذا النجاح الذى أصابه ولسنا نعرف مصدر الزهرى الذى إبتلى به جويا ، ولكننا نعرف أنه مرض مرضا خطيرا فى أبريل ١٧٧٧ [٩٣] . وأبلى منه شيئا مشيئا ، ولكن لعل المرض كان له بعض الأثر فى التشاؤم الذى شاب فنه ، وربما فى فقده السمع فى ١٧٩٣ . على أنه تمالك صحته فى ١٧٧٨ بالقدر الذى أتاح له المشاركة فى مشروع وضعه شارل الثالث ليذيع فى خارج أسبانيا بالنسخ المطبوعة عن الكلشيهات ذخائر الفن الأسبانى . ولهذا الغرض نسخ جويا ثمانى عشرة

لوحة لفيلاسكيذ ، ومن هذه النسخ صنع محفورات ، وكانت هذه مهارة جديدة عليه ، وظل منقاشه حينا متردداً فجا . ولكن من هذه البداية تطور ليصبح من أعظم الحفارين بعد رمبرانت . وسمح له بأن يقدم نسخه بشخصه إلى الملك ، وفى ١٧٨٠ سجل واحدا من مصورى البلاط . وقبل الآن فى الأكاديمية آخر الأمر . وحوالى ١٧٨٥ رسم لوحة شارل الثالث الشهيرة ، التى بدا فيها الملك لابسا حلة الصيد ، مهيأ للقتل ، ولكنه هرم ، مكدود ، مقوس الساقين محدودب الظهر ، هنا ضحى جويا كعادته بالرضى فى سبيل الصدق .

واستقدم جويا أمه وأخاه كاميلو بعد موت أبيه ليعيشا معه ومع خوزيفا والأطفال . وقبل شتى التكليفات ليعول هذه الأسرة المتكاثرة : فرسم لوحة جصية فى كنيسة سان فرانسسكو الجراندى ، وصورا دينية لكلية كالاترافا بسلمنقه ، ومشاهد من الحياة اليومية لمنزل دوق أوزونا الريفى ، ثم رسم لوحات للأشخاص لكونها أربح فرع فى مهنته . فرسم عدة لوحات لأوزونا[٩٤] ، واحدة للدوق وأسرته — يبدو فيها الاطفال شديدى التصلب وأخرى للدوقه أوزونا بثلاثة أرباع طولها[٩٥] — وهى معجزة من ألوان الزيت تستحيل حريرا ومخرمات .

وربما كان جويا سعيدا عام ١٧٨٤ . ففى ذلك العام ولد له خافيد ، وهو الأبن الوحيد الذى قدر له أن يبقى حيا بعد موت أبيه . وأزيح الستار عن الصور الجصية التى رسمها لكنيسة القديس فرنسيس الكبير فى احتفال رسمى ، وأثنى عليها مشاهدوها كأروع لوحة فى ذلك العهد ، وكان الملك وكل حاشيته حضورا ، وقد شاركوا فى الثناء . وحوالى ١٧٨٧ رسم جويا لوحة المركيز دى بونتيخوس ، وهى الآن من أنفس ما تملكه قاعة الصور القومية فى واشنطن . وبعد عام عاد إلى رسم الطبيعة فى لوحته La Pradera de San Isidro[٩٦] — وتمثل حقلا غص بالمتنزهين يحتفلون بعيد القديس حامى مدريد العظيم بالركوب والتمشى والجلوس والأكل والشرب والغناء

والرقص على شواطىء ما نزاناريس المعشبة . وهى لا تعدو أنتكون تخطيطا، ولكنها آية من آيات التصوير .

ولم يزد عمر جويا على الثالثة والأربعين حين مات شارل (١٧٨٨) ولكنه حسب نفسه قد شاخ . وكان قد كتب فى ديسمبر من العام إلى زاپاتر يقول « لقد شخت ، وملأت التجاعيد وجهى حتى أنك لن تستطيع التعرف على « لولا أنفى الأفطس وعيناى الغائرتان[٩٧] » . وما كان فى إستطاعته التنبؤ بأنه مازال أمامه فسحة فى الأجل تمتد أربعين سنة ، وبأن أكثر مغامراته شططا وأروع إنتاجه مستكنان فى مستقبل أيامه . لقد تطور فى بطء والآن سيكرهه الغرام والثورة على أن يتابع السير وإلا كان من المغرقين . فارتفع مع الأحداث ، وأصبح أعظم فنان فى جيله .

(ب) غرام

وقد شغله ١٧٨٩ رسم صور للملك والملكه الجديدين احتفالا بدخولهما مدريد رسميا فى ٢١ سبتمبر . وكان « فيليبى » بن شارل الثالث البكر ، قد أقصى عن وراثة العرش لعتهه ، فآل العرش للابن الثانى الذى وصفه مؤرخ غير متعاطف بأنه « نصف معتوه[٩٨] » لا أكثر . وكان شارل الرابع ساذجا حسن الظن بالناس ، فيه من الطيبه ما يكاد يغرى الأشرار بالشر . وكان قد انصرف إلى حياة القنص والأكل والأنجاب لافتراضه أنه مقصى عن وراثة العرش ، بحكم كونه الأبن الثانى . أما وقد بات الأن بديبا لين العريكه ، فأنه أستسلم راضيا لزوجته ماريا لويز البارمية ، وتجاهل — أو جهل — فسقها مع عشاقها ، ورقى عشيقها ما نويل دى جودوى رئيسا للوزارة (١٧٩٢ — ٩٧) .

وكانت الملكه الجديده قد داعبت الأفكار التحرريه قبل ولايتها للعرش، وقد شجع شارل الرابع فى أول سنى حكمه فلوريدا بلانكا « وخوفيللانوس، وكامبومانيس (وكلهم رسمهم جويا) على المضى فى برنامج أصلاحاتهم . غير أن سقوط الباستيل روع شارل الرابع وفلوريدا بلانكا فارتدت الحكومة

إلى رجعية سياسية أعادتها إلى التعاون الكامل مع الكنيسه بأعتبارها أقوى معقل للملكية . وأهمل الكثير من القوانين التقدمية التي سنت في عهد شارل الثالث ، وأستعاد ديوان التفتيش بعض سلطاته ، وأوقف إستيراد الأدب الفرنسى ، وحظرت جميع الصحف إلا صحيفة مدريد اليومية الرسمية ، وأقصى عن البلاط خوفيللانوس وكامبومانيس وأراندا . وابتهج الشعب بانتصار إيمانهم الذى يعتزون به . وفى ١٧٩٣ أنضمت أسبانيا إلى الحرب التي خاضتها الملكيات ضد فرنسا الثائرة .

فى وسط هذا المعمعان حالف الحظ جويا . ففى أبريل ١٧٨٩ عين « رساما للحجرة » فلما مرضت خوزيفا وأشار الطبيب بهواء البحر علاجا لها صحبها جويا إلى بلنسيه (١٧٩٠) حيث كرمه القوم كأنه فيلاسكويز أسبانيا الجديد . ووأضح أن الطلب أشتد عليه من أقصى أسبانيا إلى أقصاها ، لأننا نجده فى ١٧٩٢ فى قادس ضيفا على سبستيان ما رتينيز . وفى طريق عودته أصيب فى أشبيلية بالدوار والشلل الجزئى ، فعاد إلى صديقه فى قادس ، وظل نهبا للقلق طوال فترة نقاهة غير قصيرة .

فأى مرض هذا الذى شكا منه ؟ لقد وصفه بايو وصفا غامضا يقوله أنه « ذو طبيعه رهيبة جدا » . وخامره الشك فى أن جويا سيبرأ منه يوما ما[٩٩] . وكتب رياتر صديق جويا الوفى فى مارس ١٧٩٣ : « لقد جلب على جويا هذا المأزق إفتقاره إلى التدبر . ولكن لأبد من مواساته بكل الشفقة التي يتطلبها مصابه[١٠٠] . » وقد فسر دارسون كثيرون هذا المرض بأنه من أعقاب الزهرى[١٠١] ولكن آخر تحليل طبي رفض هذا الرأى وشخصه بأنه التهاب أعصاب تلافيف الأذن[١٠٢] . أيا كان الأمر فأن جويا كان فاقد السمع حين عاد إلى مدريد فى يوليو ١٧٩٣ ، وكذلك ظل إلى يوم مماته . وفى فبراير ١٧٩٤ كتب خوفيللانوس فى يوميته « كتبت إلى جويا ، فرد بأنه كان عاجزا حتى عن الكتابه نتيجة السكته الدماغيه التي أصيب بها[١٠٣] » . ولكن الشلل زال شيئا فشيئا ، وما وافى عام ١٧٩٥ حتى كان فى جويا من العافيه ما أغراه بالوقوع فى الحب .

وكانت تريزا كاتيانا ماريا ديل بيلار الدوقة الثالثة عشرة من سلالة ألبا الشهيرة . وكان أبوها قد تشرب الفلسفة الفرنسية ، فرباها على مبادىء متحررة ، وتلقت تعليما هيأ لها عقلا يقظا وإرادة عنيده . فلما بلغت الثالثة عشرة تزوجت الدوق خوزيه دى توليدو أوزوريو ، دوق ألبا البالغ من العمر تسعة عشر ربيعا . وكان الدوق رقيق الجسد معلولا ، فلزم بيته أكثر الوقت وأغرق نفسه فى الموسيقى . ورسمه جويا جالسا إلى البيانو أمام نوتة لهايدن . وكانت الدوقة متغطرسة جميلة شهوانية . وقد لاحظ رحالة فرنسى أنه « ليس فى رأسها شعرة لا تثير الشهوة[١٠٤] » . وكانت تشبع رغباتها دون قيد من فضيلة أو نفقة أو طبقة . وأقتنت فى بيتها شخصا معتوها ، وراهبا أعور ، وزنجية صغيرة أصبحت ربيبتها المفضلة . ولكن كان وراء هذه المغامرات الجريئة نفس سمحة كريمة ، ولعلها أنعطفت نحو جويا لأنه كان أصم تعسا بقدر ما مالت إليه لأنه يستطيع أن يخلدها بفرشاته .

ولا بد أنه رآها مرارا قبل أن تقف ليرسمها ، لأنها كانت تحوم داخل البلاط وخارجه وتثير الأقاويل بمغازلاتها وبعدائها الجرىء للملكية . وأول صورة تحمل تاريخا رسمها لها تبدو فيها بطولها كله . وقد لفت قسماتها النحيلة الحارة فى لمة من الشعر الأسود . ويمناها تشير إلى شىء على الأرض . فإذا تأملنا الصورة قرأنا عليها بوضوح هذه العبارة « إلى دوقة ألبا دى جويا ١٧٩٥[١٠٥] » . وهنا إيماءة إلى صداقة قائمة فعلا . وليست الصورة من روائع جويا . ويفضلها كثيرا تلك التى رسمها فى العام نفسه لفرانسسكو بايو الذى كان قد مات لتوه . وفى نوفمبر خلفه جويا مديرا لمدرسة التصوير بالأكاديمية .

ومات دوق ألبا فى يونيو ١٧٩٦ . وأعتكفت الدوقة فترة حداد وجيزة فى ضيعتها الريفيه بسانلوكار ، بين أشبيلية وقادس . وليس من المؤكد أن جويا رافقها ، ولا علم لنا إلا بغيابه عن مدريد من أكتوبر ١٧٩٦ إلى إبريل ١٧٩٧ . ويبدو أنه فى كراستين رسوما لبعض ما رأى فى سانلوكار . ومعظم الرسوم تبدو فيها الدوقة تستقبل الضيوف ، أو تربت الزنجية ، أو تشد شعرها فى نوبة غضب ، أو تتقيل (بينما تنقل الخادمة المبولة)[١٠٦] ، أو يغشى

عليها فى نزهة ، أو تعبث مع منافس أو آخر ممن ينافسون جويا على يديها الملاطفتين . وتدل الرسوم التخطيطية على غيرته المتصاعدة ، وتبدو فيها أيضا امرأة أخرى — تخرج عارية من الحمام ، أو ترقد على الفراش نصف كاسية أو تضع الرباط على ساق بديعة التكوين . ولعل جويا انغمس كالدوقة فى إنحرافات الحب . ومع ذلك فالراجح أنه فى سانلوكار رسم أعظم ما يفخر به من صورها[١٠٧] — فى زى « ماخا » وقحة ترتدى ثوبا أسود فى صفرة ، بحزام من القرمز والذهب حول خصرها النحيل ، وطرحة سوداء فوق رأسها . وفى يمناها (وهى فى حد ذاتها من آيات التصوير) خاتمان يحمل أحدهما اسم « ألبا » والآخر « جويا » . وتشير سبابتها إلى أسمه « وتاريخ ١٧٩٧ » مكتوبين على التربة الرملية تحت قدميها . وكان يرفض دائما بيع هذه اللوحة .

وكانت مغامرة غرامه المزدهر قد صورت حين رجع جويا إلى مدريد . وتتهمها بعض رسومه « الكابريكو » (١٧٩٧) بالأستسلام الفاجر لأشتات من ذكور يفتقرون إلى اللياقة . وقد أتهمها جودوى باغواء وزير الحربية وكتب إلى الملكة يقول أن ألبا وكل إنصارها ينبغى أن يدفنوا فى حفرة كبيرة[١٠٨] » . وحين ماتت الدوقه (٢٣ يوليو ١٨٠٣) وهى بعد فى الأربعين ، أرجفت مدريد أنها سممت ، وعطف الناس عليها لأنها خلفت قدرا كبيرا من ثروتها الضخمه لخدمها . كذلك أوصت براتب سنوى يبلغ ٣٫٦٠٠ ريال لخافير بن جويا . وأمر الملك بالتحقيق فى موتها — وعين جودوى رئيسا للمحققين — وزج بالطبيب وبعض أتباع الدوقة فى السجن ، وألغيت وصيتها ، وحرم خدمها من أنصبتهم التى أوصت لهم بها ، وسرعان ما تزينت الملكة بأجمل جواهر ألبا[١٠٩] .

(ج) قمة المجد

كان جويا قد إستقال عام ١٧٩٧ من منصبه مديرا للتصوير فى الأكاديمية ، فقد أعجزته كثرة شواغله الآن عن التدريس . وفى ١٩٧٨

أختير لزخرفة قبة كنيسة سان أنطونيودى لا فلوريدا وقلب قوصراتها ، ومع أنه أثار غضب الأكليروس بتصويره الملائكة بأطراف شهوانيه ، إلا أن الكل تقريباً أجمعوا على أنه نقل إلى تلك الفراغات المقدسة ، في صورة الهام ، حياة شوارع مدريد ودمها . وفي ٣١ أكتوبر ١٧٩٩ عين « مصور البلاط الأول » براتب قدره خمسون ألف ريال في العام . ورسم في (١٨٠٠) أشهر لوحاته قاطبة وهي « شارل الرابع وأسرته[١١٠] » — وهي كشف قاس عن بلاهة الأسرة المالكة ، ونحن نقشعر حين نتخيل منظر هذه المجموعة من الأبدان المنتفخة والأرواح القميئه إذا جردوا من ثيابهم البراقة — وتلك براعة في الأشعاع والتألق ندر أن بزها رسام في تاريخ الفن . ويروى التاريخ أن الضحايا أعربوا عن كامل الرضى عن اللوحة[١١١] .

وفي ركن من اللوحة رسم جويا نفسه . وعلينا أن نغفر أنانية صوره الذاتية الكثيرة ، ولا ريب في أن بعضها كان دراسات تجريبيه استخدم فيها مرآة ، شأنه فيها شأن ممثل يتدرب على التعبير بسحنته أمام المرآة ، وأثنتان منهما رائعتان . وخيرها (اللوحة الأولى من الكابريكو) يبدو فيها في الخمسين ، أصم ولكن في كبرياء : له ذقن عدواني ، وشفتان شهوانيتان وعيون فظة ، وشعر ينمو فوق أذنية ويكاد يصل إلى ذقنه ، وتتوج هذا كله قبعه حريرية فأخرة تعلو رأسه الضخم كأنها تحد لجميع نبلاء الدنيا المحظوظين . وبعد تسعة عشر عاماً من رسمه هذه اللوحة ، وبعد أن نجا من ثورة ، رمى القبعة ، وفتح قميصه عند عنقه ، وكشف عن نفسه في مزاج ألطف . لم تزل له كبرياؤه ، ولكن فيه من الثقة الكبيرة بنفسه ما يربأ به عن التحديات[١١٢] .

وكان رسم الأشخاص أقوى نواحي فنه . ومع أن معاصريه كانوا يعلمون بأنه لن يتملقهم ، فأنهم خضعوا في لمقة لحكم فن راودهم الأمل في أنه سيحمل ذكراهم قرونا طوالا سواء كانت الذكرى مبعث صيت ذائع أو عار يخزيهم . ولدينا علم بثلاثمائة نبيل وثمانية وثمانين عضوا في الأسرة المالكة جلسوا أمامه ليرسمهم ، وقد بقيت من هذه الصور مائتان . ومن أفضلها صورة لفرديناند جيماروبه ، السفير الفرنسي ، وقد أتى بها صاحبها إلى

باريس ، وإقتناها اللوفر فى ١٨٦٥ ، وإليها يرجع بعض الفضل فى بعث شهرة جويا فى فرنسا . وأروع ما رسم من صور الأطفال صورة دون ما نويل أوزوريو دى زونيجا ، المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك ، هنا إدرك جويا فيلاسكيز . وقد ضارع فيلاسكيز ثانية فى كوكبة النساء اللاتى صورهن ، وأنتظمت صوره لهن أشتاتا ، فيها النحيلات مثل « الطفلة الملكية ماريا يوزيفا » ، وفيهن المرأة الساحرة الخلابة مثل السنيورا جارثيا(١١٣)، والممثلة المكتهلة « لا تيرانا(١١٤) » — جمال مصور ولكنه يخلى مكانه للشخصية .

أما أكثر نساء جويا سفورا فهى « الماخا » الوقحة التى رقدت حوالى (١٧٩٨) خالية من كل زينة يرسم لها « الماخا العارية »؛ ثم كاسية فى اغراء نيرسم لها « الماخا فى ثيابها » وهاتان اللوحتان الصنوان تجتذبان من رواد البرادو عددا غفيرا كالذى تجتذبه الموناليزا من رواد اللوفر . والماخا العارية ولوحة فيلاسكويز « فينوس فى المرآة » هما الصورتان العاريتان الوحيدتان فى التصوير الأسبانى ، لأن رسم العرايا فى الفن الأسبانى كان عقابه السجن سنة ومصادرة المنقولات والنفى . وقد غامر به فيلاسكويز فى حماية فليب الرابع ، وجويا فى حماية جودوى الذى وافق جويا على تفضيل الثديين الكبيرين والخصر النحيل والشفاه الممتلئة . « وماخا » جويا لم تكن صورة للدوقة ألبا رغم ما تواتر عنها ، كذلك لم تكن الكاسية التى رسمها جويا لتحل محل العارية حين جاء الدوق الغاضب (كما تروى الأسطورة) وفى عينيه نذير المبارزة . ولكن اللوحتين اشترتهما الدوقة أو أعطيتا لها ، وانتقلتا بعد وفاتها إلى مجموعة جودوى .

وبينما كان جويا يمد أسرته بالمال الذى يكسبه من تصوير الأشخاص ، راح يتسلى (١٧٩٦ -- ٩٧) بمحفورات وصور مائية نشرها فى ١٧٩٩ على أنها « نزوات » — ثلاث وثمانون صورة لعقل أرزن فيه خشونة وغضب ، تعصف فى هجاء قاتم وعناوين ساخرة عادات جيله وأخلاقه ونظمه . وألمع هذه السلسلة هى رقم ٤٣ : وهى تصور

وجلا استسلم للنوم على مكتبه بينما العفاريت تحوم حول رأسه : وعلى المكتب عبارة تقول « حلم العقل يبعث العفاريت » . وقد فسر جويا هـذا بأن « الخيال إذا هجره العقل أفرخ العفاريت ، وإذا اتحد بالعقل كان خالق الفنون ومبدع أعاجيبها [١١٤] » . وهـذه طعنة للخرافات التي أظلمت عقل أسبانيا » ولكنها كذلك وصـف لنصف فن جويا . فلقد كانت الأحلام المرعبة لاتبرحه ، « ونزواته » على الأخص تمتلىء بمناظرها المروعة . هناك ترى جسد الإنسان وقد انحط إلى عشرات الأشكال الوارمة ، العجفاء ، الكسيحة ، الوحشية ، والبوم والقطط تنظر إلينا شزرا ، والذئاب والنسور تجوس خلسة ، والساحرات يطرن في الهواء ، والأرض تبعثرت فيها الجماجم وعظام السيقان وجثث الأطفال حديثي الولادة حديثي الموت . وكأنما قفز خيال هيرونيموس بوش المريض عبر فرنسا متخطيا القرون ليدخل عقل جويا ويشيع فيه الفوضى .

أكان جويا عقلانيا ؟ كل ما نستطيع أن نقوله هو أنه فضل العقل على الخرافة . ففي أحد رسومه صور شابة مكللة بالغار ممسكة بميزان تطارد طيورا سوداء بالسوط ، وتحت الصورة كتب جويا « أيها العقل المقدس لاتبق على أحد[١١٦] » . وفي رسم آخر رهبان يجردون أنفسهم من أرديتهم[١١٧] ؛ وقد ركب على جسد راهب يصلي وجه مجنون[١١٨] . وصور « محكمة ديوان التفتيش[١١٩] » مشهداً كئيباً من ضحايا مساكين تحاكمهم سلطة باردة الشعور . وصور يهودياً مقيداً بالأغلال في زنزانة التفتيش ، وكتب هذا التعليق « أي زاباتا ، أن مجدك سيدوم إلى الأبد[١٢٠] » . أكان هذا صدى لكتاب فولتير « أسئلة زاباتا » ؟ وقد رسم تسعاً وعشرين لوحة لضحايا التفتيش يعانون شتى العقوبات[١٢١] . وفي آخرهم رسم إنسانا مبتهجاً فوق هذا العنوان « الحرية المقدسة ! »[١٢٢] ومع ذلك ظل إلى يوم مماته يرسم علامة الصليب على وجهه في ورع . ويدعو المسيح والقديسين ويتوج رسائله برسم الصليب ، وربما كانت هذه كلها آثارا متخلفة من عادات كونها في صباه .

د — ثورة

أكان جويا ثائراً ؟ كلا . لابل أنه لم يكن حتى جمهوريا . وليس في فنه أو كلامه علامة تدل على أنه يرغب في الاطاحة بالملكية الأسبانية . وقد ربط شخصه وحظه بشارل الثالث ، وشارل الرابع ، وجودوى ، وجوزف بونابرت ، وعاشر نبلاء البلاط في سرور وابتهاج . ولكنه خبر الفقر من قبل ، وما زال يراه من حوله ، ونفره إملاق الجماهير وماترتب عليه من جهل وخرافه ، وتقبل الكنيسة للفقر الجماعى نتيجة طبيعية لطبيعة البشر وفوارقهم . وقد خلد نصف فنه الأغنياء ، أما النصف الآخر فكان صرخة تطالب بانصاف الفقراء ، واحتجاجا على همجية القانون وديوان التفتيش والحرب . كان موالياً للملكية في لوحاته الشخصية ، كاثوليكيا في صوره ، متمرداً في رسومه ، ففيها أعرب بقوة تكاد تكون وحشية عن مقته للظلامية والظلم والحماقة والقسوة . ويمثل رسم منها رجلا ممدداً فوق مخدعه وعنوان الرسم « لأنه اكتشف حركة الأرض » . ورسم آخر يصور امرأة وضعت في المقطرة لأنها « أبدت عطفها على قضية التحرير » .

ومن هؤلاء الأسبان الذين سموا أنفسهم تحرريين ؛ يبدو أنهم كانوا أول حزب سياسى استعمل ذلك الاسم . وقد عنوا به التدليل على شوقهم إلى الحرية — حرية العقل من الرقابة ، وحرية الجسد من الانحطاط ، وحرية الروح من الطغيان . وكانوا قد تلقوا في عرفان « التنوير » الوافد من حركة التنوير الفرنسية . ورحبوا بدخول قوة فرنسية في أسبانيا (١٨٠٧) ، والواقع أن نصف السكان رحبوا بها جيشاً للتحرير ؛ ولم يسمع احتجاج حين استقال شارل الرابع وتوج ولده فرديناند السابع تحت حماية جنود مورا . وقد رسم جويا صورة للحاكم الجديد .

ولكن مزاج الشعب ومزاج جويا تغيرا حين استدعى نابليون شارل الرابع وفرديناند السابع إلى بايون وخلعهما ؛ ونفى أحدهما إلى ايطاليـا

والآخر إلى فرنسا ، ونصب أخاه جوزف ملكا على أسبانيا . وتجمع حشد غاضب أمام القصر الملكي . وأمر مورا جنده بأن يخلو الميدان ، ففر الجمع ، ولكنه عاد إلى الاحتشاد حتى بلغوا عشرين الفا في ميدان مايور . فلما زحف الجنود الفرنسيون والمماليك نحو الميدان أطلقت عليهم النيران من النوافذ والبواكى ، فاشتد غضبهم ، واقتحموا البيوت وراحوا يقتلون أهلها دون تمييز . ودارت بين الجند والجماهير معركة امتدت طوال النهار ، هو يوم مايو الأشهر (٢ مايو ١٨٠٨) ، وسقط مئات الرجال والنساء صرعى ، وشهد جويا من موضع قريب موت شطراً من المذبحة[١٢٣] . وفى ٣ مايو أعدم ثلاثون من السجناء الذين قبض عليهم الجند بواسطة فرقة لإطلاق النار ، وأعدم كل أسبانى أمسك متلبساً ببندقية فى يده . وهبت أسبانيا الآن كلها تقريبا ثائرة على الفرنسيين ، ومرت « حرب تحرير » من أقليم لأقليم ، ولطخت الطرفين بما اقترفا من فظائع وحشية وشهد جويا بعضها ولم تبرحه ذكراها حتى يوم مماته . وفى ١٨١١ كتب وصيته مخافة أن يتفاقم سوء الحال . وفى ١٨١٢ ماتت خوزيفا . وفى ١٨١٣ استولى ولنجتن على مدريد ، وعاد فرديناند السابع إلى عرشه .

واحتفل جوياً بانتصار أسبانيا برسم لوحتين من أشهر لوحاته (١٨١٤)[١٢٤] . إحداهما « يوم مايو » أعاد فيها بناء ما رأى أو سمع أو تخيل من المعركة الناشبة بين جماهير مدريد وجنود الفرنسيين والمماليك . فوضع المماليك فى القلب ، لأن اشتراكهم فى القتال هو الذى أثار أبلغ استنكار فى الذاكرة الأسبانية . ولا داعى للسؤال هل كانت الصورة تاريخا صحيحاً ، فهى فن رائع قوى ، ابتداء من تدرجات الألوان التى تومض على جواد المملوك المجند وانتهاء بوجوه الرجال الذين روعهم ووحشهم الاختيار بين أن يقتلوا أو يقتلوا . وأنصع حتى من هذه اللوحة اللوحة الأخت « الرمى بالنار فى الثالث من مايو » — وفيها فرقة لحماة البنادق الفرنسيين يعدمون السجناء الأسبان . وليس فى فن جويا ماهو أبلغ وقعاً فى النفس من التباين بين الرعب والتحدى فى الشخصية الوسطى فى تلك المذبحة .

والآن وقد بات جويا أرملا ، أصم ، مكرها على الصمت ، فقد انكفأ إلى فنه وهو مايزال « مصور الحجرة الملكية » ذا المعاش المقرر ، ولكنه لم يعد أثيراً لدى البلاط . ولعل أقوى محفوراته قد حفرها فى ١٨١٢ ، وهى « العملاق »(١٢٥) — وتمثل هرقول بوجه كاليبان ، جالساً على حافة الكرة الأرضية ، كأنه مارس يستريح بعد حرب ظافرة . وكان طوال الفترة من ١٨١٠ يرسم رسوماً تخطيطية صغيرة ثم يحفرها ويطبعها ، وقد سماها « العقابيل القتالة لحرب أسبانيا الدموية مع بونابرت » وغيرها من النزوات » . ولم يجرؤ على نشر هذه الرسوم الخمسة والثمانين ، ولكن أوصى بها لولده ، الذى باعها ابنه لأكاديمية سان فرناندو ، والتى نشرتها عام ١٨٦٣ بعنوان « كوارث الحرب » .

وهذه الرسوم التخطيطية ليست مشاهد عادية للمعارك يستخفى القتل فيها فى ثوب البطولة والمجد ، إنما هى لحظات من الرعب والقسوة تنسى خلالها ضوابط الحضارة الهزيلة فى حميا الصراع ونشوة الدماء . هنا بيوت تحترق وتنهار على ساكنيها ، ونسوة يهرعن إلى المعركة بحجارة أو رماح أو بنادق ، هنا نساء تهتك أعراضهن ، ورجال يشدون إلى أعمدة أمام فرق ضرب النار ، ورجال طاحت سيقانهم أو أذرعهم أو رؤوسهم ، وجندى يجب الأعضاء التناسلية لرجل(١٢٦) وجثث تخوزق فوق جذوع أو أطراف الشجر الحادة ، ونساء ميتات مازلن قابضات على أطفالهن الرضع ، وأطفال يرقبون فى هلع قتل آبائهم ، وأكداس من الموتى يقذف بهم فى الحفر ، والنسور تستمتع بالتهام الموتى من الآدميين . وتحت هذه الصور أضاف جويا تعليقات ساخرة . « هذا ماولدت له »(١٢٧) ، « هذا رأيته »(١٢٨) ، « لقد حدث هكذا »(١٢٩) ، « ليدفنوا الموتى ويلزموا الصمت »(١٣٠) . وفى النهاية أعرب جويا عن يأسه وأمله . فالصورة رقم ٧٩ تمثل امرأة تموت بين الحفارين والكهنة ، وعنوانها « الحق يموت » ، ولكن الصورة رقم ٨٠ تظهرها وهى تشع ضياء ، وتسأل « أتبعث حية مرة أخرى ؟ » .

ه — الجـــدار

فى فبراير ١٨١٩ اشترى بيتاً ريفياً على الضفة الأخرى لنهرمانزاناريس . كانت الأشجار تظلله ، ومع أنه كان عاجزا عن سماع شدو الغدير الذى حف به ، فإنه استطاع أن يحس الدرس المستفاد من جريانه الهادىء المطمئن. وكان جيرانه يسمون بيته « بيت الأصم » . ولما كان خافير قد تزوج واستقل ببيته ، فقد صحب جويا معه دونا لوناديباوايس « خليلة ومديرة لبيته . وكانت امرأة سليطة اللسان قوية البدن . ولكن جوياً كان فى حصن حصين من لسانها السليط . وأتت معها بطفلين — صبى هو جييرمو ، وفتاة صغيرة مرحة تدعى ماريا ديل روزاريو . وقد أصبحاعزاء لحياة الفنان فىشيخوخته .

ولقد كان فى أمس الحاجة لهذا الحافز الصحى لأن عقله كان على شفا الجنون . على هذا النحو فقط نستطيع أن نفهم « الرسوم الزنجية » التى غطى بها كثيرا من جدران البيت الذى كانمستشفاه . وراح يرسم بالأسود والأبيض فى الأغلب ، وكأنه يعكس ظلام عقله . ولم يعط حدودا معينة للأجساد التى رسمها وكأنه وفى لغموض رؤاه . ولكنه استعمل ألوانا جصية حسنة ليثبت بسرعة على الحائط صورحلم سريعة الزوال . وقد رسم علىجدار جانبى طويل « رحلة سان ايزيدرو » وهو العيد الذى رسمه مبتهجاً عام ١٧٨٨ قبل احدى وثلاثين سنة ولكنه الآن أصبح مشهداً كئيباً لمتعصبينمتوحشين مخمورين . وجمع على الجدار المقابل أشخاصا أفظع حتى من هؤلاء فى « سبت الساحرات » وهن يتعبدن لتيس أسود ضخم على نحو رهيب لأنه شيطانهن وإلاههن الآمر . وفى أقصى الحجرة ارتفعت أبشع صورة فى تاريخ الفن « صورة ساترن يفترس ابنه — مارد يفترس طفلا عاريا » أكل رأسه وذراعه وأخذ يلتهم الذراع الباقيةوهو يرشالدم من حوله[١٣١]. وربما كانت الصورة رمزاً مجنونا لأمم مجنونة تأكل بنيها فى الحرب . هذه رؤى رجل تعذبه أطياف الموت المروعة فهو يرسمها فى جنون ليطردها من ذاته ويثبتها على الجدار .

وفى ١٨٢٣ هربت ليوثاديا إلى بوردو بولديها لخوفها من الاعتقال

بسبب نشاطها الماسونى . وقرر جويا أن يلحق بهم بعد أن ترك وحيداً مع الجنون الذى رسمه على جدرانه . ولكنه لو رحل بغير إذن من الملك لفقد حقه فى الراتب الرسمى الذى كان يتقاضاه بوصفه مصور الحجرة . فالتمس أجازة شهورا للاستشفاء بمياه بلومبير ، فمنح الأجازة . ونقل ملكية بيته لحفيده ماريانو . وفى يونيو ١٨٢٤ يمم شطر بوردو ، وليوثاريا، وماريا ديل روزاريو .

وبات حبه لحفيده ماريانو العاطفة المشوبة المتسلطة عليه كلما دنت منيته . فأوصى بمعاش سنوى للصبى وعرض دفع النفقات إذا أتى خافيير بماريانو إلى بوردو . ولم يستطع خافيير الحضور ولكنه أرسل زوجته وابنه ، فلما وصلا عانقهما جويا فى انفعال انهار بسببه واضطر إلى ملازمة الفراش . وكتب إلى ابنه يقول : « يا عزيزى خافيير ، إنما أردت أن أخبرك بأن هذه الفرحة كلها كانت فوق ما احتمل . . . أدعو الله أن يتيح لك أن تأتى وتأخذهما وعندها تفيض كأس سعادتى(١٣٢) » . وفى صباح الغد احتبس صوته وشل نصف بدنه . وطال احتضاره ثلاثة عشر يوما وهو ينتظر بصبر نافذ مجىء خافيير دون جدوى . ومات فى ١٦ ابريل ١٨٢٨ . وفى ١٨٩٩ نقل رفاته من بوردو إلى مدريد ودفن أمام مذبح كنيسة سان انطونيو دى لافلوريدا ، حيث رسم قبل مائة عام تحت القبة آلام الحياة الأسبانية وأحزانها وأفراحها وقصص حبها .



الفصل الثانى عشر

وداعا إيطاليا

١٧٦٠ — ١٧٨٩

(١) جولة وداع

لو سمحنا لأنفسنا بنظرة واحدة أخرى إلى إيطاليا لوجدناها حتى فى هذه القيلولة الظاهرية دافئة بالحياة . فسنرى تورين تحتضن ألفيرى ، ولوكا تنشر موسوعة ديدرو ، وفلورنسة تزدهر ثانية تحت حكم الدوق الكبير ليوبولد ، وميلان تصلح القانون بفضل بيكاريا وبافيا وبولونيا تهتزان طربا لتجارب فولتا وجلفانى ، والبندقية تعانى من سلوك كازانوفا ، ونابلى تتحدى البابوية ، وروما متورطة فى مأساة اليسوعيين ، وعشرات من مرابى الموسيقى تصدر الأوبرا ومهرة العازفين ليهدئوا صدر الأقطار المتوحشة عبر الألب . وسنلتقى فى إيطاليا بمائة ألف أجنبى قدموا إليها ليدرسوا كنوزها وليصطلوا بشمسها . ففى هذا العهد وفد عليها جوته بعد أن أرهقه نبلاء فيمار ليجدد شبابه ويروض ربة شعره .

كان انطباع جوته الأول وهو منحدر من الألب إلى فيتشنسيا ترد نتينا (سبتمبر ١٧٨٦) تأثره بالهواء المعتدل والجو المشرق الذى « يضفى غاية البهجة على مجرد الوجود بل حتى على الفقر »[١] ثم هذه الحياة الطليقة : « فالأهالى دائماً خارج بيوتهم وهم خلاو بالهم لا يفكرون فى شىء . إلا فى أن يحيوا » . وظن أن التربة المثمرة لا بد أن تجود على هؤلاء القوم البسطاء بحاجاتهم المتواضعة دون ابطاء ، ولكن الفقر وعدم وجود الوسائل الصحية فى المدن الصغيرة افزعاه :

« حين سألت النادل عن مكان (لقضاء الحاجة) أشار لى على الفناء قائلا « ممكن ، تحت ، فى الحوش » . فسألته « أين ؟ فقال فى لهجة ودية « فى أى

مكان ، كما تشاء » . . . فكل الافنية الأمامية والأعمدة تلوثها الأقذار « لأن القوم يقضون حاجاتهم بطريقة طبيعية جدا »[٢] .

على أن التكيف الحسى جعله يسلم بالأمر الواقع شيئا فشيئا .

وكانت البندقية تستمتع بانحلالها اللطيف ، فحوالى ١٧٧٨ وصف كارلو جوتسى فى مبالغة تغار على الفضيلة ما بدا له أنه انحلال عام فى الأخلاق :

« إن منظر النساء وقد انقلبن رجالا ، والرجال نساء » وكلهم نسانيس « وكلهم غارقون . . . فى دوامة الموضة ، يفسلون ويغوون بعضهم بعضا بلهفة كلاب الصيد تجرى وراء رائحة الفريسة ، ويتنافسون فى شهواتهم وسرفهم المسدمر . . . ويحرقون البخور . . . لنزيابوس[٣] . (إله الشهوة) »

وفى ١٧٩٧ ألقى اللوم على الفلسفة فى هذا الانهيار :

« أن الدين ، ذلك الكابح الصحى لشهوات البشر . . . قد أصبح هزؤا بين الناس . ولست أملك إلا الإيمان بأن المشنقة مفيدة للمجتمع » لأنها أداة لعقاب الجريمة وردع من تحدثه نفسه بالإجرام . ولكن فلاسفتنا العصريين نددوا بالمشنقة زاعمين أنها تحيز ظالم وهكذا زادوا جرائم القتل على الطريق العام والسرقات وأعمال العنف مائة ضعف .

« وقد أكدوا لنا أن ابقاء النساء فى بيوتهن لرعاية بنيهن وبناتهن . . . والأشراف على خدمة الأسرة واقتصادها ، إنما هو تحيز بال وهمى . وللتوانطلقت النساء من بيوتهن معربدات كالباخوسيات ، صائحات « الحرية ... » وغصت الشوارع بهن . . . وأسلمن أثناء ذلك عقولهن الطائشة إلى الموضات والبدع التافهة » والملاهى ومغامرات الحب ومظاهر الدلال وسائر السفاسف . . . أما الأزواج فلم يؤتوا من الشجاعة ما يمكنهم من مقاومة هذا التدمير لشرفهم ومالهم وأسرهم » وخافوا من أن يشهر بهم ويرموا بهذه الكلمة الرهيبة ، كلمة « التحيز » . . . فقد وصفت مكارم الأخلاق »

والحشمة ، والعفة ، بأنها تحيز . . . وحين أكرهت جميع هذه التحيزات المزعومة على الهروب . . . ظهر الكثير من النعم الكبرى والبركات العظمى. كالكفر ، والاطاحة بالاحترام والتوقير ، وقلب العدالة رأساً على عقب... وتشجيع المجرمين والرثاء لهم ، والخيالات الملتهبة ، والأحاسيس المرهفة ، والغرائز البهيمية ، والانهماك فى جميع اللذات والشهوات ، والترف العاتى . . . والتفاليس . . . والخيانات الزوجية(٤) » .

ولكن أسباب الانحلال الرئيسية كانت بالطبع اقتصادية وحربية ؛ ذلك أن البندقية فقدت ثراءها الذى أتاح لها الدفاع عن قوتها وعلى النقيض منها ازدادت قوة غريمتها النمسا البشرية ازديادا مكنها من السيطرة على كل المداخل البرية إلى بحيرات البندقية ، ومن خوض بعض حملاتها الحربية على أرض الجمهورية المحايدة العاجزة .

وفى ٩ مارس ١٧٨٩ انتخب لودوفيكومانن لرئاسة الجمهورية — وكان بذلك آخر الأدواج المائة والعشرين اللذين تعاقبوا على كرسى رئاسة البندقية فى استمرار رائع منذ عام ٦٩٧ . وكان رجلا ذا ثراء طائل وشخصية هزيلة ، ولكن ما كان فى طوق الفقر أو الشجاعة أن يردا عنه مأساته . ذلك أن الباستيل سقط بعد أربعة أشهر ، وتسلطت عبادة الحرية على خيال فرنسا ، وحين أقبل هذا الدين مع فيالق نابليون اكتسح كل ايطاليا تقريباً تحت رايته وبقوة نشوته . وفرض الكورسيكى الظافر يظاهرة ثمانون ألف جندى على ملكة الادرياتيكى حكومة مؤقته أملاها بنفسه (١٢ مايو ١٧٩٧) محتجاً بأن القوات النمساوية قد استعانت عليه بأرض البندقية ، ومتهما البندقية بأنها ساعدت أعداءه سراً . فى ذلك اليوم أعطى الدوج مانن قلنسوة الرئاسة لأحد أتباعه بعد أن استقال ، وأمره قائلا ، خذها بعيداً عنى فان نحتاج اليها ثانية(٥) » وبعد أيام مات . وفى ١٦ مايو احتلت الجنود الفرنسية المدينة . وفى ١٧ أكتوبر وقع بونابرت فى كامبوفورميو معاهدة نقلت البندقية وكل الأقاليم التى تمتلكها تقريباً إلى النمسا فى مقابل تنازلات من النمسا لفرنسا فى البلجيك وضفة الرين اليسرى . وحدث هذا بالضبط

بعد ألف ومائة عام من انتخاب أول دوج لحكم بحيرات البندقية والدفاع عنها .

أما بارما فكانت محمية أسبانية ، ولكن دوقها « الدون فيليبى » ابن فيليب الخامس وايز ابيالا فارنيزى ، تزوج لويزا اليزابث ابنة لويس الخامس عشر ، وقد عود نفسه عاداتها المسرفة وجعل بلاطه فرسايا مصغرة ، وأصبحت بارما مركزاً للثقافة تختلط فيه أساليب الحياة العالمية فى بهجة ومرح ، يقول كازانوفا « لقد خيل إلى اننى لم أعد عائشاً فى ايطاليا » فكل شىء بدا منتميا للجانب الآخر من الألب ، ولم يكن المارة يتكلمون إلا الفرنسية والأسبانية[٦] » . وقام وزير مستنير يدعى جيوم دوتيو باصلاحات حافزة للدوقية . هنا كانت تنتج مصنوعات من أبدع أنواع النسيج والبللور والقاشانى .

أما ميلان فقد شهدت توسعا صناعيا ينبىء فى تواضع بما بلغته من تفوق اقتصادى فى إيطالية اليوم . ذلك أن الحكم النساوى أرخى قبضته على قدرات الأهالى وإقدامهم . وتعاون الكونت كارل يوزف فون فرميان ، حاكم لومبارديا ، مع الزعماء الوطنيين على تحسين الإدارة ، وحد من السلطة الظالمة التى كان يمارسها البارونات الأقطاعيون والإوليجركيون فى المدن . وظهرت طائفة من أحرار الاقتصاد يتزعمهم بيترو فرى ، وتشيزارى بونيزانا دى بيكاريا ، وجوفانى كارلى ، أعتنقت مبادىء الفزيوقراطيين ، وألغوا المكوس على التجارة الداخلية ، وأنهوا نظام الالتزام الضرائبى ، ووزعوا العبء بفرض الضرائب على الأملاك الكنسية . ونمت صناعة النسيج حتى أنتظمت فى ١٧٨٥ تسعا وعشرين شركة تشغل ١٣٨٤ نولا . ومسحت الأراضى ، ومولت الدولة مشروعات الرى ، وأشتغل الفلاحون بهمة صادقة . وفى السنوات الإحدى والعشرين فيما بين ١٧٤٩ و ١٧٧٠ إرتفع سكان الدوقية من ٩٠,٠٠٠ إلى ١٣٠,٠٠٠[٧] . فى فترة انتعاش ميلانو هذه بنى مجتمعها التياترو الاسكالا (١٧٧٦ — ٧٨) ، الذى إتسع لـ ٣,٦٠٠ متفرج تحيط بهم زخارف فاخرة كزخارف القصور ، وأحتوى تسهيلات

للموسيقى ، والسمر ، والأكل ، ولعب الورق ، والنوم . وفوق هذا كله صهريجاً للمياه صمم لاطفاء أى حريق . هنا ظفر تشيا روزا وكيروبينى بأنتصارات مدوية .

وكان العصر عصر البطولة لكورسكا . لقد كانت تلك الجزيرة الجبلية الصغيرة مثقلة بأحداث التاريخ . فالفينيقيون القادمون من آسيا الصغرى أقاموا مستعمرة فيها حوالى ٥٦٠ ق . م . ثم قهرهم الأترووريون ، الذين قهرهم القرطاجنيون ، الذين قهرهم الرومان ، الذين قهرهم الروم البيزنطيون ، الذين قهرهم الفرنجة ، الذين قهرهم المسلمون ، الذين قهرهم إيطاليوتسكانيا ، الذين قهرهم البيزاويون ، الذين قهرهم الجنويون (١٣٤٧) . ومات فى ذلك القرن ثلثا السكان من الطاعون الأسود . وفى ظل الحكم الجنوى إنحدر الكورسيكيون الذين أرهقهم الوباء وغارات القراصنة ، والذين حرمت عليهم المناصب الكبرى وأثقلت كواهلهم بضرائب لا يطيقونها ، وانقلبوا إلى حال أشبه بالتوحش لم يحترم فيها قانون غير قانون الثورات العنيفة . . وأخفقت الثورات التى إندلعت بين الحين والحين لما أبتلى به القوم من عداوات طاحنة وما أفتقدوا من العون الأجنبى . أما جنوه ففى سبيل الدفاع عن حياتها ضد الجيوش النمساوية استنجدت بفرنسا لتعينها على حفظ النظام فى كورسكا . واستجابت فرنسا مخافة أن يستولى البريطانيون على الجزيرة ويستخدموها قلعة يتسلطون منها على البحر المتوسط ، فاحتلت الجنود الفرنسية أياتشو وغيرها من الحصون الكورسيكية (١٧١٩ — ٤٨) . ولما بدا أن الأمن قد أستتب إنسحب الفرنسيون ، وعاد سلطان جنوة إلى سابق عهده ، وبدأت ثورة باولى التاريخية .

وقد سبق بأسكالى دى باولى هذا بطولات غاريبالدى بقرن كامل . وقد وصفه اللورد شاتام بأنه « واحد من هؤلاء الرجال الذين لم يعد الناس يعثرون عليهم إلا فى صفحات بلوتارخ[٨] » . ولد (١٧٢٥) أبنا لثائر كورسيكى وتبع أباه إلى المنفى ، ودرس فى نابلى على يد الاقتصادى المتحرر جينوفيزى ، وخدم فى جيش نابلى ، ثم عاد إلى كورسيكا (١٧٥٥)

وأختير ليقود تمردا على جنوه . وبعد عامين من القتال أفلح فى طرد الجنويين من الجزيرة إلا بعض مدنها الساحلية فلما ولى رئاسة الجمهورية الجديدة بالأنتخاب (١٧٥٧ — ٦٨) أظهر فى ميدان التشريع والإدارة نبوغا لا يقل عن نبوغه فى إستراتيجية الحرب وتكتيكها . فقد وضع دستورا ديمقراطيا ، وقمع الثورات ، وألغى حقوق أمراء الأقطاع الظالمة ، ونشر التعليم ، وأسس جامعة فى عاصمته كورتى .

وأضطرت جنوه لعجزها عن قهره إلى بيع الجزيرة لفرنسا (١٥ مايو ١٧٦٨) بمليونى فرنك . ووجد باولى الآن نفسه يقاتل جنودا فرنسيين يعززون بالأمداد المرة بعد المرة . وكان سكرتيره ومساعده فى ذلك الوقت كارلو بونابرتى ، الذى ولد له ابن سماه نابليونى باباتشو فى ١٥ أغسطس ١٧٦٩ . فلما قهر الفرنسيون باولى فى بونتينوفو (مايو ١٧٦٩) طلق هذا النضال الذى لا أمل فيه ولجأ إلى انجلتره ، وهناك منحته الحكومة معاشا ، وأذاع بوزوبل أسمه ، وكان جونسون واحداً من أصدقائه . على أن الجمعية الوطنية لفرنسا الثورة استدعته من منفاه ، وأشادت به « بطلا وشهيدا لحرية » وعينته حاكما على كورسيكا ، (١٧٩١) . ولكن المؤتمر الفرنسى حكم بأن فى ميوله اليعقوبية قصورا ، فأرسل لجنة لخلعة . وخف الجنود البريطانيون لنجدته ، ولكن القائد البريطانى أستولى على الجزيزة وأعاد باولى إلى انجلتره (١٧٩٥) . ثم جرد نابليون قوة فرنسية لتطرد البريطانيين (١٧٩٦) ، ورحب أهل الجزيرة بالفرنسيين بأعتبارهم موفدين من قبل « الكورسيكى » ، وإنسحب البريطانيون ، وخضعت كورسيكا لفرنسا .

أما توسكانيا فقد إزدهرت تحت حكم كبار الأدواق الهابسبورج الذين خلفوا آل مديتشى (١٧٣٨) . وبعد أن إتخذ حاكمها الأسمى فرانسوا اللورينى النمسا مقرا له لزواجه من ماريا تريزا ، فوض الحكم إلى مجلس وصاية يرأسه زعماء وطنيون نافسوا الميلانيين الأحرار فى أصلاحاتهم الاقتصادية ، فقد حققوا حرية التجارة الداخلية فى الغلال (١٧٦٧) قبل أن يبذل طورجو محاولة كمحاولتهم فى فرنسا بسبع سنين . وحين مات فرانسوا

(١٧٦٥) خلفه دوقا أكبر أبنه الأصغر ليوبولد ، الذى تطور حتى أصبح واحدا من أجرأ وأشجع « المستبدين المستنيرين » . كبح الفساد فى المناصب، وأصلح القضاء والإدارة والمالية ، وسوى بين الناس فى الضرائب ، وألغى التعذيب والمصادرة وحكم الإعدام ، وأعان الفلاحين ، وجفف المستنقعات وأنهى الأحتكارات ، ونشر حرية التجارة وحرية المؤسسات التجارية ، وسمح للكومونات بالحكم الذاتى ، وتطلع إلى وضع دستور شبيه بالدساتير الديمقراطيه للدوقيه . وقد راع جوته ما شهده من نظافة المدن التوسكانية النسبية وصلاحية الطرق والكبارى ، وجمال الأشغال العامة وفخامتها[9] . وحين أصبح يوزف أخوليوبولد امبراطورا أوحد ، أعان ليوبولد على الغاء معظم الأمتيازات الإقطاعية فى تسكانيا ، وأغلاق كثير من الإديرة ، والحد من سلطة الأكليروس .

وفى ميدان الاصلاحات الكنسية تلقى ليوبولد تعاونا صادقا من سكبيونى دى ريكى أسقف بستويا وبراتو . وكان فى تسكانيا عرف قاسى يقضى على جميع الفتيات اللاتى لا مهور لهن بالرهبنة ، وأنضم ريكى إلى الدوق الكبير فى رفع السن الدنيا لنذر الرهبنه وتحويل الكثير من الإديرة إلى مدارس للبنات . واتخذت التدابير لنشر التعليم غير الدينى بأحلال المدارس العلمانية محل مدارس اليسوعيين . وكان ريكى يتلو القداس بالأيطاليه ، ويقاوم الخرافات ، الأمر الذى أساء كثيراً إلى جماهير الشعب . فلما شاع أنه ينوى إزالة « حزام العذراء مريم » الشهير فى براتو لأنه زائف ، أحدث الشعب شغبا ونهبوا قصر الأسقف . على أن ريكى دعا رغم ذلك مجمعاً أسقفيا أنعقد فى بستويا عام ١٧٨٦ وأعان مبادىء تذكر بـ « المواد الغالية » الصادرة فى ١٦٨٢ ، ومفادها أن السلطة الزمنيه مستقلة عن السلطة الروحية (أى أن الدولة مستقلة عن الكنيسة) ، وأن البابا عرضة للخطأ حتى فى الأمور المتصلة بالعقيدة .

وكان ليوبولد يحيا حياة البساطة ، وأحبه الناس لطباعه الفطرية غير المتكلفة . ولكن حين امتد حكمه وأرهقته خصومة السنين بات ظنونا معتزلا للناس، واستخدم عدداً غفيرا من الجواسيس ليكونوا له عيوناً على مساعديه

وأعدائه على السواء . وقد أسدى له يوزف النصيحة من فيينا قائلا : « دعهم يغشونك أحيانا ، فهذا خير من أن تعذب نفسك عذابا متصلا لا غناء فيه ». [١٠] فلما غادر ليوبولد فلورنسه ليخلف يوزف امبراطوراً (١٧٩٠) انتصرت قوى الرجعية فى تسكانيا وأدان البابا بيوس السادس ريكى فى ١٧٩٤ وأودعه السجن (١٧٩٩ — ١٨٠٥) حتى سحب هرطقاته . ورد قدوم حكومة نابليون (١٨٠٠) الأحرار إلى سابق سلطانهم .

وهرول جوته إلى روما عبر تسكانيا . استمع إليه وهو يكتب فى أول نوفمبر ١٧٨٦ :

« وأخيراً وصلت إلى عاصمة العالم العظيمة هذه . . وكأنما طرت طيراناً فوق جبال التيرول . إن شوقى لبلوغ روما كان شديدا . . حتى كان التفكير فى التخلف فى أى مكان ضربا من المحال « وحتى فلورنسا لم أمكث فيها سوى ثلاث ساعات . والآن ، كما أخالنى سأظفر بالهدوء مدى الحياة « فلنا أن نقول إن حياة جديدة تبدأ حين يرى الإنسان بعينيه كل مالم يسمع أو يقرأ عنه من قبل إلا قليلا . وأنا الآن أرى جميع أحلام شبابى تتحقق أمام عينى » .

وأى خليط يدير الرؤوس كانت روما القرن الثامن عشر وهى تشغى بالشحاذين والنبلاء « بالكرادلة والخصيان المغنين ، بالأساقفة والبغايا « بالرهبان والتجار ، باليسوعيين واليهود « بالفنانين والمجرمين ، بالفتاك والقديسين « وبالسياح يبحثون عن الآثار نهارا وعن الغوانى ليلا . وهنا ، وعلى إثنى عشر ميلا من أسوار المدينة ، مدرجات وثنية وأقواس نصر ، وقصور ونافورات من عهد النهضة « وثلاثمائة كنيسة وعشرة آلاف قسيس و ١٧٠,٠٠٠ نسمة . ومن حول الفاتيكان قلعة المسيحية الكاثوليكية ، عاش صنف من الرعاع كانوا أشد ماعرف العالم المسيحى صخباً وتمرداً وعداءاً للأكليروس . وكانت الكراسات البذيئة المهاجمة للكنيسة يطاف بها فى الشوارع ، والمهرجون يقلدون فى سخرية فى الميادين العامة أقدس مراسم القداس . ولعل فنكلمان وهو الرجل الحى الرقيق كان يبالغ قليلا حين قال :

« فى النهار يسود روما هدوء معتدل ، أما فى الليل فإن الشيطان ينطلق من عقاله . ونتيجة للحرية الكبيرة التى تسود هنا ، ولعدم وجود أى نوع من أنواع الشرطة ، يتصل الشجار وضرب النار وإطلاق الصواريخ والألعاب النارية فى جميع الشوارع الليل كله . . والجماهير عاصية لا تخضع لسلطان » وقد أعيا الحاكم كثرة النبى والشنق (١١) » .

كانت روما مدينة تتسم بطابع العالمية أكثر حتى من باريس . . يختلط فيها الفنانون والطلاب والشعراء والسياح بالأحبار والأميرات فى الصالونات وقاعات الفن والمسارح .

هنا كان فنكلمان ومنجز يبشران بإحياء الطراز الكلاسيكى » وهنا كان البابوات المرهقون المحاصرون يكافحون لتهدئة ثائرة الجماهير التى طحنها الفقر بالخبز والبركات الروحية ، ولتعطيل السفراء الذين يلحون فى إلغاء الطائفة اليسوعية والحفاظ على صرح المسيحية المعقد بأسره من الأنهيار تحت وطأة التقدم العلم وهجمات الفلسفة .

ولكن لنمضى قدما مع جيته إلى نابلى . لقد خيل إليه أنه لم يشهد قط مثل هذه الفرحة بالحياة :

« إذا كان فى استطاعة المرء وهو فى روما أن يعكف من فوره على الدراسة ، فليس فى استطاعته هنا أن يفعل شيئا إلا أن يعيش . فأنت تنسى نفسك والعالم ، وأنا عن نفسى أجده شعورا غريبا أن أتنقل مع قوم لا يفكرون إلا فى الاستمتاع بالحياة . . . هنا لا يعرف الناس شيئا بعضهم عن بعض . وقلما يلحظون أن غيرهم يسيرون أيضا فى طريق سيرهم جنبا إلى جنب معهم . وهم يجرون سحابة نهارهم خلفا وأماما فى فردوس دون أن يتلفتوا حولهم » ولو بدأ فكا الجحيم المجاوران ينفتحان ويثوران ، فإنهم يستنجدون بالقديس يتيواريوس (١٢) .

وكان الدون كارلوس بعد رحيله عن نابلى قاصدا أسبانيا فى ١٧٥٩

قد أوصى بمملكة نابلى وصقلية إلى ابنه فرديناند الرابع البالغ من العمر ثمانية أعوام ، بوصاية المركيز دى تانوكى وواصل تانوكى حرب الكنيسة التى بدأها على عهد كارلوس . فألغى الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ولم يتردد فى اتباع تعليمات شارل الثالث ملك أسبانيا بطرد اليسوعيين . فما أن انتصف ليل ٣ — ٤ نوفمبر ١٧٦٧ حتى قبض الجند على جميع أعضاء الطائفة فى المملكة ، وقادوهم — وهم لا يحملون من مقتنياتهم سوى الثياب التى عليهم — إلى أقرب ثغر أو نقطة حدود ، ومن هناك رحلوا إلى الولايات البابوية .

ولما بلغ فردیناند الرابع عامه السادس عشر (١٧٦٧) أنهى وصاية تانوكى . وبعد عام تزوج ماريا كارولينا ، الابنة التقية لماريا تريزا . وسرعان ما سيطرت على زوجها وتزعمت حركة رجعية ضد سياسات تانوكى المناهضة لرجال الدين . وكانت اصلاحات المركيز قد قوت ملكية نابولى ضد نبلاء الاقطاع والكنيسة ، ولكنها لم تحقق شيئا يذكر فى تخفيف الفقر الذى لم يترك للجماهير أملا إلا فى الآخرة .

وانتهجت صقلية نهجا مماثلا . فكان بناء كتدرائية بلرمو (١٧٨٢ — ١٨٠٢) أهم وأخطر فى نظر الشعب من محاولة دومنيكو دى كاراكولى ترويض أمراء الإقطاع الذين سيطروا على البلاد . وكان قد عمل سنوات كثيرة سفيرا لنابلى فى لندن وباريس ، واستمع إلى البروتستنت والفلاسفة . فلما عين واليا على صقلية (١٧٨١) فرض الضرائب الباهظة على كبار ملاك الأراضى ، واختزل حقوقهم الاقطاعية على أقنانهم ، وأنهى ما كان لهم من امتيازات اختيار القضاة المحليين . ولكنه حين تجاسر على حبس أمير يحمى قطاع الطرق ، وأمر بانقاص يومين من العطلات التى تمنح تكريما للقديس روزاليا حامى بارمو ، ثارت عليه جميع الطبقات ، وقفل إلى نابلى مهزوما (١٧٨٥) . [١٣] فالفلاسفة لم يكونوا قد برهنوا بعد على أنهم يفهمون حاجات الإنسان وطبيعته خيرا مما تفهمها الكنيسة .

٢ — البابوات والملوك واليسوعيون

استندت قوة الكنيسة الكاثوليكية على إيمان بالخوارق ركب فى فطرة البشر ، والتسليم بالدوافع الحسية والمخلفات الوثنية والتسامى بها « وتشجيع الخصوبة الكاثوليكية » وغرس لاهوت غنى بالشعر والأمل « نافع للتهذيب الخلقى والنظام الاجتماعى . كذلك كانت الكنيسة فى إيطاليا المصدر الرئيسى للمدخل القومى ، ورادعا معترفا بقيمته لشعب يؤمن إيمانا شديدا بالخرافات « وثنى النزعة مشبوب العاطفة . وقد كثرت الخرافات بين الايطاليين ، فحتى (١٧٨٧) أحرقت الساحرات فى بلرمو — وقدمت المرطبات للنبيلات العصريات اللائى حضرن هـذا المشهد . [١٤] وعاشت المعتقدات والعادات والمراسم الوثنية فى ظل موافقة الكنيسة عليها عن طيب خاطر . كتب جوته يقول « لقد انتهيت إلى الاعتقاد القاطع بأن كل آثار المسيحية الأصلية قد انقرضت هنا فى روما [١٥] » . على أنه بقى فى العالم المسيحى الكثير من المسيحيين الحقيقيين ، حتى فى إيطاليا . ومن هؤلاء الكونت كايسوتى دى كيوزانو ، أسقف أستى ، الذى نزل عن ميراثه الكبير « وعاش فى فقر اختيارى ، وكان لا يسافر إلا راجلا . كذلك كان تستا أسقف مونريالى ينام على القش ، ولا يأكل إلا ما يمسك رمقه ولا يحتفظ من دخله إلا بثلاثة آلاف ليرة لحاجاته الشخصية « ويخصص ما بقى منه للاشـغال العامة وللفقراء [١٦] .

واستجابت الكنيسة لحركة التنوير إلى حد ما . وبالطبع أدرجت أعمال فولتير وروسو وديدرو وهلفتيوس ود ولباخ ولا مترى وغيرهم من أحرار الفكر فى قائمة الكتب المحرمة ، ولكن أبيح الحصول على إذن بقراءتها من البابا . وكان المونسنيور فنتمليو أسقف قطنيا (١٧٥٧ — ٧٣) يقتنى فى مكتبته طبعات كاملة من فولتير وهلفتيوس وروسو [١٧] . وألغيت محكمة التفتيش فى تسكانيا وبارما عام ١٧٦٩ ، وفى صقليه عام ١٧٨٢ ، وفى روما عام ١٨٠٩ . وفى ١٧٨٣ نشر قسيس كاثوليكى يدعى تابعورنى ، تحت اسم صديقه تراوتما نسدورف « مقالا » فى التسامح الكنسى والمدنى »

أدان فيه محكمة التفتيش وحكم على كل ضروب الأكراه للضمير بأنها منافيه للمسيحية ، ودافع عن جميع أنواع اللاهوت إلا الإلحاد[١٨] .

وكان من سوء طالع البابوات فى نصف القرن الثامن عشر هذا أن يضطروا إلى مواجهة مطالبة الملوك الكاثوليك بحل جمعية اليسوعيين كلية . وكانت الحركة المناهضة لليسوعيين جزءا من صراع على القوة بين قومية الدولة الحديثة الظافرة ، ودولية بابوية أضعفتها حركة الأصلاح البروتستنتى وحركة التنوير وصعود طبقة رجال الأعمال . ولم يلح أعداء الجمعية الكاثوليك الحاحا سافرا بأعتراضهم الرئيسى عليها ، وهو أنها دأبت على تأييد سلطة البابوات بأعتبارها فوق سلطة الملوك ، ولكنهم كرهوا أشد الكره أن يشكل قيام منظمة لا تعترف برئيس غير رئيسها ، والبابا فى الواقع داخل كل دولة عميلا لسلطة أجنبية . وقد سلموا بغزارة علم اليسوعيين وتقواهم ، وبإسهاماتهم فى العلوم والأدب والفلسفة والفن ، وبتربيتهم المثابرة الفعالة للشباب الكاثوليكى ، وبيطولتهم فى البعثات الأجنبية وباستعادتهم كثيرا من الأرض التى فقدتها الكاثوليكية وأستولت عليها البروتستنتية . ولكن التهمة التى وجهوها إلى الجمعية هى أنها كانت تتدخل المرة بعد المرة فى الشئون العلمانية ، وأنها أشتغلت بالتجارة طمعا فى الربح المادى ؛ وأنها غرست مبادىء الفتاوى التى تغتفر الفساد الخلقى والجريمة ، وأغضت حتى عن قتل الملوك ، وأنها سمحت للعادات والمعتقدات الوثنية بأن تعيش بين أتباعها المزعومين فى آسيا ؛ وأنها أساءت إلى الطوائف الدينية الأخرى وإلى كثير من الكهنة غير الرهبان ، بحدتها فى الجدل ونغمتها المشربة بالاحتقار . وأصر سفراء ملوك البرتغال وأسبانيا ونابلى وفرنسا على إلغاء الترخيص البابوى الخاص بالجمعية وعلى حل المنظمة رسميا وفى كل مكان .

على أن طرد اليسوعيين من البرتغال فى ١٧٥٩ ومن فرنسا فى ١٧٦٤ — ٦٧ ، ومن أسبانيا ونابلى فى ١٧٦٧ ، ترك الجمعية تواصل نشاطها فى وسط وشمالى إيطاليا ، وفى سيليزيا وبولنده . وفى ٧ فبراير ١٧٦٨ طردوا من دوقية بارما البوربونية ، وأضيفوا إلى حشد اللاجئين اليسوعيين فى ولايات

الكنيسة . واحتج البابا كلمنت الثالث عشر بأن بارما إقطاعة بابوية ، وهدد الدوق فرد يناند السادس ووزراءه بالحرم إذا نفذ مرسوم الطرد . فلما أصروا أصدر مرسوما أعلن فيه مصادرة رتبة الدوق ولقبه والغاءهما . وبدأت الحكومات الكاثوليكية فى أسبانيا ونابلى وفرنسا حربا على البابوية . واستولى تانوتشى على مدينتى بنيفنتو وبونتيكورفو البابويتين واحتلت فرنسا أفنيون . وفى ١٠ ديسمبر ١٧٦٨ قدم السفير الفرنسى فى روما باسم فرنسا ونابلى وأسبانيا إلى البابا مطلبا بسحب المرسوم الموجه ضد بارما وبإلغاء جمعية اليسوعيين . وانهار الحبر الأعظم تحت وطأة هذا الانذار النهائى . وكان يبلغ من العمر آنذاك ستة وسبعين عاما ، فدعا لعقد مجمع من المطارنة والمبعوثين فى ٣ فبراير ١٧٦٩ لدراســة الأمر . وفى ٢ فبراير خر صريعا بانفجار عرق فى دماغه .

وانقسم الكرادلة الذين دعوا لاختيار خلف له فريقين : الغيورين الذين اقترحوا تحــدى الملوك ، والمهــدئين الذين آثروا التسويات الهادئة . ولما كانت الكثرة العظمى من الكرادلة الإيطاليين من فريق الغيورين الذين اجتمعوا سريعاً فى روما ، فقد حاولوا افتتاح المجمع قبل أن يصل فريق الكرادلة المهدئين من فرنسا وأسبانيا والبرتغال. واحتج السفير الفرنسى ، فأجل المجمع . وفى غضون هذا عرض لورنتسو ريكى قائد اليسوعيين قضيتهم للخطر إذ أصدر كراسة اعترضت على سلطة أى بابا فى إلغاء الجمعية [١٩] . وفى مارس وصل الكردنيال دبيرنى من فرنسا وبدأ طوافه على الكرادلة بهدف ضمان انتخاب بابا راغب فى ارضاء أصحاب الجلالة الكاثوليك . وقد رفض المؤرخون ، سواء منهم الكاثوليك [٢١] . وخصوم الكاثوليك [٢٢] ، الشائعات التى زعمت بعد ذلك [٢٠] أنه هو أو غيره رشوا أو أغروا بوسيلة ما الكردينال جوفانى جانجانللى بأن يعد بهذا إذا اختير لكرسى البابوية . وكان جانجانللى باجماع الكل رجلا عظيم الثقافة والتقوى والنزاهة ، بيد أنه كان ينتمى إلى طائفة الفرنسسكان التى طالمــا خاصمت اليسوعيين سواء فى ميدان البعثات التبشيرية أو اللاهوت [٢٣] .

وفى ١٩ مايو ١٧٦٩ انتخب باجماع أراء الكرادلة الأربعين ، واتخذ اسم كلمنت الرابع عشر ، وكان يومها فى الثالثة والستين .

ثم ألفى نفسه واقفاً تحت رحمة الدول الكاثوليكية . ففرنسا ونابلى تتشبثان بالأقاليم البابوية التى استولتا عليها » وأسبانيا وبارما تتخذان موقف التحدى . وهددت البرتغال باقامة بطريركية مستقلة عن روما » بل أن ماريا تريزا التى كانت حتى ذلك الحين حارة الولاء للبابوية واليسوعيين ولكنها الآن فقدت سلطانها الذى انتزعه منها ابنها حر التفكير جوزف الثانى » ردت على نداء البابا بطلب معونتها بأنها لاتستطيع مقاومة الإرادة الموحدة لمثل هذا العدد الكبير من الملوك والحكام . وأصدر شوازيل الذى كان مسيطرا على حكومة فرنسا آنذاك تعلياته لبيرنى بأن يخبر البابا أنه « إذا لم يستطع التوصل إلى تفاهم مع فرنسا ففى استطاعته أن يعتبر كل علاقاته بها منتهية[٢٤] » .

وكان شارل الثالث ملك أسبانيا قد أرسل مثل هذا الانذار النهائى فى ٢٢ ابريل . أما كلمنت ، الذى حاول كسب الوقت ، فقد وعد شارل بأنه عن قريب « سأرفع إلى حكمة جلالتكم وذكائكم خطة للقضاء المبرم على الجمعية[٢٥] » . وأمر مساعديه بالرجوع إلى السجلات وتلخيص تاريخ جمعية اليسوعيين وانجازاتها وجرائمها المزعومة . ورفض التسليم بما طالب به شوازيل من الفصل فى النزاع خلال شهرين . وقد اقتضاه الفصل ثلاث سنين ، ولكنه أذعن فى النهاية .

ففى ٢١ يوليو ١٧٧٣ وقع الرسالة البابوية التاريخية » وقد بدأت بقائمة طويلة من الجماعات الدينية التى حظرها الكرسى البابوى المقدس على مدى الأيام » وذكرت الشكاوى الكثيرة التى رفعت ضد اليسوعيين ، والجهود الكثيرة التى بذلها مختلف البابوات لعلاج المساوىء المزعومة . « وقد لاحظنا ببالغ الحزن أن هـذه العلاجات وغيرها مما استعمل بعد ذلك لم يكن لها من الفاعلية أو القوة ما يضع حداً لهذه المتاعب والتهم

والشكاوى[٢٦] » . واختتمت الرسالة بهذه العبارات « وإذ تبين لنا أن جمعية اليسوعيين لم تعد قادرة على أن تؤتى الثمرات الوفيرة والخير العظيم اللذين من أجلهما أسست ووافق عليها العدد الكبير من البابوات أسلافنا الذين شرفوها بالكثير من المزايا الجديرة بالإعجاب ، وإذ رأينا أنه من المستحيل تقريباً — بل أنه مستحيل إطلاقاً — على الكنيسة أن تتمتع بسلام صادق متين ما بقيت هذه الطائفة . . . فاننا بعد الفحص المتأنى ، ونتيجة لمعرفتنا الخاصة وبحكم كمال سلطتنا الرسولية ، نحل ونلغى بمقتضى هذه الرسالة البابوية جمعية اليسوعيين . ونبطل ونلغى كل مناصبها ووظائفها وإداراتها ، ودورها ، ومدارسها ، وكلياتها وخلواتها ، وملاجئها وسائر المؤسسات التى تخصها على أى وجه كائنا ما كان وفى أى إقليم أو مملكة أو دولة لها وجود فيها[٢٧] » .

ثم وعدت الرسالة البابوية بصرف معاشات لليسوعيين الذين لم يرسموا بعد ويريدون العودة لحياة العلمانيين ، وأذن للكهنة اليسوعيين بالانضمام إلى الأكليروس غير الرهبان أو بأى طائفة دينيه يوافق عليها الكرسى البابوى . وسمح لليسوعيين المقبولين فى الرهبنه والذين نذروا أنفسهم نذرا نهائيا مطلقا بأن يبقوا فى بيوتهم السابقة شريطة أن يلبسوا رداء الكهنة غير الرهبان ويخضعوا لسلطة الأسقف المحلى .

وفى معظم الحالات ، وبأستثناء بعض المبعوثين فى الصين ، تقبل اليسوعيون حكم الإعدام هذا الذى أصدره البابا على جمعيتهم بامتثال ونظام ظاهرين .. بيد أن كراسات غفل من اسم المؤلف طبعت ووزعت دفاعا عن قضيتهم ، وقبض على ريتشى وعدد من معاونيه بتهم لم تثبت عليهم قط بأنهم يتراسلون مع خصوم المرسوم . ومات ريتشى فى السجن فى ٢٤ نوفمبر ١٧٧٥ بالغا الثمانية والسبعين .

ولم يعش كلمنت الرابع عشر إلا عاما واحدا أو يزيد بعد المرسوم . وكثرت الشائعات بأن عقله اختل فى شهوره الأخيرة . وقد اجتمعت عليه

الأسقام » ومنها الأسكربوط والبواسير ، لتجعل كل نهار وليل فى حياته شقاء تعاسة له . وأصابته فى إبريل ١٧٧٤ نزلة برد لم تبرحه قط ، ولم تحل نهاية أغسطس حتى كان الكرادلة يناقشون مسألة خلافته ، وفى ٢٢ سبتمبر قضى كلمنت نحبه .

وبعد الكثير من التأجيلات والدسائس أجلس مجمع الكرادلة على كرسى البابوية (١٥ فبراير ١٧٧٥) جوفانى براسكى الذى إتخذ اسم بيوس السادس . وكان رجلا مثقفاً أكثر منه سياسياً » يجمع التحف الفنية ، ويسحر الجميع برقته ، وقد حسن إدارة الكوريا (الإدارة البابوية) وأستصلح بعض المستنقعات البونتيه . ورتب حلا وسطا موقتا مسالما لليسوعيين مع فردريك الأكبر . وفى ١٧٩٣ أنضم للحلف المعادى لفرنسا الثائرة . وفى ١٧٩٦ غزا نابليون الولايات البابوية ، وفى ١٧٩٨ دخل الجيش الفرنسى روما » وأعلنها جمهورية ، وطالب البابا بالتخلى عن كل سلطاته الزمنية . ولكنه أبى ، فأعتقل ، وظل فى أماكن وحالات مختلفة من السجن حتى وفاته (٢٩ أغسطس ١٧٩٩) . أما خليفته بيوس السابع فقد جعل رد جمعية اليسوعيين إلى سابق عهدها (١٨١٤) جزءا من أنتصار التحالف على نابليون .

٣ — القانون وبيكاريا

ظلت أخلاق إيطاليا وسلوكها مزيجاً من العنف والتراخى ، من الثأر والحب . كتب موتسارت من بولونيا عام ١٧٧٠ ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره « إن إيطاليا بلد ناعس »[٢٨] » ولم يكن قد تعلم فلسفة القيلولة . أما أبوه فكان رأيه فى ١٧٧٥ أن « الإيطاليين أوغاد فى كل أنحاء العالم»[٢٩].

وقد علق موتسارت وجوته كلاهما على الجريمة الإيطالية . كتب موتسارت يقول إن فى نابلى « زعيما للشحاذين يتقاضى من الملك خمساً وعشرين دوقاتيه كل شهر مقابل تهدئتهم لا أكثر»[٣٠]. وكتب جوته يقول « إن أكثر ما يلفت نظر الغريب هو كثرة الاغتيالات . واليوم كان الضحية فناناً ممتازا هو

شفندمان . . وقد طعنه القاتل الذى اشتبك معه عشرين طعنة ، فلما أقبل الحارس طعن الوغد نفسه. وليس هذا مايجرى به العرف هنا عموماً ، فالقاتل عادة يقصد أقرب كنيسة ، فمتى بلغها أصبح فى مأمن تام »[٣١]. وكانت كل كنيسة تعطى المجرم الأمان فى حرمها — أى الحصانة من الإعتقال مابقى تحت سقفها .

وحاول القانون كبح الجريمة بتشديد العقوبة أكثر مما حاولها بكفاية الشرطة . فقد نصت قوانين بندكت الرابع عشر الرحيم على عقوبات التجديف بالجلد ، فإذا تكررت الجريمة ثلاث مرات كان عقابها التشغيل خمس سنوات فى سفن الأسرى والعبيد . وكان السطو على دير الراهبات ليلا جناية كبرى ، إما مغازلة امرأة شريفة أو معانقتها علانية فعقابه التشغيل المؤبد على هذه السفن . وكان تشويه السمعة الخلقية ، حتى إذا لم يحتو غير الصدق يعاقب بالإعدام ومصادره الممتلكات.(ومع ذلك لم يقلل هذا من المقطوعات الهجائية) . ومثل هذه العقوبة فرضت على حمل الطبنجات المخبأة . على أن الجناة كانوا فى كثير من المناطق يتفادون هذه الأوامر بالفرار إلى دولة مجاورة أو بفضل رحمة القاضى ، أو الاحتماء بالكنيسة . ولكن العقوبات كانت تنفذ بصرامة فى حالات عديدة . من ذلك أن رجلا شنق لإدعائه أنه كاهن ، وآخر لسرقته ثوباً كهنوتيا باعه بفرنك وربع ، وثالث ضرب عنقه لكتابته خطابا اتهم البابا كلمنت الحادى عشر بعلاقة غرامية مع ماريا كلمنتينا سوبيسكا[٣٢]. وإلى تاريخ متأخر (١٧٦٢) كان السجناء تحطم أجسادهم على دولاب التعذيب ، عظمة بعد عظمة ، أو يسحلون على الأرض فى ذيل حصان مهموز . على أن من واجبنا أن نضيف جانباً أكثر إشراقاً على الصورة ، هو أن بعض الجمعيات الخيرات كانت تجمع المال لدفع غرامات السجناء وتحريرهم . وغدا إصلاح القانون ، سواء من حيث الإجرات أو من حيث العقوبات ، جزءاً طبيعياً من الروح الرحيمة التى أنجبها أبوان — حركة تنوير إنسانية ، وأخلاقيات مسيحية تحررت من لاهوت قاس .

ومن مفاخر إيطاليا أن يصدر أقوى نداء يدعو لإصلاح القانون فى هذا

القرن عن شريف ميلانى . وقد كان هذا الشريف — تشزارى بونيزانا ، مركيز بكاريا ، نتاج اليسوعيين والفلاسفة الفرنسيين . ومع أنه وهب من الثراء مايسمح له بحياة التبطل فإنه كرس نفسه بغيرة لا تفتر لحياة التأليف الفلسفى والإصلاح العملى . وقد أمسك عن مهاجمة دين الشعب ، ولكنه تصدى رأساً للظروف الفعلية للجريمة والعقاب . وقد صدمه أن يرى قذارة السجون الميلانية التى كانت مرتعاً للأمراض ، وأن يسمع من السجناء كيف ولم اعتادوا الإجرام وكيف حوكموا على جرائمهم . وأفزعه أن يكتشف مخالفات صارخة فى الإجراءات القضائية ، وألواناً من التعذيب الوحشى للمشبوهين والشهود ، وضروبا من التعسف فى الأحكام سواء بالتشديد أو التخفيف ، وألواناً من القسوة الضارية فى العقاب . وحوالى ١٧٦١ انضم إلى بييتر فيرى فى جمعية سمياها « البونيات » (قبضات الأيدى) — نذرت نفسها للعمل والفكر معاً . وفى ١٧٦٤ بدءا مجلة « المقهى » محاكاة لمجلة أديسون « سبكتيتر » . وفى ذلك العام نشر بيكاريا بحثه التاريخى « بحث فى الجرائم والعقوبات » .

وفى مستهل كتابه أعلن فى تواضع أنه يتأثر بخطى « روح القوانين » الذى ألفه « الرئيس الخالد » لبرلمان بوردو ، فالقوانين يجب أن ترسى على العقل ، ورائدها الأساسى ليس الانتقام من الجريمة بل حفظ النظام الاجتماعى ، وينبغى أن تستهدف دائماً « أوفر سعادة موزعة على أكبر عدد[٣٣] » . هنا قبل بنتام بخمسة عشر عاما ، نجد المبدأ الشهير لأخلاقيات مذهب المنفعة . واعترف بكاريا بصراحته المعهودة بتأثره بهلفتيوس ، الذى أورد هذه الصيغة ذاتها فى كتابة « فى الروح » (١٧٥٨) . (وكان قد صدر فى سلسلة فرانسس هتشسن « أفكار فى الجمال والفضيلة » (١٧٢٥) . وقال بكاريا أن توسيع التعليم وتعميقة أملا فى الحد من الجرائم أصوب لمصلحة المجتمع من الالتجاء إلى عقوبات قد تحول شخصا أجرم عرضا من مخالطته المجرمين إلى مجرم عريق . فالواجب أن يكون لكل متهم الحق فى محاكمة عادلة وعلنية أمام قضاة أكفاء يتعهدون بالحياد والنزاهة . ويجب أن تقفو المحاكمة الإتهام سريعاً ، وأن يكون العقاب متناسباً مع

الضرر الواقع على المجتمع لامع نية الفاعل . فضراوة العقوبة تولد ضراوة الخلق ، حتى فى الجمهور غير المجرم . أما التعذيب فيجب عدم الإلتجاء إليه اطلاقاً . فالمذنب الذى تعود على الألم قد يحتمله فى تجلد وتفترض براءته . فى حين قد يكره الألم بريئاً مرهف الأعصاب على الإعتراف بأى شيء فيحكم بأنه مذنب . ويجب ألا يسمح بعد بحماية الكنيسة للمجرمين ، ويجب إلغاء عقوبة الإعدام .

وطبع الكتيب ست طبعات فى ثمانية عشر شهراً . وترجم إلى اثنتين وعشرين لغة أوربية . وأشاد بكاريا بالترجمة الفرنسية التى قام بها مورلليه وقال أنها أفضل من الأصل . وقد شارك فولتير بمقدمة غفل من الاسم لتلك الترجمة . وأقر المرة بعد المرة بأثر بكاريا فى جمهوره لإصلاح القانون . وبادرت معظم الدويلات الإيطالية إلى اصلاح قوانين عقوباتها . ولم يحل عام ١٧٨٩ حتى كانت أوربا كلها تقريباً قد ألغت التعذيب . وتأثرت كاترين ببكاريا كما تأثرت بفولتير فى الغاء التعذيب فى أملاكها . أما فردريك الأكبر فكان قد أنهاه فعلا فى روسيا (١٧٤٠) إلا فى حالات الخيانة .

وفى ١٧٦٨ عين بكاريا فى كرسى للقانون والاقتصاد أنشىء خصيصاً له فى كلية البالاتين بميلان . وفى ١٧٩٠ عين فى لجنة لإصلاح القضاء فى لمبارديا . وقد سبقت محاضراته عدة أفكار أساسية لآدم سمث ومالتاس فى تقسيم العمل والعلاقة بين العمال ورأس المال . وبين السكان وكمية الطعام . وفيه بعثت «انسانية» النهضة الأوربية من جديد فى صورة التنوير فى ايطاليا .

٢ — مغامرات

١ — كاليوسترو

ولد جوزيبى بلسامو لصاحب متجر ببلرمو فى ١٧٤٣ . ونضج مبكرا وسرعان ما أصبح لصاً بارعاً . وفى الثالثة عشرة قيد تلميذا فى دير

البنفراتيللى . وعين هناك مساعدا لصيدلى الدير ، فتعلم من قواريره ومحابيره وكتبه من الكيمياء والخيمياء ما يكفى لاعداد نفسه لاحتراف الشعوذة الطبية . . . ولما كلف بأن يقرأ حياة القديسين على الرهبان وهم يتناولون طعامهم ، استبدل بأسماء القديسين أسماء أشهر مومسات بلرمو. وجلد عقاباً له ، فهرب من الدير وانضم إلى عالم المجرمين السفلى ، ودرس فن الأكل دون بذل العرق . واشتغل قواداً ومزوراً ومزيفاً للنقود ، وقارئاً للبخت ، وساحراً ، ولصا ، وأفلح عادة فى إخفاء آثاره بمهارة عجزت معها الشرطة عن إدانته إلا بالوقاحة .

فلما رأى نفسه مشبوها على نحو يضايقه ، أنتقل إلى مسينا ، وعبر إلى ريدجو كالأبريا ، وجرب الفرص التى تتيحها نابلى وروما . وتكسب فترة بادخال لمسات على نسخ الصور وبيعها على أنها من صنعه . ثم تزوج لورنتسا فيلكيانى ، وأثرى ببيع جسدها . وأنتحل اسم المركيز دى بللجرينى ، وأخذ نبيلته المكسبة إلى البندقية ومرسليا وباريس ولندن . ثم دبر أن تمسك زوجته بين ذراعى كويكرى ثرى ، وعاشا على المال الذى ابتزاه نتيجة الخطة شهورا . ثم غير أسمه إلى الكونت دى كاليوسترو ، وتنكر بشواربه ولبس حلة كولونيل بروسى ،وسمى زوجته من جديد بالكونتيسه سيرافينا . ثم عاد إلى بلرمو ، وقبض عليه بتهمة التزوير ، ولكن أفرج عنه تحت الحاح منذر بالشر من أصحابه الذين روعوا القضاء .

وإذ بليت «مفاتن سيرافينا لكثرة تداولها ، فقد أخذ يطبق ما تعلم من كيمياء فجهز وباع العقاقير التى ضمن إزالتها التجاعيد وتأجيجها لنار العشق . ولما عاد إلى إنجلترا اتهم بسرقة قلادة من الماس وقضى فترة فى السجن ثم انضم إلى جماعة الماسون وانتقل إلى باريس ، وادعى أنه الرئيس الأكبر للماسون المصريين . وأكد لعشرات السذج أنه عثر على الأسرار القديمة لاعادة الشباب ، الذى يمكن تحقيقه بعلاج يمتد أربعين يوما تستعمل فيه المسهلات والمعرقات وغذاء من الجذور ، والحجامة ، والثيوصوفية[٣٤] . وكان كلما أفتضح أمره فى مدينة مضى إلى غيرها ، واتصل بأسيرها الفنية

بفضل طريقة المصافحة وخاتمه الماسونيين . وفى سانت بطرسبرج أشتغل طبيبا ، وعالج الفقراء مجانا ؛ وأستقبله بوتمكين » ولكن طبيب كاترين الكبرى ، وكان اسكتلنديا حاذقا ، حلل بعض أكاسير هذا الطبيب ووجدها فارغة لاقيمة لها . فسمح لكاليوسترو بيوم وأحد يحمل فيه بضاعته ويرحل . وفى وارسو أفتضح أمره ثانية على يد طبيب آخر فى كتيب سماه « نزع القناع عن كاليوسترو » (١٧٨٠) » ولكن قبل أن يدركه كان قد إنطلق إلى فيينا وفرانكفورت وستراسبورج . وهناك سحر الكردينال الأمير لوى — ريتيه — إدوارد روهان » الذى وضع فى قصره تمثالا نصفيا لزعيم الماسون الأكبر كتب عليه « كاليوسترو المقدس » وأتى به الكرديتال إلى باريس » وتورط النصاب الكبير على غير قصد منه فى قصة القلادة الماسية. فلما أنكشفت هذه الخدعة زج بكاليوسترو فى الباستيل ؛ ولكن سرعان ما أفرج عنه لبراءته . ولكنه أمر بمغادرة فرنسا (١٧٨٦) . فوجد زبائن جددا فى لندن . وزار جوته أثناء ذلك أم كاليوسترو فى صقلية وأكد لها أن ولدها الذائع الصيت قد أطلق سراحه وأنه فى مأمن[٣٥] (٥) .

وفى لندن حيث تكاثر المتشككون فى أمره انتقل الكونت والكونتيسة إلى بازل وتورين وزوفبريتو وترنت » يشتبه فيهما فى كل بلد ثم يطردان . وتوسلت إليه سيرافينا ان يأخذها إلى روما لتصلى عند قبر أمها » فوافق الكونت . وفى روما حاولا أن يقيما محفلا لماسونيته المصرية ، فقبضت عليهما محكمة التفتيش (٢٩ ديسمبر ١٧٨٩) » واعترفا بأنهما دجالان نصابان ؛ فحكم على كاليوسترو بالسجن مدى الحياة ، وأنهى أيامه فى قلعة سان ليو قرب بيزارو فى ١٧٩٥ وقد بلغ الثانية والخمسين . وهكذا كان هو أيضا جزءاً من صورة القرن المستنير .

٢ — كازانوفا

أضاف جوفانى يا كوبو كازانوفا لقب » دى سينجالت » الفخم لاسمه

---

(٥) أنبهر جوته بحياة كاليوسترو وجعلها موضوعا لتمثيلية متوسطة الجودة سماها » زعيم الماسون الأكبر « .

بتفنيط عشوائى الأبجدية ، باعتبار هذا اللقب تشريفا يفيد فى أبهر الراهبات وتحدى حكومات أوروبا . ولد لممثل وممثلة فى البندقية عام ١٧٢٥ ، وظهرت عليه منذ طفولته امارات النشاط الذهنى . تتلمذ لاحتراف القانون ، وزعم أنه نال الدكتوراه فى جامعة بادوا وهو فى السادسة عشرة . وعلينا فى كل خطوة من « مذكراته » الشائقة أن نكون على حذر من شطط خياله ، ولكنه يقص قصته بصراحة يدين بها نفسه إدانة تحملنا على تصديقه حتى ونحن نعلم أنه يكذب .

وبينما كان فى بادوا حقق أول غزواته — وهى بتينا ، « فتاة حلوة فى الثالثة عشرة » وأخت لمعلمه الكاهن الطبيب جوتسى . فلما مرضت بالجدرى عنى بها كازانوفا وأصيب بالمرض . ويزعم فى روايته أن أعمال الرحمة التى كان يقوم بها كانت تعدل غزواته الغرامية . وحين ذهب فى شيخوخته إلى بادو لآخر مرة ، « الفيتها عجوزا ، مريضة ، فقيرة » وقد ماتت بين ذراعى » . [٣٧] وكل عشيقاته تقريبا يصورهن مغرمات به إلى النهاية .

على أنه عانى من فقر مذل رغم درجته القانونية . مات أبوه ، وكانت أمه تمثل فى مدن بعضها وصل فى بعده حتى سانت بطرسبورج « وننساه عادة . وكسب بعض المال من عزف الكمان فى الحانات والشوارع . ولكنه وهب القوة كما وهب الوسامة والشجاعة . فلما أصيب السناتور البندقى زوان براجادينو (١٧٤٦) بالنقطة وهو يهبط السلم ، احتمله ياكوبو بين ذراعيه وأنقذه من سقطة فجائية . وبعدها بسط عليه السناتور حمايته فى مآزق كثيرة وزوده بالمال لزيارة فرنسا وألمانيا والنمسا . وفى ليون انضم إلى الماسون الأحرار ، وفى باريس « أصبحت رفيقا » ثم رئيسا للطائفة » . (ونحن نلحظ فى شىء من الدهشة قوله « فى زمنى لم يكن فى فرنسا من يعرف كيف يبالغ فى الأسعار ») [٣٨] .

وفى ١٧٥٣ عاد إلى البندقية ، وسرعان ما لفت نظر الحكومة باحترافه حكمة السحر والتنجيم . وبعد عام أبلغ محقق رسمى مجلس الشيوخ عنه فقال :

لقد أفلح فى التسلل إلى قلب الشريف زوان براجادينو . . . . وابتز ماله ابتزازا باهظا . . . . . وقد أخبرنى بنديتو بيزاتو أن كازانوفا بسبيله إلى أن يصبح فيلسوفا قبلانيا وأنه يحاول التكسب بالحجج الزائفة يموه بها فى مهارة على عقول ضحاياه . . . . . وقد أمكنه . . . . . اقناع براجادينو بأن فى استطاعته استحضار ملاك النور لينفعه .[٣٩]

ويضيف التقرير أن كازانوفا قد بعث إلى أصحابه بكتابات تشى بحقيقته مفكرا ملحدا . ويقول كازانوفا « لقد وقر فى نفسى سيدة تدعى مدام ممنو أننى أعلم ولدها مبادىء الإلحاد[٤٠] » .

« أن التهم التى وجهت إلى تتعلق بالكرسى (البابوى) المقدس ، والكرسى المقدس وحش ضار من الخطر أن تمسه . وكانت هناك ظروف معينة . . . جعلت من الصعب عليهم حبسى فى السجون الكنسية التابعة لمحكمة التفتيش ، ولهذا السبب تقرر فى النهاية أن تناط محكمة تفتيش الدولة « بمحاكمتى[٤١] » .

ونصحه براجادينو بالرحيل عن البندقية ، ولكن كازانوفا أبى . وفى الغداة قبض عليه ، وصودرت أوراقه ، وحبس دون محاكمة فى البيومبى « ألواح الرصاص » وهو اسم أطلق على سجن الدولة البندقى نسبة إلى ألواح الرصاص المسقوف بها .

« حين جن الليل استحال على أن أغمض عينى لأسباب ثلاثة : أولها الفيران ، وثانيها الطنين الرهيب الذى تحدثه ساعة كتدرائية القديس مرقس التى كانت تدق وكأنها فى حجرتى ، وثالثها ألوف البراغيث التى أغارت على بدنى تعضنى وتلدغنى وتسمم دمى بحيث أصابتنى انقباضات عنيفة بلغت حد التشنجات »[٤٢] .

وحكم عليه بالسجن خمس سنين ، ولكنه هرب بعد أن ظل رهين محبسه خمسة عشر شهرا (١٧٥٧) بفضل سلسلة معقدة من الحيـــل

والمخاطرات والأهوال أصبحت روايته لها جزءا من « عدة نصبه » فى كثير من الأقطار .

فلما عاد ثانية إلى باريس اشتبك فى مبارزة مع فتى يدعى الكونت نيكولا دلانور دوقرن وأصابه بجرح ، ثم شفاه بمرهم « سحرى » ، وكسب صداقته . فقدمه إلى عمة له غنيه تسمى مدام دورفيه ، كانت شديدة الإيمان بقوى السحر ، مؤملة أن تستعين بها على تغيير جنسها . واستغل كازانوفا سذاجتها ، ووجد فيها وسيلة خفية للاثراء .

« إننى لا أستطيع وقد شخت الآن أن أرجع ببصرى إلى هذا الفصل من حياتى دون أن أحمر خجلا »[٤٣] . وهذا اتصل على مدى فصول كثيرة أخرى من كتابه . وأضاف إلى دخله بالغش فى لعب الورق ، وتنظيم يانصيب للحكومة الفرنسية ، وبالحصول على قرض لفرنسا من الأقاليم المتحدة . وفى الرحلة من باريس إلى بروكسل ، قرأت كتاب هلفتيوس « فى الروح » طول الطريق » .[٤٤] (وسيقدم للمحافظين مثالا مقنعا من إنسان حر التفكير انقلب رجلا فاسقا وان كانت المرحلة التالية هى العكس فى أغلب الظن) . وكان فى كل محطة يلتقط خليلة ، وفى كثير من المحطات يجد خليلة سابقة ، وبين الحين والحين يقع مصادفة على ذرية له لم يقصد انجابها .

وزار روسو فى مونمورانسى ، وفولتير فى فرنيه (١٧٦٠) وقد سبق أن استمتعنا بشطر من ذلك الحديث الخاص بينهما . وإذا جاز لنا أن أن نصدق كازانوفا ، فانه اغتنم الفرصة ليوبخ فولتير على فضحه سخافات الميثولوجيا الشعبية :

كازانوفا : هبك نجحت فى القضاء على الخرافة ، فماذا تحل محلها ؟

فولتير . يعجبنى هذا ! حين أخلص البشرية من وحش ضار يفترسها ، أتسألنى ماذا أحل محله ؟

كازانوفا : ان الخرافة لا تفترس البشرية ، بل انهــا على العكس ضرورية لوجودها .

فولتــير : ضرورية لوجودها ! ذلك تجديف مخيف . انى أحب البشر ، وأود أن أراهم أحرارا سعداء مثلى . والخرافة والحرية لا يمكن أن يسيرا يدا بيد . أتظن أن العبودية تؤدى إلى السعادة ؟

كازانوفا : ان ما تريده إذن هو سيادة الشعب ؟

فولتــير : معاذ الله ! يجب أن يكون للجماهير ملك يحكمها .

كازانوفا : فى هذه الحالة تكون الخرافة ضرورية ، لأن الشعب لن يعطى رجلا هو مجرد إنسان حق حكمه . . .

فولتــير : أريد ملكا يحكم شعبا حرا ، ويلتزم قبله بشروط متبادله تمنع أى ميل من جانبه للاستبداد .

كازانوفا : يقول أديسون أن هذا الملك . . . يستحيل وجوده . وأنا متفق مع هوبز . فعلى المرء أن يختار من الشرين أقلهما ضررا . والأمة التى تحررت من الخرافة هى أمة من الفلاسفة ، والفلاسفة لا يعرفون كيف يطيعون . . وما من سعادة ترجى لشعب لا يسحق ويذل ويظل مصفدا بالقيود .

فولتــير : هذا شنيع ! وأنت فرد فى الشعب ! . . .

كازانوفا : ان العاطفة المسيطرة عليك هى حبك للبشرية . . وهذا الحب يعميك . أحب البشرية ، ولكنى أحبها كما هى . فالبشرية ليست قابلة للمزايا التى تود أن تغدقها عليها ، فهذه المزايا لن تزيدها إلا تعاسة وانحرافا . . . . .

فولتــير : يؤسفنى أن يكون لك هــذا الرأى السيء فى اخوانك فى الإنسانية (٤٥) .

وكان كازانوفا يشق طريقه أينما ذهب إلى بيت من البيوت الارستقراطية ،

لأن الكثير من النبلاء الأوربيين كانوا ماسونا ، أو روزيكروشيين أو مدمنين على علوم السحر . وهو لم يقتصر على ادعاء العلم الغيبى فى هذه الميادين ، بل أضاف إلى دعواه القوام الممشوق . والوجه المتميز (وإن لم يكن وسيما) والتمكن من اللغات . وتأكيد الذات الخداع ، ومعينا من القصص والفكاهات . وقدرة خفية غامضة على الكسب فى لعب الورق أو ألعاب الكازينوات . وكان حيثما ذهب يساق عاجلا أو آجلا إلى السجن أو حدود البلاد . واضطر بين الحين والحين إلى الاشتباك فى مبارزة . ولكنه كالأمة فى مراحل تاريخها لم يخسر قط .

وأخيرا غلبه الحنين إلى وطنه . وكان حرا فى السفر أينما شاء فى إيطاليا إلا فى البندقية . والتمس الاذن مرارا بالعودة ، وأخيرا منحه ، وفى ١٧٧٥ عاد إلى البندقية . واستخدمته الحكومة جاسوسا ، وكان نصيب تقاريره الإهمال لاحتوائها على الكثير جدا من الفلسفة والقليل جدا من المعلومات ، فرفت . وانتكس إلى عادات صباه وكتب هجاء للشريف جريمالدى ، فأمر بأن يبرح البندقية وإلا واجه السجن مرة أخرى فى « ألواح الرصاص » ففر إلى فينا (١٧٨٢) . ثم إلى سبا ، ومنها إلى باريس .

وهناك التقى بالكونت فون فالدشتين . الذى أحبه فدعاه إلى العمل أمينا لمكتبته فى قلعة دوكس ببوهيميا . وكانت فنون كازانوفا فى العشق والسحر وخفة اليد قد وصلت إلى نقطة تقلصت فيها عائداتها ، فقبل الوظيفة براتب ألف فلورن فى العام . فلما وصل وتسلم منصبه ، أحزنه أن يكتشف أنه اعتبر خادما . وأن يتناول غداءه فى قاعة الخدم . وفى دوكس انفق أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره . وهناك كتب « تاريخ حياتى » « أولا لتخفيف هـــذا الركود المميت الذى يقتلنى فى بوهيميا الخاملة هذه . . . وقد استطعت بالكتابة عشر ساعات أو اثنتى عشرة كل يوم أن أمنع الحزن الأسود من نهش قلبى المسكين واتلاف عقلى » [٤٦] ، وله زعم الصدق المطلق فى روايته . وهى فى كثير من الحالات تتفق والتاريخ فى الهزء والسخرية . بيد أننا كثيرا ما نفتقر إلى إثبات صحة روايته ،

ولعل ذاكرته تداعت بينما قوى خياله . ولا نملك إلا القول بأن كتابه من أكثر مخلفات القرن الثامن عشر فتنة واستهواء للقارئين .

وقد عمر كازانوفا حتى ناح على موت النظام القديم فقال : « إيه يا فرنسا العزيزة الجميلة ! — البلد الذى كانت الأمور فى تلك الأيام تجرى فيه رخاء رغم أوامر الاعتقال الملكية ، ورغم السحرة ورغم فقر الشعب ! أى فرنسا العزيزة ، إلام انتهى أمرك اليوم ؟ لقد أصبح الشعب ملكا عليك ، الشعب الذى هو أشرس الحكام قاطبة وأشدهم طغيانا »[٤٧] .

وهكذا فى آخر أيامه ، وهو ٤ يونيو ١٧٩٨ ، اختتم حياته فى تقوى أتته فى أوانها . « لقد عشت فيلسوفا » وهأنذا أموت مسيحيا »[٤٨] . لقد حسب الفسق فلسفة » ورهان بسكال مسيحية .

٥ — فنكلمان

ولننظر الآن إلى رجل مثالى على سبيل المقابلة بين الاضداد .

وهذا الرجل الذى كان أعظم الشخصيات أثرا فى تاريخ الفن فى هـــذا العهد لم يكن فنانا بل دارسا كرس حياته الناضجة لدراسة تاريخ الفن » وحرك موته الغريب روح أوروبا المثقفة . ولد فى ٩ ديسمبر ١٧١٧ بمدينة ستندال فى براندنبورج . وكان أبوه الاسكاف يأمل فى أن يحترف ابنه حرفته ، ولكن يوهان رغب فى درس اللاتينية . وقد أدى نفقات تعليمه الباكر بالغناء . ثم تقدم سريعا مدفوعا بشوقه واجتهاده . فكان يعلم التلاميذ الذين تنقصهم الكفاية ، ويشترى الكتب والطعام . فلما كف بصر معلمه كان يوهان يقرأ له ، وراح يلتهم مكتبة أستاذه . وأجاد تعلم اللاتينية واليونانية » ولم يكن ميالا إلى اللغات الأجنبية الحديثة . وحين سمع بأن مكتبة يوهان ألبرت فابريكوس الدارس الكلاسيكى الشهير ستباع بالمزاد لوفاته » سار ١٧٨ ميلا من برلين إلى همبرج ، واشترى روائع الكتب اليونانية واللاتينية ، وحملها على كتفه عائدا إلى برلين[٤٩] . وفى ١٧٣٨ دخل جامعة هاله طالب لاهوت ، ولم يكن به شغف باللاهوت » ولكنه اغتنم الفرصة

للدراسة العبرية . وبعد أن تخرج كسب قوته بتعليم التلاميذ الخصوصيين وقرأ مرتين كل قاموس بيل « القاموس التاريخى والنقدى » . ولعل هذه القراءة خلفت بعض الأثر على إيمانه الدينى . وفى عام واحد قرأ الالياذة والاوديسة ثلاث مرات من أولهما لآخرهما باليونانية .

وفى ١٧٤٣ قبل دعوة ليكون مديرا معاونا لمدرسة بزيهاوزن فى ألتمارك ، بمرتب قدره ٢٥٠ طالرا فى العام . وكان فى النهار يعلم «أطفالا جرب الرءوس أبجديتهم » بينما كنت ... أتحرق شوقا لمعرفة « الجميل » ، وأردد تشبيهات من هومر »[٥٠] . وكان فى المساء يدرس لتلاميذه الخصوصيين ليحصل على نفقات مسكنه وطعامه ؛ ثم يعكف على الروائع الكلاسيكية حتى منتصف الليل وينام حتى الرابعة ، ثم يعود إلى روائعه الكلاسيكية ثانية ، ثم يخرج متعبا ليدرس . وقبل بابتهاج دعوة وجهها إليه الكونت فون بون بوناو ليكون مساعدا لأمين المكتبة فى قصره الريفى بنوتهنتز » قرب درسدن ، لقاء السكن وخمسين إلى ثمانين طالرا فى العام (١٧٤٨) . هناك ألفى المتعة البالغة فى مجموعة من أضخم مجموعات الكتب فى ذلك العصر .

وممن كانوا يختلفون إلى هــذه المكتبة الكردينال أركنتو » القاصد البابوى فى بلاط ناخب سكسونيا . وقد راعه علم فنكلمان وحماسته » ونحوله وشحوبه . فقال له « ينبغى أن تذهب إلى إيطاليا » . وأجاب يوهان أن هذه الرحلة غاية مشتهى قلبه ، ولكن موارده تعجز عن نفقتها . ودعاه القاصد لزيارته بدرسدن » فذهب إليه مرات . وقد أبهجه تفقه اليسوعيين الذين التقى بهم فى بيت القاصد وأدبهم . وعرض عليه الكردينال باسيونى — وكان يقتنى ٣٠٠,٠٠٠ مجلد فى روما — وظيفة أمين مكتبته هناك » لقاء السكن والمعيشة وسبعين دوقاتية ، ولكن الوظيفة لا يمكن أن يشغلها غير كاثوليكى . ووافق فنكلمان على الدخول فى الكاثوليكية . وإذا كان قد أعرب من قبل عن إيمانه بأنك « بعد الموت ليس هناك ما يخيفك ، ولا ما تؤمل فيه »[٥١] فإنه لم يجد صعوبات لاهوتية فى هذا التحول ، وكل صعوباته كانت اجتماعية . وقد كتب إلى صديق لأمه يقول « ان حب

المعرفة ، وهذا الحب وحده ، هو الذى يستطيع إغرائى بالاستماع إلى الاقتراح الذى عرض على » [٥٢] (٥) .

وفى ١١ يوليو ١٧٥٤ ، فى مصلى القاصد بدرسدن ، أعلن إيمانه الجديد ، واتخذت الترتيبات لرحلته إلى روما . ولاسباب شتى مكث فى درسدن عاما آخر ، ساكنادارسا مع الرسام — النحات — الحفارآدم اويزن . وفى مايو ١٧٥٥ نشر فى طبعة محدودة لم تتجاوز خمسين نسخة أول كتبه « خواطر فى تقليد الآثار اليونانية فى الرسم والنحت » . وقد وصف فيه الآثار التى جمعت فى درسدن ، ورأى بالإضافة إلى هذا الوصف أن فهم اليونان للطبيعة كان أسمى من الفهم العصرى لها . وهذا هو السر فى التفوق الهلينى فى الفن . ثم اختتم بقوله « إن سبيلنا الوحيد إلى العظمة ، بل إلى العظمة التى لا تحاكى . . . هو محاكاة القدماء » . [٥٦] ومن رأيه ان رفائيل دون جميع الفنانين المحدثين هو الذى حقق هذا الهدف الاسمى . وكان هذا الكتيب علامة بداية للحركة الكلاسيكية الجديدة فى الفن الحديث . وقد لقى قبولا طيبا ، وأجمع كلويشتوك وجوتشيد على الاشادة بعلمه وأسلوبه . وحصل الأب راوخ ، كاهن الاعتراف الخاص بفردريك أوغسطس ، لفنكلمان من الملك الناخب على معاش من مائتى طالر لكل من العامين التاليين ، وأعانه بثمانين دوقاتية لرحلته إلى روما . وأخيرا ، فى ٢٠ سبتمبر ١٧٥٥ ، انطلق فنكلمان إلى إيطاليا فى صحبة يسوعى شاب . وكان قد بلغ السابعة والثلاثين .

---

(٥) أنظر « باتر » فى مقاله الرائع عن فنكلمان « لعله كان يحس بعراقة ما وبشئ أشبه بالفخامة الوثنية فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وهو فى انصرافه عن البروتستنتينة لمعقدة التى كانت مبحث سأم له فى شبابه ، قد يدور بخلده أنه بينما كانت روما قد راضت نفسها على النهضة ، فان المبدأ البروتستنتى فى الفن قد عزل ألمانيا عن تقليد الجمال المظيم » (٥٣) . وكتب جوته فى كتيب عن فنكلمان (١٨٠٤) « ان المزج الوثنى يشع من جميع تصرفاته وكتاباته . . . ولا بد أن نذكر بعده عن كل أسلوب مسيحى فى التفكير ، لا بل كرهه العام لهذا الأسلوب ، حين نحاول الحكم على هذا التحول المزعوم فى مذهبه . فالفريقان اللذان انقسم إليهما الدين المسيحى كانا فى نظره أمرا لا أهمية له على الاطلاق » (٥٤) . « ولا تعنى كلمة « وثنى » بالضرورة الالحاد . فطالما أكد فنكلمان إيمانه بالله ، ولكن « بإله جميع الالسنة والامم والمذاهب » . (٥٥)

فلما بلغ روما لتى عنتا فى جمرك المدينة الذى صادر عدة مجلدات لفولتير من حقائبه ، على أنها أعيدت له بعد ذلك . ووجد سكنا مع خمسة مصورين فى بيت على التل البنسى — الذى قدسته ظلال نيقولا بوسان وكلود لوران . والتقى بمنجز ، الذى أعانه بشتى الطرق الكثيرة . واطلق له الكردينال باسيونى الحرية فى العمل بمكتبته ، ولكن فنكلمان كان إلى الآن يرفض أى وظيفة ثابته لرغبته فى ارتياد فن روما . فحصل على إذن بزيارات متكررة لبلفيدير الفاتيكان وأنفق الساعات أمام تماثيل أبوللو ، وهرقول النصفى ، واللاوكون ، واتخذت أفكاره شكلا أوضح بعد تأمله فى هذه المنحوتات . وزار تيفولى وفراسكاتى وغيرهما من الضواحى ذات الاطلال القديمة . وأكسبه حبه للفن القديم صداقة الكردينال الساندرو البانى ، وأعطاه الكردينال أركنتو مسكنا فى البلاتسوديللاكانسلليريا — وهو المقر البابوى ، وفى مقابل هذه المنحة أعاد فنكلمان تنظيم مكتبة القصر . وأصبح الآن فى سعادة غامرة . قال « لقد كان الله مدينا لى بهذا ، فاننى قاسيت كثيراً جداً فى شبابى » [٥٧] . وكتب إلى صديق فى ألمانيا كما كان يكتب عشرات الزوار الكبار :

« كل شىء صفر إذا قورن بروما ! لقد ظننت فيما مضى أننى درست كل شىء دراسة كاملة ، وهأنذا ادرك بعد مجيئى أننى لم أعرف شيئا . لقد أصبحت هنا أصغر مما كنت يوم خرجت من المدرسة إلى مكتبة بوناو . فإذا شئت أن تتعلم كيف تعرف الرجال ، فهذا مكانك ، هنا رؤوس ذات مواهب لا حد لها ، رجال أوتوا قدرات فائقة ، وآيات فى الطابع الرفيع الذى خلعه اليونان على تماثيلهم . . . وكما أن الحرية التى يتمتع بها الناس فى الدول الأخرى ليست إلا ظلا إذا قيست بحرية روما — وهو ما قد تخاله مفارقة — كذلك تجد فى هذه المدينة أسلوبا مختلفا فى التفكير . فروما فى اعتقادى هى المدرسة العليا للعالم ، وأنا أيضا امتحنت فيها وهذبت » [٥٨] .

وفى أكتوبر ١٧٥٧ غادر روما قاصدا نابلى مزودا بخطابات تعريف .

وسكن هناك ديرا ولكنه كان يتناول طعامه مع رجال كتانوكي وجاليانى . وزار مدنا عابقة باريج التاريخ القديم — بوتسولى ، وبايا ، وميزينوم ، وكاوماى — ووقف مدهوشا أمام هياكل بايستوم المهيبة . وفى مايو ١٧٥٨ قفل إلى روما محملا بذخائر العلم بالآثار . فى ذلك الشهر استدعى إلى فلورنسه ليصنف ويوصف المجموعة الضخمة من الجواهر ، والمحفورات ، والخرائط ، والمخطوطات التى خلفها البارون فليب فون ستوش . وشغلته المهمة قرابة عام وكادت تهدم صحته . ومات أركنتو أثناء ذلك ، واجتاح فردريك الأكبر أرض سكسونيا ، وفقد فنكلمان مسكنه فى الكانسلبريا ومعاشه من الملك الناخب التعس . وخف ألبانى لنجدته إذ قدم له أربع حجرات وعشرة أسكوزات فى الشهر لقاء العناية بمكتبته . وكان الكردينال نفسه أثريا متحمسا ، وفى كل أحد كان يركب مع فنكلمان لتصيد التحف القديمة .

وأضاف فنكلمان جديدا إلى سمعته باصداره كتيبات عميقة فى هذه الموضوعات المفردة « فى جمال الأعمال الفنية » ، ملاحظات على عمارة القدماء » وصف لتمثال هرقول التصفى فى البلفدير » دراسة الآثار الفنية » . وفى ١٧٦٠ حاول ترتيب رحلة إلى اليونان مع الليدى أورفورد ، زوجة أخى هوراس ولبول ؛ ولكن الخطة أخفقت . كتب يقول « ما من شىء فى الدنيا تقت إليه بحرارة كهذه الرحلة . وما كنت لاضن بأصبع من أصابعى تقطع ، لا بل وددت أن أجعل من نفسى كاهنا لسيبيل (الإلاهة الطبيعة) لو استطعت أن أشهد هذا البلد فى فرصة كهذه »[٥٠] أما كهنة سيبيل فكان الشرط فيهم أن يكونوا خصيانا ، ولكن هذا لم يمنع فنكلمان من التنديد بأمر قديم للحكومة الرومانية يشترط تغطية الأعضاء الداخلية لابولاو واللاردكون وغيرهما من التماثيل فى البلفدير بمآزر من المعدن وقد أعلن فى « إنه لم يشرع فى روما طوال عهدها مثل هذه السنة الغبية » .

وكان للاحساس بالجمال من السلطان عليه ما ألغى تقريبا كل وعى فيه بالجنس . فإذا شعر بتفضيل جمالى فإن تفضيله يؤثر جمال جسم الذكر المكتمل

الرجولة عن حلاوة المرأة الهشة العابرة . ويبدوا أن تمثال هرقول النصفى (التورسو) قد أثر فيه أكثر مما أثرت خطوط جسد فينوس مديتشى الناعمة الملفوفة . وقال كلمة طيبة فى الخنائى — على الأقل فى التمثال الذى شهده فى فيللا بورجيزى [٦٠] . وقال مؤكدا « لم أكن فى حياتى عدوا للجنس الآخر ، ولكن أسلوب حياتى أبعدنى عن كل اتصال به . ولعلى كنت أتزوج » وأكبر ظنى انه كان واجبا على أن أفعل ، لو أننى عدت إلى زيارة وطنى الأول » أما الآن فإن هذا لا يكاد يخطر لى ببال » [٦١] . وفى زيهاوزن كانت صداقته لتلميذه لامبريشت تقوم مقام التعلق بالمرأة » وفى روما عاش مع رجال الكنيسة ، وندر أن التقى بالشباب من النساء . وذكروا « إنه كان يتناول العشاء فى السبوت فترة طويلة مع فتى من روما ، نحيل وسيم الطلعة » فارع القامة ، يتحدث معه عن الحب . » [٦٢] وقد « رسمت بناء على طلبه صورة لمغن جميل من الخصيان » [٦٣] ثم إنه أهدى للشريف الفتى البارون فريدرش راينهولد فون برج « رسالة فى القدرة على الاحساس بالجمال » ، « وقد وجد القراء فيها وفى خطاباته لبرج لغة الحب لا لغة الصداقة ، وهى فى الواقع كذلك » [٦٤] .

وفى ١٧٦٢ و ١٧٦٤ عاد إلى زيارة نابلى . وقد قدم للدارسين الأوربيين فى « خطاب عن آثار هركولانيوم » (١٧٦٢) و « تقرير عن أحدث كشوف هوكولانيوم » (١٧٦٤) أول معلومات منظمة وعلمية عن الكنوز التى تم الحفر عنها فى تلك المدينة وفى بومبى . وكان الآن معترفا به أعظم حجة فى الفن الكلاسيكى القديم . وفى ١٧٦٣ عين بالفاتيكان فى وظيفة « أثرى الحجرة الرسولية » وأخيرا » فى ١٧٦٤ » نشر المجلدات الضخمة التى كان يؤلفها ويحليها بالصور طوال سنوات سبع Geschichte der Kunst des Alterthums «تاريخ الفن القديم» . وقد احتوى الكتاب على أخطاء كثيرة رغم ما أنفق فى إعداده من وقت وجهد ، واثنان من هذه الأخطاء كانا خدعتين قاسيتين . ذلك أن صديقه منجز كان قد درس رسمين هما وليدا خيال منجز وزعم

إنهما نسختان دقيقتان لصور أثرية . وأدرج فنكلمان الصورتين فى كتابه ، واستعمل الرواسم وأهدى الكتاب كله لمنجز . وتضمنت المترجمات التى ظهرت سريعا فى الفرنسية والإيطالية كل الأخطاء تقريبا ، مما أشعر فنكلمان بالخزى . فكتب إلى بعض أصحابه « إننا اليوم أحكم مما كنا بالأمس . ليتنى أستطيع أن اربك كتابى « تاريخ الفن » وقد نقح تنقيحا كاملا ووسع توسيعا كبيراً ! لم أكن قد تعلمت الكتابة بعد حين شرعت فى تأليفه فلم تكن الأفكار مترابطة بدرجة كافية ، وفى مواضع كثيرة افتقار إلى الانتقال من السابق إلى اللاحق — وهو ملاك الفن الأسمى . »[٦٥] ومع ذلك أنجز الكتاب عملا غاية فى العسر — هو إجادة الكتابة فى الفن . وقد رفعه حبه الشديد لموضوعه إلى مستوى الأسلوب الجميل .

ولقد اتجه حرفيا إلى تاريخ الفن لا إلى تاريخ الفنانين ، وهو موضوع أيسر مأخذا بكثير . وبعد أن مسح مسحا متعجلا الفن المصرى والفينيقى واليهودى والفارسى والاتروورى ، أطلق العنان لحماسته الفياضة فى ٤٥٠ صفحة تناولت فن اليونان القديم . وفى فصول ختامية ناقش الفن اليونانى فى عهد الرومان . وكان توكيده دائماً على اليونان لأنه كان مقتنعا بأنهم عثروا على أسمى صور الجمال : فى رهافة الخط لا فى لمعة اللون ، فى تمثيل الأنماط لا الأفراد ، فى طبيعية الأجسام ونبلها ، فى انضباط التعبير العاطفى ، فى هدوء المظهر وصقله ، فى اطمئنان القسمات حتى فى الحركة ، وفوق هذا كله فى النسبة والعلاقة المتسقتين بين الأجزاء المتميزة فى كل موحد توحيداً منطقياً . لقد كان الفن الإغريقى فى رأى فنكلمان هو عصر العقل مجسما .

وقد ربط تفوق الفن الإغريقى بالاحترام العظيم الذى كان الإغريق يكنونه لامتياز الجسد فى الجنسين . « كان الجمال امتيازا يفضى إلى الشهرة ، لأننا نجد تواريخ الإغريق تذكر أولئك الذين تميزوا به »[٦٦] ، على نحو ما تفعل التواريخ الآن ذكر كبار الساسة والشعراء والفلاسفة . وكانت هناك مباريات فى الجمال عند الإغريق كما كانت مباريات للألعاب الرياضية . وعند فنكلمان أن الحرية السياسية ، وتزعم اليونان لعالم البحر المتوسط

قبل حرب البلوبونيز ، هذان أفضيا إلى مركب من العظمة والجمال ، وانتجا « الطراز الفخم » فى فيدياس وبوليكليتس « ومبرون . وفى المرحلة التالية أخلى الطراز الفخم الطريق لطراز « الجميل » أو طراز « الرشاقة » ، فأخلى فيدياس مكانه لبراكستليس ، وبدأ الاضمحلال . وكانت حرية الفن جزءاً من الحرية اليونانية ، وتحرر الفنانون من القواعد الصارمة وجرءوا على خلق أجساد مثالية لاتوجد فى الطبيعة . فلم يقلدوا الطبيعة إلا فى التفاصيل ، وكان العمل الفنى كله مجموعة كمالات لا توجد فى أى شىء طبيعى إلا جزئيا . لقد كان فنكلمان رومانتيكيا يبشر بالشكل الكلاسيكى .

ولقى كتابه القبول فى أوربا بأسرها باعتباره حدثاً فى تاريخ الأدب والفن . وأرسل إليه فردريك الأكبر دعوة (١٧٦٥) للحضور إلى برلين مشرفاً على المكتبة الملكية وإدارة الآثار . ووافق فنكلمان نظير ألفى طالر فى العام ، وعرض فردريك ألفاً فقط ، وأصر فنكلمان على موقفه ، وذكر فردريك بقصة المغنى الخصى الذى طالبه بمبلغ ضخم نظير أغانية ، فشكا فردريك من أنه يطلب أكثر مما يكلفه خير قواده ، فكان رد المغنى « إذن فليكلف قائده بالغناء » .

وفى ١٧٦٥ عاد فنكلمان لزيارة نابلى ، هذه المرة فى صحبة جون ولكز الذى كان قد جعل أوربا تدوى بتحديه للبرلمان ولجورج الثالث . وبعد أن جمع المزيد من المعلومات عاد إلى روما وأكمل كتابه الهام الثانى « آثار قديمة غير منشورة » (١٧٦٧) . وكان أصدقاؤه من الأحبار قد شكوا من كتابته « تاريخه » بالألمانية التى لم تكن إلى ذلك الحين أداة كبرى من أدوات الدرس فأبهجهم الآن باستعماله الإيطالية ، وانتشى المؤلف السعيد ، الجالس بين كردينالين « بقراءة جزء من كتابه فى كاستل جاندولفوا على كلمنت الثالث عشر وجمع غفير من الأعيان . على أنه أتهم بحيازته كتبا مهرطقة وابدائه ملاحظات مهرطقة ، [٦٨] ولم يحصل من البابوية قط على المنصب الذى شعر بأنه جدير به .

وقرر أن يزور ألمانيا (١٧٦٨) ربما مؤملا أن يحصل فيها على مورد يمكنه من رؤية بلاد اليونان . ولكن استغراقه الشديد فى الفن الكلاسيكى وأساليب الحياة الإيطالية أفقده اللذة فى وجوده بأرض الوطن ، فتجاهل مناظرها الطبيعية وساءه معمارها وزخارفها الباروكية . وكان يردد مائة مرة لرفيق رحلته «[٦٩] «لنعد إلى روما» وقد احتفى به القوم فى ميونخ ، وأهدوه جوهرة أثرية رائعة . وفى فيينا أعطته ماريا تريزا مداليات غالية » ودعته الامبراطورة والأمير فون كاونتز للإقامة هناك ، ولكنه مالبث أن قفل إلى إيطاليا فى ١٨ مايو وهو لم يكد يغيب عنها شهرا واحدا .

وفى تريستا تعطل انتظاراً لسفينة يستقلها إلى انكونا . وأثناء أيام الانتظار هذه تعرف إلى مسافر آخر يدعى فرانشسكو اركانجيلى . وكانا يتمشيان معاً ويشغلان حجرتين متجاورتين فى الفندق . وسرعان ما أراه فنكلمان المداليات التى تلقاها فى فيينا . على أنه — على قدر علمنا — لم يره كيسه المملوء بالذهب . وفى صبيحة ٨ يونيو ١٧٦٨ دخل أركانجيلى حجرة فنكلمان » ووجده جالساً إلى منضدة » فألقى أنشوطة حول عنقة ، ونهض فنكلمان واشتبك معه ، فطعنه أركانجيلى خمس مرات وفر هارباً . وضمد طبيب جروحه ولكنه قال أنها مميتة . وتناول فنكلمان الأسرار المقدسة » وأملى وصيته ، وأعرب عن الرغبة فى أن يرى مهاجمه ويصفح عنه » ثم لفظ أنفاسه الأخيرة فى الرابعة بعد الظهر . وقد خلدت تريستا ذكراه بتمثال جميل .

وقبض على أركانجيلى فى ١٤ يونيو . فاعترف بجريمته ، وفى ١٨ يونيو صدر عليه هذا الحكم : » عقابا على جريمة القتل التى اقترفتها على جسد يوهان فنكلمان . . قضت محكمة الجنايات الامبراطورية بأن . . . تحطم حيا على دولاب التعذيب » من رأسك إلى قدميك حتى تفارق روحك بدنك » وكذلك صنع به فى ٢٠ يوليو .

كانت عيوب فنكلمان وثيقة الصلة بالجغرافيا . فلأنه لم يحقق قط أمله فى زيارة اليونان فى ظروف كانت ستتيح له الدرس المستفيض للآثار القديمة ،

كان يفكر فى الفن اليونانى وكأنه الفن اليونانى الرومانى كما وجده فى المتاحف والمجموعات والقصور فى ألمانيا وإيطاليا ، وفى اطلال هركولانيوم وبومبى . وتفضيله النحت على التصوير « وتمثيل الأنماط لا الأفراد » والهدوء لا التعبير عن العاطفة ، وايثاره النسبة والتناسق ، ومحاكاة القدامى دون الابتكار والتجريب . كل هذا فرض على الدوافع الخلاقة فى الفن عدة قيود أسفرت عن الانتقاص الرومانتيكى على ما فى الأشكال الكلاسيكية من الصرامة الباردة . وقد أعماه التركيز على اليونان والرومان عن حقوق الطرز الأخرى وإمكاناتها » وكان يرى — كما رأى لويس الرابع عشر — إن رسوم الحياة اليومية التى انتجتها الأراضى الواطئة ليست إلا من قبيل « الجروتسك » .

ومع ذلك كان انجازه رائعا . فقد أحدث انتفاضة فى كل دنيا الفن والأدب والتاريخ الأوربى بتمجيده لليونان . ولقد جاوز حدود النزعة الشبيهة بالكلاسيكية التى نزعت إليها إيطاليا النهضة وفرنسا لويس الرابع عشر إلى الفن الكلاسيكى ذاته . ونبه العقل الحديث إلى ما فى النحت اليونانى من كمال ناصع مطمئن . وجعل من فوضى مئات التحف الرخامية والبرونزية والصور والجوهرات والعملات آثار علمية . وكان تأثيره على أفضل العقول فى الجيل التالى هائلا . فقد ألهم لسينج ، ولو بالاعتراض على أرائه » وشارك فى انضاج هيردر وجوته ، ولعله لولا الالهام الذى انبعث من فنكلمان لما توج بيرون شعره بالموت فى بلاد اليونان . وقد أعان هذا الهلنسى الغيور على تشكيل مبادىء منجز ونورفاللسن الكلاسيكية الحديثة ، وتصوير جاك — لوى دافيد الكلاسيكى الحديث . يقول هيجل « يجب أن يعد فنكلمان واحدا من أولئك الذين عرفوا فى ميدان الفن كيف يخلقون أداة جديدة للروح الإنسانية »[٧٠].

٦ — الفنانون

لم تكن إيطاليا فى حاجة إلى حث يأتيها من فنكلمان ، لأنها كانت تكرم أربابها ، وكان فنها المتراكم يقوم فى كل جيل بمهمة المدرسة التى تدرب مئات الفنانين من أقطار كثيرة . من ذلك أن كارلو ماركيونى صمم فيللا

البانى الفخمة (١٧٥٨) التى جمع فيها الكردينال البانى بارشاد فنكلمان مجموعة عالمية الشهرة من المنحوتات القديمة — لا تزال غنية رغم طول العدوان عليها . (فقد سرق نابليون ٢٩٤ من تحفها لفرنسا ، وربما كان هذا هو العلة فى قول إيطالى مأثورة فى تلك الأيام : ليس كل الفرنسيين لصوصا ، بل عدد عديد منهم) .

وانجبت البندقية أكثر كبار المصورين الإيطاليين فى تلك السنين ، وقد ورث ثلاثة منهم أسماء مشهورة . أولهم أليساندرو لونجى بن بييترو ، الذى أبرز عبقرية قومه بصور شخصية رقيقة منها صورتان لجولدونى . [٧١] ولقد رأينا من قبل دومنيكو تيبولو يصحب أباه إلى أوجزبورج ومدريد ، ويعرض فى تواضع تخصصه على عامة الشعب . فى مضيفة فيللا فالمارنا استهل إنتاجه المستقل بصور المشاهد اليومية فى حياة الريف ، فصورة « الفلاحين يستجمون » أشبه بالقصيدة الرعوية ، تصور أدواتهم وقد سقطت عنهم ، وتصور استرخاءهم فى دعة واطمئنان . وبعد أن مات أبوه فى أسبانيا عاد دومنيكو إلى البندقية وأطلق العنان لأسلوب الواقعية الساخرة الذى اتخذه لنفسه . [٧٢]

وثالث هؤلاء هو فرانشسكو جواردى ، صهر جامباتستا تيبولو ، الذى تعلم التصوير من أبيه ، وأخيه ، وكانا ليتو . وقد فاته التقدير فى جيله ، ولكن لوحته « فيلوتى » لفتت أنظار النقاد ببراعتها فى التقاط ونقل لطائف الضوء وتقلبات الجو ، وربما أوحى ببعض الإلماعات للتأثريين الفرنسيين . ولم ينتظر تحذير كونستابل الذى قال « تذكر أن الضوء والظل لا يقفان ساكنين أبدا » [٧٣] . ولعل أحب الساعات إليه كانت ساعة الشفق ، حين تمحى الخطوط وتختلط الألوان وتغيم الأطياف ، كما فى صورته « الجوندول على البحيرة » [٧٤] وكأنما صممت أجواء البندقية ومياهها لتهيء هذه المناظر المضببة المنصهرة . وقد ذكروا أن جواردى كان أحيانا يحمل مرسمه فى زورق ويسير به على القنوات الصغرى ليلتقط مناظر لم تبتذل بطول إلف الناس لها . وكان يرسم الناس بغير عناية ، وكأنه شعر بأنهم ليسوا سوى

تفاصيل سريعة الزوال إلى جوار المعمار المكين والبحر والسماء الدائمين رغم ما يطرأ عليهما من تغير . ولكنه كان قادرا على تصوير الناس أيضاً ، فتراهم يزحمون البياتسينا فى لوحة « المهرجان[٧٥] » ، أو يسيرون فى ثياب فاخرة فى « صالة فيلارمونيتشى[٧٦] » الكبرى . وكان أخوه جوفانى يعد أثناء حياتهما مصوراً أفضل منه ، وكاناليتو أعظم من كليهما ، أما اليوم فان جواردى يعد بالبقاء بعد ان تخبو شهرة الاثنين .

وعاد انطون روفائيل منجز من أسبانيا عام ١٧٦٨ ، وسرعان ما أصبح قطب التصوير فى روما . ولم يشك أحد فى تفوقه على معاصريه من الفنانين . كانت الرؤوس المتوجة تسعى إلى ريشته ، وتسعى إليها دون جدوى أحيانا . وكان فنكلمان يلقبه برفائيل عصره ، وأشاد باوحته الرهيبة « جبل باوناس » « رائعة » خليقة بأن ينحنى أمامها حتى رفائيل[٧٧] » ، وضمن كتابه « تاريخ الفن القديم » تقديرا عظيما لصديقه[٧٨] .

وأروع الصور التى رسمها منجز فى هذه الفترة صورته الذاتية (١٧٧٣ ؟)[٧٩] ويبدو فيها وهو ما يزال قوياً وسيما أسود الشعر معتزاً بنفسه فى الخامسة والأربعين . وبعد أن أقام فترة ثانية فى أسبانيا عاد (١٧٧٧) ليقضى ما بقى له من أجل فى ايطاليا . وواصل نجاحه ، ولكن موت زوجته (١٧٧٨) حطم روحا كانت من قبل شديدة المرح . واجتمعت عليه شتى الأسقام فأضعفته ، وأجهز عليه التجاؤه إلى المشعوذين والعلاجات السحرية . ومات عام ١٧٧٩ وهو فى الحادية والخمسين . وأقام تلاميذه لذكراه نصبا فى البانتيون ، إلى جوار تمثال رفائيل . واليوم لا تجد من يجل ذكراه من النقاد مهما صغر شأنه .

٧ — الموسيقى

كانت موسيقى الكنيسة قد اضمحلت مع تحول الحياة شيئاً فشيئاً بعيداً عن الدين ، ووصلتها العدوى من الأشكال الأوبرالية . وكانت موسيقى الآلات تزكو ، من جهة بفضل التحسين الطارىء على البيانو ، ولكن أهم

من ذلك لشعبية الكمان (الفيولينه) المتزايدة . وغزا كبار العازفين من أمثال يوفيانى وفيوتى وناردينى أوربا بقوس الكمان . وطاف موتزيو كلمنتى ، الذى غادر ايطاليا ليعيش فى انجلتره عشرين سنة ، بالقارة عازفا على الأرغن والبيانو ، ونافس موتسارت فى فيينا ؛ ولعله أفاد من قول موتسارت تعليقاً على عزفه أن هذا العزف آلى أكثر مما يجب . وكان أنجح معلم للبيانو فى القرن الثامن عشر ، وقد أرسى أسلوب القرن التاسع عشر فى تكنيك البيانو بسلسلة تمارينه ودراساته الشهيره « خطوات إلى بارناس » موطن ربات الفنون Muses اللاتى اشتقت منهن الموسيقى اسمها . وورث جاتيانو بونيانى تفنن أستاذه تارتينى فى عزف الكمان وأسلمه إلى تلميذه جوفانى باتستا فيوتى ، الذى عبر أوربا من أولها لآخرها ظافرا . ومازال فى استطاعة أذاننا المؤثرة للقديم أن تستمتع بكونشرتو كمان فيوتى فى مقام الصغير .

أما لويجى بوكيرينى فقد رحل كما رحل الكثير من الايطاليين عن بلد اكتظ بالموسيقين ليلتمس جمهورا من المستمعين فى الخارج . وقد سحر أسبانيا من ١٧٦٨ حتى مماته فى ١٨٠٥ بآلة التشيللو كما سحرها من قبل فارنيللى بصوته وسكارلاتى ببيانه القيثارى (الهاربسيكورد) . وعلى مدى جيل كامل كانت مؤلفاته الآلية تنافس مؤلفات موتسارت فى ظفرها بالاشادة والاطراء من شتى الدول . وكان فردريك وليم الثانى ملك بروسيا ، وهو نفسه عازف تشيللو ، يفضل رباعيات بوكيرينى على رباعيات موتسارت[٨٠] . وقد ألف خلال سنيه الاثنتين والستين خمسا وتسعين رباعيه وترية ، وأربعا وخمسين ثلاثية ، وأثنى عشرة خماسية للبيانو ، وعشرين سمفونية ، وخمسة كونشرتوات التشيللو ، وأوراتوريوين ، وبعض الموسيقى الدينية . ويعرف نصف العالم حركته « المنويت » وهى حركة من احدى خماسياته . ولكن يجب أن يعرف العالم كله الكونشرتو بمقام ■ الشديد الانخفاض الذى ألفه للفيولونشيللو والأوركسترا .

واستسلمت أوربا دون مقاومة (فيما عدا باريس مرة أخرى) للغناء الايطالى الجميل « الملعلع » (البيل كانتو) . فن أكثر من عشر من مدن

الحذاء السحرى تدفقت مغنيات الأوبرا من أمثال كاترينا جابر بيللى والمغنين الخصيان أمثال جسبارو باكييروتى عبر الألب إلى فينا وميونخ وليبزج ودرسدن وبرلين وسانت بطرسبورج وهمبورج وبروكسل ولندن وباريس ومدريد . وكان باكييروتى آخر الخصيان المشهورين فى عالم الغناء ، وقد نافس فى فارنيللى جيلا بأكمله . واسترق أسماع لندن أربعة أعوام ، ومازال اطراء الانجليز له يتردد فى « يومية » [٨١] فانى بيرنى « وفى كتاب أبيها « تاريخ الموسيقى العام[٨٢] .

وتبع المؤلفون الموسيقيون وقادة الأوركسترا الايطاليون المغنين . فألف بييترو جوليلمى مائتى أوبر ، وتنقل بين نابلى ودرسدن وبرنزويك ولندن ليقودها . وقد انحدر اليناذكر موسيقى آخر من نابلى هو نيكولا بيتشينى ، ولكنه ذكر شوهته منافسة لم يرغب فيها مع جلوك فى باريس ، ولكن جاليانى وصفه بأنه « رجل شريف جداً [٨٣] » . وقد ظلت أوبراته الهازلة عقدا كاملا البدعة السائدة فى نابلى وروما ؛ لا بل إن أوبرا برجوليزى « الخادمة التى انقلبت ربة البيت » لم تحظ بمثل الشعبية التى حظيت بها أوبرا بيتشينى (١٧٦٠) . وكان جوميللى ، وبرجوليزى ، وليو وجالوبى قد لحنوا « أولمبيادى » التى ألفها متاستازيو ، فبهج بتشينى ـ جهم وبزهم كلهم باجماع الرأى . وفى ١٧٧٦ قبل دعوة إلى باريس ، أما الحرب الضارية التى تلت ذهابه إلى هناك فلابد أن تنتظر دورها الجغرافى ، ولكن بتشينى سلك من أولها لآخرها مسلكا غاية فى المجاملة ، مبقيا على صداقته مع منافسيه جلوك وساكينى رغم أن المتشيعين لها هددوا حياته .[٨٣] فلما أغرقت أحداث الثورة الفرنسية هذه الأوبرا الهازلة عاد بتشينى إلى نابلى . وهناك حددت اقامته فى منزله أربع سنوات لتعاطفه مع فرنسا ، وكانت أوبراته تقاطع بصيحات السخرية حتى توقف تمثيلها ، وعاش فى فقر يشين وطنه . وبعد أن فتح نابليون ايطاليا دعى إلى باريس مرة أخرى ١٧٩٨ ، ومنحه القنصل الأول وظيفة شرفية متواضعة ، ولكن أصابته بالشلل حطمته جسداً وروحاً ، ومات فى باريس عام ١٨٠٠ .

أما أنطونيو ساكيني فقد ولد لأب كان صياد سمك في بوتسولى ، وكان يدرب ليخلف أباه حين سمعه فرانشسكو دورانتي يغني ، فانطلق به إلى نابلى تلميذا ومحسوباً له. وقد احتفى الجمهور بأوبراه «سميراميدى» في التياترو أرجنتينو بروما احتفاء أبقاه مع ذلك المسرح سبع سنين مؤلفاً للأوبرات. وبعد أن أقام ردحاً في البندقية خرج ليغزو ميونخ وشتوتجارت ... ولندن ١٧٧٢ . وصفق الجمهور لأوبراته هناك ، ولكن الدسائس المعادية أضرت بشعبيته ، وأتلفت عاداته الفاجرة صحته . ولما انتقل إلى باريس أخرج رائعته Oedipe a Colone (١٧٨٦) التي احتلت خشبة الأوبرا طوال ٥٨٣ عرضاً في السنوات السبعة والخمسين التالية ، وفي وسعنا أن نسمعها إلى اليوم على الهواء من حين لحين . وقد اقتبس عدة اصلاحات مما أدخله جلوك ، وأقلع عن أسلوب الايطاليين في جعل الأوبرا تلفيقاً من الألحان ، وفي أوديبي تسيطر القصة على الألحان ، وتضفي الكورس التي استلهمها من أوراتوريوات هندل الجلال والعظمة على الموسيقى والموضوع كليهما .

واتصل الغزو الغنائي بأنطونيو ساليري ، عــدو موتسارت وصديق بيتهوفن الشاب . ولد قرب فيرونا ، وأرسل وهو في السادسة عشرة إلى فيينا (١٧٦٦) ، وبعد ثماني سنوات عينه يوزف الثاني مؤلفاً موسيقيا للبلاط ، وفي ١٧٨٨ رئيسا لفرقة المنشدين . في هذه الوظيفة فضل مؤلفين آخرين على موتسارت ، ولكن القصة التي زعمت أن هذه المعارضة سببت إنهيار موتسارت ليست إلا خرافة[٨٥] . فبعد موت موتسارت صادق ساليري الأبن وأعان على تطوره الموسيقي . وقد قدم بيتهوفن عدة مؤلفات لساليري ، وقبل إقتراحاته بتواضع لم يعهد فيه .

أما « ألمع نجم في سماء الأوبرا الإيطالية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر[٨٦] » فهو جوفاني بانيزيللو . كان أبنا لجراح بيطري في تارانتو ، وقد أعجب معلموه اليسوعيون بصوته أعجابا حملهم على إقناع أبيه بأن يوفده إلى معهد دورانتي الموسيقى في نابلى (١٧٥٤) . فلما إتجه إلى تلحين الاوبرات وجد جماهير نابلى شديدي الحب لبتشيني ، لذلك قبل دعــوة وجهتها إليه كاترين الكبرى . وفي سانت بطرسبرج ألف(١٧٨٢) Il barbiere di Siviglia

(حلاق أشبيلية) ، وقد كتب لها من النجاح الخالد فى أوربا كلها ما جعل الجمهور يلعن أوبرا عرضها فى نفس الموضوع بروما (٥ فبراير ١٨١٦) الموسيقى روسينى لأنها تطفل غير كريم على أرض حرام لبايزيللو الذى كان لا يزال على قيد الحياه . وتوقف بايزيللو بفيينا فى طريق عودته من روسيا عام ١٧٨٤ فترة أتاحت له تأليف إثنتى عشرة « سمفونية » ليوزف الثانى » واخراج أوبرا Il ne Teodoro تيودور الملك » سرعان ما ظفرت بقبول عم كل أوربا . ثم عاد إلى نابلى رئيسا لفرقة المرتلين لفرديناند الرابع . وأقنع نابليون فرديناند بأن «يعيره» بايزيللو ، فلما وصل المؤلف إلى باريس (١٨٠٢) أستقبل أستقبالا بلغ من الفخامة والبهاء ما أثار عليه عداء الكثيرين . وفى ١٨٠٤ قفل إلى نابلى تحت حماية جوزف بونابرت وموار .

ويجب أن نلاحظ فى مرورنا مبلغ الصبر والأناة التى كان هـؤلاء الايطاليون يعدون بهما مستقبلهم المهنى . فبايزيللو درس تسع سنين فى معهد دورانتى الموسيقى « دى سان أو نوفريو » . وتشيماروزا درس أحدى عشرة سنة فى معهد سانتا ماريا دى لوريتو ، ثم فى نابلى . وبعد أن تتلمذ دومنيكو تشيماروزا طويلا على يد ساكينى وبتشينى وغيرهما ، أخرج أول أوبرا له ، rtravaganze del conte «إسراف الكونت» وسرعان ما استمع الناس لأوبراتة فى فيينا ودرسدن وباريس ولندن . وفى ١٧٨٧ ذهب بدوره إلى سانت بطرسبورج حيث أبهج قلب القيصرة المزواج بأوبرا كليوباتره . وحين دعاه ليوبولد الثانى ليخلف ساليرى رئيسا للمرتلين بفينا ، أخرج هناك أشهر أوبراته وهى « الزواج السرى » (١٧٩٢) . وقد بلغ سرور الأمبراطور بها حدا جعله يأمر بعد أنتهائها بتقديم العشاء لجميع الحاضرين ، ثم أمر باعادة الاوبرا كلها[٨٧] . وفى ١٧٩٣ دعى ثانية إلى نابلى « رئيسا للمرتلين » لفرديناند الرابع . فلما خلع جيش من جيوش الثورة الفرنسية الملك (١٧٩٩) رحب تشيماروزا بالحدث ترحيبا حماسياً ، فلما رد فرديناند إلى عرشة حكم على تشيماروزا بالاعدام ، ثم خفف الحكم إلى النفى . ويمم المؤلف شطر سانت بطرسبرج ، ولكنه مات فى الطريق بالندقية (١٨٠١) . واحتوت مخلفاته التى تركها بالأضافة إلى العديد من الكنتاتات ، والقداسات ،

والاوراتوريوات ، نحو ست وستين أوبرا كانت تلقى استحسانا أكثر بكثير ما ظفرت به أوبرات موتسارت ، وهى حتى فى وقتنا هذا يجب أن تعد فى مرتبة تالية لاوبرات موتسارت فقط فى أوبرا القرن الثامن عشر الهازلة .

وإذا كانت الميلوديا هى لب الموسيقى ، فالموسيقى الإيطالية إذن إسمى الموسيقات . كان الألمان يفضلون التناغم متعدد الأصوات (الهارمونيا البوليفونيه) على الخط الميلودى البسيط . وفى هذه الناحية ظفرت إيطاليا بنصر آخر على ألمانيا حين أخضع الالمانى موتسارت البوليفونيه للميلودية . ولكن الايطاليين غلبوا الميلوديا تغليبا جعل أوبراتهم أقرب إلى أن تكون سلسلة من الأغانى الرخيمة أكثر منها درامات موسيقية كالتى قصد إليها أوائل مؤلفى الاوبرا الأيطاليين (حوالى ١٦٠٠) فى محاولتهم منافسة فن الأغريق الدرامى . وهكذا نرى دلالة الحركة فى الأوبرا الايطاليه ، بل دلالة الكلمات فى حالات كثيره ، تضيع وسط بهاء الأغنية وروعتها وكان هذا جميلا ، ولكن إذا كان الفن كما اعتدنا أن نراه هو استبدال النظام بالفوضى للكشف عن المغزى أو الدلالة ، فإن الاوبرا فى الأيدى الايطالية قصرت دون بلوغ أسمى إمكاناتها ، وقد إعترف بهذا بعض الايطاليين مثل جوميللى وترايتا ، وجهدوا لصب الموسيقى والتمثيلية فى كل موحد ، ولكن ذلك الأنجاز كان عليه أن ينتظر أوبرات جلوك ليحقق أنصع صوره . وهكذا توقف فى بندول الحياة الغزو الأيطالى لأوربا بالميلوديا ، حين أخرج جلوك عام ١٧٧٤ فى باريس « افجينى فى أوليدى » التى أخضعت الموسيقى للتمثيلية . ولكن الصراع بين الميلوديا والدراما أتصل ، وكسب فاجنر معركة للدراما ، وأستولى فردى على غنائم جديده للميلوديا . وليت النصر الكامل لا يتحقق لأى من الفريقين .

٨ — الفيــيرى

لم ينجب هذا العصر رجالا على شاكلة دانتى ، ولكن كان هناك باريني فى الشعر وفيلانجيبرى فى النثر ، وألفيرى فى الدراما والنثر والشعر .

ولقد شق جوزيبى باريني طريقه صعداً من الفقر ، وكسب قوته بنسخ

المخطوطات ، ودخل دنيا النشر (١٧٥٢) بديوان صغير من « الشعر المنثور » واحترف القسوسية وسيلة للعيش ، وحتى بعد هذا اضطر لكسب قوته بأعطاء الدروس الخصوصية لأن إيطاليا أكتظت بالقساوسه . وأرهف الفقر قلمه فاتجه إلى الهجاء . تأمل فى حياة الكثير من نبلاء الايطاليين العاطلة المترفة فخطر له أن يصف يوما نموذجيا فى حياة شريف ذى « دم أزرق » . وفى ١٧٦٣ أصدر أول جزء سماه (الصباح) ، وبعد عامين أضاف (الظهيرة) ، ثم أكمل الجزء الثالث الذى لم يعش لينشره (المساء) و (الليل) ، وهى فى مجموعها تؤلف هجائية ضخمة سماها « اليوم » Il giorno وأبدى الكونت فونى فيرميان نبلا حقيقيا بتعيينه القس الشاعر محررا لجازيته ميلان ، واستاذا للآداب البحته فى « السكولا بالاتينا » ورحب باريني بالثورة الفرنسية ، وكافأه نابليون بعضوية مجلس مدينة ميلان . والقصائد الغنائية التى نظمها بين ١٧٥٧ و ١٧٩٥ تعد من عيون الآدب الايطالى الصغيرة . ولايصلنا بالترجمة إلا صوت خافت منه ، كما نسمعه فى هذه السونيته التى توحى بأن كاتبها عاشق لا قسيس :

إليه أيها الكرى الرحيم ، يامن تشق بجناحك الرقيق
طريقك الهادىء متعجلا فى الليل البهيم
وتتراءى بالأحلام الكثيرة السريعة
للنفس المضناة على فراشها الساكن :
اذهب إلى حيث تضع « فيليس » رأسها اللطيف
وخدها النضر على الوسادة الهادئة ،
وبينما يرقد جسدها روع روحها
برؤيا جسم كئيب خلقته بسحرك ،
وليكن شديد الشبه بى ،
شحوب الشحوب وجهه ،
حتى تستيقظ وقد هزها الحنان على .

إنك لو تفضلت على بهذا الصنيع
لجدلت لك إكليلا مزدوجا من الزهر
ووضعته فى سكون على مذبحك [٨٨]

ولنضف إلى هذه الباقة من الزهر زهرةمن التنوير الإيطالى هى فقرةمن كتاب جايتانو فيلانجيرى « على التشريع » La scienza della Legislazione (١٧٨٠ — ٨٥) ، استوحاها من بكاريا وفولتير .

« ماينبغى أن يكون الفيلسوف مخترعاً للمذاهب بل رسولا للحقيقة » ومادامت الشرور التى ابتليت بها البشرية قائمة بغير شفاء ، ومادام مسموحاً للخطأ والتحيز بأن يخلدا هذه الشرور ، ومادامت الحقيقة مقصورة على القلة وعلى المميزين ، محجوبة عن معظم النوع الإنسانى وعن الملوك ، فسيظل واجب الفيلسوف أن يبشر بالحقيقة ،وأن يحافظ عليها ويشجعها ، وينيرها. وحتى إذا كانت الأضواء التى ينشرها لا تفيد فى جيله وقومه ، فإنها لاشك ستفيد فى بلد وجيل آخرين . فالفيلسوف — ذلك المواطن فى كل مكان وزمان — أمامه الدنيا كلها وطناً ، والأرض مدرسة ، والأجيال القادمة تلاميذ . » [٨٩]

وقد لخص العهد كله فى ألفييرى : فالانقضاض على الخرافة ، وتمجيد الأبطال الوثنيين ، والتنديد بالاستبداد ، والاشادة بالثورة الفرنسية،والنفور من شططها والصيحة المطالبة بتحرير إيطاليا — كل هذا مضافاً إلى قصةغرام حرام ووفاء نبيل . وقد سجل هذه الحياة المشبوهة فى « حياة فيتوريو ألفييرى . . . مكتوبة بقلمه » موصولة إلى ماقبل موته بخمسة أشهر . وهى من أعظم التراجم الذاتية ، لا تقل كشفاً عن نفس صاحبها عن « اعترافات » روسو . ويستهلها بعبارة يلقى القارىء أمامها السلاح : « إن حديث المرء عن نفسه ، وأكثر منه الكتابة عن نفسه — إنما هو دون أدنى شك وليدالمحبة الفائقة التى يحبها المرء لذاته ، وبعدها لا يتوارى الكاتب خلف قناع من التواضع ولا تند عنه أمارة على عدم الأمانة :

« ولدت فى مدينة أستى ببيدمونت فى ١٧ يناير ١٧٤٩ لأبوين شريفين ثريين محترمين . وأنا أذكر هذه الظروف على أنها ظروف سعيدة للأسباب التالية . فقد خدمنى شرف المولد خدمة كبرى » . . لأنه مكننى من أن أذم النبالة لذاتها دون أن أتهم بالدوافع الدنيئة أو بدافع الحسد ، وأن أميط اللثام عن سخافاتها ، ورذائلها ، وجرائمها . . . أما الثراء فعصمنى من قبول الرشوة ، وأطلق حريتى فى خدمة الحق دون سواه » [٩٠] .

ومات أبوه وهو طفل ، وتزوجت أمه ثانية . وانطوى الغلام على نفسه ، وأطال التفكير ، وفكر فى الانتحار فى الثامنة ولكنه لم يهتد إلى أى طريقة مريحة . وتكفل به خال له وأرسله وهو فى التاسعة ليتلقى العلم فى أكاديمية تورين . وهناك تولى خادم خاص خدمته والسيطرة عليه بالعنف . وحاول معلموه أن يحطموا إرادته كأول مرحلة فى تنشئته رجلا ، ولكن طغيانهم ألهب كبرياءه وشوقه إلى الحرية « إن درس الفلسفة . . . كان من النوع الذى ينوم الطالب وهو واقف منتصباً » [٩١] . على أن موت خاله تركه المتصرف فى ثروة عريضة وهو بعد فى الرابعة عشرة .

وبعد أن حصل على موافقة ملك سردينيا التى كانت شرطا للسفر خارج البلاد بدأ فى ١٧٦٦ جولة فى أوربا استغرقت ثلاثة أعوام . ووقع فى غرام نساء شتى ، وعشق الأدب الفرنسى والدستور الإنجليزى . ودمرت قراءته لمونتسكيو وفولتير ورمبر لاهوته الموروث ، وبدأت كراهيته للكنيسة الرومانية — مع أنه بالأمس فقط لثم قدم كلمنت الثالث عشر « شيخ لطيف ذو جلال ووقور » [٩٢] . وفى لاهاى شغف حباً بامرأة متزوجة ، فابتسمت ثم انصرفت عنه ، وعاد يفكر فى الانتحار ، وكان العهد عهد فرتر ، والانتحار فكرة شائعة فى الجو . ثم عاد ليكتشف أن الفكرة أشد جاذبية تطلعاً منها تنفيذا ، فرجع إلى بيد مونت ولكنه شقى فى جو ملؤه الخضوع السياسى والدينى شقاء حمله على استئناف أسفاره (١٧٦٩) .

وجاب الآن أرجاء ألمانيا والدنمرك والسويد — حيث أحب الطبيعة كما يقول وأحب الناس وحتى الشتاء . ومنها إلى روسيا ، فاحتقرها لأنه لم ير فى

كاترين الكبرى إلا مجرمة متوجة » ورفض أن يقدم لها . ولم يسخ بروسية فردريك خيرا من إساءته روسيا ، فهرول إلى هولنده التي انتهجت نهج الجمهورية في بسالة » وإلى إنجلتره التي كانت تحاول أن تعلم جورج الثالث أن يخلى بينه وبين شئون الحكم . وقد أغوى زوجة رجل إنجليزى « وبارز » وجرح . ثم أصيب بعدوى الزهرى في أسبانيا [٩٣] ، وعاد إلى تورين للعلاج (١٧٧٢) .

وفي ١٧٧٤ تماثل للشفاء بالقدر الذى أتاح له الدخول في ثانى مغامراته الغرامية الكبرى ، مع امرأة تكبره بتسع سنين . وتشاجرا ثم افترقا . وأزاحها من أحلامه بكتابة تمثيلية سماها « كليوبطرة » « وأى شيء أكثر إثارة من عضوية في حكومة ثلاثية ، وملكة ، ومعركة » وصل ؟ وأخرجت التمثيلية بتورين في ١٦ يونيو ١٧٧٥ « وسط تصفيق الاستحسان ليلتين متعاقبتين » » ثم سحبها لإجراء تعديلات فيها . وأخذ الآن يتحرق شوقاً إلى الشهرة غاية في النبل والسمو . وأعاد الآن قراءة بلوتارخ وعيون الأدب اللاتيني ، ودرس اللاتينية من جديد ليغوص في مآسي سنيكا ، وفي هذه القراءات وجد موضوعات وأشكالا لدراماته . وعزم على استعادة الأبطال والفضائل القديمة كما استعاد فنكلمان الفن القديم .

وفي غضون هذا (١٧٧٧) كان يكتب رسالته « في الطغاة » . ولكنها احتوت من التهم الحادة للدولة والكنيسة ما جعله ينكص عن نشرها ، فلم تر النور إلا في ١٧٨٧ . فقد كانت ملتهبة بغيرة أشبه بالغيرة الدينية :

« ليس الفقر الطاحن ... ولا عطل الأرقاء التي تتردى فيه إيطاليا ، كلا ، فما هذه هي الدوافع التي وجهت عقلى إلى الشرف الرفيع الحق ؛ شرف تجريد قلمي للهجوم على الامبراطوريات الزائفة . ذلك أن الحاضر بالهاجهولا ، ظل يسوط ظهرى منذ نعومة أظفارى ... ان روحى الحرة لن تجد سلاما أو راحة حتى أكتب صفحات قاسية لهدم الطغاة » [٩٤] .

وهذا تعريفه للطغاه :

« كل الذين توسلوا بالقوة أو الحيلة — أو حتى بإرادة الشعب أو النبلاء — إلى القبض التام على أطراف الحكم ويعتقدون أنهم فوق القانون ، أو هم كذلك . . . والطغيان هو الصفة التى يجب أن تنعت بها . . . أى حكومة يستطيع فيها الشخص المنوط بتنفيذ القوانين أن يضعها أو يقضى عليها أو ينتهكها أو يفسرها أو يعرقل سيرها أو يوقفها وهو فى مأمن من العقـــاب » (٩٥) .

وعند الفيرى أن الحكومات الأوربية كافة مستبدة باستثناء الجمهورية الهولندية والملكيتين الدستوريتين فى إنجلتره والسويد . وقد أشاد بالجمهورية الرومانية متأثرا فى ذلك بمكيافيللى ، وراوده الأمل فى أن الثورات ستقيم جمهوريات فى أوربا عما قليل . ورأيه أن خير ما يستطيع أى وزير لطاغية مستبد أن يفعله هو أن يشجعه على ألوان من الطغيان تبلغ من الشطط ما يسوق الشعب إلى الثورة (٩٦) . والثورة فى سنيها الأولى معذورة إذ لجأت إلى العنف لتمنع عودة الاستبداد إلى الحياة :

« وبما أن الآراء السياسية كالآراء الدينية لا يمكن تغييرها تغييراً كاملا أبدا دون استعمال الكثير من العنف ، لذلك كانت كل حكومة جديدة مضطرة لسوء الحظ إلى أن تعنف إلى حد القسوة ، بل تظلم أحيانا حتى تقنع أو ربما تكره أولئك الذين لا يرغبون فى التجديد ولا يفهمونه ولا يحبونه ولا يرتضونه » (٩٧) .

ومع أن الفيرى نفسه كان نبيلا ، ولقبه الكونت دى كورتيميليا ، فانه أدان الارستقراطية الوراثية لأنها شكل من أشكال الطغيان أو أداة من أدواته . وأدان بالمثل جميع الأديان المنظمة ذات السلطان . وقد سلم بأن « المسيحية أسهمت بقدر غير قليل فى تلطيف العادات الشائعة بين جميع الناس » ، ولكنه أشار إلى « الكثير من أعمال الوحشية الغبية الجاهلة » التى

ارتكبها الحكام المسيحيون » من قسطنطين إلى شارل الخامس »[٩٨] .
ويمكن القول عموما :

« إن الدين المسيحي يكاد لا يتفق والحرية . . . فالشعب » ومحكمة التفتيش والمطهر ، والاعتراف ، والزواج الذى لا انفصام له ، ورهبانية الكهنة — هــذه هى الحلقات الست فى السلسلة المقدسة التى تقيد السلطة الزمنية (الدولة) بقيود أوثق حتى لتزداد على الأيام ثقلا وامتناعا على التحطيم »[٩٩] .

وبلغ من مقت الفيبرى للاستبداد أنه نصح باجتناب الخلف أو الزواج اطلاقا فى الدولة المستبدة . وبدلا من أن ينجب أطفالا ، أخرج فى خصوبة إيطاليه مماثلة أربع عشرة مأساة بين ١٧٧٥ ، و ١٧٨٣ ، كلها بالشعر المنثور ، وكلها كلاسيكية بناء وشكلا ، وكلها يشجب الطغيان بسخط خطابى ، ويمجد الحرية باعتبارها أشرف من الحياة . فترى ميوله فى « البازى » مع محاولة المتآمرين الأطاحة بلورنتسو وجوليانودى مديتشى ، وفى « بروتس الأول » و « بروتس الثانى » لم يعف من اللوم تاركوين وقيصر » وفى « فليبو كان بكل قلبه مع كارلوس ضد ملك أسبانيا ، ولكنه فى « ماريا ستواردا (مارى ستيوارت) وجد فى رؤساء العشائر الاسكتلندية من الطغيان أكثر مما فى الملكة الكاثوليكية . فلما انتقد على اخضاعه التاريخ لفكرته دافع عن نفسه بقوله :

« سيسمع الناس أكثر من لسان خبيث يقول . . . أننى لا أصور شيئاً إلا الطغاة فى صفحات مفرطة الطول لا لطف فيها ، وأن قلمى الدموى المنقوع فى السم يضرب دائماً على نغمة واحدة رتيبة ، وأن ربة شعرى الفظة لا تنهض نساناً من العبودية الشريره ، بل تثير ضحك الكثيرين . ولكن هذه الشكاوى لن تحول روحى عن هدف عمثل هذا السمو ، ولا تعوق فنى مهما كان ضعيفاً غير كفء لتلبية حاجة بهذه الشدة . لا ولن يكون نصيب كلامى أن تبدده الرياح إذا ولد رجال صادقون بعدنا يؤمنون بأن الحرية لاغنى عنها للحياة[١٠٠] » .

وقد أولع بكونتيسة ألبانى ولعا لم يفقه إلا ولعه بالحرية وكانت ابنة جوستاف أدولف — أمير شتولبرج — جديرن فتزجت (١٧٧٣) الأمير تشارلز ادوارد ستيوارت « المطالب الشاب بعرش بريطانيا » الذى سمى الآن نفسه كونت ألبانى . وقد انغمس هذا الذى كان فتى أنيقا جداً يوم كان « الأمير الحلو تشارلى » فى الشراب ومصاحبة الخليلات لينسى هزائمه . ولم يعقب هذا الزواج الذى رتبه البلاط الفرنسى ، وكان زواجا شقياً . ويبدو أن الكونتيسة ذاتها لم تكن مبرأة من العيوب . وقد التقى بها الفيرى فى ١٧٧٧ ، ورثى لها » ثم أحبها . ولكى يكون قريباً منها ، حراً فى مساعدتها وتتبع تقلبات حظها دون أن يتكبد مشقة الحصول على إذن ملكى لكل خطوة عبر الحدود ، تخلى عن مواطنه بيدمونت ، ونزل عن معظم ثروته وضيعته لأخته ، ثم انتقل إلى فلورنسه ١٧٧٨ . وكان الآن فى التاسعة والعشرين من عمره .

واستجابت الكونتيسه لغرامه برقه وحذر مراعيه كل أصول اللياقة العامة . وفى ١٧٨٠ حين أمست حياتها فى خطر من جراء عنف زوجها السكير » اعتكفت فى دير ، ثم فى بيت زوج أختها فى روما . كتب الفيرى يقول « بقيت فى فلورنسه كأنى يتيم مهجور ، وعندها اقتنعت كل الاقتناع انى بدونها لم أكن أوجد ولو نصف وجود » لأننى الفيتنى عاجزا كل العجز تقريباً عن القيام بأى عمل جيد[101] » . وما لبث أن ذهب إلى روما ، حيث سمح له برؤية محبوبته بين الحين والحين » ولكن زوج أختها قاوم جهوده فى الحصول على قرار بابطال زواجها » مسترشدا فى ذلك برأى القساوسه . (ومن هنا دفاعه الملتوى عن الطلاق « ديللا تيرانيدى[102] ») . وأخيرا منعه زوج أختها من زيارة الكونتيسه ، فغادر روما » وحاول أن يرفه عن نفسه بالأسفار والخيل — التى كانت « غرامه الثالث » » بعد الفنون و « سيدتى النبيلة » . وفى ١٧٨٤ حصلت على انفصال شرعى ، فانتقلت إلى كولمار فى الالزاس . وهناك لحق بها ألفيرى ، وبعدها عاشا

فى رباط غير زوجى حتى أتاح لها موت زوجها أن يتزوجا . وقد كتب ألفيرى عن حبه فى نشوة تذكرنا بما كتبه دانتى فى « الحياة الجديدة » .

« هذا الحب المحموم — الحب الرابع والأخير ، . . كان يختلف عن علاقاتى الغرامية الثلاث السابقة . ففيها لم أجد نفسى منفعلا بأى عاطفة ذهنية توازن وتمتزج بعاطفة القلب . نعم كان هذا الحب أقل عنفاً وحرارة ولكنه كان أكثر استمرارا وأعمق تغلغلا فى الشعور والوجدان . وبلغ من قوة عاطفتى أنها . . . سيطرت على كل انفعال وخاطر فى ، ولن تنطفىء فى داخلى أبداً إلا بانطفاء الحياة نفسها . وقد وضح لى . . . اننى وجدت فيها امرأة حقه ، لأنها بدلا من أن تصبح كسائر النساء العاديات عقبة فى طريقى إلى الشهرة الأدبية — امرأة تقدم الاهتمامات النفعية وترخص . . . أفكار المرء — وجدت فيها التشجيع والعزاء والقدوة الحسنة فى كل عمل صالح . وإذ تبينت هذا الكنز الفريد وقدرته حق قدره ، فاننى بذلت لها ذاتى باستسلام مطلق . ولا ريب فى أننى لم أكن مخطئا فى هذا ، لأننى الآن وقد مضى على حبى لها أكثر من اثنى عشر عاما . . . يزداد حبى لها كلما ذبلت تلك المفاتن العابرة (وهى ليست نفسها الباقية) بحكم الزمن . ولكن عقلى وقد تركز فيها يسمو ويرق ، ويزداد حسنا كل يوم ، وأما عقلها هى فاننى أجرؤ على القول بأن هذا يصدق عليها ، وأن من حقها أن تستمد منى العون والقوة[١٠٣] .

وبهذا الحافز مضى يكتب المزيد من المآسى ، وبعض الملاهى ، وشيئاً من الشعر بين والحين والحين . وكان قد كتب خمس قصائد غنائية بعنوان America libra . وفى ١٧٨٨ انتقل الحبيبان إلى باريس ، حيث أشرف ألفيرى على نشر مطبعة بومارشيه فى كيل على الراين لأعماله . وحين سقط الباستيل هلل ألفيرى للثورة وكله حماسة متقدة للحرية وقال أنها فجر عصر أسعد نابشر . ولكن سرعان ما قزز شطط الثورة وسرقها روحاً كان تصورها لحرية أرستقراطياً ، روحاً تطالب بالتحرر من الغوغاء والأغلبيات ومن البابوات والملوك على حد سواء . ففى ١٨ أغطس ١٧٩٢ غادر هو والكونتيسه

باريس بما استطاعا حمله من مقتنياتهما فى مركبتين فأوقفهما عند أبواب المدينة حشد يسألها عن حقهما فى مغادرتها . يقول ألفيرى « قفزت من المركبة بين الغوغاء ، ملوحاً بجوازات سفرى السبعة وأخذت أصيح وأحدث ضجة . . وهو دائماً السبيل إلى التغلب على الفرنسيين[١٠٤] » . وواصلا الرحلة راكبين إلى كاليه وبركسل ، وهناك نمى إليهما أن السلطات الثورية فى باريس أمرت بالقبض على الكونتيسه . فهرعا إلى ايطاليا ، واستقرا فى فلورنسه . وكتب ألفيرى الآن Misogallo مضطرماً بنار الحقد على فرنسا و « حشد عبيدها أبناء السفاح »[١٠٥] .

وفى ١٧٩٩ استولى جيش الثورة الفرنسية على فلورنسه فلجأ ألفيرى والكونتيسه إلى فيللا فى ضاحية حتى رحل الغزاة . وقد أضعفه وأشابه انفعال هذه السنين ، فأعتقد فى ختام ترجمته الذاتيه التى كتبها عام ١٨٠٢ وهو بعد فى الثالثة والخمسين أنه شاخ . وأوصى بكل ممتلكاته للكونتيسه ثم مات بفلورنسه فى ٧ أكتوبر ١٨٠٣ ودفن فى كنيسة سانتا كروتشى . وهناك أقامت له الكونتيسه أثرا ضخما من صنع كانوفا ، وقد مثلت فيه ايطاليا تنوح فوق المقبرة . وقد ضمت إلى حبيبها هناك فى ١٨٢٤ .

وتكرم ايطاليا ألفيرى باعتباره Il Vate d'Italia نبى الأحياء الذى حررها من الأغلال الأجنبية والكنيسية . وكانت دراماته على ما فيها من حدة ورتابة تقدما منشطا خلف وراءه المآسى العاطفية التى كانت تقدم للمسرح الإيطالى قبله . ومن تمثيلياته « فلبيو » و « شاول » و « ميرا » أعدت روح ايطاليا نفسها لماتزينى وجاريبالدى .

ولم يقتصر نشر الطغاة Della tirannide فى الخارج على كيل (١٧٨٧) وباريس ، بل طبع فى ميلانو (١٨٠٠) وغيرها من المدن الايطالية فى ١٨٠٢ و ١٨٠٣ و ١٨٠٥ و ١٨٠٩ و ١٨٤٨ و ١٨٤٩ و ١٨٦٠ ، وأصبح لإيطاليا ما كان لفرنسا وانجلترا وأمريكا كتاب بين « حقوق الانسان » (١٧٩١) . وكان ألفيرى بداية الحركة الرومانسية فى ايطاليا ، بيرونا قبل بيرون ، يبشر بتحرير العقول والدول من أغلالها . وبعده كان لزاما على ايطاليا أن تتحرر .

الفصل الثالث عشر

حركة التنوير في النمسا

١٧٥٦ – ٩٠

١ – الامبراطورية الجديدة

إذا توخينا الدقة في التعبير قلنا أن كلمة « النمسا » إنما تدل على أمة ، وقد تدل تجاوزا على الامبراطورية التي تزعمتها النمسا . فمن الناحية الشكلية كانت هذه الامبراطورية حتى عام ١٨٠٦ هي الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التي انتظمت ألمانيا وبوهيميا وبولنده والمجر وأجزاء من إيطاليا وفرنسا . بيد أن الأهداف القومية أضعفت من الولاء للامبراطورية إلى حد لم يبق معه الآن (١٧٥٦) من هذه الأقطار سوى إمبراطورية نمساوية مجرية تضم النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيولا والتيرول والمجر وبوهيميا ومطرانيات كولونيا وترير وماينز الكاثوليكية ، وأشتاتا متباينة من إيطاليا ، ثم منذ ١٧١٣ الأراضي الواطئة النمساوية – التي كانت أسبانية فيما مضى – وهي على التقريب بلجيكا الحالية .

أما المجر التي كان يسكنها قرابة خمسة ملايين من الأنفس فكان يسودها نظام إقطاع فخور . فأربعة أخماس الأرض يملكه النبلاء المجريون ويفلحه الأقنان ، ولم يقع عبء الضرائب إلا على الفلاحين وأهـل المدن الألمان أو الصقالبة . وكانت الامبراطورية الجديدة قد ولدت شرعياً في ١٦٨٧ ، حين تخلى النبلاء المجريون عن حقهم القديم في اختيار ملكهم واعترفوا بأباطرة الهابسبورج ملوكا عليهم . ودعت ماريا تريزا كبار النبلاء المجريين إلى بلاطها متبعة استراتيجية البوربون ، وأعطتهم المناصب والألقاب والأنواط ، وهدأتهم حتى قبلوا القانون الإمبراطوري قانوناً لأملاكهم وفيينا عاصمة لهم . وكلفت الامبراطورة في استجابة سمحة لوكاس فون هلد برانت بعمل

تصميمات للمبانى الحكومية فى بودا ، وبدىء العمل فى ١٧٦٩ ، ثم جدد فى ١٨٩٤ ، فأعطى العاصمة القديمة بناء من أروع المبانى الملكية فى العالم . وشيد أغنياء النبلاء المجريين القصور الريفية الفخمة على الدانوب أو فى خلواتهم الجبليه منافسين فى ذلك الملكة : فبنى الأمير بال استرهاتى مقراً لأسرته فى ايزنشتات (١٦٦٣-٧٢) وبنى الأمير ميكلوس يوزف استرهاتسى بطراز النهضة على نحو ثلاثين ميلا قاعة استرهاتسى الجديدة (١٧٦٤ - ٦٦) التى ضمت ١٢٦ حجرة للضيوف ، وردهتين كبيرتين للاستقبالات وحفلات الرقص ، ومجموعة غنية من التحف ، وعلى مقربة منها مكتبة بها ٧,٥٠٠ مجلد ومسرح به أربعمائة مقعد . ومن حول القصر حول مستنقع شاسع إلى حدائق زينت بالمغارات والمعابد والتماثيل ، وجهزت بالصوبات وأشجار البرتقال والأرض المخصصة للوحوش والطيور البرية . يقول رحالة فرنسى « هذه القلعة لا يضارعها أى مكان فى فخامتها - ربما باستثناء فرساى » . وإليها أقبل المصورون والمثالون والممثلون والمغنون والعازفون ، وهنا ظل هايدن جيلا كاملا يقود فرقته ويؤلف موسيقاه ويتوق للانطلاق إلى عالم أرحب .

أما بوهيميا - وهو اليوم القسم التشيكى من تشيكوسلوفاكيا - فلم تحظ بمثل هذا التوفيق فى عهد ماريا تريزا . وكانت قد انسحبت من التاريخ بعد حرب الثلاثين وقد حطم روحها القومى حكم أجنبى وعقيدة كاثوليكية فرضت على شعب عرف يوما يان هوس وجيروم البراغى . وعانت الملايين الثمانية التى تسكنها من جراح الحرب فى الصراع المتكرر الذى دارات رحاه بين بروسيا والنمسا ، وانتقلت عاصمتها التاريخية من يد إلى يد مراراً وتكراراً ، إذا كانت ملكتها الغربية تنتقل من هزيمة إلى نصر إلى هزيمة . واضطرت بوهيميا إلى أن تقنع باستقلال فى الثقافة والذوق ، فنشأت مؤلفها الموسيقيين أمثال جيورج بندا ، وتفردت براغ باستقبالها الحار لأول عرض لأوبرا موتسارت « دون جوفانى » (١٧٨٧) ، التى لم تصب بعد ذلك فى فيينا غير إطراء فاتر كان أشبه بالذم منه بالمديح .

وأما فى الأراضى الواطئة النمساوية فقد كان كفاح النبلاء المحليين

للاحتفاظ بسلطتهم التقليدية أنجح منه فى بوهيميا، وسكيدر أيام « الامبراطور الثائر » الأخيرة . وقد كان لتلك الأقاليم السبعة — بارابانت (التى ضمت بروكسل ، وأنتورب ، ولوفان) ، ولكسمبورج ، وفلاندر ، وهاينوت ، ونامور ، وجلدرز — تاريخ عريق جليل ، وكان النبلاء الذين حكموا رعاياهم الملايين الأربعة شديدى الحرص على الامتيازات التى ثبتت لامتحان قرون كثيرة . وعرض المجتمع العصرى أزياءه ، وقامر بمكاسبه ، وشرب أحيانا المياه المعدنية كما شرب الأنبذة فى سبا فى أسقفية لييج المجاورة . وكان زهرة ذلك المجتمع فى هذا العصر الأمير شارل-جوزف دلين ، الذى وهبته بروكسل للعالم فى ١٧٣٥ . وقد قام على تعليمه عدة آباء من الرؤساء الكاثوليك « لم يؤمن بالله منهم غير واحد » ؛ أما هو نفسه فكان « متديناً أسبوعين »[1] فى هذا البلد المغرق فى الكثلكة . وقد أبلى بلاء حسنا فى حرب السنين السبع وخدم يوزف الثانى مستشارا وصديقاً حميما ، والتحق بالجيش الروسى فى ١٧٨٧ ؛ ثم رافق كاترين الكبرى فى « مسيرتها » إلى القرم ، وبنى لنفسه قطراً ريفياً فاخراً وقاعة للفنون قرب بروكسل ، وكتب أربعة وثلاثين مجلدا من « المنوعات » ، وأثار الاعجاب فى النفوس — حتى نفوس الفرنسيين — بطباعه المهذبة ، وأضحك أندية أوربا العالمية الطابع بظرفه وخفة دمه المشربة بالفلسفة . *

هذه الإمبراطورية المعقدة ، الممتدة من الكربات إلى الرين ؛ هى التى دانت أربعين سنة لإمرأة من عظيمات نساء التاريخ .

٢ — ماريا تريزا

رأيناها من قبل فى الحرب ، وفيها لم تسلم إلا لفردريك وأبلت فى السياسة الحربية ، وفى اتساع النظرة والحاح الهدف ، وفى الشجاعة تواجه الهزيمة .

(*) « كانت مدام دىلوكزنبى . . . قادرة على الاصغاء ، وهو أمر ليس بالسهولة التى يحسبها الكثيرون ، ولم يعرف أحمق قط كيف يفعله »(٢) .

قال فردريك عنها فى ١٧٥٢ « إذا استثنينا ملكة المجر وملك سردينيا (شارل إمانويل الأول) الذى انتصرت عبقريته على تعليمه الردىء » لم نجد فى ملوك أوربا وأمرائها كلهم غير معتوهين مشهورين [٣]. لقد فاقتها فى فن الحكم إلزابث الأولى ملكة إنجلترة من قبلها ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا من بعدها ، ولم يفقها ملكات غير هاتين . وكانت فى رأى فردريك « طموحا محبة للثأر »[٤]. ولكن أكان يتوقع منها ألا تحاول استرجاع سيليزيا التى اغتصبها ؟ أما الأخوان جونكور فرأيا فيها « ذهنا متوسطا جيداً يرافقه قلب محب ، واحساسا سلميا بالواجب ، وقدرات مذهلة على العمل ، وحضورا قويا وجاذبية غير عادية . . . أماً حقيقة لشعبها »[٥] ؛ وكانت غاية فى اللطف مع كل من لم يهاجم امبراطوريتها أو إيمانها ؛ وعلى سبيل المثال نذكر استقبالها الحار لأسرة موتسارت فى ١٧٦٨ [٦] . وكانت أماً فاضلة ، ورسائلها لأبنائها نماذج فى الرقة والمشورة الحكيمة ، ولو استمع إليها يوزف لما مات إنسانا فاشلا ، ولو اتبعت مارى أنطوانيت نصيحتها لكان من الجائز أن يعفى رأسها من الجيلوتين .

لم تكن ماريا تريزا ملكة « مستبدة مستنيرة » . فهى لم تكن مستبدة . وفى رأى فولتير « أنها وطدت ملكها فى جميع القلوب بدماثة طبع وشعبية لم يؤتهما غير قلة من أسلافها ، وقد ألغت المراسم والقيود من بلاطها . . . ولم ترفض مقابلة إنسان ، ولم يبرح شخص حضرتها غير راض »[٧]. ولم تكن قط مستنيرة بالمعنى الذى يقصده فولتير ، فقد أصدرت المراسيم المتعصبة ضد اليهود والبروتستنت ، وظلت كاثوليكية صادقة إلى النهاية . وشهدت فى هلع تسرب الشكوك الدينية إلى فيينا من لندن وباريس ، وحاولت أن تصد هذا التيار بتشديد الرقابة على الكتب والدوريات ، ومنعت تدريس الإنجليزية « لطابع هذه اللغة الخطر من حيث مبادؤها الدينية والخلقية المفسدة »[٨] .

ومع ذلك لم تنج تماما من تأثير ذلك العداء للاكليروس الذى كان يكنه مستشاروها وابنها . فقد ذكروا لها أن ممتلكات الاكليروس الاقليمية

وغيرها من أسباب الثراء تتزايد بسرعة نتيجة لتلميح الكهنة للمرضى المشرفين على الموت بأن فى استطاعتهم التكفير عن آثامهم واسترضاء الله بالايصاء ببعض الثروة للكنيسة ، فإذا سارت الأمور على هذا المنوال فلا بد أن يأتى قريباً ذلك اليوم الذى تصبح فيه الكنيسة — التى هى فعلا دولة داخل الدولة — سيدة على الحكومة . وكانت أديرة الراهبات والرهبان تتكاثر فتقصى الرجال والنساء عن الحيـــاة الناشطة وتعفى المزيد من الثروة من الضرائب. وكانت الصبايا يغرين بنذر أنفسهن للرهبنة قبل أن يبلغن السن التى يدركن فيها مغزى التكريس مدى الحياة وقد بلغ تسلط الاكليروس على التعليم حدا تشكل معه كل عقل نام على أن يدين بولائه الأعلى للكنيسة لا للدولة . واستسلمت الملكة لهذه الحجج استسلاما حملها على الأمر ببعض الاصلاحات الهامة . فحظرت وجود الكنسيين عند كتابه الوصايا . وانقصت عدد المؤسسات الدينية ، وأمرت بفرض الضرائب على جميع الثروة الدينية . وحرمت النذر للرهبنة قبل سن الحاديه والعشرين . وحظرت الكنائس والاديرة إيواء المجرمين بمقتضى « حق اللجوء » . وأمرت بألا يعترف بأى منشور بابوى فى المملكة النمساوية قبل أن يحصل على تصديق الامبراطورة . وأخضع ديوان التفتيش لاشراف الحكومة ، لا بل انه فى الواقع ألغى. وأعيد تنظيم التعليم تحت إدارة جرهارت فان سفيتن (طبيب الملكة) والأب فرانتس راوتنشراوخ ، وأحل العلمانيون محل اليسوعيين فى كثير من كراسى الأساتذة [٩] ، وأخضعت جامعة فيينا للادارة العلمانية وإشراف الدولة ، وروجع المنهاج فيها وفى غيرها بهدف التوسع فى تعليم العلوم والتاريخ [١٠] . وهكذا سبقت الأمبراطورة التقية إلى حد ما الاصلاحات الكنسية التى سيقوم بها ابنها الشكاك .

•

وكانت مثلا فى الفضيلة فى زمن نافست فيه قصور الدول المسيحية الآستانة فى تعدد الزوجات . ولعل الكنيسة كانت مستخدمة اياها حجة وبرهاناً على فضل التمسك بالعقيدة لولا أن أغسطس الثالث ملك بولنده ولويس الخامس عشر ملك فرنسا وكلاهما كاثوليكى كان أشره العشاق

استكثارا من النساء . ولم تفتقد ارستقراطية فيينا بها . فقد فر الكونت اوكو إلى سويسره مع خليلته ، وهربت الكونتيسة إسترهازى إلى فرنسا مع الكونت فون در شولنبورج ، وكان الأمير فون كاونتز يصحب خليلاته فى تلك الفترة فى مركبته ، فلما عاتبته الامبراطورة قال لها « سيدتى ، لقد أتيت لأتحدث عن شئونك لا عن شئونى [١١] » ونظرت ماريا تريزا باشمئزاز إلى هذا التحلل ، وأصدرت مراسم قاسية لفرض الوصية السادسة على الشعب ، وأمرت بتطويل تنانير النساء فى أسفلها وقمصانهن فى أعلاها[١٢]. ونظمت جيشاً من ضباط العفة خولت لهم القبض على أى امرأة يشتبه فى احترافها البغاء ،وشكا كازانوفا من أن « تعصب الأمبراطورة وضيق عقلها جعل الحياة شاقة على الأجانب بوجه خاص [١٣] » .

ويرجع الفضل فى كثير من نجاحها إلى وزرائها الأكفاء ، فقد قبلت ارشادهم وكسبت اخلاصهم ، وظل الأمير فون كاونتز منوطا بالشئون الخارجية رغم فشل سياسته فى « قلب الأحلاف » ، وقد أخلص فى خدمة الأمبراطورية أربعين عاماً . وغير لودفيج هاوجفتز من الإدارة الداخلية ، وأعاد رودلف شوتك تنظيم الاقتصاد ، هؤلاء الرجال الثلاثة أدوا للنمسا ما أداه ريشليو وكولبير من قبل لفرنسا ، والواقع أنهم خلقوا دولة جديدة ، أقوى بمـا لا يقاس من المملكة المختلة النظام التى ورثتها ماريا تريزا .

بدأ هاوجفتز بإعادة بناء الجيش الإمبراطورى ، وكان يعتقد أن هذا الجيش انهار أمام الانضباط البروسى لأنه كان مؤلفا من وحدات مستقلة يجمعها ويقودها نبلاء شبه مستقلين ، واقترح وأنشأ جيشاً ثابتاً قوامه ١٠٨,٠٠٠ محارب يخضعون لتدريب موحد واشراف مركزى ، ولكى يمول هذا الجيش أوصى بفرض الضرائب على النبلاء والكهنة كما تفرض على العامة ، واحتج النبلاء والكهنة ، وتصدت لهم الأمبراطورة بشجاعة وفرضت عليهم ضريبة ملكية وضريبة دخل . وامتدح فردريك عدوته إدارية كفئاً ، « لقد نظمت ماليتها تنظيما لم يبلغه أسلافها قط » ولم تقتصر على تعويض

تعويض ما فقدته بالنزول عن أقاليم الملكي بروسيا وسردينيا بالإدارة الحسنة بل أنها زادت من دخلها زيادة كبيرة[١٤] » . وواصل هاوجفتز جهوده لتنسيق القانون » وتحرير القضاء من تسلط النبلاء ، ولاخضاع أمراء الاقطاع لإشراف الحكومة المركزية . وأذيع فى ١٧٦٨ قوانين موحدة .

وكان شوتك يجاهد أثناء ذلك ليبث النشاط فى الاقتصاد الخامل. فالصناعة كانت تعرقل مسيرتها الاحتكارات التى حابت النبلاء ، ولوائح النقابات الحرفية التى ظلت سارية حتى ١٧٧٤ ، على أن لنتز كان بها رغم هذا مصانع للصوف تضم ٢٦,٠٠٠ عامل » وتفوقت فيينا فى صناعة الزجاج والخزف والصيني » وتصدرت بوهيميا سائر أقطار الامبراطورية فى عمليات التعدين . وكان فى النمسا والمجر مناجم منتجة ، فنى غاليسيا رواسب ملحية كبيرة ، وكانت المجر تستخرج من الذهب كل عام ما قيمته سبعة ملايين جولدن . وحمى شوتك هذه الصناعات بالرسوم الجمركية ، لأنه كان لزاما أن يتحقق للنمسا ، المشتبكة فى حروب متكررة ، اكتفاء ذاتى فى السلع الضرورية ، فالتجارة الحرة كالديمقراطية ترف لايتأتى إلا فى الأمن والسلام .

ومع ذلك ظلت الامبراطورية زراعية إقطاعية . ذلك أن الامبراطورة شأنها فى ذلك شأن فردريك ، لم تجرؤ وهى تواجه الحرب على المجازفة بالتفسخ الاجتماعى الذى قد يحدث نتيجة لمهاجمة الاشراف الراسخين فى امتيازاتهم . وقد ضربت المثل الطيب بالغاء القنية فى أراضيها ؛ وفرضت على أعيان المجر المتغطرسين مرسوما يخول للفلاح أن يتنقل ويتزوج ويربى أبناءه كما يشاء ، وأن يستأنف أحكام سيده الاقطاعى أمام محكمة المقاطعة[١٥] . على أن طبقة الفلاحين فى المجر وبوهيميا كانت رغم هذه المسكنات فى فقر قريب من فقر فلاحى روسيا . وكانت الطبقة الدنيا فى فيينا تعيش فى فقر تقليدى ، بين القصور الباذخة والأوبرات المتقنة والكنائس الضخمة توزع الأمل على البشر .

وكانت فيينا بادئة فى منافسة باريس وضواحيها فى الأبهة الملكية . فكان قصر شونبرون (الربيع الجميل) الواقع خارج المدينة مباشرة يحوى ٤٩٥ فدانا من الحدائق ، مخططة (١٧٥٣ — ٧٥) على غرار فرساى ، بسياجات شامخة مستقيمة ، ومغارات غريبة وبرك متناسقة ، وتماثيل بديعة من نحت دونر وبيير ومعرض وحوش وحديقة نباتات ، وعلى رابية فى خلفية « جلوريت » بناها فى ١٧٧٥ يوهان فون هوهنبرج — مبنى مقنطر معمدفى طراز رومانيسكى خالص . أما قصر شونبرون ذاته، وهو مجمع ضخم من ١٤٤١ حجرة ، فقد صممه يوهان برنهارت فشر فون أرلاخ فى ١٦٩٥ ، ولكنه ترك ناقصاً فى ١٧٠٥ . فكلفت ماريا تريزا نيكولوباكاسى بتصميمه من جديد ، واستؤنف العمل فيه عام ١٧٤٤ وأكمل عام وفاة الامبراطورة (١٧٨٠) . وكان فى داخله قاعة كبرى طولها ١٤١ قدماً لها سقف روكوكى الطراز رسمه جريجوريو جوليليمى (١٧٦١) . وكان قصر شونبرون مقراً للبلاط من الربيع إلى الخريف .

وبلغ عدد أفراد الحاشية الآن ٢٤٠٠ . واقتضت رعاية الخيل والمركبات استخدام مائتين وخمسين سائسا وخادما . وبلغت جملة نفقة صيانة القصر وملحقاته ٤,٣٠٠,٠٠٠ جولدن فى العام[١٦] . أما الملكة ذاتها فقد مارست القصد فى النفقة واعتذرت عن بهاء قصرها بضرورته لمراسم الحكم الملكى . وعوضت عن بذخ حاشيتها بسخائها فى أعمال البر . ذكرت مدام دستال فى معرض حديثها عن النمسا بعد جيل « إن عناصر البر هناك تنظم بكثير من الترتيب والسخاء ، فالإحسان الخاص والعام يصرف بروح سامية من العدل . . . وكل شىء فى هذا البلد يحمل طابع حكومة أبوية حكيمة متدينة[١٧] » .

ولم يكد يوجد أثر للتسول رغم فقر الشعب ، وكانت الجرائم قليلة نسبيا .[١٨] ووجد أفراد الشعب مسراتهم البسيطة فى الزوارق ، واللقاء والاختلاط فى الميادين ، والابتراد فى البساتين الوارفة الظلال والتمشى فى

طريق البراتر الذى يحفه الشجر، والتنزه فى الريف، أو — فى أدنى طبقاتهم — الطرب لمرأى المعارك الضارية تنظم بين حيوانات تتضور جوعا . وأجمل من هذا الرقصات لا سيما المنويت التقليدية ، ففى هذه الرقصة نادرا ما كان الرجل والمرأة يتلامسان ؛ فكل حركة تحكمها التقاليد والقاعدة ، وتؤدى بانضباط ورشاقة . أما الموسيقى فكان نصيبها فى حياة فيينا من الكبر بحيث تطالبنا بتناولها فى فصل خاص بها .

وبالقياس إلى هذا كله كان الأدب ضعيفا فجا . فلم يكن للنمسا التى سيطرت عليها المقدسات نصيب فى حركة « شتورم فوند درانج » التى أثارت ألمانيا . ولم تكن ماريا تريزا راعية للعلم ولا للأدب البحت . ولم يكن فى فيينا صالونات أدبية ، ولم يختلط المؤلفون والفنانون والفلاسفة بالنساء والنبلاء والساسة كما فى فرنسا . لقد كان مجتمعا ساكنا ، فيه ما فى أساليب العيش القديمة المحسوبة من سحر وراحة ، أنقذ من ضجيج الثورة وعجيجها ولكن أعوزته فتنة الأفكار المتحدية . وكانت صحف فيينا الخاضعة لرقابة دقيقة عوائق غبية للفكر ، ربما باستثناء « الفيينر تسايتونج » التى أسست فى ١٧٨٠ . أما مسارح فيينا فكان ديدنها الأوبر للارستقراطية والبلاط ، أو الملاهى الغليظة لعامة الشعب . كتب ليوبولد موتسارت يقول إن « شعب فيينا فى جملته لا يشعر بالحب لأى شىء جاد أو معقول ، بل ان أفراده لا يفهمونه . وفى مسارحهم البراهين الوفيرة على أن الهراء المطلق دون غيره هو الذى يرضيهم — كالرقصات والمنوعات المسرحية الخفيفة (البرلسك) والتهريجيات وحيل الأشباح وألاعيب الشيطان »[١٩] . ولكن بابا موتسارت كان قد خيب أمله استقبال فيينا لولده .

هذا الخليط من الممثلين والموسيقيين والعامة والأقنان والبارونات ورجال البلاط والكنيسة حكمته الأمبراطورة العظيمة بسهر الأم واهتمامها الشديد . وكان زوجها فرانسوا اللوريني قد توج إمبراطورا فى ١٧٤٥ ، ولكن مواهبه وجهته إلى التجارة لا الحكم . فنظم الصناعات ، وزود الجيوش النمساوية بالحلل والخيول والسلاح ، وباع الدقيق والعلف لفردريك

بينما كان هذا مشتبكا فى حرب مع النمسا (١٧٥٦) [٢٠]، وترك إدارة الامبراطورية لزوجته . على أنه فى الأمور الزوجية كان يتشبث بحقوقه ، وقد أنجبت له الامبراطورة التى أحبته رغم خياناته ستة عشر طفلا [٢١] . وربتهم فى محبة وصرامة، وأكثرت من تعنيفهم ، وأعطتهم من جرعات الفضيلة والحكمة ما جعل مارى أنطوانت تبتهج بالفرار إلى فرساى ، أما يوزف فكان يتسلى بالفلسفة . ودبرت الخطط بمهارة لتحصل على مراكز مريحة لأبنائها الآخرين ، فجعلت ابنتها ماريا كارولينا ملكة على نابلى ، وابنها ليوبولد دوقا أكبر لتسكانيا ، وابنها فرديناند حاكما على لمبارديا . وكرست نفسها لاعداد ولدها البكر يوزف للاضطلاع بالتبعات الجسام التى ستخلفها له ، وراقبت فى قلق تطوره أثناء التعليم والزواج ، وزعازع الفلسفة وخطوب الحب ، حتى أتى الوقت الذى رفعته فى نشوة من المحبة والتواضع وهو فى الرابعة والعشرين ليتربع بجوارها على عرش الامبراطورية .

٣ — يوزف فى مرحلة النمو :

١٧٤١ — ٦٥

كانت قد وكلت اليسوعيين بتعليمه ، ولكنها فى سبق لأفكار روسو طلبت أن يعلم كما لو كان يلهو . [٢٢] فلما ناهز الرابعة شكت من أن « ولدى يوزف لا طاقة له على الطاعة » [٢٣] ولا غرو فالطاعة ليست لهوا . ذكر السفير البروسى حين كان يوزف فى السادسة « لقد كون فكرة مغرورة عن منصبه ، ولجأت ماريا تريزا إلى التهذيب وفرض التقوى] » ولكن الصبى وجد الطقوس الدينية مملة ، وأنكر الأهمية التى يعلقها الناس على العالم فوق الطبيعى . فحسبه العالم الذى يعيش فيه ويرث جزءا منه . وما لبث أن سئم اتباع العقائد السنية واكتشف ما فى فولتير من فتنة . وفيما عدا ذلك لم يكن يهتم اهتماما يذكر بالأدب ، ولكنه شغف بالعلوم والاقتصاد والتاريخ والقانون الدولى . ولم يتخلص قط مع الزمن من غطرسة صباه

وكبريائه ، ولكنه ترعرع وأصبح فتى وسيما يقظا لم تباعد أخطاؤه بعد بينه وبين أمه . فكان فى أسفاره يكتب لها رسائل تفيض رقة بنوية حارة .

فلما بلغ العشرين عين عضوا فى مجلس الدولة (شتاتسرات) . ولم يلبث (١٧٦١) أن وضع ورقة تحمل أفكاره فى الاصلاح السياسى والدينى وقدمها إلى أمه ، وظلت هذه الأفكار جوهر سياساته إلى نهاية حياته . وقد أشار على الامبراطورة بأن تنشر التسامح الدينى فى ربوع مملكتها ، وتقلص سلطة الكنيسة ، وتخفف عن الفلاحين أعباء الاقطاع ، وتسمح بحرية أكبر فى انتقال السلع والأفكار . [٢٤] وطلب إليها أن تقلل من نفقة البلاط ومراسمه ، وتزيد من نفقة الجيش . وقال إن على كل عضو فى الحكومة أن يعمل ليستحق راتبه ، وان من الواجب فرض الضرائب على الاشراف شأنهم شأن سائر الشعب . [٢٥]

وكان أثناء ذلك يتعلم جانبا آخر من الحياة . ذلك أن لويس الخامس عشر كان قد عرض حفيدته ايزابللا البارسية عروسا تصلح للدوق الأكبر ، كجزء من اتفاق عكس الاحلاف . وبدا أن الحظ حالف يوزف : فايزابللا فتاة فى الثامنة عشرة جميلة ذات خلق طيب باستثناء ميلها للاكتئاب . وفى ١٧٦٠ جاءت عبر الألب فى قافلة يجرها ثلاثمائة جواد . واحتفل بالزفاف فى مهرجان باذخ ، وسعد يوزف بأن يجد بين ذراعيه مخلوقا بهذا الحسن . ولكن ايزابللا كانت عميقة الإيمان باللاهوت الذى تلقته ، ولم تجد لذة فى كل الهبات التى حبتها بها الحياة ، بل تاقت إلى الموت . كتبت إلى أختها فى ١٧٦٣ تقول « أن الموت رحيم ، ولم أفكر فيه يوما أكثر مما أفكر فيه الآن . وكل شيء يوقظ فى الرغبة فى أن أموت سريعا . علم الله كيف أتمنى أن أترك حياة تهينه تعالى كل يوم . . ولو كان مسموحا للمرء أن يقتل نفسه لما ترددت فى ذلك . » [٢٦] وفى نوفمبر ١٧٦٣ أصيبت بالجدرى ، ولم يبد منها أى تشجيع للأطباء الذين حاولوا شفاءها ، فما انقضت خمسة أيام حتى ودعت الحياة . أما يوزف الذى أحبها حبا عميقا فلم يفق قط من هذه اللطمة :

وبعد شهور أخذه أبوه إلى فرانكفورت — على — المين ليتوج ملكا على الرومان — وهى الخطوة التقليدية إلى العرش الامبراطورى . وهناك انتخب فى ٢٦ مارس ١٧٦٤ (وكان الشاب جوته بين الجمع الحاضر) ، وفى ٣ أبريل توج . ولم يستمتع بالمراسم المطوله ، والخدمات الدينية والخطب ، وشكا فى خطاب لأمه من « الهراء والحماقات البالية التى كان لزاما علينا أن نستمع إليها طول اليوم . انه يقتضينى جهودا جبارة أن أمنع نفسى من مصارحة هؤلاء السادة بمبلغ ما فى علمهم وكلامهم من بلاهة . » ولم يكف خلال هذا كله عن التفكير فى الزوجة التى فقدها . « على أن أبدو فى غاية الابتهاج رغم ما يعتصر قلبى من ألم . . . اننى أحب الوحدة . . ومع ذلك يجب أن أعيش بين الناس . . وعلى أن أثرثر طوال النهار وأفوه بأحاديث كلها لغو وتفاهة[٢٧] » . ولابد أنه أحسن إخفاء مشاعره ، لأن أخاه ليوبولد قرر أن « ملكنا — ملك الرومان — ساحر دائما ، رائق المزاج دائماً ، مرح ، كيس ، مؤدب ، وهو يكسب جميع القلوب[٢٨] » .

فلما عاد إلى فيينا أبلغ بضرورة زواجه ثانية ، ذلك أن استمرار الحكومة المنتظم اقتضى فيما يبدو استمرار أسرة هابسبورج . واختار كاونتز زوجة له هى يوزيفا البافاريه ، لأن كاونتز كان يأمل أن يضيف بافاريا إلى ملك النمسا . ووقع يوزف مشروع الزواج الذى وضعه له كاونتز ، وبعث به ، وكتب إلى دوق بارما (والد ايزابيلا) وصفا ليوزيفا قال فيه « إنها مخلوق صغير قصيرة بدينة ، تجردت من سحر الشباب » على وجهها دمامل وبقع حمراء وأسنان منفرة . . فاحكم بنفسك ما كلفنى هذا القرار . . ألا رفقاً بى ، ولا يفتر حبك لابن لك قد دفن فى قلبه إلى الأبد صورة معبودته رغم أن له زوجة ثانية »[٢٩] . وقد زف يوزف إلى يوزيفا فى بواكير عام ١٧٦٥ . وحاولت أن تكون له زوجة صالحة ، ولكنه زهد فيها سرا وعلانية . وقاست فى صمت ، ثم ماتت بالجدرى فى ١٧٦٧ . ورفض يوزف أن يتزوج مرة أخرى . وكرس الآن مابقى من حياته للحكم وفيه مزيج محزن من الفتور والاخلاص ، من المثالية والغرور .

٤ — الأم وولدها (١٧٦٥ — ٨٠)

ظلت ماريا تريزا فترة محطمة الجسد والعقل بعد موت الأمبراطور فرانسو الأول (١٨ أغسطس ١٧٦٥). وشاركت خليلته الحزن عليه، وقالت لها: «ياعزيزتي الأميرة، لقد فقدنا كلتانا الكثير». [٣٠] وقصت شعرها، وتصدقت بصيوان ثيابها، ونبذت كل أنواع الحلى ولبست السواد إلى يوم مماتها. وسلمت شئون الحكم ليوزف ورددت حديث الاعتكاف فى أحد الأديرة. على أنها عادت إلى الحياة العامة لخشيتها من أن يكون وريثها الطائش غير كفء للحكم، ثم وقعت فى ١٧ نوفمبر إعلاناً رسمياً بالمشاركة فى الحكم. واحتفظت بالسلطة العليا فى الشئون الداخلية للنمسا والمجر وبوهيميا؛ أما يوزف فتقرر باعتباره إمبراطوراً أن يناط به الشئون الخارجية والجيش، ثم الإدارة والمالية بسلطة أقل؛ ولكنه فى الشئون الخارجية قبل إرشاد «كاونتز»، وفى جميع الميادين خضعت قراراته لمراجعة الامبراطورة. وقد خفف احترامه وحبه لأمه من حدة شغفه بالسلطة. فلما أشرفت على الموت تقريباً بالجدرى فى ١٧٦٧ لزم سريرها إلا نادراً، وأذهل الحاشية بعمق قلقه وحزنه. وأخيراً أقنعت هذه الهجمات الثلاث التى أصاب بها المرض الأسرة المالكة الأطباء النمساويين بإدخال التطعيم ضد الجدرى.

وأقلق الابن المحب أمه بالحاح أفكاره المطالبة بالإصلاح. ففى نوفمبر ١٧٦٥ أرسل إلى مجلس الدولة مذكرة لابد أنها أفزعت قراءها:

«رغبة فى الاحتفاظ بالمزيد من كفاءة الرجال القادرين على خدمة الدولة سأصدر أمراً — مهما قال البابا وجميع الرهبان فى العالم — يحرم انقطاع أى من رعاياى للعمل الكنسى قبل ... سن الخامسة والعشرين. فالعواقب الوخيمة — للجنسين — التى كثيرا ماتنجم عن النذور المبكرة خليق بها أن تقنعنا بنفع هذا الترتيب، فضلا عن المبررات المتصلة بالدولة.

«وينبغى أن يكون التسامح الدينى والرقابة المعتدلة على المطبوعات،

والكف عن المحاكمة على الأخلاق وعن التجسس فى خصائص الناس — ينبغى أن يكون هذا كله من مبادىء الحكم الأساسية . إن الدين والأخلاق هما ولا شك من بين أهداف الملك الرئيسية ». ولكن غيرته يجب ألا تتجاوز الحد إلى عقاب الأجانب وتحويلهم عن دينهم . فالعنف لا جدوى منه فى مسائل الدين والأخلاق ، إنما الحاجة إلى الاقناع . أما عن الرقابة فينبغى أن نكون شديدى التنبه لما يكتب ويباع ولكن تفتيش جيوب الناس وحقائبهم لاسيما الأجانب إجراء متطرف فى الغيرة . ومن اليسير أن نثبت أن كل كتاب محرم يوجد الآن فى فيينا رغم الرقابة الصارمة على المطبوعات الآن،وفى وسع أى إنسان يغريه هذا التحريم أن يشتريه بمثلى ثمنه . .

« ويجب دفع الصناعة والتجارة قدماً بحظر جميع البضائع الأجنبية فيما عدا التوابل ، وبإلغاء الاحتكارات ، وإنشاء مدارس تجارية ، وبالقضاء على الوهم الذى يزعم أن الاشتغال بالتجارة لايتفق مع النبالة .

وينبغى تقرير حرية الزواج ، حتى ماندعوه الآن بالزواج غير المتكافىء. فلا القانون الإلهى ولا الطبيعى يحرمه . فالتحيز وحده هو الذى يوهمنا بأننى أعظم قدراً لأن جدى كان كونتاً ، أو لأننى أملك رقاً وقع عليه شارل الخامس . أننا لانرث من آبائنا غير الوجود البدنى » إذن فالملك أو الكونت أو البورجوازى أو الفلاح كلهم سواء[٣١] » .

ولابد أن ماريا تريزا ومستشاريها قد شموا ريح فولتير أو «الموسوعة» فى هذه المقترحات . وكان على الأمبراطور الشاب أن يسير الهوينا ، ولكنه تقدم . فنقل إلى الخزانة عشرين مليون جولدن — نقداً وسندات وأملاكا — خلفها له أبوه فى وصيته ، ثم غير الدين القومى بفائدة أربعة فى المائة بدلا من ستة . وباع أراضى الصيد والقنص التى كانت للأمبراطور المتوفى ، وأمر بذبح الخنازير البرية التى كانت هدفا للصيادين وأداة تدمير لمحاصيل الفلاحين . وفتح البراتر وغيره من البساتين للشعب رغم احتجاجات النبلاء ولكن بموافقة أمه[٣٢] .

وفى ١٧٦٩ صدم الإمبراطورة والبلاط بذهابه إلى نايسى فى سيليزيا وقضائه ثلاثة أيام (٢٥ — ٢٧ أغسطس) فى مناقشات ودية مع فردريك الأكبر أعدى أعداء النمسا . وكان قد أخذ عن ملك بروسيا فكرة الملك « الخادم الأول للدولة » . وأعجب باخضاع فردريك الكنيسة للدولة ، والتسامح مع شتى المذاهب والديانات ، وحسد بروسيا على تنظيمها العسكرى واصلاح شرائعها . وقد شعر كلا الرجلين أن الوقت حان لإغراق خلافاتهما فى اتفاق وقائى ضد قوة روسيا الصاعدة . وكتب يوزف لأمه يقول « بعد العشاء . . . دخنا ودار حديثنا حول فولتير[٣٣] » ولم يكون الملك البالغ من العمر آنئذ سبعة وخمسين عاما فكرة طيبة عن الإمبراطور ذى الثانية والعشرين . كتب يقول « لقد اتخذ الملك الشاب مظهر الصراحة الذى ناسبه تماما . . . انه رغب فى أن يتعلم ، ولكنه لم يؤت من الصبر ما يتيح له أن يعلم نفسه ، ومنصبه الرفيع يجعله سطحيا والطمع الذى لا حد له ينهش قلبه . . وله من الذوق ما يكفى لقراءة فولتير وتقدير مزاياه[٣٤] .

وقد حمل النجاح المنذر بالخطر ، الذى حققته كاترين الثانية فى روسيا ، كاونتز على ترتيب اجتماع ثان مع فردريك . والتقى الملك والإمبراطور والأمير فى نويشتات بمورافيا فى ٣ — ٧ سبتمبر ١٧٧٠ . ولابد أن يوزف تطور تطورا كبيرا خلال ذلك العام ، لأن فردريك كتب الآن إلى فولتير يقول « أن الإمبراطور الذى نشىء فى بلاط متعصب قد نبذ الخرافة » واتخذ العادات البسيطة رغم أنه ربى فى جو مترف . وهو متواضع رغم ما يحرق له من بخور ، وهو مع شوقه للعظمة والمجد يضحى بأطماعه فى سبيل واجبه البنوى[٣٥] .

وكان هذان اللقاءان جزءا من تربية يوزف السياسية . وقد أضاف إليها بزيارة ممتلكاته وفحصه مشكلاتها وامكاناتها بنفسه . ولم يزرها بوصفه إمبراطورا بل مسافرا من عامة الناس يركب جوادا . وتجنب

المراسم ونزل فى الفنادق بدلا من قصور الريف . وحين زار المجر فى ١٧٦٤ و ١٧٦٨ لاحظ فقر الأقنان المدقع وصعق حين رأى فى أحد الحقول جثث أطفال ماتو جوعا . وفى ١٧٧١ — ٧٢ رأى مثل هذا فى بوهيميا ومورافيا وكان حيثماذهب يسمع أنباء أو يشهد الأدلة على وحشية الاقطاعيين وجوع الاقنان. وكتب يقول « إن الموقف الداخلى لايصدق ولا يوصف ، أنه يفطر القلوب[٣٦] » . فلما عاد إلى فيينا سخط على التحسينات التافهة التى ينويها مستشارو الأمبراطورة فقال « ان الاصلاحات الصغيرة لن تجدى فتيلا ، إذ لابد من تغيير الكل » . واقترح البدء بالاستيلاء على بعض الأراضى الكنسية فى بوهيميا ليبنى فوقها مدارس وملاجىء ومستشفيات . وبعد نقاش طويل اقنع المجلس بأن يصدر (١٧٧٤) قانونا ميسرا يقلل وينظم حجم تشغيل الأقنان (الذى كان البوهيميون يسمونه روبوتا) الواجب عليهم للسيد الاقطاعى وقاوم اقطاعيو بوهيميا والمجر ، وهب الاقنان البوهيميون فى ثورة غير منظمة ، فأخضعتهم قوات الجيش . ولامت ماريا تريزا ابنها على هذه الضجة الكبرى فكتبت لعاملها فى باريس مرسى دارجنتو :

« ان الأمبراطور الذى يسرف فى شعبيته قد أفرط فى الحديث خلال رحلاته المختلفة . . . حول الحرية الدينية وتحرير الفلاحين . وقد أحدث هذا كله الاضطراب فى جميع ولاياتنا الألمانية . . . فليس الفلاح البوهيمى وحده هو الذى يخشى منه ، بل المورافى والستيرى والنمسوى أيضاً ، لا بل أنهم فى قسمنا يجرؤن على التمادى فى أشد الوقاحات[٣٧] » .

وزاد توتر العلاقات بين الابن والأم (١٧٧٢) حين انضم يوزف إلى فردريك وكاترين الثانية فى التقسيم الأول لبولنده . فاحتجت على اغتصاب أمة صديقة وكاثوليكية . وبكت حين أقنعها يوزف وكاونتز بعد إلحاح باضافة توقيعها إلى الاتفاق الذى أعطى شطراً من بولنده للنمسا . وقد علق فردريك بخبث « أنها تبكى ، ولكنها تأخذ[٣٨] » . على أنها كانت مخلصة فى أسفها كما نرى من خطابها لولدها فرديناند « كم من مرة جاهدت لاتجنب اشتراكى فى عمل يلوث ملكى

كله ؟ ليت الله يمنحني الاعفاء من تبعته فى عالم آخر . إنه يثقل قلبي ، ويعذب ذهني ، ويشيع المرارة فى أيامى[٣٩] .

وقد تأملت خلق ولدها فى خوف ومحبة . « انه يحب الاحترام والطاعة » ، ويرى المعارضة شيئاً كريها لايكاد يحتمل . . . وكثيرا ما يكون غير مراع لشعور الآخرين . . . وحيويته الكبيرة المتزايدة تفضى إلى رغبة عاتية فى أن ينال ما يريد بكل دقائقه . . . أن لولدى قلباطيبا . ومرة أنبته بمرارة :

« حين أموت أخادع نفسى بأنى سأظل حية فى قلبك ، بحيث لاتخسر الأسرة والدولة بموتى . . . أن تقليدك (لفردريك) ليس بالأمر السار . فهذا البطل . . . ، هذا الفاتح — أله صديق واحد ؟ . . . أية حياة هذه التى تنعدم فيها الإنسانية . أياكانت مواهبك فليس ممكنا أن تكون جربت كل شيء . حذار من الوقوع فى خطيئة الحقد ؟ ان قلبك ليس شريرا إلى الآن ، ولكنه سيكون كذلك . لقد حان الوقت للكف عن التلذذ بكل هذه الملاحظات الظريفة ، هذه الأحاديث الذكية البارعة التى لا هدف لها إلا السخرية من الغير . . . إنك عابث تتظاهر بالعقلانية وأنت فى الواقع لست إلا مقلدا عديم التفكير حين تحسب نفسك مفكرا مستقلا[٤٠] » .

وكشف يوزف عن جانبه من الموقف فى خطاب إلى ليوبولد :

« لقد بلغت شكوكنا وعدم ثقتنا هنا قمة لاتستطيع تخيلها . فالواجبات تتراكم كل يوم ولاشيء يعمل . وأنا أكدح كل يوم حتى الخامسة أو السادسة لايتخلل ذلك غير ربع ساعة أتناول فيها الطعام وحيداً ، ومع ذلك لاشيء يحدث . فان أسباباً تافهة ، ودسائس طالما كنت ضحيتها تسد الطريق ، وكل شيء أثناء ذلك يذهب إلى الشيطان. انى أهديك منصبي بوصفى الابن البكر[٤١] » .

وقد احتقر الرجال الذين شاخوا فى خدمة أمه . ولم يؤيده غير كاونتز ، ولكن فى حذر يغيظة .

وأما الأمبراطورة المسنة فقد استمعت إلى أفكار ابنها الثورية فى ذعر، ومصارحته برأيها :

« إن أهم مبادئك الأساسية هى : ١ — إطلاق الحرية فى ممارسة الدين، وهو ما لا يستطيع ملك أو أمير كاثوليكى السماح به دون أن يتحمل تبعة ثقيلة. ٢ — القضاء على طبقة النبلاء بإنهاء القنية . . . ٣ — الدفاع عن الحرية فى كل شىء وهو مبدأ يتردد كثيرا جدا . . . انى بلغت من الشيخوخة حداً لا أستطيع معه تقبل أفكار كهذه . وأسأل الله ألا يجربها خلفى أبداً . أن التسامح الدينى . وعدم الاكتراث واللامبالاة هما بالضبط أداة تقويض كل شىء . فاذا لم يوجد دين غالب فأى ضابط يكبح الجماح ؟ لاضابط ولا المشنقة ولا دولاب التعذيب . . إننى أتكلم سياسياً لا كمسيحية . فامن شىء ألزم وأنفع من الدين . أتريد السماح لكل إنسان بأن يسلك على هواه ؟ وإذا لم يكن هناك عادة ثابتة ، وخضوع للكنسية ، فأين ترانا نكون ؟ ستكون النتيجة قانون القوة . . . ليس لى من أمنية إلا أن أستطيع حين أموت الانضمام إلى أسلافى متعزية بأن ابنى سيكون عظيما تقيا كأجداده » وأنه سيقلع عن حججه الباطلة ، وعن الكتب الشريرة » وعن الاتصال بأولئك الذين أغووا روحه على حساب كل شىء ثمين مقدس ، لا لشىء إلا لاقامة حرية موهومة لا يمكن . . أن تفضى لغير الخراب الشامل [٤٢] » .

ولكن إذا كان ثمة شىء يتوق إليه يوزف فهو حرية الدين . ربما لم يكن ملحداً كما خاله بعضهم[٤٣] ، ولكنه كان قد تأثر تأثرا عميقاً بأدب فرنسا . وكانت جماعة من رجال الفكر النمساويين قد ألفت فعلا فى ١٧٧٢ حزب التنوير [٤٤] . وفى ١٧٧٢ نشر جورجى بيسينى المجرى فى فيينا مسرحية تردد أفكار فولتير ، وقد قبل الدخول فى الكاثوليكية ارضاء لماريا تريزا ، ولكنه ارتد إلى العقلانية بعد موتها[٤٥] . ولا ريب أن يوزف كان على علم بهذا الكتاب المشهور المسمى « الوضع الكنسي والقانونى لبابا روما » (١٧٦٣) ، الذى أكد فيه أسقف كاثوليكى بارز تخفى تحت اسم فبرونيوس « من جديد سمو المجامع

العامة على البابوات ، وحق كل كنيسة قومية فى أن تحكم نفسها . ورأى الأمبراطور الشاب فى ثروة الكنيسة النمساوية الموطدة الأركان عقبة كؤوداً فى طريق التطور الاقتصادى ، وفى سيطرة الكنيسة على التعليم ، المعوق الأكبر لنضج العقل النمساوى . وفى يناير ١٧٧٠ كتب إلى شوازيل :

« أما عن خطتك للتخلص من اليسوعيين فأناموافق عليها موافقة تامة... ولاتسرف فى الاعتماد على أمى ، فان التعلق الوثيق باليسوعيين صفة موروثة فى أسرة الهابسبورج . . . على أن لك صديقا فى كاونتز ، وهو ينفذ مايشاء مع الأمبراطورة[٤٦] » .

ويبدو أن يوزف استعمل نفوذه فى روما ليوصل كلمنت الرابع عشر إلى الخطوة النهائية ، وقد أبهجه إلغاء البابا للطائفه ١٧٧٣ [٤٧] .

ولو عرفت ماريا تريزا من خطابات ولدها مبلغ انحرافه إلى معسكر « الفلاسفة » لصعقت . لقد بذلت قصاراها لتمنع حل جمعية اليسوعيين ، ولكن كاونتز أقنعها بالامتثال لرأى سائر الدول الكاثوليكية . كتبت إلى صديقة لها تقول « انى مغمومة يائسة لما أصاب اليسوعيين . لقد أحببتهم وأكرمتهم طوال حياتى ، ولم أر قط فيهم غير كل شىء بناء للروح[٤٨] » . وقد عطلت تنفيذ الأمر البابوى بتعيين لجنة لدراسته . وأتيح لليسوعيين النمساويين الوقت لنقل أموالهم ومقتنياتهم الغالية وأوراقهم من البلد . وصودرت أملاك اليسوعيين ، ولكن الأمبراطورة حرصت على أن يتلقى أعضاء الطائفة المعاشات والثياب وشتى العطايا .

ووسع اغتباط يوزف الواضح بحل جماعة اليسوعيين الهوة بين الأم وولدها . فنى ديسمبر ١٧٧٣ انهار تحت وطأة التوتر وتوسل إليها أن تعفيه من كل مشاركة فى شئون الحكم . وأفزعها اقتراح مذهل كهذا ، وكتبت إليه نداء مؤثرا للمصالحة :

« يجب أن أعترف بأن قدراتى ، ووجهى ، وسمعى ، وحذقى — كلها

تتدهو سريعا وبأن الضعف الذى ارتعت منه طوال حياتى — وهو التردد فى اتخاذ القرارات — يرافقه الآن،تثبيط الهمة والافتقار إلى الخدام الأوفياء فالجفوة منك ومن كاونتز وموت مستشارى المخلصين، والمزوق عن الدين، وتدهور الأخلاق، والرطانة التى تجرى على كل لسان، والتى لا أفهمها — كل هذا يكفى لسحقى. انى أقدم لك كامل ثقتى، وأسألك أن تنبهنى لأى خطأ ارتكبه . . أعن أما . . . تعيش فى وحدة، وسيقضى عليها أن ترى كل جهودها وأحزانهـا ذهبت أدراج الرياح. قل لى ما تريد أفعله لك [٤٩] » :

وتصالح معها » ووافقت المرأة التى حاربت يوما فردريك وأوقفت تقدمه، مؤقتا على أن تتعاون مع تلميذ فردريك المعجب به . واستخدما معا ثروة اليسوعين المصادرة فى الاصلاح التعليمى . وفى ١٧٧٤ أصدرا « نظاما عاما للتعليم » أحدث تنظيما جديدا أساسياً للمدارس الإبتدائية والثانوية . فوفرت مدارس متدرجة للتعليم الإلزامى لجميع الأطفال، وسمحت بدخول البروتستنت واليهود طلابا ومعلمين، وقدمت لتلاميذها التعليم الدينى فى كل دين ، ولكنها وضعت الاشراف فى أيدى موظفين حكوميين ، وسرعان ما أصبحت مدارس الشعب Voikschulen هذه تعد خير المدارس فى أوربا . وانشئت مدارس لتدريب المعلمين، وتخصصت المدارس العليا Hauptschulen فى العلوم والتكنولوجيا، وعلمت المدارس الثانوية Gymnasien اللاتينية والعلوم الإنسانية » وخصصت جامعة فيينا إلى حد كبير للقانون والعلوم السياسية والإدارة » وأدت وظيفة دار الحضانة لموظفى الدولة . واستبدل باشراف الكنيسة على التعليم إشراف من الدولة لايقل عنه صرامة ودقة .

واستمر التعاون بين الأم وولدها فألغى التعذيب (١٧٧٦) . ولكن الاتفاق بينهما حطمته أحداث السنة التالية . ذلك ان يوزف كان ينوى منذ زمن زيارة باريس — لا ليرى «الفلاسفة» ويستدفىء فى الصالونات » بل ليدرس موارد فرنسا وجيشها وحكومتها » وليرى مارى انطوانيت »

وليقوى الروابط التى ربطت ربطا واهيا جدا بين الأعداء القدامى فى حلفهما الهش . فلما مات لويس الخامس عشر ، وبدا أن فرنسا على شفا التمزق ، كتب يوزف إلى ليوبولد يقول : « انى قلق على أختى فسيكون عليها أن تلعب دورا شاقاً [٥٠] » . ووصل إلى باريس فى ١٨ ابريل ١٧٧٧ ، وحاول أن يتكتم زيارته فتخفى تحت اسم الكونت فون فلكنشتين وأشار على الملكة الشابة المرحة بأن تقلع عن الاسراف والطيش ، وصبغ وجنتيها وشفتيها ، وأصغت إليه فى ضجر . وحاول ولكنه فشل فى كسب لويس السادس عشر إلى حلف سرى لكبح توسع روسيا [٥١] . وتحرك بسرعة فى أرجاء العاصمة و « لم تمض أيام حتى عرف عنها أكثر مما سيعرف لويس السادس عشر طوال حياته [٥٢] » . وزار الأوتيل ديو ولم يخف دهشته لسوء الإدارة غير الإنسانية للملك المستشفى . وفتن أهل باريس ، وذعرت حاشية فرساى ، حين وجدت أرفع ملوك أوربا يمشى فى زى مواطن بسيط ، يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها . ويلتقى بجميع الطبقات دون تكلف . أما عن نجوم الأدب فقد التمس أولا لقاء روسو وبوفون . وحضر أمسية عند مدام نكير ، والتقى بجبون ، ومارمونتيل ، والمركيزه دودفان ، ومما يشرفه أن رباطة جأشها وشهرتها أربكتاه أكثر مما أربكها مقامه الرفيع ، فالعمى يسوى بين الناس لأن الشالات يتكون نصفها من الثياب . وحضر جلسة لبرلمان باريس وأخرى للأكاديمية الفرنسية . وأحس الفلاسفة أنهم وجدوا فى النهاية الحاكم المستنير الذى تطلعوا إليه أداة لثورة سلميه . وبعد أن قضى يوزف شهرا فى باريس تركها فى جولة بالأقاليم فسافر شمالا إلى نورمنديه ، ثم على الساحل الغربى إلى بايون ، ثم تولوز ، فمونبلييه فرسليا ، ثم صعد مع الرين إلى ليون وشرق إلى جنيف . ومر بفرنيه دون أن يزور فولتير ، إذ لم يشأ أن يغضب أمه أو يرتبط جهارا برجل خاله الشعب النمساوى والملك الفرنسى شيطانا مجسما .

وكان حريصا على استرضاء أمه ، لأن عشرة آلاف مورافى هجروا

الكثلكة فى غيبته إلى المذهب البروتستنتى ، وكان رد الفعل من جانب ماريا تريزا – أو مجلس الدولة – على هذه الكارثة اتخاذ اجراءات تذكرنا بغارات الفرسان على بيوت الهجونوت أيام لويس الرابع عشر . فقبض على زعماء الحركة وشتتت اجتماعات البروتستنت وجند المتحولون العنيدون فى الجيش وفرضت عليهم الأشغال الشاقة وأرسلت نساؤهم إلى الملاجىء . فلما عاد يوزف إلى فيينا قال لأمه محتجا « أن السبيل لإعادة هؤلاء الناس إلى الكثلكة أن تجعلى منهم جنودا أو ترسليهم إلى المناجم أوتستخدميهم فى الأشغال العامة . . . يجب أن أعلن صراحة . . . أن المسئول عن هذا الأمر ، أياكان ، هو أحقر خدامك ، وهو لايستحق منى غير الازدراء « لأنه أحمق وقصير النظر [٥٣] » . وأجابت الأمبراطورة بأنها ليست مصدرة هذه المراسيم بل مجلس الدولة « ولكنها لم تسحبها . وجاء وفد من المورافيين البروتستنت لمقابلة يوزف « فأمرت ماريا تريزا بالقبض على أفراده . وكانت الأزمة بين الأم وولدها تسير إلى طريق مسدود حتى أقنعها كاونتز بسحب المراسيم . فأوقفت الاضطهادات ، وسمح لمعتنقى البروتستنتيه بممارسة عبادتهم الجديدة شريطة أن يكون ذلك فى هدوء ببيوتهم.. وتوقف صراع الجبابرة برهة .

ثم استؤنف لما مات مكسمليان يوزف ناخب بافاريا فى ٣٠ ديسمبر ١٧٧٧ دون أن يعقب بعد حكم طويل رخى . وفى الصراع على وراثة دولته أيد يوزف الثانى ناخب بالاتين شارل (كارل) تيودور شريطة أن ينزل للنمسا عن جزء من بافاريا ، وأيد فردريك الأكبر شارل دوق تزفا يبروكن ، وأعلن أنه سيقاوم أى محاولة من النمسا لتملك أرض بافاريه . وحذرت الامبراطورة ولدها من تحدى ملك بروسيا الذى لم يزل منيعا لم يقهر بعد . ولكن يوزف تجاهل نصيحتها ، وأيده كاونتز ، وجردت قوة نمساوية على بافاريا . وأمر فردريك جيشه بدخول بوهيميا والاستيلاء على براغ مالم يجل النمساويون عن بافاريا . وقاد يوزف جيشه الرئيسى ليدافع عن براغ ، واقترب الجيشان العدوان ، ولاح أن حربا نمساوية بروسية أخرى وشيكة على سفك

دماء الاخوة . أما فردريك فقد تجنب خوض المعركة منهكاً بذلك السوابق والتوقعات ، واكتفى باطلاق جنوده على المحاصيل البوهيمية ليأتوا عليها ، وأما يوزف فقد تردد فى الهجوم لعلمه بشهرة فردريك قائدا للجيوش . وكان يأمل أن تخف فرنسا لنجدته » وأرسل على وجه السرعة نداءات لمارى أنطوانيت . فأرسل له لويس السادس عشر خمسة عشر مليون جنيه » ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من هذا » لأن فرنسا كانت قد وقعت (٦ فبراير ١٧٧٨) حلفاً من المستعمرات الأمريكية الثائرة ، وكان عليها أن تعد نفسها لخوض حرب مع انجلترة . وأقام يوزف فى معسكره نهبا للغيظ والقلق بينما نهبته البواسير فى طرف ودمل ضخم فى الطرف الآخر .

وهنا قبضت ماريا تريزا على أزمة الأمور فى انتفاضة أخيرة من انتفاضات الإرادة ، وأرسلت إلى فردريك سرا عرضا للصلح (١٢ يوليو) . ووافق فردريك على التفاوض ، وأذعن يوزف لأمه » وتوسط لويس ملك فرنسا وكاترين قيصرة روسيا فى النزاع . وانتهى الأمر بمعاهدة تشن (١٣ مايو ١٧٧٩) التى عزت يوزف بأربعة وثلاثين ميلا مربعاً من بافاريا ، ولكن شارل تيودور استأثر بكل مابقى من تلك الإمارة الناخبة ، وهكذا توحدت بافاريا وبالاتينات » واتفق على أن تحصل بروسيا على بايرويت وانسباخ بعد موت حاكمهما الأبتر . وادعى كل فريق أنه المنتصر .

هذه الأزمة الثالثة بين فردريك المسن والإمبراطورة المسنة قضت عليها . وكانت لا تتجاوز الثالثة والستين عام ١٧٨٠ ، ولكنها كانت بدينة مصابة بالربو ، أضعف قلبها حربان وستة عشر حملا فضلا عن الهم المقيم . وفى نوفمبر حاصرها مطرغزير وهى راكبة عربة مكشوفة ، فأصابها سعال خبيث ، ولكنها أصرت على أن تقضى الغد تعمل فى مكتبها . وقد قالت مرة » إننى ألوم نفسى على الوقت الذى أنفقه فى النوم » (٥٤) وقضت أيام مرضها الأخيرة جالسة على كرسى إذ استحال عليها تقريبا أن تتنفس وهى راقدة . واستدعى يوزف أخوته وأخواته إلى جوارها ، وقام على رعايتها فى محبة . وطلق الأطباء كل أمل فى شفائها فارتضت أن تتناول الأسرار الأخيرة . وفى ساعاتها

الأخيرة قامت وتعثرت من كرسيها إلى سريرها . وحاول يوزف أن يريحها فقال « إن جلالتك فى سيئ » . فأجابت « نعم » ولكنه وضع مناسب للموت فيه . » وماتت فى ٢٩ نوفمبر ١٧٨٠ .

٥ — المستبد المستنير : ١٧٨٠ — ٩٠

بعد أن حزن يوزف حزناً صادقاً على أم أدرك الآن مبلغ عمظتها ، شعر بأنه حر فى أن يكون نفسه ، وأن يبدأ بتنفيذ أفكاره المتفتحة فى الإصلاح . كان الحاكم المطلق للنمسا والمجر وبوهيميا والأراضى الواطئة الجنوبية ، وكان أخوه ليوبولد مطيعاً له فى تسكانيا ، وأخته مارى أنطوانيت معينة له فى فرنسا . وأحس احساسا عميقاً بالفرص التى واتته فى قمة حياته وذروة سلطته .

فأى رجل كان يومئذ ؟ لقد بلغ الأربعين ، ومازال فى ربيع الحياة وكان وسيما جدا حين يغطى رأسه الأصلع باروكة . وقد وهب عقلا يقظاً نشيطاً نشاط شبه محموم ، متمشياً مع جيله ، ولكن هدأه شيئاً إلمامه بالتاريخ وخلق البشر . وكان دائم الإحساس بشبح الوقت ، لذلك لم يخطئ إلا بسبب التسرع والعجلة ، وقلما أخطأ عن سوء قصد . وتروى القصص الكثيرة عن رقاهة حسه بخطوب غيره واستعداده لرفع المظالم التى يمكن رفعها (**) . وقد أباح للشعب الالتقاء به على قدر ماسمحت به واجباته . وكان يعيش عيشة البساطة ويرتدى من الثياب مايرتديه أى جندى ، ويتجنب الظهور فى ثياب الملوك الفاخرة . وكان مبرأ كفردريك من مخالة الخليلات ، ولم يكن له « أصدقاء إغريق » ، وكان عمله غرامه الذى استغرقه . وكان كفردريك يبذل من الجهد فى عمله أكثر مما يبذل أى مساعد له . وكان قد أعد نفسه إعداداً صادقاً أميناً للقيام بتبعاته . فلم يسافر للمتعة والظهور ، بل للملاحظة والدراسة وفحص صناعات الكثير من الاقطار وفنونها وبيوتها الخيرية ومستشفياتها ومحاكمها ومؤسساتها البحرية والحربية ، ، ونظر بعينيه هو إلى شعوب مملكته وطبقاتها ومشكلاتها . فصحت نيته الآن ، على قدر ما وسع رجلا واحداً ،

على تحقيق أحلام الفلاسفة . « مادمت قد ارتقيت العرش ، ولبست أعظم تاج فى العالم ، فقد جعلت الفلسفة المشرع لإمبراطوريتى »(٥٦) ونظر الفلاسفة فى كل أرجاء أوربا إلى المغامرة الجديدة وكلهم تطلعات صادقة .

وكانت أولى الصعوبات فى إيجاد الأعوان الذين يشاركونه حلمه. فأكثر الذين آلوا إليه بالوراثة كانوا من الطبقات العليا التى اختزلت اصلاحاته امتيازاتهم . لقد أيده كاونتز وفان شفيتن ، وشجعه اثنان من المستشارين الخصوصيين — هما كوالتبورج وجيار واثنان من اساتذة جامعة فيينا هما — مارتيني وزوننفيلس — ؛ ولكن الأعوان الأدنى مرتبة من هؤلاء لم يكونوا سوى بيروقراطيين تجمدوا فى المألوف من العادات ، واستراحوا إلى الموروث من التقاليد ، وقاوموا التغيير تلقائياً . وراح يوزف فى عجلة لاتسمح بالمجاملة يعامل هؤلاء الأعوان معاملة الخدم ، ويربكهم بحشد من الأوامر ، ويطلب إليهم إبلاغه عن أى خطأ جسيم يرتكبه مساعدوهم(٥٧) ، ويغرقهم بالاستبيانات ويطالبهم بجهد لا يفتر كجهده . ووعدهم هم وأراملهم بمعاشات يستحقونها بعد خدمة عشر سنين ، فشكروه ، وأنكروا أساليبه ، وسدروا فى كبريائهم . وأفضت ثقة يوزف بعدالة أهدافه إلى ضيقه بكل نقد أو نقاش . وكتب إلى شوازيل (الذى كان الآن ينعم بالتقاعد) « عش أسعدما أستطيع إننى لم أكد أعرف السعادة ، وسوف أشيخ قبل أن أكمل الطريق الذى رسمته لنفسى »(٥٨) . ولكن أجله قصر عن أن يدرك سن الشيخوخة .

وقد نبذ كل تفكير فى الديمقراطية ، فقد أحس أن أفراد شعبه غير مستعدين لإصدار الحكم الصائب فى السياسة ، وأنهم باستثناءات قليلة سيعتنقون أى آراء يتسلمونها من سادتهم أو كهنتهم . وحتى الملكية الدستورية بدت له غير مبشرة بخير ؛ فبرلمان كالبرلمان الانجليزى سيكون مجتمعاً مغلقاً من كبار ملاك الأرض والأساقفة الذين يتحدون أى تغيير جذرى . وكان من المسلمات فى رأى يوزف أن الملكية المطلقة دون غيرها هى القادرة على تحطيم جدار العادات وكسر أغلال التعصب وحماية الضعفاء السذج من الأقوياء الماكرين.

ومن ثم تناول كل مشكلة بشخصه ، وأصدر توجيهات نظمت كل مناحي الحياة . ورغبة في تشجيع الامتثال لأوامره أنشأ نظام جاسوسيه أفسدت عليه حسناته . وكان من مقومات حكمه المطلق أن يجند بالإلزام جيشا دائما كبيرا لا يعتمد على أمراء الأقليم ، يغذيه بالتجنيد الإلزامي العام ، ويخشنه بالتدريب البروسي . وراوده الأمل في أن يقوى هذا الجيش من صوته في المسائل الدولية ، وأن يلزم فردريك حدوده ، وربما أعانه على التهام بافاريا وطرد الترك من البلقان المجاورة (ولاعجب فقد كان في نفس فيلسوفنا شئ من شهوة التملك) . ثم عين لجنة من الفقهاء لإصلاح القوانين وتنسيقها ، وبعد أن قضت اللجنة ست سنوات من العمل الشاق نشرت قانونا مدنيا جديداً للإجراءات القضائية . فخففت العقوبات ، وألغيت عقوبة الإعدام . (في انجلترة المعاصرة كانت مائة جريمة لا تزال تعتبر من الجرائم الجسيمة) . ولم تعد الشعوذة ولا السحر ولا الارتداد جرائم يعاقب عليها القانون . وحرمت المبارزة ، واعتبر قضاء المبارز على غريمه في مبارزة جريمة قتل . وجعل الزواج عقداً مدنيا ، وأحل الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين ، وقضى بإمكان الحصول على الطلاق من السلطة المدنية . أما القضاة فلا يعينون إلا بعد تدريب خاص وبعد اجتيازهم امتحانات عسيرة ، وألغى الكثير من المحاكم الكنسية . وتقررت مساواة جميع الأشخاص أمام القانون ، وصعق النبلاء حين عرض أحد أفرادهم في المشهرة وحكم على آخر بكنس الشوارع .

وألغيت القنيه بسلسلة من المراسيم ، ١٧٨١ — ٨٥ . وكفل للجميع حق تغيير المسكن أو المهنة ، وحق التملك ، وحق الزواج بالرضى المتبادل ، وأعد محامون خصوصيون لحماية الفلاحين في حرياتهم الجديدة . وفقد البارونات حق محاكمة مستأجريهم جنائيا ، ولكن تحاشيا لضعف الإنتاج في ضياع البارونات ، أجيز للسادة أن يقتضوا أقنانهم السابقين بعض الخدمات المألوفة .

وشجع يوزف الصناعة الرأسمالية لاقتناعه بأن لوائح الطوائف الحرفية معطلة للتطور الاقتصادي ، ولكنه عارض في الاستكثار من الآلات مخافة (أن تحرم الألوف من أرزاقهم)[٥٩] . وأعفى العمال الصناعيين من التجنيد ،

ولكنهم تذمروا من انقاصه أيام العطلات المقدسة . ثم رفع من مقام التجار ورجال الصناعة والمصارف وخلع عليهم ألقاب الشرف وأسباب التكريم القومى . وألغى المكوس الداخلية أو خففها ، ولكنه أبقى على رسوم الحماية الجمركية المرتفعه على الواردات . ورفع رجال الصناعة الوطنيون الأسعار بعد أن حصلوا على هذا التحصن من المنافسة الأجنبية وانتجوا السلع الرديئة[٦٠]. وساء بروسيا وسكسونيا وتركيا فرض هذه التعريفات فأوصدت أبوابها فى وجه حاصلات الأمبراطورية ,وفقد الإلب والاودر والدانوب بعض تجارتها . وحاول يوزف أن يزيد حركة التجارة البرية مع ثغور الادرياتيكى بشق طريق جديد هو طريق يوزفينا الذى اخترق جبال الالب الكرنيوليه ، وأسس شركة هند شرقية وراوده الأمل فى تطوير التجارة مع الشرق وافريقيا وأمريكا بطريق ثغرى فيومى وتريسته الحرين . وفى ١٧٨٤ أبرم معاهدة تجارية مع تركيا ، ولكن بعد ثلاث سنوات أغلقت حربة مع تركيا منافذ الدانوب إلى البحر الأسود وأفلس تجار الدانوب الواحد تلو الآخر .

وتشجيعاً لتداول رأس المال ألغى من القوانين التحريم القديم للفائدة ، وأحل القروض بفائدة ٥٪ ورقى مصرفيا يهودياً إلى رتبة البارونية . وقدم القروض الحكومية والاحتكارات الموقوتة إلى المشروعات الجديدة . واقتبس فكرة الفزيوقراطيين فى فرض ضريبة واحدة تقع على الأرض فقط ، وتتفاوت حسب الموقع والخصوبة ، ويؤديها ملاك الأرض كبارهم وصغارهم واقتضى المشروع مسح جميع أراضى الأمبراطورية ، فتم هذا بنفقة بلغت ١٢٠٠٠٠٠٠٠٠ جولدن دفعها الملاك . وقضى القانون الجديد بأن يحتفظ الفلاح بسبعين فى المائة من محصوله أو دخله ، ويعطى للدولة اثنى عشر فى المائة ، ويقسم الباقى بين الفروض الاقطاعية والعشور الكنيسية ، وكان قبل ذلك يدفع للدولة أربعا وثلاثين فى المائة وللمالك تسعا وعشرين فى المائة ، وللكنسية عشرة فى المائة ، ولا يحتفظ لنفسه إلا بسبعة وعشرين فى المائة[٦١]. واحتج النبلاء بأن هذا التقسيم الجديد سيجلب عليهم الخراب ، وفى المجر قاموا بثورة .

وزاد عدد سكان النمسا والمجر وبوهيميا من ١٨٫٧٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٨٠ ٢١٫٠٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٩٠[٦٢] . وقرر كاتب معاصر أن الأكواخ المبنية بالآجر أخذت تحل محل الزرائب الريفية العتيقة ، وأن الآجر يأخذ مكان الخشب فى منازل المدن[٦٣]. وظل الفقر جاثما على الصدور ، ولكن مرسوما امبراطوريا صدر فى ١٧٨١ أنشأ « مؤسسات للفقراء » يستطيع أى شخص عاجز عن التكسب أن يطالب بالمعونة منها دون أن يريق ماء الوجه .

ومع أن يوزف كان من الناحية الرسمية « نائب المسيح » والمدافع عن الكنيسة المسيحية و « حامى فلسطين . . . والايمان الكاثوليكى » ، فقد شرع بمجرد تقلده زمام السلطة المطلقة فى تقليص دور الكنيسة فى أراضيه « الموروثة » — أى النمسا والمجر وبوهيميا . ففى ١٢ أكتوبر ١٧٨١ أصدر مرسوم التسامح » وبمقتضاه تقررت حرية البروتستنت والروم الارثوذكس فى أن يكون لهم معابدهم ومدارسهم واجتماعاتهم ، وفى تملك الأملاك وامتهان المهن الراقية ، وشغل المناصب السياسية والحربية . وحث الأمبراطور الشعب على تجنب كل دواعى النزاع بسبب الخلافات المذهبية . . . . ومعاملة من ينتمون لطائفة دينية أخرى بالود واللطف[٦٤] . وفى توجيه أصدره يوزف إلى فان زفيتن كشف فى صراحة عن مصادر إلهامه : « إن التعصب قضى عليه فى امبراطوريتى التى قد يسعدها أنها لم تضح بأشخاص مثل كالاس وسرفن . . . أن التسامح هو ثمرة انتشار التنوير (Les lumieres) الذى شاع الآن فى جميع أرجاء أوربا . وهو قائم على الفلسفة ، وعلى عظماء الرجال الذين أسسوها . . . إن الفلسفة دون غيرها هى التى يجب أن تكون رائد الحكومات »[٦٥] .

على أنه كان لهذا التسامح حدود كما كان فى مقال فولتير « عن التسامح » (١٧٦٣) ، فقد نبه بعض المستشارين يوزف إلى أن إزالة جميع الضوابط والقيود ستسفر عن نمو العقائد الجامحة نموا مفرطا » لا بل الإلحاد السافر ، وأن هذا سيفضى إلى المذاهب المتناحرة والفوضى الاجتماعية وامتهان كل سلطة . فلما نما إليه أن بضع مئات من البوهيميين جاهروا بالربوبية (١٧٨٣) أمر بأن أى رجل يجهر بعقيدته هذه « يجب » دون مزيد من التحقيق أن

يجلد أربعا وعشرين جلدة على ردفيه بسوط من الجلد ثم يصرف » . وتكرر هذه العملية كلما تجدد الجهر بهذه العقيدة[٦٦] . ورحل بعض الغلاة من الزبوبيين إلى المستعمرات العسكرية . وسترى فى مكان لاحق إلى أى حد بلغت جهود يوزف فى تحرير اليهود .

وكان من نتائج مرسوم التسامح الزيادة السريعة فى عدد من جهروا بالبروتستنتية فى المملكة ، من ٧٤,٠٠٠ فى ١٧٨١ إلى ١٥٧,٠٠٠ فى ١٧٨٦ . ونمت حرية الفكر ، ولكنها ظلت محصورة فى الدوائر الخاصة . أما الماسون الأحرار الذين رسخت أقدامهم فى النمسا فقد نظموا فى فيينا (١٧٨١) محفلا انضم اليه الكثير من المواطنين البارزين ، وقد حماه الأمبراطور نفسه (رغم ربوبيته المفهومه ضمنا) . قال أحد أعضائه «كان هدف الجماعة إعمال حرية الضمير والفكر التى احتضنتها الحكومة هذا الاحتضان الموفق ، ومكافحة الخرافة والتعصب فى . . . طوائف الرهبان التى هى أهم سند لهذه الشرور[٦٧]. وتكاثرت المحافل الماسونية حتى بلغت ثمانية فى فيينا وحدها ، وأصبح من مجاراة العصر أن ينتمى شخص إليها ، وارتدى الجنسان الشعارات الماسونية ، وألف موتسارت الموسيقى للحفلات الماسونية . وبمضى الوقت اشتبه يوزف فى اشتغال هذه المحافل بالتآمر السياسى . فنى ١٧٨٥ أمر بأن تندمج محافل فيينا فى محفلين فقط ، ولم يسمح بأكثر من محفل واحد فى عاصمة اقليمية .

وعين يوزف لجنة لتراجع قوانين الرقابة على المطبوعات . وفى ١٧٨٢ نشر النتائج التى انتهت اليها فى مدونة جديدة . فحظرت الكتب التى دأبت على مهاجمة المسيحية أو المحتوية على « عبارات لا أخلاقية وبذاءات قذرة » ، ولكن حظرت أيضاً الكتب « المحتوية على أخبار المعجزات والأشباح والرؤى الخرافية وما إلى ذلك مما قد يقضى بعامة الناس إلى الايمان بالخزعبلات ويثير الاشمئزاز فى نفوس الدارسين »[٦٨] . وسمح بالمطبوعات المحتوية على انتقادات أو هجائيات ساخرة حتى لو هاجمت الأمبراطور ، شريطة أن تحمل اسم المؤلف الحقيقى ، وأن تخضع لقانون القذف . وأبيح للدارسين أن يقرءوا فى المكتبات الكتب المدرجة فى فهرس الكتب التى حرمتها الكنيسة

الرومانية . وتعفى الكتب العلمية من الرقابة كلية ، وكذلك الكتب الثقافية ، شريطة أن تؤكد طابعها الثقافي سلطة معترف بها . وأبيح استيراد الكتب المؤلفة بلغت أجنبية وبيعها دون معوق . ووسعت الحرية الأكاديمية . فلما اتهم أربعة عشر طالباً بجامعة انزبروك معلمهم أمام السلطات لأنه زعم أن العالم أقدم من ستة آلاف سنة ، حسم يوزف الأمر بهذه العبارة السريعة الموجزة « يجب أن يطرد الطلاب الأربعة عشر ، لأن أدمغة في فقر أدمغتهم لن تفيد من التعليم[٦٩] » . وأثارت النظم الجديدة الاحتجاجات الغاضبة من الكهنوت ، فرد يوزف بإعطاء فيينا حرية النشر الكاملة (١٧٨٧) . وحتى قبل هذا التحرير أفاد ناشرو فيينا من التراخي في تنفيذ قانون ١٧٨٢ : فاغرقت النشرات والكتب والمجلات النمسا بالفحش أو ما يقرب من الفحش ، وبكشف أسرار الراهبات ، وبالهجمات على الكنيسة الكاثوليكية أو على المسيحية ذاتها .

وأحس يوزف أن واجبه أيضا أن ينظم الشؤن الكنسية . ففي ٢٩ نوفمبر ١٧٨١ أصدر مرسوماً أغلق عددا كبيراً من أديرة الرهبان والراهبات التي «لاتدير مدارس ولاتعنى بمرضى ولا تشتغل بدراسات» . فأغلق ٤١٣ بيتا دينيا من ٢١٦٣ بيتاً دينيا في الأقاليم الألمانية (النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيولا) . وأفرج عن ٢٧,٠٠٠ من شاغليها البالغ عددهم ٦٥,٠٠٠ وقررت لهم معاشات ، وأجرى مثل هذا الخفض في بوهيميا والمجر . قال يوزف « أن المملكة أشد فقرا وتخلفاً من أن تسمح لنفسها بترف الانفاق على العاطلين[٧٠] » . أما ثروة هذه المؤسسات المنحلة — التي بلغت نحو ستين مليون جولدن — فقد أعلن أنهـا ملك للشعب ، وصادرتها الدولة .

وأعلن أن الأديره الباقية لايجوز لها أن ترث أملاكا . أما طوائف الرهبان المتسولين فأمرت بأن تكف عن التسول ومنعت من قبول رهبان جدد . وألغيت جماعات الاخوان الدينية . وتقرر أن تسجل جميع الممتلكات الكنسية لدى الحكومة ، التي حرمت بيعها أو تبادلها .

ثم واصل يوزف جهوده ليخضع الأساقفه الكاثوليك لاشراف الدولة. فاشترط على الأساقفة الجدد أن يقسموا يمين الطاعة للسلطات العلمانية . وتقرر ألا تجاز أي لائحة أو موسوم بابوى فى النمسا إلا بإذن الحكومة . أما الأوامر البابوية الصادرة فى ١٣٦٢ و ١٧١٣ ، التى دانت المهرطقين أو الجانسنيين فتهمل . على أن يوزف نظم أبرشيات جديدة ، وبنى الكنائس الجديدة ، وقدم الرواتب لإعانة طلاب القسوسية ، وفتح مدارس لاهوتية جديدة ووضع لها برنامجا يؤكد على العلوم والمعارف العلمانية كاللاهوت والطقوس سواء بسواء .

وأثارت هذه القوانين الاكليروس الكاثوليكى فى كل أرجاء أوربا . ورجا أحبار كثيرون يوزف أن يلغى مراسيمه المعادية للاكليروس . فلما لم يلق اليهم بالا هددوه بالجحيم ، فابتسم ومضى فى طريقه . وأخيراً اتخذ البابا بيوس السادس بشخصه ، وكان رجلا وسيما متقفا رقيقاً مغروراً ، خطوة غير مألوفة ، إذ غادر إيطاليا (٢٧ فبراير ١٧٨٢) وعبر الابنين والألب فى الشتاء ووصل إلى فيينا (٢٢ مارس) وقد عقد النية على الاتجاه برجاء شخصى للإمبراطور ، وكانت هذه أول مرة منذ ١٤١٤ تطأ فيها أقدام أحد البابوات أرض ألمانيا . أما يوزف فقد خرج من المدينة مع رفيقه فى الشكوكية كاونتز ليرافقا الحبر الأعظم إلى الأجنحة التى كانت تشغلها ماريا تريزا . وخلال إقامة البابا كانت الجموع تحتشد كل يوم تقريباً أمام القصر الملكى التماساً لبركته . وقد وصفهم بعد ذلك يوزف بهذه العبارات :

غصت جميع ممرات القصر وسلالمه بالناس ، واستحال على الإنسان رغم مضاعفة عدد الحراس أن يحمى نفسه من كل الأشياء التى أتو بها اليه ليباركها : أوشحة كتفيه ، ومسبحات ، وصور . وكان يتجمع لنيل البركة التى يمنحها من الشرفة سبع مرات فى اليوم حشد من الناس لا يمكن أن يكون المرء فكرة عن ضخامته إلا إذا رآه . وليس من المبالغة القول أنه تجمع مرة ستون ألفا على الأقل . وكان المنظر غاية

فى الجمال ، فقد أقبل الفلاحون وزوجاتهم وأبناؤهم من مناطق تبعد عشرين فرسخاً . وبالأمس ديست امرأة تحت نافذتى مباشرة [٧١] .

وكان تأثر يوزف بمناشدات البابا البليغة أقل من تأثره بهذا الدليل على سلطان الدين على العقل البشرى ، ومع ذلك واصل إغلاق الأديرة حتى « حينما كان بيوس فى ضيافته [٧٢] . » وحذره البابا تحذير المتنبىء . أنك إن مضيت فى مشروعاتك المدمرة للايمان وقوانين الكنيسة فإن يد الرب ستكون ثقيلة الوطاة عليك ، ستعطلك فى مسيرتك » وستحفر من تحتك هوة تبتلعك وأنت بعد فى عنفوانك » وستضع حداً للملك الذى كان فى وسعك أن تجعله ملكا عظيما مجيداً [٧٣] . وبعد شهر من أسباب التكريم والاخفاق عاد بيوس حزينا إلى روما . وعقب ذلك عين الأمبراطور رئيسا لأساقفة ميلان رجلا يدعى فسكونتى غير مقبول من الإدارة البابوية ، ورفض البابا أن يصدق على التعيين ، وأشرفت الكنيسة والأمبراطورية على القطيعة . ولم يكن يوزف مستعدا لمثل هذه الخطوة العنيفة ، فهرول إلى روما (ديسمبر ١٧٨٢) وزار بيوس وأعلن ولاءه للكنيسة وكسب موافقة البابا على تعيين الدولة للأساقفة — حتى فى لمبارديه . وافترق الملك والحبر الأعظم على ود . ونثر يوزف ثلاثين ألف سكودى على جماهير روما ، وهتف له القوم بصيحات الشكر « يحيى إمبراطورنا » .

فلما عاد إلى فيينا واصل حركته الاصلاحية الدينية القائمة على فرد واحد . وبعد أن تحدى البابا كما تحداه لوثر (الذى شبهه به الكثير من البروتستنت وهم معترفون بفضله) ، وبعد أن هاجم الأديرة كما هاجمها هنرى الثامن ، شرع مثل كلفن فى تطهير الكنائس ، فأمر بازالة لوحات النذور ومعظم التماثيل ، وبكف المصلين عن لمس الصور وتقبيل الرفات وتوزيع التمائم . . . ونظم طول الخدمات الدينية وعددها ، والملابس التى تغطى تماثيل العذراء ، وطابع الموسيقى الكنسية ؛ وتقرر أن تتلى الابتهالات مستقبلا بالألمانية لا باللاتينية ، وأن تحصل رحلات الحج

والمواكب الدينية على موافقة السلطات المدنية » وانتهى الأمر بعدم التصريح إلا بموكب واحد — لعيد القربان المقدس » وأحيط الشعب رسمياً بأنه لا داعي للركوع في الشوارع أمام أي موكب ديني حتى ولو حمل القربان المقدس ، ويكفي في هذه المناسبات خلع القبعات . وأخبر أساتذة الجامعات بأنه لا حاجة تدعوهم بعد اليوم إلى أن يقسموا بأنهم يؤمنون بعقيدة حمل العذراء غير المدنس .

ولم يستطع أحد أن يتشكك في إنسانية أهداف يوزف . فالثروة التي أخذها من الأديرة المستغنى عنها خصصها لإعانة المدارس والمستشفيات والمبرات ، ولصرف معاشات الرهبان والراهبات الذين أخرجوا من أديرتهم ، ولصرف اعانات اضافية لكهنة الأبرشيات الفقراء . وأصدر الأمبراطور سلسلة طويلة من الأوامر للنهوض بالتعليم ، فكان على كل الجماعات المحتوية على مائة طفل بلغوا سن الالتحاق بالمدارس أن تمول مدارس أولية لهم . وتقرر أن يكون التعليم الأولي إلزاميا وعاما . ووفرت الأديرة أو الدولة مدارس للبنات وأعينت الجامعات في فيينا وبراغ ولمبرج وبست ولوفان » أما جامعات انزبروك وبرون وجراتز وفرايبورج فحولت إلى معاهد Lycées لتعليم الطب أو القانون أو الفنون العملية . وأنشئت مداس للطب من بينها « اليوز فينوم » للطب والجراحة العسكريين . وأخذت فيينا تشق طريقها لتصبح من أرقى المراكز الطبية في العالم .

٦ — الإمبراطور والإمبراطورية

تضاعفت المصاعب في وجه مشروعات يوزف الثورية بسبب تنوع ملكه . لقد كان يعرف النساجيد المعرفة ، ولكنه لم يدرك رغم أسفاره الشاقة مبلغ تغلغل السادة المجريين في حياة أمتهم الاقتصادية والسياسية » ولا أدرك كيف تستطيع وطنية الجماهير المجرية أن تتغلب على المصالح الطبقية . ولقد رفض عند تقلده الملك أن يتبع تقليدا جرى عليه السلف فيذهب إلى برسبورج ليتوج ملكا على المجر » لأنه سيطالب في ذلك الحفل

بأن يقسم يمين الولاء للدستور المجرى الذى يكرس أنظمة المجتمع الاقطاعية . ثم أغضب كل مجرى حين أمر بنقل تاج القديس اسطفانوس حامى المجر من بودا إلى فيينا (١٧٨٤) . وكان قد أحل الألمانية لا المجرية محل اللاتينية لغة للقانون والتعليم فى المجر . وأغضب رجال المال والأعمال المجريين حين عطلت رسومه الجمركية تصدير محاصيلهم إلى النمسا . ثم أنه صدم الكنيسة الكاثوليكية بتدخله فى طقوسها التقليدية وبسماحه للجماعات البروتستنتية المجرية بالتكاثر من ٢٧٢ إلى ٧٥٨ فى عام واحد (١٧٨٣ — ٨٤) . ووقعت المجر فى فوضى اصطرعت فيها الطبقات والقوميات واللغـات والمذاهب .

وفى ١٧٨٤ قام فلاحو فلاشيا (بين الدانوب والألب الترنسلفانية) بثورة عنيفة ضد سادتهم الاقطاعيين ، وأشعلوا النار فى ١٨٢ قصرا ريفيا للاشراف وستين قرية ، وقتلوا ٤٠٠٠ مجرى ، وأعلنوا أنهم يفعلون هذا كله برضى الامبراطور . وعطف يوزف على كرههم للظلم الطويل[٧٥] ، ولكنه كان يحاول إنهاء الإقطاع سلميا بالتشريع ، وما كان فى وسعه أن يسمح للفلاحين بتعجل الأمور بالتحريق والتقتيل . وعليه فقد أرسل جنوده لقمع الثورة ، وأعدم مائة وخمسون من زعماء الثورة ، وهدأت الثورة . ولامه النبلاء على الثورة ، ولامه الفلاحون على فشلها . وتهيأ المسرح لثورة قومية على الامبراطور فى ١٧٨٧ .

وفى نوفمبر ١٧٨٠ ذهب يوزف بشخصه ليدرس مشكلات الأراضى الواطئة النمساوية . فزار نامور ومونز وكورتراى وابيير ودنكرك وأوستند وبروج وغنت وأودنارد وانتوب ومالين ولوفان وبروكسل . وقام برحلة جانبية إلى الأراضى الواطئة المتحدة . . إلى روتردام ، ولاهاى ولايدن وهارلم وأمستردام وأوترخت وسبا (حيث تغدى مع الفيلسوف رينال) . وقد راعه التناقض بين رخاء هولنده والركود النسبى فى الاقتصاد البلجيكى . وعزا هذا إلى نشاط رجال الأعمال الهولنديين وفرصهم ، وإلى إقفال نهر الشلت فى وجه تجارة المحيط نتيجة لمعاهدة مونستر (١٦٤٨) فعاد إلى

بروكسل وعقد عدة اجتماعات لمحاولة تحسين التجارة والإدارة والمالية والقضاء . وفى يناير ١٧٨١ عين أخته ماريا كرستينا وزوجها ألبرت دوق ساكستشن حاكمين على الأراضى الواطئة النمساوية .

وأدرك الآن لأول مرة مبلغ التضارب بين اصلاحاته والامتيازات الموروثة التى تمتعت بها الطبقات العليا فى هذا البلد التاريخى . فكان إقليم من أقاليمها مثلا « وهو برابانت » يملك مرسوما للحريات يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر ويعرف بـ « المدخل البهيج » . وكان يتوقع من من كل حاكم يدخل بروكسل أن يقسم يمين الولاء لهذا المرسوم ، وجاء فى إحدى مواده إنه لو انتهك الحاكم أى مادة منه كان لرعاياه الفلمنكيين الحق فى أن يمتنعوا عن أداء أى خدمة له وأن يرفضوا طاعته . وطالبت مادة أخرى الملك بأن يحافظ على الكنيسة الكاثوليكية « فى جميع امتيازاتها وممتلكاتها وسلطاتها الراهنة » وان يطبق جميع قرارات مجمع ترنت . وأشباه هذا الدستور كان يتعلق بها الأشراف والاكليروس الأقاليم الأخرى . وعقد يوزف النيـــة على ألا يسمح لهذه التقاليد بأن تتحدى إصلاحاته . وبعد أن قام بزيارة قصيرة لباريس (يوليو ١٧٨١) قفل إلى فيينا .

وفى نوفبر بدأ يطبق مرسوم التسامح الدينى على هذه الأقاليم . فجعل الأديرة البلجيكية مستقلة عن البابا ، وأغلق عددا منها وصادر إيراداتها . واحتج أساقفة بروكسل وانتورب ومالين « ولكن يوزف واصل مسيرته ففرض على « بلجيكا » لوائحه الخاصة بلوحات النذور والمواكب والطقوس الدينية . ثم سحب من الأساقفة حقهم فى الاشراف على المدارس قائلا «إن أبناء لاوى (أى الكهنة) ينبغى أن يكفوا عن احتكار عقول البشر»[٧٦] . ثم ألغى الامتيازات الخاصة التى طالما تمتعت بها جامعة لوفان . وأنشأ هناك مدرسة لاهوتية جديدة محررة من السيطرة الأسقفية ، وأمر بأن يدرس فيها كل طالب بلجيكى للقسوسية خمس سنين[٧٧] . وإذ كان تواقا إلى تحسين حكومة الأقاليم ، فقد استبدل بالمجالس الاقليمية والمجالس الخاصة

الارستقراطية القديمة (يناير ١٧٨٧) مجلسا واحدا للادارة العامة يرأسه مفوض يعينه الامبراطور ، ثم أحل هيئة قضائية موحدة علمانية محل المحاكم القائمة إذ ذاك ، من اقطاعية وإقليمية وكنسية . وأعلن أن جميع الأشخاص أيا كانت طبقتهم سواسية أمام القانون .

وانضم الاشراف وكثير من البورجوازيين إلى الأكليروس فى مقاومة هذه القوانين . ولم يلطف من عدائهم تلك الجهود العقيمة التى بذلها يوزف لإعادة فتح الشلت أمام تجارة المحيط . فقد رفضت هولندة الأذن بها ، وشاركتها الرفض فرنسا رغم توسلات مارى أنطوانيت . وفى يناير ١٧٨٧ أخطر مجلس برابانت يوزف بأن لا سبيل إلى إحداث تغييرات فى دستور الإقليم القائم إلا بموافقة المجلس ، ومعنى ذلك فى الواقع أنهم أخبروه أن حكمه للأراضى الواطئة النمساوية يجب أن يكون ملكية دستورية لا مطلقة . وتجاهل هو الإعلان ، وأمر بتنفيذ مراسيمه . ورفض المجلس الموافقة على الضرائب ما لم تلق اعتراضاتهم الاهتمام . ثم تفجر الهياج فى عنف اتسع نطاقه بحيث اضطرت ماريا كرستينا إلى الوعد بإلغـــاء الاصلاحات البغيضة (٣١ مايو ١٧٨٧) .

أين كان الامبراطور خلال هذا الجو الهائج المائج ؟

كان يغازل كاترين الثانية دبلوماسيا ، مؤمنا بأن التحالف مع روسيا سيعزل بروسيا ويشد أزر النمسا فى حربها مع الترك . وكان يوزف حتى قبل موت أمه قد زار القيصرة فى موجيليف (٧ يونيو ١٧٨٠) ومن هناك مضى إلى موسكو وسانت بطرسبرج . وفى مايو ١٧٨١ وقعت النمسا وروسيا تحالفا تعهد فيه الطرفان بأن يخف الواحد لنجدة الآخر إذا هوجم .

فلما خيل إليه أن هذا الاتفاق سيشل حركة الملك السبعينى فردريك ، عاد من جديد (١٧٨٤) يعرض الأراضى الواطئة النمساوية على الأمير الناخب شارل تيودور بديلا عن بافاريا . وكان العرض مغريا للأمير ، ولكن فردريك استنفر كل طاقاته ليفسد هذه الخطة . فحرك ثورة على

الامبراطور فى المجر وبلجيكا ، وحرض دوق تزفايبروكن — الوريث لعرش بافاريا — على مقاومة هذا البدل ، وبعث عملاءه ليقنعوا الأمراء الألمان بأن استقلالهم يتهدده التوسع النمساوى . وأفلح فى أن ينظم (٢٣ يوليو ١٧٨٥) بروسيا وسكوسونيا وهانوفر وبرونزيك ومايتز وهسى كاسل وبادن وساكسى فيمار وجوتا ومكلنبورج وانزباخ وأنهالت فى حلف أمراء Furstenbund تعهدوا فيه بمقاومة أى توسع للنمسا على حساب أى دولة ألمانية . واستنجد يوزف ثانية بشقيقته فى فرساى « وألقت مارى انطوانيت تعويلها على لويس السادس عشر لتكسب تأييده لشقيقها » ولكن فرجين وزير خارجية فرنسا حذر لويس من الموافقة « واعترف يوزف بهزيمته أمام الثعلب العجوز الذى كان يوما ما معبود شبابه . ولما تلقى فى أغسطس ١٧٨٦ نبأ موت فردريك أعرب عن أسف مضاعف : « بوصفى جندياً يؤسفنى رحيل رجل عظيم كان صانع جيل فى فنون الحرب ، وبصفتى مواطناً يؤسفنى أن موته تأخر ثلاثين عاماً »[٧٨] .

أصبح الآن أمل الأمبراطور الوحيد فى توسيع ملكه معقوداً على الإنضمام إلى كاترين فى حملة لتقسيم أملاك تركيا الأوربية فيما بينهما . فلما خرجت قيصرة الروسيا فى يناير ١٧٨٧ لتزور وترهب فتوحها الجديدة فى الجنوب دعت يوزف ليلتقى بها فى الطريق ويرافقها إلى القرم . ولكنه لم يوافق لتوه على اقتراحها بشن حرب صليبية موحدة « وقال « إنما أريد سيليزيا ، والحرب مع تركيا لن تنيلنيها »[٧٩] . ومع ذلك فحين أعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٥ أغسطس ١٧٨٧) وجد يوزف نفسه مكرها على خوضها ، فقد ألزمه تحالفه مع كاترين أن يعينها فى حرب « دفاعية » . يضاف إلى هذا أن الفرصة أتيحت الآن للنمسا بسبب اشتباك تركيا فى الحرب اشتباكا كاحرجاً لاسترداد الصرب والبوسنة ، وربما أيضاً لحصول على ثغر على البحر الأسود . وعليه ففى فبراير ١٧٨٨ أرسل جنوده إلى الحرب وأمرهم بأن يستولوا على بلغراد .

ولكن السويديين اغتنموا هذه الفرصة ليرسلوا قوة تهاجم سانت

بطرسبورج . واستدعت كاترين الجيش من الجنوب ليدافع عن عاصمتها . فلما خف على الترك ضغط الروس ركزوا قوتهم على النمساويين . وحين ذهب يوزف ليقود جيشه رآه وقد أضعفته اللامبالاة وفرار الجند ومرضهم ، فأمر بالتقهقر وعاد إلى فيينا يملؤه اليأس ويجلله العار . وسلم القيادة إلى لاودن ، وهو من أبطال حرب السنين السبع وأنقذ المارشال العجوز شرف الجيش النمساوى باستيلائه على بلغراد (١٧٨٩) . ولما فشل هجوم السويد على روسيا عاد جنود كاترين يتدفقون على الجنوب ونباروا مع الأتراك فى مذابح رهيبة تركت الأحياء منهم أكثر قليلا من أعدائهم . وكان يوزف مغتبطاً بأمل النصر العسكرى الذى طال ارتقابه ، وإذا ببروسيا وانجلترة والسويد وهولندة تتدخل لمساعدة الترك خوفاً من توسع الروس . ووجد يوزف فجأة أن جميع أوربا البروتستنتية تقريباً قد اتحدت وأخذت تمتشق الحسام ضده . وعاد ثانية يستنجد بفرنسا ، ولكن فرنسا كانت فى ١٧٨٩ مشغولة بالثورة . ووقعت بروسيا التى كان يملك عليها فردريك وليم الثانى حلفاً مع تركيا (يناير ١٧٩٠) وأرسلت العملاء لإذكاء الثورة على الامبراطور فى المجر والأراضى الواطئة النمساوية .

ورحبت المجر بهذه الدسائس لأنها كانت فى ثورة سافرة على مراسيم يوزف فى التجنيد الإجبارى والضرائب وتغيير اللغة والإصلاح الدينى . وفى ١٧٨٦ دعا إمريش مالونجى المجريين إلى انتخاب ملك خاص بهم . وفى ١٧٨٨ دبر رميجيوس فرانيو مؤامرة لجعل فردريك وليم ملكا على المجر ، وأفشى الكونتان استرهاتسى وكارولي سر المؤامرة للأمبراطور فحكم على فرانيو بالسجن ستين عاماً . وفى ١٧٨٩ وجه مجلس الطبقات المجرى إلى بروسيا نداء لتحرير المجر من سلطان النمسا . ولما بلغ نبأ الثورة الفرنسية للمجر دوت صيحات المطالبة بالاستقلال فى أرجاء البلاد . أما يوزف الذى شعر بالموت يسرى فى عروقه فلم يعد له من القوة ما يمكنه من الثبات على موقفه . وحثه أخوه ليوبولد على الاستسلام . وفى يناير ١٧٩٠ أعلن ما يأتى :

« لقد قررنا أن نرد إدارة المملكة — أى المجر — إلى وضعها فى ١٧٨٠

لقد أرسينا [الاصلاحات] بدافع الغيرة على الصالح العام مؤمنين أنكم بعد التجربة ستجدونها مبعث سرور لكم ، بيد أننا الآن أقنعنا أنفسنا بأنكم تؤثرون النظام القديم . . . ولكننا نريد أن يظل قانون التسامح نافذا . . . وكذلك قانون الاقنان ومعاملتهم وعلاقتهم بسادتهم » (٨٠) .

وفى فبراير رد تاج القديس اسطفانوس إلى بودا وكان يلقى الترحب والابتهاج من الجماهير فى كل خطوة على الطريق . وهدأت الثورة .

أما الثورة فى الأراضى الواطئة النمساوية فقد انطلقت بكل قوتها لأنها شعرت هناك بحرارة الحركة الثورية فى فرنسا المجاورة .وأبى يوزف المصادقة على الوعد الذى قطعته شقيقته لمجلس برابانت بإلغاء الإصلاحات التى كرهوها. فأصدر الأمر بتنفيذها وأمر جنوده باطلاق النار على أى حشود تقاومها ، ففعلوا وقتل ستة من القائمين بالشغب فى بروكسل (٢٢ يناير ١٧٨٨) وعدد غير معروف فى أنتورب ولوفان . ودعا محام من بروكسل يسمى هنرى فان دن نوت أفراد الشعب إلى التسلح والتطوع فى جيش استقلال . وأيد الأكليروس النداء تأييداً إيجابيا ، وأضيف إليه حافز لم يكن فى الحسبان هو نبأ سقوط الباستيل ، وسرعان ما احتشد فى الميدان عشرة آلاف من الوطنيين وعلى رأسهم قادة أكفاء . وفى ٢٤ أكتوبر أذاع إعلانا للشعب البرابانتى « خلع يوزف الثانى من منصب الحاكم عليهم . وفى ٢٦ أكتوبر هزمت قوة من الوطنيين الجنود النمسويين . واحتل الثوار المدينة تلو المدينة . وفى ١١ يناير ١٧٩٠ أذاعت الأقاليم السبعة قرار استقلالها ، وأعلنت قيام جمهورية الولايات المتحدة البلجيكية . واتخذت اسمها هذا من القبائل البلجيكية التى دوخت قيصر قبل ثمانية عشر قرنا . وأسعد انجلترة وهولندة وبروسيا أن تعترف بالحكومة الجديدة . واستنجد يوزف بفرنسا ، ولكن فرنسا ذاتها كانت مشغولة بخلع ملكها . وبدا أن كل العالم القديم الذى عرفه يوزف يتمزق وينهار . ثم إن الموت كان يدعوه إليه .

٧ — الموت الأسود

كانت مرارة تلك الأشهر الأخيرة كاملة . فقد كانت المجر وبلجيكا تضطرمان بالثورة ، والأتراك يتقدمون ، وجيشه متمرداً ، وشعبه من النمسويين الذين أحبوه يوما ما انقلبوا عليه منتهكاً لحرمة تقاليدهم ومعتقداتهم المقدسة . وندد به القساوسة ملحداً ، وكرهه النبلاء لأنه حرر أقنانهم،وتصايح الفلاحون مطالبين بمزيد من الأرض . وكان فقراء المدن يتضورون جوعاً، ولعنت جميع الطبقات الضرائب والأسعار المرتفعة التي سببتها الحرب . وفي ٣٠ يناير ١٧٩٠ ألغى يوزف جميع الاصلاحات التي أمر بها منذ وفاة ماريا تريزا بعد أن ألقى السلاح مستسلما ، ولم يبق منها إلا على إلغاء القنية .

ترى لم فشل ؟ لقد قبل بملء الإيمان وبصادق الثقة نظرية جماعة الفلاسفة القائلة بأن الملك الذي يتوافر له التعليم الجيد والنية الحسنة هو خير أداة للتنوير والإصلاح . وقد أوتي التعلم الجيد ، أما النية الحسنة فقد شوهها حبه للسلطة ، وأخيرا غلبت لهفته على أن يكون فاتحاً حماسته لإجلاس الفلسفة على العرش . كان يفتقر إلى قدرة الفيلسوف على الشك،وكان من المسلمات لديه صواب وسائله كصواب غاياته . وقد حاول إصلاح الكثير جداً من الشرور في وقت واحد ، وفي عجلة كبيرة، ولم يستطع الشعب أن يستوعب تعدد قراراته المربك . ولقد كان يأمر بأسرع مما يستطيع أن يقنع ، وحاول أن يحقق في عشر سنين مايحتاج تحقيقه إلى قرن من التعليم والتغيير الاقتصادي . والشعب أساساً هو الذي خذله . فقد تعمقت جذوره وترسخت في امتيازاته وأهوائه . في تقاليده وكنائسه ، إلى حد منعه من أن يعطيه التفهم والتأييد اللذين أصبح حكمه المطلق بدونهما عاجزا لاحول له في مثل هذه الإصلاحات العسيرة . وآثر أفراده كنائسهم وقساوستهم وعشورهم على ضرائبه وجواسيسه وحروبه . ولم يستطيعوا وضع ثقتهم في رجل يهزأ بأساطيرهم الحبيبة ، ويضايق أساقفتهم ، ويذل باباهم .

وطوال هذه السنوات المرهقة بعد ١٧٦٥ كان بدنه متمردا على إرادته،

فلم تقو معدته على هضم سرعة عدوه ، وقد حذرته مرارا ودون جدوى بحاجته إلى الراحة . وأنذره الأمير دلين بأنه يقتل نفسه، وكان عليا بهذا ، ولكنه قال « وما الذى أستطيعه ؟ أننى أقتل نفسى لأننى لا أستطيع أن أستنفر الآخرين ليعملوا »[٨١]. وكانت رئتاه مريضتين ، وصوته ضعيفاً مكتوماً ، وكان يشكو الدوالى وتدميع عينيه ، والحمرة ، والبواسير . . وقد عرض نفسه لكل الأجواء فى حربه مع الترك ، وأصابته حمى الربيع كما أصابت الألوف فى جيشه . وكان لا يقوى على التنفس أحياناً ، « أن قلبى يخفق لأقل حركة »[٨٢] وفى ربيع ١٧٨٩ بدأ يتقيأ دماً — تقريبا ثلاث أوقيات فى الدفعة كما كتب لأخيه ليوبولد . وفى يونيو أصيب بآلام عنيفة فى كليتيه . « إننى أتبع أشد نظم التغذية صرامة فلا آكل لحما ولاخضراً ولا مستحضرات ألبان، وغذائى الحساء والأرز»[٨٣] ثم طلع له خراج شرجى وكان لا بد من شقه هو وبواسيره بمبضع الجراح . وأصيب بالاستسقاء . فدعا ليوبولد ليحضر ويتسلم شئون الحكم . وقال : لست آسف على التخلى عن العرش . كل ما يحزننى أن يكون عدد الناس السعداء قلة قليلة كهذه »[٨٤] . وكتب إلى الأمير دلين « لقد قتلنى وطنك . كان الاستيلاء على غنت عذابى وخسارة بروكسل هى موتى . . اذهب إلى الأراضى الواطئة وأعدها إلى ملكها ، فإن لم تستطع فابق هناك. لاتضح بمصالحك من أجلى فأنت أب لأطفال»[٨٥]. ثم كتب وصيته وترك الهبات السخية لخدمه وللـ « سيدات الخمس اللاتى أطقن عشرتى»[٨٦]. وألف قبريته التى قال فيها : « هنا يرقد يوزف ، الذى لم يستطع أن ينجح فى شىء »[٨٧]. وتناول فى استسلام أسرار الكنيسة الكاثوليكية الأخيرة وطلب الموت وفى ٢٠ فبراير ١٧٩٠ استجابت السماء وكان يومها فى الثامنة والأربعين . واغتبطت فيينا برحيله وقدمت المجر الشكر لله .

أكان إنسانا فاشلا ؟ فى الحرب نعم، بلا جدال . وقد وجد ليوبولد الثانى (١٧٩٠ — ٩٢) أن من الحكمة رغم انتصارات لاودن أن يبرم الصلح مع تركيا (٤ أغسطس ١٧٩١) على أساس الوضع السابق للحرب . وإذ عجز عن تهدئة الأشراف المجريين فقد ألغى منح الحرية للأقنان . أما فى بوهيميا والنمسا فقد احتفظ بمعظم الاصلاحات ولم تلغ مراسيم التسامح ، ولم تفتح

الأديرة التي أغلقت » وظلت الكنيسة خاضعة لقوانين الدولة . وكان التشريع الاقتصادى قد حرر التجارة والصناعة وحفزهما . وانتقلت النمسا دون ثورة عنيفة من دولة وسيطة إلى أخرى عصرية ، وشاركت فى حيوية القرن التاسع عشر الثقافية المنوعة .

وكان يوزف قد كتب إلى كاونتز يقول « إننى لإقتناعى العميق بنزاهة نياتى أرجو أن يبحث الخلف بعد موتى أعمالى وأهدافى قبل أن يحكم على وسيكون أميل وأنزه ومن ثم أكثر انصافاً لى من معاصرى »[88] .

وقد اقتضى هذا البحث الخلف ردحا طويلا ، ولكنه تعلم فى النهاية أن يرى فيه — رغم أسفه على أو تقراطيته وتعجله — أكثر « المستبدين المستنيرين » جرأة وتطرفاً وإن كان أقلهم حكمة . . وبعد أن ولى رد الفعل الذى جاء فى عهد مترنيخ ، أعيدت إصلاحات يوزف الثانى واحداً بعد الآخر . ووضع ثوار ١٨٤٨ إكليلا من الزهور على قبره اعترافاً بفضله .

* * *

الفصل الرابع عشر

إصلاح الموسيقى

إننا لانتصور بسهولة يوزف الثانى موسيقيا وهو الرجل المتأهب للمعارك ومع ذلك يقال لنا أنه تلقى « تعليماً موسيقيا دقيقا شاملا » وإنه كان صاحب صوت جهير رخيم، وكان يستمع إلى حفلة موسيقية كل يوم تقريبا ، وكان عازفاً ماهراً على الفيولنشللو والفيولا والكلافير [1] . وكان كثير من النبلاء موسيقيين ، وأكثر منهم رعاة للموسيقى . وحذت الطبقات الوسطى حذوهم ، فكان فى كل بيت بيان قيثارى (هاربسيكورد) وتعلم كل إنسان أن يعزف على آلة موسيقية ، وعزفت الثلاثيات والرباعيات فى الشوارع ، والحفلات الموسيقية فى المتنزهات ومن زوارق مضاءة على قناة الدانوب فى عيد القديس يوحنا . وازدهرت الأوبرا فى البلاط وفى مسرح الأوبرا القومى الذى أنشأه يوزف الثانى فى ١٧٧٨ .

وارتقت فيينا إلى مقام الصدارة فى مطالع القرن التاسع عشر بوصفها العاصمة الموسيقية لأوربا لأنها جمعت فى أخريات القرن الثامن عشر بين تقاليد ألمانيا وإيطاليا الموسيقية المتنافسة . فن ألمانيا جاءت البوليفونية ، ومن إيطاليا الميلوديا ، ومن ألمانيا جاءت الزنجشبيل — وهو مزيج من الدراما الهزلية والحوار المنطوق والموسيقى العارضة والأغانى الشعبية ، ومن إيطاليا جاءت الأوبرا الهازلة ، وتحالف الشكلان فى فيينا كما نرى فى أوبرا موتسارت «الاختطاف من السراى» . ويمكن القول عموماً أن التأثير الإيطالى غلب الألمانى فى فيينا ، فلقد غزت إيطاليا النمسا بالألحان كما غزت النمسا شمالى إيطاليا بالسلاح . وفى فيينا كانت الأوبرا الجادة إيطالية فى أكثرها . إلى أن جاء جلوك . وجلوك نشيء على الموسيقى الإيطالية .

١ — كرستوفر فليبالت جلوك ١٧١٤ — ٨٧

ولد فى إيرازباخ من أعمال البالاتينات العليا ، لحراج كاثوليكى انتقل بأسرته فى ١٧١٧ إلى نويشلوس ببوهيميا . وتلقى كرستوفر فى المدرسة اليسوعية بكوموتاو تعليما فى الدين واللاتينية والآداب القديمة والترتيل والكمان والأرغن والبيان القيثارى . فلما رحل إلى براغ ١٧٣٢ تلقى دروسا فى الفيولنشللو ، وتعيش بالترتيل فى الكنائس « والعزف على الكمان فى المراقص » وإحياء الحفلات الموسيقية فى المدن المجاورة .

وكان كل صبى ذكى فى بوهيميا ينجذب إلى براغ ، واستطاع نفر من ألمعهم شق طريقهم إلى فيينا . واستهدف جلوك الحصول على وظيفة فى أوركستر الأمير فرديناند فون لوبكوفتز . وفى فيينا استمع إلى الأوبرات الإيطالية وأحس جاذبية إيطاليا القوية . وأعجب الأمير فرانشسكو ملتزى بعزمه ، فدعاه إلى ميلان (١٧٣٧) . ودرس جلوك التأليف الموسيقى على يد سامارتينى ، وتعلق بالأساليب الإيطالية فى الموسقى ، وانتهجت أوبراته الأولى (١٧٤١—٤٥) نهج الطرائق الإيطالية ، وقاد حفلاتها الافتتاحية فى إيطاليا . وأتته هذه الخطوات الموفقة بدعوة لتأليف وإخراج أوبرا لمسرح هيماركت فى لندن .

وهناك قدم أوبرا La caduta degiganti (سقطة العملاق) (١٧٤٦) . ورفضت مصحوبة بمديح هزيل » وقال هندل العجوز الفظ أن جلوك لا يعرف « عن الكونترابنط أكثر مما يعرف طباخى »[٢] ولكن الطباخ كان صاحب صوت باص — جهير — حسن ، ولم يكتب لجلوك أن تعتمد شهرته على الكونترابنط . والتقى برنى بجلوك وقال فى وصفه « إن له مزاجاً فى شراسة مزاج هندل . .ويشوهه الجدرى تشويها رهيبا .. ولهجهمة كريهة».[٣] وأذاع جلوك على الجماهير — ربما لموازنة ميزانيته — أنه سيقدم «كونشرتو على ست وعشرين كأس شراب ضبطت (بملئها إلى مستويات مختلفة) بماء نبع تصاحبها فرقه موسيقية كاملة (أوركسترا) ، لأن هذه آلة موسيقية جديدة من اختراعه يعزف عليها كل ما يمكن عزفه على كمان أو بيان قيثارى» . ومثل هذه

« الهارمونيكا الزجاجية أو الكؤوس الموسيقية» كانت قد أدخلت فى دبلن قبل سنتين . واستحضر جلوك الأنغام بلمس حواف الكؤوس بأصابعه المبللة ؛ واستهوى الحفل (٢٣ ابريل ١٧٤٦) أصحاب الفضول ، فكرر بعد أسبوع ؛

وغادر جلوك لندن قاصدا باريس فى ٢٦ ديسمبر وهو مبتئس بهذا النجاح . وهناك درس أوبرات رامو الذى كان قد اتجه إلى الإصلاح بادماج الموسيقى والباليه بالحركة . وفى سبتمبر قاد الأوبرات فى همبورج واتصل فى علاقة غرام مع مغنية إيطالية وأصيب بالزهرى . وكان شفاؤه بطيئا جدا ، حتى إنه حين ذهب إلى كوبنهاجن كان عاجزاً عن قيادة الأوركسترا . ثم عاد إلى فيينا ، وتزوج ماريان برجيا (١٥ سبتمبر ١٧٥٠) ابنة تاجر غنى . وقد منحه صداقها الأمن المالى فاتخذ بيتا فى فيينا، واختفى عن الأنظار فى استجمام طويل .

وفى سبتمبر ١٧٥٤ عينه الكونت مارتشالو دوراتزو قائدا للأوركسترا نظير ألفى فلورن فى العام ليلحن للبلاط . وكان دوراتزو قد مل الأوبرا الإيطالية التقليدية، فتعاون مع جلوك فى دراما موسيقية سميت L'innocenza giustificata (البراءة المبررة) لم تكن فيها القصة مجرد تكئة للموسيقى ، ولا الموسيقى مجرد تجميع الألحان، إنما الموسيقى تعكس الحركة، والألحان حتى الكوارس — تدخل فى الحبكة دخولا فيه شيء من المنطق . وهكذا كانت حفلة الافتتاح (٨ ديسمبر ١٧٥٥) البشير والنتاج الأول للاصلاح الذى يقرن التاريخ بينه وبين اسم جلوك . وقد رأينا فى موضع سابق مساهمات بنديتو مارتشللو وجوملل وترايتا فى هذا التطوير ، والنداء الذى وجهه روسو وفولتير والموسوعيون لربط أوثق بين الدراما والموسيقى . وكان مناستازيو قد أعان عليه باصراره فى إباء على أن الموسيقى يجب أن تكون خادمة للشعر(٤). وربما تأثر جلوك بشغف فنكلمان بأحياء المثل الإغريقية فى الفن ، وكان الملحنون يعرفون أن الأوبرا الإيطالية بدأت كمحاولة لإحيــاء الدراما الكلاسيكية التى أخضعت موسيقاها للتمثيلية وكان جان — جورج نوفير أثناء ذلك ينادى (١٧٦٠) بالتسامى بالباليه من مجرد الرقص الإيقاعى إلى الإيماء

الدرامي المعبر عن « عواطف كل شعوب الأرض وعاداتهم وتقاليـــدهم ومراسمهم وأزيائهم[٥] » . ونسج جلوك هذه العناصر كلها في شكل أوبراوي جديد بفضل ما أوتي من كيمياء العبقرية العجيبة .

ان من أسرار نجاح المرء أن يغتنم الفرصة إذا سنحت . فما الذي حدا بجلوك إلى هجر نصوص أوبرات متاستازيو ويتخذ رانييرو دا كالتسابيجي شاعرا لأوبرا « أورفيو وأورديتشي » ؟ لقد ولد الرجلان في سنة واحدة (١٧١٤) ولكن في مكانين مختلفين — فقد ولد كالزابيجي في ليفورنو . وبعد مغامرات في الحب والمال وفد على على باريس ونشر هناك ترجمة لـ « الشعر الدرامي » لمتاستازيو (١٧٥٥) وقدم لها بـ « رسالة » أعرب فيها عن أمله في ظهور نوع جديد من الأوبرا — « كل مبهج يكون خلاصة التفاعل بين كورس كبير وبين الرقص والحركة التمثيلية التي يتحد فيها الشعر والموسيقى بطريقة رائعة[٦] » . فلما انتقل إلى فيينا أثار اهتمام دوراتزو بأفكاره عن الأوبرا ، ودعاه الكونت ليكتب نصا لأوبرا ، فكتب . . « أورفيو وأورديتشي » . وعرض دوراتزو القصيدة على جلوك ، فرأى في الحبكة البسيطة الموحدة موضوعا يمكن أن يبتعث كل طاقاته .

وقدمت النتيجة لفيينا في ٥ اكتوبر ١٧٦٢ . واستطاع جلوك أن يجند لدور أورفيوس أكبر المغنين الخصيان ذوي الصوت الكونترالتو وهو جاتيانو جواديني . أما القصة فقديمه قدم الأوبرا ، وقد استعملها أكثر من عشرة كتاب لنصوص الأوبرا بين ١٦٠٠ « ١٧٦١ » ، واستطاع جمهور السامعين تتبع الحركة دون أن يفقهوا الايطالية . واستغنت الموسيقى عن السرد الذي لا يصاحبه العزف ، والألحان الأساسية المعاده « (da capo) » ، والزخارف والمحسنات ، وفيما عدا ذلك نهجت نهج الأسلوب الإيطالي ولكنها سمت الى آفاق غنائية فيها من النقاء ما ندر أن بلغه أحد من قبل ولا من بعد . وصرخة اليأس المنبعثة من أورفيوس بعد أن أفقده الموت حبيبته مرة ثانية ؟ Che faro sanz Euridice « ماذا أفعل بدون أورديتشي » ؟ ما تزال أجمل الحان الأوبرا قاطبه « ونحن

حين نسمع هذا اللحن ، ولحن الفلوت الحزين فى «رقصة الأرواح المباركة» تعجب كيف وجد هذا البوهيمى العاصف هذه الرهافة فى روحه .

ولم تلق أورفيو استقبالا حارا فى فيينا ، ولكن ماريا تريزا تأثرت بها تأثراً عميقا وأرسلت الى جلوك صندوق سعوط محشوا بالدوقاتيات . وما لبث أن اختير لتعليم الغناء للارشيدوقة ماريا انطونيا . وكان أثناء ذلك مكباً هو وكالزابيجى على تأليف أوبرا عدها البعض أكمل ما ألفاه من أوبرات ، وهى « السيست » . وقد اعلن المؤلف فى مقدمة النسخة المنشورة كتبها كلزابيجى لجلوك مبادىء اصلاحه للاوبرا . قال :

« حين اضطلعت بكتابة الموسيقى لألسيست صممت على أن أجردها تماما من كل تلك المساوىء . . التى طالما شوهت الأوبرا الإيطالية . . وقد جهدت لأقصر الموسيقى على وظيفتها الحقيقية وهى خدمة الشعر بالتعبير وبمتابعة مواقف القصة دون قطع الحركة المسرحية أو خنقها بحشو لا غناء فيه من التعليقات . ولم أر ان من واجبى ان أمر مرور الكرام بالقسم الثانى من لحن ما ، ربما كانت كلماته آخر وأهم الكلمات -- لكى اعيد بانتظام . . . كلمات القسم الأول . . . وقد احسست أن الإفتتاحية يجب ان تحيط المتفرجين بطبيعة الحركة التى ستقدم لهم وتكون -- إن شئت -- خلاصتها . . وأن الآلات الأوركسترالية يجب ان تدخل متناسبة مع أهمة الكلمات وقوتها ولا تترك ذلك التناقض الحاد بين اللحن والسرد فى الحوار . . . الذى يشوه بشكل غشوم قوة الحركة وحرارتها... وقد آمنت بأن جهدى الأعظم يجب ان ينصرف الى البحث عن البساطة الجميلة[٧] » .

وباختصار ، يجب ان تخدم الموسيقى الدراما وتزيد من حدتها ، لا أن تجعل منها مجرد تكئة للعروض الصوتية أو الأركسترالية . وقد عبر جلوك عن الأمر تعبيرا فيه غلو بقوله « انى أحاول أن انسى انى موسيقى[٨] » . وأن عليه ان يندمج مع كاتب النص فى تأليف « دراما

بالموسيقى » . « وقصة السست تمتنع قليلا على التصديق » ولكن جلوك أنقذها بافتتاحية قائمة سبقت بتصوير الحركة المأسوية وأفضت اليها ، وبمشاهد عاطفية مؤثرة بين السست وأطفالها ، وبدعائها لآلهة العالم السفلى فى لحن «أرباب ستاكس» ، وبالكورالات الجليلة والمجموعات الفخمة . واستمع جمهور فيينا لهذه الأوبرا فى ستين حفلة بين الافتتاح فى ١٦ ديسمبر ١٧٦٧ و١٧٧٩ . ولكن النقاد وجدو فيها اخطاء كثيرة ، أما المغنون فشكوا من انها لم تفسح لهم المجال الكافى لعرض فنهم .

وبذل الشاعر والمؤلف محاولة ثانية فى أوبرا «باريز وهيلانه» (٣٠ نوفمبر ١٧٧٠) . وقد اقتبس كلزابيجى الحبكة من أوفيد الذى جعل من قصة باريز وهيلانه مغامرة غرامية شخصية بدل أن تكون فاجعة دولية . وعرضت الأوبرا عشرين مرة فى فيينا ، ومرة فى نابلى ، ولم تعرض فى غيرها . وتحمل كالزابيجى تبعة هذا الفشل النسبى ، وطلق كتابة النصوص للاوبرات . وراح جلوك يبحث عن تربة أخرى يلقى فيها بذرته . وأشار عليه صديق فى السفارة الفرنسية فى فيينا يدعى فرانسوا دوى رولليه أن يقدم لجماهير باريس تحية يرحبون بها » فى صورة أوبرا فرنسية يضع موسيقاها مؤلف ألمانى . وعملا باقتراحات لديدرو والجاروتى أشارا فيها بأن تمثيلية راسين « إفجيينى » تتيح موضوعا مثالياً للاوبرا صاغ دوررولليه التمثيلية نصا لأوبرا وقدمها لجلوك . . ورأى جلوك مادتها متفقة تمام الاتفاق مع ذوقه فعكف على العمل من فوره .

ورغبة فى تمهيد الطريق إلى باريس وجه دوررولليه خطابا إلى مدير دار الأوبرا نشر فى المركيز دفرانس أول أغسطس ١٧٧٢ — ذكر فيه أن «مسيو جلوش» كان ساخطا أشد السخط على الزعم بأن اللغة الفرنسية لاتتلائم مع الموسيقى ، وأنه اقترح اثبات العكس ، «إفجيينى فى أوليد» . ولطف جلوك من غضب روسو المتوقع (وكان يومها يعيش منزويا فى باريس) بأن أرسل إلى المركيز خطاباً (أول فبراير ١٧٧٣) أعرب فيه عن أمله فى التشاور مع روسو حول « الوسيلة التى أنوى اتخاذها لإخراج موسيقى

صالحة لجميع الأمم ، ولإزالة فوارق الموسيقى الوطنية السخيفة[٩] » . واستكمالا لهذا الإعلان الذى يبلغ الغاية فى البراعة ، استعملت مارى انطوانيت — التى لم تنس استاذها القديم — نفوذها فى دار الأوبرا . ووافق مديرها على اخراج «افجينى» ،وحضر جلوك إلى باريس ، وألزم المغنين والأوركسترا ببروفات بلغت من الشدة والانضباط حداً ندر ان عرفوه من قبل . وتبين ان صوفى أرنو كبيرة المغنيات متمردة على أوامره فهدد بالإقلاع عن المشروع . وبدا ان جوزف لجرو قد أضعفه المرض إلى حد منعه من تمثيل دور الجبار أخيل : « أما جانتان فسترى » إله الرقص وقتها » فأراد ان يكون نصف الأوبرا باليها[١٠] . وشد جلوك شعره ، أو قل باروكته ، وأصر على موقفه » وانتصر . وكانت حفلة الافتتاح (١٩ ابريل ١٧٧٤) حدث العالم الموسيقى المثير . وقد نحس بما كانت عليه العاصمة الجياشه من هياج إذا قرأنا خطاب مارى انطوانيت لأختها ماريا كرستينا فى بروكسل . قالت :

« انه نصر عظيم ياعزيزتى كرستين ، إن الحماسة تجرفنى ، ولم يعد الناس يتكلمون على شيء غير هذا . وكل الرؤس تجيش نتيجة لهذا الحدث . . . فهناك انشقاقات ونزاعات أشبه بالنزاع الدينى . ومع انى أعلنت فى البلاط أننى فى صف هذا العمل الملهم ، فان هناك تحريات ومناقشات شديدة الحيوية . أما فى المدينة فيبدوا ان الحـــال أسوأ من هذا[١١] . »

ورد روسو تحية جلوك باعلانه أن « أوبرا مسيو جلوك قلبت كل أفكاره رأسا على عقب » وقد اقتنع الآن أن اللغة الفرنسية تستطيع أن تنسجم كأى لغة أخرى مع الموسيقى القوية المؤثرة الحساسة[١٢] . وكانت الإفتتاحية رائعة حتى ان الجمهور فى الليلة الأولى طالب باعادتها ووجه النقد للالحان لأنها مسرفة فى الطول » ولأنها تقطع سير الدراما ، ولكنها تميزت بعمق مركب فى الشعور تفردت به موسيقى جلوك . وقد قال الأبيه أرنو عن أحدها وهو «أجاممنون» «بمثل هذا اللحن قد يؤسس المرء دينا[١٣]».

ونافس جلوك الآن لويس الخامس عشر المحتضر محوراً لحديث باريس. وكان بدنه الضخم القوى ووجهه الأحمر وانفه الكبير يشار اليها كلها حيثما ذهب. واصبح طبعه الغضوب موضوعا لعشرات النوادر . ورسم له جروز صورة ظهرت فيها طبيعته الطيبة المرحة من خلف خطوط النضال والتوتر. وراح يأكل كما يأكل الدكتور جونسون ، ويسرف فى الشراب إسرافا لايبزه فيه غير بوزويل ، ولم يتظاهر باحتقار المال ، وكان يبادر للاشتراك فى الثناء على عمله . وقد عامل الحاشية وعامة الناس معاملة واحدة باعتبارهم أدنى منه قدرا ، وكان ينتظر من كبار النبلاء ان يناولوه باروكته ومعطفه وعصاه ، ولما قدم اليه أحد الأمراء فلم يبرح جلوك » علل سلوكه هذا بقوله « لقد ألف الناس فى المانيا إلا يقوم الواحد منهم إلا لمن يحترمه(١٤) . »

وكان مدير الأوبرا قد أنذره بأنه فى حالة نجاح « إفجينى وأوليد » فسيضطر جلوك إلى كتابة خمس أوبرات اخرى فى تعاقب سريع ، لأن افجينى ستطرد جميع الأوبرات الأخرى من المسرح . ولم يرهب الانذار جلوك لأنه اعتاد ان يقتطع اجزاء من مؤلفاته القديمة ويحشرها فى الجديدة وترجمت له «اورفيو واوريديتشى» إلى الفرنسيه ، ولما لم يجد مغنيا كفؤا ذا صوت رنان « كونترالتو» فى متناوله ، اعاد كتابة دور اورفيو ليجرو ذى الصوت الصارخ (التينور) . اما صوفى أرنو التى لا نت عريكتها الآن فقد لعبت دور اوريديتشى . ونجحت حفلة الافتتاح الباريسية نجاحا ادفأ صدره . وجادت مارى انطوانيت ، ملكة فرنسا الآن ، بمعاش قدره ستة آلاف فرنك لـ « عزيزى جلوك » (١٥) . وقفل إلى فيينا ورأسه يطاول النجوم .

وفى مارس ١٧٧٦ عاد إلى باريس بترجمة فرنسية لألسست ، أخرجت فلم تلق غير استحسان متوسط فى ٢٣ ابريل . أما جلوك الذى تعود النجاح فقد استجاب لهذه النكسة بكبرياء غاضبة وقال « ليست ألسيست من نوع الأعمال التى تسر الجمهور سرورا مؤقتاً » أو التى تسرهم لجدتها .

فليس للزمن عليها سلطان . وأنا أزعم أنها ستسر السامعين نفس السرور بعد مائتى عام إذا لم يطرأ على اللغة الفرنسية تغيير»[١٦] . وفى يونيو عاد إلى فيينا ، وسرعان ما بدأ يلحن النص الذى كتبه مارمونتيل من جديد لمسرحية «رولان» التى سبق ان كتب نصها كينو .

وبدأت الآن أشهر المعارك فى تاريخ الأوبرا . ذلك أن إدارة الأوبرا كانت أثناء هذا قد كلفت نيكولوبتشينى النابولى بتلحين النص ذاته ، وأن يحضر إلى باريس ويخرجه . وحضر (٣١ ديسمبر ١٧٧٦) ، فلما انتهى جلوك بهذا التكليف أرسل إلى درولليه الذى كان بباريس آنذاك خطابا يضطرم بغضبة أولمبية :

«لقد تلقيت للتو خطابك الذى . . . ناشدتنى فيه مواصلة تلحين أوبرا «رولان» . ولكن هذا لم يعد ممكنا ، لأنى حين سمعت ان إدارة الأوبرا التى لم تجهل انى كنت ألحن رولان كلفت بهذا العمل ذاته مسيو بتشينى ، أحرقت كل ما كتبت منه ، ولعله لم يكن يساوى الكثير . . وأنا لم أعد رجلا يدخل فى منافسة ، وسيكون للمسيو بتشينى ميزة كبيرة جدا على لأنه بغض النظر عن كفايته الشخصية وهى بلاشك عظيمة جدا — سيكون له ميزة الجدة . . . وانا واثق ان سياسيا معينا من معارفى سيقدم الغذاء والعشاء لثلاثة ارباع باريس ليكسب له انصارا[١٧] .

ولأسباب ليست الآن واضحة نشر هذا الخطاب — الذى كان من الواضح انه خطاب خاص — فى «الأنية ليتريرِ» عدد فبراير ١٧٧٧ فأصبح عن غير قصد إعلاناً للحرب .

ووصل جلوك إلى باريس فى ٢٩ مايو ومعه اوبرا جديدة هى « أرميد » والتقى المؤلفان الغريمان على الغداء ، فتعانقا وتحدثا حديثاً ودياً . وكان بتشينى قد حضر إلى فرنسا دون ان يخطر له انه سيكون بيدقاً فى مؤامرة حزبية قذرة وتجارة اوبرالية ، وكان هو شخصياً شديد الاعجاب بفن جلوك . ولكن الحرب مضت فى الصالونات والمقاهى ، وفى الشوارع

والبيوت ، رغم ما بين الغريمين من مودة » وروى تشارلز بيرنى أنه « مامن باب فتح لزائر دون أن يوجه اليه هذا السؤال قبل يسمح له بالدخول : سيدى أأنت من أنصار بتشينى أم من انصار جلوك[١٨] ؟ » أما مارمونتيل ودالامبير ولاهارب فقد تزعموا الحزب المناصر لبتشينى والأسلوب الايطالى ، وأما الأبيه أرنو فقد دافع عن جلوك فى «اعلان للايمان بالموسيقى» ، وأما روسو « الذى كان قد افتتح الحرب بمقاله المناصر للموسيقى الإيطالية « فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) ، فقد ناصر جلوك .

وأخرجت أرميد فى ٢٣ سبتمبر ١٧٧٧ . وكان موضوعها وموسيقاها رجوعا إلى أشكال رسخت قبل اصلاح جلوك ، وقد اقتبست القصة من تاسو ، ومجدت رينالد والمسيحى وأرميدا الوثنية ، وكانت الموسيقى موسيقى لوللى معادة برقة رومانسية ، وأما الباليه فباليه نوفير فى أروعه ، واعجب هذا المزيج الجمهور فاستقبل الأوبرا استقبالا حسنا ، ولكن انصار بيتشينى نددوا بأرميدا قائلين إنها ليست سوى صقل للوللى ورامو . وانتظروا فى شوق أوبرا رولان الذى كان يلحنها حامل لوائهم . وأهداها بيتشينى إلى مارى انطوانيت مشفوعة باعتذاراته : لقد كنت فى حاجة لكل شجاعتى وأنا مزدرع ومعزول فى بلد كل شىء فيه جديد على تفت فى عضدى مئات العقبات المعترضة عملى ، ولقد فارقتنى شجاعتى[١٩] . وكان أحيانا يوشك ان يكف عن النضال ويعود إلى ايطاليا . ولكنه ثابر ، ووجد عزاء فى نجاح حفلة العرض الأولى (٢٧ يناير ١٧٧٨) . وبدا أن الانتصارين يلغى أحدهما الآخر . وواصلت الحرب السافرة احتدامها . وقد رأتها مدام فيجيه لبرون رأى العين فقالت «كانت ساحة القتال العادية هى حديقة الباليه رويال . فهناك كان انصار جلوك وبيتشينى يتشاجرون مشاجرات بلغ من عنفها انها أفضت إلى مبارزات كثيرة .

وعاد جلوك إلى فيينا فى مارس ، وتخلف فى فرتية ليرى فولتير . ثم صحب معه إلى بيته نصين أولها كتبه نيكولا — فرانسوا جيار وبناه على مسرحية أوريبدس « افجينى فى تاورس » . أما الثانى فكتبه البارون

جان — باتيست وتشودى عن موضوع الصدى ونارسيس . وعكف على الكتابين فما حل خريف ١٧٧٨ حتى شعر أنه على استعداد لخوض معركة أخرى . وهكذا نجده فى نوفمبر فى باريس مرة أخرى . وفى ١٨ مايو ١٧٧٩ قدم فى دار الأوبرا أوبرا « افجينى فى تاوريد » التى يعدها معظم الطلاب أعظم مؤلفاته الموسيقية . وهى قصة قاتمة ، وكثير من موسيقاها شكاة رتيبة ، ونحن نمل أحيانا لنواح افجينى العالى . ولكن حين ينتهى العرض ويسكت سحر الموسيقى والأبيات عقلنا الشكاك ندرك اننا استمعنا إلى دراما عميقة قوية . وقد لاحظ معاصر ان فيها فقرات كثيرة رائعة « أما الأبيه أرنو فقال « ان فيها فقرة رائعة واحدة فقط ، هى العمل كله[٢١] » . واستقبل الجمهور العرض الأول للاوبرا بحماسة بالغة .

على ان جلوك تحدى الآلهة « فتعجل بتقديم أوبراه الثانية « الصدى ونارسيس » (٢١ سبتمبر ١٧٧٩) . ولكنها فشلت ، فغادر المايسترو باريس فى غضبة مضرية معلنا أنه شبع من باريس وأنه لن يكتب مزيدا من الأوبرات . ولو أطال مكثه فيها لسمع « أفجينى فى تاورند » . أخرى أخرجها بتشينى بعد عامين من الجهد الشاق . واستقبل الجمهور العرض الأول (٢٣ يناير ١٧٨٠) استقبالا حسنا ، ولكن فى الليلة الثانية كانت الآنسة لاجير التى غنت دور افجينى مخمورة بصورة واضحة ، حتى لقد حطمت صوفى أرنو العرض بتلقيبها الأوبرا « أفجينى فى شمبانيا[٢٢] » . وانهى هذا الحادث المؤسف الحرب الأوبرالية « واعترف بيتشينى بهزيمته إعترافا جميلا .

أما جلوك فقد حلم فى فيينا بانتصارات أخرى . ففى ١٠ فبراير ١٨٨٠ كتب إلى كارل أوجست دوق ساكسى — فيمار راعى جوته : لقد شخت كثيرا ، وقد بعثرت خير طاقات ذهنى على الأمة الفرنسية . ولكنى أشعر بدافع باطنى يدفعنى لكتابة شيء لبلدى[٢٣] . ثم لحن بعض أناشيد كلوبشتوك التى مهدت الطريق لأجمل الايدات . وفى ١٧٨١ أصيب بالنقطة ، ولكن كان عزاء له استقبال فيينا لأفجينى فى تاورس واحياء

«أورفيو والسست» . وفى ١٥ نوفمبر ١٧٨٧ بينما كان يستضيف جماعة من أصدقائه تعاطى فى جرعة واحدة قدحا من مسكر قوى كان محظورا عليه . وأصابته تشنجات لم تمهله غير ساعات . وحاول بتشينى وهو فى نابلى دون جدوى جمع المال لأحياء حفلات موسيقية سنوية تذكارا لمنافسه[٢٤]. ذلك ان ايطاليا التى كانت تحبذ الميلوديا لم تأبه باصلاحات جلوك : ونهج موتسارت نهج الإيطاليين » ولابد أنه صعق لفكرة تسخير الموسيقى للشعر . أما هردر الذى جاء فى ختام هذه الفترة الخلاقة والذى رجع البصر اليها بمعرفة محدودة بباخ وهايدن وموتسارت فقد وصف جلوك بأنه أعظم ملحنى القرن قاطبة [٢٥] .

٢ - يوزف هايدن : ١٧٣٢ - ١٨٠٩

من الأيسر علينا أن نحب هايدن ، فهاهنا رجل لم يتشاجر مع إنسان غير زوجته ، رجل يشيد بمنافسيه كأنهم أصدقاؤه » رجل أشرب موسيقاه بالمرح ، وكان بمزاجه الفطرى عاجزا عن المأساة .

ولم يحبه الحظ شرف المولد . فقد كان أبوه صانع عربات ونقاشا فى روراو ، وهى مدينة صغيرة على الحدود بين النمسا والمجر . أما أمه فكانت طاهية لأشراف هاراش وكان أبواه كلاهما من أصل سلافى كرواتى لا ألمانى . وكثير من الحان هايدن تردد صدى الأغانى الكرواتية . وكان الثانى بين اثنى عشر طفلا مات ستة منهم فى مستهل طفولتهم . وقد عمد باسم فرانتس يوزف هايدن ، ولكن كان من المألوف يومها أن ينادى الأطفال باسمهم الثانى .

فلما ناهز السادسة أرسل ليعيش مع قريب يدعى يوهان ماتياس فرانك ، صاحب مدرسة فى هاينبورج . هناك كان يومه يبدأ بدروس فى الفصل من الساعة السابعة إلى العاشرة ، ويلى ذلك القداس ، ثم الرجوع للبيت لتناول الغداء ، ثم دروس من الثانية عشرة إلى الثالثة ، ثم دروس فى الموسيقى . وقد درب على التدين ولم يفقده قط . وكانت أمه تتوق إلى

تخريجه قسيساً ، وأحزنها حزناً عميقاً اختياره حياة الموسيقى التى لا ضمان لاستقرارها . على أن فرانك شجع ميل الطفل للموسيقى وعلمه كل ما فى طاقته أن يعلمه ، وألزمه نظاما صارما للدرس . وقد ذكر هايدن فى شيخوخته هذا الرجل وغفر له قائلا « سأكون ما حييت شاكراً لذلك الرجل أنه الزمنى العكوف على العمل وإن إعتدت أن أنال من الجلد أكثر مما أنال من الطعام[٢٦] » . وبعد أن قضى يوزف عامين مع فرانك أخذه إلى فيينا جيورج رويتر ، مدير فرقة المرتلين فى كتدرائية القديس اسطفانوس ، ورأى رويتر إن صوته « الضعيف الحلو » قد يجد مكانا متواضعاً فى فرقة المرتلين . وهكذا ذهب الغـــلام الحيى المشتاق ليعيش فى مدرسة المرتلين « الكانتوريى » الملحقة بالكاتدرائية . وهناك كان يتلقى دروسا فى الحساب والكتابة واللاتينية والدين والترتيل والكمان . ورتل فى الكتدرائية وفى المصلى الامبراطورى ، ولكنه كان لا ينال إلا أتفه الغذاء ، فكان يرحب بدعوات للغناء فى البيوت الخاصة حيث يستطيع أن يمـــلأ معدته فضلا عن إنشاد أغانيه .

وفى ١٧٤٥ انضم إليه فى مدرسة المرتلين أخوه ميخائيل الذى كان يصغره بخمس سنين . وحوالى هذا التاريخ بدأ صوت يوزف يصبح أجش ، فعرض عليه أن يخصى ليحتفظ بصوته السوبرانو ، ولكن أبويه لم يوافقا . واحتفظ به رويتر أطول ما يستطيع ، واخيراً فى ١٧٤٨ وجد يوزف نفسه وهو فى السادسة عشرة حراً ومفلسا ، لم يؤت من حسن السمت وجاذبيته ما يكسبة رضى الحظ عنه . فقد نقر الجدرى وجهه ، وكان أنفه بارزاً ، وساقاه أقصر مما يناسب جسمه ، ولباسه رثا ، ومشيته لا رشاقة فيها ، ومسلكه خجولا متردداً . ولم يكن بعد قد حذق العزف على أى آلة ، ولكنه كان فى تلك الآونه يقلب الألحان فى رأسه .

وعرض عليه زميل فى صف المرتلين حجرة على السطح ، وأقرضه أنطون بوخهولتز ١٥٠ فلورينا ردها إليه هايدن الأمين فيما بعد . وكان عليه أن يجلب الماء صعداً إلى حجرته العليا كل يوم ، ولكنه حصل على

كلافير (لوحة مفاتيح) قديم » وبدأ يعلم بعض التلاميذ » فأعانه هذا على الحياة . وكان فى أكثر الأيام يعمل ست عشرة ساعة بل أكثر ، ويعزف على الكمان فى كنيسة ، ثم على الارغن فى مصلى خاص للكونت هاوجفتز وزير ماريا تريزا » ويغنى بصوت التينور بين آن وآخر فى كتدرائية القديس اسطفانوس . وكان لمناستازيو الشهير شقة فى البناء ذاته فحصل لهايدن على وظيفة معلم موسيقى لأبنة صديق له ، وعن طريق مناستازيو ألتقى هايدن بيوربورا » ووافق هايدن على أن يخدم أمير معلمى الغناء هذا على أى وجه شاء مقابل تعليمة التأليف الموسيقى. ثم تلقى دروس التأليف الثمينة ، وكان ينظف حذاء المايسترو ومعطفه وباروكته ويقوم بمصاحبة بوربورا وتلاميذه على الكلافير . وقد قال هايدن وهـــو يذكر تلك الأيام فيما بعد « يستطيع الشباب أن يتعلموا منى أن شيئا يمكن أن يخرج من لا شىء . فكل ما أنا عليه الآن إنما هو ثمرة أوقات الشدة التى عانيتها[٢٧] » .

وعن طريق أصدقائه الجدد تعرف إلى جلوك ودترزدورف وعدة أفراد من النبلاء . وأخذه كارل يوزف فون فورنبرج (١٧٥٥) ليمكث معه طويلا فى بيته الريفى — فينزيرل — بقرب ملك ، هناك وجد هايدن أوركسترا من ثمانية عازفين واتسع بعض الفراغ للتأليف . فكتب الآن أولى رباعياته . ثم إضاف إلى هيكل الصوناتا المكون من ثلاث حركات والذى نقله عن كارل فيليب إمانويل باخ منويتاً ، ودون الحركات الأربع لقطع أربع ، ثم أعطى الرباعيه الآلية شكلها الحديث . وعاد إلى فيينا فى ١٧٥٦ ولفت أنظار نفر من التلاميذ النبلاء مثل الكونتيسة فون تون . ثم قبل (١٧٥٩) وظيفة مدير الموسيقى للكونت مكسمليان فون مورتزن الذى كان أوركستراه الخاص المؤلف من إثنى عشر إلى ستة عشر عازفا يعزف فى فيينا شتاء ، وفى فيللا الكونت بلوكافيك بيوهيميا صيفا . ولهذه المجموعة كتب هايدن أولى سمفونياته (١٧٥٩) .

وإذ كان يكسب الآن مائتى فلورين فى العام يضاف إليها المسكن والمأكل ، فقد رأى أن فى وسعه المغامرة بالزواج . وكان من بين تلاميذه

إبنتان لصانع باروكات ، فأغرم بالصغرى ولكنها ترهبت ، وأقنع الأب هايدن بأن يتزوج شقيقتها ماريا أنا (١٧٦٠) . وكانت فى الحادية والثلاثين وهو فى الثامنة والعشرين . وتبين أنها مشاغبة متعصبة مسرفة عقيم . يقول هايدن « لا يهمها مثقال ذرة أن كان زوجها فنانا أو إسكافاً[٢٨] » . وبدأ ينظر إلى غيرها من النساء .

وكان يختلف إلى بيت مورتزن إحيانا للاستماع إلى الموسيقى الأمير بال أنطون استرهاتسى . فلما حل مورتزن أوركستراه إستخدم الأمير هايدن (١٧٦١) مساعداً لمدير الموسيقى فى مقره الريفى بأيزنشتات فى المجر . ونص العقد على أن يتقاضى هايدن أربعمائة فلورن فى العام بالأضافة إلى مكان على مائدة الموظفين » و « يلاحظ بصفة خاصة أنه حين يدعى الأوركستر للأداء أمام جمهور أن يبدو الموسيقيون فى بزة رسمية مرتدين الجوارب الطويلة البيضاء والقمصان البيضاء . . وضفيرة أوباروكة[٢٩] » . وفى أيزنشتات كان رئيس فرقة المرتلين جريجور فرنر عاكفا على الموسيقى الكنسية ، فجهز هايدن الحفلات وألف لها الموسيقى . وكان يترأس على أربعة عشر موسيقيا وسبعة مغنين وكورس أختير من بين خدم الأمير . وقد شارك حجم الاوركسترا الصغير ، وطابع المستمعين ، فى تقرير نوع الموسيقى الخفيف اللطيف الذى كتبه هايدن لأسرة إسترهاتسى . وأكسبته طبيعته الطيبة محبة الموسيقيين ولم يمض على مجيئه إلى ايزنشتات كثير حتى راحوا يلقبونه « بابا هايدن » رغم إنه لم يجاوز وقتها التاسعة والعشرين[٣٠] . وألف لهم الصوناتات والثلاثيات والرباعيات والكونشرتوات والاغانى والكنتاتات ونحو ثلاثين سمفونية . وكثير من هذه المؤلفات وإن كانت ملكا للأمير حسب نص العقد نشر أو تداولة الناس مخطوطا فى فيينا وليبزج وإمستردام وباريس ولندن ، ولم يحل عام ١٧٦٦ حتى كان اسم هايدن ذائعاً دوليا .

فلما مات بال أنطون (١٨ مارس ١٧٦٢) خلفة فى رآسة أسرة إسترهاتسى أخوه ميكلوس يوزف الذى كاد يحب الموسيقى حبه لحلته

المرصعة بالماس . وكان يحسن العزف على « الفيولادى بوردونى» . (وهى شكل مختلف من أشكال الفيولادا جامبا) ، وكان سيدا لطيفا لهايدن طوال عشرتهما التى إمتدت قرابة ثلاثين عاماً . يقول هايدن« كان أميرى على الدوام راضيا عن إعمالى فلم احظ منه بمجرد تشجيع الاستحسان الدائم ، ولكن بوصفى قائدا للاوركستر إستطعت أن أجرى التجارب وألاحظ ما يحدث منها أثراً وما يضعف هذا الأثر ، وهكذا كنت فى وضع إتاح لى إن احسن ، وأغير . . وأغامر كما أشاء . لقد كنت مقطوع الصلة بالعالم وما من أحد يشوش على أو يعذبنى ، فاكرهت على الابتكار[٣١] .

ومات فرنر فى ٥ مارس ١٧٦٦ ، واصبح هايدن رئيسا لفرقة المرتلين. وسرعان ما انتقلت الأسره إلى القصر الجديد « قلعة استرهاتسى » التى كان ميكلوس قد بناها فى الطرف الجنوبى لنويزيدلر زى فى شمال غربى المجر . وكان الأمير شديد التعلق بهذا القصر حتى إنه كان يسكنه من مطلع الربيع حتى آخر الخريف ، ثم ينتقل شتاء إلى فيينا مصطحباً موسيقييه احيانا . وكان العازفون والمغنون يكرهون هــذه العزلة الريفية لاسيما لأنها كانت تفصلهم عن زوجاتهم وابنائهم ثلاثة فصول فى العام ، ولكنهم كانوا يتعاطون اجوراً حسنة ولم يجرؤا على الشكوى . وذات مرة إراد هايدن أن يلمح لميكلوس بأن موسيقيية مشتاقون إلى أخذ اجازة ، فألف « سمفونية الوداع » (رقم ٤) وفى ختامها كانت الآلة تلو الأخرى تختفى من المدونة والعازف يطفىء شمعته ويتناول موسيقاه وآلته ثم يغادر المسرح . وفطن الأمير إلى القصد فرتب رحيل الفرقة إلى فيينا فى وقت قريب .

وسمح لهايدن على سبيل الاستثناء بأن يصحب معه زوجته إلى إسترهاتسا، ولكنه لم يقدر هذا الامتياز . ففى ١٧٧٩ وقع فى غرام لويجا بولتسللى ، وكانت مغنية وسطا استخدمتها استرهاتسا مع زوجها عازف الكمان أنطونيو. ويبدو أن هايدن أحس أنه مادامت الكنيسة الكاثوليكية لم تسمح له بتطليق زوجته المتعبة فإن عليها من قبيل الرأفة أن تسمح له بانحرافة أو اثنتين ، ولم يبذل كثيراً من الجهد فى اخفاء علاقته الغرامية هذه . أما أنطونيو فقد بلغ

من الكبر والمرض ما منعه من الاحتجاج الفعال ، وكان يعلم أن الفضل فى بقائه فى وظيفته راجع إلى إن رئيس فرقته يستطب لوبجا . وكانت قد قدمت إلى استرهاتسا بغلام فى الثانية ، وفى ١٧٨٣ ولدت صبيا اخر نسبته الشائعات إلى بابا هايدن ، وتعلق قلب هايدن بالغلامين جميعاً وكان عونا لهما طوال حياته .

وخلال تلك السنوات الحافلة بالشواغل فى استرّها تسا لم يتطور هايدن فى فن التلحين إلا تطورا بطيئا لأنه افتقد الحافز والمنافسة الخارجيين ، فلم ينتج شيئا يستحق أن يذكر به إلى أن بلغ الثانية والثلاثين — وهى سن كان موتسارت قد أكمل فيها « أعماله الكاملة » باستثناء « الناى السحرى » و « القداس الجنائزى » . وقد أنتج هايدن أبدع أعماله بعد بلوغه الخمسين ، وأولى سمفونياته الكبرى حين قارب الستين ، و « الخليقة » حين كان فى السادسة والستين . وكتب عدة أوبرات تؤدى فى استرّهاتسا ، ولكن حين دعته براغ لتقديم أوبرا فيها ، ضمن سلسلة تقـــرر أن تحتوى على زواج فيجارو ودون جوفانى ، أحجم فى رسالة كلها تواضع نبيل (ديسمبر ١٧٨٧) ، قال :

« تريد منى أوبرا هازلة . . . فإذا كان قصدك إخراجها فى براغ فانى لا استطيع أن اسدى إليك هذا الصنيع . ذلك أن أوبراتى لا تنفصل عن المجتمع الذى كتبت له ، ولن تحدث التأثير المقصود منها إذا عزلت عن بيئتها الأصلية . ولكن يكون أمرا آخر أن أشرف بتكليفى بكتابة أوبرا جديدة لمسرحكم . على أنه حتى فى هذه الحالة ، سيكون من المغامرة أن أضع نفسى منافسا لموتسارت العظيم . ولو انى استطعت فقط أن الهم كل عاشق للموسيقى ، خصوصا بين العظماء ، بمشاعر تبلغ فى عمقها مشاعرى ، وفهم واضح كفهمى ، وهم يستمعون إلى أعمال موتسارت الممتنعة على التقليد ، إذن لتبارت الأمم على حيازة هذه الجوهرة الكريمة داخل حدودها . وعلى براغ أن تجاهد للاحتفاظ بهذا الكنز فى قبضتها ، ولكن بمكافأته المكافأة اللائقة . واغفال هذا الجزاء كثيراً ما يكون مصدر حزن فى حياة عبقرى

عظيم ، وتثبيط للمزيد من الجهود ولمستقبل الأيام . وانى لأشعر بالسخط لأن موتسارت لم يستخدم إلى الآن فى أى بلاط امبراطورى أو ملكى . عفوا ان كنت قد خرجت عن الموضوع ، فموتسارت رجل عزيز على جداً » [٣٢] .

وكان هايدن نفسه يتوق إلى بلاط تنتشر فيه موهبته جناحيها على نطاق أوسع ، ولكن كان عليه أن يقنع بالمجاملات الملكية . ووصلته الهدايا من فوديناند الرابع ملك نابلى وفردريك وليم الثانى ملك بروسيا وماريا فيودروفنا الأرشيدوقة الروسية . وفى ١٧٨١ بعث إليه شارل الثالث ملك أسبانيا علبة سعوط ذهبية مرصعة بالماس ، وسافر السفير الأسبانى لدى فيينا إلى استرهاتسا ليقدم إليه هذا الكنز الصغير بشخصه . ولعل لبوكيرينى يداً فى هذه اللفتة ، وكان يومها يقيم فى مدريد ، لأنه اقتبس أسلوب هايدن بحماسة شديدة حتى لقد لقب بـ « زوجة هايدن » [٣٣] . ولما قرر مجلس الكتدرائية فى قادس تكليف موسيقى بوضع الاطار الموسيقى لـ « كلمات مخلصنا السبع الأخيرة » رسا التكليف على هايدن ، فاستجاب بأوراتوريو (١٧٨٥) لم يلبث أن أدى فى أقطار كثيرة — فى الولايات المتحدة الأمريكية فى تاريخ مبكر (١٧٩١) . وفى ١٧٨٤ طلب مخرج باريسى ست سمفونيات ، فأتحفه هايدن بست « سمفونيات باريسية » . ووصلته عدة دعوات ليقود الحفلات الموسيقية فى لندن . وشعر هايدن بأنه مربوط باسترهاتسا برباط الولاء كما هو مربوط برباط التعاقد ، ولكن خطاباته الخاصة تشى بشوقه المتزايد إلى مسرح أرحب لفنه .

وفى ٢٨ سبتمبر ١٧٩٠ مات الأمير نيكلاوس يوزف . ولم يكن الأمير الجديد انطون استرهاتسى ولوعا بالموسيقى ، ففصل كل الموسيقيين تقريبا ، ولكنه احتفظ بهايدن اسميا فى خدمته ، ومنحه معاشا سنويا قدره ألف وأربعمائة فلورين ، وسمح له بأن يسكن حيث يشاء . وانتقل هايدن إلى فيينا لتوه تقريبا ، وتلقى الآن عدة عروض ، أعجلها من يوهان بيتر سالومون ،

الذى صرح له بهذه العبارة « لقد جئت من لندن لآخذك معى ، وسنبرم اتفاقنا غدا » . وعرض عليه ٣٠٠ جنيه لقاء أوبرا جديدة ، و ٣٠٠ أخرى نظير ست سمفونيات ، و ٢٠٠ أخرى نظير حق تأليفها ، و ٢٠٠ أخرى نظير عشرين حفلة موسيقية فى إنجلترة ، و ٢٠٠ أخرى نظير حفلة موسيقية تحيا فيها لصالح هايدن — ومجموعها كلها ١٢٠٠ جنيه . وكان هايدن يجهل الانجليزية ويخشى عبور المانش . وتوسل إليه موتسارت ألا يضطلع بهذه الأعباء والمغامرات قائلا « يا أبت ، إنك لم تتلق أى تعليم يؤهلك للعالم الواسع ، وأنت لا تتكلم إلا القليل جدا من اللغات ! » وأجاب هايدن « ولكن لغتى مفهومة فى العالم كله . » [٣٤] وباع البيت الذى منحه إياه الأمير ميكلوس يوزف فى أيزنشتات ، ودبر معاش زوجته وخليلته ، ثم انطلق إلى مغامرته الكبرى . وأنفق مع موتسارت الأيام الأخيرة قبل الرحيل ، وبكى موتسارت حين رآه يرحل (إننى أخشى يا أبتاه أن يكون هذا آخر وداع لنا) .

وغادر هايدن وسالومون فيينا فى ١٥ ديسمبر ١٧٩٠ ، ووصلا إلى لندن فى أول يناير ١٧٩١ . وكانت أولى حفلات هايدن الموسيقية (١١ مارس) انتصارا له . وختمت صحيفة « المورننج كرونكل » تقريرها عنها بهذه العبارة « لا نستطيع أن نخفى أملنا الوطيد فى أن يكون فى هذا الترحيب البالغ الذى لقيه منا أعظم عباقرة الموسيقى فى جيلنا هذا ما يغريه بأن يتخذ مقامه فى إنجلترة . » [٣٥] ونجحت كل الحفلات الموسيقية ، وفى ١٦ مايو أبهجت قلب هايدن حفلة أحييت لصالحه بـ ٣٥٠ جنيه . وفى ذلك الشهر حضر حفلة تذكارية لهندل فى كنيسة وستمنستر . واستمع إلى (المسيا) وبلغ به التأثر حد البكاء ، وقال فى تواضع (هندل ، أستاذنا جميعا .) [٣٦] واقترح بيرنى على جامعة أكسفورد أن تمنح هندل الجديد درجة فخرية ، وقبل الاقتراح ، وذهب هندل إلى الجامعة فى يوليو ، وأصبح دكتورا فى الموسيقى ، وقاد هناك سمفونيته فى مقام G الكبير (رقم ٩٢) وكان قد ألفها قبل ثلاث سنوات ، ولكن التاريخ يعرفها منذ ذلك الوقت بسمفونية

أكسفورد . . وتذكرنا حركتها البطيئة الجميلة بالاغنية الشعبية الانجليزية القديمة « لورد راندول » .

ولقد اتيح لهايدن أن يستمتع بمشهد الريف الانجليزى الذى رأى فيه تمجيدا سماويا للنبات والمطر ؛ لذلك قبل مغتبطا عقب عودته إلى لندن دعوات لبيوت ريفية . وهناك وفى لندن كسب الكثير من الأصدقاء بترحيبه بالعزف والغناء فى حفلات خاصة . واتخذ له تلاميذ متقدمين فى الموسيقى ليعلمهم التأليف ، ومن بينهم أرملة وسيمة غنية تدعى يوهانا شروتر . ومع أنه كان فى الستين ، فان هالة شهرته أدارت رأسها فعرضت عليه حبها . وقد ذكر هذا الحديث فيما بعد فقال « أغلب الظن أننى كنت متزوجها لو كنت عزبا . »[٣٧] وفى غضون هذا كانت زوجته تلح عليه فى العودة . وفى خطاب أرسله إلى لويجا بولتسيللى قال متذمرا (إن زوجتى — الوحش الجهنمى — كتبت لى أشياء بلغت من الكثرة ما أكرهنى على الجواب بأنى لن أعود أبدا .)[٣٨]

وراح يشتغل بهمة رغم ما أثقل ضميره وجيبه من النسوة الثلاث ، فألف الآن ستا (رقم ٩٣ — ٩٨) من سمفونياته اللندنية الأثنى عشرة . ونرى فيها تطوراً ملحوظا من إنتاجه فى إيزتشتات واسترهاتسا . ولعل سمفونيات موتسارت قد شحذت فنه ، أو لعل احتفاء انجلترة به قد أخرج خير ما فيه ، أولعل إسماعة إلى هندل حرك فيه أعماقا لم تمسها بيئته الساكنة الهادئة فى ربى الجبر ، أو لعل علاقاته الغرامية قد رفعته إلى العواطف الرقيقة كما بعثت فيه الفرحة البسيطة . وشق عليه إن يبرح انجلترة ؛ ولكنه كان مرتبطا بعقد مع الأمير أنطون استرهاتسى الذى أصر الآن على عودة هايدن ليشارك فى المهرجانات الممهدة لتتويج الأمبراطور فرانسيس الثانى . ومن ثم نراه يقتحم المانش ثانية فى أواخر يونيو ١٧٩٢ ، وينتقل من كاليه إلى بروكسل إلى بون ، ويلتقى ببيتهوفن (الذى كان آنئذ فى الثانيه والعشرين) ، ويحضر التتويج فى فرانكفورت ، ثم يصل إلى فيينا فى ٢٦ يونيو .

ولم تشر صحيفة واحدة إلى عودته ، ولا نظمت له حفلات موسيقية ، ولا حفل به البلاط . ولو كان موتسارت موجودا لاحتفى بمقدمه ، ولكن موتسارت كان قد قضى . وكتب هايدن إلى أرملته ، وتطوع باعطاء دروس مجانية لابنه ، وحث الناشرين على طبع المزيد من موسيقى موتسارت . ثم ذهب ليعيش مع زوجته فى المنزل المحتفظ به الآن متحفاً لهايدن (هايدن — جاسى ١٩) . وأرادته الزوجة إن يكتب لها البيت فرفض . وازدادت مشاجراته معها حدة . وقدم بيتهوفن فى ديسمبر ١٧٩٢ ، ليدرس عليه . ولكن العبقريين لم ينسجما معا ، فقد كان بيتهوفن متكبراً مسيطراً ، وكان هايدن يلقبه « المغولى الأكبر »[٣٩] . وقد شغله استغراقه فى عمله هو عن تصحيح تمرينات تلميذه بأمانة ، ووجد بيتهوفن سراً معلما آخر ، ولكنه واصل تلقى الدروس عن هايدن . قال الجبار الصغير «لم أتعلم منه شيئا[٤٠]» ، ومع ذلك فكثير من قطعه الأولى تنهج نهج هايدن ، وقد أهدى بعضها لمعلمة الشيخ .

وازداد تقدير القوم لهايدن فى النمسا وفى روراو ، فأقام الكونت فون هاراخ فى روراو ، عام ١٧٩٢ ، تمثالا لابن البلدة الذى غدا الآن ذائع الصيت ، ولكن ذكرى إنتصاراته وصداقاته فى إنجلتره كانت لا تزال حارة ، ومن ثم لم يتردد الموسيقى فى الموافقة على العرض الثانى الذى قدمه له سالومون بالذهاب إلى لندن وتكليفه كتابة ست سمفونيات جديدة . فغادر فيينا فى ١٩ يناير ١٧٩٤ ووصل إلى لندن فى ٤ فبراير . وكانت إقامته هذه التى إمتدت ثمانية عشر شهراً فى إنجلتره نصراً مؤزراً شدد عزمه كنصره الأول . وظفرت المجموعة الثانية من « السمفونيات اللندنية » (أرقام ٩٩ — ١٠٤) باستقبال طيب ، وخرج هايدن من حفلة أحييت لصالحه بدخل صاف قدره ٤٠٠ جنية . وكان تلاميذه يدفعون له جنيها انجليزيا فى الدرس ، وكانت السيدة شرودتر تسكن بقربة ، وعاد الأثير المقرب للطبقة الارستقراطية ، فاستقبله الملك وأعداء الملك على السواء ، وأمير ويلز ، وعرضت عليه الملكة مسكنا فى ونزر طوال الصيف إذا أطال مقامه فى إنجلتره موسما آخر . ولكنه إعتذر بأن

أمير استرهاتسى الجديد يدعوه للعودة ، وأنه لا يستطيع الغياب عن زوجته فترة طويلة كهذه (ا) . وكان الأمير أنطون قد مات ، وأراد خلفه الأمير ميكلوس الثانى أن يعيد الحفلات الاوركسترالية فى ايزنشتات . وهكذا غادر هايدن لندن فى ١٥ أغسطس ١٧٩٥ بعد أن حزم حقائبه وجيوبه عامرة بالنقود ويمم شطر وطنه .

وبعد أن زار تمثاله فى روراو قدم نفسه لميكلوس الثانى فى أيزنشتات ونظم الحفلات الموسيقية لشتى المناسبات هناك . على أنه كان يقيم فى بيته فى أطراف فيينا باستثناء الصيف والخريف . وفى عامى ١٧٩٦ — ٩٧ كان نابليون يسوق النمساويين أمامه فى إيطاليا ، وهدد تصاعد المشاعر الثورية فى النمسا نظام هابسبورج الملكى ، وتذكر هايدن كيف شدت الحماسة التى أثارها إنشاد النشيد الإنجليزى « حفظ الله الملك » إزر اسرة هانوفر فى إنجلترا » وسأل نفسه إلا يمكن أن يفعل نشيد قومى مثل هذا فى شد أزر الامبراطور فرانسيس الثانى ؟ وتقدم صديقه البارون جوتفريد فان زفيتن (ابن طبيب ماريا تريزا) بهذا الإقتراح إلى الكونت فون زاوراو وزير الداخلية . وعين زاوراو ليوبولد هاشكا ليؤلف نصا للنشيد » واستجاب الشاعر بنشيده « حفظ الله الإمبراطور فرنسيس ، إمبراطورنا الصالح فرانسيس »

ووفق هايدن لهذه الكلمات لحنا لأغنية كرواتية قديمة ، وكانت النتيجة نشيداً قومياً مؤثراً رغم بساطته . وأنشد علانية فى عيد ميلاد الإمبراطور فى ١٢ فبراير ١٧٩٧ فى جميع المسارح الكبرى فى مملكة النمسا والمجر . وقد ظل مع بعض التغيير فى الفاظه — النشيد القومى النمساوى حتى ١٩٣٨ . وطور هايدن اللحن ، مع تنويعات ، ليصبح الحركة الثانية فى رباعيته الوترية (٧٦ رقم ٣) .

ثم حاول أن ينافس « المسيا » وهو ما يزال أسيراً لسحر هندل . وكان

سالومون قد قدم له نصا مصنفا من قصيدة لمتن « الفردوس المفقود » ، وترجم فان زفيتن النص إلى الألمانية ، ولحن هايدن الأوراتوريو الضخم « دى شويفونج » (الخليقة) . وأدى إوراتوريو « الخليقة » أمام جمهور دعى إلى قصر الأمير فون شفارتسنبرج فى ٢٩ — ٣٠ إبريل ١٧٩٨ . وبلغ احتشاد الجمهور خارج القصر مبلغا إقتضى معه حفظ النظام إستخدام خمسين شرطيا من الخيالة (كما يؤكدون)[٤١] . ومول الأمير حفلة عامة فى المسرح القومى فى ١٩ مارس ١٧٩٩ ، ونفح مؤلف الموسيقى بكل دخلها (الذى بلغ أربعة آلاف فلورن) . وحيا السامعون الموسيقى بحماسة أشبة بالحماسة الدينية ، وما لبث الاوراتوريو أن أستمع إليه الناس فى كل مدينة كبرى تقريباً فى العالم المسيحى . وأدانت الكنيسة الكاثوليكية اللحن لأنه أخف وأجذل من إن يصلح لموضوع جليل كهذا ، ووافق شيلر بيتهوفن فى السخرية من تقليد هايدن لحيوانات جنة عدن ، أما جوته فقد أشاد بالعمل ، وظفر اللحن فى بروسيا بعروض فى القرن التاسع عشر فاقت فى كثرتها أى لحن كورالى آخر .

وقدم فان زفيتن نصا آخر إقتبسه من قصيدة جيمس طومسن «الفصول» . وعكف هايدن عليه بهمة قرابة عامين (١٧٩٩ — ١٨٠١) ، مما أضر كثيراً بصحته . وقد قال « أن « الفصول » قصمت ظهرى » . وحظيت حفلة العرض الأولى باستقبال طيب ، ولكن اللحن لم يثر حماسة واسعة أو دائمة . وبعد أن قاد هايدن « كلمات المسيح السبع الأخيرة » لصالح احد المستشفيات اعتزل حياته النشيطة .

وكانت زوجته قد ماتت فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، ولكنه كان الآن قد بلغ من الكبر حداً لا يتيح له الأستمتاع بحريته وإن لم يمنعه من الاستمتاع بشهرته . فقد إعترف به الناس إماما للمؤلفين الموسيقيين ، وتكاثرت عليه أسباب التشريف من شتى المدن ، ووفد عليه مشاهير الموسيقيين — أمثال كيروبينى ، وآل فيبر ، واجناز بليل ، وهوميل — لتقديم واجب الاحترام والأجلال له . ولكن الروماتزم والدوار وغيرهما من الأوصاب أورثته

الاكتئاب وسرعة الغضب والتشبث الرهيب بأهداب الدين . وحين زاره كاميل بلييل فى ١٨٠٥ وجده « ممسكا بمسبحة فى يديه ، وأعتقد أنه يقضى أكثر يومه فى الصلاة ، وهو لا يفتأ يقول أن نهايته قد دنت . . . ولم نطل المكث معه لأننا رأينا أنه يريد أن يصلى[٤٢] . فى ذلك العام انتشرت شائعة كاذبة زعمت أن هايدن مات . وكتب كيروبينى كنتاتا عن موته » وخططت باريس لحفلة موسيقية تذكارية يعزف فيها قداس موتسارت الجنائزى » ثم وصل نبأ بأن الشيخ ما زال على قيد الحياة . فلما سمع هايدن بالأمر قال معقباً « إذن لسافرت إلى باريس لأقود القداس الجنائزى بنفسى »[٤٣] .

وظهر آخر مرة أمام الجمهور فى ٢٧ مارس ١٨٠٩ حين رتلت «الخليقة» فى جامعة فيينا احتفالا بعيد ميلاده السادس والسبعين الوشيك . وأرسل الأمير استرهاتسى مركبته لنقل الرجل العاجز إلى الحفلة الموسيقية . وحمل هايدن على كرسى ذى مسندين إلى القاعة بين جمهور من النبلاء ومشاهير القوم » ولفت الأميرات شيلانهن حول جسده المرتعش . وجثا بيتهوفن وقبل يده . وغلب التأثر المؤلف العجوز ، ولم يكن بد من اعادته إلى بيته فى فترة الاستراحة .

وفى ١٢ مايو ١٨٠٩ بدأت مدفعية نابليون تقصف فيينا . وسقطت قنبلة على مقربة من بيت هايدن فهزته هو وسكانه ، ولكن هايدن قال ليطمئنهم « ياأبنائى لاتخافوا ، فحيث يوجد هايدن لن يصيبكم سوء » . وصدق قوله إلا عن نفسه ، فقد حطم القصف جهازه العصبى . فلما استولى الفرنسيون على المدينة أمر نابليون بأن يرابط حرس شرف أمام بيت المؤلف . ورتل ضابط فرنسى عند دخوله لحنا من « الخليقة » بطريقة فيها كثير من الرجولة والسمو حتى أن هايدن عانقه وفى ٣١ مايو قضى نحبه وهو فى السابعة والسبعين ، وأقامت كبرى مدن أوربا كلها الصلوات تذكارا له .

يقتصر انجاز هايدن التاريخى على تطوير الأشكال الموسيقية . وقد أضفى على الأوركستر حيوية جديدة بما أوجده من توازن بين الأوتار وآلات النفخ والنقر . وإذ بنى فوق جهود سامارتينى وشتامتز وكارل

فليب ايمانويل باخ : فانه أرسى شكل الصوناتا باعتبارها عرضا وتفصيلا وتلخيصا لموضوعات متعارضة وأعد لموتسارت الموسيقى الخفيفة المسلية المسماة « ديفرتمنتو » باعتبارها أقل شكلية من المتتالية وأنسب القاعات الاجتماعية. وأعطى الرباعية الوترية صورتها الكلاسيكية باطالتها إلى أربع حركات ، وباعطاء الحركة الأولى «شكل الصوناتا» . وهنا كان على خلفائه أن يستخدموا عدد ونوع الآلات التى استخدمها هايدن ، وقد حقق فى كثير من الحالات جمالا مشرقاً رقيقاً يعود إليه بعضنا متخففاً من التعقيدات العسيرة التى نجدها فى رباعيات بيتهوفن الأخيرة .

ولاتزال على قيد الحياة تسع سمفونيات أو عشر من سمفونيات هايدن المائة والأربعة . ولم تكن الأسماء التى تحملها من اختياره ولكنها من وضع المعلقين أو الناشرين . وقد لاحظنا فى مكان سابق تطور «السنفونية» (أى الأصوات المجمعة) من المقدمة بفضل تجارب سامرتينى وشتامتز . وقد سبق كثيرون هايدن فى صياغة بناء السمفونية «الكلاسيكية» فلماخرج من استرهاتسا إلى عالم أرحب لم يكن قد بلغ من الكبر حداً يعجزه عن أن يتعلم من موتسارت كيف يملاء البناء مغزى وعاطفة . وتحدد « سمفونية أكسفورد » مرحلة صعوده إلى مدى أبعد وقوة أعظم ، وترينا « السمفونيات اللندنية » هايدن فى قمة آفاقه السمفونية . والسمفونيـــة رقم ١٠١ (سمفونية الساعة) مبهجة » ورقم ١٠٤ لايقل مستواها عن سمفونيات موتسارت .

ويمكن القول بوجه عام إننا نحس فى موسيقاه طبيعة لطيفة سمحة ربما لم تشعر قط بأعماق الحزن أو الحب » طبيعة اضطرت إلى الانتاج فى عجلة لم تسمح بإنضاج الفكرة أو الموضوع أو الجملة . لقد كان هايدن أسعد من أن يبلغ العظمة العميقة » ولقد تكلم أكثر مما يتيح له التعبير عن الكثير . ومع ذلك فـ ن فى هذه الانغام اللعوب ذخيرة من البهجة الصافية الهادئة ، فهنا كما قال « قد يستمتع المتعبون المكدودون ، أو الرجل الذى أثقلته هموم الحياة ، ببعض السلوى والانتعاش (٤٤) » .

وعقب موت هايدن انصرف العصر عن موسيقاه . فلقد عكست أعماله عالما اقطاعيا ثابتا وطيد الأركان ، وبيئة من الأمن والدعة الارستقراطيين ، وكان فى هذه الأعمال من المرح والرضى عن النفس ما لا يشبع قرنا ملؤه الثورات والأزمات والنشوات الرومانسية واليأس . ولكن الناس عادوا يقبلون عليه حين امتدحه برامز وكتب دبوسى « تحية اجلال لهايدن » (١٩٠٩) . عندها أدرك الناس أنه إذا كان رفائيل وميكلانجلو الموسيقى اللذان جاء بعده قد سكبا فكرا أعمق مع تمكن أرهف فى مؤلفاتهما الموسيقية ، فانهما لم يستطيعا ذلك إلا لأن هايدن ومن سبقوه صاغوا الأشكال التى تلقاها فنهما الرائع . قال هايدن « انى أعلم أن الله منحنى موهبة ، وأنا شاكر له هذه المنحة وأحسبنى قمت بواجبى وكنت ذا نفع . . فليصنع الآخرون كما صنعت . » (٤٥)

الفصل الخامس عشر

موتسارت

١ – الصبي العجيب : ١٧٥٦ – ٦٦

كانت سالزبورج مخفرا موسيقيا أماميا لفيينا ، شأنها في ذلك شأن براغ وبرسبورج واسترهاتسا ، لها طابعها الخاص أولا بسبب مناجم ملحها التي تعلل اسمها ، وثانيا بسبب جبالها المجاورة ونهر زالتساخ الذي يشطرها شطرين ، وثالثا بسبب نموها حول الدير والكرسي الاسقفي اللذين أنشأهما هناك القديس روبرت الفورمزي حوالي عام ٧٠٠ م . وقد رقي رئيس أساقفتها لرتبة (الأمير الامبراطوري) في ١٢٧٨ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٨٠٢ ظل حاكم المدينة المدني والديني جميعا . وفي ١٧٣١ – ٣٢ أكره نحو ثلاثين ألف بروتستنتي على الهجرة ، فخلفين سالزبورج كاثوليكية خالصة محكومة كلها بحكومة من رجال الدين الكاثوليك . وفيما عدا ذلك كان نير رئيس الاساقفة خفيفا على سكان سنيي العقيدة ، أقبلوا على المتع الجسدية وغيرها من مباهج الدنيا بعد أن اطمأنوا إلى حقائق الأبدية المؤكدة . وكان زيجسموند فون شراتنباخ رئيس الاساقفة أيام صبي موتسارت ، رجلا يتحلى بقدر كبير من الطيبة والشفقة إلا مع المهرطقين .

إلى هذه البلدة الجميلة إذن قدم ليوبولد موتسارت في ١٧٣٧ وهو في الثامنة عشرة من وطنه أوجزبورج ، ربما ليدرس اللاهوت ويمتهن القسوسية . ولكنه أسلم قلبه للموسيقى ، وخدم ثلاث سنين موسيقيا وتابعا في بيت أحد النبلاء ، وفي ١٧٤٣ أصبح رابع عازفي الكمان في أوركسترا رئيس الاساقفة . فلما تزوج آنا ماريا بيرتل (١٧٤٧) عدهما القوم أجمل عروسين في سالزبورج . وقد ألف الكونشرتوات والقداسات والسمفونيات ، كما ألف كتابا مدرسيا لتقنية الكمان حظي طويلا بالتقدير . وفي ١٧٥٧ عين مؤلفا موسيقيا لبلاط رئيس الاساقفة . ولم يبق الموت إلا على اثنين من

أطفاله السبعة جاوزا سن الطفولة : ماريا آنا (ماريانا « نانيرل ») المولودة فى ١٧٥١ ، وفولفجانج أماديوس المولود فى ٢٧ يناير ١٧٥٦ (واسم الغلام الكامل — الذى تشفعت به الأسرة لدى قديسين عديدين — كان يوانس خريسوستومس فولفجانجس تيوفيلوس موتسارت ، وقد ترجم تيوفيلوس من اليونانية إلى اللاتينية بأماديوس أى محب الله .) وكان ليوبولد زوجا وأبا طيبا ، مخلصا ومجتهدا . وخطاباته لوالده تفيض محبة ولا تعوزها الحكمة . وكان بيت موتسارت — إذا أغضينا عن قليل من نابى الحديث يدور فيه — مرفأ للحب المتبادل « والتقوى الأبوية » والدعابات الطفلية « والموسيقى التى لا تنقضى .

كان القوم يتوقعون من كل طفل ألمانى أن يصبح موسيقيا إلى حدما ، يعزف على إحدى الآلات . وعلم ليوبولد أطفاله الموسيقى مع مبادىء القراءة . فكانت ماريانا قد اتقنت فى الحادية عشرة العزف على الكلافيكورد . أما فولفجانج فقد عكف على الكلافير فى شغف بعد أن حفزته قدوتها « فأستطاع فى الثالثة أن يميز بين الأوتار ، وفى الرابعة أن يعزف عدة قطع من الذاكرة ، وفى الخامسة ابتكر ألحانا سجلها أبوه أثناء عزفها . وأمتنع ليوبولد عن إتخاذ تلاميذ آخرين يلقنهم الموسيقى ليفرغ بجملته لطفلية وإن كلفة ذلك بعض التضحية . ولم يرسل « فولف » إلى المدرسة ، لأنه نوى أن يكون معلمه فى كل شىء . ولعل هـذا التعليم إقتضى شيئاً من الضبط الألمانى « ولكن لم تكن الحاجة لكثير منه فى هذه الحالة ، ذلك أن الغلام كان يلزم لوحة المفاتيح من تلقاء نفسه ساعات طوالا إلى أن يجبر على مبارحتها[1] . وقد كتب إليه ليوبولد بعد هذه الفترة بسنوات يقول :

« لقد كنت فى مرحلة الطفولة والصبى تسلك مسلكا جاداً يختلف عن مسلك سائر الأطفال « وحين كنت تعزف الكلافير ، أو تعكف على الموسيقى ، لم تكن تسمح بأقل مزاح معك . لا بل إن سحنتك ذاتها كانت تتسم بطابع الجد الشديد « حتى لقد تنبأ الكثيرون ممن راقبوك بأنك ستموت قبل أوانك بسبب نبوغك المبكر ومظهرك الجاد[2] » .

وفى يناير ١٧٦٢ ، حين كانت ألمانيا مازالت تمزقها الحرب ، إصطحب ليوبولد إبنته وإبنه إلى ميونخ ليعرض على الأمير الناخب مكسمليان يوزف براعتهما فى العزف ، وفى سبتمبر إستصحبهما إلى فيينا . ودعيا إلى شونبرون « وإبتهجت ماريا تريزا وفرانس الأول بالطفلين ، وقفز قولفجانج إلى حجر الأمبراطورة ، وضمها إليه وقبلها ، ولما تحداه الأمبراطور عزف على الكمان بأصبع واحدة ، وعزف على الكلافيكورد دون أن يخطىء رغم حجب المفاتيح بقطعة من قماش . وفيما كان فولفجانج يمرح وهو يجرى مع الأميرات ، زلت قدمه وسقط ، فالتقطته الأرشيد وقة ماريا أنطونيا — وكانت فى السابعة — وراحت تسرى عنه . فقال لها « أنت طيبة» ، ثم أضاف شاكراً « سوف أتزوجك[٣] » . وفتح الكثير من النبلاء بيوتهم لآل موتسارت وبهتوا للموسيقى التى سمعوها وأثابوا ثلاثتهم بالمال والهدايا. ثم ألزم الغلام الفراش أسبوعين لأصابته بالحمى القرمزية — وكان هذا أول الأمراض الكثيرة التى ستنغص عليه رحلاته . وفى ١٧٦٣ عادت الفرقة إلى سالزبورج .

وأغضى رئيس الأساقفة المتسامح عن تجاوز ليوبولد فترة أجازته ، لا بل رقاه نائبا لرئيس فرقة المرتلين ولكن فى ٩ يونيو شد ليوبولد رحالة مرة أخرى مضحيا بالمزيد من الترقيات ، مصطحباً هذه المرة زوجته ، ليعرض ولديه على أوربا ، إذ لم يكن ممكنا أن يظلا أبد الدهـــر طفلين معجزين . وقدم الطفلان حفلتين موسيقيتين فى ماينز وأربعاً فى فرانكفورت وقد استعاد جوته بعد ستين عاماً ذكرى استماعه إلى إحداها ، وكيف تعجب من « الرجل القصير ذى الباروكة والسيف » — لأنه هكذا ألبس ليوبولد إبنه فولفجانج كأنه عجيبة من عجائب السرك . ففى إعلان نشر فى جريدة فرانكفورتية بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٧٦٣ وعد المتفرجون فى حفلة ذلك المساء بالآتى :

« ستعزف الفتاة الصغيرة ذات الأحدى عشرة سنة أعسر مؤلفات كبار الموسيقيين ، أما الصبى الذى لم يبلغ السابعة بعد فسيعزف على الكلافيكورد

أو الهاربسيكورد . كذلك سيعزف كونشرتو للفيولينه ، ويصاحب سمفونيات على الكلافير ولوحة المفاتيح مغطاة بالقماش فى يسر بالغ كأنه يبصر المفاتيح. وسيسمى جميع النغمات التى تعزف عن بعد ، سواء مفرده أو متوافقة ، على الكلافير أو على اية آلة أخرى — جرسا كانت أو كأسا أو ساعة . وأخيراً سيرتجل على الهاربسيكورد والأرغن طوال ما يراد له أن يعزف ، وفى أى مقام[4] » .

وربما أضرت هذه المطالب المرهقة التى فرضت على مواهب الصبى بعض الضرر بصحته أو أعصابه ، ولكن يبدو أنه استمتع بتصفيق الجمهور إستمتاع أبيه بدنانيره .

وقد عزفوا فى كوبلنتز ، وخاب أملهم فى بون وكولونيا ، ولكنهم أحيوا حفلة فى آخن . وفى بروكسل توقعوا أن يشرف الحاكم العام الأمير شارل اللورينى الحفل بحضوره ، ولكنه كان مشغولا . كتب ليوبولد غاضباً :

« لقد إنقضى علينا الآن قرابة ثلاثة أسابيع فى بروكسل . . دون أن يحدث شيء . . . وما من شغل لسموه غير الصيد والتهام الطعام والشراب » وقد يتبين لنا فى النهاية أنه مفلس ... صحيح أننا تلقينا العديد من الهدايا هنا، ولكنا لانريد أن نحولها إلى نقود . . . وسيكون فى إستطاعتنا بعد قليل أن نفتح متجراً بكل هذه الهدايا من علب النشوق والحقائب الجلدية وما إليها من توافه رخيصة[5] » .

وأخيرا وافق الأمير على الحضور فأحييت الحفلة ، وجمعت الدنانير ، وركبت الفرقة ميممة باريس .

وفى ١٥ نوفمبر ١٧٦٣ بلغوا باريس بعد معاناة ثلاثة أيام من السفر على طريق وعرة تملؤها الحفر . وكانوا يحملون خطابات تقديم إلى كثير من الأعيان ، ولكن تبين أن أثمنها خطاب إلى ملشيور جريم ، الذى رتب أن يستقبل آل موتسارت مدام ديبادور ، والأسرة المالكة ، وأخيرا لويس الخامس عشر والملكة مارى لسزنسكا . وفتحت الآن أفخم البيوت للزائرين «

وحالف التوفيق حفلاتهم الخاصة والعامة ، وكتب جريم إلى قرائه فى حماسة يقول :

« إن المعجزات الحقيقية نادرة ، ولكن ما أعجب أن تتاح لنا الفرصة لرؤية واحده منها ! لقد قدم لتوه رئيس فرقة مرتلين من سالزبورج أسمه موتسارت بصحبة إثنين من أجمل الأطفال فى العالم فى فاما إبنته البالغة من العمر أحد عشر ربيعاً فتعزف على البيان أروع عزف ، وتؤدى أطول المقطوعات وأصعبها بدقة مذهلة . وأما أخوها الذى سيبلغ السابعة فى فبراير القادم فظاهرة خارقة بحيث لا تكاد تصدق ما تراه بعينيك . . . فيداه صغيرتان جداً . . . وهو يرتجل ساعة ، مستسلما لوحى عبقريته ، بلخبرة من الأفكار المبهجة . . . وليس لدى أكفأ رئيس لفرقة موسيقى ما لهذا الطفل من المعرفة العميقة بتآلف الألحان والتنقل بين النغمات . . . وليس أيسر عنده من حل أى رموز تضعها أمامه . وهو يكتب ويؤلف بيسر مدهش ، ولا يجد ضرورة للذهاب إلى البيانو واختبار الأوتار التى يريدها . وقد كتبت له « منويتا » وطلبت إليه أن يضع باصاً لها . فأمسك بقلم وكتب الباص دون أن يذهب إلى البيان . . . أن الطفل سيدير رأسى إن استمعت إلى المزيد من عزفه . . . ومن أسف أن الناس فى هذا البلد لا يفقهون عن الموسيقى إلا أقل القليل[٦] » .

وبعد أن حققت الأسرة الكثير من الأنتصارات فى باريس غادرتها إلى كالية (١٠ أبريل ١٧٦٤) . وفى لندن استقبلهم جورج الثالث . وفى ١٩ مايو ، أمام الملك والحاشية ، طوال أربع ساعات عزف فولفجانج موسيقى هندل وباخ ، غيرهما من كبار الموسيقيين بمجرد النظر إلى المدونة وصاحب غناء الملكة شارلوت ، وارتجل لحنا جديداً لباص أغنية لهندل . أما يوهان كرستيان باخ ، الذى كان قد إتخذ لندن مقاماً له فى ١٧٦٢ ، فأجلس الصبى على ركبتة وعزف معه صوناتا ، وكان كل منهما يعزف فاصلة بدوره ، فى دقة بالغة ما كان فى استطاعة أحد معها أن يحسب العزف من عازفين لا من عازف واحد[٧] » . وبدأ باخ « فوجة » ، وتابعها

فولفجانج ، كما لو كان العازفان العبقريان عازفا واحداً هنا أيضاً . وبعدها ظلت مؤلفات موتسارت سنوات عديدة متأثرة بيوهان كرستيان باخ . وفى ٥ يونيو أحيا الطفلان حفلة أبهجت قلب ليوبولد بمائة جنية انجليزى خالصة . ولكن الأب أصيب بالتهاب شديد فى الحلق ، واعتكفت الأسرة فى تشلسى للاستجمام أسابيع عدة ، ألف فيها فولفجانج سمفونيتين (ك١٦ و ١٩) ، وكان الآن يناهز الثامنة .

وفى ٢٤ يوليو ١٧٦٥ غادروا لندن إلى هولنده ، ولكن فى مدينة ليل مرض الوالد وولده ، وأرجئت الجولة شهرا ، وإن كان رئيس الأساقفة فون شراتنباخ قد طلب إلى ليوبولد أن يعود منذ زمن . ووصلوا إلى لاهاى فى ١١ سبتمبر ، ولكن فى الغد مرضت ماريانا بدورها ، ولم تلبث أن تدهورت حالها حتى أنها فى ٢١ أكتوبر تناولت الأسرار المقدسة الأخيرة . وفى ٣٠ سبتمبر أحيا فولفجانج حفلة بدون مساعدة أخته . وما إن تماثلت للشفاء حتى دهمته الحمى ، واضطرت الأسرة إلى تعطل كلفها غاليا حتى يناير ١٧٦٦ . وفى ٢٩ يناير و ٢٦ فبراير أحيوا حفلات فى امستردام ، وعزفت الآن لأول مره سمفونية لموتسارت (ك ٢٢) أمام الجمهور . وكان الصبى خلال هذه الشهور يؤلف فى نشاط محموم . وفى مايو قفلوا إلى باريس حيث كانوا قد تركوا كثيراً من حقائبهم . وهيأ جريم لهم مسكنا مريحا ، وعادوا يعزفون فى فرساى وفى حفلات عامة ، ولم يقتلعوا أنفسهم من العاصمة الفاتنة إلا فى ٩ يوليو .

وأطالوا المكث فى ديجون ضيوفا على أمير كونديه ، وأنفقوا أربعة أسابيع فى ليون ، وثلاثة فى جنيف ، وأسبوعا فى لوزان ، وآخر فى برن ، واثنين فى زيورخ ، واثنى عشر يوما فى دوناوشنجن ثم وقفات قصيرة فى بيبراخ ، وأولم ، وأجزبورج ، وفترة أطول فى ميونخ ، حيث مرض فولفجانج مرة أخرى . وأخيراً ، فى آخريات نوفمبر ١٧٦٦ ، وبعد غيبة ثلاث سنين ونصف ، وصلت الأسرة إلى سالزبورج . وصفح عنهم رئيس الأساقفة الشيخ ، واستطاعوا الآن أن ينعموا بأسباب الراحة المتاحة فى

بيتهم . ويبدا أن كل شيء على ما يرام . ولكن موتسارت لم يستعد بعدها صحة موفورة قط .

٢ — مرحلة المراهقة : ١٧٦٦ — ٧٧

كان ليوبولد رب عمل صارما لا يعرف هوادة ولا تلين له قناة . درب ولده تدريبا شاقا على دراسة الكونترا بنظ ، والباص الدقيق الكامل ، وغير ذلك من عناصر التأليف الموسيقى التى تلقاها من الموسيقى الألمانية والايطالية. وحين سمع الأسقف أن فولفجانج يؤلف الموسيقى تساءل ألم يتعاون معه أبوه فى هذا التأليف . ولكى يقطع الشك باليقين دعا الغلام ليقيم معه أسبوعا ثم عزله عن كل معونة خارجية . ودفع إليه ورقا وقلما وأعطاه هاربسيكوردا وطلب إليه أن يؤلف قسما من أوراتوريو عن الوصية الأولى . وفى ختام الأسبوع قدم إليه موتسارت نتيجة عمله ، وقيل لرئيس الأساقفه . إنها جديره بالثناء . وكلف رئيس أوركستراه ميخائيل (أخا يوزف) هايدن بأن يؤلف قسما ثانياً ، وعازف أرغنه أن يؤلف قسما ثالثاً ، ثم عزف الكل فى قصر رئاسة الأسقفية فى ١٢ مارس ١٧٦٧ . ورؤى أنه يستحق الأعادة فى ٢ أبريل . وقسم موتسارت وارد الآن تحت رقم ٣٥ فى كتالوج كوشل(*)

وبلغ ليوبولد أن الأرشيدوقة ماريا يوزفا ستزف قريباً إلى فرد يناند ملك نابلى ، فخطر له أن الاحتفالات التى ستقام فى القصر الأمبراطورى ستتيح فرصة جديدة لولدية . وعليه قصدت الأسرة فيينا فى ١١ سبتمبر ١٧٦٧ . فأستقبلوا فى القصر . وكانت النتيجة إصابة فولفجانج وماريانا كليهما بالجدرى الذى التقطا عدواه من العروس . وأخذ الأبوان التعسان طفليهما المعجزين إلى أولموتز بموراقيا ، حيث قدم لهما الكونت بوتستاتسكى

(*) صدر هذا أصلا فى ليبزج عام ١٨٦٢ تحت اسم Chronologisch-thematisches Verzeichniss sammtlicher Tonwerke W,A. Mozarts ونحن نستعمل الطبعة المنقحة من عمل ألفريد أينشتين فى كتابه « موتسارت شخصيته وآثاره (لندن ١٩٥٧) ، ١٧٣ — ٨٣

المأوى والرعاية وظـل موتسارت أعمى تسعة أيام . وفى ١٠ يناير عادت الأسرة إلى فيينا . واحتفلت بهم الأمبراطوره ويوزف الثانى ، ولـكن البلاط كان فى حداد على وفاة العروس ، ولم يكن هناك محل لأحياء حفلات موسيقية .

وبعد غياب طويل لا نفع فيه عادت الأسرة إلى سالزبورج (٥ يناير ١٧٦٩) وواصل موتسارت دراساته مع أبيه « ولـكن فى أو اخر ذلك العام قـ ر ليوبولد أنه علم الصبى كل ما يستطيع أن يعلمه » وأن ما يحتاج إليه فولفجانج الآن هو الألمام بحياة ايطاليا الموسيقية . ومن ثم حصل الأب وابنه على خطابات تقديم لـكبار الموسيقيين الأيطاليين من يوهان هاسى وغيره ، ثم انطلقا فى رحلتهما فى ١٣ ديسمبر ١٧٦٩ تاركين ماريانا وأمها ليحتفظا بموطىء قدم فى سالزبورج . وفى الليلة التالية أحيا موتسارت حفلة فى إنزبروك « وعزف بمجرد الاطلاع على النوتة كونشرتو غير مألوف وضع أمامة إمتحانا لمهارتة ، وهللت الصحافة المحلية لـ « معلوماتة الموسيقية الخارقة[٨] » . وفى ميلان التقيا بسامارتينى وهاسى وبنشينى « وحصل الكونت فون فرميان لفولفجانج على تكليف بتأليف أوبرا ، وهذا معناه مائة دوقاتية تدخل خزانة الأسرة . وفى بولونيا استمعا إلى صوت فارينللى الذى لم يزل معجزا ، وكان قد عاد من انتصاراته فى أسبانيا « ورتبا مع بأدرى مارتينى أن يعود فولفجانج ليدخل الاختبارات المؤهلة لدبلوم « الأكاديميا فيلارمونيكا » المرموق . وفى فلورنسة ، فى قصر الأرشيدوق ليوبولد ، عزف موتسارت على الماربسيكورد مصاحباً فيولينة نارديني . ثم هرع الأب وولده إلى روما ليلحقا موسيقى أسبوع الآلام .

ووصلا فى ١١ أبريل ١٧٧٠ ، أثناء عاصفة رعدية برقية « فحق لليوبولد أن يكتب أنهما « استقبلا استقبال عظماء الرجال بإطلاق المدافع[٩] » . وكان وصولهما بالضبط فى وقت سمح لهما بالذهاب إلى كنيسة السستين والاستماع إلى « ميزريرى » (لحن المزمور الخمسين « أرحمنى ») الذى ألفه جريجوريو الليجرى ، والذى كان يرتل هناك كل عام . وكان من العسير

الحصول على نسخ من هـــذا الكورال الأشهر المكتوب لأربعة أصوات أو خمسة أو تسعة ، فأصغى إليه موتسارت مرتين ثم كتبه من الذاكرة . ومكثا فى روما أربعة أسابيع ، وأحييا حفلات موسيقية فى بيوت النبلاء مدنيين وكنسيين . وفى ٨ مايو انطلقا فى رحلتهما إلى نابلى . وكان الطريق خطرا لانتشار اللصوص فيه ، فسافر موتسارت وأبوه مع أربعة رهبان أو غسطينين لينالا الحماية الدينية أو يظفرا بتناول القربان قبل الموت فى هذه الضرورة الملحة . واستبقتهما نابلى شهرا بأكمله لأن النبلاء ابتداء من تانوتشى فتازلادعوهما لأمسيات ووضعوا كل أسباب الترف تحت تصرفهما. فلما عزف فولفجانج فى « الكونسرفاتوريو ديللا بييتا » عزا الجمهور المؤمن بالخرافات براعته لضرب من السحر كامن فى خاتم يلبسه . وأدهشهم أنه واصل العزف بالبراعة ذاتها بعد أن خلع خاتمه .

وبعد أن استمتعا بالمقام فى روما مره أخرى عبرا الأبنين ليصليا للعذراء فى كنيستها « سانتا كازا » بلوريتا » ثم اتجها شمالا لينفقا ثلاثة أشهر فى بولونيا . وكان موتسارت يتلقى كل يوم تقريبا دروسا من بادرى مارتينى فى أسرار التأليف الموسيقى . ثم تقدم لاختبار القبول فى « الأكاديميا فيلارمونيكا » ، فأعطى قطعة من ترنيمة بسيطة جريجورية ، طلب إليه أن يضيف إليها وهـــو محبوس وحده فى حجرة نوتات عليا ثلاثا بالأسلوب التقليدى الدقيق « stile osserrato » وأخفق فى المحاولة ، ولكن البادرى الطيب صحح إجابته ، وقبل المحلفون الصورة المنقحة « نظرا إلى الظروف الخاصة » — ربما لصغر سن موتسارت .

وفى ١٨ أكتوبر كان الوالد والولد فى ميلان . هناك حقق فولفجانج أول إنتصاراته مؤلفاً موسيقيا ، ولكن بعد الجهد الجهيد والمعاناة الكثيرة وكان موضوع الأوبرا التى كلف بها «متريداتى ، ملك بنطس» ، وقد أخذ النص من راسين . وراح الفتى الذى لم يجاوز الرابعة عشرة يكد ويكدح تأليفاً وعزفاً وتنقيحا حتى كلت أصابعه واستحالت حماسته ضربا من الحمى ، فاضطر أبوه إلى أن يحدد ساعات عملة ويهدىء من اضطرابه بنزهة على

الأقدام بين الحين والحين . وأحس موتسارت أن هذا الاختبار ، وهو أول أوبرا جاده يؤلف موسيقاها ، أشد خطرا له من ذلك الامتحان العتيق الذى أداه فى بولونيا . فقد يكون مستقبله مؤلفا لموسيقى الأوبرا رهنا بنتيجته . وترسل الآن إلى أمه واخته ان يصليا من أجل نجاح هذه المغامرة رغم انه لم يكن شديد الميل إلى التقوى والورع ، «حتى ننعم كلنا بالعيش معا مرة أخرى »[١٠]. وأخيرا حين كادت تضنيه كثرة البروفات ، قدمت الأوبرا للجمهور (٢٦ ديسمبر ١٧٧٠) ، وقادها مؤلفها، وكان انتصاره كاملا . وقوبلت كل أغنية هامة بالتصفيق الحاد ، وبعضها بهتافات يحى المايسترو يحى المايسترو الصغير . وأعيد عرض الأوبرا عشرين مرة . كتب الأب الفخور التقى « بهذا نرى كيف تعمل قوة الله فينا حين لاندفن المواهب التى منحنا إياها فضلا منه »[١١] .

واستطاعا الآن أن يعودا إلى موطنهما برؤس مرفوعه . ففى ٢٨ مارس ١٧٧١ وصلا إلى سالزبورج . وما إن بلغاها حتى تلقيا طلبا من الكونت فون فرميان ، باسم الأمبراطورة ، يرجو أن يكتب فولفجانج سرينانا أو كنتاتا ، ويحضر إلى ميلان فى أكتوبر ليقودها جزءا من الاحتفالات التى ستقام بمناسبة زفاف الأرشيدوق فرديناند إلى أميرة مودينا . ووافق رئيس الأساقفة زجسموند على أن يتغيب ليوبولد مرة أخرى عن أعماله ، وفى ١٣ أغسطس يمم الوالد والولد من جديد شطر ايطاليا ، فلما وصلا إلى ميلان وجدا فيها هاسى يعد أوبرا للاحتفالات ذاتها . وقد رتبه المديرون — ربما عن غير عمد منهم — لقاء للعبقرية يتنافس فيه أشهر مؤلفى الأوبرا الايطالية الأحياء ، البالغ آنذاك ثلاثة وسبعين عاما ، مع غلام الخامسة عشرة الذى لم يكد يفرغ من اختبار جناحيه فى التحليق الأوبرالى . وأديت أوبرا هاسى المسماة « روجيرو» فى ١٦ اكتوبر فقوبلت بتصفيق حار وفى الغد رتلت كنتاتا موتسارت المسماة (Ascanio in Alba) تحت عصا قيادته ، وكان التصفيق خارقا . وكتب ليوبولد لزوجته « يؤسفنى ان سرينانا فولفجانج طمست أوبرا هاسى طمسا تاما[١٢] . وكان هاسى

كريما سمح النفس ، فشارك في الثناء على موتسارت ، وفاه بنبوءة مشهورة « ان هذا الفتى سيلقينا كلنا في زوايا النسيان »[١٣] .

وعاد الوالد والولد إلى سالزبورج (١١ ديسمبر ١٧٧١) . وبعد خمسة أيام مات زجسموند الطيب . وكان خلفه في رئاسة الأسقفية « وهو هيرونيموس فون باولا ، كونت كوللوريدو رجلا عقلاني الثقافة ، معجبا بروسو وفولتير » مستبدا مستنيرا يتوق إلى تنفيذ الاصلاحات التي كان يعدها يوزف الثاني . ولكنه فاق حتى يوزف في استبداده مع استنارته : فكان يشترط الانضباط والطاعة ولا يطيق المعارضة . ولم يقنع من موتسارت إسهاما في حفل تنصيبه في ٢٩ ابريل ١٧٧٢ بأقل من أوبرا يؤلفها لهذه المناسبة . واستجاب الفتى الذي ذاع صيته الآن سريعا بأوبرا «حلم سكيبيو» ، وقد وفت بالغرض منها ثم نسيت . واغتفرها كوللوريدو » وعين فولفجانج رئيسا لفرقة الموسيقى براتب سنوى قدره ١٥٠ فاورينا . وعكف الفتى شهورا على تأليف السمفونيات والرباعيات والموسيقى الدينية » ولكنه أكب أيضا على أوبرا « لوتشيو سيللا » التي طلبتها ميلان لتعرض في ١٧٧٣ .

ولم يحل « نوفمبر ١٧٧٢ حتى كان ليوبولد وصانع ثروته في عاصمة لومبارديا مرة أخرى ، وراح فولف بعد قليل يكد ويكدح ليوفق بين أفكاره الموسيقية ونزوات المغنين وقدراتهم . وبدأت مغنية الأوبرا الأولى « البريمادونا » بالغطرسة والبرم بكل شيء ، وكان « المايسترينو » صبورا طويل الأناة معها ، وانتهت بحبه وصرحت بأنها « قد فتنتها المعاملة الفذة التي عاملها بها موتسارت »[١٤] . ولم تلق حفلة الافتتاح (٢٦ فبراير ١٧٧٢) النجاح الأكيد الذي لقيته « متريداتي » قبل عامين » فقد مرض المغني التينور أثناء البروفات ، واقتضى الأمر إحلال مغن آخر محله لم يكن له سابق خبرة على خشبة المسرح ، ومع ذلك احتملت الأوبرا تسعة عشر عرضا . وكانت موسيقاها صعبة ، والأغاني منشودة بالانفعالات فوق ما ينبغي . ولعـــل أثرا من الحركة الأدبية الألمانيـــة المسماة

Sturm und Drang (أى الدفع والجهاد ، وهى ثورة على التنوير الفرنسى) وقد دخل هنا دخولا معارضا إلى الأوبرا الايطالية[١٥] . على موتسارت جلب معه نظير هذا وضوح الغناء الايطالى الجميل (البيل كانتو) ، وزادت أجواء ايطاليا المشرقة وحياة هوائها الطلق من إشراق روحه السعيدة بفطرتها . وتعلم فى ايطاليا أن الأوبرا الهازلة ، كما سمعها فى أعمال بتشينى وبايزييللو ، يمكن أن تكون فنا رفيعا ، فدرس شكلها ، وأبلغه الكمال فى « فيجارو » و « دون جوفانى » . لقد كانت كل تجربة يمر بها تعليما للذهنه اليقظ وأذنيه المرهفتين .

وشهد ١٣ مارس ١٧٧٣ الوالد والولد مرة أخرى فى سالزبورج . ولم يكن رئيس الأساقفة الجديد متسامحا فى فترات غيابهما الطويل كما كان زجسموند ، ولم ير مبررا لمكافأة ليوبولد بترقيته ، وعامل فولفجانج كأنه مجرد فرد فى حاشيته الخاصة . وتوقع من موتسارت وأبيه أن يزودا كورسه وأوركستراه بالموسيقى فورية ، جديدة ، جيدة . فظلا يشقيان عامين ليرضياه . ولكن ليوبولد لم يدركيف يستطيع أن يعول أسرته دون هذه الجولات الاضافية ، أما فولفجانج الذى تعود على سماع تصفيق الاستحسان له فلم يستطع تقبل وضعه خادماً موسيقيا . ثم أنه أراد أن يكتب الأوبرات ، وكان مسرح سالزبورج ، وكورسها ، وأوركستراها وجمهورها — كل أولئك أصغر من أن يسمح لهذا الفرخ الألمعى بأن يرفرف جناحيه النامين .

ثم إنقشعت السحب فترة حين كلف مكسمليان يوزف أمير بافاريا الناخب موتسارت بأن يكتب أوبرا هازلة لكرنفال ميونخ لعام ١٧٧٥ ، وحصل على موافقة رئيس الأساقفة ، بمنح المؤلف وأبيه أجازة من العمل . فغادرا سالزبورج فى ٦ ديسمبر ١٧٧٤ . وعانى فولفجانج من البرد القارس الذى ابتلاه بوجع فى الاضراس أقسى من إن تخفف منه الموسيقى أو الفلسفة ولكن حفلة الافتتاح لأوبرا « البستانية المزعومة » التى قدمت فى ١٣ يناير ١٧٧٥ حملت كرستيان شوبارت — وكان مؤلفا مرموقا — على التنبؤ بأنه

«ما لم يثبت موتسارت فى النهاية أنه نبات ربى فى مستنبت زجاجى [أى عجلت بنموه العناية البيئية المكثفة] ، فلست أشك فى أنه سيصبح من أعظم المؤلفين الموسيقيين حتى يومنا هذا »[١٦] وعاد موتسارت إلى سالزبورج ورأسه يدوم بنشوة النجاح ليقوم بخدمة أحس أنهـا ضرب حقير من العبودية .

وأمر رئيس الأساقفة بدراما موسيقية احتفالا بزيارة الأرشيدوق مكسمليان ابن ماريا تريزا الأصغر ، وأخذ موتسارت نصا قديما لمتاستازيو وألف « الملك الراعى » . وقد أديت فى ٢٣ أبريل ١٧٧٥ . والقصة سخيفة ، أما الموسيقى فرائعة ، ومازالت مقتطفات منها تظهر فى ريبرتوار الحفلات الموسيقية . وكان موتسارت فى غضون هـذا يتدفق بالصوناتات والسمفونيات والكونشرتوات والسريناادات ، والقداسات ، ومن مؤلفات هذه الأعوام التعسة قطع تعد من روائع الخالدة — مثل كونشرتو البيانو فى مقام E الخفيض (ك ٢٧١) والسريناده فى مقام B (ك ٢٥٠) . على أن رئيس الاساقفة قال له إنه لا يفقة شيئاً فى فن التأليف الموسيقى ، وإن عليه أن يذهب ليدرس فى كونسرفتوار نابلى[١٧] .

وطلب ليوبولد الأذن بأن يأخذ ابنه فى جولة بعد أن عجز عن احتمال الموقف فوق ما احتمل ، فرفض كوللوريدو وقال إنه لا يسمح بأن يظل أفراد من موظفيه « يستجدون الرحلات » فلما عاود ليوبولد الطلب فصله رئيس الاساقفة هو وابنه من وظيفتيهما . واغتبط فولفجانج ، ولكن ليوبولد روعته فكرة القلف به وهو فى السادسة والخمسين فى خضم عالم لا يميز الطيب من الخبيث . ولانت قناة رئيس الاساقفة ورده إلى منصبه ، ولكنه لم يسمح له بأى غياب عن عمله . فمن تراه يصحب فولفجانج الآن فى الغزوة البعيدة التى اختطت له ؟ لقد بلغ موتسارت الحادية والعشرين ، وهى سن المغامرة الجنسية والقيود الزيجية ، ولقد كان الآن أحوج إلى الأرشاد منه فى أى وقت مضى . ومن ثم تقرر أن تصحبه أمه . أما ماريانا التى حاولت أن تنسى أنها هى أيضاً كانت فيما مضى فتاة عبقرية فقد مكثت لتبذل لأبيها

أكرم الرعاية والمحبة . وفى ٢٣ سبتمبر ١٧٧٧ غادرت الأم وأبنها سالزبورج ليغزوا ألمانيا وفرنسا .

٣ — الموسيقى والزواج « ١٧٧٧ — ٧٨

كتب موتسارت لابيه — من ميونيخ فى ٢٦ سبتمبر يتغنى بما ظفر به من تحرر : « إننى فى أفضل حالاتى النفسية « فرأسى تخفف من الأثقال كأنه الريشة منذ إنطلقت بعيداً عن ذلك الهراء « وفوق ذلك أصبحت أسمن من ذى قبل»[١٨]. ولا بد أن هذا الخطاب تقاطع مع خطاب آخر من ليوبولد ، الذى قد يذكرنا انفعاله مرة أخرى بأن أحداث التاريخ كتبت على أجساد البشر :

« بعد أن رحلتما كلاكما صعدت سامنا فى غاية التعب « وألقيت بنفسى على مقعد . وحين تبادلنا عبارات الوداع بذلت جهودا كبيرة لأتماسك حتى لا أجعل فراقنا شديد الأيلام « وفى غمرة الزحام والأضطراب نسيت أن أمنح ولدى بركة الأب . فعدوت إلى النافذة وأرسلت بركتى خلفك ولكنى لم أرك . . . وقد بكت نانيرل بكاء مرا . . . وكلانا نرسل التحيات لأمك ونقبلك أنت وهى ملايين المرات »[١٩] .

وعلمت ميونيخ فولفجانج إنه لم يعد معجزاً فى عالم الموسيقى ، إنما هو موسيقى فرد فى بلد يفوق فيه المعروض من مؤلفى الموسيقى وعازفيها عدد المطلوب منهم . وكان الأمل قد راوده فى الحصول على وظيفة طيبة فى حاشية الناخب الموسيقية ، ولكن كل الوظائف كانت مشغولة . فمضت الأم وولدها إلى أوجزبورج ، حيث أفنيا نفسيهما فى زيارة أصدقاء ليوبولد أيام شبابه إستجابة لألحاح ليوبولد ، ولكن الأحياء منهم كان أكثرهم الآن يشكو السمنة والركود « ولم يجد فولفجانج فيهم ما يثير إهتمامه اللهم إلا ابنة عم مرحة تدعى ماريا أنا تكلا موتسارت سوف يخلد اسمها بعبارات بذيئة . وكان أدنى إلى غرضه صانع بيانات يدعى يوهان إندرياس شتاين « هنا

ولأول مره بدأ موتسارت الذى كان إلى الآن يعزف على الهاربسيكورد يقدر إمكانات الآلة الجديدة . وما إن بلغ باريس حتى كان قد تم إنتقاله إلى البيانو . وفى حفلة موسيقية فى أوجزبورج عزف على البيانو والفيولينة فظفر بتصفيق شديد وربح ضئيل .

وفى ٢٦ أكتوبر مضت الأم وابنها إلى مانهايم . هناك استمتع موتسارت بالصحبة والتشجيع من موسيقيين بارعين . ولكن الأمير الناخب كارل تيودور لم يستطع أن يجد له وظيفة ، واكتفى بأن أثابه على أدائه فى البلاط بساعة ذهبية لا أكثر . وكتب موتسارت إلى أبيه يقول « كان أصلح لى أن ينفحنى بعشرة كارولينات . . . إن النقود هى ما يحتاج إليه المرء وهو فى رحلة . واعلم أننى الآن أملك خمس ساعات . . . وأنا أفكر جدياً فى عمل جيب للساعات فى كل سروال من سراويلى . وحين أزور شريفاً كبيراً سألبس ساعتين . . . حتى لا يخطر له أن ينفحنى بساعة[٢٠] » . ونصحه ليوبولد أن يبادر بالرحيل إلى باريس حيث يتلقى المساعدة من جريم ومدام دبينيه ، ولكن فولفجانج أقنع أمه بأن الرحلة أشق من أن تطيقها فى شهور الشتاء . وإذ إفترض ليوبولد أنهما راحلان عما قليل إلى باريس . فقد حذر فولفجانج من نسائها وموسيقيها ، وذكره بأنه الآن الأمل المرجو فى أعالة الأسرة . وقال ليوبولد إنه إستدان سبعمائة جولدن ، وإنه يعطى دروسا خصوصية فى شيخوخته .

« وهذا أيضاً فى بلدة يبخس فيها أجر هذا العمل المرهق . . . إن مستقبلنا رهن بفطنتك الكبيرة . . . وأنا عليم بأنك تحبنى ، لا بوصفى أباك فحسب ، بل أصدق أصدقائك وأوفاهم ، وأنك تفهم وتقدر أن سعادتنا وشقاءنا ، وأكثر من ذلك طول أجلى أو التعجيل بموتى ، كلها . . . فى يديك أنت بعد الله . وإذا كنت قد أصبت فى قراءة أفكارك ، فإنى لا أتوقع منك غير الفرح والاغتباط ، وهذا وحده خليق أن يعزينى وأنا محروم لغيابك من بهجة الأب وأنا أسمعك وأبصرك وأضمك بين ذراعى .. من صميم قلبى أمنحك بركتى الأبوية[٢١] » .

وفى أحد خطابات ليوبولد (٩ فبراير ١٧٧٨) أضافت « نانيريل » التى بلغت الآن السادسة والعشرين والتى كانت لعدم توفر المهر تواجه مستقبل العوانس ، سطورا تكمل صورة هذه الأسرة المتحابة :

« إن بابا لايترك لى أبداً متسعا لأكتب لماما ولكن . . إنى أتوسل إليها إلا تنسانى ... وأتمنى لكما رحلة سارة إلى باريس مقرونة بالصحة السابغة . على أننى أرجو صادقة أن أستطيع عناقكما سريعاً . والله وحده عليم متى يحدث هذا . كلانا تواق لأن تحقق لنفسك الثراء ، فهذا معناه سعادتنا جميعاً . إنى أقبل يدى ماما وأعانقك ، وآمل أن تذكرنا وتفكر فينا دائماً . ولكن عليك إلا تفعل إلا إذا كان فى وقتك متسع ، ولو ربع ساعة تتخفف أثناءه من التأليف والتدريس »[٢٢] .

فى هذا المزاج من التفاؤل العظيم والثقة المشربة بالحب تلقى ليوبولد خطاباً كتبه فولفجانج فى ٤ فبراير يعلن إليه فيه وصول كيوبيد . ذلك أن رجلا من صغار الموسيقيين فى مانهايم يدعى فريدولين فيبر « حباه الحظ وأثقل كاهله بزوجة وخمس بنات وولد . وكانت السيدة فيبر تلقى شباكها لتقتنص الازواج ، لاسيما لكبرى بناتها يوزيفا ذات التسعة عشر ربيعاً ، التى بلغت سن الزواج وخيف إن تفوتها سوقه . ولكن موتسارت تعلق بألويسيا ذات الستة عشر ربيعاً ، التى جعلها صوتها الملائكى ومفاتنها الرائعة حلماً يراود خيال الموسيقى الشاب . ولم يكد يلحظ كونستانتسى ذات الأربعة عشر ربيعاً التى قدر لها أن تكون زوجته . وقد ألف لألويسيا بعضاً من أرق أغانيه . فلما غنتها نسى مطامحه وفكر فى مرافقتها — مع يوزيفا وابيهما — إلى ايطاليا حيث تستطيع الحصول على تدريب صوتى وتتاح لها فرص أوبراليه ، بينما يعينهم هو على العيش باحياء الحفلات الموسيقية وتأليف الأوبرات . كل هذا شرحه العاشق الصغير الشجاع لأبيه قال :

« لقد أحببت هذه الأسرة التعسة حبا جعل أعز أمانى أن أسعدهم .... ونصيحتى إليهم أن يقصدوا ايطاليا . والآن أود أن تكتب لصديقنا الطبيب

لوجانى ، وخير البر عاجله ، وتستفسر منه عن أفضل الشروط التى تعطى لمغنية أوبرا أولى فى فيرونا . . . أما عن غناء ألويسيا فأنى أراهن بحياتى أنها ستجلب لى الشهرة . . فإذا نجحت خطتنا — فاننا — الهر فيبر ، وابنتاه وأنا — سنشرف بزيارة أختنا العزيزه أسبوعين فى طريقنا مرورا بسالزبورج . . . وسيسرنى أن أكتب أوبرا لفيرونا لقاء خمسين تسكينى (٦٥٠ دولارا) ولو لتتاح لها فرصة الشهرة . . . وسوف تكون الابنة الكبرى نافعة جداً لنا ، لأنها تستطيع أن تدير شئون بيتنا ، فهى خبيرة بالطهو . وبالمناسبة ، لا تدهش كثيرا إذا عرفت أنه لم يبق معى سوى اثنين وأربعين جولدينا من السبعة والسبعين ، وليس هـذا إلا نتيجة ابتهاجى لوجودى مرة أخرى فى صحبة قوم شرفاء على شاكلتى فى التفكير . . .

« وافنى برد سريع . ولا تنس مبلغ شوقى لكتابة الاوبرات . وأنا أحسد أى إنسان يؤلف أوبرا . وأكاد أبكى غيظا حين أسمع . . . لحنا (آريا) . ولكن أوبرا أيطالية لا ألمانية ، وجادة لاهازلة . . والآن قد كتبت كل ما يثقل صدرى . وأمى راضية تمام الرضى عن أفكارى . . . وفكرة مساعدة أسرة فقيرة دون الأضرار بى تبهج نفسى فى الصميم . إنى أقبل يديك ألف مرة ، ومازلت حتى الموت ولدك المطيع جداً[٢٢] »

ورد ليوبولد فى ١١ فبراير :

« ياولدى العزيز : لقد قرأت خطابك المؤرخ ؛ الجارى بدهشة ورعب . لقد جفانى النوم الليل كله . . . يا إلهى الرحيم ! ... لقد ولت تلك اللحظات السعيدة حين كنت وأنت طفل أو غلام لا تمضى إلى فراشك دون أن تقف على كرسى وترتل لى . . . وتقبلنى المرة بعد المرة على طرف أنفى وتقول لى إننى حين أشيخ ستضعنى فى صندوق زجاجى وتحمينى من كل نسمة هواء ، حتى تحتفظ بى دائماً معك وتكرمنى . أصغ إلى إذن وتذرع بالصبر ! . . .

ومضى يقول إنه كان يأمل أن يؤجل فولفجانج زواجه حتى يؤمن

لنفسه مكانا مكينا فى عالم الموسيقى ، وعندها يبنى بزوجة صالحة ، وينجب أسرة طيبة » ويعين أبويه وشقيقته . ولكن هذا الابن ينسى الآن أبويه بعد أن فتنته « سيرانة » شابة » ولا يفكر إلا فى أن يتبع فتاة إلى ايطاليا كأنه فرد فى بطانتها . فياله من هراء لايصدق !

« إنطلق إلى باريس ، ومن فورك » وابحث عن مكانك بين عظماء القوم ، فأما أن تكون شيئاً عظيما أو لا شيء إطلاقا » » فمن باريس يدوى اسم الرجل ذى الموهبة العظمى وشهرته ويجلجلان فى أرجاء الدنيا بأسرها . هناك يعامل النبلاء العبقريين بأعظم إحترام وتقدير ومجاملة » وهناك سترى أسلوبا مهذباً من الحياة هـــو النقيض المذهل لخشونة رجال حاشيتنا الألمان ونسائهم ، وهناك تستطيع التمكن من اللغة الفرنسية »[٢٤] .

وأجاب موتسارت فى تواضع بأنه لم يأخذ مأخذ الجد الشديد خطة مرافقة آل فيبر إلى ايطاليا ، ثم ودع الأسرة وداعا باكيا ، ووعد بأن يراهم فى طريقه إلى أرض الوطن . وفى ١٤ مارس ١٧٧٨ اتخذ هو وأمه طريقهما إلى باريس مستقلين المركبة العامة .

٤ — فى باريس ١٧٧٨

وبلغاها فى ٢٣ مارس . وصادف وصولهما بالضبط حركة تمجيد فولتير التى طغت على نبأ قدومهما . واتخذا لهما مسكنا بسيطا » وانطلق موتسارت باحثا عن عمل يكلف به . واستجمع جريم ومدام دبينيه جهدهما ليلفتا بعض النظر إلى الشاب الذى هللت له باريس عجيبة موسيقية قبل أربعة عشر عاما . فعرضت عليه فرساى وظيفة عازف أرغن البلاط لقاء ألفى جنيه لخدمة ستة أشهر كل سنة ونصحه ليوبولد بقبول العرض ، وعارض جريم ، ورفض موتسارت الوظيفة لأن الأجر بخس » وربما لأنها لاتناسب موهبته . وفتحت له بيوت كثيرة إن قبل العزف على البيانو لقاء وجبة غداء أوعشاء . ولكن حتى الوصول إلى هذه البيوت اقتضى رحلة غالية فى عربة تشق طرقا موحلة . ولاح بصيص من الأمل

فى أحد النبلاء المدعو الدوق دجين ، والف موتسارت له ولإبنته الكونشرتو الرائع فى مقام (C) للفلاوته والهارب (ك٢٩٩)، وأعطى الشابة النبيلة دروسا فى التأليف الموسيقى لقاء أجر طيب، ولكنها لم تلبث أن تزوجت ولم يدفع الدوق سوى ثلاثة جنيهات ذهبية « لوى دور» (٧٥ دولارا) لكونشرتو كان خليقا بأن يطرح باريس تحت قدمى موتسارت . ولأول مرة فى حياته فارقته شجاعته . فكتب إلى أبيه فى ٢٩ مايو يقول « انى فى صحة لا بأس بها ولكننى كثيرا ما أتساءل هل الحياة تستحق أن يعيشها المرء » . وانتعشت روحه المعنوية حين كلفه لجرو « مدير الكونسير سبرتيويل بكتابة سمفونية (ك ٢٩٧) أديت بنجاح فى ١٨ يونيو .

ثم ماتت أمه فى ٣ يوليو . وكانت قد بدأت حياتها الجديدة بالاستمتاع بتخففها من متاعب سالزبورج وعناء الزوجية ، ولكن سرعان ماحنت إلى بيتها وواجباتها واتصالاتها اليومية التى تضفى على حياتها غنى ومغزى . وحطمت صحتها رحلة الأيام التسعة إلى باريس فى مركبة مهتزة ورفقة منفرة ومطر غزير ، وألقى فشل ابنها فى أن يجد له وظيفة فى باريس ظلا من الكآبة على روحها المرحة عادة . وراحت تقضى الأيام وحيدة وسط بيئة غريبة وألفاظ لاتفهمها ، بينما يذهب ابنها إلى تلاميذه وإلى الحفلات الموسيقية والأوبرات ... ورآها موتسارت الآن تذبل فى هدوء ، وانفق الأسابيع الأخيرة بجوارها يرعاها ويحنو عليها ولايكاد يصدق أنها قد تموت بهذه السرعة .

وقدمت له مدام دبينيه حجرة فى منزلها مع جريم ، ومكانا على مائدتها ، وحرية استعمال بيانها . ولم ينسجم تماما مع جريم فى هذه الجيرة ، القريبة فلقد كان جريم يمجد فولتير وموتسارت يحتقره ، وصدمه زعم مضيفيه وأصدقائهم بأن المسيحية ليست سوى أسطورة نافعة فى ضبط المجتمع . وأراده جريم أن يقبل التكليفات الصغيرة سبيلا إلى الكبيرة ، وأن يعزف دون أجر الأسر ذات النفوذ ، بيد أن موتسارت أحس أن عملا كهذا سينضب قوته التى يؤثر أن يدخرها للتأليف . وحكم

جريم بأنه كسلان ، وأخبر ليوبولد بحكمه هذا فأمن عليه[٢٥] . وزاد الموقف سوءاً اقتراض موتسارت المرة بعد المرة من جريم مبالغ بلغت جملتها خمسة عشر جنيها ذهبيا (٣٧٥ دولارا) . وأخبره جريم أن فى امكانه تأجيل السداد إلى أجل غير مسمى . وكذلك كان[٢٦] .

وحسم الموقف خطاب (٣١ أغسطس ١٧٧٨) من موتسارت الأب يقول إن رئيس الأساقفة كوللوريدو عرض أن يرقى الأب رئيسا للمرتلين إذا عمل فولفجانج عازفا على الأرغن ورئيسا للموسيقيين ، على أن يعطى كل منهما خمسمائة فلورين فى العام ، يضاف إلى هذا « أن رئيس الأساقفة صرح أنه على استعداد لأن يسمح لك بالسفر حيث تشاء ان أردت كتابة أوبرا » . ثم أضاف ليوبولد طعما قدر أن موتسارت لابد مبتلعه ، فقال ان ألويسيا فيبر مستدعى على الأرجح للانضمام إلى كورس سالزبورج ، وفى هذه الحالة « لابد ان تعيش معنا »[٢٧] . ورد موتسارت (١١ سبتمبر) حين قرأت خطابك هزنى الطرب لأنى شعرت بأنى أصبحت فعلا فى حضنك . صحيح أن العرض لا يحمل أملا كبيرا لى فى المستقبل كما إخالك معترفا ، ولكن حين أتطلع إلى لقائك وعناق أختى العزيزة جدا لا أفكر فى أى أمل آخر » .

وعليه ففى ٢٦ سبتمبر استقل المركبة إلى نانسى . وفى ستراسبورج كسب بضعة جنيهات لقاء حفلات شاقة فى مسارح كادت تخلو من روادها . وتلبث فى مانهايم أملا فى تعيينه قائدا للأوبرا الألمانية ، ولكن هذا الأمل أيضاً خاب كغيره ومضى إلى ميونخ وهو يحلم بألويسيا فيبر . ولكنها كانت قد وجدت مكانا فى كورس الأمير الناخب ، ربما فى قلبه « فاستقبلت موتسارت بهدوء لم يبد فيه أى رغبة فى أن تكون عروسا له . فألف وغنى أغنية مره ، ثم راض نفسه على قبول سالزبورج .

٥ — سالزبورج وفيينا : ١٧٧٩ — ٨٢

وصل إلى البيت فى منتصف يناير ، واستقبل باحتفالات ألقى عليها ظلا من الحزن إدراكه الأليم الآن لحقيقة موت الأم . وسرعان ما شد إلى

نيره عازفا للأرغن ورئيسا لفرقة الموسيقى ، وسرعان ما أصابه القلق والتبرم وقد تذكر هذه الأيام فيما بعد :

« فى سالزبورج كان العمل عبثاً على » ولم أكد أستطيع إن أسكن إليه قط . فلم ذلك ؟ لأننى لم أكن قط سعيداً . . . فليس فى سالزبورج — من وجهة نظرى على الأقل — تسلية لها أى قيمة . وأنا أرفض الاختلاط بأشخاص كثيرين هناك — أما غيرهم فأكثرهم لا يروننى صالحا لصحبتهم . أضف إلى ذلك إنه ليس هناك من حافز لموهبتى . وكأن الجمهور خشب مسندة لا تستجيب حين أعزف أو حين تؤدى قطعة من تأليفى . أتمنى لو كان فى سالزبورج ولو مسرح واحد متوسط الجودة[٢٨] » .

وتاقت نفسه إلى كتابة الأوبرات ، ورحب بطلب الأمير الناخب كارل تيودور أن يكتب أوبرا لمهرجان ميونخ التالى . فشرع يكتب « إيدومنيو ملك كريت » فى أكتوبر ١٧٨٠ ، وفى نوفمبر ذهب إلى ميونخ لعمل البروفات . وفى ٢٩ يناير ١٧٨١ أخرجت الأوبرا بنجاح رغم طولها غير العادى . ومكث موتسارت فى ميونخ ستة أسابيع أخرى ، يستمتع بحياتها الاجتماعية ، حتى أستدعاه رئيس الأساقفة كوللوريدو ليلحق به فى فيينا . هناك سره أن يسكن القصر الذى يسكنه رئيسه ، ولكنه كان يأكل مع الخدم . « يجلس التابعان على رأس المائدة ، وأنا أحظى بشرف الجلوس مقدما على الطباخين[٢٩] » . وكان هذا عرفا شائعا فى ذلك العصر فى بيوت النبلاء ، وقد احتمله هايدن باستياء مكظوم ، أما موتسارت فقد تمرد عليه فى علانية متزايدة . وقد سره أن تعرض موسيقاه وموهبته فى بيوت أصدقاء رئيس الأساقفة » ولكنه استشاط غيظاً حين رفض كوللوريدو معظم توسلاته أن يأذن له بقبول ارتباطات خارجية قد تأتيه بدخل إضافى وشهرة أوسع . « حين أفكر فى أننى سأغادر فيينا دون أن يكون فى حوزتى الألف فلورين على الأقل يغوص قلبى فى باطنى[٣٠] » .

وصحت نيته على أن يترك خدمة كوالوريدو . ففى ٢ مايو ١٧٨١ ذهب ليسكن نزيلا مع آل فيبر اللذين كانوا قد أنتقلوا إلى فيينا . فلما أرسل

إليه رئيس الأساقفة تعليماته بالعودة إلى سالزبورج ، أجاب بأنه لن يستطيع الرحيل قبل ١٢ مايو . وتلا ذلك لقاء مع رئيس الأساقفة ، روى موتسارت مادار فيه لأبيه فقال :

« إنه رماني بأقذع الشتائم — أوه ! إنني في الحق لا أستطيع حمل نفسي على أن أكتبها كلها لك ! وأخيراً ، حين أحسست بالدم يغلي في عروقي ، لم أطق أن أحتمل أكثر مما احتملت ، فقلت له ، إذن فسموك لست راضيا عني » ماذا ! أتريد أن تهددني ، أيها الوغد ، أيها النذل ؟ دونك الباب إذن ، لن يكون لي صلة بعد اليوم برجل تعس مثلك ! » وأخيرا قلت « ولا أنا بك . » إذن فأخرج ! » وفيما أنا خارج قلت « فليكن ، وغدا سيصلك مني خطاب » . قل لي يا أبي العزيز أما كان لزاما على أن أقول هذا عاجلا أو آجلا ؟ . . .

« اكتب لي سراً بأنك مسرور — لأن لك الحق في أن تسر حقيقة — وانتقدني إنتقادا قاسيا علانية ، حتى لا يقع عليك أي لوم أو تثريب . ولكن إذا نالك من رئيس الأساقفة أي اهانة فتعال إلى فورا في فيينا . ففي وسعنا نحن الثلاثة أن نعيش على دخلي[٣١] » .

ودفع بليوبولد في أزمة أخرى . وبدا أن منصبه تعرض للخطر ، وكان لابد أن ينقضي بعض الوقت حتى تصله تأكيدات من كوللوريدو . وافزعه نبأ مساكنة ابنه لآل فيبر . فقد مات رب الأسرة ، وتزوجت اليوسيا الممثل يوزف لانجي ، ولكن كان للأرملة بنت أخرى تدعى كونستانتسي تنتظر زوجاً . أفهذا طريق مسدود آخر أمام فولفجانج ؟ وتوسل إليه ليوبولد أن يعتذر لرئيس الأساقفة ويعود . ورفض موتسارت لأول مرة أن يطيع أباه . « إنني في سبيل رضاك يا أبي مستعد لأن أتخلى عن سعادتي وصحتي بل وحياتي ذاتها ، ولكن شرفي فوق كل شيء عندي ، وكذلك يجب أن يكون عندك . يا أعز الآباء وأكرمهم ، طالبني عما شئت إلا هذا[٣٢] » . وفي ٢ يونيو بعث إلى ليوبولد بثلاثين دوقاتية عربونا لمساعدته المقبلة .

وتوجة ثلاث مرات إلى مسكن رئيس الأساقفة بڤيينا ليقدم إستقالته الرسمية . ورفض حاجب كوللوريدو أن ينقلها لسيده « وفى المرة الثالثة « ألقى بموتسارت خارج حجرة الأنتظار وأردف ذلك بركلة فى ظهره » — وهى العبارة التى وصف بها موتسارت المشهد فى خطابه المؤرخ ٩ يونيو[٣٣]. ولكى يرضى أباه أنتقل من بيت ڤيبر إلى مسكن آخر . وأكد لليوبولد أنه إنما كان « يمزح » فقط مع كونستانتسى . « ولو كان على أن أتزوج كل من ضحكت معهن لكان لدى على الأقل مائتا زوجة[٣٤] » . على أنه كتب لأبيه فى ١٥ ديسمبر يقول إن كونستانتسى غاية فى اللطف والسذاجة وحب البيت ، وهو لذلك يريد أن يتزوجها » .

« أترعبك الفكرة ؟ ولكنى أتوسل إليك يا أعز أب وأحبه أن تصغى إلى . . . إن صوت الطبيعة يتكلم فى باطنى عالياً كما يتكلم فى غيرى — بل ربما أعلى مما يتكلم فى رجل ضخم قوى غليظ . إننى ببساطة لا أستطيع أن أعيش كما يعيش معظم الشباب فى هذه الأيام . أولا لأننى متدين جداً ، وثانياً لأننى أشد حباً للجار وأرفع احساساً بالشرف من أن أغوى فتاة بريئة « وثالثا لأن بى من الرعب والتقزز ، ومن رهبة الأمراض والخوف منها « ومن الرعاية لصحتى « ما يعصمنى من العبث مع النسوة الفاجرات . وفى وسعى أن أقسم أنه لم يكن لى قط علاقات من هذا النوع مع أى امرأة ... وأراهن بحياتى على صدق ما قلته لك . . .

« ولكن من هى موضوع حبى ؟ . . أليست إحدى بنات ڤيبر ؟ بلى . . إنها كونستانتسى . . . أرقهن كلهن وأذكاهن وأفضلهن جميعاً . . . قل لى هل فى إستطاعتى أن آتمنى لنفسى زوجة خيراً منها .. قصارى ما أطمع فيه أن يكون لى دخل مضمون صغير (وهذا رجائى الوطيد بحمد الله) ، وعندها لن أكف عن رجائك بأن تسمح لى أن أنقذ هذه الفتاه المسكينة وأن أحقق لى — ولنا جميعاً إن جاز لى القول — السعادة الكاملة . فلا أشك ن أن سعادتى تسعدك ؟ وستحظى بنصف دخلى الثابت . . . أرجوك أن تشفق على ولدك ! [٣٥] »

ولم يعرف لوبولد ماذا يصدق . فقد بذل كل جهد ليثنى ولده المفلس تقريباً عن الزواج ، ولكن موتسارت أحس بأنه بعد أن قضى ستة وعشرين عاماً من الطاعة لأبيه آن الأوان لينفذ مشيئته ويحيا حياته . وظل سبعة أشهر يلتمس عبثاً موافقة أبيه » وأخيراً ، فى « أغسطس ١٧٨٢ ، تزوج دون هذه الموافقه . وفى « أغسطس وصلت الموافقة » وأصبح موتسارت الآن حراً فى إن يكتشف إلى أى حد يستطيع المرء إن يعول أسرة بتأليف حشد من أكثر أنــواع الموسيقى الرائعة تنوعاً فى تاريخ الإنسان .

٦ — المؤلف الموسيقى

كان له عذره فى الثقة بنفسه » لأنه كان قد أشتهر عازفاً على البيان ، وحصل على دروس خاصة لتلاميذ يدفعون أجورا مجزية ، وأخرج أوبرات ناجحة ، فلم يمض شهر على تركه خدمة رئيس الاساقفة حتى تلقى من الكونت أورسينى — روزنبرج مدير مسارح بلاط يوزف الثانى « تكليفا بتأليف (دراما منطوقة) تتخللها الأغانى . وعرضت النتيجة فى ١٦ يوليو ١٧٨٢ ، فى حضرة الامبراطور ، تحت اسم (الاختطاف من السراى) . وأداها فريق من خصومه ، ولكن كل السامعين تقريبا فتنتهم الأغانى المرحة التى ازدان موضوع عتيق : حسناء مسيحية يأسرها القراصنة « ويبعونها لحريم تركى ، ثم ينقذها حبيبها المسيحى بعد دسائس لا تصدق . وكان تعليق يوزف الثانى على الموسيقى « انها يا عزيزى موتسارت أجمل مما تحتمله آذاننا ، وأنغامها كثيرة جدا » . وهو تعليق أجاب عنه المؤلف المتهور « انها بالضبط يا صاحب الجلالة بالكثرة التى يقتضيها المقام » .[٣٦] وأعيد عرض الأوبريت ثلاثا وثلاثين مرة فى فيينا فى سنيها الست الأولى . وقد أطراها جلوك ، وإن أدرك أنها أغفلت تماما « إصلاحه » للأوبرا ، وأعجب بالتأليفات الآلية لهذا الشاب العنيف ، ودعاه لتناول الغداء معه .

وقد استمد موتسارت الهامه من إيطاليا لا من ألمانيا ، وآثر اللحن والتوافق البسيط على البوليفونية « تعدد الأصوات » المعقدة المتعمقة . ولم

يشعر بتأثيرات قوية من هندل ويوهان سبستيان باخ إلا فى عقده الأخير .
وفى ١٧٨٢ انضم إلى الموسيقيين الذين كانوا يحيون الحفلات تحت رعاية
البارون جوتفريد فان زفيتن ، وأكثرها من تأليف هندل وباخ ، فى المكتبة
القومية أو فى بيت فان زفيتن . وفى ١٧٧٤ كان البارون قد جلب من برلين
إلى فيينا كتاب (فن الفوجة) و(الكلافورد الحسن الضبط) وغيرهما من
أعمال ى . س . باخ . واستنكر الموسيقى الايطالية لأنها تفتقر إلى
الاتقان الشديد ، ورأى أن الموسيقى الحقة تتطلب الالتفات الدقيق للفوجة ،
والبوليفونية ، والكونترابنط . أما موتسارت فهو وإن لم يسمح قط للبناء
أو القاعدة أو الشكل بأن تكون غاية فى ذاتها ، فقد أفاد من نصيحة فان
زفيتن وموسيقاه ، ودرس هندل وآل باخ الكبار بعناية . وبعد ١٧٨٧
قاد موسيقى هندل فى فيينا ، وسمح لنفسه بشىء من الحرية فى توفيق
مدونات هندل لأوركسترات فيينا . وفى موسيقاه الآلية اللاحقة زواج
بين الميلوديا الايطالية والبولفونية الألمانية فى وحدة متسقة .

والنظرة العجلى إلى كتالوج كوشل لمؤلفات موتسارت هى إحدى
التجارب الشديدة الوقع فى النفس . فهناك قائمة ضمت ٦٢٦ عملا — وهى
أكبر حجم من الموسيقى خلفه أى مؤلف عدا هايدن ، وكلها أنتج فى حياة
صاحبها التى لم تتجاوز ستا وثلاثين سنة ، وتحوى روائع من شتى الأشكال :
٧٧ صوناتا ، و ٨ ثلاثيات ، و ٢٩ رباعية و٥ خماسيات ، و ٥١ كونشرتو ،
و ٩٦ قطعة خفيفة (ديفرتمنتى) أو رقصات أو سرينادات ، و ٥٢
سمفونية ، و ٩٠ لحنا أو أغنية ، و ٦٠ مؤلفا دينيا ، و ٢٢ أوبرا .
وإذا كان بعض من كانوا قريبين من موتسارت حسبوه كسولا ، فربما
كان السبب أنهم لم يدركوا تماما أن عناء الروح قد يضنى الجسد ، وأن
العبقرية إذا حرمت فترات الكسل انزلقت إلى الجنون . وقد قال له أبوه
(إن التأجيل خطيئتك التى لا تفتأ محدقة بك) [٣٧] . وكان موتسارت فى
كثير من الحالات يؤجل إلى آخر ساعة تدوين الموسيقى التى كانت تتخلق
فى رأسه . قال « إنى — إن شئت — منقوع فى الموسيقى . فهى فى عقلى
طوال اليوم ، وأنا أحب أن أحلم بها ، وأدرسها ، وأتأملها . » [٣٨] وقد
روت زوجته « كان دائم النقر على شىء ما — على قبعته ، أو كاتينة

ساعته — أو المائدة أو المقعد وكأنها لوحة المفاتيح .»[٣٩] وكان أحيانا يواصل هذا التأليف الصامت حتى وهو يبدو مصغيا لاحدى الأوبرات . وكان يحتفظ بقصاصات من ورق تدوين الموسيقى فى جيوبه أو فى جيب العربة الجانبى وهو مسافر ، ثم يدون عليها نوتات متناثرة ، وقد ألف أن يحمل علبة من الجلد تتلقى هذه الاشتات . فإذا تأهب للتأليف لم يجلس إلى لوحة المفاتيح بل إلى منضدة . تقول كونستانتسى « كان يكتب الموسيقى كما يكتب الخطابات ، ولم يحاول قط عزف حركة حتى تكتمل . » أو قد يجلس إلى البيان ساعات بأكملها يرتجل ويترك خياله الموسيقى حرا طليقا فى الظاهر ولكنه فى نصف وعى يخضعه لبناء متميز — كشكل الصوناتا ، أو الآريا ، أو الفوجة . . . وكان الموسيقيون يستمتعون بارتجالات موتسارت لأنهم كانوا يستطيعون أن يتبينوا فى ابتهاج خفى النسق المتوازى خلف أنغام تبدو عفوية فى ظاهر الأمر . قال نيمتشك فى شيخوخته « لو جرؤت على أن أصلى طلبا لفرحة أرضية أخرى لكانت أن أسمع موتسارت يرتجل»[٤٠]

وكان فى إستطاعة موتسارت أن يعزف أى موسيقى تقريباً بمجرد الاطلاع نوتتها لأن طول خبرته بارتباطات النوتات وتعاقباتها المعينة أتاح له قراءتها كأنها نوتة واحدة ، وكانت أنامله المدربة تعزفها كأنها جملة أو فكرة موسيقية واحدة ، تماماً كما يستوعب القارىء المدرب سطرا كأنه كلمة ، أو فقرة كأنها سطراً . واقترنت ذاكرة موتسارت بهذه القدرة على إدراك الكليات ، والأحساس بالمنطق الذى يلزم الجزء بالدلالة على الكل . وفى السنوات اللاحقة كان يستطيع أن يعزف أيا من كونشرتواته تقريباً عن ظهر قلب . وفى براغ كتب أجزاء الطبلة والبوق للخاتمة الثانية فى « دون جوفانى » دون أن تتاح له نوته الآلات الأخرى ، وكان قد حفظ تلك الموسيقى المعقدة فى ذاكرته . وذات مرة دون جزء الفيولينه فقط من صوناتا للبيانو والفيولينه ، وفى الغد ، ودون بروفا ، عزفت رجينا ستّرينا زاكى جزء الفيولينه فى حفلة ، وعزف موتسارت جزء البيانو من مجرد ذكرى تصوره دون أن يتسع له الوقت لتدوينها على الورق[٤١] . ولعل صحائف التاريخ لا تحوى ذكرى رجل آخر استغرقته الموسيقى إلى هذا الحد .

ونحن ننظر إلى صوناتات موتسارت على إنها أقرب إلى الخفة والمعابثة ، وأنها لا تقف فى صف مع ألحان بيتهوفن المشبوبة القوية من نفس النوع ، وقد يكون السبب أنها كتبت لتلاميذ محدودى المهارة فى العزف ، أو لها ربسيكوردات ذوات تصويت محدود ، أو لبيانو لم يؤت وسيلة لمواصلة نغمة[٤٧] . والصونات فى مقام A (ك ٣٣١) . وما حوت من « منويته » ممتعة » و « الروندو اللاتوركا » مازالت (١٧٧٨) بأسلوب الهاربسيكورد .

ولم يكن موتسارت أول الأمر يهتم بموسيقى الحجرة ، ولكن فى ١٧٧٣ وقع على رباعيات هايدن المبكرة ، وحسد ما فيها من براعة كونترابنطية ، وقلدها تقليداً قارب النجاح فى الرباعيات الست التى ألفها فى تلك السنة . وفى ١٧٨١ نشر هايدن سلسلة أخرى ، وحرك هذا موتسارت ثانية للمنافسة فأصدر (١٧٨٢ — ٨٥) ست رباعيات (ك ٣٨٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٨ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ — ٦٥) يعترف الجمع الآن بأنها من أرفع الأمثلة فى بابها . وشكا العازفون من صعوبتها الهائلة ، وانتقد النقاد الرباعية السادسة على الأخص لتنافراتها المتعارضة ومزجها الصاخب بين المفاتيح الكبيرة والصغيرة ورد موسيقى إيطالى النوتة للناشر محتجا بأن من الواضح أنها تزخر بالأخطاء الفظيعة . ومزق أحد المشترين أوراقها وقد استشاط غضباً حين وجد إن التنافرات متعمدة . ومع ذلك فإن هايدن قال لليوبولد موتسارت بعد عزفة الرباعيات الرابعة والخامسة والسادسة مع موتسارت وديترسدورف وغيرهما « أمام الله ، وبصفتى رجلا صادقا ، أقول لك إن إبنك أعظم من عرفت من المؤلفين قاطبة سواء شخصيا أو بالأسم . فهو ذواقة ، وأكثر من ذلك يملك أعمق معرفة بالتأليف الموسيقى[٤٢] » . فلما نشرت الرباعيات الست (١٧٨٥) أهداها موتسارت إلى هايدن بخطاب يتألق بتفرده حتى وسط ما تبادلا من رسائل كلها رائع :

« إن أبا قرر أن يدفع بأبنائه إلى الدنيا الواسعة فرأى من واجبه أن يكلهم إلى رعاية وإرشاد رجل كان ذائع الصيت فى ذلك الحين ، واتفق فوق ذلك إنه كان أصدق أصدقائه . وبالمثل أدفع بأبنائى السته إليك ، أيها الصديق

الأعز الأشهر . حقاً أنهم ثمرة درس طويل شاق ، ولكن الأمل الذى علقنى به أصدقاء كثيرون بأن تعي فيهم سيعوضة بعض الجزاء . . . يملؤنى زهواً بهـذه الفكرة ، وهى أن أبنائى هؤلاء سوف يكونون يوما ما مبعث عزاء لى .

« لقد اعربت لى أثناء مقامك بهذه العاصمة . . . عن استحسانك لهذه المؤلفات ، ويشجعنى تقديرك لها على أن اهديها إليك ويغرينى بالأمل بأنك لن تراها غير جديرة برضائك . فأرجو أن تتفضل بقبولها ، وكن لها بمثابة الأب والمرشد والصديق . ومنذ هذه اللحظة أنزل لك عن جميع حقوقى عليها . على أننى ألتمس منك أن تعفو عن الأخطاء التى ربما غابت عن عين مؤلفها المتحيزة ، وان تواصل برغمها صداقتك الكريمة لرجل يقدر هذه الصداقه اسمى تقدير[٤٤] » .

وكان لموتسارت ولــع خاص بخماسياته . وكان يرى أن خماسيته بمقام E المنخفض للبيانو والأوبوا والكلا رنيت والهورن والباصون (ك٤٥٢) « خير ما ألفت قاطبة[٤٥] » . ولكن هذا كان قبل أن يكتب أوبراته الكبرى . وكانت قطعة Einekleine Nachtmusik « موسيقى ليلية صغيرة » فى الأصل (١٧٨٧) مؤلفة كخماسية ، ولكن سرعان ما تلقتها الأوركسترات الصغيرة ، وهى الآن تصنف بين سرنادات موتسارت . وكان يقدر السرينادة بمقام E المنخفض (ك ٣٧٥) لأنها مكتوبة « بشيء من العناية » ، وهى القطعة التى عزفت له هو نفسه ذات أمسية فى ١٧٨١ ، ولكن الموسيقين يؤثرون عليها فى المرتبة السرنادة بمقام C الصغير (ك ٣٨٨) — التى تعدل فى قتامتها ألحان بتهوفن وتشايكوفسكى الحزينة (الباتتيك) .

ووجة موتسارت الأوركستر بعد أن اكتشفه إلى عشرات التجارب : افتتاحيات ، وموسيقات حالمة ، ومتتاليات ، وكاسا سيونات cassations (وهى تنويعات للمتتالية) وموسيقات راقصة ، وأخرى خفيفة (ترفيهية divertimenti) ، وقصد بالأخيرة عادة إن تخدم هدفا عابرا لا أن يتردد

صداها فى أبهاء التاريخ ، وعلينا أن نستمتع بها لا أن نزنها . وحتى مع هذا ، فإن القطعة الخفيفة رقم ١٥ (ك ٢٨٧) ورقم ١٧ (ك ٣٣٤) عملان قيمان ، وأبعث للبهجة من معظم السمفونيات .

واستعمل موتسارت كما استعمل هايدن لسمفونياته « فرقة » من خمسة وثلاثين عازفا ، ومن ثم فهى تقصر دون توصيل قيمتها الكاملة لآذان ألفت الجهورية المضاعفة فى أوركسترات القرن العشرين ويطرى النقاد السمفونية رقم ٢٥ (ك ١٨٣) لأنها « مشبوبة العاطفة[٤٦] » و « آية فى التعبير العنيف ..[٤٧] » ولكن أقدم سمفونيات موتسارت المشهورة هى « باريس » (رقم ٣١ ك ٢٩٧) التى طوعها موتسارت لحب الفرنسيين للرقة والفتنة . أما سمفونية هافنر (رقم ٣٥ ك ٣٨٥) فقد ألفت أصلا على عجل لتزدان بها المهرجانات التى أعدها زجسموند هافنر ، عمدة سالزبورج السابق ، لزفاف ابنته (١٧٨٢) ، وفى تاريخ لاحق أضاف موتسارت إليها أدوارا للفلاوته والكلارنيت ثم قدمها فى فيينا (٣ مارس ١٧٨٣) فى حفلة حضرها يوزف الثانى « وصفق لى الأمبراطور تصفيقا حارا » ، ونفحة بخمس وعشرين دوقاتية[٤٨] . وفى هذه السمفونية ورقم ٣٦ « التى كتبها فى لنتز فى نوفمبر ١٧٨٣ » ظل موتسارت محافظا على الشكل والطابع — المبهجين دائماً ، العميقين فيما ندر — اللذين طبع بهما هايدن السمفونية ، وفى السمفونيتين تقع الحركة البطيئة من الآذان المسنة موقع الاغتباط والعرفان . وعلينا أن نتكلم باحترام أكثر على السمفونية رقم ٣٨ التى ألفها موتسارت لبراغ فى ١٧٨٦ ، هنا تبهج الحركة الأولى الموسيقى بمنطقها البنائى ومهارتها الكونترابنطية ، أما حركتها المعتدلة البطء (الأنداتى) التى أضافت التأمل إلى اللحن ، فقد حملت الخبراء على الاشادة بـ « كمالها الخالد[٤٩] » و « عالمها السحرى[٥٠] » .

وهناك إجماع على أن أعظم سمفونيات موتسارت قاطبة هى الثلاث التى سكبها فى سيل متدفق من الالهام فى صيف ١٧٨٨ ، فى حقبة من حياته ألم به فيها فقر كئيب وأثقلته ديون متفاقمة . والأولى مؤرخة ٢٦ يونيو ،

والثانية ٢٥ يوليو ، والثالثة ١٠ أغسطس — ثلاثة أطفال أنجبت فى ثلاثة أشهر . وعلى قدر علمنا لم تعزف واحدة منها فى حياته قط ، ولم يسمعها قط ، بل ظلت فى ذلك العالم الخفى الغامض الذى كانت فيه البقع السوداء المسطورة على فرخ من الورق فى نظر مؤلفها — « قصائد معدة للغناء لا صوت لها » — علامات وايقاعات لا يسمعها غـــير الذهن . والثالثة التى تسمى خطأً « جوبيتر » (رقم ٤١ بمقام C ك ٥٥١) تعد عادة خيرها ، ويرى شومان أنها تعدل أعمال شكسبير وبيتهوفن[٥١] ، ولكنها لا تصلح لتذوق الهواة . والسمفونية رقم ٤٠ فى مقام G الصغير (ك ٥٥٠) تبدأ بقوة ترهص بموسيقى Eroica ثم تتطور تطوراً دعا المعلقين — فى نضالهم للتعبير عن الموسيقى بالألفاظ دون جدوى — إلى إن يقرؤوا فيها « ليرا » أو « مكبثا » من المأساة الشخصية[٥٢] ، ولـكنها للاذان الأبسط تبدو مبهجة بهجة ساذجة تقريباً . وهذه الآذان نفسها تجد أن أعظم السمفونيات إشباعا لها هى رقم ٣٩ فى مقام E المنخفض (ك ٥٤٣) ، فهى لا يثقلها كرب ، ولا تعذبها التقنية ، إنما هى الايقاع واللحن ينسابان فى غدير هادىء مطمئن ، وهى من نوع الموسيقى التى قد تبهج قلوب الآلهة فى أجازة ريفية من الأعباء السماوية .

و « السنفونية كونشرتانتى » هى هجين بين السمفونية والكونشرتو ، وقد نبتت من الكونشرتو جروسو بمقابلة آلتين أو أكثر للأوركستر فى حوار بين الميلوديا والموسيقى المصاحبة . وقد ارتفع موتسارت بهذا الشكل إلى ذروته فى « السنفونية كونشرتانتى » فى مقام E المنخفض (ك ٣٦٤) للفلاوته والفيولينه والفيولا (١٧٧٩) ، وهى لا تقل روعة عن أى من سمفونياته الأخرى .

وكل الكونشرتوات مبهجة ، ففيها تعين فقرات العزف المنفرد الأذن غير المدربة على تتبع مواضيع وانغام قد يحجبها فى السمفونيات التعقيد التقنى أو التفنن الكونترابنطى . والحوار فيها طريف ، ويزداد طرافة اذا كانت المناظرة بين واحد والكل « Solo contra tutti » كما نرى فى شكل الكونشرتو كما اقترحه كارل فليب ايمانويل باخ وطوره موتسارت . ولما كان موتسارت

يستطيب هذه المواجهات الهارمونية ، فانه كتب معظم كونشرتواته للبيانو ، فقيها كان يعزف دور العازف المنفرد بنفسه مضيفا عادة فى أواخر الحركة الأولى قفلة تتيح له ان يسرح ويمرح ، وان يتألق عازفا بارعا لآلته .

وأول ما بدأ يتفوق فى هذا الضرب كان فى كونشرتو البيانو رقم ٩ فى مقام E المنخفض (ك ٢٧١) . وأول كونشرتواته التى ما زالت محببة السامعين هى رقم ٢٠ فى مقام D الصغير (ك ٤٦٦) الشهيرة بـ « الرومانتسى » الطفلية الطابع تقريبا . ويجوز لنا أن نقول انه فى هذه الحركة البطيئة بدأت الحركة الرومانسية فى الموسيقى. وسواء كان السبب هو الكسل أو الشواغل ، فان موتسارت لم يكمل تدوين موسيقى هذا الكونشرتو إلا قبل ساعة من الزمن المحدد لأدائه (١١ فبراير ١٧٨٥) ، ووصلت نسخة العازفون وأدى موتسارت دوره أداء خبير صناع ، حتى لقد طلبت اعادة الكونشرتو مرات كثيرة فى السنوات التالية .

وقدم موتسارت موسيقى رفيعة لآلات منفردة أخرى . ولعل الكونشرتو الرخيم فى مقام A للكلارينت (ك ٦٢٢) يصلنا مذاعا مرارا أكثر من أى من مؤلفاته الأخرى . وفى شبابه المرح (١٧٧٤) كان يستمتع أيما استمتاع بكونشرتو فى مقام B المنخفض للباصون . وكانت كونشرتوات الهورن فقاعات تنفخ فى مرح على النوتة — التى كانت أحيانا تحوى تعليمات مضحكة للعازف . « da bravo ! corraggio ! bestia ! » لأن موتسارت كان خبيرا بأكثر من آله نفخ واحدة . ثم يرفعنا كونشرتو الفلاوته والهارب (ك ٢٩٩) إلى السماء الأعلى .

وفى ١٧٧٥ حين كان موتسارت فى التاسعة عشرة ألف خمسة كونشرتوات للفيولينه وكلها رائع ، وثلاثة منها ما زالت تحتويها ريرتوارات حية إلى اليوم . والكونشرتو رقم ٣ فى مقام G (ك ٢٢٦) فيه حركة بطيئة (أداجو) انتشى لها رجل كأينشتين [٥٣] ، ورقم ٤ فى مقام D من روائع الموسيقى ، ورقم ٥ فى مقام A فيـــه حركة غنائية معتدلة البطء تنافس معجزة صوت المرأة .

لا عجب إذا كان موتسارت قد أنتج بعضا من ألذ الألحان فى التأليف الموسيقى قاطبة ، لا سيما فى سنوات حبه لألويسيا فيبر . وهى ليست أغانى (ليدات) مكتملة التفتح كالتى حققت تطويرها الناجح على يد شوبرت وبرامز ، إنما هى أبسط وأقصر ، تزين فى الغالب كلمات سخيفة ، ولكن موتسارت إذا وجد شعرا بمعنى الكلمة كقصيدة جوته (البنفسجية) « ارتفع إلى ذرى الشكل (ك ٤٧٦) . فها هنا بنفسجة مرتعشة فرحا باقتراب راعية حسناء تقول فى نفسها ما أحلى الرقاد على صدرها ؟ ولكن بينما كانت الراعية تمشى وهى تغنى فى جذل إذا هى تسحقها تحت قدمها دون أن تلحظها . (٥٤) أكانت هذه ذكرى ألويسيا القاسية ؟ لقد كتب لها موتسارت من قبل لحنا من أرق ألحانه d'onde viene ■ Non . ولكنه لم يلق بالا إلى مثل هذه الأغانى المنعزلة ، فقد احتفظ بموارد فنه الصوتى الخفية لألحان أوبراته وللمؤلفات التى وضعها للكنيسة .

على أنه قل أن سمعت موسيقاه الدينية خارج سالزبورج ، لأن الكنيسة الكاثوليكية لم ترض عن المحسنات الأوبرالية التى كان رؤساء الأساقفة الذين خدمهم موتسارت يتوقعونها منه فيما يبدو . فالقداس المطول فى سالزبورج كان يرتل فى مصاحبة الأرغن ، والوتريات ، والأبواق ، والترمبونات ، والطبول ، وكانت فقرات من المرح تنطلق فجأة فى أكثر المواضع وقارا ورهبة فى قداسات موتسارت . ومع ذلك فان الروح الدينية لا بد تحركها موتيتات نسجد لك (ك ، ٣٢٧) و « القديسة مريم أم الرب » (ك ٣٤١ ب) ، وأبدع نغم يفوق جماله الموصول كل أنغام موتسارت يظهر فى « سبحوا الرب » فى القسم الرابع من تسبيحة الاعتراف المسائية (ك ٣٣٩) (٥٥) .

ويمكن القول عموما ان موسيقى موتسارت هى صوت عصر أرستقراطى لم يسمع بسقوط الباستيل ، وحضارة كاثوليكية لم يكدر إيمانها مكدر ، حرة فى الاستمتاع بمباهج الحياة دون أن تسعى هذا السعى الحثيث لتجد مضمونا جديدا لحلم أفرغ من مضمونه القديم . وهذه الموسيقى فى جوانبها الأخف تتسق مع رشاقة الزخرف الروكوكى ، ومع رومانسيات فاتو التصويرية ،

وأولمب تيبولو الطاق فى هدوء ، وابتسامات مدام دبومبادور وأروابها وخزفها . وهى فى عمومها موسيقى هادئة صافية ، تشوبها بين الحين والحين لمسات من الألم والغضب ، ولكنها لا ترفع صلاة متذللة ولا تحديا بروميثيا للآلهة . لقد بدأ موتسارت موسيقاه فى طفولته ، وكانت تكمن فى مؤلفاته خصيصة طفلية حتى اتضح له أن القداس الجنائزى الذى كان يكتبه لرجل غريب كان قداسا لجنازته هو .

٧ ـ الروح والجسد

لم يوهب موتسارت فتنة الجسد . فقد كان قصير القامة ، رأسه أكبر مما يناسب جسمه ، وأنفه أضخم من أن يلائم وجهه ، وشفته العليا راكبة على السفلى ، وحاجباه الكثيفان يحجبان عيناه القلقتين ، لا يروع الناظر إليه غير شعره الأشقر الغزير . وفى سنى عمره اللاحقة حاول التعويض عن عيوب قامته وقسماته باللباس البهى : قميص من الدنتلا ، وسترة زرقاء ، ذات ذيول ، وأزرار ذهبية وسراويل تصل إلى الركبة ومشابك فضية فوق حذائه . (٥٦) ولم يكن الناظر إليه ينسى مظهره إلا وهو يعزف على البيانو ، عندها تضطرم عيناه بالتركيز الشديد ، وتخضع كل عضلة فى بدنه نفسها لحركة ذهنه ويديه .

وكان فى صباه متواضعا طيب القلب ، واثقا بالناس محبا لهم ، ولكن ما ظفر به من شهرة مبكرة ، وما اغتذى عليه كل يوم تقريبا من التصفيق والاستحسان ، أحدث عيوبا فى خلقه . وقد حذره ليوبولد (١٧٧٨) قائلا « انك يا بنى سريع الغضب مندفع . . . شديد التحفز للرد فى لهجة ساخرة على أول تحد » (٥٧) . واعترف موتسارت بهذا وبأكثر منه . فكتب يقول « لا بد أن انتقم لنفسى إن أساء إلى إنسان ، فاذا لم أرد لعدوى الصاع صاعين أرانى إنما جازيته صاعا بصاع ولم أعاقبه . » (٥٨) ثم كان أشد الناس غلوا فى تقدير عبقريته . « إن الأمير كاونتز أخبر الارشيدوق بأن أمثالى لا يجود بهم الزمان إلا مرة كل مائة عام (٥٩) .

وكان يسود خطاباته ويظهر فى موسيقاه روح الفكاهة حتى آخر سنى عمره . وكان هذا الروح عادة ضاحكا معابثاً فى براءة ، يشتد أحيانا فيصبح هجاء جادا ، وفى شبابه كان بين الحين والحين ينحرف إلى فحش القول وهجره . وقد مر بمرحلة من الافتتان بالغائط . وحين كان فى الحادية والعشرين كتب لابنة عمه ماريا أنا تكلا موتسارت تسعة عشر خطابا تلوثها سوقية لاتصدق[٦٠] . وأشاد خطاب كتبه لأمه بالتطبل [أى إمتلاء البطن بالغازات] نثراً وشعراً[٦١] ولم تكن أمه شديدة الأحتشام ، فقد نصحت زوجها فى خطاب كتبته له فقالت « اعتن بصحتك ياحبيبى ، وادفع عجزك إلى فمك » ويبدو أن هذه العبارات « القذرية » كانت عرفا سائداً فى أسرة موتسارت وبيئتها ، ولعلها كانت ميراثاً من جيل أشد شبقا . على أنها لم تمنع موتسارت من أن يكتب لأبويه وشقيقته خطابات تفيض بأرق الحب . وكان فى زعمه عريساً بكراً . فهل كان زوجا وفيا ؟ لقد إتهمته زوجته بـ « مغازلات الخدم[٦٣] » ويقول كاتب سيرته المخلص :

« انتشرت الشائعات بين الجمهور وفى الصحف ، وبولغ فى وصف لحظات نادرة من الضعف عنده ، فجعلت سمات مميزة لخلقه . فنسبت إليه مغازلة كل تلميذة من تلاميذه وكل مغنية كتب لها أغنية ، وكان يعد من الفكاهات إن يلقب بالسلف الأول لدون جوان[٦٤] » .

وقد نجم عن كثرة لزوم زوجته الفراش للوضع ، وتكرار أسفارها إلى المنتجعات الصحية ، وغيابه عنها فى جولاته الموسيقية ، وحساسيته لكل مفاتن النساء ، واختلاطه بالمغنيات الفاتنات والممثلات المتحررات — نجم عن هذا كله موقف كانت فيه المغامرة لا مفر منها تقريباً . وقد روت كونستانتسى كيف أنه إعترف لها بـ « حماقة » من هذا النوع ولم غفرتها له — « لقد كان طيباً جداً بحيث يستحيل على الإنسان أن يغضب منه » ولكن أختها تقص أنباء تفجرات عنيفة بينهما بين الحين والحين[٦٥] . ويلوح إن موتسارت كان شديد التعلق بزوجته ، وقد احتمل عيوبها ربة للبيت ، وكان يكتب لها أثناء فراقهما خطابات تفيض إعزازا كاعزاز الأطفال[٦٦] .

ولم يكن موفقا فى الناحية الاجتماعية . من ذلك إنه قسا فى الحكم على بعض منافسية « إن صوناتات كلمنتى عديمة القيمة . . . فهو مشعوذ ككل الايطاليين[٦٧] . » « بالأمس أسعدنى الحظ بالأسماع إلى الهر فريهولت يعزف كونشرتوا من تأليفه التعس . ولم أجد فيه إلا القايل جداً مما يستحق الأعجاب[٦٨] » . ولكنه إمتدح الرباعيات التى نشرها مؤخراً اجناز بلييل وإن نافست رباعياته . ووبخة أبوه لأنه يبغض الناس فيه بصلفه[٦٩]، وأنكر موتسارت الصلف ، ولكن لا نكران فى أنه لم يكن له إلا قله ضئيلة من الأصدقاء بين موسيقى فيينا ، وأن روحه المتكبرة ألقت العقبات فى طريق تقدمة . ذلك إن حظ الموسيقى فى النمسا وألمانيا كان يعتمد على الطبقة الارستقراطية ، وقد رفض موتسارت إن يقدم النبالة على العبقرية .

ثم إنه عانى من معوق آخر هو أنه لم يختلف قط إلى المدرسة أو الجامعة . ولم يكن أبوه قد أتاح له متسعا من الوقت للتعليم العام . وقد اقتنى موتسارت فيما إقتنى من كتب قليلة دواوين شعر لجسنر وفيلاند وجلليرت ، ولكن يبدو أنه إستعملها فى الكثير الغالب مصدرا لنصوص ممكنة للاوبرات . وكان قليل الإكتراث للفن أو الأدب . وكان فى باريس حين مات فولتير ، فلم يستطع أن يفقه لم ضجت المدينة هذا الضجيج الكثير بسبب زيارة الثائر الهرم وموته . كتب لأبية يقول « إن هذا الوغد الكافر فولتير قد نفق كأنه كلب ، كأنه حيوان ! وهذا جزاؤه الحق[٧٠] . » وقد تشرب بعض العداء لرجال الدين من اخوانه الماسون ، ولكنه شارك فى موكب لعيد القربان المقدس وهو يمسك شمعة فى يده[٧١] .

ولعل سذاجة عقله هى التى جعلته محبوباً رغم أخطائه . فالذين لم ينافسوه فى الموسيقى وجدوه انيس المعشر بشوشاً رفيقا هادىء الطبع عادة . كتبت أخت زوجته صوفى فيبر « لم أر موتسارت طوال حياتى هائج الطبع ، ولا حتى غاضباً[٧٢] . » ولكن هناك روايات تناقض هذه . وكان بمثابة الحياة لكثير من الحفلات الخاصة ، دائم الرغبة فى العزف ، دائم الاستعداد لنكتة أو لعبة . وكان يحب البولنج ، والبليارد ، والرقص ، ويبدو أحيانا فخوراً

برقصه أكثر من موسيقاه. [٧٣] وإذا لم يكن كريما سمح النفس مع منافسيه، فإنه كان أريحيا دون تفكير تقريبا مع كل من عداهم. وندر أن رد سائلا. فاقترض منه ضابط أوتار البيانو المرة بعد المرة دون أن يرد قروضه. وكان موتسارت لا يخفى احترامه الشديد للمال، ولكن مرد ذلك انه كان يفتقر أشد الافتقار إلى الوقت أو الميل للتفكير فى المال، حتى انه كثيرا ما أعوزه هذا المال. وإذ اضطر إلى الاعتماد على وسائله فى كسب المال، واضطر إلى أن يعول أسرة بمنافسة عشرات الموسيقيين الغيورين منه فقد أهمل شئون ماله، وسمح لمكاسبه ان تتسرب من بين أصابعه دون اكتراث منه، وانحدر إلى درك الأملاق اليائس وهو يكتب أروع موسيقى جيله فى سمفونياته الثلاث الأخيرة وأوبراته الثلاث الأخيرة.

٨ — الأوج : ١٧٨٢ - - ٨٧

لقد بدأ حياة الاحتراف موسيقيا مستقلا فى فيينا بنجاح قرت به عينه. فكان يتقاضى أجرا طيبا على الدروس التى يعطيها، وأتاه كل كونشرتو عزف فى ١٧٨٢ — ٨٤ بنحو خمسمائة جولدن. [٧٤] ولم ينشر من مؤلفاته فى حياته سوى سبعين، ولكنه تقاضى عنها ثمنا معقولا. وأعطاه الناشر أرتارين مائة دوقاتية نظير الرباعيات الست المهداة إلى هايدن — وكان ثمنا طيبا فى تلك الأيام. [٧٥] وخسر ناشر آخر يدعى هوفمايستر بطبعه رباعيات موتسارت للبيانو فى مقام G الصغير (ك ٤٧٨) و E الخفيض (ك ٤٩٣)، فقد وجدها الموسيقيون عسيرة جدا (وهى الآن تعد سهلة) «وأنذر هوفمايستر موتسارت قائلا: «اكتب بشعبية أكثر وإلا فلن استطيع أن أطبع المزيد من مؤلفاتك أو أنقدك عنه». [٧٦] وكان موتسارت يتقاضى الأجر العادى عن أوبراته «وهو مائة دوقاتية، ولكنه تقاضى عن «دون جوفانى» ٢٢٥ دوقاتية مضافا إليها حصيلة حفلة موسيقية أحييت لصالحه. واجتمع له فى هذه السنين «دخل طيب جدا» [٧٧] كتب أبوه وقد زاره فى ١٧٨٥ يقول «إذا لم يكن على ولدى ديون مستحقة ففى ظنى أنه يستطيع الآن أن يودع فى المصرف ألفى جولدن. [٧٨]

ولكن موتسارت لم يودع ذلك المال فى المصرف ، بل أنفقه على مصروفاته الجارية ، وعلى الترفيه » والملابس الفاخرة ، وعلى تلبية حاجات الأصدقاء المتسولين . لهذه الأسباب وغيرها من أسباب أكثر غموضا وقع فى هوة الدين فى ذروة الطلب على خدماته ومؤلفاته . وفى تاريخ مبكر (١٥ فبراير ١٧٨٣) كتب إلى البارونة فون فالدشتيتن يقول إن أحد دائنيه هدده بأن « يقاضينى . . . وأنا فى هذه اللحظة لا أستطيع الوفاء بالمبلغ — ولا حتى بنصفه . . . أتوسل إليك يا سيدتى بحق السماء أن تعينينى على الاحتفاظ بشرفى وسمعتى. (٧٩) وجاءه الفرج المؤقت من نجاح حفلة موسيقية أحييت لصالحه فى مارس ، إذ أتته بألف وستمائة جولدن . وقد أهدى بعض هذا المال لأبيه .

وفى مايو ١٧٨٣ انتقل إلى منزل حسن فى رقم ٢٤٤ بميدان يودن . هناك ولد له طفله الأول (١٧ يونيو) « صبى جميل قوى ، ملفوف كالكرة . » ولان جانب الأب بفضل هذا الحدث والهدية بعد أن ساءه زواج ابنه « واستغل فولفجانج وكونستانتسى هذا اللين ليزورا ليوبولد ونانيرل فى سالزبورج ، بعد أن تركا الطفل فى فيينا مع مربية . وفى ١٩ أغسطس مات الطفل . وبقى أبواه فى سالزبورج لأن موتسارت كان قد رتب أن يعزف فيها قداسه فى مقام C الصغير الذى سترتل فيه كونستانتسى . وأطال فولفجانج وكونستانتسى مكثهما فوق أصول الضيافة « لأن ليوبولد كان عليه أن يحسب حساب كل درهم » ورأى ان زيارة ثلاثة أشهر أطول مما يحتمل . وفى طريق عودتهما إلى فيينا تخلفا فى لنتز ، حيث كلف الكونت فون تون موتسارت بكتابة سمفونية .

فلما عاد إلى بيته عكف بهمة على التدريس والتأليف والعزف والقيادة . ففى ثلاثة أشهر (٢٦ فبراير إلى ٣ ابريل ١٧٨٤) أحيا ثلاثة حفلات موسيقية وعزف فى تسع عشرة حفلة أخرى. (٨٠) وفى ديسمبر انضم إلى أحد المحافل الماسونية السبعة بفيينا ، واستمتع باجتماعاتهم . ولم يتردد فى الموافقة على تأليف الموسيقى لأعيادهم . وفى فبراير قدم أبوه فى زيارة طويلة بعد أن

ألانه مولد ولد آخر لكونستانتسى . وفى ١٧٨٥ دخل لورنتسودا بونتى حياة موتسارت .

وقد عاش لورنتسو هذا حياة فيها من المغامرة ما يقرب من مغامرة صديقه كازانوفا . كان قد ولد فى ١٧٤٩ ابنا لدباغ جلود فى حى يهود تشينيدا . فلما بلغ الرابعة عشرة أخذ أبو إمانويلى كونليانو وأخوان له الأطفال إلى لورنتسودا بونتى ، أسقف تشينيدا ، ليعمدهم أتباعا الكنيسة الكاثوليكية . واتخذ إمانويلى اسم الأسقف ، وأصبح كاهنا ، واتصل فى البندقية بامرأة متزوجة ، فنفى ، وانتقل إلى درسدن ، ثم إلى فيينا ، وفى ١٧٨٣ استخدمه المسرح القومى شاعرا وكاتبا لنصوص الأوبرات .

واقترح عليه موتسارت إمكان تأليف نص لأوبرا يؤخذ من كوميديا « زواج فيجارو » الحديثة التى ألفها بومارشيه . وكانت الكوميديا قد ترجمت إلى الألمانية لتمثيلها فى فيينا ، ولكن يوزف الثانى حظر عرضها بحجة احتوائها على نزعات ثورية تسيء إلى بلاطه . فهل فى الامكان إقناع الامبراطور ، الذى لم يكن هو نفسه مفتقرا إلى النزعة الثورية ، بأن يسمح بأوبرا تستخلص من التمثيلية بحكمة وحصافة ؟ وكان بونتى معجبا بموسيقى موتسارت ، وسيبدى فيه الرأى التالى فى تاريخ لاحق ، وهو أنه رجل « لم يستطع حتى الآن ، برغم ما أوتى من مواهب تفوق مواهب أى مؤلف موسيقى فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، أن يستغل عبقريته السماوية فى فيينا بسبب دسائس خصومه »[٨١] . ثم حذف من التمثيلية الحواشى المتطرفة التى كتبها بومارشيه ، وحول ما بقى إلى نص إيطالى يضارع خير نصوص متاستازيو .

كانت قصة «زواج فيجارو» هى المتاهة القديمة التى تتشابك فيها الاستخفاءات والمفاجآت والاكتشافات واستغفال الخدم الذكى لسادتهم : وكل هذا مألوف فى الكوميديا منذ عهد ميناندر وبلوتس . وسرعان ما أحب موتسارت الموضوع ، وألف الموسيقى بسرعة تكاد تبلغ سرعة تشكل النص ، فتم الأثنان

فى ستة أسابيع . وفى ٢٩ إبريل ١٧٨٦ كتب موتسارت الافتتاحية ، وفى أول مايو حالف النجاح العرض الأول للأوبرا . وربما كان بعض الفضل فى نجاحها لبنوتشى ، الباصو المرح الجهورى الصوت ، الذى غنى دور فيجارو ولكن لابد أن الفضل الأكبر لحيوية الموسيقى وملاءمتها للمناسبة . وللألحان رائعة مثل شكاة كيروبينو « ما الذى تعرفونه (Voi che sapete)، وتوسل الكونتيسة توسلا حارا فيه ضبط للنفس إلى إله الحب فى لحن الحب « Porgi amor » وقد إستعيدت الألحان غير مرة حتى إستغرق العرض مثلى الوقت العادى ، وفى نهايته طلب الجمهور موتسارت مرات ليظهر على خشبة المسرح .

كانت حصيلة أخراج « فيجارو » فى فيينا وبراغ خليقة بأن تعين موتسارت على الوفاء بديونه عاماً لولا اسرافه ولولا تكرار مرض زوجته وحملها . وفى إبريل ١٧٨٧ إنتقلا إلى بيت أقل تكلفة ، فى رقم ٢٢٤ شارع لاند شتراسى . وبعد شهر مات ليوبولد مخلفا لولده ألف جولدن .

وكلفته براغ بأوبرا أخرى . واقترح بونتى مغامرات دون جوان الجنسية موضوعاً لها . وكان ترسو دى مولينا قد عرض « الدون » الأسطورى على المسرح بمدريد فى ١٦٣٠ تحت اسم « مخادع أشبيليه » ، وروى موليير القصة فى باريس وسماها « وليمة الحجر » (١٦٦٥) وقدمها جولدونى فى البندقية باسم « دون جوفانى تنوريو » (١٧٣٦) وكان فنتشنتى ريجينى قد عرض « وليمة الحجر » فى فيينا عام ١٧٧٧ ، وفى عام ١٧٨٧ هذا نفسه كان جوزيبى جاتسانيجا قد أخرج بالعنوان ذاته أوبرا سطا بونتى على أسطر كثيرة منها ، ومن بينها قائمة مرحة بخطايا جوفانى .

وعرفت « أعظم الاوبرات قاطبة » (كما سماها روسينى) أول مرة فى براغ فى ٢٩ أكتوبر ١٧٨٧ . وذهب موتسارت وكونستانتسى إلى العاصمة البوهيمية ليشهدا هــذا الحدث ، وكثرت الحفاوة بهما إلى حد دعاه إلى تأجيل تأليف الافتتاحية حتى عشية العرض الأول ، وفى منتصف الليل

« بعد قضاء أبهج أمسية يمكن تصورها[٨٢] » ألف قطعة أقرب ما تكون إلى موسيقى فاجنر فى إيذانها بالعناصر التراجيدية والكوميدية للتمثيلية . ووصلت نوتة الافتتاحية إلى الاوركستر بالضبط فى الوقت المحدد للأداء[٨٣] . كتبت جريدة فيينا تسايتونج تقول « مثلت يوم الأثنين أوبرا الموسيقار موتسارت « دون جوفانى » التى طال أنتظارها . . . . . ويجمع الموسيقيون وأهل الخبرة على أن مثل هذا العرض لم ير فى براغ قط من قبل . وقاد الهر موتسارت بشخصه الموسيقيين ، وكان ظهوره فى الاوركستر إيذانا بترديد الهتاف الذى تكرر عند خروجه[٨٤] » .

وفى ١٢ نوفمبر عاد الزوجان السعيدان إلى فيينا . وبعد ثلاثة أيام مات جلوك ، وعين يوزف الثانى موتسارت ليخلفه رئيس موسيقى الحجرة للهلاط . وبعد معاناة شديدة مع المغنين أخرجت « دون جوفانى » بفيينا فى ٧ مايو ١٧٨٨ دون أن تلقى إستحسانا يذكر . وأدخل موتسارت وبونتى عليها المزيد من التغيير والتبديل ، ولكن الأوبرا لم تحظ قط فى فيينا بالنجاح الذى حظيت به فى براغ ومانهايم وهامبورج . وشكا ناقد برلينى فقال أن « التمثيلية الهازلة » عدوان على الفضيلة . ولكنه أردف « إن كان لأمة من الأمم إن تفخر بأحد أبنائها ، فإن لألمانيا أن تفخر بموتسارت مؤلف هذه الأوبرا[٨٥] » . وبعد تسع سنوات كتب جوته إلى شيلر « إن آمالك التى ترجوها للأوبرا تحققت بوفرة فى دون جوفانى[٨٦] » وتحسر على أن موتسارت لم يعش ليكتب موسيقى فاوست .

٥ — الحضيض : ١٧٨٨ — ٩٠

لم تلبث حصيلة دون جوفانى أن نفدت ، ولم يكف راتب موتسارت المتواضع لشراء الطعام إلا بالجهد . وقبل إعطاء بعض التلاميذ دروسا خصوصية ولكن التدريس كان عملا مرهقا مضيعا للوقت . وعليه فقد إنتقل إلى مسكن أرخص فى ضاحية فيرنجر شتراسى . ومع ذلك تكاثرت عليه الديون . فاقترض أينما أستطاع — خصوصا من تاجر كريم وأخ فى الماسونية يدعى

ميخائيل بوشبرج . وقد كتب إليه موتسارت فى يونيه ١٧٨٨ يقول :

« ما زلت مدينا لك بثمانى دوقاتيات . ورغم أنى فى هذه اللحظة لست فى وضع يمكننى من سداد هذا المبلغ لك ، فان ثقتى فيك لا حد لها ، بحيث أجرؤ على التوسل إليك بأن تسعفنى بمائة جولدن حتى الأسبوع القادم وهو الموعد المحدد لبدء حفلاتى الموسيقية فى الكازينو . عندئذ سأكون بالتأكيد قد تسلمت نصيبى الذى وعدت به فاستطيع بغاية السهولة أن أرد لك ١٣٦ جولدنا مقرونة بأحر عبارات شكرى . [٨٧] »

وأرسل إليه بوشبرج المائة جولدن . وشجع هذا موتسارت « فرجاه (١٧ يونيو) فى إقراضه « ألف جولدن أو ألفين لمدة عام أو عامين بفائدة مناسبة » وكان قد ترك متأخرات من إيجار بيته القديم دون أن يدفعها ، فهدده المالك بحبسه ، فاستدان موتسارت ليؤدى له دينه . والظاهر أن بوشبرج لم يوافه بكل ما طلب ، لأن المؤلف اليائس أرسل إليه توسلات جديدة فى يونيو ويوليو . فى تلك الشهور النكدة المزعجة ألف موتسارت « السمفونيات الكبرى » الثلاث .

ثم رحب بدعوة أتته من الأمير كارل فون لشنوفسكى ليركب معه إلى برلين . واقترض لتلك الرحلة مائة جولدن من فرانتز هوفدميل . وغادر الأمير والصعلوك فيينا فى ٨ ابريل ١٧٨٩ . وفى درسدن عزف موتسارت أمام الأمير الناخب فردريك أغسطس فظفر بمائة دوقاتية . وفى ليبزج عزف فى حفلة عامة على أرغن باخ ، وتأثر بترتيل فرقة « توماستولى » لموتيته باخ « أنشدوا للرب » Singet dem Herron . وفى بوتسدام وبرلين (٢٨ أبريل إلى ٢٨ مايو) عزف لفردريك وليم الثانى ، فنفحه بسبعمائة فلورين « مع تكليف بست رباعيات وست صوناتات . ولكن مكاسبه انفقت بسرعة عجيبة ، وقد عزت شائعة غير مؤكدة بعض هذا الانفاق إلى صلة غرام بمغنية برلينية تدعى هنرييته بارونيوس . [٨٨] وفى ٢٣ مايو كتب إلى كونستانتسى يقول « أما عن عودتى فعليك أن تتطلعى إلى أنا أكثر من التطلع إلى النقود [٨٩] » ووصل أرض الوطن فى ٤ يونيو ١٧٨٩ .

واحتاجت كونستانتسى ، التى كانت حاملا مرة أخرى ، إلى الأطباء والعقاقير وإلى رحلة غالية للاستشفاء بمياه بادن – باى – فيين ؛ وفزع موتسارت إلى بوشبرج مرة أخرى :

« يا إلهى العظيم ! لست أتمنى لأعدى أعدائى أن يكون فى موقفى الراهن . إنك لو تخليت عنى يا أعز صديق وأخ (ماسونى) لقضى علينا قضاء مبرما – نفسى التعسة البريئة وزوجتى المريضة المسكينة وأطفالى ... فكل شىء رهن . . . بموافقتك على إقراضى خمسمائة جولدن أخرى ، وإلى أن تسوى أمورى أتعهد بأن أرد لك عشرة جولدنات كل شهر ، ثم أسدد لك المبلغ كله . يا إلهى ! لا أكاد أقوى على حمل نفسى على إرسال هذا الخطاب ، ومـع ذلك لابد مما ليس منه بد ! اغفر لى بالله ، فقط اغفر لى ! [٩٠] » .

وأرسل له بوشبرج ١٥٠ جولدنا أنفق أكثرها فى سداد فواتير كونستانتسى فى بادن . وفى ١٦ نوفمبر ، ولدت فى بيتهم بنتا ماتت فى اليوم نفسه . وأعانه يوزف الثانى بأن كلفة هو وپونتى بكتابة « مسرحية هازلة » عن موضوع قديم (استخدمه ما ريفو فى لعبة الحب والحظ ١٧٣٠) : خلاصتها إن رجلين يتنكران لاختبار وفاء خطيبتيهما فيجدان فيهما لينا ورخاوة ، ولكنهما يغفران لهما على أساس أن كل النساء هكذا «cosi fan tutte» ومن هنا اسم الأوبرا «هكذا يفعلن جميعاً». ولم يكن الموضوع بالذى يتفق ومزاج موتسارت المأسلوى آنئذ (إذا استثنينا قليلا من العبث بفكر من كونستانتسى فى بادن) ، ولكنه قدم للنص البارع الظريف موسيقى هى التجسيد الكامل للبراعة والظرف ، وندر أن نجد هراء يمثل ما نجد به هذا الهراء . وقد لقى عرض الأوبرا الأول فى ٢٦ يناير ١٧٩٠ نجاحا لا بأس به ، وأعيد العرض أربع مرات فى شهر واحد ، وكانت الحصيلة مائة دوقاتية لموتسارت . ثم مات يوزف الثانى (٢٠ فبراير) ، واغلقت مسارح فيينا أبوابها حتى ١٢ أبريل .

وراود موتسارت الأمل فى أن يجد له الأمبراطور الجديد عملا ، ولكن

ليوبولد الثانى تجاهلة . وكذلك تجاهل بونتى فرحل إلى انجلتره وأمريكا ، وإنتهى به المطاف (١٨٣٨) مدرساً الايطالية فى ما هو الآن جامعة كولومبيا بنيويورك[٩١] . واستنجد موتسارت بيوشبرج من جديد (٢٩ ديسمبر ١٧٨٩ ، ٢٠ يناير ، ٢٠ فبراير ، ١ ، ٨ ، ٢٣ إبريل ١٧٩٠) ، ولم يرده خائبا قط ، ولكن ندران تلقى منه كل ما طلب . وفى أوائل مايو طلب مئاتة جولدن ليؤدى ما استحق عليه من إيجار . فأرسل إليه يوشبرج مائة . واعترف ليوشبرج فى ١٧ مايو « إننى مضطر للألتجاء إلى المرابين » وفى ذلك الخطاب ذكر أنه لم يبق له من تلاميذه سوى اثنين ، ورجا صديقة « أن يذيع بين الناس أننى مستعد لإعطاء الدروس[٩٢] » على أن ما به من توتر الأعصاب وضيق الخلق كان يحول بينة وبين إجادة التعليم . وكان أحيانا يخلف مواعيده مع تلاميذه وأحيانا يلعب معهم البليارد بدلا من أن يعطيهم درساً[٩٣]. ولكنه كان إذا وجد طالبا ذا موهبة مبشرة بذل له نفسه دون تحفظ . وهكذا نراه يعلم يوهان هومل فى اغتباط وبنجاح ، وقد تتلمذ له (١٧٨٧) وهــو لا يزال فى الثامنة ، وأصبح عازفا شهيرا للبيان فى الجيل التالى .

وأضافت الأمراض الخطيرة آلاما إلى أحزان موتسارت . وقد شخص طبيب أوجاعة بأنها « التهاب مفرز لحويصلة الكلية مصحوب بتقيح ، وتضررات بؤرية كامنة . تفضى بالضرورة إلى عجز كلوى تام[٩٤] » . وهذا معناه التهاب فى الكلى صديدى مضعف . كتب إلى بوشبرج فى ١٤ أغسطس ١٧٩٠ يقول « إننى اليوم فى منتهى التعاسة . لم يغمض لى جفن فى الليله البارحة لشدة الألم . . . تصور حالى — عليل تتوشنى الهموم والمنغصات . . . . ألا تستطيع إعانتى بمبلغ تافه ؟ إننى أرحب جداً بأقل مبلغ . » وأرسل له بوشبرج عشرة جولدنات .

واتخذ موتسارت رغم سوء حالته الصحية خطوة يائسة ليعول أسرته . ذلك أنه تقرر تتويج ليوبولد بفرانكفورت فى ٩ أكتوبر ١٧٩٠ . وكان فى حاشية الإمبراطور سبعة عشر موسيقيا للبلاط ، ولكن موتسارت لم يدع . ومع ذلك ذهب بصحبة فرانتز هوفر زوج أخته وعازف الفيولينه . ورهن موتسارت آنية الأسرة الفضية ليغطي نفقة الرحلة . وفى فرانكفورت عزف

وقاد فى ١٥ أكتوبر كنشرتو البيانو فى مقام D (ك ٥٣٧) ، الذى ألفه قبل ثلاث سنوات ، ولكن شاعت نزوة من نزوات التاريخ أن تسمية « كونشرتو التتويج » — وهو ليس من أفضل موسيقاه . كتب لزوجته يقول « لقد نجح نجاحاً باهرا من حيث الشرف والمجد ، ولكنه أخفق من حيث المال[٩٥] » . وقفل إلى فيينا دون أن يزيد ما كسبة عما أنفق إلا قليلا . وفى نوفبر أنتقل إلى مسكن أرخص فى راوهنشتاينجاسى حيث قدر له أن يلقى منيته .

١٠ — القداس الجنائزى : ١٧٩١

وأعانته على الحياة عاماً آخر ثلاثة تكليفات وافته فى تتابع سريع . ففى مايو ١٧٩١ عرض عليه إمانويل شيكانيدر ، الذى كان يخرج الاوبرات والتمثيليات الألمانية فى مسرح بإحدى الضواحى ، مخططاً لنص يدور حول ناى سحرى ، ورجا أخاه فى الماسونية أن يؤلف موسيقى للنص ، فقبل موتسارت . ولما ذهبت كونستانتسى وهى حبلى مرة أخرى إلى بادن — باى فيين فى يونيو ، قبل دعوة شيكانيدر أن ينفق نهاره فى بيت وسط حديقة قرب المسرح حيث يستطيع تأليف « الناى السحرى » تحت حث المدير والحاحة . أما الأمسيات فقد صحب فيها شيكانيدر فى حياة الليل بالمدينة . يقول يان « كانت الحماقة والسرف الرفيقين الحتميين لمثل هذه الحياة ، وسرعان ما وصلت أنباؤهما إلى إذان الجماهير . . . فلوثت اسمه شهورا بقدر من القدح فوق ما يستحق[٩٦] » . ووسط هـذه الاسترخاءات وجد موتسارت وقتا للركوب إلى بادن (على أحد عشر ميلا من فيينا) ليزور زوجته التى ولدت له فولفجانج موتسارت الثانى فى ٢٦ يوليو .

فى ذلك الشهر وافاه طلب من غريب مجهول الاسم ، يعرض عليه مائة دوقاتية يؤلف لقاءها سراً قداسا جنائزيا ، ثم يرسله إليه دون أى اعلان لاسم المؤلف . وتحول موتساوت من مرح « الناى السحرى » إلى موضوع الموت . وإذا هو يتلقى فى أغسطس تكليفا من براغ بتأليف أوبرا « La clemenza di Tito » « شفقة تيتو » تمثل هناك فى مناسبة وشيكة هى تتويج ليوبولد الثانى ملكا على بوهيميا . ولم يتح له غير شهر واحد لوضع موسيقى جديدة لنص متاستازيو القديم . وعكف عليه فى مركبات مهتزة

وفنادق صاخبة أثناء رحلته مع زوجته إلى براغ . وغنيت الأوبرا فى ٦ سبتمبر دون أن تحظى إلا باستحسان وسط . وكانت الدموع تترقرق فى عينى موتسارت وهو يغادر المدينة الوحيدة التى ناصرته من قبل ، ويدرك أن الإمبراطور شهد فشله . ولم يكن له من عزاء إلا أجر المائتى دوقاتية ، والنبأ اللاحق بأن إعادة عرض الأوبرا فى براغ فى ٣٠ سبتمبر لقى كل نجاح .

فى ذلك اليوم قاد من البيانو أول عرض للناى السحرى . والقصة كانت فى بعضها من قصص الجان ، وفى بعضها تمجيدا لشعائر الدخول فى الماسونية . وأفرغ موتسارت خير فنه فى تأليف موسيقاها وإن أتبع معظم الألحان نمط ميلودى بسيط يناسب جمهوره المؤلف من الطبقة الوسطى . وقد أغدق فيضا من الزوقات (الكولوراتورا) على « ملكة الليل » ، ولكنه كان بينه وبين نفسه يسخر من غناء الكولوراتورا ويشبهه بـ « الشرائط المقطعة » . [٩٧] ومارش الكهنة الذى يفتتح الفصل الثانى موسيقى ماسونية ، ولحن كبير الكهنة « In diesen Leiligen Hallen » « فى هذه القاعات المقدسة لا نعرف شيئاً عن الانتقام ، ومحبة الداخلين فى الإيمان لإخوانهم من البشر هو المبدأ الهادى » — هذا اللحن هو زعم الماسونية بأنها ردت أخوة البشر التى بشرت بها المسيحية من قبل . (قارن جوته بين الناى السحرى والجزء الثانى من فاوست ، الذى بشر هو أيضا بالأخوة ، وإذ كان هو نفسه ماسونيا فقد قال عن الأوبرا إن لها « معنى أسمى لن يغيب عن أعضاء الجماعة . » [٩٨] ولقى العرض الأول نجاحا قلقا ، وصدم النقاد ذلك المزج بين الفوجة والمرح [٩٩] ، على أن الناى السحرى ما لبث أن أصبح أحب أوبرات موتسارت إلى الناس ، وأحب الأوبرات قبل فاجنر وفردى . وقد أعيد أداؤه مائة مرة خلال أربعة عشر شهرا من العرض الأول .

وجاء هذا النصر الأخير وموتسارت يشعر بيد الموت تمسه . وكأن القدر أراد أن يؤكد سخريته ، إذ تلقى الآن من جماعة من نبلاء المجريين تعهدا باشتراك سنوى قدره ألف فلورين ، ثم عرض عليه ناشر أمستردامى مبلغا أكبر حتى من هذا نظير اختصاصه بحق طبع بعض أعماله . ثم تلقى فى سبتمبر دعوة إلى لندن من بونتى ، فرد عليه قائلا « كان بودى أن أتبع نصيحتك ، ولكن كيف أستطيع ؟ . . . إن حالتى تنبئنى بأن ساعتى قد

حانت ، فأنا موشك على فراق الحياة . وقد أتت النهاية قبل ان أستطيع إثبات موهبتى . ومع ذلك كانت الحياة جميلة » [١٠٠] .

وفى شهوره الأخيرة أفرغ عافيته المتداعية فى تأليف « القداس الجنائزى » وراح يعكف عليه أسابيع عديدة عكوفا محموما . فلما حاولت زوجته أن تصرفه عنه إلى شواغل أقل جهامة قال لها « إننى أكتب القداس الجنائزى لنفسى ، وسيصابح صلاة لمأتمى » [١٠١] وألف لحن « يا رب أرحم » Kyrie وأجزاء من « يوم الغضب » والبوق السماوى Tuba Mirum « والملك الموهوب » Rex Tremendae واذكرنى Recordare و « الباكية » Lacrimosa و « أيها الرب » و « المدانون Confutatis » و « القرابين » Hostias . وقد ترك هذه الأجزاء المتناثرة دون مراجعة ، وهى تشى باضطراب عقل يواجه الانهيار . وقد أكمل فرانتز زافير زوسماير « القداس الجنائزى » على نحو رائع .

وفى نوفمبر بدأت يدا موتسارت ورجلاه تتورم ورما مؤلما ، وأصابه شلل جزئى . فاضطر إلى لزوم فراشه ، فى تلك الامسيات حين كانت أوبرا « الناى السحرى » تمثل كان يضع ساعته إلى جواره ويتابع كل فصل فى خياله ، مدندنا بالألحان أحيانا . وفى آخر يوم فى حياته طلب نوتة القداس الجنائزى ورتل دور الألتو ، ورتلت السيدة شاك السوبرانو ، وفرانتز هوفر التنور ، والمر جيرل الباص . فلما بلغوا « الباكية » بكى موتسارت . وتنبأ بأنه سيموت الليلة . وناوله كاهن الأسرار المقدسة الأخيرة . وقرب المساء فقد الوعى ، ولكنه فتح عينيه بعد منتصف الليل بقليل ثم أدار وجهه إلى الحائط وسرعان ما إنتهت آلامه (٥ ديسمبر ١٧٩١) .

ولم تستطع زوجته ولا أصدقاؤه أن يشيعوه كما ينبغى أن يشيع . صلى على الجثمان فى كنيسة القديس إسطفانوس فى ٦ ديسمبر ، ودفن فى فناء كنيسة القديس مرقص . ولم يشتر له قبر ، بل أدلى الجثمان فى قبوه عام صنع ليتلقى أجساد خمسة عشر أو عشرين من الفقراء المعدمين . ولم تحدد الموضع علامة من صليب أو نص ، فلما ذهبت إليه أرملته بعد أيام لتصلى ، لم يستطع أحد أن يدلها على البقعة التى ضمت رفات موتسارت ؟

المراجع الافرنجية

CHAPTER IX

1. Vaussard, *La Vie quotidienne* [illegible] [illegible] *au xviii^{e} siècle*, 27.
2. *Ibid.*, 107.
3. 105.
4. 125.
5. Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 519.
6. Baedeker, *Northern Italy*, 471.
7. James, E. E., *Bologna*, 178-80.
8. Casanova, *Memoirs*, I, 14.
9. Rolland, Romain, *Musical Tour through the Land of the Past*, 167.
10. *Ibid.*
11. *Ibid.*
12. *Réalités*, November, 1954, p. 45.
13. Láng, *Music in Western Civilization*, 354.
14. Grout, D. J., *Short History of Opera*, 196.
15. Kirkpatrick, R., *Domenico Scarlatti*, 94.
16. Einstein, Alfred, *Gluck*, 101.
17. Lee, Vernon, *Studies of the 18th Century in Italy*, 206.
18. Vaussard, 82.
19. De Sanctis, *History of Italian Literature*, II, 825.
20. Vaussard, 83.
21. *Ibid.*, [illegible]
22. 88.
23. Campbell, T. J., *The Jesuits*, 424.
24. McCabe, Jos., *Candid History of the Jesuits*, 287.
25. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 276.
26. Chesterfield, *Letters*, Feb. 28, 1749.
27. Einstein, *Gluck*, 15.
28. Gatti-Cazazza Collection, Venice.
29. Private collection, Venice.
30. *Ibid.*
31. Museo Civico, Bassano.
32. Voltaire, *Works*, VIIIa, 5.
33. Molmenti, P., *Venice*, Part III: *The Decadence*, I, 37.
34. *Ibid.*, 49.
35. Molmenti, *The Decadence*, II, 17, 146.
36. *Ibid.*, 48.
37. [illegible]
38. Rousseau, *The Confessions*, I, 301; Molmenti, II, 93.
39. Vaussard, 180.
40. Goldoni, *Memoirs*, 178.
41. Rousseau, *The Confessions*, I, 292.
42. Molmenti, I, 169; Vaussard, 195.
43. *Grove's Dictionary of Music*, III, 314.
44. Pincherle, *Vivaldi*, 16.
45. *Ibid.*, 17.
46. Rolland, *Musical Tour*, 187.
47. Pincherle, 67.
48. E. g., Violin Concerto in E, Concerto Grosso in D Minor.
49. Pincherle, 61.
50. *Ibid.*, 229-32.
51. *Time*, Nov. 29, 1963.
52. Lord Walpole Collection.
53. Brera Gallery, Milan.
54. Boston Museum of Fine Arts; Wallace Collection.
55. National Gallery, London.
56. Wallace Collection.
57. London, Vienna, Geneva.
58. New York.
59. Turin.
60. Louvre.
61. Duke of Devonshire Collection.
62. Levey, *Painting in 18th-Century Venice*, 92.
63. Anon., *Tiepolo*, 34.
64. Ospedaletto, Venice.
65. E.g., Sitwell, S., *Southern Baroque Art*, 35.
66. Molmenti, *Tiepolo*, 19; Venturi, L., *Italian Painting from Caravaggio* [illegible] *Modigliani*, 74.
67. Letter of Mar. 13, 1734, in Rolland, *Musical Tour*, 149.

67a. Goldoni, *Memoirs*, 184.

68. Casanova, *Memoirs*, II, 276.
69. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 29; Vaussard, 193.
70. Goldoni, *Memoirs*, 1, 4.
71. *Ibid.*, 179.
72. 183.
73. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 323.
74. Gozzi, Carlo, *Memoirs*, II, 110 f.
75. Molmenti, *Venice: Decadence*, I, 168.
76. Goldoni, *Memoirs*, 346.
77. *Ibid.*, introd., xi.
78. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 7.
79. Goldoni, *Memoirs*, xxi.
80. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 70.
81. Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, VI, 675.
82. Ranke, *History of the Popes*, III, 472.
83. *New Cambridge Modern History*, VII, 284.

84. Funk, F. X., *Manual of Church History*, II, 180.
85. Macaulay, Essays, II, 179.
86. De Brosses in McCabe, Jos., *Crises in the History of the Papacy*, 354.
87. *Correspondance de Benoit XIV*, II, 268, in McCabe, *Crises*, 354.
88. *CMH*, VI, 591.
89. Ford, Miriam de, *Love Children*, 205.
90. Lanfrey, P., *L'Église et les philosophes*, 190.
91. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 60.
92. Sime, James, *Lessing*, I, 92.
93. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, IV, 1393.
94. Gershoy, Leo, *From Despotism to Revolution*, 146.
95. *CMH*, VI, 598.
96. *Ibid.*, 599.
97. Robertson, *Short History of Freethought*, II, 369.
98. Vico, Giambattista, *Autobiography*, 111.
99. Croce, B., *Philosophy of Giambattista Vico*, 232.
100. Vico, *The New Science*, No. 31.
101. *Ibid.*, Nos. 916–18; we have ventured to improve the translation.
102. Nos. 922–24.
103. 925–27.
104. Vico, *Autobiography*, 171.
105. *The New Science*, No. 1104.
106. 1105.
107. 417–24.
108. 873–80.
109. 361.
110. *Autobiography*, 173.
111. *The New Science*, No. 1110.
112. Croce, *Philosophy of Vico*, 269.
113. *Ibid.*, 274.
114. Croce, *Filosofia di G. B. Vico* (1911).
115. Grout, *Opera*, 200.
116. *Ibid.*, 208.
117. *Oxford History of Music*, IV, 185.
118. Burney, Charles, *General History of Music*, II, 917.
119. *Grove's Dictionary*, II, 785.
120. *Ibid.*
121. *Ibid.*
122. Beckford, Wm., *Travel Diaries*, II, 167.
123. Lee, Vernon, *Studies*, 194.
124. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 21.
125. *Ibid.*, 32.
126. 33.
127. Introd. ■ the Victor Album of Scarlatti's Sonatas.
128. Kirkpatrick, 58.
129. *Ibid.*, 103.
130. Especially delightful: Nos. 13, 23, 25, 104, and 338, in the Longo numbering.
131. Coxe, Wm., *Memoirs of the Kings of Spain*, IV, 232.

CHAPTER X

1. Beckford, *Travel Diaries*, II, 171.
2. Cheke, Marcus, *Dictator of Portugal*, 4.
3. Day, Clive, *History of Commerce*, 186; *History Today*, November, 1955, p. 730.
4. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 28; Stirling-Maxwell, IV, 1385.
5. *New CMH*, VII, 289.
6. Stephens, H. M., *Story of Portugal*, 354.
7. *Enc. Brit.*, XX, 681b.
8. *History Today*, November, 1955, p. 731.
9. Campbell, *The Jesuits*, 431.
10. Cheke, 50.
11. *Ibid.*, 111.
12. *History Today*, November, 1955, p. 733.
13. See *The Age of Reason Begins*, 249–51.
14. Cheke, 106.
15. McCabe, *The Jesuits*, 261.
16. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 258; Cheke, 114.
17. Our account follows Cheke, 118 f.
18. Lanfrey, 259.
19. Cheke, 132.
20. Lanfrey, 260.
21. McCabe, *Jesuits*, 263.
22. Campbell, *Jesuits*, 462.
23. Gershoy, *From Despotism ■ Revolution*, 152; Cheke, 140.
24. Voltaire, *Works*, XVIa, 243.
25. Cheke, 155.
26. *Ibid.*, 157.
27. Voltaire, XVIa, 243.
28. Gershoy, 153; Cheke, 204.
29. Gershoy, 154.
30. Stephens, *Portugal*, 367.
31. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, III, 310n.
32. Bell, Aubrey, *Portuguese Literature*, 277.
33. Cheke, 251.
34. *Ibid.*, 268.
35. *Ibid.*

CHAPTER XI

1. Altamira, R., *History of Spain*, 482, 466; Ogg, D., *Europe in the 17th Century*, 22; *New CMH*, VII, 271.
2. Herr, Richard, *The Eighteenth-Century Revolution in Spain*, 106; see also Altamira, 467–68.
3. Herr, 96.
4. Altamira, 460; Stokes, Hugh, *Francisco Goya*, 187.
5. Klingender, F. D., *Goya in the Democratic Tra■ion*, 40.
6. *Ibid.*, 4–5; Campbell, *Jesuits*, 424.
7. Kany, C. E., *Life and Manners in Madrid, 1750–1800*, 375.
■ Vallentin, A., *This I Saw*, 26.
9. Lea, *Inquisition ■ Spain*, III, 308–10; IV, 523.

10. Martin, H., *France*, XV, 114-15.
11. Ticknor, Geo., *History of Spanish Literature*, III, 244.
12. Lea, IV, 530.
13. Buckle, H. T., *Introd.* [illegible] *the History of Civilization in* [illegible]*gland*, IIa, 61.
14. *CMH*, VI, 124.
15. Voltaire, XIXa, 214.
16. Burney, Charles, *History of Music*, II, 815-16.
17. Kany, 392.
18. Coxe, *Memoirs of the Kings of Spain*, IV, 141-43.
19. Trevor-Roper, *Historical Essays*, 268.
20. Herr, 75.
21. Letter of d'Alembert [illegible] Voltaire, May 13, 1773, in Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 372.
22. Herr, 63.
23. *Ibid.*, 77.
24. Ségur, *Lespinasse*, 254.
25. Altamira, 508.
26. Lea, *Inquisition*, IV, 307.
27. Herr, [illegible].
28. Michelet, *Histoire de France*, V, 439.
29. Stokes, *Goya*, 147.
30. Coxe, *Kings of Spain*, IV, 235.
31. Letters of [illegible] English officer, 1788, in Buckle, IIa, 92.
32. Coxe, IV, 236.
33. Hume, Martin, *Spain: Its Greatness* [illegible] *Decay*, 397.
34. Coxe, IV, 408.
35. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 163.
36. Coxe, IV, 341.
37. *Ibid.*, 361.
38. Campbell, *Jesuits*, 511-12.
39. *Ibid.*; Lanfrey, *L'Église* [illegible] *les philosophes*, 280.
40. Coxe, IV, 362.
41. *Ibid.*, 363.
42. Lanfrey, 282.
43. Campbell, 517-18.
44. *Ibid.*, 519; Lanfrey, 281.
45. Coxe, IV, 368.
46. Herr, 23.
47. *Ibid.*
48. 205.
49. 29.
50. [illegible]
51. Kany, 356-57.
52. Buckle, IIa, [illegible] Robertson, *Freethought*, II, 372.
53. Herr, 210; Robertson, 373.
54. Herr, 35; Trevor-Roper, 264.
55. Coxe, IV, 412-16; Casanova, *Memoirs*, II, 344.
56. Altamira, 438.
57. Fitzmaurice-Kelly, *History of Spanish Literature*, 357.
58. Rev. Geo. Edmundson, [illegible] *CMH*, VI, 384.
59. Vallentin, 5.
60. Herr, 54.
61. *Ibid.*, 57.
62. Buckle, IIa, 98.
63. *Ibid.*, 94.
64. Herr, 128.
65. *CMH*, VI, 383.
66. Herr, 148.
67. *Ibid.*, 141-42.
68. 150.
69. Kany, 24; Vallentin, 26.
70. Kany, 38.
71. *Ibid.*, 18.
72. Hume, Martin, *Spain*, 411.
73. Stokes, 188; Kany, 214.
74. Laborde, *Spain*, in Buckle, IIa, 114.
75. Kany, 24.
76. *Ibid.*, 280.
77. Casanova, II, 348.
78. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 132.
79. Altamira, *History of Spanish Civilization*, 183.
80. Trevor-Roper, 264.
81. Kany, 345; Buckle, IIa, 95.
82. Ticknor, III, 256; Herr, 165.
83. Ticknor, III, 262.
84. *Ibid.*, 273.
85. Vallentin, 144.
[illegible] Calvert, A. F., *Royal Palaces of Spain*, 97.
87. Cathedral of Salamanca.
88. Prado.
89. Private collection, Zurich.
90. Prado.
91. Poore, Charles, *Goya*, 156.
92. Calvert, *Goya*, 55.
93. Poore, 48.
94. One in Frick Collection, New York.
95. Prado.
96. Prado.
97. Vallentin, 93.
98. Trevor-Roper, [illegible]
99. Vallentin, 111.
[illegible] *Ibid.*, 112.
101. E.g., Malraux in Goya, *Drawings from the Prado*, xiv.
[illegible] Lassaigne, J., *Spanish Painting: From Velázquez to Picasso*, 89.
103. Vallentin, 112.
104. *Ibid.*, 119.
105. Duke of Alba Collection.
106. [illegible]oya, *Draw*[illegible], Plate 4.
107. Collection of the Hispanic Society, New York.
[illegible] Vallentin, 195.
109. *Ibid.*, 203.
[illegible] Prado.
111. Vallentin, 183.
112. Academy of San Fernando, Madrid.
113. National Gallery, Washington.
114. Academy of San Fernando, Madrid.
115. Klingender, [illegible]*oya*, 92.
116. Goya, *Drawings*, 123.

117. *Ibid.*, 130.
118. 170.
119. Academy of San Fernando.
120. Goya, *Drawings*, 112.
121. *Ibid.*, 89-117.
122. 118.
123. Vallentin, 223.
124. Both in the Prado.
125. Metropolitan Museum of Art, New York.
126. In Goya, *The Disasters of War*, No. 23.
127. *Ibid.*, No. 12.
128. No. 44.
129. No. 47.
130. No. 18.
131. These pictures from the Quinta del Sordo are in the Prado.
132. Lassaigne, *Spanish Painting: From Velázquez to Picasso*, 106.

CHAPTER XII

1. Goethe, *Letters from Italy*, Sept. 16, 1786.
2. *Ibid.*, Sept. 12 and 13, 1786.
3. Gozzi, Carlo, *Memoirs*, II, 7.
4. *Ibid.*, 100-03.
5. Hazlitt, W. C., *The Venetian Republic*, II, 323.
6. Casanova, *Memoirs*, II, 110.
7. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 275.
8. Pearson, Hesketh, *Johnson and Boswell*, 171.
9. Goethe, *Letters from Italy*, Oct. 25, 1786.
10. *CMH*, VI, 601.
11. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, I, 48.
12. Goethe, *Letters from Italy*, Mar. 17, 1787.
13. Vaussard, 74.
14. Friedländer, Ludwig, *Life and Manners under the Early Empire*, II, 78.
15. Goethe, Oct. 27, 1786.
16. Vaussard, 84.
17. *Ibid.*, 89.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 122.
19. McCabe, *The Jesuits*, 346.
20. E.g., Lanfrey, *Histoire politique des papes*, 384; *id.*, *L'Église et les philosophes*, 105.
21. Campbell, *Jesuits*, 536.
22. McCabe, *Jesuits*, 346.
23. Ranke, *History of the Popes*, II, 449-50.
24. Campbell, 538.
25. *Ibid.*, 541.
26. McCabe, 355.
27. Campbell, 563.
28. Mozart, letter of Aug. 4, 1770, in Anderson, Emily, *Letters of Mozart*, I, 227.
29. Jahn, *Life of Mozart*, I, 151.
30. Blom, Eric, *Mozart*, 57.
31. Goethe, *Letters from Italy*, Nov. 24, 1786.
32. Vaussard, 141-43.
33. Beccaria, *Dei delitti e delle pene* (1766 ed.), p. 11.
34. Carlyle, "Count Cagliostro," in *Essays* (*Works*, III), 187-92.
35. Goethe, *Letters*, Apr. 13 and 14, 1787.
36. Casanova, I, 13.
37. *Ibid.*, 14.
38. 113.
39. Introd. xx.
40. 210.
41. 211.
42. 219.
43. 287.
44. 330.
45. 406-7.
46. II, 370, 393.
47. *Ibid.*, 340.
48. Gilbert, O. P., *The Prince de Ligne*, 157.
49. Winckelmann, I, 3.
50. *Ibid.*, 9.
51. 18.
52. 31.
53. Pater, Walter, *The Renaissance*, 155.
54. In Brandes, *Goethe*, II, 244.
55. Winckelmann, I, 31.
56. In Muther, *History of Modern Painting*, I, 81.
57. Pater, *Renaissance*, 148.
58. Winckelmann, I, 46.
59. *Ibid.*, 60.
60. II, 319.
61. I, 64.
62. *Ibid.*
63. *Ibid.*
64. *Ibid.*
65. I, 70.
66. 287.
67. 77.
68. 76, 84.
69. 86.
70. In Pater, 147.
71. Both in Museo Correr, Venice.
72. Good examples in Morgan Library, New York, and Metropolitan Museum of Art.
73. Levey, *Painting in Venice*, 103.
74. Poldi-Pezzoli Museum, Milan.
75. Louvre.
76. Altere Pinakothek, Munich.
77. Muther, I, [illegible]
78. Winckelmann, I, 407.
79. Prado.
80. Jahn, *Mozart*, III, 1, 15.
81. Burney, Fanny, *Diary*, 72-73.
82. Burney, Charles, *History of Music*, II, 886-91.
83. Einstein, Albert, *Gluck*, 151.
84. *Grove's Dictionary*, IV, 174.
85. *Ibid.*, 509.
86. Einstein, *Gluck*, 149.
87. *Grove's*, I, 650.
88. Translation by Richard Garnett (*History of Italian Literature*, 300).

89. In De Sanctis, II, 831.
90. Alfieri, Vittorio, *Autobiography*, Epoch I, Ch. i.
91. *Ibid.*, Epoch II, Ch. iv.
92. III, iii.
93. III, xii.
94. Alfieri, *Of Tyranny*, 101.
95. *Ibid.*, Book I, Section 1.
96. II, vii.
97. II, viii.
98. I, ix.
99. I, viii.
100. "Forethought" in *Of Tyranny*.
101. *Autobiography*, Epoch IV, Ch. viii.
102. Epoch I, Ch. viii.
103. IV, v.
104. IV, xx.
105. IV, xvi.

CHAPTER XIII

1. Gilbert, *Prince de Ligne*, 29, 57.
2. *Ibid.*, 135.
3. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 96.
4. Frederick the Great, *Guerre de Sept Ans*, 386.
5. Gooch, G. P., *Maria Theresa*, 3.
6. Jahn, *Mozart*, I, 65.
7. Voltaire, *Works*, XVIa, 167.
8. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 89.
9. Campbell, *Jesuits*, 433.
10. Paulsen, F., *German Education*, 147-49.
11. Schoenfeld, Hermann, *Women of the Teutonic Nations*, 297.
12. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 100.
13. Casanova, *Memoirs*, I, 147.
14. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 387.
15. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 305.
16. Padover, 20.
17. Strylenski, *Eighteenth Century*, 64.
18. *Ibid.*
19. *Jahn*, I, 67.
20. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 387.
21. Casanova, I, 148.
22. *Enc. Brit.*, XIII, 151b.
23. Padover, 34.
24. *Enc. Brit.*, 1. c.
25. Padover, 34.
26. *Ibid.*, 37.
27. 41.
28. Gooch, *Maria Theresa*, 14.
29. Padover, 47.
30. Mann, Thos., *Three Essays*, 165.
31. Gooch, 21-29; Padover, 67.
32. Gooch, 29.
33. Padover, 134.
34. *Ibid.*, 134, 30.
35. 136.
36. 84; Gooch, 29.
37. Padover, 89.
38. Gooch, 65.
39. *Ibid.*, 66.
40. Padover, 77.
41. Gooch, 41.
42. Padover, 90-93.
43. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 202.
44. Gershoy, 89.
45. Riedl, Frederick, *History of Hungarian Literature*, 77-81.
46. Hazard, *European Thought*, 109.
47. Padover, 73.
48. *Ibid.*, 74.
49. 81.
50. Gooch, 70.
51. Martin, *France*, XVI, 392.
52. *Ibid.*, 391.
53. Padover, 94; *CMH*, VI, 628.
54. Parton, James, *Daughters of Genius*, 402.
55. *Cf.* Coxe, *History of the House of Austria*, III, 485-86.
56. Richard, Ernst, *History of German Civilization*, 380.
57. Padover, 181.
58. *Ibid.*, 178.
59. 179.
60. 281.
61. 285; Gershoy, 100.
62. Gershoy, 101.
63. Padover, 286.
64. Coxe, *House of Austria*, III, 491n.
65. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 356.
66. Padover, 212.
67. Jahn, *Mozart*, II, 401.
68. Padover, 214-15.
69. *Ibid.*
70. *History Today*, September, 1955, p. 615.
71. Padover, 246.
72. Coxe, III, 493.
73. Padover, 243.
74. Vambéry, *The Story of Hungary*, 385.
75. Padover, 299.
76. *Ibid.*, 311.
77. Coxe, III, 526.
78. Padover, 329.
79. *Ibid.*, 345.
80. 373.
81. 360.
82. 364.
83. 383.
84. *History Today*, September, 1955, p. 620.
85. Gilbert, O. P., *Prince de Ligne*, 193.
86. Coxe, III, 541.
87. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, VII, 492.
88. Padover, 287.

CHAPTER XIV

1. Jahn, *Mozart*, II, 202.
2. Weinstock, Herbert, *Handel*, 268.

3. Rolland, *Musical Tour*, 208.
4. Rolland, *Essays in Music*, 176.
5. Einstein, *Gluck*, 59.
6. In Brockway and Weinstock, *The Opera*, 66.
7. Einstein, *Gluck*; *Grove's Dictionary of Music*, II, 401.
8. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 659.
9. Faguet, E., *Rousseau artiste*, 191; Einstein, *Gluck*, 137.
10. Brockway and Weinstock, *Opera*, 97.
11. Einstein, 138.
12. Faguet, *Rousseau artiste*, 191.
13. *Grove's*, II, 400.
14. Rolland, *Essays*, 197-98.
15. *Kobbé's Complete Opera Book*, 42.
16. Rolland, *Essays*, 179.
17. Einstein, 146.
18. Burney, C., *History of Music*, II, 973.
19. Einstein, 151.
20. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 70.
21. *Kobbé's*, 52.
22. *Grove's*, IV, 174.
23. Einstein, 182.
24. Pratt, W. S., *History of Music*, 362.
25. Clark, Robert, *Herder*, 108, 429.
26. *Grove's*, II, 566.
27. Geiringer, Karl, *Haydn*, 44.
28. *Grove's*, II, 568.
29. Geiringer, 52-54.
30. *Ibid.*, 55.
31. *Grove's*, II, 570.
32. Jahn, II, 349.
33. Geiringer, 77.
34. *Ibid.*, 89.
35. 99.
36. *Grove's*, II, 574.
37. Geiringer, 108.
38. *Ibid.*, 110.
39. 121.
40. Jacob, H. E., *Joseph Haydn*, 122.
41. *Ibid.*, 267.
42. Geiringer, 168.
43. *Ibid.*, 167.
44. McKinney and Anderson, *Music in History*, 465.
45. *Grove's*, II, 582.

CHAPTER XV

1. Jahn, *Mozart*, II, 437.
2. *Ibid.*, I, 21n.
3. I, 28.
4. 33.
5. Blom, *Mozart*, 26.
6. Biancolli, *Mozart Handbook*, 129.
7. Jahn, I, 39.
8. *Ibid.*, 107.
9. 119.
10. 129.
11. 132.
12. 137.
13. *Ibid.*
14. Wyzewa and Saint-Foix, *W. A. Mozart*, I, 470.
15. *Ibid.*, 474.
16. Jahn, I, 149.
17. *Ibid.*, 344.
18. Anderson, E., *Letters of Mozart*, I, 403.
19. *Ibid.*, 395.
20. Einstein, *Mozart*, 41.
21. Anderson, II, 686-88.
22. *Ibid.*, 695.
23. 681-83.
24. 700-09.
25. Einstein, *Mozart*, 30-31.
26. Anderson, II, 925.
27. Blom, 88; Jahn, II, 65-66.
28. Letter of May 6, 1781, in Einstein, 54.
29. Jahn, II, 171.
30. *Ibid.*, 176.
31. 179.
32. 184.
33. Anderson, II, 1100.
34. Letter of July 25, 1781, in Anderson, II, 1121.
35. Anderson, III, 1266-69.
36. Einstein, 458.
37. Jahn, II, 413.
38. *Ibid.*, 419.
39. 420.
40. 439.
41. 337, 421.
42. Einstein, 238.
43. Letter of Leopold Mozart, Feb. 14, 1785, in Anderson, III, 1321.
44. Anderson, 1329.
45. Letter of Apr. 10, 1784, in Einstein, 265.
46. *Grove's*, III, 563.
47. Einstein, 223.
48. Biancolli, 345.
49. Einstein, 214.
50. Biancolli, 355.
51. *Ibid.*, 374.
52. 367-69; Blom, 283.
53. Einstein, 280.
54. Goethe, *Poetical Works*, 120, in *Works*.
55. "His Master's Voice" Record C 2736.
56. Jahn, II, 440; Nettle, Paul, *Mozart and Masonry*, 112.
57. Biancolli, 132.
58. Rolland, *Essays*, 246.
59. *Ibid.*
60. E.g., in the letter of Nov. 5, 1777: "I wish good night, but first shit into your bed." And Nov. 13: "I've been shitting, 'tis said, nigh twenty-two years through the old hole, which not yet frayed one bit." (Anderson, II, 525, 546).
61. Letter of Jan. 31, 1778.
62. Letter of Sept. 26, 1777.
63. Nettle, 122.

64. Jahn, II, 269-71.
65. *Ibid.*
66. E.g., letters of Apr. 13, 1789, and Sept. 30, 1790.
67. Letter of June 7, 1783.
68. Letter of Feb. 20, 1784.
69. Letter of July 31, 1782.
70. Anderson, II, 826.
71. Nettle, 115; Ghéon, *In Search of Mozart*, 216.
72. Anderson, III, 1450.
73. Jahn, II, 304; Nettle, [illegible]
74. Einstein, 57.
75. Jahn, II, 295.
76. *Ibid.*
77. 298.
78. Einstein, 57.
79. Anderson, III, 1253.
80. *Ibid.*, 1296.
81. In Biancolli, 138.
82. Jahn, II, 412.
83. Einstein, 442.
84. Jahn, III, 134.
85. *Ibid.*, 140.
86. Goethe [illegible] Schiller, Dec. 30, 1797.
87. Anderson, III, 1360.
88. Blom, 138.
89. *Ibid.*
90. Letters of Dec. 14, 1789, in Anderson, III, 1383-85.
91. Brockway and Weinstock, *Opera*, 91.
92. Anderson, III, 1398-99.
93. Jahn, II, 278-80.
94. Nettle, 116.
95. Biancolli, 421.
96. Jahn, III, 285.
97. Einstein, 363.
98. Grout, *Short History of Opera*, 294.
99. Biancolli, 554.
[illegible] Nettle, 117.
101. Stendhal in Clark, [illegible] H., *Great Short Biographies of the World*, [illegible]



الكتاب الثالث

صفحة

الفصل الحادي عشر :

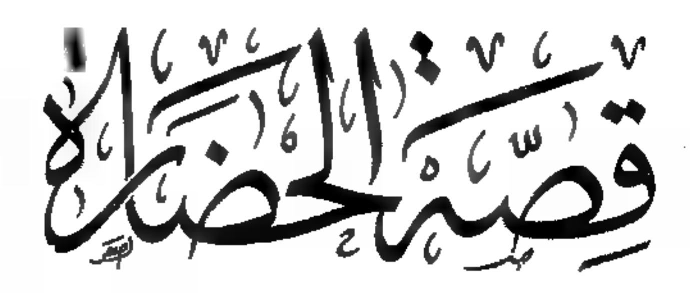
الفصل الثانى عشر :

الصفحة

الفصل الثالث عشر :

الفصل الرابع عشر :

الفصل الخامس عشر :



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإسلام والشرق السلافي
الشمال البروتستنتي

ترجمة

فؤاد أندراوس

الجزء الثالث من المجلد العاشر

(٤١)





تونس

بيروت

حقوق الطبع محفوظة

دار الجيل ▪ ص.ب: ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب ـ بيروت ـ لبنان

المجلد العاشر

الجزء الثالث

الكتاب الرابع

الاسلام والشرق السلافى

١٧١٥ – ١٧٩٦

الفصل السادس عشر

الإسلام

١٧١٥ – ١٧٩٦

١ – الأتراك

حوصرت المسيحية فى القرن الثامن عشر بين فولتير ومحمد (صلى الله عليه وسلم) بين حركة التنوير والإسلام . فمع أن العالم الإسلامى كان قدفقد سطوته الحربية منذ رد سوبيسكى الترك عن فيينا عام ١٦٨٣ ، إلا أنه ظل مسيطراً على المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسوريا وفارس وآسيا الصغرى والقرم وجنوبى روسيا وبسارابيا وملدافيا وولاشيا (رومانيا) وبلغاريا والصرب (يوغسلافيا) والجبل الأسود والبوسنة ودلماشيا واليونان وكريت وجزر الارخبيل وتركيا .وهذه الأقطار كلها – باستثناء فارس – كانت جزءا من امبراطورية الأتراك العثمانيين المترامية الأطراف. فعلى الساحل الدلماشى بلغوا الأدرياتيك وواجهوا الولايات البابوية ، وعلى البوسفور تسلطوا على المنفذ البحرى الوحيد من البحر الأسود ، وكان فى مقدورهم أن يقفوا سداً منيعاً بين الروس والبحر المتوسط متى شاءوا .

فإذا عبرنا الأقاليم المجرية إلى بلاد المسلمين لم نلحظ للوهلة الأولى فرقاً يذكر بين المدنيتين المسيحية والإسلامية . فهنا أيضا كان فقراء المسلمين السذج الأتقياء يفلحون الأرض تحت إمرة سادتهم الأغنياء الأذكياء المتشككين . ولكن المشهد الاقتصادى يتغير فيما وراء البوسفور : فلايكاد المزروع من الأقاليم يبلغ ١٥٪ ، أما الباقى فصحراء أو جبال لاتتيح غير

التعدين أو الرعي ، هناك كان الإنسان الذى يتميز به الإقليم هو البدوى الذى أسود لونه وتحمص جلده من الشمس ، وتدثر على نحو معقد اتقاء للرمال والقيظ. أما المدن الساحلية أو المتفرقة هنا وهناك كانت حافلة بالتجارة والحرف اليدوية ، ولكن الحياة بدت أكثر دعة واسترخاء مما كانت فى المراكز المسيحية ، فالنساء يلزمن بيوتهن أو يسرن فى وقار شديد تحت أحمالهن ووراء خمرهن ، والرجال يمشون الهوينا فى الشوارع . وكان جل الصناعة يدوياً ، وورشة الصانع ملحقاً يتصدر بيته ، وكان يدخن غليونه ويتجاذب الحديث مع غيره أثناء العمل ، وأحياناً يشارك زبوناً قهوته .

ويمكن القول بوجه عام إن التركي العادى كان قانعاً غاية القناعة بمدنيته ، حتى لقد ظل قروناً لايطيق أى تغيير ذى بال . وكانت التقاليد هنا كما كانت فى التعاليم الكاثوليكية مقدسة قداسة التنزيل . أما الدين فكان أعظم قوة وانتشارا فى الأقطار الإسلامية مما كان فى العالم المسيحى ، والقرآن هو الشريعة والديانة معاً ، وفقهاء الإسلام شراح الشريعة الرسميون . وكان الحج إلى مكة المكرمة يقود كل عام درامته المثيرة فوق رمال الصحراء وعلى الطرق المتربة . أما فى الطبقات العليا فإن البدع العقلانية التى طلع بها معتزلة القرن الثامن الميلادى ، والتى واصلها الشعراء والفلاسفة المسلمون طوال عصر الإيمان ، لقيت قبولا واسعاً مستوراً . كتبت الليدى مارى ورتلى مانتاجيو من الاستانة فى ١٧١٩ تقول :

« إن الأفندية (أى الطبقة المتعلمة) .. ليسوا أكثر إيماناً بالوحى الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) منهم بعصمة البابا . ويصرحون بالربوبية بينهم وبين من يثقون بهم ولايتكلمون على شريعتهم (أى ماعليه القرآن الكريم) إلا بوصفها مؤسسة سياسية ، تصلح الآن لأن يتقيد بها العقلاء من الناس وإن كانت أصلا من عمل رجال السياسة والمتحمسين من رجال الدين »[1] .

وانقسم الإسلام بين مذهبى السنة والشيعة كما انقسمت مسيحية الغرب

بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ثم قام مذهب جديد فى القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب ، أحد شيوخ نجد — وهو الهضبة الوسطى التى نعرفها اليوم بالعربية السعودية . وكان الوهابيون من الإسلام أشبه بالبيورتان من المسيحية : استنكروا التعبد للأولياء ، وهدموا أضرحة المشايخ والشهداء ، واستهجنوا لبس الحرير والتدخين ، ودافعوا عن حق كل فرد فى أن يفسر القرآن لنفسه[٢] . وقدشاعت الخرافات فى جميع المذاهب على السواء ، ولتى دجاجلة الدين كما لقيت المعجزات الكاذبة التصديق السريع ؛ وكان جل المسلمين يعدون مملكة السحر عالما حقيقيا كعالم الرمال والشمس الذى يكتنفهم[٣] .

أما التعليم فهيمن عليه رجال الدين الذين آمنوا بأن أضمن سبيل لتكوين المواطنين الصالحين أو الأتباع الأوفياء للقبيلة هى ترويض الخلق لا تحرير الفكر . وكان رجال الدين قد انتصروا فى معركتهم مع العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين ازدهروا أيام الإسلام الوسيط ، فانتكس الفلك إلى التنجيم ، والكيمياء إلى الخيمياء ، والطب إلى السحر ، والتاريخ إلى الأساطير . ولكن فى كثير من المسلمين حلت الحكمة الصامتة محل التعليم والتفقه فى المعرفة . وكما قال داوتى الحكيم البليغ : « إن العرب والترك ، الذين كتبهم هى وجوه الرجال ... والذين شروحهم وتفاسيرهم هى الأقوال المأثورة السائرة ومئات الأمثال الحكيمة القديمة السائدة فى عالم الشرق ، هؤلاء قريبون من إدراك الحقائق الإنسانية . إنهم شيوخ راسخون فى الحكمة وهم لا يزالون شبابا ، ولا ينسون بعد ذلك إلا القليل مما تعلموا[٤] » . وقد أكد ورتلى مونتجيو فى خطاب كتبه عام ١٧١٧ لأديسون أن « الرجال ذوى الشأن من الأتراك يبدون فى أحاديثهم مهذبين لا يقلون تحضرا عن أى رجال التقيت بهم فى فى إيطاليا »[٥] ، أجل فالحكمة ليس لها وطن .

ولقد كان عالم الإسلام على الدوام غنيا بالشعراء . ذلك أن الصحارى الرهيبة ، والسماء المحيطة ، والنجوم المنتشرة إلى مالا نهاية فى الليالى الصافية ، كل أولئك حرك الخيال كما حرك الإيمان الدينى بالإحساس بما فى الكون من

أسرار ملغزة ، وأضفى دم الشباب المضطرم بالرغبة المكبوتة على مفاتن النساء تصورا مثاليا ، تلك المفاتن التى زدنها إغراء فى ذكاء وحكمة باحتجابهن وحيائهن . وفى عام ١٧٧٤ نشر السير وليم جونس كتابه « شروح على الشعر العربى » الذى كشف للعقول اليقظة فى غربى أوربا عن حب المسلمين للشعر وما ينطوى عليه من رقة وعاطفة مشبوبة . أما أعظم فحول الشعراء العثمانيين فى القرن الثامن عشر فهو نديم ، الذى تغنى بشعره أيام السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ — ٣٠) :

إيه أيها الحب الخائر ، إن قلبى وروحى ضاعا هباء
وفرغ منى الصبر وذهب الجلد
ذات مرة كشفت عن صدرها البديع ،
فإذا الراحة والسلام يهربان من صدرى . . .
لها خال فى خدها وثنى ، وضفائر وثنية ، وعيون وثنية ...
أقسم أن دنيا جمالها القاسى بأسرها وثنية خالصة .
ولقد وعدتنى بقبلات على نحرها ، وبقبلات على صدرها ،
ولكن ويلى فقد حنثت الوثنية بوعدها السابق .
يا للرشاقة المحببة التى أبرزت بها غدائرها من تحت طربوشها ،
كل مخلوق أبصرها تأمل حسنها مشدوها لتوه .
يا قاسية القلب ، لأجلك يبكى الرجال وينوحون يأسا ،
ان قدك الرقيق لزكى من كل شذى وأبهج من كل لون ،
فليت شعرى هل أرضعتك وردة عطرة من ثديها .
وأنك لتقبلين أيتها الحلوة وفى إحدى يديك وردة وفى الأخرى كأس .
فلا أدرى أى الثلاثة آخذ — الوردة أم الكأس أم أنت .

لكأن نبعاً متدفقاً تفجر من نهر الحياة :

حين طلعت على بملك القد اللدن البديع [٦] .

وكان على النساء الإفادة ما استطعن من قدودهن اللدنة الرشيقة ، فمتى ذبلت محاسنهن جر عليهن الزمن ذيول النسيان فى زوايا الحـريم . وكان لفظ « الحريم » هذا لا يقصر على أزواج الرجل وسراريه ، بل ينسحب على كل إناث بيته . وقد ظل الحجاب مضروباً عليهن فى القرن الثامن عشر ، وكان يسمح لهن بالخروج من الدار ، ولـكن (بعد ١٧٥٤) كان عليهن إذا خرجن أن يخفين كل عضو فيهن إلا عيونهن الساحرة ، ولا يدخل جناحهن غير الأب ، أو الأخ ، أو الزوج ، أو الإبن . وحتى بعد الموت كان المفروض أن يتصل هذا الفصل بين الجنسين فى الدار الآخرة . فالمؤمنات لهن جنتهن غير جنة الرجال ، والمؤمنون يمضون إلى فردوس آخر ترفه فيـه عنهم حور من الجنة أبكار متجددات الشباب . وكانت خيانة المرأة لزوجها تعاقب عقاباً صارماً ويندر حدوثها ، وكان العربى يحلف بـ « شرف حريمه » كأغلظ الأيمان [٧] . وروت الليدى مارى أن النساء التركيات اللاتى سمح لها بلقائهن لم تضقن بالحجاب الذى عزلهن عن الرجال . وقد رأت بعضهن يعدلن فى جمال الوجه وحسن القـد ورقاهة الطبع « أشهر حساننا الإنجليزيات » [٨] . فلما أذن لها بدخول أحد الحمامات العامة الكثيرة ، تبين لها أن النساء يمكن أن يكن جميلات حتى لو تجردن من الثياب . وقد أفتتنت على الأخص بنساء الطبقة الراقية فى حمام بأدرنة . دعونها لخلع ملابسها والاستحمام معهن ، فاعتذرت . « ولما اشتد إلحاحهن على اضطررت فى النهاية إلى أن أفتح قميصى وأريهن مشدى (الكورسيه) ، فأقنعهن هذا تماماً إذ رأيت أنهن اعتقدن أنى حبيسة بقيود تلك الآلة بحيث لا أقوى على فتحها ، وقد عزون هذه الحيلة لتدبير زوجى . وعلقت إحـداهن قائلة « أنظرن كم يقسو الأزواج الإنجليز على نسائهن المساكين [٩] » .

وكان الأتراك فخورين بحماماتهم العامة ، يرون أنفسهم على العموم شعبا

أنظف من النصارى الـكفار . وكان الكثيرون من أفراد الطبقتين العليا والوسطى يختلفون إلى الحمام التركي مرتين فى الأسبوع ، وأكثر منهم يختلفون مرة فى الأسبوع . هناك يجلسون فى غرفة ملئت بخارا حتى يتصببوا عرقا ، ثم يأتى عامل فيدعك كل مفصل فى أجسامهم ويدلك لحمهم ويكيسه بقطعة من القماش الخشن ثم يغسله . لا عجب إذن إن لم نسمع الكثير عن روماتيزم المفاصل فى تركيا . على أن أمراضا أخرى تفشت بينهم لاسيما الرمد ، فالرمال والذباب كانت تنقل العدوى إلى العيون . ولكن الأتراك كما أسلفنا علموا أوربا التطعيم ضد الجدرى .

ولم يخامرهم شك فى أن مدنيتهم تفوق مدنية الاقطار المسيحية . صحيح أنهم سلموا بأن الرق كان أوسع انتشارا فى بلاد المسلمين ، ولكنهم لم يروا فرقا حقيقيا بين الارقاء فى تركيا والاقنان (Serfs) أو الخدم (Servants) فى العالم المسيحى ، وقد اتفقت معهم فى الرأى الليدى مارى واصل اللفظ . وكانوا لا يقلون عنا غلوا فى حب الأزهار والعناية بها ، فكانت لهم مثلنا مباريات مجموعة فى تربية زهرة الطوليب ، كما شهدت الآستانة فى عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ — ٣٠) ، ويبدو أن الأتراك هم الذين أدخلوا إلى أوربا المسيحية بطريق البندقية وفيينا والأراضى الواطئة أزهار الطوليب والياقوتية (Hyacinth) الشرقية وحوزان الحدائق (ranunculus) كما أدخلوا أشجار القسطل (أبى فروة) — والميموزا [١١] .

أما الفن فى تركيا فكان الآن فى اضمحلال شأنه فى معظم الأقطار المسيحية .واعتبر الأتراك أنفسهم أرقى فى صناعات الفخار والنسيج والأبسطة والزخرفة وحتى فى المعمار . فقد ورثوا عن آبائهم كيف يضفون على التصوير التجريدى منطقاً وتواصلا ودلالة . وفاخروا ببهاء القاشانى الذى صنعوه (كما يرى على نافورة أحمد الثالث فى الآستانة)، وببريق قرميدهم الذى لا ينطفىء ، وبصلابة منسوجاتهم ورقتها ، وبتألق أبسطتهم ومتانتها . واشتهرت الأناضول والقوقاز فى هذه الحقبة بوبرهما اللامع وتصميم السجاد الهندسى الدقيق ، لاسيما سجاجيد الصلاة التى توجه أعمدتها وأقواسها المدببة

المصلى الراكع صوب المحراب الذى يشير فى كل مسجد إلى قبلة مكة المكرمة . كذلك فضل الأتراك جوامعهم ذات القباب والقرميد والمآذن على أبراج الكتدرائيات القوطية وعقودها وفخامتها الكابية . وشيدوا حتى فى هذه الحقبة المضمحلة المساجد العظيمة فى نورى — عثمانية (١٧٤٨) ولا ليلى — يامسى (١٧٦٥) ، وحاكى أحمد الثالث طراز الحمراء فى القصر الذى شيده فى عام ١٧٢٩ . أما الآستانة فلعلها كانت أروع العواصم الأوربية ، كما كانت أوسعها رقعة برغم شوارعها المتشابكة وأحيائها الفقيرة الكثيرة الضجيج ، وكان سكانها البالغون مليونين من الأنفس [١١] مثلى سكان لندن ، وثلاثة أمثال سكان باريس ، وثمانية أمثال سكان روما[١٢]. وحين أطلت الليدى مارى على المدينة والميناء من قصر السفير البريطانى ، خيل إليها أنهما « ربما يؤلفان معاً أبهى مشهد فى العالم » [١٣] .

على عرش هذه الإمبراطورية العثمانية ، من الفرات إلى الأطلنطى ، تربع سلاطين عصر الاضمحلال . ولقد نظرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب [١٤] فى أسباب ذلك الاضمحلال : وهى انتقال تجارة غربى أوربا التى تقصد آسيا ، إذ أصبحت تدور حول أفريقيا بحراً بدلا من طريقها البرى الذى كان يخترق مصر أو غربى آسيا ؛ وتخريب قنوات الرى أو إهمالها ؛ وتوسع الامبراطورية وامتدادها إلى مسافات مترامية لاتتيح لها الحكم المركزى الفعال وما ترتب على ذلك من استقلال الباشوات ونزوع الولايات إلى الانفصال؛ وتدهورت الحكومة المركزية لتفشى الرشوة والعجز والكسل، وتمرد الانكشارية المرة تلو المرة على النظام الصارم الذى كان له الفضل فيما بلغوا من قسوة وتسلط القدرية والجمود على الحياة والفكر ؛ وتراخى السلاطين الذين استطابوا خدور النساء وآثروها على ساحات الوغى .

وقد استهل أحمد الثالث حكمه بسماحة للإنكشارية بأن يملوا عليه اختياره لكبير وزرائه (الصدر الأعظم) . وهذا الوزير هو الذى قبل رشوة بلغت ٢٣٠,٠٠٠ روبل بعد أن قاد ٢٠٠,٠٠٠ تركى ضد ٣٨,٠٠٠ جندى من جيش بطرس الأكبر عند نهر بروت ، لقاء سماحه للقيصر المحاصر

بالفرار (٢١ يوليو ١٧١١) . وحدث أن حرضت البندقية أهل الجبل الأسود على الثورة على تركيا ، فأعلنت هذه الحرب عليها (١٧١٥) وأتمت فتح كريت واليونان . فلما أن تدخلت النمسا ، أعلنت تركيا الحرب عليها (١٧١٦) ، ولكن أوجين أمير سافوا هزم الترك فى بترفارداين وأكره السلطان بمقتضى معاهدة بساروفتز (١٧١٨) على الجلاء عن المجر ، والنزول عن بلغراد وأجزاء من ولاشيا للنمسا ، وتسليم البندقية حصونا فى ألمانيا ودلماشيا . ولم تسفر المحاولات التى بذلتها تركيا لتعويض هـــذه الخسائر بالغارات تشنها على فارس الا عن المزيد من النكسات والهزائم . وقد قتل الغوغاء بقيادة عامل حمام الوزير إبراهيم باشا وأكرهوا أحمد على التنازل عن العرش (١٧٣٠) .

وجدد ابن أخيـــه محمود الأول (١٧٣٠ — ٥٤) الصراع مع الغرب ليفرض بالحرب تدفق الضرائب وتعاليم الدين . وانتزع جيش تركى أوخاكوف وكابوررون من الروسيا ، واسترد جيش آخر بلغراد من النمسا . غير أن اضمحلال تركيا عاود سيرته الأولى فى عهد مصطفى الثالث (١٧٥٧ — ٧٤) . ففى ١٧٦٢ أعلنت بلغاريا استقلالها . وفى ١٧٦٩ خاضت تركيا الحرب مع الروسيا منعاً لانتشار سلطان الروسيا فى بولندا . وهكذا بدأ ذلك الصراع الطويل الذى أنزلت فيه جيوش كاترين الكبرى هزائم ساحقة بالأتراك . فلما مات مصطفى أبرم أخوه عبد الحميد الأول (١٧٧٤—٨٩) معاهدة مذلة تسمى قجوق قينارجى (١٧٧٤) . قضت على النفوذ التركى فى بولندا وجنوبى روسيا ومالدافيا وولاشيا ، وعلى هيمنـــة الأتراك على البحر الأسود . وجدد عبد الحميد الحرب فى ١٧٨٧ ، فهزم هزائم منكرة ، ومات كمدا . وكان على تركيا أن تنتظر حتى يجىء كمال باشا (أتاتورك) لينهى قرنين من الفوضى ويجعل منها دولة حديثة .

٢ — الإسلام فى أفريقيا

بعد أن فتح العثمانيون مصر (١٥١٧) أنابوا عنهم فى حكمها الباشوات والولاة . وسمحوا للمماليك الذين كانوا يحكمون مصر منذ ١٢٥٠ بالاحتفاظ

بسلطتهم المحلية بكوات على السنجقيات الاثنتي عشرة التي قسمت إليها البلاد . وبينما كان الباشوات يبددون عافيتهم في البذخ والترف ، درب البكوات جنودهم على الولاء لأشخاصهم ، وسرعان ما تحدوا سلطة الولاة المكروهين. وكان أكثر هؤلاء الحكام المحليين إقداما هو على بك [الكبير] ، الذى كان في طفولته قد بيع عبدا . ففى ١٧٦٦ خلع الباشا وفى ١٧٦٩ أعلن استقلال مصر . وانتشى بخمرة النصر فقاد جنده المماليك ليفتح جزيرة العرب ، واستولى على مكة . واتخذ لقب سلطان مصر وخاقان البحرين (الأحمر والمتوسط) . وفى ١٧٧١ أوفد « أبا الذهب» على رأس ثلاثين ألف مقاتل لفتح الشام . ففتحها ، ولكنه تحالف مع الباب العالى ، وقاد جيشه عائدا إلى مصر . وفر على بك إلى عكا ، وجند جيشا آخر ، والتقى بقوات أبى الذهب والأتراك ، وقاتل حتى أثخن بالجراح فعجز عن المضى فى القتال ، ووقع فى الأسر ، ثم قضى نحبه بعد أسبوع (١٧٧٣) . وعادت مصر ولاية عثمانية من جديد .

ودون ذبذبات السلطة ونشوات القتل هذه استطاعت مراكب التجارة وقوافلها ، واجتهاد الحرفيين ، وفيضان النيل السنوى ، وعرق الفلاحين فى التربة الطمية الخصبة - استطاعت كلها أن تبقى فى مصر على اقتصاد لم يجن ثماره غير قلة حبتها الطبيعة أو الظروف بالكفاية أو المنصب . وأنتج جهد الحقول والبحار وعصرها طعاما للمدن وخصوصا الأسكندرية التى كانت من أعظم الثغور ، والقاهرة التى كانت من أكثر العواصم سكانا فى عالم القرن الثامن عشر . وكانت الشوارع ضيقة لتحجب الشمس ، وقد زينت بالمشربيات والشرفات التى يستطيع الحريم اختلاس النظر منهـا إلى الحياة من تحتهن . وكانت الشوارع الكبيرة تعج بالحرف التى تحدت تطفل رأس المال أو إنتاج الآلات . وكانت كل صناعة فى أقطار الإسلام فنا ، وحلت الجودة محل الكم . فصنع الفقراء التحف والطرف للأغنياء ولكنهم لم يبيعوهم قط أباءهم وعزة نفوسهم .

وقام فى القاهرة ثلاثمائة مسـجد تدعم فقراءها بالرجاء ، وتزين

المدينة بالقباب الضخمة والأروقة الممدة الظليلة والمآذن الشامخة . وكان أحدها وهو الجامع الأزهر جامعة الإسلام الأولى ، يؤمه من الطلاب ألفان أو ثلاثة من أقصى بقاع الأرض ، من ماليزيا شرقاً إلى المغرب غربا ، ليتعلموا لغة القرآن وعلوم البلاغة والتوحيد والأخلاق والشريعة ، وكان خريجو الجامعة يؤلفون جماعة العلماء . ومنهم يختار المعلمون والقضاة . لقد كان نظاما وضع لسنية صارمة فى الدين والأخلاق والسياسة .

وهكذا لم يكد يطرأ على الأخلاق أى تغيير من قرن إلى قرن. وكانت سن بلوغ الأحداث متقدمة عنها فى الأقطار الشمالية ، فتزوج كثير من البنات فى الثانية أو الثالثة عشرة ، وبعضهن فى العاشرة . وبقاء الفتاة بغير زواج إلى السادسة عشرة كان عاراً . ولم يقدر على تعدد الزوجات الذى أباحته الشريعة الإسلامية إلا أغنياء القوم . أما الزوج الذى تخونه زوجته فلم يكن من حقه الشرعى أن يقتل هــذه الزوجة المجرمة فحسب ، بل كان يلقى التشجيع من الرأى العام (١٥) . وكان الفكر الإســلامى ، كالمسيحى ، يعتبر المرأة مصدراً رئيسياً للشر . لا يمكن السيطرة عليه إلا بإخضاعها اخضاعا صارماً . وكان الأطفال ينشأون على نظام الحريم . فيتعلمون أن يحبوا أمهم وأن يخشوا أباهم ويجلوه ، وكانوا كلهم تقريباً يتعلمون ضبط النفس وحسن الأدب (١٦) . وساد حسن السلوك جميع الطبقات ، مع شيء من يسر الحركة ورشاقتها ، لعله أخذ عن النساء اللائى ربما أكتسبنه من حمل الأثقال على رءوسهن . وكان المناخ مانعاً من العجــلة مشجعا على الكسل .

ولم يمنع تعدد الزوجات البغاء . فى استطاعة البغايا توفير الاثارة التى أخمدها طول الألفة . وتخصصت غوانى مصر فى الرقصات الفاجرة ، وبعض الآثار القديمة تكشف عن قدم هذا الاغراء . وكانت كل مدينة كبرى تخصص للبغايا حيا يمارسن فيه حرفتهن دون خوف من عقاب القانون . وكانت النساء اللائى يحذقن الراقصات الفاجرة ، شأنهن فى جميع الحضارات ،

يستأجرن لهز أجسادهن أمام محافل الذكور ، وفى بعض الحالات كانت النسوة أيضاً يستمتعن بمشاهدة هذا الرقص [١٧] .

أما الموسيقى فكانت تخدم الحب والحرب ، فهى تستفز المهاجمين وتهدىء المهزومين . وكان الموسيقيون المحترفون من الجنسين يؤتى بهم للترفيه . كتب إدوارد لين فى ١٨٣٣ يقول « سمعت فى القاهرة أعظم الموسيقين شهرة وأطربنى أغانيهم أكثر من أى موسيقى أخرى استمتعت بها فى حياتى [١٨] . وكانت الآلة المفضلة هى « الكمنجة » « وهى ضرب من الفيولا النحيلة ، ولها وتران من شعر الخيل على صندوق مصمت مصنوع من جوزة هند شقت بين وسطها ورأسها وغطيت بقشر سمك مشدود(*) . وكان العازف يتربع ويسند طرف الآلة المدبب على الأرض ، ويضرب أوتارها بقوس من شعر الحصان وخشب الدردار . أو قد يقعد العازف وفى حجره قانون كبير وينقر الأوتار بريشة من القرن ملصقة بسبابتيه . وتحول العود القديم الآن إلى شكل الجيتار . فإذا أضفت نايا،وماندولينا « وطمبورينا ، أكتمل لك أوركسترا يروق الذوق المتحضر ، خيراً من تلك الموسيقى البدائية التى تهيج اليوم المحافل الغربية .

أما « دول البربر » أى البلاد التى زعموا أنها « بربرية » أو همجية — وهى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش . فقد دخلت التاريخ فى القرن الثامن عشر أولا بفضل بطولات قراصنتها أو اغتيال « باياتها » أو «داياتها» وقد احتفظت هذه الحكومات باستقلالها الفعلى بارسالها « الهدايا » بين الحين والحين إلى السلاطين بالآستانة . وكان قوت الشعب يأتى أكثره من الزراعة أو القرصنة ، وكانت الفدية التى تؤدى عن الأسرى النصارى جزءاً هاماً من الدخل القومى : غير أن قباطنة القراصنة كان أكثرهم نصارى [١٩] . أما الفنون فظلت محتفظة بوجود قلق ، ولكن البنائين المغاربة احتفظوا بقدر من المهارة أتاح لهم أن يزركشوا بالقرميد الأزرق والأخضر المتألق « باب منصور » الفخم الذى أضيف فى ١٧٣٢ بوابة بقصر مولاى إسماعيل وجامعه الضخم

(*) الوصف ينطبق على الربابة لا على الكمنجة (المترجم) .

الذى ابتناه فى القرن السابع عشر فى مكناس ، وكانت آنئذ مقر سلاطين مراكش . أما مولاى اسماعيل هذا فقد أقر النظام فى حكمه الذى امتد خمسة وخمسين عاماً (١٦٧٢ — ١٧٢٧) وأنجب مئات الأبناء، ورأى فى منجزاته مايبرر طلب يد ابنة للويس الرابع عشر يضمها إلى حريمه[٢٠] . ويصعب علينا أن نسيغ أساليب حياة شديدة التباين عن أساليب حياتنا ، ولكن قد يعيننا على ذلك أن نتذكر ملاحظة قالها رحالة مغربى عند عودته من زيارة إلى أوربا « يالها من متعة أن يعود المرء إلى الحضارة »[٢١] .

٣ — الإسلام فى فارس (١٧٢٢ — ٨٩)

ولو سئل رجل فارسى فى هذه الحقبة لأعرب عن شعور بالراحة شبيه بهذا عند عودته إلى وطنه بعد مقامه حقبة فى الأقطار المسيحية أو حتى فى أقطار العثمانيين المسلمين . فالفارسى المتعلم حتى سقوط الدولة الصفوية (١٧٣٦) فى أغلب الظن كان يضع المدنية الإيرانية فى مرتبة أعلى من أى حضارة معاصرة ، ربما باستثناء الصينية . وكان يستنكر النصرانية باعتبارها انتكاسا إلى الشرك الشائع بين العوام . ولعله كان يسلم بتفوق بلاد النصارى فى العلوم والتجارة والحرب ، ولكنه كان يؤثر الفنون على العلوم ، والحرف اليدوية على الصناعة المميكنة .

كان القرن الثامن عشر قرنا أليما على فارس . فأنى لإيران وقد غزاها الأفغانيون من الجنوب الشرقى ، ولاحقتها غارات قناصة العبيد من الأزبك فى الشمال الشرقى ، وهاجمتها غارات السلب والنهب الروسية فى الشمال ، واجتاحتها المرة بعد المرة الجيوش التركية فى الغرب ، وأفقرها طغيان نادر شاه ملكها المحب الأبهة وتعسفه فى جمع الضرائب ، ومزق أوصالها الصراع الوحشى بين الأسر المتناحرة طمعاً فى العرش الفارسى — نقول أنى وكيف تستطيع إيران وقد ابتليت بهذا الاضطراب كله أن تواصل التقاليد العظمى للأدب والفن الفارسيين .

وكان البلد الذى نسمية الآن أفغانستان فى القرن السادس عشر تتقاسمه

ثلاث حكومات : كابول الخاضعة للحكم الهندى ، وبلخ الخاضعة للأزبك ، وهراة وقندهار الخاضعتان للفرس . وفى ١٧٠٦ — ٨ ثار أفغانيو قندهار بقيادة مير (أمير) فايز وطردوا الفرس . وغزا ابنه مير محمود فارس ، وخلع الحاكم الصفوى حسينا ، ونصب نفسه شاها . وقد دعم الدين سلاحه ، لأن الأفغانيين كانوا يتبعون المذهب السنى ، ويكفرون الفرس المتشيعين . وقتل محمود فى سورة غضب ثلاثة آلاف من حرس حسين وثلاثمائة من أشراف الفرس ، ونحو مائتى طفل أشتبه فى أنهم استنكروا قتل آبائهم . وبعد راحة طويلة قتل محمود فى يوم واحد (٧ فبراير ١٧٢٥) جميع الأحياء من أفراد الأسرة المالكة خلا حسينا واثنين من أبنائه الصغار . ثم التاث عقل محمود ، فقتله وهو لا يزال فى السابعة والعشرين ابن عمه أشرف (٢٢ أبريل ١٧٢٥) الذى نادى بنفسه شاها . وهكذا بدأ سفك الدماء الذى هد كيان فارس فى ذلك القرن .

واستنجد طهماسب بن حسين بروسيا وتركيا ، فاستجابت بالاتفاق على اقتسام فارس فيما بينهما (١٧٢٥) . ودخل جيش تركى فارس واستولى على همدان وقزوين والمراغة ، ولكن هزمه أشرف قرب كرمانشاه . وكان الجنود الأتراك يفتقرون إلى الحماسة ، فقد تساءلوا أى سبب يدعوهم لمقاتلة الأفغانيين ، وهم أخوة لهم سنيون على شاكلتهم ، ليردوا الصفويين الشيعيين الزنادقة إلى الحكم . وتصالح الأتراك مع أشرف ولكنهم احتفظوا بالأقاليم التى فتحوها (١٧٢٧) .

وبدا أن أشرف قد غدا الآن فى أمان ، ولكن ما مضى عليه عام حتى تحدى سلطانه المغصوب الدخيل ظهور رجل فارسى مغمور أنقض على العدو فى بضع سنين ، فحقق انتصارات من أروع وأفظع ما سجله تاريخ الحروب قاطبة . وقد ولد هذا المقاتل واسمه نادر قيلى (أى عبد الله) فى خيمة بشمال شرقى إيران (١٦٨٦) وكان يعين أباه على رعى ما يملكان من قطعان الغنم والماعز ، ولم يتح له من التعليم غير ما لقنته الحياة الشاقة المحفوفة

بالمخاطر . فلما بلغ الثامنة عشرة وخاف أباه كبيراً لأسرته اختطفه هـو وأمه المغيرون الأزبك وحملوهما إلى خيوة حيث باعوهما عبيداً . وماتت الأم فى ذل الأسر ، ولكن نادراً هرب وأصبح زعيما لعصابة لصوص ، واستولى على كالات ونيشابور ومشهد ، وأعلن ولاءه وولاء هذه المدن للشاه طهماسب ، وتعهد بطرد الأفغانيين من فارس ورد عرش فارس إلى طهماسب . وقد أنجز هذا كله فى حملات متلاحقة (١٧٢٩ — ٣٠) ورد طهماسب إلى عرشه ، فعين نادراً سلطاناً على خراسان وسيستان وكرمان ومازندران .

وما لبث القائد المظفر أن شرع فى استرداد الأقاليم التى استولت عليها تركيا . فاستطاع بهزيمة الترك هزيمة فاصلة فى همدان (١٧٣١) أن يخضع العراق وأزربيجان لحكم الفرس . ثم نمى إليه نبأ تمرد فى خراسان ، فرفع الحصار عن أروان وزحف ألفاً وأربعمائة ميل عبر العراق وإيران ليحاصر هراة ، وهو زحف يتضاءل بالقياس اليه الزحف الشهير الذى عبر فيه فردريك الأكبر ألمانيا مراراً فى حرب السنين السبع . ونزل طهماسب بشخصه أثناء ذلك الى ساحة القتال ضد الترك فخسر كل ما كسبه نادر ، ونزل عن جورجيا وأرمينيا لتركيا نظير تعهد الترك بمساعدته ضد روسيا (١٧٣٢) . فأسرع نادر قافلا من الشرق وأنهى المعاهدة ، وخلع طهماسب وسجنه ، وأجلس على العرش غلاما لطهماسب لم يجاوز عمره ستة أشهر باسم الشاه عباس الثالث ، ونادى بنفسه وصيا على الصبى ، وأرسل إلى تركيا إعلاناً بالحرب .

ثم زحف على الترك بجيش عدته ثمانون ألف مقاتل جندهم بالإقناع أو بالإرهاب . وعلى مقربة من سامراء التقى بجيش عرمرم من الترك يقودهم توبال عثمان من عفنه لبتر ساقيه . وأطلقت النار مرتين على جوادى نادر أسفله ، وفر حامل علمه ظنا منه أنه قتل ، وانقلبت عليه فرقة عربية كان يعتمد على معونتها ، وهكذا كانت هزيمة الفرس هزيمة نكراء ما حقة (١٨ يوليو ١٧٣٣) . ولكنه لم فلول جيشه فى همدان ، وجند آلافاً

جددا ، وسلحهم وأطعمهم ، ثم كر على الترك وبطش بهم فى ليلان فى مذبحة رهيبة لقى فيها توبال عثمان حتفه . ثم أندلعت ثورة أخرى فى جنوب غربى فارس ، فشق نادر طريقه من الغرب إلى الشرق ، وهزم الزعيم المتمرد فأنتحر . وفى عودته عبر فارس والعراق ، ألتقى بثمانين ألف تركى فى بغاوند (١٧٣٥) ، وهزمهم هزيمة نكراء أكرهت تركيا على إبرام صلح نزلت بمقتضاه لفارس عن تفليس وجونده وأروان .

لم ينس نادر أن بطرس الأكبر هاجم فارس فى ١٧٢٢ — ٢٣ ، واستولى على أقاليم جيلان وأستراباد ومازندران على بحر قزوين ، وعلى مدينتى دربند وباكو . وكانت روسيا قد ردت الأقاليم الثلاثة لفارس (١٧٣٢) لأنشغالها فى جهات أخرى . فهدد نادر الآن (١٧٣٥) بالتحالف مع تركيا ضد روسيا أن لم تنسحب من دربند وباكو . وعليه سلمت إليه المدينتان ، ودخل نادر أصفهان دخول الفاتح الظافر الذى أعاد بناء قوة فارس . فلما مات الصبى عباس الثالث (١٧٣٦) مختتما بموته ملك الصفويين ، جمع نادر بين الواقع والمظهر ، وارتقى العرش باسم نادر شاه .

وكان يؤمن بأن الخلافات الدينية بين تركيا وفارس تعمل على نشوب الحروب المتكررة ، لذلك أعلن أن فارس ستتخلى منذ الآن عن بدعة التشيع وترتضى السنية مذهبا لها . فلما أدان زعيم الشيعة هذه الخطوة شنقه نادر بكل هدوء مستطاع . ثم صادر أوقاف قزوين الدينية ليفى بنفقات جيشه لإن فارس على حد قوله مدينة لجيشها أكثر مما هى مدينة لدينها [٢٢] . ثم إذ شعر بالحنين إلى الحرب ، فأشرك معه فى الملك ابنه رضا قلى ، ثم قاد جيشا من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ليفتح به أفغانستان والهند .

وضرب الحصار عاما كاملا حول قندهار . فلما استسلمت له (١٧٣٨) كان كريما رحيما مع المدافعين عنها ، حتى أن جيشا من الأفغانيين أنضوى تحت لوائه وظل وفياً له إلى يوم مماته . ثم زحف على كابول مفتاح ممر

خيبر ، وهناك أعانته الغنائم التي ظفر بها على رفع الروح المعنوية في جيشه. وكان محمد شاه ، إمبراطور الهند المغولي ، يأبى أن يصدق إمكان غزو الفرس للهند ، وكان أحد ولاته قد قتل مبعوث نادر إليه ، فعبر نادر جبال الهملايا ، واستولى على بشاور ، وعبر السند ، وزحف على دلهي حتى لم يعد بينه وبينها سوى ستين ميلا قبل أن يهب جيش محمد لمقاومته والتقى الجيشان الهائلان على بطاح كرنال (١٧٣٩) ، واعتمد الهنود على فيلتهم ، أما الفرس فقد هاجموا هذه الحيوانات الصبورة بكرات النار ، فانقلبت الفيلة هاربة وأشاعت الفوضى في جيش الهنـــود ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وأسر عدد زاد على القتلى ، ويروى نادر أن محمد شاه جاءه يلتمس الرأفة « أمام حضرتنا السماوية». [٢٣] وفرض عليـــه القائد المنتصر تسليم دلهي وكل ثروتها القابلة للنقل تقريبا ، والتي تقـــدر بـ ٨٧,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، بما فيها عرش الطاووس الأشهر ، الذي كان قد صنع (١٦٢٨ — ٣٥) لشاه جيهان في أوج سطوة المغول . وقتل بعض جنود نادر في شغب أحدثه الأهالي ، فانتقم بالسماح لجيشه بذبح ١٠٠,٠٠٠ من الوطنيين في سبع ساعات . واعتذر عن هذه الفعلة بتزويج إبنه نصر الله من إبنة محمد . ثم زحف قافلا إلى فارس لا يعوقه عائق بعـــد أن أثبت أنه أعظم الفاتحين قاطبة منذ تيمور لنك .

وكان قدره المقدور أنه لو سرح جيشه فربما يعيث فسادا في الأرض ويشق عليه عصا الطاعة ، ولو أبقى عليه جيشا عاملا فلزام عليه أن يكسوه ويطعمه ، وكانت النتيجة التي خلص إليها أن الحرب أرخص له من الســلم إذا استطاع خوضها على ساحة غريبة . فمن ترى يكون هدفه الآن ؟ وتذكر غارات الأزبك على شمال شرقي فارس ، وكيف باعوه عبدا ، وكيف ماتت أمه في رقها . وإذن ففي ١٧٤٠ قاد جيشه زاحفا على أزبكستان ، ولم يكن لأمير بخارى لا القوة ولا الميل للوقوف في وجه نادر ، ومن ثم فقد أذعن ، وأدى تعويضا ضخما ، ووافق أن يكون نهر سيحون كما كان في القدم الحد بين أزبكستان وفارس . وكان خان خيوه قد أعدم مبعوث نادر ،

فقتل نادر هـذا الخان ، وأطلق سراح آلاف من العبيد الفرس والروس (١٧٤٠) .

كان نادر بكل شخصيته مقاتلا استغرقت الحرب عقله كله ، فلم يعد فيه ذرة من الرغبة فى الحكم والإدارة . وبات السلام عنده عبئا ثقيلا لا يطيقه . وجعلته الغنائم والأسلاب إنسانا جشعا بخيلا بدلا من أن يكون جوادا كريما . فحين ملأت خزائنه كنوز الهند أعلن تأجيل دفع الضرائب فى فارس ثلاث سنين ، ثم عدل عن رأيه وأمر بجمع الأموال كما كانت تجمع من قبل ، وأفقر جباته فارس كما لو كانت بلدا مغلوبا . ثم خامرته الظنون بأن ابنه يتآمر على خلعه ، فأمر بأن تفقأ عيناه . وقال له ابنه رضا قلى « إنك لم تفقأ عينى بل عينى فارس » [٢٤] . وبدأ الفرس يمقتون منقذهم كما تعلم الروس من قبلهم أن يمقتوا بطرس الأكبر . وأثار الزعماء الدينيون عليه بغض أمة طعنت فى إيمانها الدينى . فحاول أن يخمد التمرد المتعاظم بإعدام المتمردين بالجملة ، حتى لقد بنى أهراما من جماجم ضحاياه . وفى ٢٠ يونيو ١٧٤٧ اقتحم خيمته أربعة رجال من حرسه وهجموا عليه ، فقتل اثنين منهم ، ولكن الآخرين صرعاه . وتنفست فارس كلها الصعداء .

وهوت من بعده البلاد إلى درك من الفوضى أسوأ مما تردت فيه أيام سيطرة الأفغانيين . فطالب نفر من خانات الاقاليم بالعرش ، وتلا ذلك مباراة فى التقتيل والاغتيال . وقنع أحمد خان بتأسيس مملـكة أفغانستان الحديثة . أما شاه رخ — الرجل الوسيم اللطيف الرحيم — فقد سملت عيناه بعد اعتلائه العرش بقليل ، فتقهقر ليحكم خراسان حتى ١٧٩٦ . وخرج كريم خان منتصرا من الصراع ، وأسس الاسرة الزندية (١٧٥٠) التى احتفظت بسلطانها حتى ١٧٩٤ . واختار كريم شيراز عاصمة لملكه ، وزينها بالمبانى الجميلة ، وساد جنوبى فارس تسعة وعشرين عاما من نظام وسلام لابأس بهما . فلما مات جعل التطاحن على السلطة يتخذ من جديد صورة الحرب الاهلية ، وعادت الفوضى تضرب أطنابها من جديد .

اختتمت فارس آخر مراحلها الفنية العظمى بسقوط الدولة الصفوية على

يد الافغانيين ، فلم تجملها بعد ذلك غير بعض الآثار الفنية الصغيرة . وقد وصف اللورد كرزن مدرسة الشاه حسين (١٧١٤) بأصفهان — وكانت كلية لتدريب الدارسين والمحامين — بأنها « من أفخم الاطلال في فارس» [٢٥]. وتعجب السير برسي سايكس من «قرميدها البديع ... ورسومها المخرقة الجميلة» [٢٦]. وكان صناع القرميد لا يزالون أمهر صناعه في العالم بأسره ، بيد أن افتقار الطبقات العليا نتيجة للحروب الطويلة قضى على سوق المهارة والتفوق وأكره الخزافين على الهبوط بفنهم إلى مستوى الصناعة . وصنعت أغلفة الكتب الفاخرة من الورق المعجن المصقول . وأنتج النساجون أقمشة مقصبة ومطرزة غاية في الرهافة . وظلت السجاجيد الفارسية تنسج للمحظوظين من شعوب كثيرة رغم أنها شهدت آخر أمجادها في عهد الشاه عباس الاول . وفي يوشاجان ، وهراة ، وكرمان ، وشيراز على الاخص ، كان النساجون ينتجون سجاجيد « لا يقلل من روعتها في عين الناظر إلا مقارنتها بأسلافها الكلاسيكية » [٢٧] .

أما الشعر الفارسي فقد حطم الفتح الافغاني قلبه ، وتركه أخرس أو كالأخرس طوال حقبة العبودية التالية لهذا الفتح . وحوالي ١٧٥٠ صنف لطف علي بك أدار «قاموسا بسير الشعراء الفرس » اختتم بستين من معاصريه، ومع هذه الوفرة الظاهرة فإنه أسف على ما رآه مجاعة في الكتاب الجيدين في عصره ، وعزا ذلك إلى الفوضى والفقر السائدين ، « واللذين استشريا بحيث لم يعد لإنسان رغبة في قراءة الشعر فضلا عن قرضه » [٢٨] . ونسوق هنا تجربة نموذجية للشيخ علي خازن ، الذي نظم أربعة دواوين من الشعر ، ولكنه أمسك في حصار الأفغانيين لأصفهان ، ومات كل أهل بيته في الحصار ، وظل هو على قيد الحياة ، ثم أفاق من محنته ، وهرب من أنقاض المدينة التي كانت رائعة الجمال يوما ما ، وأنفق الأعوام الثلاثة والثلاثين الباقية من أجله في الهند . وقد خلد في « مذاكراته » (١٧٤٢) ذكرى مائة شاعر فارسي في جيله ، وأعظمهم في رأيه سيد أحمد هاتف الأصفهاني ، ولعل أكثر قصائده ظفرا بالثناء تلك التي أكد فيها بوجد المتصوفة إيمانه بالله رغم الشك والدمار :

«فى الكنيسة قلت لفاتنة نصرانية ،

يامن يقع القلب فى فخك أسيرا ،

أنت التى يتعلق كل طرف شعرة من شعرى بسدى منطقتك !

إلى متى تضلين الطريق إلى واحدنية الله ؟

إلى متى تفرضين على الآله الواحد عار التثليث ؟

كيف يتأتى أن تدعى الإله الحق الواحد أبا وابنا وروح القدس؟

فافتر ثغرها الجميل وقالت لى والضحك الحلو يتدفق منها :

إن كنت تعرف سر الآله الواحد فلا ترمنى بسبة الـــكفر !

فى ثلاث مرايا يشرق الجمال الأبدى بشعاع من وجهه الساطع .

وبينما نحن فى حديثنا هذا أنبعثت هذه الأنشـــودة بجوارنا من جرس الـــكنيسة :

« إنه إله واحد ولا إله سواه ؟

لا إله إلا الله وحـــده ....

فى قلب كل ذرة تشقينها ترين شمسا فى الوسط .

أن أنت بذلت لله كل ما تملكين ، فلا حسب كافرا

أن أصابك مثقال ذرة من الخسران ...

سوف تعبرين الصراط الضيق وتبصرين الملكوت الرحب »

ملكوت الإله الذى لا يحـــده مكان. . . .

وسوف تسمعين ما لم تسمعه أذن ، وترين ما لم تره عين ،

حتى يأتوا بك إلى مكان لاتبصرين فيه من الدنيا وأهلها غير واحد أحد

إلى هذا الواحد ستبذلين الحب من قلبك وروحـــك ،

حتى ترى بعين اليقين فى جلاء لا خفاء فيه .

أنه إله واحـــد ولا إله سواه ،

لا إله إلا الله وحـــده » (٢٩)

الفصل السابع عشر

فاصل روسى

١٧٢٥ — ١٧٦٢

١ — العمل والحكم

كتب فريدريك الأكبر حوالى عام ١٧٧٦ يقول : « من بين جيران بروسيا أجمعين تستحق روسيا أعظم الاهتمام لأنها أخطرهم ، فهى قوية وقريبة ؛ وسيضطر حكام بروسيا القادمون كما اضطررت أنا للسعى إلى صداقة هؤلاء الهمج » [١] .

وعلينا دائما ونحن نفكر فى روسيا أن نتذكر حجمها . كانت فى عهد كاترين الثانية تضم أستونيا وليفونيا وفنلنده (بعضها) ، وروسيا الأوربية ، وشمالى القوقاز ، وسيبريا . وقد اتسعت رقعتها من ٦٨٧،٠٠٠ إلى ٩١٣،٠٠٠ كيلو متر مربع فى القرن الثامن عشر ، وزاد سكانها من ثلاثة عشر مليونا فى ١٧٢٢ إلى ستة وثلاثين مليونا فى ١٧٩٠ [٢] . وفى ١٧٤٧ قدر فولتير سكان فرنسا أو ألمانيا بأنهم يزيدون قليلا على سكان روسيا ، ولكنه لاحظ أن روسيا تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة أى من الدولتين . وسيقوم الزمن والأصلاب الروسيــة بملء تلك المساحات الشاسعة .

وفى عام ١٧٢٢ كان ٩٧،٧ ٪ من سكان روسيا ريفيين ، وظلت نسبتهم ٩٦،٤ ٪ فى ١٧٩٠ ، فقد كان التصنيع يسير ببطء شديد . وفى ١٧٦٢ كان كل الشعب إلا عشرة فى المائة منه فلاحين ، وكان ٥٢،٤ ٪ من هؤلاء أقنانا [٣] ، ونصف الأرض يمتلكه نحو ١٠٠،٠٠٠ من النبلاء ، ومعظم ما بقى منها تملكه الدولة أو الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، وبعضها

يملكه فلاحون شبه أحرار ما زالوا يلتزمون بأداء الخدمات وبالطاعة للسادة المحليين ؛ وكانت ثروة المالك تحسب بعدد أقنانه ، من ذلك أن الكونت بيتر خيريميتييف بلغت ثروته ١٤٠٫٠٠٠ قن [٤] . وكان الأقنان الذين تمتلكهم الكنيسة وعددهم ٩٩٢٫٠٠٠ أهم جزء في ثروتها، وكان ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ قن يفلحون أراضي التاج في ١٧٦٢ [٥] .

وكان الشريف يتكفل بالقيادة العسكرية والتنظيم الاقتصادى ، وهو عادة معفى من الخدمة العسكرية ولكنه كثيرا ما تطوع بها أملا في الحظوة عند الحكومة . وكان له حقوق محاكمة أقنانه ، وله أن يعاقبهم ، أو يبيعهم أو ينفيهم إلى سيبيريا . على أنه كان عادة يسمح لفلاحيه بإدارة شئونهم بواسطة مجلس قريتهم أو « المير » وكان القانون يلزمه بإمداد أقنانه بالبزار وبإعالتهم في فترات القحط . وقد ينال القن حريته بشرائها من مالكه أو بالانخراط في سلك الجيش ، ولكن هذا مشروط برضى المالك . وكان للفلاحين الأحرار حق شراء الأقنان وامتلاكهم ، وكان بعض هؤلاء الأحرار ويلقبون « كولاكى » (أى القبضات) ، يهيمنون على الشئون القروية ، ويقرضون المال بالربا ، ويبزون السادة الإقطاعيين استغلالا وصرامة [٦] . وكان السيد والقن كلاهما متين السلالة ، صلب العود ، قوى الذراع واليد، عكفا معا على تذليل التربة ، واضطلعا معا بعبء ترويض فصول السنة . وكانت المشاق أحيانا فوق مايطيق البشر ، بحيث نسمع مرارا بأقنان يهجرون مزارعهم في أعداد كبيرة ويختفون في بولنده أو الأورال أو القوقاز ، وكان الالوف منهم يلقون حتفهم في الطريق ، والالوف يتصيدهم الجند ويقبضون عليهم . وبين الحين والحين يهب الفلاحون في ثورة مسلحة على سادتهم وعلى الحكومة ، وتنشب بينهم وبين الجيش معارك يستميتون فيها في الدفاع عن أنفسهم ، ولكن الهزيمة تلاحقهم دائما ، فيزحف الاحياء منهم قافلين إلى واجباتهم — إلى أخصاب النساء بذريتهم ، والتربة بدمائهم .

وقد درب بعض الاقنان على الفنون والحرف ، فكانوا يمدون سادتهم بكل احتياجاتهم تقريبا . ويروى الكونت سيجور في معرض حديثه عن

حفل أقيم لكاترين الثانية أن الشاعر الذى نظم الاوبرا والمؤلف الذى ألف موسيقاها ، والمهارى الذى بنى قاعة الاستماع ، والنقاش الذى زخرفها ، وممثلى المسرحية وممثلاتها ، والراقصين والراقصات فى الباليه ، والموسيقيين فى الأوركسترا — كل أولئك كانوا أقنانا للكونت خريمتييف [٧] . وكان الفلاحون يصنعون فى الشتاء الطويل الملابس والأدوات التى سيحتاجون إليها فى السنة المقبلة . وكانت الصناعة فى المدن بطيئة التطور ، من جهة لأن كل بيت كان ورشة ، ومن جهة أخرى لأن صعوبات النقل كانت عادة تضيق السوق فلا تجاوز الجهات المجاورة للمنتج . وشجعت الحكومة المشروعات الصناعية بتقديمها الاحتكارات للمحظوظين ، وأحيانا بتزويدهم برأس المـــال ، وقد وافقت على أن يشارك الأشراف فى الصناعة والتجارة . وظهرت رأسمالية مبتدئة فى صناعات التعدين والميتالورجيا والعتاد الحربى ، وفى إنتاج المصانع للمنسوجات والخشب المنشور والسكر والزجاج . وسمح لـ « مقاولين » بشراء الاقنان لتزويد مصانعهم بالعمال ، على أن هؤلاء « الفلاحين المملوكين » لم يكونوا مربوطين بالمالك بل بالمشروع ، وألزمهم مرسوم حكومى صدر فى ١٧٣٦ ، هم وذريتهم ، بالبقاء فى مصانعهم حتى يؤذن لهم رسميا بتركها . وكانوا فى حالات كثيرة يعيشون فى معسكرات منفصلين عن أسرهم فى الغالب الأعم [٨] .

أما ساعات العمل فتتفاوت بين أحدى عشرة وخمس عشرة فى اليوم للرجال ، تتخللها ساعة للغداء ، وأما الأجور فتتراوح بين أربعة روبلات وثمانية فى اليوم للرجال ، وبين روبلين وثلاثة للنساء . ولكن بعض أرباب العمل تكفلوا بإطعام عمالهم وإسكانهم ودفع الضرائب عنهم . وبعـــد عام ١٧٣٤ إزداد تشغيل العمال « الأحرار » — أى غير الأقنان — فى المصانع لأنه أتاح مزيدا من الحوافز للعمال وحقق مزيدا من الربح لرب العمل . وكان العمل من الرخص بحيث لا يشجع اختراع الآلات أو استخدامها ، ولكن فى عام ١٧٤٨ أستخدم بولزونوف آلة بخارية فى مصانع الحديد التى يمتلكها بالأورال . [٩]

وبدأت طبقة وسطى صغيرة عديمة الحول سياسيا تتشكل ببطء بين طبقتى النبلاء والفلاحين . ففى عام ١٧٢٥ كان نحو ثلاثة فى المائة من السكان تجارا : أصحاب متاجر فى القرى والمدن والأسواق ، ومستوردين للشاى والحرير من الصين والسكر والبن والتوابل والعقاقير من وراء البحـــار ، وللمنسوجات الفاخرة والخزف والورق من غربى أوربا ، ومصـــدرين للخشب والتربنتينة والقار وشحم الحيوان والكتان والقنب . وكانت القوافل تسافر إلى الصين بطريق سيبريا أو بحر قزوين ، والسفن تقلع من ريجا وريفل ونارفا وسانت بطرسبرج . ولعل الأنهار والقنوات كانت تنقل من التجارة أكثر مما تنقله الطرق البرية أو البحرية .

وكانت موسكو تقع فى قلب تلك التجارة الداخلية ، وكانت من الناحية المادية أكبر مدن أوربا ، إذ أن بها شوارع طويلة عريضة ، و٤٨٤ كنيسة ومائة قصر ، وآلاف الأكواخ والزرائب ، وسكان بلغوا ٢٧٧,٥٣٥ فى ١٧٨٠ [١٠] ، والفرنسيون والألمـــان واليونان والإيطاليون والانجليز والهولنديون والأسيويون يتحدثون لغاتهم ويعبدون آلهتهم كما يشاءون . وكانت سانت بطرسبرج قلعة للحكومة ، ومعقلا لأرستقراطية متفرنسة ، ومركزا للأدب والفن ، أما موسكو فكانت قطب الديانة والتجارة ، وتتسم بحياة نصف شرقيه لم تخلع عنها طابعها الوسيط ، وبوطنية سلافية مشربة بالغيرة والإخلاص . هاتان كانتا البؤرتين المتنافستين اللتين تدور حولهما المدنية الروسية ، حينا تمزق الشعب شطرين كالخلية المنقسمة ، وحينا تحيله مركبا متوترا سيصبح قبل ختام القرن مبعث الرعب لأوربا والحكم الفيصل فى مصيرها .

وكان محالا على شعب أضناه ووحشه صراعه مع الطبيعة ، وأعوزته أسباب الاتصال أو الأمن على الحياة ، وأفتقر أشد الافتقار إلى فرص التعليم وإلى الوقت الذى يفكر فيه — نقول إن شعبا كهذا كان محالا عليه أن يحظى بامتيازات الديمقراطية ومخاطرها ، اللهم إلا فى القرى المعزولة . ولم يكن بد من الاقطاعية فى صورة من صورها ، ومن ضرب عن النظام

الملكي في الحكم المركزي . وكان من الأمور التي لابد من توقعهـا أن تتعرض الملكية للانقلابات المتكررة ، تقوم بها أحزاب النبلاء المهيمنين على إمدادهم العسكرية للحكومة ، وأن تسعى الملكية إلى الحكم المطلق ، وأن تعتمد على الذين معوانا لجنودها وشرطتها وقضاتها على صيانة الاستقرار الاجتماعي والسلام الداخلي .

وكان الفساد عقبة كؤودا سـدت كل مسالك الادارة . وحتى النبلاء الأثرياء الملتفون حول العرش كان من السهل اجتذابهم بـ « الهدايا ». يقول كاستيرا الذي كان معاصرا تقريبا لهذه الحقبة « أن كان هنـاك عاصم الروس من التملق ، فإنه مامن أحد منهم يستطيع مقاومة أغراء الذهب[١١]» . وكان النبلاء يهيمنون على حرس القصر ، ذلك الحرس المعز المذل ، الذي يقيم الملوك ويخلعهم ، ويؤلفون طبقة مميزة من الضباط في الجيش ، ويملأون مجلس الشيوخ الذي كان يشرع القوانين في عهـد البزابيث ، ويرأسون الوزارات (الكوليجيا) التي تهيمن على العلاقات الخارجية ، والمحاكم ، والصناعة ، والتجارة ، والمالية ، ويعينون الـكتبة الذين يواصلون السير على النظام البيروقراطي ، ويوجهون إختيار الحاكم للمحافظين ، الذين يديرون الـ « جوبرنيات » أي المحافظات التي انقسمت إليها الامبرطورية ويختارون (بعد ١٧٦١) « الفويفوديين » الذين يحكمون الأقاليم . وكان مكتب الرقيب المالي المؤلف أكثره من رجال الطبقة الوسطى يبسط ظله على جميع فروع الحـكومة ، وهو مكتب مخابرات إتحـادي ، مخول له أن يكشف ويعاقب الإختلاس ، ولكنه ألفى نفسـه محبطاً رغم استخدامه المخبرين على نطاق واسع . فلو أن الملك رفت كل موظف مذنب بالرشوة والفساد لتوقف دولاب الدولة . وكان في جباة الضرائب من الفهم للمال مالا يبقى لخزانة الدولة مما يجمعون أكثر من ثلثـه . [١٢]

٢ — الدين والثقافة

كان للدين سلطان كبير في روسيا . لأن الفقر كان مدقعاً ، ولأن تجار الأمل وجدوا مشترين كثيرين . واقتصرت الشكوكية على طبقة عليا

تقرأ الفرنسية، وكان للماسونية أتباع كثيرون فى هذه الطبقة[١٣] . أما سكان الريف وأكثر سكان المدن فكانوا يحيون فى عالم فوق طبيعى قوامه التدين الذى يشيع فيه الخوف ، يتخيلون الشياطين محيطة بهم،ويرسمون الصليب مراراً وتكراراً فى اليوم ، ويتضرعون للقديسين بالتشفع لهم ، ويتعبدون لرفاتهم ، يرهبون المعجزات ، ويرتعدون فرقاً من النذر ، ويخرون سجداً أمام الصور المقدسة ، ويولولون بترانيم كئيبة تنطلق من صدور جهيرة . وكان للكنائس أجراس ضخمة قوية ، وقد أقام بوريس جودونوف جرساً منها بلغ وزنه ٨٨٢٫٠٠٠ رطل ، ولكن الأمبراطورة أنا إيفانوفينابزته فى هذا الميدان ،إذصب لهاجرس يزن٤٣٢٫٠٠٠ رطل[١٤].وعمرت الكنائس بالمصلين ، وكانت الطقوس هنا أكثر مهابة ووقاراً والصلوات أكثر حماسة ووجداً منها فى روما البابوية نصف الوثنية . أما القساوسة الروس — وكل منهم يلقب بالبابا — فكانت لهم لحى وشعر مرسل وأردية قاتمة تصل إلى أقدامهم (لأن مظهر السيقان يتعارض مع الكرامة والوقار) . وقلما كانوا يختلطون بالنبلاء أو البلاط بل يعيشون فى بساطة متواضعة ،متبتلين فى أديرتهم أو متزوجين فى دورهم . وكان رؤساء الأديرة يحكمون الرهبان ، والرئيسات يحكمن الراهبات ، وكان الكهنة غير الرهبان يخضعون للأساقفة ، وهؤلاء لرؤساء الأساقفة ، وهؤلاء للمطارنة الإقليميين ، وهؤلاء للبطريرك فى موسكو ؛ والكنيسة بجملتها تعترف برئيس الدولة رأساً لها. وخارج الكنيسة عشرات من الملل والنحل تتنافس فى التصوف والتقوى والكراهية .

وأفاد الدين فى بث ناموس أخلاقى حقق بالجهد خلق النظام وسط الدوافع القوية التى طبع عليها شعب بدائى . واتخذ نبلاء البلاط أخلاق الأرستقراطية الفرنسية وعاداتها ولغتها ، وكانت زيجاتهم صفقات عقارية خفف من عبئها العشاق والخليلات . وكان نساء الشعب أرق تعليما من رجاله ، ولكنهن قد يتفجرن فى لحظات الغضب بألفاظ حامية وعنف قاتل . أما عامة الشعب فكانت لغتهم سوقية غليظة ، وكثر بينهم العنف ، وكانت القسوة تتفق وقوة البدن وصفاقة الجلد . وكان كل إنسان يقامر ويسكر حسب طاقته ،

ويسرق حسب منصبه[١٥] ، ولكن الكل كانوا محسنين ، وبزت الأكواخ القصور فى كرم الضيافة . وكانت الوحشية والكرم صفتين شائعتين فى المجتمع كله .

أما اللباس فيختلف من أزياء باريس العصرية فى البلاط إلى القلانس من الفراء وجلد الغنم والقفازات الصفيقة التى يرتديها الفلاحون ، ومن جوارب النبلاء الطويلة الحريرية إلى الأربطة الصوفية التى تحتوى سيقان الأقنان وأقدامهم . وفى الصيف قد يستحم عامة الناس عراة فى الأنهار متجاهلين الجنس . وكانت الحمامات الروسية كالتركية عنيفة ولكنها محبوبة . وفيما خلا هذا كان الاهتمام بالنظافة الصحية عارضاً ، وحفظ الصحة العامة بدائيا . وكان النبـــلاء يحلقون لحاهم ، أما عامة الشعب فيطلقونها رغم مراسيم بطرس الأكبر .

وكان فى كل بيت تقريباً بالالايكا (جيتار) ، وكان فى سانت بطرسبرج على عهـــد اليزابيث وكاترين الثانية أوبرا مجلوبة من إيطاليا وفرنسا . وإليها وفد مشاهير المؤلفين والقادة الموسيقيين ، وأبرع مغنى العصر وعازفيه . وكان المال ينفق بسخاء على تعليم الموسيقى ، وقد أثبت صوابه وفائدته بتفجر العبقرية الموسيقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكان أصحاب الأصوات المبشرة من الذكور يرسلون من جميـع أصقاع روسيا إلى الكنائس الكبرى لتدريبهم . ولما كانت الطقوس الكنسية اليونانية لا تبيح استعمال الآلات فى الكورس ، فإن الأصوات كانت حرة طليقة ، فحققت من أعماق الانسجام والتناغم ما لم يكن له نظير فى أى بلد آخر فى العالم ، وغنى الصبيان أدوار السوبرانو ، ولكن المرتلين بأصوات الباص (العميقة الخفيفة) هم الذين أذهلوا كثيرين من الأجانب بمدى الخفض فى أصواتهم وباتساع شعورهم من همسات الرقة والحنان إلى موجات القوة الحنجرية .

فمن تراهم مؤلفو هذه الموسيقى المؤثرة لفرق الترتيل الروسية ، أكثرهم رهبان مغمورين لم تقرع الأجراس لموتهم ولم تشتهر أسماؤهم . ويبرز

من بينهم راهبان فى القرن الثامن عشر . أولهما سوزونوفتش بيريزوفسكى الصبى الأوكرانى الذى وهب صوتاً كأنما خلق ليتعبد لله . وأوفدته كاترين الثانية إلى إيطاليا على نفقة الدولة ليحصل أفضل التعليم الموسيقى ، وعاش سنوات فى بولونيا ، وتعلم التأليف الموسيقى على البادرى مارتينى . فلما عاد إلى روسيا كتب موسيقى دينية جمعت بين القوة الروسية والرشاقة الإيطالية . وقوبلت جهوده لإصلاح ترتيل الكورس بالمقاومة من أنصار القديم ، فبات فريسة لاكتئاب مرضى ، وقتل نفسه غير مجاوز الثانية والثلاثين (١٧٧٧) [١٦] . أما الثانى ، وهو أشهر منه ، فاسمه ديمترى بورتنيانسكى ، الذى أدخل وهو لا يزال طفلا فى السابعة كورس كنيسة البلاط ، وناطت الإمبراطورة اليزابيث جالوبى بتعليمه ، فلما عاد جالوبى إلى إيطاليا أوفدت كاترين الثانية ديمترى معه إلى البندقية ومنها انتقل إلى يد البادرى مارتينى ثم إلى روما ونابلى ، حيث ألف موسيقى على الطريقة الإيطالية . وفى ١٧٧٩ عاد إلى روسيا ، وسرعان ما عين مديرا لكورس كنيسة البلاط ، وقد احتفظ بمنصبه هذا حتى مماته (١٨٢٥) . وقد ألف لفرقة الترتيل قداسا يونانيا ، وموسيقات فى أربعة وثمانية أقسام لخمسة وخمسين مزمورا . وتدريبه للفرقة يرجع له أكثر الفضل فى بلوغها مكانة من التفوق جعلتها إحدى عجائب العالم الموسيقى . وفى ١٩٠١ احتفلت سانت بطرسبرج بذكرى ميلاده المائة والخمسين بمظاهر الأبهة والفخامة .

أما الفن الروسى فقد سيطر عليه التأثير الفرنسى ، ولكن الشخصية القائدة فيه كان إيطاليا يدعى فرانشيسكو (أوبارتولوميو) راستريللى . وكان بطرس الأكبر قد استقدم أبلى كارلو إلى روسيا (١٧١٥) ، فصب بالبرونز تمثالا لبطرس ممتطيا صهوة جواد ، وآخر بالحجم الطبيعى للإمبراطورة أنا أيفانوفنا . وورث الابن طراز لويس الخامس عشر الذى جلبه كارلو من فرنسا ، وأضاف إليه بعض ما استوحاه من روائع الباروك التى صنعها بلتازار نويمان وفيشر فون أرلاخ فى ألمانيا والنمسا ؛ وقد طوع هذه التأثيرات لحاجات روسيا وطرزها الفنية بانسجام فائق حتى أصبح المعمارى المقرب للقيصرة اليزابيث . ويكاد يكون كل بناء روسى ذى خطر

مشيد من ١٧٤١ إلى ١٧٦٣ مصمماً بيده أو بيد معاونيه . فعلى ضفة نيفا اليسرى أقام (١٧٣٢ — ٥٤) « القصر الشتوى » الذى أحرق فى ١٨٣٧ ولكن أعيد بناؤه طبقاً لتصميمه الأصلى فيما يظن : كتلة هائلة من النوافذ والعمد فى ثلاث طبقات ، تعلوها التماثيل والشرفات المفرجة ؛ وكان أقرب منه إلى ذوق اليزابث قصر زاركوى سيلو (أى قرية القيصر) » المشيد على ربوة تبعد خمسة عشر ميلا جنوبى سانت بطرسبرج . وعلى يساره بنى كنيسة ، وفى داخل القصر كان سلم فخم يؤدى إلى قاعة كبرى تضيئها نوافذ ضخمة بالنهار وست وخمسون ثريا بالليل ؛ وفى الطرف الأبعد قاعة العرش وأجنحة الأمبراطورة ، ثم حجرة صينية تقدم فروض الاجلال التى درج القرن الثامن عشر على تقديمها للفن الصينى . وهناك « حجرة الكهرمان » المكسوة بألواح من الكهرمان والتى أهداها فردريك وليم الأول بديلا لخمسة وخمسين من رماة القنابل اليدوية الفارعى الاجسام ، وقاعة للصور تضم بعض المجموعات الأمبراطورية . أما داخل القصر فأكثره بزخرفة روكوكية ، وصفها رحالة إنجليزى بأنها « مزيج من الهمجية والفخامة »[17]. وقد أزيلت بأمر كاترين الثانية زخارف الواجهة الذهبية ، فقد كانت كاترين بسيطة نقية فى ذوقها .

وكان الأدب أبطأ تطوراً من الفن . فقد افتقد التشجيع لندرة القراء ، وقيدت رقابة الكنيسة والدولة حرية التعبير ، ولم تكن اللغة الروسية قد صقلت ذاتها نحواً ولفظاً بحيث ترقى إلى مستوى الأداة الأدبية . ومع ذلك فحتى قبل تولى اليزابيث العرش (١٧٤٢) ترك ثلاثة من الكتاب بصماتهم على صفحة التاريخ . وأولهم فازيلى تاتيشيف — كان صاحب نشاط وفكر ، رحالة مؤرخاً ، دبلوماسياً وفيلسوفاً ، يحب روسيا ولكنه يفتح عقله فى تشوق للتطورات الاقتصادية والفكرية فى الغرب . وكان واحداً من ذلك النفر من الشباب الذين أوفدهم بطرس إلى الخارج بغية إخصاب روسيا فكرياً . وقد عاد بأفكار خطرة : فقد قرأ الأصول أو الخلاصات لكتب

بيكون وديكارت ولوك وجروتيوس وبيل ، وذبل إيمانه السنى ، فلم يؤيد الدين إلا بوصفه معواناً على الحكم[١٨] . وقد خدم بطرس فى حملات حربية خطرة . وأصبح حاكماً لأستراخان ، واتهم بالاختلاس . [١٩] واجتمع له من جولاته ذخيرة من المعلومات الجغرافية والعرقية والتاريخية انتفع بها فى كتابة « تاريخ روسيا » . وقد أغضب هذا الكتاب رجال الدين ، ولم يجرؤ أحد على طبعه حتى السنوات السمحة الأولى من حكم كاترين الثانية (١٧٦٨ — ١٧٧٤) .

وواصل ثانى هؤلاء الكتاب الثلاثة — وهو الأمير أنطيوخ كانتمير — التمرد على اللاهوت . كان ابناً الحاكم (هوسبودار) ملدافى ، وجىء به إلى روسيا فى عامه الثالث ، وتعلم الحديث بست لغات ، وخدم فى السفارات الروسية فى لندن وباريس ، والتقى بمونتسكيو وموبرتوى ، فلما عاد كتب نقداً لاذعاً لأولئك الغلاة من الوطنيين الداعين للجامعة السلافية ، المعارضين لتلويث الحياة الروسية بالأفكار الغربية . وإلى القارىء طرفاً من قصيدته « إلى عقلى » :

« أيها العقل الفج ، ياثمرة الدراسات الحديثة ، أمسك ، ولا تدفع القلم فى يدى ... ما أكثر الطرق السهلة المؤدية فى زماننا هذا إلى أسباب التشريف ، ولكن أقل الطرق تقبلا هو الطريق الذى خططته الأخوات الحافيات التسع (ربات الفنون) ... عليك أن تكد وتكدح هناك ، وبينما تشقى أنت يتجنبك الناس كأنك الوباء ويتهكمون عليك ، ويبغضونك ... ... «أن الذى يكب على الكتب ينقلب كافراً » ، هكذا يدمدم كريتو متذمراً فى يده مسبحته... ويريدنى أن أرى مبلغ الخطر فى بذرة المعرفة التى تلقى بيننا : إن أطفالنا ..... مما يفزع الكنيسة ، بدأوا يقرأون الكتاب المقدس ،وهم يناقشون كل شىء ويريدون معرفة العلة لكل شىء ، ولا يضعون فى رجال الدين إلا أقل الثقة . . . إنهم لا يوقدون الشمع أمام الصور ، ولا يحفظون المواسم والأعياد ...

« أيها العقل » نصيحتى لك أن تصبح أشد صمماً من قطعة زلابية »

ولا تشك لأنك مغمور ... وإذا كانت الحكمة المنعمة قد علمتك شيئاً، ... فلا تشرحه لغيرك »[٢٠] .

وزاد كانتيمير من إساءاته بترجمته كتاب فونتنيل « أحاديث حول تعدد العوالم » ، وقد أدين الكتاب لأنه كوبرنيقي ، مهرطق ، مجدف ، ولكن كانتيمير أحبط مابيته له مضطهدوه، فقد مات وهو فى السادسة والثلاثين (١٧٤٤) . ولم تجد هجائياته ناشراً يقدم على نشرها حتى عام ١٧٦٢ .

وفى عهد القيصرة اليزابيث بدأ الأدب الروسى يؤكد ذاته شيئاً أكثر من مجرد كونه صدى للأدب الفرنسى . وقد شعر ثالث هؤلاء الكتاب ، وهو ميخائيل لومونوزف ، بالتأثير الألمانى لا الفرنسى ، وكان قد درس فى ماربورج وفرايبورج ، ثم تزوج فتاة ألمانية، وجلب معها إلى سانت بطرسبرج حملا ثقيلا من العلم . وأصبح سبع الأكاديمية المبرز فى كل شىء حتى فى الشراب[٢١] . ورفض أن يتخصص ، فكان عالماً فى المعادن ، وجيولوجياً، وكيمائياً ، وكهربائياً ، وفلكياً ، واقتصادياً، وجغرافياً، ومؤرخاً، وفيلولوجياً، وخطيباً . وقد لقبه بوشكن « أول جامعة روسية »[٢٢] وفى غمار هذا كله كان يقرض الشعر :

وكان منافسه الأكبر على ثناء الطبقة المفكرة هو ألكسيس سوماروكوف الذى نشر ديواناً من القصائد الغنائية من نظمه ونظم لومونوسوف ليظهر أنه أشعر منه (وكان الفرق بينهما طفيفاً) . أما مفخرة سوماروكوف الحقيقية فهى انشاؤه مسرحاً قومياً روسيا (١٧٥٦) ألف له تمثيليات رددت صدى تمثيليات راسين وفولتير . وقد ألزمت اليزابيث حاشيتها بالحضور ، وكانوا لا يدفعون أجرا عن دخول المسرح ، فشكا سوماروكوف من أن راتب الخمسة آلاف روبل الذى يتقاضاه فى العام لا يقيم أوده ، ولا يعين مسرحه على الحياة . « أن ما كان الناس يشهدونه فى أثينا يوما وما يشهدونه اليوم فى باريس ، يشهدونه كذلك فى روسيا بفضل اهتمامى . . . وفى ألمانيا لم يوفق حشد من الشعراء لما وفقت إلى صنعه بجهودى أنا وحدى »[٢٣] .

وفى ١٧٦٠ أعيا من هذه الجهود المضنية فشد رحاله إلى موسكو ، ولكن ميله للشجار ما لبث أن أورثه الفقر هناك . فناشد كاترين الثانية أن تبعث به إلى الخارج على نفقة الدولة ، وأكد لها أنه « لو وصف أوربا قلم كقلمى ، لما كفاه ٣٠٠,٠٠٠ روبل » [٢٤] واحتملته كاترين فى صبر حتى مات صريع الشراب (١٧٧٧) .

ولنبعث الآن شيئاً من الإشراق فى هذه الصفحات بقصة غرام بطلتها أميرة إسمها ناتاليا بوريسوفنا دولجوروكايا ، وكانت إبنة الكونت والمشير بوريس خريميتيف ، رفيق سلاح بطرس الأكبر . فى ربيعها الخامس عشر (١٧٢٩) يوم كانت « باهرة الجمال ومن كبار الوارثات فى روسيا» [٢٥] خطبت لفاسيلى لوكيتش دولجوروكى ، أقرب المقربين للقيصر بطرس الثانى . وقبل أن يتاح عقد القران مات بطرس ، فنفى خلفه فاسيل إلى سيبريا ، وأصرت ناتاليا على أن تتزوجه وتتبعه إلى المنفى . وعاشت معه ثمانية أعوام فى تبولسك ، وولدت له طفلين . وفى عام ١٧٣٩ أعدم ، وبعد أن قضت فى المنفى ثلاثة أعوام أخرى سمح لها بالعودة إلى روسيا الأوربية فأكملت تعليم أبنائها ، ثم دخلت ديرا فى كييف . هناك ، واستجابة لرجاء ولدها ميخائيل ، كتبت « مذكراتها » (١٧٦٨) التى نشرها حفيدها الشاعر الأمير إيفان ميخايلوفيتش دولجوروكى فى ١٨١٠ . وقد أحيا ذكراها ثلاثة شعراء روس ، وهى محل إجلال روسيا باعتبارها نموذجاً للكثيرات من النساء الروسيات اللاتى شرفن الثورة ببطولتهن ووفائهن .

والخلاصة أن الحضارة الروسية فى جملتها كانت مزيجا من الإنضباط الحتمى والاستغلال القاسى ، ومن التدين والعنف ، ومن الصلاة والتجديف ، ومن الموسيقى والتبذل ، ومن الوفاء والقسوة ، ومن الخضوع الذليل والبسالة التى لا تقهر . ولم يستطع القوم أن يكتسبوا فضائل السلم لأنه كان لزاما عليهم أن يخوضوا ، خلال فصول شتاء مديدة ، وليالى قارسة البرد طويلة ، حربا مريرة مع الرياح القطبية التى تكتسح سهولهم المتجمدة دون ما حاجز يعوقها . إنهم لم يعرفوا قط النهضة الأوربية ولا الإصلاح

البروتستنتى ، ومن ثم كانوا — إلا فى عاصمتهم المتكلفة — لا يزالون أسرى قيود العصر الوسيط . وكانوا يعزون أنفسهم بكبرياء العرق ويقين الإيمان ، دون أن يبلغ ذلك بعد مبلغ النزعة القومية الأقليمية ، إنما كان إقتناعاً ضارياً بأنه بينما كان الغرب يورد نفسه موارد الهلاك بالعلم والثروة والوثنية والكفر ، أقامت « روسيا المقدسة » وفية لمسيحية آباء الكنيسة الأولين ، أقرب الأمم إلى قلب المسيح وأحبها إليه ، وإليها سيؤول حكم العالم وافتداؤه ، يوما ما .

٣ — السياسة الروسية

١٧٢٥ — ٤١

ليس تاريخ روسيا فيما بين بطرس الأكبر واليزابث يتروفنا إلا سجلا كثيبا محيراً من الدسائس وثورات القصر . فهذه الحقبة تتيح لنا — إن كان لحقبة ما أن تتيح — ونحن مطمئنون — أن نوفر فى الحيز والوقت. ومع ذلك فلا مناص من ذكر بعض عناصر هذا الخليط إن أردنا أن نفهم مركز كاترين الكبرى وخلقها وسلوكها .

كان الوريث الطبيعى للعرش عام ١٧٢٥ بيوتر ألكسيفتش ، صبى العاشرة وابن ألكسيس (وألكسيس هو الابن القتيل لبطرس الأكبر) ، ولكن أرملة بطرس التى لم تعرف القراءة والكتابة أقنعت حرس القصر (بدفعها رواتبهم التى طال تخلفها) بأنه عينها خلفاً له ، وبفضل تأييدهم أعلنت (٧ فبراير ١٧٢٥) توليها العرش بإسم كاترين الأولى ، إمبراطورة أقليم روسيا كلها . ولكن كاترين الصغرى هذه انغمست بعد ذلك فى الشراب والفسق . وكانت تحب الخمر حتى تغيب عن وعيها كل مساء ، وتمضى إلى فراشها عادة فى الخامسة صباحا ، وقد تركت زمام الحكم لعشيقها السابق الأمير الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ومعه مجلس أعلى ،— واضطلع الكونت أندراى أوسترمان ، الألمانى المولد ، بالشئون الخارجية ووجه روسيا إلى مصادقة ألمانيا والنمسا ومعاداة فرنسا . وعملا بمخططات

بطرس الأكبر ، زوجت كاترين إبنتها آنا بتروفنا لكارل فريدرش ، دوق هولشتين — جوتورب ، وذهب العروسان ليعيشا فى كيل ، حيث ولدت آنا الغلام الذى صار فيما بعد بطرس الثالث . أما كاترين نفسها ، فقد ماتت فى ٦ مايو ١٧٢٧ شهيدة لذاتها ، بعد أن عينت خلفا لها الصبى بيوتر الكسيفيتش الذى اغتصب عرشه من قبل .

ولم يكن بطرس الثانى هذا يتجاوز الثانية عشرة ، فظل منشيكوف يواصل الحكم ، واستغل سلطاته فى الإثراء تحسبا للمستقبل . فهب لفيف من النبـــلاء بزعامة الأخوين إيفان وفاسيلى لوكيتش دولجوروكى فأطاحوا بمنشيكوف ونفوه إلى سيبيريا حيث مات فى ١٧٢٩ . ولم يمض عام حتى لقى بطرس الثانى حتفه بالجدرى ، وانتهى بموته صلب الذكور فى أسرة رومانوف . هذا الحادث المؤسف هو الذى أتاح لروسيا أن تحكمها على مدى ستة وستين عاما ثلاث نساء ضارعن ، أو فقن ، أكثر معاصريهن من الملوك كفاءة تنفيذية وآثارا سياسية ، وسبقنهم جميعا — باستثناء لويس الخامس عشر — فى مضمار العربدة الجنسية .

أما أولى هؤلاء القيصرات فهى آنا إيفانوفنا ، ابنة إيفان الكسيفيتش البالغـــة خمسة وثلاثين عاما ، وأبوها كان الأخ الأبله لبطرس الأكبر . وقد اختارها المجلس الأعلى لأنها اكتسبت سمعة واقية بالوداعة والطاعة . ووضع المجلس الذى كان يهيمن عليه آل دولجوروكى وجولتسين «شروطا» بعثوا بها إلى آنا وهى فى كورلاند ، لابد من قبولها لتثبيتها على العرش . فوقعت على الشروط (٢٨ يناير ١٧٣٠) . ولكن لا الجيش ولا الاكليروس أرادوا إحلال الاوليجركية محل الأوتقراطية . لذلك انطلق وفد من حرس القصر للقاء آنا ، والتمس منها أن تتقلد زمام السلطة المطلقة . فاستوحت الشجاعة من أسلحتهم ، ومزقت « الشروط » على مرأى من الحاشية .

وكانت آنا عديمة الثقـــة بالنبلاء الروس ، فاستقدمت من كورلاند الألمان الذين كانوا يمتعونها هناك . فأصبح إرنست فون بورن ، أو بيرون

عشيقها السابق رئيسا للحكومة ، ورد أوستر مان لرياسة الشئون الخارجية ، وأعاد الكونت خريستوف فون مونيش تنظيم الجيش . وساعد لوفنفولدى وكورف ، وكيزرلنج ، على تطعيم نظام الحكم الجديد ببعض الكفاية الألمانية . فجمعت الضرائب بصرامة يقظة ، ووسع التعليم وأدخلت عليه التحسينات ، وهيء للدولة جهاز مدرب من الموظفين المدنيين . وبمثل هذه الفاعلية سجنت الحكومة الجديدة أو نفت أو أعدمت الدولجوروكيين والجولتسينيين .

وعاشت آنا عيشة منتظمة نسبيا ، بعد أن قنعت بعشيقين (بيرون ولوفنفولدى) ، فكانت تستيقظ فى الثامنة ، وتخصص ثلاث ساعات لشئون الحكم ، وتبتسم ابتسامة الرضى ، إذ يبسط رجالها الألمان سلطان روسيا . فغزا جيش يقوده مونيش بولنده ، وخلع ملكها ستانسلاس لسكزنسكى — الخاضع لتوجيه الفرنسيين — وأجلس على عرشه أوغسطس الثالث السكسونى ، واتخذ أول خطوة على طريق ربط بولنده بالروسيا . وردت فرنسا بأن حرضت تركيا على أن تهاجم روسيا ، ولكن السلطان تردد لانشغاله على جبهته الفارسية ، فرأت روسيا الفرصة مواتية لإعلان الحرب على تركيا ، وهكذا بدأت (١٧٣٥) ستون سنة من صراع السيادة على البحر الأسود . وشرح دبلوماسيو آنا الموقف فقالوا إن الاتراك ، أو من يلوذ بهم فى جنوبى روسيا ، فى يدهم مخارج الأنهار الخمسة الكبرى — دنيستر ، وبوج ، ودنيبر ، ودون ، وكوبان — التى كانت أهم مسالك التجارة الروسية المتجهة جنوبا ، وأن القبائل الإسلامية نصف الهمجية التى سكنت الاحواض الدنيا لهذه الانهار هى خطر دائم يتهدد مسيحيى روسيا ، وأن الشواطىء الشمالية للبحر الاسود جزء طبيعى وضرورى من روسيا ، وأن شعبا عظيما ناميا كالشعب الروسى يجب ألا يحال بعد اليوم بينه وبين الوصول إلى البحر الأسود والبحر المتوسط دون معوق ، وقد ظلت هذه الحجج الأنشودة المتكررة التى ظلت تتغنى بها روسيا طوال ما بقى من القرن وما بعده .

أما أول الأهداف فكان القرم ، شبه الجزيرة الذى يقوم معقلا تركيا

على الجبهة الشمالية للبحر الاسود . وكان الاستيلاء على شبه الجزيرة تلك هو الغاية التي استهدفتها حملة مونيش عام ١٧٣٦ . وكان أعدى أعدائه فى هذه الحملة المسافات المترامية والمرض ... ذلك أنه كان عليه أن يعبر ٣٣٠ ميلا من القفار والبرارى التى لاتستطيع بلدة واحدة من بلادها أن تقدم الطعام أو الدواء لجيش عدته ٥٧,٠٠٠ مقاتل ، وكان لزاماً أن ترافقهم ثمانون ألف عربة فى طابور طويل معرض فى أى نقطة أو لحظة لهجوم قبائل التتار عليه . واستطاع مونيش بفضل قيادته الماهرة أن يستولى فى تسعة وعشرين يوما على بريكوب ، وكوسلوف ، وبخشيسراى (عاصمة القرم) ، ولكن فى ذلك الشهر تفشت الدوسنطاريا وغيرها من الأمراض فى جيشه فأحدثت من الشقاء والتمرد بين رجاله ما أكرهه على التخلى عن فتوحه والتقهقر إلى أوكرانيا ، واستولى أثناء ذلك قائد آخر من قواد آنا على آزوف المشرفة على مصب نهر دون .

وكر مونيش على الجنوب فى أبريل ١٧٣٧ بسبعين ألف مقاتل ، واستولى على أوخاكوف ، قرب مصب نهر بوج . وفى يونيو انضمت إليه النمسا فى مهاجمة الترك ، ولكن حملتها باءت بفشل ذريع ألجأها إلى إبرام صلح منفرد ، أما روسيا التى تركت فجأة لتواجه الجيش التركى برمته ، والتى كانت تتوقع حربا مع السويد ، فقد وقعت (١٨ سبتمبر ١٧٣٩) صلحا رد إلى الأتراك تقريبا كل ما كسبه الروس فى حملات ثلاث . واحتفل بالمعاهدة فى سانت بطرسبرج على أنها إنتصار باهر لم يكلف أكثر من مائة ألف قتيل .

وعاشت آنا سنة بعد الحرب . وقبيل موتها عينت وريثا للعرش ، إيفان السادس ، الغلام الذى لم يتجاوز عمره ثمانية أسابيع ، وهو ابن بنت أختها آنا ليوبولدوفنا الألمانية المولد وأنطون أولريش أمير برنزويك . وأوصت أن يكون بيرون وصيا على إيفان حتى يبلغ السابعة عشرة . ولكن مونيش وأوسترمان كانا الآن قد نالهما من بيرون ما يكفى ، فانضما إلى أولريش وليوبولدوفنا ونفوه إلى سيبريا (٩ نوفمبر ١٧٤٠) . وأصبحت

آنا ليوبولدوفنا وصية ، ومونيش « الوزير الأول » . وخشى السفيران الفرنسى والسويدى أن يسيطر التيوتون على روسيا سيطرة كاملة . فمولا ثورة يقوم بها الأشراف الروس . واختار الثوار سراً مرشحاللعرش اليزافيتا بتروفنا إبنة بطرس الأكبر وكاترين الأولى .

وكانت اليزابث ، كما سندعوها هنا ، فى الثانية والثلاثين من عمرها ، ولكنها فى أوج حسنها وشجاعتها ونشاطها ، تحب الألعاب الرياضية والتدريب العنيف ، ولكنها أيضاً ولوعة بمتع الغرام ، وقد رفهت عن سلسلة من العشاق ، ولم تظفر بقدر يذكر من التعليم ، وكانت تكتب الروسية بصعوبة وتتكلم الفرنسية بطلاقة . ويبدو أن فكرة تشريفها العرش لم تخطرلها ببال إلى أن نحتّها آنا ليوبولدوفنا وأوسترمان جانبا مؤثرين عليها الأجانب . فلما أمرت الوصية فرق سانت بطرسبرج بالرحيل إلى فنلندة ، وتذمر الجند لأنهم سيواجهون حرب شتاء ، اغتنمت اليزابث الفرصة . فلبست الزى العسكرى ، وقصدت ثكنات الجند فى الساعة الثانية من صباح ٦ ديسمبر ١٧٤١ ،وناشدتهم أن يناصروها ، ثم ركبت مركبة الجليد الى القصر الشتوى على رأس فوج من الجيش وأيقظت الوصية ، وزجت بها هى والقيصر الطفل فى السجن . فلما استيقظت المدينة وجدت أن لها حاكماً جديداً. إمبراطورة روسية خالصة ، وابنـــة لبطرس العظيم . واغتبطت روسيا وفرنسا بهذا الحدث .

٤ — اليزابث بتروفنا

١٧٤١ — ٦٢

من العسير فهم هذه المرأة خلال ضباب الزمن والأهواء . وحين لقيتها كاترين الثانية فى ١٧٤٤ « راعها منها جمالها وجلال سلوكها . . ومع أنها كانت بدينة جداً ، فإن بدانتها لم تنل قط من حسنها أو تجعل حركتها ثقيلة مضطربة . . . رغم ارتدائها طوقاً هائلا لتنورتها حين تكتمل زينتها[٢٦] » . وكانت تبطن الشكوكية إلى شفا الإلحاد[٢٧] ، وتظهر الغيرة

على الديانة التقليـــدية . وقد لاحظ مراقب فرنسي « ميلهــا السافر للشراب »[٢٨] ، ولكن علينا أن نتذكر أن روسيا بلداً بارداً وأن الفودكا تدفىء شاربها . وقد رفضت أن تتزوج مخافة أن يبدد الزوج قوتها ويضاعف من أسباب الخلاف والخصومة . ويزعم البعض أنها تزوجت سراً الكسيس رازموفسكى ، فإذا كان الأمر كذلك فإنه لم يكن سوى الأول بين أقران عديدين . وكان فيها غرور وخيلاء ، وولع بالحلى والملابس المبهرجه ، ولها خمسة عشر ألف ثوب، وأكوام من الجوارب، و ٢٥٠٠حذاء[٢٩] ، وقد استعملت بعضها قذائف أثناء النقاش « وكان فى استطاعتها أن توبخ خدمها وحاشيتها بلغة السوقة ، وقد صدقت على بعض العقوبات القاسية ، ولكنها كانت فى سريرتها رحيمة الفؤاد[٣٠] . ألغت عقوبة الإعدام إلا على جريمة الخيانة (١٧٤٤) ، ولم تسمح بالتعذيب إلا فى أخطر المحاكمات « أما عقوبة الجلد فقد بقيت نافذة « ولكن البرابث كانت تشعر أنه لابد من إيجاد وسيلة لتثبيط المجرمين الذين جعلوا الطرق العامة وشوارع المدن غير مأمونة فى الليل ، وقد جمعت فى طبعها بين القلق والكسل « ووهبت ذكاء فطرياً حاداً « وأعطت وطنها خير حكومة سمحت بها حالة التعليم والأخلاق والعادات والاقتصاد الروسى .

وبعد أن نفت أوسترمان ومونش إلى سيبيريا « أعادت مجلس الشيوخ إلى سلطة القيادة الإدارية « ووكلت الشئون الخارجية إلى ألكسى بتروفيتش بستوزيف — ريومين . وقد وصفته كاترين الثانية بأنه « دساس كبير ، سيئ الظن بالناس ، حازم جرىء فى مبادئه ، عدولا يعرف الصفح « ولـكنه صديق صدوق لأصدقائه »[٣١] . وكان مشغوفا بالمال كما يشغف به عادة من يعرفون أن سمو المنصب قد يفضى إلى السقوط ، وحين حاولت انجلترة أن ترشوه قدرت أن نزاهته تكلف ١٠٠٠٠٠ كراون[٣٢] . ولاعلم لنا إن كانت الصفقة قد تمت ، ولكن بستوزيف وقف بوجه عام فى صف انجلترة ولكن هذا كان ردا طبيعيا على تأييد فرنسا للسويد وتركيا ضد روسيا. وقد عرض فردريك الأكبر هو الآخر على بستوزيف ١٠٠٠٠٠ كراون إن ألف بين روسيا وبروسيا ، ولـكن العرض رفض[٣٣] . وبدلا منه

ألف بستوزيف بين روسيا والنمسا (١٧٤٥) وانجلترة (١٧٥٥). فلما أتبعت انجلترة هذا بتحالف مع بروسيا (١٦ يناير ١٧٥٦) تهدم بناء الأحلاف الذى أقامه بستوزيف، وأهملت الزابث بعدها الأخذ بنصائحه، وربطت وزارة جديدة روسيا بحلف فرنسى - نمساوى كان ونقضا للأحلاف السابقة: وكانت رحى حرب السنين السبع دائرة.

وقد رأينا فى موضع سابق من هذا الكتاب - وما أبعد الشقة بيننا وبينه - كيف هزم القائد الروسى أبراكسين البروسيين فى جروس بيجرزدورف (١٧٥٧)، ثم سحب جيشه إلى بولندة. وأقنع سفيرا فرنسا والنمسا الزابث بأن بستورزيف كان قد أمر بتقهقر ابراكسين وأنه يتآمر لخلعهما. فأمرت بالقبض على المستشار والقائد جميعا (١٧٥٨). ومات ابراكسين فى السجن، وأنكر بستورزيف التهمتين، وقد برأت ساحته المعلومات التى أنيط عنها اللثام فيما بعد. وأراد خصومه أن يعذبوه ليعترف، ولكن الزابث كفتهم. وحل ميخائيل فورونستوف محل بستوزيف مستشارا.

وفى غمار حفلات البلاط الراقصة، وموائد قماره ودسائسه وغيراته وأحقاده، كانت الزابث تشجع معاونيها على دفع المدنية الروسية قدما. ففتح عشيقها الشاب ايفان شوفالوف جامعة فى موسكو، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية، وأوفد الطلاب فى بعثات للخارج للدراسات العليا فى الطب، واستقدم المعماريين والمثالين والمصورين الفرنسيين لأكاديمية الفنون (Akademia Iskustv) التى أقامها فى العاصمة (١٧٥٨). وقد تبادل الرسائل مع فولتير، وأغراه بتأليف «تاريخ الإمبراطورية الروسية فى عهد بطرس الأكبر» (١٧٥٧). أما أخوه بيوتر شوفالوف فقد أعان الاقتصاد بإلغاء المكوس على التجارة الداخلية. على أن الزابث سمحت أثناء ذلك للتعصب الدينى بأن يزداد إرضاء لدعاة الجامعة السلافية. فأغلقت بعض المساجد فى أقاليم التتار، ونفت ٠٠٠ر٣٥ يهوديا.

وكان أكبر مآثرها انتصار جيوشها وقوادها المرة بعد المرة على فردريك

الثانى ، ووقفهم الزحف البروسى ، وأشرافهم على سحقه لولا أن هد تدهور صحتها من قدرتها على حمل التحالف الفرنسى النمساوى الروسى على التماسك كتب السفير البريطانى فى تاريخ مبكر (١٧٥٥) يقول : « لقد ساءت صحة الإمبراطورية وأصيبت يبصق الدم والنهج » وبالسعال المستمر ، وبالأرجل المتورمة ، وبالماء فى رئتيها ، ومع ذلك فقد رقصت « منويتا معى »[٣٤].
وراحت الآن تدفع ثمنا باهظا لإيثارها حياة الفسق على الزواج . وإذ كانت بغير خلف ، فقد طالما بحثت عن شخص من دم ملكى يستطيع التصدى لمشاكل روسيا الخارجية والداخليــة ، فوقع اختيارها — وهو اختيار لا يمكن تفسيره — على كارل فريدرش أولرش ، ابن اختها آنا بتروفنا وكارل فريدرش ، دوق هولشتين — جوتورب . وكانت هذه أكبر غلطة اقترفتها فى حكمها ، ولكنها كفرت عنها باختيارها لشريكة حياته .

٥ — بطرس وكاترين

١٧٤٣ — ٦١

ولد بيوتر فيودوروفتش « كما أعادت اليزابث تسمية وريثها » بمدينة كيل فى ١٧٢٨ . وكان بوصفه حفيدا لبطرس الأكبر ولشارل الثانى عشر كليهما صالحا لارتقاء العرشين الروسى والسويدى . وقد ألزم البيت لضعف صحته حتى بلغ السابعة ، ثم اختبر بتغيير فجائى للانضمام إلى حرس هولشتين ونشىء على حياة الجندية . وأصبح رقيبا فى التاسعة ، وكان يسير شامخ الرأس فى العروض الميدانية ، وتعلم لغة ضباط الجيش وأخلاقهم . وحين ناهز الحادية عشرة عين لمربٍ ألمانى نشأه على الإيمان اللوثرى بصورة لا تنسى ، وأسرف فى تأديبه إسرافا أصابه بالعصاب . وإذ أرهبه هذا المربى بعنفه ، فقد انطوى على الجبن والتكتم ، ولاذ بالمكر والخداع »[٣٥] وبات « دائم النزق والعناد وحب الشجار »[٣٦]. ولعل روسو كان مستشهدا به مثالا يوضح الزعم بأن الإنسان خير بالفطرة ولكن البيئة السيئة هى التى تفسده ، ذلك أن بطرس كان رقيق الفؤاد ، يتمنى أن يسلك المسلك الحق ، كما سنرى من

مراسيمه الملكية ، ولكن دمره ما فرض عليه من القيام بأدوار لا تناسبه . وحين التقت به كاترين الثانية وهو فى الحادية عشرة وصفته بأنه « وسيم الطلعة حسن السلوك مجامل » وقالت « أنها لم تشعر بأى نفور من فكرة الزواج به » . [٣٧]

وفى ١٧٤٣ أمرت اليزابث بأن يؤتى به إلى روسيا ، وخلعت عليه لقب الغراندوق ، ويبدو أنها أدخلته فى المذهب الأرثوذكسى ، وحاولت تدريبه على شئون الحكم . ولكنها « وقفت مشدوهة » لفقر تعليمه واهتزاز شخصيته وفى سانت بطرسبرج أضاف السكر عيبا إلى عيوبه الأخرى ، وراود الأمل اليزابث بأن هذا الفتى الغريب قد يتاح له ، إذا زوج بامرأة صحيحة البدن ذكية الفؤاد ، أن ينجب قبل وفاة اليزابث قيصرا كفؤا لروسيا فى مستقبل أيامه . وبهذه الروح المجردة من التعصب العرقى « والتى اتسمت بها الاستقراطيات الأوروبية حتى أثناء قيام الدول القومية » اتجهت اليزابث ببصرها خارج روسيا ، فوقع اختيارها على أميرة مغمورة من إحدى الإمارات الألمانية الصغرى . وكان فريدريك الثانى الماكر قد أوصى بهذا الاختيار أملا فى أن يظفر بقيصرة ألمانية صديقة فى روسيا التى أصبحت الآن مبعث خوف لألمانيا .

وعند هذه النقطة تواجهنا مذكرات كاترين الكبرى ، وهى مذكرات لا يتطرق الشك إلى صحة نسبتها إليها « لم تطبع حتى عام ١٨٥٩ ، ولكن المخطوطة الفرنسية التى كتبتها كاترين بخط يدها محفوظة بدار المحفوظات القومية فى موسكو فهل هى جديرة بالثقة ؟ إن القصة التى ترويها هذه المذكرات تؤيدها على العموم مصادر أخرى . [٣٨] وعيبها ليس الكذب بل التحيز فهى قصة أجادت روايتها بذكاء وحيوية ، ولكنها فى بعضها دفاع عن خلعها زوجها « وعن احتمالها نبأ قتله بمثل ما احتملته به من رباطة جأش .

وقد ولدت فى شتتن بپومرانيا فى ٢١ ابريل ١٧٢٩ وسميت عند تعميدها صوفيا أوجستا فردريكا بأسماء ثلاث عمات لها . أما أمها فكانت يوهانا اليزابث أميرة هولشتين — جوتورب ، ومن طريقها كانت كاترين ابنـة

خالة بطرس . أما أبوها فكان كرستيان أوجست ، أمير انهالت — تسربست فى وسط ألمانيا ، واللواء فى جيش فردريك . وقد خاب أمل أبويها لولادة بنت لا ولد ، وحزنت الأم كأنها أسقطت جنينا . أما كاترين فقد كفرت عن أنوثتها باتخاذها فحولة القادة العسكريين وحنكة الأباطرة الحاكمين ، بينما ظلت طوال ذلك أكثر العشيقات فى أوربا طلابا وأقربهن منالا .

كانت تشكو ألوانا من أمراض الطفولة ، ومنها مرض اشتد عليها حتى خلفها تبدو للناظرين كأنها ستظل مشوهة ما بقى لها من العمر « فى عمردها الفقرى تعرج » و « وكتفها اليمنى أعلى كثيرا من اليسرى » ، وأصبحت الآن « تتخذ شكل حرف Z » فحبسها جلاد المدينة السابق ، الذى تخصص فى علاج انخلاع المفاصل ، فى مشد (كورسيه) « لم أكن أخلعه قط نهارا ولا ليلا إلا حين أغير ملابسى الداخلية » و « وبعد ثمانية عشر شهرا بدأت أبدى علامات على استقامة عودى » .[٣٩] ولكثرة ما تردد فى سمعها أنها دميمة ، صممت على أن تنمى ذكاءها بديلا عن الجمال ، فكانت مثالا آخر من أمثلة النقص الذى يشعر به صاحبه فيحفزه إلى قدرات تعويضية . واختفت دمامتها حين لف البلوغ أعضاءها فاستدارت . وكانت رغم هذه الخطوب ذات « طبع رضى » وفيها من « المرح الفطرى » ما استلزم ضبطه » .[٤٠]

تلقت تعليمها على مهذبين نخص منهم بالذكر قسيسا لوثريا كان يلقى عنتا من أسئلتها . مرة سألته « أليس من الظلم أن يحكم على تيطس ، وماركوس أوريليوس ، وجميع عظماء العالم القديم بالهلاك الأبدى رغم فضلهم ، لأنهم لم يعرفوا شيئا عن رؤيا يوحنا اللاهوتى ؟ » وكانت تحسن الجدل إلى حد حمل معلمها على أن يعتزم جلدها لولا تدخل إحدى المربيات. وقد أرادت بصفة خاصة أن تعرف شكل تلك الهيولى التى سبقت الخليقة كما ورد فى سفر التكوين . « ولكن إجاباته لم تبد قط مقنعة » و « فقد كلانا أعصابه » ، وزاد انزعاجه بإصرارها على أن يفسر لها « بالضبط معنى الختان » .[٤١] وكان معلموها الآخرون ومربيها فرنسيين ، لذلك أتقنت

الفرنسية » فقرأت كورني » وراسين » وموليير ، وكان واضحا أنها مهيأة لقراءة فولتير . وهكذا أصبحت من أفضل نساء عصرها تعليما .

وانتهى نبأ هذه الأميرة الذكية إلى الإمبراطورة اليزابث ، وكانت تواقة إلى فتاة قد تمنح بطرس الذكاء بالتناضح . ففى أول يناير ١٧٤٤ وصلت إلى أم صوفيا دعوة للحضور معها فى زيارة للبلاط الروسى . وتردد الوالدان » فقد بدت لهما روسيا بلداً قلقاً بدائياً إلى حد خطر » أما صوفيا التى حدست أن زواجها من الفرندوق قيد البحث فقد التمست الجواب بقبول الدعوة . وعليه ففى ١٢ يناير بدأوا الرحلة الطويلة الشاقة عبر برلين وشتتن وبروسيا الشرقية وريجا وسانت بطرسبرج إلى موسكو . وفى برلين استضافهم فردريك » وأعجبته صوفيا » « وراح يسألنى ألف سؤال ويتكلم على الأوبرا والكوميديا والشعر والرقص ، وباختصار كل شىء يمكن أن يخطر ببال إنسان يتحدث إلى فتاة فى الرابعة عشرة[٤٢] » وفى شتتن « ودعنى أبى ، وكانت آخر مرة رأيته فيها ، وقد بكيت بكاء مراً » . وبلغت الأم وابنتها موسكو فى ٩ فبراير فى حاشية مترفة ، بعد رحلة فى مركبة جليد امتدت اثنتين وخمسين ساعة من سانت بطرسبرج .

وفى ذات المساء التقت ببطرس ثانى مرة ، وقد وقع من نفسها هذه المرة أيضاً موقعاً طيباً ، إلى أن أسر لها أنه لوثرى صميم ، وأنه يحب إحدى الوصيفات فى البلاط[٤٣] . ولاحظت أن الروس يكرهون لهجته وعاداته الألمانية ، أما هى فقد عولت على تعلم الروسية والتمكن منها ، وعلى قبول المذهب الأرثوذكسى بحذافيره وشعرت بشىء « أكثر قليلا من عدم المبالاة نحو بطرس ، ولكن » لم أكن غير مبالية بالتاج الروسى » . وعينوا لها ثلاثة مدرسين — للغة ، وللدين ، وللرقصات الروسية . وقد شقت على نفسها فى الدرس — فنهضت مرة فى منتصف الليل للاستذكار — حتى ألزمت الفراش لإصابتها بذات الجنب » « وظللت أتذبذب بين الحياة والموت سبعة وعشرين يوماً » فصدت خلالها ست عشرة مرة ، أحياناً أربع مرات فى اليوم »[٤٤] . وفقدت أمها حظوتها فى البلاط لأنها طلبت استدعاء قسيس

لوثرى . أما صوفيا فقد كسبت قلوباً كثيرة بطلبها قسيساً يونانياً . وأخيراً ، فى ٢١ أبريل ، استطاعت أن تظهر أمام الناس . «كنت هزيلة كأننى هيكل عظمى . . . فى وجهى وقسماتى غضون ، وشعرى ساقط ، ولونى غاية فى الشحوب »[٤٥] وأرسلت لها الأمبراطورة ملء قدر من « الروج » .

وفى ٢٨ يونيو جازت صوفيا ، فى خشوع مؤثر ، مراسم دخولها فى المذهب الأرثوذكسى . وأضيف الآن إلى أسمائها إسمان هما إكاترينا ألكسيفنا ؛ ومن ثم أصبحت منذ الآن تدعى كاترين . وفى صباح الغد ، وفى الكتدرائية الكبرى ، « أوسبنسكى سوبور» ، خطبت رسمياً للغرندوق بطرس . وابتهج كل من رآها بتواضعها اللبق ، وحتى بطرس بدأ يحبها . وبعد أربعة عشر شهراً من التدريب تزوجا فى ٢١ أغسطس ١٧٤٥ فى سانت بطرسبرج . وفى ١٠ أكتوبر رحلت أم كاترين قاصدة أرض الوطن .

وكان بطرس الآن فى السابعة عشرة ، وزوجته فى السادسة عشرة . كانت جميلة ،وكان قبيحاً لأنه أصيب بالجدرى فى سنة خطبتهما . وكانت من الناحية الفكرية شرهة يقظة ، أما هو فيقول سولوفيف إنه « بدت عليه كل أمارات التخلف العقلى ، وكان أشبه بطفل كبير »[٤٦] : يلهو بالدمى والعرائس والعساكر اللعب ، ويولع بالكلاب حتى أنه يحتفظ بعدد منها فى شقته ، ولم تعرف كاترين أيهما شر من الآخر ، نباحها أم رائحتها المنتنة[٤٧]. ولم يحسن الموقف بالعزف على كمانه . وازداد ميله للشراب ، « و منذ ١٧٥٣ كان يثمل بالشراب كل يوم تقريباً »[٤٨] وكثيراً ما كانت الإمبراطورة اليزابث توبخه على نقائصه ، ولكنها لم تضف القدوة إلى الوصية . وكان الذى يزعجها أكثر هو كرهه السافر لروسيا التى سماها « بلداً لعيناً »[٤٩]، واحتقاره للكنيسة الأرثوذكسية وقساوستها ، وأهم من هذا كله عبادته لفردريك الأكبر ، حتى أثناء اشتباك روسيا وبروسيا فى حرب طاحنة ، وأحاط نفسه بـ « حرس هولشتينى» من الجند كلهم تقريباً ألمان ، وفى بيت لهوه بأورانينباوم كان يلبس إتباعه الزى الألمانى ، ويدربهم على الطريقة البروسية . وحين هزم القائدان الروسيان فرمور وسالتيكوف

البروسيين عام ١٧٥٩ أمسكا عن متابعة إنتصاراتهما مخافة أن يغضبا بطرس [٥٠] الذى قد يصبح قيصراً فى أية لحظة .

وكاد زواجهما أن يصبح صراعا بين ثقافتين ، لأن كاترين كانت تسعى إلى المزيد من التعليم بدراسة الأدب الفرنسي . ويبدو أمراً لا يصدق أن تقرأ هذه الشابة خلال سنيها التعسة وهى غراندوقة أفلاطون وبلوتارخ وتاسيتوس وبيل وفولتير وديدرو ومونتسكيو الذى قالت عن كتابه « روح القوانين » إنه ينبغى أن يكون « كتاب صلوات يومية لكل ملك سليم الإدراك » [٥١] ولا بد أن كتبا كهذه أتت على البقية الباقية من معتقدات كاترين الدينية — رغم أنها واصلت دون توان مراعاتها للطقوس الأرثوذكسية وأعطتها هذه الكتب ذلك المفهوم عن « الاستبداد المستنير » الذى تشربه فردريك من فولتير قبل ذلك بجيل .

وخلال ذلك (إن صدقنا روايتها المباشرة) « لم يصـــل زواجى بالغراندوق إلى نقطة الاكتمال » [٥٢] وفى رأى كاستيرا الذى كتب فى ١٨٠٠ سيرة لكاترين تنبيء باطلاع حسن كما تتسم بالعداء لها ، أن « بطرس كان يشكو عيباً بدا رغم سهولة إزالته أشد قسوة ، ولم يستطع عنف حبه ولا محاولاته المتكررة أن يحققا نقطة الاكتمال فى زواجه . [٥٣] وهذه الحالة لها نظير لافت للنظر ، هى حالة لويس السادس عشر وماري أنطوانيت . وربما كان النفور الذى انتهت كاترين إلى الإحساس به نحو بطرس خلال خطبتهما الطويلة قد وضح له وأورثه العنة النفسية . وسرعان ما اتجه إلى نساء أخريات ، واتخذ الخليلة تلو الخليلة ممن راودهن الأمل فى الحلول محل الغراندوقة كاترين . وفى روايتها أن سنوات الزواج الأولى هذه كانت سنوات شقاء وتعاسة لها . وذات يوم (فيم يروى هوراس ولبول) ، حين سألتها الإمبراطورة لم يثمر زواجها « أجابت بأنه ينبغى ألا ينتظر أى ثمر له . وكان هذا فى الواقع إعلاناً لعجز زوجها . وأجابت إليزابث بأن الدولة تطالب بالخلف ، وتركت للغراندوقة مهمة الحصول على هذا الخلف

بمساعدة من تشاء . وكانت ثمرة طاعتها ولدا وبنتا . »[٥٤] وقد بينت مدام ماريا تشوجلوكوفا ، التي عينتها إليزابث وصيفة لكاترين ، للغراندوقة (فيما روته هذه) أن هناك استثناءات هامة لقاعـــدة الوفاء الزوجي ، ووعدتها بأن تكتم السر إذا اتخذت كاترين عشيقا ، [٥٥] و (« لا ريب فى أن هذا الاقتراح المخجل لم يأت من الوصيفة بل من الامبراطورة ذاتها[٥٦] ». وعلينا أن ننظر إلى هذه الأمور فى منظور بلاط روسى طال إلفه للملكات عديدات العشاق ، وبلاط فرنسى تعود على ملوك متعددى العشيقات ، وبلاط سكسونى — بولندى ضم مائة وخمسين طفلا أنجبهم أوغسطس الثالث .

فهل اقتدت كاترين بهذه المثل إلى درجة الإفراط ؟ بعد ولايتها العرش ، نعم . أما قبلها فيبدو أنها إقتصرت فى قصد ورواق على ثلاثة عشاق — أولهم — بعد زواجها بنحو ست سنوات — سرجى سالتيكوف « الضابط الشاب المفعم حيوية . وتشرح كاترين استجابتها لحبه فتقول :

« إن جاز لى توخى الصراحة . . . . قلت إننى كنت أجمع بين عقل الرجل ومزاجه « وبين مفاتن المرأة الجديرة بأن تحب . وأرجو الصفح عن هذا الوصف « الذى يبرره صدقه . . . فلقد كنت جذابة « ومن ثم كان نصف الطريق إلى الأغراء قد قطع فعلا « ومن الانسانية الخالصة فى مثل هذه المواقف ألا يقف الإنسان فى منتصف الطريق .... فالمـــرء لايستطيع أن يمسك بقلبه فى يده « يحبسه أو يطلقه ، يشد عليه قبضته أو يرخيها كما يشاء . »[٥٧]

وفى ١٧٥١ حملت ولكنها أسقطت حملها ، وتكررت هذه التجربة المؤلمة فى ١٧٥٣ . وفى ١٧٥٤ ولدت الطفل الذى صار فيما بعد الإمبراطور بولس الأول . واغتبطت اليزابث « وأهدت كاترين ١٠٠٫٠٠٠ روبل ، وأرسلت سالتيكوف ليزوى انزواءاً مأمونا فى استكهولم ودرسدن ، حيث كان « عابثا مستهترا مع جميع النساء اللاتى قابلهن »[٥٨] كما تروى كاترين .

أما بطرس فازداد سكرا ، واتخذ مزيدا من الخليلات ، واستقر أخيرا على اليزافيتا فورونتسوفا « ابنة أخي المستشار الجديد . وكانت كاترين تتشاجر معه ، وتسخر منه ومن أصدقائه علانية . [٥٩] وفى ١٧٥٦ قبلت ملاطفة فتى بولندى وسيم فى الرابعة والعشرين يدعى الكونت ستانسلاس بونياتوفسكى « قدم إلى سانت بطرسبرج ملحقا للسير هانبرى – وليمز ، السفير البريطانى . وتصفها سيرة ستانسلاس الذاتية فى سنة ١٧٥٥ :

« كانت تناهز الخامسة والعشرين . . . فى تلك اللحظة بالذات التى هى أجمل اللحظات للنساء الجميلات . كان لها شعر فاحم ، وبشرة بيضاء ناصعة وأهداب سوداء طويلة « وأنف إغريقى ، وفم كأنه خلق للقبلات « وبدان وذراعان غاية فى الحسن ، وقد نحيل يغلب فيه الطول على القصر ، ومشية غاية فى النشاط ملؤها المهابة رغم هذا .وكان رنين صوتها مبهجاً ،وضحكتها مرحة كطبعها » [٦٠].

فلما حدق النظر فيها « نسى أن هناك قطرا اسمه سيبيريا . » وكان هذا الغرام أعمق ماشعرت به من غرامياتها الكثيرة « وغرامياته هو ، فقد ظل قلبها مع بونياتوفسكى بعد أن اتخذت عشاقاً آخرين بزمن طويل ، أما هو فلم يفق قط تماماً من افتتانه بها ، مهما أنزلت به سياساتها من آلام موجعة. وحين ذهبت لتقيم مع بطرس فى أورانينباوم « خاطر ستانسلاس بحياته بزيارتها سرا هناك . وكشف أمره « وأصدر بطرس أوامره بشنقه . غير أن كاترين تشفعت لبطرس بخليلته التى هدأت ثائرة الغراندوق بعد أن ألانتها هدية من كاترين . وأخيراً « وفى نوبة من الود ، لم يكتف بطرس بالصفح عن بونياتوفسكى ، بل دعا كاترين للانضمام إلى عشيقها،ودخل معهماومع اليزافيتا فورونتسوفا فى « معيشة رباعية « لطيفة تخللتها عشاءات مرحة اشتركوا فيها جميعاً [٦١] .

وفى ٩ ديسمبر ١٧٥٨ ولدت كاترين بنتا . واعتقد أفراد الحاشية عموماً أن أباها هو بونياتوفسكى[٦٢] ولكن بطرس نسب الفضل لنفسه ،

وتقبل التهانى ، ونظم المهرجانات احتفالا بهذا الانجاز [٦٣] ، ولكن الطفلة ماتت بعد أربعة أشهر. واستدعى بونياتوفسكي إلى بولندة بأمر الامبراطورة، وحرمت كاترين العشق هنيهة ، ولكنها افتتنت بمغامرات الحب والحرب التى خاضها جريجورى جريجوريفتش أورلوف ، ياور بيوتر شوفالوف . وكان أورلوف قد كسب لنفسه حسن السمعة بثباته فى موقعه فى معركة زورندورف رغم جروحه الثلاثة . وكان له بنية الرجل الرياضى و « وجه ملاك » [٦٤] ، ولكنه لم يعرف من المناقب إلا الظفر بالسلطة والنساء بأى وسيلة متاحة . وكان لشوفالوف خليلة هى الأميرة إلينا كوراكين « وكانت من أجمل حسان القصر وأكثرهن تحللا ، فاجتذبها أورلوف وظفر بها من رئيسه » وأقسم شوفالوف أنه قاتله ، ولكنه مات قبل أن ينفذ فيه وعيده . وأعجبت كاترين بشجاعة أورلوف « ولاحظت أن له أربعة أخوة فى الحرس كلهم قوى فارع الطول ، وقالت فى نفسها إن هؤلاء الخمسة سيفيدون إذا طرأ طارىء . وعليه رتبت لقاء مع جريجورى « ثم ثانيا ، فثالثاً ، وسرعان ما أزاحت كوراكين واحتلت مكانها . ولم يحل يوليو ١٧٦١ حتى كانت حاملا ، وفى أبريل ١٧٦٢ ولدت ابنا لأورلوف ، وأحيط الحدث بما أمكن من تكتم ، وربى الغلام باسم الكسيس بوبرينسكى .

وفى ديسمبر ١٧٦١ وضح أن الامبراطورة بادئة مرضها الأخير ، وبذلت محاولات لإشراك كاترين فى مؤامرة تستهدف منع بطرس من ارتقاء العرش ، وقد أنذرت بأن بطرس إن أصبح قيصرا سينحيها جانباً ويجعل اليزافيتا فورونتسوفا زوجته ومليكته ، ولكن كاترين رفضت الاشتراك فى المؤامرة . وفى ٥ يناير ١٧٦٢ (حسب التقويم الجديد) ماتت الامبراطورة اليزابث ، وارتقى العرش بطرس دون معارضة سافرة .

٦ — بطرس الثالث

١٧٦٢

وقد أدهش الجميع بسماحة قراراته ، فالود الفطرى الذى حجبه ضباب العادات الفظة الغبية تكشف الآن فى نوبة من العرفان لتقلده السلطة بسلام ،

فصفح عن أعدائه » واستبقى معظم وزراء البزابث » وحاول أن يتلطف مع كاترين . فخصص لها فى القصر جناحا مريحا فى طرف منه ، وسكن هو جناحا فى الطرف الآخر . وخصص لخليلته الغرف الوسطى » وكان هذا بالطبع إهانة بالغة ، ولكن كاترين ابتهجت فى دخيلة نفسها بسكناها على مبعدة منه . وزودها بمخصصات سخية ، ودفع ديونها الباهظة دون تحقيق فى أصلها . [٦٥] وفى الحفـــلات الرسمية كان يسوى بينها وبينه فى المكان وأحيانا يقدمها على نفسه . [٦٦]

ثم أعاد من المنفى الرجال والنساء الذين نفاهم الحكام السابقون إلى سيبيريا فعاد الآن مونيش وقد بلغ الثانية والثمانين ليرحب به اثنان وثلاثون حفيدا ، ورده بطرس إلى رتبة المشير ، وأقسم مونيش ليخدمنه إلى النهاية ، وقد بر بقسمه . وأحل الإمبراطور السعيد النبلاء من الالتزام الذى فرضه عليهم بطرس الأكبر » وهو أن يعطوا الدولة سنين كثيرة من حياتهم ، فاقترحوا أن يصنعوا له تمثالا من الذهب ، ولكنه أمرهم أن يستعملوا هذا الذهب استعمالا أرشد . [٦٧] وألغى مرسوم أصدره بطرس فى ٢١ فبراير بالشرطة السرية التى أبغضها الناس جميعا ، وحرم الاعتقال للتهم السياسية حتى يراجعها مجلس الشيوخ ويقرها . وفى ٢٥ يونيو أصـــدر بطرس مرسوما بأن يعفى مقترف الزنا من التعنيف الرسمى منذ الآن ، وفحتى المسيح لم يدن (الزانية) فى ذلك الأمر » . [٦٨] وابتهجت الحاشية ، وسر التجار لتخفيض رسوم التصدير ، وخفض ثمن الملح ، وأبطل شراء الأقنان لتشغيلهم فى المصانع أما » قدامى المؤمنين » الذين هربوا من روسيا اتقاء اضطهادهم فى عهد البزابث فقد دعوا للعودة والتمتع بالحرية الدينية . ولكن رجال الدين أثارت سخطهم الشديد مراسيم ١٦ فبراير و ٢١ مارس التى أممت جميع أراضى الـــكنيسة وجعلت جميع القساوسة الأرثوذكس موظفين حكوميين ذوى رواتب . وحرر الأقنان العاملون على ضياع النبلاء أن يحرروا هم أيضا سريعا . ووسط هذه الإصلاحات كلها — التى أشار بها عليه مختلف الوزراء — راح بطرس يشرب حتى يثمل .

أما أغرب قراراته اللى أسعده أيما سعادة ، فهو إنهاؤه الحرب مع بروسيا . وكان حتى قبل ولايته العرش قد فعل الكثير ليساعد فردريك « فأوصل سرا الخطط الحربية التى وضعها مجلس البزابث ، وراح الآن يفاخر بعمله هذا [٦٩] وفى « مايو ربط الروسيا ببروسيا فى تحالف دفاعى هجومى. وأصدر تعليماته إلى قائد القوات الروسية المحاربة مع الجيش النمساوى أن يضعها فى خدمة « سيدى الملك » [٧٠] ثم ارتدى بزة عسكرية بروسية ، وأمر الجنود المحليين بأن يحذوا حذوه ، ثم أدخل الضبط والربط البروسيين فى الجيش ، ونظم التدريبات العسكرية كل يوم لحاشيته ، وأجبر كل ذكر فى الحاشية على المشاركة فيها دون مراعاة للسن أو النقرس [٧١] . وقدم « حرس هولشتين » الخاص به على أفواج العاصمة المعتدة بمكانتها .

ولم يكن الجيش الروسى كارها للسلم ، ولكن أذهله هجر روسيا لحلفائها الفرنسيين والنمساويين فى عجلة ، وتخليها عن جميع الأقاليم التى ظفرت بها من بروسيا خلال الحرب . وأفزعه أن يذيع بطرس عزمه على تجريد جيش روسى على الدنمرك لاسترداد دوقية شلزفج التى أخذتها الدنمرك من أدواق هولشتين ، ومنهم أبو بطرس . وأبان الجنود فى غير لبس إنهم سيرفضون خوض حرب كهذه ، فلما طلب بطرس إلى كيريل رازوموفسكى أن يزحف بجيش على الدنمرك أجابه القائد « ياصاحب الجلالة يجب أولا أن تعطينى جيشا آخر يكره جيشى على الزحف . » [٧٢]

وفجأة وجد بطرس نفسه مكروها رغم إصلاحاته الجريئة الممتازة ، كرهه الجيش خائنا لوطنه ، وكرهه الإكليروس لوثريا أو شرامن اللوثرى ، وطالب الأقنان الذين لم يعتقوا بالحرية فى تذمر وصخب ، وسخر منه البلاط ووصفه رجلا أحمق مأفونا . وفوق هذا كله حامت حوله شبهة عامة فى أنه ينوى تطليق كاترين والزواج من خليلته . [٧٣] « أن هذه الشابة » (كما يروى كاستيرا) « العاطل من أى موهبة خطاب أو كلام ، المنخرطة فى غباوة .. استطاعت بدهائها أن تحصل من القيصر — تارة بتملقه ، وتارة بتأنيبه ، وتارة حتى بضربه — على تجديد للعهد الذى قطعه لها ... وهو

أن يتزوجها ويبوئها عرش روسيا بدلا من كاترين [٧٤] ولما لعبت برأسه السلطة والخمر عنف فى معاملة كاترين ، حتى لقد رماها علانية بالحماقة . [٧٥] كتب البارون دبروترى إلى شوازيل يقول : «إن الإمبراطورة (كاترين) فى وضع شديد القسوة ، وهى تعامل بمنتهى الاحتقار . . . ولن يدهشنى أنا العليم بشجاعتها وعنفها إن دفعها هذا إلى نوع من الشطط . . . ولا يألو بعض أصدقائها جهداً فى تهدئتها، ولكنهم لا يترددون فى المخاطرة بكل شىء فى سبيلها أن اقتضى الأمر » [٧٦] .

وكانت سانت بطرسبرج وأرباضها حافلة بأنصار كاترين . أحبها الجيش والحاشية وجماهير الشعب . وكان أخلص أصدقائها فى هذه الأيام العصيبة، بعد وصيفاتها وجريجورى أورلوف « أميرة داشكوفا » إيكاترينا رومانوفنا » . ولم تكن هذه السيدة الجريئة المغامرة تتجاوز التاسعة عشرة « ولكنها كانت ذات مكانة مرموقة فى القصر لأنها ابنة أخى المستشـــار فورونتسوف وأخت خليلة بطرس . وكان بطرس فى سذاجته أو بين كئوس الخمر قد كشف لها عن نيته فى خلع كاترين وإحلال اليزافيتا فورونتسوفا محلها على العرش . [٧٧] ونقلت داشكوفا النبأ إلى كاترين ، — وربحتها أن تشترك فى مؤامرة لتنحية بطرس . ولكن كاترين كانت قد دبرت فعلا مؤامرة مع نيكيتا بانين ، مربى ولدها بولس ، وكيريل رازوموفسكى ، هتمان (زعيم) أوكرانيا ، ونيقولا كورف رئيس الشرطة « والأخوين أورلوف ، و ب . ب باسيك ، وهو ضابط فى فوج محلى .

وفى ١٤ يونيو أصدر بطرس أمره بالقبض على كاترين ، ثم ألغى الأمر ، ولكنه أمرها بالاعتكاف فى بيترهوف ، على اثنى عشر ميلا غربى العاصمة . أما بطرس نفسه فخلا بعشيقته فى أورانيينباوم . وترك تعليمات بأن يعد الجيش نفسه للإبحار إلى الدنمرك ، ووعد بأن يلحق به فى يوليو . وفى ٢٧ يونيو قبض على الملازم باسيك لالقائه خطباً تحط من قدر الإمبراطور. وخشى جريجورى وألكسى أورلوف أن يكرة بالتعذيب على الاعتراف بالمؤامرة ، فقرر التصرف فوراً . وعليه ففى الثامن والعشرين ركب ألكسى

فى عجلة قاصداً بيترهوف ، وأيقظ كاترين، وأقنعها بأن تعود معه راكبة إلى سانت بطرسبرج. وفى طريقهما توقفا عند ثكنات فوج اسماعيلوفسكى، واستدعى الجند على قرع الطبول ، وناشدتهم كاترين أن ينقذوها من تهديدات الأمبراطور ، فأقسموا على حمايتها ، « واندفعوا ليقبلوا يدى وقدمى ، وهدب ثوبى ، وهم يدعوننى مخلصتهم » (فى رواية كاترين لبونيا توفسكى[٧٨]) — لأنهم علموا أنها لن ترسلهم إلى الدنمرك . ومضت إلى كتدرائية كازن فى حراسة فوجين والأخوين أورلوف ، وهناك نودى بها حاكماً مطلقاً لروسيا . ولحقت بها فرقه بريوبرازنسكى هناك ، وتوسل رجالها إليها « أن — تغفر لنا أننا آخر من جاء »[٧٩] ثم انضم إلى صفوفهم حرس الخيالة ، وصحبها أربعة عشر ألف جندى إلى القصر الشتوى ؛ وهناك أعلن مجمع الكنيسة ، ومجلس الشيوخ رسمياً خلع بطرس وتولية كاترين . واحتج بعض ذوى المقامات الرفيعة ؛ ولكن الجيش أرهبهم ، فأقسموا يمين الولاء للإمبراطورة .

وارتدت زى نقيب فى حرس الخيالة ، وركبت على رأس جندها إلى بيترهوف . وكان بطرس قد ذهب إلى هناك صبيحة ذلك اليوم ليراها ، فلما علم بالثورة فر إلى كرونستات . وعرض عليه مونيش أن يصحبه إلى بومرانيا ويجند جيشاً ليرده إلى العرش ، ولكن بطرس عاد إلى أورانيينباوم وهوعاجز عن اتخاذ القرار . فلما اقتربت قوات كاترين أنفق يوماً فى التماس حل وسط ، ثم وقع على اعتزاله العرش فى ٢٩ يونيو (حسب التقويم القديم) ؛ قال فردريك : « لقد سمح بأن يطاح به كما يسمح طفل بأن يرسل إلى فراشه »[٨٠]. وسجن فى روبشا ، على خمسة عشر ميلا من سانت بطرسبرج . والتمس من كاترين أن تسمح له بالاحتفاظ بخادمه الزنجى ، وكلبه الصغير ، وكمانه ، وخليلته . فأجيبت طلباته كلها إلا آخرها . ونفيت اليزافيتا فورونتسوفا إلى موسكو : ثم اختفت من صحائف التاريخ إلى الأبد .

الفصل الثامن عشر

كاترين الكبرى

١٧٦٢ — ١٧٩٦

١ — الحاكمة المطلقة

انتصرت كاترين ، ولكنها كانت عرضة لكل المخاطر التي ينطوى عليها التغيير الفوضوى . فلكى تكافىء الجنود الذين حرسوها في سعيها الى السلطة أمرت حانات العاصمة بأن تقدم لهم الجعة والفودكا مجاناً » وكانت النتيجة السكر انتشار بينهم انتشاراً كاد يقوض الأساس الحربى لقوتها . ففى منتصف ليلة ٢٩ — ٣٠ يونيو ، بينما كانت كاترين مستغرقة فى أول نوم لها خلال ثمان وأربعين ساعة ، أيقظها ضابط وقال لها ، « إن رجالنا مخمورون جدا . وقد صرح فيهم فارس من الهوصار « إلى السلاح ! أن ثلاثين ألف بروسى قادمون لاختطاف أمنا (كاترين) ! فتقلدوا سلاحهم وهم قادمون ليطمئنوا عليك » . وارتدت كاترين ثيابهـا ، وخرجت » و نفت إشاعة قدوم البروسيين ، وأقنعت محاربيها بالمضى إلى فراشهم [١] .

ثم عرضها ابنها بولس للخطر . وقد بلغ السنة الثامنة من عمره وذلك أن بنين ، واشرافا كثيرين ، ومعظم الاكليروس ، أحسوا أن الشرعية تقتضى تتويج بولس إمبراطورا وتعيين كاترين وصية عليه ، ولكنها خشيت أن إجراء كهذا يلقى بالحكم فى أيدى أوبحركيه ارستقراطية ستسعى إلى خلعها أو التسلط عليها . وأعلنت رسميا أن بولس وارث للعرش ، ولكن مؤيديه واصلوا إثارة المشاعر ، وشب الابن على كراهية أمه لأنها سلبته حقه فى التاج ،

وحين ذاع نبأ الانقلاب فى أرجاء روسيا تبين أن الرأى العام خارج العاصمة مناوئ لكاترين. ذلك أن العاصمة عرفت عيوب بطرس مباشرة، وأجمعت عموماً على عدم أهليته للحكم، أما الشعب الروسى خارج سانت بطرسبرج فقد عرفه من التدابير السمحة التى أضفت على حكومته شيئاً من السمو. فجماهير موسكو، البعيدة بعداً لا يسمح لها بالإحساس بفتنة كاترين، ظلت معارضة فى عناد لتوليها العرش. وحين أصطحبت كاترين بولس إلى موسكو (معقل التقاليد السنية) صفق له أهلها بحرارة، أما كاترين فكان لقاؤهم لها فاتراً. وندد كثير من أفواج الجيش فى الأقاليم بجنود بطرسبرج غاصبين للسلطة القومية.

ولا علم لنا إن كان العطف الواسع على بطرس هو أحد العوامل فى موته. ذلك أن القيصر المخلوع الذى تحطمت روحه راح يرسل الإلتماسات الذليلة لزوجته ويقول لها «ارحمينى وأعطينى سلواى الوحيدة» — يعنى خليلته — ويرجوها أن تسمح له بالعودة إلى أقاربه فى هولشتين. ولكنه بدلا من أن يتلقى هذا العزاء حبس فى حجرة واحدة وفرضت عليه رقابة دائمة. وكان الكسى أورلوف، رئيس حراسة، يلعب الورق معه ويقرضه النقود.[2] وفى ٦ يوليو ١٧٦٢ (حسب التقويم الجديد)، ركب ألكسى فى عجلة إلى سانت بطرسبرج وأنبأ كاترين بأن بطرس تشاجر معه ومع غيره من الأتباع ومات فى العراك الذى أفضت إليه المشاجرة. أما عن كيفية موته، فالتاريخ لا يعرف غير الشائعات التى لم تثبت صحة واحدة منها: قيل إنه سمم أو خنق[3]، وإنه ضرب حتى مات[4]، وإنه مات إثر «إلتهاب الأمعاء والسكتة الدماغية»[5] وينتهى آخر من أرخ لهذه الحقبة إلى أن «تفاصيل القتل لم يعط عنها قط اللثام تماماً، والدور الذى لعبته فيه كاترين يظل غير مؤكد.»[6] ومن غير المحتمل أن تكون كاترين قد أمرت بهذه الفعلة،[7] ولكنها لم تعاقب أحداً على إرتكابها، وأخفتها عن الجماهير يوما، وقضت يومين فى بكاء ظاهر، ثم سلمت بالأمر الواقع. وقد أدانتها أوربا كلها تقريباً بالقتل، أما فردريك الأكبر الذى خسر الكثير بخلع بطرس فقد برأ ساحتها، «كانت الإمبراطورة جاهلة تماما بهذه الجريمة، وقد سمعت بها فى يأس

لم تصطنعه ، لأنها توقعت بحق ذلك الحكم الذى يصدره عليها اليوم كل إنسان . »[٨] ووافق فولتير فردريك . أما بولس ابن كاترين ، فبعد أن قرأ الأوراق الخاصة التى خلفتها أمه عند وفاتها ، خلص إلى أن الكسى قتل بطرس دون أى أمر أو طلب من كاترين .[٩]

وخلقت الحادثة مشاكل لكاترين كما حلت مشاكل أخرى : فقدأوحت بسلسلة متعاقبة من المؤامرات لخلعها ، وتركتها فى انزعاج متصل وخطر داهم وسط فوضى الحكم التى اكتنفتها . كتبت عن هذه الحقبة فيما بعد فقالت : « ظل مجلس الشيوخ متبلدا يصم أذنيه عن شئون الدولة . وبلغت كراسى التشريع درجة من الفساد والتفسخ كادت تطمس معالمها . »[١٠] وكانت روسيا قد خرجت لتوها من حرب انتصرت فيها ولكنها كلفتها ثمنا فادحا « فكانت الخزانة مدينة بثلاثة عشر مليون روبل ، وتشكو عجزا بلغ سبعة ملايين روبل فى العام » وأفتضح حال المالية من رفض كبار المصرفيين الهولنديين إقراض المال لروسيا . وتأخرت رواتب الجند شهورا كثيرة . وبلغ من سوء نظام الجيش أن كاترين خشيت أن يغزو تتار جنوبى روسيا إقليم أوكرانيا فى أية لحظة . أما البلاط فقد اضطرب بالمؤامرات وأضدادها ، وبالخوف من فقدان مناصب الكسب أو السلطة ، أو الأمل فى الظفر بها . وبعد سقوط بطرس بقليل ذهب السفير البروسى إلى أنه « من المؤكد أن حكم الإمبراطورة كاترين لن يكون أكثر من فاصل قصير فى تاريخ العالم »[١١] . وكان هذا من قبيل التمنى « لأن فردريك حزن على موت حليفه العابد لشخصه . وأخذت كاترين تلغى الأوامر التى أصدرها بطرس لمساعدة فردريك .

وحاولت الإمبراطورة أن تهدىء معارضة رجال الدين بتأجيل تنفيذ المرسوم الذى أصدره بطرس بتأميم أراضى الكنيسة « ثم ادفأت صدور أنصارها بما خلعته عليهم من مكافآت سخية : فنفحت جريجورى أورلوف بخمسين ألف روبل ، وفتح الطريق أمامه إلى الفراش الملكى . وأعيد بستوزيف من منفاه ، ورد إلى حياة مريحة ولكن دون أن يرد إلى منصبه .

ثم ترفقت عن عارضوها من قبل . وقدم مونيش فروض الطاعة والولاء فصفحت عنه فورا وعينته حاكما على استونيا ولفونيا ، وربما أعانتها هذه التدابير على الثبات فوق عرشها المهتز ، ولكن أهم العوامل التى كانت عونا لها هى شجاعتها وذكاؤها . ذلك أن سبعة عشر عاما قضتها زوجة مهملة لوريث العرش علمتها رغم حيويتها الشابة قدرا من الصبر والحكمة وضبط النفس وخداع الحكم . وقررت الآن ، فى تحد لنصيحة بانين ، وارتياب فى ولاء مجلس الشيوخ ونزاهته وكفايته ، أن تركز الحكم كله فى شخصها ، وأن تواجه ملوك أوربا المستبدين — باستبدادية تنافس جمع فردريك بين العسكرية والفلسفة . ولم تتخذ لها زوجا . وإذا كان النبلاء يسيطرون على مجلس الشيوخ ، فقد كان الخيار بين أوتقراطية الملكة والاستبدادية المجزأة للسادة الاقطاعيين ، وهو بالضبط الخيار الذى واجهه ريشليو فى فرنسا القرن السابع عشر .

وأحاطت كاترين نفسها بالكفاءة من الرجال ، واكتسبت ولاءهم ، بل حبهم فى كثير من الحالات ، ألزمتهم للعمل الشاق ، ولكنها أجزلت لهم العطاء ، ولعلها غالت فى مكافآتهم ، فقد أصبح بهاء بلاطها وبذخه عبئا كبيرا على مواردها . وكان بلاطا غير متجانس ، موصلا فى البربرية ومصقولا بالثقافة الفرنسية ، ومحكوما بامرأة ألمانية تفوق مساعديها تعليماً وذكاءاً . وقد أثمرت مكافآتها السخية للخدمات الاستثنائية المنافسة دون أن تكبح جماح الفساد . فكان الكثيرون من بطانتها يأخــذون الرشا من الحكومات الأجنبية ، واتخذ بعضهم موقف الحياد بقبول الرشا من طرفين متعارضين . وفى ١٧٦٢ أذاعت كاترين على الأمة إعترافا غير عادى ، فقالت :

« أننا نعده واجباً أساسياً وضرورياً أن نعلن للشعب ، بحسرة صادقة ، أننا سمعنا منذ زمن مديد ، وأننا الآن نرى فى أفعال ظاهرة للعيان ، إلى أى درجة استشرى الفساد فى امبراطوريتنا ، بحيث لا يكاد يوجد منصب فى الحكومة . . . . لا تعدو فيه على العدالة عدوى هذا الوباء . فإذا طلب

إنسان وظيفة كان عليه أن يدفع ثمنها ، وإذا شاء إنسان أن يدفع عن نفسه شر الافتراء ، فبالمال ، وإذا أراد أن يتهم جاره زورا وبهتانا فى استطاعته بالهدايا أن يضمن نجاح خططه الشريرة »[١٢] .

وكان بعض المؤامرات التى تكاثرت من حولها يستهدف إحلال إيفان السادس محلها . وكان قد قضى الآن رهين السجن إحدى وعشرين سنة بعد أن خلعه انقلاب ديسمبر ١٧٤١ . فى سبتمبر ١٧٦٢ أفصح فولتير عن خوفه من أن « إيفان قد يطيح بمن أحسنت إلينا »[١٣] ، وكتب يقول : « أخشى أن تقتل إمبراطورتنا العزيزة . »[١٤] فزارت كاترين إيفان « ووجدته « إنساناً مهملاً مهجوراً تردى فى العته نتيجة السجن سنين طويلة »[١٥] ثم تركت لحراسه أوامر بأنه لو بذلت أية محاولة لم تصرح بها هى نفسها للافراج عنه ، فعليهم أن يقتلوا إيفان خيراً من أن يسلموه . وفى منتصف ليلة ٥—٦ يوليو ١٧٦٤ ظهر ضابط فى الجيش يدعى فاسيلى ميروفتش على باب السجن يحمل ورقة فحواها أنها أمر من مجلس الشيوخ بتسليم إيفان له . ثم مضى يعينه بعض من الجند وطرق باب الزنزانة التى كان حارسان ينامان فيها مع إيفان ، وطالب بالدخول . فلما رفض طلبه أمر بإحضار مدفع لتحطيم الباب . فلما سمع الحارسان الأمر قتلا إيفان . وقبض على ميروفتش وأعلنت وثيقة عثر عليها فى جيبه أن كاترين خلعت ، وإن إيفان السادس أصبح منذ الآن قيصراً لروسيا . ورفض عند محاكمته أن يفضى بأسماء شركائه . وكان جزاؤه الإعدام . واتهم الرأى العام عموماً كاترين بقتل إيفان .[١٦]

واتصلت المؤامرات . ففى ١٧٦٨ أكد ضابط يدعى تشوجلوكوف أنه موكل من الله بالإنتقام لمقتل بطرس الثالث ، فتسلح بخنجر طويل ، ووجد طريقه إلى القصر الملكى ، واختبأ عند منعطف دهليز ألفت كاترين أن تمر فيه . وسمع جريجورى أورلوف بخبر المؤامرة ، فقبض على تشوجلوكوف ، الذى اعترف مفاخراً بأنه ينوى قتل الامبراطورة ، وكان جزاؤه ، النفى إلى سيبيريا .

٢ — العاشقة

أحاط بكاترين نبلاء لا تستطيع أن تثق بهم ، ولاحقتها الدسائس التي أحدثت الاضطراب في الادارة ، لذلك اخترعت ضرباً جديداً من الحكم جعلت فيه عشاقها المتعاقبين كبار إداري الحكومة . فكان كل عشيق خلال صعود نجمه كبير وزرائها ، وأضافت شخصها إلى مكافأة المنصب ، ولكنها اقتضت كفاءة الخدمة نظير ذلك . كتب ماسون (وهو واحد من أعداء كاترين الفرنسيين الكثيرين) يقول « لم تكن وظيفة واحدة من وظائف الحكومة كلها لا تؤدى فيها الواجبات بمنتهى التدقيق . . وربما لم يكن هناك أي منصب لم تبد فيه الامبراطورة اختيارا وتمييزا أكثر من غيره . وفي اعتقادي أنه لم تقع حالة تبين فيها أن المنصب شغله شخص غير كفء له . »[17] ومن الخطأ أن نكون فكرتنا عن كاترين أنها امرأة فاجرة منغمسة في اللذات ، فقد راعت جميع مظاهر اللياقة ، ولم تسمح لنفسها قط بالدخول في أحاديث نابية ، ولا سمحت بها في حضرتها .[18] وقد بذلت لمعظم عشاقها الود الوفي — ولبعضهم الود الرقيق ، ورسائلها إلى بوتمكين تنم على إخلاص يكاد يكون صبيانياً ، وقد أصابها موت لانسكوى بحزن مدمر .

وكانت تستعين بالفن والعلم معاً في مهمة اختيار صاحب الحظوة الجديد. فهي تنشد رجالاً يجمعون بين القدرة السياسية والجسدية ، كانت تدعو المرشح لتناول العشاء ، وتختبر عاداته وعقله ، فإذا جاز هذا الإمتحان الدقيق فحصه بأمرها طبيب القصر ، فإذا خرج من هذا الاختبار سليما عينته ياورا لها ، وأعطته راتباً مغرياً ، وسمحت له بمعاشرتها . وإذ كانت مجردة تماماً من الإيمان الديني ، فانها لم تسمح لأي من الأخلاقيات المسيحية بأن تتدخل في طريقتها الفذة في اختيار الوزراء . وقد وضحت الأمر لتقولا سالتيكوف فقالت : «إنني أخدم الامبراطورة بتربيتي الشبان الأكفاء»[19] وكانت الخزانة تتكلف غالياً في مكافأة هؤلاء المحظوظين — وإن كانت التكلفة على الأرجح أقل كثيراً مما كانت تنفقه فرنسا على خليلات لويس

الخامس عشر وعطاياه . وفي تقدير كاستيرا أن الإخوة الخمسة أورلوف تسلموا سبعة عشر مليون روبل ، وبوتمكين خمسين مليوناً ، ولانسكوي ٧٫٢٦٠٫٠٠٠ . وقد ارتدت بعض هذه النفقة إلى روسيا في صورة الخدمة الفعالة . فقد أضاف بوتمكين مثلا ، وهو أكثر عشاقها حظوة وتدليلا ، أقاليم درت على الامبراطورية الربح الوفير .

ولكن لم كانت تغير وتبدل في عشاقها بهذه الكثرة ، حتى إنها اتخذت منهم واحداً وعشرين في أربعين سنة ؟ لأن بعضهم أخفق في واجب أو أكثر من واجباتهم المزدوجة ، وبعضهم تبين عدم وفائه : وبعضهم مست الحاجة إليه في مواقع بعيدة . من ذلك أن أحدهم ، ويدعى ريمسكي كورساكوف ، فاجأته في مسكنها بين ذراعي وصيفة شرفها ، فاكتفت كاترين بطرده ، وتركها آخر يدعى ماموتوف لأنه آثر عليها رفيقة أكثر شباباً . وأقالته الامبراطورة دون أن تنتقم منه . [20] يقول ماسون ، «من الخصائص الشديدة الغرابة في خلق كاترين أن أحداً من المقربين إليها لم يجلب على رأسه كرهها أو انتقامها . وإن أساء إليها العديدون منهم ، ولم يكن تركهم مناصبهم بسببها . ولم ير الناس قط أحدهم ينزل به العقاب . . . وفي هذه تبدو كاترين أسمى من جميع النساء .» [21]

بعد تولي كاترين العرش احتفظ جريجوري أورلوف بمكانته المرموقة عشر سنوات ، وقد أطرته كاترين في حب فقالت :

«إن للكونت جريجوري عقل النسر ، فأنا لم ألق في حياتي رجلا أوتي فهما أدق وألطف لأي أمر يضطلع به أو حتى يقترح عليه ... ونزاهته تحصنه من أي تهجم عليه . . . ومن أسف أن التعليم لم يتح له أي فرصة لصقل سجاياه ومواهبه ، وهي في الحق فائقة ، ولكن حياته العشوائية تركتها كالأرض المراحة .» [22]

ثم كتبت في موضع آخر ، أن هـذا الرجل كان خليقا بأن يظل «عشيقها وأثيرها» إلى النهاية لولا أنه كان أول من مل صاحبه .» [23]

وقد جاهد جريجورى لتحرير الأقنان ، واقترح تحرير المسيحيين من ربقة العثمانيين ، وأحسن البلاء فى الحروب ، وأغضب الحاشية بكبريائه وغطرسته وراغ من ذراعى كاترين . وقد أقصى فى ١٧٧٢ إلى حيث الثراء والدعة فى ضياعه . أما أخوه ألكسى فقد أصبح أمير البحر الأول ، وقاد الأسطول الروسى إلى النصر على الأتراك ، وظل محتفظا بالحظوة طوال العهد ، وعمر حتى قاد أفواجه ضد نابليون .

وحل محل جريجورى فى حظوته فتى فائق الحسن مغمور يدعى الكسيس فاسيلتشيك ، دسه حزب من أحزاب البلاط على كاترين ليصرف فكرها عن أورلوف المنفى ، ولكنها وجدته غير كفء لا فى السياسة ولا فى غير السياسة ، فأحلت مكانه (١٧٧٤) جريجورى ألكسندروفتش بوتمكين ، وكان ضابطاً فى حرس الخيالة ، الذين ارتدت زيهم (١٧٦٢) لتقودهم ضد بطرس ، فلما لاحظ بوتمكين أن سيفها تنقصه الشرابة التى يعتز بلبسها الحرس ، انتزع شرابته من مقبض سيفه وركب فى جرأة خارج صفوف الجيش ، وقدم لها هذا الوسام ، فقبلته ، وأغتفرت له جرأته ، وأعجبت بوجهه الوسيم وجسمه المفتول . وكان أبوه — وهو كولونيل متقاعد من صغار النبلاء — قد قرر أن يكون ابنه قسيساً ، وتلقى بوتمكين قدرا لايستهان به من التعلم فى التاريخ والدراسات الكلاسيكية واللاهوت ، وأثبت تفوقه فى جامعة موسكو . ولكنه وجد حياة الجيش أنسب لمزاجه الجموح الخصب الخيال من المدرسة اللاهوتية . وقد سحره بالطبع ما اجتمع لكاترين من جمال وسلطان ، فقال عنها إنها إذا دخلت حجرة مظلمة أنارتها[٢٤] .

وفى حرب ١٧٦٨ قاد فوج خيالته ببسالة مستهترة حملت كاترين على أن تبعث إليه بإطراء شخصى . فلما عاد إلى سانت بطرسبرج أكلته الغيرة من الإخوة أورلوف وفاسيلتشيك . وتشاجر مع الأخوة أورلوف ، وفى معركة معهم فقد إحدى عينيه[٢٥] . ولكى يخرج الأمبراطورة من عقاله — أو يدخل نفسه فى عقالها — ترك البلاط ، واعتزل فى ضاحية ، ودرس اللاهوت ، وأطلق شعره ولحيته ، وأعلن أنه سيترهب ، فرق له قلب كاترين ، وبعثت إليه تقول أنها تقدره تقديراً

تقديراً كبيراً ، ودعته ليعود . فحلق لحيته ، وهذب شعره ، وارتدى بزته العسكرية ، وظهر فى البلاط ، واهتز طرباً لبسمات الأمبراطورة . وحين افتقدت كاترين الكفاية فى فاسيلتشيك فتحت ذراعيها لبوتمكين ، وكان يومها فى الرابعة والعشرين ، فى أوج عنفوانه وفتنته . وسرعان ما هامت به هيامه بها ، وراحت تحبوه بوصلها ، وتغدق عليه الروبلات ، والأراضى ، والأقنان ، وحين كان يغيب كانت ترسل إليه رسائل غرامية بريئة من مظهر الجلالة .

« ما أعجب حالى ! كل شيء اعتدت أن أسخر منه وقع لى الآن ، لأن حبى لك أعمانى . فالعواطف التى ظننتها بلهاء مفرطة غير طبيعية أمارسها أنا نفسى الآن . انى لا أقوى على ابعاد عينى الغبيتين عنك . . . .

«لا نستطيع الإلتقاء إلا خلال الأيام الثلاثة القادمة ، فبعدها يحل أول أسبوع فى الصوم الكبير ، المخصص للصلاة والصيام . وسيكون اللقاء إثماً كبيراً . أن مجرد التفكير فى هذا البعد يبكينى»[٢٦]

وعرض عليها الزواج ، ويعتقد بعض المؤرخين أنهما تزوجا سراً ، وفى خطابات عدة تدعوه «زوجى الحبيب» وتتكلم عن نفسها فتقول «زوجتك»[٢٧] ، رغم أننا يجب ألا نستخلص الحقيقة أبداً من مجرد الألفاظ ويبدو أنه ملها ، ربما لهيامها الجموح به ، وتبين أن صوت المغامرة أقوى لديه من الدعوة للهجوم على قلعة فرغ من فتحها . وقد ظل نفوذه عليها عظيماً حتى أن معظم المقربين الذين خلفوه لم يخلفوه إلا بعد الحصول على موافقته .

وهذا ما حدث لبيوتر زافودوفسكى ، الذى استدفأ فى خدرها من ١٧٧٦ إلى ١٧٧٧ ، ولسيمون زوريتش (١٧٧٧ — ١٧٧٨) ، ولإيفان رمسكى — كورساكوف (١٧٧٨ — ١٧٨٠) . ولم تشعر بغرام يملك عليها لبها مرة أخرى إلا حين اتخذت ألكسيس لانسكوى (١٧٨٠) عشيقاً . فهذا الفتى لم يكن وسيماً كيساً مثقفاً فحسب ، بل كان صاحب حس شعرى

مرهف وحب إنسانى للخير « وصديقاً ذكياً للآداب والفنون . « لقد بدا أن الجميع يشاركون الملكة فى ولعها به »[٢٨] . وفجأة أصيب بآلام لاتطاق فى الأمعاء ، واشتبهت الحاشية فى أن يكون بوتمكين قد دس له السم ، ثم مات رغم كل جهود الأطباء ورعاية كاترين المخلصة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها . وقضت ثلاثة أيام فى عزلة وحزن . ونحن نسمع المرأة من خلف الحاكمة — والقلب من خلف التاريخ — فى رسالة كتبتها فى ٢ يوليو ١٧٨٤ .

« خيل إلى أنى هالكة بعد هذه الخسارة التى لاتعوض . . . لقد عللت نفسى بأنه سيكون العون لى فى شيخوختى . كان مجاملا ، وتعلم الكثير « واكتسب كل ميولى . . . كان فتى أقوم على تربيته « وكان شاكراً « رقيقاً ، طيباً » . . . ان لانسكوى لم يعد له وجود . . وباتت حجرتى وكراً فارغاً بعد أن كانت تفيض إشراقاً وبهجة « ولا قدرة لى إلا على جر نفسى إليها كأنى طيف من الأطياف . . لا أستطيع النظر إلى وجه إنسان دون أن يختنق صوتى . . . لا أستطيع أن أذوق النوم ولا الطعام . . ولست أدرى ماذا يكون مصيرى»[٢٩] .

وظلت عاماً تحرم نفسها من العشاق ، وأخيراً استسلمت لألكسيس إرمولوف (١٧٨٥ — ١٧٨٦) ، الذى ساء بوتمكين كثيراً فاستعيض عنه سريعاً بالكسيس مامونوف. ولكن سرعان ما زهد ألكسيس فى خليلته ذات السبعة والخمسين « واستأذن فى الزواج من الأميرة شرباتوف ، واحتفلت كاترين بالعروسين فى زفاف رسمى بالبلاط ، ثم صرفتهما محملين بالهدايا (١٧٨٩)[٣٠] . وآخر القائمة هو بلاتون زوبوف (٨٩ — ١٧٩٦) وكان ملازماً فى حرس الخيالة ، مفتول العضل دمث الطباع . وكانت كاترين شاكرة له خدماته ، فاضطلعت بالإشراف على تعليمه « وانتهت بمعاملته معاملة الأم لابنها . وقد لازمها حتى مماتها .

٣ — الفيلسوفة

بين الحب والحرب ، وسياسة الدولة والدبلوماسية ، وجدت هذه المرأة المدهشة وقتاً للفلسفة . وقد تكون فكرة عن سمو المكانة التى بلغتها جماعة

« الفلاسفة » الفرنسيين حين نرى أكفأ حاكمين من حكام القرن الثامن عشر يعتزان بتبادل الرسائل معهم ويتنافسان على الظفر بثنائهم .

وكانت كاترين قبل ولايتها العرش بزمن طويل تستطيب أسلوب فولتير وفكاهته الذكية وعباراته المجردة من التوقير ، وتحلم بأن تكون ذلك الحاكم « المستبد المستنير » الذى راود أحلامه . ولا بد أنها أعجبت بديدرو أيضاً ، لأنها فى سبتمبر ١٧٦٢ عرضت أن تطبع الموسوعة فى سانت بطرسبرج إذا أمعنت الحكومة الفرنسية فى حظرها . ولم يبق من الرسائل التى كتبتها لفولتير قبل ١٧٦٥ إلا واحدة ، وقد ردت على أبيات أرسلها لها فى أكتوبر ١٧٦٣ :

« لأول مرة آسف على أننى لست شاعرة ، وأن يكون ردى على أبياتك بالضرورة نثراً لا شعراً . ولكنى أود أن أقول لك اننى منذ ١٧٤٦ مدينة بأعظم الفضل لك . فقبل تلك الحقبة لم أكن أقرأ شيئاً غير الروايات » ولكن حدث أن وقعت كتبك فى يدى مصادفة » وبعدها لم أكف عن قراءتها ، ولا رغبت فى قراءة كتب أقل جودة فى الكتابة أو أقل تثقيفاً . . . وهكذا لا أفتأ أعود إلى خالق ذوقى عودتى إلى أعمق أسباب تسليتى » وأؤكد لك يا سيدى أننى إن كنت قد حصلت أى معرفة فالفضل فيها لك . وأنا الآن أقرأ مقالك « فى التاريخ العام » ، وبودى لو حفظت كل صفحة منه عن ظهر قلب »[٣١] .

وظلت كاترين طيلة حياتها ، أو حتى مماتهم ، تراسل فولتير وديدرو ودالمبير ومدام جوفران وجريم وكثيرين غيرهم من وجوه الفرنسيين . وأسهمت فى المال الذى جمعه فولتير لقضية كالاس وسيرفانس وقد أسلفنا القول أنها أمرت باستيراد شحنات كبيرة من الساعات من فرنيه ، ومن الجوارب التى صنعها عمال فولتير » وأحياناً فولتير نفسه (ان جاز لنا أن نصدق الثعلب العجوز) . وكان من بواعث فخره أن الرؤوس المتوجة أغدقت عليه أسباب التكريم » وقد كافأ كاترين بأن أصبح مندوبها الصحفى فى فرنسا . وقد برأ ساحتها من الاشتراك فى جريمة قتل بطرس الثالث ، وكتب يقول « أعلم أن

كاترين تلومها بعض الشائعات التافهة حول زوجها ، ولكن هذه أمور عائلية لا شأن لى بها »[٣٢] . وناشد أصحابه أن يؤيدوه فى الدفاع عن كاترين ، فكتب إلى دارجنتال يقول :

« هناك صنيع آخر أرجو أن تسديه إلى ، وهو يخص كاترين . يجب أن ندعم سمعتها فى باريس بين أفاضل القوم ووجهاؤهم ... وعندى أسباب قوية للاعتقاد بأن الدوقين براسلان وشوازيل لايعتبرانها أكثر نساء العالم نقاء ضمير ، ومع ذلك فأنا عليم . . . بأنه لم يكن لها يد فى موت زوجها السكير . . ثم إنه كان أكبر أحمق تربع على عرش . . . ونحن مدينون بالفضل لكاترين لأنها أوتيت الشجاعة لخلع زوجها ، وهى تسوس ملكها بحكمة واعتزاز ، وينبغى أن نبارك رأساً متوجاً ينشر التسامح الدينى فى أرجاء ١٣٥ درجة طولية . . . إذن أرجوك أن تذكر كاترين بخير كثير[٣٣] .

أما مدام دو دفان فقد رأت أن تبرئة الأمبراطورة هذه مخزية جداً ، كذلك أدانتها مدام دشوازيل وهوراس ولبول [٣٤] . وما كان يتوقع من براسلان وشوازيل اللذين يوجهان علاقات فرنسا الخارجية أن يعجبا بإمبراطورة تعارض النفوذ الفرنسى فى بولنده وتتحداه فى تركيا . وكانت الشكوك تساور فولتير ذاته بين حين وحين . فلما سمع بمصرع إيفان السادس ، سلم فى حزن بـ « أن علينا أن نخفف قليلا من غلوائنا فى التحمس » لكاترين [٣٥] . ولكنه ما لبث أن أطرى برنامجها التشريعى ، ورعايتها للفنون ، وحملتها لنشر الحرية الدينية فى بولنده ، وخلع عليها الآن (١٨ مايو ١٧٦٧) لقب « سميراميس الشمال » . وحين خاضت الحرب ضد تركيا قطع هجومه على الكنيسة الكاثوليكية l'imfame ليمتدح حملتها الصليبية لإنقاذ المسيحيين من المسلمين .

أما ديدرو فقد استهواه بالمثل ذلك الجمال المتربع على العرش ، وكان له فى ذلك مبررات قوية . ذلك أن كاترين سمعت أنه ينوى بيع مكتبته ليجمع مهراً لابنته ، فأصدرت تعليماتها لوكيلها الباريسى بأن يشتريها بأى ثمن يطلبه ديدرو ، فطلب ستة عشر ألف جنيه وقبضها . ثم رجت ديدرو أن يحتفظ

بالكتب حتى مماته ، وأن يكون حارسها على المكتبة نظير راتب قدره ألف جنيه فى العام ، وزادت بأن دفعت راتبه مقدماً عن خمسة وعشرين عاماً . وأصبح ديدرو بين عشية وضحاها رجلا غنياً ومحامياً يدافع عن كاترين . فلما دعته لزيارتها لم يستطع أن يرفض . قال « يجب أن يرى الإنسان امرأة كهذه ولو مرة فى العمر »[٣٦] .

وبعد أن دبر شئون المال لزوجته وابنته خرج وهو فى الستين (٣ يونيو ١٧٧٣) فى الرحلة الطويلة الشاقة إلى سانت بطرسبرج . ولبث شهرين فى لاهاى يرشف حلاوة الشهرة على مهل ، ثم واصل الرحلة بطريق درسدن وليبزج ، وحرص على أن يتجنب برلين وفردريك الذى كان قد أبدى عنه بعض الملاحظات الشائكة . وأصيب مرتين خلال الرحلة بالمغص إصابة عنيفة ، ثم وصل إلى سانت بطرسبرج فى التاسع من أكتوبر ، واستقبلته كاترين فى العاشر منه . كتب يقول « ليس هناك من يعرف خيراً منها فن رفع الكلفة عن محدثها »[٣٧]. ودعته للتكلم فى صراحة ، « كما يتكلم رجل لرجل » . ففعل ، وأومأ إيماءاته على عادته ، وأكد نقاطه بصفع فخذى الإمبراطورة . كتبت كاترين لمدام جوفران تقول « ان ديدرو هذا رجل غريب الأطوار . فأنا أخرج من لقاءاتى معه بفخذين مرضوضتين سوداوين تماماً . وقد اضطررت إلى وضع منضدة بيننا وقاية لنفسى ولإعضائى »[٣٨] .

وقد حاول فترة أن يلعب دور الدبلوماسى كما حاول فولتير مع فردريك ، وأن يصرف روسيا عن تحالفها مع النمسا وبروسيا إلى تحالف مع فرنسا [٣٩] ؛ ولكنها سرعان ما صرفته إلى موضوعات أقرب إلى صناعته . وأخبرها فى شيء من التفصيل كيف يمكن أن تحول روسيا إلى بلد مثالى ، واستمعت إليه جذلة ، ولكنها ظلت على تشككها . وقد استعادت فيما بعد هذه الأحاديث فى رسالة كتبتها للكونت لوى — فليب دسيجور . قالت :

« تحدثت معه كثيراً ومراراً ، ولكن بفضول أكثر من الفائدة . ولو صدقته لانقلب كل شيء فى مملكتى ، فالتشريع والإدارة والمالية — كلها

كانت تنقلب رأساً على عقب لتفسح مجالا لنظريات غير عملية . . . ثم قلت له فى صراحة : « يا مسيو ديدرو » لقد أصغيت بمنتهى اللذة لكل ما أوحى به فكرك اللماح . . أن المرء » بكل مبادئك السامية ، قد يؤلف كتباً رائعة ، ولكنه يخسر فى تجارته . . . أنك تشتغل على الورق ، الذى يتحمل كل شيء . . أما أنا » الامبراطورة المسكينة » فأشتغل على جلد البشر » وهو جلد سريع التهيج حساس على نحو مختلف» . . . وبعدها قصر كلامه على الأدب [٤٠] . وحين وقعت على مذكرات كان قد كتبها » بتعليمات صاحبة الجلالة الامبراطورة . . . لوضع القوانين » وصفتها (بعد وفاته) بأنها «محض هذيان ، لاأثر فيه لمعرفة بالحقائق ولا لتدبير ولا لنظر ثاقب» [٤١] . ومع ذلك استمتعت بحديثه المفعم حيوية ، وكانت تبادله الأحاديث كل يوم تقريباً خلال مقامه الطويل (*) .

وبعد أن أنفق ديدرو خمسة أشهر من البهجة الغامرة فى صحبتها » والتعب فى بلاطها ، نوى الرحيل إلى أرض الوطن . فأمرت كاترين بصنع عربة خاصة له يستطيع أن يتكىء فيها مستريحاً . وسألته أى الهدايا ترسلها إليه فقال لاشيء ، ولكنه ذكرها بأنها لم تف بوعدها أن ترد له نفقات رحلته ، وقد قدرها بألف وخمسمائة روبل . فنفحته بثلاثة آلاف وبخاتم ثمين ، وعينت ضابطاً ليرافقه حتى لاهاى . فلما عاد إلى باريس أثنى عليها ثناء الشكر والعرفان.

ولم تحاول كاترين الاتصال بروسو . الذى كان نقيضها إلى حد مؤلم فى الطبع والأفكار ، ولكنها صادقت جريم » لأنها عرفت أن صحيفته » الرسائل الأدبية » تصل إلى أيدى الأوربيين ذوى النفوذ . واتخذ أول خطوة بعرضه (١٧٦٤) أن يوافيها برسائله الدورية » فوافقت ونقدته ألفا وخمسمائة روبل فى السنة . وقد رآها أول مرة حين ذهب إلى سانت بطرسبرج (١٧٧٣) فى بطانة أمير هسى — دار مشتات لحضور زفاف أخت الأمير إلى الغراندوق بولس . وقد وجدته كاترين أكثر واقعية من ديدرو . مطلعاً إطلاعاً مفيداً

(*) لعل القصة التى زعمت أن أويلر أربك ديدرو أمام الحاشية الروسية ببرهان جبرى رهمى على وجود الله قصة مشكوك فى صحتها (٤٢) .

جداً على جميع مناحي ذلك العالم الباريسي الذى سحرها بأدبه وفلسفته وفنه ونسائه وصالوناته . ودعته «للدردشة» معها كل يوم تقريباً خلال شتاء ١٧٧٣ — ١٧٧٤ وقد كتبت إلى فولتير عن هذه اللقاءات : « ان حديث السيد جريم ممتعى » ولكن الأشياء التى نود أن نتبادل الكلام فيها من الكثرة بحيث اتسمت لقاءاتنا إلى الآن بالحماسة أكثر من اتسامها بالنظام أو التتابع» وفى حرارة هذه الأحاديث كان عليها المرة بعد المرة أن تذكر نفسها بأن عليها (على حد قولها) أن تعود إلى « أكل العيش » أكل عيشها بالالتفات إلى مهمة الحكم [43] . وعاد جريم إلى باريس يطفح تحمساً لكاترين « غذاء روحى وعزاء قلبى ، وفخر عقلى ، وبهجة روسيا ، وأمل أوربا» [44] . وعاد إلى زيارة بطرسبرج فى ١٧٧٦ « وكان يلقاها كل يوم تقريباً على مدى عام . ورجته أن يمكث ويشرف على التنظيم الجديد للتعليم فى روسيا » ولكنه حن إلى باريس ومدام ربينيه . ولم تكن كاترين بالمرأة الغيور ، فلما سمعت أن مدام ربينيه تعانى أزمة مالية بعثت إليها بطريق رقيق غير مباشر ما يكفى لتلبية حاجاتها [45] . ومنذ ١٧٧٧ قام جريم بمهمة الوكيل لكاترين فى فرنسا فى المشتريات الفنية والمهام السرية . ودامت صداقته لها إلى النهاية دون أن يكدر صفوها مكدر .

ماذا كانت نتائج هذا الغزل بين الأوتقراطية والفلسفة ؟ أما من حيث مصادقتها للفلاسفة بوصفهم وكلاؤها الصحفيين فى فرنسا ، فالأثر السياسى كان صفراً « فالسياسة الفرنسية ، ومن ثم المؤرخون الفرنسيون » ظلوا خصوماً ألداء لبلد كروسيا يحبط الأهداف الفرنسية فى أوربا الشرقية . ولكن إعجابها بأبطال التنوير الفرنسى كان مخلصاً ، لأنه بدأ قبل تقلدها السلطة بزمن طويل » ولو كان تظاهراً وادعاء لما ثبت للمواجهات الطويلة مع ديدرو وجريم . وقد أعان اتصالها بالفكر الفرنسى على صبغ روسيا المتعلمة بالصبغة الأوربية ، وعلى تعديل الرأى الغربى الذى رأى فى روسيا وحشاً هائلا جباراً . وقد اقتدى روس كثيرون بكاترين « وراسلوا الكتاب الفرنسيين ، وشعروا بتأثير الثقافة والعادات والفنون الفرنسية . وزار باريس عدد متزايد من الروس ، ومع أن كثيرين منهم أنفقوا وقتهم فى المغامرات

الجنسية ، إلا أن الكثيرين اختلفوا إلى الصالونات والمتاحف والبلاط ، وقرأوا الأدب والفلسفة الفرنسيين ، وجلبوا معهم أفكاراً شاركت فى الإعداد لتفجر الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر .

٤ — الحاكمة القديرة

لايتطرق إلينا الشك فى صدق نيات كاترين فى مطلع حكمها .

فقد وجدت هذه القرارات فى نسخة « تليماك » التى كانت تقرؤها :

« عليك بدراسة الإنسان ، وبتعلم استخدام الرجال بغير الاستسلام لهم دون تحفظ . وابحثى عن الكفاية الأصيلة وأن وجدت فى أقصى الأرض ، لأنها تكون عادة متواضعة متوارية .

ولا تسمحى لنفسك بأن تصبحى فريسة للمتملقين . أفهميهم أنك لا تعبأين بالمديح ولا بالتذلل والخنوع . وضعى ثقتك فى أولئك الذين لديهم الشجاعة للاعتراض على آرائك . . . والذين تهمهم سمعتك أكثر مما يهمهم رضاءك .

« كونى مؤدبة ، رحيمة ، منفتحة ، عطوفاً ، متحررة العقل . ولا تدعى سمو مكانتك يمنعك من النزول فى تلطف إلى صغار الناس . ووضع نفسك فى موضعهم . واحرصى على ألا يضعف هذا اللطف من سلطانك أو ينتقص من احترامهم لك . . . وانبذى كل تصنع وافتعال . ولا تسمحى للعالم أن يلوثك إلى الحد الذى يفقدك مبادىء الشرف والفضيلة القديمة .

اقسم بالسماء أن أطبع هذه الكلمات على صفحة قلبى »[٤٦] .

وكانت تدأب على الإحاطة بدقائق كل موضوع تتناوله ، وقد كتبت تعليمات مفصلة عن مئات المواضيع من تدريب الجيش والعمليات الصناعية إلى زينة حاشيتها وإخراج الأوبرات والتمثيليات . قال أحد كتاب سيرتها الأولين وكان من أقلهم تعاطفاً :

« ان الطموح لم يطفىء فى روح كاترين تذوقاً حاراً للذة » ولكنها كانت تعرف كيف تنبذ اللذة ، وتنتقل إلى الاضطلاع بأكثر الواجبات خطراً ، وإلى الممارسة التى لا تكل لشئون الحكم . فتحضر جميع مداولات المجلس ، وتقرأ رسائل سفرائها ، وتملى ، أو تشير ... بالردود التى يرد بها . ولا تكل لوزرائها سوى تفاصيل العمل ، ولا تفتأ تراقب تنفيذه »[٤٧] .

واستحالت أو كادت مهمة حكم رقعة ملكها الشاسعة لكثرة القوانين الموجودة (عشرة آلاف) . وتنوعها ، وتناقضاتها ، وفوضاها . وإذ راودها الأمل فى أن تؤدى لروسيا ما أداه من قبل جستنيان للدولة الرومانية ، وفى أن تدعم سلطتها ، فإنها دعت إلى موسكو فى ١٤ ديسمبر ١٧٦٦ موظفين إداريين وخبراء قانونيين من كل ركن من أركان الامبراطورية ، ليقوموا بمراجعة دقيقة شاملة وجمع وتنسيق للقانون الروسى . واستعداداً لمجيئهم أعدت بشخصها تعليمات « Nakaz » تصف المبادئ التى ينبغى أن يشكل على أساسها القانون الجديد . وقد عكست هذه المبادىء قراءتها لمونتسكيو وبكاريا وبلاكستون وفولتير . واستهلت تعليماتها بالتصريح بأنه يتعين التفكير فى روسيا على أنها دولة أوربية ، ينبغى أن يكون لها دستور قائم على «مبادىء أوربية» . وليس معنى هذا فى مفهومها « حكومة دستورية» تخضع الملك لهيئة تشريعية يختارها الشعب . فمستوى التعليم فى روسيا لن يسمح حتى بحق انتخاب محدود كالموجود آنئذ فى بريطانيا . إنما يعنى حكومة يحكم فيها الحاكم طبقاً للقانون ، وإن كان هو فى نهاية الأمر المصدر الوحيد للقانون . وقد أيدت كاترين النظام الإقطاعى - أعنى نظام الولاء والخدمات المتبادلة بين الفلاح والمقطع (التابع) وبين المقطع والسيد الإقطاعى ، وبين السيد والملك - باعتباره نظاماً لا غنى عنه للاستقرار الإقتصادى والسياسى والحربى فى روسيا عام ١٧٦٦ (وهى بلد الجماعات التى تكاد تنعزل بعضها عن بعض ، وعن مركز الحكومة ، نتيجة لصعوبات الاتصال والنقل) . ولكنها ألحت على ضرورة تعريف وتحديد حقوق السادة على أقنانهم قانوناً ، وعلى السماح للأقنان بتملك الأملاك ، وعلى نقل محاكمة الأقنان وعقابهم من السيد الإقطاعى إلى قاضى عمومى يسأل بسأل محكمة إقليمية مسئولة أمام الملك[٤٨] . وينبغى أن تكون جميع المحاكمات

علنية ، وأن يبطل استخدام التعذيب ، وأن تلغى عقوبة الإعدام قانوناً وواقعاً. أما العبادة الدينية فينبغى أن تكون حرة ، «فالتعصب هو أضر الكبائر بين هذه الكثرة من مختلف العقائد» (٤٩) . ثم قدمت هذه التعليمات قبل طبعها إلى مستشاريها ، فنبهوها إلى أن أى تغيير فجائى من الأحوال المألوفة سيدفع بالروسيا إلى مهاوى الفوضى ، وقد سمحت لهم بتعديل مقترحاتها ، لا سيما ما استهدف عتق الأرقاء تدريجياً (٥٠) .

وقد دفعت هذه التعليمات التى نشرت فى هولندة فى ١٧٦٧ صفوة المفكرين الأوربيين إلى الثناء الحماسى عليها ، حتى بعد أن عدلت على هذا النحو . وأرسلت الامبراطورة نسخة منها رأساً إلى فولتير ، الذى قدم فروض احترامه المعهودة : «سيدتى ، تلقيت البارحة ضماناً من ضمانات خلودك — هو مجموعة قوانينك فى ترجمة ألمانية . وقد شرعت اليوم فى ترجمتها إلى الفرنسية . وسوف تظهر فى الصينية ، وفى كل لسان ، وسوف تكون انجيلا للبشر أجمعين (٥١) . وأضاف فى رسائل تالية : «إن المشرعين يحتلون مكان الصدارة فى هيكل المجد ، أما الفاتحون فيأتون من بعدهم . . . اننى أعد (التعليمات) أجل آثار هذا القرن» (٥٢) . ومنعت الحكومة الفرنسية بيع (التعليمات) فى فرنسا .

وقدمت «التعليمات» المعدلة إلى «لجنة صياغة القانون الجديد» التى اجتمعت فى ١٠ أغسطس ١٧٦٧ . وكانت تتألف من ٥٦٤ عضواً تنتخبهم جماعات شتى : ١٦١ من النبلاء و٢٠٨ من المدن ، ٧٩ من الفلاحين الأحرار ، و ٥٤ من القوزاق ، و ٣٤ من القبائل غير الروسية (مسيحيين أو غير مسيحيين) و ٢٨ من الحكومة . ولم يمثل الاكليروس بصفتهم طبقة ، ولم يمثل الأقنان اطلاقاً . وكانت اللجنة من بعض وجوهها نظير لمجلس طبقات الأمة الفرنسى الذى تقرر أن يجتمع فى باريس فى ١٧٨٩ ، وقد أتى المندوبون للحكومة بقوائم احتوت المظالم ومقترحات الإصلاح من دوائرهم على نحو ما سيفعل مندوبو ذلك المجلس الأشهر . ورفعت هذه الوثائق إلى الامبراطورة فأتاحت لها ولمساعديها مسحاً قيماً لحالة المملكة .

ولم تخول اللجنة سلطة اصدار القوانين ، بل تقديم المشورة للامبراطورة عن حالة كل طبقة أو اقليم وحاجاته وتقديم الاقتراحات للتشريع . وكفلت للمندوبين حرية الكلام وعدم المساس بأشخاصهم . واقترح بعضهم عتق جميع الأقنان وطلب بعضهم مزيداً من التوسع فى حق امتلاك الأقنان . وفى ديسمبر ١٧٦٧ استراحت اللجنة ، وفى فبراير ١٧٦٨ انتقلت إلى سانت بطرسبرج . وبلغ مجموع الجلسات التى عقدتها ٢٠٣ ، وفى ١٨ ديسمبر أجلت إلى أجل غير مسمى لأن نشوب الحرب ضد تركيا استدعى وجود مندوبين كثيرين فى الجبهة . ووكلت مهمة صياغة التشريع المقترح إلى لجان فرعية . ظل بعضها يجتمع حتى ١٧٧٥ ، ولكن لم توضع مجموعة قوانين . ولم تسوء كاترين تماماً هذه النتيجة غير الحاسمة ، فقالت «إن اللجنة . . . أعطتنى النور والمعرفة عن جميع الامبراطورية ، وأنا الآن على بينة مما يلزم ، وأعرف بم ينبغى أن أهتم . وقد فصلت اللجنة جميع أقسام القانون ، ووزعت الشئون تحت رؤوس مواضيع . وكنت خليقة بأن أفعل أكثر من هذا لولا الحرب مع تركيا . ولكنا أدخلنا وحدة لم نعهدها إلى الآن فى مبادىء النقاش وطرائقه » [٥٣] . وقد أظهرت كاترين للنبلاء فى الوقت نفسه مبلغ عرض القاعدة التى ترتكز عليها سلطاتها . واقترحت اللجنة قبل انفضاضها أن تخلع عليها لقب «الكبرى» ، فرفضت ، ولكنها وافقت على أن تلقب «أم الوطن» .

وأصبحت اثنتان من توصيات كاترين قانوناً : إلغاء التعذيب واقرار التسامح الدينى . وقد توسع فى هذا التسامح : فسمح القانون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بأن تنافس اليونانية الأرثوذكسية . وحمى اليسوعيين حتى بعد أن حل البابا كلمنت الرابع عشر طائفتهم (١٧٧٣) ، وأذن للتتار الفولجا بأن يعيدوا بناء مساجدهم . وسمحت كاترين لليهود بدخول روسيا ، ولكنها أخضعتهم لضرائب خاصة ، وقصرت إقامتهم على مناطق معينة (ربما تعقيباً لسلامتهم) . ثم تركت الراسكولنيكيين — المنشقين الدينيين — أحراراً فى ممارسة شعائرهم دون عائق ، وكتبت إلى فولتير تقول «صحيح أن عندنا متعصبين عرفون أنفسهم لأنهم لم يعودوا مضطهدين من الغير ، ولكن لو حذا حذوهم المتعصبون فى الدول الأخرى لما نجم عن ذلك ضرر يذكر» [٥٤] .

وأبهج جماعة الفلاسفة بصفة خاصة إخضاع كاترين الكنيسة الروسية للدولة . وشكا بعضهم من أنها لاتزال تحضر الخدمات الدينية (وكذلك كان يفعل فولتير) ، وأدرك أكبرهم سنا أن حضورها أمر لاغنى عنه للاحتفاظ بولاء الشعب . وقد حولت بمرسوم أصدرته فى ٢٦ فبراير ١٧٦٤ جميع أراضى الكنيسة ملكاً للدولة . وبدأت الدولة منذ الآن تدفع رواتب رجال الدين الأرثوذكس — وبهذا ضمنت تأييدهم للحكومة . وأغلق الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ، ومنع الباقى منها من قبول أكثر من عدد معلوم من المترهبين الجدد ، ورفعت السن القانونية لنذر الرهبنة . واستخدمت الموارد الفائضة من المؤسسات الكنسية فى إنشاء المدارس والملاجىء والمستشفيات [٥٥].

وعارض رجال الدين والنبلاء التوسع فى التعليم الشعبى مخافة أن يفضى انتشار المعرفة بين الجماهير إلى الهرطقة والكفر والتحزب ، وأن يعرض النظام الإجتماعى للخطر . هنا بدأت كاترين — كما بدأت فى غيره — بتطلعات تحررية . فلجأت إلى جريم :

« أصغوا إلى لحظة يا أصدقائى الفلاسفة : ستكونون لطافاً ظرافاً إذا تفضلتم برسم خطة للشباب ، من ألف باء إلى الجامعة . . . ليس عندى — أنا التى لم أدرس فى باريس ولم أعش فيها — معرفة بهذا الأمر ولا بصر به . . انى مهتمة جداً بفكرة إنشاء جامعة وإدارتها ، ومدرسة ثانوية (جمنازيوم) وأخرى أولية . . . وإلى أن تستجيبوا لطلبى سأنقب فى « الموسوعة » عما أنشده وبالتأكيد سأستخرج منها ما أنشده » [٥٦] .

وقد أثرت فيها أثناء ذلك الحماسة البيداجوجية التى أبداها إيفان بتسكى ، الذى جاب السويد وألمانيا وهولنده وإيطاليا وفرنسا ، واختلف إلى صالون مدام جوفران ودرس الموسوعة والتقى بروسو . فنى ١٧٦٣ أنشأت فى موسكو مدرسة اللقطاء ، خرجت فى ١٧٩٦ أربعين ألف طالب ، وفى ١٧٦٤ فتحت مدرسة للبنين فى سانت بطرسبرج ، وفى ١٧٦٥ أخرى للبنات ، وفى ١٧٦٤

حول دير سمولنى إلى معهد سمولنى لبنات النبلاء — وهذا صدى لمعهد مدام دمانتنون « سان سير » ، وكانت كاترين أول حاكم روسى يفعل شيئاً لتعليم النساء . ولما فت فى عضدها افتقارها إلى المعلمين المؤهلين ، بعثت الطلاب الروس لدراسة التربية فى انجلتره وألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وأنشئت مدرسة للمعلمين فى ١٧٨٦ .

وقد أعجبتها اصلاحات يوزف الثانى التعليمية فى النمسا ، فطلبت إليه أن يعيرها شخصاً خبيراً بنظامه ، فأرسل إليها تيودور يانكوفش الذى وضع لها خطة نشرتها باسم «قانون المدارس الشعبية» (٥ أغسطس ١٧٨٦) . وأنشئت مدرسة أولية فى أهم بلدة فى كل اقليم ، ومدرسة ثانوية فى كل مدينة كبرى من مدن ست وعشرين مقاطعة ، وفتحت هذه المدارس لجميع الأطفال أيا كانت طبقتهم ، ولم يسمح فيها بالعقاب البدنى ؛ وكانت الدولة تمدها بالمدرسين والكتب المدرسية . بيد أن المشروع أحبطه إلى حد كبير عزوف الآباء عن ارسال أبنائهم إلى المدارس بدلاً من استخدامهم للشغل فى البيت . وخلال السنوات العشر التى انقضت منذ تأسيس «المدارس الشعبية» حتى وفاة كاترين ، زاد عددها ببطء من أربعين إلى ٣١٦ مدرسة ، وعدد المعلمين من ١٣٦ إلى ٧٤٤ ، وعدد التلاميذ من ٤،٣٩٨ إلى ١٧،٣٤١ . وفى عام ١٧٩٦ كانت روسيا لا تزال شديدة التخلف عن الغرب فى ميدان التعليم الشعبى .

أما التعليم العالى فكان متاحاً على نطاق ضيق فى جامعة موسكو وفى المعاهد أو الأكاديميات الخاصة ، وأنشئت مدرسة تجارية فى ١٧٧٢ ، وأكاديمية للمناجم فى ١٧٧٣ . ووسعت أكاديمية العلوم القديمة وزودت بالمال الوافر . وفى ١٧٨٣ ، بناء على إلحاح الأميرة داشكوفا ، وتحت رآستها ، أنشئت أكاديمية روسية لتحسين اللغة ، وتشجيع الأدب ، ودراسة التاريخ ، فأصدرت المترجات ، ونشرت الدوريات ، وصنفت قاموساً صدر فى ستة أجزاء بين ١٧٨٩ ، ١٧٩٩ .

وقد روعت كاترين نسبة الوفيات العالية فى روسيا ، وبدائية وسائل

حفظ الصحة العامة والنظافة الشخصية ، فاستقدمت الأطباء الأجانب ، وأسست كلية للصيدلة في موسكو ، ودبرت المال لإنتاج الأدوات الجراحية . وفتحت في موسكو ثلاثة مستشفيات جديدة وملجأ ومستشفى للأمراض العقلية وفي سانت بطرسبرج ثلاثة مستشفيات جديدة بما فيها « مستشفى سرى» للأمراض التناسلية [٥٧] . وفي ١٧٦٨ أدخلت لروسيا التطعيم ضد الجدرى ، وهدأت مخاوف الشعب بوضعها شخصها وهي في الأربعين ليجرى عليها العلاج كثاني شخص في روسيا » وما لبثت كاترين أن كتبت لفولتير تقول «إن الذين طعموا هنا في شهر واحد أكثر ممن طعموا بفيينا في سنة » [٥٨] . (وفي ١٧٧٢ دخل التطعيم نابلى لأول مرة » وفي ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر بالجدرى غير مطعم) .

٥ — الاقتصادية

من القوانين الأساسية التي أصدرتها كاترين قانون (١٧٦٥) قضى بأجراء مسح لجميع أراضى روسيا . وقد قوبلت هذه العملية بمقاومة شديدة من الملاك . وحين اختتم العهد كانت قد شملت عشرين إقليماً من خمسين » ولكنها لم تستكمل حتى منتصف القرن التاسع عشر . وبينما كان المسح جارياً أدركت الامبراطورة في وضوح مثبط للهمم كيف يعتمد اقتصاد روسيا على تنظيم الزراعة بواسطة نظام قوامه السادة والأقنان . وفي ١٧٦٦ أعلنت عن جائزة من ألف دوقاتية تمنح لأفضل مقال عن تحرير الأقنان . وفاز بالجائزة بياردى دلابيه إكس لا شابل ، الذى رأى أن « العالم كله يطالب الملوك بتحرير الفلاحين» وتنبأ بأن الإنتاج الزراعى سيزداد زيادة هائلة » إذا ملك الفلاحون الأرض التي يزرعونها » [٥٩] . غير أن الملاك الأشراف حذروا كاترين من أن الفلاح سيهجر القرى إلى المدن ان لم يربط بالأرض وبسيده الإقطاعى » أوسيهاجر من قرية إلى قرية في لامبالاة أكثر ، فيخلق بذلك الفوضى ، ويمزق الاقتصاد ، ويعوق تجنيد أبناء الفلاحين الأشداء للجيش أو الأسطول .

ومضت القيصرة الحائرة في مشروعها على حذر ، فالنبلاء يملكون المال

والسلاح اللذين يستطيعان الإطاحة بها ، وهم فى هذه المحاولة يستطيعون الاعتماد على تأييد الأكليروس الذين ساءهم فقدان أراضيهم وأقنانهم . وخافت من الخلل الذى قد تحدثه هجرة جماعية من الفلاحين المحررين إلى مدن غير مستعدة لإسكانهم أو إطعامهم أو تشغيلهم . على أنها قامت بخطوات نحو عتق الأقنان . فجددت مرسوم بطرس الثالث الذى حرم شراء الأقنان لتشغيلهم فى المصانع ، وفرضت على أرباب العمل أن يدفعوا أجور عمالهم نقداً وأن يراعوا ظروف العمل التى يقررها موظفوا المدينة أو « المير »[٦٠] ، ولكن حتى مع هذا ظل وضع الأقنان الصناعيين وضع العبودية القاسية المذهلة . وحرمت كاترين القنية فى المدن التى أنشأتها [٦١] ، ثم عتقت الأقنان المشتغلين على الأراضى التى أخذت من الكنيسة نظير دفعهم رسماً صغيراً [٦٢] ، على أن هذه التحسينات طغت عليها منحها المتكررة من أراضى الدولة لمن أخلصوا لها الخدمة كالقواد أو رجال الدولة أو العشاق ، وعلى هذا النحو أصبح أكثر من ٨٠٠,١٠٠ من الفلاحين الأحرار أقناناً . وارتفعت نسبة الأقنان فى سكان الريف من ٥٢,٤٪ فى بداية العهد إلى ٥٥,٥٪ فى ختامه ، وزاد عدد الأقنان من ٧,٦٧٠٠,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠,٠٠٠[٦٣] . ثم أكملت كاترين استسلامها للنبلاء بـ «خطابات الامتياز للنبلاء » (١٧٨٥) : فقد أكدت فيها من جديد إعفاءهم من ضريبة الرؤوس ، والعقوبة البدنية ، والخدمة العسكرية ، وحقهم فى ألا يحاكموا إلا أمام أمرائهم ، وفى استخراج المعادن من أرضهم ، وفى امتلاك المشروعات الصناعية ، وفى السفر إلى خارج البلاد كما يشاءون . وقد حظرت على الملاك أن يكونوا طغاة أو قساة ، ولكنها أبطلت مفعول هذا الحظر بمنع الأقنان من أن يرسلوا إليها شكاواهم .

ولجأ الفلاحون بعد أن أخمد صوتهم على هذا النحو إلى الفرار أو التمرد أو الاغتيال . وقد قتل ثلاثون من السادة الإقطاعيين بأيدى فلاحيهم بين عامى ١٧٦٠ و ١٧٦٩ ، واندلعت خمسون فتنة بينهم فيما بين عامى ١٧٦٢ و ١٧٧٣ [٦٤] . وكانت هذه الفتن تخمد سريعاً حتى قام زعيم ثائر عرف كيف يحول السخط نظاماً ، وأسلحة الفلاحين انتصارات . ذلك أن إمليان بوجاشيف كان قوزاقياً من إقليم الدون ، حارب فى صفوف الروس ضد

الروسيين والأتراك ، ثم طلب تسريحه ، ولكن طلبه رفض ، ففر من الجيش ، وقبض عليه ، فعاود الفرار ، وارتضى حياة طريد القانون . وفى نوفمبر ١٧٧٢ ، بعد أن شجعه الرهبان الساخطون ، أعلن أنه بطرس الثالث الناجى بأعجوبة من كل المحاولات التى بذلت لقتله . وجذب الفلاحين وقطاع الطرق للانضواء تحت لوائه ، حتى أحس بأن ساعده اشتد ، فهجر بعصيان الغاصبة كاترين (سبتمبر ١٧٧٣) . وتوافد عليه قوزاق الأورال والفولجا والدون ؛ وآلاف الرجال الذين حكم عليهم بالسخرة فى مناجم الأورال ومصاهر المعادن ؛ وفئات «المؤمنين القدامى» التواقين إلى الإطاحة بالكنيسة الأرثوذكسية ؛ وقبائل التتار والقرغيز والبشكير المحلية الذين لم ينسوا اكراه البزابث لهم على الدخول فى المسيحية ؛ ثم أقنان آبقون من سادتهم ، ومساجين هربوا من السجون : هؤلاء تقاطروا على لواء بوجاشيف حتى اجتمع له عشرون ألف رجل تحت إمرته . فزحفوا ظافرين من مدينة إلى مدينة ، وهزموا القوات التى سيرها ضدهم الحكام المحليون ، واستولوا على مدن هامة مثل قازان وساراتوف ، ثم صادروا المؤن ، وقتلوا الملاك ، وأكرهوا الفلاحين المعارضين على الانضمام إليهم ، وزحفوا مصعدين فى حوض الفولجا صوب موسكو . وأعلن بوجاشيف أنه لن يرتقى هو العرش هناك ، بل سيبوئه الغراندوق بولس . ولكنه — بمزاح رهيب على الأرجح — لقب زوجته الفلاحة بالملكة ، وكبار ضباطه بأسماء ضباط كاترين : الكونت أورلوف ، والكونت بانين ، والكونت فورونشوف .

وسخرت كاترين أول الأمر من هذا «المركيز بوجاشيف» ، ولكنها حين علمت أن العصاة استولوا على قازان ، جردت قوة كبيرة تحت إمرة الجنرال بيوتر ايفانوفتش بانين لإخماد الفتنة . وخف النبلاء لنجدتها بعد أن أدركوا أن الخطر يتهدد هيكل الإقطاع بأسره ، وسرعان ما انضم الجنرال الكسندر فاسيليفتش سوفوروف إلى بانين بفرسانه الذين أصبحوا أحراراً فى التحرك بعد عقد الصلح مع الأتراك ، وأوقع الخلل فى صفوف العصاة التقاؤهم بجنود مدربين تحت قيادة ضباطهم الامبراطوريين ، فتقهقروا من موقع إلى آخر ، واستنفدوا مؤنهم ، وبدأوا يتضورون جوعاً . واعتقل بعض

زعمائهم — الطامعين فى الخبز والعفو — بوجاشيف وسلموه للمنتصرين . فجىء به إلى موسكو فى قفص من حديد ، وحوكم فى الكرملين ، وقطع رأسه ومزق جسده أرباعاً ، وعرض رأسه على عمود فى أربعة أقسام من المدينة ليكون « عبرة لغيره » ثم أعدم خمسة من ضباطه » وجلد غيرهم على هذا الجانب من الموت ، ونفوا إلى سيبيريا . وكان من نتائج الفتنة دعم التحالف بين الامبراطورة والنبلاء .

على أنها تحدت النبلاء شيئاً ما بتأييدها لنمو طبقة قوامها رجال المال والأعمال . ذلك أن اقتناعها ببراهين الفزيوقراطيين دعاها لإقرار حرية التجارة فى المحاصيل الزراعية (١٧٦٢) ، ثم فى كل شىء ، وأنهت (١٧٣٥) الاحتكارات المعتمدة من الحكومة بإصدارها قراراً يبيح لكل إنسان حرية الاضطلاع بأى مشروع صناعى وتنفيذه . وقد أخر نمو الطبقة الوسطى غلبة الصناعة التى تقوم فى الأكواخ والعزب ، ومشاركة النبلاء فى المغامرات الصناعية والتجارية . وزادت المصانع من ٩٨٤ إلى ٣,١٦١ فى عهد كاترين » ولكن هذه كان أكثرها ورشاً صغيرة لاتستخدم من الصناع إلا القليلين . وزاد سكان المدن من ٣٢٨,٠٠٠ فى عام ١٧٢٤ إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ فى عام ١٧٩٦ — ومع ذلك لم يزل أقل من أربعة فى المائة من مجموع السكان [٦٥] .

ولم تأل الامبراطورة الكثيرة الشواغل جهداً فى النهوض بالتجارة دون أن تلقى إلا التأييد الضنين من حاشيتها النبيلة . لقد كانت الطرق غاية فى السوء ، ولكن الأنهار كثيرة ، وقد ربطتها القنوات فى شبكة مفيدة . وفى عهد كاترين بدىء شق قناة بين الفولجا والنيفا لربط البلطيق ببحر قزوين » وقد خططت لقناة أخرى تصل بحر قزوين بالبحر الأسود [٦٦] . وظفرت بالتفاوض أو بالحرب بحرية مرور التجارة الروسية دون معوق فى البحر الأسود ومنه إلى البحر المتوسط . ثم حثت دبلوماسييها على عقد المعاهدات التجارية مع انجلتره (١٧٦٦) وبولنده (١٧٧٥) والدنمرك (١٧٨٢) وتركيا (١٧٨٣) والنمسا (١٧٨٥) وفرنسا (١٧٨٧) . ونمت التجارة الخارجية من ٢١,٠٠٠,٠٠٠ روبل عام ١٧٦٢ إلى ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٧٩٦ [٦٧] .

فى هذه الأرقام يجب أن نحسب حساب تضخم العملة الذى تدفع به الحكومات نفقات حروبها . وقد اقترضت كاترين من داخل البلاد وخارجها ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل لتمويل حملاتها على تركيا ، وأصدرت نقوداً ورقية تجاوزت كثيراً أى غطاء من الذهب . وفقد الروبل أثناء حكمها ٣٢٪ من قيمته . وفى هذه الفترة ذاتها ، ورغم زيادة الإيرادات من ٢١٥,٠٠٠,٠٠٠ (٦٨). وأكثر هذا الدين نجم عن الحروب التى كسرت شوكة تركيا ، ومدت حدود روسيا إلى البحر الأسود .

٦ — المحاربة

بدأت كاترين بأهداف سلمية كما يبدأ كل فيلسوف ، فأعلنت أن مشاكل الامبراطورية الداخلية ستستغرق اهتمامها ، وأنها ستتجنب كل صراع مع الدول الأجنبية إذا لم يتحرش بها أحد . فثبتت صلح بطرس الثالث مع بروسيا ، وأنهت حربه مع الدنمرك . وفى ١٧٦٢ رفضت الإغراء بفتح كورلاند أو التدخل فى بولنده ، وقالت «عندى ما يكفى من البشر الذين على إسعادهم ، ولن يزيدنى رفاهية ذلك الركن الصغير من أركان الأرض» (٦٩). ثم خفضت الجيش ، وأهملت ترسانات السلاح ، وسعت إلى التفاوض مع تركيا لإبرام معاهدة للصلح الدائم .

ولكنها كانت كلما درست الخريطة وجدت عيباً فى حدود روسيا . ففى الشرق كانت الامبراطورية محمية جيداً بجبال الأورال وبحر قزوين وضعف الصين . وفى الشمال تحميها الثلوج . أما فى الغرب فالسويد مستولية على جزء من فنلنده ، قد يتوقع منه الهجوم فى أى لحظة يشنه شعب مافتئ يسوؤه ما غصبه منه بطرس الأكبر ، وكانت بولنده وبروسيا تسدان الطريق إلى «أوروبا» والاصطباغ بحضارتها . أما فى الجنوب فقد سد التتار ، الخاضعون لخان مسلم يسيطر عليه الترك ، الطريق إلى البحر الأسود . فأى إجهاضات للتاريخ أعطت روسيا جغرافية كهذه ، وحدوداً شاذة كهذه ؟ وهمس فى أذنها القائد القديم مونيش ، والقائد الجديد جريجورى أورلوف ، بأن الوضع يكون معقولا أكثر لو كان البحر الأسود هو الحد الجنوبى ، وبأنه يكون

جميلا رائعاً لو استطاعت روسيا الاستيلاء على الآستانه والتسلط على البوسفور. أما نيكيتا بانين « وزير خارجيتها من ١٧٦٣ إلى ١٧٨٠ ، فقد فكر فى طرق لإعلاء نفوذ روسيا فى بولنده ومنع هذا البلد الأعزل من الوقوع فى براثن بروسيا .

وتأثرت كاترين بحججهم ، وأخذت تتحرق شوقاً لأن تبوئ وطنها الثانى مكاناً فى السياسة يتفق ومكانها على الخريطة . فلم ينقض عام على تقلدها السلطة حتى انطلقت إلى سياسة خارجية لاترضى فى طموحها بأقل من جعل روسيا الدولة المحورية على القارة . كتبت إلى الكونت كيزرلنج ، سفيرها فى وارسو تقول «أقول لك ان هدفى أن أرتبط بروابط الصداقة مع جميع الدول « فى تحالف مسلح ، حتى أستطيع على الدوام أن أقف فى صف المظلوم « وبهذا أصبح الحكم لأوربا (٧١) .

وأتت عليها فترات كانت فيها قاب قوسين من هدفها هذا . وآية ذلك أنها سحبت روسيا من حرب السنين السبع فإنها فى الوقع حسمت ذلك الصراع الذى شمل القارة كلها لصالح فردريك . وفى عام ١٧٦٤ أبرمت مع فردريك معاهدة كانت نذيراً بتقطيع أوصال بولنده . ثم استغلت حاجة الدنمرك إلى تأييد روسيا لها ضد السويد لتهيمن على سياسة الدنمركيين الخارجية . وفى عام ١٧٧٩ كانت حكماً بين فردريك ويوزف فى معاهدة تشن « وأصبحت حامية الدستور الأمبراطورى الألمانى . وفى ١٧٨٠ ربطت الدنمرك والسويد وبروسيا والنمسا والبرتغال بالروسيا فى « عصبة حياد مسلح » لحماية السفن المحايدة فى الحرب الدائرة بين انجلتره ومستعمراتها الأمريكية ، فتقرر ألا تتعرض السفن المحايدة للهجوم من أى من الطرفين المحاربين ما لم تحمل ذخائر حربية ؛ وأن الحصار لكى يكون شرعياً ولكى يحترم يجب أن يكون حقيقياً لا مجرد إعلان على الورق .

وقبل أن قلبت الأحلاف ذلك القلب الثانى بزمن طويل بدأ الصراع الطاحن على التسلط على البحر الأسود . وقد نشأت أول حروب كاترين

التركية نتيجة ثانوية غريبة لغزوها لبولنده . ذلك أنها كانت قد أرسلت هناك جيشاً لإعانة غير الكاثوليك فى كفاحهم لنيل حقوق متساوية مع الأغلبية الكاثوليكية ؛ وحمل الكاثوليك سفيراً بابوياً على أن يفهم تركيا أن فرصتها حانت لتهاجم روسيا « وأيدت فرنسا الاقتراح ، وحرضت السويد وخان القرم على الانضمام للهجوم [٧١] . وحزن فولتير على امبراطورته التى أحدق بها الخطر . وكتب إليها يقول «إن تجنيد سفير بابوى للأتراك فى حربه الصليبية عليك لموضوع جـــدير برواية هزلية إيطالية عنوانها « مصطفى الحليف الفاضل للبابا! » « فالموقف كاد يغريه بأن يكون مسيحياً . لا بل انه فى خطاب أرسله إلى كاترين فى نوفبر ١٧٦٨ اقترح عليها حرباً مقدسة على الكفار .

« إنك تكرهين البولنديين على أن يكونوا متسامحين سعداء على الرغم من سفير البابا ، ويبدو أنك تلقين من المسلمين عنفا . فإذا شنوا عليك الحرب فربما تبلورت فكرة بطرس الأكبر فى جعل الآستانة عاصمة للأمبراطورية الروسية . . . وفى ظنى أنه لو قدر على الأتراك أن يطردوا من أوربا يوماً فسيكون هذا على أيدى الروس . . . فليس يكفى إذلالهم ؛ بل يجب ردهم إلى موطنهم إلى الأبد [٧٢] .

ورفضت السويد أن تشارك فى الهجوم على روسيا ، ولكن تتار القرم اجتاحوا مستعمرة «الصرب الجديدة» الروسية ، الحديثة ، (يناير ١٧٦٩) . وزحف جيش تركى عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل صوب بودوليا لينضم إلى جيش الاتحاد البولندى . ورفضت كاترين أن تسحب قواتها من بولنده . وجردت ثلاثين ألف مقاتل يقودهم ألكسندر جولتسين وبيوتر روميانتسيف لهزيمة التتار ورد الترك ؛ فلما قيل لها إن عدد هؤلاء الترك هائل أجابت « إن الرومان لم يكونوا يعبأون بكثرة أعدائهم « إنما كانوا يسألون « أين هم ؟ » [٧٣] . ورد التتار على أعقابهم ، واستولى الروس على آزوف وتاجانروج شمالى الدون ؛ وهزم سبعة عشر ألف روسى ١٥٠,٠٠٠ تركى فى كاجول (١٧٧٠) وتقدم روميانتسيف حتى بلغ بوخارست ، حيث استقبله السكان الأرثوذكس

بمظاهر الفرح والتهليل . وفى ١٧٧١ اجتاح فاسيلى ميخايلوفتش دولجوروكى القوم وقضى على الحكم التركى هناك .

وأكثر حتى من هذا إثارة للعجب والأعجاب جرأة الكسى أورلف ، الذى قاد أسطولا روسياً مخر به عباب المانش ، والأطلنطى ، والبحر المتوسط ، وهزم الأسطول التركى تجاه خيوس ، وأباده فى خزى (يوليو ١٧٧٠) ؛ غير أن الضرر الذى لحق بمراكبه كان فادحاً فلم يتح له مواصلة انتصاراته .

على أن أحداثاً أخرى لم تبعث مثل هذه البهجة فى فؤاد كاترين . من ذلك أن طاعوناً تفشى فى الجيش الروسى على طول الدانوب ثم ارتد إلى موسكو حيث كان يحصد ألف روح كل يوم فى صيف ١٧٧٠. وكانت عليمة بأن فردريك ينظر باستنكار إلى امتداد ملكها وسلطانها ؛ وأن يوزف الثانى يزعجه تقدم روسيا إلى حدود النمسا فى البلقان ؛ وأن فرنسا لاتترك حجراً لاتقلبه دعماً لحليفتها تركيا ؛ وأن انجلترة ستقاوم بشدة تسلط روسيا على البوسفور ؛ وان السويد إنما تتربص بها الدوائر . فدعت كاترين الترك إلى مؤتمر ، فحضروا ، ولكنهم حرنوا لأصرارها على استقلال القرم ؛ وفى ١٧٧٣ استؤنفت الحرب .

وفى يناير ١٧٧٤ مات مصطفى الثالث ، وقرر خلفه أن تركيا قد بلغت من الفوضى والإرهاق حداً يهدد وجودها كدولة أوربية . فاعترفت تركيا بمقتضى صلح كجوق قينارجى (فى رومانيا) ٢١ يوليو ١٧٧٤ باستقلال القرم (التى ظلت تحت حكم التتار) ، ونزلت لروسيا عن آزوف ، وكرش ، وينيكالى ، وكلبورون (على مصب دنيبر) . وفتحت البحر الأسود والبوسفور والدردنيل للمراكب الروسية ، ودفعت لروسيا تعويض حرب قدره ٤,٥٠٠,٠٠٠ روبل ، ومنحت العفو للمسيحيين الذين شاركوا فى ثورات على حكامهم الأتراك ، واعترفت بحق روسيا فى حماية المسيحيين فى تركيا . وكان هـذا فى جملته من أميز المعاهدات التى أبرمتها روسيا فى تاريخها [٧٤] . فقد غدت روسيا الآن من دول البحر الأسود ؛ وتركت

القرم وغيرها من أقاليم التتار فى جنوبى روسيا مفتوحة أمام الغزو الروسى المبكر ، واستطاعت الامبراطورة الشاكة أن تظهر بمظهر المدافعة عن الإيمـــان . وراحت كاترين — بعد أن أسكرها النصر — تحلم بتحرير اليونان — أعنى بفتحها ، وبتتويج حفيدها قسطنطين فى الآستانة رأساً لامبراطورية جديدة .وأبهجت فؤاد فولتير الشائخ برؤى الألعاب الأولمبية وقد ردت إلى مجدها التليد ؛ فكتبت إليه تقول «سوف تجعل ممثلين يونانيين يمثلون التراجيديات اليونانية القديمة فى مسرح (ديوينسيوس) بأثينا » .فلما تذكرت الجيوش والخزانة التى استنفدت أضافت : «على أن أمارس الاعتدال ، وأقول إن السلم خير من أروع حروب الدنيا »(٧٥) .

وأخذت الآن تحل محل فردريك كأشهر ملوك أوربا ، وتعجب الناس جميعاً من سعيها الحثيث لتحقيق أهدافها ، ومن الامتداد المرعب لسلطانها ، وسافر يوزف الثانى امبراطور النمسا ، الذى طالما انحنى لعبقرية فردريك ، إلى موجيليف ، ومنها أكمل الرحلة الطويلة إلى سانت بطرسبرج ليلتقى بالقيصرة ويسعى إلى التحالف معها . وفى مايو ١٧٨١ أبرمت مع يوزف ميثاقاً للعمل الموحد فى بولنده وضد تركيا .

وكان بوتمكين فى غضون هذا يبنى لنفسه الشهرة فى الجنوب . ذلك أنه نظم وسلح وأطعم جيشاً جديداً عدته ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وبنى أسطولا للبحر الأسود ، له موانئ فى سباستبول وأودسا وترسانة فى خرسون ، واستعمر أقطار روسيا الجنوبية ذات المستوطنات الضئيلة ، وأسس المدن والقرى ، وأقام المصانع ، وزود المستعمرين بالماشية والآلات والبزار — وكل هذا ليوفر قواعد للتموين فى حملة حربية تضيف القرم إلى تاج كاترين ، وربما ليظفر بتاج لنفسه . وتشاجر تتار القرم وانقسموا ، فآلان بوتمكين زعماءهم بالرشا ، فلما غزا شبه الجزيرة فى النهاية (ديسمبر ١٧٨٢) لم يلق من المقاومة إلا أقلها ، وفى ٨ أبريل ١٧٨٣ ، ورغم احتياجات تركيا عديمة الجدوى ، ابتلعت مملكة الروس القرم . ورقى بوتمكين مشيراً ، ورئيساً للكلية الحربية ، وأميراً لطورس ، وحاكماً عاماً للقرم . ونفحته الأمبراطورة فوق هذا كله

بمكافأة من ١٠٠,٠٠٠ روبل » أنفقها بوتمكين على الحليلات والشراب والطعام .

ورأت كاترين هى أيضاً ان الوقت قد حان لشيء من الاسترخاء . فجمعت بين اللهو والعمل بترتيبها «رحلة ملكية» فخمة على اليابس والماء تفتش خلالها على فتوحها وتترك انطباعاً قوياً فى نفوس هذه الأقاليم — وأوربا كلها — بثراء بلاطها وأبهته . وفى ٢ يناير ١٧٨٧ ، غادرت القصر الشتوى مدثرة بفرائها وشرعت فى رحلتها الطويلة فى « برلينيه» أى مركبة مقفلة من الكبر بحيث تحتوى — فضلا عن شخصها الذى اتسعت أبعاده الآن — عشيقها مامونوف صاحب الحظوة آنئذ « وكبيرة وصيفاتها ، وكلباً صغيراً ، ومكتبة صغيرة . وتبعتها أربع عشرة عربة و ١٧٠ مركبة جليد « تحمل سفراء النمسا ، وبريطانيا ، وفرنسا — كوبنتزل ، وفتزهربرت ، والكونت سيجور — مضافاً إليهم الأمير دلين وجيش من الموظفين والبطانة والموسيقيين والخدم . وكان بوتمكين قد سبقها بأيام ليعد لها الطريق « وليضيئه بمئات المشاعل « وليرتب لكل ليلة وجباتها وأماكن لنوم الجميع . وكان الموكب إذا مر بمدينة كبرى استراح يوماً أو يومين ريثما تلتقى القيصرة بوجوه المدينة ، وتستعرض أحوالها ، وتوجه أسئلتها ، وتوزع اللوم أو المكافأة . وبدت كل مدينة على الطريق فى أحسن مظهر عملا بتحذيرات بوتمكين وتعليماته ، فاغتسلت وتزينت كما لم تفعل قط من قبل « سعيدة ولو ليوم واحد فى حياتها .

وفى كييف أشرف بوتمكين على نقل البلاط المتنقل إلى سبع وثمانين سفينة كان قد أعدها وزينها . وعليها أبحر الركب الامبراطورى هابطاً الدنيبر . وعلى طول النهر شاهدت كاترين «القرى البوتمكينية» التى هيأها أمير طورس الأريب وجلاها ليدخل السرور إلى قلبها ، وربما ليترك فى نفوس الدبلوماسيين انطباعاً قوياً عن ثراء روسيا . وبعض هذا الثراء ارتجله بوتمكين ، وبعضه كان حقيقياً . « أما أنه شيد القرى الكاذبة على الضفتين ، ودرب الفلاحين ليخلقوا وهماً بما هم عليه من تقدم « فذلك من شطحات خيال دبلوماسى سكسونى » [٧٦] . فقد قام الأمير دلين بعدة رحلات

على الشاطئ ليستكشف ما وراء الواجهة ، فقال إنه رغم أن بوتمكين لجأ إلى بعض الحيلة ، فإنه (أى دلين) راعته «المنشآت الفخمة وهى بعد فى مهدها ، والمصانع النامية ، والقرى ذات الشوارع المنتظمة التى تحفها الأشجار» [٧٧] . ولعل كاترين نفسها لم تنخدع ، ولكنها ربما استنتجت كما استنتج سيجور ، أنه حتى لو كان نصف ثراء تلك المدن ونظافتها مظهراً زائلا ، فإن حقيقة وجود سباستبول فعلا — المدينة والقلاع والميناء ، وكلها بنى على شواطئ القرم فى عامين — هذه الحقيقة كفت لجعل بوتمكين جديراً بالثناء . وقد وصفه الأمير دلين الذى كان يعرف تقريباً كل إنسان ذى شأن فى أوربا بأنه «أعجب رجل التقيت به فى حياتى» [٧٨] .

وفى كانيوف جاء ستانسلاس بونياتوفسكى ملك بولنده ، ليقدم فروض الولاء للمرأة التى منحته حبها وعرشه . وفى موقع أبعد على الدنيبر الأدنى ، عند كايداكى ، انضم يوزف الثانى إلى الموكب الذى اتخذ طريقه من ثم برا إلى خرسون فالقرم . هنالك داعبت الأمبراطورة ، والأمبراطور ، والحاكم العام ، أحلامهم بطرد الترك من أوربا ، فحلمت كاترين بالاستيلاء على الآستانة ، ويوزف بابتلاع البلقان ، وبوتمكين بتولى عرش داشيا (رومانيا) . ونصحت انجلتره وبروسيا السلطان عبد الحميد بأن يوجه ضربته إلى الروس فى غفلة منهم قبل أن يستكملوا استعداداتهم الحربية [٧٩] . وكان فى وقاحة السفير الروسى فى الآستانة ما هيأ لتركيا حافزاً إضافياً ، فحبسه السلطان ، وأعلن الجهاد ، وطالب برد القرم ثمناً للصلح . وفى أغسطس ١٧٨٧ عبر الجيش التركى الرئيسى الدانوب وزحف على أوكرانيا .

لقد تعجل بوتمكين فى الإعلان عن فرحه ، ذلك أن روسيا لم تكن مستعدة بعد للامتحان النهائى ؛ لذلك نصح الامبراطورة بالتخلى عن القرم . ولكنها وبخته على جبنه الذى لم تعهده فيه ، ثم أمرته هو وسوفوروف وروميا نتسيف أن يعدوا كل القوات المتاحة لهم وينطلقوا للقاء الغزاة ؛ أما هى فقد انسحبت إلى سانت بطرسبرج . ودحر سوفروف الترك فى كلبورون ، وحاصر بوتمكين أوشاكوف المشرفة على منافذ دنيبر وبوج . وبينما كان الجهاد والحرب

الصليبية يواجه أحدهما الآخر فى جنوبى روسيا ، قررت السويد أن الفرصة واتتها أخيراً لاسترداد ما فقدت من أقاليم . فجدد جوستاف الثالث حلفاً قديماً مع الترك بعد أن شجعته انجلتره وبروسيا [٨١] ، وطالب كاترين برد فنلنده وكاريليا للسويد ، والقرم لتركيا . وقد نفصل الحديث عن هذه الحرب فى موضع لاحق ، أما الآن فحسبنا أن نقول إن أسطولا سويدياً أنزل بالروس فى البلطيق هزيمة فاصلة فى ٩ يوليو ١٧٩٩ ، وكان قصف المدفعية السويدية يسمع من القصر الشتوى ، وفكرت كاترين فى إخلاء عاصمتها . على أن مفوضيها ما لبثوا أن اقنعوا السويد بأن تبرم الصلح (١٥ أغسطس ١٧٩٠) .

وغدت كاترين الآن حرة فى تركيز قوات ضد الترك ، وانضمت النمسا إلى روسيا فى الحرب . وأنهى بوتمكين حصار أوشاكوف بأن أمر رجاله بالهجوم مهما كان الثمن . وكلف النصر الروس ثمانية آلاف قتيل ، وختمت المعركة الضارية بمذبحة أتت على الضحايا دون تمييز (١٧ ديسمبر ١٧٨٨) وتقدم بوتمكين ليستولى على بندر ، واستولى النمساويون على بلغراد ، ودحر سوفروف الأتراك فى رمنيك (٢٢ سبتمبر ١٧٨٩) . وبدا أن تركيا مقضى عليها بالفناء .

على أن الدول الغربية أحست أن الموقف يدعو إلى العمل الموحد ضد كاترين أن أريد ألا يقع البوسفور — ذلك المعقل الاستراتيجى — فى يدها فتصبح روسيا السيد المتسلط على أوربا . وبعد موت فردريك الأكبر (١٧٨٩) رأى خليفته فردريك وليم الثانى فى فزع تحرك روسيا صوب الآستانة ، وتحرك النمسا فى البلقان ، وبين روسيا والنمسا وهما بهذه القوة الجديدة ستبيت بروسيا تحت رحمتهما . وعليه فى ٣١ يناير ١٧٩٠ ربط حكومته مع الباب العالى فى ميثاق ألزمه بأن يعلن الحرب على روسيا والنمسا جميعاً فى الربيع ، وبألا يضع السلاح إلا إذا ردت لتركيا كل أقليمها التى خسرتها .

وبدا أن المد السياسى يتحول ضد كاترين . فقد أضعف قوة يوزف الثانى نشوب الثورة فى الأراضى الواطئة النمساوية وانتشار الفوضى فى المجر ، ثم مات فى ٢٠ فبراير ١٧٩٠ ، وأبرم خلفه هدنة مع الأتراك . وحثت

انجلترە وبروسيا كاترين مرة أخرى على عقد الصلح على أساس الاحتفاظ بكل الأراضى التى تم الاستيلاء عليها فى الحرب ؛ ولكنها أبت ، ذلك أن استيلاءها على أوشاكوف كان قد فتح الطريق أمام روسيا إلى البحر الأسود ، فهى لاتريد أن تتخلى عن هذا الكسب الحيوى . ثم إن قوادها كانوا يسيرون من نصر إلى نصر ، وتوجوا انتصاراتهم باستيلاء سوفوروف وبوتمكين على مدينة اسماعيل (٢٢ ديسمبر ١٧٩٠) ؛ وقد خسر الروس فى سبيل الاستيلاء على هذا المعقل التركى الواقع على الدانوب عشرة آلاف مقاتل ، وخسر الترك ثلاثين ألفاً . وبعد هذه الوليمة الدموية انتكس بوتمكين الذى انهكته الحرب إلى ضرب من الكسل المترف والسفاح المخزى مع بنات أخيه ؛ وفى ١٥ أكتوبر ١٧٩١ مات على طريق قريب من ياسى . وأغمى على كاترين ثلاث مرات فى اليوم الذى سمعت فيه بنبأ موته .

وفى مارس ١٧٩١ اقترح وليم بت الابن على البرلمان إرسال إنذار نهائى إلى روسيا يطالبها بأن ترد لتركيا كل الأقاليم التى استولت عليها فى الحرب الراهنة ، واقترح إرسال أسطول بريطانى إلى البلطيق نذيراً بالحرب . ولم تجب كاترين ، أما البرلمان فقد ثنى بت عن إنفاذ مشروعه حين سمع التجار البريطانيون يتحسرون على ضياع تجارتهم مع روسيا . وأما تركيا فقد كفت عن الصراع بعد أن أنهكتها الحرب ، فوقعت فى جاسى (٩ يناير ١٧٩٢) معاهدة ثبتت سيطرة روسيا على القرم وحوضى دنبر وبوج . وهكذا لم تصل كاترين إلى الآستانة ، ولكنها بلغت ذروة حياتها كأقوى حاكم فى أوربا ، وألمع امرأة فى قرنها .

٧ — المرأة

أكانت امرأة ، أم هولة ؟ رأينا أنها فى مستهل حكمها كانت فاتنة الجسد ، وفى عام ١٧٨٠ كانت قد سمنت ، ولكن هذه السمنة لم تفعل بها شيئاً إلا إضافة الثقل إلى العظمة . وقد وصفها الأمير دلين (الذى كان من أوائل من لقبوها «الكبرى» (٨٤) وصفاً مهذباً فقال :

«كانت فى ١٧٨٠ لاتزال حسنة الصورة ، وفى استطاعة الناظر إليها ن يستنتج أنها كانت فيما مضى رائعة الجمال أكثر منها وسيمة . ولم يكن بالمرء حاجة إلى فراسة ليقرأ على جبينها ، كما يقرأ فى كتاب ، العبقرية والعدالة والشجاعة والعمق ورباطة الجأش ولطف الطبع والهدوء والتصميم . وقد اكتسبت صدرها الجميل على حساب خصرها الذى كان يوماً ما شديد النحول ؛ ولكن الناس عادة يسمنون فى روسيا . . . ولم يلحظ المرء قط أنها قصيرة القامة» (٨٢) .

وقد صورها كاستيرا فى كتابته عنها عقب موتها بأنها كانت ترتدى ثوباً أخضر فى احتشام . «كان شعرها المبدر ببودرة خفيفة ، يطفو على كتفيها ، وتعلوه قلنسوة صغيرة مرصعة بالماس . وفى سنيها الأخيرة ألفت أن تستعمل قدراً كبيراً من الروج ، لأنها كانت لاتزال تطمع فى ألا تسمح لآثار الزمن أن تبدو على وجهها ، ومن المحتمل أن هذا الطموح وحده هو الذى دعاها للعيش بمنتهى الاعتدال» (٨٣) .

كانت مغرورة ، واعية فى غير مواربة بثقافتها وسلطتها . قال يوزوف الثانى لكاونتز «إن الغرور معبودها ، وقد أفسدها الحظ وثقافتها المسرفة» (٨٤) . وفى رأى فردريك الأكبر أن كاترين لو كانت تراسل الله لادعت لنفسها مرتبة مساوية له على الأقل (٨٥) . ومع ذلك كانت تتحدث إلى ديدرو كما يتحدث «رجل إلى رجل» ، ورجت فالكونيه أن يسقط من حديثه لها عبارات المجاملة . وكانت (باستثناء بعض جرائم القتل المحتملة ومذابح الحرب المبررة) لاتقل لطفاً وأنساً عن تشارلز الثانى ملك انجلترا أو هنرى الرابع ملك فرنسا . وفى كل يوم كانت تلقى من نوافذها الخبز لآلاف الطيور التى تجيئها بانتظام لتطعم (٨٦) . وفى سنوات ملكها الأخيرة كانت تطلق العنان بين الحين والحين لنوبات غضب لاتليق بصاحبة السلطان المطلق ، ولكنها حرصت على ألا تصدر أمراً أو توقع ورقة وهى فى هذه النوبات البركانية ، وسرعان ما أخذت تشعر بالخجل من هذه التفجرات ، وأخذت

نفسها بالتحكم فى أعصابها . أما عن شجاعتها فقد نبذت أوربا كل شك فيها .

كانت شهوانية بلا مراء ولا مبالاة ، ولكن غرامياتها لاتؤذينا بشيء بقدر ما تؤذينا « حديقة ظباء » لويس الخامس عشر . وقد درجت على ما درج عليه كل حكام زمانها فأخضعت الأخلاق للسياسة » وأخمدت المشاعر الشخصية إذا عرقلت توسيع رقعة دولتها . وحيث انعدم مثل هذا الصراع كان لها كل حنان المرأة ورقتها » تحب الأطفال ، وتلاعبهم وتمرح معهم ، وتعلمهم ، وتصنع لهم اللعب . وكانت فى رحلاتها تحرص دائماً على أن يطعم السائقون والخدم كما ينبغى أن يطعموا[٨٧] . وبين الأوراق التى وجدت على منضدتها بعد موتها قبرية كتبتها لنفسها ، «كانت تغفر فى يسر ، ولاتبغض أحداً ، وإذا كانت متسامحة ، متفهمة ، ذات طبع مرح ، فقد أوتيت روحاً جمهورية وقلباً عطوفاً» [٨٨] .

ولم تكن عطوفاً على ولدها البكر » من جهة لأن بولس أخذ منها بعد ولادته بقليل ، وقام على تربيته بانين وغيره تحت اشراف اليزابت ؛ ومن جهة لأن المؤامرات التى دبرت لخلعها كانت أحياناً تنوى جعله إمبراطوراً تحت الوصاية ؛ ومن جهة لأن بولس طالما خامره الظن بأن أمه قاتلة بطرس ؛ كذلك لأن بولس « كان يطيل التفكير دائماً فى سرقة حقوقه فى خلافة أبيه الافتراضية على العرش» . ولكن كاترين تعلقت بابنى بولس الساحرين ألكسندر وقسطنطين ، وأشرفت بشخصها على تعليمهما ، وحاولت إبعادهما عن تأثير أبيهما » وبيتت أن يرث تاجها ألكسندر لابولس [٨٩] . أمابولس الذى سعد بزواجه الثانى فكان ينظر فى اشمئزاز واضح إلى سلسلة العشاق الذين أمتعوا أمه واستنزفوا موارد الدولة .

أما من الناحية العقلية فقد بزت كاترين كل عشاقها . كانت ترضى جشعهم ، ولكن ندر أن سمحت لهم بتقرير سياستها . وقد أحسنت استيعاب الأدب الفرنسى إلى حد أتاح لها مراسلة أقطابه كما يراسل الواحد من جماعة

الفلاسفة صاحبه ، لا بل إن خطاباتها لفولتير كانت تنافس خطاباته لها فطنة وتمييزاً ، وتضارعها رشاقة وخفة دم . وكانت رسائلها كثيرة العدد كثرة رسائل فولتير مع أنها كتبتها خلال فواصل دسائس القصر ، والثورات الداخلية ، والدبلوماسية الحرجة ، والحروب التي غيرت خرائط الدول . وكان حديثها يجعل ديدرو دائم التنبه والاستعداد ، ويحرك مشاعر جريم إلى حد الانتشاء . «كان على المرء فى تلك اللحظات أن يرى هذا الرأس الفذ الذى هو مزاج من العبقرية والحسن حتى يكون فكرة عن النار التى تحركها ، والسهام التى تطلقها ، والهجمات التى تلاحق ... الهجمة منها الهجمة ... ولو كان فى طاقتى أن أدون هذه الأحاديث كلمة كلمة لأتيح للدنيا كلها قطعة نفيسه وربما فريدة فى تاريخ العقل البشرى [٩٠] . على أنه كان يشوب هذا السيل الدافق من أفكارها اضطراب وعدم استقرار سريعان ، فكانت تندفع بأسرع مما ينبغي في مشاريع لم تمعن التفكير فيها ، وكانت أحياناً يهزمها إلحاح الأحداث وكثرة الواجبات . ولكن النتيجة حتى مع هذا كانت هائلة » .

ويبدو أمراً لايصدق أن تجد كاترين فى حياة اضطربت بمثل هذه الأحداث المثيرة سياسية كانت أم حربية وقتاً تكتب فيه قصائد الشعر ، والأخبار التاريخية والمذكرات ، والتمثيليات ، ونصوص الأوبرات ، ومقالات المجلات ، وحكايات الجن ، ورسالة علمية عن سيبيريا ، وتاريخاً للأباطرة الرومان ، ومذكرات مستفيضة عن «تاريخ روسيا» وفى ١٧٦٩ — ١٧٧٠ رأست تحرير مجلة هجائية دون أن تعلن عن اسمها ، وكانت هى أهم محرريها . ومن صورها الأدبية صورة وصفت منافقاً فى الدين يحضر القداس يومياً ، ويشعل الشموع أمام الصور المقدسة ، ويتمتم بالصلوات فى فترات متقطعة ، ولكنه يغش التجار ، ويفترى على الجيران ، ويضرب الخدم ، ويندد بالرذيلة الفاشية ويتحسر على الأيام الخالية الطيبة [٩١] . أما حكاية الجن التى كتبتها كاترين ، واسمها «الأمير خلور» فتحكى عن شاب خاض مغامرات خطرة بحثاً عن وردة خرافية بلا شوك ، ليكشف فى النهاية أنه ليس هناك وردة كهذه إلا الفضيلة ، وقد أصبحت هذه القصة من عيون القصص فى الأدب الروسى ، وترجمت إلى لغات كثيرة ، وكانت

اثنتان من مسرحياتها مآسى تاريخية تقلد شكسبير ، ومعظمها فكاهيات بسيطة تسخر من المشعوذين والمغفلين والبخلاء والمتصوفين والمسرفين ، وتهزأ بكاليسترو ، والماسون ، والمتعصبين الدينيين . هذه التمثيليات كان يعوزها الدقه والصقل ، ولكنها أبهجت الجماهير مع أن كاترين أخفت أنها مؤلفتها ، وقد وضعت هذه العبارة على ستار المسرح الذى شيدته فى الهرمتاج « انه يهذب العادات بالضحك» ؛ وكان هذا خير تعبير عن هدف كوميدياتها . أما أفضل مسرحياتها ، واسمها « أوليج ، فكانت تتابعاً رائعاً لمشاهد من تاريخ روسيا ، أشاع فيها الحيرية سبعمائة مؤد فى الرقصات والباليهات والألعاب الأولمبية . وكان جل إنتاج كاترين الأدبى يراجعه السكرتيرون ، لأنها لم تتمكن قط من الهجاء أو النحو الروسى ، ثم أنها لم تأخذ هوايتها للتأليف مأخذ الجد الشديد ؛ ولكن الأدب استمد الشجاعة من قدوتها الامبراطورية وأضفى على ملكها عظمة نهائية ومجداً تشوبه الشوائب .

٨ — الأدب

أخذت روسيا تشعر بعدم نضجها الفكرى ، فراح جيش من المؤلفين يقلدون فى تواضع النماذج الأجنبية ، أويترجمون آثاراً حظيت بالشهرة فى فرنسا أو انجلتره أو المانيا . وجادت كاترين بخمسة آلاف روبل من جيبها الخاص لتشجيع هذا السيل الدخيل ، وترجمت هى نفسها قصة « بليزير» لمارمونتيل . فلما تحمس الروس للمشروعات العريضة ترجم رحمانينوف ، أحد ملاك الأرض فى تامبوف ، أعمال فولتير ؛ وترجم فيريفكين ، رئيس كلية قازان ، إلى الروسية «موسوعة» ديدرو . وترجم غير هؤلاء شكسبير والكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ، «وأورشليم المحررة» لتاسو . . .

أما أنجح شعراء العهد فهو جافريل رومانوفتش درزافين . ولد لأسرة رقيقة الحال فى أورنبرج الشرقية ، وكان الدم التتارى يجرى فى عروقه ، فخدم فى فوج بريوبرازنسكى عشرة أعوام ، ورأى كاترين ترقى إلى ذرى السلطة ، وشارك فى إخماد فتنة بوجاشيف ضابطاً فى الجيش ، وشق طريقه صعداً إلى عضوية مجلس الشيوخ . وحين لاحظ درزافين أن الامبراطورة

أطلقت اسم «فليتسا» على أميرة خيرة فى قصة « الأمير خلور » ، أطلق هذا الإسم فى قصيدة عاطفية شهيرة (١٧٨٢) على «الملكة الشبيهة بالآلهة لقبيلة قرغيز — قازاق» وتوسل إلى هذه السلطانة قائلا « علميني كيف أجد الوردة التى لاشوك لها . . . وكيف أعيش حياة تجمع بين اللذة والاستقامة» [٩٢]

وحين ناجى الشاعر فليتسا بأن « من قلمها تفيض السعادة على كل البشر الفانين» كان يمتدح كاترين على نحو واضح . وحين لام نفسه «على النوم حتى الظهر ، وتدخين التبغ ، وشرب القهوة . . . وجعل الدنيا ترتعد لنظراتى... والانغماس فى ولائم فاخرة على مائدة تتألق بالفضة والذهب » ، عرف البلاط كله أن هذه غمزة أراد بها بوتمكين . وقد ارتفع درزافين إلى قمة النشوة فى مديح «الإمبراطورة » فليتسا ، التى «تخلق النور من الظلمات ، ولاتؤذى أحداً » وتقضى عن الهنات ، وتدع الناس يتكلمون كما يشاءون » وتكتب القصص الخرافية لتعلم شعبها ، وتعلم خلور الأبجدية » (أى حفيدها ألكسندر) . ويختتم الشاعر بقوله : « أتوسل إلى النبى العظيم أن يسمح لى بلمس تراب قدميك ، وأن استمتع بذلك الجدول العذب جدول ألفاظك ولحظك . أنى أتضرع إلى قوى السماء أن تنشر أجنحتها الزرقاء وتحرسك فى الخفاء . . . وأن يسطع صيت أعمالك فى الأجيال القادمة سطوع النجوم فى السماء» [٩٣] . وأكد درزافين أنه لايطمع فى جزاء على كل هذا المديح العطر ، ولكن كاترين رقته ، وما لبث أن قرب منها قربا بصره بعيوبها ، فكف عن كتابة المدائح . واتجه إلى عرش أسمى ونظم « قصيدة غنائية للإله » ، مهنئاً اياه تعالى على كونه «ثلاثة — فى — واحد» وعلى حفظه السماوات فى مثل هذا النظام الجميل . وكان أحياناً يهبط إلى الميتافزيقا ، ويردد برهان ديكارت على وجود الله فيقول : « أنا بالطبع موجود ، وإذن فأنت موجود» [٩٤] . وقد ظلت هذه القصيدة الغنائية نصف قرن لاينافسها شعر فى شعبيتها حتى جاء بوشكن .

وقد فاجأ دنيس إيفانوفتش فون فيزين العاصمة بكوميديتين رشيقتين هما «اللواء » و « القاصر» . ونجحت الثانية نجاحاً كاملا حتى أن بوتمكين نصح المؤلف قائلا «مت الآن ، أو لا تكتب شيئاً بعد اليوم » . بمعنى أن أى شيء يكتبه بعد هذا سيضعف من شهرته [٩٥] . وقد رفض فيزين النصيحة ورأى

تحقيق النبوءة التى احتوتها . وفى سنته الأخيرة جاب غربى أوربا وأرسل إلى وطنه بعض رسائل ممتازة احتوت إحداها نبوءة فيها رنين الإفتخار «نحن (الروس) بادئون . أما هم (يقصد الفرنسيين) فمنتهون »[٩٦] .

وأطرف شخصية فى أدب عصر كاترين هو نيكولاى إيفانوفتش نوفيكوف . فقد تطور هذا الفتى بعد أن طرد من جامعة موسكو لكسله وتخلفه ليصبح رجلا ذا نشاط ذهنى لا ينى . فى الخامسة والعشرين (١٧٦٩) ، فى سانت بطرسبرج ، رأس تحرير مجلة «الدبور» التى أطلق عليها هذا الإسم بخبث شيطانى ليعارض دورية سوماروكوف «النحلة النشيطة» . وقد هاجم نوفيكوف بأسلوبه المرح الفساد الذى استشرى فى الحكومة ، وهاجم الإلحاد الفولتيرى السائد فى الطبقات العليا لأنه مدمر للأخلاق والشخصية ؛ وامتدح بالمقارنة ما افترض وجوده من إيمان الروس المسلم وأخلاقهم المثالية قبل بطرس الأكبر . «وكان قدامى الحكام الروس قد توقعوا أن إدخال الفنون والعلوم سيقضى قضاء مبرماً على أثمن كنز يملكه الروس — وهو أخلاقهم »[٩٧] . هنا أيضاً كان روسو يخوض حرباً مع فولتير . وحدجت كاترين «الدبور» بنظرات متجهمة ، فاحتجبت فى ١٧٧٠ . وفى ١٧٧٥ انضم نوفيكوف إلى الماسون الأحرار ، الذين كانوا ينزعون فى روسيا إلى الغيبية ، والتقوية ، والأوهام «الروزكروشية »(*) بينما اخوانهم فى فرنسا يداعبون الثورة . وفى ١٧٧٩ انتقل إلى موسكو ، واضطلع بأعمال مطبعة الجامعة ، ونشر فى ثلاث سنوات من الكتب عدداً يفوق ما أخرجته تلك المطبعة فى أربع وعشرين سنة . وحصل بمعونة مالية من صديق له على مزيد من المطابع ، وكون داراً للنشر ، وفتح مكتبات لبيع الكتب فى جميع أرجاء روسيا ، وأذاع نشر إنجيله فى الدين والإصلاح . وأسس المدارس ، والمستشفيات ، والمستوصفات والبيوت النموذجية للعمال .

فلما أحالت الثورة الفرنسية كاترين من حاكمة مستبدة مستنيرة إلى حاكمة

(*) Rosicrucian نصبة لجمعية سرية اشتهرت فى القرنين الـ ١٧ والـ ١٨ وزعمت أنها تملك معرفة سرية الطبيعة والدين . (المترجم)

مستبدة مذعورة ، خشيت أن يكون نوفيكوف بسبيل قلب النظام القائم . فأمرت بلاتون « مطران موسكو » أن يفحص أفكار نوفيكوف . وكتب الحبر يقول : «أضرع إلى الله الواسع الرحمة أن يكون هناك مسيحيون مثل نوفيكوف ، لا فى القطيع الذى وكله الله وأنت إلى فحسب ، بل فى العالم بأسره» (٩٨) . ولكن الإمبراطورة التى ظلت على ريبتها رغم ذلك أمرت بسجن نوفيكوف فى قلعة شلوسلبورج (١٧٩٢) . هناك ظل حبيساً حتى ماتت كاترين . فلما أفرج عنه بولس الأول اعتكف فى ضيعته بتخفين ، وأنفق سنيه الأخيرة فى التقوى وأعمال البر .

أما ألكسندر نيكولايفتش راد شتشيف فقد لقى حظاً أشد عثاراً . أوفدته كاترين إلى جامعة ليبزج ، فتعرف إلى بعض أعمال جماعة الفلاسفة ، وأثر فيه بنوع خاص كتاب روسو «العقد الاجتماعى» كما أثر فيه فضح رينال لوحشية الأوربيين فى استغلال المستعمرات وتجارة الرقيق . وعاد إلى سانت بطرسبرج وهو يضطرم بالمثل الاجتماعية ، فلما وكلت إليه إدارة الجمرك تعلم الانجليزية ليتعامل مع التجار البريطانيين « ودرس الأدب الإنجليزى » وأثر فيه خاصة كتاب ستيرن «رحلة عاطفية» . وفى ١٧٩٠ نشر كتاباً من عيون الأدب الروسى اسمه «رحلة من سانت بطرسبرج إلى موسكو» . وقد أقر الكتاب بالإيمان القويم ، ولكنه ندد بخدع القساوسة التى يحتالون بها على سذاجة الشعب ؛ وقبل النظام الملكى ، ولكنه برر الثورة على الحاكم الذى ينتهك «العقد الاجتماعى» بتجاهله للقانون . ووصف تمزيق نظام التجنيد الإجبارى لأوصال الأسر ، وبغى السادة على أقنانهم . وقال راد شتشيف إنه أخبر فى أحد الأماكن بنبأ مالك هتك عرض ستين فلاحة عذراء . ثم شهر بالرقابة ودافع عن حرية الصحافة . ولم يكن داعية للثورة « ولكنه طلب التفهم الرحيم لمن يدعون إليها . وناشد النبلاء والحكومة إنهاء القنية . «فلترق قلوبكم أيها القساة ؛ حطموا أغلال اخوتكم « وافتحوا سجون الرق . ان للفلاح الذى يهبنا العافية والحياة الحق فى التصرف فى الأرض التى يفلحها» (٩٩) .

ومن عجب أن الرقيب أجاز الكتاب . ولكن كاترين خافت فى ١٧٩٠ أن يحذو شعبها حذو الثورة الفرنسية . فدونت ملاحظة بضرورة عقاب مغتصب العذارى الستين ، ولكنها أمرت بمحاكمة راد شنشيف بتهمة الخيانة . ووجدت فى كتابه فقرات عن اقتحام الحصون وثورة الجنود على قيصر قاس ، ومدائح للانجليز لمقاومتهم ملكاً ظالماً . فحكم مجلس الشيوخ على المؤلف بالإعدام ؛ وخففت كاترين الحكم إلى النفى عشر سنين فى سيبريا . وسمح الامبراطور بولس الأول لراد شنشيف بالعودة من المنفى (١٧٩٦) ، ثم دعاه ألكسندر الأول إلى سانت بطرسبرج (١٨٠١) . وهناك انتحر بعد سنة ، لأنه ظن دون مبرر أنه سينفى ثانية . ومصيره ومصير نوفيكوف من الوصمات الكثيرة التى تلطخ عهداً رائعاً .

٩ — الفن

صنعت كاترين للفن أكثر قليلا مما صنعته للأدب ، لأن الفن لا يستهوى غير الطبقات العليا ، ولا يقرع ناقوس الثورة . ولكن الموسيقى الشعبية كانت ثورية دون قصد منها ، لأن كلها تقريباً تألف من أغان حزينة فى مقام صغير وبمصاحبة شاكية باكية ، لا تحكى قصة القلوب التى انفطرت حباً فحسب ، بل الأنفس التى براها الكد والكدح . وندر أن سمع النبلاء تلك الأغانى ، ولكنهم استمتعوا بالأوبرات الإيطالية التى جلبها إلى سانت بطرسبرج جالوبى ، وبايزيللو ، وساليرى وتشيماروزا ، الذين كانت الدولة تدفع أجورهم كلهم ، أما كاترين نفسها فلم تكون شديدة الحب للأوبرا . قالت « لا أستطيع فى الموسيقى أن أميز نغمات غير نغمات كلابى التسعة ، التى يشترك كل منها بدوره فى شرف الوجود فى حجرتى ، والتى أستطيع التعرف على صوت كل كلب منها عن بعد » (١٠٠) .

ثم اعترفت أيضاً أنها لا تملك القدرة على فهم الفن . وقد بذلت وسعها لتربى هذا الفهم فى روسيا . فوفرت المال الذى مكن بتسكى من أن يدير بالفعل (١٧٦٤) عجلة أكاديمية الفنون التى أنشئت أيام اليزابث (١٧٥٧) . واشترت روائع الفن المعترف بقيمتها فى الخارج وعرضتها فى قاعات تحفها ،

فدفعت ١٨٠,٠٠٠ روبل ثمناً لمجموعة الكونت فون برول فى درسدن ، و ٤٠,٠٠٠ جنيه ثمناً لمجموعة السير روبرت وليول فى هوتن هول ، و ٤٤٠,٠٠٠ فرنك لمجموعة شوازيل ، و ٤٦٠,٠٠٠ لمجموعة كروزا . وقد عقدت بهذا كله صفقات رابحة دون أن تدرى ، لأن هذه المجموعات التى التقطتها من هنا وهناك ضمت ألفا ومائة لوحة من أعمال رفائيل ، وبوسان ، وفانديك ، ورمبرانت ، وغيرها من التحف الخالدة التى زادت قيمتها مع الزمن وهبوط العملة . واستطاعت من طريق جريم وديدرو (اللذين كانت تتابع نشاط صالونيهما باهتمام) أن تكلف برسم اللوحات فنانين فرنسيين — أمثال فرنيه ، وشاردان ، وهودون — ونسخت لها كطلبها بالحجم الطبيعي لوحات جصية من أعمال رفائيل فى الفاتيكان وبنيت قاعة خاصة بها فى الأرميتاج .

ولم تكلف الفنانين الوطنيين إلا بالقليل ، لأن ذوقها الفرنسى لم يجد فى فن جيلها الروسى غير القليل مما له قيمة باقية . . على أنها قدمت المال لتعليم وإعالة الطلاب فى أكاديمية الفنون وأوفدت عدداً منهم للدراسة فى غربى أوربا . وفى تلك الأكاديمية تخرج رسام أحداث التاريخ أنطون لوزنكو ، ورساما الأشخاص ديمترى ليفتسكى وفلاديمير بوروفيكوفسكى . أما لوزنكوا فقد قضى خمس سنين فى باريس وثلاثا فى روما ثم عاد إلى سانت بطرسبرج (١٧٦٩) ليعلم فى الأكاديمية . وقد أثار ضجة بلوحته المساة « فلاديمير أمام روجنيدا » ، ولكنه — رغم فداحة واجباته الأكاديمية — أخفق فى أن ينتج الروائع المنتظره منه ، ثم اختطفه الموت وهو فى السادسة والثلاثين (١٧٧٣) . وأما ليفتسكى فقد استخدمته كاترين ليرسم بعض الشابات اللاتى كن يدرسن بمعهد سمولنى ؛ والنتيجة شاهد بجالهن الرائع . وقد سرت اللوحة التى صور فيها كاترين بدانتها تحت أردية فضفاضة . كذلك جلست لتصورها مدام فيجيه لبرون ، وكانت من بين الفنانات الفرنسيات الكثيرات اللاتى دعتهن كاترين لأضفاء الرشاقة الفرنسية على الفن الروسى .

وأعظم فنانيها الذين استقدمتهم كان فالكونيه . قدم فى ١٧٦٦ ، وأقام فى روسيا اثنتى عشرة سنة . وقد طلبت إليه كاترين أن يصمم ويصب

بالبرونز تمثالا لبطرس الأكبر ممتطياً جواده . وكان قد جلب معه شابة تدعى ماري — آن — كوللو ، كانت النموذج لرأس التمثال الضخم . وتحدى فالكونيه قوانين الفيزياء بتمثيله الحصان يقفز فى الهواء ، وقائمتاه الخلفيتان فقط تلمسان أرضاً صلبة ، هى صخرة ضخمة جلبت من كاريليا لترمز إلى المقاومة الهائلة التى تغلب عليها بطرس ؛ وتحقيقاً للتوازن أظهر فالكونيه حية نحاسية — رمزاً للحسد — تلدغ ذيل الحصان . وقد احتفظت هذه الرائعة الفنية بتوازنها بينما تغيرت سانت بطرسبرج إلى بتروجراد ثم إلى لننجراد . واستغرق فالكونيه فى هذا العمل وقتاً أطول مما توقعته كاترين ؛ ففقدت اهتمامها به ، وأهملت المثال ، فعاد إلى باريس وقد خاب أمله فيها ، وفى روسيا ، وفى الحياة .

وفى ١٧٥٨ وفد نيكولا — فرانسوا جيليه من فرنسا ليعلم النحت فى الأكاديمية . وقد نبغ ثلاثة من تلاميذه فى عهد كاترين : تشوبن وكوزلوفسكى وشخيدرين . أما تشوبن فقد كلفه بوتمكين بنحت تمثال « كاترين الثانية » لقاعة قصر تاوريدا المقببة (الروتندا) ؛ وقد وصف الخبراء التمثال بأنه « عديم الحياة بارد[١٠١] » . وكذلك يبدو التمثال الذى نحته تشوبن لبوتمكين . أما كوزلوفسكى فقد انتهى إلى مثل هذا الجمود فى المقبرة التى نحتها للمرشال ، سوفوروف ، وحتى فى تمثاله لآله الحب كيوبيد . أما شيخدرين فجل أعماله أنتجها فى عهد ألكسندر الأول : فإلى عام ١٨١٢ ينتمى تمثاله المسمى «الكرتيدات يسندن الكرة السماوية» — وترى فيه امرأة تحمل الدنيا . . وقد تخصص إيفان بتروفتش مارتوس فى التماثيل الجنائزية ، وحفلت الجبانات فى بطرسبرج بتماثيله «الباكية» ؛ وقد قيل عنه أنه « أبكى الرخام» وقد تخلف النحت الوطنى إلا فى تقليده للطرز الأجنبية . وكانت الكنائس الأرثوكسية تحرم التماثيل وقنع النبلاء بالفنانين الذين يعثرون عليهم بين أقنانهم .

ولكن المعمار ازدهر فى عهد كاترين ، لأنها صممت على أن تترك بصمتها على عاصمتها . قالت « ان المبانى العظيمة تعلن عظمة الحكم ببلاغة لاتقل عن بلاغة الأعمال العظيمة » [١٠٢] . وكتبت فى ١٧٧٩ تقول « أنت تعلم أن هوس البناء أقوى اليوم عندنا مما كان فى أى وقت مضى ، ولم يهدم

زلزال قط عمائر قدر العمائر التى شيدناها ... وهذا الهوس شيء لعين ، فهو ينضب المال ، وكلما بنينا ازددنا رغبة فى البناء ، إنه مرض كالسكر بالخمر »[١٠٣] . ومع أنها قالت لفالكونيه « انى لا أعرف حتى كيف أرسم » فقد كان لها رأيها الخاص فى الفن ، أو قل رأى تأثر بالحفائر الرومانية فى هركولانيوم وكتب كايلوس وفنكلمان . فولت ظهرها للباروك المزوق والروكوك الزاهى ، وهما طرازان سادا فى عهد اليزابث ، وفضلت عليهما الطراز الكلاسيكى الجديد الأكثر بساطة ونقاء . وقد عزا إليها بعض معاصريها فضل اصدار التعليمات الواضحة المحددة والرسوم التخطيطية التمهيدية لعمارييها[١٠٤] .

فلما افتقدت الفنانين الوطنيين الذين يحققون لها أفكارها ، ولت وجهها شطر غربى أوربا التماساً لرجال ورثوا التقاليد الكلاسيكية . وهكذا قدم جان باتست فالان دلا موت ، الذى شيد لها على نهر نيفا قصر أكاديمية الفنون (١٧٦٥ — ٧٢) وله واجهة بطراز النهضة من آجر مكسو ورواق معمد كلاسيكى ، وداخله سلم نصف مستدير فخم يفضى إلى قاعة مستديرة تعلوها قبة . وبنى فلان ملحقاً للقصر الشتوى هو الأرميتاج الشهير ، الذى كانت كاترين تراه ملاذاً تحتمى به من مراسيم البلاط ، ولكنه أصبح قاعة تحفها ، وهو اليوم من أهم متاحف العالم . وقالت كاترين فى وصفه لجريم عام ١٧٩٠ « أنه خلوتى الصغيرة ، فى موقع مناسب بحيث لايكلفنى الذهاب إليه أو الإياب منه إلى حجرتى أكثر من ثلاثة آلاف خطوة .. هناك أجول بين طائفة من الأشياء التى أحبها وأزهو بها ، وتلك الجولات الشتوية هى التى تحفظ على عافيتى »[١٠٥] .

ومن فرنسا أيضاً قدم الاسكتلندى تشارلز كاميرون ، الذى درس الزخرفة الكلاسيكية فى وطنه . وقد ابتهجت كاترين بالأشراق والرقة اللذين كان يزين بهما — بالفضة واللاكيه والزجاج واليشب والعقيق والرخام المتعدد الألوان — الجناح الخاص الذى احتفظت به لنفسها ولعشاقها وكلاهما فى « القصر العظيم » بتسارسكو سيلو . كتبت تقول « لم أرقط ضريباً لهذه

الحجرات حديثة الزخرف ؛ ولم أمل قط طوال الأسابيع التسعة الأخيرة من تأملها »[١٠٦] . وحول هذا القصر خططت لها حديقة بالطراز « الطبيعى » و « الانجليزى » ، وصفتها فى خطاب إلى فولتير فقالت : « إننى الآن أهيم حباً بالحدائق الانجليزية الطراز ، بخطوطها القصيرة ، والمنحنية ، ومنحدراتها المدرجة فى رفق ، وبركها وبحيراتها . . . إننى شديدة النفور من الخطوط المستقيمة ؛ وباختصار أقول أن الهوس الانجليزى (الانجلومانيا) يسيطر على هوسى بالنبات »[١٠٧] . وقد بنى كاميرون لولدها بولس وزوجته الثانية الفاتنة فى بافلوفسك (وهى ضاحية أخرى من ضواحى العاصمة) قصراً بطراز الفيلات الإيطالية ؛ هنا حفظ الغراندوق وماريا فيود وروفنا التحف التى جمعاها فى رحلاتهما فى غرب أوربا .

ومن إيطاليا أقبل انطونيو رينالدى ، الذى بنى قصرين باذخين أهدتهما كاترين لجريجورى أورلوف ، قصر الرخام على نهر نيفا ، وقصر جاتشينا قرب تسارسكو سيلو ، الذى أصبح المسكن المفضل عند بولس الأول . ومن إيطاليا جاء جاكومو كوارنجى ، الذى استهوته المعابد اليونانية فى بايستوم وروائع باللاديو فى فتشنتشا . وفى ١٧٨٠ عرض على كاترين عن طريق جريم تصميات ونماذج لأبنية شتى كان يؤمل تشييدها . وافتتنت بها كاترين ومنذ ذلك التاريخ حتى ١٨١٥ شيد كوارنجى فى سانت بطرسبرج أو على مقربة منها العدد الوفير من المبانى بالطراز الكلاسيكى ، مسرح الأرميتاج ، ومعهد سمولنى (الذى ألحقه بدير سمولنى فى راستريللى) ، ومصرف الإمبراطورية ، ومصلى الطريقة المالطية ، والقصر الانجليزى فى بيتر هوف ، وقصر ألكسندر فى تسارسكو سيلو . وقد صمم هذا القصر لحفيد كاترين الذى أصبح فيما بعد ألكسندر الأول ، والذى انتقل إليه فى ١٧٩٣ ، بعد الفراغ من تشييده بعامين . « إنه من روائع معمار القرن الثامن عشر »[١٠٨] . (*)

(*) كان القصر المفضل لدى القيصر نيقولا الثانى ، ومنه فر إلى سيبيريا والموت فى ١٩١٧ . وقد حوله السوفييت متحفاً . ولحقت به أضرار بالغة فى الحرب العالمية الثانيـة . ولكنه رمم .

ولكن ألم يكن هناك معماريون روس ينفقون روبلات كاترين ؟ بلى .
فقد حداها الأمل فى ترك أثر يخلد ذكرها فى موسكو إلى أن تكلف فاسيلى
بازينيف بتصميم «كرملن» من الحجر ليحل محل كرملن إيفان الأكبر
المبنى بالآجر . وصمم بازينيف قصراً هائلا لو قام لتضاءل بالقياس إليه
قصر فرساى ؛ والذين رأوا نموذجه الخشبى — الذى تكلف ستين ألف روبل —
تعجبوا من براعته . غير أن الأساسات التى أرسيت ليقوم عليها هبطت
بهبوط التربة بفعل نهر موسكو ، فنكصت كاترين عن المغامرة على أنها
دبرت المال الذى أتاح لإيفان ستاروف أن يبنى على ضفة نيفا اليسرى قصر
تاوريدا ، وأهدت هذا القصر المنيف إلى بوتمكين تخليداً لفتحه القرم .

وأيا كانت تكلفة نفقات المبانى التى شيدتها كاترين فإنها حققت هدفها .
كتب ماسون المعاصر لها يقول : « إن الرجل الفرنسى بعد دورانه على
شواطىء بروسيا الماحلة وشقه سهول ليفونيا المقفرة التى لم تزرع ، تأخذه
الدهشة والطرب إذ يعثر مرة أخرى وسط بيداء مترامية على مدينة كبيرة
فخمة ، تزخر بمجتمع راق وبأسباب الترويح وبالفنون وألوان الترف التى
خالها لاتوجد إلا فى باريس » [١٠٩] . أما الأمير دلين فبعد أن شهد أوربا
كلها تقريباً خلص إلى أنه « رغم ما فى كاترين من عيوب ، فإن الصروح
التى شيدتها ، العامة منها والخاصة ، تجعل سانت بطرسبرج أبدع مدينة
فى العالم» [١١٠] ولا عجب ، فقد حول لحم عشرة ملايين من الفلاحين
ودمهم إلى طوب وحجر .

١٠ — خاتمـة المطاف

لو أن كاترين سئلت لبينت — كما هو دأب الحكام طوال العصور
والأزمان — أنه ما دام الموت حقاً على البشر على أية حال ، فلم لايسخر
الحكام عبقرية الرجال لتوجيه هؤلاء الأحياء المطاردين والبشر المقضى عليهم
لا محاله بالموت ، لجعل الدولة قوية ، وجعل مدنها عظيمة ؟ لقد عودتها
سنوات السلطان ، وتحديات الثورة والحرب ، وتقلبات النصر والهزيمة ،

أن تطيق آلام الغير دون أن تجفل ، وأن تغضي عن استغلال الأقوياء للضعفاء باعتباره شراً لا قبل لها بعلاجه .

وقد أرهبتها الثورة الفرنسية بعد ما أزعجها العديد من المؤامرات لخلعها وأخافتها فتنة بوجاشيف . وقد أطاقتها راضية حين توقعت ألا تكون أكثر من إطاحة بارستقراطية عاطلة وحكومة عاجزة ؛ ولكن حين أكره حشد من رعاع باريس لويس السادس عشر وماري انطوانيت على ترك فرساي وسكنى التويلرى وسط جماهير أفلت زمامها — وحين أعلنت الجمعية التأسيسية أنها صاحبة السلطة العليا ، وحين ارتضى لويس أن يكون الأداة المنفذة لأوامرها لا غير — عندها ارتعدت كاترين فرقاً من التشجيع الذى أعطى بالمثل للذين سعوا إلى أن يفعلوا نظير هذا في روسيا . فسمحت للأكليروس بأن يحظروا نشر أعمال فولتير التى كانت يوماً ما موضع حبها (١٧٨٩) [١١١] . ثم حرمت هي ذاتها بعد قليل جميع المطبوعات الفرنسية ؛ ونقلت تماثيل فولتير النصفية من قاعاتها إلى حجرة لسقط المتاع (١٧٩٢) [١١٢] ثم نفت المثالي راديشتشيف (١٧٩٠) ، وسجنت نوفيكوف المشرب بروح خدمة المجتمع (١٧٩٢) ، وفرضت رقابة تفتيشية على الأدب والمسرحيات . فلما قطع رأسا لويس السادس عشر وماري انطوانيت بالجيلوتين (١٧٩٣) قطعت صلاتها مع الحكومة الفرنسية ، وحضت الملكيات الأوربية على تأليف تحالف ضد فرنسا . ولم تنضم هي ذاتها لذلك التحالف ، بل استعملته لتشغل به الدول الغربية ريثما تم ابتلاعها لبولنده . وقد قالت لأحد دبلوماسييها « إن كثيراً من مشروعاتى لم يستكمل بعد ، ويجب شغل بلاطى برلين وفيينا حتى يتركانا طلقاء بغير قيود » [١١٣] .

على أن آثاراً ضئيلة تخلفت من تحررها القديم وبقيت حتى ١٧٩٣ . ففي ذلك العام أبلغها أحد الحاشية أن فردريك — سيزار دلاهارب ، الذى كان المعلم الخاص لحفيديها ، جمهورى عنيد . فأرسلت في طلبه وأنبأته بالخبر ، فأجاب « ان جلالتك كنت على علم قبل أن تكلى إلى تعليم الغراندوقين انى سويسرى ، وإذن فجمهورى» ثم رجاها أن تمتحن تلميذيه ، وأن

تحكم على عمله من سلوكهما . ولكنها كانت تطمكم أحسن تعليمهما ، فقالت له «سيدى ، لتكن يعقوبيا أو جمهوريا أو ماشئت ، إننى مؤمنة بأنك رجل أمين ، وهذا يكفينى . فابق مع حفيدى واحتفظ بكامل ثقتى ، وعلمهما بما عهدته فيك من غيرة» (١١٤) .

وفى وسط هذا الضجيج اتخذت آخر عشاقها (١٧٨٩) وهو بلاتون زوبوف . وكان فى الخامسة والعشرين ، وهى فى الحادية والستين . وكتبت لعشيقها «الشرقى» بوتمكين تقول : «عدت إلى الحياة كأننى ذبابة خدرها البرد» (١١٥) . واقترح «تلميذها» الجديد هجوماً مثلث الشعب على تركيا : جيش روسى بقيادة أخيه فاليران ذى الأربعة والعشرين ربيعاً يعبر القوقاز إلى فارس ويقطع كل تجارة اليابس بين تركيا والشرق ، وجيش ثان بقيادة سوفوروف يتغلغل فى البلقان ليحاصر الآستانة ؛ ثم أسطول البحر الأسود الروسى ، تحت إمرة الامبراطورة نفسها ليتسلط على البوسفور . وبعد سنوات من الإعداد بدىء بتنفيذ هذه المغامرة الملحمية (١٧٩٦) واستولى الروس على دربنت وباكو ؛ وتطلعت كاترين إلى انتصارات تكمل برنامجها وتتوج حياتها .

وفى صباح ١٧ نوفمبر ١٧٩٦ بدت مرحة كالعادة . وبعد الفطور اعتكفت فى حجرتها . ومضى وقت ولم تظهر ثانية ، فقرعت خادمتها الباب ، فلما لم تجب دخلت ، فوجدت الامبراطورة منبطحة على الأرض ، صريعة انفجار شريان فى الدماغ ، وفصدت مرتين ، وأفاقت لحظة ، ولكنها فقدت النطق . وفى العاشرة من مساء ذلك اليوم لفظت أنفاسها .

وأحس أعداؤها أنها لاتستحق ميتة رحيمة كهذه . ولم يغفروا لها قط تلك التناقضات بين مزاعمها التحررية وحكمها الاستبدادى ، وضيقها بالمعارضة ، وإخفاقها فى تنفيذ الإصلاح المقترح للقانون الروسى ، واستسلامها للنبلاء فى توسيعها للقنية . ولم تحمد لها انتصاراتها تلك الأسر التى أفقرتها الضرائب الباهظة ، أو التى ثكلت أبناءها بسبب حروبها . ولكن الشعب فى جملته صفق لها لأنها مدت روسيا إلى حدود أرحب وأكثر أمنا . لقد

أضافت ٢٠٠,٠٠٠ ميل مربع لمساحة روسيا « وفتحت ثغوراً جديدة لتجارة روسيا ، وزادت السكان من تسعة عشر إلى ستة وثلاثين مليونا . وكانت عديمة الضمير فى دبلوماسيتها — ربما أكثر قليلا من معظم حكام ذلك العهد فى ابتلاعها بولنده .

أما أعظم منجزاتها فهو مواصلتها جهود بطرس الأكبر لإدخال روسيا فى نطاق الحضارة الغربية . وبينما كان بطرس يفكر فى هذا الهدف بلغة التكنولوجيا ، كانت كاترين تفكر فيه أولا بلغة الثقافة « فاستطاعت بقوة شخصيتها وشجاعتها أن تنتزع الطبقات المتعلمة فى روسيا من العصور الوسطى وتدفعها إلى فلك الفكر الحديث فى الأدب والفلسفة والعلوم والفنون . وكانت بين أندادها من الحكام المسيحيين (باستثناء فردريك الثانى غير المسيحى) سباقة إلى توطيد التسامح الدينى . وقد عقد مؤرخ فرنسى مقارنة فضلها فيها على الملك الأعظم (لويس ١٤) قال « إن سماحة كاترين » وبهاء حكمها » وفخامة بلاطها ومنشآتها ، وآثارها » وحروبها — هذا كله كان بالنسبة لروسيا بالضبط ما كأنه عصر لويس الرابع عشر بالنسبة لأوربا . غير أن كاترين إذا نظرنا إليها كفرد وجدناها أعظم من هذا الملك . ذلك أن الفرنسيين هم الذين بنوا مجد لويس ، أما كاترين فهى التى بنت مجد الروس . ولم يتح لها كما أتيح له ميزة حكم شعب مهذب « ولا أحيطت منذ طفولتها بشخصيات عظيمة مثقفة » [١١٦] .

وفى تقدير مؤرخ انجليزى أن كاترين « هى الحاكمة الوحيدة التى فاقت إليزابث ملكة انجلتره كفاءة ، وهى تعدلها من حيث الأهمية الباقية لأعمالها » [١١٧] . وقال مؤرخ ألمانى « كان كل ما فيها « كائناً سياسياً » ، لاضريب لها من جنس النساء فى التاريخ الحديث ، ولكنها فى الوقت ذاته امرأة خالصة ، وسيدة عظيمة » [١١٨] « ويجوز لنا أن نطبق عليها المبدأ السمح الذى وضعه جوته : كانت عيوبها عدوى انتقلت إليها من جيلها ، أما فضائلها فكانت من صنعها هى . »

الفصل التاسع عشر

اغتصاب بولنده

١٧١٥ – ١٧٩٥

١ – نظرة عامة على بولنده : ١٧١٥ – ١٧٦٤

كانت الجغرافيا ، والعرق ، والدين ، والسياسة ، هي الأعداء الطبيعية لبولنده . ذلك أن هذا القطر كان يعدل فرنسا اتساعاً ، إذ امتد عام ١٧١٥ من الأودر غرباً إلى ما يقرب من سمولنسك وكييف شرقاً ، ولكن لم يكن له حد طبيعي – من جبال أو نهر عريض – على أي جبهة ليقيه شر الغزو ؛ وقد اشتق اسم بولنده من كلمة « pole » وهو السهل . ولم يكن لها سوى منفذ واحد إلى البحر – عند دانتزج ، أما الفستولا الذي وجد له مصباً هناك ، فلم يكن بالحد الذي يصلح للدفاع ضد بروسيا المجاورة . وقد افتقدت الأمة وحدة العرق ، فكانت كثرة البولنديين البالغة ٦,٥٠٠,٠٠٠ نسمه (١٧١٥) في صراع متقطع مع الأقليات الألمانية واليهودية واللتوانية والروسية ؛ وهنا التقى التيوتون والسلاف وجهاً لوجه في عداء طبيعي . ولم يكن هناك وحدة دينية : فالأغلبية الكاثوليكية الرومانية تحكم وتظلم «المنشقين» – وهؤلاء هم الآخرون منقسمون في نزاع وخصام بين بروتستنت وروم أرثوذكس ويهود . ولم يكن هناك وحدة سياسية ، لأن سلطة السيادة التي حرص أصحابها على الاحتفاظ بها كانت في يد « السجيم » أو « الديت» ، المؤلف كله من نبلاء لكل منهم ، بمقتضى حق النقض المطلق ، سلطة إبطال مفعول أي اقتراح يقترحه الباقون كلهم ، وإنهاء أي دورة ، أو أي ديت منتخب ، إن شاء . أما الملك فينتخبه الديت ، وهو خاضع « لمواثيق » يوقعها شرطاً

لانتخابه ، ولم يكن فى استطاعته أن يتبع أى سياسة طويلة المدى وهو مطمئن أقل اطمئنان إلى توريث تاجه لذريته أو تلقى التأييد المتصل . وقد طالب النبلاء بهذه السلطة غير المقيدة على التشريع لأن كلا منهم أراد أن يكون مطلق الحرية فى السيطرة على أراضيه وأقنانه . ولكن التقييد روح الحرية ، فما إن تصبح الحرية مطلقة حتى تقضى عليها الفوضى ، وتاريخ بولنده بعد جان سوبيسكى كان سجلا للفوضى .

وكان أكثر الأرض يزرعه أقنان يرسفون فى قيود ذل إقطاعى لامغيث لهم منه . وكان السيد الإقطاعى أحياناً رفيقاً بهم ، ولكنه كان دائماً مطلق السلطة . وأما أقنانه فلم يدينوا له فقط بجزء المحصول الذى يقدره ويطالبهم به ، بل كان لزاماً عليهم أيضاً أن يعطوه من كدهم ، دون أجر ، عمل يومين أو ثلاثة فى ضيعته كل أسبوع . ومن حسن الحظ أن الأرض الجديدة الرى كانت خصبة ، فوجد الفلاحون ما يكفى لإقامة أودهم ، ولكن كوكس وصفهم بأنهم « أشد فقراً وذلا وشقاء من أى شعب لاحظناه فى رحلاتنا »[١]. وكان سادتهم المحليون هم الطبقة الدنيا من النبلاء أو صغار الأعيان (شلاختا) ، وهؤلاء الملاك بدورهم كانوا خاضعين لنحو مائة من الأقطاب الذين يملكون أو يشرفون على مساحات شاسعة . وكان صغار الأعيان يشغلون معظم الوظائف التنفيذية فى الدولة ، وهم من الناحية النظرية يؤلفون الغالبية فى مجلس السجم ، ولكن السياسة البولندية كانت من الناحية الفعلية صراعاً بين الأقطاب أو أسرهم ، الذين يتلاعبون بمجموعات من صغار الأعيان مستعينين بالنفوذ الاقتصادى أو الرشوة المباشرة[٢] .

وظلت الأسرة فى بولنده تحتفظ بأفضليتها البدائية على الدولة . فكان آل رادزيفل ، وآل بوتوكى ، وآل تشارتوريسكى ، كل منهم يترابط أفراده بعاطفة من التماسك الأسرى أوثق من أى رباط قوى ، هنا كان حب الوطن هو حرفياً احترام الأب وتبجيله ، والأب الأكبر سناً فوق كل شىء . وكانت الأسرة قوية كنظام أو مؤسسة ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادى والتهذيب الأخلاقى ، فلم يكن هناك نزعة فردانية اقتصادية تشتت الأبناء

فى أرجاء الوطن ، والإبن يقيم عادة فى الضيعة الموروثة ، خاضعاً لأمر أبيه مادام الأب حياً . وزكت الأسرة بفضل وحدة السلطة ، هذه الوحدة ذاتها التى أضعف الدولة افتقادها .وكانت كل ثروة الأسرة تحت اشراف أبوى ممركز ، وفى كثير من الحالات كانت تزداد من عام إلى عام بفضل أرباح الاستغلال والتصدير المعاد استثمارها من جديد ، وفى حالات عديدة فاقت ثروة الملك نفسه . وكان عشرون أسرة بولنديه فى القرن الثامن عشر ينفق كل منها أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام على البيت[٣] . وكانت الأسرة القوية تسمى بيتها بلاطاً ، له مستخدموه ، وجيشه الخاص ، وخدمه الكثيرون ، ومظاهر الأبهة الشبيهة بأبهة الملوك ؛ من ذلك أن الأمير كارول رادزيفيل ، الذى بلغت مساحة أرضه نصف مساحة بولنده ، أولم فى ١٧٨٩ وليمة لأربعة آلاف ضيف كلفته مليوناً من الماركات[٤] .

أما أشهر الأسر البولندية قاطبة — والتى بلغ من شهرتها أنها كانت تعرف باسم « الأسرة » فقط — فهى أسرة تشارتوريسكى . فقد تبوأت مرتبة الإمارة منذ القرن الخامس عشر ، واتصلت بصلة القرابة ببيت جاجيللو ، الذى حكم بولنده من ١٣٨٤ إلى ١٥٧٢ . وقد تزوج الأمير كازيميرز تشارتوريسكى (مات ١٧٤١) ، نائب مستشار لتوانيا ، بايزابللا مورستن ، التى أضافت دفعة جديدة من الثقافة الفرنسية إلى الأسرة . وأنجب منها ثلاثة من المشاهير هم : (١) فردريك ميشال تشارتوريسكى ، الذى أصبح كبير مستشارى لتوانيا ، (٢) ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى ، الذى أصبح أمير بالاتين لـ « روسيا الحمراء » ، (٣) قسطنطنيا التى تزوجت ستانسلاس بونياتوفسكى الأول ، وولدت له بونياتوفسكى الثانى ، وهو الشخصية المأساوية الكبرى فى التاريخ البولندى .

ومن مفاخر آل تشارتوريسكى فوق ما تميزوا به أن نزعتهم التحررية نمت بنمو ثروتهم ، فقد طالما عرفوا بترفقهم بأقنانهم ؛ قال أحد معاصريهم « لو أننى ولدت قناً لوددت أن أكون قناً للأمير ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى »[٥] . فأنشأوا المدارس للأطفال ، وزودوهم بالكتب

المدرسية ، وبنوا الكنائس والمستشفيات والأكواخ النموذجية . ثم جلبوا إلى ضيعتهم وقصرهم فى بولاف (قرب لوبلين) معلمين ودارسين دربوا الشباب أياً كانت طبقتهم ، على خدمة الدولة . أما من الناحية السياسية فإن الأسرة عارضت حق النقض المطلق لأن من شأنه أن يجعل الحكم الفعال ضرباً من المحال . واتحدت ضدهم أسر كثيرة شعرت بأن حق النقض هو حاميها الأوحد من الأوتقراطية المركزة . وكان أقواها أسرة بوتوكى ، وزعيمها الأمير فيلكس بوتوكى ، الذى كان فى استطاعته أن يركب ثلاثين ميلا فى اتجاه واحد دون أن يجاوز أرضه — ثلاثة ملايين من الأفدنة فى أوكرانيا .

أما الصناعة والتجارة ، اللتان شاركتا فى القرن السادس عشر فى جعل بولنده قطراً عظيماً وفى إثراء مدنها ، فقد عطلتهما خصومة ملاك الأرض ومجلسهم النيابى المطيع . فكانت مدن كثيرة بأسرها تقع فى نطاق الملكية الخاصة لقطب من الأعيان آثر الزراعة على الصناعة مخافة أن تنشأ طبقة وسطى مستقلة . وكانت منافسة الحرف البدوية التى ينتجها الأقنان فى الضياع قد جرت الكساد على مهرة الصناع فى المدن . كتب انطونى بوتوكى فى ١٧٤٤ يقول « إن خراب المدن ظاهر للعيان حتى أن كبرياتها فى الدولة — باستثناء وارسو دون غيرها — أشبه بأوكار اللصوص » [٦] . فنى مدينة لفوف مثلا كثر النجيل فى الشوارع ، وأصبحت بعض ميادينها حقولا مفتوحة ، ومدينة كراكاو التى كانت يوماً ما من أعظم المراكز الثقافية فى أوربا هبط عدد سكانها إلى تسعة آلاف ، وعدد الطلاب فى جامعتها الشهيرة إلى ستمائة [٧] .

ويرجع بعض ما أصاب المدن من انحلال إلى عودة الكاثوليك إلى غزو بولنده . فقد كان كثير من البروتستنت المطرودين تجاراً أو صناعاً مهرة ، وقد ترك تقلص عددهم فى جميع أرجاء بولنده إلا غربيها (حيث بقى ألمان كثيرون) المسرح البولندى لملاك الأرض ، وكان هؤلاء من الكاثوليك الرومان ، أو فى الشرق من الروم الأرثوذكس أو الموحدين (وهم كاثوليك يمارسون الطقوس الشرقية ولكنهم يعترفون ببابا روما) .

وكان المنشقون أو المخالفون — من البروتستنت والروم الأرثوذكس واليهود ، وجملتهم ثمانية فى المائة من السكان — محرومين من الوظائف العامة ومن عضوية الديت ، وكل الدعاوى المرفوعة ضدهم ينظرها محاكم كاثوليكية خالصة [٨] . وقد بلغت الخصومة الدينية مبلغاً دفع الجماهير عام ١٧٢٤ ، فى مدينة تورون (ثورن) التى كان أكثر أهلها من البروتستنت ، إلى أن تنتهك قدسية القربان وتدوس على صورة العذراء بعد أن أثار غضبها الشديد مسلك طالب يسوعى . وقد أعدم تسعة من هؤلاء المغيرين . واستنجد بروتستنت بولنده ببروسيا ، والروم الأرثوذكس بالروسيا ، وعرضت بروسيا وروسيا الحماية ، ومنها تقدمتا إلى الغزو والتقسيم .

أما أخلاق البولنديين فقد شابهت الأخلاق الألمانية على المائدة ، والفرنسية فى الفراش . وقد أكره الفلاحين على الاكتفاء بالزوجة الواحدة عكوفهم على الأرض والنسل ، ولكن هذا الاكتفاء كان عسيراً فى العاصمة لجمال النساء و « سلوكهن المغرى » [٩] ، هؤلاء النساء اللائى لم يسمحن لتعليمهن الأرقى بأن يقف عقبة فى طريق فتنتهن . ويروى أن نساء الطبقة الراقية فى وارسو كن من الناحية الجنسية منحلات كنساء باريس [١٠] . ويؤكد لنا بوتياتوفسكى أنه كان بكراً حتى الثانية والعشرين [١١] ، ولكنه يضيف أن هذه العفة كانت شاذة فى طبقته — وكان السكر متوطناً لايعرف الفوارق بين الطبقات . فهو بين الفلاحين أنساهم فى نشوته ما يعانون من فقر أو مشقة أو برد ، أما النبلاء فقد سرى عنهم ما يعانون من العزلة والسأم ، وفى جميع الطبقات كان الذكور ينظرون إليه لا على أنه رذيلة بل مظهر من مظاهر التميز . وقد كرم القوم يان كومارتشفسكى لأنه استطاع أن يفرغ فى جوفه دلواً من الشمبانيا فى جرعة واحدة دون أن يدور رأسه أو تخونه قدماه . وقد نبه القوم بونياتوفسكى إلى أنه لن يكون محبوباً ما لم يثمل بالشراب مرتين فى الأسبوع [١٢] . وكان اكرام الضيف عادة شائعة بين الجميع ، ولكنه كان يقاس بمقدار الطعام والشراب الذى يقدم للضيف . وقد يحدث أن يرهن أحد الأقطاب مدينة يملكها ليدفع نفقات مأدبة .

وكان البولنديون المثقفون يضفون على المشهد رونقاً بأزيائهم . أما الفلاح فكان فى الصيف يقنع بالقميص والسراويل إلى الركبة من التيل الخشن ، دون جوارب طويلة أو حذاء . وفى الشتاء يدثر نفسه كالحزمه دون مراعاة للون ، ولا وقت للزينة ، وأما الأعيان الذين يعدون نحو ٧٢٥,٠٠٠ فلباسهم الحذاء الطويل والسيف والقبعة ذات الريشة والرداء الملون من الحرير أو المخرمات ، ثم حول الخصر حزام عريض من النسيج المنقوش ذى الألوان الكثيرة . وهذا الزى الذى اعتزوا بقوميته نقلوه عن المسلمين نتيجة اتصال اللتوانيين بالأتراك فى أوكرانيا ، وقد عكس ما كان يحدث أحياناً من تحالف بين بولنده وتركيا ضد النمسا أو روسيا ، وربما عبر عن عنصر أسيوى فى عادات البولنديين وأخلاقهم .

أما من الناحية الثقافية فقد عطل بولنده من ١٦٩٧ إلى ١٧٦٣ عدم مبالاة ملوكها السكسون بالأدب والفن السلافيين ، كما عطلها حربان مدمران . ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية أهم راع للفنون فحسب ، بل إنها كانت الموزع للتعليم والأمين الأكبر على نفائس الثقافة والأدب . وقد فرضت حجراً دقيقاً على بولنده يقيها حركة العلم والفلسفة فى الغرب ، ولكنها فى نطاق حدودها نشرت المعرفة ونمتها . من ذلك أن جوزيف زالوسكى أسقف كييف جمع ٢٠٠,٠٠٠ مجلد فى وارسو لمكتبته التى تعد من أعظم مكتبات العصر ، وفى ١٧٤٨ فتحها للجمهور وأهداها للأمة ؛ وكان أثناء ذلك يحيا حياة الزهد ، وقد ضحى بنفسه فى الصراع الناشب ليحفظ على بولنده استقلالها .

وهو الذى وجه القسيس الشاب المتطلع « ستانسلاس كونارسكى » إلى دراسة التاريخ والقانون وفى ١٧٣١ أصدر كونارسكى المجلد الأول من أربعة مجلدات جمعت ونسقت القانون البولندى من كازيمير الأكبر حتى وقته . هذه الأبحاث وغيرها كشفت لكونارسكى عن مدى سقوط بولنده المحزن من حالة الازدهار الذى شهدته أيام النهضة الأوربية ، وقد اقتنع بأن البعث لن يأتى إلا من القمة ، لذلك أنشأ فى وارسو (١٧٤٠) « كلية للنبلاء » يتلقى فيها شباب الأشراف تعليماً لايقتصر على الرياضة واللغات والآداب الكلاسيكية (التى أجاد اليسوعيون تدريسها) ، بل يشمل

العلوم الطبيعية واللغات الحديثة . وكان هذا عملاً بطولياً ، لأنه لم يكن لديه مال ولا كتب ، ولا معلمون ولا تلاميذ ، ومع ذلك فقد جعل من كلية النبلاء هذه بعد خمسة عشر عاماً من الكد معهداً ذائع الصيت مرموقاً ، وأحد المنابع للإحياء الثقافى فى عهد بونياتوفسكى ولدستور ١٧٩١ المستنير ، وقد دعا لإصلاح اللغة البولندية تخليصاً لها من العبارات اللاتينية والبلاغة المزوقة ، واحتجت الأمة ، ولكنها تعلمت . ثم توج كونارسكى أعماله بإصداره فى بولنده (١٧٦٠—٦٣) أهم رسالة سياسية فى القرن ، تحمل هذا العنوان البرىء ، « فى التسيير الفعال لدفة المناقشات » ولكنها احتوت ثورة شعواء على حق النقض المطلق . وهنا أيضاً ارتفعت الاحتجاجات الكثيرة ولكن بعد عام ١٧٦٤ لم يحل «ديت» بحق النقض . وبمعونة كونارسكى بدأ بونياتوفسكى إصلاح الدستور البولندى .

وقبل ذلك الإحياء الرائع المتقطع عانت بولنده سبعة عشر عاماً من الفوضى والعار والاضمحلال تحت حكم الملوك السكسون .

٢ — الملوك السكسون : ١٦٩٧ — ١٧٦٣

فى موضع آخر من هذا الكتاب [١٣] ذكرنا كيف تخطى الديت البولندى ابن سوبيسكى العظيم ليعطى تاج بولنده لفردريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا الذى دخل فى المذهب الكاثوليكى بين عشية وضحاها ليصبح أوغسطس الثانى (أى القوى) ملك بولنده ، وكيف ولى شارلى الثانى عشر ملك السويد مكانه ستانسلاس لشتنز نسكى (١٧٠٤) ، وكيف أتاحت هزيمة شارل فى بلطاوه (١٧٠٩) لأوغسطس أن يستعيد عرشه ، وقد تمتع بالقليل من السلطات التشريعية التى كان يتمتع بها ملوك القرن الثامن عشر ، ولكن بكل امتيازات الملوك الجنسية . فلما فشل فى حكم بولنده رد حبه على سكسونيا ، فجمل درسدن ، وأترع جوفه بالجعة ، وأفرغ عافيته بالخليلات ، ثم أضاف الإهانة إلى الأذى باتخاذه واحدة فقط من هؤلاء الخليلات من بين حسان

بولنده . وفى أخريات عهده وضع خطة لتقسيم بولنده بين النمسا وبروسيا وسكسونيا ، ولكنه مات (١ فبراير ١٧٣٣) قبل أن ينفذ تدبيره الشرير . وقد قال على فراش الموت ، « إن حياتى كلها كانت خطيئة متصلة »[١٤] .

وفى فترة خلو العرش التى تلت ذلك خلال تجميع ديت انتخابى ، أغدق المبعوثون الفرنسيون المال ليكسبوا نواباً يعملون على إعادة لشتشزنسكى. وكان ستانسلاس منذ خلعه يعيش فى الألزاس مستمتعاً بالسلام والأمل . وفى ١٧٢٥ أصبحت ابنته مارى ملكة على فرنسا بزواجها من لويس الخامس عشر ، وتوقع لويس الآن أن يتبع حموه ، متى رد إلى عرشه ، السياسة الفرنسية ، سياسة توحيد بولنده وبروسيا وتركيا فى صف واحد يضرب نطاقاً حول النمسا . وشعرت الحكومة الروسية بأن حلفاً كهذا من شأنه إضعافها فى صراعاتها المحتومة مع تركيا وبروسيا ، فبادرت بإرسال الروبلات إلى وارسوا لتمنع انتخاب لشتشزنسكى . ولكن الجنيهات الفرنسية كانت أثقل من الروبلات الروسية ، وفى ١٠ سبتمبر ١٧٣٣ أصبح لشتشزنسكى ملكاً على بولنده باسم ستانسلاس الأول .

ورفضت أقلية الاعتراف بانتخابه ، ووضعت نفسها تحت حماية جيش روسى زحف على الفستولا ونادى بالناخب السكسونى ملكاً على بولنده باسم أوغسطس الثالث (٦ أكتوبر) . وهكذا بدأت حرب الوراثة البولندية ، وبدأ أول تدخل حاسم لروسيا فى شئون بولنده وبحث ستانسلاس عن جيش بولنده يدافع عنه ، فلم يجد جيشاً إلا على الورق ، ففر إلى دانتزج واستنجد بفرنسا . وكان يرأس الحكومة الفرنسية آنذاك الكردينال فلورى ، ولم يكن به رغبة لخوض حرب مع روسيا النائية ، فأرسل مفرزة من ٢,٤٠٠ جندى سحقها الروس بجيش من اثنى عشر ألف مقاتل . وفر ستانسلاس من دانتزج واعتكف فى اللورين . وفى يناير ١٧٣٦ وقع على تنازله عن العرش ، وفى يوليو اعترف بأوغسطس الثالث ملكاً .

ولكنه لم يكن أصلح من لشتشزنسكى لقيادة أمة ركبت الفوضى فى صميم دستورها . وتعاون فترة مع آل تشارتوريسكى فى محاولات لإنهاء

حق النقض ، فاستعملت أسرة بوتوكي الفيتو المرة بعد المرة للاحتفاظ بهذا الحق ، وأخيراً يئس أوغسطس وأخلد إلى الدعة فى درسدن ، ولم يزر بولنده إلا لماما . واستمر الفساد واستشرى ، وشارك الملك فيه إذ ألفى نفسه عاجزاً عن وقفه ، وباع المناصب لمن يدفع فيها أغلى الأثمان . وهيمن الأقطاب على المحاكم والقوات المسلحة ، وتفاوضوا رأساً مع الدول الأجنبية وتلقوا منها الإعانات المالية [١٥] . وناورت فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا لترى أيها يستطيع الظفر بنصيب الأسد من انحلال دولة بولنده الوشيك .

وقبل موت أوغسطس الثالث (٥ أكتوبر ١٧٦٣) وبعده تذرعت المنافسة على تعيين خلفه والتسلط عليه بكل حيلة دبلوماسية حتى وصلت إلى شفا الحرب . فطالب آل بوتوكي بجيش دائم عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ليحمى بولنده من السيطرة الأجنبية ، أما آل تشارتوريسكي فقد راضوا أنفسهم على أن تكون بولنده محمية روسية ، وتفاوضوا مع كاترين الثانية . وأدعت روسيا لنفسها الحق فى حماية الأقلية الروسية الأرثوذكسية فى بولنده ، ومدت ذاكرتها إلى الماضى البعيد لتتذكر أن أقاليم بولنده الشرقية انتزعها من روسيا سانت فلاديمير (٩٥٦ — ١٠١٥) قبل ثمانمائة سنة . أما فرنسا فقد ناصرت ابن أوغسطس الثالث خلفاً له ، فلو أن روسيا سيطرت على بولنده لأنهار صرح السياسة الخارجية الفرنسية كله فى الشرق . وأما فردريك الأكبر الذى كان قد اختتم لتوه سبع سنين من الحرب الطاحنة مع فرنسا والنمسا ، فقد كان فى حاجة إلى صداقة كاترين التى نجا من الكارثة بإذنها ، ووافق على أن يؤيد مرشحها للتاج البولندى ، ثم أبرم معها (١١ أبريل ١٧٦٤) معاهدة تلزم الطرفين سراً بمعارضة أى تغييرات فى دستور بولنده أو السويد ، مخافة أن تقضى أى زيادة فى سلطة الملك إلى جعل أحد هذين القطرين أو كليهما قوياً إلى حد خطر ؛ وهكذا اعتزما الدفاع عن الفوضى باسم الحرية . وهدأت كاترين مخاوف آل تشارتوريسكي بوعدها باختزال حق النقض المطلق بعد أن تستقر الأمور فى نصابها ، وباختيارها محسوباً من هذه الأسرة مرشحاً للعرش . وفى ٧ سبتمبر ١٧٦٤ ، وبإجماع آراء «ديت» أقنعته الروبلات ،

وجيش روسى لايبعد عنه أكثر من ثلاثة أميال ، أختير ستانسلاس بونياتوفسكى ليتبوأ عرش بولنده .

٣ — بونياتوفسكى

ولد لستانسلاس بونياتوفسكى الأب ، حاكم كراكاو، وقسطنطيا تشارتوريسكى ، فى ٧ يناير ١٧٣٢ . قال لمدام جوفران «ربيت تربية صارمة جداً على يد أم ندر أن تجدى لها نظيرا اليوم فى أى مكان » فى حين اكتفى أبى فى وعظى بأن أجد فيه الأسوة الحسنة » [٦٦] . وحين بلغ السادسة عشرة بدأ القيام برحلات واسعة . وفى ١٧٥٣ بهر مدام جوفران وصالونها وكل باريس تقريباً بهيأته ومسلكه وشبابه . وبعد بضع سنوات « وجريا على سنة جيله ، كتب صورة ذاتية كانت مطابقة للحقائق مطابقة منصفة ، قال فيها :

« كان خليقاً بى أن أرضى عن شكلى لو كنت فقط أطول بوصة ... وكان أنفى أقل انعقافاً، وفمى أصغر بعض الشىء . بهذه التحفظات أعتقد أن وجهى طلق معبر ، ومظهرى لا يخلو من امتياز . . . وكثيراً ما يجعلنى قصر نظرى أبدو مرتبكاً، ولكن للحظة واحدة فقط . فالواقع أننى قد أوذى شعور الغير بالتطرف فى الناحية المضادة — بسلوك شديد الخيلاء ويعيننى ما حصلت من تعليم ممتاز على إخفاء عيوبى العقلية والبدنية ، حتى أن كثيراً من الناس ربما توقعوا منى أكثر مما أستطيع إعطاءه فى يسر . وعندى من الذكاء ما يكفى للمشاركة فى أى حديث ، دون أن يكفى للحديث طويلا ومراراً . على أن ما فطرت عليه من تعاطف ولطف كثيراً ما يخف لنجدتى . وبى ولع طبيعى بالفن . . . ويمنعنى كسلى أن أوغل فى الفنون والعلوم كما أشتهى . وأنا إما مفرط فى العمل وإما عاطل منه . وفى استطاعتى الحكم على الأمور حكماً جيداً جداً . . . ولكننى فى مسيس الحاجة للمشورة المخلصة لكى أنفذ أى خطة من بنات أفكارى . وأنا حساس جداً ، ولكن الحزن يؤثر فى أكثر كثيراً من الفرح . فأنا أول من يبتئس . . . وإذا أحببت أحببت حباً جماً . . . ولست

محباً للثأر . ومع أنني فى أول لحظات غيظى قد أتوق للانتقام من أعدائى ، إلا أننى لا قدرة لى أبداً على إنفاذ رغبتى ، فالحنو يقف دائماً حائلا بينى وبين الثأر» [١٧] .

وتوحى قدرة بونياتوفسكى على أن يرى ذاته — ويعبر عنها — على هذا النحو الجميل بأنه ولد ليفكر ويكتب لاليخطط وينفذ . وكان قد التقى بمونتسكيو وقرأ فولتير ، واكتسب رهافة ونعومة المجتمع الفرنسى الفكرية مع درجة من تلك «الحساسية» التى أخذت تجد التعبير عنها فى روسو . وكان شديد الحساسية للنساء ، ويشعر أن ما أعطينه ، جسداً وروحاً ، لا يقدر بثمن . وقد شاع أنه قبض عليه فى باريس لعدم وفائه بدين ، ثم أطلق سراحه بعد حبسه ساعة ، عندما دفعت مدام جوفران ١٠٠,٠٠٠ جنيه ليفرج عنه» [١٨] .

وبعد أن قضى فى باريس خمسة أشهر ، وإذ كان قد تعلم الانجليزية ، فقد مضى إلى انجلتره واختلف إلى بعض جلسات البرلمان ، وتطلع إلى إعادة تشكيل الموقف البولندى على غرار انجلتره كما صورها مونتسكيو . فلما عاد من رحلاته (١٧٥٤) عين مشرفاً أول للتواينا . وبعد عام رافق السير تشارلز هانبرى وليمز إلى روسيا ، وكانت النتائج كما أسلفنا . ثم عاد إلى وطنه عام ١٧٥٦ ، ولكنه ذهب إلى سانت بطرسبرج فى ١٧٥٧ سفيراً لبولنده . وشارك فى المؤامرة ضد البزابث فى ١٧٥٨ ، وأكره على الرحيل عن روسيا دون أن يمهل وحزنت كاترين على رحيله ، ولكنها حين أيدته ليرتقى عرش بولنده لم يكن دافعها أنها لم تزل تحبه ، بل لأنه (فى زعمها) أقل حقاً فى العرش من أى مرشح آخر ، وإذن فخليق به أن يكون أكثر عرفاناً بهذا الصنيع [١٩] . أما هو فلم يفق قط كل الإفاقه من تلك العلاقة الغرامية المثيرة ، وكان يتذكر كاترين قبل أن تقسى السلطة قلبها ، وبقى افتتانه بها حتى حين اتخذته مطية لإخضاع شعبه .

وبعد انتخابه بيومين أرسل النبأ إلى مدام جوفران :

«ماما العزيزة : يبدو أننى أجد لذة أعظم وأنا أدعوك بذلك الإسم

منذ أمس الأول . (وكانت أمه ميتة) لم يكن فى تاريخنا كله انتخاب بهذا الهدوء وهذا الإجماع . . وكانت كل كبريات نبيلات المملكة حاضرات فى ساحة الانتخاب وسط أفواج النبلاء . . . وسرنى أن تنادى بى أصوات جميع النساء كأصوات جميع الرجال . . . فلم لم تكونى هناك ؟ إذن لانتخبت ابنك » [٢١] .

وقد رأينا كيف اقتحمت « ماما » طرق أوربا لتزور « ابنها » فى قصره بوارسو (١٧٦٦) . وإذ لم يكن لديها مفهوم واقعى عن الفجوة التى تفصل بين الحضارتين الفرنسية والبولندية ، فقد تاقت نفسها إلى أن تراه يرفع بولنده فى عام واحد ما يقتضى رفعه قرناً ، وأصبحت مشورتها مصدر إزعاج له » وكدرت محبة بونياتوفسكى البنوية لها ؛ فتنفس الصعداء حين رحلت ، وإن هدأها بالمجاملات وبصورة لشخصه فى إطار مرصع بالماس . واحتفظت بالصورة ولكنها ردت الماس . فلما نأت عنه عاودها حبها له فى كل حرارته ، وكتبت له من فيينا تؤكد له « المحبة التى هى ضرورة من ضرورات حياتى» [٢١]

وبذل ستانسلاس ما وسعه من جهد . فانقطع لمهام الحكم خلال هذه السنوات الأولى بشعور الحاكم المخلص لواجبه . فكان يحضر كل يوم مداولات وزرائه ، ويعكف إلى ساعة متأخرة من الليل على مشكلات اضطلع ببحثها فى تفصيل شديد التدقيق . وقد وفق إلى حد كبير فى تدريب فيلق من الموظفين المدنيين ذوى الكفاية الفائقة والنزاهة المذهلة [٢٢] . ثم فتح بابه لمن يريد لقاءه ، وسحر الجميع بلطفه ، ولم يسحر الجميع بتحمسه للإصلاح . ولكن نشاطه خفف منه إحساسه بأنه معتمد على كاترين ، لا بل على الجيش الروسى الذى خلفته فى بولنده ليكفل سلامته وطاعته . وكان سفيرها الكونت أوتوفون شتاكلبرج يرقبه بعينه الساهرة مخافة أن ينسى سلطان روسيا عليه .

وكان الأعداء يحدقون به من بعيد ومن قريب . فالنبلاء البولنديون حزبان : الحزب الذى يتزعمه آل بوتوكى يدعو للاستقلال قبل الإصلاح ،

ويرغب فى كبح سلطة الملك بالإبقاء على قوة الارستقراطية ، والحزب الآخر الذى يتزعمه آل تشارتوريسكى يطلب الإصلاح أولا ، وحجته أن بولنده بفوضاها الراهنة أضعف من أن تنضو عنها الحماية الروسية . وكان آل تشارتوريسكى مترددين فى تأييد يونياتوفسكى ، فقد أحزنهم سرفه وكثرة خليلاته . وقد خصص له الديت ٢,٢٠٠,٠٠٠ طالر فى العام ، وفى ١٧٨٦ زادها إلى ٦,١٤٣,٠٠٠ جولدن — وهو ما يوازى ثلث إيراد الحكومة . ولكنه تجاوز مخصصاته ، لأنه كان قد اقترض من المصارف فى وطنه وفى خارجه . ودفعت الدولة ديونه مرتين ، ومع ذلك ففى عام ١٧٩٠ كان لايزال مديناً بمبلغ ١١,٥٠٠,٠٠٠ جولدن [٢٣] . وكان مثل كاترين يتطلع إلى تخليد ذكرى ملكه بتشييد الصروح الباذخة ، ووزع نفسه وحاشيته على قصرين غاليين ، وأقام حفلات الترفيه الكثيرة التكلفة ، وأغدق العطايا على الفنانين والكتاب والنساء .

وكانت جاذبيته غالية التكلفة . فلقد كان عند توليه العرش فى الثانية والثلاثين من عمره ، وسيماً مثقفاً كريماً غير متزوج ، فجمع من حوله رهطاً من الحسان يتلهفن على يده وعلى كيس نقوده . وسر العديدات ممن أخفقن فى الزواج منه أن يشاركنه فراشه ، وشاركت بعض الممثلات الباريسيات فى الترفيه عن الملك . واحتج التشارتوريسكيون ، فاعترف بخطاياه وتمادى فيها . وأخيراً قادته خليلة تدعى بانى جرابوفسكا إلى المذبح فى زواج سرى . وبعدها خضعت حياته الجنسية للرقابة الشديدة ، واستطاع أن يبذل اهتماماً أكثر بشئون الحكم والأدب والفنون .

وقد اهتم اهتماماً شخصياً بأعمال وحياة فنانى جيله ومؤلفيه . وحذا حذو كاترين فجمع الصور والتماثيل والكتب ، وبنى قاعة للفن ومكتبة ، وأبرز فى المكتبة تمثالا لفولتير . ووجد عملا للفنانين الوطنيين ، واستقدم غيرهم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا . ولم يستطع بيرانيزى وكانوفا الحضور ، ولكنهما نفذا أعمالا له فى إيطاليا . وقد حول نصف القصر الملكى إلى مدرسة للفن ،

ودبر المال ليمكن شباب الفنانين الواعدين من الدراسة فى الخارج . وأسس قرب وارسو صناعة للبرسلان ضارعت منتجاته منتجات ميسن وسيفر . وقد ألهم بقدوته أثرياء البولنديين — كآدم تشارتوريسكى ، واليزابث لوبوميرسكا ، وهيلين رادزيفيل » وغيرهم — ليجمعوا التحف ، ويكلفوا الفنانين بأعمال فنية ، ويحلوا تنويعات الطراز الكلاسيكى الحديث محل روكوك الفترة السكسونية فى بناء قصورهم وزخرفتها . وكان هو ذاته يحبذ مزيجاً من فن الباروك والفن الكلاسيكى ، وبهذا الطراز صمم دومنيكو مرلينى قصر لازينكى على مشارف وارسو . وكان المصورون الأجانب أثناء ذلك يدربون جيلا جديداً من الفنانين البولنديين الذين بلغوا مرحلة النضج بعد أن اختفت الحرية البولندية .

أما أول الخطوات التى أفضت إلى تلك الكارثة فكانت العقبات التى وضعها فردريك الأكبر فى طريق اصلاح بولنده لذاتها . وإلى ذلك الحين (١٧٦٧) لم يكن لدى كاترين فيما يبدو نية تقطيع أوصال قطر كبولنده خاضع خضوعاً واضحاً للنفوذ الروسى ، فالتقسيم سيوسع رقعة بروسيا بحيث تغدو عائقاً أشد خطراً مما يمكن أن تكونه بولنده السلافية أمام مشاركة روسيا فى شئون غربى أوربا وثقافتها . لذلك اكتفت بالمطالبة بإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية الكاملة . ولكن فردريك أراد أكثر من هذا . فهو لم يستطع قط أن يروض نفسه على قبول هذه الحقيقة ، وهى أن غربى بروسيا ، الألمانى البروتستنتى فى غالبيته الكبرى ، خاضع للحكم البولندى الكاثوليكى . ومن ثم كان نوع من التقسيم لبولنده هدفاً عنده لايغيب عنه . وأى تقوية لبولنده ، سياسية أو عسكرية ، ستعرقل بلوغ أهدافه ؛ لذلك أيد عملاؤه حق النقض المطلق ، وعارضوا فى تشكيل جيش قومى بولندى ، ورحبوا بالخلافات المحتدمة بين الكاثوليك والمنشقين لأنها تتيح ذريعة للغزو .

وتعاون تعصب الكهنوت الكاثوليكى الرومانى مع خطط فردريك . فقد قاوم كل محاولة تبذل لإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية . وفى « روسيا البيضاء » — التى كانت آنئذ جزءاً من بولنده ، مشتملة على منسك — انتزعت

السلطات الكاثوليكية الرومانية مائتى كنيسة من أتباعها الروم الأرثوذكس وأعطتها لطائفة الموحدين ، ومنعت الجاليا الأرثوذكسية من ترميم كنائسها القديمة وبناء أخرى جديدة . وفى حالات كثيرة فصل الأطفال عن آبائهم لينشأوا على طاعة الكنيسة الرومانية ، وأسيئت معاملة القساوسة الأرثوذكس ، وأعدم بعضهم [٢٤] ، وكان بونياتوفسكى ، وهو ربيب جماعة الفلاسفة الفرنسيين ، ميالا إلى التسامح الدينى [٢٥] ، ولكنه كان عليماً بأن الديت سيقاوم ، بالقوة ان اقتضى الأمر ، أى خطوة للسماح لغير الكاثوليكى الرومان بعضويته ، وأحس أنه ينبغى تأجيل اقتراحا كهذا حتى يستطيع تعديل من نوع ما لحق النقض المطلق أن يشد أزره . وأجاب فردريك وكاترين بأنهما لايطلبان من بولنده أكثر مما بمنحانه لأقلياتهم الدينية . وقدم للديت الذى اجتمع فى أكتوبر ونوفبر ١٧٦٦ التماس من بروسيا وروسيا والدنمرك وبريطانيا العظمى بمنح اخوانهم فى الدين فى بولنده كامل حقوقهم المدنية .

وهنا أثارت بلاغة «كاجيتان سوليتك» أسقف كراكاو ثائرة النواب ، فهبوا غاضبين وطالبوا لا برفض الإلتماس فحسب ، بل بتقديم مؤيديه البولنديين للمحاكمة لأنهم خونة لبولنده ولله [٢٦] . ونجا بجلدهم من الموت نفر حاولوا الدفاع عن الملتمس [٢٧] . وحاول بونياتوفسكى أن يهدىء المجلس بإصدار (نوفبر ١٧٦٦) نبذة سماها «آراء مواطن صالح» ودعا فيها جميع البولنديين للوحدة القومية ، وأنذرهم بأن الشعب المنقسم على ذاته يحرض على الغزو . ثم رجا فى الوقت نفسه السفير البولندى فى بطرسبرج أن يفصل روسيا عن الدول موقعة الملتمس . وكتب يقول « لو أصروا على هذا (الملتمس) فإنى لا أتوقع غير عشية كعشية (مذبحة) القديس بارتولميو للمنشقين ، وحصاداً من السفاكين أمثال رافياك يغتالوننى . . وستحيل الامبراطوره عباءتى الملكية رداء (للقنطور) نيسوس . وسيكون على أن أختار بين نبذ صداقتها وبين مناصبة وطنى العداء» . وردت عليه كاترين بطريق نيكولاى ريبنان سفيرها فى وارسو تقول « لا أستطيع أن أتصور كيف يرى الملك نفسه خائناً لوطنه لمجرد أنه يؤيد مطالب العدل والإنصاف» [٢٨] .

لقد كان يفصلها عن بولنده من البون الشاسع سواء فى المسافة أو التعليم ما لا يتيح لها الشعور بوطيس الغضب والكبرياء البولنديين . فلما ألفت جماعة من نبلاء البروتستنت اتحاداً فى تورن ، وألف حزب من المتشبعين لآل تشارتوريسكى اتحاداً فى رادوم ، أمرت كاترين ربنن بأن يعرض عليهما حماية روسيا . وتحت ستار هذه الحجة جلب ثمانين ألف مقاتل روسى إلى تخوم بولنده ، وبعضهم إلى وارسو ذاتها .

وعاد الديت إلى الإجتماع فى أكتوبر ١٧٦٧ . وحض الاسقفان زالوسكى وسولتيك النواب على الوقوف بحزم أمام أى تغيير فى الدستور . وهنا قبض ربنن على الأسقفين واثنين من العلمانيين بتهمة إهانة الامبراطورة متخطياً بونياتوفسكى ، ونقلهم إلى كالوجا على تسعين ميلا جنوب غربى موسكو . فاحتج الديت ، وأعلن ربنن أنه إذا لقى المزيد من المعارضة فإنه لن يكتفى بترحيل أربعة أقطاب فقط بل أربعين . وفى ٢٤ فبراير ١٧٦٨ استسلم الديت لتهديدات الحرب وأبرم مع روسيا معاهدة قبل بها كل مطالب كاترين . فمنح المنشقون الحرية الكاملة للعبادة الدينية ، وحقهم فى أن يختاروا لعضوية الديت وللوظائف العامة ، وتقرر أن تنظر الدعاوى القضائية بين الكاثوليك والمنشقين أمام محاكم مختلطة . وسر الديت وكاترين وفردريك بتثبيت المعاهدة لحق النقض المطلق ، مع بعض استثناءات للتشريع الاقتصادى . وقبل الديت كاترين حامية لهذا الدستور الجديد ، ولقاء هذا ضمنت كاترين الوحدة الإقليمية لبولنده ما استمر هذا الإتفاق . واغتبطت لأنها لم تكتف بمنح بولنده نصيباً من الحرية الدينية أكبر حتى مما تمتعت به انجلترة ، بل أنها أحبطت خطة فردريك لتقسيم بولنده . وتلقى بونياتوفسكى تهانى جماعة الفلاسفة وازدراء شعبه .

٤ — التقسيم الأول

اتفق الوطنيون والقساوسة البولنديون ١٧٦٨ — ٧٢ مع فردريك على عدم قبول الموقف . وأدان الأكليروس الكاثوليكى الرومانى بقوة تسليم استقلال بولنده الذاتى لامرأة ملحدة روسية . واستنفر البولنديين رجلان ،

أسقف كامر فنيك المسمى آدم كراسنسكى ، ويوزف بولاسكى (أبو كازيمير ولاسكى الذى قاتل دفاعاً عن أمريكا) ، بالعظات والنشرات ليؤكلوا من جديد حريتهم السياسية ودكتاتوريتهم الدينية . فما أنقضى أسبوع على استسلام الديت لربنن حتى ألفت جماعة من البولنديين (٢٩ فبراير ١٧٦٨) اتحاد «بار» — وهى مدينة على الدنيستر فى أوكرانيا البولندية . وكان الأقطاب الذين مولوا الحركة مدفوعين بكراهيتهم لكاترين والملك ، وكان « الجمهور الأبله » كما لقب فردريك أتباعهم يضطرم غيرة على المذهب الحق الأوحد ، وتردد صدى هذه الحماسة فى شعر الشعراء يتحسرون فى مراثى حزينة على إذلال بولنده و « ارتداد » ملكها . وبعثت تركيا والنمسا للوطنيين السلاح والمال ، وأقبل دمورييه من فرنسا لينظمهم فى وحدات مقاتلة . وانضم البولنديون الراغبون فى رد الأسرة السكسونية للعرش إلى الحركة التى ما لبثت أن انتشرت إلى مواقع متفرقة فى طول البلاد وعرضها . وكتب ربنن إلى كاترين يقول « ان بولنده بأسرها اشتعلت ناراً » . وفكر بونيا توفسكى فى الانضمام إلى الاتحاد ، ولكن أعضاءه الغلاة المتهورين نفروه وأقصوه عنه بالمطالبة بخلعه إن لم يكن بإعدامه [٢٩] . وإذا جاز أن نصدق فولتير [٣٠] ، فإن ثلاثين من أعضاء الاتحاد أقسموا فى تشستوكوفا هذا القسم :

« نحن الذين أثارتنا غيرة مقدسة دينية ، والذين صممنا على الثأر لله والدين والوطن ، بعد أن أهاننا ستانسلاس أوغسطس ، محتقر الشرائع السماوية والأرضية ، وراعى الكفار والمهرطقين ، نتعهد ونقسم أمام صورة أم الرب المقدسة المعجزية بأن نستأصل من وجه الأرض شأفة من يدنسها بوطئة الدين . فليساعدنا الرب ! » .

وأمر ربنن الجيش الروسى بإخماد الفتنة ، فطرد الاتحاديين وراء الحدود التركية وأحرق مدينة تركية . فأعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٧٦٨) وطالبت بجلاء الروس عن بولنده وتحريرها . واغتنم القوزاق فرصة الاضطراب الشديد ليغزوا أوكرانيا البولندية ، فبطشوا بملاك الأرض ، ووكلائهم اليهود ، والفلاحين الكاثوليك الرومان أو البروتستنت ، فى مهرجان من

التقتيل العشوائى ، ففى مدينة واحدة قتلوا ستة عشر ألف رجل وامرأة وطفل . ورد الاتحاديون بقتل من وصلت إليه أيديهم من الروس والمنشقين ، وهكذا عانى البروتستنت واليهود من خطر مضاعف . ففى هذه السنوات بجملتها (١٧٦٨ — ٧٠) هلك خمسون ألفاً من سكان بولنده سواء فى المذابح أو المعارك [٣١] .

وبدأت كل الأطراف الآن حديث التقسيم . أما الاتحاديون فقد اتهمهم أعداؤهم بأنهم اتفقوا على تقسيم بولنده فيما بينهم وبين حلفائهم [٣٢] . ففى فبراير ١٧٦٩ أرسل فردريك إلى سنانت بطرسبرج اقتراحاً بتقسيم بولنده بين روسيا وبروسيا والنمسا ، واشترطت كاترين فى ردها أن تمد بروسيا والنمسا يد العون لروسيا لطرد الترك من أوربا ، لكى توافق على أن تختص بروسيا بذلك الجزء من بولنده الذى يفصل بروسيا الكبرى عن بروسيا الشرقية ، أما باقى بولنده فيخضع للحماية الروسية [٣٣] ، ولكن فردريك تردد . أما شوازيل المتحدث باسم فرنسا فقد اقترح على النمسا أن تستولى على الأقاليم البولندية المجاورة للمجر . ورأتها النمسا فكرة مواتية فى وقت موات ، وعليه ففى أبريل ١٧٦٩ احتلت إقليم سبتز البولندى » الذى كانت المجر رهنته لبولنده فى ١٤١٢ ولم يفك رهنه قط [٣٤] . وفى ١٧٧٠ اقترح الترك الذين كانوا آنئذ يقاتلون بصفتهم مدافعين عن بولنده — على النمسا تقسيم بولنده بين النمسا وتركيا [٣٥] .

وبينما كانت هذه المفاوضات دائرة ارتضت الدول الغربية فكرة تقسيم بولنده نتيجة لا مناص منها لفوضاها السياسية ، وأحقادها الدينية ، وعجزها الحربى و « أدرك كل رجل دولة فى القارة أن الكارثة واقعة لامحالة » [٣٦] . ولكن البولنديين من خصوم الاتحاديين فى هذا الوقت أوفدوا عضواً فى الديت ليطلب إلى الفيلسوف الاشتراكى مابلى ، وإلى عدو جماعة الفلاسفة روسو ، أن يضعا دستوراً مؤقتاً لبولنده جديدة . وقدم مابلى توصياته فى ١٧٧٠ — ٧١ ، أما روسو فقد فرغ من « دستور بولنده » فى ابريل ١٧٧٢ — بعد شهرين من التوقيع على أولى معاهدات التقسيم .

واستمتع اتحاد بار بلحظات من النشوة قبل انهياره . فى مارس ١٧٧٠ ، ومن مدينة فارنا التركية ، أعلن خلع بونياتوفسكى . وفى ٣ نوفمبر ١٧٧١ ، اعترض بعض — الاتحاديين طريقه وهو يغادر منزل عم له فى الليل ، وتغلبوا على حرسه ، وقتلوا أحدهم رمياً بالرصاص ، ثم جروا الملك من داخل عربته ، وأحدثوا قطعاً فى رأسه بضربة سيف ، ثم اختطفوه من عاصمة ملكه . ولكن دورية من الشرطة هاجمتهم فى غابة بيلنى ، وأثناء العراك هرب بونياتوفسكى ، واتصل بالحرس الملكى ، فأتى رجاله وعادوا به إلى قصره مشعث الشعر ينزف دماً فى الخامسة صباحاً . وهكذا قضى على كل احتمالات المصالحة بين الحكومة والاتحاد . ولجأ بونياتوفسكى إلى المساعدة الروسية ، وقمع الاتحاد ، وبقيت منه بقية فى تركيا — الهلال يحمى الصليب (١٧٧٢) [٣٧]

على أن تقدم جيوش روسيا إلى البحر الأسود والدانوب أزعج كلا من بروسيا والنمسا . فلا فردريك الثانى ولا جوزف الثانى كانا مغتبطين بتوقع سيطرة روسيا على البحر الأسود ، وأسوأ من ذلك على الآستانة . وكانت بروسيا قد تعهدت فى معاهدتى ١٧٦٤ و ١٧٦٦ بأن تساعد روسيا إذا هوجمت ، وكانت تركيا من الناحية الشكلية هى المعتدى فى حرب ١٧٦٨ الروسية التركية ، وكانت بروسيا تعرض خزانتها للإفلاس بإرسالها المعونات المالية لروسيا . أما النمسا التى ساءها دخول القوات الروسية فلاشيا فكانت تهدد بالتحالف مع تركيا ضد روسيا ؛ فى تلك الحالة كانت روسيا ستنتظر من بروسيا أن تهاجم النمسا . ولكن فردريك كان قد ضاق ذرعاً بالحرب . لقد خاض حربين ليستولى على سيليزيا ويحتفظ بها ، فلم يخاطر بها الآن ؟ ومن ثم آثر الطرق الدبلوماسية . وتساءل ألا يمكن استرضاء الدول الثلاث بحصص يلتهمونها من أرض بولنده ؛ لو أن الأمور تركت تجرى مجراها والسفير الروسى يحكم بولنده فعلا لما كانت المسألة إلا مسألة وقت حتى تبتلع روسيا ذلك البلد كلية متسترة وراء أى حجة . فهل ما زال فى الإمكان الحيلولة دون هذا ؟ بلى ، إذا ارتضت كاترين أن تأخذ بولنده الشرقية فقط ، وتدع فردريك يأخذ بولنده الغربية وتنسحب من الدانوب . وهل يخفف

من شره يوزف للقتال أن يعطي نصيباً من الغنيمة ؟

وعليه ففي يناير ١٧٧١ اقترح الأمير هنري ، أخو فردريك ، الخطة على الدبلوماسيين الروس في سانت بطرسبرج . واعترض بنن بأن روسيا قد ضمنت وحدة بولنده الإقليمية ؛ فذكروه بأن هذا الضمان كان رهناً بالتزام بولنده بدستورها الجديد وتحالفها مع روسيا ، وأن هذا الالتزام انقطع بانضمام العدد الكبير من النواب لاتحاد بار المتمرد . ومع هذا لم ترض كاترين عن الخطة . فأي شيء يدعوها لإعطاء فردريك جزءاً من بولنده بينما قد تأخذ هي الكل بعد قليل ؟ ولم تدعم قوة بروسيا بمزيد من الأرض ، والموارد ، والثغور البلطية ، ومزيد من الجند الفارعين ، ولكنها لم ترد خوض حرب مع فردريك ، فقد كان لديه ١٨٠,٠٠٠ رجل تحت السلاح ، وآثرت على ذلك أن تجعله يمنع يوزف من الاتحاد مع تركيا ضد روسيا ، فهدفها الحاضر ليس بولنده بل البحر الأسود . وعليه ففي ٨ يناير ١٧٧١ ، أشارت لهنري عرضاً في حفلة إلى موافقتها مبدئياً على خطة فردريك .

وانقضى عام قبل أن تتمكن المفاوضة من الفصل في تقسيم الغنيمة . فقد أراد فردريك أن يأخذ دانتزج ؛ فاعترضت كاترين ؛ وكذلك بريطانيا التي كانت تجارتها مع البلطيق ترسو على ذلك الثغر . وفي غضون هذا عبأت النمسا قواتها ، وتحالفت سراً مع تركيا . وفي ١٧ فبراير ١٧٧٢ وقع فردريك وكاترين ؛ اتفاقاً ؛ على تقسيم بولنده . وألانت كاترين جانب يوزف بتخليها عن جميع مطالب روسيا في فلاشيا ومولدافيا ؛ ثم إن رداءة محصول ١٧٧١ جعل من المستحيل عليه إطعام جيشه . وكانت ماريا تريزا من جهة أخرى تتوسل إلى ولدها بكل دموعها لتمنعه من الاشتراك في اغتصاب بولنده ، غير أن فردريك وكاترين أكرهاه على الموافقة بشروعهما في الاستيلاء الفعلي على الأقاليم التي خصصا نفسيهما بها . وفي ؛ أغسطس ١٧٧٢ أضاف يوزف توقيعه على ميثاق التقسيم .

أما المعاهدة فبعد الديباجة التي ابتهلت إلى الثالوث المبارك ، وافقت على أن تحتفظ بولنده بثلثي أرضها وثلث سكانها . واستولت النمسا على بولنده الجنوبية بين فوليفيا والكربات ، مع غاليسيا وبودوليا الغربية — ٢٧,٠٠٠

ميل مربع ، و ٢,٧٠٠,٠٠٠ — نسمة . وأخذت روسيا « روسيا البيضاء » (بولنده الشرقية إلى دوينا ودنيبر) ٣٦,٠٠٠ ميل مربع ، و ١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذت بروسيا « بروسيا الغربية » فيما عدا دانتزج وتورن ١٣,٠٠٠ ميل مربع و ٦٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذ فردريك أصغر نصيب ؛ ولكنه كان قد ألزم المتآمرين بالسلام ؛ و « خاط » — على حد قوله بروسيا الغربية وبروسيا الشرقية مع براندنبرج . وقد قال الوطني ترايتشكي إن فردريك على أية حال لم يفعل أكثر من أنه رد إلى ألمانيا « معقل الفرسان التيوتون » — وادى فايشزال الجميل — الذى انتزعه الفرسان الجرمان من البرابرة فى الأيام الخالية» [٣٨] وذكر فردريك أوربا بأن سكان بروسيا الغربية كثرتهم العظمى ألمانية وبروتستنتيه ، أما كاترين فقد ذكرت أن الإقليم الذى أخذته يسكنه كله تقريباً اتباع الكنيسة الرومية الكاثوليكية المتحدثون بالروسية [٣٩] .

وسرعان ما احتلت الدول الثلاث أنصبتها من الغنيمة بجيوشها . واستنجد بونياتوفسكى بالدول الغربية لتمنع التقسيم ؛ ولكنها كانت فى شغل شاغل عنه ؛ ففرنسا تتوقع الحرب مع انجلتره ؛ وقد ترددت فى معارضة حليفتها النمسا ؛ وانجلتره تواجه الثورة الوليدة فى أمريكا ، والخطر الذى قد يأتيها من فرنسا وإسبانيا ؛ ونصح جورج الثالث بونياتوفسكى بأن يصلى لله [٤٠] . وطالبت الدول صاحبة التقسيم بدعوة الديت ليصدق على التقسيم الجغرافى الجديد ؛ فماطل بونياتوفسكى عاماً ؛ وأخيراً دعا الديت للاجتماع فى جرودنو. ورفض الكثير من النبلاء والأساقفة حضوره ، وبعض الذين جاءوا واحتجوا نفوا إلى سيبيريا ؛ وقبل غيرهم الرشا ؛ وحولت البقية المتخلفة من الديت نفسها إلى اتحاد كونفدرالى (يبيح فيه القانون البولندى حكم الأغلبية) ، ووقع الديت المعاهدة التى نزلت عن الأقاليم المنتزعة من بولنده (١٨سبتمبر ١٧٧٣) وبكى بونياتوفسكى ووقع كما بكت ماريا تريزا ووقعت .

وقبلت أوربا الغربية هذا التقسيم الأول على أنه البديل الوحيد لابتلاع روسيا لبولنده ابتلاعاً تاماً . ويقال إن بعض الدبلوماسيين « أذهلهم اعتدال

الشركاء ، الذين اكتفوا بالثلث فى حين كان الكل رهن إشارتهم إن طلبوه»[٤١] .
واغتبط جماعة الفلاسفة لأن بولنده المتعصبة عاقبها مستبدوهم المستنيرون ،
ورحب فولتير بالتقسيم باعتباره هزيمة تاريخية للكنيسة الكاثوليكية [٤٢] .
ولكنه بطبيعة الحال لم يكن سوى انتصار القوة المنظمة على العجز الرجعى .

٥ — التنوير البولندى ١٧٧٣ — ٩١

كان على بونياتوفسكى أن يختار الآن بين روسيا وبروسيا حامياً له وسيداً عليه . فاختار روسيا ، لأنها أكثر بعداً ، ولأن روسيا دون غيرها تستطيع منع فردريك من الاستيلاء على دانتزج وتورن . وكانت كاترين تواقة إلى الحيلولة دون مزيد من توسع بروسيا ، التى كان جيشها العقبة الكئود فى طريق التوسع الروسى غرباً . لذلك أمرت سفيرها فى وارسو بأن يقدم العون لبونياتوفسكى بكل طريقة تتفق ومصالح روسيا ، وأرسلت إلى الملك المقترحات التى وضعها بنين من قبل لدستور بولندى أيسر تنفيذاً . وقد احتفظ هذا الدستور بنظام الملكية الانتخابية وحق النقض المطلق ، ولكنه دعم قوة الملك بأن أقام برآسته ، وكأداته التنفيذية ، مجلساً دائماً من ستة وثلاثين عضواً ، ينقسم إلى وزارات للشرطة والعدل والمالية والشئون الخارجية والحرب ، ثم نص على إنشاء جيش نظامى من ثلاثين ألف مقاتل . وخاف النبلاء أن يهدد جيش كهذا سيطرتهم على الملك ، فخفضوا العدد إلى ثمانية عشر ألفاً ، على أن الديت الذى انعقد فى ١٧٧٥ صدق على الدستور الجديد مع هذا الاستثناء واستثناءات صغيرة أخرى ، وأصبح فى وسع بونياتوفسكى الآن أن يشرع فى رد شىء من العافية على الأمة .

واستمر الفساد ولكن الفوضى قلت ، فأمكن التغلب على عصابات قطاع الطرق ، ونما الاقتصاد القومى . وعمقت الأنهار لتسمح بمرور السفن الكبيرة ، وشقت الترع لتصل بين الأنهار ، وأكملت فى ١٧٨٣ «قناة ملكية» تربط البحرين البلطى والأسود . وازداد سكان بولنده بين عامى ١٧١٥ و ١٧٧٣ من ٦,٥٠٠,٠٠٠ إلى ٧,٥٠٠,٠٠٠ ، وتضاعف دخل الدولة . وتقرر نظام للمدارس القومية ، وأعدت الكتب المدرسية وزود بها التلاميذ ،

ومنحت الهبات من جديد لجامعتى كراكاو وفلنو وبعث فيهما النشاط ،وأسست الدولة كليات لتخريج المعلمين ومولتها . وكان يونياتوفسكي يحب أن يحيط نفسه بالشعراء والصحفيين والفلاسفة . كتب كوكس يقول « إن الملك يولم كل خميس للأدباء المشهورين بعلمهم وقدراتهم ، وجلالته يترأس بنفسه المائدة » [٤٣] . ويقود النقاش فى الكتب والأفكار . وقد استضاف ثلاثة مؤلفين ليعيشوا معه ، ورفع دخل مؤلفين آخرين فى صمت [٤٤] . وكان آلاف البولنديين ، مع تقديمهم فروض الإجلال للكنيسة — يقرءون لوك ومونتسكيو وفولتير وديدرو ودالامبير وروسو . وهكذا أرسيت أسس التنوير البولندى أو الستانسلافى .

وقد اجتذب يسوعى يدعى آدم ناروشفتش أذن الملك بشعره ، فرقى أسقفاً ، ولكنه واصل نظم الشعر العاطفى للطبيعة « ومازال « ترنيمته للشمس » و « فصوله الأربعة » تحبب فيه من يستطيعون قراءته فى الأصل . وقد استعملت « قصائده الهجاءة » ألفاظاً شعبيه رابيلية الطابع أحياناً أو نابية . وطلب إليه ستانسلاس أن يكتب تاريخاً لبولنده يجمع بين السهولة والعمق . فأنفق الشاعر فى هذا العمل تسع سنين « وأخرج فى ستة مجلدات (١٧٨٠ — ٨٦) أثراً يمتاز بتوثيقه الدقيق . ولكن حماسته فترت بعد التقسيم الثانى ، وأصيب بالاكتئاب ، ولم يعمر أكثر من سنة بعد التقسيم الأخير [٤٥] .

أما أبرز كتاب العهد البولنديين فهو اجناتسى كراسيكى . وقد اكتسب فى رحلاته صداقة فولتير وديدرو [٤٦] وأصبح قسيساً ، ثم رئيساً للأساقفة آخر الأمر « ولكن ستانسلاس حثه على إطلاق العنان لمواهبه الشعرية . فكتب ملحمة هازلة سماها « ملحمة الفيران » انتقد فيها نقداً لاذعاً حروب جيله وصورها معارك بين الجرذان والفيران . وفى قصيدته «هوس الرهبنة» (١٧٧٨) هزأ بالخصومات الديرية وأسلحتها الفتاكة هى الكتب اللاهوتية . ثم اتجه إلى النثر ، فروى فى « مغامرات السيد نيقولا المكتشف» (١٧٧٦) كيف اكتشف نبيل بولندى شاب « مزود بكل حصيلة العصر وعواطفه ، تحطمت به السفينة على جزيرة غريبة « أن الرجال والنساء يمكن أن يكونوا

مجدين فضلاء رغم وجودهم فى « حالة الفطرة » . وقد اقتفى خطى هومر وسويفت وديفو فى أعماله هذه ، ثم اقتبس أسلوب أديسون وأخرج سلسلة من صور الحياة اليومية ، منها « بان بودستولى » (١٧٧٨ وما بعدها) التى تصف حياة جنتلمان ومواطن مثالى . وفى « قصص خرافية وأمثال (١٧٧٩) تحدى فيدروس ولافونتين » وهاجم فى تهكم لاذع خراب اللمة والوحشية المستشرية من حوله . وكانت آخر نصيحة له هوراسية النزعة « والتمس لك ركناً هادئاً ، ودع السعادة تأتيك خلسة » [٤٧] .

ومع أن تأثير التنوير الفرنسى على ناروشفتش وكراسيكى قد حد منه سلطان الدين ، إلا أنه ظهر بشكل قاطع فى ستانسلاس ترمبيكى ، الذى لم يذكر الدين قط إلا بروح العداء . وقد مجد شعره الطبيعة ، ولكن ليس فى تلك المظاهر السارة التى كثيراً ما تحرك العواطف الرقيقة ؛ فقد آثر جوانبها الأكثر جموحاً ووحشية ، إسرافها المجنون فى إنتاج النبات والحيوان ، عواصفها وسيولها ، صراع الحياة مع الحياة والمأكول مع الآكل ، واقتبست خرافاته شكلها من لافونتين ولكن روحها منقول عن لوكريتيوس . وقد أكسبته قوة شعره ورهافته وصقله مكانة مرموقة فى هذا الازدهار الأدبى . وساند بونياتوفسكى فى جميع محنه ، وعند خلع الملك رافقه الشاعر فى المنفى ، ومكث معه حتى مات .

وكان هناك شعر دينى كثير ، لأن الدين كان العزاء الأخير للبولنديين فى خطوبهم الشخصية والقومية . وقصائد فرانتشيشيك كاربنسكى المسماة « أغنية الصباح» و « أغنية المساء » و« ولادة المسيح » أدب كما أنها تعبد . أما فرانتشيشيك كنيازنين فكان يتنقل فى غير عناء بين هذين العدوين القديمين ، الدين والجنس ، فحين أشرف على دخول القسوسية اكتشف أناكريون والحب ؛ ونشر قصائد غزلية « إيروتيكا » (١٧٧٠) ، ونشد سعادة الدنيا ، ثم عاد إلى الدين ، ومات مجنوناً . إن محاولة التوفيق بين النقيضين قد تفضى إلى الجنون كما تفضى إلى الفلسفة .

أما فى مضمار الدراما فإن أبرز رجالها هو فوينسيش بوجو سلافسكى ،

الذى يكرم وطنه ذكراه باعتباره «أبا المسرح البولندى» ؛ ويجوز لنا أن نسميه «جاريك» بولنده ، ولكن البولنديين لو مثلوا لوصفوا جاريك بأنه بوجوسلافسكى انجلترة . وكان فيما يبدو أول بولندى كرس حياته كلها للمسرح ، ممثلا ، وكاتباً مسرحياً ، ومخرجاً ، ومديراً لمسارح دائمة فى وارسو ولفوف ، ومديراً لشركات نشرت تذوق الدراما فى طول البلاد وعرضها ووراء الحدود . قدم شكسبير وشريدان مترجمين ، وألف هو نفسه كوميديات ما زال بعضها يمثل على المسرح البولندى . وكانت أفضل تمثيليات هذه الفترة هى «عودة النائب» بقلم جوليان أورسين نيمتشفتش الذى كان هو نفسه نائباً ، فقد صور جانبى الأزمة السياسية تصويراً دراميا فى حب نائب من دعاة الإصلاح لفتاة يدافع أبواها عن امتيازات الأقطاب وأساليب العيش فى الماضى .

وآخر رجال التنوير البولنديين وأعظمهم هو هوجو كوللونتاج . نقل إليه تعليمه عدوى أفكار جماعة الفلاسفة ، ولكنه ستر هرطقاته ستراً كافياً حتى حصل على وظيفة كاهن مربحة فى كراكاو . وعينه يونياتوفسكى (١٧٧٣) عضواً فى لجنة للتعليم ، وضع لها كوللونتاج وهو لايزال فى الثالثة والعشرين برنامجاً لإصلاح تعليمى يتفق وخير برامج جيله . وحين ناهز السابعة والعشرين وكل بإعادة تنظيم جامعة كراكاو ، وأنجز المهمة فى بضع سنين ، ثم بقى فى الجامعة مديراً لها . وفى «خطابات من كاتب مجهول إلى رئيس الديت» (١٧٨٨ — ٨٩) ، وفى «القانون السياسى للأمة البولندية» (١٧٩٠) قدم مقترحات أصبحت أساساً لدستور ١٧٩١ .

وكافحت بولنده ، بفضل حث شعرائها ومعلقيها ، لتنير نفسها وتصبح دولة قوية قادرة على الدفاع عن ذاتها . وحانت الفرصة حين عرض فردريك وليم الثانى — خلف فردريك الثانى — على «ديت السنين الأربع» الذى استمر انعقاده من ١٧٨٨ إلى ١٧٩٢ تحالفاً تتعهد فيه بروسيا بأن تحمى جيشها القوى بولنده من أى تدخل أجنبى . وكانت روسيا فى شغل بحربها مع تركيا والسويد ، فالآن قد تستطيع بولنده أن تحتق نفسها من خنوعها الطويل لكاترين ، وتتخلص من أعمال السلب والنهب التى اقترفها الجنود الروس على الأرض

البولندية طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة . وحل الديت مجلس بونياتوفسكي الدائم رغم احتجاجاته ، ووافق على أن يجند بإذن الديت جيش من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وأمر الجيش الروسي بالرحيل عن بولنده فوراً (مايو ١٧٨٩)، إما كاترين التي كانت فى حاجة لجميع قواتها فى مواقع أخرى فلم تقاوم ، ولكنها أقسمت على الانتقام . وفى ٢٩ مارس ١٧٩٠ أبرم الديت تحالفاً مع بروسيا .

وكان بونياتوفسكي هو أيضاً قد ثمل الآن بجو الحرية . فنبذ ولاءه لكاترين وتزعم صياغة دستور جديد . وقد نصت شروطه على جعل الملكية وراثية ، ولكنها ضمنت وراثة البيت المالك السكسونى للعرش بعد موت بونياتوفسكي الذى لم يعقب . وتقرر أن توسع سلطات التاج التنفيذية بإعطاء الملك حق النقض المعلق — أى حق منع قرار وافق عليه دايت من أن يصبح قانوناً حتى يؤكده الدايت التالى . ونص على أن يعين الملك وزراءه والأساقفه ، وأن يتولى قيادة الجيش ، وعلى أن ينتخب عدد صغير من المواطنين وغيرهم من أهل المدن نواباً . أما الديت فيتألف من مجلسين ، مجلس النواب له وحده الحق فى وضع القوانين ، ومجلس للشيوخ — يتألف من الأساقفه وحكام الأقاليم ووزراء الملك — تشترط موافقته على أى قانون . أما حق النقض المطلق فتحل محله قاعدة الأغلبية . ويعترف بالمذهب الكاثوليكى الرومانى ديناً سائداً للأمة ، ويعد الارتداد عنه جريمة ، وفيما عدا ذلك فحرية العبادة مكفولة للجميع . وبقيت القنية ، ولكن للفلاحين الآن أن يستأنفوا دعاواهم من المحكمة الوراثية إلى محكمة إقليمية أو قومية . وكان تأثير الدستور الذى اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٨٧ — ٩٨) واضحاً فى هذه التوصيات . ذلك أن البولنديين الذين حاربوا دفاعاً عن المستعمرات الأمريكية كانوا قد هيأوا ذهن بونياتوفسكي ، ولم يكن قد نسى قراءته للوك ومونتسكيو وجماعة الفلاسفة .

ورغبة فى ضمان التصديق على مقترحاته لجأ بونياتوفسكي إلى الحيلة ، ذلك أن كثيراً من أعضاء الديت ذهبوا إلى مواطنهم لقضاء عطلة عيد القيامة عام ١٧٩١ . فدعاه الملك للانعقاد فى ٣ مايو ، وهو تاريخ أبكر من أن

يتيح للأعضاء البعيدين العودة إلى وارسو لحضور الإفتتاح الجديد ، أما النواب القريبون الذين وصلوا فى الميعاد فكان أكثرهم أحرار النزعة يمكن الاعتماد عليهم فى تأييد الدستور الجديد . وعرض عليهم فى القصر الملكى بمجرد اجتماعهم ، فقوبل بتصفيق جارف ، وصدق عليه بأغلبية كبيرة . وقد تذكر البولنديون الوطنيون ذلك اليوم ، الثالث من مايو ١٧٩١ ، فى فخر واعتزاز ، وخلدوه فى الأدب والفن والأغانى البولندية .

٦ — تمزيق بولنده ١٧٩٢ — ٩٥

اعترفت جميع الدول بالدستور الجديد إلا روسيا . ووصفه إدموند بيرك بأنه « أنبل امتياز نالته أمة فى أى زمان » وصرح بأن ستانسلاس الثانى قد تبوأ مكاناً فى التاريخ بين عظماء الملوك ورجال الدولة [٤٨] ، ولكن هذه الحماسة ربما كانت انعكاساً لابتهاج انجلترة بهزيمة كاترين .

وأخفت الامبراطورة حينا عداءها لبولنده الجديدة ، ولكنها لم تغفر طرد جيشها منها على عجل ، ولا إحلال النفوذ البروسى محل الروسى فى الشئون البولندية . فلما أنهت معاهدة ياسى (٩ يناير ١٧٩٢) حربها مع تركيا ، وتحررت من الخوف من شريكيها السابقين فى الجريمة — بروسيا والنمسا — لتورطهما فى الحرب ضد فرنسا الثائرة (ابريل ١٧٩٢) ، تلفتت حولها تبحث عن مدخل جديد إلى بولنده .

وقد هيأه لها البولنديون المحافظون ، إذ وافقوا كاترين كل الموافقة على أن دستور بونياتوفسكى قد صدق عليه دبث جمع على عجل بحيث لم يستطع أشراف كثيرون حضوره . وكان فيلكس بوتوكى وغيره من الأقطاب ساخطين أشد السخط على التخلى عن حق النقض المطلق الذى ضمن لهم القوة أمام السلطة المركزية ، ولم يكونوا راغبين فى النزول عن حقهم فى انتخاب الملك ، وفى الهيمنة عليه تبعاً لذلك . ورفض بوتوكى حلفه يمين الولاء للمرسوم الجديد ، ثم قاد جماعة من النبلاء إلى سانت بطرسبرج وطلب إلى الإمبراطرة أن تساعدهم على إعادة الدستور الأقدم (دستور ١٧٧٥) الذى

سبق أن تعهدت بحمايته . فأجابت بأنها لاتريد التدخل فى بولنده بناء على طلب أفراد قليلين ، ولكنها ستنظر فى نداء من أقلية بولندية منظمة يعتد بها ، وأحيط فردريك وليم الثانى علماً بهذه المفاوضات ، وكان متورطاً فى الحرب ضد فرنسا ، كارهاً لخوض حرب ضد روسيا ، فأخبر الحكومة البولندية (٤ مايو ١٧٩٢) بأنها إن كانت تنوى الدفاع عن دستورها الجديد بقوة السلاح فعليها ألا تتوقع الدعم من بروسيا [٤٩] . وقفل بوتوكى إلى بولنده ، وألف (١٤ مايو ١٧٩٢) ، فى بلدة بأوكرانيا ، اتحاد تارجوفيكا ، ودعا للانضواء تحت لوائه كل الذين يريدون إعادة الدستور القديم . ولقب اتباعه أنفسهم بالجمهوريين ، وأدانوا تحالف بولنده مع بروسيا ، وأثنوا على كاترين ، والتمسوا بركتها وطلبوا جيشها .

فأرسلتهما جميعاً ، وزحف الاتحاديون على وارسو بعد أن توفر لهم هذا الدعم . وكانت دعوتهم إلى « الحرية » قد أحدثت بعض التأثير ، لأن مدناً عديدة استقبلتهم استقبالها للمحررين ؛ وفى تريسابول (٥ سبتمبر) رحب القوم ببوتوكى كأنه فعلا ملك بولنده الجديد . ودعا بونياتوفسكى الديت أن يعطيه كل السلطات التى تلزم للدفاع . فعينه دكتاتوراً ، ودعا كل الذكور البالغين من البولنديين للخدمة العسكرية ، ثم ارفض . وعين بونياتوفسكى ابن أخيه ، الأمير يوزف بونياتوفسكى ذا التسعة والعشرين عاما ، قائداً أعلى للجيش الذى وجده مفتقراً إلى التدريب ومجهزاً أسوأ تجهيز . وأمر يوزف جميع كتائب الجيش بأن تنضم إليه فى لوبار على نهر سلوتش ، ولكن القوات الروسية كانت قد طوقت الكثيرين فلم يستطيعوا الحضور ، والذين حضروا كانوا أضعف من أن يقفوا الزحف الروسى . وتقهقر الشاب إلى بولون ، مركز إمداداته تقهقراً منظماً أتاحه قتال المؤخرة الباسل بقيادة تاديوس كوتشيوسكو ، الذى كان قد حارب من قبل فى صفوف المستعمرات فى أمريكا ، وكان الآن وهو فى السادسة والأربعين عريقاً فى أمجاد الوطنية والحرب .

وفى ١٧ يونيو ١٧٩٢ التقى البولنديون بجيش روسى كبير عند زيلنتسى ، وهزموه فى أول معركة حامية انتصرت فيها بولنده منذ أيام سوبيسكى . هنا أيضاً أثبت كوتشيوسكو مهارته ، باستيلائه على ربوة سيطرت منها مدفعيته على ساحة المعركة ؛ أما يوزف ، الذى كان إلى الآن موضع الريبة فى كفايته من مرءوسيه الذين فى مثلى عمره ، فقد كسب احترامهم بقيادته احتياطيه من الجنود بشخصه ليكره الروس على التقهقر . وأثلج نبأ النصر صدر بونياتوفسكى ، ولكن كاد يغلب هذا النبأ نبأ آخر بأن الأمير لودفج فورتمبرج قائد الجيش البروسى الموكل بالقوات البولندية فى لتوانيا ، قد هرب من موقعه تاركاً جنوده فى حالة من الفوضى أتاحت للروس فى ١٢ يونيو الاستيلاء على فلنو عاصمة لتوانيا دون مشقة .

لم يبق من أسباب الدفاع عن بولنده الآن غير جيش يوزف . وكانت مؤنه وعتاده من الضآلة بحيث اضطرت أفواجه إلى الصيام أربعا وعشرين ساعة ، ولم تملك المدفعية غير اثنى عشر صندوقاً من الذخيرة . فأمر الأمير بالتقهقر إلى دوبنو ، فلما رمى بالجبن ثبت عند دوبينكا (١٨ يوليو) واستطاع بجيشه البالغ ١٢,٥٠٠ مقاتل أن يتعادل مع ٢٨,٠٠٠ مقاتل روسى . ثم تقهقر بنظام حسن إلى كوروف ، حيث انتظر وصول التعزيزات والمؤن التى وعده بها الملك .

ولكن ستانسلاس كان قد يئس . ذلك أن رفض فردريك وليم الثانى أن ينفذ شروط الحلف البروسى البولندى ، وخيانة الأمير لودفج ، وهروب المئات من الجيش الذى جمعه فى براجا — كل أولئك كان فوق ما تطيقه روحه التى لم تكن يوماً ما شديدة البسالة . وعليه فقد أرسل نداء شخصياً لكاترين يلتمس شروطاً مشرفة ، وكان جوابها (٢٣ يوليو) إنذاراً نهائياً يشترط عليه الانضمام إلى اتحاد تارجوفيكا وإعادة دستور ١٧٧٥ . وقد صدمته لهجتها التى لم تعرف هوادة ولا ليناً ، أفهذه هى المرأة التى استجابت يوماً لغرامه الطائش ؟

وكان حنانه هو المسيطر عليه الآن . فلقد فكر فى المقاومة ، وفى التسلح والمضى إلى الجبهة ليقود دفاعاً يائساً ؛ ولكن زوجته ، وأخته ، وابنة أخية ، اشتد بكاؤهم لفكرة موته وما يجره عليهم من الوحدة والأسى ، حتى وعد الملك بأنه سيسلم . ثم ما جدوى المقاومة بعد هذا كله ؟ فبعد أن قطع الأمل فى أى معونة من بروسيا — فى وقت توقع فيه الهجمات على الجبهة الغربية العزلاء — ، كيف تستطيع بولنده الوقوف فى وجه روسيا ؟ ألم يحاول جاهداً أن يثنى الديت عن الاستخفاف بكاترين والمغامرة بكل شىء اعتماداً على وعود بروسيا ؟ ألم يلح فى طلب جيش كبير حسن التجهيز ، وألم يرفض الديت اعتماد المال لهذا الجيش بعد أن وافق على الرجال ؟ وحتى لو حقق الجيش البولندى الراهن انتصاراً أو اثنين على الروس ، أفلا تستطيع كاترين ، المتخمة بالجنود بعد أن أبرمت الصلح مع تركيا ، أن ترسل الموجة تلو الموجة من الجنود المدربين المدججين بالسلاح ضد فلوله المبعثرة المختلة النظام ؟ فعلام التضحية بمزيد من الأرواح ، وإسلام نصف بولنده إلى الخراب ، إذا كان التسليم هو النهاية على كل حال ؟

أرسل السفير الروسى الجديد ، ياكوف سيفرس ، إلى أخته وصفا ملؤه العطف يصور فيه بونياتوفسكى فى هذه الساعة ، ساعة الانهيار البدنى والروحى قال :

« لم يزل الملك (فى عامه الستين) رجلا وسيماً أنيقاً ، وإن كان وجهه شاحباً ، ولكن فى وسع المرء أن يرى أن ستاراً قاتماً قد أسدل على روحه . إنه يحسن الحديث ، بل يتحدث بفصاحة ، وهو مجادل حسن الاستماع دائماً ومع الجميع ، ومسكن سىء ، وهو مهمل ، مزدرى مخذول ، ومع ذلك فهو ألطف الناس جميعاً ، وإذا غضضت النظر عن منصبه الرفيع ، وتأملته من وجهة النظر الشخصية فقط ؛ قلت إن فضائله ترجح رذائله . ولا ريب فى انه أسوأ الملوك حظاً بعد لويس السادس عشر . إنه يحب أقرباءه حباً جماً ، وهؤلاء النـــاس هم علة نكباته كلها [٥٠] .

وفى ٢٤ يوليو ١٧٩٢ قرأ بونياتوفسكى الإنذار النهائى الروسى على مستشاريه الخصوصيين ، ونصحهم بأن يركنوا إلى سماحة كاترين وشهامتها . واحتج كثيرون منهم على هذه السذاجة . واقترح أحدهم المدعو مالا خوفسكى أن يجمع فى ساعة واحدة ١٠٠,٠٠٠ جولدن لأغراض الدفاع ، وألح على أن الجيش البولندى يستطيع — حتى إذا اقتضى الأمر التخلى عن وارسو — أن يتقهقر إلى كاركاو ويجند جيشاً جديداً فى الجنوب الآهل بالسكان . وهزم اقتراح بونياتوفسكى بالتسليم فى المجلس بأغلبية عشرين صوتاً ضد سبعة . ولكنه أبطل قرارهم بحكم سلطته دكتاتوراً ، وأمر ابن أخيه بالكف عن المقاومة . ورد يوزف بأن على الملك بدلا من هذا التسليم أن يبادر إلى الجبهة بما يستطيع جمعه من قوات ويقاتل إلى النهاية . فلما أصر ستانسلاس على انضمام الجيش إلى الاتحاد أرسل إليه جميع الضباط إلا واحداً استقالاتهم وعاد يوزف إلى موطنه السابق فى فيينا . وفى ٥ أغسطس احتل جيش روسى براجا . وفى أكتوبر أرسل يوزف رجاء إلى عمه يدعوه لاعتزال ملكه قبل أن تزول البقية الباقية من الشرف . وفى نوفمبر دخل بوتوكى مع طلائع جيش الاتحاديين وارسو دخول الظافر ، وألقى على بونياتوفسكى درساً فى واجبات الملك . ولكن انتصار بوتوكى تبين بعد قليل أنه كارثة ، لأن الجنود البروسيين دخلوا بولنده فى يناير ١٧٩٣ ، وواصلوا زحفهم ليحتلوا دانتزج وتورن ، دون أن يطلق حلفاء بوتوكى الروس رصاصة ليمنعوهم . ووضح أن روسيا وبروسيا قد اتفقتا على تقسيم بولنده ثانية .

وكانت كاترين وفردريك وليم قد وقعا هذا الاتفاق فى ٢٣ يناير ، ولكنهما تكتما أمره حتى ٢٨ فبراير . أما بوتوكى فقد استنفر البولنديين من جميع الأحزاب ليهبوا دفاعاً عن بولنده ؛ فضحكوا منه ، وندد به يوزف خائناً لوطنه ، وتحداه للمبارزة ، ولكن ستانسلاس منعهما .

وبمقتضى هذا التقسيم الثانى حصلت روسيا على ٨٩,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الشرقية ، يعيش فيها ٣,٠٠٠,٠٠٠ من السكان ، بما فى هذا

فلنو ومنسك ؛ أما بروسيا فأخذت ٢٣,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الغربية ، يعيش فيها ١,٠٠٠,٠٠٠ من السكان بما فيها دانتزج وتورن ؛ وبقى لبولنده ٨٠,٠٠٠ ميل مربع و ٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة — وهو يقرب من نصف ما ترك لها من قبل فى ١٧٧٣. ولم يكن للنمسا نصيب فى هذه الغنيمة الثانية ، ولكن هدأتها الوعود الروسية بمساعدتها فى الحصول على بافاريا . أما الدول الغربية التى كانت لاتزال منهمكة فى صراعها مع فرنسا الثائرة فلم تتخذ أى اجراء ضد هذا الاغتصاب الثانى ، الذى عللته لها كاترين بأنه ضرورة اقتضاها تطور الدعوة الثورية فى وارسو ، التى تهدد بالخطر جميع الملكيات.

ولكى تلبس هذه السرقة ثوب الشرعية أمرت بونيا توفسكى أن يدعو الديت للاجتماع فى جرودنو ، وأمرته بالحضور بشخصه ليوقع على تحالف مع روسيا فأبى الذهاب أول الأمر ، ولكن حين عرضت الوفاء بديونه — التى بلغت الآن ١,٥٦٦,٠٠٠ دوقاتية — قبل هذا الإذلال الجديد خدمة لدائنيه . وزود السفير الروسى بالمال لرشوة عدد كاف من النواب ليحضروا اجتماع الديت ، ولم يجد عناء فى رشوة عدة أعضاء من بطانة الملك ليفشوا كل كلمة فاه بها سيدهم وكل عمل أتاه . وأمكن اقناع هذا « الديت الأخير » (١٧ يونيو إلى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٣) بأن يوقع معاهدة مع روسيا ، ولكنه ظل شهوراً يأبى التصديق على التقسيم الثانى . وقيل للأعضاء أنهم ممنوعون من مغادرة القاعة حتى يوقعوا ، فظلوا على رفضهم وجلسوا صامتين اثنتى عشرة ساعة . ثم طرح الرئيس المسألة للتصويت ، فلما لم يسمع جواباً أن السكوت علامة الرضى (٢٥ سبتمبر) . وعاد ما بقى من أرض بولنده محمية روسية ؛ وأعيد دستور ١٧٧٥ .

وإذا كان فى استطاعة رجل واحد أن يفتدى الأمة فذلك هو كوتشيوسكو أمده التشارتورسكيون بالمال فذهب إلى باريس (يناير ١٧٩٣) والتمس معونة فرنسا لبلد يتعاطف فى حرارة مع الثورة الفرنسية . وتعهد بأنه لومدت فرنسا يد المعونة لبولنده لهب الفلاحون البولنديون فى ثورة على القنية ، وأهل المدن على النبلاء ، وقال ان بونياتوفسكى سيتزل عن عرشه ليكون النظام جمهورياً ، وإن جيشاً بولندياً سيساند فرنسا فى حربها مع بروسيا[٥١] .

ورحب الزعماء الفرنسيون بمقترحاته ، ولكن نشوب الحرب مع انجلتره (فبراير ١٧٩٣) وغزو الحلفاء لفرنسا ، قضيا على كل أمل فى تقديم العون لبولنده .

وفى غياب كوتشيوسكو جند بعض المواطنين والماسون الأحرار وضباط الجيش جيشاً بولندياً جديداً (مارس ١٧٩٤) . وهرع كوتشيوسكو من درسدن إلى كركاو لينضم إليه ، فعين قائداً أعلى وأعطى سلطات مطلقة ، وأمر كل خمس بيوت فى بولنده أن توافيه بجندى من المشاه ، وكل خمسين بفارس ، وأمر هؤلاء المجندين بأن يأتوا بما يجمعونه من سلاح ، حتى المعاول والمناجل . وفى ٤ أبريل هاجم بأربعة آلاف مقاتل نظامى وألفى فلاح مجند قوة عدتها سبعة آلاف روسى فى راتسلا فيس قرب كراكاو ، وهزمها بفضل براعة قيادته من جهة وفاعلية مناجل الفلاحين من جهة أخرى .

فلما سمع فريق الراديكاليين أو « اليعقوبيون » فى وارسو بهذا النصر نظم رجاله عصياً مسلحاً انضم إليه الزعماء من الطبقة الوسطى فى تردد . وفى ١٧ أبريل هاجم هؤلاء الثوار الحامية الروسية المؤلفة من ٧,٥٠٠ مقاتل ، وقتلوا الكثيرين منهم ، وهزموا فرقة بروسية من ١٦٥٠ جندى ، وهربت قوات الاحتلال ، وخضعت وارسو لحظة للسيطرة البولندية . وحررت انتفاضة كهذه مدينة فلنو (٢٣ أبريل) وشنقت هتمان (زعيم) لتوانيا الأكبر ، واستردت أجزاء من بولنده حتى منسك تقريباً . وفى ٧ مايو وعد كوتشوسكو الإقنان بعتقهم ، وكفل لهم تملك الأرض التى يزرعونها . وانضوى تحت لوائه خلق كثير من المتطوعين والمجندين حتى اجتمع له فى يونيو ١٧٩٤ (١٥٠,٠٠٠) رجل لم يكن منهم حسن التجهيز أكثر من ٨٠,٠٠٠ .

على هؤلاء تدفقت الموجات المتتالية من الجنود الروسية أو البروسية المدربة . وفى ٦ يونيو فاجأ جيش متحالف من ٢٦,٠٠٠ مقاتل البولنديين قرب تشيكوسيني ، ولم يتح لكوتشيوسكو من الوقت إلا ما يجلب فيه ١٤,٠٠٠

مقابل فقط . فهزم بخسائر فادحة ،والتمس الموت فى المعركة ، ولكن الموت راغ منه ؛ وتقهقرت فلول البولنديين إلى وارسو . وفى ١٥ يونيو استولى البروسيون على كراكاو ؛ وفى ١١ أغسطس استعاد الروس فلنو ؛ وفى ١٩ سبتمبر أبادت قوة روسية من ١٢,٥٠٠ من الجنود المتمرسين بالقتال بقيادة سوفوروف جيشاً بولندياً من ٥,٥٠٠ مقاتل عند تريسابول ؛ وفى ١٠ أكتوبر هزم ١٣,٠٠٠ روسى كوتشيوسكو نفسه وهو يقود ٧,٠٠٠ بولندى عند ما سيسجويس ، وجرح جرحاً خطيراً وأسر . ولم يفه كما زعمت الأسطورة بصرخة اليأس « لقد قضى على بولنده ! » ولكن الهزيمة كانت قاضية على الثورة الباسلة .

أما سوفوروف فقد وحد مختلف الجيوش الروسية واقتحم معسكر البولنديين المحصين فى براجا ، وراح جنوده الذين أصابهم جنون المعركة يذبحون لا المدافعين فقط بل سكان البلدة المدنيين . وسلم يونياتوفسكى وارسو تفادياً لمذبحة أشد بشاعة . وأرسل سوفوروف كوتشيوسكو وغيره من زعماء الثوار إلى حيث السجن فى سانت بطرسبرج ؛ وأرسل الملك إلى جرودنو ليكون رهن إشارة الإمبراطورة . وهناك ، فى ٢٥ نوفمبر ١٧٩٥ ، وقع على اعتزاله الملك . وتوسل إلى كاترين أن تبقى على جزء من بولنده ، ولكنها صممت على أن تحل المسألة البولندية بالقضاء على الأمة البولندية كما ظنت . وبعد خمسة عشر شهراً من النزاع ، وقعت روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة التقسيم الثالث (٢٦ يناير ١٧٩٧) واستولت روسيا على كورلاند ولتوانيا وغربى بودوليا وفولينيا — ١٨١,٠٠٠ ميل مربع ؛ واستولت النمسا على « بولنده الصغيرة » بما فيها كراكاو ولودلن — ٤٥,٠٠٠ ميل مربع ؛ وأخذت بروسيا الباقى بما فيه وارسوا — ٥٧,٠٠٠ ميل مربع . وفى التقسيمات الثلاثة كلها استوعبت روسيا نحو ٦,٠٠٠,٠٠٠ من سكان بولنده البالغين ١٢,٢٠٠,٠٠٠ نسمه (١٧٩٧) ، والنمسا ٣,٧٠٠,٠٠٠ ، وبروسيا ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة .

وفر آلاف البولنديين من وطنهم ، وتسلم الأجانب الأملاك المصادرة . وظل بونياتوفسكى فى جرودنو ، يتسلى بدراسة النبات ويكتب مذكراته . وبعد موت كاترين دعاه بولس الأول إلى سانت بطرسبرج وخصص له القصر الرخامى و١٠٠,٠٠٠ دوقاتيه فى العام ، وهناك مات فى ١٢ فبراير ١٧٩٨ بعد أن بلغ السادسة والستين . أما كوتشيوسكو فقد أفرج عنه الامبراطور بولس فى ١٧٩٦ ، وعاد إلى أمريكا ، ثم إلى فرنسا ، وواصل جهوده لتحرير بولنده حتى مماته (١٨١٧) . وأما يوزف بونياتوفسكى فقد فر إلى فيينا ، وشارك فى حملة نابليون على روسيا ، وجرح فى سمولنسك ، وأحسن البلاء فى ليبزج ، ورقى مارشالا فى الجيش الفرنسى ، ومات فى ١٨١٣ مكرماً حتى من أعدائه . وأما بولنده فلم تعد دولة ، ولكنها ظلت شعباً وحضارة ، يلوثها الاضطهاد الدينى ، ولكنها تميزت بعظماء الشعراء والقصاصين والموسيقيين والفنانين والعلماء ، ولم تتخل قط عن عزمها على النهوض من جديد .

* * *

الفصل العشرون

ألمانيا فى عهد فردريك

١٧٥٦ – ١٧٨٦

١ – فردريك المظفر

من هذا الغول الذى أثار الخوف والإعجاب دولياً ، والذى سرق سيليزيا ، وهزم نصف أوربا المتحد ضده ، وهزأ بالدين ، وازدرى الزواج ، وأعطى فولتير دروساً فى الفلسفة ، واقتطع بعض أوصال بولنده ولو لم يمنع روسيا من التهامها كلها ؟

لقد بدا أقرب إلى الأشباح منه إلى الغيلان يوم عاد حزيناً منتصراً من حرب السنين السبع ودخل برلين (٣٠ مارس ١٧٦٣) بين تصفيق الجماهير المملقة . كتب إلى دارجنس يقول « إنى أعود إلى مدينة لن أعرف فيها غير الأسوار ، ولن أجد أحداً من معارفى ، حيث تنتظرنى مهمة ضخمة ، وحيث أخلف بعد زمن غير طويل عظامى فى مثوى لاتكدر هدوءه الحرب ولا الكوارث ولا سفالة الإنسان »[١] كانت بشرته قد جفت وتغضنت ، وعيناه الزرقاوان الرماديتان داكنتين منتفختين ، ووجهه يحمل آثار المعركة والمرارة ، وأنفه فقط هو الذى احتفظ بجلاله القديم . وقد ظن أنه لن يستطيع الحياة طويلا بعد أن استنزفت الحرب الطويلة موارده جسداً وعقلا وإرادة ، ولكن زهده مد فى أجله ثلاثة وعشرين عاماً أخر . كان مقلا فى طعامه وشرابه ، لايعرف الترف ؛ يعيش ويلبس فى قصره الجديد ببوتسدام كما لو كان فى المعسكر ، وكان يضن بالوقت المخصص للعناية بشخصه ؛ وفى سنيه الأخير أقلع عن الحلاقة ، واكتفى بجز لحيته بمقص بين الحين والحين ؛ ورددت الشائعات أنه لم يكن يستحم كثيراً[٢] .

وأكملت الحرب تقسى خلقه الذى بدأ دفاعاً ضد قسوة أبيه . فكان يتطلع بهدوء رواق بينما الجنود المحكوم عليهم يمرون ستا وثلاثين مرة[٣] بين صفين من الرجال يجلدونهم . وكان يتعقب موظفيه وقواده ويزعجهم بالجواسيس السريين ، والتدخل المفاجىء ، واللغة البذيئة ، والأجر الشحيح ، وبضروب من الأوامر التفصيلية تخنق روح المبادرة والاهتمام . ولم يكسب قط حب أخيه الأمير هنرى الذى جد وأخلص فى خدمته فى الدبلوماسية والحرب . وكان له بعض الصديقات ، ولكنهن كن يخفنه أكثر مما يحببنه ، ولم يسمح لواحدة منهن بدخول دائرة اختصاصه . كان يحترم المعاناة الصامتة التى عانتها ملكته التى أهملها ، وعند عودته من الحرب فاجأها بهدية من ٢٥,٠٠٠ طالر ؛ ولكن من المشكوك فيه أنه شاركها فراشها إطلاقاً . ومع ذلك تعلمت أن تحبه إذ رأته بطلا فى المحن مخلصاً فى الحكم ؛ وكانت تشير إليه فى حديثها عنه بعبارة « مليكنا العزيز » و « هذا الملك العزيز الذى أحبه وأعبده »[٤] . ولم يكن له ولد ، ولكنه كان شديد التعلق بكلابه ، وكان اثنان منها ينامان عادة فى حجرته ليلا « ربما لحراسته ؛ وكان أحياناً يستصحب أحدهما إلى فراشه ليدفئه بحرارة الحيوان . وعندما مات آخر كلابه الكثيرة لديه « بكى اليوم كله »[٥] . وقد ظن به اللواط[٦] . ولكننا لانملك فى هذه الشبهة غير التخمين .

وعلى أنه كان يخفى تحت جلده العسكرى الصلب عناصر من الحنان نبدر أن كشف عنها أمام الناس . فقد بكى كثيراً لموت أمه « وكان يرد على محبة أخته فلهلمينه الحارة بمحبة مخلصة . وقد وزع على بنات أخيه بعض الأفضال الصغيرة غير الملحوظة . كان يضحك من عواطف روسو المفرطة ، ولكنه اغتفر له عداءه وعرض عليه الملجأ حين نبذه العالم المسيحى . وكان يتنقل بين التدريب الصارم لجنوده وصفير الألحان من نايه . وقد ألف الصوناتات والكونشرتوات والسمفونيات التى شارك فى أدائها أمام حاشيته . وسمعه العالم بيرنى هناك « وقرر أنه عزف « بضبط شديد ، واستهلال صاف منسق ، ولعب بالأصابع بديع ، وذوق نقى بسيط ، ودقة بالغة فى التنفيذ « إتقان

متساو فى كل معزوفاته » ، على أن بيرنى يضيف إلى ما ذكر أنه فى بعض الفقرات الصعبة ، . . . اضطر جلالته — على عكس ما تقتضيه القواعد — أن يلتقط نفسه ليكمل الفقرة[٧] (*) .

وفى سنوات لاحقة أكرهه ازدياد النهج وفقدان عدة أسنان على الإقلاع عن العزف على الناى ، ولكنه استأنف دراسة الكلافير .

وكانت الفلسفة هوايته المحببة بعد الموسيقى . كان يحب أن يشاركه مائدته فيلسوف أو اثنان ليسلخ جلد القساوسة ويستفز قواد الجيش . وكان ثابت القدم كفؤاً لفولتير فى رسائله معه . وقد بقى على شكوكيته فى حين اعتنق معظم جماعة الفلاسفة العقائد الجازمة والخيالات الشاطحة . وكان أول حاكم فى العصور الحديثة يجهر بلادينيته » ولكنه لم يهاجم الدين علناً . وذهب إلى أن « لدينا من درجات الأرجحيه ما يكفى لبلوغ اليقين بأن « لاشىء بعد الموت »[٩] ، ولكنه رفض حتمية دولباخ وأكد (كرجل هو الإرادة المتجسدة) أن العقل يؤثر على الأحاسيس على نحو خلاق ، وان فى استطاعة العقل أن يسيطر على دوافعنا الفطرية بالتعليم[١٠] أما أحب الفلاسفة إليه فهم (صديقى لوكريتيوس . . . وامبراطورى الطيب ماركوس أوريليوس »؟ وعنده أن أحداً لم يضف إليهما شيئاً ذا بال[١١] .

وقد اتفق مع فولتير على الاعتقاد بأن « الجماهير » تسرف فى إنسالها وتفرط فى كدها بحيث لايتسع لها الوقت للتعليم الحقيقى . وان يجدى تبصيرها بأوهام اللاهوت إلا فى دفعها إلى العنف السياسى . وهو يقول فى هذا « إن التنوير نور من السماء للواقفين على القمم ، وجمرة مدمرة للجماهير »[١٢] ،

(*) فى ١٨٨٩ نشر برايتسكوبف وهرتل ١٢٠ قطعة موسيقية من تأليف فردريك الأكبر . وقد سجل عدد منها على أقراص . وقد أحييت سنفونيته فى مقام D لنايين وأوركسترا فى برلين عام ١٩٢٨ وفى نيويورك عام ١٩٢٩ .[٨]

وقد أجمل قوله هذا تاريخ مذابح سبتمبر ١٧٩٢ وإرهاب ١٧٩٣ قبل أن تبدأ الثورة الفرنسية . وكتب إلى فولتير فى أبريل ١٧٥٩ يقول « فلنعترف بهذه الحقيقة : إن الفلسفة والفنون والآداب لاتنتشر إلا بين قلة من الناس ، أما الجماهير العريضة ... فتظل كما جبلتها الطبيعة ،حيوانات شريرة حاقدة»[١٣] وكان يسمى النوع الإنسانى (فى شىء من المزاح) . « هذا الجنس الملعون » — ويضحك من أحلام الخير والسلام يقول :

« إن الخرافة والنفعية والانتقام والخيانة ونكران الجميل سوف تثير المعارك الدامية المحزنة إلى آخر الدهر ، لأننا محكومون بالعواطف ، ونادراً جداً بالعقل.ولن تنقطع أبداً الحروب وقضايا المحاكم ومظاهر الدمار والأوبئة والزلازل والتفاليس . . . وما دام الأمر كذلك ، فنى ظنى أن هذا الوضع ضرورة لابد منها . . . ولكن يلوح لى أنه لو كان هذا الكون قد فطره كائن خير لخلقنا أسعد مما نحن . . . إن العقل البشرى ضعيف ، وأكثر من ثلاثة أرباع البشر خلقوا ليخضعوا لأسخف ضروب التعصب . فالخوف من الشيطان والجحيم يبهر عيونهم » وهم يكرهون الرجل الحكيم الذى يحاول تنويرهم . . . وعبثاً ألتمس فيهم صورة الله التى يؤكد اللاهوتيون أنهم يحملونها . إن فى داخل كل إنسان وحشاً ، وقليلون هم الذين يستطيعون ترويضه ، وأكثر الناس يرخون له اللجام ما لم يكبحهم الخوف من القانون »[١٤] .

وقد خلص فردريك إلى أن السماح للحكومات بأن تتسلط عليها الأغلبية مجلبة للكوارث . فلكى تحيا الديمقراطية يجب أن تكون — كغيرها من نظم الحكم — أقلية تقنع الأغلبية بأن تسمح لنفسها بأن تقودها الأقلية . وقد رأى فردريك رأى نابليون فيما بعد من أن « الارستقراطية موجودة دائماً بين الأمم وفى الثورات»[١٥] وآمن بأن الارستقراطية الوراثية تربى الإحساس بالشرف والولاء ، والرغبة فى خدمة الدولة بتضحية شخصية بالغة ، لا يمكن توقعها من توابع البورجوازيين الذين نشأوا بفضل التسابق على الثروة .

لذلك أحل بعد الحرب شباب النبلاء محل معظم ضباط الطبقة الوسطى الذين ترقوا فى الجيش[١٦] . ولكن بما أن هؤلاء النبلاء المعتزين بعراقتهم قد يصبحون مصدراً للتفتت والفوضى » وأداة للاستغلال » إذن فلابد من أن يحمى ملك مطلق السلطة الدولة من الانقسام ، ويدفع الظلم الطبقى عن عامة الشعب .

وكان فردريك يحب أن يصور نفسه خادما للدولة والشعب . وربما كان هذا تبريراً لإرداة القوة فيه ، ولكنه تسامى بحياته إلى مستوى دعواه . فأضحت الدولة عنده « الكائن الأعلى » الذى يبذل فى سبيله نفسه وغيره ؛ ومطالب خدمة الدولة تغلب عنده على ناموس الفضيلة الفردية ؛ فالوصايا العشر تتوقف عند أبواب الملوك . ووافقته جميع الحكومات على هذه « السياسة الواقعية » ، وقبل بعض الملوك النظرة إلى الملكية على أنها خدمة مقدسة . وقد اعتنق فردريك هذا المفهوم من اتصاله بفولتير ؛ ومن طريق الصاقهم بفردريك طور الفلاسفة ونظريتهم « الملكية » ومؤداها أن الأمل الأكبر فى الإصلاح والتقدم معقود على تنوير الملوك .

وهكذا أصبح برغم حروبه معبود الفلاسفة الفرنسيين ، وهدأ من عدائهم له ، حتى عداء روسو الفاضل . وقد رفض د الامبير طويلا دعوات فردريك له ، ولكنه لم يكف عن الثناء عليه . فكتب لفردريك يقول « إن الفلاسفة والأدباء فى كل بلد طالما تطلعوا إليك يا مولاى قائداً ومثالا لهم »[١٧] وأخيراً أذعن الرياضى المتحفظ للدعوات المتكررة ، وأنفق شهرين مع فردريك فى بوتسدام عام ١٧٦٣ . ولم تنتقص الألفة (والمعاش الذى أجراه عليه (من إعجاب دالامبير به . فقد أبهجه اغفال الملك لقواعد التشريفات » وأطربته تعليقاته — لا على الحرب والحكومة فحسب » بل على الأدب والفلسفة أيضاً ، وقال لجولى دلسبيناس إن هذا الحديث كان أروع من أى حديث يتاح للمرء سماعه آنئذ فى فرنسا[١٨] . فلما ابتأس دالامبير فى ١٧٧٦ حزنا على موت جولى ، بعث إليه فردريك برسالة تظهر هذا الغول فى ثوب الرجل الحكيم الحنون :

« يؤسفني الخطب الذي ألم بك . . . إن جراح القلب أكثر الجراح إيلاماً . . . ولا شيء يبرئها غير الزمن . . . إن لي لسوء طالعي حظاً وفيراً جداً من الخبرة بالآلام التي تحدثها خسائر كهذه . وخير دواء هو سيطرة المرء على نفسه ليصرف تفكيره بعيداً . . . وخليق بك أن تختار بحثاً هندسياً يتطلب العكوف الدائم عليه . . . إن شيشرون أغرق نفسه في التأليف ليتعزى عن موت حبيبته تليا . . . وفي مثل سنك وسني خليق بنا أن نكون أكثر استعداداً للسلوى لأن لحاقنا بمن فجعنا فيهم لن يطول »[١٩] .

ثم حث دالامبير على أن يحضر ثانية إلى بوتسدام « سوف نفلسف معاً تفاهة الحياة . . . وبطلان الرواقية . . . وسوف أشعر بالسعادة في تهدئة حزنك كأنني انتصرت في معركة . » هنا على الأقل ملك أحب الفلاسفة ، ان لم يكن ملكاً فيلسوفاً بكل معنى الكلمة .

ولكن هذه المعاملة لم يعد يطبقها على فولتير ، ذلك أن خلافاتهما في برلين وبوتسدام « والقبض على فولتير في فرانكفورت — كل هذا ترك جراحاً أعمق من الحزن . وبقي الفيلسوف يعاني الألم والمرارة أطول مما بقي الملك . فأخبر الأمير دلين أن فردريك « لا قدرة له على عرفان الجميل ، ولم يعترف قط بجميل إلا للجواد الذي هرب على ظهره في معركة مولفتس »[٢٠]. ثم عاد تبادل الرسائل بين ألمع رجلين في القرن حين كتب فولتير إلى فردريك محاولا أن يثني المحارب اليائس عن الانتحار . وراحا يتبادلان العتاب والمجاملات . وذكر فولتير فردريك بالإهانات التي لقيها الفيلسوف وابنة أخته من عمال الملك ، وأجاب فردريك : « لولا صلتك برجل فتن حباً بعبقريتك الرائعة لما أفلت بهذه السهولة . . . فاعتبر الأمر كله منتهياً ، ولا تذكر لي شيئاً بعد اليوم عن ابنة أختك تلك المتعبة »[٢١]. ولكن الملك رغم هذا لاطف الذات المفلسفة على نحو ساحر :

« أتريد كلاماً حلواً ؟ حسناً جداً ، سأخبرك ببعض الحقائق . إنني أقدر فيك أروع عبقرية ولدتها الأجيال ، إنني أعجب بشعرك ، وأحب نثرك . . . ولم يؤت كاتب قبلك مثل هذه اللمسة المرهفة ، ولا مثل هذا

الذوق الأصيل الرقيق . . . إنك ساحر فى حديثك ، تعرف كيف ترفه وتعلم فى وقت واحد . إنك أكثر المخلوقات التى عرفتها إغواء . . . كل شىء فى حياة الإنسان يتوقف على الزمان الذى يجىء فيه إلى هذا العالم . وأنا وإن جئت متأخراً جداً ، إلا أننى لست بآسف على هذا ، لأننى رأيت فولتير ، . . . ولأنه يكتب لى »[٢٢] .

وأعان الملك بتبرعاته السخية حملات فولتير دفاعاً عن أسرتى كالاس وسيرفان ، وصفق للحرب التى شنها على الكنيسة الكاثوليكية (L,infame) ، ولكنه لم يشارك جماعة الفلاسفة ثقتهم فى تنوير النوع الإنسانى . فقد تنبأ بفوز الخرافة فى السباق بينها وبين العقل . فنراه يكتب إلى فولتير فى ١٣ سبتمبر ١٧٦٦ يقول :

« إن مبشريك سيفتحون أعين قلة من الشباب . . . ولكن ما أكثر الحمقى الذين لايعقلون فى هذا العالم ! . . صدقنى ، لو أن الفلاسفة أقاموا حكومة فلن يمضى نصف قرن حتى يخلق الشعب خرافات جديدة . . . قد يتغير موضوع العبادة ، كما تتغير الأزياء فى فرنسا ؛ (ولكن) ما أهمية أن يسجد الناس أمام قطعة من الفطير ، وأمام العجل أبيس ، أو أمام تابوت العهد ، أو أمام تمثال من التماثيل ؟ لايهم الاختيار ، فالخرافة واحدة ، والعقل لايكسب شيئاً »[٢٣] .

على أن فردريك تصالح مع الدين بعد أن قبله ضرورة بشرية ، فحمى كل صوره السلمية بمنتهى التسامح . فنى سيليزيا التى غزاها ترك الكاثوليكية هادئة دون إزعاج ، فيما عدا فتحه أبواب جامعة برلين لجميع المذاهب ، وكانت من قبل وقفاً على الكاثوليك . . ثم رحب باليسوعيين بصفتهم معلمين ذوى قيمة كبرى ، وكانوا بعد أن طردهم الملوك الكاثوليك قد التمسوا ملجأ تحت حكمه اللاأدرى . وبالمثل بسط حمايته على المسلمين واليهود والملحدين ؛ وفى عهده وفى مملكته مارس كانط حرية الكلام والتعليم والكتابة ، وهى الحرية التى لقيت أشد تعنيف وقضى عليها بعد موت فردريك . وفى ظل هذا التسامح اضمحلت معظم صور الدين فى بروسيا . ففى ١٧٨٠ كان هناك

كنسى واحد لكل ألف من سكان برلين ، وفى ميونخ ثلاثون[٢٤] . وقد ذهب فردريك إلى أن التسامح سيقضى على الكاثوليكية عاجلا . كتب إلى فولتير فى ١٧٦٧ يقول «لابد من حدوث معجزة لكى تعود الكنيسة الكاثوليكية إلى سابق عزها ، فلقد أصيبت بسكته دماغية خطيرة ، وسوف تمد فى أجلك لتتعزى بدفنها وكتابة قبريتها»[٢٥] . ولكن أشد الشكاك غلواً فى شكوكيته نسى لحظة أن يشك فى الشكوكية .

٢ — اعادة بناء بروسيا

لم يكد حاكم فى التاريخ فى صناعة الحكم كما كد فردريك ، ربما باستثناء تلميذه جوزيف الثانى إمبراطور النمسا ، كان يأخذ نفسه كما يأخذ جنوده بالتدريب الشاق ، فيستيقظ عادة فى الخامسة ، وأحياناً فى الرابعة ، ويشتغل حتى السابعة ، ثم يفطر ، ويجتمع بمساعديه حتى الحادية عشرة ، ويستعرض حرس قصره ، ويتناول الغذاء فى النصف بعد الثانية عشرة مع الوزراء والسفراء ، ثم يعمل حتى الخامسة ، وعندها فقط يسترخى بالموسيقى والأدب الحديث . أما عشاء «نصف الليل» بعد الحرب ، فكان يبدأ فى التاسعة والنصف ، وينتهى فى الثانية عشرة ، ولم يسمح لأى روابط أسرية بأن تصرفه عما هو عاكف عليه ، ولا لأى مراسم بلاطية بأن تثقله ، ولا لأى عطلات دينية بأن تقطع عليه كده ، وكان يراقب عمل وزرائه ، ويملى كل خطوة تقريباً من خطوات السياسة ، ويرقب حالة الخزانة ، وقد أنشأ فوق الحكومة كلها ديواناً للمحاسبات ، خول له سلطة فحص أى مصلحة فى أى وقت . وأصدر إليه تعليماته بأن يبلغ عن أى شبهة مخالفة . وكان يعنف فى معاقبة الانحراف أو عدم الكفاية عنفاً اختفى معه من بروسيا أو كاد ذلك الفساد الحكومى الذى استشرى فى كل بلد آخر من بلدان أوربا .

وكان يعتز بهذا العمل ، وبسرعة إفاقة وطنه مما حاق به من دمار . بدأ بألوان من الاقتصاد فى بيته أثارت السخرية من بلاطى النمسا وفرنسا المسرفين رغم أنهما بلدان مهزومان . فكان بيت الملك يدار باقتصاد شديد كأنه بيت حرفى . فصوان ملابسه لايحوى غير حلة جندى ، وثلاثة معاطف قديمة ، وصدريات

متسخة بالنشوق » ورداء رسمي لازمه طوال حياته . وقد طرد بطانة أبيه من الصيادين وكلاب الصيد ، لأن هذا المحارب آثر الشعر على الصيد . ولم يبن أسطولا ، ولم يسع إلى تملك المستعمرات . وكان موظفوه يتقاضون أجوراً زهيدة ، وقد أنفق بمثل هذا البخل على البلاط المتواضع الذى احتفظ به فى برلين حينما هو مقيم فى بوتسدام . ومع ذلك فقد حكم إيرل تشسترفيلد عليه بأنه أكثر بلاط فى أوربا أدباً وتألقاً ونفعاً لشاب أن يوجد فيه ›› ثم أردف قائلا : « سترى فنون الحكم وحكمته فى ذلك البلد الآن (١٧٥٢) خيراً مما تراها فى أى بلد آخر فى أوربا »[٢٦] . على أنه بعد عشرين سنة من هذا التاريخ كتب اللورد مالمسبرى ، السفير البريطانى لدى بروسيا ، ربما لتعزية لندن ، يقول إنه « ليس فى تلك العاصمة (برلين) رجل فاضل واحد ولا امرأة عفيفة واحدة »[٢٧] .

على أن فردريك كان يكبح شحه إذا اتصل الأمر بالدفاع القومى . فسرعان ما أعاد جيشه إلى سابق قوته بفضل الإقناع والتجنيد الإجبارى ؛ فهذا السلاح الذى فى متناوله هو وحده الذى يتيح له صيانة وحدة أراضى بروسيا أمام أطماع جوزيف الثانى وكاترين الثانية . وكان على ذلك الجيش كذلك أن يدعم القوانين التى هيأت النظام والاستقرار للحياة البروسية . وقد أحس أن القوة المركزية هى البديل الوحيد للقوة المختلة الممزقة توضع فى أيدى الأفراد . وكان يؤمل أن تتطور الطاعة بدافع الخوف من القوة ، إلى طاعة بدافع الاعتياد على القانون — وهى قوة اختزلت إلى قواعد وأخفت براثنها .

وقد جدد أمره للفقهاء بأن ينسقوا فى نظام قانونى واحد (قانون بروس عام) التشريع المتنوع المتناقض للكثير من الأقاليم والأجيال . وكانت هـذه المهمة قد توقفت بموت صموئيل فون كوكسيجى (١٧٥٥) وبنشوب الحرب . فاستأنفها الآن المستشار يوهان فون كارمر وعضو المجلس الخاص ك. ج. سفاريتس ، واستكملت فى ١٧٩١ . وقد سلم القانون الجديد بوجود الإقطاعية والقنية ، ولكنه حاول فى

هذه الحدود أن يحمى الفرد من الطغيان أو الظلم الخاص أو العام . فألغى المحاكم التى لاضرورة لها . وقلل من الإجراءات القانونية وعجلها ، وخفف العقوبات ، وصعب الشروط اللازمة للتعيين فى وظائف القضاء . وتقرر ألا ينفذ حكم بالإعدام إلا بتصديق الملك ، وفتح للجميع باب الاستئناف أمام الملك . وقد اكتسب سمعة العدالة المحايدة ، وسرعان ما اعترف الجميع للمحاكم البروسية بأنها أنزه وأكفأ المحاكم فى أوروبا[٢٨] .

وفى ١٧٦٣ أصدر فردريك النظام التعليمى العام ليثبت ويوسع التعليم الإلزامى الذى أعلنه أبوه فى ١٧١٦ — ١٧ . فتقرر أن يذهب كل طفل فى بروسيا من سن الخامسة إلى الرابعة عشرة إلى المدرسة . ومن صفات فردريك المميزة إسقاط اللاتينية من منهج التعليم الأولى ، وتعيينه قدامى الجند معلمين ، وجعله معظم التعليم يجرى بتدريب أشبه بالتدريب العسكرى[٢٩] . وقد أضاف الملك : « من الخير أن يعلم المدرسون فى الريف الأحداث الدين والأخلاق . . . وحسب أهل الريف أن يتعلموا القليل من القراءة والكتابة . . . ولا بد من تخطيط التعليم . . . بحيث يبقى عليهم فى القرى ولا يؤثر عليهم ليهجروها »[٣٠] .

وحظى تجديد البناء الاقتصادى بالأولوية فى الوقت والمال . فبدأ فردريك باستخدام المال الذى جمع من قبل لحملة حربية أخرى — زالت الحاجة إليها الآن — فى تمويل تعمير المدن والقرى وتوزيع الطعام على المجتمعات الجائعة ، وتقديم البذور للزراعات الجديدة ؛ ثم وزع على المزارع ستين ألف حصان أمكن توفيرها من الجيش . وبلغت جملة المبالغ التى أنفقت على أعمال الإغاثة العامة ٢٠,٣٨٩,٠٠٠ طالر[٣١] . وأعفيت سيليزيا التى اجتاحتها الحرب من الضرائب ستة أشهر ؛ وبنى فيها ثمانية آلاف بيت فى ثلاث سنين ، وقدم مصرف عقارى المال للفلاحين السيليزيين بشروط ميسرة . وأسست جمعيات للتسليف فى مراكز شتى لتشجيع التوسع الزراعى . وصرفت مياه منطقة المستنقعات الممتدة على الأودر الأدنى ، فهيأت أرضاً صالحة للزراعة لخمسين ألف رجل . وبعث المندوبون إلى الخارج لدعوة مهاجرين إلى بروسيا ، فجاء منهم ٣٠٠,٠٠٠[٣٢] .

ولما كانت القنية تربط الفلاح بسيده ، فإنه لم توجد فى بروسيا حرية الانتقال إلى المدن « تلك الحرية التى يسرت فى انجلتره تطور الصناعة السريع . وقد جهد فردريك بكل الوسائل للتغلب على هذا المعوق . فأقرض الملتزمين المال بشروط ميسرة ، وأجاز الاحتكارات المؤقته ، واستورد العمال ، وفتح مدارس الصنائع ، وأنشأ مصنعاً للبرسلان فى برلين . وناضل لينشىء صناعة الحرير « ولكن أشجار التوت ذبلت فى برد الشمال . وشجع التعدين النشيط فى سيليزيا الغنية بالمعادن . وفى « سبتمبر ١٧٧٧ كتب إلى فولتير كما يكتب أحد رجال الأعمال لزميل له يقول : « انى عائد من سيليزيا راضياً عنها الرضى كله . . . فقد بعنا للأجانب ما قيمته ٥,٠٠٠,٠٠٠ كراون من التيل ، و ١,٢٠٠,٠٠٠ كراون من القماش . . . وقد أمكن اكتشاف طريقة لتحويل الحديد إلى صلب أبسط كثيراً من طريقة ريومور »[٣٣]

وتسهيلا للتجارة ألغى فردريك المكوس الداخلية ووسع الموانئ « وحفر القنوات وشق ثلاثين ألف ميل من الطرق الجديدة . أما التجارة الخارجية فقد عاقتها الرسوم المرتفعة على الواردات والحظر المفروض على تصدير السلع الاستراتيجية ، واقتضت الفوضى الدولية حماية الصناعة الوطنية لضمان الاكتفاء الصناعى فى الحرب . ورغم ذلك نمت برلين قلباً للتجارة وللحكومة : ففى ١٧٢١ كانت تضم من السكان ٦٠,٠٠٠ ، وفى ١٧٧٧ زادوا إلى ١٤٠,٠٠٠[٣٤] . لقد كانت تتهيأ لتصبح عاصمة لألمانيا .

ولكى يمول فردريك هذا المزيج من الإقطاعية ، والرأسمالية ، والاشتراكية « والأوتقراطية ، اقتضى شعبه من الضرائب قدراً يقرب بما رد عليهم من نظام اجتماعى وإعانات مالية وأشغال عامة . واحتفظ للدولة باحتكار الملح والسكر والتبغ والبن (بعد ١٧٨١) ، وامتلك ثلث الأرض الصالحة الزراعة[٣٥] . وفرض الضرائب على كل شيء « حتى على المغنين الجائلين واستقدم هلفتيوس ليخطط له نظاماً محكماً فى جمع الضرائب . وكتب

سفير انجليزى يقول : « ان مشروعات الضرائب الجديدة نفرت الشعب حقاً من مليكهم »(٣٦) . وقد ترك فردريك عند موته فى خزانة الدولة ٥١,٠٠٠,٠٠٠ طالر — وهو ما يعادل إيراد الدولة السنوى مرتين ونصفا .

وفى ١٧٨٨ نشر ميرابو (الابن) بعد زيارات ثلاث لبرلين تحليلا مدمراً عنوانه « فى النظام الملكى البروسى تحت حكم فردريك الأكبر » . وكان قد ورث عن أبيه مبادىء الفزيوقراطيين التى تنادى بالمشروعات الحرة، لذلك أدان نظام فردريك باعتباره دولة بوليسية « وبيرقراطية تخنق كل روح للمبادرة وتعدو على كل حرية شخصية . وكان فى وسع فردريك أن يرد على هذه التهم بأنه لو انتهج سياسة «عدم التدخل Laissez Faire » فى حالة الفوضى التى ضربت أطنابها فى بروسيا عقب حرب السنين السبع لأفسدت عليه هذه السياسة انتصاره بما تجر من فوضى اقتصادية . لقد كان التوجيه أمراً حتمياً ، وكان هو الرجل الوحيد الذى يستطيع القيادة الفعالة ، وهو لايعرف شكلا من أشكال القيادة غير قيادة القائد الحربى لجنوده . لقد أنقذ بروسيا من الهزيمة والانهيار ، ودفع الثمن بفقدانه حب شعبه له ؛ وقد فطن إلى هذه النتيجة ، وعزى نفسه بمبررات أخلاقية :

« إن البشر يتحركون إذا حثثهم على الحركة . ويقفون إذا كففت عن دفعهم . . . والناس مقلون فى القراءة ، زاهدون فى أن يتعلموا كيف يمكن التصرف فى أى شيء بطرق مختلفة . أما أنا ، أنا الذى لم أصنع بهم قط غير الخير ، فهم يظنون أننى أريد أن أضع سكيناً على حلوقهم بمجرد أن يلوح احتمال إدخال أى تحسين مفيد ، لا بل أى تغيير على الإطلاق . فى مثل هذه الحالات اعتمدت على شرف هدفى وسلامة ضميرى ، وعلى المعلومات التى أملكها ، ثم مضيت فى طريقى هادئاً»(٣٧) .

وقد انتصرت إرادته . فازدادت بروسيا حتى فى حياته غنى وقوة . وتضاعف عدد سكانها ، وانتشر فيها التعليم ، وأخفى التعصب الدينى رأسه . صحيح أن هذا النظام الجديد اعتمد على الاستبداد المستنير . وأن هذا الاستبداد

بقى بغير الاستنارة بعد أن مات فردريك ، وأن الهيكل القومى اعتراه الضعف وانهار فى فيينا أمام إرادة تعادل إرادة فردريك قوة وجبروتا . ولكن الصرح النابليونى أيضاً ، الذى اعتمد على إرادة رجل واحد وتفكيره ، انهار هو أيضاً ، وفى خاتمة المطاف كان بسمارك ، وريث فردريك والمستفيد البعيد فى تركته ، هو الذى عاقب فرنسا التى سيطر عليها وريث نابليون ، وهو الذى جعل من بروسيا وعشرات الإمارات دولة موحدة قوية هى ألمانيا .

٣ — الإمارات

لنذكر أنفسنا من جديد بأن ألمانيا لم تكن فى القرن الثانى عشر أمة بل اتحاداً مفككاً من دول مستقلة تقريباً ، قبلت صورياً الإمبراطور « الرومانى المقدس » فى فيينا رأساً لها ، وأوفدت ممثلين لها بين الحين والحين إلى ديت إمبراطورى (رايشستاج) ، أهم وظائفه الاستماع إلى الخطب ، واحتمال عبء المراسم ، وانتخاب إمبراطور جديد . وكان للدول لغة وآداب وفنون مشتركة ، ولكنها تباينت فى العادات والزى والعملة والعقيدة . وكان فى هذا التفتت السياسى بعض الفوائد : فتعدد بلاطات الأمراء كان مواتياً لتنوع الثقافات تنوعاً مشجعاً ؛ وكانت الجيوش صغيرة بدلا من أن تكون متحدة فتصبح مصدر إرهاب لأوربا ، ثم إن سهولة الهجرة فرضت على الدولة والكنيسة والشعب قسطاً كبيراً من التسامح فى الدين والعادات والقانون . وكانت سلطة كل أمير مطلقة من الناحية النظرية ، لأن المذهب البروتستنتى كرس « حق الملوك الإلهى » . أما فردريك ، الذى لم يقر بأى حق إلهى غير حق جيشه ، فقد سخر من « معظم الأمراء الصغار ، لا سيما الألمان منهم ، الذين ، يدمرون أنفسهم بالإسراف السفيه إذ يضللهم الوهم بعظمتهم المتصورة ، فأصغر ابن لأصغر ابن لأسرة مقطعة يخيل إليه أنه من طراز لويس الرابع عشر ، فيبنى فرسايه ، ويقتنى الخليلات ، ويحتفظ بجيش . . . له من القوة ما يكفى لخوض . . . معركة على مسرح فيرونا »[٣٨] .

وكانت أهم هذه الإمارات سكسونيا . وقد دالت دولة فنها ومجدها يوم تحالف أميرها الناخب فردريك أوغسطس الثانى مع ماريا تريزا ضد فردريك الأكبر ، فقصف الملك القاسي درسدن ودمرها عام ١٧٦٠ وفر الناخب إلى بولنده بصفته ملكها أوغسطس الثالث ، ثم مات فى ١٧٦٣ . وورث حفيده فردريك أوغسطس الثالث الإمارة الناخبة وهو فى الثالثة عشرة ، واكتسب لقب (العادل) ، وحول سكسونيا إلى مملكة (١٨٠٦) ، واحتفظ طوال تقلبات كثيرة بعرشه إلى أن مات (١٨٢٧) .

ويدخل كارل أويجن ، دوق فورتمبرج ، قصتنا فى المقام الأول باعتباره صديقاً ثم عدواً لشيلر . وقد فرض الضرائب على رعاياه ببراعة لاينضب معينها ، وباع عشرة آلاف من جنوده لفرنسا ، واحتفظ ببلاط كان فى رأى كازانوفا « ألمع بلاط فى أوربا »[٣٩] ، حوى مسرحاً فرنسياً ، وأوبرا إيطاليه ، وسلسلة من المحظيات . ويعنينا أكثر منه فى قصتنا كارل أوجسط ، دوق ساكسي — فايمار الحاكم من ١٧٧٥ إلى ١٨٢٨ ، ولكننا سنراه فى مظهر أكثر بهاء وهو محاط بنجوم أناروا سماء ملكه — فيلاند ، وهردر ، وجوته ، وشيلر . وكان واحداً من فريق « المستبدين المستنيرين » الصغار الذين ساهموا فى هذا العصر فى نهضة ألمانيا حين شعروا بتأثير فولتير وبالمثال الذى ضربه فردريك . ونهج نهج هؤلاء رؤساء الأساقفة الذين حكموا مونستر وكولون وترير وماينز وفورتزبورج — بامبرج باستكثارهم من المدارس والمستشفيات ، وحدهم من إسراف البلاط ، وتخفيفهم من الفوارق الطبقية ، وإصلاحهم السجون ، وتقديمهم الإعانات للفقراء ، وتحسينهم أحوال الصناعة والتجارة . كتب أدموند بيرك يقول « ليس من السهل أن تجد أو نتصور حكومات أكثر اعتدالا وتسامحاً من هذه الإمارات الكنسية »[٤٠] .

على أن الفوارق الطبقية كانت تؤكد فى أكثر الدول الألمانية باعتبارها جزءاً من أسلوب الضبط الاجتماعى . فكان النبلاء والاكليروس وضباط الجيش وأرباب المهن والتجار والفلاحون يؤلفون طبقات منفصلة ، وداخل كل فئة من هؤلاء درجات ومراتب صلبت كل منها ذاتها باحتقار المرتبة

الأدنى منها . وكان زواج الفرد خارج طبقته أمراً مستحيلا تقريباً ، ولكن بعض التجار والماليين اشتروا النبالة . واحتكر النبلاء المناصب العليا فى الجيش والحكومة ، وقد اكتسب كثيرون منهم امتيازاتهم ببسالتهم أو كفايتهم ولكن الكثيرين كانوا عالة على المجتمع « لا يفضلون الحلل التى يرتدونها ، يتنافسون على المكان الاجتماعى المقدم فى البلاط » ويتبعون الموضات الفرنسية فى اللغة والفلسفة والحليلات .

ومما يذكر بالفخر لأمراء ألمانيا الغربية وأساقفتها ونبلائها أنه لم يحل عام ١٧٨٠ حتى كانوا قد أعتقوا فلاحيهم الأقنان ، وبشروط يسرت الانتشار الواسع للرخاء فى الريف . وقد ذهب رانهولد لنتس إلى أن الفلاحين مخلوقات أفضل — أكثر بساطة ووداً وفطرية — من التجار الذين يحصون الدراهم أو شباب النبلاء الذين يختالون كبرا[٤١] . وقد صورت سيرة هينريش يونج الذاتية (١٧٧٧) حياة القرية فى كدها اليومى وفى مهرجاناتها الموسمية فى صورة مثالية ؛ ووجد هردر أغانى الفلاحين الشعبية أصدق وأعمق من شعر الكتب ؛ ووصف جوته فى كتابه (الشعر والحقيقة) الاحتفال بموسم صنع الخمر بأنه « يغمر بالفرح إقليماً بأسره » من صواريخ وغناء ونبيذ[٤٢] . كان هذا جانباً من المشهد الألمانى ، أما الجانب الآخر فكان الجهد الشاق والضرائب المرتفعة والنساء يشخن فى الثلاثين والأطفال الأميين يرتدون الأسمال ويتسولون فى الشوارع . قالت إيفا كونيج لليسنج فى ١٧٧٠ « فى إحدى المحطات تزاحم حولى ... ثمانون شحاذاً ... وفى ميرنبخ جرت ورائى أسر بأكملها وأفرادها يصيحون بأننى بالتأكيد لن أتركهم يموتون جوعاً »[٤٣] .

لقد كانت الأسرة فى القرن الثامن عشر أهم من الدولة أو المدرسة . أو المدرسة . وكان البيت الألمانى المصدر والمركز للتهذيب الخلقى ، والنظام الاجتماعى ، والنشاط الاقتصادى . ففيه يتعلم الطفل أن يطيع أباً صارماً ، ويلوذ بأم محبة ، ويشارك فى سن مبكرة فى مختلف الواجبات البناءة التى تملأ فراغ اليوم . وقصيد شيلر « أغنية الجرس » تعطينا صورة مثالية ترى فيها « الزوجة الشديدة التواضع ... تحكم دائرة الأسرة بحكمة » وتدرب

البنات ، وتكبح تهور الأولاد ، وتعكف فى كل لحظة من فراغها على نولها»[٤٤] . وكانت الزوجة خاضعة لزوجها ، ولكنها معبودة أبنائها . أما خارج البيت ، إلا فى قصور الأمراء ، فكان الرجال عادة يقصون النساء عن حياتهم الاجتماعية ، ومن ثم كان حديثهم ينحو إلى الأملال أو البذاءة . أما فى قصور الأمراء فكان هناك كثير من النساء المثقفات المهذبات السلوك . ويرى إكرمان أن بعضهن « يكتبن بأسلوب رائع ويفقن فى هذا كثيراً من أشهر مؤلفينا»[٤٥].وكان على نساء الطبقة العليا فى ألمانيا ، كما فى فرنسا ، أن يتعلمن الأغماء جزءاً من بضاعتهن ، والاستعداد لذرف الدموع دليلا على رقة شعورهن .

أما أخلاق البلاط فقد اقتدت بالمثل الفرنسية فى الشراب والقمار والفسق والطلاق . تقول مدام دستال إن النبيلات من النساء كن يبدلن أزواجهن « فى غير مشقة وكأنهن يرتبن أحداث تمثيلية » ، وكن يفعلن هذا « بقليل من مرارة النفس»[٤٦] . وضرب الأمراء المثل فى السلوك اللاأخلاقى ببيع جنودهم للحكام الأجانب ، وهكذا بنى حاكم هسى — كاسل قصراً أنيقاً ، وأنفق على بلاط مترف ، من حصيلة اتجاره فى جنوده . وبلغ مجموع ما باعه الأمراء الألمان — أو ما « أقرضوه » على حد تعبيرهم — خلال الثورة الأمريكية ثلاثين ألف جندى لانجلتره مقابل ٥٠٠,٠٠٠ جنيه ؛ ومن هؤلاء ١٢,٥٠٠ لم يعودوا قط[٤٧] . ولم يبد ألمان القرن الثامن عشر خارج بروسيا ميلا يذكر للحرب وهم يتذكرون أهوال القرن السابع عشر . ويبدو أن « الخلق القومى» يمكن أن يطرأ عليه التغيير من قرن لآخر .

وكان الدين فى ألمانيا أطوع للدولة منه فى الأقطار الكاثوليكية . كان منقسماً إلى ملل ونحل ، فحرم بذلك من حبر أعظم مرهوب ينسق عقيدته واستراتيجيته ودفاعه ؛ وكان قادة الدين يعينهم الأمير ، ودخل الدين يعتمد على مشيئته . وكان إيماناً قوياً فى الطبقتين الوسطى والدنيا ، ولم يتأثر بموجات الإلحاد التى تدفقت من انجلتره وفرنسا غير النبلاء والمفكرين وبعض الأكليروس . وكان إقليم الراين أكثره من الكاثوليك ، ولكن فى هذا الإقليم بعينه شهدت هذه الحقبة قيام حركة تتحدى سلطة البابوات فى جرأة .

وبيان ذلك أنه فى ١٧٦٣ نشر يوهان نيكولاوس فون هونتايم ، أسقف ترير المساعد ، متخفياً وراء اسم مستعار هو يوستينوس فبرونيوس ، رسالة باللاتينية فى « حالة الكنيسة ، وسلطة بابا روما الشرعية » وترجم الكتاب من اللاتينية إلى الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، وأحدث ضجة فى جميع أرجاء غربى أوربا . وقد قبل « فبرونيوس » سيادة البابا ، ولكن على أنها سيادة شرف وإدارة تنفيذية ؛ فالبابا غير معصوم ، وينبغى أن يتاح استئناف قراراته أمام مجمع عام تكون له السلطة التشريعية النهائية فى الكنيسة . وكان المؤلف سيء الظن بالتأثير المحافظ المستور للبلاط البابوى (الكيوريا) » — وألمع إلى أن التركيز المفرط للسلطة الكنسية تمخض عن حركة الإصلاح البروتستنتى ؛ وقد تيسر اللامركزية رجوع البروتستنت إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية . وفى مسائل القانون البشرى ، لا الإلهى ، يحق الأمر االعلمانيين أن يرفضوا طاعة البابوية ، ولهم — إن لزم الأمر — حق فصل كنائسهم القومية عن روما . وأدان البابا الكتاب (فبراير ١٧٦٤) ، ولكنه أصبح «كتاب صلاة للحكومات» [٤٨] وقد رأينا تأثيره على يوزف الثانى .

ومال رؤساء أساقفة كولون وتريير وماينز وسالزبورج لآراء «فبرونيوس » ، فقد رغبوا فى الاستقلال عن البابا استقلال الإمارات الأخرى عن الامبراطور . وعليه فى ٢٥ سبتمبر ١٧٨٦ أصدروا « بيان إمس التمهيدى» (قرب كوبلنتز) الذى كان خليقاً بأحداث حركة إصلاح بروتستنتى جديدة لو أخرج إلى حيز التنفيذ :

« إن البابا أعلى سلطة فى الكنيسة وسيظل أعلى سلطة فيها . . . ولكن الامتيازات (البابوية) التى لا تنحدر عن القرون المسيحية الأولى بل هى مبنية على المراسيم الإيزادورية الباطلة ، والتى تنتقص من قدر الأساقفة . . . لم يعد فى الإمكان أن تعد قانونية ، فهى تنتمى إلى اغتصابات الكيوريا الرومانية ، وللأساقفة الحق (مادامت الاحتجاجات السلمية لاتجدى) فى صيانة حقوقهم الشرعية تحت حماية الامبراطور الألمانى — الرومانى .

وبجب ألا يكون هناك بعد اليوم أى استئنافا ت (من الأساقفة) أمام روما . . وألا تتلقى الطرق (الدينية) أى توجيهات من رؤساء أجانب ، ولا أن تحضر مجامع عامة خارج ألمانيا . ويجب ألا ترسل أية تبرعات لروما . . . وألا تملأ روما الوظائف الكنسية الشاغرة ذات الدخول ، بل تملأ بانتخاب قانونى للمرشحين الوطنيين . . . وينبغى أن ينظم هذه الأمور وغيرها مجمع قومى ألمانى» [٤٩] .

ولم يؤيد الأساقفة الألمان هذا الإعلان خوفاً من قوة الكيوريا المالية ، ثم انهم ترددوا فى الاستعاضه عن سيادة روما النائية بسلطة الأمراء الألمان المباشرة والأصعب تفادياً . وهكذا انهارت الثورة الوليدة . وعدل هونتهايم عن أقواله (١٧٨٨) ، وسحب رؤساء الأساقفة بيانهم التمهيدى (١٧٨٩) ؛ وعادت الأمور كلها تسير سيرتها الأولى .

٤ — عصر التنوير الألمانى

ولكن ليس بكل معنى العبارة فالتعليم ، باستثناء الإمارات الكنسية ، كان قد انتقل من سيطرة الكنيسة إلى سيطرة الدولة . فأساتذة الجامعات تعينهم الحكومة وتدفع رواتبهم (فى تقتير مخجل) ، ولهم وضع الموظفين العموميين . ومع أن جميع المدرسين والطلاب كان يشترط عليهم الإقرار بأنهم يدينون بمذهب الأمير ، إلا أن الكليات الجامعية ، حتى سنة ١٧٨٩ ، كانت تتمتع بقدر متزايد من الحرية الأكاديمية . وحلت الألمانية محل اللاتينية لغة للتعليم . وكثرت المقررات الدراسية فى العلوم والفلسفة ، وتوسع فى تعريف الفلسفة (فى جامعة كونجزبرج على عهد كانط) بأنها « القدرة على التفكير ، وعلى البحث فى طبيعة الأشياء دون تغرضات أو مذهبية» [٥٠] . وقد طلب كارل فون تسيدلتس وزير التربية المخلص فى عهد فردريك الأكبر ، إلى كانط أن يقترح طرقاً « لصد الطلاب فى الجامعات عن دراسات « أكل العيش » . وإفهامهم أن القليل الذى يتعلمونه من القانون ، لا بل اللاهوت والطب . سيكون أيسر استيعاباً وآمن تطبيقاً لو ملكوا ناصية المعرفة الفلسفية »[٥١] .

وقد حصل الكثير من فقراء الطلاب على معونة حكومية أو أهلية لمواصلة التعليم الجامعى « وإنها لقصة مبهجة تلك التى روى فيها إكرامان كيف كان جيرانه الرحماء يمدون إليه يد المعونة فى كل خطوة من خطى تطوره (٥٢) . ولم يكن بين جماعة الطلاب تفرقة طبقية (٥٣) . فكل خريج يسمح له بأن يحاضر تحت رعاية الجامعة مقابل أى رسم يستطيع جمعه من المستمعين ، وقد بدأ كانط حياته المهنية على هذا النحو ؛ وكانت منافسة المعلمين الجدد لقدامام تحفز هؤلاء على أن يكونوا مستعدين فى كل لحظة . وقد حكمت مدام دستال على الجامعات الألمانية الأربع والعشرين بأنها « أرقى الجامعات علماً فى أوربا . فليس فى أى قطر ، ولا حتى فى انجلترا « وسائل بهذه الكثرة للتعليم أو للارتقاء بقدرات الإنسان إلى الكمال . » . ومنذ عصر الإصلاح البروتستنتى تفوقت الجامعات البروتستنتية على الكاثوليكية تفوقاً لا جدال فيه ، ويرتكز مجد ألمانيا الأدبى وفخرها على هذه المعاهد »(٥٤) .

وانتشر الإصلاح التعليمى وشاع فى الجو . فأصدر يوهان بازدوا — مستلهماً قراءته لروسو — فى ١٧٧٤ كتاباً من أربعة مجلدات عنوانه « المبادىء » رسم مخططاً لتعليم الأطفال بطريق المعرفة المباشرة بالطبيعة « فيجب أن يكتسبوا الصحة والعافية بالألعاب والتمرينات الرياضية ؛ وأن يتلقوا الكثير من تعليمهم فى الهواء الطلق بدلا من أن يلزموا مكاتبهم ؛ وأن يتعلموا اللغات لا بالأجرومية والصم بل بتسمية الأشياء والأفعال التى يصادفونها فى خبراتهم اليومية ؛ وأن يتعلموا الأخلاق بتأليف جماعاتهم وتنظيمها ، وأن يتهيأوا للحياة بتعلم حرفة ما . والدين يدخل فى المنهج لا بالصورة القديمة الغالبة ؛ وكان بازدو يتشكك فى عقيدة التثليث جهاراً (٥٥) وأنشأ فى دساو (١٧٧٤) معهداً خبرياً نموذجياً أخرج تلاميذ ، صدمت الكبار « وقاحتهم ، وسلاطتهم « وسعة علمهم وخيالهم » (٥٦) ، ولكن هذا « التعليم التقدمى » ، كان متسقاً مع حركة التنوير » فانتشر سريعاً فى طول ألمانيا وعرضها .

وكانت التجارب فى مضمار التعليم جزءاً من الاختمار الفكرى الذى

اضطربت به البلاد بين حرب السنين السبع والثورة الفرنسية . فكثرت الكتب والجرائد والمجلات والمكتبات المتنقلة وأندية القراءة كثرة ملؤها الحماسة . وانبثقت الحركات الأدبية العديدة ، ولكل منها أيديولوجيتها ومجلتها وقادتها . وكانت أول جريدة يومية ألمانية « داى لبتزج ذيتونج » قد بدأت عام ١٦٦٠ ، فلم يحل عام ١٧٨٤ حتى كان هناك ٢١٧ جريدة يومية وأسبوعية فى ألمانيا . وفى ١٧٥١ بدأ ليسنج يحرر القسم الأدبى من «فوسيك ديتونج» فى برلين ؛ وفى ١٧٧٢ أصدر ميرك وجوته وهردر «أنباء فرانكفورت الأدبية» ؛ وفى ١٧٧٣ — ٨٩ جعل فيلاند من «در تيوتش مركر» أكثر المجلات الأدبية فى ألمانيا نفوذاً . وكان هناك ثلاثة آلاف مؤلف ألمانى فى ١٧٧٣ ، وستة آلاف فى ١٧٨٧ ؛ وفى ليبزج وحدها ١٣٣ . وكثيرون منهم كانوا كتاباً يعملون بعض الوقت . وربما كان ليسنج أول ألمانى تعيش من الأدب سنين كثيرة . وكان جل المؤلفين فقراء ، لأن حق التأليف لم يحمهم إلا داخل إماراتهم ؛ واختزلت الطبعات المسروقة أرباح المؤلف والناشر على السواء اختزالا شديداً . وقد خسر جوته من كتابه جوتز فون برليشنجن وكان ربحه ضئيلا من قصته «آلام فرتر» ، وهى أعظم انتصار أدبى لذلك الجيل . ويعد تفجر الأدب الألمانى أحد الأحداث العظمى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فحين كتب دالامبير من بوتسدام فى ١٧٦٣ لم يجد فى المطبوعات الألمانية شيئاً يستحق الذكر [٥٧] ، ولكن ما وافى عام ١٧٩٠ حتى كانت ألمانيا تنافس فرنسا بل ربما تبزها فى العبقرية الأدبية المعاصرة. وقد لاحظنا احتقار فردريك للغة الألمانية لأنها جشاء غليظة تؤذيها الحروف الساكنة ؛ ومع ذلك فإن فردريك نفسه ، بهزيمته الرائعة لهذا العدد الكبير من أعدائه ، قد ألهم ألمانيا العزة القومية التى حفزت الكتاب الألمان على استعمال لغتهم والوقوف أنداداً لأمثال فولتير وروسو . فلم يحل عام ١٧٦٣ حتى كانت الألمانية قد هذبت نفسها وأضحت لغة أدبية مستعدة للتعبير عن حركة التنوير الألمانى .

ولم يكن هذا التنوير وليداً بتوليا . فهو الثمرة المؤلمة التى تمخضت عنها الربوبية الانجليزية مقترنة بالتفكير الحر الفرنسى

على أرض مهدتها عقلانية كريستان فون فولف المعتدلة . وكانت تفجرات الربوبية الكبرى التى فجرها تولاند وتندال وكولنز ووستن وولستن قد تمت ترجمتها إلى الألمانية قبيل عام ١٧٤٣ ، وما وافى عام ١٧٥٥ حتى كانت « رسائل » جريم تبث أحدث الأفكار الفرنسية بين الصفوة المثقفة من الألمان . وتوفر فى ١٧٥٦ من أحرار الفكر فى ألمانيا نفر أتاح اصدار « معجم لأحرار الفكر » . وفى ١٧٦٣ — ٦٤ أصدر بازدوف كتابه (محبة الصدق) الذى رفض أى وحى إلهى غير وحى الطبيعة ذاتها . وفى ١٧٥٩ بدأ كريستيان فريدرش نيقولاى ، وهو تاجر كتب برلينى ، « رسائل عن احدث ثمرات الأدب » ؛ وقد ظلت هذه الرسائل التى أثرتها مقالات بأقلام ليسنج وهردر وموسى مندلسون حتى عام ١٧٦٥ مناراً أدبياً لحركة التنوير يحارب التطرف فى الأدب والسلطة فى الدين .

وشاركت الماسونية فى الحركة فتأسس أول محفل للماسون بهمبورج فى ١٧٥٣ ، ووتلته محافل أخرى ؛ وكان من أعضائها فردريك الأكبر ، وفرديناند دوق برنزويك ، وكارل أوجست دوق ساكسى — فايمار ، وليسنج ، وفيلاند ، وهردر ، وكلوبشتوك ، وجوته ، وكلايست . وكانت هذه الجماعات بوجه عام تميل إلى الربوبية ، ولكنها تحاشت النقد العلنى للإيمان التقليدى . وفى ١٧٧٦ نظم آدم فايسهاوبت ، أستاذ القانون الكنسى فى إنجولشتات ، جمعية سرية شقيقة ، سماها « برفكتيبيلستن » ولكنها اتخذت بعد ذلك الاسم القديم (المستنيرين) وقد اتبع مؤسسها « وهو يسوعى سابق ، المنهج الذى جرت عليه جماعة اليسوعيين ، فقسم رفاقها إلى درجات من الاطلاع على أسرارها وأخذ عليهم العهد بطاعة قادتهم فى حملة « لتوحيد جميع الرجال القادرين على التفكير المستقل » ، ولجعل الإنسان « آية من آيات العقل ، فيبلغ بذلك أسمى درجات الكمال فى فن الحكم » .[٥٨] وفى ١٧٨٤ حظر كارل تيودور ، ناخب بافاريا ، جميع الجمعيات السرية ، فلقيت « طائفة المستنيرين » حتفها فى سن مبكرة .

وتأثر بحركة التنوير حتى الأكليروس . فطبق يوهان سملر أستاذ الفلسفة

فى هاله « النقد الأعلى » على الكتاب المقدس . فزعم (على العكس تماماً من الأسقف واربورتن) أن العهد القديم لا يمكن أن يكون موحى به من الله ، لأنه — إلا فى مرحلته الأخيرة — تجاهل الخلود . وألمع إلى أن المسيحية قد حرفها عن تعاليم المسيح لاهوت القديس بولس الذى لم ير المسيح قط ؛ ثم نصح اللاهوتيين بأن ينظروا إلى المسيحية على أنها صورة عابرة من صور جهد الإنسان فى بلوغ حياة فاضلة . فلما رفض كارل بارت وغيره من تلاميذه العقيدة المسيحية بأكملها إلا الإيمان بالله ، عاد سملر إلى إيمانه السنى ، واحتفظ بكرسى اللاهوت من ١٧٥٢ إلى ١٧٩١ . ووصف بارت المسيح بأنه معلم عظيم فقط . « مثل موسى ، وكونفوشيوس ، وسقراط ، وسملر ، ولوثر ، ومثلى أنا » [٥٩] كذلك سوى يوهان إيبرهارت بين سقراط والمسيح ، وقد طرد من وظيفة القسوسية اللوثرية ، ولكن فردريك عينه أستاذاً للفلسفة فى هاله . وقسيس آخر يدعى ف . أ . تيلر اختزل المسيحية إلى الربوبية ، ودعا لعضوية كنيسته أى إنسان مؤمن بالله ، بما فى ذلك اليهود [٦٠] . أما يوهان شولتز ، الراعى اللوثرى ، فقد أنكر لاهوت المسيح ، ولم ير فى الله أكثر من « الأساس الكافى للعالم » [٦١] ، وقد طرد من وظيفته فى ١٧٩٢ .

هؤلاء المهرطقون المفصحون عن هرطقاتهم كانوا قلة قليلة ؛ ولعل المهرطقين الصامتين كانوا كثيرين . أما وقد رحب هذا العدد الكبير من رجال الدين بالعقل ، وكان الدين فى ألمانيا أقوى كثيراً منه فى انجلترا أو فرنسا وكانت فلسفة فولف قد أمدت الجامعات بهذا التوفيق بين العقلانية والدين ، فإن التنوير الألمانى لم يتخذ صورة متطرفة . ولم يسع إلى تدمير الدين بل إلى تخليصه من الأساطير والسخافات وسلطان رجال الدين — وهى أمور جعلت الكاثوليكية فى فرنسا مبعث سرور عظيم للشعب وسخط شديد لجماعة الفلاسفة ، وقد فطن العقلانيون الألمان — وهم يتبعون روسو لا فولتير — إلى ما للدين من إغراء قوى للعناصر العاطفية فى الإنسان ؛ ثم إن النبلاء الألمان ، الأقل جهراً بارتيابيتهم من الفرنسيين ، ساندوا الدين معواناً للأخلاق والحكم . وجاءت الحركة الرومانتيكية فكبحت زحف العقلانية . ومنعت ليسنج من أن يكون لألمانيا ما كانه فولتير من قبل لفرنسا .

٥ — جوتهولت ليسنج

١٧٢٩ — ٨١

كان جده الأعلى عمدة لبلدة فى سكسونيا ، وظل جده أربعة وعشرين عاماً عمدة على كامينتس ، وكتب دفاعاً عن التسامح الدينى ؛ وكان أبوه الراعى اللوثرى الأول فى كامينتس ، وكتب دروساً فى تعليم العقيدة بالسؤال والجواب حفظها ليسنج عن ظهر قلب . أما أمه فكانت ابنة الواعظ الذى تقلد أبوه من قبل منصب الراعى لكنيسته . وكان تصرفاً طبيعياً منها أن تنذره للقسوسية ، وطبيعياً منه بعد أن أتخم بالتقوى أن يتمرد .

وكان تعليمه المبكر فى البيت وفى مدرسة ثانوية بمدينة مايسين مزيجاً من التأديب الألمانى والآداب الكلاسيكية ، ومن اللاهوت اللوثرى والكوميديا اللاتينية . يقول «كان تيوفراستوس ، وبلاوتوس ، وترينس ، عالمى الذى درسته بابتهاج» [٦٢] ، وحين بلغ السابعة عشرة بعث إلى ليبزج على منحة دراسية . فوجد المدينة أكثر إثارة للاهتمام من الجامعة ، وانغمس فى بعض حماقات الشباب ، وعشق المسرح ووقع فى غرام إحدى الممثلات ، وسمح له بالدخول وراء الكواليس ، وتعلم وسائل تقوية التأثير المسرحى . وفى التاسعة عشرة كتب تمثيلية ، ووفق فى جهوده فأخرجت . فلما سمعت الأم بنبأ هذه الخطيئة بكت ، واستدعاه الأب إلى البيت غاضباً . ولكنه سرى عنهما بابتساماته ، وأقنعهما بسداد ديونه . وحين وقعت أخته على قصائده وجدتها بذيئة إلى حد مذهل وأحرقتها ؛ فرمى ثلجاً فى صدرها ليخفف من حماستها ، ثم أعيد إلى ليبزج ليدرس الفلسفة ويصبح أستاذاً ، ولكنه وجد الفلسفة قاتلة ، واقترض ديوناً عجز عن الوفاء بها ، ثم هرب إلى برلين (١٧٤٨) .

هناك عاش حياة الأديب الذى يلتقط رزقه يوماً بيوم — يراجع الكتب ، ويترجم ، ويشترك مع كريستلوب ميليوس فى تحرير مجلة مسرحية لم تعمر . وما إن بلغ التاسعة عشرة حتى أصبح مدمناً للتفكير الحر . فقرأ سبينوزا ووجده برغم هندسته لا يقاوم . وألف مسرحية (١٧٤٩) عنوانها

« الروح الحر » ، قابلت بين تيوفان القسيس الشاب اللطيف ، وآدراست الحر التفكير الخشن الصخاب الذى تغلب عليه إلى حد ماصفات الأوغاد . هنا انتصرت المسيحية فى الجدل . ولكن فى هذه الفترة أو حولها كتب ليسنج لأبيه يقول « ليس الإيمان المسيحى بالشىء الذى ينبغى للمرء أن يتقبله من أبويه بتسليم »[٦٣] وألف الآن تمثيلية أخرى (اليهود) ناقشت التزاوج بين المسيحيين واليهود . فهنا عبرانى غنى شريف لا اسم له إلا « المسافر » . ينقذ حياة نبيل مسيحى وابنته ، فيعرض النبيل عليه الزواج من ابنته مكافأة له ، ولكنه يعدل عن عرضه حين يميط اليهودى اللثام عن حقيقة جنسه ، ويوافق اليهودى على أن الزواج لو تم لكان غير سعيد . ولم يتعرف ليسنج إلى موسى مندلسون الذى رأى فيه تجسيداً للفضائل التى كان قد خلعها على « المسافر » إلا بعد خمس سنين (١٧٥٤) وذلك أثناء مباراة الشطرنج .

وفى بواكير عام ١٧٥١ كلف فولتير أو سكرتيره ليسنج بأن يترجم إلى الألمانية مادة أراد الفيلسوف المتغرب أن يستعملها فى دعوى رفعها على أبراهام هيرش ، وسمح السكرتير لليسنج أن يستعير جزءاً من مخطوط كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » . وفى تاريخ لاحق من تلك السنة ذهب ليسنج إلى فتنبرج وأخذ المخطوط معه . وخشى فولتير أن تستعمل هذه النسخة غير المصححة فى إصدار طبعة مسروقة ، فأرسل إلى ليسنج طلباً عاجلا بأسلوب مهذب لرد الأوراق . واستجاب ليسنج ، ولكنه أنكر النغمة المتعجلة ، وربما كان هذا سبباً فى تشويه خصومته التالية لأعمال فولتير وخلقه .

ونال ليسنج درجة الأستاذية من جامعة فتنبرج عام ١٧٥٢ . فلما عاد إلى برلين شارك فى دوريات شتى بمقالات اتسمت بكثير من التفكير الإيجابى والأسلوب اللاذع . فما حل عام ١٧٥٣ حتى كان قد اكتسب قراء بلغوا من الكثرة حداً يلتمس له معه العذر فى أن ينشر وهو فى الرابعة والعشرين طبعة جمعت كل أعماله فى ستة مجلدات . وقد اشتملت على تمثيلية جديدة اسمها « الآنسة سارة سامبسن » كانت من معالم تاريخ المسرح الألمانى . وكان

المسرح الألماني إلى هذا التاريخ قد أخرج كوميديات وطنية ، ولكن ندر أن أخرج مأساة وطنية . الملك ناشد ليسنج زملاءه كتاب التمثيليات أن يتحولوا عن النماذج الفرنسية إلى النماذج الانجليزية ويكتبوا مآسيهم هم . وامتدح ديدرو اندفاعه عن الكوميديا العاطفية ومأساة الطبقة الوسطى » ولكن تمثيلية « الآنسة سامبسن » استوحاها من انجلترة — من « التاجر اللندنى» لجورج ليللو (١٧٣١) و « كلاريسا » لصموئيل رتشردسن (١٧٤٨) .

ومثلت المسرحية فى فرانكفورت — على — الأدور عام ١٧٥٥ ، ولقيت قبولا حسناً . وقد احتوت كل عناصر الدراما ، بدأت بإغواء ، واختتمت بانتحار ، ووصلتهما بنهر من الدموع . والوغد مليفرست (الحلو المظهر) هو افلايس فى قصة رتشردسن ، تمرس بسلب الفتيات بكارتهن ، ولكنه يستنكر الزواج بواحدة ، يعد سارة بالزواج — ويهرب معها ، ويعاشرها معاشرة الأزواج ، ثم يسوف فى الزواج ، وتحاول خليلة سابقة له أن تسترده ، وتخفق . فتدس السم لسارة ، ويصل أبو سارة ، مستعداً لأن يغفر كل شيء ويقبل ميلفونت صهراً له ، ولكنه يجد ابنته تحتضر أما ملفونت فينتحر مخالفاً بذلك طبيعته ، وكأنه يطبق ملاحظة ليسنج الساخرة : إن الأبطال فى المآسي لايموتون من شيء إلا من الفصل الخامس [٦٤] .

وخيل إليه أن فى استطاعته الآن أن يرتزق من الكتابة للمسرح ، ولما لم يكن فى برلين مسارح فإنه رحل إلى ليبزج (١٧٥٥) ثم اندلعت حرب السنين السبع . فأقفل المسرح ، وكسدت سوق الكتب ، وبات ليسنج مفلساً . فعاد إلى برلين » وشارك فى مجلة نيقولاى « رسائل عن أحدث ثمرات الأدب » بمقالات سجلت قمة جديدة فى النقد الأدبى الألمانى . تقول رسالته التاسعة عشرة « إن القواعد هى ما يشاء أساتذة الفن مراعاته » وفى ١٧٦٠ غزا الجيش النمساوى الروسى برلين ، فر ليسنج إلى برزلاو حيث عمل سكرتيراً لقائد بروسى . وخلال السنين الخمس التى أقامها هناك اختلف إلى الحانات ، وقامر ، ودرس سبينوزا ، وآباء المسيحية القدامى ، وفنكلمان ، وكتب « لاوكون » . ثم عاد إلى برلين فى ١٧٦٥ . وفى ١٧٦٦ دفع بأشهر كتبه إلى المطبعة .

وهذا الكتاب « لاوكون ، أوعلى التخوم بين التصوير والشعر » استلهم حافزه المباشر من كتاب فنكلمان « أفكار عن محاكاة الآثار الإغريقية فى التصوير والنحت »(١٧٥٥) . وبعد أن كتب ليسنج نصف مخطوطه وصله كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » (١٧٦٤) ، فقطع بحثه وكتب يقول : « لقد ظهر كتاب الهر فنكلمان فى تاريخ الفن . ولن أجرؤ على التقدم خطوة أخرى قبل أن أقرأ هذا الكتاب » [٦٥] واتخذ نقطة انطلاقة من مفهوم فنكلمان عن الفن الإغريقى الكلاسيكى متمثلا فى الوقار الهادىء والفخامة المطمئنة : ووافق على زعم فنكلمان أن مجموعة تماثيل اللاوكون المحفوظة بقاعة الفاتيكان للفنون احتفظت بهذه الصفات رغم الألم القتال (اشتبه لاوكون ، كاهن أبوللو فى طروادة ، فى أن هناك يونانيين يختبئون فى « حصان طروادة » ، فقذفه برمح : ولكن الإلهة أثينا المحابية لليونان أقنعت بوسيدن أن يطلع من البحر ثعبانين ضخمين التفا حول الكاهن وولديه التفافاً قاتلا) . وقد ظن فنكلمان أن مجموعة لاوكون — التى تعد الآن عملا من أعمال نحاتين رودسيين فى القرن الأخير قبل المسيح — تنتمى إلى عصر فيدياس الكلاسيكى.

أما لماذا خلع فنكلمان ، الذى شاهد هذا الأثر ودرسه صفة الجلال المطمئن على ملامح الكاهن المشوهة فذلك سر غامض . وقد قبل ليسنج الوصف لأنه لم ير التمثال قط [٦٦] . ووافق على أن المثال خفف من تعبير الألم ؛ ثم راح يتساءل عن سبب هذا الانضباط الفنى ، وأراد استنباطه من قيود الفن التشكيلى الأصيلة الصحيحة .

ثم تمثل بقول الشاعر الإغريقى سيمونيدس إن « التصوير شعر صامت ، والشعر تصوير بليغ » [٦٧] . وأضاف أن الإثنين مع ذلك يجب أن يلزما حدودهما الطبيعية : فالتصوير والنحت ينبغى أن يصفا الأشياء فى المكان ، لا أن يحاولا قص قصة ، أما الشعر فينبغى أن يروى أحداثاً فى الزمان ، لا أن يحاول وصف أشياء فى المكان . وينبغى أن يترك الوصف المفصل للفنون التشكيلية ، فإذا ورد فى الشعر ، كما فى «فصول» طومسن أو «ألب» هالر ، قطع السرد وشوش الأحداث . « ومعارضة هذا الذوق الفاسد

ومناقضة هذه الآراء التى لا أساس لها ، هو الهدف الرئيسى للملاحظات التالية »(٦٨) . ولكن سرعان ما نسى ليسنج هذا الهدف ، وتاه فى نقاش مستفيض لكتاب فنكلمان فى تاريخ الفن . هنا كانت تعوزه الخبرة والكفاية ؛ وكان لتمجيده الجمال المثالى باعتباره هدف الفن أثر معطل على التصوير الألمانى . ثم إنه خلط بين التصوير والنحت ، وطبق عليهما جميعاً المعايير الخاصة بالنحت فى المقام الأول ، وبهذا شجع شكلية أنطون رفائيل منجز الجامدة . بيد أن أثره على الشعر الألمانى كان بركة ؛ فقد حرره من الأوصاف المسهبة ، والنزعة الوعظية المدرسية ، والتفصيل الممل ، وأرشده إلى الحركة والشعور . وقد أقر جوته شاكراً بالتأثير المحرر لكتاب ليسنج « لاوكون » .

ووجد ليسنج نفسه أكثر تمكناً من عمله حين انتقل (ابريل ١٧٦٧) إلى همبورج كاتباً وناقداً مسرحياً براتب قدره ثمانمائة طالر فى العام . وهناك أخرج تمثيليته الجديدة . « منا فون بارنهيلم » . وبطل التمثيلية — الميجر تلهايم — العائد من الحرب بأكاليل الغار إلى أملاكه يظفر بخطبة منا الحسناء الغنية . غير أن الحظ الذى قلب له ظهر المجن ، والدسائس المعادية التى لاحقته ، يهويان به إلى درك الفقر ، فينسحب من الخطبة لأنه لم يعد الزوج الصالح لوريثة ثروة ضخمة . ويختفى ، ولكنها تطارده وتتوسل إليه أن يتزوجها ، فيرفض . وإذ تدرك السبب تدبر خدعة تبيت بها معدمة ولكن فى صورة جذابة ؛ ويعرض الميجر الآن نفسه زوجاً لها ويدخل رسولان فجأة يعلنان كل من ناحيه أن منا وتلهايم قد استردا ثروتهما . ويبتهج الجميع ، وحتى الخدم يدفعون على عجل إلى الزواج . والحوار مرح ، والشخوص بعيدة التصديق ، والحبكة منافية للعقل — ولكن كل الحبكات تقريباً منافية للعقل .

وفى اليوم الذى شهد افتتاح المسرح القومى بهمبورج (٢٢ أبريل ١٧٦٧) أصدر ليسنج نشرة قدم بها لمقالاته فى نظرية الدراما وقد علقت هذه المقالات دورياً ، طوال العامين التاليين ، على التمثيليات التى أخرجت فى ألمانيا ، وعلى نظرية الدراما فى أعمال الفلاسفة . وقد اتفق مع أرسطو على القول بأن الدراما أسمى أنواع الشعر ، وقبل فى تناقض مندفع القواعد التى وضعها أرسطو فى كتابه « فى الشعر » :

« لست أتردد فى الاعتراف . . . بأنى أعده معصوماً مثل « مبادىء » [٦٩] اقليدس (الذى لم يعد الآن معصوماً) . ومع ذلك توسل إلى مواطنيه أن يكفوا عن تبعيتهم لكورنيى وراسين وفولتير » وأن يدرسوا فن الدراما كما هو معلن فى شكسبير (الذى تجاهل قواعد أرسطو) . وقال إنه يشعر ان فى الدراما الفرنسية اسرافاً فى الشكلية لايسمح بإحداث ذلك « التنفيس » أو تطهير العواطف الذى وجده أرسطو فى الدراما اليونانية ؛ وذهب إلى أن شكسبير قد حقق هذا التطهير على نحو أفضل فى الملك لير ، وعطيل ، وهاملت بحدة الحركة وقوة لغته وروعتها . وقد أكد ليسنج ضرورة توفر عنصر الاحتمال ، ناسياً منديل ديدمونه . فكاتب الدراما القدير يتجنب الاعتماد على المصادفات والتفاهات ، فيبنى بالتدريج كل شخص من شخوصه بحيث تصدر الأحداث بالضرورة عن طبيعة الأشخاص المعنيين . وقد وافق كتاب الدراما فى فترة حركة « شتورم أوند درانج (الاقتحام والجهاد) على اتخاذ شكسبير مثلا أعلى ، وحرروا الدراما الألمانية فى ابتهاج من الدراما الفرنسية . وألهمت الروح القومية التى تصاعدت بانتصارات فردريك وهزيمة فرنسا نداء ليسنج ودعمته ، وسيطر شكسبير على المسرح الألمانى قرابة قرن من الزمان .

غير أن تجربة همبورج انهارت لأن الممثلين تنازعوا فيما بينهم ولم يتفقوا إلا على الاستياء من مقالات ليسنج النقدية . فشكا فريدرش شرودر من أن « ليسنج لم يستطع قط أن يفرغ لمشاهدة عرض كامل للمسرحية ؛ فهو يخرج ويدخل ، أو يتحدث إلى معارفه ، أو يستسلم للتفكير ، ومن السمات التى تثير سروره العابر يكون صورة هى من نسج عقله ولا تمت إلى الواقع بسبب » [٧٠] وهذا الحكم المميز أجاد وصف حياة ليسنج وعقله المتمردين .

والآن هل يجدر بنا أن نقف به فى منتصف طريقه لنلقى عليه بنظرة ؟ كان ربعة « منتصب القامة فى كبرياء » قوياً لدنا بفضل التمرين الرياضى المنتظم ، مليح القسمات ، أزرق العينين فى دكنة ، بنى الشعر فاتحه محتفظاً بلونه هذا حتى مماته . وكان دافئاً فى صداقاته ، حاراً فى عداواته . لا يسعده شىء كالجدل ، فإذا اشتبك فيه أثخن الجراح بقلم حاد . كتب يقول « ليبدأ

الناقد بالبحث عن شخص يستطيع الاختلاف معه . وهكذا يلج موضوعاً ويوغل فيل شيئاً فشيئاً ، ثم يقفو الباقى هذه الخطوة نتيجة طبيعية لها ، وأنا أعترف صراحة بأننى أخترت أولا المؤلفين الفرنسيين لهذا الغرض ، لاسيما المسيو فولتير» (٧١) - وقد اقتضى هذا الاختيار قدراً كافياً من الشجاعة . وكان متحدثاً ذكياً ولكنه مندفع ، حاضر الجواب ، لديه عن كل شيء أفكار بلغت من الكثرة والقوة مبلغاً لم يتح له أن يضفى عليها النظام أو الاتساق أو الفعالية الكاملة . وكان يستمتع بالبحث عن الحقيقة أكثر من الوهم الخطر بأنه وجدها . ومن هنا جاءت أشهر ملاحظاته :

« ليست الحقيقة التى يملكها الرجل - أو يعتقد أنه يملكها - هى التى تجعل له قيمة ، بل الجهد المخلص الذى بذله للوصول إليها . لأنه ليس بامتلاك الحقيقة بل بالبحث يطور المرء تلك الطاقات التى فيها وحدها كماله المطرد النمو . فالتملك يجعل العقل راكداً كسولا متكبراً . ولو أن الله احتوى فى يمناه الحقيقة كلها ، ولم تحتو يسراه إلا الحافز الدائم الحركة نحو الحقيقة ، علماً بأننى سأخطىء دائماً أبدا - ثم قال لى « اختر ! » لأحنيت رأسى فى اتضاع أمام يسراه وقلت « أبتاه ، أعطنى هذا ! فالحقيقة الخالصة لك أنت وحدك »(٧٢) .

وبقيت له من تجربة همبورج الفاشلة صداقتان غاليتان ، إحداهما مع إليز رايماروس ، ابنة هرمان رايماروس أستاذ اللغات الشرقية فى أكاديمية همبورج ، التى جعلت من بيتها ملتقى لأرقى الجماعات ثقافة فى المدينة . وأنضم ليسنج إلى ندوتها ، واختلف إليها مندلسون وياكوبى أثناء وجودهما فى المدينة ، وسوف نرى الدور الحيوى الذى لعبته هذه الجماعة فى تاريخ ليسنج . أما الصداقة الثانية التى كانت أوثق حتى من هذه فصداقته لإيفا كونيج يقول ليسنج إن هذه السيدة التى كانت زوجاً لتاجر حرير وأما لأربعة أطفال « ذكية تفيض حيوية ، وهبت لباقة المرأة وكياستها » ، وأنها « كانت لا تزال محتفظة ببعض نضارة الشباب وفتنته »(٧٣)، وقد جمعت هى أيضاً

من حولها صالوناً من الأصدقاء المثقفين ، كان ليسنج يحتل مكان الصادرة منهم . فلما رحل زوجها إلى البندقية فى ١٧٩٩ قال لليسنج ، « إنى أترك أسرتى وديعة بين يديك » . ولم يكن هذا بالترتيب الحكيم ، لأن الكاتب المسرحى لم يكن له ما يملكه إلا العبقرية ، وكان مديناً بألف طالر . وفى أكتوبر من ذلك العام قبل دعوة من الأمير كارل فلهلم فرديناند حاكم برنزويك ليضطلع بأمانة مكتبة الدوقية فى فولفنبوتل ، التى تقلص سكانها إلى ستة آلاف نسمة منذ أن نقل دوقها الحاكم مقره إلى برنزويك (١٧٥٣) على سبعة أميال منها ، ولكن مجموعة كتبها ومخطوطاتها كانت فى رأى كازانوفا « ثالث أعظم مكتبة فى العالم » [٧٤] واتفق على أن ينقد ليسنج ستمائة طالر فى العام ويخصص له مساعدان وخادم ، ويعطى سكناً مجانياً فى قصر الدوق القديم ؛ وفى مايو ١٧٧٠ استقر فى بيته الجديد .

غير أنه لم يكن أمين مكتبة ناجحاً ، ومع ذلك فقد أبهج رئيسه باكتشافه بين المخطوطات بحثاً مشهوراً مفقوداً بقلم بيرنجار التورى (٩٩٨ — ١٠٨٨) يتشكك فيه فى عقيدة استحالة خبز القربان وخمرة إلى جسد المسيح ودمه . وقد افتقد فى حياته القاعدة « التى عاشها الآن ، الكفاح والحافز اللذين وجدهما فى همبورج وبرلين . ثم إن انكبابه على قراءة الخطوط الرديئة فى الضوء الضعيف أضر عينيه وأصابه بنوبات من الصداع ، وبدأت صحته تتداعى ، فعزى نفسه بكتابة مسرحية جديدة سماها « إميليا جالوتى » أفصحت عن الضيق بامتيازات الطبقة الارستقراطية وأخلاقها . فإميليا هذه ابنة جمهورى متحمس ، يشتهيها سيدهما أمير جواستاللا فيقتل خطيبها بأمره ، ثم يخطفها إلى قصره ؛ فيعثر عليها أبوها ، ويطعنها طعنات مميتة استجابة لإلحاحها ، ثم يستسلم لبلاط الأمير ويحكم عليه بالإعدام ، بينما الأمير سادر فى غيه لا يختلج إلا لحظة . وحرارة المسرحية وبلاغتها أنقذتا خاتمتها ، فأصبحت مأساة محببة على خشبة المسرح الألمانى ، وقد أرخ جوته بعرضها الأول (١٧٧٢) بعث الأدب الألمانى من رقدته . ورحب بعض النقاد بليسنج شكسبيراً ألمانياً .

وفى أبريل ١٧٧٥ ذهب ليسنج إلى إيطاليا مرافقاً لليوپولد أمير برنزويك ، وقضى ثمانية أشهر يستمتع بالحياة فى ميلان والبندقية وبولونيا ومودينا

وبارما وبياتشنتسا وبافيا وتورين وكورسيكا وروما ؛ وهناك قدم إلى البابا بيوس السادس ، وربما شاهد تمثال لاوكون متأخراً . وفى فبراير ١٧٧٦ كان قد عاد إلى فولفنبوتل . وفكر فى الاستقالة ، ولكنه أقنع بالبقاء فى منصبه بعلاوة قدرها مائتا طالر فوق راتبه ، وبمائة جنيه ذهبى فرنسى (لوى دور) فى العام بوصفه مستشاراً لمسرح مانهايم . وعرض الآن وهو فى السابعة والأربعين على الأرملة إيفا كونيج أن تصبح زوجاً له وأن تحضر بأولادها معها . فحضرت ، وتزوجا (٨ أكتوبر ١٧٧٦) . وظلا عاماً يتمتعان بحياة سعيدة هادئة . وفى عشية الميلاد من عام ١٧٧٧ ، ولدت طفلا مات فى الغد . وبعد ستة عشر يوماً ماتت الأم أيضاً ، وفقد ليسنج طعم الحياة .

ولكن الجدل حفظ عليه حياته . ففى أول مارس ١٧٦٨ ودع هرمان رايماروس الحياة مخلفاً لزوجته مخطوطاً ضخماً لم يجرؤ قط على طبعه . وقد مررنا فى غير هذا الموضع [٧٥] من الكتاب مرور الكرام بهذا « الدفاع عن المؤمنين العقلانيين » . وكان ليسنج قد اطلع على شطر من هذا المؤلف الممتاز ، فطلب إلى السيدة رايماروس أن تسمح له بنشر أجزاء منه ، فوافقت . وكان له بصفته أميناً للمكتبة سلطة نشر أى مخطوط فى المجموعة . فأودع مخطوط « الدفاع » فى المكتبة ، ثم نشر جزءاً منه فى ١٧٧٤ بعنوان « تسامح الربوبيين . . . بقلم كاتب مجهول » . فلم يثر أى ضجة . ولكن الراسخين فى الأمور الروحية أثارهم القسم الثانى فى مخطوط رايماروس الذى أصدره ليسنج فى ١٧٧٧ بعنوان « مزيد من بحوث الكاتب المجهول عن الوحى » . وقد زعم هذا القسم أنه لا يمكن لأى وحى موجه لشعب واحد أن يظفر بقبول جميع الناس فى عالم تتنوع أجناسه وأديانه هذا التنوع الكبير ، فالذين سمعوا إلى الآن بالكتاب المقدس ، اليهودى — المسيحى ، بعد ألف وسبعمائة سنة ، ليسوا إلا أقلية من البشر ، وإذن فلا يمكن قبوله تنزيلا من الله للنوع الإنسانى . ثم نشر قطعة أخيرة من المخطوط بعنوان « أهداف المسيح وتلاميذه » (١٧٧٨) لم تصور المسيح ابناً لله بل صوفيا متحمساً شارك رأى بعض اليهود فى أن العالم المعروف يومها قد أشرف على نهايته ، وسيعقبه قيام

ملكوت الله على الأرض ؛ وقد فهمه الرسل على هذا النحو (فى زعم رايماروس)، لأنهم أملوا فى أن يبوءوا عروشاً فى هذا الملكوت القادم . فلما انهار الحلم بصرخة المسيح اليائسة على الصليب « إلهى إلهى لماذا تركتنى » — اخترع الرسل (كما ظن رايماروس) خرافة قيامته إخفاء لهزيمته ، وصوروه بصورة ديان العالم المكافىء المنتقم .

وهاجم اللاهوتيون الذين صدموا أجزاء « مخطوط فولفنبوتل » هذه فى نيف وثلاثين مقالا فى الصحف الألمانية. واتهم يوهان ملكيور جوتسى كبير رعاة همبورج ليسنج بأنه موافق سراً على مزاعم « الكاتب المجهول » ، وحض الكنيسة والدولة جميعاً على عقاب هذا المنافق . أما الخصوم الأكثر اعتدالا فقد وبخوا ليسنج على نشره بالألمانية المفهومة للقراء شكوكاً كان من الواجب الإفصاح عنها ، إن جاز الإفصاح إطلاقاً ، باللاتينية لفئة قليلة من القراء . ورد ليسنج فى إحدى عشرة نشرة (١٧٧٨) نافست « رسائل بسكال الإقليمية » فى تهكمها المرح — ونكتتها الذكية الفتاكة . يقول هينى « لم يسلم منه رأس ، وما أكثر الرءوس التى أطاح بها لمجرد العبث الخالص ، ثم دفعته شقاوته إلى رفعها علانية ليرى الناس أنها فارغة »[٧٦] . وقد ذكر ليسنج مهاجميه بأن حرية الحكم والنقاش عنصر حيوى فى برنامج حركة الإصلاح البروتستنتى ، ثم إن للشعب الحق فى كل المعرفة المتاحة له ، وإلا لكان بابا واحد من بابوات روما خيراً من مائة نبي بروتستنتى . وعلى أية حال فإن قيمة المسيحية (فى زعمه) ستبقى حتى لو كان الكتاب المقدس مجود وثيقة بشرية وكانت معجزاته مجرد قصص خرافية ورعة أو أحداث طبيعية . وصادرت حكومة الدوق أجزاء مخطوط فولفنبوتل ومخطوط رايماروس ، وأمرت ليسنج بألا ينشر المزيد دون موافقة الرقيب البرنزويكى .

فلما ألزم ليسنج الصمت على منبره اتجه إلى خشبة المسرح فألف أروع تمثيلياته . وكان قد أعسر مرة أخرى إثر النفقات التى تحملها بسبب مرض زوجته وموتها ، فاقترض ثلاثمائة طالر من يهودى همبورجى ليوفر الوقت اللازم للفراغ من مسرحية « ناثان الحكيم » . وقد اختار

مكاناً لأحداثها مدينة أورشليم أبان الحملة الصليبية الرابعة . وأما ناثان هذا فتاجر يهودى ورع له زوجة وسبعة أبناء يذبحهم المسيحيون الذين أتلفت الحرب الطويلة أخلاقهم . وبعد ثلاثة أيام يأتيه راهب بطفلة مسيحية ماتت أمها لتوها ، وكان أبوها — الذى قتل فى المعركة مؤخراً — قد أنقذ ناثان من الموت فى مناسبات عديدة . ويسمى ناثان الطفلة ريكا ، ويربيها كأنها ابنته ، ولا يلقنها إلا التعاليم الدينية التى يجمع عليها اليهود والنصارى والمسلمون.

وبعد ثمانية عشر عاماً ، وبينما كان ناثان غائباً لقضاء بعض مصالحه ، احترق بيته ؛ وينقذ فارس شاب من فرسان المعبد ريكا ثم يختفى دون التعريف بشخصه ؛ وتحسبه ريكا ملاكاً معجزاً . ويبحث ناثان بعد عودته عن المنقذ ليكافئه ، فيسبه هذا لأنه يهودى . ولكن ناثان يقنعه بالمجيء لتقبل شكر ريكا وعرفانها . فيحضر ، ويقع فى غرامها وتبادله الحب ، ولكنه حين يعرف أنها مسيحية المولد ولم تربَّ كمسيحية يسائل نفسه ألا يلتزم بيمين الفروسية بتبليغ الأمر إلى بطريرك أورشليم . ثم يشرح مشكلته للبطريرك دون ذكر أسماء الأفراد ، ويحدس البطريرك أنهما ناثان وريكا ، فيقسم أنه قاتل ناثان لا محالة . ثم يرسل راهباً ليتجسس على اليهودى ، ولكنه هو الراهب ذاته الذى جاء بريكا إلى ناثان قبل ثمانية عشر عاماً ، وقد لحظ طوال هذه السنين حكمة التاجر المشربة بالعاطفة ، فيخبره بالخطر الذى يتهدد حياته ، ويحزنه ذلك الحقد الدينى الذى يجعل الناس قتلة سفاكين للدماء إلى هذا الحد .

ثم يقع صلاح الدين ، حاكم القدس الآن ، فى ضائقة مالية . فيرسل فى طلب ناثان بأمل الاقتراض منه . فيحضر ناثان ، ويفطن إلى حاجة صلاح الدين ، فيعرض السلفة قبل أن تطلب منه . أما السلطان ، العليم بما اشتهر به ناثان من حكمة ، فيسأله أى الأديان الثلاثة أفضل فى رأيه . ويجيب ناثان بقصة حورها بحكمة من القصة التى رواها بوكاشيو ونسبها للمكى صادق اليهودى الاسكندرى. تقول القصة إن خاتماً نفيساً كان يتوارثه جيل بعد جيل دليلا

على الوارث الشرعى لضيعة غنية . ولكن فى أحد هذه الأجيال يحب الأب أبناءه الثلاثة حباً يستوى حرارة وصدقاً ، فيأمر بصنع ثلاثة خواتم متشابهة ، ويعطى كل ابن خاتماً سراً ، وبعد موته يتنازع الأبناء على أى الخواتم هو الأصيل والحقيقى ، ثم يحتكمون إلى القضاء — حيث ظل الأمر معلقاً لم يفصل فيه إلى اليوم . فأما الأب المحب فهو الله . وأما الخواتم الثلاثة فهى اليهودية والمسيحية والإسلام ، والتاريخ لم يفصل بعد فى أمر هذه الأديان وأيها هو شريعة الله الحقة . ويدخل ناثان تغييراً جديداً على القصة : فالخاتم الأصلى كان المفروض أنه يجعل لابسه إنساناً فاضلا . ولكن بما أن أحداً من الابناء الثلاثة لايفضل غيره من الناس ، فمن المحتمل أن يكون الخاتم الأصلى قد فقد ، فكل خاتم — أى كل دين — حقيقى بقدر ما يجعل لابسه فاضلا . ويعجب صلاح الدين بجواب ناثان إعجاباً شديداً فيقوم ويعانقه — وعقب هذا الحديث الفلسفى يظهر مخطوط عربى يتبين منه أن فارس المعبد وريكا ولدان لأب واحد . فيحزنان لأنهما لايستطيعان الزواج ، ولكنهما يفرحان لأن فى استطاعتهما الآن أن يحب أحدهما الآخر كأخ وأخت ينالان بركة ناثان اليهودى وصلاح الدين المسلم .

أكان ناثان صورة صاغها على غرار موسى مندلسون ؟ هناك أوجه شبه بين الإثنين كما سنرى فى فصل لاحق ، ومن المحتمل ، برغم أوجه الخلاف الكثيرة ، أن ليسنج وجد فى صديقه الكثير مما ألهمه تلك الصورة المثالية لتاجر القدس . وربما رسم ليسنج اليهودى والمسلم بتعاطف أكثر مما رسم المسيحى مدفوعاً برغبته الشديدة فى التبشير بالتسامح ؛ ففارس المعبد فى أول لقاء مع ناثان فظ فى تعصب ، والبطريرك (أهو ذكرى ليسنج لجوتسى؟) لاينصف فى صورته هذه الأساقفة الرحماء المستنيرين الذين كانوا آنئذ يحكمون ترير ومايئز وكولون . وأنكر جمهور ألمانيا المسيحى التمثيلية حين نشرت فى ١٧٧٩ لأنه رآها غير منصفة ، وانضم إلى هذا النقد العديد من أصدقاء ليسنج . فلم تصل تمثيلية « ناثان الحكيم » إلى خشبة المسرح إلا فى عام ١٧٨٣م فى الليلة الثالثة كان المسرح خالياً . وفى ١٨٠١ لقيت

نسخة معدلة أعدها شيلر وجوته قبولا حسناً فى فايمار ، وبعدها ظلت من التمثيليات المحببة فى المسارح الألمانية طوال قرن كامل .

وقبل أن يموت ليسنج بعام أصدر نداءه الأخير للتفاهم ، وصاغه فى عبارات دينية ، كأنما أراد أن يلين جانب المقاومة ويقيم جسراً بين الأفكار القديمة والجديدة . وهذا المقال المسمى « تربية النوع الإنسانى » من بعض نواحيه يبرر الأفكار القديمة ؛ ثم ندرك أن الدفاع إنما هو دعوة لحركة التنوير . فالتاريخ بجملته يمكن أن ينظر إليه على أنه رؤيا مقدسة ، وتربية تدريجية للنوع الإنسانى . وكل دين عظيم كان مرحلة فى هذه الإنارة المتدرجة الخطوات ، فهو ليس كما افترض بعض الفرنسيين خدعة يخدع بها رجال الدين الأنانيون السذج من الناس ، إنما هو نظرية عالمية قصد بها تمدين البشرية ، وغرس الفضيلة والتهذيب والوحدة الاجتماعية . فى إحدى مراحله (مرحلة العهد القديم) حاول الدين جعل الناس فضلاء بأن وعدهم بطيبات الدنيا فى عمر مديد ؛ وفى مرحلة أخرى (مرحلة العهد الجديد) حاول التغلب على التناقض المثبط للعزائم بين الفضيلة والنجاح فى هذه الدنيا بوعده بثواب الآخرة ؛ وفى كلتا الحالتين خوطب الناس على قدر فهمهم المحدود فى ذلك الوقت . وكل دين فيه نواة غالية من الحقيقة . ربما كان الفضل فى تقبل الناس لها ذلك الغلاف من الخطأ الذى جعلها سائغة . فإذا كان اللاهوتيون قد أحاطوا المعتقدات الأساسية شيئاً فشيئاً بعقائد عسيرة الفهم ، كالخطيئة الأصلية والتثليث ، فإن هذه التعاليم أيضاً هى رموز للحقيقة وأدوات للتربية . فالله يمكن تصوره على أنه قوة واحدة لها وجوه ومعان كثيرة ؛ والخطيئة أصلية بمعنى أننا كلنا مولودون بنزوع لمقاومة الشرائع الأخلاقية والاجتماعية [٧٧] . ولكن المسيحية فوق الطبيعية ليست سوى خطوة فى تطور العقل البشرى ، وستأتى مرحلة أعلى حين يتعلم النوع الإنسانى أن يعقل ، وحين يصبح الناس من القوة ووضوح الرؤية بحيث يفعلون الصواب لأنهم يرونه صواباً ومعقولا ، لا طمعاً فى ثواب مادى أو سماوى . وقد بلغ بعض الأفراد تلك المرحلة ، وهى لم تتوفر للنوع الإنسانى إلى الآن ولكنها « آتية . آتية لاريب فيها . . . زمان رسالة جديدة خالدة ! » [٧٨] وكما أن

الفرد المتوسط يلخص فى نموه التطور الفكرى والخلقى للنوع ، فكذلك يمر النوع فى بطء خلال التطور الفكرى والخلقى للفرد الأعلى . وإذا شئنا التعبير بطريقة فيثاغوريه ، قلنا ان كلا منا يولد من جديد ، ثم يولد من جديد ، حتى تكتمل تربيته — أى تكيفه مع العقل »

ترى ماذا كانت آراء ليسنج النهائية فى الدين ؟ لقد قبله معيناً هائلا للفضيلة ، ولكنه أنكره نسقاً من العقائد القطعية التى تفرض قبولها وإلا كانت الخطيئة والعقاب والعار الاجتماعى . وكان فكره عن الله أنه الروح الباطن للحقيقة « المسبب للتطور والمتطور هو ذاته ؛ ورأى فى المسيح أكمل إنسان مثالى ، ولكنه ليس تجسيداً لهذا الإله إلا مجازاً ،وقد تطلع إلى زمن يختفى فيه اللاهوت كله من المسيحية ، فلا يبقى إلا مبدأ أخلاقى سام من العطف الصبور والأخوة العالمية . وفى مسودة خطاب إلى مندلسون صرح بالتزامه برأى سبنيوزا فى أن الجسم والعقل هما الظاهر والباطن لحقيقة واحدة ، وصفتان لجوهر واحد متطابق مع الله . وقال لياكوبى « ان المفاهيم التقليدية عن الإله لم يعد لها وجود عندى ، وانا لا أطيقها ، لا أطيقها كلها ! لا أعرف غير هذا »(٧٩) ؛ وفى ١٧٨٠ طلب إليه ياكوبى الذى زاره فى ڤولفنبوتل أن يساعده فى الرد على سبينوزا وتفنيد آرائه ، فصدمه جواب ليسنج : « ليس هناك فلسفة غير فلسفة سبينوزا . . . ولو خيرت فى أن أتسمى باسم آخر لما عرفت غير إسمه »[٨٠] .

وقد ترك ليسنج وحيداً فى أخريات عمره بسبب هرطقاته وضراوته أحياناً فى الجدل . وبقى له بعض الأصدقاء فى برنزويك يختلف إليهم بين الحين والحين للحديث ولعب الشطرنج . وكان أبناء زوجته يعيشون معه فى ڤولفنبوتل ، وقد خصص لهم التركة الصغيرة التى خلفتها كاملة . ولكن خصومه شهروا به فى طول ألمانيا وعرضها ملحداً رهيباً . فتحداهم ، وتجاسر على معارضة الرجل الذى يدفع له راتبه ؛ ذلك أن كارل فلهلم فرديناند ، الذى أصبح الآن (١٧٨٠) دوقاً على برنزويك ، زج فى السجن يهودياً

شاباً آثار سخطه . فزار ليسنج الفتى فى سجنه ، ثم اصطحبه إلى منزله بعد ذلك ليسترد عافيته .

أما عافيته هو فكانت قد ولت . وغشى بصره الآن حتى لم يكد يقوى على القراءة . وكان يعانى من الربو ، وضعف الرئتين ، وتصلب الشرايين . وفى ٣ فبراير ١٧٨١ بينما كان فى زيارة لبرنزويك أصابته نوبة ربو شديدة ، وبصق دماً . وأوصى أصحابه قائلا : حين ترونى مشرفاً على الموت ، استدعوا موثقاً ، وسأعلن أمامه اننى أموت على غير دين من الأديان السائدة (٨١) . وفى ١٥ فبراير بينما كان راقداً فى فراشه اجتمع نفر من أصحابه فى الحجرة المجاورة . وفجأة فتح باب حجرته ، وظهر ليسنج ، منحنى الظهر مهزولا ، ورفع قلنسوته محيياً ، ثم خر على الأرض صريعاً بسكتة دماغية . وأذاعت مجلة لاهوتية أن الشيطان حمله عند موته إلى الجحيم كأنه فاوست آخر باع روحه (٨٢) . ولم يخلف من المال إلا أقل القليل ، فاضطر الدوق إلى دفع نفقات جنازته .

لقد كان البشير بأعظم عصور ألمانيا الأدبية . ففى عام موته نشر كانط كتابه الخطير « نقد العقل الخالص » ونشر شيلر أول تمثيلياته . وكان جوته يرى فى ليسنج المحرر العظيم « وأبا التنوير الألمانى . قال جوته موجهاً الخطاب إلى طيف ليسنج « فى الحياة كرمناك إلها من الآلهة ؛ أما الآن وقد مت فإن روحك تسيطر على جميع النفوس » .

٦ — رد الفعل الرومانتيكى

كان جوته يتحدث باسم أقلية صغيرة ؛ أما السواد الأعظم من الشعب الألمانى فتشبث بتراثه الدينى ، ورحب بالشاعر الذى تغنى بإيمانهم رجلا ملهماً من السماء . فبعد أن أثار هندل مشاعر إرلنده على الأقل بأنغام « المسيا » السمائية بست سنوات ، أسر فريدرش جوتليب كلوبشتوك قلب ألمانيا بالقصائد الحماسية الأولى من ملحمته (المسيا) (١٧٤٨ — ٧٣) .

وقد ولد كلوبشتوك فى ١٧٢٤ قبل مولد ليسنج بخمس سنين ، وعاش اثنين وعشرين سنة بعده . وقد أصبح ليسنج رجلا حر الفكر وهو ابن القسيس . أما كلوبشتوك ابن المحامى فقد اتخذ من نظم ملحمة شعرية عن حياة المسيح أهم رسالة لحياته . وبلغ من تحمسه الشديد لموضوعه أنه نشر الأقسام الثلاثة الأولى من الملحمة وهو لايزال فتى فى الرابعة والعشرين ، وقد فتنت هذه الأبيات السداسية التفاعيل ، غير المقفاة ، جمهوراً من القراء بلغ من عرفانهم أنهم أرسلوا الرسائل من جميع أرجاء ألمانيا لابنة عمه حين تقدم لخطبتها بعد سنة يناشدونها أن تقبل الخطبة ، ولكنها رفضتها . بيد أن فردريك الخامس ملك الدنمرك - استجابة لتوصية وزيره يوهان فون برنشتورف - دعا كلوبشتوك للحضور والإقامة فى البلاط الدنمركى وإكمال ملحمته نظير أربعمائة طالر فى العام . وفى طريق الشاعر إلى كوبنهاجن راقته إحدى المعجبات الدنمركيات ، واسمها مارجريتا مولر ؛ وفى ١٧٥٤ تزوجها ، وفى ١٧٥٨ ماتت فحطمت قلبه وأظلمت شعره . وقد خلد ذكراها فى القسم الخامس عشر من « المسيا » وفى بعض من أعمق قصائده الشعبية تأثيراً . وأقام فى كوبنهاجن عشرين سنة ، ثم ذهبت حظوته عند الملك بعد طرد برنشتورف ، فعاد إلى همبورج ، وفى ١٧٧٣ نشر آخر أجزاء ملحمته الضخمة .

وكان مطلعها دعاء هو صدى لملتن ، ثم روت فى عشرين قسماً القصة المقدسة ، ابتداء من تأملات المسيح على جبل الزيتون وانتهاء بصعوده إلى السماء . وبعد أن أنفق كلوبشتوك فى كتابة ملحمته وقتاً قارب ما أنفقه المسيح لكى يعيشها ، اختتمها بتسبحة تفيض حمداً وشكراً لله :

ها أنذا قد بلغت هدفى ! ان الفكرة المثيرة
ترف خلال روحى . وذراعك القادرة على كل شىء
ربى والهى هى وحدها التى هدتنى
عبر أكثر من قبر مظلم قبل أن أبلغ
ذلك الهدف البعيد ! أنت أيها الرب شفيتنى ،
وأنزلت فيضاً جديداً من الشجاعة على قلبى المتخاذل ،

الذى كان فى صحبة حميمة مع الموت ؛
وكنت إذا شخصت إلى الأهوال لم تلبث
أشكالها المظلمة أن تتوارى ، لأنك تحميى ؛
لقد اختفت سريعاً . . . . . . يا مخلصى ، لقد تغنيت
بوعد رحمتك . ووطئت قدماى
طريق المخيف ، وكل رجائى فيك أنت ؛ (٨٣)

ورحبت ألمانيا السنية الإيمان بملحمة « المسيا » كأفضل شعر كتب إلى يومها بالألمانية . وينبئنا جوته عن مستشار فى فرانكفورت كان يقرأ الأقسام العشرة الأولى « كل سنة فى أسبوع الآلام ، وبهذه الطريقة ، ينعش روحه طوال العام » . أما جوته فلم يكن يستطيع الاستمتاع بالملحمة إلا بنبذ شروط معينة لا تتخلى عنها ثقافة تسير قدماً إلا على مضض (٨٤) . وقد سكب كلوبشتوك ورعه بغزارة فى شعره حتى أصبحت قصيدته سلسلة متعاقبة من الغنائيات والكوراليات الباخية أكثر منها الرواية المتدفقة التى يجب أن تكونها الملحمة ؛ وليس من اليسير علينا أن نتتبع تحليقاً عاطفياً استغرق عشرين قسماً وخمسة وعشرين سنة .

وكما أن فولتير ولد نقيضه فى روسو ، كذلك جعل ليسنج بارتيابيته ، وعقلانيته ، ونزعته الفكرية ، ألمانيا تشعر بحاجتها إلى كتاب يدركون مقابل هذا مكان وحقوق الوجدان ، والعاطفة ، والخيال ، والغموض ، والرومانس ، والعنصر فوق الطبيعى فى حياة البشر .

وقد أصبحت عبادة « الحساسية » عند بعض ألمان هذه الفترة ، لاسيما النساء منهم ، ديناً كما أصبحت موضة . وكان فى دارمشتات « حلقة لذوى الحساسية » جعل أعضاؤها من العاطفة والتعبير الوجدانى مبدأ وشعيرة . وكان روسو هو « مسيا » هذه النفوس . وفاق تأثيره فى ألمانيا تأثير فولتير بمراحل ، واعترف به هردر وشيلر ينبوعاً للإلهام ؛ وكان كتاب كانط « نقد العقل العلمى » مشرباً بروسو ، أما جوته

فقد بدأ بروسو « الشعور هو كل شيء » وانتقل إلى فولتير « فكر فى أن تحيا » ، ثم انتهى إلى ضرب رأسيهما بعضهما ببعض . وجاء فى غضون ذلك شعراء الوجدان من انجلترء : جيمس طومسون ، ووليم كولنز ، وإدورد ينج ، وقصاصا الوجدان رتشردسن وستيرن . وقد أثارت مختارات توماس برسى من روائع الشعر الإنجليزى القديم ، وديوان مكفرسن (من الشعر المنثور الذى زعم أنه ترجمة لشعر « أوسيان » من مخطوطات غالية قديمة) الاهتمام بشعر العصر الوسيط وغموضه وروما نسيته ؛ وبعث كلوبشتوك وهاينريش فون جرستنبرج إلى الحياة فيثولوجية اسكندناوه وألمانيا السابقة للمسيحية .

وكان يوهان جيورج هامان ، قبل عام ١٧٨١ ، قائد الثورة على العقل . ولد مثل كانط فى مدينة كونجزبرج الغائمة السماء ، وأشربه أبوه الوجدان الدينى بشدة ، وتلقى علومه فى الجامعة ، ثم كافح وهو فقير واشتغل معلماً خاصاً ، ووجد عزاءه فى إيمان بروتستنتى يثبت لكل لطمات حركة التنوير . وكان يقول إن العقل ليس إلا جزءاً من الإنسان ، حديث التطور وليس أساسياً ؛ أما الغريزة ، والحدس ، والوجدان ، فهى أعمق منه ، والفلسفة الحقة تقيم نفسها على طبيعة الإنسان وجوانبه كلها . واللغة ليست فى أصلها حصيلة للعقل بل منحة من الله للتعبير عن الوجدان . والشعر أعمق من النثر . والأدب العظيم لا يكتب بمعرفة القواعد والأسباب ومراعاتها ، بل بتلك الخاصية التى لا يمكن تعريفها وهى العبقرية التى تتجاوز كل القواعد مهتدية بالوجدان .

ووافق فريدريش ياكوبى هامان وروسو . وقال ان فلسفة سبينوزا منطقية جداً إذا كنت تقبل المنطق ، ولكنها زائفة لأن المنطق لاينفذ أبداً إلى قلب الحقيقة ، التى لاتنكشف إلا للوجدان والإيمان . فوجود الله لا يمكن إثباته بالعقل ، ولكن الوجدان يعرف أنه بدون الإيمان بالله تكون حياة الإنسان عبثاً مأساوياً يائساً .

بهذا التمجيد للوجدان والشعر شحنت الروح التيوتونية لتطلق تحليقات

من الأدب الخصب الخيال جملت النصف الثانى من القرن الثامن عشر فى ألمانيا مذكراً بحرارة انجلتره وخصوبة إنتاجها على عهد اليزابث . فكثرت مجلات الشعر ، التى عانت قصر العمر المألوف ، وكتب يوهان هاينريش فوس قصة رقيقة بالشعر سماها « لويزه » (١٧٨٣ — ٩٥) فضلا عن قيامه بترجمة هومر وفرجل وشكسبير ، وقد كسبت هذه القصة محبة الألمان وحفزت جوته لينافسها . وظفر سالومون جسنر بقراء دوليين أقبلوا على غنائياته الرقيقة ورعوياته النثرية . ومس ماتياس كلوديوس قلوب مائة ألف أم بأغانيه الريفية عن الحياة العائلية ، مثل أغنيته المسماه « تهويدة تغنى على ضوء القمر » :

نامى الآن ياصغيرتى !
لـــم تبكـــين؟
ناعمـــة هى الراحة ؛
وحلوة فى ضوء القمر .
وسيقبل النعاس عما قليل
وبـــلا ألـــم .
إن القمر يفرح بالأطفال
ويحبك [٨٥] .

أما جوتفريد بورجر فقد أوتى كل فضائل العبقرية الرومانسية . كان ابناً لراعى كنيسة . وأرسل إلى خاله فى جوتنجن ليدرس القانون ، ولكن حياته الفاجرة أفضت إلى تركه الكلية . وفى ١٧٧٣ نال غفران جميع الناس لخطاياه بقصيدته الشعبية « لينوره » . وحبيب لينوره هذه يرحل مع جيش فردريك إلى حصار براغ . وفى كل صباح تنتفض من أحلامها وتسأله « يافلهلم ، أأنت عديم الإيمان ، أم أنت ميت؟ وإلى متى يبطىء قدومك ؟ » وتضع الحرب أوزارها ، ويعود الجند ، ويلقاهم الزوجات والأمهات والأبناء بالفرح والشكر لله :

وراحت تستفسر من الجميع فى ذلك العرض ،

وتسأل كل واحد عن اسمه ،
ولكن أحداً لم يعطها جوابا ،
لا أحد ممن عادوا ،
فلما مضى كل الجنود ،
مزقت شعرها الفاحم ،
وارتمت على الأرض
فى نوبات أليمة من اليأس القاتل .

وتقول لها أمها إن « ما يفعله الله يفعله حسناً » ، وتجيب لينوره بأن هذا وهم ، وتطلب لنفسها الموت . . . وتحدثها الأم عن النعيم والجحيم ، وترد لينوره بأن النعيم أن تكون مع فلهلم ، والجحيم أن تحرم منه » وتروح تهذى طوال نهارها . فإذا جن الليل وقف فارس ببابها ، وهو لايذكر اسمه ، بل يأمرها بأن تأتى معه وتكون عروسه . فتمتطى خلفه جواده الأسود ، وتركب الليل كله . ثم يصلان إلى جبانة ، وترقص الأشباح من حولها . وفجأة ينقلب الفارس جثة هامدة ، وتجد لينوره أنها متشبثة بهيكل عظمى . وبينما هى تتأرجح بين الحياة والموت تنوح الأرواح بهذه الكلمات :

صبراً ، صبراً ! حتى حين ينفطر القلب !
لاتنازعى الله فى سمائه !
لقد جردت من جسدك ؟
فليسبغ الله رحمته على روحك [٨٦] »

٧ — الزوبعية

اندفعت الحركة الرومانتيكية من ورع كلاويشتوك ورقة جسنر إلى النزعة الفردية الخارجة على تقاليد الاحترام ، إلى تمرد الشباب الألمانى وجهاده فى نشوة الثورة الأخلاقية والاجتماعية . ذلك أن ارستقراطية البلاطات الجامدة المتصلبة وعقائدية الوعاظ المتهافتة وجشع طبقة رجال الأعمال وتكالبهم الكئيب على المال ، وأساليب البروقراطيين المطردة المملة المبلدة للشعور «

وحذلقة العلماء وغرورهم – كل أولئك أثار سخط شباب الألمان الواعين بقدراتهم المغموطين مكانتهم . وقد أصاخوا السمع لصيحة روسو طلباً للطبيعية والحرية ، ولكنهم لم يعبأوا بتمجيده « للإرادة العامة » ووافقوه على رفض المادية » والعقلانية ، والحتمية ، ووافقوا ليسنج على تفضيل انحرافات شكسبير القوية عن القواعد » على كلاسيكية كورنبي وراسين المقيدة للحركة . وأساغوا ذكاء فولتير وظرفه ، ولكن المكان الذى اجتازه تراءى لهم صحراء جرداء . وقد طربوا لتمرد المستعمرات الأمريكية على انجلتره . كتب جوته وهو يستعيد ذكرى هذه الحقبة « تمنينا للأمريكيين النجاح كله ، وبدأ اسما فرانكلين وواشنطن يسطعان ويتألقان فى سماء السياسة والحرب»[٨٧] . هؤلاء المتمردون المجاهدون أحسوا نشوة المراهقة الجسمية واليقظة العقلية » وشكوا من كابوس الشيوخ على الشباب ، والدولة على النفوس . كانوا مع الأصالة ، والتجربة المباشرة والتعبير الطليق ، واعتقد بعضهم أن عبقريتهم تعفيهم من القانون . وأحسوا أن الزمن فى صفهم ، وأن المستقبل القريب سيشهد انتصارهم . يقول جوته « أوه ، لقد كانت حقبة سعيدة حين كنت أنا وميرك شابين ! » [٨٨] .

وأعرب بعض هؤلاء المتمردين عن فلسفتهم بتحدى تقاليد الزى وإحلال تقاليد من عندهم محلها ، فكان كرستوف كاوفمان يسير عارى الرأس » مشعث الشعر ، مفتوح القميص حتى السرة [٨٩] . ولكن هذا كان حالة شاذة ، وإذا استثنينا حالة انتحار أو حالتين ، فإن أكثر أبطال الحركة اجتنبوا هذا العرض المقلوب لزيهم . وكان بعضهم ميسوراً . وكان جوته نفسه واحداً من أسلاف الزوبعية بمسرحيته جوتز فون برليشنجن (١٧٧٣) ، وفى السنة التالية أصبحت قصته « آلام فرتر » لواء الرومانتيكية الخفاق . وانضم شيلر إلى الحركة فأصدر « اللصوص » (١٧٨١) ، ولكن هذه النفوس المعقدة » المتطورة ، سرعان ما تركت الحملة ليضطلع بها شباب أكثر التهاباً وأضعف جذوراً .

وكان يوهان ميرك أحد الآباء المؤسسين للحركة وكل الشواهد تدل على أنه كان سليم العقل قوى البدن . وكان قد أتم دراسته بالجامعة ، وأصبح شخصاً أثيراً فى بلاط هسى — دارمشتات ، ثم عين رئيساً عاماً لصيارفة الجيش ، واشتهر بالذكاء الحاد والكفاءة العملية . وحين التقى به جوته فى ١٧٧١ وقع من نفسه موقعاً حسناً ، فاشترك معه ومع هردر فى تمويل مجلة نقدية تسمى «أنباء فرانكفورت الأدبية »، ومن هنا لقب «الفرانكفورتيين»[٩٠] الذى أطلق أول الأمر على المتمردين . وإذ كان ميرك خبيراً بدنيا الأعمال والسياسة ، ورحالة جاب أرجاء المانيا وتنقل فى أنحاء روسيا ، فقد شهد وانتقد انتقاداً لاذعاً غرور الغنى ، وملل العيش فى قصور الملوك والأمراء، واستغلال الفلاحين . فلما ألفى نفسه عاجزاً عن إصلاح هذه الأحوال ، بات متألماً ساخراً . وقد سماه جوته « مفستوفيليس ميرك » ، واتخذ من نفسه ومن ميرك نماذج لأدوار الأبطال فى فاوست . واضطرب عقل ميرك لهزائمه فى عمله وتعاسته فى زواجه . ووقع فى حبائل الدين ، فأنقذه منها دوق ساكسى-فايمار استجابة لرجاء جوته . ثم بات فريسة لاكتئاب لايبرحه ، وقتل نفسه وهو لايزال فى الخمسين (١٧٩١) .

وأكثر مأساة حتى من هذه الحياة كانت حياة راينهولد لنتس . وكان ابناً لراعى كنيسة لوثرى فى ليفونيا ، أثر فى أعصابه الضعيفة ، ومزاجه السريع الإثارة ، فى طفولته التأكيد على عقيدتى الخطيئة والجحيم[٩١] . وأعانه حينا استماعه إلى محاضرات كانط فى كونجزبرج ؛ وقاده كانط إلى كتابات روسو . فقال لنتس بعد قليل عن « هلويز الجديدة » إنها خير كتاب طبع إطلاقاً فى فرنسا . وفى ستراسبورج التقى بجوته ، فبهرته شخصيته الإيجابية ، وقلده فى الفكر والأسلوب ، وكتب أشعاراً غنائية اشبهت أشعار جوته إلى حد أنها ضمنت فى بعض طبعات أعمال جوته . ثم مضى إلى زيزنهايم ، ووقع (بعد جوته) فى غرام فردريكه بريون ، ونظم القصائد الحارة فى مديحها . وأكد لها أنها أن لم تستجب لحبه فهو قاتل نفسه ، فلم تفعل ولم يفعل . ثم انتقل إلى فايمار ، وصادقه جوته ، وحسد جوته على نجاحه ، وسخر من علاقة جوته بشارلوته فون شتاين ، وطلب إليه الدوق ان يرحل

عن الدوقية . . وكان شاعراً ومسرحياً موهوبا . وتمثيليته المسماة « الجند » نقدت نقداً لاذعا الفوارق الطبقية والحياة البورجوازية ، وشخصيتها المحورية فتاة من الطبقة الوسطى تتطلع عبثاً إلى الزواج من ضابط . ثم تنقلب مومسا وتتحرش بأبيها الذى لم تتعرف عليه فى الشوارع . وإذ كان لنتس مفتقراً إلى الثبات والاستقرار افتقاراً أعجزه عن العثور على مكان مرموق فى الحياة ؛ فقد راح يهيم متنقلا من وظيفة إلى وظيفة ومن إخفاق إلى إخفاق ، ويعانى نوبات من الجنون ، ويحاول الانتحار غير مرة ،وأخيراً مات مجنوناً (١٧٩٢).

أما مكسمليان فون كلنجر فكان أذكى دعاة الحركة . ندد بالدنيا وارتقى فيها إلى مكان مرموق ، وأطلق لقلمه العنان فى الحديث العنيف فى تمثيلياته ، ثم أصبح أميناً لجامعة دوربات ، واستمتع بكل آثام الشباب وحماقاته وعمر حتى التاسعة والسبعين . وعنه كتب جوته بيته الذى نم عن حسن إدراك وفطنة : « فى الصبايا نحب ما هن عليه ، أما فى الفتيان فنحب ما يرجى أن يكونوه » . وقد أعطت أشهر تمثيلية كتبها كلنجر وهو فى الرابعة والعشرين (١٧٧٦) « شتورم أوند درانج» اسمها ومزاجها الزوبعية . وترى فيها المتمردين الأوربيين يتغربون فى أمريكا أملا فى أن يجدوا منافذ حرة لنزعاتهم الفردية ؛ أما لغتها فلغة العاطفة المشبوبة وقد جمحت ؛ وأما دعوتها فدعوة العبقرية التى تحررت من كل القواعد . وقد حارب كلنجر فى الجيشين النمساوى والروسى ، وتزوج ابنة غير شرعية لكاترين الكبرى ؛ وهبطت ثورته أخيراً حين تولى منصب الأستاذية ، ثم تجمد عموداً من أعمدة الدولة .

وأما فلهلم هاينزى فقد توج الحركة برواية « أردنجهللو » (١٧٨٧) التى جمعت بين الفوضوية ، والعدمية ، والشيوعية ، والفاشية ، واللامبالاة بالأخلاق ، وإرادة القوة ، فى مهرجان صاخب من الشهوانية والجريمة ، يقول البطل إن الجريمة ليست بجريمة إن كانت شجاعة ؛ وما من جريمة حقيقية غير الضعف ، وأصدق الفضائل شجاعة الجسم والإرادة ؛ والحياة

إظهار للغرائز الإساسية ، ونحن نخطىء إذا دمغنا هذه الغرائز باللا أخلاقية . وهكذا يغوى أردنجللو ويقتل إذا لاحت له الفرصة أو دفعته النزوة ، ويرى فى عواطفه المشبوبه الطليقة من كل قيد أسمى قوانين الطبيعة . وهو يصف بطولات هانيبال ويمجده إنساناً أعلى ويتساءل : «ما قيمة مليون من الرجال الذين لم يحظوا طوال حياتهم بساعة واحدة كساعاته — بالقياس إلى هذا الرجل الفرد؟» (٩٢) وهو يقيم مجتمعاً شيوعياً تسوده شيوعية النساء وحق الانتخاب للنساء وعبادة قوى الطبيعة باعتبارها الدين الأوحد .

فى دوامة الزوبعية (شتورم) المضطربة هذه خلعت بعض الأفكار الغالبة على هذه الحركة طابعها وتأثيرها . فمعظم قادتها أتوا من الطبقة الوسطى، وبدأوا ثورتهم احتجاجاً على امتيازات الحسب والنسب «ووقاحة ذوى المناصب» وبذخ الأحبار الذين ينعمون بطيبات العيش على حساب عشور الفلاحين . وقد أجمعوا على الرثاء لحظ الفلاح العاثر — حراً كان أو قناً — وتصوير خلقه فى صورة مثالية . وأهابوا بالنساء أن ينبذن موضاتهن وأطواقهن وعواطفهن الهشة وإغماءاتهن وتقواهن الخانعة الذليلة ، ودعوهن للمجىء والمشاركة فى الحياة المثيرة التى يحياها العقل المحرر من الأغلال ، والذكر الجوال . وأعادوا تعريف الدين بأنه إلهام سماوى فى نفس عبقريتها جزء من الحافز الخلاق والسر المبدع فى الدنيا . ووحدوا بين الطبيعة والله ، وانتهوا إلى أن الإنسان يكون إلهياً إذا كان طبيعياً . واتخذوا من أسطورة فاوست المنحدرة من العصر الوسيط رمزاً للجوع الفكرى والطموح الملتهب الذى يحطم كل حواجز التقاليد أو الاعراف أو الأخلاق أو القوانين . وهكذا نرى «مالرمولر» يكتب قبل جوته بزمان مسرحية سماها «فوستس لوبن» «لأننى عرفت فيه من البداية رجلا عظيماً . . . يحس بقوته كلها» ويشعر باللجام الذى قيده به القدر «ويحاول أن يخلعه ، وتتوفر له شجاعة الإطاحة بكل شىء يقف فى طريقه» (٩٣) .

وقد وسمت حماسة الزوبعية وشططها هذه الحركة بأنها تعبير عن المراهقة الفكرية ، وصوت أقلية قضى عليها بأن يعلو صوتها ثم يخبو . ولم تكسب

الحركة أى تأييد شعبي ، لأن التقاليد والشعب يساند الواحد منهما الآخر دائماً . فلما وجد أتباع الحركة أنفسهم بغير قاعدة فى بنيان الحياة الألمانية ، تصالحوا مع الأمراء ، وأملوا - كما أمل جماعة الفلاسفة - أن يقود الحكام المستنيرون الطريق إلى التحرر الفكرى والإصلاح الاجتماعى . وأدرك هردر وجوته وشيلر الحركة فى شبابهم ، ثم انسحبوا من نارها الآكلة ، وقلموا أظافرهم وأطبقوا أجنحتهم ، وتقبلوا حماية أدواق فايمار الكرام شاكرين .

٨ - الفنانون

كان ألمان العصر الذى نحن بصدده أنداداً فى الفن للفرنسيين والإيطاليين . فلقد نقلوا الباروك عن إيطاليا والروكوك عن فرنسا ، ولكنهم أعطوا إيطاليا فنكلمان ومنجز ، وآثر ملوك فرنسا وملكاتها الألمان المغتربين أمثال دافيد رونتجن ، و « جان » ريزنر ، وآدم فايسفايلر ، على صناع الأثاث الفاخر الفرنسيين ؛ من ذلك أن لويس السادس عشر دفع ثمانين ألف جنيه ثمناً لمكتب من صنع رونتجن [٩٤] . وحفل المقر الملكى فى ميونخ ، وقصر فردريك الجديد فى بوتسدام ، وبيوت أثرياء الألمان ، بالأثاث الضخم الدقيق النقوش ، حتى وفد طراز أخف فى نهاية العصر من صنع الانجليزيين تشيبنديل وشيراتن . وكانت مصانع ما يسن قد أضرت بها الحروب ، ولكن نمفنبرج ولودفجزبرج وبوتسدام وغيرها من المراكز واصلت صناعات البرسلان والخزف ، وأشرقت رفوف الألمان ومدافئهم وموائدهم ومكاتبهم بصغار التماثيل المرحة الرشيقة الرقص والغناء والتقبيل .

وعلى نطاق أوسع ظهر نحت للتماثيل جدير بالإعجاب . شديد الاهتمام من ذلك أن مارتن كلاور نحت تمثالا نصفياً لجوته فى أيام فايمار الأولى - بدا فيه متشوفاً ، براق العين ، واثق النفس [٩٥] . ولم يبلغ لودفج ، بن مارتن ، هذا الإتقان فى تمثاله الذى نحته لشيلر [٩٦] ، وأفضل منه تمثال شيلر المعروض الآن فى ميدان بشتوتجارت من صنع يوهان فون دانيكر . أما سيد النحت الألمانى فى هذا العصر فيوهان جوتفيلد شادوف ، الذى أصبح مثالا للبلاط فى برلين عام ١٧٨٨ . وفى ١٧٩١ نحت رأساً لفردريك ،

وفى ١٧٩٣ صنع له تمثالا كامل الطول ؛ وفى ١٨١٦ صب بالبرونز « فردريكا » [٩٧] أصغر — وهو رائعة لاينساها من شهدها . وصب البرونز « مركبة النصر » لبوابة براندنبرج ، وكاد يبلغ روعة الجمال الكلاسيكى فى المجموعة الرخامية التى نحتها لولية العهد الأميرة لويزة وأختها فريدريكه .

وكثر المصورون فى ألمانيا كثرة أتاحت لها أن تنزل لإيطاليا عن اثنى عشر منهم ثم يبقى لها بعد ذلك مصورون أكفاء . من ذلك أن عدد المصورين من آل تيشباين الذين جمعتهم رابطة الفرشاة كان كبيراً بحيث يسهل علينا الخلط بينهم . فأحدهم وهو يوهان هاينريش تيشباين المصور فى بلاط هسى - كاسل رسم صورة بديعة لليسنج . أما ابن أخيه يوهان فريدريش تيشباين ، فرسم فى كاسل وروما ونابلى وباريس وفيينا ولا هاى ودساو وليبزج وسانت بطرسبرج ، وصور مجموعة ساحرة لأبناء الدوق كارل أوجست أمير ساكسى — فايمار . وأما يوهان هاينريش فلهلم تيشباين فعاش فى إيطاليا (١٧٨٧ — ٩٩) ، ورسم صورة مشهورة « جوته فى كمبانيا روما » ثم عاد ليصبح مصور البلاط لدوق أولدنبورج .

وكان من مصادر « الزوبعية » « الألمانية المنحازة لإيطالية آدم فريدريش أويزر ، النحات ، الرسام ، النقاش ، المعلم ، وداعية اصلاح الفن على الأصول الكلاسيكية . وقد عاش فنكلمان معه زمناً فى درسدن ، وانتقد رسمه ، وأعجب بخلقه ، وقال « إنه يعرف كل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه خارج إيطاليا » [٩٨] وفى ١٧٦٤ عين أويزر مديراً لأكاديمية الفنون فى ليبزج ؛ وزاره جوته هناك وانتقلت إليه عدوى الحمى الإيطالية .

ويحتل مكان الصدارة بين الفنانين الذين بقوا فى ألمانيا دانيل شودوفيكى ، وكان بولندياً . ولد فى دانزج ، وترك يتيماً ، فتعلم أن يكسب قوته بصنع الرسوم والمحفورات والصور . وفى ١٧٤٣ انتقل إلى برلين وأصبح ألمانيا فى كل شىء إلا اسمه . وقد روى حياة المسيح فى منمنمات رائعة أذاعت صيته فى طول البلاد وعرضها ، ثم رسم بمزاج فولتيرى « جان كالاس وأسرته » وتكاثر الطلب على رسومه حتى إنه لم ينشر أى أثر أدبى كبير فى بروسيا

سنين طوالا دون أن تزينه رسوم من صنعه . وفى أروع محفوراته صور أسرته : فصور نفسه هو و مكب على عمله ، وزوجته تشرف فى اعتزاز على أبنائه الخمسة ، ثم جدران البيت تكسوها الصور . ورسم بالطباشير الأحمر صورة لوته (شارلوته) كستنر ، التى أحبها جوته وفقدها . وترى فى عمله رشاقة فى الخط ورقة فى الشعور تميزه عن هوجارت ، الذى كثيراً ما قورن به لكثرة ما صوره من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة ما قورن به لكثرة ما صوره من مناظر الحياة المألوفة ، ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة . وكثيراً ما استلهم فاتو ؛ وفى صورته « لقاء فى حديقة الحيوان[99] » ، ترى ولع فاتو بالهواء الطلق وتموج ثياب النساء الخلاب .

وقد ترك أنطون جراف صورة لشود وفيكى[100] — يفيض ابتسامات وعقصاً ولحماً مكتنزاً — وصورة لنفسه[101] وهو يتطلع من فوق لوحته ولكنه مكتمل الزينة كأنه يتأهب للذهاب إلى حفلة رقص . وقد أفرغ حيوية أكثر على لوحته الجميلة لزوجته[102] ، والتقط غرور الممثلة كورونا شروتر[103] وجلل بالثياب المذهبة جسد السيده هوفرات بومى الفضفاض[104] .

وآخر قائمة المصورين فى نصف القرن الذى نحن بصدده هو آزموس ياكوب كارستنز ، الذى استوعب دعوة فنكلمان نصاً وروحاً ، وأكمل الإحياء الكلاسيكى فى التصوير الألمانى . ولد فى شلزفج ، وتعلم فى مدارس كوبنهاجن وإيطاليا ، ومارس عمله فى لوبك وبرلين على الأخص ، ولكنه عاد إلى إيطاليا فى ١٧٩٢ ، ووجد المتعة الكبرى فى تأمل أطلال النحت والعمارة القديمين . ولم يعرف أن الزمن قد نزح اللون من الفن اليونانى فلم يبق إلا على الخط ؛ وعليه أحال فرشاته إلى قلم كما فعل منجز ، ولم يستهدف إلا الشكل الأكمل . وقد أزعجته العيوب البدنية التى شابت أجساد نماذجه التى يصورها فى مرسمه ، فقرر أن يركن إلى خياله ؛ وأبهجه أن يصور الأرباب اليونانية والمناظر المستقاة من الميثولوجيا اليونانية كما تخيلها هو وفنكلمان . ومن هذه انتقل إلى تصوير دانتى وشكسبير . وكان ولعه بالخط والشكل يفتقد دائماً اللون والحياة ، وحتى حين كان يبلغ فى رؤياه لأشباه الإله رؤيا تقرب

من رؤيا ميكلانجلوا » كما نرى فى لوحة « مولد النور »[١٠٥] ، فإننا لانستطيع الثناء عليه إلا لأنه تذكر صور كنيسة السستين بالدقة التى تذكر بها موتسارت موسيقاها . وردت روما على محبته بمحبة مثلها » وأتاحت لعمله (١٧٩٥) العرض فى أوسع وأشهر المعارض التى أتيحت لأى فنان حديث . وهناك مات بعد ثلاث سنين غير متجاوز الرابعة والأربعين . ولا غرو فالفن كالجنس قد يكون ناراً آكله .

وغلب مزاج الكلاسيكية الجديدة على الزخرفة المعمارية لبوتسدام وبرلين فى عهد فردريك الأكبر . وكان قد بدأ قصره الجديده فى ١٧٥٥ ، ولم يسمح للحرب بأن تعوقه عن المضى فى المشروع . فشارك فى تصميمه ثلاثة معماريين — بورنيج ، وجونتارد ، ومانجر ؛ فزجوا الكلاسيك بالباروك فى صرح مهيب يذكر بقصور روما القديمة ، أما الزخارف الداخلية فقد نافسوا فيها أبدع نماذج الروكوك الفرنسى . وكان للكنيسة الفرنسية فى برلين رواق معمد كلاسيكى ، فأضاف إليه جونتارد وتلميذه جيورج أونجر برجا كلاسيكياً (١٧٨٠ — ٨٥) . وزاد أونجر برلين جلالا بتشييد مكتبة ملكية فى ١٧٧٤ — ٨٠ . أما بوابة براند نبورج التى بناها كارل لانجهانز فى ١٧٨٨ — ٩١ فقد قلدت تقليداً سافراً مداخل الأكروبول الفخمة ؛ وقد نجت بالجهد من التدمير فى الحرب العالمية الثانية ، ولكنها فقدت « الكدريجة الشهيرة . وهى العربة ذات الجياد الأربعة التى توجها بها شادوف .

كانت مدن ألمانيا أخرى تنحت الآثار المخلدة لأمراء البيوت المالكة والنبلاء والرفات ، فزينت أخت فردريك فلهلميه مدينة بايرويت بقصر زين بالروكوك الساحر (١٧٤٤ — ٧٣) . وفى كاسل صمم سيمون لوى دورى (١٧٦٩ وما بعدها) صالة الرقص الفخمة والحجرة الزرقاء فى قلعة حاكم هسى — كاسل . وفى الراين قرب دسلدورف بنى نيكلاوس فون بيجاجى قلعة بنرات الفخمة (١٧٥٥ — ٦٩) ، وبنى فليب دلا جيبير لودفجز بورج قصر مونريبو الجميل (١٧٦٢ — ٦٤) .

٩ — بعد باخ

أسعدت ألمانيا بالموسيقى وتأثرت بها أكثر من أى أمة أخرى باستثناء إيطاليا . فالأسرة التى خلت من الآلات الموسيقية كانت شذوذاً وكانت المدارس تعلم الموسيقى تعليمها للدين والقراءة سواء بسواء تقريباً . وكانت الموسيقى الكنيسية آخذة فى الاضمحلال لأن العلم والفلسفة ، والمدن والصناعة ، كانت تصرف العقول عن الدين إلى الدنيا ، وظلت الترانيم اللوثرية العظيمة تجلجل ، ولكن الأغنية أخذت تتحول من الكوارس الكنسية إلى الليدات والتمثيليات الغنائية والأوبرا . وقد افتتح يوهان بيتر شولتس عهداً جديداً فى الأغنية ، «أغان فى فوكستن» (١٧٨٢) ؛ وبعدها حظيت ألمانيا بزعامة لا تنازع فى استخدام الموسيقى فى الشعر الغنائى .

وقد شجع التحسين الآلى الذى أدخل على البيانو انتشار الحفلات الموسيقية وظهور مهرة العازفين على الآلات . وغزا العازفون أمثال يوهان شوبرت ، وآبت فوجلر ، ويهان هومل ، المدن الكثيرة بأدائهم الموسيقى . فنى ١٠ مارس ١٧٨٩ قام هومل الذى لم يتجاوز الأحد عشر ربيعاً بعزف على البيانو فى درسدن ؛ ولم يدر أن موتسارت سيكون بين السامعين ، وخلال الحفلة رأى أستاذه السابق وتعرف عليه ، فما إن فرغ من عزف قطعته حتى شق طريقه بين الجمع المصفق وعانق موتسارت فى عبارات حارة تفيض بالولاء والبهجة[١٠٦]. واكتسب آبت (أعنى آبوت ، أى الأب الدينى) فوجلر لقبه هذا برسامته قسيساً (١٧٧٣) ، وفى مانهايم كان قسيس البلاط ومدير الموسيقى معاً . وكان فى التأليف الموسيقى من أكثر كتاب القرن أصالة وتأثيراً ؛ وفى العزف على الأرغن أثار غيرة موتسارت ؛ وفى التعليم كان صاحب الفضل فى تكوين فيبر وميربير ؛ ثم أضحك مانهايم وهو يمثل للبابا بلبسه الجوارب الطويلة الزرقاء وحمله كتاب صلواته مع موسيقاه ، وبجعله جمهوره أحياناً ينتظره ريثما يفرغ من صلاته .

وكان أوركسترا مانهايم الآن فرقة من ستة وسبعين موسيقياً منتقين ،

يقودهم بكفاية كرستيان كانا بيش معلماً وقائداً وعازفاً منفرداً على الكمان . وقد أثر عن اللورد فورد ابس قوله إن ألمانيا تبز سائر الأمم لسببين : الجيش البروسي وأوركسترا مانهايم . ويليه شهرة أوركسترا جيفاندهاوس بليبزج . وكانت الحفلات الموسيقية عملاقة تحوى ثلاثة أو أربعة أو أحياناً ستة كونشرتوات فى برنامج واحد . والقوم يحيونها فى كل مكان — فى المسارح والكنائس والجامعات والقصور والحانات والمنتزهات . ونافست السمفونية الآن الكونشرتو فى الربرتوار الأوركسترالى ، وما وافت سنة ١٧٧٠ — حتى قبل مجيء هايدن — حتى حظيت السمفونية بقبولها كأرقى ألوان الموسيقى الآلية [١٠٧] .

ونصف المؤلفين الموسيقيين فى هذه الحقبة منحدرون من قلب يوهان سبستيان باخ القوى وصلبه المكين . أنجبت له زوجته الأولى سبعة أطفال ، أحرز اثنان منهم — فلهلم فريدمان وكارل فليب إمانويل — سمعة دولية . وأنجبت له زوجته الثانية ثلاثة عشر طفلا برز فى عالم الموسيقى منهم اثنان هما يوهان كرستوف فريدرش ويوهان كرستيان . ثم أنجبت يوهان كسرستوف فريدرش مؤلفاً موسيقياً صغيراً هو فلهلم فريدرش ارنست باخ ؛ وهكذا أعطى يوهان سبستيان باخ العالم خمسة رجال ضمنوا لهم مكاناً فى تاريخ الموسيقى . يضاف إلى هؤلاء أحد أقربائه الأبعدين واسمه يوهان ارنست باخ ، درس على الأستاذ فى لبزج ، وأصبح رئيساً لفرقة المرتلين فى فايمار ، وترك عدة مؤلفات موسيقية ليجر عليها النسيان ذيوله .

أما فلهلم فريدمان باخ فقد ولد فى فايمار . والقسم الأول من مؤلف أبيه « الكلافير الوسيط » كتب لتعليمه . وقد سار حثيثاً فى دراسته ، ولم يناهز الستة عشر عاماً حتى كان يؤلف الموسيقى . فلما بلغ الثالثة والعشرين عين عازفاً اللارغن بكنيسة صوفيا بدرسدن ، ولما كانت واجباته فى هذه الوظيفة هينة فقد ألف عدة صوناتات وكونشرتوات وسمفونيات . ثم ازداد راتباً وشهرة حين اختير (١٧٤٦) عازف أرغن فى كنيسة ليفراون بهاله . وأقام هناك ثمانية عشر عاماً ، ومن هنا تلقيبه «باخ هاله» . وكان مولعاً بالشراب لا يعلو على ولعه به إلا ولعه بالموسيقى . ثم استقال فى

١٧٦٤ ، وظل عشرين عاماً بهيم متنقلا من بلد إلى بلد ، ويقيم بالجهد أوده بالعزف فى حفلات موسيقية وبتعليم التلاميذ . وفى ١٧٧٤ استقر فى برلين حيث مات فى ضنك عام ١٧٨٤ .

وكان كارل فليب إمانويل باخ أعسر ، فاضطر إلى قصر عزفه على الأرغن والبيانو . وفى ١٧٣٤ حين بلغ العشرين التحق بجامعة فرانكفورت ، وهناك حظى بصحبة جيورج فليب تليمان ، الذى كان أحد عرابيه يوم عماده وأعطاه جزءاً من اسمه . وفى ١٨٣٧ عزف بعض مؤلفاته أمام جمهور ضم فردريك وليم الأول ملك بروسيا . ولما علم بأن ولى العهد فردريك يحب الموسيقى ، قصد راينزبرج وقدم نفسه إليه دون أن يظفر بثمرة عاجلة ؛ ولكن فى ١٧٤٠ عينه فردريك ، الذى أصبح الآن ملكاً ، عازفاً على الصنج فى أوركسترا الكنيسة ببوتسدام . ولكنه ضاق بمصاحبة ناى فردريك الهوائى المزاج وقبول سلطته الملكية فى الموسيقى . وبعد أن قضى فى الأوركسترا ستة عشر عاماً ، اعتزل ليفرغ للتعليم . وقد حدد كتابه « بحث فى العزف الحقيقى على الكلافير » (١٧٥٣ وما بعدها) بداية تقنية البيانو الحديثة ، وكان لهذا الكتيب الفضل فى اكتساب هايدن البراعة الفنية فى العزف على البيانو ، وبسببه قال موتسارت عن « باخ برلين » هذا : « إنه أبونا ، ونحن صبيته ؛ والذين يعرفون منا أى شىء على وجهه الصحيح ، فإنما تعلمناه منه ، ووغد ذلك الطالب الذى لايعترف بهذا »[١٠٨] . وقد خرج إيمانويل فى مؤلفاته عامداً على أسلوب أبيه الكونترابنطى ، مؤثراً تناولا متجانس الصوت وخطا ميلوديا أبسط . وفى ١٧٦٧ قبل وظيفة المدير لموسيقى الكنيسة فى همبورج ، وهناك أنفق الإحدى وعشرين سنة الباقية فى أجله . وفى ١٧٩٥ جاء هايدن إلى همبورج ليراه ، ولكنه وجد أن أعظم أبناء يوهان سبستيان قد مضى على موته سبع سنين .

أما يوهان كريستوف فريدرش باخ فقد درس على أبيه وفى جامعة ليبزج ، ثم عين فى الثامنة عشرة (١٧٥٠) موسيقار الحجرة فى بوكسبورج ، لفلهلم كونت شاومبورج — ليه . وحين بلغ السادسة والعشرين أصبح مديراً للموسيقى . أما الحدث العظيم الذى وقع له فى عامه الثامن والعشرين فهو

مجيء هردر (١٧٧١) مبشراً » وقد زوده هردر بنصوص ملهمة للأوراتوريوات والكنتاتات ، والأغاني ؛ واتبع يوهان كرستوف أساليب أبيه وروحه ، ثم ضاع في خضم تغيرات الدهر وتقلباته .

وعلى النقيض منه كان ولاء الإبن الأصغر ، يوهان كرستيان باخ ، لإيطاليا . بعث إلى برلين وهو لايتجاوز الخامسة عشرة عند موت أبيه ، وهناك بذل له أخ غير شقيق « يدعى فلهلم فريدمان » العون وقام على تعليمه . وحين بلغ التاسعة عشرة ذهب إلى بولونيا ، حيث أدى الكونت كافاليبرى أجوستينوليتا نفقات دراسته على الأب مارتيني ؛ وقد افتتن الشاب بالحياة الإيطالية والموسيقى الكاثوليكية ، فدخل في المذهب الكاثوليكي ، وظل ست سنوات يخص الكنيسة أولا بمؤلفاته الموسيقية . وفي ١٧٦٠ عين عازف أرغن في كتدرائية ميلان ، وأصبح « باخ ميلان » . ثم أثارت الأوبرا الإيطالية أثناء ذلك طموحه للتفوق في الموسيقى غير الدينية كما تفوق في الموسيقى الكنسية ، فأخرج الأوبرات في تورين ونابلي (١٧٦١) ؛ وشكا رؤساؤه الميلانيون من أن رشاقة هذه المؤلفات تتنافر مع مركزه في الكتدرائية . فنقل يوهان كرستيان مقامه إلى لندن (١٧٦٢) ، حيث حظيت أوبراته عادة بعروض طويلة الأمد . وما لبث أن عين رئيساً للموسيقى عند الملكة شارلوت صوفيا ، ورحب بالصبي موتسارت ذي الأعوام السبعة عند مجيئه إلى لندن في ١٧٦٤ ، وراح يلهو معه على البيانو . وأحب الصبي هذا الموسيقى الذي اكتمل نضجه الآن ، وأخذ عنه الكثير من الألماعات في تأليف الصوناتات والأوبرات والسمفونيات . وفي ١٧٧٨ ذهب باخ إلى باريس ليقدم أوبراه « أماديس الغاليين » ، وهناك التقى ثانية بموتسارت . وكان ابتهاج فتى الثانية والعشرين به كابتهاجه قبل خمسة عشر عاماً . كتب فولفجانج لأبيه يقول « إنه رجل أمين ينصف الناس ، وأنا أحبه من كل قلبي »[١٠٩] .

ويمكن القول على الجملة أن أسرة باخ هذه ابتداء من فايت باخ الذي مات في ١٦١٩ ، وانتهاء بفلهلم فريدرش إرنست باخ الذي مات في ١٨٤٥ ، هي أبرز الأسر في تاريخ الثقافة . فمن بين نحو ستين من هؤلاء الباخين

المعروفة أسماؤهم من أقرباء يوهان سبستيان ، كان ثلاثة وخمسون موسيقيين محترفين ، وكان ثمانية من أسلافه وخمسة من أخلافه من وزن كاف لتبرير نشر مقالات عنهم فى قاموس للموسيقى[١١٠] . وقد ظفر عدد من الأبناء فى حياتهم بصيت ذائع وشهرة فاقت ما تمتع به يوهان سبستيان . ولا يعنى هذا أنهم احتكروا الشهرة الموسيقية ، فالموسيقيون الأفذاذ كانوا كالعادة يلقون المديح الأعظم وهم أحياء ، ثم يجر عليهم النسيان ذيوله حين يموتون ؛ وقد نافس مؤلفون موسيقيون مثل كارك فريدرش فاش وكرستيان فريدرش شوبارت أبناء باخ فى ذيوع اسمهم .

وإذا نحن رجعنا النظر إلى هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر لحظنا بعض الخطوط الخاصة فى التطور الموسيقى . فاتساع مساحة البيانوا وازدياد قوته حررا الموسيقى من خضوعها للألفاظ وشجع المؤلفات للموسيقى الآلية ؛ ثم إن إقبال الجماهير المتزايد على الحفلات الموسيقية ، وتقلص هيمنة الكنيسة ، بعدا بالمؤلفين عن بوليفونية يوهان سبستيان باخ وقربهم من هارمونيات خلفائه الأسهل تذوقاً . وعمل تأثير الأوبرا الإيطالية على تفوق الميلوديا حتى فى قطع الموسيقى الآلية ، بينما أحدثت الليدات ، بحركة مضادة ، تعقيداً جديداً فى الأغنية . وبلغت الثورة على الأوبرا الإيطالية ذروتها فى جلوك ، الذى أراد إخضاع الموسيقى للدراما ، ولكنه بالعكس أضفى السمو على الدراما بالموسيقى . وعلى درب آخر طورت الثورة « المسرحية الغنائية » ، التى بلغت أوجها فى « الناى السحرى» . وانتقل الكونشرتو جروسو إلى الكونشرتو الموضوع لآلة منفردة واحدة وأوركسترا ، واتخذت الصونات شكلها الكلاسيكى فى كارل فليب إمانويل باخ وهايدن ، وتطورت الرباعية إلى السمفونية . وهكذا تهيأ كل شىء لبيتهوفن .

١٠ — الشيخ فرتز ،

فوق كل هذه الحياة المنوعة : حياة السياسة والدين والصناعة واللهو والموسيقى والفن والعلم والفلسفة والبر والأثم — كان يلوح طيف البطل الشائخ الذى لقبته ألمانيا « الشيخ فرتز » — لا حباً بل تكريماً له بوصفه أعجب وأدهش

تيوتونى فى عصره . فهو لم يقنع بحكم مملكته وأوركسنراه ، بل حسد قلم فولتير وتاقت نفسه إلى الظفر بالثناء عليه شاعراً ومؤرخاً . وقد خلف للأجيال التالية ثلاثين مجلداً من كتاباته : سبعة فى التاريخ ، وستة فى الشعر ، وثلاثة فى الأبحاث العسكرية ، واثنين فى الفلسفة ، واثنى عشر فى الرسائل ، كلها بالفرنسية . أما أشعاره فأكثرها من النوع العابر سريع الزوال ، ولم يعد القراء يذكرونها . ولكنه كان من كبار المؤرخين فى جيله . فنى بواكير ملكه كتب تاريخ أسلافه — « مذكرات فى تاريخ أسرة براند نبورج » (١٧٥١) . وقد زعم لنفسه الحياد كما يزعم أكثر المؤرخين : « لقد ارتفعت فوق كل الأهواء والميول ، ونظرت إلى الأمراء والملاك والأقرباء نظرى إلى أناس عاديين » ، [١١١] ولكنه ارتفع إلى ذروة الحماسة والنشوة وهو يصف الناخب الأكبر فردريك وليم .

أما رائعته الأدبية فهى « تاريخ عصرى » الذى سجل حكمه . وقد بدأه عقب انتهاء الحرب السيليزية الأولى (١٧٤٠ — ٤٢) ، وواصل كتابته على فترات حتى أخريات عمره . وقد ضمنه تاريخ العلم والفلسفة والأدب والفن ، ربما متأثراً بفولتير — وإن كان قد كتب جانباً كبيراً من هذا الكتاب قبل أن يظهر كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » و « مقالة فى الأعراف » وقد اعتذر عن تضييعه حيزاً فى كتابه على « بلهاء يلبسون الأرجوان ، ودجاجلة يحملون التيجان . .. أما تتبع الكشف عن الحقائق الجديدة ، وتفهم أسباب التغيير فى الأخلاق والعادات ، ودراسة الطرق التى قشعت بفضلها ظلمة الهمجية من عقول الناس — فهذه بالتأكيد موضوعات جديرة بأن تشغل جميع المفكرين » . [١١٢] وقد اثنى على هوبز ولوك والمؤلهة فى انجلتره ، وعلى توماسيوس وفولف فى ألمانيا ، وفونتينيل وفولتير فى فرنسا . « هؤلاء العظماء وتلامذتهم كالوا للدين ضربة قاضية . وبدأ الناس يمحصون ما كانوا يعبدونه بغباوة ، وأطاح العقل بالخرافة . . وكسبت الربوبية أتباعاً كثيرين ، وهى العبادة البسيطة للكائن الأعظم » . [١١٣] وإذ كان فردريك يحتقر الحكومة الفرنسية ويحب الأدب الفرنسى ، فإنه فضل ملحمة فولتير « الهنرياده » على الألياذه ، وفضل راسين على سوفوكليس وسوى بين بوالو وهوراس ،

وبين بوسويه وديموستين . وسخر من لغة ألمانيا وأدبها ، وامتدح فنها المعارى ؛ وشق على نفسه ليبرر غزوه سيليزيا ، فقال انه أحس أن لرجل الدولة أن ينتهك الوصايا العشر أن اقتضته ذلك مصالح دولته الحيوية « فخير أن يحنث الملك بعهده من أن يهلك الشعب » [١١٤] — وهذا الهلاك — كما أمل أن تصدقه — هو الخطر الذى تهدد بروسيا فى ١٧٤٠ ؛ وقد اعترف بأنه اقترف أخطاء كثيرة فى قيادة جيشه ، ولكنه رآه أمراً لا ضرورة له أن يسجل فراره مولفتز . وهذان المجدان فى جملتهما يقفان على قدم المساواة مع أفضل الكتابات التاريخية عن أوربا الحديثة قبل جبون .

وما إن وضعت حرب السنين السبع أوزارها حتى عكف فردريك على كتابة « تاريخ حرب السنين السبع » . وكان كقيصر يتطلع إلى أن يكون خير مؤرخ لحملاته ، وكقيصر تحاشى الحرج فتكلم عن نفسه بضمير الغائب ، وهنا أيضاً حاول — ربما بعذر أفضل — أن يبرر المبادرة الجريئة التى بدأ بها الحرب . وقد امتدح ألد أعدائه « ماريا تريزا » فى كل ما يتصل بحكمها الداخلى ، أما فى علاقاتها الخارجية فقد أدان هذه المرأة المتكبرة « التى استبد بها الطمع فأرادت أن تبلغ هدف المجد من كل طريق » [١١٥] ووسط سجل الحملات ، المحايد إلى حد لا بأس به ، توقف ليندب أمه التى ماتت فى ١٧٥٧ وشقيقته التى لحقت بها فى ١٧٥٨ . والصفحة التى وصف فيها فلهلمنية واحة من الحب فى بيداء خربة من الحروب .

وقد خلص إلى أن التاريخ أستاذ عظيم تلاميذه قليلون : « ان فى طبيعة البشر ألا يتعلم إنسان من التجربة . وحماقات الآباء تضيع هدراً على الأبناء ، وكل جيل لا بد مقترف حماقاته » [١١٦] « كل من يقرأ التاريخ بإمعان يدرك أن المشاهد ذاتها كثيراً ما تتكرر ، وأنه لا حاجة بنا إلا لتغيير أسماء الممثلين » [١١٧] . ولكنا حتى لو استطعنا أن نتعلم ، فإننا سنظل عرضة للمصادفة التى لا يمكن التنبؤ بها . « إن هذه المذكرات تقنعنى أكثر فأكثر بأن كتابة التاريخ إن هى إلا تجميع لحماقات الناس وضربات الحظ . فكل شىء يدور حول هذين الموضوعين » [١١٨] .

وقد حاول مرتين (١٧٥٢ و ١٧٦٨) فى «وصية أخيرة» أن ينقل لورثته بعض الدروس المستفادة من تجربته الخاصة. فحثهم على دراسة أهداف الدول المختلفة ومواردها، والوسائل المتاحة لحماية بروسيا وتنميتها. وحذا حذو أبيه فى تأكيده على الحاجة لأحكام ضبط الجيش، وحذر خلفاءه من الإنفاق فوق ما يسمح به الدخل؛ وتنبأ بالمتاعب السياسية التى ستحيق بفرنسا لسفهها المالى؛ ونصح بزيادة الإيرادات لا بفرض ضرائب جديدة بل بحفز إنتاجية الاقتصاد. وينبغى حماية كل الأديان ما التزمت الهدوء والسلام — رغم أن «جميع الأديان إذا فحصها المرء وجدها ترتكز على نسق من الخرافة غير معقول قليلا أو كثيراً»[119]. «إماسلطة الملك فيجب أن تكون مطلقة» ولكن على الملك أن يعد نفسه أول خادم للدولة. ومادامت بروسيا فى خطر من صغر حجمها وسط دول كبيرة كروسيا وفرنسا والامبراطورية النمساوية المجرية، فإن من واجب الملك أن يغتنم أى فرصة ليوسع بروسيا ويوحدها — ويحسن أن يكون ذلك بفتح سكسونيا وبروسيا البولندية وبومرانيا السويدية: «أن أول شغل شاغل الأمير هو أن يصون سلطته، أما الثانى فهو أن يوسع رقعته. وهذا يقتضى المرونة وسعة الحيلة... وستر المطامع الخفية يكون بإعلان الميول السلمية حتى تأتى اللحظة المواتية. تلك طريقة جميع رجال الدولة العظماء»[120].

وينبغى أن يعد الملك خلفه للحكم. فيهيىء له التعليم على يد رجال مستنيرين لا رجال كنسيين، لأن هؤلاء يشحنون رأسه بخزعبلات يقصد بها أن يكون أداة طيعة فى يد الكنيسة[121]. وتعليم كهذا من شأنه أن يخرج عقلا ضعيفاً سرعان ما تسحقه مسئوليات الدولة. «ذلك ما رأيته، وإذا استثنيت ملكة المجر (ماريا تريزا) وملك سردينيا (شارل إمانويل) فإن كل ملوك أوربا ليسوا سوى بلهاء مشهورين»[122]. وقد كتب هذا والبزابث تحكم روسيا. وكانت «وصية» ١٧٦٨ أكثر تأدباً، لأن كاترين كانت قد أثبتت علو همتها، وتنبأ فردريك الآن بأن روسيا ستكون أخطر دولة فى أوربا[123].

فلما شاخ بدأ يسائل نفسه إن كان ابن أخيه ووريثه المحتمل — فردريك

فلهلم الثانى — صالحاً لوراثة الحكم . كتب إليه يقول « إننى أشقى من أجلك ولكن على أن أفكر فى الاحتفاظ بما أصنع « فإن كنت كسولا خاملا ذاب فى يديك كل ما جمعته بالجهد والمشقة »[١٢٤] . وفى ١٧٨٢ كتب وقد ازداد تشاؤما « لو أن ابن أخى لان وتراخى بعد موتى ، لما بقى شىء اسمه بروسيا فى ظرف عامين »[١٢٥] . وقد تحققت النبوءة فى فيينا عام ١٨٠٦ « لا لأن فردريك وليم الثانى كان رخوا لينا ، بل لأن نابليون كان صلباً قاسياً .

وقد بات فردريك ذاته فى عقده الأخير قاسياً إلى حد لا يحتمل . فاختزل قدراً كبيراً من الحرية التى سمح بها للصحافة قبل ١٧٥٦ . كتب ليسنج إلى نيقولاى فى ١٧٦٩ يقول « إن حريتكم البرلينية تتقلص . . إلى حرية جلب ما تشاءون جلبه إلى السوق من مخافات ضد الدين . . . ولكن ليرفع إنسان صونه نيابة عن الرعايا، وضد الاستغلال والاستبداد ... وعندها ستتبين سريعاً أى دول أوربا أكثرها اليوم عبودية وذلا » . [١٢٦] وكره هردر وطنه بروسيا ، وانصرف فنكلمان فى « رعب » عن ذلك « البلد المستبد »[١٢٧] . وحين زار جوته برلين فى ١٧٧٨ أدهشته عدم شعبية الملك . ومع ذلك كان الشعب يبجل فردريك شيخاً لم يضن طوال خمسة وأربعين عاماً بيوم واحد فى سبيل خدمة الدولة .

وقد برته الحرب كما براه السلم . وكثرت واشتدت عليه نوبات النقرس والربو « والمغص والبواسير ، وزادت أوجاعه حدة لولعه بالوجبات الثقيلة والأطعمة الحريفه . وفى ٢٢ — ٢٥ أغسطس ١٧٧٨ استعرض جيشه السيليزى قرب برزلا و . وفى اليوم الرابع والعشرين ظل على صهوة جواده ست ساعات برداته العسكرى العادى والمطر يهطل غزيراً ، وعاد إلى مسكنه مبللا يرتعد من البرد . ولم يستعد عافيته بعدها قط . وفى يونيو ١٧٨٦ أرسل فى طلب الدكتور تسمرمان من هانوفر . وتوقف عن تعاطى العقاقير التى وصفت له ، وآثر الأحاديث المرحلة عن الأدب والتاريخ ، ولكى يلزمه تسمرمان الهدوء وصف له كتاب جبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية

وسقوطها »[١٢٨] . وتفاقمت أوصابه بالاستسقاء ، وأحدثت القطوع التى أجريت له لتخفيف الانتفاخات غرغرينة . ثم أطبق عليه الالتهاب الرئوى فاكتمل الحصار ، وفى ١٧ أغسطس ١٧٨٦ مات فردريك وهو فى الرابعة والسبعين . وكان قد طلب أن يدفن فى حديقة « صانسوسى » قرب قبور كلابه وحصانه الحبيب ، ولكن أمر رحيله هذا الذى أصدره على البشرية أغفل ، فدفن إلى جوار أبيه فى كنيسة الحامية ببوتسدام . وحين جاء نابليون ووقف أما قبر فردريك بعد أن هزم الروسيين فى يينا قال لقواد جيشه « لو كان على قيد الحياة لما كنا هنا »[١٢٩] .

الفصل الحادي والعشرون

كانط

١٧٢٤ — ١٨٠٤

١ — مقدمة

لعل كانط ما كان ليظهر قط لولا وجود فردريك الأكبر . ذلك أن كتابيه « نقد العقل الخالص » و « الدين في حدود العقل وحده » يسرت صدورها شكوكية فردريك وتسامحه الديني ، فلم ينقض على موت فردريك عامان حتى أخرجت الحكومة البروسية كانط .

كان كانط كفردريك ربيباً لحركة التنوير ، وقد تشبث بولائه للعقل حتى النهاية — رغم كل ذبذبته الاستراتيجية ، ولكنه أيضاً كروسو كان جزءاً من الحركة الرومانتيكية ، مكافحاً للتوفيق بين العقل والوجدان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين الفضيلة والثورة . وقد أشربه أبواه النزعة التقوية ، ثم هجنها بعقلانية كرستيان فون فولف ، واستوعب هرطقات جماعة الفلاسفة ، وهجنها بـ « اعتراف قسيس سافوا بالإيمان » في كتاب روسو « إميل » ؛ وورث سيكولوجية لوك وليبنتس وباركلي وهيوم الدقيقة البارعة ، واستخدمها في محاولة لينقذ العلم من هيوم ، وينقذ الدين من فولتير . وقد رتب حياته بانتظام بورجوازي ، ورحب بالثورة الفرنسية . وإذ عاش منفرداً في بروسيا الشرقية ، فإنه أحس ولخص كل تيارات عصره العقلية .

ولد في كونيجزبرج (٢٢ أبريل ١٧٢٤) النائية عن فرنسا ، المولعة بالوضوح والمعتمة بضباب البحر . وقد أثيرت بعض الشكوك حول أصل أسرته الاسكتلندي ، ولكن كانط نفسه يخبرنا أن جده « في ختام القرن

الماضى هاجر من اسكتلنده إلى بروسيا » ولا أدرى لم »[١] . وتزوج أبوه يوهان جيورج كانط من آنا رويتر ، وكان إمانويل (ومعناها الله معنا) رابع أبنائهم الأحد عشر . وقد اتخذ اسمه الأول من قديس يوم ميلاده » ثم غير اسم الأسرة من Cant إلى Kant لمنع الألمان من أن ينطقوه «تسانت»[٢] وقد نشأت الأسرة كلها على مذهب التقويين ، الذى كان كالمثودية الانجليزية يشدد على الإيمان والتوبة والالتجاء رأساً إلى الله ، بعكس العبادة اللوثرية التقليدية فى الكنيسة بقسيس وسيط .

وكان أحد وعاظ التقويين قد أنشأ فى كونيجزبرج «كلية فردريكية » . والتحق إمانويل بها من سن الثامنة إلى السادسة عشرة . وكان اليوم المدرسى يبدأ فى الخامسة والنصف صباحاً بنصف ساعة من الصلاة ، وكل حصة فى الصف تختم بالصلاة ؛ وخصصت ساعة كل صباح لتعليم الدين ، مع التشديد على نيران الجحيم ؛ وكان التاريخ يدرس أساساً من العهد القديم ، واليونانية من العهد الجديد . وحده.ويوم الأحد يكرس أكثره للعبادة . لقد كان تعليماً أثمر الفضيلة فى بعض خريجيه ، والنفاق فى آخرين ، وربما روحاً كئيبة فى معظمهم . وقد أنكر كانط فيما بعد هذه الجرعة الثقيلة من التقوى والإرهاب ، وقال ان الخوف والرعدة يغلبانه حين يتذكر تلك الأيام[٣] .

وفى ١٧٤٠ انتقل إلى جامعة كونيجزبرج . هنا كان أحب المدرسين إليه مارتن كنوتسن الذى عرف كانط بـ « عقلانية » فولف رغم كونه تقويا . وكان كنوتسن قد قرأ للربوبيين الانجليز ، وأدانهم ولكنه ناقش آراءهم ، وترك بعض الشكوك الربوبية فى واحد من تلاميذه على الأقل . فلما دعى كانط بعد قضاء ست سنين فى الجامعة ليرسم قسيساً لوثريا ، رفض الدعوة رغم ما وعد من ترقية قريبة إلى وظيفة مربحة[٤] . وعاش بدلا من ذلك تسع سنين رقيق الحال يعلم أبناء الأسرة الخاصة ويواصل دراسته . وكان اهتمامه حتى ١٧٧٠ بالعلم لا باللاهوت « وكان لوكريتيوس من أحب المؤلفين إليه »[٥] .

وفى ١٧٥٥ نال كانط درجة الدكتوراه ، وسمح له بأن يحاضر فى الجامعة

بوصفه « معلماً خاصاً » لا يكافأ إلا بالرسوم التى يقرر الطلبة دفعها . وظل خمسة عشر عاماً فى هذا الوضع القلق. وخلال هذه البداية الطويلة الأمد رفضت طلباته لوظيفة الأستاذية مرتين . وظل فقيراً « يتنقل من نزل إلى نزل ، ولا يجرؤ على الزواج » ولا يسكن بيتاً خاصاً به حتى بلغ التاسعة والخمسين[٦]. وقد حاضر فى مواضيع كثيرة التباين ، ربما ليجتذب عدداً أكبر من الطلاب ، وكان عليه أن يحاضر بلغة واضحة ليتيسر له العيش . ولا بد أن كانط المعلم كان يختلف تماماً عن كانط المؤلف الذى اشتهر بغموضه . وقد وصفه هردر ، الذى كان أحد تلاميذه (١٧٦٢ — ٦٤) بعد ثلاثين عاماً « محتفظاً له بذكرى ملؤها العرفان بالجميل ، فقال :

« أسعدنى الحظ بمعرفة فيلسوف كان معلمى . فى مقتبل عمره تحلى بشجاعة الشباب المرحة ، وأعتقد أن هذه الشجاعة لازمته حتى الشيخوخة . وكان جبينه الواضح المفكر مستقراً للبشر والسرور الذى لايكدر صفوه مكدر ، وكان حديثه حافلا بالأفكار شديد الإيحاء ؛ وفى متناوله الضحك والدعابة الذكية والخيال الفكه » ومحاضراته تجمع بين التعليم والترفيه الكثير . وبالروح ذاتها التى انتقد بها ليبنتس وفولف وباومجارتن . . . وهيوم « بحث فى القوانين الطبيعية التى قال بها نيوتن وكبلر والفزيائيون . وبهذا الأسلوب تناول كتابات روسو . . . ولم يكن لأى عصبة أو ملة ، ولا تحيز أو إجلال لاسم من الأسماء ، أدنى تأثير عليه مقابل نشر الحقيقة ودعمها . وكان يشجع سامعيه على التفكير لأنفسهم ويضطرهم فى رفق إلى هذا التفكير ؛ أما الأستبداد فكان غريباً على طبعه . وهذا الرجل الذى أذكر اسمه بأعظم عرفان وتبجيل هو إيمانويل كانط ، وصورته ماثلة أمامى ، وهى محببة إلى نفسى »[٧] .

ولو أردنا أن نتذكر كانط على الأخص من واقع عمله قبل أن يبلغ السابعة والخمسين (١٧٨١) لوجب أن نرى فيه العالم أكثر من الفيلسوف — رغم أن هذين المصطلحين لم يكونا بعد منفصلين . وأول أعماله المنشورة « خواطر من التقييم الحقيقى للقوى الديناميكية ، ١٧٤٧ » نقاش علمى عن قوة الجسم أثناء حركته وهل تقاس (كما زعم ديكارت وأويلر) بالكتلة

مضروبة فى السرعة ، أو (كما زعم ليبنتس) بالكتلة مضروبة فى مربع السرعة ، وهو انجاز ممتاز لفتى فى الثالثة والعشرين . وتلا هذا بعد سبع سنوات مقال فى زمن دوران الأرض اليومى وهل يتغير بالمد والجزر . وفى العام نفسه نشر كانط بحثاً عن الأرض وهل بسبيلها إلى الشيخوخة ؛ هنا أعرب كانط عن القلق الذى يساور عصرنا الحديث على فقد الشمس بعض طاقتها كل يوم على تجمد أرضنا فى المستقبل .

وفى بحث رائع نشر عام ١٧٠٥ قدم الشاب الجرىء ذو الحادية والثلاثين عاماً « التاريخ الشامل للطبيعة ، ونظرية السماوات » . وقد نشر الكتاب غفلا من اسم المؤلف وأهدى إلى فردريك الأكبر ، وربما خاف كانط أن يلحقه أذى من رجال اللاهوت وأمل فى أن يبسط الملك عليه حمايته ، وقد رد جميع عمليات الأرض والسماء إلى قوانين آلية ، ولكنه أكد أن النتيجة ، بما فيها من تناسق وجمال ، تثبت وجود عقل أسمى . ولكى يفسر كانط أصل المنظومة الشمسية اقترح « الفرض السديمى » . قال :

« إنى أزعم أن كل مادة المنظومة الشمسية . . . كانت فى بداية الأشياء كلها متحللة إلى عناصرها الأولية ، وأنها ملأت كل الفضاء . . . الذى تدور فيه الآن الأجسام المكونة منه . . . وفى فضاء مملوء على هذا النحو « لا يمكن أن يدوم هدوء شامل إلا لحظة . . . فالعناصر المشتتة الأكثف نوعاً « بحكم قوتها الجاذبة ، تجمع من حولها كل المادة الأقل وزناً نوعياً » وهذه العناصر هى الأخرى ، مع المادة التى وحدتها معها ، تتجمع فى النقط التى توجد فيها جسيمات من نوع أكثر كثافة ، وهذه بالمثل تنضم إلى جسيمات أكثف . وهلم جرا . . .

« ولكن للطبيعة قوى أخرى ، . . . بفعلها تتنافر هذه الجسيمات ، وهى التى تحدث — بصراعها مع الجاذبيات — تلك الحركة التى هى بمثابة الحياة الدائمة للطبيعة . . . وقوة التنافر هذه تظهر فى مرونة الأبخرة ، وتدفق الأجسام القوية الرائحة ، وانتشار جميع المواد الكحولية . وهذه القوة هى التى بفعلها تحيد تلك العناصر التى قد تكون ساقطة إلى النقطة التى تجتذبها . . .

عن حركتها فى خط مستقيم ، وسقوطها العمودى يكون فى حركة دائرية حول المركز الذى تسقط نحوه »[٨] .

واعتقد كانط أن جميع النجوم تجمعت أو هى بسبيل التجمع — فى مثل هذه المنظومات من الكواكب والشموس ، وقد أضاف عبارة ذات مغزى « أن الخليقة لا تكتمل أبداً ، أنها لا تكف عن مواصلة السير »[٩]. وهذا الفرض السديمى الذى افترضه كانط فى ١٧٥٥ ، وكذلك التعديل الذى أدخله عليه لا بلاس (١٧٩٦) « حافل بالصعوبيات كمعظم ماتلاه من النظريات فى أصل الكون ، ومع ذلك يقول فيه فلكى حى شهير « إنى أعتقد أن بحث كانط عن أصل الكون كان أبدع تلخيص موضوعى للعلم حتى ذلك الوقت »[١٠] . أما بالنسبة لنا فإن دلالة البحث تكمن فى بيانه أن كانط لم يكن ميتافيزيقياً غيبياً بل رجلا فتن بالعلم ، وكافح التوفيق بين المنهج العلمى والعقيدة الدينية . وهذا لب جهوده حتى النهاية » .

وفى ١٧٥٦ ، حين هزته كارثة زلزال لشبونة التى وقعت فى ١٧٥٥ — كما هزت فولتير — إلى أعماق فلسفته « نشر كانط ثلاث مقالات عن الزلازل ومقالا عن نظرية فى الرياح . وفى ١٧٥٧ نشر « مجملا لمجموعة محاضرات فى الجغرافيا الطبيعية وبياناً عنها »، وفى ١٧٥٨ نشر « نظرية جديدة فى الحركة والسكون . فلما اتسعت دائرة اهتماماته أرسل إلى المطبعة رسائل قصيرة عن موضوعات التفاؤل (١٧٥٩) « والقياس المنطقى (١٧٦٢) ، و أمراض الرأس (١٧٦٤) . وقد ألمع فى هذه الرسالة إلى أن تقسيم العمل المتزايد قد يفضى إلى الجنون نتيجة التكرار الرتيب الممل . وفى ١٧٦٣ انتقل إلى اللاهوت ببحث عنوانه « الدعامة الوحيدة الممكنة للبرهنة على وجود الله » ؛ وواضح أنه كان مبلبل الخاطر لاهتزاز إيمانه الدينى . وفى ١٧٦٤ ، بعد ثمانى سنين من نشر بيرك رسالة مماثلة « قدم « ملاحظات على الشعور بالجميل والجليل » .

ومرت به أوقات خطر له فيها أن يوسع فرضه فى أصل الكون التطورى

ليشمل علم الأحياء ، وكان على علم بأن الأشكال الجديدة تطورت من القديمة بفعل تغيرات فى ظروف الحياة [١١] ، وقبل الرأى القائل بأن تشريح الإنسان كان فى الأصل ميسراً لحركة أرجل أربع [١٢] . ومع ذلك أحجم عن فكرة البيولوجية القائمة كلها على المذهب الآلى » . « كذلك مرت بى أوقات سرت خلالها فى هذه الدوامة مفترضاً هنا ميكانيكا طبيعية عمياء أساساً للتفسير . واعتقدت أنى أستطيع استكشاف طريق أسلكه إلى المفهوم البسيط الطبيعى . ولكننى كنت دائماً أنتهى إلى تحطيم سفينة العقل ، ومن ثم آثرت المغامرة فى محيط الأفكار الذى لا حدود له »[١٣] . وكان رودلف راسبى (مؤلف رحلات البارون مونتشاوزن) قد اكتشف مؤخراً مخطوط ليبنتس المفقود منذ زمن طويل « مقالات جديدة فى الفهم البشرى » ونشره فى ١٧٦٥ ، واستطاع كانط أن يقرأه بالفرنسية ، وقد أسهم فى تحويله إلى نظرية المعرفة . على أنه لم يهجر اهتمامه بالعلم هجراناً تاماً ، فقد كتب فى تاريخ متأخر (١٧٨٥) مقالا عنوانه « فى براكين القمر » . غير أن الصراع الباطن بين دراساته العلمية ولا هوته الموروث حفزه إلى التماس التوفيق بينهما فى الفلسفة .

ويحتمل أن يكون من العوامل التى وجهته هذه الوجهة الجديدة عرض (١٧٧٠) منصب أستاذ المنطق والميتافزيقا عليه . وكان الراتب ضئيلا لرجل بلغ السادسة والأربعين وهو ١٦٧ طالرا فى العام ، زيد ببطء إلى ٢٢٥ فى ١٧٨٦ ؛ وقد رفعت الراتب خدمات عارضة أداها بوصفه « سناتورا » و « أقدم أساتذة الكلية » فى ١٧٨٩ إلى ٧٢٦ طالرا وكانت التقاليد تقضى بأن يلقى الأستاذ الجديد خطاباً افتتاحياً باللاتينية . واختار كانط موضوعاً عسيراً هو « فى شكل ومبادىء العالم المحسوس والعالم المعقول » . واستعمل كانط المصطلحات « المدرسية » التى كانت لاتزال سائدة فى الجامعات الألمانية . وقصد بالعالم المحسوس العالم كما تدركه الحواس ، وسوف يسميه أيضاً فيما بعد بعالم الظواهر . أما العالم المعقول . فيقصد به العالم كما يدركه الذهن أو العقل ، وسوف يسميه بعد ذلك العالم « النومينى » . ونحن نحاول فهم العالم المحسوس بأن نطبق عليه المفاهيم الذاتية للزمان والمكان بواسطة الرياضة والعلوم ؛ والعالم المعقول بتجاوز الحواس عن طريق العقل

والميتافيزيقا إلى مصادر العالم المحسوس وأسبابه فوق الحسية . هنا أرسى كانط نظريته الأساسية : وهى أن الزمان والمكان ليسا شيئين موضوعيين أو محسوسين بل شكلين من أشكال الإدراك الحسى أصيلين فى طبيعة العقل وبنيانه ؛ وأن العقل ليس متلقياً وناتجاً سلبياً للأحاسيس ، بل هو عامل إيجابى — له طرائق وقوانين عمل أصيلة لتحويل الأحاسيس إلى أفكار .

وقد عد كانط هذا البحث الجوهرى « النص الذى سيفصل القول فيه فى الكتاب التالى » وتدل هذه العبارة الواردة فى خطاب حرره فى ١٧٧١ إلى ماركوس هرتس على أن الفيلسوف كان الآن يخطط لكتابة « نقد العقل الخالص » . وبعد اثنى عشرة سنة من العكوف على ذلك البحث الضخم نشره على الناس فى ١٧٨١ ، وأهداه لكارل فون تسيدلتس وزير التعليم والشئون الدينية فى عهد فردريك الأكبر . وكان تسيدلتس ، كما كان الملك ، ربيب حركة التنوير ، ونصيراً لحرية النشر . وقد قدر كانط أن حمايته ستكون مفيدة جداً إذا استشف اللاهوتيون وراء ألفاظه الغامضة واستنتاجاته السنية فى ظاهرها تحليلا من أشد التحليلات التى تلقاها اللاهوت المسيحى تدميراً .

٢ — نقد العقل الخالص ، ١٧٨١

إذا وجد العالم هذا الكتاب عسيراً فقد يكون السبب منهج العمل الذى انتهجه كانط . كتب إلى موسى مندلسون (١٦ أغسطس ١٧٨٣) يقول : مع أن الكتاب « ثمرة تأمل شغلنى على الأقل اثنى عشر عاماً ، فإننى أكملته بأقصى سرعة فى أربعة أشهر أوخمسة ، باذلا أبلغ العناية بمحتوياته ، ولكن دون اهتمام يذكر بالعرض أو بتيسير فهمه للقارىء — وهو قرار لم أندم عليه قط ، وإلا فلو تباطأت وحاولت صياغته فى شكل أكثر شعبية لما اكتمل العمل إطلاقاً فى أغلب الظن »[١٤] . إن الوضوح يقتضى الوقت ، ولم يكن كانط واثقاً من أنه يملك الوقت . وقد حذف عمداً بعض الأمثلة الموضحة

مخافة أن يتضخم كتابه ؛ « فهذه ليست ضرورية إلا من وجهة النظر الشعبية ، وهذا الكتاب لا يمكن أبداً جعله صالحاً للاستهلاك الشعبي » [١٥] . وهكذا كتب كانط لأهل حرفته ، وركن إلى غيره فى تبسيطه وتخفيفه ليصلح للهضم . ومع أن كرستيان فون فولف كان قد سبقه فى التأليف الفلسفى بالألمانية ، إلا أن تلك اللغة كانت لا تزال على جفافها فى التعبير عن ظلال التفكير ، ولم تكن قد استقرت على مصطلحات فنية فى الفلسفة . وكان على على كانط فى كل خطوة تقريباً أن يخترع ترجمة ألمانية لمصطلح لاتينى ، وفى كثير من الحالات حتى اللاتينية كانت تفتقر إلى مصطلحات تفى بالفوارق الدقيقة التى أراد التعبير عنها . وقد أربك قراءه بخلعه المعانى الجديدة على الألفاظ القديمة ، وبنسيانه أحياناً تعاريفه الجديدة . والصفحات المائة الأولى واضحة وضوحاً لا بأس به ، أما باقى الكتاب فحريق فلسفى لا يبصر فيه القارىء غير الخبير شيئاً غير الدخان .

وقد احتاج العنوان نفسه إلى إيضاح . فأنى للقارىء أن يعرف أن « نقد العقل الخالص » معناه تمحيص نقدى حصيف للعقل مستقلا عن التجربة » و « النقد لم يعن التحليل والعرض فحسب ، بل الحكم أيضاً ، كما يستفاد من سالف اللفظة اليونانى (بمعنى يحكم) . وقد قصد كانط أن يصف الحس ، والإدراك الحسى والفكرة والعقل » وأن يقرر لكل منها حدودها واختصاصاتها الصحيحة . ثم أمل أن يبين أن فى استطاعة العقل أن يعطينا المعرفة مستقلا عن أى خبرة مؤيدة » كما هى الحال فى معرفتنا أن ستة مضروبة فى ستة تساوى ستة وثلاثين » أو أنه لا بد أن يكون للمعلول علة . تلك أمثلة لـ « العقل الخالص » — أعنى المعرفة القبلية أو الأولية » أى المعرفة التى لا تتطلب برهاناً من التجربة . يقول : « إن ملكة المعرفة الحاصلة من المبادىء القبلية يمكن أن نسميها العقل الخالص » والبحث العام فى قدرتها وحدودها (يؤلف) نقد العقل الخالص » [١٦] . وقد اعتقد كانط بأن بحثاً كهذا سينطوى على كل مشكلات الميتافيزيقا ؛ وكان على ثقة من أنه « ما من مشكلة ميتافيزيقية واحدة لم تحل » أو لم يقدم

مفتاح حلها على الأقل » فى هذا النقد [١٧] . وذهب إلى أن الخطر الوحيد الذى يخشاه « ليس خطر تفنيد آرائى بل عدم فهمى» [١٨] .

فما الذى جره يا ترى إلى خوض هذه المغامرة البطولية ؟ قد يظن أن اعلاء حركة التنوير الفرنسية من شأن العقل — وزعم جماعة الفلاسفة أن الإيمان يجب أن يخضع للعقل — وما حاق باللاهوت المسيحى نتيجة لهذا من دمار ، كان السبب الذى جعل كانط يصمم على دراسة أصل العقل وعمله وحدوده . وقد لعب ذلك الحافز دوره ، كما ورد فى مقدمة كانط للطبعة الثانية [١٩] ، ولكن المقدمة ذاتها أوضحت بجلاء أن العدو الذى استهدفه هو هذه التوكيدية الإيقانية (الدجماطيقية) بكل ألوانها — أى كل مذاهب الفكر التقليدية والمبتدعة على السواء ، التى ينشئها عقل لم يخضع للامتحان . وقد لقب كرستيان فون فولف بـ « أعظم الفلاسفة الدجماطيقيين قاطبة » لأنه اضطلع بإثبات عقائد المسيحية ، وفلسفة لبنتس بالعقل وحده . وكل المحاولات التى تبذل للبرهنة على صدق الدين أو كذبه بالعقل الخالص هى فى نظر كانط صور من الدجماطيقية ؛ وقد حكم بـ « دجماطيقية الميتافزيقا » على كل مذهب فى العلم أو الفلسفة أو اللاهوت لم يخضع أولا لامتحان نقدى للعقل ذاته .

وقد اتهم تفكيره هو « حتى عام ١٧٧٠ ، بأنه مدان بهذه الدجماطيقية . يقول إن ما أيقظه من هذه التأملات غير الممحصة هو قراءته لهيوم — ربما كتابه « بحث فى الفهم البشرى » الذى ظهرت ترجمة ألمانيا له فى ١٧٥٥ . وكان هيوم قد زعم أن كل تدليل يعتمد على فكرة العلة ، وأننا فى التجربة الفعلية لاندرك العلة إدراكاً حسياً بل التعاقب وحده ؛ وإذن فكل العلم والفلسفة واللاهوت يرتكز على فكرة — علة ليست غير فرض ذهنى لاحقيقة مدركة حسياً . كتب كانط يقول « أعترف بصراحة أن ملاحظة ديفد هيوم هى التى قطعت على سباتى الدجماطيقى منذ سنين طويلة ووجهت أبحاثى فى مجال الفلسفة النظرية فى اتجاه مختلف كل الاختلاف» [٢٠] . فكيف يمكن إنقاذ مفهوم العلة من المكان الوضيع ، مكان الفرض غير اليقينى « الذى

خلفه فيه هيوم ؟ يقول كانط أنه لا سبيل إلى ذلك إلا ببيان أنه قبلى ، مستقل عن الخبرة ، واحد من تلك المقولات « أو أشكال الفكر ، التى وإن كانت ليست بالضرورة فطرية » إلا أنها جزء من التركيب الفطرى للعقل(*). ومن ثم صمم على التغلب على دجماطيقية فولف وارتيابية هيوم جميعاً بنقد — أى بتمحيص نقدى — يصف فى الوقت نفسه سلطة العقل ويحددها ويحميها . وهذه المراحل الثلاث — الدجماطيقية ، والارتيابية ، والنقد — هى فى نظر كانط المراحل الثلاث الصاعدة فى تطور الفلسفة الحديثة .

وفى ولع بالتعاريف ، والتمييزات « والتصنيفات » وباستخدام للألفاظ الطويلة اختصاراً للكلام ، قسم كانط المعرفة كلها إلى معرفة تجريبية (تعتمد على التجربة) وأخرى ترانسندنتالية (مستقلة عن التجربة ومن ثم متجاوزة لها) . وقد وافق على أن المعرفة كلها « تبدأ » بالتجربة ، بمعنى أن إحساساً ما لا بد أن يسبق وينبه عمليات الفكر ، ولكنه يعتقد أنه فى اللحظة التى تبدأ فيها التجربة فإن تركيب العقل يشكلها بما تأصل فيه من أشكال « الحدس » (الإدراك الحسى) أو الإدراك العقلى . وأشكال « الحدس » الأصيله هى الصور المشتركة بين الجميع ، والتى تتخذها التجربة فى إحساسنا الظاهر كمكان ، وفى حساسيتنا الباطنة كزمان .

وبالمثل توجد أشكال فطرية من الإدراك العقلى أو الفكر ، مستقلة عن التجربة وهى تشكلها . وقد سماها كانط المقولات ، وقسمها بتناسق أولع به وحرص عليه حرصاً شديداً إلى أربع مجموعات ثلاثية : ثلاث مقولات للكم — هى الوحدة والكثرة وجملة الكل ؛ وثلاث مقولات للكيف — هى الوجود والسلب وحد التناهى ؛ وثلاث مقولات قوائم للإضافة هى الجوهر فى مقابل العرض ، والسببية فى مقابل التلازم « والمشاركة أو التفاعل ؛

(*) ذكر كانط فى خطاب لجارف فى ١٧٩٨ تفسيراً لاحقاً لـ « يقظته » هذه . قال : « إن تناقضات العقل الخالص (الصعوبات التى ينطوى عليها الإيمان بالله أو عدم الإيمان به » أو حرية الإراده ، أو الخلود) . . . هى التى بدأت إيقاظى من سباتى الدجماطيقى وساقتنى إلى نقد العقل » (٢١) .

وثلاث مقولات قوائم للجهة — هي الإمكان في مقابل الاستحالة، والوجود في مقابل العدم ، والضرورة في مقابل العرضية . وكل إدراك حسى يندرج تحت واحد أو أكثر من هذه الأشكال أو القوالب الأساسية للفكر. فالإدراك الحسى إحساس تترجمه الأشكال الفطرية للزمان والمكان ، والمعرفة إدراك حسى تحوله المقولات إلى حكم أو فكرة . والتجربة ليست قبولا سلبياً لانطباعات موضوعية على حواسنا ، إنما هي حصيلة العقل المؤثر إيجابياً على خامة الإحساس .

وقد حاول كانط أن يعارض ارتيابية هيوم في العلية ، وذلك بأن عد علاقة العلة والمعلول شكلا حقيقياً من أشكال الفكر لا حقيقة موضوعية ؛ وهي بهذه الصفة مستقلة عن الخبرة وليست خاضعة لعدم يقينية الأفكار التجريبية . ولكنها مع ذلك جزء ضروري من كل تجربة ، لأننا لا نستطيع فهم التجربة بدونها . ومن ثم فإن « إدراك العلة العقلى » ينطوى على صفة الوجوب ، التي لا يمكن لأى تجربة أن تعطيها » [٢٢] . وقد ظن كانط أنه بـ « خفة القلم » هذه أنقذ العلم من ذلك القيد المذل ، قيد الاحتمال » الذى قضى عليه به هيوم . بل انه زعم أن العقل البشرى لا الطبيعة — هو الذى ينشىء « قوانين الطبيعة » الشاملة ، وذلك بإضفائه على بعض تعميماتنا — كالتعميمات الرياضية — صفات من الشمول والوجوب لا تدرك موضوعها إدراكاً حسياً . « إننا نحن الذين ندخل ذلك الترتيب والانتظام على المظهر الذى نسميه « الطبيعة » . وما كنا لنجدهما قط في المظاهر لو لا أننا نحن أنفسنا بحكم طبيعة عقلنا ، وضعناهما في الأصل هناك » [٢٣] و « قوانين الطبيعة ليست كيانات موضوعية بل مركبات عقلية نافعة في معالجة التجربة » .

وكل معرفة تتخذ شكل الصور أو المثل، والمثالى بهذا المعنى على صواب : فالعالم « بالنسبة لنا » ليس إلا أفكارنا . وما دمنا لا نعرف المادة إلا كأفكار وبواسطة الأفكار ، فالمادية إذن مستحيلة منطقياً ، لأنها تحاول أن ترد المعلوم مباشرة (الأفكار) إلى المجهول أو المعلوم بطريق غير مباشر . ولكن المثالى يخطىء إذا اعتقد أنه لا شيء « موجود » إلا صورنا ، لأننا نعلم أن الصور

يمكن إحداثها بالأحاسيس ، ونحن لا نستطيع تفسير كل الأحاسيس دون أن نفترض ، لكثير منها ، علة خارجية . وبما أن معرفتنا مقتصرة على الظواهر أو المظاهر — أى على الشكل الذى يتخذه السبب الخارجى « بعد » أن تشكله أساليب إدراكنا الحسى والعقلى — فإننا لا نستطيع أبداً أن نعرف الطبيعة الموضوعية لتلك العلة الخارجية [٢٤] ، ولا بد أن تظل بالنسبة لنا شيئاً — فى — ذاته ، ملغزا ، « نومينا » يدرك عقلياً ولا يدرك حسياً على الإطلاق . فالعالم الخارجى موجود ولكنه فى حقيقتسه المطلقة مجهول لا يمكن معرفته » [٢٥] .

والنفس أيضاً حقيقية ولكن لا يمكن معرفتها . ونحن لا ندركها حسياً على الإطلاق بوصفها كياناً مضافاً إلى الحالات العقلية التى ندركها حسياً ، وهى الأخرى « نومين » يدرك عقلياً بالضرورة باعتبارها الحقيقة التى من وراء الذات الفردية ، والحس الأخلاقى وأشكال العقل وعملياته . والإحساس بالذات يمتزج مع كل حالة عقلية ، ويوفر الاستمرارية والهوية الشخصية . والوعى بالذات « وعى الذات الاستبطانى » هو أوثق تجاربنا قاطبة ، ولاسبيل إلى إدراكه عقلياً كشىء مادى بأى جهد بطولى من جهود المخيلة [٢٦] . ويبدو من المستحيل أن تؤثر نفس لا مادية فى جسد مادى ، وأن تتأثر به ، ولكن لنا أن نعتقد أن الحقيقة المجهولة والكامنة وراء المادة « قد لا تكون مع ذلك شديدة الاختلاف فى طبيعتها » من ذلك الشىء — فى — ذاته ، الباطن ، الذى هو النفس [٢٧] .

وليس فى استطاعتنا بالعقل الخالص أو النظرى أن نثبت (كما حاول فولف) أن نفس الفرد خالدة ، أو أن الإرادة حرة ، أو أن الله موجود ؛ ولكنا أيضاً لا نستطيع بالعقل الخالص أن ندحض هذه المعتقدات (كما خطر لبعض الشكاك أن يفعلوا) فالعقل والمقولات مهيأة للتعامل مع الظواهر أو المظاهر فقط ، الظاهرة أو الباطنة ، ولا نستطيع تطبيقهما على الشىء — فى — ذاته » أى على الحقيقة التى من وراء الأحاسيس أو النفس التى من وراء الأفكار . فإذا حاولنا إثبات عقائد الدين أو دحضها وقعنا فى أغلاط (فى البرهان)

أو أغاليط (مغالطات) أو نقائض — تناقضات ملازمة . كذلك ينتهي بنا الأمر إلى استحالات كهذه إذا قلنا إن العالم كان له بداية أو لم يكن ، أو إن الإرادة حرة أو غير حرة » أو إن كائناً واجباً أو كائناً أعلى موجود أو غير موجود . وعبر كانط في بلاغة غير معهودة فيه عن البرهان الغائي (٢٨) . ولكنه خلص إلى أن « قصارى ما يستطيع هذا البرهان إثباته هو « مهندس » . . . تعوقه دائماً أشد التعويق تكيفية المادة التي يشتغل بها ، لا « خالق » . . يخضع لفكرته كل شيء » (٢٩) .

ومع ذلك فكيف نستطيع الرضى بمثل هذه النتيجة المحيرة — وهي أن حرية الإرادة ، والخلود ، والله ، هذه كلها لا يمكن إثباتها أو نفيها بالعقل الخالص ، يقول كانط إن في باطننا شيئاً أعمق من العقل « هو شعورنا الذي لا يقبل التفنيد بأن الوعي ، والعقل » والنفس » ليست مادية ، وأن الإرادة حرة إلى حد ما ، وإن يكن على نحو غامض ولا منطقي ؛ ونحن لانستطيع أن نقنع طويلا بالنظر إلى العالم على أنه تسلسل لا معنى له من التطور والفناء دون مغزى خلقي أو عقل أصيل . فكيف نستطيع تبرير إرادة الإيمان فينا ؟ من جهة (كما يقول كانط) بالجدوى الفعلية للإيمان — لأنه يقدم لنا بعض الهداية في تفسير الظواهر ، ويوفر لنا شيئاً من السلامة الفلسفية والسلام الديني » يقول :

« إن أشياء العالم يجب النظر إليها » كأنها » تلقت وجودها من عقل أسمى ففكرة (الله) هي في الحقيقة مدرك عقلي موجه ، لا مدرك عقلي مباشر (هي فرض يعين على الكشف والفهم ، ولكنها ليست برهاناً) . . . ففي ميدان اللاهوت يجب أن ننظر إلى كل شيء « كأن » جماع المظاهر كلها (العالم المحسوس ذاته) له أساس واحد ، أسمى ، كلي الاكتفاء ، وراء ذاته — هو عقل موجود بذاته ، مبتكر ، مبدع . لأنه في ضوء هذه الفكرة ، فكرة العقل المبدع » نوجه الاستخدام التجريبي «لعقلنا» بحيث نحصل على أقصى امتداد مستطاع له . . والمفهوم المحدد الوحيد الذي يعطينا إياه العقل النظري الخالص عن الله هو ، بأدق معنى ، مفهوم « ربوبي » ؛ أي أن العقل لا يحدد الصحة

الموضوعية لمثل هذا المفهوم ، إنما هو يعطينا فقط الفكرة عن شيء هو الأساس للوحدة الأسمى والواجبة لكل الحقيقة التجريبية » [٣٠] .

ولكن المبرر الأشد إلزاماً للاعتقاد الديني ، في رأى كانط ، هو أن هذا الاعتقاد لا غنى عنه للأخلاقية و « لولا أن هناك كائناً أصلياً متميزاً عن العالم ، ولو كان العالم . . . بغير خالق ، ولو كانت إرادتنا غير حرة ، ولو كانت الروح . . . فانية كالمادة ، إذن لفقدت الأفكار والمبادىء الأخلاقية «كل صحتها » [٣١] . وإذا شئنا للصفة الأخلاقية والنظام الاجتماعى إلا يعتمدا كلية على الخوف من القانون ، فلا بد لنا من دعم الإيمان الديني ، ولو بوصفه مبدأ منظماً ، ويجب أن نسلك ، كأننا نعرف « أن هناك إلهاً ، وأن نفوسنا خالدة ، وأن إرادتنا حرة »[٣٢] . أضف إلى ذلك « أننا إعانة للفكر والأخلاق — مبررون في تمثيل سبب العالم بلغة تشبيهية لطيفة دقيقة . (بغيرها لا نستطيع تصور أى شيء متصل بهذا السبب) أعنى ككائن ذى فهم ، ومشاعر سرور وأستياء ، ورغبات ومشيئات تقابلها » [٣٣] .

وهكذا يختتم كتاب « النقد » الشهير ، مخلفاً مذاهب الفكر المتعارضة وقد سرى عنها وأثار استياءها . لقد أصبح في وسع الشكاك أن يزعموا أن كانط برد اللاإدرية ، وأن يزدروا إرجاعه الله إلى مكانته السابقة مكملا للشرطة . ووبخه اللاهوتيون المصدومون على تسليمه بهذا القدر الكبير للكفار ، واغتبطوا لأن الدين خرج — فيما بدا لهم — حياً من رحلته الخطرة داخل متاهة عقل كانط . وفى ١٧٨٦ وصف كارل راينهولت هذه الضجة الكبرى فقال :

«لقد حكم الدجماطيقيون على كتاب « نقد العقل الخالص » : بأنه محاولة شاك يقوض يقينية المعرفة كلها ، الشكاك بأنه قطعة من التبجح المستعلى تضطلع بإقامة صورة جديدة من الدجماطيقية على أنقاض مذاهب سابقة ؛ وفوق الطبيعيين بأنه حيلة مبيتة بدهاء لإزاحة الأسس التاريخية للدين ، ولاقاه المذهب الطبيعي دون جدل عنيف ؛ والطبيعيون بأنه دعامة جديدة لفلسفة الإيمان المحتضرة ؛ وحكم عليه الماديون بأنه إنكار مثالى النزعة لحقيقة

المادة ، والروحانيون بأنه قصر لا مبرر له للمعرفة كلها على العالم المادى مستتر تحت اسم ميدان التجربة . . . » [٣٤] .

وهاجمت مدارس الفكر هذه كلها تقريباً الكتاب فأذاعت بذلك شهرته ولو بتجريحه . وأعلت من قدرة كل العوامل حتى عسر فهمه الذى جعله تحدياً يتعين على كل عقل عصرى أن يقبله . وسرعان ما جرت مصطلحات كانط وألفاظه الطويلة على كل لسان مثقف .

ولم يستطع كانط أن يفهم لم عجز نقاده عن فهمه . ألم يعرف كل مصطلح أساسى مراراً وتكراراً ؟ (بلى ، وما أشد التباين فى تعاريفه !) وفى ١٧٨٣ رد على الهجمات بإعادة صياغة « النقد » فيما خاله صورة أبسط ، وسمى رده فى تحد « مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلة قادرة على الظهور كعلم » . وزعم فى هذا الرد أنه قبل كتابة « نقد العقل الخالص » لم تكن هناك ميتافيزيقا ميتافيزيقا حقيقية على الإطلاق « لأنه ما من مذهب قدم لنفسه بتمحيص ناقد لأداته — وهى العقل . فإذا كان بعض القراء عاجزين عن فهم كتاب « النقد » فقد يكون السبب أنهم ليسوا على مستواه تماماً ؛ « وفى هذه الحالة على القارىء أن يستخدم مواهبه العقلية فى شىء آخر » ، وعلى أى حال «ما من حاجة تدعو كل إنسان للدراسة الميتافيزيقا »[٣٥] . لقد كان فى الأستاذ العجوز دعابة وكبرياء ، وفيه حدة فى الطبع أيضاً . على أن « المقدمة » باتت كلما أو غلت عسرة عسر كتاب النقد الأصلى .

واتصل الجدل فى ظل حكومة فردريك الأكبر المتسامحة . وكان كانط قد كتب فى كتابه « نقد العقل الخالص » فقرات بليغة عن شرف العقل ، وعن حقه فى حرية التعبير[٣٦] . وفى ١٧٨٤ ، حين كان لا يزال مطمئناً إلى حماية فردريك وتسيدلتس ، نشر مقالا عنوانه (ما التنوير؟) . وقد عرف التنوير بأنه حرية الفكر واستقلاله ، واتخذ شعاراً ونصيحة القول المأثور « تجرأ على أن تعرف » . وأبدى أسفه على تخلف التحرر الفكرى نتيجة لمحافظة الأغلبية على القديم . « فإذا سألنا

هل عائشون فى عصر مستنير ؟ فالجواب لا » ، إنما نحن نعيش فى « عصر التنوير » « ثم حيا فردريك باعتباره عنوان حركة التنوير الألمانى وحاميها ، والملك الوحيد الذى قال لرعاياه « فكروا كما تشاءون »(٣٧) .

ولعله كتب هذا الكلام مؤملا أن خليفة فردريك سيلزم سياسة التسامح . ولكن فردريك وليم الثانى (١٧٨٦ – ٩٧) كان أكثر اهتماما بقوة الدولة منه بحرية العقل . فلما أعدت طبعة ثانية من « نقد العقل الخالص » (١٧٨٧) عدل كانط بعض فقراته ، وحاول التخفيف من حدة هرطقاته بمقدمة طابعها الاعتذار . قال « وجدت من الضرورى أن أنفى المعرفة (بالأشياء فى ذواتها) لأفسح مجالا للإيمان . . . فالنقد وحده يستطيع أن يقطع جذور المادية والقدرية والكفر والإلحاد والتعصب والخرافة » (٣٨). وكان محقاً فى هذا الحذر . ففى ٩ يوليو ١٧٨٨ أصدر يوهان كرستيان فون فولنر ، وزير الإدارة اللوثرية « مرسوماً دينياً » رفض التسامح الدينى صراحة باعتباره مسئولا عن التحلل الخلقى » وهدد بالطرد من منابر الكنائس أو كراسى الجامعات كل الوعاظ أو المدرسين المنحرفين عن المسيحية التقليدية . فى هذا الجو الرجعى نشر كانط « نقده » الثانى .

٣ – نقد العقل العملى ، ١٧٨٨

وما دام كتاب « النقد » الأول زعم أن العقل الخالص لا يستطيع أن يثبت حرية الإرادة ، وما دامت الأخلاقية – فى رأى كانط – تحتاج إلى هذه الحرية ، فإن عمليات العقل بدت وقد تركت الأخلاقية ، كاللاهوت ، دون أساس عقلى . بل أسوأ من هذا أن حركة التنوير قوضت الأساس الدينى للأخلاق بالتشكيك فى وجود إله مثيب معاقب . فأنى للحضارة أن تبقى حية إذا انهارت عمد الأخلاقية التقليدية هذه ؟ وأحس كانط أنه هو نفسه ، بوصفه تلميذاً صريحاً للتنوير ، ملتزم أخلاقياً بالعثور على أساس عقلى ما لناموس أخلاقى . وعليه فى مقال تمهيدى عنوانه « المبادىء الأساسية لميتافيزيقا الأخلاق » (١٧٨٥) رفض محاولة أحرار الفكر إقامة الأخلاقية على

تجربة الفرد أو النوع ؛ فمثل هذا الاشتقاق البعدى خليق بأن يسلب المبادىء الأخلاقية تلك الكلية وذلك الإطلاق اللذين هما فى رأيه شرط للمبدأ الأخلاقى السليم . ثم أعلن بما تميز به من ثقة بالنفس : « أنه من الواضح أن المفاهيم الأخلاقية كلها مستقرة ومتأصلة قبلياً فى العقل كلية » (٣٩) . وقد استهدف كتابه الثانى الكبير « نقد العقل العملى » العثور على ذلك المستقر والأصل وإيضاحه . فسيحلل العناصر القبلية فى الأخلاقية كما حلل الكتاب الأسبق فى النقد العناصر القبلية فى المعرفة .

يزعم كانط أن لكل فرد ضميراً ، إحساساً بالواجب ، وعياً بقانون أخلاقى آمر . « شيئان يملآن العقل بالإعجاب والرهبة المتجددين المتعاظمين أبداً . . . السموات المرصعة بالنجوم من فوقنا ، والقانون الأخلاقى فى داخلنا »(٤٠) . وكثيراً ما يتعارض هذا الشعور الأخلاقى برغباتنا الحسية ، ولكننا ندرك أنه عنصر أسمى فينا من طلب اللذة . وهو ليس ثمرة التجربة ، إنما هو جزء من بنائنا النفسى الأصيل ، مثل المقولات ؛ وهو محكمة باطنية حاضرة فى كل شخص من كل جنس (٤١) . وهو مطلق الحكم ، يأمرنا أمراً غير مشروط ، وبغير استثناء أو عذر ، بأن نفعل الحق من أجل الحق ، كغاية فى ذاته ، لا كوسيلة للسعادة أو الثواب أو لخير غيره . فأمره مطلق .

وهذا الأمر المطلق يتخذ شكلين : « اعمل بحيث تستطيع قاعدة إرادتك أن تظل على الدوام صادقة كمبدأ للتشريع العام » ؛ أسلك بحيث إذا سلك الغير مثلك سار كل شىء على ما يرام ، وهذه (الصيغة المعدلة من القاعدة الذهبية — أى التى تأمر بمعاملة الناس كما تحب أن يعاملون) هى « القانون الأساسى للعقل العملى الخالص » (٤٢) ، وهى « الصيغة لإرادة خيرة خيرا مطلقاً (٤٣) . وفى صيغة ثانية ، « اعمل بحيث تعامل الإنسانية ، سواء ممثلة فى شخصك أو فى شخص أى إنسان آخر ، وفى كل حالة ، كغاية لا كمجرد واسطة اطلاقاً » (٤٤) ، — فى هذه الصيغة الثانية أعلن كانط مبدأ أشد ثورية من أى شىء احتواه الإعلان الأمريكى أو الفرنسى لحقوق الإنسان .

والأحسان بالالتزام الخلقى دليل إضافى على قدر من حرية الإرادة .

فأنى يكون لنا هذا الشعور بالواجب لو لم نكن أحراراً فى أن نعمل أو لا نعمل ، ولو كانت أفعالنا مجرد حلقات فى سلسلة لا تنفصم من العلة والمعلول الميكانيكيين؟ والشخصية بدون الإرادة الحرة عديمة المعنى ؛ وإذا كانت الشخصية عديمة المعنى كانت الحياة كذلك ، وإذا كانت الحياة عديمة المعنى كان الكون كذلك [٤٥] . ويدرك كانط بمنطق الحتمية الذى يبدو ولا مهرب منه ، فكيف يستطيع الاختيار الحر أن يتدخل فى عالم موضوعى يبدو محكوماً بقوانين ميكانيكية (كما يعترف كانط) ؟ [٤٦] وجوابه عن هذا السؤال بلغ الغاية فى الغموض والإبهام . فهو يذكرنا بأن القانون الميكانيكى مركب عقلى ، نظام يفرضه العقل « بواسطة مقولته العلية ، على عالم المكان والزمان ذريعة للتعامل معه باتساق . وما دمنا قد قصرنا المقولات على عالم الظواهر ، ومادمنا قد سلمنا بأننا لا نعرف كنه العالم النومينى — الشىء — فى — ذاته الكائن خلف الظواهر — فأننا لا نستطيع الزعم بأن القوانين التى نركبها للظواهر تصدق أيضاً على الحقيقة المطلقة . وبما أننا سلمنا أننا لا نعرف « فى ذواتنا ، إلا الذات الظاهرية — عالم المدركات الحسية والصور فقط — ولا نعرف كنه النفس الباطنة والنومينية » فإننا لا نستطيع الزعم بأن قوانين العلة والمعلول التى يبدو أنها تحكم أفعال أبداننا (بما فيها أمخاخنا) تنطبق أيضاً على إرادات الحقيقة الروحية المطلقة الكائنة وراء عملياتنا العقلية . فوراء ميكانيكيات العالم الظاهرى للمكان وللأفكار فى الزمان قد تكون هناك حرية فى العالم النومينى الذى بلا مكان ولا زمان « عالم الحقيقة المطلقة — الظاهرة أو الباطنة . وأفعالنا وأفكارنا تتحدد بمجرد دخولها عالم الأحداث المادية أو العقلية المدركة حسياً ؛ وقد تظل حرة فى أصلها فى النفس غير المدركة حسياً ؛ « وهكذا يمكن للحرية والطبيعة أن توجدا معاً »[٤٧] ، وليس فى إمكاننا إثبات هذا ، ولكن يجوز لنا شرعاً أن نفترضه متضمناً بحكم طبيعة حسنا الأخلاقى الآمرة ؛ وبدونه تموت حياتنا الأخلاقية .

على أى حال (فى رأى كانط) « لم لا ينبغى أن نقدم العقل العملى على النظرى؟ أن العلم ، الذى يبدو أنه يجعلنا آلات ذاتية الحركة ، هو فى النهاية مضاربة — مقامرة على الصحة الدائمة لنتائج ومناهج لا تفتأ تتغير . ونحن

على حق إذا شعرنا بأن الإرادة فى الإنسان أهم من الذهن » فالذهن أداة صاغتها الإرادة للتعامل مع العالم الخارجى والميكانيكى » وما ينبغى أن يكون السيد المتسلط على الشخصية التى تستخدمه [٤٨] .

ولكن إذا كان الحس الأخلاقى يبرر افتراضنا قدر من الإرادة الحرة ، فإنه يبرر أيضاً اعتقادنا بخلود النفس » ذلك أن حسنا الأخلاقى يستحثنا إلى كمال تحبطه المرة بعد المرة دوافعنا الحسية » ونحن لا نستطيع تحقيق هذا الكمال فى حياتنا على الأرض ؛ فإذا كان هناك عدل فى العالم فلا بد أن نفترض أننا سنمنح حياة متصلة بعد الموت لاكتمالنا الأخلاقى . وإذا كان هذا يفترض أيضاً وجود إله عادل » فإن هذا أيضاً يبرره العقل العملى . فالسعادة الأرضية لا تتفق دائماً والفضيلة، ونحن نشعر أن التوازن بين الفضيلة والسعادة سيصحح فى مكان ما ، وهذا لا سبيل إليه إلا إذا افترضنا وجود إله يحقق هذه المصالحة ، وعليه فإن وجود سبب للطبيعة كلها » متمايز عن الطبيعة ذاتها » محتوياً لمبدأ . . . الإنسجام الدقيق بين السعادة والفضيلة ، هذا أيضاً من مسلمات « العقل العملى [٤٩] .

وقد عكس كانط النهج التقليدى المألوف . فبدلا من أن يستنبط الحس الأخلاقى والناموس الأخلاقى من الله (كما فعل اللاهوتيون من قبل) ، استنبط الله من الحس الأخلاقى . ويجب أن نتصور واجباتنا لا على أنها « أوامر تعسفية لإرادة غريبة عنا » بل قوانين أساسية لكل إرادة حرة فى ذاتها » . على أنه مادامت تلك الإرادة والله كلاهما ينتميان إلى العالم النومينى ، فينبغى أن نتقبل هذه الواجبات على أنها أوامر إلهية ولن ننظر إلى الأفعال (الأخلاقية) على أنها إلزامية لأنها أوامر الله، ولكنا سنعدها أوامر الهية لأن فينا إلتزاماً باطنياً نحوها » [٥٠] .

وإذا كان هذا التفكير « الإرادى» (العنيد) يشوبه بعض الغموض ، فقد يكون السبب أن كانط لم يكن شديد التحمس لمحاولته التوفيق بين فولتير وروسو . فقد مضى « نقد العقل الخالص » شوطاً أبعد حتى من فولتير فى الاعتراف بأن العقل الخالص لايستطيع إثبات حرية الإرادة ،

أو الخلود » أو الله . ولكن كانط كان قد وجد فى تعاليم روسو — عن تهافت العقل ، وأولية الوجدان » وانبثاق الدين من الحس الأخلاق للإنسان — مهزباً مستطاعاً من اللاإرادية » والتحلل الخلق ، وبوليس فولتر . ورأى أن روسو أيقظه من « السبات العقائدى» فى الأخلاق كما أيقظه هيوم فى الميتافيزيقا [٥١] . فكان كتابه الأول فى النقد ينتمى إلى حركة التنوير ، والثانى إلى الحركة الرومانتيكية ، ومحاولة الجمع بين الإثنين كانت من أبرع الإنجازات فى تاريخ الفلسفة . وقد عزا هاينى المحاولة إلى الحرص على حاجات عامة الشعب : لقد رأى الأستاذ خادمه الأمين لامبه يبكى على موت الله » « فرق له قلب إمانويل كانط ، وأثبت أنه ليس فيلسوفاً عظيماً فحسب » بل إنساناً طيباً أيضاً » وقال بمزيج من العطف والتهكم : « يجب أن يكون للامبه العجوز إله ، وإلا فلن يستطيع أن يكون سعيداً . . . أما من جهتى أنا فإن العقل العملى يستطيع أن يضمن وجود الله »[٥٢] .

٤ — نقد الحكم ، (١٧٩٠)

ولابد أن كانط نفسه كان غير راض عن براهينه ، لأنه فى كتابه « نقد الحكم » عاد إلى مشكلة الآلية مقابل الإرادة الحرة ، وتقدم إلى مشكلة الصراع بين الآلية والقصد » وأضاف إليها مقالات معقدة فى الجمال ، والجلال ، والعبقرية » والفن . وهو مزيج لا يثير الشهية .

أما ملكة الحكم هذه » » فهى عموماً ملكة التفكير فى الجزء على أنه محتوى فى الكل » ، وهى إدراج شىء أو فكرة أو حدث تحت صنف أو مبدأ أو قانون . لقد حاول كتاب « النقد » الأول أن يدرج جميع الأفكار تحت المقولات الكلية القبلية » وحاول الثانى إدراج جميع المفاهيم الأخلاقية تحت حس أخلاق قبلى كلى ، أما الثالث فاضطلع بالعثور على مبادىء قبلية لأحكامنا الجمالية (الإستطيقية) -- فى النظام أو الجمال أو الجلال فى الطبيعة أو الفن» [٥٣] «إنى أجرؤ على الأقل فى أن تنهض صعوبة حل معضلة » فى طبيعتها مثل هذا التعقيد ، علراً يبرر بعض الغموض الذى لا يمكن تجنبه فى حلها »[٥٤] .

ان الفلسفة « الدجماطيقية » قد حاولت من قبل أن تجد عنصراً موضوعياً فى الجمال ؛ أما كانط فيشعر أن هنا « على الأخص ، يكون العنصر الذاتى هو الغالب . فليس هناك شىء جميل أو جليل إلا أن يجعله الوجدان كذلك . ونحن نصف بالجمال أى شىء يعطينا تأمله لذة منزهة — أى لذة مجردة من رغبة شخصية ؛ فنحن نستمد إشباعاً جمالياً ، وجمالياً فقط ، من غروب الشمس ، أو من لوحة لرفائيل ، أو كتدرائية ، أو زهرة ، أو حفلة موسيقية ، أو أغنية . ولكن لم تعطينا أشياء أو تجارب بعينها هذه اللذة المنزهة ؟ لعل السبب أننا نرى فيها اتحاداً فى الأجزاء يؤدى وظيفته بنجاح فى كل متناسق. وفى حالة الجليل تلذنا العظمة أو القوة التى لا تهددنا بخطر ؛ وهكذا نشعر بالجلال فى السماء أو البحر ، إلا إذا هددنا اضطرابهما بالخطر .

ويزداد تقديرنا للجمال أو الجلال بقبولنا الغائية — أى بتبيننا فى الكائنات الحية موائمة أصيلة بين الأجزاء وحاجات الكل ، وبشعورنا بحكمة إلهية فى الطبيعة وراء التناسق والانسجام ، والعظمة والقوة . ولكن العلم يهدف إلى عكس هذا تماماً — وهو أن يثبت أن الطبيعة الموضوعية كلها تعمل بقوانين ميكانيكية ، دون خضوع لأى قصد خارج عنها ، فكيف السبيل إلى التوفيق بين هذين المدخلين إلى الطبيعة؟ بقبولنا الآلية والغائية جميعاً بقدر ما تساعداننا كمبدئين موجهين ، كفرضين ييسران الفهم أو البحث . فالمبدأ الآلى يساعدنا على الأخص فى البحث فى المواد غير العضوية ، أما المبدأ الغائى فهو خير عون لنا فى دراسة الكائنات الحية . ففى هذه الكائنات قوى للنمو والتوالد تعيى التفسير الميكانيكى ؛ فهناك توفيق واضح بين الأجزاء وأغراض العضو أو الكائن ، كاستخدام المخالب للقبض والعيون للإبصار . ومن الحكمة الإقرار بأنه لا الآلية ولا الغائية يمكن إثبات صدقهما صدقاً كلياً . والعلم نفسه ، بمعنى من المعانى ، هو غائى ، لأنه يفرض فى الطبيعة ترتيباً ، وانتظاماً ، ووحدة معقولة ، « كأن » عقلا إلهياً نظمها ويبقى عليها [55] .

وقد اعترف كانط بالصعوبات الكثيرة التى تعترض النظر إلى الإنسان

والعالم على أنهما حصيلة تدبير إلهي : « إن أول شيء كان يقتضى تدبيره بجلاء فى نظام يوضع بحيث يحقق كلا غائياً للكائنات الطبيعية على الأرض هو موطنها — التربة أو العنصر الذى يراد لها أن تزكو عليه أو فيه . ولكن التعمق فى طبيعة هذا الشرط الأساسى للإنتاج العضوى كله يظهر أثراً لأى علل إلا تلك التى تعمل دون غاية إطلاقاً ، بل تنزع فى الواقع إلى التدمير دون أن يكون القصد منها تشجيع تكوين الأنواع والنظام والغايات . والبر والبحر لا يحويان فقط آثار كوارث قديمة العهد هائلة حلت بهما وبكل ما زخرا به من كائنات حية ، ولكن تكوينهما بجملته — طبقات اليابس وخطوط سواحل البحر — يحمل كل المظاهر الدالة على أنه نتيجة قوى عنيفة قهارة لطبيعة تعمل فى فوضى» (٥٦) .

ومع ذلك أيضاً ، فإننا لو تخلينا عن كل فكرة فى وجود هدف فى الطبيعة لسلبنا الحياة كل معناها الأخلاقى ، فتصبح سلسلة حمقاء من ولادات مؤلمة وميتات معذبة ، ليس فيها للفرد ولا للأمة ولا للنوع شيء مؤكد إلا الهزيمة. فلابد لنا من أن نؤمن بغاية إلهية ولو للاحتفاظ بسلامة عقولنا — وما دامت الغائية لا تثبت غير صانع مكافح بدلا من خيرية إلهية كلية القدرة ، فلا بد إذن من أن نرسى إيماننا فى الحياة على حس أخلاق لا يبرره غير الاعتقاد باله عادل . بهذه العقيدة نستطيع أن نعتقد — وأن كنا لا نستطيع أن نثبت بالبرهان — ان البار هو الغاية النهائية للخليقة ، وأنه أنبل ثمرة للتدبير العظيم الملغز (٥٧) .

٥ — الدين والعقل ١٧٩٣

لم يكن كانط قانعاً قط بلاهوته الـ « كأنى » المتردد . ففى ١٧٩١ ، فى كتيب عنوانه « عن تهافت جميع المحاولات الفلسفة فى الإلهيات» أعاد القول إن « عقلنا عاجز كل العجز عن تبصرنا بالعلاقة بين العالم . . . والحكمة السامية » . وأضاف إلى هذا تحفظاً « ربما لنفسه » فقال : « على الفيلسوف ألا يلعب دور المحامى الخاص فى هذا الأمر ؛ وعليه ألا يدفع عن أى قضية

يعجز عن فهم عدالتها، ولا يستطيع إثباتها بطرق التفكير الخاصة بالفلسفة»(٥٨)

ثم عاد الى المشكلة فى سلسلة من المقالات أفضت به إلى تحدى الحكومة البروسية تحدياً سافراً. وطبعت أولى هذه المقالات وعنوانها «فى الشر المتأصل» فى «مجلة برلين الشهرية» عدد أبريل ١٧٩٢ . وأذن الرقيب بنشرها على أساس «أن العلماء المتعمقين فى التفكير هم وحدهم الذين يقرءون كتابات كانط» (٥٩) . ولكنه رفض نشر المقال الثانى «فى الصراع بين مبادىء الخير والشر للسيطرة على الإنسان» . ولجأ كانط إلى حيلة . ذلك أن الجامعات الألمانية كان لها امتياز اعتماد الكتب والمقالات للنشر ، فقدم كانط المقال الثانى والثالث والرابع إلى كلية الفلسفة بجامعة يينا (وكان يشرف عليها آنئذ جوته وكارل أوجست دوق فايمار ، «وكان شيلر أحد أساتذتها») ، وأذنت الكلية بالنشر ، وبهذا طبعت المقالات الأربع كلها فى كونجزبرج عام ١٧٩٣ بعنوان «الدين فى حدود العقل وحده» .

والسطور الأولى تعلن الفكرة الرئيسية السائدة فيها : «بقدر ما تبنى الأخلاق على مفهوم الإنسان كفاعل حر ، هذا الإنسان الذى — بسبب حريته هذه — يتسامى بعقله عن رؤية القوانين غير المشروطة ، فإن هذه الأخلاق فى غير حاجة إلى فكرة كائن آخر من فوقه ليجعله يدرك واجبه ، ولا إلى حافز غير القانون ذاته يجعله يؤديه . . . ومن هنا فإن الأخلاق من أجل ذاتها هى لاتحتاج إلى دين على الإطلاق» (٦٠) . ويعد كانط بطاعة السلطات ، ويسلم بالحاجة إلى الرقابة ، ولكنه يشدد على «ألا تسبب الرقابة أى اضطراب فى مجال العلوم» (٦١) فغزو اللاهوت للعلم «كما حدث فى حالة جاليليو ، «قد يعطل جميع جهود العقل البشرى . . . ويجب أن يتمتع اللاهوت الفلسفى بكامل الحرية على قدر ما يمتد إليه علمه» (٦٢) .

ويستنبط كانط مشكلات الأخلاق من وراثة الإنسان لنوازع الخير والشر . «لا حاجة لإقامة الدليل صورياً على أن نزعة الفساد لا بد متأصلة فى الإنسان وذلك لكثرة الأمثلة الصارخة التى تضعها الخبرة أمام

أعيننا »[٦٣]. وهو لا يوافق روسو على أن الإنسان يولد خيراً أو كان خيراً فى « حالة الطبيعة » ، ولكنه يتفق معه فى إدانة « رذائل الحضارة والمدنية» لأنها « أشد عيوب أذى» [٦٤] ، « والواقع أن هذا السؤال مازال بغير جواب ، وهو ، ألا تكون أسعد فى حالة غير متحضرة . . . مما نحن فى حالة المجتمع الراهنة » [٦٥] ما فيه من استغلال ونفاق وخلل أخلاقى وتقتيل بالجملة فى الحرب. وإذا شئنا أن نعرف طبيعة البشر الحقيقية فيكفى أن نلاحظ سلوك الدول.

ولكن كيف بدأ « الشر المتأصل فى طبيعة البشر» ؟ . . انه لم يبدأ بسبب « الخطيئة الأصلية » ، « فلا ريب فى أن أشد التفسيرات كلها سخفاً لذيوع هذا الشر وانتشاره فى جميع أفراد وأجيال نوعنا هو التفسير الذى يصفه ميراثاً منحدراً إلينا من أبوينا الأولين»[٦٦] . وربما كانت النوازع « الشريرة » قد تأصلت فى الإنسان تأصلا قوياً لأنها كانت ضرورية للبقاء فى الأحوال البدائية . وهى لاتصبح رذائل إلا فى المدنية — فى المجتمع المنظم ، وفيه لا تحتاج إلى القمع بل إلى الضبط[٦٧] . « فالميول الطبيعية ، إذا نظرنا إليها فى ذاتها » خيرة ، أى أنها لا تلام » ومحاولة القضاء عليها ليست عديمة الجدوى فحسب ، بل ضارة ومستحقة للوم . والأولى أن نروضها ، وبدلا من أن يصطدم بعضها ببعض يمكن أن ينسق بينها لتنسجم فى كل يسمى السعادة [٦٨] . والخير الأخلاقى هو أيضاً غريزى ، كما يدل على ذلك الحس الأخلاقى فى جميع الناس ، ولكنه فى أول الأمر ليس إلا حاجة ، لابد من تنميتها بالتعليم الأخلاقى والتهذيب الشاق . وأفضل الأديان ليس الذى يفوق غيره فى التمسك الدقيق بالعبادة الطقسية ، بل أعظمها تأثيراً فى الناس ليحيوا حياة أخلاقية [٦٩] . والدين القائم على العقل لا يبنى نفسه على وحى إلهى ، بل على إحساس بالواجب يفسر على أنه أقدس عنصر فى الإنسان [٧٠] . ومن حق الدين أن ينظم نفسه على هيئة كنيسة [٧١] . وله أن يحاول تحديد عقيدته بالأسفار المقدسة ، وأن يعبد ، بحق ، المسيح بوصفه أعظم البشر شبهاً بالله ، وأن يعد بالجنة وينذر بالنار [٧٢] ، و « لايمكن تصور دين لا يحتوى على اعتقاد بحياة آخرة » [٧٣] . ولكن لا ينبغى أن يكون ضرورياً للمسيحى أن يؤكد إيمانه بالمعجزات ، أو بلاهوت المسيح ، أو بالتكفير عن خطايا البشر بصلب المسيح ، أو بالحكم المقدر على الأرواح بالجنة

أو النار بالنعمة الإلهية تمنح دون نظر إلى الأعمال الصالحة أو الشريرة[٧٤]. و «من الضرورى أن نغرس بعناية بعض أشكال الصلاة فى أذهان الأطفال (الذين لا يزالون فى حاجة إلى حرفية الدين» [٧٥] . «ولكن صلاة الضراعة «التى يتوسل بها لكسب النعمة الإلهية وهم خرافى» [٧٦] .

أما حين تنقلب كنيسة ما مؤسسة لإكراه الناس على الإيمان أو العبادة ؛ وحين تزعم لنفسها الحق الأوحد فى تفسير الكتاب المقدس وتعريف الأخلاقية ، وحين تكون كهنوتها يدعى لنفسه سبل الاتصال وحده بالله والنعمة الإلهية ؛ وحين تجعل من عبادتها مجموعة طقوس سحرية لها قوى معجزية ؛ وحين تصبح ذراعاً للحكومة وأداة للطغيان الفكرى ؛ وحين تحاول أن تتسلط على الدولة وتستخدم الحكام العلمانيين مطايا للطمع الكهنوتى — عندها يثور العقل الحر على كنيسة كهذه ، ويبحث خارجها عن ذلك الدين العقلى الخالص ، الذى هو السعى لبلوغ الحياة الأخلاقية [٧٧] .

وقد تميز هذا الأثر الكبير الأخير من آثار كانط بالتذبذب والغموض الطبيعيين فى رجل لا ولع له بحياة السجون . ففيه الكثير من الحشو «السكولاستى» ، ويشوبه العجيب من تشقيقات المنطق ومن اللاهوت المفرق فى الخيال . ومع ذلك فالعجب العجاب فى رجل بلغ التاسعة والستين « أن يظل مبدياً مثل هذه القوة فى الفكر والقول ، ومثل هذه الشجاعة فى صراعه مع قوى الكنيسة والدولة مجتمعة . وقد بلغ الصراع بين الفيلسوف والملك ذروته حين (أول أكتوبر ١٧٩٤) أرسل إليه فردريك وليم الثانى الأمر التالى الصادر من المجلس الملكى :

«إن شخصنا البالغ السمو قد لاحظنا طويلا باستياء شديد كيف تسىء استخدام فلسفتك لتقوض وتحط من قدر الكثير من أهم وألزم تعاليم الأسفار المقدسة والمسيحية ، وكيف أنك على التحديد ، فعلت هذا فى كتابك «الدين فى حدود العقل وحده» . . . ونحن نطالبك فوراً بجواب غاية فى النزاهة ، ونتوقع أنك فى المستقبل ، تجنباً لسخطنا الشديد ، لن يبدر منك ما يسىء كهذا الذى بدر . بل على العكس فإنك طبقاً لمقتضيات

واجبك ستستخدم مواهبك وسلطتك لكي يتحقق هدفنا الأبوى أكثر فأكثر . أما إذا تماديت فى المقاومة فلك أن تتوقع بالتأكيد أن تجر عليك المقاومة عواقب وخيمة »[٧٨] .

ورد كانط رداً ملؤه الاسترضاء . فذكر أن كتاباته لم يوجهها إلا للدارسين واللاهوتيين ، الذين ينبغى صيانة حرية تفكيرهم لصالح الحكومة ذاتها . وقال إن كتابه قد سلم بقصور العقل فى الحكم على الأسرار النهائية للإيمان الدينى . ثم اختتم بتعهد بالطاعة : « إننى بوصفى خادم جلالتكم المخلص كل الإخلاص أعلن هنا إعلاناً قاطعاً اننى منذ الآن سأمتنع كلية عن جميع التصريحات العلنية عن الدين ، الطبيعى منه والموحى ، سواء فى المحاضرات أو المؤلفات . » فلما مات الملك (١٧٩٧) أحس كانط أنه فى حل من وعده ؛ ثم ان فردريك وليم الثالث عزل فولنر (١٧٩٧) وألغى الرقابة ، وأبطل المرسوم الدينى الصادر فى ١٧٨٨ . وبعد هذه المعركة أجمل كانط نتائجها فى كتيب سماه « صراع الملكات » (١٧٩٨) ، كرر فيه دعواه بأن الحرية الأكاديمية لا غنى عنها للنمو الفكرى للمجتمع . ونحن إذا نظرنا إلى الأمر فى جوهره ، تبين لنا أن الأستاذ القصير القامة ، القابع فى ركن قصى من أركان المعمورة ، قد انتصر فى معركته ضد دولة تملك أقوى جيش فى أوربا . وستنهار الدولة عما قريب ، ولكن ما وافى عام ١٨٠٠ حتى كانت كتب كانط أبلغ الكتب تأثيراً فى حياة ألمانيا الفكرية .

٦ — المصلح

واعتزل إلقاء المحاضرات فى ١٧٩٧ (بعد أن بلغ الثالثة والسبعين) ، ولكنه واصل نشر المقالات فى الموضوعات الحيوية حتى ١٧٩٨ . وظل على صلة بالشئون العالمية رغم عزلته . فلما اجتمع مؤتمر بازل عام ١٧٩٥ ليرتب صلحاً بين ألمانيا وأسبانيا وفرنسا ، اغتنم كانط الفرصة (كما فعل من قبل الأبيه سان — بيير مع مؤتمر أوترخت فى ١٧١٣) لينشر كراسة عنوانها « فى السلام الدائم » .

وقد استهلها استهلالا متواضعاً بوصفه « السلام الأبدى» شعاراً يليق بجبانة الموتى ، وأكد للساسة أنه لايتوقع منهم أن يروا فيه أكثر من مجرد « معلم نظرى متحذلق عاجز عن إلحاق أى خطر بالدولة» .(٧٩) وبعد أن نحى مواد الصلح المبرم فى بازل جانباً باعتبارها مواد تافهة قصد بها مسايرة الظروف ، وضع بوصفه لجنة مؤلفة من رجل واحد — « ست مواد أولية » تجمل الشروط الأساسية للسلام الدائم : فحرمت المادة الأولى جميع التحفظات والملاحق السرية لأى معاهدة . وحظرت المادة الثانية على أى دولة أن تستولى على أخرى أو تسيطر عليها . وطالبت المادة الثالثة بالتخلص تدريجياً من الجيوش الدائمة . وذهبت المادة الرابعة إلى أنه لا يجوز لأى دولة « أن تتدخل بالقوة فى دستور دولة أخرى» . وطالبت المادة السادسة كل دولة تخوض حرباً مع أخرى بألا « تسمح بأعمال عدائية من شأنها أن تجعل الثقة المتبادلة مستحيلة ، فى حالة إبرام سلام فى المستقبل ، كالاستعانة بالقتلة يغتالون أو يدسون السم . . . والتحريض على الفتنة فى دولة العدو» .

وإذ كان من غير المستطاع ابرام صلح طويل الأمد بين دول لاتعترف بحدود لسيادتها ، فإنه لا بد من بذل الجهود الحثيثة لتطوير نظام دولى، وإيجاد بديل للحرب بهذه الطريقة . ومن ثم وضع كانط بعض « المواد المحددة » للسلام الدائم . أولا ، « يجب أن يكون دستور كل دولة جمهورياً . ذلك أن الملكيات والارستقراطيات تنزع إلى الحروب المتكررة ، إذ أن الحاكم والنبلاء هم عادة فى مأمن من فقد أرواحهم وثرواتهم فى الحرب » لذلك يبادرون إلى خوضها بوصفها « تسلية الملوك» ؛ أما فى الجمهوريات « المواطنون هم المسئولون عن قرار إعلان الحرب أو عدم إعلانها ، « وهم الذين سيتحملون العواقب» ، ومن ثم « فليس من المحتمل أن يغامر مواطنو دولة (جمهورية) فى أى وقت بلعبة غالية التكلفة إلى هذا الحد » (٨٠) . ثانيا « يجب أن يبنى كل حق دولى على أساس اتحاد فدرالى بين الدول الحرة »،(٨١) وألا يكون هذا الاتحاد دولة عظمى ، « فالواقع أن الحرب ليست سيئة سوءاً لا برء منه كسوء الملكية العالمية » (٨٢) . فينبغى أن يقرر كل شعب حكومته الخاصة

به ، ولكن على كل دولة بمفردها (على الأقل .. دول أوربا) أن تتجمع فى اتحاد كنفدرالى تخول له سلطة التحكم فى علاقاتها الخارجية . والمثل الأعلى الذى لابد من التمسك به هو أن تمارس الدول القانون الأخلاقى الذى تطالب به مواطنيها . فهل يمكن أن تسفر مغامرة كهذه عن شر أعظم مما ينجم عن الممارسة الدائمة للخداع والعنف الدوليين؟ لقد راود كانط الأمل بأن مكيافللى سيثبت فى نهاية المطاف أنه مخطىء ، وليس هناك من داع للتضارب بين الأخلاقية والسياسة ، ذلك أن « الأخلاق وحدها هى القادرة على قطع العقدة التى لاتقوى السياسة على فكها » [٨٣] .

وواضح أن كانط كان مخدوعاً فى أمر الجمهوريات (التى شاركت بعد ذلك فى أبشع الحروب قاطبة) ؛ ولكن ينبغى أن نقرر أنه كان يعنى بـ « الجمهورية » الحكومة الدستورية لا الديمقراطية الكاملة . فلقد كان عديم الثقة بالدوافع المتهورة التى تحفز رجالا لا تكبحهم قيود [٨٤] ، وكان يخشى إطلاق حق التصويت للجميع باعتباره تسليطاً للأغلبيات الجاهلة على الأقليات التقدمية والأفراد الخارجين على الإجماع [٨٥] . ولكن كانت تغيظه الامتيازات الموروثة ، وخيلاء الطبقة ، والقنية التى تطوق كونجزبرج ، ورحب بالثورة الأمريكية التى أخذت ، فى رأيه ، تكون اتحاداً فدرالياً من دويلات مستقلة ، على غرار النظام الذى اقترحه لأوربا . وناصر الثورة الفرنسية بحماسة تقرب من حماسة الشباب ، حتى بعد مذابح سبتمبر وحكم الإرهاب .

ولكنه ، شأن أتباع التنوير جميعاً تقريباً ، آمن بالتعليم أكثر مما آمن بالثورة . فى هذا المجال ، كما فى مجالات كثيرة ، أحس بتأثير روسو والحركة الرومانتيكية . « يجب أن نسمح للطفل منذ نعومة أظفاره بكامل الحرية من جميع النواحى . . . شريطة ألا يتدخل فى حرية غيره» [٨٦] . على أنه تحفظ بعد قليل فى هذه الحرية الكاملة ، وسلم بأن قدراً من الضبط ضرورى فى تكوين الخلق ؛ « فإهمال الضبط شر أعظم من إهمال الثقافة ، لأن إهمال الثقافة يمكن علاجه فى الحياة فيما بعد » [٨٧] . أما أفضل ضبط فهو العمل ، وينبغى مطالبة الطفل به فى جميع مراحل تعليمه . والتربية

الأخلاقية لا غنى عنها » وينبغي أن تبدأ فى مرحلة مبكرة . وإذ كانت الطبيعة البشرية تحتوى بذرة الخير والشر كليهما ، فإن كل تقدم أخلاق رهن باقتلاع الشر وغرس الخير ، ولا يكون هذا بالثواب والعقاب ، بل بالتشديد على مفهوم الواجب » .

والتعليم الذى تقوم به الدولة ليس أفضل من التعليم الذى تقوم به الكنيسة ، فالدولة ستسعى إلى تكوين المواطنين المطيعين اللينين المتعصبين لوطنهم . والأفضل ترك التعليم للمدارس الخاصة التى يرأسها معلمون مستنيرون ومواطنون مشربون بروح الخدمة العامة [٨٨] . لذلك أشاد كانط بمبادىء ومدارس يوهان بازروف . وأسف على ما تتسم به مدارس الدولة وكتبها المدرسية من تحيز للقومية ، وتطلع إلى زمن تعالج فيه جميع الموضوعات بحيدة ونزاهة . وفى ١٧٨٤ نشر مقالا بعنوان « أفكار لتاريخ عام من وجهة نظر عالمية » ؛ وقد أجمل المقال تقدم البشرية من الخرافة إلى التنوير » ولم يفسح للدين إلا دوراً صغيراً ، وطالب بمؤرخين يرتفعون فوق التعصب القومى .

وقد أدفأ فؤاده بالإيمان بالتقدم » الأخلاقى منه والفكرى ، كما أدفأ جماعة الفلاسفة أفئدتهم . ففى ١٧٩٣ وبخ موسى مندلسون على قوله أن كل تقدم يلغيه تقهقر . « فى الإمكان الاستشهاد بأدلة كثيرة على أن النوع الإنسانى بوجه عام » لاسيا فى زماننا بالقياس إلى الأزمنة السابقة كلها ، قد سار خطوات لايستهان بها نحو حياة أفضل من الناحية الأخلاقية . ولا ينقض هذا القول حالات التوقف المؤقتة . وصراخ القائلين بأن النوع الإنسانى ينحط باستمرار منشؤه بالضبط أن المرء حين يقف على درجة أعلى من الأخلاقية تمتد بصره إلى مدى أبعد أمامه فيكون حكمه على حالة الناس كما هم ، بالقياس إلى ما ينبغى أن يكونوا » حكماً أشد صرامة »[٨٩] .

فلما بدأ كانط آخر عقد فى عمره (١٧٩٤) أصاب تفاؤله المبكر شيء من الإظلام ، ربما بسبب الرجعية فى بروسيا وتحالف الدول على فرنسا الثائرة . فانطوى على نفسه ، وكتب سراً ذلك الأثر الذى نشر بعد وفاته ، والذى قدر له أن يكون وصيته الأخيرة للنوع الإنسانى .

٧ — بعد الموت

كان فى بدنه من أضأل الرجال فى جيله حجماً — لا يجاوز طوله خمسة أقدام إلا قليلا ، يزيده قصراً تقوس إلى الأمام فى عموده الفقرى . وكان يشكو ضعفاً فى رئتيه ، ووجعاً فى معدته ، ولم يطل عمره إلا بفضل تغذية منتظمة معتدلة . ومما يتفق وطبيعته أنه وهو فى السبعين كتب مقالا عنوانه « فى قدرة العقل على التحكم فى الشعور بالمرض بقوة العزيمة » . وكان يؤكد على حكمة التنفس من الأنف ؛ فالمرء يستطيع التغلب على الكثير من نزلات البرد ، وغيرها من العثرات بإقفال فمه [٩٠] . ومن ثم كان فى مسيراته اليومية يمشى وحيداً تجنباً للحديث . ثم يمضى إلى فراشه بانتظام فى العاشرة ، ويستيقظ فى الخامسة ، ولم يستغرق فى النوم إلى ما بعدها مرة على مدى ثلاثين عاماً (كما يؤكد لنا) [٩١] . وقد فكر فى الزواج مرتين ، ثم أحجم مرتين . ولكنه لم يكن عزوفاً عن عشرة الناس ؛ فقد اعتاد أن يدعو ضيفاً أو ضيفين ، غالباً من تلاميذه ، دون أى امرأة قط — لمشاركته غداءه فى الواحدة بعد الظهر . وكان أستاذاً للجغرافيا ، ولكن ندر أن تحرك خارج كونجزبرج ، ولم يرقط جبلا ، ولعله لم ير البحر قط على قربه منه [٩٢] . وقد شد من أزره طوال محنة الفقر والرقابة عزة نفس لم تلن إلا ظاهرياً لأى سلطان غير سلطان عقله . وكان كريم النفس سمحاً ، ولكنه صارم فى أحكامه ، يفتقد روح الفكاهة الخليق بأن ينقذ الفلسفة من الغلو فى الجد . وكان حسه الأخلاقى أحياناً يبلغ من الرهافة حد التزمت الذى يسىء الظن بكل اللذات حتى تثبت أنها فاضلة .

ولقد بلغ من قلة اكتراثه بالدين المنظم أنه لم يختلف إلى الكنيسة إلا إذا اقتضته ذلك واجباته الجامعية [٩٣] . ويبدو أنه لم يصل قط فى حياته بعد الرشد [٩٤] . روى هردر أن تلاميذ كانط بنوا شكوكيتهم الدينية على تعاليم كانط [٩٥] . وقد كتب كانط إلى مندلسون يقول « صحيح حقاً أنى أفكر بأوضح اقتناع ، وبغاية الرضى ، فى أشياء كثيرة ليس لدى الشجاعة أبدا على قولها ، ولكنى لا أقول أبدا أى شىء لا أعتقده »[٩٦] .

وكان حتى آخر سني حياته يجاهد لتحسين عمله ، وفى ١٧٩٨ أخبر صديقاً : « إن العمل الذى أشغل به نفسى الآن يجب أن يتناول الانتقال من الأساس الميتافيزيقى للعلوم الطبيعية إلى الفيزياء . فلا بد من حل هذه المشكلة ، وإلا كان هنا فجوة فى نسق الفلسفة النقدية» . [٩٧] ولكنه فى ذلك الخطاب وصف نفسه بأنه « قد عجز عن العمل الذهنى» . ودخل حقبة طويلة من اضمحلال البدن ، والأوجاع المتراكمة ، وشعور الوحشة الذى يصاحب شيخوخة العزب . ووافته المنية فى ١٢ فبراير ١٨٠٤ . ودفن فى كتدرائية كونجزبرج ، فيما يعرف الآن بـ « ستواكانطيانا » ، (مثوى كانط) ونقشت على قبره كلماته « السماء المرصعة بالنجوم من فوقى ، والقاموس الأخلاقى فى باطنى» .

وقد خلف عند موته خليطاً كبيراً من الكتابات نشرت على أنها « أثر منشور بعد وفاة مؤلفه » فى ١٨٨٢ — ٨٤ . وفى إحداها وصف « الشيء — فى — ذاته » — الطبقة السفلية المجهولة من وراء الظواهر والأفكار — بأنه « ليس شيئاً حقيقياً ، . . . ولا حقيقة موجودة ، بل مجرد مبدأ . . . للمعرفة القبلية التركيبية للعيان — الحسى المتعدد [٩٨]» . وقد سماه ... « أى شيئاً لا وجود له إلا فى فكرنا » . وقد طبق هذه الارتيابية ذاتها على فكرة الله :

«ليس الله جوهراً موجوداً خارجى ، بل مجرد علاقة أخلاقية فى باطنى . . . والأمر المطلق لا يفترض جوهراً يصدر أوامره من عل » ويتصور إذن على أنه خارجى ، بل هو أمر أو نهى من عقلى أنا . . . والأمر المطلق يمثل الواجبات الإنسانية كأوامر إلهية لا بالمعنى التاريخى ، كأن (كائناً إلهياً) قد أصدر أوامر للناس ، بل بمعنى أن العقل . . . له القدرة على الأمر بسلطة شخص إلهى وعلى هيئته . . . « وصورة كائن كهذا » يجثو أمامه الجميع . . . الخ . تنبعث من الأمر المطلق ، وليس العكس . . . ان الكائن الأعلى ... هو من خلق العقل ... لا جوهر خارج عنى » [٩٩] .

وهكذا انتهت الفلسفة الكانطية التي تشبثت بها المسيحية طويلا ، في ألمانيا ثم بعدها في انجلترة ، باعتبارها آخر وأفضل أمل للألوهية » بتصور كئيب لله يراه خيالا نافعاً نماه العقل البشرى ليفسر المطلقية الواضحة للأوامر الأخلاقية .

أما خلفاء كانط الذين كانوا يجهلون هذا الأثر الذى خلفه بعد موته » فقد أشادوا به منقذ المسيحية ، والبطل الألمانى الذى قتل فولتير ؛ وغلوا فى تمجيد إنجازه غلوا غلب تأثيره على تأثير أى فليسوف من المحدثين . وتنبأ أحد تلاميذه وهو كارل راينهولت بأنه لن يمضى قرن حتى تنافس شهرة كانط شهرة المسيح [١٠٠] . وقبل الألمان البروتستنت كلهم (باستثناء جوته) زعم كانط بأنه أحدث « ثورة كوبرنيقية » فى علم النفس : فبدلا من أن يكون الفكر (الشمس) هو الذى يدور حول الشيء (الأرض) ، جعل الأشياء تدور حول الفكر ، ويعتمد عليه . وقد أرضى غرور الذات الإنسانية أن يقال لها إن أساليبها الفطرية فى الإدراك الحسى هى المقومات المحدده لعالم الظواهر . وخلص فشته (حتى قبل وفاة كانط) إلى أن العالم الخارجى من خلق العقل ، واستهل شوبنهاور — الذى قبل تحليل كانط — بحثه الضخم « العالم كإرادة وفكرة » بهذا الإعلان « إن العالم فكرتى » — وهو إعلان أثار بعض الدهشة فى مدام دستال .

واغتبط المثاليون لأن كانط كان قد جعل المادية مستحيلة منطقياً ببيانه أن العقل هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا مباشرة . وسعد الصوفيون لأن كانط كان قد قصر العلم على الظواهر ، وأقصاه عن العالم النومينى والحقيقى حتماً » وترك هذه المملكة الغامضة (التى أنكر فى دخيلة نفسه وجودها) متنزهاً خاصاً للاهوتيين والفلاسفة . أما الميتافزيقا » التى كان جماعة « الفلاسفة » الفرنسيين قد أقصوها عن الفلسفة ، فقد رد لها اعتبارها حكماً للعلوم كلها ، وأقر جان بول لاشتير لألمانيا بسيادة الهواء » بعد أن أقر لبريطانيا بسيادة البحر » ولفرنسا بسيادة اليابس . وبنى فشته وشيلنج وهيجل القلاع الميتافيزيقية على مثالية كانط الترانسند نتالية » وحتى رائعة شوبنهاور اتخذت نقطة انطلاقها

من تشديد كانط على أولوية الإرادة . قال شيلر « انظر كيف هيأ غنى واحد أسباب الرزق لمجموعة من المتسولين» (١٠١) .

كذلك أحس الأدب الألمانى هو أيضاً تأثير كانط سريعاً ، لأن فلسفة عصر تكون على الأرجح أدب العصر الذى يليه . فغرق شيلر برهة فى مؤلفات كانط ، وكتب خطاباً ملؤه الإجلال للمؤلف ، وبلغ فى مقالاته النثرية غموضاً يقرب من الغموض الكانطى . وأصبح الإبهام واللبس موضة فاشية فى الكتابة الألمانية ، وشعار نبالة يشهد بعضوية حامله فى تلك الطائفة العتيقة ، طائفة نساجى خيوط العناكب . قال جوته « إن التأمل الفلسفى ، على العموم ، أذى للألمان ، لأن من شأنه أن يجعل أسلوبهم غامضاً عسيراً مبهماً . وكلما قوى تعلقهم بمدارس فلسفية بعينها ازدادت كتابتهم سوءاً » (١٠٢) .

ويتردد المرء فى اعتبار كانط كاتباً رومانتيكياً ، ولكن الفقرات الأدبية الغائمة التى كتبها فى الجمال والجلال غدت من الينابيع التى انبثقت منها الحركة الرومانتيكية . ولقد انبعثت محاضرات شيلر فى يينا « ورسائله فى تربية الإنسان الاستطيقية » (١٧٩٥) — وهى معالم على طريق تلك الحركة — من دراسته كتاب كانط « نقد الحكم » . وقد هيأ التفسير الذاتى النزعة لنظرية كانط فى المعرفة أساساً فلسفياً لمذهب الفردية الرومانتيكية الذى نشر لواءه مزهواً فى حركة « شتورم » (الزوبعية) . وعبر تأثير كانط الأدبى إلى انجلترة ، فتأثر به كولبردج وكارليل ، ثم عبر إلى انجلترة الجديدة ، وأعطى اسماً لحركة إمرسن وثورو — الترانسندنتالية (١٠٣) . لقد هز أستاذ الجغرافيا القصير القامة المحدودب الظهر العالم وهو يطأ أرض « متنزه الفيلسوف» فى كونجزبرج . وما من شك فى أنه قدم للفلسفة وعلم النفس أشق ما عرفه التاريخ إلى الآن من تحليل لعملية المعرفة .

* * *

الفصل الثاني والعشرون

الطرق إلى فايمار

١٧٣٣ – ٨٧

١ – أثينة ألمانيا

ترى لم أختار اسمى عصور الأدب الألمانى فايمار دون غيرها وطناً له ؟ ان ألمانيا لم يكن لها عاصمة واحدة تتركز فيها ثقافتها كما كانت الحال فى فرنسا وانجلترا ، ولم تكن تملك ثروة مركزة لتمويل هذه الثقافة . وكانت حرب السنين السبع قد أضعفت برلين وليبزج ، أما درسدن فكادت تدمرها تدميراً ، وأما همبورج فقد بذلت مالها أولا للأوبرا ، ثم للمسرح . وفى ١٧٧٤ كانت فايمار ، عاصمة دوقية ساكسى – فايمار – آيزيناخ ، بلدة هادئة يسكنها نحو ٦٬٢٠٠ نسمة ، وحتى بعد أن ذاع صيتها أشار إليها جوته بـ « هذه العاصمة الصغيرة التى تضم – كما يقول الناس على سبيل المزاح عشرة آلاف شاعر وبعض السكان » [1] فهل نجدها يا ترى بناه افراد عظام ؟ .

لقد حكمت فايمار من ١٧٥٨ إلى ١٧٧٥ ابنة أخت فردريك الأكبر ، وهى المرأة المرحة ، الدوقة الأرملة آنا أماليه ، التى ترملت وهى فى الثامنة عشرة بموت زوجها الدوق قسطنطين ، وأصبحت وصية على ولدهما كارل أوجست الذى لم يتجاوز العام الواحد . وإليها يرجع الفضل فى فتح باب بين الحكومة والأدب بدعوتها فيلاند للحضور والقيام على تهذيب أبنائها (١٧٧٢). وكانت واحدة من نساء عديدات مثقفات حفزن الشعراء والمسرحيين

والمؤرخين تحت قيادتها وحتى موتها فى ١٨٠٧ بإغراء الجنس والمديح ، وقد حولت بيتها بعد عام ١٧٧٦ صالوناً ، شجعت فيه استعمال الألمانية لغة للأدب — رغم أن الجميع كانوا يتكلمون الفرنسية أيضاً .

وفى ١٧٧٥ كان بلاط فايمار يضم نحو اثنى عشر شخصاً واتباعهم . وقد وجد الشاعر الكونت كرستيان تسوشتولبرج فى هذا البلاط جواً ساراً خالية من الكلفة فى ذلك العام الذى وصل فيه جوته . يقول « إن الدوقة العجوز (وكانت يومها فى السادسة والثلاثين) هى الفطنة المجسمة ، وهى مع ذلك لطيفة وطبيعية جداً . أما الدوق فغلام عجيب ، كله وعد وتبشير ، وكذلك أخوه . ثم هناك الكثير من الأشخاص الممتازين ».[٢] وفى ١٧٨٧ وصف شيلر « نبيلات فايمار » بأنهن « شديدات الحساسية وقل أن تجد بينهن واحدة لم تخض تجربة غرام ، وجميعهن يحاولن غزو القلوب . . . فهنا حكومة هادئة لا تكاد تحس بها ، تسمح لكل إنسان بأن يحيا » وأن يصطلى فى الهواء والشمس . وإذا كان بالمرء ميل إلى المرح فكل الفرص متاحة له »[٣] .

وتقلد كارل أوجست حكم الدوقية فى ٣ سبتمبر ١٧٧٥ حين بلغ الثامنة عشرة . وما لبث أن اتخذ له زوجة بعد أن أجرى معاشاً على خليلته[٤] ، والزوجة هى لويزه أميرة هسى — دارمشتات ، ثم اقتنص جوته فى الطريق ؛ وكان يمارس الصيد فى ضراوة ، ويسوق مركبته فى تهور مخترقاً شوارع المدينة الهادئة ، ويتنقل على عجل بين النساء ؛ ولكن تهوره كبحه عقل نضج ببطء حتى بلغ القدرة على الحكم الصائب . وقد درس الزراعة والصناعة وبسط رعايته عليهما ، وشجع العلوم ، وأعان الأدب ، وجاهد لخير إمارته وشعبها . واستمع إلى مدام دستال التى جابت ألمانيا فى ١٨٠٣ تقول : « ليس بين الإمارات الألمانية كلها إمارة تشعرنا أكثر من فايمار بمزايا الدويلة حتى يكون أميرها رجلا قوى الفهم قادراً على السعى لإسعاد جميع طبقات رعاياه دون أن يفقد شيئاً من طاعتهم . . . ومواهب الدوق الحربية يحترمها الجميع ، وحديثه المثير المشرب بالتفكير يذكرنا على الدوام بأنه ربيب فردريك

العظيم . ولسمعته وسمعة أمه الفضل فى اجتذاب ألمع رجال العلم والثقافة إلى فايمار . ولأول مرة أصبح لألمانيا حاضرة أدبية كبرى»[٥] .

٢ — فيلاند : ١٧٣٣ — ١٧٧٥

كرستوف مارتن فيلاند هو أقل الرجال الأربعة ، الذين أذاعوا صيت فايمار » شهرة بين الناس ، ولكن لعله كان أجدرهم بالحب . وقد عزفت على قيثارته كل مؤثرات جيله تقريباً ووفقت نغماتها كل بدوره . كان ابناً لراعى كنيسة فى أوبرهولتسهايم (قرب بيبراخ فى فورتمبرج) فنشىء على التقوى واللاهوت . فلما اكتشف الشعر جعل الرجل الفاضل كلوبشتوك مثله الأعلى ، ثم تحول إلى فولتير ترفيهاً عن نفسه . ثم وجد فى بلدة فارتهاوزن القريبة منه مكتبة الكونت فون شتاديون الضخمة ، فنهل من الأدبين الفرنسى والانجليزى ، ونفض عنه قدراً كبيراً من اللاهوت ، حتى لقد هزأ بإيمان صباه فى رواية سماها « دون سلفيو فون روزالفا » (١٧٦٤) . ونشر مترجمات نثرية لعشرين من مسرحيات شكسبير (١٧٦٢ — ٦٦) ، فأتاح بذلك لألمانيا لأول مرة نظرة إلى شكسبير ككل ، ويسر لكتاب التمثيليات الألمان مهرباً من الصيغة الكلاسيكية التى اتخذتها الدراما الفرنسية . وكان فنكلمان وآخرون أثناء ذلك يبشرون بالدعوة بالهيلينية ، وصاغ فيلاند لنفسه صورته الخاصة من هذه الدعوة فاتخذ نغمه أبيقورية خفيفه فى كتابه « قصص هزلية » (١٧٦٥) ، وجعل رجلا اغريقياً وهمياً البطل لأهم عمل نثرى ألفه وهو « تاريخ أجاثون » (١٧٦٦ — ٦٧) ، الذى وصفه ليسنج بأنه « الرواية الوحيدة اللائقة بالرجال المفكرين »[٦] .

وقد أراد فيلاند (البالغ ثلاثة وثلاثين عاماً) فى صفحاتها المطوفة أن يبسط فلسفته فى الحياة » متمثلة فى المغامرات الجسدية والعقلية لرجل أثينى من عصر بركليس . قال فى المقدمة « لقد اقتضت خطتنا تصوير بطلنا وهو يجتاز شتى المحن » ، وهى محن من شأنها أن تربى الإنسان على الأمانة والحكمة دون الالتجاء إلى الحوافز أو الدعائم الدينية [٧] . وأجاثون (أى الطيب) ،

الشاب الوسيم » يقاوم محاولة إحدى كاهنات دلفى لإغوائه « وبدلا من ذلك يشعر نحو العذراء الساذجة « بسوخى» (النفس) بحب نقى وإن كان مشوباً . ويدخل عالم السياسة « فيشمئز من تعصب الأحزاب ، ويندد بالناخبين لافتقارهم إلى المبدأ « ثم ينفى من أثينا.وفيما هو يهيم فى جبال اليونان يقع على لفيف من النسوة التراقيات يحتفلن بعيد باخوس برقصات شهوانية عنيفة ، فيحسبنه باخوس ، ويكدن يخنقنه بعناقهن ، ثم تنقذه عصابة من القراصنة « تبيعه عبداً فى أزمير لهبياس ، وهو أحدسوفسطائى القرن الخامس ق . م . ويشرح فيلاند فلسفة السوفسطائيين فى سخط فيقول :

« ان الحكمة التى جعل منها السوفسطائيون مهنة لهم كانت من حيث الكيف كما كانت من حيث الأثر النقيض للحكمة التى جهر بها سقراط . فالسوفسطائيون علموا فن إثارة أهواء الرجال(بالخطابة) ؛ بينما غرس سقراط فن سيطرة الإنسان على أهوائه . وقد بينوا كيف يظهر الإنسان أمام الناس حكيماً فاضلا « أما هو فقد بين كيف يكون الإنسان كذلك . وهم شجعوا شباب أثينا على محاولة السيطرة على الدولة « أما هو فبين لهم أنهم سينفقون نصف عمرهم ليتعلموا كيف يحكمون ذواتهم . وكانت فلسفة سقراط تفخر بالحياة مجردة من الغنى ، أما فلسفة السوفسطائيين فكانت تعرف كيف تحقق الغنى . كانت كيسة « خلابه ، متقلبة ، بجدت العظماء . . . وعبثت بالنساء ، وتملقت كل شخص ينقدها ثمن التملق . كانت فى كل مكان لاتحس الغربة « لها الحظوة فى البلاط « وفى مخادع النساء « ومع الطبقة الارستقراطية ، وحتى مع طبقة الكهان ، فى حين أن تعاليم سقراط . . . يحكم عليها الفضوليون بأنها عديمة النفــع ، والمتبطلون بأنها عديمة المذاق ، والأتقياء بأنهـــا خطرة . » (٨)

وتتمثل فى هبياس كما يصوره فيلاند كل أفكار السوفسطائين ورذائلهم . فهو فيلسوف ، ولكنه حرص على أن يكون مليونيراً أيضاً . وهو يعتزم

أن ينشيء أجاثون المستقيم الخلق على أسلوب أبيقورى فى التفكير والعيش . ويزعم أن أحكم سياسة ينتهجها الإنسان أن يجرى وراء الأحاسيس اللذيذة، و « كل اللذات هى فى حقيقتها حسية » [٩] . وهو يضحك من أولئك الذين يحرمون أنفسهم من لذات هذه الحياة الدنيا أملا فى مباهج السماء التى قد لا تتحقق أبداً . « فمن ذا الذى رأى مرة أولئك الأرباب ، وتلك المخلوقات الروحية ، التى يؤكد (الدين) وجودها ؟ « فهذا كله حيلة يخادعنا بها الكهنة [١٠] . ويدين أجاثون هذه الفلسفة لأنها تتجاهل العنصر الروحى فى الإنسان وحاجات النظام الاجتماعى . ويقدمه هبياس إلى داناى المرأة الغنية الجميلة « ويشجعها على اغوائه ، ويخفى عنه ماضى داناى حين كانت محظية . وترقص المرأة وتحمل أجاثون رشاقة جسدها مع سحر حديثها وموسيقى صوتها على أن يقدم لها حبه الخالص الطاهر. وتفسد داناى على هبياس مؤامرته إذ ترد حب أجاثون بمثله . ذلك أنها بعد أن تقلبت فى أحضان رجال كثيرين تجد تجربة وسعادة جديدتين فى حب أجاثون . وهى تتطلع إلى أن تبدأ مع أجاثون حياة جديدة أكثر طهراً بعد أن سئمت غرامياتها العديمة العاطفة . فتشتريه من هبياس « وتعتقه « وتدعوه لمقاسمتها ثروتها ؛ ولكن هبياس يبوح لأجاثون بماضى داناى وهى محظية انتقاماً منها . فيركب أجاثون البحر إلى سيراكيوز.

وهناك يكتسب سمعة طيبة بالحكمة والنزاهة ، فيصبح الوزير الأول للدكتاتور ديونيسيوس . وقد تخلى الآن عن بعض مثاليته :

« فلم يعد يحلم كما كان بتلك المثاليات الرفيعة عن طبيعة البشر . أو قل إنه انتهى إلى معرفة البون الشاسع بين الإنسان الميتافيزيقى ، الذى يفكر فيه المرء أو يحلم به فى خلوته المتأملة ، أو الإنسان الفطرى وهو خارج لتوه فى بساطته الفجة من يدى الطبيعة الأم ، وبين الإنسان الزائف الذى جعله المجتمع والقوانين والآراء والحاجات والتبعية والصراع المتصل بين رغباته وظروفه ، وبين مصلحته ومصلحة غيره ، وما يترتب على ذلك من ضرورة إخفاء مقاصده الحقيقية وسترها باستمرار — أقول إن هذا كله

يجعل الإنسان كاذباً ، منحطاً ، مشوهاً » متنكراً وراء مئات الصور الخداعة وغير الطبيعية . ولم يعد ذلك المتحمس ، الفتى الذى كان يخيل له أن تنفيذ مشروع عظيم سهل يسير كتصوره . وقد تعلم أن على المرء ألا يتوقع الكثير من الآخرين ، وألا يعتمد كثيراً على تعاونهم معه ، و(أهم من ذلك كله) ألا يثق كثيراً بنفسه . . . وتعلم أن أكثر الخطط كمالا هى فى الغالب أسوؤها (وأنه) لاشيء فى العالم الأخلاقى » كما فى العالم المادى ، يتحرك فى خط مستقيم ، وبالاختصار أن الحياة أشبه برحلة بحرية يتعين فيها على الربان أن يكيف مسيره وفق هوى الريح والجو ، ولا يطمئن أبداً إلى أن التيارات المعاكسة لن تعطله أو تجنح بمركبه ، وأن كل شيء رهن بهذا : وهو أن يضع نصب عينيه ميناء الوصول الذى يقصده رغم مئات الانحرافات عن الطريق » [١١] .

ويخلص أجاثون الخدمة لسيراكيوز وينجز بعض الإصلاحات ، ولكن مؤامرة فى القصر تخلعه ، فيعتزل فى تارنتوم . وهناك يرحب به صديق قديم لأبيه هو الفيلسوف والعالم الفيثاغورى أرخيتاس (ازدهر ٤٠٠ — ٣٦٥ ق . م) الذى يحقق حلم أفلاطون بالملك الفيلسوف . وهناك يعثر على حبيبة صباه بسوخى ، ولكنها للأسف متزوجة من ابن أرخيتاس ، ثم يتبين أنها أخت أجاثون . على أن داناى يؤتى بها (بعصا الروائى السحرية) من أزمير إلى تارنتوم ، وقد هجرت عاداتها الأبيقورية لتحيا حياة العفة والبساطة . ويطلب إليها أجاثون أن تغفر له بعد أن أدرك أنه أثم بهجرانه أياها ، فتعانقه ، ولكنها ترفض الزواج منه ، فقد عولت على التكفير عن انحرافات الماضى بحياة الزهد والتعفف فى ما بقى لها من أجل . وتختم القصة بأجاثون قانعاً قناعة لا تصدق بأن يعد المرأتين أختين له .

والكتاب تشوبه عشرات المآخذ . فبناؤه مفكك ، ومصادفاته ذرائع كسولة للتهرب من الصنعة الروائية ، وأسلوبه لطيف ولكنه شديد الاطناب ، وفى كثير من الفقرات يبتعد الفاعل عن الفعل حتى ينسى ، وقد هنأ أحد النقاد المؤلف بعيد ميلاده بأن تمنى له حياة طويلة طول جمله . ولكن « تاريخ

أجاثون » برغم هذا يعد من أعظم آثار عصر فردريك . وقد دلت استنتاجاته على أن فيلاند قد اصطلح مع الدنيا » وأن فى الاستطاعة الآن أن يوكل إليه تعليم الشباب المندفع المتوتر وترويضه . فعين فى ١٧٦٩ أستاذاً للفلسفة فى إيرفورت . ومنها أصدر بعد ثلاث سنين « المرآة الذهبية » وهو كتاب بسط فيه آراءه فى التربية . وأفتتنت به آنا آماليا ، فدعته ليجرب نظرياته التربوية مع أبنائها . فذهب » وأنفق ما بقى من عمره فى فايمار » وفى ١٧٧٣ أنشأ مجلة (الرائد الألمانى) ، التى ظلت جيلا (١٧٧٣ — ٨٩) تحت قيادته أعظم المجلات الأدبية نفوذاً فى ألمانيا . وكان النجم الفكرى لفايمار حتى أتى جوته » وحين اقتحم الكاتب الشاب الجرىء المدينة فى ١٧٧٥ ، رحب به فيـلاند دون شعور بالغيرة ، وسيظل صديقه مدى ست وثلاثين سنة .

٣ — جوته بروميثيوس : ١٧٤٩ — ٧٥

١ — نشأته

تقلبت على يوهان فولفجانج فون جوته شتى التجارب منذ كان يجوب شوارع فرانكفورت — على — المين وهو واع بأنه حفيد عمدتها ، حتى سبعينياته التى كان لأحاديثه العارضة فيها الفضل فى إذاعة اسم كاتب سيرته إكرمان (كما أذاع جونسون اسم بوزويل) ، واستوعب كل ما وسع الحياة والحب والرسائل ان تمنحه ، راداً إياه — فى عرفان — حكمة وفنا .

وكانت فرانكفورت « مدينة حرة » ، يسودها التجار والأسواق » ولكنها إلى ذلك المقر الذى خصصه الأباطرة لتتويج الملوك الألمان وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة . وفى ١٧٤٩ كان يسكنها ٣٣,٠٠٠ نسمة جلهم تقى مهذب بشوش الوجه . وكان مولد جوته فى منزل متين ذى طوابق أربعة (دمره حريق فى ١٩٤٤ ثم أعيد بناؤه فى ١٩٥١) . وكان أبوه يوهان كاسبار جوته ابن خياط وفندقى ميسور الحال ، وقد دمر يوهان كاسبار مستقبله السياسى بالكبر والخيلاء ، واعتزل مهنة المحاماة مؤثراً حياة الدراسة الهاوية فى مكتبته

الأنيقة . وفى ١٧٤٨ تزوج كاتارينا اليزابث ، ابنة يوهان فولفجانج تكستور عمدة فرانكفورت . ولم ينس ابنها قط أنه عن طريقها ينتسب إلى الإشراف من غير حملة الألقاب ، الذين حكموا المدينة أجيالا قبل ذلك . قال لأكرمان وهو فى الثامنة والسبعين ، « نحن أشراف فرانكفورت كنا نعد أنفسنا دائماً مساوين لطبقة النبلاء » وحين احتوت يداى إجازة النبالة (التى منحت له عام ١٧٨٢) لم أر أنى ظفرت بشىء أكثر مما كنت أملك منذ زمن طويل ».(١٢) وكان يحس أن « الأوغاد فقط هم المتواضعون »(١٣) .

وكان أكبر أطفال ستة ، لم يتجاوز الطفولة منهم غيره هو وأخته كورنيليا ؛ فى تلك الأيام كان الحنان الأبوى الكبير يعد عناء باطلا . ولم يكن بيتهم بالبيت السعيد ؛ فالأم لطيفة الطبع تميل إلى الفكاهة والشعر ، ولكن الأب حاكم صارم متزمت أقصى عنه قلوب أطفاله بخشونة طبعه وضيق خلقه . يقول جوته مستعيداً ذكرى طفولته « لم يكن فى الإمكان نمو علاقته سارة مع أبى» (١٤) . وربما اكتسب جوته منه كما اكتسب من تجربته عضواً فى مجلس شورى الدوق بعض التصلب الذى بدا عليه فى أخريات حياته . وربما أخذ عن أمه روحه الشاعرة وحبه للدراما . وقد بنت فى بيتها مسرحاً للعرائس ؛ ولم يفق ابنها قط من افتتانه بهذا المسرح .

وتلقى الأطفال تعليمهم المبكر على يد أبيهم ، ثم من معلمين خصوصيين . واكتسب فولفجانج الإلمام بقراءة اللاتينية واليونانية والانجليزية وبعض العبرية ، والقدرة على التحدث بالفرنسية والإيطالية . وتعلم أن يعزف على الهاربسيكورد والفيولنشيللو ، ويرسم ويصور بالألوان ، ويركب الخيل ويثاقف ويرقص ؛ ولكنه اتخذ الحياة خير معلم له . فارتاد كل نواحى فرانكفورت بما فيها حى اليهود ؛ وسدد النظرات الغرامية للفتيات اليهوديات الحسان ، وزار مدرسة يهودية ، وحضر حفلة ختان ، وكون لنفسه فكرة عن أيام اليهود المقدسة (١٥) . وأضافت إلى تعليمه أسواق فرانكفورت إذ جلبت إلى المدينة وجوهاً وسلعاً غريبة دخيلة ، وكذلك أضاف الضباط الفرنسيون فى بيت جوته إبان حرب السنين السبع . وفى ١٧٦٤ شهد الصبى ذو الخمسة

عشر ربيعاً تتويج يوزف الثانى ملكاً على الرومان ؛ وقد حفظ كل صغيرة وكبيرة فى الحفل ، وانفق عشرين صفحة على وصفه فى سيرته الذاتية [١٦] .

وحين ناهز الرابعة عشرة وقع فى أول غرام من غرامياته الكثيرة التى أثمرت نصف شعره.وكان فى تلك الآونة قد اشتهر ببراعته فى قرض الشعر ، فطلب إليه بعض الصبية ممن اختلط بهم أحياناً أن يكتب خطاباً منظوماً بأسلوب فتاه موجهاً إلى فتى ؛ فأحسن كتابته ، مما حملهم على أن يرتبوا تسليمه لعضو مقيم من جماعتهم على أنه مرسل إليه من حبيبته . وأراد الصبى أن يرد على الشعر بالشعر ولكن أعوزته الكفاية وخانته القوافى ، فطلب إلى جوته أن ينظم له رداً . فوافق ، وعرفاناً بجميله دفع العاشق نفقات نزهة خرجت فيها الجماعة إلى فندق فى إحدى ضواحى المدينة . وكانت الخادمة صبية مراهقة تدعى مرجريته — أو جرتشن اختصاراً ، وقد أطلق جوته اسمها على بطلة تمثيليته « فاوست » . وربما هيأته القصص الغرامية التى قرأها ، والرسائل التى كتبها ، لتذوق سحر الأنوثة فى الصبايا . كتب وهو فى الستين يقول « إن أول نوازع الحب فى شاب غشيم يتجه اتجاهاً روحياً بحتاً . ويبدو أن الطبيعة ترغب فى أن يدرك أحد الجنسين بحواسه الجمال والطيبة فى الجنس الآخر . وهكذا تكشف لى عالم جديد من الجميل والرائع بمرأى هذه الفتاه وبميلى الشديد لها » [١٧] . ولم يفقدذلك العالمبعدها قط ؛ فكانت المرأة بعد المرأة تحرك روحه الحساسة ، وتحركها غالباً بالتبجيل كما تحركها بالرغبة ؛ فحين كان فى الثالثة والسبعين وقع فى غرام فتاه فى السابعة عشرة .

وغلبه الارتباك لحظة وأعجزه عن التحدث إلى ساحرته . « ذهبت إلى الكنيسة مدفوعاً بحبى لها . . . ورحت خلال الخدمة البروتستنتية الطويلة أحدق فيها بملء عينى » [١٨] .ثم رآها ثانية فى فندقها جالسة فى المغزل . كما جلست جرتشن أخرى فى فاوست . واتخذت هى الخطوة الأولى الآن ، ووقعت فى ابتهاج الخطاب الغرامى الثانى الذى اصطنعه كأنه مرسل من فتاة . ثم قبض على واحد من الجماعة كان جرته قد أوصى جده به ، وهو يزيف سندات ووصايا ، فنهى فولفجانج أبواه عن مزيد من الاتصال بهؤلاء

الصبية ، ورحلت جرتشن إلى مدينة بعيدة ، ولم يرها جوته بعدها قط . وقد تضايق كثيراً حين علم أنها قالت «كنت أعامله دائماً على أنه طفل» [١٩] .

وكان الآن (١٧٦٥) راضياً تمام الرضى بالرحيل عن فرانكفورت ودراسة القانون فى جامعة ليبزج ، وراح ككل شاب طلعة يقرأ قراءات واسعة خارج الموضوعات المقررة لدراسته . وكان قد تصفح «قاموس بيل التاريخى النقدى» فى مكتبة أبيه ، وخرج منه بأذى كبير لإيمانه الدينى ؛ «ما إن وصلت إلى ليبزج حتى حاولت أن أتحرر كلية من صلتى بالكنيسة» [٢٠] . ثم أنفق فترة فى التنقيب فى الغيبيات والخيمياء وحتى السحر ، وهذا أيضاً دخل فى مسرحية «فاوسست» . ثم جرب الحفر وصنع الرواسم من الخشب ، ودرس مجموعة الصور المعروضة فى درسدن ؛ وتكررت زياراته للمصور أويزر فى ليبزج . وقد ألم بكتابات فنكلمان بطريقة أويزر ، وعن هذه الكتابات وكتاب ليسنج «اللاوكون» تلقى أولى نفحات إجلاله للطراز الكلاسيكى ، وكان هو وطلاب آخرون يعدون استقبالا حاراً لفنكلمان فى ليبزج حين وافاهم نبأ مصرعه فى تريست (١٧٦٨) .

وكان الإحساس بالجمال هو الغالب فى مدخله إلى العالم . ففى الدين لم يحب غير أسراره المقدسة ، المثيرة ، الغنية بالألوان . ولم يحب الفلسفة كما كتبها الفلاسفة ، باستثناء سبينوزا ؛ وكان يرتعد من المنطق ويهرب من كانط . وقد أحب الدراما ، وكتب مسرحية لا قيمة لها فى ليبزج ، ودأب على قرض الشعر كل يوم تقريباً ، حتى وهو يستمع إلى محاضرات القانون . والقصائد التى نشرها باسم «أغانى ليبزج» مكتوبة بأسلوب أناكريون ، فيها عبث ولهو ، وأحياناً إثارة وشبق :

ومع ذلك فأنا قانع تملؤنى الفرحة
إن هى جادت فقط ببسمتها الحلوة ،
أو إن استعملت وهى على المائدة
قدمى حبيبها وسادة لقدميهـــا ؛

أو أعطتنى التفاحة التى قضمتها ،
أو الكأس التى شربت منهـا ،
وكشفت عن ثديهـا المكنون
حين تنشد ذلك قبلى [٢١] .

أكانت هذه مجرد منى؟ لا فيما يبدو . ذلك أنه كان قد وجد فى ليبزج رأساً جميلا — رأس آنيت شونكويف — راغباً فى أن يلج على الأقل الدهليز إلى الحب . وكانت ابنة تاجر خمور يقدم وجبة الظهر للطلاب . وكان جوته يتناول طعامه هنالك مراراً فاشتهاها . واستجابت لحرارة عاطفته بتحفظ حكيم ، وسمحت لرجال آخرين بأن يتقربوا منها ، فبدأ يغار ، وأخذ يتجسس عليها ؛ وتشاجرا ثم تصالحا ، وتشاجرا وتصالحا ، ثم تشاجرا وافترقا . ولقد ذكر نفسه حتى فى هذه النشوات أنه حفيد عمدة ، وأن باطنه قريننا — هو حافز ودافع لجنى نهم يطالب بالحرية فى سبيل الاكتمال التام إلى مصيره المحتوم . وقبلت آنيت خطيباً غيره .

ورأى جوته فى هذا هزيمة له ، وحاول نسيانها بالانغماس فى اللذات . « لقد فقدتها حقاً وكان للجنون الذى انتقمت به لخطئى من نفسى بالعدوان على طبيعتى الجسدية بشتى الطرق المسعورة ، لألحق بعض الأذى بطبيعتى الخلقية — أقول كان له ضلع كبير جداً فى إصابتى بالأمراض البدنية التى خسرت بسببها بعضاً من أفضل سنى عمرى » . [٢٢] واستسلم للاكتئاب ، وأصابه عسر هضم عصبى ، وابتلى بورم مؤلم فى عنقه ، واستيقظ ذات ليلة على نزيف كاد يقضى عليه . وغادر ليبزج دون أن يظفر بدرجته الجامعية ، وقفل إلى فرانكفورت (سبتمبر ١٧٦٨) ليواجه تأنيب الأب ومحبة الأم .

ثم تعرف أثناء فترة نقاهته الطويلة إلى سوزانه فون كلتنبرج ، وكانت تقوية مورافية ، لطيفة ، عليلة . « كان صفاؤها وهدوء عقلها لا يبرحانها قط » وكانت تنظر إلى مرضها نظرتها إلى عنصر ضرورى فى وجودها الأرضى

العابر » (٢٣) . وقد وصفها بعد سنين وصفاً فيه تعاطف وبراعة فى « اعترافات روح جميلة » . التى أدخلها فى كتابه « ولكنه سجل فى غير مبالاة مزاعمها من أن قلقه واكتئابه سببهما اخفاقه فى المصالحة مع الله . « كنت أعتقد منذ حداثتى إننى على علاقة طيبة جداً مع إلهى — لا بل اننى تخيلت . . . انه قد يكون مديناً لى بدين لم يوفه بعد ، لأننى كنت من الجرأة بحيث رأيت أن عليه لى مأخذا يقتضى أن أغتفره له . وكان هذا الغرور قائماً على حسن نيتى الذى لا حد له ، وهو ما كان خليقاً بإلهى أن يعيننى عليه معونة أفضل كما بدا لى . وللقارىء أن يتصور كم من المرات دخلت فى منازعات مع أصدقائى حول هذا الموضوع » ولكنها كانت تنتهى دائماً بغاية المودة والصفاء » (٢٤) .

ومع ذلك مرت به لحظات متفرقة من التقوى ، إلى حد الاختلاف إلى بعض جلسات الإخوان الموارفيين ، ولكن نفره من هؤلاء القوم البسطاء (٢٥) ، « ضعف ذكائهم » ، وسرعان ما ارتد إلى الجمع المتقطع بين الإيمان بوحدة الوجود والشك العقلانى .

وفى أبريل ١٧٧٠ رحل إلى ستراسبورج أملا فى نيل درجته القانونية . ووصفه زميل من الطلاب (وهو فى الحادية والعشرين) بأنه « فتى وسيم الوجه » له جبين رائع وعينان واسعتان متقدتان » ولكنه أردف » ان التعامل مع هذا الشاب لن يكون أمراً يسيراً ، إذ يبدو أن له طبعاً جموحاً غير مستقر » (٢٦) . وربما كان مرضه الطويل سبباً فى إثارة أعصابه ؛ وكان « قرينه » أشد اقلاقاً له من أن ينيله الهدوء والاستقرار » ولكن أى شاب تسرى النار فى دمه يستطيع أن ينعم بالهدوء ؟ وحين وقف أمام الكتدرائية الكبرى حياها بشعور الوطنية ، لا بوصفها كاثوليكية بل « معماراً ألمانياً ، معمارنا ، فالإيطاليون لا يستطيعون المفاخرة بشىء نظيرها » وأقل منهم الفرنسيون » (٢٧) (ولم يكن قد رأى بعد إيطاليا ولا فرنسا) . « وصعدت وحيداً إلى أعلى قمة فى البرج . . . وغامرت من هذا العلو بأن أخطو إلى الخارج على افريز لا يكاد يبلغ ياردة مربعة . وقد أوقعت هذا الرعب

والعذاب على نفسى مراراً وتكراراً حتى أصبحت التجربة فى نظرى أمراً غير ذى بال » . (٢٨) وقد لاحظ أحد أساتذته أن « هرجوته كان يسلك بأسلوب جعل الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى دعى كاذب من أدعياء العلم ، وخصم مسعور لكل تعليم دينى . والرأى الذى أجمع عليه الكل تقريباً أن فى رأسه برجاً ناقصاً » (٢٩) .

وعملت التجارب الجديدة الكثيرة على تأجيج ناره . فقد التقى بهردر مرات خلال إقامته فى ستراسبورج . وكان هردر الذى يكبره بخمس سنوات « هو الطرف المسيطر فى هذه اللقاءات ؛ وقد وصف جوته نفسه « فى نوبة تواضع عارضة » بأنه « كوكب » يدور حول شمس هردر . وأزعجته نزعة هردر الدكتاتورية ، ولكنه حفزه إلى قراءة الأغانى الشعبية القديمة ، وكتاب مكفرسن « أوسيان » ومسرحيات شكسبير (فى ترجمة فيلاند) . ولكنه قرأ أيضاً فولتير وروسو وديدرو ثم درس مقررات فى الكيمياء والتشريح والولادة ، فضلا عن مواصلة دراسة القانون . . . ثم انه واصل دراسته للنساء .

ذلك انه شعر بفتنتهن بكل ما فى الشاعر من حساسية مرهفة « وكل ما فى الشباب من توهج كهربى . وبعد هذه الحقبة بسبعة وأربعين عاماً أخبر إكرمان بأنه يعتقد أن للأشخاص تأثيراً مغنطيسياً غامضاً على غيرهم ، وأكثره عن طريق تباين الجنس (٣٠) . فكانت تحركه خطرات الفتيات الخفيفة الرشيقة ، وموسيقى أصواتهن وضحكهن ، ولون أثوابهن وحفيفها ؛ وكان يحسد الزهرة التى كن أحياناً يزين بها مشدهن أو شعرهن على التصاقها بهن . وكانت الواحدة تلو الأخرى من هذه المخلوقات السحرية تستنفر دمه ، وتكبر فى خياله ، وتحرك قلمه . لقد أحب من قبل جرتشن وآنيت « وعما قليل سيكون هناك لوته وللى وشارلوته ، ثم منا وأولريكه . أما الآن « فى زيزنهايم (قرب ستراسبورج) ، فكانت افتنهن قاطبة — فردريكه بريون .

كانت الإبنة الصغرى (تسعة عشر ربيعاً فى ١٧٧١) لراعى كنيسة

المدينة ، الذى شبهه جوته بقسيس ويكفيلد الفاضل الذى روى جولد سمث قصته . والصفحات التى كتبها جوته عن فردريكه فى سيرته الذاتية هى أروع ما كتب فى حياته من نثر [٣١] . وكان يركب مراراً من ستراسبورج ليستمتع بما اتسمت به هذه الأسرة الريفية من بساطة لم تفسدها الحضارة . وكان يصطحب فردريكه فى نزهات طويلة لأنها كانت ترسل نفسها على سجيتها فى الهواء الطلق . وقد أحبته ، ومنحته كل ما طلب . « فى خلوة فى الغابة تعانقنا بعاطفة عميقة . وتبادلنا أخلص التأكيدات بأن كلا منا يحب الآخر من أعماق قلبه » [٣٢] ولكن سرعان ما راح يعترف لصديق بأن « المرء لا تزداد سعادته مثقال ذرة بنيله ما تمنى » .

وكان خلال ذلك يكتب باللاتينية رسالة الدكتوراه التى أكدت (كما أكد فبرونيوس) حق الدولة فى الاستقلال عن الكنيسة . وقد نالت موافقة الكلية الجامعية ، ونجح فى الامتحانات ، وفى ٦ أغسطس ١٧٧١ نال درجة الليسانس فى القانون . وجاء أوان الرحيل عن ستراسبورج . فركب إلى زيزنهايم ليودع فردريكه ، « وحين مددت إليها يدى وأنا على صهوة جوادى ، اغرورقت عيناها بالدموع . وأحسست بضيق شديد . . . وبعد أن نجوت آخر الأمر من انفعال الوداع ، تمالكت نفسى تماماً ومضيت فى رحلة هادئة مطمئنة » . [٣٣] أما تقريع الضمير فجاء بعد ذلك . « لقد انتزعت جريتشن منى ، وهجرتنى آنيت ، أما الآن فكنت مذنباً لأول مرة . فقد جرحت أحب قلب جرحاً فى الصميم ، وكانت فترة الندم الكئيب مع افتقادى ذلك الغرام المنعش الذى كنت قد ألفته — فترة عذاب أليم . . » [٣٤] انه شعور أنانى إلى حد محزن ، ولكن من منا ، فى تجارب الحب وزلاته ، لم يجرح قلباً أو قلبين قبل أن يظفر بقلب ؟ وماتت فردريكه دون أن تتزوج ، فى ٣ أبريل ١٨١٣ .

٢ — جوتز وفرتر

لم يمارس حامل أجازة القانون الجديد مهنة المحاماة فى فرانكفورت إلا كرهاً وكان يزور دارمشتات بين الحين والحين ، وأحس تأثير تمجيدها

للعاطفة فى وجدانه . وجاز الآن فترة من رد الفعل الشديد ضد فرنسا ، وضد الدراما الفرنسية وقواعدها الصارمة ، وحتى ضد فولتير . وراح يسيغ أكثر فأكثر شكسبير الذى عرض على خشبة المسرح طبيعة الإنسان حلالا كانت أو حراماً . فى هذا المزاج ، وفى عنفوان الشباب وحيويته ، كان مهيأ للحركة الزوبعية . فتعاطف مع رفضها للسلطة ، وإعلائها للغريزة فوق العقل ، وللفرد البطل فوق الجماهير الحبيسة فى صحن التقاليد . وهكذا كتب « جوتز فون برليشنجن » فى ١٧٧٢ — ٧٣ .

وكانت انجازاً ممتازاً من فتى فى الثالثة والعشرين : دراماً جمعت بين الحب والحرب والخيانة فى قصة تنبض بالحماسة للحرية ، وتنضح حيوية ، وتشد الانتباه من أولها لآخرها . أما جوتز هذا ففارس أطاح الرصاص بيمناه فى المعركة وهو فى الرابعة والعشرين (١٥٠٤) ، فركبت فى ذراعه يد حديدية أعانته على استعمال سيفه قاطعاًبتاراً كما كان من قبل ، وإذ رفض الاعتراف بأى سيد إلا الإمبراطور ، فقد أصبح واحداً من أولئك «البارونات اللصوص » الذين ادعوا باسم الحرية أن لهم مطلق السلطة على أرضهم إلى درجة سلب عابرى السبيل وشن الحروب الخاصة . وفى ١٤٩٥ أصدر الأمبراطور مكسمليان الأول مرسوماً يحرم الحروب الخاصة ، وإلا كان عقاب المذنب مزدوجاً — النفى بأمر الإمبراطور والحرم بأمر الكنيسة ، ورفض جوتز ذو اليد الحديدية النفى لأنه يخالف الحقوق المتوارثة ، ودارت التمثيلية أول الأمر حول الصراع بين الفارس المتمرد وأمير بامبرج الأسقف ، وإذ كان جوته يحب النساء أكثر كثيراً من حبه للحرب ، فإنه ركز الاهتمام على أوليده فون فالدورف التى ألهب جمالها وثراؤها رجالا كثيرين بالرغبة المشبوبة المستهترة . فى سبيلها نقض أدلبرت فون فايزلنجن ، وهو فارس « حر » آخر ، تحالفه مع جوتز وفسخ خطبته لماريا أخت جوتز ، وانحاز إلى الأسقف . ولعل جوته تذكر — فى حب فايزلنجن المتذبذب — عدم وفائه هو . وأرسل نسخة من التمثيلية إلى فردريكه بيد صديق قائلا « سيسرى عن فردريكة المسكينة بعض الشىء أن ترى العاشق الخائن يموت بالسم » [٣٥] .

وقد حور المؤلف التاريخ ليطوعه لمسرحيته ، فجوتفريد فون برليشنجن لم يبلغ فى نبله وشهامته مبلغ جوتز كما صوره جوته ؛ ولكن تعديلات كهذه تعد من قبيل الجواز الشعرى ، شأنها شأن القوافى المشوهة . كذلك يغتفر لجوته ذلك الحديث الخشن المشهور الذى أجراه على لسان بطله تعبيراً عن الفحولة . وحين أخرجت المسرحية فى برلين (١٧٧٤) أدانها فردريك الأكبر « تقليداً بغيضاً » لتلك « البربرية » التى رآها هو فى شكسبير ، كما رآها فولتير ؛ ثم دعا المسرحيين الألمان أن يلتمسوا نماذجهم فى فرنسا . وقد وافق هردر فردريك أول الأمر ، وقال لجوته « لقد دمرك شكسبير » [٣٦] ، ولكنه بعث بالنسخة المنشورة إلى أصدقائه مشفوعة بالتقريظ العظيم . « أمامكم ساعات من السحر . فهناك قدر غير عادى من القوة والعمق والإخلاص الألمانى الأصيل فى التمثيلية ، وإن كانت بين الحين والحين لا تعدو أن تكون تدريباً ذهنياً » [٣٧] . أما الجيل الأصغر فقد حيا جوته بوصفه أسمى تعبير عن حركة « شتورم » وطاب للقراء الألمان أن يسمعوا أخبار فرسان العصر الوسيط ، ورموز الخلق الألمانى الجبار . ولذ البروتستنت أن يسمعوا أصداء لوثر فى « الأخ مارتن » ، الذى يشكو من أن نذوره الفقر والعفة والطاعة نذور غير طبيعية ، والذى يصف المرأة بأنها « فخر الخليقة وتاجها » ، ويهش للخمر لأنها « تبهج قلب الرجل » ، ويقلب قولا مأثوراً قديماً بقوله أن « البهجة أم الفضائل كلها » [٣٨] . وحتى أبو جوته ، الذى اضطر أن يعاونه فى مهنة المحاماة والذى رأى فيه صورة لتدهور سلالة أبيه ، اعترف بأنه ربما كان فى الغلام خير رغم كل شىء .

وفى مايو ١٧٧٢ كان على المحامى الشاب أن يذهب فى مهمة قضائية إلى فتسلار ، مقر محكمة الاستئناف الامبراطورية . وراح يجول بين الحقول والغابات ويخادع النساء غير مكترث البته بالقانون ؛ وهو يرسم ويكتب ويستوعب . وفى فتسلار التقى بكارل فلهلم يروزاليم ، الشاعر والمتصوف ، وجيورج كرستيان كستنر ، وهو موثق وصفه جوته بأنه « يتسم بالسلوك الهادىء الرصين ، وبوضوح الرؤية ، . . . وبالنشاط الرزين الذى لا يكل » [٣٩] ،

وبلغ من ثقته بالترقى فى وظيفته أنه كان مرتبطاً بفتاة ليتزوجها . وقد وصف كستنر جوته وصفاً فيه سماحة وكرم :

« هو فى الثالثة والعشرين ، والإبن الوحيد لأب غنى جداً . وقد تقرر — وفقاً لمشيئة أبيه — أن يمارس المحاماة فى المحكمة هنا » أما مشيئته هو فهى أن يدرس هومر وبندار وأى شىء آخر توحى به عبقريته وذوقة وقلبه . . . والحق أنه صاحب عبقرية أصيلة ، ورجل على خلق . وهو صاحب خيال ذو حيوية خارقة ، ويعبر عن نفسه بالصور والتشبيهات . . . ومشاعره عنيفة ، ولكنه يملكها عادة . وقناعاته نبيله ، وهو برىء تماماً من الهوى ويسلك كما يحب دون أن يعبأ إن كان سلوكه هذا يسر غيره ، أو هو السلوك العصرى ، أو السلوك المباح . وكل ألوان القهر بغيضة فى نظره . وهو يحب الأطفال ، وفى وسعه أن يلاعبهم ساعات بطولها . . . إنه رجل ممتاز تماماً »[٤٠] .

وفى ٩ يونيو ١٧٧٢ التقى جوته بخطيبة كستنر فى حفلة رقص ريفية ، واسمها شارلوته بوف . ثم زارها فى الغد « ووجد فى الأنوثة فتنة جديدة . أما لوته هذه التى كانت يومها فى العشرين فهى أكبر الأخوات فى أسرة من أحد عشر طفلا . وكانت الأم ميتة والأب مشغولا بكسب قوته ؛ وقامت لوته بدور الأم للأطفال الكثيرين . ولم تؤثر بهجة ألفتاة الصحيحة البدن ونضارتها فحسب ، بل زادت عليهما جاذبية المرأة الشابة التى تؤدى فى بساطة وأناقة هندام مهام وظيفتها بكفاءة وحب وبشاشة . وسرعان ما وقع جوته فى غرامها ، فما كان فى استطاعته أن يظل طويلا بغير صورة أنثى تدفىء خياله . ورأى كستنر الموقف ، ولكنه لثقته مما يملك أبدى تسامحاً كريماً . أما جوته فقد سمح تقريباً بمزايا الخطيب المنافس » ولكن لوته كانت دائماً تصده ، وتذكره بأنها مخطوبة . وأخيراً طلب إليها أن تختار بينهما ، ففعلت ، ورحل جوته عن فتسلار فى الغد (١١ سبتمبر) دون أن تختلج كبرياؤه إلا لحظة . وظل كستنر صديقه الوفى حتى مماته .

وقبل أن يعود جوته إلى فرانكفورت توقف فى ايرنبرايشتاين على الرين ، وهى موطن جيورج وصوفى فون لا روش . وكان لصوفى ابنتان « سرعان

ما جذبتنى بشدة كبراهما مكمسليانه ، وإنه لإحساس لذيذ جداً حين يبدأ غرام جديد فى التحرك داخلنا قبل أن يخمد القديم تماماً . فعند غروب الشمس يود المرء أن يرى القمر يطلع على الجانب المقابل » [٤١] . على أن مكسمليانه تزوجت بيتر برنتانو ، وولدت بنتاً رشيقة اسمها بتينا ، وقعت فى غرام جوته بعد خمسة وثلاثين عاماً . وراض جوته نفسه على حياة فرانكفورت والمحاماة. ولكنه لم يرتض هذه الحياة تماماً ، فقد فكر حيناً فى الانتحار . يقول :

«كنت أملك فيما أملك من مجموعة كبيرة من السلاح خنجراً جميلا جيد الصقل . وكنت أضعه كل ليلة بجوار فراشى ، وقبل أن أطفىء الشمعة جربت إن كان فى استطاعتى أن أفلح فى إغماد السن الحاد بوصتين فى قلبى . فلما لم أوفق فى هذه المحاولة قط ، أقلعت أخيراً عن الفكرة بضحكى من نفسى ، وكففت عن كل أوهامى ووساوسى ، وصممت على أن أعيش .

«ولكى أستطيع هذا العيش فى بشر اضطررت إلى حل مشكلة أدبية ، تتحول فيها كل مشاعرى الماضية . . . إلى ألفاظ . فجمعت لهذا الغرض العناصر التى كانت تعتمل فى سنوات ، واستحضرت فى ذهنى الحالات التى أثرت فى وعذبتنى أشد تأثير وعذاب ؛ ولكن شيئاً لم ينته إلى شكل محدد . فقد افتقدت الحدث ، أو الأسطورة ، التى يمكن فيها أن ترى هذه الحالات كلا متكاملا» [٤٢] .

وقدم محام من زملائه فى فتسلار هذا الحدث الذى يدمج هذه العناصر . ففى ٣٠ أكتوبر ١٧٧٢ قتل فلهلم يروزاليم نفسه يأساً من حبه لزوجة صديق له ، بعد أن استعار مسدساً من كستنر . قال جوته وهو يستحضر الحدث «وبمجرد سماعى بنبأ موت يروزاليم . . . . تشكلت خطة « فرتر » فى ذهنى ، وتسابق الكل معاً من جميع الجوانب» [٤٣] . ربما ، ولكنه لم يبدأ تأليف الكتاب إلا بعد خمسة عشر شهراً . وواصل أثناء ذلك مغازلته لمكسمليانه برنتانو — التى كانت قد انتقلت مع زوجها إلى فرانكفورت— بمثابرة وإصرار جعلا الزوج يحتج ، فانسحب جوته .

وشتتت جهده ألوان مختلفة من المشروعات الأدبية المخفقة . فقد داعب

فكرة قص قصة اليهودى التائه من جديد ، وخطط زيارة يقوم بها اليهودى لسبينوزا » وأن يبين أن الشيطان كما تدل جميع الظواهر منتصر على المسيح فى العالم المسيحى [٤٤] ، ولكنه لم يزد على عشر صفحات فى « اليهودى التائه » . ثم نظم هجائيات فى ياكوبى ، وفيلاند ، وهردر « ولنتس ، ولا فاتر » ولكنه وفق رغم ذلك فى كسب صداقتهم . وشارك فى كتاب لا فاتر فى الفراسة ، سمح له بأن يفحص قسمات دماغه ، وكانت النتائج مرضية لغروره . وكان حكم السويسرى « إن هنا ذكاء ، مع حساسية تؤججه . لاحظ الجبين النشيط . . . والعين السريعة النفوذ والفحص والافتتان . . . والأنف ، الذى يكفى فى ذاته إعلاناً عن الشاعر . . مع الذقن الفحل ، والأذن القوية المتسعة — فمن ذا الذى يرتاب فى العبقرية الكامنة فى هذا الدماغ ؟[٤٥] ومن ذا الذى يستطيع تطبيق هذه المقاييس الدماغية ؟ » على أن ياكوبى قال إن هذا ممكن ، لأنه بعد أن زار جوته فى يوليو ١٧٧٣ وصفه فى رسالة إلى فيلاند بأن « عبقرى من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، رجل به مس من الجن ، كتب عليه أن يسلك وفق أوامر الروح الفردى »[٤٦] .

وأخيراً ، فى فبراير ١٧٧٤ ، كتب جوته الكتاب الذى أذاع اسمه فى طول أوربا وعرضها « آلام الفتى فرتر » . وكان قد أطال التفكير فيه ، وأطال ترديده فى تأملاته وخياله ، حتى لقد أطلقه الآن كما يقول « فى أربعة أسابيع . . . اعتزلت الناس كلية ، ومنعت زيارة أصحابى »[٤٧]. قال لأكرمان بعد خمسين سنة « كان ذلك خلقاً غذوته بدم قلبى كما يفعل طائر البطريق »[٤٨]. وقد قتل فرتر ليمنح نفسه السلام .

وكان ملهماً فى إنجاز الكتاب . استعمل شكل الرسائل ، محاكاة لقصة رتشردسن « كلاريسا » وقصة روسو « جولى » من جهة ، ومن جهة أخرى لأن هذا الشكل كان ملائماً للإفصاح عن العاطفة وتحليلها ، وربما لأنه فى هذا الشكل استطاع أن يستعمل بعض الرسائل التى كتبها من فتسلار لأخته كورنيليا أو لصديقه ميرك . وصدم شارلوته وكستنر بإطلاقه اسمها الفعلى

« لوته على بطلة حب واضح أنه يصف غرام جوته بعروس كستنر » وكستنر يقابله فى القصة « البرت » الذى صوره المؤلف فى إطراء . وحتى اللقاء فى المرقص ، وزيارة الغد « كانا فى القصة كما كانا من قبل فى الواقع . « منذ ذلك اليوم تستطيع الشمس والقمر والنجوم أن تسير سيرتها فى هدوء ، ولكنى لا أعى بنهار ولا بليل ، وكل العالم من حولى يتلاشى . . . لم يعد عندى صلوات أتلوها إلا لها »[٤٩] . على أن فرتر ليس جوته بالضبط : فهو أكثر عاطفية ، وأميل إلى البكاء والكلام المتدفق والرثاء لنفسه . ولكى يقود المؤلف القصة إلى نهايتها الفاجعة ، اقتضاه ذلك أن يغير فرتر من جوته إلى فلهلم يروزاليم . أما اللمسات الأخيرة فهى تحكى تاريخ ما حدث : يستعير فرتر ، كما استعار يروزاليم ، مسدس البرت لينتحر به ، وقصة ليسنج « إميليا جالوتى » ملقاة على مكتبه وهو يموت . « ولم يصحبه كاهن » إلى قبره .

كانت قصة « آلام الفتى فرتر » (١٧٧٤) حدثاً فى تاريخ الأدب وتاريخ ألمانيا . فقد عبرت عن العنصر الرومانسى فى الحركة الزوبعية ودعمته ، كما عبرت قصة « جوتز فون برليشنجن » من قبل عن العنصر البطولى . واستقبلها الشباب المتمرد بالمديح والمحاكاة ، وارتدى بعضهم السترة الزرقاء والصدرة الصفراء البرتقالية كفرتر ، وبكى بعضهم كفرتر ، وانتحر بعضهم باعتبار الانتحار الشيء « العصرى » الوحيد الذى يجب عمله . واحتج كستنر على الولوغ فى أسراره . ولكن لم يلبث ان هدىء ، ولم يقل لنا أحد ان شارلوته شكت حين قال لها جوته « ان اسمك تنطقه آلاف الشفاه المعجبة بكل اجلال »[٥٠] . ولم يشارك رجال الدين الألمان فى هذا الاستحسان . وأدان واعظ هبورجى القصة لأنها دفاع عن الانتحار . اما الراعى جوتسى ، عدو ليسنج ، فقد حمل على الكتاب ، وأدانه ليسنج لعاطفيته المفرطة وافتقاره إلى القصد الكلاسيكى[٥١] . وفى عشاء عام لأم القس ى . ك . هازنكمبف جوته فى مواجهته على « تلك القطعة الشريرة من الكتابة » ، ثم أردف « ليهد الله قلبك الضـــال » ! وأفحمه جوته بجواب

هادىء : « اذكرنى فى صلواتك »[٥٢] . وكان الكتيب أثناء ذلك يكتسح أوربا فى مترجمات عديدة ، منها ثلاثة فى فرنسا خلال سنوات ثلاث ؛ واعترفت الآن فرنسا لأول مرة بأن فى ألمانيا أدباً .

٣ — الملحد الشاب

كان لرجال الدين بعض العذر فى القلق على جوته ، لأنه كان فى هذه المرحلة يجهر بعداء الكنيسة المسيحية . كتب كستنر فى ١٧٧٢ يقول « انه يجل الدين المسيحى ، ولكن ليس فى الصورة التى يصوره بها لاهوتيونا . . . انه لا يتردد على الكنيسة ، ولا يتناول القربان ، ونادراً ما يصلى . »[٥٣] وكان جوته يكره « على الأخص تأكيد المسيحية على الخطيئة والندم[٥٤] » ويؤثر أن يأثم دون ندم . كتب إلى هردر (حوالى ١٧٧٤) يقول « ليت تعليم المسيح كله لم يكن هذا الهراء الذى يثير سخطى بصفتى بشراً ، مخلوقاً مسكيناً محدوداً ذا رغبات وحاجات ! »[٥٥] ووضع مخططاً لمسرحية عن بروميثيوس رمزاً للإنسان يتحدى الآلهة ، ولكنه لم يزد على مقدمة صدمت ياكوبى وأبهجت ليسنج . وما بقى منها هو أكثر تفجرات جوته المعادية للدين تطرفاً . يقول بروميثيوس :

غط سماءك يازيوس بالضباب الملبد بالغيوم .
وإله — كما يلهو طفل يقطع رؤوس الشوك
على شجر البلوط وقمم الجبال !
فأنت لابد تارك أرضى قائمة .
وكوخى ، الذى لم تبنه .
ومدفأتى التى تحسدنى على توهج نارها .
لست أعرف تحت السماء من هو أفقر منكم أيها الآلهة !
إنكم تغذون جلالتكم بالجهد من الضحايا وصلوات الرغبات .
ولولا حمق الأطفال والمتسولين المتعللين بالآمال
لماتت هذه الجلالة جوعاً .

حين كنت طفلا لا أعرف فى ماذا أفكر ،
كانت عيناى الضالتان تتطلعان إلى الشمس ،
كأن لها أذناً تصيخ السمع إلى شكاتى ،
أو قلباً كقلبى يرق لنفس معناة .
فمن ترى أعاننى على غطرسة الطاغية ؟
ومن أنقذنى من الموت ، من العبودية ؟
أليس هو قلبى المقدس المضطرم ،
هو الذى صنع هذا كله وحده ،
ولكنه لحداثته وطيبته ولأنه كان مخدوعاً ،
فهو يرفع الشكر للملك النائم هناك ؛
أمجدك ؟ لماذا ؟
هل خففت مرة أحزان المثقلين بالهموم ؟
هل كفكفت مرة دموع المعذبين ؟
ألم يفطرنى بشرا ؟
ذلك الزمان الجبار والقدر السرمدى —
سيداى وسيداك . . .
ها أنذا قاعد هنا . أصنع الرجال على شاكلتى ،
سلالة شبيهة بى .
تحزن وتبكى . تفرح وتمرح ،
وتزدريك كما أزدريك .

ثم انتقل جوته ببطء من حضيض الإلحاد المغرور هذا إلى « حلولية » سبينوزا الأكثر تهذيباً . روى لافاتر أن « جوته قال لنا أشياء كثيرة عن سبينوزا ومؤلفاته ... فقد كان رجلا غاية فى الإنصاف والاستقامة والفقر ... وكل الربوبيين المحدثين قد أخذوا آراءهم عنه أولا . . . وأضاف جوته أن رسائله أطرف ما عرف العالم كله عن الاستقامة وحب البشر »[٥٦] ،

وبعد اثنين وأربعين عاماً قال جوته لكارل تسلتر إن أكثر الكتاب تأثيراً فيه هم شكسبير وسبينوزا وليناليوس[٥٧] وفى ٩ يونيو ١٧٨٥ كتب إلى ياكوبى بتسلمه كتابه « فى تعاليم سبينوزا » ، وتكشف مناقشته لتفسير ياكوبى لهذه التعاليم عن دراسة مستفيضة للفيلسوف — القديس اليهودى . كتب يقول « إن سبينوزا لا يبرهن على وجود الله ، انه يبرهن على أن الوجود (حقيقة المادة — العقل) هو الله . فليرمه غيرى لهذا السبب بالإلحاد ، أما أنا فأميل إلى أن أصفه وأثنى عليه رجلا تقياً جداً ، لا بل مسيحياً جداً ! . . . وأنا آخذ عنه أصح المؤثرات فى تفكيرى وسلوكى»[٥٨] .

وقد علق جوته فى سيرته الذاتية على رده على ياكوبى بقوله : «كنت لحسن الحظ قد أعددت نفسى . . . بعد أن انتحلت إلى حد ما أفكار وعقل رجل خارق للعادة . . . وهذا العقل » الذى كان قد أثر فى تأثيراً حاسماً جداً ، وكتب له أن يؤثر تأثيراً عميقاً جداً فى أسلوب تفكيرى كله ، هو سبينوزا . ذلك أننى بعد أن بحثت فى العالم عبثاً عن وسيلة لتطوير طبيعتى الغريبة ، وقعت فى النهاية على كتاب « الأخلاق » لهذا الفيلسوف . . . فوجدت فيه مسكناً لعواطفى المشبوبة » وتفتحت أمامى نظرة واسعة حرة تشرف على العالم الحسى والخلقى . . . ولم تبلغ بى الجرأة قط مبلغ الاعتقاد بأنى فهمت كل الفهم رجلا . . . ارتقى ، بدراساته الرياضية والربانية ، إلى ذرى الفكر ، رجلا يلوح ان اسمه حتى فى يومنا هذا » يعين الحد الذى تقف عنده كل المحاولات التأملية »[٥٩] .

وقد أضاف مزيداً من الدفء لعقيدته الأسبينوزية فى الحلول (وحدة الوجود) بولعه الشديد بالطبيعة ، ولم يكن هذا الولع ابتهاجاً فحسب بمرأى الحقول النضرة أو الغابات الغامضة أو النباتات والأزهار المتكاثرة فى تنوع غزير ، بل إنه عشق أيضاً حالات الطبيعة الأكثر صرامة ، وأحب أن يشق طريقه خلال الريح أو المطر أو الثلج ، ثم صعوداً إلى قمم الجبال الخطرة . وكان يتحدث عن الطبيعة كأنها أم يرضع من صدرها رحيق الحياة ونكهتها . وقد عبر فى ملحمة من الشعر المنثور سماها « الطبيعة » (١٧٨٠) ، بوجدان

ديني ، عن استسلامه المتواضع للقوى الخلاقة المدمرة التي تكتنف الإنسان ، والدماجه السعيد فيها :

« الطبيعية ! انها تكتنفنا وتحضرنا — ونحن لا نستطيع الخطو خارجها ، ولا التعمق في داخلها . انها تتلقانا ، دون توسل إليها ولا تحذير ، في حلبة رقصها ، ثم ترافقنا في رقص سريع حتى تنهك قوانا ونخر من بين ذراعيها . .

« انها لا تفتأ تخلق الأشكال الجديدة ، فما هو موجود الآن لم يكن موجوداً قط من قبل ، وما فات لن يعود ؛ الكل جديد ، ومع ذلك فهو دائماً القديم .

انها تبدو وكأنها دبرت كل شيء للفردية ، ولكنها لا تعبأ مثقال ذرة بالافراد ، انها بانية أبداً ، هادمة أبداً . ومصنعها لا سبيل للوصول ليه . . .

انها تملك الفكر ، وهي تتأمل باستمرار ، لا كالإنسان ، بل كالطبيعة . أن لها عقلا كلي الشمول خاصاً بها ؛ وما من أحد يستطيع النفوذ إليه . . .

انها تسمح لكل طفل بأن يعبث بها ، ولكل أحمق بأن يحكم عليها ، والآلاف تعثر أقدامهم ولا يرون شيئاً ، ان فرحتها بالكل .

انها رحيمة . وأنا أثني عليها وعلى كل أعمالها . انها حكيمة هادئة . لا يستطيع المرء أن يستخلص منها أي تفسير ، أو ينتزع منها عطية لا تعطيها بمشيئتها الحرة .

لقد وضعتني هنا . وسوف تقودني بعيداً . وأنا أوكل إليها نفسي ، ولها أن تفعل بي ما تشاء . فهي لن تكره صنعة يدها »[٦٠] .

وفي ديسمبر ١٧٧٤ توقفت الدوق كارل أوبست بفرانكفورت في الطريق بحثاً عن عروس في كارلسروهي . وكان قد قرأ « جوتز فون برليشنجن » وأعجبته . فدعا مؤلفها للقائه . وذهب جوته . ووقع من نفس الدوق موقعاً طيباً . وساءل الدوق نفسه ألا يجوز أن يصبح هذا العبقري الوسيم المهذب نجماً ساطعاً في بلاط فايمار . وكان عليه أن يعجل بالرحيل ، ولكنه طلب إلى جوته أن يلتقي به ثانية في رجوعه من كالسروهي .

كان جوته كثير الكلام عن القدر ، قليله جداً عن المصادفة . ولعله لو سئل لأجاب إن القدر – لا المصادفة – هو الذى جاء به إلى الدوق ، وأنه هو الذى صرفه عن حسن للىشونيمان إلى مخاطر فايمار وفرصها المجهولة . أما للى هذه فكانت ابنة تاجر غنى فى فرانكفورت . وقد دعى جوته إلى حفل استقبال فى بيتها بعد أن أصبح الآن سبعاً من سباع المجتمع الراقى . وعزفت للى على البيانو عزفاً رائعاً ، واتكأ جوته على ركن منه وراح يحدق على مهل فى مفاتنها ذات الستة عشر ربيعاً وهى تعزف . « كنت أحس انى أشعر بقوة جذابة غاية فى الرقة . . . ثم ألفنا أن نلتقى . . . وأصبحنا الآن ولا غنى للواحد عن صاحبه . . . وملكنى شوق لا سبيل إلى مقاومته »[61] . فما أسرع ما ترتفع هذه الحمى الشهيرة ، التى فجرتها حساسية شاعر . قبل أن يدرك معنى ما فعل ، كان قد خطبها رسمياً (ابريل ١٧٧٥) . أما للى التى ظنت أنها اقتنصته وأمنته ، فراحت تعابث غيره . وشهد جوته ذلك فغلت مراجل غيظه .

فى هذه الفترة بالضبط مر صديقان هما الكونت كرستيان والكونت فريدريش تسو شتولبرج بفرانكفورت فى طريقهما إلى سويسرة . واقترحا على جوته أن ينضم إليهما . وحثه أبوه على الذهاب ومواصلة الرحلة إلى إيطاليا . « وانفصلت عن للى بعد أن أفضت إليه ببعض السر ولكن دون أن استأذن قبل الرحيل »[62] .

وقد بدأ الرحلة فى مايو ١٧٧٥ ، والتقى بالدوق ثانية فى كارلسروهى « فدعاه بصفة نهائية إلى فايمار . ومضى إلى زيورخ . حيث التقى بلافاتير وبودمير . وتسلق سانت جوتهارد وتطلع باشتياق إلى إيطاليا ، ثم تسلطت على خياله من جديد صورة للى ، فترك أصحابه ويمم شطر وطنه . وفى سبتمبر كانت للى بين ذراعيه . ولكنه ما أن خلا إلى نفسه فى حجرة حتى عاوده خوفه القديم من الزواج سجناً وركوداً . وأنكرت للى تردده ، فاتفقا على فسخ خطبتهما ، وفى ١٧٧٦ تزوجت برنهارت فون توركهايم .

أما الدوق الذى ألم بفرانكفورت فى طريق عودته من كارلسروهى

فقد عرض على جوته أن يرسل إليه عربة تقله إلى فايمار . ووافق جوته ، ودبر أمره ، وانتظر اليوم الموعود . ولكن العربة لم تأت . أفكان ذلك عبثاً وخديعة ؟ وبعد أن قضى أياماً من التلبث المغيظ انطلق فى رحلته إلى إيطاليا . ولكن العربة الموعودة لحقته فى هيدلبرج ، وقدم مبعوث الدوق التفسيرات والاعتذارات ، فقبلها جوته . وفى ٧ نوفمبر ١٧٧٥ وصل إلى فايمار ، وكان يومها فى السادسة والعشرين ، ممزقاً كعادته دائماً بين إله الغرام والقدر ، تهفو نفسه إلى النساء ولكنه مصمم على أن يصير إنساناً عظيماً .

٤ — هردر ١٧٤٤ — ١٧٧٦

لم يمضى شهر على وصول جوته إلى فايمار حتى أنهى إلى الدوق اقتراحاً مشفوعاً بموافقته الحارة ، هو اقتراح فيلاند بأن تعرض على يوهان جوتفريد هردر وظيفة المشرف العام على اكليروس الدوقية ومدارسها . ووافق الدوق . أما هردر فقد ولد بمورنجن فى بروسيا الشرقية (٢٥ أغسطس ١٧٤٤) ، فهو من حيث الجغرافيا وضباب البلطيق قريب إمانويل كانط . وكان أبوه معلماً فقيراً وقائد فرقة ترتيل تقوى النزعة . وهكذا كان للصبى أوفر نصيب من الشدائد . فمنذ كان فى الخامسة كان يشكو ناسورا فى عينه اليمنى . واضطرته ضرورة المشاركة بعد قليل فى موارد الأسرة إلى ترك المدرسة والاشتغال سكرتيراً وخادماً لسبستيان تريشو ، الذى كان يكسب رزقاً طيباً بتأليف كتيبات فى التقوى . وكان لديه مكتبة استوعبها يوهان . فلما بلغ الثامنة عشرة أرسل إلى كونجزبرج لإزالة الناسور ولدراسة الطب فى الجامعة . على أن الجراحة أخفقت ، وقلبت فصول التشريح معدة الشاب فانصرف عن الطب إلى اللاهوت .

وتصادق مع هامان الذى كان يعلمه الانجليزية مستعملا هاملت نصاً ، وحفظ هردر المسرحية كلها تقريباً عن ظهر قلب . واختلف إلى محاضرات كانط فى الجغرافيا والفلك وفلسفة فولف . وبلغ من حب كانط له أنه أعفاه من الرسم الذى يحصل من الطلبة نظير حضورهم المحاضرات . وكسب هردر قوته بالترجمة وتدريس التلاميذ الخصوصيين ، ثم قام بالتدريس فى مدرسة

الكتدرائية بمدينة ريجا من سن العشرين إلى الخامسة والعشرين . وحين بلغ الحادية والعشرين رسم قسيساً لوثريا ، وفى الثانية والعشرين أصبح ماسونيا[٦٣] . وفى الثالثة والعشرين عين مساعداً للراعى فى كنيستين قرب ريجا . ودخل عالم النشر فى الثانية والعشرين بكتاب فى الأدب الألمانى الحديث ، ثم أضاف إليه جزءاً ثانياً وثالثاً بعد عام . وراعت ثقافة المؤلف الشاب كانط وليسنج ونيقولاى ولا فاتر — وامتدحوا دعوته إلى أدب قومى متحرر من الوصاية الأجنبية .

واستبق هردر الموضة « الفرترية » بوقوعه فى غرام يائس بامرأة متزوجة . واشتدت معاناته من الاكتئاب والغم فى بدنه وعقله ، فمنحه رؤساؤه أجازة ينقطع فيها عن عمله ، ووعدوه بأن يوظفوه من جديد براتب أعلى عند عودته . واقترض مالا ، ثم غادر ريجا (٢٣ مايو ١٧٦٩) ولم يرها ثانية قط . وركب البحر إلى نانت ، وأقام فيها أربعة أشهر ، ثم مضى إلى باريس والتقى بديدرو ود الامبير ، ولكن أحداً لم يستطع اقناعه بالانحياز إلى التنوير الفرنسى .

وذلك أن ميله الفطرى كان جمالياً (استطيقيا) أكثر منه عقلياً . ففى باريس بدأ يجمع الشعر البدائى ، ووجد فيه متعة تفوق ما فى أدب فرنسا الكلاسيكى . وقرأ كتاب مكفرس : « أوسيان » فى ترجمة ألمانية ، وحكم بأن هذه التقليدات البارعة أروع من معظم الشعر الانجليزى الحديث بعد شكسبير . ثم بدأ فى ١٧٦٩ مقالات فى النقد الفنى والأدبى أطلق عليها اسم (الغياض) ، ونشر ثلاثة مجلدات منها فى حياته بعنوان (غابات من النقد) . وفى فبراير ١٧٧٠ ألفق أربعة عشر يوماً فى اتصال مثمر مع ليسنج فى همبورج . ثم صاحب أمير هولشتين — جوتورب معلماً ورفيقاً . وجاب معه ألمانيا الغربية . وفى كاسل التقى برودلف راسبى ، أستاذ الآثار والمؤلف القادم لكتاب « قصة البارون مونتشاوزن عن أسفاره وحملاته العجيبة فى روسيا » (١٧٨٥) . وكان راسبى قد استرعى اهتمام ألمانيا بكتاب توماس برسى « مخلفات من الشعر الانجليزى القديم » سنة ظهوره (١٧٦٥) .

وتقوى هردر فى إيمانه بأن واجب الشعراء أن يهجروا الدعوة الفنكلمانية السنجية لتقليد الكلاسيكيات اليونانية ، وأنه أخلق بهم أن يتشبثوا بالمنابع الشعبية لتقليد أمتهم فى الشعر الفولكلورى والتاريخ القصصى الغنائى .

وانتقل هردر مع الأمير إلى دارمشتات ، فالتقى بجماعة « الحساسين» فيها . وراقه إعلاؤهم شأن العاطفة ، وخص بالتقدير عواطف كارولينية فلاخسلاند ، الأخت اليتيمة لزوجة عضو المجلس الخاص اندرياس فون هسى ، ودعى هردر للوعظ فى كنيسة محلية ، فسمعته ، وتأثرت بوعظه ، وتمشيا معاً فى الغابات ، وتلامست أيديهما فانعطف قلبه ، وعرض عليها الزواج ولكنها نبهته إلى أنها تعيش على صدقة أختها ، وأنها لن تستطيع أن تدفع له مهراً ، ورد هو بأنه مثقل بالدين ، وأن المستقبل أمامه غامض جداً ، وأنه ملتزم بمرافقة الأمير . وتعاهدا بألا تكون خطبة رسمية، ولكنهما اتفقا على تبادل الحب بالرسائل . ثم رحلت جماعته إلى مانهايم فى ٢٧ أبريل ١٧٧٠ .

فلما وصلوا إلى ستراسبورج ترك هردر الأمير رغم شوقه لرؤية إيطاليا . ذلك أن الناسور الذى فى غدته الدمعية سد القناة الدمعية الموصلة إلى المنخر فأصابه بألم لا يهدأ . ووعده الدكتور لوبشتين أستاذ أمراض النساء فى الجامعة بأن الجراحة ستزيل الانسداد فى ثلاثة أسابيع . واستسلم هردر ، دون مخدر ، للثقب المتكرر لقناة خلال العظم إلى ممر الأنف . ولكن الجرح بدأ يتلوث ، وظل هردر ستة أشهر تقريباً حبيس حجرته فى الفندق وقد فت فى عضده فشل الجراحة ، وران عليه اكتئاب بسبب شكوكه فى مستقبله . فى هذه الحالة النفسية من المعاناة والتشاؤم ، التقى بجوته (٤سبتمبر ١٧٧٠) . ويذكر جوته هذه الفترة فيقول « أتيح لى أن أحضر الجراحة وأن أكون نافعاً فى نواحى كثيرة »[٦٤]. وقد ألهمه رأى هردر القائل بأن الشعر ينبثق غريزياً فى الشعب، لا من « بضعة رجال مهذبين مثقفين »[٦٥]. وحين رحل هردر وقد نفد ما معه من مال ، « اقترض جوته مبلغاً من أجله » رده هردر فيما بعد .

ثم قبل على مضض دعوة من الكونت فلهلم تسوليبى ، حاكم إمارة شاومبورج — ليبى الصغيرة فى شمال غربى ألمانيا ، ليعمل واعظاً لبلاطه ورئيساً للمجلس الكنسى فى عاصمته المتواضعة بوكيبورج . وفى أبريل ١٧٧١ غادر هردر استراسبورج ، وزار كارولينه فى دارمشتات وجوته فى فرانكفورت ، ووصل إلى بوكيبورج فى الثامن والعشرين . فوجد الكونت حاكماً ، مستبداً مستنيراً ، من طراز إدارى صارم ، أما المدينة فكانت قروية فى كل شىء إلا الموسيقى ، التى كان يحسن تزويدها بها يوهان كريستوف فريد ريش باخ ، وراض هردر نفسه على الانفصال عن التيار الرئيسى للفكر الألمانى ، ولكن الكتب التى أصدرها فى مكانه الصغير أثرت تأثيراً قوياً فى ذلك التيار ، وأسهمت فى تشكيل الأفكار الأدبية للحركة الرومنسية . وقد أكد للكتاب الألمان أنهم إن التمسوا الإلهام فى جذور الأمة وحياة الشعب فسوف يأتى الوقت الذى يبزون فيه الفرنسيين فى كل ما حققوه. وقد تحققت هذه النبوءة فى الفلسفة والعلم .

وقد ظفر بحثه فى أصل اللغة (١٧٧٢) بالجائزة التى قدمتها أكاديمية برلين عام ١٧٧٠ . ومع أن هردر كان يجهر بتدينه مخلصاً ، إلا أنه رفض الفكرة التى تزعم أن اللغة من صنع الله وحده ؛ وقال إنها من صنع البشر ،وأنها نتجت طبيعياً من عمليات الإحساس والتفكير . وألمع إلى أن اللغة والشعر كانا واحداً باعتبارهما تعبيرين عن الانفعال ، وأن الأفعال ، المعبرة عن الفعل ، كانت أول أقسام الكلام » . وفى مجلد آخر سماه « فلسفة أخرى مضافة إلى فلسفات التاريخ » (١٧٧٤) عرض التاريخ على أنه « الفلسفة الطبيعية للأحداث المتعاقبة » فكل حضارة هى وجود بيولوجى له مولده وشبابه ونضجه وانحلاله وموته ؛ ويجب أن تدرس من وجهة نظر عصرها ، دون تحيزات مبنية على بيئة وعصر آخرين . وقد أعجب هردر إعجاب الرومانتيكيين عموماً بالعصور الوسطى لأنها زمان الخيال والوجدان، والشعر والفن الشعبيين ، والبساطة والسلام الريفيين ؛ وعلى نقيض ذلك كانت أوربا بعد النهضة عبارة عن عبادة للدولة ، وللمال ، وللترف الحضرى ، وللتكلف والافتعال ، وللرذيلة . وانتقد التنوير لأنه عبادة لوثن العقل ، وقارن بينه وبين ثقافات

اليونان والرومان مقارنة لا تخدم التنوير . ولقد أبصر هردر يد الله كما أبصرها بوسويه فى العملية التاريخية كلها ، ولكن الواعظ المفوه كان أحياناً ينسى لاهوته ، ويرى أن « التغيير العام للعالم كان يقوده الإنسان أقل كثيراً مما يقوده قدر أعمى »[٦٦] .

وحمله شعوره بالوحدة إلى أن يطلب إلى كارولينه وزوج أختها أن يأذنا له بالحضور والزواج منها رغم ضآلة دخله . فوافقا ، وزف الحبيبان فى دارمشتات فى ٢ مايو ١٧٧٣ . ثم عادا إلى بوكيبورج ، واقترض هردر بعض المال ليجعل دار القسيس بيتاً مبهجاً لزوجته . وقد بذلت له زوجته الخدمة والحب الخالص مدى الحياة . وبفضل وساطتها انقشع الفتور الذى ران من قبل على المودة بين هردر وجوته ، وحين وجد جوته نفسه فى موقف يسمح له بتزكية الراعى لوظيفة أسخى عطاء ، أسعده أن يفعل ذلك . وفى أول أكتوبر ١٧٧٦ وصل هردر وكارولينه إلى فايمار ، وانتقلا إلى البيت الذى أعده لهما جوته . ولم يبق الآن سوى عضو واحد ليكتمل عقد الرباعى الذى سيضع شهرة فايمار .

٥ — شيلر فى سنى تطوبفه ١٧٥٩ — ١٧٨٧

ولد يوهان كريستوف فريدريش شيلر فى ١٠ نوفمبر ١٧٥٩ بمدينة مارباخ فى فورتمبرج . وكانت أمه ابنة صاحب فندق الأسد ، وأبوه جراحاً — ثم ضابط برتبة الكابتن -- فى جيش الدوق كارل أويجين ؛ وكان يتنقل مع فوجه ، ولكن زوجه أقامت أكثر الوقت فى لورش أولود فجزبرج . وفى هاتين المدينتين تلقى فريدريش تعليمه . وقد نذره أبواه للقسوسية ، ولكن الدوق اقنعهما بأن يبعثا به وهو فى الرابعة عشر ةإلى كارلسشولى (مدرسة كارل) فى لود فجزبرج (ثم فى شتوتجارت) ، حيث يعد أبناء الضباط لمهنة المحاماة أو الطب أو الجندية . وكان نظام المدرسة نظاماً عسكرياً صارماً ، والدراسات مجافية لطبيعة غلام فيه حساسية مرهفة تقرب من حساسية الفتيات . وكان رد فعل شيلر أن تشرب كل ما وجد إليه سبيلا من

الأفكار الثورية ، ثم صبها (١٧٧٠ — ١٧٨٩) فى مسرحية « اللصوص » التى فاقت جوتز فون برليشنجن تعبيراً عن الحركة الزوبعية .

وفى ١٧٨٠ تخرج شيلر فى الطب ، وأصبح جراحاً لفوج فى شتوتجارت. وكان راتبه ضئيلا ، وسكن حجرة واحدة مع الملازم كابف . وكانا يجهزان طعامهما وأكثره من السجق والبطاطس والخس ، ثم النبيذ فى المناسبات السارة . وقد شق على نفسه ليكون وجلا له كل حس الجندى بالمعركة والجعة والمواخير » وزار المومسات اللاتى يختلفن إلى المعسكر[٦٧] » ولكنه لم يكن يسيغ الابتذال والسوقية ، فالنساء فى نظرته المثالية أسرار غامضة مقدسة يجب أن يدنو منها الرجل فى إجلال ورعدة . وكانت صاحبة الدار واسمها لويزة فيشر أرملة فى الثلاثين ، ولكنها إذا عزفت على الهاربسيكورد « فارقت روحى جسدى الترابى الفانى »[٦٨] » وتمنى لو « انى التصقت إلى الأبد بشفتيك » . . . لا تشرب أنفاسك »[٦٩] . وهى طريقة مبتكرة فى الانتحار .

وحاول عبثاً أن يجد ناشراً لمسرحية « اللصوص » ، فلما أن أخفق ، وفر واقترض ثم طبعها على نفقته (١٧٨١) . وقد أدهش نجاحها الناس حتى مؤلفها ذا الإثنين والعشرين ربيعاً . وفى رأى كارليل أنها بدأت « عصراً فى الأدب العالمى »[٧٠] ، ولكن ألمانيا الوقور صدمها أن المسرحية لم تترك ناحية من نواحى الحضارة الراهنة إلا أدانتها . وذكرت المقدمة التى صدر بها شيلر تمثيلته أن نهايتها تبين عظمة الضمير وأذى التمرد .

وخلاصة التمثيلية أن كارل مور ، وهو الإبن البكر للكونت المسن مكسمليان فون مور ، يخصه أبوه بحبه لما اتسم به من مثالية وسماحة خلق ؛ ومن ثم يحسده ويبغضه أخوه فرانتز . ويرحل كارل ويدخل جامعة ليبزج ، ويتشرب مشاعر التمرد التى تضطرب بها صدور شباب أوربا الغربية . فلما الح الدائنون فى مطالبته بالدين ، راح يندد بعباد المال القساة الذين «يلعنون الصدوقى الذى يقصر فى الحضور إلى الكنيسة بانتظام ، ومع أن تقواهم لا تخرج عن عد مكاسبهم ، المجلوبة بالربا ، على مذبح الكنيسة ذاته »[٧١] .

ثم يفقد كل إيمان بالنظام الاجتماعى القائم ، وينضم إلى عصابة من اللصوص ، ويصبح زعيماً لها ، ويقسم يمين الولاء لها حتى الموت ، ثم يهدىء ضميره بلعب دور روبن هود . ويصفه أحد أفراد العصابة بهذه العبارات :

« انه لايقتل كما نقتل طمعاً فى شىء يسلبه . أما المال . . . فيبدو أنه لايعبأ به مثقال ذرة ، فثلث الغنيمة الذى هو حق خالص له يعطيه لليتامى ، أو ليعين به شباب الكلية المبشرين بمستقبل مرموق . أما إذا وقع فى براثنه عين من أعيان الريف الذين يسومون فلاحيهم سوء العذاب كأنهم الأنعام ، أو وغد يرفل فى فاخر الثياب ممن يعوجون القضاء ليخدم مآربهم . . . أو أى رجل من هذا النوع — عندها يا بنى يتجلى على فطرته ثائراً هادراً كأنه شيطان رجيم »[٧٢] .

ويندد كارل برجال الدين لأنهم يتملقون السلطان ويعبدون صنم المال سراً ، « وخيرهم لايتردد فى أن يخون الثالوث الأقدس كله فى سبيل عشرة شواقل »[٧٣] .

ويدبر فرانتس فى غضون هذا ابلاغ الكونت فى رسالة كاذبة أن كارل مات . ويصبح فرانتس الوريث لثروة أبيه ، ويتقدم لخطبة أميليا التى تحب كارل حياً أو ميتاً . ويدس فرانتس السم لأبيه ، ويهدىء وخز ضميره بالإلحاد : « لم يثبت بعد أن فوق هذه الأرض عيناً ترقب كل ما يجرى عليها . . . ليس هناك إله »[٧٤] . ويسمع كارل بجرائم أخيه ، فيقود عصابته إلى قلعة الأب ويضرب حصاراً على فرانتس ، فيتضرع هذا إلى الله مستميتاً فى التماس العون ، فإذا لم يصله عون قتل نفسه . وتقدم أميليا نفسها لكارل شريطة أن يقلع عن حياة اللصوصية ؛ وهو تواق إلى هذا ، غير أن أتباعه يذكرونه بتعهده البقاء معهم حتى الموت . فيحترم تعهده ، وينصرف عن أميليا ؛ ولكنها تتوسل إليه أن يقتلها ، فيستجيب لها ، وبعد أن يرتب أن ينال عامل فقير المكافأة المرصودة للقبض عليه ، يستسلم للقانون وللمشنقة .

وهذا كله بالطبع هراء . فالشخوص والأحداث يستحيل تصديقها ،

والأسلوب منمق طنان ، والخطب لاتطاق ، والفكرة عن المرأة مثالية على نحو رومانسى . ولكنه هراء قوى . ذلك أن فينا كلنا تقريباً تعاطفاً خفياً مع أولئك الذين يتحدون القانون ؛ فنحن أيضاً نحس أنفسنا أحياناً وقد ضيقت علينا الخناق وأرهقتنا آلاف القوانين والأوامر التى تكبلنا أوتغرمنا وقد طال اعتيادنا على المنافع التى وهبنا إياها القانون حتى أننا لنأخذها قضايا مسلمة ؛ ونحن لا نشعر بتعاطف طبيعى مع الشرطة حتى نقع ضحية من ضحايا التمرد على القانون . ومن ثم وجدت التمثيلية المطبوعة قراء متحمسين واستحساناً حاراً ، ولم تمنع شكاوى الوعاظ والمشرعين ، الذين زعموا أن شيلر مجد الجريمة ، أحد النقاد من أن يحييه لأنه يعد بأن يصبح شكسبيراً « ألمانيا »[٧٥] ، ولا منعت المخرجين من أن يقترحوا إخراج المسرحية .

وعرض البارون فولفجانج هريبرت فون دالبرج أن يقدمها على المسرح القومى بمانهايم إذا وضع لها شيلر نهاية أسعد . ففعل : واقتضى التعديل أن يتزوج مور أميليا بدلا من أن يقتلها . وتسلل شيلر من شتوتجارت دون أن يستأذن الدوق كارل أو بجين قائده الحربى ليحضر العرض الأول للمسرحية فى ١٣ يناير ١٧٨٢ . وأقبل الناس من فورمز ودارمشتات وفرانكفورت وغيرها من المدن ليشهدوا التمثيل.ولعب أوجست افلاند دور كارل ، وكان من ألمع ممثلى الجيل ، وأبدى النظارة استحسانهم بالصياح والنشيج ، ولم تلق مسرحية ألمانية أخرى من قبل مثل هذا الاحتفاء[٧٦] ، وكانت قمة فى الحركة الزوبعية . وبعد المسرحية كرم الممثلون شيلر وتودد إليه ناشر من مانهايم ، وشق عليه أن يعود إلى شتوتجارت ويستأنف حياته جراحاً للفوج . وفى شهر مايو تسلل ثانية إلى مانهايم لشهد عرضاً آخر لمسرحية « اللصوص » ، وليناقش مع دالبرج الخطط لمسرحية ثانية . فلما أن عاد ثانية إلى فوجه ، وبخه الدوق وحظر عليه تأليف المزيد من التمثيليات .

ولم يقو على تقبل هذا الحظر . فى ٢٢ سبتمبر ١٧٨٢ هرب إلى مانهايم فى صحبة صديق يدعى أندرياس سترايشر . وهناك قدم لدالبرج تمثيلية جديدة سماها « مؤامرة فييسكو فى جنوه » . وقرأها على الممثلين ،

فحكموا بأنها هابطة هبوطاً مؤسفاً عن مستوى « اللصوص » ، وقال دالبرج أنه قد يخرج المسرحية إذا راجعها شيلر ، فعكف شيلر أسابيع على هذه المهمة ، ولكن دالبرج رفض حصيلة هذا الجهد . ووجد شيلر نفسه لا يملك فلساً . وأنفق سترايشر على إعاشته النقود التي ادخرها ليدرس الموسيقى في همبورج . فلما نفدت ، رحب شيلر بدعوة للإقامة في باورباخ في كوخ تملكه السيدة هنرييتا فون فولتسوجن . وهناك كتب تمثيلية ثالثة سماها « الدسيسه والحب » . ووقع في غرام الآنسة لوته فون فولتسوجن البالغة من العمر ستة عشر ربيعاً . ولكنها آثرت عليه منافساً في حبها . وظفرت « فييسكو » التي نشرت في غضون هذا بتوزيع جيد . وندم دالبرج ، وأرسل إلى شيلر دعوة ليكون كاتب التمثيليات المقيم لمسرح مانهايم براتب قدره ثلاثمائة فلورن في العام . فوافق (يوليو ١٧٨٣) .

ونعم شيلر بعام من السعادة القلقة رغم كثرة ديونه التي عجز عن سدادها ورغم ما أصيب به مرة من مرض خطير . وعرضت فييسكو على المسرح أول مرة في ١١ يناير ١٧٨٤ ، وقد أفسدها ما أصر عليه دالبرج من نهاية سعيده سعادة لا يمكن تصديقها ؛ ولم تثر المسرحية أي حماسة من النظارة . بيد أن « الدسيسة والحب » كانت أفضل بناء ، وأقل خطباً ، وأظهرت حساً متزايداً بالمسرح ، وقد رأى فيها البعض ، من وجهة النظر المسرحية ، أفضل المآسي الألمانية قاطبة[٧٧] . وبعد أن فرغ الممثلون من العرض الأول (١٥ أبريل ١٧٨٤) ضج النظارة بتصفيق صاخب حمل شيلر على أن يقوم من مقعده في إحدى المقصورات وينحني للجمهور .

كانت سعادته مفرطة قصيرة الأجل . ذلك أنه لم يكن بطبيعته صالحاً للتعامل مع الممثلين ، الذين كانوا على شاكلته تقريباً في عصبيتهم ؛ فقد قسا في الحكم على آدائهم ، ولامهم على عدم حفظ أدوارهم حفظاً دقيقاً[٧٨] . ولم يستطع أن يكمل تمثيلية ثالثة سماها « دون كارلوس » في الزمن المشروط . فلما أن قارب عقده « كاتباً للمسرح » الانتهاء في سبتمبر ١٧٨٤ رفض دالبرج تجديده . ولم يكن شيلر قد ادخر شيئاً ، فعاد من جديد يواجه الإملاق والدائنين الذين فرغ صبرهم .

فى هذه الفترة أو نحوها نشر بعض « الرسائل الفلسفية » التى تدل على أن الشكوك الدينية قد أضيفت إلى مشكلاته الاقتصادية . فهو لم يستطع تقبل اللاهوت القديم ، ومع ذلك اشمأزت روحه الشاعرة من الإلحاد المادى ، كذلك الذى عبر عنه دولباخ فى كتابه « مذهب الطبيعة » (١٧٧٠) . ولم يعد قادراً الآن على أن يصلى ، ولكنه كان يحسد القادرين على الصلاة ؛ وقد وصف فى إحساس بالخسارة الفادحة ذلك العزاء الذى يهبه الدين لآلاف النفوس فى ظروف الألم والحزن والاحتضار [٧٩] . على أنه احتفظ بإيمانه بحرية الإرادة » وبالخلود » وبإله مجهول ، بانياً هذا كله » كما بناه كانط ، على الوجدان الأخلاقى . وقد أعرب فى عبارة لاتنسى عن مبدأ المسيح الأخلاقى « حين أبغض أنتزع شيئاً من نفسى ، أما حين أحب فإننى أزيد ثراء بما أحب . والصفح معناه أن أتلقى ثروة فقدت . وكراهة البشر إنما هى انتحار بطىء »[٨٠] .

وسط هذه الظروف المعقدة جمل كرستيان جوتفريد كورنر حياة شيلر بصداقة من أروع الصداقات فى تاريخ الأدب . فنى يونيو ١٧٨٤ أرسل إلى شيلر من ليبزج رسالة تنم على الإعجاب الحار ، مشفوعة بصور له ، ولخطيبته منا شتوك » وأختها دوراً ، وخطيب دوراً لودفج هوبر ، ومحفظة جيب طرزتها منا . أما كورنر هذا فقد ولد فى ١٧٥٦ (قبل مولد شيلر بثلاثة أعوام) لراعى كنيسة القديس توماس التى قاد فيها باخ قبل جيل الكثير من الموسيقى الخالدة . وقد نال الشاب أجازته فى القانون وهو فى الحادية والعشرين ، وكان الآن مستشاراً لمجلس الكنيسة الأعلى فى درسدن . وأخر شيلر رده حتى ٧ ديسمبر ، إذ كان مرهقاً بمتاعبه وهمومه . ورد عليه كورنر يقول « نحن نقدم لك صداقتنا دون تحفظ ، فاحضر إلينا بأسرع ما تستطيع »[٨١] .

وتردد شيلر . وكان قد كون صداقات فى مانهايم » ووقع فى غرام العديدات ، لا سيما (١٧٨٤) شارلوته فون كالب ، التى تزوجت قبل

ذلك بعام واحد . وفى دارمشتات ، فى ديسمبر ١٧٨٤ ، التقى بالدوق كارل أوجست أمير ساكسى — فايمار ، وقرأ عليه الفصل الأول من « دون كارلوس » ، ونال لقب ▬ أو المستشار الفخرى ، ولكن لم يصمله أى عرض بمكان فى سماء فايمار . ومن ثم فقد قرر أن يقبل دعوة كرونر لليبزج . وعليه ، ففى ١٠ فبراير ١٧٨٥ أرسل إلى المعجب الذى لم يعرفه بعد نداء عاطفياً يظهره قريباً من نقطة الانهيار .

«فى الوقت الذى يهرع فيه نصف سكان مانهايم إلى المسرح . . . أطير إليكم أيها الأصدقاء الأعزاء . . . فمنذ أن تلقيت خطابكم الأخير لم تبرحنى قط الفكرة بأننا مخلوقون بعضنا لبعض ، لا تسيئوا الظن بصداقتى إذ تبدو متعجلة بعض الشىء . فالطبيعة تطرح الكلفة فى رضاها عن بعض الكائنات . والنفوس النبيلة ترتبط بخيط رقيق كثيراً ما يتبين أنه طويل البقاء .

« فإذا ما التمستم العذر لرجل تدفىء قلبه أفكار عظيمة ولكنه لم ينجز غير أفعال صغيرة ؛ رجل لايستطيع إلى الآن إلا أن يحدس من حماقاته أن الطبيعة رصدته لشىء ما ، ويطالب بالحب الذى لاحدود له ، وهو مع ذلك يجهل ما فى وسعه أن يقدمه رداً على هذا الحب ؛ ولكنه رجل يستطيع أن يحب شيئاً ما يتجاوز شخصه ، ولا يعذبه شىء كرؤيته نفسه بعيداً كل البعد من أن يكون ما يشتهى أن يكونه ؛ أقول إذا تطلع رجل هذه طبيعته إلى صداقتكم فإن صداقتنا ستكون أبدية ، لأننى أنا ذلك الرجل . فلعلكم ستحبون شيلر ، حتى إن كان تقديركم للشاعر قد تضاءل » .

وقد توقف عن إكمال هذا الخطاب ، ولكنه استأنفه فى ٢٢ فبراير :

« لاأستطيع المقام بعد اليوم فى مانهايم . . . فلا بد لى من زيارة ليبزج والتعرف إليكم . إن نفسى متعطشة لغذاء جديد — لناس أفضل — للصداقة ، والمودة ، والمحبة . لا بد أن أكون قريباً منكم ، وبفضل حديثكم وصحبتكم ستنتعش روحى الجريحة . . . يجب أن تهبونى حياة جديدة ، وسأصبح خيراً مما كنت فى أى وقت مضى . سأكون سعيداً — إننى لم أنعم بالسعادة قط إلى الآن . . أتراكم ترحبون بمقدمى ؟ » [82] .

ورد كورنر فى ٣ مارس يقول « سنستقبلك بأذرع مفتوحة » ثم نقد ج. ى. جوشن الناشر الليبزجى بعض المال ليرسل إلى شيلر مقدم أتعابه عن مقالات مستقبله [٨٣] . فلما أن وصل الشاعر إلى ليبزج (١٧ مارس ١٧٨٥ كان كورنر غائباً فى درسدن ؛ ولكن خطيبته ، وأختها ، وهوبر ، ادفأوا شيلر بالطعام والحفاوة البالغة . وأحبه جوشن لتوه ، وكتب يقول « لا أستطيع أن أصف لك مبلغ عرفان شيلر واستجابته حين تبذل له النصيحة الناقدة ، ومبلغ جهاده فى سبيل تطوره الخلق » [٨٤] .

والتقى كورنر بشيلر أول مرة فى ليبزج فى أول يوليو ، ثم قفل إلى درسدن . وكتب إليه شيلر يقول « لقد جمعت السماء بيننا بطريقة عجيبة ، وصداقتنا معجزة . » ولكنه أردف أنه أشرف على الإفلاس من جديد [٨٥] . فبعث إليه كورنر بالمال ، والطمأنينة ، والنصيحة :

« إن كنت فى حاجة إلى المزيد فاكتب لى وسأرسل لك أى مبلغ برجوع البريد . أننى لو كنت ذا ثراء طائل ، وكان فى استطاعتى . . . أن أرفعك فوق العوز والحاجة لضروريات الحياة فى يوم من الأيام ، لما جرؤت على أن أفعل هذا ، فأنا عليم بأنك قادر على كسب ما يفى بكل حاجاتك بمجرد أن تشرع فى العمل . ولكن اسمح لى — على الأقل سنة واحدة — بأن أعفيك من ضرورة العمل . فنى استطاعتى أن أدبر هذا دون إعسار ، وفى استطاعتك أن ترد لى المال إن شئت حين تسمح بذلك ظروفك » [٨٦] .

وزاد من قدر هذا الجود أن كورنر كان يجهز نفسه للزواج . وزف العروسان بدرسدن فى ٧ أغسطس ١٧٨٥ . وفى سبتمبر لحق بهما شيلر وعاش معهما ، أو على حسابهما ، حتى ٢٠ يوليو ١٧٨٧ . فى هذه الفترة أو نحوها — ربما وسط سعادة العروسين — كتب أشهر قصائده « أغنية للفرح » التى أصبحت تاج السمفونية التاسعة . وكلنا يعرف ميلودية بيتهوفن المؤثرة ، ولكن القليلين منا ، خارج ألمانيا ، من يعرفون كلمات شيلر . وقد بدأت بنداء للمحبة الشاملة ، وانتهت بدعوة للثورة :

أيتها الفرحة المنبثقة من لهب سماوى
يا ابنة الفردوس ،
إننا نقبل إلى هيكلك
ملتهبين بتلك النار المقدسة .
أنت صاحبة التعاويذ التى وحدت
من باعدت التقاليد الرهيبة بينهم ،
كل الناس يصبحون أخوة
حيث يمتد جناحاك الرفيقان .

الكورس : نحن نجمع الملايين بين أحضاننا ،
ونرسل قبلتنا إلى الدنيا بأسرها !
أيها الأخوة ، ان وراء السماء المرصعة بالنجوم
يسكن أب محب .
من جرب النعيم المقيم
فى صداقة الأصدقاء ،
ومن ظفر بعذراء محبوبة
ليشاركنا فى ابتهاجنا .
ومن سبى قلبا
يملكه دون الناس أجمعين —
ومن أخفق ، فليتصرف
عن جماعتنا باكيا .

الكورس : كل ساكن للكون الكبير
يقدم الإجلال للمحبة
وهى تتقدم الطريق إلى النجوم
حيث يملك الآله المجهول .
إن القلوب الباسلة الرازحة تحت الآلام
تمد يد العون حيثما يبكى الأبرياء .
والعهد الذى لا يخذل أبدا

والوفاء للصديق والعدو !
وتحدى الملوك ، والروح الجريئة ،
وإن كلفتنا المال والدم أيها الأخوة ،
التيجان لأشرف مستحقيها
والموت لكل سلالة الكذابين !

الكورس : اقفل الدائرة المقدسة
وأقسم بالخمرة الذهبية !
أقسم بالوفاء بهذه العهود المقدسة
أقسم برب الفلك .

وظل كورنر يعول شيلر عامين أملا فى أن يصوغ الشاعر فى شكل لائق تلك المسرحية التى قصد بها تصوير الصراع بين فليب الثانى وابنه كارلوس ، ولكن شيلر طال توانيه وتسويفه للتمثيلية حتى فقد المزاج الذى بدأها به ، ولعل ازدياد اطلاعه على التاريخ غير نظرته إلى فليب ، ومهما يكن الأمر ، فقد غير الحبكة حتى افتقدت الوحدة والتسلسل . وفى غضون هذا (فبراير ١٧٨٧) وقع فى غرام هنرييتا فون أرنيم ، واستهلكت الخطابات الغرامية مداد قلمه ، بينما كانت هى تتصيد خطيباً أغنى منه . وأقنع كورنر شيلر بأن يعتكف فى إحدى الضواحى حتى يفرغ من مسرحيته . وأخيراً تمت (يونيو ١٧٨٧) ، وعرض مسرح همبورج أن يخرجها . وانتعشت معنوية شيلر وكبرياؤه ، فلعله الآن يرى جديراً بالانضمام إلى كوكبة الأدباء المتألقة حول الدوق كارل أوجست ، أما كورنر الذى تنفس الصعداء فقد وافقه على أنه ليس للشاعر مستقبل فى درسدن . ثم إن شارلوته فون كالب كانت فى فايمار ، بغير زوج ، تغريه بالمجىء . وعليه ، ففى ٢٠ يوليو ، وبعد الكثير من عبارات الوداع ، ركب شيلر منطلقاً من درسدن إلى حياة جديدة . فوصل فايمار فى الغد ، وهكذا اكتمل عقد الزمرة العظمى .

الفصل الثالث والعشرون

فايمار إبان ازدهارها

١٧٧٥ – ١٨٠٥

١ – تتمة لفيلاند : ١٧٧٥ – ١٨١٣

حين رأى مونتسارات فيلاند فى مانهايم عام ١٧٧٧ قال فى وصف وجهه أنه « قبيح إلى حد مخيف ، تغشاه ندوب الجدرى ، وله أنف طويل ، . . . وفيما خلا هذا فهو . . . رجل موهوب جداً . . . والناس يحدقون فيه كأنه قد هبط من السماء» (١) . وقد كرهه طيور النوء الهائجون أنصار الحركة « الزوبعية » لأنه سخر من انتشاءاتهم المتمردة ، أما فايمار فأحبته لأنه لطف نقده اللاذع بالكياسة وبغفران عام للنوع الإنسانى ، ولأنه احتمل فى رضى تفجر النجوم الجديدة مراراً فى سماء الأدب بينما كان فى استطاعته أن يدعى لنفسه مكان الصدارة . وقد خلد جوته ذكره فى سيرته الذاتية بشعور العرفان بصنيعه (٢) . أما شيلر فقد خاله فى أول لقاء بينهما مغروراً محزوناً ، ولكن « الموقف الذى اتخذه منى للتو يدل على الثقة والحب والتقدير» (٣) .

وقال الشاعر الكبير للشاعر الفتى « سنفتح عما قليل قلبينا الواحد للآخر ، وسيساعد كل منا صاحبه بدوره » (٤) . وقد أثبت وفاءه بهذا الوعد . « إننى وفيلاند نتقارب أكثر كل يوم . . . ولا تفوته مناسبة لا يذكرنى فيها بكلمة طيبة » (٥) .

وقد وفق فيلاند فى منافسته للوافدين الجدد بإصداره فى ١٧٨٠ رواية شعرية اسمها « أوبرون » تحكى قصة فارس تنقذه عصا أمير الجان السحرية من مائة جنية ومن شراك مفاتن ملكة اشتدت بها حرارة العشق . وحين

اضطر جوته إلى الجلوس لمصور يرسم صورته وأراد أن يقعد ساعة دون حركة ، طلب إلى فيلاند أن يقرأ عليه أجزاء من هذه الملحمة . يقول فيلاند « لم أشهد قط إنساناً سعد بعمل إنسان آخر كما سعد جوته » [٦] . وقد ترجم جون كوينسى آدمز القصيدة وهو سفير الولايات المتحدة فى بروسيا فى ١٧٩٧ — ١٨٠١ ، واقتبس منها جيمس بلانشيه نص أوبرا فيبر (١٨٢٦) .

واحتوى عدد مارس ١٧٩٨ من مجلة فيلاند « الرائد الألمانى الجديد» مقالة يحتمل أنها بقلم فيلاند — تنبأت بالأحداث المقبلة على نحو يلفت النظر . فقد لاحظت الفوضى التى تردت فيها فرنسا منذ ١٧٨٩ ، وأوصت بتعيين دكتاتور لها ، كما وقع فى الأزمات التى تعرضت لها روما الجمهورية ؛ ورشحت بونابرت الشاب ، الذى كان يواجه المتاعب يومئذ فى مصر ، بوصفه صالحاً لهذه المهمة بشكل واضح . وحين فتح نابليون ألمانيا فعلا التقى بفيلاند فى فايمار وفى ايرفورت (١٨٠٨) ، وتحدث معه فى أدب اليونان والرومان وتاريخهم ، وكرمه فيمن كرم من الكتاب الألمان بوصفه أعظمهم بعد جوته [٧] .

وفى ٢٥ يناير ١٨١٣ كتب جوته فى يوميته « دفن فيلاند اليوم » ثم أنهى النبأ إلى صديق فى كارلسباد قائلا : « لقد تركنا صديقنا الطيب فيلاند . فى ٣ سبتمبر احتفلنا كما ألفنا كل عام بعيد ميلاده الثمانين بمظاهر الابتهاج . لقد كان فى حياته توازن بديع بين الهدوء والنشاط . فلقد اسهم بقدر هائل فى ثقافة الأمة العقلية فى ترو وأناة ملحوظين ، دون أى نضال مشبوب أو صراخ عال » [٨] .

٢ — هردر والتاريخ : ١٧٧٧ — ١٨٠٣

كتب شيلر فى يوليو ١٧٨٧ « لقد تركت هردر لتوى . . . أن حديثه رائع ، ولغته دافقة قوية ، ولكن مشاعره يراوحها الحب والكره » [٩] .

وكانت واجبات هردر فى فايمار متنوعة ، فلم تتح له متسعاً من الوقت للتأليف . فكان بصفته قسيساً خاصاً للدوق يقوم بواجبات الهاد ، والتثبيت

فى الإيمان ، وعقد الزيجات والإشراف على الجنازات لأسرة الدوق وبلاطه ، وبصفته المراقب العام للدوقية كان يشرف على سلوك الأكليروس وتعييناتهم ، ويحضر اجتماعات مجلس الكنيسة ويلقى عظات فيها من سلامة العقيدة القدر الذى تسمح به شكوكه الخاصة . وكانت مدارس الدوقية تحت إدارته ، فأصبحت نموذجاً تحتذيه ألمانيا كلها . هذه المسئوليات مضافاً إليها ناسوره وسوء صحته عموماً ، جعلته سريع الغضب وصبغت حديثه بين الحين والحين بما سماه جوته « اللدغة الخبيثة » [١٠] . وقد ظل ثلاث سنين (١٧٨٠ — ٨٣) هو وجوته يتجنب أحدهما صاحبه ؛ وقد أنكر الدوق بعض عظات هردر . قال جوته « بعد عظة كهذه لم يبق أمام أى أمير إلا الاعتزال » [١١] . وقال فيلاند اللطيف الطبع معلقاً فى ١٧٧٧ « وددت لو قام بينى وبين هردر اثنا عشر هرماً » [١٢] . وتعلمت فايمار أن تلتمس المعاذير « الاكلينيكية » لقسيسها الشبيه بدين سويفت ، وردت زوجته اللطيفة كارولينه على بعض لدغه . وفى ٢٨ أغسطس ١٧٨٣ اغتنم جوته اتفاق وقوع عيد ميلاده وعيد ميلاد ابن هردر البكر فى يوم واحد ليدعو آل هردر للعشاء . واصطلح عضو المجلس الخاص والمراقب العام ، وكتب جوته يقول ان « السحب الكئيبة التى فرقت بيننا طويلا قد انجلت ، وإلى الأبد فى اعتقادى » [١٣] . وبعد شهر أضاف « لست أعرف رجلا أنبل قلباً أو أسمح وروحاً » [١٤] ، وذكر شيلر فى ١٧٨٧ أن « هردر شديد الإعجاب بجوته — بل هو يكاد يعبده » . [١٥] وأصبح فيلاند وهردر فى الوقت المناسب صديقين متفاهمين [١٦] ، وكان هذان « لا جوته ولا شيلر ، هما اللذين قادا الحديث فى صالون آنا أماليا واكتسبا قلب الدوقة الأرملة » [١٧] .

وواصل هردر وسط واجباته الإدارية البحث فى الشعر البدائى ، وجمع عينات منه من نيف وعشرة شعوب ، ومن أورفيدس إلى أوسيان ، ونشرها فى « مختارات سماها Volksliede « أغانى شعبية » (١٧٧٨) أصبحت ينبوعاً من ينابيع الحركة الرومانتيكية فى ألمانيا . وبينما كان جوته يتهيأ لعودة إلى المثل والأشكال والأساليب الكلاسيكية ولضبط العقل للعاطفة ، كان هردر يشير بالانتفاض على عقلانية القرن الثامن عشر وشكلية القرن السابع عشر والعودة إلى إيمان العصر الوسيط وأساطيره وأناشيده وأساليب حياته .

وفى ١٧٧٨ عرضت الأكاديمية البافارية جائزة لأفضل مقال « فى آثار الشعر فى عادات الأمم وأخلاقها » . وفاز مقال هردر ونشرته الأكاديمية فى ١٧٨١ . وقد تتبع المقال ما رآه المؤلف تدهوراً للشعر بين العبرانيين واليونان والأوربيين الشماليين، من التعبير الملحمى المبكر عن التاريخ والمشاعر والأفكار الشعبية فى إيقاعات طليقة فياضة، إلى تدريب « مصقول » ومدرسى « بعد المقاطع ، ويلوى القوافى ، ويقلص القواعد ، ويضيع حيوية الشعب وسط مظاهر الافتعال المميته التى تشوب حياة الحضر . وزعم هردر أن النهضة الأوربية قد انتزعت الأدب من الشعب وحبسته بعيداً فى قصور الملوك والأمراء » وأن الطباعة قد احلت الكتاب محل المنشد الحى . وفى مقال آخر « فى روح الشعر العبرى» (١٧٨٣) اقترح هردر قراءة سفر التكوين على أنه شعر لا علم ، وكان قد تمكن من العبرية بجهده الخاص ؛ وألمع إلى أن شعراً كهذا يستطيع أن يحمل بالرمزية من الحقيقة قدر ما يحمله العلم بـ « الواقع » .

ولقد كافح إيمانه الدينى للصمود رغم سعة اطلاعه على الكتب العلمية والتاريخية . فنى عامه الأول فى فايمار اشتبه بعضهم فى أنه ملحد ، حر الفكر ، سوسينى ، صوفى [١٨] . وكان قد قرأ أجزاء « مخطوطة فولفنبوتل » لريماروس ، التى نشرها ليسنج » وتأثر بها تأثراً كفى لتشكيكه فى لاهوت المسيح [١٩] . ولم يكن ملحداً ، ولكنه وافق على وحدة الوجود التى قال بها سبينوزا . قال لياكوبى فى ١٧٨٤ « لست أتبين إلها من وراء العالم المادى» [٢٠] وقد حذا حذو ليسنج فى دراسة سبينوزا والدفاع عنه ، « يجب أن أعترف أن هذه الفلسفة تسعدنى جداً » [٢١] . وقد كرس لسبينوزا الفصول الأولى من رسالة عنوانها « أحاديث عن الله » (١٧٨٧) ، فنى هذا البحث فقد الله صورته الذاتية وأصبح قوة الكون وروحه ، الذى لا سبيل إلى معرفته إلا فى نظام العالم والوعى الروحى للإنسان [٢٢] . على أن هردر فى دراساته الموجهة إلى الأكليروس قبل الصفة الخارقة لمعجزات المسيح، وخلود النفس [٢٣] .

ثم جمع العناصر المتفرقة لفلسفته وجعل منها كلا منسقاً نسبياً فى رائعة ضخمة سماها فى تواضع « أفكار نحو فلسفة فى تاريخ الإنسان » ، وهى

كتاب من كتب القرن الثامن عشر البزرية الخطيرة . صدر فى أربعة أجزاء فى ١٧٨٤ و ١٧٨٧ و١٧٩١ . وإشراف مشروع ضخم كهذا على التمام وسط مسئوليات هردر الرسمية يقوم شاهداً على الخلق القوى والزوجة الصالحة . وآية ذلك ما كتبه هردر إلى هامان فى ١٠ مايو ١٧٨٤ : « لم أؤلف طوال حياتى كتاباً كهذا وانا نهب للكثير من المتاعب وأسباب الإرهاق من الداخل ودواعى الإزعاج من الخارج ، بحيث أستطيع القول إنه لو لا أن زوجتى ، التى هى « المؤلف الحقيق » لكتبى ، ولولا جوته الذى نظر مصادفة فى الجزء الأول — أقول لولا أنهما لم يفترا عن تشجيعى وحثى ، لظل كل شىء فى مثوى الكائنات التى لم تر النور »[٢٤] .

ويستهل الجزء الأول بقصة للخليقة « دنيوية فى صراحة ، مبنية على الفلك والجيولوجيا المعروفين ، دون لجؤ للكتاب المقدس إلا بوصفه شعراً . وقد زعم أن الحياة لم تنشأ من المادة « لأن المادة ذاتها حية . والجسم والعقل ليسا جوهرين منفصلين متضادين . إنما هما صورتان لقوة واحدة « وكل خلية فى كل جسم حى تحتوى الصورتين إلى حد ما . وليس هناك قصد خارجى يمكن رؤيته فى الطبيعة ، ولكن هناك قصداً باطنياً — هو « التصميم الكامل « والباعث لكل بذرة أن تتطور إلى كائن نوعى بكل ما لها من أجزاء معقدة مميزة . وهردر لا يقول بأن الإنسان تطور من الحيوانات الدنيا ، ولكنه يراه عضواً فى المملكة الحيوانية « يناضل كغيره من الكائنات للطعام والبقاء . وقد أصبح الإنسان إنساناً باتخاذه القامة المنتصبة ، مما طور فيه جهازاً للحس قائماً على البصر والسمع لا على الشم والذوق ؛ فغدت قوائمه الأمامية أيدى ، حرة فى القبض ، والاستعمال ، والاحتواء ، والتفكير . وأسمى ثمرات الله أو الطبيعة هو الذهن الواعى « الفعال بتفكير وحرية ، المكتوب له الخلود .

ويبدأ الجزء الثانى من « الأفكار » بفرض يزعم أن الإنسان بطبيعته خير ، ويجدد القول بالتفوق والسعادة النسبيين للمجتمعات البدائية ، ويستنكر الفكرة الكانطية — الهيجلية فيما بعد — التى تزعم أن الدولة هى هدف التطور البشرى . وقد احتقر هردر الدولة كما عرفها . كتب يقول « فى الدول العظمى لابد

أن يتضور المئات جوعاً لكى يزهو فرد واحد ويتقلب فى النعيم ؛ أن عشرات الألوف يظلمون ويساقون إلى الموت لكى يستطيع أحمق أو عاقل متوج واحد أن يحقق حلمه »[٢٥] .

وفى الجزء الثالث امتدح هردر أثينا على ديمقراطيتها النسبية التى أتاحت للحضارة أن تنتشر فى كثير من طبقات السكان . أما روما التى أقامت ثراءها على الفتح والرق فقد طورت حضارة ضيقة خلفت الشعب فى الفقر والجهل . فى هذا التاريخ كله لم ير هردر أى « عناية إلهية » ، فهو أشر من أن يكون من عند الله . فالله ، الواحد مع الطبيعة « يدع الأمور تجرى فى أعنتها وفق القانون الطبيعى وغباوة البشر . ومع ذلك فبحكم صراع البقاء ذاته ينبعث بعض التقدم من الفوضى ؛ فيطور العون المتبادل ، والنظام الاجتماعى ، والأخلاق « والقانون ، كوسائل للبقاء » ويتحرك الإنسان فى بطء صوب إنسانية رحيمة . لا لأن هناك خطاً متصلا للتقدم ، فهذا غير ممكن ، لأن كل حضارة قومية هى كيان فريد « له طابعه المتأصل ، ولغته ، ودينه » وناموسه الخلقى ، وأدبه وفنه » وكل حضارة — شأنها شأن أى كائن حى — إذا استثنينا ما يطرأ عليها من حوادث عارضة — تنحو للنمو إلى نهايتها القصوى الطبيعية ، التى تضمحل بعدها وتموت . وليس هناك ضمان لتفوق الحضارات اللاحقة على السابقة ، ولكن اسهامات كل حضارة تنقل على نحو أفضل إلى الحضارات التى تخلفها . وهكذا ينمو التراث الإنسانى .

والجزء الرابع يمتدح المسيحية أما للمدنية الغربية . فالبابوية الوسيطة حققت هدفاً نافعاً يكبحها استبدادية الحكام والنزعة الفردية للدول ؛ والفلاسفة المدرسيون ، وان نسجوا نسيجاً واهياً أجوف بألفاظ ثقيلة ، إلا أنهم أرهفوا أدوات العقل ولغته . وجامعات العصر الوسيط جمعت وحفظت ونقلت الكثير من ثقافة اليونان والرومان ، بل بعض علوم العرب والفرس وفلسفتهم . وهكذا أصبح المجتمع الفكرى أكبر عدداً وأرهف حساً من أن يقوى عليه سدنة السلطة . وتحطمت أغلال العرف ، وأعلن العقل الحديث تحرره .

وحقق هردر فيما بين الجزئين الثالث والرابع من « الأفكار» حلمه الذى طال تأجيله برؤية إيطاليا . ذلك أن يوهان فريد ريش هوجو فون ذالبرج، المستشار الكاثوليكى الخاص لرئيس أساقفة ترير الناخب » دعا هردر ليصحبه فى رحلة كبرى تدفع له فيها كل نفقاته . وأذن له دوق ساكسى — فايمار » وكارولينه ، بالغياب ؛ فغادر فايمار فى ٧ أغسطس ١٧٨٨ . فلما لحق بدالبرج فى أوجزبرج وجد أن خليلة دالبرج عضو هام فى الجماعة . واجتمع على هردر وجودها ومطالبها » وسوء صحته ، لتنغص عليه رحلته . وفى أكتوبر وصلت آنا أميليا إلى روما . فترك هردر دالبرج وانضم إلى بطانتها . وقد استلطف انجليكا كاوفمان استلطافاً أكثر مما ترضى عنه كارولينه، وأسرفت رسائل كارولينه فى الكلام عن جوته والميل إليه . وعاد هردر لدغه ؛ وكان قد سمع أنباء عن حياة جوته فى روما . وكتب يقول « ان رحلتى هنا كشفت لى لسوء الحظ عن حياة جوته الأنانية على نحو أوضح مما كنت أتمنى ، وهى حياة فى صميمها لاتعبأ بالغير على الإطلاق . إنه لايملك غير هذا ، فلندعه وشأنه إذن . . » [٢٦] .

وعاد إلى فايمار فى ٩ يوليو ١٧٨٩ . وبعد خمسة أيام سقط الباستيل ، وغير هردر خططه فى التأليف . فأكمل الجزء الرابع من «الأفكار » ، ثم نحى الكتاب جانباً ، وكتب بدلا منه « رسائل لتقدم الإنسانية (١٧٩٣ — ٩٧) . وقد بدأها بتقريظ حذر للثورة الفرنسية ، ورحب بانهيار الإقطاع الفرنسى ، ولم يذرف دموعاً على علمنة الكنيسة الكاثولوليكية فى فرنسا [٢٧] ، وحين انطلق الدوق وجوته لمواجهة الفرنسيين عند فالمى ، وعادا يجرران أذيال الهزيمة ، حبس هردر هذه « الرسائل » الأولى ، وخصص الباقى للثناء على الموتى من العباقرة الذين لا خوف من الثناء عليهم .

ولم يفقد فى شيخوخته شيئاً من لذة الصراع الفكرى . فقابل نقد كانط لكتاب « الأفكار » بهجوم حاد على « نقد العقل الخالص » . ووصف الكتاب بأنه تلاعب رهيب بالألفاظ الميتافيزيقية الأشباح ، مثل « الأحكام التركيبية القبلية » ، وأنكر ذاتية المكان والزمان ، واتهم كانط بأنه أعاد إلى علم النفس فكرة الملكات ، التى زعم الفلاسفة

المدرسيون أن العقل ينقسم إليها . ثم المع ، فى تنبئو ، إلى أن الفلسفة قد تختط طريقاً جديداً بالتحليل المنطقى للغة—لأن الاستدلال ما هو إلا حديث باطنى .

وقد وافق جوته إلى حد كبير على نقد هردر لكانط ، ولكن هذا لم يعصمه من لدغة نصيبه منه بين الحين والحين . فحين أقام كلاهما تحت سقف واحد فى يينا عام ١٨٠٣ قرأ جوته على جماعة كان هردر واحداً منها أجزاء من مسرحيته الجديدة « الإبنة الطبيعية » (أى غير الشرعية) . وأثنى هردر على المسرحية للآخرين ، ولكن حين سأله المؤلف رأيه لم يستطع مقاومة الرد بتورية عن الصبي الذى ولدته خليلة جوته فقال : « انى أحب ابنك الطبيعى أكثر من ابنتك الطبيعية » ولم يستطب جوته الدعابة . وبعد ها لم يلتق الرجلان قط . واعتكف هردر فى خلوة بيته بفايمار ، ومات هناك فى ١٨ ديسمبر ١٨٠٣ — قبل شيلر بعامين ، وقبل فيلاند بعشرة ، وقبل جوته بتسعة وعشرين ودفن بأمر الدوق كارل أوجست — الذى كثيراً ما ضايقه هردر — بمراسم التكريم الكبير فى كنيسة القديسين بطرس وبولس.

٣ — جوته عضو المجلس الخاص

١٧٧٥ — ٧٦

لقى جوته فى فايمار ترحيباً من الجميع إلا السياسيين . كتب فيلاند إلى لافاتر فى ١٣ نوفمبر ١٧٧٥ « لابد لى من انبائك بأن جوته معنا منذ الثلاثاء الماضى ، وأنه لم تنقض ثلاثة أيام حتى شعرت بمحبة عميقة لهذا الشخص الرائع — فأنا أنفذ إلى أعماقه وأحسه وأفهمه تماماً — على نحو تستطيع أن تتخيله أفضل كثيراً مما أستطيع أن أصفه» [٢٨] . وفى الشهر نفسه كتب أحد رجال الحاشية إلى والدى جوته يقول « فكرا فى ابنكما كأوثق صديق لدوقنا العزيز ، . . . وهو محبوب إلى حد العبادة أيضاً من جميع السيدات من فضليات النساء فى هذه المنطقة »[٢٩] .

بيد أن سماء فايمار لم تخل من غيوم . ذلك أن الدوق كان يستطيب الصيد العنيف والإفراط فى الشراب ، وقد صاحبه جوته فيهما جميعاً أول الأمر ،

فاتهم كلوبشتوك الشاعر علانية بأنه يفسد أميراً فاضلا . وخشيت لويزه أن يقصى جوته زوجها عنها ، مع أن حقيقة الأمر أنه استخدم تأثيره ليرد الدوق إلى الدوقة رغم أن زواجهما لم يكن زواج حب . وتشكك بعض الموظفين في جوته باعتباره تابعاً متطرفاً من اتباع الحركة « الزوبعية » ذا معتقدات وثنية وأحلام رومانسية . وهجم على فايمار عدد من أنصار تلك الحركة — لنتز ، وكلنجو ، وغيرهما — وقدموا أنفسهم باعتبارهم أصدقاء جوته ، وطالبوا بالغنيمة . وحين استلطف جوته بيتا ذا حديقة خارج بوابة المدينة ولكنه قريب من قلعة الدوق — أفقد كارل أوجست جوته بعض عطف الرأى العام بإخلائه شاغلى البيت تمكيناً لجوته من الانتقال إليه (٢١ أبريل ١٧٧٦) . هناك تخفف الشاعر من مراسم البلاط ، وتعلم كيف يزرع الخضر والأزهار . وظل ثلاثة أعوام يسكن البيت على مدار السنة ، ثم فى الصيف فقط حتى ١٧٨٢ ، حين انتقل إلى قصر فسيح فى المدينة لينصرف إلى واجباته المتزايدة بصفته عضواً فى الحكومة .

كان الدوق قد فكر فيه شاعراً ، ودعاه إلى فايمار ليكون كوكباً من كواكب الأدب فى بلاطه . ولكنه رأى أن مؤلف مسرحية ثائرة ورواية غرامية باكية ، هذا الكاتب الذى ناهز السادسة والعشرين ، أخذ يصبح رجلا ذا حكم عملى سديد . وعليه فقد عين جوته فى « مكتب للأشغال » ، وطلب إليه أن ينظر فى حالة المناجم فى المينا وفى تشغيلها . وقام جوته بالمهمة بهمة وذكاء حملا كارل أوجست على التصميم على ضمه للمجلس الخاص الذى يدير شئون الدوقية . واحتج عضو قديم على تدفق الشعر على المجلس على هذا النحو الفجائى ، وهدد بالاستقالة . ولكن الدوق والدوقة الأرملة هدءا ثائرته ، وفى ١١ يونيو ١٧٧٦ أصبح جوته « عضو المجلس المختص بالتفويض الدبلوماسى» براتب سنوى قدره ألف ومائتا طالر . فقلل من مغازلاته للسيدات . وقد كتب فيلاند لمرك فى ٢٤ يناير يقول « منذ أمد طويل ، من اللحظة التى قرر فيها أن يكرس نفسه للدوق وشئون الدوق ، راح يسلك بحكمة مبرأة من الخطأ وبحذر الرجل الخبير بأمور الدنيا » (٣٠) . وفى ١٧٧٨ رقى إلى منصب وزير الحرب ، وكان يومها

منصباً هادئاً ، ثم إلى العضوية الكاملة للمجلس الخاص فى ١٧٩٩ . وقد حاول بعض الإصلاح ، ولكنه وجد نفسه معوقاً بالمصالح المكتسبة فى القمة ، واللامبالاة العامة فى القاعدة ، وما لبث هو نفسه أن بات محافظاً تام المحافظة . وفى ١٧٨١ عين رئيساً لغرفة اللوقية . وفى ١٧٨٢ خلع عليه يوزف الثانى براءة النبالة ، وغدا « فون » جوته . قال لأكرمان بعد خمسة وأربعين عاماً « فى تلك الأيام كنت أشعر بغاية الرضى عن نفسى بحيث انى لوكنت رقيت أميراً لما وجدته تغييراً ذا بال » (٣١) .

وامتزجت بمستقبله السياسى قصة غرام كانت أبقى وأحر وآلم حب فى حياته . استمع إلى وصف الدكتور يوهان تسمرمان لإحدى مرضاه وصفاً لا يمت إلى الطب بسبب فى نوفمبر ١٧٧٥ .

« ان للبارونه فون شتين ، زوجة البارون ورئيس الخياله ، عيوناً نجلاء سوداء رائعة الجمال . وصوتها رقيق خافت . ولا يفوت أحداً أن يلحظ على وجهها سمات . . . الرزانة ، ودماثة الطبع ، واللطيف . . . والفضيلة ، والحساسية العميقة . أن آداب السلوك فى البلاط ، التى تملك ناصيتها إلى حد الكمال ، تحولت فيها إلى بساطة رفيعة نادرة . وهى نقية جداً ، ذات سمو روحى مؤثر يكاد يبلغ حد النشوة . ولا يستطيع المرء من مشيتها الأنيقة ومهارتها فى الرقص التى تقرب من مهارة المحترفين ان يستشف نور القمر الهادىء المطمئن . . . الذى يملأ قلبها بالسلام . أنها فى الثالثة والثلاثين ، ولها عدة أطفال . وأعصابها ضعيفة . ووجنتاها ورديتان ، وشعرها فاحم ، وبشرتها . . . إيطالية اللون » (٣٢) .

وقد ولدت شارلوته فون شارت فى ١٧٤٢ ، وتزوجت البارون يوسياس جوتلوب فون شتين فى ١٧٦٤ . وفى ١٧٧٢ بلغ مجموع ما أنجبت من أطفال سبعة ، مات منهم أربعة . وحين التقى بها جوته كانت لاتزال تعانى من الحمل المتكرر ، وامتزج إحساسها بالضعف بما فطرت عليه من تواضع وحياء . ورفعها جوته فى خياله إلى السماء ، ولا غرو فقد كان فيه دم شاب وخيال شاعر ، ألف تجميل الواقع ونيط به هذا التجميل ، ومع ذلك لم يجاوز

ما قاله طبيبها فى تمجيدها . فقد كانت شيئاً جديداً فى بستان وروده النسائية : كانت ارستقراطية ، كأنما ركب السلوك المهذب فى فطرتها ، ورآها جوته كأنها من النفائس المذخورة فى قدس النبالة . وكان من ثمرات علاقتهما أنها نقلت إليه آداب طبقتها ، وعلمته ضبط النفس ، والطبيعية ، [و]الاعتدال ، والمجاملة . وكانت شاكرة حبه إياها لأنه رد إليها اهتمامها بالحياة ، ولكنها قبلت هذا الحب كما تقبل امرأة كريمة المربى إعجاب فتى يصغرها بسبع سنين — باعتباره آلام النمو لروح متشوف يبحث عن التجربة وتحقيق الذات .

ولم يكن حباً من أول نظرة ، فبعد أن انضم إلى زمرة فايمار بستة أسابيع كان لايزال يقرض الشعر عن « الجميلة للى» شونمان [٣٣] . ولكن فى ٢٩ ديسمبر ١٧٧٥ ، لاحظ الدكتور تسمرمان تنبه جوته إلى « فضائل ومفاتن جديدة فى شارلوته » . وما حل ١٥ يناير حتى كان يحاول مقاومة افتتانه الوليد بها ، فقال لها « انى مسرور لأنى أبعد عنك وأفطم نفسى منك » ، ولكن لم يواف ٢٨ يناير حتى كان قد ألقى السلاح ، وكتب إليها يقول « ياملاكى الحبيب ، لن آتى إلى البلاط . ان بى من شعور السعادة ما لا أطيق معه كثرة الخلق . . . فاسمحى لى أن أحبك كما أفعل » . ثم كتب فى ٢٣ ٢٣ فبراير « يجب أن أخبرك أيتها المختارة بين النساء أنك ألقيت فى قلبى حباً يملؤنى بهجة » [٣٤] .

وردت برسائل كثيرة ، ولكن لم يبق منها غير واحدة من هذه الحقبة : « لقد عزلت نفسى بعيداً عن العالم ، ولكنه الآن يعود إلى عزيزا ، وعزيزا بسببك . ان قلبى يبكتنى وأنا أشعر انى أعذب نفسى وأعذبك . فقبل ستة أشهر كنت على أتم استعداد للموت ، وأنا لم أعد الآن مستعدة للقائه » [٣٥] . وملكته النشوة . فقال لفيلاند « ليس من تفسير لما تفعله هذه المرأة بى . . . إلا إذا قبلت نظرية التقمص . أجل ، لقد كنا يوماً ما رجلا وزوجته ! [٣٦] واتخذ لنفسه امتياز الأزواج فى الشجار والمصالحة . كتبت شارلوته إلى تسمرمان فى مايو ١٧٧٦ تقول : « لقد تركنى ثائراً قبل أسبوع ، ثم عاد بحب طاغ . . . فماذا هو صانع بى فى النهاية ؟ [٣٧] ويبدو أنها أصرت على أن يظل حبهما أفلاطونياً ، أما هو فكان به من حرارة العشق مالا يجعله

يترك حبهما عند هذا الحد ، فقال لها « ان امتنع على العيش معك فإن حبك لن ينفعنى بأكثر من حب غيرك الغائبات عنى »[٣٨] . ولكنه أردف فى الغد «اصفحى عنى أنى آلمتك . وسأحاول بعد اليوم أن أحتمل الألم وحدى »[٣٩] .

وشعر بالوحشة حين ذهبت إلى بيرمونت النائية فى الشمال للعلاج ، ولكنها زارته فى الميتا وعند عودتها (٥ — ٦ أغسطس ١٧٧٦) . وكتب فى ٨ أغسطس يقول «كان لحضورك أثر عجيب فى . . . وحين أفكر أنك كنت هنا فى كهفى معى » وإننى أمسكت بيدك وأنت تنحنين على . . . أرى صلتك بى مقدسة وغريبة معاً . . . فليس هناك كلام يعبر عنها ، وأعين الرجال لاتبصرها »[٤٠] . وكان لايزال حاراً فى حبه لها بعد أن انقضى على لقائهما الأول قرابة خمس سنين . فنى ١٢ سبتمبر ١٧٨٠ كتب وهو وحيد فى زلباخ «كلما استيقظت من أحلامى وجدتنى مازلت أحبك وأصبو إليك . والليلة بينما كنا راكبين ورأينا النوافذ المضاءة فى بيت أمامنا ، قلت فى نفسى ليتها هناك لتضيفنا . ان هذا المكان جحر حقير ، ومع ذلك فلو أننى استطعت أن أعيش هنا فى هدوء طوال الشتاء معك لأحببته كثيراً»[٤١] . ثم كتب فى ١٢ مارس ١٧٨١ :

« لقد امتزجت روحانا امتزاجاً جعلنى كما تعلمين مربوطاً بك رباطاً لافكاك منه ، ولن يفصلنا علو ولاعمق . وددت لوكان هناك قسم ما أو سر مقدس ما يربطنى بك على نحو مرئى ووفقاً لقانون ما . لكم يكون هذا رائعاً ! ولا شك أن فترة الاختبار كفانى طولها لانعام التفكير الواجب فى الأمر . . . أن اليهود يربطون زنارا حول أذرعتهم أثناء الصلاة . وهكذا أربط على ذراعى زنارك العزيز حين أوجه صلاتى إليك » وأرغب إليك فى أن تنقلى إلى طيبتك وحكمتك واعتدالك وصبرك » .

وقد فسر بعضهم « فترة الاختبار» المنصرمة » بأنها تشير إلى أن شارلوته أسلمت جسدها إليه »[٤٢] ، ومع ذلك كتب إليها بعد ست سنوات يقول .

« ياعزيزتي لوته ، أنت لا تعلمين أي عنف أوقعته بنفسي وما زلت أوقعه ؛ وكيف أن فكرة عدم امتلاكي إياك . . . ترهقني وتفنيني »[٤٣] . فإذا كان غرامهما قد اكتمل حقاً فإن السر قد كتم أحسن كتمان . وقد احتمل البارون فون شتين « الذي عمر حتى ١٧٩٣ ، هذه العلاقة الغرامية بمجاملة جنتلمان من أهل القرن الثامن عشر . وكان جوته يختم خطاباته بين الحين والحين بعبارة « تحياتي إلى شتين »[٤٤] .

وقد تعلم أن يحب أطفالها أيضاً ، وكلما امتد به العمر اشتد شعوره بحرمانه من أطفال له . وفي ربيع ١٧٨٣ أقنعها بأن تسمح لابنها فرتز ذي السنين العشر بالإقامة معه في زورات طويلة ، وحتى بمصاحبته في رحلات طويلة . وفي أحد خطاباتها لفرتز (سبتمبر ١٧٨٣) يظهر جانب الأمومة فيها ، وتتكشف قلوب البشر الكامنة خلف واجهة التاريخ المجردة من عواطف البشر .

« انني عظيمة الابتهاج لأنك لم تنسني وأنت منطلق في هذا العالم الجميل ، وأنك تكتب إلي بحروف لا بأس بها وإن لم يكن رسمها حسناً جداً . ومادمت تعتزم الإقامة أطول مما توقعت ، فإني أخشى ألا تبدو ثيابك حسنة المظهر جداً . فإذا اتسخت واتسخت أنت أيضاً ، فاطلب إلى عضو المجلس الخاص جوته فقط أن يلقي بفرتزي الصغير الحبيب في الماء . . . حاول أن تستمتع بفرصتك الطيبة ، واجتهد أن تسر عضو المجلس بسلوكك ، ووالدك يرغب إلى أن اقرئك تحيته »[٤٥] .

فإذا وافى عام ١٧٨٥ كان غرام جوته قد هدأت فورته في فترات صمت طويلة . وفي مايو ١٧٨٦ شكت شارلوته من أن « جوته يفكر كثيراً ولا يقول شيئاً »[٤٦] . وكانت الآن تناهز الرابعة والأربعين ، أما هو ففي السابعة والثلاثين ، وكان آخذاً في الانطواء على نفسه . كثر التردد على يينا هروباً من بلاط فايمار والتماساً لتجدد الشباب بين الطلاب . وكان قد اعتاد دائماً أن ينعش نفسه بالطبيعة ، فيتسلق قمة بروكن (وهي قمة ارتفاعها ٣,٧٤٧ قدماً في جبال هارتس ، اقترنت منذ أمد بعيد بأسطورة فاوست) ، ويخرج في

رحلات مع الدوق فى سويسره (سبتمبر ١٧٧٩ إلى يناير ١٧٨٠) . وكان أحياناً وهو يسترجع الماضى يشعر « بأنى خلال السنوات العشر الأولى من حياتى فى الوظيفة والبلاط بفايمار لم أكد أنجز شيئاً »[٤٧] فى مضمار الأدب أو العلم . ولكن كان من الخير تهجين الشاعر بالأدارى ، وتأديب الغنى الذى كاد التدليل يفسده ، والعاشق الخائن « بتبعات المنصب وبطء الانتصار فى الحب . وقد أفاد من كل تجربة ونما مع كل هزيمة . « أن خير ما فى ، هو ذلك السكون الباطنى العميق الذى أعيش فيه وأنمو ، رغم العالم » والذى بفضله أكتسب مالا يقوى العالم على انتزاعه منى أبدا »[٤٨] . فلم يكن شىء يضيع هدراً عليه ، وكل شىء وجد التعبير عنه فى مكان ما فى كتاباته ، وأخيراً أصبح خير ما حوته ألمانيا المفكرة منصهرا فى كل متكامل .

وينتمى إلى هذه الحقبة قصيدتان من أعظم قصائده : أولاهما مزاوجة بين الفلسفة والدين » وبين الشعر والنثر ، فى قصيدة « الطبيعة » . وثانيتهما أعظم أشعاره الغنائية كمالا . وهى الثانية من قصائده المسماة « أنشودة الجوالين فى الليل » التى نقشها على جدران كوخ الصيد فى ٧ سبتمبر ١٧٨٠[٤٩] ربما فى حالة من حالات الشرق القلق :

على قمم التلال كلها
ران السكــون ؛
وعلى ذرى الأشجار
لاتــكاد تسمـــع
نفســاً يــــتردد ؛
الطير نيام فى الغابات
مهلا : فأنت أيضاً
ستهجع مثلها سريعاً[٥٠] .

وهناك قصيدة من قصائد جوته العاطفية المشهورة الأخرى تنتمى إلى هذه المرحلة من مراحل تطوره : وهى قصيدة « ملك العفاريت » الحزينة وضع لها شوبرت لحناً موسيقياً . فتى عبر شاعر عن إحساس الطفل بالكائنات

الخفية المنتشرة فى الطبيعة تعبيراً أقوى مما فى هذا الخيال السريع ، خيال الطفل المشرف على الموت ، الذى يرى «ملك العفاريت» آتياً ليخطفه من بين ذراعى أبيه ؟ .

فى هذه الحقبة أيضاً كتب جوته ثلاث مسرحيات نثرية : «أجمونت (١٧٧٥) وافجينى فى تاوريس (١٧٧٩) وتورقواتو تاسو (Torquato Tasso) (١٧٨٠) — وهى ثمر كاف لخمس سنين قضاها فى خضم السياسة . ولم تخرج «إجمونت» على المسرح إلا فى ١٧٨٨ ، أما إفجينى فقدمت على مسرح فايمار فى ٦ أبريل ١٧٧٩ (قبل العرض الأول لأوبرا جلوك التى بهذا الاسم بستة أسابيع) ؛ ولكن جوته غير فيها وبدل ، ونظمها شعراً ، أثناء مقامه فى روما ، بحيث يحسن النظر إليها على أنها نتاج لمرحلة جوته الكلاسيكية . كذلك أعاد صياغة «تاسو» ونظمها شعراً فى إيطاليا ، ولكنها تدخل هنا جزءاً من افتتان جوته بشارلوته فون شتين . فى ١٩ أبريل ١٧٨١ كتب إليها يقول : «كل كلام تاسو موجه إليك»[٥١] . وصدقت كلامه ، فطابقت بينها وبين ليونورا ، وبين جوته وتاسو ، وبين كارل أوجست ودوق فرارا .

وقد تلقف جوته الأسطورة التى زعمت أن انهيار عقل تاسو فى بلاط فرارا قد اشتد ، ان لم يكن قد نشأ أصلا ، عن غرام تعس بأخت لألفونس الثانى (حكم ١٥٥٩ — ٩٧)[٥٢] . وما من شك فى أن جوته كان يفكر فى نفسه حين وصف ما يدور فى فكر تاسو الشعرى :

ان عينه قلما تطيل النظر إلى هذا المشهد الأرضى ،
أما أذنه فرهفة السمع لأنغام الطبيعة .
وأما صدره فيتلقى للتو فى ابتهاج
ما يقدمه التاريخ وتأتى به الحياة ،
ثم يجمع الأشتات المتفرقة ويربط بينها
ويبعث حسه الذكى الحياة فى الموتى .
وهكذا يغرينا الرجل العجيب

وهو يتحرك فى عالمه المسحور
بأن نطوف معه ونشاركه فرحه .
وهو يبدو كأنه يدنو منا ، إلا أنه يظل
بعيداً كما كان ، فإذا اتفق ووقعت عينه
علينا رأى الأشباح فى مكاننا [٥٣]

وقد تكون ليونورا ، الأميرة الجليلة التى ترتضى حب الشاعر ولكنها تأمره بأن يكبح حماسته ويراعى اللياقة ، هى شارلوته فون شتين تضبط غرام جوته المشبوب فى هذا العالم الفاسق ويعلن تاسو — وهنا يتكلم الشاعران كلاهما :

كل ما يصل إلى القلب من أغنيتى
فيتردد صداه فيه ، إنما أدين به لواحد ،
وواحد فقط ! فلم يحم حول روحى
طيف غامض ، يتقدم تارة
فى سناء باهر ، ثم يتوارى ثانية .
فأنا نفسى ، بعينى رأس ، أنا الذى أبصرت
مثال كل فضيلة وكل جمال [٥٤]

وأما الدوق الفونسو فهو شبيه كارل أوجست فى صبره على غضبات الشاعر وغرامياته وأحلام يقظته ، وهو مثله يحزنه تباطؤ الشاعر فى الفراغ من رائعة موعودة :

بعد كل خطوة بطيئة يدع عمله ،
لايفتأ يبدل ويغير ، ولا طاقة له على الانتهاء[٥٥] .

وهو وصف صادق لكتابة جوته المنجمة وإبطائة وتسويفة فى إنجاز « فلهم ما يستر » و « فاوست » . وأميرة أخرى تمتدح الفونسو كارل أوجست على إتاحته الفرصة لتاسو — جوته لينضج بممارسته لشئون الدنيا وهنا تعلو أبيات مشهورة :

« إن الموهبة تكون نفسها فى سكون »
والشخصية تتشكل فى نهر العالم »[٥٦] .

ولكن التلازم بين الشاعرين يتضاءل فى النهاية : فتاسو لايبدى شيئاً من قدرة جوته على السباحة فى نهر العالم ، فيغرق فى مملكة أحلامه ويضرب بالحلم واللياقة عرض الحائط ، ويحتضن الأميرة المذهولة بين ذراعيه ، ويجن جنونه حين تنتزع نفسها من ضمته ومن حياته . ولعل جوته أحس بأنه كان قد وقف على شفا هذا الجرف .

وكثيراً ما فكر فى إيطاليا ملاذاً يعتصم به من موقف يهدد سلامة عقله . وفى نحو هذه الفترة فى الصيغة الأولى لـ « فلهلم مايستر » نظم لمينون أغنية شوق ولهفة تلائم آماله أكثر من آمال مينون :

أتعرف البلد الذى تزهــر فيه أشجار الليمــون ،
حيث تتوهج ثمار البرتقال الذهبية فى الأوراق الداكنة ،
حيث يهب النسيم العليل من السماء الزرقــاء ،
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة الغار السامقة
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة الغار السامقة
أتعرفــه جيــداً ؟ هنــاك ! هنــاك !
اشتهى ياحبيبـى ان انطلــق معــك !

لقد كانت فايمار جميلة ، ولكنها لم تكن دافئة . ثم ان هموم المنصب كدرت روح الشاعر ، « وأنها لوسيلة مرة من وسائل كسب القوت أن يضطر المرء إلى محاولة خلق التناغم والانسجام بين نشازات العالم »[٥٧] . وقد أضنته حياة البلاط ، « ليس بينى وبين هؤلاء القوم ولا بينهم وبينى شىء مشترك يربطنا »[٥٨] . وكانت قد وقعت بعض الجفوة بينه وبين الدوق لعجزه عن مسايرة خطى الدوق فى الصيد والغزل ، وغرامه الكبير الوحيد قد براه الزمن وكثرة الشجار . فأحس أنه لابد له من التحرر من هذه الأصفاد الكثيرة ، والبحث عن اتجاه ونظرة جديدين . فطلب إلى الدوق أن يمنحه أجازة ، فاستجاب الدوق ، ووافق على أن يواصل دفع راتب جوته . ورغبة فى توفير مبلغ إضافى من المال باع جوته لجوشن ، الناشر الليبزجى ، حق نشر طبعة من مجموعة مؤلفاته . ولم يبع جوشن إلا ٦٠٢ نسخة ، فخسر ١٫٧٢٠ طالرا فى هذه المغامرة .

وفى أول سبتمبر ١٧٨٦ كتب جوته إلى شارلوته من كارلسباد يقول :

« الآن وداعاً أخيراً ، أريد أن أكرر لك أنى أحبك حباً جماً . . . وأن تأكيدك لى انك تجدين من جديد لذة فى حبى يجدد فرحة حياتى . لقد احتملت الكثير فى صمت إلى الآن ، ولكنى لم أرغب فى شيء بأحر مما رغبت فى أن تتخذ علاقتنا صورة لايقوى عليها أى ظرف . فإذا لم يكن هذا ممكناً ، فلن ارتضى أن أسكن حيث تكونين ، بل أوثر أن أكون وحيداً فى ذلك العالم الذى انطلق إليه الآن[٥٩] .

٤ — جوته فى إيطاليا : ١٧٨٦ — ٨٨

واتخذ له فى رحلة اسماً مستعاراً هو « المسيو جان — فليب مولر » لأنه أراد التحرر من مضايقات الشهرة . وكان فى السابعة والثلاثين « ولكنه ذهب بتطلع يفوق حتى تطلع الشباب وترقبه المرح ، وباستعداد يفضل كثيراً استعداد الشباب ، لأنه كان ملماً ببعض تاريخ إيطاليا وفنها . وفى ١٨ سبتمبر كتب إلى هردر يقول « آمل أن أعود شخصاً مولوداً من جديد» وكتب إلى كارل أوجست « أرجو أن أعيد معى إنساناً تطهر تماماً وتجهز تجهيزاً أفضل كثيراً من ذى قبل » . وإلى هذين وإلى غيرهما من الأصدقاء أرسل « رسائل من إيطاليا » مازالت تحوى نبض الحياة الإيطالية السريع . وقد قدمها بالشعار القديم « Auch in Arkadien -هوأيضاً كان الآن فى أركاديا . وقد رأينا فى موضع آخر من الكتاب مبلغ شكره على ضوء الشمس . فقد صاح عند دخوله إيطاليا » إنى أومن بالله من جديد ! «[٦٠] ولكنه أحب الشعب الإيطالى أيضاً ، وجوههم وقلوبهم الطلقة ، وطبيعية حياتهم « وحرارة حديثهم ومرحه . وإذ كان عالماً كما كان شاعراً ، فإنه لاحظ الخصائص الخاصة بالظواهر الجوية « والتكوينات الجيولوجية ، والعينات المعدنية « وأنواع الحيوان والنبات « وأحب حتى السحالى المارقة فوق الصخور .

وبلغ من شدة شوقه للوصول إلى روما أنه مر مرور الكرام بفنيسيا ولمبارديا وتسكانيا ولكنه تلبث فى فلشنتسا وقتا كفى لأشعاره ببساطة معمار بلاديو وقوته الكلاسيكيتين . وعاد يؤكد من جديد نفوره من الطراز القوطى.

« لقد تحررت إلى الأبد — ولله الحمد — من كل ميل إلى تلك الأعمدة الشبيهة بقصبات التدخين ، وقلاعنا الصغيرة المتوجة بأبراج الكنائس ، والأطراف المورقة لمبانينا ! . . . لقد فسح بلاديو أمامى الطريق لكل . . . فن »[٦١] .
وعاد بهذا الطريق إلى فتروفيوس الذى درسه فى طبعة أشرف عليها جاليانى ، صاحبنا الظريف القادم من نابلى وباريس . واستحال الطراز الكلاسيكى الآن غراماً عنده ، يلون كتاباته وفكره ، ويعيد صياغة بعض أناجيه القديم ، مثل « افجينى » و « تاسو » فى قالب وخط كلاسيكيين . وفى البندقية بدت قصور الباروك فى عينيه مسرفة فى البهرج ، مفرطة فى الأناقة النسائية ، لا بل إنه انصرف عن واجهات النهضة إلى أطلال العمائر والتماثيل الكلاسيكية فى المتاحف . ولكن دمه الحار تجاوب مع لون فيرونيزى وتتسيانو وكبريائهما .

وقد بحث فى فرار عبثاً عن القصر الذى حبس فيه تاسو . وبعد أن قضى ثلاثة أيام فى بولونيا وثلاث ساعات فقط فى فلورنسة انطلق حثيثاً عبر بروجه وتيرنى وتشيتا دى كاستيللو ، وفى ٢٩ أكتوبر ١٧٨٦ ركب إلى روما مخترقاً « البورتا ديل بوبولو » (بوابة الشعب) وأحس الآن بلحظة عابرة من التواضع «كل الطرق مفتوحة أمامى لأنى أسير بروح التواضع»[٦٢] .

وإذ لم يكن قد تمكن بعد من لغة الحديث الإيطالية . فقد بحث عن الجالية الألمانية ، لاسيما الفنانين الألمان ، لأنه تطلع إلى أن يتعلم على الأقل أصول الرسم والتصوير والنحت . وأعجبت انجليكا كاوفمان بحماسته ووسامته فرسمته فى صورة أبرزت شعره الأسود وجبينه العالى وعينيه الصافيتين . وارتبط بصداقة حميمة مع يوهان هاينريش فلهلم تيشباين . الذى أسلمه لنا فى لوحته الشهيرة « جوته فى الريف »[٦٣] . يستلقى فى استرخاء كأنه فتح أركاديا . وكان جوته قد راسل هذا المصور قبل حضوره إلى إيطاليا بزمن طويل . ثم التقيا لأول مرة فى ٣ نوفمبر ، حين اجتمعا فى « بياتسا سان بيترو (ميدان القديس بطرس) . وتعرف الشاعر على الفنان ، وقدم إليه نفسه ببساطة « أنا جوته »[٦٤] ، ووصفه تيشباين فى خطاب إلى لافاتر بهذه العبارات :

« وجدته تماماً كما توقعت . ولم يدهشنى غير الرزانة والهدوء فى رجل له هذه الحساسية الناشطة ، ثم قدرته على الاسترخاء والتصرف بحرية فى جميع الظروف . وما يسرنى أكثر حتى من هذا هو بساطة حياته . فكل ما طلبه منى كان فى إعداد حجرة صغيرة يستطيع أن ينام فيها ويعمل دون إزعاج ؛ ثم أبسط الطعام . . . وهو يجلس الآن فى تلك الحجرة الصغيرة عاكفاً على قصة « افجينى » من الصباح الباكر إلى الساعة التاسعة . ثم يخرج لدراسة روائع الفن »[٦٥] .

وكثيراً ما كان تيشباين مرشداً له فى جولاته هذه ، ورتب تزويده بما طلب من الرسوم ، وحصل له على نسخ من الصور الأكثر شهرة . وقد رسم جوته بنفسه رسوماً تخطيطية للصور التى أراد تذكرها بنوع خاص . ثم جرب النحت ، ونحت رأساً لهرقول . واعترف بأنه غير موهوب فى الفنون التشكيلية ، ولكنه شعر أن هذه التجارب تعطيه إحساساً أفضل بالشكل ، وتساعده على تصور ما يريد وصفه[٦٦] . ثم أكب على كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » : « هنا على الطبيعة أجده ثميناً جداً . . . والآن يستطيع عقلى فى النهاية أن يتسامى إلى أعظم وأنقى إبداعات الفن فى مأمن هادىء »[٦٧] . « إن تاريخ العالم كله يربط نفسه بهذه البقعة ، وأحسبنى ولدت . . . ولادة جديدة صادقة منذ اليوم الذى دخلت فيه روما . . . أظننى تغيرت إلى الصميم »[٦٨] . ويبدو أنه استمتع خلال ذلك بالفن الحى الذى قدمته الموديلات « اللذيذات » اللائى جلسن للمصورين فى مراسمهم[٦٩] . وأنهت إقامته فى روما ذلك التخلص من النزعة الرومانتيكية الذى بدأ بمسئوليات المنصب . وبدأ الآن تمرد جوتز على القانون ، ودموع فرتر ، فى نظر جوته الذى أخذ ينضج كأنها أمارات عقل غير متزن ، « انالرومانتيكية مرض ، والكلاسيكية صحة »[٧٠] . وقد كان فى تحمسه الجديد للآثار الرخامية والأعمدة والتيجان والقواصر الكلاسيكية والخطوط النقية للتماثيل اليونانية مسحة رومانتيكية . « إذا شئنا حقاً نموذجاً نحتذيه ، فعلينا دائماً أن نرجع إلى قدماء اليونان ، الذين يتمثل فى أعمالهم دائماً جمال الإنسان »[٧١] . وقد رأى جوته ، كلما رأى فنكلمان ، الجانب « الأبوللونى » للحضارة

والفن اليونانيين فقط — تمجيد الشكل والقصد . وكاد الآن يتجاهل تلك النشوة « الديونيسية » التي لونت الخلق والدين والحياة اليونانية تلويناً دافئاً جداً ، والتي أعربت في جوته ذاته عن نفسها خلال « قرينه » وغرامياته .

في هذا الوجد الكلاسيكي أعاد كتابة « افجيني في تاوريس » شعراً (١٧٨٧) ، واعتزم أنه ينافس راسين ، لا بل يوريبيديس نفسه . وإذ كان قلبه لا يزال محتفظاً بجمرات النار التي أضرمتها فيه شارلوته فون شتين ، فقد سكب في أحاديث الأميرة اليونانية شيئاً من رقة البارونة الألمانية وتمالكها نفسها . وروى القصة القديمة جداً ، بكل ما فيها من تعقيدات الميثولوجية والأنساب . وزاد من حدة الدراما بتصويره الملك السكوذي تصويراً متعاطفاً ، وأقدم على تغيير الخاتمة لتتوافق مع الفكرة — النادرة بين اليونان — التي تزعم أن على الإنسان التزامات حتى للبرابرة (الهمج أو غير اليونان) . ولا يستطيع تقدير انجاز جوته حق قدره إلا الذين يقرءون الألمانية بطلاقة ، ومع ذلك قال ايبوليت تين ، وهو رجل فرنسي ، وناقد فذ ، خبير على على الأرجح بدرامات راسين : « انني لا أفضل أي عمل أدبي حديث على درامة جوته افجيني في تاوريس »[٧٢] .

وقد أحيت ذكريات شارلوته في هذه المسرحية ، ثم في « تاسو » وأكثر منها ، اللتين أعاد كتابتهما في روما ، شعوره من نحوها . لقد أصابها بجرح عميق هروبه المفاجيء إلى إيطاليا وتركه ولدها في عهدة خادم ، فأعادت فرتز لفورها ، وطالبت جوته برد كل الرسائل التي كتبتها له . فكتب معتذراً من روما (٨ و١٣ و ٢٠ ديسمبر ١٧٨٦) ، وبعثت إليه (١٨ ديسمبر) بتذكرة فيها لوم « حلومر » فكان رده (٢٣ ديسمبر) « ليس في طاقتي أن أصف لك كيف يدمى قلبي أنك مريضة ، ومريضة بسبب غلطتي . فاصفحي عني . لقد صارعت أنا نفسي الموت والحياة ، وما من لسان يقوى على النطق بما كان يعتمل في داخلي . » وأخيراً لانت . فكتب لها أول فبراير ١٧٨٧ « الآن أستطيع أن أنصرف إلى عملي وأنا أسعد مزاجاً لأنني تسلمت منك رسالة تقولين فيها انك تحبين رسائلي وتبتهجين بها » .

فى ذلك الشهر ذهب هو وتيشباين إلى نابلى وارتقى فيزوف مرتين ؛ وفى محاولته الثانية غطى ثوران صغير للبركان رأسه وكتفيه بالرماد . ووجد متعة عظمى فى الأطلال الكلاسيكية فى بومبيى ، وبهت للجلال البسيط الذى رآه فى المعابد اليونانية ببايستوم . فلما عاد إلى روما ركب البحر إلى بلرمو ، ومضى ليدرس المعابد الكلاسيكية فى سجستة وجرجنتى (أجرجنتو) ، ووقف فى المعبد اليونانى بتاورمينا ، ثم قفل إلى روما فى شهر يونيو . فلما تعاظم افتتانه بـ « أروع مدينة فى العالم كله »[٧٣] . أقنع الدوق كارل أونجست بأن يواصل دفع راتبه حتى نهاية ١٧٨٧ . فلما ان نفدت المهلة راض نفسه ببطء على العودة إلى الشمال . فغادر روما فى ٢٥ أبريل ١٧٨٨ ، وسافر على مهل عبر فلورنسه وميلان وكومو حتى بلغ فايمار فى ١٨ يونيو. وكان كل يوم يتساءل كيف يستقبل الدوق ، والحاشية ، وشارلوته ، رجلا يحس أنه تبدل إنساناً آخر .

٥ — جوته فى الانتظار ١٧٨٨ — ١٧٩٤

كان الدوق قد عين رئيساً جديداً للمجلس بموافقة الشاعر الغائب ؛ والآن أعفى جوته بناء على طلبه من جميع واجباته الرسمية عدا منصب وزير التعليم ، ولم يخدم المجلس بعدها إلا بصفة استشارية . وكان الدوق لطيفاً معه ، ولكنه كان قد اتخذ اخصاء غيره ، ثم إنه لم تعجبه العواطف الشبيهة بالنزعات الجمهورية التى استشفها من « إجمونت » بعد أن أعاد الشاعر كتابتها . أما جمهور القراء فقد نسى جوته أو كاد ؛ وأقبل على شاعر جديد يدعى شيلر ، وصفق بحماسة لتمثيلية « اللصوص » الزاخرة بروح التمرد والعنف الذى اتسمت به الحركة « الزوبعية » ، والذى بدأ الآن سخيفاً فجا فى عين شاعر يتأهب للتبشير بالنظام والقصد الكلاسيكيين . وأما شارلوته فون شتين فقد استقبلته ببرود . وأنكرت طول غيابه ، وتمهله فى العودة ، وتحمسه المتصل لإيطاليا ، ولعلها سمعت بـ « موديلات » روما . كتبت تقول إن لقاءهما الأول عقب وصوله كان « زائفاً كل الزيف فى طابعه ، ولم نتبادل شيئاً غير الملل »[٧٤] . ورحلت لتقيم فترة فى كوخبرج ، وصار جوته حراً فى التفكير فى كرستيانه فولبيوس .

وقد دخلت هذه الفتاة حياته فى ١٢ يوليو ١٧٨٨ إذ حملت إليه رسالة من أخيها . وكانت فى الثالثة والعشرين ، تعمل فى مصنع للأزهار الصناعية ، وراع جوته منها روحها النضرة ، وعقلها البسيط ، وأنوثتها المتفتحة . فدعاها إلى بيته ذى الحديقة لتعمل مديرة للبيت ، وما لبث أن جعلها خليلة له . ولم تنل حظاً من التعليم ، وقال « أنها لاتستطيع فهم الشعر إطلاقاً[٧٥] » ولكنها استسلمت له فى ثقة واطمئنان ، ومنحته تحقيق ذاته الجسدى الذى أنكرته عليه شارلوته فيما يبدو . وفى نوفمبر ١٧٨٩ ، حين أوشكت أن تصبح أما ، أخذها إلى بيته فى فايمار ، وجعلها زوجته علانية فى كل شىء إلا الإسم . وصدمت شارلوته والحاشية لتجاوزه الحدود الطبقية وعدم إخفائه العلاقة المحرمة . وقد أحزنه كثيراً هو وكرستيانه هذا الموقف ، ولكن الدوق المتمرس بالخليلات قام عراباً للطفل الذى ولد فى عيد الميلاد ١٧٨٩ ، وعمده فى أغسطس هردر الصارم ، الغفور رغم صرامته .

أما جوته « الذى كثيراً ماكان عاشقاً ، ولكنه الآن فقط كان أباً ، فقد وجد الكثير من السعادة فى « الرجل الصغير » و « المرأة الصغيرة » . ودبرت له أمر بيته ، واستمعت إليه فى حب حتى وهى لاتفهمه ، ومنحته الصحة والعافية . قال لصديق منذ اجتازت هذه العتبة أول مرة لم ينلنى منها غير الفرح »[٧٦] . ولم ير فيها عيباً غير حبها للخمر حباً فاق حتى حبه ، وما أفضى إليه هذا أحياناً من المرح والقصف الذى لا يمكن السيطرة عليه . وكانت تختلف إلى المسرح ، وترتاد حفلات الرقص الكثيرة ، بينما يظل جوته فى البيت ويخلد ذكرها فى « المراثى الرومانية » Romische Elegien (١٧٨٩ — ٩٠) ، التى كتبها على طريقة بربروتيوس وبأخلاقيات كاتوللوس . وليس فى هذه « المراثى الرومانية » شىء حزين ، إنما تشتق اسمها هذا من بحر المراثى « elegiac » الذى تتناوب فيه البحور السداسية والخماسية التفاعل ؛ وهى لاتتصل بروما بل بأرملة طروب — نستشف من ورائها كرستيانه نفسها :

« كل ما تحويه أسوارك المقدسة أى روما الخالدة
يشفى بالحياة ، ولكنه فى ناظرى ساكن ميت .

أواه ، منذا يوشوش فى أذنى ؟ متى أشهد فى النافــذة
ذلك القد الجميل الذى يحيى وإن أحرق ؟
لا تندهى ياحبيبتى على أنك استسلمت هكذا سريعاً !
ثقى بى ، أراك غير جريئة ، إنما أشعر بالإجــلال . .
ان الاسكندر وقيصر وهنرى وفردريك ، هؤلاءالجبابرة،
يودون أن يخلعوا على نصف المجد الذى ظفروا به
لو أننى وهبتهم ليلة واحدة على الأريكة التى أرقدعليها ؛
ولكنهم وا أسفاه يقعدهم ليل أوركوس فى قسوة .
فاغتبط إذن ، أيها الحى ، ناعماً فى بيتك المنور بالحب
قبل أن تبلل موجة «ليذى» الحزينة قدمك الهاربة »[٧٧]

وربما كانت تلك الأرملة الجميلة ذكرى من أيام روما ، ولكن دفء هذه الأبيات مبعثه كرستيانه . على أية حال ألم يكن يدرس الفن ؟

على أنه مما يعيننى على الدرس أيضاً أن أرسم
بيد حساسة تلافيف صدرها الجميــلة وأدع
الأنامل الحكيمة تنزلق هابطة على الفخذ النــاعم ،
لأنى هكذاأتمكن من صنعةالنحات القديم ، وأتأمل ،
وأقــارن ، وأتعــلم أن آتى وأبصـــر
بعين شاعرة ، وأشعر بيد مبصرة[٧٨] .

ولم يرق نبيلات فايمار هذا العرض المرخص لمفاتنهن ، وحزنت شارلوته الوقور على انحدار بطلها « جالاهاد » لا بل ان كارل أوجست ذاته انزعج قليلا ، ولكن سرعان ما هدأت نفسه . وعندما كانت الدوقة الأرملة عائدة من إيطاليا أرسل الدوق جوته إلى البندقية ليصحبها إلى أرض الوطن . وطال مقامه هناك (مارس إلى يونيو ١٧٩٠) طولا ضايقه ، وتاق إلى كرستيانة ، وصب جام غيظه من الباعة الإيطاليين ووسائل النظافة الإيطالية فى « الابجرامات الفينيسية » — وهى ، أقل أعماله اغراء بالقراءة .

فلما عاد من البندقية وجد أن الثورة الفرنسية تبعث النشوة فى شباب ألمانيا ، والخوف فى حكامها . وكان الكثيرون من أصحابه ، وفيهم فيلاند

وهردر ، يصفقون للإطاحة بالاستبدادية الملكية فى فرنسا . أما جوته ، الذى أدرك أن كل العروش مهددة بالخطر ، فقد اتخذ موقفه إلى جوار الدوق ، وأشار عليه بالحيطة وقال إن أناساً كثيرون جداً « يجرون وفى أيديهم منفاخ بينما يلوح لى أن الأجدر بهم أن يبحثوا عن أباريق الماء البارد للسيطرة على النار»[79]. وأطاع أمر كارل أوجست له بأن يصحبه فى حملة الحلف الأول ضد فرنسا . وحضر معركة فالمى (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) ، ووقف هادئاً تحت النيران ، وشارك فى الهزيمة . وقد سجل ضابط ألمانى فى يوميته أن الشاعر — عضو المجلس الخاص ، حين طلب إليه التعليق على الحدث أجاب « منذ اليوم ومن هذا الموضع يبدأ عصر جديد فى تاريخ العالم »[80] . وليس لدينا ما يؤيد هذه القصة . ومهما يكن من أمر ، فإن جوته هاجم الثورة بقوة حين عاد إلى فايمار ، وكانت تدخل فترة شططها ووحشيتها (١٧٩٢ — ٩٤) .

ورسخت هذه التطورات فى جوته ذلك التحول الطبيعى ، تحول العقل الآخذ فى النضج ، من التلذذ بالحرية إلى حب النظام . وشعر جوته انه إذا كان فى استطاعة أى أحمق أن يكون مبتكراً ، فإن فى استطاعة أى أحمق أن يحيا كما يشاء »[81] منتهكاً العادات أو القوانين فى اطمئنان لأن غيره يراعونها . ولم يشعر بتحمس للديمقراطية ، فلو أتيح لنظام كهذا أن يمارس فعلا لكان معناه تسلط الغفلة والجهل والخرافة والهمجية . لقد كان لطيفاً سمحاً فى نطاق دائرته ، ينفق بعض دخله على أعمال البر المستورة[82] ، ولكنه كان ينكمش من الجماهير . فإذا وجد بين الجماهير أو الأغراب انطوى على نفسه فى كبرياء وأحجام ، وكان يجد سعادته الوحيدة فى بيته . فى سنى القلاقل هذه (١٧٩٠ — ٩٤) ران عليه سبات كئيب أيقظته منه لمسة شباب شيلر المتحمس ومنافسة قلمه .

٦ — شيلر فى الانتظار ١٧٨٧ — ١٧٩٤

كان جوته فى إيطاليا حين وصل شيلر إلى فايمار . واعترف الشاعر المعسر بغيرته من عضو المجلس الخاص الغائب . «بينما هو يرسم فى إيطاليا ، يبدل التكرات

من الناس العرق من أجله كأنهم دواب الحمل . أنه يبعثر هناك راتباً قدره ١,٨٠٠ طالر » وهنا عليهم أن يضاعفوا كدهم ليحصلوا على نصف هذا المال »[٨٣] . وفى ١٢ أغسطس ١٧٨٧ كتب بروح أكثر تعاطفاً .

« يتكلم الكثيرون هنا عن جوته فى شىء من الحب ، بل انهم أكثر حباً له وإعجاباً به إنساناً أكثر منه مؤلفاً . ويقول هردر إنه أوتى حكماً شديد الوضوح وعمقاً كبيراً فى الوجدان » وعواطف نقية جداً . وجوته فى رأى هردر معبراً من كل روح للدس والوقعية » وهو لم يؤذ أحداً قط . . . وهو فى معاملاته السياسية يتصرف بصراحة وجرأة . . . ويقول هردر أن جوته أحق بالإعجاب كرجل دنيا منه شاعراً . . . وأن له عقلا يتسع لأى شىء »[٨٤] .

وكان الدوق غائباً حين حضر شيلر ، ولكن أنا أماليا وشارلوته فون شتين استقبلتاه استقبالا حاراً . وأخبره فيلاند أنه « ينقصه الصقل والوضوح والذوق »[٨٥] . وتطوع بأن يصقله » وسرعان ما أخذ الشاعر المتحمس يكتب المقالات لمجلة فيلاند « الرائد الألمانى » . وقد وجد ترفيهاً آخر مع شارلوت فون كالب » التى كان لها كشارلوته الأخرى زوج واسع الأفق « ان الناس أخذوا يهمسون فى صوت عال بعض الشىء حول علاقتى بشارلوته . . . وقد كتب لى الهر فون كالب . وسيحضر فى آخر سبتمبر ، وسيؤثر وصوله كثيراً فى ترتيباتى . وصداقته لى لم يطرأ عليها تغيير ، وهو أمر مدهش » لأنه يحب زوجته » ويعلم بصلتى الحميمة بها . . . ولكنه لا يمكن أن يشك لحظة واحدة فى وفائها . . . ومازال كما كان ، الرجل الأمين الطيب القلب »[٨٦] .

وفى ٢٧ أغسطس ١٧٨٧ عرضت « دون كارلوس » أول مرة فى همبورج . وكان بشيلر من الولع بفايمار ما منعه من الذهاب لحضور العرض . وقد استقبلت تمثيليته هـــذه وهى أولى تمثيلياته الشعرية ، بالمديح والذم كليهما لأنها استسلام لأسلوب المأساة الفرنسية ، ولكن يعوزها الوحدة المسرحية التى تتطلبها قواعد أرسطو . وقد استهلت بالصراع بين فليب الثانى وابنه على حب اليزابث أميرة فالوا ، ثم انتقل مركز الاهتمام فى منتصف التمثيلية

إلى كفاح الأراضي الواطئة للتحرر من السيادة الإسبانية ومن قسوة ألفا . وحاول شيلر أن يرسم صورة محايدة لفليب ، وقد صفق القراء البروتستنت لهذا النداء الذي وجهه المركيز بوزا إلى الملك :

يا صاحب الجلالة ،
لقد مررت مؤخراً بأرض فلاندر وبرابانت —
أقاليم كثيرة غنية موفقة ،
تزخر بشعب باسل عظيم أمين !
قلت في نفسي انه لشيء رائع حقاً
أن يكون الإنسان أباً لشعب كهذا !
ثم تعثرت قدمي فوق كومة من عظام رجال محترقة !
فليتك ترد لنا كل ما حرمتنا منه ،
وتدع السعادة تتدفق من نبع خيرك
لأنك قوي كريم النفس ؛ دع عقل الإنسان
ينضج في ملكك الشاسع . . . ويصبح
ملكاً حقاً بين مئات الملوك ! . . .
دع كل فرد من رعيتك يصبح ما كانه يوماً ما —
الغاية والهدف لرعاية المليك واهتمامه ،
لا يربطه واجب غير محبة الأخ لأخيه »[٨٧]

وهجر شيلر الدراما طويلا رغم نجاح دون كارلوس . وكان قد كتب إلى كورنر في ١٧٨٦ يقول « ان التاريخ يلتحر لي مع كل يوم تال مغريات جديدة . . . وددت لو لم أدرس شيئاً غيره طوال عشر سنوات متصلة ؛ أظنني كنت أصبح مخلوقاً من نوع آخر . أترى أنه مازال أمامي متسع من الوقت للتعويض عما فقدت؟ »[٨٨] ولم يكن في استطاعته أن يعول نفسه « فضلا عن أن يعول أسرة » من حصيلة مسرحيات عارضة قد تذبل وتموت

موتاً مبكراً حتى بعد أن تحظى بعرض أول يصفق له النظارة . فلعل كتاباً ناجحاً فى التاريخ يكسبه من الشهرة العلمية ما يكفى للظفر بأستاذية فى جامعة يينا . هناك لن يبعد عن فايمار بأكثر من أربعة عشر ميلا ، وسيبقى فى نطاق سلطة الدوق وكرمه .

وعليه ، فبعد أن فرغ من « دون كارلوس » عكف على تأليف « تاريخ سقوط الأقاليم الواطئة المتحدة » . وإذ كان لا يقرأ الهولندية ، فقد اعتمد على مراجع ثانوية جمع من رواياتها تصنيفاً غير ذى قيمة باقية . وانتقد كورنر المجلد الأول (١٧٨٨) بأمانته المعهودة : « ان العمل الراهن » مع كل مزاياه ، لا يحمل طابع تلك العبقرية التى أنت ميسر لها »[٨٩] . وتخلى شيلر عن الكتاب ، ولم يصدر مجلد ثان فى موضوعه .

وفى ١٨ يوليو ١٧٨٨ عاد جوته من إيطاليا ، وفى سبتمبر التقى بشيلر فى ضاحية رود ولشتات . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : « ان الفكرة العظيمة التى كونتها عنه لم تنقص مثقال ذرة . . . ولكنى أشك فى أننا سنتقارب تقارباً وثيقاً يوماً ما . . . انه يسبقنى بمراحل . . . فلا يمكن أن نلتقى على الطريق . وقد سارت حياته كلها من بدايتها فى اتجاه معاكس لاتجاه حياتى . وعالمه ليس عالمى . وأفكارنا فى بعض النقاط متعارضة تعارضاً تاماً »[٩٠] . والحق أن الشاعرين كانا يبدوان وكأن العناية قصدت بهما أن يكره الواحد صاحبه . فجوته « ذو التسعة والثلاثين » قد وصل ونضج ، أما شيلر « ذو التسعة والعشرين » فكان يتسلق ويجرب ، ولم يتفقا إلا فى الأنانية المتعالية . كان أصغرهما من غمار الشعب « رقيق الحال » يكتب الشعر القريب من الثورية ، أما الآخر فكان غنياً ، رجلا ذا مكانة ومنصب مرموق ، عضواً فى المجلس الخاص يستنكر الثورة . وكان شيلر قد خرج لتوه من حركة « الزوبعية » ، كان صوت الوجدان والعاطفة والحرية والرومانس ، إما جوته « الذى تولع باليونان » فكان بكل ميوله مع العقل ، والقصد ، والنظام ، والأسلوب الكلاسيكى . على أية حال ليس من الطبيعى فى عالم المؤلفين أن يحب بعضهم بعضاً ، فهم إنما يسعون للظفر بذات الجائزة .

فلما أن عاد جوته وشيلر إلى فايمار لم يكن يفصل مسكنيهما غير مسيرة قصيرة ، ولكنهما لم يتصلا الواحد بالآخر . وساءت العلاقة بينهما بظهور نقد شيلر المناوىء لتمثيلية جوته « إجمونت » وقرر جوته أن أثينا الصغيرة « لا تتسع لكليهما . فى ديسمبر ١٧٨٨ زكى شيلر لكرسى فى التاريخ بجامعة يينا . وقبل شيلر المنصب مسروراً وزار جوته ليشكره ، ولكنه كتب إلى كورنر فى ٢٩ فبراير ١٧٨٩ :

لو طالت عشرتى لجوته لشقيت بها . فهو لا يهش حتى لأصدق أصدقائه ، ولا شىء يربطه . وأنا أومن حقاً أنه أنانى من الدرجة الأولى . وقد أوتى موهبة تطويق أعناق الناس بمجاملات صغيرة وكبيرة ، ولكنه يفلح دائماً فى أن يظل هو نفسه حراً . . . وأنا أنظر إليه على أنه تجسيد لنظام مدروس جيداً من الأنانية التى لا حد لها . وينبغى ألا يطيق الناس مخلوقاً كهذا بقربهم . وأنا أبغضه لهذا السبب ، وإن لم أملك إلا الإعجاب بعقله ، والتفكير فيه بسمو . لقد بعث فى مزيجاً عجيباً من البغض والحب»[٩١] .

وفى ١١ مايو ١٧٨٩ تسلم شيلر عمله فى يينا ، وفى ٢٦ مايو ألقى « خطاب الافتتاح » وموضوعه « ما التاريخ العالمى وما الهدف من دراسته » ؟ وإذ كان الدخول مجاناً ، فقد تبين أن الحضور يفوق كثيراً ما تتسع له الحجرة المخصصة ، وانتقل الأستاذ مع جمهوره فى هرج ومرج إلى قاعة فى الطرف الآخر من المدينة . وقد لقيت هذه المحاضرة ثناء مستطابا ، « فقد غنى لى الطلبة سرينادا فى تلك الليلة وهتفوا لى ثلاثا »[٩٢] . غير أن عدد من سجلوا أسماءهم لحضور المحاضرات كان صغيراً — وكان الحضور نظير رسم يدفعه الطالب ، ومن ثم كان دخل شيلر من التدريس ضئيلا .

فأضاف إليه بالكتابة . وفى ١٧٨٩ — ٩١ أصدر على ثلاث دفعات « تاريخ حرب الثلاثين » . هنا وجد اليسر على الأقل من حيث اللغة ، وإن منعته مضايقات شديدة مرة أخرى من الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وشوه حبه لإصدار الأحكام والتفاسف القصة وقطعها . ومع ذلك فقد رحب فيلاند بالكتاب دليلا على « قدرة شيلر على أن يرتفع إلى مستوى هيوم وروبرتسن

وجبون »[٩٣] . وبيعت سبعة آلاف نسخة من المجلد الأول فى السنة الأولى لصدوره .

وشعر شيلر الآن أن فى استطاعته إشباع شوقه إلى بيت خاص به ، وإلى امرأة تمنحه حبها ورعايتها . وكان قد أتيح له لمحة خاطفة لشارلوته وكارولينه فون لنجفيلد فى مانهايم عام ١٧٨٤ . ثم رآهما ثانية فى رودولشتات فى ١٧٨٧ ، وكانت « لوته » تعيش هناك مع أمها ، أما كارولينه ، الشقية فى زواجها ، فكانت تسكن فى البيت المجاور . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : [٩٤] « انهما لذيذتان رغم أنهما غير جميلتين ، وهما تسراننى غاية السرور . وهما مطلعتان على أدب العصر ، وتتوفر الأدلة على تمتعهما بتعليم راق جداً . وهما عازفتان ماهرتان على البيانو» . وأنكرت السيدة لنجفيلد فكرة زواج ابنتها من شاعر مملق ، ولكن كارل أوجست نفحه معاش صغير قدره مائتا طالر ، وأنعم علية دوق ساكسى — ميننجن بشعار النبالة . وقد نبه لوته إلى أن فيه عيوباً كثيرة ، فقالت أنها لحظتها ، ولكنها أضافت « ان الحب حب الناس كما نجدهم ، وقبول مواطن ضعفهم إن وجدت بقلب محب» .[٩٥] وزفا فى ٢٢ فبراير ١٧٩٠ ، واتخذا منزلا متواضعاً فى يينا . وأتته لوته بدخلها البالغ مائتى طالر فى العام ، وأنجبت له أربعة أطفال ، وأثبتت خلال شدائده كلها أنها الزوجة الصابرة الحنون . كتب يقول « ان قلبى يسبح فى السعادة ، وعقلى يستمد قوة وعافية جديدتين»[٩٦] .

وعكف على عمله بهمة ، يعد محاضرتين كل أسبوع ، ويكتب المقالات ، والقصائد ، والتاريخ . وظل شهوراً يكد ويكدح أربع عشرة ساعة فى اليوم[٩٧] . وفى يناير ١٧٩١ أصيب بنوبتين من « الحمى النزلية » جلبتا معهما آلاماً فى المعدة وبصقاً للدم . وظل طريح الفراش ثمانية أيام ومعدته ترفض كل طعام . وأعان الطلبة لوته على العناية به و « تنافسوا أيهم يسهر معى . . . . وبعث إلى الدوق بست زجاجات من نبيذ ماديرا المعتق الذى أفادنى مع بعض النبيذ المجرى»[٩٨] . وفى شهر مايو أصابه « تشنج رهيب ، مصحوب بأعراض الاختناق ، فتراءى لى أن ساعتى قد دنت . . . . وودعت

احبائى » وظنتنى راحلا عن الدنيا فى أى لحظة . . . وخففت عنى كثيراً جرعات قوية من الأفيون والكافور والمسك واستعمال عوامل التبخر »[٩٩] .

وأزعج أصحابه شائعة كاذبة بموته ، وصلت حتى كوبنهاجن . وهناك — بناء على اقتراحين من كارل راينهولت وينز باجيزن — وهما نبيلان دانمركيان — عرض الدوق فردريش كوستيان أمير هولشتين — أوجستنبورج والكونت إرنست فون شيملمان على شيلر منحة سنوية قدرها ألف طالر على مدى ثلاث سنين . فقبلها شاكراً . وأعفته الجامعة من التدريس ولكنه ظل يحاضر فرقة خاصة صغيرة . ثم خصص بعض فراغه الجديد ، بناء على اقتراح من راينهولت ، لدراسة فلسفة كانط التى قبلها كاملة تقريباً ، وهو ما أضحك جوته وأثار اشمئزاز هردر . وربما ألحق بعض الأذى بشعر شيلر .

ونشر الآن (١٧٩٣) مقاله الطويل « فى الكياسة والكرامة » الذى استهل التربية الرومانسية « الروح الجميلة » . وقد عرف هذه الروح الجميلة بأنها تلك التى « ينسجم فيها العقل والحواس » والواجب والميل ، وتجد هذه كلها التعبير الخارجى فى الكياسة »[١٠٠] . ولا بد أن المتبرعين الكوبنهاجيين قد هالهم أن يتلقوا « كبعض الرد على منحتهم » كتيباً عنوانه « رسائل فى التربية الجمالية (الاستطيقية) للإنسان » (١٧٩٣ — ٩٤) . وقد بدأ شيلر بفكرة كانط عن الإحساس بالجمال كتأمل نزيه للصور المتناسقة ، ثم زعم (مع شافتسبرى) أن « الشعور الذى ينميه الجميل يهذب السلوك » ويصبح الحس الجمالى هو والفضيلة واحداً . وأنه لعزاء أن نقرأ ، فى هذا الرأى المنبعث من أيام فايمار المزدهرة ان شيلر (كجوته) رأى أن جيله منحل « غارق فى انحطاط خلقى عميق »[١٠١] .

فلما عاد من الفلسفة إلى الشعر وجد عناء فى استحضار « تلك الجرأة والنار المضطرمة التى كنت أملكها من قبل ، .. لقد أفسدنى الجدل النقدى »[١٠٢] . ولكنه أصر على أن « الشاعر هو الإنسان الأصيل الوحيد » وليس أفضل الفلاسفة إلا كاريكاتورا إذا قيس به »[١٠٣] ، ورفع

وظيفة الشاعر فى تعليم البشر والتسامى بهم إلى مستوى الإلهام السماوى . وقد وصف فى قصيدة غنائية طويلة « الفنانون ١٧٨٩ » الشعراء والفنانين بأنهم يرشدون النوع الإنسانى إلى وحدة الجمال مع الفضيلة والحق . وفى قصيدة أخرى « آلهة اليونان » (١٧٨٨) امتدح اليونان على حساسيتهم الجمالية وإبداعاتهم الفنية » وزعم ، فى إبهام حلو « إن العالم بات كئيباً قبيحاً منذ حلت المسيحية محل الميلينية . وكان واقعاً الآن تحت سحر جوته كما وقع جوته من قبل تحت سحر فنكلمان .

ولعل تصوير شيلر وجوته الرومانسى لليونان القديمة كان هروباً من المسيحية . فشيلر ينتمى إلى التنوير رغم بعض الفقرات الورعة ، شأنه فى ذلك شأن جوته ؛ وقد قبل إعان القرن الثامن عشر بالخلاص عن طريق العقل البشرى لا النعمة الإلهية . واحتفظ باعتقاد ربوبى فى الله — شخصى فى الشعر فقط — وخلود غامض . ورفض الكنائس كلها البروتستنتية منها والكاثوليكية . ولم يكن يطيق المواعظ حتى مواعظ هردر . وقد كتب بيتين شهيرين فى ابجرام عنوانه (عقيدتى) يقول فيهما :

أى دين أعترف به ؟ ولاواحد من كل
الأديان التى تذكرها لى . ولم ؟ بسبب الدين [١٠٤] .

وكتب إلى جوته فى ٩ يوليو ١٧٩٦ يقول « ان الطبيعة السليمة الجميلة — كما تقول أنت نفسك — ليست فى حاجة إلى ناموس أخلاقى ، إلا إلى قانون لطبيعتها ، ولا إلى ميتافيزيقا سياسية . وكان فى وسعك أن تضيف أيضاً أنها ليست فى حاجة إلى إله ، ولا فكرة خلود تدعم وتصون بها ذاتها» . ومع ذلك كان فيه عوامل من الخيال والرقة ردته صوب المسيحية :

« اننى أجد أن المسيحية تحتوى فعلا على الأصول الأولى لكل ما هو أسمى وأنبل » وصورها الخارجية المختلفة لا تبدو لنا بغيضة منفرة إلا لأنها تعبيرات سيئة عن الأسمى . . ولم يشدد أحد تشديداً كافياً على ما يمكن أن يكونه هذا الدين لعقل جميل أو على الأصح ما يمكن أن يفهمه منه

عقل جميل . وهذا يفسر نجاح هذا الدين نجاحاً كبيراً مع الطبائع الأنثوية ، وأنه في النساء فقط يمكن احتماله إطلاقاً »[١٠٥] .

لم يكن شيلر كجوته مركباً من حيث بدنه للوثنية الخالصة . كان وجهه مليحاً ولكنه شاحب ، وقوامه فارعاً ولكنه نحيل هش . وكان يخشى تقلبات الجو اليومية ويؤثر القعود في حجرته يدخن ويتنشق . وكان يقابل بينه وبين جوته مقابلة الفكرة ضد الطبيعة ، والخيال ضد العقل ، والعاطفة ضد الفكر الموضوعي[١٠٦] . وكان يجمع بين الحياء والكبرياء ، يخشى الخصومة ولكنه يرد دائماً على الهجوم ؛ سريع الغضب فاقد الصبر أحياناً ، [١٠٧] ربما لأنه كان عليماً بأن عمره ينفد ؛ يكثر النقد للغير ويحسدهم أحياناً[١٠٨]. وكان يميل إلى استخراج العبرة عن كل شيء ، وإلى الضرب على وتر مثالي عال . ومما يريح نفوسنا أن نراه يستمتع بغراميات قصة ديدرو «الحلى الواشية» [١٠٩] . وقد أجاد تحليل موهبته في خطاب مبكر إلى جوته :

« لقد غلبني عقل الشاعر عموماً حين كان ينبغي أن أفلسف . وغلبني عقل الفيلسوف حين كنت أريد الشعر . وحتى الآن كثيراً ما يحدث أن يقتحم الخيال تجريداتي ، والفكر البادىء نتاجي الشعري . ولو استطعت السيطرة على هاتين القوتين بحيث أعين لكل منهما حدودها (كما كان جوته يفعل) لبقي لدى أمل في التطلع إلى مصير سعيد . ولكن حين بدأت أعرف طاقاتي المعنوية واستخدمها على الوجه الصحيح ، هاجمني المرض للأسف وهددني بتقويض قواي البدنية »[١١٠] .

وعاوده المرض بعنف في ديسمبر ١٧٩٣ ؛ ثم تماثل للشفاء ، ولكن إحساسه بأنه لاشفاء له منه وأنه يجب أن يتوقع نوبات راجعة أورثه الكآبة . في ١٠ ديسمبر كتب إلى كورنر يقول «إنني أكافح هذا الشعور بكل قوى عقلي . . . ولكني أصد دائماً . . . فإن غموض مستقبلي ؛ . . . والشكوك في عبقريتي التي لا يدعمها ولا يشجعها الاتصال بغيري ، والافتقار التام لذلك الحديث العقلي الذي أصبح ضرورة لا غنى لي عنها » ؛ تلك كانت الأفكار الملازمة لمحنته الجسدية . وراح يتطلع في تشوق ، من بينا لفنبار ،

إلى جوته الذى ينعم بعافية يحسد عليها ، ذلك « العقل السليم فى الجسم السليم » وأحس شيلر انه هناك يوجد الرجل الذى يستطيع أن يعطيه الحافز والدعم ، او أن الجليد القائم بينهما ذاب ، وسقط حاجز الأميال الأربعة عشر الذى يفصل بينهما !

٧ – شيلر وجوته ١٧٩٤ — ١٨٠٥

وسقط الحاجز لحظة حين حضر الرجلان فى يونيو ١٧٩٤ جلسة عقدتها جمعية التاريخ الطبيعى فى يينا . فلما التقى شيلر بجوته وهما يغادران القاعة ، قال معلقاً أن العينات البيولوجية المعروضة فى المؤتمر تعوزها الحياة ، ولا ولا يمكنها أن تعين مشاهدها حقاً على فهم الطبيعة . ووافق جوته مشدداً ، وتجاذبا الحديث حتى بلغا بيت شيلر . وقال جوته فيها بعد مستعيداً ذكرى اللقاء « وأغرانى الحديث بالدخول معه وشرحت له . . . « تحور النباتات» — وهى مقالة زعم فيها جوته أن جميع النباتات تنويعات من نمط أولى واحد . وأن كل أجزاء النبات تقريباً تنويعات أو تطويرات للورقة . « واستمع . . . إلى هذا كله بكثير من الاهتمام وبفهم واضح ، ولكن ما إن فرغت حتى هز رأسه وقال لى « ليست هذه تجربة ، إنما هى فكرة » « أى أنها نظرية لم تثبتها الملاحظة أو الاختبار . وغاظ التعليق جوته ، ولكنه رأى أن لشيلر عقلا مستقلا « فازداد احترامه له . أما زوجة شيلر « التى أحبتها وقدرتها منذ طفولتها ، فقد بذلت قصاراها لتوثق تفاهمنا المتبادل »[١١١] .

وفى مايو ١٧٩٤ كان شيلر قد وقع عقداً بالإشراف على تحرير مجلة أدبية شهرية «تسمى د اى هورين والهوراى » فى المتيولوجيا الإغريقية ربات الفصول . وكان يأمل أن يجند للمجلة كانط ، وفشته ، وكلوبشتوك « وهردر ، وياكوبى « وياجيزين « وكورنر « ورايهولت ، وفلهلم فون همبولت ، وأوجست فلهلم فون شليجل ، ثم جوته — أفضل صيد يطمع فى اقتناصه . وفى ٣ يونيو أرسل إلى فايمار رسالة موجهة إلى « السيد الكريم المحتد ، الرفيع المقام ، المكرم ، عضو المجلس الخاص » ، تحتوى على نشرة تمهيدية للمجلة المقترحة « وأضاف : « أن الورقة المرافقة تعرب عن

رغبة عدد من الرجال الذين يقدرونك تقديراً بغير حدود فى أن تشرف الدورية بمقالات من قلمك ، يجمع الكل بصوت واحد على عظم قيمتها . ونحن نشعر ياصاحب السعادة بأن موافقتك على دغم هذا المشروع ستكون ضماناً لنجاحه »[١١٢] . ورد جوته بأنه يسره المشاركة بمقالاته . وأنه « على ثقة من أن الاتصال الأوثق بالرجال الأصلاء الذين يؤلفون لجنتكم سيبعث حياة جديدة فى كثير مما هو راكد الآن فى باطنى[١١٣] .

وهكذا بدأ تراسل يعد من ذخائر تاريخ الأدب ، وصداقة اتصلت إحدى عشرة سنة — حتى موت شيلر — فيها من تبادل الاحترام والعون ما ينبغى أن يدخل فى تقديرنا للنوع الإنسانى . وربما كان أكثر هذه الرسائل الباقية كشفاً — وعددها ٩٩٩ — هى الرسالة الرابعة (٢٣ أغسطس ١٧٩٤) ، التى حلل فيها شيلر — بعد عدة لقاءات مع جوته جمعت بين المجاملة والصراحة وبين التواضع والاعتزاز بالنفس ؛ الفارق بين عقليهما . قال :

« إن أحاديثى الأخيرة معك حركت كل ذخيرة أملكها من الأفكار . . . فكثير من الأشياء التى لم أستطع أن أصل فيها إلى تفاهم خاص مع نفسى تلقت ضوءاً جديداً غير متوقع من تأملى لعقلك (فهكذا أسمى التأثير العام لأفكارك على) . لقد أعوزنى التجسيد لعدد من أفكارى التأملية ، وأنت وضعتنى على الطريق المفضى إليه . وأسلوبك الهادىء الواضح فى النظر إلى الأشياء يعصمك من التيه فى الطرق الجانبية التى كثيراً ما يشرد بى فيها تأملى وخيالى المستبد . ان حدسك الصائب يدرك كل الأشياء ، ويدركها على نحو أكمل كثيراً مما ينشده المرء فى عناء بالتحليل . . . وعقول كعقلك قل أن تعرف إلى أى حد بعيد نفذت وتغلغلت ، وأنه ما من داع يذكر يدعوها للاستعارة من الفلسفة ، التى لا تستطيع فى الواقع إلا أن تتعلم منها . . . ومع أننى فعلت هذا على بعد ، إلا اننى طالما راقبت المسار الذى سلك فيه عقلك . . أنت تبحث عن الضرورى فى الطبيعة ، ولكنك . . . تنظر إلى الطبيعة بوصفها كلا حين تحاول جعل الضوء يلقى على أجزائها الفردية ، أنت تبحث عن تفسير الفرد فى جماع مظاهرها المتنوعة[١١٤] .

أما رد جوته (٢٧ أغسطس) فقد تجنب فى ذكاء تحليل عقل شيلر :

« ماكنت لأتلقى بمناسبة عيد ميلادى الذى وقع هذا الأسبوع هدية أجمل من رسالتك التى تلخص فيها حياتى بيد ودود ، وتشجعنى فيها بتعاطفك على استخدام قدراتى استخداماً أكثر مثابرة ونشاطاً . وسيكون من دواعى سرورى أن أكشف لك حين تتاح لى الفرصة ماكانه حديثك لى ، وكيف أننى أنا أيضاً أعد تلك الأيام مرحلة متميزة فى حياتى ، لأنه يبدو لى اننا لانملك بعد هذا اللقاء غير المتوقع إلا أن نطوف فى دروب الحياة معاً » .

وتابع جوته هذه الرسالة (٤ سبتمبر) بدعوة لشيلر ليحضر إلى فايمار وينفق معه أياماً فيها . « سيكون فى استطاعتك أن تشرع فى أى عمل تشاء دون أن يزعجك أحد . وسنتجاذب الحديث معاً فى أوقات ملائمة . وفى ظنى اننا لن نفترق دون أن نحقق بعض الكسب . وعليك أن تعيش هنا تماماً كما تحب ، وكما لوكنت فى بيتك ما أمكن ذلك » . ولم يتردد شيلر فى القبول ، ولكنه حذر جوته قائلا « ان تشنجات الربو التى أعانى منها تلزمنى الفراش طوال الصباح لأنها لاتسمح لى بأى راحة فى الليل » . وهكذا كان شيلر ضيف جوته وعليله تقريباً من ١٤ إلى ٢٨ سبتمبر . وأعتنى أكبر الرجلين بالشاعر العليل عناية رفيقه « وحماه من المضايقة ، وبذل له النصح فى أمر غذائه ، وعلمه حب الهواء الطلق . كتب شيلر (٢٩ سبتمبر) بعد عودته إلى يينا يقول « أجدنى فى بيتى مرة أخرى ، ولكن أفكارى لاتزال فى فايمار . ولا بد لى من وقت طويل أحل فيه خيوط كل الأفكار التى أيقظتها فى » . ثم (٨ أكتوبر) ، ناشد « بما عهد فيه من تحمس « يبدو لى انه من الضرورى أن نصل فوراً إلى قدر من التفاهم الواضح حول أفكارنا عن الجميل » .

ثم تلا ذلك شهور ثلاثة من التحضير للعدد الأول من مجلة « هورين » الذى صدر فى ٢٤ يناير ١٧٩٢ ، والثانى فى أول مارس . والأعداد الباقية شهرياً على مدى ثلاث سنين ، وكتب جوته من فايمار (١٨ مارس) يقول « إن الناس يتهافتون عليها ، ويتخاطفون أعدادها ، ولما كنا لنطمع فى أكثر

من ذلك لهذه البداية » . وفى ١٠ أبريل كتب شيلر لجوته يقول « لقد كتب لى كانط خطاباً ودياً جداً ، ولكنه طلب مهلة لإرسال مقالاته . . . ويسرنى أننا أغرينا الطائر العجوز بالانضمام إلينا . » وطلب جوته أن تنشر مقالاته غفلا من التوقيع ، لأنها اشتملت على عدد من « مراثيه الرومانية » ، وكان عليماً بأن نزعتها الشبقة القوية ستبدو غير لائقة بعضو فى المجلس الخاص .

وفى حماسة النجاح المتهورة أقنع شيلر جوته بأن يشترك معه فى إصدار دورية أخرى « التقويم السنوى للشعر» صدرت كل سنة من ١٧٩٦ إلى ١٨٠٠ . وأطرف ما احتوته هو الأبجرامات المسماة xenien والتى صاغها الشاعران على غرار ابجرامات مارتيال Xenia (اكسنيا) التى كانت تكتب هدايا للضيوف . وقد وصف شيلر المشروع لكرونر فقال : « ان العملية كلها تجميع لأبجرامات ، كل منها مقطع شعرى من بيتين . وهى فى أكثرها هجائيات عنيفة شيطانية ، موجهة بصفة خاصة ضد المؤلفين وأعمالهم ، يتخللها هنا وهناك ومضات خاطفة من الأفكار الشعرية أو الفلسفية . فسيكون هناك عدد لا يقل عن ستمائة من هذه المقطوعات »[١١٥]. وكان جوته قد اقترح هذه الفكرة ذريعة لرد اللطمات إلى نقادهما ، وللسخرية من المؤلفين المغرورين وأصحاب الميول البورجوازية ، ولتنبيه جمهرة القراء الألمان إلى الاهتمام بالأدب اهتماماً أشد . وعزماً على أن يطلقا هذه « الهدايا » على معسكر الرجعيين « كالثعالب المشتعلة الذيول » . [١١٦] وكانت الأبجرامات بلا توقيع ، وكان بعضها نتاجاً مشتركاً للمتآمرين كليهما . وإذ كان الكثير من هذه الذيول المشتعلة موجهاً ضد مؤلفين طواهم النسيان أو جدليات لا يذكرها الناس الآن ، فإن الزمن أطفأ نارها ، ولكن واحداً منها بقلم جوته يستحق منا التنويه الخاص :

« جاهد دائماً فى سبيل الكل ، وإذا لم تستطع أنت نفسك أن تصبح كلا ، فاربط نفسك إلى كل ما يوصفك جزءاً تابعاً » .

وهناك إبجرام آخر يعزى عادة إلى شيلر يفصل الفكرة :

« أتخاف الموت؟ أتريد الحياة دون أن تموت؟ إذن عش فى الكل !

فسوف يبقى بعد أن تموت بزمن طويل . » وقد جر عليهما الجزء الهجائى من الاجرامات هجمات مضادة آلمت شيلر واضحكت جوته . ونصح جوته شيلر بأن يجعل من عمله الرد الوحيد على هذا الهجوم . « بعد مغامرتنا المجنونة فى الاجرامات ، علينا أن نحرص على العكوف على أعمال الفن العظيمة الجليلة دون غيرها » وأن نخزى جميع خصومنا بتحويل طبائعنا المتقلبة إلى صور نبيلة »[١١٧] .

وهكذا كان ، فنى سنى صداقتهما النامية تلك كتب جوته وشيلر بعضاً من اروع قصائدهما : فكتب جوته « عروس كورنت » و « الأله والبايديرا » ؛ وكتب شيلر « المسيرة » (١٧٩٥) و « كراكى أبيكوس » (١٧٩٧) و « أنشودة الناقوس » (١٨٠٠) . وأضاف شيلر مقالا كبيراً فى « الشعر الساذج العاطفى » (١٧٩٥) — وطلع جوته على الناس بقصته « تلمذة فلهلم ما يستر » (١٧٩٦) .

وقد عنى شيلر بالشعر الساذج العاطفى ، ذلك الشعر المنبعث عن الإدراك الحسى الموضوعى مقابل الشعر الذى ينشئه الوجدان التأملى ؛ وكان فى طويته يقارن بين جوته وشيلر . أما الشاعر « الساذج » فليس بسيطاً ولاسطحياً ولا مخدوعاً ، إنما هو شاعر توافق فى يسر مع العالم الخارجى بحيث لايشعر بأى تعارض بينه وبين الطبيعة ، بل يجد طريقه إلى الواقع بالحس المباشر غير المتردد : ويستشهد شيلر بهومر وشكسبير مثالين على فكرته . وكلما أصبحت المدنية أكثر تعقيداً وافتعالا فقد الشعر هذه المباشرة الموضوعية والانسجام الذاتى ، ودخل الصراع النفس » وكان على الشاعر أن يقتنص من جديد بالخيال والوجدان هذا التوافق والاتحاد بين النفس والعالم — كمثل أعلى يتذكره أو يتطلع إلى تحقيقه ؛ ويغدو الشعر عندئذ تأملياً ، يلبد الفكر سماءه[١١٨] . وكان شيلر يعتقد أن معظم الشعر اليونانى من النوع الساذج أو المباشر . ومعظم الشعر الحديث حصيلة التنافر والتفكك والشك . والشاعر المثالى هو الذى يصهر المدخلين جميعاً — البسيط والتأملى — فى رؤية واحدة وصورة شعرية واحدة . وقد ذكر جوته فيما بعد أن هذا المقال أصبح مصدراً للجدل بين الأدب والفن الكلاسيكيين والرومانتيكيين .

ونمو فكرة « تلمذة فلهلم مايستر » من بدايتها إلى تمام تنفيذها يوضح منهج جوته فى الخلق . فقد تصور القصة فى ١٧٧٧ ، وأتم الكتاب الأول فى ١٧٧٨ ، ثم نحاه جانباً ، ولم يكمل الكتاب الثانى حتى يوليو ١٧٨٢ . ثم عكف على الكتاب الثالث حتى نوفمبر من ذلك العام ، وعلى الرابع حتى نوفمبر ١٧٨٣ ؛ أما الكتابان الخامس والسادس فقد امتد بهما الزمن ثلاث سنين خرى . وقد أطلق على الكتب الستة « انطلاق فلهلم مايستر المثير » وقرأ أجزاء منها على بعض أصحابه ، ثم طرحها جانباً . وعاد إلى القصة فى ١٧٩١ بإلحاح من هردر وآنا آماليا ، وأضاف إليها كتابين فى ١٧٩٤ ، ثم عرض المخطوط المتعاظم على شيلر ، الذى رد بانتقادات واقتراحات وتشجيع كلما وافاه المؤلف بصفحات جديدة . وكأنها صورة لقابلة تعين الأم على ولادة فات أوانها . وأخيراً ، فى ١٧٩٦ ، دفع جوته بالمؤلف كله إلى المطبعة . لا عجب إذن أن كانت الحصيلة النهائية مشوهة تشوهاً طفيفاً ، ضعيفة البناء ، « دهنية » القوام ، مهوشه ، ممتازة فى أجزاء فقط ، وفى عكسها لتردد جوته بين الاهتمامات المتضاربة ، والمثل العليا الغامضة . لقد كان الحسم والثقة بالنفس ، اللذان نعته بهما شيلر ، هما الستار المتكبر للتذبذب والصراع الداخليين .

وقد عبر الكتاب عن فترة التلمذة فى النقابات الحرفية الألمانية ، وخلال زمن الوصاية هذا أصبح فلهلم « معلماً » فموضوع القصة المطوف إذن هو هو تلمذة فلهلم البطيئة الأليمة فى نقابة الحياة . وبسبب مسارح العرائس التى أحبها جوته طفلا ، واهتمامه المتصل بالمسرح ، ربط القصة بفرقة من الممثلين تجتاز مدناً كثيرة وتتقلب عليها عشرات الغير دروساً فى الحياة وصوراً لأساليب العيش الألمانية . وإذ كان وفياً لعدم وفائه فقد أدخل بطله إلى مسرح الأحداث بهجرانه خليلته ماريانه . وفلهلم ليس بالشخصية الفتانه . فهو يترك نفسه تساق من موقف لآخر أو من فكرة لأخرى على هوى الظروف أو بقوة الشخصية المفروضة عليه ، والمرأة هى التى تقوم بالمبادرة فى غرامياته . ولد بورجوازياً ، ومن ثم فهو يتعثر إعجاباً بالرجال النبلا

المولد » ويأمل فى تواضع أنهم فى يوم ما سيعترفون بارستقراطية العقل .
أما فيلينه فأكثر جاذبية منه : فهى ممثلة جميلة تثب بخفة من عشق إلى عشق ، ولكنها تجمل تطويفها الغرامى بمرح معد وعدم وعى بالإثم يحلها من خطيئتها .
أما ميتون الصغيرة ففريدة فى بابها ، تتبع أباها الشيخ فى إحساس بالواجب وهو يعزف عزفاً غير بارع على قيثارته فى جولات يجمع فيها الدراهم .
ويقول جوته فى وصفها أنها تتكلم « المانية ركيكة جداً »[١١٩] . ولكنه يجرى على لسانها تلك الأغنية الرائعة « أتعرف ذلك البلد » . وهى تقع فى غرام المراهقة بفلهلم الذى يحبها حبه لطفلة ، وتموت هى حزناً حين تراه بين ذراعى تريزا . وقد التقطها امبرواز توما من بين هذه الصفحات الثامنائة ليجعل منها أوبرا حزينة ممتعة (١٨٦٦) .

وامتدح شيلر رصانة أسلوب القصة وصقاءه » وما فى وصف الفرقة التمثيلية الجوالة من صدق ومطابقة للحياة ، ولكنه أشار إلى تناقضات فى الترتيب الزمنى » وشبه استحالات سيكولوجية » وانتهاكات للذوق ، وأخطاء فى التصوير والتصميم »[١٢٠] . واقترح تغييرات فى الحبكة ، وأولى بأفكاره عن النحو الذى ينبغى أن تختم عليه القصة[١٢١] . وقال له جوته مؤكداً » « انى بالتأكيد سامتثل لرغباتك المنصفة مااستطعت[١٢٢] .
ولكنه اعترف لأكرمان » بعد ثلاثة وثلاثين عاماً ، بأنه بذل قصاراه ليحمى قصته من تأثير شيلر[١٢٣] . وكان نقاد آخرون أقل تعاطفاً » فوصف أحدهم الكتاب بأنه ماخور متجول ، وشكت شارلوته فون شتين قائلة « حين يتناول جوته العواطف السامية يقذفها دائماً ببعض الأقذار » وكأنما يريد بذلك أن ينكر على الطبيعة البشرية أى طموح إلى القداسة »[١٢٤] .
على أن القصة لم تستحق هذه الانتقادات العشوائية » ففيها الكثير من الصفحات السارة » ومازال فى استطاعتها أن تثير شوق القراء الذين تحرروا من ضجيج العالم وصخبه .

وفى ٢٣ مارس ١٧٩٦ ذهب شيلر إلى فايمار مرة أخرى ضيفا على جوته . هناك عملا معاً فى خدمة المسرح . وكان جوته مديراً صارماً ، يختار التمثيليات المراد عرضها ، ويدرب الممثلين . « فاستبعد كل ما كان كئيباً

أو ضعيفاً أو باكياً أو هش العاطفة ، كما استبعد تماماً كل ماكان مخيفاً أو مرعباً أو نابياً »[١٢٥] . أما الجمهور فاقتصر عادة على البلاط ، إلا حين يدعى بعض الطلاب من يينا . وقد عاق أوجست فون شليجل على هذا الوضع تعليقاً لاذعاً « أن لألمانيا مسرحين قوميين – فيينا بجمهور من خمسين ألف مشاهد ، وفيار من خمسين »[١٢٦] .

وعاد شيلر إلى يينا فى ١٢ أبريل ، وقد حفزه اتصاله المجدد بالمسرح لينصرف عن التاريخ والفلسفة والشعر العارض إلى الدراما . ولقد طالما فكر من قبل فى تأليف مسرحية عن فالنشتين ، فحثه جوته على الشروع فيها . وفى نوفمبر ذهب جوته إلى يينا ، وعاش حيناً فى اتصال يومى بشيلر . فلما عاد جوته إلى فيار كتب إليه يقول « لايفتك أن تستغل أفضل أوقاتك ، حتى تمضى قدماً بمأساتك ، ليتسنى لنا أن نشرع فى مناقشتها »[١٢٧] .

وبينما كان شيلر عاكفاً على تأليف « فالنشتين » ، شحذ روح المنافسة فى جوته نجاح « لويزه » (١٧٩٥) التى ألفها يوهان هينريش فوس قصة ريفية شعرية تمثل الحياة والعواطف الألمانية – فجرب هذا اللون الحبيب ، ونشر فى ١٧٩٨ – « هيرمان ودوروتيا » . أما هيرمان فهو الإبن القوى السليم ، الخجول الهادىء ، لأب صفراوى المزاج وأم حنون يديران « الخان الذهبى » ومزرعة واسعة فى قرية قريبة من الراين . ويصل إلى علمهم أن مئات من اللاجئين قادمون من بلدة على التخوم استولى عليها الفرنسيون ، فتجهز الأسرة رزما من الثياب والطعام ، يحملها هيرمان إلى اللاجئين . ويجد بينهم صبية لها « نهدان بارزان » و « كاحلان رائعان »[١٢٨] تقدم للاجئين العون وأسباب الراحة . فيهيم بها ، وبعد شدائد لابد منها ، يصطحبها إلى بيته ويقدمها إلى أبويه بوصفها عروسه . ويروى الشاعر القصة فى أبيات متدفقة من البحر السداسى التفاعيل ، وصور الحياة الريفية الموجزة تضفى رواء على القصة ، وقد ابهجت التداعات لطرد الغزاة الفرنسيين الألمان المتحمسين لوطنهم والذين وجدوا مسرحيتى جوته « إفجينى » و « تاسو » غريبتين عويصتين . واكتسبت الملحمة الصغيرة شعبية جديدة لمؤلف لم يظفر منذ « فرتر » إلا بقلة من القراء خارج دوقية ساكسى فايمار .

أما شيلر فكان نجمه فى صعود من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠ . ففى ٢٨ نوفمبر ١٧٩٦ كتب إلى كورنر يقول « مازلت أطيل الفكر جاداً فى « فالنشتين » ، ولكن العمل التعس مازال أمامى بلا شكل ولا نهاية . » وقد بدأ المسرحية نثراً ، ثم نحاها ، ثم استأنفها شعراً . وكان على إلمام بالمادة من الدراسات التى قام بها ليؤلف كتابه « تاريخ حرب الثلاثين » ، ولكنها بلغت من الوفرة والتعقيد فى الشخوص والأحداث مبلغاً أكرهه على الإقلاع عن محاولة ضغطها فى خمسة فصول . وقرر أن يقدم للدراما بتمهيد (برولوج) من فصل واحد سماه « معسكر فالنشتين » ، وأن يقسم الباقى إلى تمثيليتين . وشرحت الأولى مؤامرة خلع القائد المتمرد ، ووازنتها بغرام ملتهب بين ابنة فالنشتين وابن زعيم فى المؤامرة . وإما الدراما النهائية والأساسية فستكون « موت فالنشتين » .

فلما قرأ جوته التمهيد « راعه التصوير الواقعى لمعسكر الجيش ، والإعداد البارع للتطورات اللاحقة ، فأصر على عرض « معسكر فالنشتين » على مسرح فايمار (١٢ أكتوبر ١٧٩٨) قبل أن يكتمل القسم الأول ؛ وربما كانت هذه الطريقة ذكية لإلزام الشاعر بالعكوف على مهمته . وفى مطالع ١٧٩٩ ذهب شيلر إلى فايمار لإخراج التمثيلية الأولى ، فعرضت أول مرة فى ٣٠ يناير ولقيت قبولا حسناً . وعاد إلى يينا وراح يعكف بشكل محموم على « موت فالنشتين » . ويكشف خطاب فى ١٩ مارس ١٧٩٦ عن الحالة النفسية لكاتب خرج لتوه من أتون الخلق « لقد طالما روعتنى اللحظة التى سأفرغ فيها من عملى ، مع شدة رغبتى فى مجىء تلك اللحظة ؛ والواقع أنى أشعر بأن حريتى الراهنة أسوأ من حالة العبودية التى كنت أعانيها إلى الآن . فقد ذهب الآن الجمهور الذى اجتذبنى حتى الآن وألزمنى هذا هذا الواجب ، وأنا أحس كأننى معلق فى الهواء إلى مالا نهاية » .

وجاء ما يكفى من الإثارة مع التدريبات والعرض الأول (٢٠ أبريل ١٧٩٩) لموت فالنشتين . وكان نجاحها كاملا . وحتى جمهور فايمار النقاد أحس أنه شهد رائعة من روائع العرض الدرامى . ووصل شيلر الآن

إلى قمة تطوره . لقد قصر الخطب وكثف الحركة ، ورسم كل الشخوص الهامة بحيوية وقوة ، وجمع كل خيوط الحبكة معاً فى الخاتمة الفاجعة — وهى ذلك الموت المخزى لرجل عظيم دمره الطمع والكبرياء اللذان لاحدود لهما . وأحس شيلر أن فى وسعه الآن أن يقف على قدم المساواة مع جوته[١٢٩]، وكان على حق فى مضمار الدراما . وأضاف الدوق مائتى طالر لمعاش شيلر ، ربما بناء على اقتراح من جوته ، ودعاه للإقامة فى فيايمار . وهكذا انتقلت الأسرة فى ٣ ديسمبر ١٧٩٩ إلى بيت قريب جداً من بيت جوته ، حتى أن الشاعرين ظلا حينا يلتقيان كل يوم[١٣٠] .

وكان شيلر خلال ذلك قد زج بنفسه فى مسرحية أخرى بعد أن حفزه انتصاره . كتب إلى كورنر فى ٨ مايو ١٧٩٩ يقول « شكراً لله ! لقد وقعت وقعت فعلا على موضوع جديد للمأساة » ودرس لهذه التمثيلية « ماريا ستيوارت » الخلفية التاريخية ، ولكن لم يدع أنه يكتب التاريخ ، فقد نوى أن يكتب تمثيلية يستخدم فيها التاريخ مادة وخلفية . فرتب من جديد الأحداث والتسلسل الزمنى ليخدما الاتساق والتأثير الدراميين ؛ وأكد على العناصر غير السارة فى خلق اليزابث ، وجعل من مارى بطلة مبرأة من كل دنس تقريباً ، ثم أتى بالملكتين وجهاً لوجه فى مواجهة درامية . والتاريخ لايعرف هذا اللقاء ، ولكن المشهد من أقوى المشاهد فى أدب المسرح . فلما أن عرضت فى فايمار فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ انتشى شيلر مرة أخرى بنجاحه . وما وافى شهر يوليو حتى كان عاكفاً على تمثيلية « عذراء أورليان » . هنا أيضاً عدل التاريخ ليخدم هدفه : فبدلا من حرق العذراء صور جان دارك هاربة من آسريها الانجليز ، مندفعة إلى المعركة لتنقذ ملكها ، لاقية حتفها وهى منتصرة على ساحة القتال . وكان العرض الأول فى ليبزج (١٨ سبتمبر ١٨٠١) أعظم انتصار ظفر به شيلر طوال حياته .

أكان جوته يغار من صعود نجم صديقه فجأة على المسرح الألمانى؟ لقد اغتبط بهذا الصعود ، وظل بعد مضى ثمانية وعشرين عاماً يحكم على « موت

فالنشتين» بأنها «عظيمة حتى انك لاتجد لها نظيراً من نوعها» [١٣١]. على أنه لم يرفع قدر منافسه فى الشعر إلى المقام الذى رفعه إليه فى الدراما ، فقد أحس أن شيلر كدر صفاء شعره بالفلسفة «وأنه لم يملك قط ناصية موسيقى الشعر تماماً» [١٣٢]. وحين أراد بعض المعجبين بشيلر أن يقدموا على مسرح فايمار تعبيراً عن تقديرهم له ، منع جوته هذا العرض بحجة أن فيه غلواً فى التباهى [١٣٣]. وفى يوليو ١٨٠٠ ذهب إلى يينا للخلوة والدرس «بينما ظل شيلر فى فايمار ، ولكن فى ٢٣ نوفمبر كان شيلر لايزال يتكلم عن جوته بعبارات الصداقة التى لم تشبها شائبة . وكان رأيه فى جوته أنه «أعظم رجل موهوب منذ شكسبير . . . وطوال سنى صداقتنا الحميمة الست لم يخامرنى أدنى شك فى نزاهته . لقد اتصف بأسمى صفات الصدق والإحساس بالشرف ، وأعمق الجد فى السعى إلى ما هو حق وخير» [١٣٤] . ثم أردف «وددت لو استطعت أن أبرر جوته بمثل هذه الحرارة من جهة علاقاته الأسرية ! . . . فبسبب أفكار خاطئة عن مقومات السعادة البيتية ، وخوف منكود من الزواج ، انزلق إلى ورطة تضنيه وتشقيه فى بيته ذاته ، وهو أضعف وألين قلباً من أن يتخلص منها . ذلك مغمزه الوحيد . » وقد أبت زوجة شيلر كغيرها من سيدات فايمار أن تستقبل كرستيانه فى بيتها ، وندر أن ذكر شيلر كرستيانه فى اتصالاته القائمة بجوته .

على أن هذه الصداقة بين «الديوسقورين» — كما كانا يلقبان أحياناً — رغم ما شابها من صدوع ، أثبتت على الأقل أن الانسجام ممكن بين عبقرية كلاسيكية وأخرى رومانتيكية . كانا يبعثان الرسائل الواحد لصاحبه كل يوم تقريباً ، ويتناولان العشاء معاً مراراً ، وكثيراً ما وضع جوته مركبته تحت تصرف شيلر ، وأهدى شيلر «شطراً من الطلب الذى سلمه الساعة تاجر النبيذ الذى أتعامل معه» [١٣٥] . كتب جوته فى ٢٠ أبريل ١٨٠١ : «لنتمش معاً قرب المساء» ، وكتب فى ١١ يونيو «وداعاً ، بلغ تحياتى الرقيقة لزوجتك العزيزة ، واشرح صدرى عند عودتى (من جوتنجن) باطلاعى على بعض ثمرات جهدك» ؛ وفى ٢٨ يونيو ١٨٠٢ : «سيصلك مفتاح حديقتى وبيتى ؛ وأريدك أن تمضى هناك ما أمكنك من الأوقات

السعيدة » . وبعد موت شيلر باثنين وعشرين عاماً قال جوته لأكرمان « «كان من حسن حظى . . . ان وجدت شيلر ، لأننا رغم اختلاف طباعنا فإن ميولنا كانت تتجه إلى نقطة واحدة ، مما وثق صلتنا إلى حد استحال معه حقيقة على الواحد أن يعيش بدون الآخر» (١٣٦) .

وقد عوقهما المرض فى سنوات صداقتهما الأخيرة . ففى الشهور الثلاثة الأولى من سنة ١٨٠١ كان جوته يشكو العصبية ، والأرق ، والأنفلونزا العنيفة » والخراريج التى أقفلت عينيه حيناً . وفى إحدى مراحل مرضه طالت غيبوبته حتى توقعت فايمار موته . وفى ١٢ يناير كتبت شارلوته فون شتين لولدها فرتز تقول : لم أكن أدرى أن صديقى السابق جوته ما زال عزيزاً جداً على » وأن مرضاً خطيراً قهره منذ تسعة أيام سيهزنى إلى الأعماق » (١٣٧) . وأخذت أوجست » ابن كرستيانه » إلى بيتها فترة لتخفف الأعباء التى ألقاها مرض جوته على خليلته التى كانت تبذل له العناية دون كلل . وكان إبلاله بطيئاً إليماً . كتب إلى شارلوته يقول « صعب على المرء أى يجد طريقه إلى العودة (١٣٨) .

وفى ١٨٠٢ اشترى شيلر بيتاً فى فايمار لقاء ٧,٢٠٠ جولدن » وكان الآن ميسوراً بفضل الحصيلة المتزايدة من مسرحياته الممثلة والمنشورة ؛ وساعده جوته ، وكان وقتها فى ييما ، على بيع البيت الذى كان يسكنه هناك . وفى ١٧ مارس ١٨٠٣ أخرج شيلر « عروس مسينا » » وهى محاولة — اعترف بها لنفسه (١٣٥) — لمنافسة مسرحية سوفوكليس « أوديب» بتصوير النضال بين أخوين يعشقان امرأة يتبين أنها أختهما مستعيناً بكورس مقسم . ولم تحز المسرحية الرضى . وجاز جوته بنكسة مماثلة حين أخرج فى ١٨٠٣ « الإبنة الطبيعية » (أى غير الشرعية) .

وكان بين المشاهدين لعرض من عروض «الأبنة الطبيعية » سيدة لامعة هوائية هى جرمين نكر » مدام دستال » التى كانت تجمع مادة لكتابها « فى ألمانيا » وقد رأت شيلر أول مرة فى ديسمبر ١٨٠٣ :

« فى صالون دوق ودوقة فايمار » فى جماعة جمعت بين الاستنارة

والنبالة . وكان يجيد قراءة الفرنسية » ولكنه لم يتكلمها قط من قبل . وقد عبرت في شيء من التحمس عن تفوق نظامنا الفرنسي على ما عداه من الأنظمة قاطبة ، فلم يرفض مناظرتي دون أن يشعر بأي ضيق لما يجد من مشقة وبطء في التعبير عن نفسه بالفرنسية . . . وسرعان ما اكتشفت الكثير جداً من الأفكار خلال عقبة ألفاظه ، وراعتني جداً بساطة خلقه . . . فقد وجدته شديد التواضع ، . . . شديد الحيوية » حتى لقد أخذت على نفسي العهد منذ تلك اللحظة بصداقة له ملؤها الإعجاب»[١٤٠] .

وقد أخذ شيلر جوته للتعرف إليها : «إنها تمثل الثقافة الفكرية لفرنسا في نقائها . . . ولا يعيبها غير تدفقها المفرط . ولابد للمرء أن يحول نفسه إلى جهاز سمع مركز واحد لكي يتابعها» [١٤١] . وأتى بها إلى جوته في ٢٤ ديسمبر . وكتب جوته يقول : «ساعة المدينة جداً . لم أجد فرصة للنطق بكلمة . أنها تجيد الحديث » ولكن بإسراف شديد . » وكانت روايتها عن اللقاء مطابقة لروايته مع تغيير طفيف ، فقد قالت إن جوته أكثر من الكلام حتى لم تجد فرصة للنطق بمقطع واحد[١٤٢] . وقد كان كتابها بمثابة كشف أماط لفرنسا اللثام عن ألمانيا «موطن الفكر» . كتبت تقول «لايعقل ألا يكون الكتاب الألمان ، وهم أكثر الرجال في أوربا اطلاعاً وتفكيراً ، جديرين بلحظة انتباه تبذل لأدبهم وفلسفتهم»[١٤٣] .

واعتزم شيلر أن يسترد جمهوره الذي رفض «عروس مسينا» ، فاختار بناء على اقتراح جوته موضوعاً لدرامته التالية قصة وليم تل الشعبية : وسرعان ما عكف على الموضوع في لهفة وانفعال . قال جوته في ١٨٢٠ مستحضراً تلك الفترة ، «بعد أن جمع كل المادة الضرورية قعد للعمل ... ، ولم يبرح مقعده حتى فرغ من المسرحية . فإذا غلبه التعب أسند رأسه على ذراعه وأغفى هنيهة . . . وبمجرد أن يستيقظ كان يطلب . . . قهوة سوداء قوية ليظل يقظاً . وهكذا فرغ من المسرحية بعد ستة أسابيع[١٤٤] .

وقبل شيلر أسطورة شائعة — على أنها تاريخ — عن وليم تل قائد ثورة

السويسرين على النمسا فى ١٣٠٨ . كانت الثورة حقيقية ، وكذلك كان جسلر الوكيل النمساوى المكروه . وتروى الأسطورة أن جسلر تعهد لوليم تل بالعفو الكامل إذا أثبت براعته المشهورة فى استعمال القوس والسهام بإصابته تفاحة على رأس ولده . ووضع تل سهمين فى منطقته ، وأصاب التفاحة بأولهما . وسأله جسلر عم كان يريده بالآخر ؛ وأجاب تل «كنت أريدك أنت إن أصاب الأول ولدى » . ولقيت المسرحية الاستحسان فى فايمار فى ١٧ مارس ١٨٠٤ وفى كل مكان عرضت فيه بعدها بقليل ، وتبنتها سويسره جزءاً من تقاليدها القومية . فلما نشرت المسرحية بيع منها سبعة آلاف نسخة فى بضعة أسابيع . وأصبح اسم شيلر الآن أوسع ذيوعاً من اسم جوته .

ولكن أجله دنا ، إذ لم يبق له فى الحياة غير شهور . ففى يوليو ١٨٠٤ أصابته نوبة من المغص اشتدت حتى خشى طبيبه أن يموت وتمنى هو الموت. ثم تماثل للشفاء ببطء ، وشرع فى تأليف مسرحية أخرى اسمها « ديمتريوس» (« ديمترى الكاذب » الذى يذكره تاريخ روسيا) . وفى ٢٨ أبريل ١٨٠٥ رأى جوته آخر مرة . ومن ذلك الاجتماع عاد جوته إلى بيته وأصيب هو الآخر بإصابة خطيرة بالمغص . وفى التاسع والعشرين بدأ مرض شيلر الأخير . كتب هينريش فوس يقول : « غارت عيناه فى رأسه ، وكان كل عصب فيه ينتفض متقلصاً »[١٤٥] . واثتمرت عليه توترات الجهد الأدبى الضارة ، والتهاب أمعائه ، واعتلال رئتيه . قال جوته فيما بعد « إن شيلر لم يسرف فى الشراب قط ، وكان شديد الاعتدال فيه ، ولكنه اضطر فى ساعات ضعفه البدنى إلى تنشيط قواه بالمسكر»(١٤٦) . وفى ٩ مايو قابل شيلر الموت بهدوء عجيب : فقد ودع زوجته وأطفاله الأربعة وأصدقائه ، ثم نام ، ولم يستيقظ ثانية . وأظهر تشريح جثته الرئة اليسرى وقد أتلفها السل تماماً ، والقلب منحلا ، والكبد والكلية والأمعاء كلها مصابة . وقال الطبيب المدقق « فى هذه الظروف لا تملك غير العجب من أن الرجل المسكين استطاع أن يعيش كل هذا العمر»[١٤٧] .

وكان جوته عندئذ فى حال من المرض لم يجرؤ معها إنسان على أن ينبئه بموت شيلر . وفى ١٠ مايو أفضت إليه كرستيانه بالنبأ وهى تنشج ، وكتب إلى تسلتر يقول «كنت أظن اننى أفقد حياتى أنا ، فإذا أنا أفتقد صديقاً كان نصف وجودى ذاته»[١٤٨] . ووصل بما بقى له من وجوده إلى تمام تحقيق ذاته .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

جوته « نسطورا »(*)

١٨٠٥ — ١٨٣٢

١ — جوته ونابليون

أيحسن بنا — ونحن مقيدون بحدودنا المقررة — أن نترك جوته معلقا عند هذه النقطة ، وعلى قلمه فاوست وفى شيخوخته الحكمة ، أم أن نلاحق هذا الأولمبى — الذى لا يكف عن التطور — إلى نهايته ، مقلبين الصحائف مضحين بالوقت ؟ « إن الحكمة السرمدية تجذبنا إلى العلا » .[1]

فى ١٤ أكتوبر ١٨٠٦ هزم نابليون البروسيين فى يينا . وكان الدوق كارل أوجست ، المتحالف مع بروسيا ،قد قاد جيشه الصغير ضد الفرنسيين فى تلك المعركة . ودخل الأحياء المدحورون فايمار ، وأعقبهم الغالبون الجياع ، فنهبوا المحال واحتلوا بيوت الناس . واستولى ستة عشر جنديا الزاسيا على بيت جوته ، وأعطتهم كرستيانه الطعام والشراب والفراش . فى تلك الليلة اقتحم البيت جنديان آخران ثملا بالخمر ، فلما افتقدا الأسرة فى الطابق الأسفل ، صعدا عدوا إلى حجرة جوته ، ولوحا بسيفيهما فى وجهه ، وطالباه بمكان للنوم ، ووقفت كرستيانه حائلا بين الجنديين ورفيقها ، وأقنعتهما بالخروج ثم أرتجت الباب . وفى الخامس عشر من الشهر وصل نابليون إلى فايمار وأعاد النظام إلى نصابه ، وصدرت التعليمات بعدم إزعاج « الأديب الكبير » وبضرورة اتخاذ جميع الإجراءات لحماية جوته العظيم وبيته .[2] ومكث معه المارشالات لان ونيه وأوجروا برهة ثم رحلوا معتذرين مجاملين . وشكر جوته كرستيانه على شجاعتها وقال لها « إن أذن الله سنكون زوجا وزوجة » وفى ١٩ أكتوبر تزوجا . أما أمه الطيبة التى احتملت فى حب جميع مثالبه ، وفى تواضع جميع مفاخره ، فقد جددت بركاتها لهما . ثم ماتت فى ١٢ سبتمبر ١٨٠٨ ، وورث جوته نصف تركتها .

---

(١) أى المرشد الحكيم المتقدم فى السن (المترجم) .

وفى أكتوبر ١٨٠٨ رأس نابليــون مؤتمرا من ستة ملوك وثلاثة وأربعين أميرا فى أرفورت ، وأعاد رسم خريطة ألمانيا ، وحضر الدوق كارل أوجست المؤتمر واصطحب جوته فى بطانته . وطلب نابليون إلى جوته أن يزوره فى ٢ أكتوبر ، وذهب الشاعر ، وأنفق ساعة مع الغازى ، وتاليران ، وڤائلدين ، وفريدريش فون مولر ، وهو قاضى ڤايمارى . وهنأه نابليون على عافيته (وكان جوته يومها فى التاسعة والخمسين) ، واستفسر عن أسرته ، ثم دخل فى نقد جرىء لڤرتر . وقد عاب الدرامات الشائعة التى تؤكد على القضاء والقدر « فلم الحديث عن القضاء والقدر ؟ إن السياسة هى القضاء والقدر ... ما قول المسيو جوته فى هذا ؟ » ولا علم لنا بجواب جوته ولكن مولر روى أن نابليون قال لقواده معلقا بينما جوته يبرح الحجرة « هاكم رجلا ! » [٣] .

وفى ٦ أكتوبر عاد نابليون إلى ڤايمار ، واصطحب معه فرقة ممثلين من باريس من بينهم تالما العظيم . ومثلوا فى مسرح جوته مسرحية ڤولتير « موت قيصر » وعقب الحفلة انتحى نابليون بجوته جانبا وناقش معه التراجيديا ، فقال « إن الدراما الجادة تصلح جدا لأن تكون مدرسة للأمراء كما هى مدرسة الشعب ، لأنها من بعض نواحيها فوق التاريخ ... يجدر بك أنت أن تصور موت قيصر صورة أبهى مما صوره ڤولتير ، وتبين كم كان قيصر (نابليون) سيسعد العالم لو أن الشعب أتاح له الوقت لإنفاذ خططه السامية . » ثم بعد قليل « لابد أن تأتى إلى باريس ! إنى أوجه إليك هذا الرجاء المشدد ! ستتاح لك هناك نظرة أوسع للعالم ، وستجد ذخيرة من الموضوعات لشعرك » [٤] وحين مر نابليون بڤايمار ثانية عقب تقهقره المشئوم من موسكو طلب إلى السفير الفرنسى أن يبلغ جوته تحياته .

وأحس الشاعر أنه فى بونابرت قد التقى ، على حد تعبيره ، بـ « إعظم فكر شهده العالم » [٥] إلى الآن . وقد وافق تماماً على حكم نابليون لألمانيا ، فلم يكن هناك ألمانيا على أية حال (كما كتب جوته فى ١٨٠٧) إنما هى خليط من الدويلات ، أما الإمبراطورية الرمانية المقدسة

فقد نفذ قضاء الله فيها فى ١٨٠٦ ، ويبدا لجوتة أن من الخير أن تتوحد أوربا ، لا سيما تحت رأسة رجل ألمعى كبونابرت . ولم يغتبط بهزيمة نابليون فى واترلو ، مع أن دوقه قاد أفواج فايمار مرة أخرى ضد الفرنسيين . لقد كانت ثقافته واهتماماته أشمل وأعم من أن يتيحا له الشعور بالكثير من الزهو الوطنى ، ولم يستطع أن يستشعر فى نفسه الميل لتأليف الأغانى ذات الحماسة القومية رغم كثرة ما طلب إليه . قال لاكرمان وهو فى الثمانين :

« أنى لى أن أؤلف أغانى الحقد وأنا لم أشعر بشىء من الكره ؟ وأقول فيما بينى وبينك أننى لم أكره الفرنسيين قط وإن شكرت الله على خلاصنا منهم . وأنى لى ، أنا الذى أرى الحضارة والهمجية الشيئين الوحيدين اللذين لهما مغزى ، أن أبغض أمة هى من أكثر أمم الأرض ثقافة ، أمة أدين لها بجزء عظيم من ثقافتى ؟ على أية حال أرى أن مسألة الكراهية بين الأمم هذه شىء غريب . فأنت ستجدها دائما أقوى وأشد مما تكون ضراوة فى المراتب الدنيا من المدنية . ولكن يوجد مستوى تختفى فيه كلية ، ويقف عليه الإنسان فوق الأمم إذا جاز التعبير ، ويحس أفراح شعب مجاور أو أتراحه كأنها أفراحه هو وأتراحه . ولقد كان هذا المستوى يلائم طبيعتى ، ولقد بلغته قبل أن أبلغ الستين بزمن طويل »[٦] .

ألا ليت كل دولة غنيت بمليون من هؤلاء « الأوربيين الصالحين ! » .

٢ — فاوست : الجزء الأول

لم يقبل جوتة دعوة نابليون أياه للانتقال إلى باريس أو للكتابة عن قيصر ، ذلك أنه طالما احتضن فى ذهنه وفى مخطوطاته موضوعاً أثاره إثارة أعمق حتى من أعظم مستقبل سياسى : الا وهو صراع النفس لبلوغ الفهم والجمال ، وهزيمة النفس بسبب قصر عمر الجمال وروغان الحقيقة ، والسلام المستطاع للنفس ، بتضييق الهدف وتوسيع الذات . ولكن كيف

السبيل إلى تخيل هذا كله فى قصة رمزية عصرية وشكل درامى ؟ لقد ظل جوته يحاول تحقيق هذا الهدف ثمانية وأربعين عاما .

وكان قد تعلم قصة فاوست (٧) فى طفولته من كتيبات القصص الشعبية ومسارح الدمى ، ورأى صوراً لفاوست والشيطان على جدران حانة آورباخ فى ليبزج . وتطفل هو نفسه فى شبابه على السحر والخيمياء ؛ وامتزج بحثه الدءوب عن الفهم بتصوره لفاوست ، ودخلت قراءته لفولتير وإلمامه بتهكمات هردر فى تصويره لمفستوفيليس ، وأعطت جريتشن التى أحبها فى فرنكفورت ، وفردريكه بريون التى هجرها فى زيزنهايم « لمارجريت أسمها وصورتها .

ويتجلى عمق تأثر جوته بقصة فاوست ، وتباين الأشكال التى اتخذتها فى فكره ، إذا علمنا أنه شرع فى تأليف المسرحية فى ١٧٧٣ فلم يفرغ منها إلا فى ١٨٣١ . وحين التقى بهردر فى ١٧٧١ كتب فى ترجمته الذاتية :

« أخفيت عنه فى تكتم شديد اهتمامى بشخوص معينة أصلت جذورها فى وكانت تشكل نفسها شيئاً فشيئا فى صورة شعرية . وتلك هى جوتزفون برليشنجن وفاوست . . . فمسرح عرائس فاوست ذو المغزى كان يجلجل ويتردد فى باطنى بأنغام كثيرة . كذلك كنت قد طوفت فى شتى ضروب العلم » وانتهيت فى فترة مبكرة من حياتى إلى تبين بطلانه . ثم إننى جربت كل أساليب العيش فى الحياة الواقعية ، وكنت دائماً أعود منها ضيق النفس غير راض عنها . هذه الأشياء وغيرها حملتها معى وسعدت بها فى ساعات العزلة ولكن دون أن أكتب شيئاً » (٨) .

وفى ١٧ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى مراسل يقول : « أحسست بانتعاش هذا الصباح وكتبت مشهداً فى مسرحيتى فاوست » (٩) . وفى تاريخ لاحق من ذلك الشهر سأله يوهان تسمرمان عن سير المسرحية . « فأتى بحقيبة مملوءة بمئات من قطع الورق وألقاها على المائدة . وقال : هاك فاوستى » (١٠) . وحين ذهب إلى فايمار (نوفمبر ١٧٧٥) كان أول شكل للدراما قد اكتمل (١١) . ولكنه نحاها لأنه لم يرض عنها » ولم تصل « فاوست الأصلية »

هذه قط إلى المطبعة إلا فى ١٨٨٧ حين وجدت فى فايمار [١٢] نسخة خطية نسختها الآنسة فون جوشهاوزن . وراح ينقح ويوسع فيها طوال خمسة عشر عاما أخرى . وأخيراً نشرها (١٧٩٠) باسم « شذرة من فاوست » تبلغ الآن ثلاثا وستين صفحة ، [١٣] وكان هذا أول شكل مطبوع لأشهر مسرحية منذ هاملت .

على أن جوته ظل غير راض عنها « فأسقط الموضوع حتى ١٧٩٧ . وفى ٢٢ يونيو كتب إلى شيلر يقول « أعتزمت أن أستأنف كتابة « فاوست » ... مفككا ماطبع منها ، مرتبا إياه فى كتل كبيرة ... معداً تطور المسرحية إعدادا أو فى ..... كل ماأريده أن تتفضل بتقليب الأمر فى فكرك فى ليلة من لياليك النابغية — وتخبرنى بما تتطلبه من المسرحية بوصفها كلا » وتفسر لى أحلامى تفسير نبى صادق . ورد عليه شيلر فى الغد . « أن ازدواج الطبيعة البشرية ، ومحاولة الإنسان الفاشلة للجمع بين العنصر الإلهى والعنصر الجسدى ، لا تغيب عن البصر أبداً . . . أن طبيعة الموضوع ستكرهك على تناوله فلسفيا » وعلى الخيال أن يكيف نفسه لخدمة فكرة عقلية . « أما خيال جوته فكان غاية فى الخصوبة ، وأما تجاربه الناصحة الذكرى فكثيرة جدا » لذلك أدخل الكثير منها فى « شذرة من فاوست » فضاعف بذلك من حجمها . وفى ١٨٠٨ أذاع على العالم ما نسميه الآن الجزء الأول من فاوست .

وقبل أن ينطق دميته بكلمة ، صدر الدراما بإهداء رقيق إلى أصدقائه الموتى ، وبفصل تمهيدى هزلى « برولوج فى المسرح » بين المدير والمؤلف والمضحك » و « برولوج فى السماء » يراهن الله فيه مفستوفيليس على أن فاوست لايمكن أن يظفر به الإثم بصفة دائمة . ثم يتكلم فاوست أخيراً فى فى أبسط شعر هزلى :

« أجهدت نفسى فى دراسة الفلسفة والشريعة والطب ، وتعمقت أيضاً — وياللحسرة فى دراسة علوم الدين » بجد لا يعتوره فتور وهمة لا تعرف الكلال . ثم أرانى — أنا البليد المسكين — بعد هذا كله لم أتقدم شبرا ولم أخط نحو العرفان خطوة .

« سميت الأستاذ والدكتور ، وقضيت زهاء عشر سنوات وسط تلاميذى أخادعهم وأغرر بهم وأذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال . ثم أرانا بعد هذا كلة لم نزل عاجزين عن أن ندرك شيئاً أو أن نلم بشىء[١٤] » (*)

وقد تبين أن البحر الرباعي التفاعيل ، المنحدر من تمثيليات هانز زاكس القصيرة ، هو الوزن المترقرق اللائق لدراما هذبت الفلسفة بالفكاهة .

وفاوست هو بالطبع جوته ، حتى فى كونه رجلا فى الستين ، لم يزل كجوته يتناشى فى الستين بحسن المرأة ورشاقتها . وتطلعه المزدوج إلى الحكمة والجمال هو روح جوته الصميم ، وقد تحدى تطلعه الآلهة المنتقمة بوقاحته ، ولكنه كان نبيلا . لقد قال فاوست وجوته نعم للحياة ، الروحية والحسية ، الفلسفية والمرحة ، وعلى النقيض من ذلك كان مفستوفيليس (وهو ليس ابليس بل فيلسوف إبليس فقط) شيطان الإنكار والشك ، كل تطلع فى نظره هراء ، وكل حس إنما هو هيكل عظمي يكسوه جلد . وقد كان جوته فى لحظات كثيرة هذا الروح الساخر أيضاً . وإلا لما استطاع أن يسبغ عليه هذا الذكاء وهذه الحياة . ويبدو مفيستوفيليس أحياناً صوت التجربة ، والواقعية والعقل ، يكبح رغبات فاوست وأوهامه الرومانسيـــة ، والحق ، كما قال جوته لاكرمان « إن شخصيه مفستوفيليس ... حصيلة حية لخبرة واسعة بالدنيا »[١٥] .

وفاوست لا يبيع روحه بغير شروط ، فهو لا يوافق على أن يقذف به فى الجحيم إلا إن أراه مفيستوفيليس لذة فيها من الإشباع الدائم له ما يحبب له معايشتها إلى الأبد :

« لئن جاء اليوم الذى أرقد فيه على فراش الكسل والراحة » . . . فليكن ذلك اليوم آخر عمرى ! ... ولو مرت بى لحظة من الزمن وكانت من الحسن بحيث قلت لها أن « لا تبرحى فما أحلاك ! إذن فتهيىء لى سلاسلك وأغلالك ... هنالك أرحب بالموت » ...(**)

(*) الترجمة للدكتور عوض محمد : فاوست : لجنة التأليف والترجمة والنشر ص (٧)

(**) فاوست : د . محمد عوض محمد ، ص ٥٨

وبهذا الشرط يبرم فاوست حلقة مع دمه ويصيح فى استهتار «هلم نطفىء الآن ظمأ رغباتنا المتأججة فى بحر من الشهوات»[١٦] .

ويأخذه مفيستوفوليس إلى مارجريت - «جريتشن» فيجد فيها فاوست كل فتنة البساطة التى تولى مع المعرفة وتعود مع الحكمة . ويتودد إليها بالجواهر والفلسفة :

« مارجريت : قل لى ما رأيك فى الديانة ؟ لست أنكر أنك من أطيب الناس وأحسنهم . لكنى أخشى أن تكون قليل الإيمان .

فاوست : دعى هذا ياحبيبتى ! أنت ترينى متيماً بك ، أود أن أبذل من أجل حبك لحمى ودمى ، وما أريد لعمرى أن أسلب أحدا دينه ومعتقده .

مارجريت : هذا خطأ . يجب على الإنسان أن يؤمن بالدين ! ... قل لى : هل تعتقد وتؤمن بالله ؟

فاوست : أيتها الحبيبة ! من ذا الذى يستطيع أن تبلغ به الجرأة والقحة أن يقول « أنا أعتقد بالله » ...

مارجريت : إذن فأنت لا تؤمن بالله ؟

فاوست : لاتسيئى فهم أقوالى أيتها الحبيبة : أى الناس يقدر أن ينطق بإسمه ؟ وأيهم يستطيع أن يقول « أنا لاأؤمن به » ؟ وأى الورى يحس ويبصر ، ويسمع ، ويعى ، ثم يجرؤ أن يقول « أنا لاأؤمن به » ؟ ذلك القابض على كل شىء والممسك كل شىء ؟ أليس هو الممسك لى ولك ولنفسه ! أما تنظرين إلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت ؟ . . . وإلى هذه النجوم الزهر تسبح فى السماء « مرسلة ضياءها الأبدى المحبوب ؟ ... فن هذا كله فاملأى قلبك حتى يطفح ... بتلك السعادة ، ويستنير بذلك النور . وعندئذ فلتسميه كما تشائين ، ولتدعيه بما يحلو لك من الأسماء : السعادة أو القلب أو الحب أو الرب . أما أنا فما له اسم عندى . وكل همى أن أحسه وأستشعره . فالشعور هو كل شىء ! وما الإسم إلا صدى لاطائل تحته ، أو غمام يستر عن أبصارنا محيا الشمس البديع .

مارجريت: هذا كله حسن وجميل ... لكنى مازلت قلقة لأنى أرى قدمك فى المسيحية غير راسخة .

فاوست . ولم أيتها الطفلة العزيزة ؟[١٧] ، (*) .

وهى لا تتأثر بحلوليته الغامضة ، بل بالصورة الجميلة والثياب الرائعة التى خلعها سحر مفيستوفوليس على شبابه المجدد . وهى تنشد على مغزلها أنشودة ملؤها الحنين الحزين(**) .

« أنا — صبحى ومسائى
فى عذاب وبلاء ،
واعنائى ! واشقائى !
هل لدائى من دواء ؟
كيف لا يشتد خطبى
كيف لا يزداد كربى
كيف لا يحزن قلبى
وحبيب القلب ناء ؟
بان صفو العيش عنى
قرح التسهيد جفنى «
لم يسكن نار حزنى
دمع عينى وبكائى .
قد نبا عنى الرقاد
وبرى جسمى السهاد
آه ! قد طال البعاد
وشفائى فى اللقاء .

(*) فاوست ، ترجمة « . محمد عوض محمد ص ١٤٧ « ١٤٨ .

(**) مترجمة بتصرف بقلم د . محمد عوض محمد : فاوست ص ٢٤٤

فتى يسمـــح دهرى
ويرينى وجـــه بدرى
قد أضل الحب فكرى
والهوى أعضل داء :
أوما يدنو الحبيب
فأرى العيش يطيب ؟
الهوى أمر عجيب
منه ســقمى ودوائى ؟
ما أحـــلاه إذا ما
ثغره ابدى ابتساما !
قد حكى البـــدر التماما
فى ســناء وبهاء .
آه لو أشــفىَ بلثمة
منه أو أحظى بضمة !
ثم يقضى الدهر حكمه
بهـــلاكى وفنائى [١٨] .

وبقية القصـــة يعرفها الغرب كله » ولو من جونو فقط . فمارجريت تعطى أمها شرابا منوما لا تفيق منه لكى تقبل هى حبيبها وتغيب عن الوعى دون رقيب . ويقتل فاوست فالنتين أخا مارجريت فى مبارزة ثم يختفى ! أما مارجريت فتقتل طفلها العديم الأب خزيا وحسرة، فيقبض عليها ويحكم عليها بالإعدام . ويزورها فاوست فى زنزانتها ويرجوها أن تهرب معه ، فتعانقه ؛ ولكنها ترفض مغادرة زنزانتها . ويجذب مفيستوفيليس فاوست بعيدا ؛ بينما يصيح صوت من السماء « كتبت لها النجاة » .

ولم يدرك جمهور القراء — إلا ببطء — أن فاوست ١٨٠٨ هذه أروع دراما وأجمل شعر أنتجتهما ألمانيا إلى ذلك التاريخ . ولكن قلة من أصحاب العقول اليقظة فطنوا للتوالى أنها جديرة بأن تتبوأ مكانها بين شوامخ الأدب العالمى . وشبه فريدريش شليجل جوته بدانتى ، وسوى جان بول رشتر بينه وبين شكسبير ، ورفعه فيلاند فى دنيا الشعر إلى مقام السيادة الذى ارتفع إليه نابليون فى دنيا الحكم والحرب [١٩] .

٣ — نسطور عاشقاً

فى السنوات ١٨١٨ — ٢١ دخل جوته فى غرامين مثيرين ، فضلا عن صلته ببتينا برنتانوا . ففى ٢٣ أبريل ١٨٠٧ جاءت بتينا ذات الاثنين وعشرين ربيعا إلى الشاعر المسن بخطاب تقديم من فيلاند . وكانت حفيدة صوفى فون لاروش التى أحبت فيلاند من قبل ، وابنة مكسمليانه برنتانو التى غازلت جوته فى شبابها ، وقد أحست أن لها دالة الحفيدة على قلب جوته . ولم تلبث بعد أن دخلت حجرته أن ألقت بنفسها بين ذراعيه . وقبلها هو على أنها طفلة ، وبعدها كان يراسلها بهذا المعنى ، ولكنه طوى رسائله على أحدث قصائده الغزلية ، ومع أنها لم تكن موجهة إليها إلا أنها عدتها بوحاً بغرام مشبوب ، وأضفت عليها ذلك اللون فى كتابها « رسائل جوته إلى طفلة » الذى نشرته فى ١٨٣٥ .

أما ملهمة أكثر هذه القصائد فهى فلهلمينا هرتسليب . وكافت منا ، كما دعاها جوته بعد قليل ، ابنة كتبى فى يينا . وقد عرفها طفلة ، ولكنها فى عام ١٨٠٨ كانت فى التاسعة عشرة ، فتاة خجولا ، رقيقة ، مشرقة . وكانت تتلذذ بكل كلمة يفوه بها ، وتتحسر على أن شيخوخته ومكانته الاجتماعية تمنعانها من عشقه وتملكه . وأدرك هو شعورها ، واستجاب له ونظم لها الصونيتات ، موريا على اسمها كقلب محب ، ولكنه تذكر أنه لم يمض على زواجه من كرستيانه إلا زمن قصير . ويلوح أنه كان يفكر فى منا وهو يصـــور أوتيلييه الخجول الودود ، المشدودة الأعصاب ، فى قصته « الانجذابات العاطفة ١٨٠٩ » .

وهذه القصة الممتازة ، في رأى مؤلفها [٢٠] ، خير قصصه المنثور ، فهي أفضل تنظيما وأكثر تماسكا في روايتها من أي من تطويفات فلهلم مايستر . وهنا نلاحظ قول جوته لأكرمان (٩ فبراير ١٨١٩) : « وليس في قصة (الانجذابات العاطفة) بأسرها سطر لم أعشه أنا نفسي حقيقة وفعلا » ووراء النص معان أكثر كثيرا مما يستطيع أي إنسان استيعابه من قراءة واحدة » . والواقع أن عيب الكتاب أن فيه من جوته أكثر مما يجب ، ومن التفلسف الجاري على ألسنة لا يتوقع أن يجرى عليها قدر أكبر مما ينبغي .

(مثال ذلك أنه يجعل الفتاة أوتيليه تحتفظ بيومية يودع فيها بعضا من أنضج التأملات كقوله « لا سبيل إلى الدفاع عن أنفسنا أمام التفوق العظيم في إنسان غيرنا سوى سبيل الحب [٢١] . ولكن احتواء هذا الكتاب على هذا القدر الكثير من جوته هو الذي جعله دافئاً بالحياة غنياً بالفكر : لأن شارلوتة القصة هي أيضا شارلوته فون شتين » تغرى ولكنها تأبى أن تخون زوجها » ولأن الكبتن هو جوته العاشق لزوجة صديقه ، ولأن إدورد » الزوج ذا الخمسين المقيم بأوتيليه هو جوته المفتن بمنا هرتسليب » ولأن القصة هي محاولة جوته تحليل حساسيته الشبقة .

وقد قصد هنا أن يفكر في الجاذبية الجنسية بلغة كيميائية . وربما اتخذ عنوان كتابه من « الإنجذابات العاطفية » الذي نشره الكيميائي السويدي العظيم توربرن أولوف برجمان في ١٧٧٥ . والكبتن يصف لادورد وشارلوته انجذابات جزئيات المادة وتنافراتها وتجمعاتها فيقول : « ينبغي أن تريا بنفسيكما هذه الجواهر — التي تبدو ميتة جداً وهي مع ذلك زاخرة بالنشاط والقوة — تعمل أمام عيونكما ، يبحث بعضها عن بعض . . . ويمسك ويسحق ويلتهم ويدمر بعضها بعضاً ، ثم يعود إلى الظهور فجأة . . . في صور نضرة ، مجددة ، غير متوقعة . » [٢٢] فحين يدعو ادورد صديقه الكبتن ، وتدعو شارلوته إبنة أخيها أوتيلية ، للإقامة معهما في زيارات طويلة » يهيم الكبتن بشارلوته ، وإدورد بأوتيليه .
وحين يتصل إدورد بزوجته جنسياً يفكر في أوتيليه ، وتفكر

شارلوته في الكبتن ، في ضرب من الزنا السيكولوجي : ويبدو الوليد عجيب الشبه بأوتيلييه ، وتحنو أوتيلييه على الطفل كأنه طفلها . ثم تتركه ليغرق كأنما جاء ذلك مصادفة ، ويحملها تأنيب الضمير على أن تضرب عن الطعام حتى الموت . ويموت إدورد حسرة ، ويختفي الكبتن ، وتبقى شارلوته على قيد الحياة ، ولكنها ميتة روحياً .

ويخلص فيلسوف في المدينة إلى أن « الزواج هو البداية والنهاية لكل ألوان الحضارة . أنه يروض المتوحشين ، ويمنح أكثر الناس ثقافة ، خير فرصة للرقة ودماثة الخلق . وينبغي أن يكون غير قابل للفسخ لأنه يجلب من السعادة الكثير ، ما يجعل متاعبه العارضة لا وزن لها [٢٣] » ؛ على أن أحد شخوص القصة يقترح بعد أربع صفحات من هذا القول زواج التجربة الذي لا يتجاوز العقد فيه في المرة خمس سنوات .

وفي ١٨١٠ نلتقي بجوته في كارلسباد يستشفي بمياهها ويغازل شاباتها ، بينما تظل كرستيانه التي مضى على زواجها أربعة أعوام في البيت تغازل الشبان . فقد تتيمت بالشاعر ذي الحادية والستين عاما يهودية حسناء سمراء تدعى ماريانه فون إيبنبرج ، ثم هرب منها إلى الشقراء سلفي فون تسيجزار ؛ وفي قصيدة وجهها إلى سلفي يدعوها « الأبنة الخليلة ، الحبيبة ، البيضاء النحيفة القوام »[٢٤] ، وقد أرسلت إليه كرستيانه نداءات تناشده الوفاء :

« وهل وصلت بنينا وتلك السيدة فون أيبنبرج إلى كارلسباد ؟ يقولون هنا إنه من المتفق عليه أن تكون زلفي وآل جوترز هناك أيضاً . فماذا أنت صانع وسط كل معابثاتك ؟ ما أكثرها ! ولكنك لن تنسى أقدمها عهداً ، أليس كذلك ؟ فكر في قليلا أيضا ، بين الحين والحين ، إني أريد الوثوق بك ثقة تامة ، مهما قال الناس . لأنك كما تعلم الوحيد الذي يفكر في إطلاقاً »[٢٥] . و يبعث إليها بهدايا صغيرة .

وقد وجد وقتا كل يوم تقريبا لكتابة شيء من الشعر أو النثر . وحوالي عام ١٨٠٩ بدأ يكتب سيرته الذاتية ، وقد سماها « الخيال والحقيقة من حياتي » واعترف العنوان اعترافا جميلا بأنه بين الحين والحين ، عن عمد أو غير عمد ،

ربما مزج الخيال بالواقع . أما غرامه بشارلوته بوف فقد مسه مسا خفيفا رقيقا ، ولكنه كان أكثر إفاضة فى قص غرامه بفردريكه بريون ، وكانت المرأتان لا تزالان على قيد الحياة . ثم حال فى براعة وأريحية الكثير من أصدقاء شبابه — لنتس ، وبازدوف ، ومرك ، وهردر ، وياكوبى ، ولافاتر . أما عن نفسه فقد تكلم فى تواضع ، وقد شكا فى ملاحظاته الخاصة من أن كاتب السيرة الذاتية يتوقع منه الناس أن يعترف بنقائصه ولا يعلن عن فضائله [٢٦] . والكتاب تاريخ فكر أكثر منه تاريخ حياة ، والأحداث فيه قليلة والتأملات وفيرة . أنه أعظم كتبه النثرية ،

وفى ١٨١١ تلقى من بيتهوفن خطاب إعجاب مع «مقدمة موسيقية لأجمونت» . والتقى الشاعر والمؤلف الموسيقى فى تبلتز فى يوليو ١٨١٢ ، وعزف بيتهوفن لجوته وكان يتمشى معه . وإذا صدقنا الروائى أوجست فرانكل ، « كان الناس فى المتنزه — أينما ذهبا — يفسحون لهما الطريق باحترام ويحيونهما . وقال جوته وقد غاظته هــذه المقاطعات المستمرة : « يا لها من مضايقة ! لا أستطيع أبدا تجنب هذا الأمر . » وأجاب بيتهوفن بابتسامة «لا يضايقك هذا يا صاحب السعادة ، فلعلى أنا المقصود بالاحترام . » وكتب جوته إلى تسلتر (٢ سبتمبر ١٨١٢) : « لقد أذهلتنى موهبة بيتهوفن ، ولكن شخصيته للأسف لا يمكن السيطرة عليها إطلاقا . إنه ليس مخطئا ... فى اعتباره العالم بغيضا ، ولكن هذا الموقف لا يجعل هذا العالم أكثر إمتاعا لا له ولا لغيره . وكثير من هذا الموقف يلتمس له العذر فيه بسبب مؤسف هو أنه يفقد قدرته على السمع . » [٢٧] أما تعليق بيتهوفن على جوته فكان « ما أشد صبر الرجل العظيم على ! وما أعظم الخير الذى أسداه إلى ! ولكن « جو البلاط يلائمه أكثر مما ينبغى . » [٢٨]

لقد كانت مظاهر البلاط وسلوكه جزءا من حياة جوته الرسمية ، لأنه كان لا يزال يمارس نشاطه فى الإدارة . أما حياته البيتية فقد فقدت سحرها . فأوجست ابنه ، الذى بلغ الثانية والعشرين فى ١٨١٢ ، كان ضعيف المواهب لا أمل فى إنقاذه ، وكرستيانة باتت بدينة مدمنة للشراب ، وكان لها بعض العذر ، لأن مغازلاته للنساء لم تتوقف . فخلال زياراته لفرانكفورت ، كثيرا

ما كان يقيم فى فيلا يوهان فون فلليمير الواقعة فى إحدى الضواحى ، وكان يعجب بماريانه زوجة فلليمير . وفى صيف ١٨١٢ أنفق أربعة أسابيع تقريبا معهما . وكانت مريانه فى الحادية والثلاثين ، ولكنها كانت فى ريعان جمالها الأنثوى . وكانت تغنى أشعار جوته العاطفية وألحان موتسارت غناء ساحرا ، وتنظم الشعر الرفيع ، وتتبادل مع جوته سلسلة من القصائد محاكاة لحافظ والفردوسى وغيرهما من شعراء الفرس (وكان حافظ قد ترجم إلى الألمانية فى ١٨١٢) . وفى بعض القصائد شهوانية سافرة وحديث عن الفرح المتبادل فى العناق الجسدى ، ولكن هذا الترخص قد يكون مجرد انحراف شعرى . والتقى الثلاثة مرة أخرى فى سبتمبر بهيدلبرج ، وكان الشاعران يخرجان معا فى مسيرات طويلة ، وكتب جوته اسم مريانه بحروف عربية فى التراب حول نافورة القلعة . ولم يلتقيا قط بعد ذلك اليوم ، ولكنهما ظلا يتراسلان طوال السبعة عشر عاما الباقيـــة من حياته . ويبدو أن فلليمير زاد اعتزازا بروجته لأنها فتنت رجلا بهذه الشهرة ، ولأنها عارضت شعر جوته بقصائد لا تقل روعة عن قصائده . وضمن جوته أشعارها وأشعاره فى « الديوان الشرقى الغربى » الذى نشره فى ١٨١٩ .

وبينما هو ماض فى مراسلاته نثرا وشعرا ماتت كرستيانه (٦ يونيو ١٨١٦) . وسجل جوته فى يوميته : «كان صراعها مع الموت رهيبا ... خواء وصمت قاتل فى باطنى ومن حولى . » [٢٩] وران على هذه السنوات اكتئاب عميق . وحين زارته شارلوته كستنر ، حبيبة صباه التى فقدها ، والتى كانت الآن زوجـــة فى الرابعة والستين لعضو المجلس الناجح كستنر الهانوفرى ، فى صحبة ابنتها (٢٥ سبتمبر ١٨١٦) لم يستشعر أى عاطفة تختلج بين جوانحه ، وكان حديثه كله حديثا تافها مجاملا . ولكن فى ١٨١٧ ، تزوج ابنه أوجست من أوتيليه فون بوجفيش ، بعد أن قطع حياة كلها خلاعة وفسق ، ودعاه جوته ليسكن معه ، وأتت أوتيليه بمرح الشباب إلى البيت ، وما لبثت أن أعطت الشاعر المسن أحفادا أنبضوا قلبه بالحياة من جديد .

وأعانته على ذلك أولريكه فون لفتزوف ، وكانت إحدى بنات ثلاث

لأماليا فون لفتزوف التي عرفها جوته في كارلسباد . والتقى في أغسطس ١٨٢١ بأولريكه في مارينباد ، وقد قالت فيما بعد مسترجعة ذكرى هذا اللقاء : « لما كنت قد أقمت سنوات في مدرسة داخلية فرنسية بستراسبورج ، وكنت لا أتجاوز السابعة عشرة ، فإنني لم أسمع قط بجوته ، ولا خطر لي أنه رجل مشهور وشاعر فحل . وعلى ذلك لم أشعر قط بالخجل من السيد العجوز الودود ... وفي غد ذلك اليوم ذاته طلب إلي أن أتمشى معه ... وكان يصحبني معه في نزهته كل صباح تقريباً . »[30] وعاد إلى مارينباد في ١٨٢٢ ، و « طوال ذلك الصيف أبدى لي جوته غاية الود » . وبعد عام التقيا في كارلسباد ، وسرعان ما أثارا القيل والقال في منتجع المياه المعدنية . وكان الشاعر الآن قد قرر أن حبه أكثر من الحب الأبوي . وألح الدوق كارل أوجست على أولريكه في أن تتزوج جوته ، ووعدها إن فعلت بأن يمنح أسرتها في فايمار بيتاً جميلاً ، وأن تحصل بعد موت الشاعر على معاش قدره عشرة آلاف طالر في العام[31] . ورفضت الأم وابنتها . وقفل جوته محزوناً إلى فايمار ، وأغرق خيبة أمله في المداد . وعمرت أولريكه حتى أوفت على الخامسة والتسعين .

في ذلك العام ، عام ١٨٢١ الذي قاد جوته لأولريكه ، جاءه في فايمار كارل تسلتر — مدير الموسيقى في برلين — بتلميذ في الثانية عشرة يدعى فيلكس مندلسون . وكان تسلتر قد فتح روح جوته على عالم الموسيقى ، بل أنه علمه التأليف الموسيقى . وأذهلت براعة عازف البيان الصغير الشاعر العجوز وأبهجته ، فأصر أن يمكث معه أياماً . وقد كتب فيلكس في ٦ نوفمبر يقول : « في كل صباح يقبلني مؤلف « فاوست » و « فرتر » . وفي العصر أعزف له قرابة ساعتين ، وبعض العزف فوجات من باخ ، وبعضه من ارتجالي . وفي ٨ نوفمبر أقام جوته حفل استقبال ليقدم فيلكس إلى مجتمع فايمار الراقي . وفي ١٠ نوفمبر كتب فيلكس : « في كل عصر يفتح البيان ويقول : لم أسمعك قط اليوم . تعال وأسمعني شيئاً من الضوضاء . ثم يجلس إلى جواري ويصغي . لا تتصور كم هو عطوف ودود . » فلما أراد تسلتر أن يرجع فيلكس إلى برلين ، أقنعه جوته بأن يترك تلميذه أياماً أخرى . وكتب الصبي

السعيد . وعلت الآن أصوات الشكر لجوته من كل ناحية ، ولثمت أناو البنات شفتيه ويديه . وطوقت أوتيليه دون بوجفيش عنقه بذراعيها ، ولما كانت جميلة جدا ، وهو يغازلها طوال الوقت ، فقد كان الأثر رائعا »(٣٢) . إن في التاريخ لحظات سعيدة تتوارى خلف دراما المأساه ، وتحت ملاحظة المؤرخين .

٤ — العالم

ولنعد الآن إلى سنوات صباه ، حين بدأ بحثه الذى امتد طوال حياته فى العلم ، باهتمام يقظ ولذة تلتهم كل شيء . وقليلون منا من يعرفون أن جوته كرس للبحث والمؤلفات العلمية وقتاً أكثر مما كرس لكل شعره ونثره مجتمعين (٣٣) . وكان قد درس الطب والفيزياء فى ليبزج ، والكيمياء فى ستراسبورج : ثم بدأ دراسة التشريح فى ١٧٨١ ، وظل سنوات يضرب فى أرجاء ثورنجيا جامعاً للعينات المعدنية والنباتيـة ويرقب التكوينات الجيولوجية . وكان فى أسفاره لايلحظ الرجال والنساء والفن فحسب ، بل الحيوان والنبات والظواهر البصرية والمتيورولوجية أيضا . وقد قام بدور رائد فى إنشاء المختبرات فى يينا . وكان يشتد فرحه بانتصاراته فى العلم أو حزنه بهزائمه فيه ، اشتدادة بنجاحه أو إخفاقه فى الأدب .

وقد استحدث شيئا فى دراسة الطقس . ذلك أنه نظم محطات للرصد الجوى فى دوقية ساكسي — فايمار ، وأعان على إنشاء محطات أخرى فى طول ألمانيا وعرضها (٣٤) ، وأعد التعليمات اللازمة لها . وكتب المقالات فى « نظرية الطقس » و « أسباب تذبذبات البارومتر » وأقنع الدوق كارل أوجست بأن يشرع فى اقتناء المجموعات التى كانت النواة لمتحف علم المعادن فى يينا ، وبعد أن درس الطبقات الجيولوجية فى إلمينا وذهب إلى أنها تؤيد نظرية أبراهام فرنر التى زعمت أن جميع التكوينات الصخرية على القشرة الأرضية نتيجة لفعل المياه البطئ . (ويجب أن تقرن هذه النظرية « النبتونية » بالنظرية « البركانية » التى تقول بالتغير نتيجة للحركات العنيفة) . وكان من أوائل من ألمعوا إلى أن عمر الطبقات قد يقرر من المتحجرات

المطمورة فيها ، ومن دافعوا عن الرأى القائل بأن الجلاميد الماثلة الموزعة الآن توزيعاً شاذا فى المرتفعات قد قذفتها هناك موجات من الجليد هابطة من المنطقة القطبية الشمالية[٣٥] .

وفى ١٧٩١ — ٩٢ نشر جوته فى مجلدين « مقالات فى البصريات » ، وكتب يقول « كان هدفى تجميع كل ماهو معروف فى هذا الميدان ، والقيام بكل التجارب بنفسى ، منوعا فيها قدر الاستطاعة » ميسراً متابعتها ، مراعيا أن تكون فى متناول الشخص العـــادى [٣٦] . وقد أجرى خلال السنوات من ١٧٩٠ إلى ١٨١٠ مالا يحصى من التجارب لتفسير اللون ، وما زال متحف جوته بفايمار يحتفظ بالأدوات التى استعملها . وظهرت الحصيلة فى ١٨٠٠ فى مجلدين كبيرين يحتويان النصوص ، ومجلد للوحات ، تحت هذا العنوان « فى نظرية اللون » . وكان هذا أكبر آثاره عالما .

وقد درس الألوان باعتبارها ناشئة لا عن التركيب الكيميائى للأشياء فحسب ، بل عن تكوين العين وعملها . وحلل تكيف الشبكية للظلام والنور ، وفسيولوجية العمى اللونى ، وظواهر أطياف الون والصور التلوية ، وآثار تناقضات الألوان وتجمعاتها فى الإحساس وفى التصوير . وحسب اللون الأخضر — خطأ — مزيجا من الأصفر والأزرق . (وهما يمتزجان هكذا حقا على لوحة ألوان الرسام، ولكن حين يتحد الأزرق والأصفر فى الطيف ينتج عنهما الرمادى والأبيض) . وقد أعاد إجراء الكثير من التجارب التى ورد وصفها فى « بصريات » نيوتن (١٧٠٤) ، فوجد فى عدة حالات نتائج تختلف مما ذكر فى ذلك الكتاب ، وخلص إلى اتهام نيوتن بعدم الكفاية وبالغش أحيانا [٣٧] . وقد عارض رأى نيوتن فى أن الون الأبيض تأليف من عدة ألوان ، وذهب إلى أن اتحاد الألوان ينتج عنه بانتظام اللون الرمادى لا الأبيض . ولكن نتائجه لم يقبلها لامعاصروه ولا من أتوا بعده فى ميدان البصريات . فقد اثنوا على تجاربه ورفضوا الكثير من نظرياته . وفى ١٨١٥ أرسل إليه آرثر شوبنهاور مقالا دافع فيه بكفاية عن فكرة نيوتن فى أن الأبيض تأليف من عدة ألوان — وكان شوبنهاور يعجب بجوته شاعرا

وفيلسوفا ، ولم يغتفر له الشيخ فعلته قط . وزاد الرفض العام لنظريته فى الألوان سنيه الأخيرة قتاما .

وكان طبيعيا لرجل كجوته ، حساس إلى هذا الحد أن يستهويه عالم النبات. فحين زار بادوا فى ١٧٨١ أبهجته الحدائق النباتية ، ففيها وجد مجموعة أغنى وأكثر تنوعا من كل ما رأى فى حياته . وشاهد مدى اختلاف نباتات الجنوب عن نباتات الشمال ، فصمم على دراسة تأثير البيئة على شكل النبات ونموه . كذلك لم يشعر قط بمثل هذا الشعور العميق بقدرة الطبيعة الملغزة العارمة على تطوير كل نوع — بما تفرد به من حيث التركيب والنسيج واللون والخط — من بزور تبدو بسيطة متشابهة . فيالها من خصوبة ، ويالها من قدرة على الابتكار ! ولكن أهناك بعض عناصر مشتركة فى كل تنوع الأفراد ، وفى كل تطور الأعضاء والأجزاء ؟ وخطر له أن هذه الأجناس والأنواع والأشكال هى تحورات من نموذج أصلى أساسى ، وأن هذه النباتات كلها ، مثلا ، شكلت على غرار نموذج أساسى أصيل — حتى وإن كان متخيلا — أو نبات أول ، هو أم النبات جميعا . وكتب إلى هردر يقول « إن هذا القانون ذاته يمكن تطبيقه على كل حى » أى على الحيوانات كما يطبق على النباتات ، فالحيوانات هى أيضا تحورات من أصل بنائى واحد[٢٨] . وكما أن الكائن الحى الفرد ، بكل تفرده ، هو محاكاة لنمط أول ، كذلك قد تكون أجزاء الكائن تحورات لشكل أساسى واحد . ولاحظ جوته فى بادوا نخيله (بالميطة) كانت أوراقها فى مراحل مختلفة من التطور ، فدرس مراحل الانتقال المرئية من أبسط ورقة إلى مروحة السعف الكاملة الرائعة ؛ وتصور فكرة مؤداها أن جميع تركيبات النبات — باستثناء المحور أو الساق — هى تحورات ومراحل للورقة(*) .

وبعد عودة جوتة إلى فايمار نشر نظريته فى كتيب من ست وثمانين صفحة عنوانه « محاولة قام بها س . ف . جوته عضو المجلس الخاص لدوقية ساكسى — فايمار » لتفسير تطور النباتات » (١٧٩٠) .

(*) كان كاسبار فريد ريش فولف قد خلص إلى هذه النتيجة فى ١٧٦٨ .

وضحك علماء النبات من الكتيب وقالوا إنه أحلام شاعر ، ونصحوا الشاعر بأن يلزم حرفته .[٣٩] فلم يكذبهم ، وصاغ آراءه من جديد « فى قصيدة سماها « تحور النباتات » وتجمعت الأدلة والمؤيدون للنظرية شيئاً فشيئاً .

وفى ١٨٣٠ قدم إتيين جوفروا سانتلير مقال جوته لأكاديمية العلوم الفرنسية ، وأشاد به أثراً من آثار البحث الدقيق والخيال الخلاق يؤيده تقدم علم النبات[٤٠] .

وألمع جوته (١٧٩٠) فى محاولة لتطبيق نظريته على التشريح إلى أن الجمجمة ليست سوى تحور وتتمة للفقرات ، تحتوى المخ كما يحتوى العمود الفقرى على الحبل الشوكى ، وليس هناك اليوم اتفاق على هذه الفكرة . ولكن إنجازاً ذكياً أكيـداً يرجع الفضل فيه إلى جوته فى التشريح — وهو إثباته وجود العظمة البينفكية فى الإنسان (وهى العظمة التى تتوسط عظمتى الفك العلوى والتى تحمل القواطع العلوية) . وكان علماء التشريح قد تبينوا وجود هذه العظمة فى الحيوان ، ولكنهم ارتابوا فى وجودها فى الإنسان ، وكان لاكتشاف جوته الفضل فى تضييق الخلاف البنيانى بين الإنسان والقرد .

استمع إلى الشاعر يعلن نجاحه فى خطاب من ييتا إلى شارلوته فونشتين مؤرخ ٢٧ مارس ١٧٨٤ — العاشق والعالم ممتزجين معاً : « سطور إلى حبيبتى لوته ، أقرئها تحية الصباح ... لقد منحت شعوراً بالرضى يبهجنى . ذلك أنى اهتديت إلى كشف تشريحى جميل وهام فى وقت معاً . وسيكون لك نصيبك فيه ، ولكن لا تنبسى بكلمة عنه » .[٤١] وأذاع كشفه فى مقال خطى أرسله إلى مختلف العلماء فى ١٧٨٤ بعنوان « محاولة قائمة على علم العظام المقارن » لإثبات أن العظمة البينفكية فى الفك الأعلى يشترك فيهـا الإنسان والحيوانات العليا » وكانت هذه « أول رسالة كتبت من قبل يمكن أن توصف بحق بأنها تدخل فى باب التشريح المقارن ، وهى إذن معلم فى

تاريخ هذا العلم »[٤٢] (وقد نشر المشرح الفرنسى فيلكس فيك دازير هذا هذا الكشف ذاته فى السنة نفسها ١٧٨٤) .

كتب جوته فى رسالته : « أن الانسان شديد الشبه بالحيوان الأعجم ... فكل مخلوق إنما هو نغمة أوتحوير فى تآلف ألحان عظيم »[٤٣] وقد ذهب كثيرون من العلماء والفلاسفة الذين سبقوه إلى أن الإنسان جزء من مملكة الحيوان ونظم قصيدة سماها « تطور الحيوانات » ولكنه لم يكن من دعاة التطور بالمعنى الداروينى . فقد افترض ثبات الأنواع اتباعاً لمذهب لينايوس ، وهكذا لم يكن « النبات الأول » الذى قال به نباتاً بدائياً فعلياً تطورت منه جميع النباتات ، إنما كان مجرد نمط عام كانت كل النباتات تحويرات له ، ولم يكن رأيه كرأى معاصريه لامارك وإرازمس دارون فى أن الأنواع متطورة من أنواع أخرى بالانتخاب البيئى لأشكال واحدة .

فهل كان جوته عالماً حقيقياً ؟ ليس بالمعنى الاحترافى . لقد كان هاوياً غيوراً مستنيراً ، وعالماً بين القصائد والروايات والغراميات والتجارب الفنية والواجبات الإدارية .

وقد استخدم أجهزة كثيرة وجمع مكتبة علمية كبيرة ، ولاحظ ملاحظات مفيدة وتجارب دقيقة وشهد هلمهولتز بالدقة الواقعية للعمليات والتجارب الموضوعية التى وصفها جوته[٤٤] . وقد تجنب التفسيرات الغائية . ولكن العلماء المحترفين لم يقبلوه عالماً ، لأنهم نظروا إليه هاوياً يعتمد على الحدس والفروض بثقة مفرطة . وكان ينتقل بسرعة أكثر مما ينبغى من موضوع أو تحقيق إلى آخر لا مسا كلا منها نقطة خاصة ، دون أن يبلغ فى أى منها مسحا للميدان فى إلا فى البصريات ونظرية اللون . ولكن كان هناك شئ مثالى وبطولى فى إصراره المتشعب المتعدد الأشكال . وقال إكرمان فى ١٨٢٥ : « سيبلغ جوته عامه الثمانين بعد بضع سنوات ، ولكنه لم يكل من الأبحاث والتجارب ، فهو لا يفتأ جاداً فى أثر تأليف كبير »[٤٥] . وربما كان الشاعر محقا فى رأيه أن الهدف الأكبر للعالم ينبغى ألا يكون إمداد الرغبات القديمة بأدوات جديدة ، بل توسيع الحكمة بالمعرفة فى سبيل إثارة الرغبة .

٥ — الفيلسوف

كان فى الفلسفة ، كما كان فى العلم ، عاشقاً لا أستاذاً محترفا — مع أنه صاحب الفضل فى تعيين فشته وشيلنج وهيجل فى كراسى الفلسفه بيينا . وكان قليل الاهتمام جداً بجدليات المذاهب الفلسفية ، ولـكنه كان معنيا أشد العناية بتفسير الطبيعة ومعنى الحياة.وكلما تقدم به العمر بات بفضل العلم والشعر حكيما، وقد وجد الأثارة عن « الكل » من كل شىء ، وكل لحظة ، وكل جزء : « كل عابر ليس إلا رمزاً » [٤٦] و « الأقوال المأثورة العارضة » التى خلفها عند موته دون أن تطبع ، تنضح بالحكمة فى كل صفحة .

ولم يقدم أى نسق منطقى ، ولكنه ألمع ، براجماتيا إلى « أنه لا حقيقى إلا ما هو مثمر » [٤٧] وإلى أنه « فى البدء كان الفعل (لا الـكلمة) » [٤٨] فنحن نجد الحقيقة فى الفعل أكثر مما نجدها فى الفكر ، وينبغى أن يكون الفكر أداة للعمل ، لا بديلا عنه . ولم يولع بكانط كما أولع به شيلر ، فقد اعترف بأن الطبيعة النهائية للحقيقة تتجاوز علمنا ، ولكنه لم يشعر أن هذا يلزمه بسفية العقيدة ، بل على العكس أوصى بتجاهل ما لا يمكن معرفته ، « إن مالا سبيل إلى سبر أغواره ليست له قيمة عملية » ، والعالم المحسوس كاف لحياتنا [٤٩] ولم تساوره أى ريب أو مخاوف معرفية حول الاعتراف بوجود عالم خارجى . كتب لشيلر بعد أن قرأ كانط وشيلنج يقول « أنى أسلم مختاراً بأن ماندركه حسيا ليس الطبيعة (فى ذاتها) ، بل إن الطبيعة تفهم طبقاً لصور وملكات معينة لفكرنا .... ولكن توافق طبائعنا العضوية مع العالم الخارجى . . . (يدل على) تصميم من الخارج ، وعلاقة نحو الأشياء » [٥٠] « وكثيرون يقاومون الاعتراف بالحقيقة ، لاشىء إلا لأنهم أو قبـــلوه لانهاروا » [٥١] .

ولـكن جوته رفض المادية رفضه للمثالية الذاتية . وقال إن « مذهب الطبيعة » الذى قال به دولباخ « بدا لنا [نحن الطلاب فى ستراسبورج] شديد القتام . . . رهيبا كالموت ، حتى لقد وجدنا فى إطاقة وجوده عناء ونكدا » وكنا نرتعد فرقا منه كأنه عفريت » . [٥٢] كان هذا فى شبابه ،

ولكنه أحس به أيضاً فى شيخوخته وهو يكتب إلى كنيبل فى ٨ ابريل ١٨١٢ :

« إن الرجل الذى لايدرك هذه الحقيقة : ولا يسمو إلى هذه الرؤية ، وهى أن الروح والمادة ، للنفس والجسد ، الفكر والامتداد ، ... إنما هما مقوما الكون التوأمان الضروريان ، وسيظلان كذلك أبد الدهر ، وإن لهذين الاثنين حقوقا متساوية ؛ ومن ثم يمكن اعتبارهما فى وجودهما معاً ممثلين لله ؛ أقول أن رجلا لايدرك هذا خير له أن ينفق عمره فى ثرثرة أهل الدنيا ولغوهم الفارغ .

وهذا بالطبع هو سبينوزا ، وجوته يتبع سبينوزا إلى الحتمية — ونحن ننتمى إلى قوانين الطبيعة ، حتى أن تمردنا عليها [٥٣] ، ولكنه أحيانا يميل إلى الاتفاق مع كانط على أن « حياتنا » مثلها مثل الكون الذى ننتمى إليه ، تتألف على نحو ملغز من الحرية والضرورة . » [٥٤] وكان يشعر بقوة قضاء وقدر تعمل فيه — صفات تفرض نموه وتقرره ، ولكنه يتعاون معها « كما يتعاون عامل حر يخدم قضية تحركه وتحتويه .

أما دينه فتمجيد للطبيعة ، ورغبة فى التعاون مع قواها الخلاقة — قدرتها الإنتاجية المتعددة الأشكال ومثابرتها العنيدة ؛ على أنه استغرق زمناً طويلا ليكتسب صبرها . وقد شخص « الطبيعة » على نحو مبهم « فرأى فيها فكراً وإرادة » ولكنه فكر يختلف تماماً عن فكرنا ، وإرادة محايدة فى غير اكتراث كأنها تحايد بين ناس وبراغيث . فليس للطبيعة مشاعر أخلاقية بالمعنى الذى نقصده من التزام الجزء بالتعاون مع الكل ، لأنها « هى » الكل . وفى قصيدته « الإلهى » (١٧٨٢) وصف جوته الطبيعة بأنها بغير شعور ولا رحمة . فهى تدمر كما تعمر بإسراف . « كل مثالكم العليا لن تمنعنى (جوته) من أن أكون أصيلا « صالحاً وطالحاً ، كالطبيعة » [٥٥] ، ومبدؤها الأخلاقى الوحيد هو : عش واجعل غيرك يعيش . وقد سلم جوته بحاجة كثير من النفوس إلى سند فوق طبيعى ، ولكنه لم يشعر بمثل هذه الحاجة إلا فى أخريات عمره . « من عنده الفن أو العلم فهو يملك (ما يكفى من)

الدين ؛ أما من ليس عنده فن أو علم فهو فى حاجة إلى الدين » [٥٦] . انى بصفتى شاعراً وفناناً أشعر بتعدد الآلهة (فأشخص قوى الطبيعة المنفصلة) ، أما فى دورى عالماً فأنا أميل إلى الحلولية (أى أرى إلهاً واحداً فى كل شيء)[٥٧]

وإذا كان « وثنياً ثابتاً عامداً » فى الدين والأخلاق ، فقد خلا من الإحساس بالخطيئة » ولم يشعر بحاجة إلى إله يموت كفارة عنه ، [٥٨] وأنكر كل حديث عن الصليب . وقد كتب إلى لافاتر فى ٩ أغسطس ١٧٨٢ يقول « لست عدواً للمسيحية ، ولا مضاداً لروح المسيحية ، ولكنى قطعاً لا — مسيحى . . . أنك تقبل الإنجيل » كما هو ، على أنه حقيقة إلهية . حسناً ، ما من صوت مسموع من السماء يمكن أن يقنعنى بأن امرأة يمكن أن تحبل بطفل دون رجل ، وأن رجلا ميتاً يقوم من قبره . وأنا أعد هذه كلها تجديفات على الله وعلى إعلانه ذاته فى الطبيعة » [٥٩] . وضيق عليه لافاتر الخناق (كما يروى لنا جوته) و « أخيراً سألنى السؤال العسير » إما مسيحى وأما ملحداً » فصارحته بأنه ان لم يترك لى مسيحيتى كما اعتززت بها إلى ذلك الحين ، فنى استطاعتى أن أنحاز دون تردد إلى صف الإلحاد » خصوصاً وأننى أرى أنه ما من إنسان يعرف على التحديد المعنى المقصود من كل من هذين اللفظين » [٦٠] . وقد ذهب جوته إلى أن « الدين المسيحى ثورة سياسية جهيضة انقلبت أخلاقية » [٦١] وفى الأدب « مئات الصفحات التى فيها من الجمال والفائدة » مثل ما فى الأناجيل [٦٢] ، ومع ذلك أعد الأناجيل الأربعة كلها حقيقية لا غبار على صحتها ، ففيها يتجلى البهاء المنعكس للقوة السامية التى انبثقت من شخص المسيح وطبيعته ، الذى كان إلهياً ماظهرت الألوهية فى الأرض . . . وأنا أنحنى أمامه بوصفه المظهر الإلهى لأسمى مبدأ للفضيلة » [٦٣] . ولكنه اعتزم أن يعبد الشمس كما يعبد المسيح ، باعتبارها مظهراً معادلا من مظاهر القوة الإلهية [٦٤] . وقد أعجب بلوثر ، وامتدح حركة الإصلاح البروتستنتى لتخطيها أغلال التقاليد ، ولكنه أسف على انتكاسها إلى العقائدية المتزمته [٦٥] . وخامره شعور بأن البروتستنتية ستعانى من افتقارها إلى المراسم الملهمة المكونة للعادات ، ورأى أن الكاثوليكية

حكيمة سمحة فى رمزها العلاقات والتطورات الروحية بالأسرار المقدسة البالغة الوقع فى النفوس [٦٦] .

أما آراء جوته فى الخلود فقد تغيرت مع السنين . فنى ٢ فبراير ١٧٨٩ كتب إلى فريدريش تسو شتولبرج يقول . « أما أنا فأتمسك بوجه عام بتعاليم لوكريتيوس ، وأقصر نفسى وكل آمالى على هذه الحياة » . ولكنه فى ٢٥ فبراير ١٨٢٤ قال لاكرمان « لا أريد اطلاقاً أن أستغنى عن سعادة الأيمان بحياة مستقبلة ، والحق انى أقول مع لورنتسودى مديتشى ان الذين لا رجاء لهم فى حياة أخرى هم موتى حتى فى هذه الحياة » « وفى ٤ فبراير ١٨٢٥ ، «انى راسخ الاقتناع بأن روحنا شىء لايقبل الفناء اطلاقاً » [٦٧] . وقرأ زفيدنبورج ، وقبل فكرة عالم الروح [٦٨] ، وداعب آمال تقميص الأرواح . ودرس القبلانية وبيكوديللا ميراندولا » بل رسم البروج أحياناً لكشف الطالع [٦٩] . وكلما تقدم به العمر ازداد تسليمه بما للإيمان من حقوق .

« إذا توخيت الدقة فى التعبير ، قلت إنه لايمكننى أن أصل إلى معرفة لله إلا المعرفة التى أستقيها من الرؤية المحدودة المتاحة لمدركاتى الحسية على هذا الكوكب المفرد . ومعرفة كهذه إنما هى شظية من شظية . ولست أسلم أن هذه المحدودية ، التى تصدق على ملاحظتنا للطبيعة ، يجب أن تصدق فى ممارسة الإيمان . فالعكس هو الصحيح . ولعل معرفتنا » وهى ناقصة بالضرورة » تتطلب الإضافة والاستكمال بفعل من أفعال الإيمان »[٧٠] .

وفى ١٨٢٠ أسف على تأليفه « بروميثيوس » المتمرد أيام شبابه ، لأن شباب المتطرفين يومئذ كانوا يستشهدون به ضده [٧١] . وقد انصرف عن فشته حين اتهم فشته بالإلحاد [٧٢] . وكان رأيه الآن « انه من واجبنا ألا نخبر غيرنا بأكثر مما فى قدرتهم تلقيه . فالإنسان لا يفهم إلا ما يناسبه » [٧٣] .

وكما تغيرت آراؤه فى الدين » كذلك تغير مفهومه للأخلاق مع تقدم عمره . فحين كان يظفر بنشاط الشباب وكبريائه فسر الحياة بأنها ليست سوى

مسرح لتنمية الذات والظهور . « ان هذه الرغبة الملحة فى أن أرفع ما استطعت هرم حياتى الذى أعطيته وأرسيت قاعدته لى ، ترجح كل ما عداها ، ولا تكاد تسمح بلحظة انتكاس »(٧٤) . وقد رأيناه يجرح نفوساً رقيقة فى هذه العملية . ولكنه حين نضج بفضل المنصب السياسى أدرك أن الحياة البشرية عملية تعاونية ؛ وأن الفرد إنما يحيا بالمساعدة المتبادلة ؛ وأن الأفعال الأنانية — وان ظلت القوة الأساسية — إلا أنه لا بد من أن تحدها حاجات الجماعة . ففاوست فى قسمها الأول هى النزعة الفردية متجسدة؛ وفى قسمها الثانى يجد « الخلاص » وسلامة الروح « بالعمل للصالح العام . وفلهم مايستر فى « تلمذته » يحاول تعليم ذاته وإنماءها وإن كان يحكم طبيعته وتدريبه كثيراً ما يعين اخوانه ؛ وفى « تطويفاته » يحاول تحقيق المزيد من سعادة المجتمع . وقد غض بجوته من الوصية بمحبة الأعداء،ولكنه عرف النبل بنبل فى قصيدة من أروع قصائده :

« ليكن الإنسان نبيلا
معيناً وطيباً
فذلك وحده
هو الذى يميزه
عن سائر الكائنات
التى نعرفها . . .
ان الطبيعة
مجردة من العواطف
تشرق شمسها
على الأشرار والأبرار،
ويضىء القمر والنجوم
على الصالحين والطالحين .
والرياح والسيول «
والرعد والبرد «

تهدر في طريقها ،
تنتزع وتكتسح أمامها
واحداً بعد واحد . . .
ولا مناص لنا كلنا بحكم القوانين
العظمى ، الأبدية الصارمة ،
من أن نكمل دورة وجودنا .
ولكن الإنسان وحده
يستطيع المحال ،
فهو يميز ،
ويختار ، ويحكم ؛
ويستطيع أن يطيل مكث
اللحظة العابرة .
هو وحده القادر على
ان يثيب الخير ،
ويعاقب الشر ،
ويشفي وينقذ ،
ويصدق النصح
للخطاة والضالين
فليكن الإنسان النبيل
معيناً وطيباً .

ولكي يكون الإنسان نبيلا عليه أن يحذر المؤثرات المفسدة ، و « الكل مؤثر إلا ذواتنا »[٧٥] . « دعك من دراسة المعاصرين والذين يحاربونك ؛ بل أدرس عظماء الماضي الذين احتفظت آثارهم بقيمتها ومكانتها قروناً . فالرجل الموهوب حقاً ينحو هذا النحو بحكم طبيعته ، والرغبة في التنقيب في أعمال الأسلاف العظام علامة صادقة على الموهبة السامية »،[٧٦] وعليك باحترام المكتبات وإجلالها لأنها التراث الذي خلفه هؤلاء الرجال . « ان

المرء حين يتأمل مكتبة ما يشعر كأنه فى حضرة رأس مال هائل يأتى فى صمت بفائدة لاتقدر »[٧٧] . ولكن الفكر بغير الخلق أسوأ كثيراً من الخلق بغير الفكر ، « فكل ما يحرر العقل دون أن يمنحنا السيطرة على أنفسنا مؤذ »[٧٨] . خطط لحياتك ، ولكن حاول الموازنة بين الفكر والعمل ؛ فالفكر بغير العمل مرض . « فلأن تعرف حرفة وتمارسها يزودك بثقافة أكثر مائة مرة من نصف المعرفة »[٧٩] . « وما من بركة تعدل بركات العمل »[٨٠] وفوق كل شىء كن « كلا » أو انضم إلى كل « أن النوع الإنسانى وحده هو الإنسان الحق « ولا يستطيع الفرد أن يفرح ويسعد إلا إذا امتلك شجاعة الشعور بنفسه فى الكل »[٨١] .

وهكذا نرى الفتى الذى ورث أسباب الرغد والأمن ، والذى أضحك طلاب ستراسبورج على لباسه المترف الغريب « قد تعلم بفضل الفلاسفة والقديسين وتجارب الحياة أن يفكر فى الفقراء بعطف ، وأن يتمنى لو تقاسم المحظوظون من الناس ثرواتهم مع الفقراء بسخاء أكثر . وينبغى أن تفرض الضرائب على النبلاء بنسبة دخولهم ، وأن يتيحوا لاتباعهم الإفادة من « المنافع التى تهيئها المعرفة والرخاء المتزايدان »[٨٢] وقد أحس جوته بما يحس به البورجوازيون من حسد لأصحاب النبالة بالميلاد حتى بعد أن طبق صيته آفاق أوربا . « فى ألمانيا لاتتاح فرصة الحصول على . . . ثقافة شخصية مكتملة الجوانب للنبلاء »[٨٣] . وكان يراعى جميع فروض الاحترام المألوف فى سلوكه مع رؤسائه . وكل الناس يعرفون ما وقع لجوته وبيتهوفن فى تبلتز « فى يوليو ١٨١٢ ؛ ولكن المصدر الوحيد لهذه القصة هو بتينا برنتانوفون آرنيم ، غير الموثوق بروايتها ، التى ادعت أنها تنقل عن رواية بيتهوفن :

« يستطيع الملوك والأمراء حقاً أن يخلعوا الألقاب والأوسمة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا عظماء الرجال الذين يجب إذن النظر إليهم بإجلال . وحين يجتمع اثنان مثل جوته ومثلى « فلا بد لهؤلاء السادة من ذوى الحسب

والنسب أن يفقهوا معنى العظمة عند أمثالنا . فبالأمس التقينا بالأسرة الامبراطورية (النمساوية) كلها ، وخلص جوته ذراعه من ذراعى ليقف جانباً . أما أنا فكبست قبعتى على رأسى واخترقت الجمع فى أكتف نقطة وذراعاى تتدليان على جانبى . واصطف الأمراء وأفراد الحاشية فى صفين ؛ ورفع دوق فايمار قبعته لى ، وحيتنى الامبراطورة أولا . وقد أضحكنى أن أرى الموكب يمر أمام جوته الذى وقف على جنب وقبعته فى يده . وقد عنفته بعدها بقسوة على ما أتاه [٨٤] .

وسيختلف انفعالنا بهذه القصة باختلاف عمرنا . فلقد شعر جوته بأن الارستقراطية العاملة بنشاط وبروح خدمة الجماعة تهيء خير الحكومات الممكنة آنئذ فى أوربا ، وتستحق الاحترام الواجب للنظام والضبط الاجتماعين . وينبغى اصلاح المفاسد ، ولكن فى غير عنف أو اندفاع ؛ فالثورات تكلف أكثر مما تساوى ، وتنتهى عادة إلى حيث بدأت . ومن ثم يقول مفستوفيليس لفاوست :

« وا أسفاه ! إليك عنى ! كف عن الثرثرة حول ذلك الشجار بين الطغيان والرق ! انه يضايقنى . فما إن ينته حتى يبدأ من جديد مع المهزلة كلها » [٨٥] .

ومن ثم يقول جوته لأكرمان فى سنة ١٨٢٤ : « صحيح اننى لم أكن صديقاً للثورة الفرنسية . فلقد كانت أهوالها عاجلة جداً . . . على حين لم تكن آثارها النافعة منظورة بعد . . . ولكننى بالمثل لم أكن متعاطفاً مع الحكم التعسفى الذى سبقها . وكنت حتى فى ذلك الوقت مقتنعاً بأنه ما من ثورة هى غلطة الشعب . بل هى دائماً غلطة الحكومة » [٨٦] . وقد رحب بنابليون نعمة على النظام فى فرنسا وأوربا بعد عقد حفل بالاضطرابات . وكان يتشكك فى الديمقراطية لأنه « ما من شىء أسوأ من الجهل النشيط »[٨٧] ، و « محال أن نتصور أن الحكمة يمكن أن تكون فى يوم من الأيام صفة شعبية » [٨٨] .

ثم سخر من تذبذب « اطان بين الأحزاب . « أن الناس يتقلبون فى

السياسة كما يتقلبون على فراش المرض من جنب إلى جنب أملا فى مزيد من الراحة فى رقادهم »[٨٩] . وقد عارض حرية النشر بحجة أنها تعرض المجتمع والحكومة للإزعاج المستمر على يد كتاب يعوزهم النضج والشعور بالمسئولية . وبدت له الصرخة المطالبة بالحرية ، فى أواخر عمره ، مجرد جوع المحرومين من المناصب للسلطان والمغانم . « ان الهدف الأوحد هو نقل القوة والنفوذ والثراء من يد إلى اليد التالية . وما الحرية إلا كلمة السر التى يهمس بها المتآمرون المتسترون ، وصيحة المعركة الصاخبة يصيح بها الثوار السافرون ، لا بل شعار الاستبدادية ذاتها وهى تسوق جماهيرها الخاضعة على العدو واعدة إياها بالخلاص من الطغيان الخارجى إلى الأبد »[٩٠] .

لقد وفى جوته كل الوفاء بواجب الكبار « بقيامه بوظيفة الكابح لطاقة الصغار .

٦ — فاوست : الجزء الثانى

ولقد سكب فلسفته التى تقدم بها العمر فى الجزء الثانى من فاوست : ففى خاتمة الجزء الأول كان قد ترك « نفسه الثانية » ، محطمة يائسة ، فى قبضة مفستوفيليس — الشهوة تعاقب على افراطها . ولكن ، أكان ممكناً أن يكون هذا كل شيء ، وأن يكون جماع الحكمة ؟ ان فاوست لم يكن قد خسر رهانه كل الخسران ، فالشيطان لم يعثر له بعد على أية متعة تهدىء نضاله وتملأ حياته . فهل ثمة أشباع كالذى يتوق إليه فى أى مكان ؟ لقد كافح جوته طوال أربعة وعشرين عاماً ليجد للقصة تتمة وقمة تحويان أو ترمزان إلى النتائج التى خلص إليها تفكيره ، وتسبغان على بطله خاتمة نبيلة ملهمة .

وأخيراً ، وحين بلغ الثامنة والسبعين ، تصدى للمهمة . فى ٢٤ مايو ١٨٢٧ كتب إلى تسلتر الذى شاخ كما شاخ هو وكان مزمعاً أن يموت معه : « أود أن أعترف لك فى هدوء . . . بأننى عاودت العكوف على فاوست . . فلا تخبر بذلك أحداً » . وكانت خاتمة بايرون المثيرة فى حرب اليونان التحريرية

قد حركت مشاعر جوته ؛ فالآن يستطيع أن يجعل بايرون ، في شخص « يوفوريون » (ومعناه السعادة) ، بن فاوست وهيلانة يمثل شفاء العقل العصرى ، الممزق الحائر ، بفضل اتحاده مع جمال اليونان القديمة الهادىء . ومن ثم راح يكد ويكدح في ساعات الصباح ، فلا يبلغ من ذلك غير صفحة واحدة على أحسن تقديره ، حتى أفضى لأكرمان في أغسطس ١٨٣١ ، قبل موته بسبعة شهور ، بأن المهمة المضنية قد تمت — بعد أن انقضت تسع وخمسون سنة على تصوره إياها أول مرة . وكان قد كتب يقول « أسعد الناس من استطاع وصل نهاية حياته ببدايتها »[٩١] . وقال الآن « أيا كان مقدار ما بقى لى من الحياة فى وسعى أن أعده منذ الآن منحة ، ولست فى الحق أبالى ان كنت سأنجز فوق ما أنجزت أم لا »[٩٢] .

ولا يستطيع المرء أن يسترسل اليوم فى قراءة كل الجزء الثانى من فاوست إلا فى ثقة واطمئنان أعوام ثمانين . فابتداء من المنظر الافتتاحى الذى يصف فيه فاوست ، بعد استيقاظه بين حقول الربيع ، شروق الشمس ببلاغة لم تبل جدتها ، تقف حركة القصة المرة بعد المرة للتغزل فى جمال الطبيعة أو التغنى بعظمتها أو رهبتها ؛ وقد أجاد المؤلف الوصف . ولكنه أسرف فيه ؛ فجوته المبشر بالانضباط الكلاسيكى يأثم هنا ضد شعار « القصد فى القول » . ذلك أنه صب فى الدراما كل شيء تقريباً تراكم بغير نظام فى ذاكرته الجياشة : الميثولوجيات اليونانية والألمانية ، وليدا والبجعة ، وهيلانة وركبها ، والساحرات ، والفرسان ، والجنيات ، والأقزام والحيوانات الخرافية ، والأقزام البشرية ، وحوريات الغاب ، والسيرانات ، ومقالات الجيولوجية « النبتونية » ، والخطب الطويلة يلقيها الرسل ، والفيات بائعات الزهر ، وحوريات الحدائق ، والحطابون ، — والمهرجون القصار السمان ، والسكارى ، وأتباع الفرسان ، ووكلاء الإقطاعيين ، والنظار ، ثم سائق مركبة حربية وأبو هول ، ومنجم وإمبراطور ، وآلهة الحقول وفلاسفة ، وكراكى أبيكوس ، و« رجل قصير » (قزم) صنعه فجنر تلميذ فاوست كيميائياً . والخليط أشد تحيراً وإرباكاً من الدغل المدارى ،

لأنه يضيف العنصر فوق الطبيعي إلى الطبيعي ، ويسبغ على كل شيء موهبة الخطابة أو الغناء .

وما أعظم الراحة التي نستشعرها حين تظهر هيلانة في الفصل الثالث ، وهي ما تزال على نحو معجز إلاهة بين النساء ، تغزو قلوب الرجال برشاقة حركتها أو بلحظ عينها . وتتخذ القصة قوة جديدة ، ويرتفع الكورس إلى نبرة سوفوكلية ، حين تسمع هيلانه ان منيلاوس رغبة في عقاب « الجمال الوقح المتغطرس » أمر بأن تسلم هي ووصيفاتها إلى شهوات قبيل « بربرى » يغزو بلاد اليونان من الشمال . أما زعيمهم ففاوست نفسه ، الذى انقلب بحيلة مفستوفيلية فارساً من فرسان العصور الوسطى ، مليح القد والصورة واللباس . ويبلغ جوته ذروة فنه الدرامى حين يصف لقاء هيلانه وفاوست — اليونان القديمة تواجه ألمانيا الوسيطة . فليتحد الإثنان ! تلك هي الفكرة الرئيسية في القصة . ويفتتن فاوست ككل الرجال فيلقى عند قدمها بكل ما وهبه السحر والحرب من مال وقوة . وتستسلم هي لتوسلاته ، فهذا المصير على أى حال لم يكن شراً من الموت . ولكن منيلاوس يقترب مع جيشه فيقطع عليهما نعيمهما . وفى لمح البصر ينقلب فاوست من الغرام إلى الحرب ، ويستنفر رجاله ويقودهم إلى غزو اسبرطه (وهذه ذكرى « الفرنجة » يغزون المورة في القرن الثالث عشر) .

ثم يتغير المشهد ، فقد مرت السنون سراعاً ، وإذا يوفوريون شاب سعيد يشرح صدر فاوست وهيلانه بـ « العناق والمزاح اللعوب والنداءات المرحة »[٩٢] . قافزاً في استهتار من جرف إلى جرف ، وأبواه يحذرانه في رفق ، راقصا في عنف مع الحوريات اللائى افتتن بحسنه (بايرون في إيطاليا) ، ويمسك بواحدة منهن في جذل ، فإذا هي تنفجر مشتعلة بين ذراعيه . وحين يسمع في ترحيب ناقوس الحرب يدق ، يندفع خارجاً ، فيهوى من منحدر قائم ، ويدعو أمه وهو يموت لتلحق به في العالم السفلى .

« هيلانه (لفاوست) ويلاه ! ان حكمة قديمة يتحقق في صدقها — فزفاف المال إلى الجمال لا يدوم أبدا . ان رباط الحياة يتمزق كما يتمزق

رباط الحب » فوداعاً لهما جميعاً وأنا أبكيهما فى عذابى » وعلى صدرك أرتمى مرة أخرى ، فتلقيني يا برسيفونى أنا وولدى . (تعانق فاوست ؛ ويتلاشى جسمها وتبقى الثياب والنقاب بين ذراعيه) » .

وهكذا يختتم الفصل الثالث ، وهو أجمل فصول هذا الجزء الثانى من فاوست . وهو الجزء الذى بدأ جوته بكتابته ، وسماه « هيلانه » ، وظل حيناً يفكر فيه على أنه كل كامل قائم بذاته ؛ ولو تركه كذلك لكان خيراً له . فهنا ارتفع جوته لآخر مرة إلى قمة شعره بجهد بطولى لاستنهاض ما بقى له من قوى ، مازجا الدراما بالموسيقى كما جرى اليونان على عهد بركليس ، نافخاً الحياة والحرارة فى شخوص قصة رمزية معقدة لشفاء العقل العصرى .

ومن ذلك العلو الشاهق ينزلق الجزء الثانى من فاوست إلى حرب بين امبراطور وغريم ينافسه على العرش الرومانى المقدس . ويحقق فاوست ومفستوفليس بحيلهما السحرية النصر فى الحرب للإمبراطور ؛ ويطلب فاوست وينال جزاء له مساحات كبيرة من ساحل الامبراطورية الشمالى » مضافاً إليها ما يسعه انتزاعه من الأرض من براثن البحر . وفى الفصل الخامس نرى فاوست وقد بلغ المائة سيداً على ملك شاسع ، ولكنه لم يصبح بعد سيداً على نفسه . وذلك أن كوخاً لزوجين من الفلاحين هما فليمون وباوكيس يحجب المنظر من قصره ؛ فيعرض عليهما بيتاً أفضل فى موقع آخر ، ولكنهما يرفضان : فيطلب إلى مفستوفيليس وعملائه أن يطردوهما ؛ ولكنهم يلقون المقاومة ، فيشعلون النار فى الكوخ ؛ ويموت الزوجان العجوزان رعباً . ولا يلبث فاوست أن تطوف به رؤى الأرواح المنتقمة « عجائز شمطاوات اسمهن الفقر ، والذنب ، والهم ، والحاجة » والموت » وينفخ الهم فى وجهه فيعميه . وتنتشله من اليأس فكرة فيها شيء من الإيثار ؛ فيأمر مفستوفيليس وشياطينه بأن يقيموا السدود على البحر ، ويجففوا المستنقعات ، ويبنوا على الأرض الجديدة ألف بيت وسط الحقول الخضراء ؛ ويتخيل هذه الأرض المنتزعة من البحر » ويشعر بأنه ان استطاع « مع شعب حر أن يقف على أرض حرة » لقال أخيراً لهذه اللحظة العابرة « لاتبرحى لأنك جميلة جداً » [٩٤] . ويسمع أصوات الفؤوس والمعاول ، فيظن

بأن مشروعه الضخم يتقدم ؛ أما الحقيقة فهي أن الشياطين تحفر قبره . ويأخذ منه الإرهاق كل مأخذ ، فيخر صريعاً على الأرض ؛ فيشمت فيه مفيستو فيليس بينما يهيئ حشد من الشياطين لحمل روح فاوست إلى الجحيم ؛ ولكن جيشاً من الملائكة ينقض من السماء ، وبينما يتسلى مفستوفيليس بالإعجاب بسيقانهم ، يرفع الملائكة رفات فاوست . وفي السماء نرى فاوست الذي ألبس جسداً نورانياً تستقبله بالتحية جريتشن الممجدة الآن ، والتي تتوسل إلى الأم العذراء قائلة : « هبيني أن أعلمه ! » وتأمرها العذراء بأن تقوده صعداً ، ويختتم كورس سحري المسرحية بهذا النشيد :

« كل عابر
ليس إلا رمزاً ؛
وكل ناقص لم يكمل
يبلغ الكمال هنا ؛
وما لا يمكن وصفه
يتحقق ها هنا
السرمدي الأنثوي
يجذبنا صعداً وقدماً » .

٧ — التمام : ١٨٢٥ — ١٨٣٢

في ١٨٢٣ أصبح يوهان بيتر إكرمان ، البالغ واحداً وثلاثين عاماً ، سكرتير جوته ؛ وبدأ يدون حديث الشيخ للأجيال القادمة وتحتوي حصيلة هذا الجهد « أحاديث مع جوته » (ثلاثة مجلدات ١٨٣٦ — ٤٨) ، التي راجعها جوته جزئياً : من ذخائر الحكمة أكثر مما نجده عند معظم الفلاسفة .

وفي سبتمبر ١٨٢٥ احتفلت فايمار بالذكرى الخمسين لتولي كارل أوجست العرش وحضر جوته الاحتفال . وأمسك الدوق بيده وتمتم قائلا له « معاً إلى آخر نسمة »(٩٥) . وفي ٧ نوفبر احتفل البلاط بالذكرى الخمسين

لقـــدوم جوته إلى فايمار ، وأرسل إليــه الدوق خطاباً أذيع أيضاً على الشعب :

« ببالغ السرور أود أن أنوه بالذكرى الخمسينية لهذا اليوم يوبيلا لا للخادم الأكبر لمولىّ فحسب ، بل لصديق صباى الذى رافقنى طوال تقلبات الحياة بثابت المحبة والولاء والوفاء . وإنى لمدين فى نجاح أهم مشروعاتى لمشورته الواعية ولتعاطفه الذى لا ينى وخدمته النافعة . وإنى لأعد ضمى اياه لشخصى بصفة دائمة مفخرة من أعظم مفاخر ملكى[٩٦] .

ثم أقبلت سنوات الشيخوخة الحزينة حين يختفى الصديق تلو الصديق . ففى ٢٦ أغسطس ١٨٢٦ ، بعد عيد ميلاد جوته السابع والسبعين بيومين ، أرسلت شارلوته فون شتين ، وهى فى الرابعة والثمانين ، آخر ما نعرف من رسائل لحبيبها منذ نصف قرن : « كل تمنياتى الصادقة وبركاتى بمناسبة هذا اليوم . وأتوسل إلى الملائكة الحارسة فى المحفل السماوى أن تأمر بمنحك أيها الصديق الأعز كل خير وجميل . وإننى مازلت المخلصة لك فى رجاء وبلا خوف ، وأنا أسألك أن تهبنى عطفك السمح خلال الفسحة القصيرة التى بقيت لى فى الأجل »[٩٧] . ثم ماتت فى ٦ يناير ١٨٢٧ ، فلما سمع جوته بالنبأ بكى . وفى ١٥ يونيو ١٨٢٨ مات الدوق ، وعرفت فايمار أن عصرها الذهبى أخذ يولى . واستعد جوته لدوره بالعكوف على فاوست بنشاط محموم . ولكن الدور لم يكن دوره بعد . ذلك أن أوجست ، ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، بعد أربعين سنة من الفشل ، وعشرين من الفسق ، مات فى روما فى ٢٧ أكتوبر ١٨٣٠ . وقد أظهر تشريح جثته أن حجم كبده خمسة أضعاف الحجم العادى . فلما أبلغ جوته بالنبأ قال (باللاتينية) « لم أكن أجهل أننى أنجبته إنساناً فانياً »[٩٨] . وكتب يقول « حاولت إغراق نفسى فى العمل وقد ألزمت نفسى بالمضى فى المجلد الرابع من كتاب « الشعر والحقيقة »[٩٩] .

وحين بلغ الثمانين بدأ يحد من مجال اهتماماته . ففى ١٨٢٩ كف عن قراءة الصحف . وكتب إلى تسلتر يقول « لست أستطيع البدء بإنبائك بما اكتسبته من

وقت وما أنجزته من أعمال خلال الأسابيع الستة التي تركت فيها جميع الصحف الفرنسية والألمانية دون أن أفتحها » [١٠٠] « سعيد من كان عالمه في بيته » [١٠١] . وقد حظي بالمحبة والرعاية من أرملة أوجست ، أوتيليه ، واستشعر البهجة بأطفالها . ولكنه كان أحياناً يعتكف حتى عنهم ويطلب الخلوة التامة ويثني على الوحدة لأنها المواسية والمحك للعقل المثقف .

ولقد أفصح وجهه الآن عن أعوامه الثمانين : غضون عميقة عبر الجبين وحول الفم ، وشعر فضي يتراجع ، وعيون هادئة متسائلة ؛ ولكن عوده ظل مستقيماً وصحته جيدة . وكان يفخر بأنه اجتنب القهوة والتبغ وكلاهما مذموم في رأيه لأنه سم زعاف . وكان معجباً بطلعته وبكتبه ، يستطيب ثناء الناس عليه صراحة ، ولا يبذله إلا ضنيناً به . بعث إليه شاعر شاب في ١٨٣٠ بديوان شعر ، فرد عليه جوته ينبئه بتسلمه رداً لاذعاً قال فيه « تصفحت كتيبك . ولكنني نحيته لأن على المرء في وباء من أوبئة الكوليرا أن يحمي نفسه من المؤثرات المضعفة » [١٠٢] . وكان يضيق بأصحاب الكفايات الهزيلة ، وازداد ضيقه بالناس أكثر فأكثر كلما أكرهته الشيخوخة على الانطواء على نفسه ، وقد اعترف بهذا فقال « كل من ظنني لطيفاً من واقع مؤلفاتي ألفى نفسه مخدوعاً أشد الخداع حين احتك برجل فيه برود وتحفظ » [١٠٣] . ووصفه زواره بأنه بطيء الانفراج ، فيه شيء من التكلف والتصلب ربما نتيجة لارتباكه ، أو لضنه بالوقت ينتزع من واجباته . ومع ذلك فإن كثيراً من رسائله تدل على الرقة ومراعاة مشاعر الآخرين .

وطبق صيته الآن آفاق أوربا . وأشاد به كارليل — قبل موت جوته بزمن طويل — فحلا من فحول الأدب العالمي . وأهدى بايرون « ورنر » إليه ، وأهدى برليوز « هلاك فاوست » إلى « المونسنيور جوته » ؛ وأرسل إليه الملوك الهدايا . ولكن قراءه في ألمانيا كانوا قله ، والنقاد مناوئين له ، وانتقص منافسوه من قدره ورموه بأنه عضو في مجلس الأمير مغرور يدعي أنه شاعر وعالم . وأدان ليسنج « جوتز » و « فرتر » لأنهما هراء رومانسي ؛ واحتقر كلوبشتوك « ارمان ودوروتيا » لأنه كتاب عادي لا امتياز فيه ،

و«افجينى» لأنه تقليد جامد لليونان . ورد جوته بعبارات متكررة من الاحتقار لألمانيا — لمناخها ، ومناظرها الطبيعية ، وتاريخها ، ولغتها ، وفكرها . وشكا من أنه أضطر « للكتابة بالألمانية » وهكذا . . . أهدر الحياة والفن على أسوأ مادة »[١٠٤] . وقال لأصحابه ان « هؤلاء الألمان الحمق » يستحقون تماماً هزيمتهم على يد نابليون فى يينا [١٠٥] ، وقد جاء دور ألمانيا لتضحك منه حين انتصر الحلفاء على بونابرت فى ووترلو .

وإذ انسلخ عن نهر الأدب الرئيسى (النهر الرومانتيكى) فى شيخوخته « فقد عزى نفسه باحتقار ازداد عمقاً للعالم والإنسان . « تبدو الحياة كلها — إذا نظرنا إليها من قمم العقل — كأنها مرض خبيث ، والعالم كأنه مستشفى للمجانين » [١٠٦] . وكتب إلى تسلتر فى ٢٦ مارس ١٨١٦ « قبل أيام وقعت على نسخة من أول طبعة لآلام فرتر » وبدأت ترتفع من جديد تلك الأغنية التى طال إسكاتها . وشق على أن أفهم كيف استطاع رجل أن يطيق العالم أربعين سنة مع أنه تبين سخفه حتى فى صباه » [١٠٧] . ولم يتطلع إلى أى تحسين ذى بال فى المستقبل . « ان الناس لا يعيشون إلا ليكدر ويقتل بعضهم بعضاً . كذلك كان ، وكذلك هو اليوم ، وكذلك سيظل إلى أبد الدهر » [١٠٨] ، وكان يرى كما يرى معظمنا بعد الستين أن الجيل الجديد منحط . « ان هذه الخيلاء التى لاتصدق ، والتى يشب عليها الشباب ، ستتمخض بعد بضع سنوات عن أعظم الحماقات . . . ومع ذلك فهناك الكثير الذى يتحرك وينشط » وقد يكون مبعث اغتباط فى السنين القادمة [١٠٩] » .

وفى ١٥ مارس ١٨٣٢ أصيب بنزلة برد وهو راكب عربته فى نزهة . ثم بدا أنه تماثل للشفاء فى الثامن عشر من الشهر ، ولكن فى اليوم العشرين كانت الإصابة قد نزلت إلى صدره ، وألهبته حمى النزله ، وشوه الألم وجهه . وفى الثانى والعشرين لاحظ أن الربيع بدأ ، وقال « لعل هذا يعيننى على البرء . » وكانت الحجرة قد أظلمت لأراحة عينيه ؛ فاعترض قائلا « أدخلوا مزيداً من الضوء » . وإذ كان لا يزال ضيقاً بالظلام أمر خادمه قائلا « افتح ستارة النافذة الأخرى ليدخل مزيد من الضوء . » وكانت هذه

فيما يبدو آخر كلماته . وكان قد قال لأوتيليبه « أيتها المرأة الصغيرة : ناوليني كفك الصغيره » ومات بين ذراعيها قابضاً على يدها ظهر يوم ٢٢ مارس ١٨٣٢ بالغاً اثنتين وثمانين سنة وسبعة شهور (١١٠) .

ورأى اكرمان جثمانه فى الغد :

« كان الجسد عارياً إلا من كفن أبيض . . . وأزاح الخادم الملاءة فأذهلني ما رأيت فى أطرافه من بهاء إلهى . وكان الصدر قوياً ، عريضاً ، مقبباً ، والذراعان والفخذان ممتلئة مفتولة فى رقة ؛ والقدمان أنيقتين وفى أكمل هيئة ؛ ولم يكن فى الجسم كله أثر لا لشحم ولا لنحول ولا لتحلل . فقد رقد أمامى رجل كامل فى أجمل صورة ؛ وأنستنى بهجة المنظر لحظة أن الروح الخالدة قد فارقت هذا المسكن » (١١١) .

وهكذا اختتم عصر عظيم « ابتداء من انتصار فردريك الكثيب فى ١٧٦٣ » ومروراً بليسنج وكانط ، وفيلاند وهردر ، وانتهاء بشيلر وجوته . ولم يوفق العقل الألمانى منذ لوثر إلى مثل هذا النشاط والتنوع والثراء فى التفكير المستقل . ولم يكن بالكارثة على ألمانيا أنها لم تكن امبراطورية مترامية كامبراطورية بريطانيا مستغرقة فى الفتح والتجارة ؛ ولا ملكية ممركزة كالملكية الفرنسية تمزقها فشل الحكومة ؛ ولا استبدادية كاستبدادية روسيا تتخم نفسها بالأرض أو تخدر نفسها بالماء المقدس . ان ألمانيا — من الناحية السياسية — لم تكن قد ولدت بعد ، ولكنها فى الأدب كانت تتحدى العالم الغربى ، وفى الفلسفة تقود هذا العالم .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

اليهــــود

١٧١٥ — ١٧٨٩

كفاح الحياة

قال روسو :

أن اليهود يقدمون لنا مشهداً عجيباً . فقد ماتت قوانين صولون، ونوما، وليكورجوس ؛ أما شرائع موسى ، الأقدم بكثير ، فما زالت حية . وقد بادت أثينا ، واسبرطة ، وروما ، ولم تترك خلفاً على الأرض ، أما صهيون التي دمرت فلم تفقد بنيها ؛ فقد احتفظوا بكيانهم ، وهم يتكاثرون ، وينتشرون في أرجاء العالم . . . وهم يخالطون كل الشعوب دون أن يذوبوا فيها[1] ؛ وليس لهم حكام ، ومع ذلك فهم دائماً شعب» .

وربما كان بقاء ناموس راجعاً لاحكمته الأصلية بقدر جدواه في حفظ النظام والاستقرار بين جماعات تعيش في خطر وسط عقائد معادية وشرائع أجنبية . ففي الشتات كان على الكنيس (المجمع) أن يقوم بما تقوم به الكنيسة والحكومة ، وربط الحاخامات بين أفراد شعبهم في وحدة متماسكة خلال جميع التقلبات والغير بإعطائهم بركة إيمان ديني فخور لناموس نظم كل منحى من مناحي الحياة اليهودية وأصبحت الأسفار الموسوية الخمسة الدستور — وأصبح التَّلمود المحكمة العليا — لدولة غير منظورة .

وفقد العداء لليهودية بعض قواعده الدينية باضمحلال الاعتقادات السنية . وقد عرف المسيحيون ممن ألموا بطرف من التاريخ أن كل شعب تقريباً من الشعوب المسيحية ، في فترة أوأخرى ، اضطهد المهرطقين بالقتل

الجماعى جيلا بعد جيل أو دواوين التفتيش أو المذابح المنظمة . وعرف فولتير هذا[٢]، وندد المرة بعد المرة باضطهاد المسيحيين لليهود، وأثنى على ما رآه فى اليهود من «أسلوب فى الحياة رزين منظم، ومن زهد، وكد» وأدرك أن اليهود الأوربيين أقبلوا على التجارة لأن حرمانهم من تملك الأرض «أعجزهم عن التوطن بصفة دائمة — أى مأمونة — فى أى بلد» [٣] . ومع ذلك فقد انقلب فولتير عدواً لليهود عداوة لا هوادة فيها . ذلك أنه تورط فى معاملات غير موفقة مع رجال المال اليهود . فعند رحيله إلى انجلترا حمل معه صكوكاً على المصرف اللندنى «مديناً» ، الذى أفلس أثناء ذلك وهو مدين لفولتير بعشرين ألف فرنك [٤] . وفى برلين كلف ابراهام هيرش — كما أسلفنا — بشراء سندات هبطت قيمتها فى سكسونيا ، بقصد استيرادها (بطريقة غير قانونية كما حذره هيرش) إلى بروسيا ليسترد قيمتها هناك بربح يبلغ خمسة وستين فى المائة [٥] . وتشاجر الفيلسوف ورجل المال ، واحتكما إلى القضاء ، وانتهيا بالكراهية المتبادلة . وفى مقال فولتير عن «الأعراف» أطلق لحقده العنان فوصف العبرانيين القدامى بأنهم «أمة حقيرة ، وشعب من اللصوص ، فظيع ، رجس ، ناموسه ناموس المتوحشين ، وتاريخه نسيج من الجرائم ضد الإنسانية» .[٦] واعترض قسيس كاثوليكى بأن هذا اتهام وحشى إلى حد مضحك [٧] . ونشر يهودى برتغالى عالم يدعى إسحاق بنتو فى ١٧٦٢ «تأملات» فيها نقد للفقرات المعادية لليهود والواردة فى مقال بعنوان «اليهود» فى القاموس الفلسفى ؛ واعترف فولتير بأنه «أخطأ فى وصم أمة بأسرها برذائل أفراد» ، ووعد بحذف الفقرات المهينة فى الطبعات القادمة ؛ ولكنه غفل عن الوفاء بوعده[٨] . وكان موقف الكتاب الفرنسيين عموماً ضد فولتير فى هذا الأمر [٩] . وتكلم روسو على اليهود بتعاطف مشرب بالفهم[١٠] .

ولم يكن لليهود فى فرنسا حقوق مدنية قبل الثورة ، ولكنهم أنشأوا جماعات ناجحة وخرجوا زعماء ذوى نفوذ ، اشترى أحدهم اقطاعية اشتملت على أميان ؛ واستعمل حقه الإقطاعى فى تعيين قساوسة الكتدرائية ، فاحتج الأسقف ، ولكن برلمان باريس أيد الإقطاعى اليهودى (١٧٨٧) واعترفت الحكومة الفرنسية شاكرة بمساعدة الماليين اليهود لها فى حروب الوراثة

الأسبانية والبولندية ، ولعب اليهود دوراً كبيراً فى إحياء شركة الهند الشرقية بعد انهيار مغامرة « لو » فى ١٧٢٠ [١١] . وكان يهود بوردو ذوى ثراء عريض ؛ واشتهر تجارهم ومصرفيوهم بنزاهتهم وجمودهم ؛ ولكنهم اعتزوا بأصلهم الصفاردى » ونجحوا فى اقصاء جميع اليهود الاشكنازيين عن بوردو .

ولم يكن فى أسبانية القرن الثامن عشر يهود سافرون . فنى مطالع حكم البوربون الأسبان استغلت جماعات صغيرة منهم استنارة فليب الخامس المزعومة لاستئناف شعائر العبادة اليهودية سراً » واكتشفت حالات كثيرة ، وأعدم ديوان التفتيش بين عامى ١٧٠٠ و١٧٢٠ ثلاثة يهود فى برشلونه، وخمسة فى قرطبة ، وثلاثة وعشرين فى طليطلة ، وخمسة فى مدريد . واحفظت الديوان هذه الاكتشافات فهب ينشط من جديد ، وبلغ عدد الدعاوى التى نظرتها محاكمه بين عامى ١٧٢١ و ١٧٢٧ أكثر من ثمانمائة بتهمة اليهودية من بين ٨٦٨ دعوى ، وأحرق خمسة وسبعون ممن أدينوا . أما بعد ذلك فالحالات المثيلة كانت نادرة جداً . وفى سنوات الديوان الختامية ، (١٧٨٠ — ١٨٢٠) حاكم الديوان الأسبانى نحو خمسة آلاف متهم ، لم يرم منهم باليهودية غير ستة عشر ، وكان عشرة منهم أجانب [١٢] . وظلت قوانين أسبانيا تحرم من المناصب المدنية أو الحربية جميع الأشخاص الذين لايستطيعون إثبات نقاء دمائهم من كل أثر علق به من أسلاف يهود . وقد شكا المصلحون من أن هذا الشرط حرم الجيش والحكومة الأسبانيين من خدمات الكثير من الرجال الأكفاء . وفى ١٧٨٣ خفف شارلى الثالث هذه القوانين [١٣] .

أما فى البرتغال فقد أحرق ديوان التفتيش سبعة وعشرين يهودياً لرفضهم الارتداد عن الديانة اليهودية (١٧١٧) [١٤] . وقد وفد على لشبونه فى ١٧١٢ قادماً من ريودجانيرو أنطونيو دا سيلفا » الذى كان فى رأى سوذى أفضل كتاب المسرحيات البرتغال ؛ فقبض عليه هو وأمه فى ١٧٢٦ لأنهما يهوديان » وأحرقت الأم ، واستعطف الإبن فأطلق سراحه،

ويبدو أنه ارتد بعد ذلك ، لأنه أحرق فى ١٧٣٩ ولما يعد الخامسة والثلاثين[١٥] ثم أنهى المركيز دبومبال بإصلاح من اصلاحاته الكثيرة كل تفرقة بين المسيحيين القدامى والمحدثين (الذين اعتنقوا المسيحية) (١٧٧٤)[١٦].

أما فى إيطاليا فقد سبقت البندقية غيرها إلى تحرير اليهود ، ففى ١٧٧٢ أعلن أن يهود الجمهورية أحرار متساوون مع سائر السكان . وتخلفت روما ، وكان الغيت (حى اليهود) هناك أسوأ أحيائهم فى أوربا . وزادت خصوبة الإنجاب الشديدة التى شجعها الأحبار من الفقر والقذارة ، وأتت على يهود روما فترة كان عشرة آلاف منهم يسكنون فى حيز لايزيد على كيلو متر مربع واحد[١٧] . وكان نهر تيبر يفيض على ضفافه كل عام فيغمر شوارع الحى الضيقة ويملأ الحجرات السفلى بالطين الموبوء . واحترف يهوديو روما الخياطة لحرمانهم من أكثر الحرف ؛ ففى ١٧٠٠ كان ثلاثة أرباع الذكور البالغين منهم خياطين[١٨] ، فبدأوا بذلك عادة تحدرت بينهم حتى أيامنا هذه . وفى ١٧٧٥ أصدر بيوس السادس مرسوماً بابوياً جدد فيه القديم من المحظورات على اليهود وأضاف إليها جديداً : فحرم عليهم ركوب العربات ، وترتيل المراثى فى الجنائز ، وإقامة الشواهد على قبور موتاهم[١٩] . وكان على يهود روما أن ينتظروا مجىء نابليون ليحررهم من هذه القيود .

وأما فى النمسا فقد أحست ماريا تريزا أن التقوى تلزمها بحبس اليهود فى أحياء ضيقة بعينها ، وبحرمانهم من الحرف والمناصب وتملك العقارات[٢٠] ، ولكن ابنها يوزف الذى مسه التنوير الفرنسى اقترح على مجلس الدولة فى ١٧٨١ مشروعاً « يفيد به المجتمع من طبقة الإسرائيليين الكبيرة فى أراضينا الوراثية » (النمسا والمجر وبوهيميا) وذلك بتشجيعهم على أن يتعلموا — وبعد ثلاثة أعوام يشترط عليهم أن يستعملوا — اللغة القومية فى جميع الشئون القانونية أو السياسية أو التجارية . ويجب ألا « يضايق اليهود على أى وجه فى ممارسة شعائرهم أو عقائدهم » . وينبغى دعوتهم للاشتغال بالزراعة ، وللدخول ميدان الصناعة والتجارة ، ولممارسة الفنون — على أن يظل محظوراً عليهم أن يصبحوا معلمى حرف فى النقابات الحرفية ، لأن هذا يتطلب حلف يمين الولاء للعقيدة المسيحية . ثم تلغى كل أسباب التفرقة المهنية » وكل

القيود المفروضة إلى ذلك الحين على اليهود » « وكذلك كل العلامات الظاهرة أيا كانت» . واعترض مجلس الدولة والمديرون الإقليميون على البرنامج لأنه فضفاض مفاجيء بحيث لايقبله الشعب . وقدم يوزف حلا وسطاً ، فأصدر فى ٢ يناير ١٧٨٢ « ترخيص تسامح » ليهود فيينا والنمسا السفلى : فنالوا بمقتضاه حق إدخال أبنائهم مدارس الدولة وكلياتها ، والتمتع بالحرية الاقتصادية إلا أن يتملكوا العقارات ؛ ولكن حرم عليهم التنظيم الطائفى المستقل ، وبناء المجامع فى العاصمة ، ومنعوا من سكنى مدن معينة – ربما لأن العداء لليهود فيها كان مستحكماً إلى درجة خطرة . ونصح يوزف رعاياه المسيحيين باحترام أشخاص اليهود وحقوقهم باعتبارهم اخواناً لهم ، وكل إهانة أو عنف يعامل به يهودى « سيعاقب مقترفه عقاباً صارماً » ، ويجب أن يمنع إدخالهم فى المسيحية بالإكراه . وما لبث الإمبراطور أن أصدر تراخيص مماثلة لبوهيميا ومورافيا وسيليزيا النمساوية . وقد قدر لليهود مساهماتهم فى خزانته ، فخلع النبالة على عدة يهود ، واستخدم عدداً منهم ما ليين للدولة[٢١].

ولكن إصلاحاته – كما ذكر المبعوث الفرنسى إلى فيينا – « اثارت صيحة استنكار عامة . . . والتسهيلات الكبيرة الممنوحة لليهود يراها الناس مفضية بلا ريب إلى خراب الدولة »[٢٢] . وشكا التجار المسيحيون من المنافسة الجديدة ، وأدان القساوسة المراسيم لأنها تتسامح مع الهرطقة السافرة ، واعترض بعض الحاخامات على اختلاف الأطفال اليهود إلى مدارس الدولة مخافة أن تفتن الشباب عن اليهودية . ولكن يوزف أصر على موقفه ، وقبل أن يموت بسنة وسع « ترخيص التسامح» ليضم غاليسيا أيضاً ، وكانت إحدى مدنها ، وهى برودى ، تضم خلقاً كثيراً من اليهود (١٨,٠٠٠) حتى لقد لقبها الإمبراطور أورشليم الحديثة . وعند موت يوزف (١٧٩٠) كانت فيينا قد عودت نفسها على النظام الجديد ، ومهدت الأرض لثقافة فيينا اليهودية المسيحية الرائعة التى ازدهرت فى القرن التاسع عشر .

ويمكن القول عموماً إن حظ اليهود فى الأقطار الإسلامية كان خيراً من

حظهم فى الأقطار المسيحية . وقد وصفت الليدى مارى ورتلى مونتجيو ، ربما فى شيء من المبالغة حالهم فى تركيا عام ١٧١٧ فقالت :

« إن اليهود . . . يتمتعون بسلطان لايصدق فى هذا البلد . فلهم امتيازات كثيرة يفوقون فيها جميع الأهالى الأتراك أنفسهم . . . لأنهم يحاكمون طبقاً لقوانينهم . وقد استقطبوا كل تجارة الإمبراطورية فى أيديهم ، وذلك بفضل ما يربطهم من وحدة وثيقة من جهة ومن جهة أخرى لبلادة الترك وافتقارهم إلى الجد والاجتهاد . ولكل باشا مساعده اليهودى الذى يدير أعماله . . . وهم الأطباء ، والوكلاء ، والمترجمون » لأكابر القوم أجمعين . . . وكثير منهم ذووثراء عريض »[٢٣] .

والبون شاسع بين حظ هؤلاء وحظ اليهود القلائل الموجودين فى روسيا — لاسيما فى « أقاليم التخوم » المواجهة لبولنده — عند وفاة بطرس الأكبر . وفى ١٧٤٢ أمرت الإمبراطورة اليزابث بتروفنا بأن « يرحل فوراً من أمبراطوريتنا كلها . . . جميع اليهود . . . ولا يسمح لهم منذ الآن بدخول امبراطوريتنا بأية حجة . . . ما لم . . . يعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الرومى» . وما حلت سنة ١٧٥٣ حتى كان قد طرد قرابة ٣٥,٠٠٠ يهودى[٢٤] وتشفع بعض رجال الأعمال الروس لدى الإمبراطورة لتخفف من صرامة المرسوم ، محتجين بأن طرد اليهود قد أحدث كساداً فى اقتصاد الأقاليم لأنه حول التجارة منها إلى بولنده وألمانيا ، ولكن اليزابث لم تلن لها قناة .

فلما أن تربعت العرش كاترين الثانية أرادت أن تسمح بدخول اليهود من جديد ، ولكنها أحست بأن هذا العرش يهتز من تحتها اهتزازاً لاتجرؤ معه على التصدى لمعارضة رجال الدين . غير أن التقسيم الأول لبولنده أوصل المشكلة إلى مرحلة جديدة . فما العمل فى ٢٧,٠٠٠ يهودى طال مقامهم فى ذلك الجزء من بولنده الذى ظفرت به روسيا الآن ؟ لذلك أعلنت كاترين (١٧٧٢) أن « الجماعات اليهودية المقيمة فى المدن والأقاليم التى أدمجت الآن فى الإمبراطورية الروسية تترك لتتمتع بجميع الحريات التى تملكها الآن »[٢٥] . وسمح لهؤلاء اليهود البولنديين بقسط كبير من الحكم الذاتى ، وأجيز لهم

شغل المناصب البلدية ، ولكن حرم عليهم الهجرة من « نطاق الاستيطان » (الأقاليم البولندية السابقة) إلى داخل روسيا . وفى ١٧٩١ أبيح لليهود أن يستوطنوا أقاليم خرسون وتاوريدا وإكاترينوسلاف سبيلا إلى التعمير السريع لهذه الأقاليم المفتوحة حديثاً وتيسير الدفاع عنها . وكان العداء الإقتصادى لليهود الذى يلقونه من معظم رجال الأعمال الروس ، والعداء الدينى الذى يلقونه من عامة الروس ، يجعلان الحياة أثناء ذلك شاقة خطرة على اليهود فى الإمبراطورية .

وفى ١٧٦٦ كان يسكن بولنده ٦٢١,٠٠٠ يهودى [٢٦] . وقد صدق أوغسطس الثانى وأغسطس الثالث على « امتيازات » الحماية التى منحها لهم الحكام السابقين ، ولكن هذين الحاكمين السكسونيين ، المشغولين بمملكتين ومذهبين دينيين (فضلا عن خليلاتهما) ، لم يتح لهما وقت يذكر للتصدى لذلك العداء العرقى الذى استشعرته الجماهير البولندية نحو اليهود . ففرضت الحكومة عليهم ضرائب إضافية ، وحاول الإقطاعيون الهبوط بهم إلى درك الإقنان ، وكلفهم الحكام المحليون ثمناً باهظاً لحمايتهم من عنف الغوغاء . وندد القساوسة باليهود لأنهم « متشبثون بكفرهم » وطالب مجمع كنسى عقد فى ١٧٢٠ بأن تحظر الحكومة « بناء المجامع الجديدة لليهود وترميم القديمة منها » . وكرر مجمع عقد فى ١٧٣٣ مبدأ العصر الوسيط القائل بأن المبرر الوحيد للتسامح مع اليهود هو أنهم قد يصلحون « أداة للتذكير بعذابات المسيح ، ومثلا يضرب — بعبوديتهم وبؤسهم — للعقاب العادل الذى ينزله الله بالكافرين » [٢٧] .

وفى ١٧١٦ نشر عبرانى دخل فى المسيحية يدعى سيرافينوفتش كتاباً اسماه « فضح الشعائر اليهودية » اتهم فيه اليهود باستعمال دم المسيحيين لشتى الأغراض السحرية : لتلطيخ أبواب المسيحيين ، ولمزجه بالفطير الذى يأكلونه فى الفصح ، ولغمس قطعة قماش فيه محتوية على تزيمة يقصد بها حماية بيت أو انجاح تجارة . . . وتحدى اليهود سيرافينوفتش أن يثبت صحة دعاواه ، وجمعوا مجلساً من الحاخامات والأساقفة ليستمعوا إليه ، ولكنه لم يمثل أمام المجلس ، بل أعاد نشر كتابه [٢٨] . وقد اتهم اليهود غير مرة بقتل

الأطفال للحصول على دم مسيحى » واستدعى يهود بولنديون لمحاكمتهم على تهم كهذه فى ١٧١٠ و ١٧٢٤ و ١٧٣٦ و ١٧٤٧ و ١٧٤٨ و ١٧٥٣ و ١٧٥٦ و ١٧٥٩ و ١٧٦٠ ، وعذبوا فى حالات كثيرة ، حتى الموت أحياناً » وسلخت جلود بعضهم أحياء » ومات بعضهم بالخازوق موتاً بطيئاً . . . [٢٩] وفزع اليهود المروعون إلى البابا بندكت الرابع عشر ليكف عنهم هذه الاتهامات ، وعرضت أدلة الإثبات والنفى على الكردينال كامبانيللى » وبعد أن تلقى تقريراً من السفير البابوى فى وارسو ، أصدر مذكرة مؤداها أنه لم يثبت فى حالة من هذه الحالات أنهم مذنبون . وأيدت محكمة ديوان التفتيش بروما مذكرة الكردينال . وكتب السفير البابوى للحكومة البولندية (١٧٦٣) يقول « ان الحبر الأقدس ، بعد فحص كل الأسس التى قام عليها اتهامهم بهذا الشذوذ — وهو أن اليهود يحتاجون إلى الدم البشرى لتجهيز فطيرهم » خلص إلى أنه ما من دليل يثبت صحة ذلك الاتهام المغرض » [٣٠] . وكان البابا انوسنت الرابع قد أصدر حكماً مماثلا فى ١٢٤٧ . ولكن الاتهام بالشذوذ لم يتوقف .

وكان الخوف من المذابح عنصراً يتردد فى حياة اليهود البولنديين . ففى ١٧٣٤ و ١٧٥٠ و ١٧٦٨ تألفت جماعات من القوزاق والفلاحين الأرثوذكس الروس الذين نظموا على شكل عصابات مثيرة للشغب ، وشنت الغارات على كثير من المدن والقرى فى أقاليم كييف وفولهينيا وبودوليا ، وينهبون الضياع ويقتلون اليهود . وفى ١٧٦٨ حمل المغيرون « مرسوماً ذهبياً » نسب زوراً وبهتاناً إلى كاترين الثانية » ويدعوهم إلى « استئصال شأفة البولنديين واليهود ، الذين يدنسون ديانتنا المقدسة » ، وذبحوا فى مدينة واحدة هى أومان عشرين ألف بولندى ويهودى . وجردت كاترين جيشاً روسياً يتعاون مع القوات البولندية على قمع المغيرين [٣١] .

أما فى المانيا فإن اليهود كانوا يعيشون فى أمن ورخاء نسبيين وإن عانوا من شتى المعوقات فى الحياة الاقتصادية والسياسية . فقد فرضت عليهم ضرائب خاصة فى معظم الإمارات [٣٢] . ولم يسمح القانون إلا لعدد محدود من اليهود بالعيش فى برلين » ولكن القانون لم ينفذ بدقة ، فزادت الجالية

البرلينية عدداً ومالا ، وقامت مستوطنات مماثلة فى همبورج وفرانكفورت. وبلغ عدد من اختلف من التجار اليهود إلى سوق ليبنزج فى ١٧٨٩ نيفا وألف تاجر[٣٣] . واستخدم الحكام الألمان ، وحتى الأمراء – الأساقفة الكاثوليك منهم ، اليهود لإدارة شئونهم المالية أو لتموين جيوشهم . وقد أدى يوزف أوبنهايمر (١٦٩٢ – ١٧٣٨) المعروف باسم « اليهودى سوس » هذه المهام وغيرها لناخب بالاتين فى مانهايم ، ولكارل الكسندر دوق فورتمبرج . وكان لذكائه واجتهاده الفضل فى إثرائه وإثراء الدوق ، وفى اكتسابه الكثير من الأعداء . وقد اتهم بالغش فى دار ضرب النقود ، ولكن مجلساً من المحققين برأ ساحته ، فرقى عضواً فى مجلس الدوق الخاص ، حيث لم يلبث أن أصبح القوة المسيطرة . وقد ابتكر ضرائب جديدة ، وأنشأ احتكارات ملكية ، وقبل على ما يبدو الرشا – التى اقتسمها مع الدوق[٣٤] . فلما اقترح الدوق ايداع جميع أموال الكنيسة فى مصرف مركزى للدولة ، انضم رجال الدين البروتستنت مع الإشراف فى معارضة الدوق ووزيره . وفى ٣ مارس ١٧٣٧ مات الدوق فجأة ، فقبض قادة الجيش والزعماء المدنيون على أوبنهايمر وكل يهود شتوتجارت ، وحوكم أوبنهايمر وادين ، وفى ٣ فبراير ١٧٣٨ خنق وعلقت جثته فى قفص فى ميدان عام[٣٥] .

ذكرنا من قبل جولات جوته فى حى اليهود بفرانكفورت . وقد اشتقت أسرة من أقدم الأسرات هناك اسمها الأخير ، وهو روتشيلد ، من الدرع الحمراء التى ميزت مسكنها . وفى ١٧٥٥ أصبح ماير أمشيل صاحب الدرع الحمراء رب الأسرة بعد وفاة أبويه ، وكان فى الحادية عشرة من عمره . وكانت كثرة الدويلات الألمانية ، وكل لها عملتها المستقلة ، قد جعلت تغيير النقود ضرورة متكررة للمسافرين ؛ وتعلم ماير فى صباه معادلات النقود بين الدويلات ، فكان يتقاضى رسماً صغيراً على كل تحويل . ثم درس علم العملات هواية جانبية وجمع العملات النادرة ، وأرشد جماعاً آخر هو الأمير فلهلم الهاناوى وحصل منه على لقب « وكيل التاج » الذى ساعده فى عمله بفرانكفورت . ثم تزوج

فى ١٧٧٠ ، وأنجب خمسة أبناء ، أنشأوا فيما بعد فروعاً لشركة روتشيلد فى فيينا ونابلى وباريس ولندن . واكتسب ماير سمعة الحكم السديد والنزاهة والجدارة بالثقة . فلما ان خلف فلهلم أمير هاناو أباه حاكماً على هسى كاسل ، ازداد تعامل ماير أمشيل مع القصر ، فما وافى عام ١٧٩٠ حتى بلغ دخله السنوى ثلاثة آلاف جولدن — وهو ما يعادل دخل أبى جوته الثرى ستمائة مرة [٣٦] . ونمت ثروة الأسرة نمواً سريعاً خلال حروب الثورة الفرنسية ، وشغل ماير بتموين الجيوش ، وعهد إليه بإخفاء أموال الأمراء وأحياناً باستثمارها .

وواصل اليهود فى الأراضى الواطئة واسكنديناوه تمتعهم بحرية نسبية . وازدهرت جماعة أمستردام اليهودية . ولم تعرف الأحياء المقصورة على اليهود فى الدنمرك ، فقد تنقل اليهود بحرية وسمح بالزيجات المختلطة . وفى ألتونا ، المدينة التجارية الواقعة وراء نهر ألب من همبورج ، والتى كانت أنئذ ملكاً للدنمرك ، عاشت جالية من أغنى الجاليات اليهودية فى أوربا . وفى السويد بسط جوستاف الثالث حمايته على اليهود فى ممارستهم السلمية لشعائرهم .

ووجد كثيرين من اليهود الهاربين من الاضطهاد فى بولنده وبوهيميا الملجأ فى انجلتره . وزاد عددهم من ٦,٠٠٠ فى ١٧٣٤ إلى ٢٦,٠٠٠ فى ١٨٠٠ ، وكان نصيب لندن منهم ٢٠,٠٠٠ . وكانوا يعيشون فى فقر مدقع ، ولكنهم رعوا فقراءهم وتكفلوا بنفقات مستشفياتهم [٣٧] . وكان تعقب اليهود ومطاردتهم رياضة محببة للناس ، اضمحلت حين تعلم اليهود الملاكمة وغدا أحدهم بطل الملاكمة القومى [٣٨] . وقد أقصى شرط حلف يمين الولاء للمسيحية اليهود عن الوظائف المدنية والحربية . وأصبح سامسون جدعون أحد محافظى بنك انجلتره بعد أن قبل الدخول فى المسيحية . وفى ١٧٤٥ ، حين كان الشاب المطالب بالعرش يزحف على لندن بجيش اسكتلندى أخذ على نفسه العهد بخلع جورج الثانى ورد آل ستيوارت إلى العرش ، فأصاب الذعر جماهير الشعب بعد أن فقدوا الثقة فى أمن الحكومة وسلامها وهددوا بالتزاحم على المصرف لاسترداد ودائعهم ، فى هذا الظرف قاد

جدعون التجار والأعيان اليهود لإنقاذ المصرف ، فتدفقت أموالهم الخاصة فيه ، وتعهدوا بقبول بنكنوت المصرف بالقيمة الإسمية فى معاملاتهم التجارية ووفى المصرف بالتزاماته ، وأعيدت الثقة ، ورد المطالب بالعرش على أعقابه [٣٩] .

وأعربت وزارة الأحرار (الهوجز) عن تقديرها لصنيع اليهود بتقديمها مشروع قانون إلى البرلمان (١٧٥٣) يبيح الجنسية والمواطنة لجميع اليهود المولودين فى الخارج والذين أقاموا فى انجلتره أو ارلنده ثلاثة أعوام ؛ (أما اليهود المولودين هناك فكانوا يكتسبون الجنسية بالمولد [٤٠] . ووافق اللوردات والأساقفة على المشروع ، ووافق عليه أعضاء مجلس العموم بأغلبية ستة وتسعين صوتاً مقابل خمسة وخمسين . ولكن الشعب البريطانى الذى لم يكن له كبير علم أو فهم للدور الذى لعبه اليهود فى إنقاذ المصرف هب معارضاً مشروع القانون معارضة ساحقة . وانهالت الاحتجاجات على البرلمان من كل مدينة فى بريطانيا تقريباً ، وأجمعت المنابر والحانات على إدانته ، وشكا التجار من أن منافسة اليهود لهم فى التجارة ستصبح أمر لايحتمل . وكان الشتم والإهانة فى الشوارع نصيب الأساقفة الذين صوتوا للمشروع ، وبعثت الأساطير القديمة التى ادعت قتل اليهود للمسيحيين طبقاً لشعائرهم ، وأذيعت مئات النشرات والقصائد الشعبية والصور الكاريكاتورية والأهاجى الساخرة . وزين النساء ثيابهن وصدورهن بالصلبان ولبسن أوشحة تحمل هذا الشعار «لايهود ، المسيحية إلى الأبد» [٤١] . وخاف زعماء الأحرار الهزيمة فى الانتخاب القادم فحصلوا على إلغاء القانون (١٧٥٤) .

٢ — العزاء الصوفى

ولاذ كثير من اليهود ، لاسيما فى بولنده ، بأسباب العزاء فوق الطبيعى هرباً من معاناتهم الأرضية . وأتلف بعضهم بصرهم بإدمان قراءة التلمود ، وفقد بعضهم عقولهم فى القبلانية ، وظل بعض «الشبطائيين» يؤمنون بألوهية صبطاى زيفى رغم ارتداد هذا المسيح الكاذب وموته ، وانصرفوا عن اليهودية التلمودية إلى الآمال والطقوس المهرطقة . وأقنع يانكيف ليبوفتش،

الذى أصبح معروفاً باسم يعقوب فرانك الذى أطلقه عليه الترك ، مئات من اليهود البولنديين بأن روح زيفى تقمصته ، وعلمهم عقيدة شبيهة بهرطقة مسيحية لطيفة تصورت الثالوث مؤلفاً من الله الآب ، ومريم «ام» والمسيح ابنهما ، وأخيراً قاد اتباعه إلى الكنيسة الكاثوليكية (١٧٥٩) .

وأنقذت الحركة «القاصدية» اليهود البولنديين بعض الإنقاذ من حالتهم الوضعية . وكان مؤسس «عقيدة التقوى» هذه اسرائيل بن ألعازر «المعروف باسم بعل شم — توب («السيد الصالح لاسم الله») » واختصاراً باسم «بشت» الجامع لأول حروف اسمه الكامل . وكان يجوب البلاد معلماً للأطفال ، وعاش فى فقر تجمله البهجة ، وكان يصلى بانتشاء ويشفى المرضى شفاء «معجزياً» بالأعشاب الجبلية . وقد طلب إلى اتباعه ألا يعيروا طقوس المجمع والمعرفة التلمودية كبير اهتمام ، وان يقتربوا إلى الله رأساً فى شركة متواضعة ولكنها حميمة ، وان يبصروا الله ويحبوه فى شتى صور الطبيعة ومظاهرها ، فى الصخور والأشجار ، وفى حالات اليسر والألم ، وأمرهم بأن يستمتعوا بالحياة فى الحاضر بدلا من البكاء على خطايا الماضى وآلامه . وكانت أقواله المأثورة البسيطة أحياناً تشبه أقوال المسيح . «شكا بشت أن ابنه ترك الله ، وسأله قائلا : يا معلم ، ماذا أصنع؟ وأجابه بشت : أحبه أكثر مما فعلت فى أى وقت»[٤٢] .

والحركة القاصدية فى بولنده تقابل من بعض الوجوه حركات الأخوان الموافين ، والتقويين الألمان ، والمثوديين الانجليز ، فقد اتفقت مع هذه الحركات على اخراج الدين من المعبد وإدخاله إلى القلب ، ولكنها رفضت النسك والاكتئاب ، وأمرت اتباعها بأن يرقصوا ، ويستمتعوا بعناق أزواجهم ، لا بل بالشراب بين الحين والحين إلى حد النشوة .

فلما مات بعل شم — توب (١٧٦٠) تولى رعاية قطيعه ، وأحياناً جز صوفه ، [٤٣] سلسلة من «الصديقين» . وحارب التلموديون السنيون بزعامة عالم متعصب من فلنا يدعى إيليا بن سليمان «القاصدين» بالنصح والحرم ، ولكن عددهم زاد بانهيار بولنده (١٧٧٢ — ٩٢) ، ولم يختتم القرن حتى كانوا يعدون ١٠٠,٠٠٠ نسمة[٤٤] .

وما كان لحياة مطاردة على الأرض على هذا النحو ، ونفوس مثبتة في السماء إلى هذا الحد ، ان تسهم بقسط كبير في الأدب الدنيوى أو العلم أو الفلسفة . وكان اليهود في كل بلد تقريباً ممنوعين من الالتحاق بالجامعات بحكم القسم بالولاء للعقيدة المسيحية المشترط على جميع الطلاب . ثم ان ناموس موسى حرم عليهم ممارسة فن التصوير وبلد تذوقهم الفني . وإذ كانوا يكتبون بالعبرية التي لاتفهمها غير قلة قليلة ، أو بالييدية التي لم تكن بعد قد أصبحت لغة أدبية ، فقد افتقدوا الحافز لإنتاج أى أدب خلاف الشروح الدينية أو السفاسف الشعبية . وثمة اسهام بارز واحد أسهموا به في الفنون العملية في هذا العصر : فقد اخترع يعقوب رودريج بريرِ ، وهو أحد يهود بوردو ، لغة إشارات للصم والبكم ، فأثنى عليه ديدرو ودالامبير وروسو وبوفون . ثم شاعر يهودى واحد أنار هذه الظلمة .

وقد ولد الشاعر موسى حاييم لونساتو في إيطاليا (١٧٠٧) لوالدين أتاح لهما بعض اليسر أن يحسنا تعليمه . وقد أخذ عن الشعراء اللاتين ، وعن الشعراء الإيطاليين من أمثال جواريني ، براعة في الأوزان الشعرية مكنته من أن يسبغ على شعره العبرى من الإيقاع المتدفق والسحر الرقيق ما لم يعرف في تلك اللغة منذ أيام يهوذا هاليفي . وحين بلغ السابعة عشرة كتب مسرحية عن شمشون والفلسطينيين . ثم أقبل على دراسة « الزهر » ، وهو كتاب القبلانية المقدسة ، فافتتن خياله بأوهامه الصوفية ، فأدار بعضها شعراً ، وأدارت هي رأسه فخيل إليه انه ملهم من السماء . فكتب « زهراً ثانيا » وأذاع انه المسيح الذى وعد به اليهود . فحرمه حاخامات البندقية (١٧٣٤) . ففر إلى فرانكفورت — على المين ، حيث أجبره الحاخامات على الوعد بالإقلاع عن أوهامه بأنه المسيح المنتظر . وانتقل إلى أمستردام حيث رحبت به الجالية اليهودية ، وهناك كسب قوته كما كسبه سبينوزا بصقل العدسات ، ثم استأنف دراساته القبلانية . وفي ١٧٤٣ ألف مسرحية عبرية « لا — ى أشاريم تهيللا (مجداً الأبرار) كان حظها التقريظ ممن كانوا أكفاء للحكم عليها ، برغم التجريدات التي استخدمها شخوصاً للمسرحية .

ومؤدى المسرحية أن الجهل المستشرى بين العوام ، يدعمه المكر والخداع ، يولد الحماقة ، التى تحبط الحكمة مراراً ، وتحرم الكفاية من تاجها « حتى ينتصر العقل والصبر فى النهاية على الخداع بالكشف عن الحقيقة ، على أن « الحقيقة » كان يقصد بها القبلانية . وفى ١٧٤٤ ذهب إلى فلسطين ، أملا فى أن ينادى به المسيح المنتظر ، ولكنه مات فى عكا بالطاعون (١٧٤٧) وهو فى التاسعة والثلاثين . وكان آخر صوت فصيح لعصر اليهودية الوسيط ، كما كان أول صوت كبير ليهودية تنبعث من العزلة الواقية إلى الاحتكاك بالفكر الحديث .

٣ — موسى مندلسون

كان جد فيلكس مندلسون من أنبل شخصيات القرن الثامن عشر ، وكان صديقاً وخصماً لكانط ، وصديقاً وملهماً لليسنج . وكان أبوه مناحم مندل كاتباً ومعلماً بمدرسة يهودية فى دسو . وهناك ولد « موسى الثالث» فى ٦ سبتمبر ١٧٢٩ ، وشب مشغوفاً بالدرس حتى لقد أصابه شغفه هذا بتقوس مستديم فى العمود الفقرى . فلما بلغ الرابعة عشرة أوفد إلى برلين لمزيد من دراسة التلمود . وهناك اتبع بحذافيره تقريباً أمر التلمود الذى نصه «كل الخبز بالملح ، واشرب الماء بمقدار ، ونم على الأرض اليابسة ، وعش عيشة الحرمان ، وليكن الناموس شغلك الشاغل »[٤٥] . وظل سبع سنين قانعاً بسكناه فى إحدى العليات يعلم رغيف خبزه الأسبوعى بخطوط تحدد جرايته اليومية[٤٦] ، ويكسب الرزق الضئيل بنسخ الوثائق بخطه الأنيق . وفى برلين أكب على آثار موسى بن ميمون ، ووجد الشجاعة فى حياة « موسى الثانى» ذاك وتعلم منه ومن الحياة أن ينزل بكبريائه إلى التواضع وبحدة طبعه إلى اللطف والمجاملة . وعلمه رفقاؤه البرلينيون اللاتينية والرياضيات والمنطق ، وقرأ لوك فى ترجمة لاتينية ، وانتقل إلى ليبنتس وفولف ، ولم يلبث أن عشق الفلسفة . ثم تعلم كتابة الألمانية فى نصاعة رقيقه ندر أن تجد لها نظيراً فى أدب وطنه فى جيله .

وانتهت أيام فقره حين أصبح فى الحادية والعشرين معلماً خاصاً فى أسرة صاحب مصنع حرير فى برلين يدعى إسحاق برنهارت ، وبعد أربع سنوات عين محاسباً بالشركة ثم مندوباً متجولا لها ، وأخيراً شريكاً فيها . وقد احتفظ بصلة العمل هذه بنشاط حتى نهاية عمره ، لأنه اعتزم ألا يعتمد فى رزقه على رواج كتبه وحصيلتها من المال . والراجح انه التقى بليسنج فى ١٧٥٤ ، على لعبة شطرنج فيما يبدو ، وهكذا بدأت صداقة اتصلت حتى موت ليسنج رغم ما بينهما من خلافات فلسفية . كتب ليسنج إلى صديق آخر فى ١٦ أكتوبر ١٧٥٤ يقول : « ان مندلسون رجل فى الخامسة والعشرين ، اكتسب دون أى تعليم جامعى معلومات كبيرة فى اللغات والرياضيات والفلسفة والشعر . وانى لأتطلع فيه إلى مفخرة لأمتنا إذا أتاح له اخوانه فى الدين أن يصل إلى درجة النضج . . . وأن صراحته وروحه الفلسفية ليجعلاننى أعده سلفاً « اسبينوزا ثانيا » [٤٧] . أما مندلسون فكان يقول ان كلمة « أو نظرة محبة من ليسنج تطرد عنه كل حزن أو غم [٤٨] .

وفى ١٧٥٥ رتب ليسنج نشر كتاب مندلسون « أحاديث فلسفية » ، الذى شرح ودافع عن كلا من سبينوزا وليبنتس . وفى العام ذاته تعاون الصديقان على كتابة مقال « بوب ميتافيزيقيا ! » زعما فيه أن هذا الشاعر الانجليزى لم يكن له فلسفة من بنات أفكاره ، وكل ما فعله أنه نظم فلسفة ليبنتس شعراً . وفى ١٧٥٥ أيضاً نشر مندلسون « رسائل فى الوجدان » ، وقد سبق هذا كانط فى رأيه أن الإحساس بالجمال مستقل كل الاستقلال عن الشهوة . وقد اكسبت هذه الكتب المنشورة اليهودى الشاب الترحيب فى برلين بين « الإخوان الفلاسفة الذين لم يكونوا على تمام الصفاء والرزانة » . وعن طريق ليسنج التقى بفردريش نيقولاى ، ودرس هو ونيقولاى اليونانية معاً ، وما لبث أن بدأ يقرأ أفلاطون فى لغته الأصلية . ثم ساعد نيقولاى فى إنشاء مجلة سميت « مكتبة الآداب البحتة والفنون الجميلة » ، وأسهم فى هذه المجلة وغيرها من المجلات بمقالات كان لها تأثير قوى فى الأفكار السارية فى نقد الأدب والفن .

وأحس مندلسون الآن بقدر من الأمن والطمأنينة يتيح له أن يقيم بيتاً

خاصاً به . ففى ١٧٦٣ ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، تزوج فروميريت جوجنهايم البالغة خمسة وعشرين ربيعاً . وكان كلاهما قد بلغ سن النضج الفكرى ، فأثمر اتحادهما الكثير من السعادة . وفى شهر العسل بدأ العمل فى مسابقة قدمت فيها أكاديمية برلين جائزة لأفضل مقال يتناول هذا الموضوع « هل العلوم الميتافيزيقية تقبل الأدلة كالعلوم الرياضية » . وكان من المتسابقين إمانويل كانط . وفاز مقال مندلسون (١٧٦٣) ، فأتاه بخمسين دوقاتية وبشهرة دولية .

وكان بين المتسابقين توماس آبت ، وهو أستاذ فى فرانكفورت — على الأودر . وفى رسائل كثيرة تبادلها مع مندلسون أعرب عن شكوكه فى خلود الروح ، وأسف على أن فقدان ذلك المعتقد قد يقوض الناموس الأخلاقى ويحرم التعساء من آخر عزاء لهم . وبعض الفضل راجع إلى هذه الرسائل فى وضع مندلسون لأشهر كتبه قاطبة « فيدون » . وقد صاغه على مثال نموذجه الأفلاطونى فى شكل حوار وفى أسلوب ميسر . فروح الإنسان (كما يزعم) متمايزة من المادة بشكل واضح ، إذن لنا أن نعتقد أنها لاتشارك الجسد مصيره ؛ وإذا كنا نؤمن بالله فإننا لانستطيع الافتراض بأنه يخدعنا إذ يغرس فى عقولنا أملا دون أن يكون له أساس من الحقيقة . يضاف إلى هذا (وهو ما سيذهب إليه كانط) ان للروح حافزاً طبيعياً نحو كمال الذات ، وهذا لايمكن تحقيقه فى حياتنا ؛ ولا بد أن الله يسمح للروح بأن تحيا بعد موت الجسد. وقد شعر مندلسون بأنه « بدون الله » والعناية الإلهية » والخلود » تفقد كل طيبات الحياة قيمتها فى نظرى وتصبح حياتنا على الأرض . . . أشبه بالتيهان فى الريح والمطر دون أمل يعزى التائه بالعثور على غطاء ووقاء فى الليل »[٤٩]. وبراهين الكتاب هشة ، ولكن أسلوبه أبهج قراء كثيرين ، ولاح أن الكاتب ظفر باستعادة سحر محاورات أفلاطون ، والواقع أن لقب « أفلاطون الألمانى» اسماً ثانياً لمندلسون. وطبعت من الكتيب خمس عشرة طبعة وترجم إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً كما ترجم إلى العبرية ، وكان فى جيله أوسع الكتب انتشاراً فى ألمانيا باستثناء القصص . وشارك هردر وجوته فى تقريظه .

وزار لافاتر مؤلفه ، وفحص رأسه ووجهه ، وأعلن أن كل نتوء وخط فيه يشي بروح سقراط[٥٠] .

وأشاد المسيحيون على اختلاف مذاهبهم باليهودي البليغ ، والتمس منه راهبان بندكتيان النصيحة الروحية . ولكن في ١٧٦٩ أثار لافاتر ، الذي كان لاهوتياً غيوراً كما كان عالماً في الفراسة ، ضجة بتوجيهه نداءاً علنيا لمندلسون أن يدخل في المسيحية . ورد مندلسون في « (١٧٧٠) فسلم بعيوب الديانة اليهودية والحياة اليهودية ، ولكنه ذكر أن عيوباً كهذه تنشأ في كل ديانة في أثناء تاريخها ، وطلب إلى لافاتر أن يفكر في الشدائد التي عاناها اليهود في الأقطار المسيحية ، ثم أضاف : « أن الذي يلم بما نحن عليه الآن من حال ، ان كان له قلب رحيم ، سيفهم أكثر مما في وسعي التعبير عنه » ، واختتم بهذه العبارة « انني لوطيد الثقة بالعناصر الأساسية في إيماني . . . بحيث أشهد الله على انني سأثبت على عقيدتي الأصلية ما لم تتخذ روحي طبيعة أخرى »[٥١] وتأثر لافاتر ، واعتذر بتواضع عن توجيهه هذا النداء[٥٢] . ولكن نفراً كبيراً من المعلقين شهروا بمندلسون متهمينه بالكفر ، وأدانه بعض اليهود السنيين لتسليمه بأن هناك نقائص تسلك إلى الشعائر اليهودية[٥٣] . وظل الجدل حينا يثير من النقاش أكثر مما تثيره السياسة القومية أو تدهور صحة فردريك .

وعانت صحة مندلسون نفسه من هذه الضجة ، فاضطر طوال شهور من عام ١٧٧٢ أن يكف عن أي نشاط ذهني . فلما استعاد عافيته كرس من وقته قدراً أكبر للتخفيف من آلام إخوانه في الدين . وحين تهيأت بعض أقاليم سويسره لفرض مزيد من القيود على اليهود طلب إلى لافاتر أن يتدخل في الأمر ، ففعل ، وكان موفقاً في شفاعته . وحين وضعت سلطات درسدن خطة لطرد مئات من اليهود استعان مندلسون بصداقة تربطه بموظف محلي للحصول على الأمان لهم[٥٤] . وبدأ في ١٧٧٨ نشر ترجمته للأسفار الموسوية الخمسة ، وأصدرها في ١٧٨٣ ، فأثارت عاصفة جديدة . ولكي يكتب بعض الشروح على النص كلف هرتس هومبرج بالمهمة ، وكان مرتبطاً بيهود من برلين مبتوتي الصلة تماماً بالمجمع اليهودي . وحرم الترجمة أحبار عديدون ، ولكنها شقت طريقها إلى الجاليات اليهودية ، وتعلم شباب

اليهود الألمانية منها » وتحرك جيل اليهود التالى للمشاركة النشيطة فى الحياة الفكرية لألمانيا . ونشر ليسنج خلال ذلك (١٧٧٩) مسرحيته « ناثان الحكيم » ، التى فسرها القراء على أنها تمجيد لصديقه اليهودى .

أما وقد بلغ مندلسون قمة الشهرة والنفوذ ، فإنه أقنع ماركوس هرتس بأن يترجم إلى الألمانية كتاب « الدفاع عن اليهود » الذى وجهه منسى بن اسرائيل إلى الشعب الانجليزى فى ١٦٥٦ . وأضاف إلى الترجمة مقدمة فى « خلاص اليهود » (١٧٨٢) ، ناشد فيها الأحبار أن يتخلوا عن حقهم فى الحرم . وأتبع هذا فى ١٧٨٣ بكتاب بليغ سماه « أورشليم » أو فى السلطة الدينية والديانة اليهودية » ، أعاد فيه تأكيد إيمانه اليهودى ، وأهاب باليهود أن يخرجوا من عزلتهم وانطوائهم ويدلوا بدلوهم فى الثقافة الغربية ، وحث على الفصل بين الكنيسة والدولة ، وأدان أى إكراه فى الدين ، وذهب إلى أن الحكم على الدول يكون بقدر اعتمادها على الإقناع لا القوة . وكتب كانط « الذى كان هو الآن أيضاً فى أوج شهرته » إلى المؤلف رسالة تستحق أن يفرد لها مكان فى سجلات الصداقة . قال :

« انى أعد هذا الكتاب بشير إصلاح عظيم لن يؤثر فى شعبك فحسب بل فى الشعوب الأخرى . فلقد وفقت فى الجمع بين دينك وبين قدر من حرية الضمير لم يتصور أحد أنه ميسور . . . ثم انك فى الوقت نفسه أبنت فى كثير من الوضوح والدقة ضرورة حرية الضمير التى لاحدود لها فى كل دين ، بحيث أن كنيستنا (اللوثرية) ستضطر آخر الأمر إلى النظر فى أن تزيل من وسطها كل شىء من شأنه إقلاق الضمير أو إكراهه »(**) .

وهاجم الكتاب الزعماء السلفيون مسيحيين كانوا أو يهوداً ، ولكنه أسهم إلى حد هائل فى تحرير اليهود وتغريبهم .

فى عام ١٧٨٣ لم يكن مندلسون قد تجاوز الرابع والخمسين ، ولكنه كان دائماً رقيق البنية معتل الصحة ، وقد أحس أنه لم يبق له من الأجل كثير . وفى أخريات سنية ألقى على أبنائه وعلى بعض أصحابه محاضرات حدد فيها عقيدته الدينية ، وقد نشرت فى عام ١٧٨٥ باسم « ساعات الصباح أو محاضرات فى وجود الله » . وفى آخر سنة من عمره صدمه أن يقرأ فى كتاب

ألفه ياكوبى أن صديقه العزيز ليسنج ، والذى كان قد فارق الحياة ، اتبع طويلا عقيدةسبينوزا فى وحدة الوجود ، فلم يستطع أن يصدق الخبر ، وكتب دفاعاً حاراًعن ليسنج عنوانه « إلى أصدقاء ليسنج» . وفيما هو حامل المخطوط إلى الناشر أصيب بنزلة برد؛ وأثناء مرضه ذاك أصيب بسكته دماغية أودت بحياته فى ٤ يناير ١٧٨٦ . واشترك المسيحيون مع اليهود فى إقامة تمثال له فى مسقط رأسه دسو .

لقد كان واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً فى جيله . فقد خرج شباب اليهود من عزلتهم بعد أن ألهمتهم كتاباته وعبوره الناجح للفواصل الدينية ، ولم يلبثوا أن تركوا بصماتهم على الأدب والعلم والفلسفة . فذهب ماركوس هرتس إلى جامعة كونجزبرج فى طلب الطب ، والتحق بعدة فصول دراسية لكانط ، وأصبح المساعد والصديق لفيلسوف المعرفة المعظم . وهو الذى توقف فى منتصف قراءته « نقد العقل الخالص » مخطوطاً مخافة أن يصاب بالجنون إذا مضى فى القراءة إلى النهاية . فلما نقل إلى برلين ، اشتغل بالطب وكثر زبائنه ، وألقى محاضرات فى الفيزياء والفلسفة على جمهور من المسيحيين واليهود . وافتتحت زوجته الجميلة المثقفة هنرييتا صالوناً كان فى نهاية القرن ملتقى هاماً لمفكرى برلين ؛ وإليه اختلف فلهلم فون همبولت ، وشلايرماخر ، وفريدريش شليجل ، وميرابو الابن . . . ولعل اختلاط الأفكار الذى تمخضت عنه هذه اللقاءات ماكان ليسر مندلسون . فقد دخل عدد من أبنائه فى المسيحية . واشترك ابنتان من بناته مع هنرييتا هرتس وغيرها فى « رابطة للفضيلة » تحترم « الانجذابات العاطفية » أكثر من الولاء الزوجى . وكان لهنرييتا علاقة غرام بشلاير ماخر ؛ وهجرت دوروتيا مندلسون زوجها لتصبح خليلة فزوجة وفية لفريدريش شليجل ، وأخيراً تابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، كذلك أعتنقت هنرييتا مندلسون العقيدة الرومانية ، وجعل أبراهام مندلسون أبناءه ، ومنهم فيلكس ، يعمدون فى الكنيسة اللوثرية ، وزعم الحاخامات السنيون أنهم كانوا على حق فى مخاوفهم . ولكن هذه كانت نتائج عارضة للحرية الجديدة ؛ أما النواحى الأبقى على الزمن فى تأثير مندلسون فقد ظهرت فى تحرير اليهود فكرياً واجتماعياً وسياسياً .

٤ — نحو الحرية

وفى هذه الحقبة اتخذ التحرير من الناحية الفكرية « شكل « المسقلة » — وهى كلمة كانت تعنى الحكمة ، ولكنها أصبحت فى هذا السياق ترمز إلى التنوير اليهودى » أو تمرد عدد متزايد من اليهود على سيطرة الأحبار والتلمود ، وتصميمهم على أن يندمجوا اندماجاً نشيطاً فى تيار الفكر الحديث . وتعلم هؤلاء المتمردون الألمانية ، وتعلم بعضهم الفرنسية — لا سيما فى أسر التجار أو الماليين ، وقرأوا مؤلفات أحرار الفكر الألمان أمثال ليسنج » وكانط ، وفيلاند ، وهردر ، وشيلر ، وجوته ؛ وكثيرون نقبوا فى أعمال فولتير ، وروسو ، وديدرو ، وهلفتيوس ، ودولباخ . ووقع انقسام بين اليهود المتحررين المقبلين على الحداثة ، واليهود المحافظين الذين شعروا بأن الولاء للتلمود والمجمع هو الطريق الأوحد للحفاظ على الوحدة الدينية والعرقية والأخلاقية للشعب اليهودى .

وانتشرت حركة المسقلة من ألمانيا جنوباً إلى غاليسيا والنمسا ، وشرقاً إلى بوهيميا وبولنده وروسيا . وزاد من سرعتها فى النمسا ترخيص التسامح الذى أصدره يوزف الثانى ، والذى دعا اليهود إلى دخول المدارس غير اليهودية . فلما عارض الأحبار المحافظون ، ناشدهم شاعر يهودى هامبورجى يدعى نفتالى فيسيلى » فى بيان يهودى بليغ ، أن يباركوا اشتراك اليهود فى التعليم العلمانى » وحث الجيل الصاعد على أن يحلوا العبرية والألمانية محل اليدية ، وأن يدرسوا العلوم والفلسفة كما يدرسون التوراة والتلمود . وقد رفض أحبار النمسا آراءه ، ولكن قبلها زعماء اليهود فى تريسته والبندقية وفرارا وبراغ . ومنذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا أسهم اليهود فى العلم والفلسفة والأدب والموسيقى والقانون بقدر يفوق كثيراً نسبتهم إلى عدد السكان .

وأعانت التطورات الفكرية والاقتصادية على تحرير اليهود . فنشر الدارسون الكاثوليك من أمثال رتشرد سيمون المعارف الربانية بين طلاب الكتاب المقدس ، وألف لاهوتى بروتستنتى يدعى جاك باناج كتاباً مشرباً بروح الود يسمى « تاريخ ديانة اليهود » (١٧٠٧) . وجمع نمو التجارة

والمالية بين المسيحيين واليهود فى اتصالات أججت أحياناً نار الخصومة العرقية ، ولكنها كثيراً ما خففت منها . ولعب الماليون اليهود فى عدة حكومات أدواراً تجلت فيها روح العون والوطنية .

وارتفعت الآن أصوات مسيحية تقترح انهاء الاضطهاد الدينى ، فنى ١٧٨١ نشر كرستيان فاهلم دوم ، وكان صديقاً لمندلسون « بناء على اقتراحه نبذة خطرة الأثر سماها « فى تحسين الأحوال المدنية لليهود فى ألمانيا » . وكانت المناسبة نداء وجهه يهود الالزاس إلى مندلسون يطلبون إليه كتابة احتجاج على القيود المفروضة عليهم . واضطلع دوم بالمهمة ، ووسعها إلى نداء عام لتحرير اليهود . . ووصف فى تفصيل مؤثر ، المعوقات التى يعانيها اليهود فى أوربا » وأشار إلى فداحة الخسارة التى خسرتها الحضارة الغربية لأنها لم تفد فائدة تذكر من مواهب اليهود العقلية — « ان مبادىء التفرقة هذه ، المنافية للإنسانية والسياسية على حد سواء ، تحمل طابع العصور المظلمة « وهى غير جديرة بتنوير عصرنا هذا » [٥٦] واقترح دوم السماح لليهود بحرية العبادة الكاملة وبالالتحاق بمعاهد التعليم ، وبممارسة جميع المهن والحرف ، وبإعطائهم جميع الحقوق المدنية ، ويستثنى منها مؤقتاً اختيارهم للمناصب وهو ما لم يكونوا بعد مهيئين له .

وأثارت الرسالة التعليق فى أقطار كثيرة « فاتهمه بعض خصومه بأنه باع قلمه لليهود » ولكن العديد من رجال الدين البروتستنت سارعوا إلى الدفاع عنه . وأيده المؤرخ السويسرى يوهان فون مولر ، وطلب ترجمة أعمال موسى بن ميمون إلى الألمانية أو الفرنسية . واكتسبت حركة التحرير دفعاً من براءة التسامح الصادرة فى ١٧٨٢ بالنمسا ومن تحرير اليهود السياسى فى الولايات المتحدة (١٧٨٣) . واستجابت الحكومة الفرنسية استجابة هزيلة برفع الضرائب الشخصية (١٧٨٤) التى أثقلت كواهل اليهود . واشترك المركيز ميرابو مع ماليرب فى تحقيق هذا التخفيف ، وساعد الحركة ابنه الكونت ميرابو بمقاله « عن مندلسون والإصلاح السياسى لليهود »

(١٧٨٧) ودفع الأب هنرى جريجوار الحركة بكتابته مقالا نال جائزة فى مسابقة عن «الأحياء المادى والخلق والسياسى لليهود» (١٧٨٩).

على أن التحرير السياسى النهائى لم يأت إلا مع الثورة. فقد احتواه ضمنا إعلان حقوق الإنسان الذى أذاعته الجمعية الوطنية (٢٧ أغسطس ١٧٨٩)، وفى ٢٧ سبتمبر ١٧٩١ وافقت الجمعية التأسيسية على إعطاء كامل الحقوق المدنية ليهود فرنسا. وجاءت جيوش الثورة أو جيوش نابليون بالحرية ليهود هولنده فى ١٧٩٦، وليهود البندقية فى ١٧٩٧، وماينز فى ١٧٩٨، وروما فى ١٨١٠، وفرانكفورت فى ١٨١١. وهكذا اختتمت حقبة العصور الوسطى بالنسبة لليهود.



الفصل السادس والعشرون

من جنيف إلى استوكهولم

١ — السويسريون : ١٧٥٤ — ١٧٩٨

ان الذين استمتعوا منا بالهدوء وسط جنة الطبيعة فى سويسرة ، وبالإلهام من شجاعة شعبها وأمانته ، يشق عليهم أن يدركوا أن من تحت الخلق الهادىء ، والفلاحة الصابرة ، والصناعة المستقرة التى أعجبت بها أوربا يومها وتعجب بها الآن ، كانت تكمن الصراعات الطبقية — صراعات بين الجنس والجنس ، وبين اللغة واللغة ، وبين العقيدة والعقيدة ، وبين الأقليم والأقليم ، وبين الطبقة والطبقة . وكان السويسريون فى نطاقهم المتواضع قد اقتربوا جداً من تحقيق ذلك المثل الأعلى الذى صوره الأب سان — بيير وحلم به روسو وكانط : وهو الاتحاد الكونفدرالى يعقد بين دويلات مستقلة فى شئونها الداخلية ، ملتزمة بالعدل الموحد فى علاقاتها بالعالم المحيط بها . ففى ١٧٦٠ تكون الاتحاد الهلفيتى لدعم الولاء للأمة أكثر من الأقليم ، ولتوحيد الحركات المبعثرة للإصلاح السياسى .

وقد قدر فولتير — الذى كان يعيش عن كثب — سكان سويسرا فى ١٧٦٧ بـ ٧٢٠,٠٠٠ نسمه [1] . وكان أكثرهم يفلح الأرض أو يزرع الكروم ، ويسطب المنحدرات إلى ما يقرب من قمم الجبال . وكانت صناعة النسيج فى نمو مطرد لا سيما فى اقليم سانت جالن وكانتون زيوريخ ؛ وكانت مراكز صناعية أخرى بسبيلها إلى التشكل فى جلاروس ، وبرن ، وبازل ؛ أما جنيف ونويشاتل فكانتا المركزين العظيمين لصناعة الساعات . وأنشأ الوكلاء المنتشرون فى أرجاء أوربا من لندن إلى الآستانة (التى كان بها ثمانية وثمانون

منهم) لجنيف تجارة صادر حققت الثراء السريع للمدينة الواقعة على الرون . وكثرت المصارف لأن الماليين السويسريين كانوا قد اكتسبوا سمعة دولية بالأمانة .

وكانت أغلب الكفاءات ، كما هي الحال في كل بلد ، مركزة في أقلية من الرجال ، فأدى هذا إلى تركيز الثروة . وكانت الكانتونات بصفة عامة تحكمها أوليجركيات تسلك مسلك أي طبقة حاكمة . فالإشراف رعاة أسخياء للآداب والعلوم والفنون ولكنهم يقاومون كل خطوة للتوسع في حق الانتخاب . وقد اتهم جبون ، الذي كان يسكن لوزان ، أوليجركية برن بأنها تثبط الصناعة في الأقاليم التابعة لها ، وتبقي على هبوط مستوى المعيشة فيها عملا بالمبدأ القائل « ان الرعايا الفقراء المطيعين خير من الأغنياء المتمردين »[٢]. وقد نظمت جماعات لإلغاء الامتيازات الاقتصادية أو السياسية غير مرة ، ولكنها صدت بقوة الدولة والكنيسة المتحالفتين[٣] . واضطربت أحوال جنيف آنا بعد آن نتيجة حرب الطبقات طوال القرن الثامن عشر . وساد فيها سلام نسبي من ١٧٣٧ إلى ١٧٦٢ ، ولكن احراق المجلس البلدي لكتاب إميل (١٧٦٢) فجر الدعوة لتوسيع حق التصويت . وعضد الحركة روسو وفولتير ، بعد جدل كثير نزلت طبقة الإشراف للطبقات الوسطى عن قسط صغير في الحكم .

وقد خلف هذا ثلاثة أرباع السكان مجردين تماماً من حق التصويت — الوطنيون (أو الأهالي) وهم الأشخاص المولودون في جنيف ولكن الأبوين من غير الوطنيين . وهؤلاء حرموا أيضاً من معظم المهن ، ومن المناصب الحربية ، ومن الارتقاء معلمين في النقابات الحرفية ؛ وقد منعوا من توجيه الملتمسات إلى المجلس الأكبر والمجلس الأصغر اللذين يحكمان الجمهورية . غير أنهم أثقلوا بالضرائب . وفي ٤ أبريل ١٧٦٦ ذهب وفد من « الوطنيين » إلى فرنيه وطلبوا إلى فولتير أن يساعدهم في نيل حق التصويت . فقال لهم : « يا أصدقائي ، انكم تؤلفون أكثر الطبقات عدداً في مجتمع مستقل كادح ، وأنتم ترسفون في العبودية ولاتطلبون إلا أن تتمتعوا بميزاتكم الطبيعية ، أي أن تمنحوا هذا الطلب المتواضع لا أكثر . وسأعينكم بكل ما أملك من نفوذ . . .

فإذا أكرهتم على الرحيل عن وطن يثرى على حساب كدكم ، فسأستطيع تقديم العون لكم وحمايتكم فى مكان آخر »[٤] .

ولكن الطبقتين الارستقراطية والبورجوازية اتحدتا فى مقاومة نداء « الوطنيين » . وكل ما استطاعه فولتير هو أن يرحب فى مستعمرته الصناعية بكل من وفد عليه من الصناع الساخطين (١٧٦٨) . وفى ١٧٨٢ هب الوطنيين فى ثورة أطاحت بطبقة الإشراف وأقامت حكومة نيابية . ولكن النبلاء استنجدوا بفرنسا وبرن وسردينيا ؛ فتدخلت هذه الدول ، وأخمد التمرد ، وردت الأوليجركية إلى الحكم . وكان على الوطنيين أن ينتظروا مجىء الثورة الفرنسية لتأتيهم بالحرية .

وأنجبت الكانتونات فى ثلث القرن الذى نحن بصدده بعض الشخصيات ذات الشهرة الدولية . فكان يوهان هاينريش بستالوتسى أحد الأفراد النادرين الذين يتخذون العهد الجديد مرشداً للسلوك . وقد اتفق مع روسو على أن المدنية أفسدت الإنسان ، ولكنه أحس أن الإصلاح يمكن أن يأتى لا عن طريق القوانين والنظم الجديدة ، ولكن بإعادة تكوين السلوك الإنسانى بالتربية . ومن ثم كان طوال حياته يرحب بالأطفال لاسيما الفقراء منهم ، وخصوصاً المشردين ؛ يؤويهم ويعلمهم ، ويطبق فى تعليمهم المبادىء التحررية التى احتواها كتاب روسو « إميل » ، مع أفكار من عنده . وقد بسط آراءه فى كتاب كان أكثر الكتب انتشاراً بين قراء ذلك الجيل . فالبطلة فى كتابه « ليونهارد وجرترود » (١٧٨١ — ٨٥) تصلح قرية بأسرها بمحاولة معاملة الناس كما لو كان المسيح يعاملهم ، وبتعليم أطفالها فى مراعاة صابرة لغرائزهم واستعداداتهم الفطرية . ومن رأى بستالوتسى أن يعطى الأطفال من الحرية القدر الذى تسمح به حقوق الآخرين . فينبغى أن يبدأ التعليم المبكر بالقدوة ، وأن يعلم الطفل بالأشياء والحواس ، والخبرة ، لا بالكلمات أو الأفكار أو الصم . وقد مارس بستالوتسى طرائقه فى مدارس سويسرية شتى ، ولا سيما فى ايفردون . وهناك زاره تاليران ، ومدام دستال ، وغيرهما ؛ ومنها انتشرت نظرياته فى طول أوربا وعرضها . على أن جوته شكا من أن

مدارس بستالوتسى تكون أشخاصاً فردىى النزعة ، وقحاء ، مغرورين ، متمردين [٥] .

وهناك انجليكا كاوفمان ، المولودة فى كانتون جريزون ، والتى نافست مدام فيجيه لبرون بوصفها أشهر فنانة فى جيلهما . فكانت تجيد الرسم ، فضلا عن إتقانها العزف ، حتى وهى فى الثانية عشرة ، إجادة حملت الأساقفة والنبلاء على أن يجلسوا إليها لتصورهم . وفى الثالثة عشرة (١٧٥٤) اصطحبها أبوها إلى إيطاليا حيث واصلت دراساتها ، واحتفى بها القوم أينما ذهبت تقديراً لمهاراتها وإعجاباً بسحر شخصها . وحين دعيت إلى انجلتره عام ١٧٦٦ أثارت ضجة بتصويرها جاريك . وأغرم السير جوشوا رينولدز جداً بـ « الآنسة اينجل » ، وصورها ، فصورته بدورها . وقد شاركت فى إنشاء الأكاديمية الملكية للفنون ، التى كلفتها هى وغيرها فى ١٧٧٣ بتزيين كتدرائية القديس بولس . وفى ١٧٨١ قفلت إلى روما ، حيث (١٧٨٨) سلكت جوته فى عداد أصدقائها الأوفياء . وماتت هناك فى ١٨٠٧ ، وكان مأتمها الذى نظمه كانوفا حدثاً من أحداث العصر ، وشيعها مجتمع الفنانين بأكمله إلى مثواها الأخير .

أما أبرز شخصيات الجيل السويسرية بعد روسو فهو يوهان كاسبار لافاتر . ولد فى زيورخ فى ١٧٤١ ، وأصبح راعياً بروتستنتياً ، واحتفظ طوال حياته بأحر الولاء للمسيحية التقليدية . وقد رأينا محاولاته لهداية جوته ومندلسون . ولكنه لم يكن دجماطيقيا ، فقد احتفظ بصداقاته عبر الحدود الدينية والقومية ، واحترمه كل من عرفه ، وأحبه الكثيرون [٦] . وقد ألف كتباً فيها ورع صوفى ، وشرح سفر الرؤيا شرحاً مغرباً فى الخيال ، وآمن بالقوى المعجزية للصلاة ولكاليوسترو ، وأعطى زوجته علاجات « تنويمية » عملا بإرشادات مزمير . وكان أخص دعاواه أن خلق الإنسان يمكن الحكم عليه من ملامح وجهه ومحيط دماغه . فأثار اهتمام جوته وهردر بآرائه ، وقد أسهما بمقالات لكتابه « شذرات فى الفراسة » (١٧٧٥ — ٧٨) وقد درس نظرات الأفراد البارزين ، وأدمغتهم ، وأشكالهم ، وربط بين ملامح الجمجمة والوجه وصفات نوعية للعقل والخلق . وقد قبلت

تحليلاته واستنتاجاته على نطاق واسع ، ولكنها الآن مرفوضة بوجه عام . على أن المبدأ العام الذى نادى به ، وهو أن الصفات السيكولوجية تشارك (مع الهواء والبيئة والغذاء والمهنة الخ . .) فى تشكيل الجسم والوجه، مازال يحوى قدراً كبيراً من الحقيقة ، فكل وجه إنما هو ترجمة ذاتية .

وكان لافاتر جزءاً من حركة إزهار شملت روسو . والشاعر والعالم ألبرشت فون هالر ، والشاعر والمصور سلومون جسنر ، والمؤرخ يوهان فون مولر . وهوراس دسوسير ، الذى بدأ رياضة تسلق الجبال بارتقائه جبل مون بلان فى ١٧٨٧ بعد محاولات اتصلت سبعة وعشرين عاماً . وأحست الكنتونات خلال ذلك برياح الثورة تهب عليها عبر الحدود من فرنسا . وفى ١٧٩٧ انضم فردريك سيزار ولا هارب ، الذى كان معلماً خاصاً لحفيدى كاترين الكبرى ، إلى بيتر أوخس عضو نقابة التجار فى بازل ، فى دعوة حكومة الثورة الفرنسية لتساعد هما على إنشاء جمهورية ديمقراطية فى سويسرة . وقد مهدت الطريق لهذه الخطوة ثورات محلية فى برن وفو (يناير ١٧٩٨) ؛ فعبر جيش فرنسى الحدود فى ٢٨ يناير ، ورحب به أكثر السكان السويسريين محرراً لهم من الأوليجركية، وفى ١٩ مارس أعلنت « جمهورية هلفيسية واحدة لاانقسام لها » . فأطاحت بكل امتيازات الكانتونات والطبقات والأشخاص، وجعلت سويسره كلها سواء أمام القانون . وكانت زيورخ أطول الأقاليم مقاومة ، وفى الهياج الشديد الذى تلا ذلك أصيب بطلق نارى الشيخ الأمين لافاتر (١٧٩٩) ، فمات فى ١٨٠١ متأثراً بجرحه تأثراً بطيئاً .

٢ - الهولنديون : ١٧١٥ – ١٧٩٥

اعجب الناس جميعاً بالهولنديين . وقد وصف المسرحى الدنمركى هولبرج ، الذى زار الأقاليم المتحدة (هولندة) و « بلجيكا » فى ١٧٠٤ . هذه البلاد وصفاً تحمس فيه على الأخص لقنواتها التى كانت زوارقها كما قال « تنقلنى من مكان لآخر » فى هدوء عذب و « تمكننى من إنفاق كل ليلة فى مدينة كبيرة ، حتى أننى كنت أستطيع فى الأمسية ذاتها أن أذهب إلى

الأوبرا أو المسرح عقب وصولى رأساً »[٧]. وقد أعربت عن مثل هذا السرور الليدى مازى ورتلى مونتجيو بعد اثنى عشر عاماً فقالت :

« ان هذا البلد كله (هولنده) يبدو وكأنه حديقة فسيحة الأرجاء : فالطرق كلها حسنة الرصف ، تظللها على الجانبين صفوف الأشجار ، وتحفها قنوات واسعة غاصة بالزوارق الغادية الرائحة . . . وكل الشوارع (فى روتردام) . . . معتنى بنظافتها جداً . . . حتى أننى جلت بأرجاء المدينة كلها تقريباً أمس ، متنكرة ، فى خفى دون أن تنالنى لوثة قذرر واحدة ، وترى الخادمات الهولنديات يغسلن الطوار . . . بعناية تفوق عناية خادماتنا بغسل غرف نومنا . ومراكب التجار تصل (على القنوات) حتى أبواب البيوت . والدكاكين والمتاجر نظيفة بهية إلى حد مدهش ، غاصة بمقادير هائلة من السلع الجميلة »[٨] .

على أن هذه التقارير الوردية وصفت هولنده قبل أن تحس بالآثار الاقتصادية لانتصارها على لويس الرابع عشر فى حرب الوراثة الأسبانية . ففيها أراقت دمها ومالها إلى ما يقرب الانهاك ؛ فتضخم دينها العام ، وفقدت كثيراً من تجارة النقل التى ذهبت إلى حلفائها العسكريين الذين كانوا رغم تحالفهم العسكرى معها منافسين لها فى التجارة — وإلى ألمانيا . وهبطت أرباح شركة الهند الشرقية من أربعين فى المائة فى ١٧١٥ إلى اثنى عشر ونصف فى المائة فى ١٧٣٧ ، وأرباح شركة الهند الغربية الهولندية من خمسة فى المائة فى ١٧٠٠ إلى اثنين فى المائة فى ١٧٤٠[٩] . وجرت حرب السنين السبع مزيداً من الأذى. ذلك أن مصرفيي أمستردام أثروا بفضل القروض المرتفعة الفائدة التى أقرضوها للدول المتحاربة ، ولكن صلح ١٧٦٣ أنهى هذه النعمة الكبرى ، فأفلس كثير من المصارف الهولندية ، وتضرر نتيجة لذلك كل مشروع تجارى كبير . كتب بوزويل الذى كان فى هولنده فى ١٧٦٣ يقول « ان الكثير من كبريات المدن تضعضعت إلى حد محزن . . . وأنت تلتقى بجموع من الفقراء الذين يتضورون جوعاً وهم عاطلون[١٠] » . وزيدت الضرائب فأفضى ذلك إلى هجرة رأس المال والعناصر البشرية الصلبة ؛

وفى هذه الفترة امتزجت دماء المستعمرين الهولنديين والألمان فى جنوب أفريقيا وانبعث البوير ببطء نتيجة الامتزاج .

وجاء الانتعاش بفضل خلق الهولنديين وجدهم وأمانتهم . فقد عكف شعب هادىء قوى مدبر على فلاحة أرضه ، وتشحيم طواحين هوائه ، ورعى أبقاره ، وتنظيف معامل ألبانه ، وإنتاج ألوان لذيذة من الجبن الشهى الكريه الرائحة ؛ وكانت هولنده سباقة بين دول أوربا فى مضمار الزراعة العلمية [١١] . واستعادت دلفت سوق البرسلان الذى فقدته . واسترد مصرفيو أمستردام الهولنديون واليهود ما اشتهروا به من جدارة بالثقة وقدرة على التصرف ؛ فأقرضوا المال بقليل من الفائدة والمخاطرة ، وحصلوا على عقود رابحة بدفع رواتب الجند وتموينهم ؛ ولجأت الحكومات ورجال الأعمال إلى أمستردام طلباً للقروض ، وندر أن ردوا فارغين ؛ وطوال ذلك القرن المضطرب كله تقريباً كانت بورصة أمستردام المركز المالى للعالم الغربى . كتب آدم سمث حوالى عام ١٧٧٥ يقول : « إن إقليم هولنده . . . بالنسبة إلى مساحة أرضه وعدد سكانه ، بلد أغنى من انجلترة » [١٢] .

وأكثر ما راع فولتير فى ١٧٢٥ [١٣] كان تعايش مختلف الأديان تعايشاً لم يكدر صفوه مكدر . فهنا كان كاثوليك سنيون وكاثوليك جانسنيون (ألم يكن جانسن نفسه هولندياً ؟) ، وبروتستنت أرمينيون من القائلين بحرية الإرادة ، وبروتستنت كلفنيون من القائلين بالقضاء والقدر ، ومعمدانيون من القائلين بتجديد العماد ، وسوسينيون ، وإخوان مورافيون ويهود ، ثم حفنة من أحرار الفكر يصطلون فى دفء التنوير الفرنسى [١٤] . وكان أكثر القضاة من البروتستنت ، ولكنهم « كانوا يأخذون النقود بانتظام من الكاثوليك » كما يقول مؤرخ هولندى « للأغضاء عن ممارستهم شعائر دينهم والسماح لهم بشغل مناصبهم » [١٥] . وكان الكاثوليك الآن ثلث السكان الذين بلغ عددهم ثلاثة ملايين . أما الطبقات العليا ، الملمة بأديان كثيرة بفضل اشتغالها بالتجارة ، فقد تشككت فى هذه الأديان كلها ، ولم تسمح لها بالتدخل فى القمار ، والشراب ، والشره فى الطعام ، وشىء من الفسق المتستر على الطريقة الفرنسية [١٦] .

وكانت الفرنسية لغة المثقفين . وكثرت المدارس ، واشتهرت جامعة ليدن بدراساتها فى الطب التى أحيت ذكر بويرهافى العظيم . وكان فى كل المدن جمعيات للفنون ، ومكتبات ، و « قاعات للخطابة » تعقد مباريات دورية فى الشعر . وكان تجار التحف الهولنديون يتمتعون بشهرة أوربية بكنوزهم وتزييفاتهم [١٧] . وكان عصر الفن الهولندى الذهبى قد ولى بموت هوبما (١٧٠٩) . ولكن كورنيلس تروست كان على الأقل صدى يردد عظمته . وربما كان أروع نتاج الفن الهولندى فى هذا العصر هو الزجاج الرقيق المنقط أو المحفور بأبر من الماس [١٨] . وكانت أمستردام عشاً للناشرين ، بعضهم شرفاء وبعضهم قراصنة . وهبط النشاط الخلاق فى الأدب إلى مستوى منحط النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ولكن حوالى ١٧٨٠ غذت حركة إحياء للأدب شاعراً مطبوعاً هو فلليم بلدرديك .

ويروى بوزويل أن صديقاً له أخبره أنه سيجد الهولنديين « سعداء فى غبائهم »[١٩] ؛ ولكن بوزويل كتب من أوترخت يقول « اننا نعقد اجتماعات متألقة مرتين فى الأسبوع ، وحفلات خاصة كل مساء تقريباً . . وفى زمرتنا سيدات جميلات محبوبات هن من الكثرة بحيث لاتستطيع الصحائف الكثيرة أن توفيهن حقهن من الثناء » [٢٠] وأروع الصفحات فى مذكرات بوزويل السريعة الموجزة عن هولنده تلك التى تصف غرامه المتردد بزيليده أو « حسناء زويلين » — وهى ايزابيللا فان تويل . وكانت تنتمى إلى أسرة عريقة مرموقة ؛ فأبوها « سيد زويلين وفستبروك » كان أحد حكام إقليم أوترخت . وقد تلقت من التعليم فوق ما تحتمل ، فباتت تجهر بهرطقتها فى فخر ، وهزأت بالتقاليد ، والأخلاق ، والدين ، ومراتب الشرف . ولكنها فتنت الناس جميعاً بحسنها ومرحها وصراحتها المثيرة . وقد أحجمت عن الزواج المهذب الوفى ، وكتبت تقول « لو لم يكن لى أب ولا أم لما تزوجت . . ولا غتبطت كل الاغتباط بزوج يتخذنى كخليلته ؛ ولقلت له « لاتنظر إلى الوفاء على أنه واجب . فما ينبغى أن يكون لك غير حقوق العاشق وغيرته » [٢١] . فأجاب بوزويل أشد الفاسقين إلحاحاً فى أوربا « يا للعار يا زيليدتى ، أى أوهام هذه » ولكنها أصرت على موقفها « إنى

لأوثر أن أكون غسالة لحبيبى ، وأن أسكن علية ، على حرية أسرنا الكبيرة الجرداء وآداب سلوكها المهذب»[٢٢] .

وجازت زيليدة سلسلة من العلاقات الغرامية التى خلفتها وحيدة مثخنة بجراح لاتبرحها . وراحت تهدىء أعصابها بالأفيون وهى بعد فى الرابعة والعشرين . وحين بلغت الثلاثين (١٧٧١) تزوجت سان — هياسنت دشاربير ، وهو معلم خاص سويسرى ، وذهبت لتعيش معه قرب لوزان . فلما وجدته قاصراً من الناحية الفكرية . وقعت فى أربعيناتها فى حب رجل يصغرها بعشر سنين ، فقضى وطره منها ثم هجرها . والتمست التنفيس فى كتابة قصة اسمها «كاليست» (١٧٨٥ — ٨٨) . طرب لها سانت — بيف أى طرب . وحين بلغت السابعة والأربعين . التقت فى باريس ببنجامن كونستان . وكان فتى فى العشرين ، فأغوته بفكرها (١٧٨٧) وكتب يقول «إن لمدام شاربير أسلوباً غاية فى الأصالة والحيوية فى النظر إلى الحياة ، واحتقاراً عميقاً جداً للتعصب ، وفكراً بالغ القوة . وتفوقاً على أوساط الناس عارماً محتقراً . . . حتى أننى على غرابة أطوارى وتكبرى مثلها . . . وجدت فى حديثها لذة لاعهد لى بها قط . . وقد انتشينا باحتقارنا للنوع الإنسانى»[٢٣] . وسار الحال على هذا المنوال حتى عام ١٧٩٤ حين وجد بنجامن نشوة جديدة مع مدام دستال . واعتكفت زيليدة فى عزلة مرة ، وماتت فى الخامسة والستين ، بعد أن خلقت خواء الحياة الدنيا واستنفدته .

ولو شاءت لوجدت غذاء للتشاؤم فى التاريخ السياسى للأقاليم المتحدة فى القرن الثامن عشر . ذلك أن حكم البلاد بعد موت وليم الثالث (١٧٠٢) احتكرته أوليجركية من كبار رجال الأعمال انصرفوا إلى فرض الضرائب على الشعب ومحاباة الأقرباء والدس والتآمر . كتب كاتب هولندى فى ١٧٣٧ يشكو هذه الحال فقال «ان المواطنين ممنوعون من المشاركة فى الحكومة . . . ولا يطلب منهم نصيحة ولا رأى فى إدارة شئون الدولة»[٢٤] . وقد تكشف العجز الحربى لهذا النظام حين دخلت هولنده حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٣) فغزاها جيش فرنسى ولم يلق مقاومة تذكر ، وسلمت

مدن كثيرة دون جدال . كتب المرشال دنواى يقول « علينا أن نتعامل مع شعب غاية فى اللطف والكرم » [٢٥] على أنهم لم يكونوا كلهم كذلك ، فقد ارتفعت أصوات معظم المواطنين مطالبة بزعيم حربى ينقذ البلاد على نحو ما فعل وليم الثالث فى ١٦٧٢ ، ونصب سليله غير المباشر ، وليم الرابع أمير أورانج ، حاكماً للأقاليم السبعة ، وقائداً للجيش ، وأميراً للبحرية (٣ مايو ١٧٤٧) ؛ وفى أكتوبر جعلت هذه المناصب وراثية فى أسرته ، ومعنى ذلك أن الملكية أعيدت فى واقع الأمر ، غير أن وليم الرابع كان فيه من التمسك بالخلق المسيحى مالا يجعله قائداً حربياً صالحاً ؛ فلم يستطع أن يعيد النظام إلى الجيوش ، وتوالت الهزائم يقفو بعضها بعضا ، وفى معاهدة إكس — لا — شابل (١٧٤٨) كانت هولنده محظوظة لاحتفاظها بأراضيها سليمة ، ولكنها عادت خربة من الناحية الاقتصادية ومات وليم بالحمرة وهو فى الأربعين (١٧٥١) ، وقامت أرملته الأميرة آن — بالوصاية على العرش إلى أن ماتت (١٧٥٩) ، ثم حكم لودفيج إرنست أمير برنزويك — فولفنبوتل البلاد حكماً صارماً كفئاً حتى بلغ وليم الخامس سن الرشد (١٧٦٦) .

وفى الحرب الدائرة بين انجلتره والمستعمرات الأمريكية احتجت هولنده على عدوان البريطانيين على السفن الهولندية ، وانضمت إلى روسيا فى « الحياد المسلح» المبرم فى ١٧٨٠ ؛ وأعلنت انجلتره عليها الحرب ، واستولت على جميع السفن الهولندية تقريباً ، وفى معاهدة باريس (١٧٨٣) (١٨٧٣) كادت مصالح هولنده أن تغفل ، فنزلت عن نجاباتام (فى جنوبى الهند) لانجلترة ، وسمحت للانجليز بحرية الملاحة فى جزر الملقا . وهكذا لم تعد هولنده تلعب دوراً بين الدول .

ودمرت هذه الخطوب شعبية وليم الخامس . ثم ان نجاح الثورة فى أمريكا حفز الأفكار الديمقراطية فى الأراضى الواطئة ، وأفضى إلى قيام حزب « الوطنيين» المناهض للأسرة الحاكمة . وكانت القلة صاحبة المال تمتص ثروة الأمة المتناقصة خلال كل تغيير فى الحكومة امتصاصاً ألجأ رجالا كثيرين إلى التسول ونساء كثيرات إلى البغاء فى المدن التى كانت يوماً ما

مزدهرة يسودها النظام. وفى ١٧٨٣ . تكونت سراً جماعات من « الرماةالأحرار» فى أمستردام ولاهاى للاعداد للثورة . وفى ١٧٨٧ استولى « الوطنيون » على السلطة ، ولكن وليم الخامس أعيد إلى عرشه بفضل تدخل بروسيا المسلح. ثم نفخت الثورة الفرنسية الحماسة من جديد فى أفئدة الوطنيين ، فدعوا فرنسا لتخف لنجدتهم . وعليه ففى ١٧٩٤ غزت الجيوش الفرنسية هولنده ، وبطشت بالجيش الهولندى ، وفر وليم الخامس إلى انجلتره ، وانضم أنصار الثورة الهولنديون إلى الفرنسيين فى تنظيم الجمهورية البتافية (١٧٩٥—١٨٠٦) . وفى ١٨١٥ أعاد ابن وليم الخامس بيت أورنج — نيساو إلى السلطة باسم الملك وليم الأول » وأسلافه يتربعون على عرش هولنده اليوم (١٩٦٧) .

٣ — الدنمركيون : ١٧١٥ — ١٧٩٧

بلغ عدد سكان الدنمرك حسب أول تعداد رسمى للبلاد (١٧٦٩) ٨٢٥,٠٠٠ نسمة ، يضاف إليهم ٧٢٧,٦٠٠ فى النرويج التى ظلت خاضعة للملوك الدنمراكيين حتى ١٨١٤ . وكان كل الفلاحين تقريباً فى النرويج يملكون أراضيهم ، وفيهم كبرياء ككبرياء الفيكنج . أما الدنمرك فكان نصف فلاحيها أقناناً ، والنصف الآخر خاضعين للرسوم الإقطاعية . وجهد الملوك لكبح جماح هذا الإقطاع ، ولكنهم كانوا معتمدين مالياً على الإشراف ، واستمرت القنية حتى ١٧٨٧ . فى هذا النظام لم تلق التجارة ولا الصناعة تشجيعاً يذكر ، ولم تنم طبقة وسطى ذات شأن ؛ وأفاد فتح قناة كيل (١٧٨٣) الإنجليز والهولنديين أكثر مما أفاد الدنمركيين . وفى ١٧٩٢ كانت الدنمرك أول دولة أوربية تلغى النخاسة فى ممتلكاتها .

وكما سيطر النبلاء على الدولة كذلك سيطرت الكنيسة على المنابر والطباعة ، وأملت أن تسيطر على العقول أيضاً . فحرمت الرقابة الصارمة التى امتدت من ١٥٣٧ إلى ١٨٤٩ كل ما يطبع أو يقال مما لا يتفق والتعالم اللوثرية القويمة ؛ وصودر الكثير من الكتب غير اللاهوتية ، كقصة جوته « آلام فرتر » لأنها خطر يهدد الأخلاق العامة . وزاد من القيود المعطلة لنمو الأدب استعمال الألمانية فى البلاط » واللاتينية فى الجامعات ، والفرنسية فى الآداب

البحتة — التي لم يكد يوجد منها شيء . وكان تدشين الأدب الدنمركي بالتأليف باللغة القومية . وإدخال بصيص من التنوير إلى الدنمرك . من مآثر ألمع دنمركي في القرن الثامن عشر .

وتستطيع كل من النرويج والدنمرك أن تنسب إليها لودفج فون هولبرج ؛ لأنه ولد في برجن (٣ ديسمبر ١٦٨٤) . وبعد أن تلقى العلم في المدرسة اللاتينية المحلية . عبر الماء ليلتحق بجامعة كوبنهاجن . ولكن سرعان ما نضب ماله ، فقفل إلى النرويج واشتغل مدرساً خصوصياً في أسرة قسيس ريفي ، فلما أن ادخر ستين طالرا انطلق ليرى الدنيا من حوله . فنراه في ١٧٠٤ في هولنده ، وفي ١٧٠٦ — ١٧٠٨ كان يعلم نفسه في مكتبات أكسفورد . فلما عاد إلى كوبنهاجن ألقى محاضرات لم تأته بأكثر كثيراً من تعليم الذات ، وعاش أثناء ذلك على التدريس الخصوصي ، واغتذى بالطموح . وفي ١٧١٤ عينته الجامعة أستاذاً دون راتب ، غير أن منحة خاصة أتاحت له الجولان عامين في ربوع إيطاليا وفرنسا ، على قدميه أكثر الوقت . فلما آب من أروع رحلة بين الرحلات الرائعة كلها ، عين أستاذاً للميتافيزيقا ، وهي مادة أبغضها ، ثم للاتينية والبيان ، وأخيراً (١٧٣٠) للتاريخ والجغرافيا اللذين أحبهما .

ولقد خلق الأدب الدنمركي في لحظات فراغه . فحتى زمنه لم يكن في الدنمركية شيء سوى الأغاني الشعبية والفارصات والتراتيم والكتب العقيدية الشعبية . وألف هولبرج مكتبة صغيرة من القصائد والهجاءات والقصص والأبحاث بالدنمركية في السياسة والقانون والتاريخ والعلوم والفلسفة . ولم ينافسه غير فولتير في تعدد جوانبه . وقد استعمل الهزل كما استعمله فولتير ليسوط به الأساتذة المزهوين من عباد الدراسات الكلاسيكية ، والمحامين الذين يقيدون حركة العدالة بأغلال الدقائق التقنية ، ورجال الدين المتزاحمين بالمناكب على المال والمنصب ، والأطباء الذين ييسرون دخول المرضى إلى الأبدية . وتناول كل أعمدة المجتمع هؤلاء تقريباً بالتشهير في أول آثاره الأدبية الكبرى ، وهو ملحمة ساخرة سماها بيدر بارس (١٧١٩) . وأوجع بعض كبار الدنمركيين وخز هذا الهجاء ، فناشدوا الملك فردريك الرابع

أن يصادر الكتاب باعتباره ضاراً بالأخلاق مستهزئاً بالقساوسة ؛ وقرىء على الملك أول قسم فى الملحمة كطلبه ، فحكم بأنها « عمل برىء مسل » ، غير أن المجلس الملكى أحاط هولبرج بأنه كان خيراً لو أن القصيدة لم تكتب قط [٢٦] .

وعلى ذلك انصرف إلى المسرح . فنى ١٧٢٠ افتتح ممثل فرنسى اسمه إتيين كابيون فى كوبنهاجن أول مسرح دنمركى . فلما افتقد المسرحيات الدنمركية الجديدة بالإخراج استورد الدرامات من فرنسا وألمانيا . غير أنه استشف من «بيدر بارس» أن هولبرج يملك المواد والموهبة اللازمة للكوميديا ، فلجأ إليه يمد المسرح الجديد بتمثيليات باللغة العامية ، ولم ينقض عام حتى كان هولبرج قد ألف خمس تمثيليات ، وفى ثمانية أعوام ألف عشرين ، كلها غنى فى صور الأعراف والعادات المحلية غنى حمل خلفه العظيم آدم أو هلنشليجر على أن يقول فيه « إنه عرف كيف يصور الحياة البورجوازية لمدينته كوبنهاجن بأمانة عظيمة بحيث لو انشقت الأرض وابتلعت هذه المدينة ، وبعد مائتى عام أميط اللثام عن كوميديات هولبرج ، لاستطاع المرء أن يعيد بناء العصر منها ، على نحو ما نعرف أيام روما القديمة من أطلال بومبي وهركيولانيوم [٢٧] » .

ونقل هولبرج القوالب والأفكار عن بلوتوس وترنس وموليير والكوميديا ديللارتى التى شهدها فى إيطاليا . وبعض كوميدياته تمثيليات من فصل واحد ذات موضوعات تافهة فقدت قوة دفعها ، مثل « رحلة سجاناريل إلى أرض الفلاسفة » [٢٨] . وبعضها مازال يحتفظ بقوته ، مثل « يبى رجل التل » التى نعرف منها أن الفلاحين حين يظفرون بالسلطة يكونون أشد بغياً من سادتهم . وبعضها تمثيليات مكتملة الطول مثل « رازموس مونتانوس » ، وهى هجائية مرحة تسخر بتنطع العلماء ، وبغطرسة اللاهوتيين وبجهل العوام ، مع مسحه خبيثة من صراحة الريفيين وصدقهم ، مثل قول لسبيله لأبيها بعد أن سمعت بأن خطيبها عائد من الجامعة « إذن فقد صدق حلمى . لقد حلمت انى نمت معه البارحة » [٢٩] على أن مسرح كوبنهاجن

رغم هذه الكوميديات المرحة أغلق أبوابه فى ١٧٢٧ لافتقاره إلى الدعم الشعبي . وكان آخر ما مثل فوق خشبته مسرحية هولبرج « مأتم الكوميديا الدنمركية » .

لقد صدم زملاءه من أساتذة الجامعة بالكتابة للمسرح ؛ أما الآن فقد ألان جانبهم بمؤلفات تاريخية يسرت للقراء الدنمركيين ثمرات الدراسات الأوربية الغربية . وكانت كتبه « تاريخ الدنمرك » (١٧٣٢ — ١٧٣٥) ، تاريخ عام للكنيسة » (١٧٢٧ — ١٧٤٧) » و « تاريخ اليهود » مصنفات، ولكنها متقنة . والتمس هولبرج التخفف من هذه الجهود فى رائعته . « رحلة نيلس كليم السفلية » (١٧٤١) . وقد كتبها نثراً لاتينياً لتصل إلى القراء الأوربيين ، فوصلت ، ولكن بطريق الترجمة : ترجمها ينز باجيزين إلى الدنمركية فطبعت الترجمة ثلاث مرات ، وظهر منها بالألمانية عشر طبعات، بالسويدية » والهولندية ، والانجليزية ، ثلاث ، وبالفرنسية والروسية اثنتان ، وبالمجرية واحدة . هذه « الرحلة السفلية » هى التى جعلت هولبرج« سويفت الدنمرك » و « فولتيرها » معاً .

والقصة تروى أن الضوضاء المنبعثة من كهف تثير فضول نيلس ، فيصمم على استقصاء مصدرها ويدليه أصحابه بحبل ينقطع ، « وبسرعة مذهلة دفع بى إلى أعماق الهاوية »[٣٠] . ثم يعثر فى قشرة الأرض على مساحة مكشوفة أو قبة سماوية فيها شمس وكواكبها السيارة ، ونجوم كثيرة . ويسقط صوب أحد هذه الكواكب فيصبح قمراً تابعاً له ويدور حوله عاجزاً ، ولكنه يمسك بنسر يحمله حتى يهبط فى رفق على الكوكب بوتو (أى يوتو يا) مقلوبة) . هنا يجد الأشجار هى النوع السائد ، وهى غنية بعصارتها العاقلة، ولسوء الحظ «كانت الشجرة التى تسلقتها . . . هى زوجة العمدة » [٣١] . ولبوتو بعض القوانين الممتازة . فالناس الذين « يتجادلون علانيـــة حول صفات الكائن الأعظم وما هيته ينظر إليهم على أن بهم مساً من الجنون»، فيعالجون بفصدهم لتهبط حماهم ، ثم يحبسون حتى «يفيقوا من هذا الهذيان»[٣٢] . والأمهات فى بوتو يرضعن أطفالهن — وهى فكرة سبقت بعشرين سنة دعوة روسو للأمهات لإرضاع أطفالهن من ثديهن . وفى إقليم كوكليكو

تحكم النساء الدولة ، ويعنى الرجال بشئون البيت أو يصبحون بغايا » وللملكة « حريم » من ثلاثمائة شاب وسيم . وينفق الفلاسفة فى كوكليكو وقتهم فى محاولة الوصول إلى الشمس » ولا يهتمون اهتماماً يذكر بشئون الدنيا . وفى إقليم ميكولاك تجد الناس كلهم ملحدين ، « يقارفون أى شر يستطيعون إخفاءه عن الشرطة » (٣٣) ويقع نيلس على كتاب بعنوان « رحلة تانيان إلى العالم السفلى » يصف أوربا وعاداتها الغريبة : الرءوس التى تكسوها البواريك الضخمة » والقبعات المحمولة تحت الأذرع (كما كان يفعل نبلاء فرنسا) ، « والكعكات الصغيرة أو القرابين تحمل مروراً بالشوارع ويقول الكهان إنها آلهة » والناس الذين خبزوها . . . يحلفون على الإيمان بأن هذه القرابين خلقت الدنيا » (٣٤) .

وقد اشتملت « الرحلة السفلية » على انتقادات للعقيدة المسيحية ، ودعت إلى إطلاق حرية العبادة لجميع المذاهب ، ولكنها أوصت بالإيمان بالله ، وبالجنة ، وبالنار ، باعتبارها ركائز ضرورية لناموس أخلاقى لاتفتأ تهاجمه مطالب النفس والجسد هجوماً شرساً (٣٥) . ورقى الملك فردريك الخامس المصلح الذى انصلح أمره بارونا فى ١٧٤٧ ؛ واستمتع هولبرج بلذة التمرد فى شبابه والرضى عنه فى شيخوخته التى اختتمت سنة ١٧٥٤ . ومازال إلى اليوم إمام الأدب الدنمركى .

على أن البعض قد يخصون بهذا المقام يوهان إيفالد الذى ضارعت حياته حياة بايرون وكيتس وشلى مغامرة ومعاناة وقصراً . وقد ولد فى كوبنهاجن فى ١٧٤٣ لقسيس لوثرى » وتمرد على المتزمتين من الكبار » ووقع فى غرام آرنسى هوليجارد وهو فى السادسة عشرة » وهجر مهنة اللاهوت لأنه استبطأ ثمراتها » وتطوع فى الجيش البروسى ثم النمساوى ، وصمم على الظفر بالثروة والمجد اللذين ينيلانه آرنسى عروساً . ولكن الحرمان والمرض أتلفا صحته » فعاد إلى كوبنهاجن واللاهوت ، وتزوجت آرنسى ثروة أعجل ، وسكب إيفالد قلبه فى الشعر والنثر . فكتب أول مأساة دانمركية أصيلة

سماها « رولف كراجى »(١٧٧٠) ، وبلغ قمة الشعر الدنمركى فى القرن الثامن عشر بمسرحية « موت بالدر» (١٧٧٣) وهى دراما ملحمية بالشعر . على أن جهده لم يأته إلا بالكفاف ، فاعتكف فى عزلة ريفية ، وراح يجتر سلسلةمن الأوصاب ، ثم أنعشه معاش من الحكومة آخر الأمر . وقد رد على الصنيع بتمثيلية « صيادى السمك » (١٧٧٦) التى احتوت أغنية شعبية وطنية مطلعها « وقف الملك كرستيان إلى جوار الصارى العالى » التى أصبحت أنشودة الدنمركيين القومية المفضلة [٣٦] . وكانت دعوة إيفالد إلى المجد ، ووداعه للحياة « ومات فى ١٧٨١ إثر مرض طويل أليم غير متجاوز الثامنة والثلاثين . ويعده السكندنافيون « من أعظم شعراء الشمال الغنائيين ، بل ربما أعظمهم قاطبة » [٣٧] .

وبتقدم القرن الثامن عشر أصبح التاريخ السياسى للدنمرك جزءاً من الدراما الحديثة المتصلة ابدا بين التقاليد المتوارثة والتجربة . وقد مزج كرستيان السادس (حكم ١٧٣٠ — ٤٦) بين القوى المتعارضة . فدفع هو ووزراؤه التنمية الاقتصادية قدماً باستجلاب الغزالين والنساجين لإنشاء صناعة النسيج ، وبتكوين الشركات القومية للاتجار مع آسيا وأمريكا ، وبفتح «صرف كوبنهاجن (١٧٤٤) . ونشروا التعليمين الابتدائى والثانوى ، وأسسوا الأكاديميات لتشجيع الأدب والعلم . على أنهم جددوا قانوناً قديماً يلزم بحضور خدمات الصلاة اللوثرية « وأغلقوا جميع المسارح وصالات الرقص ، ونفوا الممثلين » ومنعوا الحفلات التنكرية .

وأبقى فردريك الخامس (حكم ١٧٤٦ — ٦٦) ابن كرستيان على هذه القوانين ولكنه خفف من وطأتها بروحه اللطيفة وحبه للذات الحسية . فنى ١٧٥١ استقدم من هانوفر يوهان هارتفج أرنست فون برنشتورف ، الذى وفق وهو رئيس للوزراء فى رفع مستوى الأمانة والكفاءة فى الإدارة ، وأصلح شأن الجيش والبحرية « وأبعدهما عن حرب السنين السبع ، وحرك مياه الثقافة الدنمركية الراكدة بجلب الأساتذة والشعراء والفنانين والعلماء ؛ وقد رأينا كلوبشتوك يقبل هذه الدعوة . وفى ١٧٦٧ توج الكونت فون

برنشتورف سياسته الخارجية السلمية بإقناع كاترين الكبرى بتوقيع اتفاقية نزلت بمقتضاها للدنمرك عن هولشتين — جوتورب .

ومات فردريك الخامس فى الثالثة والأربعين (١٧٦٦) بعد أن أنهكته لذاته . وقد زوج ابنه كرستيان السابع (حكم ١٧٦٦ — ١٨٠٨) على عجل وهو بعد فى السابعة عشرة من كارولين ماتيلدا أخت جورج الثالث ملك انجلترة ، وقد أفاضت اشراقاً على حياة العاصمة الاجتماعية ، ولكن زوجها نصف المجنون أهملها إيثاراً لحياة الخلاعة ، وانزلقت كاترين إلى غرام مأساوى مع طبيب البلاط يوهان فريدريش شترويتزى . وكان ابنا لأستاذ لاهوت فى هاله ، فدرس فيها الطب ، وفقد إيمانه الدينى كما يفقده أكثر الأطباء . وقد دان بحظوته عند الملك لبراعته فى علاج العواقب الأكلينيكية لغراميات الملك ، وعند الملكة لتوفيقه فى الأتيان بكرستيان السابع إلى فراشها بما يكفى لإنجاب وريث للعرش . فلما تردى عقل الملك فى درك الاكتئاب وعدم المبالاة ، وزادت سلطة الملكة فى الحكومة ، وسمحت لطبيبها بإدارة سياستها كما سمحت له بالاستمتاع بحظوتها فغدا (١٧٧٠) حاكم الدولة الفعلى . وخرجت الأوامر من القصر الملكى ممهورة من شترويتزى باسم الملك « غير المتمالك قواه العقلية » . وطرد برنشتورف ، فاعتكف بهدوء فى ضياعه بألمانيا .

وكان شترويتزى قد قرأ مؤلفات جماعة « الفلاسفة » الفرنسيين ، وعلى مبادئهم نوى أن يشكل الحياة الدنمركية من جديد . فألغى استغلال النبلاء لامتيازاتهم . وأنهى الرقابة على المطبوعات ، وأسس المدارس ، وطهر المصالح الحكومية من الرشوة والاستغلال . وأعتق الأقنان ، وحرم التعذيب القضائى . وأعلن التسامح لجميع الأديان ، وشجع الآداب والفنون ، وأصلح القانون والمحاكم والبوليس ، والجامعة ، والمالية ، ووسائل حفظ الصحة البلدية . . . ثم ألغى معاشات كثيرة تخفيفاً من الدين العام ، ورصد دخول المؤسسات الدينية للإنفاق على الأغراض العامة .

ولكن النبلاء تآمروا ليسقطوه ، واستغلوا حرية النشر لاستنزاف شعبيته .

وكره الأتقياء من الدنمركيين التسامح الديني لأنهم رأوه كفراً ، ورددت أحاديثهم عن شتروينزى أنه أجنبي دخيل ليس لسلطته سند غير فراش الملكة . وفى ١٧ يناير ١٧٧٢ اقنع لفيف من ضباط الجيش الملك بأن شتروينزى والملكة يبيتان قتله فوقع أمراً بالقبض عليهما . ورحلت كارولين إلى كرونبورج قلعة هاملت . أما شتروينزى فألقى فى السجن ، وبعد خمسة أسابيع من المعاناة اعترف بزناه مع الملكة . وفى ٢٨ أبريل ١٧٧٢ قطع إرباً على مقصلة على مرأى من جمهور محبذ لهذا العقاب . وسمح لكارولين بعد إلحاح جورج الثالث بالاعتكاف فى تسلليه بها نوفر ، حيث ماتت فى ١٠ مايو ١٧٧٥ وهى بعد فى الرابعة والعشرين .

وقلد المتآمرون الفائزون الحكم لأوفى جولد برج ، المعلم الخاص للأمير فردريك . و قد قاد جولد برج خلال اثنى عشر عاماً من الحكم حركة انتفاض وطنية على النفوذ الأجنبي فى الحكومة واللغة والتعليم ، وفتح باب المناصب للعامة ، وأعاد القنية ، والتعذيب القضائى ، وسيادة الكنيسة اللوثرية ، والتوجيه الدينى للجامعة . ووكلت الشئون الخارجية لأندرياس بيتر فون برنشتورف ، ابن أخى الكونت فون برنشتورف ومحسوبه . فلما نصب الأمير فردريك نفسه وصياً (١٧٨٤) طرد جولد برج : وأصبح اندرياس فون برنشتورف رئيس الوزراء وظل كذلك إلى يوم مماته . وبإرشاده الحكيم ألغيت القنية ثانية (١٧٨٧) ، وأنهيت النخاسة فى الممتلكات الدنمركية ، وأطلقت حرية القيام بالمشروعات الاقتصادية . فلما مات برنشتورف (١٧٩٧) كانت الدنمرك قد ثبتت أقدامها على الطريق إلى ذلك الرخاء السلمى الذى جعلها محسودة من العالم كله .

٢ - السويديون

١ - السياسة : ١٧١٨ - ٧١

كانت حياة شارل الثانى عشر المثيرة مأساة للسويد . ذلك أن مراميه لم تسترشد بموارد وطنه بل بظمئه للمجد . وقد احتمله الشعب السويدى بشجاعة وهو يأتى على قوتهم البشرية وثروتهم ، ولكنهم كانوا يدركون قبل موته

بزمان أن مصيره الفشل المحقق . فقد نزلت السويد بمقتضى معاهدات ستوكهولم (١٧١٨ — ٢٠) عن دوقيتى بريمن وفردن لهانوفر ، وعن الجزء الأكبر من بومرانيا لبروسيا . وبمقتضى صلح نيستاد (١٧٢١) نزلت عن ليفونيا واستونيا وانجرمانلاند وكاريليا الشرقية لروسيا . وقضى على سلطة السويد على أرض القارة ، وأكرهت على التقهقر إلى شبه جزيرة غنية بالمعادن وصلابة الخلق القومى ، متطلبة الجهد الشاق والمهارة المثابرة ثمناً للحياة.

وقد أضعفت هزيمة شارل شوكة الملكية ، وأتاحت للنبلاء أن يستردوا سيطرتهم على الحكومة . فأعطى دستور ١٧٢٠ السلطة الغالبة لمجلس نيابى أو «دايت» مؤلف من أربع « طبقات» أو مجالس . مجلس نبلاء « ريدارهوس» قوامه رؤساء الأسر النبيلة كلها ؛ ومجلس قساوسة — من الأساقفة مضافاً إليهم نحو خمسين مندوباً ينتخبهم اكليروس الأبرشيات من بينهم ؛ ومجلس سكان المدن « من نحو تسعين مندوباً يمثلون الموظفين الإداريين وأقطاب رجال الأعمال فى المدن ؛ ومجلس فلاحين « من مائة مندوب تقريباً يختارون بواسطة المزارعين من ملاك الأرض الأحرار ومن بينهم . وكانت كل طبقة تجلس منفصلة عن غيرها « ولا يمكن أن يصبح أى مشروع قانوناً ما لم توافق عليه ثلاث طبقات « ولم يكن لطبقة الفلاحين فى حقيقة الأمر قوة تشريعية إلا بموافقة طبقتين أخريين . وخلال اجتماعات المجلس النيابى كانت «لجنة سرية » من خمسين نبيلا ، وخمسة وعشرين قسيساً ، وخمسة وعشرين نائباً عن المدن تحضر مشروعات القوانين جميعها ، وتختار الوزراء « وتهيمن على السياسة الخارجية . وقد أعفى النبلاء من الضرائب ، واحتكروا حق شغل مناصب الدولة العليا [٣٨] . فإذا لم يكن المجلس منعقداً سير دفة الحكم «راد» (مجلس) من ستة عشر أو أربعة وعشرين رجلا يختارهم المجلس النيابى ويسألون أمامه . وكان الملك يرأس هذا المجلس وله صوتان ، وفيما عدا هذا لم يكن له سلطة التشريع . وتضافرت روسيا وبروسيا والدنمرك لتأييد هذا الدستور لأنه يحبذ سياسة السلام ويكبح النزعات الحربية للملوك الأقوياء .

ولم تعد الملكية وراثية بل أصبحت انتخابية . وبعد موت شارل الثانى

عشر (٣٠ نوفمبر ١٧١٨) كان مآل العرش بالوراثة إلى كارل فريدريش دوق هولشتين جوتورب ، وهو ابن لأخت شارل الكبرى ؛ ولكن المجلس النيابي المنعقد في يناير ١٧١٩ لأول مرة في عشرين سنة ، أعطى التاج لأولريكا اليانورا وهي أخت أخرى لشارل ، بعد أن وافقت على التخلي عن سياسة الاستبداد الملكي التي مارسها أخوها . ولكن حتى مع هذه الموفقة تبين أنها عسيرة القياد . وفي ١٧٢٠ اقنعت بالنزول عن العرش لزوجها الحاكم فردريك الأول أمير هسي — كاسل الذي أصبح الآن فردريك الأول ملك السويد . وبفضل الإرشاد الحكيم الذي بذله الكونت آرفيد برنهارد هورن — وكان مستشاراً للدولة — أتيح للسويد ثمانية عشر عاماً من السلام لتبرأ فيها من جراح الحرب .

غير أن الأباة من السويديين سخروا من سياسته السلمية ولقبوا أشياعه « الطواقي » وهم يعنون بهذا اللقب أنهم خرفون نيام بينما تتراجع السويد إلى المؤخرة في ركب الدول . وقام ضد هؤلاء حزب « القبعات » الذي كونه الكونت كارل جيلنبورج ، وكارل تسين ، وغيرهما . وتسلط هذا الحزب على المجلس النيابي في ١٧٣٨ ، وحل جيلنبورج محل هورن . وإذ كان مصمماً على إعادة السويد إلى سابق مكانتها بين الدول ، فإنه جدد التحالف المتقادم مع فرنسا التي أرسلت معوناتها المالية للسويد لقاء معارضتها لمطامع روسيا ؛ وفي ١٧٤١ أعلنت الحكومة الحرب على روسيا ، أملا في استرداد أقاليم البلطيق التي استولى عليها بطرس الأكبر ، ولكن لا الجيش ولا البحرية كانا معدين الأعداد الكافي ، وقد أعجز المرض رجال البحرية ، وسلم الجيش فنلنده كلها أمام الزحف الروسي . على أن القيصرة اليزابث ، الحريصة على كسب تأييد السويد ، وافقت على رد معظم فنلنده إذا عين ابن عمها ادولفس فردريك أمير هولشتين — جوتوب للعرش السويدي . وبهذه الشروط أنهى صلح آبو الحرب (١٧٤٣) . فلما مات فردريك الأول (١٧٥١) ارتقى ادولفس فردريك العرش .

ولم يمض وقت طويل حتى علمه مجلس الطبقات انه ملك بالاسم

لا بالفعل . فقد نازعه حقه فى تعيين النبلاء الجديد، أو اختيار أعضاء بلاطه ، وهدد بالاستغناء عن توقيعه ان اعترض على التوقيع على قوانين أو وثائق معينة . وكان الملك رجلا لين العريكة ، ولكن كان له زوجة متكبرة آمرة هى لويزة أولريكا أخت فردريك الأكبر. وحاول الملك والملكة الثورة على سلطة المجلس . ولكن الثورة أخفقت، وعذب عملاؤها وقطعت رءوسهم أما الملك فعفى عنه لأن الشعب كان يحبه . وأما لويزه فعزت نفسها بحب الأدب وبرزت فى مضاره . وقد صادقت لينايوس وجمعت من حولها لفيفاً من الشعراء والفنانين نشرت خلالهم أفكار التنوير الفرنسى . وعين المجلس النيابى معلماً جديداً لابنها ذى الأعوام العشر ، وأصدر إليه تعليمات بأن يحيط ملك المستقبل جوستافس الثالث بأن الملوك فى الدول الحرة لايحتفظون بعروشهم إلا إذا سمح لهم بشروط ، وأنهم إنما تخلع عليهم الأبهة والجلال « لتشريف المملكة لا لأجل الشخص الذى يتفق أن يشغل المكان الأول فى الموكب » وأنه « بما أن بريق البلاط ووهجه « قد يضللهم بأوهام العظمة ، فإنهم يحسنون صنعاً أن هم تفقدوا أكواخ الفلاحين بين الحين والحين ، ورأوا الفقر الذى يدفع تكاليف الأبهة الملكية »[٣٩] .

وفى ١٢ فبراير ١٧٧١ مات أدولفس فردريك ودعا المجلس جوستافس الثالث ليأتى من باريس ويمتثل لمراسم الملكية .

٢ — جوستافس الثالث

كان أكثر الملوك جاذبية بعد هنرى الرابع ملك فرنسا . وإذ كان وسيماً مرحاً ، عاشقاً للنساء والفنون والسلطة ، فقد لمع وتوهج خلال تاريخ السويد كأنه الشحنة الكهربية دافعاً إلى الحركة كل العناصر الحيوية فى حياة الأمة ، وكان قد أحسن تعليمه على يد كارل تسين ، ودللته أمه المولعة به . وكان من حيث الفكر نابغاً مرهفاً ، ومن حيث الخيال والحس الجمالى موفور الحظ ، لا يستقر على حال لفرط طموحه وكبريائه ؛ فليس من اليسير أن يكون المرء أميراً متواضعاً . ونقلت إليه أمه عشقها للأدب الفرنسى ، فقرأ فولتير بنهم ، وبعث إليه بعبارات الاحترام ،وحفظ الهنريادة عن ظهر

قلب . وكان السفير السويدى فى باريس يوافيه بكل مجلد من « الموسوعة » عند صدوره . ودرس التاريخ باهتمام وافتتان ، وأطربته سير جوستافس فازا ، وجوستافس أدولفس ، وشارل الثانى عشر ، وبعد أن قرأ عن هؤلاء الرجال لم يطق أن يكون ملكاً خاملا . وفى ١٧٦٦ ، زوجه المجلس للأميرة صوفيا مجدلينا ابنة فردريك الخامس ملك الدنمرك دون أن يؤخذ رأيه ، ولا رضى أبويه . وكانت خجولا دمثة الطبع تقية ترى المسرح مكاناً للإثم ؛ أما هو فكان شكاكاً ، يحب الدراما ، ولم يغتفر قط للمجلس إقحامه فى هذا الزواج المتنافر . وهدأ المجلس ثائرته مؤقتاً بمنحة طيبة تتيح له الرحلة إلى فرنسا (١٧٧٠ — ٧١) .

وتوقف فى كوبنهاجن ، وهمبورج ، وبرنزويك ، ولكن باريس كانت مقصده . وتحدى غضب لويس الخامس عشر بزيارة شوازيل المنفى ، وانتهك التقاليد بزيارة مدام دوبارى فى قصرها الريفى فى لوفيسين . والتقى بروسو ، ود الامبير ، — وما رمونتيل ، وجريم ، ولكن ظنه فيهم خاب وكتب لأمه يقول « تعرفت إلى جميع الفلاسفة ، وإنى لأجد كتبهم ألطف كثيراً من أشخاصهم »[٤٠] وسطع نجماً من نجوم الشمال فى صالونات السيدات جوفران ودودفان ودلسبيناس ودبينييه ونكر . وتلقى وسط انتصاراته نبأ يفيده انه أصبح ملك السويد . فلم يتعجل الرجوع ، بل أقام فى باريس ردحاً أتاح له الحصول على معونات مالية كبيرة للسويد من حكومة فرنسا المشرفة على الإفلاس ، و ٣٠٠,٠٠٠ جنيه لاستعماله الشخصى فى ترويض أعضاء مجلس الأمه . وفى الطريق إلى أرض الوطن توقف ليرى فردريك الأكبر الذى أنذره بأن بروسيا ستدافع — بالسلاح إن اقتضى الأمر — عن ذلك الدستور السويدى الذى قيد سلطات الملك تقييداً شديداً .

ووصل جوستافس إلى ستوكهلم فى ٦ يونيو . وفى الرابع عشر افتتح أول مجلس أمة فى عهده ، بكلام جميل أشبه بذلك الذى افتتح به ملك آخر معوق ، هو جورج الثالث ، برلمانه الأول فى ١٧٦٠ . قال « إننى وقد ولدت ونشأت بين ظهرانيكم تعلمت منذ نعومة أظفارى أن أحب وطنى ، وإنى لأعده أعظم امتياز أننى ولدت سويدياً ، وأكبر شرف أن أكون المواطن الأول

لشعب حر»[٤١] . وقد أكسبته بلاغته ووطنيته تجاوباً حاراً من الأمة ، ولكنهما لم تحركا قلوب رجال السياسة.. وفاز حزب الطواقي — أصدقاء الدستور وروسيا — الذين تمولهم كاترين الثانية بأربعين ألف جنيه » بأغلبية فى ثلاث من مجالس الطبقات الأربع . ورد جوستافس باقتراض ٢٠٠,٠٠٠ جنيه من المصرفيين الهولنديين ليشترى انتخاب مرشحه رئيساً للمجلس . ولكن كان عليه أن ينتظر تتويجه ، فراجعت مجالس الطبقات التى يسيطر عليها حزب الطواقى يمين التتويج لبربط الملك بتعهد يلتزم فيه بقرار « أغلبية مجالس الطبقات» وأن تكون الكفاية وحدها أساساً لجميع الترقيات . وقاوم جوستافس نصف عام هذه الخطوة نحو الديمقراطية ، وأخيراً وقع (مارس ١٧٧٢) » ولكنه فى دخيلة نفسه اعتزم الإطاحة بهذا الدستور الكريه لأول بادرة تسنح له .

وقد مهد أرضه بتوطيد شعبيته . ففتح أبوابه للجميع ؛ و « أغدق الهبات كأنه يتلقاها » ، ولم يصرف أحداً غير راض . وقد وافقه نفر من قادة الجيش على أنه لايستطيع تخليص السويد من تسلط روسيا وبروسيا — اللتين كانتا فى هذا الوقت بالذات (٥ أغسطس ١٧٧٢) تقطعان أوصال بولنده — إلا حكومة مركزية قوية لايعوق حركتها مجلس أمة مرتش . وساهم فرجبين السفير الفرنسى بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دوقاتيه فى نفقات الانقلاب . وفى ١٨ أغسطس رتب جوستافس أن يقابله ضباط الجيش فى الترسانة صباح الغد . وجاء مائتان منهم . فطلب إليهم أن ينضموا إليه فى الإطاحة بنظام حكم فاسد قلق يدعمه أعداء السويد ، فوافقوا كلهم على أن يتبعوه إلا واحداً . أما الخارج على الإجماع ، وهو رودبيك الحاكم العام ، فقد ركب مخترقاً شوارع ستوكهلم داعياً أفراد الشعب إلى حماية حريتهم ، ولكنهم ظلوا غير مكترثين ، لأنهم كانوا معجبين بجوستافس ، ولم يحبوا هذا المجلس الذى كان فى رأيهم يستر أوليجاركية من النبلاء ورجال الأعمال وراء أشكال دمقراطية . وقاد الملك الشاب (وقد بلغ السادسة والعشرين) الضباط إلى ثكنات حرس ستوكهلم فتحدث إليهم حديثاً بلغ من الإقناع مبلغاً جعلهم

يتعهدون بتأييده . وبدأ انه يكرر خطوة فخطوة الطريقة التى أوصلت كاترين الثانية إلى السلطة قبل عشر سنوات .

فلما التأم شمل مجلس الأمة فى ٢١ أغسطس وجد ساحته يحيط بها الرماة والقاعة نفسها قد احتلها الجنود . ووبخ جوستافس فى خطاب صنع التاريخ مجالس الطبقات لأنها لوثت نفسها بالتناحر الحزبى والرشوة الأجنبية ، وأمر بأن يقرأ عليها الدستور الجديد الذى أعده معاونوه . وقد احتفظ هذا الدستور بملكية مقيدة ، ولكنه وسع سلطات الملك ، فخول له الهيمنة على الجيش والبحرية والعلاقات الخارجية ، وله وحده حق تعيين الوزراء وإقالتهم ، ولا يجتمع مجلس الأمة إلا بدعوة منه ، وله أن يفضه متى شاء ، ولا يناقش المجلس إلا ما قدمه له الملك ، ولكن لا يصبح مشروع قانوناً دون موافقة المجلس ، ويحتفظ المجلس بالإشراف على المالية عن طريق مصرف السويد وحق فرض الضرائب . وليس للملك أن يخوض حرباً هجومية دون موافقة المجلس . والقضاة يعينهم الملك ثم يصبحون غير قابلين للعزل ، ويحمى حق « الهابياس كوريس » كل الأشخاص المعتقلين من تعطيلات القضاء . وطلب جوستافس إلى النواب أن يقبلوا هذا الدستور ، وأقنعتهم أسنة الحراب فقبلوه ، وأقسموا يمين الولاء . وشكر الملك المجلس وفضه واعداً بدعوته من جديد خلال ستة أعوام . واختفى حزبا الطواقى والقبعات . وقد تم الانقلاب فى سرعة لم يرق فيها دم . وبرضى الشعب على ما يلوح . « وقد هتفوا لجوستافس محرراً لهم وأغرقوه دعاء . . . وتعانق الناس وهم يذرفون دموع الفرح »[٤٢]. واغتبطت فرنسا ، أما روسيا وبروسيا فهددتا بالحرب لرد الدستور القديم . ولكن جوستافس لم يهتز . وتراجعت كاترين وفردريك ، مخافة أن تعرض الحرب مغانمهما البولندية للخطر .

وسلك جوستافس فى العقد التالى مسلك الملك الدستورى . أى أنه خضع للقانون الموضوع . وقام بإصلاحات نافعة . وتبوأ له مكاناً بين حكام القرن « المستبدين المستنيرين » . وأشاد به فولتير باعتباره « الوريث الجدير باسم جوستافس العظيم »[٤٣] . وأما طورجو الذى كان يعانى الإحباط فى

فرنسا . فقد طاب نفساً حين رأى سياساته الاقتصارية تنجح فى السويد ، حيث أجيزت حرية التجارة فى الغلال ، وأطلق عقال الصناعة من نظم النقابات الحرفية التى شلت حركتها . وحفز التجارة تنظيم الموانى الحرة على البلطيق ومدن الأسواق الحرة فى الداخل . واستشير ميرابو الأب فى تحسين الزراعة ؛ وكلف لرسييه ولا ريفيير بوضع خطة للتعليم العام [٤٤] . وأرسل جوستافس إلى ڤولتير نسخة من الأمر الذى كفل حرية النشر (١٧٧٤) » وكتب يقول : « إنك أنت الذى يجب أن تسدى إليك الإنسانية الشكر على تحطيم تلك العقبات التى ألقاها الجهل والتعصب فى طريق تقدمها [٤٥] وقد أصلح القانون والقضاء ، وألغى التعذيب ، وخفف العقوبات ، وثبت العملة . ثم خفف الضرائب على الفلاحين ، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول ، ومنح التسامح لجميع المذاهب المسيحية واليهود فى ثلاث مدن كبرى منهيا بذلك احتكار المذهب اللوثرى لتقوى السويديين ؛ فلما ان دعا مجلس الأمة للانعقاد فى ١٧٧٨ ، وافق المجلس على سنوات حكمه الست الأولى دون أن يخرج صوت واحد على الإجماع وكتب جوستافس إلى صديق له « لقد بلغت أسعد مراحل حياتى العملية . فأفراد شعبى مقتنعون بأننى لا أبغى شيئاً غير زيادة رفاهيتهم وتوطيد دعائم حريتهم » [٤٦] .

٣ — التنوير السويدى

وفى زحمة هذا النشاط التشريعى والإدارى ، أسهم الملك بكل قلبه فى ذلك التفجر الرائع للآداب والعلوم ، الذى أوقف السويد على قدم المساواة مع التطورات الفكرية الأوروبية فى القرن الثامن عشر ؛ وكان هذا عصر لنايوس فى النبات ، وشيليه وبرجمان فى الكيمياء ، وقد أشدنا بذكرهما فى غير هذا الموضع — ولكن ربما كان من واجبنا أن ندرج فى قائمة العلم رجلا من ألمع السويديين فى زمانه ، وهو إمانويل سويدنبورج ، لأنه اشتهر أول ما اشتهر بوصفه عالماً . فقد أنجز عملا أصيلا فى الفيزياء والفلك والجيولوجيا والبليونتولوجيا وعلم المعادن والفسيولوجيا وعلم النفس . وحسن المضخة الهوائية باستعمال الزئبق ؛ وإيجاد وصف المغنطيسية

والوميض الفوسفورى ؛ واقترح نظرية سديمية قبل كانط ولا بلاس بزمان ؛ وسبق البحث الحديث فى الغدد الصماء . وبين قبل أى عالم آخر بمائة وخمسين عاماً أن حركة المخ متزامنة مع التنفس لامع النبض . وحدد مكان عمليات العقل الراقية فى سحاء المخ » وحدد لأجزاء معينة من المخ وظيفة التحكم فى أعضاء معينة من الجسم (٤٧) . وخطب مجلس النبلاء فى النظام العشرى ، وإصلاح العملة ، وموازنة التجارة . وبدا أن عبقريته كلها موجهة إلى العلم . ولكنه حين خلص إلى أن دراساته تقوده إلى نظرية ميكانيكية للعقل والحياة ، وأن هذه النظرية مفضية إلى الإلحاد » انتقض على العلم بقوة وتحول إلى الدين . وفى ١٧٤٥ بدأ يرى رؤى للجنة والنار ، وانتهى به الأمر إلى تصديق هذه الرؤى حرفياً ، فوصفها فى رسـالته « السماء وعجائبها والجحيم » وأخبر قراءه الذين يعدون بالألوف أنهم فى الجنة لن يكونوا أرواحاً مجردة من جسومها بل رجالا ونساء حقيقيين من لحم ودم ، يستمتعون بمباهج الحب الجسدية والروحية . جميعاً . ولم يعظ » ولا ألف مذهباً أو شيعة » ولكن تأثيره انتشر فى طول أوربا وعرضها ، فتأثر به ويسلى ، ووليم بليك » وكولردج ، وكارليل ، وإمرسن ، وبراونتج ، وأخيراً (١٧٨٨) كون اتباعه « كنيسة أورشليم الجديدة » .

على أن السويد رغم معارضته أسلمت عقلها أكثر فأكثر للتنوير . وسرعان ما أسفر استيراد المؤلفات الفرنسية والانجليزية أو ترجمتها عن علمنة للثقافة وتهذيب للذوق والأشكال الأدبية . ووجدت النزعة التحررية الجديدة فى عهد جوستافس الثالث وأمه قبولا واسعاً فى الطبقتين الوسطى والعليا ؛ حتى بين كبار رجال الدين ، الذين بدأوا يبشرون بالتسامح وبعقيدة ربوبية بسيطة (٤٨) . وكانت الشعارات السائدة فى كل مكان هى « العقل » ، و « التقدم » ، و « العلم » و « الحرية » و « الحياة الطيبة هنا على الأرض » . ونظم لينايوس وغيره الأكاديمية الملكية السويدية للعلوم فى ١٧٣٩ ، وأسس كارل تسين الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة فى ١٧٣٣ . وكانت الأكاديمية الملكية للآداب البحتة قد عاشت فترة قصيرة على عهد الملكة لويزة أولريكا ، فأحياها جوستافس (١٧٨٤) بوقف سخى » ووجهها لمنح مدالية كل عام

قيمتها عشرون دوقاتية لأفضل إنتاج سويدى فى التاريخ أو الشعر أو الفلسفة ، وفاز هو نفسه بأول جائزة كوفىء بها على ثنائه على لنارت تورشتنسن ألمع قواد جوستافس أدولفس . وفى ١٧٨٦ أسس الملك ، (على حد قوله) «أكاديمية جديدة لتهذيب لغتنا وصقلها » على غرار الأكاديمية الفرنسية » ويطلق عليها اسم الأكاديمية السويدية ، وتتألف من ثمانية عشر عضواً. « وأمدت هذه الأكاديمية هي وأكاديمية الآداب البحتة بالمال اللازم لصرف المعاشات للدارسين والمؤلفين السويديين [٤٩] . وكان جوستافس يساعد شخصياً رجال الأدب أو العلم أو الموسيقى ؛ وقد أشعرهم بأن جوده حق لهم » ورفعهم إلى مقام اجتماعى جديد بدعوتهم إلى بلاطه ، ثم حفزهم بمنافسته إياهم .

وكان فى السويد دراما قبل عهده » لا سيما بتشجيع من أمه ، ولكنها كانت تزود بالممثلين الفرنسيين الذين يقدمون المسرحيات الفرنسية . فصرف جوستافس الفرقة الأجنبية » واستنهض المواهب الوطنية لإخراج تمثيليات لمسرح سويدى حقاً . وتعاون هو نفسه مع يوهان فيلاندر فى تأليف أوبرا « تيطس وبيليه » ، وعرضت أول مرة فى ١٨ يناير ١٧٧٣ ، واستمر عرضها ثمانى وعشرين ليلة . ثم انصرف الملك إلى السياسة ثمانية أعوام . غير انه عاد إلى تناول القلم من جديد فى ١٧٨١ وألف سلسلة من التمثيليات مازالت تحتفظ بمكانة مرموقة فى الأدب السويدى . وأولى هذه التمثيليات — المسماة (أرمحية جوستافس أدولفس » ١٧٨٢) — كانت فاتحة الدراما السويدية . وكان الملك يستقى موضوعاته من سجلات التاريخ » وقد علم شعبه تاريخ أمتهم كما علم شكسبير الانجليزى . وفى ١٧٨٢ بنى على حساب الدولة مسرح منيف للدراما والموسيقى . وكان جوستافس يكتب مسرحياته نثراً » ثم يصوغها يوهان كلجرين شعراً » ثم يدفعها إلى مؤلفين موسيقيين أجانب ليضعوا موسيقاها . وهكذا أصبحت تمثيلاته أوبرات . وكانت أشهى ثمرات هذا التعاون « جوستاف أدولف وإيبا براهى» التى أحيت ذكرى قصة غرام القائد العظيم » وجوستاف فازا ، التى وصفت تحرير أول جوستاف للسويد من الحكم الدنمركى .

وبفضل هذه القيادة الملكية » وبفضل ثلاث جامعات (أوبصالا ،

رآبو ، ولوند) دخلت السويد حركة تنويرها الخاصة . ومهد للحركة أولوف فون دالين بتمهيد أديسونى (أى على طريقة جوزف أديسون) بكتابته غفلا من التوقيع ، ونشره دوريا (١٧٣٣ — ٣٤) مجلة دن‌سفنسكا أرجوس ، التى ناقش فيها كل شىء إلا السياسة ، بأسلوب صحيفة سبكتيتور المهذب ، وابتهج كل قارىء تقريباً بما كتب ، ووافق مجلس الأمة على إجازة الكاتب الذى طلع الآن من مخبئه . وعينته الملكة لويزه أولريكا شاعراً للبلاط ومعلماً لإبنها الذى أصبح جوستافس الثالث . فقيد المنصب شاعريته وبلدها ، ولكنه أتاح له من الوقت والمال ما أعانه على كتابة رائعته فى تاريخ السويد ، وهو أول تاريخ نقدى لمملكة السويد .

وكانت أطرف الشخصيات فى كوكبة الشعراء الجديدة امرأة تسمى هدفيج نوردنفليشت ، وهى للسويد قريع لسافو ، وأسباسيا ، وشارلوت برونتى فى أوطانهن . وقد أفزعت أبويها المتزمتين بقراءتها المسرحيات والشعر ، فعاقباها ، ولكنها لم تنته ، وكتبت شعراً فيه من الحلاوة والفتنة ما أكرههما على أن يروضا نفسيهما على هذه الفضيحة . ولكنهما أجبراها على الزواج من ناظر ضيعتهما ، وكان رجلا حكيماً دميم الوجه ، قالت « كنت أحب أن أصغى إليه فيلسوفاً ، ولكن منظره عاشقاً كان لايحتمل»[٥٠]. وتعلمت أن تحبه ، ولكنه لم يلبث أن مات بين ذراعيها بعد زواجهما بثلاث سنين . وأنهى قسيس وسيم حدادها بخطبتها ، فأصبحت زوجاً له ، واستمتعت « بأسعد حياة تتاح لإنسان فان فى هذا العالم الناقص » ، ولكنه مات بعد سنة ، وكادت هدفيج تجن حزناً عليه . فاعتكفت فى كوخ على جزيرة صغيرة ، وبثت حزنها فى قصائد حظيت بقبول حسن حملها على الانتقال إلى ستوكهولم حيث ظلت تصدر كل سنة (١٧٤٤ — ٥٠) « حكماً للنساء ، بقلم راعية من الشمال » وأصبح بيتها صالوناً يلتقى فيه صفوة المجتمع والفكر . وحذا حذوها الشعراء الشبان أمثال فردريك جليلنبورج وجوستاف كروتز فى اتخاذ الأسلوب الفرنسى الكلاسيكى وفى اعتناق التنوير . وفى ١٧٥٨ ، حين بلغت الأربعين ، وقعت فى غرام يوهان فشرشتروم . وكان فى الثالثة والعشرين ، واعترف لها بأنه يحب امرأة غيرها . ولكنه حين رأى

هيدفيج وحيدة مبتئسة عرض عليها الزواج . فرفضت هذه التضحية ، وحاولت إغراق نفسها حلا للمشكلة ، فأنقذت ، ولكنها ماتت بعد ثلاثة أيام. ومازالت « راعية الشمال » علماً من أعلام الأدب السويدى .

وحذا كروتز حذو خيالها الرومانسي المحلق بمجموعة رقيقة جداً من الأغاني سماها « أتيس وكاميللا » (١٧٦٢) « ظلت سنين كثيرة أعظم ما يعجب به القراء من قصائد فى هذه اللغة . فكاميللا » بوصفها كاهنة لديانا ، تنذر للعفة ، ولكن أتيس الصياد يراها فيهفو نفسه إليها ويضرب فى الغابات يائساً . وتتحرك عاطفة كاميللا أيضاً فتسأل ديانا « أليس ناموس الطبيعة مقدساً قداسة أمرك ؟ » ثم تصادف أيلا جريحاً فتعنى به وتخفف ألمه ، فيلعق يدها » ويتوسل إليها أتيس أن تهبه امتيازات مماثلة ، فتوبخه ، فيقفز من جرف عال طلباً للموت » ولكن كيوبيد يعترض سقطته ، وتحنو عليه كاميللا وترضى بعناقه ، غير أن ثعباناً ينشب نابه فى صدرها المرمرى ، فتموت بين ذراعى أتيس . ويمص أتيس السم من جرحها فيشرف على الموت . وتلين قناة ديانا » فتردهما إلى الحياة ، وتحل كاميللا من نذورها العذرية . وينتهى كل شيء نهاية سعيدة . وقد أشاد بهذه القصيدة الرعوية المثقفون السويديون كما أشاد بها فولتير » ولكن كروتز انصرف إلى السياسة وأصبح مستشاراً للسويد .

وإذا كانت هدفيج نورد نفليشت هى سافو السويد ، فإن كارل بلمان كان روبرت برنز السويد . نشأ فى أحضان العز والتقوى » ولكنه تعلم أن يفضل أغانى الحانات المرحة على ترانيم بيته الكئيبة . فى الحانات كانت حقائق الحياة والوجدان تعلن دون اكتراث بالتقاليد واللياقة ، وفيها يعرى الخمر كل نفس فتتيح للحقيقة أن تتكشف بين الوهم والغضب . وكان أكثر الشخصيات بعثاً للأسى فى هذا الحطام البشرى يان فريدمان ، الذى كان يوماً ما صانع ساعات البلاط . والذى حاول الآن أن ينسى فى الشراب فشل زواجه . وأكثرها مرحاً ماريا كيلشتروم ، ملكة الأعماق السفلى . وقد غنى بلمان أغانيهم معهم ، وألف الأغانى عنهم ، وأنشدها أمامهم على أنغام موسيقى من تأليفه . وقد شاب بعض أغانيه شيء من التحلل ، فوبخه

كيلجرين ، الأمير غير المتوج لشعراء العصر . ولكن حين أعد بلمان « رسائل فريدمان » للطبع (١٧٩٠) قدم كلجرين لهذه الرسائل الشعرية بمقدمة حماسية ، وحظى الكتاب بجائزة من الأكاديمية الملكية السويدية . واستمع جوستافس الثالث إلى بلمان فى سرور ، ولقبه « أناكريون الشمال » ومنحه وظيفة شرفية فى الحكومة . على أن اغتيال الملك (١٧٩٢) ترك الشاعر بغير مورد ، فتردى فى مهاوى الفقر ، وحبس للدين « ثم أفرج عنه بمعونة أصدقائه . وبينما كان مشرفاً على الموت بالسل وهو فى الخامسة والخمسين أصر على زيارة حانته الأثيرة لآخر مرة ، وراح يغنى فيها حتى بح صوته . ولم يلبث أن وافته منيته فى ١١ فبراير ١٧٩٥ . ويعده البعض « أكثر الشعراء السويديين أصالة » و « بالإجماع أعظم شاعر فى زمرة الشعراء » الذين شرفوا هذا العهد [٥١] .

ولكن الرجل الذى أقر معاصروه بأنه لا يفضله سوى الملك فى حياة العصر الفكرية هو يوهان هنريك كيلجرين . كان ابنا لقسيس ، ولكنه تنكر للعقيدة المسيحية ، وسار فى ركاب التنوير الفرنسى ، ورحب بكل لذائذ الحياة ومتعها بأقل قدر من الندم . وكان أول كتبه « ضحكى » ، أغنية طويلة للفرح ، بما فيه أفراح العشق ؛ وقد أشاد كيلجرين بالضحك باعتباره « العلامة الوحيدة الإلهية المميزة للبشرية » وناشده أن يصحبه حتى آخر أيامه [٥٢] . وفى ١٧٧٨ ، وهو فى السابعة والعشرين ، اشترك مع كارل بيتر لنجرين فى تأسيس مجلة « بريد ستوكهولم » ، وقد جعل قلمه المرح هذه المجلة الصوت الغالب فى الحياة العقلية السويدية على مدى سبعة عشر عاماً ؛ وفى صفحاتها بسط التنوير الفرنسى سلطانه كاملا ، وشرف الأسلوب الكلاسيكى باعتباره اسمى معيار للتفوق . وسخرت المجلة من الرومانسية الألمانية ، وامتدحت خليلات كلجرين فى قصائد أفزعت المحافظين فى البقاع النائية . على أن اغتيال مليكه المحبوب انتزع من فلسفة اللذة التى دان بها الشاعر . وفى ١٧٩٥ أفلت منه زمام إحدى علاقاته الغرامية فعمقت حتى أصبحت حباً صادقاً . وبدأ كيلجرين يعترف بحقوق الرومانس « والمثالية ، والدين ، وعدل عن إدانته لشيكسبير وجوته ، ورأى أن رأس الحكمة قد يكون مخافة

الله (رغم كل شيء) . على أنه حين مات (١٧٩٥) غير متجاوز الرابعة والأربعين . طلب ألا تقرع لموته نواقيس[٥٣] وهكذا عاد فى النهاية ابنا لفولتير .

ومن النواحى الساحرة فى خلقه استعداده لفتح أعمدة مجلته لمعارضى آرائه . وكان أعنفهم توماس توريلد ، الذى أعلن الحرب على التنوير باعتباره الإعجاب الفج بالفكر السطحى . وقد روع توريلد ستوكهولم وهو فى الثانية والعشرين بكتابه « العواطف المشبوبة » الذى قال عنه إنه « يحوى القوة الكاملة لفلسفتى والبهاء كله لخيالى — طليقاً ، نشوان ، رائعاً » . وصرح بأن « حياته بأسرها مكرسة . . . للكشف عن الطبيعة وإصلاح العالم » [٥٤] . والتف حوله نفر من الأدباء المتمردين الذين أججوا نارهم بوقود الحركة الزوبعية وفضلوا كلوبشتوك على جوته ، وشكسبير على راسين ، وروسو على فولتير . فلما أخفق توريلد فى كسب جوستافس لصفه ، هاجر إلى انجلترة (١٧٨٨) ، وغذى روحه بجيمس طومسن ، وإدوارد يونج ، وصموئيل رتشردسن ، وانضم إلى المتطرفين الذين ناصروا الثورة الفرنسية . وفى ١٧٩٠ قفل إلى السويد ونشر دعوة سياسية حملت الحكومة على نفيه . وبعد أن قضى عامين فى ألمانيا سمح له بالعودة إلى السويد حيث استكان إلى كرسى فى الجامعة .

وقد لمع فى سماء الأدب نجوم آخرون . منهم كارل جوستاف آف ليوبولد الذى سر الملك بما اتسم به شعره من شكل كلاسيكى وطابع مهذب . ومنهم بنجت ليدنر الذى آثر الرومانس كما آثره توريلد . وقد طرد من جامعة لوند لمغامراته الطائشة (١٧٧٦) ، ثم واصل دراساته وأخر اقته فى روشتوك ، فوضع على ظهر سفينة مبحرة إلى جزر الهند الشرقية . ولكنه هرب منها ، وعاد إلى السويد ، وأثار انتباه جوستافس بديوان من القصص الخرافية الشعرية ، وقد عين سكرتيراً للكونت كروتز فى سفارته بباريس وهناك درس النساء أكثر من السياسة ، فأرسل إلى وطنه ، حيث مات

فقيراً فى الخامسة والثلاثين (١٧٩٣) . وقد كفر عن حياته بثلاثة دواوين تضطرم بنار بايرونية . ثم هناك شاعرة متواضعة هى آنا ماريا لنجرين ، زوجة مساعد كيلجرين فى تحرير مجلة بريد ستوكهولم . فقد أسهمت فيها بشعر أكسبها ثناء خاصاً من الأكاديمية الملكية السويدية . ولكنها لم تسمح لربة شعرها أن تعوقها عن أداء واجباتها المنزلية ؛ وفى قصيدة موجهة إلى ابنة وهمية نصحتها بأن تتجنب السياسة والمجتمع وتقنع بواجبات البيت ومباهج الحياة البيتية .

ونسأل الآن : هل قامت فى الفن السويدى أى حركة تتجاوب مع الأدب والدراما ؟.. قليلا ما ... ومن أمثلتها أن كارل جوستاف التسينى زخرف بالروكوك (حوالى ١٧٥٠) القصر الملكى الذى بناه أبوه نيقوديموس تسين فى ١٦٩٣ - ٩٧ . وجمع مجموعة وافرة من الصور والتماثيل هى الآن جزء من متحف ستوكهولم القومى . وحفر يوهان طوبياس زرجيل بالأسلوب الكلاسيكى تمثالا لفينوس وآخر لفون سكران (وهو إله الحقول والقطعان) ، وخلد فى الرخام ملامح يوهان باش الغليظة . وكان هناك أربعة مصورين فى أسرة باش : لورنتس الأكبر ، وأخوه يوهان ، وأخته أولريكا ، ولورنتس الأصغر ، وصور كل منهم الملكية والنبالة ، وكانوا جانباً متواضعاً فى التنوير الرائع الذى ازدان به هذا الحكم .

٤ - الاغتيـــال

كان الملك ذاته هو الذى ختم هذا الازدهار الرائع ختاماً حزيناً . ذلك أن الثورة الأمريكية التى عضدتها فرنسا أعظم تعضيد بدت له خطراً يتهدد كل الملكيات . فوصف المستعمرين بأنهم « رعايا متمردون » وأقسم أنه لن يعترف بهم أمة حتى يخلعهم ملك انجلترة من يمين الولاء له [٥٥] . وراح فى العقد الأخير من عمره يحكم زمام السلطة الملكية أكثر فأكثر . ويحيطها بالاحتفالات والمراسم ؛ ويقصى معاونيه الأكفاء ذوى العقول المستقلة ليحل محلهم خداماً له يمتثلون لرغباته دون تردد أو معارضة . وبدأ يقيد الحرية التى منحها للمطبوعات . وحين وجد زوجته امرأة غبية خاملة إنغمس فى

مغازلات (٥٦) صدمت الرأى العام الذى كان يتوقع من ملوك السويد أن يكونوا الأمة قدوة فى المحبة والولاء الزوجين . ثم نفر الشعب بتقريره احتكار الحكومة لتقطير المسكرات ، وتهرب الفلاحون الذين ألفوا أن يقطروا شرابهم بأنفسهم من هذا الاحتكار بعشرات الحيل . وقد أنفق مالا متزايداً على الجيش والبحرية ، وكان يتأهب بشكل ظاهر للحرب مع الروسيا . فلما جمع مجلس الأمة مرة ثانية (٦ مايو ١٧٨٦) افتقد فى طبقاته ذلك الإجماع الذى وافق به مجلس ١٧٧٨ على قوانينه ، ورفض المجلس مقترحاته كلها تقريباً ، أو عدلها تعديلا أفقدها قيمتها ، فاضطر الملك إلى إلغاء احتكار الحكومة لتقطير الخمور . وفى ٥ يوليو فض المجلس وقرر أن يحكم البلاد دون موافقته .

وكانت هذه الموافقة طبقاً لدستور ١٧٧٢ ضرورية فى أى حرب إلا الحرب الدفاعية . وكان جوستافس ينوى الهجوم على روسيا . فما السبب ؟ لقد علم أن روسيا والدنمرك قد وقعتا (١٢ أغسطس ١٧٧٤) معاهدة سرية للعمل الموحد ضد السويد . وزار كاترين الثانية فى سانت بطرسبرج فى ١٧٧٧ ، ولكن تظاهرهما بالصداقة لم يخدع المضيفة ولا ضيفها . فلما تكاثرت انتصارات روسيا على تركيا ، خشى جوستافس إذا لم يقم بعمل لإنهائها أن توجه الامبراطورية عاجلا جيوشها الضخمة غرباً بأمل إخضاع السويد لمشيئتها على نحو ما فعلت ببولنده ؛ فهل من سبيل لإحباط تلك الخطة ؟ لاسبيل فى رأى الملك إلا أن تعان تركيا بهجوم جناحى على سانت بطرسبرج . وساعده السلطان على اتخاذ هذا القرار بعرضه على السويد إعانة قدرها مليون قرش كل سنة على امتداد السنوات العشر التالية إذا انضمت إليه فى الجهد المبذول لكبح جماح كاترين . وعلل الملك نفسه بأن السويد قد تستطيع الآن أن تسترد ما أسلمته لبطرس الأكبر فى ١٧٢١ . وعليه ففى ١٧٨٥ بدأ جوستافس فى تجهيز جيشه وبحريته للحرب . وفى ١٧٨٨ أرسل إلى روسيا انذاراً نهائياً طالب فيه برد كاريليا وليفونيا للسويد ، وبرد القرم لتركيا . وفى ٢٤ يونيو أبحر قاصداً فنلنده . وفى ٢ يوليو ، تولى فى هلسنجفورس قيادة قواته المتجمعة ، وشرع فى الزحف على سانت بطرسبرج .

ولكن الحظ خانه فى كل شيء فالأسطول أوقفه أسطول روسى صغير فى معركة غير حاسمة تجاه جزيرة هوجلاند (١٧ يوليو) . وتمرد فى الجيش ١١٣ ضابطاً ، متهمين الملك بأنه حنث بعهده بألا يشن حرباً هجومية دون موافقة مجلس الأمة . ووافدوا مبعوثاً إلى كاترين يعرضون عليها أن يضعوا أنفسهم تحت حمايتها وأن يتعاونوا معها فى جعل فنلنده السويدية والروسية دولة مستقلة . وجردت الدنمرك على عجل خلال ذلك جيشاً يهاجم جوتبورج ، أغنى مدينة فى السويد . وتقبل جوستافس هذا الغزو باعتباره تحدياً يستنفر شعبه ، ووجه نداءه إلى الأمة لاسيا الفلاحين الصلاب أهل مناطق التعدين المسمين « ديلز » ليعطوه جيشاً جديداً أكثر ولاء له ، وذهب بشخصه مرتدياً الزى الذى يتميز به رجال الديلز ليخطبهم من فناء الكنيسة فى قرية مورا وهو الفناء الذى التمس فيه جوستافس فازا معونتهم فى ١٥٢١ . واستجاب الشعب ، وتألفت أفواج المتطوعين فى مائة مدينة ، وفى سبتمبر ركب الملك الذى كان يقاتل لأجل حياته السياسية ٢٥٠ ميلا فى ثمان وأربعين ساعة ، وشق طريقه إلى جوتبرج ، واستنفز الحامية لتواصل دفاعها ضد اثنى عشر ألف من الدنمركيين الذين يحاصرونها . وتحول الحظ إلى جانبه . ذلك أن بروسيا التى كرهت أن تترك السويد تخضع لروسيا هددت بشن الحرب على الدنمرك ، فانسحب الدنمركيون من الأرض السويدية . وعاد جوستافس ظافراً إلى عاصمته .

أما وقد اشتد ساعده بجيش جديد موال له فقد دعا مجلس الأمة للانعقاد فى ٢٦ يناير ١٧٨٦ . وأيد سبعمائة عضو من أعضاء مجلس النبلاء — وعددهم ٩٥٠ — الضباط المتمردين ، ولكن المجالس الأخرى — القساوسة ، وأهل المدن ، والفلاحين — ناصروا الملك بأغلبية ساحقة . وأعلن جوستافس الحرب السياسية على النبلاء بتقديمه لمجلس الأمة « قانوناً للوحدة والأمن » أنهى كثيراً من امتيازات الطبقة الارستقراطية ، وفتح باب المناصب كلها تقريباً [illegible] ، وأعطى الملك سلطات ملكية مطلقة فى التشريع والإدارة والحرب [illegible] الطبقات الثلاث الدنيا القانون ، أما طبقة النبلاء فقد رفضته [illegible] . واعتقل جوستافس واحداً وعشرين نبيلا ، [illegible]

الكونت فردريك آكسل فون فرسن والبارون كارل فردريك فون بكلين — وأحدهما رجل شريف الخلق غير فعال ، والآخر ذكي غادر . ولكن سلطة المال ظلت في يد مجلس الأمة ، وكانت موافقة المجالس الأربعة جميعها شرطاً لإقرار الاعتمادات المالية . ووافقت مجالس الطبقات الثلاث الدنيا على المال الذي طلبه الملك — للفترة التي يراها ضرورية — لمواصلة الحرب ضد روسيا ، أما مجلس النبلاء فرفض أن يوافق على الاعتمادات لأكثر من سنتين . وفي ١٧ أبريل دخل الملك مجلس النبلاء ، واتخذ مقعد الرئيس ، وطلب إلى النبلاء أن يوافقوا على قرار المجالس الثلاثة الأخرى . ورجحت كفة الرافضين، ولكن الملك أعلن أن اقتراحه فاز . وشكر النبلاء على تأييدهم الكريم ، ثم خرج بعد أن خاطر باغتياله بأيدي النبلاء الساخطين .

وأحس الآن أنه مطلق اليد في خوض الحرب . فأعاد فيما بقي من عام ١٧٨٩ بناء الجيش والأسطول . وفي ٩ يوليو ١٧٩٠ التقت بحريته بالبحرية الروسية في الجزء السفنسكوندي من خليج فنلنده ، وأحرز أعظم نصر حاسم في تاريخ السويد البحري ، وخسر الروس ثلاثاً وخمسين سفينة و ٩,٥٠٠ رجل . واستعدت كاترين الثانية لعقد الصلح وهي ما تزال مشغولة بالترك ، فوافقت بمقتضى معاهدة فارالا (١٥ أغسطس ١٧٩٠) على أنها جهودها للهيمنة على سياسة السويد ، وأعيدت الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب . وفي ١٩ أكتوبر ١٧٩١ أقنعها جوستافس بأن تبرم معه حلفاً دفاعياً تعهدت فيه بأن ترسل للسويد كل عام ٣٠٠,٠٠٠ روبل .

ولا ريب في أن خوف العدوين القديمين المشترك من الثورة الفرنسية حولهما إلى هذه المشاركة الجديدة . وتذكر جوستافس في عرفان أن فرنسا كانت الصديق الوفي للسويد طوال ٢٥٠ عاماً ، وأن لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر أمداه بمعونة بلغت ٣٨,٣٠٠,٠٠٠ جنيه بين عامي ١٧٧٢ و ١٧٨٩ . واقترح تأليف عصبة من الأمراء والملوك تغزو فرنسا وتعيد الملكية إلى سابق قوتها ، وأوفد هانز آكسل فون فرسن (وهو ابن عمه الكونت فون فرسن) ليدبر فرار لويس السادس عشر من باريس ،

وذهب بنفسه إلى إكس – لا – شابل ليقود جيش الحلفاء ، وسمح للمهاجرين الفرنسيين بالالتجاء إلى معسكرة . وقدمت كاترين المال دون الرجال . ورفض ليوبولد الثانى التعاون ، وقفل جوستافس إلى ستوكهولم ليحمى عرشه .

ذلك أن النبلاء الذين قضى على سيادتهم السياسية لم يرتضوا الهزيمة ، وكانوا يرون فى حكم جوستافس الاستبدادى انتهاكاً صريحاً للقانون الذى أقسم من قبل على مساندته . وأطال يعقوب انكارشتروم التفكير فى سقوط طبقته ، « لقد فكرت كثيراً فى أنه قد يكون هناك سبيل مشروع لجعل الملك يحكم وطنه وشعبه بمقتضى القانون ومحبة الخير » ولكن كل الأدلة قامت ضدى . . . فخير أن يغامر إنسان بحياته فى سبيل المصلحة العامة » ، وفى ١٧٩٠ حوكم بتهمة التحريض « لقد عقدت هذه المحنة . . . عزمى على أن أموت خيراً من أن أحيا حياة تعسة ، حتى إن قلبى الذى طبع فى غير هذا على الحساسية والمحبة انقلب قاسياً أشد القسوة فيا يتصل بهذه الفعلة الشنيعة »[٥٧] . وانضم بكلين – كونت كارل هورن – وغيره إلى المؤامرة التى بيتت قتل الملك .

وفى ١٦ مارس ١٧٩٢ ، وهو تاريخ يذكر بقيصر ذكرى مشئومة ، تلقى جوستافس رسالة تحذره من الذهاب إلى مرقص تنكرى حددت له تلك الليلة فى المسرح الفرنسى . وذهب الملك نصف مقنع ، ولكن الأوسمة التى حملها على صدره كانت تشى بمقامه . فتعرف عليه أنكارشتروم ، وأطلق عليه النار ، ثم فر هارباً . وحملوا جوستافس إلى مركبة مضوا بها إلى القصر الملكى مخترقين جمعاً هائجاً مضطرباً . وكان ينزف نزفاً خطراً ، ولكنه علق مداعباً بأنه أشبه بباباً يحمل فى موكب يخترق طرق روما . ولم يمض على الهجوم ثلاثة ساعات حتى قبض على أنكارشتروم ، ثم على رؤوس المؤامرة أجمعين بعد أيام . واعترف هورن بأن المؤامرة تضم مائة متآمر .

وطالبت الجماهير بإعدامهم ، وأوصى جوستافس بالرفق بهم . فجلد أنكارشتروم ، وقطع رأسه ، ومزق جسده أرباعاً ، وأفسح لجوستافس فى الأجل عشرة أيام ، فلما أنبئ بأن لم يبق له فى الحياة غير ساعات ، أملى وثائق بتعيين هيئة وصاية تحكم البلاد والعاصمة . ثم مات فى ٢٦ مارس ١٧٩٢ بالغاً من العمر خمسة وأربعين عاماً . وبكته الأمة كلها تقريباً ، لأنها تعلمت أن تحبه رغم أخطائه ، وأدركت أن السويد تحت قيادته عاشت عصراً من أمجد العصور فى تاريخها .

....

CHAPTER XVI

1. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 372; *cf.* Macdonald, Duncan, *The Religious Attitude to Life in Islam*, 126.
2. Lane, Edward W., *Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I, 148; Macdonald, Duncan, *Development of Muslim Theology*, 283; Wherry, E. M., *Commentary on the Quran*, I, 281.
3. Macdonald, D., *Religious Attitude*, 126.
4. Doughty, Charles M., *Travels in Arabia Deserta*, II, 99.
5. Halsband, Robert, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 73.
6. Lane-Poole, Stanley, *Story of Turkey*, 319.
7. Burton, Sir Richard, *Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah*, II, 94.

[illegible] Letter of Apr. 18, 1717, in [illegible]ontagu, *Letters*, I, 318.

9. Letter of Apr. 1, 1717, in same, 286.

[illegible] Friedländer, L., *Roman Life and Manners*, II, 201.

11. Frederick, *Mémoires*, I, 55.
12. Sir Wm. Petty, *Political Arithmetic* (1683).
13. Halsband, 74.
14. See *The Age of Louis XIV*, 425-26.
15. Lane, I, 172.
16. Lane-Poole, *Cairo*, 180.
17. Lane, I, 98.
18. *Ibid.*, 66.
19. *Enc. Brit.*, I, 678a.
20. *Ibid.*, XV, 816d.
21. Toynbee, *A Study of History*, I, 162.
22. Browne, Edward G., *Literary History of Persia*, IV, 135.
23. *Ibid.*, 136; Sykes, [illegible] Percy, *History of Persia*, II, 260.
24. *Ibid.*, 267.
25. *Enc. Brit.*, XII, 705b; Pope, Arthur U., *Survey of Persian Art*, IV, 470, 497-506.
26. Sykes, II, 201.
27. Pope, Arthur U., *Introduction to Persian Art*, 140.
28. Browne, E. G., IV, 182.
29. *Ibid.*, 291-96.

CHAPTER XVII

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 207.
2. Lyashchenko, Peter, *History of the National Economy of Russia*, 271-73.
3. *Ibid.*
4. Réau, Louis, *L'Art russe*, II, [illegible]
5. Florinsky, M. T., *Russia: A History and an Interpretation*, I, 575.
6. Mavor, James, *Economic History of Russia*, I, 477.
7. Réau, II, [illegible]
8. Mavor, I, 498-99.
9. Bernal, J. D., *Science in History*, 360.
10. Coxe, Wm., *Travels in Poland, Russia, Sweden, and Denmark*, I, 281-82.
11. Castéra, J., *History of Catherine II*, 174.
12. Dorn, *Competition for Empire*, 70.
13. Florinsky, I, 600; Brückner, A., *Literary History of Russia*, 113.
14. Coxe, *Travels*, I, 322.
15. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 250.
16. Pougin, Arthur, *Short History of Russian Music*, 10 f.
17. Réau, II, 55.
18. Brückner, 78.
19. Waliszewski, K., *History of Russian Literature*, I, 57.

[illegible] Wiener, Leo, *Anthology of Russian Literature*, I, 224-29.
21. Rambaud, Alfred, *History of Russia*, II, 170.
22. Waliszewski, *Peter the Great*, 224.
23. Waliszewski, *Russian Literature*, 83.
24. *Ibid.*
25. 85.
26. Catherine the Great, *Memoirs*, 60.
27. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 47.
28. *Ibid.*
29. 25.
30. Kluchevsky, V. O., *History of Russia*, IV, 354.
31. Catherine, *Memoirs*, 58.
32. Gooch, G. P., *Catherine the Great*, 11.
33. *CMH*, VI, 317.
34. Carlyle, *History of Frederich the Second*, V, 294.
35. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 34.
36. Kluchevsky, IV, 358.
37. Casanova, *Memoirs*, I, 33-34.
38. *CMH*, VI, 658.
39. Catherine, *Memoirs*, 28.
40. *Ibid.*, 44-45.
41. 29-30.
42. 54.
43. 62.
44. 63.
45. 65.
46. *CMH*, VI, 659
47. Waliszewski, *Romance*, 78.
48. *Ibid.*
49. Kluchevsky, IV, 360.
50. Castera, 122-23.
51. Waliszewski, *Romance*, 91.
52. Catherine, *Memoirs*, 203.
53. Castéra, 89.
54. Walpole, H., *Memoirs of the Reign of King George III*, I, 145.
55. Catherine, *Memoirs*, 208.
56. Gooch, *Catherine*, 8.
57. Catherine, 301.
58. *Ibid.*, 240.
59. 255 f.
60. Waliszewski, *Romance*, 102; Crocker, *The Embattled Philosopher*, 378.
61. Catherine, 271-74; Waliszewski, *Romance*, 119.
62. *Ibid.*, 125.
63. Catherine, 282.
64. Waliszewski, *Romance*, 145.
65. *Enc. Brit.*, XVII, 645b
66. Castéra, 153.
67. Rambaud, II, 175.
68. Kluchevsky, IV, 366.
69. Castéra, 147, 157.
70. *Ibid.*, 156; *CMH*, VI, 328.
71. Kluchevsky, IV, 362.
72. Castéra, 152.
73. Waliszewski, *Romance*, 166.
74. *Ibid.*, 166; Castéra, 158.
75. Waliszewski, 166.
76. *Ibid.*, 164.
77. Gooch, *Catherine*, 16.
78. Catherine, 343.
79. *Ibid.*
80. Waliszewski, *Romance*, 176.

CHAPTER XVIII

1. Letter of Catherine to Potemkin, Aug. 2, 1762, in Catherine, *Memoirs*, 347.
2. Kluchevsky, IV, 371.
3. Catherine, 345.
4. Kluchevsky, IV, 371.
5. Catherine, 345.
6. Florinsky, I, 502.
7. *CMH*, VI, 663.
8. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 199.
9. *Ibid.*
10. Catherine, 370.
11. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 303.
12. Rambaud, II, 207.
13. Florinsky, I, 504.
14. Brandes, *Voltaire*, 253.
15. Florinsky, I, 504.
16. Catherine, 263-72.
17. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 97.
18. Waliszewski, *Romance*, 383-88, Gooch, *Catherine*, 38.
19. Waliszewski, 4-6.
20. Masson, *Memoirs*, 98.
21. *Ibid.*
22. Catherine, 360.
23. *Ibid.*, 20.
24. Lewis, D. B. W., *Four Favorites*, 197.
25. Catherine, 376.
26. *Ibid.*, 46.
27. Gooch, *Catherine the Great*, 45.
28. Masson, *Memoirs*, 116.
29. Waliszewski, *Romance*, 448.
30. Masson, 118.
31. Parton, *Life of Voltaire*, II, 386; Gooch, 58.
32. Voltaire, letter of May 18, 1767, in Desnoiresterres, VI, 380.
33. Parton, II, 388.
34. Desnoiresterres, VI, 380.
35. Letter of Sept. 7, 1764.
36. Crocker, *Embattled Philosopher*, 373.
37. Diderot, *Oeuvres*, 28.
38. In Ellis, [illegible]velock, *The New Spirit*, 47.
39. Morley, John, *Diderot*, II, 113.
40. *Ibid.*, 114.
41. In Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 242.
42. Crocker, 380.
43. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 215.

44. Padover, *Revolutionary Emperor*, 161.
45. Sainte-Beuve, II, 216.
46. Catherine, 365.
47. Castéra, 226; *cf.* Waliszewski, *Romance*, 371-82
48. Coxe, *Travels in Poland*, III, 156; Castéra, 385.
49. Quoted by Voltaire in *Philosophical Dictionary*, II, 102.
50. Florinsky, I, 511; *CMH*, VI, 686.
51. In Gooch, *Catherine*, 69.
52. Voltaire [illegible] Catherine, Feb. 26, 1769.
53. In Rambaud, II, 206.
54. Voltaire, [illegible] *Dict.*, [illegible] "Power."
55. Mavor, *Economic History of Russia*, I, 241; Rambaud, II, 211.
56. Waliszewski, *Romance*, 365.
57. Garrison, F., *History of Medicine*, 400.
58. Castéra, *Catherine*, 297; Rambaud, II, 212.
59. Mavor, I, 313-14.
60. *Ibid.*, 472.
61. *CMH*, VI, 690.
62. Waliszewski, *Romance*, 298.
63. Lyashchenko, 273.
64. Mavor, I, 204-08.
65. Gershoy, 125.
66. Catherine, *Memoirs*, 385.
67. Gershoy, 133.
68. Florinsky, I, 567-68.
69. Waliszewski, *Romance*, 321.
70. [illegible]
71. Rambaud, II, 192; *Cambridge History of Poland*, II, 103.
72. Gooch, *Catherine*, 63.
73. Rambaud, II, 192.
74. *CMH*, VI, 674.
75. Quoted by George Bancroft in *Literary and Historical Miscellanies*, 359.
76. Gooch, *Catherine*, 51.
77. Lewis, *Four Favorites*, 213.
78. *Ibid.*, 179.
79. 213; Bain, R. N., *The Last King of Poland*, 175.
80. Florinsky, I, 531.
81. Catherine, 15.
82. Gilbert, *Prince de Ligne*, 139; Waliszewski, *Romance*, 209.
83. Castéra, 575.
84. Gooch, *Catherine*, 96.
85. Reddaway, *Frederick the Great*, 340.
86. Waliszewski, *Romance*, 233, 287.
87. *Ibid.*, 388.
88. Catherine, 377.
89. *CMH*, VI, 696.
90. Waliszewski, *Romance*, 237.
91. Wiener, *Anthology of Russian Literature*, I, 272-76.
92. *Ibid.*, 385.
93. 190.
94. 381.
95. Waliszewski, *History of Russian Literature*, 103.
96. Brückner, *Literary History of Russia*, 102.
97. *Ibid.*, 115.
98. 116.
99. 105-07.
100. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 342.
101. Réau, *L'Art russe*, II, 111.
102. *Ibid.*, 68.
103. Waliszewski, *Romance*, 349.
104. *Enc. Brit.*, XIX, 747b.
105. Waliszewski, *Romance*, 346.
106. Réau, II, 76.
107. *Ibid.*
108. 79.
109. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 93.
110. Gilbert, *Prince de Ligne*, 143.
111. Brückner, 112.
112. Morley, John, *Diderot*, II, 128; Rambaud, II, 245.
113. *Ibid.*, 247.
114. Masson, *Memoirs*, 303-06.
115. Catherine, 20.
116. Masson, 66.
117. Gooch in introd. [illegible] Catherine, *Memoirs*, 10.
118. Otto Hötzsch in *CMH*, VI, 701.

CHAPTER XIX

1. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 37.
2. Goodwin, *The European Nobility*, 161.
3. Waliszewski, *Poland the Unknown*, 127.
4. Bain, R. Nisbet, *The Last King of Poland*, 22; Friedländer, L., *Roman Life and Manners*, II, 162.
5. Bain, 43.
6. *Cambridge History of Poland*, II, 75.
7. *Ibid.*, 76-77; Coxe, Wm., *Travels in Poland*, II, 125.
8. *New CMH*, VII, 374; Lewinski-Corwin, E. H., *Political History of Poland*, 286.
9. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 73.
10. Bain, *Last King of Poland*, 100.
11. *Ibid.*, 59.
12. 31-32.
13. See *The Age of Louis XIV*, 374, 385-87.
14. *CHP*, II, 24.
15. Lewinski-Corwin, 289.
16. Bain, *Last King*, 55.
17. *Ibid.*, 56.
18. Aldis, *Madame Geoffrin*, 248.
19. Florinsky, *Russia*, I, 527.
20. Aldis, 251.
21. *Ibid.*, 282.
22. *CHP*, II, 116; Bain, 161.
23. Bain, *Last King*, 121.
24. Rambaud, *History of Russia*, II, 188.
25. *CHP*, II, 118.
26. *CHP*, II, 97-98; Bain, 77-78.

27. Rambaud, II, 188.
28. Bain, *Last King*, 78.
29. *CHP*, II, 120.
30. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Superstition," Sec. III.
31. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 167.
32. *CHP*, II, 102.
33. *Ibid.*, 103.
34. *Ibid.*; Bain, 108.
35. Bain, *Last King*, 108.
36. *Ibid.*, 2.
37. *Enc. Brit.*, XVIII, 143d.
38. Treitschke, *Life of Frederick the Great*, 164.
39. *CMH*, VI, 670.
40. Lewis, D. B. W., *Four Favorites*, 202.
41. Gershoy, 180.
42. Morley, John, *Life of Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXIb, 346; Florinsky, I, 537.
43. Coxe, *Travels in Poland*, I, 150.
44. Bain, *Last King*, 121.
45. *CHP*, II, 181-82.
46. Bain, 102.
47. *CHP*, II, 181-83.
48. *Ibid.*, 135.
49. Bain, *Last King*, 249.
50. *Ibid.*, 278.
51. *CHP*, II, 155.

CHAPTER XX

1. In Gooch, *Frederick the Great*, 65.
2. MacLaurin, C., *Mere Mortals*, 105.
3. Mowat, R. B., *The Age of Reason*, 61.
4. Gooch, *Frederick*, 141.
5. Mann, Thos., *Three Essays*, 213.
6. Sir James Harrison in Gooch, *Frederick*, 149.
7. In Rolland, *Musical Tour*, 224.
8. *New York Times*, Mar. 10, 1929.
9. Frederick, letter of Oct. 30, 1770, in Voltaire and Frederick, *Letters*, 314.
10. Crocker, Lester, *Age of Crisis*, 133.
11. Gooch, *Frederick*, 138.
12. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 86.
13. Voltaire and Frederick, *Letters*, 249.
14. Frederick to Voltaire, July 2, 1759, and Oct. 31, 1760, in *Letters*, 256, 270.
15. Bertaut, J., *Napoleon in His Own Words*, 463.
16. Treitschke, *Life of Frederick*, 182.
17. In Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 333.
18. *Sainte-Beuve, Portraits of the 18th Century*, II, 344.
19. *Ibid.*, 347.
20. In Mowat, 105.
21. Morley, in Voltaire, *Works*, XXIb, 195.
22. Sainte-Beuve, I, 220-21.
23. Voltaire and Frederick, *Letters*, 282.
24. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, IV, 179n.
25. Frederick to Voltaire, Feb. 10, 1767.
26. Chesterfield to his son, *Letter.*, June 23, 1752.
27. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 299.
28. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 106; Gershoy, 75.
29. Paulsen, *German Education*, 142.
30. Gershoy, 284.
31. Carlyle, *Friedrich*, VII, 201.
32. Gershoy, 76; Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 297.
33. *Ibid.*, 299.
34. Bruford, W. H., *Germany in the 18th Century*, 186.
35. *CMH*, VI, 718
36. Gershoy, 84.
37. Frederick, *Testament* (1768), in *CMH*, VI, 723.
38. Bruford, 22.
39. Casanova, *Memoirs*, I, 349.
40. Burke, *Thoughts on French Affairs*, in *Reflections on the French Revolution*, 296.
41. Pascal, Roy, *The German Sturm und Drang*, 75-76.
42. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 162.
43. Sime, James, *Lessing*, II, 231.
44. Schiller, *Poems*, 219-20. In *Works*.
45. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 79.
46. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 44.
47. Bruford, 39.
48. *Enc. Brit.*, IX, 322b.
49. Padover, *Revolutionary Emperor*, 269. Campbell, Thos., *The Jesuits*, 611.
50. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 404
51. Smith, N. K., *Commentary to Kant's "Critique of Pure Reason,"* 6.
52. Eckermann, introduction.
53. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 118.
54. *Ibid.*, 116-17.
55. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 251. In *Works*.
56. F. C. Schlosser in Monroe, Paul, *Textbook in the History of Education*, 580.
57. Morley in Voltaire, *Works*, XXIb, 153.
58. Nettle, *Mozart and Masonry*, 9.
59. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 318.
60. *Ibid.*
61. 331.
62. Sime, *Lessing*, I, 27.
63. Garland, H. B., *Lessing*, 154.
64. *Ibid.*, 118.
65. Lessing, *Laocoön*, 190; Ch. xxvi, *ad. init.*
66. Bosanquet, *History of Aesthetic*, 221n.
67. Lessing, *Laocoön*, 56.
68. *Ibid.*, 57.

69. Sime, II, 4.
70. *Ibid.*, 55.
71. Lessing, *Hamburgische Dramaturgie*, No. 70, in Garland, 64.
72. Lessing, *Sämtliche Schriften*, X, 53, in Sime, II, 206.
73. Sime, II, 85.
74. C[illegible] II, 271.
75. See *The Age of Voltaire*, 502.
76. Sime, II, 348.
77. Lessing, *Education of the Human Race*, No. 74 (Harvard Classics, Vol. XXXII, 212).
78. *Ibid.*, Nos. [illegible]–86.
79. Brandes, *Goethe*, I, 434; Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 190.
80. Sime, II, 300; Brandes, *Goethe*, I, 434.
81. Sime, II, 346.
82. *Ibid.*, 330.
83. Klopstock, *The Messiah*, *ad finem*.
84. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 79; II, 5. In *Works*.
85. *Penguin Book of German Verse*, 175.
86. *Ibid.*, 178-90.
87. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 350. In *Works*.
[illegible] Eckermann, 370 (Feb. 18, 1829).
89. Boehn, Max von, *Modes and Manners*, IV, 238.
90. Pascal, Roy, *The German Sturm* [illegible] *Drang*, 5.
91. [illegible], 31.
92. Francke, Kuno, *History of German Literature*, 312.
93. *Ibid.*, 310.
94. Boehn, 124.
95. Schloss Tiefurt, near Weimar.
96. Schlossmuseum, Weimar.
97. Sanssouci Palace, Potsdam.
98. Winckelmann, II, 36.
99. Leipzig, Museum der Bildenden Künste.
[illegible] Munich, Neue Pinakothek.
101. Dresden Gemäldegalerie.
[illegible] Winterthur, Museum [illegible] Kunstvereins.
103. Schlossmuseum, Weimar.
104. Dresden Gemäldegalerie.
105. Weimar Museum.
106. Jahn, *Mozart*, III, 235.
107. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 589.
108. *Grove's Dictionary of Music*, I, 175.
109. Jahn, II, 65.
[illegible] *Grove's*, I, 145-55, 177-81.
111. Gooch, *Frederick*, 298.
112. Frederick, *Mémoires*, I, 56 f.
113. Gooch, 309.
114. *Ibid.*, 305.
115. 319.
116. 323.
117. Frederick, *Mémoires*, I, 56.
118. [illegible]ooch, *Frederick*, 319.
119. *Ibid.*, [illegible]
120. 292.
121. 287.
122. 287.
123. 291.
124. 89.
125. 294.
126. In Hauser, Arnold, *Social History of Art*, II, 602.
127. Pascal, Roy, *Sturm und Drang*, 42.
128. MacLaurin, *Mere Mortals*, 201.
129. Gooch, *Frederick*, 110.

CHAPTER XXI

1. Paulsen, *Immanuel Kant*, 26n.
2. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, II, 139.
3. T. M. Greene in introd. to Kant, *Religion within the Limits of Reason Alone*, xxviii.
4. *Ibid.*, xxx.
5. Paulsen, *Kant*, 37.
6. Wilson, E. C., *Immanuel Kant*, 3.
7. Herder, *Briefe* [illegible] *Beförderung der Humanität*, in Paulsen, *Kant*, 40.
8. Williams, H. S., *History of Science*, III, 27-28.
9. Lovejoy, Arthur, *The Great Chain of Being*, 266.
10. Harlow Shapley in Wilson, *Immanuel Kant*, 51.
11. Kant, *Critique of Judgment*, II, 78; Paul[illegible] 272n.
12. Ueberweg, II, 150.
13. Paulsen, 272n.
14. In Smith, N. K., *Commentary*, xix.
15. Kant, *Critique of Pure Reason*, 1st ed., 13 (preface).
16. *Critique of Judgment*, I, 3.
17. *Pure Reason*, 1st German ed., 10 (preface).
18. *Pure Reason*, 2d German ed., xliii.
19. *Ibid.*, xxx, xxxiv.
20. *Prolegomena to Any Future Metaphysics*, 9 (preface).
21. In Paulsen, 96.
22. *Pure Reason*, 1st Germ. ed., 112.
23. *Ibid.*, 125; *Prolegomena*, No. 36.
24. *Pure Reason*, 42.
25. *Ibid.*, 307, 375.
26. *Pure Reason*, 2d Germ. ed., 131-33, 136, 139, 143.
27. *Ibid.*, 428.
28. First ed., 612-13.
29. *Ibid.*, 627.
30. 671-73, 675.
31. 468.
32. 683-92, 698.
33. 700.
34. Karl Reinhold in Paulsen, 114.
35. *Prolegomena*, 13 (preface).
36. *Pure R*[illegible]*on*, first ed., 298, 752.

37. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 337.
38. *Pure Reason*, 2d ed., xxx, xxxiv.
39. Kant, *Fundamental Principles of the Metaphysics of Ethics*, 35.
40. Kant, *Critique of Practical Reason*, 313.
41. *Ibid.*, 248, 259.
42. 142.
43. *Fundamental Principles*, 68.
44. *Ibid.*, 57.
45. *Practical Reason*, 108-9, 146.
46. *Pure Reason*, 2d ed., 571-73.
47. *Ibid.*, xxviii, 566-69, 580-81; *Practical Reason*, 164 f.
48. *Ibid.*, 259 f.
49. 260.
50. *Pure Reason*, [illegible] ed., 819.
51. Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 25.
52. Heine, H., *Religion and Philosophy in Germany*, in Paulsen, 8a.
53. *Critique of Judgment*, I, 18, 15.
54. *Ibid.*, [illegible]
55. 46.
56. *Critique of Judgment*, II, 89.
57. *Ibid.*, 117.
58. Kant, *Werke*, VI, 129, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 39.
59. Überweg, II, 141.
60. Kant, *Religion within the Limits of Rea*[illegible] *Alone*, 3.
61. *Ibid.*, 8.
62. 8.
63. 28.
64. 29.
65. Kant, *Education*, No. 19.
66. Kant, *Religion*, 35.
67. Kant, "Conjectural Beginning of the History of Man," in Überweg, II, 186.
68. Kant, *Religion*, 51.
69. *Ibid.*, 147, 159-61.
70. 142-43.
71. 91.
72. 63.
73. 117.
74. 57, 134.
75. 186.
76. 183-85.
77. 153, 164-65, 168, 112.
78. *Ibid.*, xxxiv.
79. Kant, *A Philosophical Treatise* [illegible] *Perpetual Peace*, 10.
80. *Ibid.*, 28.
81. 31.
82. *Practical Reason*, 341n.
83. *Perpetual Peace*, 78.
84. Paulsen, 351.
85. *Perpetual Peace*, 29-30; Smith, N. K., *Commentary*, lvii.
86. *Education*, No. 30.
87. *Ibid.*, No. 7.
88. Paulsen, 374.
89. *Practical Reason*, 326n.
90. *Ibid.*, introd. by T. G. Abbott, *xliii*.
91. *Ibid.*, *xliv*.
92. Paulsen, 45.
93. *Ibid.*, 47; Klinke, *Kant for Everyman*, 105.
94. Stuckenberg, *Life of Kant*, 340-54, in Robertson, J. M., *Freethought*, II, 343.
95. Robertson, II, 345.
96. Letter of Apr., 1766, in *Religion within the Limits of Reason Alone*, introd., [illegible]
97. Paulsen, 52.
98. Vaihinger, *The Philosophy of "As if,"* 313.
99. *Ibid.*, 316-17.
100. Witte, *Schiller*, 46.
101. Schiller, *Poems*, 290.
102. Eckermann, 79 (Apr. 14, 1824).
103. Emerson, lecture of 1842 on "The Transcendentalist," in Wilson, E. C., *Immanuel Kant*, 23.

CHAPTER XXII

1. Eckermann, 138 (Apr. 27, 1825).
2. Lewisohn, L., *Goethe*, I, 134.
3. Schiller to Körner, Aug. 8 and Sept. 10, 1787, in Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 140-43.
4. Brandes, *Goethe*, I, 307.
5. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 101.
6. Francke, *History of German Literature*, 253.
7. Wieland, *History of Agathon*, I, xxiv.
8. Francke, 255.
9. *Agathon*, I, 123 (Book III, Ch. ii).
10. *Ibid.*, Book III, Ch. iii.
11. In Francke, 258.
12. Eckermann, 285 (Sept. 26, 1827).
13. Mann, Thos., *Three Essays*, 8.
14. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 185, in *Works*.
15. *Ibid.*, 155 f.
16. 209-30.
17. 178.
18. 175.
19. 233.
20. 318.
21. Goethe, *Works*, VII, 27.
22. *Truth and Fiction*, I, 306, in *Works*.
23. *Ibid.*, 367.
24. 368.
25. Brandes, *Goethe*, I, 71.
26. Autobiography of Heinrich Jung-Stilling in Lewisohn, I, 49.
27. In Ludwig, Emil, *Goethe*, 31.
28. *Truth and Fiction*, I, 407.
29. In Ludwig, 42.
30. Eckermann, 291 (Oct. 8, 1827).
31. E.g., *Truth and Fiction*, II, 43.
32. *Ibid.*, 75.
33. Letter of June, 1771, in Lewisohn, I, 57.

34. *Truth and Fiction*, II, 120.
35. *Ibid.*, 143.
36. Brandes, I, 140.
37. Ludwig, 57.
38. Goethe, *Götz von Berlichingen*, Act I, Sc. ii.
39. *Truth*, II, 167.
40. From Kestner's diary, in Lewisohn, I, 71.
41. *Truth*, II, 188.
42. *Ibid.*, 214
43. 114.
44. Brandes, I, 273.
45. In Ludwig, 87.
46. Lewisohn, I, 101.
47. *Truth*, II, 216-17.
48. Eckermann, 52 (Jan. 2, 1824).
49. Goethe, *Werther*, letters of July 19 and 21 and Aug. 30, 1771.
50. Goethe, letter to Kestner, Nov. 10, 1774, in Lewisohn, I, 105.
51. Sime, *Lessing*, II, 200.
52. Lewisohn, I, 101.
53. Kestner, letter to Hennings, Nov. 18, 1772, in Pascal, *German Sturm und Drang*, 108.
54. *Truth*, Book xii.
55. In Ludwig, 94.
56. Lavater's diary, June 28, 1774, in Lewisohn, I, 90.
57. Goethe's letter of Nov. 12, 1816, in Lewisohn, II, 262.
58. Le .sohn, I, 295.
59. uth, II, 261, 309.
60. Translation in Carus, Paul, *Goethe*, 245-47.
61. *Truth*, II, 318, 327.
62. *Ibid.*, 366.
63. Clark, Robert, *Herder*, 160.
64. *Truth*, II, 11.
65. *Ibid.*, 16.
66. In Pascal, *German Sturm und Drang*, 225.
67. Heiseler, B. von, *Schiller*, 49.
68. Schiller, *Poems*, 7. In *Works*.
69. *Ibid.*, 9.
70. Carlyle, *Life of Schiller*, 15. In *Works*.
71. Schiller, *The Robbers*, Act I, Sc. ii.
72. *Ibid.*, II, iii.
73. *Ibid.*
74. V, i.
75. Heiseler, 87.
76. Ungar, Frederick, *Friedrich Schiller*, 34.
77. Witte, *Schiller*, 131.
78. Heiseler, 83.
79. Schiller, *Philosophical Letters*, p. 376 (Letter I). In *Works*.
80. *Ibid.*, 385 (Letter iv).
81. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 15.
82. *Ibid.*, 13-16.
83. Heiseler, 85.
84. *Ibid.*
85. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 30-33.
86. Körner to Schiller, July 8, 1785, in *Correspondence*, I, 36.

CHAPTER XXIII

1. Einstein, *Mozart*, 19.
2. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 291. In *Works*.
3. Schiller to Körner, July 28 and Aug. 29, 1787.
4. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 85.
5. *Ibid.*, 90, 168.
6. Wieland, *Oberon*, introd.
7. Brandes, *Goethe*, II, 266-69.
8. Lewisohn, II, 209.
9. Schiller and Körner, I, 85.
10. Pascal, *German Sturm und Drang*, 17.
11. *Ibid.*, 18.
12. 17.
13. Goethe to Jacobi, Nov. 12, 1783.
14. Goethe to Lavater, December, 1783.
15. Schiller and Körner, I, 85.
16. Clark, *Herder*, 240.
17. Bancroft, Geo., *Literary and Historical Miscellanies*, 173.
18. Herder to Hamann, Jan. 13, 1777, in Pascal, 95.
19. Clark, *Herder*, 274-77.
20. Herder to Jacobi, Feb. 6 and Dec. 30, 1784, in Pascal, 104.
21. Pascal, 104.
22. Clark, 340.
23. Pascal, 106.
24. Clark, 303.
25. *Ibid.*, 322.
26. 357.
27. 368.
28. Lewisohn, I, 133.
29. *Ibid.*
30. 153.
31. Eckermann, 181 (Sept. 26, 1827).
32. Lewisohn, I, 134.
33. *Ibid.*, 135.
34. 137-40.
35. 141.
36. 146.
37. 150.
38. Goethe to Charlotte von Stein, May 24, 1776.
39. Lewisohn, I, 151.
40. *Ibid.*, 156.
41. 222.
42. Brandes, I, 335.
43. Lewisohn, I, 227.
44. *Ibid.*, 236.
45. 271.
46. 306.
47. Eckermann, 251 (Apr. 25, 1827).
48. Goethe's diary, in Lewisohn, I, 215.
49. Ludwig, 440.
50. Translation by Longfellow.
51. Lewisohn, I, 232.

52. See *The Age of Reason Begins*, 259-65.
53. Goethe, *Tasso*, Act I, Sc. ii.
54. *Ibid.*, II, i.
55. I, ii.
56. *Ibid.*
57. Letter of Apr. 24, 1783, in Lewisohn, I, 166.
58. Ludwig, 155.
59. Lewisohn, I, 309.
60. Ludwig, 217.
61. Letter of Oct. 8, 1786, in *Letters from Italy*, 177.
62. Ludwig, 222.
63. Städelsches Museum, Frankfurt.
64. Lewisohn, I, 320.
65. *Ibid.*, 322.
66. Eckermann, 133, 201 (Jan. 30, 1825, and Jan. 18, 1827).
67. *Letters from Italy*, Dec. 3, 1786, and Feb. 16, 1787.
68. *Ibid.*, Dec. 1 and 3, 1786.
69. Feb. 3, 1787, in Lewisohn, I, 327.
70. In McKinney and Anderson, *Music in History*, 511.
71. Eckermann, 213 (Jan. 29, 1827).
72. Taine, *Philosophy of Art*, in Brandes, *Goethe*, I, 457.
73. Letter of Dec. 13, 1786, in Lewisohn, I, 323.
74. Lewisohn, I, 353.
75. Brandes, I, 469.
76. Lewisohn, I, 257.
77. Goethe, *Poetical Works*, 34-42. In *Works*.
78. Lewisohn, I, 368.
79. Ludwig, 30[illegible]
80. Brandes, II, 50.
81. Letter of Jan. 3, 1781, in Lewisohn, I, [illegible]9.
82. Examples in Lewisohn, I, 101-2, 186-88, 196-97, 229, 379.
83. Ludwig, 246.
84. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 112.
85. *Ibid.*, 89 (Aug. 28, 1787).
86. Letters of July 28 and Aug. 18, 1787.
87. *Don Carlos*, Act III, Sc. x.
88. Schiller to Korner, Apr. 15, 1786.
89. Körner to Schiller, November, 1788.
90. Schiller to Körner, Sept. 12, 1788.
91. Schiller and Körner, *Correspondence*, II, 330.
92. Letter of May 28, 1789.
93. Carlyle, *Life of Schiller*, 103. In *Works*.
94. Letter of Dec. 7, 1787.
95. Heiseler, 114.
96. Letter of Mar. 1, 1790.
97. Heiseler, 119.
98. Schiller to Körner, Feb. 22, 1791.
99. Letter of May 24, 1791.
100. Schiller, *Essays*, 203. In *Works*.
101. *On the Aesthetic Education of Mankind*, Letters VII and X in *Essays*, 45, 53.
102. Letter of May 5, 1792.
103. Ludwig, 326.
104. Schiller, *Poems*, 272. In *Works*.
105. Schiller to Goethe, Aug. 17, 1795, in Schiller and Goethe, *Correspondence*, I, 88-89.
106. *On Naive and Sentimental Poetry*.
107. Eckermann, Oct. 7, 1827.
108. *Cf.* letter to Körner, Aug. 29, 1787.
109. Schiller to Goethe, Aug. 23, 1794.
110. Schiller to Goethe, Aug. 31, 1794.
111. Goethe, "Happy Incident," in Carlyle, *Life of Schiller*, 305. In *Works*.
112. Schiller and Goethe, *Correspondence*, I, 1.
113. *Ibid.*, 5.
114. 6.
115. Schiller to Körner, Feb. 1, 1796.
116. In Ungar, *Schiller*, 129.
117. *Ibid.*, 140.
118. Schiller, *Essays*, 286, 321. In *Works*.
119. *Wilhelm Meisters Lehrjahre*, I, 324.
120. Schiller to Körner, Dec. 9, 1794, Feb. 22, 1795, June 15, 1795, July 2, 1796.
121. Letters of July 2-9, Oct. 9, and Oct. 23, 1796.
122. Goethe to Schiller, July 7, 1796.
123. Eckermann, Mar. 23, 1829.
124. Ludwig, 385-86.
125. Eckermann, Mar. 22, 1825.
126. Lewes, G. H., *Life of Goethe*, II, 202.
127. Goethe to Schiller, Jan. 18, 1797.
128. *Hermann and Dorothea*, 56-57. In *Works*.
129. Brandes, II, 470.
130. Schiller to Körner, Jan. 5, 1800.
131. Eckermann, July 23, 1827.
132. Heiseler, 143.
133. Ludwig, 386.
134. Schiller to Charlotte Schimmelmann.
135. Goethe to Schiller, Feb. 28, 1801.
136. Eckermann, Oct. 7, 1827.
137. Lewisohn, I, 61.
138. Letter of Jan. 20, 1801.
139. Heiseler, 170.
140. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 182.
141. Schiller to Goethe, Dec. 21, 1803, in Lewisohn, II, 92.
142. *Ibid.*
143. Staël, 23-24.
144. Lewisohn, II, 293.
145. Heiseler, 189.
146. Eckermann, Jan. 18, 1827.
147. Witte, *Schiller*, 38.
148. Goethe to Zelter, June 1, 1805, in Lewisohn, II, 107.

CHAPTER XXIV

1. *Cf.* final lines of *Faust*, Part II.
2. Brandes, *Goethe*, II, 250.
3. Recollections of Friedrich von Müller, in Lewisohn, II, 161.
4. Brandes, 263-64.
5. *Ibid.*

6. Eckermann, Mar. 15, 1829.
7. For the historical background of the Faust legend see *The Reformation*, 852.
8. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 21-22. In *Works*.
9. Lewisohn, I, 123.
10. *Ibid.*
11. Eckermann, Feb. 10, 1829.
12. Brandes, 305.
13. In the *Gesamtausgabe* by Breitkopf and Härtel.
14. Translation by Albert Latham in Everyman's Library ed. of *Faust*.
15. Eckermann, Jan. 10, 1825.
16. Latham's translation, p. 52.
17. *Ibid.*, 117-19.
18. 116.
19. Brandes, 229.
20. Lewisohn, II, 174.
21. *Elective Affinities*, English tr., 335. In *Works*.
22. *Ibid.*, 180.
23. 218.
24. Ludwig, 427.
25. *Ibid.*, 429.
26. 453.
27. Lewisohn, II, 202-4.
28. Ludwig, [illegible]
29. Lewisohn, II, 250.
30. *Ibid.*, 203.
31. 2[illegible]4.
32. 306-8.
33. Ungar, Frederick, *Goethe's World View*, 9.
34. Magnus, Rudolf, *Goethe as a Scientist*, 221.
35. *Ibid.*, xvi-xviii, 209.
36. 167.
37. 178.
38. Goethe's letter of May 17, 1767.
39. Magnus, 73.
40. *Ibid.*, 78; Brandes, 462.
41. *Ibid.*, 429.
42. Magnus, 42.
43. Ludwig, 186.
44. Magnus, 136.
45. Eckermann, Apr. 16, 1825.
46. Ungar, *Goethe's World View*, 31.
47. *Ibid.*, 77.
48. *Faust*, Part II, line 1754.
49. Ungar, *Goethe's World View*, 9, 105.
50. Letter of Jan. 6, 1798.
51. Ungar, 99.
52. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 108. In *Works*.
53. Quoted in Mann, *Three Essays*, 49.
54. *Truth and Fiction*, Part III, Book 11.
55. Ludwig, 3[illegible].
56. Ungar, *Goethe's World View*, 47.
57. *Ibid.*
58. *Truth and Fiction*, II, 272-73.
59. Lewisohn, I, 255.
60. *Truth and Fiction*, Book XIV.
61. Ungar, *Goethe's World View*, 47.
62. *Ibid.*, 41.
63. 37.
64. 57.
65. 43-45; Smith, Preserved, *Age of the Reformation*, 712.
66. *Truth and Fiction*, II, 311 f.
67. Ungar, *Goethe's World View*, 55.
68. Ludwig, 206.
69. *Ibid.*, 457.
70. Recollections of Johann Falk, in Lewisohn, II, 210.
71. Goethe to Zelter, May 11, 1820.
72. Brandes, I, 437.
73. Ungar, *Goethe's World View*, 81.
74. *Ibid.*, 6.
75. Eckermann, Apr. 2, 1829.
76. Ungar, 167.
77. *Ibid.*, 129.
78. 139.
79. 16.
80. 89.
81. *Truth and Fiction*, I, 421.
82. *Wilhelm Meisters Lehrjahre*, Book VII, Ch. iii.
83. *Ibid.*, Book V, Ch. iii.
84. Carus, *Goethe*, 168.
85. *Faust*, Part II, Act II.
86. Eckermann, Jan. 4, 1824.
87. Ungar, *Goethe's World View*, 50.
88. Eckermann, Feb. 13, 1829.
89. Ungar, 141.
90. *Ibid.*
91. 91.
92. Lewisohn, II, 438.
93. *Faust*, Part II, p. 341.
94. *Ibid.*, 207.
95. Friedrich von Müller, in Lewisohn, II, 370.
96. *Ibid.*, 371.
97. 376.
98. 430.
99. Goethe to Zelter, Dec. 14, 1830.
100. Lewisohn, II, 4[illegible]1.
101. Ungar, *Goethe's World View*, 121.
102. Mann, *Three Essays*, 63.
103. *Truth and Fiction*, II, 246.
104. Ludwig, 293.
105. *Ibid.*, 472.
106. In Mann, 47.
107. Lewisohn, II, 254.
108. In Friedell, Egon, *Cultural History of the Modern Age*, I, 272.
109. In Mann, 64.
110. We have followed the account given by K. W. Müller in 1832, in Lewisohn, II, 449 f.
111. Eckermann, 572.

CHAPTER XXV

1. In Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, II, 240.

2. See "Sermon of Rabbi Akib," and art. "Jews" in *Philosophical Dictionary*.
3. *Ibid.*, Sec. III.
4. Sec. IV.
5. See *The Age of Voltaire*, Ch. xiii, Sec. vii.
6. Cf. Black, J. B., *The Art of History*, 40-50.
7. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 346.
8. Gay, *Voltaire's Politics*, 352.
9. Graetz, V, 347.
10. Rousseau, *Emile*, 267-68.
11. Sombart, W., *The Jews and Modern Capitalism*, 56.
12. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, III, 308-11.
13. Altamira, *History of Spain*, 462.
14. Parton, *Life of Voltaire*, I, 161.
15. Bell, Aubrey, *Portuguese Literature*, 280.
16. Lea, III, 310.
17. Abbott, G. F., *Israel in Europe*, 209.
18. Abrahams, I., *Jewish Life in the Middle Ages*, 224.
19. *Ibid.*
20. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 252.
21. *Jewish Encyclopedia*, XII, 434; Padover, 253 f.; Graetz, V, 357.
22. Padover, 257.
23. Letter of May 17, 1717, in Montagu, Lady Mary W., *Letters and Works*, II, 321.
24. Dubnow, S. M., *History of the Jews in Russia and Poland*, I, 255-56. Florinsky, *Russia*, I, 400.
25. Dubnow, I, 307.
26. *Ibid.*, 180.
27. 169-71.
28. 173.
29. 172-79.
30. 170-80.
31. 182-86.
32. Roth, Cecil, *The Jewish Contribution to Civilization*, 28.
33. Sombart, 23.
34. *Jew. Enc.*, XIX, 418a.
35. *Ibid.*, 415-16.
36. Corti, Egon C., *Rise of the House of Rothschild*, I, 10.
37. George, M. Dorothy, *London Life in the 18th Century*, 127.
38. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 178.
39. Roth, 241.
40. Finkelstein, Louis, ed., *The Jews*, I, 260.
41. Besant, 180.
42. Browne, Lewis, *The Wisdom of Israel*, 551.
43. Dubnow, I, 233.
44. *Ibid.*, 272 f.; Baron, Salo, *Social and Religious History of the Jews*, II, 54 f.; Graetz, V, 374 f., Howe and Greenberg, *Treasury of Yiddish Stories*, 15 f.
45. Graetz, V, 294.
46. Hensel, S., *The Mendelssohn Family*, 4.
47. Sime, *Lessing*, I, 133.
48. Graetz, V, 298.
49. In Wolf, A., *History of Science . . . in the 18th Century*, 781.
50. Graetz, V, 309.
51. *Ibid.*, 311.
52. Hensel, 10.
53. Graetz, V, 317.
54. *Jew. Enc.*, VIII, 481d.
55. Graetz, V, 365.
56. *Ibid.*, 355.

CHAPTER XXVI

1. Voltaire, *Works*, 1b, 302.
2. In Herold, J., *The Swiss without Halos*, 106.
3. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 290.
4. Parton, *Life of Voltaire*, II, 458.
5. Lewisohn, II, 238-39.
6. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 240-46, 252, 375, 398-404. In *Works*.
7. Holberg, Ludwig, *Selected Essays*, p. 48 (Epistle 48).
8. Lady Mary Wortley Montagu, letters of Aug. 3 and 5, 1716, in *Letters and Works*, II, 226-27.
9. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, I, 237.
10. *Boswell in Holland*, 188.
11. Cumming, Ian, *Helvétius*, 50.
12. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 81.
13. Parton, *Life of Voltaire*, I, 152.
14. Blok, P. J., *History of the People of the Netherlands*, Part V, 174 f.; Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 353.
15. Blok, V, 183.
16. *Ibid.*, 92.
17. 86.
18. Dillon, Edw., *Glass*, 295 f.; Sitwell, S., *The Netherlands*, 147.
19. George Dempster to Boswell, Aug. 26, 1763.
20. *Boswell in Holland*, 93.
21. *Ibid.*, 317.
22. Herold, *Mistress to an Age*, 143.
23. *Ibid.*, 144.
24. Blok, V, 56.
25. *Ibid.*, 108
26. Horn, F. W., *History of the Literature of the Scandinavian North*, 187.
27. Freedley and Reeves, *History of the Theatre*, 268.
28. Holberg, *Seven One-Act Plays*, 165-87.
29. Matthews, Brander, *The Chief European Dramatists*, 705.
30. Holberg, *Journey of Niels Klim to the World Underground*, 10
31. *Ibid.*, 16.
32. 32.

33. 109.
34. 191.
35. 109.
36. Translation by Longfellow, in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 981.
37. Horn, *Scandinavian Literature*, 217.
38. Goodwin, A., *European Nobility*, 136.
39. *CMH*, VI, 762.
40. Bain, R. N., *Gustavus III*, I, 56.
41. *CMH*, VI, 768.
42. Bain, *Gustavus III*, I, 124.
43. Andersson, Ingvar, *History of Sweden*, 281.
44. Higgs, *The Physiocrats*, 87.
45. Bain, *Gustavus III*, I, 163.
46. *CMH*, VI, 776.
47. *Enc. Brit.*, XXI, 653d; Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 460, 108.
48. Gustafson, Alrik, *History of Swedish Literature*, 112, 136.
49. Bain, *Gustavus III*, I, 260; Horn, 355.
50. Bain, II, 239.
51. Horn, 359 f.
52. Gustafson, 139 f.
53. Bain, *Gustavus III*, II, 186-88; Gustafson, 139 f.
54. Horn, 369.
55. Bain, II, 210.
56. *Ibid.*, I, 38.
57. *Ibid.*, II, 157.

فهـــرس

الجزء الثالث

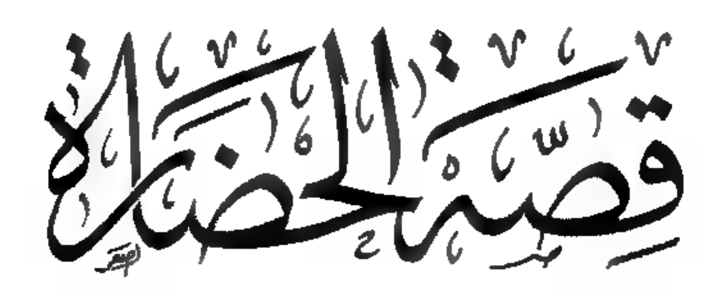
الكتاب الرابع

الصفحة

الكتاب الخامس

الصفحة

الصــفحة



ول وايريل ديورانت

روسو والثورة

تاريخ الحضارة في فرنسا، وإنجلترة، وألمانيا
من ١٧٥٦ إلى ١٧٨٩

ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الرابع من المجلد العاشر



بيروت





تونس

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار الجيل: ص.ب ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

فهرس

الجزء الرابع من المجلد العاشر

الكتاب السادس

إنجلتره جونسن : ١٧٥٦ — ٨٩

صفحة

صفحة

الكتاب السابع

انهيار فرنسا الإقطاعية

صفحة

صفحة

★ ★ ★

الكتاب السادس

انجلترة جونسن

١٧٥٦ ـ ٨٩

الفصل السابع والعشرون

الثورة الصناعية

١ - أسبابها

لم بدأت الثورة الصناعية أول ما بدأت فى انجلترة ؟ لأن انجلترة كانت قد انتصرت فى حروب عظمى على القارة وحفظت فى الوقت نفسه أرضها من خراب الحرب ، ولأنها حققت السيطرة على البحار فظفرت بمستعمرات وفرت لها الخامات واحتاجت إلى السلع المصنوعة ، ولأن جيوشها وأساطيلها ، وسكانها المتزايدين ، هيأوا لها سوقاً متسعة للمنتجات الصناعية ، ولأن النقابات الحرفية عجزت عن تلبية هذه المطالب المتسعة ، ولأن مكاسب التجارة المترامية الحدود كدست رأسمال يبحث عن وجوه جديدة للاستثمار ، ولأن انجلترة سمحت لنبلائها - ولثرواتهم - بالاشتغال بالتجارة والصناعة ، ولأن إحلال الرعى تدريجياً محل فلاحة الأرض أجبر الفلاحين على النزوح من الحقول إلى المدن حيث زادوا من عدد العمال المتاحين للمصانع ، ولأن العلم فى انجلترة كان يوجهه رجال ذوو نزعة عملية ، فى حين كان على القارة منصرفاً أغلبه إلى البحث المجرد ، وأخيراً لأن انجلترة كان لها حكومة دستورية حساسة لمصالح التجارة ، شاعرة على نحو غامض بأن السبق فى الثورة الصناعية سيحقق لانجلترة الزعامة السياسية للعالم الغربى طوال حقبة قرن أو يزيد .

أما سيطرة بريطانيا على البحار فكانت قد بدأت بهزيمتها الأرمادا الأسبانى ، وامتدت هذه السيطرة بفضل الانتصارات على هولندة فى الحروب الانجليزية الهولندية ، وعلى فرنسا فى حرب الوراثة الاسبانية ، ثم جاءت حرب السنين السبع فكادت تجعل تجارة المحيط حكراً على بريطانيا . وكان

البحرية البريطانية التي لاتقهر الفضل في تحويل القنال الانجليزي إلى ما يشبه الخندق المائي الحالي لهذا «الحصن الذي شيدته الطبيعة .. ليدرأ عنها شر المرض وذراع الحرب»[1] (كما قال شكسبير) . فلم يعف الاقتصاد الانجليزي من نهب الجند المغيرين وسلبهم فحسب ، بل غذته وحفزته حاجات الجيوش البريطانية وجيوش الحلفاء المحاربة في القارة ؛ ومن هنا هذا التوسع الزائد في صناعات النسيج والمعادن ، والحاجة لآلات تزيد من سرعة الإنتاج ولمصانع تستكثر منه .

وسهلت السيطرة على البحار فتح المستعمرات . وكانت كندا وأغنى بقاع الهند الثمرة التي وقعت من نصيب انجلترة في حرب السنين السبع . وأكسبت رحلات كرحلات الكبتن كوك (١٧٦٨ — ٧٦) الامبراطورية البريطانية جزائر أفادتها من الناحية الاستراتيجية في الحرب والتجارة وثبت انتصار رودني على دجراس (١٧٨٢) — السيطرة البريطانية على جميكا ، وبربيدوس ، وجزر الباهاما . ثم ظفرت بنيوزيلنده في ١٧٨٧ ، وباستراليا في ١٧٨٨ . وأتاحت تجارة المستعمرات وغيرها من أقطار ما وراء البحار للصناعة البريطانية سوقاً أجنبية لا ينافسها فيها منافس في القرن الثامن عشر . وكانت التجارة مع المستوطنات الانجليزية في أمريكا الشمالية تستخدم ١,٠٧٨ — سفينة و ٢٩,٠٠٠ ملاح[2] . وازدهرت لندن وبرستل ولفربول وجلاسجو ثغوراً هامة لتجارة الأطلنطي هذه . وأخذت المستعمرات السلع المصنوعة وأرسلت عوضاً عنها الطعام والتبغ والتوابل والشاي والحرير والقطن والخامات والذهب والفضة والأحجار الكريمة . وقيد البرلمان استيراد المصنوعات الأجنبية بفرض الرسوم العالية عليها وثبط تنمية صناعات المستعمرات أو الصناعات الأرلندية المنافسة لصناعات بريطانيا . ولم تقم مكوس داخلية (كتلك التي عرقلت سير التجارة الداخلية في فرنسا) عقبة في سبيل انتقال السلع في أرجاء انجلترة واسكتلنده وويلز ، وكانت هذه الأقاليم أوسع منطقة للتجارة الحرة في غربي أوروبا . وحظيت الطبقتان العليا والوسطى برخاء عظيم جداً ، وبقدرة شرائية كانت حافزاً إضافياً للإنتاج الصناعي .

ولم تكن النقابات الحرفية كفؤا لتلبية حاجات الأسواق المتسعة فى الداخل والخارج . لقد أسست أولا لسد حاجات البلدة وما حولها ، وغلت يدها نظم عتيقة ثبطت الابتكار والتنافس والاقتحام ، ولم تكن معدة لجلب المواد الخام من مصادر نائية ، أو للحصول على رأس المال اللازم للإنتاج الموسع ، أو لحساب الطلبات من الخارج أو الحصول عليها أو تلبيتها . وحل محل معلم النقابة الحرفية شيئاً فشيئاً « مقاولون » ومتعهدون يعرفون كيف يجمعون المال ، ويتوقعون الطلب أو يخلقونه ، ويحصلون على الخامات ، وينظمون الآلات والعمال للإنتاج لأسواق فى كل أركان المسكونة .

أما المال فقد جاء من أرباح التجارة أو الأعمال المالية ، ومن غنائم الحرب ومراكب القرصنة ، ومن التعدين أو استيراد الذهب أو الفضة ، ومن الثروات الكبيرة التى تحققت فى تجارة الرقيق أو فى المستعمرات . كان الانجليز يرحلون عن بلادهم فقراء ، فيعود بعضهم أغنياء . فى تاريخ مبكر (١٧٤٤) أتيح لخمسة عشر رجلا عائدين من جزر الهند الغربية من المال ما يكفى لشراء انتخابهم للبرلمان[٣] . وما وافى عام ١٧٨٠ حتى كان « النوابون » Nabobs الذين أثروا فى الهند قوة فى مجلس العموم ، والكثير من هذا المال المجلوب كان متاحاً للاستثمار . وبينما كان النبلاء فى فرنسا ممنوعين من الاشتغال بالتجارة أو الصناعة ، كان نظراؤهم فى انجلترة معفين من هذا الحظر ، ونمت الثروة المتأصلة فى الأرض بفضل استثمارها فى المشروعات التجارية ؛ من ذلك أن دوق بردجووتر غامر بثرائه فى تعدين الفحم . وأودع آلاف البريطانيين مدخراتهم فى المصارف التى كانت تقرض النقود بفوائد منخفضة . وانتشر مقرضو المال فى كل مكان ؛ فقد اكتشف المصرفيون أن أيسر طرق الأثراء هى التعامل فى نقود غيرهم . فكان فى لندن عشرون مصرفاً فى ١٧٥٠ ، وخمسون فى ١٧٧٠ ، وسبعون فى ١٨٠٠[٤] . وعد بيرك اثنى عشر مصرفاً خارج لندن فى ١٧٥٠ ؛ وفى ١٧٩٣ كان هناك أربعمائة[٥] . وأضافت النقود الورقية إلى اللقاح المخصب ، فبلغت فى ١٧٥٠ اثنين فى المائة من العملة وفى ١٨٠٠ بلغت عشرة فى المائة[٦] . وغمرت الأموال المختزنة بالاستثمار حين نثرت التجارة والصناعة أرباحهما المتصاعدة .

واحتاجت الحوانيت والمصانع المتكاثرة إلى رجال . وتعاظم المدد الطبيعي من العمال بفضل العدد المتزايد من الأسر الريفية التي لم تعد قادرة على كسب قوتها من الفلاحة . وطالبت صناعة الصوف المزدهرة بالصوف ، وانتزع المزيد من الأرض من الفلاحة وخصص للرعي ، وحلت الأغنام محل الرجال ، ولم تكن قرية « أوبرن » (التي حزن عليها جولد سمث) القرية المهجورة الوحيدة في بريطانيا . ففي الفترة من ١٧٠٢ إلى ١٧٦٠ كان هناك ٢٤٦ قانوناً برلمانياً يصرح بنزع اربعمائة فدان من الزراعة ، ومن ١٧٦٠ إلى ١٨١٠ كان هناك ٢.٤٣٨ قانوناً ، تأثرت بها خمسة ملايين فدان تقريباً(٧) . ولما تحسنت الآلات الزراعية ، لم تعد الملكيات الصغيرة مرغوبة ، لأنها عجزت عن استعمال الآلات الجديدة أو دفع ثمنها ، فباع الألوف من المزارعين أراضيهم وأصبحوا أجراء في مزارع واسعة أو في مصانع ريفية أو في المدن . وأنتجت المزارع الكبيرة المزودة بطرائق وتنظيم وآلات أفضل غلة للفدان أكثر من مزارع الماضي ، ولكنها كادت تمحو كل أثر للمزارعين الأحرار ، أو الفلاحين الملاك ، الذين كانوا الدعامة الاقتصادية والحربية والأخلاقية لانجلترة . وزادت أثناء ذلك الهجرة من ايرلنده والقارة اعداد الرجال والنساء والأطفال المتنافسين على الاشتغال في المصانع .

ولم يلعب العلم إلا دوراً متواضعاً في التحول الاقتصادي الذي طرأ على انجلترة القرن الثامن عشر . وقد استعان وات ببحوث ستيفن هيلز في الغازات ، وجوزف بلاك في الحرارة والبخار ، على تحسين الآلة البخارية . وكانت جمعية لندن الملكية يتألف أكثرها من رجال عمليين يحبذون الدراسات التي يرجى تطبيقها على الصناعة . كذلك كان استعداد البرلمان البريطاني لمراعاة الاعتبارات المادية ، ومع أن ملاك الأرض كانوا مهيمنين عليه ، فإن العديد منهم شاركوا في التجارة أو الصناعة ، وكان أكثر الأعضاء ميالين إلى قبول الهدايا واستجابة إلى الالتماسات من رجال الأعمال لتخفيف القيود التي فرضتها الحكومات السابقة على الاقتصاد . وظفر المدافعون عن حرية المشروعات وحرية التجارة — وترك الأجور والأسعار حرة في الصعود أو الهبوط طبقاً لقوانين العرض والطالب — هؤلاء ظفروا بتأييد عدة زعماء

برلمانيين ، فتحطمت ببطء الحواجز القانونية المعوقة لانتشار التجارة والمصنوعات . وهكذا تحققت جميع الشروط اللازمة لتفوق انجلتره فى الثورة الصناعية .

٢ — مقوماتها

كانت العناصر المادية للثورة الصناعية هى الحديد والفحم والنقل والآلات والطاقة والمصانع . ولعبت الطبيعة دورها بتزويدها انجلتره بالحديد والفحم وسيولة الطرق . ولكن الحديد على الصورة التى جلب بها من المناجم كانت تتخلله الشوائب التى لابد من إزالتها بصهره بالنار . كذلك كان الفحم تختلط به الشوائب التى أزيلت بتسخينه أو « طهوه » حتى يستحيل إلى «الكوك» وتحول خام الحديد الحمى المنقى لدرجات متنوعة بالكوك المحروق إلى حديد مشغول أو زهر أو صلب .

ورغبة فى زيادة الحرارة بنى ابراهام داربى (١٧٥٤ وما بعدها) أفراناً عالية تزود فيها النار بهواء إضافى من منفاخ تشغله ساقية . وفى ١٧٦٠ استعاض جون سميتن عن المنفاخ بمضخة هواء مضغوط تشغلها المياه من جهة والبخار من جهة أخرى ، ورفع تيار الضغط العالى الثابت إنتاج الحديد الصناعى من اثنى عشر طناً إلى أربعين طناً للفرن فى اليوم[٨] . ورخص الحديد رخصاً أتاح استعماله فى مئات النواحى الجديدة ، مثال ذلك أن رتشرد رينولدز بنى فى ١٧٦٣ أول سكة حديد معروفة — وكانت طرقاً حديدية يسرت إحلال المركبات محل خيول الحمل فى نقل الفحم والحديد .

وبدأ الآن عصر ساد فيه كبار صناع الحديد المشهورون الذين سيطروا على المسرح الصناعى وأثروا ثراء طائلا باستخدامهم الحديد فى أغراض بدت غريبة تمام الغرابة على ذلك المعدن . مثال ذلك أن جون والكنسن وأبراهام داربى الثانى أقاما أول قنطرة حديدية على نهر سفرن (١٧٧٩) . وأضحك ولكنسن انجلترة حين اقترح بناء سفينة حديدية ، وقال بعضهم إنه جن . ولكنه وقد اعتمد على المبادىء التى أرساها أرخميدس ، ركب

بألواح معدنية أول سفينة حديدية عرفها التاريخ (١٧٨٧) . وأقبل رجال الأعمال من الخارج ليشاهدوا ويدرسوا المصانع الكبرى التي أقامها ولكنسن ، أو رتشرد كرونشي أو أنتوني بيكن . وأصبحت برمنجهام القريبة من طبقات هائلة من الفحم والحديد أهم مركز لصناعة الحديد في انجلتره . ومن هذه الورش تدفق إلى ورش انجلتره ومصانعها الجديد من العدد والآلات الأكثر قوة واحتمالا والأحق بالاطمئنان إليها .

وكان الفحم والحديد ثقيلين غاليي النقل إلا بالماء . وأتاح الساحل الغني بالفجوات العميقة للنقل البحري الوصول إلى الكثير من مدن بريطانيا الكبرى. وكان لابد من احداث ثورة في وسائل النقل لجلب المواد والمحاصيل إلى المدن البعيدة عن الساحل والأنهار الصالحة للملاحة وظلت حركة البضائع على البر شاقة رغم شبكة الطرق الرئيسية Turnpikes التي بنيت بين ١٧٥١ و ١٧٧١ . (وقد اشتق اسمها من الأبواب الدوارة turnstiles المرشوقة بالمناخس التي تعوق المرور حتى تدفع المكوس)[٩] . وقد ضاعفت طرق المكوس هذه سرعة العبور ونشطت التجارة الداخلية . وحل محل خيول الحمل عربات تجرها الخيل ، وأخلى السفر على ظهور الخيل مكانه لمركبات البريد . على أن الطرق الرئيسية تركت لأصحاب المشروعات الحرة ليصونوها وسرعان ما تدهورت حالها .

إذن ظلت حركة التجارة تؤثر الطرق المائية . لذلك ظهرت الأنهار لتحمل السفن الثقيلة ، وربطت الأنهار والمدن بالقنوات . وقد تحول جيمس برندلي ، الذي لم يكن له حظ من التعليم النظامي أو الفني ، من مركب طواحين غير متعلم إلى أشهر مهندس قنوات في جيله ، إذ حل بعبقريته الميكانيكي مشاكل تمديد القنوات خلال الأهوسة والأنفاق وفوق السقايات . وفي ١٧٥٩ - ٦١ شق قناة جلبت إلى مانشستر الفحم من مناجم دوق بردجووتر في ورسلي ، فأنقص هذا إلى النصف ثمن الفحم في مانشستر ، ولعب دوراً رئيسياً في جعل تلك المدينة حاضرة صناعية . وكان من أجمل المناظر في انجلترا القرن الثامن عشر منظر مركب تمخر مياه قناة برندلي - بردجووتر الممتدة بسقاية تعلو تسعة وتسعين قدماً فوق نهر ايرويل في بارتن . وفي

١٧٦٦ بدأ برندلى شق قناة الجراند ترنك التى ربطت نهرى ترنت ومرزى فتحت بذلك طريقاً مائياً عبر وسط انجلترة من البحر الإيرلاندى إلى بحر الشمال . وربطت قنوات أخرى نهر ترنت بالتيمز ، وما نشستر بلفربول ؛ ولم تنقض ثلاثون سنة حتى خفضت مئات القنوات الجديدة تكاليف نقل التجارة فى بريطانيا تخفيضاً كبيراً .

أما وقد توفر الثورة الصناعية المواد والوقود والنقل ، فقد بقى عليها بعد ذلك أن تستكثر من البائع . وكان الطلب على الآلات اللازمة لتعجيل الإنتاج على أشده فى المنسوجات . فالناس فى حاجة إلى الكساء ؛ والجنود والبحارة كان يجب تموينهم بالأزياء الخاصة بهم . وكان القطن يدخل انجلترة بمقادير تتزايد بسرعة — ثلاثة ملايين رطل فى ١٧٥٣ . واثنان وثلاثون مليوناً فى ١٧٨٩[١٠] ، ولم يكن فى طاقة العمل اليدوى أن يصنع بضائع معقولة فى الوقت الذى يلبى فيه الطلب . إن تقسيم العمل الذى كان قد تطور فى حرف الكساء أوحى باختراع الآلات وشجعه .

وكان جون كاى قد بدأ ميكنة النسيج بفضل مكوكه الطائر (١٧٣٣) ، ولويس بول ميكن الغزل بطريقة البكر (١٧٣٨) . وفى ١٧٦٥ غير جيمس هارجريفز ، وهو من أهالى مدينة بلاكبيرن بلانكاشير وضع عجلة الغزل فجعلها أفقية بدل أن تكون رأسية ، وركب عجلة فوق أخرى ، وشغل ثمانى منها ببكرة واحدة وسير ، ونسج ثمانية خيوط فى وقت واحد ، ثم أضاف مزيداً من القوة لمزيد من المغازل حتى استطاع مغزله Spinning jenny (وجنى هو اسم زوجته) أن ينسج ثمانين خيطاً فى وقت واحد . وخشى الغزالون اليدويون أن تفقدهم هذه البدعة حرفتهم وقوتهم . فحطموا آلات هارجريفز فهرب لحياته إلى نوتنجهام حيث أتاح نقص العمال لمغازله أن تركب . فلما حلت سنة ١٧٨٨ كان عددها فى بريطانيا قد بلغ عشرين ألفا . وكانت عجلة الغزل بسببها إلى أن تصبح حلية رومانسية .

وفى ١٧٦٩ وفق رتشرد آركرايت بناء على اقتراحات ميكانيكيين شتى فى تطوير « إطار مائى » تستطيع قوة الماء بواسطته أن تحرك ألياف القطن

بين سلسلة متعاقبة من البكرات تجذب وتمد الألياف فتجعلها خيطاً أكثر إحكاماً وصلابة . وحوالى عام ١٧٧٤ جمع صموئيل كرومتن بين مغزل هارجريفز وبكرات آركرايت فى آلة هجين لقبها ظرفاء الانجليز « بغلة كرومتن » : فكانت حركة المغازل المتعاقبة إلى الخلف وإلى الإمام بالتناوب تمد الخيط وتفتله وتلفه فتجعله أرفع وأقوى ؛ وقد ظلت هذه الطريقة إلى وقتنا هذا المبدأ الذى تقوم عليه أعقد آلات الغزل والنسيج . وكانت المغزلة القديمة (الجنى) والإطار المائى يصنعان من الخشب ، أما البغلة فقد استخدمت البكرات والعجلات المعدنية بعد ١٧٨٣ ، وأصبحت من المتانة بحيث تحتمل سرعة التشغيل الآلى وضغطه .

وكانت الأنوال الآلية التى تشغل بالكرانك والأثقال تستعمل من قبل فى ألمانيا وفرنسا ، ولكن حدث فى ١٧٨٧ أن شيد إدموند كارترايت فى دونكاستر مصنعاً صغيراً شغل فيه عشرون نولا بقوة الحيوان المحركة . وفى ١٧٨٩ استبدل بهذا المحرك آلة بخارية . وبعد عامين اشترك مع بعض أصدقاء من مانشستر فى إنشاء مصنع كبير يدار فيه أربعمائة نول بالبخار . وهنا أيضاً ثار العمال ، فأحرقوا المصنع وسووه بالأرض وهددوا بقتل مؤسسيه . وبنيت فى العقد التالى أنوال آلية كثيرة ، حطم المشاغبون بعضها ونجا بعضها وتكاثر ، وانتصرت الآلات .

وكان مما أعان انجلترا على الصناعة توافر القوة المائية المتولدة من أنهار كثيرة يغذيها المطر الغزير . فأقيمت الطواحين والمصانع فى القرن الثامن عشر فى الريف أكثر مما أقيمت فى المدن على أنهار يمكن بناء سدود عليها تحدث مساقط للمياه لها من القوة ما يكفى لإدارة عجلات كبيرة . هنا قد يتساءل شاعر ألم يكن من الخير لو لم يحل البخار قط محل الماء قوة محركة ، وأن تختلط الصناعة بالزراعة فى الريف بدلا من أن تحشد فى المدن . ولكن وسيلة الإنتاج الأكثر فاعلية وربحاً تزيح الوسيلة الأقل ، وقد وعدت الآلة البخارية (التى تألقت هى أيضاً — إلى وقت قريب — بوهج رومانسى) بأن تنتج أو تنقل من السلع والذهب أكثر مما شهد العالم فى أى زمان مضى .

ولقد كانت الآلة البخارية ذروة الثورة الصناعية لاثمرة لها تماماً . ولا داعي للرجوع بالذاكرة إلى هيرو الاسكندري (٢٠٠ م ؟) ، لأن دنين بابين وصف جميع مكونات ومبادىء آلة بخارية عملية في ١٦٩٠ . ثم صنع تومس سافري مضخة يديرها البخار في ١٦٩٨ . وطورها تومس نيوكومن (١٧٠٨ — ١٢) إلى آلة يكثف فيها تيار متدفق من الماء البارد البخاري المولد من الماء المحمى ، ويدفع فيها تناوب ضغط الهواء كباساً إلى أعلى وأسفل ؛ هذه « الآلة الهوائية » ظلت الآلة القياسية حتى حولها جيمس وات إلى آلة بخارية حقيقية في ١٧٦٥ .

وكان وات بخلاف معظم مخترعي ذلك الجيل طالباً كما كان رجلا عملياً . كان جده معلم رياضيات ، وأبوه معمارياً وبناء سفن وقاضياً بلدة جرينوك في جنوب غربي اسكتلنده . ولم يحظ جيمس بتعليم جامعي ، ولكنه كان ذا تطلع خـ ق واستعداد ميكانيكي . ويعرف نصف العالم قصته مع عمته التي وبخته قائلة « لم أر قط ولداً خاملا مثلك . . . فإنك لم تنطق بكلمة واحدة طوال هذه الساعة ، بل نزعت غطاء تلك الغلاية ، ثم أعدته إلى مكانه ، ثم أمسكت تارة قلنسوة وتارة ملعقة فضية فوق البخار ملاحظاً كيف يتصاعد من البزبوز ، وممسكاً بالقطرات محصياً إياها[١١] » . وفي القصة رائحة الأسطورة ، ولكن مخطوطاً خلفه جيمس وات بخط يده يصف تجربة فيها « ثبت الطرف المستقيم لأنبوب على بزبوز غلاية شاي » ، وجاء في مخطوط آخر : « أخذت أنبوبة زجاجية ملوية وأدخلتها في فم غلاية شاي ، وغمرت الطرف الآخر في ماء بارد »[١٢] .

وحين بلغ وات العشرين (١٧٥٦) حاول أن يبدأ عمله في جـ سجو صانعاً للأدوات العلمية ، وأبت عليه نقابات حرف المدينة الرخصة بحجة أنه لم يكمل فترة التلمذة كلها ، ولكن جامعة جلاسجو أعطته ورشة داخل أرضها . واختلف إلى محاضرات الكيمياء التي يلقيها جوزيف بلاك ، وكسب صداقته ومساعدته ، واهتم خاصة بنظرية بلاك في الحرارة الكامنة[١٣] .

ثم تعلم الألمانية والفرنسية والإيطالية ليقرأ الكتب الأجنبية بما فيها كتب الميتافيزيقا والشعر . وقد راع السير جيمس روبيسن تنوع معلوماته . وكان يعرفه فى تلك الآونة (١٧٥٨) . فقال « رأيت صانعاً ولم أتوقع أكثر من هذا . ولكنى وجدت فيلسوفاً »[١٤] .

وفى ١٧٦٣ طلبت إليه الجامعة أن يصلح نموذجاً من آلة نيوكومن كان يستعمل فى تدريس الفزياء . وأدهشه أن نجد ثلاثة أرباع الحرارة التى تمد بها الآلة تضيع هباء . فبعد كل ضربة كباس تفقد الأسطوانة الحرارة من جراء استعمال الماء البارد لتكثيف كمية البخار الجديدة التى تدخل الأسطوانة ، فقد كان قدر كبير من الطاقة يتبدد حتى حكم أكثر أصحاب المصانع بأن الآلة غير مجزية . واعتزم وات تكثيف البخار فى وعاء منفصل لا تؤثر درجة حرارته المنخفضة فى الأسطوانة التى يتحرك فيها الكباس . وزاد هذا « المكثف » كفاءة الآلة فى نسبة الوقود المستعمل إلى العمل المؤدى قرابة ثلاثمائة فى المائة . يضاف إلى هذا أن الكباس بفضل اصلاح وات للآلة أخذ يحركه تمدد البخار لا الهواء ، لقد صنع وات آلة بخارية لامراء فيها .

أما الإنتقال من الخطط والنماذج إلى التطبيق العملى فقد أفنى اثنى عشر عاماً من حياة وات . ولكى يصنع عينات ويحدث تحسينات متعاقبة فى آلته اقترض أكثر من ألف جنيه ، أكثر ها من جوزف بلاك . الذى لم يفقد إيمانه به قط . وتنبأ جون سميتن ، وكان هو نفسه مخترعاً ومهندساً ، بأن آلة وات لا يمكن « تعميم استعمالها أبداً لصعوبة تصنيع أجزائها بالدقة الكافية »[١٥] . وفى ١٧٦٥ تزوج وات . وكان عليه أن يكسب مزيداً من المال . فنحى اختراعه وعكف على أعمال المساحة والهندسة ، فرسم تصميمات الثغور والكبارى والقنوات . وخلال ذلك قدمه بلاك إلى جون روبك الذى كان يبحث عن آلة أكثر فاعلية من آلة نيوكومن لضخ الماء من مناجم الفحم التى تمد بالوقود مصانع الحديد التى يملكها فى كارون . وفى ١٧٦٧ وافق على أن يدفع ديون وات ويزوده برأس المال اللازم لصنع آلات طبق مواصفات وات . وذلك لقاء ثلثى الأرباح التى تتحقق من التركيبات

أو المبيعات . ورغبة فى حماية استثمارهما طلب وات فى ١٧٦٩ إلى البرلمان براءة اختراع تعطيه دون غيره حق إنتاج آلته ، فمنح البراءة حتى عام ١٧٨٣ . وأقام هو وروبك آلة تجارية قرب أدنبره ، ولكن صنعة الحدادين الرديئة تسببت فى فشلها ؛ وفى بعض الحالات كانت الأسطوانات التى صنعت لوات أكبر فى قطرها ثمن بوصة فى طرف منها فى الآخر .

وباع روبك نصيبه فى الشركة إلى ماثيو بولتن (١٧٧٣) بعد أن فتت النكسات فى عضده . وبدأ الآن ارتباط ملحوظ فى تاريخ الصداقة كما هو ملحوظ فى تاريخ الصناعة . ذلك أن بولتن لم يكن مجرد إنسان يجرى وراء الربح ، فلقد بلغ اهتمامه بتحسين طرائق الإنتاج وميكانيكياته حداً أنفقه ثروته فى هذا السبيل . ففى ١٧٦٠ تزوج وهو فى الثانية والثلاثين من امرأة غنية ، وكان فى وسعه أن يتقاعد ويعيش على دخلها ، ولكنه بدلا من هذا بنى فى سوهو قرب برمنجهام مصنعاً من أكبر مصانع انجلترا ، يقوم بصنع أنواع كثيرة من الأدوات المعدنية من مشابك الأحذية إلى الثريات . وكان يعتمد على القوة المائية لتشغيل الآلات فى مبانى مصنعه الخمسة ثم اعتزم أن يجرب قوة البخار . وكان على علم بأن وات أثبت عدم كفاية آلة نيوكومن ، وأن آلة وات فشلت بسبب الأسطوانات التى ثقبت بغير دقة . فغامر مغامرة محسوبة مفترضاً أن هذا العيب يمكن التغلب عليه . وفى ١٧٧٤ نقل آلة وات إلى سوهو ، وفى ١٧٧٥ لحق بها وات . ومد البرلمان أجل البراءة من ١٧٨٣ إلى ١٨٠٠ .

وفى ١٧٧٥ أخترع كبير الحدادين ولكنسن قضيب ثقب أسطوانياً مجوفاً مكن بولتن ووات من إنتاج آلات ذات قوة وكفاية لم يسبق لهما نظير ، وسرعان ما أخذت الشركة الجديدة تبيع الآلات البخارية لأصحاب المصانع والمناجم فى طول بريطانيا وعرضها . وقد زار بوزويل سوهو فى ١٧٧٦ وكتب يقول :

« لقد تفضل على مستر هكتور بمرافقتى لرؤية مصانع مستر بولتن الكبرى . . . ووددت لو كان جونسن معنا ، لأنه كان مشهداً كان يسرنى

أن أتأمله على ضوء علمه . ولقد كانت ضخامة بعض الآلات وتعقدها خليقة بأن تكون قريعاً لعقله الجبار . ولن أنسى ما حييت عبارة مستر بولتن التى قالها لى « إننى ياسيدى أبيع هنا ما يريد العالم كله أن يملكه — القوة المحركة » . وكان يشتغل بمصنعه نحو سبعمائة نفس . وقد رأيت فيه « زعيم قبيلة حديدياً ، وبدا أنه أب لقبيلته »[١٦] .

على أن آلات وات البخارية كانت لاتزال ناقصة ، وقد جاهد على الدوام لتحسينها . ففى ١٧٨١ سجل اختراعاً تحول فيه حركة الكباس المتناوبة إلى حركة دوارة ؛ مما جعل الآلة البخارية صالحة لإدارة المكنات العادية . وفى ١٧٨٢ سجل آلة بخارية ثنائية العمل ، يتلقى فيها طرفا الأسطوانة دفعين من الغلاية والمكثف . وفى ١٧٨٨ سجل اختراع « ضابط على شكل بلية طياره » ينظم تدفق البخار ليزيد من السرعة المماثلة فى الآلة . وخلال سنوات التجريب هذه كان مخترعون آخرون يصنعون آلات منافسة ، وكان على وات أن ينتظر حلول عام ١٧٨٣ حتى تسدد مبيعاته ديونه وتبدأ فى أن تؤتى ثمراتها . فلما انتهت فترة براءته اعتزل العمل النشيط ، وواصل العمل فى شركة بولتن ووات أبناؤهما . وتسلى وات بالاختراعات الصغيرة ، واستمتع بشيخوخة رضية ، ومات ١٨١٩ وقد بلغ الثالثة والثمانين .

وكان هناك اختراعات أخرى كثيرة فى هذا العصر الزاخر الذى « ملك كل معلم صناعة فيه تقريباً اختراعاً جديداً من بنات أفكاره ، ويدخل كل يوم تحسينات على مخترعات غيره »[١٧] على حد قول الدين تكر . وتوصل وات نفسه إلى طريقة لاستخراج النسخ المطابقة باستعمال حبر غروى وضغط الصفحة المكتوبة أو المطبوعة على فرخ مبلل من الورق الرفيع (١٧٨٠) ؛ وطبق أحد موظفيه المدعو وليم مردوك آلة وات البخارية على الجر ، وصنع نموذجاً لقاطرة سرعتها ثمانية أميال فى الساعة (١٧٨٤) ، وقاسم مردوك رجلا فرنسياً يدعى فليب لوبون أمتياز استعمال غاز الفحم فى الإضاءة ، وأنار بهذه الطريقة خارج مصنع سوهو (١٧٩٨) ، والمنظر المحورى للاقتصاد الانجليزى فى نهاية القرن الثامن عشر هو منظر الآلة البخارية تقود المسيرة

وتزيد السرعة ، وتسخر نفسها للآلات فى عشرات الصناعات ، وتصرف مصانع الغزل والنسيج عن قوة الماء إلى قوة البخار (١٧٨٥ وما بعدها) ، وتغير وجه الريف ، وتغزو المدن ، وتحجب السماء بغبار الفحم وأبخرته ، وتختبىء فى أحشاء المراكب لتسبغ قوة جديدة على سيادة انجلترة على البحار .

واقتضى الأمر عنصرين آخرين لجعل الثورة تامة : المصانع ورأس المال . وكانت مقومات الصناعة — وهى الوقود والقوة المحركة والمواد والآلات والعمال — تتعاون على خير وجه إذا جمعت فى مبنى أو مصنع واحد ، وفى تنظيم وضبط واحد ، تحت رئيس واحد . لقد كانت المصانع موجودة من قبل ، ولكنها الآن تكاثرت عدداً وحجماً لأن السوق الموسعة تطلبت الإنتاج المنتظم الواسع النطاق ، وأصبح « نظام المصنع » علماً على النظام الجديد فى الصناعة . فلما أصبحت الآلات الصناعية والمصانع غالية التكلفة ، قوى سلطان الرجال والمؤسسات القادرة على جمع رأس المال أو تقديمه ، وتسلطت المصارف على المصانع ، واتخذ المركب كله اسم الرأسمالية — وهو اقتصاد يسيطر عليه الممولون . أما وقد توافرت كل حوافز الاختراع والمنافسة ، وتحررت المشروعات الصناعية تحرراً متزايداً من قيود النقابات الحرفية والمعوقات التشريعية ، فإن الثورة الصناعية تهيأت لتشكل من جديد وجه بريطانيا وسماءها وروحها .

٣ — ملابساتها

كان على صاحب العمل والعامل كليهما أن يغيرا عاداتهما ومهاراتهما وعلاقاتهما . فأما صاحب العمل الذى أخذ يتعامل مع عمال لايفتأ عددهم فى ازدياد ، وفى دورة أسرع لرأس المال ، فقد فقد الصلة الحميمة بهم ، واضطر أن ينظر إليهم لابوصفهم معارف عاكفين على عمل مشترك ، بل يشتغلون جزئيات فى عملية لايحكم عليها إلا بالأرباح . وكان معظم الحرفيين قبل ١٧٦٠ فى ورش النقابات أو فى بيوتهم حيث لاتكون ساعات العمل صارمة لاتلين ، وحيث يسمح بفترات للراحة ، وفى عهد أسبق كانت هناك عطلات دينية تحرم الكنيسة فيها كل عمل يأتى بربح . وعلينا ألا نتمثل حال الرجل

من عامة الشعب قبل الثورة الصناعية فى صورة مثالية ، ولكننا لانخطىء إذا قلنا أن المشاق التى تعرض لها آنئذ كانت تخفف منها التقاليد ، والتعود ، والهواء الطلق فى كثير من الحالات . فلما تقدم التصنيع خفف من عناء العامل تخفيض ساعات العمل ، وزيادة أجره ، واتساع قدرته على الحصول على نصيب من السلع التى ازداد تدفقها من الآلات . ولكن نصف القرن الذى حدث فيه الانتقال من الحرفة والبيت إلى المصنع بعد ١٧٦٠ ، كان لعمال انجلترا نصف قرن حافلا بالذل اللا إنسانى الذى كان أحياناً شراً من العبودية .

كان أكثر المصانع فى تلك الفترة يشترط اثنتى عشرة ساعة إلى أربع عشرة من العمل فى اليوم على مدى ستة أيام فى الأسبوع [١٨] . وكانت حجة أرباب العمل أنه لامفر من الاحتفاظ بالعامل ساعات طويلة لأنه لايمكن الاعتماد عليه فى الحضور بانتظام : ذلك أن عمالا كثيرين كانوا يسرفون فى الشراب يوم الأحد اسرافاً يعوقهم عن الحضور إلى المصنع يوم الإثنين ؛ وكان هؤلاء — بعد أن يشتغلوا أربعة أيام يلزمون بيوتهم فى الثلاثة الباقية . وقد فسر آدم سمث هذه الظاهرة فقال « أن الجهد المفرط خلال أربعة أيام من الأسبوع هو فى حالات كثيرة السبب الحقيقى للتبطل فى الأيام الثلاثة الباقية » ؛ ونبه إلى أن اطالة فترة العمل أو الزيادة فى سرعته قد تؤدى إلى الانهيار البدنى أو العقلى ؛ وأردف « أن الرجل الذى يعتدل فى العمل اعتدالا يمكنه من أن يعمل باستمرار لايحتفظ بصحته أطول من غيره فحسب بل أنه على مدى السنة يؤدى أكبر قدر من العمل » [١٩] .

أما الأجور الحقيقية فلا يمكن بالطبع قياسها إلا مرتبطة بالأسعار . ففى ١٧٧٠ كان رغيف الخبز الذى يزن أربعة أرطال فى نتنجهام يباع بنحو ستة بنسات ، ورطل الجبن أو لحم الخنزير بأربعة ، ورطل الزبد بسبعة ، وقد حسب آدم سمث حوالى عام ١٧٧٣ متوسط أجر العامل اللندنى بعشرة شلنات ، وفى المراكز الأصغر بسبعة ، وفى إدنبره بخمسة [٢٠] . وقال آرثر يونج حوالى عام ١٧٧٠ أن الأجر الأسبوعى للعامل الصناعى الانجليزى

يتفاوت جغرافياً من ستة شلنات وستة بنسات إلى أحد عشر شلناً . وظاهر أن الأجور كانت أقل كثيراً بالنسبة للأسعار منها الآن ، ولكن بعض العمال اشتغلوا بعض الوقت بالعمل الزراعي . وبعد ١٧٩٣ ، حين بدأت انجلترة حربها الطويلة مع فرنسا الثائرة ، ارتفعت الأسعار بأسرع كثيراً من ارتفاع الأجور ، وبات الفقر مدقعاً .

وأوصى كثير من اقتصاديي القرن الثامن عشر بخفض الأجور حفزاً للتشغيل المتصل . وحتى أرثر يونج صرح بهذا الرأي ، وهو الذي أزعجه ما شهد من فقر في بعض أقاليم فرنسا : « لايجهل إلا أبله أنه لابد من الإبقاء على فقر الطبقات الدنيا وإلا لما نشطت أبدا »[٢١] . أو كما قال ج. سمث :

« من الحقائق التي يعرفها جيداً كل خبير بهذا الموضوع أن العوز ، إلى حد ما ، يحفز على الاجتهاد ، وأن الصانع (أي العامل اليدوي) الذي يستطيع العيش على شغل ثلاثة أيام ، سيظل متبطلا سكران بقية الأسبوع . ويمكننا على العموم أن نؤكد منصفين أن خفض الأجور في صناعة الصوف سيكون بركة على الشعب ، ولن يضار منه الفقراء حقيقياً . وبهذه الطريقة قد ننمي تجارتنا ، وندعم دخولنا ، ونصالح الشعب بالإضافة إلى هذه المنافع »[٢٢] .

واستخدمت النساء والأطفال في المصانع ، عادة لأداء العمليات التي لاتحتاج إلى مهارة . وكانت بعض النساجات الماهرات يتقاضين أجوراً لاتقل عن أجور أزواجهن ، ولكن الأجور العادية لعاملات المصانع بلغت في المتوسط ثلاثة شلنات وستة بنسات — ولم تزد على نصف أجور العمال إلا فيما ندر[٢٣] . وكانت مصانع الغزل والنسيج وحدها في ١٧٨٨ تشغل ٥٩٠٠٠ امرأة و ٤٨٠٠٠ طفل[٢٤] . وكان السير روبرت بيل يستخدم نيفا وألف طفل في مصانعه بلانكاشير[٢٥] . ولم يكن تشغيل الأطفال بدعاً في أوروبا ، فقد كان أمراً مسلماً به في المزارع والصناعة الأسرية . وإذ كان التعليم العام أمراً لم يرض عنه المحافظون لأنه يفضي إلى فائض في المتعلمين

ونادرة فى العمال اليدويين ، فإن قلة قليلة جداً من الانجليز فى القرن الثامن عشر هى التى رأت ضيراً فى ذهاب الأطفال إلى المصنع بدلا من المدرسة . وحين كانت الآلات من البساطة بحيث يستطيع الأطفال أن يقوموا عليها ، رحب أصحاب المصانع بالغلمان والفتيات ذوى الأعوام الخمسة أو يزيد . وكان المسئولون فى الأبرشيات الذين ضاقوا بالإنفاق على الأيتام أو أطفال الفقراء يجهزونهم لرجال الصناعة مغتبطين ، أحياناً فى أفواج من خمسين أو ثمانين أو مائة ؛ وفى حالات عدة كانوا يشترطون أن يأخذ صاحب العمل طفلا معتوهاً واحداً فى كل عشرين طفلا[٢٦] . وكان يوم العمل العادى للعمال الأطفال يتراوح بين عشر ساعات وأربع عشرة . وكثيراً ما كانوا يسكنون جماعات ، وفى بعض المصانع كانوا يعملون فى ورديات من اثنى عشرة ساعة ، بحيث ندر أن توقفت الآلات أوخلت الأسرة من شاغليها . وكان النظام يحفظ باللطم أو الركل . وقد وجد المرض ضحايا عاجزين عن درئه فى صبيان المصانع هؤلاء ؛ وكثير منهم أصابه العمل بتشوهات فى جسده أو الحوادث بعاهات مقعدة ، ومنهم من قتل نفسه . وكان فى بعض الرجال من رقة الشعور ما يكفى لذم تشغيل الأطفال هذا ، على أن هذا التشغيل تقلص لا لأن الناس أصبحوا أكثر رحمة ، بل لأن الآلات أصبحت أشد تعقيداً .

وأخضع الأطفال والنساء والرجال فى المصانع لظروف ونظم لم يعرفوها من قبل . وكانت المبانى فى حالات كثيرة تشيد على عجل دون توخ للمتانة ، مما أعان قطعاً على كثرة الحوادث وتفشى المرض . وكانت القواعد صارمة ، وانتهاكاتها تعاقب بغرامات قد تفقد العامل أجر يومه[٢٧] . وكانت حجة أرباب العمل أن العناية الواجبة بالآلات وضرورة التنسيق بين مختلف العمليات ، والعادات المتسيبة لسكان لم يألفوا النظام أو السرعة — كل هذا يتطلب ضبطاً صارماً إذا أريد ألا تقضى الفوضى والتبديد على الأرباح وترفع سعر المنتجات بحيث تخرجها من السوق فى داخل البلاد وخارجها . واحتمل العمال الانضباط لأن الصانع العاطل كان يواجه الجوع والبرد هو وأسرته ، وكان العامل المشتغل يعرف أن العمال العاطلين يتوقون

إلى أخذ وظيفته ، ومن ثم كان من مصلحة رب العمل أن يكون هناك « وعاء » من المتعطلين يأخذ منه البدائل للعمال المقعدين أو الساخطين أو المرفوتين. وحتى العامل الكفء الحسن السير والسلوك كان يواجه الرفت إذا تشبعت السوق المتاحة بـ « إنتاج زائد » يفوق قدرتها الشرائية ، أو إذا وضع السلام نهاية لاستعداد الجيوش المبارك لطلب مقادير متزايدة من السلع واستهلاكها بأسرع ما يمكن »

وكان العمال فى ظل نظام النقابات الحرفية محميين بالأوامر النقابية أو البلدية ، أما فى حركة التصنيع الجديدة فلم يجدوا حماية تذكر من القانون أو أى حماية إطلاقاً . وكانت دعوة الفزيوقراطيين لتحرير الاقتصاد من التنظيم قد تقدمت فى انجلترا كما تقدمت فى فرنسا ؛ وأقنع أصحاب الأعمال البرلمان بأنهم لايستطيعون مواصلة عملياتهم أو التصدى للمنافسة الأجنبية ما لم تترك الأجور لتحكمها قوانين العرض والطلب . وكان قضاة الصلح يحتفظون من قبل ببعض الأشراف على الأجور فى مصانع القرى ، أما فى المصانع بعد ١٧٥٧ ، فلم يكن لهم أى اشراف[٢٨] . ولم تر الطبقتان العليا والوسطى مبرراً للتدخل فى شئون أقطاب الصناعة ، وكان فيض الصادرات المتعاظم يفتح أسواقاً جديدة للتجارة البريطانية ؛ وكان الانجليز القادرون على الشراء مسرورين بوفرة المصنوعات .

ولكن العمال لم يصيبوا قسطاً من هذا الثراء فقد ظلوا — رغم تكاثر السلع بفضل الآلات التى يقومون عليها — فقراء عام ١٨٠٠ كما كانوا قبل قرن[٢٩] . ثم انهم لم يعودوا يملكون أدوات حرفتهم ، ولم يكن لهم نصيب يذكر فى تصميم السلعة المنتجة ، ولم ينالوا كسباً من توسيع السوق التى يغذونها . وزادوا فقراً على فقر بمواصلة الأنجاب المرتفع الذى يؤتى ثماره فى المزرعة ؛ ووجدوا أكبر عزاء لهم فى الشراب والجنس ، وظلت نساؤهم يقومن بعدد من يلدن من الأطفال . وانتشر الفقر المدقع ؛ وارتفعت المصروفات المخصصة لإغاثة الفقراء من ٦٠٠,٠٠٠ جنيه فى ١٧٤٢ إلى ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى ١٧٨٤[٣٠] . ولم تستطع الزيادة فى الإسكان أن

تساير هجرة العمال الصناعيين أو تكاثرهم ، وكثيراً ما أكرهوا على العيش في مساكن متداعية تتزاحم في شوارع ضيقة كئيبة ، وعاش بعض العمال في أقباء زادت رطوبتها من أسباب المرض . ولم يحل عام ١٨٠٠ حتى كانت كل المدن الكبرى قد قامت فيها أحياء فقيرة مزدحمة باتت ظروف العيش فيها أسوأ من أي ظروف عرفت في تاريخ انجلتره السابق .

وحاول العمال تحسين ظروفهم بالمشاغبات أو الاضطرابات أو التنظيم ، فهاجموا المخترعات التي تهددهم بالبطالة أو العمل الشاق والأجر الحقير . وقرر البرلمان في ١٧٦٩ اعتبار تخريب الآلات جناية(٣١) . ولكن العمال في مصانع لانكاشير تجمعوا رغم ذلك عام ١٧٧٩ في حشد من الغوغاء تعاظم من خمسمائة رجل إلى ثمانية آلاف ؛ ثم جمعوا الأسلحة النارية والذخيرة ؛ وصهروا الأطباق البيوترية ليصنعوا منها الأعيرة . وأقسموا أن يدمروا كل آلة في انجلتره . وفي بولتن حطموا مصنعاً وأجهزته تحطيماً تاماً ؛ وفي أولدم اقتحموا عنوة مصنع نسيج روبرت بيل (أبي السير روبرت الوزير) ، وحطموا أجهزته الغالية . وكانوا في طريقهم للهجوم على مصنع آركرايت في كرامفورد حين لحق بهم الجنود المرسلون من لفربول ، ففروا للفور مدحورين . وقبض على بعضهم وحكم عليهم بالشنق . وعال قضاة الصلح هذا بأن « تدمير الآلات في هذا البلد لن يكون إلا الوسيلة لنقلها إلى البلاد الأخرى . . . مما يؤذي تجارة بريطانيا(٣٢) . وطالب « صديق للفقراء » مجهول الهوية إلى العمال أن يتحلوا بمزيد من الصبر « أن كل التحسينات بواسطة الآلات ينجم عنها أول الأمر بعض المصاعب لأشخاص بعينهم . . . أو لم يكن أول أثر للمطبعة هو حرمان الكثير من النساخين من حرفهم ؟ »(٣٣) .

وحرم القانون تأليف الاتحادات العمالية بهدف المساومة الجماعية ؛ ومع ذلك وجدت « جمعيات العمال المهرة » التي يرجع بعضها إلى القرن الرابع عشر . وفي القرن الثامن عشر كثر عددها لاسيما بين صناع النسيج . وكانت أولا أندية اجتماعية أو جمعيات لتبادل المنافع ، ولكنها بتقدم القرن أصبحت أكثر عدواناً ، ونظمت أحياناً الاضرابات حين كان البرلمان يرفض

ملتمساتها . مثال ذلك أن السنتين ١٧٦٧ - ٦٨ شهدتا اضرابات للملاحين والنساجين وصانعي القبعات والخياطين وطاحني الزجاج ؛ وصاحب العديد من هذه الاضرابات العمالية عنف مسلح من الطرفين[٣٤] . وقد أجمل آدم سمث النتائج حتى ١٧٧٦ :

« ليس من العسير أن نتكهن بانتصار أحد الفريقين حتماً ، في النزاع في جميع الظروف العادية ، وإكراهه الفريق الآخر على الامتثال لشروطه ، فأرباب الأعمال يستطيعون لقلة عددهم أن يتكتلوا بأسهل كثيراً من العمال ، والقانون . . . لا يحرم تجمعاتهم ، في حين يحرم تجمعات العمال . وليس لدينا قوانين برلمانية تمنع التكتل لخفض أجور العمال ، ولكن القوانين الكثيرة تمنع التكتل لرفعها . وفي جميع هذه النزاعات يستطيع أصحاب المصانع الصمود زمناً أطول بكثير . . . وكثير من العمال لايستطيعون العيش وهم متعطلون ولو أسبوعاً واحداً ، وقليلون يستطيعونه شهراً ونادر من يستطيعونه سنة »[٣٥] .

وأنفذ أصحاب العمل مشيئتهم سواء في المصانع أوفي البرلمان ، ففي ١٧٩٩ قضى مجلس العموم بعدم شرعية أي اتحادات ترمى إلى الحصول على أجور أعلى أو إلى تغيير ساعات العمل ، أو إلى انقاص كمية العمل المطلوبة من العمال . ويعاقب العمال الداخلون في تكتلات كهذه بالسجن ويؤمن المبلغون عن هؤلاء العمال[٣٦] .

٤ - عواقبها

كانت نتائج الثورة الصناعية هي تقريباً كل شيء تلاها في انجلتره إذا استثنينا الأدب والفن ؛ وليس في الاستطاعة إيفاء هذه النتائج حقها من الوصف إلا إذا كتبنا تاريخاً للقرنين الأخيرين . على اننا يجب أن نلفت النظر ولو إلى القمم البارزة لعملية التغير المستمرة والتي لم تنته بعد .

١ - تغير الصناعة نفسها بتكاثر المخترعات والآلات - وهي عملية من الكثرة بحيث تختلف طرائقنا الحاضرة في إنتاج السلع وتوزيعها عن

طرائق عام ١٨٠٠ أكثر من اختلاف هذه عن الطرائق التى سادت قبلها بألفى عام .

٢ — انتقال الاقتصاد من النقابات الحرفية المنظمة والصناعات الأسرية إلى نظام الاستثمار الرأسمالى والمشروعات الحرة . وكان آدم سمث الصوت البريطانى للنظام الجديد ، وأسبغ بت الثانى على النظام التكريس الحكومى فى ١٧٩٦ .

٣ — تصنيع الزراعة — أى الاستعاضة عن المزارع الصغيرة بمساحات كبيرة من الأرض تدار رأسمالياً ، وتستخدم الآلات والكيمياء والقوة الميكانيكية على نطاق واسع لإنتاج الطعام والألياف لسوق قومية أودولية — هذا التصنيع ماض فى طريقه اليوم . والمزرعة التى كانت تفلحها الأسرة تنضم إلى النقابات الحرفية فى ركب ضحايا الثورة الصناعية .

٤ — تشجيع العلم وتطبيقه وبثه . وقد انصب التشجيع أولا على البحوث العملية ولكن الدراسات فى العلم البحت أفضت إلى نتائج عملية هائلة ، ومن ثم فقد مولت البحوث النظرية أيضاً ، وأصبح العلم هو الطابع المميز للحياة الحديثة كما كان الدين للحياة الوسيطة .

٥ — أعادت الثورة الصناعية (لانابليون كما توقع بيت الثانى) رسم خريطة العالم بضمانها سيادة بريطانيا على البحار وعلى أكثر المستعمرات جلباً للأرباح على مدى ١٥٠ عاماً . وقد عززت الأمبريالية لأنها حملت انجلتره — ثم غيرها من الدول الصناعية — على فتح أصقاع أجنبية تستطيع أن توفر الخامات أو الأسواق أو التسهيلات للتجارة أو الحرب . وأكرهت الشعوب الزراعية على التصنيع وتقوية نفسها عسكرياً لتحصل على حريتها أوتصونها ، وخلقت روابط اقتصادية أو سياسية أو حربية جعلت الاستقلال وهماً والتكافل واقعياً .

٦ — غيرت انجلتره طابعاً وحضارة بتكثير سكانها ، وتصنيع نصفها ، وتحريكها شمالاً وغرباً إلى مدن مجاورة لمناجم الفحم أو الحديد ، أو للطرق

المائية أو البحر ، وهكذا نمت ليدز وشفيلد ونيوكاسل وما نشستر وبرمنجهام وليفربول وبرستل . . . وقد حولت الثورة الصناعية مناطق شاسعة من انجلترا ، ومن غيرها من الدول المصنعة ، إلى بقع ملطخة من الأرض تنفث دخان المصانع وتختنق بالغازات والغبار ، وأرسبت الخبث البشرى فى أحياء قذرة مدخنة بائسة .

٧ — ميكنت الحرب ووسعتها وجردتها من الطابع الشخصى ورفعت قدرة الإنسان على التدمير أو القتل بدرجة هائلة .

٨ — فرضت تحسيناً وسرعة فى المواصلات والنقل وبهذا يسرت تكتلات صناعية أكبر وسهلت التحكم فى مناطق أوسع من رأس مال واحد .

٩ — ولدت الديمقراطية برفعها طبقة رجال الأعمال إلى مكانة الثراء المهيمن ، وإلى التفوق السياسى نتيجة تدريجية لذلك . ولأحداث هذا الانتقال الخطير للسلطة ورغبة فى حمايته ، جندت الطبقة الجديدة تأييد قطاع متزايد من الجماهير ، واثقة من أن فى الإمكان الاحتفاظ بولائها بالهيمنة على وسائل الإعلام وتلقين المبادىء . ولكن رغم هذه الهيمنة أصبح شعب الدول الصناعية أفضل الجماهير إعلاماً فى التاريخ الحديث .

١٠ — وإذا كانت الثورة الصناعية المتطورة تتطلب مزيداً من التعليم فى العمال والمديرين ، فإن الطبقة الجديدة مولت المدارس والمكتبات والجامعات على نطاق لم يحلم به أحد من قبل . وكان الهدف تدريب الذكاء التقنى ، وكانت الحصيلة الجانبية توسعاً لم يسبق له نظير فى الذكاء العلمانى .

١١ — نشر الاقتصاد الجديد السلع وأسباب الرفاهية بين نسبة من السكان تفوق كثيراً أى نظام سابق لأنه لم يكن من سبيل أمامه لصيانة إنتاجيته المطردة الارتفاع إلا بقوة شرائية مطردة الاتساع فى الشعب .

١٢ — أرهفت العقل الحضرى ، ولكنها بلدت الحس الجمالى ؛ وأصبحت مدن كثيرة قبيحة المنظر قبحاً يغم النفوس وفى النهاية أقلع الفن نفسه عن نشدان الجمال . وكان من آثار إسقاط الارستقراطية عن عرشها — زوال حفظة المعايير والأذواق وحكمتها ، وهبوط مستوى الأدب والفن .

١٣ — رفعت الثورة الصناعية أهمية الاقتصاد ووضعه ، وأفضت إلى التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وعودت الناس على التفكير بلغة العلة والمعلول الماديين ، وأفضت إلى نظريات ميكانيكية النزعة فى علم الأحياء نحواها محاولة تفسير جميع عمليات الحياة على أنها أفعال ميكانيكية .

١٤ — تضافرت هذه التطورات فى العلم ، والنزعات الشبيهة بها فى الفلسفة ، مع الأحوال الحضرية والثراء المتسع ، على إضعاف العقيدة الدينية .

١٥ — غيرت الثورة الصناعية من الأخلاقية . إنها لم تغير طبيعة الإنسان ولكنها أعطت قوى وفرصاً جديدة لغرائز قديمة نافعة بدائياً ، مكدرة اجتماعيا . وأكدت حافز الكسب إلى حد بدا فيه مشجعاً ومكثفاً لأنانية الإنسان الفطرية . لقد كانت الغرائز غير الاجتماعية تجد كابحاً لجماحها فى سلطة الوالدين ، وفى التعليم الأخلاقى فى المدارس ، وفى التلقين الدينى ، ولكن الثورة الصناعية أضعفت هذه الكوابح كلها . وكانت الأسرة فى النظام الزراعى هى وحدة الإنتاج الاقتصادى كما كانت وحدة الاستمرار العرقى والنظام الاجتماعى ؛ وكانت تعمل جماعة على الأرض خاضعة للنظام الذى يفرضه الأبوان والفصول ؛ وقد علمت التعاون وشكلت الخلق . أما النزعة الصناعية فقد جعلت الفرد والشركة هما وحدتى الإنتاج ، وفقد الأبوان والأسرة الأساس الاقتصادى لسلطتهما ووظيفتهما الأخلاقية . وإذ أصبح تشغيل الأطفال غير مجز فى المدن لم يعد للأطفال نفع اقتصادى . وانتشر ضبط النسل ، وأكثر انتشاره بين الأفراد الأكثر ذكاء ، وأقله بين الأقل ذكاء ، مما أحدث نتائج غير متوقعة للعلاقات العرقية والسلطة الثيوقراطية : وإذ حرر تحديد الأسرة والأجهزة الميكانيكية المرأة من هموم الأمومة وواجبات البيت ، فقد جذبت إلى المصانع والمكاتب ؛ وكان التحرير معناه التصنيع . وإذ استغرق الأبناء فترة أطول حتى يصلوا إلى الاعتماد على ذواتهم اقتصادياً فإن الفترة التى طالت بين النضج البيولوجى والاقتصادى جعلت العفة السابقة للزواج أشق ، وحطمت الناموس الأخلاقى الذى كان ممكناً فى المزرعة بفضل النضج الاقتصادى المبكر ، والزواج المبكر ، والعقوبات الدينية

ووجدت المجتمعات الصناعية نفسها منساقة على غير هدى فى فترة فاقدة لحس المسئولية الأخلاقية ، بين ناموس أخلاقى يحتضر وآخر جديد لم يتشكل بعد .

وما تزال الثورة الصناعية ماضية فى طريقها قدماً ، وليس فى قدرة عقل واحد أن يستوعبها فى جميع مظاهرها ، أو أن يصدر حكماً أخلاقياً على نتائجها . ولقد ولدت مقادير وأنواعاً جديدة من الجرائم ، وألهمت العلماء كل ما اتصف به المبعوثون الدينيون والراهبات من اخلاص وتفان ، وأنتجت المبانى القبيحة ، والشوارع الكئيبة ، والأحياء الفقيرة القذرة ، ولكن هذه لم تكن مستمدة من صميمها ، وهو احلال القوة المكنية محل الجهد البشرى . وهى الآن تهاجم شرورها ، لأنها وجدت أن الأحياء الفقيرة القذرة تكلف أكثر من التعليم ، وأن التخفيف من الفقر يثرى الأغنياء . وفى استطاعة المعمار الوظيفى والبراعة الميكانيكية — كما نرى فى الكبارى مثلا — أن تخلقا جمالا يزاوج بين العلم والفن . وأخذ الجمال يصبح مجزياً . والتصميم الصناعى يتبوأ مكانه بين فنون الحياة وأسباب تجميلها .

* * *

الفصل الثامن والعشرون

المسرحية السياسية

١٧٥٦ — ٩٢

---

١ — البنية السياسية

كانت الثورة الصناعية أهم عملية أساسية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فى انجلترا ، والصراع السياسى أكثر الدرامات اثارة فيها . فقد جعل عمالقة الخطابة الانجليزية — شاتام ، وبيرك ، وفوكس ، وشريدان — هؤلاء جعلوا مجلس العموم مسرحاً لصراعات مريرة خطيرة بين البرلمان والملك ، وبين البرلمان والشعب ، وبين انجلتره وأمريكا ، وبين ضمير انجلتره وحكام الهند الانجليز ، وبين انجلتره والثورة الفرنسية . وكان البناء السياسى اطار المسرحية وأداتها .

كانت حكومة بريطانيا العظمى ملكية دستورية ، بمعنى أن الملك كان يوافق ضمناً على أن يحكم وفق القوانين الراهنة والممارسات التقليدية ، وألا يضع قوانين جديدة دون موافقة البرلمان . أما الدستور فلم يكن وثيقة بل تراكماً للسوابق باستثنائين ، أولهما الميجنا كارتا الذى وقعه الملك يوحنا فى ١٢١٥ ، والثانى نشأ حين أرفق مؤتمر وستمنستر فى ١٦٨٩ (الذى عرض تاج انجلتره على وليم أورنج وزوجته مارى) بهذا العرض « قانونا يعلن حقوق وحريات الرعية ويسوى مسألة وراثة التاج » وقد أكد « قانون الحقوق » هذا كما سمى اختصاراً « أن » سلطة وقف القوانين أو تنفيذ القوانين بأمر ملكى دون موافقة البرلمان غير قانونيه » وأن « جباية المال للتاج أو لاستعماله بدعوى الحق الملكى الخاص ، دون إذن البرلمان . . . عمل غير قانونى » ثم أردف : « ونظراً إلى الثقة الكاملة بأن . . . أمير أورنج سوف

يحميهم (أي البرلمان) من انتهاك حقوقهم التي أكدوها هنا » ومن أي اعتداءات أخرى على دينهم وحقوقهم وحرياتهم ، فإن . . اللوردات الروحيين والزمنيين ونواب العموم . . يقررون أن يكون وليم وماري ، أمير وأميرة أورنج ، وأن ينادى بهما ملكاً وملكة على انجلتره وفرنسا وارلندة . » ومعنى هذا إن وليم الثالث وماري الثانية بقبولهما العرش قبلا ضمنا القيود التي وضعتها أرستقراطية انجلتره المزهرة القوية على سلطة الملك بهذا التصريح. وحين عرض البرلمان في « قانون تسوية » لاحق (١٧٠١) ، وبشروط معينة ، التاج على « الأميرة صوفيا » (الهانوفرية) وورثتها البروتستنت « افترض أنها هي وهؤلاء الورثة وافقوا بقبولهم العرش على » قانون للحقوق « سلبهم كل الحق في وضع القوانين إلا بموافقة البرلمان . وبينما كانت جميع دول أوربا تقريباً حتى ١٧٨٩ يحكمها ملوك مستبدون يضعون القوانين ويلغونها ، كان لانجلتره حكومة دستورية امتدحها الفلاسفة وحسدها نصف العالم .

وقد قدر تعداد ١٨٠١[1] سكان بريطانيا العظمى بتسعة ملايين نسمة ينقسمون إلى الفئات التالية :

١ — في القمة ٢٨٧ نبيلا ونبيلة زمنيين (علمانيين) بوصفهم رؤساء أسر مجموعها نحو ٧,١٧٥ شخصاً . وكان داخل هذه الفئة مراتب في ترتيب تنازلي : أمراء الدم (الملكي) » وأدواق ، وماركيزات ، وايرلات ، وفيكونتات ، وبارونات . وانحدرت هذه الألقاب إلى الإبن الأكبر جيلا بعد جيل .

٢ — ستة وعشرون أسقفاً — « لوردات روحيون » وكان من حقهم هم واللوردات الزمنيون الـ ٢٨٧ أن يجلسوا في مجلس اللوردات . وقد ألف هؤلاء معاً — وجملتهم ٣١٣ أسرة — طبقة النبلاء الأصليين ، ويصح استعمال لقب « لورد » لهم جميعاً إلا الأدواق والأمراء . وكان من الممكن اكتساب نبالة دون ذلك رسمية ، ودون حق توريثها » بفضل التعيين في الوظائف العليا في الحكومة أو الجيش أو البحرية ؛ ولكن كان المتبع عادة أن يعين في هذه الوظائف أشخاص رفعوا إلى مقام النبالة من قبل .

٣ — نحو ٥٤٠ بارونتا ، وزوجاتهم ، يحق لهم أن يضعوا لقب « سير » و« ليدى » فى صدر أسمائهم الأولى ، وأن يورثوا هذين اللقبين .

٤ — نحو ٣٥٠ فارساً وزوجاتهم يحق لهم استعمال اللقبين السابقين ، دون توريثهما .

٥ — نحو ستة آلاف « سكواير » Squires (e) وهم الـ « gentry » أو الطبقة الكبرى من ملاك الأرض الرئيسيين . وكان البارونيتات ، والفرسان ، وهؤلاء الملاك ، وزوجاتهم ، يؤلفون « الطبقة الدنيا من النبلاء » ويندرجون بوجه عام هم وكبارهم فى الطبقة « الارستقراطية » .

٦ — نحو عشرين ألف « سيد » (جنتلمان » أو سيدة » (ليدى) يعيشون على دخول دون عمل يدوى ، لهم شعارات نبالة ، ومفروض أنهم من أصل كريم « gentle » — أى ولدوا فى مجموعة الأسر العريقة المقبولة « gens » .

٧ — وأسفل هؤلاء جميعاً جاءت بقية السكان ، الأكليروس الأدنى ، وموظفوا الدولة ، ورجال الأعمال ، والمزارعون ، وأصحاب المتاجر ، ومهرة الصناع ، والعمال ، والجنود ، والبحارة ، كذلك نحو ١٠٤,٠٠٠ من المعدمين الذين يتلقون المعونة من الدولة ونحو ٢٢٢,٠٠٠ من « المتشردين ، والغجر ، والأشرار ، واللصوص ، والمحتالين ، ومزيفى العملة البخسة ، داخل السجون أو خارجها ، وعامة البغايا»[٢] .

وقد هيمنت الطبقة الأرستقراطية على الحكومة ، دون أن تلقى من المقاومة إلا العارضة بفضل ثرائها (وقد أصاب النبلاء الـ ٢٨٧ تسعة وعشرين فى المائة من الدخل القومى فى ١٨٠١)[٣] ، وبروزها فى الوظائف العليا مدنية أو حربية ، وهيبة عراقتها ، وهيمنتها على الانتخابات البرلمانية والتشريع . وكانت انجلتره من ناحية النظام الانتخابى مقسمة إلى أربعين اقليماً أو مقاطعة ريفية (Counties) و ٢٠٣ مدينة ذات ممثلين (boroughs) . وكان يستثنى من حق التصويت النساء ، والمعدمون ، والمجرمون المحكوم عليهم ، والكاثوليك الرومان ، والكويكرز ، واليهود ، واللاأدريون ، وغيرهم ممن

لايستطيعون حلف يمين الولاء لسلطان الكنيسة الانجليزية وعقائدها . ولم يكن حق التصويت للبرلمان مخولا فى الأقاليم إلا للملاك البروتستنت الذين يدفعون ضريبة سنوية قدرها أربعون شلناً ، ومجموعهم نحو ١٦٠,٠٠٠ . ولما كان التصويت علنياً ، فإن قليلين جداً من الناخبين كانوا يجرءون على تأييد أى مرشح غير الذى رشحه كبار ملاك الإقليم ، ومن ثم لم يكترث بالتصويت الا نفر قليل نسبياً من الناخبين ، وكان الكثير من الإنتخابات يتقرر بترتيب يتفق عليه الزعماء دون اقتراع على الإطلاق . وكان كبار ملاك الأرض يرون أن من الإنصاف لهم — وهم يراهنون بالكثير فى سياسة الحكومة ومصير الأمة — أن يكون تمثيلهم فى البرلمان متناسباً مع ثروتهم . وقد وافق على هذا الرأى معظم صغار الملاك .

أما المدن فقد تمثل فيها تنوع مربك من الأنماط الانتخابية . ففى مدينة وستمنستر (وسط لندن حالياً) كان هناك نحو تسعة آلاف ناخب ، وفى مدينة لندن كما كانت مكونة آنئذ ستة آلاف ؛ وفى برستلى خمسة آلاف ؛ ولم تضم أكثر من ألف ناخب سوى اثنتين وعشرين مدينة[٤] وفى اثنتى عشرة مدينة كان التصويت من حق جميع الذكور ؛ وفى معظم المدن الباقية اقتصر على ذوى الأملاك ؛ وفى عدة مدن كان المرشحون ينتخبهم « تكتل » بلدى عرف بأنه « أوليجركية حضرية من المحامين والتجار والسماسرة وصانعى الجعة ، تحصنت فى تكتل ينتخب ذاته ، وخولت له براعة ملكية الهيمنة وحده على أملاك المدينة »[٥]. وكان بعض هذه التكتلات يعطى صوته للمرشح (أو المرشحين) الذى يدفع راعيه (أو راعيهم) أغلى ثمن . فى ١٧٦١ أعلنت مدينة صدبرى صراحة عن بيع صوتها ؛ وفى الانتخاب التالى عرضت بلدية أكسفورد رسمياً أن تعيد انتخاب أعضائها فى البرلمان إذا دفعوا ديون البلدية [٦] . وكان امتياز اختيار المرشح فى بعض المدن تملكه بحكم العادة أفراد أو أسر معينة لاتسكن هناك بالضرورة ، وآية ذلك أن اللورد كاملفورد كان يفاخر بأنه لوشاء لاستطاع أن ينتخب ساقيه الزنجى للبرلمان[٧] . وكانت « دوائر الجيب » هذه تباع أحياناً كالسلع . فاشترى اللورد أجرمونت مدهرست ودفع فيها ٤٠,٠٠٠ جنيه[٨] وفى بعض « الدوائر

الفاسدة Rotten boroughs « كانت حفنة من الناخبين تستطيع أن تبعث إلى البرلمان نائباً أو أكثر فى حين لم يكن نصيب مدينة لندن غير أربعة . وحتى حين كان حق التصويت للجميع تقريباً وكان العامل الذى يحسم الانتخاب عادة هو الرشوة أو العنف أو إثمال الناخب العنيد بالخمر إلى درجة تعجزه عن الأدلاء بصوته [٩] . وقد سيطر ١١١ « راع » على الانتخابات بمختلف الوسائل فى ٢٠٥ مدينة [١٠] . وبلغ عدد الناخبين نحو ٨٥,٠٠٠ فى المدن ، و ١٦٠,٠٠٠ فى الأقاليم — والجملة ٢٤٥,٠٠٠ .

من هذه الانتخابات المتباينة جاء أعضاء مجلس العموم البالغ عددهم ٥٥٨ عضواً فى ١٧٦١ . فأرسلت أسكتلنده خمسة وأربعين ، وأقاليم انجلتره وويلز أربعة وتسعين ، والمدن ٤١٥ ، والجامعتين نائبين عن كل . وكان مجلس اللوردات يضم آنئذ ٢٢٤ من كبار النبلاء ، علمانيين أو روحيين ، وكان « الامتياز البرلمانى » يشمل حق البرلمان فى إقرار مشروعات القوانين المقدمة للتشريع ، وفى فرض الضرائب وبهذا يملك « قوة المال » ، وفى الحكم على مسوغات الأشخاص الذين يطالبون بقبولهم فى عضويته ، وأن يعاقب — بالسجن إن شاء — أى ضرر يلحق بأعضائه أو أى عصيان لقواعده ؛ وأن يتمتع بكامل حرية الكلام ، بما فى ذلك الحصانة من العقاب على الألفاظ التى يتفوه بها فى البرلمان .

أما انقسام الأعضاء إلى محافظين Tories وأحرار whigs فكان فى ١٧٦١ قد فقد تقريباً كل دلالة ، وكان الانقسام الحقيقى بين المؤيدين والمعارضين لـ « الحكومة » الحالية » أو الوزراء ، أو الملك . وكان المحافظون بوجه عام يحمون مصالح ملاك الأرض ؛ والأحرار على استعداد بين حين وحين للنظر فى رغبات طبقة رجال الأعمال ؛ وفيما خلا ذلك كان كلا المحافظين والأحرار محافظين على السواء . ولم يشرع أحد الحزبين قوانين لمصلحة الجماهير .

والمشروع لايصبح قانوناً إلا إذا وافق عليه مجلسا البرلمان ووقعه الملك ، وكان الملك يملك « الحق الملكى الخاص » أى السلطات ، والامتيازات ،

والحصانات الممنوحة له بحكم العرف والقانون الانجليزيين . فكان له سلطات حربية : فهو القائد الأعلى للجيش والبحرية ، يستطيع اعلان الحرب ، ولكنه يحتاج إلى المخصصات البرلمانية ليخوضها ؛ ويستطيع المفاوضة لإبرام المعاهدة وعقد الصلح . وكان له بعض الحقوق التشريعية ، فهو يستطيع الامتناع عن الموافقة على مشروع أقره البرلمان — ولكن كان فى استطاعة البرلمان أن يحمله على الموافقة بما يملك من قوة المال ، وعلى ذلك لم يمارس ذلك الحق اطلاقاً بعد ١٧١٤ ؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين بالتصريح لم يمارس ذلك الحق اطلاقاً بعد ١٧١٤ ؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين بالتصريح أو بالأوامر الصادرة من مجلسه الخاص ، ولكنه لايستطيع تغيير القانون العام ، أو استحداث جريمة جديدة ؛ أما المستعمرات فيستطيع أن يشرع لها كما يشاء . وكان له سلطات تنفيذية . فله وحده أن يدعو البرلمان أو يؤجله أو يفضه ، وكان يعين الوزراء الذين يوجهون السياسة والإدارة ، وكان بعض الضجة التى اصطخبت فى العقود الأولى (١٧٦٠ — ٨٢) من حكم جورج الثالث الذى امتد ستين عاماً يدور حول مدى حق الملك فى اختيار الوزراء وتقرير السياسة .

وقد ضيق حق الملك فى التشريع ولم يكن ممكناً جعل المشاريع التى يقترحها وزراؤه على البرلمان قانوناً إلا بإقناع مجلسى البرلمان كليهما بقبولها . وكان هذا يتم بالمساومات السياسية ، أو بالوعد بالمناصب أو المعاشات أو بقبضها ، أو بالرشوة (فى ١٧٧٠ كان أكثر من ١٩٠ عضواً فى مجلس العموم يملكون وظائف تعيين فى الحكومة) . أما الأموال والمكافآت التى تتطلبها هذه العمليات فكان أكثرها يأتى من « القائمة المدنية » للملك ، وهى حساب نفقاته لشخصه ولأسرته (المخصصات الملكية) ، ولبيوته وخدمه ، وللرواتب التى يدفعها ، وللمعاشات الممنوحة على سبيل المكافأة . وقد خصص البرلمان لجورج الثالث ٨٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام لهذه القائمة المدنية ؛ ولكنه كثيراً ما تجاوز هذا المبلغ فى نفقاته ؛ وفى ١٧٦٩ أضاف البرلمان ٥١٣,٥١١ جنيهاً ، وفى ١٧٧٧ أضاف ٦١٨,٣٤٠ جنيهاً ليدفع الديون الملكية . وكان بعض مال الملك يستخدم فى شراء الأصوات فى الانتخابات البرلمانية[11] ،

وبعضه لشراء الأصوات فى البرلمان نفسه . وفى حالات كثيرة كانت الاعتمادات التى يوافق عليها البرلمان للخدمات السرية ترد إلى البرلمان على هيئة رشاوى. فإذا أضفنا إلى هذه التجارة الملكية المال الذى ينفقه فى الانتخابات أو التشريع « النوابون » العائدون إلى انجلتره بثروة جمعوها فى الهند ، أو رجال الأعمال الساعون إلى عقود حكومية أو إلى تفادى تدخل الحكومة ، اكتملت لنا صورة للفساد السياسى منقطعة النظير غريبة الأوضاع ، تكشف عن طبيعة البشر كشفاً لا يشرح الصدور .

وينبغى أن نلاحظ هنا بعض التفاصيل الصغيرة للنظام البريطانى . فقد فرضت الضرائب على جميع ملاك الأرض كباراً أو صغاراً ، وربما كان هذا عاملا من عوامل الاحترام الذى أبداه عامة الشعب نحو طبقة النبلاء ، ولم يسمح البرلمان بجيش دائم — بل سمح بمليشيا فقط ؛ وكان هذا عاملا صغيراً فى ثراء انجلتره المتفرق فى وقت كانت فرنسا تنفق فيه على جيش دائم عدته ١٨٠,٠٠٠ مقاتل وبروسيا ١٩٠,٠٠٠ ، وروسيا ٢٢٤,٠٠٠ . على أنه فى زمن الحرب كانت القوات المسلحة تجند دون هوادة سواء بالتطوع أو الإكراه ، وكانت انتهاكات الحرية الشخصية نتيجة لهذه العادة ، وألوان القسوة الموحشة فى حياة الجيش والبحرية ، أطيافاً قاتمة تلوث المسرح الانجليزى .

وفى رأى بلاكستون (حوالى ١٧٦٥) أن بناء انجلتره السياسى كان خير ما سمحت به طبيعة الناس وتعليمهم فى تلك الحقبة . وقد استشهد بالرأى القديم القائل بأن خير أنواع الحكم ما جمع بين الملكية والارستقراطية والديمقراطية ، وقد وجد هذه كلها « مجتمعة اجتماعاً حسناً وموفقاً » فى الدستور البريطانى . يقول :

« فبما أن السلطة التنفيذية للقوانين عندنا مخولة لشخص فرد ، فإن لها كل مزايا القوة والنجاز التى توجد فى أكثر الملكيات استبداداً ؛ وبما أن تشريع المملكة موكول إلى سلطات متميزة ثلاث ، مستقلة كل الاستقلال بعضها عن بعض ؛ أولا الملك ، ثانياً اللوردات الروحيين والزمنيين الذين

يؤلفون مجلساً أرستقراطياً من أشخاص اختيروا لتقواهم أو عراقتهم أوحكمتهم أو بسالتهم أو ثرائهم ؛ ثالثاً مجلس العموم الذى يختاره أفراد الشعب اختياراً حراً من بينهم ، مما يجعله نوعاً من الديمقراطية ؛ وبما أن هذه الهيئة الكلية التى تحركها مختلف الدوافع والتى تعنى بمختلف المصالح . . . لها التصرف الأعلى فى كل شىء ، فلا يمكن أن يكون هناك عمل مزعج يحاوله أى فرع من الفروع الثلاثة إلا حال دونه الفرعان الآخران ؛ لأن كل فرع مسلح بسلطة سلبية تكفى لصد أى بدعة تراها غير لائقة أو خطرة . هنا إذن تكمن سيادة الدستور البريطانى ، وتكمن على خير ما يمكن للمجتمع(١٣) .

وقد تبتسم لنزعة المحافظة المشوبة بحب الوطن لفقيه قانونى شامخ ينظر إلى الأمر من موقعه العالى المريح ، ولكن أغلب الظن أن حكمه كانت تكرسه تسعون فى المائة من الشعب الانجليزى أيام جورج الثالث .

٢ — أبطال الدراما

كان أشخاص الدراما من أشهر من حواهم التاريخ الانجليزى . فعلى القمة جورج الثالث الذى تربع على العرش طوال الأعوام المنحوسة (١٧٦٠ — ١٨٢٠) التى مرت بانجلتره خلال الثورتين الأمريكية والفرنسية وحروب نابليون . وكان أول الملوك الهانوفريين المولودين فى انجلتره ، أول من نظر إلى نفسه كرجل انجليزى ، وأول من استغرقه الاهتمام بالشئون الانجليزية . وهو حفيد جورج الثانى ، وابن فردريك لويس أمير ويلز العتيد الذى كان قد مات فى ١٧٥١ . وكان ملك المستقبل جورج الثالث آنئذ فى الثانية عشرة من عمره . وخافت عليه أمه ، أوجستا أميرة ساكسى — جوتا من « شباب الطبقة العليا الأراذل سيىء التربية » الذين كانت تلقاهم ، فعزلته عن مثل هذه المعاشرات ، ونشأته — واحداً من ثمانية أطفال — فى عزلة مانعة عن الألعاب والأفراح والضجيج والتفكير فى أترابه وفى جيله . ومن ثم شب هياباً ، كسولا ، متديناً ، سيىء التعليم « تعساً . وقد قال لأمه اللوامه » لو أننى رزقت ولداً لما جعلته تعساً كما تجعليننى(١٤) » . وقد بثت فيه احتقارها لجده لأنه أطاق تسيد البرلمان » وكانت تردد على مسامعه المرة بعد المرة ، « كن ملكاً يا جورج ! » — وأهابت به أن ينتزع قيادة الحكم النشيطة من جديد .

وهناك رواية متواترة كثيراً ما يشوبها الشك تنسب إلى الفتى شرف التأثر بكتاب بولنجبروك «مفهوم الملك الوطنى» (١٧٤٩) الذى حث الحكام على «أن يحكموا ولا يكتفوا بأن يملكوا» وأن يسنوا القوانين لتحسين الحياة الانجليزية[١٥] (مع «السماح للبرلمان بأن يحتفظ بالسلطات التى يملكها» . وقد وصف اللورد وولد جريف جورج فى عام ١٧٥٨ ، وكان أحد معلميه ، بأنه «أمين غاية الأمانة» ولكنه يفتقد ذلك السلوك الصريح المفتوح الذى يجعل الأمانة صفة محببة ... وهو لا يفتقر إلى العزمة ، ولكنها مشوبة بعناد شديد ... وفى طبعة ضرب من الشعور بالتعاسة ... مما سيكون مصدراً لقلق دائم»[١٦] . وقد لازمته هذه الصفات إلى نهاية الحقبة التى كان عقله فيها سليماً .

وبعد أن مات أبو جورج وثقت الأرملة صداقتها بجون ستيوورت ، ايرل بيوت ، أمين الأرواب فى البيت الأميرى ، وكان بيوت فى الثامنة والثلاثين فى ١٧٥١ ، متزوجاً منذ خمسة عشر عاماً بمارى ورتلى مونتجيو ابنة الليدى مارى مونتجيو الشهيرة . وفى الأعوام الأخيرة السابقة لارتقاء جورج العرش اتخذ بيوت كبيراً لأمنائه ومعلميه . وكان معجباً بعلم هذا الاسكتلندى ونزاهته «وتقبل مشورته شاكراً» ولقى منه التشجيع على اعداد نفسه للقيادة العدوانية فى الحكم . وحين خطر للأمير الشاب أن يعرض الزواج على حسناء فى الخامسة عشرة تدعى الليدى ساره لينوكس «أذعن فى حزن ولكن فى محبة لنصح بيوت بوجوب زواجه من أميرة أجنبية تعينه على دعم تحالف سياسى نافع . وكتب إليه يقول «انى أسلم مستقبلى بين يديك ، وأمنع نفسى من التفكير حتى فى غرامى الحبيب» وأجتر حزنى فى صمت ، دون أن أكدرك بعد اليوم اطلاقاً بهذه القصة التعسة ؛ لأنه لو فرض على الخيار بين فقد صديقى أو حبيبتى «لضحيت بالأخيرة يقيناً» لأننى أقدر صداقتك فوق أى متعة أرضية»[١٧] وقد أخذ جورج بيوت معه حين ارتقى العرش .

وشهد ملكه خطوباً وكوارث من أفجع ما منيت به انجلترة فى تاريخها ، وعليه وقع جانب من التبعة . ومع ذلك كان هو ذاته دون ريب رجلا مسيحياً ،

وإنساناً مهذباً عادة ، قبل لاهوت الكنيسة الإنجلكانية ، وتمسك بطقوسها فى إخلاص وتواضع ، ووبخ واعظاً للبلاط امتدحه مرة فى عظة . وقد حاكى خصومه السياسيين فى استعمال الرشوة ، وبز معلميه فى هذا المضمار ، ولكنه كان مثالا فى الفضيلة فى حياته الخاصة . وفى جيله الذى اشتهر بالإباحية الجنسية أعطى انجلترە قدوة فى الوفاء الزوجى كانت النقيض لخيانات أسلافه وانحرافات أخوته وأبنائه . وكان آية فى اللطف والعطف فى كل شىء إلا الدين والسياسة ، بسيط العادات والميول وإن كان مسرفاً فى العطاء . وقد منع القمار فى بلاطه ، وكد وكدح فى الحكم بعزيمة صادقة ، فكان يهتم بالتفاصيل الدقيقة ، ويبعث بتعليماته لمساعديه ووزرائه مراراً كل يوم . ولم يكن بيورتانيا متزمتاً مكتئباً ، فقد أحب المسرح والموسيقى والرقص . ولم تعوزه الشجاعة ، فقد حارب خصومه السياسيين بعناد طوال نصف قرن ، وواجه جمهوراً عنيفاً من الرعاع ببسالة فى ١٧٨٠ ، واحتفظ برباطة جأشه خلال محاولتين للاعتداء على حياته . وقد أقر فى صراحة بعيوب تعليمه ، وظل إلى النهاية بريئاً نسبياً من الأدب والعلم والفلسفة . وإذا كان ضعيف العقل بعض الشىء فلعل ذلك مرده التواء فى الجنينات أو إهمال فى معلميه ، كما كان مرده مئات الضغوط التى تكتنف الملك .

ومن مآخذه أنه كان يغار من الأكفاء النزاعين إلى الاستقلال برأيهم ويشك فيهم . فلم يستطع قط أن يغتفر لوليم بت الأول ما شعر به من تفوق فى الرؤية والفهم السياسيين ، وفى نفوذ الحكم ، وفى قوة الخطابة وبلاغتها. وقد سبق أن رأينا[١٨] سيرة هذا الرجل الفذ منذ دخوله البرلمان (١٧٣٥) حتى انتصاره فى حرب السنين السبع . وكان فى استطاعته أن يكون متغطرساً عنيداً — أكثر كثيراً من جورج الثالث ، فقد شعر أنه هو الحارس الحقيقى للإمبراطورية التى خلقت تحت قيادته ، فلما التقى الملكان — الملك الإسمى والملك الفعلى — تلا اللقاء صراع بينهما على العرش . وكان بت رجلا نزيهاً لم تلوثه الرشوة التى استشرت من حوله ، ولكنه لم يفكر فى السياسة إلا بلغة المنعة القومية ، ولم يسمح لأى عاطفة رحمة أن تثنى عزمه على احراز التفوق الأعظم لانجلترە . وقد لقب « العامى العظيم » لا لأنه فكر فى تحسين ظروف

وأحوال عامة الشعب بل لأنه كان أعظم رجل فى مجلس العموم ؛ على أنه انبرى للدفاع عن الأمريكيين وشعب الهند ضد ظلم الانجليز وكان كالملك يكره النقد «غير مبال للنسيان أو الصفح »[١٩] وكان يأبى أن يخدم الملك إلا إذا استطاع أن يسيطر عليه ، وقد استقال من الوزارة (١٧٦١) حين أصر جورج الثالث على انتهاك اتفاق انجلترە مع فردريك وعقد صلح منفرد مع فرنسا . وإذا كان قد قهر فى النهاية فإن العدو الذى قهره لم يكن غير النقرس .

ويضارع تأثير بت فى السياسة الانجليزية تأثير إدموند بيرك فى الفكر الانجليزى . وقد اختفى بت من المسرح فى ١٧٧٨ ، وظهر عليه بيرك فى ١٧٦١ ، وظل يشد انتباه المثقفين من الانجليز فى فترات متقطعة حتى عام ١٧٩٤ ، وربما كان مولده فى دبلن (١٧٢٩) لأحد المحامين عقبة فى طريق كفاحه للمنصب والسلطة السياسيين ، فهو لم يكن انجليزياً إلا بالتبنى ، ولا عضواً فى أى أرستقراطية إلا أرستقراطية الذهن . ولا بد أن كثلكة أمه وأخته كان لها دخل فى عطفه طوال حياته على كاثوليك انجلترە وايرلنده ، وتأكيده الذى لا ينى على الدين بوصفه حصناً لا غنى عنه للأخلاق والدولة . وقد تلقى تعليمه المدرسى فى مدرسة للكويكر فى باليتور ، وفى كلية ترنتى بدبلن . وتعلم من اللاتينية ما يكفى للإعجاب بخطب شيشرون ولجعلها الأساس لأسلوبه البلاغى .

وفى ١٧٥٠ انتقل إلى انجلترە ليدرس القانون فى « مدل تمبل » . وقد امتدح القانون فيما بعد لأنه (علم يعين على شحذ الفهم وتنشيطه أكثر من جميع ألوان المعرفة مجتمعة) ولكنه ذهب إلى أنه « لا يصلح لفتح مغاليق العقل وتحريره بذات القدر بالضبط ، اللهم إلا فى أشخاص محظوظى المولد »[٢٠] وحوالى ١٧٧٥ قبض أبوه عنه الراتب الذى يمده به بحجة أنه يهمل دراسة القانون مؤثراً عليها هوايات أخرى . ويبدو أن ادموند كان قد هوى الأدب ، وكان يختلف إلى مسارح لندن وأنديتها الخطابية ، وسرت أسطورة زعمت أنه هام بالممثلة الشهيرة بيج ووفنجتن . كتب إلى صديق

فى ١٧٥٧ يقول : « لقد كسرت كل قاعدة ، وأهملت كل لياقة » ، ووصف « أسلوب حياته » بأنه تتنوع فيه مختلف الخطط « فأنا فى لندن » وأنا فى أنحاء نائية من الريف ، وأنا آخر فى فرنسا ، وعما قريب فى أمريكا أن استجاب لى الله » . وفيما خلا هذا لا نعرف عن بيرك شيئاً فى سنى الاختبار والتجريب تلك ، اللهم إلا أنه فى ١٧٥٦ « فى تعاقب غـير مؤكد » نشر كتابين رائعين وتزوج .

وأحد الكتابين عنوانه « دفاع عن المجتمع الطبيعى » أو نظرة إلى ألوان الشقاء والشر التى يجرها على البشر كل نوع من أنواع المجتمع الاصطناعى ، خطاب إلى اللورد — بقلم كاتب نبيل متوفى » . والمقال الذى بلغت صفحاته نحو خمس وأربعين ، هو فى عنوانه ادانة قوية لكل أنواع الحكم . فيه من النزعة الفوضوية أكثر كثيراً مما فى مقال روسو « الأصل فى عدم المساواة » الذى ظهر قبل ذلك بسـنة فقط . وقد عرف بيرك المجتمع الطبيعى بأنه « مجتمع أساسه الرغبات والغرائز الفطرية لا أى نظام وضعى »[٢١] . « فتطور القوانين كان انحطاطا »[٢٢] ، وما التاريخ إلا سجلا للمجازر والغدر والحرب[٢٣] ، والمجتمع السياسى متهم بحق بأكبر قسط من هذا الدمار »[٢٤] . وكل الحكومات تتبع المبادىء المكيافللية ، وترفض كل الضوابط الأخلاقية ، وتعطى المواطنين مثالا مفسداً للجشع والخديعة واللصوصية والقتل[٢٥] . والديمقراطية فى أثينا وروما لم تأت بعلاج لشرور الحكم ، لأنها سرعان ما انقلبت دكتاتورية بفضل قدرة زعماء الدهماء على الظفر بإعجاب الأغلبيات الساذجة . أما القانون فهو الظلم مقنناً ، فهو يحمى الأغنياء المتبطلين من الفقراء المستغلين[٢٦] ، ويضيف إلى ذلك شراً جديداً — هو المحامون[٢٧] « لقد أحال المجتمع السياسى الكثرة ملكاً للقلة » . فانظر إلى حال عمال المناجم فى انجلترة « وفكر ملياً أكان من الممكن أن يوجد شقاء كشقائهم فى مجتمع طبيعى — أى قبل وضع القوانين — أفينبغى رغم ذلك أن نقبل الدولة » كما نقبل الدين الذى يساندها ، على أنها قد استلزمتها طبيعة الإنسان ؟ كلا على الإطلاق .

« ان كانت نيتنا أن نخضع عقلنا وحريتنا للاغتصاب المدنى ، فإنه لا سبيل أمامنا إلا الامتثال بكل ما نستطيع من هدوء الأفكار والتصورات السوقية (الشعبية) المرتبطة بهذا » واعتناق لاهوت السوقة وسياستهم سواء بسواء أما إذا رأينا هذه الضرورة وهمية لا حقيقية » فإننا سننبذ أحلامهم عن المجتمع كما ننبذ رؤاهم عن الدين ، ونحرر أنفسنا حرية كملة »[٢٩] .

وفى هذا رنين شجاع وإخلاص غاضب من راديكالى شاب ، فتى متدين روحاً ولكنه يرفض اللاهوت المقرر ، شديد الإحساس بما رأى فى انجلتره من فقر وانحطاط ، وصاحب موهبة واعية بذاتها ولكنها لم تزل بغير مكان ولا مقام فى خضم العالم . وكل فتى يقظ يمر بهذا الطور فى طريقه إلى المنصب ، والثراء ثم النزعة المحافظة المرتاعة التى سنجدها فى كتاب بيرك « تأملات فى الثورة فى فرنسا » . ونلاحظ أن مؤلف « الدفاع » تخفى وراء اسم مجهول » حتى إلى حد ادعاء الموت . وقد فهم كل القراء تقريباً » بما فيهم وليم وربرتن وايرل تشسترفيلد الكتيب على أنه هجوم صادق على الرذائل الشائعة[٣٠] ، ونسبه الكثيرون إلى الفيكونت بولنجبروك ، لأن عبارة « كاتب نبيل متوفى » تنطبق عليه إذ كان قد مات عام ١٧٥١ . وبعد نشر المقال بتسع سنوات رشح بيرك نفسه للانتخاب فى البرلمان . وخشى أن تؤخذ فورة أيام الشباب حجة عليه ، فأعاد طبع المقال فى ١٧٦٥ بمقدمة جاء فى قسم منها « أن الغرض من القطعة الصغيرة التالية كان أن تبين أن . . . الأدوات (الأدبية) ذاتها التى استخدمت لتدمير الدين قد تستخدم بنجاح مماثل لقلب الحكومة »[٣١] . وقد قبل معظم كتاب سيرة بيرك هذا التفسير على أنه تفسير صادق مخلص ، ونحن لانستطيع أن نوافقهم على رأيهم ، ولكنا نستطيع أن نفهم جهد المرشح السياسى لحماية نفسه من تحامل الشعب. فمن منا يكون له مستقبل لو عرف ماضيه ؟

ويعدل « الدفاع » بلاغة ويفوقه حذقاً وبراعة مؤلف بيرك الآخر الذى نشره فى ١٧٥٦ وعنوانه « تحقيق فلسفى فى أصل الجليل والجميل » ، وقد أضاف إليه فى طبعة ثانية « مقال فى الذوق » ولسنا نملك إلا الإعجاب

بشجاعة الشاب ذى السبعة والعشرين عاما الذى عالج هذه الموضوعات المحيرة قبل « لاوكون » لسينج بعقد كامل . ولعله استرشد باستهلال الجزء الثانى من كتاب لوكريتويس عن « الطبيعة » الذى نصه « يطيب لك حين تلطم الرياح الأمواج فى خضم عجاج أن تشهد من البر ما يكابده إنسان آخر من عنت شديد ، لا لأنه مبعث بهجة أن تشهد شدة أى إنسان ، بل لأنه جميل أن ترى من أى الشرور أنت نفسك قد نجوت » . ومن ثم يكتب بيرك : « ان العواطف المشبوبة التى تنتمى لحفظ الذات تدور حول الألم والخطر ؛ فهى ببساطة عواطف مؤلمة حين تؤثر أسبابها فينا تأثيراً مباشراً ، وهى مبهجة حين يكون لدينا فكرة عن الألم والخطر دون أن نكون فعلا فى ظروف كهذه . . . وكل ما يثير هذا الابتهاج أسميه جليلا » ، ويلى ذلك أن « كل الأعمال المتسمة بالعظيم من الجهد والنفقة والبهاء جليلة . . وكذلك كل الصروح الفائقة الغنى والأبهة . . . لأن العقل وهو يتأملها يطبق أفكار عظم المجهود اللازم لإنتاج مثل هذه الأعمال على الأعمال ذاتها »[٣٢] . والغموض والظلام والخفاء كلها تعين على انبعاث إحساس بالجلال ، ومن هنا حرص معمارى العصر الوسيط على ألا يسمحوا إلا للضوء الخافت المصفى بالتسلل إلى كتدرائياتهم . وقد أفاد القصص الروما نتيكى من هذه الأفكار كما نرى فى قصة هوراس ولبول « قلعة أوترانتو » (١٧٦٤) أو قصة آن رادكلف « خفايا أودلفو » (١٧٩٤) .

يقول بيرك « ان الجمال اسم سأطلقه على كل صفات فى الأشياء تثير فينا إحساساً بالمحبة والحنان » أو أى عاطفة حارة أخرى قريبة الشبه بهما[٣٣] . وقد رفض رد الكلاسيكيين هذه الصفات إلى الانسجام والوحدة والتناسب والتماثل ؛ فكلنا نتفق على أن البجعة جميلة مع أن عنقها الطويل وذيلها القصير غير متناسبين مع جسمها . والجميل يكون عادة صغيراً (وبهذا يكون نقيضاً للجليل) .

« لست أتذكر الآن شيئاً جميلا لا يتصف بالنعومة »[٣٤] . فالسطح المكسر أو الخشن ، والزاوية الحادة أو النتوء الفجائى ، كلها تضايقنا وتحد من سرورنا حتى فى أشياء تكون جميلة لولا هذا « ومظهر الغلظ والقوة

مؤذ جداً للجمال . أما مظهر الرقة ، لا بل الهشاشة ، فيكاد يكون أساسياً للجمال »[٣٥] . واللون يزيد من الجمال لا سيما إذا كان متنوعاً مشوقاً ، دون أن يكون وهاجاً أو قوياً . . . ولم يسأل بيرك هل المرأة جميلة لأنها صغيرة الحجم ناعمة رقيقة مشرقة ، أم أن هذه الصفات تبدو جميلة لأنها تذكرنا بالمرأة ، التي هي جميلة لأنها تشتهى .

على أية حال كانت جون نوجنت مشتهاة ، فتزوجها بيرك في سنة ١٧٥٦ المثمرة هذه . وكانت ابنة طبيب إرلندى . وكانت كاثوليكية ، ولكنها لم تلبث أن ارتضت الإنجليكانية مذهباً . وقد لطف طبعها الدمث الرقيق من مزاج زوجها الغضوب .

وفتحت الأبواب أمام بيرك بفضل تأثير أسلوب « الدفاع » و« التحقيق » ان لم يكن تأثير حججهما . فعينه مركيز روكنجهام سكرتيراً له ، رغم أن دوق نيوكاسل حذره قائلا ان بيرك إرلندى متوحش ، وستيوارتى ، وبابوى ويسوعى مستخف[٣٦] . وفي أواخر عام ١٧٦٥ أنتخب بيرك لعضوية البرلمان عن دائرة وندوفر بفضل نفوذ اللورد فيرنى ، « الذى كان يمتلكها »[٣٧] . وفي مجلس العموم اشتهر العضو الجديد بأنه خطيب مفوه وان لم يكن مقنعاً . كان صوته أجش ، ولهجته هيبرنية (أى إرلندية) ، وإيماءاته تعوزها الرشاقة ، ونكته سوقية أحياناً ، واتهاماته حارة مشبوبة في غير موجب . ولم يدرك الناس — إلا حين قرءوا له — انه انما يخلق أدباً وهو يتكلم — وذلك بفضل تمكنه من اللغة الانجليزية ، وأوصافه الناصعة ، وسعة معرفته وشروحه ، وقدرته على تطبيق الرؤية الفلسفية على قضايا الساعة . ولعل هذه المزايا كانت معوقات في مجلس العموم . ويروى لنا جولد سمث أن بعض سامريه «كانوا يحبون أن يروه يتسلل كالثعبان إلى موضوعه »[٣٨] ولكن كثيرين غيرهم ضاقوا ذرعاً بأسرافه في التفاصيل ، وباستطراداته النظرية ، وبخطبه المنمقة ، وبجمله المتكررة الضخمة ، وبتحليقاته في أجواء التأنق الأدبي ؛ فهم يريدون الاعتبارات العملية

والموضوعية المباشرة ؛ لقد امتدحوا بيانه ، ولكنهم تجاهلوا نصيحته . ومن ثم نرى جونسن يرد على بوزويل الذى شبه بيرك بالصقر فيقول : « أجل يا سيدى ولكنه لا يصيد شيئاً »[٣٩] وقد ظل إلى نهاية حياته العملية تقريباً يدافع عن سياسات لايسيغها الشعب « ولا الوزارة ، ولا الملك . قال : « أنا عليم بأن الطريق الذى أسير فيه ليس طريق الترقى إلى المنصب الرفيع »[٤٠] .

ويبدو أنه خلال سنوات تسلقه قرأ كثيراً وقرأ بفطنة وتمييز . وقد وصفه أحد معاصريه بأنه موسوعى يفيد كل إنسان من ذخيرته العلمية . وقد أثنى عليه فوكس ثناء لا حد له إذ قال : « لو أنه (أى فوكس) وضع فى كفة كل المعلومات السياسية التى تعلمها من الكتب ، وكل ما اكتسبه من العلم ، وكل ما علمته الخبرة بالدنيا وشئونها ، ثم وضع فى الكفة الأخرى الفائدة التى اكتسبها من تعليم صديقه المبجل وحديثه ، لاحتار أيهما يفضل »[٤١] أما جونسن — وهو الضنين بالمدح عادة — فقد اتفق مع فوكس فقال : « لن تستطيع الوقوف خمس دقائق مع ذلك الرجل تحت ظلة أثناء المطر » ولكنه لابد مقتنع بأنك كنت تقف مع أعظم رجل رأيته فى حياتك »[٤٢] .

وقد انضم بيرك إلى ندوة جونسن — رينولدز حوالى عام ١٧٥٨ . وندر أن التحم فى نقاش مع المناظر الذى لا يقهر ، ربما لأنه كان يخشى من حدة طبعه هو كما يخشى من حدة طبع جونسن ؛ ولكنه حين فعل « نكص « الخان الأكبر» (جونسن) على عقبيه . وحين مرض جونسن » وذكر بعضهم بيرك » صاح الدكتور « ان هذا الفتى يستنفر كل قواى ، ولو رأيت بيرك الآن لكان فى ذلك القضاء على »[٤٣] . ومع ذلك كان الرجلان متفقين على معظم القضايا الأساسية فى السياسة والأخلاق والدين . فقد قبلا حكم بريطانيا الأرستقراطى مع أن كليهما كان من العامة ، واحتقرا الديمقراطية لأنها تتويج للكفايات المزيلة » ودافعا عن المسيحية التقليدية والكنيسة الرسمية بوصفهما معقلين للأخلاق والنظام لا بديل لهما . ولم يفرق بين الرجلين غير ثورة المستعمرات الأمريكية . وقد وصف جونسن نفسه بأنه محافظ (تورى)، ورمى الأحرار (الهوجز) بأنهم مجرمون وحمقى ،

أما بيرك فزعم أنه حرى ، ودافع عن مبادىء المحافظين دفاعاً أقوى وأفضل تبريراً من أى رجل فى التاريخ الانجليزى .

وبدا أحياناً أنه يؤيد أكثر عناصر النظام القائم عرضة للاعتراض والمساءلة فقد عارض إحداث تغييرات فى قواعد انتخاب الأعضاء أو سن القوانين ، ورأى أن الدوائر الانتخابية « العفنة » أو دوائر « الجيب » (أى التى يتحكم فيها شخص أو أسرة واحدة) لا غبار عليها ما دامت ترسل رجالا أكفاء مثله إلى البرلمان . وبدلا من توسيع حق التصويت . رأى أنه « بخفض العدد سيزداد ثقل ناخبينا واستقلالهم »[٤٤] . ومع ذلك احتضن عشرات القضايا التحررية . ودافع عن حرية التجارة قبل آدم سمث ، وهاجم النخاسة قبل ولبرفورس . ثم نصح بإزالة المعوقات السياسية المفروضة على الكاثوليك ، وأيد التماس المنشقين على الكنيسة الرسمية أو يمنحوا كامل حقوقهم المدنية . وحاول أن يلطف من صرامة قانون العقوبات الوحشية ويخفف من الأعباء التى تنؤ بها حياة الجندى . ودافع عن حرية المطبوعات وأن كتوى هو نفسه بنارها . ووقف يلود عن إيرلنده وأمريكا والهند فى وجه أغلبيات شوفينية . وناصر البرلمان على الملك بصراحة وجرأة أفقدتاه كل أمل فى المنصب السياسى الرفيع . وقد تختلف معه فى آرائه ودوافعه ، ولكن لن نستطيع الشك فى شجاعته .

وقد كلفته آخر حرب شعواء شنها فى حياته العملية — وهى حربة على الثورة الفرنسية — صداقة رجل طالما كان موضع حبه وإعجابه . وكان هذا الرجل وهو تشارلز جيمس فوكس يرد على محبته بمثلها ويقاسمه أخطار المعركة فى كثير من القضايا ، ولكنه كان يختلف عنه فى كل صفة من صفات العقل والخلق تقريباً إلا الإنسانية والشجاعة . فبيرك إرلندى ، فقير ، محافظ ، متدين ، متمسك بالأخلاق ؛ وفوكس انجليزى ، غنى ، راديكالى ، لا يبقى من الدين إلا على القدر الذى يتفق والقمار والشراب والخليلات والثورة الفرنسية . كان ثالث أبناء هنرى فوكس ولكنه آثرهم عنده ، وقد ورث الأب ثروة ، وبددها ، ثم تزوج ثروة ثانية ، وجمع ثالثة وهو كبير

صيارفة القوات المسلحة » وأعان بيوت على شراء بعض أعضاء مجلس العموم، وأثيب بلقب البارون هولند ، وشهر به خصومه « مختلساً عاماً للملايين لاتفسير لضياعها »[٤٥] أما زوجته كارولين لينوكس فكانت حفيدة تشارلز الثانى من لويز دكيرواى ، وهكذا جرى فى عروق تشارلز جيمس الدم المخفف للملك استيوارتى خليع وامرأة فرنسية ذات مبادىء أخلاقية متسامحة . وكانت أسماؤه ذاتها ذكريات استيوارتية ، ولا بد أنها كانت تخدش مسامع الهانوفريين .

وحاولت الليدى هولند أن تنشىء أبناءها على النزاهة والشعور بالمسئولية ، أما اللورد هولند فقد تسامح مع تشارلز فى كل نزواته ، وقلب من أجله الحكم المأثورة رأساً على عقب : « لاتعمل اليوم أبدا ما تستطيع تأجيله إلى الغد ، ولا تقم بنفسك أبداً بعمل تستطيع أن تجعل إنساناً غيرك يقوم به لك » . وما كاد الصبى يناهز الرابعة عشرة حتى أخذه أبوه من كلية إيتن فى رحلة أوربية طاف بها على أندية القمار والمنتجعات المعدنية ، ورتب له خمسة جنيهات انجليزية فى الليلة للعب القمار . وعاد الفتى إلى إيتن مقامراً راسخ القدمين » وواصل اللعب فى اكسفورد . وقد وجد متسعاً من الوقت لإدمان الاطلاع على الآداب الكلاسيكية والانجليزية على السواء ، ولكنه غادر أكسفورد بعد عامين لينفق عامين فى الرحلات وتعلم الفرنسية والطليانية ، ويبدد ١٦,٠٠٠ جنيه فى نابلى ، وزار فولتير فى فرنيه ، وتلقى منه قائمة بكتب تنيره فى اللاهوت المسيحى[٤٧] . وفى ١٧٦٨ اشترى له أبوه دائرة انتخابية ، واتخذ تشارلز مقعداً فى البرلمان وهو فى التاسعة عشرة ، وكان هذا مخالفاً كل المخالفة للقانون ، ولكن المعجبين من النواب بسحر الشاب الشخصى وثرائه المرتقب كانوا من الكثرة بحيث لم ينجح أى احتجاج على عضويته . وبعد عامين ، وبفضل نفوذ أبيه ، عين وزيراً للبحرية فى وزارة اللورد نورث . وفى ١٧٧٤ مات الأب والأم وابن أكبر منه ، وغدا تشارلز المتصرف الوحيد فى ثروة عريضة .

وقد شاب مظهره البدنى فى سنوات نضجه من التسيب ما شاب أخلاقه . فجواربه مرخاة الأربطة ، وسترته وصدرته مجعدتان ، وقميصه مفتوح عند

العنق ، ووجهه منتفخ محتقن بالإسراف فى الطعام والشراب ، وكرشه المتضخم يوشك أن يندلق على ركبتيه وهو جالس . وحين نازل وليم آدم فى مبارزة رفض نصيحة شاهده بأن يتخذ الوقفة الجانبية المعتادة ، إذ قال « انني غليظ فى ناحية غلظى فى الأخرى »[٤٨] ولم يحاول إخفاء عيوبه . وكان من الأقاويل الشائعة عنه أنه أثبت أنه ضحية محببة للنصابين والمحتالين من المقامرين ، وذات مرة (فى رواية جيبون) قامر اثنتين وعشرين ساعة فى جلسة واحدة خسر فيها ٢٠٠,٠٠٠ جنيه . ومن أقوال فوكس أن أعظم اللذات فى الحياة بعد الربح هى الخسارة [٤٩] . وكان يملك اسطبلا لخيول السباق ، ويراهن بمبالغ كبيرة عليها ، وقد كسب منها أكثر مما خسر (كما يريدنا أن نصدق)[٥٠] .

وكان أحياناً متسيباً فى مبادئه السياسية تسيبه فى مبادئه الخلقية وهندامه ، فقد سمح غير مرة لمنافعه أو خصومته الشخصية أن تقرر مسلكه ، وكان أميل إلى الكسل ، ولم يكن يعد خطة أو مشروعات قوانينه البرلمانية بالعناية والدرس اللذين تميز بهما بيرك . وكان يملك فى ميدان الخطابة مزايا قليلة ، ولم يلتمس غيرها . وكثيراً ما كانت خطبه عديمة الشكل كثيرة التكرار ، صادمة للنجاة أحياناً . يقول عنه رتشرد بورسن «كان يقذف بنفسه فى معمعان جمله ويكل إليه تعالى مهمة اخراجه منها »[٥١] . ولكنه وهب من سرعة البديهة وقوة الذاكرة ما جعله بالإجماع أقدر مناقش فى مجلس العموم . كتب هوراس ولبول « ان تشارلز فوكس أسقط ساتوون (شاتام) العجوز عن عرش الخطابة »[٥٢] .

وكان معاصرو فوكس متسامحين فى أخطائه لأن كثيرين شاركوه فيها ، وقد أجمعوا تقريباً على الشهادة بفضائله . فقد ظل معظم حياته بعد عام ١٧٧٤ أميناً للقضايا التحررية مضحياً فى سبيلها تضحيات تستهين بالترقى فى المنصب وبالشعبية . أما بيرك الذى كان يحتقر الرذيلة فقد أحب فوكس رغم ذلك لأنه رآه مخلصاً فى غير أنانية للعدالة الاجتماعية والحرية الإنسانية . قال بيرك « أنه رجل خلق ليحب » ، ذو طبع غاية فى البراءة والبساطة والصراحة وحب الخير ، نزيه فى اسراف ، له مزاج لطيف سمح إلى حد الإفراط ،

ليس فى كيانه بأسره ذرة حقد واحدة [٥٣] وقد اتفق معه جيبون فقال « لعله لم يوجد مخلوق أكثر منه تجرداً من لوثة الحقد أو الغرور أو الكذب» [٥٤] . ولم يمتنع على هذه الجاذبية التلقائية والسحر الفطرى فى الرجل غير جورج الثالث .

وارتبط ببيرك وفوكس فى قيادة عنصر الموجز التحررى إرلندى ثان هو رتشرد برنزلى شريدان . وقد نشر جده توماس شريدان الأول مترجمات عن اليونانية واللاتينية ، وكتاباً سماه « فن التورية» ، ربما سرت عدواه إلى حفيده . أما أبوه توماس شريدان الثانى فكان فى رأى البعض لايفوقه غير جاريك ممثلا ومديراً للمسرح . وقد تزوج فرانسيس تشيمبرلن ، وكانت كاتبة مسرحية وروائية ناجحة . ونال الدرجات العلمية من دبلن وأكسفورد وكمبردج ، وحاضر فى كمبردج فى التعليم ، وكان الواسطة فى الحصول على معاش ملكى لجونسن ، وحصل على معاش لنفسه . وألف كتاباً مسلياً عن « حياة سويفت» وغامر بنشر « قاموس عام فى اللغة الانجليزية » (١٧٨٠) ولما ينقض على نشر قاموس جونسن غير خمسة وعشرين عاما . وأعان ابنه على إدارة مسرح درورى لين ، وشهده يصعد فى دنيا الرومانس والأدب والبرلمان .

وهكذا أتيحت لرتشرد عناصر التفوق الفكرى والدراما فى بيئته ان لم يكن فى دمه . وقد ولد فى دبلن (١٧٥١) ، وحين بلغ الحادية عشرة أوفد إلى هارو حيث أقام ست سنين واكتسب تعليماً كلاسيكياً جيداً ؛ وحين بلغ العشرين ردد صدى جده بنشره مترجمات عن اليونانية . وفى عام ١٧٧١ ذاك بينا كان يعيش فى باث مع والديه ، هام حباً بوجه إلزابث آن لنلى الجميلة وصوتها ، وكانت فى السابعة عشرة ، تغنى فى الحفلات الموسيقية التى يقدمها أبوها المؤلف توماس لنلى . والذين رأوا لوحة من اللوحات التى رسمها لها جينزبرو [٥٥] يدركون أنه لم يكن أمام رتشرد من سبيل إلا الهيام والانتشاء ، ولا أمامها هى أيضاً إذا صدقنا أخته ، إذ رأته فتى مليحاً محبباً على نحو لا يقاوم . «كان خداه يشرقان ببريق العافية ، وعيناه أبدع العيون

فى العالم . . . وله قلب رقيق محب . . . وقد شرح صدر أفراد الأسرة وأبهجهم ما اتسمت به كتاباته فيما بعد من خيال عابث وظرف أصيل ودعابة لا تؤذى . لقد أعجبت به ، بل أوشكت أن أعبده . وما كنت لأتردد فى أن أضحى بحياتى من أجله »[٥٦] .

وكان لألزابث آن خطاب كثيرون ، ومنهم تشارلز أخو رتشرد الأكبر ، وقد ضايقها أحدهم واسمه الميجر ماثيوز ، وكان غنياً ولكنه متزوج ، واشتدت مضايقته حتى أفضت بها إلى تعاطى الأفيون بغية قتل نفسها . ثم تماثلت للشفاء ، ولكنها فقدت كل رغبة فى الحياة حتى أنعش حب رتشرد روحها المعنوية من جديد . وهدد ماثيوز باغتصابها ، فهربت مع شريدان إلى فرنسا بدافع الخوف والحب معاً » وتزوجته (١٧٧٢) ، ثم لجأت إلى دير قرب ليل فى حين عاد رتشرد إلى انجلترة ليسترضى أباه وأباها . ونازل ماثيوز فى مبارزتين » وقد أبقى على حياة ماثيوز فى الأولى بعد أن انتصر عليه ، أما فى الثانية فقد أعجز خصمه عن النزال لأنه كان ثملا بالخمر ، وهبط بالمبارزة إلى درك المصارعة ثم عاد إلى باث ملطخاً بالدم والخمر والوحل . وتبرأ منه أبوه » ولكن توماس لنلى أعاد الزابث آن من فرنسا وبارك زواجها (١٧٧٣) .

وشرع رتشرد وهو فى الثانية والعشرين فى جمع المال بكتابة التمثيليات إذ أبت عليه كبرياؤه أن يترك زوجته تعوله بالغناء أمام الجمهور . وهكذا أخرجت أولى تمثيلياته « المزاحمون » فى ١٧ يناير ١٧٧٥ فى كوفنت جاردن » وكان حظها سيئاً تمثيلا واستقبالا » ثم وفق شريدان إلى ممثل أكفأ يلعب الدور الرئيسى ، وكان العرض الثانى (٢٨ يناير) بداية لسلسلة من الانتصارات المسرحية التى حققت الشهرة والثراء لشريدان . وسرعان ما راحت لندن كلها تتحدث عن السير انتونى أبسوليوت » والسير لوشس أوتريجر ، والآنسة ليديا لانجويش ، وتقلد خلط السيدة مالا بروب بين الألفاظ[٥٨] • .

• يستشهد المؤلفان بعبارات خلطت السيدة مالابروب بعض ألفاظها خلطا مضحكا ، فقالت illiterate بدلا من obliterate » و Allegory بدلا من alligator . (المترجم)

وكان شريدان يملك معينا لاينضب من النكت فى رأسه ، ينثرها على كل صفحة ، ويخلع الذكاء والظرف على الخدم والاتباع ، ويجعل الحمق يتكلمون كالفلاسفة . ولامه النقاد لأن شخوصه لم تكن دائماً متوافقة مع حديثها ، ولأن النكت والدعابات التى تفرقع فى كل مشهد وتتدفق فى كل فم تقريباً قد أثلمت لذعها بالأفراط ، لا ضير ، فقد استطاب النظارة هذا المرح ، وهم يستطيبونه إلى يومنا هذا .

ثم أحرزت مسرحيته « القهرمانة » نجاحا أعظم حتى من نجاح «المزاحمين» ، ،قد قدمت أول مرة فى ٢ نوفمبر ١٧٧٥ على مسرح كوفنت جاردن ، واستمر عرضها خمسا وسبعين ليلة فى موسمها الأول ، فحطمت بذلك الرقم القياسى الذى حققته « أوبرا الشحاذ » فى ١٧٢٨ ، وهو ثلاث وستون ليلة . وهالت هذه المنافسة المثيرة ديفد جاريك الذى كان يمثل على مسرح درورى لين ، ولكنه لم يستطع أن يجد رداً سريعاً لاذعاً أفضل من إحياء « الاكتشاف » وهى تمثيلية من تأليف أم شريدان التى ماتت قبيل ذلك ، وانتشى شريدان بخمرة النجاح ، فعرض على جاريك أن يشترى نصيب النصف الذى يملكه فى درورى لين ، وأحس جاريك بأنه يتقدم فى العمر ، فوافق نظير ٣٥,٠٠٠ جنيه ، وأقنع شريدان حماه وصديقاً له أن يساهم كل منهما بمبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه ، أما هو فدفع ١,٣٠٠ جنيه نقداً ، ثم جمع الباقى بقرض (١٧٧٦) . وبعد عامين جمع ٣٥,٠٠٠ جنيه أخرى ، وأصبح مالكاً للمسرح هو وشركاؤه ، ثم تولى إدارته .

وظن الكثيرون أن ثقته بنفسه جاوزت الحد ، ولكن شريدان انتقل إلى نصر آخر حين أخرج (٨ مايو ١٧٧٧) « مدرسة الفضائح» وهى أعظم مسرحيات القرن الثامن عشر نجاحاً . واصطلح أبوه الآن معه بعد أن كان غاضباً عليه منذ فر بحبيبته قبل خمس سنوات . وتلا هذه الانتصارات فترة توقف فى صعود نجم شريدان . ذلك أن العروض التى قدمت على درورى لين تبين أن الجمهور لايقبل عليها ، وروع الشركاء شبح الإفلاس . وأنقذ شريدان الموقف بمهزلة « فارص » سماها « الناقد » وهى هجاء للدرامات

الفاجعة ونقاد الدراما المقنطعين . على أن بطأه المألوف تدخل ، فلم يكن قد كتب المشهد الأخير مع أن الافتتاح المحدد لم يبق عليه غير يومين . واستطاع حموه وآخرون بخدعة أن يستدرجوه إلى حجرة فى المسرح ، وأعطوه ورقاً وقلماً وحبراً وخمراً ، وأمروه بالفراغ من التمثيلية ، وحبسوه فى الحجرة ، فخرج ومعه النهاية المطلوبة ، فجربها الممثلون ووجدت وافية بالغرض ، وكان العرض الأول (٢٩ أكتوبر ١٧٧٩) ابتسامة أخرى جاد بها الحظ على الإرلندى المتحمس .

ثم تلفت من حوله باحثاً عن عوالم جديدة يغزوها ، وقرر أن يدخل البرلمان . ودفع لناخبى ستافورد خمسة جنيهات انجليزية لكل صوت ، وفى ١٧٨٠ اتخذ مكانه فى مجلس العموم لبراليا متحمساً . وشارك فوكس وبيرك فى اتهام وارن هيستنجز ، وفى يوم واحد رائع سطع نوره فحجب نورهما جميعاً . وكان أثناء هذا يعيش مع زوجته المثقفة فى هناءة وبذخ ، مشهوراً بحديثه ، وظرفه وحيويته ، ولطفه ، وديونه . وقد لخص اللورد بايرون هذه العجيبة فقال « كل ما فعله شريدان ، أو يريد أن يفعله ، رائع ، والأفضل من نوعه دائماً . لقد كتب أفضل كوميديا ، وأفضل دراما . . . وأفضل فارص . . . وأفضل خطاب (مونولوج عن جاريك) ، وتتويجاً لهذا كله ، ألقى أفضل خطبة ... تصورها الناس أوسمعوها فى هذا البلد »[٥٩]. ثم إنه كان قد ظفر بحب أحب نساء انجلتره إلى القلوب واحتفظ بهذا الحب »

كان شريدان كله الخيال والشعر ، ومن العسير أن نصوره فى عالم وليم بت الثانى وفى جيله نفسه « ذلك الرجل الذى لم يعترف إلا بالواقع ، وسما فوق العاطفة وحكم بغير بلاغة . وقد ولد (١٧٥٩) فى أوج مجد أبيه « وكانت أمه أخت جورج جرنفيل « رئيس الوزراء ١٧٦٣ — ٦٥ ؛ رضع السياسة منذ حداثته ، وترعرع فى جو البرلمان . وإذ كان هشاً عليلا فى طفولته ، فقد أبعد عن ممارسات المدارس « الخاصة » الصارمة واتصالاتها المهيئة لحياة المجتمع ، فربى فى البيت بإشراف أبيه الدقيق « الذى علمه طريقة الإلقاء بأن جعله يتلو شكسبير أو ملتن كل يوم . فما ناهز العاشرة حتى كان دارساً

كلاسيكياً ومؤلفاً لمأساة . ثم أرسل إلى كمبروج حين بلغ الرابعة عشرة ، فلم يلبث أن مرض ، فعاد إلى بيته ، وبعد عام ذهب ثانية » وإذ كان ابناً لشريف من كبار الأشراف فقد تخرج أستاذاً فى الآداب عام ١٧٧٦ دون امتحان . ثم درس القانون فى لنكولنز ان » ومارس المحاماة برهة قصيرة » ثم رشح للبرلمان فى الحادية والعشرين عن دائرة جيب يهيمن عليها السير جيمس لوذر . وكان خطابه الافتتاحى فى البرلمان مؤيداً تأييداً قوياً لما اقترحه بيرك من اصلاحات اجتماعية حتى أن بيرك وصف بأنه « ليس شظية من الشجرة العجوز (أى سر أبيه) بل هو الشجرة العجوز بعينها »[٦٠] .

وإذ كان الإبن الثانى لأبيه » فإنه لم ينل غير ٣٠٠ جنيه راتباً سنوياً » مع معونة بين الحين والحين من أمه وأخواله ؛ وقد شجعت هذه الظروف البساطة الصارمة فى سلوكه وخلقه . فتجنب الزواج لأنه نذر نفسه بجملته للسعى إلى السلطان . ولم يلذه قمار ولا مسرح . ومع أنه فى مرحلة لاحقة أفرط فى الشراب تهدئة لأعصابه بعد صخب السياسة وضجيجها إلا أنه اكتسب شهرة بنقاء الحياة ونزاهة المقصد ؛ وكان فى وسعه أن يشترى » دون أن يكون فى وسع أحد أن يشتريه . وما سعى قط إلى الثراء ، وندر أن بذل تنازلات للصداقة ، ولم تكتشف غير قلة حميمة ، وراء تحفظه البارد وضبطه لمشاعره » ما يخفى من مرح ودود » بل من حنان ومحبة فى بعض الأحايين .

وفى مطامع عام ١٧٨٢ ، حين أوشكت وزارة اللورد نورث على الاستقالة ضمن « الصبي » — كما لقب بعض النواب بت فى تعطف — أحد خطبه اعلاناً فيه شيء من الغرابة : « أما عن نفسى ، فلا يمكن أن أتوقع أن أكون عضواً فى حكومة جديدة ، ولكن لوكانت هذه العضوية فى متناولى فإننى أراه لزاماً على أن أعلن أننى لن أقبل أبداً منصباً ثانوياً »[٦١] ، أى أنه لن يقبل منصباً أدنى من المقاعد الستة أو السبعة التى ألفت ما أصبح يسمى « مجلس الوزراء » . فلما عرضت الوزارة الجديدة أن تعينه نائباً لوزير خزانة إرلنده بمرتب ٥٫٠٠٠ جنيه فى العام رفض ، وواصل العيش على إيراده البالغ ٣٠٠ جنيه . وكان واثقاً من التقدم ، وأمل أن يظفر به بفضل كفايته الشخصية » فعكف على العمل بهمة » وأصبح أكثر أعضاء مجلس

العموم اطلاعاً فى ميادين السياسة الداخلية ، والصناعة ، والمالية » وبعد عام من اعلانه الفخور قصده الملك لا ليكون مجرد عضو فى الحكومة بل ليرأسها . ولم يحظ رجل قط قبله برآسة الوزارة وهو فى الرابعة والعشرين ؛ وقل من الوزراء من ترك على التاريخ الانجليزى بصمة أعمق مما ترك »

٣ — الملك ضد البرلمان

اختتم جورج الثانى ملكه الذى استغرق ثلاثة وثلاثين عاماً بشعور من النفور البين من السياسة الإنجليزية « لقد سئمت حتى الموت كل هذا الهراء الأبله ، وأتمنى من كل قلبى أن يأخذ الشيطان كل أساقفتكم ، وأن يأخذ الشيطان وزراءكم ، وأن يأخذ الشيطان برلمانكم ، وأن يأخذ الشيطان الجزيرة كلها ، على أن أخرج منها وأذهب إلى هانوفر »[٦٢] . وقد ألقى راحته فى ٢٥ أكتوبر ١٧٦٠ ، ودفن فى كنيسة وستمنستر .

ولقى ارتقاء جورج الثالث العرش يوم وفاة جده الترحيب الحماسى من كل الانجليز تقريباً ما عدا قلة مازالت تواقة إلى أسرة ستيوارت . كان فى الثانية والعشرين ، فتى وسيماً ، مجتهداً ، متواضعاً . (كان أول ملك انجليزى منذ حكم هنرى السادس يسقط من لقبه دعوى السيادة على فرنسا) . وفى خطابه الأول للبرلمان أضاف إلى النص الذى أعده له وزراؤه كلمات ما كان أحد سلفه الهانوفريين يستطيع أن يفوه بها : « انى وقد ولدت وربيت فى هذا البلد لأفخر بأننى بريطانى » . كتب هوراس ولبول يقول : انالملك الشاب يبدو عليه كل مظهر اللطف . ففيه كثير من الكياسة التى تخفف من الوقار الشديد ، وطيبة فائقة تتفجر فى جميع المناسبات »[٦٣] . وقد زاد من حب الشعب له بالإعلان الذى أصدره فى ٣١ أكتوبر « لتشجيع التقوى والفضيلة ، ولمنع وعقاب الرذيلة ، والتبذل واللا أخلاقية » . وفى ١٧٦١ تزوج شارلوت صوفيا أميرة مكلنبورج — ستريلتس ، وقد ارتضى

خلوها من الجاذبية ، فأنجب منها خمسة عشر طفلا ، ولم يجد وقتاً لخياناتها . وكان هذا أمراً لا سابقة له فى الملوك الهانوفرين .

ولم يحب حرب السنين السبع ، يوم كان فى الرابعة من عمره ، وأحس أن فى الإمكان الوصول إلى تسوية ما مع فرنسا . ولكن وليم بت الأول ، وزير الدولة للإدارة الجنوبية ، والشخصية المسيطرة فى وزارة الدوق نيوكاسل ، أصرعلى مواصلة الحرب حتى توهن فرنسا وهنا أمل لها معه فى تحدى الامبراطورية التى خلقتها الانتصارات البريطانية فى كندا والهند ؛ وقد ألح فوق ذلك على ألا يعقد صالح إلا برضى فردريك الأكبر حليف انجلتره . وفى مارس ١٧٦١ عين الأيرل بيوت وزير دولة للإدارة الشمالية ، وشرع فى تنفيذ خطة لعقد صلح منفرد . وعبثاً قاوم بت ، فاستقال فى ٥ أكتوبر . وطيب جورج خاطره بمعاش قدره ٣,٠٠٠ جنيه له ولوريثه ، ولقب الشرف لزوجته التى أصبحت الآن البارونة شاتام . وقد رفض بت (حتى عام ١٧٦٦) النبالة لنفسه لأنه لوحصل عليها لأبعدته عن ساحة عراكه المحببة وهى مجلس العموم . وإذ كان قد أبدى احتقاره للمعاشات ، فقد انتقد بشدة على قبوله هذه الرواتب ، ولكنها كانت أقل مما كان يكسب ، وقد نال آخرون أكثر كثيراً منها مع أنهم كانوا يكسبون أقل منه كثيراً .

وفى ٢٦ مايو ١٧٦٢ اعتزل الدوق نيوكاسل منصبه بعد أن شغل مكاناً مرموقاً فى السياسة طوال خمسة وأربعين عاماً . وبعد ثلاثة أيام خلفه بيوت وزيراً أول . واتخذت الآن أهداف الملك الشاب شكلا ودفعاً . فرأى هو وبيوت أن من حق الملك أن يقرر الخطوط الكبرى للسياسة لا سيما فى الشئون الخارجية . أضف إلى ذلك أنه كان تواقاً إلى كسر سلطان بعض الأسرالغنية على الحكومة . وفى ١٧٦١ ، حث عضو قديم فى حزب الأحرار يدعى وليم بلتنى ، إيرل باث ، فى نبذة غفل عن اسم كاتبها ، الملك على ألا يقنع بـ « ظل الملكية » ، بل يستعمل « امتيازاته القانونية » فى كبح جماح « الدعاوى غير القانونية للأوليجركية المتحزبة »[٦٤] .

وكانت الأغلبية فى مجلس العموم تذهب إلى أن على الملك أن يختار وزراءه من الزعماء المعترف بهم للحزب أو العصبة الفائزة فى الانتخابات ، وأصر جورج على حقه الشرعى فى اختيار وزرائه دون اعتبار للحزب ، ودون قيود عليه إلا مسئوليته أمام الشعب. وكان الأحرار هم الذين دبروا ارتقاء ناخب هانوفر لعرش انجلترا ، وكان بعض المحافظين قد تفاوضوا مع الاستيوارتيين المنفيين . لذلك لم يكن بد من أن يقتصر جورج الأول والثانى فى اختيار وزرائهما على الأحرار ، وكان أكثر المحافظين قد اعتزلوا فى ضياعهم . ولكنهم فى ١٧٦٠ قبلوا الأسرة المالكة الجديدة ، وأقبلوا فى نفر كبير ليقدموا ولاءهم للملك البريطانى المولد .

ورحب بهم جورج ، ولم ير مبرراً لعدم تعيينه المحافظين الأكفاء كما يعين الأحرار الأكفاء فى المناصب الوزارية . واحتج الأحرار بأنه لوكان الملك حراً فى اختيار الوزراء وتقرير السياسة دون أن يكون مسئولا أمام البرلمان لكان هذا انتهاكاً لمرسوم الحقوق الصادر فى ١٦٨٩ ، ولصعدت سلطة الملك من جديد إلى المستوى الذى ادعاه تشارلز الأول ، ولبطل مفعول ثورتى ١٦٤٢ و ١٦٨٨ . ان للنظام الحزبى عيوبه ، ولكنه (فى رأى الزعماء) لا غنى عنه للحكومة المسئولة ، فهو يوفر لكل وزارة معارضة تراقبها ، وتنتقدها ، وتستطيع (إذا شاء الناخبون) أن تحل محلها رجالا مهيأين لتغيير اتجاه السياسة دون الإخلال باستقرار الدولة . وهكذا تكونت الخطوط لأول صراع كبير بين القوى فى الحكم الجديد .

وتحمل بيوت وطأة المعركة . وكان أكثر النقد يعنى الملك ، ولكنه لم يعنى أمه ، فاتهمتها الأهاجى الخفيفة الساخرة بأنها خليلة بيوت ، وأثار هذا التشهير الملك فغضب غضبة مضرية ، وعقد بيوت صلحاً منفرداً مع فرنسا ، ثم كف عن تقديم المعونة المالية لبروسيا ليكره فردريك على الإذعان ، فوصفه فردريك بالوغد الخسيس ، وواصل القتال . أما الشعب الانجليزى فرغم سروره لأن الحرب وضعت أوزارها إلا أنه ندد بالصلح لأنه أفرط فى اللين مع فرنسا المغلوبة ، وسخط بت عليه ، وتنبأ بأن فرنسا

التي خرجت من الحرب ببحريتها سليمة لم يمسها سوء ستستأنف الحرب على انجلتره عما قليل — وهو ما فعلته فى ١٧٧٨ . وصدق مجلس العموم على المعاهدة ، بأغلبية ٣١٩ ضد ٦٥ . واغتبطت أم جورج بانتصار الإرادة الملكية وقالت « ان ابنى الآن ملك على انجلتره حقاً وفعلا »[٦٦] .

كان الملك الجديد حتى الآن يشتهر بالنزاهة . ولكنه حين رأى الأحرار يشترون الأصوات البرلمانية ، ويستأجرون الصحفيين لمهاجمة سياساته ، صمم على أن يبزهم فى هذا المضمار . فسخر ماله وقوة رعايته لإغراء المؤلفين من أشباه سمولت بالدفاع عن أهداف الوزارة وتصرفاتها . ولعل بيوت كان يفكر فى أمثال هذه الخدمات حين أقنع الملك فى يوليو ١٧٦٢ بأن ينفح صموئيل جونس بمعاش ، ولم يخب ظنه فى الكاتب ، ولكن ما من متشيع للوزير استطاع أن يضارع خطب جون ولكس اللاذعة الذكية ، أو هجائيات تشارلز تشرشل الضارية ، أو قدح « جونيوس » الغفل من التوقيع . « وظهرت الآن كل يوم ، نثراً وشعراً ، طعون فى البلاط فاقت فى جرأتها وغلها أى طعن نشر لسنوات كثيرة »[٦٧] .

وأخذ البرلمان نقود الملك وأعطاه أصواتاً ، ولكنه كره كبير وزرائه ، لأنه اسكتلندى لم يرق إلى مقام السلطة جزاء على خدمة طويلة لحزب من الأحزاب فى مجلس العموم . واشتد شعور الكراهية لاسكتلنده فى انجلتره التى لم تزل تذكر غزو ١٧٤٥ الاسكتلندى . ثم أن بيوت كان قد أغدق الغنائم السياسية على بنى جلدته : فعين روبرت آدم معمارياً للبلاط ، وآلن رمزى مصوراً للبلاط (متجاهلا رينولدز) ؛ وأجرى معاشاً على جون هيوم الكاتب المسرحى الاسكتلندى ، فى حين ضن على توماس جراى بكرسى الأستاذية . وأعربت جماهير لندن عن شعورها بشنوق جزمة عسكرية ثقيلة jackboot أو احراقها (كناية عن Bute) وبالهجوم على مركبة الوزير ، فكان يضطر إلى إخفاء وجهه حين يختلف إلى المسرح . ونفرت أهل الريف منه ضريبة فرضها على عصير التفاح (السيدر) ، فبات بيوت أبغض وزير وعاه التاريخ الانجليزى . فلما أن عجز عن التصدى لهذا السيل

الجارف ، وتحطم بدناً وروحاً ، وأدرك أنه لايصلح لمعارك السياسة ودسائسها ، استقال (٨ ابريل ١٧٦٣) بعد أقل من سنة وهو كبير وزراء الملك .

أما خلفه جورج جرنفل فعانى من خطوب ثلاثة : فقد هاجمه فى الصحف جون ولكس الذى لا يقهر (١٧٦٣ وما بعدها) ؛ وحصل على موافقة البرلمان (مارس ١٧٦٥) على قانون الدمغة الذى كان أول ما نفر المستعمرات الأمريكية ؛ وأصيب فى عهده جورج الثالث بأول نوبات جنونه . ذلك أن اخفاق بيوت واستقالته حطما أعصاب الملك وفلا عزيمته ، ولم يسبغ عليه زواجه أى سعادة ، وكان جرنفل معتداً برأيه إلى حد مؤلم ، لا بل يكاد يكون مسيطراً . ثم تماثل جورج للشفاء بعد قليل ، ولكنه لم يعد بعدها يشعر بأن فيه من العافية ما يكفى لمقاومة أولجركية الأحرار التى هيمنت على معظم البرلمان والصحافة . فلجأ إلى حل وسط ، ودعا المركيز روكنجهام — وهو من الأحرار — لتأليف وزارة جديدة .

وشرع المركيز بموافقة البرلمان خلال سنة عدة قوانين مهدئة ، ربما عملا باقتراحات أشار بها سكرتيره إدموند بيرك . فألغيت أو عدلت ضريبة الدبس (السيدر) ، وألغيت ضريبة الدمغة ، وأعان التجارة إبرام معاهدة مع روسيا ، وهدىء الهياج الذى نشب حول ولكس ؛ ويبدو أن هذا التشريع لم تسخر الرشوة لدفعه قدماً . أما الملك فقد ساءه إلغاء الضريبة ، والتنازلات التى قدمت لولكس ؛ وعليه ففى ١٢ يوليو ١٧٦٦ أقال وزارة روكنجهام ، وعرض النبالة على بت ، وطلب إليه أن يضطلع بالحكم . ووافق بت .

غير أن « نائب العموم العظيم » كانت صحته قد تضعضعت ، وكذلك عقله . وضحى الآن بما بقى له من شعبيته بقبوله لقب إيرل شاتام ، فتخلى بذلك عن مكانه فى مجلس العموم . وكان له فى هذا بعض العذر : فقد أحس بأنه أضعف من أن يثبت لتوترات مجلس العموم وصراعاته ، أما مجلس اللوردات فسيتاح له فيه فراغ أكثر وسيكون التوتر فيه أقل . واتخذ منصباً هادئاً نسبياً هو منصب وزير الخاتم الملكى ، وسمح لصديقه دوق جرافتن

أن يشغل منصب الرئيس الأعلى للخزانة ، وهو أبرز المناصب الوزارية اسمياً . على أن زملاء بت لاحظوا أنه يقرر السياسة دون أن يشاورهم أو رغم معارضتهم ، وقد تنفس كثيرون الصعداء حين ذهب إلى بات ملتمساً تهدئة آلام النقرس الذى يشكوه . وقد حقق هذا الهدف ولكن بعقاقير شوشت عقله . فلما عاد إلى لندن لم يكن فى حال تسمح له بالاهتمام بالسياسة . وفى أكتوبر ١٧٦٨ استقال ، وأصبح جرافتن كبيراً للوزراء .

فى فترة الفوضى السياسية هذه (١٧٦٦ — ٦٨) تكتل لفيف عرفوا بـ « أصدقاء الملك » ليدعموا أهداف الملك . فأرشدوا جورج فى توزيع الغنائم لقاء تأييد نائليها لسياسته ؛ واستخدموا كل وسيلة لانتخاب مرشحين وتقديم وزراء موالين للآراء الملكية . فلما تورط جرافتن فى مصاعب وأخطاء فاضحة ضاعفوا من ارتباكه حتى استقال (٢٧ يناير ١٧٧٠) . وفى ١٠ فبراير أحرزوا أعظم نصر لهم إذ بدأ فردريك نورث سنى خدمته الاثنتى عشرة وزيراً للخزانة* (وهو المعروف لنا باللورد نورث ؛ وإن لم يرث هذا اللقب إلا فى ١٧٩٠) .

كان نورث رجلا ضعيفاً وإن لم يكن شريراً . وإحساسه بالولاء والرحمة هو الذى أبقاه فى منصبه وأكسبه مكاناً غير كريم فى التاريخ . وقد ابتسم له الحظ لأنه كان ابن إيرل جلفورد ، فحظى بكل مزايا التعليم والاختلاط بالمجتمع الراقى ، وأصبح نائباً فى مجلس العموم ولما يجاوز الثانية والعشرين ، واحتفظ بمقعده فيه قرابة أربعين عاماً . واكتسب صداقة الكثيرين بفضل تواضعه ولطفه ودماثته وظرفه . ولكنه اتبع الجانب المحافظ فى ثبات غالى فيه حتى لم يسر أحداً سوى الملك . فقد أيد قانون الدمغة وطرد ولكس ؛ وواصل الحرب مع أمريكا (إلى مراحلها الأخيرة) ودافع عن سياسات جورج الثالث حتى وهو يشك فى حكمتها ؛ وعد نفسه عاملا للملك ؛

---

* شكا خطيب من أن نورث ينام أثناء الخطبة ، فأجاب نورث بأن من الظلم أن يعاب عليه تناول دواء قدمه له السيد الموقر بنفسه . وطالب عضو غاضب برأسه فرد بأنه يسره أن يسلمه شريطة الايكره على أن يقبل بديلا رأس العضو(٦٨) .

لا عاملا للبرلمان فضلا عن أن يكون عاملا للشعب ؛ ويبدو أنه كان مخلصاً فى اعتقاده أن للملك الحق الشرعى فى اختيار وزرائه وتوجيه السياسة . وبفضل نورث ولباقته فى سياسة مجلس العموم — وبفضل استخدام الأموال التى أقرها البرلمان — حكم جورج الثالث انجلترة طوال عقد من ذلك القرن ، وعن طريق عملاء نورث اشترى المقاعد والأصوات ، وباع المعاشات والمناصب ، وأعان الصحفيين بالمال ، وحاول أن يقيد الصحافة بالأغلال . وأنه لحك لشجاعته وعناده أن تتطلب هزيمته تكتل جهود جون ولكس ، و « جونيوس » ، وبيرك ، وفوكس ، وشريدان ، وفرانكلن ، وواشنطن ضده ليقهروه .

٤ — البرلمان ضد الشعب

نقرأ فى يومية جبون بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٧٦٢ : « تناول الكولونيل ولكس الغداء معنا . . . وندر أن ألتقيت فى حياتى برفيق خير منه . فقد أوتى حيوية لا ينضب معينها وذكاء وروح فكاهة لا حد لهما ، وقدراً وافراً من المعرفة ، ولكنه كان ممعناً فى الخلاعة والمجون مبدأ وممارسة على حد سواء : فخلقه معيب ، وحياته تلوثها كل الموبقات ، وحديثه طافح بالتجديف والبذاءة ثم هو فخور ممتز بهذه الأخلاق — لأن الخجل ضعف تغلب عليه منذ أمد بعيد . وقد أخبرنا هو نفسه أنه مصمم فى فترة الانشقاق العام أن يصبح ثرياً »[69] .

هذا رأى محافظ كان يترع فى صف الحكومة طوال الأعوام الثمانية التى كان فيها عضواً فى مجلس العموم ، ولم يستطع أن يتعاطف بسهولة مع عدو سافر للبرلمان والملك ، فياض بالحيوية . . . على أن ولكس لوسئل لسلم بمعظم هذه التهم . ذلك أنه كان قد نبذ أخلاقيات المسيحية كما نبذ لاهوتها . واستمتع بالجهر بمذهبه فى اللذة أمام نواب يشاركونه أخلاقه ولكنهم يفزعون من صراحته .

كان جون ولكس ابنا لمقطر ملت فى كلاركنويل بشمالى لندن . تلقى تعليماً حسناً فى أكسفورد ولايدن « كفى لإثارة دهشة جونسن من إلمامه بالآداب الكلاسيكية ومن تأدبه بـ — « آداب السادة » [٧٠] فلما بلغ العشرين تزوج « سيدة تكبرنى مرة ونصفا » ، ولكنها « ذات ثراء عريض » [٧١] وكانت من جماعة المنشقين على الكنيسة الإنجلكانية ، تميل إلى التقوى المكتئبة ؛ فأقبل على الشراب والخليلات . وحوالى عام ١٧٥٧ انضم إلى السير فرانسيس داشوود ، وبب دودنجتن ، وجورج سلوين ، والشاعر تشارلز تشرشل ، وإيرل سانلوتش الرابع فى « ناد لنار الجحيم » يلتئم شمله فى دير مدمنهام البندكتى على ضفاف التيمز قرب مارلو . هناك راحوا وهم ينتحلون صفة « رهبان مدمنهام المجانين » يقلدون فى سخرية الطقوس الكاثوليكية بإقامة « قداس أسود » للشيطان ، ويطلقون العنان لميولهم التجديفية الشهوانية [٧٢] .

وانتخب ولكس نائباً للبرلمان عن دائرة أيلزبرى (١٧٥٧) بفضل نفوذ رفاقه وبإنفاق ٧٠٠٠ جنيه . وانضم أولا لبت الأب ، ثم لخصوم بيوت بعد عام ١٧٦٠ . ولما كان بيوت يعين بالمال مجلة سمولت « البريطانى » ، فقد بدأ ولكس ، مستعيناً بتشرشل « فى يونيو ١٧٦٢ اصدار مجلة أسبوعية معارضة سماها « بريطانى الشمال » اكتسبت قراء كثيرين بفضل حيوية أسلوبها وخفته ، وضراوة هجماتها على الوزارة . وفى عدد منها نفى فى إسهاب — أى أنه أذاع — الشائعة التى أرجفت بأن بيوت خالل أم الملك . وفى العدد ٤٥ (٢٣ أبريل ١٧٦٣) ندد ببيوت لأنه خرق اتفاق انجلتره مع بروسيا بإبرامه صلحاً منفرداً مع فرنسا « وبادعائه » فى « خطاب العرش» الذى ألقاه الوزير باسم الملك ، أن هذه المعاهدة باركها فردريك الأكبر .

« أن هذا الأسبوع قد أعطى الجمهور مثالا على وقاحة الوزارة — هو أشد ما حاولته وزارة من قبل تسيباً واستهتاراً . . . على البشرية . ذلك أن « خطاب الوزير » الذى ألقاه الثلاثاء الماضى لانظير له فى سجلات تاريخ هذا البلد . ولست أدرى هل الدجل والخداع أعظم على الملك أم على الأمة . فكل صديق لهذا البلد لابد يحزن لأن ملكاً أوتى هذا العدد الكبير من الخلال

العظيمة المحببة . . . يمكن حمله على التصديق باسمه المقدس على أبغض القرارات » وعلى أشد التصريحات العامة حيفا . . . وأنا واثق من أن جميع الأجانب » لا سيما ملك بروسيا ، سينظرون إلى الوزير نظرة الازدراء والاشمئزاز ، فقد جعل مليكنا يصرح بالآتى : « لقد تحققت كل توقعاتى تحققاً كاملا بفضل النتائج الطيبة التى جناها حلفاء تاجى المختلفون من المعاهدة النهائية وقد أقنعت الدول المشتبكة فى حرب مع أخى الفاضل ملك بروسيا بالموافقة على شروط التسوية التى وافق عليها ذلك الملك العظيم » والمغالطة المخزية فى هذه العبارة كلها ظاهرة للناس جميعاً ، لأنه من المعروف أن ملك بروسيا . . . قد خذله رئيس وزراء انجلتره الاسكتلندى خذلاناً خسيساً . . . أما عن تصديق البرلمان « تصديقاً كلياً » الذى هو موضع فخر ينطوى على غرور شديد ، فإن العالم يعرف كيف تم الحصول عليه . والدين الكبير على « القائمة المدنية » . . . يعلن بوضوح تام صفقات الشتاء»[٧٣] .

ومع أن ولكس كان قد فسر « خطاب الملك » على أنه فى الحقيقة خطاب بيوت ، إلا أن جورج الثالث فهم المقالة على أنها إهانة شخصية » وأمر اللوردين هاليفاكس واجرمونت ، وزيرى الدولة آنئذ — بالقبض على جميع الأشخاص الضالعين فى نشر العدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » . فأصدرا أمراً عاماً بالاعتقال — أى أمراً لا يسمى الأشخاص الذين يعتقلون » وبناء على عباراته الغامضة زج فى السجن تسعة وأربعون شخصياً منهم ولكس (٣٠ ابريل ١٧٦٣) ، رغم دعوى الحصانة بوصفه نائباً فى البرلمان ، ووضع طابع المجلة واسمه وليمز فى المشهرة ، ولكن حشداً من الناس هتفوا له شهيداً وجمعوا ثمانى جنيه لإعانته . وطلب ولكس إلى محكمة الدعاوى العامة أمراً قضائياً من أوامر « هابياس كوريس » ، وحصل عليه ، ودافع عن قضيته ، ونال من قاضى القضاه تشارلز برات (وكان صديقاً لبت) أمراً بإطلاق سراحه تأسيساً على أن اعتقاله فيه انتهاك لحق عضو البرلمان ، ورفع ولكس الدعوى على هاليفاكس وآخرين للقبض غير القانونى والأضرار بماله ، وحصل على تعويض قدره ٥٠٠٠ جنيه وأنهت إدانة برات

للتفويضات العامة ذلك الاستعمال السيىء للسلطة الذى أبغضه البريطانيون بغض الفرنسيين لأوامر القبض المختومة .

وشاء ولكس أن يعاند القدر ، فاشترك مع توماس بوتر (ابن رئيس أساقفة كنتربرى) فى تأليف « مقال عن المرأة » وهو معارضة شعرية ساخرة لقصيدة بوب « مقال عن الإنسان (الرجل) » . وكان خليطاً من البذاءة والتجديف ، مزوداً بحواش تنبىء بعلم الشاعر الواسع وتنسج على المنوال ذاته ، ونسب المقال إلى الأسقف وليم وربرتن ، الذى كان قد أضاف هوامش لقصيدة بوب . وطبع المقال الصغير فى مطبعة ولكس فى بيته ، لكنه لم ينشر ، غير أن ثلاثة عشرة نسخة طبعت خصيصاً لبضعة أصدقاء ، وحصل وزراء الملك على تجارب الطبع ، وأقنعوا إيرل ساندوتش بأن يقرأها على مجلس اللوردات ، ففعل الإيرل (١٥ نوفبر) ، الأمر الذى أضحك الأشراف ، وكانوا عليمين بما اشتهر به ساندوتش من خلاعة وتهتك . ويخبرنا وليول بأنهم « لم يستطيعوا الاحتفاظ برزانتهم » وساندوتش ماض فى القراءة ، ولكنهم وافقوا على أن القصيدة « قذف فاضح بذىء فاسق » . وطلبوا إلى الملك أن يقدم ولكس للمحاكمة بتهمة التجديف . وحين أخبر ساندوتش ولكس بأنه سيموت إما شنقاً أو من مرض سرى ، أجاب « ذلك يامولاى اللورد رهن بمن أعانق — مبادئك أم خليلتك »[٧٥] .

وفى ذلك اليوم ذاته — يوم ١٥ نوفبر — قام ولكس فى مجلس العموم ليسجل شكوى من إهدار حقه البرلمانى بالقبض عليه . ولكن المجلس صوت ضده . وأمر البرلمان الجلاد بأن يحرق علناً العدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » . وفى اليوم السابع عشر تحدى صموئيل مارتن ولكس للمبارزة ، وكان قد سبه فى ذلك العدد . فالتقيا فى هايد بارك ، وجرح ولكس جرحاً خطيراً ، وألزم الفراش شهراً . وأدان أهالى لندن مارتن باعتباره قاتلا مأجوراً ، وأحدثوا شغباً حين حاول الجلاد أن يحرق العدد ٤٥ ، وأصبح الهتافان « ولكس والحرية » و « العدد الخامس والأربعون » شعارين على تمرد شعبى صاعد ضد الملك والبرلمان[٧٦] . ثم حاول اسكتلندى مسعور قتل ولكس ،

فرحل إلى فرنسا (٢٦ ديسمبر) . وفى ١٩ يناير ١٧٦٤ طرد رسمياً من البرلمان . وفى ٢١ فبراير صدر ضده حكم فى محكمة « كنجز بنش » بأنه مذنب بإعادة طبع العدد ٤٥ وبطبع « مقال عن المرأة » ، ودعى للمثول وتلقى الحكم عليه ، فلم يحضر ؛ وفى أول نوفمبر أعلن أنه خارج على القانون .

وظل ولكس أربع سنوات شريداً فى فرنسا وإيطاليا يخشى أن يسجن سجناً مؤبداً إن عاد إلى انجلتره . وفى روما التقى مراراً بفنكلمان ، وفى نابلى قابل بوزويل الذى وجده رفيقاً مسليا : « ان مخرياته المرحة الحية فى المواضيع الأخلاقية حركت روحى المعنوية حركة ليست غير سارة »[٧٧] . وفى طريقه عودا إلى باريس زار ولكس فولتير فى فرنيه « وسحر أظرف رجل فى أوربا بظرفه وخفة روحه » .

ثم فتح رجوع الأحرار إلى السلطة بزعامة وكنجهام وجرافتن لوكس باب الأمل فى العفو عنه . وتلقى تأكيدات سرية بأنه لن يمس بسوء إذا لزم الصمت . فعاد إلى انجلتر « (١٧٦٨) وأذاع من لندن ترشيحه للبرلمان . فلما أن خسر تلك المعركة ، التمس انتخابه للبرلمان من مدلسكس » وحصل على أغلبية كبيرة بعد حملة صاخبة ؛ وكانت تلك المقاطعة التى تحول أكثرها حضراً (وهى تضم الآن شمال غربى لندن) معروفة بميولها الراديكالية وعدائها للرأسمالية الصاعدة . وفى ٢٠ ابريل مثل ولكس أمام المحكمة متوقعاً إلغاء الحكم بخروجه على القانون ؛ وألغى الحكم ؛ ولكن حكم عليه بغرامة قدرها ألف جنيه وبالسجن اثنين وعشرين شهراً . فأنقذه حشد غاضب من ضباط الشرطة وحملوه فى موكب نصر طافوا به شوارع لندن . وبعد أن هرب من المعجبين « سلم نفسه للسجن فى سانت جورجز فيلدز . وتجمع الغوغاء هناك فى ١٠ مايو وأرادوا اطلاق سراحه ثانية . فأطلق الجند النار على مثيرى الشغب ، وقتل منهم خمسة وجرح خمسة عشر .

وفى ٤ فبراير ١٧٦٩ طرده مجلس العموم ثانية « فانتخبته دائرة مدلسكس ثانية (١٦ فبراير) ، وطرد من جديد » فعادت مدلسكس وانتخبته

١٣ابريل)، هذه المرة بأغلبية ١,١٤٣ صوتاً ضد٢٩٦لهنرى لوتريل؛ وأعطى البرلمان المقعد للوتريل على أساس أن ولكس بعد أن طرد من البرلمان فقد أهليته شرعاً للنيابة فى دورة ذلك البرلمان . وهوجم لوتريل وهو يغادر مجلس العموم؛ ولم يجرؤ على الظهور فى الشوارع(٧٨) . وأرسلت سبع عشرة مقاطعة ومدن كثيرة خطابات موجهة إلى العرش تشكو من أن حقوق الملاك الأحرار فى اختيار ممثليهم فى مجلس العموم قد انتهكت انتهاكاً صارخاً . أما الملك الذى كان قد أيد الطرد بقوة فقد تجاهل الالتماسات ، وقال عضو يدعى الكولونيل اسحاق باريه فى البرلمان أن تجاهل الالتماسات «قد يعلم الشعب التفكير فى الاغتيال»(٧٩)* . وخلع جون هورن توك ، الذى أسلم إيمانه لسخر فولتير ، ثوبه الدينى وصرح بعد إقصاء ولكس مراراً بأنه سيصبغ رداءه (رداء القساوسة) الأسود بالحمرة .

وتزعم توك تنظيم «جماعة المؤيدين لملتمس الحقوق» (١٧٦٩) التى كان هدفها العاجل اطلاق سراح ولكس ، وأداء ديونه ، ورده إلى البرلمان ، ونشرت الجماعة الدعوة فى محافل عامة لحل البرلمان الراهن لفساده الذى لا يرجى صلاحه ، ولعدم استجابته للإرادة العامة ؛ وطالبت ببرلمانات سنوية تنتخب بالتصويت العام للذكور البالغين ، وبمسئولية الوزارات أمام البرلمان فى سياستها ومصروفاتها(٨٠) . ونادت بأن على كل مرشح أن يقسم اليمين بألا يقبل أى ضرب من ضروب الرشوة ، ولا أى وظيفة أو معاش أو مكافأة أخرى من التاج ، وبأن على كل عضو أن يدافع عن آراء ناخبى دائرته ولو ناقضت آراءه ، وبضرورة رفع المظالم عن ايرلنده ، وبأن يكون للمستعمرات الأمريكية وحدها حق فرض الضرائب على شعبها(٨١) .

وفى يوليو ١٧٦٩ ، رفع وليم تكلفورد عمدة لندن وكبار موظفيها الرسميين إلى الملك خطاباً يلوم مسلك وزرائه لأنه هادم للدستور الذى أعطى بموجبه بيت هانوفر عرش انجلتره . وفى ١٤ مايو ١٧٧٠ أرسلوا إلى الملك احتجاجاً استخدم لغة الثورة : «ان أغلبية أعضاء مجلس العموم — الواقعين

---

* سميت مدينة ولكس — باريه فى بنسلفانيا باسم ولكس وباريه اللذين ناصرا قضية المستعمرات فى البرلمان بقوة .

تحت التأثير الخفى والخبيث الذى أحبط كل النوايا الحسنة وأوحى بكل النوايا السيئة فى جميع الحكومات المتعاقبة — هؤلاء حرموا شعبكم من أعز حقوقهم . لقد اقترفوا عملا أفدح تدميراً فى عواقبه من فرض تشارلز الأول ضريبة السفن ، أو سلطة منح المعاشات التى ادعاها جيمس الثانى لنفسه »[٨٢] .

وقد ناشد الخطاب الملك أن يعيد « الحكومة الدستورية . . . وأن تقصى أولئك الوزراء الأشرار عن مجالسك إلى الأبد »[٨٣] وأن يحل البرلمان الحالى . أما الملك المحنق فقد صاح ويده على سيفه « دون ذلك سيفى هذا »[٨٤] . وبدت لندن لا باريس قاب قوسين من الثورة فى ١٧٧٠ .

فى هذه الدوامة الملتهبة من دوامات السياسة قذف « جونيوس » بأشد الرسائل إثارة للفتنة فى تاريخ انجلترة . وقد أفلح فى إخفاء هويته حتى عن ناشريه إخفاءاً تاماً ، حتى أنه إلى يومنا هذا لا يعرف أحد من هو ، وان حزر معظمهم أنه السر فيليب فرانسيس ، الذى سنلتقى به الخصم اللدود لوارن هيستنجز . وكان المؤلف قد وقع بعض رسائله باسم « لوشس » ، وبعضها باسم « بروتس » ، أما الآن فقد انتحل الاسم الأوسط « لوشس جونيوس بروتس » الذى يقول ليفى انه خلع ملكاً (حوالى ٥١٠ ق . م .) وأسس الجمهورية الرومانية . وتدل فحولة لغة هذه الرسائل على أن « جونيوس » أوتى تعليم السادة وإن لم يؤت حسن أدبهم . والراجح أنه كان غنياً ، لأنه لم يتقاض أجراً على رسائله التى وسعت قوتها ونقدها اللاذع من توزيع صحيفة « المعلن العام » توسيعاً غل الربح الوفير ، وهى الصحيفة التى ظهرت فيها من ٢١ نوفمبر ١٧٦٨ إلى ٢١ يناير ١٧٧٢ .

وفى مقاله « إهداء للأمة الانجليزية » الذى صدر به المؤلف « رسائل جونيوس » (١٧٧٢) أعلن هدفه وهو « تأكيد حرية الانتخاب ، والدفاع عن حقكم أنتم دون غيركم فى اختيار ممثليكم » واتخذ نقطة انطلاقه اقصاء ولكس المتكرر ، واعتقال كل من له صلة بالعدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » بأمر اعتقال عام . « أن حرية الصحافة هى الحصن المنيع لجميع الحقوق المدنية والسياسية والدينية للرجل الانجليزى ، وحق المحلفين . . . جزء أساسى من

دستورنا » ومن هذه الزاوية انتقد المؤلف أسس الحكومة البريطانية : « ان سلطة الملك ، واللوردات ، ونواب العموم ، ليست سلطة تعسفية . فهم ليسوا إلا الأمناء على التركة لا مالكيها . والملكية المطلقة قائمة فينا نحن . . . وأنا موقن بأنكم لن تتركوا لمشيئة سبعمائة شخص ، أفسدهم التاج على نحو مفضوح ، الفصل فى مستقبل سبعة ملايين من نظرائهم . أيكونون أحراراً أم عبيداً »[٨٥] .

ومضى جونيوس يتهم حكومة جرافتن (١٧٦٨ — ٧٠) ببيع المناصب وإفساد البرلمان بالانعامات والرشا . هنا أصبح الهجوم مباشراً وبلغ من الاحتدام حداً يشعر بأنه تصميم على الانتقام لإساءة أو إهانة شخصية .

« تقدم أيها الوزير الفاضل وقل للعالم بأى نفوذ زكى مستر هاين لمثل هذه الإمارة الخارقة على رضى جلالته ، وماذا كان ثمن الامتياز الذى اشتراه ؟ . . . انك تعرض مخصة الرعاية الملكية للمزاد . . . أو تظن أن فى الإمكان أن تفلت هذه الكبائر دون اتهام ؟ أنها حقاً مصلحتك إلى الدرجة القصوى أن تحتفظ بمجلس العموم الحالى . فهم إذ باعوا الأمة جملة ، سيحمونك ولا ريب فى التجزئة . لأنهم وهم يناصرون جرائمك يرعون أيضاً جرائمهم هم »[٨٦] .

واستمر الهجوم بعد استقالة جرافتن بزمن طويل . كما نقرأ فى الرسالة المؤرخة ٢٢ يونيو ١٧٧١ .

لست أستطيع بأى مظهر مهذب من مظاهر اللياقة أن أصفك بأنك أنذل وأخس رجل فى المملكة . لا ياسيدى ، فلست أحسبك كذلك . فسيكون لك منافس خطر فى ذلك الضرب من الشهرة . . . مادام هناك رجل واحد حى يحسبك جديراً بثقته ، صالحاً لأن يوكل إليك أى قسط فى حكومته . »

وبدا أن هذا وصف لجورج الثالث ذاته بأنه « أخس رجل فى المملكة » وكان جونيوس قد عمد من قبل فى الرسالة الخامسة والثلاثين إلى مهاجمة الملك « بإباء وحزم ، ولكن دون احترام » : « سيدى ، ان الخطب الذى

منيت به حياتك . . . أنك لم تكن لتلم قط بلغة الحقيقة حتى سمعتها فى شكاوى شعبك . على أن الوقت لم يفت لتصحيح خطأ تعليمك » . ونصح جونيوس جورج بأن يقيل وزراءه المحافظين ، ويسمح لولكس بأن يشغل المقعد الذى أنتخب له . « أن على الملك ان كان يفتخر بسلامة حقه فى التاج أن يتذكر أنه اكتسب بثورة . وأنه قد يضيع بأخرى »[٨٧] .

وقبض على هنرى وودفول الذى نشر هذه الرسالة فى صحيفة « المعلن العام » بتهمة القذف المحرض على الفتنة . ورفض المحلفون إدانته وهم يعكسون مشاعر الطبقة الوسطى ، فأفرج عنه بعد دفع المصاريف . وكان جونيوس قد بلغ الآن قمة تهوره وقوته . ولكن الملك صمد للهجوم ، ودعم مركزه بتعيينه لرياسة الوزارة اللورد نورث اللطيف الثابت الجأش . وواصل جونيوس رسائله حتى ١٧٧٢ . ثم ترك ساحة القتال . ويلاحظ أنه فى ١٧٧٢ ترك السر فيليب فرانسيس وزارة الحربية (التى كان جونيوس قد أظهر معرفة وثيقة بشئونها) ورحل إلى الهند .

وتنتمى الرسائل إلى التاريخ الأدبى لانجلترة كما تنتمى إلى تاريخها السياسى ، ذلك أنها مثال حى على الأسلوب الذى كان فى قدرة الكثير من رجال السياسة البريطانيين أن يرتفعوا أو يتدنأوا إليه حين يلهبهم الغضب ويحميهم التخفى وراء الأسماء المستعارة . فهنا انجليزية رفيعة اختلطت بالسب ، ولكن السب ذاته آية فى الطعن المرهف . أو الإجرام الحاد . ولست تجد هنا شفقة ، ولا سماحة ، ولا تفكيراً فى أن الحزب الذى ينتمى إليه راعى الاتهام يشارك المتهم خطيئته وذنبه . ونحن نتعاطف مع السر وليم درابر الذى كتب يقول رداً على رسالة جونيوس المؤرخة ٢١ يناير ١٧٦٩ « أن المملكة تشقى بعدد غفير من اللصوص المجرمين الذين يسطون على خلق الأفراد وفضيلتهم بحيث لم يعد إنسان شريف واحد فى مأمن ، لاسيما لأن هؤلاء القتلة الحقراء الجبناء يطعنون فى الظلام دون أن تكون لديهم الشجاعة للتوقيع بأسمائهم الحقيقية على كتاباتهم الشريرة الحقودة »[٨٨] .

وقد تميز تحرك الصحافة البريطانية صوب حرية ونفوذ متعاظمين بصراع آخر فى هذه السنوات . ذلك أن بعض الجرائد بدأت حوالى ١٧٦٨ فى طبع تقارير عن الخطب الكبرى التى تلقى فى البرلمان . وكان أكثر هذه التقارير متحيزاً وغير دقيق ، وبعضها وهمياً ، وبعضها محشواً بالبذاءات . وفى فبراير ١٧٧١ شكا الكولونيل جورج أونسلو إلى مجلس العموم من أن مجلة أشارت إليه بعبارة « الوغد الحقير » و « ذلك الحشرة التافهة الخسيسة» فأمر المجلس فى ١٢ مارس بالقبض على الطابعين . فقاوموا ، وقبضوا على من أرادوا اعتقالهم وأتوابهم إلى عضوين فى البلدية (أحدهما ولكس) وبراس كروسبى عمدة لندن . وأبطل العمدة محاولة اعتقال الطابعين بحجة أن مراسيم المدينة تحظر اعتقال لندنى إلا بناء على أمر اعتقال يصدره أحد قضاة المدينة . فأمر البرلمان بسجن العمدة فى برج لندن ، ولكن جماهير العامة هبوا يؤيدونه ، وهاجموا مركبات النواب ، وهددوا الوزراء ، وصفروا للملك استهزاء ، ثم أغاروا على مجلس النواب . فأطلق سراح العمدة ، وهتف له جمع غفير . واستأنفت الصحف تقاريرها عن المناقشات البرلمانية . وكف البرلمان عن توجيه الاتهام للطابعين . وفى ١٧٧٤ بدأ لوك هانسارد بموافقة البرلمان ينشر فوراً وبدقة يوميات مجلس العموم ، وواصل نشرها حتى وفاته فى ١٨٢٨ .

وقد أثر الانتصار التاريخى الذى أحرزته الصحافة البريطانية فى طابع المناقشات البرلمانية ، وأسهم فى جعل النصف الثانى من القرن الثامن عشر العصر الذهبى للبلاغة الانجليزية . وأصبح الخطباء أشد حذراً ، وربما أكثر رغبة فى الإثارة ، حين شعروا أن الناس يستمعون إليهم فى طول الجزر البريطانية وعرضها . وغدا بعض التقدم صوب الديمقراطية أمراً لا مفر منه بعد أن اتسع انتشار الإعلام والفكر السياسيين ، ووجدت طبقة رجال الأعمال ، والمجتمع المفكر ، والراديكاليون الصاعدون ، فى الصحافة صوتاً ازداد جرأة وفاعلية زيادة مطردة ، حتى قهر الملكية ذاتها . واستطاع الناخبون أن يعرفوا الآن إلى أى حد أحسن نوابهم الدفاع عنهم وعن مصالحهم فى وضع القوانين وإلغائها . لقد استمر الفساد ولكنه تقاص ، لأنه كان فى الإمكان فضحه بجهر أكثر . وغدت الصحافة سلطة ثالثة قادرة أحياناً على حفظ التوازن بين الطبقات فى الأمة أو فى الأحزاب فى البرلمان . وأصبح للرجال القادرين على شراء الصحف أو الهيمنة عليها قوة تعدل قوة الوزراء .

على أن الحرية الجديدة كمعظم الحريات أسيء استعمالها مراراً ، فباتت أحياناً أداة تسخرها أهداف أشد أنانية وتحزباً ، ومعارضة أشد سوقية وعنفاً ، من أى أهداف أو معارضة ظهرت من قبل فى البرلمان ، عندها استحقت النعت الذى نعتها به شاتام — « الفاجرة المرخصة »(٨٩) وكان إلزاماً أن يؤديها هى الأخرى صوت رابع هو الرأى العام ، الذى كانت الصحافة مع ذلك جزئياً مصدره ، وفى حالات كثيرة مضللة ، وأحياناً صوته . وبدأ الرجال والنساء المجردون من الألقاب يجهرون بآرائهم فى السياسة وأساليب الحكم بعد أن تسلحوا بمعرفة أوسع ، وتجمعوا فى محافل عامة . ونافست مناقشاتهم بين الحين والحين مناقشات البرلمان أثراً فى التاريخ ، واستطاع الآن المال أن يطالب بحق الحكم كشرف الأصل سواء بسواء ، وبين الفريقين المتصارعين يسمع صوت الشعب بين الحين والحين .

أفرج عن ولكس فى ١٧ ابريل ١٧٧٠ ، فأضيئت بيوت كثيرة كأنما تحتفل بعيد ، وعلق العمدة على منزله لافتة تحمل كلمة « الحرية » فى حروف ارتفاعها ثلاث أقدام(٩٠) . ولم يلبث ولكس أن انتخب عضواً فى البلدية ثم عمدة ، وفى ١٧٧٤ انتخبته مدلسكس مرة أخرى للبرلمان . ولم يجرؤ النواب الآن على أن يحرموه مقعده ، فاحتفظ به طوال الانتخابات حتى ١٧٩٠ . وتزعم لفيفاً صغيراً من « الراديكاليين » فى البرلمان ، طالبوا بالإصلاح البرلمانى وبإعطاء « الطبقات الدنيا » حق التصويت .

« ينبغى فى رأيى أن يتاح لكل عامل حر فى هذه المملكة حق تمثيله فى البرلمان وينبغى بتر دوائر الحضر الحقيرة التافهة ، التى نصر على وصفها بأنها الجزء العفن فى دستورنا ، وأن يسمح للمدن التجارية الغنية الآهلة بالسكان — مثل برمنجهام ومانشستر وشفيلد وليدز وغيرها — بإرسال نوابها لمجلس الأمة العظيم . . . أريد ياسيدى برلماناً انجليزياً يعبر عن الإحساس الحر ، غير المتحيز ، لسواد الشعب الانجليزى »(٩١) .

وقد انتظر البرلمان ستة وخمسين عاماً لتقبل هذه الإصلاحات .

ورفض ولكس أن يرشح نفسه للانتخاب فى ١٧٩٠ ، ثم اعتزل الحياة العامة . ومات فى ١٧٩٧ وقد بلغ السبعين ، فقيراً كما ولد ، لأنه كان شديد الأمانة فى جميع مناصبه(٩٢) .

٥ — انجلترة ضد أمريكا

فى ١٧٥٠ بلغ سكان المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية قرابة ١,٧٥٠,٠٠٠ نسمة، أما سكان انجلترة وويلز فكانوا نحو ٦,١٤٠,٠٠٠ [٩٣] ولما كان معدل النمو فى المستعمرات أعلى بكثير منه فى الوطن الأم، فإن المسألة لم تكن إلا مسألة وقت حتى يتمرد الإبن على أبيه . وكان مونتسكيو قد تنبأ بأن هذا سيحدث فى ١٧٣٠، بل إنه تنبأ بالضبط بأن الانفصال ستسببه القيـــود المفروضة على التجارة الأمريكية . وحوالى ١٧٤٧ تنبأ المركيز دارجنسن بأن المستعمرات ستثور على انجلترة وتكون جمهورية وتصبح إحدى الدول العظمى . وبعد أن انتزعت انجلترة كندا من فرنسا فى حرب السنين السبع بقليل قال فرجين لرجال انجلبزى : « ستندم انجلترا سريعا على أنها أزالت الـــكابح الوحيد الذى يستطيع أن يبقى على خوف مستعمراتها . فهى لم تعد فى حاجة لحمايتها » وستطالب انجلترة المستعمرات بالمساهمة فى الأعباء التى عملت على إثقالها بها، وسترد المستعمرات بالقضاء على كل تبعية لانجلترة » [٩٤] .

وكان التاج البريطانى يدعى سلطة نقض القوانين التى توافق عليها مجالس المستعمرات . ولم يلجأ التاج كثيرا لاستعمال تلك السلطة، ولكن حين وافق مجلس كارولينا الجنوبية على قانون يفرض ضريبة باهظة على استيراد العبيد « لشعوره بالخطر الاجتماعى والسياسى العظيم الناجم عن تكاثر العبيد الهائل فى المستعمرة » ألغى التاج القانون لأن « تجارة العبيـــد من أربح فروع التجارة الإنجليزية » [٩٥] أما فى الشئون الاقتصادية فقد ادعى البرلمان حق التشريع للإمبراطورية البريطانية كلها، وكانت قوانينه عادة تحابى الوطن الأم على حساب المستعمرات . وكان هدفه جعل أمريكا مصـــدراً للسلع التى لا تنتج بسهولة فى انجلترة « وسوقا للمصنوعات البريطانية [٩٦] . وقد ثبط نمو صناعات المستعمرات التى ستنافس صناعات انجلترة « فحظر على سكان المستعمرات صناعة الأقمشة » والقبعات، والبضائع الجلدية، والمنتجات الحديدية [٩٧] . وهكذا أعلن ايرل شاتام، الذى كان فيما خلا هذا كبير

الود للمستعمرات » أنه لن يسمح بأن يضع مسمار واحد فى أمريكا دون إذن البرلمان [٩٨] . ومنعت المستعمرات من إنشاء أفران الصلب أو مصانع القاطرات .

وفرضت قيود عديدة على التجار الأمريكيين فهم لا يستطيعون شحن البضائع إلا فى السفن الإنجليزية ، ولا بيع التبغ والقطن والحرير والبن والسكر والأرز وكثير غيرها من السلع إلا للممتلكات البريطانية ، ولا استيراد البضائع من القارة الأوروبية إلا بعد أن ترسو على ساحل انجلتره ، وبعد أن تدفع مكس الميناء ، ثم تنقل إلى سفن بريطانية . وحماية لتصدير المصنوعات الصوفية الإنجليزية إلى المستعمرات الأمريكية » حرم على تجار المستعمرات بيع مصنوعات المستعمرات الصوفية خارج المستعمرة التى أنتجتها [٩٩] . وفرض البرلمان ضريبة باهظة (١٧٣٣) على واردات أمريكا من السكر أو الدبس (المولاس) المجلوبة من أى مصدر غير المصادر البريطانية . وتفادى المستعمرون لا سيما فى مساتشوستس بعض هذه اللوائح بالتهريب ، وببيع الغلات الأمريكية خفية للأمم الأجنبية » وحتى للفرنسيين أثناء حرب السنين السبع . ولم يمتثل لشرط المرور بالثغور الإنجليزية إلا عشرة فى المائة أو نحوها من كميات الشاى التى تستورد سنـــويا للمستعمرات الأمريكية ، وجملتها ١٫٥٠٠٫٠٠٠ رطل . وكان قدر كبير من الوسكى الذى تنتجه معامل تقطير مساتشوستس فى ١٧٥٠ ، وعددها ثلاثة وستون ، يستعمل السكر والمولاس المهربين إليها من جزر الهند الغربية الفرنسية [١٠١] .

وتبريرا لهذه القيود قال البريطانيون أن الأمم الأوروبية الأخرى فرضت نظيرها على مستعمراتها ، حماية لأهلها أو مكافأة لهم ، وأن الغلات الأمريكية تتمتع باحتكار فعلى للسوق الإنجليزية بفضل إعفائها من رسوم الاستيراد ، وأن انجلترة جديرة ببعض العائد الاقتصادى نظير تكاليف الحماية التى وفرتها بحريتها لسفن المستعمرات ، وجيوشها للمستعمرين ضد الفرنسيين والهنود فى أمريكا . وكان طرد القوة الفرنسية من كندا والقوة الأسبانية من فلوريدا قد حرر الإنجليز من أخطار طالما هددتهم ، ومن ثم شعرت انجلترة أن لها

الحق فى أن تطلب إلى أمريكا أن تعينها على سداد الدين الباهظ — البالغ ١٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنية — الذى استدانته بريطانيا العظمى فى حرب السنين السبع . ورد المستعمرون بأنهم قدموا عشرين ألف جندى لتلك الحرب ، وأنهم هم أنفسهم اقترضوا دينا بلغ ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه .

على أية حال قررت انجلترا أن تفرض الضرائب على المستعمرين . فى مارس ١٧٦٣ اقترح جرنفل على البرلمان المطالبة بلصق طابع دمغة على جميع مايصدر فى المستعمرات من وثائق قانونية ، ومستندات ، ودبلومات ، وورق لعب ، وكمبيالات ، وعقود ، ورهون ، وبوالص تأمين ، وجرائد ، ويقتضى دفع رسم عن طابع الدمغة للحكومة البريطانية . وأشار باترك هنرى فى فرجينيا ، وصموئيل آدمز فى مساتشوستش ، برفض هذه الضريبة بحجة أن الإنجليز بحكم تقاليدهم الموروثة — المجنا كارتا ، والعصيان الكبير لتشارلز الأول ، و« ملتمس الحقوق » — لا يحق فرض ضريبة عليهم إلا بموافقتهم أو بموافقة ممثليهم الشرعيين . فكيف يتأتى إذن أن تفرض على المستعمرين الإنجليز ضريبة من برلمان ليس لهم فيه ممثلون ؟ ورد البريطانيون بأن صعوبات السفر والمواصلات تجعل تمثيل الأمريكيين فى البرلمان أمرا غير ممكن عمليا ، وقالوا أن الملايين من الإنجليز البالغين ظلوا قرونا يقبلون فى ولاء أن يفرض البرلمان الضرائب عليهم رغم أنهم لم يكن لهم صوت فى انتخابه ، وقد أحسوا بما ينبغى أن يحس به الأمريكيون — وهو أنهم ممثلون فعلا فى البرلمان ، لأن أعضاءه يعدون أنفسهم ممثلين للامبراطورية البريطانية كلها .

غير أن المستعمرين لم يقتنعوا . وإذا كان البرلمان قد احتفظ بسلطة فرض الضرائب مرتكزا للهيمنة على الملك ، فإن المستعمرات دافعت عن حقها دون سواها فى فرض الضرائب على ذواتها بديلا وحيدا لظلم المالى يقع عليهم من رجال لم يروهم قط ولا وطئت أقدامهم قط التراب الأمريكى . وتهرب المحامون من شرط استعمال الوثائق المدموغة ، ووضعت بعض الصحف صورة جمجمة ميت فى المكان الذى يفترض أن تظهر عليه الدمغة ، وبدأ الأمريكيون يقاطعون البضائع البريطانية ، وألغى التجار طلباتهم من المنتجات

البريطانية . ورفض بعضهم سداد ديونهم لانجلترة حتى يلغى قانون الدمغة[١٠٢] . وأخذت عذارى المستعمرات العهد على أنفسهن بألا يقبلن خطابا لاينددون بقانون الدمغة[١٠٣] . واشتد سخط الشعب حتى بلغ إثارة الشغب فى عدة مدن ؛ ففى نيورك شنقت دمية تمثل الحاكم (وهو معين من قبل الملك) ، وفى بوسطن أحرق بيت مساعد الحاكم ، توماس هتشنسن ، وأكره موزعو الدمغــة على الاستقالة من وظائفهم تحت التهديد بشنقهم . وشعر التجار البريطانيون بوقع المقاطعة ، فطالبوا بإلغاء القانون . وأرسلت الالتماسات إلى الحكومة من لندن وبرستل وليفربول وغيرها من المدن ، مقررة أن كثيرين من رجال الصناعة الإنجليز سيفلسون إن لم يلغ القانون ، وكان الآلاف من العمال قد طردوا فعلا للافتقار إلى الطلبات من أمريكا . وربما كان من قبيل الإقرار بهذه الالتماسات أن يعود بت بعدمرض طويل إلى البرلمان عودة درامية ويصرح قائلا (١٤ يناير ١٧٦٦) « رأيي أن هذه المملكة لا حق لها فى فرض ضريبة على المستعمرات » . وقد سخر من « الفكرة التى تزعم أن المستعمرات ممثلة فعلا فى المجلس » فلما قاطعه جورج جرنفل زاعما أنه يلمح بتشجيع الفتنة رد بت فى تحد قائلا « إنى مغتبط لأن أمريكا قد قاومت »[١٠٤] .

وفى ١٨ مارس أقنع اللورد روكنجهام البرلمان بإلغاء ضريبة الدمغة . ورغبة فى استرضاء « أصدقاء الملك » أضاف إلى الإلغاء « قانونا له صفــة الإعلان » يؤكد من جديد سلطة الملك فى أن يضع بموافقة البرلمان قوانين ملزمة للمستعمرات ، وسلطة البرلمان فى فرض الضرائب على المستعمرات البريطانية . وقبل الأمريكيون الإلغاء، وتجاهلوا قانون الإعلان . وأصبحت المصالحة الآن ممكنة . ولكن فى يوليو سقطت وزارة روكنجهام، وفى وزارة جرافتن التى تلتها جدد تشارلز تاونسهند ، وزير الماليــة ، محاولة إلزام المستعمرات بدفع نفقات القوات الإدارية والحربية اللازمة لحمايتها من اختلال النظام فى داخلها أو الهجوم عليها من الخارج . ففى ١٣ مايو ١٧٦٧ اقترح على البرلمان فرض رسوم جديدة على الزجاج والرصاص والورق والشاى، الذى تستورده أمريكا ، على أن يستخدم الملك حصيلة هذه الرسوم فى دفع رواتب الحكام والقضاه الذين يعينهم لأمريكا ، فإذا كان هناك فائض وجه

للاتفاق على الجنود الريطانيين هناك . ووافق البرلمان . ومات تاونسهند بعدها بشهور .

وقاوم الأمريكيون الرسوم الجديدة باعتبارها ضرائب مقنعة . وكانوا يتحكمون فى جنود الملك وحكامه بجعلهم معتمدين إلى حد كبير فى إعالتهم على الأموال التى توافق عليها مجالس المستعمرات ، فتسليم قوة المال هذه للملك معناه تسليم إدارة الحكومة الأمريكية للسلطة الملكية ، وأجمعت المجالس على الحض على مقاطعة البضائع البريطانية من جديد ، ولقيت الجهود المبذولة لجمع الرسوم الجديدة مقاومة عنيفة ، وحاول اللورد نورث حلا وسطا بإلغاء جميع الرسوم التى فرضها تاونسهند فيما عدا رسما على الشاى قدره ثلاثة بنسات على الرطل ، وأرخى المستعمرون مقاطعتهم ، ولكنهم صمموا على ألا يشربوا من الشاى إلا المهرب . فلما حاولت ثلاثة سفن تملكها شركة الهند الشرقية تفريغ ٢٨٩ صندوقا من الشاى فى بوسطن ، صعد إلى السفن خمسون مستعمرا حانقا متنكرين فى زى هنود الموهوك ، وتغلبوا على مقاومة ملاحيها ، وأفرغوا شحنتها فى البحر (١٦ ديسمبر ١٧٧٣) . وعطلت حوادث الشغب فى ثغور أمريكية أخرى المزيد من الجهود لتفريغ شاى الشركة .

وبقية القصة أكثر يخص أمريكا ، ولكن الدور الذى لعبه فيها ساسة بريطانيا وخطباؤها وكتابها ورأيها العام هو عنصر حيوى فى تاريخ انجلترة . وكما أن أقلية كبيرة نشيطة فى أمريكا طالبت بالولاء للوطن الأم ولحكومته ، فإن أقلية فى انجلترة يمثلها فى البرلمان شاتام ، وبيرك ، وفوكس ، وهوراس ولبول ، وولكس ، ناضلت لإقرار سلام بشروط فى مصلحة أمريكا ، بينما كان الجمهور عموما يؤيد الإجراءات الحربية التى اتخذتها وزارة اللورد نورث . ورأى البعض فى انقسام الرأى العام الإنجليزى على هذا النحو إحياء للمعارضة التى قامت بين الملكيين والبرلمانيين فى ١٦٤٢ . وناصرت الكنيسة الإنجليزية الحرب ضد المستعمرين مناصرة كاملة ، وكذلك المثوديون سيرا وراء زعيمهم ويسلى ، ولكن كثيرا من المنشقين غير هؤلاء أسفوا على هذا الصراع لأنهم

تذكروا أن أغلبية من المستعمرين تحدرت من جماعات منشقة . ووافق جبون جونسون على إدانة المستعمرات ، ولكن ديفد هيوم حذر بريطانيا وهو على وشك الموت من أن محاولة إكراه أمريكا ستفضى الى كارثة[١٠٥] أما أصحاب المصالح التجارية فقد مالوا إلى تأييد الملك لأن طلبات الحرب تجلب لهم الأرزاق . وقال بيرك فى حزن أن الحرب «قد أصبحت بديلا للتجارة حقا ... والطلبات الضخمة على الإمدادات والبضائع من كل نوع ... ترفع معنوية عالم التجارة ، وتغرى التجار بألا يروا فى الحرب الأمريكية نكبتهم بقدر ما هى مورد ثرائهم » [١٠٦] .

وخشى الأحرار أن تقوى الحرب المحافظين على حزبهم ، والملك على البرلمان ، وفكر أحد الأحرار وهو دوق رتشموند فى الرحيل إلى فرنسا فرارا من الاستبداد الملكى[١٠٧] وكان فى مسلك جورج الثالث مايبرر مثل هذه المخاوف بعض التبرير . فقد اضطلع بمهمة الحرب كاملة ، حتى بتفاصيلها الحربية ، وأطاع اللورد نورث والوزراء الآخرون قيادة الملك وإن ناقض هذا رأيهم الخاص فى حالات كثيرة ، وأحس الملك أنه لو نجح الأمريكيون لواجهت انجلترة الثورة فى مستعمرات أخرى ، ولانحصرت آخر الأمر فى جزيرتها، على أن اللورد شاتام حذر البرلمان من أن قمع أمريكا سيكون انتصارا لمبادىء تشارلز الأول وجيمس الثانى . وفى ٢٠ نوفمبر ١٧٧٧ ، بعد أن عانت الجيوش البريطانية هزائم كثيرة فى أمريكا ، وكانت فرنسا تعين المستعمرات بالمال ،استمع شاتام وهو قادم إلى مجلس اللوردات كأنما من القبر إلى « خطاب العرش » الوزارى بضيق متعاظم ، وقام ليلقى خطابا يعد من أروع ما سجلته البلاغة البريطانية من خطب ، ففيه اجتمع التاريخ والأدب . قال :

« إننى يا سادتى اللوردات أقف لأعرب عن مشاعرى عن هذا الموضوع البالغ الجد والخطر .. فلست أستطيع الموافقة على خطاب أعمى ذليل يوافق ويحاول أن يكرس الإجراءات الرهيبة التى هالت فوقنا العار والخطوب — والتى جلبت الخراب إلى أبوابنا .. هذه أيها السادة لحظة خطرة هائلة !

ليس الوقت وقت تزلف .. فلطف التزلف لا يجـدى الآن ... ومن الضرورى الآن إعلام العرش بلغة الصدق .. هذا أيها السادة واجبنا ، انه الوظيفة الأصلية لهذا الاجتماع النبيل ، المعتمد فى انعقاده على سمعتنا بالأمانة والوفاء بالوعود فى هذا البرلمان ، وهو المجلس الوراثى للتاج . فمن هو الوزير — وأين هو الوزير — الذى جرؤ على أن يقترح على العرش تلك اللغة العنيدة ، غير الدستورية التى ألقيت اليوم منه ؟ إن اللغة التى اعتدناها من العرش هى طلب المشورة من البرلمان ... أما اليوم ، وفى هذا الطارىء البالغ الخطورة ، فإنه لم توضع ثقـة فى مشورتنا الدستورية ، ولم تطلب نصيحة من عناية البرلمان الرصينة المستنيرة ، ولكن التاج ، من ذاته ووحده ، يعلن تصميما باتا على مواصلة إجراءات ... مملاة ومفروضة علينا ... جلبت الخراب والاحتقار على هذه الإمبراطورية التى كانت بالأمس مزدهرة بالأمس فقط ، كان فى استطاعة انجلترة أن تثبت أمام العالم كله ، أما الآن فليس هناك أحد بلغ من المسكنة ما يغريه بتقديم الإحترام لها . . . »

« أيها السادة ، انكم لن تستطيعوا قهر أمريكا . . قد تزدادون غلوا فى بذل النفقة والجهد المفرطين ، وقد تجمعون وتكومون كل ما تستطيعون شراءه أو اقتراضه من معونة ، وقد تتاجرون وتقايضون مع كل ملك ألمانى حقير ضئيل يبيع رعاياه ويرسلهم إلى الذبح . . ، قد تفعلون هذا كله ، ولكن جهودكم تظل إلى الأبد باطلة عاجـزة — ويضاعف من بطلانها وعجزها هذا العون المرتزق الذى تعتمدون عليه ، لأنه يهيج عقول أعدائكم إلى حد الكراهية التى لا شفاء منها . ولو كنت أمريكيا ، كما أنا انجليزى ، ورأيت جنديا أجنبياً يرسى فى أرض وطنى ، لما وضعت سلاحى — أبداً = أبداً — أبداً — أبداً ! (١٠٨) .

أما بيرك فقد سخرّ كل ملكات جدله فى محاولة ثنى البرلمان والوزارة عن سياسة القوة ضد أمريكا . وقد مثل من ١٧٧٤ إلى ١٧٨٠ فى البرلمان مدينة برستل التى عارض تجارها الحـرب مع أمريكا أول الأمر (١٠٩) ، كذلك كان فى هذه الفترة وكيلا براتب لولاية نيويورك (١١٠) . ولم ينكر حق البرلمان فى فرض الضرائب على المستعمرات كما أنكره شاتام ، ولم يؤيد

لجوء المستعمرين إلى نظريات تجريدية فى « الحق الطبيعى » . ولكنه نزل بالمسألة إلى حيث يستطيع الرجال العمليون أن يفهموه : فهل فرض الضرائب على أمريكا ممكن عملياً ؟ وفى خطابه عن الضرائب الأمريكية (١٩ أبريل ١٧٧٤) لم يكتف بأدانة قوانين تاونسهند بل أدان أيضاً ضريبة البنسات الثلاثة على الشاى ، وحذر من أن إضافة ضرائب على القيود الصناعية والتجارية المفروضة فعلا على أمريكا ستحمل المستعمرين على المضى فى ثورة من شأنها أن تمزق الإمبراطورية البريطانية الوليدة وتلوث سمعة البرلمان .

فلما هزم فى هذه القضية جدّد فى ٢٢ مارس ١٧٧٥ طلب المصالحة . وقال إن التجارة مع أمريكا قد تضاعفت عشر مرات بين عامى ١٧٠٤ و ١٧٧٢ [١١١] ثم تساءل أمن الحكمة تمزيق تلك التجارة وربما التضحية بها بالحرب ؟ وقال أنه يخشى أن الحرب مع المستعمرين ستترك انجلترة معرضة للهجوم من عدو أجنبى ، وهو ما حدث فى ١٧٧٨ . ووافق على أن تمثيل الأمريكيين فى البرلمان جعله البحر أمراً غير ممكن عمليا ، ولكنه اكتفى بأن يطلب بالا تعتمد انجلترة على الضرائب بل على المنح الاختياريه من مجالس المستعمرات ، وقد تزيد هذه المنح على حصيلة الضرائب المباشرة بعد خصم نفقات جمعها بالقوة [١١٢] .

على اقتراحه هذا رفض بأغلبية ٢٧٠ ضد ٧٨ ، ولكن كان عزاء له أن يكسب لقضيته بلاغة وحذق تشارلز جيمس فوكس ، وهكذا بدأت صداقة وثقت عراها الثورة الأمريكية ونصمتها الثورة الفرنسية . وقد وصف جيبون خطاب فوكس الذى ألقاه فى ٣١ أكتوبر ١٧٧٦ بأنه أقدر ما ألقاه فى حياته من خطب » وذهب هوراس ولبول إلى أنه « من أروع خطب فوكس وأشدها حيوية » [١١٣] وقد وقف ولبول فى وصف دعاة المصالحة ، ورثى لأنهيار الحنكة السياسية البريطانية فى ظـل حكومة اللورد نورث ، وفى ١١ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى هوراس مان يقول :

« تقرر أن يجتمع البرلمـان فى العشرين من الشهر القادم ويصوت على إرسال ٢٦,٠٠٠ بحار . فياله من قرار دموى ! ليت شعرى بأى صنوف

العذاب لابد من صيانة الحرية فى أمريكا » وفى انجلترہ ما الذى يستطيع انقاذ الحريه ؟ إنه انجلتره المجنونه ، المجنونة ! أى جنون أن تنبذ كنوزها ، وتضيع ثروتها الطائلة » وتضحى بحريتها » ليكون ملكها الحاكم المطلق لصحارى لانهاية لها فى أمريكا ، وجزيرة فى أوربا مفتقره إلى المال ، منزوحة السكان ، ومن ثم فاقدة الأهمية ! »[١١٤] .

على أن الذى أقنـع الشعب الإنجليزى ، ثم حكومته » بأفكار السلام لم تكن حماسة شاتام ولا بيرك ولا فوكس » بل انتصارات المستعمرات وتحركاتها الدبلوماسية . وكان استسلام بورجوين فى ساراتاجوا (١٧ أكتوبر ١٧٧٧) نقطة التحول ، ولأول مـرة قدرت إنجلتره تحذير شاتام « لن تستطيعوا قهر أمريكا » فلما اعترفت فرنسا بـ « ولايات أمريكا المتحدة » وانضمت إلى الحرب ضـد إنجلتره (٦ فبراير ١٧٧٨) أيد رأى الساسة الفرنسيين رأى شاتام ، وأضف ثقل الأسلحة الفرنسية والبحرية الفرنسية المجددة إلى العبء الملقى على كاهل الأمة البريطانية بل أن اللورد نورث ذاته تخاذل » ورجا الأذن له بالإستقالة » ولكن الملك الذى أغرقه بهباتة أمره بالبقاء فى منصبه .

وشعر الكثيرون من الإنجليز البارزين أنه لن يستطيع اقناع المستعمرات بالعدول عن تحالفها مع فرنسا إلى الإتحاد مع انجلتره ثانية إلا حكومة يتزعمها ايرل شاتام . ولكن جورج أبى أن يستمع لهذا الرأى . فقد قال لنورث « أنى أصرح تصريحاً قاطعاً بأنه ما من شىء يحملنى على التعامل شخصياً مع اللورد شاتام »[١١٥] وجاء الأيرل إلى مجلس اللوردات لآخر مرة فى ٧ أبريل ١٧٧٨ مستنداً إلى عكازين وابنه وليم » وقد اكفهر وجهه إيذانا بدنو منيته ، وضعف صوته حتى لم يكد يسمع . وعاد ينصح بالمصالحة » ولكنه عارض « تقطيع أوصال هذه الملكية العريقة النبيلة جداً » بمنح الاستقلال لأمريكا[١١٦] ورد اللورد رتشموند بأن هذا المنح وحده هو السبيل إلى رد أمريكا عن عن حلفها مع فرنسا . وحاول شاتام أن ينهض ويتكلم ثانية » ولكنه سقط مصاباً بنوبة فالج » ومات فى ١١ مايو ١٧٧٨ وقرر البرلمان أن يشيع فى

جنازة عامة وأن يقام له قبر ونصب فى كنيسة وستمنستر . لقد كان بإجماع الناس أعظم الانجليز فى جيله .

وتلاحقت الأحداث لتكمل الكارثة التى تنبأ بهـا . فنى يونيو ١٧٧٩ انضمت أسبانيا إلى فرنسا فى الحرب ضد انجلترا ، وحاصرت جبل طارق وأرسلت أسطولها ليشارك فى الهجوم على السفن البريطانية . وفى أغسطس دخل أسطول صغير مشترك قوامه سفن فرنسية وأسبانية القنـال الإنجليزى ؛ وأتخذت إنجلترا أهبتها فيما يشبه الحمى لمقاومة الغزو ، غير أن المرض أعجز أسطول العدو وأكرهه على الالتجاء إلى برست . وفى مارس ١٧٨٠ اتحدت روسيا والدنمرك والسويد فى اعلان بالحيـاد المسلح ، أقسم على مقاومة ما درجت عليه انجلترا من اعتلاء ظهور السفن المحايده بحثا عن بضائع العدو ؛ ولم تلبث دول محايدة أخرى أن وقعت الإعلان . واستمر تفتيش الإنجليز للسفن الهولندية ، وقد وجد الدليل على اتفاقات سرية بين مدينة امستردام ومفاوض أمريكى . وطالبت إنجلترا بمعاقبة موظفى امستردام ولكن الحكومة الهولندية رفضت ، فأعلنت عليها إنجلترا الحـرب (ديسمبر ١٧٨٠) . وأصبحت الآن كل دول البلطى والاطلنطى تقريباً متحالفة على إنجلترا التى كانت بالأمس متسلطة على جميع البحار .

وعكس مزاج البرلمان تكاثر الكوارث . وتصاعد الاستياء من إحباط الملك لرغبة وزيره فى إنهاء الحرب . فنى ٦ أبريل ١٧٨٠ كان جون دننج قد قدم لمجلس العموم اقتراحا يعلن « أن نفوذ التاج ازداد ، وهو فى ازدياد ، وينبغى الحد منه » ، ووافق المجلس على الاقتراح بأغلبية ٢٣٣ صوتاً ضد ٢١٥ . وفى ٢٣ يناير ١٧٨١ اتخذ بت الإبن كرسيه فى المجلس ، وفى خطابه الثانى ندد بالحرب مع أمريكا ناعتا أياها بأنها « جد ملعونة ، شريرة ، همجية ، قاسية ، منافية للطبيعة ، ظالمة ، شيطانية »[117] . ورحب فوكس مبتهجاً ببت فى صفوف المعارضة ، غير متوقع أن هذا الفتى سيكون عما قليل أقوى أعدائه .

وفى ١٩ أكتوبر ١٧٨١ استسلم اللورد كورنواليس لواشنطن فى يوركتاون .

وصاح اللورد نورث « رباه ، لقد انتهى كل شيء ! » ولكن الملك أصر على مواصلة الحرب . وفى فبراير ومارس ١٧٨٢ جاءت الأنباء بأن الأسبان استولوا على منورقة ، والفرنسيين على عدد من جزر الهند الغربية . وارتفعت الأصوات الغاضبة فى الاجتماعات العامة التى انعقدت فى طول إنجلترا وعرضها مطالبة بالسلام . وهبطت أغلبية نورث فى مجلس العموم إلى اثنين وعشرين ، ثم إلى تسعة عشر ، ثم إلى واحد — فى التصويت على اقتراح « بأن المجلس لا يستطيع بعد الآن وضع ثقته فى الوزراء الحاليين » (١٥ مارس ١٧٨٢) ، ووضع هذا سابقة تاريخية لطريقة البرلمان فى الالزام بتغيير الوزارة . وفى ١٨ مارس كتب نورث إلى جورج الثالث رسالة أنبأه فيها فى الواقع أن السياسة الملكية نحـــو أمريكا ، ومحاولة توطيد سيادة الملك على البرلمان ، كليهما قد فشل .

« إن جلالتكم على بينة من أن الملك الجالس على عرش هـــذا البلد لا يستطيع إن كان حصيفا أن يعارض القرار المدروس الذى يستقر عليه مجلس العموم . . . لقد أعرب أعضاء البرلمان عن مشاعرهم ، ومشاعرهم — صائبة كانت أم مخطئة — لابد فى النهاية أن تكون لها الغلبة . إن جلالتكم . لن تفقدوا أى كرامة لو سلمتم »[١١٨] .

وفى ٢٠ مارس ١٧٨٢ ، بعد اثنى عشرة سنة من الخدمة الصابرة والخضوع ، استقال اللورد نورث . وكتب جورج الثالث الذى تحطمت روحه خطاب اعتزال ولكنه لم يرسله . وقبل وزارة من الأحرار المنتصرين : روكنجهام ، وإيرل شلبرن ، وتشارلز جيمس فوكس ، وبيرك ، وشريدان . ولما مات روكنجهام (أول يوليو) خلفه شلبرن وزيرا للخزانة . واستقال فوكس وبيرك وشريدان الذين كانوا يكرهون شلبرن . وشرع شلبرن فى الترتيبات اللازمة لإبرام معاهدة صلح (باريس ، ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ ، باريس وفرساى ٢٠ يناير و ٣ سبتمبر ١٧٨٣) نزلت انجلترا بمقتضاها عن منورقة وفلوريدا لأسبانيا ، وعن السنغال لفرنسا ، ولم تقتصر على الاعتراف باستقلال المستعمرات الأمريكية بل بحقها فى جميع الأراضى الواقعة بين الأليجنى وفلوريدا والمسسبى والبحيرات العظمى .

وكان الشعب الإنجليزى تواقا للسلام، ولكن ساءه النزول عن هذه الأقاليم الكثيرة للمستعمرات ، وبلغ النقد الموجه لشلبرن من لمرارة حدا حمله على تقديم استقالته (٢٤ فبراير ١٧٨٣) ولما كان الشقاق بين شلبرن وفوكس قد قسم حزب الأحرار إلى شيع لم يكن لإحداها من القوة مايتيح لها الهيمنة على البرلمان ، فقد وافق فوكس على تشكيل وزارة ائتلاف مع عدم القديم اللورد نورث . وأصبح بيرك صيرفيا للقوات المسلحة ثانية . أما شريدان الذى لم يفق من ديونه قط فقد عين وزيرا للخزانة . وكان فوكس وبيرك يفحصان منذ فترة مسلك الإنجليز فى الهند، واحتل ذلك البلد الآن محل أمريكا بوصفه أشد المشاكل إلحاحا فى السياسة البريطانية .

٦ — انجلترة والهند

كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد أعيد تنظيمها فى ١٧٠٩ باسم الشركة المتحدة لتجار انجلترة المتجرة مع الهند الشرقية » . وقد خولها المرسوم الذى حصلت عليه من الحكومة البريطانية احتكار التجارة البريطانية مع الهند . وكان يدير شئونها رئيس وأربعة وعشرون مديرا ينتخبهم سنويا « مجلس الملاك » لكل مساهم فيه بخمسمائة جنيه أو أكثر صوت واحد . وقد أصبحت الشركة فى الهند منظمة حربية كما كانت منظمة تجارية ، وقاتلت الجيوش الهولندية والفرنسية والوطنية للظفر بنصيب من امبراطورية المغول المتهاوية ، وفى حرب من هذه الحروب استولى سراج الدولة ، حاكم البنغال ، على كلكتا من الشركة ، وحبس ١٤٦ أوربيا فى « جحر كلكتا الأسود » — وهو حجرة طولها ثمانية عشر وعرضها أربعة عشر قدما ، ليس فيها غير طاقتين صغيرتين ، ومات من السجناء ١٢٣ أثناء الليل (٢٠ — ٢١ يونيو ١٧٥٦) من الحر أو الاختناق .

وقاد روبرت كلايف حاكم قلعة سانت ديفيد قوة صغيرة لاسترداد كلكتا للشركة وشارك فى المؤامرة التى دبرها مير جعفر، وهو نبيل فى بلاط سراج الدولة ، للاطاحة بهذا الحاكم ، ثم استطاع بتسعمائة أوربى و ٢٫٣٠٠ جندى من الوطنيين أن يهزم خمسين ألف مقاتل فى بلاسى (٢٣ يونيو ١٧٥٧)

وأعدم سراج الدولة ، وعين مير جعفر مكانه حاكما على البنغال . ودخل كلايف العاصمة مرشداباب دخول الفاتحين ، وبدت له مدينة لا تقل عن لندن حجما وربما أكثر منها ثراء . ورأى فى خزانة الحاكم أكداسا لاتصدق من الروبيات والجواهر والذهب والفضة وغيرها من الذخائر . فلما طلب إليه أن يحدد مكافآته عن تنصيب جعفر حاكما ، طلب ١٦٠ر٠٠٠ جنيه لنفسه ، ٥٠ر٠٠٠ لجيشه وبحريته ، ٢٤ر٠٠٠ جنية لكل عضو من أعضاء مجلس إدارة الشركة ، و١ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه تعويضا عن الخسائر التى لحقت بأملاك الشركة فى كالكتا . وهذه هى المناسبة التى أشار اليها كلايت حين أنبأ مجلس العموم أنه يعجب من اعتداله[119]. وقدتلقى من مير جعفر هدايا جملة قيمتها ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه [120] واعترف به حاكما بريطانيا للبنغال .

أما الشركة فقد اعترف بها مالكة مطلقة لمساحة حول كلكتا مقدارها ٨٨٢ ميلا مربعا نظير دفع إيجار سنوى قدره ٢٧ر٠٠٠ جنيه لمير جعفر . وفى ١٧٥٩ وافق مير جعفر على أن يحوّل لكلايف كل عام الإيجار المدفوع من الشركة لقاء العون الذى قدمه له فى إخماد فتنة .

فلما أمنت الشركة شر المنافسة ، راحت تستغل الرعايا الخاضعين لحكمها فى غير شفقة واستعانت بأسلحتها المتفوقة لتكره الحكام الهنود على دفع ثمن باهظ لقاء الحماية البريطانية . وإذ كان كبار موظفيها بمنأى عن إشراف الحكومة البريطانية ،وبمأمن حصين من الواصا العشر شرق السويس فقد حققوا أرباحا ضخمة من التجارة ، وعادوا إلى انجلتره سراة فى وسع الرجل منهم أن يشترى « دائرة جيب » أو عضوا فى البرلمان دون أن تضار ثروته ضررا بالغا .

وعاد كلايف إلى انجلتره فى ١٧٦٠ وقد بلغ الخامسة والثلاثين متوقعا أن ينعم فيها بالشهرة والثراء ، فاشترى من الدوائر الانتخابية مايكفى للسيطرة على جبهة فى مجلس العموم ، وانتخب هو نفسه نائبا عن شروزبرى . غيرأن بعض مديرى شركة الهند الشرقية الذين شعروا أنه سرق فوق ماتبرره سنه ، اتهموه باستخدام وثائق مزورة فى تعامله مع سراج الدولة ، ومير جعفر . غير أن نبأ وصل إلى لندن بأن الثورات الوطنية ، وفساد الموظفين

وارتشاءهم ، وعجز الإدارة — كلها تهدد مركز الشركة فى الهند ، فأعيد كلايف على عجل إلى كلكتا (١٧٦٥) حاكما للبنغال . وهناك كافح لوقف الفساد بين مساعديه ، والتمرد بين جنده ، وانتقاضات الحكام الوطنيين المتكررة على الشركة . وفى ١٢ أغسطس ١٧٦٥ أقنع شاه علم المغولى بأن يعطى الشركة الإشراف المالى المطلق على ولايات البنغال ، وبهار ، وأوريسا ، التى تضم من السكان ثلاثين مليونا وتغل إيرادا سنويا قدره ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وهذا ، بالإضافة إلى انتصار كلايف فى بلاسى ، خلق الامبراطورية البريطانية فى الهند .

وبعد أن تحطمت صحة كلايف من جراء نضال امتد عامين ، عاد إلى انجلترة فى يناير ١٧٦٧ . وتجدد هجوم بعض مديرى الشركة عليه ، وأيد الهجوم موظفون كان قد كبح محاولات ابتزازهم للمال . ثم شارك نبأ مجاعة كبرى فى الهند ، وهجمات الوطنيين على معاقل الشركة ، فى إحداث ذعر منى من جرائه نفر من أقطاب الإنجليز بخسائر فادحة . وفى ١٧٧٢ فحصت لجنتان برلمانيتان شئون الهند . فأماطتا اللثام عن ضروب من الابتزاز والقسوة جعلت هوراس ولبول يصيح : « لقد فقنا الأسبان فى بيرو ! لقد قتلنا ، وخلعنا الحكام ، ونهبنا ، واغتصبنا . . أجل ، فما قولكم فى مجاعة البنغال التى هلك فيها ثلاثة ملايين من الأنفس وسببها احتكار موظفى شركة الهند الشرقية للمؤن ؟ » [١٢١] وفى ١٧٧٣ طالبت إحدى لجنتى الفحص كلايف بأن يفسر لمجلس العموم الطرق التى استخدمها والمكاسب التى حققها فى الهند . فسلم لهم بجميع الوقائع تقريبا ، وكان دفاعه عنها أن العادات المحلية وضرورات الموقف بررتها ، ثم أضاف أن على الأعضاء حين يحيثون ليدينوا شرفه ألا ينسوا شرفهم . وصوت المجلس بأغلبية ١٥٥ ضد ٩٥ بأنه تلقى ٢٣٤٫٠٠٠ جنيه خلال إدارته الأولى للبنغال ، ولكنه « فى الوقت نفسه أدى لوطنه فى الواقع خدمات جليلة جديرة بالثناء » [١٢٢] وبعد عام انتحر كلايف غير متجاوز التاسعة والأربعين (٢٢ نوفمبر ١٧٧٤) :

وفى ١٧٧٣ استصدر اللورد نورث من البرلمان قانونا تنظيميا أقرض الشركة سلفة مقدارها ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه لينقذها (هى ومساهميها من النواب)

من الإفلاس ، وأخضع جميع الأقاليم التى تحكمها الشركة فى الهند لرآسة البنغال على أن تكون هى بدورها مسئولة أمام الحكومة البريطانية وعين وارن هيستنجز حاكما على البنغال .

وكان قد ارتقى إلى منصبه هذا من أصول متواضعة . فقد ماتت أمه وهى تلده ، وانطلق أبوه إلى حياة المغامرة ثم الموت فى جزر الهند الغربية . وأرسل أحد أعمامه الغلام إلى مدرسة وستمنستر ، ولكن العم مات فى ١٧٤٩ ، وأبحر وارن وهو فى السابعة عشرة طلباً للثراء فى الهند . وتطوع فى الخدمة العسكرية تحت قيادة كلايف ، وشارك فى استرداد كلكتا ، وأبدى اجتهادا وكفاية فى الإدارة ، فعين فى المجلس الذى يدير شئون الشركة فى البنغال . وفى ١٧٦٤ عاد إلى انجلتره . وبعد أربعة أعوام أقنعه المديرون بالإنضمام إلى مجلس مدراس . وفى طريقه إلى الهند التقى بالبارون إمهوف وزوجته ماريون التى أصبحت خليلة هيستنجز ثم زوجته . وقد أبلى فى مدراس ، وفى ١٧٧٤ بدأ حكمه المضطرب واليا على البنغال .

وعكف على عمله بهمة ، ولكن أساليبه كانت دكتاتورية ، وكان فى بعض تصرفاته ما أتاح للسر فليب فرانسس مادة لتوجيه الهجمات إليه فى مجلس البنغال ، كما وجهها بيرك بعد ذلك فى البرلمان . ذلك أنه حين أعادت قبائل المراتا الشاه علم إلى عرش المغول فى دلهى فحول إليهم ملكية الأقاليم التى خصصها له كلايف من قبل فى كورا والله اباد ، باع هيستنجز هذه الأقاليم إلى حاكم أود ، لقاء خمسين لك من الروبيات (٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) وكلف جنود الشركة بمساعدة الحاكم فى استعادة الإقليم . وسمح له بالاستعانة بجنود الشركة فى غزو وتملك إقليم روهلخند ، الذى كان حاكمه مدينا له (على حد قول هذا) ، وتسلمت الشركة مبلغا كبيرا لقاء استخدام هؤلاء الجنود . وكان فى تصرف هيستنجز خرق واضح للأوامر الصادرة إليه من مديرى الشركة [١٢٣] ، ولكن هؤلاء المديرين كانوا يقدرون أى حاكم بمقدار المال الذى يبعث به إلى انجلتره .

واتهم موظف هندى يدعى ننكومار هيستنجز بقبوله الرشوة ، وصدق

فرانسس وغيره من أعضاء المجلس التهمة ، وادعوا أنه « ما من ضرب من ضروب الاختلاس رأى الحاكم المحترم أن من المعقول الامتناع عنه »[١٢٤] .

وقبض على ننكومار بتهمة تزوير ، وأدين ، وأعدم (١٧٧٥) . واشتبه فى أن هيستنجز قد استخدم نفوذه فى التأثير على قاضى القضاء السير ايليا ايمبى (وكان زميلا له فى الدراسة فى ونشستر) ليوقع على المتهم عقوبة صارمة على نحو غير مألوف . وفى ١٧٨٠ رقى هيستنجز ايمبى إلى وظيفة إضافية تغل له ٦٫٥٠٠ جنيه فى العام . وقد أفضى تراشق هيستنجز وفرانسس بالتهم إلى مبارزة جرح فيها فرانسس جرحا خطيرا .

ثم رأى حيدر على ، مهراجا ميسور ، فى الخلافات بين هيستنجز ومجلسه فرصة لطرد الشركة من الهند . فهاجم حصون الشركة بدعم من الفرنسيين ، وأحرز بعض الانتصارات المنذرة بالخطر (١٧٨٠) . فأرسل هيستنجز الجند والمال من البنغال لمقاومته ، ومات حيدر على (١٧٨٢) ولكن ابنه تيبو صاحب واصل الحرب حتى انهزم نهائيا فى ١٧٩٢ . ولعل رغبة هيستنجز فى تمويل هذه الحملات هى التى ألجأته إلى حيل لجمع المال أفضت إلى اتهامه .

ذلك أنه طالب شايت سنغ ، راجا بنارس ، بإعانة حرب تضاف إلى الدخل الذى كان ذلك الإقليم يدفعه للشركة سنويا . واعتذر الراجا بعجزه عن الاستجابة . فقاد هيستنجز قوة صغيرة إلى بنارس (١٧٨١) ، وخلع سنغ واقتضى مثلى الدخل من خلفه . ثم إن حاكم أوده المتراخى فى سداد ما فرضته عليه الشركة ، أوضح أن فى استطاعته السداد إذا ساعدته الشركة على إلزام أمه وجدته ، بيجومى (أميرتى) أوده ، بتسليمه بعض التركة التى خلفها لهما أبوه وقدرها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وكانت أمه قد سلمته من قبل مبلغا كبيرا بعد أن تعهد بألا يطلب المزيد ، وبذلت الشركة مثل هذا التعهد رغم اعتراض هيستنجز . ونصح هيستنجز الحاكم بتجاهل التعهد وأرسل جنود الشركة إلى فيظبار ، وأكره خـدام الأميرتين الأغوات بالتعذيب والتجويع على تسليم الثروة (١٧٨١) ، فدفع الحاكم منها ديونه للشركة .[١٢٥]

وعاد السر فيليب فرانسس أثناء ذلك إلى انجلترة بعـد أن شفى من جراحه (١٧٨١) ، وشرح للمديرين ولأصدقائه فى البرلمان ما اعتبره الجرائم التى اقترفها هيستنجز . وفى ١٧٨٢ وجه مجلس العموم اللوم إلى هيستنجز وغيره من وكلاء الشركة لأنهم « فى حالات عديدة تصرفوا بطريقة بغيضة مجافية لشرف الأمة وسياستها » ، ثم أمر المديرين باستدعائهم وأصدر المديرون الأمر ، ولكن مجلس المؤسسين أبطله ، ربما لأن ثورة ميسور كانت مستعرة .

وفى نوفمبر ١٧٨٣ قدم تشارلز جيمس فوكس للبرلمان ، بوصفه وزير دولة للشئون الخارجية فى الوزارة الائتلافية ، « مشروع قانون لإصلاح الهند » او ووفق عليه لوضع شركة الهندالشرقية تحت هيمنة مندوبين تعينهم الوزارة . وعلت شكوى النقاد بأن القانون سيتيح الأعضاء الأحرار (الهويجز) أمثال فوكس وبيرك معينا من الغنائم تأتيهم بها هذه الرعاية . ومر القانون من مجلس العموم، ولكن الملك أرسل إلى مجلس اللوردات يقول أنه سيعد أى رجل يصوت للمشروع عدوا له ، فصوتوا ضده بأغلبية ٩٥ إلى ٧٦. وأودع نواب العموم احتجاجا رسميا يقرر أن هذا التدخل الملكى فى التشريع عدوان صارخ على حق أعضاء البرلمان . وأقال الملك الوزارة الائتلافية (١٨ ديسمبر ١٧٨٣) مدعيا أنها فقدت ثقة البرلمان ، ودعا وليم بت ، الذى كان فى الرابعة والعشرين ، لتأليف حكومة جديدة . وحل جورج الثالث البرلمان معتقدا أن فى استطاعته الفوز فى انتخاب قومى (٢٣ مارس ١٧٨٤) وأمر عملاءه ببث الرغبات والعطايا الملكية بين الناخبين ضمانا لعودة أغلبية محافظة . وجاء البرلمان الذى التأم شمله فى ١٨ مايو مؤيدا لبت والملك تأييدا ساحقا .

كان بت نابغة فى الحكم والإدارة السياسيين وقد حقق له تفانيه البالغ فى أداء الواجب ، وإلمامه المفصل بدقائق الأمور ، وما عود نفسه عليه من التأمل الدقيق والحكم الحذر ، تفوقا سرعان ما سلم به كل زملائه الوزراء تقريبا . وأصبح لانجلترة الآن لأول مرة « رئيس » وزراء بمعنى روبرت

ولبول (الذي كان ابنه قد أطلق عليه هذا اللقب في ١٧٧٣) [١٢٦] ، لأن زملاء بت لم يكونوا يتخذون أى إجراء هام دون موافقته . والواقع أنه أنشا « حكومة مجلس الوزراء » — ومؤداها المداولة الجماعية والمسئولية الموحدة لكبار الوزراء تحت رياسة واحدة . ومع أن بت تقلد المنصب مؤيداً للسلطة الملكية ، إلا أن جده واجتهاده ، وسعة معلوماته رفعته شيئاً فشيئاً إلى مكان كان فيه مرشداً للملك أكثر منه تابعاً . وبعد نوبة الجنون الثانية التي أصابت الملك (١٧٨٨) كان بت هو الذي حكم انجلتره فعلا .

وقد مكنه إلمامه غير العادي بالتجارة والمال من إصلاح خزانة أنهظها خوض حربين ضروسين في جيل واحد إنهاظا خطرا . وكان بت قد قرأ آدم سمث ، ثم استمع إلى التجار ورجال الصناعة ، فخفض الرسوم على الواردات ، وعقـد بعد المفاوضة مع فرنسا معاهدة تنص على خفض التعريفات الجمركية (١٧٨٦) ، وشرح صدر أقطاب الصناعة بتصريحه بأن الصناعيين ينبغي أن يكونوا عموما معفين من الضرائب ثم عوض عن هذا بفرض الضرائب على الاستهلاك على الأوشحة والشاش والقفازات والقبعات والشموع والأرائك والملح والنبيذ والآجر والقرميد والورق والشبابيك ، وقد لجأت بيوت كثيرة إلى تكسية بعض نوافذها بالخشب خفضا للضريبة [١٢٧] . فما وافى عام ١٧٨٨ حتى ووزنت الميزانية ، ونجت انجلتره من الإفلاس الحكومي الذي كان مفضيا بفرنسا إلى الثورة .

وكان بت قبل الانتخاب قد قدم للبرلمان « مشروع قانون الهند الأول » الذي هزم . فقدم الآن مشروعا ثانيا : خلاصته أن يدير مجلس إشراف يعينه الملك العلاقات السياسية لشركة الهند الشرقية ، أما العلاقات والرعاية التجارية فتترك في أيدي الشركة خاضعة لحق النقض الملكي . وأقر البرلمان المشروع (٩ أغسطس ١٧٨٤) وظل يهيمن على الشئون البريطانية — الهندية حتى ١٨٥٨ .

أما فوكس وبيرك فقد رأيا في هـذا الترتيب استسلاما مخزيا لشركة اشتهرت بالفساد والإجرام . وكان لبيرك أسباب خاصة تدعوه للسخط ، ذلك أن راعيه اللورد فرني ، وأخاه رتشرد بيرك ، وقريبه وليم بيرك ،

كانوا من قبل مستثمرين فى شركة الهند الشرقية ، ثم نزلت بهم خسائر فادحة من جراء تقلبات أسهمها[١٢٨] . وحين ذهب وليم بيرك إلى الهند زكاه ادموند لدى السر فيليب فرانسس قائلا أنه يحبه حبا جما . فعين وليم صرافا للرواتب ، وتبين أنه « لا يقل فسادا عن غيره » [١٢٩] .

وحين عاد فرانسس إلى انجلتره أفضى إلى بيرك وفوكس برأيه فى إدارة هيستنجز ، وكان من المصادر الذى استقى منها بيرك معرفته غير العادية بالشئون الهندية . ولعل هجوم الهويجز اللبراليين على هيستنجز كان بعض مادفعهم إليه الرغبة فى تشويه سمعة وزارة بت والإطاحة بها [١٣٠] .

وفى يناير ١٧٨٥ استقال هيستنجز وعاد إلى انجلتره . وراوده الأمل فى أن تشفع له السنون الطويلة التى أنفقها فى الإدارة ، وإصلاحه مالية الشركة حتى استطاعت الوفاء بديونها ، وإنقاذه للقوة البريطانية فى مدراس وبومباى ، فى معاش يثاب به ، إن لم يكن فى لقب نبالة يشرف به . وفى ربيع ١٧٨٦ طلب بيرك إلى مجلس العموم تقديم السجلات الرسمية لحكم هيستنجز فى الهند . ورفض تقديم بعض هذه السجلات ، وأعطاه الوزراء بعضها الآخر . وفى ابريل طرح أمام المجلس بيانا بالتهم الموجهة إلى حاكم البنغال السابق ، وقرأ هيستنجز على المجلس ردا مفصلا . وفى يونيو قدم بيرك تهماً تتصل بحرب روهلخند ، وطلب توجيه الاتهام إلى هيستنجر ، ولكن مجلس العموم رفض تقديمه للمحاكمة . وفى ١٣ يونيو روى فوكس قصة شايت سنغ ، وطلب تقديم هيستنجز للمحاكمة . وفاجأ بت مجلس وزرائه بالإدلاء بصوته فى صف فوكس وبيرك ، وحذا حذوه كثيرون من الوزراء الأعضاء فى حزبه ، ولعله رسم هذه السياسة ليفصل الوزارة عن مصير هيستنجز . ووفق على اقتراح تقديمه للمحاكمة بأغلبية ١١٩ إلى ٧٩ . وقطع سير الدراما تأجيل البرلمان وحفظ القضايا الأخرى ، ولكنها استؤنفت باستحسان عظيم فى ٧ فبراير ١٧٨٧ ، يوم ألقى شريدان خطابا قال فوكس وبيرك وبت فيه أنه أفضل خطاب سمع فى مجلس العموم طوال تاريخه [١٣١] ، (عرض على شريدان ألف جنية نظير نسخة مصححة من الخطاب ، ولكنه لم يجد قط وقتا للقيام بهذه المهمة ، ولا نعرف الخطاب الا من الخلاصات المخفضة)

وقد روى شريدان قصة سلب أميرتى أوده ونهبهما بكل ما أوتى من فن رجل ولد للمسرح ، وبكل ماتضطرم به نفس رومانسية من غيرة وحماسة ؛ وبعد أن استغرق فى خطابه أكثر من خمس ساعات » طالب بتوجيه الاتهام الى هيستنجز ،. وصوت بت ثانية فى صف الحاكمة ، ووووفق على الاقتراح بأغلبية ١٧٥ الى ٦٨ . وفى ٨ فبراير عين المجلس لجنة من عشرين — على رأسهم بيرك وفوكس وشريدان — لإعداد بنود الاتهام . وقدمت البنود ، وفى ٩ مايو أمر المجلس « المستر بيرك ، باسم مجلس العموم .. أن يذهب إلى محكمة مجلس اللوردات ويوجه الاتهام للسيد وارين هيستنجز . . . بالجرائم والانحرافات الجسيمة » ، وقبض على هيستنجز وجيء به أمام اللوردات » ولكن أطلق سراحه بكفالة .

ثم بدأت محاكمته ، بعد أن تعطلت طويلا ، فى ١٣ فبراير ١٧٨٨ فى قاعة وستمنستر . وكل عشاق الأدب سيتذكرون وصف ماكولى الرائع [١٣٢] للحشد التاريخى : اللوردات جلوسا وهم فى فرائهم وذهبهم بوصفهم المحكمة العليا للمملكة ، وأمامهم هيستنجز شاحب اللون مريضا ، وقد بلغ عمره الثالثة والخمسين ، وطوله خمسة أقدام وست بوصات ، ووزنه ١٢٢ رطلا ، والقضاة تتوج هاماتهم بواريك تغطى آذانهم » والأسرة المالكة » وأعضاء مجلس العموم ، والشرفات غاصة بالسفراء والأميرات والدوقات ، ومسز سيدونز بجمالها المهيب » والسر جوشوا رينولدز وسط العديد من وجوه القوم الذين صورهم » وفى جانب جلست اللجنة التى سميت الآن « المديرين » تتأهب لتقديم حجج الاتهام . ثم قرأ الكتبة بيان المتهم وجواب هيستنجز ، وراح بيرك فى أقوى خطاب ألقاه فى حياته » على مدى أربعة أيام ، يصب فوق رأس المتهم سيلا متدفقا من الاتهامات . وأخيرا » فى ١٥ فبراير » دوى فى القاعة التاريخية صوته مجلجلا يطالب فى حماسة بالاتهام :

إنى أتهم السيد وارين هيستنجز بجرائم وانحرافات جسيمة ،
إنى أتهمه باسم نواب بريطانيا العظمى ... الذين خان ثقتهم البرلمانية ..

إنى أتهمه باسم شعب الهند ، الذى هدم قوانينه وحقوقه وحرياته ، ودمر ثرواته ، وأفقر وطنه وخربه .

إنى أتهمه باسم قوانين العــدل الأزلية التى انتهكها ، وبمقتضى هذه القوانين . . .

إنى اتهمه باسم الطبيعة البشرية ذاتها ، والتى اعتدى عليها بقسوة ، وألحق بها الأذى وظلمها فى الجنسين جميعا ، وفى كل عمر للناس ، ومقام ، ومركز ، وحال من أحوال الحياة (١٣٣) .

ومضت المحاكمة تتخللها عشرات المقاطعات . وبيرك ، وفوكس ، وشريدان ، وغيرهم يروون قصة ولاية هيستنجز . فلما شاع أن شريدان سيقدم الدليل فى قضية بيجومى أوده ، ظهر ٣ يونيو ، غصت الشوارع المؤدية إلى قاعة وستمنستر من الثامنة صباحا بالناس ، وفيهم كثير من علية القوم ، وكلهم تواق للعثور على وسيلة الدخول للقاعة . وباع البعض ممن حصلوا من قبل على تصريحات بالدخول تصريحاتهم بخمسين جنيها إنجليزيا (١,٥٠٠ دولار ؟) للتصريح . وفهم شريدان أن القوم يتوقعون منه أداء دراميا ، فأداه . وخطب فى أربع جلسات ، وفى آخر يوم (١٣ يونيو ١٧٨٨) ، بعد أن ظل يخطب خمس ساعات ، وقع إعياء بين ذراعى بيرك الذى عانقه . أما جبون الذى كان فى الشرفة فقد وصف شريدان بأنه « ممثل قدير » ولاحظ أن الخطيب كانت تبدو عليه امارات العافية حين ألم به المؤرخ صباح الغد (١٣٤) .

وكان ذلك الخطاب قمة المحاكمة . وكانت كل تهمــة من قائمة التهم الطويلة تقتضى البحث والتحقيق ؛ ولم يتعجل اللوردات مهمتهم ، ولعلهم تباطأوا ليزيلوا الأثر الذى خلفته البلاغــة ، ويدعوا الاهتمام بالقضية ينصرف إلى أحداث أخرى ، وجاءت الأحداث ، فقد جن الملك جورج فى أكتوبر ١٧٨٨ ، وجن على نحو خطير تماما ، إذ فدحه ضغط المحاكمة وسوء سلوك ولده . فقد كان جورج أوغسطس فردريك ، أمير ويلز ، فتى بدينا ، طيب القلب ، سمح النفس ، متلافا ، عاشقا للنساء ، وكان

قد احتفظ بسلسلة متصلة من الخليلات ، وتجمعت عليه ديون أداها أبوه أو الأمة . وفى ١٨٧٥ تزوج سراً بالسيدة ماريا آن فتز هربرت ، الكاثوليكية الرومانية التقية ، التى ترملت من قبل مرتين ، وكانت تكبر الأمير بست سنين . واقترح الأحرار بزعامة فوكس تأليف مجلس وصاية يرأسه الأمير ، الذى ظل ساهرا ليلتين فى انتظار اعلان بعلم أهلية الملك، ولكن جورج الثالث شوش الموقف بفترات من سلامة العقل قطعت حالة جنونه ، وكان خلالها يتحدث عن جاريك وجونسن ، ويغنى لقطات من هندل ، ويعزف على الناى ، وفى مارس ١٧٨٩ شفى ، ونضا عنه سترته الضيقة ، وأستأنف مراسم الحكم .

وجاءت الثورة الفرنسية بعنصرف آخر عن المحاكمة . فقد تخلى بيرك عن مطاردة هيستنجز وخف لنجدة مارى أنطوانيت . وأتى تطرف خطبه وغلوها على البقية الباقية من شعبيته ، وراح يشكو من تسلل أعضاء البرلمان إلى خارج القاعة متى بدأ الكلام . وكان أكثر الصحف يناوئه، وقد اتهمها بأن ٢٠٠,٠٠٠ جنيه قد استخدمت فى شراء الصحفيين ليهاجموه ويدافعوا عن هيستنجز ؛ وما من شك فى أن شطرا كبيرا من ثروة هيستنجز قد أنفق فى هذا السبيل [١٣٥] ولابد أن بيرك لم يفاجأ حين برأ مجلس اللوردات ساحة هيستنجز (١٧٩٥) فى نهاية المطاف ، بعد مضى سنوات ثمان على الاتهام . وكان شعور الناس العام أن الحكم عادل : صحيح أن المتهم كان من نواحى كثيرة مذنبا ، ولكنه استنقذ الهند لانجلترا ، وعوقب بمحاكمة حطمت صحته وآماله ، وخلفته ملوث السمعة مفلسا .

وعمر هيستنجز بعد موت جميع متهميه . وأنقذته شركة الهند الشرقية من الافلاس بالموافقة على اعطائه منحة قدرها ٩٠,٠٠٠ جنيه . فاسترد ضيعة أسرته الوراثية فى ديلز فورد ، وأصلحها ، وعاش فى بذخ شرقى. وفى١٨١٣ طلب إليه الادلاء بشهادته عن شئون الهند أمام مجلس العموم، فقوبل فيه بالتصفيق والاجلال ، ونوه بخدماته ، وحيت أوزاره مع الزمن . وبعد أربع سنوات رحل عن هذه الدنيا ، ولم يبق حيا من جيله الصخاب غير فرد واحد — هو الملك الأعمى المعتوه .

٧ — انجلتره والثورة الفرنسية

بعد أن أوشك بيرك على استنفاد قوته فى الحرب ضد شركة الهند الشرقية ، ناصب الثورة الفرنسية العداء الشخصى ، وخلال هذه الحملة الجديدة شارك بقسط كبير فى الفلسفة السياسية .

وكان قد تنبأ بالثورة قبل نشوبها بعشرين عاما : « بهذا الضيق والحيرة البالغين تنوء كل مالية فرنسا ، وتفوق نفقتها مواردها فى كل ناحية ، بحيث لم يعد مناص لكل إنسان . . . نظر فى شئونها بأقل اهتمام أو علم ، من أن يترقب فى كل لحظة حدوث اضطراب هائل فى النظام بأجمعه ليس من اليسير التكهن بآثاره على فرنسا بل على أوربا جميعها » (١٣٦) . وفى ١٧٧٣ زار فرنسا ، وفى فرساى رأى مارى أنطوانيت وكانت آنئذ زوجة لولى العهد ، ولم ينس قط رؤياه تلك للجمال الغض والسعادة النضرة والكبرياء الشابة . وقد خلص إلى رأى طيب فى النبالة الفرنسية ، وأطيب منه فى الكهنوت الفرنسى . وصدمته دعوة جماعة الفلاسفة المناوئة للكثلكة ، بل المناوئة للدين فى حالات كثيرة ، وحين عاد إلى انجلتره حذر مواطنيه من الألحاد لأنه « أبشع وأقسى لطمة يمكن أن توجه إلى المجتمع المتمدن » (١٣٧) .

فلما أن اندلعت نيران الثورة أفزعه ذلك التهليل الذى لقيته من صديقه فوكس ، الذى هتف لسقوط الباستيل باعتباره « أعظم حدث وقع فى العالم و... أفضله »(١٣٨) . وكانت الأفكار الراديكالية المنبعثة من الحملات التى شنها ولكس وجمعية مؤيدى ملتمس الحقوق قد انتشرت فى انجلتره ببطء . واقترح كاتب مغمور فى ١٧٦١ الشيوعية دواء لكل الأدواء الاجتماعية إلا تكاثر السكان الذى خشى أن يبطل كل الجهود المبذولة للتخفيف من الفقر.(١٣٩) وتكونت فى ١٧٨٨ جمعية لإحياء ذكرى ثورة ١٦٨٨ ، وضمت بين أعضائها نفرا بارزا من رجال الدين والنبلاء . فلما التأم شملها فى ٤ نوفمبر ١٧٨٩ ، بلغ انفعالها وتأثرها بواعظ موحد يدعى رتشرد برايس حداً جعلها تبعث

برسالة تهنئة للجمعية الوطنية فى باريس ، معربة عن الأمل فى أن « المثل العظيم الذى ضربته فرنسا » قد « يشجع أمما أخرى على توكيد الحقوق الثابتة لبنى الإنسان» [١٤٠] ووقع الرسالة ايرل ستانهوب الثالث ، رئيس الجمعية ونسيب وليم بت .

وأثارت العظة والرسالة مخاوف بيرك وغضبه.وكان ناهزالستين ووصل إلى حقه فى أن يكون محافظ النزعة . وكان رجلامتدينا يملك ضيعة كبيرة . لذلك لم ير فى الثورة الفرنسية « أدهش ثورة وقعت فى العالم إلى يومنا هذا »[١٤١] فحسب « بل أعتى عدوان على الدين والملكية والنظام والقانون. وفى ٩ فبراير ١٧٩٠ أخبر مجلس العموم أنه لو حدث أن أى صديق له وافق على أى إجراءات من شأنها أن تدخل إلىانجلتره دمقراطية كتلك التى تتشكل فى فرنسا ، لأنكر صداقته مهما طال رسوخها وعزت مكانتها . وهدأ فوكس الخطيب بإطرائه المشهور لبيرك كأفضل معلم له . وتأجلت القطيعة بينهما حينا .

وفى نوفمبر ١٧٩٠ نشر بيرك « تأملات فى الثورة فى فرنسا » على شكل رسالة (بلغ طولها ٣٦٥ صفحة) إلى « سيد فى باريس » وأصبح بيرك الآن بطل انجلتره المحافظة ، وهو الذى كان قد تزعم الأحرار خلال الثورة الأمريكية ؛ وأعرب جورج الثالث عن ابتهاجه بخصمه القديم . وغدا الكتاب إنجيل الملوك والأرستقراطيات فبعثت كاترين الكبرى « التى كانت يوما ما صديقة جماعة الفلاسفة وحبيبتهم ، تهنئتها للرجل الذى كان قد نوى خلعهم عن عروشهم . [١٤٢]

وقد استهل بيرك كتابه بالإشارة إلى الدكتور برايس وجمعية إحياء ذكرى الثورة . ثم أسف أسفا شديدا على دخول رجال الدين حلبة المناقشات السياسية » وقال إن مهمتهم إرشادالنفوس إلىالمحبة المسيحية لا إلىالإصلاح السايسى . وأنه لا يثق بحق تصويت الذكور العام الذى يدافع عنه برايس، فرأيه أن الأغلبية ستكون أشد طغيانا من الملوك ، وأن الدمقراطية ستنحط إلى حكم الغوغاء » فالحكمة ليست فى الكثرة بل فى الخبرة . والطبيعة

لاتعرف شيئا عن المساواة » وما المساواة السياسية إلا أكذوبة بشعة لا يسفر بنها الأفكار الكاذبة والتطلعات الباطلة فى رجال كتب عليهم السير فى المسالك المجهولة للحياة الشاقة إلا عن تفاقم عدم المساواة الحقيقى « الذى لن تقوى إطلاقا على إزالته » [١٤٣] . والأرستقراطية لا محيص عنها ، وكلما أعرقت أجادت أداء وظيفتها « وهى أن توطد فى صمت ذلك النظام الاجتماعى الذى بدونه يستحيل الإستقرار والأمان والحرية [١٤٤] . والملكية الوراثية نظام حسن لأنها تهب الحكومة وحدة واستمراراً بدونهما تتردى علاقات المواطنين القانونية والإجتماعية فى سيل محموم مضطرب . والدين حسن لأنه يعين على كبح تلك الدوافع غير الإجتماعية التى تستعر كأنها النار من تحت سطح الحضارة ، والتى لا سبيل إلى ضبطها إلا بالتعاون المتواصل بين الدولة والكنيسة ، وبين القانون والعقيدة ، وبين الخوف والإحترام ، وأولئك الفلاسفة الفرنسيون الذين قوضوا الإيمان الدينى بين صفوف شعبهم المتعلمة إنما يخلون بحماقة تلك اللجم التى حالت بين الرجال وبين أن يصبحوا وحوشا .

وقد أسخط بيرك انتصار الغوغاء فى فرساى على « ملك معتدل شرعى » وعلى معاملته « بضراوة وعدوان وإهانة فاقت أى شىء » ثار به شعب على أشد المغتصبين خروجاً على القانون وأكثر الطغاة تعطشاً للدماء [١٤٥] . وهنا تقع الصفحة الشهيرة التى إنتشينا لها فى شبابنا :

« لقد مضت الآن ستة أو سبعة عشر عاماً منذ رأيت ملكة فرنسا فى فرساى وكانت يومها زوجة ولى العهد ، والحق أنه ما من منظر أبهج من هذا حط على هذا الكوكب الذى بدت وكأنها لا تمسه إلا مساً رفيقاً . لقد رأيتها فوق الأفق بقليل ، تجمل وتبهج الدائرة الراقية التى همت بالتحرك فيها — ساطعة كنجمة الصبح ، فياضة بالحياة « والبهاء ، والفرح . أية ثورة تلك ! وأى قلب يجب أن تضمه جوانحى حتى أتأمل دون إنفعال ذلك السمو وذلك السقوط ! (*) لم يخطر ببالى يوم كانت تجمع بين ألقاب التبجيل وألقاب

(*) يعنى إكراه الغوغاء فى فرساى لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت على العودة معهم إلى باريس والسكنى فى قصر التويلرى تحت رقابة الشعب (٥ — ٦ أكتوبر ١٧٨٩) .

الحب المتحمس « البعيد » المشرب بالإحترام » أنها ستضطر يوماً ما إلى حمل ذلك الترياق القاطع ضد الخزى ، المخفى فى ذلك الصدر ، ولا خطر ببالى أننى سأعيش لأرى خطوباً كهذه نصيبها فى أمة من الرجال البواسل ، أمة من رجال كلهم شرف وكلهم شهامة . كنت أظن أن عشرة آلاف سيف لابد قافزة من أغمادها لتثأر حتى لنظرة واحدة تهددها بالإهانة . ولكن عصر الفروسية ولى ، وخلفه عصر السوفسطائيين والإقتصاديين والحسابين » وانطفأ مجد أوربا إلى الأبد » (١٤٦) .

وضحك السر فيليب فرانسس على هذا كله وقال إنه هراء رومانسى ، وأكد لبيرك أن ملكة فرنسا إمرأة فاجرة لعوب (١٤٧). وكذلك رآها كثير من الإنجليز الوطنيين ، على أن هوراس وليول أكد أن بيرك صور مارى أنطوانيت « بالضبط كما بدت لى أول مرة رأيتها وهى ولية للعهد » (١٤٨).

فلما واصلت الثورة مسيرها واصل بيرك هجومه فنشر «رسالة لعضو فى الجمعية الوطنية » (يناير ١٧٩١) اقترح فيها أن تتحد حكومات أوربا لكبح جماح الثورة ورد ملك فرنسا إلىسلطته التقليدية . وروع الاقتراح فوكس ، وفى ٦ مايو ، فى مجلس العموم » انتهى الصديقان اللذان حاربا كتفا إلى كتف فى حملات كثيرة جدا بتفرق طريقهما تفرقا دراميا . فقد كرر فوكس ثناءه علىالثورة . ولكن بيرك قام محتجا وقال « ليس من الحكمة فى أى وقت ، خصوصا فى سنى هذه » أن أستفز الأعداء » أو أعطى فرصة لأصدقائى ليتخلوا عنى ، ولكن إذا كان ولائى القوى الثابت للدستور البريطانى يضعنى فى هذه الورطة فإنى على استعداد لركوب هذه المغامرة . « فأكد له فوكس أن الخلافات فى الرأى بينهما لا تنطوى على فصم لأواصر الصداقة . وأجاب بيرك « كلا كلا ، إن فيها فقدا للأصدقاء . إنى أعرف ثمن سلوكى . . لقد انتهت صداقتنا . » (١٤٩) ولم يعد بعدها للكلام مع فوكس إلا رسميا فيما أكرها عليه من اتحاد الموقف فى محاكمة هيستنجز .

وقد قدم بيرك فى كتاباته عن الثورة الفرنسية تعبيراً كلاسيكياً لفلسفة محافظة . وأول مبادئها عدم الثقة بمنطق فرد أيا كان ذكاؤه إذا تعارض

مع تقاليد النوع الإنسانى . فكما أن الطفل لا يستطيع فهم أسباب المحاذير والنواهى الأبوية « فكذلك لا يستطيع الفرد » وما هو إلا طفل بالقياس إلى النوع « أن يفهم دائماً أسباب العادات والأعراف والقوانين التى تجسد تجربة أجيال كثيرة . والحضارة تستحيل « إذا إرتكزت ممارسة جميع الواجبات الأخلاقية ، وأسس المجتمع ، على جعل أسبابها ومبرراتها واضحة ثابتة بالبرهان لكل فرد » . (١٥٠) لا بل حتى « الأحكام المسبقة » لها فائدتها ، فهى تحكم سلفاً على المشكلات الحاضرة على أساس الخبرة الماضية .

فالعنصر الثانى من عناصر المحافظة إذن هو « حق التقادم » : فالتقليد أو المؤسسة يجب إحترامها إحتراماً مضاعفاً وعدم تغييرها إلا نادراً إذا كانت مكتوبة فعلا أو مجسمة فى نظام المجتمع أو هيكل الحكومة . والملكية الفردية مثال على حق التقادم وعدم معقولية الحكمة فى الظاهر . فإنه ليبدو من غير المعقول أن تملك أسرة واحدة ثروة كبيرة وأخرى ثروة ضئيلة « وأمعن فى اللامعقولية أن يسمح للمالك بتوريث ثروته لخلفه الذين لم يحركوا أصبعاً فى كسبها » ومع ذلك تبين بالتجربة أن الناس بوجه عام لن ينهضوا للعمل والدرس « ولا للتحضير الشاق المكلف » ما لم يصفوا ثمرات جهودهم بأنها ملكهم الخاص ، لهم أن ينقلوها لغيرهم « إلى حد كبير » كما يشاءون . وقد أثبتت التجربة أن تملك الثروة أفضل ضمان يكفل حكمة التشريع واستمرار الدولة .

فليست الدولة مجرد تجمع أشخاص فى مكان ما فى لحظة ما ، إنما هى تجمع أفراد على مدى الزمن المستطيل « إن المجتمع هو حقاً تعاقد ... شركة لا بين الأحياء فحسب ، بل بين الأحياء ، والأموات ، والذين سيولدون »(١٥١) ، وذلك الإستمرار هو وطننا . فى هذا الكل الثلاثى قد تكون الأغلبية الراهنة أقلية بمضى الزمن ، ويجب على المشرع أن يراعى حقوق الماضى (خلال « حق التقادم ») وحقوق المستقبل « رعايته لحقوق الحاضر الحى . والسياسة هى ، أو ينبغى أن تكون « فن المواءمة بين أهداف الأقليات المتضاربة وصالح الجماعة المستمرة . يضاف إلى هذا أنه ليس هناك حقوق مطلقة ، فما هذه إلا تجريدات ميتافيزيقية لا تعرفها الطبيعة » وليس هناك إلا الرغبات « والقوى ، والظروف ، و « الظروف تضفى على كل مبدأ سياسى لونه المميز

وأثره الفارق » [١٥٢] والمصلحة أهم أحياناً من الحقوق « ينبغي أن تكيف السياسة لا وفق الحجج البشرية [المجردة] بل وفق الطبيعة البشرية ، التي ليس العقل فيها إلا جزءاً وليس أكبر جزء على الإطلاق [١٥٣] . « يجب أن ننتفع بما يوجد من مواد [١٥٤] » .

هذه الإعتبارات كلها يوضحها الدين . قد لا تكون عقائد دين من الأديان وأساطيره ومراسمه متفقة مع عقلنا الفردي الحاضر « ولكن هذا ليس بذي بال إذا إتفقت وحاجات المجتمع الماضية والحاضرة والمستقبلة . والتجربة قاطعة في أن عواطف الناس المشبوبة لا يمكن السيطرة عليها إلا بتعاليم الدين وشعائره « إذا نحن كشفنا عرينا [أطلقنا غرائزنا] بنبذ ذلك الدين المسيحي الذي كان ... مصدراً عظيما للمدنية بيننا .. فإننا نخشى (ليقيننا بان الفكر لا يطيق فراغاً) أن تحل محله خرافة خرقاء ، مؤذية ، محطة [١٥٥] » .

ورفض كثير من الإنجليز نزعة بيرك المحافظة باعتبارها تمجيداً للركود [١٥٦] ، ورد عليه توماس بين بقوة في كتابه « حقوق الإنسان (١٧٩١ — ٩٢) . ولكن إنجلتره التي عاصرت شيخوخة بيرك رحبت عموماً بعبادته للسلف . فلما مضت الثورة الفرنسية في طريقها قدماً إلى مذابح سبتمبر ، وإعدام الملكة والملك ، وحكم الإرهاب ، شعرت الكثرة العظمى من البريطانيين بأن بيرك أحسن التنبؤ بعواقب التمرد والكفر ، وتشبثت إنجلتره قرناً كاملا بدستورها ، دستور الملك ، والأرستقراطية ، والكنيسة الرسمية ، وبرلمان يفكر بلغة السلطات الإمبراطورية لا الحقوق الشعبية رغم أنها تخلصت من دوائرها الإنتخابية ، العفنة ووسعت حق التصويت . وبعد الثورة عادت فرنسا من روسو إلى مونتسكيو ، وصاغ جوزف دميستر آراء بيرك للفرنسيين التائبين صياغة جديدة .

وواصل بيرك إلى النهاية حملته من أجل حرب مقدسة . واغتبط حين أعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا العظمى (١٧٩٣) . وأراد جورج الثالث أن يثيب عدوه القديم على خدماته الأخيرة فيرفعه إلى مقام النبالة ويخلع

عليه لقب اللورد بكنزفيلد الذى شرفه دزرايلى فيما بعد . فرفض بيرك ، ولكنه قبل معاشاً قدره ٢,٥٠٠ جنيه (١٧٩٤) . فلما بدأ الحديث يتردد عن اجراء مفاوضات مع فرنسا ، أصدر «أربع رسائل عن سلام مع قتلة الملوك» (١٧٩٧ وما بعدها) ، طالب فيها بحرارة أن تستمر الحرب . ولم يطفئ «لهيب ناره غير الموت (٨ يوليو ١٧٩٧) . واقترح فوكس أن يدفن فى كنيسة وستمنستر ، ولكن بيرك كان قد ترك تعليمات بأن يشيع فى جنازة غير رسمية ويدفن فى كنيسة بكنزفيلد الصغيرة . وقد ذهب ماكولى إلى أنه أعظم انجليزى منذ ملتن — وهو رأى ربما تجاهل شاتام ؛ أما اللورد مورلى فقد وصفه فى حذر أكثر ، بأنه «أعظم أساتذة الحكمة المهذبة فى لغتنا» [١٥٧] وهو رأى لعله تجاهل لوك . على أية حال كان بيرك تجسيداً لما تاق إليه المحافظون عبثاً طوال عصر العقل — رجلا استطاع الدفاع عن العرف بالبراعة التى دافع بها فولتير من قبل عن العقل .

٨ — الأبطال يتقاعدون

حين تقدمت الثورة الفرنسية وجد تشارلز جيمس فوكس نفسه واحداً من أقلية متضائلة فى البرلمان وفى الوطن . وانحاز كثيرون من حلفائه إلى الرأى القائل بوجوب انضمام انجلترة إلى بروسيا والنمسا فى مقاتلة فرنسا . وبعد إعدام لويس السادس عشر وجد فوكس نفسه وقد انقلب على الثورة ، ولكنه ظل على معارضته الدخول فى الحرب . فلما اندلعت الحرب رغم ذلك عزى نفسه بالشراب ، وبقراءة الآداب القديمة ، وبالزواج (١٧٩٥) من السيدة اليزابث أرمستد ، خليلته السابقة (وخليلة اللورد كافندش ، واللورد دارلى ، واللورد كولموندلى) ، التى أدنت عنه ديونه [١٥٨] . وقد رحب بصلح أميان (١٨٠٢) ، وقام برحلة فى فرنسا ، فاستقبل هناك بأسباب التكريم الحكومية والشعبية ، واستقبله نابليون مواطناً للحضارة . وفى ١٨٠٦ تقلد وزارة الخارجية فى «وزارة جميع المواهب» ، وقد جاهد ليحتفظ بالسلام مع فرنسا ، وأيد تأييداً قاطعاً حملة ولبرفورس على تجارة الرقيق . وحين تناهى إليه نبأ مؤامرة دبرت لاغتيال نابليون أرسل إلى

الامبراطور تحذيراً بطريق تاليران » ولعل فوكس كان واجداً سبيلا للتوفيق بين طمع بونابرت وأمن انجلترة لولا انهيار صحته . ولكن فى يوليو ١٨٠٦ أعجزه داء الاستسقاء » وأخفقت سلسلة من الجراحات المؤلمة فى وقف سير المرض ، فتصالح مع الكنيسة الرسمية ، وفى ١٣ سبتمبر مات مبكياً عليه من أصدقائه وأعدائه ، وحتى من الملك . لقد كان أوفر رجال جيله حظاً من الحبين .

وسبقه إلى أقباء كنيسة وستمنستر بت الإبن الذى شاخ قبل أوانه . فقد وجد هو أيضاً أنه لن يستطيع احتمال خطو الحياة السياسية السريع إلا بنشوة السكر تنسيه همومه من حين إلى حين . وكانت سلامة عقل جورج الثالث القلقة مشكلة دائمة ، فكل صراع خطير فى وجهات النظر بين الملك ووزيره قد يخل باتزان الرأس المتوج بأمير ويلز وصياً » يطرد بت ويستدعى فوكس ليحل محله . وعليه فقد تخلى بت عن خططه فى الإصلاح السياسى ، وسحب معارضته لتجارة الرقيق ، حين وجد أن فى هاتين المسألتين ، كما فى كثير غيرهما من المسائل ، كان جورج مصمماً بروح المشاكسة على تخليد الماضى . وركز بت عبقريته على التشريع الاقتصادى » الذى خدم فيه الطبقة الوسطى الصاعدة . ثم قاد انجلترة على كره شديد — فى حرب ضد من سماهم « أمة من الملحدين »[١٥٩] ولم يحسن البلاء وزيراً للحرب . فحين خشى أن يغزو الفرنسيون أرلنده ، حاول تهدئة الأرلنديين ببرنامج من الوحدة البرلمانية والتحرير الكاثوليكى ، ولكن الملك تصلب ، واستقال بت (١٨٠١) . ثم عاد (١٨٠٤) ليرأس وزارته الثانية . ولم يكن كفؤاً لمقارعة نابليون ، فلما جاء نبأ نصر الفرنسيين فى أوسترلتز (٢ ديسمبر ١٨٠٥) ذلك النصر الذى جعل نابليون سيد القارة ، انهار بت جسداً وروحاً . وحين وقع بصره على خريطة كبيرة لأوربا قال لصديق له « اطو هذه الخريطة ، فلن يكون هناك حاجة إليها هذه السنين العشر »[١٦٠] . ومات فى ٢٣ يناير ١٨٠٦ ، فقيراً فقراً مشرفاً ، غير متجاوز السادسة والأربعين .

ثم اقتضت الحياة وقتاً أطول لتقضى على شريدان . وكان قد انضم إلى برك وفوكس فى الدفاع عن أمريكا وفى خوض معركة هيستنجز » وأيد فوكس فى التصفيق للثورة الفرنسية . غير أن الزوجة التى كان سحرها ودماثة

طبعها حديثاً محبباً بين أصدقائه ، والتى جعلت من جمالها منبر خطابة لتعينه على الظفر بكرسى فى البرلمان » هذه الزوجة ماتت بالسل وهى فى الثامنة والثلاثين من عمرها (١٧٩٢) . فانهار شريدان . وقال أحد معارفه عنه « رأيته الليلة بعد الليلة يبكى كأنه طفل »[١٦١] وقد وجد بعض العزاء فى الفتاة التى أنجبتها له « ولكنها ماتت فى السنة ذاتها . وفى شهور الحزن تلك واجه مهمة إعادة بناء مسرح دروري لين الذى لم يعد مأموناً لقدمه وتداعى مبانيه ، ولكى يمول هذه العملية تحمل نفقات باهظة . وكان قد عود نفسه العيش المترف ، الذى عجز دخله عن الإنفاق عليه ، لذلك استدان ليواصل أسلوب حياته . وحين كان دائنوه يحضرون إليه ليطالبوه بديونهم كان يحتفى بهم كأنهم اللوردات » ويقدم إليهم الشراب والتحية المهذبة والنكتة الذكية ثم يصرفهم فى حال من الرضى يكاد ينسى الدائن دينه . وقد ظل نشيطاً فى البرلمان حتى ١٨١٢ حين أخفق فى إعادة انتخابه . وكان من قبل يتمتع بالحصانة من الاعتقال بصفته عضواً فى مجلس العموم . أما الآن فقد أطبق عليه دائنوه ، واستولوا على كتبه ، وصوره ، ومجوهراته . وأخيراً أوشكوا على حمله إلى السجن لولا أن طبيبه حذرهم من أن شريدان قد يموت فى الطريق . ثم قضى نحبه فى ٧ يوليو ١٨٠٦ وهو فى الخامسة والستين . وقد عاوده الغنى فى مأتمه . لأن سبعة لوردات وأسقفا شيعوه إلى مقبرة وستمنستر .

أما الملك نصف المجنون فقد عمر بعدهم أجمعين ، بل عمر حتى رأى انتصار انجلترة فى واترلو وإن لم يعلم به . وقد أدرك تحاول عام ١٧٨٣ أنه أخفق فى محاولته جعل الوزراء مسئولين أمامه لا أمام البرلمان . وأضنته صراعاته الطويلة التى لم يكن كفؤ لها مع مجلس العموم ، وأمريكا ، وفرنسا . وفى ١٨٠١ و ١٨٠٤ و ١٨١٠ انتكس إلى جنونه ، وظفر فى النهاية بتلك الشعبية التى حرمها أيام كفاحه ، مشوبة بالشفقة على رجل رأى انجلترة تصاب بالهزائم الكثيرة ولم يتح له أن يشهد انتصارها . وكان فى موت ابنته أميليا (١٨١٠) الأثيرة لديه ما أكمل القطيعة بينه وبين دنيا الواقع . وفى ١٨١١ كف بصره وبات مجنوناً جنوناً لاشفاء منه ، وظل معزولا تفرض عليه الحراسة حتى مات (٢٩ يناير ١٨٢٠) .

الفصل التاسع والعشرون

الشعب الانجليزى

١٧٥٦ – ٨٩

١ – أساليب الحياة الانجليزية

حسبنا هذا القدر عن الحكومة ، فلننظر الآن فى أحوال الشعب . أولا تأمل أشكال بنيتهم . فما من شك فى أن رينولدز تسامى بها ، فأظهرنا غالباً على المحظوظين حملة ألقاب النبالة . وأضفى على أجسادهم البدنية بهاء من أرواب الشرف وشاراته . ولكن استمع إلى جوته يصف الانجليز الذين شاهدهم فى فايمار ! « يالهم من قوم ملاح الوجوه رائعى السمت ! » — وأقلقه الخوف من أن يصرف هؤلاء البريطانيون الشبان « المملوءون ثقة فى أنفسهم ، الذين تفيض عنهم السلطة عفواً » الفتيات الألمان عن الافتتان بالرجال الألمان[1] . وقد احتفظ كثيرون من هؤلاء الشبان بقوامهم حتى تقدم بهم العمر ، ولكن الكثيرين انتفخت كروشهم وخدودهم حين خلفوا ملاعب مدارسهم إلى لذات المائدة ، وتفتحوا كأنهم الورود الحمراء القانية ، وكافحوا فى هدأة الليل ذلك النقرس الذى غذوه أثناء النهار المرح . وقد ضاع شىء من الخشونة الاليزابيثية فى القصف الذى رافق عودة الملكية . أما النساء الانجليزيات فقد أصبحن أجمل مما كن فى أى وقت مضى ، على لوحات الرسامين على الأقل : قسمات دقيقة ، وشعر تجمله الأزهار والأشرطة ، وأسرار غامضة يغلفها الحرير ، وقصائد من الشعر كلها رشاقة وجلال .

وكانت فوارق الزى الطبقية فى طريقها إلى الزوال بفضل ما جد من وفرة فى الثياب القطنية التى تنتجها المصانع المتكاثرة ، ولكنها ظلت على

حالها فى المناسبات الرسمية . وقد ركب اللورد ديرونتووتر إلى موضع إعدامه فى سترة قرمزية وصدرية موشاة بالذهب[٢] . أما البواريك فكانت دولتها تدول ، ثم اختفت حين فرض بت الثانى الضرائب على المسحوق الذى يزيل رائحتها الكريهة ، ولكنها عمرت على رءوس الأطباء ، والقضاة ، والمحامين ، وعلى رأس صموئيل جونسن ؛ وقنع معظم الرجال الآن بشعرهم الطبيعى يلملمونه على أقفيتهم فى ضفيرة معقودة بشريط . وحوالى ١٧٨٥ أطال بعض الرجال سراويلهم من الركبة إلى ربلة الساق ؛ وفى ١٧٩٣ تركوها تصل إلى الكاحل تقليداً للهان — كيلوط الفرنسيين الظافرين ، وهكذا ولد الرجل العصرى . أما النساء فظللن يغطين صدورهن بالمخرمات حتى يشرفن على الاختناق ، ولكن التنورة المطوقة أخذت تفقد ذيوعها وعرضها ، وبدأت الفساتين تتخذ تلك الخطوط الانسيابية التى استهوتنا أيام الشباب .

أما النظافة فلم تكن من الإيمان إلا فيما ندر ، لأن الماء كان ترفا . فالأنهار جميلة ولكنها عادة ملوثة ، وكان التيمز أشبه بالمصرف[٣] . وكان الماء يفرغ فى مواسير ببيوت لندن ثلاث مرات فى الأسبوع نظير ثلاثة شلنات للكوارتر[٤] ، وكان لبعض المنازل مراحيض آلية ، وقليل منها كان له حمامات بماء جار . وكان معظم المراحيض (التى درج القوم على تسمية الواحد منها أريحا) خارج الأسوار ، مبنية فوق حفر مكشوفة ترسل نزها خلال التربة إلى آبار يأتى منها قدر كبير من ماء الشرب[٥] . على أن العناية بالصحة العامة أخذت تتحسن ، والمستشفيات تكثر ، وهبطت وفيات الأطفال من أربعة وسبعين فى كل مائة مولود عام ١٧٤٩ إلى واحد وأربعين عام ١٨٠٩[٦] .

ولم يكن أحد من الناس يشرب الماء إذا استطاع الحصول على شراب أكثر أمناً . وكانت الجعة تعد طعاماً ، لا غنى عنه لأى عمل شاق ، أما النبيذ فدواء مفضل ، وأما الوسكى فوقود متنقل ، وأما السكر فخطيئة عرضية ، ان لم تكن جزءاً ضرورياً لمسايرة المجتمع . قال الدكتور جونسن « أذكر الأيام التى كان فيها جميع الأشخاص المهذبين من أهل لتشفيلد

يسكرون كل ليلة » ولم يسؤ رأى الناس فيهم لسكرهم هذا »[٧] .
وكان بت الثانى يحضر إلى مجلس العموم مخموراً » واللورد كورنواليس يذهب إلى الأوبراء ثملا[٨] . وكان بعض سائقى عربات الأجرة يزيدون دخولهم بطواف الشوارع فى جوف الليل والتقاط السادة « المبسوطين » وتوصيلهم لبيوتهم . ثم تناقص السكر بتقدم القرن » واضطلع الشاى ببعض مهمة تدفئة الأوصال وإطلاق الألسنة . وزادت واردات الشاى من مائة رطل عام ١٦٦٨ إلى أربعة عشر مليون رطل عام ١٧٨٦[٩] . وكانت مشارب القهوة الآن تقدم الشاى أكثر من القهوة .

أما وجبات الطعام فكانت شهية » دامية ، هائلة الحجم . وكان الغداء يقدم حوالى الساعة الرابعة عصراً لعاية القوم ، ثم أخر شيئاً فشيئاً إلى السادسة باقتراب القرن من نهايته . وقد يهدىء رجل مستعجل جوعه بشطيرة (ساندوتش) . وقد اتخذت هذه البدعة اسمها من إيرل ساندوتش الرابع الذى ألف أن يتناول شريحتين من الخبز بينهما لحم متحاشياً قطع القمار بالغداء . أما الخضروات فتؤكل على مضض . وقد قال جونسن لبوزويل فى ١٧٧٣ « ان التدخين انتهت موضته » » ولكن القوم كانوا يتناولون التبغ نشوقاً . وشاع استعمال الأفيون مسكناً أو علاجاً .

وكان فى وسع الرجل الانجليزى وهو على المائدة أن يشرب حتى ينطلق لسانه ، وعندها قد يضارع الحديث نظيره فى صالونات باريس ظرفاً ويبزه جوهراً . وذات يوم (٩ ابريل ١٧٧٨) اجتمع فيه جونسن ، وجبون ، وبوزويل ، وآلن رمزى » وغيرهم من الأصدقاء ، فى بيت السير جوشوا رينولدز » قال الدكتور (جونسن) ملاحظاً « أشك فى إمكان جمع شمل لفيف كهذا الذى يجلس حول هذه المائدة فى باريس فى أقل من نصف سنة »[١٠] . وكانت المحافل الارستقراطية تؤثر الحديث الظريف على حديث العلماء ، وتفضل سلوين على جونسن . وكان جورج سلوين أوسكار وايلد القرن الثامن عشر . وقد طرد من أكسفورد (١٧٤٥) لأنه » زعم فى زندقته أنه يتقمص شخصية المخلص المبارك » ولأنه سخر من سر التناول المقدس »[١١] ،

ولكن هذا لم يحل بينه وبين الحصول على وظائف شرفية مجزية فى الإدارة الحكومية ، أو الجلوس والنوم فى مجلس العموم من ١٧٤٧ إلى ١٧٨٠ . وكان له العديد من الأصدقاء ، ولكنه لم يتزوج قط . وكان ولوعاً بمشاهدة تنفيذ أحكام الإعدام ، ولكنه تغيب عن مشهد إعدام رجل كان سميا لتشارلز جيمس فوكس ، عدوه السياسى الذى كان يتطلع إلى رؤيته يتأرجح على حبل المشنقة – قال « اننى حريص على ألا أحضر « البروفات » أبدا »[١٢] . وقد ظل هو وهوارس ولبول صديقين حميمين طوال ثلاثة وستين عاماً دون أن تكدر صفو صداقتهما سحابة أو امرأة .

أما الذين لم يستمتعوا بمناظر الإعدام فكان فى وسعهم أن يتخيروا ما طاب لهم من بين عشرات الملاهى الأخرى ، من لعبة الورق المسماه « هويست » أو مشاهدة قتال الطيور ، إلى سباقات الخفل أو النزال بين خصوم للظفر بجائزة . وكان الكريكت الآن اللعبة القومية . وكان الفقراء يبددون أجورهم فى الحانات ، والأغنياء يقامرون بثرواتهم فى الأندية أو البيوت الخاصة . ويقول ولبول عن جلسة قمار فى بيت الليدى هرتفورد « إننى خسرت ستة وخمسين جنيهاً فى لحظات »[١٣] . وقد أطلق جيمس جلراى ، فى رسومه الكاريكاتورية الشهيرة على أمثال هؤلاء المضيفات « بنات فرعون »[١٤] * . وكان تقبل الخسائر فى هدوء أول الصفات المطلوبة فى الرجل الانجليزى المهذب ، حتى ولو انتهى به الأمر إلى اطلاق الرصاص على رأسه .

ولقد كان ذلك العالم عالم الرجل ، قانونياً واجتماعياً وأخلاقياً . فكان الرجال يستمتعون بمعظم الملذات الاجتماعية مع غيرهم من الرجال ، ولم ينظم ناد لعضوية الجنسين حتى عام ١٧٧٠ . وكان الرجال يثبطون الثقافة والفكر فى النساء ، ثم يشكون من عجز النساء عن الحديث المثقف . ومع ذلك وفقت بعض النساء فى تثقيف عقولهن . فتعلمت السيدة اليزابث كارتر التكلم باللاتينية والفرنسية والإيطالية والألمانية ، ودرست العبرية والبرتغالية

---

* هناك تورية فى كلمة Faro التى قد تعنى فرعون Pharaoh أو لعبة من ألعاب الورق (الفوعونية) : المترجم .

والعربية ، وترجمت ابكتيتس بدراية باليونانية ظفرت بثناء جونسن . وقد احتجت على عزوف الرجال عن مناقشة الأفكار مع النساء ، وكانت إحدى السيدات اللائى جعلن « ذوات الجوارب الزرقاء » (أى النساء المثقفات) حديث المثقفين من أهل لندن .

وقد أطلق هذا اللقب أول مرة على الاجتماعات المختلطة فى بيت السيدة اليزابث فزى بشارع هرتفورد بحى مايفير . فى هذه اللقاءات المسائية حظر لعب الورق وشجع النقاش فى الأدب . والتقت السيدة فزى ذات يوم ببنيامين ستيلنجفليت ، الذى اشتهر فترة قصيرة بأنه شاعر وعالم نباتى وفيلسوف ، فدعته إلى حفل استقبالها القادم . فاعتذر بأنه لا يملك ملابس تصلح لأن يحضر بها حفلة . وكان يرتدى جورباً أزرق . فقالت له « لا تهتم باللباس . تعال لابسا جواربك الزرقاء » . وذهب . ويروى بوزويل « ان حديثه كان غاية فى الروعة حتى . . . ألف القوم أن يقولوا . . « لا نفعل شيئاً بدون الجوارب الزرقاء » ، وهكذا ثبت اللقب شيئاً فشيئاً »[١٥] ، وأصبح يطلق على جماعة السيدة فزى « جماعة الجوارب الزرقاء » Bas Bleu Society . وكان يختلف إليهم جاريك وولبول ، وذات مساء روع جونسن الحاضرين جميعاً بحديث من أحاديثه الفخمة الطنانة .

أما « ملكة الزرق » كما لقبها جونسن فهى إليزابث روبنسن مونتاجيو . وكانت زوجة إدورد مونتاجيو ، حفيد إيرل ساندوتش الأول وقريب إدورد ورتلى مونتاجيو ، زوج السيدة مارى المواتية التى نوهنا بها فى صفحات سالفة[١٦] . وكانت اليزابث مفكرة ، ودارسة ، ومؤلفة ، وقد دافع مقالها « كتابات شيكسبير وعبقريته » (١٧٦٩) فى سخط عن الشاعر القومى ضد نقد فولتير القاسى . وكانت غنية فى وسعها أن تضيف زوارها على مستوى رفيع . وقد جعلت من الحجرة الصينية التى فى بيتها الواقع فى ميدان باركلى الملتقى المحبب لمفكرى لندن وحسانها . فأم الندوة رينولدز وجونسن وبيرك وجولدسمث وجاريك وهوراس ولبول وفانى بيرنى وهانا مور ؛ وهناك التقى الفنون بالمحامين . والأساقفة بالفلاسفة . والشعراء بالسفراء . وكان « الطاهى البارع » الذى استخدمته السيدة مونتاجيو يطهو لهم من الطعام

ما يشرح صدورهم جميعاً ، ولكن لم يكن يقدم للجماعة مسكر ، وكان السكر محظوراً . وكانت تلعب دور الراعية لبراعم المؤلفين ، وتنثر هباتها يمنة ويسرة . وفتح غيرها من سيدات لندن — كالسيدة ثريل « والسيدة بوسكاوين ، والسيدة مونكتون — بيوتهن للموهبة والجمال . وغدا المجتمع اللندنى مزدوج الجنس ، وبدأ ينافس باريس فى شهرة صالوناته وشبقريتها .

٢ — الأخلاق الانجليزية

يقول آدم سمث «فى كل مجتمع رسخ فيه التمييز بين مراتب الناس يوماً رسوخاً تاماً » كان هناك على الدوام مخططان أو نظامان للأخلاق ساريان فى وقت معاً ، يمكن أن يسمى الواحد الصارم أو المتزمت » والآخر المتحرر ، أو ان شئت المتحلل . أما الأول فتعجب به وتبجله عامة الشعب بوجه عام ، وأما الثانى . . . فيلقى تقديراً واعتناقاً أكثر ممن نسميهم المجتمع العصرى »[١٧] وقد وصف جون وسلى « الذى كان ينتمى للطبقة المتزمتة ، الأخلاق الانجليزية فى ١٧٥٧ بأنها خليط من التهريب ، والإيمان الكاذبة « والفساد السياسى ، والسكر ، والقمار ، والغش فى المعاملات « والخداع والتحايل فى المحاكم ، والخنوع فى رجال الدين « ومحبة العالم بين الكويكرز ، واختلاس أموال البر سراً[١٨] . وتلك شنشنة نعرفها منذ القدم .

وكان التمييز بين الجنسين يومها كما هو اليوم غير كامل إطلاقاً . فحاول بعض النساء أن يكن رجالا ، وكدن ينجحن فى هذه المحاولة ؛ وتسمع عن حالات تنكر فيها النسوة فى هيئة الرجال واحتفظن بهذا المظهر الخداع حتى مماتهن ؛ والتحق بعضهن بالجيش أو البحرية بوصفهن رجالا ، وكن يسكرن ويدخن ويشتمن كالرجال « ويقاتلن فى المعارك ، ويتحملن الجلد بشجاعة الرجال[١٩] . وحوالى ١٧٧٢ انتشر الغنادير Macaronis فى شوارع لندن . وكانوا شباناً أرسلوا شعورهم فى خصلات معقوصة طويلة « يلبسون ثياباً غالية ذات ألوان لافتة للنظر و « يعاشرون البغايا بغير حرارة » ، وقد وصفهم ساوين بأنهم « ضرب من الحيوان لا هو بالذكر ولا بالأنثى ، ولكنه جنس بين بين »[٢٠] وكان للواط مواخيره ، رغم أن الأفعال الجنسية الشاذة كان عقابها الإعدام ان اكتشفت وثبت ارتكابها .

وقد زكا المعيار الأخلاقي المزدوج . فكانت مئات المواخير ترفه عن الرجال المتفحخين ، ولكن هؤلاء الرجال كانوا يسمون انعدام العفة في المرأة جريمة لا يكفر عنها غير الموت . فانظر إلى جولد سمث الرقيق يقول : « إذا تدنت امرأة جميلة إلى اتيان الحماقة ثم اكتشفت بعد الأوان أن الرجال خوانون — فأي تميمة تستطيع أن تهدىء اكتئابها ؟ وأي حيلة يمكن أن تمحو ذنبها ؟ لا حيلة تجدى لإخفاء ذنبها ، ولمواراة عارها عن أعين الناظرين ، ولإتاحة الندم لحبيبها وإشعاره بالوجيعة — لا حيلة إلا الموت »[٢١] .

وقد نصحوا بالزواج الباكر واقياً من هذه الكوارث وأجاز القانون زواج البنات في الثانية عشرة ، والصبيان في الرابعة عشرة . وتزوج معظم نساء الطبقات المتعلمة صغاراً وأجلن انحرافاتهن ، ولكن المعيار المزدوج كان يكبح جماحهن . استمع إلى جونسن يقول في الزنا (١٧٦٨) : « ان اختلاط الأنساب لب هذه الجريمة ، فالمرأة التي تحنث بعهود الزواج أشد اجراماً من الرجل الحانث بعهوده . حقاً ان الرجل مجرم أمام الله ، ولكنه لا يؤذي امرأته أذى بالغاً جداً ان لم يهنها ، أي إذا تسلل مثلا إلى مخدعها لفرط في شهوته . على الزوجة يا سيدى ألا يسوءها هذا كثيراً . وان أستقبل في بيتي ابنة لي هربت من زوجها لهذا السبب . وينبغي للزوجة أن تحاول اصلاح حال زوجها ببذل المزيد من الاهتمام بإرضائه ، سيدى ، ان الرجل لن يترك زوجته حتى في حالة واحدة من مائة حالة ، ويذهب إلى مومس ، ما لم تهمل زوجته في امتاعه »[٢٢] .

وكانت الفكرة المسلم بأنها شيء عادى تماماً في حلقة بوزويل وأصحابه هي أن يختلف الرجال إلى المومسات بين الحين والحين . وكان الزنا في الطبقة الارستقراطية — وحتى في الأسرة المالكة — واسع الانتشار . فكان الدوق

جرافتن يعاشر نانسى بارسونز علانية وهو كبير الوزراء ، ويصحبها إلى الأوبرا على مرأى من الملكة[٢٣] . أما الطلاق فنادر ، ولا سبيل للحصول عليه إلا بقانون برلمانى ، ولما كان هذا يكلف « عدة آلاف من الجنيهات » فإنه كان ترف الأغنياء ، ولم يسجل فى الفترة من ١٦٧٠ إلى ١٨٠٠ غير ١٣٢ إذن بالطلاق[٢٤] . وكان الظن بوجه عام أن أخلاق العامة خير من أخلاق أشرافهم ، ولكن جونسن ذهب إلى العكس (١٧٧٨) : « لا يقل الزنا والخيانة الزوجية بين الزراع عنهما بين النبلاء » و « على قدر ما لاحظت ، كلما علا مقام السيدات وازددن ثراء ، كن أفضل تهذيباً وأكثر عفة »[٢٥]. وقد صور أدب ذلك العصر الفلاح ، كما نرى فى فيلدنج وبيرنز ، يشارك كل نهاية أسبوع تقريباً فى الحفلات الصاخبة ويسرف فى الشراب ، وينفق نصف أجره فى الحانات ، وبعضه على المومسات . لقد كانت كل طبقة تأثم وفق طرائقها ومواردها .

وكان الفقراء يقتتلون بقبضات أيديهم وبالنبابيت ، والأغنياء بالطبنجات والسيوف . وكانت المبارزة مسألة تتصل بالشرف فى طبقة النبلاء . فقد بارز فوكس آدم ، وشلبيرن فولرتن ، وبت الثانى تيرنى ؛ وكان عسيراً على المرء أن يجوز حياة النبالة دون جرح واحد على الأقل . وتشهد القصص الكثيرة على هدوء السادة البريطانيين ورباطة جأشهم فى هذه اللقاءات . وقد أكد اللورد شلبيرن لشاهديه اللذين ساورهما القلق حين أصابه جرح فى أصل فخذه « لست أظن أن الليدى شلبيرن سيزيدها هذا الجرح سوءا »[٢٦] .

وشر من تحلل الأخلاق الجنسية ما شاع من ضراوة الاستغلال الصناعى : ذلك الاستهلاك القاسى للحياة الإنسانية فى سبيل التكالب على الأرباح ؛ واستخدام الأطفال فى سن السادسة فى المصانع أو تطهير المداخن ؛ وافقار الآلاف من الرجال والنساء فقراً مدقعاً يكرههم على بيع أنفسهم إلى عبودية لا أجر لها نظير الرحلة إلى أمريكا ؛ والحماية الحكومية لتجارة الرقيق باعتبارها مصدراً غالياً من مصادر ثروة انجلترة .

وكان التجار يبحرون إلى أفريقيا من لفربول وبرستل ولندن — كما

يبحر غيرهم من هولنده وفرنسا — فيشترون الزنوج ويقتنصونهم ، ويشحنونهم إلى جزر الهند الغربية ، ويبيعونهم هناك ، ثم يعودون إلى أوربا بشحنات رابحة من السكر أو التبغ أو الروم . وبحلول عام ١٧٧٦ كان التجار الانجليز قد حملوا إلى أمريكا ثلاثة ملايين من العبيد ، يضاف إليهم ٢٥٠,٠٠٠ ماتوا فى الرحلة وقذف بهم فى البحر . وقد منحت الحكومة إعانة سنوية قدرها ١٠,٠٠٠ جنيه للشركة الأفريقية وخليفتها « الشركة المنظمة » لدعم قلاعهما ومحطاتهما فى أفريقيا ، بحجة أنهما « أنفع ما كونه تجارنا من شركات لهذه الجزيرة »[٢٧] . وحظر جورج الثالث (١٧٧٠) على حاكم فرجينيا « أن يوافق على أى قانون يحرم أو يعوق استيراد شحنات العبيد على أى وجه »[٢٨] . وفى ١٧٧١ كان فى انجلتره نحو أربعة عشر ألف زنجى جلبهم سادتهم المستعمرون أو أبقوا منهم ، وقد استخدم بعضهم خدماً فى البيوت دون أن يكون لهم حق فى تقاضى الأجور[٢٩] ، وبيع البعض فى مزادات علنية ، كما حدث فى لفربول عام ١٧٦٦[٣٠] . على أن محكمة انجليزية قضت فى ١٧٧٢ بأن العبد يصبح حراً تلقائياً فى اللحظة التى يطأ فيها أرض انجلتره[٣١] .

ثم تنبه ضمير انجلتره ببطء إلى التناقض بين هذه التجارة وأبسط أوامر الدين أو الأخلاق . فندد بها ألمع العقول فى بريطانيا : جورج فوكس ، ودانيال ديفو ، وجيمس طومسن ، ورتشرد ستيل ، والكسندر بوب ، ووليم بالى ، وجون وسلى ، ووليم كوبر ، وفرنسيس هتشسن ، ووليم روبرتسن ، وآدم سمث ، وجوسيا ودجوود ، وهوراس ولبول ، وصموئيل جونسن ، وادموند بيرك ، وتشارلز جيمس فوكس . أما أول معارضة منظمة للرق فقد قامت بها طائفة الكويكرز فى انجلتره وأمريكا ، ففى ١٧٦١ حرموا من عضويتهم كل مشتغل بهذه التجارة ، وفى ١٧٨٣ كونوا جمعية « لإغاثة وتحرير العبيد الزنوج فى جزر الهند الغربية ، ولتثبيط تجارة الرقيق على ساحل أفريقيا »[٣٢] . وفى ١٧٨٣ ألف جرانفل شارب لجنة للتعجيل بإلغاء تجارة الرقيق ، وفى ١٧٨٩ بدأ وليم ولبرفورس حملته الطويلة فى مجلس العموم لإنهاء التجارة الانجليزية فى العبيد . وقد أقنع

التجار المجلس المرة بعد المرة بتأجيل مشروعه ، ولم يصدر المجلس القانون الذى حرم على أى سفينة أن تحمل عبيداً من أى ثغر فى الممتلكات البريطانية بعد أول مايو ١٨٠٧ ، أو لأى مستعمرة بريطانية بعد أول مارس ١٨٠٨ ، إلا عام ١٨٠٧ .

أما فى ميدان الأخلاق السياسية فإن انجلترة كانت الآن فى الحضيض . فقد زكا نظام الدوائر الانتخابية العفنة ، وعرض الدهاقنة من ولاة الهند السابقين لها أثماناً باهظة . وقد أسف فرانكلن أسفاً شديداً على نشوب الحرب الأمريكية لسبب غريب : « لم لم يتركونى أمضى فى طريقى ؟ لو أنهم (أى المستعمرين) أعطونى ربع المال الذى أنفقوه على الحرب ، لحصلنا على استقلالنا دون أن نريق قطرة دم . كنت أشترى البرلمان كله ، وحكومة بريطانيا بأسرها »[٣٤] . واستشرى الفساد فى الكنيسة ، والجامعات ، والقضاء ، والوظائف المدنية ، والجيش والبحرية ، ومجالس الملك . وكان النظام العسكرى أشد صرامة منه فى أى بلد أوربى آخر[٣٥] ربما باستثناء بروسيا ، فإذا سرح المقاتلون لم يتخذ أى اجراء لتيسير انتقالهم إلى حياة نافعة ملتزمة بالقانون .

أما الأخلاق الاجتماعية فقد تأرجحت بين الطيبة الأصيلة فى الفرد الانجليزى ووحشية الغوغاء المستهترة . وقد وقعت فى الفترة من ١٧٦٥ إلى ١٧٨٠ تسع فتن كبرى « وكلها تقريباً فى لندن » وسنرى مثلا منها بعد قليل . وكانت الحشود تهرول للفرجة على مشهد الشنق كأنهم فى يوم عيد ، وقد يرشون الجلاد ليعنف فى جلد سجين[٣٦] . وكان قانون العقوبات أشد القوانين صرامة فى أوربا . أما اللغة فى جميع الطبقات تقريباً فكانت تنحو إلى العنف والسوقية . واشتبكت الصحف فى معارك رهيبة من القدح والافتراء . وكان الكل تقريباً يقامرون ، ولو فى اليانصيب القومى « والكل تقريباً يشربون حتى يثملوا .

واتحدت عيوب الخلق الانجليزى مع صفته الأساسية — وهى النشاط الشديد والعافية العارمة . وقد أنفقها الفلاح وعامل المصنع فى العمل الشاق «

وأبدنها الأمة فى كل أزمة إلا واحدة . فمن هذه العافية انبثقت الشهية المفرطة ، وروح المرح ، واللجوء إلى المومسات والمشاجرات فى الحانات والمبارزات فى الميادين ، وعنف المناقشات البرلمانية ، والقدرة على المعاناة فى صمت ، ومفاخرة كل انجليزى بأنه بيته قلعته التى لا يسمح باقتحامها إلا بمقتضى القانون . وحين هزمت انجلترا فى هذا العصر ، كان الذى هزمها هم الانجليز الذين ازدرعوا فى أمريكا ذلك الولع الانجليزى بالحرية . وقد لاحظت مدام دوفان وضوح الفروق بين الأفراد فى الانجليز الذين التقت بهم ، والذين لم تبصر معظمهم قط . قالت «كلهم نسيج وحده ، ولا تجد منهم اثنين على شاكلة واحدة . أما نحن (الفرنسيين) فعلى النقيض منهم تماماً ، فإذا رأيت فرداً من حاشيتنا فكأنك رأيت الكل»[٣٧] . وقد وافق على رأيها هوراس ولبول فقال «من المؤكد أنه ما من بلد آخر ينجب كما تنجب انجلترا هذا العدد الكبير من الشخصيات المنفردة المتميزة»[٣٨] ثم انظر إلى الرجال الذين رسمهم رينولدز : فهم لا يتفقون إلا فى الاعتزاز بوطنهم وطبقتهم ، وفى تورد وجوههم ، وفى تصديهم الجسور للعالم . لقد كانت سلالتهم سلالة قوية حقاً .

٣ — الإيمان والشك

ظلت الجماهير الانجليزية وفية لعقيدتها المسيحية فى مختلف صورها . وكان أوسع الكتب قراءة بعد الكتاب المقدس «الأعياد والأصوام» تصنيف نلسن . وهو دليل للسنة الكنسية[٣٩] . وقد طبع كتاب جونسن «صلوات وتأملات» الذى نشر بعد وفاته أربع طبعات فى أربع سنين . وكان الدين فى الطبقات العليا يحظى بالاحترام بوصفه «وظيفة اجتماعية ، ومعواناً على الأخلاق ، وذراعاً للحكومة ، ولكنه كان قد فقد تصديق الفرد له فى دخيلة نفسه وضاع كل سلطان له على السياسة . وكان الملك يعين الأساقفة ، أما القساوسة فيعينهم كبار ملاك الأرض ويجرون عليهم أرزاقهم . وكان هجوم الربوبيين على الدين قد هدأت ثورته إلى حد مكن بيرك من أن يتساءل فى ١٧٩٠ «من ممن ولدوا فى السنين الأربعين الأخيرة

قرأ كلمة واحدة مما كتبه كولنز ، وتولاند ، وتندال ، وتشب ، ومورجن ، إلى آخر تلك السلالة التي سمت نفسها أحرار الفكر؟ » [٤٠] .

ولكن إذا لم يكن أحد قد انبرى للرد عليه فربما لأن هؤلاء المتمردين كانوا قد كسبوا المعركة ، وأن المتعملين لم يبالوا الموضوعات القديمة لكونها قد بت فيها وماتت . وقد وصف بوزويل جيله في ١٧٦٥ (ناسياً عامة الشعب) بأنه « عصر اشتد ولع الناس فيه بالشكوكية حتى لكأنهم يفاخرون بتضييق دائرة إيمانهم ما استطاعوا »[٤١] . وقد رأينا سلوين يسخر من الدين في أكسفورد ، وولكس في ملدمنام آبي . وقد روت الليدي هستر ستانهوب أن بت الإبن « لم يذهب إلى الكنيسة قط في حياته »[٤٢] . ولن يكن فرضاً على الواعظ أن يكون مؤمناً بما يعظ . كتب بوزويل في ١٧٦٣ يقول « بين رجال الدين كثيرون من غير المؤمنين الذين إذ رأوا الدين مجرد نظام سياسي فهم ينظرون إلى الوظيفة الكهنوتية ذات الدخل نظرتهم إلى أي وظيفة مدنية ، ويسهمون بجهودهم للإبقاء على هذا الوهم المفيد »[٤٣] . يقول جبون « ان اقرارات العقيدة القويمة ، ومواد الإيمان ، يوقعها رجال الدين العصريون بزفرة أو بابتسامة »[٤٤] .

وقد أتاحت الأندية الخاصة تخفيفاً من الامتثال العلني لعقيدة الكنيسة . فانضم كثيرون من الطبقة الارستقراطية لمحفل أو آخر من محافل الماسون الأحرار . وقد أدانت هذه المحافل الإلحاد لسخفه ، واشترطت في أعضائها إيماناً بالله ، ولكنها غرست فيهم التسامح في الخلافات القائمة على غير ذلك من عقائد الدين[٤٥] . وفي جمعية برمنجهام القمرية كان رجال الصناعة من أمثال ماثيوبولتن وجيمس وات وجوسيا ودجوود يستمعون دون فزع إلى هرطقات جوزف بريستلي وإرازمس داروين[٤٦] . على أن ضجة الربوبية كانت قد ولت ، وقبل جميع أحرار الفكر تقريباً هدنة لايتدخلون بمقتضاها في الدعوة للإيمان ما دامت الكنيسة تغضي شيئاً ما عن الإثم . وتجنبت الطبقات العليا الإنجليزية — بما فطرت عليه من حس بالنظام والاعتدال — ذلك التطرف المستهتر الذي اندفعت إليه حركة التنوير الفرنسية ، فقد أدركت

ما بين الدين والحكم من وحدة حميمة ، وأوتيت من القصد ما عصمها من إحلال نظام بوليسى لا آخر له محل أخلاقية غيبية .

وإذ كان الأساقفة الانجليكان الآن خداماً للدولة كما كان الكرادلة الكاثوليك ، فقد رأوا أن لهم الحق فى قسط من متع الدنيا . وقد هجا كوبر فى أبيات لاذعة[٤٧] رجال الدين الذين كانوا يتهافتون تهافت رجال السياسة على الوظائف الدينية الأكثر مغنماً أو الملحقة بوظائفهم ؛ ولكن غير هؤلاء كثيرون عاشوا حياة العكوف الهادىء على واجباتهم . وعديدون كانوا المدافعين الأكفاء المتبحرين عن الإيمان . وقد كشف كتاب بالى « مبادىء الفلسفة الأخلاقية والسياسية » (١٧٨٥) عن روح سمحة ذات أفق واسع وتسامح عقيدى ، وعرض كتابه « البراهين على المسيحية » (١٧٩٤) عرضاً مقنعا البرهان القائم على القصد فى الكون . وقد لقى الترحيب فى صفوف الأكليروس رجال ذوو ميول للتحرر الفكرى ما داموا يعظون بجوهر الدين ويكونون القدوة الأخلاقية فى مجتمعاتهم[٤٨] .

أما المنشقون على الكنيسة الإنجليكانية — من معمدانيين ومشيخيين ومستقلين (بيورتان) — فقد تمتعوا بالتسامح الدينى ماداموا متمسكين بمسيحية التثليث ، ولكن حظر شغل الوظائف السياسية أو الحربية ، أو الالتحاق بجامعة أكسفورد أو كمبردج ، على من لا يعترف بالكنيسة الإنجليكانية وموادها التسع والثلاثين . واستمر انتشار المثودية بين الطبقات الدنيا . وفى ١٧٨٤ فصمت هذه الكنيسة عراها الواهية مع الكنيسة الرسمية . ولكنها كانت أثناء ذلك قد بثت « الحركة الإنجيلية » فى قلة من رجال الدين الانجليكان ، الذين أعجبوا بزعيمها وسلى ، ووافقوه على أن الإنجيل ينبغى أن يبشر به بالضبط كما سلم إلينا فى العهد الجديد ، دون تنازلات للنقد العقلانى أو النصى .

وظل تذكر إنجلترة لمؤامرة البارود والثورة الكبرى ، وحكم جيمس الثانى ، يبقى فى سجلات الدولة على تلك القوانين القديمة التى شرعت ضد اتباع كنيسة روما الكاثوليكية . ولم يعد أكثر هذه القوانين يطبق ، ولكن

معوقات كثيرة ظلت مفروضة على الكاثوليك . فهم مثلا لايستطيعون شراء أو وراثة أرض شرعياً إلا بالتحايل القانونى ويدفع ضريبة مضاعفة على أملاكهم . وقد حظر عليهم الخدمة فى الجيش والبحرية ، واحتراف المحاماه ، والتصويت أوالترشيح للبرلمان ، وجميع المناصب الحكومية . ومع ذلك كان عددهم فى ازدياد . وفى ١٧٨٦ كان منهم سبعة من كبار النبلاء ، واثنان وعشرون بارونيتاً و ١٥٠ « جنتلماناً » . وكان يحتفل بترتيل القداس فى البيوت الخاصة » ولم يسجل غير حالتين أو ثلاث من حالات الاعتقال عقاباً على هذه الجريمة طوال الستين عاماً التى حكمها جورج الثالث .

وفى ١٧٧٨ قدم السير جورج سافيل للبرلمان مشروع قانون هدفه « التخفيف عن الكاثوليك » فهو يبيح شراء الكاثوليك الأرض ووراثتهم لها ، والتطوع فى القوات المسلحة دون التخلى عن مذهبهم . وأجيز المشروع ، ولم يلق معارضة تذكر من الأساقفة الإنجليكان فى مجلس اللوردات . ولم يكن ينطبق إلا على انجلتره » ولكن فى ١٧٧٩ — اقترح اللورد نورث تطبيقه على اسكتلنده . فلما بلغ نبأ هذا الاقتراح اقليم السهول الاسكتلندية » اندلعت الفتن فى إدنبره وجلاسجو (يناير ١٧٧٩) ، وأحرقت عدة بيوت يسكنها الكاثوليك وسويت بالأرض » ونهبت وحطمت حوانيت التجار الكاثوليك ، كذلك هوجمت بيوت البروتستنت الذين أعربوا عن عطفهم على الكاثوليك — مثل المؤرخ روبرتسن — ولم تخمد أوار الفتنة إلاحين أذاع قضاة إدنبره أن قانون التخفيف عن الكاثوليك لن يطبق على اسكتلنده .

ثم تبنى عضو اسكتلندى فى البرلمان يدعى اللورد جورج جوردن قضية « لابابوية فى انجلتره » ففى ٢٩ مايو ١٧٨٠ رأس اجتماعاً لـ « جمعية البروتستنت » التى خططت لمسيرة جماهيرية لتقدم ملتمس بإلغاء قانون التخفيف الصادر فى ١٧٧٨ . وفى ٢ يونيو أحاط ستون ألف رجل يرتدون أشرطة زرقاء معقودة بقبعاتهم بمبنى البرلمان واعتدى على كثير من الأعضاء وهم فى طريقهم إلى المبنى » وحطمت مركبات اللوردات ما نسفيلد وثيرلو ، وستورمونت » ووصل بعض اللوردات النبلاء إلى كراسيهم بغير باروكاتهم

شعثاً يرتعدون خوفاً[٤٩] . ودخل جوردن وثمانية من أتباعه مجلس العموم ، وقدموا ملتمساً ، قيل إنه يحمل ١٢٠,٠٠٠ توقيع ، يدعو لإلغاء القانون ، ويطالب بإجراء عاجل هو البديل الوحيد لغزو الغوغاء للمجلس . فقاوم الأعضاء ، وأرسلوا فى طلب الجند لكبح جماح الغوغاء ، وغلقوا جميع الأبواب ، وأعلن قريب لجوردن أنه قاتله فى اللحظة التى يقتحم فيها القاعة دخيل ، ثم وافق المجلس على رفع الجلسة حتى ٦ يونيو . ووصل الجند وأفسحوا طريقاً للأعضاء ليعودوا إلى بيوتهم . وأتلفت محتويات كنيستين كاثوليكيتين تخصان قساوسة سردينيين وباقاريين ، وكوم أثاثهما فى نار أشعلت فى الشوارع . ثم تفرق الجمع ، ولكن فى ٥ يونيو نهب القائمون بالشغب كنائس أجنبية أخرى وأحرقوا عدة بيوت خاصة .

وفى ٦ يونيو عاد الغوغاء إلى التجمع ، واقتحموا سجن نيوجيت ، وأطلقوا سراح السجناء ، واستولوا على ترسانة سلاح ، وساروا وهم مسلحون يخترقون شوارع العاصمة . وتحصن النبلاء بمتاريس فى بيوتهم . وهنا هوراس ولبول نفسه على حمايته دوقة فى « قلعته » بميدان باركلى[٥٠] . وفى ٧ يونيو نهب وأحرق المزيد من البيوت ، واقتحم الرعاع معامل تقطير الخمور ، وأطفأوا ظمأهم بغير قيود ، واحترق نفر منهم وهم رقود سكارى فى الأبنية المحترقة . ورفض قضاة لندن المخول لهم وحدهم السلطة القانونية على الحرس البلدى أن يأمروهم بإطلاق النار على الجمع . واستنفر جورج الثالث «ميليشيا المواطنين» وأمرهم بإطلاق النار كلما استعمل الرعاع العنف أو هددوا باستعماله . وظفر عضو البلدية جون ولكس بالعفو من الملك ، وفقد شعبيته لدى الجماهير ، إذ امتطى جواداً وانضم إلى المليشيا فى محاولة تفريق الجمع . فلما هاجم المشاغبون المليشيا أطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا منهم اثنين وعشرين ، ولاذ الباقون بالفرار .

وفى ٩ يونيو اندلعت الفتنة من جديد ونهبت البيوت وأحرقت — سواء الكاثوليكية أو البروتستنتية ، ومنع جنود الإطفاء من إخماد النيران[٥١] ، وأخمد الجند الفتنة بعد أن قتل فيها ٢٨٥ رجلا وجرح ١٧٣ ، وقبض على

١٣٥ من المشاغبين ، وشنق واحد وعشرون . وقبض على جوردن وهو يفر إلى اسكتلنده ، وأثبت أنه لم يكن له ضلع فى حوادث الشغب ، فأفرج عنه ، وحصل بيرك على موافقة مجلس العموم على إعادة تأكيد قانون التخفيف عن الكاثوليك فى انجلتره . ووسع قانون صدر فى ١٧٩١ التسامح الشرعى فى شئون العبادة والتعلم الكاثوليكيين ، ولكن الكنائس الكاثوليكية حظر عليها أن يكون لها برج أو جرس [٥٢] .

٤ — بلاكستون وبنتام والقانون

زعم فقيه ضليع أن « نشر كتاب بلاكستون « التعليقات » يعد من بعض الوجوه أبرز حدث فى تاريخ القانون » [٥٣] وهذا رأى فيه تحيز للوطن ، ولكنه يعيننا على بيان مبلغ الرهبة والإجلال اللذين كان الطلاب المتحدثون بالإنجليزية ، حتى عصرنا هذا ، يتناولون بهما كتاب « تعليقات على قوانين انجلتره » الذى نشره وليم بلاكستون فى أربعة مجلدات وألفى صفحة فى ١٧٦٥ — ٦٩ . وقد اثنى عليه القراء رغم حجمه هذا أو بسببه ، أثراً جليلا من آثار العلم والحكمة ، فكان كل لورد يقتنيه فى مكتبته ، وأحبه جورج الثالث حباً جماً بوصفه تمجيداً للملوك .

أما بلاكستون هذا فكان ابن تاجر لندنى أتاح له ثراؤه أن يعلم ابنه فى اكسفورد ثم يرسله إلى « المدل تمبل » ليمارس المحاماه — وقد ردت محاضراته فى اكسفورد (١٧٥٣ — ٦٣) تناقضات القوانين وتخلفاتها إلى شىء من النظام والمنطق ، ثم بسطت النتيجة بوضوح وتشويق . وفى ١٧٦١ أنتخب عضواً فى البرلمان ، وفى ١٧٦٣ عين محامياً عاماً للملكة شارلوت ، وفى ١٧٧٠ بدأ خدمته قاضياً فى محكمة الدعاوى العامة . وإذ كان مدمناً للدرس كارهاً للحركة ، فقد أصابه تحلل هادىء تدريجى ولكنه سابق لأوانه ، ومات فى ١٧٨٠ بالغا السابعة والخمسين .

وكان لرائعته الكبرى فضائل محاضراته : الترتيب المنطقى ، والعرض الناصع ، والأسلوب الرشيق . وقد امتدحه خصمه اللدود جريمى بنتام ،

لأنه الرجل الذى « علم القضاء أن يتكلم لغة الدارس والجنتلمان ، وهذب ذلك العلم العصبى » ونفض عنه غبار المتصب ونسيج العناكب»[٥٤] . وقد عرف بلاكستون القانون بأنه « قاعدة للعمل يمليها كائن أعلى »[٥٥] ، وكان يدين بتصور مثالى مستقر للقانون ، يراه مؤدياً فى مجتمع ما الوظيفة التى تؤديها قوانين الطبيعة فى العالم ؛ وكان ميالا إلى التفكير فى قوانين انجلتره على أنها تضارع قوانين الجاذبية فى جلالها وخلودها .

وقد أحب انجلتره والمسيحية على الصورة التى وجدهما عليها ، وماكان ليسلم بأى عيب فى واحدة منهما . وكان أكثر سنية من الأسقف واربرتن ، وأكثر ملكية من جورج الثالث . « ليس ملك انجلتره أكبر قاض للأمة فحسب ، بل هو بالضبط القاضى الوحيد لها ، الذى له أن يرفض أى مشروعات قوانين ، ويبرم أى معاهدات » . . . . ويعفو عن أى جرائم شاء ، إلا إذا كان الدستور قد نص بصراحة أو بحكم النتيجة المنطقية الواضحة على استثناء أو قيد ما »[٥٦] ووضع بلاكستون الملك فوق البرلمان وفوق القانون . فليس الملك « غير قادر على ارتكاب الخطأ فحسب ، بل حتى على التفكير الخطأ » — وهى عبارة عنى بها بلاكستون أنه ليس هناك قانون فوق الملك عكن أن يدان به الملك . ولكنه أبهج كبرياء انجلتره بأسرها حين عرف « الحقوق المطلقة لكل انجليزى : حق الأمن الشخصى ، وحق الحرية الشخصية ، وحق الملكية الشخصية »[٥٧] .

وقد سر جيل بلاكستون سروراً عظيماً بتصوره القانون الانجليزى نظاماً صالحاً على الدوام لأنه فى النهاية مبنى على الكتاب المقدس بوصفه كلمة الله . ولكن هذا التصور ثبط تطوير القضاء الانجليزى وإصلاح قانون العقوبات والسجون ؛ غير أن من مفاخره أنه امتدح جهود هوارد التى بذلها لتحسين الأحوال فى السجون البريطانية[٥٨] .

وقد فهم هوارد المسيحية لا على أنها نظام قانونى بل نداء للقلب . ذلك أن الأحوال فى السجن المحلى أفزعته حين عين مأموراً فى بدفورد (١٧٧٣) فالمأمور ومساعدوه لا رواتب لهم ، ورزقهم على ما يقتضون من السجناء

من رسوم ؛ فكان السجين إذا قضى مدة عقوبته لا يفرج عنه إلا بعد أن يدفع جميع الرسوم المطلوبة منه ، وكان الكثيرون يظلون رهن السجن شهوراً بعد أن تتبين للمحكمة براءتهم . وقد وجد هوارد فى رحلاته من مقاطعة إلى مقاطعة مظالم مماثلة أو أسوأ . فكان المدينون الذين يقصرون فى الوفاء بدينهم ، والمذنبون لأول مرة ، يلقون معاً فى مكان واحد مع مدمنى الجريمة . وكان أكثر السجناء يوثقون بالأغلال التى تثقل أو تخف حسب الرسم الذى يدفعونه. وكانت جراية السجين فى اليوم خبزاً ثمنه بنس أو بنسان ، فإذا أراد مزيداً من الطعام فعليه أن يدفع ثمنه أو يعتمد فيه على الأقرباء أو الأصدقاء . أما الماء فجرايته للسجين ثلاثة بنسات فى اليوم للشرب والاغتسال . ولا يزود السجناء بوسائل للتدفئة فى الشتاء ، أما فى الصيف فتهوية لاتذكر . وكان النتن الذى يفوح من هذه الزنزانات من الشدة بحيث ظل لاصقاً بثياب هوارد بعد خروجه منها بزمان . وكانت « حمى السجون » وغيرها من الأمراض تفتك بالكثير من السجناء ، وكان البعض يموت بالجوع البطىء[٥٩] . وفى سجن نيوجيت بلندن كان خمسة عشر إلى عشرين سجيناً ينزلون حجرة طولها ثلاثة عشر وعرضها خمسة وعشرون قدماً .

وفى ١٧٧٤ قدم هوارد للبرلمان تقريره عن خمسين سجناً زارها ، ووافق مجلس العموم على قانون يشترط الإصلاحات الصحية فى السجون ، وتوفير الرواتب للسجانين ، والإفراج عن جميع السجناء الذين لم تجد هيئة المحلفين الكبرى شكاوى مقدمة للمحكمة ضدهم . وفى ١٧٧٥ — ٧٦ زار هوارد سجون القارة ، فوجد سجون هولنده خيرها تجهيزاً وترفقاً نسبياً بالسجناء ، ومن أسوئها سجون هانوفر التى يحكمها جورج الثالث . وقد أيقظ ضمير الأمة من سباته نشر كتاب هوارد « حالة السجون فى انجلتره ويلز . . . ووصف لبعض السجون الأجنبية » (١٧٧٧) . فوافق البرلمان على تخصيص صندوق لـ « مؤسستين إصلاحيتين » تبذل فيهما محاولة لإصلاح السجناء بالمعاملة الفردية والعمل الخاضع للملاحظة ، والتعليم الدينى . واستأنف هوارد رحلاته ، وروى نتائجها فى طبعات جديدة من كتابه . وفى ١٧٨٩ جاب أنحاء روسيا ، وفى خرسون أصيب بحمى المعسكرات

ومات (١٧٩٠) . ولم تثمر جهوده للإصلاح إلا نتائج متواضعة . فقانون ١٧٧٤ أهمله معظم السجانين والقضاة . ولم تظهر أوصاف سجون لندن فى ١٨٠٤ و ١٨١٧ أى تحسين منذ عصر هوارد ، « لعل الأحوال أصبحت أسوأ لا أحسن »[٦٠] ، وكان على الإصلاح أن ينتظر . ووصف دكنز لسجن نيو مارشالسيا فى قصته « دوريت الصغيرة » (١٨٥٥ .

أما جريمى بنتام فإن جهوده المتنوعة لإصلاح القانون والحكومة والتعليم بذل أكثرها بعد هذه الفترة ، ولكن كتيبه « مقال صغير عن الحكومة » (١٧٧٦) مكانه هنا ، لأنه فى المقام الأول نقد لبلاكستون . فقد احتقر عبادة الفقيه للتقاليد الموروثة ، وذكر أن « ما رسخ الآن كان يوماً بدعة »[٦١] ، ونزعة المحافظة الحاضرة إنما هى تبجيل للراديكالية الماضية ، إذن فالذين يدعون إلى الإصلاحات لايقلون وطنية عن أولئك الذين يرتعدون فرقاً لفكرة التغيير . « فى ظل حكومة القوانين ما هو شعار المواطن الصالح ؟ أن يطيع فى دقة وأن ينقد فى حرية »[٦٢] . وقد رفض بنتام رأى بلاكستون فى السيادة الملكية ، فالحكومة الصالحة توزع السلطات ، وتشجع كلا منها على كبح شطط غيرها ، وتسمح بحرية الصحافة ، والتجمع والمعارضة السلميتين . والثورة فى نهاية المطاف قد تحدث للدولة ضرراً أقل مما يحدثه الخنوع المبلد للطغيان[٦٣] . وقد نشر هذا الكتيب سنة الإعلان الأمريكى للاستقلال .

وقد شرح بنتام فى هذا المقال ذاته « مبدأ السعادة الأعظم » الذى أطلق عليه جون ستيوارت مل فى ١٨٦٣ اسم « مذهب المنفعة » . « أن أعظم سعادة لأكبر عدد هو مقياس الحق والباطل »[٦٤] ، وينبغى الحكم على جميع المقترحات والممارسات الأخلاقية والسياسية بمقتضى « مبدأ المنفعة » هذا ، لأن « وظيفة الحكومة أن تزيد من سعادة المجتمع »[٦٥] . وقد اقتبس بنتام « مبدأ السعادة » هذا من هلفتيوس ، وهيوم ، وبريستلى ، وبكاريا ،[٦٦] وتكونت وجهة نظره العامة من قراءته لجماعة الفلاسفة[٦٧] .

وفى ١٧٨٠ ألف كتاب « مقدمة لمبادىء الأخلاق والتشريع » الذى نشره فى ١٧٨٩ ، وضمنه عرضاً لأفكاره أكثر تفصيلا وفلسفة . وقد رد

كل فعل واع إلى الرغبة فى اللذة أو الخوف من الألم ، وعرف السعادة بأنها « الاستمتاع باللذة ، والأمان من الألم »[٦٨]. ولاح أن هذا يبرر الأنانية المطلقة ، غير أن بنتام طبق مبدأ السعادة على الأفراد كما طبقه على الدول . فهل أفضى فعل الفرد إلى أعظم قدر من السعادة له ؟ فى رأيه أن الفرد فى المدى البعيد ينال أعظم لذة أو أقل ألم بتوخيه الإنصاف مع اخوانه البشر .

وقد مارس بنتام ما بشر به ، لأنه كرس حياته لسلسلة طويلة من مقترحات الإصلاح : التصويت العام للذكور البالغين المتعلمين ، والاقتراع السرى ، والبرلمانات السنوية ، وحرية التجارة ، والنظافة الصحية العامة ، وتحسين أحوال السجون ، وتطهير القضاء ، وإلغاء مجلس اللوردات ، وتحديث القانون وجمعه وتنسيقه فى لغة مفهومة لغير القانونيين ، وتوسيع القانون الدولى (وبنتام هو مخترع هذا المصطلح)[٦٩] . وقد خرج إلى النور الكثير من هذه الإصلاحات فى القرن التاسع عشر ، وأكثر الفضل فى ذلك لمجهود « اتباع مذهب المنفعة » و « الراديكاليين الفلاسفة » من أمثال جيمس وجون ستيوارت مل ، وديفد ريكاردو ، وجورج جروت .

كان بنتام آخر صوت من أصوات حركة التنوير ، والمعبر بين فكر القرن الثامن عشر المحرر وإصلاحات القرن التاسع عشر . ولقد وثق بالعقل ثقة أكثر حتى من ثقة جماعة الفلاسفة به ، وظل عزباً لآخر حياته مع أنه كان أحب الرجال وألطفهم . وحين مات (٦ يونيو ١٨٣٢) وهو فى الرابع والثمانين أوصى بأن تشرح جثته فى حضرة أصدقائه . فشرحت ، ومازال هيكله محفوظاً فى الكلية الجامعية بلندن ، مرتدياً ثياب بنتام المألوفة[٧٠]. وغداة موته وقع الملك « قانون الإصلاح » التاريخى الذى جسد الكثير من مقترحاته .

٥ — المسرح

(١) التمثيل

كان هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر غنياً فى المسرح فقيراً فى الدراما . فقد شهد لفيفاً من أروع الممثلين فى التاريخ ، ولكنه لم ينجب غير

كاتبين مسرحيين اثنين أفلتت أعمالهما من منجل الحاصد : شريدان الذى ودعناه منذ هنيهة ، وجولدسمث الذى سيختص بركن تحت سماء الأدب .
وربما كان هذا القحط فى التمثيليات الجادة سبباً ونتيجة للإحياء الشكسبيرى الذى استمر حتى نهاية القرن .

وقد عانى الكتاب المسرحيون من أذواق النظارة . فقد كان هناك نقاش كثير للتقنية والفن التمثيلين ، ونقاش قليل للتقنية والفن التأليفين . وكان أجر المؤلف ، وهو فى الغالب مكافأته المادية الوحيدة ، حصيلة الحفلة الثالثة ، وإن كان هناك حفلة ثالثة . على أن بعض الممثلين والممثلات أثروا ثراء رؤساء الوزارة . وكان فى استطاعة المتافين المأجورين أن يقضوا على أى مسرحية جيدة بافتعالهم الضوضاء المعادية ، أو أن يجعلوا المسرحية الحقيرة تنجح نجاحاً مثيراً . ولم يظفر بعروض تمتد عشرين ليلة فى موسم واحد إلا أكثر المسرحيات حظاً . وكانت الحفلات تبدأ فى السادسة أو السادسة والنصف ، وتحتوى عادة على مسرحية من ثلاث ساعات ، وتمثيلية هزلية ساخرة « فارص » أو إيمائية « بانتومايم » . أما المقاعد فتكلف من شلن إلى خمسة ، ولا حجز إلا بإرسال خادم يشترى التذكرة ويشغل المقعد حتى يحضر السيد أو السيدة . وكانت كل المقاعد بنوكا بغير ظهور[٧١] ، وكان بعض النظارة المقربين يجلسون على خشبة المسرح حتى أنهى جاريك هذا العبث المنكر (١٧٦٤) . أما الإضاءة فكلها بالشموع فى ثريات « تظل مضاءة طوال البرنامج . وكانت الملابس قبل عام ١٧٨٢ هى ملابس القرن الثامن عشر الإنجليزية دون اعتبار لزمان المسرحية أو مكانها . فكان كاتو « وقيصر ، ولير ، يبدون فى سراويل للركبة وشعور مستعارة .

وازدهر المسرح ، سواء فى لندن أو فى « الأقاليم » ، رغم معارضة رجال الدين ومنافسة الأوبرا والسرك . وكانت بات وبرستل ولفربول وتنجهام وما نشستر وبرمنجهام ويورك وإدنبره ودبلن تملك مسارح جيدة ؛ وكان لبعضها فرقها الخاصة ، وإذ كانت الفرق الكبرى تجوب البلاد ، فإن كل مدينة تقريباً شهدت التمثيل الجيد . وقد أثارت لندن المنافسة الحادة بين مسرحين رئيسين . ففى ١٧٥٠ مثل : كلاهما « روميو وجوليت» كل

ليلة فى ذات الأسبوعين ، وأدى الأدوار الرئيسية سبرانجو بارى وسوزانا كبر فى مسرح كوفنت جاردن ، وجاريك ومس بيلامى فى مسرح دوررى لين . ثم كان لصموئيل فوت مسرحه الصغير فى هايماركت ؛ حيث تخصص فى التقليد الهجاء ، وكانت تقليداته لجاريك شقاء طال أمده فى حياة ديفد.

ولم تشهد خشبة المسرح الانجليزى قط من قبل هذا العدد النفير من الممثلين الأفذاذ . وقد استهل تشارلز ماكلين هذا العصر المجيد فى ١٧٤١ بإخراجه تمثيليات شيكسبير ؛ وكان أول ممثل قدم شيلوك شخصية جادة وإن ظل وغداً لا يرحم (ولم يمثل شيلوك بشىء من العطف حتى جاء هنرى إرفنج) . ثم اختتم جون فليب كمبل هذا الإحياء الشكسبيرى الذى استغرق قرناً كاملا . وكانت أعظم ساعات تجليه حين مثل هو وأخته ساره مسرحية مكبث على مسرح درورى لين فى ١٧٨٥ .

وازدانت خشبة المسرح الآن بنفر من الممثلات الجديرات بالذكر . منهن بج وفنتن التى وهبت الجمال المثير فى قوامها وطلعتها ، ولكنها عاشت عيشة منحلة ، وأصابتها النقطة فى منتصف التمثيلية (١٧٥٧) وماتت قبل أوانها غير متجاوزة السادسة والأربعين (١٧٦٠) . ثم كتى كلايف التى ظلت تمثل مع فرقة جاريك اثنتين وعشرين سنة ، وقد أدهشت لندن بأخلاقها التى كانت مضرب المثل ، وبعد أن هجرت خشبة المسرح (١٧٦٩) عاشت ست عشرة سنة فى بيت أعطاها إياه هوراس ولبول فى تويكنام . أما مسز هانا برتشارد فكانت تحتل مكان الصدارة بين الممثلات التراجيديات قبل أن تبزها مسز سيدونز فى أداء دور الليدى مكبث ؛ وقد أفنت عمرها فى التمثيل ، ولم تقرأ كتاباً قط (فيما روى) ؛ وقد وصفها جونسن بأنها « بلهاء ملهمة » [٧٢] ، ولكنها عمرت بعد الكثيرات من الحسان ، وظلت تمثل حتى قبل موتها ببضعة شهور . وتألقت مسز فرانسس آبنجتن فى أدوار بياتريس وبورشيا ، وأوفيليا ، وديدمونه ، ولكن أشهر أدوارها كان دور الليدى تيزل فى مسرحية « مدرسة الفضائح » ، وقد اكتسبت مارى روبنسن اسمها الشعبى « برديتا » بفضل اجادتها تمثيل ذلك الدور فى « قصة الشتاء » .

وكانت خليلة لأمير ويلز وغيره من العشاق الأقل شأناً ، وصورها رينولدز وجينزبرو ورومنى .

أما ربة المسرح الواعية بقدرها فكانت ساره كمبل سيدونز . ولدت لممثل جوال فى خان بويلز (١٧٥٥) ، وتزوجت فى الثامنة عشرة بالممثل وليم سيدونز ، ثم لمعت وهى فى التاسعة عشرة فى مسرحية أوتواى « فينيسيا المصونة » . ثم استخدمها جاريك بعد سنة ، ولكن النقاد حكموا بأن « قدراتها لاترقى إلى مستوى المسرح اللندنى » . ونصحها هنرى وودوارد الذى كان يمثل الأدوار الهزلية لجاريك بأن تعود إلى مسارح الريف فترة . ففعلت ، وظلت ست سنوات تمثل فى البنادر . فلما أن دعيت ثانية إلى درورى لين عام ١٧٨٢ ، أدهشت كل إنسان بتطورها ممثلة . وكانت البادئة بارتداء زى العهد الذى تمثله فى أدوارها . ولم يلبث جاريك أن فضلها فى تمثيل الأدوار الشكسبيرية ، وبهتت لندن من الجلال والأسى اللذين سمت بهما بدور الليدى مكبث . وقد اكتسبت حياتها الخاصة احترام وصداقة كبار معاصريها ، وكتب جونسن اسمه على هدب ثوبها فى اللوحة التى صورها فيها رينولدز ربة للمأساة ، وقد وقع من نفسه « بالغ تواضعها وكياستها » حين زارته[٧٣] . وواصل اخوان وأخت لها واثنتان من بنات اخوتها مشاركة أسرة كمبل فى المسرح حتى ١٨٩٣ . وبفضلها وبفضل جاريك ارتفع مقام الممثلين الاجتماعى ، حتى فى بلد كانجلتره جعل من الفوارق الطبقية روح الحكومة وأداتها .

(ب) جاريك

كل الذين عرفوا أخبار جونسن يذكرون أن ديفد جاريك ولد فى لتشفيلد (١٧١٧) ، والتحق بمدرسة جونسن فى ايديال (١٧٣٦) ، ورافقه فى هجرتهما التاريخية إلى لندن (١٧٣٧) . وإذ كان يصغر جونسن بسبع سنين ، فإنه لم يكسب قط صداقة جونسن الكاملة ، لأن أكبر الرجلين سناً لم يستطع أن يغفر لديفد كونه ممثلا وغنياً .

فلما بلغ جاريك لندن انضم إلى أخيه فى استيراد النبيذ وبيعه . واقتضاه هذا زيارات متكررة للحانات ، وهناك التقى بالممثلين ، فاستهواه حديثهم ؛ وتبع بعضهم إلى ابسويتش حيث سمحوا له بلعب أدوار صغيرة . وتعلم فن التمثيل بسرعة فائقة حتى اضطلع بعد قليل بتمثيل الدور الرئيسى فى « رتشرد الثالث » فى مسرح غير مرخص بجودمانز فيلدز بالطرف الشرقى للندن . وقد استطاب ذلك الدور لأنه كان ضئيل الحجم مثل الملك الأحدب ، ولأنه استمتع بالموت على خشبة المسرح وقد لقى أداؤه من حسن الاستقبال ما جعله يهجر تجارة الخمور ، الأمر الذى أخزى أقاربه فى لتشفيلد وأحزنهم . ولكن وليم بت الأب ذهب وراء الكواليس ليهنئه . أما الكسندر بوب ، الذى كان صاحب عاهة مثل رتشرد ، فقد قال لمشاهد آخر ، « إن هذا الفتى لم يكن له نظير قط ، ولن يكون له منافس أبدا »[٧٤]. فهنا ممثل سكب كل جسمه وروحه فى الدور الذى يؤديه ؛ ممثل تقمص رتشرد الثالث بوجهه وصوته ويديه وهيكله المحطم وعقله الماكر وأهدافه الشريرة ؛ ممثل لايكف عن لعب دوره حين يتكلم الآخرون ، وينساه بمشقة إذا ترك خشبة المسرح . وسرعان ما غدا حديث رواد مسارح لندن ، فذهب علية القوم لمشاهدته ، وتعشى معه اللوردات ، وكتب توماس جراى يقول « فى جودمانز كفيلدز اثنا عشر دوقاً كل ليلة »[٧٥] وأعلن آل جاريك بلتشفيلد فى زهو قرابة ديفد لهم .

ثم جرب بعد هذا دور لير (١١ مارس ١٧٤٢) ، ففشل ؛ فلقد كان فيه من نشاط الحركة ما منعه من تمثيل دور شيخ فى الثمانين ، ولم يكن قد اكتسب وقار الملوك . على أن الفشل هذبه وتبين أنه عظيم النفع له . فأقلع عن لعب الدور حينا ، ودرس المسرحية ، ودرب نفسه على تعبيرات سحنة لير التعس ، ومشيته المزيلة ، وبصره المضعضع ، ونبراته الحادة الباكية . وفى ابريل عاود التجربة . ورأى النظارة أنه تغير تماماً ، فبكوا وهتفوا ، ذلك أن جاريك خلق دوراً آخر من الأدوار التى ستذكر الناس باسمه قرابة قرن من الزمان . وصفق الناس جميعاً إلا جونسن الذى انتقد التمثيل زاعماً أنه مجرد بانتومايم ، وهوراس ولبول الذى زعم أن فى تعبيرية جاريك غلوا ،

وجراى الذى أسف على الهبوط من الانضباط الكلاسيكى إلى الانفعالية والعاطفية الرومانتيكيتين . وشكا الدارسون من أن جاريك لم يمثل نصاً شكسبيرياً خالصاً بل طبعة مراجعة منقحة « أحياناً بقلم جاريك نفسه ؛ فنصف أبيات رتشرد الثالث كما مثلها كتبه كولى كبر [٧٦] ، وآخر فصل فى « هاملت » كما مثله قد غير فيه وبدل ليقدم خاتمة رقيقة للمأساة .

فى ذلك الموسم (١٧٤١ — ٤٢) لعب جاريك ثمانية عشر دوراً — وهو عمل جبار يدل على ملكات خارقة فى التذكر والتركيز . وكان إذا مثل امتلأ المسرح برواده ؛ فإذا لم يكن له دور خلا نصفه . وعانت المسارح المرخصة من تناقص روادها . وأكره مسرح جودمانز فيالمز بتدابير من وراء الستار على أن يغلق أبوابه . فوقع جاريك لموسم ١٧٤٢ — ٤٣ عقداً مع مسرح دروورى لين حين أسقط فى يده بلدون خشبة المسرح : نظير ٥٠٠ جنيه — وكان راتباً قياسياً لممثل . ثم رحل إلى دبلن أثناء ذلك الموسم الربيع . وكان هندل قد استهوى أهل المدينة لتوه بأوراتوريو « المسيا » (١٣ ابريل ١٧٤٢) ، فغزاها الآن جاريك وبج وافنجتن بشكسبير . فلما عادا إلى لندن أقاما فى معيشة واحدة ، واشترى جاريك خاتم الخطبة . ولكن غاظها منه شحه . وغاظه منها إسرافها . فبدأ يسائل نفسه أى زوجة تراها منبعثة من ماضى بج المخلط . واحتفظ بالخاتم ، ثم افترقا (١٧٤٤) .

ولقد كان تمثيله فى دروورى لين استهلالا لعهد جديد فى الفن . كان يبذل لكل دور يؤديه قصارى طاقته وحرصه المتواصل على أن تتوافق كل حركة من حركات جسمه وكل نبرة من نبرات صوته مع شخصية الدور . ولقد بث الحيوية كلها فى رعب مكبث وفزعه ، حتى ظل هذا الدور ، أكثر من أى من أدواره الأخرى ، باقياً فى ذاكرة الشعب . وأحل محل الأسلوب الخطابى الذى جرى عليه قدامى التراجيديين كلاماً أكثر طبيعية . وقد أحرز حساسية فى تعبير الشخصية كانت تتغير مع أيسر تغيير فى التفكير أو المزاج فى النص . قال جونسن ملاحظاً بعد سنوات ، « إن ديفد يبدو أكثر سناً مما هو بكثير . لأن وجهه كانت مهمته ضعف مهمة أى رجل آخر ، فهو

لا يستقر أبداً »[٧٧] . ثم هناك تعدد قدراته ، فقد لعب الأدوار الكوميدية تقريباً بكل العناية والكمال اللذين بذلهما فى لعب دور مكبث أو هملت أولير .

وبعد أن قضى جاريك خمسة مواسم ممثلا وقع (٩ ابريل ١٧٤٧) عقداً يقسم إدارة دروورى لين بينه وبين جيمس ليسى : فيضطلع ليسى بالأعمال الإدارية ، ويختار جاريك التمثيليات والممثلين ويدير البروفات . وخلال فترة إدارته التى امتدت تسعة وعشرين عاماً أخرج خمساً وسبعين مسرحية مختلفة ، وكتب هو نفسه مسرحية (بمشاركة جورج كولمان) ، وراجع أربعاوعشرين تمثيلية لشكسبير ، وألف عدداً كبيراً من المقدمات ، والخواتيم ، والفارصات ، وكتب للصحف مقالات غفلا من الإمضاء تدعم عمله وتشيد به . وكان يقدر المال ، وكيف اختياره للمسرحيات وفق أعظم قدر من السعادة لأعظم عدد من رواد المسرح . وقد أحب التصفيق كما لابد أن يحبه الممثلون والكتاب ورتب الأدوار ليحظى بأكثره . وكان رأى ممثليه أنه مستبد بخيل ، وشكوا من أنه يغمطهم أجورهم بينما هو يثرى . ولقد أقر النظام والانضباط بين أفراد فيهم غيرة وإفراط فى الحساسية ويشرف كل منهم على العبقرية أو يطيل التفكير فيها . وكانوا يتذمرون ، ولكن أبهجهم أن يبقوا معه ، لأنه ما من فرقة أخرى أبلت هذا البلاء الحسن فى التصدى لرياح الحظ وتقلبات الذوق .

وفى ١٧٤٩ تزوج جاريك إيفا ماريا فايجل ، وهى راقصة من فيينا قدمت إلى انجلتره باسم « الآنسة فيووليت » وظفرت بالتصفيق والاستحسان الحار على أدائها فى باليهات الأوبرا . وكانت كاثوليكية تقية ، وظلت كذلك ، وقد ابتسم جاريك لاعتقادها بقصة القديسة أورسولا والأحد عشر ألف عذراء[٧٨] . ولكنه احترم إيمانها لأنها عاشت أمينة لناموسه الأخلاق . ولقد فعلت الكثير بمحبتها ووفائها لتخفيف التوتر الذى تنطوى عليه حياة الممثل المدير . فأغدق ثراءه عليها ، واصطحبها فى سياحات بالقاهرة ، وابتاع لها بيتاً غالياً فى قرية هامتن . وهناك ، وفى بيته اللندنى على أدلفى تراس ، كان يستضيف زائريه فى بذخ ، وأسعد الكثير من اللوردات وكبار

الأجانب أن ينزلوا ضيوفاً عليه . وهناك كان يقصف ويمرح مع فانى بيرنى . وآوى هانا مور .

وفى ١٧٦٣ اعتزل التمثيل إلا فى المناسبات الخاصة . قال « الآن سأقعد وأقرأ شكسبير »[٧٩] . وفى ١٧٦٨ اقترح وخطط وأشرف على أول مهرجان لشكسبير فى ستراتفورد – أن – ايفن . وواصل إدارته الدروورى لين « ولكنه وجد غضبات الممثلين ومشاجراتهم تزداد ضغطاً على أعصابه الشائخة . وعليه فنى مطلع عام ١٧٧٦ باع نصيبه فى الشركة لرتشرد برنسلى شريدان ، وفى ٧ مارس أعلن أنه سيتقاعد بعد قليل . وظل ثلاثة أشهر بعد هذاالإعلان يقوم بتمثيل الوداع لأدواره الحبيبة ويحظى بسلسلة من الانتصارات لعل ممثلا آخر لم يعرفها قط على امتداد التاريخ . وقد أثار رحيله عن خشبة المسرح من الحديث فى لندن قدر ما أثارته الحرب مع أمريكا . وفى ١٠يونيو ١٧٧٦ اختتم حياته المسرحية بإعانة مالية وهبها لصندوق الممثلين العجزة .

ومد له فى الأجل ثلاث سنين أخر . ثم مات فى ٢٠ يناير ١٧٧٩ بالغا الثانية والستين . وفى أول فبراير حمل جثمانه إلى كنيسة وستمنستر على أكتاف أفراد من أرفع نبلاء بريطانيا « ووورى ركن الشعراء عند قدمى تمثال شكسبير .

٦ – لنـــدن

بدت لندن أول مرة لجونسن (١٧٣٧) فى صورة ملؤها الاشمئزاز الشديد الغيور على الفضيلة .

« الحقد هنا يأتمر مع السلب وسوء الحظ ، ويثور رعاع أحياناً ، ويشب حريق أحياناً ، وطغام أوباش يختبئون هنا .

ويجوس محام يلتمس فريسة ، وبيوت هاوية ترعد من فوقك ، وامرأة كافرة تغرقك حديثاً يزهق روحك[٨٠] .

(•) الليدى مارى ورتلى مونتجيو ؟

هذه بالطبع كانت بعض جوانب لندن اختيرت وقوداً لغضب الشباب الذى لم يجد له مكاناً بعد .

ولكن جونسن وصف لندن بعد ذلك بثلاث سنوات بأنها « مدينة اشتهرت بالثراء والتجارة ووفرة الخيرات وبكل لون من ألوان الكياسة والأدب ، ولكنها تعج بأكوام القذارة التى لو رآها إنسان متوحش لأخذته الدهشة »[٨١] . ذلك أن السلطات البلدية فى ذلك الحين كانت تترك مهمة تنظيف الشوارع للمواطن ، الذى أوصى بأن يحتفظ بالمظهر الأنيق للرصيف — أو التراب — أمام منزله . وفى ١٧٦٢ رتبت قوانين وستمنستر للرصف تنظيف البلدية للشوارع ، وجمع القمامة ، ورصف الطرق الرئيسية وترميمها ، وإنشاء نظام للمجارى تحت الأرض . وسرعان ما نهجت أقسام أخرى من لندن هذا النهج . فكانت الطرقات المرتفعة تحمى المشاة ، والبالوعات تصرف مياه الشوارع . وشقت الشوارع الجديدة فى خطوط مستقيمة ، وبنيت البيوت بناء أصلب وأمتن . وأطلقت العاصمة الوقور رائحة ألطف .

وخلت المدينة من مصلحة عامة للحريق ، ولكن شركات التأمين احتفظت بفرق خاصة للإطفاء بالخراطيم ، للحد من خسائرها . وكان تراب الفحم والضباب أحياناً يتضافران ليلبدا المدينة بغطاء قاتم صفيق يستحيل على المرء معه أن يميز صديقه من عدوه . فإذا انجابت السماء أشرقت بعض الشوارع الحوانيت الزاهية . وفى حى الستراند كانت أكبر وأغنى المتاجر فى أوربا تعرض وراء نوافذها منتجات نصف العالم . وغير بعيد منها قامت مئات الحوانيت التى تشغى بعشرات الحرف ، ثم انبثت هنا وهناك الفواخير ومصانع الزجاج ودكاكين الحدادين ومعامل الجعة . وأسهمت ضوضاء الصناع والتجار ، والعربات والجياد ، والباعة الجائلين والمغنين فى الطرقات ، فى ضجيج الحياة وفى الإحساس بها . فإذا أراد المرء مكاناً أهدأ وهواء أنقى ففى وسعه أن يمشى الهوينا فى حديقة سانت جيمس ، أو يتطلع إلى السيدات الفاتنات يطوحن تنانيرهن الفضفاضة ذات اليمين وذات الشمال ويعرضن أحذيتهن الحريرية فى البلمل . وفى الصباح يستطيع المرء شراء الحليب الطازج من فتيات يحلبن الأبقار على عشب الحديقة . وفى المساء قد

بجوس كبوزويل بحثاً عن فتاة من بنات الهوى أو ينتظر هبوط الليل الذى يستر كثرة من الأوزار . وأكثر بعداً ناحية الغرب يستطيع أن يركب جواداً أو عربة فى هايد بارك . ثم هناك منتجات اللهو الكبرى . فوكسهول بحشودها الزاهية ، وأفدنة حدائقها وممشيها المشجرة ، ورانلاج بقاعتها الفسيحة المدرجة ، حيث عزف موتسارت وهو طفل فى الثامنة .

وكان للفقراء مشارب للجعة ، وللطبقتين الوسطى والعليا أندية ، وللجميع حانات . فكان هناك حانة « البورز هد » و « المايتر » حيث كان يتعشى الخان الأكبر (جونسن) . وحانة الجاوب الحبيبة إلى قلب جولدسمث ، وحانة الشيطان التى رفهت عن نفر من مشاهير الرجال من (بن) جونسن إلى (صموئيل) جونسن . وكان هناك مكانان باسم « تيركس هد » (رأس التركى) أحدهما حانوت قهوة فى الستراند ، والآخر حانة فى شارع جرارد . أصبحت مقراً لـ « النادى » . وكانت النساء يختلفن إلى الحانات كالرجال ، وبعضهن معروضات للبيع . وفى أندية كنادى هوايت أو نادى ألماك (الذى أصبح نادى بروكس) كان سراة القوم يستطيعون الشراب ولعب القمار فى خلوة مع نفر مختار . ثم هناك المسارح بكل ما تتيحه منافساتها من إثارة وببعثه نجومها من تألق وبهاء .

وقامت المواخير على مقربة من المسارح . فشكا الوعاظ من أنه « إلى التمثيليات والفواصل الموسيقية المذكورة تختلف عادة أعداد غفيرة من سفلة القوم وعاطليهم وشذاذهم ، وبعد أن ينتهى التمثيل ينطلقون إلى بيوت الدعارة »[٨٢] . وكانت أكثر الطبقات التى فى طاقتها الاختلاف إلى المومسات تتعامل معهن تعامل الزبائن الدائمين ، وتجمع على الأغضاء عن هذه العادة باعتبارها لا محيص عنها فى الحالة الراهنة لتطور الذكور . وكان هناك بعض الغوانى الملونات اللاتى اجتذبن الزبائن حتى من طبقة النبلاء . ويصف بوزويل اللورد بمبروك وقد أنهكت قواه بعد ليلة قضاها فى ماخور للسود[٨٣] .

واستمر وجود الأحياء الفقيرة المزدحمة ، ولم يكن أمراً غير عادى أن تعيش أسرة من أسر الطبقات الدنيا فى حجرة واحدة من حجرات المبنى .

وكان أفقر القوم يسكنون أقباء رطبة غير مدفأة ، أو عليات يتسرب الماء من أسطحها ؛ والبعض ينامون على أسرة فى الجدران وفى مداخل البيوت أو تحت السقائف . قال جونسن للآنسة رينولدز إنه « وهو عائد إلى مسكنه نحو الساعة الأولى أو الثانية صباحاً كثيراً ما رأى أطفالا فقراء ينامون على العتبات والأكشاك وأنه ألف أن يضع بنسات فى أيديهم ليشتروا بها فطورهم »[٨٤] . وأخبر قاض جونسن أن أكثر من عشرين لندنياً فى الأسبوع يموتون جوعاً[٨٥] . وكانت الأوبئة تتفشى فى المدينة بين آن وآن . ومع ذلك ازداد سكانها من ٦٧٤,٠٠٠ عام ١٧٠٠ إلى ٩٠٠,٠٠٠ فى ١٨٠٠[٨٦] ، ربما بسبب هجرة الفلاحين الذين لايملكون أرضاً ، وبسبب نمو التجارة والصناعة .

وغص التيمز وأرصفته بالسفن التجارية وشحناتها . كتب معاصر يقول « إن سطح التيمز بأكمله يغص بصغار السفن ، والصنادل ، والزوارق ، والمراكب الخفيفة ، الغادية الرائحة ، وتحت الكبارى الثلاثة غابة من الصوارى تمتد أميالا بطولها حتى ليخيل إليك أن سفن العالم كله قد احتشدت هنا »[٨٧] . وقد أضيف كبريان جديدان فى هذه الفترة : بلاكفرايرز وباترسى . وقد رسم المصور كاناليتو الذى قدم إلى لندن من البندقية (١٧٤٧ و ١٧٥١) مناظر بهية للمدينة وللنهر ، وأتاحت النسخ المطبوعة من هذه المناظر للأوربيين المتعلمين التعرف على نمو لندن التى أصبحت أهم ثغر فى العالم المسيحى .

ولم يعرف التاريخ منذ أيام روما القديمة مدينة بلغت هذه المبلغ من الاتساع والثراء والتعقد (باستثناء القسطنطينية) . ففى قصر سانت جيمس الملك والملكة وحاشيتاهما ، والبلاط ومراسمه ، وفى الكنائس الأساقفة السمان يتمتمون بعبارات منومة ، والمصلون المتضعون يسترخون من عناء الواقع ويطلبون العون الإلهى . وفى البرلمان اللوردات وأعضاء مجلس العموم يمارسون لعبة السياسة ويباذقهم أرواح البشر ؛ وفى قصر العمدة يضع العمدة ومعاونوه ذو البزة الرسمية اللوائح الخاصة بالكنائس والمواخير ، ويتساءلون عن السبيل إلى السيطرة على الوباء القادم أو شغب الغوغاء التالى ؛ وفى الثكنات الجنود يقامرون ويفسقون وينجسون الهواء ، وفى الحوانيت

الخياطون يقوسون ظهورهم ، والسباكون يستنشقون الرصاص ، والصاغة والساعاتيون والأساكفة والحلاقون والخمارون يهرولون لتلبية مطالب السيدات والسادة ؛ وفى جراب ستريت أو فليت ستريت الكتاب المأجورون يتملقون زبائنهم ، ويسقطون الوزارات ، ويتحدون الملك ؛ وفى السجون رجال ونساء يموتون بالعدوى أو يرقون إلى جرائم أشد نكرا ، وفى المبانى الحقيرة والأقباء قوم جياع عاثرو الحظ مهزومون يستكثرون من أشباههم فى شوق وبغير توقف .

ورغم هذا كله أحب جونسن وكاتب سيرته لندن . فقد أعجب بوزويل بـ « الحرية والنزوات . . . والشخصيات العجيبة » وعا فى دنيا التجارة واللهو من شدة الزحام والعجلة والصخب ، وبالعدد الغفير من الملاهى العامة ، والكنائس الرفيعة والأبنية الباذخة ، ورضى المرء وهو ينفذ ما يحلو له من خطط دون أن يعرفه أو يلحظه أحد »[٨٨] — هذا الانغمار فى الزحام انغماراً حامياً حانياً للشخصية المجهولة . أما جونسن الذى استطاب وعمق « التدفق الشديد لحديث لندن » فقد حسم الأمر بسطر واحد كان حجة فى بابه « إذا مل إنسان لندن فقد مل الحياة »[٨٩] .

* * *

الفصل الثلاثون

عصر رينولدز

١٧٥٦ — ٩٠

١ — الموسيقيون

أولعت انجلترة بالموسيقى الرائعة ، ولكنها عجزت عن إنجابها .

لقد تكاثر تذوقها . في اللوحة التي رسمها زوفاني « أسرتا كوبر وجور » نرى الدور الذي لعبته الموسيقى في البيوت الراقية . ونسمع عن مئات المغنين والعازفين الذين جمعوا معاً لحفلة تخليد ذكرى هندل في ١٧٨٤ . وقد أعلنت « المورننج كرونكل » في عدد ٣٠ ديسمبر ١٧٩٠ اعلاناً للشهور التالية عن سلسلة من « حفلات موسيقية يؤديها المحترفون » ، وسلسلة أخرى من « حفلات للموسيقى القديمة » ، و « حفلات موسيقية للسيدات المتبرعات » في أمسيات الآحاد ، وعن أوراتوريوات مرتين في الأسبوع ، وست حفلات حفلات للموسيقى السمفونية يقودها المؤلف بشخصه — جوزف هايدن[١] . وهذا ينافس ثروة لندن الموسيقية اليوم . وكما أن البندقية ألفت من اليتامى فرقاً للإنشاد ، فكذلك كان « أطفال المبرة » في كتدرائية القديس بولس يحيون حفلات موسيقية سنوية كتب هايدن عنها يقول :

« لم تؤثر في أي موسيقى أخرى في حياتي هذا التأثير الشديد »[٢] ، وكانت الحفلات الموسيقية والأوبرات الخفيفة تقدم في قاعة رانيلاج وفي حدائق ما ريلبون . وقدمت اثنتا عشرة جمعية من هواة الموسيقيين حفلات عامة . وذاع حب الانجليز للموسيقى ذيوعاً اجتذب الكثير من العازفين

والمؤلفين إلى الجزيرة — جيمنياني ، وموتسارت ، وهايدن ، ويوهان كرستيان باخ ، ومكث فيها باخ ولم يرحل عنها .

وفتر الميل إلى الأوبرا الجادة فى انجلتره بعد أن أتخمها هندل . ثم عاد شىء من التحمس لها حين استهل جوفانى مانتزولى موسم ١٧٦٤ بأوبرا «اتسيو» . وقد وصف بيرنى صوته بأنه «أقوى وأضخم سوبرانو سمع على مسرحنا منذ فارينللى»[٣] وكان هذا على ما يبدو آخر انتصار للأوبرا الإيطالية فى انجلتره فى ذلك القرن . فلما احترقت دار الأوبرا الإيطالية فى لندن (١٧٨٩) اغتبط هوراس ولبول وتمنى ألا يعاد بناؤها أبداً[٤] .

وإذا كان العهد قد خلا من المؤلفين الموسيقيين الجديرين بالذكر فإنه أنجب مؤرخين موسيقيين بارزين صدرت أعمالهما فى ذات السنة (١٧٧٦) «سنة العجائب» التى ظهر فيها كتاب «اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية» و «ثروة الأمم» . فضلا عن الإعلان الأمريكى للاستقلال . فكتاب السر جون هوكنز ذو الأجزاء الخمسة «التاريخ العام لعلم الموسيقى وممارسته» عمل ينبىء عن دراسة مدققة . ومع أنه هو نفسه لم يكن موسيقياً (إذ كان محامياً عاماً ثم قاضياً) فإن معايير» ثبتت وسط تقلبات الرأى الناقد . أما المؤرخ الثانى «تشارلز بيرنى» فكان عازف أرغن فى كتدرائية القديس بولس وأكثر معلمى الموسيقى زبائن فى انجلتره . وقد أكسبته طلعته الوسمية وشخصيته المحبوبة فضلا عن ثقافته المتعددة صداقة جونسن وجاريك وبيرك وشريدان وجبون ورينولدز — الذى رسم له لوحة جذابة دون أن يتقاضى عنها أجراً[٥] . وقد جاب أرجاء فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ليجمع المواد لكتابه «التاريخ العام للموسيقى» . وتكلم كلام خبير على المؤلفين الموسيقيين الذين كانوا يومها على قيد الحياة . وحوالى ١٧٨٠ قال ان «شيوخ الموسيقيين يشكون من غلو شبابهم ، وشبابهم يشكو من جفاف الشيوخ وخشونتهم»[٦] .

٢ — المعماريون

اشتبك البناءون الانجليز الآن فى منافسة ساخنة بين الإحياء القوطى والإحياء

الكلاسيكى . ذلك أن بهاء الكتدرائيات القديمة ، وفخامة الزجاج الملون الأثارية ، والأطلال المكسوة باللبلاب والمتخلفة من أديرة العصر الوسيط فى بريطانيا ، كل أولئك حفز الخيال ليصور العصور الوسطى فى صورة الكمال ، وتوافق مع الانتفاض الرومانتيكى المتزايد على طراز الثنائيات الكلاسيكية ، والأعمدة الجامدة ، والقواصر الثقيلة . فاستخدم هوراس ولبول سلسلة من معارى المرتبة الثانية ليعيدوا بناء بيته «ستروبرى هل» فى توبكنام بطراز وحلية قوطيين (١٧٤٨ — ٧٣) ، وأنفق أعواماً من الاهتمام البالغ ليجعل من بيته الحفيظ على الطراز المضاد للطراز البلاديوى . وكان يضيف إليه الحجرات عاماً بعد عام حتى اكتمل له منها اثنتان وعشرون وبلغ طول إحداها — وهى «قاعة الفنون» التى ضمت مجموعات تحفه — خمساً وستين قدماً . وغلب عليه استعمال الشرائح الخشبية المكسوة بالجص بدلا من الحجر . ويتضح لنا — حتى من أول نظرة — ما هذا الطراز من هشاشة قد تغتفر فى الحلية الداخلية ولكنها لا تغتفر فى البناء الخارجى . وقد وصف سلوين قصر ستروبرى هل هذا بأنه «قوطى هش مثل كعكة الزنجبيل»[٧] ، وقدر ظريف آخر أن ولبول عمر بعد تهدم ثلاثة مجموعات من الأسوار المفرجة التى[٨] اقتضى الأمر ترميمها المرة بعد المرة .

على أن بلاديو وفتروفيوس ظلا رغم هذه التجارب الربين الحارسين للعمارة الانجليزية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كما كانا فى نصفه الأول . وقد تدعمت الروح الكلاسيكية بفضل الحفائر التى أجريت فى هركولانيوم وبومبيى ، وذاعت بفضل الأوصاف المنشورة عن الأطلال الكلاسيكية التى عثر عليها فى أثينا وتدمر وبعلبك . ودافع السر وليم تشيمبرز عن الرأى البلاديوى فى كتابه «بحث فى العمارة المدنية» (١٧٥٩) وعزز النظرية بالتطبيق حين أعاد تشييد «سومرست هاوس» (١٧٧٦ — ٨٦) بواجهة عريضة فيها النوافذ بطراز النهضة والأروقة الكورنثية الممدة .

ثم وفدت من اسكتلنده أسرة لامعة من اخوة أربعة هم جالك وروبرت وجيمس ووليم آدم ليهيمنوا على العمارة الانجليزية فى نصف القرن الذى نحن بصدده . وقد ترك روبرت أقوى البصمات على جيله . فقد أنهى دراسته

فى جامعة إدنبره ، ثم أنفق ثلاث سنين فى إيطاليا حيث التقى ببيرانيزى وفنكلمان . وقد لاحظ أن القصور الخاصة التى امتدحها فتروفيوس قد اختفت من روما ، وانتهى إليه أن واحداً منها مازال سليماً نسبياً ، وهو قصر دقلديانوس فى سبالاتو (وهى الآن سبليت فى يوغوسلافيا) فاتخذ سمته إلى تلك العاصمة الدلماشية العتيقة ، وأنفق خمسة أسابيع يقيس ويرسم ، ثم ألقت السلطات القبض عليه ظناً منها أنه جاسوس ، ثم أفرج عنه ، وألف كتاباً عن أبحاثه ، وقفل إلى انجلتره وقد عقد العزم على استعمال الطرز الرومانية فى العمارة البريطانية . فنى ١٧٦٨ استأجر هو وأخوته مساحة من الأرض المنحدرة بين السترائد والتمز لتسعة وتسعين عاماً ، وشيدوا فوقها « أدلفى تراس » الشهير — وهو حى من شوارع بديعة وبيوت جميلة فوق جسر تدعمه البواكى والعقود الرومانية الضخمة ؛ هنا عاش بعض الدرامين الكبار ، من جاريك إلى برنارد شو . كذلك صمم روبرت بعض القصور المشهورة ، مثل قصر « بيوت » المسمى لوتن هو (أى بيت لوتن ، على ثلاثين ميلا شمالى لندن) . قال جونسن « هذا أحد الأماكن التى لا أندم على أنى جئت لأشهدها[٩] » ، ومعروف أنه كان رجلا عسير الإرضاء .

وقد انتصرت الطرز الكلاسيكية بوجه عام على الأحياء القوطى . وشيد كثير من قصور هذا العهد الكبرى ؛ مثل كارلتن هاوس بلندن ، وهيروود هاوس بيوركشير ، بالطراز الكلاسيكى الحديث . ولم يعمر ولبول ليشهد عودة الطراز القوطى مكللا بالنصر والبهاء فى دارى البرلمان (١٨٤٠ — ٦٠) .

٣ — ودجوود

لم يقنع الأخوة آدم بتصميم المبانى وما احتوته فى داخلها ، بل صنعوا بعضاً من أجمل أثاث العصر . غير أن ألمع الأسماء فى هذا المضمار هو اسم توماس تشبنديل ، الذى نشر فى ١٧٥٤ وهو فى السادسة والثلاثين كتاب « مرشد الجنتلمان ونجار الأثاث » ، الذى كان لفن صناعة الأثاث ما كانه

كتاب رينولدز « أحاديث » لفن التصوير . وكانت المنتجات التى تفرد بها هى المقاعد ذات « الظهور الشريطية » الرقيقة والقوائم الجذابة . ولكنه أبهج النبلاء والنبيلات فى عهد جورج الثالث كذلك بالخزائن » والمكاتب » والمناضد ، ودواليب الكتب ، والمرايا ، والموائد ، والأسرة ذات الأعمدة الأربعة — وكلها أنيق » وأكثرها مبتكر ، هش رقيق عموماً .

وظلت هذه الرقة طابع فن منافسه جورج هبلوايت ، وخلفهما توماس شيراتون . ويبدو أنهم اعتنقوا نظرية بيرك التى زعمت أن الجمال يجب أن يكون هشاً رقيقاً ، فى الفن كما هو فى الحياة . أما شيراتون فقد دفع الخفة والرشاقة إلى الذروة ، وتخصص فى الخشب الملون وغيره من المنتجات البديعة التجزع . وكان يصقلها فى أناة ، ويلونها فى رقة » ويكفتها أحياناً بزخارف معدنية . وقد أورد فى « قاموس الأثاث» (١٨٠٢) قائمة حوت ٢٥٢ من « كبار صناع الأثاث » يشتغلون فى لندن أوقربها . ونافست الطبقات العليا فى انجلترا الآن نظائرها الفرنسية فى صقل أثاثها وتجهيزاتها الداخلية .

وكانوا أسبق من الفرنسيين فى تصميم الحدائق والبساتين . وقد لقب لانسلوت براون « Capability » (أى القدرة) لأنه كان يفطن بسرعة كبيرة للقدرات التى تتيحها أرض زبونه للتصميمات الغريبة — والغالية ؛ وبهذه الروح صمم الحدائق فى بلنهيم وكيو . واتجهت موضة الحدائق الآن إلى الطراز الدخيل » أو غير المتوقع ، أو البهى المنظر . واستعملت نماذج مصغرة من الهياكل القوطية والباجودات الصينية زخارف خارجية ؛ وأدخل السروليم تشيمبرز فى زخرفة حدائق كيو (١٧٥٧ — ٦٢) الهياكل القوطية ، والجوامع المغربية » والباجودات الصينية (المتعددة الأدوار) . وكانت الجرار الجنائزية حليات محببة للحدائق ، تضم أحياناً رفات أصدقاء رحلوا عن هذه الدنيا .

أما فنون الخزف فقد تطورت تطوراً كاد يكون ثورياً . فكانت انجلترا تنتج زجاجاً لا يقل جمالا عن أى زجاج مصنوع فى أوربا[١٠] . وكانت مصانع الخزف فى تشلسى وداربى تصنع الأشكال المبهجة بالبرسلان ، بطراز سيفر عادة . ولكن أنشطة مراكز الخزف كانت « المدن الخمس »

فى ستافورد شير — لا سيما بير سليم وستوك — أن — ترنت . وقبل مجىء جوسيا ودجوود كانت هذه البضاعة فقيرة فى طرائقها ومكاسبها ؛ وكان الخزافون اجلافاً جهلة ، قذفوا وسلى بالوحل حين وعظهم أول مرة ، وكانت بيوتهم عششاً وسوقهم تسدها طرقات لا سبيل إلى اختراقها . وفى ١٧٥٥ اكتشفت فى كورنوول رواسب غنية من الكاولين — وهو طفل أبيض قاس كالذى يستعمله الصينيون ؛ ولكن الموقع كان يبعد مائتى ميل عن المدن الخمس .

وقد بدأ ودجوود وهو فى التاسعة من عمره (١٧٣٩) العمل على دولاب الخزاف . ولم يتلق من التعليم إلا القليل ، ولكنه قرأ كثيراً . وألهمته دراسته لكتاب «كايلوس» «مختارات من الآثار المصرية والأترورية واليونانية والرومانية والغالية» (١٧٥٢ — ٦٧) الطموح إلى تقليد الأشكال الخزفية الكلاسيكية ومنافستها . وفى ١٧٥٣ بدأ العمل بمصنعه الخاص فى «أيفى هاوس» ، وبنى حوله قرب بيرسليم مدينة أطلق عليها اسم إتروريا . وبهمة المحارب وبصيرة رجل الدولة شن حرباً على الظروف التى عوقت هذه الصناعة . ورتب وسيلة أفضل لنقل الكاولين من كورنوول إلى مصانعه ، وشن حملة لإصلاح الطرق وشق القنوات ، وأسهم فى دفع نفقاتها ، وصحت نيته على أن يفتح مسالك من المدن الخمس إلى العالم . وكانت سوق الخزف الجميل الانجليزية حتى ذلك العهد يسيطر عليها خزف مايسن وديلفت وسيفر ، فاستولى ودجوود على السوق المحلية ، ثم على جانب كبير من السوق الأجنبية ، وما وافى عام ١٧٦٣ حتى كانت مصانع خزفه تصدر كل عام ٥٥٠,٠٠٠ قطعة لأوربا وأمريكا الشمالية . وأوصت كاترين الكبرى على طقم للمائدة من ألف قطعة .

وبحلول عام ١٧٨٥ كانت مصانع خزف ستافورد شير تشغل ١٥,٠٠٠ عامل . وأدخل ودجوود تخصص العمل ، وأرسى الانضباط فى المصنع ، ودفع أجوراً حسنة ، وبنى المدارس والمكتبات . وكان يصر على جودة الصناعة ، وقد وصفه كاتب ترجم له قديماً بأنه كان يدب فى أرجاء ورشته عه ساقه الخشبية ، ويحطم بيده كل إناء يظهر به أى عيب صغير ؛ وفى مثل هذه الحالات كان يكتب بالطباشير عادة على مقعد الصانع المهمل هذا

التحذير « هذا لايرضى جوسيا ودجوود »[11] وابتكر العدد الدقيقة ، وجلب الآلات البخارية لتحريك مكناته . ونتيجة لإنتاجه الواسع للخزف التجارى ، بطل الاستعمال العام لمعدن البيوتر فى انجلتره . وتفاوت إنتاجه بين مواسير الفخار لمجارى لندن . وأبدع وأدق الأوانى للملكة شارلوت، وكان يقسم أوانيه المعروضة للبيع إلى « النافع » و « الزخرفى» ولصنع الخزف الزخرفى كان يقلد النماذج الكلاسيكية فى غير مواربة ، كما يرى فى فازاته العقيقية الفاخرة ، ولكنه طور أيضاً أشكالا من بنات أفكاره ، خصوصاً خزف اليشب الشهير ذا الأشكال الإغريقية المنقوشة نقشاً رقيقاً باللون الأبيض على أرضية زرقاء .

وقد جاوز اهتمامه وحماسته الخزف بكثير . فهدته تجاربه التى أجراها للعثور على أخلاط من التراب والكيماويات أكثر إرضاء له ، وعلى طرائق أفضل للحريق ، إلى اختراع « البيرومتر » لقياس درجات الحرارة المرتفعة . وإتاح له هذا الاختراع وغيره من البحوث عضوية الجمعية الملكية (١٧٨٣) وكان عضواً سباقاً فى جمعية إلغاء الرق ، وقد صمم ختمها وصنعه . وقام بحملة لتعميم حق التصويت للذكور وللإصلاح البرلمانى ، وناصر المستعمرات الأمريكية من بداية ثورتها إلى نهايتها . ورحب بالثورة الفرنسية بشيراً بفرنسا أسعد حالا وأعظم رخاء .

وقد هدته فطنته إلى تكليف جون فلاكسمان بعمل الرسوم الجديدة المهذبة لخزفه ومن هذه المهمة انتقل فلاكسمان إلى توضيح أعمال هومر وأسخيلوس ودانتى برسوم قائمة على أساس من فن رسامى الفازات اليونان . وهى رائعة فى خطوطها ، ولكنها لافتقارها إلى الجسم واللون لاتزيد فى جاذبيتها عن جاذبية المرأة مجردة من اللحم . وانتقل بعض هذا البرود إلى تماثيل فلاكسمان ، كما نرى فى تمثاله لنلسن فى كتدرائية القديس بولس ، ولكنه فى تمثال « كيوبيد وما ربيسا »[12] الرخامى حقق أشكالا نابضة بالحياة فى عمل من أفضل تقليدات التماثيل الكلاسيكية . ثم أصبحت التماثيل الجنائزية

مجال تخصصه . فأقامها لتشاترتن فى برستل . ولرينولدز فى كتدرائية القديس بولس . ولباولى فى كنيسة وستمنستر . وقام فى انجلتره بالدور الذى قام به كانوفا فى إيطاليا — وهو المحاولة الكلاسيكية الحديثة لالتقاط رشاقة براكستيليس الناعمة الشهوانية من جديد .

وهناك جمال أقل ، وحياة أكثر ، فى التماثيل النصفية التى نحتها جوزف نولكنز لأعلام الإنجليز . وقد ولد فى لندن لأبوين فلمنكيين ، ودرس فيها حتى بلغ الثالثة والعشرين ، ثم قصد روما ، حيث عاش واشتغل عشر سنين يبيع العاديات الأصلية والمزيفة[١٣] . فلما عاد إلى انجلتره ، نحت تمثالا نصفياً لجورج الثالث وفق فيه توفيقاً لم يلبث أن كثر الطلب عليه . فجلس إليه ستيرن وجاريك وفوكس وبت الثانى ، كذلك جلس إليه جونسن ، وكان فى ذلك ما أسفوا عليه أحياناً ، لأن نولكنز لم يجامل أحداً فى نحت تماثاله . وقد سخط جونسن قائلا ان المثال أظهره وكأنه تعاطى مسهلا[١٤] .

كان العصر عصر حفارين شعبيين ، وكان الجمهور شديد الاهتمام بالشخصيات القوية التى وطئت مسرح السياسة وغيره من المسارح ، وقد نثرت فى طول انجلتره وعرضها نسخ مطبوعة من صور أشكالهم ووجوههم وكادت رسوم جيمس جلرى الكاريكاتورية تبلغ فى أذاها مبلغ رسائل جونيوس ، وقد اعترف فوكس بأن هذه الرسوم أنزلت به « أذى أكثر من المناقشات فى البرلمان »[١٥] . وصور توماس رولاندسن الرجال وحوشاً ، ولكنه رسم أيضاً مناظر طبيعية مبهجة ، وأضحك أجيالا عديدة بكتابه « سياحات الدكتور سنتاكس » . أما بول ساندباى وإدموند داير فقد طورا الرسم بالألوان المائية حتى كاد يبلغ القمة فى الصقل .

وكان البريطانيون العائدون من سياحتهم الكبرى (فى أوربا) يجلبون معهم نسخ الرسوم المطبوعة والمحفورات والصور الزيتية وغيرها وغيرها من التحف ، وانتشر تذوق الفن ، وتكاثر الفنانون ، ورفعوا هاماتهم ، وأجورهم ، ومكانتهم فى المجتمع ، وأنعم على بعضهم بلقب الفروسية . ومنحت جمعية تشجيع الفن والصناعة والتجارة (١٧٥٤) المبالغ الطيبة

جوائزة للفنانين الوطنيين ، ونظمت المعارض . وعرض المتحف البريطانى مجموعاته فى ١٧٥٩ . وفى١٧٦١ أفتتحت جمعية قائمة بذاتها للفنون معارض سنوية . وما لبثت أن انقسمت إلى محافظين ومجددين . فألف المحافظون أكاديمية لندن الملكية بمرسوم و ٥،٠٠٠ جنيه من جورج الثالث . وجعلوا جوشوا رينولدز رئيساً لها ثلاثة وعشرين عاماً . وهكذا بدأ العصر العظيم للتصوير الانجليزى .

٤ — جوشوا رينولدز

وكان قائد المسيرة هورتشرد ولسن ، الذى ولد لقسيس ويلزى ، وقدم إلى لندن فى الخامسة عشرة من عمره ، وكسب قوته برسم الأشخاص . وفى ١٧٤٩ قصد إيطاليا ، وفيها وفى فرنسا استوعب تراث نيقولا بوسان وكلود لوران ، وتعلم أن يؤثر تصوير الأحداث التاريخية والمناظر الطبيعية على تصوير الأشخاص . فلما عاد إلى انجلترة رسم مناظر طبيعية مشرقة الجو ولكنها مكدسة بالأرباب والربات وغيرها من الأطلال الكلاسيكية . وتميزت بالجمال صورة « نهر التمز فى تويكنام »(١٦) التى تلتقط روح نهار صيف انجليزى — المستحمون يسترخون ، والأشجار والزوارق الشراعية لايكاد يحركها النسيم المترقرق . غير أن الانجليز لم يقبلوا على شراء صور المناظر الطبيعية ؛ فقد أرادوا لوحات تخلد وجوههم فى عنفوانهم . ولكن ولسن أصر على رأيه ، وعاش فقيراً فى حجرة نصف مؤثثة فى توتنام كورت رود ، وخفف مرارته بالشراب . وفى ١٧٧٦ أنقذته الأكاديمية الملكية إذ عينته أميناً لمكتبتها . وخلف له موت أخ له ثروة صغيرة فى ويلز ، فأنفق سنيه الأخيرة هناك مغموراً حتى لقد أغفلت الصحف كلها نبأ موته (١٧٨٢).

وعلى النقيض من هذا كانت حياة رينولدز فى فنه مهرجاناً موصولا من أسباب التشريف والثراء . فقد أسعده الحظ بمولده (١٧٢٣) لقسيس ديفونشيرى يدير مدرسة لاتينية ويعشق الكتب التى عثر بينها على « مقال فى فن فنون التصوير» (١٧١٩) من تأليف جوناثان رتشردسن ، وقد ألهمه الكتاب رغبة فى أن يكون مصوراً ووافقه أبواه العطوفان على اختياره ارضاء

له ، فأوفداه إلى لندن ليتتلمذ على توماس هدسن ، وهو رجل ديفوني تزوج بابنة رتشردسن وكان يومها أروج مصور للأشخاص في انجلترة . وفي ١٧٤٦ مات أبوه ، وأقام الفنان الشاب مع أختيه في بلدة هي اليوم بليمث . في ذلك الثغر الشهير التقى بالملاحين وضباط البحرية وصورهم وكون صداقات غالية . فلما كلف الكبتن أوجستس كيبل بحمل الهدايا إلى داي الجزائر ، عرض على جوشوا أن ينقله مجاناً إلى مينورقة ، لأنه علم أن الشاب يتوق للدرس في إيطاليا . ومن مينورقة شق رينولدز طريقه إلى روما (١٧٥٠) .

وأقام بإيطاليا ثلاث سنين يرسم وينسخ الصور . وجهد ليكتشف الطرق التي استعملها ميكلانجو ورفائيل في حذقهما للخط واللون والضوء والظل والنسيج والعمق والتعبير والمزاج . وقد دفع الثمن . فبينما كان ينسخ رفائيل في بعض حجرات الفاتيكان غير المدفأة أصيب ببرد وأنه أضر بأذنه الداخلية . ثم انتقل إلى البندقية ، حيث درس تتسيانو ، وتنتوريتو ، وفيرونيزي ، وتعلم كيف يضفي وقار الأذواج البنادقة على أي إنسان يصوره . وفي طريق عودته إلى وطنه توقف شهراً في باريس ، ولكنه وجد في فن التصوير الفرنسي المعاصر من الأنوثة ما لا يسيغه ذوقه . وبعد أن قضى شهراً في ديفون استقر به المقام مع أخته فرانسيس في لندن (١٧٥٣) ، وهناك أقام ما بقي من عمره .

وللتو تقريباً استرعى الأنظار بصورة أخرى للكبتن كيبل[١٧] — وسيماً متحمساً ، آمراً ناهياً ، هنا أعيد التقليد الفانديكي حتى تصبح اللوحات صوراً متألقة للارسقراطية . ولم يمض عامان حتى بلغ عدد زبائنه ١٢٠ زبوناً . واعترف به القوم أبرع مصور في انجلترة . وكان عيبه التيسير . فقد أصبح شديد الاستغراق والخبرة بتصوير الأشخاص حتى افتقد الوقت والمهارة لرسم الصور التاريخية أو الأسطورية أو الدينية . وقد أجاد رسم بعضها ، مثل « الأسرة المقدسة » و « ربات الحسن الثلاث »[١٨] ولكن الهامة لم يكن فيها . كذلك لم يكن بزبائنه حاجة إلى هذه الصور ، فقد كانوا كلهم تقريباً بروتستنتا يستنكرون الصور الدينية لأنها تشجع عبادة الأوثان فيما يزعمون ؛ وقد أحبوا الطبيعة ، ولكنهم أحبوها ذيلا تلحق به أشخاصهم

أو رحلات صيدهم . وكانوا يتمنون أن يروا أنفسهم دائمي الشباب على جدرانهم ، مخلفين انطباعاً قوياً على ذراريهم . ومن ثم أقبلوا على رينولدز ، ألفان منهم عدداً ، وأرسلوا إليه أزواجهم وأبناءهم ، وأحياناً كلابهم . ولم ينصرف أحد من هؤلاء حزيناً ، لأن خيال رينولدز اللطيف استطاع دائماً أن يعوضهم عما حرمتهم الطبيعة .

ولم يحدث على مدى التاريخ أن حفظ جيل أو طبقة حفظاً كاملا كذلك الذى تراه فى لوحات رينولدز الباقية وعددها ٦٣٠ ؛ فهنا رجال الدولة الذين عاشوا فى ذلك العصر المفعم حيوية : هنا بيوت فى مهرجان من اللون[١٩] ، وبيرك فى اكتئاب عاجله وهو بعد فى الثامنة والثلاثين ، وفوكس مستكرشاً ، حزيناً ، هاماً فى الرابعة والأربعين . . . وهنا الكتاب : ولبول ، وستيرن ، وجولد سمث[٢٠] وهو يبدو حقيقة مثل « بل المسكين » ، وجبون بوجنتيه الممتلئتين اللتين حسبتهما المركيزة دودفان — التى لم تبصر إلا بيديها — مقعدة طفل »[٢١] وبوزويل[٢٢] فخوراً كأنه خلق جونسن ، ثم جونسن نفسه ، مصوراً فى حب خمس مرات ، وجالساً فى ١٧٧٢ إلى رينولدز ليرسم له أشهر ما رسم من صور الرجال[٢٣] . وهنا أعلام المسرح : جاريك « نهبا بين ربتى التراجيديا والكوميديا المتنافستين » ، ومارى روبنسن فى دور برديتا ، والسيدة آبنتن فى دور ربة الكوميديا ، وساره سيدونز فى دور ربة التراجيديا[٢٤] . وقد نقد أحد المتحمسين رينولدز سبعمائة جنيه (١٨،٢٠٠ دولار ؟) ثمناً لهذه الرائعة الفاخرة .

ويغلب على هذا المتحف الذى لاضريب له كثرة عدد النبلاء — أولئك الذين أعطوا نظاماً اجتماعياً لشعب نزاع إلى الفردية ، واستراتيجية ظافرة للسياسة الخارجية ، ودستوراً مقيداً للملك فانظر إليهم أول الأمر فى صباهم الحلو ، كصورة توماس لستر ذى الاثنى عشر ربيعاً — هذه الصورة التى رسمها رينولدز واسمها « الصبى الأسمر » تتحدى صورة « الصبى الأزرق » التى رسمها جنيزبرو . ثم ورمت خصور الكثيرين منهم بعد أن ولت أيام الشباب الخطرة ، مثل أوجسطس كبيل ذاته الذى كان رائع السمت وهو كبتن فى ١٧٥٣ ، ولكنه انتفخ كثيراً وهو أميرال فى ١٧٨٠ . وقد رفق

رينولدز برغم هذه البدانات ، وبرغم الحرير والمخرمات التى اكتسوا بها، فى تحويل الشجاعة والكبرياء غير الملموستين إلى لون وخط. خذ مثلا جسم اللورد هيثفيلد المتين وشخصيته القوية ، يبدو جسوراً فى اللون الأحمر البريطانى ، ممسكاً بالمفتاح إلى جبل طارق الذى دافع عنه دفاعاً مستميتاً ضد حصار الأسبان والفرنسيين الذى امتد أربعة أعوام .

وهكذا تنتهى بنا المسيرة إلى أولئك الربات بين النساء « الليدى جينايكون» اللائى وجدهن رينولدز فى زوجات النبلاء البريطانيين وبناتهم . وإذ كان عزباً فقد كان حراً فى أن يحبهن جميعاً بعينيه وفرشاته ، ويقوم اعوجاج أنوفهن ، ويهذب قسماتهن ، ويرتب شعورهن الطائشة ، ويخلع عليهن بهاء وجلالا بلباس فضفاض رقيق فى خفة الزغب، خليق بأن يجعل فينوس تواقة إلى كساء عريها . فانظر إلى الليدى اليزابث كبيل ، مركيزة تافيستوك ، وقد ارتدت ثياب القصور التى لبستها قبل سنين يوم كانت إشبينة للعروس الملكة شارلوت ، ترى ماذا تكون بغير تلك الطيات من الحرير الملون تطوق ساقين لا يمكن على أية حال أن تختلفا كثيراً عن ساقى زانتيب (زوجة سقراط) ؛ وكان رينولدز أحياناً يجرب ما تستطيع فرشاته أن تصنع بالمرأة وهى فى ثياب بسيطة ؛ فصور مارى بروس دوقة رتشموند فى عباءة عادية تخيط رسماً فى وسادة[٢٥] ؛ هذا وجه يمكن أن يلم بأحلام فيلسوف . وفى ما يقرب من هذه البساطة فى الملبس والصورة الجانبية الملائكية نرى السيدة بوفرى تصغى إلى السيدة كريوى[٢٦] . وكان هناك جمال أعمق حتى من هذا فى وجه إيما جلبرت ، كونتيسة مونت ادجكوم ، الهادىء الرقيق[٢٧] ، وقد دمرت هذه اللوحة الجميلة بفعل غارات العدو فى الحرب العالمية الثانية .

وكان لكل هؤلاء النسوة تقريباً أطفال ، لأنه كان جزءاً من التزام الارستقراطية الاحتفاظ بالأسرة والملكية فى استمرار لاتنفصم عراه . وهكذا صور رينولدز الليدى اليزابث سبنسر ، كونتيسه بمبروك ، مع ابنها ذى السنين الست ، وهو الذى سيصبح فيما بعد اللورد هربرت[٢٨] ؛ وصور السيدة إدورد بوفرى مع ابنتها جورجيانا ذات السنين الثلاث[٢٩] ؛ وصور هذه الأبنه ، بعد أن أصبحت دوقة ديفونشير (الحسناء المرحة التى اشترت

بالقبلات أصوات الناخبين لفوكس فى حملته لانتخابات البرلمان) مع ابنتها ذات السنين الثلاث ، وهى جورجيانا أخرى أصبحت فيما بعد كونتيسة كارليل[٣٠] .

وأخيراً ، وربما أكثر هن جميعاً جاذبية ، الأطفال أنفسهم ، متحف كامل منهم ، وكلهم تقريباً رسمه متفرداً كروح لاتكرار لها ، وفهمه بتعاطف فى تساؤل الصبى وعدم اطمئنانه . ويعرف العالم رائعة رينولدز فى هذا القطاع ، وهى « عصر البراءة »[٣١] ، التى رسمها فى ١٧٨٨ ، فى آخر سنى إبصاره ، بيد أن السرعة التى بلغ بها تفهمه للطفولة حدساً يكاد يكون صوفياً يمكن رؤيتها فى لوحه بجل جمالها عن الوصف رسمها فى ١٧٥٨ للورد روبرت سبنسر وهو فى الحادية عشرة[٣٢] . وبعدها راح يرسم الأطفال فى كل عمر : فى سنها الأولى الأميرة صوفيا ماتيلده ؛ وفى سنته الثانية الغلام وين مع حمله ؛ وفى الثالثة الآنسة باولز مع كلبها ؛ وفى الرابعة الغلام كريوى فى تقليد كامل لهنرى الثامن ؛ وفى نحو هذه السن « الفتاة بائعة الفراولة »[٣٣] ؛ وفى الخامسة ولدا بروميل ، وليم وجورج (الذى أصبح فيما بعد يلقب « بو بروميل ») ؛ وفى السادسة الأمير وليم فردريك ؛ وفى السابعة اللورد جورج كونواى ؛ وفى الثامنة الليدى كارولين هوارد ؛ وفى التاسعة فردريك ، ايرل كارليل ؛ وهكذا قدما إلى الشباب والزواج والإنجاب .

وقد اعترف رينولدز بإيثاره زبائنه من ذوى الألقاب ، « ان التدرج البطىء للأشياء بالطبع يجعل الأناقة والتهذيب آخر آثار الغنى والسلطة »[٣٤] ولا قبل إلا للأغنياء بدفع الجنيهات الثلاثمائة التى يطلبها أجراً عن « لوحة كاملة الطول مع طفلين »[٣٥] . أيا كان الأمر ، فإنه كان قد وقع على منجم ذهب ، وما لبث دخله أن ارتفع إلى ١٦,٠٠٠ جنيه فى العام . وفى ١٧٦٠ اشترى بيتاً فى رقم ١٧ بميدان لستر ، وكان يومها أرق أحياء لندن ، فأثثه تأثيثاً فاخراً ، وجمع له الصور من صنع قدامى الفنانين ، واتخذ مرسماً له قاعة فى سعة صالة الرقص . وكان لى مركبته الخاصة ، تجملها اللوحات المرسومة والعجلات المذهبة ، وطلب إلى أخته أن تركبها طائفة بالمدينة ، لأنه كان يعتقد أن مثل هذا الإعلان عن الثراء كفيل بأن يأتى بالمزيد[٣٦] ،

وفى ١٧٦١ منح لقب الفروسية . وكان يلقى الترحيب فى كل مكان يحل به ضيفاً ، واستضاف هو نفسه أصحاب العبقرية والجمال والنبل ؛ وكان يلتقى على مائدته من رجال الأدب عدد يفوق ضيوف أى رجل آخر فى انجلتره[٣٧] . وقد أهداه جولدسمث قصيدته « القرية المهجورة » وأهداه بوزويل « حياة صموئيل جونسن » . ورينولدز هو الذى أسس فى ١٧٦٤ « النادى » ليتيح لجونسن منبراً من نظرائه .

ولا بد أنه أحب جونسن ، فقد رسم له صوراً كثيرة جداً . ورسم لنفسه أكثر . غير أنه لم يوهب وسامة الطلعة ، فقد كان وجهه شديد الحمرة به ندوب من جدرى أصابه فى طفولته ؛ وكانت ملامحه جافية ، وشفته العليا شوهتها كبوة فى مينورقة . وفى الثلاثين رسم نفسه وهو يظلل عينية ويحاول اختراق تيه من الضوء والظل ليلتقط الروح الكامنة وراء وجه[٣٨] . ثم صور نفسه فى الخمسين وهو فى رداء الدكتوراه ، لأن جامعة أكسفورد كانت قد منحته لتوها الدكتوراه فى القانون المدنى . وأبدع هذه السلسلة صورته المحفوظة فى قاعة الصور القومية ، والتى رسمها حوالى ١٧٧٥ ، وفيها يبدو وقد غدا وجهه أكثر تهذيباً ، ولكن شعره خطه الشيب ، ويده مضمومة إلى أذنة ، لأنه كان فى طريقه إلى الصمم .

وحين أسست أكاديمية الفنون الملكية فى ١٧٦٨ أنتخب رينولدز رئيساً لها بالإجماع ، وظل خمسة عشر عاماً يفتتح موسمها بحديث إلى الطلاب . وكان بوزويل من الأصدقاء الذين جلسوا فى الصف الأمامى فى حديثه الأول (٢ يناير ١٧٦٩) . وقد أدهشت الكثيرين ممن استمعوا إلى هذه الأحاديث بلاغتها الأدبية ، وظن بعضهم أن بيرك أو جونسن كتبها له ، ولكن السير جوشوا كان قد تعلم الكثير من اتصالاته ، وأنشأ له أسلوباً وتفكيراً خاصين . وبالطبع شدد على أهمية الدرس بوصفه أكاديمياً ، واستنكر الفكرة التى تزعم أن العبقرية قد تغنى صاحبها عن التعلم وبذل الجهد الشاق ، وازدرى « شبح الإلهام هذا » ، وأصر على أن « الجهد هو الثمن الوحيد للشهرة الراسخة »[٤٠] . ثم انه « ينبغى اغتنام كل فرصة لاستنكار ذلك الرأى السوقى الباطل — وهو

أن القواعد اغلال تقيد العبقرية »[٤١] ويجب أن يمر التطور الطبيعى للفنان بمراحل ثلاث :

أولا : مرحلة الوصاية — تعلم القواعد ، والرسم ، والتلوين ، والتشكيل ؛ ثانيا : دراسة كبار الفنانين الذين نالوا الاستحسان على طول الزمن ، وبطريق هذه الدراسات « تلتئم الآن أسباب الكمال المتناثرة بين مختلف الفنانين فى فكرة عامة واحدة تفضى إلى تعديل ذوق الطالب وتوسيع خياله ، والمرحلة الثالثة والأخيرة تحرر الطالب من الخضوع لأى سلطان إلا ما يرى بنفسه أن العقل يؤيده[٤٢] . وعندها فقط ينبغى له أن يجدد ويبدع ، « فإذا أحسن إرساء حكمه وإثراء ذاكرته ، استطاع أن يجرب قوة خياله دون أن يعروه خوف . والعقل الذى درب على هذا النحو يمكنه أن يشبع رغبته فى الحماسة المفرطة ويغامر باللعب على حدود الإغراب الشديد»[٤٣] .

وكان هوجارث قد رفض « قدامى الأساتذة » ولقبهم « الأساتذة السود » ، وأشار بتصوير الطبيعة تصويراً واقعياً . أما رينولدز فذهب إلى أن هذه الخطوة ينبغى أن تكون مجرد إعداد لفن أكثر مثالية . « ان الطبيعة نفسها يجب عدم الغلو فى نقلها . . ومطمح المصور الأصيل لابد أن يكون أوسع من هذا . فبدلا من محاولته الترويح عن البشر بالأحكام الدقيق لتقليداته ، عليه أن يحاول تحسينها بسمو أفكاره . . . وعليه أن يكافح لبلوغ الشهرة بأسره للخيال »[٤٤] . ان كل شىء « فى الطبيعة ناقص قاصر عن ادراك الجمال ، وفى صميمه عيب أو نقص ما ، والفنان يتعلم أن يحذف هذه العيوب من ابداعاته ، وهو يجمع فى مثل أعلى واحد مزايا الكثير من الأشكال الناقصة ؛ « انه يصحح الطبيعة بذاتها ، وحالتها الناقصة بحالتها الأكثر كمالا . . وهذه الفكرة ، فكرة الحالة الكاملة للطبيعة » التى يسميها الفنان « الجمال المثالى » هى المبدأ الرئيسى العظيم الذى تؤدى الأعمال العبقرية طبقاً له . ولكى يميز الفنان الناقص من الكامل ، والرفيع من الخسيس ، ولكى يدرب الخيال ويهذبه ويرفعه ، يجب أن يثرى نفسه بالأدب والفلسفة ، وبـ « حديث الرجال المثقفين والمبدعين»[٤٥] . وكذلك فعل رينولدز .

وفى ١٧٨٢ أصيب بالنقطة ، ثم شفى شفاء جزئياً من إصابته . وواصل التصوير سبع سنين أخرى . ثم غامت عينه اليسرى ، وسرعان ما فقدت البصر . وفى ١٧٨٩ بدأت اليمنى فى الضعف ، فوضع فرشاته ، وقد ملأه جزعاً وقنوطاً أن يضاف العمى الكامل تقريباً إلى نصف الصمم الذى ألجأه منذ سنته السابعة والعشرين إلى استعمال بوق الأذن . وفى ١٠ ديسمبر ١٧٩٠ ألقى آخر أحاديثه . وقد أعاد تأكيد إيمانه بالمبادىء الأكاديمية والمحافظة التى نادى بها فى أحاديثه الأقدم عهداً ، وجدد نصيحته بدرس الخط قبل اللون ، والمصورين القدامى قبل محاولة التجديد . ثم اختتم بالثناء الحار على ميكلانجلو :

« لو أتيح لى الآن أن أبدأ الحياة من جديد ، لاقتفيت خطى ذلك الفنان العظيم ، فلثم هدب ثوبه ، والتقاط الطفيف من مواطن كماله ، فيه فخر وامتياز كافيان لرجل طموح . . . ويخيل إلى ، فى شعور لايخلو من الغرور ، أن هذه الأحاديث تشهد بإعجابى بهذا الرجل الملهم حقاً ، وأود أن تكون آخر كلمة أفوه بها فى هذه الأكاديمية ومن هـذا المكان ، هى اسم ميكلانجلوا »[٤٦] .

وتوفى المصور الآسف فى ٢٣ فبراير ١٧٩٢ ، وشرف تسعة نبلاء بحمل رفاته إلى كتدرائية القديس بولس .

٥ — توماس جينزبرو

كان رينولدز رجل دنيا ، لايتردد فى تقديم فروض الاحترام التى يقتضيها قبوله فى المجتمع ، أما جينزبرو فكان ذا نزعة فردية حارة ، تسخطه التضحيات التى تطالب بها شخصيته وفنه ثمناً للنجاح . وكان أبواه من المنشقين على الكنيسة الرسمية ، وورث توماس عنهما استقلال الروح دون أن يرث التقوى . وتروى القصص عن هروبه من المدرسة فى مسقط رأسه صدبرى ليجوب أرجاء الريف راسماً رسوماً تخطيطية للشجر والسماء ، وللماشية ترعى فى الحقول أو تشرب عند بركة . فلما فرغ من رسم جميع الأشجار فى منطقته وهو بعد فى الرابعة عشرة ، حصل على إذن من أبيه

ليذهب إلى لندن ويدرس الفن . وهناك درس نساء المدينة ، كما نستنتج من نصيحته التي بذلها في تاريخ لاحق لمثل شاب : «لا تسرح في شوارع لندن » متوهماً أنك تلتقط لمحات من « الطبيعة » على حساب بدنك . تلك كانت أول مدرسة لي . وأنا عميق الخبرة بالنساء ، فاسمح لي إذن أن أحذرك »[٤٧] .

وفجأة ، وهو ما يزال في التاسعة عشرة ، ألفى نفسه زوجاً لفتاة اسكتلندية في السادسة عشرة تدعى مارجريت بور . وتجمع أكثر الروايات على أنها كانت ابنة غير شرعية لأحد الأدواق ، ولكنها كانت تملك دخلاً قدره مائتا جنيه في السنة[٤٨] . وفي ١٧٤٨ استقر بهما المقام في ابسوتش . وهناك التحق بناد موسيقى لأنه كان مولعاً بالموسيقى ، وكان يعزف على عدة آلات — « انني أرسم لوحات الأشخاص لأكسب قوتي ، والمشاهد الطبيعة لأنني أحبها ، وأعزف الموسيقى لأنني لا أملك منع نفسي من العزف»[٤٩] وقد وجد في «مصوري « اللاندسكيب» (المناظر الطبيعية) الهولنديين دعماً لولعه بالطبيعة . وكافه فليب تكنيس ، حاكم قاعة لاندجارد القريبة منه ، بأن يصور القلعة ، والتلال المجاورة لها ، وهاروتش ، ثم نصحه بأن يلتمس عملاء أغنى وأكثر في مدينة بات .

فلما أن بلغها جينزبرو (١٧٥٩) بحث عن الموسيقيين لا المصورين ، وسرعان ما أدخل يوهان سبستيان باخ في عداد أصدقائه . ذلك أنه كان يملك روح الموسيقى وحساسيته ، وتراه في لوحاته يحول الموسيقى إلى دفء اللون ورشاقة الخط . وكان في بات بعض مجموعات الصور جيدة ، فاستطاع الآن أن يدرس لوحات الطبيعة التي رسمها كلود لوران وجسبار بوسان ، ولوحات الأشخاص التي رسمها فانديك ، وأصبح الوريث وأسلوب فانديك الانجليزي — لوحات أشخاص تضيف رهافة بالغة في الفن إلى تفرد الشخصية وأناقة الملبس .

وفي بات أنتج بعضاً من أفضل فنه . وكان آل شريدان يسكنونها ، فرسم جينزبرو زوجة رتشرد الشابة الفاتنة[٥٠] ثم أفاض كل صنعته الآخذة في النضج على لوحه « النبيلة مسز جراهام »[٥١] التي أتاح له رداؤها الأحمر

بثناياه وطياته أن يبرز أرق تدريجات اللون والظل . وحين عرضت هذه اللوحة فى الأكاديمية الملكية بلندن (١٧٧٧) خيل لكثير من المشاهدين أنها تبز أى لوحة رسمها رينولدز . وحوالى عام ١٧٧٠ أضفى جينزبرو البهاء على صورة غلام يدعى جوناثان بتال ، وهو ابن تاجر حديد ، فغيره إلى « الصبى الأزرق » — وهى لوحة دفع فيها متحف صور هنتنجتن ٥٠٠,٠٠٠ دولار . وكان رينولدز قد أعرب عن اقتناعه بأنه لايمكن رسم لوحة شخصية مقبولة باللون الأزرق ، وقبل غريمه الصاعد التحدى وانتصر؛ وأصبح اللون الأزرق بعدها لوناً مفضلا فى التصوير الانجليزى .

ورغب كل وجوه باث الآن فى أن يصورهم جينزبرو . ولكنه ، كما قال لصديق ، « لقد مللت تصوير الأشخاص ، وبى رغبة شديدة فى أن آخذ كمانى وأنطلق إلى قرية جميلة ، حيث أستطيع رسم مشاهد الطبيعة وأستمتع بالبقية الباقية من عمرى فى هدوء ودعة »[٥٢] . ولكنه عوضاً عن هذا نزح إلى لندن (١٧٧٤) واستأجر مسكناً فاخراً فى شومبرج هاوس ، بشارع بل مل ، ودفع فيه ٣٠٠ جنيه فى السنة ، فهو لايرضى بأن يتفوق عليه رينولدز فى مظهره . وتشاجر مع الأكاديمية على عرض صوره ، وظل أربع سنين (١٧٧٣ — ٧٧) رافضاً عرض لوحاته فيها ، وبعد عام ١٧٨٣ لم يتيسر مشاهدة لوحاته الجديدة إلا فى الافتتاح السنوى لمرسمه . وبدأ نقاد الفن حرباً غير كريمة من المقارنات بين رينولدز وجينزبرو . وكان رينولدز عموماً يفضل عليه . ولكن الأسرة المالكة أثرت جينزبرو ، فصور أفرادها جميعاً . ولم يلبث نصف الانجليز الذين يجرى فى عروقهم الدم الأزرق أن تقاطروا على شومبرج هاوس طلباً للخلود القلق فى الصور . ورسم جينزبرو الآن شريدان ، وبيرك ، وجونسن ، وفرانكلن ، وبلاكستون ، وبت الثانى ، وكلايف . . . ولكى يوطد مكانته ، ويدفع إيجاره ، راض نفسه على الانقطاع لرسم الأشخاص .

وقد وجده زبائنه رجلا صعب الإرضاء . من ذلك أن أحد اللوردات غالى فى خيلائه بينما كان جالساً إلى جينزبرو ، فصرفه دون أن يرسمه ، وكانت ملامح جاريك كثيرة الحركة والتغير (فهذا كان نصف سر تفوقه ممثلا)

بحيث لم يستطع المصور أن يجد تعبيراً بطول فترة تكفى للكشف عن الرجل . ولقى هذا العنت فى تصوير صموئيل فوت ، منافس جاريك . وصاح جينزبرو تباً لهما من وغدين ! إن لها وجه كل إنسان إلا وجهيهما »[٥٣] ثم وجد صعوبة مختلفة فى تصوير السيدة سيدونز « لعن أنفك ياسيدتى ! أنه بلا نهاية »[٥٤] وكان يصفو مزاجه مع النساء ، فهو شديد الإحساس بجاذبيتهن الجنسية ، ولكنه تسامى بها إلى شعر من الألوان الناعمة والعيون الحالمة .

فلما أن فاض لديه المال بعد نفقات مسكنه الغالية رسم المناظر الطبيعية التى كان الطلب على لوحاتها قليلا . وكثيراً ما كان يضع زبائنه الجلوس . — أو الوقوف — ومن خلفهم منظر ريفى ، كما نرى فى لوحته « روبرت أندروز وزوجته » (التى بيعت بمبلغ ٣٦٤,٠٠٠ دولار فى مزاد عام ١٩٦٠). وإذ منعته زحمة العمل من الذهاب إلى الريف والرسم فى مواجهة الطبيعة الحية ، فقد جلب إلى مرسمه أصول الشجرة والحشائش البرية والأغصان والأزهار والحيوانات ، ثم نظمها فى لوحه [٥٥] — مع دمى ألبسها ثياباً لتبدو كأنها ناس ، ومن هذه الأشياء ، ومن ذكرياته ، ومن خياله ، رسم المناظر الطبيعية . وكان فيها نوع من الافتعال ، وشكلية وانتظام ندر أن يوجدا فى الطبيعة ، ومع ذلك فالنتيجة أوحت بجو من شذى الريف وسكينته ، وفى أخريات عمره رسم بعض « الصور الغريبة » التى لم يدع أنه توخى فيها الواقعية ، ولكنه أطلق العنان لمزاجه الرومانتيكى ، وفى إحداها ، وهى « فتاة الكوخ ومعها كلب وابريق »كل العاطفة التى تجيش بها لوحة جروز « الإبريق المكسور» وكلتا الصورتين رسمت فى ١٧٨٥ [٥٦] .

ولا يستطيع أن يقدر جينزبرو حق قدره غير فنان . كان فى أيامه يعد أقل قدراً من رينولدز ، ويعاب على رسمه أنه مهمل ، وعلى تكويناته أنها تفتقد الوحدة ، وعلى أشكاله أنها غير صحيحة الأوضاع ، ولكن رينولدز نفسه أثنى على التألق الخفيف الذى اتسم به تلوين مزاحمه . وكان يصاحب فن جينزبرو شعر وموسيقى لم يستطع مصور الأشخاص العظيم فهمه فى حرارة ، لقد كان لرينولدز عقل أكثر ذكورة ، وتفوق على منافسه فى رسم الرجال ، أما جينزبرو فكان روحاً أكثر رومانسية ، آثر تصوير النساء

والصبيان . لقد فاته التدريب الكلاسيكي الذي تلقاه رينولدز في إيطاليا ، وافتقد الاتصالات المنبهة التي أثرت عقل رينولدز وفنه . وكان جينزبرو مقلاً في قراءته ، قليل الاهتمامات الفكرية ، يتجنب جماعة الأدباء والظرفاء الذين التفوا حول جونسن . وكان سمح النفس ولكنه متهور نزاع إلى الانتقاد ، وما كان يمكن قط أن يستمع في صبر لمحاضرات رينولدز أو أحكام جونسن . ومع ذلك احتفظ بصداقة شريدان إلى النهاية .

فلما تقدم به العمر ران عليه الغم والاكتئاب ، فالنفس الرومانسية تقف عاجزة أمام الموت ما لم تكن متدينة . وفي كثير من لوحات الطبيعة التي رسمها جينزبرو تقحم شجرة ميتة نفسها « تذكرة موت » وسط الورق الغض والعشب الوافر . ولعله ظن أن السرطان يخترمه ، وأحس بمرارة متزايدة لفكرة عذاب يستطيل إلى هذا الحد . وقبل أن يموت بأيام كتب رسالة مصالحة إلى رينولدز وطلب إلى أكبر الرجلين أن يزوره . وجاء رينولدز ، وتبادل الرجلان الحديث الودي وهما اللذان لم يتشاجرا بشخصيهما بقدر ما كانا موضوع تزاعات بين رجال أقل منهم شأناً . وحين افترقا قال جينزبرو « وداعاً حتى نلتقي في الآخرة ، وفي صحبتنا فانديك »[٥٧] ومات في ٢ أغسطس ١٧٨٨ بالغاً الحادية والستين .

وشارك رينولدز شريدان في حمل جثمانه إلى فناء كنيسة كيو . وبعد أربعة أشهر أثنى عليه رينولدز في حديثه الرابع عشر ثناء منصفاً . وقد ذكر بصراحة العيوب كما ذكر الحسنات في فن جينزبرو ، ولكنه أضاف « لو أتيح لهذه الأمة أن تنجب من العباقرة عدداً يكفي لإكسابنا الامتياز الرفيع ، امتياز « مدرسة انجليزية » ، فإن اسم جينزبرو سينحدر إلى الأجيال القادمة ، في تاريخ الفن ، فناناً من الرعيل الأول في تلك المدرسة الصاعدة »[٥٨]

أما جورج رومني فقد كافح ليبلغ شعبية رينولدز وجينزبرو ، ولكن عيوب تعليمه وصحته وخلقه ألزمته مكاناً أكثر تواضعاً . وقد افتقد التعليم المدرسي بعد الثانية عشرة ، فاشتغل في ورشة نجارة أبيه بلانكاشير حتى بلغ التاسعة عشرة . وقد أكسبته رسومه المال الذي تلقى به دروساً في التصوير

من فنان متبطل فى بلدته . فلما بلغ الثانية والعشرين مرض مرضاً خطيراً ، فلما شفى تزوج ممرضته ، ولكنه لم يلبث أن ضاق بها ، فهجرها بحثاً عن رزقه ، ولم يرها سوى مرتين فى الأعوام السبعة والثلاثين التالية ، ولكنه كان يرسل إليها بعض مكاسبه . وقد كسب ما يكفى لزيارة باريس وروما ، حيث تأثر بالنزعة الكلاسيكية الحديثة . فلما عاد إلى لندن اجتذب رعاية رعاة الفن بقدرته على إلباس زبائنه فى رشاقة أو وقار . وكان منهم إيما ليون ، التى أصبحت فيما بعد الليدى هاملتن ، وقد بلغ من افتتان رومنى بجمالها انه صورها فى صورة الإلهة ، وكاساندرا ، وسورسى ، والمجدلية ، وجان دارك ، والقديسة . وفى ١٧٨٢ رسم صورة لليدى سذرلاند ، نقد عنها ١٨ جنيهاً ؛ وقد بيعت مؤخراً بمبلغ ٢٥٠,٠٠٠ دولار . وفى ١٧٩٩ عاد إلى زوجته محطم الجسد والعقل ، فعاودت تمريضه كما فعلت قبل أربع وأربعين سنة . وطال به الأجل ثلاثة أعوام من الشلل ، ثم مات فى ١٨٠٢ . وبفضله وبفضل رينولدز وجينزبرو انطلقت انجلتره الآن ، فى نصف القرن الذى نحن بصدده ، فى التصوير كما انطلقت فى السياسة والأدب ، فى تيار الحضارة الأوربية المتدفق .

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

جيران إنجلترة

١٧٥٦ – ٨٩

١ – إرلندة جراتان

شرح رحالة انجليزى زار إرلنده فى ١٧٦٤ أسباب جنوح الفقراء إلى الإجرام فقال : « أى خوف من العدالة أو العقاب يمكن توقعه من فلاح إرلندى يتردى فى حال من التعاسة والفقر المدقع ، حال لو أن أول رجل صادفه ضربه على أم رأسه وأراحه إلى الأبد من حياته البائسة الضنكة لحق له أن يحسبه عملا ودياً جديراً بالثناء ؛ ... واحتمال الكثيرين منهم ... لحالتهم المزرية بصبر دليل كاف لدى على ما فى طبعهم من لطف فطرى »[1].

ولم يكن ملاك الأرض – ومعظمهم من البروتستنت – هم الظلمة المباشرين للفلاحين – ومعظمهم كاثوليك – ولا أشدهم ضراوة ؛ فالملاك كانو يعيشون عادة فى انجلتره لا يرون الدم الذى لطخ الإيجارات التى يبتزها الوسطاء الذين يؤجرون لهم أرضهم ؛ والوسطاء هم الذين استنزفوا كل درهم استطاعوا ابتزازه من الفلاحين ، حتى اضطر هؤلاء إلى أن يكتفوا فى غذائهم بالبطاطس وفى لباسهم بالأسمال .

وفى ١٧٥٨ ، سمح لإرلنده خمس سنين بتصدير الماشية إلى بريطانيا لأن المرض كان يفتك بالماشية فى انجلتره . فتحولت أفدنة كثيرة فى أرلنده – بما فيها الأرض المشاع التى كان المزارعون المقيمون يستعملونها من قبل – من الزراعة إلى رعى الأغنام أو الماشية ؛ فازداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً . ثم أضافوا إلى مشكلاتهم بالزواج المبكر – « عند أول ميسرة » كما

قال السر وليم بتى[٢] ، ولعل الأمل راودهم فى أن أطفالهم لن يلبثوا أن يغطوا نفقاتهم ثم يعينوهم على دفع الإيجار . وهكذا ، ورغم ارتفاع نسبة الوفيات ، زاد سكان ايرلنده من ٣,١٩١,٠٠٠ عام ١٧٥٤ إلى ٤,٧٥٣,٠٠٠ عام ١٧٩١[٣] .

أما صورة الصناعة فأخذت فى الإشراق . ذلك أن الكثير من البروتستنت وبعض الكاثوليك قد أخذوا يحترفون إنتاج الأتيال أو الأصواف أو البضائع القطنية أو الحرير أو الزجاج . وفى الربع الأخير من القرن ، بعد أن حصل جراتان على تخفيف للقيود البريطانية المفروضة على رجال الصناعة الارلنديين وعلى التجارة الارلندية ، نشأت طبقة وسطى وفرت الركيزة الاقتصادية للسياسة التحريرية والنمو الثقافى . وغدت دبلن من أمهات المراكز فى التعليم والموسيقى والدراما والعمارة فى الجزر البريطانية . وكانت كلية ترنتى بسبيلها إلى أن تصبح جامعة ، تملك فعلا قائمة طويلة من الخريجين الممتازين . ولو أن ارلنده احتفظت بنجومها الساطعة فى أرض الوطن — بيرك ، وجولدسمث ، وشريدان ، وسويفت ، وباركلى — لسطعت جنباً إلى جنب مع ألمع الأمم فى ذلك العهد . وبعد عام ١٧٦١ جعل نائب الملك دبلن مقره الدائم بدلا من الاكتفاء بزيارات قصيرة مرة كل عام . وقامت الآن الصروح العامة الشامخة والقصور الأنيقة . ونافست مسارح دبلن مسارح لندن فى تفوق إخراجها ، وهنا رتلت « مسيا » هندل أول مرة ولقيت أول ترحيب (١٧٤٢) ، وأخرج شريدان التمثيليات الناجحة الكثيرة التى ألفت زوجته بعضها .

وكان الدين بالطبع هو القضية الطاغية فى ارلنده ، وقد حرم المنشقون — أعنى المشيخيين ، والمستقلين (البيورتان) ، والمعمدانين — من تقلد الوظائف الحكومية ومن عضوية البرلمان بمقتضى قانون الاختبار ، الذى اشترط فى الموظف أو عضو البرلمان قبول سر التناول طبقاً للطقس الانجليكانى . أما قانون التسامح الصادر فى ١٦٨٩ فلم يطبق على ارلنده . وعبثاً احتج مشيخيو ألستر على هذه القيود ، وهاجر الألوف منهم إلى أمريكا ، حيث قاتل كثيرون منهم بإخلاص فى صفوف جيوش الثوار .

وكان ثمانون فى المائة من سكان ارلنده كاثوليكا ، ولكن لم يكن جائزاً انتخاب أى كاثوليكى لعضوية البرلمان . ولم تملك أرضاً من الكاثوليك إلا قلة . وكان المستأجرون البروتستنت يعطون إيجارات مدى الحياه ، أما إيجارات الكاثوليك فلا تمتد أكثر من إحدى وثلاثين سنة ؛ وكان عليهم أن يدفعوا ثلثى أرباحهم إيجار[٤] . ولم يسمح بالمدارس الكاثوليكية ، ولكن المسئولين لم يطبقوا القانون الذى حرم على الإرلنديين التماس التعليم خارج وطنهم . وقبل بعض الطلاب الكاثوليك فى كلية ترنتى ، ولكنهم لم يستطيعوا نيل درجة علمية . وسمح بالعبادة الكاثوليكية ، ولكن لم يكن هنالك وسائل شرعية لإعداد القساوسة الكاثوليك ، على أنه جاز للطلاب أن يلتحقوا بالكليات اللاهوتية فى القارة . وقد اكتسب بعض هؤلاء الطلاب ما تحلى به الكهنوت فى فرنسا وإيطاليا من دماثة طبع وتحرر آراء ، فلما عادوا إلى ارلنده قسساً لقوا الترحيب على موائد البروتستنت المتعلمين ، وأعانوا على التخفيف من حدة التعصب على الجانبين . فلما أن دخل هنرى جراتان البرلمان الإرلندى (١٧٧٥) كانت حركة التحرير الكاثوليكى قد اكتسبت تأييد الألوف من البروتستنت سواء فى انجلتره أو فى ارلنده .

وفى ١٧٦٠ كان يحكم ارلنده نائب عن الملك يعينه ملك انجلتره وهو مسئول أمامه ، وبرلمان يسوده الأساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات ويسوده فى مجلس العموم ملاك الأرض وأرباب الرواتب الحكومية من الانجليكان . وكانت الانتخابات البرلمانية خاضعة لنظام الدوائر « العفنة » أو دوائر « الجيب » ذاته المتبع فى انجلتره . وكانت قلة من كبار الأسر تعرف باسم « المتعهدين » تملك أصوات دوائرها كما تملك بيوتها[٥] .

وكانت المقاومة الكاثوليكية للحكم الانجليزى متفرقة عديمة الفاعلية . ففى ١٧٦٣ راحت عصابات من الكاثوليك سموا « الصبيان البيض » — نسبة للقمصان البيضاء التى كانوا يرتدونها فوق ملابسهم — تجوب أنحاء الريف وتهدم سياجات الأراضى المسوره ، وتعجز الماشية ، وتهاجم جباة الضرائب أو العشور ؛ ولكن قبض على زعمائهم وشنقوا ، وفشل التمرد . وكانت حركة التحرير « القومى » أحسن حظاً . ففى ١٧٧٦ أخذ أكثر الجنود

البريطانيين من ارلنده ليحاربوا فى أمريكا ، وفى الوقت ذاته اعترى الاقتصاد الإرلندى الكساد لانقطاع التجارة مع أمريكا . واتقاء للثورة من الداخل أو الغزو من الخارج جند بروتستنت ارلنده جيشاً سموه « المتطوعين » . وازداد هؤلاء عدداً وسطوة حتى باتوا فى ١٧١٠ قوة رهيبة . وبفضل تأييد هؤلاء المسلحين الذين بلغ عددهم أربعين ألفاً ظفر هنرى فلود وهنرى جراتان بانتصاراتهما التشريعية .

وكان كلاهما ضابطاً فى جيش المتطوعين ، وخطيباً مفوهاً من أعظم الخطباء فى بلد استطاع أن يبعث ببيرك ورتشرد شريدان إلى انجلتره ويبقى فيه رغم ذلك معين لاينضب من البلاغة . ودخل فلود البرلمان الإرلندى فى ١٧٥٩ . وقد تزعم حملة للتخفيف عن الفساد فى مجلس كان نصف أعضائه مدينين بالفضل للحكومة . ولكن الرشوة الشاملة هزمته ، فاستسلم (١٧٧٥) بقبول وظيفة نائب الخازن نظير راتب قدره ٣,٥٠٠ جنيه .

فى ذلك العام أنتخبت دائرة فى دبلن هنرى جراتان لعضوية البرلمان . وسرعان ما تبوأ مكان فلود زعيماً للمعارضة . وقد أذاع برنامجاً طموحاً ، قوامه التخفيف عن الكاثوليك الإرلنديين وتحرير « المنشقين» من ربقة قانون الاختيار » وإنهاء القيود الانجليزية على التجارة الإرلندية ، وتوطيد استقلال البرلمان الإرلندى . وقد سعى إلى هذه الأهداف بهمة وإخلاص ونجاح. مما جعلهمعبود الأمة سواء الكاثوليك والبروتستنت . وفى ١٧٧٨ حصل على الموافقة على قانون يمكن الكاثوليك من الحصول على إيجارات مدتها تسع وتسعون سنة ، ومن وراثة الأرض بالشروط التى يرثها البروتستنت . وبعد عام ، وبناء على إلحاحه ، ألغى قانون الاختبار ، وأمن للمنشقين كامل الحقوق المدنية . وقد أقنع هو وفلود البرلمان الإرلندى ونائب الملك بأن استمرار المعوقات البريطانية للتجارة الإرلندية من شأنه أن يؤدى إلى العنف الثورى . وكان اللورد نورث ، رئيس الحكومة البريطانية آنئذ ، يحبذ إلغاء هذه القيود ، ولكن رجال الصناعة الانجليز انهالوا عليه بوابل من الالتماسات ضد الإلغاء ، فأذعن لهم . وبدأ الإرلنديون يقاطعون البضائع البريطانية ، وتجمع « المتطوعون » أمام مبنى البرلمان الإرلندى وفى أيديهم

السلاح ، وعلى مدافعهم عبارة تقول « حرية التجارة أو هذا » . وسحب رجال الصناعة الانجليز معارضتهم بعد أن أضرت بهم المقاطعة ، وأصدر قانون حرية التجارة (١٧٧٩) .

ثم ألح جراتان بعد هذا فى طلب الاستقلال للبرلمان الإرلندى . فى مطالع عام ١٧٨٠ اقترح أن يكون لملك انجلتره وحده ، بموافقة برلمان ارلنده ، الحق فى التشريع لإرلنده ، وأن بريطانيا العظمى وإرلنده لا يوحدهما سوى رباط مالكهما المشترك ، ولكن اقتراحه هزم . فأعلن المتطوعون الذين اجتمع منهم فى دنجانون ٢٥,٠٠٠ مقاتل (فبراير ١٧٨٢) انه لا ولاء لانجلتره إلا إذا منحت إرلنده الاستقلال التشريعى . وفى مارس سقطت وزارة اللورد نورث التى شاخت وخلفه فى الوزارة روكنجهام وفوكس . وكان المركيز كورنو اليس قد استسلم أثناء ذلك فى يوركتون (١٧٨١) ، وانضمت فرنسا وأسبانيا إلى أمريكا فى الحرب ضد انجلتره . ولم يكن فى وسع بريطانيا أن تواجه ثورة ارلندية فى هذا الوقت . وعليه ففى ٦ ابريل ١٧٨٢ أعلن البرلمان الإرلندى بزعامة جراتان استقلاله التشريعى ، وبعد شهر وافقت انجلتره على هذا التنازل . وقرر البرلمان الإرلندى منحة لجراتان قدرها ١٠٠,٠٠٠ جنيه ، وكان رجلا فقيراً نسبياً ، فقبل نصفها .

كان هذا بالطبع انتصاراً لبروتستنت إرلنده لا لكاثوليكيها . فلما شرع جراتان — بتأييد قوى من الأسقف الانجليكانى فردريك هرفى — فى حملة لإحراز قسط من التحرير للكاثوليك كان قصارى ما استطاعه (فيما يسميه المؤرخون « برلمان جراتان) هو الحصول على حق التصويت للملاك الكاثوليك (١٧٩٢) ، فحصلت هذه القلة على حق الانتخاب دون حق انتخابهم لعضوية البرلمان أو تعيينهم فى الوظائف البلدية أو القضائية . وذهب جراتان إلى انجلتره ، وحصل على انتخابه عضواً فى البرلمان البريطانى ، وهناك واصل حملته . ومات عام ١٨٢٠ ، قبل أن يجيز البرلمان قانون التخفيف عن الكاثوليك بتسعة أعوام ، وهو القانون الذى سمح للكاثوليك بعضوية البرلمان الإرلندى ، حقاً أن العدالة ليست عمياء فقط ؛ إنها أيضاً عرجاء .

٢ — الخلفية الاسكتلندية

عندما أدمج اتحاد عام ١٧٠٧ اسكتلنده مع انجلتره بواسطة برلمان مشترك، رددت لندن على سبيل النكتة أن الحوت قد ابتلع يونان (يونس)؛ وعندما أدخل بيوت (١٧٦٢ وما بعدها) عشرين من الأسكتلنديين فى الحكومة البريطانية تذمر الظرفاء لأن يونان أخذ فى ابتلاع الحوت[٦]. أما من الناحية السياسية فإن الحوت انتصر. فقد ضاع النبلاء الاسكتلنديون الستة عشر ونواب العموم الخمسة والأربعون وسط ١٠٨ نبيلا و٥١٣ نائباً انجليزياً. وأسلمت اسكتلنده سياستها الخارجية، وإلى حد كبير اقتصادها، إلى تشريع يسوده المال الانجليزى والعقول الانجليزية. ولم ينس البلدان عداءهما السابق. فالاسكتلنديون يشكون من أسباب التفرقة التجارية بين يونان والحوت، وصموئيل جونسن ينوب عن الحوت فى عضة يونان بإصرار شوفينى.

وكانت اسكتلنده تضم فى عام ١٧٦٠ من السكان نحو ١,٢٥٠,٠٠٠ نسمة. وكانت نسبة المواليد عالية، ولكن نسبة الوفيات لحقت بها. وقد كتب آدم سمث حوالى ١٧٧٠ يقول: «قيل لى إنه ليس من غير المألوف فى إقليم المرتفعات الاسكتلندية لأم ولدت عشرين طفلا ألا يبقى اثنان منهم أحياء»[٧]. وكان رءوساء القبائل فى الإقليم يملكون الأرض كلها تقريباً خارج المدن، ويتركون الزراع فقراء فقراً بدائياً على تربة صخرية تبتلى بوابل من المطر ينهمر صيفاً وبثلوج الشتاء تهطل من سبتمبر إلى مايو. وقد زيدت الإيجارات مراراً — فرفعت فى إحدى المزارع من خمسة جنيهات إلى عشرين خلال خمسة وعشرين عاماً[٨]. وهاجر كثير من الفلاحين إلى أمريكا بعد أن رأوا أن لا مهرب من الفقر فى وطنهم، وهكذا «يستطيع زعيم القبيلةالجشع أن يحيل صنيعته برية فقراء» على حد قول جونسن:[٩] وكان الملاك يحتجون بهبوط قيمة العملة ذريعة لرفع الإيجار. وكانت الأحوال أسوأ حتى من هذا فى مناجم الفحم والملح، حيث كان العمال حتى عام ١٧٧٥ يربطون بأعمالهم حتى يموتوا[١٠].

أما فى مدن إقليم المنخفضات فإن الثورة الصناعية جلبت الرخاء لطبقة وسطى متسعة ومغامرة . وانتشرت فى جنوب غربى اسكتلنده مصانع النسيج الكثيرة . وبفضل الصناعات والتجارة الخارجية زاد سكان جلاسجو من ١٢,٥٠٠ فى عام ١٧٠٧ إلى ثمانين ألفاً فى عام ١٨٠٠ ؛ وكانت تضم ضواحى غنية ، ومبانى ذات شقق فى أحياء فقيرة مزدحمة ، وجامعة ، وفى ١٧٦٨ — ٩٠ شقت قناة ربطت نهرى كلايد وفورث ، فأنشأت بذلك طريقاً تجارياً مائياً من أوله لآخره بين الجنوب الغربى الصناعى والجنوب الشرقى السياسى . وكانت ادنبره — التى ناهز سكانها خمسين ألفاً فى ١٧٤٠ — قلب حكومة اسكتلنده وثقافتها وموضاتها . وكانت كل أسرة اسكتلندية ميسورة الحال تتطلع إلى قضاء جزء من السنة على الأقل فيها ؛ وإليها أتى بوزويل وبيرنز ، وفيها عاش هيوم وروبرتسن وريبورن ، وهنا ظهر محامون ذائعو الصيت مثل ايرسكين ، وقامت جامعة ذات مكانة مرموقة ، وجمعية ادنبره الملكية . وهنا كان المقر الرئيسى للمسيحية الاسكتلندية .

وكان الكاثوليك الرومان قلة ، ولكن عددهم كان كما رأينا كافياً لإحداث الزعر فى بلد مازال يتجاوب بإصداء دعوة يوحنا فوكس . وكان للكنيسة الأسقفية أتباع كثيرون بين سراة القوم الذين أعجبهم الأساقفة الإنجليكان وطقوس التناول الانجليكانية . غير أن ولاء السواد الأعظم كان لكنيسة اسكتلنده ، « الكيرك البرزبتريه » (المشيخية) التى رفضت نظام الأساقفة ، واختزلت الطقوس إلى أدنى حد ، ولم تقبل فى الدين والأخلاق حكماً غير حكم مجالس أبرشياتها ، وشيوخ أقسامها ، ومجامع أقاليمها ، وجمعيتها العامة . ولعله لم يوجد بلد آخر فى أوربا — باستثناء أسبانيا — تشرب شعبه اللاهوت بمثل هذا العمق . وكان فى استطاعة مجلس الكنيسة المؤلف من شيوخها وقسيسها أن يفرض الغرامات ويوقع العقوبات على المنحرفين المهرطقين ، وأن يحكم على الزناة بالوقوف واحتمال التوبيخ العلنى أثناء الخدمة الدينية ، وقد حاق بروبرت بيرنز وجين آرمر مثل هذا العقاب فى جلسة للكنيسة فى ٦ أغسطس ١٧٨٦ . وسيطر الإيمان بالأخرويات الكلفنية على عقول الجماهير فجعلت حرية الفكر خطراً على الحياة والأجساد ؛ غير

أن لفيفاً من القساوسة « المعتدلين» يتزعمهم روبرت ولسن وآدم فرجسون ووليم روبرتسن خففوا من تعصب الشعب تخفيفاً كفى لترك ديفد هيوم يموت موتة طبيعية .

وربما كان الدين الصارم لازماً للتصدى لعربدة شعب تدفعه قسوة البرد إلى الشرب حتى يثمل ، ويعانى من قسوة الفقر ما يجعل لذته الوحيدة فى الجرى وراء الجنس . وسيرة بيرنز دليل على أن الرجال كانوا يسكرون ويفسقون رغم الشيطان والقساوسة ، وأن الفتيات الراغبات لم يكن نادرات . وقد طرأ على القوم فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر اضمحلال ملحوظ فى الإيمان وفى التمسك بالفضائل التقليدية . ولاحظ وليم كريتش وهو مصور إدنبرى ، أن يوم الأحد فى سنة ١٧٦٣ كان يوم تعبد دينى ، ولكن فى ١٧٨٣ « لقى الحضور إلى الكنيسة إهمالا شديداً ، خصوصاً من الرجال » ، وكانت الشوارع فى الليل تضج بالشباب المتحلل المشاغب ، فى سنة ١٧٦٣ هناك خمسة مواخير أو ستة . . . وفى ١٧٨٣ ازداد عدد المواخير عشرين ضعفا ، وازداد عدد نسوة المدينة أكثر من مائة ضعف . وابتلى كل حى فى المدينة وضواحيها بأعداد غفيرة من الإناث اللاتى استسلمن للرذيلة »[11] . وكانت لعبة الجولف تصرف الرجال عن الكنيسة إلى القاعات أيام الآحاد ، أما فى باقى أيام الأسبوع فالرجال والنساء يرقصون (وكان الرقص من قبل يعد خطيئة) ، ويذهبون إلى المسارح (وكان الذهاب إليها لا يزال يعد خطيئة) ، ر يختلفون إلى سباقات الخيل ، ويقامرون فى الحانات والأندية .

وكانت الكنيسة أهم مصدر للديمقراطية والتعليم . فكان شعبها يختار شيوخها ، وكان ينتظر من القسيس (الذى يختاره عادة راع أو نصير) أن يدير مدرسة فى كل أبرشيه . وكان الجوع للتعليم شديداً . وكانت جامعة سانت أندروز ، من بين الجامعات الأربع ، قد اضمحلت ، ولكنها تزعم أنها تملك خير مكتبة فى بريطانيا . وقد وجد جونسن جامعة أبردين مزدهرة فى ١٧٧٣ . أما جامعة جلاسجو فضمت بين أساتذتها جوزف بلاك الفيزيائى ، وتومس ريد الفيلسوف ، وآدم سمث الاقتصادى ، فضلا عن إيوائها جيمس وات . وأحدث الجامعات الأربع هى جامعة إدنبره ، ولكنها كانت تضطرب بما أتت به حركة التنوير الاسكتلندى من إثارة .

٣ — التنوير الاسكتلندى

لا يمكن أن يعلل تفجر العبقرية الذى أضاء اسكتلنده بين «بحث هيوم «فى الطبيعة البشرية» (١٧٣٩) وكتاب بوزويل «حياة جونسن» (١٧٩١) ألا بنمو تجارتها مع انجلتره والعالم وتقدم الصناعة فى إقليم السهول. ففى الفلسفة نبغ فرانسيس هتشيسن، وديفد هيوم، وآدم فيرجسن؛ وفى الاقتصاد آدم سمث؛ وفى الأدب جون هيوم [١٢]، وهنرى هيوم (اللورد كيمس)، ووليم روبرتسن، وجيمس مكفرسن، وروبرت بيرنز، وجيمس بوزويل؛ وفى العلوم جوزف بلاك، وجيمس وات، ونيفل ماسكلين، وجيمس هاتن، واللورد مونبودو [١٣]، وفى الطب جون ووليم هنتر: [١٤] هؤلاء كوكبة تضارع النجوم التى سطعت فى انجلتره حول «الدب الأكبر» (جونسن)! وقد ألف هيوم وروبرتسن وغيرهما فى إدنبره «جمعية من الصفوة» للمناقشات الأسبوعية فى الأفكار. واتصل هؤلاء الرجال وأشباههم بالفكر الفرنسى لا الإنجليزى، من جهة لأن فرنسا كانت منذ قرون مرتبطة باسكتلنده، ومن جهة أخرى لأن الخصومة المستطيلة بين الانجليز والاسكتلنديين عاقت اندماج الثقافتين. وكان هيوم سيىء الظن بالفكر الانجليزى فى جيله، إلى أن صدر كتاب «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» فى عام موته فرحب بصدوره شاكراً.

ولقد وفينا من قبل ديننا لهتشسن وهيوم [١٥]. فلنلق الآن نظرة على عدو هيوم الكريم النفس، توماس ريد، الذى كافح ليرد الفلسفة من الميتافيزيقا المثالية إلى قبول واقع موضوعى. وقد ألف وهو يدرس فى أبردين وجلاسجو كتابه «بحث فى العقل البشرى حول مبادىء الفطرة السليمة» (١٧٦٤)، وقبل أن ينشره أرسل المخطوطة إلى هيوم مشفوعة بخطاب مهذب يحمل تحياته، ويشرح أسفه على اضطراره لمعارضة شكوكية صاحبه الأكبر سناً. ورد عليه هيوم بلطفه المعهود، وطلب إليه أن ينشر الكتاب دون خوف من ملامة [١٦].

وكان ريد قد سلم من قبل برأى باركلى القائل بأننا نعرف الأفكار فقط،

ولا نعرف الأشياء أبداً . فلما أكد هيوم بمثل هذا الاستدلال أننا نعرف الحالات العقلية فقط ، دون أن نعرف مطلقاً « عقلا » ملحقاً بها ، أحس ريد أن مثل هذا التحليل المثقل بالتفاصيل غير الهامة يقوض كل تفرقة بين الصدق والكذب ، وبين الحق والباطل ، وكل إيمان بالله أو الخلود . وذهب إلى أنه اضطر لتفنيد آراء هيوم اتقاء هذه الكارثة ، ولكي يفند آراء هيوم كان عليه أن يرفض باركلى .

وعليه فقد سخر من الفكرة القائلة بأننا لا نعرف غير أحاسيسنا وأفكارنا ، فنحن على العكس من هذا نعرف الأشياء مباشرة وللتو ، و « من الإسراف فى الرهافة » فقط أن نحلل تجربتنا مع وردة مثلا ، فنردها إلى حزمة من الأحاسيس والأفكار . والحزمة حقيقية ، ولكن الوردة أيضاً حقيقية ، وهى تحتفظ ببقاء ثابت بعد أن تتوقف إحساساتنا بها . والصفات الأولية — كالحجم والشكل والصلابة والنسيج والثقل والحركة والعدد — تنتمى بالطبع إلى العالم الموضوعى ، ولا تتغير ذاتياً إلا بفعل الأوهام الذاتية ، وحتى الصفات الثانوية لها مصدر موضوعى بقدر ما تنشأ الأحاسيس الذاتية عن الأصول الطبيعية أو الكيميائية فى الشىء أو البيئة — الرائحة ، أو الطعم أو الدفء ، أو اللمعان ، أو اللون ، أو الصوت[١٧] .

والإدراك الفطرى السليم ينبئنا بهذا ، غير أن « مبادىء الإدراك الفطرى السليم ليست أهواء الجماهير الجاهلة ، إنما هى المبادىء الغريزية » التى يرشدنا تكوين طبيعتنا (أى الإدراك الذى نشترك فيه كلنا) إلى الإيمان بها ، والتى يتحتم علينا بالضرورة التسليم بها فى الشئون المشتركة للحياة[١٨] ، وبالقياس إلى هذا الإحساس العام الذى يختبر كل يوم ويؤكد ألف مرة ، تكون استدلالات الميتافيزيقا الخيالية مجرد لعبة يلعبها المرء فى وحدته التى يهرب فيها من العالم ؛ بل إن هيوم نفسه ، باعترافه ، كان يلقى عنه هذه اللعبة العقلية إذا غادر حجرة مكتبه[١٩] . ولكن هذا الرجوع إلى الحس المشترك يرد الواقع إلى العقل : فليست الأفكار وحدها هى الموجودة ، فهناك كائن حى ، وعقل ، وذات ، لها الأفكار . واللغة نفسها شاهد على هذا الاعتقاد العام : فلكل لغة ضمير مفرد للمتكلم : ف « أنا » هو الذى يشعر ، ويتذكر ،

ويفكر ، ويحب . « لقد بدا أن من الطبيعي جداً التفكير فى أن « البحث فى الطبيعة البشرية » احتاج إلى مؤلف يكتبه ، ومؤلف فى غاية الذكاء والبراعة ، ولكن يقال لنا الآن أنه ليس إلا مجموعة من الأفكار اجتمعت معاً ورتبت نفسها بارتباطات وانجذابات معينة »[٢٠] .

وقرأ هيوم هذا كله بابتهاج وود ، ولم يستطع أن يقبل نتائج ريد اللاهوتية ، ولكنه احترم مزاجه المسيحى ، ولعله أحس بالراحة فى دخيلة نفسه حين عرف أن العالم الخارجى موجود على كل حال ، برغم باركلى ، وأن هيوم موجود برغم هيوم . كذلك استشعر الجمهور القارىء أيضاً الراحة ، واشترى ثلاث طبعات من كتاب ريد « البحث» قبل موته . وكان بوزويل من بين سرى عنهم ، فهو ينبئنا بأن كتاب ريد « هدأ عقلى الذى انتابه القلق الشديد من طول التفكير العويص بالأسلوب التجريدى الشكوكى»[٢١] .

وأضاف الفن الاون إلى عصر النور الاسكتلندى . فالأخوة « آدم » الأربعة الذين تركوا بصمتهم على العمارة الانجليزية ، كانوا استكلنديين . وقد هاجر ألن رمزى (بن الشاعر ألن رمزى) إلى لندن (١٧٥٢) بعد أن أخفق فى نيل التقدير فى وطنه ادنبره ، وبعد سنوات من الكدح عين « مصوراً عادياً » للملك ، مما أثار حفيظة الفنانين الانجليز . وقد رسم صورة حسنة لجورج الثالث[٢٢] ، وأحسن منها لزوجته هو[٢٣] . غير أن انخلاع ذراعه اليمنى أنهى احترافه للتصوير .

أما السر هنرى ريبورن فكان رينولدز اسكتلنده . وكان ابنا لرجل صناعة فى ادنبره ، علم نفسه التصوير بالزيت ، ورسم أرملة وارثة بلغ من رضائها عن صورتها أنها تزوجته ومهرته بثروتها . وبعد أن درس عامين فى إيطاليا عاد إلى ادنبره (١٧٨٧)، وسرعان ما تكاثر زبائنه فضاق وقته عن رسمهم ، رسم روبرتسن ، وجون هيوم ، ودوجالد ستيوارت ، وولتر سكوت ، وأفضل صوره صورة اللورد نيوتن — جسد هائل ، ورأس ضخم ، وشخصية من حديد امتزج بالبلسان . وعلى النقيض لاحظ الجمال المتواضع الذى وجده ريبورن فى زوجته[٢٤] . وكان أحياناً ينافس رينولدز

فى تصوير الأطفال ، كما نرى فى لوحته « أطفال درامونند » المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفنون . وقد أنعم على ريبورن بلقب الفروسية فى ١٨٢٢ ، ولكنه مات بعد عام بالغا السابعة والستين .

ثم تفوق التنوير الاسكتلندى فى مؤرخيه . فقد شارك آدم فيرجسن فى تأسيس دراسة علم الاجتماع والسيكولوجية الاجتماعية بكتابه « مقال فى تاريخ المجتمع المدنى » (١٧٦٧) الذى طبع سبع مرات فى حياته . والتاريخ — فى رأيه — لا يعرف الإنسان إلا عائشاً فى جماعات ، فإن شئنا فهم هذا الإنسان وجب أن نراه مخلوقاً اجتماعياً ولكنه متنافس — مركب من عادات اجتماعية ورغبات فردانية . وتطور الخلق والتنظيم الاجتماعى كلاهما يحدده تفاعل هاتين النزعتين المتعارضتين ، وندر أن تتأثرا بأفكار الفلاسفة . والمنافسة الاقتصادية ، والخصومات السياسية « وألوان التفرقة الاجتماعية ، والحرب ذاتها — كل أولئك مركب فى طبيعة البشر ، وسيظل كذلك أبد » وهو يعمل بوجه عام على تقدم النوع الإنسانى .

وكان فيرجسن فى زمانه لا يقل شهرة عن آدم سمث « ولكن صديقهما وليم روبرتسن فاقهما شهرة . ونحن يذكر أمنية فيلاند التى تمناها لشيلر مؤرخاً ، بأن « يرقى إلى مستوى هيوم ، وروبرتسن ، وجبون » [٢٥] . وقد تساءل هوراس ولبول فى ١٧٥٦ : « أيمكن أن يخطر لنا أننا نفتقد مؤلفين فى التاريخ مادام مستر هيوم ومستر روبرتسن أحياء ؟ . . ان كتابة روبرتسن تمتاز بأصفى ما قرأت أسلوباً وأعظمه نزاهة »[٢٦] . وكتب جبون فى « مذكراته » يقول : « ان إنشاء الدكتور روبرتسن الذى بلغ الكمال ، ولغته المشبوبة ، ووقفاته المحكمة ، أثرت فى إلى حد التطلع الطموح إلى تأثر خطواته يوماً ما » [٢٧] ، وقال « ان الطرب يهزنى كلما وجدت نفسى معدوداً ضمن ثالوث المؤرخين البريطانيين » مع هيوم وروبرتسن [٢٨] . وقد عد هذين المؤرخين مع جويكارديني ومكيافللى أعظم المؤرخين المحدثين ، ثم وصف روبرتسن فى تاريخ لاحق بأنه « أول مؤرخى العصر الحاضر » [٢٩] .

كان روبرتسن ، مثل ريد ، قسيساً وابن قسيس . عين راعياً لكنيسة جلادزموير وهو فى الثانية والعشرين (١٧٤٣) ثم انتخب بعد عامين لعضوية الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية . وأصبح فيها قائد المعتدلين ، وقد حمى المهرطقين أمثال هيوم . وبعد ست سنوات من الجهد الشاق والدرس الدءوب للوثائق والمراجع ، أصدر عام ١٧٥٩ « تاريخاً لاسكتلنده فى عهد الملكة مارى وجيمس السادس حتى ارتقائه عرش انجلتره » ، واختتم فى تواضع حيث بدأ هيوم كتابه « تاريخ انجلتره » . وقد أبهج الكتاب اسكتلنده لتجنبه عبادة مارى ملكة الاسكتلنديين ، وأبهج الانجليز بأسلوبه — رغم أن جونسن أضحكه أن يجد فيه بعض الألفاظ الثقيلة الجونسونية الطابع . وقد طبع الكتاب تسع طبعات فى ثلاثة وخمسين عاما .

على أن رائعة روبرتسن الكبرى كانت كتابه « تاريخ حكم الامبراطور شارل الخامس » (١٧٦٩) ذا المجلدات الثلاثة . وفى وسعنا الحكم على مدى السمعة التى حظى بها من الثمن الذى نقده عليه الناشرون وهو ٤,٥٠٠ جنيه بالقياس إلى ٦٠٠ جنيه تلقاها عن تأليف تاريخ اسكتلنده . وقد أثنت أوربا على الكتاب الجديد فى ترجماته المختلفة . وكانت كاترين الكبرى تحمله معها فى رحلاتها الطويلة ، وقد قالت « إننى لا أكف عن قراءته أبدا » خصوصاً المجلد الأول منه » [٣٠] » وقد أبهجها كما يبهجنا كلنا ذلك التمهيد الطويل الذى استعرض التطورات الوسيطة التى انتهت بمجىء شارل الخامس . والكتاب تقادم نتيجة الأبحاث اللاحقة ، ولكن ما من عرض لاحق للموضوع يمكن أن يباريه بوصفه أثراً أدبياً . ومن دواعى السرور أن نلاحظ أن الثناء الذى ظفر به الكتاب ، والذى كان أعظم كثيراً من التفريظ الذى ناله « تاريخ » هيوم ، لم يوهن ما كان بين القسيس والزنديق من صداقة وود .

وأشهر من الإثنين جيمس مكفرسن ، الذى سوى جوته بينه وبين هومر ، ورفعه نابليون فوق هومر [٣١] فى ١٧٦٠ أعلن مكفرسن الذى كان آنئذ فى عامه الرابع والعشرين أن ملحمة على شىء من الطول والروعة تحويها مخطوطات غيلية متفرقة سيضطلع بجمعها وترجمتها إن أتيح له مدد من المال . وجمع المال فيرجسن وهيوبلير (وهو قسيس مشيخى مفوه

من ادنبره) . وجاب مكفرسن واثنان من الدارسين الغيليين أرجاء المرتفعات الأسكتلندية وجزر الهبريد ، وجمعوا المخطوطات القديمة ، وفى ١٧٦٢ نشر مكفرسن كتابه « فنجال ، ملحمة قديمة فى ستة أجزاء . . . ألفها أوسيان » بن فنجال ، وترجمت عن اللغة الغيلية » . وبعد عام نشر ملحمة أخرى ، اسمها « تيمورا » زعم أنها من تأليف أوسيان ، وفى ١٧٦٥ نشر الملحمتين بعنوان « أعمال أوسيان » .

أما أوسيان هذا فهو كما تزعم الأسطورة (الإرلندية والأسكتلندية) الإبن الشاعر للمحارب فن ماكومهيل [٣٢] ، ويروون أنه عمر ثلاثمائة سنة ، وامتد به الأجل حتى أعرب عن معارضته الوثنية للاهوت الجديد المجلوب إلى إرلنده على يد القديس باتريك . وبعض القصائد المنسوبة له احتفظ بها فى ثلاثة مخطوطات من القرن الخامس عشر ، خصوصاً فى « كتاب لزمور » الذى جمعه جيمس ماكريجور فى ١٥١٢ ، وكان مكفرسن يملك هذه المخطوطات [٣٣] . وقد روى فنجال كيف دعا المقاتل الشاب « بعد أن هزم غزاة ارلنده الأسكتلنديين ، هؤلاء الغزاه إلى مأدبة ونشيد سلام » والقصة مروية رواية تنبض بالحياة ، يدفئها تغزل الاسكتلنديين فى الفتيات الإرلنديات . يقول أحد المقاتلين لمورنا ابنة الملك كورماك ما أشبهك بالثلج فوق المرج . ان شعرك كضباب كروملا حين يتجعد فوق الربى ، حين يتألق لشعاع الغرب ! ونهداك صخرتان ناعمتان تريان من « برانو » ذى الجداول ، وذراعاك كعمودين ناصعى البياض فى أبهاء فنجال العظيم » [٣٤] . ثم نلتقى بنهود أخرى ، أقل تحجراً : « نهد أبيض » و « نهد نافر » و « نهد ممتلىء » [٣٥] ، وهى تلهى القارىء قليلا ، ولكن القصة لاتلبث أن تنصرف عن الحب إلى أحقاد الحرب .

وأثار « أوسيان » مكفرسن ضجة فى اسكتلنده ، وانجلتره ، وفرنسا ، وألمانيا . فرحب به الاسكتلنديون صفحة من ماضيهم الوسيط البطولى ، وكانت انجلتره مهيأة لتقبل رومانس الأسطورة الغيلية وهى التى كانت فى ١٧٦٥ ترحب بكتاب يرسى « مخلفات من الشعر الانجليزى القديم » . أما جوته فقد أرانا فى ختام « آلام فرتر » (١٧٧٤) بطله يقرأ للوتى ست

صفحات من أوسيان . وكانت تحوى قصة دورا العذراء الرقيقة يرويها أبوها أومين : كيف أغرتها « الأرض » الشريرة واقتادتها إلى صخرة فى البحر بوعدها بأن حبيبها أرمار سيلقاها هناك » وكيف تركتها الأرض على الصخرة ، وما من حبيب أتى . « فرفعت صوتها ، ونادت على أخيها وأبيها : ارنذال ! أرمين ! » وجدف ارنذال لينقذها » ولكن سهما أطلقه عدو مختبىء فتاك به ، وجاء حبيبها أرمار إلى الشاطىء ، وحاول أن يسبح إلى دورا ، « ولكن ريحاً عاصفة من التل طغت فجأة على الأمواج ، فغاص فى اليم ، ولم يطف بعدها » . أما الأب الذى كان أعجز وأضعف من أن يخف لنجدتها فأخذ يصرخ مرتعباً يائساً :

« على الصخرة التى يلطمها اليم سمعنا ابنتى تستغيث وهى وحيدة . وكانت صرخاتها مترددة عالية فما الذى فى وسع أبيها أن يفعله ؟ لقد وقفت على الشاطىء الليل كله وأبصرتها على ضوء القمر الكليل . . . وكان للريح ضجيج والمطر ينهمر وابلا على التل . وقبل أن ينبلج الصبح كان صوتها قد خفت ، ثم تلاشى كأنه نسيم المساء بين عشب الصخور . لقد قضت كمداً وحزنا .

« لقد ضاعت قوتى فى الحرب ، وسقطت كبريائى بين النساء ، وحين تهب العواصف العاتية » وحين ترفع ريح الشمال الموج عالياً أجلس إلى الشاطىء الصاخب وأنظر إلى الصخرة القاتلة . وكثيراً ما أرى أشباح أطفالى على ضوء القمر الغارب . . . أما يتكلم أحدكم رحمة بى ! » [٣٦] .

ولم يلبث أن ثار جدل حول الملحمة : فهل « أوسيان » حقاً ترجمة عن الملاحم الغيلية العتيقة ، أم أنه سلسلة من القصائد نظمها مكفرسن ودسها على شاعر ربما لم يعش قط ؟ لقد صدق دعوى مكفرسن هردر وجوته فى ألمانيا ، وديدور فى فرنسا ، وهيوبلير ولورد كيمز فى اسكتلنده . ولكن فى ١٧٧٥ أعلن صموئيل جونسن فى كتابه « رحلة إلى جزائر اسكتلنده الغربية » بعد تحقيقات فى الهبريد (١٧٧٣) رأيه فى القصائد الأوسيانية : « أعتقد أنها لم توجد قط فى أى صورة إلا الصورة التى رأيناها عليها . فلم

يستطع المحرر ، أو المؤلف ، إبراز الأصل قط ، ولن يستطيع ذلك غيره كائناً من كان »[٣٧] . وكتب مفكرسن لجونسن يقول إن شيخوخة الرجل الانجليزى وحدها هى التى تحميه من تحديه للمبارزة أو من ضربه « علقه » ، ورد جونسن « أرجو ألا تعوقنى أبداً سفالة وشب عن كشف ما أعتقد أنه غش وزيف ... لقد كان رأيى فى كتابك أنه منقول ، ومازال رأيى فيه كذلك . أما غضبك فإنى أتحداه »[٣٨] . وشارك هيوم وهوراس ولبول وغيرهما جونسن شكوكه . ولما طلب إلى مكفرسن أن يبرز الأصول التى زعم أنه ترجمها تباطأ ، ولكنه ترك عند موته مخطوطات ملاحم غيلية ، استعمل بعضها فى وضع حبكة قصائده وتقرير طابعها . وقد أخذ عن هذه النصوص الكثير من العبارات والأسماء ، ولكن الملحمتين كانتا من إنشائه .

على أن الغش لم يكن بالشدة أو الشناعة اللتين زعمهما جونسن : فلنسمه جوازاً شعرياً على نطاق واسع جداً . والملحمتان الشعريتان النثريتان ، إذا أخذناهما فى ذاتهما ، تبرران بعض ما حظيتا به من إعجاب . فقد أعربتا عن جمال الطبيعة وأهوالها ، وعن ضراوة الحقد ، وعن لذة الحرب . وكان فيهما نزعة عاطفية مسرفة فى الرقة ، ولكنهما جمعتا إليها بعض السمو الذى أوحى به السر توماس مالورى قبل ذلك فى قصيدته « موت آرثر » (١٤٧٠) . وقد صعدتا إلى قمة الشهرة على الموجة الرومانتيكية التى غمرت حركة التنوير .

٥ — آدم سمث

كان آدم سمث بعد هيوم أعظم شخصية فى التنوير الاسكتلندى . وقد مات أبوه قبل مولده (١٧٢٣) بشهور ، وكان مراقباً للجمارك فى كركلدى . وكانت المغامرة الوحيدة تقريباً فى حياة رجل الاقتصاد يوم خطفه الغجر وهو طفل فى الثالثة ثم تركوه على جانب الطريق بعد أن طوردوا . وبعد أن تلقى آدم بعض التعليم المدرسى فى كركلدى ، واختلف إلى محاضرات هتشسن فى جلاسجو ، ذهب إلى أكسفورد (١٧٤٠) حيث وجد المدرسين كسالى تافهين كما سيصفهم جبون فى ١٧٥٢ . وعلم سمث نفسه بالاطلاع ، ولكن سلطات الكلية صادرت النسخة التى اقتناها من مبحث هيوم فى الطبيعة

البشرية بحجة أن الكتاب لايصلح اطلاقاً لشاب مسيحي . وكفته سنة واحدة مع أساتذة الكاية » وكان أكثر حباً لأمه ، فعاد إلى كركلدى » وواصل استغراقه فى القراءة . وفى ١٧٤٨ انتقل إلى ادنبره ، حيث حاضر مستقلا فى الأدب والبيان . وقد أعجبت محاضراته بعض ذوى النفوذ ، فعين فى كرسى المنطق بجامعة جلاسجو (١٧٥١) ، وأصبح بعد عام أستاذ الفلسفة الأخلاقية — التى شملت الأخلاق » والقانون » والاقتصاد السياسى . وفى ١٧٥٩ نشر استنتاجاته الأخلاقية فى كتابه « نظرية العواطف الأخلاقية » ، الذى حكم الكل بأنه « أهم كتاب كتب فى هذا الموضوع الشائق »[٤٠] متجاهلا فى هذا الحكم أرسطو وسبينوزا .

وقد استخلص سمث أحكامنا الأخلاقية من ميلنا التلقائى لتخيل أنفسنا فى موقف الغير ؛ فنحن بهذا نردد أصداء عواطفهم ، وبهذا التعاطف ، أو المشاركة الوجدانية » نحمل على الاستحسان أو الاستهجان[٤١] . والحس الأخلاقى متأصل فى غرائزنا الاجتماعية » أو فى العادات العقلية التى نتخذها بوصفنا أفراداً فى مجتمع » ولكنه لايتعارض مع محبة الذات . وقمة التطور الأخلاقى للإنسان يبلغها حين يتعلم أن يحكم على نفسه كما يحكم على الآخرين ، « وأن يسوس نفسه طبقاً للمبادىء الموضوعية — مبادىء الإنصاف ، والقانون الطبيعى ، والحكمة ، والعدالة »[٤٢] . والدين ليس المصدر ولا الركيزة لعواطفنا الأخلاقية » ولكن هذه العواطف تتأثر تأثراً قوياً بالإيمان بانبعاث الناموس الأخلاقى من إله فى يده الثواب والعقاب[٤٣] .

وفى ١٧٦٤ عين سمث — الذى بلغ الآن الحادية والأربعين — معلماً خاصاً ومرشداً يرافق الدوق بكليوتمش البالغ ثمانية عشر ربيعاً فى سياحة فى أوربا ، وقد أتاح له الأجر الذى كان يتقاضاه فى هذه المهمة — وهو ٣٠٠ جنيه فى العام — الاطمئنان والفراغ اللذان أعاناه على تأليف رائعته التى بدأ كتابتها خلال إقامته فى تولوز ثمانية عشر شهراً . وقد زار فولتير فى فرنيه ، والتقى فى باريس بهلفتيوس ودالامبير وكرتيه وطورجو . فلما عاد إلى اسكتلنده عام ١٧٦٦ عاش السنوات العشر التالية قانعاً مع أمه فى كركلدى عاكفاً

على تأليف كتابه . وظهر الكتاب واسمه « بحث فى طبيعة ثروة الأمم وأسبابها» عام ١٧٧٦ ، وقد رحب به هيوم فى رسالة بعث بها إلى سمث ومات بعدها بقليل .

وكان هيوم نفسه فى مقالاته قد أعان على تشكيل آراء آدم سمث الاقتصادية والأخلاقية جميعاً . فقد سخر من « المذهب المركنتلى » الذى حبذ التعريفات الجمركية الحامية ، والاحتكارات التجارية ، وغيرها من الإجراءات الحكومية التى يراد بها ضمان زيادة الصادرات على الواردات » والاستكثار من المعادن النفيسة باعتبارها الثروة الأساسية للأمة . وقال هيوم ان هذه السياسة أشبه بالجهاد لمنع الماء من بلوغ مستواه الطبيعى ، ثم عاد لتحرير الاقتصاد من « المعوقات التى لاتحصى عددها . . . والرسوم التى فرضها على التجارة جميع أمم أوربا وفاقتها كلها انجلتره فى هذا المضمار» [٤٤] . وكان سمث بالطبع على بينة من الحملة التى شنها كرتيه وغيره من الفزيوقراطيين الفرنسيين على اللوائح والأنظمة المعوقة للصناعة والتجارة والتى فرضتها نقابات الطوائف الحرفية والحكومات ، ومطالبتهم بسياسة من عدم التدخل تترك الطبيعة تجرى مجراها » وتجد فيها جميع الأسعار والأجور مستواها فى منافسة حرة . وكانت الثورة الوليدة آنئذ فى أمريكا على القيود التى فرضتها بريطانيا على تجارة المستعمرات جزءاً من خلفية تفكير سمث . ولو استرشدت الحكومة البريطانية بحرية التجارة التى أشار بها لكان من الجائز ألا يشهد عام صدور كتابه « إعلان الاستقلال » الأمريكى .

وكان لسمث آراء فى النزاع بين بريطانيا وأمريكا . فعنده أن الاحتكار الانجليزى لتجارة المستعمرات « من الذرائع الخبيثة التى يستخدمها النظام المركنتلى » [٤٥] . وقد اقترح إعطاء أمريكا استقلالها دون مزيد من النزاع مادام المستعمرون يرفضون أن تجبى منهم الضرائب لدعم نفقات الامبراطورية البريطانية « وبهذا الفراق ، فراق الأصدقاء المتفاهمين ، لن تلبث المودة الطبيعية التى بين المستعمرين ووطنهم الأم . أن تنتعش بسرعة ، وقد تحملهم . على إيثارنا فى الحرب كما يؤثروننا فى التجارة ، وبدلا من أن يكونوا رعايا مزعجين مشاغبين يصبحون أوفى . . . وأكرم حلفاء لنا » [٤٦] . ثم أضاف

« لقد بلغ التقدم السريع الذى أحرزه ذلك البلد هذا المبلغ الكبير من الثروة والسكان والتحسين ، بحيث قد لا ينقضى أكثر من قرن إلا قليلا حتى يزيد ما تغله أمريكا من مال على حصيلة الضرائب البريطانية ، وعندها ينقل مقر الامبراطورية — بالطبع نفسه إلى ذلك الجزء من الامبراطورية الذى ساهم بأكبر نصيب فى الدفاع عن الكل وفى دعمه » (٤٧) .

وقد عرف سمث ثروة أمة من الأمم لا بأنها مقدار الذهب أو الفضة الذى تمتلكه ، بل الأرض وتحسيناتها وغلاتها ، والشعب وجهده وخدماته ومهاراته وسلعه . وكانت نظريته أن أكبر الثروات المادية تكون نتيجة لأكبر الحريات الاقتصادية ، وهذا مع بعض الاستثناءات ، وحب المنفعة الشخصية أمر عام بين جميع الناس ، ولكننا لو سمحنا لهذا الدافع القوى بالعمل بأقصى حرية اقتصادية لحفز من النشاط والجرأة والمنافسة ما يثمر من الثروات أكثر من أى نظام آخر عرفه التاريخ ، (وهذه الفكرة هى فحوى قصة مندفيل الخرافية على النحل (٤٨) . فى شرح تفصيلى) وقد آمن سمث بأن قوانين السوق — خصوصاً قانون العرض والطلب — ستنسق بين حرية المنتج ومصلحة المستهلك ؛ ذلك أنه لو حقق المنتج أرباحاً باهظة لدخل غيره الميدان نفسه ، ولأبقى التنافس المتبادل بينهما الأسعار والأرباح فى نطاق حدود معقولة . ثم ان المستهلك سيتمتع بضرب من الديمقراطية الاقتصادية . ذلك أنه بالشراء أو برفض الشراء سيقرر إلى حد كبير أى السلع تنتج ، وأى الخدمات تقدم وبأى مقدار وثمن ، بدلا من أن تملى الحكومة كل هذه الأمور .

واتباعاً للفزيوقراطيين (ولكن مع الحكم بأن نواتج العمل وخدمات التجارة ثروة حقيقية كنواتج الأرض) دعا سمث لإنهاء الرسوم الإقطاعية ، والقيود النقابية ، واللوائح الاقتصادية الحكومية ، والاحتكارات الصناعية أو التجارية ، لأنها جميعاً تحد من تلك الحرية التى تتيح التحرك بعجلات الإنتاج والتوزيع ، بسماحها للفرد بأن يعمل ، وينفق ، ويوفر ، ويشترى ، ويبيع كما يشاء . وعلى الحكومة أن تطلق حرية العمل دون تدخل منها ، وأن تترك الطبيعة — أى نوازع الناس الفطرية — تعمل طليقة ، وأن تسمح

للفرد بأن يدبر أمره بنفسه ، وأن يجد عن طريق التجربة.والخطأ العمل الذى يستطيع أداءه ، والمكان الذى يستطيع شغله ، فى الحياة الاقتصادية » وأن تدعه يغرق أو يعوم .

« إننا لو اتبعنا نظام الحرية الطبيعية هذا » لكان على الملك (أو الدولة) ثلاثة واجبات تتطلب الاهتمام بها » . . . أولها واجب حماية المجتمع من عنف وغزو جماعات مستقلة أخرى » وثانيها واجب حماية أى عضو فى المجتمع ، بجهد الاستطاعة ، من ظلم وقهر كل عضو آخر فيه ، أى واجب إرساء إدارة صارمة للعدالة ؛ وثالثها واجب الإنفاق على الأشغال العامة والمؤسسات العامة التى لا يمكن إطلاقاً أن يكون من مصلحة أى فرد ، أو أى نفر قليل من الأفراد » القيام بها أو الإنفاق عليها [٤٩] .

هنا نجد صيغة الحكومة الجفرسونية » والهيكل العام لدولة تتيح للرأسمالية الجديدة أن تنمو وتترعرع جداً .

على أن الصيغة كانت تنطوى على ثغرة . فما الرأى إذا كان منع الظلم يتضمن الالتزام بمنع استخدام الماكرين أو الأقوياء للسذج أو الضعفاء استخداما غير إنسانى ؟ وقد أجاب سمث : أن ظلماً كهذا لا ينجم إلا عن الاحتكارات المقيدة للمنافسة أو التجارة » وقد عدت مبادئه لإلغاءالاحتكارات. ويجب أن نعتمد فى تنظيم الأجور على تنافس أرباب العمل على العمال ، وتنافس العمال على الأعمال ؛ وكل المحاولات التى تبذلها الحكومات لتنظيمها تحبطها قوانين السوق إن عاجلا أو آجلا . ومع أن العمل (لا الأرض كما أعتقد الفزيوقراطيون) هو المصدر الوحيد للثروة [٥٠] ، إلا أنه سلعة ، شأنه شأن رأس المال ، وهو خاضع لقوانين العرض والطلب . «كلما حاول القانون تنظيم أجور العمال » كان التنظيم دائماً يخفض هذه الأجور لارفعها » [٥١] ، وذلك لأنه «كلما حاولت الهيئة التشريعية تنظيم الفوارق بين السادة وعمالهم ، كان مستشاروها دائماً هم السادة » [٥٢] . وهذا الكلام كتب فى وقت كان فيه القانون الانجليزى يجيز لأرباب العمل » ويحرم على العمال ، تنظيم أنفسهم حماية لمصالحهم الاقتصادية . وقد ندد سمث بهذا التحيز من جانب القانون ،

وتوقع حصول العمال على أجور أفضل لا بالتنظيم الحكومى بل بالتنظيم العمالى(٥٣) .

وكان رائد الرأسمالية المزعوم هذا دائم الإنحياز إلى العمال ضد أصحاب الأعمال . فحذر من مغبة ترك التجارة ورجال الصناعة يقررون سياسة الحكومة :

« ان مصلحة التجار . . . فى أى فرع من فروع التجارة أو الصناعات هو دائماً يختلف من بعض الوجوه بل متعارض مع مصلحة الجمهور . . . واقتراح أى قانون جديد ، أو أى تنظيم للتجارة » يصدر عن هذه الطبقة ينبغى دائماً الاستماع إليه بغاية الحذر . . . فهو صادر عن طبقة من الناس . . . هم بوجه عام مصلحة فى أن يخدعوا الجمهور بل أن يبغوا عليه ، وهم . . . فى مناسبات كثيرة خدعوه وبغوا عليه أيضاً»(٥٤) .

أهذا آدم سمث أم كارل ماركس ؟ غير أن سمث دافع عن الملكية الخاصة لأنها حافز لا غنى عنه للجرأة والمغامرة ، وآمن بأن عدد الأعمال المتاحة ، والأجور المدفوعة ، سيتوقف أولا وقبل كل شيء على تجميع رأس المال واستخدامه (٥٥) . ومع ذلك فقد دعا لرفع الأجور باعتبار هذا الرفع مجزياً لصاحب العمل والعامل على السواء(٥٦) ، وألح على إلغاء الرق على أساس أن « العمل الذى يؤديه الأحرار هو فى النهاية أرخص من ذلك الذى يؤديه العبيد » (٥٧) .

وحين ننظر إلى سمث ذاته ، فى مظهره ، وعاداته ، وخلقه ، نعجب كيف كتب رجل معزول على هذا النحو عن عمليات الزراعة والصناعة والتجارة فى هذه الموضوعات المعقدة المتخصصة بمثل هذه الواقعية والبصيرة والجرأة . لقد كان شارد الذهن كنيوتن ، قليل الاعتداد بالعرف والتقاليد ، ومع أنه كان عادة مهذباً لطيفاً ، فقد كان فى وسعه أن يقابل جلافة صموئيل جونسن برد سريع من كلمات أربع تشكك فى شرعية نسب « الخان الأكبر » . وبعد نشر كتابه « ثروة الأمم » قضى عامين فى لندن حيث استمتع بالتعرف إلى جبون ورينولدز وبيرك ، وفى ١٧٧٨ عين — رسول حرية التجارة هذا —

رئيساً للجمارك المتحصلة من اسكتلنده . وبعدها عاش فى ادنبره مع أمه ، وظل عزباً إلى النهاية . وقد ماتت أمه فى ١٧٨٤ ، ولحق بها فى ١٧٩٠ بالغا السابعة والستين .

وسر إنجازه الكبير ليس فى أصالة تفكيره بقدر ما هو فى التمكن من بياناته والتنسيق بينها ، وفى غنى مادته التوضيحية ، وفى التطبيق المنير للنظرية على الأحوال الجارية ، وفى أسلوبه البسيط الواضح المقنع ، وفى نظرته العريضة التى رفعت الاقتصاد من مرتبة « العلم الكئيب » إلى مستوى الفلسفة . وكان كتابه علامة عصر لأنه محص وفسر — ولم ينتج بالطبع — الحقائق والقوى التى أخذت تحول الاقطاعية والتجارية إلى الرأسمالية والمشروعات الحرة . وحين خفض بت الثانى الضريبة المفروضة على الشاى من ١١٩٪ إلى ١٢ ½٪ وحاول عموماً أن يحقق للتجارة حرية أكبر « اعترف بدينه لكتاب « ثروة الأمم » . ويخبرنا اللورد روزبرى فى حديثه عن حفلة عشاء حضرها بت ، كيف أن الحاضرين على بكرة أبيهم قاموا وقوفاً حين دخل سمث وقال بت « سنظل واقفين حتى تجلس ، لأننا جميعاً تلامذتك »[٥٨] . وقد تنبأ السر جيمس مرى — بلتنى بأن كتاب سمث « سيقنع الجيل الحاضر ويحكم الجيل القادم »[٥٩] .

٥ — روبرت بيرنز

يقول أشعر شعراء اسكتلنده « إن دمى القديم الخسيس قد اندس إلى من أوغاد عاشوا منذ الطوفان »[٦٠] ولكننا لن نتقصى نسبه لأبعد من وليم بيرنز « الذى لم يكن وغداً بل مزارعاً مستأجراً سريع الغضب شديد الاجتهاد. وفى ١٧٥٧ تزوج آجنس براون ، التى أهدته روبرت فى ١٧٥٩ . وبعد ست سنوات استأجر وليم مزرعة مساحتها سبعون فداناً فى ماونت أوليفانت، وهناك عاشت الأسرة المتكاثرة عيشة التقتير فى بيت منعزل . وتلقى روبرت تعليمه فى البيت واختلف إلى مدرسة الأبرشيه « ولكنه اشتغل فى المزرعة منذ بلوغه الثالثة عشرة . فلما ناهز الرابعة عشرة « أدخلتنى صبية جميلة « لطيفة مرحة » فى عاطفة حارة للديلدة أراها برغم خيبة الأمل المرة » والحكمة

الثقيلة ، والفلسفة الغارقة فى الدرس ، أروع المباهج البشرية»[٦١] . وفى الخامسة عشرة التقى بـ « ملاك » ثان وسهر الليالى المحمومة مفكراً فيها . وقد استحضر أخوه إلى الذهن أن « تعلق روبرت بالنساء اشتد كثيراً ، وكان دائماً ضحية حسناء تسترقه »[٦٢] .

وفى ١٧٧٧ وفى نوبة من الشجاعة المستهترة ، استأجر وليم بيرنز مزرعة لوخلى ، ومساحتها ١٣٠ فداناً ، فى تاربولتن ، التى تعاقد على أن يدفع فيها ١٣٠ جنيها فى العام . وأصبح روبرت الذى بلغ الآن الثامنة عشرة ، والذى كان أكبر أبناء سبعة ، العامل الأول فى المزرعة لأن وليم شاخ قبل الأوان بعد أن حطمه الكد الذى لا غناء فيه . وقد باعد بين الوالد والولد غلو الأول فى البيورتانية ، وانفتاح الآخر على ناموس أرحب . وتردد روبرت على مدرسة للرقص رغم منع أبيه له . قال الشاعر ذاكراً تلك الحقبة « ومن مثل التمرد ذاك شعر بضرب من الكراهية لى ، وكان هذا فى اعتقادى من أسباب ذلك الفسق الذى اتسمت به سنواتى المستقبلة »[٦٣] : وحين بلغ روبرت الرابعة والعشرين انضم إلى محفل ماسونى . وفى ١٧٨٣ صودرت المزرعة للتخلف فى دفع الإيجار . وكتل روبرت وأخوه جلبرت مواردهما الضئيلة ليستأجرا مزرعة مساحتها ١١٨ فداناً نظير تسعين جنيهاً فى العام ، وراحا يكدحان فوقها أربع سنين ولا يصيبان منها غير سبعة جنيهات لكل منهما فى العام لنفقاتهما الشخصية ؛ وهناك عالا أبويهما وشقيقاتهما وأشقاءهما . ثم مات الأب بالسل فى ١٧٨٤ .

وقرأ روبرت فى ليالى الشتاء الطويلة الكثير من الكتب ، ومنها تواريخ روبرتسن ، وفلسفة هيوم ، والفردوس المفقود . « اعطنى روحاً كروح بطلى المفضل ، شيطان ملتن »[٦٤] . فلما غاظته رقابة الكنيسة الاسكتلندية على الأخلاق لم يعز عليه أن ينبذ لاهوتها ويكتفى بإيمان غامض بالله والخلود . وقد سخر من أولئك « السنيين » الذين يؤمنون بيوحنا فوكس ، « وخامره الظن بأن هؤلاء القساوسة كانوا فيما بين أيام الآحاد يأثمون خفية كما يأثم »[٦٥] . وقد وصف فى قصيدة « المهرجان المقدس » (التى تدور حول اجتماع للإنعاش الدينى) سلسلة من الوعاظ يذمون الخطيئة ويهددون

بالجحيم ، بينما تنتظر المومسات فى ثقة خارج الاجتماع زبائنهن من جمهور المصلين .

واشتد بغض بيرنز لرجال الدين حين أوفد أحدهم مندوباً عنه ليوبخه ويغرمه عقاباً على معاشرته لبتى باتن دون أن يكون زوجاً لها . ثم استحال البغض غضباً حين وبخ مجلس كنيسة موكلين (١٧٨٥) مالك أرضه اللطيف ، جافن هاملتن ، على تخلفه المتكرر عن صلوات الكنيسة . وكتب الشاعر الآن أقذع أهاجيه « صلاة القديس ولى » التى سخرت من فضيلة وليم فشر المرائية ، وكان من شيوخ كنيسة موكلين . فصوره بيرنز يخاطب الله قائلا :

إنى أبارك وأحمد قدرتك التى لاضريب لها ،
إذ تركت الألوف فى الليل ،
لتأتى إلى هنا وأنا أمام ناظريك
طالباً عطاياك وأفضالك ناراً ونوراً ساطعاً
لهذا البيت كله . . .

رباه إنك عليم بأننى كنت البارحة مع مج . . .
لذلك أطلب عفوك مخلصاً . . .
أواه ! لا تكن هذه الفعلة لطخة دائمة
تلوث شرفى ،
ولن أرفع ساقاً خاطئة
فوقها مرة أخرى .
ثم لابد أن أعترف
بأننى كنت مع ابنة ليزى ثلاث مرات ،
ولكنى كنت يارب مخموراً فى يوم الجمعة ذاك
حين دنوت منها ،

وإلا فما كان عبدك
ليجرؤ على اغوائها قط . . .
ثم أذكر رباه أن جافن هاملتن يهجر الكنيسة ،
ويسكر ويحلف ويلعب الورق
ومع ذلك فقد كثرت حيله المحببة
للناس كبيرهم وصغيرهم ،
وهو يسرق قلوب الناس
من القس الذى اصطفاه الله . . .
رب أدنه فى يوم انتقامك ،
رب ابتل من استخدموه
ولا تغض عنهم فى مراحمك
ولا تستمع إلى صلاتهم !
ولكن لأجل شعبك أهلكهم
ولا تبق منهم أحداً .
ولكن إذكرنى يارب وكل ما أملك
بمراحم أرضية وسماوية ،
حتى أضيء بالنعمة والثراء
ولا يبزنى فى ذلك أحد ،
وليكن لك كل المجد
آمين ، آمين !

ولم يجرؤ بيرنز على نشر هذه القصيدة فلم تصل إلى المطبعة إلا بعد موته بثلاث سنين .

وكان فى غضون هذا يتيح للكنيسة الكثير من المبررات لتقريعه ، فقد

لقب نفسه « زانياً محترفاً »[٦٦]. وكانت كل عذراء جديدة تثير عاطفته : «كلو الفاتنة تطفو فوق الموجة اللؤلؤية » ، وجين آرمر ، ومارى كامبل الهايلاندية ، وبجى تشالمرز ، و« كلارندا » ، وجنى كروكشانك ، وجنى الداليريه « مقبلة خلال الجاودار » و« الصغيرة الحلوة » دبورا ديفز ، وآجنس فلمنج ، وجنى جافرى ، وبجى كندى الساكنة « نهير دون الجميل » ، وجسى ليوارز ، وجين لوريمر (كلوريس) ، ومارى موريسن ، وآنا بارك « وآنا ويلى ستيوارت ، وبجى طومسن — وغيرهن[٦٧]. ولم يعوضه عن مشاق الحياة وخطوبها غير عيونهن المشرقة الضاحكة ، وأيديهن الناعمة وصدورهن الناصعة مثل « الثلج المتساقط » . وقد اعتذر عن تقلبه الجنسى بأن كل الأشياء فى الطبيعة تتغير ، فلم يكون الإنسان استثناء للقاعدة ؟[٦٨] ولكنه حذر النساء من الثقة بوعود الرجل[٦٩] . ونحن نعلم أنه أنجب خمسة أطفال من زواجه ، وتسعة بغير زواج . قال « إن لى عبقرية فى الأبوة » وخيل إليه أنه لاشفاء له إلا أن يخصى[٧٠] . أما عن توبيخات القساوسة وقوانين اسكتلنده :

فلتتضافر الكنيسة والدولة لتنهيانى
عن فعل ما لاينبغى أن أفعل .
فلتذهب الكنيسة والدولة إلى الجحيم
أما أنا فذاهب إلى حبيبتى آنا[٧١] .

فلما ولدت له بتى باتن طفلا (٢٢ مايو ١٧٨٥) عرض أن يتزوجها ، ولكن أبويها رفضا العرض . فانصرف عنها إلى جين آرمر وأعطاها تعهداً كتابياً بالزواج ، ولم تلبث أن حملت . وفى ٢٥ يونيو مثل أمام مجلس الكنيسة واعترف بمسئوليته . وقال إنه كان يعد نفسه متزوجاً من جين ، وأنه سوف يعهده ؛ ولكن أباها رفض أن يزوجها لفلاح فى السابعة عشرة مثقل بطفل غير شرعى . وفى ٩ يوليو تلقى بيرنز من مقعده فى الكنيسة التوبيخ العلنى فى اتضاع . وفى ٣ أغسطس ولدت جين توأمين . وفى ٦ أغسطس قبل هو وجين التوبيخ أمام شعب الكنيسة و « أحلا من الفضيحة » وأقسم الأب ليستصدرن أمراً بالقبض على بيرنز ؛ فاختبأ الشاعر وخطط أن يركب البحر

إلى جميكا ، ولم ينفذ أمر القبض، وعاد روبرت إلى مزرعته. فى ذلك الصيف ذاته وعد بأن يتزوج مارى كامبل وأن يصطحبها إلى أمريكا ، ولكنها ماتت قبل أن يستطيعا تنفيذ الخطة، وقد أحيا بيرنز ذكراها فى قصيدتيه « مارى الهايلاندية » و « إلى مارى التى فى السماء » [٧٢] .

فى ذلك العام الحافل بالإنتاج (١٧٨٦) نشر فى كلمارنوك أول دواوين شعره بالإكتتاب . وحذف من الديوان القصائد التى قد تسىء إلى الكنيسة او أخلاقيات الشعب ، وأبهج قراءه بلهجته الأسكتلنديه وأوصافه لمشاهد الطبيعة المألوفة ، وسرّ الفلاحين برفع دقائق حياتهم إلى مستوى الشعر المفهوم . ولعل شاعراً من الشعراء لم يعبر قط كما عبر عن هذا التعاطف مع الحيوانات التى تشارك فى أعباء يوم الفلاح ، أو « الخروف الأبله » الحائر وسط الثلج المنهمر ، أو الفأر الذى أزاحه عن جحره المحراث القادم .

ولكنك يا جرذى لست الوحيد
الذى يثبت أن بعد النظر قد يكون باطلا ،
فكثيراً ما تخطىء أشد خطط الفيران والناس احكاما .

ويكاد يبلغ مبلغ هذه الأبيات فى جريها على الألسن مجرى الأمثال تلك التى تختم قصيدته المسماه « إلى قملة عند رؤيتها أخرى على قبعة سيدة فى الكنيسة » :

ألا ليت قوة من القوى تهبنا أن
نرى أنفسنا كما يرانا الغير [٧٣] .

ولكى يضمن بيرنز الترحيب بديوانه الصغير توجه بقصيدة سماها « ليلة سبت الفلاح » : فصور الفلاح يستريح بعد أسبوع من الكد الشديد ، وزوجته وأطفاله يلتفون به كل يحكى قصة من قصص نهاره ؛ وكبرى بناته تقدم لأبيها الخطيب الخجول فى تردد واحجام ؛ ثم المشاركة السعيدة فى الطعام البسيط ، والأب يقرأ الكتاب المقدس على أسرته ؛ ثم الصلاة الجماعية ؛ وإلى هذه الصورة السارة أضاف بيرنز مناجاة وطنية لـ « اسكتلنده » أرضى ووطنى الحبيب ! » وبيع كل المطبوع من النسخ إلا ثلاثا وعددها ٦١٢ فى

أربعة أسابيع ، وبلغ صافى حصيلة بيرنز منها عشرين جنيها .

وكان قد فكر فى أن يستخدم هذه الحصيلة فى دفع أجر الرحلة إلى أمريكا ولكنه عدل وخصصها لفترة يقيمها فى أدنبره . فلما بلغها على جواد استعاره فى نوفمبر ١٧٨٦ اقتسم حجرة وسريرا مع فتى ريفى آخر . وكان يشغل الطابق الذى يعلوهما بعض المومسات الصاخبات . وفتح له الأبواب نقاد أدنبره الأدبيون ، فكان معبود المجتمع المهذب طوال موسم . ووصفه السر ولتر سكوت بهذه العبارات :

« كنت صبيا فى الخامسة عشرة عام ١٧٨٦ — ٨٧ حين وفد بيرنز أول مرة على أدنبره . . . ورأيته يوما فى بيت الأستاذ فيرجسون المحترم ، حيث التقى نفر من السادة ذوى الشهرة الأدبية . . وكان شخصه قويا عفيا « فيه جهامة ريفية بغير جلافة ، عليه سيماء البساطة والصراحة الوقورين . وجهه ضخم والعين واسعة سوداء اللون ، تتألق . . . إذا تكلم . . . وكان فى مجلسه من هؤلاء الرجال » وهم صفوة المثقفين فى جيلهم ووطنهم ، يعبر عن رأيه فى قوة بالغة ولكن دون أدنى صلف » [٧٥] .

وقد وجد التشجيع على إصدار طبعة مزيدة من قصائده . ولكى يضيف إلى ديوانه الجديد مزيدا من المادة اعتزم أن يضمنه قصيدة من مطولاته اسمها «الشحاذون المرحون» لم يجرؤ من قبل على طبعها فى ديوان كلمارنوك وقد وصفت القصيدة تجمعا للمتشردين ، والصعاليك ، والمجرمين « والشعراء ، والعابثين ، والبغايا ، والعجزة » والجنود المنبوذين ، فى خمارة نانسى جبسن بمدينة موكلين . ثم وضع بيرنز فى أفواههم أصرح السير الذاتية وأمعنها فى الخطيئة » واختتم هذا الخليط بكورس مخمور :

« ما أتفه الذين يحميهم القانون !

إن الحرية مأدبة فاخرة !

وقصور الملوك لم تبن إلا للجبناء .

وما شيدت الكنائس إلا مسرة لرعاتها [٧٦] »

وهالت الدارس والواعظ هيو بلير فكرة نشر هذا الازدراء للفضائل

فأذعن بيرنز ، وسبى بعد ذلك به نظم هذه القصيدة ، [٧٧] وقد احتفظ بها أحد أصدقائه ثم رأت النور فى ١٧٩٩ .

وباع المشرف الأدنبرى على النشر نحو ثلاثة آلاف نسخة ، خلص منها لبيرنز ٤٥٠ جنيها . فاشترى فرسا ركبها فى رحلة إلى إقليم المرتفعات (٥ مايو ١٧٨٧) ثم عبر نهر تويد ليرى طرفا من انجلتره . وفى ٩ يونيو زار أقاربه فى موسجيل ، وألم بجين آرمر ، فرحبت بمقدمه ، وحبلت مرة أخرى . فلما عاد إلى أدنبره التقى بمسز أجنيس ملهيوز . وكانت قد تزوجت جراحا من جلاسجو وهى فى السابعة عشرة ، ثم تركته فى الحادية والعشرين (١٧٨٠) مصطحبة أطفالها واستقرت فى العاصمة فى عيشة كريمة مدبرة . فدعت بيرنز إلى بيتها ، ووقع فى غرامها دون إبطاء ، ويبدو أنها لم تسلمه نفسها ، لأنه ظل مقيما على حبها ، وتبادلا الرسائل وقصائد الشعر ؛ وكان توقيعه عليها باسم « سيلفاندر » وتوقيعها « كلارينداً » ، وفى ١٧٩١ قررت أن ترحل وتلحق بزوجها فى جميكا . وبعث إليها بيرنز أبياتا رقيقة على سبيل الوداع .

قبلة حارة واحدة ثم نفترق ،
وداع واحد ، ثم لا لقاء بعده !
لو لم نحب هذا الحب الرقيق ،
ولو لم نحب هذا الحب الأعمى ،
ولو لم نلتق ولو لم نفترق ،
لما تحطم قلبانا قط [٧٨] .

ولكنها وجدت زوجها يعيش مع ساقية زنجية ، فعادت إلى أدنبره .

أما وقد عجز بيرنز عن إشباع عشقه لها ، فقد التمس الصحبة والقصف فى ناد محلى يسمى « المدافعين عن كروكلان » — رجال تعاهدوا على الدفاع عن مدينتهم . هناك كان الخمر والنساء هما الآلهة الحارسة ، ، والفسق السيد المتسلط . وقد جمع بيرنز لأجاهم الأغانى الأسكتلندية القديمة وأضاف إليها من عنده ؛ ووجد بعضها طريقه إلى النشر سرا وغفلا عن اسم الشاعر عام ١٨٠٠ بعنوان « عرائس شعر كلدونيا المرحات » . وقد قضى على ترحيب

مجتمع أدنبره الراقي ببيرنز سريعا انتماؤه إلى هذا النادى ، وازدراؤه السافر للفوارق الطبقية [٧٩] ، وإعرابه الصريح عن الآراء المتطرفة فى الدين والسياسة .

ثم حاول الحصول على وظيفة جاب للضرائب . فلما صد عنها غير مرة ، راض نفسه على مغامرة جديدة فى الفلاحة . فى فبراير سنة ١٧٨٨ استأجر مزرعة إليسلاند ، الواقعة على خمسة أميال من دمفريز ، واثنى عشر من كريجنتوك مدينة كارليل . وأقرض مالك المزرعة الشاعر ٣٠٠ جنيه ليبنى بيتا فى المزرعة ويسيج الحقل بعد أن وصف التربة فى غير مواربة بأنها « فى أسوأ حالات الإنهاك » [٨٠]. واتفق على أن يدفع له بيرنز خمسين جنيها كل عام على امتداد ثلاث سنين ، ثم سبعين . وولدت جين آرمز أثناء ذلك توأمين (٣ مارس سنة ١٧٨٨) لم يلبثا أن ماتا . وتزوجها بيرنز قبل ٢٨ ابريل بقليل ، وأقبلت بطفلها الوحيد الذى بقى لها من أطفالها الأربعة اللذين ولدتهم له لتخدمه زوجة ومديرة لبيته فى اليسلاند . وأنجبت له طفلا آخر سماه بيرنز « رائعتى فى ذلك النوع من الصناعة ، لأنى أرجو أن يكون « فام أو شانتر » إنجازى القياسى فى الميدان السياسى » [٨١] وفى سنة ١٧٩٠ توثقت علاقته بآنا بارك ، الساقية فى حانة دمفريز ، وفى مارس سنة ١٧٩١ ولدت له طفلا أخذته جين وربته مع أطفالها ، [٨٢]

وكانت الحياة شاقة فى إليسلاند ، ولكنه واصل قرض الشعر الرائع . وهناك أضاف مقطعين شهيرين لأغنية سكارى قديمة سماها «الأيام الخوالى» وظل بيرنز يكدح حتى انهارت قواه كما انهارت قوى أبيه من قبل . واغتبط حين عين (١٤ يوليو سنة ١٧٨٨) مفتش إنتاج ، يجوب البلاد ليعاير البراميل ، ويفتش على أصحاب المطاعم ، والشماعين ، ويقدم تقاريره لمجلس إنتاج أدنبره . ويبدو أنه أرضى المجلس رغم كثرة شجاره مع جون بارليكورن . وفى نوفمبر سنة ١٧٩١ باع مزرعته بربح ، وانتقل مع جين والأطفال الثلاثة إلى بيت فى دمفريز .

وقد آذى شعور أهل المدينة الوقورين بتردده على الحانات ، وعودته مرارا إلى جين الصابرة وهو ثمل بالخمر . [٨٣] على أنه ظل شاعرا فحلا ،

فى تلك السنوات الخمس نظم هذه القصائد : « على ضفاف نهر دون الجميل ومروجه » و « إلى الأسكتلنديين الذين أريقت دماؤهم مع ولاس » و « حبيبتى أشبه بوردة حمراء حمراء » . وقد تبادل الرسائل مع السيدة فرانسس دنلوب ، التى كان يزورها أحيانا وكان فى عروقها أثارة من دم ولاس ، لأنه افتقد فى زوجته الرفيق الفكرى . وقد جاهدت هذه السيدة لترويض أخلاق بيرنز ولغته ، ولم يكن ذلك دائما لفائدة شعره . وكان أكثر تقديرا لأوراق البنكنوت من فئة الجنيهات الخمسة ، التى كانت توافيه بها بين الحين والحين .[٨٤]

وقد عرض وظيفته فى تفتيش الإنتاج للخطر بآرائه المتطرفة . فأشار على جورج الثالث فى خمسة عشر مقطعا رائعا أن يتخلص من وزرائه الفاسدين ، ونصح أمير ويلز (ولى العهد) بأن يكف عن فجوره ، وعن إسرافه فى لعب القمار مع تشارلى (فوكس) ، إن شاء أن يرث العرش[٨٥]. وفى خطاب أرسله لصحيفة أدنبره « كورانت » صفق لإعلان الاستقلال الأمريكى . وفى سنة ١٧٨٩ كان « نصيرا متحمسا » للثورة الفرنسية . وفى سنة ١٧٩٥ فجر لغما على فوارق المراتب .

أبسبب الفقر الشريف
ينكس الفقير رأسه ويخزى ؟
إنا نمر بالعبد الجبان فلا نعبأ به ،
وإنا نجوؤ على أن نكون فقراء رغم هذا كله ! .
ورغم أن كوننا وكدحنا مجهولان مغموران .
أن المراتب ليست سوى خاتم الجنيه ،
أما الإنسان فهو الذهب رغم هذا كله .

* * *

إن الرجل الشريف ، وإن اشتد فقره
أمير القوم رغم هذا كله .

* * *

أترى ذلك الرجل الذى يلقبونه لوردا
والذى يختال فى مشيته ويحدق فى الناس ،
إنه ليس إلا غبيا أحمق رغم هذا
وإن انحنى المئات لأمره ونهيه

* * *

إذن لنصل ليأتى ذاك اليوم ،
وهو آت لاريب فيه رغم هذا كله ،
يوم يحقق العقل والكفاءة الانتصار فى كل الأرض قاطبة
إنه آت رغم هذا كله ،
يوم يقف الرجل أمام الرجل
إخوانا فى بقاع الأرض .

وتوالت الشكاوى على مجلس الانتاج تقول أن رجـــلا متطرفا كهذا ليس بالرجل الذى يصلح للتفتيش على الشماعين ومعايرة براميل الخمر » ولكن أعضاء المجلس صفحوا عنه لحبه لاسكتلنده واشادته بها . وكانت الجنيهات التسعون التى أتته بها وظيفتـــه لا تكاد تتيح له الخبز والكأس ، وواصل تشرده الجنسى ، وفى ١٧٩٣ ولد له طفل من السيدة ماريا ريدل التى اعترفت بـ « قوة جاذبيتى التى لا تقاوم » وأضعف إدمانه الخمر عقله وكبرياءه آخر الأمر . فراح يرسل إلى أصدقائه خطابات الاستجداء على نحو ما كان يفعل موتسارت فى هذا العقد ذاته .[٨٦] ورددت الشائعات أنه مصاب بالزهرى ، وأنه عثر عليه ذات صباح قارس البرد فى يناير ١٧٩٦ ملقى وسط الثلوج وهو سكران .[٨٧] وقد انتقدت هذه الشائعات باعتبارها هرطقة لا سند لهـــا ، ويشخص الأطباء الاسكتلنديون مرض بيرنز الأخير بأنه حمى روماتزمية آذت قلبه .[٨٨] وقبل أن يموت بثلاثة أيام كتب إلى حميه يقول « أرجوك بالله أن ترسل السيدة آرمراليتا فوراً » فزوجتى تتوقع كل ساعة أن تلزم الفراش . رباه ! أى موقف يمكن أن تقفه المرأة المسكينة وهى بغـــير صديق ! .[٨٩] ثم لزم فراشه ومات فى ٢١ يوليو ١٧٩٦ . وبينما كانوا

يزارونه للتراب ولدت زوجته إبنا . وجمع أصدقاؤه بعض المال للعناية بها ، وقد عمرت إلى عام ١٨٣٤ لأنها كانت صلبة العود قوية القلب .

٦ — جيمس بوزويل (*)

١ — الشبل

كان يجرى فى عروقه الدم الملكى . فأبوه الكسند بوزويل ، سيد ضيعة أوخنلك فى ايرشيز والقاضى بمحكمة اسكتلنده المدنية العليا ، سليل لأيرل أران ، وهو جد بعيد لجيمس الثانى ملك اسكتلنده . أما أمه فتحدرت من إيرل افوكس الثالث ، وكان جد اللورد دارنلى ، الذى كان أبا جيمس السادس . وقد ولد جيمس بوزويل بأدنبره فى ٢٩ أكتوبر ١٧٤٠ . وكان بوصفه أكبر أبناء ثلاثة الوريث لضيعة أوخنلك المتواضعة (وكان ينطقها آفليك) ، ولكن بما أن أباه عمر حتى ١٧٨٢ ، فقد كان عليه أن يظل غير قانع بما يجريه عليه اللورد من دخل . وأصيب أخوه جون فى ١٧٦٢ بأولى نوبات الجنون العديدة وكان بوزويل نفسه فريسة لنوبات من الوهم التمس الشفاء منها فى غيبوبة الشراب ودفء أجساد النساء . وقد علمته أمة العقيدة

(*) كان اكتشاف يوميات بوزويل من أشد الأحداث إثارة فى تاريخ عصرنا الأدبى . وكان قد أوصى بأوراقه لورثته الذين رأوا فيها من الفضائح ما لا يسيغ نشرها . وقد عثر على رزمة منها تحتوى « يومية لندن » فى فتركيرن هاوس ، قرب أبردين ، عام ١٩٣٠ . واستكشف كنز أكبر من صناديق وخزانات قلعة مالاهايد قرب دبلن ، فى ١٩٢٥ — ٤٠ . واشترى الكولونل رالف ايشام معظم الأوراق ، ثم اشترتها منه جامعة ييل . وقد حققها الأستاذ فردريك أ . بوتل لشركة ماكجرو — هل للنشر ، وهى صاحبة الحق الوحيدة فى نشرها . . ونحن شاكرون للمحقق وللناشر الاذن لنا بنقل بعض الفقرات من اليومية . وقد ظهر كتاب الأستاذ بوتل « جيمس بوزويل : السنوات الأولى » بعد كتابة هذا الفصل . .

الكلفينية المشيخية التي كانت تنبض بدفء تفردت به . كتب في تاريخ لاحق يقول « لن أنسى ما حييت ساعات الخوف التعسة التي تحملتها في صباى نتيجة الأفكار الضيقة عن الدين ، بينما كان عقلي يمزقه رعب جهنمي »[٩٠] . وكان طوال حياته كلها يتذبذب بين الإيمان والشك ، وبين التقوى والإنغماس في لذة الجنس . ولم يحقق قط أكثر من تكامل وقتي أو اطمئنان عابر .

وبعد أن تلقى الدروس في البيت فترة أرسل إلى جامعة إدنبره ، ثم إلى جلاسجو ، حيث اختلف إلى محاضرات آدم سمث ودرس القانون . وفي جلاسجو التقى بالممثلين والممثلات وكان بعضهم كاثوليكاً . وبدا له أن مذهبهم أكثر من الكلفنية توافقاً مع الحياة المرحة ، وأعجبته بوجه خاص عقيدة المطهر التي تسمح للخاطىء بالخلاص بعد بضع دهور من الحريق . فركب جيمس فجأة وانطلق إلى لندن (مارس ١٧٦٠) وانضم إلى كنيسة روما .

وأرسل الأب المفزع إلى إيرل أجلنتن يناشده أن يرعى جيمس ، وكان الرجل جاراً من جيرانه في إيرشير يسكن لندن . وقال الايرل للشاب أنه ظل كاثوليكياً فلن يستطيع أبداً أن يمارس المحاماة ، أو يدخل البرلمان ، أو يرث أوخنلك . فنقل جيمس إلى اسكتلنده وكنيستها ، وعاش تحت سقف أبيه وبصره ، ولكن لما كان القاضي مشغولا ، فقد أفلح إبنه في أن يلتقط عدوى مرض سري »[٩١] وكانت أولى إصاباته الكثيرة بالمرض السري . وخاف الأب أن يبدد الفتى الطائش ميراث أوخنلك على اللهو والعربدة حين يرثها ، فأقنعه لقاء راتب سنوى قدره مائة جنيه بأن يوقع وثيقة يكل بمقتضاها إدارة التركة مستقبلا لأوصياء يعينهم بوزويل الأب .

وفي ٢٩ أكتوبر ١٧٦١ بلغ جيمس سن الرشد ، فضوعف راتبه السنوى . وفي مارس التالي حبلت منه جي دويج ، وفي يوليو جاز امتحان المحاماه . وفي أول نوفمبر ١٧٦٢ انطلق إلى لندن بعد أن ترك لبجي عشرة جنيهات (وقد ولدت طفلها بعد بضعة أيام ، ولكن بوزويل لم يره قط) .

واتخذ له فى لندن غرفة مريحة فى داونتج ستريت . ولم يأت الخامس والعشرون من نوفمبر حتى شعر أنه « تعس حقاً لافتقاره إلى النساء » [٩٢] ، ولكنه تذكر مرضه المعدى ، ثم إن « أتعاب الجراحين فى هذه المدينة باهظة » [٩٣] . وعلى ذلك تجلد لحياة العفة « حتى أعثر على فتاة مأمونة ، أو تحبنى امرأة من نساء المجتمع العصرى » [٩٤] . وكان انطباعه عن لندن أنها تقدم كل لون من ألوان الغوانى ، « من السيدة الفخمة التى تتقاضى خمسين جنيهاً فى الليلة إلى الحورية اللطيفة . . . . التى تسلم شخصها الجذاب لشرفك لقاء كوب من النبيذ وشلن واحد » [٩٥] . واتصل بـ « ممثلة مليحة » تدعى لويزة « بدا له أن تمنعها الطويل يشهد بنظافتها الصحية . وأخيراً أغراها ، وحقق نشوة مخمسة ، « وقد صرحت بأنى أعجوبة » [٩٦] . وبعد ثمانية أيام اكتشف أنه أصيب بالسيلان . وفى ٢٧ فبراير شعر أنه شفى ، وفى ٢٥ مارس التقط مومساً من عرض الطريق و « باشرها وهو مدرع » (بكيس واق) . وفى ٢٧ مارس « سمعت صلاة فى كنيسة سانت ونستن » وفى ٣١ مارس « تمشيت فى هايدپارك وأخذت أول بغى لقيتها » [٩٧] وتسجل « يومية لندن » التى خلفها بوزويل أمثال هذه المغامرات خلال الشهور الأربعة التالية — فى جسر وستمنستر ، وفى حانة « هد تافرن » التى كان يرتادها شكسبير ، وفى هايد بارك ، وفى حانة على الستراند ، وفى محاكم التمبل ، وفى بيت الفتاة .

وهذا بالطبع ليس إلا جانباً واحداً فى صورة رجل ، وحشد هذه الأحداث المتفرقة فى فقرة واحدة يعطى انطباعاً خاطئاً عن حياة بوزويل وخلقه . أما الجانب الآخر فهو « حبه الحار لعظماء الرجال » [٩٨] . وأول صيد له فى هذا كان جاريك ، الذى استطاب مدائح بوزويل وأحبه لتوه ، ولكن جيمس كان يتطلع إلى الذرى الشامخة . وكان قد سمع فى إدنبره توماس شريدان يصف لوذعية صموئيل جونسن وحديثه الدسم . فقال لنفسه إن لقاء هذا القمة فى حياة لندن الأدبية سيكون « ضرباً من المجد » .

وأعانته الصدفة على ما ينشد . ففى ١٦ مايو ١٧٦٣ كان بوزويل يشرب

الشاى فى مكتبة الكتبى توماس ديفز بشارع رسل ، وإذا « رجل ذو مظهر رهيب جداً » يدخل المكتبة . وتبين بوزويل شخصه من لوحة كان قد رسمها رينولدز لجونسن . فرجا ديفز ألا يبوح بأن وطنه اسكتلنده ، ولكن ديفز باح بالسر « فى خبث » للفور . ولم يفت جونسن أن يلاحظ أن اسكتلنده بلد طيب يقدم منه الإنسان . وجفل بوزويل . ثم شكا جونسن من أن جاريك ضن عليه بتذكرة مجانية للآنسة وليمز لتحضر تمثيلية معروضـــة » وتجاسر بوزويل على أن يقول « سيدى » لست أستطيع الإعتقاد بأن مستر جاريك يضن عليك بمثل هذا الشيء التافه . » وهنا انقض جونسن عليه بقوله « سيدى ، لقد عرفت ديفد جاريك زمناً أطول مما عرفته ، ولست أرى لك حقاً فى أن تكلمنى فى هذا الأمر » . ولم يكن فى هذا الجواب ما يبشر بصحبة مديدة . و « صعق » بوزويل و « أحس بالخزى » » ولكن بعد مزيد من الحديث « اقتنعت بانه وإن كان فى مسلكه خشونة » إلا أنه ليس فى طبعه لؤم » (٩٩) .

وبعد ثمانية أيام ، وبتشجيع من ديفز وبدعم من جرأته الصفيقة ، قدم بوزويل نفسه لجونسن فى شقته بالأنر تميل ، فاستقبله فى تلطف أن لم يكن فى ظرف كثير . وفى ٢٥ يونيو تعشى الدب والشبل معاً بحانة الميتر فى فليت ستريت «كنت فخوراً جداً بفكرة وجودى معه » وفى ٢٢ يوليو « خصصت لنا - أنا ومستر جونسن - غرفة فى مشرب تيركس هد » ثم كتب بوزويل فى يوميته « بعد هذا سأكتفى بتسجيل الذكريات الخاصة بمستر جونسن » والجديرة بالتسجيل ، كلما طفت فى ذاكرتى » (١٠٠) وهكذا بدأت هذه السيرة الرائعة .

ولما رحل بوزويل إلى هولنده (٦ أغسطس ١٧٦٣) ليدرس القانون استجابة لألحاح أبيه ، كان إنسجام الأستاذ وتلميذه عظيما حتى لقد رافق جونسن ذو الثلاثة والخمسين بوزويل ذا الإثنين والعشرين إلى هاروبتش ليودعه عند رحيله .

ب — بوزويل خارج بريطانيا

واستقر به المقام فى أترخت « حيث درس القانون ، وتعلم الهولندية والفرنسية ، وقرأ كل كتاب فولتير « فى الأعراف » (كما يقول) . وقد عانى أول الأمر من نوبة اكتئاب قاسية ، ووبخ نفسه على كونه زير نساء حقيراً ، وفكر فى الإنتحار . وألقى اللوم فى فجوره الأخير على فقده إيمانه الدينى . « كنت مرة كافراً » ، وسلكت مسلك الكافرين ، أما الآن فأنا جنتلمان مسيحى »[١٠١].ووضع لنفسه « خطة محكمة » لأصلاح ذاته : فهو عازم على إعداد نفسه للقيام بواجبات اللورد الإسكتلندى » وعلى أن « يكون وفياً لكنيسة انجلترة » » وأن يلتزم بالقانون الأخلاقى المسيحى « حذار من أن تتحدث عن نفسك » بل « إحترم نفسك . . . وستكون على العموم شخصية ممتازة »[١٠٢] .

ثم استعاد إهتمامه بالحياة حين وجد قبولا فى بيوت سراة الهولنديين . فكان فى زيه الآن « القرمز والذهب » . . . والجوارب الحريرية البيضاء ، والخفان الجميلان . . . ومنديل برشلونى ، وعلبة أنيقة لخلة الأسنان »[١٠٣] وعلق قلبه بإيزابيللا فان تويل ، التى كان المعجبون بها يلقبونها « حسناء زويلن » و« زليدة » أيضاً ، وقد نوهنا من قبل عنها واحدة من نساء كثيرات لامعات فى هولنده ذلك الجيل . ولكنها عزفت عن الزواج ، وأقنع بوزويل نفسه بأنه قد رفضها . ثم جرب حظه مع مدام جيلفنك « الأرملة الحسناء ، ولكنه الفاها « لذيذة حصناء »[١٠٤]. وأخيراً « صممت على القيام برحلة إلى أمستردام واصطياد فتاه » . فلما أن بلغها « ذهبت إلى ماخور . . . وآذى شعورى أن أجدنى فى مهاوى الفجور الوضيع » وفى الغد « ذهبت إلى كنيسة اوستمعت إلى عظة حسنة . . . ثم تجولت مخترقاً المواخير الحقيرة فى أزقة قذرة »[١٠٥]. واستعاد « كرامة الطبيعة الإنسانية » حين تسلم من صديق خطاب تقديم إلى فولتير .

وكان قد وفى بوعده لأبيه بأنه سيدرس بجد فى أوترخت ؛ لذلك تلقى منه الإذن والمال للرحلة الكبرى المألوفة التى يتوج بها الجنتلمان الانجليزى

الشاب تعليمه . فودع زليدة ، وبالطبع كان فى عينيها دموع الحب ، وفى ١٨ يونيو ١٧٦٤ عبر الحدود إلى ألمانيا . وظل قرابة عامين بعدها يراسلها ويبادلها الثناء والنقد . وكتب من برلين فى ■ يوليو يقول :

« بما أننا قد رفعنا الكلفة فيما بيننا تماماً يا زليده » فيجب على أن أقول لك ان فى قدراً من الغرور . . . يكفى لتخيل أنك كنت حقاً تحبيننى . . . وان فى من الأريحيه ما يسمح لى بتجنب خديعتك . . . فلست أود الزواج منك لأكون ملكاً . . . فلا بد لزوجتى من أن تكون شخصية مناقضة تماماً لعزيزتى زليده ، إلا فى الحب ، والأمانة ، ولطف الطبع »(١٠٦) .

ولم تجب . فعاود الكتابة فى ١ أكتوبر ، مؤكداً لها أنها تحبه ، ولم تجب ، فعاود الكتابة مرة أخرى فى ٢٥ ديسمبر .

« أيتها الآنسة ، إننى رجل متكبر ، وسأظل كذلك أبدا . وينبغى أن تفخرى بتعلقى بك . ولست أعلم إن كان ينبغى أن أكون فخوراً بالمثل بتعلقك بى . ان الرجال الذين يملكون قلوباً وعقولا مثلى نادرون . أما المرأة الكثيرة المواهب فليست بهذه الندرة . . . وقد تستطيعين أن توافينى بتفسير لمسلكك معى »(١٠٧) .

أما ردها فيستحق أن يفرد له مكان فى تاريخ المرأة . قالت :

« تلقيت رسالتك بفرح وقرأتها بشعور العرفان . . . وكل تعبيرات الصداقة تلك ، وكل تلك الوعود بالود الأبدى وبالذكرى الرقيقة أبدا ، والتى خلصت إليها (من كلامها السابق له) ، يعترف بها قلبى ويجددها فى هذه اللحظة . . . وقد واصلت تكرار القول . . . بأننى كنت عاشقة لك . . . وأنت تصر على أن أعترف بهذا . وقد صممت على أن تسمعنى أقوله وأردده . وأننى لأجد هذا نزوة فى غاية الغرابة من رجل لايحبنى ويراه لزاماً عليه (بدافع اللياقة) أن يقول لى هذا بأصرح العبارات وأقواها . . . وقد صدمنى وأحزننى أن أجد ، فى صديق كنت أتصوره رجلا صغير السن موفور التميز ، الغرور المراهق الذى يتصف به أحمق مأفون .

« يا عزيزى بوزويل ، لست مسئولة إطلاقاً عن أنه لم يحدث فى أى لحظة أن اضطرم فى صدرك حديثى أو لهجتى أو نظرتى . فإذا كان هذا قد حدث ، فانسه . . . ولكن لا تنسى ذكرى الأحاديث الكثيرة التى تبادلناها حين كان كلانا خلى البال كصاحبه : فكنت أنا مغتبطة جداً بتوهمى فى غرور أنك متعلق بى ، وكنت أنت سعيداً بالمثل بأن تعدنى صديقة — وكأن المرأة الكثيرة المواهب شىء نادر . . أقول احتفظ بهذه الذكرى ، وثق بأن لك حنانى ، وتقديرى ، بل أقول واحترامى ، على الدوام » [١٠٨] .

وقد أدبت بوزويل هذه الرسالة تأديباً عابراً ، فلزم الصمت عاماً . ثم كتب (١٦ يناير ١٧٦٦) من مارس إلى والد زليدة يطلب يدها « ألا يكون مؤسفاً ألا يتحقق ارتباط سعيد كهذا ؟ » [١٠٩] . ورد الوالد بأن زليدة تنظر فى عرض آخر . وبعد عام أرسل إليها بوزويل عرضاً مباشراً . فأجابت ، قرأت عبارات إعزازك المتأخرة بسرور ، وبابتسامة . حسناً ، إذن فقد أحببتنى مرة » [١١٠] — ثم رفضت عرضه .

وبينما كانت لعبة المراسلة هذه دائرة كان بوزويل قد جرب الكثير من الأقطار والنساء . ففى برلين شهد فردريك على ساحة العرض ، ولكنه لم يره أقرب من ذلك . وصحب إلى فراشه بائعة شوكولاته حبلى بدت له مرفأ سليماً . وفى ليبزج التقى بجيابرت وجوتشيد ، وفى درسدن زار « قاعة الصور الفخمة التى قيل لى إنها ارفع مثيلاتها فى أوربا » [١١١] . ثم هبط إلى سويسره بطريق فرانكفورت ومابنز وكارلسروهى وستراسبورج . وقد رافقناه من قبل فى زيارته لروسو وفولتير . فى تلك الأيام المجيدة أخذت هالة العبقرية وحمى الشهرة شهوة الشباب .

وفى أول يناير ١٧٦٥ غادر جنيف ليعبر الألب . وأنفق تسعة شهور مبهجة فى إيطاليا ، ورأى كل مدينة كبيرة ، وذاق طعم الأنثى فى كل وقفه ، وفى روما سعى للقاء فنكلمان ، ولثم قدم البابا فى شخصها ، وصلى فى كتدرائية القديس بطرس ، والتقط عدوى مرضه المفضل من جديد . وارتقى فيزوف مع جون ولكس . وفى البندقية قاسم اللورد مونتستيوارت (بن ايرل بيوت)

مخطيته ، وتجدد إصابته بمرضه القديم . وخلال شهر قضاه فى سيينا تودد إلى بورتسيا سانسدونى ، خليلة صديقه مونتستبورات ، وحثها على ألا تسمح لأى عاطفة وفاء بأن تعترض كرمها ، لأن « سيدى اللورد فى فطرته مالايجعل الوفاء خلة يقدر على التحلى بها أو يتوقعها منك » [١١٢] .

على أن جانبه الأنبل تجلى فى مأثرته التالية . فقد استقل مركباً من ليفورنو إلى كورسيكا (١١ أكتوبر ١٧٦٥) . وكان باولى قد حرر الجزيرة من سلطان جنوه فى ١٧٥٧ وله ثمانى سنوات فى حكم الدولة الجديدة . والتقى به بوزويل فى سوللاكارو ، وقدم إليه رسالة تعريف من روسو . وقد ظن به التجسس أول الأمر « ولكنى سمحت لنفسى بأن أطلعه على مذكرة كتبتها فى المزايا التى تحققها بريطانيا العظمى من تحالف تبرمه مع كورسيكا » ، وبعدها كان يتغدى بانتظام مع الجنرال [١١٣] . وقد دون الكثير من الملاحظات التى أفادته بعد ذلك فى كتابه « وصف كورسيكا» (١٧٦٨) . وغادر الجزيرة فى ٢٠ نوفمبر ، وسافر فى محاذاة الرفيرا إلى مارسليا . وهناك وافاه « قواد طويل القامة مهذب» بفتاة « أمينة ، مأمونة ، نزيهة » [١١٤] .

وفى اكس — أن — بروفانس بدأ يوافى « اللندن كرونكل » بفقرات أنباء تنشر فى طبعات متلاحقة ابتداء من ٧ يناير ١٧٦٦ ، أعلمت الجمهور البريطانى بأن جيمس بوزويل يمد انجلتره بمعلومات مباشرة عن كورسيكا فلما وصل إلى باريس (١٢ يناير) أتاه نبأ من أبيه بأن أمه ماتت . وقد تكفل بمصاحبة صديقة روسو ، تريز لفاسير ، إلى لندن ، وقد أسلمت نفسها له فى الطريق ان كان لنا أن نصدق روايته . وتلبث فى لندن ثلاثة أسابيع . ورأى جونسن فى مناسبات عدة ، وأخيراً مثل أمام أبيه فى ادنبره (٧ مارس ١٧٦٦) . وكانت فترة السنوات الثلاث والشهور الأربعة التى قضاها فى الاستقلال والرحلة قد أعانت على إنضاجه . صحيح أنها لم تضعف من شهوته أو من غروره ، ولكنها وسعت معارفه وأفقه ، وأعطته اتزاناً وثقة بالنفس جديدين ، وأصبح الآن يلقب « بوزويل الكورسيكى» « رجلا تغدى مع باولى ، عاكفاً على تأليف كتاب قد يدفع بانجلتره إلى مد يد العون إلى ذلك المحرر وجعل الجزيرة حصناً بريطانياً فى بحر استراتيجى ،

٥ — بوزويل فى وطنه

فى ٢٩ يوليو ١٧٦٦ رخص له بالاشتغال بالمحاماة فى اسكتلنده ، وتركزت إقامته طوال السنين العشرين التالية فى ادنبره ، وتخلل ذلك غزوات كثيرة للندن ، وواحدة لدبلن . وربما أعانه منصب أبيه قاضياً ، ولكن اعانته أيضاً سرعة بديهته فى النقاش ، فكثر زبائنه ، و « ربح خمسة وتسعين جنيهاً » فى أول شتاء ترافع فيه أمام المحاكم [١١٥] . وخالط السخاء المفرط تقديره لنفسه ، فكان يدافع عن أفقر المجرمين ، ويبدد بلاغته المنمقة على أشخاص إجرامهم واضح ، ويخسر معظم قضاياه ، وينفق كل أتعابه على الشراب ، ذلك بأنه بعد تلك الشهور المشمسة التى قضاها فى إيطاليا أحس بشتاء اسكتلنده يفرى عظمه ، ولم يبد أن هناك دواء لهذا البرد إلا الكحول .

ثم إنه واصل تشرده الجنسى . فاتخذ له خليلة تدعى المسز دورز ، واستكمالا لخدماتها « كنت أنام الليل كله مع . . . فتاة من عرض الطريق » وسرعان ما « اكتشفت أنى ابتليت بعدوى المرض » [١١٦] وبعد ثلاثة أشهر « وفى دوار الخمر » « ذهبت إلى ماخور ، وأنفقت ليلة كاملة بين ذراعى بغى . . . وكانت فتاة رائعة ، قوية ، مرحة ، بغياً جديرة ببوزويل ، ان كان لابد لبوزويل من بغى » [١١٧] وأصابته عدوى أخرى ، وكان واضحاً أن الزواج هو السبيل الأوحد لإنقاذه من التدهور البدنى والأخلاقى . فتودد إلى كاترين بلير ، ولكنها رفضته . ثم وقع فى غرام مارى آن بويد ، وكانت صبية إرلندية لها جسم إغريقى وأب غنى . وتبعها إلى دبلن (مارس ١٧٦٩) ، وفقد غرامه فى الطريق ، وسكر ، وألم ببغى ارلندية ، وأصيب مرة أخرى بمرض سرى [١١٨] .

وفى فبراير ١٧٦٨ دفع إلى المطبعة بمخطوط « تاريخ لكورسيكا ، يوميات رحلة إلى تلك الجزيرة ، ومذكرات باسكال باولى » ، وأثارت خيال إنجلترة،ناشدته بريطانيا المديد المعونة لباولى،وأعدت الرأى العام للموافقة على الإجراء الذى اتخذته الحكومة البريطانية بعد ذلك لإرسال السلاح والمؤن سراً إلى الكورسيكيين . وبيع من الكتاب عشرة آلاف نسخة فى انجلترة ، وترجم

إلى أربع لغات ، وأكسب بوزويل من الصيت الذائع فى القارة ما لم يظفر به جونسن . وفى ٧ سبتمبر ١٧٦٩ ظهر المؤلف فى مهرجان شكسبير بستراتفورد مرتدياً زى زعيم قبيلة كورسيكى ، وعلى قبعته كتبت عبارة « بوزويل الكورسيكى» ، وكان هذا لحفلة رقص تنكرية ، لذلك لم يكن يستحق تماماً ما لقى من هزء وسخرية .

وكانت ابنة خاله مرجريت مونجومرى قد صحبته إلى ارلنده ، واحتملت فى وداعة مغازلاته وعربدته الإرلندية . وكانت تكبره بسنتين ، ولم يكن فى مهرها البالغ ١٠٠٠ جنيه ما يجعلها زوجة كفؤاً لوريث أوخنلك (كما أكد بوزويل الأب) ، ولكن حين تأمل محبتها الصابرة لاح له أنها امرأة صالحة ستكون زوجة صالحة ، ثم ان اشتهاره بالفسق والسكر حد مجال اختياره . وكان القاضى نفسه يفكر فى الزواج ، مما يضع زوجة أب بين الوالد والولد ، وقد يبدد شطراً من التركة . والتمس بوزويل من أبيه ألا يتزوج ، ولكن الأب أصر ، فتشاجرا ، وفكر بوزويل فى الذهاب إلى أمريكا ، وفى ٢٠ يوليو ١٧٦٩ كتب إلى « بجى » مونجومرى يعرض عليها الزواج والذهاب معه إلى أمريكا والعيش على جنيهاته المائة فى العام وعلى فائدة جنيهاتها الألف . وأنذرها بأنه عرضة لنوبات من الاكتئاب . وردها (٢٢ يوليو) جدير بالتنويه :

« أنعمت التفكير ، كما أردت ، وأنا . . . أقبل شروطك . . . أن ج. ب . بجنيهاته المائة فى العام هو فى نظرى غالى القيمة تماماً كما لوكنت أملك ضيعة أوخنلك . . . ولما كنت خلواً من الطمع ، فإننى أوثر السعادة الحقة على مظهرها الفخم . . . فثق ياعزيزى جيمى أن لك صديقة على استعداد لبذل كل شيء فى سبيلك ، صديقة لم تشته قط الثروة إلا لتمنحها للرجل الذى ملك قلبها » [119] .

وفى ١٩ نوفمبر تزوج الأب ، وفى ٢٥ نوفمبر تزوج الإبن . وأقام الزوجان الشابان بيتاً خاصاً بهما ، وفى ١٧٧١ استأجرا شقة من ديفد هيوم . وكافح جيمس للإقلاع عن السكر ، وجد فى عمله محامياً ، وسعد بالأطفال

اللذين ولدتهم له زوجته . ويبدو أنها صدت تودده الزوجي خلال الشهور الأخيرة من حملها المتكرر ، ففي ٢٧ أكتوبر ١٧٧٢ ذهب إلى مومسى بعد أن « أفرط في شرب النبيذ » [١٢٠] . وقد التمس لنفسه العذر بحجة أن التسرى أجازته التوراة . ثم عاد إلى الشراب ، وأضاف إليه القمار . جاء في يومياته بتاريخ « أكتوبر ١٧٧٤ « شربت حتى ثملت » وفي ٣ نوفمبر « شرب كثيرون منا من الغداء حتى العاشرة ليلا » وفي ٤ نوفمبر « ثملت جداً . . . وقعت على الأرض بعد عنف كثير » وفي ٨ نوفمبر « سكران مرة أخرى » وفي ٩ نوفمبر « كنت مريضاً جداً » ولم أستطع مغادرة الفراش حتى الساعة الثانية تقريباً » وفي ٢٤ ديسمبر : « كنت سكران جداً . . . مكثت أكثر من ساعة مع مومسين في مسكنها على سلم قذر ضيق في حي البو . ووجدت طريقي إلى بيتي حوالي الثانية عشرة . لقد سقطت » [١٢١] . وغفرت له زوجته ، وبذلت له العناية في أمراضه .

وكان لشربه الخمر أسباب كثيرة : كثرة قضاياه الخاسرة في المحاماة ، والعنت الذي لقيه في علاقته بأبيه ، وخزيه من خيانته الزوجية وشعوره بأنه لم يحقق أحلام عزووه » واشمئزازه من الحياة في اسكتلنده . وألف أن يهرب إلى لندن كل سنة تقريباً ، من جهة ليترافع في قضايا له هنالك ، ومن جهة أخرى ليستمتع بحديث جونسن » ورينولدز » وجاريك ، وبيرك » وفي ١٧٧٣ سمح له بالانضمام إلى « النادى » . وفي خريف ذلك العام جاب شوارع إدنبره في فخر وإلى جواره الدكتور جونسن » توطئة لرحلتهما إلى جزر الهبريد .

وظل في رحلاته اللندنية هذه أول الأمر وفياً لزوجته ، وكان يكتب إليها في شغف ، ولكن ما وافى عام ١٧٧٥ حتى كان قد استأنف إيثاره للعربدة الجنسية . وقد اشتد انشغاله بها حوالي نهاية مارس ١٧٧٦ يقول « فلما نزلت إلى الشارع ركبتني شهوة الفسق ، ففكرت في أن أخصص لها ليلة » . ولكن التخصيص امتد عدة ليال . « ففكرت في زوجتي الغالية بأعظم احترام وأحر محبة » ولكن ساورتني فكرة مشوشة بأن اتصالي الجسدي بالعاهرات لا يمس حبي لها بسوء » [١٢٢] . ورده إلى رشاده مرض سرى جديد »

وقد جرت عليه هذه المغامرات ، وتبعيته لجونسن ، تعليقات ملؤها الازدراء من رجال كهوراس ولبول ، ونقداً لاذعاً (بعد موته) من ماكولى [١٢٣] ، ولكنها لم تتركه بغير صديق . « ان اتصافى بالكفاءة وكثرة المعارف يجعل الناس مغرمين بكسب مودتى » [١٢٤] وكان أكثر اللندنيين يوافقون بوزويل على أنه ليس لامرأة الحق فى رجل بأكمله . وإذا كان رجال كجونسن ورينولدز قد أحبوه » وإذا كانت بيوت لندنية كثيرة قد فتحت له أبوابها ، فلا بد أنه كان يملك الكثير من السجايا المحببة . وقد عرف هؤلاء الرجال ذوو البصيرة الثاقبة أنه كان يتنقل من امرأة لأخرى ، ومن فكرة لفكرة ، تنقل المسافر المستعجل ، يخدش سطوحاً كثيرة دون أن ينفذ إلى لباب الأشياء ، ودون أن يشعر قط بالروح المرضوضة وراء لحم الضحية . وقد عرف هو أيضاً هذه الحقيقة فقال « ان لى فى الحق عقلا صغيراً مع كل كبريائى ، وما أشبه المعيّى بالوشى على الشاش » [١٢٥] . « ان فى أفكارى كلها نقصاً » وسطحية . ولست أفهم شيئاً بوضوح ، وإلى القاع . فأنا ألتقط الشظايا ، ولكنى لست أملك فى ذاكرتى كتلة كاملة ذات كبر أيا كان » [١٢٦] .

ولكن تلك الشظايا وتلك الذاكرة » هى التى كفرت عنه ، فقد عوض عن عيوبه بعبادته لذلك التفوق ، الذى لم يستطع تحقيقه لنفسه ، فى الآخرين ، بملازمتهم فى تواضع ، يتذكر كلماتهم وأفعالهم ، وأخيراً ، وببراعة عظيمة ، بوصفها فى ترتيب وفى ضوء ألفا صورة لاتبارى لرجل ولعصر . « ليت القناع لا يمزق عنا إبدا — عن أجسادنا وعقولنا ، عن شهواتنا الدفينة وغرورنا الذى لا يبلى — مثل ما أمعن هذا الرجل ، نصف التابع الخانع ، نصف العبقرى » فى الكشف عن نفسه للأجيال القادمة .

● ● ●

الفصل الثانى والثلاثون

المسرح الأدبى

١٧٥٦ – ٨٩

١ – الصحافة

كان فى الخلفية جرائد ، ومجلات ، وناشرون ، ومكتبات متنقلة ، ومسارح ، كلها تتكاثر فى اندفاع ، وتنقل صراعات الأحزاب والمواهب إلى جمهور لا يفتأ يتعاظم ، وقد ولدت الآن عدة مجلات : « المجلة الأدبية » ، و « مجلة النقد » فى ١٧٥٦ ، و « الدفتر العام » فى ١٧٦٠ . وبدأت صحيفة جونسن « الرامبلر » (الجوال) فى ١٧٥٠ ، وكانت « مجلة الجنتلمان » التى أطعمت جونسن فى سنوات كفاحه قد بدأت فى ١٧٣١ ، وقدر لها أن تعمر حتى ١٩٢٢ . وضاعفت جرائد لندن عددها ومجموع توزيعها فى هذه الفترة. وبدأت « المونيتر (المرشد) فى ١٧٥٥ ، و « النورث بريتن » فى ١٧٦١ ، والمورننج كرونكل فى ١٧٦٩ ، والمورننج هرلد فى ١٧٨٠ ، والديلى يونفيرسل رجستر فى ١٧٨٥ ، التى أصبحت التيمز فى ١٧٨٨ . ووقعت صحيفة « البيلك أدفرتايزر » على منجم ذهب بنشرها رسائل جونيوس « فارتفع توزيعها من ٤٧,٥٠٠ إلى ٨٤,٠٠٠ . وكانت معظم الصحف اليومية الأخرى تعيش على عدد ضئيل من القراء ، من ذلك أن توزيع التيمز فى ١٧٩٥ لم يزد على ٤,٨٠٠ ، وكانت أكثر تواضعاً فى الحجم منها فى الكلام . فهى تصدر عادة فى أربع صفحات ، تفرد إحداها للإعلانات . وقد ظن جونسن فى ١٧٥٩ أن الإعلان فى الصحف قد بلغ حده النهائى .

« لقد زادت الإعلانات الآن زيادة جعلتها تقرأ بإهمال شديد ، فأصبح من الضرورى لفت النظر بالوعود البراقة ، وبالبلاغة التى تكون أحياناً رائعة وأحياناً مثيرة للشفقة . فتاجر سائل التجميل مثلا يبيع غسولا يزعم أنه يمنع البثور ، ويزيل النمش ، ويطرى الجلد ، ويربل اللحم ... وقد بلغت حرفة الإعلان الآن من الكمال ما لا يسهل معه اقتراح أى تحسين عليها ، ولكن بما أن كل فن ينبغى أن يمارس بالخضوع الواجب للصالح العام ، فلست أملك إلا أن أطرح الأمر على هؤلاء المتحكمين فى سمع الشعب بوصفه سؤالا أخلاقياً ، وهو : ألا يتلاعبون أحياناً بعواطفنا تلاعباً فيه الكثير من العبث والاستهتار ؟»[1] .

وظل الطباعون والكتبيون والناشرون مختلطين اختلاطاً كبيراً فى حرفة واحدة ، من ذلك أن روبرت ددسلى كان قد نشر أعمال بوب وتشسترفيلد ، فطبع الآن اولبول وجولدسمث . وكان لتوماس ديفز مكتبة يقبل المشترون عليها ، ويسمح فيها لهم بالتنقيب على مهل ، وقد ألف جونسن وغيره الاختلاف إليها لتصفح الكتب و « البصبصة » لزوجة الرجل الجميلة ، وظفر وليم ستراهان بالشهرة بنشره قاموس جونسن ، وكتاب آدم سمث « ثروة الأمم » ، وكتاب جبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » ، وقد نشر الكتابان الأخيران فى « سنة العجائب » ١٧٧٦ . وأسست أكسفورد مطبعة كلارندن فى ١٧٨٠ . وكان الكتبيون ينقدون المؤلفين أجوراً طيبة عن الكتب الجيدة ، ولكن كان فى استطاعتهم استخدام الكتاب المأجورين لإعداد المقالات والمصنفات لقاء أجور حقيرة . يقول كتبى فى قصة هنرى بروك « الأحمق الوجيه » (١٧٦٦) « فى استطاعتى تكليف أحد هؤلاء السادة ... الذين أنفق على تعليم الواحد منهم من المال أكثر ... مما يعول أسرة كريمة إلى آخر الدهر — أستطيع تكليف أحدهم بالكد كأنه حصان جر من الصباح إلى المساء لقاء أجر أقل مما استأجر به ... حمالا أو ماسح أحذية ثلاث ساعات »[2] . وتكاثر المؤلفون حتى تشبعت بهم السوق ، واقتتلوا باستماتة فى سبيل أجر ضئيل هزيل ، وتهاجوا بأقلام تنفث السم الزعاف . وأضافت النساء إلى المنافسة : المسز آنا باربولد ، وساره

فيلدنج ، والمسز أميليا أوباى ، والمسز اليزابث انشبولد ، والمسز اليزابث مونتجيو ، وفانى بيرنى ، وهانا مور . ودخل قسيس ريفى فى المباراه وخرج منها بقصب السبق .

٢ — لورنس ستيرن

ولم يكن بالقسيس المطبوع ، فأبوه جندى ، وقد ظل عشر سنين يجر من وظيفة إلى أخرى ، وخلال هذه الفترة وبعدها التقط من العلم بالشئون العسكرية ماكنه من أن يجعل « العم طوبى » يتكلم على الحصارات والحصون كلام قائد محنك . أما أمه فقد وصفها بعد ذلك بأنها « ابنة بدال فقير يتبع المعسكر فى فلندر »[٣] . على أن جده الأعلى كان رئيس أساقفة يورك ، وقد وفقت أسرة ستيرن فى الحصول على منحة دراسية للورنس ألحقته بكمبردج . وهناك نال درجته الجامعية فى ١٧٣٧ ، ولكن نزيفاً رئوياً أصابه فى ١٧٣٦ أنذر بكفاح يخوضه مدى الحياه مع داء السل . ورسم قسيساً انجليكانياً (١٧٣٨) ، وعين فى ابرشية متواضعة فى ساتون — ان — ذ فورست ، قرب يورك . وفى ١٧٤١ تزوج اليزابث لى ، وأخذها لتعيش معه فى بيته الحرب . وقد عهدت إليه بإيرادها السنوى البالغ أربعين جنيهاً ، فاستثمر بعضه فى أرض ، ونما الإيراد .

وكانا فيما عدا هذا بائسين . فكلاهما مصاب بالسل ، وكلاهما خلق من أعصاب . وسرعان ما خلصت المسز ستيرن إلى أن « أوسع بيت فى انجلتره لا يمكن أن يضمهما معاً لكثرة هياجهما ونزاعهما »[٤] . وقد وصفتها ابنة عمها المثقفة اليزابث مونتجيو بأنها قنفذ نكد شكس « لا يستطيع المرء أن يتفادى الشجار معها إلا بالابتعاد عنها »[٥] ثم رزقا طفلين ، مات أحدهما ، أما الطفلة الثانية وهى ليديا فقد تعلقت بأمها تعلقاً واضحاً . وزادت تعاستهما حين جاءت إلى يورك أم ستيرن وأخته . وكانتا تعيشان فى فقر فى ارلنده ، والتمستا منه أن يعينهما بثمانية جنيهات فى العام من دخل زوجته . ولم تثر الفكرة أى حماسة . وأعطى ستيرن أمه بعض المال ورجاها أن تعود إلى ارلنده ، ولكنها ظلت فى يورك ، فلما قبض عليها بتهمة التشرد رفض ستيرن أن يدفع كفالة للإفراج عنها .

وبعد ثمانية عشر عاماً من الزواج المضنى أحس القسيس أن أى إنسان مسيحى حقاً سيسمح له بشىء من الزنا . وقد وقع فى غرام كاترين فورمانتيل، وأقسم لها قائلا « أحبك حب الجنون ، وسأظل أحبك إلى الأبد »[٦] . واتهمته زوجته بالخيانة ، فأنكر التهمة ، وأشرفت هى على الجنون حتى عهد بها وبابيديا إلى رعاية « طبيب للمجانين » ، وواصل علاقته الغرامية .

وفى غمرة هذه الضجة كتب واحداً من أشهر الكتب فى الأدب الانجليزى . وقد رجاه أصدقاؤه الذين قرءوا طرفاً من مخطوطة الكتاب أن يحذف منه « التوريات النابية التى قد تكون مؤذية بحق ، خصوصاً لصدورها من قسيس» فحذف نحو ١٥٠ صفحة وهو آسف . ثم أرسل الباقى إلى المطبعة غفلا من اسمه ، ونشر الكتاب فى يناير ١٧٦٠ بهذا العنوان ، « حياة السيد ترسترام شاندى وآراؤه » . وقد بقى فى المجلدين من الفضائح والفكاهة الغريبة الطريفة ما جعلها الحدث الأدبى الهام لذلك العام فى لندن ، وتردد صدى هذه الضجة فى فرنيه النائية ، فقال فولتير «كتاب مستهتر جداً ، وكتاب أصيل « إنهم مجنونون به فى انجلتره »[٧] . وقال فيه هيوم «أنه خير ما كتب بقلم أى انجليزى فى هذه السنين الثلاثين رغم ما فيه من سوء »[٨] . وبيع مائتا نسخة من الكتاب فى بحر يومين فى يورك ، حيث كان اسم المؤلف الحقيقى سراً مذاعاً وحيث تبين القراء الكثير من الأشخاص المحليين فى شخوص القصة الكبار .

ومن العسير أن نصف الكتاب ، إذ ليس له شكل أو موضوع ، ولا رأس ولا ذيل . وعنوانه خدعة ، لأن « السيد » الذى يروى القصة « والذى أزمعت أن نعرض « حياته وآراءه » لا يولد إلا فى صفحة ٢٠٩ من المجلد الرابع (من الطبعة الأصلية ذات المجلدات التسعة) . ومادة القصة هى ما حدث ، أو ما قيل ، بينما كان يحبل به ، وبينما كان ينمو على مهل فى بطن أمه . والصفحة الأولى هى خير الصفحات .

« وددت لو أن أبى أو أمى ، أو كليهما حقاً ، إذ أنهما كانا معاً ملزمين بالأمر الواجب على السواء ، أقول وددت لو أنهما فكرا فيما هما فاعلان حين أنجبانى ، فهل نظرا كما ينبغى أن ينظرا كم من الأمور يتوقف على

ما هما صانعان ، وأن المسألة لا تتصل بإنجاب كائن عاقل فحسب ، بل ربما اتخذ التكوين السليم لبدنه ، ومزاج هذا البدن ، ونبوغه وطبيعة ذهنه ذاتها ، ربما اتخذت هذه كلها طابعها من الأمزجة والميول الغالبة عليهما آنذاك ، — ولو أنهما وزنا هذا كله وفكرا فيه كما ينبغي ، ثم تصرفا طبقاً لهذا ، لكنت يقيناً قد انبعثت إلى العالم شخصاً مختلفاً كل الاختلاف . قالت أمي « من فضلك يا عزيزي ، ألم تنس أن تملأ المنبه ؟ » — وصاح أبي . . . « رباه ! أهناك امرأة منذ خلق الله الدنيا تقاطع رجلاً بسؤال غبي كهذا ؟ » .

ومن ذلك الحادث فصاعداً يتألف الكتاب من الاستطرادات . ذلك أن ستيرن لم يكن لديه حكاية يرويها ، ومن باب أولى حكاية الغرام التي هي مدار أكثر القصص ، إنما كانت رغبته أن يسلي نفسه وقراءه بالحديث الهوائي عن كل شيء ، ولكن دون نظام ؛ فكان يثب حول مشكلات الحياة جليلها وحقيرها وثب جواد مرح لعوب في حقل . وبعد أن كتب أربعة وستين فصلاً خطر له أنه لم يكتب لكتابه مقدمة ، فأدخل المقدمة عند تلك النقطة ، وأتاح له هذا أن يسخر من نقاده . ووصف منهجه بأنه « أكثر المناهج تقوى ، لأنني أبدأ بكتابة الجملة الأولى ، ثم أتكل في مجيء الثانية على الإله القدير »[9] وعلى التداعي الطليق في الباقي . ومن قبله صنع رابليه ما يشبه هذا ، وترك سرفانتس روزنانتي يقوده من حادث إلى حادث ، وجاب روبرت بيرتن العالم قبل تشريحه للاكتئاب ، أما ستيرن فقد رفع توافه الأمور إلى مقام المنهج ، وحرر جميع الروائيين من الحاجة إلى موضوع أو خطة .

ولقد أبهج طبقات بريطانيا ذات الفراغ أن ترى مقدار الضجة التي يمكن إثارتها حول لاشيء ، وكيف أن في الإمكان تأليف كتاب بالانجليزية الأنجلو — سكسونية في عصر جونسن . أما البريطانيون الأشداء فقد رحبوا بالطرافة المرحة التي وجدوها في قسيس يتحدث عن الجنس وانتفاخ البطن ، والشق الذي في سروال العم طوبي . وفي مارس ١٧٦٠ ذهب ستيرن إلى لندن ليرشف رحيق نجاحه ، وأسعده أن يجد أن المجادين قد غدا ... ، أخذ

٦٣٠ جنيهاً نظيرها ونظير مجلدين آخرين قادمين . لا بل ان « مواعظ مستر يووريك » التي نشرت بعد « تراسترام » بأربعة أشهر حظيت ببيع سريع حين عرف أن يووريك هو ستيرن . وأقبلت الدعوات على المؤلف من تشستر فيلد » ورينولدز » ورووكنجهام ، لا بل من الأسقف واربرتن ، الذي فاجأه بخمسين جنيهاً انجليزياً ، ربما تفادياً من أن يزين الأسقف صفحة لاذعة الهجاء في مجلدات قادمة . واشترى ستيرن عربة وروجين من الخيل ، وركبها في انتصار مرح عائداً إلى يورك » حيث وعظ في كنيستها الكبرى ، ثم رقي إلى قسوسية أكثر ثراء في كوكسولد » على خمسة عشر ميلا من يورك » فأخذ زوجته وابنته لتعيشا معه هناك » وهناك كتب المجلدين الثالث والرابع من « ترتسترام » في يسر غير معقول .

وفي ديسمبر من ذلك العام ١٧٦٠ ذهب إلى لندن ليتابع طبع المجلدين . ووصل ترسترام الآن إلى رحلة الولادة بالجفت ، الأمر الذي شوه أنفه ، وعليه انطلق المؤلف في حديث مستفيض عن فلسفة الأنوف بأسلوب أكثر العلماء تفقهاً . فقال أحد الثقات إن أنف الطفل تحدده نعومة الثدي الذي يرضعه أو صلابته : « فالأنف حين يغوص فيه . . . كما يغوص في قطعة زبد كبيرة يرتاح ويتغذى ويسمن وينتعش ويحيا »[١٠] .

وبعد قضاء نصف عام في لندن عاد ستيرن إلى زوجته التي أخبرته أنها كانت أسعد حالا بدونه . فانطوى على مخطوطته ، وكتب المجلدين الخامس والسادس » وفي هذين كاد ترسترام ينسى ، وشغل المسرح العم طوبي والجاويش تريم بذكرياتهما عن الحرب وقلاعهما اللعب ، وفي نوفمبر ١٧٦١ انطلق القسيس مرة أخرى إلى لندن » في آخر يوم من العام شهد صدور المجلدين الخامس والسادس . وقد حظيا باستقبال حسن . وراح يغازل المسز الزابث فيزي » إحدى النساء المثقفات ، وأقسم ليضحين بآخر مزقة من قسوسيته لقاء لمسة من يدها الملائكية ![١١] ثم أصيب بنزف رئوي ، وهرب إلى جنوبي فرنسا . وتلبث في باريس زمناً كفى لحضوره بعض حفلات العشاء في « مجمع الملحدين » الذي تزعمه دولباخ ، حيث استهوى ديدرو استهواء لم يفارقه . ولما سمع ستيرن أن زوجته مريضة ، وأن ليديا مصابة

بالربو ، دعاها للحاق به فى فرنسا . واستقر ثلاثتهما قرب تولوز (يوليو ١٧٦٢) .

وفى مارس ١٧٦٤ ترك زوجته وابنته بموافقتهما وعاد إلى باريس ولندن وكوكسولد . وكتب الجزئين السابع والثامن من « ترسترام » ، وتسلم مقدما أتعابهما ، وأرسل جزءاً من الحصيلة لمسز ستيرن . وصدر الجزءان الجديدان فى يوليو ١٧٦٥ ، فلم يظفرا إلا بثناء متضائل ، ذلك أن النغمة الشانديه — الطريبة أخذت تضعف . وفى أكتوبر بدأ ستيرن رحلة فى إيطاليا وفرنسا استغرقت ثمانية أشهر . وفى عودته للشمال انضم إلى أسرته فى برجنديه ، وطلبت الأسرة البقاء فى فرنسا ، فدفع نفقاتها وقفل إلى كوكسولد (يوليو ١٧٦٦) . وكتب الجزء التاسع فيما بين نوبات نزيفه ، وذهب إلى لندن ليشهد مولده (يناير ١٧٦٧) ، واستمتع بالضجة التى أثارها طوافه حول حافة الجنس فى وصفه تودد العم طوبى لمسز ودمن . وكتب القراء المروعون إلى الصحف وإلى رئيس أساقفة يورك يطالبون بشلح هذا القسيس الفاجر وطرده ، ولكنه رفض أن يفعل . وجمع ستيرن خلال ذلك اكتتابات بلغت جملتها ١,٠٥٠ جنيهاً فى كتاب موعود سماه « رحلة عاطفية » وأرسل مزيداً من المال لزوجته وتودد إلى اليزابث درايبر .

وكانت زوجة موظف فى شركة الهند الشرقية آنئذ (مارس ١٧٦٧) معين فى الهند . تزوجته وهى فى الرابعة عشرة ، وهو فى الرابعة والثلاثين ، وأرسل إليها ستيرن كتبه ، واعتزم أن يتبعها بيده وقلبه . وظلا فترة يلتقيان كل يوم ، ويتبادلان الرسائل الرقيقة . والرسائل العشر المسماه « رسائل إلى إليزا » تفضح عن الغرام الحزين الأخير يضطرب فى جوانح رجل يموت بالسل . « صحيح أنى فى الخامسة والتسعين بنية » « وأنت لا تتجاوزين الخامسة والعشرين ، . . . ولكن ما أفتقده صبى سأعوضه فكاهة ومرحا ، فما أحب سويفت حبيبته ستيلا ، ولا سكارون حبيبته مانتنون ، ولا وولر حبيبته ساكاريسا ، كما سأحبك وأتغنى بك ، يازوجتى المختارة ! » — ذلك أن « زوجتى لا يمكن أن تعيش طويلا »[١٢] . وبعد عشر دقائق من إرسال هذا الخطاب أصابه نزف شديد ، وظل ينزف الدم حتى الرابعة صباحاً ،

وفى ابريل ١٧٦٧ أبحرت المسز درابر إلى الهند استجابة لدعوة زوجها . وظل ستيرن من ١٣ ابريل إلى ٤ أغسطس يدون « يومية لاليزا » وهى « مذكرات يومية بالمشاعر التعسة التى يحس بها شخص افترق عن سيدة يذوب شوقاً إلى لقائها » . « إنى أقبلك على أى شروط تعرضينها يا اليزا ! سوف أكون . . . منصفاً جداً ، وعطوفاً جداً نحوك ، ولن أكون بعد اليوم مستأهلا للتعاسة »[١٣] . وفى يومية ٢١ ابريل : « نزفت اثنتى عشرة أوقية من الدم » . وأخبره طبيب أنه مصاب بالزهرى ، فاعترض قائلا ان هذا « محال . . . ، لأننى لم أباشر الجنس أيا كان اطلاقه — حتى مع زوجتى ، . . . طوال هذه السنين الخمس عشرة » . « وقال الطبيب : لن نتجادل فى الأمر ، ولكن لابد لك من أخذ علاج بالزئبق »[١٤] . وأيد أطباء آخرون هذا التشخيص ، وأكد له أحدهم أن « لوثات الدم تظل كامنة عشرين عاماً » . فأذعن مؤكداً عفته .

وما وافى شهر يونيو حتى تماثل للشفاء وعاد إلى كوكسولد . وبينما كان يكتب « الرحلة العاطفية » أصيب بمزيد من نوبات النزف ، وأدرك أنه لن يمهل فى الأجل طويلا . فذهب إلى لندن ، وشهد صدور كتيبه (فبراير ١٧٦٨) ، واستمتع لآخر مرة بمحبة أصدقائه التى لم تفتر . وكما أن « ترسترام » ذكر القراء برابليه ، فكذلك عكس الكتاب الجديد التأثير المتصاعد لرتشردسن وروسو . غير أن فضيلة ستيرن كانت أقل مناعة من فضيلة رتشردسن ، ودموعه أقل حرارة وإخلاصاً من دموع روسو . ولعل هذا الكتاب « وكتاب مكنزى « رجل الوجدان » (١٧٧١) ، هما اللذان أذاعا كلمتى « عاطفة Sentiment » و « عاطفى Sentimental » فى المجتمع الانجليزى . وقال بايرون ان ستيرن « يؤثر البكاء على حمار ميت على التخفيف عن أم حية »[١٥] .

وبينما كان ستيرن يستمتع بانتصاره الأخير فى لندن أصيب بنزلة برد تفاقمت حتى أصبحت التهاباً بليورياً . فكتب إلى سيدة تدعى المسز جيمس رسالة محزنة يطلب إليها أن ترعى ليديا ان توفيت زوجته . ووافته المنية فى ١٨ مارس ١٧٦٨ « فى فندق بأولد بوند ستريت دون أن يكون إلى جواره صديق » ، غير متجاوز الثانية والأربعين . وكان فيه إثارة من المشعوذ ، وقد

جعل من نفسه « مهرجاً للناظرين » ، ولكن فى استطاعتنا أن نفهم حساسيته للنساء ، والتوتر الذى فرضه زواج تعس على رجل أوتى هذه الأحاسيس المرهفة والصنعة الرقيقة . لقد قاسى كثيراً ، وأعطى كثيراً ، وكتب كتاباً من أغرب الكتب فى تاريخ الأدب قاطبة .

٣ — فانى برنى

وقد نافست امرأة النجاح الذى أحرزه فى ميدان القصص منافسة قصيرة الأمد . ولدت فى ١٧٥٢ لأب يدعى تشارلز برنى أصبح فيما بعد مؤرخاً للموسيقى . وقد ربيت على الموسيقى أكثر من الأدب ، فكانت لا تعرف القراءة حتى بلغت الثامنة[١٦] » وما كان لأحد أن يحلم بأنها ستصبح كاتبة . وماتت أم فرانسس وهى فى التاسعة . ولما كان أغلب الموسيقيين الذين يعزفون فى لندن يختلفون إلى بيت أبيها ويجتذبون إليه شطراً كبيراً من صفوة المثقفين ، فإن فانى اكتسبت تعليمها بالاستماع إلى الكلام والموسيقى . واكتمل نضجها ببطء ، وكانت خجولا يعوزها الجمال ، واستغرقت أربعين سنة لتعثر على زوج ؛ وحين نشرت روايتها الشهيرة (يناير ١٧٧٨) كانت فى الخامسة والعشرين ، وبلغ من خشيتها أن تغضب الرواية أباها أنها أخفت نسبتها لها . وأحدثت الرواية ضجة ، واسمها « إفلينا ، أو دخول شابة إلى العالم » وأثار اغفال اسم المؤلف فضول الناس . وأذاعت الشائعات أن كاتبتها فتاة فى السابعة عشرة . أما جونسن الذى أثنت عليه المقدمة فقد امتدح الرواية وزكاها للدكتور برنى . وشكت المسز ثريل من فرط قصر الرواية . فلما علمت بالسر ذاع فى طول لندن وعرضها ، وأصبحت فانى شخصية بارزة فى المجتمع ، وقرأ الجميع كتابها ، وكان « أبى العطوف يصادق المحبة سعيداً جداً بسعادتى »[١٧] .

وسر فنها هذا الوصف — الذى أعانته ذاكرة متلبثة وخيال حى — للصورة التى تراءى بها المجتمع اللندنى لفتاة يتيمة فى السابعة عشرة رباها قسيس ريفى لا يمت بشبه قريب ولا بعيد للورنس ستيرن . وما من شك فى أن فانى هى أيضاً قد إنتشت بتمثيل جاريك ، وشعرت كما كتبت افلينا للوصى

عليها » يا له من أداء طبيعي ! وما أشد حيوية أسلوبه ! وأرشق حركاته ! وما أعجب ما تضطرم به عيناه من نار ومعنى ! . . . وحين رقص ، أواه لكم حسدت كلارند ! ! كدت أتمنى أن أثب إلى خشبة المسرح وأشاركهما الرقص [١٨] . أما لندن التي سئمت رذائلها فأحست أنها تتطهر بتلك الريح القوية التي تهب عليها من هذه الصفحات الشابة .

وقد ماتت تلك القصة التي حظيت بصيت ذائع يوماً ما ، ولكن اليومية التي دونتها فاني مازالت جزءاً حياً من الأدب والتاريخ الانجليزيين ، لأنها تتيح لنا نظرة عن كثب لمشاهير القوم من جونسون وجورج الثالث إلى هيرشل ونابليون . وقد عينت الملكة شارلوت الآنسة برنى أمينة على ملابسها (١٧٨٦) ، وكانت فاني تلبس جلالتها وتخلع عنها ملابسها طوال السنوات الخمس التالية . ولكن الحياة المتكلفة الضيقة التي عاشتها المؤلفة كادت تخنقها ، وأخيراً أنقذها أصدقاؤها ، في ١٧٩٣ ، بعد أن ذوى شبابها ، تزوجت مهاجراً فرنسياً مفلساً هو الجنرال داربليه . وقد عالته بمؤلفاتها ودخلها ، وظلت عشر سنين تعيش معه في فرنسا بعيدة عن الأضواء يعزلها عن المجتمع عنف حروب الثورة وحروب نابليون . وفي ١٨١٤ سمح لها بأن تعود إلى انجلترة وتنال بركة أبيها لآخر مرة قبل موته في الثامنة والثمانين . وقد عمرت هي نفسها لهذه السن ، حتى أدركت عالماً مختلفاً كل الاختلاف ، عالماً لم يدرك أن جين أوستن الذائعة الصيت (التي ماتت ١٨١٧) إنما استلهمت الروايات المنسية التي ألفتها سيدة منسية ظلت حية ترزق حتى سنة ١٨٤٠ .

٤ — هوراس ولبول

قال « هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون ، ومأساة لمن يشعرون »[١٩] لذلك تعلم أن يبتسم للحياة ، بل أن يداعب نقرسه . وقد أرخ لجيله ، ولكنه غسل يديه منه . كان ابنا لرئيس وزارة ، ولكن السياسة لم تلذه . وكان يعشق النساء ، من فاني برني إلى أرقى الغراندوقات ، ولكنه أبى أن يكون له زوجة منهن ، ولا خليلة (على قدر علمنا) . درس الفلسفة ولكن كان رأيه

فى الفلاسفة أنهم لعنة القرن ومصدر ازعاجه . كاتبة وحيدة فقط أعجب بها إعجاباً بغير تحفظ لسلوكها المهذب وفنها الذى لا تكلف فيه — وتلك هى مدام دسفينييه ، وهى وحدها التى حاول محاكاتها ؛ وإذا كانت رسائله لم تظفر بفتنتها ورشاقتها ومرحها ، فإنها غدت أكثر كثيراً من رسائلها تاريخاً يوميا حياً للعصر الذى كتبت فيه ، ومع أنه سماها حوليات مستشفى المجاذيب[٢٠] ، فإنه كتبها بعناية ، أملا فى أن يمنحه بعضها ركناً فى ذاكرة الناس ؛ ولا غرو ، فحتى الفليسوف الذى راض نفسه على الفناء يشق عليه الرضى بالنسيان .

وكان هوراشيو (وهو اسمه الذى عمد به فى ١٧١٧) أصغر أبناء خمسة والدوا للسر روبرت ولبول ، رئيس الوزارة الشجاع الذى ضحى بسمعته لأنه آثر السلام على الحرب ، ولكنه لم يكد يؤذيها بإيثاره الزنا على الاكتفاء بزوجة واحدة[٢١] . ولعل المتقولين نسبوا هوراس حيناً لأب آخر انتقاماً لزوجته الأولى ، وهو كار ، لورد هرفى ، أخو الرجل المخنث جون ، لورد هرفى الإكورثى — الذى اتهم السر روبرت بمحاولة اغواء الليدى هرفى[٢٢] . وفى هذه المسائل من التعقيد مالا يسمح بإصدار الحكم عليها فى الحاضر ، وحسبنا أن نقول ان هوراس نشيء دون أن يرميه أقاربه بنسب منحرف ، وقد عامله رئيس الوزراء بما يعامل به الرجل المشغول ولده من عدم المبالاه ، أما أمه فقد « دللته » (كما يروى) ، « ولع شديد »[٢٣] وكان صبياً رائع الحسن ، يلبس لباس الأمراء ، ولكنه كان هشاً خجولا ، حساساً كأنه بنت . وحين ماتت أمه (١٧٣٧) خشى كثيرون أن يموت الفتى ذوالعشرين ربيعاً حزناً عليها . وسرى عنه السر روبرت بوظائف حكومية شرفية تفى بنفقات ولده على الثياب الفاخرة ، والعيش الأنيق ، ومجموعة التحف الغالية وأضمر هوراس الخصومة لأبيه إلى آخر حياته ، ولكنه كان يدافع عن سياسته دائماً .

وحين بلغ العاشرة أرسل إلى إيتن حيث تعلم اللاتينية والفرنسية وصادق الشاعر جراى ؛ وفى السابعة عشرة التحق بكنجز كولدج بكمبردج ، وهناك تعلم الإيطالية وتشرب الربوبية من كونيرز مدلتن . وفى الثانية والعشرين

انطلق مع جراى فى رحلة يجوبان فيها إيطاليا وفرنسا دون أن ينال درجة جامعية. وبعد أن طوفا قليلا استقرا خمسة عشر شهراً فى فيلا بفلورنسه ضيفين على القائم بالأعمال البريطانى السير هوراس مان. ولم يلتق ولبول ومان بعدها قط، ولكنهما ظلا يتراسلان طوال الخمس والأربعين السنة التالية (١٧٤١ — ٨٥). وفى ريدجو اميليا تشاجر جراى وولبول «لأن هوراس كان قد دفع كل نفقات إقامتهما، ولم يستطع الشاعر أن يغتفر مظاهر الاحترام الشديد التى كان يختص بها ابن الرجل الذى يحكم انجلتره. ولام هوراس نفسه على هذا الوضع وهو يستحضر تلك الفترة «كنت صغيراً جداً، شديد الولع بملاهىّ... شديد الانتشاء بالتدليل» والغرور، وغطرسة منصبى... بحيث تعذر على الاهتمام والإحساس بمشاعر شخص حسبته أدنى منى مقاماً، شخص يخجلنى أن أقول إننى كنت أعرف أنه مدين لى بالفضل»[٢٤]. وافترقا، وكاد ولبول يموت من الندم أو من التهاب اللوزتين المتيقح، ورتب رحلة العودة لجراى. ثم تصالحا فى ١٧٤٥، وطبعت معظم قصائد جراى فى مطبعة ولبول بستروزى هل. وجلس ولبول فى هذه الفترة إلى الرسامة روزالبا كاريرا لتصوره فى لوحة جميلة بالباستل.

وقبل أن يصل ولبول إلى انجلتره (١٢ سبتمبر ١٧٤١) كان قد أنتخب عضواً فى البرلمان، وهناك ألقى خطاباً متواضعاً لم يجد فتيلا ضد المعارضة التى كانت جادة فى إنهاء عهد وزارة أبيه الطويل الرخى. وظل يعاد إنتخابه بانتظام حتى ١٧٦٧ حين انسحب مختاراً من ميدان السياسة النشيطة. وكان بوجه عام يؤيد برنامج الهوجز التحررى: يقاوم توسيع السلطة الملكية، ويوصى بحل وسط مع ولكس، ويندد بالرق (١٧٥٠) قبل أن يولد ولبرفورس بتسع سنين. وقد عارض فى تحرير الكاثوليك الانجليز سياسياً بحجة أن «البابويين والحرية نقيضان»[٢٥]. ورفض حجة الأمريكيين ضد قانون الدمغة[٢٦]، ولكنه دافع عن مطالبة المستعمرات الأمريكية بالحرية، وتنبأ بأن أوج الحضارة القادم سيكون فى أمريكا[٢٧]. وكتب (١٧٨٦) يقول «من غير ميكيافللى يستطيع الزعم بأن لنا ظل حق فى شبر من الأرض فى الهند؟»[٢٨] وقد أبغض الحرب، فلما أفلح الإخوان مونجولفييه فى

الطيران بالبالون لأول مرة (١٧٨٣) تنبأ فى فزع بانتشار الحرب إلى الجو وكتب يقول «أرجو ألا تكون هذه الشهب الميكانيكية غير لعب للعلماء أو العاطلين ، وألا تحول إلى آلات تدمير للنوع الإنسانى ، كما هى الحال فى كثير من الأحيان فى تحسينات العلم أو كشوفه»[٢٩] .

ثم قرر أن ينفق أكثر وقته فى الريف حين وجد نفسه فى الأغلب الأعم يقف مع الجانب الخاسر ، وعليه ففى ١٧٤٧ استأجر خمسة أفدنة وبيتاً صغيراً قرب تويكنام . وبعد عامين اشترى هذا الملك ، وحول البناء إلى الطراز القوطى الحديث — كما رأينا . فى هذه القلعة التى طبعها بطابع العصر الوسيط جمع شتى التحف المتفردة فناً أو تاريخاً ، وما لبث أن استحال بيته متحفاً يحتاج إلى قائمة بمحتوياته . ووضع فى حجرة مطبعة ، طبع فيها أربعة وثلاثين كتاباً بما فيها كتبه طباعة أنيقة . وقد طلع على القراء — من ستروبرى فى أكثر الأحايين — بخطاباته الباقية إلى اليوم وعددها ٣,٦٠١ وكان له مائة صديق « تشاجر معهم كلهم تقريباً ، ثم تصالح » وكان لطيفاً بقدر ما سمح به مزاجه العصبى المرهف . وكان يخرج الخبز واللبن كل يوم للسناجيب التى تتودد إليه . وكان يرعى وظائفه الشرفية ويسعى للمزيد منها ، ولكن حين فصل ابن خاله هنرى كونواى من وظيفته اقترح ولبول أن يقتسم دخله معه .

وكان فيه ألف عيب ، حشدها ماكولى بتفصيل كثير فى مقال ذكى جائر : لقد كان ولبول مغروراً ، نيقاً ، كتوماً ، هوائياً ، فخوراً بأجداده ، مشمئزاً من أقاربه . وكانت فكاهته تنحو إلى الهجاء المقذع . وقد حمل إلى قبره ، وفى التواريخ التى كتبها ، احتقاره لكل الذين شاركوا فى خلع أبيه . وكثيراً ما عنف فى تحامله ، كما نرى فى أوصافه لليدى بومفريت[٣٠] أو الليدى مارى ورتلى منتجيو[٣١] . وقد نحا به جسده الهش إلى طبيعة تشبه طبيعة الهاوى السطحى . وإذا كان ديدرو ، فى عبارة سانت بوف المنيرة « أكثر الفرنسيين جميعاً ألمانية ، فان ولبول كان أكثر الانجليز جميعاً فرنسية .

وكان صريحاً شجاعاً فى الإعراب عن ميوله وآرائه غير المألوفة ؛ ففرجل فى رأيه مضجر ، ومن باب أولى رتشردسن وستيرن . وقال عن

دانتى انه « مئودى فى مستشفى المجاذيب »[٣٢] وتظاهر بأنه يحتقر كل المؤلفين ، وأصر كما أصر كنجريف على أنه يكتب كما يكتب جنتلمان لمزاجه ، لا كأديب أجير يعتمد على تسويق كلامه . ومن ثم نراه يكتب لهيوم قائلا : « أنت تعلم أننا فى انجلتره نقرأ كتب المؤلفين ولكن ندر أن نعبأ بهم أو لعلنا لا نعبأ بهم اطلاقاً . ونحن نراهم قد نالوا جزاء كافياً إذا راجت كتبهم ، ثم نتركهم بالطبع لكلياتهم وانخارهم ، وبهذه الطريقة لا يزعجنا غرورهم وسلاطتهم . . . وإننى ، وأنا أحد المؤلفين ، يجب أن أعترف بأن هذا المسلك معقول جداً ، لأننا فى الحق قبيل لا نفع فيه إطلاقاً »[٣٣] .

ولكنه هو أيضاً . باعترافه — كان مؤلفاً ، مغروراً مفرط الإنتاج . وإذ أحس الضجر فى قلعته ، فقد راح ينقب فى الماضى كأنه يبغى الغوص بجذور عقله فى أغنى طبقات تربته . فوضع « كتالوجاً بمؤلفى انجلترا الملكيين والنبلاء » (١٧٥٨) — فنبلهم يغتفر لهم اشتغالهم بالتأليف ، ورجال من الطراز الأول مثل بيكن وكلارندن يمكن أن يكونوا أهلا لأن يسلكوا فى هذه الطائفة . وطبع ثلاثمائة نسخة وزع معظمها هدايا ، وغامر درسلى بطبعة من ألفى نسخة « فبيعت بسرعة » وجاءت لوالبول بشهرة لابد أنها جعلته ينكس رأسه خجلا . ثم ضاعف خزيه بخمسة مجلدات عن « نوادر عن التصوير فى انجلتره (١٧٦٢ — ٧١) وهى تصنيف شائق ظفر بتقريظ من جبون .

ثم ألف رواية غرامية تحت للعصر الوسيط كأنه يتخفف من هذه التآليف العلمية المجهدة « واسم الرواية « قلعة أوترانتو» (١٧٦٤) ، وقد أصبحت أما لألف قصة تروى عجائب وأحوالا خارقة . وقد جمع بين الأسرار الغامضة والتاريخ فى « الشكوك التاريخية حول حياة الملك رتشرد الثالث وملكه » فذهب كما ذهب آخرون بعده إلى أن رتشرد قد افترت عليه الرواية المتواتره وشيكسبير ؛ وقد وصف هيوم وجبون حججه بأنها غير مقنعة ، ولكن والبول راح يرددها حتى مماته . ثم تحول إلى أحداث عرفها

معرفة خبير ، فكتب مذكرات عن حكمى جورج الثانى وجورج الثالث ، وهى مذكرات منيرة ولكنها متحيزة ، نظر فيها إلى جيله بمنظار أسود لأنه كان حبيس تغرضاته : « وزراء غادرون ، وأدعياء للوطنية ، وبرلمانات مسايرة ، وملوك غير معصومين »[٣٤] . « أننى أرى وطنى يسير إلى الخراب ، وما من إنسان فيه من العقل ما يحمله على إنقاذه »[٣٥] وقد كتب هذا الكلام عام ١٧٦٨ ، حين كان شاتام قد خلق لتوه الامبراطورية البريطانية . وبعد أربعة عشر عاماً ، حين بدا أن الملك واللورد نورث سيد مرانها « خلص ولبول إلى هذه النتيجة « أننا منحطون انحطاطاً تاماً فى كل ناحية ، وهذا فى ظنى حال كل الدول المتهاوية »[٣٦] وبعد جيل هزمت الجزيرة الصغيرة نابليون . وقد بدا النوع الإنسانى كله لولبول معرض وحوش « فيه حيوانات قيئة ، قصيرة الأجل ... مضحكة »[٣٧] ولم يجد فى الدين أى عزاء . وقد أيد الكنيسة الرسمية لأنها تساند الحكومة التى تدفع له رواتبه الشرفية. ولكنه لم يخف أنه ملحد[٣٨] « بدأت أرى أن الحماقة مادة ، ولا يمكن تدميرها . فإذا قضيت على شكلها ، اتخذت شكلا آخر »(٣٩) .

وظن حيناً أن فى استطاعته العثور على شيء يحفزه فى فرنسا (سبتمبر ١٧٦٥) . وفتحت له كل الأبواب ، فرحبت به مدام دودفان بديلا عن دالامبير . وكانت فى الثامنة والستين ، وولبول فى الثامنة والأربعين « ولكن فارق السن اختفى حين التقت روحاهما المتقاربتان فى تبادل رقيق لليأس ، وسرها أن تجد ولبول موافقاً على معظم ما قاله فولتير » ولكنه يود لو أحرق حياً ليمنعه من قوله « لأنه كان يرتعد فرقاً حين يفكر فيما يحيق بحكومات أوربا إذا انهارت المسيحية . وقد انتقص من قدر فولتير ، ولكنه سخر من روسو . وهذه الرحلة إلى باريس هى التى كتب فيها الخطاب الذى زعم أن كاتبه هو فردريك الأكبر ، يدعو روسو للذهاب إلى برلين والاستمتاع بالمزيد من الاضطهادات . « لقد انتشرت النسخ كأنها الحريق ، وهأنذا أصبحت موضة سرت فى المجتمع »[٤٠] وقد خلف هيوم شخصية تتهافت عليها الصالونات . وتعلم أن يحب إثارة باريس المرحة القاسية ، ولكن كان عزاءه له أن يجد « الفرنسيين أحقر منا نحن (الانجليز) عشر مرات »[٤١] .

وبعد أن عاد إلى وطنه (فى ابريل ١٧٦٦) بدأ تراسله الطويل مع مدام دودفان . وسنرى فيما بعد كيف أقلقه الخوف من أن تجعله محبتها له هزؤاً، ومع ذلك فأغلب الظن أن رغبته فى أن يراها من جديد هى التى حملته على العودة إلى باريس فى ١٧٦٧ و ١٧٦٩ و ١٧٧١ و ١٧٧٥ . وقد أنساه حبها عمره ، غير أن موت جراى (٣٠ يوليو ١٧٧١) ذكره بفنائه هو . ولكنه أدهش نفسه بأن عمر حتى ١٧٩٧ . ولم تكن له هموم مالية ، فدخله فى ١٧٨٤ كان ٨,٠٠٠ جنيه (٢٠٠,٠٠٠ دولار ؟) فى السنة[٤٢] . وفى ١٧٩٦ ورث لقب اللورد أكسفورد . ولكن النقرس الذى ابتلى به منذ كان فى الخامسة والعشرين ظل ينغص عليه عيشه إلى النهاية . ونقرأ أن كتلا متجمعة من « الطباشير » كانت أحياناً تتفجر من أصابعه[٤٣] . وبات هزيلا معوق الحركة فى سنواته الأخيرة ، واقتضت حالته أن يحمله الخدم أحياناً من حجرة إلى حجرة ، ولكنه واصل العمل والكتابة ، وكان الزوار إذا ألموا به يعجبون لبريق الاهتمام فى عينيه ، وليقظة مجاملاته ، ومرح حديثه ، ونشاط ذهنه وصفائه . وكان كبار القوم يلمون به كل يوم تقريباً ليروا بيته المشهور ومجموعة تحفه المتنوعة ، ومنهم هانا مور فى ١٧٨٦ ، والملكة شارلوت فى ١٧٩٥ .

ولكن رحيله عن هذه الدنيا لم يكن فى ستروبرى هل ، بل فى بيته اللندنى بميدان باركلى ، وكان ذلك فى ٢ مارس ١٧٩٧ فى عامه الثمانين . ويبدو أنه كان نادماً على احتواء مذكراته ورسائله الكثير من الفقرات اللاذعة ، لذلك أمر بأن تحبس مخطوطاته فى صندوق لا يفتح « حتى يطالب بفتحه ايرل والدجريف الأول عند بلوغه الخامسة والثلاثين »[٤٤] وعليه لاتنشر المذكرات إلا فى عام ١٨٢٢ أو بعده ، حين يكون كل الذين قد يتأذون منها قد فارقوا هذه الحياة . وقد نشرت بعض الرسائل فى ١٧٧٨ ، ومزيد منها فى ١٨١٨ و ١٨٢٠ و ١٨٤٠ و ١٨٥٧ . . . وفى العالم القارىء الانجليزية طولا وعرضا رجال ونساء قرأوا كل كلمة وردت فى تلك الرسائل ، وهم يقدرونها فيما يقدرون من أبهج ما خلفه القرن المنير من تراث .

■ — إدورد جبون

كتب ولبول لأحد كبار المؤرخين ، وهو روبرتسن « يقول « ان المؤرخين المجيدين أندر الكتاب أجمعين ، ولا غرابة فى هذا ! فالأسلوب الجيد ليس بالأمر الشائع جداً ، وأندر منه الإحاطة الدقيقة الشاملة بالحقائق ، فإذا اجتمع هذان ، فيا لها من صدفة ان أضيفت إليهما النزاهة والحياد ! »[٤٥] ولم يتوفر فى جبون الشرط الأخير تماماً ، ولكن هذا يقال أيضاً عن تاسيتوس ، وهو وحده الذى يمكن أن يقف معه على قدم المساواة بين أساطين المؤرخين .

أ — اعداده

كتب جبون ، أو بدأ كتابه « ست سير ذاتيه ، أدمجها منفذ وصيته الأدبى ، وهو ايرل شفيلد الأول ، فى « مذكرات . (١٧٩٦) جيدة الحبك ، منقاة دون موجب » وتعرف أحياناً باسم « السيرة الذاتية » . كذلك كان جبون يدون يومية « بدأها فى ١٧٦١ وواصل تدوينها تحت عناوين مختلفة حتى ١٨ يناير ١٧٦٣ . وقد حكم العارفون على هذه المصادر الأولى لنشأته بأنها صحيحة إلى حد معقول ، إلا فيما يتصل بنسبه .

وقد أنفق ثمانى صفحات يفصل القول فى كرم محتده « وقد أخذه عنه النسابون القساة[٤٦] . فجده إدورد جبون الأول كان أحد مديرى شركة البحار الجنوبية الذين قبض عليهم بتهمة الانحراف بعد أن تفجرت تلك « الفقاعة » (١٧٢١) . وصودرت كل ثروته التى قدرها بمبلغ ١٠٦,٥٤٣ جنيه ، فيما عدا ١٠,٠٠٠ جنيه . ويروى لنا المؤرخ أن على هذه البقية الباقية « بنى صرح ثروة جديدة ... لا تقل كثيراً عن الأولى »[٤٧] ولم يكن موافقاً على زواج ابنه ادورد الثانى ، ومن ثم أوصى بمعظم ثروته لبنتيه كاترين وهستر وتزوجت بنت كاترين بإدورد اليوت ، الذى اشترى فيما بعد كرسياً فى البرلمان لإدورد جبون الثالث ، أما هستر فأصبحت تابعة غنية من أتباع وليم لو[٤٨] ، وغاظت ابن أخيها ردحاً طويلا بموتها البطىء . وقد تعلم ادور الثانى على يد لو ، وأكمل تعليمه فى مدرسة ونشستر وفى كمبردج ، وتزوج

جوديت بورتن » ورزق منها سبعة أطفال ، لم يجز سن الطفولة منهم غير إدورد الثالث .

وقد ولد فى بتن بإقليم صرى فى ٨ مايو ١٧٣٧ . وماتت أمه فى ١٧٤٧ بسبب حملها السابع » فانتقل الأب إلى ضيعة فى الريف ببيتوريتن فى هامبشير » على ثمانية وخمسين ميلاً من لندن » تاركاً الصبي فى رعاية خاله ببيت جده فى بتنى . هناك أكثر دارس المستقبل الانتفاع بالمكتبة الحافلة بالكتب . وقد قطعت أمراضه المتكررة تقدمه فى مدرسة ونشستر ، ولكنه كان يشغل أيام نقاهته بالقراءة النهمة وأكثرها فى التاريخ ، خصوصاً تاريخ الشرق الأدنى، ولم يلبث محمد (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون أن استرعوا انتباهى، وأسلمنى كتاب إلى كتاب حتى طفت بكل تاريخ المشرق . وقبل أن أبلغ السادسة عشرة كنت قد أتيت على كل ما كتب بالإنجليزية عن العرب والفرس » والتتار والترك «[٤٩] . ومن هنا هذه الفصول الرائعة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين ، والاستيلاء على القسطنطينية .

يروى أنه حين أرسل إلى كلية مجدلين بأكسفورد وهو فى الخامسة عشرة « وصلت إليها بذخيرة من المعرفة الواسعة قد تحير فقيهاً ، وبدرجة من الجهل يندى لها جبين تلميذ » وكان فيه من الهزال ما يمنعه من الانخراط فى الألعاب الرياضية ، ومن الحياء ما يصده عن الاختلاط الطبيعى بغيره من الطلاب . وكان من الجائز أن يكون تلميذاً نابغة لو قيض له معلم كفء : ولكنه على ما كان به من شغف بالتعليم افتقد الأستاذ الشغوف بالتعليم ، وكان أكثر المعلمين يسمحون لتلاميذهم بحضور المحاضرات أو التخلف عنها » وبإنفاق نصف وقتهم فى « اغراءات البطالة «[٥٠] ومن ثم أغضوا عن « انحرافاته السلوكية ، والمعاشرات الرديئة ، والسهر ، والإنفاق الطائش » » وحتى الرحلات الترفيهية إلى باث أو لندن . على أنه «كان فى سن الحداثة والحياء ما يمنعنى من الاستمتاع بحانات كوفنت جاردن ومواخيرها كما يستمتع بها الكثير من طلاب اكسفورد حين يلمون بلندن «[٥١] .

وكان أساتذة الكلية كلهم من رجال الدين ، يعلمون ويسلمون بمواد

الكنيسة الانجلكانية التسع والثلاثين . وكان جبون ذا نزعة قتالية ، كثير السؤال لمعلميه . ولاح له أن الكتاب المقدس والتاريخ يبرران الكنيسة الكاثوليكية فى دعواها بالأصل الإلهى . وحصل له أحد معارفه على بعض الكتب المقاقة ، وأهمها كتاب بوسويه « عرض للعقيدة الكاثوليكية وتاريخ المذاهب البروتستنتية » ، هذه « حققت هدايتى ، ولا شك أننى وقعت فى يد نبيلة »[٥٢] . وباندفاع الشباب اعترف على كاهن كاثوليكى » وقبل عضواً فى كنيسة روما (٨ يونيو ١٧٥٣) .

وأحاط أباه علماً بالأمر » ولم يدهشه أنه دعى للعودة إلى وطنه ، لأن أكسفورد لم تكن تقبل الطلاب الكاثوليك ، وكان دخول بروتستنتى فى المذهب الكاثوليكى الرومانى — طبقاً لما يقول بلاكستون بعد « خيانة عظمى » . وما أسرع ما نفى الأب المروع الفتى إلى لوزان » ورتب أن يقيم مع راع كلفنى . هناك عاش إدورد أولا فى حالة من العناد المتجهم . ولكن المسيو بافيار كان رجلا عطوفاً وأن أعوزه التسامح الدينى ، فاستشعر الصبى المحبة له فى بطء . ثم ان الراعى كان دارساً كلاسيكياً قديراً . وتعلم جبون أن يقرأ الفرنسية ويكتبها بطلاقة كالإنجليزية ، واكتسب معرفة طيبة باللاتينية . ولم يلبث أن استقبلته الأسر المثقفة التى كانت طباعها وحديثها تعليماً يفضل ما لقنته أكسفورد من قبل .

فلما تحسنت فرنسيته أحس نسائم العقلانية الفرنسية تهب على لوزان . واختلف بابتهاج إلى التمثيليات التى قدمها فولتير فى مونريون القريبة منه وهو بعد فى العشرين (١٧٥٧) . « وكنت أحياناً أتعشى مع الممثلين »[٥٣] . والتقى بفولتير ، وبدأ يقرأ فولتير ، وقرأ كتاب فولتير الحديث « مقال فى التاريخ العام » (مقال فى الأعراف) . وأكب على كتاب مونتسكيو « روح القوانين » (١٧٤٨) وأصبح كتاب « تأملات فى أسباب عظمة الرومان وتدهورهم » (١٧٣٤) نقطة الانطلاق لكتاب جبون « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » . أياً كان الأمر ، فإن تأثير الفلاسفة الفرنسيين » فضلا عن قراءته لهيوم والربوبيين الانجليز » قوضاً مسيحية جبون وكاثوليكيته

على السواء ، وأبطل قبول جبون للتنوير سراً الانتصار الذى أحرزه بافيار للإصلاح البروتستنتى .

ولابد أن روحه انتشت حين التقى فى العام نفسه (١٧٥٧) بكل من فولتير وسوزان كورشو ، وكانت فى العشرين ، شقراء ، حسناء ، مرحة ، تعيش مع أبويها البروتستنتيين فى كراسى « على أربعة أميال من اوزان ، وكانت الروح القائدة فى « جماعة الربيع » — وهى لفيف من خمس عشرة شابة أو عشرين يلتقين فى بيوت بعضهن البعض ، ويغنين ، ويرقصن ، و يمثلن الكوميديات ، ويغازلن الشباب فى حكمة وتعقل . ويؤكد لنا جبون أن « عفتهن لم تلوثها قط همسة فضيحة أو شبهة » . ولندعه يروى القصة : « فى زياراتها القصيرة لبعض أقربائها فى لوزان كان ظرف الآنسة كورشو ، وجمالها ، وسعة علمها ، محل إعجاب الجميع . وقد أثار فضولى نبأ هذه العجيبة . فرأيت ، وأحببت . وجدتها مثقفة دون تنطع ، مرحة فى حديثها ، نقية فى عاطفتها ، وشيقة فى طباعها . . . وكانت ثروتها متواضعة ، ولكن أسرتها محترمة . . . وقد أذنت لى بأن أزورها مرتين أو ثلاثاً فى بيت أبيها . وأنفقت أياماً سعيدة هناك . . . وقد شجع والدها هذه الصلة تشجيعاً كريماً فأشبعت حلمى بالسعادة العظمى »[٥٤] .

ويبدو أن خطبتهما عقدت رسمياً فى نوفمبر ١٧٥٧[٥٥] ، ولكن موافقة سوزان كانت مشروطة بوعد جبون بالعيش فى سويسره[٥٦] . وفى غضون هذا أمره أبوه — الواثق بأن ابنه قد غدا الآن بروتستنتياً صالحاً — بأن يعود إلى وطنه ويستمع إلى الخطط التى وضعت له . ولم يكن جبون حريصاً على العودة ، لأن أباه كان قد اتخذ زوجة ثانية ، ولكنه أطاع ، ووصل لندن فى ٥ مايو ١٧٥٨ . « وسرعان ما تبينت أن أبى يرفض هذا الزواج الغريب ، وأننى سأكون معلقاً عاجزاً إذا أبى الموافقة . وبعد كفاح أليم أذعنت لإرادة أبى : تنهدت كعاشق وأطعت كابن »[٥٧] . ثم نقل تنهده إلى سوزان برسالة كتبها فى ٢٤ أغسطس . ورتب له أبوه راتباً سنوياً قدره ٣٠٠ جنيه . وكسبت زوج أمه عرفانه بصنيعها لأنها لم تنجب ، ولم يلبث أن نمت فى

قلبه محبتها . وأنفق شطراً كبيراً من دخله على الكتب ، و « كونت بالتدريج مكتبة كبيرة منتقاة ، هي ركيزة مؤلفاتي ، وخير عزاء لي في الحياة »[٥٨] .

وكان قد بدأ مقالا في لوزان وأتمه في بوريتون (حيث كان ينفق الصيف) وعنوان المقال « في دراسة الأدب » : ، وقد نشر بلندن في ١٧٦١ وبجنيف في ١٧٦٢ . وإذ كان مكتوباً بالفرنسية ، يتناول أول ما يتناول الأدب والفلسفة الفرنسية ، فإنه لم يثر ضجة في انجلترة ، ولكنه استقبل في القارة استقبال إنجاز ممتاز لفتى في الثانية والعشرين . وقد احتوى بعض الأفكار ذات الدلالة في كتابة التاريخ . « ان تاريخ الامبراطوريات هو تاريخ شقاء الإنسان ، وتاريخ المعرفة هو تاريخ عظمته وسعادته . . . والاعتبارات الكثيرة تجعل هذا النوع الثاني من الدراسة غالياً في عيني الفيلسوف »[٥٩] . ومن ثم « إذا لم يكن الفلاسفة دائماً مؤرخين ، فمن المرغوب فيه على الأقل أن يكون المؤرخون فلاسفة »[٦٠] . وقد أضاف جبون في « مذكراته » هذه العبارة « منذ شبابي الباكر تاقت نفسي إلى أن أكون مؤرخاً »[٦١] . وراح يفتش عن موضوع يلائم الفلسفة والأدب كما يلائم التاريخ . أما التاريخ في القرن الثامن عشر فلم يدع أنه علم من العلوم ، لا بل انه تاق إلى أن يكون فناً . أما جبون فأحسن بأنه يريد أن يكتب التاريخ بوصه فيلسوفاً وفناناً : يعالج موضوعات واسعة في منظور واسع ، ويسبغ على فوضى المواد دلالة فلسفية وشكلا فنياً .

غير أنه دعي فجأة من الدراسة إلى العمل . ذلك أن انجلترة تعرضت غير مرة خلال حرب السنين السبع لخطر الغزو من فرنسا . واستعداداً لهذا الطارىء كون أعيان الانجليز مليشيا تذود عن البلاد خطر الغزو أو التمرد . ولم يسمح إلا لذوى الأملاك بأن يكونوا ضباطاً . وعين جبون الأب ضابطاً كبيراً والإبن ضابطاً صغيراً في يونيو ١٧٥٩ . والتحق ادورد الثالث بفرقته في يونيو ١٧٦٠ ، وبقي معها حتى ديسمبر ١٧٦٢ فترات متقطعة ، يتنقل من معسكر إلى معسكر . ولم يكن بالرجل الصالح للحياة العسكرية ، وأصابه « الملل من رفاق لم يؤتوا معرفة الدارسين ولا طباع السادة المهذبين »[٦٢] .

وفى حياته العسكرية وجد صفنه يتمدد بما فيه من سائل . « اضطررت اليوم (٦ سبتمبر ١٧٦٢) لاستشارة الجراح المستر أندروز فى أمر علة أهملتها بعض الوقت ، وهى ورم فى خصيتى اليسرى يخشى أن تكون خطيرة»[٦٣] . ففصدنى وأعطى مسهلا » ولم يسفر هذا العلاج إلا عن تخفيف مؤقت . وقد قدر لهذه « العلة » أن تعذبه حتى كانت القاضية عليه .

وفى ٢٥ يناير ١٧٦٣ انطلق فى رحلة إلى القارة . وتوقف برهة فى باريس حيث التقى بدلامبير ، وديدرو ، ورينال « وغيرهم من نجوم حركة التنوير . «كان لى مكان خلال أربعة أيام فى الأسبوع ... على الموائد المضيافة للسيدتين جوفران وبوكاج » وهلفتوس الذائع الصيت ، والبارون دولباخ. . . ومرقت أربعة عشر أسبوعاً دون أن أحس بها » ولكن لو كنت غنياً غير معتمد على أبى لأطلت المكث فى باريس وربما جعلتها مستقرى»[٦٤] .

وفى مايو ١٧٦٣ وصل إلى لوزان حيث أقام قرابة عام . ورأى الآنسة كورشو ، ولكن حين وجدها موفقة فى خطبتها ، لم يحاول أن يجدد صداقته بها . ويعترف فى هذه الزورة الثانية لسويسره قائلا « ان عادات المليشيا وتمثلى بمواطنى أفضيا بى إلى شىء من الإفراط الصاخب فى الشراب ، وقبل أن أرحل كنت قد فقدت عن جدارة رأى الناس الطيب فى ، وهو الرأى الذى ظفرت به فى أيام سلوكى الأفضل »[٦٥] . وقد خسر مبالغ كبيرة فى القمار ، ولكنه واصل دراساته اعداداً لإيطاليا « مكباً على القديم من المداليات ، والعملات ، وأدلة السياح ، والخرائط .

وفى ابريل ١٧٦٤ عبر جبال الألب . وأنفق ثلاثة أشهر فى فلورنسة ، ثم مضى إلى روما . وأرشده مغترب استكلندى بين أطلال العصر الكلاسيكى القديم « فى جهد يومى امتد ثمانية عشر أسبوعاً » . يقول « فى روما ، وفى الخامس عشر من أكتوبر ١٧٦٤ » بينما أنا جالس مستغرقاً فى تأملاتى وسط خرائب الكابتول ، وبينما الرهبان الحفاة يرتلون صلوات العشاء فى معبد جوبتر ، خطرت لى لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال وسقوط المدينة لا الامبراطورية »[٦٦] . وانتهى به التفكير إلى أن يرى فى ذلك التفسخ المدمر

« أعظم بل ربما أرهب مشهد فى تاريخ الإنسان »[٦٧] . وبعد أن ألم بنابلى « وبادوا » والبندقية » وفتشنتسا » وفيرونا » عاد إلى لندن بطريق تورين وليون وباريس (« أسبوعان سعيدان آخران ») (٢٥ يوليو ١٧٦٥) .

وكان يقضى معظم وقته الآن فى بوريتون » لذلك سمح لنفسه بأن يتلهى بالبدء فى كتابة تاريخ لسويسره بالفرنسية . فلما رأى هيوم المخطوطة فى لندن ، كتب إلى جبون (٢٤ أكتوبر ١٧٦٧) يرجوه أن يستعمل الانجليزية ويتنبأ بأن الانجليزية ستبز عما قريب الفرنسية انتشاراً ونفوذاً ، ثم نبه جبون إلى أن استعماله للفرنسية أسلمه « إلى أسلوب فيه من الشاعرية والمجاز والإسراف فى التلوين أكثر مما تسمح به لغتنا فى المؤلفات التاريخية »[٦٨] . وقد اعترف جبون بعد ذلك قائلا « ان عاداتى القديمة ... شجعتنى على أن أكتب بالفرنسية لقارة أوربا » ولكننى أنا نفسى كنت شاعراً بأن أسلوبى ، الذى كان يعلو على النثر ويدنو عن الشعر ، قد انحدر إلى أسلوب خطابى طنان شديد الاطناب »[٦٩] .

وخلف له موت أبيه (١٠ نوفمبر ١٧٧٠) ثروة وفيرة . وفى أكتوبر ١٧٧٢ اتخذ مقامه الدائم فى لندن . « وما ان استقر بى المقام فى بيتى ومكتبى حتى اضطلعت بتأليف المجلد الأول من تاريخى »[٧٠] .

وقد سمح لنفسه بألوان كثيرة من الترفيه — أمسيات فى بيت هوايت « واختلاف إلى « نادى » جونسن ، ورحلات إلى برايتن ، وباث ، وباريس . وفى ١٧٧٤ أنتخب عضواً فى البرلمان عن « دائرة جيب » يتحكم فيها قريب له ، وقد لزم الصمت وسط المناقشات التى دارت فى مجلس العموم . وكتب (٢٥ فبراير ١٧٧٥) يقول « مازلت صامتاً . أن الأمر أرهب مما تصورت ، وفحول الخطابة يملأوننى يأساً ، وضعافهم يملأننى رعباً »[٧١] . غير أن « الدورات الست التى قضيتها فى البرلمان كانت لى مدرسة علمتنى الحكمة المهذبة ، وهى أولى فضائل المؤرخ وألزمها »[٧٢] وحين اكتنفه الجدل حول أمريكا ، صوت بانتظام فى جانب سياسة الحكومة ، ووجه للأمة الفرنسية « مذكرة تبريرية » (١٧٧٩) بسط فيها حجج انجلترة ضدمستعمراتها

الثائرة . وقد أجيز بمقعد فى مجلس التجارة والمزارع ، أتاه بسبعمائة وخمسين جنيهاً فى السنة . واتهمه فوكس بالتكسب من ذلك الفساد السياسي الذى أوضح أنه من أسباب اضمحلال روما[٧٣] . وقال الظرفاء ان جورج الثالث اشترى جبون مخافة أن يسجل اضمحلال وسقوط الامبراطورية البريطانية[٧٤] .

ب — الكتاب

كان شغل جبون الشاغل بعد عام ١٧٧٢ كتابه فى التاريخ « وقد وجد من العسير عليه أن يفكر جدياً فى أى شيء سواه . « ولقد بذلت محاولات كثيرة قبل أن أستقر على أسلوب وسط بين سجل الأخبار الممل والعرض الخطابى البليغ . وكتبت الفصل الأول ثلاث مرات ، والثانى والثالث مرتين ، قبل أن أرضى رضاء معقولا عن وقعها »[٧٥] . لقد عقد العزم على أن يجعل كتابه التاريخى أثراً أدبياً .

وفى ١٧٧٥ عرض جبون مخطوطة الفصول الستة عشر الأول على ناشر رفضها لأنها تكلفه ثمناً غالياً يحول دون النشر . واشترك كتبيان آخران هما توماس كولدويل وولیم ستراهان فى مغامرة طبع المجلد الأول من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧ فبراير ١٧٧٦) . وبيعت النسخ الألف بحلول ٢٦ مارس رغم أن الكتاب سعر بجنيه انجليزى (٢٦ دولاراً) . ونفدت طبعة ثانية من ألف وخمسمائة نسخة صدرت فى ٣ يونيو بعد صدورها بثلاثة أيام . « كان كتابى على كل خوان ، وعلى كل تسريحة تقريباً »[٧٦] . وأجمعت دنيا الأدب على الثناء عليه وهى على ما عهد فيها من تحاسد وتنابذ بمزقها . وبعث وليم روبرتسن إلى المؤلف بعبارات التحية السخية « أما هيوم فقد كتب فى هذا العام الذى مات فيه إلى المؤلف رسالة يقول جبون إنها (أجزلت له المكافأة على جهد سنين عشر[٧٧] . وصرح هوراس ولبول غداة نشر الكتاب لوليم ميسن : « ها قد صدر للتو والساعة أثر من عيون الأدب حقاً » .

وقد استهل الكتاب استهلالا منطقياً وجريئاً بثلاثة فصول عميقة فصلت

الامتداد الجغرافى والتنظيم العسكرى والبناء الاجتماعى والتكوين القانونى للامبراطورية الرومانية عند موت مرقص أوريليوس (١٨٠ م .) وفى رأى جبون أن السنين الأربع والثمانين السابقة لهذا التاريخ قد شهدت الإمبراطورية فى أوج كفاية موظفيها ورضى شعوبها .

« لو أن إنساناً طلب إليه أن يحدد فترة فى تاريخ العالم كانت فيها حال النوع الإنسانى غاية فى السعادة والرخاء ، لاختار دون تردد الفترة التى امتدت من وفاة دوميشيان (٩٦) إلى تولى كومودس (١٨٠) . فقد كان ملك الامبراطورية الرومانية الشاسع محكوماً بسلطة مطلقة « وبهدى من الفضيلة والحكمة . وكانت الجيوش تضبطها يد أربعة أباطرة متعاقبين « جمعت بين الحزم والرفق ، وهم حكام فرضت شخصياتهم وسلطتهم الاحترام التلقائى . وصان أشكال الإدارة المدنية فى عناية ودقة الأباطرة نيرفا ، وتراجان ، وهادريان ، والانطونيان ، هؤلاء الذين كانت صورة الحرية مبعث ابتهاج لهم ، وسرهم أن يروا أنفسهم خدام القوانين والمسئولين . . . ولقيت جهود هؤلاء الملوك خير جزاء فى فخر الفضيلة الحق ، والبهجة العميقة « يستشعرونها حين يرون السعادة العميقة التى كانوا صناعها »[٧٨] .

غير أن جبون أدرك « تزعزع السعادة التى تعتمد بالضرورة على خلق رجل واحد . ولعل اللحظة القاضية كانت وشيكة « حين يسيء فتى اباحى أو طاغية حسود . . استعمال السلطة المطلقة »[٧٩] . لقد كان « الأباطرة الصالحون » تنتخبهم ملكية متبنية — فكل حاكم يورث سلطانه لعضو مختار ومدرب من حاشيته . وقد سمح مرقص أوريليوس بأن يرث السلطة الإمبراطورية ابنه الحقير كومودس « وأرخ جبون اضمحلال الإمبراطورية منذ توليه العرش .

ثم ذهب جبون إلى أن ظهور المسيحية أعان على ذلك الاضمحلال . وهنا تخلى عن اتباع رأى مونتسكيو الذى لم يقل شيئاً كهذا فى كتابه « عظمة الرومان وانحطاطهم » ، إنما اتبع فولتير ، وكان موقفه عقلانياً خالصاً ، فقد تجرد من أى ميل للنشوة الصوفية أو الإيمان المملوء بالرجاء ،

وأعرب عن رأيه فى فقرة تشم فيها نكهة فولتيرية . قال : « ان شتى أساليب العبادة السائدة فى العالم الرومانى كانت كلها فى نظر الشعب سواء فى الصدق وفى نظر الفيلسوف سواء فى الكذب » وفى نظر الحاكم سواء فى النفع . وهكذا أثمر التسامح انسجاماً دينياً »[٨٠] . وكان جبون يتجنب عادة أى تعبير مباشر بعدائه للمسيحية ، فقد كانت لا تزال هناك قوانين فى سجلات انجلتره التشريعية تعد هذا التعبير جريمة خطيرة . مثال ذلك « إذا أنكر شخص نشىء على الديانة المسيحية ، كتابة » ، . . . صدق المسيحية ، كان عقابه إذا عاد . . . السجن ثلاث سنوات دون قبول كفالة عنه »[٨١] . ودرءا لهذا العناء اتخذ جبون الألماع الخفى والتهكم الشفاف عنصرين من عناصر أسلوبه ، ونوه فى حرص إلى أنه لن يناقش مصادر المسيحية الأولية وفوق الطبيعية ، بل سيكتفى بمناقشة العوامل الثانوية والطبيعية فى أصل المسيحية ونموها ، وأدرج فى هذه العوامل الثانوية « أخلاقيات المسيحيين الطاهرة الصارمة » فى القرن المسيحى الأول ، ولكنه أضاف عاملا آخر « غيرة المسيحيين غيرة لا مرونة فيها (ولا تسامح ان جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير) » [٨٢] ومع أنه امتدح « وحدة الجمهورية المسيحية وانضباطها » ، فإنه لاحظ أنها « شيئاً فشيئاً كونت دولة مستقلة متعاظمة فى قلب الإمبراطورية الرومانية »[٨٣] ، وقد رد بوجه عام تقدم المسيحية فى أول عهدها إلى العملية الطبيعية لا إلى المعجزة ، ونقل الظاهرة من اللاهوت إلى التاريخ .

ولكن كيف أعانت المسيحية على اضمحلال روما ؟ أولا بإضعاف إيمان الشعب بالدين الرسمى . وبذلك قوضت أساس الدولة التى سندها ذلك الدين وقدسها . (وهذا بالطبع كان بالضبط حجة اللاهوتيين على جماعة الفلاسفة) . وارتابت الحكومة الرومانية فى المسيحيين بحجة أنهم يؤلفون جماعة سرية معادية للخدمة العسكرية ، ويصرفون الناس عن الأعمال النافعة إلى التركيز على الخلاص السماوى . (فالرهبان فى رأى جبون كانوا رجالا متبطلين استسهلوا التسول والصلاة عن العمل) . أما الملل الأخرى فكان فى الاستطاعة التسامح معها لأنها كانت متسامحة ولأنها لم تعرض وحدة الأمة للخطر ، وكان المسيحيون هم الملة الجديدة الوحيدة التى نددت بسواها

من الملل وحكمت عليها بأنها شريرة هالكة ، وتنبأت صراحة بسقوط « بابل » — أى روما[٨٤] . وقد عزا جبون قدراً كبيراً من هذا التعصب لأصل المسيحية اليهودية ، وذهب مذهب تاسيتوس فى التنديد باليهود فى نقاط شتى فى روايته . وحاول أن يفسر اضطهاد نيرون للمسيحيين على أنه فى حقيقته اضطهاد لليهود[٨٥] ، وليس لهذه النظرية اليوم مؤيد . وكان أكثر توفيقاً فى اتباع رأى فولتير فى انقاص عدد المسيحيين الذين استشهدوا على يد الحكومة الرومانية ، فلم يزيدوا فى تقديره على الألفين على الأكثر ، ووافق فولتير على أن « المسيحيين ، على مدى خلافاتهم الداخلية (منذ قسطنطين) أوقعوا بعضهم ببعض من أعمال القسوة ما هو أفدح بكثير مما لا قوة من تعصب الكفار » ، وأن « كنيسة روما دافعت بالعنف عن الإمبراطورية التى اكتسبتها بالحيلة »[٨٦] .

وقد أثار هذان الفصلان الختاميان (١٥ — ١٦) ردوداً كثيرة اتهمت جبون بعدم الدقة ، أو التحريف ، أو عدم الإخلاص . أما جبون ففى تجاهل مؤقت لنقاده سمح لنفسه بالاستمتاع بأجازة طويلة فى باريس (مايو إلى نوفمبر ١٧٧٧) . ودعته سوزان كورشو التى أصبحت زوجة جاك نكير المصرفى ووزير المالية إلى بيتهم . وكانت الآن فى وضع مريح جداً بحيث لم يسؤها ما سبق من أنه « تنهد تنهد العاشق ، وأطاع طاعة الإبن » . أما المسيو نكير « الذى لم تخالجه الغيرة قط ، فكثيراً ما كان يترك العاشقين السابقين وحيدين ويمضى إلى عمله أو فراشه . وشكا جبون قائلا « أيمكن أن يهينانى إهانة أقسى من هذه ؟ يا لها من طمأنينة وقحة ! » أما جرمين ابنة سوزان ، (وهى التى أصبحت فيما بعد مدام دستال) فقد طابت لها صحبته حتى لقد جربت ألاعيبها المنفتحة عليه (وهى بعد فى الحادية عشرة) وعرضت أن تتزوجه حتى تحتفظ به فى الأسرة[٨٧] . وفى بيت نكير التقى بالإمبراطور يوزف الثانى « وفى فرساى قدم إلى لويس السادس عشر ، الذى قيل إنه شارك فى ترجمة المجلد الأول إلى الفرنسية . واحتفى به القوم فى الصالونات لا سيما صالون المركيزة دودفان ، التى وجدته « لطيفاً مؤدباً . . . أرقى من جميع الأشخاص الذين أعيش معهم تقريباً » « ولكنها

حكمت على أسلوبه بأنه « منمق ، خطابى » ، وأنه « يجرى على طريقة أدبائنا المعترف بهم[٨٨] . وقد رفض دعوة من بنيامين فرانكلن ، ببطاقة ذكر فيها أنه مع احترامه للمبعوث الأمريكي رجلا وفيلسوفاً ، إلا أنه لايستطيع أن يراه أمراً ينسجم مع واجبه قبل مليكه أن يدخل فى أى حديث مع رجل من الرعايا الثائرين . ورد فرانكلين بأنه يكن من الاحترام الشديد للمؤرخ ما يجعله سعيداً — أن خطر لجبون يوماً أن يتخذ من اضمحلال الإمبراطورية البريطانية وسقوطها موضوعاً للتأليف — بأن يزوده ببعض المواد المتصلة بالموضوع »[٨٩] .

فلما عاد جبون إلى لندن ، أعد رداً على نقاده — « دفاع عن بعض فقرات وردت فى الفصلين الخامس عشر والسادس عشر من تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٩) وقد تناول خصومه اللاهوتيين فى إيجاز ورفق ، ولكنه احتد قليلا فى رده على هنرى ديفز ، وهو فتى فى الحادية والعشرين كان قد اتهم جبون فى كتاب من ٢٨٤ صفحة بأخطاء سببها عدم الدقة . وقد اعترف المؤرخ ببعض الأخطاء ولكنه أنكر « تعمد التحريف » والأخطاء الجسيمة ، والانتحالات الذليلة »[٩٠] . واستقبل هذا « الدفاع » عموماً على أنه رد موفق . وبعدها لم يرد جبون على النقد إلا عرضاً فى « المذكرات » ، ولكنه وجد مكاناً لبعض المديح الذى أسبغه على المسيحية على سبيل المصالحة فى أجزاء الكتاب التالية .

وقد ازداد تأليفه سرعة بفقده كرسيه فى البرلمان (أول سبتمبر ١٧٨٠) ، فصدر المجلدان الثانى والثالث من « التاريخ » فى أول مارس ١٧٨١ وقد استقبلا استقبالا هادئاً . ذلك أن غزوات القبائل الهمجية كانت قصة قديمة ، أما المناقشات الطويلة المتخصصة للهرطقات التى أثارت الكنيسة المسيحية فى القرنين الرابع والخامس فلم يكن فيها ما يشوق جيلا من الشكاك الدنيويين . وكان جبون قد أرسل سلفاً نسخة من المجلد الثانى إلى هوراس ولبول ، فزار الآن ولبول فى ميدان باركلى ، وأحزنه أن يقال له « إن فى الكتاب إسهاباً كثيراً عن الأريوسيين والأونوميين وأشباه البلاجيين . . . بحيث أنى أخشى

أن القليلين سيصبرون على قراءة القصة رغم أنك كتبتها كأفضل ما يمكن كتابتها » . وكتب ولبول يقول « من تلك الساعة إلى الآن لم أره قط ، مع أنه اعتاد أن يزورني مرة أو مرتين كل أسبوع »[٩١] . وقد وافق جبون فيما بعد على رأى ولبول[٩٢] .

واستعاد المجلد الثاني الحياة حين تصدره قسطنطين . وقد فسر جبون دخوله الشهير في المسيحية على أنه عمل من أعمال الحنكة في فن الحكم . ذلك أن الامبراطور كان قد أدرك أن تنفيذ أحكم القوانين أمر قاصر وغير مأمون « وأنها قلما تلهم بالفضيلة ، وليس في قدرتها دائماً أن تكبح جماح الرذيلة » . وفي وسط فوضى الأخلاق والاقتصاد والحكم في الإمبراطورية الممزقة : « قد يلحظ حاكم حصيف في سرور تقدم دين يبث بين الناس نسقاً من المبادىء الخلقية نقياً خيراً شاملا للجميع ، مكيفاً لكل واجب وكل ظرف من واجبات الحياة وظروفها ، مزكى باعتباره إرادة الإله الأعلى وفكره ، منفذاً بتكريس من الثواب أو العقاب الأبديين »[٩٣] . أى أن قسطنطين أدرك أن العون المستمد من دين فوقطبيعي هو عون عظيم القيمة للأخلاق والنظام الاجتماعي والحكومة . ثم جرى قلم جبون بمائة وخمسين صفحة بليغة محايدة عن يوليان المرتد .

وقد ختم الفصل الثامن والثلاثين والمجلد الثالث بهامش امتدح ما تحلى به جورج الثالث من « حب خالص كريم للعلم وللبشر » . وفي يونيو ١٧٨١ ، وبمساعدة اللورد نورث ، أعيد انتخاب جبون للبرلمان ؛ حيث استأنف تأييده للوزارة . على أن سقوط اللورد نورث (١٧٨٢) أنهى حياة مجلس التجارة وأطاح بوظيفة جبون فيه : « لقد جردت من راتب مريح مقداره ٧٥٠ جنيهاً في العام »[٩٤] . فلما شغل نورث مكاناً في وزارة ائتلاف (١٧٨٣) ، تقدم جبون بطلب وظيفة شرفية أخرى . ولكنه لم ينلها « ماكنت لأستطيع بغير دخل إضافي أن أحتفظ طويلا أو بحكمة وتدبر بأساليب الإنفاق الذى ألفته »[٩٥] . وقدر أن في استطاعته الاحتفاظ بتلك الأساليب في لوزان ، حيث كان لجنيهاته الاسترلينية ضعف قوتها الشرائية في لندن . وعليه فقد

استقال من البرلمان ، وباع كل ممتلكاته المنقولة غير الشخصية ، فيما خلا مكتبته ، وفى ١٥ سبتمبر ١٧٨٣ رحل عن لندن « بدخانها وثرائها وضوضائها» قاصداً لوزان . وهناك قاسم صديقه القديم جورج ديفردان قصراً مريحاً . وأنا أشرف على منظر مترام يجمع بين الوادى والجبل والماء ، بدلاً من الإطلال على حوش مبلط مساحته اثنا عشر قدماً مربعاً »(٩٦) . ووصلته كتبه الألفان بعد أن تأخرت قليلا ، فشرع فى تأليف المجلد الرابع .

وكان قد خطط أول الأمر أن ينهى « الاضمحلال والسقوط» بفتح روما عام ٤٧٦ . ولكنه بعد أن نشر المجلد الثالث « بدأت أتوق إلى الواجب اليومى ، إلى البحث النشيط الذى يسبغ على كل كتاب قيمة ، وعلى كل تحقيق هدفاً »(٩٧) . ومن ثم استقر رأيه على أن يفسر عبارة « الإمبراطورية الرومانية » على أنها تنتظم الإمبراطورية الشرقية كما تنتظم الغربية ، وأن يواصل قصته حتى يبلغ بها تدمير الحكم البيزنطى بفتح الأتراك للقسطنطينية عام ١٤٥٣ . وهكذا أضاف ألف سنة إلى مجال دراسته ، واضطلع بمئات المواضيع الجديدة التى تتطلب البحث الشاق المضنى .

وقد احتوى المجلد الرابع على فصول رائعة عن جستنيان وبلساريوس ، وفصل عن القانون الرومانى ظفر بمديح عظيم من فقهاء القانون ، وفصل ممل عن مزيد من الحروب التى استعرت بين اللاهوتيين المسيحيين . كتب ولبول يقول : « ليت المستر جبون لم يسمع قط بالمونوفيزيين (القائلين بطبيعة المسيح الواحدة) أو النساطره أو أى من هؤلاء الحمقى ! »(٩٨) . وقد تحول جبون فى المجلد الخامس فى تخفيف واضح إلى ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وفتح العرب للإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وأغدق على النبى والخلفاء الحربيين كل التفهم المحايد الذى خانة فى حديثه عن المسيحية . وأعطته الحروب الصليبية موضوعاً مثيراً آخر فى المجلد السادس ، وكان استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية الذروة لمؤلفه والتاج الذى تكلل عمله .

وقد لخص جهوده فى الفصل الأخير فى جملة مشهورة : « لقد وصفت

انتصار الهمجية والدين»[٩٩] . ولم ير فى العصور الوسطى غير الفجاجة والخرافة وهو ما رآه فيها فولتير ، أستاذه الذى لم يقر بفضله . وقد صور حالة الخراب التى آلت إليها روما فى ١٤٣٠ واستشهد برثاء بودجو لها إذ قال « ليت شعرى أى خطب دهى بهاء الدنيا هذا ! اشد ما انهار ، وتغير ، وشاه منظرا ! » — رأى خراب الآثار والفن الكلاسيكيين أو تهدمهما ، وساحة روما وقد حجبها نمو الحشائش واحتلتها الماشية والخنازير . واختتم جبون فى حزن بهذه العبارة « وسط خرائب الكابتول خطر لى لأول مرة خاطر القيام بهذا العمل الذى أبهج ودرب عشرين سنة من حياتى تقريباً ، عمل أسلمه فى النهاية إلى فضول جمهور القراء وصراحتهم أيا كان قصوره عن أن يدرك مرامى» . وقد استحضر فى « مذكراته » تلك الساعة ، ساعة الخلاص المفعمة بالمشاعر المتناقضة :

« فى عشية السابع والعشرين من يونيو ١٧٨٧ ، بين الحادية والثانية عشرة ، كتبت آخر السطور فى آخر صفحة ، فى ظلة صيفية فى حديقتى ، وبعد أن وضعت قلمى تجولت مرات . . . فى ممشى مغطى من أشجار السنط ، يشرف على مشهد يجمع بين الريف ، والبحيرة ، والجبال . . . ولست أريد إخفاء مشاعر الفرح التى غمرتنى لاستعادتى حريتى ، وربما لتوطيد شهرتى . ولكن سرعان ما أذلت كبريائى وأشاعت فى عقلى اكتئاباً هادئاً ، فكرة فراق فراق الأبد لرفيق قديم أنيس ، وأنه أيا كان مصير كتابى مستقبلا ، فإن حياة المؤرخ لا محالة قصيرة مزعزعة»[١٠٠] .

جـ — الرجل

وصف المسيو بافيار جبون وهو فى السادسة عشرة بأنه « جسد قصير نحيل يعلوه رأس كبير»[١٠١] . وإذ كان يكره الرياضة ويحب الطعام[١٠٢] ، فإنه سرعان ما اكتسب استدارة فى الجسم والوجه ، وأصبح له كرش محترم يعتمد على ساقين نحيلتين ، أضف إلى ذلك شعراً أحمر جعده من الجنب وعقصه من الخلف ، وقسمات ملائكية لطيفة ، وأنفاً دقيقاً ، وخدين منتفخين ، وذقناً ملغداً ، وأهم من ذلك كله جبين عريض عال يعد بـ «انجازات

عظيمة القدر والخطر» والجلال واتساع المرمى . وكان قريباً لجونسن فى شبيه ولولبول فى نقرسه . وقد تضخم صفنه بشكل مؤلم عاماً بعد عام حتى أبرزته سراويله الضيقة بروزاً مزعجاً . ولكنه رغم معايبه كان مغروراً بمظهره ولباسه ، وصدر المجلد الثانى من كتابه بصورته التى رسمها له رينولدز . وكان يحمل علبة نشوق فى خاصرته » وينقر عليها نقراً خفيفاً إذا احتد أو أراد أن يصغى إليه سامعه . وكان أنانياً شأن أى رجل له هدف يستغرقه . ولكنه كان صادقاً « لقد وهبت مزاجاً بشوشاً » وحساسية معتدلة (ولكن دون اسراف فى العاطفة) وميلا فطرياً للاسترخاء »[١٠٣].

وفى ١٧٧٥ أنتخب عضواً فى « النادى » . وكان كثير التردد عليه نادر الكلام فيه ، يبغض فكرة جونسن عن الحديث . وكان جونسن يعلق على « دمامة » جبون على نحو مسموع أكثر مما ينبغى[١٠٤] ، أما جبون فكان يصف هذا « الدب الأكبر » بأنه « علام حكيم » وأنه « عدولا يغفر » ، و « عقل متعصب تعصباً أعمى وإن كان قوياً ، يتلقف أى عذر ليبغض من يخالفون عقيدته ويضطهدهم »[١٠٥] . وأما بوزويل ، الذى لم يكن يشعر بشفقة على غير المؤمنين » فقد وصف المؤرخ بأنه « إنسان دميم مغرور مقزز» ينغص على « منتدانا الأدبى » . ومع ذلك فلا بد أن جبون كان له أصدقاء كثيرون ، لأنه وهو فى لندن كان يتناول العشاء خارج بيته كل ليلة تقريباً .

وقد قدم من لوزان إلى لندن فى أغسطس ١٧٨٧ ليشرف على طبع المجلدات الرابع والخامس والسادس ، والتى صدرت فى عيد ميلاده الحادى والخمسين فى ٨ مايو ١٧٨٨ ، وأتته بأربعة آلاف من الجنيهات » ويعد هذا من أعلى الأتعاب المدفوعة لمؤلف فى القرن الثامن عشر . يقول « ان خاتمة مؤلفى عممت قراءتها واختلف الحكم عليها . . . ومع ذلك يبدو على الجملة أن « تاريخ الاضمحلال والسقوط قد أصل جذوره سواء فى أرض الوطن أو خارجه ، ولعل ذمه سيستمر ربما بعد مائة عام »[١٠٦] . وكان آدم سمث قد وضعه فعلا « على رأس معشر الأدباء قاطبة » الموجودين الآن فى

أوربا »[١٠٧] . وفى ١٣ يونيو ١٧٨٨ ، خلال محاكمة هيستنجز فى وستمنستر هول ، طاب لجبون أن يسمع من شرفة الزوار شريدان يشير فى خطاب من أروع خطبه إلى « صفحات جبون الوضاءة » (Luminous) [١٠٨] . وفى رواية غير محتملة التصديق أن شريدان زعم فيما بعد أنه قال (Voluminous) أى الغزيرة الإنتاج[١٠٩] ، ولكنها صفة لا يمكن أن تنعت بها الصفحات ، والصفة الأولى هى ولا ريب اللفظ المطابق لمقتضى الحال .

وفى يوليه ١٧٨٨ قفل جبون إلى لوزان . وبعد عام مات ديفردان مخلفاً بيته لجبون ما بقى من عمر المؤرخ . هنالك عاش جبون فى رغد ، يقوم على خدمته عدة خدم ويأتيه دخل قدره ١,٢٠٠ جنيه فى العام ، وشرب النبيذ الكثير ، وزاد نقرسه ومحيط خصره « « من ٩ فبراير إلى أول يوليو ١٧٩٠ عجزت عن التحرك من بيتى أو مقعدى »[١١٠] . وإلى هذه الحقبة تنتمى الأسطورة التى زعمت أنه جثا عند قدمى مدام كروزاز يبوح لها بحبه « وأنها طلبت إليه أن ينهض ، وأنه لم يستطع لثقل جسمه[١١١] . والمصدر الوحيد للقصة هو مدام جفليس التى وصفها سانت — بوف بأنها « امرأة خبيثة اللسان »[١١٢] « وقد رفضت ابنتها القصة وقالت أن سببها هو الخلط بين الأشخاص »[١١٣] .

ثم قطعت الثورة الفرنسية على جبون هدوءه . وترددت المشاعر الثورية فى الأقاليم السويسرية ، وجاءت الأنباء بهياج مماثل فى انجلتره . وكان لجبون كل العذر فى خوفه من أن تسقط الملكية الفرنسية ، لأنه كان يستثمر ١,٣٠٠ جنيه فى قرض للحكومة الفرنسية[١١٤] . وكان قد كتب عام ١٧٨٨ ، فى نبوءة لم يوفق فيها ، أن الملكية الفرنسية « تقف » كما يبدو « على أساس من صخر الزمن ، والقوة ، والرأى ، تساندها أرستقراطية ثلاثية من الكنيسة والنبلاء والبرلمانات »[١١٥] ، وقد اغتبط حين أصدر بيرك كتابه « تأملات فى الثورة فى فرنسا » (١٧٩٠) « وكتب إلى اللورد شفيلد محذراً من أى اصلاح فى النظام السياسى البريطانى ، « لو سمحتم بأدنى تغيير وأكثره تمويهاً فى نظامنا البرلمانى لقضى عليكم »[١١٦] . وراح الآن

يتحسر على نجاح جماعة الفلاسفة فى حربهم التى شنوها على الدين » « لقد خطر لى أحياناً أن أكتب حواراً بين الموتى ، يتبادل فيه لوسيان وارزم وفولتير الاعتراف بخطر تعريض خرافة قديمة لاحتقار الجماهير العمياء المتعصبة »[١١٧] . وحث بعض زعماء البرتغاليين على ألا يتخلوا عن ديوان التفتيش خلال هذه الأزمة التى هددت كل العروش[١١٨] .

ورحل جبون عن لوزان (٩ مايو ١٧٩٣) وأسرع بالعودة إلى انجلترة ، من جهة هرباً من جيش الثورة الفرنسى المقترب من لوزان ، ومن جهة أخرى التماساً للجراحة الانجليزية ، ولسبب قريب هو تعزية اللورد شفيلد فى وفاة زوجته ، فوجد شفيلد فى شغل بالسياسة عجل بسلواه . كتب جبون يقول « شفى المريض قبل وصول الطبيب »[١١٩] . وأذعن المؤرخ نفسه الآن لأوامر الأطباء « لأن قيلته كانت قد بلغت من التضخم » حجم طفل صغير تقريباً . . . إننى أزحف زحفاً بشىء من الجهد وكثير من عدم اللياقة »[١٢٠] وقد صرفت إحدى الجراحات جالوناً من « السائل المائى الشفاف » من الخصية المريضة . ولكن السائل تجمع ثانية ، وأخرج بزل ثان ثلاثة أرباع الجالون ، واستشعر جبون الراحة مؤقتاً ، واستأنف الخروج للعشاء . ولكن القيلة تكونت من جديد ، وباتت الآن عفنة . وفى ١٣ يناير بزلت للمرة الثالثة . وبدا أن جبون يتماثل للشفاء سريعاً ، وسمح له الطبيب بأكل اللحم ، وأكل جبون بعض الدجاج وشرب ثلاث أكواب من النبيذ . فأصابته آلام معوية شديدة حاول كما حاول فولتير تخفيفها بتعاطى الأفيون . ولكن فى ١٦ يناير مات بالغاً السادسة والخمسين .

د — المؤرخ

لم يكن جبون ملهماً فى مرآه ولا فى خلقه ولا فى سيرته ، فعظمته كلها انسكبت فى كتابه « فى فخامة فكرته وشجاعتها ، فى الصبر على تأليفه والتفنن فيه ، وفى الجلال الوضاء الذى كلله كله .

أجل ، لقد صدق شريدان فيما قال . فأسلوب جبون وضاء بالقدر الذى يسمح به التهكم ، وقد ألقى الضوء أينما اتجه ، اللهم إلا حين يحجب الهوى

الهوى رؤيته . وقد شكلت أسلوبه دراساته اللاتينية والفرنسية ، فرأى الألفاظ الأنجلو — سكسونية البسيطة لاتناسب وقار مذهبه فى الكتابة ، وكثيراً ماكتب كأنه خطيب يخطب ، وما أشبهه فى هذا بليفى يشحذه هجاء تاسيتوس ، وبيرك تجلوه فكاهة بسكال الذكية . كان يوازن بين جمله بمهارة المشعوذ وجلده ، ولكنه أسرف فى تكرار امبه هذه حتى قاربت الرتابة المملة أحياناً . وإذا كان أسلوبه يبدو فخماً طناناً ، فإنه الأسلوب اللائق بترامى موضوعه وبهائه — وهو تفتت أعظم امبراطورية شهدها العالم على مدى ألف عام . ومآخذ أسلوبه العرضية تتوه وسط زحف الرواية وقوة الأحداث ، والصور والأوصاف الكاشفة ، والتلخيصات الباتة التى تجمل قرناً بأسره فى فقره ، وتزاوج بين الفلسفة والتاريخ .

ولقد شعر جبون بعد أن اضطلع بهذا المبحث المترامى أن له الحق فى تضييق حدوده ويقول « إن الحروب ، وإدارة الأمور العامة ، هما موضوعا التاريخ الرئيسيان »[١٢٠] ، ومن ثم أغفل تاريخ الفن والعلم والأدب ، فلم يكن لديه ما يقوله عن الكتدرائيات القوطية أو المساجد الإسلامية ، ولا عن العلم أو الفلسفة العربيين ، وقد توج بترارك ، ولكنه مر بدانتى مرور الكرام . ولم يكد يلقى بالا إلى حال الطبقات الدنيا ، أو قيام الصناعة فى القسطنطينية أو فلورنسه فى العصر الوسيط . وفقد اهتمامه بالتاريخ البيزنطى التالى لموت هرقل (٦٤١) . وفى رأى بيورى « أن جبون أخفق فى إبراز حقيقة خطيرة » هى أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت حتى القرن الثانى عشر حصن أوربا الحصين فى وجه الشرق ، كذلك لم يقدر أهميتها فى الحفاظ على تراث المدينة الإغريقية »[١٢٢] ، غير أن جبون فى نطاق الحدود التى رسمها لنفسه بلغ العظمة بربطه النتاج بالأسباب الطبيعية ، وبتحويله ضخامة مواده إلى ترتيب مفهوم ورؤية هادية للصورة بأكملها .

لقد كان علمه واسعاً كثير التفاصيل . فحواشيه ذخيرة من المعرفة تلطفها الفكاهة الذكية ، وقد درس أعوص جوانب العالم القديم ، بما فيه من طرق وعملات وموازين ومقاييس وقوانين ، ووقع فى أخطاء صححها

المتخصصون ، ولكن بيورى هذا الذى بين مآخذه أضاف : « لو أخذنا فى الاعتبار المدى الشاسع لمؤلفه لأدهشتنا دقته »[١٢٣] ولم يستطع أن ينقب فى المصادر الأصلية غير المنشورة (كما يفعل محترفو المؤرخين ممن يقتصرون على رقعة صغيرة من الموضوع والزمان والمكان) ؛ ولكى يتم عمله اقتصر على المادة المطبوعة ، واعتمد بصراحة على مراجع ثانوية مثل كتاب أوكلى « تاريخ المسلمين » أو كتابى تلمون « تاريخ الأباطرة » و « التاريخ الكنسى » ؛ وبعض المراجع التى اعتمد عليها مرفوضة الآن لأنها غير موثوق بها[١٢٤] ، وقد أفصح عن مصادره فى تفصيل أمين وشكر مؤلفيها ؛ من ذلك أنه قال فى هامش حين جاوز الفترة التى تناولها تلمون : « هنا علىّ أن أستأذن إلى الأبد من ذلك المرشد الذى لا يبارى »[١٢٥] .

ترى ما النتائج التى خلص إليها جبون من دراسته للتاريخ؟ إنا نراه أحياناً يتبع جماعة الفلاسفة الفرنسيين فى قبول حقيقة التقدم : « يجوز لنا أن نرتضى النتيجة السارة التى تذهب إلى أن كل عصر فى العالم زاد ومازال يزيد من ثروة النوع الإنسانى الحقيقية ، وسعادته ، ومعارفه ، وربما فضائله »[١٢٦] ، ولكنه فى لحظات أقل اشراقاً — وربما لأنه قد اتخذ الحرب والسياسة (واللاهوت) مادة للتاريخ — حكم على التاريخ بأنه « فى الحق لايعدو كثيراً أن يكون سجلا لجرائم الإنسان وحماقاته ونكباته » *[١٢٧]. ولم ير فى التاريخ قصداً مرسوماً ؛ فالأحداث ثمرة أسباب لا موجه لها ، فهى متوازى أضلاع من قوى ذات أصل مختلف ونتيجة مركبة . وفى كل هذه المشاكل من الأحداث يبدو أن الطبيعة البشرية تظل دون تغيير . ولقد ابتلى النوع الإنسانى دائماً وسيظل دائماً مبتلى ، بالقسوة والمعاناه والظلم ، لأنها هذه كلها مركبة فى طبيعة البشر » ؛ ان الإنسان خليق بأن يخشى من ثورات إخوانه من البشر أكثر كثيراً مما يخشى اضطرابات الطبيعة العنيفة[١٢٩] .

(*) قارن فولتير « كل التاريخ ، باختصار ، ليس إلا . . . مجموعة جرائم وحماقات ونكبات . . . (١٢٨) .

لقد تاقت نفس جبون وهو ربيب التنوير إلى أن يكون فيلسوفاً ، أو على الأقل أن يفلسف التاريخ ، « ان العصر المستنير يطالب المؤرخ بمسحة من الفلسفة والنقد»[١٣٠] . وكان يحب أن يقطع روايته بتعليقات فلسفية . ولكنه لم يزعم أنه يرد التاريخ إلى قوانين أو يصيغ « فلسفة للتاريخ» ، على أنه اتخذ له ،وقفاً فى بعض المسائل الأساسية : فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى اتخذ له موقفاً فى بعض المسائل الأساسية : فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى من المدنية ، ورفض أن يكون العرق عاملا حاسماً[١٣١] ، وأقر ، فى حدود بتأثير الأفذاذ من الرجال . « أن أهم المشاهد فى الحياة البشرية تتوقف على أخلاق ممثل فرد . فقد يحتد عرق فى رجل واحد فيغير مصير أمم »[١٣٢] . وحين كان فى استطاعة قريش أن تغتال محمدا (صلى الله عليه وسلم (« كان من الجائز أن يغير رمح عربى تاريخ العالم »[١٣٣] . ولو لم يهزم شارل مارتل المغاربة فى تور(٧٣٢) لاكتسح المسلمون أوربا بأسرها « ولكان تفسير القرآن يدرس الآن فى مدارس أكسفورد » ولكان تلاميذها يفسرون لشعب من المختونين قدسية الوحى الذى نزل على النبى وصدقه»[١٣٤] . على أنه لابد للفرد الفذ من أن يرتكز على سند واسع إن أراد أن يحرز أقصى نفوذ على عصره . « إن النتائج التى يحققها الإقدام الشخصى ضئيلة جداً ، إلا فى الشعر أو الرومانس ، بحيث يجب أن . . . يعتمد النصر على درجة المهارة التى يستعان بها لتجميع عواطف الجماهير المشبوبة وتوجيهها لخدمة رجل فرد »[١٣٥] .

صفوة القول أن « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » يمكن على الجملة أن يعد الكتاب الأعظم للقرن الثامن عشر » وكتاب مونتسكيو « روح القوانين» أقرب منافس له . صحيح أنه لم يكن أكثر الكتب تأثيراً ، ولم يكن يكن فى تأثيره على التاريخ قريباً لكتاب روسو « العقد الاجتماعى» أو لكتاب آدم سمث « ثروة الأمم » ، أو لكتاب كانط « نقد العقل الخالص » . ولكنا إذا نظرنا إليه بوصفه أثراً أدبياً وجدناه لا يبارى فى جيله أو نوعه . فإذا سألنا كيف أتيح لجبون أن ينتج هذه الرائعة أدركنا أن السر كان فى

ذلك الارتباط الذى تصادف أن ربط بين الطموح والمال والفراغ والكفاية ؛ ولا ندرى متى يمكن أن نتوقع تكرار هذا الارتباط ثانية . لقد قال مؤرخ آخر لروما هو بارتولد نيبور « أن كتاب جبون لن يبزه كتاب أبدا »[١٣٦] .

— ٦ — تشاترتن وكوبر

من يظن الآن أن أحب الشعراء الانجليز الأحياء إلى قلوب الناس فى عام ١٧٦٠ هو تشارلز تشرشل ؟ كان ابنا لقسيس ، وقد رسم هو نفسه قسيساً أنجليكانياً ، غير أنه هوى مباهج لندن ، وصرف زوجته ، وغرق فى الديون ، ونظم قصيدة حظيت بالشهرة يوماً ما ، هى « الروسكياده » (١٧٦١) وأتاحت له الوفاء بديونه ، وتقرير معاش لزوجته ، و « أن يطلع على الناس فى زى لا دينى على نحو صارخ كفتى من فتيان لندن المصريين »[١٣٧] . وقد اتخذ قصيدته اسمها من كوينتس روسكيوس الذى سيطر على المسرح الرومانى أيام يوليوس قيصر ؛ وهجت القصيدة كبار ممثلى لندن ، وجعلت جاريك يجفل ؛ وذكر عن أحد ضحاياها أنه « كان يجرى فى شوارع المدينة كأنه ظبى جريح »[١٣٨] . وقد انضم تشرشل إلى ولكس فى شعائر « مدمنهام آبى » الفاجرة ، وأعانه على تحرير صحيفة « النورث بريتون » ؛ وذهب إلى فرنسا ليقاسم ولكس منفاه ، ولكنه مات فى بولون (١٧٦٤) إثر سكرة فاجرة » و بـ « لامبالاة أبيقورية »[١٣٩] .

وهناك قسيس آخر يدعى توماس بيرسى عاش حياة تليق برداثه الكهنوتى ، وأصبح أسقفاً على درومور فى ارلنده ، وترك بصمته على الأدب الأوربى حين استنقذ مخطوطاً قديماً من يد خادم كانت على وشك احراقه ، وقد أمده المخطوط بأحد المصادر لكتابه « آثار من الشعر القديم » (١٧٦٥) وراقت هذه القصائد القصصية الشعبية التى تنتمى لبريطانيا فى العصر الوسيط المخضرمين من القراء ، وشجعت الروح الرومانتيكية — التى طالما كبتتها النزعة العقلية والمزاج الكلاسيكى — على الأعراب عن نفسها شعراً وقصصاً وفناً . وقد أرخ ورد زورث من هذه الآثار ظهور الحركة الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى . وكانت أشعار مكفرسن « أوسيان » ،

وقصائد تشاترتن ، وقصائد ولبول « قلعة أوترنتو » و « ستروبرى هل » ، وقصيدتا بكفورد « فاذك » و « فونتل آبى » — هذه كلها كانت أصواتاً شتى فى صيحة تدعو للوجدان والغموض والرومانس ، وتملكت العصور الوسطى الروح العصرية برهة .

وقد بدأ توماس تشاترتن محاولته لتشرب العصر الوسيط بإطالة النظر فى رقاق عتيقة عثر عليها عمه فى كنيسة ببرستل . وقد شب هذا الغلام الحساس الخصب الخيال — الذى ولد ببرستل (١٧٥٢) عقب موت أبيه — فى عالم من صنع خيالاته التاريخية . وقد درس قاموساً للألفاظ الأنجلو — سكسونية ، ونظم فى لغة خالها لغة القرن الخامس عشر قصائد ادعى أنه عثر عليها فى كنيسة سانت مارى راد كليف ، ونسبها إلى توماس راولى ، وهو راهب وهمى من رهبان القرن الخامس عشر . وفى ١٧٦٩ ، حين بلغ السابعة عشرة ، أرسل بعض « قصائد راولى » هذه إلى هوراس ولبول — الذى كان هو ذاته قد نشر « أوترانتو » زاعماً أنها من شعر العصر الوسيط الأصيل قبل ذلك بخمس سنوات . وأطرى ولبول القصائد ودعا لإرسال المزيد منها ، فأرسل تشاترتن المزيد ، وطلب العون على إيجاد ناشر ينشرها ، ووظيفة مجزية فى لندن . وعرض ولبول القصائد على توماس جراى ، ووليم ميسن ، فحكم كلاهما عليها بأنها مزيفة . وكتب ولبول إلى تشاترتن أن هذين الأديبين « غير مقتنعين إطلاقاً بصحة مخطوطه المزعوم » ونصحه بأن يطرح الشعر جانباً حتى يستطيع كسب قوته . ثم رحل ولبول إلى باريس ونسى أن يرد القصائد لصاحبها . وكتب تشاترتن فى طلبها ثلاث مرات ، وانقضت ثلاثة أشهر قبل أن تصله[١٤٠] .

وذهب الشاعر إلى لندن (ابريل ١٧٧٠) وسكن علية فى شارع بروك هوبورن . وأرسل إلى دوريات شتى مقالات منحازة لولكس ، وبعض قصائد راولى ، ولكن حصيلة الأجر الذى تلقاه عنها (ثمانية عشر بنساً للقصيدة) كانت أقل من أن تقيم أوده ، فحاول الحصول على وظيفة مساعد جراح على باخرة تجارية أفريقية ولكنه أخفق — وفى ٢٧ أغسطس نظم وداعاً مراً للعالم :

وداعاً يا أكوام الآجر القذرة فى برستوليا ،
يا عشاق المال ، وعباد الخديعة والختل !
لقد ازدريتم الفتى الذى أعطاكم الأغانى القديمة ،
وأثبتم المعرفة بالمديح الفارغ .
وداعاً أيها الحمقى من الرؤساء السكارى ،
الذين هيأتكم الطبيعة مطية للفساد !
وداعاً أمى ! وكنى أنت يا روحى المضناة ،
ولا تدعى أمواج الحيرة والذهول تطغى على !
رحماك أيتها السماء إن أنا كففت عن العيش هنا ،
واغفرى لى هذه الفعلة الأخيرة من أفعال الشقاء .

ثم انتحر بشرب الزرنيخ بالغاً من العمر سبعة عشر عاماً وتسعة أشهر . ودفن فى قبر من قبور الفقراء المعدمين .

وقصائده تملأ اليوم مجلدين . ولو كان قد وصفها بأنها تقليد لا أصيل فلربما اعترف له بأنه شاعر أصيل ، لأن بعض قصائد راولى لا تقل جودة عن معظم القصائد الأصلية من هذا النوع ذاته . وكان حين يكتب شعراً باسمه يستطيع نظم شعر هجائى يكاد يضارع شعر بوب ، كما نرى فى قصيدته « المثوى »[١٤١] ، أو فى سبعة عشر بيتاً — هى أهجى شعره كله — يسوط فيها ولبول متملقاً ذليلا غليظ القلب[١٤٢] . فلما أن نشرت مخطوطاته المتخلفة (١٧٧٧) اتهم المشرف على نشرها ولبول بأن عليه تقع بعض التبعة فى موت الشاعر ، ودافع ولبول عن نفسه بأنه لم يشعر بأى التزام بمساعدة مزيف مصر على التزييف[١٤٣] . وأصر بعض ذوى القلوب الرحيمة كجولدسمث على أن القصائد أصيلة لا مزيفة ، وضحك جونسن من صديقه ، ولكنه قال : « هذا أعجب شاب عرفته . غريب كيف كتب الجرو كلاماً كهذا »[١٤٤] . أما شلى فقد خلد ذكرى الفتى تخليداً موجزاً فى قصيدته « أدونيس »[١٤٥] ، وأما كيتس فقد نظم قصيدته « انديميون » فى ذكراه .

لقد هرب تشاترتن من واقع برستل ولندن والكئيب عن طريق أساطير العصر الوسيط والزرنيخ . أما وليم كوبر فقد هرب من لندن التى عشقها جونسن إلى البساطة الريفية « والإيمان الدينى ، والجنون الدورى . وقد برىء جده من تهمة القتل وأصبح قاضياً » وكان أبوه قسيساً انجليكانيا . وأمه تنتسب إلى الأسرة التى أنجبت جون دن . وقد ماتت وهو فى السادسة » مخلفة له ذكريات حزينة لحدبها وحبها ، وحين أرسل له ابن عم له بعد ثلاثة وخمسين عاماً صورة قديمة لأمه استعاد فى قصيدة رقيقة[146] تلك الجهود التى كثيراً ما بذلتها لتهدىء المخاوف التى أظلمت ليالى طفولته .

وقد انتقل من هاتين اليدين الرقيقتين فى عامه السابع إلى مدرسة داخلية أصبح فيها المسخر الجبان لطالب متنمر أرهقه بكل ثقيل مذل من الواجبات . وأصيب بالتهاب فى عينيه ، فاضطر أن يظل أعواماً تحت رعاية رمدى . وفى ١٧٤١ ، حين بلغ العاشرة » بعث إلى مدرسة وستمنستر فى لندن . وبدأ فى السابعة عشرة الاشتغال ثلاثة أعوام كاتباً فى مكتب محام بهوبورن . واكتمل الآن نضجه للرومانس » وكانت ابنة عمه تيودورا كوبر تعيش بقربه ، فغدت معبودة أحلام يقظته . وحين بلغ الحادية والعشرين اتخذ له مسكناً فى « المدل تمبل » ، وفى الثالثة والعشرين سمح له بالاشتغال بالمحاماة . وإذ كان كارهاً القانون » شديد الاحجام أمام المحاكم ، فقد ابتلى بحالة من الوهم المرضى » ازدادت عمقاً حين نهى تيودورا أبوها عن أى اتصال بابن عمها . ولم يرها كوبر بعدها قط ، ولم ينسها قط ، ولم يتزوج قط .

وفى ١٧٦٣ » حين واجه ضرورة المثول أمام مجلس العموم ، انهارت أعصابه ، واختلط عقله » وحاول الانتحار . وأرسله بعض أصحابه إلى مستشفى للأمراض العقلية فى سانت أولبنز . وأفرج عنه بعد ثمانية عشر شهراً » وإثر العيش فى هنتنجدن قرب كمبردج معتزلا الناس تقريباً . وقال إنه الآن « لا يرغب فى أى صحبة إلا صحبة الله والمسيح »[147] . وقد قبل العقيدة الكلفينية بحذافيرها » وأطال التفكير فى الخلاص والهلاك الأبدى . وألقت به الصدفة السعيدة بين يدى أسرة محلية كان إيمانها مجلبة للسلام والرحمة لا للخوف ، وأفرادها هم القس مورلى أنوين ، وزوجته مارى »

وابنه وليم ، وابنته سوزانا . وقد شبه كوبر أب هذه الأسرة بالقس أدمز في قصة فيلدنج «جوزف أندروز» . ووجد أما ثانية له في السيدة أنوين التي كانت تكبره بسبع سنين ، وقد عاملته هي وابنتها معاملة الإبن والأخ ، وأسبغتا عليه من عطف المرأة الرقيق ما كاد يجيب إليه الحياة من جديد . ودعته الأسرة للعيش معها ، ففعل (١٧٦٥) ووجد الشفاء في حياتها البسيطة .

ولكن هذا النعيم زال فجأة حين قتل الأب إثر سقطه من فوق جواده . وانتقلت الأرملة والإبنة إلى أولني في بكنجها مشير واصطحبتا معهما كوبر ، ليكونوا كلهم قريبين من الواعظ الإنجيلي الشهير جون نيوتن . وقد أقنع كوبر أن ينضم إليه في افتقاد المرضى وتأليف الترانيم . واحتوت إحدى «ترانيم أولني» هذه أبياتاً مشهورة :

إن الله يتحرك بطريقة خفية
ليصنع عجائبه ،
انه يزرع خطاه في البحر
ويركب فوق العاصفة(١٤٨) .

على أن مواعظ نيوتن المنذرة بنار الجحيم ، والتي «هزت توازن الكثيرين من أعضاء كنيسته» لم تهدىء من مخاوف الشاعر اللاهوتية بل زادتها حدة (١٤٩) . يقول كوبر «إن الله يبدو لي دائماً رهيباً إلا حين أراه تعالى وقد تجرد من شوكته لأنه أغمدها في جسد المسيح»(١٥٠) وعرض الزواج على السيدة أنوين ، ولكن نوبة ثانية من نوبات الجنون (١٧٧٣) حالت دون زواجهما ، ثم تماثل للشفاء بعد ثلاث سنين من العناية المشربة بالمحبة . وفي ١٧٧٩ رحل نيوتن عن أولني ، واتخذت تقوى كوبر مظهراً أكثر اعتدالا .

وأعانت نساء أخريات ماري أنوين على إبقاء الشاعر على صلة بالأرضيات . فتركت الليدي أوستن ، الأرملة المرحة ، بيتها اللندني وقصدت أولني ، واتصلت بآل أنوين ، وجلبت المرح والحبور إلى بيت طال تركيزه على المآسي العارضة للحياة . وهذه السيدة هي التي روت لكوبر القصة التي

أحالها إلى « تاريخ جون جلبن المسلى »[١٥١] ، ورحلته الوعرة التى أكره عليها . وأرسل صديق للأسرة هذه القصة الشعرية المرحة لاحدى الصحف ، وألقاها ممثل كان قد خلف جاريك على مسرح درورى لين هناك ؛ فغدت حديث لندن السائر ، وذاق كوبر طعم الشهرة لأول مرة . ولم يكن قد أخذ شاعريته من قبل مأخذ الجد . ولكن الليدى أوستن حثته الآن على أن ينظم شعراً ذا قيمة . ولكن فى أى موضوع ينظمه ؟ أجابت فى أى شيء ، وأشارت إلى أريكة . ثم فرضت عليه واجب إذاعة شهرتها فى شعره . وقد سره أن تأمره امرأة فاتنة . فنظم قصيدة « الواجب » . وحين نشرت القصيدة عام ١٧٨٥ استقبلها الناس بالترحيب بعد أن ملوا الحرب والسياسة وصراع المدينة .

وكتابة أو قراءة ستة « كتب » عن أريكه واجب ثقيل حقاً ما لم يؤت المرء خلق « كريبيون » الإبن[١٥٢] ؛ ولكن كوبر كان لديه من الفطنة ما يكفى لاستخدامها نقطة انطلاق لا أكثر . فبعد أن جعل منها القمة فى قصة فكهة عن المقاعد ، تسلل إلى موضوعه المفضل الذى يمكن اجماله فى بيت القصيد الذى يقول « لقد صنع الله الريف ، أما الإنسان فصنع المدينة »[١٥٣] . وقد اعترف الشاعر بأن الفن والبلاغة مزدهران فى لندن . وأثنى على رينولدز وشاتام ، وتعجب من العلم الذى « يقيس الذرة ويطوق العالم الآن »[١٥٤] . ولكنه وبخ « ملكة المدائن على عقابها بالموت بعض السرقات التافهة » على حين تغدق أسباب التشريف على « مختلسى المال العام » . يقول :

من لى بكوخ فى برية شاسعة
يكتنفه ظل متَرام لا حدود له ،
حيث لا تقرع سمعى بعدها
أنباء الظلم والخداع ،
ولا أخبار الحرب الخاسرة أو الظافرة .
إن أذنى لتتأذى . ونفسى لتشمئز ،
بما يأتى به كل يوم من أنباء

العدوان والمظالم التي تمتلىء بها الأرض[١٥٥] .

وقد روعه الاتجار بالرقيق ، وكان صوته أحد الأصوات الانجليزية الأولى التي نددت بالرجل الذي :

يرى أخاه مذنباً بجريرة جلد
لونه غير لون جلده ، وإذ كان له
من القوة ما يمكنه من إنقاذ الباطل . .
فهو يدينه ويتملكه فريسة حلالا . . .
فما الإنسان إذن ؟ وأى إنسان له مشاعر البشر
يرى هذا ولا يحمر وجهه خجلا ،
ولا ينكس رأسه خزياً من مجرد الفكرة بأنه إنسان ؟[١٥٦]

ومع ذلك يختتم بهذه العبارة « انى مازلت أحبك رغم كل أخطائك يا انجلتره »[١٥٧] .

وقد أحس أن هذه الاخطاء تخف ان ثابت انجلتره إلى الدين وحياة الريف . « كنت ظبيا جريحاً ترك القطيع » أى أنه ترك لندن حيث « تدفعنا للعاهرات بالمرافق » ، ووجد شفاءه فى الأيمان والطبيعة . تعال إلى الريف ! وتأمل نهر أوز « يحتوى مخترقاً سهلا مستوياً » ، « ثم هاتيك الماشية المطمئنة وكوخ الفلاح وساكنية الأشداء » وبرج القرية يرمز للحزن والرجاء ! واستمع إلى رشاش مساقط المياه ، وزقزة الطيور فى الصباح . إن لكل فصل أفراحه فى الريف « فأمطار الربيع بركة ، وثلوج الشتاء نقية . وما أبهج السير الثقيل وسط الثلوج ثم التجمع حول نار المدفأة فى المساء ! » .

ولم يكتب كوبر شيئاً ذا بال بعد « الواجب » . وفى ١٧٨٦ انتقل ثانية إلى وستن أندروود القريبة ، وهناك كابد نصف عام آخر من الجنون . وفى ١٧٩٢ أصيبت السيدة أنوين بالفالج « وظلت ثلاث سنين عليلة عاجزة ، فرضها كوبر كما مرضته من قبل » وفى آخر شهر فى حياتها كتب أبياته التي عنونها « إلى مارى أنوين » :

ان خصلاتك الفضية التي كانت يوماً ما حمراء مشرقة
ما زالت فى ناظرى أحب إلى

من أشعة الصبح الذهبية
يا عزيزتى مارى! (١٥٨)

وفى ١٧٩٤ ، حين أثقلته الهموم ، وأرهقه جهده فى ترجمة غير موفقة لهومر ، التاث عقله مرة أخرى ، فحاول الانتحار : ثم شفى ، وأعفاه من عيشة الضنك معاش حكومى قدره ٣٠٠ جنيه . ولكن مارى أنوين ماتت فى ١٧ ديسمبر ١٧٩٦ ؛ وشعر كوبر أنه ضائع مهجور رغم أنه وجد صديقة جديدة فى أخت تيودورا ، وهى الليدى هاريت كوبر هسكث . ولازمته المخاوف الدينية فى أيامه الأخيرة ، ثم قضى نحبه فى ٢٥ ابريل ١٨٠٠ بالغا الثامنة والستين .

وكان فى عالم الأدب ينتمى إلى الحركة الرومانتيكية وفى عالم الدين إلى الحركة الإنجيلية . وقد اختتم عصر سيادة بوب على الشعر ومهد لوردزورث ، وأدخل فى الشعر طبيعية فى الشكل وصدقاً فى المشاعر أوقف سيل الثنائيات المفتعلة الذى أطلقه « العصر الأوغسطى » على انجلترة . وكان دينه لعنة عليه لأنه صور له إلهاً منتقماً وجحيماً لاغفران فيه ، ومع ذلك فلعل الدين هو الذى دفع أولئك النسوة الرحيمات ، كما دفعتهن غرائز الأمومة ، إلى الحدب على هذا « الظبى الجريح » فى كل أحزانه وأفكاره السوداء .

٧ — أولفر جولدسمث

وكان « بل المسكين » هو أيضاً مآسيه ، غير أنها لم تعمقها عقيدة سادية ، وخففت منها انتصارات فى النثر والشعر وعلى خشبة المسرح .

كان أبوه خوريا انجليكانياً متواضعاً فى قرية إرلندية ، يكسب أربعين جنيهاً فى العام بإضافة الفلاحة إلى اللاهوت . فلما أن بلغ أولفر الثانية من عمره (١٧٣٠) رقى الخورى قسيساً لكيلكيني وست ، وانتقلت الأسرة إلى بيت يقع على طريق رئيسى قرب ليسوى ، التى غيرت فى تاريخ لاحق اسمها فى ضمير الشاعر إلى « أوبرن » حين نظم قصيدته « القرية المهجورة » .

والتحق جولدسمث بالمدرسة الأولية تلو المدرسة ، وكان أنصع ذكريات أيامه المدرسية تلك ذكرى أمين امدادات سابق فى الجيش تحول معلماً ، ولم يستطع قط أن ينسى حروبه ، ولكنه كان إلى ذلك يروى لتلاميذه القصص الساحرة عن الجان وأرواح المنذرات بالموت والعفاريت . وحين بلغ

الصبي التاسعة أشرف على الموت من الجدري ، وزاد هذا المرض على ذلك تشويهاً ابتلي به وجه من أقل الوجوه حظاً من الوسامة وهب لروح لطيفة محببة . وفي الخامسة عشرة التحق بكلية ترنتي في دبلن طالباً معانا ، يرتدي ثوباً يميزه ، ويؤدي خدمات حقيرة ، ويلاحقه معلم مستبد بمضايقاته . فهرب إلى كورك ، مزمعاً أن يحاول الرحلة إلى أمريكا ، غير أن أخاه الأكبر منه « هنري » أدركه ولاطفه فاقتنع بالعودة إلى الكلية . وتفوق أولفر في الدراسات الكلاسيكية ، غير أن دراسة العلوم استعصت عليه ، ولكنه على أي حال أفلح في نيل درجة البكالوريوس .

ثم تقدم بطلب لوظيفة كنسية صغيرة ، ولكنه أدهش الأسقف بما ارتداه من سراويل قرمزية واشتغل معلماً خاصاً بعد أن رفض طلبه ، وتشاجر مع تلميذه ، ويمم ثانية شطر كورك وأمريكا . فتدخل في الأمر عم له أقرضه خمسين جنيهاً ليذهب إلى لندن ، وخسر أولفر المبلغ كله في بيت للقمار . وقد أفزع أقرباءه لما لحظوا فيه من عجز وقلة حيلة ، ولكن سحرهم مرحه ونايه وأغانيه . وجمع له بعض المال للإنفاق على دراسته الطب في إدنبره ثم في ليدن . وقد حقق بعض التقدم ، ويقص علينا أنه كان في باريس يختلف إلى محاضرات روويل في الكيمياء . ثم انطلق على مهل (١٧٥٥) يتجول في أنحاء فرنسا ، وألمانيا ، وسويسره ، وشمالي إيطاليا ، يعزف على نايه في المراقص الريفية ، ويظفر بوجبات طعام كيفما اتفق له ، ويتلقى الصدقات على أبواب الأديرة[١٥٩] . ثم عاد إلى انجلتره في يناير ١٧٥٦ ومارس الطب في لندن ، وصحح تجارب الطبع لصموئيل رتشردسن ، واشتغل معلماً بمدرسة في صري ، ثم استقر في لندن كاتباً مأجوراً يقوم بأشتات من الأعمال الأدبية غير المنتظمة ويكتب المقالات للمجلات . وقد كتب في أربعة أسابيع « حياة فولتير » . وفي ١٧٥٩ أقنع ددسلي بأن ينشر كتاباً سطحياً اسمه « تحقيق في أحوال الثقافة الراقية في أوربا » . وقد أساءت تعليقات التحقيق حول مديري المسارح إلى جاريك إساءة لم ينسها قط . وزعم هذا التحقيق أن عصور الأدب الخلاق تنحو إلى أن تتلوها عصور نقد ، وتستنبط قواعد من أعمال المبدعين ، وتنزع إلى تقييد أسلوب الشعراء الجدد وتعويق خيالهم . وقد رأى جولدسمث أن أوربا كانت تمر بهذه الحال في ١٧٥٩ .

وبعد عام كتب لصحيفة نيوبرى « بيلك لدجر » بعض « الرسائل الصينية » التى أعيد نشرها فى ١٧٦٢ بعنوان « مواطن العالم » . أما خطتها فقديمة : فهى تصور رحالة شرقياً يروى أساليب عيش الأوربيين فى ضحك واشمئزاز شديد ، فنرى « لاين تشى ألتانجى » يصف فى رسائله إلى صديق له فى وطنه « أوربا مسرحاً فوضوياً للجشع والطمع والدسائس . وقد نشر جولدسمث الكتاب غفلا من اسمه ، غير أن أهل فليت ستريت (شارع الصحافة) تبينوا أسلوبه فى اللغة البسيطة ، والأوصاف النابضة بالحياة » والنبرة اللطيفة المحببة ، فلما أحس بشهرته انتقل إلى مسكن أفضل فى رقم ٦ بشارع واين أوفس كورت . وكان قد أطرى جونسن فى « الرسائل الصينية » فجرؤ الآن على دعوة واضع المعجم إلى العشاء (وكان يسكن على جانب الطريق المقابل) . وحضر جونسن ، وبدأت من يومها صداقتهما المديدة (٣١ مايو ١٧٦١) .

وحدث فى يوم من أيام أكتوبر ١٧٦٢ أن تلقى جونسن رسالة عاجلة من جولدسمث يطلب فيها العون . فأرسل إليه جنيهاً ، وحضر بعد قليل ، فوجد أن جولدسمث يوشك أن يقبض عليه لعدم دفعه أجرة مسكنه : وسأل جونسن صديقه إن كان لديه شىء ذو قيمة يرهنه أو يبيعه . فأعطاه جولدسمث مخطوطاً عنوانه « قسيس ويكفيلد » . ويقول جونسن [١٦١] . إنه طلب إلى صاحبة الدار أن تنتظر ، وقدم القصة إلى الكتبى جون نيوبرى « وباعها له بستين جنيهاً . ثم دفع بالنقود إلى جولدسمث ، فسدد هذا الإيجار واحتفل بهذه المناسبة بزجاجة من النبيذ . واحتفظ الكتبى بالمخطوط أربع سنين دون أن ينشره » .

وفى ديسمبر ١٧٦٤ طلع جولدسمث بأول قصائده الكبرى « الرحالة أو إطلالة على المجتمع » وقد استعاد فيها جولاته فى القارة ، ووصف ما فى كل قطر من نقائص وفضائل » ولاحظ أن كل بلد يحب نفسه خير بلاد الله . وفاخر بقوة انجلترة (التى كانت قوتها قد انتصرت فى حرب السنين السبع) . ووصف أعضاء البرلمان بهذين البيتين :

انى أشهد سادة الجنس البشرى يمرون
وفى مشيتهم شموخ ، وفى عيونهم تحد ؛

ولكنه أنذر بأن الجشع يلوث الحكم البريطانى ، وأن الحظائر المسيجة « المنبثة بأنانية الأغنياء » تفقر طبقة الفلاحين وتدفع أبناء انجلترا الشداد للهجرة إلى أمريكا . وكان قد أطلع جونسن على المخطوط « فأضاف أبياتاً ستة معظمها قرب الخاتمة » استخف فيها بتأثير السياسة على سعادة الفرد ، وأطرى المباهج البيتية البسيطة .

وقد أدهش نجاح القصيدة جميع الناس عدا جونسن الذى أعانها بتقريظ أذاعه وقال فيه « انه لم تنشر قط قصيدة بهذا الجمال منذ أيام بوب »[١٦١] وهو قول تجاهل الشاعر جراى . وجنى الناشر ربحاً طيباً من الطبقات المعادة ، ولكنه لم ينقد الشاعر غير عشرين جنيهاً . وانتقل جولدسمث إلى مسكن أفضل فى « التمبل » ، واشترى ثياباً جديدة ظهر فيها بسراويل أرجوانية « ومعطف قرمزى ، وشعر مستعار ، وعصا » ثم استأنف فى مظهره الوقور هذا مهنة التطبيب . غير أن التجربة لم يحالفها التوفيق ، ثم رده نجاح « قسيس ويكفيلد » إلى حظيرة الأدب ثانية .

ذلك أن الكتبى الذى كان قد اشترى المخلوط من جونسن أحس أن شهرة جولدسمث الجديدة ستكون معواناً على تقبل القراء لهذه القصة الغريبة . وقد صدرت فى طبعة صغيرة فى ٢٧ مارس ١٧٦٦ ، فبيعت الطبعة فى شهرين « وبيعت طبعة ثانية فى ثلاثة أشهر أخرى » ولكن المبيع من القصة لم يغط نفقات الناشر إلا عام ١٧٧٤ . وفى تاريخ مبكر (١٧٧٠) زكاها هردرلجوته ، الذى رأى فيها « قصة من أفضل ما كتب من قصص إلى الآن »[١٦٢] . وأمن ولتر سكوت على هذا الرأى[١٦٣] . أما واشنطن ايرفنج فقد تعجب من أن عزبا حرم الحياة الأسرية منذ طفولته استطاع أن يرسم « ألطف وأحب صورة للفضيلة الأسرية وكل ما يحبب الناس فى الحياة الزوجية »[١٦٤] . ولعل حرمان جولدسمث من الحياة الأسرية هو الذى حداه إلى أن يضفى على البيت هذه الصفات المثالية ، ولعل حياة العزوبة التى كان يحياها على مضض هى التى جعلته يتسامى بصفات الشباب من النساء ، ولعل غرامياته المجهولة هى التى دفعته إلى الإعلاء من قدر عفة المرأة لأنها أثمن من الحياة . وقد أمدته ذكرياته الحبيبة عن أبيه وأخيه

بصورة الدكتور برمروز ، الذى كان بوصفه « قسيساً ، ومزارعاً ، ورب أسرة . . . يجمع فى ذاته أعظم ثلاث شخصيات على هذه الأرض»[١٦٥] . وقد عادت جولاته هو تظهر فى شخص الإبن جورج ، الذى ختم رحلاته كما ختم جولدسمث نفسه كاتباً مأجوراً فى لندن . ان القصة بعيدة التصديق ، ولكنها ساحرة .

وسرعان ما نفدت حصيلة « الرحالة » و « قسيس ويكفيلد » ، ولاغرو فقد كان جولدسمث متلافاً لا يستقر المال فى يده لحظة ، يعيش دائماً فى المستقبل . وقد تطلع بعين الحسد إلى الشهرة والمال اللذين قد تأتى بهما مسرحية ناجحة فرصد قلمه لاقتحام هذا الميدان العسير من ميادين الأدب ، وسمى ثمرة جهده « الرجل الطيب» وعرضه على جاريك . وحاول جاريك أن ينسى التعليقات المهينة التى كتبها جولدسمث عنه من قبل ، ووافق على أن يخرج المسرحية . ولكنها كانت تسخر من الكوميديات العاطفية ، وهذه الكوميديات هى التى درت على جاريك الربح الوفير . فاقترح إدخال بعض التغييرات على المسرحية ، ولكن جولدسمث رفضها . ونقد جاريك المؤلف مقدماً أربعين جنيهاً ، ولكنه تباطأ تباطؤاً شديداً حمل المؤلف المتهور على عرض المخطوط على منافس لجاريك هو جورج كولمان الذى كان يدير مسرح الكوفنت جاردن . وانتقص ممثلو كولمان من قدر المسرحية ، ولكن جونسن أيدها تأييداً قوياً ، وحضر بروفاتها ، وكتب المقدمة التى تلى قبيل العرض . وعرضت أول مرة فى ٢٩ يناير ١٧٦٨ ، واستمر عرضها عشر ليال ، ثم سحبت باعتبارها ناجحة نجاحاً متوسطاً ، ومع ذلك بلغ صافى ما حصله المؤلف منها ٥٠٠ جنيه .

فلما أن جرى المال فى يد جولدسمث عاماً انتقل إلى شقة جميلة فى بريك كورت مخالفاً نصيحة جونسن ، وأثثها تأثيثاً ممتازاً اضطره إلى العودة للكتابة المأجورة ليغطى نفقاته . وأخرج الآن كتباً شعبية فى التاريخ — تاريخ روما ، واليونان ، وانجلتره . و « تاريخاً للطبيعة الحية » — وكلها فقير فى الدرس أثراه النثر الرشيق . وحين سأله بعضهم لم كتب كتباً كهذه أجاب

بأنها أعانته على قوته ، بينما أفضى به الشعر إلى التضور جوعاً . ومع ذلك ففى ٢٦ مايو ١٧٧٠ طلع على القراء برائعته « القرية المهجورة » التى نقد عنها مائة جنيه — وهو ثمن طيب فى ذلك العهد لقصيدة لا تجاوز سبع عشرة صفحة طولا . وقد نفدت منها أربع طبعات فى ثلاثة أشهر .

أما موضوعها فهجر الزراع الريف بعد أن أفقدتهم الحظائر المسيجة أرضهم . وقد رسمت صورة لقريته :

أى أوبرن الحلوه ! يا أجمل قرى السهل ،
حيث يقر الفلاح الكادح عينا بالعافية والخير الوفير

وخلعت القصيدة كل الألوان الوردية التى حلم بها خيال جولدسمث الحضرى على رخاء الفلاح الذى زعم أنه سبق هذه الحظائر المسيجة . وصف المناظر الريفية ، والأزهار المختلفة ، « والكوخ الظليل » والمزرعة المحروثة » ورياضات القرية ومراقصها ، و « العذراء الخجول » والصبى المغمز » والأسر السعيدة التى تسودها التقوى والفضيلة . ثم عاد يرى أباه يعظ كنيسة كيلكيني وست :

كان رجلا عزيزاً على الناحية كلها
يعيش فى رغد بأربعين جنيهاً فى العام —
وهو مبلغ كفاه لأن يطعم الشريد ،
وينقذ المتلاف ، ويؤوى الجندى المحطم ،
ويفتقد المرضى ، ويواسى المحتضرين .
كانت نظراته فى الكنيسة تجمل المكان الوقور
وهو يلقيها فى لطف ورقة دون افتعال ؛
ويخرج الحق من شفتيه قوياً جباراً ،
فيمكث الجهال ليصلوا بعد أن جاءوا ليستهزئوا ! .

أما معلم المدرسة الذى أدب الشاعر فى طفولته فقد تحول فى ذكرياته إلى مدرس « صارم الطلعة » .

ومع ذلك كان رحيماً ، فإذا عنف فى شيء

فلأن المحبة التى يكنها للعلم كانت خاطئة

ثم كان بارعاً فى الجدل باعتراف القسيس »

فهو يواصله ولو كان مغلوباً

وكان بألفاظه الطويلة البليغة المرعدة

يبهر الريفيين الملتفين حوله محدقين

وتحديقهم يطول ، وعجبهم يشتد ،

لأن رأساً واحداً صغيراً حوى كل علمه .

وخيل لجولدسمث أن هذا الفردوس دمرته الحظائر المسيجة ، فاستحالت مزرعة الفلاح إلى أرض للرعى ،وفرت أسر الفلاحين إلى المدن أو المستعمرات ، وأخذ يجف ذلك النبع الريفى الذى تنبثق منه الفضيلة الصادقة .

الويل لبلد يتكدس فيه المال ويفسد الرجال »

فهو فريسة لشرور وآفات لن تمهله طويلا

أما وقد كتب جولدسمث خير قصيدة جاد بها جيله ، فقد عاد الآن إلى الدراما . وفى ١٧٧١ عرض كولمان كوميديا جديدة سماها « تمسكنت فتمكنت» وتباطأ كولمان كما تباطأ جاريك من قبل » حتى تدخل جونسن فى الأمر وأمر المدير تقريباً بإخراج التمثيلية . وكتب جاريك مقدمتها بعد أن تصالح مع جولدسمث . وبعد شدائد وضيقات كادت تحطم روح المؤلف » أخرجت المسرحية فى ١٥ مارس ١٧٧٣ . وحضر جونسن ورينولدز وغيرهما من الأصدقاء حفلة الافتتاح وكانوا أول المصفقين . أما جولدسمث نفسه فكان أثناء ذلك يتجول فى حديقة سانت جيمس على غير هدى » إلى أن عثر عليه بعضهم وأكد له أن مسرحيته لقيت نجاحاً عظيماً . وقد طال عرضها » وجاءته الحفلات التى خصصت حصيلتها له بعام من الرخاء .

وكان قد ارتقى الآن بنفسه إلى مكانة لا يعلو عليه فيها سوى جونسن بين كتاب العصر الانجليزى ، بل لقد حقق الشهرة خارج وطنه . وكان شخصية قائده فى « النادى » ، وجرؤ على مخالفة جونسن مراراً . وذات مرة والحديث يدور حول قصص الحيوان الخرافية ، لاحظ أن من العسير

جداً أن تجعل السمك يتكلم كالسمك ، ثم قال لجونسن « وليس هذا بالأمر اليسير كما تحسبه ، لأنك لو شئت أن تجرى الكلام على ألسنة السمك الصغير لتكلم كله كما تتكلم الحيتان »[١٦٦] . وكان « الدب الأكبر » يخمشه ببراثنه أحياناً فى قسوة » ولكنه أحبه رغم ذلك ، وقد رد جولدسمث المحبة بمثلها رغم حسده جونسن على تفوقه فى فنون الحديث . ولم يكن جولدسمث قد نظم معارفه ورتبها قط ، ولم يكن فى استطاعته الرجوع إليها بسرعة أوذكاء » قال جاريك « كان يكتب كما يكتب الملاك » ويتحدث كما يتحدث بل المسكين »[١٦٧] . أما بوزويل فكان ينزع إلى الغض من قدر جولدسمث » ولكن كثيراً من معاصريه — كرينولدز ، وبيرك ، وولكس ، وبرسى — احتجوا على هذا الغض لما فيه من ظلم[١٦٨] . وقد لوحظ أن جولدسمث كثيراً ما كان يحسن الحديث فى الاجتماعات التى يغيب عنها جونسن[١٦٩] .

وكانت لهجته فى الحديث » وعاداته ، ومظهره — كلها تعاكسه . فهو لم ينس قط لهجته الأرلندية . وكان شديد الأهمال لهندامه ، يلهو أحياناً يلبس الملابس الزاهية المتعددة الألوان المتناقضة المظهر . وكان مغروراً مزهواً بما حصل من ألوان الثقافة » ولم يعترف بتفوق جونسن عليه كاتباً ، وكان طوله خمسة أقدام وخمس بوصات ، وقد غاظه طول جونسن وضخامته » وكانت طبيعته الطيبة تشرق من خلال وجهه القبيح . والصورة التى رسمها له رينولدز لم تخلع عليه جمالا ، فهنا شفتان غليظتان ، وجبين متراجع ، وأنف ناتىء ، وعينان قلقتان . وقد زاد الرسامون الكاريكاتوريون أمثال هنرى بنبرى فم أولفر اتساعاً وأنفه طولا ، ووصفته صحيفة « اللندن باكت» بأنه أورانجوتان[١٧٠] » وسرت فى المدينة عشرات القصص عن أخطائه الفاضحة فى حديثه وسلوكه ، وعن حبه المستور للحسناء مارى هورنك .

أما أصدقاؤه فكانوا عليمين بأن عيوبه سطحية » تخفى روحاً من الود ، والمحبة ، والكرم الذى كاد يدمر صاحبه » وحتى بوزويل وصفه بأنه « أعظم من وجد من الرجال سماحة قلب » أما وقد أتيح له الآن قدر كبير من الذهب مما غلته مسرحياته الفكاهية » فإن جميع المعوزين يعتمدون عليه »[١٧١] . فإذا لم يعد لديه من المال ما يعطيه اقترض ليسد مطالب الفقراء

اللذين التمسوا العون منه[١٧٢] . وقد رجا جاريك (الذى لم يكن قد استرد منه جنيهاته الأربعين) أن يقرضه مئتين جنيهاً على ذمة مسرحية أخرى ، فوافاه بالمبلغ . وبلغت ديون جولدسمث عند موته ٢٠٠٠ جنيه . وتساءل جونسن « هل وجد قط فقير أولاه الناس هذه الثقة من قبل ؟ »[١٧٣] .

وفى ١٧٧٤ ، بينما كان على وشك الذهاب إلى أحد الأندية العديدة التى انتمى إليها ، أصابته الحمى . فأصر على أن يصف لنفسه الدواء ، ناسياً نصيحة بوكليرك بأنه ينبغى ألا يصف الدواء إلا لأعدائه ، وتناول عقاراً مسجلا ، فساءت حاله . ودعى طبيب لعيادته ، ولكن وقت إنقاذه كان قد فات . وقضى نحبه فى ٤ ابريل غير متجاوز الخامسة والأربعين . والتف حول جثمانه حشد من الباكين ، وكانوا رجالا ونساء بسطاء يكادون يعتمدون فى قوتهم على صدقاته . ودفن فى فناء كنيسة « التمبل » ولكن أصحابه أصروا على أن يقام له نصب تذكارى فى وستمنستر آبى . ونحت نولكنز التذكار وكتب جونسن القبرية . وكان خيراً منها السطور التى كتبها الشاعر فى مسرحية « الرجل الطيب » إذ يقول « ما أشبه الحياة فى أعظم حالاتها وأفضلها بطفل شقى لابد من ملاطفته ومسايرته قليلا حتى ينام ، ثم ينتهى كل الهم والقلق »[١٧٦]

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

صموئيل جونسن

١٧٠٩ – ٨٤

---

١ – النشأة المشوهة

١٧٠٩ – ٤٦

لقد كان نسيج وحده ، ومع ذلك كان نموذجياً : فهو يختلف عن أى انجليزى فى زمانه ، ومع ذلك فهو خلاصة لجون بول جسداً وروحاً . يبزه معاصروه فى جميع الميادين الأدبية (خلا تصنيف المعاجم) ومع ذلك فهو يسود عليهم جيلا بأسره ، ويملك عليهم دون أن يرفع شيئاً إلا صوته .

ولنلم الآن إلمامة سريعة بالضربات التى طرقته لتشكل طابعه الفريد . فلقد كان أول طفل ولد لمايكل جونسن ، الكتبى ، والطباع ، وتاجر الأدوات الكتابية فى لتشفيلد ، على ١١٨ ميلا من لندن . أما أمه فترق أرومتها إلى قوم بهم أثارة من نبالة . وكانت تبلغ السابعة والثلاثين حين تزوجت فى ١٧٠٦ مايكل البالغ من العمر خمسين عاما .

وكان صموئيل غلاماً عليلا ، بلغ من ضعفه حين ولد أنه عمد للتو مخافة أن يكون مأواه الأبدى – ان مات بغير عماد – فى الاعراف ، مدخل الجحيم الكئيب . وسرعان ما بدت عليه إمارات « داء الملك » (الخنازيرى) . فلما أن بلغ ثلاثين شهراً أخذته أمه رغم أنها حامل فى ولدها الثانى فى الرحلة الطويلة إلى لندن لكى « تلمسه الملكة ليبرأ من الخنازيرى» وصنعت الملكة قصاراها ولكن المرض كلف جونسن الاكتفاء بعين واحده وأذن واحدة ، وشارك غيره من البلايا فى تشويه وجهه[1] . على أنه اشتد رغم ذلك عضلا

وهيكلا . ودعمت قوته كما دعمت ضخامته تلك النزعة الاستبدادية التى أحالت جمهورية الأدب إلى ملكية كما شكا جولدسمث . وقد ذهب صموئيل إلى أنه ورث عن أبيه « ذلك المزاج السوداوى الكريه الذى جعلنى مجنوناً طوال حياتى ، أو على الأقل غير متزن »[٢] . ولعل لوهمه المرضى أساساً دينياً لا بدنياً فقط ، كما كان الشأن مع كوبر ، فلقد كانت أم جونسن كلفنية راسخة تؤمن بأن الهلاك الأبدى قاب قوسين منها . وقد قاسى صموئيل من رهبة الجحيم إلى يوم مماته .

وعن أبيه أخذ مبادىء المحافظين ، والميول الاستيوارتية ، والشغف بالكتب . فكان يقرأ بعضهم فى مكتبة أبيه ، وقد قال لبوزويل فيما بعد ، «كنت فى الثامنة عشرة أعرف تقريباً قدر ما أعرفه الآن »[٣] . وبعد أن نال حظاً من التعليم الأولى انتقل إلى مدرسة لتشفيلد الثانوية ، وكان فى ناظرها « من الضراوة ما جعل الآباء الذين تعلموا على يديه يأبون إرسال أبنائهم إلى مدرسته »[٤] . على أنه حين سئل فى كبره كيف أتيح له أن يتمكن من اللاتينية على هذا النحو أجاب «كان معلمى يحسن ضربى بالسوط . ولولا ذلك يا سيدى لما أفلحت فى شىء»[٥] . وقد أعرب فى شيخوخته عن أسفه لإهمال العصا . « فى مدارسنا الكبرى اليوم يجلدون التلاميذ أقل مما كانوا يجلدونهم فى الماضى ، ولكن ما يتعلمونه فيها أقل ، فهم يخسرون فى طرف ما حصلوه فى الطرف الآخر»[٦] .

وفى ١٧٢٨ أتيح لأبويه من الموارد ما يسر لهما إرساله إلى اكسفورد ، وهناك راح يلتهم الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ويزعج معلميه بعصيانه وتمرده . وفى ديسمبر ١٧٢٩ عجل بالعودة إلى لتشفيلد ، ربما لنفاد مال أبويه ، أو لأن وهمه المرضى قد قارب الجنون قربا أحوجه إلى العلاج الطبى . وعولج فى برمنجهام ؛ ثم ساعد أباه فى متجره بدلا من العودة إلى أكسفورد . فلما أن مات الأب (ديسمبر ١٧٣١) اشتغل صموئيل مدرساً مساعداً فى مدرسة بماركيت بوزوبرث . وسرعان ما مل هذا العمل بعد قليل ، فانتقل إلى برمنجهام ، وسكن مع كتبى ، وكسب خمسة جنيهات بترجمة كتاب

عن الحبشة ، وكان هذا مرجعاً بعيداً لقصته « راسيلاس » . وفي ١٧٣٤ قفل إلى لتشفيلد حيث كانت أمه وأخوه يواصلان العمل في المتجر . وفي ٩ يوليو ١٧٣٥ ، قبل أن يتم السادسة والعشرين بشهرين « تزوج إلزابث بورتر » وكانت أرملة في الثامنة والأربعين لها ثلاثة أطفال وتملك ٧٠٠ جنيه . وبمالها هذا افتتح مدرسة داخلية في إديال القريبة منه . وكان من تلاميذه ديفد جاريك ، أحد صبية لتشفيلد . ولكن لم يكن هناك ما يكفي لاستمالته إلى مهنة التعليم ، وكان التأليف يختمر في باطنه . فكتب مسرحية سماها « أيريني » . وبعث بكلمة لأدورد كيف محرر « مجلة الجنتلمان » يشرح كيف يمكن تحسين تلك المجلة . وفي ٢ مارس ١٧٣٧ انطلق إلى لندن مع ديفد جاريك وجواد واحد . ليبيع مأساته ويشق لنفسه طريقاً في العالم القاسي .

على أن مظهره كان يعاكسه . كان نحيلا طويلا ، ولكن كان له هيكل ناتىء العظام يجعله كتلة من الزوايا . وكان وجهه مبقعاً بندوب الداء الخنازيري تهيجه مراراً انقباضة تشنجيه ، وكان جسمه عرضة لانتفاضات مزعجة . وحديثه تؤكده حركات وإيماءات غريبة . وقد نصحه كتبي طلب عنده عملا بأن « يحصل على أنشوطة حمال ويحمل الحقائب »[٧] . والظاهر أنه تلقى بعض التشجيع من كيف ، لأنه في يوليو عاد إلى لتشفيلد وأتى بزوجته إلى لندن .

ولم يكن خلواً من المكر . فحين هوجم كيف في الصحف نظم جونسن قصيدة في الدفاع عنه وأرسلها إليه ، فنشرها كيف ، وكلفه بمهام أدبية ، وانضم إلى ددسلي في نشر قصيدة جونسن « لندن » (مايو ١٧٣٨) التي نقداه عشرة جنيهات ثمناً لها . وقد قلدت القصيدة في غير مواربة « الهجائية الثالثة » لجوفنال . ومن ثم أكدت الجوانب المؤسفة لمدينة لندن التي سرعان ما تعلم الكاتب أن يحبها ، كذلك كانت هجوما على حكومة روبرت ولبول ، الذي وصفه جونسن فيما بعد بأنه « خير وزير عرفته البلاد »[٨] . وكانت القصيدة من بعض نواحيها هجوماً غاضباً لشاب ظل غير واثق من قوت غده بعد أن قضى عاماً في لندن . ومن هنا بيته المشهور « ان الكفاية تصعد ببطء لأن الفقر يوهنها »[٩] .

فى أيام الكفاح تلك جرب جونسن قلمه فى كل لون من ألوان الأدب. كتب « سير العظماء » (١٧٤٠) ، ودبج مقالات شتى لمجلة الجنتلمان ، منها تقارير وهمية عن المناقشات البرلمانية . وكان نشر المناقشات البرلمانية محظوراً فى ذلك التاريخ ؛ فوقع كيف على حيلة ادعى بها أن مجلته إنما تسجل المناقشات فى « مجلس شيوخ مجنا ليليبوتيا » . وفى ١٧٤١ اضطلع جونسن بهذه المهمة . ومن المعلومات العامة التى اجتمعت له عن سير النقاش فى البرلمان ألف خطباً نسبها إلى شخصيات كانت أسماؤهم تصحيفاً لأسماء كبار المجادلين فى مجلس العموم[١٠] . وكان فى هذه التقارير من مظهر الصدق ما أوقع فى روع الكثير من القراء أنها تقارير حرفية ، واضطر جونسن إلى أن ينبه سموليت (الذى كان يكتب تاريخاً لانجلترة) إلى عدم الاعتماد عليها كتقارير حقيقية . وذات مرة عاق جونسن عن اطراء سمعه لخطبة نسبها إلى شاتام بقوله « هذه الخطبة كتبتها فى عليه بأكستر ستريت »[١١] . فلما أثنى بعضهم على حياد تقاريره اعترف قائلا « لقد أحسنت إنقاذ المظاهر إلى حد معقول ، ولكن حرصت على ألا يكون كلاب الهويجز هم الفائزين »[١٢] .

ترى كم كان أجره على عمله هذا ؟ لقد وصف كيف مرة بأنه « صراف بخيل » ، ولكنه صرح غير مرة بحبه لذكراه . وقد دفع له كيف تسعة وأربعين جنيهاً بين ٢ أغسطس ١٧٣٨ و ٢١ ابريل ١٧٣٩ ؛ وفى ١٧٤٤ قدر جونسن أن مبلغ خمسين جنيهاً فى العام « يفيض ولا ريب عن حاجات الحياة »[١٣] . غير أن الناس جروا على القول بأن جونسن كان يعيش فى تلك السنين فى فقر مدقع فى لندن . وقد اعتقد بوزويل أن « جونسن وسفدج بلغ بهما الأملاق أحياناً مبلغاً أعجزهما عن دفع إيجار مسكن ، فكانا يجوبان الشوارع ليالى بأكملها »[١٤] . وزعم ماكولى أن شهور الضنك تلك عودت جونسن قذارة الهندام و « شدة الشره » للطعام[١٥] .

وقد ادعى رتشرد سفيدج أنه ابن لأحد الأيرلات ، دون أن تقنع دعواه الناس ولكنه كان قد بات متبطلا لا يصلح لشىء حين لقيه جونسن فى ١٧٣٧ . وقد جابا الشوارع لأنهما أحبا الحانات أكثر مما أحبا مسكنيهما . ويذكر بوزويل « بكل ما يمكن من احترام ولياقة .» ،

أن سلوك جونسن بعد مجيئه إلى لندن ، ومعاشرته لسفدج وغيره ، لم يكن فيهما شديد الالتزام بالفضيلة ، في إحدى النواحي ، كما كان وهو أصغر سناً . وقد عرف عنه أن ميوله الغرامية كانت قوية عاتية إلى حد غير عادي . واعترف لكثير من أصدقائه أنه اعتاد أن يأخذ نساء المدينة إلى الحانات ، ويستمع إليهن وهن يروين سيرتهن . وباختصار يجب ألا نخفى أن جونسن ، كغيره من الرجال الطيبين الأتقياء الكثيرين (أكان بوزويل ذاكراً بنفسه وهو يقول هذا ؟) . . . لم يكن خلواً من النوازع التي كانت على الدوام « تشن حرباً على ناموس عقله » — وأنه في معاركه معها كان يهزم أحياناً »[١٦] .

وقد رحل سفدج عن لندن في يوليو ١٧٣٩ ومات في سجن المدنيين عام ١٧٤٣ . وبعد ذلك بعام أصدر جونسن « سيرة رتشرد سفدج » ، وهو كتاب وصفه هنري فيلدنج بأنه « قطعة من الأدب لا تقل أنصافاً وإجادة عن أي قطعة قرأتها من نوعها »[١٧] . وكانت هذه السيرة إرهاصاً بكتاب جونسن « سير الشعراء » (وقد ضمنت فيه) . ونشرت السيرة غفلا من اسم الكاتب ، ولكن سرعان ما اكتشف أدباء لندن أن جونسن كاتبها . وبدأ الكتبيون يرون فيه الرجل المؤهل لتصنيف قاموس للغة الانجليزية .

٢ — القاموس : ١٧٤٦ — ٥٥

كتب هيوم قبل ذلك في ١٧٤١ يقول « إنا لا نملك قاموساً للغتنا ، ولا نكاد نملك أجرومية متوسطة الجودة »[١٨] . وكان في هذا مخطئاً ، لأن نثانائيل بيلي كان قد أصدر في ١٧٢١ « قاموساً انجليزياً ايتمولوجيا جامعاً » ، وكان لهذا القاموس أسلاف قريبة الشبه بالمعاجم . ويبدو أن اقتراح تصنيف قاموس جديد جاء من روبرت ددسلي في حضور جونسن ، الذي قال أعتقد أنني لن أصطلع به »[١٩] . ولكن حين انضم كتبيون آخرون إلى ددسلي وعرضوا ١،٥٧٥ جنيهاً على جونسن ان التزم بالمهمة ، وقع العقد في ١٨ يونيو ١٧٤٦ .

وبعد إطالة الفكر وضع في أربع وثلاثين صحيفة « خطة لقاموس للغة

الانجليزية » وطبعها . ثم أرسلها إلى عدة أشخاص منهم اللورد تشسترفيلد ، الذي كان يومها وزيراً للدولة ، ومعها ثناء مشوب بالأمل على نبوغ هذا الأيرل فى الانجليزية وغيرها من ضروب المعرفة . ودعاه تشسترفيلد للحضور ، فذهب جونسن ، ونفحه الأيرل بعشرة جنيهات وكلمة تشجيع . ثم قصده جونسن ثانية بعد حين ، فأبقاه منتظراً ساعة ، غادر بعدها المكان غاضباً ، وطلق فكرة إهداء قاموسه إلى تشسترفيلد .

وشرع فى مهمته على هون ، ثم ازداد همة ونشاطاً ، لأنه كان ينقد أجره منجماً . وحين وصل إلى كلمة Lexicographer (المعجمى) عرفها بهذه العبارة «كاتب للقواميس . كادح لا يؤذى أحداً» وكان الرجاء يحدوه بإنجاز العمل فى ثلاث سنوات . فاستغرق منه تسعا . وفى ١٧٤٩ انتقل إلى جف سكوير ، المقابل لفليت‌ستريت ، واستأجر خمسة سكرتيرين أو ستة دفع من جيبه أجرهم ، وأقامهم بالعمل فى غرفة بالطابق الثالث . وقرأ أعلام كتاب القرن الواقع بين عامى ١٥٥٨ و ١٦٦٠ — ابتداء من ارتقاء إليزابث الأولى العرش إلى ارتقاء تشارلز الثانى ؛ فقد كان يعتقد أن اللغة الانجليزية بلغت فى تلك الحقبة أبعد شأوها ، وقصد أن يتخذ لغة الحديث الأليزابيثى — الاستيوارتى معياراً يرسى عليه قواعد الاستعمال الجيد للغة . وكان يضع خطاً تحت كل جملة يريد اقتباسها لإيضاح استعمال كلمة ما ، ودون فى الهامش الحرف الأول من الكلمة المراد تعريفها . وأصدر تعليماته لمعاونيه بأن ينسخوا كل جملة مخططة على جزازة منفصلة ، ويدخلوا هذه فى مكانها الأبجدى من قاموس بيلى ، الذى استعان به منطلقاً ومرشداً .

وخلال هذه السنين التسع اقتنص أجازات كثيرة من تعاريف قاموسه ، وكان أحياناً يستسهل نظم قصيدة عن تعريف لفظ . فنى ٩ يناير ١٧٤٩ نشر قصيدة من اثنتى عشرة صفحة عنوانها «بطلان الرغبات البشرية» ، وكانت كسابقتها «لندن» التى نظمها قبل عشر سنين تقليداً لجوفينال من حيث الشكل ، ولكنها عبرت بقوة هى قوته هو دون غيره . وقد ظل ساخطاً على فقره وعلى إهمال تشسترفيلد له :

فانظر أى شرور تعدو على حياة الأديب

الكدح ، والحسد ، والفقر ، والراعى المتفضل ، والسجن .
ثم ما أشد بطلان انتصارات المحارب !
تأمل تشارلز الثانى عشر ملك السويد :
ترك الاسم ، الذى كان يصفر لذكره وجه الدنيا ،
ليدل الناس على عبرة أو ليجمل قصة [٢٠] .

إذن فما أغبى الأمل فى طول العمر بينما نرى بطلان الشيخوخة وخديعتها وآلامها : كالعقل يشرد فى حكايات مكررة ، والحظ يهتز مع أحداث كل يوم ، والأبناء يتآمرون على الميراث ويتحسرون على تباطؤ الموت ، بينما « تغير أوصاب لا حصر لها على المفاصل ، وتضرب نطاقاً على الحياة ، وتضيق الخناق على هذا الحصار الرهيب » [٢١] . وما من سبيل للفرار من الآمال الباطلة والفناء المحقق إلا سبيل واحدة : هى الصلاة ، والإيمان بإله عنده الخلاص والثواب .

ومع ذلك كان لهذا المتشائم لحظات استمتع فيها بالسعادة . فنى ٦ فبراير ١٧٤٩ أخرج جاريك مسرحيته « أيرينى » . وكان حدثاً خطيراً فى نظر جونسن ، فاغتسل ، وشد على كرشه بصدرية قرمزية موشاة بمخرمات ذهبية ، وأزدهى بقبعة لها ذات الحلية ، وراح يرقب صديقه وهو يلعب دور محمد الثانى أمام السيدة كيبر التى لعبت دور أيرينى ، واستمر عرض المأساة تسع ليال ، وأتت لجونسن بحصيلة قدرها مائتا جنيه ، ولم تبعث بعدها قط ، ولكن ددسلى نقده مائة أخرى لقاء حق التأليف . وحقق الآن (١٧٤٩) من الشهرة والثراء ما أتاح له تأسيس ناد ، ليس هو « النادى » (Club) « الذى جاء بعد خمسة عشر عاماً ، بل « نادى آيفى لين » ، وهو اسم منقول عن الشارع الذى اعتاد فيه جونسن أن يلتقى فى حانة كنجز هد بهوكنز وسبعة أصحاب آخرين كل مساء ثلاثاء يأكلون البفتيك ويتبادلون الآراء المتحيزة . يقول جونسن « إلى هناك كنت أختلف دائماً » [٢٢] .

وكان فى كل ثلاثاء وجمعة ، من ٢١ مارس ١٧٥٠ إلى ١٤ مارس ١٧٥٢ ، يكتب مقالا صغيراً ينشره كيف تحت عنوان « الجوال » (رامبلر) ،

ويتقاضى على ذلك أربعة جنيهات فى الأسبوع . وكان المبيع من المقالات يقل عن خمسمائة نسخة ، وخسر كيف فى هذه المغامرة ، ولكنها حين جمعت فى كتاب طبع منه اثنا عشرة طبعة قبل وفاة جونسن . فهل نعترف بأننا لم نجد طرافة إلا فى عددين هما ١٧٠ و ١٧١[٢٣] ، وفيهما جعل جونسن مومساً تدل الناس على عبرة وتجمل قصة ؟ وقد شكا النقاد من إسراف الأسلوب والألفاظ فى الطول على الطريقة اللاتينية ، ولكن بوزويل ، فيما بين أوزاره ، وجد عزاء وراحة فى حض جونسن قراءه على التقوى[٢٤] .

وكان جونسن يعانى توتراً غير عادى فى تلك السنوات ، لأن ذهنه أرهقته التعاريف ، ومعنويته هبط بها تدهور حال زوجته . ذلك أن « تتى » راحت تهدىء آلام الشيخوخة والوحدة بالخمر والأفيون . وكثيراً ماكانت تقصى جونسن عن فراشها)[٢٥] . ونادراً ماكان يصطحبها حين يتناول طعامه خارج الدار . يقول الدكتور تيلر ، وكان يعرفهما معرفة وثيقة ، إنها « كانت البلاء الذى نكبت به حياة جونسن ، وكانت ثملة إلى درجة بشعة ، حقيرة من جميع الوجوه ، وكان جونسن يشكو مراراً . . . من وضعه مع زوجة كهذه »[٢٦] ، غير أن موتها (٢٨ مارس ١٧٥٢) أنساه عيوبها ، فبات مفتوناً بها بعد موتها فتنة أضحكت أصحابه . وأطرى فضائلها ، ورثى لوحدته ، ورجا أن تتشفع له عند المسيح[٢٧] . يقول بوزويل وهو يستحضر تلك الحقبة « لقد أخبرنى أنه كان عادة يخرج من داره فى الرابعة مساء ، وقل أن يعود إلا فى الثانية صباحاً . . . وكان منتجعه هو حانة ميتربفليت ستريت ، حيث كان يحب أن يطيل السهر »[٢٨] .

على أن جونسن كان يرهب الوحدة . ومن ثم فقد أتى بآنا وليمز إلى بيته فى جف سكوبر (١٧٥٢) ، وكانت شاعرة ولزية تكاد تفقد بصرها . ثم فشلت جراحة أجريت لعلاجها ، فكف بصرها تماماً . وقد مكثت مع جونسن حتى وفاتها (١٧٨٣) باستثناء فترات قصيرة تخللت هذه الفترة ، تشرف على إدارة البيت والمطبخ ، وتقطع شرائح الشواء — وتحكم على امتلاء الأقداح دون مرشد غير أصابعها . أما احتياجات جونسن الأخص فقد اتخذ لقضائها (١٧٥٣) خادماً زنجياً يدعى فرانك باربر ، ظل يلازمه

تسعة وعشرين عاما . وقد أدخله جونسن المدرسة ، وجهد ليجعلة يتعلم اللاتينية واليونانية ، وخلف له تركة لايستهان بها . واستكمالا لمقومات هذه المنشأة دعا جونسن طبيباً مهجوراً منبوذاً يدعى روبرت لفيت ليسكن معه (١٧٦٠) . وقد ألف ثلاثتهم بيتاً كثير الشجار ، ولكن جونسن كان شاكراً لصحبتهم .

وفي يناير ١٧٥٥ دفع بآخر فروخ « القاموس» إلى الطابع ، الذى حمدالله على قرب خلاصه من هذا العمل وهذا الرجل . ونمى إلى تشسترفيلد نبأ القاموس الوشيك الظهور ، وكان يأمل أن يصدره صاحبه بعبارة إهداء اه . وحاول أن يكفر عن قصر نظره في الماضي بمقالين كتبهما لإحدى المجلات يرحب فيهما بالأثر الأدبي المرتقب ، ويطرى جونسن أديباً يسره أن يرتضيه حكماً لايرد في استعمال الانجليزية الفصحى . غير أن المؤلف المعتز بكرامته أرسل إلى الأيرل (٧ فبراير ١٧٥٥) رسالة وصفها كارليل بأنها « نفخة بوق الحشر الذائعة الصيت التي أعلنت أن نظام رعاية الأدب يجب ألا تقوم له قائمة » :

سيدى اللورد :

أبلغني صاحب مجلة « ورلد » مؤخراً أن فخامتكم كاتب المقالين اللذين زكيا قاموسي لجمهور القراء . . . وإن تنويهكم بفضلي لشرف لا أدري كيف أستقبله أو بأى عبارات أعرب عن اعترافي به لقلة تعودى على أفضال العظماء .

سيدى اللورد ، لقد انقضت اليوم سبع سنوات منذ انتظرت في حجرتك الخارجية أو رددت عن بابك ، ورحت خلال هذه الحقبة أدفع عملى خلال مصاعب من العبث أن أشكو منها ، حتى بلغت به آخر الأمر حافة النشر ، دون أن تسدى إلى يد واحدة ، أو كلمة تشجيع واحدة ، أو ابتسامة عطف واحدة . ومثل هذه المعاملة لم أتوقعها ، لأنه لم يكن لى راع بتاتاً قبل ذلك .

أليس راعى الأدب يا سيدى اللورد ذلك الذى ينظر في غير اكتراث إلى رجل يصارع من أجل الحياة في الماء ، حتى إذا بلغ اليابسة أثقله بمساعدته ؟

إن الاهتمام الذى طاب لك أن تبديه نحو جهودى كان كريماً لو أنه جاء مبكراً ، ولكنه تأخر حتى أمسيت عديم الاكتراث له ، عاجزاً عن الاستمتاع به ، وحتى بت وحيداً لا أستطيع اشراك غيرى فيه ، معروفاً لا حاجة لى إليه . وأرجو ألا يعد من القسوة البالغة السخرية ألا أعترف بأفضال لم أتلق منها نفعاً ، أو أن أكره أن يعدنى الجمهور مديناً لراع بما مكنتنى العناية الإلهية من أن أؤديه لنفسى .

وإنى إذ مضيت بعملى هذا الشوط بقدر ضئيل جداً من الدين لأى راع للأدب ، فلن يفت فى عضدى أن أنهى العمل بقدر أضأل إن كان هذا القدر متاحاً ، ذلك أنى أفقت منذ أمد بعيد من حلم الأمل الذى كنت يوماً ما أعتز به فى اغتباط شديد .

وإنى يا سيدى اللورد

خادمكم المتواضع المطيع

صموئيل جونسن [٢٩] .

أما تعليق تشسترفيلد الوحيد على الرسالة فهو أنها «كتبت كتابة جيدة جداً» . وهى فى الحق آية من آيات نثر القرن الثامن عشر - بريئة تماماً من المشتقات اللاتينية التى كانت أحياناً تعوق أسلوب جونسن وتثقله . ولا بد أن كاتبها كان عميق الإحساس بها والتفكير فيها - لأنه تلاها على مسامع بوزويل من الذاكرة بعد ست وعشرين سنة[٣٠] ، ولم تنشر الرسالة إلا بعد موت جونسن . ولعل غيظه شوه حكمه على «رسائل تشسترفيلد لولده» بأنها - «تعلم أخلاقيات بغى ، وعادات معلم رقص»[٣١] .

وذهب جونسن إلى أكسفورد فى مطالع ١٧٥٥ ، من جهة ليرجع إلى المكتبات ، ومن جهة أخرى ليقترح على صديقه توماس وارتن أنه مما يعين على رواج القاموس أن يستطيع مؤلفه إضافة درجة جامعية إلى اسمه . ودبر وارتن الأمر ، وفى مارس خلعت على جونسن درجة أستاذ آداب فخرية . وهكذا صدر القاموس آخر الأمر ، فى مجلدين من القطع الكبيرة بلغا قرابة ٢,٣٠٠ صفحة ، وحدد له ثمناً أربعة جنيهات وعشرة بنسات . وفى ختام المقدمة أعلن جونسن أن .

« القاموس الانجليزى ألف بمساعدة ضئيلة من المثقفين ، ودون أى رعاية من العظماء ، ولم يؤلف فى هدوء العزلة الناعم ، ولا تحت الظلال الجامعية الوارفه ، بل فى غمار العناء والحيرة ، وفى جو المرض والحزن ، ولعله مما يكبح انتصار أصحاب النقد الخبيث أن يلاحظوا أنه إذا كانت لغتنا الانجليزية لم تحظ هنا بعرض كامل ، فعذرى أننى إنما فشلت فى محاولة لم تنجزها كمدرات البشر إلى الآن . . . لقد أطلت عملى حتى طوى القبر أكثر من كنت أبغى إدخال السرور إلى أفئدتهم ، وبات النجاح والإخفاق أصواتاً فارغة ، ومن ثم فإنى أطلقه فى هدوء لا يبالى ، إذ ليس هناك ما أخشاه أو أرجوه من اللوم أو المديح» .

وما كان فى الإمكان أن يتوقع من النقاد أن يدركوا أن قاموس جونسن عين قمة ، وخطاً فاصلا فى أدب القرن الثامن عشر الإنجليزى ، كما عينت موسوعة ديدرود الأمير (١٧٥١ — ٧٢) قمة ونقطة تحول فى أدب فرنسا . ولقد كان هناك ضحك كثير على عيوب عارضة فى عمل جونسن . فبين المواد التى بلغت أربعين ألفاً ألفاظ غريبة مثل gentilitious و sygilates (وهما لفظان يحتفظ بهما قاموس وبستر باحترام) . وحوى القاموس تعريفات غاضبة كتعريف كلمة « معاش » pension « مكافأة تمنح لإنسان بدون مقابل . والكلمة فى انجلتره تفهم عموماً على أنها تعنى راتباً يدفع لأجير للدولة نظير خيانته لوطنه » . أو كلمة excise (ضريبة الإنتاج) « ضريبة بغيضة على السلع » . ثم هناك نكت شخصية كما فى تعريف كلمة oats (الشوفان) « غلة تطعم بها الخيل فى انجلتره عادة ، ولكنها فى اسكتلنده يقتات بها الآدميون » — وكان هذا صحيحاً لا غبار عليه . وسأل بوزويل جونسن ان كانت المدنية civilization كلمة : فقال لا ، ولكن civility (الكياسة) [٣٢] . كلمة . . وكثير من « اتمولوجيات » جونسن (تتبع أصول الكلمات وتاريخها) يرفض اليوم ، فقد كان يعرف الكثير من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية ، ولكنه كان ضئيل العلم باللغات الحديثة . وقد اعترف صراحة أن « الاتمولوجيا » نقطة الضعف فيه[٣٣] . وقد عرف كلمة Pastern بأنها « ركبة الحصان » (وصحتها جزء من قدم الحصان) . وحين سألته سيدة كيف

حدث أنه وقع فى خطأ كهذا ؟ أجاب « الجهل يا سيدتى ، الجهل المطبق »[٣٤] ، ولم يكن فى استطاعته تجنب العثرات فى قاموس بهذه الضخامة كل صفحة فيه تفتح أبواباً كثيرة للزلل .

ولقد لقى إنجاز جونسن العظيم التقدير خارج وطنه . فأهدته الأكاديمية الفرنسية نسخة من قاموسها ، وأهدته أكاديمية ديللاكروسكا الفلورنسية قاموسها[٣٥] . وراج القاموس رواجاً أرضى الكتبيين ، فنقدوا جونسن أجر تجهيز طبعة مختصرة . وظل القاموس المطول قياسياً حتى حل محله « نوح ويستر» فى ١٨٢٨ . وقد وضع القاموس جونسن فى قمة المؤلفين الإنجليز فى عصره ؛ والواقع أن جونسن اكتسب سلطان الحكم الذى لا يرد له حكم فى الأدب الإنجليزى ، إذا استثنينا أدباء أرستقراطيين مثل هوراس ولبول . وهكذا بدأ حكم « خان الأدب الأكبر» *.

٣ — الحلقة المسحورة

على أنه لم يكن فوق الاعتقال بسبب الدين . ذلك أنه أنفق أجره الذى تقاضاه عن القاموس بالسرعة التى أتاه بها . ففى ١٦ مارس ١٧٥٦ كتب إلى صموئيل رتشرد سن يقول : « سيدى ، انى مضطر إلى طلب معونتك ، فأنا الآن مقبوض على لأنى مدين بخمسة جنيهات وثمانية عشر شلناً . . . فإذا تفضلت بموافاتى بهذا المبلغ رددته لك شاكراً ، مضيفاً إياه إلى كل أفضالك السابقة »[٣٦] . وأرسل إليه رتشرد سن ستة جنيهات . وكان يكسب قوته فى تلك الحقبة بتحرير المقالات للمجلات ، وبتأليف المواعظ بجنيهين للعظة لرجال الدين الذين لم يوهبوا القدرة الكبيرة على البيان ، وبجمع الاكتتابات مقدماً عن طبعة من مؤلفات شكسبير وعد بتحقيقها ، وبكتابه مقال أسبوعى لليونفرسل كرونكل (١٥ ابريل ١٧٥٨ إلى ٥ ابريل ١٧٦٠) (باسم « العاطل » وكانت هذه المقالات أخف روحاً من « الرمبلر » ، ولكنها مع ذلك أشد جداً وثقلا مما يحتمله القراء الذين يتحرون الجرى فى القراءة . وقد ندد مقال

(*) Cham, The Great Cham معناها خان ويبدو أن العبارة استعملها سمولت أولا ، فى رسالة إلى ويلكس مؤرخة ١٦ مارس ١٧٥٩ .

منها بتشريح الحيوان الحى ، وشهر آخر بسجون المدينين . ورثى المقال رقم ٥ لانفصال الجند عن زوجاتهم ، واقترح تأليف فرق من « الفارسات الخفاف » يقمن بأعمال التموين والتمريض ، ويرحن أزواجهن فيما عدا هذا ،

وفى يناير ١٧٥٩ بلغه أن أمه ذات التسعين ، التى لم يرها منذ اثنين وعشرين عاما ، مشرفة على الموت . فاقترض نقوداً من طابع ، وبعث إليها بستة جنيهات فى رسالة رقيقة . ووافاها الأجل فى ٢٣ يناير . ولكى يغطى نفقات جنازتها وديونها كتب فى أمسيات أسبوع واحد (فى رواية رينولدز) « تاريخ راسيلاس أمير الحبشة » وأرسله إلى الطابع جزءاً فجزءاً ، ونقد عنه مائة جنيه . فلما نشر فى ابريل رحب به النقاد أثراً من عيون الأدب ، وقارنوا بينه وبين قصة فولتير « كانديد » التى صدرت فى الوقت نفسه تقريباً وعالجت المشكلة ذاتها : أيمكن أن تأتى الحياة بالسعادة ؟ أما جونسن فلم يؤخر الجواب ، « يا من تستمعون وأحلام الأمل تراودكم ، وتتوقعون أن تحقق الشيخوخة وعود الشباب ، وأن الغد سيعوض عن نقائص اليوم ، انتبهوا لتاريخ راسيلاس »[٣٧] .

يقول جونسن أنه كان من عادة الملوك الأحباش أن يلزموا وريث العرش وادياً طيباً خصباً حتى يأتى الوقت لاعتلائه العرش . وكان يزود بكل شيء « يقصر ، وطعام طيب ، وحيوانات مدلله ، ورفاق أذكياء . ولكن راسيلاس يزهد فى هذه المباهج حين يبلغ السادسة والعشرين . فهو لايفتقد الحرية فحسب بل الكفاح أيضاً . « سأكون سعيداً لو كان أمامى هدف أسعى نحوه » . فيطيل الفكر فى كيفية الهروب من هذا الوادى المطمئن ليرى كيف يسعى غيره من الرجال إلى السعادة وكيف يجدونها .

ويقترح ميكانيكى حاذق أن يبنى آلة طائرة تحلق بهما فوق الجبال المحيطة إلى الحرية . ويشرح فكرته هكذا :

« ان الذى يستطيع السباحة يجب ألا ييأس من إمكان الطيران ، فالسباحة طيران فى سائل أكثف ، والطيران سباحة فى عنصر أخف . وما علينا إلا أن نحقق التناسب بين قوة مقاومتنا وكثافة المادة المختلفة التى نخترقها . فسيحملك الهواء بالضرورة إذا استطعت تحديد أى دفع يدفعه بأسرع مما

يستطيع الهواء أن يتراجع من الضغط . . وسيكون جهد الارتفاع عن الأرض شديداً . . ولكننا كلما ارتفعنا قلت جاذبية الأرض وثقل الجسم تدريجياً حتى نبلغ منطقة يطفو فيها الإنسان فى الهواء دون أى ميل للسقوط» .

ويشجع راسيلاس الميكانيكى ، فيوافق على صنع طائرة : «ولكن بشرط ، وهو ألا يفشى سر هذه الصنعة : وألا تلزمنى بأن أصنع أجنحة لسوانا» . ويسأله الأمير «ولم تضمن على غيرك بمثل هذه الفائدة الكبرى ؟» ويجيب الميكانيكى «لوكان الناس كلهم فضلاء لعلمتهم بغاية الخفة أن يطيروا . ولكن أى ضمان للأخيار إذا كان فى استطاعة الأشرار إن شاءوا أن يغزوهم من الجو ؟» ثم يصنع طائرة ، ويحاول الطيران ، فيسقط فى بحيرة ينقذه منها الأمير[٣٨] .

ويؤثر راسيلاس التحدث إلى الفيلسوف إملاك ، الذى شهد كثيراً من الأقطار والناس . ويجدان كهفاً يفضى إلى ممر يؤدى إلى العالم الخارجى ، ويهربان من فردوسهما مع أخت الأمير نكاياه وخادمتها . ثم يزورون القاهرة وقد تزودوا بالحلى عملة عالمية ، ويشاركون فى ملاهيها ثم يملونها ، ويستمعون إلى فيلسوف رواقى يتحدث عن قهر الشهوات ، وبعد أيام يعثرون عليه وقد برح به الحزن على موت ابنته . وإذ كانوا قد قرءوا الشعر الرعوى فقد افترضوا أن رعاة الغنم لا بد سعداء ، ولكنهم اكتشفوا أن هؤلاء الرجال «تقرحت سخطاً» و «حقداً وضغينة على من هم أعلى منهم مكانة»[٣٩] . ثم يقعون على ناسك ، فيتبينون أنه يتوق سراً إلى مباهج المدينة . ويستفسرون عن سعادة الحياة البيتية ، فيجدون كل بيت قد خيم عليه ظلام الشقاق و «الصدام القاسى بين الرغبات المتعارضة»[٤٠] . ويرتادون الأهرام ويحكمون عليها بأنها قمة الحماقة . ويسمعون عن الحياة السعيدة التى يحياها الدارسون والعلماء ، فيلتقون بفلكى مشهور ، يخبرهم أن «الأمانة بغير المعرفة ضعيفة عديمة الجدوى ، والمعرفة بغير الأمانة خطيرة رهيبة»[٤١] ، ولكن الفلكى يجن . وينتهون إلى أنه ما من طريق من طرق الحياة على الأرض يفضى إلى السعادة ، ثم يعزيهم إملاك بحديث عن خلود النفس ، ويعتزمون

العودة إلى الحبشة والرضى بتقلبات الحياة فى هدوء تحدوهم الثقة فى قيامة سعيدة .

وهى قصة قديمة تجسدت فى صورة من أبدع صورها . ويدهشنا ذلك التدفق الجميل والوضوح الذى يتميز به الأسلوب ، الذى بعد كل البعد عن الألفاظ الثقيلة التى نجدها فى مقالات جونسن بل حتى فى حديثه . ويبدو مستحيلا أن يكون المعجمى المتفقه هو كاتب هذه القصة البسيطة ، وأنه مما لا يصدق أن يكون قد كتب هذه الصفحات التى بلغت ١٤١ فى سبعة أيام .

وكان أثناء ذلك قد انتقل من جف سكوير إلى ستيبل إن (٢٣ مارس ١٧٥٩) ؛ وسرّاه بعد قليل وقد انتقل إلى جريز إن ، ثم إلى الأنر تمبل لين . والراجح أن هذه التنقلات كان دافعها الاقتصاد فى النفقة . ولكن فى يوليو ١٧٦٢ رفع جونسن فجأة إلى حالة من الثراء النسبى بفضل معاش سنوى قدره ٣٠٠ جنيه نفحه به جورج الثالث بناء على نصيحة اللورد بيوت . أما السبب فى أن هذه المنحة كانت من نصيب رجل كان قد عارض الأسرة الهانوفريه فى إصرار ، وسخر من الإسكتلنديين فى كل مناسبة ، ووصف المعاش بأنه «أجر يدفع لأجير للدولة نظير خيانته لوطنه» ، — هذا السبب دار حوله الكثير من قصص الأسرار . فاتهمه أعداؤه بأنه يؤثر المال على المبدأ ، وزعموا أن بيوت كان يبحث عن قلم جبار يرد على ولكس وتشرشل ، وغيرهما ممن كانوا يشوهون سمعته بكتاباتهم . وزعم جونسن أنه قبل المعاش على أساس صريح أكده بيوت مرتين ، هو ألا يطلب إليه أن يؤيد الحكومة بقلمه[٤٢] . وقد أسر إلى بوزويل بأن «لذة لعن بيت هانوفر ، وشرب نخب الملك جيمس ، ترجحها المئات الثلاث من الجنيهات فى العام رجحاناً كبيراً»[٤٣] . على أى حال فقد استحق المعاش أضعافاً مضاعفة ، لا عن الكراسات السياسية التى كتبها فى السنين اللاحقة ، بقدر استحقاقه إياه عن إثرائه الأدب الانجليزى بالقلم والحديث وبالحكمة والنكتة المطهرة .

وكان له من الأصدقاء عدد يكفى لتشتيت الأعداء . يقول « ان الصداقة هى الشراب المنعش الذى يعين المرء على ابتلاع جرعة الحياة المقززة »[٤٤]. وكان فى كل محفل تقريباً من المحافل التى يختلف إليها يصبح محور الحديث، لا لأنه شق طريقه بالقوة إليه ، بل لسبب أهم هو أنه كان أعظم شخصية متفردة فى حلقات لندن الأدبية . وكان فى استطاعة سامعيه أن يثقوا بأنه سيقول شيئاً كلما تكلم . ورينولدز هو الذى اقترح تأليف « النادى » الذى سماه بوزويل فيما بعد « النادى الأدبى » ، وأيد جونسن الاقتراح ، وفى ١٦ أبريل ١٧٦٤ بدأت الجماعة الجديدة لقاءاتها فى أمسيات الإثنين بحانة « تيركس هد » فى شارع جرارد بحى سوهو ، أما الأعضاء الأصليون فهم رينولدز ، وجونسن ، وبيرك ، وجولدسمث ، وكرستوفر نجنت ، وتوبهام بوكلرك ، وبنيت لانجتن ، وأنتونى كامين . والسرجون هوكنز . وأضيف إلى هؤلاء فيما بعد آخرون بتصويت الأعضاء : جبون ، وجاريك ، وشريدان ، وفوكس ، وآدم سمث ، ودكتور بيرنى . . .

ولم يظفر بوزويل بالعضوية إلا فى ١٧٧٣ ، وقد يكون بعض السبب أنه لم يكن يفد على لندن إلا لماما . ولم ينفق خلال السنين الإحدى والعشرين ، بين التقائه بجونسن ووفاة جونسن ، أكثر من عامين وبضعة أسابيع على قرب من معبوده . وكان فى حرارة إعجابه التى لم يخفها ، وفى علم جونسن بأن بوزويل يخطط لكتابة سيرته ، ما جعل أكبر الرجلين يغفر ما أبداه الاسكتلندى من مسلك يقرب من العبادة المتملقة . والمتكلم المجيد للكلام ، والمستمع المجيد للاستماع ، يؤلفان صاحبين سعيدين . ولم يكن جونسن شديد الاحترام لعقلية بوزويل . فحين قال « بوزى » ، كما كان يلقبه ، أن النبيذ الذى شربه أثناء تنديثهما أصابه بصداع ، قال جونسن مصححاً : لا يا سيدى ، ليس النبيذ هو الذى صدع رأسك ، بل المعنى الذى وضعته أنا فيه » . وقال بوزويل متعجباً « ماذا يا سيدى ! وهل يصدع المعنى الرأس ؟ » « نعم يا سيدى . إذا لم يكن معتاداً عليه »[٤٥] . (وفى « السيرة » فقرات يبدو فيها بوزويل يتكلم كلاماً معقولا عن كلام جونسن) . وفى معرض الثناء على ملحمة بوب عن المغفلين (الدنسياده) لاحظ جونسن أنها خلعت على بعض المغفلين ذكراً خالداً ، ثم واصل نكتته : « لقد كانت

الغفلة يومها أمراً جديراً بالاهتمام . . آه ، ياسيدى ، لو إنك عشت فى تلك الأيام ! »[٤٦] . ولكن الدب الشائخ لم يلبث أن تعلم أن يحب شبله . فقال له فى ١٧٦٣[٤٧] « قليل من الناس من آنس إليه أنسى إليك » ، وقال « ان بوزويل لم يغادر قط بيتاً دون أن يترك فيه رغبة فى عودته »[٤٨] . وفى ١٧٧٥ أعطى بوزويل حجرة فى مسكن جونسن لينام فيها حين يمتد بهما الحديث إلى ساعة متأخرة من الليل[٤٩] .

وفى ٣١ مارس ١٧٧٢ كتب فى يوميته : « إنى مصمم على كتابة سيرة المستر جونسن . وأنا لم أخبره بنيتى بعد ، ولا أدرى إن كان من واجبى أن أفعل » . ولكن جونسن علم بالأمر فى ابريل ١٧٧٣ إن لم يكن قبله[٥٠] . وعلم غيره به . وغاظتهم طريقة بوزويل فى إثارة مسائل جدلية بقصد واضح هو جر رجل الأديب العجوز والظفر بدرة جديدة للسيرة ، وافتخر الاسكتلندى الفضولى بأن « النبع كان أحياناً يسد حتى أفتح صنبوره »[٥١] ولعل جونسن الذى نعرفه ونستطيبه ماكان ليتجلى قط لولا أن حفزته إثارة بوزويل المفرطة ومطاردته التى لايعتريها الكلال . وشتان بين جونسن هذا وجونسن الذى نجده فى « السيرة » التى ألفها هوكنز ، أو حتى فى « النوادر » الرشيقة التى كتبتها مسز ثريل ! .

ويناير ١٧٦٥ هو تاريخ بداية صلة جونسن بأسرة ثريل ، وهى صلة لعبت فى حياته دوراً أكبر من صداقته لبوزويل . وكان هنرى ثريل صانع جعة ، وإبناً لصانع جعة ، أصاب حظاً طيباً من التعليم وجاب الأقطار ، ولم يكن يؤمن أن يشرف وضعه الاجتماعى بانتخابه عضواً فى البرلمان . وفى ١٧٦٣ تزوج هستر لنسن سولزبرى ، وكانت فتاة ولزية لا يتجاوز طولها خمسة أقدام ولكنها مرحة ذكية . واستغرق هنرى فى عمله وهو يكبرها بإثنى عشر عاماً ، ولكنه بذل لها من الاهتمام ما كفى لجعلها تحبل كل سنة بين ١٧٦٤ و ١٧٧٨ ، ولنقل عدوى مرضه السرى إليها[٥٢] . وولدت له اثنى عشر طفلا مات منهم ثمانية فى طفولتهم وراحت تسرى عن نفسها بالأدب ، فلما جاء زوجها إلى البيت بصموئيل جونسن الذائع الصيت سخرت كل فنون الأنثى وملاطفاتها لتربطه بالأسرة . وسرعان ما اعتاد أن

يتعشى مع آل ثريل كل خميس فى منزلهما بسوثوارك ؛ وكان منذ ١٧٦٦ ينفق معهما الصيف عادة فى فلتهم الريفية فى ستريتهام بمقاطعة صرى . وجعلت السيدة ثريل من بيتها صالوناً كان قطبه جونسن ؛ ورواده رينولدز وجولدسمث وجاريك وبيرك ، وآل بيرنى ، وأخيراً — بوزويل — مدفوعاً بالغيرة لأنه علم أن السيدة ثريل تجمع البيانات عن نظرات بطلها وعاداته وألفاظه . وهكذا قدر لـ « السيرة » أن يكون لها منافس .

٤ — الدب الأكبر

كيف كان « الدب الأكبر » يبدو ؟ كتب بوزويل عقب لقائهما الأول (١٧٦٣) يقول : « ان مستر جونسن رجل رهيب المنظر للغاية . . . رجل كبير الحجم جداً ، يشكو التهاب العينين ، والشلل الارتجافى (تقلص عصبى لا إرادى) والداء الخنازيرى وهو رث الهندام جداً ، ويتحدث بصوت غاية فى الخشونة »[٥٣] . ووصفته السيدة ثريل حين تقدم به العمر فقالت : « كانت قامته فارعة إلى حد ملحوظ ، وأطرافه غاية فى الكبر . . أما قسماته فمحددة تحديداً قوياً ؛ ووجهه مضرس جداً . . وكان فى إبصاره قصر ، وفيه غير ذلك قصور ، ومع ذلك كانت عيناه شديدتى الجموح ، والنفوذ ، والضراوة أحياناً ، حتى أن الخوف منه كان فى اعتقادى أول انفعال يبدو فى عيون ناظريه »[٥٤] .

وكان جونسن يأسف على الساعات التى يجلس فيها إلى مصور يصوره باعتبارها « وقتاً مضيعاً » ، ومع ذلك فعل هذا عشر مرات حين رسمه رينولدز ، ومرة حين صنع نولكنز له تمثالا نصفياً . وفى ١٧٥٦ أبرزه السر جوشوا بديناً ثقيل الحركة [٥٥] ؛ وفى ١٧٧٠ رسم له صورة جانبية وجعله يبدو شبيهاً بجولدسمث[٥٦] . وفى ١٧٧٢ أسلمته أشهر صوره للأجيال اللاحقة رجلا ضخماً صعب المراس ، له شعر مستعار هائل ، ووجه ممتلىء كبير ، وحاجبان هابطان فوق عينين حائرتين ، وأنف ضخم وشفتان غليظتان ، وذقن ملغد . . وكان شعره المستعار تزيحه غير مرة الحركات التشنجية التى تند عن رأسه وكتفيه ويديه [٥٧] . وكان مهمل الهندام .

وقد قال لبوزويل « إن الملابس الجميلة لا قيمة لها إلا من حيث سدها النقص فى غيرها من وسائل جلب الاحترام للابسها »[٥٨] . ولم يكن يعبأ كثيراً بالنظافة الشخصية إلى أن نزل ضيفاً على آل ثريل .

وكان يأكل بشراهة ليملأ فراغ جوفه الكبير . وربما لأنه لم ينس سنوات الجوع . قال بوزويل :

« لم أعرف قط رجلا أكثر منه تلذذاً بالأكل الطيب . كان إذا جلس إلى المائدة استغرقته مهمة اللحظة استغراقاً تاماً ، فبدت نظراته وكأنها سمرت على طبقه . وما كان ليفوه بكلمة واحدة ، ولا ليبدى أقل انتباه لما يقوله غيره — إلا أن يكون فى صحبة قوم رفيعى المقام جداً — حتى يشبع شهيته التى كانت شديدة الضراوة حتى . . . لتنتفخ لها عروق جبينه عادة ويتفصد عرقاً غزيراً ملحوظاً للناظرين »[٥٩] .

وكان يأكل السمك بأصابعه ، « لأننى أشكو قصر النظر ، وأخشى شوك السمك »[٦٠] . ولم يكن يطيق منظر الخضر . وكان فى الأيام التى تتعاظم فيها شهيته للطعام « يحب أن ينعش نفسه بالخمر . ولكنه لم يسكر قط غير مرة واحدة »[٦١] . وحين نددت المسز ولمز بالسكر قائلة « إنى لأعجب أى لذة يمكن أن يحس بها الرجال فى أن يجعلوا من أنفسهم حيوانات ؟ » أجاب على الفور « إنى لأعجب يا سيدتى أنك لاتملكين من نفاذ البصيرة ما ترين به الإغراء القوى لهذا الإفراط فى الشراب ، لأن من يجعل نفسه حيواناً يتخلص من الألم الذى يصيبه من كونه إنساناً »[٦٢] . ولكن السكر فى رأيه « لا يعين على الارتقاء بالحديث مع الناس ، فهو يغير العقل حتى ليسر المخمور بأى حديث »[٦٣] . ثم تجنب كل ألوان المسكر فى أخريات حياته ، وقنع بالكاكاو ، وعصير الليمون ، وأقداح الشاى التى لا حصر لها . ولم يدخن قط ، « إنه لأمر رهيب أن ننفث الدخان من أفواهنا فى أفواه غيرنا من الناس وفى عيونهم وأنوفهم ، وأن يفعل الناس بنا هذا الشىء ذاته » . وعلل عادة التدخين بأنها « تحفظ العقل من الخواء التام »[٦٤] .

وكانت عاداته الفظة من جهة أثراً خلفته الأيام والليالى التى قضاها فى قاع المجتمع ، ومن جهة نتيجة للمثيرات البدنية والمخاوف العقلية . لقد كان

قوياً ، فخوراً بقوته ، استطاع أن يصرع كتبياً دون أن يخشى رده للثأر لنفسه ، وأن ينتزع من مكانه رجلا جرؤ على احتلال كرسى أخلاه جونسن مؤقتاً ويطرحه جانباً ، وقد امتطى جواداً وصاحب ثريل فى رحلة صيد للثعالب عبر الريف امتدت خمسين ميلا . ولكنه وجد مشقة فى حمل بدنه الثقيل . « حين كان يسير فى الشوارع ، كان يبدو الدوران رأسه المتصل وما رافقه من حركة بدنه كأنه يشق طريقه بتلك الحركة مستقلا عن قدميه »(٦٥) . فإذا ركب « لم يملك زمام جواده ولا توجيهه حيث يشاء ، بل كان يحمل وكأنه فى بللون »(٦٦) .

وبعد ١٧٧٦ كان يعانى من الربو والنقرس والاستسقاء . ولا بد أن هذه الأمراض وغيرها من أوصاب البدن زادت مزاجه السوداوى حدة ، وكان أحيانا يصيبه بغم شديد حتى « أننى لأرضى بأن يبتر منى عضو استرد بعدها مرحى »(٦٧) ولم يكن ليؤمن بأن بين الناس إنساناً سعيداً ، ومرة قال عن رجل زعم انه سعيد « هذا كله هراء ، ان الكلب يعرف أنه تعس طوال الوقت »(٦٨) .

وبعد أن أخبره طبيب بأن الوهم المرضى يفضى أحياناً إلى الجنون ، خاف أن يلتاث عقله يوماً ما (٦٩) . وقد أجرى هذه العبارة على لسان إملاك فى قصة « راسيلاس » ، « أن أبشع الشكوك وأكثرها إزعاجاً فى حالتنا الراهنة هو الشك فى احتفاظنا بسلامة عقولنا »(٧٠) .

وإذا كان يشكو قصراً فى بصره فإنه لم يجد لذة تذكر فى تأمل جمال النساء أو الطبيعة أو الفن (٧١) . وكان رأيه فى النحت أن الناس غالوا فى تقديره : « ان قيمة النحت ترجع إلى صعوبته . فأنت لاتقدر أبدع رأس نحت فوق جزره . »(٧٢) . وقد حاول أن يتعلم العزف « ولكننى لم أفلح قط فى اخراج نغمة » . وسأل مرة « قل لى بربك ياسيدى من يكون باخ هذا ؟ أزمار هو؟ »(٧٣) — مشيراً إلى يوهان كرستيان باخ ، وكان يومها (١٧٧١) أشهر عازف على البيان فى انجلتره . وأحس أن الموسيقى تفسدها الحركات البهلوانية على الأصابع . ومرة سمع بأن عازف كمان نال ثناء الناس لأن

القطع التى عزفها عسيرة جداً ، فقال مندهشاً «صعبة — ليتها كانت مستحيلة» [٧٤] .

ولابد أن رجلا أوتى هذه القوة والعافية لقى عنتاً فى التعامل مع أحلام الجنس التى تهيج حتى العقل السوى . وحين حضر حفلة الافتتاح لتمثيلية «أيرينى» وقاده جاريك إلى «الحجرة الخضراء» التى ينتظر فيها الممثلون بين المشهد والمشهد ، رفض اقتراحاً بأن يكرر هذه الزيارة . «لا يا ديفد ، لن أعود للمكان أبدا . لأن ثياب ممثلاتك البيضاء وجواربهن الحريرية تثير أعضائى التناسلية» [٧٥] . وقد أدهش بوزويل أن يسمعه يقول يوماً وهو فى جزائر الهبريد «كثيراً ما خطر لى أنه لو كنت أقتنى حريماً . . .» [٧٦] .

ويمكن القول عموماً أن نقائصه كانت أظهر من فضائله ، التى كانت لاتقل عن النقائص وجوداً حقيقياً . وفى وسعنا أن نعكس ملاحظة هوراس ولبول الذى قال «مع أنه كان طيب الطابع فى أعماقه فإنه كان سيىء الطبع جداً فى قمته» [٧٧] . وقد أعرب جولدسمث عن هذا المعنى ذاته بعبارات ألطف : «إن فى سلوك جونسن خشونة ، ولكن ليس هناك إنسان حى له قلب أرق . فليس فيه من الدب إلا جلده» [٧٨] . فهذا الرجل الذى كان رث الهندام ، بايداً ، مؤمناً بالخرافة ، فظاً ، مستبد الرأى ، متكبراً ، كان أيضاً رحيماً ، عطوفاً ، كريماً ، يبادر بطلب الصفح وبالنسيان . وقد قدرت مسز ثريل أن جونسن كان يبذل ٢٠٠ جنيه من معاشه البالغ ٣٠٠ جنيه [٧٩] ، وأضافت : «كان يرعى مجاميع بأسرها من الناس فى بيته . . . وكان وهو ينفق نصف الأسبوع فى بيتنا عادة ، يحتفظ بأسرته الكبيرة العدد فى فليت ستريت مخصصاً لأفرادها نفقة ثابتة . ولكنه يعود إليهم كل سبت ليقدم لهم ثلاث وجبات طيبة بالإضافة إلى صحبته ، قبل أن يعود إلينا فى ليلة الإثنين — باذلا لهم ذات الحفاوة والمجاملة التى كان يبذلها لمثلهم من أفراد المجتمع الراقى أو ربما أكثر منها» [٨٠] .

وكان يكتب للغير المقدمات والإهداءات والعظات وحتى الآراء القانونية . مجاناً فى حالات كثيرة . وقد جاهد بلسانه وقلمه لينقذ الدكتور وليم دد من حبل المشنقة . وحين رأى مومساً راقدة فى الطريق (وكان فى

عامه الخامس والسبعين) وضعها على ظهره » وحملها إلى مسكنه ، واعتنى بها حتى استعادت صحتها » ثم « حاول أن يعينها على كسب رزق حلال »[٨١].
وقد قال جورج ستيفنز الذى تعاون معه فى التعليق على مسرحيات شكسبير « لو أن الحسنات الكثيرة التى أخفاها عمداً » والأفعال الإنسانية التى أسداها سراً ، أعلن عنها بذات التفصيل الدقيق (كزلاته) » لتاهت عيوبه فى وهج فضائله فلم يبق أمام الناس غير الفضائل »[٨٢].

ولم يؤلف خلال الأعوام التسعة عشر الباقية من عمره سوى كتاب هام واحد هو « سيرة الشعراء » » وفيما عدا ذلك أحل لسانه محل قلمه . وقد وصف نفسه بأنه « رجل يحب أن يلف ساقيه ويطلق حديثه »[٨٣] . ولو غضضنا النظر عن تلذذه بالطعام » لوجدناه أسعد ما يكون حياة حين يتحدث إلى جماعة ذكية . وكان قد اجتمع له بالملاحظة والقراءة ذخيرة خارقة وتنوع مدهش من المعرفة بشئون البشر ، وقد حمل الكثير من هذه المعرفة فى مخزن ذاكرته وكان يرحب بفرصة التخفف منها . ومع ذلك فقلما كان البادىء بأى نقاش جاد » وما كان يفصح عن رأيه إلا حين يثير بعضهم موضوعاً أو تحدياً . وكان يجد دائماً إغراء بأن يعارض رأى غيره ، وكان على استعداد للدفاع عن أى قضية أو عكسها » يلتذ الجدل لعلمه بأنه لايقهر ، ويصمم على أن تكون حجته هى الغالبة حتى ولو ماتت الحقيقة تحت ضرباته . وكان على علم بأن هذا لم يكن أرق ضروب الحديث » ولكنه كان واثقاً أنه ألذها . وكان إذا حمى وطيس المعركة واشتد استمتاعه بها لايعرف المجاملة . يقول بوزويل « لم يكن يرحم أحداً منا . مرة قال لأحد مجادليه : لقد عثرت لك على حجة ، ولكنى لست ملزماً بالعثور لك على فهم »[٨٥] . يقول جولدسمث « لاسبيل للجدل مع جونسن ، فهو ان أخطأتك رصاصة طبنجته صرعك بمقبضها »[٨٦] ويروى بوزويل هذه القصة عنه ، « حين ألممت بالدكتور جونسن صبيحة الغد وجدته راضياً كل الرضى عن قدراته الكلامية فى البارحة . فقد قال : حسناً » لقد استمتعنا بحديث طيب » . بوزويل « أجل ياسيدى ، لقد قذفت بالكثيرين واثخنتهم بالجراح »[٨٧] . وقد وصفه توماس شريدان بأنه « بلطجى »[٨٨] . وجبون بأنه متعصب تعصباً

أعمى[٨٩] . وقال عنه اللورد مونبودو أنه «أشر وأخبث رجل عرفته فى حياتى ، لا يثنى على كاتب أو كتاب أثنى عليه غيره (ولكنه أثنى على قصة فانى بيرنى «افلينا») . . . ولا طاقة له على سماع أى شخص غيره يشد انتباه الجماعة ، ولو لوقت قصير جداً»[٩٠] أما هوراس ولبول «الآمن فى وظائفه الشرفية» فكان يرتعد حين يخطر جونسن بباله ، وقد أجمل وصفه على النحو الذى يراه ابن رئيس وزراء من حزب الأحرار .

«كان جونسن بما ملك من سقط الثقافة وبعض الجوانب القوية شخصية كريهة خسيسة . فهو من حيث المبدأ استيوارتى ، مزهو ، مكتف بذاته ، متغطرس . . . ولقد ابتذل قلمه وفخره الحزبية حتى فى معجمه ، ثم ناقض تعريفاته بعد ذلك لقاء معاش يتلقاه . وكانت عاداته قذرة متعالية وحشية ، وأسلوبه خبيثاً طناناً إلى حد مضحك ، وباختصار كان فيه رغم كل حذلقته وتنطعه تلك التفاهة الهائلة التى تجدها فى المعلم الريفى . . فليت شعرى ماذا يحسبنا الخلف حين يقرءون أى صنم عبدنا ؟ »[٩١] .

وخير الحديث من الوجهة المثالية بالطبع هو ذلك الذى يجرى فى جماعة صغيرة مستأنية كل أفرادها مثقفون مهذبون ، أو كما أعرب جونسن فى فاصل لطيف : «أن خير الحديث ما خلا من المنافسة أو الغرور ، وكان تبادلا هادئاً مطمئناً للعواطف»[٩٢] . ولكن متى كانت له هذه التجربة ؟ لقد قال لبوزويل وعيناه على الأرجح تومضان : «إن معاملة خصمك بالاحترام معناها إعطاؤه ميزة لا حق له فيها»[٩٣] ، ونحن الذين لم نحس قط ضرباته نغتفر له كل تلك اللطمات والإهانات والأحكام المتحيفة لأن ذكاءه وفكاهته ونظره الثاقب ، وإيثاره الحقائق الواقعية على الادعاءات الكاذبة ، والصراحة على الرياء ، وقدرته على حشد الحكمة فى عبارة ، — كل هذا يجعله شخصية من أشد الشخصيات سيطرة فى التاريخ الانجليزى .

٥ — الفكر المحافظ

أترانا نستمع إليه يتكلم ؟ لقد كان لديه الطريف الذى يقوله فى كل شىء تقريباً تحت الشمس . لقد رأى الحياة خطباً لا رغبة لإنسان فى تكراره ،

أكثر الناس « يطيقونه بصبر نافد ويرحلون عنه كارهين »[٩٤] . وحين سألته الليدى مكليود « أليس هناك إنسان صالح بطبعه ؟ » أجاب « بلى يا سيدتى ، ليس أكثر صلاحاً من الذئب »[٩٥] . « واضح أن الناس . . . فاسدون فساداً لا تكفى معه كل قوانين السماء والأرض لكفهم عن الجرائم . . . »[٩٦] والناس يكرهون بأقوى مما يحبون » وإذا كنت قد قلت شيئاً لأوجع إنساناً مرة ، فلن أفسد هذا بقول أشياء كثيرة لأسرة »[٩٧] .

وقلما كان يناقش الاقتصاد . وقد ندد باستغلال شعوب المستعمرات[٩٨] ، وأدان الرق بشدة ، ومرة أذهل بعض الأساتذة باقتراحه شرب نخب فى صحة « ثورة الزنوج فى جزر الهند الغربية »[٩٩] . ولكنه ذهب إلى أن « زيادة أجور العمال اليوميين خطأ ، لأنها لاتعينهم على عيش أفضل ، إنما (فى رأى « المتبطل ») تجعلهم أكثر كسلا ، والكسل مفسدة للطبيعة البشرية »[١٠٠] . وكان كبلاكستون يؤمن بقداسة حقوق الملكية ، وكنقيضه فولتير يدافع عن الترف لأنه يتيح عملا للفقراء بدلا من إفسادهم بالصدقات[١٠١] . وقد سبق آدم سمث فى الدعوة للمشروعات الحرة[١٠٢] ، ولكن تكاثر التجار كان يثيره . « أخشى ألا تتيح زيادة التجارة ، والصراع المتصل على الثروة الذى تثيره التجارة ، أى أمل فى نهاية نتوقعها سريعاً للخداع والغش . . . ان العنف يخلى مكانه للمكر »[١٠٣] . ولم يتظاهر قط باحتقار المال بعد أن عانى من الفاقة ، وقال « إن أحداً من الناس لم يكتب قط إلا طلباً للمال ، اللهم إلا إذا كان أحمق »[١٠٤] — وفى هذا الرأى بخس لغرور الإنسان .

وقد أحس أننا نغالى فى أهمية السياسة (ولنذكر الأبيات التى أضافها لقصيدة جولدسمث « الرحالة » (لست أبالى مثقال ذرة أن أعيش فى ظل شكل دون آخر من أشكال الحكومة »[١٠٥] ، وإذن « فمعظم خطط الإصلاح السياسى أشياء مضحكة جداً »[١٠٦] ، ومع ذلك سخط على « كلاب الهويجز » ، واقتضى رضاه عن الهانوفريين منحه معاشاً . ووصف الوطنية بأنها « آخر ملاذ يحتمى به الأوغاد »[١٠٧] . ولكنه دافع بحرارة الوطنيين الغيورين عن حق بريطانيا فى جزر فوكلند (١٧٧١) . وكان يحس باحتقار للاسكتلنديين والفرنسيين يكاد يكون شوفينيا .

وكان السباق ، فى ١٧٦٣ ، فى الدفاع عن النزعة المحافظة قبل بيرك « أن التجربة البشرية ، التى تناقض النظرية باستمرار ، هى المحك الأعظم للحقيقة . وإن نظاماً قام على كشوف عدد كبير من العقول لهو دائماً أقوى مما يتمحض عنه تفكير عقل واحد »[١٠٨] . وبعد عام ١٧٦٢ كان قانعاً تماماً بالوضع الراهن ، وأثنى على الحكومة البريطانية لأنها « أدنى إلى الكمال من أى شىء عرفناه بالتجربة أو وعاه التاريخ »[١٠٩] . وأعجب بالارستقراطية والفوارق والامتيازات الطبقية باعتبارها ضرورية للنظام الاجتماعى والتشريع الحصيف[١١٠] . « إننى صديق للطاعة ، فهى جد مفضية إلى سعادة المجتمع . . . والخضوع واجب الجهال ، والقناعة فضيلة الفقراء »[١١١] . وأحزنه كما يحزن كل جيل :

« ان الطاعة إنهارت بشكل مؤسف فى هذا العصر . فما من رجل له اليوم السلطة التى كانت لأبيه — إلا السجان . وما من سيد يملكها على خدمه ؛ وقد تقلصت فى كلياتنا ، أجل ، بل فى مدارسنا الثانوية . ولهذا أسباب كثيرة ، أهمها فى رأيى تكاثر المال تكاثراً شديداً . . فالذهب والفضة يدمران الطاعة الإقطاعية . ولكن هناك إلى هذا تراخ عام فى الإحترام . فلم يعد ابن يعتمد على أبيه الآن كما كانت الحال فيما مضى . . . وأملى أن يتمخض هذا التراخى الشديد عن إحكام للزمام كما تتمخض الفوضى عن الطغيان »[١١٢] .

وحكم جونسن من واقع تأمله لجماهير لندن بأن الديمقراطية ستكون وبالا . وسخر من الحرية والمساواة باعتبارهما شعارات غير عملية[١١٣] . « ليس صحيحاً على الإطلاق أن الناس متساوون بالطبيعة ، فما من شخصين يجتمعان معاً نصف ساعة إلا اكتسب أحدهما تفوقاً واضحاً على الآخر »[١١٤] . وفى ١٧٧٠ كتب كراسة عنوانها « الإنذار الكاذب » أدان فيها الراديكالية وبرر إقصاء ولكس عن البرلمان .

وفى كراسة أخرى عنوانها « الوطنى » (١٧٧٤) جدد جونسن هجومه على ولكس ، وانتقل إلى ما وصفه بوزويل بأنه « محاولة لفرض التسليم غير المشروط على إخواننا الرعايا فى أمريكا »[١١٥] . وكان جونسن قد

تحدث فى كتابات سابقة عن المستعمرات الأمريكية بحياد عرضى ، فرأى أنها « اختطفت دون استناد إلى مبادىء سياسية عادلة جداً » ، وذلك إلى حد كبير راجع إلى أن دولا أوربية أخرى كانت تختطف المستعمرات بأفراط[١١٦] ، ولأن انجلترا أرادت حماية نفسها من بلدين — فرنسا وأسبانيا — أصبحا قوتين إلى حد يهدد بالخطر بسبب التهامهما لأمريكا . وكان قد امتدح المستعمرين الفرنسيين على معاملتهم الهنود معاملة رحيمة وعلى التزاوج منهم ، وأدان المستعمرين البريطانيين لغشهم للهنود وظلمهم للزنوج[١١٧]. ولكن حين راح المستعمرون يتحدثون عن الحرية ، والعدالة ، والحقوق الطبيعية ، احتقر جونسن دعاواهم لأنها رياء خداع ، وتساءل « ما بالنا نسمع أعلى نباح عن الحرية بين جلادى العبيد الزنوج ؟ »[١١٨] . ثم بسط الرأى المعارض لتحرير المستعمرات فى كراسة قوية عنوانها « فرض الضرائب ليس طغياناً » (١٧٧٥)، والظاهر أنها كتبت بناء على طلب الوزارة ، لأن جونسن اشتكى (فيما يروى بوزويل) من أن معاشه منح له « بوصفه شخصية أدبية » ، وها هو الآن « تطلب إليه الحكومة أن يكتب كراسات سياسية »[١١٩] .

وكانت حجة جونسن أن المستعمرين بقبولهم حماية بريطانيا العظمى قد أقروا ضمناً بحق الحكومة البريطانية فى فرض الضرائب عليهم . وفرض الضرائب ، إذا توخينا الإنصاف ، لا يقتضى تمثيل الأشخاص المفروضة عليهم الضرائب تمثيلا مباشراً فى الحكومة ، ونصف سكان انجلترا لا ممثلون لهم فى البرلمان ، ومع ذلك قبلوا فرض الضرائب عليهم مقابلا عادلا لما توفره الحكومة من نظام اجتماعى وحماية قانونية . وقد ذهب هوكنز — وهو الذى أمد جونسن بحججه[١٢٠] — إلى أن هذه الكراسة « فرض الضرائب ليس طغياناً » « لم تتلق رداً قط »[١٢١] . أما بوزويل ، الذى تذكر كورسيكا ، فقد انحاز إلى صف الأمريكيين ، وأسف على ما فى قلم جونسن من « عنف بالغ » ، وقال « لست أشك فى أن هذه الكراسة كتبت بناء على رغبة أولئك الذين كانوا يومها يتقلدون زمام الحكم ، والحق أنه اعترف لى بأن بعض هؤلاء راجعها واختصرها »[١٢٢] . وقد تنبأت فقرة حذفتها الوزارة بأن

الأمريكان » سوف يكونون بعد قرن وربع أكثر من أنداد لسكان أوربا (الغربية) »[١٢٣] .

وكان فى فلسفته السياسية بعض العناصر اللبرالية . وقد آثر فوكس على بت الثانى ، وأقنعه بعضهم بتناول العشاء مع ولكس ، الذى تغلب على مبادىء جونسن السياسية بإعطائه قدراً من لحم العجل اللذيذ[١٢٤] . وداعب المحافظ العجوز الثورة فى إحدى فقراته فقال :

« إذا تأملنا بالنظرة المجردة التوزيع غير المتكافىء لمباهج الحياة . . . وإذا وضح لنا أن الكثيرين تعوزهم ضروريات الطبيعة ، وأكثر منهم ما تتيحه الحياة من أسباب الراحة والدعة ، ورأينا الكسالى يعيشون فى رغد على متاعب الكادحين ، والمترفين ينعمون بأطايب لايذوقها من يوفرونها ؛ وإذا كان السواد الأعظم لابد مفتقر دائماً إلى ما تستمتع به القلة وتبدده دون نفع ، بدا لنا من المستحيل أن نتصور أن سلام المجتمع يمكن أن يطول أمده ، وأدنى إلى الطبيعة أن نتوقع ألا يترك إنسان طويلا وفى جوزته مباهج فائضة عن حاجته بينما يفتقر هؤلاء الكثيرون إلى الضروريات الحقيقية »[١٢٥] .

على أن نزعته المحافظة كانت ترتد بكل عنفوانها حين يتكلم على الدين . فبعد أن أنفق سنة من التشكك فى شبابه[١٢٦] ، راح يؤيد عقائد الكنيسة الرسمية وامتيازاتها تأييداً متزايد الحرارة ؛ وكان أحياناً يميل نحو الكاثوليكية : فقد أعجبته فكرة المطهر ، وحين سمع أن قسيساً انجليكانياً تحول إلى كنيسة روما قال « ليباركه الله »[١٢٧] . ويقول بوزويل إنه « دافع عن ديوان التفتيش ، وذهب إلى أن العقيدة الزائفة يجب أن توقف بمجرد ظهورها ، وأن على السلطة المدنية أن تتحد مع الكنيسة فى عقاب من يجرمون على مهاجمة الدين المقرر ، وأن أمثال هؤلاء دون غيرهم هم الذين كان ديوان التفتيش يعاقبهم »[١٢٨] . وكان يكره المنشقين على الكنيسة الانجليكانية ، ورحب بطرد المثوديين من أكسفورد[١٢٩] . وقد رفض أن يتحدث إلى سيدة هجرت الكنيسة الرسمية لتنضم إلى طائفة الكويكرز[١٣٠] . ووبخ بوزويل على صداقته المعتدلة لهيوم « الملحد » . وحين أخبره آدم سمث أن هيوم يحيا حياة يضرب بها المثل ، صاح به جونسن « أنت تكذب : » ورد

عليه سمث فوراً « أنت ابن قحبة »[١٣٢] . وقد أحس جونسن أن الدين أمر لا غنى عنه للنظام الاجتماعي والأخلاق ، وأن الرجاء المنعقد على خلود سعيد هو وحده الذى يستطيع حمل الإنسان على تقبل شدائد الحياة الدنيوية . وقد آمن بالملائكة والشياطين ، وذهب إلى « أننا جميعاً كتب لنا أن نسكن فى الآخرة اما فى مواطن الهول أو السعادة »[١٣٢] . ثم قبل الوجود الحقيقى للساحرات والعفاريت ، واعتقد أن زوجته المتوفاه قد ظهرت له فى المنام [١٣٣] .

ولم يكن يهتم بالعلم ، وقد امتدح سقراط على محاولته نقل البحث من النجوم إلى الإنسان [١٣٤] . وكان يستفظع تشريح الحيوان الحى . ولم يثر الارتياد الجغرافى اهتمامه ، فاكتشاف الأراضى المجهولة لن يفضى إلا إلى الغزو واللصوصية »[١٣٥] . وذهب إلى أن الفلسفة متاهة عقلية تؤدى إما إلى الشك الدينى أو إلى الهراء الميتافيزيقى . ومن ثم فند مثالية باركلى برفس حجر ، ودافع عن حرية الإرادة بقوله لبوزويل « نحن عليمون بأن إرادتنا حرة ، وهذا يكفى لإنهاء المسألة . . . ان النظرية كلها ضد حرية الإرادة ، والتجربة كلها معها »[١٣٦] .

وقد رفض باشمئزاز فلسفته التنوير الفرنسى بأسرها . وأنكر حق العقل المفرد مهما عظم ذكاؤه فى أن ينصب نفسه حكماً على أنظمة أنشأتها شيئاً فشيئاً تجربة المحاولة والخطأ التى خاضها النوع الإنسانى حماية للنظام الاجتماعى من دوافع البشر غير الاجتماعية . وأحس أن الكنيسة الكاثوليكية مع كل مآخذها تؤدى وظيفة حيوية فى صيانة الحضارة الفرنسية ، وحكم بالغفلة والضحل على جماعة الفلاسفة الفرنسيين الذين يوهنون الركائز الدينية للناموس الأخلاقى . وقد بدا له فولتير وروسو نوعين من البلهاء : ففولتير مغفل عقلى ، وروسو مغفل عاطفى ، غير أن الفرق بينهما من الضآلة بحيث « يعسر تقرير نسبة الإثم فيما بينهما »[١٣٧] . وقد وبخ بوزويل على تودده لروسو فى سويسره ، وأسف لكرم الضيافة الذى بذلته انجلتره

« إميل » (١٧٦٦) . « إن روسو يا سيدى رجل شرير جداً . وإنى ان أتردد فى أن أوقع على حكم بنفيه بأسرع مما أوقعه على أى جان أدانته

محكمة الجنايات على مدى هذه السنين الكثيرة . أجل يا سيدى ، أود لو أكره على الشغل فى المزارع الكبيرة »[٣٨] .

على أن جونسن لم يكن محافظاً فى حياته بقدر ما كان فى آرائه . فكان يخرج فى مرح على عشرات التقاليد فى السلوك ، والحديث ، واللباس . ولم يكن متزمتاً ؛ ضحك على البيورتان ، وحبذ الرقص ، ولعب الورق ، والمسرح . ولكنه أدان قصة فيلدنج « توم جونسن » ، وصدمه أن يسمع أن حنه مور المحتشمة قرأتها[٣٩] . وكان يخشى النزعة الحسية فى الأدب لأنه وجد مشقة فى كبت خياله ودوافعه الحسية . وربما كان يخيل للناس من واقع عقائده أنه لم يستمتع بالحياة . ولكن فى استطاعتنا أن نرى فى بوزويل أنه استمتع بـ « ملء الوجود البشرى » . لقد حكم على الحياة بأنها مؤلمة حقيرة ، ولكنه كمعظمنا طاولها ما استطاع . وواجه سنيه الأخيرة فى كره غاضب .

٦ — الخريف

فى عام ١٧٦٥ انتقل من الأنر تمبل إلى بيت ذى طوابق ثلاثة فى رقم ٧ بجونسنز كورت بفليت ستريت ، وكان قد أطلق عليه اسم ساكن قبله . هناك وجده بوزويل بعد أن عاد من أوربا . وفى يوليو منحته جامعة دبلن درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون ، فأصبح الآن لأول مرة « الدكتور جونسن » ، ولكنه لم يلحق هذا اللقب باسمه قط[٤٠] .

وفى أكتوبر ١٧٦٥ أصدر ، فى مجلدات ثمانية ، مسرحيات شكسبير التى تحمل تحقيقاته وتعليقاته ، بعد أن انقضت ثمانية أعوام على الموعد الذى وعد به المكتتبين فيها . وقد جرؤ على بيان ما فى مسرحيات الشاعر من أخطاء وسخافات وآراء طنانة صبيانية ، ولامه لافتقاره إلى الهدف الأخلاقى ، وذهب إلى أن شكسبير « ربما لم يخلف مسرحية واحدة لو عرضت الآن على أنها من تأليف كاتب معاصر لما استمع إليها جمهور النظارة إلى نهايتها »[٤١] . ولكنه امتدح الشاعر على تحكمه فى عنصر الحب المشوق فى الدرامات الكبرى ، وعلى جعله كبار شخوصه ناساً لا أبطالا ، ودافع فى قوة عن إهمال شكسبير لوحدتى الزمان والمكان ، ذلك الإهمال الذى أحله

فولتير على شكسبير[١٤٢] . وقد تحدى النقاد الكثير من تعليقاته وتصويباته ، وحل محل هذه الطبعة طبعة أصدرها إدموند مالون فى ١٧٩٠ ؛ ولكن مالون إعترف بأن طبعته مبنية على طبعة جونسن ، وغالى فى تقدير مقدمة جونسن فقال إنها « ربما كانت أروع التآليف فى لغتنا »[١٤٣] .

وفى ١٧٦٧ ، بينما كان جونسن يزور قصر بكنجهام ، التقى مصادفة بجورج الثالث ، فتبادل الرجلان عبارات المجاملة . ثم أصبحت صداقته ببوزويل أثناء ذلك حميمة ، فقبل جونسن فى ١٧٧٣ دعوة الرجل المعجب ليصحبه فى رحلة إلى جزر الهبريد . وكانت مغامرة شجاعة لرجل فى الرابعة والستين . وبدأت بسفرة طويلة شاقة فى مركبة بريد من لندن إلى إدنبره . وهناك التقى بروبرتسن ، ولكنه أبى أن يقابل هيوم . . وفى ١٨ أغسطس بدأ هو وبوزويل وخادم لهما الرحلة شمالا فى مركبة أجرة على الساحل الشرق إلى أبردين ، ومن هناك شقوا طريقهم عبر إقليم المرتفعات الوعر مخترقين بأنف إلى انفرنس ، ثم على ظهور الخيل أكثر الرحلة مروراً بآنوخ إلى جلينيلج على الساحل الغربى . وهناك استقلا قارباً إلى جزيرة سكاى ، التى جابا أرجاءها كلها تقريباً من ٢ سبتمبر إلى ٣ أكتوبر . وقد كابدا مشاق كثيرة تقبلها جونسن فى شجاعة صارمة ، فنام فوق الدريس فى الأجران ، ودب عنه الهوام ، وتسلق فوق الصخور ، وركب فى وقار قلق أفراساً لا تكاد تفوقه حجماً . وفى إحدى وقفاتهما جلست سيدة من قبيلة مكدونلد على ركبته وقبلته فقال لها « أعيدى ، ولنرى من منا يتعب قبل الآخر »[١٤٤] . وفى ٣ أكتوبر ركب كلاهما قارباً مكشوفاً مسافة أربعين ميلا إلى جزيرة كول ، ومنها إلى جزيرة مل . ثم عبرا رجوعاً إلى البر الأم فى ٢٢ أكتوبر ، ثم سافرا مخترقين أرجلشير بطريق دمبرتن وجلاسجو إلى أوخنلك (٢ نوفمبر) . هناك التقى جونسن بوالد بوزويل ، الذى احتفى به احتفاء كبيراً ، وإن أسف لتحامله على الاسكتلنديين ، وخاضا فى جدل بلغ من العنف حدا رفض معه بوزويل أن يسجله . وبعدها لقب بوزويل الأب جونسن « الدب الأكبر » وهو لقب فسره الإبن فى لباقه بأنه لايعنى

الدب الأكبر بل « برجاً للعبقرية والعلم »[١٤٥] . ووصل المسافران إلى إدنبره فى ٩ نوفمبر ، بعد أن رحلا عنها بثلاثة وثمانين يوماً . فلما تذاكرا المشاق التى لقياها ، « ضحكا من قلبيهما على هذيان أولئك الحالمين السخفاء الذين حاولوا اقناعنا بما تتيحه الحالة الطبيعية من منافع خداعة » . « وغادر جونسن إدنبره فى ٢٢ نوفمبر ، فبلغ لندن فى السادس والعشرين . وفى ١٧٧٥ نشر كتاب « رحلة إلى جزر اسكتلنده الغربية » ، ولم يكن بالكتاب النابض بالحياة ، حتى إذا قورن بالوصف المهذب « الذى أصدره بوزويل فى ١٧٨٥ بعنوان « يوميات جولة فى الهيبريد مع صموئيل جونسن » ، وذلك لأن الفلسفة أقل إمتاعاً من الترجمة ، ولكن فى بعض الفقرات[١٤٦] جمالا هادئاً يبدى لنا جونسن مرة أخرى ربا للنثر الانجليزى .

وفى ابريل ١٧٧٥ اقتنعت أكسفورد أخيراً بمنح جونسن درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون المدنى . وفى مارس ١٧٧٦ غير مسكنه لآخر مرة ، فانتقل إلى المنزل رقم ٨ ببولت كورت مصطحباً معه أسرته المختلطة . ثم كتب إلى كبير أمناء الملك (١١ ابريل ١٧٧٦) فى حالة نفسية غريبة من المرح يطلب شقة فى قصر هامتن كورت فقال « أرجو ألا يكون الاعتكاف فى أحد بيوت جلالته تجاوزاً فى غير موضعه أو دون استحقاق لرجل شرف بالدفاع عن حكومة جلالته »[١٤٧] . ورد كبير الأمناء آسفاً لكثرة عدد الطلاب .

وبقى إنجاز أخير للأديب . ذلك أن أربعين كتبياً لندنياً اشتركوا فى اعداد طبعة متعددة الأجزاء موضوعها الشعراء الانجليز ، وطلبوا إلى جونسن أن يقـــدم لكل شاعر بترجمة له . وتركوا له تحديد شروطه « فطلب مائتى جنيه . قال مالون « لو أنه طلب ألفاً أو حتى ألفا وخمسمائة من الجنيهات لما تردد الكتبيون فى العطاء وهم العليمون بقيمة اسمه »[١٤٨] . وكان جونسن قد فكر فى كتابه « سير قصيرة » « وفاته أن من أصول الكتبه أن القلم الجارى ، كالمادة فى قانون نيوتن الأول ، يواصل جريانه ما لم تكرهه على تغيير تلك الحالة قوى مفروضة عليه من الخارج . ولقد كتب عن صغار الشعراء بإيجاز

محمود ، أما عن ملتن ، وأديسن ، وبوب ، فقد أطلق لقلمه العنان ، وأنشأ مقالات — من ستين صفحة واثنتين وأربعين ومائة واثنتين — تعد من أروع نماذج النقد الأدبي في الانجليزية .

وقد تلون حكمه على ملتن بكراهيته للبيورتان وسياستهم وقتلهم للملك . وقرأ نثر ملتن كما قرأ شعره ، ووصفه بأنه « جمهوري قاس فظ » (١٤٩) . أما مقاله عن بوب (الذى بلغ فى الطبعة الأصلية ٣٧٣ صفحة) فكان آخر ، ضربة فى الدفاع عن الأسلوب الكلاسيكى فى الشعر الانجليزى يضربها أعظم وريث لذلك الأسلوب فى النثر الانجليزى . لقد رأى ، وهو المالك لناصية اليونانية أن ترجمة بوب للألياذة تفضل هومر . وامتدح مرثية جراى ، ولكنه رفض قصائده الغنائية لاكتظاظها فى غير نظام بالأرباب الأسطوريين . وحين نشرت المجلدات العشر من « حياة الشعراء » (١٧٧٩ — ٨١) ، صدمت بعض القراء أحكام جونسن التى كانت غير تقليدية ولكنها متعالية قاطعة ، وعدم إحساسه بلطائف الشعر الرهيفة ، وميله لتقدير الشعراء أو الحط من أقدارهم تبعاً للاتجاه الأخلاقى الذى تنحو إليه قصائدهم وحياتهم . وقد صرح ولبول بأن « الدكتور جونسن لايملك ولاريب من الذوق ولا السمع ولا معيار النقد إلا ميوله المغرضة العجائزية »(١٥٠) . وسخر من « هذا الهيكل الثقيل القائم على طوالتين» ، والذى يبدو أنه قرأ القدامى دون هدف إلا سرقة الألفاظ المتعدد المقاطع (١٥١) . فلم إذن فاقت هذه « السير » فى ذيوعها وشغف القراء بها أى ثمرة أخرى من ثمرات قلم جونسن ؟ ربما بسبب تلك الميول المغرضة والصراحة فى الإعراب عنها . فلقد جعل النقد الأدبى قوة نابضة بالحياة ، وأوشك أن يبعث الموتى من قبورهم بضرباته القاسية .

٧ — الإفراج : ١٧٨١ — ٨٤

نحن نحس بالفخر بيننا وبين أنفسنا حين عتد بنا العمر بعد موت معاصرينا ، ولكننا نعاقب بشعور الوحدة ، وهكذا كان موت هنرى ثريل (٤ ابريل ١٧٨١) البداية لنهاية جونسن . وقد قام بمهمته بصفته أحد أربعة كانوا منفذين لوصية صانع الجعة . ولكن زياراته لأسرة ثريل قامت بعد ذلك .

وكانت السيدة ثريل قد بدأت قبل موت زوجها بأمد طويل تضيق بالضغوط التي تفرضها عليها حاجة جونسن للرعاية والآذان الصاغية . وكان ثريل قد أفلح في جعل دبه الأسير يسلك سلوكاً مهذباً إلى حد معقول ؛ ولكن (وهذه شكوى الأرملة) « إذا لم يوجد من يردعه (أي جونسن) عن التمادي في إبداء مكارهه أصبح عسيراً جداً أن تجد إنساناً يستطيع التحدث إليه دون العيش دائماً على شفا الشجار . . . وقد وقعت أمثال هذه الحوادث مراراً وتكراراً ، فاضطررت . . . إلى الاعتكاف في باث ، حيث كنت أعلم أن المستر جونسن لن يتبعني »[١٥٢] .

وزادت صحيفة المورنيج بوست الطين بلة بإعلانها أن معاهدة زواج بين جونسن والمسز ثريل « جاهزة »[١٥٣]. وكتب بوزويل نشيداً هزلياً (برلسك) عنوانه « نشيد بقلم جونسن إلى مسز ثريل بمناسبة زفافهما القريب المزعوم »[١٥٤] . ولكن في ١٧٨٢ كان جونسن في الثالثة والسبعين والمسز ثريل في الحادية والأربعين . ولم تكن قد تزوجت ثريل بإرادتها هي ، وكثيراً ما كان يهملها ، ولم تتعلم قط أن تحبه . ومن ثم فقد طالبت الآن بحقها في أن تُحب وأن تحب ، وفي أن تجد زوجاً في نصف عمرها الأخير . وكانت في تلك السن التي يشتد فيها شوق المرأة لنوع من الصحبة البدنية المتفهمة . وكانت حتى قبل موت زوجها قد تعلقت بجابرييل بيوتزي الذي كان يعطي بناتها دروساً في الموسيقى ؛ وكان وهو الإيطالي مولداً قد اتخذ انجلترة له مقاماً في ١٧٧٦ ، وناهز الآن الثانية والأربعين . ويوم لقيته أول مرة في حفلة أقامها الدكتور بيرني ، راحت تقلد لازماته تقليداً ساخراً وهو يعزف على البيان . بيد أن سلوكه الأنيق ، وطبعه اللطيف ، ومهاراته الموسيقية ، جعلت منه نقيضاً مريحاً للدكتور جونسن . وأرخت الآن العنان لغرامها بعد أن تحررت . واعترفت لبناتها الأربع الباقيات على قيد الحياة برغبتها في الزواج . فهالهن النبأ ، ذلك أن هذا الزواج الثاني سيؤثر في مستقبلهن المالي . والزواج من موسيقي — وأسوأ من ذلك كاثوليكي روماني — سينال من مكانتهن في المجتمع . لذلك توسلن إلى أمهن أن تتروى في الأمر ، فحاولت ولكنها فشلت . وسلك بيوتزي مسلك الرجل المهذب ، فرحل إلى إيطاليا

(ابريل ١٧٨٣) وغاب قرابة عام . فلما عاد (مارس ١٧٨٤) ووجد أن المسز ثريل مازالت تواقة للزواج منه استسلم للأمر . ورفض البنات الموافقة ، وانتقلن إلى برايتن .

وفى ٣٠ يونيو أرسلت مسز ثريل إلى جونسن إعلاناً ينبئه بأنها وبيوتزى قررا الزواج . فأرسل إليها هذا الرد (٢ يوليو ١٧٨٤) .

سيدتى :

لو أننى أصبت فى تفسير رسالتك لقلت إنك تتزوجين زواجاً شائناً ، فإذا كان لم يعقد بعد ، فدعينا نقلب الأمر معاً مرة أخرى . ولو كنت قد تخليت عن بناتك وعن دينك ، فليغفر الله لك شرك ، ولو كنت قد خسرت سمعتك ووطنك ، فأرجو ألا تأتى حماقتك مزيداً من الشر . وإذا كنت لم تتخلى بعد آخر خطوة ، فإننى — أنا الذى أحببتك ، وقدرتك ، واحترمتك ، وخدمتك ، أنا الذى طالما رأيتك الأولى بين جنس النساء — أتوسل إليك أن أراك مرة أخرى قبل أن يصبح مصيرك لا رجعة فيه .

لقد كنت ، ذات مرة يا سيدتى ، المخلص لك جداً

صموئيل جونسن[١٥٥]

وساءت المسز ثريل كلمة « شائن » لأنها رأتها وصمة لخطيبها ، فردت على جونسن فى ٤ يوليو تقول : « لنكف عن التحادث حتى تغير رأيك فى مستر بيوتزى » ثم تزوجت بيوتزى فى ٢٣ يوليو ، ووافقت لندن كلها جونسن على إدانتها . وفى ١١ نوفمبر قال جونسن لفانى برنى ، « إننى لا أتحدث عنها أبداً ، ولا رغبة لى مطلقاً فى سماع المزيد عنها »[١٥٦] .

ولا بد أن هذه الأحداث هدت من حيوية جونسن المتهافته . فاشتد أرقه ، ولجأ إلى الأفيون ليخفف آلامه ويهدىء أعصابه . وفى ١٦ يناير ١٧٨٢ مات طبيبه روبرت ليفت . وتساءل جونسن : على من يكون الدور بعده ؟ لقد كان يرهب الموت دائماً ، ومن ثم أحال هذا الخوف وإيمانه بالجحيم سنيه الأخيرة خليطاً من وجبات العشاء الثقيلة والمخاوف اللاهوتية . وقال للدكتور وليم آدمز عميد كلية بمبروك « أخاف أن أكون واحداً من

المالكين» . فلما سأله آدمز ماذا يعني بكلمة «المالكين» صاح «الذين مآلهم إلى النار والعقاب الأبدي يا سيدي»[١٥٧]. ولم يملك بوزويل إلا المقارنة بين هذه الحال وبين السكينة التي كان هيوم الملحد قد دنا بها من منيته[١٥٨] .

وفي ١٧ يونيو ١٧٨٣ أصيب جونسن بنقطة خفيفة «تشوش وخلط في رأسي أظنه دام نصف دقيقة . . وقد احتبس لساني . ولم أشعر بألم»[١٥٩]. وبعد أسبوع تماثل للشفاء تماثلا أتاح له تناول العشاء في النادي ، وفي يوليو أذهل أخصاءه بالقيام برحلات إلى روتشستر وسلزبري . قال لهوكنز «أي رجل أنا ، رجل قهر ثلاثة أمراض — الشلل ، والنقرس ، والربو — ويستطيع الآن الاستمتاع بحديث الأصدقاء !»[١٦٠] ولكن في ٦ سبتمبر ماتت مسز وليمز ، وباتت وحدته لا تطاق . فلما وجد «النادي» غير كاف — لأن العديد من أعضائه القدامى (جولدسمث ، وجاريك ، وبوكلارك) ماتوا ، ولأن بعض أعضائه الجدد كانوا كريهين في نظره ، أنشأ (ديسمبر ١٧٨٣) «نادي المساء» الذي كان يعقـــد اجتماعاته في مشرب للجعة بشارع اسكس . هناك كان في وسع أي شخص مهذب «إذا دفع ثلاثة بنسات ، أن يدخل ويستمع إليه يتحدث ثلاث ليال كل أسبوع . ودعا رينولدز للانضمام ، ولكن السر جوشوا رفض . ورأى هوكنز وغيره في النادي الجديد «تدهوراً في تلك القدرات التي كانت تبهج «أشخاصاً أكثر مهابة»[١٦١] .

وفي ٣ يونيو ١٧٨٤ كان في عافية أتاحت له الرحلة مع بوزويل إلى لتشفيلد وأكسفورد . فلما عاد بوزويل إلى لندن أقنع رينولدز وأصدقاء آخرين بأن يطلبوا إلى وزير الخزانة توفير مبلغ من المال يمكن جونسن من القيام برحلة إلى إيطاليا ليسترد صحته . وقال جونسن إنه يفضل مضاعفة معاشه . ولكن وزير الخزانة رفض . وفي ٢ يوليو رحل بوزويل إلى اسكتلنده . ولم ير جونسن بعدها قط .

ذلك أن الربو الذي كان قد تغلب عليه عاوده وزاد عليه الاستسقاء ، كتب إلى بوزويل في نوفمبر ١٧٨٤ «إن نفسي قصير جداً ، والماء يتزايد

الآن على »[١٦٢] . وتوافد عليه رينولدز » وبيرك ، ولا نجتن ، وفانى بيرنى وغيرهم ليلقوا عليه تحية وداع أخيرة . ثم كتب وصيته . وقد خلف ٢,٠٠٠ جنيه . أوصى منها بمبلغ ١,٥٠٠ لخادمه الزنجى[١٦٣] . وعالجه عدة أطباء ، ورفضوا تقاضى أى أجر . وتوسل إليهم أن يشقوا ساقيه شقاً أعمق ، فأبوا ، فلما انصرفوا دفع مبضعاً أو مقصاً فى عمق ربلتيه أملا فى فراغ مزيد من الماء والتخفيف من الورم المؤلم ، وانطلق بعض الماء ، ولكن انطلقت معه أيضاً عشر أوقيات من الدم . فى تلك الليلة ، ليلة ١٣ ديسمبر ١٧٨٤ ، قضى نحبه . وبعد أسبوع دفن فى كنيسة وستمنستر .

لقد كان أغرب شخصية فى تاريخ الأدب ، أغرب حتى من سكارون أو بوب . ومن العسير أن نحبه لأول وهلة ، فقد ستر رقته خلف ستار من الوحشية ، ونافست خشونة عاداته لياقة كتبه . ولم ينل أحد قط مثل هذا الإعجاب الكثير ولا بذل مثل هذا الثناء الضنين . ولكنه كلما تقدم به العمر ازدادت الحكمة فى كلامه . وقد أحاط حكمته بالتفاهات ، ولكنه رفع هذه التفاهات إلى مستوى جوامع الكلم بقوة حديثه أو تلوينه . ولنا أن نشبهه بسقراط ، الذى كان يتكلم أيضاً لأقل إثارة أو استفزاز ، والذى يذكره الناس بكلامه المنطوق . وكان كلاهما أشبه بذباب الخيل المنبه ، ولكن سقراط كان يلقى أسئلة ولا يعطى جواباً . أما جونسن فلم يلق سؤالا وقد أجاب عن كل الأسئلة . ولم يكن سقراط على يقين من شىء ، أما جونسن فكان على يقين من كل شىء . وقد ناشد كلاهما العلم أن يدع النجوم وشأنها ويدرس الإنسان . وواجه سقراط الموت مواجهة فيلسوف وبابتسامة ، أما جونسن فواجهه بارتجافات دينية تنافس أوجاعه الموهنة .

ولن نجد اليوم إنساناً يراه فى صورة الكمال . وفى وسعنا أن نعرف لم تجنبته الطبقة الاستقراطية الانجليزية وتجاهلت إمارته — خلا لانجتن وبوكلارك. ونحن ندرك أى « جون بول » كان يمكن أن يكون لو جال فى « متحف خزف» النبلاء ، أو وسط تحف قصر « ستروبرى هل » النفسية ، إنه لم يخلق للجمال ، ولكنه أدى مهمة ، هى تخويف البعض ليكفوا عن الرياء والكذب والنفاق والمبالغة فى إظهار العاطفة ، وليجعلنا ننظر إلى أنفسنا بأوهام أقل

عن طبيعة البشر أو نشوات الحرية . ولا بد إن كان هناك شيء محبب فى رجل استطاع رينولدز وبيرك وجولدسمث الاستماع إليه ألف ليلة وليلة ، شيء ساحر فى إنسان استطاع أن يوحى بكتابة سيرة عظيمة ، ويملأ صفحاتها الألف والمائتين بحياة لايبليها الزمن .

٨ — بوزويل فى أيامه الأخيرة

لما مات الدب الأكبر حام حوله قطيع الأدباء ليلتقطوا من جثمانه بعض قوتهم . أما بوزويل نفسه فلم يتعجل ، فقد عكف على « السيرة » سبعة أعوام ، ولكنه أصدر فى ١٧٨٥ « يومية جولة فى جزر الهبريد مع صموئيل جونسن » ، وقد طبعت ثلاث طبعات فى سنة واحدة . وكانت هستر ثريل بيوتزى قد جمعت مادة عن أحاديث جونسن وعاداته ، فصنفت الآن من هذه « الثريليات » « نوادر عن المرحوم الدكتور صموئيل جونسن ، خلال سنيه العشرين الأخيرة (١٧٨٦) . وقد عرض الكتيب صورة لضيفها أقل اشراقاً مما سجلته من قبل فى يوميتها يوماً بيوم ، ولاريب فى أن رسائل جونسن الأخيرة لها قد خلفت فيها جرحاً لا يندمل .

ويلى ذلك فى الحلبة — إذا خلينا أكثر من عشرة أسماء طواها النسيان الآن — «سيرة صموئيل جونسن » التى نشرها فى خمسة مجلدات فاخرة السرجون هوكنز عام ١٧٨٧ . وكان هوكنز قد لقى من التوفيق فى عمله محامياً عاماً ما برز منحه لقب الفروسية (١٧٧٢) وحصل من الثقافة ما أتاح له تأليف كتاب جيد فى « تاريخ الموسيقى » (١٧٧٦) . وقد شارك جونسن فى تنظيم نادى «آيفى لين» (١٧٤٩) ، وكان أحد الأعضاء الأصليين فى « النادى » . ولكنه تركه عقب جدال مع بيرك فلقبه جونسن بـ « الرجل الذى لايصلح للأندية » . ولكن جونسن ظل صديقه ، وكثيراً ما التمس مشورته ، وقد عينه واحداً من منفذى وصيته . وبعد وفاة جونسن بقليل طلب جماعة من الكتبية إلى هوكنز أن يعلق على طبعة تضم آثار الدكتور ويقدم لها بترجمة للأديب . وقد أخذ على هذه الترجمة أنها كشفت عن عيوب جونسن فى غير رحمة ، وتشكك بوزويل فى دقتها فيما بعد . ولكن

« التهم الموجهة للترجمة لا يمكن إثباتها فى تحقيق منصف »[١٦٤]. ومعظم العيوب التى أخذها موكنز على جونسن لاحظها غيره من معاصريه .

ثم عادت المسز بيوزى إلى المأدبه بكتاب عنوانه « رسائل متبادلة مع المغفور له صموئيل جونسن » (١٧٨٨) ، وكلاهما ساحر ، لأن رسائل جونسن (فيما خلا الأخيرة التى كتبها لسيدته الضالة) كانت تفوق حديثه كثيراً فى إنسانيتها . وكان بوزويل خلال ذلك عاكفاً بصبر فيما بين قضاياه ومجالس خمره على تأليف سيرة عقد العزم على أن يجعلها نسيج وحدها . وكان قد بدد فى تسجيل مذكرات بأحاديث جونسن عقب لقائهما الأول (١٧٦٣) ، ثم خطط للسيرة فى تاريخ مبكر (١٧٧٢) . غير أن الحبل بهذا الجنين كان غاية فى الطول والمشقة . ذلك أنه قلما كان يدون الملاحظات من فوره ، ولم يكن يعرف الاختزال ، ولكنه اتخذ مبدأ هو أن يدون على عجل وباختصار بمجرد عودته إلى حجرته ما يذكره عما حدث أو قيل . وبدأ كتابة « سيرة صموئيل جونسن » بلندن فى ٩ يوليو ١٧٨٦ وتنقل بين أرجاء المدينة باحثاً عن المعلومات يستقيها ممن بقى على قيد الحياة من أصحاب جونسن . وأعانه إدموند مالون ، الأديب المتخصص فى شكسبير ، على فرز وتصنيف ذلك الحشد الضخم المضطرب من المذكرات ، وشد أزره ودعم شجاعته حين بدا أنه يوشك أن يستسلم للنساء والشراب بعد أن هده الفجور والحزن وموت زوجته . كتب بوزويل فى ١٧٨٩ — « لن تستطيع أن تتصور أى عناء ، وأى حيرة ، وأى غيظ تحملته فى ترتيب عدد هائل من المواد ؛ وفى ملء الفراغات ، وفى البحث عن أوراق مدفونة بين أشتات من الأكداس ، وكل هذا بالإضافة إلى عناء التأليف والتهذيب . وكثيراً ما فكرت فى التخلى عن هذه المهمة »[١٦٥]. وقد اقتبس من كتاب وليم ميسن « سيرة جراى ورسائله » (١٧٧٤) فكرة بث رسائل بطله فى ثنايا القصة . وقد كدس التفاصيل عمداً ، لشعوره بأنها تضيف إلى الصورة الكاملة الحية . ثم نسجت من هذه الأشتات رواية مسلسلة التواريخ وكل متكامل .

فهل كان دقيقاً ؟ هذا ما زعمه . « لقد توخيت الدقة البالغة فى التسجيل

بحيث لا بد أن تكون كل صغيرة أو تافهة صادقة »[١٦٦] . وأينما استطعنا مقارنة روايته عن كلام جونسن بغيره من الروايات بدا أنها صحيحة من حيث الوقائع ، وان لم تكن كذلك من حيث حرفيتها . والمقارنة بين كتابى بوزويل « المذكرات» و « السيرة » تدل على أنه حول تلخيصه لأحاديث جونسن إلى اقتبـاسات مباشرة ، قد يطيلها أحيـاناً ، أو يقصرها ، أو يحسنها[١٦٧] ، أو ينقيها ، مع تمديد الألفاظ الصغيرة (الرباعية الحروف) إلى أطوال محترمة ، وكان أحياناً يحذف الوقائع التى لاتخدم مصلحته[١٦٨] . ولم يدع أنه قال كل الحقيقة عن جونسن[١٦٩] ، ولكن حين توسلت إليه حنه مور « ان يلطف من بعض خشونة جونسن وغلظته »، رد بأنه « لن يقلم أظافر جونسن » أو يحيل البيرقطا ليسر أى إنسان »[١٧٠] . والواقع أنه كشف عن عيوب أستاذه كشفاً كاملا كما فعل غيره ، ولكن فى منظور أوسع خفف من بروزها . وقد حاول أن يظهر من الرجل فى صورته الكاملة ذلك القدر الذى تسمح به المحبة واللياقة . قال « إننى على يقين تام أن النهج الذى انتهجته فى كتابة السيرة ، والذى لايكتفى بسرد تاريخ « مسيرة » جونسن فى الحياة ، ولمؤلفاته ، بل يضيف نظرة إلى فكره المتمثل فى رسائله وأحاديثه ، هذا المنهج هو أكمل منهج يمكن تصوره ، وسيكون أقرب إلى تصوير « حياة » جونسن من أى كتاب ظهر إلى الآن »[١٧١] .

وأخيراً خرجت السيرة من المطبعة إلى النور فى مجلدين كبيرين فى مايو ١٧٩١ ولم يقدره القراء لتوهم كنزاً فريداً فى بابه . وساء كثيرين أن يقص بوزويل أحاديثهم الخاصة ، ولم تكن دائماً مما يستحق الإعجاب » فقد كان فى وسع الليدى ديانا بوكلارك مثلا أن تقرأ كيف نعتها جونسن بأنها عاهر ، ورأى رينولدز أين وبخه جونسن على الإفراط فى الشراب ، وعرف بيرك أن جونسن يتشكك فى نزاهته السياسية ويرى أنه لا يتورع عن التقاط مومس من عرض الطريق ، وجفلت المسز بيوتزى والمسز اليزابث مونتجيو مما قرأتا . وكتب هوراس ولبول يقول « ان الدكتور بلاجدن يقول بحق إن هذا ضرب جديد من القذف ، تستطيع به أن تسب أى إنسان

بقولك ان ميتاً ما قال كذا وكذا عن شخص حى »[١٧٢] . ووجد آخرون أن التفاصيل مسرفة ، وأن كثيراً من الرسائل تافهة ، وأن بعض الصفحات مملة . ولم تدرك انجلترە إلا شيئاً فشيئاً أن بوزويل قد أبدع رائعة من الروائع ، وأنه أسبغ على حياته شيئاً من النبل والسمو .

وكان أبوه قد مات فى ١٧٨٢ مخلفاً إياه سيداً على أوخنلك بدخل يبلغ ١,٦٠٠ جنيه فى العام وقد أثبت أنه سيد عطوف رقيق الفؤاد ، ولكنه كان قد ألف حياة الحضر إلفا حال إطالته المكث فى أوخنلك . وفى ١٧٨٦ صرح له باحتراف المحاماه فى انجلترە ، وبعدها أنفق معظم وقته فى لندن . وقد صوره رينولدز فى ذلك العام — رجلا واثقاً من نفسه ، متغطرساً ، له أنف كفيل بأن يستل أى سر من صاحبه . وكانت زوجته تصحبه أحياناً إلى لندن ، ولكنها كانت تقيم فى أوخنلك عادة . وفيها ماتت عام ١٧٨٩ بالغة الحادية والخمسين ، بعد أن أضنتها العناية التى بذلتها لبوزويل وأبنائه . وقد عمر بعدها ست سنين — كانت سنى انحلال متعاظم . فلقد حاول مراراً وتكراراً أن يقهر حاجته إلى الشراب ولكنه أخفق . ومات بلندن فى ١٩ مايو ١٧٩٥ ، بالغا السادسة والخمسين ، ونقل جثمانه إلى أوخنلك ليدفن فيها . وأوزاره ماثلة اليوم فى أذهان جماهير الناس . ولكنا سننساها حين نقرأ مرة أخرى السيرة التى هى أعظم السير طرا .

هذا ولو رجعنا البصر إلى هذا القرن الثامن عشر فى الأدب الانجليزى ، لأدركنا أنه كان قبل كل شىء قرن النثر ، من أديسن ، وسويفت ، وديفو ، إلى ستيرن ، وجبون ، وجونسن ، تماماً كما كان القرن السابع عشر قرن الشعر ، من « هاملت » ودن إلى درايدن والفردوس المفقود . وكان صعود العلم والفلسفة ، وهبوط الدين والغيبيات ، وإحياء الوحدات والقيود الكلاسيكية ، كل هذا برد من حرارة الخيال والآمال ، وعطل من تدفقهما ، وكان انتصار العقل هزيمة للشعر ، فى فرنسا وفى انجلترە على حد سواء . بيد أن ما اتسم به أدب انجلترە النثرى فى القرن الثامن عشر من حيوية وتنوع عوض تعويضاً وافياً عن الشكلية الجامدة التى سادت شعره . وبفضل

رتشردسن وفيلدنج أصبحت الرواية ، التي كانت قبلهما سلسلة إبزودية من مغامرات المتشردين والشطار ، وصفاً للحياة ونقداً لها . ودراسة للعادات ، والأخلاق ، والشخصيات ، هي أكثر إثارة من سجلات المؤرخين . الذين تاه منهم الناس وسط الدولة . ثم أي تأثير أدبي يمكن أن يضارع في ذلك العصر تأثير رتشردسن على بريفو ، وروسو ، وديدرو ، وجوته ؟

وإذا كان أدب انجلتره في القرن الثامن عشر لم يستطع مطاولة أدب القرن السابع عشر ، أو منافسة الخيال الأليزابيثي المحلق ، فإن حياة انجلتره بجملتها استعادت حركتها صعدا بعد إخفاق الشجاعة والسياسة القوميتين في عهد عودة الملكية . فلم تشعر انجلتره منذ هزيمة الأرمادا بمثل هذا التدفق في المغامرة والسياسة ، وقد شهدت الأعوام الواقعة بين صعود شاتام وموت ابنه الثورة الصناعية تحل انجلتره مكاناً أسبق كثيراً من منافسيها في روح الابتكار والقوة الاقتصاديين ، وشهدت البرلمان الانجليزي يغزو القارات وهو يكبح أثناء ذلك جماح ملوكه . فالآن بدت الامبراطورية البريطانية المترامية ، والآن تجاوبت قاعات مجلس العموم بالخطب البليغة التي لم تسمعها أوربا منذ أيام شيشرون . وبينما كانت فرنسا تنزح خزائنها لتحرر أمريكا ، وتضرب عنقها لتحقق أحلامها ، شحذت انجلتره كل مواردها من فكر وإرادة لتتطور دون ثورة ، ولتلج أبواب القرن التاسع عشر في الاقتصاد والحكم مكللة بالنصر متبوئة أسمى مكان .

* * *

الكتاب السابع

انهيار فرنسا الإقطاعية

١٧٧٤ – ٨٩

الفصل الرابع والثلاثون

البهاء الأخير

١٧٧٤ — ٨٣

١ — ورثة العرش : ١٧٥٤ — ٧٤

كان لويس السادس عشر الابن الثالث للدوفن لوى دفرانس . الذى كان الإبن الشرعى الوحيد للويس الخامس عشر . وقد لقب الدوفن بلويس البدين لأنه كان أكولا . وقد حاول التغلب على سمنته بالصيد، والسياحة ، وقطع الأشجار ، ونشر الخشب ، واشتغال بالحرف اليدوية[1]. واحتفظ طول حياته باحترامه للكنيسة ، وكان أعز أصدقائه هم القساوسة ، وكان شديد الخجل من فسق أبيه . وقد أدمن القراءة ، وقرأ فيما قرأ مونتسكيو وروسو ، وآمن بالرأى القائل « إن الملك ليس إلا الوكيل على موارد الدولة »[2]. وضن على نفسه برحلة خلال فرنسا، لأن « شخص بجملته لايساوى ما تكلفه الرحلة للشعب الفقير »[3]. ومما يجدر بالملاحظة أن الكثير من خلقه وعاداته وأفكاره تحدر إلى ولده لويس السادس عشر .

أما زوجته « مارى — جوزيف السكسونية ، المرأة الفاضلة الخلق ، القوية البدن ، فقد ولدت له ثمانية أطفال » ومنهم لوى — جوزيف ، دوق برجنديه « الذى قتل فى حادث عام ١٧٦١ ، ولوى — أوجست » دوق بيرى ، المولود فى ٢٣ أغسطس ١٧٥٤ « والذى سيصبح لويس السادس عشر » ولوى — ستانسلاس « كونت بروفانس ، المولود فى ١٧٥٥ ، والذى سيصبح لويس الثامن عشر ، ثم شارل — فليب ، كونت دارتوا ، المولود فى ١٧٥٧ ، والذى سيصبح شارل العاشر . فلما مات أبوهم عام ١٧٦٥ أصبح لوى — أوجست « البالغ أحد عشر عاماً ، وارثاً للعرش .

وكان غلاماً عليلا ، جباناً خجولا ، ولكنه اكتسب الصحة والعافية بفضل سنوات الحياة الريفية والطعام البسيط . وكان كأبيه فيه من الطيبة أكثر مما فيه من الذكاء . وكان يحسد أخوته على ذكائهم المتفوق ، وكانوا يتجاهلون تماماً كبر سنه . وإذ كان فيه من الحياء ما يمنعه من الرد على الهجوم فقد أغرق نفسه فى الرياضة والحرف ، فتعلم الرماية بمنتهى الدقة ، ومنافسة الصناع فى استعمال يديه وأدواته . وقد أعجب بمهارات الصناع الذين يخدمون القصر ، وأحب التحدث إليهم والعمل معهم ، واتخذ شيئاً من طباعهم وحديثهم . ولكنه أحب الكتب أيضاً . واستهواه فنيلون بنوع خاص ؛ وحين بلغ الثانية عشرة ركب مطبعة فى قصر فرساى ، وبمساعدة أخويه (وكانا فى التاسعة والحادية عشرة) جمع حروف مجلد صغير نشره فى ١٧٦٦ بعنوان « حكم أخلاقية وسياسية مستقاه من تلماك » ولم يحب جده لويس الخامس عشر هذه الحكم وقال « انظر إلى ذلك الولد الكبير ، سوف يكون القاضى على فرنسا وعلى نفسه ، ولكنى على أية حال لن أعيش حتى أرى ذلك »[٤] .

فكيف السبيل إلى تحويل هذا الأمير الصانع ملكاً ؟ أيمكن العثور على زوجة منبهة له تهبه الشجاعة والأباء ، وتلد له ملوكاً من البوربون المستقبل ؟ وأما الحاكم الحالى فكان فى شغل عن هذا بمدام دوبارى ، ولكن شوازيل وزير الخارجية تذكر أيامه التى قضاها فى بلاط فيينا ، وتذكر أرشيدوقة مرحة تدعى ماريا أنطونيا يوزيفا ، كانت آنئذ (١٧٥٨) فى الثالثة من عمرها ، فلعل زواجها من لوى — أوجست ينفخ روحاً جديدة فى ذلك الحلف النمسوى الذى أضعفه الصلح المفرد المبرم بين فرنسا وانجلترة (١٧٦٢) ، وكان الأمير فون كاونتز قد أسر بمثل هذه الأفكار للكونت فلوريمند مرسى دارجنتو ، وهو نبيل من لييج ذو ثراء عريض وقلب طيب ، وكان سفيراً للنمسا فى فرساى . واستمع لويس الخامس عشر للنصيحة التى أجمعا عليها ، وأرسل (١٧٦٩) رسمياً إلى ماريا تريزا يطلب يد ماريا أنطونيا للوى — أوجست وأسعد الإمبراطورة أن تبارك اتحاداً كانت هى نفسها قد خططت له منذ أمد بعيد . وأما الدوفن الذى لم يؤخذ رأيه فى الأمر ، فقد

قبل طائعاً هذا الاختيار الذى رتب له . وحين أنبىء بأن خطيبته أميرة حسناء ، قال فى هدوء « ليتها حسنة الخلال »(٥) .

ولدت بفيينا فى ٢ نوفمبر ١٧٥٥ . ولم تكن بالطفلة الوسيمة . فجبينها مفرط الارتفاع ، وأنفها مسرف فى الطول والتدبب ، وأسنانها غير منتظمة ، وشفتها السفلى غليظة . ولكن سرعان ما عرفت أن دمها أزرق ، فتعملت أن تمشى مشية من ولدت لكى تكون ملكة ، وأعادت الطبيعة بإكسير الشباب العجيب حين أدركت سن البلوغ لف جسمها لفاً ساحراً ، حتى غدت بشعرها الأشقر الحريرى ، وبشرتها الزنبقية الوردية ، وعينيها الزرقاوين العابثتين المتألقتين ، و « عنقها الإغريقى » على الأقل لقمة لذيذة لولى عهد ، ان لم تكن طبقاً شهياً لملك . وكان ثلاث من شقيقاتها الخمس اللاتى يكبرنها قد هيأت لهن الامبراطورة بدهائها زيجات لينة : فماريا كرستينا تزوجت الأمير ألبرت السكسونى ، الذى أصبح دوق ساكسى — تيشن ، وتزوجت ماريا أماليا فرديناند دوق بارما ، ودأصبحت ماريا كارولينا ملكة على نابلى . أما أخوهن يوزف فكان شريكاً فى حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان أخوهن ليوبولد غراندوقا لتسكانيا . فلم يبق لماريا أنطونيا غير أن تصبح ملكة على فرنسا .

ولقد أهملت بعض الشيء بوصفها أصغر أطفال ماريا تريزا الأحياء ، فلما بلغت الثالثة عشرة تعلمت بعض الإيطاليا ، ولكنها لم تكن تحسن كتابة الألمانية ولا الفرنسية . أما التاريخ فلم تعرف منه شيئاً تقريباً ، ولم تحرز فى الموسيقى غير تقدم متواضع مع أن جلوك كان معلمها . وحين قرر لويس الخامس عشر قبولها زوجة لحفيده أصر على أن تطعم ضد الجدرى ، وبعث بالأب فرمون ليحجل بتعليمها . وكان تقرير فرمون عنها أن « خلقها وقلبها ممتازان » وأنها « أذكى مما كان يظن عموماً » ولكنها « على شيء من الكسل » طائشة للغاية ، عسيرة التعليم . . . فهى لا ترغب فى التعليم إلا إذا سليت »(٧) ولكنها أحبت الرقص ، والعدو مع كلابها فى الغابات .

وكانت الإمبراطورة التي أضنتها الهموم عليمة بأنها تكل مصير الخاف لأبد أوهن من أن تضطلع بتبعة كهذه . وظلت طوال شهرين قبل ابرام الزواج المرتقب تأتي بماريا أنطونيا لتنام معها في حجرتها ، حتى تبث في ابنتها في جو أمسياتهما الحميم شيئاً من حكمة الحياة وفن الملك . وقد وضعت لها قائمة قواعد لتهدي سلوكها في الأخلاق والسياسة . وكتبت للويس الخامس عشر ترجوه أن يغضي عن مآخذ العروس العزيزة التي ستبعث بها لحفيده . أما ولي العهد فقد وجهت إليه رسالة تفيض باهتمام الأم المفرط ومخاوفها :

« اني لآمل أن تكون مبعث سعادة لك كما كانت مبعث بهجة لي . لقد نشأتها لهذا ، لأنني توقعت منذ أمد بعيد أنها ستشاركك حظك في الحياة . لقد بثثت فيها حباً لواجباتها نحوك ، ومودة رقيقة ، وقدرة على أن تعرف وتمارس وسائل إدخال السرور على قلبك . إن ابنتي ستحبك ، وأنا واثقة من هذا ، لأنني أعرفها . وداعاً يا دوفيني العزيز . كن سعيداً ، وأسعدها . . . أن الدموع تفيض مني . . . أمك الحنون »[٨] .

وفي ١٩ ابريل ١٧٧٠ ، في كنيسة الأوغسطينين بفيينا ، عقد بالوكالة قران الفتاة المتألقة الحسن ، الخلية البال ، البالغة أربعة عشر عاماً ، على لوي — أوجست ولي عهد فرنسا . واتخذ أخوها فرديناند مكان الدوفن .

وبعد يومين قادت قافلة من سبع وخمسين مركبة و ٣٦٦ جواداً ولية العهد مروراً بقصر شونبرون ، وودعتها الإمبراطورة الوداع الأخير ، هامسة لها أن « تكوني كريمة جداً مع الفرنسيين حتى يستطيعوا القول بأنني أرسلت لهم ملاكاً »[٩] . وضم الموكب ١٣٢ شخصاً — وصيفات ومصففات للشعر ، وخياطات ، وأتباعاً ، وكهنة القصر ، وجراحين ، وصيادلة ، وطباخين ، وخدماً ، وخمسة وثلاثين رجلا ليعنوا بالخيل التي كانت تبدل أربع مرات أو خمساً في اليوم خلال الرحلة الطويلة إلى فرنسا . وبعد ستة عشر يوماً وصل الموكب إلى كيل على الرين قبالة ستراسبورج . وعلى جزيرة في النهر استبدلت ماريا بثيابها النمساوية ثياباً فرنسية ، وتركها أتباعها النمسويون قافلين إلى فيينا ، وحل محلهم حاشية من السيدات والخدم الفرنسيين ، وأصبحت ماريا

أنطونيا منذ الآن مارى أنطوانيت . وبعد الكثير من المراسم أدخلت ستراسبورج بين قصف المدافع ورنين أجراس الكنائس وهتاف الشعب وبكت وابتسمت واحتملت المراسم الطويلة فى صبر ؛ فلما بدأ العمدة خطاباً بالألمانية قاطعته قائلة : « لا تتكلموا بالألمانية أيها السادة ، فمنذ الآن لا أفهم لغة غير الفرنسية » وبعد أن سمح لها الموكب بالراحة يوماً بدأ رحلته عبر فرنسا .

وكان الترتيب أن يذهب الملك وولى العهد مع كثير من الحاشية إلى كومبين على اثنين وخمسين ميلا شمال شرق باريس ليقابلوا موكب ولية العهد . ووصل الموكب فى ١٤ مايو . وقفزت العروس من مركبتها ، وجرت نحو لويس الخامس عشر ، وانحنت إلى الأرض ، وظلت كذلك حتى أقامها الملك وهدأها وطمأنها بعبارة كريمة « لقد أصبحت عضواً فى الأسرة ياسيدتى ؛ لأن لوالدتك روح لويس الرابع عشر »[١٠]. وبعد أن قبلها على وجنتيها قدمها إلى ولى العهد، الذى قبلها بالمثل ولكن ربما بلذة أقل . وفى ١٥ مايو بدأ الموكبان المجتمعان الرحلة إلى فرساى . وهناك ؛ فى ١٦ مايو ، أكد زفاف رسمى ذلك الزفاف بالوكالة الذى عقد قبل شهر . فى تلك الليلة أقيمت مأدبة عظيمة فى دار الأوبرا الجديدة ؛ ونبه الملك ولى العهد إلى أنه يفرط فى الأكل . فأجاب « إننى دائماً يحسن نومى بعد عشاء طيب» . وهذا ما حدث إذ أنه استغرق فى النوم بمجرد دخوله فراش الزوجية ،

وقد نام بهذه السرعة فى ليال متعاقبة ، وفى أصباح متعاقبة كان يستيقظ مبكراً لينطلق إلى صيده . وألمع مرسى دارجنتو إلى النمو السريع الحديث الذى طرأ على لوى — أوجست قد أخر تطوره الجنسى ، وأنه لا حيلة فى الأمر إلا الانتظار . وكتبت ماريا تريزا إلى ابنتها بعد أن أنبئت بالموقف تقول « كلاكما صغير جداً ! أما أثر هذا على صحتكما فكله يعمل للخير . وسيكسبكما مزيداً من القوة »[١١] . وزاد بعض أطباء ولى العهد الطين بلة بأنبائه بأن الرياضة والطعام الطيب سيحفزان نموه الجنسى ، ولكن حدث العكس ، فقد جعلاه أكثر بدانة وميلا للنعاس . وأخيراً ، وفى أواخر عام

١٧٧٠ ، حاول ولى العهد أن يحقق اكتمال الزواج بالدخول على زوجته ، ولكنه فشل ، وكانت النتيجة الوحيدة للمحاولة ألماً مخيباً للآمال . وأبلغ كونت أراندا ، السفير الإسبانى ، مليكه بالآتى « يقولون إن عائقاً تحت القلفة يجعل محاولة الجماع مؤلمة جداً » أو « أن القلفة سميكة جداً بحيث لاتستطيع التمدد بالمرونة اللازمة للانتصاب »[١٢] . واقترح الجراحون إزالة العائق بجراحة شبيهة بالختان ، ولكن ولى العهد رفض[١٣] وكرر محاولاته ، دون أن يبلغ من ورائها إلا الإثارة والإذلال له ولزوجته . وظل الموقف على الحال . وعمق إحساس ولى العهد بقصوره الزوجى شعوره بالنقص ، ولعل هذا الشعور شارك فى جعله ملكاً كثير التردد عديم الثقة بنفسه .

وأغلب الظن أن سنى الإحباط الزوجى السبع هذه أثرت فى خلق مارى أنطوانيت وسلوكها . وذلك أنها كانت عليمة بأن رجال البلاط ونساءه يسخرون من سوء طالعها ، وأن أكثر فرنسا ترميها بالعقم وهى تجهل السبب . ومن ثم فقد آست نفسها بزيارات للأوبرا أو المسرح فى باريس ، وأسرفت فى لبس الثياب الفاخرة الغالية ، وتمردت على الاختلاط الكثير بالبلاط بكل مراسمه وبروتوكوله ، وآثرت الصداقات الحميمة مع نفوس متعاطفة مثل الأميرة لامبال . وظلت طويلا تأبى الحديث إلى مدام دبارى ، إما لاشمئزازها من أخلاقها وإما بدافع الحسد لأن امرأة أخرى تظفر بالحب هذا الظفر الكبير ويكون لها هذا النفوذ القوى على الملك .

وفى ١٠ مايو ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر . واندفعت الحاشية إلى مسكن ولى العهد . فوجدوه هو وولية العهد راكعين وهما يبكيان ويصليان . وقال الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً وهو يبكى « اللهم احمنا ! فنحن أصغر من أن نحكم ! » وقال لصديق ، « يا له من عبء ! إننى لم أتعلم شيئاً ، وإنى لأشعر كأن الكون سيسقط فوقى »[١٤] . وفى جميع أرجاء فرساى وباريس ، ثم إلى أبعد ماسرى النبأ فى فرنسا ، هتف الرجال والنساء « مات الملك ، يحيى الملك ! » وكتب باريسى متفائل على تمثال لهنرى الرابع هذه الكلمة « قام »[١٥] ، لقد قام الملك العظيم من بين الأموات لينقذ فرنسا مرة أخرى من الفوضى والفساد والإفلاس والهزيمة .

٢ — الحكومة

ترى ماذا كان خطب الحكومة ؟ إنها لم تبلغ في إستبدادها مابلغته حكومة بروسيا ، ولا في فسادها ما بلغته حكومة انجلترة ، وكان جهازها البيرقراطي وإدارتها الإقليمية يضمان نفراً من الرجال الأفاضل وكثيراً من الرجال الأكفاء . ومع ذلك أخفقت ملكية البوربون في أن تلاحق تطور الشعب الاقتصادي والفكري . ونشبت الثورة في فرنسا بأسرع مما نشبت في غيرها لأن الطبقات الوسطى كانت قد بلغت شأواً من الذكاء أبعد مما بلغته في أي أمة معاصرة أخرى ، وفرض فكر مواطنيها اليقظ المتنبه مطالب على الدولة أكثر حدة مما كان على أي حكومة في ذلك العصر أن تلبيه .

وكان فردريك الثاني ويوزف الثاني ، وكلاهما نصير متحمس للفلسفة والملكية المطلقة ، قد أدخلا في الإدارة السياسية لبروسيا والنمسا قدراً من النظام والكفاية لم يكن وقتها متوافراً في بلد كفرنسا يحب الاسترخاء واليسر اللاتينيين . « واستشرى الاضطراب والفوضى في كل مكان »[١٦] ، ففي فرساي تنازع مجلس الملك في اختصاصه مع الوزراء ، الذين تنازعوا فيما بينهم لأن وظائفهم تداخلت ولأنهم تنافسوا على الأموال العامة ذاتها ، ولأنه لم تفرض عليهم من فوق سلطة توفق بين سياساتهم . وانقسمت الأمة في ناحية إلى دوائر Bailliages أو Senechaussees في مجال القضاء ، وفي أخرى إلى أقسام مالية (geanéralités) في المالية ، وفي ناحية ثالثة إلى إدارات (gouvernements) في الجيش ، وفي رابعة إلى أبرشيات paroisses وأقاليم provinces في الكنيسة . وفي كل قسم مالي كان الناظر الملكي يصطدم بالحاكم و « البرلمان » الإقليمي . وفي جميع أرجاء فرنسا اصطدمت مصالح المنتجين الريفيين مع مصالح المستهلكين الحضريين والأغنياء مع مع الفقراء ، والنبلاء مع البورجوازيين ، والبرلمانات مع الملك ، ومست الحاجة إلى قضية موحدة للصفوف وإرادة آمرة ، ولم تتوفر القضية إلا في ١٧٩٢ ، ولا الإرادة إلا في ١٧٩٩ .

وكان القانون من أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية ، ومع ذلك كان القضاة من أفضلها . واتبع جنوب فرنسا القانون الرومانى ، وشمالها القانون العام والإقطاعى . يقول دتوكفيل « إن العدالة كانت معقدة ، مكلفة ، بطيئة »[١٨] — رغم أن هذه شكوى عامة فى جميع البلاد . وكانت السجون قذرة ، والعقوبات وحشـــية ، والتعذيب القضائى ظل مسموحاً به فى ١٧٧٤ . وكان القضاة غير قابلين للعزل ، منصفين غير قابلين للرشوة عادة . وقد ذهب السر هنرى مين إلى أن رجال القضاء فى فرنسا « من حيث جميع الصفات المطلوبة فى المحامى ، والقاضى ، والمشرع ، يبزون كثيراً نظراءهم فى طول أوربا وعرضها »[١٩]. وكانوا يشغلون مناصبهم مدى الحياة « ومن حقهم توريثها لأحد الأبناء . ووجد أكفأهم طريقه إلى البرلمانات الإقليمية » واختير أغناهم وأعظمهم نفوذاً أعضاء فى برلمان باريس . وما وافى عام ١٧٧٤ حتى كانت طبقة « نبلاء الرداء القضائى» — أى القضاه الوراثيون قد انتهت إلى اعتبار نفسها مساوية إلا أقل قليلا لطبقة « نبلاء السيف » فى الكرامة والاستحقاق . ولم تسمح بعضوية البرلمانات إلا لمن ولدوا فى إحدى الطبقتين الاستقراطيتين.

كان من رأى مونتسكيو أن « الهيئات الوسيطة» بين الملك والشعب هى كوابح مفيدة على السلطة الأوتقراطية ، وحدد قوتين من هذه الهيئات هما النبلاء ملاك الأراضى والقضاه ولكى تقوم البرلمانات بهذه الوظيفة الكابحة طالبت بسلطة التصديق (أو التسجيل) على أى مرسوم ملكى ، أو رفضه حسبما يتفق فى رأيها أو يتعارض مع القوانين والحقوق الراسخة . وأعربت عدة برلمانات إقليمية ، خصوصاً برلمانات جرينوبل ، وروان ، ورين ، عن مبادىء شبه ديمقراطية ، أحياناً بعبارات مقتبسة من روسو عن « الإرادة العامة » و « الموافقة الحرة للأمة » ، من ذلك أن برلمان رين أعلن فى ١٧٨٨ « أن الإنسان ولد حراً » وأن الناس فى الأصل متساوون ؛ و « أن هذه الحقائق ليست فى حاجة إلى إثبات»[٢٠]، على أن البرلمانات كانت بوجه عام المدافع القوى عن فوارق الطبقات وامتيازاتها . وقد شاركت نزاعاتها مع السلطة الملكية فى الإعداد للثورة ، ولكن حين اقتربت الثورة انحازت إلى النظام القديم » وسقطت بسقوطه .

وكانت السلطة الملكية من الناحية النظرية مطلقة . فالملك وفقاً للتقليد البوربونى هو المشرع الأوحد ، وهو السلطة التنفيذية الرئيسية ، وهو المحكمة العليا ، فى استطاعته أن يأمر بالقبض على أى شخص فى فرنسا وحبسه إلى أجل غير مسمى دون إبداء السبب أو السماح بمحاكمته ، وحتى لويس السادس عشر الرقيق القلب كان يرسل من قصره أوامر الاعتقال المختومة هذه . وكان الملك قد ورث مؤسسة غالية التكلفة ، تعد نفسها هيئة لا غنى عنها لإدارة الحكومة وهيبتها . ففى ١٧٧٤ كان بلاط فرساى يضم الأسرة المالكة و ٨٨٦ نبيلا ، هم ونساؤهم وأبناؤهم ، يضاف إليهم ٢٩٥ طاهياً ، و ٥٦ صياداً ، و ٤٧ موسيقياً وثمانية معماريين ، وأشتات من السكرتيرين ، وكهنة القصر ، والأطباء والسعاة والحراس . . . ، يبلغون فى مجموعهم ستة آلاف شخص ، مع عشرة آلاف جندى يرابطون عن كثب . وكان لكل عضو فى الأسرة المالكة بلاطه أو بلاطها الخاص ، وكذلك كان لبعض النبلاء الممتازين ، أمثال أمير كونديه وأمير كونتى ودوق أورليان ودوق بوربون . واحتفظ الملك بعدة قصور — فى فرساى ، ومارلى ، ولا مويت ، وموديون ، وشوازى ، وسان — أوبير ، وسان — جرمان ، وفونتنبلو ، وكومبيين ، ورامبوييه . وكان من المألوف أن ينتقل من قصر إلى آخر ، بعض الحاشية الذين يحتاجون إلى المسكن والطعام ، وفى ١٧٨٠ بلغت نفقات مائدة الملك ٣,٦٦٠,٤٩١ جنيهاً [٢١] .

وكانت رواتب موظفى البلاط معتدلة ، ولكن المنح والعلاوات كانت مطاطه ؛ من ذلك أن المسيو أوجار — وكان سكرتيراً فى إحدى الوزارات — لم يجاوز راتبه تسعمائة جنيه فى العام ، ولكنه اعترف بأن الوظيفة غلت له كل عام ٢٠٠,٠٠٠ جنيه خالصة . وغلت عشرات الوظائف الشرفية المال لأعضاء الحاشية بينما كان العمل يؤديه مرءوسوهم ، مثال ذلك أن مسيو ماشو كان يقبض ثمانية عشر ألف جنيه نظير التوقيع بإسمه مرتين فى العام[٢٢] . وأجريت عشرات المعاشات التى بلغت جملتها ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام على النبلاء ذوى النفوذ أو محاسيبهم[٢٣] . وكانت عشرات الدسائس تدبر لتقرير المحظوظ الذى سيظفر بكرم الملك وسخائه الطائش. وكان يتوقع منه

أن يعين الأسر النبيلة القديمة التي أعسرت ، وأن يقدم المهور لبنات النبلاء عند زواجهن . وكان كل من أبناء لويس الخامس عشر الأحياء يتلقى ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ جنيه في العام . وكان راتب كل وزير دولة يرقى إلى ١٥٠,٠٠٠ جنيه في العام ، إذ كان المفروض فيه أن يفتح باب الضيافة على مصراعيه . كل هذا السفه في الإنفاق ، وكل هذه المعاشات « والهبات ، والرواتب ، والمناصب الشرفية » كانت تدفع من إيرادات تؤخذ من حياة الأمة الاقتصادية . وقد كلف البلاط فرنسا مبلغاً جملته خمسون مليون جنيه في العام — وهو عشر مجموع إيراد الحكومة [٢٤] .

٣ — الملكة العذراء

وكانت ماري انطوانيت أكثر أعضاء البلاط إسرافاً . ذلك أنها وقد ارتبطت بزوج عنين ، وحرمت الرومانس « ولم تشغلها علاقات غرامية » راحت تتسلى حتى عام ١٧٧٨ بالغالي من الثياب « والجواهر ، والقصور » والأوبرات ، والمسرحيات ، والمراقص . وكانت تخسر الثروات في القمار ، وتهب الثروات للمحاسيب في كرم متهور . وقد أنفقت ٢٥٢,٠٠٠ جنيه على ثيابها في عام واحد (١٧٨٣)[٢٥] ، وأتاها مصممو الأزياء بالغريب الطريف من الأثواب المسماة « المباهج الطائشة » أو « العلامات المكبوتة » أو « الرغبات المقنعة »[٢٦] . وكان مصففات الشعر يعكفن الساعات فوق رأسها يصعدن شعرها حتى يبلغ ارتفاعات يبدو ذقنها فيها وقد توسط قامتها ، وقد قررت هذه « التسريحة العالية » ، كما قررت معظم الأشياء التي ابتدعتها ، زي نبيلات البلاط ، فزي باريس ، فزي عواصم الأقاليم .

أما شغفها بالحلي والمجوهرات فقد أوشك أن يكون هوساً . ففي ١٧٧٤ ابتاعت من بومر ، وهو الجواهري الرسمي للتاج ، أحجاراً كريمة قيمتها ٣٦٠,٠٠٠ جنيه[٢٧] . وأهداها لويس السادس عشر طقماً من العقيق ، والماس والأساور ، ثمنه ٢٠٠,٠٠٠ جنيه[٢٨] . وفي ١٧٧٦ كتب مرسى دارجنتو إلى ماريا تريزا يقول : « مع أن الملك أعطى الملكة في شتى المناسبات ما يساوي أكثر من ١٠٠,٠٠٠ « ايكو » من الماس ، ومع أن جلالتها تملك

الآن مجموعة هائلة ، إلا أنها مصممة على شراء حلق على شكل الثريا من بومر . ولم أخف عن جلالتها أنه كان أحكم فى الظروف الاقتصادية الراهنة لو تجنبت هذا الإنفاق الباهظ ، ولكنها لم تستطع مقاومة رغبتها — وإن أجرت الصفقة فى حذر مخفية أمرها عن الملك »(٢٩) .

وبعث ماريا تريزا إلى ابنتها بتوبيخ صارم ، واكتفت الملكة بالتزين بحليها فى المناسبات الرسمية فقط ، ولكن الشعب لم يغتفر لها قط هذا التبذير المفرط فى ضرائبه ، وبعد حين سيصدق أنها وافقت على شراء القلادة الماسية الشهيرة .

أما الملك فقد أغضى عن مواطن الضعف فى زوجته لأنه كان يعجب بها ويحبها ، ولأنه كان شاكراً لها صبرها على عجزه الجنسى . فدفع لها ديون القمار التى استدانتها من جيبه الخاص وشجع زياراتها لأوبرا باريس ، وإن علم أن مرحها المعلن على الملأ يزعج شعباً ألف فى ملوكه الوقار والحشمة ، ودفعت الحكومة نفقات ثلاث حفلات مسرحية ، وحفلتى رقص ، وعشائين رسميين فى البلاط مرتين كل أسبوع تقريباً ، يضاف إلى هذا أن الملكة كانت تحضر المراقص المقنعة فى باريس أو فى البيوت الخاصة ، لقد كانت هذه السنوات ١٧٧٤ — ٧٧ فترة تبديد وإسراف على حد قول أمها بصراحة . وإذ كانت الملكة لاتجنى من وراء مغازلات زوجها فى الليل سوى الرغبة توقظ دون إشباع ، فقد شجعته على النوم مبكراً (مقدمة ساعة الحائط أحياناً لتعجل ذهابه للفراش) حتى تستطيع مشاركة الأصحاب ألعاباً قد تمتد الليل بطوله . وكانت زاهدة فى الأدب ، واهتمامها بالفن قليل ، وأكثر منه اهتمامها بالدراما والموسيقى ، وكانت تجيد الغناء والتمثيل وتعزف على الهارب ، وتؤدى بعض صوناتات موتسارت على الكلافيكورد (٣٠) .

وبين هذه العيوب جميعها كان واحد فقط عيباً جوهرياً — ذلك هو التبذير الطائش نتيجة للسأم والإحباط ، ولطفولة وصبى ألفا الترف وجهلا الفقر . وقد زعم الأمير لين (الذى ربما كان فيه من صفات الجنتلمان أكثر

مما فيه من صفات المؤرخ) أنها ما لبثت أن تخلصت من شغفها بالثياب الغالية ، وأن خسائرها فى القمار بولغ فيها ، وأن ديونها ترجع إلى سخائها غير الحكيم بقدر ما ترجع إلى إنفاقها الطائش[٣١]. وناصبها البلاط والصالونات العداء لأنها نمساوية ، ولم يكن الحلف مع النمسا من قبل محبوباً على الإطلاق . وكانت مارى أنطوانيت ، التى لقبت بـ « النمساوية » تجسيداً لذلك الحلف ، وقد اشتبه الفرنسيون ، ولهم بعض الحق ، فى أنها تخدم المصالح النمساوية ، على حساب فرنسا أحياناً . ولكن حتى مع هذا ، فإن حيويتها الشابة ، ومرحها ورقة قلبها ، كلها كسبت قلوباً كثيرة . حدث مرة أن جاءت مدام فيجيه — لبرون ، الحبلى منذ شهور كثيرة ، لتصورها (١٧٧٩) ، وبينما كانت المصورة كاكفة على رسمها أسقطت بعض أنابيب الألوان ، وللتو قالت لها الملكة ألا تنحنى ، « لأنك بعيدة جداً عنها » ثم التقطت بنفسها الأنابيب[٣٢]. وكانت أنطوانيت ترعى مشاعر غيرها عادة ، ولكنها أحياناً ، فى مرحها الطائش كانت تضحك من لازمات غيرها أو عيوبهم . وكانت تستجيب بغاية السرعة لكل رجاء ، « أنها لم تعرف بعد خطر الاستسلام لكل دافع كريم »[٣٣] .

مثل هذه المخلوقة المفعمة حيوية ، والتى كانت الحياة والحركة عندها مرادفين ، لم تخلق لخطو مراسم البلاط ، ذلك الخطو البطىء الحذر . وسرعان ما تمردت عليه ، والتمست البساطة واليسر فى المبنى تريانون وحوله ، وكان على ميل من قصر فرساى . وفى ١٧٧٨ أهدى لويس السادس عشر الملكة هذا الملتى ملكاً خالصاً لها ، تستطيع أن تخلو فيه مع أخصائها ، ووعد لويس أنه لن يتطفل عليهم إلا إذا دعى . ولما لم يكن فى المبنى غير غرف ثمان ، فقد أمرت الملكة ببناء بعض الأكواخ بقربه لأصحابها وخططت لها الحدائق المحيطة به على النمط « الطبيعى » — ممرات ملتفة ، وأشجار منوعة ، ومخابىء ، وجدول حمل إليه الماء فى أنابيب من مارلى بتكلفة غالية . ولاستكمال حلم روسو فى العودة إلى الطبيعة أمرت بإقامة ثمانى مزارع صغيرة فى الحديقة الملاصقة ، لكل منها كوخها الريفى ، وأسرتها الفلاحة ، وكوم سباخها ، وأبقارها . هناك كانت تقلد راعيات الغنم فتلبس عباءة بيضاء ،

ومنديلا من الشاش ، وقبعة من الخوص ، وكانت تحب أن ترى اللبن يحلب بالملاطفة من خير الضروع فى آنية من برسلان سيفر . وكانت هى وأصدقاؤها يعزفون أو يلعبون ألعاباً داخل البيتى تريانون ، وعلى الحائل يولمون الولائم للملك أو لكبار الزوار . وهناك وفى القصر الملكى أيضاً . كانت الملكة تخرج المسرحيات التى تلعب أدواراً هامة فى بعضها — كدور سوزان فى « زواج فيجارو» . ودور كوليت فى «عراف القرية» فتبهج الملك بتنوع مواهبها وجاذبيتها .

فلما خشيت تقول المتقولين إن هى أسرفت فى حرية الاختلاط بالرجال ، كونت مع بعض النساء صداقات حميمة بلغت من الوثاقة ما وجه النميمة وجهة أخرى . فجاءت أولا مارى — تريز وسافوا — كارنيان ، أميرة لامبال ، الرقيقة ، الحزينة ، الهشة . وكان قد انقضى عليها سنتان فى ترملها مع أنها لم تجاوز الحادية والعشرين . وكان زوجها — وهو ابن دوق بنتييفر حفيد لويس الرابع عشر — يعاشر الخليلات ويختلف إلى المومسات بعد زواجه بقليل ، فأصيب بالزهرى ومات به بعد أن اعترف بآثامه لزوجته فى تفصيل مقزز . ولم تفق قط من المحنة الطويلة التى ابتلاها بها ذلك الزواج ، وظلت تعانى من التقلصات العصبية ونوبات الإغماء حتى مزقها ارباً جمهور من غوغاء الثورة فى ١٧٩٢ — وانعطفت مارى أنطوانيت نحوها بدافع الشفقة أول الأمر ، ثم تعلمت أن تحبها حباً حاراً ، فتلقاكما كل يوم ، وتكتب لها رسائل الإعزاز مرتين فى اليوم أحياناً . وفى أكتوبر ١٧٧٥ عينت الأميرة مشرفة على بيت الملكة ، وأقنعت الملك رغم اعتراضات طورجو بأن يقرر لها راتباً سنوياً قدره ١٥٠,٠٠٠ جنيه . ثم كان للأميرة أقرباء وأصدقاء ، التمسوا منها أن تستخدم نفوذها لدى الملكة ، وعن طريقها لدى الملك ، لنيل المناصب أو الهبات . وبعد عام تركت أنطوانيت محبتها لها تذبل واتخذت صديقة أخرى .

وكانت هذه الصديقة الجديدة ، واسمها يولاند دبولا سترون زوجة الكونت جول دبوليناك ، عريقة المنبت رقيقة الحال ، كانت حلوة ، صغيرة الجسم ، طبيعية . وما كان أحد ليخامره الظن إذا رآها بأن فيها هذا الشره

للمال الذى أيأس طورجو من موازنة الميزانية ما دامت الملكة تجد متعة فى صحبتها الظريفة . فلما قاربت الكونتيسة موعد الوضع أقنعتها الملكة بأن تنتقل إلى لاموييت ، وهى فيللا ملكية بقرب قصر فرساى ، وهناك كانت تزورها كل يوم حاملة إليها الهدايا دائماً تقريباً . فلما أصبحت الكونتيسة أماً لم تضن عليها الملكة بشىء ، : ٤٠٠,٠٠٠ جنيه لتسوية ديونها « ومهر لابنتها قدره ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، وسفارة لأبيها ، ومال ، وحلى ، وفراء ، وتحف فنية لشخصها ، وأخيراً (١٧٨٠) دوقية وضيعة بيتش ، لأن الكونت كان تواقاً لأن يصبح دوقاً . وقال مرسى دارجنتو للملكة آخر الأمر أنها تستغل ، وأن الدوقة الجديدة لاتبادلها حبها ، واقترح على الملكة ، التى وافقت على اقتراحه ، أن تطلب إلى مدام دبولنياك على سبيل الامتحان أن تطرد من بطانتها الكونت دفودروى الذى كانت انطوانيت تمقته ، فأبت المدام ، وانصرفت أنطوانيت عنها إلى صداقات أخرى . وهكذا انضم آل بولنياك إلى صفوف أعدائها ، وأصبحوا مصدراً للافتراءات التى لوثت بها الحاشية وكتاب الكراريس اسم الملكة .

وكان كل شىء تقريباً تأتيه يخلق لها الأعداء . فأفراد الحاشية يتحسرون على الهبات التى تغدقها على محاسيبها ، لأن هذا معناه أن يقل عطاؤهم ، وشكوا من أنها أكثرت الغياب عن مهامها فى البلاط حتى فقدت هذه المهام بهاءها وقل الإقبال على حضورها . ولامها الآن كثيرون ممن عابوا من قبل غرامها القديم بالثياب الغالية ، لأنها قررت زياً جديداً تميز ببساطة الملبس . وقالوا أن هذا نذير بإفلاس تجار الحرير فى ليون وخياطى باريس[٣٤] . وكانت قد أقنعت الملك بإقالة الدوق دجيون (١٧٧٥) الذى تزعم أنصار مدام دوبارى ، وكان للدوق متعاطفون كثيرون ، كونوا نواة أخرى من الأعداء . وبعد عام ١٧٧٦ شن كتاب الكراريس الباريسيون على الملكة حملة قدح قاس لا هوادة فيه[٣٥] — وكان كثير منهم يتلقون المعلومات والمال من بعض الحاشية[٣٦] ، فوصفها بعض الكتاب بأنها الخليلة ، فى وقت أو آخر ، لكل ذكر موجود فى فرساى[٣٧] . وقد تساءلت كراسة عنوانها « تأنيب للملكة » . كم مرة تركت فراش الزوجية وقبلات زوجك لتسلمى نفسك للباخوسيات أو السواطير ولتندمجى معهم فى متعهم الوحشية ؟ »[٣٨] .

وصورت كراسة أخرى تبذيرها بوصف حائط فى البتى تريانون زعمته مكسوا بالماس[٣٩] . واتهمتها الشائعات بأنها قالت خلال حوادث الشغب التى وقعت بسبب شح الخبز عام ١٧٨٨ « إذا لم يكن لديهم خبز فليأكلوا كعكاً » ، ويجمع المؤرخون على أنها لم تذنب قط بقول تلك الملاحظة القاسية[٤٠] ، فهى على العكس أسهمت بسخاء من جيبها الخاص فى التخفيف عن الشعب . وأشد وأنكى حتى من هذا كله ما شاع وذاع بين الجماهير من أنها عاقر . تقول مدام كمبان الوصيفة الأولى لمخدع الملكة :

« حين ولد ابن للكونت دارتوا عام ١٧٧٧ ، تبع نساء السوق وبائعات السمك الملكة حتى باب مسكنها ذاته ، مؤكدات حقهن فى الدخول إلى القصر الملكى فى مناسبات الولادات الملكية ، وطفقن يصحن بأشد العبارات غلظة وسوقية قائلات أن من واجبها هى ، لا سلفتها ، أن تأتى بورثة للتاج الفرنسى . وعجلت الملكة بإغلاق بابها دون هؤلاء العجائز الشكسات الوقحات . واعتكفت فى حجرتها معى تنتحب حظها التعس »[٤١] .

فأنى لها أن تشرح للشعب أن الملك عنين ؟

وانتظرت فرنسا امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ليأتى ويزيل هذه العقدة . وفى ابريل ١٧٧٧ وصل يوزف الثانى فرساى متخفياً تحت اسم الكونت فون فالكنشتين . ووقع فى غرام الملكة ، وقال لها « لو لم تكونى أختى لما ترددت فى أن أتزوج ثانية ليكون لى رفيق ساحر مثلك »[٤٢] . ثم كتب لشقيقهما ليوبولد يقول :

« لقد أنفقت معها الساعة تلو الساعة ، دون أن ألحظ مرور الزمن ... أنها امرأة ساحرة نبيلة ، مازالت صغيرة بعض الشيء ، طائشة قليلا ، ولكنها فى صميمها كيسة فاضلة . . كذلك فيها جرأة ورهافة أدهشتانى ، واستجابتها الأولى صائبة دائماً ، ولو أنها أطاعتها . . . واهتمت اهتماماً أقل بالقيل والقال . . . لبلغت مرتبة الكمال . ولها رغبة قوية فى متع الحياة ، ولما كانت ميولها معروفة ، فإن ضعفها يستغل . .

« ولكنها لاتفكر إلا فى متعتها ، ولا تحب الملك ، وقد ثملت بإسراف

هذا البلد . . . وهى تسوق الملك بالقوة لأشياء لا يريد فعلها . . . فهى باختصار لاتؤدى واجبات الزوجة أو الملكة »[٤٣] .

وقد أوضحت السبب فى أنها والملك ينامان فى حجرتين منفصلتين ، فهو يحب النوم مبكراً ، وقد وجد كلاهما من الحكمة تجنب الإثارة الجنسية . وزار يوزف الملك وأحبه كثيراً . وكتب ليوبولد يقول « هذا الرجل فيه ضعف ولكنه ليس أبله . فله أفكار وحكم سديد ، ولكن عقله وجسمه فاتران . وهو يتحدث بشكل معقول ، ولكن ليس بهرغبة فى التعلم ولا حب للاستطلاع . والواقع أن لحظة « انطلاق النور » لم تأت بعد ، والأمر لا زال مفتقراً إلى الشكل »[٤٤] . وتحدث الإمبراطور إلى لويس حديثاً لم يجرؤ أحد من قبل على مصارحته به ، فأشار إلى أن العائق فى قلفة الملك يمكن إزالته بجراحة بسيطة وإن كانت مؤلمة ، وأن على الملك لوطنه ديناً هو أن ينجب أبناء ، ووعد لويس بأن يستسلم لمبضع الجراح .

وقبل أن يغادر يوزف فرساى كتب ورقة « تعليمات» للملكة . وهى وثيقة جديرة بالتنويه .

« إنك تكبرين ، ولم يعد لك عذر من صغر السن . فما مصيرك إذا أخرت (صلاح أمرك) أكثر من هذا ؟ . . فحين يعانقك الملك ، وحين يتحدث إليك ، ألا تبدين الضيق ، بل حتى النفور ؟ هل خطر ببالك يوماً أى أثر لا بد أن تخلفه فى الشعب . . . علاقاتك الحميمة وصداقاتك ؟ . . . هل وزنت النتائج الرهيبة لألعاب الحظ . وما تجمع من أصحاب وما يضربونه من مثل ؟ . . . » .

وقال عن ولعها بالمراقص التنكرية فى باريس :

لم الاختلاط بحشد من الفاسقين ، والمومسات ، والأغراب ، تستمعين إلى ملاحظاتهم ، وربما تبدين مثلها ؟ يا له من تبذل ؟ . . . إنك تتركين الملك وحيداً الليل كله فى فرساى بينما تندمجين فى المجتمع وتخالطين أوشاب الباريسيين؟ إننى فى الحق أرتعد خوفاً على سعادتك ، لأن هذا لا يمكن أن

يؤول إلى خسيرك فى المدى الطويل ، وستنشب ثورة قاسية ما لم تتخذى الخطوات لتجنبها »[٤٥] .

وتأثرت الملكة من لومه . فكتبت إلى أمها بعد رحيله : « لقد ترك رحيل الإمبراطور فراغاً لا أستطيع ملأه ، ولقد كنت سعيدة جداً خلال تلك الفترة القصيرة حتى ليبدو الأمر كله وكأنه حلم من الأحلام . ولكن الشيء الذى لن يكون حلماً عندى هو كل النصيحة الحكيمة . . . التى بذلها لى ، والتى نقشت على صفحة قلبى إلى الأبد »[٤٦]. على أن الذى أصلحها حقاً لم تكن النصيحة بل الأمومة . ذلك أن لويس استسلم فى ذلك الصيف من عام ١٧٧٧ ، ودون مخدر من أى نوع فيما يبدو ، لجراحة نجحت نجاحاً تاماً . واحتفل بعيد ميلاده الثالث والعشرين (٢٣ أغسطس ١٧٧٧) باستكمال علاقته الزوجية فى النهاية . وكان فخوراً سعيداً . وأسر لعمة عذراء قائلا « أننى أستمتع كثيراً بهذه اللذة ويؤسفنى حرمانى منها هذا الزمن الطويل »[٤٧]. على أن الملكة لم تحبل إلا فى ابريل ١٧٧٨ . وأنهت النبأ إلى الملك بطريقتها المرحة : « مولاى ، لقد جئت أشكو إليك أحد رعاياك الذى بلغت به الجرأة أن يرفسنى فى بطنى »[٤٨] . فلما أدرك لويس المعنى الذى ترمى إليه ضمها بين ذراعيه . وراح الآن أكثر من أى وقت مضى يستجيب لنزواتها ويمنحها كل سؤل لها . وكان يزور مسكنها عشر مرات فى اليوم ليطلع على آخر بلاغ عن سير الوريث المرتقب . وقالت مارى أنطوانيت للملك وقد طرأ عليها تحول جسدى ونفسى غامض « منذ الآن أريد أن أعيش حياة غير التى عشتها من قبل . أريد أن أحيا حياة أم ، وأرضع طفلى ، وأكرس نفسى لتربيته »[٤٩] .

وبعد معاناة شديدة ، زادتها شدة قابلة تفتقر إلى المهارة ، وضعت الملكة فى ١٩ ديسمبر ١٧٧٨ وأسف الوالدان على أن الوليد بنت ، ولكن أسعد الملك أن مغاليق الحياة فتحت ، وكان على ثقة من أن الإبن قادم فى الوقت المناسب . أما الأم الشابة فقد اغتبطت لأنها حققت ذاتها فى نهاية المطاف . وكتبت لماريا تريزا فى ١٧٧٩ (وكانت الأم فى بداية عامها الأخير) تقول : « لماما العزيزة أن ترضى كل الرضى عن سلوكى . وإذا

كنت ملومة فى الماضى ، فالسبب أننى كنت غرة طائشة . أما الآن فإننى أكثر تعقلا ، وأنا شديدة الوعى بواجبى »[٥٠]. ولم يصدق البلاط ولا الشعب ، ولكن — كما كتب الكونت سيجور « من الحقائق المسلم بها أنها بعد مولد طفلها الأول بدأت شيئاً فشيئاً تعيش حياة أكثر انتظاماً » وتشغل نفسها على نحو جاد . وهى أشد حرصاً على تجنب أى شىء من شأنه أن يثير القيل والقال . . . وحفلاتها المرحة أقل عدداً ، وأقل صخباً . . . والإسراف يخلى مكانه للبساطة » والأرواب الفاخرة تحل محلها الفساتين التيلية الصغيرة »[٥١] ، ولقد كان جزءاً من العقاب الطويل الذى عوقبت به مارى أنطوانيت أن شعب فرنسا أبى أن يدرك أن الفتاة المدللة المستهترة قد غدت أما حنوناً حية الضمير . فلا شىء يضيع هباء ، ولكن كل شىء لابد أن يدفع ثمنه .

وكانت عليمة بأن القانون الفرنسى يحرم النساء من العرش . لذلك رحبت بالحمل الثانى ، وتمنت على الله ولداً . ولكنها عانت من سقط بلغ من شدته أنه أفقدها معظم شعرها[٥٢] . ولكنها كررت المحاولة ، وفى ٢٢ أكتوبر ١٧٨١ ولدت غلاماً سمى لوى — جوزف — زافير . وتشكك الساخرون فى نسب الطفل ، ولكن الملك السعيد ضرب عنهم صفحاً وصاح « ولدى الدوفن ! ولدى ! » .

٤ — الملك الطيب (٥٤)

كان لويس النقيض لزوجته فى كل شىء إلا السن . كانت رشيقة ، سريعة الخاطر ، خفيفة الحركة ، لعوبا ، مندفعة ، جياشه ، طائشة ، مسرفة ، مؤكدة لذاتها ، متكبرة ، ملكة دائماً ؛ وكان بطىء الحركة ، بليداً ، متردداً ، رزيناً ، هادئاً ، كادحاً ، مقتصداً ، متواضعاً ، عديم الثقة بنفسه ، كل ما فيه ينطق بأنه ليس ملكاً . كان يحب النهار ، وعمله ، وصيده ، وكانت تهوى الليل ، ومائدة القمار ، والمرقص . ومع ذلك لم يكن زواجهما بالزواج التعس بعد سنوات التجربة الأولى تلك ، فقد كانت الملكة وفية لزوجها ، والملك شغوفاً بزوجته ، وحين جاء الحزن أحكم الجمع بينهما فى شخص واحد .

كانت قسماته سوية ، ولعله كان يكتسب الوسامة لو حد من وزنه . وكان طويل القامة « خليقاً بأن يكون له سمت الملوك لولا أن شاب مشيته كتفان متأرجحتان وخطوة ثقيلة . وكان يشكو ضعفاً فى بصره زاده ارتباكاً وثقل حركة ، وندر أن كان شعره منتظماً . ذكرت مدام كمبان أن « شخصه كان مهملا جداً »[٥٤] وكان مفتول العضـــل قوى البدن ، وقد رفع مرة أحد أتباعه بذراع واحدة . وكان نهما ، معتدلا فى شرابه ، ولكنه كان أحياناً يتمل بالطعام ، فيقتضى الأمر إعانته على الذهاب إلى فراشـــه[٥٥] . وكان له هوايات قليلة ، ونشوات طرب قليلة ، وساعات ألم مفرط قليلة .

ولم يكن شعوره شعور الراحة واليسر مع الفرنسيين المحيطين به ، الذين دربوا على يقظة الذهن وسرعة البديهة فى الحديث ؛ على أنه فى أحاديثه الخاصة وقع موقعاً طيباً من رجال كيوزف الثانى بفضل سعة معرفته وسداد حكمه : استمع إلى الأمير هنرى البروسى ، شقيق فردريك الأكبر يقول :

« إن الملك أدهشنى . . . فلقد أنبئت أن تعليمه قد أهمل ، وأنه لا يعرف شيئاً ، وأنه قليل الذكاء . ولكنى ذهلت أن أرى وأنا أتحدث معه أنه يعرف الجغرافيا معرفة جيدة جداً ، وان له أفكاراً صائبة فى السياسة ، وأن سعادة شعبه كانت دائماً ماثلة فى فكره ، وأنه يفيض بالإدراك السليم الذى هو فى الملك أعظم قيمة من الذكاء اللامع . ولكنه كان مسرفاً فى عدم الثقة بنفسه »[٥٦] .

وكان لويس يقتنى مكتبة حسنة أفاد منها ، فقرأ وترجم جزءاً من كتاب جبون « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها »[٥٧] . ولكنه نحاه عنه حين تبين نزعته المعارضة للمسيحية . وقرأ وأعاد قراءة كتاب كلارندون « تاريخ التمرد » كأنه يحس فى دخيلة نفسه بأنه سيكرر مصير تشارلز الأول ، قال « لو كنت فى مكانه لما امتشقت الحسام قط فى وجه شعبى »[٥٨] . ولكى يرشد رحلة بيروز الباسفيكية (١٧٨٥) كتب تعليمات مفصلة نسبها وزراؤه إلى علماء أكاديمية العلوم[٥٩] . وكان على صلة وثيقة بمختلف وزرائه

لا سيا فى الشئون الخارجية . وأعجب واشنطن وفرانكلن بسداد حكمه[٦٠] . وكانت نواحي ضعفه فى الإرادة فى الفكر ، ولعلها ارتبطت بثقل غذائه ووزنه . ومن أهم صفاته عجزه عن مقاومة الإلحاح أو الخلوص من التفكير إلى التنفيذ . وكان هو نفسه يمارس الاقتصاد ، ولكن كان فيه من اللطف ما منعه من فرضه على الآخرين ، وكان يوقع بالموافقة على صرف مئات الألوف من الفرنكات استجابة لأمر زوجته .

على أن الفضائل لم تعوزه . فهو لم يتخذ خليلة . وكان فيه وفاء لأصدقائه ربما باستثناء طورجو « أغلب الظن أنه لم يفقه غير طورجو من رجال جيله فى حب الشعب أعظم الحب »[٦١] . ففى يوم اعتلائه العرش أمر المراقب العام للمالية بتوزيع ٢٠٠,٠٠٠ فرنك على الفقراء ، وأضاف « ان وجدت هذا أكثر مما تسمح به حاجات الدولة فخذه من راتبى »[٦٢]. وقد منع جمع « ضريبة التتويج» التى كانت تجعل من استهلال حكم الملك عبئاً جديداً على الأمة . وفى ١٧٨٤ حين كانت باريس تعانى من الفيضانات والأوبئة ، خصص ثلاثة ملايين من الفرنكات لإعانة الشعب . وخلال شتاء قارس البرد سمح للفقراء يوماً بعد يوم بأن يغيروا على مطبخه ويصيبوا منه طعاماً. وكان مسيحياً لقباً ، وواقعاً ، والتزاماً بالشعائر ، فكان يتبع كل طقوس الكنيسة وقواعدها بحذافيرها ، ويصوم الصيام الكبير كله رغم ولعه بالطعام . وكان متديناً دون تعصب أو إعلان عن النفس، فهو الذى منح الحقوق المدنية لبروتستنت فرنسا رغم سنيته وتدينه . وقد حاول التوفيق بين المسيحية والحكم ، وذلك أمر ليس فى الدنيا أصعب منه .

وكان عليه أن يعيش عيشة الملك مظهراً رغم حبه للبساطة ، فيجوز مراسم استيقاظ الملك levée ويدع الاتباع والحاشية يلبسونه ثيابه ، ويتلو صلوات الصباح فى حضرتهم ، ويستقبل الناس ، ويرأس المجلس الملكى ، ويصدر المراسيم ، ويحضر حفلات الغداء أو العشاء، والاستقبال، والرقص — مع أنه لم يكن يرقص . ولكنه عاش كأى مواطن صالح على قدر ما سمح به منصبه وشيمته . وقد وافق روسو على أن من واجب كل إنسان أن يتعلم حرفة يدوية ، فتعلم عدة حرف ، من صناعة الأقفال إلى البناء . وتخبرنا

مدام كمبان أنه « سمح لصانع أقفال من عامة الشعب بدخول مسكنه الخاص ، وكان يصنع معه المفاتيح والأقفال ، وكثيراً ما كانت يداه اللتان اسودتا من هذا الضرب من العمل مثار لوم بل توبيخ حاد من الملكة فى حضرتى »[٦٣]. وكان يستهويه كل شىء يتصل بالبناء ، فيعين عمال القصر على نقل المواد ، والعوارض ، وبلاط الرصف . وكان يحب أن يقوم بترميم ما يحتاج إلى ترميم فى مسكنه بيديه هو ، وكان زوجاً صالحاً كأزواج أوساط الناس . وقد احتوت إحدى حجراته على أدوات الجغرافيا ، والكرات الأرضية ، والخرائط الجغرافية — التى رسم بعضها بنفسه ؛ واحتوت حجرة أخرى أدوات للشغل فى الخشب ، وجهزت ثالثة بكير وسندان ، وأشتات كثيرة من الأدوات الحديدية . وقد عكف شهوراً على صنع ساعة حائط ضخمة تسجل الشهور وأوجه القمر والفصول والسنين . وشغلت مكتبته عدة حجرات .

وقد أحبته فرنسا ، حتى إلى موته وبعد موته ؛ لأن الذى أعدمه بالجليوتين فى ١٧٩٣ لم تكن فرنسا بل باريس . فى تلك السنين الأولى كان الترحيب به عاماً تقريباً . كتب فردريك الأكبر لدالامبير « ان لديكم ملكاً طيباً جداً ، وأنا أهنئكم عليه من كل قلبى . فالملك الحكيم الفاضل خليق بأن يخشاه منافسوه أكثر من ملك لا يملك من الفضائل غير الشجاعة » . وأجاب دالامبير « انه يحب طيبة القلب ، والإنصاف ، والاقتصاد ، والسلام . . . انه بالضبط ما كان ينبغى أن نصبو إليه فى ملكنا لو لم يمنحنا إياه قدر كريم »[٦٤] . ووافق فولتير على هذا الرأى : « كل ما صنعه لويس منذ توليه العرش حببه لفرنسا »[٦٥] . وقد استعاد جوته فى شيخوخته ذكر هذا الاستهلال الميمون : « فى فرنسا أبدى ملك جديد خيرّ أحسن النوايا . لتكريس نفسه للقضاء على مفاسد كثيرة ، ولتحقيق أنبل الأهداف ، وهى إدخال أسلوب فى الاقتصاد السياسى منتظم وكفء ، والاستغناء عن كل سلطة تعسفية ، والحكم بالقانون والعدالة وحدهما . وقد عمت الدنيا أبهج الآمال ، ووعد الشباب الواثق نفسه والنوع الإنسانى كله بمستقبل زاهر مشرق »[٦٦] .

٥ — وزارة طورجو : ١٧٧٤ — ٧٦

كان أول هم للويس السادس عشر أن يعثر على وزراء أكفاء أمناء يصلحون الفوضى التي استشرت في الإدارة والمالية . وكان الشعب يطالب في إلحاح بعودة « البرلمانات » التي أقصيت ، فأعادها « وأقال موبيو الذي حاول من قبل أن يحل محلها هيئة أخرى » وورد إلى فرساى لرآسة وزارته جان — فردريك فليبو ، كونت موريبا ، الذي كان وزيراً للدولة من ١٧٣٨ إلى ١٧٤٩ ، وأقيل لأنه عرض في أهجوة ساخرة بمدام دبومبادور ، فعاد الآن إلى السلطة بعد أن بلغ الثالثة والسبعين . وكان اختياراً كريماً ولكنه غير موفق ، لأن موريبا بعد أن عاش عقداً على ضيعته الريفية « كان قد فقد صلته بتطور فرنسا في اقتصادها وفكرها ، وكان فيه من الظرف أكثر مما فيه من الحكمة » . أما للشئون الخارجية فقد اختار الملك ذو العشرين شارل جرافييه ، كونت دفيرجين ، ولوزارة الحربية الكونت كلود — لوى دسان — جرمان ، ولوزارة البحرية آن — روبير — جاك طورجو ، بارون دلوان .

وقد رأيناه في صفحات سابقة لاهوتياً ، ومحاضراً في المسيحية والتقدم ، وصديقاً للفزيوقراطيين وجماعة الفلاسفة الفرنسيين ، وناظراً ملكياً مقداماً خيراً في ليموج . وقد حذر أتقياء القصر لويس من استخدام طورجو لأنه كافر سبق أن شارك في « الموسوعة » بمقالاته[٦٧] . ومع ذلك ففي ٢٤ أغسطس ١٧٧٤ رفعه الملك إلى أدق مناصب الحكومة — وهو منصب المراقب العام للمالية وحل محل طورجو في البحرية جابرييل دسارتين ، الذي أنفق في خفة على بناء أساطيل ستساعد على تحرير أمريكا « والذي أعتمد على طورجو في تدبير المال اللازم لبنائها » .

وكان طورجو رجلا فرنسياً من معدن شبيه بالذي وجده لويس الرابع عشر في كولبير « كرس نفسه لخدمة وطنه . واتسم ببعد النظر » والعكوف على العمل بغير ملل ، ونقاء اليد وطهارتها . وكان فارع الطول حسن الصورة ، ولكن أعوزته رقة آداب الرجال الذين صقلتهم الصالونات — وإن رحبت

به الآنسة لسبيناس ترحيباً حاراً . وكان قد ضحى بصحته فى سبيل عمله ، وفى كثير من الوقت الذى كان عاكفاً فيه على إعادة صنع اقتصاد فرنسا كان يلزم مسكنه بسبب النقرس . وقد حاول أن يضغط ربع قرن من الإصلاحات فى وزارة واحدة قصيرة الأجل لأنه أحس بأن استيزاره قلق مزعزع . وكان فى السابعة والأربعين حين تقلد وزارته ، وفى التاسعة والأربعين حين فقدها . وفى الرابعة والخمسين حين ودع الحياة .

وقد آمن مع الفزيوقراطيين بتحرير الصناعة والتجارة ما أمكن من التنظيم الحكومى أو النقابى ، وبأن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وبأن ضريبة واحدة على الأرض هى أعدل الطرق وأكثرها عملية لجمع إيراد الدولة ، وبأنه ينبغى إلغاء جميع الضرائب غير المباشرة . ثم أنه أخذ عن جماعة الفلاسفة تشككهم الدينى وتسامحهم ، وثقتهم فى العقل والتقدم ، وأملهم فى إصلاح الأمور عن طريق ملك متنور . فإذا كان الملك صاحب ذكاء وإرادة صالحة ، يقبل الفلسفة مرشداً وهادياً له ، كان هذا ثورة سلمية ، تفضل كثيراً الثورة العنيفة الفوضوية التى لا تكتفى بالقضاء على المفاسد بل تطيح بالنظام الاجتماعى ذاته . فالآن إذن حان وقت وضع نظرية فولتير ، « النظرية الملكية » هـــذه موضـــع الاختبار . ومن ثم نرى جماعة الفلاسفة يشاركون الفزيوقراطيين ابتهاجهم بتقـــلد طورجو زمام الأمر .

وذهب طورجو إلى كومبين فى ٢٤ أغسطس ١٧٧٤ ليشكر لويس السادس عشر على تعيينه وزيراً للمالية . وقال له « إننى لا أبذل نفسى للملك بل للرجل الأمين » . وأجاب لويس وهو يأخذ يدى طورجو فى يديه « لن يخيب ظنك »[٦٨]. فى مساء ذلك اليوم بعث الوزير إلى الملك رسالة بينت النقاط الأساسية فى برنامجه قال :

« لا إفلاس ، معلناً كان أو مقنعاً .

لا زيادة فى الضرائب ، والسبب حالة شعبك . . .

لا قروض ، ... لأن كل قرض يقتضى فى نهاية أجل مسمى إما الإفلاس وإما زيادة الضرائب ... »

ولتلبية هذه النقاط الثلاث لا يوجد غير سبيل واحد وهو خفض الإنفاق عن الإيراد ، وخفضه بقدر يكفى ضمان وفر فى كل عام مقداره عشرون مليوناً تخصص لاستهلاك الديون القديمة . وبغير هذا ستدفع أول طلقة نار بالدولة إلى هاوية الإفلاس [٦٩] .

(وقد التجأ نكير فيما بعد إلى القروض » وأفضت حرب ١٧٧٨ بفرنسا إلى الإفلاس) .

وبعد أن تبين طورجو أن إيرادات الحكومة السنوية ٢١٣,٥٠٠,٠٠٠ فرنك » ومصروفاتها ٢٣٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك » أمر بشتى ضروب الوفر ، وأصدر تعليمات بألا يصرف مبلغ من الخزانة لأى غرض دون علمه أو موافقته ، وكان هدفه تنشيط الاقتصاد بإرساء دعائم حرية المشروعات ، والإنتاج » والتجارة » خطوة خطوة . وبدأ بمحاولة لإصلاح الزراعة . وكانت الحكومة قد أشرفت على التجارة فى الغلال تجنباً لتذمر أهل المدن ، فنظمت بيعها من المزارع لتاجر الجملة ، ومن تاجر الجملة لتاجر التجزئة ، وحددت سعر الخبز . ولكن انخفاض الأسعار التى دفعت للفلاح ثبطت همته عن زرع المزيد من الغلال ، وثنت غيره عن الاشتغال بالزراعة » فظلت مناطق شاسعة من أرض فرنسا صالحة للزراعة دون زرع ، وعطلت ثروة الأمة الممكنة عند منبعها . وبدا إصلاح الزراعة فى نظر طورجو أول خطوة فى إحياء فرنسا . ذلك أن اطلاق يد المزارع فى بيع غلته بأى سعر يستطيع الحصول عليه سيرفع من دخله ويحسن وضعه الاجتماعى ، ويزيد قوته الشرائية ، وينهض به من الحياة البدائية الوحشية التى وصفها من قبل لا برويير فى عصر لويس الرابع عشر الذهبى [٧٠] .

ومن ثم فنى ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ استصدر طورجو من المجلس الملكى مرسوماً أطلق تجارة الغلال فى كل مكان عدا باريس حيث قدر أن رد فعل أهل المدينة سيكون محرجاً . وكان ديون دنمور قد قدم للمرسوم بديباجة

تشرح الهدف منه « وهو « تنشيط وتوسيع زراعة الأرض ، التي تعد غلتها أكثر ثروات الدولة حقيقة وضماناً » والاحتفاظ بوفرة في الغلال عن طريق مخازنها واستيراد الغلال من الخارج . . . والقضاء على الاحتكار . . . وإيثاراً للمنافسة الحرة » وهذه المقدمة التفسيرية كانت هي ذاتها تجديداً يعكس ظهور الرأى العام كقوة سياسية . ورحب فولتير بالمرسوم فاتحة لعصر اقتصادى جديد « وتنبأ بأنه سيزيد بعد قليل من رخاء الأمة (٧١) . ثم أرسل مذكرة إلى طورجو قال فيها : « ان عليل فرنيه العجوز يشكر الطبيعة لأنها مدت في أجله حتى يرى مرسوم ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ . وهو يقدم احترامه لواضعه ، ويرجو له التوفيق »(٧٢) .

على أن هذا الترحيب خرج عليه رأى معارض ينذر بالسوء . ففى ربيع ١٧٧٥ جاء مصرفى سويسرى يعيش في باريس ويدعى جاك نكير إلى طورجو يحمل مخطوطاً « عن قانون الغلال وتجارتها » ، وسأل ان كان من الممكن نشره دون اضرار بالحكومة . وقد زعم نكير في كرامته أن قدراً من الإشراف الحكومى على الاقتصاد لابد منه أن أريد ألا يفضى حذق القلة الفائق إلى تركيز الثروة في طرف وتكثيف الفقر في الطرف الآخر ، واقترح أن تستأنف الحكومة الإشراف والتنظيم إذا رفعت حرية التجارة من سعر الخبز فوق رقم معان . أما طورجو ، الواثق من نظرياته ، والمحبذ لحرية النشر ، فقد أخبر نكير بأن ينشر المخطوط ويدع الشعب يحكم (٧٣) . فنشره نكير .

ولم تقرأه جماهير المدن ولكنها اتفقت معه في الرأى . فحين ارتفع سعر الخبز في ربيع ١٧٧٥ اندلعت حوادث الشغب في عدة مدن . ففى الأقاليم المحيطة بباريس ، والتي تتحكم في انسياب الغلال إلى العاصمة ، راح بعض الرجال يتنقلون بين المدن ويحرضون الناس على التمرد . وأحرقت العصابات المسلحة مزارع المزارعين والتجار وقذفت بالمخزون من الغلال في نهر السين ، ثم حاولت منع الغلال المستوردة من إكمال طريقها من الهافر إلى باريس . وفى ٢ مايو قادت جمعاً محتشداً إلى أبواب القصر في فرساى .

وأعتقد طورجو أن هذه العصابات يستخدمها الموظفون البلديون أو الإقليميون الذين نقدوا وظائفهم بانتهاء الإشراف الحكومى والذين كان هدفهم أن يخلقوا فى باريس أزمة غلال ترفع سعر الخبز وتكره الحكومة على العودة إلى التجارة الخاضعة لهيمنتها(٧٤) . وظهر الملك على شرفة من شرفات القصر وحاول الكلام ، ولكن ضجة الجمع طغت على كلامه . على أنه منع جنوده من إطلاق النار على الشعب ، وأمر بخفض سعر الخبز .

ولكن طورجو أكد أن هذا التدخل فى قوانين العرض والطلب سيفسد محاولة اختبارها ؛ وكان واثقاً من أنه إذا تركت لها حرية العمل فإن المنافسة بين التجار وأصحاب المخابز ستهبط بأسعار الخبز عما قليل . وألغى الملك أمره بخفض السعر . وفى ٣ مايو تجمعت حشود غاضبة فى باريس وبدأت تنهب المخابز . وأمر طورجو مليشيا باريس بحماية المخابز ومخازن الغلال ، وبإطلاق النار على أى شخص يحاول القيام بأعمال عنف . ثم حرص فى الوقت نفسه على وصول الغلال الأجنبية إلى باريس والأسواق . وأكرهت هذه المنافسة المستوردة المحتكرين الذين حبسوا غلالهم توقعاً لارتفاع الأسعار على الإفراج عن مخزوناتهم . فانخفض سعر الخبز . وهدأ التمرد . وقبض على نفر من زعمائه ، وشنق اثنان منهم بأمر البوليس . وخرج طورجو ظافراً من « حرب الدقيق » هذه . ولكن إيمان الملك بمبدأ عدم التدخل اهتز ، وأحزنه شنق هذين الشخصين فى ميدان جريف .

ولكن سرته الإصلاحات التى يجريها طورجو فى مالية الحكومة . فلم يمض يوم على مرسوم الغلال حتى بدأ الوزير العجول إصدار الأوامر للوفر فى مصروفات الدولة . ولتحصيل الضرائب تحصيلا أكثر كفاءة ، وللإشراف إشرافاً أدق على الملتزمين العموميين . ثم بنقل الاحتكارات الأهلية فى المركبات العامة . ومركبات البريد . وصنع البارود ، إلى الدولة . واقترح . ولكن لم يتح له الوقت لإنشاء بنك « للخصم » وهو مصرف لخصم الأوراق التجارية . وتلقى الودائع . وإعطاء القروض ، وإصدار البنكنوت الذى تدفع قيمته عند ابرازه . وقد اتخذ هذا البنك نموذجاً لبنك فرنسا الذى نظمه نابليون فى ١٨٠٠ . فلم تحل نهاية عام ١٧٧٥

حتى كان طورجو قد خفض المصروفات ٦٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأنقص الفائدة على الدين الأهلي من ٨,٧٠٠,٠٠٠ إلى ٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . واستعيدت الثقة بالحكومة حتى استطاع أن يقترض ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من الماليين الهولنديين بفائدة أربعة فى المائة ، ويسدد بهذه الطريقة ديوناً كانت الخزانة تدفع عنها فائدة من سبعة إلى اثنتى عشرة فى المائة . وأوشك أن يوازن الميزانية ، ولكنه لم يفعل هذا بزيادة الضرائب بل بالحد من الفساد ، والإسراف ، وعدم الكفاءة ، وكثرة الفاقد .

فى هذه الإصلاحات وغيرها لم يلق طورجو كبير عون من موريبا ، ولكنه لقى العون الكثير من كرتيان وماليرب ، الذى التقينا به من قبل حامياً للموسوعة ولروسو . فقد أرسل ، بوصفه الآن رئيساً لمحكمة المعونات (التى تختص بالضرائب غير المباشرة) ، إلى لويس السادس عشر (٦ مايو ١٧٧٥) ، مذكرة تشرح المظالم التى ينطوى عليها جميع الضرائب بواسطة الملتزمين العموميين ، وتحذر الملك من الكراهية التى يولدها استخدامهم . وأشار بتبسيط القوانين وتوضيحها ، وقال « ليس هناك قوانين حسنة غير القوانين البسيطة » وتعلق قلب الملك بماليرب ، فعينه وزيراً لبيت الملك (يوليو ١٧٧٥) وحث هذا الليبرالى المسن لويس على تأييد طورجو ، ولكنه نصح طورجو بألا يحاول الإسراف فى إصلاحاته فى وقت واحد ، لأن كل إصلاح سيخلق له أعداء جدداً . وأجاب مراقب المالية العام . « وماذا تريدنى أن أفعل ؟ أن حاجات الشعب هائلة ، ونحن فى أسرتى نموت بالنقرس فى الخمسين » [٧٥] .

وفى يناير ١٧٧٦ فاجأ طورجو فرنسا بستة مراسيم صدرت باسم الملك ، قرر أحدها أن تشمل حرية التجارة فى الغلال باريس ، وألغى العدو الكبير من المناصب المتصلة بتلك التجارة ، وانضم الموظفون المطرودون على هذا النحو إلى صفوف أعدائه . وألغى مرسومان أو عدلا الضرائب المفروضة على الماشية والشحوم ، فاغتبط الفلاحون . وألغى الرابع السخرة — وهى أيام اثنا عشر أو خمسة عشر يفرض فيها الشغل المجانى على الفلاحين كل عام

لصيانة الكبارى ، والقنوات ، والطرق ؛ وتقرر أن يتقاضى الفلاحون منذ الآن أجراً عن هذا العمل من حصيلة ضريبة تفرض على جميع الأملاك غير الكنسية ؛ واغتبط الفلاحون ، وشكا النبلاء . وأثار طورجو المزيد من الاستياء بالديباجة التي وضعها في فم الملك .

« إننا لو استثنينا عدداً قليلا من الأقاليم . . . لوجدنا أن كل طرق المملكة تقريباً شقت بتسخير أفقر شطر من رعايانا . فالعبء كله وقع إذن على أولئك الذين لا يملكون غير أيديهم ولا تهمهم هذه الطرق إلا بدرجة ثانوية جداً . أما الذين يهتمون بها حقاً فهم ملاك الأرض ، وكلهم تقريباً أشخاص يتمتعون بامتيازات ، وإملاكهم تزداد قيمتها بشق الطرق . فإذا أكره الفقير دون سواه على صيانة هذه الطرق ، وإذا أكره على بذل وقته وجهده دون أجر ، كان ذلك معناه أن عدته الوحيدة ضد الفقر والجوع انتزعت منه لإلزامه بالعمل لمنفعة الأغنياء »[٧٦] .

فلما أوضح برلمان باريس أنه سيرفض تسجيل هذا المرسوم ، كاد طورجو يعلن الحرب الطبقية » .

« إنني رغم عدائي للاستبدادية الآن كما كنت دائماً ، فاني لن أني عن أن أقول للملك ، وللبرلمان ، وللأمة بأسرها إن لزم الأمر ، أن هذا أمر من تلك الأمور التي يجب أن تقررها إرادة الملك المطلقة ، ولهذا السبب : وهو ان هذه القضية هي في صميمها قضية بين الأغنياء والفقراء . والآن ممن يتألف البرلمان ؟ من رجال أغنياء إذا قورنوا بالسواد الأعظم من الشعب ، وكلهم نبلاء لأن مناصبهم تحمل النبالة . ثم البلاط ، الذي يشتد في احتجاجه — ممن يتألف ؟ من كبار النبلاء ، الذين يملك أغلبهم ضياعاً ستخضع للضريبة . . . ونتيجة للملك فلا اعتراض البرلمان . . . ولا حتى تذمر الحاشية يجب أن ينال من القضية على أي وجه . . . ومادام الشعب لا صوت له في البرلمانات ، فإنه لا بد أن يرى الملك في القضية رأيه هو بعد الاستماع إلى هذه البرلمانات ، ولا بد أن يحكم لصالح الشعب ، لأن هذه الطبقة أتعس طبقاته »[٧٧] .

أما آخر المراسيم الستة فقد ألغى الطوائف الحرفية . وكانت قد أصبحت

أرستقراطية عمالة » لأنها أشرفت على جميع الحرف تقريباً ، وحدت من الدخول فى عضويتها باشتراطها رسوم التحاق عالية ، ثم قيدت فوق ذلك الصلاحية لاختيار معلمى الحرف . وقد عطلت الاختراع ، وعرقلت التجارة بالمكوس أو بحظر المنتجات المتنافسة التى تدخل فى نطاقها . وقد نددت طبقة المتعهدين أو المقاولين الصاعدة — وهم رجال يوفرون المبادأة ، ورأس المال ، والتنظيم ، ولكنهم يطالبون بحرية استئجار أى عامل ، سواء من المنتمين للطوائف الحرفية أو غيرهم ، وبيع سلعهم فى أى سوق فى متناولهم — هذه الطبقة نددت بالطوائف الحرفية لأنها احتكارات تقيد التجارة . أما طورجو ، التواق إلى دعم التنمية الصناعية بإطلاق حرية الاختراع ، والمشروعات ، والتجارة ، فقد شعر أن الاقتصاد القومى سيفيد من إلغاء الطوائف الحرفية . وقد جاء فى ديباجة هذا المرسوم :

«كانت ممارسة الحرف والصنائع فى جميع المدن تقريباً مركزة فى أيدى عدد قليل من المعلمين المتحدين فى نقابات ، والذين كان لهم وحدهم حرية صنع وبيع سلع الصناعة الخاصة التى ينفردون دون غيرهم بامتيازها . فالذى كرس نفسه لأى صناعة أو حرفة لم يكن فى استطاعته ممارستها بحرية إلا بعد وصوله إلى مرتبة معلم الحرفة ، التى لاسبيل له إليها إلا بعد الخضوع لواجبات طويلة مملة لا حاجة إليها ، وبعد أداء ابتزازات متكاثرة تحرمه من جزء من رأس المال الضرورى لإنشاء تجارة أو تجهيز ورشة . أما العاجزون عن توفير هذه النفقات فمصيرهم العيش القلق تحت سلطان المعلمين ، ولا خيار أمامهم إلا الحياة فى ضنك . . . أو نقل صناعة قد تكون ذات نفع لوطنهم إلى بلد لاجنبى »[٧٨] .

وكان لهذه التهم الموجهة إلى النقابات الحرفية ما يبررها على قدر علمنا . ولكن طورجو استرسل فى إجراءاته فحظر على جميع معلمى الحرف وعمال المياومة والتلاميذ الصناعيين تكوين أى اتحاد أو جمعية[٧٩] . لقد آمن إيماناً مطلقاً بحرية المشروعات والتجارة ، ولم يتوقع أن يكون حق التنظيم هو الوسيلة الوحيدة التى يستطيع بها الصناع أن يجمعوا ضعفهم كأفراد فى قوة جماعية للمساومة مع أصحاب العمل المنظمين . وقد أحس أن كل الطبقات

ستفيد فى المدى الطويل بتحرير رجال الأعمال من القيود الإقطاعية والنقابية والحكومية المفروضة على المشروعات . وأعلن أن جميع الأشخاص فى فرنسا — حتى الأجانب — أحرار فى الاشتغال بأى صناعة أو تجارة .

وفى ٩ فبراير ١٧٧٦ رفعت المراسيم الستة إلى برلمان باريس . فلم يوافق إلا على واحد منها ألغى المناصب الصغيرة ، ورفض الموافقة على تسجيل الباقى . وخص بمعارضته إنهاء السخرة باعتباره افتئاتاً على الحقوق الإقطاعية[٨٠] . وبهذا القرار الذى اتخذ بالتصويت جهر البرلمان بأنه حليف طبقة النبلاء والصوت المعبر عنهم . وهو الذى زعم من قبل أنه حامى الشعب من الملك . ودخل فولتير المعمعة بكراسة هاجمت السخرة والبرلمان وأيدت طورجو . فأمر البرلمان بمصادرة الكراسة . ودافع بعض وزراء الملك عن البرلمان . فوبخهم لويس فى لحظة ثبات وجلد قائلا « أرى جيداً أنه ليس هنا من يحب الشعب غيرى وغير مسيو طورجو »[٨١]. وفى ١٢ مارس دعا البرلمان إلى « سرير عدالة » (وهو المجلس القضائى العالى (فى فرساى ، وأمره بتسجيل المراسيم . واحتفلت مواكب من العمال بانتصار طورجو .

وأبطأ المراقب العام خطو ثورته بعد أن أرهقته الأزمات المتكررة . فلما طبق حرية التجارة الداخلية على صناعة النبيذ (ابريل ١٧٧٦) لم يشك غير المحتكرين . ثم حث الملك على إرساء دعائم الحرية الدينية . وأصدر تعليماته إلى ديون دنيمور بأن يضع خطة لتكوين مجالس انتخابية فى كل أبرشية . يختارها كل من ملك أرضاً قيمتها ستمائة جنيه أو يزيد ، وهذه المجالس المحلية تنتخب ممثلين فى مجلس كنتونى ، تنتخب ممثلين فى مجلس إقليمى . ينتخب نواباً فى مجلس الأمة . وكان طورجو مؤمناً بأن فرنسا ليست على استعداد للديمقراطية . فاقترح ألا تعطى هذه المجالس إلا وظائف استشارية وإدارية . أما السلطة التشريعية فتظل فى يد الملك وحده ، ولكن عن طريق هذه المجالس يحاط الملك علماً بحال المملكة وحاجاتها . كذلك قدم طورجو للملك تخطيطاً للتعليم العام بصفته المدخل الذى لابد منه للمواطنة المستنيرة . وقال : « مولاى ، إننى أجرؤ على التأكيد بأنه لن تمضى سنتان حتى تتبدل أمتك فلا تتعرف عليها الأمم . وبفضل التنوير والأخلاق الطيبة...

ستسمو فوق جميع الدول الأخرى »[٨٢] ولكن الوزير أعوزه الوقت ، والملك أعوزه المال ، لإخراج هذه الأفكار إلى حيز الوجود .

وكانت مراسيم طورجو — وديباجاتها — قد ألهبت غضب جميع الطبقات ذات النفوذ عليه خلا التجار ورجال الصناعة ، الذين زكوا فى ظل الحرية الجديدة . والواقع أنه كان يحاول أن يحدث بطريق سلمى تحرير رجل الأعمال ، وهو النتيجة الاقتصادية الأساسية التى أسفرت عنها الثورة الفرنسية . ومع ذلك عارضه بعض التجار سراً لأنه تدخل فى احتكاراتهم . وعارضه الأشراف لأنه أراد أن يفرض كل الضرائب على الأرض ، ولأنه يستعدى الفقراء على الأغنياء . وأبغضه البرلمان لأنه أقنع الملك بإبطال قرارات نقضه . ولم يثق به رجال الدين زاعمين أنه كافراً يندر أن يختلف إلى القداس ، ويدافع عن الحرية الدينية . وحاربه الملتزمون العموميون لأنه حاول أن يحل محلهم موظفين حكوميين فى جمع الضرائب غير المباشرة . وساء الماليين حصوله على القروض من الخارج بفائدة ٤٪ . وكرهته بطانة الملك لأنه سخط على إسرافهم ، ومعاشاتهم ، ووظائفهم الفخرية . أما موريبا ، وهو الأعلى منه منصباً فى الوزارة ، فلم يغتبط بسلطان المراقب العام للمالية واستقلاله المتزايدين . وكتب السفير السويدى يقول « إن طورجو يجد نفسه الهدف لحلف رهيب جداً »[٨٣] .

أما مارى أنطوانيت فقد رضيت عن طورجو أول الأمر ، وحاولت أن توفق بين نفقاتها واقتصادياته . ولكن سرعان ما استأنفت (حتى ١٧٧٧) اسرافها فى الثياب والعطايا . ولم يخف طورجو فزعه من مطالبها من الخزانة ، وكانت الملكة إرضاء لآل بولنياك قد حصلت على تعيين صديقهم الكونت دجين سفيراً لفرنسا فى لندن ، وهناك دخل فى معاملات مالية مشبوهة . وانضم طورجو إلى فرجين فى الإشارة على الملك باستدعائه ، وأقسمت الملكة لتنتقمن منه .

وكان للويس السادس عشر أسبابه الخاصة لفقد الثقة فى الوزير الثورى . ذلك أن الملك كان يحترم الكنيسة ، وطبقة النبلاء ، وحتى البرلمانات ،

وكانت هذه المؤسسات قد رسخت فى التقاليد وتقدست بمرور الزمن ، فإقلاقها معناه خلخلة ركائز الدولة ، ولكن طورجو كان قد أقصاها كلها . فهل تراه على حق وكل هؤلاء على ضلال ؟ وشكا لويس سراً من وزيره : « إن أصدقاءه فقط هم الأكفاء ، وأفكاره فقط هى الصائبة »[٨٤] . وفى كل يوم تقريباً كانت الملكة أو أحد أفراد الحاشية يحاول إثارته على المراقب العام . فلما رجاه طورجو أن يقاوم هذه الضغوط ولم يجب لويس ، عاد إلى منزله وكتب إلى الملك (٣٠ ابريل ١٧٧٦) رسالة كانت الفاصلة فى مصيره :

« مولاى : ان أخفى عنكم أن قلبى مجروح جرحاً عميقاً بسبب صمت جلالتكم يوم الأحد الماضى . . . ذلك أننى ما كنت لاستصعب أمراً من الأمور مادمت أؤمل الاحتفاظ بتقدير جلالتكم لصواب ما أفعل . واليوم أى جزاء ألقى ؟ أن جلالتكم ترون كم يستحيل على المضى فى طريقى قدماً ضد من يؤذوننى بالشر الذى يصنعونه بى ، وبالخير الذى يمنعوننى من فعله بتعطيل جميع إجراءاتى ، ومع ذلك فإن جلالتكم لا تمنحوننى عوناً ولا عزاء ، وأنا أجرؤ يا مولاى على القول بأننى لا أستحق هذا الجزاء . . .

« إن جلالتكم . . . قد دفعتم بافتقاركم إلى الخبرة . وأنا عليم بأنكم وأنتم فى الثانية والعشرين ، وفى منصبكم هذا ، لا تملكون المرانة على الحكم على الرجال ، وهى مرانة يحصل عليها الأفراد العاديون بفضل الاختلاط المعتاد مع نظرائهم ؛ ولكن هل سيتاح لكم مزيد من الخبرة بعد أسبوع ، بعد شهر ؟ وألا يمكن أن تتخذوا القرار الحاسم حتى تتوافر لكم هذه الخبرة البطيئة ؟ .

« مولاى ، إنى مدين لمسيو موريبا بالمنصب الذى قلدتمونى إياه ، ولن أنسى له هذه اليد ما حييت ، ولن أقصر أبداً فى الاحترام الواجب له . ولكن أتعلمون يا مولاى مبلغ ضعف شخصية المسيو دموريبا ؟ — وكم تسيطر عليه أفكار من يلتفون حوله . إن الناس كلهم يعرفون أن مدام دموريبا ، بتفكيرها الأضعف كثيراً من شخصيتها ، توحى إليه دائماً

بإرادتها . . . وهذا الضعف هو الذى يدفعه إلى الموافقة دون تردد على سخط الحاشية على ، والذى يجردنى من كل سلطة تقريباً فى إدارتى . . .

« مولاى ، لاتنس أن الضعف هو الذى أطاح برأس تشارلز الأول على المقصلة . . . والذى جعل من لويس الثالث عشر عبداً متوجاً ، . . . والذى جر على الحكم السالف كل ويلاته . . مولاى ، إنهم يعدونك ضعيفاً ، وقد أتى وقت خشيت فيه أن يكون فى خلقك هذا العيب ، ومع ذلك رأيتك فى مناسبات أكثر من هذه عسراً تبدى شجاعة أصيلة . . . ان جلالتكم لن تستطيع الاستسلام إرضاء لمسيو دموريا دون أن تكون غير صادق مع نفسك . . . »[٨٥] .

ولم يرد الملك على هذه الرسالة . فقد أحس أن عليه الآن أن يختار بين موريبا وطورجو ، وأن طورجو يطلب خضوع الحكومة التام تقريباً لإرادته . وعليه ففى ١٢ مايو ١٧٧٦ أرسل إلى طورجو أمراً بأن يستقيل . وفى اليوم ذاته ، وخضوعاً لإرادة الملكة وآل بولنياك ، رفع الكونت دجين إلى مرتبة الدوقية . فلما سمع مالبرب بإقالة طورجو قدم استقالته . وقال له لويس « إنك رجل محظوظ . ليتنى أنا أيضاً أستطيع ترك منصبى »[٨٦] . وما لبث معظم من عينهم طورجو أن طردوا من مناصبهم . وصعقت ماريا تريزا لهذه التطورات ، ووافقت فردريك وفولتير على أن سقوط طورجو نذير بانهيار فرنسا[٨٧] ، وقد أحزنها الدور الذى لعبته ابنتها فى الأمر ، وأبت أن تصدق تنصل الملكة من التبعة ، وكتب فولتير إلى لاهارب يقول : « لم يبق لى إلا أن أموت بعد أن ذهب مسيو طورجو »[٨٨] .

أما طورجو فقد عاش بعد إقالته عيشة هادئة فى باريس ، يدرس الرياضة ، والفزياء ، والكيمياء ، والتشريح . وكان يلتقى كثيراً بفرانكلن ، وقد كتب له « مذكرة فى الرسوم » ثم اشتدت عليه وطأة النقرس حتى أكرهه بعد ١٧٧٨ على الاستعانة بعكازين فى مشيه . ومات فى ١٨ مارس ١٧٨١ بعد سنوات حفلت بالألم وخيبة الأمل . ولم يدر بخلده أن القرن التاسع عشر سيقبل معظم أفكاره ويطبقها . وقد أجمل مالبرب وصفه فى حب فقال : « كان له رأس فرانسيس بيكن ، وقلب لوبيتال »[٨٩] .

٦ — وزارة نكير الأولى : ١٧٧٦ — ٨١

خلف طورجو في رقابة المالية كلوني دنوى ، الذي رد السخرة والكثير من النقابات الحرفية ، ولم ينفذ مراسيم الغلال . وألغى المصرفيون الهولنديون موافقتهم على إقراض فرنسا ستين مليوناً من الجنيهات بسعر أربعة في المائة ، ولم يكتشف الوزير الجديد طريقة لاجتذاب المال إلى خزانة الدولة خيراً من إنشاء يا نصيب قومي (٣٠ يونيو ١٧٧٦) . فلما مات كلوني (أكتوبر) ، أقنع مصرفيو باريس الملك بأن يستدعي إلى خدمته الرجل الذي كان أكفاء نقاد طورجو .

كان جاك نكير بروتستنتيا ، ولد في جنيف عام ١٧٣٢ وأرسله أبوه — وكان أستاذاً للقانون في أكادمية جنيف — إلى باريس ليعمل كاتباً في مصرف اسحاق فرنيه . فلما تقاعد فرنيه أقرض نكير بعض المال ليفتتح مصرفاً خاصاً به . وضم نكير ماله إلى مال رجل سويسري آخر ، فأصابا نجاحاً بتقديم القروض للحكومة والمضاربة في الغلال . وحين ناهز نكير الثلاثين كان غنياً ، محترماً ، عزباً . ولم يتمن الآن مزيداً من الثراء بل منصباً رفيعاً ، وفرصة للخدمة الممتازة والشهرة القومية ، وهذا يقتضيه زوجة وبيتاً يكون نقطة ارتكاز ، أو قاعدة عمليات . ومن ثم تودد إلى المركيزة فرمنو الأرملة ، فرفضته ، ولكنها جاءت من جنيف بسوزان كورشوا الجميلة الموهوبة التي كانت قبيل ذلك قد أفلتت من الزواج بأدورد جبون . ووقع نكير في غرام سوزان ، وتزوجها في ١٧٦٤ . وبعد وفاؤهما المتبادل طوال حياة حافلة بالأحداث من ألمع الأضواء في مشكال ذلك العصر المضطرب . وأقاما بيتاً فوق مصرفه . وهناك افتتحت صالوناً (١٧٦٥) دعت إليه الكتاب ورجال الأعمال ، أملا في أن تمهد هذه الصداقات طريق زوجها وتنيره .

وكان نكير نفسه يتحرق شوقاً للتأليف ، فبدأ في ١٧٧٣ بكتابة « مديح لكولبير » الذي توجته الأكاديمية الفرنسية . واعتزل الآن عمله ودخل المعترك السياسي بذلك المقال « في قانون الغلال » الذي عارض سياسة طورجو في

عدم التدخل الحكومى . وظفر الكتيب بثناء ديدرو ، الذى لعله استمتع بفقرة تكلم فيها المؤلف كما يتكلم الاشتراكيون ، وكان قد قرأ روسو . وقد هاجم نكير :

« قوة الطبقة المالكة التى تمكنها من أن تدفع نظير جهد العامل أبخس أجر لايكاد يكفى لغير الحاجات الماسة . . . إن كل المؤسسات المدنية تقريباً أقامها الملاك . ولنا أن نقول إن قلة من الناس — بعد أن قسموا الأرض فيما بينهم — شرعوا القوانين تكتلا وضماناً لهم ضد الكثرة . . . ولهؤلاء أن يتساءلوا . « أى معنى تعنيه لنا قوانين الملكية التى شرعتموها ؟ — فنحن لانملك أملاكاً ؛ أو قوانينكم فى العدالة ؟ — فنحن لا نملك شيئاً ندافع عنه . أو قوانينكم فى الحرية ؟ — فإننا سنموت جوعاً إن لم نعمل غداً »[٩٠] .

وفى ٢٢ أكتوبر ١٧٧٦ عين لويس السادس عشر نكير « مديراً للخزانة الملكية » بناء على تزكية موريبا . وكان تعييناً يشوبه الاعتذار . فقد احتج بعض الأساقفة على السماح لبروتستنتى سويسرى بأن يتحكم فى مال الأمة ، فأجاب موريبا ، « فى وسع رجال الدين أن يشاركوا فى اختيار الوزراء إذا هم دفعوا ديون الدولة »[٩١] . وستراً لهذا الواقع عين كاثوليكى فرنسى يدعى تابورو دريو مراقباً عاماً للمالية له الرآسة الإسمية على نكير . وتضاءلت معارضه الاكليروس حين جعل نكير تدينه واضحاً جلياً . وفى ٢٩ يونيو ١٧٧٧ استقال تابورو ، وعين نكير مديراً عاماً للمالية . وقد رفض أن يتقاضى راتباً ، بل أقرض الخزانة مليونى جنيه من ماله الخاص[٩٢] . ولكنه ظل محروماً من لقب الوزير ، ولم يسمح له بعضوية المجلس الملكى .

وقد وفق فى حدود خلقه وسلطته . ذلك أنه درب على علاج مشكلات الصيرفة لا مشكلات الدولة ، وكان فى قدرته تكثير المال بنجاح أكثر من سياسة الرجال . وقد أرسى فى الإدارة المالية نظاماً وحسابات ووفراً أفضل ، وألغى أكثر من خمسمائة وظيفة شرفية ومنصب زائد عن الحاجة . وإذ كان حائزاً على ثقة المجتمع المالى ، فقد استطاع طرح أسهم بقروض أكسبت

الخزانة ١٤٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه خلال عام واحد . ثم دعم بعض الإصلاحات الصغيرة ، فخفف من المظالم فى فرض الضرائب ، وحسن المستشفيات ، ونظم بنوك الرهونات لتقرض الفقراء المال بفائدة منخفضة » وواصل جهود طورجو للحد من نفقات البلاط ، والبيت الملكى ، والملكة . ورد إلى الملتزمين العموميين جمع الضرائب غير المباشرة (١٧٨٠) ، غير أنه اختزل عددهم وأخضعهم لفحص ورقابة أدق . وقد أقنع لويس السادس عشر بأن يسمح بإنشاء المجالس الإقليمية فى برى » وجرينوبل » ومونتوبان ، ووضع سابقة هامة إذ اتخذ التدابير لجعل ممثلى الطبقة الثالثة (التى تنتظم الطبقتين الوسطى والدنيا) فى هذه المجالس مساوين لممثلى النبلاء والاكليروس مجتمعين . على أن الملك كان يختار أعضاء هذه المجالس ، ولم يسمح لهم بأى سلطة تشريعية . وقد ظفر نكير بنصر هام حين أقنع الملك بأن يعتق من بقى من الأقنان على الأراضى الملكية ، وأن يهيب بجميع السادة الإقطاعيين أن يحذوا حذوه . فلما رفضوا أشار نكير عليه بإلغاء القنية كلها فى فرنسا » مع دفع التعويضات للسادة » ولكن الملك الذى كان حبيس تقاليده أجاب بأن حقوق الملكية نظام بلغ من الرسوخ مبلغاً يعسر معه إلغاؤه بمرسوم [٩٣] . وفى ١٧٨٠ ، وتحت إلحاح نكير أيضاً » أمر الملك بإنهاء التعذيب القضائى » وإلغاء السجون السفلية ، وفصل السجناء الذين جرموا فعلا عن أولئك الذين لم يحاكموا بعد ، وفصل كلتا الفئتين عن الأشخاص المقبوض عليهم بسبب الدين . هذه وغيرها من انجازات وزارة نكير الأولى تستحق عرفاناً أكثر مما ناله عموماً . فإذا سألنا لم لم يعمل مبضعه بأعمق وأسرع مما أعمله ، وجب أن نتذكر أن طورجو قد لقى اللوم على تعجله والاستكثار من الأعداء فى وقت واحد . وقد انتقد نكير على طرحه القروض بدلا من جمع الضرائب ، ولكنه أحس بأن الشعب قد فرض عليه من الضرائب ما يكفى .

وقد أحسنت مدام كمبان تلخيص موقف الملك من وزرائه » وهى الصيقة دائماً بهذه الدراما المتطورة « لقد حكم طورجو » ومالبرب ، ونكير، بأن هذا الملك المتواضع البسيط فى عاداته ، لن يتردد فى التضحية بحقه الملكى فى سبيل عظمة شعبه الحقيقية ، لقد كان قلبه ينعطف به نحو

الإصلاح ، ولكن تحيزاته ومخاوفه « ومطالب الأشخاص الأتقياء وأصحاب الامتيازات الملحة جعلته جباناً « وأكرهته على التخلى عن خطط أوحى بها إليه حبه للشعب»[٩٤] . ومع ذلك فقد جرؤ على أن يقول فى إعلان عام (١٧٨٠) لعل نكير كان قد أعده له ، إن « الضرائب المفروضة على أفقر شطر من رعايانا .. وقد زادت بنسبة تفوق كثيراً سائر الرعايا الباقين » . وأعرب عن آماله فى ألا يحسب الأغنياء أنفسهم مظلومين إذا وجب عليهم « بعد أن يردوا إلى المستوى العام (للضرائب) ، أن يؤدوا الفروض التى كان لابد أن يشاركوا فيها غيرهم منذ زمان بقدر أكبر من المساواة »[٩٥] . وكان يرتعد إذا خطر بباله فولتير « ولكن روحه التحررية شكلها على غير وعى منه ذلك العمل الذى قام به فولتير » وروسو ، وجماعة الفلاسفة بوجه عام افتضح المفاسد القديمة ولبعث الحياة الجديدة فى المشاعر الإنسانية التى ارتبطت من قبل بالمسيحية . فى هذا النصف الأول من حكمه بدأ لويس السادس عشر اصلاحات كان خليقاً بها لو اتصلت واتسعت شيئاً فشيئاً أن تتفادى الثورة . ثم إنه فى عهد هذا الملك الضعيف نرى فرنسا التى سلبتها انجلترة ممتلكاتها وأذلتها فى عهد أسلافه — تكيل الضربات بجرأة وبنجاح لبريطانيا الفخور ، وتعين بعملها هذا على تحرير أمريكا .

٧ — فرنسا وأمريكا

اتفقت الفلسفة هذه المرة مع الدبلوماسية . فمؤلفات فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ورينال « وعشرات غيرهم أعدت الذهن الفرنسى لمناصرة تحرير المستعمرات كما ناصر التحرير الفكرى « وكان الكثيرون من الزعماء الأمريكيين — كواشنطن ، وفرانكلن ، وجفرسن — أبناء للتنوير الفرنسى ، ومن ثم فحين قدم سيلاس دين إلى فرنسا (مارس ١٧٧٦) ملتمساً قرضاً للمستعمرات الثائرة « كان الرأى العام الفرنسى شديد التعاطف معه ، وراح بومارشيه فى تحمسه يرسل المذكرة تلو المذكرة إلى فرجين يحثه فيها على مديد المعونة لأمريكا .

وكان فرجين نبيلا يؤمن بالملكية والاستقراطية ، ليس بينه وبين

الجمهوريات أو الثورات ود ، ولكنه كان تواقاً للثأر من انجلتره لفرنسا ، غير أنه لم يرض بالموافقة على أى معونة سافرة لأمريكا ، لأن البحرية البريطانية كانت لاتزال أقوى من الفرنسية رغم ما أنفقة عليها سارتين ، وكان فى مقدورها تدمير السفن الفرنسية إذا كانت الحرب سافرة إلا أنه أشار على الملك بالإذن ببعض المعونة السرية ، وحجته أن بريطانيا لو سحقت الثورة لخلص لها فى أمريكا أو قربها أسطول قادر على الاستيلاء متى شاء على الممتلكات الفرنسية والإسبانية فى البحر الكاريبى . أما إذا أمكن المطاولة فى الثورة « فإن فرنسا ستقوى ، وانجلتره تضعف » وتستطيع البحرية الفرنسية استكمال تجديدها . أما لويس فكان يرتعد فرقاً لفكرة تقديم المعونة لثورة ما ، وحذر فرجين من أى عمل سافر قد يفضى إلى حرب مع انجلتره[٩٦] .

وفى ابريل كتب فرجين إلى بومارشيه يقول :

« سنعطيك سراً مليوناً من الجنيهات ، وسنحاول الحصول على مبلغ مماثل من أسبانيا . (وقد حصلوا على هذا المبلغ) وبهذين المليونين عليك أن تؤلف شركة تجارية ، وتزود الأمريكيين على مسئوليتك بالسلاح والذخيرة والأجهزة ، وسائر الأشياء التى يحتاجون إليها لمواصلة الحرب . وستسلمك ترساناتنا السلاح والذخيرة ، ولكنك ستعوضها أو تدفع ثمنها . وإياك أن تطلب مالا من الأمريكيين ، لأنهم لا يملكون المال ، ولكن أطلب مقابلا غلات أرضهم ، التى سنساعدك على بيعها فى هذا البلد »[٩٧] .

وبهذا المال اشترى بومارشيه المدافع والبنادق والبارود والثياب والأجهزة اللازمة لخمسة وعشرين ألف رجل ، ثم أرسل هذه البضائع إلى ميناء كان دين قد جمع فيه عدة قراصنة أمريكيين وأعاد تجهيزهم . وقد شجع وصول هذه المعونة أو الوعد الوثيق بها المستعمرين على إصدار إعلان الاستقلال (٤ يوليو ١٧٧٦) . فلما ترجم الإعلان إلى الفرنسية ، وتداوله الناس بموافقة الحكومة الفرنسية الضمنية ، استقبلته جماعة الفلاسفة بحماسة وفرح ، وكذلك تلاميذ روسو الذين تبينوا فيه أصداء من « العقد الاجتماعى » .

وفى سبتمبر عين الكونجرس الأمريكى ، بنيامين فرانكلين وآرثر لى — ليمضيا إلى فرنسا مندوبين ، وينضما إلى دين ، ويلتمسا لا المزيد من الإمداد فحسب ، بل التحالف السافر ان أمكن .

ولم تكن هذه أول مرة ظهر فيها فرانكلين فى أوربا . ذلك أنه فى ١٧٢٤ ذهب إلى انجلتره ولم يكن قد بلغ التاسعة عشرة ، وقد اشتغل طباعاً ، ونشر دفاعاً عن الألحاد [٩٨] ، وعاد إلى فيلادلفيا والربوبية ، وتزوج ، وانضم إلى جماعة الماسون ، وظفر بشهرة دولية بوصفه مخترعاً وعالماً . وفى ١٧٥٧ أوفد إلى انجلتره ممثلا لمجلس بنسلفانيا فى نزاع ضرائبى . ومكث فى انجلتره خمس سنين ، والتقى بجونسن وغيره من وجوه القوم ، وزار أسكتلنده ، والتقى بهيوم وروبرتسن ، ونال درجة من جامعة سانت أندروز ، وأصبح منذ الآن الدكتور فرانكلن . ثم عاد إلى انجلتره من ١٧٦٦ إلى ١٧٧٥ ، وخطب فى مجلس العموم معارضاً ضريبة الدمغة ، وحاول المصالحة ، ثم عاد إلى أمريكا حين رأى أن الحرب واقعة . وقد شارك فى صياغة إعلان الاستقلال .

وصل فرانكلين إلى فرنسا فى ديسمبر ١٧٧٦ ومعه حفيدان له ، وكان الآن فى السبعين ، يبدو وكأنه الحكمة ذاتها مجسمة ، والعالم كله يعرف ذلك الرأس الضخم والشعر المشتعل الخفيف ، والوجه الشبيه بالبدر عند بزوغه المشرق . وأهال عليه العلماء أسباب التكريم ، وادعى الفلاسفة والفزيوقراطيون أنه واحد منهم ، ورأى المعجبون بروما القديمة فيه سنسناتوس ، وسكيبو الأفريقى ، والكاتوين ، وقد بعثوا من مراقدهم ، وصففت نبيلات باريس شعورهن فى لمة مجعدة تقليداً لقبعته المصنوعة من فرو القندس ؛ ولا ريب أنهن سمعن بغرامياته الكثيرة . وأذهلت الحاشية بساطة عاداته ، ولباسه ، وحديثه ، ولكن بدلا من أن يبدو مضحكاً فى زيه القريب من زى الريفيين ، كان اختيالهم فى المخمل والحرير والمخرم هو الذى تبدى الآن كأنه محاولة فاشلة لإخفاء الواقع وراء مظهر كاذب . ومع ذلك قبلوه هم أيضاً ؛ لأنه لم يستعرض أحلاماً لحكومات مثالية ، بل تكلم بتعقل وإدراك سليم ، وأظهر

الوعى الكامل بالمصاعب والحقائق . وكان يدرك أنه بروتستنتى ، ربوبى ، جمهورى ، يطلب العون من بلد كاثوليكى وملك تقى .

وقد باشر مهمته فى حذر وحيطة . فلم يغضب أحداً ، وأبهج كل إنسان . وقدم فروض الاحترام لا لفرجين فقط بل لميرابو الأب ولمدام دودفان ، ولمع رأسه الأصلع فى الصالونات وفى أكاديمية العلوم . وشرف نبيلا شاباً هو الدوق دلاروشفوكو أن يكون سكرتيره . وكانت الجموع تجرى وراءه حين يظهر فى الشوارع . ولقيت كتبه ترحيباً واسعاً حين ترجمت ونشرت « أعماله الكاملة » وطبع من كتاب واحد « تقويم وتشرد المسكين » ثمانى طبعات فى ثلاثة أعوام . واختلف فرانكلين إلى محفل « النوف سير » الماسونى ومنح العضوية الفخرية ، وإعانة الرجال الذين التقى بهم هناك على كسب فرنسا فى حلف مع أمريكا . ولكنه لم يستطع أن يطلب للتو المعونة السافرة من الحكومة . وكان جيش واشنطن يتقهقر أمام السر وليم هاو ، وبدا أن معنوية الجيش تحطمت . وبينما كان فرانكلن ينتظر أحداثاً أكثر يمناً أقام فى باسى ، وهى إحدى ضواحى باريس اللطيفة ، وراح يدرس ، ويفاوض ، ويكتب نشرات الدعاية تحت أسماء مستعارة ، ويستضيف طورجو ، ولافوازييه ، وموريلليه ، وكابانى ، ويغازل مدام دودتو فى سانوا ومدام هلفتيوس فى أوتوى ، ولا عجب فقد كان فى هاتين المرأتين فتنة جعلتهما جذابتين بغض النظر عن تقدمهما فى العمر .

وكان بومارشيه وغيره أثناء ذلك يرسلون الإمداد إلى المستعمرات ، وضباط الجيش الفرنسيون يتطوعون للقتال تحت إمرة واشنطن . كتب سيلاس دين فى ١٧٧٦ « تتكاثر على تكاثراً رهيباً طلبات الضباط الراغبين فى الذهاب إلى أمريكا . . . ولو كان لدى عشر سفن هنا لملأتها كلها بركاب لأمريكا »(٩٩) . والعالم كله يعرف كيف ترك المركيز لافاييت ، البالغ من العمر تسعة عشر عاما ، زوجة مخلصة حبلى ليرحل (ابريل ١٧٧٧) ويقاتل بلا راتب فى جيش المستعمرات . وقد اعترف لواشنطن قائلا « إن الشىء الوحيد الذى أتعطش إليه هو المجد »(١٠٠) ، وفى سبيل المجد أقتحم كثيراً من المخاطر وألواناً من الهوان ، وجرح فى براند يواين ، وشارك فى أهوال فالى فورج ، وظفر بالمحبة الحارة من واشنطن رغم تحفظه المعهود .

وفى ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ هزم جيش للمستعمرين عدته عشرون ألف مقاتل قوة مؤلفة من خمسة آلاف جندى بريطانى وثلاثة آلاف مرتزق ألمانى قادمين من كندا فى ساراتوجا وأكرهها على الاستسلام . فلما بلغ نبأ هذا الانتصار الأمريكى فرنسا وجدت مطالبة فرانكلين ، ودين ، ولى ، بابرام حلف قبولا أكثر بين مشيرى الملك . غير أن نكير عارض إذ كره أن يرى ميزانيته التى قاربت التوازن تقلبها نفقات الحرب رأساً على عقب . إلا أن فرجين وموريبا ظفرا بموافقة لويس السادس عشر التى بذلها على مضض حين حذراه من أن انجلتره — التى كانت عليمة منذ زمن طويل بالعون الفرنسى لأمريكا ومستاءة منه — قد تبرم صلحاً مع مستعمراتها وتوجه كامل قوتها الحربية ضد فرنسا . وعليه فنى ٦ فبراير ١٧٧٨ وقعت الحكومة الفرنسية معاهدتين مع « ولايات أمريكا المتحدة » أرست إحداهما علاقات التجارة ، والمعونة » واشترطت الأخرى سراً أن ينضم الموقعان فى الدفاع عن فرنسا إذا أعلنت عليها انجلتره الحرب ، ولا يبرم طرف صلحاً دون موافقة الآخر » ويواصل كلاهما قتال انجلتره حتى يتحقق استقلال أمريكا .

وفى ٢٠ مارس استقبل لويس المبعوثين الأمريكيين ، ولبس فرانكلن جوارب حريرية طويلة لهذه المناسبة . وفى ابريل وصل جون آدمز ليحل محل دين ، وأقام مع فرانكلن فى باسى ، ولكنه وجد الفيلسوف العجوز فى شغل بالنساء عن مهامه الرسمية . فتشاجر معه ، وحاول العمل على استدعائه لأمريكا ، ففشل » وعاد إلى أمريكا . وعين فرانكلين وزيراً مفوضاً لدى فرنسا (سبتمبر ١٧٧٩) . وفى ١٧٨٠ ، حين كان يبلغ الرابعة والسبعين ، عرض الزواج دون جدوى على مدام هلفتيوس البالغة إحدى وستين سنة .

وأحب الفرنسيون كلهم تقريباً هذه الحرب عدا نكير . فقد كان عليه أن يجمع الأموال الطائلة التى أقرضتها فرنسا لأمريكا : مليون جنيه فى ١٧٧٦ ، وثلاثة ملايين أخرى فى ١٧٧٨ . ومليوناً آخر فى ١٧٧٩ ، وأربعة فى ١٧٨٠ . وأربعة فى ١٧٨١ ، وستة فى ١٧٨٢ [١٠١] . وبدأ مفاوضات

سرية مع اللورد نورث (أول ديسمبر ١٧٧٩) أملا فى العثور على صيغة للصلح[١٠٢] . وكان عليـــه بالإضافة إلى هذه القروض أن يجمع المال لتمويل حكومة فرنسا وجيشها ، وبحريتها ، وبلاطها . وبلغت جملة ما اقترضه من المصرفيين والشعب ٥٣٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه[١٠٣]. وقد لاطف الأكليروس حتى أقرضوه أربعة عشر مليوناً ، ترد أقساطاً قيمتها مليون جنيه كل عام . وظل يرفض فرض ضرائب ، مع أن ثراء الطبقات العليا كان يمكن أن أن يجعل هذا الإجراء غير مؤلم نسبياً ، وسيشكو من خلفوه فى منصبه من أنه ألقى على عاتقهم هذه الضرورة التى لامحيص عنها . وقد حاباه الماليون لأنه منحهم على قروضهم معدلات الفائدة العالية التى طالبوا بها بحجة أنهم إنما يغامرون بأخطار متزايدة « أخطار عدم استرداد قروضهم على الإطلاق .

ورغبة فى تنمية الثقة فى المجتمع المالى ، نشر نكير بموافقة الملك فى يناير ١٧٨١ « تقريراً مقدماً للملك » هدفه إطلاع الملك والأمة على إيرادات الحكومة ومصروفاتها ، وقد أضفى على الصورة إشراقاً بإسقاطه النفقات الحربية وغيرها من المصروفات « غير العادية » ، وإغفاله الدين القومى . وأقبل الجمهور على شراء « التقرير » بمعدل ثلاثين ألف نسخة فى إثنى عشر شهراً . وحيا الناس نكير ساحراً للمالية أنقذ الحكومة من الإفلاس . وطلبت كاترين الكبرى من جريم أن يؤكد لنكير « إعجابها الذى لاحد له بكتابه وبمواهبه »[١٠٤] . غير أن البلاط غضب لأن « التقرير المقدم للملك » فضح الكثير جداً من مفاسد الماضى المالية « وكشف عن الكثير جداً من المعاشات التى تدفعها الخزانة . وهاجم بعضهم الوثيقة زاعماً أنها ليست إلا مديحاً للوزير بقلمه ، وغار موريبا من نكير غيرته من طورجو من قبل وانضم إلى غيره فى التوصية بإقالته . أما الملكة فدافعت عنه وان ساءتها إجراءات الوفر التى اتخذها ، ولكن فرجين سماه ثائراً[١٠٥] . واشـــترك النظار الملكيون فى اتهام نكير ومحاولة إسقاطه مخافة أن يحفظ التقويض سلطتهم بإنشاء المزيد من المجالس الإقليمية . وعمل نكير ذاته على سقوطه بتصريحه بأنه سيستقيل ما لم يمنح لقب الوزير وسلطته كاملين مع كرسى فى المجلس الملكى ، وقال موريبا للملك أنه لو أجيب نكير إلى طلبه هذا

لتخلى جميع الوزراء الآخرين عن مناصبهم . واستسلم لويس ، وأخلى سبيل نكير (١٩ مايو ١٧٨١) وحزنت باريس كلها لسقوطه إلا البلاط ، وبعث يوزف الثانى بعزائه ، ودعته كاترين الثانية للحضور وإدارة مالية روسيا[١٠٦].

وفى ١٢ أكتوبر ١٧٧٩ انضمت أسبانيا إلى فرنسا ضد انجلتره . وأوشك الأسطولان الفرنسى والإسبانى المجتمعان « ببوارج مجموعها ١٤٠ » أن يعدلا بوارج البحرية البريطانية وعددها ١٥٠[١٠٧] ، وقطعاً على بريطانيا سطوتها على البحار . وقد أثر هذا التغيير فى ميزان القوة البحرية تأثيراً حيوياً فى الحرب الأمريكية . ذلك أن الجيش البريطانى الرئيسى فى أمريكا « وعدته سبعة آلاف مقاتل يقودهم اللورد كورنواليس ، احتل موقعاً حصيناً فى يوركتون على نهر يورك قرب خليج تشيزابيك . وكان لافاييت برجاله الخمسة الآلاف وواشنطن برجاله الأحد عشر ألفا (بما فيهم ثلاثة آلاف فرنسى تحت إمرة الكونت روشامبو) قد التقيا عند يوركتون واستوليا على كل المداخل البرية الميسورة . وفى ٥ سبتمبر ١٧٨١ هزم أسطول فرنسى بقيادة الكونت دجراس أسطولا انجليزياً صغيراً فى الخليج ، ثم أغلق كل مهرب مائى على قوة كورنواليس الأقل عدداً . فلما استنفد كورنواليس ذخيرته استسلم هو وجميع رجاله (١٩ أكتوبر ١٧٨١) . واستطاعت فرنسا أن تزعم أن دجراس « ولافاييت » ورشاميو قد لعبوا أدواراً كبرى فى ذلك الحدث الذى تبين أنه الفاصل فى الحرب .

وطلبت انجلتره الصلح . وأوفد شلبرن بعثتين منفصلتين إلى الحكومة الفرنسية والمبعوثين الأمريكان فى فرنسا ، آملا أن يثير أحد الحليفين على الآخر . وكان فرجين (١٧٨١) قد فكر من قبل فى الصلح مع انجلتره على أساس اقتسام معظم أمريكا الشمالية بين انجلتره وفرنسا وأسبانيا[١٠٨] ، وبدأ تفاهماً مع أسبانيا ليبقى وادى المسسبى تحت السيطرة الأوربية[١٠٩] ، وفى نوفمبر ١٧٨٢ اقترح تأييد الانجليز فى سعيهم لأقصاء الولايات الأمريكية من مصايد الأسماك النيوفوند لندية[١١٠] . وكانت هذه المفاوضات متفقة تماماً مع السوابق الدبلوماسية ، ولكن المبعوثين الأمريكيين أحسوا حين

علموا بها أن الوضع يبرر عملهم بمثل هذه السرية . واتفق فرجين وفرانكلن على أن لكل حلف أن يتعامل مع انجلتره مستقلا عن الآخر « على ألا يوقع طرف أى معاهدة صلح دون موافقة الطرف الآخر[١١١] » .

أما المفاوضون الأمريكان — خصوصاً جون جاى وفرانكلن — فقد لعبوا اللعبة الدبلوماسية بمهارة فائقة ، فلم يكسبا للولايات المتحدة الاستقلال فحسب ، بل حق استعمال المصايد النيوفوندلندية ، ونصف البحيرات العظمى ، وكل المنطقة الشاسعة الغنية الواقعة بين جبال الليجانى والمسسبى ، وكانت هذه الشروط أفضل كثيراً مما توقع الكونجرس الأمريكى الحصول عليه . وفى ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ وقع جاى ، وفرانكلن ، وآدمز ، معاهدة تمهيدية مع انجلتره ، كانت من الناحية الرسمية انتهاكاً للاتفاق المبرم مع فرجين ، ولكنها اشترطت ألا يكون لها صلاحية حتى تبرم انجلتره الصلح مع فرنسا . وشكا فرجين ، ثم قبل الوضع . وفى ٣ سبتمبر ١٧٨٣ وقعت المعاهدة النهائية « باسم الثالوث الأقدس غير المنقسم »[١١٢] — بين انجلتره وأمريكا فى باريس ، وبين انجلتره وفرنسا وأسبانيا فى فرساى . وبقى فرانكلن فى فرنسا سفيراً للولايات المتحدة حتى ١٧٨٥ . فلما قضى نحبه فى فيلادلفيا (١٧ ابريل ١٧٩٠) لبست الجمعية التأسيسية الفرنسية الحداد عليه ثلاثة أيام .

وقد أفلست الحكومة الفرنسية نتيجة للحرب وأفضى ذلك الإفلاس إلى الثورة . فقد بلغ مجموع ما أنفقته فرنسا على الصراع بليوناً من الجنيهات ، وكانت الفائدة على الدين القومى تجر الخزانة يوماً فيوماً إلى هاوية العجز عن السداد . على أن ذلك الدين كان مشكلة بين الحكومة والأغنياء لا تكاد تؤثر فى الشعب ، الذى أثرى كثير من أفراده بفضل تنشيط الصناعة . وقد أوذيت الملكية — لا الأمة — أذى بليغاً . وإلا فكيف يستطيع التاريخ تعليل النجاح الذى ثبت به اقتصاد فرنسا الثائرة وجيوشها لنصف أوربا من ١٧٩٢ إلى ١٨١٥ ؟

لاريب فى أن روح فرنسا قد رفعت . فقد رأى رجال الدولة فى صلح

١٧٨٣ بعثاً ظافراً أقامها من كبوتها عام ١٧٦٣ . أما جماعة الفلاسفة فقد هللوا للنتيجة ورأوها انتصاراً لآرائهم » والحق ، كما قال توكفيل « ان الأمريكيين بدوا كأنهم نفذوا ما حلم به كتابنا »[١١٣] . ورأى الكثير من الفرنسيين فى الإنجاز الذى حققته المستعمرات إرهاصاً يبشر بانتشار الديمقراطية فى أوربا كلها . وسرت الأفكار الديمقراطية حتى إلى الطبقة الأرستقراطية والبرلمانات . وأصبح إعلان الحقوق الذى أصدره مؤتمر فرجينيا الدستورى فى ١٢ يونيو ١٧٧٦ ، وقانون الحقوق الذى ألحق بالدستور الأمريكى ، من بعض الوجوه نموذجين حذا حذوهما إعلان حقوق الإنسان الذى أعلنته الجمعية التاسيسية الفرنسية فى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ .

ولقد كان البهاء الأخير لفرنسا الإقطاعية ، وأوج فروسيتها ، أن تموت وهى تعين على إرساء دعائم الديمقراطية فى أمريكا . صحيح أن معظم رجال الدولة الفرنسيين كانوا يفكرون بلغة بعث قوة فرنسا وحيويتها . غير أن حماسة النبلاء من أمثال لافاييت وروكامبو كانت حقيقية لأمراء فيها . فلقد خاطروا بحياتهم غير مرة فى سبيل الدولة الوليدة . كتب الكونت سيجور الشاب يقول « لم أكن قط الوحيد الذى خفق قلبه لصوت استيقاظ الحرية وهى تكافح للتخلص من السلطة الاستبدادية »[١١٤] . ونزول النبلاء الشهير عن حقوقهم الإقطاعية فى الجمعية التأسيسية (٤ أغسطس ١٧٨٩) صور ومهد له هنا سلفاً . لقد كان ضرباً باسلا من الهارا — كيرى ، بذلت فيه فرنسا المال والدم لأمريكا ، ونالت لقاء ذلك دفعة جديدة قوية للحرية .

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

الموت والفلاسفة

١٧٧٤ – ١٨٠٧

---

١ – نهاية فولتير

أ – الشفق في فرنيه

كان يناهز الثمانين في ١٧٧٤ ، وكانت تغشاه نوبات إغماء في هذه السنين ونحن نسميها حالات بسيطة من النقطة ، وقد سماها هو إنذارات صغيرة ولم يعبأ بها ، لأنه وطن نفسه على الموت منذ أمد بعيد ، ولكنه عمر واستمتع بإعجاب الملوك والملكات . فقد وصفته كاترين الكبرى بأنه « أشهر رجال عصرنا »[١]. وكتب فردريك الأكبر في ١٧٧٥ « ان الناس يتزاحمون ويتجاذبون على شراء تماثيل فولتير النصفية بمصنع البرسلان » في برلين « حيث لاينتجون التماثيل بسرعة تكفي لتلبية الطلب عليها »[٢]. وكانت فرنيه قد أصبحت منذ زمان كعبة يحج إليها المثقفون الأوروبيون ، أما الآن فكانت مزاراً دينياً تقريباً ، فاستمع إلى مدام سوار عقب زيارتها لها في ١٧٧٥ تقول : « لقد رأيت مسيو فولتير ، ان نشوات القديسة تريزا لم تفق قط تلك التي استشعرتها وأنا أرى هذا الرجل العظيم . فقد بدا لي أنني في حضرة إله ، إله محبوب معبود ، استطعت في خاتمة المطاف أن أعرب له عن كل عرفاني وكل احترامي »[٣] . وحين مر بجنيف عام ١٧٧٦ كاد يخنقه الجمع المتحمس الذي التف حوله[٤] .

وقد واصل اهتمامه بالسياسة والأدب حتى في ثمانيناته . فحيا ارتقاء

لويس السادس العرش بمديح تاريخي للعقل ، اقترح فيه بأسلوب التنبؤ — بعض الإصلاحات التي تحبب الأجيال القادمة في الحاكم الجديد :

« سوف توحد القوانين . . . وستلغى الوظائف المتعددة (التي يجمع بينها كنسى واحد) والإنفاق الذى لا حاجة إليه . . . وسيعطى للفقراء الكادحين تلك الثروة الضخمة التي يمتلكها فريق من الكسالى كانوا قد نذروا حياة الفقر من قبل . ولن تعد الزيجات التي تبرمها مائة ألف من الأسر (البروتستنتية) النافعة للدولة نوعاً من التسرى ، ولا أطفالها أبناء غير شرعيين . . ولن تعاقب الذنوب الصغيرة على أنها جرائم جسيمة . . ولن يستخدم التعذيب . . . ولن يكون هناك بعد سلطتان (الدولة والكنيسة) ، لأنه لا يمكن أن يكون غير واحدة — وهي سلطة قانون الملك في الملكية ، وسلطة الأمة في الجمهورية . . . وأخيراً ، سنجرؤ على أن نفوه بكلمة التسامح »[٥] .

وقد أنجز لويس الكثير من هذه الإصلاحات ، فيما عدا الكنسية منها . وكان لتقواه الصادقة ، ولاقتناعه بأن ولاء الكنيسة سند لا غنى عنه لعرشه ، يأسف على تأثير فولتير . ففي يوليو ١٧٧٤ أصدر حكومته تعليماتها لناظر برجنديه الملكي بمراقبة المهرطق العجوز مراقبة يقظة ، ومصادرة أوراقه جميعها فور وفاته . وكانت مارى أنطوانيت تتعاطف مع فولتير ، وقد بكت حين شهدت تمثيل مسرحية « تانكريد » ، وقالت أنها تود أن « تعانق مؤلفها »[٦] ، فأرسل لها أبياتاً لطيفة .

وقد غمرته نوبة من التفاؤل يوم عين صديقه طورجو مراقباً عاماً للمالية ، ولكن حين أقيل طورجو أصابه تشاؤم بسكالى قاتم حول أحوال البشر . ثم استعاد السعادة بتبنيه ابنة ، هي رين فليبرت دفاريكور التي قدموها إليه في ١٧٧٥ على أنها فتاة تنوى أسرتها إدخالها أحد الأديرة لأنها تشكو فقراً يمنعها من تدبير مهر لها . وقد أدفأ جمالها البرىء عظام الشيخ ، فأخذها في بيته ، وسماها « جميلة وطيبة » ووجد لها زوجاً — هو المركيز دفليت الشاب الموسر . وتزوجا في ١٧٧٧ ، وقضيا شهر العسل في فرنيه . كتب

يقول « ان العاشقين الشابين بهجة للناظرين ، وهما يعكفان على العمل ليل نهار ليصنعا فيلسوفاً صغيراً لى »[٧] ، ذلك أن الثمانين الأبتر اغتبط لفكرة الأبوة ولو بالأنابة .

وكتب أثناء ذلك آخر دراماته « ايرين » ودفعها إلى الكوميدى — فرانسيز . وقد أحدث قبولها (يناير ١٧٧٨) مشكلة . ذلك أن الفرقة درجت على أن تقدم كل مسرحية حسب تاريخ قبولها » وكانت الفرقة قد تلقت مسرحيتين أخريين ووافقت عليهما قبل مسرحية فولتير — احداهما بقلم جان فونسوا دلاهارب » والأخرى بقلم نيقولا بارت . وتنازل المؤلفان كلاهما للتو عن حقيهما المقدمين فى التمثيل . وكتب بارت إلى الفرقة يقول :

« لقد قرئت عليكم تمثيلية جديدة بقلم مسيو فولتير وكنتم على وشك النظر فى تمثيل مسرحيتى « الرجل ذاته » . » وليس أمامكم الآن غير شىء واحد ، هو ألا تفكروا فى مسرحيتى أكثر من ذلك . وأنا عليم بالإجراء المتبع فى هذه الأحوال ، ولكن أى كاتب يجرؤ على المطالبة بالتزام القاعدة فى حالة كهذه ؟ أن مسيو فولتير يقف فوق القانون كأنه ملك . وإذا لم يكن فى الإمكان أن أتشرف بتقديم إسهامى فى امتاع الجمهور ، فلا أقل من التنحى عن طريق إبهاج الجمهور بمسرحية جديدة من القلم الذى أنشأ « زائير » و « ميروب» . انى لأرجو أن تعرضوا هذه المسرحية بأسرع ما تستطيعون وأتمنى لو واصل مؤلفها » مثل سوفوكليس ، تأليف التراجيديات حتى يبلغ المائة سنا ، ثم يموت كما تحيون أيها السادة — مكللا بفيض غامر من التصفيق »[٨] .

فلما بلغ النبأ فولتير داعب فى حب فكرة الذهاب إلى باريس ليشرف على إخراج مسرحيته . ذلك أنه لم يكن هناك على أية حال حظر رسمى أو صريح على دخوله باريس . وأى بأس فى أن يهاجمه رجال الدين من فوق منابرهم ؟ انه ألف ذلك . وماذا لو أقنعوا الملك بزجه فى الباستيل ؟ حسنا ، انه ألف ذلك أيضاً . فيالها من فرحة أن يرى المدينة الكبرى مرة أخرى بعد أن غدت قصبة التنوير ! لكم تغيرت طبعاً منذ فراره الأخير منها قبل

ثمانية وعشرين عاماً ! ثم أن مدام دنى ، التى مات فرنيه منذ زمن طويل ، كثيراً ما توسلت إليه أن يعود بها إلى باريس . وعرض المركيز دفيليت أن يهيء له أسباب الإقامة المريحة فى قصره فى شارع بون . وأقبلت الرسائل تترى من باريس صائحة : تعال !

فقرر أن يذهب . فإذا أجهزت عليه الرحـــلة فإنها لن تفعل أكثر من تقديم نهاية ما لا مفر منها زماناً يسيراً » فالآن حان وقت الموت . واعترض على الكفرة وحزن خدام بيته ، ومشرفو مزرعته ، وفلاحو أرضه ، والعمال فى مستعمرته الصناعية ، فوعدهم بأن يعود بعد ستة أسابيع ، ولكنهم كانوا واثقين فى حزن أنهم لن يروه بعدها أبدا . وأى خاف له سيعطف عليهم عطفه ؟ فلما غادرت القافلة فرنيه (٥ فبراير ١٧٧٨) التف أتباعه من حوله ، وبكى الكثير منهم ، ولم يستطع هو ذاته أن يملك دموعه . وبعد خمسة أيام ، ورحلة ثلاثمائة ميل ، وقع بصره على باريس .

ب — تمجيد فولتير

حين بلغت المركبة أبواب باريس فتشها الموظفون بحثاً عن الممنوعات. وقال لهم فولتير مؤكداً « وديني أيها السادة انى أعتقد أن ليس هنا من ممنوع غير شخصى »[٩] . ويؤكد لنا سكرتيره فانيير أن سيده « تمتع طوال الرحلة بصـــحية سابغة . فلم أره قط أروق مزاجاً ، وكان مرحه مبهجاً »[١٠] للنظاظرين .

وأعد له جناح فى بيت مسيو دفليت فى زاوية شارع بون والكى دى تياتر على الضفة اليسرى لنهر السين . وفور ترجله من مركبته سار على الرصيف قاصداً بيت صديقه دارجنتال القريب ، وكان قد ناهز الثامنة والسبعين . ولم يكن الكونت فى بيته . ولكن سرعان ما ظهر فى قصر فيليت . وقال فولتير « توقفت عن الموت لآتى وأراك » . وبعثت إليه صديقة قديمة أخرى بكلمات ترحيب . فرد عليها بتأنقه المألوف فى نعى نفسه « لقد وصلت ميتاً ، ولا أريد أن أبعث حياً إلا لأرتمى تحت قدمى المركيزة دودفان »[١١] . وأبلغه المركيز جوكور أن لويس السادس عشر ثائر لمجيئه إلى باريس ، ولكن

مدام دبولنياك جاءت لتؤكد له أن مارى أنطوانيت ستحميه[١٢] . ورغب الأكليروس فى طرده ، ولكن لم يوجد فى السجلات أى حظر رسمى يحرم زيارة فولتير لباريس ، واكتفى لويس برفض رجاء الملكة السماح للكاتب الذى طبقت شهرته الآفاق بالمثول فى البلاط[١٣] .

وحين ذاع فى باريس نبأ خروج الرجل الذى حدد الطابع الفكرى للقرن الثامن عشر من منفاه الطويل الأمد ، تحولت قاعة الأوتيل فيليت إلى بلاط وعرض حقيقيين . وقد قيل إنه فى ١١ فبراير زاره ثلاثمائة شخص ، منهم جلوك ، وبلتينى ، وطورجو ، وتاليران ، ومارمونتيل ، والسيدات نكير ، ودوبارى ، ودودفان . وأتى فرانكلن فى صحبة حفيد له فى السابعة عشرة ، طالباً بركة الشيخ الجليل عليه ، ورفع فولتير يديه فوق رأس الصبى ، وقال بالإنجليزية « يابنى ، الله والحرية ، تذكر هاتين الكلمتين »[١٤] . فلما استمر سيل الزوار يتدفق يوماً بعد يوم كتب الدكتور ترونشان إلى المركيز د فيليت يقول : « ان فولتير يعيش الآن على رأسماله لا على الفائدة ، وان تلبث عافيته أن تتبدد من جراء أسلوب عيشه هذا . ونشرت هذه الرسالة القصيرة فى « الجورنال دبارى » فى ١٩ فبراير ، لمنع الفضوليين فيما يبدو من الزيارة »[١٥] . أما فولتير نفسه فكان قد تنبأ فى فرنيه بما سيكلفه انتصاره : « سأموت بعد أربعة أيام ان كان على أن أحيا حياة أهل الدنيا »[١٦] .

وخطر لبعض رجال الدين أنهم قد يحققون نصراً كبيراً لو أصلحوا بينه وبين الكنيسة الكاثوليكية . وكان نصف راغب فى هذا الصلح ، لأنه كان عليماً بأن الذين ماتوا فى أحضان الكنيسة هم وحدهم الذين يمكن دفنهم فى أرض مقدسة ، وكل المقابر فى فرنسا كانت أرضها مقدسة . ومن ثم فقد رحب بخطاب ورد له فى ٢٠ فبراير من الأبيه جولتييه يطلب مقابلته . وجاء الأبيه فى اليوم الواحد والعشرين ، وتحدثا برهة ، دون نتيجة لاهوتيه معروفة . ثم رجت مدام دنى الأبيه أن ينصرف ، وقال له فولتير أن له أن يحضر ثانية . وفى اليوم الخامس والعشرين أصيب فولتير بنزيف شديد ،

فنفث الدم من فمه وأنفه حين سعل . وأمر سكرتيره بأن يستدعي جولتييه . ويقول فاجنيير معترفاً : « لقد أمسكت رسالتي لأنني كرهت أن يقال أن مسيو فولتير قد تخاذل ، فأكدت له أن الأبيه لم يمكن العثور عليه »[١٧] . وكان فاجنيير عليماً بأن الشكاك في باريس يعللون أنفسهم بالأمل بأن فولتير لن يستسلم للكنيسة في اللحظة الأخيرة ، ولعله سمع بنبوءة فردريك الأكبر ، « انه سيخزينا جميعاً »[١٨] .

وعاده ترونشان وأوقف النزيف ، ولكن فولتير ظل يبصق الدم في الأيام الاثنين والعشرين التالية . وفي اليوم السادس عشر كتب إلى جولتييه يقول : « أرجو أن توافيني بأسرع ما تستطيع »[١٩] . وجاء جولتييه في صباح الغد فوجد فولتير نائماً ، فانصرف . وفي اليوم الثامن والعشرين سلم فولتير فاجنيير اعترافاً بالإيمان نصه : « اني أموت وأنا أعبد الله ، وأحب أصدقائي ، ولا أبغض أعدائي ، وأكره الاضطهاد »[٢٠] . وعاد جولتييه في ٢ مارس ، وطلب فولتير الاعتراف على يديه ، وأجاب الأبيه بأن جان دترساك كاهن سان – سولبيس اشترط عليه أن يحصل على عدول عن آرائه قبل أن يستمع إلى الاعتراف . واعترض فاجنيير . وطلب فولتير قلماً وورقاً ، وكتب بخطه :

« أنا الموقع أدناه ، نظراً إلى إصابتي في الشهور الأربعة الماضية بتقيؤ الدم ، ولما كنت عاجزاً وأنا في الرابعة والثمانين عن جر نفسي إلى الكنيسة ، ولما كان كاهن سان سولبيس يريد أن يضيف إلى حسناته حسنة بإيفاد الأبيه جولتييه إلي ، فقد اعترفت على يديه ، (وأعلن) أنه إذا قبضني الله إليه ، فإني أموت على الدين الكاثوليكي الذي ولدت فيه ، مؤملاً في رحمة الله أن تغفر لي كل أخطائي ، وإذا كنت قد صدمت الكنيسة في يوم ما ، فإني أطلب المغفرة من الله ومنها . التوقيع ، فولتير ، في الثاني من مارس ١٧٧٨ ، في بيت المركيز فيليت[٢١] .

ووقع المسيو فييلفيل والأبيه منيو (ابن أخت لفولتير) الإقرار بوصفهما شاهدين . وحمله جولتييه إلى رئيس الأساقفة في ضاحية كونفلانس وإلى

كاهن سان — سولبيس ، فأعلن كلاهما أنه غير كاف[٢٢] . ومع ذلك استعد جولتييه لمناولة القربان لفولتير ، ولكن فولتير اقترح تأجيل المناولة قائلا « أنني أبصق الدم فى سعالى باستمرار ، ويجب أن نحذر من اختلاط دمى بدم الآله الصالح »[٢٣] . ولسنا ندرى بأى روح قال هذه الكلمات — أبروح التقوى الصادقة أم بروح النزوة العارضة .

وفى ٣ مارس حضر ديدرو « ودالامبير ، ومارمونتيل » ليعودوا المريض . فلما جاءه جولتييه فى ذلك اليوم يحمل تعليمات من رئيسه بأن يحصل على اعتراف « أقل لبسا وأكثر تفصيلا » قيل له أن فولتير ليس فى حال تسمح له باستقباله . وعاد جولتييه عدة مرات « ولكنه فى كل مرة كان يصرفه الحارس السويسرى الواقف بالباب . وفى ٤ مارس كتب فولتير إلى كاهن سان — سولبيس يعتذر لتعامله مع مرءوس له . وفى ١٣ مارس استقبل الكاهن ، ولكن يبدو أن الزيارة لم تسفر إلا عن تبادل المجاملات[٢٤] . ثم توقفت نوبات النزيف أثناء ذلك . . فشعر فولتير بأنه يستعيد عافيته « وفترت تقواه .

وفى ١٦ مارس مثلت « ايرين » على مسرح التياتر — فرانسيه . وحضر الحفلة كل البلاط تقريباً بما فيهم الملكة . ولم تكن المسرحية مما يرقى إلى مستوى فولتير العادى ، ولكنها ظفرت مع ذلك بالثناء باعتبارها إنتاجاً رائعاً لرجل فى الرابعة والثمانين . أما فولتير الذى حالت شدة المرض بينه وبين حضور الحفلة فقد كان محاط علماً باستجابة النظارة فصلا فصلا ، وفى اليوم السابع عشر جاءه وفد من الأكاديمية الفرنسية يحمل إليه تهنئتها . وفى ٢١ مارس شعر بأن فيه من العافية ما يسمح له بالخروج راكباً عربته ، فزار سوزان دلفرى ، مركيزة جوفرتيه « التى كانت خليلته . قبل ثلاثة وستين عاما . وفى الثامن والعشرين زار طورجو .

وكان يوم ٣٠ مارس يومه الأغر . فقد ذهب بعد ظهره إلى اللوفر ليحضر اجتماعاً للأكاديمية . قال دنى فون فيزن « وهو كاتب روسى كان يومها فى باريس « حين خرج راكباً عربته من بيته رافقها حتى الأكاديمية

حشد لا آخر له من الناس الذين لم يكفوا عن التصفيق . وخرج جميع الأكاديميين للقائه »[٢٥] . ورحب دالامبير بمقـدمة بخطاب اغرورقت له عينا الشيخ . وأجلس فولتير فى كرسى الرياسة ، وانتخب وسط التصفيق رئيساً لدورة أبريل الربعية . فلما انتهت الجلسة ودعوه حتى مركبته ، التى سارت من هناك بمشقة إلى التياتر — فرانسيه مخترقة حشداً ضخماً يردد الهتاف « يحيى فولتير » .

فلما دخل المسرح قام النظارة والممثلون جميعاً لتحيته . وشق طريقه إلى المقصورة التى كانت تنتظره فيها مدام دنى والمركيزة دفيليت . فجلس خلفهما ، ورجاه النظارة أن ييسر لهم رؤيته ، فاتخذ مقعداً بين السيدتين . وجاء ممثل إلى المقصورة ووضع إكليلا من الغار على هامة فولتير ، فرفعه ووضعه على رأس المركيزه ، ولكنها أصرت على أن يقبله . وارتفعت أصوات بين النظارة تهتف « مرحباً بفولتير ! » « مرحباً بسوفوكليس ! » « الأجلال للفيلسوف الذى يعلم الناس أن يفكروا ! » « المجد للمدافع عن كالاس ! »[٢٦] قال جريم ، وكان شاهد عيان ، « استمرت هذه الحماسة ، هذا الهذيان الشامل ، أكثر من عشرين دقيقة »[٢٧] . ثم عرضت « أيرين » للمرة السادسة . وفى ختام الحفلة طالب النظارة بكلمة من المؤلف ، فاستجاب فولتير . ورفع الستار ثانية ، وكان الممثلون قد أخذوا تمثالا نصفياً لفولتير من البهو ووضعوه على خشبة المسرح ، فكللوه الآن بالغار ، وقرأت مدام فستريس التى لعبت دور أيرين على فولتير أبياتاً فى مدحه :

أمام عيون باريس المفتونة بك

تقبل اليوم تحية إجلال

سوف تؤكدها الأجيال الصارمة

من عصر إلى عصر .

كلا ، فما من حاجة بك

إلى بلوغ الشاطىء المظلم

لتحظى بشرف الخلود .
فتقبل يافولتير التاج
الذي قدم إليك ،
فما أجمل أن تكون جديراً به
حين تكون فرنسا هي التي تقدمه»[٢٨] .

وطلب النظارة إعادة الأبيات ، فأعيدت . وخلال التصفيق غادر فولتير كرسيه ، وأفسح له الجمع الطريق ، وقادوه إلى مركبته وسط جمهور يفيض حماسة . وجيء بالمشاعل ، وأقنعوا السائق بأن يبطىء السير بالمركبة ، وصاحبها جمع حتى الأوتيسل دفيليت[٢٩] . ان تاريخ الأدب الفرنسي بأسره لم يحوقط فيما نعلم مشهداً كهذا .

كتبت مدام فيجيه — لبرون التي شهدت هذا كله تقول : «كان الشيخ الذائع الصيت قد شف وهزل حتى لقد خشيت أن تؤذيه هذه العواطف الجياشة أذى مميتاً »[٣٠] .

ونصحه ترونشان بالعودة إلى فرنيه بأسرع ما يستطيع ، ولكن مدام دني رجت خالها أن يجعل في باريس مقامه الدائم . فوافقها بعد أن أسكرته حرارة استقباله . وامتدح شعب باريس لأنهم أكثر شعوب الأرض مرحاً ، وأدباً ، واستنارة ، وتسامحاً ، ولأن لهم أرفع الأذواق ، والملاهي ، والفنون[٣١] ، ونسي «الرعاع» لحظة ، وراح يجوب باريس في مركبته باحثاً عن بيت يسكنه ، وفي ٢٧ أبريل اشترى بيتاً . واستشاط ترونشان غيظاً وقال «لقد رأيت حمقى كثيرين في حياتي ، ولكن لم أر قط أكثر منه جنوناً . فهو يحسب أنه سيعمر مائة عام»[٣٢] .

وفي ٧ أبريل أخذ فولتير إلى محفل «الأخوات التسع» الماسوني فقبل عضواً دون أن يلزم باجتياز المراحل التمهيدية المألوفة . وكلل رأسه بأكليل من الغار ، وألقى رئيس المحفل خطاباً قال فيه : «إننا نقسم بأن نساعد اخوتنا ، ولكنك كنت المؤسس لمستعمرة كاملة تعبدك وتفيض بإحساناتك . . . لقد

كنت أيها الأخ المحبوب جداً ماسونيا قبل أن تنال الرتبة » وقد حققت التزامات عضو الماسونية قبل أن تتعهد بالوفاء بها «[٣٣] . وفى اليوم الحادى عشر رد زيارة مدام دودفان فذهب ليراها فى شقتها بدير سان – جوزيف ، وتحسست وجهه بيديها المبصرتين . فلم تجد غير العظام ، ولكنها كتبت فى اليوم الثانى عشر إلى هوراس ولبول تقول : « انه يفيض حيوية كالعهد به دائماً . وهو فى الرابعة والثمانين ، والحق أنى أحسبه لن يموت أبداً . وهو يستمتع بجميع حواسه ؛ ولم تضعف منها واحدة . أنه مخلوق فذ ، وأسمى فى الحقيقة بكثير من سائر الخلق «[٣٤] . فلما سمع الراهبات بزيارته نددن بالمركيزة لتدنيسها ديرهن بحضور رجل أدانته الكنيسة والدولة جميعاً[٣٥] .

وفى ٢٧ أبريل ذهب إلى الأكاديمية مرة أخرى . ودارت المناقشة حول ترجمة الأبيه دليل لكتاب بوب « رسالة إلى الدكتور أربثنوت» ، وكان فولتير قد قرأ الأصل ، فهنأ الأبيه على ترجمته ، واغتنم الفرصة ليقترح مراجعة « قاموس » الأكاديمية اثراء للغة المعتمدة بمئات الألفاظ الجديدة التى شقت طريقها إلى الاستعمال المهذب . وفى ٧ مايو عاد إلى الأكاديمية بخطة للقاموس الجديد . وتطوع بأن يضطلع بجميع الألفاظ المبتدئة بالحرف أ ، واقترح أن يتكفل كل عضو بحرف ، وعند رفع الجلسة شكرهم « باسم الأبجدية » « ورد المركيز رشاستللوكس « ونحن نشكرك باسم الآداب «[٣٦] . فى ذلك المساء حضر متنكراً حفلة تمثيل لمسرحيته « الزير» . وفى ختام الفصل الرابع صفق النظارة للممثل لاريف ، وشارك فولتير فى الأعراب عن استحسانه « آه ما أروع هذا الأداء ! » وتعرف عليه الجمهور ، فتجددت مظاهر الحماسة العارمة التى شهدها ٣٠ مارس مرة أخرى .

ولعله خيراً فعل بالاستمتاع بتلك الأسابيع الأخيرة من حياته على حساب صحته ، بدلا من الانزواء فى عقر داره وحيداً ليضيف إلى عمره بضعة أيام مؤلمة . وقد عكف بهمة عظيمة على خطته التى اقترحها لوضع قاموس جديد ، وأسرف فى تعاطى القهوة – فقد بلغ ما شربه من أقداحها فى اليوم أحياناً خمسة وعشرين – حتى لقد جفاه النوم ليلا . وساء حصره أثناء ذلك ، وبات التبول أشد إيلاماً وقصوراً ، وسرت إلى دمه العناصر السامة التى

كان يجب التخلص منها ، فأحدثت بولينا فى الدم . وأرسل له الدوق رشليو محلولاً من الأفيون أوصى به مسكناً ولكن فولتير أساء فهم الإرشادات فشرب قنينة كاملة منه مرة واحدة (١١ مايو) ، فأصابه هذيان دام ثمانى وأربعين ساعة ، وشوه الألم وجهه . واستدعى ترونشان ، فأعطاه ما خفف عنه بعض الشيء ، ولكن فولتير ظل عدة أيام لا ينطق بكلمة ولا يمسك طعاماً . والتمس أن يعيدوه إلى فرنيه ، ولكن أوان ذلك كان قد فات .

وفى ٣٠ مايو قدم الأبيه جولتييه وكاهن سان — سولبيس ، مستعدين لمناولته سر الكنيسة المقدس إذا أضاف لاعترافه السابق بالإيمان إيمانه بلاهوت المسيح . وزعمت قصة لم يؤيدها مصدر آخر ، وقد رواها كوندورسيه[٣٧] ، أن فولتير صاح « بالله لاتكلمونى عن ذلك الإنسان ! » .

أما لا هارب فروى أن جواب فولتير كان « دعونى أمت فى سلام » . أما دنواريستير فقد قبل الرواية العادية : وهى أن الكاهنين وجدا فولتير محموماً يهذى ، فانصرفا دون أن يناولاه القربان[٣٨] . وزعم ترونشان أن ساعات احتضار الفيلسوف اتسمت بالعذاب الشديد وبصيحات الغضب الشديد[٣٩] . ثم هدأت نأمته أخيراً فى الحادية عشرة من تلك الليلة .

ووضع الأبيه منيو جثمان خاله قائماً فى مركبة ، وكان قد توقع أن دفنه فى مقبرة باريسية سيرفض ، وانطلق بها ١١٠ ميلا إلى دير سكلير فى قرية رومبى — على — السين هناك قام كاهن محلى بمراسم الصلاة التقليدية على الجثمان ورتل قداساً مطولا فوقه ، وسمح بدفنه فى قبو الكنيسة .

وحظر أمر من لويس السادس عشر على الصحف نشر نبأ موت فولتير[٤٠] ، وطلبت الأكاديمية الفرنسية إلى الرهبان الفرنسسكان إقامة قداس على روح الميت ، ولكن لم يمكن الحصول على إذن بذلك . ورتب فردريك الأكبر ، تحية من شاك إلى شاك ، أن يقام قداس على روح فولتير فى كنيسة كاثوليكية ببرلين . ونظم تأبيناً حاراً لصديقه وعدوه ، قرىء على أكاديمية برلين فى ٢٦ نوفمبر ١٧٧٨ . وكتبت كاترين الكبرى لجريم تقول :

« فقدت رجلين لم أرهما قط ، أحباني ، وبجلتهما — فولتير والاورد شاتام . وسيظل القوم زمناً طويلا جداً ، وربما إلى الأبد ، يفتقدون من يعدلانهما ، ولن يجدوا أبداً من يفوقانهما — خصوصاً أول الرجلين . منذ أسابيع كرم فولتير علانية ، والآن لا يجرءون على دفنه . يا له من رجل ! أعظم رجل فى أمته ، لم لم تأخذ جثمانه باسمى ؟ كان ينبغى أن ترسله إلى محنطاً . . . وكان سيحظى بأفخم مثوى . . . اشترى مكتبته وأوراقه بما فيها رسائله إن أمكن . وسأدفع لورثته ثمناً مجزياً »[٤١] .

وتلقت مدام دنى ١٣٥,٠٠٠ جنيه نظير المكتبة التى نقلت إلى أرميتاج سانت بطرسبرج .

وفى يوليو ١٧٩١ ، وبأمر الجمعية التأسيسية للثورة ، نقل رفات فولتير من دير سكلير إلى باريس ، وطافوا به المدينة فى موكب نصر ، ثم ووري فى كنيسة سانت جنفييف (التى ستسمى بعد قليل بالبانثيون) . فى ذلك العام أطلق على الكى دى تياتان رسمياً اسم جديد هو الكى د فولتير . وفى مايو ١٨١٤ خلال عودة الملكية البوربونية ، نقلت جماعة من الغيلان الأتقياء رفات فولتير وروسو من البانتيون خفية ، وأودعته غرارة ودفنته فى مقلب بأطراف باريس . ولم يعثر للرفات بعد ذلك على أثر .

جـ — تأثير فولتير

انه يبدأ بلحظات العداء للاكليروس فى « أوديب » (١٧١٨) ، وهو تأثير فعال اليوم على نطاق عالمى تقريباً . وقد رأينا هذا التأثير يحرك الملوك : فردريك الثانى ، وكاترين الثانية ، ويوزف الثانى ، وجوستاف الثالث ، وبدرجة أقل شارل الثالث ملك أسبانيا من خلال أراندا ، وجوزف الثانى ملك البرتغال من خلال بومبال . ولم يعد له فى العالم الفكرى فى المائتى السنة الأخيرة غير تأثير روسو وداروين .

وبينا كان تأثير روسو الأخلاقى ينحو إلى الحنان ، والعاطفة ، وإعادة الحياة الأسرية والوفاء الزوجى ، كان تأثير فولتير الأخلاقى ينحو إلى

الإنسانية والعدالة » وإلى تطهير القانون والعادات الفرنسية من المفاسد القانونية وألوان القسوة البربرية ، فلقد حفز فولتير أكثر من أى فرد آخر تلك الحركة الإنسانية التى أصبحت من مفاخر القرن التاسع عشر . ولا حاجة بنا أن أردنا الإحساس بتأثير فولتير فى الأدب إلا لتذكر فيلاند ، وكلجرين ، وجوته ، وبايرون ، وشلى ، وهينى ، وجوتييه » وريتان » وأناطول فرانس . ولولا فولتير لاستحال ظهور جبون ؛ ويعترف المؤرخون بقيادته وإلهامه فى التقليل من التركيز على جرائم الناس والحكومات وزيادة الاهتمام بتنميته المعرفة » والأخلاق » والسلوك ، والأدب ، والفن .

وقد شارك فولتير فى إنجاب الثورة الفرنسية بإضعاف احترام الطبقات المثقفة للكنيسة وإيمان الطبقة الارستقراطية بحقوقها الإقطاعية . ولكن تأثير فولتير السياسى بعد عام ١٧٨٩ طغى عليه تأثير روسو . فقد بدا فولتير شديد المحافظة » شديد الازدراء لجماهير الشعب » شديد الاتسام بطابع السادة الإقطاعيين ؛ وقد رفضه روبسبير ، وظل « العقد الاجتماعى » ستتين انجيلا للثورة . أما بونابرت فأحس التأثيرين فى تعاقبهما العادى . قال متذكراً تلك الحقبة «كنت حتى عامى السادس عشر على استعداد لمقاتلة أصدقاء فولتير دفاعاً عن روسو ، أما اليوم فقد انعكس موقفى . . فكلما أمعنت فى قراءة فولتير ازددت شغفاً به . فهو رجل معقول دائماً ، لا بالمهرج ولا بالمتعصب أبداً »[٤٢]. وبعد عودة ملوك البوربون أصبحت مؤلفات فولتير أداة للفكر البورجوازى ضد النبلاء والأكليروس المنبعثين من جديد . وقد صدرت بين عامى ١٨١٧ و ١٨٢٩ أثنتا عشرة طبعة من مجموعة أعماله . فى تلك السنوات الإثنتى عشرة بيع من كتب فولتير نيف وثلاثة ملايين مجلد[٤٣] . ثم أسلمت الحرب الشيوعية التى تزعمها ماركس وانجلز القيادة مرة أخرى لروسو . ويمكن القول بوجه عام أن الحركات الثورية منذ ١٨٤٨ تبعت روسو أكثر من فولتير فى السياسة ؛ وتبعت فولتير أكثر من روسو فى الدين .

وكان أعمق تأثير لفولتير وأبقاه على الزمن تأثيره على الإيمان الدينى . فبفضله وبفضل شركائه تجنبت فرنسا حركة الإصلاح الدينى البروتستنتى ،

وانتقلت رأساً من النهضة إلى التنوير ، وربما كان هذا أحد أسباب العنف الشديد التي رافق التغيير ، إذ لم يكن هناك فترة توقف عند البروتستينية . وقد شعر بعض المتحمسين أن حركة التنوير فى جملتها كانت إصلاحاً أعمق من ذلك الذى أحدثه لوثر وكلفن ، لأنها لم تكتف بتحدى مغالاة الكهانة والخرافة فقط ، بل تحدت صميم أسس المسيحية ، لا بل كل العقائدفوق الطبيعية . وقدجمع فولتير فى صوت واحد كل ضروب الفكر المناهض للكاثوليكية ، وأضفى عليها مزيداً من القوة بفضل الوضوح والتكرار وخفة الروح ، حتى لقد بدا حيناً كأنه قد هدم الهيكل الذى ربى فيه . وقد حركت جماعة الفلاسفة الطبقات المفكرة فى العالم المسيحى كله صوب ربوبية مهذبة أو إلحادمستتر . وتأثر جيل جوته من الشباب فى ألمانيا بفولتير تأثراً عميقاً وذهب جوته إلى أن « فولتير سيعد دائماً أعظم رجل فى أدب العصور الجديد، بل ربما جميع العصور »[٤٤] . وفى انجلتره أحست أقلية لامعة بتأثير فولتير — جودوين ، وبين ، ومارى وولستونكرافت ، وبنتام ، وبايرون ، وشلى ؛ ولكن يمكن القول عموماً إن الربوبية الانجليزية سبقته فقللت من حدة تأثيره ، ثم إن السادة الانجليز شعروا بأنه ليس هناك عقل مثقف يرضى بالهجوم على دين يهب مثل هذا العزاء المهدىء للطبقات الأضعف والجنس الأضعف . أما فى أمريكا فإن الآباء المؤسسين كانوا كلهم تقريباً تلاميذ لفولتير . وهناك وفى انجلتره غطى تأثير داروين والبيولوجيا الحديثة على تأثير فولتير فى إضعاف الإيمان الدينى ؛ وفى عصرنا هذا يعانى اللاهوت المسيحى أكثر مما يعانى من وحشية حروبنا التى لانظير لها ، واقتحامات العلوم الظافرة التى تغزو تلك السماوات التى كانت يوماً ما مسكن الآلهة والقديسين .

ونحن مدينون لفولتير أكثر من أى إنسان آخر بذلك التسامح الدينى الذى يسود الآن أوربا وأمريكا الشمالية سيادة قلقة . ولقد رأى فيه أهل باريس لا مؤلف الكتب الفاصلة بين جيلين ، بل المدافع عن كالاس وسرفان . ولم تجرؤ محكمة فى أوربا بعده على تحطيم جسد رجل على دولاب التعذيب لتهم وأدلة كتلك التى أدانت جان كالاس . صحيح أن كتباً مثل

« أميل » ظلت تحظر وتحرق ، ولكن رمادها أعان على بث أفكارها ، وتقلصت الرقابة الدينية حتى انتهى بها الأمر إلى الإقرار بالهزيمة فى صمت . وإذا اضطر أبناؤنا يوماً ما إلى خوض معركة تحرير الفكر من جديد ، وهو أمر يبدو جائزاً ، فليلتمسوا الإلهام والتشجيع فى كتب فولتير التسعة والتسعين. ولن يجدوا فيها صفحة واحدة تبعث على الملل .

٢ — خاتمة روسو : ١٧٦٧ — ٧٨

أ — الروح المعذب

حين وصل روسو إلى فرنسا فى ٢٢ مايو ١٧٦٧ بعد مقامه التعس فى انجلترا ، وبعد أن أشرف على الجنون ، وجد بعض العزاء فى الترحيب الذى لقيه من المدن التى اجتاز بها هو وتريز . ومع أنه سافر متخفياً تحت اسم جان — جوزف رينو ، وكان لا يزال من الناحية القانونية خاضعاً للحظر الذى صدر ضده فى ١٧٦٢ ، إلا أن القوم تبينوه وكرموه ، واستقبلته أميان استقبال الظافرين ، وأرسلت له مدن أخرى « نبيذ المدينة » .

وعرض عليه كثير من الفرنسيين — وكلهم من النبلاء — بيتاً يقيم فيه . أولهم ميرابو الأب ، الذى خيره بين عشرين ضيعة ، فاختار روسو فلورى — سو — مودون ، القريبة من باريس . ولكن المركيز ألح عليه إلحاحاً مزعجاً ليقرأ كتبه ، فهرب روسو ، ولجأ إلى لوى — فرانسوا البوربونى ، أمير كونتى ، فى تريبه — لو — شاتو ، القريبة من جيزور (٢١ يونيو ١٧٦٧) . ووضع الأمير القلعة بأسرها تحت تصرف جان — جاك ، بل إنه أوفد الموسيقيين ليشنفوا أذنيه بالموسيقى الهادئة ؛ وفسر روسو هذا بأنه اتهام له بالجنون ، وخامره الظن بأن شوازيل والكونتيسة بوفليه (خليلة الأمير) انضما إلى فولتير ، وديدرو ، وجرم ، فى التآمر عليه ؛ والواقع أن فولتير كان قد اتهمه بإشعال النار فى المسرح بجنيف ، الذى احترق وأصبح أنقاضاً فى ٢٩ يناير ١٧٦٨[٤٥]. واعتقد روسو أن كل من فى جيزور ينظر إليه كأنه مجرم . وتاق إلى العودة لجنيف ، وكتب إلى شوازيل يرجوه إقناع مجلس جنيف بأن يكفر لروسو عن الإساءات الماضية التى ألحقها به[٤٦] .

وأرسل إليه شوازيل تصريحاً رسمياً بالسفر إلى أى بقعة يريدها فى فرنسا ، وبأن يبرحها ويعود إليها متى شاء[٤٧] . وخطر لروسو الآن أن يعود إلى انجلترة ، فكتب إلى ديفنبورت يسأله أن كان يسمح له بأن يشغل ثانية بيت ووتن ، وأجاب ديفنبورت بأنه يسمح بكل تأكيد .

ثم هرب روسو من ترى فى يونيو ١٧٦٨ خوفاً على حياته فيها ، وترك تريز فى القصر الريفى ضماناً لسلامتها . واستقل مركبة عامة إلى ليون ، وأقام حينا مع أقرباء دانيل روجن الذى كان قد وفر له الملجأ فى ١٧٦٢ فى سويسرة . على أنه ما لبث أن اعتزل فى فندق الجولدن فونتين فى بورجوان — أن — دوفينه . وعلى باب حجرته كتب قائمة بالأشخاص الذين يعتقد أنهم يأتمرون به . ثم أرسل فى طلب تريز ، واستقبلها بالفرح والدموع ، وقرر آخر الأمر أن يتزوجها . وقد تم هذا القران فى حفل مدنى بالفندق فى ٣٠ أغسطس ١٧٦٨ .

وفى يناير ١٧٦٩ انتقلا إلى بيت بمزرعة فى موكان ، قرب جرينوبل . وهناك كتب آخر صفحات « الاعترافات » ، وهى صفحات نصف مجنونة ، وراح يهدىء أعصابه بدراسة علم النبات . ووجدت تريز أن طبعه يزداد حدة ، وكانت هى ذاتها تعانى من الروماتزم والأوصاب الغامضة التى تصاحب أحياناً « تغيير المعيشة » . وتشاجر الزوجان الحديثان مشاجرة بلغ من شدتها أن حملت روسو على الرحيل فى رحلة طويلة لجمع النبات ودراسته بعد أن ترك لها خطاباً ينصحها بدخول الدير (١٢ أغسطس ١٧٦٩)[٤٨] . فلما عاد ووجدها تنتظره تجدد حبهما . وندم الآن على أنه تخلص من أطفالها . وأحس « أن الرجل الذى يستطيع تربية أولاده تحت بصره رجل سعيد جـداً[٤٩] » . وكتب إلى أم شابة يقول : إن أجمل أسلوب فى الحياة يمكن أن يوجد هو أسلوب الأسرة . . فما من شىء يندمج معنا بأشد وأثبت من أسرتنا وأبنائنا . . . ولكن أنا الذى يتكلم على الأسرة والأبناء — . . . سيدتى ، ارثى لأولئك الذين يحرمهم قدرهم القاسى من هذه السعادة ، ارثى لهم إن كانوا عاثرى الحظ فقط ، ومزيداً من الرثاء لهم إن كانوا مذنبين ! »[٥٠] .

وكان الشتاء الذى قضته الأسرة فى موكان شاقاً فى بيت ريفى يقع فى مهب الرياح كلها . والتمست تريز منه الرحيل إلى باريس . وهكذا استأنف الزوجان أسفارهما الطويلة فى ١٠ أبريل ١٧٧٠ وأنفقنا شهراً لطيفاً فى ليون ، حيث مثلت أوبريت روسو عراف القرية ، جزءا من احتفال أقيم تكريماً له . ثم سافرا فى مراحل بطيئة مخترقين ديجون ، ومونبار » وأوجزيز ثم بلغا باريس فى خاتمة المطاف فى ٢٤ يونيو ١٧٧٠ . وأقاما فى الطابق الرابع من نزله القديم فى الأوتيل سانت اسبرى ، بشارع بلاتريير — واسمه الآن شارع جان — جاك روسو فى حى من أشد أحياء المدينة ضجيجاً .

وعاش عيشة متواضعة هادئة ، يتكسب بنسخ الموسيقى ويدرس علم النبات . وكتب الآن (٢١ سبتمبر ١٧٧١) إلى لينايوس رسالة يعرب فيها عن إجلاله[٥١] . فلما ذاع أنه يقيم فى باريس خف لزيارته قدامى الأصدقاء ومريدوه الجدد : الأمير لين (الذى عرض عليه بيتاً فى ضيعته قرب بروكسل) ، وجريترى ، وجلوك (الذى جاء ليناقش الموسيقى معه) . والمسرح جولدونى » والمغنية صوفى أرنو ، وجوستاف ولى عهد السويد ، وشباب المؤلفين أمثال جان — جوزف دوزو ، وجاك — هنرى برنار دان دسان — بيير . وفى ١٧٧٧ نال ما اشتهاه فولتير ولم ينله — وهو زيارة من الإمبراطور يوزف الثانى[٥٢] . ورد إليه تصريح الدخول إلى دار الأوبرا مجاناً ، فكان يختلف إليها من حين لحين ، ليسمع جلوك على الأخص . ووصفه برنار دان دسان — بيير فى هذه الحقبة (وكان الآن فى الستين) بأنه رقيق البدن ، متناسب الأعضاء » وله « جبين عال ، وعينان متقدتان . وفى غضون الجبين حزن عميق » ومرح حاد بل كاو » [٥٣] .

وقد استفزه للعودة إلى القلم — رغم وعده عام ١٧٦٢ بالكف عن التأليف — اتصال هجوم أعدائه عليه . وكان فى سبيل الرد عليهم ، وعلى كل ما دار حوله من شائعات معادية فى باريس وجنيف ، قد اضطلع بكتابه « الاعترافات » (١٧٦٥) ومن ثم أتم الكتاب الآن (نوفمبر ١٧٧٠) ، ومع أن روسو كان حتى ذلك الحين عازفاً عن نشره كاملا ، إلا أنه صمم على أن تطلع باريس على أجزائه المتصلة بهذه المهجمات . وهكذا قرأ فى

ديسمبر على مسامع دوزو وغيره ، فى حجرته ، فقرات طويلة من أعظم كتاب ألفه ، واستمرت القراءة سبع عشرة ساعة قطعتها وجبتان خفيفتان عاجلتان[٥٤] . وفى مايو ١٧٧١ قام بتلاوة أخرى أمام الكونت والكونتيسه أجمون ، والأمير بيناتللى أجمون ، والمركيزه دميم ، والمركيز جوينيه . واختتم بتحد من نار :

« لقد كتبت الحقيقة . فإذا سمع أى شخص أشياء مناقضة لما قررته الآن ، حتى إذا أثبتت ألف مرة ، فهو لم يسمع سوى تشهير وافتراء ، وإذا رفض بتاتاً أن يمحصها ويراجعها معى وأنا حى فهو ليس صديقاً للعدالة أو الحق . أما عن نفسى فإنى أعلنها صريحة دون أدنى خوف أن كل من دقق النظر فى بعينيه — طبعى ، وخلقى ، وسلوكى ، وميولى ، وللذاتى ، وعاداتى — حتى بغير قراءة كتبى ، ثم حكم على بأننى رجل غير شريف إنما يستحق أن يشنق »[٥٥].

والذين استمعوا إليه استنتجوا من شدة انفعاله أن عقله يوشك أن يختلط . وقال دوزو أن شكوك روسو واتهاماته لاتليق « بجان جاك الرجل السمح الفاضل » ، فكان هذا النقد نهاية صداقتهما[٥٦] . وحمل غيره من المستمعين أصداء هذه القراءات إلى صالونات باريس ، وأحس بعض ذوى النفوس الحساسة أن روسو قد افترى عليهم . وكتبت مدام ديبنيه إلى مفتش عام الشرطة تقول :

« يجب أن أحيطك علماً مرة أخرى بأن الشخص الذى حدثتك عنه صباح أمس قد قرأ كتابه على السادة دورا ، وبيزيه ، ودوزو . ومادام يستخدم هؤلاء الرجال ليأتمنهم على القذف والتشهير فإن لك الحق فى أن تحيطه برأيك فى هذا الأمر . ويخيل إلى أنه ينبغى أن تكلمه بما يكفى من التلطف حتى لا يشكو ، ولكن بحزم يثنيه عن العودة إلى خطئه . فإذا حصلت على كلمة شرف منه فإنى أعتقد أنه لن يحنث بها ، معذرة ألف مرة ، ولكن سلامى النفسى كان فى خطر »[٥٧] .

وطلبت الشرطة إلى روسو أن يكف عن قراءاته ، فوافق ، وخلص إلى أنه لم يستطع قط أن يظفر بالاستماع المنصف إليه فى حياته ، وأعان

شعور الأحباط هذا على اختلاط عقله . وبعد عام ١٧٧٢ أغلق بابه دون الزوار كافة تقريباً عدا برناردان دسان — بيير . وكان فى جولاته منفرداً يخامره الظن بأن كل من يمر به تقريباً عدو له . وفيما عدا أشباح العداء هذه فإنه احتفظ بطبيعته الطيبة الأصيلة . فاكتتب رغم مقاومة فولتير فى المال المجموع لإقامة تمثال له . وحين أرسل إليه أحد الآباء الروحيين كراسة تندد بفولتير وبخ الكاتب قائلا : « لاريب فى أن فولتير رجل ردىء وليس فى نيتى أن أثنى عليه » ولكنه قال وفعل أشياء طيبة كثيرة جداً بحيث ينبغى أن نرخى الستار على أخطائه »[٥٨] .

وحين كان يصرف فكره عن « المؤامرة » التى يتخيلها من حوله ، كان فى استطاعته أن يكتب بوضوح كالعهد به من قبل » وبروح مدهشة من المحافظة والواقعية وقد رأينا كيف التمس المؤتمر البولندى المنعقد عام ١٧٦٩ اقتراحاته بشأن دستور جديد . وقد بدأ كتابه « آراء حول حكومة بولنده » فى أكتوبر ١٧٧١ ، وانتهى منه فى أبريل ١٧٧٢ . وأول انطباعاتنا عنه أنه يخرق جميع المبادىء التى دافع عنها من قبل دفاعاً مشبوباً . فإذا اعدنا قراءته فى شيخوختنا كان عزاء لنا أن نرى أن روسو (وقد بلغ الستين) يمكن أن يشيخ هو أيضاً ، وأن ينضج — كما يحب الشيوخ أن يقولوا . فالرجل الذى صرخ قائلا « ولد الإنسان حراً ، وهو فى كل مكان يرسف فى الأغلال » هذا الرجل بعينه نبه الآن البولنديين ، الذين حكم عليهم « حق النقض المطلق » بالفوضى ، إلى أن الحرية امتحان عسير كما أنها عطية إلهية » وأنها تحتاج إلى مجاهدة للنفس أشق كثيراً من طاعة الأوامر الخارجية . قال :

« إن الحرية طعام قوى » ولكنه طعام يحتاج إلى هضم متين . . انى أضحك من تلك الشعوب المنحطة التى تثور لمجرد كلمة من متآمر دساس ، والتى تجرؤ على التحدث عن الحرية وهى تجهل كل الجهل ما تعنيه ، والتى تتصور أنه لكى يتحرر الإنسان يكفى أن يكون ثائراً متمرداً . أيتها الحرية المقدسة السامية ! ليت هؤلاء المساكين يعرفونك حق المعرفة ، ليتهم يتعلمون أى

ممن يبذل للظفر بك ولصيانتك » وليت فى الإمكان تعليمهم ان قوانينك أشد صرامة من نير الطغاة الثقيل ! »[٥٩] .

لقد علمت الحياة ومونتسكيو روسو أن مناقشات مثل « عقده الاجتماعى » إنما هى أحلام تهوم فى الفراغ ونظريات مجردة لا ترتكز على الواقع . لذلك سلم الآن بأن جميع الدول تضرب جذورها فى التاريخ والظروف ، وأن مصيرها الفناء ان هى قطعت جذورها دون تمييز . ومن ثم فقد نصح البولنديين بألا يدخلوا تغييرات فجائية على دستورهم ، وبأن يحتفظوا بملكهم المنتخب على أن يقيدوا حق النقض المطلق » وبالكاثوليكية ديناً رسمياً للدولة مع تطوير نظام تعليمى يستقل عن الكنيسة[٦٠] . وقد بدت له بولنده بحال مواصلاتها ووسائل نقلها الراهنة أوسع من أن تحكم من مركز واحد ، فمن الخير إذن تقسيمها إلى ثلاث دول تتحد فقط فى الاتصالات المشتركة والشئون الخارجية . ومن عجب أن الرجل الذى ندد من قبل بالملكية الخاصة أصلا لكل الشرور ، كرس الآن الإقطاعية البولندية ، واقترح فرض الضرائب على جميع الأراضى ، على أن تترك حقوق الملكية الراهنة دون مساس بها . ثم أعرب عن أمله فى أن تلغى القنية يوماً ما ، ولكنه لم يدع إلى انهائها فى وقت قريب » فهذا فى رأيه يجب أن يؤجل إلى أن يتاح للقن مزيد من التعليم . وقد أكد أن كل شىء رهن بنشر التعليم ، وتعزيز الحرية بأسرع من تعزيز الذكاء والأخلاق معناه فتح الباب على مصراعيه للفوضى وتقسيم البلاد ،

غير أن التقسيم تم قبل أن يتمكن روسو من انهاء مقاله . فالسياسة العملية تجاهلت تشريعه الفلسفى فى بولنده كما تجاهلته فى كورسيكا . وقد شارك هذا الأحباط المزدوج فى تكدير سنيه الأخيره . وزاد من حدة احتقاره لجماعة الفلاسفة الذين أثنوا من قبل على أولئك الحكام — فردريك الثانى » وكاترين الثانية ، ويوزف الثانى — الذين يقطعون الآن أوصال بولنده ، وامتدحوهم باعتبارهم حكاماً مستبدين مستنيرين وملوكاً فلاسفة .

وفى ١٧٧٢ بدأ محاولة أخرى للرد على خصومه وسمى الكتاب « حوارات :

روسو يحاكم جان — جاك». وقد عكف على هذا الكتاب الذى بلغت صفحاته ٤٥٠ فترات متقطعة على مدى سنين أربع ، وكان الظلام يغشى عقله أكثر فأكثر كلما مضى فيه . وقد رجت المقدمة القارىء أن يقرأ الحوارات الثلاثة قراءة دقيقة شاملة ، « انظر إلى هذا التفضل الذى يطلبه منك قلب أثقله الحزن على أنه دين انصاف تفرضه السماء عليك »[٦١] . وقد اعترف بما يشوب الكتاب من « إسهاب مفرط وتكرار ، وحشو ، وفوضى »[٦٥] ، غير أن مؤامرة اتصلت خمسة عشر عاماً — فيما زعم — للنيل من سمعته ، ولا بد أن يبرىء نفسه قبل أن يموت . وقد نفى وجود أى تضارب بين فردية « الأحاديث » وجماعية « العقد الاجتماعى » ، وذكر قراءه أنه لم يرغب قط فى أن يقضى على العلوم والفنون ويرتد إلى الهمجية . ووصف مؤلفاته — لا سيما « جولى » و « أميل » — بأنها غنية فى الفضيلة والحنان ، وتساءل كيف يمكن أن يؤلف مثل هذه الكتب فاسق أنهكه المرض كما صوره المتقصون من قدره »[٦٣] . واتهم أعداءه بأنهم أحرقوا دمية تصوره ، وبأنهم ألفوا السرينادات عنه للهزء به[٦٤] وشكا من أنهم ، حتى الآن ، يراقبون كل زواره ويحرضون جيرانه على إهانته[٦٥] . ثم كرر قصة ميلاده ، وأسرته ، وصباه ، ووصف رقة خلقه ونزاهته ، ولكنه اعترف بما فيه من كسل ، و « ميل إلى أحلام اليقظة »[٦٦] ، ونزوع إلى أن يخلق فى جولاته منفرداً عالماً وهمياً يستطيع أن يسعد فيه ولو للحظة . وعزى نفسه بهذه النبوءة « أنا واثق من أنه سيأتى يوم يبارك فيه الناس الطيبون الشرفاء ذكراى ويبكون على مصيرى »[٦٧] .

ثم أضاف إلى الحوار الأخير فصلا عنوانه « تاريخ هذا الكتاب » ذكر فيه كيف أنه لكى يلفت نظر باريس وفرساى لكتابه اعتزم أن يودع نسخة من المخطوط ، موجهة إلى العناية الإلهية ، على المذبح الأعلى فى كتدرائية نوتردام . وقد حاول هذا فى ٢٤ فبراير ١٧٧٦ ، فلما وجد المذبح مسدوداً بدرابزين ، حاول الدخول إليه من جانبيه ، فلما وجدهما مقفلين أصابه دوار ، وخرج علواً من الكنيسة ، وراح يضرب على غير هدى ساعات

فى الشوارع فى شبه هذيان قبل أن يبلغ مسكنه »[٦٨]. ثم كتب نداء للشعب الفرنسى عنوانه « إلى جميع الفرنسيين الذين ما زالوا يعشقون العدل والحق » ونسخ صوراً منه على إعلانات وزعها على المارة فى الشوارع . وقد رفضه العديد منهم قائلين أنه ليس موجهاً إليهم [٦٩] . فأقلع عن محاولاته ، واستسلم للهزيمة .

وهدأت الآن ثائرته بعد أن راض نفسه على الإذعان . وكتب فى هذه الفترة (١٧٧٧ — ٧٨) أجمل كتبه « أحلام جواب منفرد » فروى كيف أن أهل موتييه رفضوه وحصبوا بيته ، وكيف اعتكف فى الأيل دسان تبيير فى بحيرة بيين . وهناك وجد السعادة ، ثم راح — بعد أن استرجع ذكرى تلك الخلوة — يصور المياه الهادئة ، والجداول المتدفقة « والجزيرة تغطيها الخضرة ، والسماء الكثيرة الصور والأشكال . وقد عزف على نغمة رومانسية جديدة بالماعه إلى أن الروح المتأملة قد تجد دائماً فى الطبيعة شيئاً يستجيب لمزاجها . ونحن نسأل أنفسنا حين نقرأ تلك الصفحات ، أيستطيع رجل نصف مجنون أن يكتب بهذا الإتقاق ، وبهذا الوضوح ، وأحياناً بهذا الهدوء والصفاء ؟ ولكن الشكاوى القديمة تعود إلى الظهور ، وينوح روسو من جديد لأنه نبذ أطفاله ، وأنه لم يؤت الشجاعة البسيطة التى تمكنه من تربية أبنائه . وقد رأى طفلا يلعب ، فعاد إلى حجرته و « بكى وكفر عن ذنبه »[٧٠] .

فى تلك السنين الأخيرة التى قضاها فى باريس كان ينظر بعين الحسد إلى ذلك الإيمان الدينى الذى سما بحياة العامة من الناس المحيطين به إلى مسرحية من الموت والبعث . وكان أحياناً يختلف إلى خدمات الصلاة الكاثوليكية . وقد زار ديراً مع بزناردان دسان — بيير ، وسمع الرهبان يتلون ابتهالا فقال « آه ! ما أسعد الإنسان الذى يستطيع أن يؤمن »[٧١] . إنه لم يستطع أن يؤمن [٧٢] ، ولكنه حاول أن يسلك كمسيحى ، يتصدق ، ويفتقد المرضى ويواسيهم[٧٣] . وقد قرأ وكتب حواشى على كتاب توماس أكمبيس « الاقتداء بالمسيح » .

ثم خف إحساسه بالمرارة فى نفسه بدنو أجله . وحين وصل فولتير

إلى باريس فانهالت عليه أسباب التكريم ، شعر روسو بالغيرة منه ولكنه تكلم بخير عن عدوه القديم . ووبخ أحد معارفه الذى سخر من تتويج فولتير فى التياتر — فرانسيه فقال : « كيف تجرؤ على السخرية من التكريم الذى بذل لفولتير فى الهيكل الذى هو ربه ، وبيد الكهان الذين ظلوا خمسين سنة يعيشون على روائعه ؟ »[٧٤]. ولما سمع بأن فولتير يحتضر قال متنبئاً « كانت حياتانا مرتبطتين الواحدة بالأخرى ، ولن يطول عمرى بعده »[٧٥].

وحين بدأ ربيع ١٧٧٨ يزهر طلب بيتاً فى الريف ، فدعاه المركيز رينيه دجيراردان ليسكن كوخاً على مقربة من قصره الريفى فى ارمينونفيل ، على نحو ثلاثين ميلا من باريس . وذهب إليه جان — جاك وتريز فى ٢٠ مايو ، وهناك راح يجمع العينات النباتية ويعلم النبات لابن المركيز البالغ من العمر عشر سنين . وفى أول يوليو تعشى بشهية مع أسرة مضيفه . وفى صباح الغد أصيب بالنقطة ووقع على الأرض . فرفعته تريز إلى فراشه ، ولكنه وقع منه ، واصطدم بالأرض المبلطة صدمة حادة أحدثت قطعاً فى رأسه تدفق منه الدم ، وصرخت تريز مستغيثة ، فحضر المركيز ، ووجد أن روسو قد فاضت روحه .

ولا حقته الافتراءات إلى النهاية . فأذاع جريم وغيره القصة التى زعمت أن روسوا انتحر . وأضافت مدام دستال فيما بعد أنه قتل نفسه حزناً حين اكتشف خيانة تريز . وفاقت هذه القصة غيرها قسوة ، لأن تعقيب تريز عقب موته بقليل كشف عن حبها له . قالت « إن لم يكن زوجى قديساً فمن يستطيع أن يكون ؟ » ووصف غير ذلك من الشائعات روسو بأنه مات مجنوناً ، ولكن كل الذين كانوا معه فى أيامه الأخيرة تلك وصفوه بالهدوء والصفاء .

وفى ٤ يوليو ١٧٧٨ ووورى الثرى فى جزيرة الحور فى بركة صغيرة على ضيعة جيراردان . وظلت جزيرة الحور هذه طويلا كعبة يحج إليها الأتقياء ، فأمها المجتمع العصرى كله — حتى الملكة — للصلاة على قبر روسو . وفى ١١ أكتوبر ١٧٩٤ نقل رفاته إلى البانثيون حيث ثوى إلى جوار رفات فولتير .

ومن ذلك المرفأ الذى نعما فيه بسلام الجوار نهضت روحاهما لتجددا حربهما فى سبيل الثورة . وفرنسا ، والإنسان الغربى .

ب — تأثير روسو

وهكذا ننتهى كما بدأنا بالتأمل المعزز بالدليل الآن ، فى ذلك الأثر الذى لايصدق ، والذى خلفه روسو فى أدب القرن الذى بدأ بموته ، وفى بيداجوجيته وفلسفته ، ودينه ، وأخلاقه ، وعاداته ، وفنه ، وسياسته . والكثير مما كتب يبدو اليوم أن فيه غلواً ، أو إسرافاً فى العاطفة ، أو سخفاً ، و«الاعترافات» و «أحلام اليقظة » فقط هما اللذان يحركان مشاعرنا ، ولكن حتى الأمس كانت كل كلمة من كلماته تسمع فى ميدان أو آخر من ميادين الفكر الأوربى أو الأمريكى . إن روسو كما قالت مدام دستال « لم يخترع شيئاً ، ولكنه أشعل النار فى كل شىء »[٧٦] .

فأول شىء بالطبع هو أنه كان بمكانة الأم من الحركة الرومانتيكية . وقد رأينا غيره كثيرين يبذرون بذرتها . « طومسن ، وكولنز ، وجراى ، ورتشردسن ، وبريفو ، والمسيحية ذاتها ، التى يعد لاهوتها وفنها أعجب ضروب الرومانس قاطبة . ولكن روسو أنضج البذار فى مستنبت عواطفه الدافىء ، وأسلم لنا الثمرة مكتملة النمو خصبة منذ مولدها ، فى « الأحاديث : و « العقد الاجتماعى» و « اميل » و « الاعترافات » .

ولكن ما الذى سنعنيه بالحركة الرومانتيكية ؟ تمرد الوجدان على الفكر ، والغريزة على العقل ، والعاطفة على الحكم ، والذات على الموضوع ، والنزعة الذاتية على الموضوعية ، والوحدة على التجمع ، والخيال على الواقع ، والخرافة والأسطورة على التاريخ ، والدين على العلم ، والتصوف على الشعائر ، والشعر والنثر الشعرى على النثر والشعر النثرى ، والفن القوطى المحدث على الكلاسيكى المحدث ، والأنثوى على الرجولى ، والحب الرومانسى على زواج المصلحة ، و « الطبيعة » و « الطبيعى » على المدنية والتكلف ، والتعبير العاطفى على الضوابط العرفية ، والحرية الفردية على النظام الاجتماعى ، وتمرد الشباب على السلطة ، والديمقراطية على الأرستقراطية ، والإنسان فى

مواجهة الدولة — وباختصار ، تمرد القرن التاسع عشر على الثامن عشر ، أو بعبارة أكثر تحديداً ، الفترة ١٧٦٠ — ١٨٥٩ على ١٦٤٨ — ١٧٦٠ : هذه كلها أمواج للمد الرومانتيكى العظيم الذى اكتسح أوربا فيما بين روسو وداروين .

ولقد وجد كل من هذه العناصر تقريباً فى روسو تعبيراً وتأييداً ، ووجد بعض الدعم فى حاجات العصر وروحه . ذلك أن فرنسا كانت قد ملت الفكر الكلاسيكى والانضباط الأرستقراطى . فأتاح تمجيد روسو للوجدان تحرراً للغرائز المكبوتة ، والعاطفة المكظومة ، والأفراد والطبقات المظلومة . وأصبحت « الاعترافات » كتاب الوجدان المقدس كما كانت « الموسوعة » العهد الجديد لعصر العقل . ولا يعنى هذا أن روسو رفض العقل ، فهو على العكس وصفه بأنه عطية إلهية ، وقبله حكماً نهائياً [٧٧] ، ولكنه أحس أن نوره البارد فى حاجة إلى دفء القلب ليلهم العمل والعظمة والفضيلة . وأصبحت « الحساسية » شعار النساء والرجال . وتعلم النساء الأغماء ، والرجال البكاء ، بأسرع من ذى قبل . وتذبذبوا بين الفرح والحزن ، ومزجوا الإثنين فى دموعهم .

وقد بدأت الثورة « الروسوية » على صدور الأمهات . هاتيك الصدور التى آن الآن أوان تحريرها من عقال المشدات . على أن هذا الجانب من الثورة كان أصعب جوانبها ، ولم يعقد له النصر إلا بعد أكثر من قرن تراوح فيه الحبس والإفراج . وبعد نشر « اميل » أرضعت الأمهات الفرنسيات أطفالهن ، حتى فى دار الأوبرا ، وفيما بين الألحان [٧٨] . وأطلق الطفـــل من سجن أقمطته ، وقام أبواه على تربيته بأنفسهم . فإذا التحق بالمدرسة حظى بالتعليم « على طريقة روسو » فى سويسره أكثر منه فى فرنسا ، ولما كانت النظرة للإنسان الآن تعده خيراً بطبيعته ، فإن التلميذ وجب أن ينظر إليه لا على أنه عفريت صغير مشاكس بل ملاك رغباته هى صوت الله . ولم تعد حواسه تدان لأنها أدوات الشيطان ، بل تعد أبواباً للخبرات المنيرة ولمئات المباهج البريئة . ووفقاً للنظرة الجديدة لا تعود حجرات الدرس سجوناً . أما التعليم فيجب أن يجعل طبيعياً وساراً بتفتيح حب الاستطلاع

والقوى الفطرية وتشجيعها . وأما حشو الذاكرة بالحقائق ، وخنق الفكر بالعقائد القطعية ، فيجب أن يحل محلهما التدريب على فنون الإدراك الحسى ، والحساب ، والتفكير . ويجب أن يتعلم الأطفال من الأشياء لا من الكتب كلما أمكن — من النبات فى الحقل ، والصخور فى التربة ، والغيوم والنجوم فى السماء . وقد حفز التحمس لأفكار روسو التربوية بستالوتزى ولافاتير فى سويسره ، وبازدوف فى المانيا ، وماريا مونتسورى فى إيطاليا ، وجون ديوى فى أمريكا ؛ و « التربية التقدمية » هى جزء من تراث روسو . وقد أنشأ فريدرش فروبل نظام رياض الأطفال فى ألمانيا ، ومنها انتشر فى العالم الغربى طولا وعرضاً .

ثم أدركت الفن نفحة من الإلهام الروسوى . فقد أثر تمجيد الطفولة فى جروز ومدام فيجيه — لبرون ، وعكست لوحات الفنانين من المدرسة السابقة — للرفائيلين فى انجلتره تمجيد العاطفة والغموض . وأعمق من هذا أثر روسو فى الأخلاق والسلوك . فطرأ المزيد من دفء الصداقة ووفائها ، ومن التضحيات والاهتمامات المتبادلة . واقتنص الحب الرومانسى الأدب وشق طريقه إلى الحياة . واستطاع الأزواج الآن أن يحبوا زوجاتهم دون هزء بالتقاليد ؛ واستطاع الآباء أن يحبوا أبناءهم ، وأصلح ما فسد من الأسرة ، « كان الناس يغضون عن الخيانة الزوجية ، أما روسو فقد جرؤ على اعتبارها جريمة »[٧٩]. صحيح أنها استمرت ، ولكنها لم تعد أمراً لاغنى عنه . وحل محل الإعجاب الأعمى بالمحظيات الشفقة على المومسات . وقاوم احتقار العرف طغيان الأتيكيت . وارتفعت سمعة الفضائل البورجوازية ، كالاجتهاد ، والاقتصاد ، وبساطة العادات واللباس . وعما قليل ستطيل فرنسا « الكيلوت » (السراويل القصيرة) إلى سراويل طويلة وتصبح « صان — كيلوت » (متطرفة) فى زيها كما هى فى سياستها . وقد ساهم روسو مع البستنة الانجليزية فى تغيير الحدائق الفرنسية من رتابة طراز النهضة إلى المنحنيات الرومانتيكية والأركان الفجائية ، وأحياناً إلى فوضى برية و « طبيعة » . وانطلق الرجال والنساء من المدينة إلى الريف ، وزاوجوا

بين حالات الطبيعة وحالاتهم النفسية وتسلق الرجال الجبال ، والتمس الرجل منهم الوحدة ودليل « أنا » .

واستسلم الأدب بجملته تقريباً لروسو والموجة الرومانتيكية ، فغمر جوته بطله « فوتر » فى فيض من الحب ، والطبيعــة ، والعبرات (١٧٧٤) ، وجعــل بطله فاوست يختزل نصف روسو فى كلمات ثلاث « الوجدان هو الكل » . قال فى ١٧٨٧ مسترجعاً ذكرياته « كان لكتاب اميل وماحوى من عواطف تأثير شامل على العقل المثقف »[٨٠] وأكد شيلر التمرد على القانون فى « اللصوص » (١٧٨١) ، وحيا روسو محرراً وشهيداً ، وقارن بينه وبين سقراط[٨١] . وصاح هردر فى مرحلة مماثلة من مراحل تطوره « تعالى يا روسو وكن لى مرشدا »[٨٢]. وأعانت بلاغة روسو على تحرير الشعر والمسرحية الفرنسيين من قواعد بوالو ، وتقليد كورنى وراسين ، وقيود الأسلوب الكلاسيكى الصارمة . وقد أبدع برناردان دسان — بيير ، وهو تلميذ متحمس لروسو ، رائعة رومانسية فى « بول وفرجينى » (١٧٨٤) . وانتصر تأثير جان — جاك الأدبى بعد الفاصل النابليونى فى أشخاص شاتوبريان ، ولا مارتين ، وموسيه ، وفينى ، وهوجو ، وجوتييه ، وميشليه ، وجورج صاند . وقد أنجب هذا التأثير جيلا من الاعترافات ، وأحلام اليقظة ، وقصص العاطفة أو الغرام ، وحبذ تصور العبقرية على أنها فطرية لا تعرف قانوناً ، وأنها القاهرة للتقليد والتقييد ، نحرك فى إيطاليا ليوباردى ، وفى روسيا بوشكن وتولستوى ، وفى انجلتره وردزورث ، وصذى ، وكولردج ، وبايرون ، وشلى ، وكيتس ، وفى أمريكا هوثورن وثورو .

ونصف فلسفة القرن المحصورين « هلويز الجديدة » (١٧٦١) وكتاب داروين « أصل الأنواع » (١٨٥٩) يلونه تمرد روسو على عقلانية حركة التنوير . والواقع أن روسو كان قد أعرب من قبل فى رسالة وجهها عام ١٧٥١ إلى بورد عن احتقاره للفلسفة[٨٣] ، وأقام احتقاره هذا على عجز العقل فى زعمه عن تعليم الفضيلة للناس . فالعقل يبدو أنه بغير حس أخلاق ، وهو يناضل للدفاع عن أى رغبة مهما كانت فاسدة إذن فالحاجة إلى شىء

آخر — إلى وعى فطرى بالصواب والخطأ ، وحتى هذا الوعى لا بد من أن يدفئه الوجدان إن أريد منه أن يولد الفضيلة ، وأن ينجب رجلا فاضلا لا آلة حسابية ماهرة .

وهذا بالطبع كلام قاله بسكال من قبل ، ولكن بسكال كان قد رفضه فولتير ، وفى ألمانيا كانت « عقلانية » فولف فى صعود فى الجامعات . وحين أصبح إمانويل كانط أستاذاً فى كونجزبرج كان قد اقتنع بما قاله هيوم وجماعة الفلاسفة الفرنسيين من أن العقل وحده لا يمكنه أن يقدم الدفاع الكافى حتى عن أساسيات اللاهوت المسيحى . ولكنه وجد فى روسو سبيلا لإنقاذ تلك الأساسيات : هى أن تنكر مفعول العقل فى العالم فوق الحسى ، وتؤكد استقلال الفكر ، وأولوية الإرادة ، والقوة المطلقة للضمير الفطرى ، وتستنبط حرية الإرادة ، وخلود النفس ، ووجود الله ، من شعور الإنسان بالتزام غير مشروط بالقانون الأخلاقى . وقد أقر كانط بدينه لروسو ، وعلق صورته على جدار مكتبه ، ونادى به « نيوتنا » للعالم الأخلاقى[٨٤] . وشعر ألمان آخرون بروح روسو تتقمصهم : ياكوبى فى فلسفة الوجدان ، وشلايرماخر فى تصوفه الدقيق النسيج ، وشوبنهاور فى تمجيده للإرادة . وتاريخ الفلسفة منذ كانط صراع بين روسو وفولتير .

أما الدين فقد بدأ بتحريم روسو ، ثم انتقل إلى استخدامه منقذاً له . وأجمع القادة البروتستنت والكاثوليك على تكفيره ، ووضع على صعيد واحد مع فولتير وبيل بوصفهم رجالا « يبثون سموم الضلالة والفسوق »[٨٥] . ومع ذلك فحتى فى حياة روسو وجد نفر من رجال الدين والعلمانيين راحة وعزاء حين سمعوا أن قسيس سافوا قد قبل بتحمس العقائد الجوهرية للمسيحية ، وأنه نصح الشكاك بأن يثوبوا إلى إيمانهم الأصيل . وحين فر روسو من سويسره عام ١٧٦٥ رحب به أسقف ستراسبورج ، وبعد أن عاد من انجلتره وجد بعض الكاثوليك الفرنسيين يستشهدون بأقواله شاكرين فى ردهم على غير المؤمنين ، وتراودهم الآمال فى هدايته الظافرة .

وقد حاول منظرو الثورة الفرنسية إقامة أخلاقية مستقلة عن العقائد

الدينية ، على أن روبسبير فى اقتدائه بروسو أقلع عن هذه المحاولة لفشلها ، والتمس قوة تأييد المعتقدات الدينية فى صيانة النظام الأخلاق والمضمون الاجتماعى ، وأدان جماعة الفلاسفة لأنهم رفضوا الله وأبقوا على الملوك ؛ أما روسو (فى رأى روبسبير) فقد ارتفع فوق هامات هؤلاء الجبناء ، وهاجم جميع الملوك بشجاعة وجاهر بالدفاع عن الله والخلود[٨٦] .

وفى ١٧٩٣ بلغ تراثا فولتير وروسو المتنافسان مرحلة الحسم فى الصراع بين جاك — رينيه إيبير ومكسمليان روبسبير . فأما إيبير ، أحد قادة كومون باريس ، فقد اتبع العقلانية الفولتيرية ، وشجع انتهاك حرمات الكنائس ، وأقام العبادة العلنية لألاهة العقل (١٧٩٣) . وأما روبسبير فكان قد رأى روسو أثناء مقام هذا الفيلسوف آخر مرة فى باريس . وقال مناجياً جان — جاك « إيه أيها القديس ! . . . لقد تطلعت إلى محياك المهيب . . وفهمت كل أحزان حياة نبيلة كرست نفسها لعبادة الحق »[٨٧] . وحين تقلد روبسبير زمام السلطة أقنع المؤتمر الوطنى بتبنى «اعلان الإيمان» الذى دان به قسيس سافوا ديناً رسمياً للأمة الفرنسية . وفى مايو ١٧٩٤ افتتح مهرجان الكائن الأعظم إحياء لذكرى روسو . وحين أرسل إيبير وغيره إلى الجيلوتين بتهمة الإلحاد ، شعر بأنه يتبع نصائح روسو بحذافيرها . ووافق نابليون اللا أدرى روبسبير على الحاجة إلى الدين . وأعاد وضع الحكومة الفرنسية فى جانب الله (١٨٠٢) . ثم أعيدت الكنيسة الكاثوليكية إعادة كاملة بعودة الملكية البوربونية الفرنسية (١٨١٤) وكسبت أقلام شاتوبريان ، ودميتر ، ولامارتين ، ولامنية القوية . ولكن الإيمان القديم اتكأ الآن أكثر فأكثر على حقوق الوجدان لا على حجج اللاهوت ، فحارب فولتير وديدرو بسكال وروسو . وازدهرت من جديد تلك المسيحية التى بدت محتضرة فى ١٧٦٠ — فى انجلترة الفكتورية وفرنسا فى عهد عودة الملكية .

ونحن الآن فقط — من الناحية السياسية — نخرج من عصر روسو ، وأول علامة على تأثيره السياسى كانت فى موجة التعاطف العام الذى أيد المعونة الفرنسية الفعالة للثورة الفرنسية . وقد اقتبس جفرسن إعلان الاستقلال من روسو كما اقتبسه من لوك ومونتسكيو ، واستوعب الكثير من كل من

فولتير وروسو حين كان سفيراً لدى فرنسا (١٧٨٥ — ٨٩) ، وردد صدى جان — جاك فى افتراضه أن هنود أمريكا الشمالية « يتمتعون فى جملتهم بقدر من السعادة يفوق بمراحل أولئك الذين يعيشون فى ظل الحكومات الأوربية »[٨٨] . وقد رفع نجاح الثورة الأمريكية مكانة فلسفة روسو السياسية .

وتزعم مدام دستال أن نابليون عزا الثورة الفرنسية إلى روسو أكثر من أى كاتب آخر[٨٩] . وقد ذهب إدمند بيرك إلى أن فى الجمعية التأسيسية للثورة الفرنسية (١٧٨٩—٩١) خلافاً كبيراً بين زعمائهم على أيهم أقرب شبهاً بروسو . والحق أنهم جميعاً يشبهونه . . . فإياه يدرسون ، وإياه يتأملون ، وإليه يرجعون فى كل الوقت الذى يستطيعون اقتناصه من شرورهم المجهدة نهاراً أو فجورهم وعربدتهم ليلا . فروسو هو كاهن كتابهم المقدس . . . وله يقيمون أول تماثيلهم[٩٠] .

وفى ١٧٩٩ استعاد ماليه دوپان إلى الأذهان أن « روسو كان له قراء من الطبقتين الوسطى والدنيا أكثر مائة مرة مما لفولتير : فهو وحده الذى لقح الفرنسيين بعقيدة سيادة الشعب . . . ومن الصعب ذكر ثورى واحد لم ينتش بهذه النظريات الفوضوية ولم يشتعل بغيرة تحقيقها . . . وقد سمعت مارا فى ١٧٨٨ يقرأ « العقد الاجتماعى » ويعلق عليه فى الشوارع العامة ، فيقابله السامعون المتحمسون بالتصفيق » . . .[٩١] .

واستشهد الخطباء فى طول فرنسا وعرضها بأقوال روسو فى التبشير بسيادة الشعب ، وبعض الفضل فى استطاعة الثورة أن تعيش عقداً من الزمان الزمان رغم خصومها وشططها راجع إلى الترحيب العارم الذى لقيته هذه العقيدة .

وقد اتصل تأثير روسو فى السياسة طوال تقلبات الثورات والرجعية ، وبسبب تناقضاته ، وبسبب القوة والحماسة اللتين بشر بهذه التناقضات بهما ، وجد فيه الفوضويون والاشتراكيون على السواء نبياً وقديساً ؛ ذلك لأن كلتا

الدعوتين المتعارضتين وجدتا غذاء فى إدانته الأغنياء وعطفه على الفقراء. وقد ألهمت النزعة الفردية التى اتسمت بها أول «الأحاديث» ورفضه «المدينة» الثوار من بين «وجود وين»، وشلى، إلى تولستوى وكروبوتكين وادورد كاربنتر. قال تولستوى «كنت وأنا فى الخامسة عشرة أحيط عنقى بمدالية عليها صورة روسو بدلا من الصليب المعتاد»[٩٢]. وقد وفرت عقيدة المساواة، التى بشر بها ثانى «الأحاديث» موضوعاً أساسياً لضروب متنوعة من النظرية الاشتراكية «من «جراكوس» بابوف وشارل فورييه وكارل ماركس إلى نيقولاى لينين. يقول جوستاف لانسون «كان كل تقدم أحرز طوال قرن من الزمان فى الديمقراطية، والمساواة» وحق التصويت للجميع» وكل دعاوى الأحزاب المتطرفة التى قد تكون موجة المستقبل» والحرب على الثراء والملكية، وكل الحركات المحرضة للجماهير الكادحة المعانية، كل أولئك كان، «من بعض النواحى، من عمل روسو»[٩٣] أنه لم يخاطب المثقفين والكبار بالمنطق والحجة» بل تكلم إلى الشعب كله بشعور وحماسة فى لغة يستطيعون فهمها، وكانت حرارة بيانه» فى السياسة كما فى الأدب، أقوى من سلطان قلم فولتير.

٣ – لحن سير جنائزى

بعد أن رأى ديدرو فولتير عام ١٧٧٨ سأل صديقاً «لم يتحتم أن يموت؟»[٩٤]. ولقد بدا لحن السير الجنائزى الذى شيعت به جماعة الفلاسفة «من موت هلفتيوس فى ١٧٧١ إلى موت موريللية فى ١٨١٩، كأنه تعليق ساخر على الغرور والخيلاء، ولكنا قد نتساءل أيضاً لم طال عمر بعض هؤلاء الرجال طولا جر معه كل آلام الشيخوخة وهوانها.

وقد مات المحظوظون منهم قبل الثورة، تعزيهم مائة أمارة على أن أفكارهم وشيكة الانتصار فقضى كوندياك فى ١٧٨٩، وطورجو فى ١٧٨١. أما دالامبير فقد مد فى أجله على كره منه بعد موت الآنسة دلسبيناس. وكانت قد أودعته أوراقها، ووضح منها أنها فى السنين الإثنتى عشرة الأخيرة من حياتها منحت حبها لمورا أوجيبير» ولم تترك له غير

صداقة يشوبها الضيق أحياناً . قال كوندورسيه لطورجو « ان دالامبير مطعون طعنه نجلاء ، وكل ما أرجوه له الآن أن تكون حياته محتملة »[٩٥] . وقد عاد إلى دراساته ، ولكنه لم يكتب بعدها شيئاً ذا بال . وكان يختلف إلى بعض الصالونات ولكن الحياة انطفأت من حديثه الذى كان يوماً ما ألمعياً . وقد رفض الاستجابة لدعوة فردريك إلى بوتسدام ، ودعوة كاترين إلى سانت بطرسبورج . وكتب إلى فردريك يقول : « انني أشعر كأنني رجل تنبسط أمامه صحراء شاسعة تنتهى بهاوية الموت ؛ ولا أمل له فى لقاء إنسان واحد يحزن إن رآه يسقط فيها ، أو يفكر فيه مرة أخرى بعد أن يختفى »[٩٦] .

وكان فى هذا مخطئاً ، فقد اهتم به كثيرون ، ولو أولئك الذين كان عدهم ببعض دخله بانتظام . ذلك أن هيوم أوصى لدالامبير بمائتى جنيه[٩٧] وهو واثق أنه سيوزع هذا المبلغ . ومع أنه كان يتقاضى مختلف المعاشات ، فقد عاش عيشة بسيطة إلى النهاية ، و ١٧٨٣ أصيب هو وديدرو بأمراض خطيرة — فأصيب ديدرو بذات الجنب ، ودالامبير باضطراب فى المثانة . وشفى ديدرو ؛ أما دالامبير فقضى نحبه (٢٩ أكتوبر ١٧٨٣) بالغاً من العمر سبعة وستين عاما .

وكان ديدرو قد عاد من مغامرته الروسية فى أكتوبر ١٧٧٤ . وقد أضناه طول السفر فى مركبة حبست حركته ، ولكنه تنبأ صادقاً بأن « القدر يخبىء له عشر سنين أخر فى جرابه »[٩٨] . ثم عكف على « خطة لإنشاء جامعة لحكومة روسيا » (لم تنشر حتى ١٨٠٣) ، وقد دعا للاهتمام الأشد بالعلم والتكنولوجيا ، ووضع اليونانية واللاتينية والأدب فى نهاية القائمة تقريباً ، وبين الطائفتين الفلسفة فسبق بذلك التطورات التربوية بمائة وخمسين عاما . وفى ١٧٧٨ بدأ « مقالا عن عهدى كلوديوس ونيرون ، وعن حياة سنكا ومؤلفاته » . واستطرد فى هذا المقال ليرجو الأمريكيين المنتصرين فى جمهوريتهم الجديدة أن « يمنعوا الزيادة الهائلة والتوزيع غير المتكافىء للثروة والترف ، والتبطل وفساد الأخلاق »[٩٩] . وفى القسم المخصص لسنكا

أفسح مكاناً للدفاع الحار عن جريم ومدام دبينيه وعن نفسه ضد التهم التي رماهم بها روسو في قراءاته العلنية لاعترافاته ، قال :

« إذا صدر يوماً ما ، نتيجة جنوح المؤلف دائماً للاغراب والشذوذ ، كتاب يمزق فيه الشرفاء اربا بقلم وغد خبيث ... فانظروا إلى الأمام واسألوا أنفسكم هل . . . يجدر بنا أن نصدق رجلا وقحاً . . . اعترف بألف فعل شرير . فماذا يكلف الافتراء رجلا كهذا — وماذا تضيف جريمة كثيراً أو قليلا للفساد الخلقي المستتر لحياة تتخفى طوال أكثر من خمسين عاماً وراء أصفق أقنعة الرياء ؟ . . . فسحقاً للعاق الذى يذم من أحسنوا إليه ، سحقاً للرجل الأثيم الذى لا يحجم عن تشويه سمعة أصدقائه القدامى ، وسحقاً للجبان الذى يخلف فوق قبره كشف الأسرار التي أؤتمن عليها . . أما عن شخصي ، فأقسم أن عيني لن تتلوثا أبداً بقراءة كتابه ، واني أوكد أني أوثر أن يسبني عن أن يمدحني (١٠٠) .

وفي ١٧٨٣ ماتت مدام دبينيه . وأحس ديدرو بهذه الخسارة إحساساً عميقاً ، لأنه كان يستمتع بصداقتها وندوتها . وكان جريم ودولباخ على قيد الحياة ، ولكن علاقاته بهما كانت فاتره ، وكان الثلاثة ينحدرون إلى الأنانية الضيقة التي تصحب الشيخوخة ، وكل ما كان في استطاعتهم تبادله من حديث كان آلامهم . أما تشكيلة الأمراض التي شكا منها ديدرو فكان منها التهاب الكلية والتهاب المعدة ، وحصى المرارة ، والتهاب الرئتين ، ولم يعد في قدرته صعود السلم من مسكنه في الطابق الرابع إلى مكتبته في الطابق الخامس ، وشعر الآن أنه محظوظ لأن له زوجة ، وكان قد اختزل خياناته الزوجية إلى ذكريات حزينة ، وأبلت هي حصيلتها من الكلام ، وهكذا عاشا في سلام الإعياء المشترك .

وفي ١٧٨٤ مرض مرضاً خطيراً . وحاول كاهن سان — سولبيس الذى فشل من قبل مع فولتير أن يكفر عن تقصيره برد ديدرو إلى حظيرة الإيمان ، فزاره ، وتوسل إليه أن يرجع إلى الكنيسة ، وأنذره بأنه ما لم يتناول الأسرار المقدسة فإنه لن يحظى بدفنه في جبانة عامة . وأجاب ديدرو ،

« انى أفهمك ياسيدى الكاهن . فلقد رفضتم دفن فولتير لأنه لم يؤمن بلاهوت الإبن . حسناً ، انهم يستطيعون دفنى حين أموت فى أى مكان يشاءون ، ولكنى أعلن أننى لا أومن لا بالآب ولا بالروح القدس ولا بأى واحد فى الأسرة »[١٠١] .

وحين سمعت الإمبراطورة كاترين بأوصابه « وفرت لى ولزوجته جناحاً فاخراً فى شارع ريشليو . وانتقلا إليه حوالى ١٨ يوليو . وابتسم حين رأى الأثاث الجديد يحمل إليه ، وقال إن فى استطاعته أن يستعمله بضعة أيام لا أكثر . وقد استعمله أقل من أسبوعين . وفى ٣١ يوليو ١٧٨٤ تناول وجبة شهية « فأصابته جلطة تاجية » ومات وهو على المائدة بالغاً الحادية والسبعين . وأقنعت زوجته وصهره كاهناً محلياً بالصلاة فى الكنيسة على جثمانه رغم إلحاده المشهور . ودفن فى كنيسة سان — روش ، ثم اختفى منها على نحو غامض فى تاريخ غير معروف .

وواصل الموكب سيرته . فمات ما بليه فى ١٧٨٥ ، وبوفون فى ١٧٨٨ ، ودولباخ فى ١٧٨٩ أما رينال فقد عمر إلى ما بعد الثورة كما رأينا ، وأدان جرائمها الوحشية ، وفاجأ نفسه بالموت ميتة طبيعية (١٧٩٦) . وأما جريم فقد قابل كل لطمات الحظ بصبر تيوتونى . ففى ١٧٧٥ رقاه يوزف الثانى بارونا من بارونات الامبراطورية الرومانية المقدسة . وفى ١٧٧٦ عينه دوق ساكسى — جوتا سفيراً لدى فرنسا . وأكثر « الرسائل الأدبية » كان يقوم بتحريرها بعد ١٧٧٢ سكرتيره ياكوب ما يستر ، ولكن جريم شارك بمقالات لاذعة فى الأدب ، والفن » والدين ، والأخلاق ، والسياسة ، والفلسفة . وكان الشاك الوحيد الممعن فى شكوكيته بين جماعة الفلاسفة « لأنه تشكك أيضاً فى الفلسفة والعقل والتقدم . وبينا كان ديدرو ونفر من فريق المؤمنين يتطلعون إلى الأجيال القادمة بأحلام الطوبى تنعكس فى أعينهم ، قال جريم أن هذا سراب قديم العهد جداً ، « وهم تحدر من جيل إلى جيل » ، وقد لاحظنا نبوءته عام ١٧٥٧ بنشوب « ثورة قاضية »[١٠٢] وشيكاً فلما جاءت الثورة وكانت سفاكة للدماء ، عاد إلى وطنه الأصلى ألمانيا وأقام فى جوتا

(١٧٩٣) وخففت كاترين من فقره وعينته سفيراً لها فى همبورج (١٧٩٦) فلما ماتت ولية نعمته الأمبراطورة ذهب ليعيش مع اهل بلزونس ، حفيدة حبيبته مدام دبينيه . وعمر حتى ١٨٠٧ ، وعاش هذه الحقبة أولا على ذكريات تلك الأيام المثيرة التى كان فيها فكر فرنسا يقود أوربا إلى حافة شاهقة هى حافة الحرية .

٤ — خاتم الفلاسفة الفرنسيين

ولد جان — أنطوان — نيقولا كاريتا ، مركيز كوندورسيه ، وحفيد أسرة عريقة فى دوفينيه ، فى بيكاردى (١٧٤٣) ، وتلقى تعليمه على اليسوعيين فى رامس وباريس ، وظل سنين طويلة لا يفكر إلا فى أن يكون رياضياً كبيراً . وحين بلغ السادسة والعشرين أنتخب عضواً فى أكاديمية العلوم ، وحين أصبح فيا بعد سكرتيراً دائماً لها ، كتب التأبينات للأعضاء الراحلين ، كما فعل فونتينيل للأكاديمية الفرنسية . وقد أحب فولتير هذه التأبينات التذكارية كثيراً حتى أنه قال لكوندورسيه : « إن الجمهور يتمنى أن يموت أكاديمى كل أسبوع أو نحوه حتى تتاح لك فرصة الكتابة عنه »[١٠٣]. وقد زار فولتير فى فرنيه (١٧٧٠) ، وعلق على طبعة تنظم أعمال فولتير نشرها بومارشيه ، وكتب لها مقدمة حارة بعنوان « حياة فولتير » وأقنعه دالامبير بأن يكتب مقالات للموسوعة ، وقدمه لجولى دلسبيناس ، التى أصبح فى حفلات استقبالها قطباً من الأقطاب رغم خجله . لا بل انه كان فى نظر جولى لايفضله غير دالامبير من حيث ســعة عقله ، وربما كان يفوقه فى حرارة حبه للخير . وكان أحد الرعيل الأول ممن انضموا للحملة التى شنت على تجارة الرقيق (١٧٨١) . وقد أعانت جولى على تحريره من ربقة عشقه اليائس للآنسة دومى ، وهى فتاة لعوب استغلت حبه لها دون أن تبادله إياه . وقد عزى نفسه بصداقة جان — باتست سبوار ومدام سيوار ، وعاش معهم فى شركة ثلاثية قانعة .

وفى ١٧٨٥ أصدر « مقالا فى تطبيق التحليل على الاحتمالات » وفيه سبق نظرية مالثوس إذ قال إن نمو السكان ينحو إلى تجاوز إنتاج الطعام ، ولكنه لم يدع إلى العفة الجنسية علاجاً ، بل أقترح تحديد النسل[١٠٤] .

وقد رحب بالثورة فاتحة لمستقبل التعليم الجامعى ، والعدالة ، والرخاء . وفى ١٧٩٠ اختير للمجلس البلدى الذى كان قد تسلم إدارة باريس . ثم أنتخب عضواً فى الجمعية التشريعية التى حكمت فرنسا من أول أكتوبر ١٧٩١ إلى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ . ووضع بوصفه رئيساً للجنة التعليم العام تقريراً يدعو إلى نظام قومى للتعليم الابتدائى والثانوى ، العام « المجانى » الشامل للجنسين على السواء » والبعيد عن النفوذ الكنسى ، ويخطط التقرير لهذا التعليم تخطيطاً عاماً [١٠٥]، وقد وضع مبدأ « دولة الرفاهية » قال : « يجب أن يكون هدف جميع المؤسسات الاجتماعية تحسين الأحوال البدنية والفكرية والأخلاقية لأكثر طبقات السكان عدداً وأشدها فقراً »[١٠٦]. وقدم التقرير إلى الجمعية فى ٢١ أبريل ١٧٩٢ ، ثم عطلت حروب الثورة اتخاذ اجراءات تنفيذه ، ولكن حين وطد نابليون سلطته جعل تقرير كوندورسيه الأساس الذى أرسى فوقه تنظيمه للتعليم من جديد فى فرنسا تنظيماً بدأ به عهداً حاسماً .

ولم يتح لكوندورسيه مثل هذه المكانة المرموقة فى المؤتمر القومى الذى حل محل الجمعية التشريعية ، لأن الجيرونديين المحافظين تشككوا فيه بوصفه جمهورياً ، وارتاب اليعاقبة المتطرفون فى نواياه بوصفه ارستقراطياً يحاول أن يخضع الثورة لسيطرة الطبقة الوسطى [١٠٧] . وقد صوت فى صف الذين أدانوا لويس السادس مذنباً بالخيانة ، ولكنه صوت ضد إعدامه . فلما عين مع ثمانية آخرين أعضاء فى لجنة وكل إليها صياغة دستور جديد ، قدم مشروعاً رفض بدعوى إسرافه فى محاباة البورجوازية — فلما تبنى المؤتمر الذى سيطر عليه اليعاقبة دستوراً أكثر تطرفاً ، كتب كوندورسيه نشرة غفلا من التوقيع ينصح فيها المواطنين أن يرفضوه . وفى ٨ يوليو ١٧٩٣ أمر المؤتمر بالقبض عليه .

وظل تسعة أشهر مختبئاً فى منزل لأرملة المصور كلود — جوزف فرنيه . ولكى يصرف ذهنه عن خوف القبض عليه ألف كتيباً يصلح تلخيصاً لحركة التنوير ، و « كتاباً أزرق » (أى مخططاً) للمجتمع المثالى القادم . وعنوان المخطوط « نشرة تمهيدية لجدول تاريخى بمراحل تقدم العقل البشرى »[١٠٨].

كذلك سماه Esquisse أى تخطيط ، ويبدو أنه كان يؤمل أن يكتب يوماً ما عرضاً أكثر تفصيلا لفلسفته .

وقد استوحى مخطوطه من المحاضرة التى أجمل فيها طورجو « يوم كان لاهوتياً » (١١ ديسمبر ١٧٥٠) « المراحل المتعاقبة لتقدم الفكر البشرى »[١٠٩] وقسم كوندورسيه التاريخ إلى عشر مراحل : (١) اتحاد الأسر فى قبائل ، (٢) الرعى والزراعة ؛ (٣) اختراع الكتابة ؛ (٤) ازدهار الثقافة اليونانية حتى عهد الاسكندر ؛ (٥) تطور المعرفة خلال صعود روما واضمحلالها ؛ (٦) العصور المظلمة « من ٤٧٦م . إلى الحروب الصليبية ؛ (٧) نمو العلم بين الحروب الصليبية واختراع الطباعة ؛ (٨) من جوتنبرج إلى بيكن ، وجاليليو ، وديكارت » « الذين خلعوا نير السلطة ؛ (٩) من ديكارت حتى تأسيس الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية ؛ (١٠) عصر الفكر المحرر[١١٠] .

وكان كوندورسيه لا يعترف للعصور الوسطى بقدر ، شأنه فى ذلك شأن فولتير ، فقد تمثل فيها تسلط الكنيسة على الفكر الأوربى ، وتخدير الشعب بسحر القداس ، وانبعاث الشرك نتيجة لعبادة القديسين[١١١] . ومع أنه احتفظ — كفولتير أيضاً — بإيمان ربوبى بالله « فإنه اعتمد على تقدم المعرفة وانتشارها لتقويض سلطان الكنيسة ، وتوسيع الديمقراطية » بل والارتقاء بالأخلاق ، فقد شعر بأن الخطيئة والجريمة هما إلى حد كبير نتيجة للجهل[١١٢] . « سيأتى الوقت الذى تشرق فيه الشمس فقط على أحرار الرجال الذين لايعرفون لهم سيداً غير عقلهم »[١١٣] . وقد اثنى على فولتير لإطلاقه الفكر من عقاله » وعلى روسو لإلهامه الناس بأن يقيموا نظاماً اجتماعياً عادلا . وصور الخير العميم الذى سيفيض بهما القرنان التاسع عشر والعشرون بفضل جهود القرن الثامن عشر : التعليم العام » وحرية الفكر والتعبير ، وتحرير المستعمرات ، والمساواة أمام القانون . وإعادة توزيع الثروة . وقد تذبذب بعض الشىء فى أمر حق التصويت للجميع : فهو يريد بصفة عامة أن يقصر التصويت على أصحاب الأملاك أو الثروة مهما قلت[١١٤] ، وكان أحياناً يخشى أن تمكن سذاجة الجماهير قلة غنية من أن تلقنهم آراءهم متى

شاعت ، وهكذا تخلق أو لجركية بورجوازية ، مستترة وراء واجهة ديمقراطية[١١٥] ، ولكن هروب لويس السادس ومارى أنطوانيت إلى فارين ، والخوف من أن تحاول الدول إعادة الملكية الأوتقراطية فى فرنسا ، رداه إلى الدعوة لحق التصويت الجميع بما فيهم النساء[١١٦] .

وقد تطلع فى الخيال من عزلته المطاردة إلى مستقبل ملؤه جلائل الأعمال . فتنبأ بصعود الصحافة ضابطاً لطغيان الحكومة ، وبتطور دولة الرفاهية بفضل التأمين والمعاشات الاجتماعية ، وبحفز الثقافة نتيجة لتحرير المرأة ، وبإطالة عمر الإنسان بفضل تقدم الطب ، وبانتشار النظام الاتحادى بين الدول ، وبانقلاب الاستعمارية إلى معونة أجنبية تقدمها البلاد المتقدمة للمتخلفة ؛ وبخفة التعصب القومى نتيجة لانتشار المعرفة ، وبتطبيق البحوث الإحصائية على إنارة السياسات وصياغتها ، وبازدياد ارتباط العلم بالحكومة[١١٧] ، وإذ رأى كل عصر مضيفاً أهدافاً جديدة لإنجازاته ، فلا يمكن إذن أن تكون هناك نهاية متطورة للتقدم . ولا يعنى هذا أن الإنسان سيغدو كاملا فى أى وقت ، بل أنه سيسعى أبداً إلى الكمال . « ان الطبيعة لم تحدد زماناً لكمال الملكات البشرية ، وقابلية الإنسان للكمال لاحدود لها ، وتقدم هذه القابلية — التى ستكون منذ الآن مستقلة عن أى قوة قد تبغى تعطيلها — لا حد له غير عمر هذا الكوكب الذى ألقتنا الطبيعة على سطحه[١١٨] » .

وقرب ختام هذا التخطيط تصدى كوندورسيه للمشكلة التى سيعرضها بعد أربع سنين فى « مقال عن مبدأ السكان » (١٧٩٨) :

« ألا يجوز أن تأتى لحظة . . . يترتب فيها على زيادة سكان العالم عن أسباب العيش تناقص مستمر لسعادتهم ، . . . أو على أفضل تقدير تذبذب بين النفع والضرر ؟ وألا يدل ذلك على أن العالم قد وصل إلى نقطة يستحيل تحقيق المزيد من التحسين بعدها — وأن قبول النوع الإنسانى للكمال قد بلغ بعد سنين طويلة مرحلة يعجز عن تجاوزها ؟

ومنذا الذى يستطيع التنبؤ بالحالة التى يمكن أن يوصل إليها فن تسخير عناصر الطبيعة لخير الإنسان فى الوقت المناسب ؟ . . . وحتى لو اتفقنا على

أننا سنصل يوماً ما إلى ذلك الحد . . . فإنه قبل أن يقع هذا كله سيكون تقدم العقل قد واكب تقدم العلوم « وتعصب الخرافة السخيف قد كف عن إفساد القانون الأخلاقي والحط منه بتعاليمه المنكرة . . . ولنا أن نفترض أنه إذا جاء ذلك الوقت فإن الناس سيعرفون أن عليهم واجباً قبل أولئك الذين لم يولدوا بعد ، هو واجب تيسير السعادة لهم « لا مجرد العيش وكفى »[١١٩] .

ولم يكن تفاؤل كوندورسيه تفاؤلا أعمى تماماً . «ما زلنا نرى قوى التنوير لا تملك أكثر من جزء صغير جداً من العالم ، والمتنورين حقاً وصدقاً تطغى عليهم كثرة جماهير الناس الذين مازالت تسيطر عليهم الجهالة والتعصب. وما زلنا نرى مناطق شاسعة يرزح فيها البشر تحت نير العبودية »[١٢٠] . ولكن « صديق الإنسانية » يجب ألا يفقد الأمل أمام هذه المصاعب ، فانظر إلى الكثير من الأشياء النبيلة التي أنجزت فعلا ، أنظر إلى التطور الهائل للمعرفة وحب المغامرة ، فأي شيء يستعصى على هذه الإنجازات إذا اتصلت وانتشرت؟ وهكذا أختتم كوندورسيه كتابه برؤيا كانت سنداً له في الشدة ، وبديلا له ولآلاف غيره عن إيمان فوق طبيعي . وإلى القارىء الكلمة الأخيرة والمتوجة لحركة التنوير :

«كم تعزي الفيلسوف الذي يرثي الأخطاء والجرائم والمظالم التي مازالت تلوث الأرض ، والتي كثيراً ما يكون هو نفسه ضحيتها — لكم تعزيه هذه النظرة للنوع الإنساني ، وقد تحرر من أغلاله « . . . يسير قدماً بخطى ثابتة مطمئنة على طريق الحق ، والفضيلة ، والسعادة . ان تأمل هذا المشهد هو الذي يجزيه عن جميع ما بذل من جهود في إعانة تقدم العقل والدفاع عن الحرية . . وهذا التأمل ملاذ له لاتستطيع ذكرى مضطهديه أن تتبعه إليه . فهناك يحيا بالفكر مع الإنسان وقد رد له حقه وكرامته الطبيعيان ، وينسى الإنسان الذي عذبه وأفسده الجشع ، أو الخوف « أو الحسد ؛ هناك يحيا مع أترابه في جنة خلقها العقل ، وجملتها أطهر اللذات التي عرفها حب البشر »[١٢١] .

ولقد أوشك اعتراف الإيمان هذا أن يكون صرخة رجل شاعر بأن

الموت يبحث عنه . فلما خشى كوندورسيه أن يلحق الضرر بمدام فرنيه إذا اكتشف أنها تؤويه ، أودعها مخطوطه وغادر بيتها متنكراً رغم اعتراضاتها . وبعد أن تشرد أياماً على أطراف باريس طلب طعاماً فى فندق . وأثار الشبهة مظهره وعدم وجود أوراق تعرف بهويته . وسرعان ما تبينه القوم أرستقراطياً . وقبض عليه ، وزج فى سجن بمدينة بور — لا — رين (٧ أبريل ١٧٩٤) . وفى صبيحة الغد وجد ميتاً فى زنزانته . وقد ذهب أول كاتب لسيرته إلى أنه حمل السم فى خاتم ، وابتلع هذا السم ، غير أن تقرير الطبيب الذى فحص الجثة عزا موته إلى جلطة فى أحد عروقه[١٢٢] . أما المؤتمر فقد أمر بعد حصوله على تخطيطه وقراءته بأن تطبع الدولة ثلاثة آلاف نسخة منه وتوزعها فى جميع أرجاء فرنسا .

٥ — الفلاسفة والثورة

اتفق بيرك ، وتوكفيل[١٢٣] ، وتين[١٢٤] ، على أن فلاسفة فرنسا ، من بيل إلى ما بلى ، كانوا عاملا كبيراً فى احداث الثورة . فهل نستطيع قبول النتيجة التى خلص إليها جهابذة المحافظين أولئك ؟

لقد كان جميع الفلاسفة المرموقين معارضين للثورة على حكومات أوربا القائمة آنذاك ، لا بل إن منهم من وضعوا إيمانهم فى الملوك لأنهم أكثر أدوات الإصلاح عملية ، واحتفظ فولتير ، وديدرو ، وجريم بعلاقات صداقة ، إن لم يكن إعجاب شديد ، بواحد أو آخر من أشد الحكام المعاصرين استبداداً — فردريك الثانى ، كاترين الثانية ، جستاف الثالث ، وأسعد روسو أن يستقبل يوزف الثانى أمبراطور النمسا . أما ديدرو ، وهلفتيوس ، ودولباخ ، فقد وجهوا النقد العنيف للملوك بصفة عامة ، ولكنهم لم يدعوا قط فى كتبهم التى بين أيدينا إلى الإطاحة بالملكية الفرنسية[١٢٥] . وعارض مارمونتيل وموريلليه الثورة فى غير مواربة[١٢٦] ، وجهر ما بلى ، الاشتراكى بأنه ملكى[١٢٧] ، أما طورجو معبود جماعة الفلاسفة ، فقد جاهد لإنقاذ لويس السادس عشر لا للقضاء عليه . ودعم روسو الأقطار الجمهورية ، ولكن لصغار الدول فقط ، وقبلت الثورة نظرياته وأغفلت تحذيره . وحين

أقام الثوار نظاماً جمهورياً فى فرنسا لم يقيموه على طريقة الفلاسفة الفرنسيين بل أبطال بلوتارخ من اليونان والرومان . ولم تكن قبلتهم فرنيه ، بل اسبرطه وروما الجمهورية .

ان الفلاسفة وفروا الإعداد الأيدولوجى للثورة . وكانت أسبابها اقتصادية أو سياسة ، وعباراتها فلسفية « وقد تيسر للأسباب الأساسية للثورة أن تفعل فعلها بفضل عمل الهدم الذى قام به الفلاسفة لإزالة العقبات القائمة فى طريق التغيير » مثل الإيمان بالامتيازات الإقطاعية والسلطة الكنيسية ، وحق الملوك الإلهى . فلقد كانت كل الدول الأوربية حتى عام ١٧٨٩ تعتمد على معونة الدين فى غرس قدسية الحكومات فى النفوس ، وحكمة التقاليد ، وعادات الطاعة ، ومبادىء الأخلاق « وكانت بعض جذور السلطة الأرضية مغروسة فى السماء ، واعتبرت الدولة الله رئيس شرطتها السرية . كتب شامفور والثورة تدور رحاها يقول إن « الكهانة كانت أول معقل للسلطة المطلقة ، وقد أطاح به فولتير »[١٢٨] . وذهب توكفيل فى ١٨٥٦ إلى أن « سوء السمعة العام الذى انحدر إليه الإيمان الدينى كله فى نهاية القرن الثامن عشر كان له ولا ريب أعظم الأثر فى سير الثورة برمته »[١٢٩] .

ثم انتقلت الشكوكية التى مزقت اللاهوت القديم شيئاً فشيئاً إلى نقد المؤسسات والشئون العلمانية . وقد ندد الفلاســفة بالفقر والقنية كما نددوا بالتعصب والخرافة « وكافحوا ليقلصوا سلطان أمراء الإقطاع على طبقة الفلاحين . واعترف بعض النبلاء بقوة الانتقادات اللاذعة التى وجهت إليهم ، وفقد الكثير منهم الثقة فى تفوقهم الطبيعى وحقوقهم المتوارثة . استمع إلى الكونت لوى — فليب د سيجور » :

« كنا نقاداً شديدى الاحتقار للعادات القديمة ، ولكبرياء آبائنا الإقطاعية ومراسمهم المتزمته . . . وشعرنا بالميل إلى أن نتبع فى تحمس العقائد الفلسفية التى جهر بها الكتاب الأذكياء الجسورون . واجتذب فولتير انتباهنا ، ومس روسو قلوبنا . . . ولذنا خفية أن نراهم يهاجمون النظام القديم . . . فاستمتعنا فى وقت واحد بمزايا طبقة النبلاء ومتع الفلسفة الشعبية »[١٣٠] .

وكان من هؤلاء الأشراف الذين وخزهم ضميرهم أشخاص ذوو نفوذ كميرابو الأب والإبن ، ولاروشفوكو — ليانكور ، ولافاييت ، والفيكونت لوى — مارى دنواى ، و « فليب إيجاليته » (مساواة) ، والدوق أورليان ، ثم لنذكر المعونة والمواساة اللتين قدمهما لروسو المرشال لكسبورج ولوى — فرانسوا البوربونى أمير كونتى . وقد قادت الأقلية اللبرالية التى حفزتها غارات الفلاحين على الملكية الإقطاعية أمراء الإقطاع فى الجمعية التأسيسية على التخلى عن معظم حقـــوقهم الإقطاعية لقاء تعويضات (٤ أغسطس ١٧٨٩) . لا بل إن الأسرة المالكة تأثرت بالأفكار شبه الجمهورية التى أعلن الفلاسفة على نشرها . وكان أبو لويس السادس عشر يحفظ عن ظهر قلب فقرات كثيرة من كتاب مونتســكيو « روح القوانين » ، وقد قرأ كتاب روسو « العقد الاجتماعى » وحكم بأنه « سليم إلى حد كبير » فيما خلا نقده للمسيحية . وعلم أبناءه (الذين أصبح ثلاثة منهم ملوكاً) أن « أسباب الامتياز التى تحظون بها لم تعطكم إياها الطبيعة ، التى خلقت الناس كلهم سواسية »[١٣٦] . واعترف لويس السادس عشر فى مواسيمه بـ « القانون الطبيعى » و « حقوق الإنسان »[١٣٧] . المترتبة على طبيعة الإنسان بوصفه كائناً عاقلا .

وأضافت الثورة الأمريكية مزيداً من المكانة والقدر للأفكار الجمهورية . ولقد استمدت تلك الثورة هى أيضاً قوتها من وقائع الحال الاقتصادية كنظام الضرائب والتجارة ، وكان « إعلان استقلالها » مديناً للمفكرين الانجليز دينه للمفكرين الفرنسيين ، ولكن لوحظ أن واشنطن ، وفرانكلن وجفرسن ، قد تهيأوا لقبول الفكر الحر بفضل جماعة الفلاسفة الفرنسيين . وعن طريق أولئك الأبناء الأمريكيين للتنوير الفرنسى ، تدرجت النظريات الجمهورية حتى تمثلت حكومة ظافرة فى السلاح ، يعترف بها ملك فرنسى ، وتمضى فى إرساء دستور يدين ببعض الفضل لمونتسكيو .

ولقد مرت الثورة الفرنسية بثلاث مراحل . فى الأولى حاول النبلاء عن طريق البرلمانات ، أن يستردوا من الملكية ذلك السلطان الذى انتزعه منهم لويس الرابع عشر ، وهؤلاء النبلاء لم يستلهموا جماعة الفلاسفة . وفى

المرحلة الثانية ظفرت الطبقات الوسطى بالتحكم فى الثورة ، وكانت عميقة التشرب بأفكار الفلاسفة ، ولكن المعنى الذى فهمته من « المساواة » كان مساواة البورجوازى بالاستقراطى . وفى المرحلة الثالثة انتزع الرياسة زعماء غوغاء المدينة . وظلت جماهير الشعب متمسكة بالدين ، ولكن زعماءهم كانوا قد فقدوا احترامهم للقساوسة والملوك؛ وأحبت الجماهير لويس السادس عشر إلى النهاية ، ولكن زعماءهم ضربوا عنقه . وبعد ٦ أكتوبر ١٧٨٩ ، سيطر اليعاقبة على باريس ، وكان روسو إلاههم . وفى ١٠ نوفبر ١٧٩٣ احتفل المتطرفون الظافرون بعيد العقل فى كتدرائية نوتردام . وفى تور أحل الثوار تماثيل جديدة تسمى ما بليه ، وروسو » وفولتير محل تماثيل القديسين. وفى شارتر عام ١٧٩٥ ، فى الكتدرائية الشهيرة ، افتتح عيد العقل بدراما أظهر فيها فولتير وروسو متحدين فى حملة على التعصب(١٣٣) .

لاسبيل إلى الشك إذن فى أن الفلاسفة أثروا تأثيراً عميقاً فى أيديولوجية الثورة ودرامتها السياسية . أنهم لم يقصدوا إلى العنف ، أو التقتيل ، أو الجيلوتين ؛ ولو قد شهدوا هذه المناظر الدموية لاقشعروا رعباً ، ولربما قالوا بحق إنه قد أسىء فهمهم على نحو قاس ، ولكنهم كانوا مسئولين بقدر ما استخفوا بأثر الدين والتقاليد فى ضبط الغرائز الحيوانية للبشر . وكانت الثورة الحقيقية أثناء ذلك ماضية فى طريقها فى ظل تلك الآراء الأخاذة والأحداث المرئية ، إذ انتزعت الطبقات الوسطى من الأرستقراطية والملك التسلط على الاقتصاد والدولة ، متذرعة بالفلسفة أداة من مائة أداة أخرى فى بلوغ غايتها تلك .

الفصل السادس والثلاثون

عشية الثورة

١٧٧٤ – ٨٩

١ – الدين والثورة

كانت الكنيسة الكاثوليكية من الناحية المالية أسلم مؤسسة فى البلاد ، تملك نحو ٦ ٪ من الأرض ، وأملاكاً أخرى تقدر قيمتها فى مجموعها بمبلغ يتفاوت بين بليونى جنيه وأربعة بلايين ، وتغل دخلا سنوياً قدره ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه[1] . يضاف إلى هذا ١٢٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من العشور التى تجبى على غلات الأرض وماشيتها[2] . وكانت هذه الدخول فى نظر الكنيسة لازمة لأداء مختلف وظائفها – وهى دعم الحياة الأسرية ، وتنظيم التعليم (قبل ١٧٦٢) ، وتربية الأخلاق ، وتأييد النظام الاجتماعى ، وتوزيع الصدقات ، ورعاية المرضى ، وتوفير الأديرة ملاذاً للنفوس النزاعة للتأمل أو العازفة عن السياسة يحميها من فوضى الزحام واستبداد الدولة ، وغرس مزيج حكيم من الخوف ، والرجاء ، والتسليم ، فى نفوس ضرب عليها الفقر أو المشقة أو الحزن نتيجة لعدم المساواة الطبيعية بين البشر .

كل أولئك زعمت أنها تفعله بواسطة اكليروسها الذى كان قوامه نحو نصف فى المائة من السكان . وكان عدد رجاله قد تقلص منذ عام ١٧٧٩[3] ، وأصاب الأديرة اضمحلال خطير . ويروون إن « رهبان كثيرين كانوا يحبلون الأفكار الجديدة ، ويقرأون مؤلفات الفلاسفة »[4] ، وهجر مئات الرهبان حياة الرهبنة ولم يحل محلهم جدد ، وتقلص عددهم فى فرنسا بين ١٧٦٦ و ١٧٨٩ من ٢٦,٠٠٠ إلى ١٧,٠٠٠ ، وفى أحد الأديرة

من ثمانين إلى تسعة عشر ، وفي آخر من خمسين إلى أربعه[٥] . وقد أغلق مرسوم ملكي صدر عام ١٧٦٦ جميع الأديرة التي تضم أقل من تسعة نزلاء ، ورفع السن المسموح بها لنذر الرهبنة من ست عشرة سنة إلى إحدى وعشرين للرجال ، وإلى ثماني عشرة للنساء . وكانت أخلاق الرهبان منحلة . كتب رئيس أساقفة تور في ١٧٧٨ : « ان الأخوة الرماديين (الفرنسسكان) في حالة انحطاط في هذا الإقليم ، ويشكو الأساقفة من خلاعتهم وما في حياتهم من فوضى »[٦] . أما أديرة الراهبات فكانت في حالة طيبة . وكان هناك ٣٧,٠٠٠ راهبة يضمهن ١,٥٠٠ دير في فرنسا عام ١٧٧٤[٧] ، وكانت أخلاقهن فاضلة ، وقد نشطن لمهامهن في تعليم الفتيات ، والخدمة في المستشفيات ، وتقديم المأوى للأرامل ، والعوانس ، والنساء اللائي تحطمن في معركة الحياة .

وحسن حال الأكليروس من غير الرهبان مادياً في مقار الأسقفيات وساء في الأبراشيات . وقد كان هناك الكثير من الأساقفة المخلصين المجتهدين ، وبعض الكسالى المتشبثين بمتع الحياة الدنيا . وقد وجد بيرك أثناء زيارته لفرنسا عام ١٧٧٣ بعض الأساقفة ممن يعيبهم الجشع ، ولكن السواد الأعظم منهم وقعوا من نفسه خير موقع بعلمهم ونزاهتهم[٨] . وقد خلص مؤرخ ألم بكتب الفضائح إلى هذا الحكم ، يمكن القول بصفة عامة أن الرذائل التي استشرت في جسم الأكليروس كله خلال القرن السادس عشر قد اختفت في القرن الثامن عشر . وكان قساوسة الريف عادة رجالا ذوي أخلاق كريمة ، متقشفين ، فضلاء[٩] رغم قانون التبتل » ، وقد شكا كهنة الأبرشيات هؤلاء من الكبرياء الطبقية في الأساقفة ، وكانوا كلهم نبلاء ، ومن إلزامهم بتحويل الجزء الأكبر من العشور إلى الأسقف ، وما ترتب على ذلك من فقر ألجأ القساوسة إلى أن يفلحوا الأرض كما يخدمون الكنيسة . وقد تأثر لويس السادس عشر من احتجاجاتهم ، وأمر برفع رواتبهم من خمسمائة جنيه في العام إلى سبعمائة . فلما أقبلت الثورة أيد كثيرون من صغار الكهنة الطبقة الثالثة . كذلك ظاهر بعض الأساقفة الإصلاح السياسي والاقتصادي ، ولكن أكثرهم ظل صلباً لا يلين في عدائه لأي تغييرات في الكنيسة أو الدولة[١٠] .

وحين أشرفت خزانة فرنسا على الإفلاس ظهر ثراء الكنيسة مناقضاً لفقر الدولة تناقضاً مغرياً بالعدوان عليه . وبدأ أصحاب الصكوك الذين تشككوا فى قدرة الحكومة على دفع فائدة قروضهم أو أصولها يرون فى نزع أملاك الكنيسة السبيل الأوحد لإصلاح مالية البلاد . والتقى رفض العقيدة المسيحية المنتشر مع هذا الدافع الاقتصادية .

وزكا الإيمان الديني فى القرى ، وخبا فى المدن ؛ وفى المدن احتفظت نساء الطبقتين الوسطى والدنيا بتدينهن التقليدى . قالت مدام فيجيه — ليرون مسترجعة ذكرى ماضيها «كانت أمى تقية جداً . وكنت أنا أيضاً تقية فى قرارة نفسى . وقد ألفنا دائماً أن نستمع إلى القداس المطول ونختلف إلى خدمات الكنيسة »[١١] . وكانت الكنائس تكتظ بالمصلين فى الآحاد والأعياد الدينية[١٢] . ولكن عدم الإيمان بين الرجال كان قد تسلط على نصف العقول القائدة . وفى أوساط النبلاء أصبحت الشكوكية المرحة زياً راج حتى بين النساء . كتب مرسييه فى كتابه « صورة باريس » فى ١٧٨٣ يقول : « لم يحضر أفراد المجتمع العصرى القداس طوال السنوات العشر الماضية ، فإذا حضروا فلكيلا يصدموا شعور أتباعهم الذين يعرفون أنهم يفعلون هذا إرضاء لهم »[١٣] ، وحذا القطاع الأعلى من الطبقة الوسطى حذو الأرستقراطيين . أما فى المدارس « فإن مدرسين كثيرين سرت إليهم عدوى الإلحاد بعد عام ١٧٧١ »[١٤] ، وأهمل كثير من الطلاب حضور القداس وقرأوا كتب الفلاسفة . وفى ١٧٨٩ صرح الأب بونفاكس بأن « أخطر فضيحة ، والفضيحة التى ستجر أوخم العواقب ، هى الهجر التام تقريباً للتعليم الدينى فى المدارس العامة »[١٥] . وقد قيل عن إحدى الكليات أن « ثلاثة من البلهاء فقط » هم الذين يؤمنون بالله[١٦] .

أما بين الأكليروس فقد اختلف الإيمان عكسياً باختلاف الدخول . فالأساقفة « قبلوا المبادىء النفعية التى قال بها جماعة الفلاسفة ، واحتفظوا بالمسيح واجهة ساترة فقط »[١٧] ، وكان مئات من رؤساء الأديرة مثل ما يليه «

وكونديالك ، وموريلليه ، ورينال ، هم أنفسهم « فلاسفة » ، أو معتنقين للشكوك السارية . ثم أساقفة كتالبران لم يتظاهروا بالإيمان المسيحى إلا قليلا ؛ ورؤساء أساقفة مثل لومنيه دبريين « شكا لويس السادس عشر من عدم إيمانهم بالله[١٨] . وقد رفض لويس أن يكلف قسيساً بتعليم ولده مخافة أن يفقد الغلام إيمانه الديني[١٩] .

وواصلت الكنيسة مطالبتها بالرقابة على المطبوعات . فى عام ١٧٧٠ أرسل الأساقفة إلى الملك مذكرة تناولت « العواقب الخطيرة لحرية التفكير والنشر »[٢٠] . وكانت الحكومة فى عهد لويس الخامس عشر قد تساهلت فى تطبيق القوانين التى منعت دخول البروتستنت إلى فرنسا ، فكان منهم الآن مئات فى المملكة ، يحيون فى ظل قيود سياسية ، وفى زيجات لا تعترف بها الدولة ، وفى خوف كل يوم من أن تطبق عليهم فى أى لحظة قوانين لويس الرابع عشر القديمة . وفى يوليو ١٧٧٥ التمس مؤتمر من رجال الدين الكاثوليك من الملك أن يحظر اجتماعات البروتستنت ، وزيجاتهم ، وتعليمهم ، وأن يحرم البروتستنت من جميع المناصب العامة ؛ كذلك طلب خفض السن التى يسمح فيها بنذر الرهبنة إلى السادسة عشرة[٢١] . وناشد طورجو لويس السادس عشر أن يغفل هذه المقترحات ، وأن يخفف عن البروتستنت قيودهم ، فشارك الكهنة فى الحملة لإقصائه . وفى ١٧٨١ أحرقت الطبعة الثانية من كتاب رينال « التاريخ الفلسفى لجزر الهند الشرقية والغربية » بأمر من برلمان باريس ، ونفى المؤلف من فرنسا . وهاجمت الصوربون بوفون لأنه وصف تطوراً طبيعياً للحياة . وفى ١٧٨٥ طالب الأكليروس بالحكم بالسجن المؤبد على الأشخاص الذين يدانون ثلاث مرات بالإلحاد[٢٢] .

غير أن الكنيسة التى أوهن بأسها قرن من الهجمات لم تعد قادرة على الهيمنة على الرأى العام ، ولا على الاعتماد على « الذراع العلمانية » فى تنفيذ أوامرها . فبعد أن ظل لويس السادس عشر شديد القلق بسبب يمين التتويج التى أقسمها لمحق الهرطقة ، أذعن لضغط الأفكار اللبرالية وأصدر فى ١٧٨٧ مرسوماً للتسامح أعده مالبرب : « ان عدالتنا لاتسمح لنا بأن نحرم بعد اليوم

من حقوق الدولة المتحضرة رعايانا الذين لا يعترفون بالكاثوليكية »[٢٣] . وقد أبقى المرسوم على حرمان غير الكاثوليك من المناصب العامة ، ولكنه أعطاهم جميع الحقوق المهنية الأخرى ، وسمح لهم بالمهن الحرة ، وأضفى الشرعية على زيجاتهم الماضية والمستقبلة ، وأباح لهم الاحتفال بخدماتهم الدينية فى المنازل الخاصة . ويجب أن نضيف أن أسقفاً كاثوليكياً هو لا لوزرن أيد بقوة تحرير البروتستنت وإطلاق الحرية الكاملة للعبادة الدينية[٢٤] .

ولم تكن هناك طبقة فى مدن فرنسا أبغض إلى أقلية الذكور المتعلمة من الأكليروس الكاثوليك . يقول توكفيل أن الكنيسة كانت مكروهة « لا لأن القساوسة زعموا أنهم ينظمون شئون العالم الآخر ، بل لأنهم كانوا ملاكاً للأرض ، وأصحاب ضياع وعشور وحكاماً فى هذا العالم »[٢٥] وكتب فلاح إلى نكير فى ١٧٨٨ يقول : « إن الفقراء يقاسون البرد والجوع بينما يرتع كهنة الكتدرائيات فى رغد من العيش ولا يفكرون إلا فى تسمين أنفسهم كأنهم خنازير ستذبح للفصح »[٢٦] . وغاظ الطبقات الوسطى إعفاء ثروة الكنيسة من الضرائب .

ولقد كانت معظم الثورات السابقة ثورات اما على الدولة وإما على الكنيسة ، وندر أن نشبت ضدهما معاً فى وقت واحد . فالقبائل الهمجية أطاحت بروما ، ولكنها قبلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . والسوفسطائيون فى اليونان القديمة ودعاة الإصلاح البروتستنتى فى أوربة القرن السادس عشر ، رفضوا الدين السائد ، ولكنهم قبلوا الحكومة القائمة . أما الثورة الفرنسية فإنها هاجمت الملكية والكنيسة جميعاً ، واضطلعت بمهمة وخاطرة مزدوجة ، هى مهمة الإطاحة بالركيزتين الدينية والدنيوية للنظام الاجتماعى القائم . فهل من عجب أن يركب فرنسا الجنون عقداً من الزمان ؟

٢ — الحياة على شفا الثورة

أدرك الفلاسفة أنهم وقد رفضوا الأسس اللاهوتية للأخلاق ملتزمون أدبياً بالعثور على أساس آخر ، على نسق آخر للإيمان يحمل الناس على السلوك الكريم بوصفهم مواطنين ، وأزواجاً ، وآباء ، وأبناء[٢٧] . ولكنهم لم

يكونوا إطلاقاً واثقين من إمكان السيطرة على هذا الحيوان البشرى دون ناموس أخلاقى مكرس تكريساً فوق طبيعى . وانتهى فولتير وروسو إلى الاعتراف بالضرورة الأخلاق لإيمان دينى شعبى . وكتب مابليه إلى جون آدمز فى ١٧٨٣ فى « ملاحظات على حكومة . . . الولايات المتحدة الأمريكية» عام ١٧٨٣ منبهاً إلى أن عدم المبالاة بأمور الدين ، مهما كان غير ضار بالأفراد المتنورين العقلانيين « إلا أنه وبيل على أخلاق الجماهير . ورأى أن على الحكومة أن تضبط وتوجه فكر هؤلاء « الأطفال » كما يفعل الآباء مع أبنائهم الصغار[٢٨] . أما ديدرو فى النصف الثانى من حياته فكر ملياً فى وضع أخلاقيات طبيعية ، ثم اعترف بفشله : « بل إننى لم أجرؤ على أن أخط أول سطر . . ولست أخالنى كفئاً لهذا العمل الجليل »[٢٩] .

ولنسأل الآن أى ضرب من الأخلاق ساد فرنسا بعد أربعين عاماً حفلت بالهجمات على المعتقدات فوق الطبيعية ؟ وفى جوابنا عن هذا السؤال يجب ألا نصور النصف الأول من القرن الثامن عشر فى صورة مثالية . لقد قال فونتنيل قبيل موته فى ١٧٥٧ إنه يتمنى لو مد فى أجله ستون سنة أخرى « لأرى النهاية التى تنتهى إليه الخيانة الزوجية المستشرية والخلاعة وتحلل جميع الروابط»[٣٠]. فإذا كانت تلك العبارة (التى لعلها لم تنصف الطبقتين الوسطى والدنيا) تعطى صورة صادقة لأخلاق الطبقة العليا فى فرنسا قبل « الموسوعة » (١٧٥١) ، فلن نكون محقين إذا عزونا إلى جماعة الفلاسفة العيوب التى شابت الأخلاق فى النصف الثانى من القرن . ذلك أن عوامل أخرى غير اضمحلال الإيمان الدينى كانت توهن قوة الناموس الأخلاقى القديم ، فتكاثر الثروة مكن الناموس من الإنفاق على آثام كانت من قبل غالية التكلفة . وقد صور لنا رستيف دلابريتون بورجوازياً فاضلا يتحسر على تدهور الخلق الفرنسى بانتقال السكان من القرى والمزارع إلى المدن[٣١] ؛ وكان الشبان يهربون من النظام المفروض عليهم فى الأسرة ، والمزرعة ، والناحية ، إلى حياة المدن بما فيها من اتصالات وفرص مؤذية ، واختفاء للشخصية بين حشود المدينة . وفى كتابه « ليالى باريس » وصف رستيف باريس الثمانينيات كأنها دردور هائل عنيف يعج بالأحداث المنحرفين « وصغار اللصوص ،

ومحترفى الإجرام ، والبغايا إناثاً وذكورا . وذهب تين إلى أن فرنسا فى ١٧٥٦ — ٨٨ ابتليت « بالمتشردين » والمتسولين ، وبكل ضروب النفوس العنيدة . . . الكريهة » القذرة » الشرسة ، المتوحشة ، التى ولدها النظام » وقد تجمعت كالحشرات على كل قرحة اجتماعية »[٣٢] . وكانت حثالة الكائن الاجتماعى هذه نتائج الطبيعة البشرية وحكم البوربون » ولا يمكن أن تعزى إلى الفلسفة أو انطفاء شعلة الإيمان .

وربما كان بعض القمار الذى ازدهر فى باريس (كما فى لندن) مرتبطاً بعدم الإيمان » ولكن الجميع شاركوا فيه ، أتقياء وعصاة على حد سواء . وفى ١٧٧٦ ألغيت جميع ألوان اليانصيب الخاص لتدمج فى « اليانصيب الملكى» . ومع ذلك يجوز أن نعزو إلى حد معقول شطراً من الفوضى الجنسية فى الطبقات العليا إلى الإلحاد . ففى كتاب شودرلو دلاكلو « العلاقات الغرامية الخطرة » (١٧٨٢) نجد أشرافاً وهميين يتبادلون الملاحظات فى فن الإغواء » ويضعون الخطط لفض بكارة فتاة فى الخامسة عشرة بمجرد تركها الدير » ويعتنقون فلسفة العدمية الأخلاقية . وحجة البطل ، الفيكونت فالمون ، أن جميع الناس أشرار فى رغباتهم على السواء ، ولكن أكثرهم يخفقون فى تحقيقها لأنهم يسمحون للتقاليد الأخلاقية أن تخوفهم . ويقول فالمون أن الرجل العاقل يسعى إلى اشباع أى أحاسيس تعده بأعظم لذة » ويحتقره كل النواهى الأخلاقية[٣٣] . ويحضرنا فى هـــذا المقام أن بعض السوفسطائين اليونان توصلوا إلى مثل هذه النتائج بعد أن نبذوا آلهتهم[٣٤] .

وفلسفة انعدام الحس الأخلاقى هذه ، كما يعرف العالم كله الآن ، غلا فيها غلواً مقززاً الكونت دساد — الذى يسمى خطأ عادة بالمركيز دساد . وقد ولد فى باريس عام ١٧٤٠ ، وخدم فى الجيش اثنى عشرة سنة ، وقبض عليه وحكم عليه بالإعدام بتهم اللواط (١٧٧٢) ، ثم فر ، وقبض عليه ، وفر ثانية » وقبض عليه من جديد ، ثم حكم عليه بالسجن فى الباستيل . وهناك ألف عدة قصص وتمثيليات ، فيها من الفحش والبذاءة ما اتسع له خياله : وأهمها « جوستين » (١٧٩١) ، و « قصة جولييت » أو ازدهار

الرذيلة » (١٧٩٢) . وهو يزعم أنه مادام الإله غير موجود « فإن العاقل من سعى إلى إشباع كل رغبة ما استطاع دون أن يجر عليه عقوبة أرضية ، وكل الرغبات خيرة على السواء ، وكل الفوارق الأخلاقية أوهام ، والعلاقات الجنسية الشاذة مشروعة ؛ وهي ليست في حقيقتها شاذة ؛ والجريمة ممتعة لو تجنبت افتضاح أمرك ؛ وقل أن تجد شيئاً ألذ من ضربك فتاة جميلة . ولم يصدم القراء بانعدام الحس الأخلاقي عند دساد كما صدموا بالمناعة إلى أن القضاء المبرم على النوع الإنساني لن يصيب الكون بأي أذى يذكر حتى أنه « لن يقف مسيره أكثر مما لو باد نوع الأرانب البرية أو البيشية كله »[٣٥] . وفي ١٧٨٩ نقل دساد إلى مستشفى الأمراض العقلية في شارنتون ، ثم أفرج عنه في ١٧٩٠ ، وحكم عليه بالعودة في ١٨٠٣ لاستعصاء شفائه ، ومات في ١٨١٤ .

وقد يدفع الفلاسفة بأن هذا الانعدام للحس الأخلاقي هو استنتاج خلقي لتقدم اللاهوت المسيحي ، وأن العقل السليم يقر الالتزامات الأدبية سواء دان أو لم يدن بالإيمان الديني ، وقد أقرها كثيرون . وكان بين سكان فرنسا — بل سكان باريس — الأسوياء في تلك السنين عناصر كثيرة للتجدد الأخلاقي : ازدياد رقة العاطفة والحنان ، وانتصارات الحب الرومانسي على زيجات المصلحة ، والأم الشابة ترضع طفلها بفخر ، والزوج يتودد إلى زوجته ، والأسرة ترد إلى سابق وحدتها باعتبارها أسلم منبع للنظام الاجتماعي . وكثيراً ما كانت هذه التطورات ممتزجة ببقايا من العقيدة المسيحية ، أو بفلسفة روسو نصف المسيحية ؛ ولكن ديدرو الملحد أيدها تأييداً حماسياً .

وقد أعقب موت لويس الخامس عشر انتقاض على إباحيته الجنسية . وضرب لويس السادس عشر المثل الطيب ببساطة لباسه وحياته ، وبوفائه لزوجته ، وبأدائه للقمار . وشاركت الملكة ذاتها في زي البساطة ، وقادت حركة إحياء الحساسية ورقة العاطفة . وجرت الأكاديمية الفرنسية على منح جائزة كل سنة للفضيلة البارزة [٣٦] . وكان أكثر الأدب مهذباً ، ونحيت قصص كريبيون الإبن جانباً ، وقررت قصة برناردان دسان — بيير « بول وفرجيني » طابع الطهارة الخلقية في الحب . وعكس الفن الأخلاق الجديدة ، ومجد جروز ومدام فيجيه — لبرون الأطفال والأمومة .

وغلدت المسيحية والفلسفة معاً نزعة إنسانية بثت المئات من أعمال البر والخير . وفى شتاء ١٧٨٤ القارس خصص لويس السادس عشر ثلاثة ملايين من الجنيهات لإغاثة الفقراء ، وشاركت مارى أنطوانيت بمائتى ألف من جيبها الخاص ، وحذا الكثيرون حذوهما . وساعد الملك والملكة على تمويل مدرسة الصم والبكم التى أسسها الأبيه دليبيه فى ١٧٨٨ لتعليم أبجديته الجديدة التى ابتكرها للصم والبكم ، ومدرسة الأطفال المكفوفين التى افتتحها فالنتان هاوى فى ١٧٨٤ . وأسست مدام نكير (١٧٧٨) ملجأ ومستشفى للفقراء ، ظلت تشرف عليهما بشخصها عشرة أعوام . ووزعت الكنائس « وأديرة الرهبان والراهبات » الطعام والدواء . وفى هذا العهد تشكلت حملة لإلغاء الرق .

كذلك كانت آداب السلوك كالأخلاق انعكاساً لعصر روسو ، فهى لم تبلغ قط فى عهد ملوك البوربون هذا المبلغ من الديمقراطية . صحيح أن الفوارق الطبقية ظلت قائمة ، ولكن خفف منها لطف أعظم ومجاملة أوسع . وكان الموهوبون من الرجال ، الذين لا يحملون ألقاب شرف ، يلقون الترحيب فى أعرق البيوت محتداً . ومرة قفزت الملكة من مركبتها لتعين حوذياً جريحاً « ورفع الملك وأخوه الكونت دارتوا بكتفيهما العجلة ليساعدا عاملا على تخليص عربته من الوحل . وأصبح اللباس أبسط : فاختفت البواريك » وتخلى السادة ، إلا فى البلاط ، من مطرزاتهم ، ومخرماتهم « وسيوفهم » بحيث كان من العسير فى عام ١٧٨٩ أن ينبىء المرء عن طبقة رجل من زيه . وحين استهوى فرانكلن فرنسا استسلم له حتى الخياطون ؛ وظهر الناس فى الشوارع « يلبسون على الطريقة الفرانكلينية قماشاً خشناً ، وحذاء سميكاً »[٣٧] .

أما سيدات الطبقة البورجوازية فتزين فى لباسهن تزين سيدات البلاط ، وبعد ١٧٨٠ نبذت النساء الطوق الحديدى الثقيل ، ولكنهن حصن قوامهن بتنانير قاسية يلبسنها متراكبة كالأحجية الصينية المعقدة . وقصرت الصدارات من أمام ، ولكن الصدر كان عادة يغطى بمنديل مثلث يسمونه (رباط) ،

وفى الإمكان تكثيف هذه المناديل لستر النهود النحيلة، ومن ثم سماها الفرنسيون المناديل « الغشاشة » أو « الكاذبة »[٣٨] . وظلت تسريحات الشعر عالية ، ولكن حين فقدت مارى أنطوانيت معظم شعرها أثناء حمل لها أحلت العقاص محل تسريحة « البرج » . وانتشرت هذه الموضة الجديدة من البلاط إلى باريس . وكان هناك مائتا طراز لقبعات النساء ؛ وكان بعضها هياكل ضعيفة من السلك ، والريش ، والأشرطة ، والأزهار ، والخضر الاصطناعية؛ ولكن النساء اتبعن فى أوقاتهن الأكثر دعة واسترخاء الطراز الذى ابتدعته الملكة فى البتى تريانون ، والذى يغطى الرأس بوشاح بسيط . وفى أعظم الثورات قاطبة لبس بعض النساء الأحذية الواطئة أو الإخفاف المريحة[٣٩] .

ورافق هذا التغيير إلى لباس أروح وأيسر أسلوب فى العيش أصح . وأقبلت قلة متزايدة على « العيشة الطبيعية » : فلا مشدات ، ولا خدم ، ومزيد من الحياة فى الهواء الطلق ، وهروب من المدن إلى الريف كلما أمكن . كتب آرثر ينج يقول « كل من يملك بيتاً فى الريف يهرع إليه ، ومن لا يملك يزور من يملك . والثورة التى قلبت آداب السلوك الفرنسية هى ولا ريب من أفضل الملامح التى أخذوها عن انجلتره . وقد زاد ادخالها يسراً سحر مؤلفات روسو »[٤٠] . غير أن الكثير من هذا « الرجوع إلى الطبيعة » كان كلاماً أو عاطفة أكثر منه عملا أو واقعاً ، وظلت الحياة فى باريس تجرى فى سباق مجنون مع الحفلات الموسيقية ، والأوبرات ، والتمثيليات ، ومسابقات الخيل ، ورياضات الماء ، وألعاب الورق ، والرقص ، والحفلات الراقصة ، والدردشة ، والصالونات .

الصالونات (Salonniéres)

جملت النساء الفرنسيات اضمحلال الإقطاعية لا بمفاتن أشخاصهن وأزيائهن فحسب ، بل بقدرتهن التى لا تبارى على جعل المجتمع الفرنسى جزءاً حيوياً من الحياة الفكرية للأمة ، لا مجرد اجتماعات للثرثرة والقيل والقال . كتب جبون بعد أن وصل فى ١٧٧٧ ما انقطع بينه وبين صالونات باريس يقول :

« لو أتيح ليوليانوس الآن أن يلم من جديد بعاصمة فرنسا (حيث ولد عام ٣٣١م) . لاستطاع أن يتبادل الحديث مع علماء وعباقرة قادرين على فهم تلميذ من تلاميذ اليونان وعلى تعليمه «ولعله مختفر تلك الحماقات اللطيفة التى تند عن أمة لم يوهن روحها الحربية قط حبها للترف ، وهو لابد مصفق لكمال ذلك الفن الرفيع الذى يرقق ويهذب ويجمل علاقات الحيـــاة الاجتماعية »[٤١] .

ثم أضاف فى إحدى رسائله « لقد بدا لى دائماً أن النساء فى لوزان ، كما فى باريس ، أرقى كثيراً من الرجال »[٤٢] .

وكانت قدامى الصالونيات يخلين المسرح على كره . فمدام جوفران ماتت عام ١٧٧٧ كما سبق القول . أما مدام دودفان فقد أوشكت أن تتم عبور القرن من أوله لآخره ، فقد دخلت التاريخ بوصفها إحدى خليلات الوصى على العرش[٤٣] . وافتتحت صالوناً اتصل نشاطه من ١٧٣٩ إلى ١٧٨٠ ، وكانت قد خسرت معظم سباع الأدب « إذ ظفرت بهم جولى دلسبيناس والصالونات الجديدة » وقد وجد هوراس ولبول — الذى قدم إليها لأول مرة فى ١٧٦٥ — تشكيلتها من الشيوخ الأرستقراطيين مملة لا تثير اهتمامه . « إننى أتناول عشائى هناك مرتين كل أسبوع ، وأحتمل عشراءها المملين كلهم لأجل خاطر الوصى على العرش»[٤٤] ، وهو يعنى ذكرياتها المرحة لفترة الوصاية الرائعة تلك التى قررت طابع المجتمع الفرنسى والأخلاق الفرنسية طوال الستين عاماً التالية . أما هى ذاتها (فى عبارة هوراس) « فلذيذة (فى الثامنة والستين) » تواقة لمعرفة ما يجرى كل يوم توق لما جرى فى القرن الماضى » .

وقد أعجب بفكرها إعجاباً مفرطاً — لأنه لم يلتق قط بمثل هذا الذكاء اللامع فى نساء انجلترة اللائى مازلن مقهورات مكبوتات — حتى لقد ألف أن يلم بها كل يوم ، وقدم لها من التحية والأطراء ما بدا معيداً شبابها الذهبى ، وأفردت هى له مقعداً خاصاً يحجز له دائماً ، ووفرت له التدليل بكل لون من ألوان اهتمام المرأة ورعايتها . وإذ كان فى طبيعتها بعض الذكورة ، فإن

رقته الأنثوية تقريباً لم تسؤها . واستطاعت وهى عاجزة عن رؤيته أن تشكل صورتها عنه كما يشتهيها قلبها ثم أحبت تلك الصورة . أما هو فلم يستطع قط وهو المبصر أن ينسى شيخوختها وعجزها البدنى . وحين عاد إلى انجلتره راحت تدبج له رسائل فيها من حرارة الحب ما يقرب مما فى رسائل جولى دلسبيناس إلى جيبير ، مكتوبة بأروع ماأبداه ذلك العصر من نثر . وقد حاولت ردوده على رسائلها أن تكبح فرحتها ، وكان يقشعر فرقاً إذا خطر له ما قد يفعله كتاب انجلتره الهجاءون (مثل سلوين) بمثل هذه الأكلة المثيرة لشهية الهجاء . واحتملت لومه ، وأكدت حبها من جديد، ووافقت على أن تسميه صداقة ، ولكنها أكدت له أن الصداقة فى فرنسا كثيراً ما تكون أعمق وأقوى من الحب . « انى ملكتك أكثر منى ملك نفسى . . . وددت لواستطعت أن أبعث إليك بروحى بدلا من رسالة . وانى لأبذل السنين من عمرى عن طيب خاطر لأضمن وجودى على قيد الحياة حين تعود إلى باريس » وقد شبهته بمونتانى « وهذا أسمى مديح فى وسعى أن أخصك به » لأنى لا أجد فكراً يعدل فكرة انصافاً ونصوعاً »[٤٥] .

ثم عاد إلى باريس فى أغسطس ١٧٦٧ . وانتظرته فى انفعال العذارى « أخيراً » أخيراً » لم يعد يفرقنا بحر . لا أستطيع أن أحمل نفسى على أن أصدق أن رجلا له شأنك فى الحياة ، ويداه على عجلة حكومة عظمى » وإذن على عجلة أوربا ، فى وسعه . . أن يترك كل شىء ليحضر ويرى عرافة عجوزاً فى ركن دير . انه حقاً لأمر بالغ السخف ، ولكننى مسحورة ... فتعال يا معلمى ! ليس هذا حلماً — فأنا أعلم أننى صاحية — سأراك اليوم ! » وأرسلت مركبتها ليستقلها ، فوافاها على الفور . وظل ستة أسابيع يطربها بحضوره ويحزنها بتحذيراته . فلما عاد إلى انجلتره لم تستطع أن تفكر إلا فى رجوعه إلى باريس ، « ستجعل غروبى أجمل وأسعد كثيراً من ظهيرتى أو فجرى . أن تلميذتك ، المطيعة طاعة طفل » لا أمنية لها إلا أن تراك »[٤٦] .

وفى ٣٠ مارس ١٧٧٣ طلب إليها أن تكف عن الكتابة[٤٧] . ثم لانت قناته واستؤنفت الرسائل بينهما . وفى فبراير ١٧٧٥ طلب إليها أن ترد إليه جميع رسائله ، فامتثلت ، مع إلماعة رقيقة إلى رغبتها فى أن يرد إليها رسائلها

« سيكون لديك ما يكفي لإثارة أحاسيسك الحارة مدى طويلا ان أضفت إلى رسائلك كل الرسائل التي تلقيتها مني وسيكون هذا انصافاً ولا ريب ، ولكني أترك هذا الأمر لحكمتك »[٤٨] . ولم يبق من رسائله الثمانمائة إليها غير تسع عشرة ، أما رسائلها فقد احتفظ بها كلها ، ونشرت بعد موت ولبول . وحين سمع أن معاشها توقف عرض أن يعوضه من إيراده الخاص ، ولكنها لم تر ضرورة لهذا .

وقد زاد انهيار غرامها من قتامة ذلك التشاؤم الطبيعي لامرأة فقدت ألوان الحياة ولكنها عرفت أمواهها الضحلة والعميقة . فقد استطاعت حتى في عماها « أن تنفذ ببصيرتها خلال الظاهر الأنيق لتصل إلى أنانية البشر التي لا يدركها التعب . وقد سألت ولبول « يامعلمي المسكين ، ألم تلق غير الوحوش » والتماسيح » والضباع ؟ أما أنا فلا أرى غير الحمقى ، والبله ، والكذابين » والقوم الحاسدين ، الغادرين أحياناً .. ان كل من أراه هنا يذبل روحي . فلست أجد في أحد فضيلة » ولا إخلاصاً » ولا بساطة »[٤٩] . ولم يبق لها غير أثارة من إيمان ديني يعزيها . ومع ذلك فقد واصلت حفلات عشائها ، مرتين في الأسبوع عادة » وكثيراً ما كانت تتغذى خارج مسكنها ، ولو هروباً من سأم أيام مظلمة كالليالي .

وأخيراً كفت عن التشبث بالحياة بعد أن تعلمت أن تكرهها » وراضت نفسها على تقبل الموت . وكانت الأمراض التي تبتلي بها الشيخوخة قد تفاقمت واصطلحت عليها ، فشعرت وهي في الثالثة والثمانين بأنها أضعف من أن تقاومها . واستدعت كاهناً وأسلمت نفسها للأمل دون كبير إيمان . وفي أغسطس ١٧٨٠ بعثت بآخر رسالة إلى ولبول تقول :

« إنني اليوم أسوأ حالا . . . ولست أخال لهذه الحال معنى إلا النهاية . وليس في من القوة ما يكفي للإحساس بالخوف ، وبما أنه قدر على ألا أراك مرة أخرى فليس لدي ما أسف عليه . . . فسل نفسك يا صديقي ما استطعت . ولا تبتئس لحالتي . . . وسوف تأسف علي ، لأن المرء يطيب له أن يعرف أنه محبوب »(٥٠) .

وماتت فى ٢٣ سبتمبر تاركة لوليول أوراقها وكلبها .

وواصلت الكثيرات غيرها من الصالونيات هذا التقليد الجليل : السيدات دودتو ، ودبينيه ، ودنى ، ودجنليس ، والكسمبور ، وكوندورسيه وبوفليه ، وشوازيل ، وجرامون ، وبوهارنيه (زوجة عم جوزفين) . يضاف إليهن جمعاً آخر صالونات ما قبل الثورة ، وهو صالون مدام نكير العظيم . وقد بدأت حوالى ١٧٧٠ حفلات استقبالها فى الجمعة من كل أسبوع ، ثم أضافت الثلاثاء بعد ذلك وفيه كانت الموسيقى هى الغالبة على الندوة ، وهناك قسمت المدعوين للعشاء حرب جلوك — بلتشينى حزبين ، ثم وحدت بينهم الآنسة كليرون بتلاوتها فقرات من أحب أدوارها التمثيلية إليها . وفى الجمع كان رواد الصالون يلتقون بديدرو ، ومارمونتيل ، وموريليه ، ودا لامبير (بعد موت جولى) ، وسان — لامبير ، وجريم (بعد موت مدام دبينيه) ، وجبون ، وزينال ، وبوفون ، وجيبير ، وجاليانى ، وببجال ، وأنطوان توما صديق سوزان الأديب الأثير لديها . وفى أحد هذه الاجتماعات (أبريل ١٧٧٠) طرقت فكرة إقامة تمثال لفولتير . هناك كان ديدرو يكتمت هرطقاته ، وهناك كاد يصبح رجلا مهذباً مصقولا . كتب إلى مدام نكير يقول « مما يؤسفنى أن الحظ لم يواتنى بمعرفتك فى وقت أسبق ، وإلا لكنت بلا ريب بعثت فى إحساساً بالنقاء والرقة يسرى من نفسى إلى كتبى »[٥١] . ولم يبد غيره رأيهم فيها بمثل هذا الثناء . فمارمونتيل مثلا ، وهو الذى ظل صديقاً لها خمسة وعشرين عاماً ، وصف سوزان فى مذكراته بهذه العبارات : « لم تؤت شيئاً من مفاتن الشابات الفرنسيات لجهلها بآداب باريس وعاداتها .. فلا ذوق فى لباسها ، ولا يسر فى حركاتها ، ولا سحر فى أدبها ، وكان ذهنها ، كما كان تعبير وجهها ، ثابتين ثباتاً مفرطاً بحيث أفتقدنا الخفة والرشاقة . وكان أكثر صفاتها جاذبية هى المجاملة ، والإخلاص ، ورقة الفؤاد »[٥٢] . ولم تحبها نساء الطبقة الأرستقراطية . مثال ذلك أن البارونه دوبركرش التى زارت آل نكير مع الغراندوق بول فى ١٧٨٢ لم تر فيها « ببساطة أكثر من مربية »[٥٣] ، أما المركيزه دكريكى فقد مزقتها إرباً فى صفحات مشحونة بالغل الظريف[٥٤] ، ولا بد أن مدام نكير أوتيت الكثير من الخصال

الطيبة حتى ظفرت بحب جبون الدائم ، ولكنها لم تتغلب تماماً على تراثها الكالفنى إطلاقاً ، فظلت متزمتة صارمة التدين رغم ثرائها ، ولم تكتسب قط ذلك المرح الراقى الذى توقعه الرجال الفرنسيون من النساء .

وفى ١٧٦٦ أنجبت الفتاة التى أصبحت فيما بعد مدام دستال . وقد غدت هذه الفتاة جرمين نكير — التى شبت وترعرعت بين الفلاسفة والحكام — عالمة وهى فى العاشرة . وجعلها نبوغها المبكر مفخرة لأبويها إلى أن أرهق مزاجها العنيد العصبى أعصاب أمها . وقد أخضعت سوزان ابنتها لنظام صارم لأن الأم كانت تزداد غلواً فى المحافظة كل يوم ، فتمردت الفتاة ، وأصبح الشقاق فى هذا البيت الأنيق منافساً للفوضى الضاربة فى مالية الدولة . وأضافت إلى تعاسة الأم تلك المصاعب التى لقيها نكير فى محاولاته تفادى إفلاس الحكومة رغم الحرب الأمريكية ، وكرهها لكل نقد توجهه إليه الصحافة ، حتى بدأت سوزان تحن إلى الحياة الهادئة التى كانت تحياها فى سويسرة .

وفى ١٧٨٦ تزوجت جرمين ، واضطلعت ببعض واجبات المضيفة فى صالون أمها . غير أن الصالون الفرنسى كان آخذاً فى الاضمحلال . فالنقاش الأدبى كان يخلى مكانه للسياسة المتحمسة المتحزبة . كتبت سوزان إلى صديقة فى ١٧٨٦ تقول « ليس عندى أنباء أدبية أسوقها إليك ، فحديث الأدب لم يعد الآن موضة العصر ، والأزمة بالغة الشدة ، والناس لا يهتمون بلعب الشطرنج وهم على شفا جرف هار »[٥٥] . وفى ١٧٩٠ انتقلت الأسرة إلى كوبيه ، وهو قصر ريفى اشتراه نكير على سواحل بحيرة جنيف الشمالية . وهناك ملكت مدام دستال ، وعانت مدام نكير سنوات من مرض عصبى أليم قضى على حياتها فى ١٧٩٤ .

٤ — الموسيقى

كتب موتسارت من باريس فى أول مايو ١٧٧٨ : « من حيث الموسيقى أرانى محاطاً بوحوش ضارية لا أكثر . . . سل أى شخص شئت — شريطة ألا يكون فرنسى المولد — فإذا كان له أى علم بالموضوع أجاب بهذا الجواب بالضبط . . سأكون شاكراً الإله القدير إذا هربت دون أن يفسد ذوقى »[٥٦] .

وهذا حكم صارم ولكن جريم وجولدونى وافقا عليه[٥٧] ، إلا أن هؤلاء النقاد الثلاثة كانوا كلهم أجانب . وقد عكس الذوق الموسيقى الباريسيين من علية القوم آدابهم ، فمال إلى القصد فى التعبير والرتابة فى الشكل ، وظل يردد أصداء عصر لويس الرابع عشر . ومع ذلك فنى هذه السنوات الأولى للحكم الجديد بالضبط فقد نصف باريس قصدهم ، وربما آدابهم ، فى وطيس المعركة الدائرة حول بكينى وجلوك . تأمل رسالة جولى لبسبيناس المؤرخة ٢٢ سبتمبر ١٧٧٤ : « اننى أشاهد باستمرار « أورفى وأوريد يتشى » وأنا تواقة إلى لاستماع مراراً وتكرار فى اليوم للمثلث اللحن الذى يمزق نياط قلبى « لقد فقدت حبيبتى أوريد يتشى »[٥٨] . ان باريس لم تكن صماء لاتستطيب الموسيقى ، وان زاد ما استوردته منها على ما أنتجته .

وفى ١٧٥١ قدم فرنسوا — جوزف جوسيك ، البالغ سبعة عشر ربيعاً ، من موطنه هاينو إلى باريس يحمل خطاب تقديم إلى راموا . وحصل له الفنان العجوز على وظيفة قائد للأوركستر الخاص الذى يديره الكسندر — جوزف دلابويلنيير . وألف جوسيك لهذه « الفرقة » (١٧٥٤ وما بعدها) سمفونيات سبقت سمفونية هيدن الأولى بخمس سنوات ، وفى ١٧٥٤ نشر رباعيات سبقت رباعية هيدن بسنة . وفى ١٧٦٠ قدم فى كنيسة سان روش « قداس الموتى » الذى استحدث فكرة العزف على آلات نفخ « التوبا » خارج الكنيسة . ولم يكن لإقدام جوسيك وتعدد مواهبه نهاية . ففى ١٧٨٤ أسس « مدرسة الغناء الملكية » ، التى أصبحت نواة كونسرفتوار باريس الموسيقى الذائع الصيت . وقد حقق نجاحاً متواضعاً فى الأوبرا ، الهازلة منها والجادة . ثم تكيف مع الثورة ، وألف بعضاً من أشهر أغانيها ، ومنها « ترنيمة للكائن الأعلى » لاحتفال روبسبيير (٨ يونيو ١٧٩٤) . وعمر بعد انحسار جميع موجات السياسة ، ومات فى ١٨٢٩ بالغاً من العمر خمسة وثمانين عاماً .

أما أبرز شخصية فى أوبرا ذلك العهد الفرنسية فهو أندريه جريترى . وكان أجنبياً ككثيرين غيره من أقطاب الموسيقى الفرنسية فى القرن الثامن

عشر ، فقد ولد فى لييج عام ١٧٤١ لعازف كمان . ويروى أنه فى أول مرة تناول فيها القربان طلب إلى الله أن يدعه يموت لتوه ما لم يكتب له أن يكون رجلا صالحاً وموسيقياً عظيماً . فى ذلك اليوم سقطت عارضة خشبية على رأسه وجرحته جرحاً خطيراً ، ثم تماثل للشفاء ، واستنتج أن السماء تعده بمستقبل سام[٥٩] . وكان منذ عامه السادس عشر يعانى دورياً من نزيف داخلى « يتقيأ فيه ستة أقداح من الدم فى اليوم » وكان عرضة للإصابة بالحمى وبالهذيان ينتابه بين الحين والحين ، وكاد أحياناً يجن لعجزه عن وقف نغمة موسيقية من التردد فى رأسه دون توقف . ولعلنا نغتفر حتى الموسيقى الرديئة لرجل لقى كل هذا العذاب واحتفظ رغم ذلك بابتهاجه طوال اثنتين وسبعين سنة .

وحين كان فى السابعة عشرة ألف ست سمفونيات كانت من الجودة بحيث حصلت له من كاهن إحدى الكتدرائيات على المال اللازم لسفره إلى روما . وقطع الطريق كله على قدميه فيما رونه « المذكرات » الجذابة التى نشرها عام ١٧٩٧[٦٠] ، وخلال الأعوام الثمانية التى أقام فيها بروما حمله نجاح برجوليزى على تأليف الأوبرات الهازلة . فلما جاء باريس (١٧٦٧) لقى التشجيع من ديدرو ، وجريم ، وروسو . ودرس فن الآنسة كليرون المسرحى ، واكتسب مهارة غير عادية فى مواءمة موسيقاه لنبرات الحديث الدرامى وتغيراته ، وحقق فى أوبراته رقة ونعومة غنائيتين كأنهما انعكاس لروح روسو « وللعودة إلى البساطة ورقة العاطفة فى الحياة الفرنسية . وظل محتفظاً بشعبيته طوال الثورة ، التى أمرت بنشر مؤلفاته على نفقة الحكومة « وكانت الجموع الثورية تتغنى بألحان من أوبراته . وقد منحه نابليون معاشاً . وقد أحبه الجميع لأن حظه من وصمات العبقرية كان ضئيلا ؛ فهو رقيق القلب ، ودود ، أنيس ، متواضع « يذكر منافسيه بالخير ، ويؤدى ديونه « وقد أحب روسو مع أن روسو أساء إليه ، واشترى الإرمبتاج فى شيخوخته ، وهو الكوخ الذى أقام فيه روسو من قبل . فى ذلك الكوخ ، فى ٢٤ سبتمبر ١٨١٣ « بينما كان نابليون يحارب أوربا كلها « مات جريترى .

٥ — الفن في عصر لويس السادس عشر

واصل « طراز لويس السادس عشر » ، الذي بدأ تقريباً مع مولد لويس السادس عشر (١٧٥٤) ، انتقاضه على شذوذات الباروك المعقدة ورقائق الروكوك الأنثوية ، وتحرك صوب الخطوط الرجولية والنسب السمترية لفن كلاسيكي محدث ألهمته حفائر هركولانيوم وحماسة فنكلمان للفن اليوناني — الروماني . وأشهر مثال على الطراز الجديد في العمارة هو البتي تريانو ، ومن الطريف المسلي أن تتفق مدام دوباري وماري أنطوانيت ، على ما بينهما من عزوف عن المخالطة ، في الاستمتاع بهذا التقدير المتواضع للنظام والبساطة الكلاسيكيتين . ومثال جميل آخر هو « قصر اللجيون دونور » الحالي ، والذي بناه باسم « الأوتيل سالم » (١٧٨٢) بيير روسو على ضفة السين اليسرى . وهناك نتاج أضخم لهذا الطراز هو « قصر العدالة » الذي أعيد بناؤه في ١٧٧٦ ، بمصبعاته الفاخرة من الحديد المشغول في واجهة « الكور دمية » . أما « مسرح الأوديون القومي » (١٧٧٩) فقد اتخذ نمطاً دورياً قاتماً ؛ وألطف منه المسرح الذي شاده في أميان (١٧٧٨) جاك روسو بطراز جمع بين الطراز الكلاسيكي وطراز النهضة ، وقد بنى فكتور لوي في بوردو (١٧٧٥) على النمط الكلاسيكي مسرحاً ضخماً وصفه آرثر ينج بأنه « إلى حد كبير أفخم مسرح في فرنسا » ولم أر مسرحاً يدانيه »[٦١] .

أما الزخرف الداخلي فقد احتفظ بالأناقة الفرنسية . وكان زي النسيج المزدان بالرسوم في طريقه إلى الزوال إلا لتغطية الكراسي ذات الذراعين والأرائك ؛ وكان ورق الجدران المرسوم يصل من الصين ، ولكنه استعمل أساساً في المخادع ، وقسمت جدران الصالونات عادة إلى حشوات من الخشب المشغول ، المنقوش أو المزين بأشكال أو زخارف نباتية عربية تضارع خير نظائرها في إيطاليا . وأبدع الأثاث المصنوع في فرنسا في عهد لويس السادس عشر صممه ونفذه ألمانيان هما جان — هنري ريزنر ودافيد رونتجن ؛ وتحوي مجموعة ولس نماذج رائعة صنعت لماري أنطوانيت والبتي تريانون .

وازدهر فن النحت ، وامتد العمر ببيجال ، وفالكونيه ، وجان —

جاك كافييرى من أيام لويس الخامس . أما أرجستن باجو ، الذى كان قد بدأ العمل فى ذلك العهد ، فقد نال الآن ما يستحقه من تقدير . وقام بتكليف من لويس السادس عشر بنقش الزخارف للباليه — رويال . والباليه — بوربون . وفى تمثاله « هجران بسيخى »[٦٢] حاول التوفيق بين عنصرين فى العهد الجديد — العاطفة الرقيقة والشكل الكلاسيكى . ثم نقل فنه — وزوج ابنته — لكلوديون ، واسمه الحقيقى كلود ميشيل . وقد شق كلوديون طريقاً إلى الثراء بمجموعات من التيرا — كوتا (الطين النضيج) فيها شائبة من الشهوانية ، وبلغ أوجه بتمثال لمونتسكيو[٦٣] . وكل نشوة الجسد تغنى فى تمثاله « الحورية والساطير » المحفوظ بمتحف المتروبولتان للفنون فى نيويورك .

على أن أعظم نحاتى العصر هو جان — أنداوان أودون . وكان أبوه بواباً ، ولكن فى مدرسة للفن . وإذا كانت فرساى مسقط رأس جان ، فقد تنفس النحت من التماثيل التى بثها لويس الرابع عشر فى حدائق لنوتر . وبعد أن درس على بيجال فاز بجائزة روما وهو فى العشرين ، فانطلق إلى إيطاليا (١٧٦٠) . وقد اغتبط البا كامنت الرابع عشر بتمثال « القديس برونو » الذى نحته فى روما اغتباطاً شديداً فعلق عليه بقوله « إن القديس يود أن ينطق لولا أن قواعد رهبنته تفرض الصمت »[٦٤] . وفى باريس نحت أو صب سلسلة متعاقبة من تماثيل ديانا . وتمثال برونزى منها فى مجموعة هنتنجتن يعد آية فى القسمات الكلاسيكية والرشاقة الفرنسية . وأشهر منه تمثال « ديانا العارية » البرونزى المحفوظ الآن باللوفر ، وقد ضن عليه بمكان فى « صالون » ١٧٨٥ ، ربما (كما قال ناقد) « لأنها كانت أكثر جمالا وعرياً من أن تعرض على الجماهير »[٦٥] ، وأرجح من هذا السبب أن التمثال انتهك الفكرة التقليدية عن ديانا التى تصفها بالعفة .

وقد وجد أودون ككثيرين غيره من فنانى القرن الثامن عشر فى تصوير معاصريه ربحاً يفوق تصوير الربات اللائى لا تنتهك حرماتهن . على أنه قرر أن يكون منصفاً للحقائق وأن يظهر الشخصية لا الوجه . وكان ينفق ساعات كثيرة فى حجرات التشريح بمدارس الطب لدراسة التشريح ، وكان يقيس

رأس من يصوره بعناية كلما استطاع ، ثم ينحت تمثاله أو يصبه وفق هذه المقاييس . وحين أثير سؤال عن جثة نبشت فى باريس وهل هى حقيقة جثة جون بول جونز كما قيل . قورن شكل الجمجمة ومقاييسها بشكل الصورة التى صبها أودون فى ١٧٨١ ومقاييسها ، وبلغ من توافق الشكلين أن عد التطابق مؤكداً [٦٦] . وقد نحت فى رخام التمثال الذى صنعه لميرابو كل غارات الجدرى ، وأبرز كل الظلال والتجاعيد ، بل توقد العينين وعمقهما ، والشفتين تنفرجان استعداداً للكلام .

وسرعان ما أسعد جبابرة الثورة أن يجلسوا إليه ليصنع تماثيلهم ، فنقلهم إلينا بأمانة أحالت الرخام والبرونز إلى لحم التاريخ وروحه . وهكذا نستطيع الآن أن نرى فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ودالامبير ، وبوفون ، وطورجو ، ولويس السادس عشر ، وكاترين الثانية ، وكاليوسترو ، ولافاييت ، ونابليون ، وناى . وحين قدم فولتير إلى باريس عام ١٧٧٨ صنع له أودون عدة تماثيل تصوره : منها تمثال نصفى برونزى محفوظ الآن فى اللوفر ، يبدو فيه الإرهاق والكلال ، وتمثال نصفى شبيه به فى متحف فكتوريا وألبرت ، وآخر فى مجموعة ولس ، ثم رأس مبتسم مهذب مثالى الشكل طلبه فردريك الأكبر ، وأشهر الكل ذلك التمثال الذى قدمته مدام دنى إلى الكوميدى — فرانسيز : تمثال فولتير جالساً فى روب فضفاض ، أصابع نحيلة تمسك بذراعى المقعد ، وشفاه رقيقة ، وفم أهتم ، وفى العينين الحزينتين مازالت أثارة من مرح — أنه واحد من التماثيل العظيمة فى تاريخ الفن . فى ذلك العام ، حين سمع أودون بوفاة روسو ، هرع إلى أرمنون — فيل وصب قناعاً لغريم فولتير الميت ، ومنه صنع التمثال النصفى المحفوظ الآن باللوفر ، وهو أيضاً آية من آيات الفن .

وكان هناك أبطال أمريكيون أيضاً ، وقد صنع أودون رءوساً تمثلهم نابضة بالحياة حتى أن قطع العملة المسكوكة فى الولايات المتحدة مازالت تحمل صورة لواشنطن ، وفرانكلن ، وجفرسن . وحين عاد فرانكلن إلى أمريكا عام ١٧٨٥ ذهب أودون معه ، وأسرع إلى مونت فرنون وأقنع

واشنطن ، الرجل المشغول النافد الصبر ، بأن يجلس إليه فى فترات متقطعة على مدى أسبوعين ، وهكذا صنع التمثال الذى يزدان به مبنى برلمان الدولة فى رتشموند بفرجينيا - رجل من الجرانيت ، تجلله انتصارات غالية وأعباء باقية . هنا أيضاً نجد ذلك الاتحاد بين الجسد والروح الذى هو علامة أن فن أودون وخاتمه .

مثل هذا النحت كان من الجائز أن يجعل التصوير بالقياس إليه ترفاً صغيراً لولا أن جروز وفراجونار واصلا العمل طوال هذا العهد وخلال الثورة ، لولا أن المصور جاك - لوى دافيد صعد إلى مقام الدكتاتورية على جميع الفنون فى فرنسا فى انطلاقة تذكيه كانطلاقة نابليون . وقد تعلم تقنيته من عمه البعيد فرانسو بوشيه ، وأصبح رساماً من الطراز الأول ، وأستاذاً أتقن الخط والتأليف أكثر من إتقانه اللون . وقد أدرك بوشيه أن تغير الأخلاق من بومبادور ودوبارى إلى مارى أنطوانيت كان يقلص الطلب على الصور التى تبرز النهود والأرداف ، فنصح دافيد بأن يذهب ويلتقط الأسلوب الكلاسيكى المحدث البسيط فى مرسم جوزف فيان ، الذى كان يرسم الجند الرومان والنساء الأبطال . وفى ١٧٧٥ وافق دافيد فيان إلى روما . وهناك أحس بتأثير فنكلمان ومنجز ، والمنحوتات القديمة فى متحف الفاتيكان ، والأطلال التى كشف عنها فى هركولانيوم وبومبى . وقد قبل مبادىء الكلاسيكية المحدثة ، واتخذ النحت اليونانى نموذجاً يحتذيه فى تصويره .

فلما قفل إلى باريس عرض إسلسلة من الموضوعات الكلاسيكية المرسومة بصرامة : أندروماك تبكى على جثمان هكتور (١٧٨٣) ، وقسم الهوراتيين (١٧٨٥) ، وموت سقراط (١٧٨٧) ، وبروتس عائداً من الحكم بالموت على أبنائه (١٧٨٩)[٦٧] . (وتقول الأسطورة التى رواها ليفى أن لوشياس جونيوس بروتس ، حين كان بريتورا لجمهورية روما الفتية (٥٠٩ ق . م) ، حكم على أبنائه بالإعدام لتآمرهم على إعادة الملوك إلى عرش روما) ، وكان دافيد قد رسم هذه الصورة الأخيرة فى روما ، فلما عرضها على الأكاديمية فى باريس حظر عرضها ، ولكن جمهور الفن احتج ،

وأخيراً عرضت اللوحة ، فزادت من حمى العصر الثورية . ورأت باريس في هذه الرسوم ، وفي الأخلاقيات الصارمة التي عبرت عنها ، ثورة مزدوجة على الروكوكو الأرستقراطي والطغيان الملكي . وأصبح دافيد البطل الراديكالي لأستوديوهات باريس .

وقد أنتخب أثناء الثورة عضواً في المؤتمر، وفي يناير ١٧٩٣ صوت بالموافقة على إعدام الملك . ثم قتل أحد المتشيعين للملكية عضواً آخر من نواب المؤتمر صوت بالموافقة مثل دافيد (٢٠ يناير ١٧٩٣) ، فعرض جثمانه على الجماهير شهيداً جمهورياً ، ورسم دافيد «آخر لحظات لبوليتييه» ، وعلق المؤتمر اللوحة في قاعته . وحين قتلت شارلوت كورداي مارا (١٣ يوليو ١٧٩٣) صور دافيد الميت راقداً في حمامه نصف مغمور في الماء ، وندر أن كان التصوير ممعناً في تصويره للواقع إلى هذا الحد ، أو في تعمده إثارة المشاعر . وقد أرست اللوحتان سجل شهداء الثورة ، وعمل دافيد بحماسة لدانتون وروبسبير ، ومكافأة له عين مديراً لجميع ضروب الفن في باريس .

فلما أن تقلد نابليون زمام السلطة بلقب «القنصل» الروماني ، رسم دافيد له بذات الحماسة التي رسم بها لزعماء الإرهاب . فرأى في بونابرت ابن الثورة ، الذي يقاتل ليمنع ملوك أوربا من رد ملك نظيرهم إلى عرش فرنسا . وحين نصب نابليون نفسه امبراطوراً (١٨٠٤) لم يفتر إعجاب دافيد به ، وعينه نابليون مصوراً للبلاط الإمبراطوري فرسم له المصور عدة صورة مشهورة : نابليون يعبر الألب ، نابليون يتوج جوزفين ، وتوزيع النسور ، وقد علقت هذه اللوحات الضخمة بعد ذلك على جدران حجرات قصر فرساي . وأظهر دافيد أثناء ذلك تعدد مواهبه بلوحتين رائعتين رسم فيهما مدام ريكاميه والبابا بيوس السادس[٩٨] . فلما رد آل بوربون نفي دافيد باعتباره من قتلة الملك ، فاعتكف في بروكسل ، حيث وافته زوجته لتشاركه منفاه (وكانت قد هجرته في ١٧٩١ لتحمسه للثورة) . وعاد الآن إلى المواضيع الكلاسيكية ، وإلى أسلوب التصوير النحتي الذي حبذه منجز ،

وفى ١٨٢٥ أختتم وهو فى السابعة والسبعين حياة من أروع ما عرف تاريخ الفن .

ومن لوحاته لوحة تصور مدام فيجيه – لبرون « التى رفضت الثورة وآثرت الملوك والملكات . وقد نشرت وهى تدنو من عامها السابع والثمانين (١٧٥٥ — ١٨٤٢) مذكرات تروى وصفاً لطيفاً لشبابها ، وتذكر قصة عزلة لزاوجها ، ويوميات برحلتها الفنية الطويلة « وصورة لامرأة فاضلة يصدمها عنف التاريخ . وقد مات أبوها وهى فى الثالثة عشرة « وكان مصور أشخاص « ولم يترك لها مالا ، ولكن اليزابث كانت تلميذة شديدة الذكاء ، فاستطاعت وهى بعد فى السادسة عشرة أن تكسب دخلا طيباً من صورها ، وفى ١٧٧٦ تزوجت مصوراً آخر اسمه بيير البرون ، وكان ابن أخ بعيد لشارل لبرون الذى كان مدير الفنون للويس الرابع عشر . وبدد زوجها ثروتها وثروته (كما تقول) « بشغفه الجامح بالنساء السيئات الخلق ، وبولعه بالقمار »[٦٩] . وقد ولدت له ابنة « ثم هجرته بعد ذلك بقليل .

وفى ١٧٧٩ رسمت صورة لمارى أنطوانيت « التى بلغ إعجابها بها أن جلست لها لترسمها فى عشرين لوحه . وتوثقت الصداقة بين المرأتين فكانتا تشتركان فى غناء الألحان الرقيقة التى كان جريترى يستدر بها العبرات من عيون باريس . وقد فتح كل الأبواب أمام المصورة الجذابة هذا العطف الملكى وما تميز بها عملها من أناقة مهذبة . وقد خلعت الحسن على كل امرأة « ووضعت الورود فى الخدود الذابلة ، ومالبثت كل سيدة ثرية أن اشتاقت للجلوس إليها لتصورها . وكانت تتقاضى أتعاباً يسر لها ارتفاعها الاحتفاظ بشقة غالية وصالون يختلف إليه خيرة موسيقيي باريس .

وقد ذهبت ثلاث مرات لتصور مدام دوبارى فى لوفسين رغم صداقتها للملكة . وفى المرة الثالثة (١٤ يوليو ١٧٨٩) سمعت قصف المدافع فى باريس . فعادت إلى المدينة لتجد أن الباستيل سقط ، وأن جماهير الغوغاء الظافرة تحمل الرءوس النبيلة على أسنة الرماح الملطخة بالدماء . وفى « أكتوبر بينما كان حشد آخر من الغوغاء يسير صوب فرساى ليأسر الملك والملكة ، جمعت

ما استطاعت جمعه من متاعها وبدأت ثلاثة عشر عاماً من النفى الاختيارى، وقد رسمت فى روما لوحتها المعروفة التى تصورها وتصور ابنتها[٧٠]، وفى نابلى رسمت الليدى هاملتن فى صورة باخوسية[٧١]، ورسمت فى فيينا وبرلين، وسانت بطرسبرج، وحين أنهت الثورة شوطها قفلت إلى فرنسا (١٨٠٢)، وهناك عمرت أربعين سنة أخرى بعد أن انتصرت على غير الدهر كلها، وأحسنت صنعاً بموتها قبل أن تندلع الثورة من جديد.

٦ — الأدب

أنجب الأدب الفرنسى فى الحقبة القصيرة الواقعة بين ١٧٧٤، ١٧٨٩ بعض الآثار المذكورة التى مازالت تجد القراء وتحرك العقول: منها «الحكم» لشامفور، وبول وفرجينى لبرناردان دسان — بيير، والعلاقات الغرامية الخطرة لشودرلو دلاكلو (التى تكلمنا عنها بما فيه الكفاية)، ومجلدات رستيف دلابريتون الكاشفة على ما فيها من فوضى.

تلك كانت جزراً انبعثت من بحر أدبى يموج بالمدارس والمكتبات ومجموعات القراء، والمحاضرات، والصحف، والمجلات، والنشرات، والكتب، فيض من المداد فيه الزبد وفيه الخمير لم يعرف العالم له نظيراً من قبل. ولم يكن يلم بالقراءة من الشعب الفرنسى غير قلة قليلة[٧٢]، ومع ذلك كان الملايين منهم متعطشين للمعرفة جياشين بالأفكار. واتسع الطلب على الموسوعات، وخلاصات العلم الوافية، وملخصات المعرفة، وكان جماعة الفلاسفة والمصلحون يعلقون الآمال العراض على نشر التعليم.

وكان أكثر التعليم لايزال فى أيدى رجال الدين رغم إقصاء اليسوعيين وإشراف الدولة على المدارس. أما الجامعات المتصلة فى تقاليدها الدينية والسياسية فكانت قد تبلدت وساءت سمعتها، وكانت فى نهاية القرن بادئة لتوها فى الالتفات إلى العلوم. غير أن المحاضرات العامة فى العلم كانت تجد رواداً حريصين عليها، وكانت المدارس التقنية فى ازدياد. وكان كل تلاميذ الكليات تقريباً من الطبقة الوسطى، أما شباب النبلاء فآثروا إحدى

الأكاديميات الحربية الإثنتى عشرة التى أنشأها سان — جرمان عام ١٧٧٦ أو بعده (وفى واحدة منها — بمدينة بريين — كان نابليون بونابرت يتلقى دروسه) ، ويروون أن طلبة الكليات «كثيراً ما ألفوا التنظيمات لتأييد المظاهرات السياسية»[٧٣] . ولما كان عدد خريجى الكليات فى تلك الفترة يجاوز طاقة الاقتصاد الفرنسى على استخدامهم ، فقد بات الخريجون العاطلون مصدراً للسخط والتذمر ، وألف هؤلاء الرجال نشرات أججت نيران الثورة .

وكان للأغنياء مكتبات خاصة فى مقار تحسد عليها ، تضم كتباً تجلد تجليداً فاخراً وتقرأ أحياناً . أما أفراد الطبقتين الوسطى والدنيا فكانوا ينتفعون بالمكتبات المتنقلة ، أو يشترون كتبهم — وكلها تقريباً ورقية الغلاف — من الأكشاك أو الحوانيت . وفى ١٧٧٤ قدر المبيع من الكتب فى باريس بأربعة أمثال المبيع فى لندن الآهلة بعدد أكثر كثيراً من السكان[٧٤] ، وذكر رستيف دلابريتون أن القراءة قد جعلت عمال باريس «عنيدين»[٧٥] .

أما الصحف فكانت تنمو عدداً وحجماً وتأثيراً . وكانت صحيفة «الجازيت دفرانس» القديمة ، التى أنشئت فى ١٦٣١ ، لا تزال الأداة الرسمية — وغير الموثوق بها — فى نقل الأنباء السياسية . وكانت صحيفة «المركيز دفرانس» التى بدأت فى ١٦٧٢ باسم «المركيز جالان» توزع فى ١٧٩٠ ثلاثة عشر ألف نسخة ، وهو توزيع كان يعد ممتازاً ، وقد وصفها ميرابو بأنها أكفأ الصحف الفرنسية[٧٦] . وفى ١٧٧٧ صدرت «الجورنال دباري» — وهى أول الصحف اليومية الفرنسية ، أما صحيفة «المونيتور» الأوسع شهرة فلم تصدر إلا فى ٢٤ نوفمبر ١٧٨٩ . وكان هناك الكثير من الصحف الإقليمية ، مثل «الكوربيه دبروفانس» التى كان يحررها ميرابو الإبن .

وكانت النشرات أو الكراريس فيضاناً غامراً اكتسح فى النهاية كل شىء أمامه ، ففى الشهور الأخيرة من عام ١٧٨٨ صدر منها نحو ٢,٥٠٠ فى فرنسا[٧٧] ،

وكان لبعضها تأثير تاريخي ، مثل كراسة الأبيه سبيس « ما الطبقة الثالثة » أو كراسة كامى دمولان « فرنسا الحرة » . حتى إذا جاء يوليو من عام ١٧٨٩ وجدنا الصحافة أعظم قوة فى فرنسا . وقد وصفها نكير فى ١٧٨٤ بأنها « قوة غير مرئية تملى أوامرها على المدن والمحاكم على السواء ، وحتى فى قصور الملوك ، رغم أنها بلا مال ، وبلا سلاح ، وبلا جيش »[٧٨] . ولعبت الأغانى دوراً فى الدعوة والتحريض ، وقد وصف شامفور الحكومة بأنها ملكية مقيدة بالأغانى الشعبية[٧٩] .

وطوى تيار الثورة شامفور نفسه فانتقل من كونه « شخصاً مرضياً عنه » فى البلاط إلى المشاركة فى اقتحام الباستيل . وقد ولد لبدال ريفى (١٧٤١) ، وقدم إلى باريس وكسب قوته بالحيلة والظرف . وكانت النساء يسكنه ويطعمنه لالشىء إلا للاستمتاع بإثاره حديثه ، وقد كتب عدة مسرحيات ، أبهجت إحداها مارى أنطوانيت كثيراً فأقنعت الملك بأن يمنحه معاشاً قدره ألف ومائتا جنيه . وعين سكرتيراً لأخت للويس السادس عشر ، وتلقى راتباً إضافياً قدره ألفا جنيه فى العام . وبدا أن كل شىء يربطه بالقضية الملكية ، ولكن فى ١٧٨٣ التقى بميرابو ، فما لبث أن انقلب لاذعاً للحكومة . وهو الذى اقترح على سبيس العنوان اللافت الذى وضعه على كراسته الشهيرة .

وفى هذه الأثناء ، وبوحى من لاروشفوكو ، وفوفنارج ، وفولتير ، دون بإيجاز وعلى عجلة « حكما » أفصحت عن نظرته الساخرة إلى العالم . وقد قالت مدام هلفتيوس التى ظلت تستضيفه فى بيتها بسيفر طوال سنين أربع « كلما جرى حديث بينى وبين شامفور فى الصباح ، كان الحزن يغمرنى بقية اليوم »[٨٠] . وقد رأى الحياة خدعة ينخدع بها الأمل « ان الأمل دجال لايفتأ يحتال علينا ، أما أنا فإن سعادتى لم تبدأ إلا يوم طلقت الأمل »[٨١] . « لو أن الحقائق القاسية ، والاكتشافات المحزنة ، وأسرار المجتمع — التى تتألف منها معرفة رجل الدنيا الذى بلغ الأربعين — عرفها هذا الإنسان نفسه وهو فى العشرين ، لأصابه اليأس ، أو لبات إنساناً فاسداً عن عمد »[٨٢] .

وقد سخر شامفور من العقل ، وهو الذى جاء فى ختام عصر العقل ، ورأى فيه سيداً على العاطفة أقل منه أداة للشر . « ان الإنسان فى حالة المجتمع الراهنة يبدو أكثر فساداً بسبب عقله منه بسبب عواطفه المشبوبة »[٨٣] . أما عن النساء « فمهما بلغ سوء رأى الرجل فيهن ، فما من امرأة لايسوء رأيها فيهن عن رأيه »[٨٤] . والزواج فخ ، « ان الزواج والعزوبة كلهما مجلبة للعناء : وينبغى أن نفضل منهما ما ليست متاعبه بغير دواء »[٨٥] . « ان النساء لا يمنحن للصداقة إلا ما يقترضنه من الحب » [٨٦] . و « الحب الذى يوجد فى المجتمع ليس إلا تبادل أوهام واحتكاك بشرتين [٨٧] .

فلما خرج شامفور من القصور والبيوت الفاخرة إلى شوارع باريس اشتد تشاؤمه . « باريس ، مدينة اللهو واللذة ، حيث يموت أربعة أخماس الناس حزناً ... المكان الذى يفوح نتنه وليس فيه إنسان ينبض قلبه بالحب »[٨٨] .

والعلاج الوحيد لهذه الأحياء الفقيرة هو العقم . « من سوء حظ النوع الإنسانى ، وحسن حظ الطغاة ، أن الفقراء والتعساء لا يملكون غريزة الكبرياء التى يملكها الفيل ، فهو لايتوالد وهو أسير » ... [٨٩] .

وكان أحياناً يسترسل فى الحلم بمثل أعلى « من الضرورى الجمع بين النقائض : حب الفضيلة دون اكتراث للرأى العام ، والميل للعمل دون اكتراث للشهوة ، وحب المرء لصحته دون اكتراث للحياة »[٩٠] . وقد خطر له فى بضع سنين أن يضفى على الحياة معنى بتكريس نفسه للثورة ، ولكن خمس سنين من التعامل مع ميرابو ، ودانتون ، ومارا ، وروبسبيير ، أحيت يأسه من جديد وبدا له يومها أن شعار الثورة « الحرية ، والمساواة ، والإخاء » أصبح معناه «كن أخى وإلا قتلتك» [٩١] . واختار الانضمام إلى صفوف الجيروند ، وراح يسوط الزعماء الأكثر تطرفاً بدعابته المشهورة . فقبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد قليل . فلما رأى نفسه مهدداً بالقبض عليه ثانية ، ضرب نفسه بالرصاص وطعن نفسه . ومد فى أجله حتى ١٣ أبريل ١٧٩٤ ثم مات بعد أن قال لسييس ، « انى منطلق فى النهاية من هذا العالم الذى لابد فيه للقلب أما أن ينكسر أو يتقسى .

وإذا كان تأثير فولتير هو الغالب عند شامفور ، فإن تأثير روسو كان كاملا وسافراً فى جاك — هنرى برناردان دسان — بيير . فنى الحادية والثلاثين (١٧٦٨) كلف بوصفه مهندساً بمهمة حكومية فى الأيل دفرانس ، المسماه الآن موريتيوس . فى تلك الجزيرة الجبلية ، المطيرة ، الكثيرة الثمر ، وجد ما خاله « حالة الطبيعة » التى تخيلها روسو — رجالا ونساء يعيشون ملتصقين بالأرض لم تلوثهم رذائل المدنية . فلما عاد إلى فرنسا (١٧٧١) أصبح صديقاً مخلصاً لجان — جاك ، وتعلم أن يحتمل غضباته ، وأن يرى فيه مخلصاً ثانياً للبشرية . وفى كتابه « رحلة إلى الأيل دفرانس » (١٧٧٣) لوصف حياة سكان الجزيرة البسيطة وإيمانهم الدينى الذى يشددهم . وقد رأى أسقف اكس فى هذا الكتاب انتقاضاً سليماً على فولتير ، وحصل للمؤلف على معاش ملكى قدره ألف جنيه . واستجاب برناردان بكتاب عنوانه « دراسات للطبيعة » (١٧٨٤) ، وآخر عنوانه « توافقات الطبيعة » (١٧٩٦) ، وصف فيهما عجائب حياة النبات والحيوان ، وزعم أن الأمثلة الكثيرة للتوفيق ، والهدف ، والخطة ، تثبت وجود عقل أعلى . وفاق روسو فى تمجيده للوجدان فوق العقل . « كلما تقدم العقل أتانا بالدليل على تفاهتنا ، وبدلا من أن يهدىء أحزاننا بأبحاثه ، فهو كثيراً ما يزيدها بنوره . . أما الوجدان . . . فيعطينا دافعاً سامياً ، وهو إذ يخضع عقولنا يصبح أنبل الغرائز وأكثرها إشباعاً فى حياة البشر »[٩٣] .

وقد ألحق برناردان بالطبعة الثانية من « الدراسات » (١٧٨٨) رواية سماها « بول وفرجينى » ظلت واحدة من عيون الأدب الفرنسى خلال التقلبات الكثيرة التى اعترت الذوق الأدبى ، وخلاصتها أن امرأتين فرنسيتين حبليين تنزلان موريتيوس ، إحداهما مات زوجها ، والأخرى هجرها حبيبها ، وتلد الواحدة بول والأخرى فرجينى . ويشب الطفلان ويترعرعان فى واد فى الجبل ، وسط مناظر رائعة ينتشر فيها أريج الأزهار الطبيعية . ويشكل أخلاقهما حب الأم وتعاليم الدين حتى إذا بلغا الحلم أحب أحدهما الآخر .

إذ ليس حولهما أحد غيرهما . وتبعث فرجينى إلى فرنسا لتتسلم إرثاً ، وهو أمر لايحدث كثيراً فى الحالة الطبيعية . فيعرض عليها هناك الزواج والثراء العريض إن أقامت فى فرنسا ، ولكنها ترفضهما لتعود إلى موريشيوس وبول . ويحدو بول هابطاً إلى الشاطئ ليرى سفينتها وهى تدنو من البر ، وتغمره الفرحة بخواطر الحب والسعادة ، ولكن السفينة تجنح إلى مياه ضحلة فترتطم بالقاع وتحطمها عاصفة . وتغرق فرجينى وهى تحاول الوصول إلى البر ، ويموت بول حزناً عليها .

والكتيب قصيدة منثورة ، رواها المؤلف ببساطة فى الأسلوب ، ونقاء وموسيقى فى اللغة لايفوقها كتاب فى الأدب الفرنسى . ووافقت تقواه ورقة عاطفته مزاج الجيل ، ولم يزعج أحداً أن هاتين المرأتين الفاضلتين ولطفليهما عبيداً[٩٩] . وهلل القوم لبرناردان خلفاً أصيلا لروسو ، وكتبت إليه النساء بنغمة الإعجاب الحار التى طيبت من قبل خاطر مؤلف «اميل» . وحذا برناردان حذو روسو فلم يستغل شهرته ، بل تجنب مخالطة المجتمع ، وعاش عيشة هادئة بين الفقراء . وتركته الثورة دون أن تمسه بسوء . وفى إبان عنفها تزوج وهو فى الخامسة والخمسين من فيليسيتيه ديدو ، البالغة اثنين وعشرين ربيعاً ، فولدت له طفلين سميا بول وفرجينى . وبعد أن ماتت فيليسيتيه تزوج ثانية وهو فى الثالثة والستين من شابة تدعى ديزيريه وبيلبو ، رعته فى حب حتى مات فى ١٨١٤ . وقبل رحيله شهد بزوغ نجم شاتوبريان الذى تلقى من يديه مشعل الرومانسية والتقوى الفرنسيتين وحمله إلى القرن التاسع عشر .

هذا وقد ظهرت فى هذا العصر كتب أقل شأناً لم يعد الناس يقرءونها اليوم ، ولكنها شاركت فى إعطاء الجيل صوته ولونه . من ذلك أن الأبيه جان — جاك بارتلمى أصدر وهو فى الثانية والسبعين (١٧٨٨) كتاباً سماه « رحلة الفتى أناخارسس فى اليونان » بعد أن عكف على تأليفه ثلاثين عاماً ، وقد زعم الكتاب أنه وصف لطبيعة اليونان وآثارها ومؤسساتها وعاداتها وعملاتها فى القرن الرابع قبل المسيح ، كما رآها رحالة سكوذى . وقد صعد الكتاب إلى قمة الموجة الكلاسيكية ، وكان من أبرز الكتب الكلاسيكية الناجحة فى ذلك العصر ، وكاد يرسى أصول علم العملات فى فرنسا .

ونافس شعبيته كتاب آخر هو « الأطلال ، أو تأملات فى ثورات الامبراطوريات » الذى أصدره الكونت كونستانتان دفولنى فى ١٧٩١ بعد أن قضى أربع سنوات من الرحلة فى مصر والشام . وحين رأى حطام الحضارات القديمة تساءل « من يستطيع أن يؤكد لنا أن مثل هذا الخراب لن يكون يوماً ما مصير بلادنا ؟ » وقد نتردد الآن فى إعطاء جواب متفائل عن هذا السؤال ، ولكن فولنى الذى جاء فى ختام عصر العقل ، والذى ورث كما ورث كوندورسيه كل آماله للبشرية ، أخبر قراءه أن سقوط تلك الإمبراطوريات القديمة مرده جهل شعوبها الذى نجم عن صعوبة نقل المعرفة من إنسان إلى آخر ومن جيل إلى جيل . أما الآن فقد ذللت هذه الصعوبات باختراع الطباعة ، فكل ما يلزم منذ الآن لتفادى تدمير الحضارة هو بث المعرفة على نطاق واسع « الأمر الذى يفضى بالناس والدول إلى المواءمة بين دوافعهم غير الاجتماعية والصالح العام . وفى هذا التوازن بين القوى ستخلى الحرب مكانها للتحكيم ، « وسيصبح النوع الإنسانى بأسره مجتمعاً عظيماً واحداً ، أسرة واحدة تحكمها روح واحدة وقوانين عامة ، وتتمتع بكل السعادة التى فى مقدور الطبيعة البشرية »[٩٥] .

والآن نصل إلى سيرة عجيبة هى سيرة نيقولا — إدمون رستيف دلابريتون ، الذى لقبه بعض معاصريه « روسو البالوعات » و « فولتير خادمات المخادع » ، وهو مؤلف نحو مائتى كتاب « طبع الكثير منها بيديه وبمطبعته ، وبعضها فيه فحش متعمد ، وكلها يؤلف صورة تفصيلية لأخلاق وعادات الطبقات الدنيا فى عهد لويس السادس عشر .

فى كتابه « حياة أبى » (١٧٧٩) أعطانا وصفاً صور فيه أباه إدمون فى صورة مثالية مشربة بالحنان ، هذا الأب الذى تذكر أن له « طلعة هرقول ورقة صبية »[٩٦] . أما الإبن فقد سجل حياته هو فى ستة عشر كتاباً مستفيضة عنوانها « مسيو نيقولا » (١٧٩٤ — ٩٧) « اختلطت فيها الحقيقة بالخيال عن تقلبات حياته وغرامياته وأفكاره . وقد ولد فى بيت بمزرعة (١٧٣٧) فى ساسيه (التى سمى قسم منها لابريتون) ، على عشرين ميلا من أوكسير . ويروى أنه حين بلغ الحادية عشرة أصبح أباً لأول مرة[٩٧] . وفى الرابعة

عشرة أحب جانيت روسو ، وكانت فى السابعة عشرة ، وبدأ إعجابه الذى امتد طوال حياته بأقدام الأنثى «كا شعورى نحوها نقياً رقيقاً كما كان حاداً . . وكانت قدمها الجميلة شيئاً لا أستطيع مقاومته» [٩٨] . ولعل الرغبة فى تخليصه من شراك كهذه هى التى أوحت بإيفاده إلى أوكسير (١٧٥١) ليعمل تلميذاً لطابع . وسرعان ما أغوى زوجته معلمه ، ولكن لا سند لنا لهذه الواقعة غيره . ثم يقول إنه فى الخامسة عشرة كان له خمس عشرة «خليلة» . وبعد أربع سنين من هذه الهواية انتقل إلى باريس ، وهناك استخدم طابعاً باليومية يكسب فرنكين ونصفاً فى اليوم ؛ وهو أجر مكنه من الحصول على طعامه ودفع أجر مومس بين الحين والحين ، وكان إذا قلت موارده نام مع الخادمات[٩٩] . وفى ١٧٦٠ حين كان فى السادسة والعشرين تزوج امرأة تكاد تقاربه خبرة ، واسمها أجنيس لوبيك ، ثم تبين أن كليهما غير وفى لصاحبه . وتم طلاقهما فى ١٧٨٤ ، لا بسبب هذه الزلات ، بل لأن كليهما وقع فى شرك التأليف ، وكانا يتنافسان على الورق والمداد والشهرة .

وكان نيقولا قد بدأ حياته كاتباً فى ١٧٦٧ بقصته «قدم فانشيت» التى كانت قدم الصبية هى «أبرز ملامحها Piéce de résistance» وكان أول عمل أدبى ناجح له هو «الفلاح المنحرف» (١٧٧٥) وهو يقص بالرسائل كيف انحرف الفلاح إدمون بعد انتقاله إلى باريس متأثراً بحياة المدينة وفسوقها . فيعلمه ملحد يدعى جودى داراس أن الله أسطورة وأن الأخلاق أكذوبة ، وأن كل اللذات مشروعة ، وأن الفضيلة عبء ثقيل لا مبرر له على الحقوق الطبيعية لرغباتنا ، وأن أول واجباتنا أن نعيش ملء حياتنا ما استطعنا العيش[١٠٠] . ويقبض على أراس ، فيقول له إدمون «يوجد إله» ، ويشنق أراس غير نادم ولا تائب . وقد سمى أحد معاصرى المؤلف هذا الكتاب «علاقات الناس الغرامية الخطرة»[١٠١] ، وذهب رستيف إلى أنه سيعيش ما عاشت اللغة الفرنسية[١٠٢] وفى كتاب مرافق سماه «الفلاحة المنحرفة» (١٧٨٤) واصل هجومه على انعدام المسئولية الأخلاقية ومفاسد حياة المدينة . وقد استعمل حصيلته من كتبه ليرفع مقامه درجة أو اثنتين على السلم الاجتماعى للفسق .

أما أهم أعمال رستيف فهو « المعاصرات » الذى طال حتى بلغ خمسة وستين مجلداً (١٧٨٠ — ٩١) . وكان لهذه القصص القصيرة عنوان فرعى جذاب هو « مغامرات أجمل نساء عصرنا » — وفيه وصف لحياة وغراميات وآداب بائعات الزهر ، وبائعات القسطل ، وبائعات الفحم ، والخياطات ، والحلاقات ، بلغ من الواقعية والدقة مبلغاً أتاح للنساء الحقيقيات أن يتبين أنفسهن فيه ويلعن المؤلف حين يلقينه فى الشوارع[١٠٣] . ومثل هذا المشهد العريض من الحياة البشرية لم يقدمه كاتب فى الأدب الفرنسى حتى جاء بلزاك . وقد أدان النقاد إدمان رستيف على « الموضوعات المنحطة » ، ولكن سباستيان مرسييه ، الذى كان كتابه « لوحة باريس » (١٧٨١ — ٩٠) يعرض مسحاً للمدينة أفضل ترتيباً ، حكم بأنه «أعظم قصاصينا غير منازع»[١٠٤] .

وقبيل نشوب الثورة بدأ رستيف يسجل فى « ليالى باريس » (١٧٨٨ — ٩٤) الأحداث التى شهدها (أو تخيلها) فى جولاته الليلية . وهنا أيضاً كان أهم ما لاحظه الأعماق السفلى لباريس — الشحاذين ، والحمالين ، والنشالين ، والمهربين ، والمقامرين ، والسكارى ، وخاطفى الأطفال ، واللصوص ، والمنحرفين ، والبغايا ، والقوادين ، والمنتحرين . وقد زعم أن حظه من السعادة كان ضئيلا ، ومن الشقاء موفوراً ، وصور نفسه بطلا منقذاً فى حالات كثيرة . وقد ألم بالمقاهى القريبة من الباليه — رويال ، ورأى الثورة تتشكل ، سمع كامى ديمولان يدعو الناس دعوته المشهورة إلى حمل السلاح ، ورأى الدهماء الظافرين يجوبون المدينة عارضين رأس دلونى مأمور سجن الباستيل المفصول عن جسده ، ورأى النساء يزحفن على فرساى لأسر الملك[١٠٥] . ثم لم يلبث أن مل العنف والإرهاب وعدم الأمان . وتعرض غير مرة لخطر القبض عليه ، ولكنه نجا بإعلانه الولاء للثورة . أما فى مجالسه الخاصة فكان يندد بهذا كله ويتمنى لو أمكن « رد لويس السادس عشر الطيب إلى مكان السلطة »[١٠٦] . وقد عنف فى لوم روسو لأنه أطلق العنان لانفعالات الشباب والجهال والعاطفيين ، « ان كتابه أميل هو الذى

رمانا بهذا الجيل المغرور ، العنيد ، الوقح ، المتصلب ، الذى يعلو صوته على من هم أكبر منه سناً فيسكتهم »[١٠٧] .

وهكذا تقدم به العمر وندم على أفكار شبابه لا على خطاياه . وفى ١٧٩٤ عاد فقيراً كما كان ، غنياً فى ذكرياته وحقدته فقط ؛ وقد وضع فى المجلد الثامن من « المسيونيقولا » « تقويماً » بالرجال والنساء الذين عرفهم فى حياته ومنهم عدة مئات من العشيقات ، وأكد من جديد إيمانه بالله . وفى ١٨٠٠ أخبرت الكونتيسه بوهارنيه نابليون بأن رستيف يعانى شظف العيش وأن حجرته ليس بها نار تدفئها ، فبعث إليه نقوداً وخادماً وحارساً ، ثم عينه (١٨٠٥) فى وظيفة بوزارة الشرطة . وفى ٨ فبراير ١٨٠٦ مات رستيف وقد بلغ الثانية والسبعين . واشتركت الكونتيسه وعدة أعضاء من المجمع الفرنسى (الذى كان قد رفض انضمامه إليه) مع جمع العامة البالغين ألفاً وثمانمائة فى تشييعه إلى مثواه الأخير .

٧ — بومارشيه

كتب أرثر ينج فى ١٧٨٨ يقول «كلما خبرت المسرح الفرنسى وجدتنى مضطراً إلى الاعتراف بتفوقه على مسرحنا ، سواء فى عدد ممثليه الأكفاء ، أو فى نوعية الراقصين والمغنين والأشخاص الذين تعتمد عليهم صناعة المسرح ، وكلهم راسخ القدم على نحو رائع»[١٠٨] ، وكانت الحفلات التمثيلية تحيا كل ليلة ، بما فيها ليالى الأحد ، فى التياتر — فرانسيه الذى أعيد بناؤه فى ١٧٨٢ ، وفى كثير من المسارح الإقليمية . وجاءت الآن فترة خلت فيها خشبة المسرح من فحول الممثلين فقد مات لوكان ، وتقاعدت صوفى أرنو فى ١٧٧٨ ؛ ثم استهل تالما الذى سيصبح أثير نابليون حياته المسرحية مع الكوميدى — فرانسيز فى ١٧٨٧ ، وحقق أول انتصار له فى مسرحية مارى — جوزف شنييه « شارل التاسع» فى ١٧٨٩ . وكان أحب كتاب العصر المسرحيين إلى الشعب ميشيل جان سيدين الذى ألف كوميديات عاطفية استأثرت بالمسرح الفرنسى طوال قرن من الزمان . ونحن نحييه وننتقل إلى الرجل الذى نفخ الحياة فى « فيجارو » بمساعدة موتسارت وروسينى ، وأعطى الحرية لأمريكا (فى زعمه) .

وقد عاش هذا الرجل ، وهو بيير – أوجستن كارون ، كما عاش فولتير ، أربعة وعشرين عاماً دون أن يعرف اسمه التاريخي . وكان أبوه صانع ساعات فى ضاحية سان – دينى الباريسية . وبعد أن تمرد قليلا راض نفسه على احتراف حرفة أبيه . فلما بلغ الحادية والعشرين اخترع ضرباً جديداً من الهروب مكنه من أن يصنع « ساعات ممتازة بلغت غاية ما يناسب من الصغر والتسطيح »[١٠٩] . وقد أبهج لويس الخامس عشر بعينة منها ، وصنع لمدام بومبادور ساعة كانت من الصغر بحيث أمكن إدخالها فى خاتمها ، وزعم أن هذه أصغر ما صنعه الصانعون من الساعات اطلاقاً . وفى ١٧٥٥ اشترى من مسيو فرانكيه المسن وظيفته التى كان يشغلها بوصفه أحد المشرفين على المائدة الملكية الذين كانوا يقومون على خدمة الملك خلال تناوله الطعام ؛ ولم تكن بالوظيفة المرموقة ، ولكنها أتاحت لبيير مدخلا إلى البلاط . وبعد عام مات فرانكيه ، فتزوج بيير أرملته(١٧٥٦) وكانت تكبره بخمس سنين . وإذ كانت تملك إقطاعة صغيرة ، فقد أضاف بيير اسم الإقطاعة إلى اسمه ، فأصبح بومارشيه . فلما ماتت زوجته (١٧٥٧) ورث أملاكها .

ولم يكن قد حظى بأى تعليم ثانوى على الإطلاق ، ولكن الجميع – حتى الأرستقراطيين الذين ساءهم تسلقه السريع – أقروا بتيقظ ذهنه وسرعة خاطره . والتقى فى الصالونات والمقاهى بديدرو ، ودالامبير ، وغيرهما من جماعة الفلاسفة ، فنهل من التنوير . وقد استرعى انتباه بنات لويس الخامس عشر العوانس تحسين أدخله فى نظام دواسة الهارب ، وفى ١٧٥٩ بدأ يعطيهن دروساً فى الهارب . وطلب المصرفى جوزف بارى – دوفرينه إلى بومارشيه أن يستعين بالآنسات الملكيات فى الحصول على تأييد لويس الخامس عشر للمدرسة الحربية التى كان رجل المال يديرها ، وأفلح بيير فى الأمر ، فأعطاه بارى – دوفرنيه أسهماً قيمتها ستون ألف فرنك . يقول بومارشيه « لقد أطلعنى على أسرار عالم المال ... وبدأت أجمع ثروتى بإرشاده ، وعملا بنصيحته دخلت فى مضاربات عديدة ، أعاننى فى بعضها بماله أو بإسمه »[١١٠] . وهكذا أصبح بومارشيه فيلسوفاً من أصحاب الملايين ، مقتدياً فى هذا وفى كثير غيره بالسوابق التى وضعها فولتير . فما وافى عام

١٧٧١ حتى بلغ من الثراء ما أتاح له شراء وظيفة سكرتارية شرفية لدى الملك ، جاءته بلقب النبالة . وسكن منزلا رائعاً فى شارع كونديه أنزل فيه أباه وأخواته الفخورين .

وكان له أختان أخريان تعيشان فى مدريد — إحداهما متزوجة والأخرى — واسمها ليزيت — مخطوبة لخوزيه كالافيجو أى فخاردو المحرر المؤلف الذى ظل ست سنوات يؤجل الزواج غير مرة . وفى مايو ١٧٦٤ خرج بومارشيه فى رحلة طويلة راكباً عربة البريد نهاراً وليلا إلى العاصمة الإسبانية . فعثر على كلافيجو ، ووعده هذا بأنه سيتزوج ليزيت عما قليل ، ولكنه زاغ متنقلا من مكان إلى مكان . وأخيراً أدركه بيير ، وطالبه بالتوقيع على عقد زواج ، فاعتذر خوزيه بحجة أنه تناول لتوه مسهلا ، وكان القانون الإسبانى يعتبر أى عقد يوقع فى ظرف كهذا باطلا . فهدده بومارشيه ، فاستعدى عليه كلافيجو قوى الحكومة ، وهزم الفرنسى الذكى بسلاح التسويف والمماطلة . فلما أقلع عن المطاردة ، حول جهوده إلى ميدان التجارة وكون عدة شركات ، إحداها لإمداد المستعمرات الإسبانية بالعبيد الزنوج . (ونسى أنه قبل سنة واحد فقط كتب قصة ذم فيها الرق)[١١١] . وتحطمت هذه الخطط جميعها على صخرة الموهبة الإسبانية ، موهبة التسويف والتأجيل . على أن بيير استمتع أثناء ذلك بالصحبة الطيبة وبخليلة تحمل لقب نبالة ، وخبر من العادات الإسبانية ما أعانه على تأليف تمثيلياته عن حلاق أشبيلي . أما ليزيت فقد وجدت حبيباً آخر ، وقفل بومارشيه إلى فرنسا خاوى الوفاض إلا من الخبرة . وقد كتب مذكرات رائعة عن رحلته ، ألف منها جوته مسرحيته « كلافيجو » كما أسلفنا .

وفى ١٧٧٠ مات بارى — دوفرنيه تاركاً وصية أقر فيها بأنه مدين لبومارشيه بخمسة عشر ألف فرنك . ونازع أهم الورثة وهو الكونت دلابلاش فى صحة هذه الفقرة مدعياً أنها مزورة . وأحيل النزاع على برلمان باريس ، فعين المستشار لوى — فالنتن جوزمان ليبدى رأيه فيه . فى هذا الظرف الحرج كان بومارشيه نزيل السجن نتيجة شجار عنيف مع الدوق دشولن على خليلة . فلما أفرج عنه مؤقتاً ، أرسل « هدية » من مائة جنيه ذهبى (لوى

دور) ، وساعة مرصعة بالماس » إلى السيدة جوزمان اغراء لها على أن تمهد السبيل لاستماع زوجها إليه ، فطلبت خمسة عشر جنيهاً ذهبياً أخرى أجر « سكرتير » ، فأرسلها . وظفر بالمقابلة ، ولكن المستشار اتخذ قراراً ضده ، فأعادت السيدة جوزمان كل شيء إلا الخمسة عشر جنيهاً ذهبياً ، وأصر بومارشيه على ردها هذا المبلغ أيضاً » واتهمه جوزمان بتقديم الرشوة . فعرض بيير الأمر على الشعب فى سلسلة من « المذكرات » فيها من الحيوية والظرف ما أكسبه ثناء عريضاً باعتباره مجادلا بارعاً ان لم يكن رجلا أميناً كل الأمانة . وقد قال فولتير عنها : لم أر قط شيئاً أقوى ولا أجرأ ولا أفكه ولا أطرف ولا أشد إذلالا لخصومه . فهو يحارب « دستة » منهم فى وقت واحد ويحصدهم حصداً »[١١٢] . وأصدر البرلمان حكماً برفض دعواه فى حقه فى الميراث (٦ أبريل ١٧٧٣) » واتهمه فى الواقع بالتزوير ، وحكم عليه بدفع ٥٦,٣٠٠ جنيه نظير التعويض والديون .

فلما أفرج عن بومارشيه (٨ مايو ١٧٧٣) استخدمه لويس الخامس عشر جاسوساً فى بعثة إلى انجلترا ليمنع تداول نشرة فاضحة فى حق مدام دوبارى . فنجح فى مهمته ، وواصل اشتغاله عميلا فى عهد لويس السادس عشر الذى كلفه بأن يعود إلى لندن ويرشو جوليلمو انجيلوتشى كى يمتنع عن اصدار نشرة فى حق مارى أنطوانيت . وسلم انجليلوتشى المخطوطة نظير ٣٥,٠٠٠ فرنك ورحل إلى نورمبرج ؛ واشتبه بومارشيه فى حيازته نسخة ثانية ، فتبعه عبر المانيا ، وأدركه قرب نويشتات ، وأكرهه على تسليمه النسخة » ثم هاجمه قاطعاً طريق ، فدفعهما عنه ، ولكنه جرح » وشق طريقه إلى فيينا » حيث قبض عليه بوصفه جاسوساً ، وقضى فى السجن شهراً ، ثم أطلق سراحه ، فركب قافلا إلى فرنسا .

ولكن مغامرته الجريئة التالية أحق بمكان فى التاريخ . ذلك أن فرجين أوفده فى ١٧٧٥ إلى لندن ليستطلع له حقيقة الأزمة المتصاعدة بين انجلترا وأمريكا . وفى سبتمبر بعث بومارشيه إلى لويس السادس عشر بتقرير تنبأ بنجاح الثورة الأمريكية ، وأكد وجود أقلية مناصرة للأمريكيين فى انجلترا .

وفى ٢٩ فبراير ١٧٧٦ وجه إلى الملك رسالة أخرى « أوصى فيها بإرسال المعونة الفرنسية سراً إلى أمريكا » بحجة أنه لا سبيل أمام فرنسا لحماية نفسها من التبعية إلا بإضعاف شوكة انجلتره»[١١٣] . ووافق فرجين على هذا الرأى ، ورتب كما رأينا أن يمول بومارشيه لتزويد المستعمرات الانجليزية بالعتاد الحربى . وفرغ بومارشيه بجملته لهذه المغامرة . فنظم شركة « رودريج هورتاليه وشركاته » . وراح يتنقل بين الثغور الفرنسية ويشترى السفن ويجهزها ويشحنها بالمؤنه والعتاد ، ويجند الضباط الفرنسيين المدربين للجيش الأمريكى ، وينفق (فى زعمه) عدة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص فوق المليونين اللذين أمدته بهما الحكومتان الفرنسية والإسبانية . وقد أبلغ سايلاس دين الكونجرس الأمريكى (٢٩ نوفمبر ١٧٧٦) « انى ماكنت لأستطيع انجاز مهمتى لولا جهود مسيوبومارشيه الذكية السخية التى يمتربها الكافل ، هذا الرجل الذى تدين له الولايات المتحدة من جميع الوجوه ، أكثر من دينها لأى رجل آخر على هذا الجانب من المحيط »[١١٤] . وفى نهاية الحرب قدر سايلاس أن أمريكا تدين لبومارشيه بمبلغ ٣,٦٠٠,٠٠٠ فرنك . أما الكونجرس الذى افترض أن كل العتاد كان منحة من الحلفاء ، فقد رفض الطلب ، ولكنه فى ١٨٣٥ دفع ٨٠٠,٠٠٠ جنيه لورثة بومارشيه .

ثم انه وجد خلال هذا النشاط المحموم وقتاً لكتابة المزيد من المذكرات الموجهة إلى الشعب والتى يحتج فيها على مرسوم البرلمان الصادر فى ٦ أبريل ١٧٧٣ . وفى ٦ سبتمبر ١٧٧٦ ألغى ذلك المرسوم ، وردت إلى بومارشيه كل حقوقه المدنية . وفى يوليو ١٧٧٨ أصدرت محكمة فى اكس — أن — بروفانس حكما لصالحه فى النزاع على وصية بارى — دوفرنيه ، واستطاع بومارشيه أن يحس أنه فى النهاية قد برأ أسمه .

ولم تكفه كل هذه المغامرات فى الحب ،والحرب، والتجارة ، والقضاء . فقد بقى عالم لم يغزه بعد ، هو عالم الكلام » والأفكار » والطباعة ، وعليه ففى ١٧٦٧ قدم للكوميدى — فرانسيز أولى تمثيلياته « أوجينى » ، وقد عرضت فى ٢٩ يناير ١٧٦٩ ، واستقبلها النظارة استقبالا حسناً ، ولكن

النقاد رفضوها . ثم سقطت تمثيلية أخرى هي « الصديقان » (١٣ يناير ١٧٧٠) رغم الأعداد المألوف ، « لقد ملأت الصالة بأفضل العمال ، بأيد كالمجاذيف ، ولكن جهود العصبة المتآمرة » غلبته [١١٥] . ذلك أن جمعية الأدباء التي يتزعمها فريرون قاومته باعتباره دخيلا « ومجرماً » زمناً انقلب كاتباً مسرحياً ، تماماً كما ناصبه بلاط فرساي العداء لأنه صانع ساعات انقلب نبيلا . ومن ثم نراه في مسرحيته التالية يجعل فيجارو يصف « جمهورية الأدب » بأنها « جمهورية الذئاب ، الذين لا يفتأ بعضهم ينشب مخالبه في رقاب البعض الآخر . . . كل الحشرات ، والبعوض الصغير والكبير ، والنقاد ، وكل الحاسدين من الصحفيين » والكتبيين ، والرقباء »[١١٦] .

ولقي بومارشيه في المسرح كما لقي في الحياة جيشاً من الأعداء فهزمهم جميعا . وفي أروع لحظات الإبداع التي جادت بها عبقريته المتعددة المناحي تصور شخصية فيجارو الحلاق ، الجراح ، الفيلسوف ، اللابس صدرية من الساتان وسراويل ركوب « وقيثارته المعلقة على كتفه ، وذهنه المتوقد على استعداد لتذليل أي صعوبه ، وذكاؤه يخترق حجب النفاق والأكاذيب والمظالم التي تلوث عصره . ويمكن القول أن فيجارو من ناحية لم يكن خلقاً جديداً » إنما هو اسم وشكل جديدان لشخصية مألوفة هي شخصية الخادم الذكي في الكوميديا اليونانية والرومانية ، وفي الكوميديا ديللارتي الإيطالية ، وفي شخصية موليير « سجاناريل » ولكنه كله كما عرفناه من صنع بومارشيه إلا الموسيقى ، لا بل حتى الموسيقى كانت أصلا من صنعه . فقد ألف أول الأمر « حلاق أشبيليه » أوبرا هازله عرضها على الكوميدى — ايتاليين في ١٧٧٢ فرفضت ، ولكن موتسارت تعرف إلى هذه الموسيقى حين كان في باريس [١١٧] . وعدل بومارشيه الأوبرا إلى كوميديا ، فقبلها الكوميدى — فرانسيز وحدد تاريخاً لإخراجها ولكن سجن المؤلف (٢٤ فبراير ١٧٧٣) اضطر الفرقة لتأجيل عرضها . فلما أفرج عنه استؤنف اعدادها للعرض ولكنها أجلت لأن مؤلفها وجهت إليه التهمة من البرلمان . غير أن النجاح الذي لقيه دفاع بومارشيه عن نفسه في « مذكراته » حدا بالمسرح مرة أخرى إلى ترتيب اخراجها ، فأعلن أنها ستعرض في ١٢ فبراير ١٧٧٤ . يقول

جرم » نفدت كل المقاصير حتى الحفلة الخامسة «[١١٨] . ولكن حظرت التمثيلية فى اللحظة الأخيرة بحجة أنها قد تحدث تأثيراً ضاراً بالقضية المعلقة فى البرلمان .

ومضت سنة أخرى ، وجاء ملك جديد خدمه بومارشيه ببسالة معرضاً حياته للخطر غير مرة ، فأعطى الإذن ، وفى ٢٣ فبراير ١٧٧٥ وصلت « حلاق أشبيليه » آخر الأمر إلى خشبة المسرح . غير أن الحظ لم يحالفها ، فقد كانت مفرطة الطول ، وكانت الإثارة التى مهدت لها قد جعلت جمهور النظارة يتوقع منها فوق ما ينبغى . وعليه فى يوم واحد راجعها بومارشيه واختصرها فى عملية جراحية رائعة ، فنقيت الكوميديا من التعقيدات المشوشه ، وأخليت الفكاهة من الإسهاب فى الحديث ، وأزال بومارشيه العجلة الخامسة من العربة على حد قوله — وحققت التمثيلية انتصاراً فى المساء الثانى ووصفتها مدام دو دفان التى كانت تحضر الحفل بأنها « نجحت نجاحاً مفرطاً . ولقيت من الاستحسان والتصفيق ما جاوز كل الحدود «[١١٩] .

ثم تحداه الأمير كونتى أن يكتب تتمه للمسرحية يبدو فيها فيجارو شخصية أكثر تطوراً ونضجاً . وكان المؤلف مستغرقاً الآن فى دور المنقذ لأمريكا ، فلما أنجز تلك المهمة عاد إلى المسرح وأخرج كوميديا خلقت تاريخاً أكثر درامية حتى من « طرطوف » موليير . ففى هذه الكوميديا — زواج فيجارو — نرى الكونت المافيفا وروزينا ، وهما شخصيتا حلاق أشبيليه — يقضيان عدة سنين فى حياتهما الزوجية ، وكان قد مل المفاتن التى سحرته خلال الكثير من المواقف المعقدة ، وانصرف الآن إلى مغامرة هى إغواء سوزان ، خادمة الكونتيسه وخطيبة فيجارو الذى أصبح كبير خدم الكونت وقهرمان القصر الريفى . ويقوم تابع فى الثالثة عشرة يدعى شيروبان بدور أشبه باللحن الرشيق المصاحب للموضوع الرئيسى وذلك بعشقه الغرير للكونتيسه التى يبلغ عمرها ضعف عمره . أما فيجارو فقد تحول فيلسوفاً ، ويصفه بومارشيه بأنه « العقل موشحاً بالمرح والملح «[١٢٠] . ويكاد هذا أن يكون تعريفاً للروح الغالبة ولحركة التنوير .

يقول لسوزان «ولدت لأكون رجل بلاط» «فإذا رأت فى هذه الوظيفة «حرفه عسيرة» أجابها «مطلقاً . الاستقبال» والأخذ «والطلب — هذا هو السر فى كلمات ثلاث»[١٢١] . وفى المناجاة التى جعلها روسينى تدوى فى جنبات العالم كله يخاطب نبلاء أسبانيا (وفرنسا) باحتقار يوشك أن يكون ثورياً ، «ما الذى صنعتموه لتنالوا هذا الحظ الوفير ؟ لقد كلفتم أنفسكم مشقة أن تولدوا ، لا أكثر » وفيما عدا ذلك فأنتم قوم عاديون تماماً ، فى حين أننى أنا ، التائه وسط الجماهير » كما على فى سبيل تحصيل قوتى فقط أن أستعين بقدر من العلم والحساب يفوق ما أنفق فى حكم أسبانيا كلها هذه السنين المائة المنقضية »[١٢٢] . وهو يهزأ بالجنود الذين «يقتلون ويقتلون فى سبيل مصالح يجهلونها تماماً . «أما أنا فأريد أن أعرف لماذا يشتد غضبى»[١٢٣] ، وحتى النوع الإنسانى ينال منه ما يستحقه من قصاص : «أن يشرب وهو غير عطشان » وأن يمارس الحب فى جميع المواسم — هذا وحده ما يميزنا عن سائر الحيوان»[١٢٤] . ثم يكيل شتى الضربات لبيع الوظائف العامة ، وسلطة الوزراء التعسفية ، وإخفاقات العدالة » وحالة السجون » والرقابة على الفكر واضطهاده «مسموح لى أن أنشر ما أشاء » شريطة ألا أذكر فى كتاباتى لا الحكام » ولا دين الدولة » ولا السياسة ، ولا الأخلاق » ولا الموظفين ، ولا المالية » ولا الأوبرا ، ولا . . . أى شخص ذى خطر ، على أن أخضع لتفتيش رقيبين أو ثلاثة »[١٢٥] . واتهمت فقرة جنس الذكور بأنهم مسئولون عن البغاء — وهى فقرة حذفها الممثلون ، ربما لأنها اقتربت قرباً شديداً من أسباب ترفيههم — : أن الرجال يخلقون العرض بطلباتهم » ثم يعاقبون بقوانينهم النساء اللائى يلبين هذا الطلب»[١٢٦] . أما حبكة التمثيلية فلم تكتف بإظهار الخادم أذكى من سيده — فهذا تقليد مألوف جداً بحيث لايسيء لأحد — بل أنها فضحت الكونت النبيل فأظهرته رجلا زانياً بكل ما فى الكلمة من معنى .

وقبل الكوميدى — فرانسيز «زواج فيجارو» فى ١٧٨١ ، ولكن لم يتيسر اخراجها حتى ١٧٨٤ . ذلك أنها حين تليت على مسامع لويس السادس

عشر احتمل بروح الفكاهة المتسامحة ما تخللها من هجاء عارض ، ولكن حين سمع المناجاة وما اشتملت عليه من هزء بطبقة النبلاء وبالرقابة ، أحس أنه لايسعه السماح بأن تهان هذه المؤسسات الأساسية علانية ، فصاح قائلا « هذا شيء بغيض ، ويجب ألا يمثل أبداً ، ان السماح بعرضه ليعدل تدمير الباستيل . فهذا الرجل يسخر من كل شيء يجب احترامه في أي حكومة »[١٢٧] ، ثم حظر تمثيل المسرحية .

وقرأ بومارشيه أجزاء منها في بيوت خاصة ، فأثار هذا فضول القوم ، ورتب بعض الحاشية أن تمثل أمام البلاط ، ولكن هذا أيضاً حظر في اللحظة الأخيرة ، وأخيراً أذعن الملك للاحتجاجات والالتماسات ، ووافق على اعتماد تمثيلها علناً بعد أن ينقي الرقباء النص بعناية . وكانت حفلة العرض الأولى (٢٧ أبريل ١٧٨٤) حدثاً تاريخياً . وبدت باريس كلها مصممة على حضور هذه الحفلة الأولى . واقتتل الأشراف والعامة على دخول المسرح ، وحطمت البوابات الحديدية ، وهشمت الأبواب ، واختنق ثلاثة أشخاص ، وكان بومارشيه موجوداً ، وقد سعد بهذا الشجار . وبلغ من نجاح المسرحية أنها مثلت ستين مرة دون انقطاع ، وكان المسرح يغص بالنظارة في كل حفلة تقريباً . أما الحصيلة فلم يسبق لها نظير ، وتصدق بومارشيه بنصيبه كله — البالغ ٤١,٩٩٩ جنيهاً[١٢٨] .

ولقد رأى التاريخ في « زواج فيجارو » إرهاصاً بالثورة ، ووصفها نابليون بأنها « الثورة وقد أخذت تفعل إفعالها »[١٢٩] . ودخلت بعض عباراتها في خميرة العصر . وقد أنكر بومارشيه في المقدمة التي صدرت بها بعد ذلك المسرحية المنشورة أي قصد ثوري ، واستشهد بفقرات من كتاباته دافع فيها عن الملكية والأرستقراطية . فهو لم يطالب هدم المؤسسات القائمة بل القضاء على المظالم المتصلة بها ، وتوفير العدالة المتكافئة لجميع الطبقات ، ومزيداً من حرية الفكر والنشر ، وحماية الفرد من أوامر القبض المختومة

وغيرها من ضروب شطط السلطة الملكية . وقد رفض الثورة كما رفضها معبوده فولتير لأنها دعوة إلى الفوضى وطغيان الرعاع .

وواصل دراسة أعمال فولتير طوال شتى الاضطرابات العارمة التى اكتنفته . وأدرك أوجه الشبه بينه وبين الشيخ — ولكن لعله لم يدرك إلبعد — : ذلك المركب الذى جمع بين النشاط الذهنى المحموم والدراية البارعة بأمور المال ، وذلك الاحتقار للشكوك والوساوس الحلقية ، وتلك الشجاعة فى محاربة الظلم والمحن والشدائد . واعتزم أن يحفظ أعمال فولتير وينشرها طبعة جامعة كاملة . وكان على يقين من أن هذا غير ميسور فى فرنسا حيث حظر الكثير من مؤلفات فولتير . لذلك ذهب إلى موريا وأخبره أن كاترين الثانية مزمعة إصدار طبعة فرنسية فى سانت بطرسبرج . وقال إن هذا سيكون وصمة عار على فرنسا ، وأدرك الوزير المعنى المراد ، ووعد بالإذن بتداول طبعة كاملة . وكان كتبى باريسى يدعى شارل — جوزف بانكوك قد حصل على حقوق طبع مخطوطات فولتير التى لم تنشر ، فاشتراها بومارشيه بمبلغ ١٦٠,٠٠٠ فرنك . ثم جمع كل ما وجده من مؤلفات فولتير المنشورة ، واستورد حروف باسكرفيل الطباعية من انجلترة ، واشترى مصانع للورق فى الفوج . وظفر بكوندورسيه معلقاً ومترجماً لفولتير . واستأجر حصناً قديماً فى كيل ، عبر الرين من ستراسبورج ، وركب المطابع ، وأخرج طبعتين رغم مئات المحن والشدائد ، إحداهما فى سبعين مجلداً من قطع الثمن ، والأخرى فى اثنين وتسعين مجلداً من القطع الإثنى عشرى (١٧٨٣ — ٩٠) . وهذا أضخم مشروع طباعى حاوله إنسان حتى ذلك التاريخ فى أوربا ، بما فى ذلك « الموسوعة » . وطبع بومارشيه خمسة عشر ألف مجموعة وهو يتوقع بيعاً عاجلا لها ، فلم يبع منها غير ألفين ، من جهة بسبب الحملات التى شنها البرلمان والاكليروس على المشروع[١٣٠] ، ومن جهة ثانية بسبب الاضطرابات السياسية فى ١٧٨٨ — ٩٠ ، ومن جهة ثالثة لأن قلقة مركز الناس المالى منعتهم من شراء المجموعة الغالية الثمن — وزعم بومارشيه أنه خسر فى هذه المغامرة مليوناً من الجنيهات . على أنه أخرج أيضاً طبعة من أعمال روسو .

أما الثورة التي أعان على الإعداد لها فكانت نكبة عليه . ذلك أنه في ١٧٨٩ بنى لنفسه ولزوجته الثالثة قصراً غالى التكلفة تجاه الباستيل ، ملأه بالبديع من الأثاث والرياش وأحاطه بفدانين من الأرض . ونظر الرعاع الذين أثاروا الشغب مراراً في المنطقة شزراً إلى هذا الترف ، فأغاروا على بيته مرتين ، وأصبح بومارشيه الذي اكتمل الآن صممه وشاخ قبل الأوان مهدداً باعتباره أرستقراطياً . لذلك بعث بملتمس إلى كومون باريس يعلن فيه إيمانه بالثورة ، غير أنه قبض عليه رغم ذلك (٢٣ أغسطس ١٧٩٢) ثم أفرج عنه بعد قليل ، إلا أنه عاش في خوف من الاغتيال لا يفتأ يؤرقه . ثم دارت عجلة الخطر فكلفته حكومة الثورة (١٧٩٢) بالسفر إلى هولنده وشراء المدافع للجمهورية . على أن المفاوضات أخفقت وصودرت أملاكه في غيابه ، وقبض على زوجته وابنته (٥ يوليو ١٧٩٤) ، فهرع قافلا إلى باريس ، وحصل على الإفراج عنهما ، وسمح له باسترداد أملاكه . وعاش بعد ذلك ثلاث سنين محطم الجسد لا الروح ، ورحب بصعود نجم نابليون ، ثم مات في ١٨ مايو ١٧٩٩ بالنقطه وقد بلغ السادسة والسبعين . وندر حتى في تاريخ فرنسا أن عاش رجل حياة بمثل هذا الملء والتنوع والمغامرة .

* * *

الفصل السابع والثلاثون

تشريح الثورة

١٧٧٤ — ٨٩

لقد فحصنا فكر فرنسا عشية الثورة — فحصنا فلسفتها ، ودينها ، وأخلاقها ، وسلوكها ، وأدبها ، وفنها . ولكن هذه كانت أزهاراً هشة نبتت من أرض اقتصادية ، ولا قدرة لنا على فهمها إن لم نلم بجذورها ، لا بل إننا لن نفهم حقيقة ذلك الزلزال السياسي الذى أطاح بـ « النظام القديم » دون أن نفحص كل جهاز من أجهزة الاقتصاد الفرنسي ، كل بدوره ولو فى إيجاز ، ونرى كيف عاونت حالته على مجىء هذه القارعة الكبرى .

وعلينا ونحن نعود مرة أخرى إلى تناول الزراعة والصناعة والمالية أن نتذكر أنها ليست لوحات تجريدية قابضة للصدر بل كائنات بشرية حية حساسة : نبلاء وفلاحون ينظمون إنتاج الطعام ؛ ومديرون وعمال يصنعون السلع ؛ ومخترعون وعلماء يصوغون طرائق وأدوات جديدة ؛ ومدن تشغى بالمتاجر والمصانع ، وربات بيوت مهمومات وجماهير رعاع متمرده ؛ وثغور ومراكب تزخر بالتجار ، والملاحين ، والبحارة ، والرجال المغامرين ؛ ومصرفيون يغامرون بالمال ويكسبونه ويخسرونه مثل نكير ، وبالحياة مثل لافوازييه ؛ ثم تدفق الأفكار والسخط الثوريين وضغطهما خلال هذا الكل الهائج المضطرب ، أنها لصورة معقدة رهيبة .

١ — النبلاء والثورة

كان عدد الفرنسيين ٢٤,٦٧٠,٠٠٠ رجل وامرأة وطفل ، وهكذا قدر نكير عدد السكان فى ١٧٨٤[1] . فقد تصاعد عددهم من ١٧,٠٠٠,٠٠٠

فى ١٧١٥ بفضل زيادة إنتاج الطعام وتحسن وسائل حفظ الصحة وانعدام الغزو الأجنبي والحرب الأهلية ، وحظيت الأمة فى مجموعها بازدياد الرخاء خلال القرن الثامن عشر ، ولكن أكثر الثراء الطارىء انحصر فى الطبقة الوسطى[٢] .

وكان كل الفرنسيين ريفيين فيما عدا مليونين من الأنفس ، والحياة الزراعية يديرها النظار الملكيون ، والمديرون الاقليميون ، وكهنة الأبرشيات ، والسادة — أى أمراء الإقطاع — الذين قدر عددهم فى ١٧٨٩ بنحو ٢٦,٠٠٠ . هؤلاء وأبناؤهم خدموا وطنهم فى الحرب بأسلوبهم الأنيق العتيق (وقد أصبحت السيوف الآن حلية أكثر منها سلاحاً) . ولم تبق إلا قلة من النبلاء فى البلاط ، أما السواد الأعظم فعاشوا فى ضياعهم . وزعموا أنهم يكسبون دخولهم بتوفير الإدارة الزراعية ، والرقابة البوليسية ، والمحاكم ، والمدارس ، والمستشفيات ، والإحسانات . على أن معظم هذه المهام كانت قد تلقاها عمال للحكومة المركزية ، وكان الملاك من الفلاحين يطورون نظمهم الهادفة إلى الإدارة المحلية ، وهكذا باتت طبقة النبلاء عضواً أثرياً ، يأخذ الدم الكثير من الكائن الاجتماعى ، ولا يعطيه لقاء ذلك إلا القليل بخلاف الخدمة العسكرية . وحتى هذه الخدمة أثارت شكوى عامة ، لأن النبلاء أقنعوا لويس السادس عشر (١٧٨١) بأن يحرم من جميع المناصب الكبرى فى الجيش والبحرية والحكومة كل من لا يظاهره أربعة أجيال من الأستقراطية .

ثم رمى النبلاء فوق هذا بأنهم تركوا مساحات شاسعة من ضياعهم بورا فى الوقت الذى يجوع فيه للخبز الآلاف من سكان المدن . ويصدق على الكثير من بقاع فرنسا هذا الوصف الذى كتبه آرثر ينج عن قطاعى الأوار ونهر شير : « ان الحقول مسرح للإدارة المهلهلة ، كما أن البيوت شاهد على الفقر المدقع . ومع ذلك فإن هذه البلاد كلها قابلة جداً للتحسن لو عرفوا ما ينبغى أن يصنعوه بها »[٣] . وكان عدد غير قليل من النبلاء فقراء ،

(*) قام آرثر يونج ، أحد وجوه المزارعين الانجليز ، برحلات فى القارة فى ١٧٨٧ و ١٧٨٨ و ١٧٨٩ وروى مشاهداته فى « رحلات فى فرنسا » (١٧٩٢) وفى آرائه بعض التحيزات الانجليزية (« خذ جماع الجنس البشرى ، تجد فى انجلترة فى نصف ساعة قدرا من حسن الادراك أكثر مما تجده فى فرنسا فى نصف سنة (٤) .) ولكن يبدو انه قدم لنا وصفا منصفا موثوقا به لما رأى . وسنراه يذكر الثراء كما يذكر الفقر . وأهم مآخذه على فرنسا تتركز فى تخلفها التكنولوجى ، وحكومتها المسرفة فى المركزية ، والقهر ، والارستقراطية .

بعضهم لنقص كفايتهم ، وبعضهم لسوء طالعهم ، وبعض لإرهاق أرضهم . وقد التمس كثير من هؤلاء المعونة من الملك ، وتلقى العديد منهم منحا من خزانة الدولة .

أما القنية بمعنى ارتباط الشخص قانوناً بقطعة من الأرض وخضوعه بصفة دائمة لمالكها فى أداء الرسم والخدمات ، فكانت قد اختفت من فرنسا إلى حد كبير فى ١٧٨٩ ، وبقى نحو مليون من الأقنان أكثرهم على الأملاك الديرية . فلما حرر لويس السادس عشر الأقنان العاملين على الأراضى الملكية (١٧٧٩) ، سوف برلمان فرانسن — كونتيه (فى شرق فرنسا) تسعة أشهر حتى سجل مرسومه . ورفض الاقتداء بالملك كنيسة لوكسوى ودير فونتين ، ومجموع ما لديهما أحد عشر ألف قن ، ودير سان — كلود فى مديرية الجورا الحالية ، وكان لديه عشرون ألف قن ، وذلك رغم عدة نداءات انضم فيها إلى فولتير عدد من الكنيسيين[٥] . على أن هؤلاء الأقنان اشتروا حريتهم شيئاً فشيئاً ، أو نالوها بالهروب ثم ألغى لويس السادس عشر فى ١٧٧٩ حق المالك فى مطاردة الأقنان الآبقين خارج أملاكه .

ومع أن ٩٥٪ من الفلاحين كانوا أحراراً فى ١٧٨٩ ، إلا أن السواد الأعظم منهم ظلوا خاضعين لحق أو أكثر من الحقوق الإقطاعية التى تختلف فى الدرجة من اقليم لآخر . وكانت تشمل إيجاراً سنوياً (ضوعف فى القرن الثامن عشر) ، ورسماً نظير حق التوريث ، وأجراً عن استعمال مطحن السيد وأفرانه ومعاصره وبركة سمكه — التى كانت كلها حكراً له . وقد احتفظ بحق مطاردة طرائده حتى داخل محاصيل الفلاح ، وسيج مساحات متزايدة من الأرض المشاع التى كان الفلاح يحتطب منها ويطلق فيها ماشيته لترعى . أما السخرة فقد خففت فى معظم أرجاء فرنسا إلى ضريبة تدفع نقداً ، ولكن ظل الفلاح فى أوفرن ، وشمبانيا ، وأرتوا ، واللورين ، مطالباً بأن يبذل للإقطاعى المحلى كل سنة ثلاثة أيام أو أربعة من العمل الذى لايتقاضى عنه أجرا ، وذلك لصيانة الطرق البرية والجسور والطرق المائية[٦] . ويمكن القول أن الحقوق الإقطاعية الباقية اقتطعت فى جملتها ومتوسطها

عشرة فى المائة من إنتاج الفلاح أو دخله ، ثم اقتطعت ضريبة العشور الكنيسية نسبة أخرى تتفاوت بين ثمانية وعشرة فى المائة . فإذا أضيف إلى هذا الضرائب المدفوعة للدولة ، وضرائب السوق والبيوع ، والرسوم المدفوعة لكاهن الأبرشية نظير مراسم العماد والزواج والدفن ، لم يبق للفلاح إلا نحو نصف ثمرات كده .

ولما كانت قيمة المبالغ النقدية التى يتسلمها السادة الإقطاعيون تتناقص بهبوط قيمة العملة ، فقد حاولوا حماية دخلهم بزيادة الرسوم ، وإحياء رسوم عفى عليها الدهر ، وتسييج المزيد من الأرض المشاع . وكانت جباية الرسوم تعهد عادة إلى ملتزمين محترفين كثيراً مالا يعرفون الرحمة فى أداء عملهم . فإذا تشكك الفلاح فى حق السيد فى رسوم معينة قيل له أنها مدرجة فى قوائم الضياع أو سجلاتها . فإذا تحدى صحة هذه القوائم رفع الأمر إلى المحكمة الإقطاعية أو إلى البرلمان الإقليمى الذى كان سادة الإقطاع يهيمنون عليهم[7] . وحين نشر بونسير ، بتشجيع طور جوسرا ، (١٧٧٦) كراسة عنوانها « مساوىء الحقوق الإقطاعية » أوصى فيها باختزال هذه الحقوق ، لامه برلمان باريس . وانبرى فولتير لخوض المعركة من جديد وقد بلغ الثانية والثمانين ، فكتب يقول : إن اقتراح إلغاء الحقوق الإقطاعية يعدل مهاجمة أملاك السادة أعضاء البرلمان أنفسهم ، الذين يمتلك معظمهم إقطاعات . . . أنها قضية الكنيسة ، والنبلاء ، وأعضاء البرلمان . . . متضافرين ضد العدو المشترى — أى الشعب »[8] .

على أن هناك ما أمكن أن يقال دفاعاً عن الحقوق الإقطاعية فهى من وجهة نظر النبيل رهن عقارى قبله الفلاح بمحض حريته كجزء من الثمن الذى اشترى به قطعة أرض من مالكها الشرعى — الذى كان فى كثير من الحالات قد اشتراها بحسن نية مالكها السابق . وكان بعض النبلاء الفقراء يعتمدون فى قوتهم على هذه الرسوم . وكان الفلاح يعانى من شر الضرائب ، والعشور ، ومطالب الحرب وغاراتها أكثر كثيراً مما يعانى من الرسوم الإقطاعية . استمع إلى أعظم وأشرف الاشتراكيين الفرنسيين وهو جان —

جوريه يقول « لو لم يكن فى المجتمع الفرنسى فى القرن الثامن عشر مساوىء غير تلك البقايا التافهة لذلك النظام (الإقطاعى) ، لما دعت الحاجة لثورة تشفى هذا الجرح المتقرح ، ولكان اختزال الحقوق الإقطاعية تدريجياً وتحرير الفلاحين كفيلا بإحداث التغيير بطريقة سلمية [٩] .

وكان أبرز ملامح طبقة النبلاء الفرنسيين اعترافها بالذنب ، إذ لم يقتصر الأمر على انضمام الكثير من النبلاء إلى جماعة الفلاسفة فى رفض اللاهوت القديم ، بل ان بعضهم كما رأينا سخر من امتيازات طبقتهم التى عفى عليها الزمن[١٠] . وقبل الثورة بسنة عرض ثلاثون نبيلا أن يتنازلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية المالية[١١] . وكلنا يعرف مثالية الشاب لافاييت الذى لم يكتف بالقتال دفاعاً عن أمريكا بل حال عودته إلى فرنسا خاض بقوة ذلك الكفاح فى سبيل الإصلاح السلمى ، وقد ندد بالرق ، ورصد جانباً من ثروته ليعتق العبيد فى جيانا الفرنسية[١٢] . وفشا الجهر بالمبادىء الليبرالية « والدفاع عن الإصلاح » فى شطر من الأرستقراطيين لاسيما حاملات الألقاب مثل النبيلات لا مارك ، ودبوفليه « ودبريين » ودلكسمبور . ولعب مئات من الأشراف والأساقفة دوراً نشيطاً فى الحملات التى شنت لتحقيق المساواة فى الضرائب ، والحد من الإسراف الحكومى « وتنظيم أعمال البر ، وإنهاء السخرة[١٣] . وبذل بعض الأشراف ، كدوقة بوربون ، معظم ثروتهم للفقراء[١٤] .

على أن هذا كله لم يكن إلا حيلة لطيفة فوق الواقع الواضح للعيان ، وهو أن طبقة النبلاء الفرنسيين لم تعد تستأهل قوتها . صحيح أن كثيرين منهم حاولوا الاضطلاع بمسئولياتهم التقليدية ، غير أن المفارقة بين التبطل المترف الذى يرتع فيه الإقطاعيون الأثرياء وبين شظف العيش الذى تعانيه جماهير أشرفت غير مرة على المجاعة ، أثارت العداء والاحتقار . وقبل ذلك بزمن مديد أصدر رجل ، كان هو نفسه نبيلا عظيماً ، حكم الإعدام على طبقته ، فلنستمع إلى رينيه — لوى دفواييه ، مركيز دارجنسون ، وزير الدولة (١٧٤٤ - ٤٧) يكتب حوالى ١٧٥٢ :

« لابد من القضاء على سلالة السادة العظام قضاء مبرما . وأعنى بالعظام أصحاب الألقاب والأملاك والمشور والمناصب والوظائف » الذين يتبوأون المقام الرفيع رغم أنهم بلا كفايات وأنهم ليسوا بالضرورة راشدين ، فهم لذلك عديمو القيمة فى كثير من الأحايين . . . وإنى ألاحظ أن الناس يحافظون على سلالة من كلاب الصيد الأصلية ، ولكن متى تدهورت السلالة قضوا عليها »[١٥] .

هؤلاء السادة بعينهم ، الأغنياء ، المتكبرون ، الذين لا وظيفة لهم فى الغالب ، هم الذين بدأوا الثورة . ذلك أنهم كانوا ينظرون بحسرة إلى العهد الذى سبق ريشليو ، يوم كانت طبقتهم هى السلطة الحاكمة فى فرنسا . وحين أكدت البرلمانات حقها فى إبطال المراسم الملكية ، انضم نبلاء الدم والسيف إلى نبلاء الرداء — وهم القضاة الوراثيون — فى محاولة لإخضاع الملك . وهللوا لخطباء البرلمان الذين رددوا صيحة « الحرية » وشجعوا الشعب وكتاب الكراريس على التنديد بسلطة لويس السادس عشر المطلقة . وليس فى وسعنا أن نلومهم على هذا ، غير أنهم بإضعافهم سلطة الملك مكنوا ١٧٨٩ الجمعية التشريعية التى تهيمن عليها الطبقة البورجوازية من أن تستحوذ على السيادة فى فرنسا . وهكذا دق النبلاء أول مسمار فى نعشهم .

٢ — الفلاحون والثورة

كان أكثر العمل الزراعى المؤدى على الخمسة والخمسين فى المائة من أرض فرنسا الذى يمتلكه النبلاء ورجال الدين والملك ، يؤديه محاصصون يأخذون المواشى والأدوات والبزار من المالك ويدفعون له نصف المحصول عادة . وكان هؤلاء المحاصصون بوجه عام فقراء معدمين حتى لقد حكم آرثر ينج على هذا النظام بأنه « لعنة البلاد بأسرها وخرابها »[١٦] ، ومرد ذلك ضعف الحوافز أكثر من قسوة الملاك .

أما أغلبية الملاك الفلاحين الذين زرعوا خمسة وأربعين فى المائة من الأرض فقد قضى عليهم بالفقر صغر مساحة أراضيهم . الأمر الذى حد

من استعمال الآلات الزراعية استعمالا راجحاً . وتخلفت التكنولوجيا الزراعية في فرنسا عن نظيرتها في انجلترا . صحيح كان هناك مدارس زراعية ومزارع نموذجية ، ولكن لم يفد منها غير قلة من المزارعين . ولعل ستين في المائة من الملاك الفلاحين كانوا يملكون أقل من الهكتارات الخمسة (نحو ثلاثة عشر فداناً) اللازمة لإعاشة الأسرة ، واضطر الرجال للعمل فعلة أجراء على المزارع الكبيرة . وقد ارتفعت أجور فعلة المزارع اثنى عشر في المائة بين ١٧٧١ و ١٧٨٩ ، ولكن الأسعار ارتفعت في الفترة ذاتها خمسة وستين في المائة أو أكثر[١٧] . ومع أن الإنتاج الزراعي ارتفع خلال حكم لويس السادس عشر ، فإن الأجراء من الفلاحين ازدادوا فقراً ، وألفوا بروليتاريا ريفية كانت في فترات العمالة الراكدة بمثابة محمل تفريخ ينتج حشوداً من المتسولين والمتشردين . وقد ذهب شامفور إلى أنه « لاجدال في أن بفرنسا سبعة ملايين رجل يتسولون » واثنى عشر يعجزون عن التصدق »[١٨] .

ولعل فقر الفلاحين قد بالغ الرحالة في وصفه لأن أول ما استرعى ملاحظتهم كان الأحوال الظاهرة ؛ فهم لم يروا العملة والسلع المخبأة هرباً من عين مقدر الضريبة . وتتضارب التقديرات المعاصرة لهذه الفترة . فقد وجد آرثر ينج مناطق يعمها الفقر والتوحش والقذارة كما في بريتاني ، ومناطق فيها الثراء والكبرياء كما في بيارن[١٩] . ويمكن القول عموماً أن الفقر في ريف فرنسا عام ١٧٨٩ لم يكن مدقعاً كما كان في إرلنده ، ولا أسوأ منه في أوربا الشرقية أو في بعض الأحياء الفقيرة المزدحمة في المدن « الغنية » في وقتنا الحاضر ، ولكنه كان أسوأ منه في انجلترا أو في وادى بو المعطاء أبدا . وتشير أحدث الدراسات إلى أنه «كان هناك أزمة زراعية في نهاية النظام القديم »[٢٠] . فإذا جاء القحط والمجاعة . كما حدث في ١٧٨٨ — ٨٩ بلغت معاناة الفلاحين لاسيما في جنوبي فرنسا مبلغاً لم ينج فيه نصف السكان من التضور جوعاً إلا بفضل الصدقات التي وزعتها الحكومة والكهنة .

وكان على الفلاح أن يدفع ما يفرض عليه أداؤه للدولة والكنيسة والنبلاء ، ووقعت ضريبة التاى — أي ضريبة الأرض — كلها تقريباً على كاهله ، وكان يقدم كل الرجال اللازمين لمشاة الجيش أو جلهم . وقد تحمل عبء

احتكار الحكومة للملح . وكان الفضل لجهده فى صيانة الطرق والجسور والقنوات . ولعله كان مؤدياً العشور برضى أكثر — فهو رجل « يخاف الله » والعشور تجبى جباية رحيمة ، وندر أن أقتضته عشر دخله بالضبط[٢١] ، ولكنه رأى أكثرها يترك الأبرشيه ليعول أسقفا فى بلد ناء ، أو كنسياً عاطلا فى البلاط ، بل حتى علمانياً اشترى حصة فى العشور المستقبله . وقد خفف لويس السادس عشر عبء الضريبة المباشرة على الفلاح ، ولكن الضرائب غير المباشرة زيدت فى كثير من الأقاليم[٢٢] .

فهل كان فقر الفلاح سبب الثورة ؟ لقد كان فقره عاملا دراميأ فى مركب من أسباب عدة . كان أفقر الفقراء أعجز من أن يثوروا ؛ فى استطاعتهم أن يرفعوا أصواتهم طلباً للغوث ، ولكنهم لا يملكون الوسيلة ولا الهمة لتنظيم الثورة ، إلى أن استنفرهم المزارعون الأكثر ثراء وعملاء الطبقة الوسطى ، وانتفاضات رعاع باريس . على أنه حين وهنت قوى الدولة نتيجة تطور الشعب الفكرى ، وحين سرت عدوى الأفكار الراديكالية إلى الجيش سرياناً خطراً ، وحين لم تعد السلطات المحلية قادرة على الاعتماد على التأييد الحربى يأتيها من فرساى — عندها أصبح الفلاحون قوة ثورية ، فتجمعوا ، وتبادلوا الشكاوى والعهود ، وتسلحوا ، وهاجموا القصور الريفية ، وأحرقوا بيوت الإقطاعيين المتغطرسين ، ودمروا السجلات الإقطاعية التى استشهدوا بها على صحة الحقوق الإقطاعية ، هذا العمل المباشر ، الذى هدد بتدمير شامل لأملاك الإقطاعيين ، هو الذى روع النبلاء فنزلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية (٤ أغسطس ١٧٨٩) . ووضعوا بذلك نهاية شرعية للنظام القديم .

٣ — الصناعة والثورة

فى موضوع الصناعة على الأخص تغيم الصورة السابقة للثورة وتتعقد(١) . فالصناعة البيتية — صناعة الرجال والنساء والأبناء فى البيت — كانت تخدم التجار الذين يوفرون المادة ويشترون الناتج(٢) ؛ والطوائف الحرفية — المعلمون ، وعمال اليومية ، والصبية — كانت تنتج السلع اليدوية لتلبية الاحتياجات المحلية بنوع خاص . وقد عمرت هذه الطوائف حتى الثورة ، ولكن فى

١٧٨٩ كان قد أوهنها غاية الوهن نمو(٣) المشروعات الحرة الرأسمالية — وهي شركات كان لها أن تجمع رأس المال من أى مصدر ، وأن تستأجر أى إنسان . وأن تبتكر وتطبق أساليب جديدة فى الإنتاج والتوزيع ، وأن تتنافس مع أى إنسان ، وأن تبيع فى أى مكان . وكانت هذه المؤسسات عادة صغيرة ولكنها أخذت تتكاثر ، فكان فى مرسليا وحدها عام ١٧٨٩ ثمانية وثلاثون مصنعاً للصابون ، وثمانية وأربعون للقبعات ، وثمانية للزجاج ، واثنا عشر لتكرير السكر وعشر مدابغ[٢٣] . أما فى المنسوجات ، والبناء ، والتعدين ، وتصنيع المعادن ، فقد اتسعت الرأسمالية وغدت مشروعات واسعة النطاق ، وكان هذا عادة بفضل شركات المحاصة .

وكانت فرنسا بطيئة فى الأخذ بآلات النسيج التى كانت آنئذ تفتتح الثورة الصناعية فى انجلترا ، ولكن مصانع نسيج كبيرة كانت تدور دواليبها فى آبفيل ، وأميان ، ورامس ، وباريس ، ولوفييه ، وأورليان ، وازدهرت صناعة الحرير فى ليون . وكانت صناعات المعمار تقيم تلك العمائر الضخمة ذات الشقق ، التى مازالت تضفى على المدن الفرنسية ملامحها المميزة . وكانت صناعة السفن تشغل آلاف العمال فى نانت ، وبوردو ، ومارسليا ، أما التعدين فكان أكثر الصناعات الفرنسية تقدماً . وقد احتفظت الدولة بجميع الحقوق فى التربة السفلية ، وأجرت المناجم لأصحاب الامتياز ، وفرضت قانون أمن للمعدنين[٢٤] ، وحفرت الشركات مداخل للمناجم وصل عمقها إلى ثلاثمائة قدم ، وركبت أجهزة غالية للتهوية ، والصرف ، والنقل ، وخلقت أصحاب ملايين . وكان لشركة انزان (١٧٩٠) أربعة آلاف عامل ، وستمائة حصان ، واثنتا عشرة آلة بخارية ، وكانت تستخرج ٣١٠,٠٠٠ طن من الفحم فى العام . وقد وفر استخراج الحديد وغيره من المعادن المادة لصناعة معدنية متسعة . وفى ١٧٨٧ جمعت شركة كروزو المساهمة رأسمال قدره عشرة ملايين جنيه لاستخدام أحدث الآلات فى إنتاج المصنوعات الحديدية ، وكانت الآلات البخارية تشغل المنافيخ ، والمطارق ، والمثاقب ، ومكنت السكك الحديدية الجواد الواحد من أن يجر ما كان يحتاج جره من قبل إلى خمسة جياد .

وقد ابتكر الفرنسيون بعض الاختراعات المذهلة في هذه السنين . ففي ١٧٧٦ رفه المركيز جوفروا عن الجماهير المحتشدة على نهر دوب بمنظر قارب تحركه آلة بخارية ، وذلك قبل أن يبحر زورق فولتن « كليرمونت » التجارية في نهر هدسن ذهاباً وإياباً . بل أدهش من هذا كانت الخطوات الأولى في غزو الفضاء . ففي ١٧٦٦ أثبت هنرى كافندش أن للهيدروجين كثافة أقل من الهواء ، واستنتج جوزف بلاك أن كيساً يملأ بالهيدروجين يستطيع الصعود في الجو . وعكف جوزف وإتيين مونجولفييه على تجاربهما على هدى المبدأ القائل بأن الهواء تقل كثافته إذا سخن ؛ وفي ٥ يونيو ١٧٨٣ ، في انونيه قرب ليون ، ملأ بالوناً بالهواء المسخن ، فارتفع إلى علو ألف وستمائة قدم ، ثم هبط بعد عشر دقائق حين برد هواؤه . وصعد بالون مملوء بالهيدروجين صممه جاك — الكسندر شارل من باريس في ٢٧ أغسطس ١٧٨٣ على مشهد من ٣٠٠,٠٠٠ متفرج يهتفون له ، فلما هبط على بعد خمسة عشر ميلا مزقه حشد من القرويين إرباً زاعمين أنه عدو مغير من الجو [٢٥] . وفي ١٥ أكتوبر قام جان — فرنسوا بيلاتر دروزييه بأول طيران مدون للإنسان ، مستخدماً بالوناً كبالون مونجولفييه به هواء مسخن ، واستمر صعوده أربع دقائق . وفي ٧ يناير ١٧٨٥ طار الفرنسي فرنسوا بلانشار ، والفزيائي الأمريكي جون جفريز ، في بالون من انجلترة إلى فرنسا . وبدأ الناس يتحدثون عن الطيران إلى أمريكا [٢٦] .

وزكت مدن فرنسا خلال هذا العهد الحاسم بعد أن غذتها الصناعة والتجارة . فكانت ليون تشغى بالحوانيت والمصانع والمشروعات . وذهل آرثر ينج لفخامة بوردو . وأصبحت باريس الآن مركزاً تجارياً أكثر منه سياسياً ، فكانت بمثابة القلب لمجمع اقتصادى يهيمن على نصف عاصمة فرنسا ، ومن ثم على نصف اقتصادها . وكان يسكنها عام ١٧٨٩ نحو ٦٠٠,٠٠٠ نسمة [٢٧] . ولم تكن وقتها مدينة ذات جمال رائع ، وقد وصف فولتير الكثير منها بأنه جدير بالقوط والفندال [٢٨] . وقال بريستلى الذى زارها في ١٧٧٤ : « لا أستطيع الزعم بأنه قد راعنى شيء منها غير اتساع

العمائر العامة وبهائها » وفى مقابل هذا ساءنى كثيراً ضيق أكثر الشوارع وقذارتها ونتنها »[٢٩] . ومثل هذا الوصف كتبه ينج :

« ان تسعة أعشار الشوارع قذر ، وكلها خلو من أرصفة المشاه . والمشى — الذى تجده فى لندن غاية فى الإمتاع والنظافة بحيث تمارسه السيدات يومياً — هو هنا كد وعناء للرجل ، وضرب من المحال على المرأة الأنيقة الثياب . . وعربات الركوب كثيرة » وأسوأ من ذلك كثيراً ذلك العدد الهائل من « الكبريلات » التى يجرها حصان واحد ويسوقها الفتيان العصريون ومقلدوهم . بسرعة فائقة . . . تجعل الشوارع بالغة الخطر . . . وقد لطخنى أنا نفسى رشاش الوحل غير مرة »[٣٠] .

وأخذت طبقة من العمال الكادحين « بروليتاريا » تتشكل فى المدن كبيرها وصغيرها ، رجال ونساء ، وأطفال يعملون لقاء أجر بأدوات ومواد ليست ملكاً لهم . ولا يتوافر لدينا إحصاء عنهم ، ولكن قدر عددهم فى باريس عام ١٧٨٩ بـ ٧٥,٠٠٠ أسرة ، أو ٣٠٠,٠٠٠ فرد[٣١] . وكان هناك أعداد كبيرة بهذه النسبة فى آبفيل « وليون » ومرسليا . وكانت ساعات العمل طويلة والأجور ضئيلة ، لأن حكماً أصدره برلمان باريس (١٢ نوفمبر ١٧٧٨) حظر على العمال تنظيم أنفسهم . وقد ارتفعت الأجور ما بين عامى ١٧٤١ و ١٧٨٩ اثنين وعشرين فى المائة ، وارتفعت الأسعار خمسة وستين فى المائة[٣٢] ، ويبدو أن حال العمال تدهور فى عهد لويس السادس عشر[٣٣] . فلما قل الطلب ، أو اشتدت المنافسة الأجنبية (كما حدث فى ١٧٨٦) ، طردت أعداد كبيرة من العمال فأصبحوا كلا على البر والإحسان . وكادت آلاف الأسر تموت جوعاً عندما ارتفع ثمن الخبز ، الذى كان قوام نصف طعام الجماهير الباريسية[٣٤] . وكان ثلاثون ألف شخص يتلقون الإغاثة العامة فى ليون عام ١٧٨٧ ، واشتد فقر ثلثى سكان رامس فى ١٧٨٨ عقب أحد الفيضانات . وفى باريس عام ١٧٩١ قيدت مائة ألف أسرة على أنها معوزة[٣٥] . وكتب مرسييه حوالى ١٧٨٥ يقول « ان عامة الشعب فى باريس ضعاف الأبدان صفر الوجوه صغار الأجسام معوقو النمو وكأنهم طبقة تفردت عن سائر الطبقات فى الدولة »[٣٦] .

وألف العمال الاتحادات وأضربوا فى تحد لأوامر الحظر ففى ١٧٧٤ توقفوا عن العمل لارتفاع تكاليف المعيشة بأسرع من الأجور ، ولأن قوانين العرض والطلب غير المنظمة تهوى بالعمال إلى درك الكفاف لا أكثر . أما أرباب العمل الذين امتلأت مخازنهم بالطعام فقد انتظروا أن يكره الجوع العمال على طلب الصلح . ودفع الإحباط الكثير من العمال إلى الرحيل عن ليون قاصدين مدناً أخرى ، بل مهاجرين إلى سويسره أو إيطاليا ، ولكنهم أوقفوا على الحدود وأعيدوا إلى مواطنهم قسرا . وثار العمال ، واستولوا على مكاتب البلدية ، وأقاموا دكتاتورية قصيرة الأجل من البرولتاريا على الكومون . فاستدعت الحكومة الجيش الذى أخمد التمرد ، ثم شنق اثنان من زعماء العمال ، وعاد المضربون إلى ورشهم مقهورين ، يشعرون بالعداء نحو الحكومة وأرباب العمل على السواء [٣٧] .

وفى ١٧٨٦ عادوا إلى الإضراب ، مؤكدين أنهم عاجزون عن إعالة أسرهم حتى بمواصلة العمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ، شاكين من أنهم يعاملون « بأقسى مما تعامل به الحيوانات المنزلية ، فحتى هذه تعطى من الطعام ما يكفى لحفظها سليمة قوية »[٣٨] . ووافقت سلطات المدينة على منحهم علاوة ، ولكنها حظرت أى اجتماع يضم أكثر من أربعة أشخاص . واضطلعت كتيبة مدفعية بتنفيذ هذا الحظر ، وأطلق الجند الرصاص على المضربين فقتلوا عدة أشخاص ، وعاد المضربون إلى العمل وسحبت العلاوة منهم بعد ذلك [٣٩] .

وقد نشبت حوادث الشغب احتجاجاً على ارتفاع تكاليف المعيشة ، متفرقة طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فوقعت منها ستة فى نورمنديه بين عامى ١٧٥٢ ، و ١٧٦٨ ، وفى ١٧٦٨ سيطر القائمون بالشغب على روان ، ونهبوا مخازن الغلال الحكومية ، وسلبوا المتاجر ، ووقعت أحداث مماثلة فى رامس عام ١٧٧٠ ، وفى بواتيه عام ١٧٧٢ ، وفى ديجون وفرساى وباريس ويونتواز عام ١٧٧٥ ، وفى اكس — ان — برو فانس عام ١٧٨٥ ، ثم فى باريس عامى ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ [٤٠] .

فأى دور إذن لعبه فقر البرولتاريا ، أو فقر المدن عموماً ، فى إحداث الثورة ؟ لقد كان فى ظاهر الأمر سبباً مباشراً ، فالعجز فى الخبز وما ترتب عليه من شغب فى باريس فى ١٧٨٨ — ٨٩ رفع حمى الشعب إلى درجة كان فيها أفراده على استعداد للمغامرة بحياتهم فى تحدى الجيش والهجوم على الباستيل . على أن الجوع والغضب يستطيعان إعطاء القوة المحركة ، ولكنهما لا يعطيان القيادة ، ومن المحتمل أن حوادث الشغب كان يمكن تهدئتها بخفض سعر الخبز لو لم توجه القيادة من الطبقات الأعلى المتمردين للاستيلاء على الباستيل والزحف على فرساى . ثم ان الجماهير لم يكن لديها إلى ذلك الحين أى فكرة عن قلب الحكومة ، أو خلع الملك ، أو إقامة جمهورية . وكانت طبقة البرولتاريا تتحدث عن المساواة الطبيعية حديثاً يملؤه الأمل ، ولكنها لم تحلم بالاستيلاء على الدولة . لقد طالبت بتنظيم الدولة للاقتصاد — بينما عارضته البورجوازية — أو على الأقل بتحديد سعر الخبز ، ولكن هذا كان عودة للنظام القديم ، لا تقدماً نحو اقتصاد تهيمن عليه الطبقة العاملة . صحيح . أنه حين جد الجد كان رعاع باريس المدفوعون بالجوع والمحرضون من الخطباء والعملاء هم الذين استولوا على الباستيل ومنعوا بذلك الملك من استخدام الجيش ضد الجمعية الوطنية ، ولكن حين أعادت الجمعية تنظيم فرنسا كان ذلك بإرشاد البورجوازيين وتحقيقاً لأهدافهم .

٤ — البورجوازية والثورة

كان الملمح البارز للحياة الاقتصادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر هو صعود طبقة التجار ورجال الأعمال . وكانت قد بدأت تزكو أيام لويس الرابع عشر وكولبير ، وأفادت أعظم فائدة من الطرق والقنوات الممتازة التى يسرت التجارة ، وأثرت على الاتجار مع المستعمرات ، وارتفعت إلى مكان مرموق فى الوظائف الإدارية (حتى ١٧٨١) ، وهيمنت على مالية الدولة .

ولكن ازعجتها إلى حد التمرد تلك المكوس التى فرضت لصالح

الإقطاعيين أو الحكومة على الطرق والترع ، وذلك الفحص المضيع للوقت للشحنات عند كل محطة للمكوس وكان هناك ثلاثون إلى أربعين من هذه المكوس يجب أن يدفعها المركب الذى يحمل بضاعة من جنوبى فرنسا إلى باريس (٤١). وطالب رجال الأعمال بحرية التجارة داخل الحدود، ولكنهم لم يكونوا واثقين من رغبتهم فى هذه الحرية بين الأمم . وفى ١٧٨٦ . وبدافع من نظريات الفزيوقراطيين ، خفضت الحكومة التعريفات على المنسوجات والبضائع الحديدية الواردة من انجلتره ، مقابل خفض التعريفات الانجليزية على الخمور والزجاج والحاصلات الفرنسية الأخرى . وكان من نتائج هذا إصابة صناعة النسيج الفرنسية بضربة ، لأنها لم تستطع منافسة المصانع الانجليزية المجهزة بآلات أحدث . وبلغت البطالة فى ليون ، وأميان ، نقطة التفجر .

ومع ذلك دعم خفض التعريفات التجارة الخارجية وملأ خزائن طبقة التجار . وتضاعفت التجارة تقريباً بين عامى ١٧٦٣ و ١٧٨٧ ، ونيفت على بليون فرنك فى ١٧٨٠ (٤٢) . واكتظت مدن الثغور الفرنسية بالتجار ، والشاحنين ، والملاحين ، والمتاجر ، ومعامل التكرير ، ومصانع التقطير . فى تلك المدن كانت طبقة التجار ورجال الأعمال هى الغالبة قبل أن تكرس الثورة تفوقها القومى بزمان .

وجاء شطر من الثروة التجارية من قنص العبيد الأفارقة أو شرائهم ونقلهم إلى أمريكا وبيعهم هناك ليعملوا على المزارع الكبيرة ، وهو ما كانت عليه الحال فى انجلتره . فى ١٧٨٨ شحن تجار الرقيق الفرنسيون ٢٩,٥٠٦ زنجياً إلى سان – دومنج (هايتى) وحدها » (٤٣) . وكان المستثمرون الفرنسيون يمتلكون معظم الأرض والصناعات هناك وفى جوادلوب والمارتنيك . وفى سان – دومنج كان ثلاثون ألفاً من البيض يستخدمون ٤٨٠,٠٠٠ عبد (٤٤) . وتألفت فى باريس « جمعية أصدقاء السود » عام ١٧٨٨ برآسة كوندورسيه ، وكانت تضم بين أعضائها لافاييت وميرابو الابن ، وتستهدف إلغاء الرق ، غير أن الشاحنين أصحاب المزارع أغرقوا الحركة باحتجاجاتهم . وفى ١٧٨٩ صرحت غرفة بوردو التجارية بالآتى : « أن فرنسا تحتاج إلى مستعمراتها

لصيانة تجارتها ، ومن ثم تحتاج إلى عبيد حتى تصبح التجارة مجزية فى هذا الجزء من العالم ، على الأقل إلى أن يعثر على وسيلة أخرى»[٤٥] .

واحتاجت المشروعات الصناعية والاستعمارية وغيرها إلى رأس المال ، وولدت سلالة متكاثرة من المصرفيين ، وعرضت شركات الحاصة السندات ، وطرحت الحكومة أسهم القروض ، وتطورت المضاربة فى بيع وشراء السندات المالية ، واستأجر المضاربون صحفيين لبث الشائعات المقصود بها رفع أسعار الأسهم أو خفضها[٤٦] . وشارك أعضاء الوزارات فى المضاربة ، فأصبحوا خاضعين لضغط المصرفيين أو نفوذهم . وكانت كل حرب تزيد من اعتماد الدولة على الماليين ، وتزيد من اهتمام الماليين اهتماماً جدياً بسياسة الدولة وقدرتها على الوفاء بديونها . وحظى بعض المصرفيين بثقة شخصية تفوق الثقة فى الحكومة ، ومن ثم استطاعوا أن يقترضوا بفائدة منخفضة ، ويقوضوا الحكومة بفائدة أعلى ، ويزيدوا ثروتهم بإمساك دفاترهم لا أكثر — مادام حكمهم صائباً وما دامت الدولة تدفع ديونها .

وتعاظم ثراء الملتزمين العامين (وهم الماليون الذين كانوا يشترون حق جباية الضرائب غير المباشرة بتقديمهم قرضاً للحكومة) واشتد كره الناس لهم ، وذلك لأن الضرائب غير المباشرة ، كضرائب البيوع عموماً ، كانت أفدح ما تكون على من يضطرون لإنفاق الكثير من دخلهم على ضروريات الحياة اليومية . وكان بعض هؤلاء الملتزمين مثل هلفتيوس ولافوازييه ، رجالا ذوى نزاهة نسبية وروح وطنية ، أسخياء فى مساهمتهم فى البر والآداب والفنون[٤٧] . وتبينت الحكومة مساوىء نظام الالتزام هذا ، وخفضت عدد الملتزمين من ستين إلى أربعين فى ١٧٨٠ ، ولكن عداء الشعب لهم استمر . وقد ألغت الثورة النظام ، وكان رأس لافوازييه أحد الرءوس التى تهاوت فى هذه العملية .

ولما كان نظام الضرائب قد لعب دوراً قيادياً بين أسباب الثورة ، فلابد لنا من أن نذكر القارىء مرة أخرى بمختلف الضرائب التى كان الفرنسيون يدفعونها . (١) كانت التاى ضريبة على الأرض والأملاك الشخصية . وقد

أعفى الأشراف منها لمـا يؤدونه من خدمة حربية . وأعفى الأكليروس لأنهم يحفظون النظام الاجتماعى ويصلون من أجل الدولة ، وأعفى القضاه وكبار الإداريين ، وموظفو الجامعات . ووقع كل الضريبة تقريباً على كاهل ملاك الأرض من الطبقة الثالثة — ومن ثم على الفلاحين فى المقام الأول. (٢) ضريبة الرءوس وكانت تفرض على كل رأس فى الأسرة . ولم يعف منها غير الأكليروس (٣) الضريبة العشرينية وكانت ضريبة على الملكية كلها عقارية أو شخصية ، ولكن النبلاء تهربوا من شطر كبير منها ومن ضريبة الرءوس باستخدام النفوذ الخاص ، أو استخدام المحامين ليعثروا على ثغرات فى القانون ، وتفادى الأكليروس الضريبة العشرينية بعطاء اختيارى دورى للدولة (٤) كانت كل مدينة تدفع ضريبـة للحكومة وتفرضها على مواطنيها . (٥) فرضت الضرائب غير المباشرة بهذه الوسائل : (أ) مكوس النقل . (ب) مكوس الاستيراد والتصدير . (حـ) رسوم الإنتاج على الأنبذة والمسكرات والصابون والجـلد والحديد وورق اللعب الخ . (د) الاحتكارات الحكومية لبيع التبغ والملح ، فكان على كل فرد أن يشترى كل عام حداً أدنى مقرراً من الملح من الحكومة بالسعر الذى تحدده . وكان دائماً أعلى من سعر السوق . وكانت ضريبة الملح (الجابل) هذه من أكبر أسباب شقاء الفلاح (٦) كان الفلاح يدفع ضريبة لينجو من السخرة . وبلغت جملة ما يدفعه الفرد من الطبقة الثالثة فى المتوسط من الضرائب اثنين وأربعين إلى ثلاثة وأربعين فى المائة من دخله [٤٨] .

فإذا أخذنا التجار وأصحاب المصانع ورجال المال والمخترعين والمهندسين والعلماء وصغار البيروقراطيين والكتبة وأصحاب الحوانيت والكيميائيين والفنانين والكتبية والمعلمين والمؤلفين والفزيائيين والمحامين والقضاء من غير ذوى الألقاب — إذا أخذنا هؤلاء جملة باعتبارهم المؤلفين للطبقة البورجوازية ، أمكننا أن نفهم كيف أنها فى ١٧٨٩ كانت قد أصبحت أغنى وأنشط شطر من الأمة . ولعلها كانت تملك من الأرض الريفية قدر ما تملكه طبقة النبلاء [٤٩] . وكان فى استطاعتها اكتساب النبالة بمجرد شراء إقطاعة نبيلة

أو وظيفة من وظائف « السكرتيرين » الكثيرة للملك . وبينما خسرت الطبقة النبيلة النفر والمال بفعل البطالة والإسراف والتحلل البيولوجي ، وخسر الأكليروس الأرض الصلبة بصعود العلم والفلسفة ، والحياة والناموس الأبيقوريين الحضريين ، إزدادت الطبقات الوسطى ما لا رقوة بفضل تطور الصناعة والتكنولوجيا والتجارة والمالية ، فلأت بغلاتها أو وارداتها الحوانيت (البوتيكات) التي أدهش بهاؤها الزوار الأجانب الذين ألموا بباريس أوليون أورامس أو بوردو[٥٠] . وبينما كانت الحروب تفقر الحكومة كانت تغني الطبقة البورجوازية التي قدمت النقل والمواد . وقد انحصرت أكثر الثروة المتعاظمة في المدن ، وهربت من الفلاحين والعمال وظهرت أوضح ما تكون في التجار والماليين . فكان أربعون تاجراً فرنسياً يملكون في ١٧٨٩ ثروة جملتها ستون مليون جنيه[٥١] ، وجمع مصرفي واحد هو باري — مونمارتل مائة مليون[٥٢] .

أما السبب الأساسي في الثورة فهو تلك المفارقة بين الواقع الاقتصادي والنظم السياسية ، بين أهمية الطبقة البورجوازية في إنتاج الثروة وتملكها وبين إقصائها عن القوة السياسية . وكانت الطبقة الوسطى الراقية على وعي بقدراتها وحساسة للاستخفاف بها . وأحفظها انغلاق طبقة النبلاء الاجتماعي ووقاحتها — كما حدث لامرأة ألمعية هي مدام رولان حين دعيت للمكث حتى تتناول العشاء في بيت أرستقراطي ، ثم وجدت الطعام يقدم لها في جناح الخدم[٥٣] . وقد رأى البورجوازيون طبقة النبلاء تستنزف مال الدولة في الإنفاق المسرف والولائم الباذخة في الوقت الذي أنكر فيه المنصب أو الترقية السياسية أو الحربية على الرجال الذين وسعوا بجرأتهم وابتكارهم اقتصاد فرنسا الجالب للضرائب ، والذين تدعم مدخراتهم الخزانة الآن ، ثم رأو الأكليروس يلتهمون ثلث دخل الأمة في الإبقاء على لاهوت عده كل الفرنسيين المتعلمين تقريباً طفلياً وأثرا متخلفا من تراث العصر الوسيط .

ولم يكن بالطبقات الوسطى رغبة في الإطاحة بالملكية ، ولكنها تطلعت إلى الهيمنة عليها . ولم يكن بها رغبة قط في الديمقراطية ، ولكنها أرادت

حكومة دستورية ، يمكن أن يحشد فيها ذكاء جميع الطبقات للتأثير فى التشريع والإدارة والسياسة . وقد طالبت بالتحرر من هيمنة الدولة أو الطوائف النقابية على الصناعة أو التجارة ، ولكنها لم تكره الإعانات المالية الحكرمية ، أو التأييد من الفلاحين وجماهير المدن لتحقيق أهدافها . وكان لب الثورة الفرنسية هو إطاحة البورجوازية بالنبلاء والأكليروس ، وهى بورجوازية استخدمت سخط الفلاحين للقضاء على الإقطاعية ، وسخط جماهير المدن لشل جيوش الملك . فلما عقد اللواء للجمعية التأسيسية بعد عامين من الثورة ، ألغت نظام الإقطاع ، وصادرت أملاك الكنيسة ، وأجازت تنظيم التجار ، ولكنها حظرت جميع تنظيمات العمال أو تجمعاتهم (١٤ يونيو ١٧٩١) [٥٤] .

٥ — احتشاد القوى

كانت هذه القوى الثورية كلها خاضعة لتأثير الأفكار ، وقد استخدمتها قناعاً للرغبات وموجهاً لها . وكان يوجد بالإضافة إلى الدعوة التى نشرها الفلاسفة الفزيوقراطيون شيوعيون مبعثرون واصلوا ووسعوا الاشتراكية التى فصلها فى الجيل الماضى موريللى ، ومابلى ، ولنجيه[٥٦] . فسبق بريسو دفارفيل بكتابه « مباحث فلسفية حول حق الملكية » (١٧٨٠) كتاب بيير برودون « ليست الملكية إلا لصوصية » ، إذ زعم أن الملكية الخاصة إنما هى سرقة للممتلكات العامة ، فليس هناك « حق مقدس »... يبيح أكل طعام عشرين رجلا بينما يكون نصيب الرجل الواحد غير كاف ، « والقوانين » مؤامرة الأقوياء على الضعفاء ، والأغنياء على الفقراء »[٥٧]. وقد اعتذر بريسو فيما بعد عن كتبه الأولى باعتبارها فورات طالب ، وأصبح من زعماء الجيروند ، وأعدم بالجليوتين لاعتداله (١٧٩٣) .

وفى ١٧٨٩ قبيل الاستيلاء عنوة على الباستيل ، أصدر فرنسوا بواسيل « كتاب تعليم النوع الإنسانى بالسؤال والجواب » ، قطع الشوط كله إلى الشيوعية ، فزعم أن كل الشرور مردها « الطبقة المرتزقة ، القاتلة للبشر ، المعادية للمجتمع ، التى ظلت إلى الآن تحكم الناس وتلهم وتلمرهم »[٥٨] . ولقد استرق الأقوياء الضعفاء ، ووضعوا القوانين ليحكموهم . واخترعت

الملكية ، والزواج ، والدين ، لأضفاء الشرعية على الغصب ، والعنف ، والخداع ، وكانت النتيجة أن قلة قليلة هي التي تملك الأرض ، بينما تكابد الأغلبية الجوع والبرد . وما الزواج إلا ملكية خاصة في النساء ، وليس لإنسان حق في أكثر مما يحتاج إليه ، وكل ما زاد على ذلك يجب أن يوزع على كل إنسان حسب حاجته . وعلى العاطلين الأغنياء أن يعملوا أو يجوعوا ، ويجب أن تحول الأديرة إلى مدارس [٥٩] .

أما أطرف هؤلاء الراديكاليين وأبعدهم أثراً فهم فرنسوا — اميل بابيف . فبعد أن أعان النبلاء والأكليروس في تأكيدهم للحقوق الإقطاعية ضد الفلاحين [٦٠] ، أرسل إلى أكاديمية آراس (٢١ مارس ١٧٨٧) اقتراحاً بأن تقدم جائزة لأفضل مقال يكتب في هذا الموضوع « إذا أخذنا في الاعتبار مجموع المعرفة التي حصلناها الآن ، فماذا يكون حال شعب بلغت غرائزهم الاجتماعية حالة تستوجب أن تسود بينهم المساواة الكاملة . . . التي يكون فيها كل شيء مشتركاً بينهم » [٦١] . غير أن الأكاديمية لم تستجب لاقتراحه ، فبين جراكوس بابيف (كما سمى نفسه فيما بعد) في رسالة بتاريخ ٨ يوليو ١٧٨٧ أن كل الناس متساوون بالطبيعة ، وأن كل الأشياء مشتركة في الحالة الطبيعية ، أما كل التاريخ التالي لهذه الحالة فهو انحطاط وخداع . وقد جمع خلال الثورة أتباعاً كثيرين ، وكان على وشك تزعم تمرد على حكومة الإدارة ، ولكن عملاءها قبضوا عليه فحكم عليه بالإعدام (١٧٩٧) .

على أن آراء كهذه لم تلعب غير دور متواضع في توليد الثورة . فلم يكن هناك أثر يذكر للميول الاشتراكية في « كراسات المظالم » التي وردت لمجلس طبقات الأمة من جميع أرجاء فرنسا في ١٧٨٩ ، ولم يحتو أي منها على هجمات على الملكية الخاصة أو النظام الملكي — وكانت الطبقة الوسطى تمسك بزمام الموقف .

ثم هل كان البناءون الأحرار (الماسون) عاملا في الثورة ؟ لقد سبق ذكر صعود هذه الجمعية السرية في انجلترا (١٧١٧) وأول ظهورها في فرنسا (١٧٣٤) ، وقد انتشرت سريعاً في أوربا البروتستنتية ، وأيدها

فردريك الثانى فى ألمانيا ، وجستاف الثالث فى السويد . وحظر البابا كلمنت الثانى عشر (١٧٣٨) على السلطات الكنسية أو العلمانية الانضمام إلى الماسون أو مساعدتهم ، ولكن برلمان باريس رفض تسجيل هذا الأمر البابوى ، فجرده بذلك من مفعوله القانونى فى فرنسا . وفى ١٧٨٩ كان هناك ٦٢٩ محفلا ماسونياً فى باريس ، كل منها يضم عادة خمسين عضواً إلى مائة [٦٢] ، وبين هؤلاء كثير من النبلاء ، وبعض الكهنة ، وأخوة لويس السادس عشر ، وأكثر زعماء حركة التنوير [٦٣] . وفى ١٧٦٠ أسس هلفتيوس محفل العلوم ، وفى ١٧٧٠ وسعه الفلكى لالاند إلى « محفل الأخوات التسع » (ربات الفنون) . هنا التقى برتولليه ، وفرانكلن ، وكوندورسيه ، وشامفور ، وجروز ، وأودون ، ثم سييس ، وبريسو ، وديمولان ، ودانتون [٦٤] .

وكان الماسون من الناحية النظرية يستبعدون من عضويتهم كل « فاسق كافر » وكل « ملحد غبى » [٦٥] . وكان على كل عضو أن يعلن إيمانه بـ « مهندس الكون الأعظم » ولم تشترط فى العضو عقيدة دينية غير هذه ، وبذلك قصر الماسون بوجه عام لاهوتهم على الربوبية . ويبدو أنهم كانوا أصحاب نفوذ فى الحركة التى قامت لطرد اليسوعيين من فرنسا [٦٦] . وكان هدفهم المعلن أن ينشئوا جماعة إخوان دولية سرية يترابطون فيها بالاجتماع والطقوس ويتعهدون بتبادل العون وبالتسامح الدينى والإصلاح السياسى . وفى عهد لويس السادس عشر دخلوا ميدان السياسة بنشاط ، وأصبح عدد من الأعضاء الأرستقراطيين زعماء متحررين فى الجمعية الوطنية — لافاييت ، وميرابو الأب والإبن ، والفيكونت دنواى ، ودوق لاروشفوكو — ليانكور ، ودوق أورليان [٦٧] .

وأخيراً جاءت الأندية ذات الطابع السياسى الواضح . وقد نظمت أول الأمر على غرار الأندية الانجليزية — لتناول الطعام ، والسمر ، والقراءة — ثم أصبحت حوالى عام ١٧٨٤ مراكز للدعوة شبه الثورية . قال معاصر إنهم فى هذه الأندية « يبدون آراءهم بصوت عال ودون قيد فى حقوق الإنسان ، ومزايا الحرية ، والشرور الكبرى الناجمة عن عدم المساواة فى ظروف الحياة » [٦٨] . وبعد تجمع مجلس الطبقات كون المندوبون عن

إقليم برتنى « نادى برتن » . ولم يلبث النادى أن وسع عضويته فشملت غير البرتنيين كميرابو الإبن ، وسييس ، وبروبسبير . وفى أكتوبر ١٧٨٩ نقل مقره إلى باريس ، وأصبح « جمعية اليعاقبة » .

وهكذا تضافرت عشرات القوى المتنوعة لأحداث الثورة الفرنسية ، وهو ما يحدث فى معظم الأحداث البالغة الأهمية فى التاريخ . وكان من العوامل الأساسية نمو الطبقات الوسطى عدداً وتعليماً وطموحاً وثراء وسلطاناً اقتصادياً ، ومطالبتها بوضع سياسى واجتماعى يتناسب وإسهامها فى حياة الأمة ومالية الدولة ، وخشيتها من أن تجعل الخزانة سنداتها الحكومية عديمة القيمة بإعلانها الإفلاس . ومما لحق بهذا العامل واستخدمه مساعداً ومهدداً فقر ملايين الفلاحين الذين يستصرخون طلباً للتخفف من الرسوم والضرائب والعشور ، ورخاء عدة ملايين من الفلاحين لهم من القوة ما يكفى لتحدى الإقطاعيين وجباة والضرائب والأساقفة وأفواج الجند ، والسخط المنظم الذى استشعرته جماهير المدن التى عانت من التلاعب فى إمدادات الخبز ، ومن تخلف الأجور عن الأسعار فى التصاعد التاريخى للتضخم .

أضف إلى هذا أشتاتاً متشابكة من العوامل المساعدة : إسراف البلاط المكلف ، وعجز الحكومة وفسادها ، وإضعاف الملكية نتيجة لصراعها الطويل مع البرلمانات وطبقة النبلاء ، وانعدام المؤسسات السياسية التى يمكن عن طريقها التعبير عن المظالم على نحو قانونى وبناء ، ومستويات الإدارة الرفيعة التى يتوقعها مواطنون شحذت عقولهم المدارس والكتب والصالونات والعلم والفلسفة وحركة التنوير أكثر من أى شعب من الشعوب المعاصرة . هذا فضلا عن انهيار الرقابة على المطبوعات أيام لويس السادس عشر ، وبث أفكار الإصلاح أو الأفكار الثورية على يد فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ودالامبير ، ودولباخ وهلفتيوس ، وموريلليه ، وموريللى ، وما بلى ، ولنجيه ، وميرابوا الأب ، وطورجو ، وكوندورسيه ، وبومارشيه ، وميرابوا الإبن ، ومئات غير هؤلاء من الكتاب الذين لم يكن لهم قط نظير من قبل عدداً والمعيه وقوة ، والذين تغلغلت دعوتهم فى كل طبقة باستثناء

طبقة الفلاحين – فى ثكنات الجيش ، وصوامع الرهبان ، وقصور الأشراف ، وحجرات الانتظار الملكية . يضاف إلى هذا كله ذلك التقلص المدمر الذى أصاب الإيمان فى صدق كنيسة كانت قد ساندت الأوضاع الراهنة وحق الملوك الإلهى ، وبشرت بفضائل الطاعة والإستسلام ، وكدست قدراً هائلا من الثروة المحسودة فى الوقت الذى لاتستطيع الحكومة أن تعثر فيه على وسيلة لتمويل واجباتها المتسعة . ثم انتشار الإيمان بـ « قانون طبيعى » يتطلب عدالة إنسانية لكل عاقل دون نظر للمولد أو اللون أو العقيدة أو الطبقة ، و بـ « حالة طبيعية » معطاءة كل الناس فيها متساوون ، فضلاء أحرار ، سقطوا منها نتيجة لنمو الملكية الخاصة ، والحرب ، والقانون الذى يوجه لخدمة الطبقة المميزة ، أضف إلى هذا ظهور وتكاثر المحامين والخطباء المستعدين للدفاع عن الوضع الراهن أو مهاجمته ، ولإثارة مشاعر الشعب وتنظيمها ، وتكاثر كتاب النشرات وضراوتهم ، والنشاط السرى للأندية السياسية ، وطموح الدوق أورليان إلى التربع على عرش فرنسا مكان ابن عمه .

ثم أجمع هذه العوامل كلها معاً فى حكم ملك لطيف خير ضعيف متردد حيره تشابك الصراعات من حوله ، والدوافع المتضاربة فى داخله ، واتركها تفعل فعلها فى شعب أشد وعياً بمظالمه ، وأحر عاطفة وأقبل للإثارة وأخصب خيالا من أى شعب آخر تقريباً وعاه التاريخ ، ثم لا يلزم لضم هذه القوى وتأجيجها لتحدث انفجاراً ممزقاً إلا حادث يمس الجماهير ، ويتغلغل تغلغلا أعمق من الفكر فى أقوى غرائز البشر . وربما كانت هذه هى وظيفة قحط عام ١٧٨٨ ومجاعته ، وشتاء ١٧٨٨ — ٨٩ القاسى . لقد تنبأ المركيز دجيراردان فى ١٧٨١ بأن « الجوع وحده سيولد هذه الثورة الكبرى[٦٩] » . وقد وصل الجوع إلى الريف ، وإلى المدن ، وإلى باريس ، وأنشب فى الجماهير أظفاره فى ضراوة تكفى للتغلب على التقاليد ، والاحترام ، والخوف ، ولتوفير معلية لتحقيق أهداف وأفكار رجال ينعمون بالغذاء الطيب . وهكذا تحطمت سدود القانون والعرف والتدين ، واندلع لهيب الثورة .

الباب الثالث

الانهيار السياسي

١٧٨٣ – ٨٩

١ – القلادة الماسية : ١٧٨٥

فى يونيو ١٧٨٣ عاد أكسيل فون فرسن إلى فرنسا بعد أن أبلى بلاء حسناً فى الدفاع عن أمريكا وكسب الفخار فى يوركتون ، فوجد مارى أنطوانيت فى روعة حسنها الذى تركها عليه قبل ثلاث سنين . وحتى فى ١٧٨٧ ، حين كانت فى الثانية والثلاثين ، وجدها آرثر ينج « أجمل امرأة » رآها فى البلاط ذلك اليوم[١] . ولم تتردد فى تأييد طلب جوستاف الثالث إلى لويس السادس عشر أن يعين فرسن الوسيم كولونيلا للفوج السويدى الملكى فى الجيش الفرنسى – مما سيتيح له قضاء وقت غير قصير فى فرساى ، واعترف أكسيل لأخته صوفى بأنه يحب الملكة ، وأنه يعتقد أن حبه يلقى استجابة منها . وما من شك فى أنها كانت تحس الود الحار نحوه ، وقد تبادلا الرسائل الرقيقة بعد ثمانية أعوام عقب المحاولة الباسلة التى بذلها لتهريبها هى والملك من فرنسا ، غير أن دعوتها لصوفى أن تأتى وتعيش بقربه توحى بعزمها على أن تحتفظ بشعورها نحوه فى نطاق الحدود اللائقة[٢] . ولم يكد يؤمن ببراءتها أحد فى البلاط غير زوجها . وأكدت علاقتها الآثمة أغنية ذاعت بين عامة الشعب تقول :

إن أشئت أن تعرف
ديوثا ، وابن زنا ، وامرأة فاجرة ،
فانظر إلى الملك ، والملكة ،
والأمير ولى العهد[٣] .

ولقد لخص لوى — فليب د سيجور الأمر فى هذه العبارة : « لقد فقدت سمعتها ولكنها صانت فضيلتها »[٤] .

وفى ٢٥ مارس ١٧٨٥ ولدت مارى أنطوانيت ابناً ثانياً سمى لوى — شارل . وسر الملك سروراً عظيماً فوهبها قصر سان — كلو الذى كان قد اشتراه من الدوق أورليان بستة ملايين من الجنيهات . وأدان البلاط غلو تقديره للملكة ، ولقبتها باريس على سبيل التهكم (السيدة العجز)[٥] . وقد استخدمت نفوذها على زوجها لتوجيه تعيينه للوزراء والسفراء وغيرهم من كبار القوم وحاولت دون جدوى أن تغير من كراهيته للتحالف مع النمسا ، وزادت جهودها هذه من كره الشعب لها .

فى هذا الجو من عداء الشعب لـ « النمساوية » L, Autrichienne كما كانوا يلقبونها نستطيع أن نفهم تصديق الناس لقصة القلادة الماسية . وكانت هذه القلادة ذاتها أمراً لايصدق ، فهى خيط من ٦٤٧ ماسة قيل إنها تزن ٢,٨٠٠ قيراط[٦] * وكان اثنان من جواهرية البلاط هما شارل بومر وبول باسانج — قد اشتريا ماساً من نصف العالم ليصنعا قلادة لمدام دوبارى ، اثقين من أن لويس الخامس عشر سيبتاعها لها . ولكن لويس الخامس عشر مات ، فمن تراه يشترى الآن حلية باهظة الثمن كهذه ؟ وعرضها الجوهريان على مارى أنطوانيت لقاء ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه ، فرفضتها لغلوها الشديد[٧] وهنا تصدر الصورة الكردينال برنس لوى — رينيه — ادوار دروهان .

وكان الكردينال ثمرة ناضجة لأسرة من أعرق الأسر الفرنسية وأغناها ، قيل إن دخله بلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام . رسم قسيساً فى ١٧٦٠ ، وعين مساعداً لعمه رئيس أساقفة ستراسبورج ، وبصفته هذه رحب رسمياً بمارى أنطوانيت أول مرة دخلت فيها فرنسا (١٧٧٠) . فلما وجد ستراسبورج ميداناً يضيق به طموحه ، عاش أكثر وقته فى باريس ، حيث انضم إلى

(*) إذا أخذنا تقدير عام ١٩٦٥ معياراً لسعر الماس (١,٢٠٠ ريال القيراط) كانت القلادة تساوى ٣,٣٦٠,٠٠٠ دولار .

الحزب المناوىء للنمسا والملكة . وفى ١٧٧١ أوفده لويس السادس عشر إلى فيينا مبعوثاً خاصاً لاستطلاع المناورات النمساوية لتقسيم بولنده . واغتاظت ماريا تريزا من الولائم الباذخة التى كان يولمها ومن بثه الشائعات الفاضحة عن ولى العهد الجديد . واستدعاه لويس السادس عشر إلى باريس ، ولكن الأقارب الأقوياء أقنعوا الملك بأن يعينه كبير المتصرفين فى المبرات الملكية (١٧٧٧) . وبعد عام رقى القس المرح الوسيم إلى رتبة الكردينالية ، وفى ١٧٧٩ أصبح رئيساً لأساقفة ستراسبورج وهناك التقى بكاليوسترو فوقع تحت سحر المشعوذ وانطلت عليه دعاواه . وإذ كان روهان قد ارتفع إلى هذا المقام العالى بهذه السرعة الكبيرة ، فقد خيل إليه أن فى وسعه الطموح إلى تقلد منصب كبير وزراء لويس السادس عشر ، شريطة أن يكفر عن سنوات معارضته للملكة .

وكان من أسباب لهوه فى باريس مدام دلاموت — قالوا ، المرأة الجذابة الذكية . وكانت جان دسان — ريمى دفالوا هذه تدعى أنها تحدرت من هنرى الثانى ملك فرنسا وإحدى خليلاته . ولكن أسرتها فقدت ثروتها ، فاضطرت جان إلى الاستجداء فى الشوارع ، وفى ١٧٧٥ أكدت الحكومة نسبها الملكى ، ومنحتها معاشاً قدره ثمانمائة فرنك . وفى ١٧٨٠ تزوجت أنطوان دلاموت ، وكان ضابطاً فى الجيش يهوى الدس والتآمر ، خدعها فى أمر دخله ، فكان زواجهما على حد قولها رباطاً بين القحط والمجاعة[٨] . وقد انتحل لقب كونت ، فأصبحت جان كونتيسه دلاموت ، وبهذه الصفة راحت ترف حول باريس وفرساى ، وتغزو قلوب الرجال بما سمته « مظهر العافية والشباب (الذى يسميه الرجال التألق) ، وبشخصية غاية فى الحيوة والمرح »[٩] . فلما أصبحت خليلة للكردينال (١٧٨٤)[١٠] ، ادعت أن لها صلات وثيقة جداً فى البلاط ، وعرضت أن تنال له موافقة الملكة على أهدافه . فكلفت ريتو دفيليت تقليد خط جلالتها ، وجاءت الكردينال برسائل حب زعمت أنها من مارى أنطوانيت ، وأخيراً وعدت بأن ترتب له لقاء مع الملكة . ثم دربت مومساً تدعى « البارونه » أوليفيا على انتحال شخصية الملكة ، وفى « بستان فينوس »

« بفرساى » فى جوف الليل البهيم » التقى الكوردينال فترة قصيرة بهذه المرأة ، وحسبها أنطوانيت ، ولثم قدمها ، وتلقى منها وردة عربوناً للتصالح (أغسطس ١٧٨٤) » أو هكذا تروى « الكونتيسة »[١١] .

ثم غامرت مدام دلاموت الآن بخطة أكثر جرأة لو نجحت لوضعت حداً حداً لفقرها . ذلك أنها زورت خطاباً من الملكة يخول لروهان شراء القلادة باسمها ، وقدم الكردينال الخطاب إلى بومر » فسلمه هذا الجواهر (٢٤ يناير ١٧٨٥) بعد تعهد كتابى منه بدفع ١,٦٠٠,٠٠٠ فرنك منجمة . وأخذ روهان الماسات إلى الكونتيسة ، وبناء على طلبها سلمها إلى ممثل مزعوم للملكة . أما تاريخ الماسات بعد ذلك فغير مؤكد ، ويبدو أن الكونت « دلاموت أخذها إلى انجلتره وباعها قطعة قطعة [١٢] .

وأرسل بومر فاتورة بالقلادة إلى الملكة فردت بأنها لم تطلبها قط وأنها لم تكتب قط الخطاب الذى يحمل اسمها . فلما وافى القسط الأول (٣٠ يوليو ١٧٨٥) ولم يعرض روهان غير ثلاثين ألف فرنك من المبلغ المستحق وقدره ٤٠٠,٠٠٠ عرض بومر الأمر على البارون دبروتوى وزير البيت الملكى . فأنبأ بروتوى به الملك ، فاستدعى لويس الكردينال ودعاه لتفسير تصرفاته ، فأراه روهان بعض خطابات زعم أنها من الملكة . وفطن الملك للتو إلى أنها مزورة وقال « ليس هذا خط الملكة ، والتوقيع ليس له حتى الشكل المميز »[١٣] ، واشتبه فى أن روهان وغيره من الحزب المناوىء لزوجته قد بيتوا هذه المؤامرة لتشويه سمعتها . فأمر بزج الكردينال فى الباستيل (١٥ أغسطس) وطلب إلى الشرطة البحث عن مدام دلاموت وكانت قد هربت إلى المخبأ تلو المخبأ ، ولكن أمكن القبض عليها ، فزجت هى أيضاً أيضاً فى الباستيل . كذلك قبض على « البارونة » أوليفيا ، وريتو دفيليت ، وكاليوسترو ، الذى اشتبه خطأ فى أنه مدبر المؤامرة ، مع أنه فى الواقع فعل قصاراه ليثبطها[١٤] .

واعتقد لويس أنه لابد من محاكمة علنية لإقناع الشعب ببراءة الملكة » فعرض القضية على أعدائه ، وهم برلمان باريس . وكانت المحاكمة أشد قضايا

القرن فى فرنسا إثارة لاهتمام الرأى العـام ، كما أصبحت قضيـة وارن هيستنجز فى انجلتره بعدها بثلاث سنين . وصدر حكم البرلمان فى ٣١ مايو ١٧٨٦ . فأعلنت براءة الكردينال روهان ، باعتباره مخدوعاً أكثر منه خادعاً ، ولكن الملك حرمه مناصبه الرسمية ونفاه إلى دير لاشيز — ديو . وحكم على اثنين من الشركاء فى الجريمة بالسجن ، وبرئت ساحة كاليوسترو . أما مدام دلاموت فقد جردت من ملابسها علانية وضربت بالسوط فى « الكوردى » أمام قصر العدالة ، ورسمت بحرف V (اختصاراً لكلمة Voleur أى اللصة) وحكم عليها بالسجن مدى الحياة فى سجن سالبتريير ، وهو سجن النساء سيئى السمعة . وبعد أن قضت عاماً فى هذا المحبس الذى يورث الجنون فرت ، ولحقت بزوجها فى لندن ، وكتبت ترجمة لحياتها شرحت فيها كل شىء ، ثم ماتت فى ١٧٩١ .

واغتبط النبلاء وجماهير الباريسيين بتبرئة ساحة الكردينال وانتقدوا الملكة لإيصالها الأمر إلى محاكمة علنية ، وكان الشعور العام أن شرهها المعروف للجواهر هو عذر الكردينال فى تصديق الرسائل المزورة . وغالت الشائعات والأقاويل إلى حد اتهامها بمخالة روهان [١٥] ، مع أنها لم تكن رأته خلال السنوات العشر السابقة لقبض عليه . ومرة أخرى صانت الملكة عرضها ولحق الأذى بسمعتها . قال نابليون « إن موت الملكة يجب أن يؤرخ من محاكمة القلادة الماسية [١٦] » .

٢ — كالون : ١٧٨٣ — ٨٧

فى ١٠ نوفمبر ١٧٨٣ عين الملك شارل — ألكسندر دكالون مراقباً عاماً للمالية . وكان كالون قد أصاب نجاحاً فى منصب الناظر الملكى بمتز وليل ، واشتهر بآدابه الساحرة ، وروحه المرحة ، وبراعته فى أمور المال — رغم أنه هو ذاته كان غارقاً فى الدين شأنه شأن الحكومة التى دعى لإنقاذها [١٧] . ولم يجد غير ٣٦٠,٠٠٠ فرنك فى الخزانة ، مع دين قصير الأجل قدره ٦٤٦,٠٠٠,٠٠٠ ، يزيد خمسين مليوناً من الفرنكات كل سنة . وقد رفض كما رفض نكير من قبل فرض المزيد من الضرائب مخافة أن يثير الأمر التمرد

ويضعف الاقتصاد ، وبدلا من الضرائب قرر عمل يا نصيب بعد المفاوضة بجاء بمائة مليون من الجنيهات ، ثم لجأ إلى الأكليروس وظفر منهم بمنحة قدرها ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات بعد أن تعهد بمصادرة الطبعة التى أصدرها بومارشيه من أعمال فولتير . ثم أعاد سك العملة الذهبية فربح للخزانة بذلك خمسين مليوناً . واقترض ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ من المصرفيين . وحداه الأمل فى حفز التجارة إلى تخصيص مبالغ كبيرة للمشروعات الصحية العامة فى المدن ولتحسين الطرق والترع والثغور ، واستفادت موانىء الهافر ودنكرك ودييب ولا ووشيل ، وبدأت الأرصفة الكبرى فى شربورج . وعملا بالنظرية التى تزعم أنه لابد للحكومة من أن تتخذ لها دائماً واجهة من الثراء ، خصص الاعتمادات دون تردد للحاشية ، ولم يسأل أسئلة حول نفقات أخوة الملك والملكة . أما الملك نفسه ، فإنه برغم نواياه الطيبة سمح بزيادة نفقات بيته من ٤,٦٠٠,٠٠٠ جنيه فى ١٧٧٥ إلى ٦,٢٠٠,٠٠٠ فى ١٧٨٧ [١٨] .

وكان كالون يقترض كلما زاد إنفاقه ، وكلما اقترض ازدادت الفائدة التى يتعين دفعها على الدين . وفى أغسطس ١٧٨٦ اعترف للملك المذهول أن كل الوسائل قد استنفدت ، وأن الدين القومى والعجز السنوى زادا زيادة لم يسبق لها نظير ، وأنه لانجاة للحكومة من الخراب المالى إلا بتوسيع الضرائب لتشمل النبلاء الأكليروس . وكان كالون عليماً بأن برلمان باريس الذى كان آنئذ مرتبطاً بنبلاء السيف فى حلف سافر سيقاوم هذا الاقتراح ، ومن ثم اقترح أن يدعى لفيف من الرجال البارزين يختارهم بمعرفته من الطبقات الثلاث كلها فى جميع أرجاء فرنسا إلى فرساى للتشاور إنقاذاً لمالية الدولة ، فوافق الملك .

والتأم شمل « مجلس الأعيان » فى ٢٢ فبراير ١٧٨٧ ، وكان يضم ٤٦ نبيلا ، و ١١ كنسياً ، و ١٢ عضواً من مجلس الملك ، و ٣٨ قاضياً ، و ١٢ نائباً من « أقطار الدولة » (وهى أقاليم تتمتع بامتيازات خاصة) ، و ٢٥ موظفاً بلدياً ، وجملتهم ١٤٤ . ووجه كالون إليهم الخطاب بصراحة تنطوى على الشجاعة ، وأفاض فى الحديث عن المساوىء التى لابد من القضاء عليها

أيا كان رسوخها فى الزمن والميول المغرضة » لأنها « ثقيلة الوطأة على أكثر الطبقات إنتاجاً وكدا » . وأدان عدم المساواة العام فى منح الإعانات المالية ، و « عدم التناسب الهائل فى النصيب الذى تسهم به مختلف الأقاليم والرعايا الذين يدينون بالتبعية لملك واحد »[١٩] . ثم عرض اقتراحات أكثر راديكالية من اقتراحات طورجو ، وقدمها على أن الملك قد وافق عليها ، ولو أنها نفذت لربما تفادت اندلاع الثورة . وقبل الأعيان بعضها مما تحدر من عهد طورجو كخفض ضريبة الملح ، وإلغاء المكوس على التجارة الداخلية ، وإعادة حرية الاتجار فى الغلال وإنشاء المجالس الإقليمية ، وإنهاء السخرة . أما طلبه فرض ضريبة جديدة وعامة على الأرض فقد رفض ، وكانت حجة الأعضاء الأشراف والأكليروس أن « إعانة الأرض » تقتضى مسحاً لجميع الأراضى ، وإحصاء لكل ملاك الأرض ، فى فرنسا ؛ وهذا يستغرق سنة ، ولن يكون له أثر فى الأزمة الراهنة .

ولجأ كالون إلى الشعب بنشر خطبه . ولم يستطب النبلاء ولا الأكليروس هذا الالتجاء للرأى العام . ورد المجلس بأن طالب كالون بتقديم حساب كامل عن الإيرادات والمصروفات أثناء وزارته . فرفض الامتثال للطلب ، لأنه عرف أن الكشف عن وسائله ونفقاته سيكون فيه القضاء عليه . وأصر المجلس على أن الحاجة إلى القصد فى النفقات أمس منها إلى تعديل هيكل الضرائب ، ثم تشكك فى سلطته فى وضع نظام جديد للضرائب ، فمثل هذه السلطة لا يملكها إلا مجلس طبقات الأمة (Etats Généraux وهو مؤتمر قومى من نواب تختارهم الطبقات الثلاث états) ولم يدع مجلس كهذا منذ عام ١٦١٤ .

ووافق أحد الأعيان ، وهو لافاييت ، على معظم مقترحات كالون ، ولكنه كان عديم الثقة بالرجل — فاتهمه ببيع بعض الأراضى الملكية دون علم الملك ، وتحداه كالون أن يثبت التهمة ، فأثبتها[٢٠] . وكان لويس السادس عشر قد ساءه التجاء كالون للشعب متخطياً بذلك رجال الحكومة ، فأدرك

الآن بعد أن تكشفت له الأمور تباعاً أن كالون قد غشه فى حالة الخزينة ، ووضح له أنه لن يستطيع الحصول على أى تعاون من الأعيان مادام كالون مراقباً للمالية . فلما طالب كالون إقالة ناقده البارون دبرتوى الذى كان صديقاً شخصياً لمارى أنطوانيت ، أشارت على الملك بأن يقبل كالون بدلا منه . فاتبع النصيحة بعد أن أرهقته هذه الضجة الشديدة (٨ أبريل ١٧٨٧) . أما كالون فقد هرب سراً إلى انجلترة بعد أن علم بأن برلمان باريس مخطط للتحقيق فى إدانته وفحص شئونه الخاصة . وفى ٢٣ أبريل حاول لويس تهدئة الأعيان بالوعد بالوفر الحكومى ونشر مالية الدولة . وفى أول مايو ، وبناء على نصيحة الملكة أيضاً ، عين أحد الأعيان رئيساً لمجلس فرنسا .

٣ — لومينى دبرين : ١٧٨٧ — ٨٨

كان رئيساً لأساقفة تولوز ، ولكنه كان حر الفكر حرية اشتهر بها حتى أن جماعة الفلاسفة رحبوا بتقلده السلطة . وقبل ست سنوات ، حين زكى ليخلف كرستوف دبومون رئيساً لأساقفة العاصمة ، اعترض لويس السادس عشر قائلا « يجب على الأقل أن يكون لنا رئيس أساقفة لباريس مؤمن بالله »[٢١] . وكان من أعظم ضرباته الموفقة وهو وزير للمالية أنه حصل على نقله لرآسة أساقفة سانس ، وهو منصب أغنى كثيراً من منصب رئيس أساقفة تولوز . وقد أقنع الأعيان بالموافقة على خطته الرامية إلى جمع ثمانين مليوناً من الفرنكات ، ولكن حين طالب إليهم الموافقة على ضريبة الأرض الجديدة عادوا يعتذرون بأنهم لا يملكون سلطة هذه الموافقة . فلما رأى لويس أن الأعيان لن يزيدوا على ذلك أقاله فى لطف (٢٥ مايو ١٧٨٧) .

وقد حاول برين تحقيق الوفور بطلبه الخفض فى نفقات كل مصلحة حكومية ، فقاومه رؤساء المصالح ، ولم يؤيد الملك وزيره . وخفض لويس نفقات بيته بمليون فرنك ، وارتضت الملكة خفضاً كهذا (١١ أغسطس) وقد أوتى برين من الشجاعة ما جعله يرفض المطالب المالية التى طالب بها البلاط ، وأصدقاء الملكة ، وأخو الملك . ومما يشرفه أنه استصدر من

البرلمان الكاره (يناير ١٧٨٨) وفى وجه مقاومة معظم زملائه الأساقفة ، المرسوم الملكى الذى بسط مظلة الحقوق المدنية على البروتستنت .

وكان من سوء طالعه أنه تقلد السلطة فى فترة انتشر فيها الكساد الاقتصادى استمر حتى الثورة ، نتيجة لنقصان المحاصيل مراراً ولمنافسة الواردات البريطانية . وفى أغسطس ١٧٨٧ تصايحت جماهير المشاغبين الجائعة فى باريس بالنداءات الثورية وأحرقت الدمى التى مثلت بعض الوزراء . كتب أرثر ينج فى ١٣ أكتوبر يقول « يبدو أن الناس جميعاً يشعرون بأن رئيس الأساقفة لن يقوى على تخليص الدولة من عبء موقفها الراهن » . . . وأن شيئاً خارقاً للعادة سيقع ، وأن إشهار الدولة لإفلاسها فكرة ليست بعيدة اللجوء إطلاقاً »[٢٢] ثم أضاف فى اليوم السابع عشر « إن رأياً واحداً غلب على الجماعة كلها » وهو أنهم على شفا ثورة عظيمة فى الحكومة . . . وغليان شديد فى جميع صفوف الناس ، الذين يتوقون إلى تغيير ما » . . . وخميرة قوية من الحرية « تكبر كل ساعة منذ الثورة الأمريكية »[٢٣] .

وكانت الإصلاحات التى دعا إليها كالون وبريين ، وقبلها الملك ، تنتظر تسجيل البرلمانات لها وإقرارها قانوناً للدولة ، أما برلمان باريس فقد وافق على إطلاق حرية تجارة الغلال وتحويل السخرة إلى مبلغ نقدى ، ولكنه رفض التصديق على ضريبة دمغة . وفى ١٩ يوليو ١٧٨٧ أرسل إلى لويس السادس عشر تصريحاً بأن « الأمة ، ممثلة فى مجلس الطبقات » هى وحدها صاحبة الحق فى أن تمنح الملك الموارد التى قد يتبين أنه لا غنى عنها »[٢٤] . ووافقت جماهير باريس على هذا الحكم ، وفاتها أن مجلس الطبقات ، كما هو معلوم إلى ذلك الحين فى التاريخ الفرنسى ، ليس إلا مؤسسة إقطاعية شديدة الانحياز إلى الطبقات المميزة . أما نبلاء السيف ، الذين لم تغيب عنهم هذه الحقيقة » فقد وافقوا على التصريح ، ومنذ ذلك الحين انضموا إلى البرلمان ونبلاء الرداء فى هذا « التمرد النبيل » الذى مهد للثورة . وأما لويس فقد تردد فى دعوة مجلس الطبقات مخافة أن ينهى المجلس استبدادية الملكية البوربونية بتأكيده للسلطات التشريعية ،

وفى أغسطس ١٧٨٧ قدم البرلمان مرسوماً بضريبة على جميع الأراضى فى جميع الطبقات ، فرفض البرلمان تسجيلها ، فدعا لويس الأعضاء إلى مجلس قضائى أعلى « سرير عدالة » فى فرساى ، وأمرهم بالتسجيل ، فلما عاد الأعضاء إلى باريس أعلنوا أن التسجيل باطل ، وعادوا يطالبون بعقد مجلس الطبقات . فنفاهم الملك إلى ترويه (١٤ أغسطس) وثارت البرلمانات الإقليمية احتجاجاً ، واندلعت حوادث الشغب فى باريس ، وأذعن برين والملك ، فاستدعى البرلمان (٢٤ سبتمبر) وسط مظاهر ابتهاج الشعب .

ثم تجدد الصراع حين رفض البرلمان التصديق على اقتراح برين جمع قرض قدره ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . ودعا الملك لعقد « جلسة ملكية » للبرلمان (١١ نوفبر ١٧٨٧) قدم فيها وزراؤه الحجج المؤيدة لتسجيل القانون . ولكن البرلمان أصر على الرفض ، وصاح الدوق ورليان « مولاى ، هذا غير قانونى ! » وأجاب لويس فى نوبة غضب طائشة على غير العادة « هذا لا يغير من الأمر شيئاً ! انه قانونى لأنى أريده » — وهكذا أكد مبدأ الحكم الاستبدادى فى غير مواربة . ثم أمر بتسجيل المرسوم ، فسجل ، ولكنه ما إن غادر القاعة حتى ألغى البرلمان التسجيل . فلما سمع لويس بهذا نفى الدوق أورليان إلى فيلليه كوتريه ، وزج باثنين من أعضاء البرلمان فى الباستيل (٢٠ نوفبر) . واحتجاجاً على هذين الأمرين وغيرهما من أوامر القبض دون محاكمة ، بعث البرلمان إلى الملك (١١ مارس ١٧٨٨) « اعتراضات » اشتملت كلاماً مس النبلاء والعامة على السواء : « ان القوانين التعسفية تنتهك الحقوق التى لا يمكن انتزاعها ... ان الملوك يحكمون إما بالقهر أو بالقانون ... والأمة تطالب من جلالته أعظم خير يمكن لأى ملك أن يعطيه لرعاياه — وهو الحرية »[٢٥] .

ورأت الوزارة أن تهدىء ثائرة البرلمان بالإذعان لما طالب به من نشر بيان بإيرادات الحكومة ومصروفاتها . فزاد هذا النشر الطين بله لأنه كشف عن عجز مقداره ١٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . ورفض المصرفيون أن يقرضوا الدولة مزيداً من المال ما لم يصدق البرلمان على القرض ، وأقسم البرلمان أنه

لن يفعل . وفى ٣ مايو ١٧٨٨ أصدر « إعلاناً للحقوق » ذكر لويس السادس عشر ووزراءه بأن فرنسا « ملكية يحكمها ملك » طبقاً للقوانين » ، وأن على البرلمان ألا يتخلى عن حقه القديم فى تسجيل المراسيم الملكية قبل أن تصبح قوانين . ثم عاود المطالبة بعقد مجلس الطبقات . وأمر الوزراء باعتقال عضوين من زعماء البرلمان هما ديمرنيل وجوابلار (٤ مايو) ، وتم هذا وسط فوضى واضطراب فى القاعة واحتجاجات غاضبة فى الشوارع . وفى ٨ مايو أعلن بريين عزم الحكومة على إنشاء محاكم جديدة ، ترأسها « محكمة مطلقة السلطة » يكون لها وحدها منذ الآن سلطة تسجيل المراسيم الملكية ، أما البرلمانات فتقصر سلطتها على أداء الوظائف القضائية البحته ، ثم يصلح هيكل القانون الفرنسي بجملته . ومنح برلمان باريس أثناء ذلك « أجازة » — أى أنه من الناحية الفعلية أوقف عمله .

وعليه لجأ البرلمان إلى النبلاء ، والأكليروس ، والبرلمانات الإقليمية ، فخف الجميع لتأييده . وأرسل الأدواق والأشراف إلى الملك احتجاجات على إلغاء حقوق البرلمان التقليدية . وأدان مؤتمر للأكليروس (١٥ يونيو) « المحكمة المطلقة لسلطة » الجديدة ، وخفض « منحته » من إثنى عشر مليون جنيه فى المتوسط إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ ، ورفض أى معونة أخرى حتى يعاد البرلمان [٢٦] . ثم شقت البرلمانات الواحد تلو الآخر عصا الطاعة على الملك . وأعلن برلمان بو (عاصمة بيارن) أنه لن يسجل مراسيم رفضها برلمان باريس ، وحين هددت الحكومة أعضاءه باستعمال القوة تسلح الشعب ليحميهم . أما برلمان روان (عاصمة نورمنديه) فقد شهر بوزراء الملك باعتبارهم خونة ، وحرم من حماية القانون كل الأشخاص الذين يستخدمون المحاكم الجديدة . وأصدر برلمان رين (عاصمة برتنى) قوانين مماثلة ، فلما أرسلت الحكومة الجند لفضه تصدى لهم موظفو النبلاء المحليون المسلحون [٢٧] . وحين أذاع الحاكم العسكرى فى جرينوبل (عاصمة الدوفينه) مرسوماً ملكياً بحل البرلمان المحلى ، هبت جماهير المدينة التى عززها الفلاحون الذين دعاهم ناقوس الخطر ، فقذفت الجند الكارهين لمهمتهم ببلاط من الأسطح ،

وأكرهت المحاكم على سحب مرسوم الملك (٧ يونيو ١٧٨٧ « يوم البلاط »)
وإلا شنقوه على ثريا ردهته . ولكن القضاة امتثلوا لأمر ملكى بنفيهم .

ولقد صنع مجتمع جرينوبل التاريخ بانتقاضه هذا . وصمم النبلاء الاكليروس والعامة على إعادة مجلس طبقات الدوفينية ليلتئم فى ٢١ يوليو . ولما كانت الطبقة الثالثة قد قادت النصر فى « يوم البلاط » فقد منحت تمثيلا مكافئاً لتمثيل الطبقتين الأخريين مجتمعتين ، واتفق على أن يكون التصويت فى المجلس الجديد بالأفراد لا بالطبقات ، وقد وضعت هذه الاتفاقات سوابق لعبت دوراً فى تنظيم مجلس الطبقات القومى . فلما حظر على مجلس طبقات الدوفينه أن يجتمع فى جرينوبل ، اجتمع فى فيزيل على بضعة أميال « وهنالك » بقيادة محام شاب يدعى جان — جوزيف مونييه ، وخطيب شاب يدعى أنطوان بارناف ، وضع النواب الخمسمائة قرارات (أغسطس ١٧٨٨) أيدت حقوق البرلمانات فى التسجيل ، وطالبت بإلغاء أوامر القبض الملكية ، ودعت إلى عقد مجلس لطبقات الأمة ، وتعهدت بعدم الموافقة إطلاقاً على ضرائب جديدة ما لم يصدق عليها مجلس الطبقات . هنا كانت إحدى بدايات الثورة الفرنسية : فإن إقليماً بأسره تحدى الملك ، وطالب فى واقع الأمر بملكية دستورية .

واستسلم الملك بعد أن قهره هذا التمرد الذى شمل الأمة كلها تقريباً على السلطة الملكية ، فقرر أن يدعو مجلس الطبقات ، ولما كان آخر اجتماع لهذه الهيئة قد انقضى عليه ١٧٤ عاما ، ولما كان نمو الطبقة الثالثة قد استحال معه اتباع الإجراءات القديمة ، فقد أصدر لويس السادس عشر (٥ يوليو ١٧٨٨) نداء غير عادى على أنه أمر من أوامر مجلس الملك :

« سيحاول جلالته العمل بما يقرب من الإجراءات القديمة ، ولكن إذا لم يتيسر التحقق من هذه الإجراءات فإنه يريد أن يسد الثغرة بالتأكد من مشيئة رعاياه . . . وعليه فقد قرر الملك أن يأمر بإجراء كل البحوث الممكنة الخاصة بالأمور سالفة الذكر فى جميع محفوظات كل إقليم ، وأن تبلغ نتائج هذه البحوث إلى مجالس الطبقات الإقليمية ومؤتمراتها ، . . . التى بدورها

تبلغ جلالته برغباتها . . . ويدعو جلالته جميع الدارسين والأشخاص المتعلمين فى مملكته . . أن يوافوا حامل الأختام بجميع المعلومات والمذكرات المتصلة بالشئون التى يتضمنها هذا المرسوم »[٢٨] .

وفى ٨ أغسطس دعا لويس طبقات فرنسا الثلاث أن توفد مندوبين إلى دورة لمجلس الطبقات تجتمع بفرساى فى أول مايو ١٧٨٩ . ثم عطل فى اليوم ذاته « المحكمة المطلقة السلطة » التى سرعان ما طواها التاريخ فى زوايا النسيان . وفى ١٦ أغسطس اعترفت الحكومة بإفلاسها فى الواقع ، إذ أعلنت أن التزامات الدولة ابتداء من ٣١ ديسمبر ١٧٨٩ لن تدفع كلها عملة بل يدفع بعضها ورقاً على المواطنين جميعاً أن يقبلوه عملة قانونية . وفى ٢٥ أغسطس استقال برين مصحوباً بالرضى والثراء فى الوقت الذى أحرقت فيه جماهير باريس دمية تصوره . ثم اعتكف فى سانس ، وهناك انتحر فى ١٧٩٤ .

٤ — عودة نكير : ١٧٨٨ — ٨٩

وطلب الملك إلى نكير على مضض أن يعود إلى الحكومة (٢٥ أغسطس) ومنحه الآن لقب الوزير ومقعداً فى المجلس الملكى . وهلل الجميع لهذا التعيين من الملكة والأكليروس إلى المصرفيين وعامة الشعب . وتجمع حشد فى فناء قصر فرساى ليرحبوا به ، فخرج إليهم وقال لهم « نعم يا أبنائى ، أنا باق ، فاطمئنوا » ووقع بعضهم على ركبهم وقبلوا يديه[٢٩] فبكى على طريقة ذلك العصر .

على أن الخلل الذى استشرى فى الإدارة « وفى الشوارع ، وفى الفكر الحكومى والشعبى ، كان قد قارب جداً حالة التحلل السياسى بحيث كان قصارى ما استطاعة نكير هو الاحتفاظ بالاستقرار حتى يجتمع مجلس الطبقات » ثم بلفتة كريمة منه لاستعادة الثقة بالحكومة وضع مليونى فرنك من ماله فى الخزانة ، وارتهن ثروته الخاصة ضماناً جزئياً لالتزامات الدولة[٣٠] . ثم ألغى الأمر الذى صدر فى ١٦ أغسطس بإلزام حملة السندات بقبول

البنكنوت بدلا من النقود ، وارتفعت أسعار السندات الحكومية ثلاثين فى المائة فى السوق ، وقدم المصرفيون من المال للخزانة ما يكفى لتجاوز الأزمة عاما .

وعملا بنصيحة نكير دعا الملك البرلمان ثانية (٢٣ سبتمبر) . واقترف البرلمان فى نشوة انتصاره خطأ التصريح بأن مجلس الطبقات القادم ينبغى أن يعمل كما عمل سابقه فى ١٦١٤ — أى منعقداً بطبقات منفصلة ومصوتاً فى وحدات طبقية ، وهذا كفيل بأن يصيب الطبقة الثالثة أوتوماتيا بالعجز السياسى . أما جماهير العامة التى كانت قد صدقت دعوى البرلمان بأنه يدافع عن الحرية ضد الطغيان ، فقد أدركت أن الحرية المقصودة هى حرية الطبقتين المميزتين فى التسيد على الملك . وهكذا حرم البرلمان نفسه ، بانضمامه على هذا النحو إلى صف النظام الإقطاعى ، من تأييد الطبقة الوسطى القوية ، ولم يعد منذ الآن عاملا مؤثراً فى تشكيل الأحداث . وبلغ « التمرد النبيل » بهذا حدوده وأنهى شوطه ، ثم أخلى الآن مكانه للثورة البورجوازية .

وقد زاد مهمة نكير عسراً ما حل بالبلاد عام ١٧٨٨ من قحط انتهى بعواصف ثلجية أتلفت المحاصيل الهزيلة . وكان شتاء ١٧٨٨ — ٨٩ من أقسى ماعرفه تاريخ فرنسا ، ففى باريس هبط الترمومتر إلى ١٨° تحت الصفر الفارنهيتى ، وتجمد السين تماماً من باريس إلى الهافر . وارتفع سعر الخبز من تسعة سنتات فى أغسطس ١٧٨٨ إلى أربعة عشر فى فبراير ١٧٨٩ . وبذلت الطبقات العليا قصارى جهدها للتخفيف عن الشعب ، وأنفق بعض النبلاء ، كالدوق أورليان ، مئات الألوف من الجنيهات فى إطعام الفقراء وتدفئتهم ، وتبرع رئيس الأساقفة بأربعمائة ألف جنيه ، وظل دير للرهبان يطعم ألفاً ومائتى شخص يومياً على مدى ستة أسابيع [٣٢] . وحظر نكير تصدير الغلال ، واستورد منها ما قيمته سبعون مليون جنيه ، فأمكن تفادى المجاعة ، ولكنه ترك لخلفائه أو لمجلس الطبقات مهمة سداد القروض التى اقترضها .

ثم أقنع الملك أثناء ذلك (٢٧ ديسمبر ١٧٨٨) بأنه يجب فى مجلس الطبقات القادم أن يكون نواب الطبقة الثالثة مساوين فى العدد لنواب الطبقتين الأخريين مجتمعتين ، وذلك رغم النصيحة المضادة التى أشار بها النبلاء الأقوياء . وفى ٢٤ يونيو ١٧٨٩ أذاع على جميع أقسام فرنسا دعوة لتنتخب ممثلين لها بالتصويت . وكان كل رجل فرنسى فى الطبقة الثالثة يزيد عمره على أربعة وعشرين عاما ويدفع أى ضريبة ، من حقه — بل أنه مأمور — بأن يدلى بصوته ، وكذلك جميع المهنيين ، ورجال الأعمال ، وأعضاء الطوائف الحرفية ، أى أن جميع العامة — باستثناء المعدمين وأفقر العمال — كان عليهم أن يدلوا بأصواتهم[٣٢] . واجتمع المرشحون الناجحون على هيئة لجنة انتخابية اختارت نائباً عن القسم . أما فى الطبقة الأولى (الأكليروس) فكان كل كاهن أو خورى ، وكل دير للرهبان أو الراهبات ، يدلى بصوته لاختيار ممثل فى الجمعية الانتخابية للقسم ، وكان رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، أعضاء فى تلك الجمعية بحكم وظائفهم ، واختارت الجمعية مندوباً فى مجلس الطبقات . أما فى الطبقة الثانية (الأشراف) فقد كان كل نبيل فوق الرابعة والعشرين تلقائياً عضواً فى الجمعية الإنتخابية التى اختارت مندوباً يمثل نبلاء قسمه . وفى باريس وحدها قصر حق التصويت على من يدفعون فرضة رؤس قدرها جنيهات أو أكثر ، وقد أسقط بذلك معظم أفراد الطبقة العاملة[٣٣] .

ودعت الحكومة كل جمعية انتخابية فى كل طبقة لوضع « كراسة بالشكاوى والمظالم » لإرشاد ممثلها . ولخصت كراسات الأقسام لكل طبقة فى كراسات إقليمية ، ثم قدمت هذه للملك « كاملة أو مختصرة » ، وأجمعت الكراسات كلها على إدانة الحكم المطلق ، والمطالبة بملكية دستورية تتقيد فيها سلطات الملك ووزرائه بالقانون وبمجلس منتخب على نطاق قومى يجتمع دورياً وله وحده حق تقرير الضرائب الجديدة واعتماد القوانين الجديدة . وطلب إلى جميع النواب تقريباً عدم الموافقة على اعتماد أموال للحكومة حتى تحصل الأمة على دستور كهذا . وأدانت جميع الطبقات عدم كفاية الحكومة فى شئون المال ، والمظالم المقترنة بالضرائب غير

المباشرة ، وشطط السلطة الملكية كما يتمثل فى أوامر القبض الملكية . وطالب الجميع بالمحاكمة وفق نظام المحلفين ، وبسرية الرسائل ، وبإصلاح القانون . ودعا الجميع للحرية ، ولكن على طريقتهم الخاصة : فالنبلاء لاستعادة السلطات التى كانت لهم قبل حكم ريشليو ، والأكليروس والبورجوازيون للتحرر من كل تدخل للدولة ، والفلاحون للتحرر من الضرائب الظالمة والرسوم الإقطاعية . وقبل الجميع من حيث المبدأ المساواة فى الضرائب على جميع أنواع الملكية . وأعرب الجميع عن الولاء للملك ، ولكن أحداً لم يذكر « الحق الإلهى » فى الحكم[٣٤] ، فقد كان هذا الحق بإجماع الآراء فى عداد الموتى .

واشترطت كراسات النبلاء أن تجتمع كل طبقة من الطبقات الثلاث فى مجلس الطبقات منفصلة وتصوت بوصفها طبقة متحدة . أما كراسات الاكليروس فقد رفضت التسامح الدينى ، وطلبت إلغاء الحقوق المدنية الممنوحة للبروتستنت مؤخراً . وطالبت بعض الكراسات بترك شطر أكبر من ضريبة العشور الأبرشية ، وبفتح المناصب فى السلم الكهنوتى أمام جميع القساوسة على السواء . وأسفت معظم الكراسات الكنسية على ما شاب العصر من فساد أخلاقى فى الفن والأدب والمسرح ، وعزت هذا التدهور إلى حرية النشر المفرطة ، وطالبت بقصر الأشراف على التعليم على الاكليروس الكاثوليكى دون سواه .

أما كراسات الطبقة الثالثة فأعربت أكثر ما أعربت عن آراء الطبقة الوسطى والفلاحين الملاك . فطالبت بإلغاء الحقوق الإقطاعية ومكوس النقل ، وبفتح الطريق للمواهب لجميع الطبقات ولجميع المناصب . ونددت بثراء الكنيسة وتبطل الرهبان الغالى التكلفة . واقترحت إحدى الكراسات على الملك إن أراد تغطية العجز أن يبيع أراضى الأكليروس وإيجاراتهم ، واقترحت كراسة أخرى مصادرة جميع الأملاك الديرية[٣٥] . وشكت كراسات كثيرة من العبث المنكر الذى تحدثه بالمزارع حيوانات النبلاء ومطاردتهم لصيدهم . وطلبت التعليم المجانى للجميع ، وإصلاح المستشفيات والسجون ، والقضاء المبرم على القنية وتجارة الرقيق . وأكدت كراسة

نموذجية للفلاحين » أننا ركيزة العرش الرئيسية » وسند الجيوش الصادق . . . إننا مصدر الثراء للآخرين ، بينما نظل فقراء »[٣٦] .

لقد كان انتخاب مجلس الطبقات هذا » فى جملته ، لحظة نبيلة باعثة على الفخر فى تاريخ فرنسا . وكادت فرنسا البوربونيه ، ولو للحظة ، أن تصبح ديمقراطية » على الأرجح بنسبة من السكان تدلى بأصواتها تفوق نسبة من يدلون بأصواتهم فى إنتخاب أمريكى يجرى اليوم . وكان انتخاباً عادلا ، لا يشوبه الخلل الذى قد يتوقع فى عملية بهذه الجدة » وواضح أنه كان أقل فساداً من معظم الانتخابات التى أجريت فى ديمقراطيات أوربا اللاحقة[٣٧] . ولم يحدث قط من قبل ، على قدر علمنا ، أن أصدرت حكومة من الحكومات دعوة عريضة كهذه لشعبها لتحيطه علماً بالإجراءات » ولتتعرف إلى شكاوى الشعب ورغباته ، وقد أتاحت هذه الكراسات فى جملتها الحكومة نظرة للأحوال فى فرنسا أشمل من أى نظرة أتيحت لها فى أى عهد قبل ذلك . فالآن امتلكت فرنسا » إن كانت قد امتلكت فى أى عهد » المواد المؤهلة لفن الحكم » والآن اختارت خيرة رجالها بمحض حريتها من كل طبقة » ليلتقوا بملك كان قد قام فعلا بمقدمات شجاعة للتغيير ، وملأ الأمل فرنسا كلها حين اتخذ هؤلاء الرجال القادمون من كل فج الدولة سمتهم إلى باريس وفرساى .

٥ — يدخل ميرابو

وكان أحدهم نبيلا انتخبه العامة عن إكس — أن — برفانس ومرسليا . وقد أصبح هذا الرجل ، أنوريه — جابرييل — فكتور ركيتى ، كونت ميرابو — الدميم الوجه الساحر الشخصية ، والذى تفرد بهذا الشرف الشاذ المزدوج ، علماً مسيطراً من أعلام الثورة منذ وصوله إلى باريس (أبريل ١٧٨٩ (حتى موته السابق لأوانه (١٧٩١) .

ولقد نوهنا من قبل بأبيه — فكتور ركيتى ، مركيز ميرابو — فزيوقراطيا و « صديقاً للإنسان » ، أى لكل إنسان عدا زوجته وأبنائه » وقد وصف

فوفنارج « صديق الإنسان » هذا بأنه « ذو طبع نارى مكتئب ، أشد عتواً وتقلباً . . . من البحر » يتسلط عليه نهم دائم للذة والمعرفة والمجـــد »[٣٨] . وقد اعترف المركيز بهذا كله ، وأضاف إليه أن « الفساد الخلقي طبيعة ثانية فيه » . وحين بلغ الثامنة والعشرين صمم على أن يكتشف إن كان ممكناً أن يكتفى بامرأة واحدة ، فطلب يد مارى دفيسان ، التى لم يرها قط » ولكنها كانت الوريثة غير المنازعة لثروة كبيرة . وبعد أن تزوجها وجد أنها امرأة سليطة رثة عاجزة » ولكنها أنجبت له فى إحدى عشرة سنة أحد عشر طفلا » تخطى الطفولة منهم خمسة . وفى ١٧٦٠ زج المركيز فى « الشاتو دفانسين » بتهمة الكتابات المهيجة » ولكن أفرج عنه بعد أسبوع . وفى ١٧٦٢ هجرته وعادت إلى أهلها .

وشب ابنه البكر « أونوريه — جابرييل — وسط هذه الدراما العائلية . وقد ماتت إحدى جدتيه مجنونة ، وتعرضت إحدى شقيقاته وأحد إخوته للجنون بين الحين والحين ، ومن المعجزات أن ينجو جابرييل نفسه من الجنون وهو يصارع الكارثة تلو الكارثة . وقد ولد وله سنان » وكأنهما تحذير للعالم . وحين بلغ الثالثة أصيب بالجدرى الذى خلف فى وجهه ندوباً ونقراً كأنه ساحة قتال . وكان غلاماً شديد الحيوية ، مشاكساً ، عنيداً ، وكان أبوه « الشديد الحيوة » المشاكس ، العنيد ، يكثر من ضربه ، فربى فيه كراهية أبيه ، وسر المركيز أن يتخلص منه بإرساله حين بلغ الخامسة عشرة (١٧٦٤) إلى أكاديمية حربية فى باريس . وهناك تعلم جابرييل الرياضيات والألمانية والانجليزية ، وقرأ بنهم إذ تسلطت عليه رغبة عارمة فى الإتيان بجلائل الأعمال . وقرأ فولتير ففقد دينه ، وقرأ روسو فتعلم أن يتعاطف مع عامة الشعب ، وفى الجيش سرق خليلة قائده ، واشتبك فى مبارزة » وشارك فى الغزو الفرنسى لكورسيكا » وظفر بقدر من الثناء على بسالته أشعر أباه بحبه ولو لحظة .

وحين بلغ الثالثة والعشرين تزوج ابتغاء المال بصراحة من إميلى مارنياك ، وكانت تتوقع أن ترث ٥٠٠,٠٠٠ فرنك . فولدت لجابرييل ولداً » ثم اتخذت عشيقاً ، واكتشف خيانتها ، وأخفى خيانته ، ثم غفر لها . وتشاجر

مع رجل يدعى فللنيف ، وحطم شمسية فوق ظهره ، فاتهم بتعمد القتل ؛ ورغبة فى تفادى القبض عليه حصل أبوه على أمر ملكى مختوم زج بمقتضاه جابرييل فى الشاتوديف ، القائم على جزيرة حيال مارسليا ، وطلب إلى زوجته أن تلحق به ، ولكنها رفضت ، وتبادلا رسائل فيها حنق متصاعد ، انتهت بأن أقرأها « الوداع إلى الأبد » (١٤ ديسمبر ١٧٧٤) ،واستدفأ أثناء ذلك بمضاجعة زوجة مأمور السجن بين الحين والحين .

وفى مايو ١٧٧٥ نقل بمسعى أبيه إلى سجن أرخى فى الشاتودجو ، قرب بونتارلييه والحدود السويسرية . ودعاه سجانه المسيو دسان — مورى إلى الحفلة التى فيها بصوفى دروفيه ، الزوجة ذات التسعة عشر ربيعاً للمركيز دمونييه السبعينى . وقد وجدت ميرابو أكثر إشباعاً من زوجها ؛ صحيح أن وجهه كان منفراً ، وشعره صوفى القوام ، وأنفه ضخماً ، ولكن عينيه كانتا متقدتين ، وطبعه كان « نارياً » وكان فى استطاعته أن يغوى بحديثه أى امرأة . واستسلمت له صوفى كلية ، وفر من بونتارلييه ، ثم هرب إلى تونون فى إقليم سافوا ، وهناك أغوى ابنة عم له . وفى أغسطس ١٧٧٦ لحقت به صوفى فى فريير بسويسره لأن العيش بعيداً عنه كما قالت معناه « الموت ألف مرة كل يوم »[٣٩] . وأقسمت الآن « أما جابرييل أو الموت ! » واقترحت أن تشتغل ، لأن جابرييل كان مفلساً .

فصحبها إلى أمستردام حيث استخدمه مارك ريه ، ناشر كتب روسو ، مترجماً ، وعملت صوفى سكرتيرة له ، واشتغلت بتدريس الإيطالية ، وقد كتب عدة كتب صغيرة تحدث فى أحدها عن أبيه فقال « إنه يعظ بالفضيلة ، والبر ، والقصد ، فى حين أنه أسوأ الأزواج ، وأقسى الآباء وأكثرهم إسرافاً »[٤٠] ، ورأى ميرابو الأب فى هذا خروجاً على أصول اللياقة . فاتفق مع والدى صوفى على تدبير إعادة الزوجين من هولنده ، فقبض عليهما (١٤ مايو ١٧٧٧) وجىء بهما إلى باريس . وبعد أن فشلت صوفى فى محاولة الانتحار ، أرسلت إلى إصلاحية ، أما جابرييل الساخط فقد زج فى الشاتو دفانسين ، مقتفياً فى ذلك خطى أبيه وديدرو ، وهناك ظل

يقضى فى السجن اثنين وأربعين شهراً . وبعد أن قضى فيه عامين سمح له بالكتب والورق والقلم والمداد ، فراح يبعث لصوفى برسائل ملؤها الإخلاص المشبوب . وفى ٧ يناير ١٧٧٨ ولدت بنتاً لعلها كانت ابنته وفى شهر يونيو نقلت الأم وطفلتها إلى دير فى جيان قرب أورليان .

والتمس ميرابو من أبيه أن يصفح عنه ويعمل على اطلاق سراحه . وقال متوسلا «دعنى» أرى الشمس ، دعنى أتنسم هواء أكثر حرية ، دعنى أرى وجه اخوانى البشر ! . انى لا أبصر غير الجدران المظلمة . ابتاه سأموت من آلام التهاب الكلى ! » ولكى يخفف من شقائه ويكسب بعض المال لصوفى ، ويتقى الجنون ، ألف عدة كتب ، بعضها جنسى . وكان أهمها هو «الأوامر الملكية المختومة» الذى وصف مظالم القبض دون إذن والسجن دون محاكمة ، وطالب بإصلاح السجون والقانون فلما نشر هذا الكتيب فى ١٧٨٢ بلغ تأثر لويس السادس عشر به مبلغاً حمله على أن يأمر فى ١٧٨٤ بالإفراج عن جميع السجناء المعتقلين فى فانسين[٤٢] .

وقد ترفق سجانو ميرابو به ، وبعد ١٧٧٩ سمح له بالتمشى فى حدائق الشاتو ولقاء الزوار ، ووجد فى بعض زائريه منصرفات لطاقته الجنسية العارمة[٤٣] . ووافق أبوه على أن يعمل على الإفراج عنه إذا اعتذر لزوجته واستأنف معاشرتها ، لأن المركيز العجوز كان تواقاً لحفيد يواصل بقاء الأسرة . فكتب جابرييل إلى زوجته يطلب الصفح . وفى ١٣ ديسمبر ١٧٨٠ أطلق سراحه بكفالة أبيه ، الذى دعاه إلى قصر الأسرة فى لوبنيون ، وكانت له بعض العلاقات الغرامية فى باريس ، وزار صوفى فى ديرها ، والظاهر أنه أخبرها أنه ينوى العودة إلى زوجته . ثم مضى إلى لوبنيون ، وأبهج قلب أبيه . وتلقت صوفى مالا من زوجها ، وانتقلت إلى بيت قريب من الدير ، وانهمكت فى أعمال البر ، ووافقت على الزواج من كبتن سابق فى الخيالة . ولكنه مات قبل أن يزف إليها ، فانتحرت فى الغد (٩ سبتمبر ١٧٨٩)[٤٤] . أما زوجة ميرابو فقد رفضت لقاءه ، فأقام عليها دعوى تهمها فيها بهجرها له ، وخسر دعواه ، ولكنه أدهش الأصدقاء والأعداء

ببلاغه مرافعته التي استغرقت خمس ساعات دفاعاً عن قضية يستحيل الدفاع عنها . وتبرأ منه أبوه « فقاضاه » ، وحصل منه على راتب قدره ثلاثة آلاف فرنك في السنة ، وراح يقترض المال زيحيا حياة مترفة . وفي ١٧٨٤ اتخذ خليلة جديدة تدعى هنرييت نيرا . واصطحبها في رحلة إلى انجلترة وألمانيا (١٧٨٥ — ٨٧) . وفي الطريق كانت له مغامرات غرامية عارضة ، غفرتها له هنرييت لأنه — كما قالت — « ما إن تتودد إليه امرأة أقل تودد حتى يلتهب لفوره »[٤٥] . والتقى بفردريك مرتين ، وعرف عن بروسيا ما يكفي لتأليف كتابه « في الملكية البروسية » (١٧٨٨) (من مادة زوده بها ضابط بروسي) ، وقد أهدى الكتاب لأبيه « الذي وصفه بأنه « مصنف ضخم لعامل هائج . » وكلفه كالون برسائل سرية عن الشئون الألمانية ، فأرسل منها سبعين أدهشت الوزير بإدراكها المرهف وأسلوبها القوي .

فلما عاد إلى باريس رأى أن سخط الشعب قارب الحماسة الثورية . وفي رسالة إلى الوزير مونموران حذر من نشوب الثورة ما لم يجتمع مجلس طبقات الأمة قبيل عام ١٧٨٦ « اني أسأل هل حسبتم حساب قوة الجوع المزلزلة إذا تفاعلت مع روح اليأس . انى أسأل من سيجرؤ على أن يكون مسئولا عن سلامة جميع من يلتفون حول العرش ، أجل ، بل سلامة الملك نفسه ؟ »[٤٦] وقد طواه خضم هذا الهياج فاندفع فيه ووفق في مصالحة هشة مع أبيه (الذي مات في ١٧٨٩) . ثم رشح نفسه في اكس — آن — بروفانس لمجلس طبقات الأمة ودعا نبلاء القسم لاختياره ، فرفضوا ، فاتجه إلى الطبقة الثالثة ، التي رحبت به . وانبعث الآن من شرنقتين المحافظة واتخذ له أجنحة بوصفه ديمقراطياً « أن حق السيادة كامن في الشعب وحده » والملك لا يمكن أن يكون أكثر من القاضي الأول للشعب »[٤٧] . وقد أراد الاحتفاظ بالملكية « إنما حماية للشعب من الارستقراطية ، ثم دعا بإلحاح أثناء ذلك إلى إعطاء حق التصويت لجميع الذكور البالغين[٤٨] . وفي خطاب موجه لمجلس طبقات إقليم بروفانس هدد الطبقات المميزة بإضراب عام : « حذار من أن تحتقروا هذا الشعب الذي ينتج كل شيء ، هذا الشعب الذي لا يحتاج إلا لفرض الجمود عليه حتى يصبح رهيباً جباراً »[٤٩] .

ثم اندلع شغب بسبب الخبز فى مارسليا (مارس ١٧٨٩) ، وأرسل أولو الأمر فى طلب ميرابو ليهدىء ثائرة الشعب لأنهم كانوا على بينة من شعبيته ، وتجمعت الجماهير فى حشد من ١٢٠,٠٠٠ الهتاف له[٥٠] . فنظم دورية لمنع حوادث العنف . وفى « بيان لشعب مارسليا » نصح العامة بالصبر حتى يتاح لمجلس طبقات الأمة الوقت للموازنة بين المنتجين الذين يريدون أسعاراً عالية والمستهلكين الذين يريدون أسعاراً منخفضة . وأطاعه القائمون بالشغب . وبقوة الإقناع ذاتها هدأ تمرداً نشب فى إكس . وانتخبته إكس ومرسليا نائباً عنهما ، فشكر الناخبين ، وقرر أن يمثل إكس . وفى أبريل ١٧٨٩ اتخذ سمته إلى باريس ومجلس الطبقات .

٦ – التجربة الأخيرة للدراما : ١٧٨٩

واخترق بلداً يواجه المجاعة ويجرب الثورة . ففى ربيع عام ١٧٨٩ نشب فى أقسام عديدة تمرد متكرر على الضرائب وغلاء الخبز ، من ذلك أن الجماهير فى ليون أغاروا على مكاتب جابى الضرائب وأتلفوا سجلاته ، وفى آجده ، قرب مونبلييه ، هدد الشعب بعمليات سلب ونهب شاملة ما لم تخفض أسعار السلع ، ومنعت القرى التى خشيت عجز الغلال عنوة تصديرها من الأقسام . وتحدث بعض الفلاحين عن احراق جميع القصور الريفية وقتل أمراء الإقطاع (مايو ١٧٨٩)[٥١] . وفى مونلبرى قادت النساء حشداً من الغوغاء فى حملة على مخازن الغلال والمخابز حين نمى إليهن أن سعر الخبز قد زيد ، واستولين على كل ما وصلت إليه أيديهن من الخبز والدقيق ، ومثل هذا حدث فى بريه – سير – سين» وبانول ، وأميان ، وفى كل مكان بفرنسا تقريباً . وفى المدينة تلو المدينة أثار الخطباء الشعب بأذاعتهم بأن الملك أجل دفع الضرائب كلها[٥٢] . وسرى خلال إقليم بروفانس فى شهرى مارس وأبريل نبأ يقول ان « خير الملوك يريد المساواة فى الضرائب ، وألا يكون بعد اليوم أساقفة ، ولا إقطاعيون ، ولا عشور ، ولا مكوس ، ولا ألقاب ، ولا امتيازات»[٥٣] . وبعد أول أبريل ١٧٨٩ كف الناس عن دفع الرسوم الإقطاعية ، وهكذا لم يكن نزول النبلاء « التطوعى » عن

حقوقهم الإقطاعية فى ٤ أغسطس عملا من أعمال التضحية ، بل إقراراً بالأمر الواقع .

وازداد الانفعال والإثارة فى باريس كل يوم تقريباً باقتراب موعد انعقاد مجلس طبقات الأمة ، فتدفقت النشرات من المطابع ورفع الخطباء عقائرهم فى المقاهى والأندية وصدرت أشهر وأقوى نشرة فى التاريخ بأسره فى يناير ١٧٨٩ ، بقلم رجل من أحرار الفكر هو الأبيه إمانويل — جوزف سييس ، الوكيل العام لأسقفية شارتر . وكان شامفور قد كتب متسائلا « ما الطبقة الثالثة ؟ — إنها كل شيء . وماذا تملك ؟ لا شيء » . فصاغ سييس هذا « الأجرام » المتفجر عنواناً جذاباً وحوله إلى ثلاثة أسئلة سرعان ما رددتها نصف فرنسا :

« ما الطبقة الثالثة ؟ كل شيء

ماذا كانت إلى اليوم فى النظام السياسى ؟ لا شيء .

ماذا تطلب ؟ أن تصبح شيئاً (٥٤) .

وذكر سييس أنه من بين سكان فرنسا البالغين ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، ينتمى إلى الطبقة الثالثة — العلمانية المجردة من الإلقاب — على الأقل ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ وهذا معناه فى حقيقة الأمر أن الطبقة الثالثة هى الأمة . فإذا أبت الطبقتان الأخريان الجلوس معها فى مجلس الطبقات ، كان لها العذر فى أن تؤلف بنفسها « الجمعية الوطنية » . وقد حفظ التاريخ تلك العبارة فيما حفظ .

على أن الجوع كان أبلغ حتى من الكلام . فتقاطر الشحاذون والمجرمون على مراكز الإغاثة كلما أقامتها فى باريس الحكومة والكهنة والأغنياء ، والمدين من داخل البلاد ليأكلوا ويغامروا بفقرهم فى أفعال يائسة . وكانت الجماهير هنا وهناك تنفذ إرادتها بنفسها دون اعتداد بالقانون ، فهددت بشنق أى تاجر يخفى الغلال أو يغالى فى سعرها على أقرب عمود نور ، وكثيراً

ما اعترضت قوافل الغلال ونهبتها قبل أن تستطيع هذه القوافل الوصول إلى السوق ؛ وكانت أحياناً تطبق على الأسواق بالغوغاء وتستولى عنوة ودون دفع الثمن على الغلة التى أتى بها الفلاحون ليبيعوها[٥٥] . وفى ٢٣ أبريل استصدر نكير من المجلس الملكى مرسوماً يخول للقضاه والشرطة جرد مخازن الغلال الخاصة وإلزامها حيثما عز الخبز بإرسال غلالها للسوق ، ولكن هذا الأمر نفذ فى تراخ . كذلك كانت صورة باريس فى ربيع ذلك العام .

فى هذه الجماهير الغاضبة من الدهماء تبين الدوق أورليان أداة قد تحقق له مآربه . وكان الحفيد البعيد لفليب أورليان الذى كان وصياً على عرش فرنسا (١٧١٥ — ٢٣) . وقد ولد فى ١٧٤٧ ، ولقب بدوق شارتر فى الخامسة من عمره ، ثم تزوج فى الثانية والعشرين بلويز — مارى دبوربون بنتييفر ، التى جعلته ثروتها أغنى رجل فى فرنسا [٥٦] . وفى ١٧٨٥ ورث لقب دوق أورليان ، وبعد ١٧٨٩ ، وبفضل دفاعه عن القضايا الشعبية ، عرف بفليب إيجالتيه (المساواه) . وقد رأيناه يتحدى الملك فى البرلمان وينفى إلى فيلليه — كوريه . فلما عاد بعد قليل إلى باريس صمم على أن يجعل من نفسه معبود الشعب ، مؤملا أن يختار خلفاً لابن عمه لويس السادس عشر أن اعتزل أو خلع هذا الملك الذى أزعجته الخطوب . فسخا فى عطائه للشعب ، وأوصى بتأمين أملاك الكنيسة [٥٧] ، وفتح للجماهير حديقة البالية — رويال وبعض حجراته فى قلب باريس ، وكانت له شمائل الارستقراطى الجواد وأخلاق سلفه الوصى على العرش . وقامت مربية أبنائه مدام جنليس ، همزة وصل بينه وبين ميرابو ، وكوندورسيه ، ولافاييت ، وتاليران ، ولافوزييه ، وفولنى ، وسييس ، ودمولان . وقد بذل له زملاؤه من الماسون الأحرار التأييد الكبير[٥٨] . وقام الروائى شوديرلو دلاكلو ، وكان سكرتيره ، بدور العميل له فى تنظيم المظاهرات والانتفاضات الشعبية . وفى الحدائق والمقاهى .وبيوت القمار ، والمواخير القريبة من قصره كان كتاب النشرات يتبادلون الأفكار ويضعون الخطط ، هنا شارك آلاف الناس من جميع الطبقات فى اضطرابات الساعة وانفعالاتها ، وأصبح البالية — رويال ، بوصفه اسماً على هذا المركب كله ، قلب الثورة النابض .

ويزعمون ، وهو زعم محتمل ولكنه ليس مؤكداً ، أن مال الدوق ، ونشاط شودرلو دلا كلو ، لعبا دوراً فى تنظيم الهجوم على مصنع ريفيون فى شارع سانت - أنطوان . أما ريفيون هذا فكان يتزعم ثورته الخاصة : يحل محل الرسوم والنسجيات الجداوية ورقاً رقيقاً وسمه فنانون بتقنية طورها بنفسه ، وينتج ما وصفه حجة انجليزى بأنه « أجمل ما صنع على الإطلاق من ورق الحائط بغير جدال »[٥٩] . وقد استخدم مصنعه ثلاثمائة عامل ، كان الحد الأدنى لأجر العامل منهم خمسة وعشرين سوا (١,٥٦ دولاراً ؟) فى اليوم . وفى اجتماع لجمعية الناخبين فى حى سانت - مارجريت نشب نزاع بين ناخبى الطبقة الوسطى والعمال ، وخيف أن تخفض الأجور[٦١] . وسرى نبأ كاذب بأن ريفيون قال « ان العامل الذى له زوجة وأولاد فى استطاعته أن يعيش على خمسة عشر سوا فى اليوم » . وفى ٢٧ أبريل احتشد جمع أمام منزل صاحب المصنع ، فلما لم يجدوه أحرقوا دمية تمثله . وفى اليوم الثامن والعشرين ، أغار الغوغاء بعد أن عززوا قوتهم وتسلحوا على بيته ، ونهبوه ، وأشعلوا النار فى أثاثه ، وشربوا الخمر من مخزن خموره ، واستولوا على النقود والآنية الفضية . ثم انتقل القائمون بالشغب إلى المصنع ونهبوه . وجرد الجنود لقتالهم ، فدافعوا عن أنفسهم فى معركة اتصلت عدة ساعات ، لقى فيها اثنا عشر جندياً ونيف ومائتا مشاغب مصرعهم . وأغلق ريفيون مصنعه وشد رحاله إلى انجلترا .

كذلك كان مزاج باريس حين وصل النواب المنتخبون ومناوبوهم لحضور مجلس طبقات الأمة فى فرساى .

٧ - مجلس طبقات الأمة : ١٧٨٩

فى ٤ مايو تحرك النواب فى موكب مهيب للاستماع إلى القداس فى كنيسة القديس لويس : يتقدمهم كهنة فرساى ، ويليهم ممثلو الطبقة الثالثة فى ثياب سوداء ، ثم نواب الأشراف فى ثيابهم الزاهية وقبعاتهم المزينة بالريش ، ثم النواب الكنسيون ، ثم الملك والملكة يحيط بهما أفراد الأسرة المالكة . وازدحم أهل المدينة فى الشوارع والشرفات وأسطح المنازل ، وصفقوا

لممثلى العامة ، وللملك والموق أورليان ، واستقبلوا بالصمت النبلاء ، ورجال الاكليروس ، والملكة ، وكان كل إنسان (عدا الملكة) سعيداً ذلك اليوم ، لأن الأمل الذى تطلع إليه الكثيرون قد تحقق . وبكى الكثيرون ، من بين النبلاء ، لمرأى الأمة المنقسمة وقد بدت متحدة .

وفى ٥ مايو اجتمع النواب فى « قاعة الملاهى الصغيرة الضخمة » الواقعة على نحو أربعمائة ياردة من القصر الملكى . وبلغ عددهم ٦٢١ من العامة ، و ٣٠٨ من الاكليروس ، و ٢٨٥ من النبلاء (وفيهم عشرون من نبلاء الرداء) . أما النواب الكنسيون فكان نحو ثلثيهم من أصل شعبى ، وقد اختار كثيرون من هؤلاء الوقوف فى صف العامة . وكان نصف نواب الطبقة الثالثة تقريباً من المحامين ، وخمسة فى المائة من أرباب المهن ، وثلاثة عشر فى المائة من رجال الأعمال ، وثمانية فى المائة يمثلون الفلاحين[٦٣] . ومن رجال الاكليروس أسقف أوتان ، شارل — موريس دتاليران — بيريجور ، الذى وصفه ميرابو وصفاً سبق به عبارة نابليون « الوحل فى جوارب حريرية » فقال عنه « رجل خسيس ، جشع ، سافل ، دساس » لايشتهى غير الوحل والمال ، يبيع روحه فى سبيل المال ، وهو إن فعل كان على حق ، لأنه عندها سيأخذ الذهب بدل كومة من الروث »[٦٤] ، ولم يكن فى هذا الوصف إنصاف لذكاء تاليران الطيع . وكان بين النبلاء عدة رجال دعوا إلى الإصلاحات الجوهرية : لا فاييت ، وكوندورسيه ، ولا لى — تولندال ، وفيكونت نواى ، وأدواق أورليان ، وإجيون ، ولا روشفوكو — ليانكور . وقد انضم معظمهم إلى سييس ، وميرابو ، وغيرهم من نواب الطبقة الثالثة فى جمعية الثلاثين» التى قامت بدور الجماعة المنظمة للإجراءات اللبرالية » ومن أبرز نواب الطبقة الثالثة ميرابو ، وسييس ، ومونييه ، وبارناف ، والفلكى جان بابى ، ومكسمليان روبسبير . وكان هذا الجمع فى مجموعه أبرز تجمع سياسى فى التاريخ الفرنسى ، وربما فى التاريخ الحديث بأسره . وتطلعت النفوس الكريمة فى طول أوربا وعرضها لهذا الحشد عساه أن يرفع لواء ينضوى تحته المظلومون فى كل أمة .

وافتتح الملك الجلسة الأولى بخطاب موجز اعترف فيه صراحة بما تعانيه حكومته من كرب مالى نسبه إلى « حرب غالية التكلفة ولكنها شريفة » وطلب « زيادة فى الضرائب» وأبدى الأسف على « الرغبة المغالية فى التجديد » . ثم تبعه نكير بخطاب استغرق ثلاث ساعات واعترف فيه بعجز بلغ ٥٦,١٥٠,٠٠٠ جنيه (وحقيقة الأمر أنه بلغ ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠) وطلب الموافقة على قرض قدره ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . وتململ النواب من الإحصاءات المرهقة للذهن ، وكان أكثرهم يتوقع من الوزير اللبرالى أن يبسط برنامجاً للإصلاح .

ثم بدأ صراع الطبقات فى الغد ، حين انفرد كل من طبقة النبلاء والاكليروس بقاعة منفصلة وشق جمهور الشعب الآن طريقه عنوة إلى قاعة الملاهى الصغيرة ، وسرعان ما أخذ يؤثر فى أصوات النواب بأعرابه القوى — المنظم عادة — عن الاستحسان أو الاعتراض . ورفضت الطبقة الثالثة أن تعترف بنفسها هيئة منفصلة ، وانتظرت فى تصميم أن تنضم إليها الطبقتان الأخريان ويتم التصويت عضواً عضواً . ورد النبلاء بأن التصويت بالطبقات — أى بصوت لكل طبقة — جزء من الدستور الملكى لا يمكن تغييره ؛ ذلك أن إدماج الطبقات الثلاث فى طبقة واحدة والسماح بالتصويت الفردى ، فى جمعية تؤلف الطبقة الثالثة الآن نصف مجموعها وفى استطاعتها دون عناء أن تكسب التأييد من صغار الأكليرزس هذا كله معناه تسليم عقل فرنسا وخلقها لمجرد الكثرة العددية والإرادة البورجوازية . أما مندوبو الأكليروس المنقسمون بين محافظين وأحرار ، فلم يتخذوا موقفاً من الطرفين ، منتظرين أن تهديهم الأحداث إلى أفضل طريق . ومضى شهر على هذه الحال .

وكان سعر الخبز أثناء ذلك يواصل ارتفاعه برغم محاولات نكير لضبطه ، وخطر العنف الجماهيرى يتزايد . وتدفق فيض من النشرات ، فكتب آرثر ينج فى ٩ يونيو يقول : « ان الحركة التجارية المتزايدة الآن فى حوانيت باريس التى تبيع النشرات لاتصدق . ولقد ذهبت إلى الباليه رويال لأرى

ما جد نشره ولأحصل على قائمة بكل ما نشر ووجدت أن كل ساعة تلد جديداً . فقد صدر من النشرات اليوم ثلاث عشرة ، وأمس ست عشرة ، وفي الأسبوع الماضي اثنتان وتسعون . . وتسع عشرة من عشرين من هذه النشرات يناصر الحرية ، ويناوىء الاكليروس والنبلاء عادة . . . ولايصدر أي رد عليه »[٦٥] .

وفى ١٠ يونيو أوفد نواب الطبقة الثالثة لجنة إلى النبلاء والأكليروس تكرر دعوتهم إلى اجتماع موحد ، وتصرح بأنه إذا واصلت الطبقتان الاجتماع منفصلتين فإن الطبقة الثالثة ستأخذ فى التشريع للأمة بدونهم . ووقع التصدع فى صراع الإرادات الجماعية فى ١٤ يونيو ، حين انضم تسعة من كهنة الابرشيات إلى نواب العامة . فى ذلك اليوم أنتخبت الطبقة الثالثة ، بأى
الابرشيات إلى نواب العامة . فى ذلك اليوم أنتخبت الطبقة الثالثة ، بأبى
رئيساً لها ، ووضعت لنفسها نظاماً للمناقشة والتشريع . وفى اليوم الخامس عشر اقترح سييس أن يطلق النواب المجتمعون فى قاعة الملاهى الصغيرة — الذين يمثلون ستة وتسعين فى المائة من الأمة — على أنفسهم اسم « جمعية نواب الأمة الفرنسية المعترف بهم والثابتة صحة عضويتهم . ورأى ميرابو أن العبارة فضفاضة ولا بد أن الملك سيرفضها . وبدلا من أن يتراجع سييس ، بسط الإسم المقترح فجعله «الجمعية الوطنية» ، وكذلك تمت الموافقة على الإسم الحديد بأغلبية ٤٩١ مقابل ٨٩ صوتاً [٦٦] . وقد غير هذا الإعلان الملكية المطلقة تلقائياً إلى ملكية مقيدة ، وأنهى السلطات التى امتازت بها الطبقات العليا ، وشكل — من الناحية السياسية — بداية الثورة .

ولكن هل يقبل الملك هذا الغض من سلطته ؟ ولكى تعطفه الجمعية الوطنية للقبول قررت أن جميع الضرائب القائمة ينبغى دفعها كالسابق إلى أن تحل الجمعية ، وبعدها لا تدفع ضرائب إلا ما أذنت به الجمعية ؛ وأن الجمعية ستنظر بأسرع ما تستطيع فى أسباب عجز الخبز وعلاجه ، وأنها بعد قبول دستور جديد ستتكفل بديون الدولة وتوافق على سدادها . وقد استهدف أحد هذه القرارات تهدئة القائمين بالشغب ، وسعى آخر إلى

كسب تأييد حاملي السندات الحكومية ، وقد وضعت كلها بمهارة لتقلل من مقاومة الملك .

واستشار لويس مجلسه . فحذره نكير من أن مجلس الطبقات سينهار ما لم تزعن الطبقتان المميزتان ، وأن الضرائب لن تدفع ، وأن الحكومة ستصبح مفلسة لا حول لها ولا قوة . واعترض وزراء آخرون بأن التصويت الفردى سيكون معناه دكتاتورية الطبقة الثالثة وإصابة طبقة النبلاء بالعجز السياسى . وقرر لويس أن يقاوم الجمعية الوطنية لأنه شعر أن عرشه يعتمد على النبلاء والأكليروس . فأعلن أنه سيلقى خطاباً على مجلس الطبقات فى ٢٣ يونيو . وقدم نكير استقالته بعد أن هزم . ولكن الملك أقنعه بالبقاء لعلمه بأن الشعب سيقاوم خطوة كهذه .

واقتضت « الجلسة الملكية » المقررة تجهيز قاعة الملاهى الصغيرة بترتيبات مادية جديدة فأرسلت الأوامر بإجراء هذه الترتيبات إلى مهرة صناع القصر دون إشعار الجمعية . فلما حاول نواب الطبقة الثالثة دخول القاعة فى ٢٠ يونيو وجدوا أبوابها مغلقة وداخلها مشغولا بالصناع . واعتقد النواب أن الملك يخطط لطردهم ، فانتقلوا إلى ملعب للتنس مجاور (وصالة ملعب التنس وأقسموا يميناً صنعت التاريخ .

« حيث أن الجمعية الوطنية دعيت لوضع دستور المملكة ، ولإحداث التجديد فى النظام العام ، ولصيانة المبادىء الصحيحة للنظام الملكى ، وحيث أنه ما من شىء يقوى على منعها من مواصلة مداولاتها فى أى مكان تضطر إلى الاجتماع فيه ؛ وأخيراً ، بما أنه حيثما اجتمع أعضاؤها فهناك تكون الجمعية الوطنية ، لذلك تقرر الجمعية أن يقسم جميع أعضائها يميناً مغلظة بألا يتفرقوا ، وأن يعاودوا الاجتماع كلما دعت الظروف ، حتى يستقر حال المملكة ، ويرسى على أسس مكينة ، وأنه بعد حلف اليمين المذكورة سيصدق جميع الأعضاء ، وكل منهم بمفرده ، على هذا القرار الثابت بالتوقيع عليه »[٦٧] .

وقد وقع جميع النواب الحاضرين وعددهم ٥٥٧ نائباً وعشرون مناوباً إلا اثنين ، ثم وقع فى تاريخ لاحق خمسة وخمسون أخر وخمسة مساومة . فلما

أن ترامى نبأ هذه الأحداث إلى باريس احتشد جمع غاضب حول الباليه — رويال وأقسموا على الدفاع عن الجمعية الوطنية أيا كان الثمن . وفى فرساى بات من الخطر على أى شريف أو أسقف أن يظهر فى الشوارع ، وقد لقى عدد منهم معاملة خشنة ، ولم ينج رئيس أساقفة باريس بجلده إلا حين وعد بأن ينضم إلى الجمعية . وفى ٢٢ يونيو اجتمع النواب الذين أقسموا اليمين فى كنيسة سان لوى ، وهناك انضم إليهم بعض النبلاء و ١٤٩ من النواب الكنسيين البالغ عددهم ٣٠٨ .

وفى ٢٣ يونيو اجتمع نواب الطبقات الثلاث فى قاعة الملاهى الصغيرة ليستمعوا إلى الملك . وطوق الجنود القاعة . وتخلف نكير عن الحضور مع الحاشية الملكية على نحو واضح . وتكلم لويس فأوجز ، ثم أناب وزيراً فى قراءة قراره . وقد رفض القرار دعوى النواب الذين أعلنوا أنفسهم جمعية وطنية باعتبارها غير قانونية وباطلة . وسمح باجتماع موحد للطبقات الثلاث ، وبالتصويت الفردى على المسائل التى لاتؤثر فى هيكل فرنسا الطبقى ، ولكن حظر أى عمل يمس « الحقوق القديمة والدستورية . . . للملكية ، أو الامتيازات التشريفية . . . للطبقتين الأوليين » . أما الأمور المتصلة بالدين أو الكنيسة فلا بد من أن يوافق عليها الاكليروس . وسمح الملك لمجلس الطبقات بحق الاعتراض على الضرائب والقروض الجديدة . ووعد بالمساواة فى فرض الضرائب إذا وافقت عليها الطبقتان المميزتان ، وعرض أن يتلقى توصيات بالإصلاح . وينشىء مجالس اقليمية يكون التصويت فيها فردياً . ووافق على إنهاء السخرة ، والأوامر الملكية المختومة ، والمكوس على التجارة الداخلية ، وكل آثار ألقنية فى فرنسا . ثم ختم الجلسة بمظهر وجيز للسلطة : :

« لو أنكم تركتمونى وحدى فى هذه المغامرة الكبرى فسأعمل وحيداً لرفاهية شعبى . . . وسوف أعد نفسى دون سواى الممثل الحقيقى لهم . . . ولن تصبح خطة من خططكم أو اجراء من اجراءاتكم قانوناً ما لم أوافق عليه صراحة . . . وانى آمركم بالتفرق فوراً ، وبمضى كل نائب إلى قاعة طبقته صباح غد لتستأنفوا مناقشاتكم »(٦٨) .

فلما انصرف الملك رحل معظم النبلاء وقلة من الاكليروس . وأعلن المركيز بريزيه ، كبير التشريفات ، على النواب الذين بقوا أن الملك يريد الجميع أن يبرحوا القاعة . ورد ميرابو رداً مشهوراً : « سيدى ... ليس لك هنا مكان ولا صوت ولا حق فى الكلام ... فإذا كنت قد كلفت بإرغامنا على مبارحة هذه القاعة ، فلا بد لك من طلب الأوامر باستعمال القوة ، ... لأننا لن نبرح أماكننا إلا على أسنة الرماح »[٦٩] . وظاهرت هذا التصريح صيحة هتف بها الجميع « هذه إرادة الجمعية » فانسحب بريزيه . وصدرت الأوامر للجند المحليين بإخلاء القاعة ، ولكن بعض النبلاء الأحرار أقنعوهم بالا يتخذوا أى اجراء . فلما أنبىء الملك بالموقف قال « تباً لهم لهم ، فليمكثوا إذن »[٧٠] .

وفى ٢٤ يونيو كتب ينج فى يوميته : « ان الغليان فى باريس لا يمكن تصوره ، فقد كان عشرة آلاف شخص طوال اليوم فى الباليه رويال ... والاجتماعات المستمرة هناك تتصل وتبلغ من التهور . وسورة الحرية درجة لاتكاد تصدق »[٧١] . وعجزت السلطات البلدية عن حفظ النظام ، لأنها لم تستطع الاعتماد على « الحرس الفرنسيين » المحليين ؛ ذلك أن كثيرين من هؤلاء كان لهم أقرباء شرحوا لهم قضية الشعب ، وتآخى بعض هؤلاء الجند مع الحشد المحيط بالباليه — رويال ؛ وفى فوج فى باريس كانت هناك جمعية سرية أقسمت ألا تطيع أوامر مناوئة للجمعية الوطنية . وفى ٢٥ يونيو اجتمع الرجال الذين انتخبوا من قبل نواب الطبقة الثالثة عن باريس ، وعدد هؤلاء الرجال ٤٠٧ — وأحلوا أنفسهم محل الحكومة الملكية للعاصمة ، فأختاروا مجلساً بلدياً جديداً ، كله تقريباً من الطبقة الوسطى ، وتركوا لهم المجلس القديم مهمة حماية الحياة والأملاك . فى ذلك اليوم نفسه انتقل سبعة وأربعون نبيلا يتقدمهم دوق أورليان إلى قاعة الملاهى الصغرى . وبدا أن انتصار الجمعية أصبح الآن أكيداً ، وأن القوة وحدها هى التى تستطيع زعزعته .

وفى ٢٦ يونيو ، وبرغم معارضة نكير ، أخبر الأعضاء المحافظون فى الوزارة الملك أن الجنود المحليين فى فرساى وباريس لا يمكن بعد الآن الركون

إلى طاعتهم الأوامر ، وأقنعوه بأن يرسل فى طلب ستة أفواج من الأقاليم . وفى السابع والعشرين ، وتحولا إلى نصيحة نكير ، أمر لويس وفود النبلاء والاكليروس بالانضمام إلى باقى النواب . ففعلوا ، ولكن النبلاء أبو المشاركة فى التصويت بحجة أن تفويضهم عن دوائرهم الانتخابية يمنعهم من التصويت الفردى فى مجلس الطبقات . وخلال الأيام الثلاثين التالية عاد أكثرهم إلى ضياعهم .

وفى أول يوليو استدعى الملك إلى باريس عشرة أفواج ، معظمهم من الألمان والسويسريين ، وفى الأسابيع الأولى من يوليو احتل ستة آلاف جندى بقيادة المرشال برولى فرساى ، واتخذ عشرة آلاف أخر بقيـــادة البارون بزينفال مواقعهم حول باريس ، لا سيا فى الشان دمارس . واعتقدت الجمعية والشعب أن الملك يخطط لتفريقهم أو تخويفهم ، وبلغ الخوف من القبض ببعض النواب مبلغاً جعلهم يبيتون فى قاعة الملاهى الصغرى بدلا من العودة إلى بيوتهم ليلا[٧٢] .

فى جو الإرهاب هذا عينت الجمعية لجنة لوضع مخططات لدستور جديد . وقدمت اللجنة للجمعية تقريراً تمهيدياً فى ٩ يوليو ، ومن ذلك اليوم أطلق النواب على أنفسهم اسم « الجمعية التأسيسية الوطنية » . وكان المثل السائد بين الأعضاء فى جانب الملكية الدستورية.وكان من رأى ميرابو المطالبة ، بحكومة شبيهة بحكومة انجلتره بوجه عام ، تكون فيها الجمعية الهيئة التشريعية ، ولكنه واصل فى السنتين اللتين أفسحتا له فى أجله الإلحاح على الاحتفاظ بملك لفرنسا . وأثنى على لويس السادس عشر لما أتصف به من طيبة قلب وسماحة مقصد يشوش عليهما أحياناً مشيروه قصار النظر ، ثم تساءل :

« هل درس هؤلاء الرجال ، فى تاريخ أى شعب من الشعوب ، كيف تبدأ الثورات وكيف تنفذ ؟ وهل لاحظوا بأى سلسلة رهيبة من الظروف يكره أعقل الرجال على إتيان أفعال تتجاوز كثيراً حدود الاعتدال ، وبأى دوافع مخيفة يقذف بشعب غاضب إلى ألوان من الشطط لو فكروا فيها مجرد تفكير لارتعدت فرائصهم فرقا ؟ »[٧٣] .

وخامرت الجمعية الشك فى أن ميرابو مأجور من الملك أو الملكة ليدافع عن الملكية ، ولكنها أساساً اتبعت نصيحته . وأحس النواب ، الذين كان العنصر السائد فيهم الآن رجالا من الطبقة الوسطى ، أن جماهير الشعب أخذت تصبح عسيرة القياد إلى حد خطر ، وأن السبيل الوحيد للحيلولة دون التحلل الشامل للنظام الاجتماعى هو الإبقاء فترة على الهيكل التنفيذى الراهن للدولة ؛

على أنهم لم يشعروا بمثل هذا الانعطاف نحو الملكة . فقد علم أنها شاركت إيجابياً فى تأييد الحزب المحافظ فى مجلس الملك ، وأنها تمارس سلطة سياسية تفوق كفايتها كثيراً . وكانت خلال هذه الأشهر الحرجة قد تجلدت لثكل ربما نال من أى قدرة أوتيتها على الحكم الهادىء المتعقل . ذلك أن ابنها البكر ، ولى العهد لويس ، كان شديد المعاناة من الكساح واعوجاج العمود الفقرى إلى درجة أعجزته عن المشى بغير معونة[٧٤] . وفى ٤ يونيو مات . ولم تعد مارى أنطوانيت التى حطمها الحزن والخوف تلك المرأة الفاتنة التى كانت تمرح طوال سنى الحكم الأولى . وبانت وجنتاها شاحبتين نحيلتين ، وأخذ الشيب يتسلل إلى شعرها ، وشاب الحزن بسماتها وهى تذكر أياماً أسعد ، ثم أرق مضجعها وعيها بحشود الدهماء تلعن اسمها فى باريس وتحمى الجمعية فى فرساى وترهبها .

وفى ٨ يوليو وافقت الجمعية على اقتراح لميرابو يطلب إلى الملك أن ينقل من فرساى جنود الإقليميين الذين جعلوا من حدائق لنوتر معسكراً مسلحاً . ورد لويس بأنه ليس هناك أذى مقصود بالجمعية ، ولكن فى ١١ يوليو أفصح عن سطوته بإقالته نكير وأمره بمغادرة باريس فوراً . تقول مدام دستال مستحضرة ذلك الحدث ، وتقاطرت باريس كلها لتزوره فى الساعات الأربع والعشرين التى سمح له بها للاستعداد لرحلته . . . وأحال الرأى العام عاره انتصاراً ،[٧٥] . ثم رحل هو وأسرته فى هدوء إلى الأراضى المنخفضة . أما الذين أيدوه فى الوزارة فأقيلوا معه . وفى ١٢ يوليو ، وفى استسلام كامل لدعاة استخدام القوة ، عين لويس صديق الملكة ، البارون دبروتوى ، خلفاً لنكير ، وعين دبرولى وزيراً للحربية . وبدا أن الجمعية وثورتها الوليدة مقضى عليهما قضاء مبرما .

ولكن الإنقاذ جاءهما من شعب باريس .

٨ — إلى الباستيل

كانت عوامل كثيرة تحمل الجماهير على الانتقال من الغليان إلى مرحلة العمل . فقد كان سعر الخبز قضية مثيرة لحفيظة ربات البيوت ، وانتشرت الشبهة فى أن بعض تجار الجملة يحبسون الغلال عن السوق طمعاً فى أسعار أعلى حتى مما وصلت إليه[٧٦] . وأرسلت السلطات البلدية الجديدة الجند لحماية المخابز مخافة أن يفضى الجوع إلى النهب العشوائى . وكانت القضية التى تؤرق الباريسيين علمهم بأن الأفواج التى فى خارج المدينة ، والتى لم يتسن بعد كسب تأييدها لقضية الشعب ، تهدد الجمعية والثورة . وقد بلغ غضب الجماهير وخوفهم أثر سقوط نكير المفاجىء — وهو الرجل الوحيد فى الحكومة الذى كان الشعب قد وثق به — نقطة كفت عندها كلمة واحدة لتثير رداً عنيفاً . فنى ١٢ يوليو وثب كامى ديمولان ، وكان أحد خريجى مدارس اليسوعيين ولكنه أصبح الآن محامياً متطرفاً فى التاسعة والعشرين من عمره ، فوق مائدة خارج « الكافية دافوا » على مقربة من البالية — رويال وندد بأقالة نكير باعتبارها خذلاناً للشعب ، وصاح « إن الألمان (الجند) فى الشان دمارس سيدخلون باريس الليلة ليذبحوا سكانها ! » ثم لوح بطبنجة وسيف وهتف « إلى السلاح ! »[٧٧] . وللتو تبعه فريق من السامعين إلى ميدان فاندوم يحملون تماثيل نصفية لنكير واللدوق أورليان ، وهناك أكرههم بعض الجند على الفرار ، ثم تجمع فى المساء حشد فى حدائق التويلرى ، فهاجمهم فوج من الجند الألمان ، فقاوموهم بالقوارير والحجارة ، فأطلق الجنود النار عليهم وجرحوا كثيرين ، وبعد أن تفرقوا عادوا إلى التجمع فى الأوتيل دفيل ، وشقوا طريقهم إليه عنوة ، واستولوا على ما وجدوه من سلاح . وانضم الشحاذون والمجرمون إلى القائمين بالشغب ، ثم انقض الجميع على عدة بيوت ونهبوها .

وفى ١٣ يوليو تجمع الحشد مرة أخرى ، ودخلوا دير سان — لازار ، واستولوا على مخزونه من الغلال وحملوه إلى السوق فى لى هال ، وفتح

حشد آخر سجن لا فورس وأطلق سراح السجناء وكان أكثرهم من المدنيين وراح أفراد الشعب يفتشون عن البنادق فى كل مكان ، فلما لم يجدوا منها إلا القليل ، صنعوا خمسين ألف حربة [٧٨] . وخافت الطبقات الوسطى فى باريس على بيوتها وممتلكاتها ، فألفت مليشيا خاصة بها وسلحتها ، وفى الوقت نفسه واصل الأغنياء تشجيع الجماهير الثائرة وتمويلها وتسليحها لعل هذا أن يثنى الملك عن استعمال القوة مع الجمعية[٧٩] .

وفى صباح ١٤ يوليو الباكر أغار حشد من ثمانية آلاف رجل على الأوتيل ديزنفاليد ، واستولوا على ٣٢,٠٠٠ بندقية ، وبعض البارود ، واثنتى عشرة قطعة من المدفعية . وفجأة صاح أحدهم « إلى الباستيل » . ولكن لم الباستيل بالذات ؟ لا لإطلاق سراح سجنائه ، الذين لم يتعدوا السبعة . فضلا عن أنه كان بوجه عام منذ ١٧١٥ يستعمل مكاناً لحبس راق لسراة القوم . غير أن هذه القلعة الضخمة التى بلغ ارتفاعها مائة قدم وسمك أسوارها ثلاثين قدماً والتى أحاط بها خندق عرضه خمسة وسبعون قدماً ظلت أمداً طويلا رمزاً للاستبداد . وكانت ترمز فى ضمير الشعب إلى مئات السجون والزنزانات الخفية ، وكان بعض الكراسات قد طالب بتدميرها . ولعل ما أثار الجمع علمهم بأن الباستيل قد صوب بعض المدافع إلى شارع وضاحية سانت — أنطوان ، وهى حى يغلى بالمشاعر الثورية . وربما كان أهم من هذا كله ما قيل من أن الباستيل احتوى مخزناً ضخماً من السلاح والذخيرة ، لا سيما البارود ، ولم يملك الثوار منه إلا القليل . وكان فى القلعة حامية قوامها اثنان وثمانون جندياً فرنسياً واثنان وثلاثون من الحرس السويسرى ، بقيادة المركيز دلونى ، وكان رجلا لين الطبع[٨٠] . ولكن ذاع عنه بين الجماهير أنه وحش غليظ القلب[٨١] .

وبينما كان الجمع الذى تألف أكثره من الباعة والصناع يتجه صوب الباستيل استقبل دلونى وفداً من المجلس البلدى ، طلب إليه سحب المدافع المهددة من مواقعها ، وألا يتخذ أى اجراء عدائى نحو الشعب ، ووعد نظير ذلك باستخدام نفوذه لثنى الجمع عن مهاجمة الحصن . ووافق القائد ، واستضاف الوفد لتناول طعام الغداء ، وتلقت لجنة أخرى أوفدها المحاصرون

أنفسهم تعهداً من دلونى بألا يطلق جنوده النار على الشعب ما لم تكن هناك محاولة لاقتحام الحصن عنوة . ولكن هذا لم يرض الجمع الهائج ، فقد كان مصمماً على الاستيلاء على الذخيرة التى لاتستطيع بنادقه بدونها أن تقاوم الزحف المنتظر من جنود بيزنفال الأجانب على المدينة ، على أن بيزنفال لم يكن حريصاً على الزحف إلى داخل باريس إذ خامره الظن بأن جنوده سيرفضون إطلاق النار على الشعب . لذلك انتظر الأوامر من دبرولى ، ولكن شيئاً منها لم يصله .

وحوالى الواحدة بعد الظهر تسلق ثمانية عشر من الثوار سور بناء مجاور ، ووثبوا إلى داخل الفناء الأمامى للباستيل ، وأنزلوا كوبريين متحركين ، فعبر المئات فوق الخندق ، وأنزل كوبريان آخران ، وسرعان ما امتلأ الفناء بجمع متحفز واثق من نفسه . فأمرهم دلونى بالانسحاب ، فأبوا ، وعليه فقد أصدر أمره لجنوده بإطلاق النار عليهم . ورد المهاجمون على النار وأشعلوا النيران فى بعض الأبنية الخشبية والملاحقة للأسوار الحجرية . وحوالى الثالثة انضم أفراد من الحرس الفرنسيين المتطرفين إلى المحاصرين ، وأخذوا يقصفون الحصن بخمسة من المدافع التى استولت عليها الجماهير ذلك الصباح من الأوتيل ديزنفاليد . وبعد أربع ساعات من القتال لقى ثمانية وتسعون من المهاجمين وواحد من المدافعين مصرعهم . أما دلونى فحين رأى الجمع لايفتأ يزداد عدداً بوصول امداد جديدة ، وإذ لم تصله كلمة تعده بالعون من بزينفال ، ولم يكن لديه مؤونة من الطعام تثبت للحصار ، فقد أمر جنده بالكف عن إطلاق النار ورفع علم أبيض . ثم عرض الاستسلام إذا سمح لجنوده بالخروج بسلاحهم آمنين ، فرفض الجمع الذى هاجه منظر قتلاه النظر فى أى شىء غير التسليم دون قيد أو شرط [٨٢] . وأراد دلونى نسف الحصن فمنعه رجاله . وعليه أرسل إلى المهاجمين أسفل الحصن مفتاح المدخل الرئيسى . واندفع الجمع ، وجردوا الجنود من سلاحهم ، وقتلوا ستة منهم ، وقبضوا على دلونى ، وأطلقوا سراح السجناء المذهولين .

وبينما كان كثير من المنتصرين يستولون على ما وصلت إليه أيديهم من سلاح وذخيرة ، قاد فريق من الجمع دلونى إلى الأوتيل دفيل توطئة لمحاكمته

فيما يبدو على جريمة القتل . وفى الطريق أوقفه المتحمسون منهم وأوقعوه أرضاً ، وأوسعوه ضرباً حتى مات ، ثم قطعوا رأسه ، واخترقوا شوارع باريس فى عرض ظافر وهم يحملون هذه الغنيمة الدامية مرفوعة عالياً فوق حربة .

فى عصر ذلك اليوم عاد لويس السادس عشر إلى فرساى من رحلة صيد قضى فيها نهاره ، ودون فى يوميته هذه الملاحظة «١٤ يوليو : لا شىء» فلما وصل الدوق دلا روشكوكو — لا نكور قادماً من باريس أنبأه بنبأ الهجوم الناجح على الباستيل . وقال الملك مندهشاً «ماذا ، هذا تمرد !» وأجاب الدوق «لا يا مولاى ، إنها ثورة» .

وفى ١٥ يوليو ذهب الملك إلى الجمعية فى تواضع وأكد لها أن الجنود الإقليميين والأجانب سيبعدون عن فرساى وباريس ، وفى ١٦ يوليو أقال بروتوى واستدعى نكير لوزارة ثالثة ، وبدأ بروتوى وأرتوا ودبرولى وغيرهم من النبلاء حركة نزوح المهاجرين عن فرنسا ، ودمرت الجماهير أثناء ذلك الباستيل بعد أن تسلحت بالمعاول والبارود . وفى ١٧ يوليو ذهب لويس إلى باريس يرافقه خمسون من الجمعية ، واستقبله المجلس البلدى والشعب فى الأوتيل دفيل ، وثبت على قبعته شارة الثورة الحمراء البيضاء الزرقاء .

ختـــام

وهكذا نختتم فى هذين المجلدين الأخيرين مسحنا للقرن الذى مازالت صراعاته وإنجازاته فعالة اليوم فى حياة البشر . لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التى قد تحقق — قبل أن نصل إلى الألف الثانى للميلاد — حلم أرسطو بالآلات التى تحرر البشر من كل عناء يدوى ، ولقد سجلنا المراحل التى خطتها علوم كثيرة صوب فهم أفضل للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها . ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل فى شئون البشر الدنيوية . ولقد تتبعنا باهتمام حتى محاولة تحرير الدين من الشعوذة والتعصب الأعمى وعدم التسامح ، وتنظيم الأخلاقية

دون استعانة بالثواب والعقاب السماويين ، ولقد علمتنا جهود الساسة والفلاسفة أن نقيم حكومة عادلة قادرة ، وأن نوفق بين الديمقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية . ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال فى الباروك ، والفن الكلاسيكى المحدث ، وانتصارات الموسيقى فى باخ ، وهندل ، وفيفالدى وفى جلوك ، وهايدن ، وموتسارت . ولقد شهدنا ازدهار الأدب فى ألمانيا على يد شيلر وجوته ، وفى انجلترة على يد فحول الروائيين وأعظم المؤرخين ، وفى أسكتلندة على يد بوزويل وبيرنز ، وفى السويد بتفجر الأغنية فى عهد جوستاف الثالث ؛ وفى فرنسا ترددنا بين فولتير منافحاً عن العقل والذكاء وبين روسو مدافعاً بالدموع عن حقوق الوجدان . ولقد سمعنا التصفيق الذى عاش عليه جاريك وكليرون ، وأعجبنا بسلسلة من النساء الفاتنات فى صالونات فرنسا وانجلترة ، وبملك النساء المتألق فى النمسا وروسيا . ثم راقبنا الملوك الفلاسفة .

وقد يبدو من السخف أن ننهى قصتنا فى اللحظة التى أوشك الكثير جداً من الأحداث على بث الحياة ونفخ الروح فى هذه الصفحات . وما كان أسعدنا لو أتيح لنا الزحف خلال ضجيج الثورة وعجيجها ، ثم فحصنا ذلك التفجر البركانى للطاقة المعروف بنابليون . واستمتعنا أيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر فى الأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والموسيقى ، والفن ، والتكنولوجيا ، والحكم . وكان يبهجنا أكثر لو عدنا إلى وطننا أمريكا : جنوبها وشمالها ، وحاولنا أن ننسج قطعة النسيج المعقدة ، نسيج الحياة والتاريخ الأمريكيين فى صورة واحدة متماسكة متحركة . بيد أنه لابد لنا أن نروض أنفسنا على تقبل فكرة الفناء ، وأن نترك لعقول أنضر القيام بمهمة ومغامرة ، هما إضافة تجارب فى التأليف والتركيب إلى البحوث الأساسية التى قام بها الإخصائيون التاريخيون والعلميون .

لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ، ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل ، فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة فى التاريخ ، وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين

يطمو نهر المعرفة ويتعاظم . غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ، ازددنا يقيناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً ، وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً ، كما كان يعاش ، في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ . وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد . والآن وقد أقبل هذا اليوم فإننا عليمان بأننا سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاها .

وإننا لشاكران للقارئ الذي صاحبنا هذه السنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها . لقد كنا على الدوام واعين بحضوره . والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع .

＊ ＊ ＊



CHAPTER XXVII

1. Shakespeare, *Richard II*, Act II, Sc. i.
2. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 130.
3. Namier, [illegible] Lewis, *Crossroads of Power*, 175.
4. Ashton, T. S., *Economic History of England*, 179.
5. Watson, J. S., *Reign of George III*, 28.
6. Nussbaum, 73.
7. Hammond, J. L. and Barbara, *The Village Labourer*, 17.
8. Usher, A. P., *An Introd.* [illegible] *the Industrial History of England*, 323.
9. Quennell, M. and C., *History of Everyday Things in England*, 79.
10. Mantoux, Paul, *The Industrial* [illegible]*evolution in the 18th Century*, 258.
11. Samuel Smiles, *Lives of the Engineers*, in *History Today*, April, 1956, 263.
12. *Ibid.*, 263, 265.
13. *The Age of Voltaire*, 317.
14. Mantoux, 316.
15. Usher, *Introd.* [illegible] *Industrial History*, 326.
16. Boswell, *Life of Johnson*, 598.
17. Lipson, E., *Growth of English Society*, 190.
18. Mantoux, 385; George, *London Life*, 206-7.
19. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 73.
20. Mantoux, 439; Smith, 60.
21. Ashton, 203.
22. Mantoux, 70.
23. Arthur Young in Turberville, *Johnson's England*, I, 218.
24. Müller-Lyer, F., *History of Social Development*, 221.
25. Mantoux, 420.
26. *Ibid.*, 421.
27. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 313.
28. Webb, Sidney and Beatrice, *History of Trade Unionism*, 51.
29. Ashton, 235.
30. Traill, H. D., *Social England*, V, 336.
31. Mantoux, 411.
32. *Ibid.*, 413.
33. 413.
34. Lecky, *History of England*, III, 135-36.
35. Smith, *Wealth of Nations*, I, 59.
36. Rogers, J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 89.

CHAPTER XXVIII

1. George, M. D., *England in Transition*, 218 f.
2. *Ibid.*, 219.
3. 218.
4. Namier, *Structure of Politics at the Accession of George III*, 80.
5. New *CMH*, VII, 245.
6. Lecky, *History of England*, III, 172.
7. Wilson, P. W., *William Pitt the Younger*, 6.
8. Plumb, J. H., *Men and Places*, 22.
9. Namier, *Structure of Politics*, 77-79.
10. *Ibid.*, 150.
11. Lecky, III, 171.
12. Blackstone, Sir W., *Commentaries on the Laws of England*, 17 (p. 50 [illegible] orig. ed.).
13. Namier, *Crossroads of Power*, 133.
14. Thackeray, *The Four Georges*, 61.
15. *Cf.* Butterfield, *George III and the Historians*, 175; Morley, John, *Burke: a Historical Study*, 9.
16. Lecky, III, 11; Namier [illegible] *History Today*, September, 1953, p. 615.
17. Watson, J. S., *The* [illegible]*eign of George III*, 6.
18. *Age of Voltaire*, Ch. iii, Sec. iii; present volume, Ch. ii, Secs. ii, iv.
19. Walpole, Horace, *Memoirs of the Reign of George III*, II, 331.
[illegible] Burke, Edmund, speech [illegible] American Taxation, in *Speeches and Letters* [illegible] *American Affairs*, 28.
21. Burke, *Vindication of Natural Society*, 9.
22. *Ibid.*
23. 12-20.
24. 20.

25. 22.
[illegible] 44.
27. 21.
[illegible] 48.
29. 50.
30. Morley, John, *Burke*, 13.
31. *Vindication*, 4 (preface).
32. Burke, [illegible] *Taste, and* [illegible] *the* [illegible] *and Beautiful*, 45 f.
33. *Ibid.*
34. 93.
35. 95.
36. Macaulay, *Essays*, I, 454.
37. Morley, *Burke*, 30.
38. *Ibid.*, 104.
39. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 141.
40. Stephen, Sir Leslie, *History of* [illegible] *Thought* [illegible] *the 18th Century*, I, 222.
41. *Parliamentary History*, XXXVII, 363, in Buckle, H. T., *An Introd.* [illegible] *the History of Civilization in England*, I, 327.
42. Piozzi, Hester Thrale, *Anecdotes of the Late Samuel Johnson*, 138.
43. Morley, *Burke*, 107.
44. In *Cambridge History of English Literature*, XI, 9.
45. *Enc. Brit.*, XI, 644d.
46. Moore, Thomas, *Memoirs of the Life of Sheridan*, I, 78.
47. Drinkwater, John, *Charles James Fox*, 9, 11.
48. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 277.
[illegible] Thackeray, *Four Geor*[illegible] 87.
50. *Enc. Brit.*, IX, 568b.
51. Drinkwater, 195.
52. Walpole, Horace, *Letters*, Feb. 4, 1778.
53. Lecky, III, 468.
54. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 54.
55. National Gallery, London; Dulwich College; National Gallery, Washington.
56. Moore, *Sheridan*, I, 17.
57. *The Rivals*, Act I, Sc. ii.
58. *Ibid.*, III, iii.
[illegible] Taine, H., *English Literature*, 355.
60. *Enc. Brit.*, XVII, 973b.
61. Wilson, P. W., *William Pitt*, 58.
62. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 75.
63. Walpole, letter of Oct. 31, 1760.
64. Laski, Harold, *Political Thought in England, Locke* [illegible] *Bentham*, 144.
65. Butterfield, *George III*, 173.
[illegible] Lecky, III, 61.
67. Macaulay, *Essays*, I, 431.
68. Wilson, *William Pitt*, 44.
69. Gibbon, Edward, *Journal*, 145.
70. *Enc. Brit.*, XXIII, 602b.
71. [illegible]
72. Sherwin, *A* [illegible]*entleman of Wit and Fashion: The Life and Times of George* [illegible] [illegible], 47-53.
73. Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 140.
74. Walpole, *Memoirs of Reign of George III*, I, 248.
75. *Enc. Brit.*, XXIII, 603d.
76. Walpole, *Reign of George III*, I, 263.
77. *Boswell* [illegible] *the Grand Tour: Italy, Corsica and France*, 5.
78. Walpole, *Reign of George III*, III, 239.
79. Lecky, III, 151.
80. S. MacCoby, ed., *The English Radical Tradition*, 2.
81. Lecky, III, 175-76.
82. *Ibid.*, 152.
83. MacCoby, 2.
84. Lecky, III, 153.
85. Junius, *Letters*, 3-6.
[illegible] Junius, letter of Nov. 19, 1769.
87. *Letters*, pp. 134, 148.
88. *Ibid.*, p. 29.
89. Lecky, II, 468.
90. Walpole, *Reign of George III*, IV, 78; Lecky, III, 143.
91. MacCoby, 31.
92. *Enc. Brit.*, XXIII, 603d.
93. *CMH*, VIII, 714.
94. Lecky, III, 268.
95. *Ibid.*, 300.
96. Watson, *Reign of George III*, 174.
97. Ashton, 158; Traill, V, 115.
98. Hammond, J. L. and Barbara, *Rise of Modern Industry*, 32.
99. Lecky, III, [illegible]
100. Drinkwater, [illegible]
[illegible] *CMH*, VIII, 521.
[illegible] Lecky, III, 331.
103. Beard, Charles and Mary, [illegible] *of American Civilization*, I, 212.
104. Peterson, Houston, *Treasury of the World's Great Speeches*, 102-22.
105. Lecky, III, 530.
106. *Ibid.*, 531.
107. 545.
[illegible]. Peterson, 143-46.
[illegible] *CHE*, IX, 4.
110. Sherwin, 205.
111. Burke, *Speeches and Letters on American Affairs*, 84.
112. *Ibid.*, 118-19.
113. Drinkwater, 145.
114. Walpole, letter of Sept. 11, 1775.
115. Lecky, IV, [illegible]
116. Churchill, Sir Winston, *History of the English-Speaking Peoples*, II, 116.
117. Lecky, IV, 111.
118. Namier, *Crossroads*, 130.
119. *Enc. Brit.*, V, [illegible]33d.
120. Namier, *Crossroads*, 164.
[illegible] Walpole, letter of Mar. 5, 1772.
122. Lecky, III, 491.
123. *CMH*, VI, 570.
124. *Ibid.*, 572.

125. 578-80.
126. Walpole, letter of Mar. 2, 1773.
127. Wilson, *William Pitt*, 171.
128. Morley, *Burke*, 33; Namier, *Crossroads*, 165-67.
129. Watson, *Reign of George III*, 319.
130. Morley, *Burke*, 125.
131. G. G. S., *Life of R. B. Sheridan*, 113.
132. Macaulay, *Essays*, I, 633.
133. Peterson, Gr[illegible] *Speeches*, 179.
134. Gibbon, *Memoirs*, 334.
135. Macaulay, I, 644.
136. Burke, *Observations on the State of the Nation* (1769), in Lecky, V, 335n.
137. Burke, speech [illegible] "Relief of Protestant Dissenters" (1773), in [illegible]orley, *Burke*, 69.
138. Wilson, [illegible]*illiam Pitt*, 226.
139. Stephen, *English Thought in the 18th Century*, I, 279.
140. Lecky, V, 449; Wilson, 255.
141. Burke, *Reflections* [illegible] *the French Revolution*, 8.
142. *Enc. Brit.*, IV, 418c.
143. Burke, *Reflections*, 35.
144. *Ibid.*, 18 f.
145. 36.
146. 73.
147. *Enc. Brit.*, IV, 418d.
148. *CHE*, X, 285.
149. Morley, *Burke*, 179.
150. *Ibid.*, 15.
151. Burke, *Reflections*, 93.
152. *Ibid.*, 6.
153. *CHE*, XI, 21.
154. *Letter to* [illegible] *Member of the National Assembly*, in *Reflections*, 279.
155. Burke, 87.
156. Lecky, III, 218-19; Stephen, *English Thought in the 18th Century*, I, 251-52; Laski, 159, 171.
157. Laski, 147.
158. Sherwin, *Selwyn*, 275.
159. Taine, *English Literature*, 416.
160. Wilson, 325.
161. G. G. S., *Life of Sheridan*, 155.

CHAPTER XXIX

1. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, Mar. 11, 1827.
2. Lecky, *England in the 18th Century*, VI, 139.
3. Quennell, *Everyday Things*, 93.
4. George, *London Life*, 103.
5. Quennell, 90.
6. George, 26.
7. Boswell, *Hebrides*, 31.
8. Lecky, VI, 153.
9. Nussbaum, [illegible]*istory of Economic Institutions*, 128.
10. Boswell, *Life of Johnson*, 1, 781.
11. Sherwin, *George Selwyn*, 34.
12. *Ibid.*, 125.
13. Drinkwater, *Charles James Fox*, 13.
14. Lecky, VI, 152.
15. Boswell, *Johnson*, 978.
16. *Age of Voltaire*, Ch. ii, Sec. vi.
17. *Wealth of Nations*, II, 276.
18. Stephen, *English Thought*, I, 421.
19. Besant, *London*, 281-83.
20. Sherwin, 288.
21. *Vicar of* [illegible]*akefield*, Ch. xxiv.
22. Boswell, *Johnson*, 338.
23. Lecky, VI, 268; Drinkwater, 131.
24. Lecky, VI, 269.
25. Boswell, *Johnson*, 846.
26. Walpole, Mar. 22, 1780.
27. *CMH*, VI, 187.
28. Buckle, *An Introd. to the History . . of England*, I, 321n.
29. George, *London Life*, 135.
30. Botsford, J. B., *English Society in the 18th Century*, 332 f.
31. Blackstone, *Commentaries*, 128-29.
32. *Enc. Brit.*, XX, 780a.
33. *Ibid.*, 780d.
34. Faÿ, Bernard, *Franklin*, 77.
35. Mowat, *Age of Reason*, 61.
36. Quennell, 9.
37. Watson, P. B., *Some Women of France* 77.
38. Walpole, *Memoirs of the Reign of George III*, IV, 158.
39. Boswell, *Johnson*, 597.
40. Burke, *Reflections*, 86.
41. *Boswell on the Grand Tour: Italy . . . .* 184.
42. Robertson, *Short History of Freethought*, II, 206.
43. *Boswell in Holland*, 61.
44. Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, V, 554.
45. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 273.
46. *Age of Voltaire*, pp. 528, 580.
47. Cowper, *The Task*, ii, lines 378-94.
48. Stephen, *English Thought*, II, 375.
[illegible] Walpole, June 3, 1780.
50. Walpole, June 7, 1780.
51. June 16, 1780.
52. Lecky, V, 189.
53. [illegible] F. D. McKinnon, in Turberville, *Johnson's England*, II, 289.
54. Bentham, Jeremy, *A Fragment* [illegible] *Government*, 12.
55. Blackstone, *Commentaries*, Vol. I, p. 3.
56. *Commentaries* (orig. ed.), Book I, Ch. viii.
57. *Commentaries* (1914 ed.), Vol. II, p. 129.
58. Lecky, VI, 261.
59. [illegible], 255-58; Turberville, I, 17-21; Johnson, *The Idler*, Jan. 6, 1759.
60. Besant, *London*, 608.
61. Bentham, *Fragment*, 10.
62. *Ibid.*

63. Ch. iv, No. 20.
64. Bentham, *Fragment*, 3.
65. *Ibid.*, 56.
66. *Age of Voltaire*, 139, 149, 529, 687.
67. Mack, M. P., *Jeremy Bentham*, 102-5.
68. Bentham, *Introduction to Principles of Morals and Legislation*, 189.
69. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 127.
70. Davidson, W. L., *Political Thought in England: The Utilitarians*, 26.
71. Turberville, II, 178.
72. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, V, 388.
73. Krutch, *Samuel Johnson*, 272.
74. Barton, Margaret, *Garrick*, 53.
75. *Ibid.*, 59.
76. 50.
77. Burney, Fanny, *Diary*, 12.
78. Hawkins, Sir John, *Life of Samuel Johnson*, 189.
79. Pearson, Hesketh, *Johnson and Boswell*, 282.
80. Johnson, Samuel, *Works*, I, 196.
81. Krutch, 37.
82. George, *London Life*, 288.
83. *Boswell: The Ominous Years*, 118.
84. Turberville, I, 195.
85. George, *London*, 171.
86. *Ibid.*, 24.
87. Turberville, I, 171.
88. *Boswell's London Journal*, 81.
89. Boswell, *Johnson*, 733.

CHAPTER XXX

1. Geiringer, *Haydn*, 95.
2. *Ibid.*, 103.
3. Burney, Charles, *History of Music*, II, 868.
4. Walpole, June 23, 1789.
5. National Portrait Gallery, London.
6. Burney, II, 9.
7. Sherwin, *Selwyn*, 110.
8. Lewis, W. S., *Horace Walpole*, 107.
9. Turberville, II, 110.
10. Dillon, *Glass*, 299.
11. Samuel Smiles in Mantoux, *Industrial Revolution*, 385.
12. London, Royal Academy of Arts.
13. Turberville, II, 10.
14. *Ibid.*, 91.
15. Wilson, *William Pitt*, 97.
16. Collection of Lady Ford.
17. Greenwich, Eng., National Maritime Museum.
18. London, National Gallery. (Unallocated pictures are in private collections.)
19. National Portrait Gallery.
20. *Ibid.*
21. Reynolds, Sir Joshua, *Portraits*, 110.
22. National Portrait Gallery.
23. *Ibid.*
24. San Marino, Calif., Huntington Art Gallery.
25. Waterhouse, *Reynolds*, 110.
26. *Ibid.*, 127.
27. 79.
28. 87.
29. 63.
30. 267.
31. 291; London, National Gallery.
32. Waterhouse, 57.
33. Wallace Collection, London.
34. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 3.
35. Wilenski, R. H., *English Painting*, 150.
36. Reynolds, *Portraits*, 167.
37. Boswell, *Johnson*, 651.
38. National Portrait Gallery.
39. Royal Academy of Arts.
40. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 78 (Discourse VI), 8 (I).
41. *Ibid.*, 7 (I).
42. 14 (II).
43. *Ibid.*
44. 30 (III).
45. *Ibid.*
46. 264 (XV).
47. Wilenski, 113.
48. Allan Cunningham in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 789.
49. Gillet, Louis, *La Peinture, xvii^e et xviii^e siècles*, 416.
50. Washington, National Gallery.
51. Edinburgh, National Gallery.
52. Millar, Oliver, *Thomas Gainsborough*, 11.
53. Clark, B. H., *Biographies*, 796.
54. Craven, Thomas, *Treasury of Art Masterpieces*, 214.
55. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 230 (XIV).
56. Waterhouse, *Gainsborough*, 36.
57. Pijoan, Joseph, *History of Art*, III, 479.
58. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 217 (XIV).

CHAPTER XXXI

1. Lecky, *England in the 18th Century*, IV, 314.
2. *New CMH*, VIII, 28.
3. *Ibid.*, 724.
4. Lecky, IV, 317.
5. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 545; *Enc. Brit.*, X, 659d.
6. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 399.
7. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 70.
8. Johnson, *Works*, II, 271, 345.
9. Boswell, *Hebrides*, 135.
10. *Enc. Brit.*, XX, 169d.
11. Snyder, F. B., *Life of Robert Burns*, 189.
12. *Age of Voltaire*, 184.
13. *Ibid.*, 507-86.
14. 586-602.
15. 139-61.
16. Reid, Thomas, *Works*, I, 7, 81, 91.

17. *Ibid.*, 12.
18. 106.
19. Hume, David, *Treatise of Human Nature*, I, 254.
20. Reid, *Works*, 423.
21. Boswell's Journal, Sept. 16, 1769 (*Boswell in Search of a Wife*, 293).
22. London National Portrait Gallery.
23. Edinburgh National Gallery.
24. Private Collection.
25. Carlyle, *Schiller*, 103.
26. Walpole, July 11, 1759.
27. Gibbon, *Memoirs*, 122.
28. Stewart, Dugald, *Life of Robertson* (1811), 305.
29. Gibbon, *Memoirs*, Appendix 22, p. 296.
30. Black, *Art of History*, 15.
31. Brandes, *Goethe*, I, 84.
32. See *The Age of Faith*, 498.
33. Thomson, Derick, *The Gaelic Sources of Macpherson's "Ossian,"* 4-5, 80.
34. Macpherson, James, *Poems*, 40 (*Fingal*, Book I).
35. *Ibid.*, 49, 52, 54.
36. 415-16.
37. Johnson, *Works*, XII, 375; Boswell, *Hebrides*, 163.
38. Boswell, *Johnson*, 496.
39. Thomson, Derick, 16 f.
40. Buckle, Ib, 347.
41. Smith, Adam, *Moral and Political Philosophy*, 75.
42. *Ibid.*, 255.
43. 191.
44. Laski, *Political Thought in England*, [illegible] 101, 188; see also *Age of Voltaire*, 155.
45. Smith, *Wealth of Nations*, II, 107.
46. *Ibid.*, 113.
47. 121.
48. See *Age of Voltaire*, 138.
49. *Wealth of Nations*, II, [illegible]
50. *Ibid.*, I, 26, 29.
51. I, 119.
52. 120.
53. 129.
54. 42.
55. 75, 2.
56. 73.
57. 72, 345.
58. Rosebery, Lord, *Pitt*, 4.
59. Waterhouse, *Reynolds*, 329.
60. Burns's autobiographical letter to John Moore, in Neilson, W. A., *Robert Burns*, 2.
61. In Snyder, *Burns*, 54.
62. *Ibid.*, 67.
63. 67.
64. 239.
65. See "The Ordination."
66. Witte, *Schiller and Burns*, 10.
67. Hill, J. C., *Love Songs and Heroines of Robert Burns*, viii-2.
[illegible] Burns, Robert, *Works*, I, 85, 75.
69. *Ibid.*, 101.
70. Witte, *Schiller and Burns*, 10.
71. "The Rigs o' Barley."
72. Burns, *Works*, I, 85, 77.
73. *Ibid.*, 50.
74. Brown, Hilton, *There Was a Lad*, 23, 50.
75. Carlyle, *Essay on Burns*, in *Works*, XIII, [illegible]-96.
76. Burns, *Works*, I, 162.
77. Keith, Christina, *The Russet Coat*, 81.
78. Burns, *Works*, I, 141.
79. Brown, Hilton, 26.
80. Snyder, 297.
81. *Ibid.*, 308.
82. Hill, J. C., 102.
83. Snyder, 360, 374, 379, 390.
84. Burns, Robert, [illegible] Mrs. Dunlop, *Correspondence*, 11, viii.
85. Burns, *Works*, I, 24.
86. Currie, James, *Life of Robert Burns*, in Burns, *Works*, II, 58.
87. Robert Chambers in Snyder, 432.
88. Snyder, 432-35.
89. *Ibid.*, 430.
90. *Boswell's London Journal*, 108.
91. Pearson, 107.
92. *Boswell's London Journal*, 66.
93. *Ibid.*, 93.
94. 66.
95. 93.
96. 137.
97. 106-9.
98. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 44.
99. Boswell, *Johnson*, 237-40.
[illegible] *Boswell's London Journal*, 251, 281.
101. *Boswell [illegible] Holland*, Sept. 18, 1763.
102. *Ibid.*, 387-90.
103. 46.
104. 157.
105. 259-61.
106. 314.
107. 328.
108. 330.
109. 349.
110. 368.
111. *Boswell [illegible] the Grand Tour: Germany*, 134.
112. *Ibid.*, 117.
113. 164-66.
114. 241.
115. *Boswell in Search of a Wife*, 24.
116. *Ibid.*, 36-37.
117. 76.
118. 207.
119. 240.
120. *Boswell for the Defense*, 140.
121. *Boswell: The Ominous Years*, 34-48.
122. *Ibid.*, 304-7.
123. Macaulay, *Essays*, II, 539-41.
124. *Boswell: The Ominous Yea*[illegible] 38

125. *Boswell in Search of a Wife*, 40.
126. *Boswell: The* [illegible] *Years*, Introd., x.

CHAPTER [illegible]

1. Johnson, *The Idler*, No. 40.
2. Brooke, Henry, *The Fool of Quality*, 80.
3. Cross, Wilbur, *Life and Times of Lau-*[illegible] *Sterne*, [illegible]
4. *Ibid.*, 179.
5. *Ibid.*
6. 183.
7. Parton, *Life of Voltaire*, II, 267.
8. Mossner, E. C., *Life of David Hume*, 503.
9. Sterne, Laurence, *Tristram Shandy*, Book VIII, Ch. ii.
10. *Ibid.*, Book IV, Ch. xxxviii.
11. Cross, 263.
12. Sterne, *Letters to Eliza*, x.
13. *Ibid.*, letter of Apr. 14, 1767.
14. Sterne, *Journal*, Apr. 24, 1767.
15. Moore, Thomas, *Life of Lord Byron*, in Taine, *English Literature*, 477.
16. Macaulay, *Essays*, II, 565.
17. Burney, Fanny, *Diary*, 17.
18. Burney, Fanny, *Evelina*, 22.
19. Letter of Mar. 5, 1772.
20. Walpole, Feb. 28, 1769.
21. See *Age of Voltaire*, 95-98.
22. Lewis, *Horace Walpole*, 120; Wharton, Grace and Philip, *Wits and Beaux of Society*, II, 28.
23. Walpole, "Reminiscences," in *Letters*, I, xciii.
24. Letter of Mar. 2, 1773.
25. Nicolson, Harold, *The Age of Reason*, 249.
26. Walpole, *Memoirs of the Reign of George III*, II, 154.
27. Letter [illegible] Nov. 24, 1774.
28. Nicolson, 248.
29. *Ibid.*, 249.
30. Letter of July 24, 1756.
31. Letter of Dec. 2, 1762.
32. Sherwin, *Selwyn*, 104.
33. Letter of Nov. 11, 1766.
34. Walpole, *Memoirs of the Last Ten Y*[illegible] *of the Reign of* [illegible]*eorge the Second*, p. xl.
35. Letter of June 15, 1768.
36. Oct. 1, 1782.
37. Nov. 11, 1763.
38. Lewis, *Horace Walpole*, 5.
39. Feb. 7, 1772.
40. Jan. 12, 1766.
41. Letter to John Chute, January, 1766.
42. Lewis, 20.
43. Wharton, II, 83.
44. Lewis, 81.
45. Jan. 18, 1759.
46. Gibbon, *Memoirs*, introd. by G. B. Hill, xxi; Robertson, J. M., *Gibbon*, 1.
47. *Memoirs*, 20.
48. *Age of Voltaire*, 127.
49. *Memoirs*, 45.
50. *Ibid.*, 51, 54.
51. 65.
52. 69.
53. 105.
54. 106, 156.
55. Gambier-Parry, M., *Madame Necker*, 16.
56. Gibbon, *Journal*, introd., lxxii.
57. *Memoirs*, 107.
58. *Ibid.*, 120.
59. Gibbon, *Essai* [illegible] *l'étude* [illegible] *la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, No. 1.
60. *Ibid.*, liii.
61. *Memoirs*, 143.
62. *Journal*, 22.
63. *Ibid.*, 136.
64. *Memoirs*, 153.
65. Robertson, J. M., *Gibbon*, 117; *Memoirs*, 158.
66. *Ibid.*, 167.
67. *Decline and Fall of the Roman Empire*, final page.
68. *Memoirs*, Appendix 30.
69. *Ibid.*, 172.
70. 189.
71. 191n.
72. 193.
73. Robertson, *Gibbon*, 119; Drinkwater, *Charles James Fox*, 206.
74. Low, D. M., *Edward Gibbon*, 282.
75. *Memoirs*, 190.
76. *Ibid.*, 195.
77. 195.
78. *Decline and Fall*, I, 316. Renan agreed with Gibbon about the Antonines; see his *Marc Aurèle*, 479, Calmann-Lévy, Paris, n.d.
79. *Decline and Fall*, I, 316.
80. *Ibid.*, 250.
81. 9 and 10 William III, c. 22.
82. *Decline and Fall*, II, 72-73.
83. *Ibid.*
84. 102-5.
85. 182.
86. 244; see Voltaire's view in *The Age of Voltaire*, 486.
87. Low, 260.
88. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 152-53.
89. Low, 258.
90. Gibbon, *Miscellaneous* [illegible]*ritings*, 277.
91. Walpole, Jan. 27, 1781.
92. *Memoirs*, 211.
93. *Decline and Fall*, 432-33.
94. *Memoirs*, 213.
95. *Ibid.*, 215.
96. Low, 302.
97. *Memoirs*, 214.
98. Walpole, June 5, 1788.
99. *Decline and Fall*, VI, 656.
100. *Memoirs*, 225.
101. *Ibid.*, 890.

102. Fuglum, Per, *Edward Gibbon*, 15.
103. *Memoirs*, 240.
104. Boswell, *Johnson*, Mar. 19, 1781.
105. Low, 221-23.
106. *Memoirs*, 230-31.
107. Low, 320.
108. *Memoirs*, 228, 234. G. G. S., *Life of Sheridan*, 122.
109. *Memoirs*, Appendix 55.
110. *Ibid.*, 241n.
111. Appendix 66.
112. Sainte-Beuve. *English Portraits*, 159.
113. *Memoirs*, Appendix 66.
114. *Ibid.*, 339 and Appendix 62.
115. Gibbon, *Correspondence*, II, 93, 298, in *Memoirs*, 330.
116. *Correspondence*, II, 255, in Robertson, *Gibbon*, 120.
117. Gibbon, *Autobiography*, Everyman's Library ed., in Gay, P., *Voltaire's Politics*, 259.
118. *Memoirs*, introd. by G. B. Hill, *xii*.
119. Low, 344.
120. Gibbon, letter of Nov. 11, 1793.
121. *Decline and Fall*, 1776 ed., I, 206.
122. Bury, J. B., in *Enc. Brit.*, X, [illegible]1d.
123. *Decline and Fall*, ed. J. B. Bury, I, *xli*.
124. *Ibid.*, *xlvii*; Robertson, *Gibbon*, 15; Black, *Art of History*, 161.
125. *Decline and Fall*, IV, 673.
126. *Ibid.*, 99.
127. I, 314.
128. Voltaire, *Works*, XVIa, 250-51.
129. *Decline and Fall*, III, 97.
130. VI, 337.
131. Cf. Fuglum, 136.
132. *Decline and Fall*, Ch. lxiv.
133. V, 237.
134. *Ibid.*, 423.
135. III, 522.
136. Preface to Milman ed., p. 6.
137. *CHE*, X, 445.
138. Seebohm, Frederick, *The Age of Johnson*, 228.
139. Walpole, letter of Nov. 15, 1764; [illegible]*gn of George III*, II, 25.
140. Nevill, J. C., *Thomas Chatterton*, 96.
141. Chatterton, *Complete Poetical Works*, 207.
142. *Ibid.*, 64.
143. Walpole, letters [illegible] June 19, 1777, [illegible] July 24, 1778.
144. Irving, Washington, *Oliver Goldsmith*, 266.
145. Stanza xlv.
146. Cowper, William, *Poems*, 135.
147. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 273.
148. Cowper, [illegible]
149. *CHE*, XI, 89.
150. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 276-77.
151. Cowper, 87.
152. See *Age of Voltaire*, 331.
153. Cowper, *The Task*, Book I, line 749.
154. *Ibid.*, line 718.
155. II, lines 1-7.
156. II, 11-28.
157. 206.
158. Cowper, *Poems*, 172.
159. *Enc. Brit.*, X, 495a (by Macaulay).
160. Boswell, *Johnson*, 252.
161. *Ibid.*, 305.
162. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 37, 170.
163. Thackeray, *English Humourists*, in *Works*, 281n.
164. Irving, 170.
165. *Vicar of Wakefield*, preface.
166. Boswell, *Johnson*, 449.
167. Barton, *Garrick*, 156.
168. E.g., Reynolds, *Portraits*, 38.
169. Irving, 121.
170. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 342; Irving, 320.
171. *Boswell for the Defense*, 167.
172. Thackeray, *English Humourists*, 291.
173. *Ibid.*
174. Goldsmith, Oliver, *Select Works*, 194.

CHAPTER XXXIII

1. Boswell, *Johnson*, 17.
2. Boswell, *Hebrides*, 142.
3. Krutch, *Johnson*, 12.
4. Pearson, *Johnson and Boswell*, 6.
5. Krutch, 10.
6. Boswell, *Johnson*, 564.
7. *Enc. Brit.*, XIII, 109d.
8. Hill, G. Birkbeck, *Johnsonian Miscellanies*, II, 309; Greene, Donald, *Politics of Samuel Johnson*, 133.
9. Johnson, *London*, line 202.
10. Hawkins, *Life of Samuel Johnson*, 55-57.
11. Krutch, 49.
12. *Ibid.*
13. Turberville, *Johnson's England*, I, [illegible]18n.
14. Boswell, *Johnson*, 94.
15. *Enc. Brit.*, XIII, 110a.
16. Boswell, *Johnson*, 1177.
17. Hawkins, 66.
18. Hume, David, *Essays, Literary, Moral, and Political*, 52.
19. Johnson, *Works*, I, 213.
20. *Ibid.*, 215.
21. 217.
22. Hawkins, 98.
23. Johnson, *The Rambler*, 257-64.
24. Boswell, *Holland Journal*, Sept. 23, 1763.
25. Davis, Bertram, *Johnson before Boswell*, 72.
26. Hill, G. B., *Miscellanies*, I, 136.
27. Boswell, *Johnson*, 165.
28. *Ibid.*, 242.
29. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 130.
30. Boswell, *Johnson*, 992.

31. *Ibid.*, 157.
32. *Boswell for the Defense*, 55 (Mar. 23, 1772).
33. *Johnson's Dictionary*, preface; p. [illegible]
34. *Ibid.*, 284.
35. Boswell, *Johnson*, 179.
36. Arthur Murphy in Johnson, *Works*, I, 89.
37. *Works*, V, 419.
38. *Rasselas*, Ch. vi.
39. *Ibid.*, Ch. xix.
40. Ch. [illegible]iii.
41. Ch. xli.
42. Boswell, *Johnson*, 228.
43. *Ibid.*, 260.
44. Wharton, Grace and Philip, *Wits and Beaux of Society*, I, 366.
45. Krutch, 264.
46. Pearson, 184.
47. Boswell, *Johnson*, 272.
48. Bailey, John, *Dr. Johnson and His Circle*, 35.
49. Boswell, 542.
50. *Boswell for the Defense*, 175.
51. Boswell, *Hebrides*, 189.
52. Pearson, 195.
53. *Boswell's London Journal*, 234.
54. Piozzi, *Anecdotes of the Late Samuel Johnson*, 100.
55. National Portrait Gallery.
56. National Gallery, London.
57. Hawkins, 293.
58. Turberville, I, 384.
59. Boswell, *Johnson*, 283; Hawkins, 147.
60. Boswell, *Hebrides*, 136.
61. Boswell, *Johnson*, 49.
62. Pearson, 81.
63. *Boswell: The Ominous Years*, 264.
64. Bailey, 29.
65. Boswell, *Johnson*, 955.
66. *Ibid.*, 1197.
67. 293.
68. Piozzi, 181.
69. Hawkins, 122.
70. *Rasselas*, Ch. xliii.
71. Hawkins, 132.
72. Boswell, 586.
73. Turberville, II, 198.
74. Krutch, 369.
75. This is Hume's report, in Krutch, 221, and Pearson, 48; the phraseology [illegible] made [illegible] decorous in Boswell.
76. Boswell, *Hebrides*, 144.
77. Walpole, May 26, 1791.
78. Irving, *Goldsmith*, 183.
79. Piozzi, 70.
80. *Ibid.*, 57.
81. Boswell, *Johnson*, 1124.
82. *Ibid.*, 1126.
83. Bailey, 30.
84. Boswell, 351.
85. Krutch, 366.
86. Boswell, *Hebrides*, 20[illegible].
87. Boswell, *Johnson*, 343.
88. *Boswell: The Ominous Years*, 133.
89. Low, *Gibbon*, 223.
90. Lovejoy, Arthur, *Essays in the History of Ideas*, 39.
91. Walpole, Mar. 28, 1786.
92. In Gibbon, *Memoirs*, 220n.
93. Boswell, *Hebrides*, 11.
94. Boswell, *Johnson*, 222.
95. *Hebrides*, 140.
96. *Johnson*, 988.
97. Pearson, 262.
98. Greene, Donald, *Politics of Samuel Johnson*, 270.
99. Boswell, *Johnson*, 744.
100. *Ibid.*, 1025.
101. 807.
102. [illegible]62.
103. Bailey, 104.
104. Boswell, *Johnson*, 807.
105. *Ibid.*, 410.
106. 263.
107. 525.
108. 274.
109. Hawkins, 206.
110. Boswell, *Johnson*, 267, 414, 460, 514, 740; *Boswell's London Journal*, 276, 281.
111. *Ibid.*, 213; Johnson, *Works*, XII, 111.
112. Boswell, *Johnson*, 787.
113. *Ibid.*, 341.
114. 309.
115. 486.
116. Greene, 161.
117. *Ibid.*, 167.
118. *Taxation No Tyranny*, in *Works*, XII, 225.
119. Boswell, *Johnson*, 508.
120. Johnson, *Works*, XII, 198n.
121. Hawkins, 222.
122. Boswell, *Johnson*, 505.
123. *Ibid.*, 507.
124. 654.
125. In Greene, 195.
126. Boswell, *Johnson*, 33, 1051; Piozzi, 14.
127. Boswell, *Johnson*, 1102-3.
128. *Ibid.*, 282.
129. 421; Bailey, 103.
130. Pearson, 252.
131. *Ibid.*, 251.
132. *Lives of the English Poets*, I, 63 ("Milton").
133. *Rasselas*, Ch. xxxi; Hawkins, 231.
134. *Lives*, I, 63.
135. Pearson, 248.
136. Boswell, *Johnson*, 352, 807.
137. *Ibid.*, 309.
138. 308.
139. Hopkins, Mary A., *Hannah More*, [illegible].
140. Hawkins, 108.
141. Johnson, *Works*, X, 169.
142. *Ibid.*, 137, 149.

143. Krutch, 289.
144. Boswell, *Hebrides*, 178.
145. *Ibid.*, 268.
146. *Works*, XII, 413.
147. Pearson, 237.
148. Boswell, *Johnson*, 685n.
149. *Lives*, I, 93.
150. Walpole, Feb. 19, 1781.
151. Walpole, Apr. 14, 1781.
152. Piozzi, 186.
153. Krutch, 522.
154. *Ibid.*, 509.
155. Schuster, *Treasury of the World's Great Letters*, 133.
156. Burney, Fanny, *Diary*, 92.
157. Boswell, *Johnson*, 1109.
158. Krutch, 547.
159. Boswell, *Johnson*, 1059.
160. Hawkins, 255.
161. *Ibid.*, 259.
162. Krutch, 551.
163. Boswell, *Johnson*, 1181.
164. Davis, Bertram, *Johnson before Boswell*, [illegible]
165. *CHE*, X, 213.
166. *Boswell: The Ominous Years*, 103.
167. E.g., Boswell, *Note Book*, xvii, 1, 23; Krutch, *Johnson*, 384.
168. E.g., *Boswell: The Ominous Years*, 111.
169. Boswell, *Johnson*, x.
170. Hannah More, *Letters*, 102.
171. *CHE*, X, 213.
172. Letter of May 26, 1791.

CHAPTER XXXIV

1. Gooch, *Maria Theresa*, 124.
2. *Ibid.*, 7.
3. 8.
4. Bearne, Mrs., *A Court Painter*, 313.
5. Ercole, *Gay Court Life*, 272.
6. Castelot, André, *Queen of France*, 20.
7. Zweig, Stefan, *Marie Antoinette*, 5.
8. Padover, Saul, *Life and Death of Louis XVI*, 30.
9. Gooch, *Maria Theresa*, 122.
10. Padover, 30.
11. Castelot, 37.
12. *Ibid.*, 40.
13. Zweig, 21.
14. Castelot, 64.
15. *Ibid.*, 73; Dakin, *Turgot and the Ancien Régime*, 19.
16. Walpole, July 10, 1774.
17. Mathiez, Albert, *The French Revolution*, 9.
18. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 122.
19. Maine, Sir Henry, *Ancient Law*, 48.
20. Cobban, Alfred, *History of Modern France*, I, 127.
21. Taine, *The Ancient Regime*, 95.
22. *Ibid.*, 68-69.
23. Mathiez, 5.
24. Taine, *Ancient Regime*, 118, 98.
25. Ercole, 370.
26. Castelot, 85.
27. Campan, Mme., *Memoirs*, I, 317.
28. Mossiker, Frances, *The Queen's Necklace*, 201.
29. *Ibid.*, 163.
30. Castelot, 66, 158.
31. Lacroix, *The Eighteenth Century*, 35.
32. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 56.
33. Desnoiresterres, *Voltaire* [illegible] *société française*, VIII, 294.
34. Castelot, 174.
35. Cobban, Alfred, *Historians and the Causes of the French Revolution*, 5, 14.
36. Mme. Campan gives several examples (*Memoirs*, I, 190-94).
37. Cobban, *History of Modern France*, I, 115.
38. Castelot, 123.
39. Faÿ, Bernard, *Louis XVI, ou La Fin d'un monde*, 311.
40. Havens, G. R., *The Age of Ideas*, 302.
41. In Mossiker, *Queen's Necklace*, 160.
42. Castelot, 119.
43. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 119, 125.
44. *Ibid.*, 119.
45. Castelot, 122.
46. *Ibid.*, 121.
47. 124.
48. Zweig, *Marie Antoinette*, 137.
49. Padover, *Louis XVI*, 102.
50. Ségur, Marquis de, *Marie Antoinette*, 104.
51. *Ibid.*
52. Michelet, *Histoire de France*, V, 491.
53. "The Good-natured King."
54. Campan, Mme., *Memoirs*, I, 178.
55. Padover, *Louis XVI*, 118-19.
56. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 545.
57. Gibbon, *Decline and Fall*, ed. J. B. Bury, IV, 529.
58. Padover, *Louis XVI*, 23.
59. Campan, Mme., I, 185n.
60. Faÿ, *Louis XVI*, 8.
61. Taine, *Ancient Regime*, 304.
62. Funck-Brentano, 546.
63. Campan, I, 180.
64. Stryienski, *Eighteenth Century*, 213.
65. Gooch, *Catherine the Great*, 230.
66. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 350.
67. Dakin, *Turgot*, 126.
68. Say, Léon, *Turgot*, 101.
69. [illegible]obinson, J. H., *Readings in European History*, 416.
70. See *Age of Louis XIV*, 160.
71. Voltaire, *Works*, XXIb, 347.
72. Parton, *Life of Voltaire*, II, 533.
73. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 340.
74. Dakin, 187; Padover, *Louis XVI*, 75.
75. Say, 12.

76. Dakin, 152; Tocqueville, 190.
77. Tocqueville, 190.
78. Say, 161-66; Funck-Brentano, 554.
79. Renard, Georges, *Guilds* [illegible] *the* [illegible] *Ages*, 125.
80. Martin, H., *France*, XVI, 371.
81. *Ibid.*, 372.
82. Taine, *Ancient Regime*, 237.
83. Padover, *Louis XVI*, 91.
84. Dakin, 221.
85. Say, 183-91.
[illegible] Dakin, 263; Martin, H., *France*, XVI, 379.
87. Michelet, *Histoire de France*, V, 480.
88. Say, 43.
89. Warwick, *Mirabeau and the French Revolution*, 104. On L'Hôpital [illegible] *The Age of Reason Begins*, 337-45.
90. Jaurès, Jean, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 159.
91. Martin, H., *France*, XVI, 387.
92. Taine, *Ancient Regime*, 302.
93. Michelet, *Histoire de France*, V, 488.
94. Campan, Mme., I, 181.
95. Tocqueville, 191.
96. Lecky, *History of England in the 18th Century*, V, 30-41.
97. Padover, *Louis XVI*, 108; Martin, H., *France*, XVI, 416.
98. Becker, Carl, *The Heavenly City of the 18th-Century Philosophers*, 77.
99. Lecky, IV, 50.
100. *History Today*, October, 1957, 659.
101. Martin, H., *France*, XVI, 428.
102. Morris, R. B., *The Peacemakers*, 104-7.
103. *CMH*, VIII, 93.
104. Gooch, *Catherine the Great*, 97.
105. Martin, H., *France*, XVI, 500-1.
106. *Ibid.*, 504.
107. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 337.
[illegible] Morris, *Peacemakers*, 178-81.
109. Lecky, IV, 256-59.
110. *Ibid.*
111. Morris, 277.
112. *Ibid.*, 461.
113. Tocqueville, 155.
114. *Ibid.*, 119.

CHAPTER XXXV

1. Parton, *Life of Voltaire*, II, 491.
2. *Ibid.*, 496.
3. Pomeau, *La Religion* [illegible] *Voltaire*, 427.
4. Chaponnière, *Voltaire chez les calvinistes*, 262.
5. Faguet, *Literary History of France*, 508.
6. Lanson, Gustave, *Voltaire*, 158.
7. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 150.
8. Brandes, *Voltaire*, II, 317.
9. Wagnière in Parton, II, 564.
10. *Ibid.*
11. Note to Walpole, *Letters*, VII, 35.
12. Brandes, *Voltaire*, II, 322; Parton, II, 567.
13. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, VIII, 199-200; Campan, I, 323; Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 393.
14. Parton, *Life of Voltaire*, II, 568.
15. Brandes, II, 324.
16. Pomeau, 263.
17. Noyes, *Voltaire*, 583.
18. Pomeau, 307.
19. Desnoiresterres, VIII, 230.
20. Lanson, *Voltaire*, [illegible]
21. Desnoiresterres, VIII, 232-33.
22. *Ibid.*, 235.
23. 236.
24. 245.
25. Wiener, Leo, *Anthology of Russian Literature*, I, 357.
26. Noyes, 600.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 336.
28. *Ibid.*, 337.
29. Desnoiresterres, VIII, 283-91.
30. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 199.
31. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 121.
32. Desnoiresterres, VIII, 302.
33. *Ibid.*, 306; Brandes, *Voltaire*, II, 340.
34. Strachey, Lytton, *Books and Characters*, 121n.
35. Brandes, II, 341.
36. Desnoiresterres, VIII, 334, 365.
37. Pomeau, 447.
38. Desnoiresterres, VIII, 359.
39. *Ibid.*, 366; Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 235n.
40. Brandes, *Voltaire*, II, 348.
41. Gooch, *Catherine the Great*, 70.
42. In Brandes, *Voltaire*, II, 94n.; the order has been slightly changed.
43. *Ibid.*, 354.
44. Parton, II, 494.
45. Voltaire, *La Guerre de Genève*, in Josephson, *Rousseau*, 479.
46. Hendel, Charles, *Citizen of Geneva*, 92.
47. Josephson, 481.
48. Hendel, *Citizen*, 98.
[illegible] *Ibid.*, 99 (letter of Oct. 10, 1769).
50. *Ibid.*, 101 (letter of Jan. 17, 1770).
51. See *Age of Voltaire*, 565.
52. Michelet, *Histoire de France*, V, 485.
53. Morley, *Rousseau*, II, 156.
54. Josephson, 495.
55. Rousseau, *The Confessions*, II, end.
56. Josephson, 501.
57. *Ibid.*
58. Desnoiresterres, VII, 488.
59. Vaughn, C. E., *Political Writings of Rousseau*, II, 445.
60. *Ibid.*, 376, 381.
61. Rousseau, *Rousseau juge de Jean-Jacques*, p. x.
62. *Ibid.*, 19.

63. 64-67.
64. 120, 124.
65. 117-18.
66. 292, 302, 327.
67. Third Dialogue.
68. *Rousseau juge*, 319 f.
69. Josephson, 508.
70. *Reveries of a Solitary*, Ninth Promenade.
71. Josephson, 518.
72. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, II, 213-15, 301-2.
73. *Ibid.*, 246.
74. Josephson, 502; Faguet, *Vie de Rousseau*, 399.
75. Josephson, 527.
76. Babbitt, Irving, *Spanish Character and Other Essays*, 225.
77. Cassirer, *The Question of Rousseau*, 39.
78. Lemaître, *Rousseau*, 247.
79. Lanson, *Histoire de la littérature française*, 798.
80. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 236.
81. Schiller, "Rousseau," in *Poems*, 25. In *Works*.
82. In Maritain, *Three Reformers*, 225.
83. *Collection complète des oeuvres*, I, 186.
84. Cassirer, *Question of Rousseau*, 39.
85. Pomeau, 340.
86. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 239-44.
87. *Ibid.*, 74.
88. In Morley, *Rousseau and His Era*, II, 273.
89. Masson, *La Religion*, III, 227.
90. Burke, "Letter to a Member of the National Assembly," in *Reflections on the French Revolution*, 262.
91. Taine, *Ancient Regime*, 317.
92. Lemaître, 361.
93. Lanson, *Histoire de la littérature française*, 798.
94. Crocker, *The Embattled Philosopher*, 110.
95. Ségur, *Julie de Lespinasse*, 4[illegible].
96. Letter of Feb. 27, 1777, in Hazard, *European Thought*, 323.
97. Ford, Miriam de, *Love Children*, 212.
98. Havens, *Age of Ideas*, 351.
99. Crocker, *Embattled Philosopher*, 400.
100. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, "Avertissement," v-vi.
101. Crocker, *Embattled Philosopher*, 433.
102. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 213.
103. Schapiro, J. S., *Condorcet*, 69.
104. Russell, Bertrand, *History of Western Philosophy*, 722.
105. Schapiro, *Condorcet*, 91.
106. Martin, H., *France*, XVI, 525.
107. Schapiro, 96-97.
108. So reads the ms. in the Bibliothèque de l'Institut.
109. See *The Age of Voltaire*, 775.
110. Condorcet, *Sketch for a Historical Picture of the Progress of the Mind*, p. v.
111. *Ibid.*, 105.
112. 10.
113. 179.
114. Aulard, A., *The French Revolution*, I, 123.
115. Schapiro, 80, 88.
116. Condorcet, 193.
117. *Ibid.*, x-xi, 175.
118. 4.
119. 188.
120. 169.
121. 202.
122. Schapiro, 107.
123. Tocqueville, 8.
124. Taine, *Ancient Regime*, 317.
125. Aulard, I, 83.
126. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 284.
127. Aulard, I, 83.
128. Robertson, J. M., *Short History*, 288.
129. Tocqueville, 165.
130. In Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 107.
131. Padover, *Louis XVI*, 6, 7, 11.
132. Tocqueville, 156.
133. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 237.

CHAPTER XXXVI

1. Sée, *Economic and Social Conditions*, 61; Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 60; Taine (*The French Revolution*, I, 168) estimated the value of church property at four billion livres.
2. Herbert, Sydney, *The Fall of Feudalism in France*, 40.
3. Mornet, Daniel, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 278.
4. *Ibid.*, 274; Sée, 66.
5. *Ibid.*; Taine, *French Revolution*, I, 162-63.
6. Sée, 66.
7. Taine, *French Revolution*, I, 167.
8. Burke, Edmund, *Reflections on the French Revolution*, 142.
9. Sanger, W., *History of Prostitution*, 131.
10. Sée, 23; Mornet, 276.
11. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 14.
12. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 346.
13. Taine, *Ancient Regime*, 291.
14. Mornet, 335.
15. Lacroix, 265
16. Mornet, 331.
17. Faÿ, *Louis XVI*, 280.
18. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 512.
19. Faÿ, 280.
20. Lecky, *England in the 18th Century*, V, 308.

21. Martin, H., *France*, XVI, 353.
22. Mornet, 212.
23. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 554.
24. Martin, H., *France*, XVI, 385.
25. Tocqueville, 9.
26. Herbert, S., *Fall of Feudalism*, 84.
27. See *Age of Voltaire*, 776-80.
28. In Crocker, *Age of Crisis*, 392.
29. In Becker, *Heavenly City*, 80.
30. Carlyle, *Essay on Diderot*.
31. Restif de La Bretonne, *La Vie de mon père*, 90 f.
32. Taine, *Ancient Regime*, 380.
33. Laclos, Choderlos de, *Les Liaisons dangereuses*, Letter LXVI.
34. See Plato, *The Republic*, Nos. 338-44.
35. De Sade, Comte, *Juliette*, in Crocker, *Age of Crisis*, 15.
36. Guerard, Albert, *Life and Death of an Ideal*, 204.
37. Mme. d'Oberkirch in Taine, *Ancient Regime*, 163.
38. Köhler, Carl, *History of Costume*, 366.
39. Boehn, *Modes and Manners*, IV, 225.
40. In Loomis, *Du Barry*, 169.
41. *Decline and Fall of the Roman Empire*, near end of Ch. xlx.
42. Gibbon, *Correspondence*, II, 46, in *Memoirs*, 222n.
43. See *Age of Voltaire*, 301-2.
44. Walpole, Dec. 2, 1765.
45. Koven, Anna de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 102, 116.
46. *Ibid.*, 127.
47. Watson, Paul, *Some Women of France*, 90.
48. *Ibid.*
49. 89; Koven, 157.
50. *Ibid.*, 195.
51. Crocker, *Embattled Philosopher*, 354.
52. Gambier-Parry, *Madame Necker*, 78.
53. *Ibid.*, 215.
54. Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 192-94.
55. Gambier-Parry, 250.
56. Anderson, E., *Letters of Mozart*, II, 787.
57. Einstein, *Mozart*, 356.
58. Lespinasse, *Letters*, 138.
59. Rolland, Romain, *Essays in Music*, 147.
60. *Grove's Dictionary of Music*, II, 456.
61. Young, Arthur, *Travels in France*, 67.
62. Louvre.
63. In the Institute, Paris.
64. Dilke, Lady Emilia, *French Architects and Sculptors*, 130. It is now in the École des Beaux-Arts in Paris.
65. *Time* magazine, Jan. 31, 1964, p. 44.
66. *Ibid.*
67. All in the Louvre.
68. Both in the Louvre.
69. Vigée-Lebrun, 41.
70. Louvre.
71. Private collection.
72. Taine, *French Revolution*, I, 141; Mornet, *Origines intellectuelles*, 419; La Fontainerie, *French Liberalism*, 23.
73. Mornet, 443.
74. Lecky, V, 394.
75. Mornet, 426.
76. *Enc. Brit.*, XVI, 340d.
77. Lecky, V, 425.
78. Ducros, *French Society*, 314.
79. *Ibid.*
80. Faguet, *Literary History*, 539.
81. Chamfort, Sébastien, *Maximes*, 25.
82. *Ibid.*, 27.
83. 6.
84. 71.
85. 67.
86. 69.
87. 62.
88. 87.
89. 89.
90. 26.
91. 539.
92. *Ibid.*, preface, p. 50.
93. In Masson, *La Religion de Rousseau*, III, 137-38.
94. Bernardin de Saint-Pierre, *Paul et Virginie*, 15, 34, 58.
95. In Bury, J. B., *The Idea of Progress*, 200; italics ours.
96. Restif de La Bretonne, *La Vie de mon père*, 75.
97. Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 172.
98. *Ibid.*, 191.
99. Restif, *La Vie de mon père*, 14.
100. Chadourne, *Restif de La Bretonne*, 185.
101. *Ibid.*, 354.
102. Palache, 246.
103. Chadourne, 223.
104. *Ibid.*, 219.
105. Restif, *Les Nuits de Paris*, Nos. 109-114.
106. Ibid., No. 112.
107. No. 103.
108. Young, Arthur, 143.
109. Beaumarchais, letter of June 16, 1755, in Loménie, *Beaumarchais and His Times*, 55.
110. *Ibid.*, 78.
111. 94.
112. Voltaire, letter of Jan. 3, 1774.
113. Loménie, *Beaumarchais*, 163, 269 f.
114. Havens, *Age of Ideas*, 368.
115. Beaumarchais, *The Barber of Seville*, Act I, in Matthews, *Chief European Dramatists*, 332.
116. *Ibid.*
117. Blom, Eric, *Mozart*, 119n.
118. Loménie, *Beaumarchais*, 250.
119. *Ibid.*, 252.
120. *Le Mariage de Figaro*, directions to the players, in Beaumarchais, *Oeuvres*, 184.
121. *Ibid.*, Act II, Sc. ii.

122. V, vii.
123. V, xii.
124. II, xxi.
125. V, iii.
126. Preface, *Oeuvres*, 172.
127. Loménie, *Beaumarchais*, 351.
128. *Ibid.*, 383-84.
129. Havens, 382.
130. Loménie, 348.

CHAPTER XXXVII

1. Sée, *Economic and Social Conditions*, 8.
2. Labrousse, C. E., in Cobban, *Historians and . . . the French Revolution*, 35.
3. Young, Arthur, *Travels in France*, 70.
4. *Ibid.*, 19.
5. Herbert, *Fall of Feudalism*, 5-10.
6. *Ibid.*, 12, 15.
7. Lefebvre, Georges, *Coming of the French Revolution*, 121.
8. Sée, *Economic Conditions*, 54.
9. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 36.
10. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution*, 143.
11. Michelet, *Histoire de France*, V, 548.
12. Martin, H., *France*, XVI, 512n.
13. Tocqueville, 193; Taine, *Ancient Regime*, 300 f.; Taine, *French Revolution*, I, 157.
14. Goodwin, *The European Nobility*, 41.
15. Argenson, Marquis d', *Pensées sur la réformation de l'état*, in Sée, *Economic Conditions*, 109.
16. Young, 24.
17. Herbert, *Fall of Feudalism*, 58; Sée, 5; Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 310.
18. Chamfort, *Maximes*, 90.
19. Young, 125, 61.
20. Lefebvre, 116; see also Taine, *Ancient Regime*, 335-36.
21. Lefebvre, 118.
22. *Ibid.*
23. Jaurès, I, 76.
24. A... *CMH*, VII, 237.
25. Mousnier and Labrousse, *Le D...-huitième Siècle*, 137.
26. Stryienski, *Eighteenth Century*, 271.
27. Lefebvre, 87.
28. ...croix, *Eighteenth Century in France*, 340.
29. French, Sidney, *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 87.
30. Young, 103.
31. Lefebvre, 97.
32. *Ibid.*, 21.
33. Sée, 183; Renard and Weulersse, *Life and Work in Modern E...ope*, 198.
34. Mousnier and Labrousse, 186.
35. Taine, *Ancient Regime*, 387.
36. *Ibid.*, 388.
37. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 109.
38. *Ibid.*, 110.
39. *Ibid.*
40. Taine, *Ancient Regime*, 334.
41. *Ibid.*, 361.
42. Lecky, V, 394; Gershoy, 308.
43. Jaurès, I, 69.
44. *Ibid.*, 68.
45. Sée, 148.
46. Cobban, *History of Modern France*, I, 123.
47. Jaurès, I, 62; Sée, 197-98.
48. Taine, *Ancient Regime*, 351-52.
49. Lefebvre, 14.
50. Jaurès, I, 62.
51. *Ibid.*, 98.
52. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 404.
53. Taine, 320.
54. Beard, Miriam, 352.
55. Lecky, V, 464.
56. See above, Ch. iii, Sec. v.
57. Lichtenberger, André, *Le Socialisme et la Révolution française*, 35; Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 252.
58. Lichtenberger, 447.
59. *Ibid.*, 446-50.
60. *Enc. Brit.*, II, 238b.
61. Lichtenberger, 442 f.
62. Mornet, 360.
63. *Ibid.*, 364; Lefebvre, 43.
64. Cumming, Ian, *Helvétius*, 126-28.
65. *Ibid.*, 119.
66. Fülop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 436.
67. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 242.
68. Georgel, *Memoirs*, II, 310, in Buckle, Ib, 665.
69. Mornet, 450.

CHAPTER XXXVIII

1. Young, Arthur, *Travels in France*, 15.
2. Ségur, *Marie Antoinette*, 121; Castelot, 184.
3. Faÿ, *Louis XVI*, 293.
4. Gooch, *Maria Theresa*, 168.
5. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 57.
6. Mossiker, *Queen's Necklace*, 36.
7. *Ibid.*, 37, 200, 203.
8. 105.
9. *Vie de Jeanne de Valois*, by herself, in Mossiker, 63.
10. *Enc. Brit.*, VII, 321a.
11. Mossiker, 183-84.
12. *Ibid.*, 226.
13. 273.
14. 269.
15. Faÿ, *Louis XVI*, 275.
16. Mossiker, ix.
17. Martin, H., *France*, XVI, 539.

18. Taine, *Ancient Regime*, 92.
19. Martin, H., XVI, 573.
20. Paine, Thomas, *The Rights of Man*, 80.
21. Stryienski, *Eighteenth Century*, 286.
22. Young, Arthur, 92.
23. *Ibid.*, 97.
24. Guérard, A., *Life and Death of an Ideal*, 308.
25. Martin, H., *France*, XVI, 597.
26. Lefebvre, 29; Cobban, *History of Modern France*, I, 128.
27. Martin, H., XVI, 608.
28. Stewart, J. H., *Documentary Survey of the French Revolution*, 27-29; Martin, H., XVI, 612.
29. Michelet, *The French Revolution*, 118.
30. Michelet, *Histoire de France*, V, 545.
31. Faÿ, *Louis XVI*, 308; Taine, *French Revolution*, I, 2.
32. Aulard, I, 129; Michelet, *French Revolution*, 73.
33. Lichtenberger, 20; Martin, H., XVI, 630n.
34. Tocqueville, 121.
35. Herbert, *Fall of Feudalism*, 76, 87.
36. *Ibid.*, 76.
37. *CMH*, VIII, 128.
38. Barthou, Louis, *Mirabeau*, 11.
39. *Ibid.*, 62.
40. 68.
41. Michelet, *Histoire de France*, V, 515.
42. Crocker, *Embattled Philosopher*, 436.
43. Barthou, 91.
44. *Ibid.*, 97.
45. 118.
46. 138.
47. 162.
48. 163; Martin, H., *France*, XVI, 624.
49. Jaurès, I, 77.
50. Michelet, *Histoire de France*, V, 554.
51. Herbert, *Fall of Feudalism*, 95.
52. Taine, *French Revolution*, I, 17.
53. Taine, *Ancient Regime*, 378.
54. Martin, H., *France*, XVI, 625.
55. Lefebvre, 94.
56. *Enc. Brit.*, XVI, 909d.
57. Faÿ, *Louis XVI*, 312.
58. *Ibid.*, 305.
59. *Enc. Brit.*, XII, 491b.
60. Taine, *French Revolution*, I, 28.
61. *Enc. Brit.*, XII, 491b.
62. Taine, I, 28.
63. *CMH*, VIII, 133; Cobban, *History of Modern France*, I, 140.
64. Barthou, 171.
65. Young, Arthur, 153.
66. Lefebvre, 72.
67. Young, 176.
68. Lefebvre, 76.
69. Young, 176.
70. Lefebvre, 77.
71. Young, 177.
72. Michelet, *French Revolution*, 137; Lefebvre, 80-81.
73. Speech of July 8, 1789, in Barthou, 186.
74. Mme. Campan, *Memoirs*, I, 358.
75. Mme. de Staël, *Considérations sur la Révolution française*, in Ducros, *French Society*, 316.
76. Kropotkin, Peter, *The Great French Revolution*, 61-63.
77. Michelet, *French Revolution*, 133.
78. *Ibid.*, 141.
79. Lefebvre, 86.
80. Taine, *French Revolution*, I, 42.
81. Michelet, *French Revolution*, 150.
82. Lefebvre, 101.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٥٠٦٦

مطابع الدجوى القاهرة — عابدين